الأزهر

هدية العدد: وهم الإلحاد
تأليف: أ.د. عمرو شريف
تقديم: أ.د. محمد عمارة

الدولة النبوية: النشأة والتأسيس
أ.د. محمد الشحات الجندي

الهجرة النبوية والمسلمون
أ.د. ربيع خليفة

المعقولية ووجهان للعقل
العلامة محمد فتح الله كولن

مجلة إسلامية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
المحرم ١٤٣٥هـ - نوفمبر/ديسمبر ٢٠١٣م - الجزء ١ - السنة ٨٧

الافتتاحية: العلمانية بين الغرب والإسلام
أ.د. محمد عمارة


أ.د. أحمد الطيب

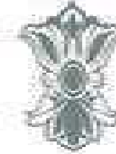

أ.د. محمد المختار المهدي


أ.د. محمد عبدالله دراز



المحرم ١٤٣٥هـ

داخل العدد



إلى السادة قراء مجلة الأزهر

تتوافر لدى إدارة مجلة الأزهر بعض الأعداد السابقة، فمن فاته عدد ويرغب في الحصول عليه فيمكنه التوجه لمقر مجلة الأزهر بمجمع البحوث الإسلامية - شارع الطيران - مدينة نصر - الدور الثاني.



﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾



الأزهر

مجلة شهرية جامعة يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
بالأزهر الشريف في مطلع كل شهر عربي
صدر العدد الأول في المحرم عام ١٣٤٩هـ / ١٩٣١م
وحمل اسم « نور الإسلام »
ورأس تحريرها فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين

الاشتراك السنوي

داخل مصر ٢٤ جنيهاً مصرياً - الدول العربية ٥٠ دولاراً أمريكياً
أوربا وأمريكا ٨٥ دولاراً أمريكياً - اليابان وشرق آسيا ١٢٠ دولاراً أمريكياً
عن طريق قسم الاشتراكات بمؤسسة الأهرام
شارع الجلاء - القاهرة
ت: ٢٥٧٨٦١٠٠ - ٢٨٧٥٦٢٠٠٠

المراسلات باسم:

مدير التحرير - مجمع البحوث الإسلامية - مدينة نصر
ت: ٢٢٦٣٨٥٩٩

editor@alazharmag.com
readers@alazharmag.com

• الافتتاحية •

العَلْمَانِيَّة بين الغرب والإسلام



لفضيلة الأستاذ الدكتور / محمد عمارة

المصطلح.. ومُلابسات النَّشأة

مصطلح «العَلْمانيَّة»: هو الترجمة التي شاعت ـ بمصر والمشرق العربي ـ للكلمة الإنجليزية SECU LARISM.. بمعنى الدنيوي.. والعالمي.. والواقعي ـ من الدنيا والعالم والواقع ـ المقابل «للمقدس» أي الديني الكهنوتي، النائب عن السماء، والمحتكر لسلطتها، والمالك لمفاتيحها، والخارق للطبيعة وسننها، والذي قدَّس الدنيا قداسة الدين، وثبَّت متغيراتها ـ العلمية والقانونية والاجتماعية ـ ثبات الدين..»(١).

ولأن هذا هو معنى المصطلح، في نشأته وملابساته الأوروبية ـ النزعة الدنيوية، والمذهب الواقعي في تدبير العالم من داخله، وليس بشريعة من ورائه ـ فلقد كان قياس المصدر هو «العالمية» أو «العالمانية».... لكن صورته غير القياسية ـ «العَلْمانيَّة» ـ هي التي قُدِّر لها الشيوع والانتشار.

العَلْمانيَّة، كنزعة في تدبير العالم، وكمذهب في المرجعية الدنيوية لشئون الإنسان، لا يمكن فهمها ـ ومن ثم فهم الموقف الإسلامي منها ـ بمعزل عن الملابسات الأوروبية، لنشأتها في إطار الحضارة الغربية المسيحية، بجذورها الإغريقية الفلسفية، وتراثها الروماني القانوني، والإضافة المسيحية لهذه الجذور وذلك التراث.

وإذا كان التفصيل في هذه القضايا هو مما يخرج هذه الدراسة عن آفاقها ومقاصدها.. فإننا نكتفي بالإشارة إلى بعض القضايا في شيء من الإيجاز:

لقد ظلت المسيحية، منذ نشأتها وعبر قرون طويلة من حياتها في المجتمعات الأوروبية: دينًا لا دولة، وشريعة محبة لا تقدم للمجتمع مرجعية قانونية ولا نظامًا للحكم، ورسالة كنيستها خاصة بمملكة السماء لا شأن لها بسلطان الأرض وقوانين تنظيم الاجتماع البشري، في السياسة والاجتماع والاقتصاد، وعلومها ومعارفها.

وعبر هذه القرون، حكمت العلاقة بين الكنيسة والدولة ـ أي الدين ـ نظرية «السيفين» Theory Of The Two Swords أي السيف الروحي ـ أو السلطة الدينية للكنيسة ـ والسيف الزمني ـ أو السلطة المدنية للدولة.

فلما حدث وتجاوزت الكنيسة حدود رسالة الروح ومملكة السماء، فاغتصبت السلطة الزمنية أيضًا، أضفت على الدنيا قداسة الدين، وثبتت متغيرات الاجتماع الإنساني ثبات الدين، فدخلت بالمجتمعات الأوروبية مرحلة الجمود والانحطاط وعصورها المظلمة.. وسادت في تلك الحقبة نظرية السيف الواحد Theory Of One Sword ـ أي السلطة الجامعة بين الديني والمدني ـ سواء تولاها «البابوات ـ الأباطرة» أو الملوك، الذين يوليهم، ويباركهم البابوات ـ وعرف هذا النظام، في التاريخ الأوروبي، بنظرية الحق الإلهي للملوك Divine Right of the kings(٢).

وفي مواجهة هذا النظام، وواقع الانحطاط الحضاري الذي أثمرته تطبيقاته ـ التي قدست الدولة وحكامها.. وجمدت الدنيا ومجتمعاتها وعلومها ـ كانت «الثَّورة العَلْمانيَّة» التي فجرتها فلسفة التنوير الأوروبي، والتي أقامت قطيعة معرفية مع فلسفة الحكم الكهنوتي، وأسست النَّزعة العَلْمانيَّة الحديثة على التراث الأوروبي القديم وعلى عقلانية التنوير الأوروبي الحديث، التي أحلَّت «العقل» و«التجربة» محل «الدين» و«اللاهوت».

لقد أعادت «الثَّوْرة العَلْمانيَّة» الكنيسة إلى حدودها الأولى: خلاص الروح، ومملكة السماء،

(١) انظر «معجم العلوم الاجتماعية» ـ وضع مجمع اللغة العربية ـ القاهرة سنة (١٩٧٥م)، و«قاموس علم الاجتماع» ـ إشراف د. عاطف غيث ـ ط. القاهرة سنة (١٩٧٠م) ود. محمد البهي «العلمانية والإسلام بين الفكر والتطبيق» (ص٧، ٨) ط. القاهرة سنة (١٩٧٦م).

(٢) انظر «موسوعة العلوم السياسية» المجلد الأول ـ مادة «حق الحكم الإلهي» ـ ط. جامعة الكويت سنة (١٩٩٤م).

وجعل ما لقيصر لقيصر من دون الله!.. وجعل «العقل» و«التجربة»، دون «الدين.. واللاهوت»، المرجع فى تدبير شئون العمران الإنسانى، أى عزل «السماء» عن «الأرض» انطلاقًا من فلسفة أن العالم مكتف بذاته، تدبره الأسباب المخلوقة فى ظواهره وقواه وطبيعته، دونما حاجة إلى رعاية إلهية أو تدبير شرعى نازل مما وراء الطبيعة والعالم. فالعَلْمانيّة هي: جعل المرجعية في تدبير العالم إنسانية خالصة، ومن داخل العالم، دونما تدخل من شريعة سماوية هى وحى من الله المفارق لهذا العالم.

ولقد عرفت العَلْمانيّة الأُورُوبيّة ـ غير التيار المادى الملحد ـ تيارًا مؤمنًا بالله، استطاع فلاسفته ـ من أمثال: هوبز Hobbes (١٥٨٨ ـ ١٦٧٩م) ولوك Loke (١٦٣٢ ـ ١٧١٦م)، وليبنز Leigbniz (١٦٤٦ ـ ١٧١٦م)، وروسو Rousseau (١٧١٢ ـ ١٧٧٨م)، وليسنج Lessince (١٧٢٩ ـ ١٨٧١م) ـ التوفيق بين الإيمان بوجود إله خالق للعالم وبين العَلْمانيّة التى ترى العالم مكتفيًا بذاته، فتحصر تدبير الاجتماع البشرى فى سلطة البشر المتحررة من شريعة الله.. وكان هذا التوفيق مؤسسًا على التصور الأرسطى لنطاق عمل الذات الإلهية.. فالله، فى التصور الأرسطي، واحد، مفارق للعالم، وخالق له.. ولكنه قد أودع فى العالم والطبيعة الأسباب التى تدبرهما تدبيرًا ذاتيا، دونما حاجة إلى تدخل إلهي، أو رعاية إلهية فيما بعد مرحلة الخلق «فالحركة توجد فى الشىء بذاته ولذاته لا من حيث إن شيئًا خارجيا هو الذى يحدث فيه هذه الحركة، وعناية الله موقوفة على ذاته، ولا تدخُّل له فى الأحداث الجزئية فى العالم والطبيعة»(٣).. فالعالم مكتف بذاته، تدبره الأسباب المودعة فيه، وهو وحده مصدر المعرفة الحقة، القابلة للبرهنة والتعليل، وتدبير الدنيا مرجعيته الإنسان ـ بالعقل والتجربة ـ دون رعاية أو تدبير أو تدخل من السماء ـ هكذا استندت العَلْمانيّة فى تأسيس «دنيويتها» على التصور الأرسطى لنطاق عمل الذات الإلهية ـ فهو مجرد خالق.. فرغ من الخلق.. وانحصرت عنايته بذاته، دونما رعاية أو تدبير للمخلوقات ـ كصانع الساعة، الذى أودع فيها أسباب عملها، دون حاجة لوجوده معها وهى تدور!..

وساعد العَلْمانيّة على الانتصار لهذه النزعة، التصور المسيحى لعلاقة الدين بالدولة، فهو تصور يدع ما لقيصر لقيصر، ويقف بالدين عند خلاص الروح ومملكة السماء، دون أن يقدم شريعة للمجتمع والدولة، الأمر الذى جعل «سجن» الدين فى الكنيسة وفى الضمير الفردى «ثورة تصحيح دينى» وليس عدوانًا على الدين!..

وساعدها على ذلك أيضًا، أن التراث الرومانى فى فلسفة التشريع والتقنين، قد جعل «المنفعة»، غير المضبوطة بالدين وأخلاقياته وشريعته السماوية هى المعيار.. فكان الطريق إلى القانون الوضعى مفتوحًا أمام العَلْمانيّة، يزكيه هذا التراث!..

هكذا نشأت العَلْمانيّة، فى سياق التنوير الوضعى الغربى؛ لتمثل عزلًا للسماء عن الأرض، وتحريرًا للاجتماع البشرى من ضوابط وحدود الشريعة الإلهية، وحصرًا لمرجعية تدبير العالم

(٣) د. عبدالرحمن بدوي: «موسوعة الفلسفة» ـ مادة أرسطو طاليس (ص١٠٤ ـ ١٠٦). ط بيروت. سنة (١٩٨٤م).

فى الإنسان، باعتباره «السيد» فى تدبير عالمه ودنياه.. فهى ثمرة عقلانية التنوير الوضعي، الذى أحل العقل والتجربة محل الله والدين، وهى قد أقامت مع الدين ـ فى تدبير العالم ـ قطيعة معرفية ـ وبعبارة واحد من دعاة التنوير الغربى ـ «فلم يعد الإنسان يخضع إلا لعقله.. فى أيديولوجيا التنوير.. التى أقامت القطيعة الأبستمولوجية ـ «المعرفية» ـ الكبرى التى تفصل بين عصرين من الروح البشرية: عصر الخلاصة اللاهوتية للقديس توما الأكويني، وعصر الموسوعة لفلاسفة التنوير.. فراح الأمل بمملكة الله ينزاح لكى يخلى المكان لتقدم عصر العقل وهيمنته.. وراح نظام النعمة الإلهية ينمحى ويتلاشى أمام نظام الطبيعة.. وأصبح حكم الله خاضعًا لحكم الوعى البشري، الذى يطلق الحكم الأخير باسم الحرية»(٤)!

إنها عزل السماء عن الأرض، والدين عن الدنيا، وإحلال الإنسان ـ فى تدبير العمران البشرى ـ محل الله!..

وفود العلمانية إلينا فى ركاب الغزوة الاستعمارية

وإذا كانت غزوة بونابرت (١٧٦٩ ـ ١٨٢١م) لمصر (١٢١٣هـ/ ١٧٩٨م) قد مثلت بداية الغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة لوطن العروبة ـ قلب العالم الإسلامى ـ بعد أن التف هذا الاستعمار حول هذا العالم ـ عبر أربعة قرون؟! ـ فإن هذه الغزوة قد تميزت عن سابقتها الصليبية (٤٨٩ ـ ٦٩٠هـ/ ١٠٩٦ ـ ١٢٩١م) باستهدافها احتلال العقل، واستبدال الفكر، وتغيير الهوية ـ مع احتلال الأرض، ونهب الثروة، واستعباد الإنسان!.. فكانت العَلْمانيّة واحدة من الوافد الغربى فى ركاب الغزاة.. وللمرة الأولى تترجم الكلمة الفرنسية Lailque بكلمة «علماني» فى المعجم الفرنسى العربى الذى صدر سنة (١٨٢٨م)، الذى وضعه «لويس بقطر المصري» الذى خدم جيش الاحتلال الفرنسى بمصر، ثم رحل معه، ليدرس العامية المصرية فى مدارس باريس؟! ـ. ترجمت «اللائكية» بالعَلْمانيّة، من «العَلْم» نسبة إلى «العالَم» باعتباره «الدنيا» المقابلة «للدين»(٥)..

وفى كل موقع من بلاد الإسلام قامت فيه للاستعمار الغربى سلطة ودولة، أخذ هذا الاستعمار ـ شيئًا فشيئًا ـ يُحل النّزعة العَلْمانيّة فى تدبير الدولة وحكم المجتمع وتنظيم العمران محل «الإسلامية»، ويزرع القانون الوضعى العلمانى حيثما يقتلع شريعة الإسلام وفقه معاملاتها..

ففى الجزائر وتونس، أخذ الاستعمار الفرنسى فى إحلال القانون الوضعى العلمانى محل الشريعة الإسلامية وقانونها ـ وكذلك صنعت إنجلترا بمصر بعد أن احتلتها.. وعن هذا الغزو القانونى بالوافد العلمانى يحدثنا عبدالله النديم (١٦٢١ ـ ٣١٣١هـ/ ٥٤٨١ ـ ٦٩٨١م) فيقول: «إن دولة من دول أوروبا لم تدخل بلدًا شرقيا باسم الاستيلاء، وإنما تدخل باسم الإصلاح وبث المدنية، وتنادى أول دخولها بأنها لا تتعرض للدين ولا للعوائد، ثم تأخذ فى تغيير الاثنين

(٤) إميل بولا: «الحرية. العلمنة. حرب شطري فرنسا ومبدأ الحداثة» منشورات سيرف. باريس. سنة (١٩٨٧م). والنقل عن هاشم صالح ـ مجلة «الوحدة» ـ المغرب ـ عدد فبراير ومارس. سنة (١٩٩٣م) (ص٢٠، ٢١).
(٥) د. السيد أحمد فرج: «علماني وعلمانية. تأصيل معجمي» مجلة «الحوار» عدد ٣ (ص١٠١ ـ ١١٠). سنة (١٩٨٦م).

شيئًا فشيئًا.. كما تفعل فرنسا في الجزائر وتونس؛ حيث سنّت لهم قانونًا فيه بعض مواد تخالف الشرع الإسلامي، بل تنسخ مقابليها من أحكامه، ونشرته في البلاد، واتخذت لتنفيذه قضاة ترضاهم، ولما لم تجد معارضًا أخذت تحوّل كثيرًا من مواده إلى مواد ينكرها الإسلام، توسيعًا لنطاق النسخ الديني، ولم تلبث أن جاريناها - «في مصر» - وأخذنا بقانون يشبهه..»(٦)؟!.



عبدالله النديم

فبالقانون العلماني يتم النسخ الديني، والمسخ لشريعة الإسلام!.

ومع القانون العلماني - الوضعي.. الذي لا يضبط «المنفعة» بالشرع.. ولا يحكم حقوق الإنسان بحقوق الله وحدوده - جاءت الغزوة الاستعمارية الغربية إلى بلاد الإسلام بمفهوم الحرية الإنسانية المتحرر من الضوابط الشرعية، والمؤسس على أن الإنسان هو سيد العالم ومرجع التدبير للعمران - وليس على المفهوم الإسلامي للاستخلاف الذي يضبط حرية الخليفة بالشريعة الإلهية، التي هي معالم التدبير الإلهي للاجتماع الإنساني، وفيها بنود عقد وعهد الاستخلاف الإلهي للإنسان..

وعن هذا المفهوم العلماني للحرية الذي يقضي بعبارة عبدالله النديم «بعدم تعرض أحد لأحد في أموره الخاصة» يقول النديم في نقده.. وفي بيان بديله الإسلامي: «إن الحرية عبارة عن المطالبة بالحقوق، والوقوف عند الحدود. وهذا الذي نسمع به ونراه رجوع إلى البهيمية وخروج عن حد الإنسانية.. إنها حرية مدنية ينفر منها البهيم.. ولئن كان ذلك سائغًا في أوروبا، فإن لكل أمة عادات وروابط دينية أو بيئية، وهذه الإباحة لا تناسب أخلاق المسلمين ولا قواعدهم الدينية ولا عاداتهم، وهي لا توافق عوائد أهل الشرق ولا أديانهم والقانون الحق هو الحافظ لحقوق الأمة من غير أن يجني أو يغري بالجناية عليها بما يبيحه من الأحوال المحظورة عندها..»(٧).

بل إن تسلل القانون العلماني الغربي، واختراقه لمؤسساتنا القضائية والتشريعية، قد سبق أحيانًا الاحتلال العسكري المباشر والسلطة الاستعمارية السافرة، وذلك عندما رافق تزايد «النفوذ» الاستعماري في بلادنا، وتضخم الجاليات الأجنبية فيها.. فكان تسلله هذا تمهيدًا للاحتلال والاستعمار؟!

ففي مصر، على عهد الخديوي سعيد (١٢٣٧ - ١٢٧٩هـ/ ١٨٢٢ - ١٨٦٣م) صدرت «إرادة» - في ٢١ شعبان سنة (١٢٧٢هـ) ٨ أبريل سنة (١٨٥٥م) - بإنشاء محكمة تجارية «مجلس تجار» مختلط من المصريين والأجانب؛ ليقضي في المنازعات التجارية التي يكون الأجانب طرفًا فيها(٨).. فبدأ الاختراق العلماني لمؤسسة القضاء.

ومع تزايد النفوذ الأجنبي، أصبحت للأجانب الأغلبية في عضوية محكمة «قومسيون مصر» ثلاثة مصريون، وأربعة أجانب(٩)؟!.

وبعد أن تعددت «المحاكم القنصلية» - التي يقضي فيها قضاة أجانب بالقانون الأجنبي، في المنازعات التي يكون أحد طرفيها أجنبيًا حتى بلغت - في ظل الامتيازات الأجنبية - سبع عشرة محكمة «نظمت هذه الفوضى» القانونية والقضائية سنة «١٨٧٥م» بإنشاء «المحاكم المختلطة» - وهي التي تقضي في المنازعات بين المصريين والأجانب «بقانون نابليون» العلماني.. وباللغة الفرنسية، وأغلبية قضاتها أجانب، والرئاسة فيها للأجانب.. وفي دائرتها الجزئية ذات القاضي الواحد، ينفرد القاضي الأجنبي بالحكم، وكذلك في دوائر: الأمور المستعجلة، والوقتية، والبيوع، ونزع الملكية العقارية(١٠) فتم الاختراق العلماني لمؤسستي «القضاء» و«التشريع» معًا.. إذ «لم يقتصر النظام المختلط على إنشاء قضاء أجنبي نافذ الأحكام على الرعايا الوطنيين وعلى حكومة البلاد، بل خوّل للدولة الأجنبية حق التدخل في التشريع الذي يسري على رعاياها»(١١).

بل إن قاضيًا هولنديًا بهذه «المحاكم المختلطة» - «فان بملين» **VON BEMMELEN** قد وصف القضاء القنصلي بأنه «وليد الاغتصاب الواقع من الأقوياء على حقوق الضعفاء» ووصف المحاكم المختلطة - وكان قاضيًا بها - «بأنها ركن قوي من أركان السيطرة الأوروبية على مصر»(١٢).

ولم تجد في مقاومة هذا التسلل العلماني إلى القضاء والتشريع المصريين «صيحة التحذير» التي أطلقها رفاعة الطهطاوي (١٢١٦ - ١٢٩٠هـ/ ١٨٠١ - ١٨٧٣م) عندما كتب (١٢٨٦هـ/ ١٨٦٩م) عن هذه المجالس التجارية التي رُتّبت في المدن الإسلامية «لفصل الدعاوى والمرافعات بين الأهالي والأجانب، بقوانين في الغالب أوروبية» وعقّب على هذا الاختراق القانوني العلماني، قائلا: «مع أن المعاملات الفقهية لو انتظمت وجرى عليها العمل لما أخلت بالحقوق، بتوفيقها على الوقت والحالة.. ومن أمعن النظر في كتب الفقه الإسلامية ظهر له أنها لا تخلو من تنظيم الوسائل النافعة من المنافع العمومية؛ حيث بوبوا للمعاملات الشرعية أبوابًا مستوعبة للأحكام التجارية؛ كالشركة، والمضاربة، و القرض، والمخابرة، والعارية، والصلح وغير ذلك.. إن بحر الشريعة الغراء، على تفرع مشارعه، لم يغادر من أمهات المسائل صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وأحياها بالسقي والري، ولم تخرج الأحكام السياسية عن المذاهب الشرعية؛ لأنها أصل وجميع مذاهب السياسات عنها بمنزلة الفرع»(١٣).

لم تجد «صيحة التحذير» التي أطلقها الطهطاوي، في مواجهة الاختراق العلماني لمؤسساتنا القضائية والتشريعية بل جاء «عموم بلوى الاختراق» عندما احتل الإنجليز مصر «١٢٩٩هـ/

(٦) مجلة «الأستاذ» العدد الثاني والعشرون (ص٥١٤، ٥١٥) بتاريخ ٢٩ جمادى الآخرة سنة (١٣١٠هـ/ ١٧ يناير سنة ١٨٩٣م).

(٧) المصدر السابق. العدد التاسع عشر (ص٤٣٩). والعدد الثامن والعشرون (ص٦١٢).

(٨) أمين سامي باشا «تقويم النيل» المجلد الأول من الجزء الثالث «ص١٦٠»، ط القاهرة سنة ١٩٣٦م.

(٩) عبدالرحمن الرافعي: «عصر إسماعيل» ١/ ٤٧، ٤٨، ط القاهرة سنة ١٩٤٨م.

(١٠) المرجع السابق ٢/ ٢٤٥ - ٢٤٦.

(١١) المرجع السابق ٢/ ٢٤٩.

(١٢) عبدالرحمن الرافعي «عصر إسماعيل» ٢/ ٢٤٣، ٢٤٧، والمرجع ينقل عن كتاب «مصر وأوروبا» ١/ ١٩٨، ٢٠٥، ط ١٨٨٢م.

(١٣) «الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي» ١/ ٥٤٤، ٣٦٩، ٣٧٠، دراسة وتحقيق د. محمد عمارة. ط بيروت سنة ١٩٧٣م.


رفاعة الطهطاوي

١٨٨٢م».. ففي العام التالي، عمم الاحتلال القانوني الأجنبي في عموم القضاء الأهلي المصري.

ففي ٢٤ جمادى الآخرة سنة «١٣٠٠هـ» ٣ مايو سنة «١٨٨٣م» صدر القانون المدني، والقانون التجاري، وقانون التجارة البحري، وقانون المرافعات - على حالها الذى كانت عليه في المحاكم المختلطة - وصدرت قوانين العقوبات، وتحقيق الجنايات - مع بعض التعديلات.. ولم يأت «٣١ نوفمبر سنة ١٨٨٣م» حتى كانت القوانين قد «تعلمنت» في القضاء الأهلي المصري!(١٤).

وإذا كان الطهطاوى قد أشار إلى أن تقنين مبادئ الشريعة الإسلامية وفقه معاملاتها «بتوفيقها على الوقت والحالة» هو تقديم للبديل الإسلامي، في مواجهة الاختراق التشريعي العلماني، فإن تلميذه محمد قدرى باشا «١٢٣٧ - ١٣٠٦هـ/ ١٨٢١ - ١٨٨٨م» قد اجتهد في تقنين هذا البديل الإسلامي، فقدم لمكتبة القانون الإسلامي:

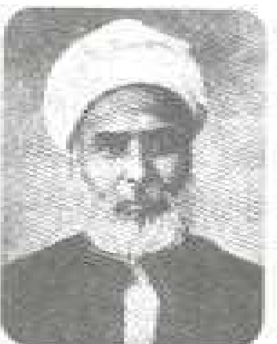
١- كتاب «مرشد الحيران في معرفة أحوال الإنسان» في المعاملات الشرعية.
٢- وكتاب «قانون العدل والإنصاف للقضاء على مشكلات الأوقاف».
٣- وكتاب «تطبيق ما وجد في القانون المدني موافقًا لمذهب أبي حنيفة».
٤- وكتاب «الأحكام الشرعية في الأحوال الشخصية»(١٥)..

مبرهنًا بذلك على استمرار المقاومة الإسلامية لاختراق العَلْمانيَة الغربيـة عقلنا القانوني ومؤسسات القضاء والتشريع في بلادنا.

وعلى هذا الدرب، الذى اختطه الطهطاوى «للإصلاح بالإسلام» ولتجديد دنيانا بتجديد ديننا، سار الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده «١٢٦٥ - ١٣٢٣هـ/ ١٨٤٩ - ١٩٠٥م»، الذى انتقد النزعة المادية للمدنية الأوروبية - «مدنية الذهب والفضة»(١٦).. ولفت النظر إلى تميز الإسلام الذى «ظهر، لا روحيًا مجردًا، ولا جسدانيًا جامدًا، بل إنسانيًا وسطًا بين ذلك، آخذًا من كلا القبيلين بنصيب، فتوفر له من ملاءمة الفطرة البشرية ما لم يتوفر لغيره، وصار المدرسة الأولى التى يرقى فيها البرابرة على سُلم المدنية.. والذى جمع بين الدين والشرع، فلم يعرف ما يسميه الإفرنج «ثيو كرتيك»، أي سلطان إلهي.. وفي ذات الوقت لم يدع ما لقيصر لقيصر، بل كان من شأنه أن يكون كمالًا للشخص، وألفة في البيت، ونظامًا للملك، امتازت به الأمم التى دخلت فيه عن سواها ممن لم يدخل فيه»(١٧).

ثم حكم بأن «سبيل الدين لمريد الإصلاح في المسلمين سبيل لا مندوحة عنها، فإن إتيانهم

(١٤) الرافعي: «عصر إسماعيل» ٢/ ٢٤٠، و«مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال» ص٦٥ - ٦٨، ط القاهرة سنة ١٩٦٦م.
(١٥) الزركلي: «الأعلام» ط بيروت. وسركيس: «معجم المطبوعات العربية والمعربة»، ط القاهرة سنة ١٩٢٨م.
(١٦) الأعمال الكاملة ٣/ ٢٠٥، دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. ط القاهرة سنة ١٩٩٣م.
(١٧) «الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده» ٣/ ٢٨٧، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٣٣، ٢٨٦، ٢٨٥.


محمد عبده


رشيد رضا


الأفغاني

من طرق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين - أي العَلْمانيَة، هو بذر غير صالح للتربة، لا ينبت، ويضيع تعبه، ويخفق سعيه.. فما لم تكن المعارف والآداب مبنية على أصول الدين فلا أثر لها في النفوس.. وإذا كان الدين كافلًا بتهذيب الأخلاق، وإصلاح الأعمال، وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها ولأهله من الثقة فيه ما ليس لهم في غيره، وهو حاضر لديهم، والعناء في إرجاعهم إليه أخف من إحداث ما لا إلمام لهم به، فلم العدول عنه إلى غيره؟!..»(١٨).

فواصلت مدرسة الإحياء والتجديد الديني - التى قادها جمال الدين الأفغاني «٤٥٢١ - ٤١٣١هـ/ ٨٣٨١ - ٧٩٨١م» وأغنى إبداعها محمد عبده - وحملت رسالتها «المنار» - للشيخ رشيد رضا «٢٨٢١ - ٤٥٣١هـ/ ٥٦٨١ - ٥٣٩١م» على امتداد أربعين عامًا - واصلت رسالة المقاومة للاختراق العلماني، إلى أن حملت الرايات جماعات اليقظة الإسلامية وحركاتها، تلك التى انتقلت بهذه المقاومة بعد سقوط الخلافة «٢٤٣١هـ/ ٤٢٩١م» من إطار «الصفوة» إلى إطار «الجماهير».

الأصول الإسلامية لرفض العَلْمانيَة

وإذا كان التصور الأرسطى لنطاق عمل الذات الإلهية - وهو «الخلق» دون «الرعاية والتدبير» للعالم والطبيعة والعمران الإنساني - وهو التصور الذى لم يناقضه التصور النصراني - الذى ترك ما لقيصر لقيصر، دون تدخل من الله في ما لقيصر - والذى دعمته فلسفة التشريع الرومانية - التى جعلت مقاصد التشريع تحقيق «المنافع والمصالح» الدنيوية، دونما ربط لها بالأخلاقيات الدينية أو القيم الإيمانية أو السعادة الأخروية.

إذا كانت هذه التصورات والمنطلقات في الموروث الحضاري الغربي، قد فتحت الطريق أمام رد الفعل العلماني على استبداد الكنيسة واحتكار اللاهوت للدنيا والدولة والاجتماع والمعارف والعلوم، بحسبان العَلْمانيَة، التى تعزل السماء عن الأرض، وتحرر العمران الإنساني من الضوابط الدينية، وتطلق الحرية للإنسان في سياسة المجتمع كسيد للكون.. بحسبان هذه العَلْمانيَة هي الأقرب للتصور الأرسطي لنطاق عمل الذات الإلهية، ولدعوة النصرانية أن نترك ما لقيصر لقيصر، وللفلسفة التشريع الروماني في تحرير القانون من القيم الإيمانية والمقاصد الشرعية.

(١٨) المصدر السابق ٣/ ١٠٩، ٢٣١.

فالتصور الإسلامي لنطاق عمل الذات الإلهية يتعدى حدود الخلق للمخلوقات إلى حيث يكون الله سبحانه وتعالى أيضًا الراعي والمدبر لكل عوالم وأمم وعمران المخلوقات.

لقد سفَّه القرآن الكريم تصور الوثنية الجاهلية - وهو ذاته التصور الأرسطي - لنطاق عمل الذات الإلهية فهو في التصورين مجرد خالق؛ بينما التدبير للدنيا والعمران موكول - في الأرسطية - إلى الإنسان والأسباب المودعة في الطبيعة وظواهرها - وهو في الوثنية الجاهلية موكول إلى الشركاء والأصنام والطواغيت.

سفَّه القرآن الكريم هذا التصور عندما قال:

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾

«الزمر: ٣٨»..

فجعل الخلق لله، والتدبير لغير الله تصور جاهلي مرفوض:

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾

«الأنعام: ١٣٦»..

فهذه القسمة - الشبيهة بالمفهوم العلماني لشعار: «الدين لله والوطن للجميع»! - هي سوء حكم للجاهليين يسفهها القرآن ويرفضها التصور الإسلامي لنطاق عمل الذات الإلهية.

وفي مقابل ذلك يقدم الإسلام تصوره لنطاق عمل الذات الإلهية: خالق كل شيء.. ومدبر كل أمر.. حتى ما هو مقدور للإنسان، وداخل في نطاق قدرته وإرادته وفعله، هو فيه خليفة لله سبحانه وتعالى، يدبره الإنسان، بإرادة إلهية، وتكليف شرعي، كخليفة لله، ملتزم بشريعته، التي تمثل عقد وعهد الاستخلاف، وكعبد لسيد الوجود، وليس كسيد لهذا الوجود!.. فلله - في التصور الإسلامي - «الخلق» و«التدبير» جميعا!..

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾

«يونس: ٣»

﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾

«الأعراف: ٥٤»..

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾

«طه: ٤٩، ٥٠».

فليس التصور الإسلامي لنطاق عمل الذات الإلهية بالذي يحدد نطاق عمل الله في الخلق وحده، محررًا الطبيعة والعالم والاجتماع والإنسان من معالم وضوابط التدبير الإلهي والرعاية الإلهية لعوالم المخلوقات فكل شيء في هذا التصور الإسلامي، هو لله، حتى ما هو للإنسان فهو له بحكم الاستخلاف والوكالة والنيابة لله:

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾

«الأنعام: ١٦٢، ١٦٣»

وكفى بهذه الآية وحدها معبرة عن إيمان المسلم بالحضور والتدبير الإلهي في كل شيء.. حتى لتبلغ الحرية الإنسانية ذروتها إذا بلغ المؤمن ذروة العبودية لله؟!.

لقد استأثر، سبحانه، بالخلق والأمر، أي بالإيجاد والتدبير جميعًا - واستخلفنا في استعمار الأرض، فجعل لنا الشورى في الأمر والتدبير للعمران، والإرادة والقدرة والاستطاعة لإقامة الدين وصناعة العمران وصياغة الحياة وتحديد مسارات التواريخ كخلفاء لله:

﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾

«آل عمران: ١٥٩»

﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾

«الشوري: ٣٨»

﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾

«النساء: ٥٩»..

﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾

«النساء: ٨٣».

هكذا يقطع التصور الإسلامي لنطاق عمل الذات الإلهية الطريق على العَلْمانيَّة؛ فمحال أن يجتمع ويتوافق في قلب المسلم تصور الله مدبرًا لكل شيء وراعيًا لكل أمر، مع تصور عزل السماء عن الأرض، وتحرير العمران الإنساني من ضوابط وحدود تدبير الله.

وكما تميز ميراثنا الحضاري عن الميراث الحضاري الغربي، في تصور نطاق عمل الذات الإلهية، ومن ثم في مكانة الإنسان في هذا الوجود.. كذلك تميزت فلسفة التشريع في النسق القانوني الإسلامي - سواء في مبادئ الشريعة الإسلامية وقواعدها ومقاصدها - والتي هي «وضع إلهي» أم في فقه معاملاتها - الذي هو إبداع الفقهاء المسلمين المحكوم بمبادئ الشريعة وقواعدها وحدودها ومقاصدها تميزت فلسفة الإسلام في التشريع عندما ربطت «المنفعة» بـ«الأخلاق» و«المصلحة» بـ«المقاصد الشرعية» و«سعادة الدنيا» بـ«النجاة يوم الدين».. فأغلقت هذه الفلسفة التشريعية الإسلامية الطريق أمام القانون الوضعي - العلماني - مانعة إمكان تعايشه مع النسق

التشريعي الذى يحكم سلطات الأمة في التقنين بسيادة حاكمية الوضع الإلهي لحدود الشريعة ومبادئها وقواعدها ومقاصدها . . «فالمصلحة» التى يتغياها القانون الإسلامى هى «المصلحة الشرعية المعتبرة» وليست مطلق «المصلحة» و«المنفعة» التي يريد الفقه الإسلامي جلبها ليست اللذة أو الشهوة أو مطلق المنفعة بالمعايير الدنيوية الخالصة للدنيا ؛ ذلك لأن المسلم لا يمحض ربه «صلاته» و«نسكه» فقط ، وإنما يمحضه ، مع الصلاة والنسك ، جماع المحيا والممات :

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

«الأنعام : ١٦٢».

وهذه الحقيقة من حقائق تميز فلسفة التشريع والتقنين الإسلامية عن نظيرتها الرومانية والغربية هى مما أجمع عليه أهل العلم ، من مسلمين وغير مسلمين . . ويكفي أن نشير إلى شهادة مستشرق حجة في القانون الغربي العلماني وفي الفقه الإسلامي ، هو «دافيد دى سانتيلانا» DAVID DE SAUTILLANA «١٨٤٥ - ١٩٣١م».

فهو يقول عن فلسفة التشريع في القانون الوضعي الغربي : «إن معنى الفقه والقانون بالنسبة إلينا وإلى الأسلاف مجموعة من القواعد السائدة التي أقرها الشعب ، إما رأسا أو عن طريق ممثليه ، وسلطانه مستمد من الإرادة والإدراك وأخلاق البشر وعاداتهم».

فهو قانون «دنيوي» – أى «علماني» – خالص للدنيوية.

ويستطرد «سانتيلانا» مقارنًا هذه الفلسفة العلمانيّة بالفلسفة الإسلامية في التشريع ، فيقول : «إلا أن التفسير الإسلامي للقانون هو خلاف ذلك . . فالخضوع للقانون الإسلامي هو واجب اجتماعي وفرض ديني في الوقت نفسه ، ومن ينتهك حرمته لا يأثم تجاه النظام الاجتماعي فقط ، بل يقترف خطيئة دينية أيضًا فالنظام القضائي والدين ، والقانون والأخلاق ، هنا شكلان لا ثالث لهما لتلك الإرادة التي يستمد منها المجتمع الإسلامي وجوده وتعاليمه ، فكل مسألة قانونية إنما هي مسألة ضمير . . والصبغة الأخلاقية تسود القانون لتوحد بين القواعد القانونية والتعاليم الأخلاقية توحيدًا تامًا . . والأخلاق والآداب ، في كل مسألة ترسم حدود القانون . . فالشريعة الإسلامية شريعة دينية تغاير أفكارنا أصلًا»[19] !.

وذات الحقيقة يؤكد عليها المستشرق السويسرى «مارسيل بوازار» الذى ينبه على تميز القانون الإسلامي عن القانون الوضعى العلمانى فى المصدر . . وفي المقاصد . . فيقول : «ومن المفيد أن نذكر فرقًا جوهريًا بين الشريعة الإسلامية والتشريع الأوروبى الحديث سواء فى مصدريهما المتخالفين أم فى أهدافهما النهائية . . فمصدر القانون فى الديمقراطية الغربية هو : إرادة الشعب ، وهدفه : النظام والعدل داخل المجتمع . أما الإسلام ، فالقانون صادر عن الله ، بناء عليه يصير الهدف الأساسى الذى ينشده المؤمن هو البحث عن التقرب إلى الله ، باحترام الوحى

(١٩) سانتيلانا [القانون والمجتمع] ، بحث في كتاب [تراث الإسلام] [ص ٤١١ ، ٤٢٨ ، ٤٣١] ترجمة جرجس فتح الله. ط بيروت. سنة [١٩٧٢م].

والتقيد به . . فالسلطة في الإسلام تفرض عددًا من المعايير الأخلاقية . . بينما تسمح فى الطابع الغربى أن يختار الناس المعايير حسب الاحتياجات والرغبات السائدة فى عصرهم . . »[20].

وهكذا تحول الفلسفة المتميزة للتشريع الإسلامى بين المسلم وبين قبول القانون الوضعى العلمانى ـ كما يحول التصور الإسلامى لنطاق عمل الذات الإلهية ، ولمكانة الإنسان فى الكون ، بين المسلم وبين قبول العلمانيّة جملة وتفصيلا . .

❁❁❁

ولأن هذه هى حقيقة تميز النسق الفكرى الإسلامى ـ المنطلق من البلاغ القرآنى ومن البيان النبوى لهذا البلاغ ـ كانت جذور المقاومة الإسلامية لانفلات «الدولة» من «الدين» ولتحرر «المجتمع» من «الشريعة» أبعد فى تراثنا الإسلامى من المواجهة مع العلمانيّة الغربية الوافدة إلينا فى ركاب الغزوة الاستعمارية الحديثة . .

فالتعاقد الدستوري ، الذى تقوم به «الدولة» ، ليس مجرد تراض بين المحكومين و«الحاكمين» ـ كما هو حاله فى الفكر السياسى الوضعى ـ وإنما لابد فى هذا التعاقد الدستوري ، كي يكون إسلاميًا ، من أن تكون المرجعية فيه دينية ـ لله والرسول ـ أى للوحى الإلهى والسنة النبوية . . فإسلامية الدولة وإسلامية التعاقد الدستورى الذى تتأسس عليه ، مبدأ شرعي ، ووضع إلهى ثابت . . تحدث عنه القرآن الكريم فى آيات سورة النساء :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (٥٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٥٩) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾

«النساء : ٥٨ ـ ٦٠».

١ ـ فعلى ولاة الأمر أداء الأمانات لأهلها والحكم بالعدل بين الناس . .

٢ ـ ولقاء ذلك لهم طاعة المؤمنين . .

٣ ـ وطاعة المحكومين لأولى الأمر تالية لطاعة الجميع لله وللرسول ، أى للكتاب والسنة . .

٤ ـ وشرط تحقق واكتمال الإيمان الديني ، بالله واليوم الآخر ، أن تكون مرجعية هذا التعاقد الدستورى هى الكتاب والسنة . . وإلا كان هذا الإيمان زعمًا وادعاء ، لأنه إن لم تكن المرجعية فى الدولة لله والرسول فهى للطاغوت ! . .

هكذا حسم القرآن المرجعية الإسلامية للدولة الإسلامية.

ولقد صاغ رسول الله ﷺ ، هذا المبدأ القرآنى ـ للمرجعية الدينية فى التعاقد الدستورى على

(٢٠) لواء أحمد عبدالوهاب: [الإسلام في الفكر الغربي] [ص ٨١ ـ ٨٣] ط القاهرة. سنة [١٩٩٣م].

إقامة الدولة - صاغه «مادة» في أول دستور لأول دولة إسلامية - في «الصحيفة» التي مثلت دستور دولة المدينة - نصت على: «.. وما كان بين أهل هذه الصحيفة من اشتجار يُخشى فساده فمرده إلى الله وإلى محمد..»(٢١).

وأكد ذلك الخليفة الأول أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - في أول خطاب له عقب اختياره والبيعة له بالخلافة، فقال: «أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم».. فبلغ الربط بين إسلامية الدولة - بجعل المرجعية الدينية شرط قيام واستمرار التعاقد الدستوري على إقامتها - في التجربة التاريخية - التي يقيس عليها المسلمون - بلغ هذا الربط في الحسم والوضوح هذا الحد الذي ميز دولة الإسلام عن كثير من الدول التي عرفتها كثير من الأنساق الفكرية الأخرى..

لقد عرف التاريخ الإنساني:

١ - دول الاستبداد، التي تحكم بالهوى والشهوة والقوة..

٢ - ودول الكهانة الدينية، والعصمة المقدسة، والحكم بالحق الإلهي.. وفيها زعم الحكام النيابة عن السماء، مسقطين الأمة من الحسبان..

٣ - ودول السياسة العقلانية - ومنها الدولة العَلْمانيّة - التي يدبر حكامها مجتمعاتها بسياسة العقل والمصلحة المتحررة من المرجعية الدينية.. وديمقراطيات هذا النمط من الدولة، ينوب فيها الحكام عن الأمة، مسقطين الدين والشريعة الإلهية من مرجعية السياسة والتدبير..

٤ - أما الدولة الإسلامية، فإنها نمط متميز وفريد.. فهي إسلامية المرجعية، ومدنية النظم، التي تقاس إسلاميتها بمدى تحقيقها للمبادئ والمقاصد الشرعية.. وفيها تجتمع المرجعية الدينية - سيادة الشريعة - وسلطة الأمة - المستخلفة لله - ونيابة الدولة عن الأمة.. وبذلك تبرأ من سلبيات دول الكهانة الدينية والدول العَلْمانيّة جميعا.

وكما استقر هذا التميز للدولة الإسلامية في أصول ديننا، وفي دولة النبوة والخلافة الراشدة.. فلقد استقر كذلك في الفكر الإسلامي السابق على ظهور العَلْمانيّة الغربية، وعلى عصر اختراقها لعالمنا الإسلامي، وعلى تصدي فكرنا الإسلامي الحديث لهذا الاختراق..

ورحم الله ابن خلدون (٧٣٢ - ٨٠٨هـ/ ١٣٣٢ - ١٤٠٦م) - فيلسوف العمران الإسلامي والإنساني - الذي صاغ كل ذلك، في دقة ووضوح، وهو يتحدث عن أنواع الحكم وفلسفات الدول، فقال:

«.. ولما كانت حقيقة الملك: أنه الاجتماع الضروري للبشر.. وجب أن يُرجع في ذلك إلى قوانين سياسية مفروضة يسلمها الكافة، وينقادون إلى أحكامها.

فإن كانت هذه القوانين مفروضة من العقلاء وأكابر الدولة وبصرائها كانت سياسة عقلية. وإذا كانت مفروضة من الله بشارع يقررها ويشرعها، كانت سياسة دينية نافعة في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وذلك أن الخلق ليس المقصود بهم دنياهم فقط.. فالمقصود بهم إنما هو دينهم

(٢١) (مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة) (ص٢٠) جمعها وحققها د. محمد حميد الله الحيدر آبادي. ط. القاهرة. سنة (١٩٥٦م).

المفضي بهم إلى السعادة في آخرتهم.. فجاءت الشرائع بحملهم على ذلك في جميع أحوالهم من عبادة ومعاملة، حتى في الملك الذي هو طبيعي للاجتماع الإنساني، فأجرته على منهاج الدين ليكون الكل محوطًا بنظر الشارع.

فما كان من الملك بمقتضى القهر والتغلب، فجور وعدوان ومذموم عند الشرع، كما هو مقتضى الحكمة السياسية.

وما كان منه بمقتضى السياسة وأحكامها فمذموم أيضا، لأنه نظر بغير نور الله:

﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾

(النور: ٤٠)

لأن الشارع أعلم بمصالح الكافة فيما هو مغيب عنهم من أمور آخرتهم. وأعمال البشر كلها عائدة عليهم في معادهم، من مُلك أو غيره.. وأحكام السياسة إنما تطلع على مصالح الدنيا فقط:

﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾

(الروم: ٧)..

ومقصود الشارع بالناس صلاح آخرتهم، فوجب بمقتضى الشرائع حمل الكافة على الأحكام الشرعية في أحوال دنياهم وآخرتهم، وكان هذا الحكم لأهل الشريعة وهم الأنبياء ومن قام فيه مقامهم، وهم الخلفاء.

فقد تبين لك من ذلك.. أن:

١ - الملك الطبيعي: هو حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة.

٢ - والسياسي: هو حمل الكافة على مقتضى النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار.

٣ - والخلافة: هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الدنيوية الراجعة إليها، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة: خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به..»(٢٢).

فالدولة العَلْمانيّة هي التي تسوس المجتمع «بمقتضى السياسة العقلية» التي تبغيا «تحقيق المصالح الدنيوية وحدها».

بينما الدولة الإسلامية، هي التي تنطلق من الشرع، لتبغيا صلاح الدنيا والآخرة جميعًا..

فالأولى تنظر بنظر «العقل المجرد عن الشرع».. بينما الثانية - الإسلامية - تنظر «بالعقل في الشرع».. وكما يقول الإمام الغزالي (٤٥٠ - ٥٠٥هـ/ ١٠٥٨ - ١١١١م) «فإن العقل مع الشرع نور على نور»(٢٣)!..

○○○

(٢٢) (المقدمة) (ص١٥٠، ١٥١). ط. القاهرة. سنة (١٣٢٢هـ).

(٢٣) (الاقتصاد في الاعتقاد) (ص٣). ط. القاهرة. محمود علي صبيح - بدون تاريخ.

تلك هي «العَلْمانيّة»: التوجه.. والنشأة.. والملابسات..

وهكذا كان وفودها إلى عالم الإسلام، في ركاب الغزوة الاستعمارية الحديثة.. واختراقها لمؤسسات القضاء والتشريع في بلادنا..

وهذا هو موقف الإسلام والفكر الإسلامي منها، سواء في اجتهادات تيار الإحياء والتجديد الحديث.. أم في الأصول والمنطلقات الإسلامية.. أم في إبداع فكرنا الإسلامي الوسيط..

المتغربون.. العلمانيون

أما الذين انبهروا -من مثقفينا المحدثين- بالعلمانية الغربية، فتبنوها، ودعوا إلى سلوك طريقها في نهضتنا، كما حدث للغربيين في نهضتهم.. وقالوا عن علاقة الدين بتدبير الدولة والمجتمع والعمران: «يا بعد ما بين السياسة والدين..» (٢٤).

و«إن السياسة شيء والدين شيء آخر.. وإن وحدة الدين ووحدة اللغة لا تصلحان أساسًا لوحدة السياسة ولا قوامًا لتكوين الأوطان» (٢٥).

فلقد كانوا هم الذين نظروا إلى إسلامنا بمنظار نصراني -فسووا- في علاقة الدين بالدولة والسياسة بين الإسلام والنصرانية.. كما نظروا إلى تراثنا وحضارتنا.. وإلى «العقل الشرقي المسلم» الذي أبدع هذا التراث وصنع هذه الحضارة، بمنظار غربي.. فرأوا الخلافة الإسلامية «كهانة مستبدة تحكم بالحق الإلهي المقدس» ورأوا في العقل المسلم عقلا يونانيا منذ القدم، وبعد التدين بالإسلام، لأن القرآن -عندهم- كالإنجيل.. والإسلام -عندهم- كالنصرانية.. ومحمد ﷺ -عندهم- كان كالخالدين من الرسل، لا شأن له بسياسة الدولة أو تدبير الاجتماع أو بناء العمران؟!..

لقد «ضُربت» عقولهم في «مصانع الفكر الغربي»، فقالوا:

إن العقل الشرقي هو -كالعقل الأوروبي- مردُّه إلى عناصر ثلاثة:

«حضارة اليونان وما فيها من أدب وفلسفة وفن.

وحضارة الرومان وما فيها من سياسة وفقه.

والمسيحية وما فيها من دعوة إلى الخير وحث على الإحسان».

وكما لم يغير الإنجيل من الطابع اليوناني للعقل الأوروبي. فكذلك القرآن، لم يغير من الطابع اليوناني للعقل الشرقي، لأن القرآن إنما جاء متممًا ومصدقًا لما في الإنجيل (٢٦)..

وإن الحضارة العربية والحضارة الفرنسية تقومان على أساس واحد، هو في نهاية الأمر الحضارة اليونانية اللاتينية (٢٧)؟!.

لقد شوهت المناهج الغربية رؤاهم، وزيفت وعيهم، فرأوا إسلامنا نصرانية.. وخلافتنا

(٢٤) علي عبدالرازق (الإسلام وأصول الحكم) (ص٦٩)، ط. القاهرة، سنة (١٩٢٥م).

(٢٥) د. طه حسين: (مستقبل الثقافة في مصر) (١/ ١٦، ١٧)، ط. القاهرة، سنة (١٩٣٨).

(٢٦) المرجع السابق (١/ ٢٩، ٣١، ٣٢).

(٢٧) د. طه حسين: (من الشاطئ الآخر) -نصوصه الفرنسية التي جمعت وترجمت بعد وفاته- جمعها وترجمها عبدالرشيد الصادق المحمودي (ص١٩١، ١٩٢) ط. بيروت، سنة (١٩٩٠م).


طه حسين

كهانة.. وقرآننا إنجيلا.. وشريعتنا قانونًا رومانيًا.. ومن ثم رأوا «الحل العلماني» هو طريقنا إلى النهوض، كما كان حاله في سياق النهضة الأوروبية الحديثة..

وإذا كان هذا «التغرّب» أمرًا قابلا «للتفسير» دون «التبرير».. فإن الأمر الذي يبلغ في الغرابة حد «الكارثة» هو الموقع الذي قادت إليه العَلْمانيّة بعضًا من مثقفينا الذين تمذهبوا بمذهبها، موقع التبعية للحضارة الغربية الغازية، والولاء للمركزية الغربية العنصرية.. بل وإعلان التسليم والاستسلام لإرادة الغرب في استلابنا واحتوائنا وإلحاقنا بنموذجه الحضاري «في الإدارة.. والحكم.. والتشريع».. وإلا فماذا تعنيه كلمات الدكتور طه حسين (١٣٠٦-١٣٩٣هـ/ ١٨٨٩-١٩٧٣م): لقد «التزمنا أمام أوروبا أن نذهب مذهبها في الحكم، ونسير سيرتها في الإدارة، ونسلك طريقها في التشريع، التزمنا هذا كله أمام أوروبا. وهل كان إمضاء معاهدة الاستقلال -(١٩٣٦م)- ومعاهدة إلغاء الامتيازات -(١٩٣٨م)- إلا التزامًا صريحًا قاطعًا أمام العالم المتحضر بأننا سنسير سيرة الأوروبيين في الحكم والإدارة والتشريع؟» (٢٨).

إن هذا «الاعتراف» العلماني «بالالتزام» بما ألزمنا به الغرب، من أن «نسير سيرة الأوروبيين في الحكم والإدارة والتشريع».. ينقل قضية تبني العَلْمانيّة في بلادنا إلى مستوى آخر.. فالقضية تتجاوز أحيانًا دائرة الاختلاف في الفكر، لتصب -بوعي أو بغير وعي- في خانة التفريط في الاستقلال؟!..

وإذا كان الدكتور طه حسين قد تجاوز هذا الانبهار بالغرب، والالتزام بما سعت أوروبا إلى إلزامنا به (٢٩).. فإن كلماته هذه تذكرنا بكلمات موقظ الشرق وفيلسوف الإسلام جمال الدين الأفغاني، التي قال فيها:

«لقد علمتنا التجارب أن المقلدين من كل أمة، المنتحلين أطوار غيرها، يكونون فيها منافذ لتطرق الأعداء إليها.. وطلائع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات، يمهدون لهم السبيل، ويفتحون الأبواب، ثم يثبتون أقدامهم» (٣٠)؟!.

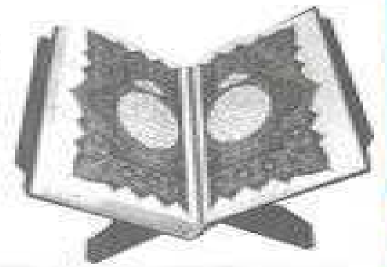
فإسلامية الدولة.. وإسلامية القانون، فضلاً عن أنهما من فرائض الإسلام، فإنهما من معالم الاستقلال الحضاري للأمة الإسلامية ولديار الإسلام.

❁❁❁

(٢٨) (مستقبل الثقافة في مصر) (ص٣٦، ٣٧).

(٢٩) انظر كتابنا (الإسلام والسياسة) (ص١١٨ - ١٣١)، ط. القاهرة، سنة (١٩٩٣م).

(٣٠) (الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني) (ص١٩٦، ١٩٧) دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، ط. القاهرة، سنة (١٩٦٨م).



تفسير سورة البقرة



للشيخ ـ محمد عبده

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾

«البقرة: ٨٤ - ٨٦».

كان التذكير في الآية السابقة بأهم المأمورات التي أخذ الله تعالى الميثاق على بني إسرائيل بها بعد توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة، وبيان أنهم نقضوا ميثاق الله تعالى ولم يأتمروا بها وفي هاتين الآيتين التذكير بأهم المنهيات التي أخذ الله تعالى الميثاق عليهم باجتنابها، وبيان أنهم نقضوا ميثاقه ولم ينتهوا عنها وقد قال هناك:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾

أي الذين نزلت عليهم التوراة، ثم التفت إلى خطاب الحاضرين في زمن التنزيل فقال: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ وقال هنا: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾، تماديًا في سياق الالتفات وتذكيرًا بوحدة الأمة واعتبارها كالشخص الواحد، يصيب الخلف أثر ما كان عليه السلف من خير وشر ما استنوا بسنتهم، وجروا على طريقتهم، كما تؤثر أعمال الشخص السابقة في قواه النفسية وطبع ملكاته بعد انحلال مادة تلك الأعضاء التي ابتدأت العمل وحلول مواد أخرى في محلها تتمرن على مثل ذلك العمل فما يفعله الشخص في صغره، يبقى أثره في قواه في كبره، فكذلك الأمم.

وقد أورد النهي عن سفك بعضهم دم بعض وإخراج بعضهم بعضا من ديارهم وأوطانهم بعبارة تؤكد معنى وحدة الأمة، وتحدث في النفس أثرًا شريفًا يبعثها على الامتثال إن كان هناك قلب يشعر، ووجدان يتأثر، فقال: ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾، فجعل دم كل فرد من أفراد الأمة كأنه دم الآخر عينه، حتى إذا سفكه كان كأنه بخع نفسه وانتحر بيده وقال:

﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾

على هذا النسق وهذا التعبير المعجز ببلاغته خاص بالقرآن فهذه الأحكام لا تزال محفوظة عند الإسرائيليين في الكتاب، وإن لم يجروا عليها في العمل ولكن العبارة عنها عندهم لا تطاول هذه العبارة التي تدهش صاحب الذوق السليم، والوجدان الرقيق فهذا إرشاد حكيم طلع من ثنايا الأحكام يهدى إلى أسرارها، ويومئ إلى مشرق أنوارها، من تدبره علم أنه لا قوام للأمم إلا بالتحقق بما تضمنه هذه الحكم، وشعور كل فرد من أفرادها بأن نفسه نفس الآخرين ودمه دمهم لا فرق في الاحترام بين الروح التي تجول في بدنه والدم الذي يجري في عروقه، وبين الأرواح والدماء التي يحيا بها إخوانه الذين وحدت بينه وبينهم الشريعة العادلة والمصالح العامة هذا هو الوجه الوجيه في الآية وقيل معناها لا ترتكبوا من الجرائم ما تجازون عليه بالقتل والإخراج من الديار ويقال في قوله ﴿لَا تَسْفِكُونَ﴾ كما قيل قبله في قوله ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ من تضمن صيغة الخبر للتأكيد.

وقوله تعالى:

﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾

فيه وجهان:

«أحدهما»: أنه يخاطبهم بما كان من اعتراف سلفهم بالميثاق وقبوله وشهودهم الوحي الذى نزل به على موسى عليه الصلاة والسلام.

و«ثانيهما»: أن المراد الحاضرون أنفسهم، أي أنكم أيها المخاطبون بالقرآن قد أقررتم بهذا الميثاق وتعتقدونه في قلوبكم، ولا تنكرونه بألسنتكم، بل تشهدون به وتعلنونه، فالحجة ناهضة عليكم به.

ثم بعد بيان هذا الميثاق وتسجيله عليهم بأنهم يعرفونه لا ينكرون منه شيئًا، ذكر نقضهم إياه، فقال: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ﴾ الحاضرون الشاهدون المشاهدون ﴿تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ أي يقتل بعضكم بعضًا، كما كان يفعل من قبلكم، مع اعترافكم بأن الميثاق مأخوذ عليكم كما كان مأخوذًا عليهم: كان بنو قينقاع من اليهود أعداء بني قريظة، إخوانهم في الدين، وكان الأولون حلفاء الأوس، والآخرون بني النضير حلفاء الخزرج، ثم افترقوا فبقي بنو النضير مع الخزرج، وحالف بنو قريظة الأوس وكان الأوس و الخزرج قبل الإسلام أعداء، وكانوا يقتتلون ومع كل حلفاؤه فهذا ما احتج الله تعالى على بني إسرائيل بقتلهم أنفسهم في عصر التنزيل ويتبع هذا القتال الأسر، ومن لوازمه الإخراج من الديار، ولذلك قال:

﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ

﴿تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾

والتظاهر: التعاون وتظاهرون أصله تتظاهرون كما قرأ الجمهور وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بحذف إحدى التاءين للتخفيف وهو مقيس مشهور كان كل فريق من اليهود يظاهر حلفاءه من العرب ويعاونهم على إخوانه من اليهود بالإثم كالقتل والسلب، وبالعدوان كالإخراج من الديار.

ومن مثارات العجب، أنهم كانوا إذا اتفقوا على فداء الأسرى يفدى كل فريق من اليهود أسرى أبناء جنسه، وإن كانوا من أعدائه، ويعتذرون عن هذا بأنهم مأمورون في الكتاب بفداء أسرى شعب إسرائيل فإن كانوا مستمسكين بالكتاب، فلم قاتلوا شعب إسرائيل وأخرجوهم من ديارهم وهم منهيون عن ذلك في الكتاب، هذا لعب بالكتاب واستهزاء بالدين، ولذلك قال تعالي:

﴿وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ﴾ بعد أن كنتم أسرتموهم وأخرجتموهم بالتظاهر عليهم مع العرب، ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ إِخۡرَاجُهُمۡ﴾ بميثاق أغلظ من طلب مفاداتهم ﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ وهو فداء الأسري، ﴿وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖ﴾ آخر منه، وهو النهى عن القتل والإخراج؟ أليس من الحماقة والهزء والسخرية أن يدعى مدع مثل هذا الإيمان بأهون الأمور مع الكفر بأعظمها؟ والإيمان لا يتجزأ، فالكفر بالبعض كالكفر بالكل.

وفى التعبير عن المخالفة والمعصية بالكفر، دليل على ما سبق بيانه في معنى قوله تعالي: ﴿وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ فالقرآن يصرح هنا وفي آيات كثيرة، بأن من يقدم على الذنب لا تضطرب نفسه قبل إصابته، ولا يتألم ويندم بعد وقوعه فيرجع إلى الله تعالي تائبا، بل يسترسل فيه بلا مبالاة بنهى الله تعالى عنه وتحريمه له، فهو كافر به، لأن المؤمن بأن هذا شيء حرمه الله تعالي، المصدق بأنه من أسباب سخطه وموجبات عقوبته، لا يمكن أن لا يكون لإيمان قلبه أثر في نفسه، فإن من الضروريات أن لكل اعتقاد أثرًا في النفس ولكل أثر في النفس تأثيرًا في الأعمال وهذا هو الوجه في الأحاديث الصحيحة الناطقة بأنه «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر شاربها وهو مؤمن».

سمى الله الذنب ههنا كفرًا لما تقدم وتوعد عليه بوعيد الكفر، فقال:

﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾

إلخ، أوعدهم الله تعالى كما أوعد من قبلهم ومن بعدهم بأنهم يعاقبون على نقض ميثاق الدين الذى يجمعهم، والشريعة التى هى مناط وحدتهم، ورباط جنسيتهم، بالخزى العاجل، والعذاب الآجل. وقد دل المعقول، وشهد الوجود، بأنه ما من أمة فسقت عن أمر ربها، واعتدت حدود شريعتها، إلا وانتكث فتلها، وتفرق شملها، ونزل بها الذل والهوان، وهو الخزى المراد فى القرآن. وهذه هى سنة الخليقة، ذكرها ليعتبر بها من صرفته الغفلة عنها.

وأما العذاب الآجل الذى عبر عنه بقوله:

﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِ﴾

فهو على كونه من عالم الغيب معقول المعني، وهاد إلى حكمة عليا. ذلك أن النفوس البشرية إذا سحل مريرها واختلت بفساد الأخلاق أمورها، وكثرت في هذا العالم شرورها، حتى سلبت ما أعده الله تعالى لمن حافظوا على الحقيقة، واستقاموا على الطريقة، تكون جديرة بأن تسلب في الآخرة ما أعده الله تعالى للأرواح العالية، وما وعد به أصحاب النفوس الزاكية، فإن سعادة الدار الدنيا لم تكن أجرًا على أعمال بدنية، لا تتعلق بصلاح النفس في خلق ولا نية، وإنما هى ثمرة تزكية النفس، التى يتوسل إليها بعمل الحس. فإذا كان هذا شأن سعادة الدنيا، فكيف يكون نعيم الآخرة جزاء حركات جسدية، وهى الدار التى تغلب فيها الروحانية؟!

﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾

(الشمس: ٧: ١٠).

ثم أكد الله تعالى ذلك الوعيد الشديد، وبين سببه بقوله:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾

أى جعلوا حظوظهم من الحياة الدنيا بدلا من الآخرة بما فرطوا في جنب الله وأهملوا من شريعته حتى لم يتبعوا منها إلا ما يوافق أهواءهم ولا يعارض شهواتهم، كالحمية التى حملت كل حليف على الانتصار لمحالفة المشرك ومظاهرته إياه على قومه الذين تجمعه بهم رابطة الدين والنسب.

﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ بشفاعة شافع أو ولاية ولى من دون الله:

﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾

(البقرة: ٢٥٥).

وأنى يأذن بالشفاعة لمن سجلت عليهم الشقاء أعمالهم بإحاطة الخطايا بهم من كل جانب، حتى أخذت عليهم طريق الرحمة، وقطعت عليهم باختيارهم سبيل الرضوان الإلهي؟ فمن الجهل إهمالهم الأمر والنهي، ونقضهم ميثاق الله تعالى فى أهم ما واثقهم به، واعتمادهم مع هذا كله على الشفعاء:

﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾

(الأنبياء: ٢٨).

ومن مباحث الألفاظ في قوله:

﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾

أن الضمير للشأن عند المفسر والجماهير. وإن المعهود في كلام العرب أن الجملة التى تقضى الحال فيها بتقدم الاسم وتأخر الفعل أو ما يشتق منه لابد أن تصدر بضمير تعتمد عليه، ولهذا شواهد في كلام البلغاء يتفق فيها ذوقها وإن اختلف النحاة في إعرابها.

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ٨٧ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ﴾

(البقرة: ٨٧-٨٨)

أقسام السنة عند الدكتور/ محمد عبد الله دراز





صعوبة تطبيق حدى السنة والبدعة واشتباه الأمر بينهما على كثير من الناس.

عرفت أن: «كل إحداث فى الدين لما ليس منه فهو بدعة وضلالة ومردود على صاحبه» ولكن معرفة هذا القانون الكلي العام بمنطوقه ومفهومه ليس هو كل شيء فى هذا العلم لأن الحكم بصورته هذه لا نزاع فيه ولا يصلح أن يكون محلا للنزاع بين أحد من المسلمين، وإنما الشأن فى المقدمات الجزئية التى تثبت لنا فى كل أمر من الأمور المحدثة انطباق موضوع هذا القانون عليه أو عدم انطباقه حتى إذا ثبت لنا أن هذا المحدث أو ذاك ليس من الدين وضعنا عليه وسم البدعة فباء بإثمها، وإلا أدخلناه فى حظيرة السنة وأجرينا عليه حكمها.

نعم إن الشأن كل الشأن هاهنا، وإن هذا هو مجال البحث الذى اختلف فيه الناس ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك.

ترى ما الميزان الذى تعرف به ما يعد من الدين وما لا يعد منه؟

إن كل ما فعله النبى عليه الصلاة والسلام أو فُعل فى عصره وأقره فهو السنة المطلوبة، وما لم يفعله فهو البدعة المردودة كائنًا ما كان؟

إذا لهان الفصل فى القضية حقًا واستبان فيها الخيط الأبيض من الخيط الأسود لأول نظرة فى السيرة النبوية الكريمة.

ولكن الأمر ليس كذلك، فليس كل ما فعله النبى ﷺ يكون فى حقنا مأمورًا به أو مأذونًا فى فعله ولا كل ما تركه يكون بالنسبة لنا منهيًا عنه أو مأذونًا فى تركه، بل لذلك تفصيل معروف فى محله (١).

وكذلك ليست كل الأفعال التى وقعت فى زمن النبى ﷺ وأقرها، بكافية لنا فى تحديد السُّنة المطلوبة، فهنالك صورة الحياة العربية وأسلوب المعيشة التى كان عليها العرب زمن النبوة فى ألوان طعامهم وشرابهم، وأشكال مساكنهم وملابسهم، وأنواع صناعاتهم ومرافقهم. أفنعد كل من خالف عوائد العرب فى ذلك الزمان مبتدعًا حتى فيما لم يرد أمر به ولا نهى عن خلافه؟ إن ذلك يفضى بنا - كما قال الشاطبي - إلى شناعة شديدة جدًا، فإن إلزام العالم كله عادة واحدة وصورة واحدة مناف لما تعلمه قطعًا من قواعد الشريعة وأنها قد رُوعى فيها اختلاف الطبائع البشرية واختلاف العوائد فى الأزمان والأقطار والأشخاص.

ثم هو بعد ذلك مناقض لنصوص الشريعة التى تأبى التضييق والحرج فيما دلت أدلتها على جوازه من غير معارض:

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾

(الأعراف: ٣٢)

ولقد روى المؤرخون أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما قدم الشام وجد معاوية ابن أبى سفيان قد اتخذ المراكب النفيسة والثياب الهائلة العلية واتخذ الحجاب وسلك ما سلكه الملوك، فسأله عن ذلك فقال: «إنا

(١) أما فعله ﷺ فقد تقرر فى أصول الفقه أنه على أنواع (منها) ما يكون شريعة خالصة له من دون المؤمنين، كدخوله مكة بغير إحرام وتزوجه بأكثر من أربع، فتارك مثل هذا الفعل لا يسمى تاركًا للسنة بل هو قائم بها، إذ ليس لأحد من الأمة إجماعًا أن يشاركه النبى ﷺ فى خصوصيات متى ثبت دليل الخصوصية (ومنها) ما يكون تشريعًا عامًا له ولأمته لكن لا على معنى الأمر والطلب بل على معنى التخيير والإباحة، وذلك حيث يقوم دليل النقل أو العقل على أن ذلك الفعل لم يقصد به جانبه الإيجابي وحده بل قصد به الإذن ورفع الحرج عن طرفي الإيجاب والسلب، مثاله أنه عليه الصلاة والسلام تزوج زوجة زيد متبناه لا ليتزوج المؤمنون أزواج أدعيائهم وجوبًا أو استنانًا بل كما قال الله تعالى: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾ «الأحزاب: ٣٧» ومن هذا النوع كل أفعاله الجبلية أى الصادرة بمقتضى طبيعته البشرية على حسب حاجاته الوقتية كانتقاله فى ساعة كذا إلى مكان كذا وتناوله طعام كذا ونومه قدر كذا، فمثل هذه الأفعال لو كان فيها تشريع طلبي لكان مطلوبًا من الصحابة أن يتحركوا فيها بحركاته ويسكنوا بسكناته، ولكان مطلوبًا منا أن نتحرى فعل مثلها فى أزمانها وأماكنها وهو ظاهر البطلان، بل التشريع فيها من باب الإذن والتوسعة فى حدود المباح، فتارك شيء منها لا يسمى تاركًا للسنة أيضًا إلا كان فى تركه إياه على= الاستباحة لا على التزام الترك فإنه إلا لكان مغيرًا لوضع الشريعة وفى مثله ورد الخبر «ومن رغب عن سنتى فليس منى» (ومنها) ما يكون تشريعًا عامًا أيضًا له ولنا ويكون مطلوبًا منا متابعته فيه وجوبًا أو ندبًا وذلك إذا اقترن بالفعل طلب المتابعة كقوله «صلوا كما رأيتمونى أصلي» وقوله «خذوا عنى مناسككم» أو كان قد ورد طلب قولي لم تبين كيفيته ثم ورد فعل قامت القرائن على أنه وقع بيانًا لذلك الطلب كقطع يد السارق إلى الكوع بعد تقدم الأمر بقطع اليد غير محدودة بكوع ولا مرفق ولا غيرها فهذا النوع يعد تاركه تاركًا للسنة قطعًا لأن الفعل فيه مطلوب بعينه إما على الوجوب أو الندب تبعًا لنوع الأمر إذ البيان تابع للمبين. هذه الأنواع كلها لا خلاف فيها بين العلماء، وإنما اختلفوا فيما وراءها من المواضع التى لم يقم فيها دليل على الخصوصية ولا التشريك، ولم يقم دليل على الطلب ولا التخيير. والمحققون على أن كل ما لم يثبت فيه دليل الاختصاص بالنبى ﷺ فهو عام لأمته، لأن الأصل فى وضع النبوة الاقتداء والتأسي، فلا يعدل عن هذا الأصل إلا لدليل خاص. أما أن التأسي يكون بالتزام العمل أو بترجيحه أو بالتخيير فيه فالتحقيق أنه ينظر فى ذلك إلى الفعل نفسه، فإن ظهر فيه أنه قصد به التقرب إلى الله تعالى كان مطلوبًا وإن لم يظهر فيه هذا القصد كان مباحًا، فمن شاء تأسى به فى خاصة نفسه حبًا فى تمام متابعة الحبيب حتى فى العادات المباحة، وله فى ذلك أجر ما نوى، وكذلك كان عبدالله بن عمر يفعل، حتى كان ينزل فى طريقه من الحج حيث نزل النبى ﷺ ويصلح ركابه حيث أصلح ركابه. ومن شاء تركه جريًا على مقتضى الإباحة، فإن كان ممن يقتدى به كان الترك فى حقه أحب حتى لا يلتبس على الناس أمر العادة المباحة بأمر العبادة المطلوبة، وكذلك كان عمر ينهى الناس عن نزول بعض المنازل التى نزلها النبى ﷺ وصلى فيها ولم يكن النزول فيها من شعائر الحج، وكان يقول لهم «من أدركته الصلاة فى هذه المساجد فليصل فيها وإلا فلا يتحراها». وأما تركه ﷺ فهو أيضًا على أنواع (فقد) يترك الشيء خصوصية كتركه قبول الصدقات لحرمتها عليه وعلى آله (وقد) يترك المباح جبلة وعيافة طبع كما ترك أكل الضب لأنه لم يكن بأرض قومه (وقد) يترك بعض المطلوبات لقيام مانع منها كما ترك إعادة الكعبة إلى قواعد إبراهيم عليه السلام لأن العرب كانوا حديثي عهد بجاهلية، وكما ترك المواظبة على صلاة التراويح جماعة فى المسجد لأنه كان قد يدع العمل أحيانًا وهو يحب أن يعمل به خشية أن يفرض على الناس (وقد) يكون تركه للمطلوب لعدم تحقق مقتضاه فى عهده، كما ترك جمع المصحف ونحوه من المسائل التى تجددت أسبابها بعد عصر النبوة ففى كل أولئك لا يكون الترك سنة ملزمة حتى يعد الفاعل لما تركه مبتدعًا، وإنما يكون ذلك فى أمر ثبت النهى عنه بالقول أو فى أمر تهيأت فى زمن النبوة أسباب تشريعه ولم يوجد حينئذ مانع من فعله ثم لم يفعل، كعدم الأذان لصلاة العيدين، وعدم الإشارة إلى رخصة نكاح المحلل مع حاجة امرأة رفاعة إليه. فالترك هاهنا تشريع متعين، كما أن الفعل الذى طلبت فيه المتابعة أو ظهر فيه قصد القربة تشريع متعين (د/دراز).

(٢) الفاروق عمر جـ٢ ص٢٠١ ط دار المعارف الطبعة السابعة محمد حسين هيكل.

بأرض قوم نحن فيها بحاجة إلى هذا فقال له عمر: لا آمرك ولا أنهاك»(٢).

ليس التشريع الإسلامي إذًا قاصرًا على تلك الصور المعينة التي جرت في أفعال الرسول ﷺ وتقريراته، بل إنه كما يستمد من هذين المصدرين العمليين يستمد من مصدرين قوليين، وهنا النصوص الثابتة من كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ.

فإذا ما انتقلنا إلى هذه النصوص رأينا الاستمداد منها أيضًا ليس محدودًا بحدود منطوقاتها بل كثيرا ما يجاوز فيها العبارة إلى الإشارة، والخصوص إلى العموم، والوسائل إلى المقاصد.

ذلك بأن الله تعالى ندبنا إلى التدبر في معاني كتابه، وأمرنا أن الميزان يعتبر بما فيه من مواضع العبرة، ثم أجرى سنته التشريعية على وجه يمهد لنا الطريق فيها إلى ذلك الاعتبار، إذ وضع بجانب أكثر الأحكام عللها وغاياتها، لنتخذ منها أصولا ومقاييس نرد أشباهها ونظائرها يستوي في ذلك أمره ونهيه وتقريره للحقوق والواجبات.

فنحن إذا سمعناه يقول: افعلوا كذا ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة، عرفنا أن من مقاصد الشرع اتقاء المهالك في هذا الشأن وغيره. وإذا سمعناه يقول: لا تفعلوا كذا إن الله لا يحب المفسدين، فهمنا أنه ينهى عن كل ما فيه إفساد، ولذا قال:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾

(الحج: ٣٩)

عرفنا مشروعية الدفاع عن النفس بكل وسيلة ولذا قال:

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾

(النساء: ٣٤)

فهمنا أنه لا ولاية لأحد على أحد إلا بسبب وهبي أو كسبي، والقرآن جُله على هذا النمط.

على أن نزول الأحكام الشرعية مقترنة أسبابها من الوقائع والنوازل كان من شأنه أن يرشد إلى الاتجاه الذي يسير فيه التشريع، وأنه يبني الحكم في كل مسألة على وفق مصلحة معينة يرمي إلى تحقيقها من وراء ذلك الحكم، ولكن حكمة الشارع ورحمته لم تكتف بهذا الاقتران الفعليّ بين الأحكام ومقاصدها، حتى قرنتهما في البيان القولي على الوجه الذي رأيت.

ثم لم يقف الأمر عند هذا الحد أو ذاك، بل إن النبي ﷺ أخذ يرسم لأصحابه طريق النظر في مقاصد التشريع، ويدربهم بأسلوب عملي حكيم على استنباط الأحكام منها فكان يستشيرهم في المسائل التي لم ينزل عليه وحي فيها ويدعهم يتشاورون بين يديه فيدلي كل برأيه وحجته، ويربيهم وجه القبول لما يقبله والرد لما يرده. كما فعل في مسألة الإعلام بوقت الصلاة قبل الأذان(٣) وفي مسألة الأسرى(٤) وغيرها من شئون

(٣) الحديث أخرجه أبو داود عن أبي عبدالله بن زيد كتاب الصلاة باب كيف الأذان جـ١ ص٣٣٧ (٤٩٩).
وأخرجه الترمذي عن عبدالله بن زيد عن أبيه كتاب الصلاة باب ما جاء في بدء الأذان جـ١ ص٦١ (١٨٩).
(٤) الحديث أخرجه مسلم عن عمر بن الخطاب كتاب الجهاد والسير باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر جـ٥ ص١٥٦.

الحرب ولذلك بدأ الصحابة في عصر النبوة نفسه يعملون باجتهادهم في بعض المسائل ويقرهم النبي ﷺ على ما يصيبون فيه:

بعث رسول الله ﷺ جيشًا إلى أرض الشام «مؤتة»، قُبيل فتح مكة وأمَّر عليهم زيد بن حارثة وقال: «إن قُتل زيد فجعفر وإن قُتل جعفر فعبد الله بن رواحة» فاستشهد الثلاثة فأخذ الراية خالد بن الوليد من غير انتظار أمر لأنه رأى المصلحة في ذلك، فسُر النبي ﷺ بفعله، ولقبه بسيف الله(٥).

وكان بلال مواظبًا على صلاة شيء من النافلة كلما توضأ من غير أن يسمع في ذلك نصًا خاصا وإنما أخذه من الترغيب في مطلق الصلاة وقد مدحه النبي ﷺ وبشره بالرؤيا المعروفة(٦)(٧).

وأصبح عمرو بن العاص(٨) جُنبًا في غداة باردة فخشي أن يغتسل بالماء وتلا قوله تعالى:

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾

(النساء: ٢٩)

وتيمم وصلى وذكر ذلك للنبي ﷺ فلم يعنفه(٩).

وهكذا أخذ الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ يجتهدون رأيهم فيما تجدد لهم من النوازل التي لم تعهد في عصر النبوة والتي لم يرد فيها رسم عملي ولا نص قولي بخصوصها، وكمسألة الجد مع الإخوة ومسألة الطلاق قبل عقد النكاح، والحلف بالحرام، وبيع أمهات الأولاد وقتل الجماعة بالواحد وغير ذلك من مسائل الميراث والطلاق والقصاص والبيوع ونحوها، ولقد أجمعوا رأيهم على جمع القرآن في مُصحف واحد على عهد أبي بكر، وبحرف واحد على عهد عثمان، وكذلك فعل التابعون من بعدهم في شكل المصحف ونَقطه ولم يكن شيء من ذلك قد فعله النبي ﷺ ولا أمر به بعينه وإنما هو اجتهاد النظر في تحري ما بينه لهم من مقاصد الشرع وتطبيق ما تركه فيهم من قواعده.

ومن هنا اتسع صدر التشريع الإسلامي ولا يزال يتسع لكل زمان ومكان إلى يوم القيامة، ولولا ما اشتمل عليه الشرع الحنيف من تلك الكليات المتناولة لما لا ينحصر من الجزئيات، ومن تلك المثل التي أديرت عليها الأحكام لما كان تشريعًا أبديًا خالدًا، ولكان الأمر بالرد إلى كتاب

(٥) روى البخاري عن أنس أن النبي ﷺ نعى زيدا وجعفرا وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم. قال وعيناه تذرفان: «أخذ الراية زيد فأصيب ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها ابن رواحة فأصيب ثم أخذها سيف من سيوف الله، خالد بن الوليد، ففتح الله عليهم» د/ دراز.
(٦) روى مسلم أن النبي ﷺ قال لبلال عند صلاة الغداة يا بلال حدثني بأرجى عمل عملته عندك في الإسلام منفعة فإني سمعت الليلة خشف نعليك بين يدي في الجنة فقال بلال: ما عملت عملاً في الإسلام أرجى عندي منفعة من أني لا أتطهر طهورًا تامًا في ساعة من ليل ولا نهار وإلا صليت بذلك الطهور ما كتب الله لي أن أصلي» د/ دراز.
(٧) رواه البخاري عن أبي هريرة أبواب التهجد باب فضل الطهور بالليل والنهار وفضل الصلاة جـ٢ ص٦٦.
(٨) عمرو بن العاص رضي الله عنه بن وائل بن هاشم القرشي يكنى بأبي عبدالله وأبي محمد، هاجر إلى رسول الله ﷺ في أوائل سنة ثمان مرافقا لخالد بن الوليد وذلك سنة نيف وأربعين. (انظر الإصابة ٣/٢ ٩، سير النبلاء ٣/٥٤، تهذيب التهذيب ٨/٥٦).
(٩) أخرجه أبو داود عن عمرو بن العاص كتاب الطهارة باب إذا خاف الجنب. فليتيمم جـ١ ص١٣٩ (٣٣٥).

الله وسنة رسوله فى كل (١٠) شىء حصل التنازع فيه أمرًا بغير ممكن لأن الجزئيات التى فيه محصورة، والجزئيات التى تلدها العصور لا انحصار لها، وأخيرًا لما صح قوله تعالى:

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾
(النحل: ٨٩)

وقوله:

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾
(المائدة: ٣)

إذ أين يكون الكمال والبيان الشامل لو كانت هذه النوازل المتجددة ففى كل عصر بقيت بدون تشريع إلهى؟

غير أن الشريعة حين أطلقت العقل من عقاله، وفتحت له باب البحث والنظر هل نقول إنها بذلك ألقت له حبله على غاربه، وجعلت له القواعد العامة حاكمة أبدًا على جزئياتها، والغايات المصلحية كفيلة دائمًا بتبرير واسطتها، وخولته حق إهدار النصوص والوقائع الجزئية فى سبيل الأخذ بتلك الكليات والمقاصد؟

إذًا لهان الأمر من الجهة الأخرى، فلا يبقى أمام الناظر فى الشريعة ما يتعذر عليه إدخاله تحت عنوان السنة من قريب أو بعيد.

ولكن هيهات، فإن الأمر لو استقام على ذلك لوسع من أنواع الضلالة ما لا يقف عند حد وحسبك من فساد هذا المقياس أنه هو الأساس الذى قامت عليه حُجة المشركين فى عبادتهم الأصنام إذ قالوا:

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾
(الزمر: ٣)

وحجتهم فى طرح ثيابهم وكشف عوراتهم عند الطواف بالبيت إذ قالوا «لا نطوف بثياب عصينا الله فيها» (١١) وحجة قريش فى وقوفهم بالمزدلفة وتركهم سنة إبراهيم من الخروج إلى عرفة إذ قالوا: «كيف نفارق الحرم ونحن حماة الحرم» (١٢) أم نقول إن الشريعة أباحت للناظر فيها، أن يختار أى هذين المسلكين شاء فى كل مطلب؟ فإن شاء أخذ بالخصوص أو بالعموم، وإن شاء وقف عند ظواهر النصوص أو غاص إلى بواطن المعانى واستخرج ما يشتهى من تأويل.

إذًا لكان الأمر أهون وأهون، إذ يكون كل الناظرين فى الشريعة مُهتدين ومُصيبين للسنة مهما تفرقت بهم السُبل.

ولكن الشريعة تصبح بذلك مجموعة من الأضداد والمتناقضات فيكون الفعل الواحد حلالاً أو حرامًا إن شئت، والرأى الواحد حقًا أو باطلا إن أردت، وبذلك تذهب منها وحدة الحق الذى لا يختلف وتزول عنها هيمنة الحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، إذ كيف يرتفع الاختلاف بما فيه اختلاف؟

هكذا يقف الناظر فى أمر السنة والبدعة بين هذه المحظورات الثلاثة «لا يستطيع» أن يحبس نظره على خصوص النصوص وصور الوقائع العينية، وإلا لبقيت الشريعة ناقصة محتاجة إلى التكميل أو وقفت جامدة لا لين فيها، وقتية لا بقاء لها.

«ولا يستطيع» أن يعتمد على الكليات والمقاصد وحدها، وإلا لخرج بها إلى اللين الذى لا عزيمة فيه، والسعة التى لا حدود لها حتى تصبح وضعًا عقليًا لا هديًا سماويًا.

«ولا يستطيع» أن يأخذ بأى هذين النظرين شاء، وإلا لتناقضت الأنظار وكانت الفوضى والاضطراب فى التشريع.

وكيف يجرؤ مسلم أن يهدر أحد جانبى الشريعة وهى كل لا يتجزأ:

﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾
(البقرة: ٨٥)

أم كيف تكون له الخيرة فى الأخذ بأيهما شاء والحق واحد لا يتعدد؟

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾
(الأحزاب: ٣٦)

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾
(النساء: ٨٢)

لم يبق إذًا أمام طالب الهدى الإسلامى إلا أن يلتمس جادة يلتقى عندها هذان الجانبان ذلك أن الشريعة ما وضعت الخصوص إلى جانب العموم، والنصوص إلى جانب المقاصد إلا ليحتكم المسلم إليهما، ويلتمس الهدى فيهما، ويستخرج الحق من بينهما فى كل مسألة، فلا غنى له عند النظر فى القواعد والمقاصد عن الاسترشاد بنماذجها من الجزئيات القولية والفعلية، لكيلا يذهب به التأويل إلى ساحة الهوى والضلال البعيد. ولا مناص له عند النظر فى النصوص والوقائع الجزئية من الاستئناس بأسبابها وظروفها وغاياتها - إن كانت معللة - ليتنزلها منازلها ويضع كل حُكم فى الموضع الذى يناسبه وليعتبر بها فى أمثالها من النوازل المتجددة، وليمتنع عن تطبيقها حرفيًا إذا اختلفت طبيعة الحوادث وتغير مناط الحكم فيها، وإلا لرجعت به المحافظة على ظواهر النصوص أحيانًا إلى حد الإخلال بمقاصد التشريع وإيقاع الحرج فى الدين وقد نفاه الله عنه (١٣).

نعم لابد من الجمع بين هذين الطرفين على وجه تتحقق به تلك «المرونة» (١٤) التشريعية التى هى خاصة الدين الإسلامى كما وصفه مبلغه الأمين حيث يقول صلوات الله عليه وسلامه: «إن هذا الدين يسر» (١٥) ويقول: «إن هذا الدين متين» (١٦) فذلك

---

(١٠) العموم مأخوذ من لفظ شىء فى قوله تعالى: ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ (النساء: ٥٩) لأنه ذكره فى سياق الشرط. وهى من صيغ العموم. د/ دراز.

(١١) رواه البخارى عن هشام عن أبيه - كتاب الحج باب فى الوقوف وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ ﴾ جـ٤ ص٤٣.

(١٢) رواه البخارى عن هشام عن أبيه عن عائشة كتاب التفسير باب فى الوقوف وقوله تعالى ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ ﴾ جـ٩ ص٢٥٣. ورواه مسلم عن هشام عن أبيه عن عائشة كتاب الحج باب فى الوقوف وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ ﴾ جـ٤ ص٤٣.

(١٣) يشير إلى قوله تعالى ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ (الحج: ٧٨).

(١٤) اشتهر على ألسنة العامة استعمال هذه الكلمة فى معنى السهولة وقبول الامتداد مطلقا ولكنها فى اللغة تؤدى معنى مركبا من معنيين، هما اللين والصلابة معا وهذا هو المعنى الذى نقصد إليه وهو الذى ينطبق تمام الانطباق على الشريعة الإسلامية فهى قابلة للامتداد فى الفهم وفى العمل إلى حد لو جوزه المرء وأوغل فيها بغير رفق انشدت عليه وغلبته وأفلت حبلها من يده وتركته بمكان قصى عنها «د/ دراز».

(١٥) رواه البخارى عن أبى هريرة كتاب الإيمان باب الدين يسر وقول النبى ﷺ أحب الدين إلى الله ج١ ص١٠١.

(١٦) رواه الإمام أحمد فى مسنده ١٩٩/٣.

الوسط الذى لا إفراط فيه ولا تفريط، هو الصراط المستقيم، وهو السنة التى كان عليها النبى الكريم ﷺ.

******

ولكن ما هى حدود ذلك الوسط الجامع بين متانة المحافظة على النصوص والخصوصيات من جانب وبين سهولة الانقياد للكليات والعلل والتأويلات من جانب آخر؟

وما هى النسبة التى على حسبها فى كل مطلب يتركب ذلك المزيج الآخذ من كلا العنصرين بطرف قاصد؟

****

إن هاهنا موضع الصعوبة والدقة كلها، إذ ليس فى العقول ولا فى النقول ميزان منضبط متفق عليه فى تحديد القدر الذى يعد فى هذه المسألة أو تلك توسطًا واقتصادًا. والقدر الذى يعد فيها غلوًا وميلًا إلى أحد الجانبين ولو كان لسهل الأمر ولما رأينا بين علماء الإسلام اختلافًا فى شىء من أصول الدين ولا فى شىء من فروعه، ذلك لأنهم جميعًا ينشدون هذا الوسط الذى لا يزيد فى الشرع ولا ينقص منه ولأنهم جميعًا يطلبون هذا الوسط من مظانه التى فهموها عن الشارع، فليس منهم من يعتمد فى حُكمه أصلًا يعلم أنه لم يأذن به الله ولا رسوله وأخيرا، لأنهم جميعًا يؤمنون بالكتاب كُله لا يفرقون بين شىء منه ويؤمنون بما ثبت عن الرسول ﷺ من بيانه للكتاب، وبأن طاعته من طاعة الله ومعصيته من معصية الله. وما كان لأحد ممن يدعى الإسلام أن يكون غير ذلك، وإلا لخلع ربقة الإسلام عن عنقه وكذلك ما كان لأحد ممن يدعى الإسلام أن يجد حكم الله وهدى رسوله ﷺ لائحًا نيرًا فى ناحية ما، اعتقادية أو عملية، ثم يخالف إلى ناحية أخرى فيحكم بها عنادًا فى الحق بعد ما تبين، وإلا لمرق من الدين كما يمرق السهم من الرمية.

فلماذا نراهم مختلفين فى الأحكام مع اتفاقهم على مصادرها وموازينها العامة، ماذاك إلا أن ما هنالك يعد اختلافًا بينهم فى طريقة استعمال الميزان وتعيين موضع القسط أو الانحراف منه كل مسألة.

وبيان ذلك من وجوه:

«منها» أنه وإن أجمع المسلمون على أن الشريعة بجميع أجزائها حق، وأنه لا يجوز إهدار شىء من كلياتها وجزئياتها متى حصل القطع بصحة نقلها، لأن الحقائق القطعية لا تتناقض ولا تتعارض إلا أنه بعد الاتفاق على صحة كل منها فى ذلك وقطعيتها فى بابها قد يقع الخلاف بعد ذلك فى رد المسألة المطلوبة إليها إذ ليس كل حكم يؤخذ من كل موضع، بل لابد من الرجوع فى كل مسألة إلى مظلتها المناسبة لها من الكتاب والسنة وهاهنا ربما اختلف النظار فى الاهتداء إلى بعض تلك المظان، أو ربما اختلفت أنظارهم فى هذه المظان أيها أشبه وأحرى أن تؤخذ منه المسألة.

«ومنها» أنهم أجمعوا على أن المسألة إذا كان فيها ظنى وقطعى متعارضان وجب فى الظنيات التى تصادم القطعيات تأويلها أو إهدارها كما أجمعوا على أنه إذا كان فيها ظنيات متعارضة طلب الترجيح بينها بوجه من وجوه الترجيح ولكنهم اختلفوا بعد ذلك فى التطبيق: فيرى صاحب هذا المذهب مثلا أن الأصل الذى رجع إليه قطعى والمتروك ظنى أو أن الظنى الذى أخذ به هو أرجح الظنيين، بينما يرى الآخر عكس ذلك.

(ومنها) أنهم أجمعوا فى الجملة على وجوب احترام ظواهر النصوص «ما أمكن» وعلى قبول التعليم والتأويل[١٧] فيها «إذا تعين» ولكن إجماعهم على هذين الأصلين لم يكن ليحول دون اختلافهم فى مدى هذا «الإمكان» وحدود هذا «التعيين»: فكل آخذ بالظاهر فى مسألة يقول إن هذا هو الأصل ولا موجب للعدول وكل آخذ فيها بالقياس أو بالتأويل يقول: بل هذا هو مقتضى الدليل وكذلك إذا اختلفوا فى درجة التأويل قربًا وبعدًا كان الذى يراه هذا قريبًا يراه الآخر بعيدًا - وإليك أمثلة من ذلك:

فمن أمثلة الاختلاف فى رد الأحكام إلى ما يناسبها من نصوص الشريعة مع الاتفاق على قطعية النصوص من الطرفين أن الخوارج[١٨] ذهبوا إلى منع التحكيم فى دماء المسلمين أخذًا من عموم النص فى قوله تعالى:

﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾

(يوسف: ٤٠)

غافلين عن النصوص القرآنية الأخرى التى استند إليها الجماعة وهى النصوص القاضية بجواز التحكيم فى بعض الجزئيات كالأبضاع وغيرها فلما ناظرهم بها عبدالله ابن عباس[١٩] رجع منهم من رجع وأصر منهم من أصر[٢٠] فكان رجوع الراجعين منهم دليلا على أن منشأ مخالفتهم ليس هو الإعراض عن الدليل الشرعى بعد علمه، وإنما هى الغفلة عن المأخذ المناسب لهذا الحكم من بين الأدلة كما أن إصرار الباقين منهم لا يمكن أيضا أن يكون تفريقًا بين آيات الكتاب، بل له محملان: «أحدهما» أنهم لم تبلغهم تفاصيل تلك المناظرة ودلائلها. «والثانى» أن تكون قد بلغتهم ولكنها لم تكن كافية لإقناعهم بخطأ مذهبهم ولا مزحزحة لهم عن الطمأنينة إلى مأخذهم، إذ لم يجدوا مسألتهم منصوصة بعينها فى تلك الجزئيات الجائزة، فدار الأمر فيها بين أن تلحق بالعام كما فهموا فتبقى على أصلها من امتناع التحكيم فيها كما يمتنع التحكيم فى أوضاع العبادات، وبين أن تلحق بتلك الجزئيات فيجوز التحكيم فيها بالأولى، كما بينته مناظرة ابن عباس، ولذلك رجع إليه كثير منهم.

وهكذا كان لكل واحد من الفريقين

(١٧) ستري أن الإمام أحمد بن حنبل وهو من أشد الأئمة محافظة على ظواهر النصوص يأخذ بالتأويل أحيانًا بل غلاة الظاهرية أنفسهم قد يلتجئون إلى مقاصد الأحكام وبواطن المعاني التي لا يدل عليها ظاهر اللفظ، ويستأنسون بالأشباه والنظائر في تدعيم مذاهبهم فهم داخلون في الإجماع المذكور عمليًا وإن ادعوا بألسنتهم خلافه (د/دراز).

(١٨) الخوارج هم جماعة خرجوا على الإمام علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - ممن كانوا معه في حرب صفين يقول الشهرستاني: كل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه يسمى خارجيًا سواء أكان الخروج في أيام الصحابة على الأئمة الراشدين أو كان بعدهم على التابعين بإحسان والأئمة في كل زمان. الملل والنحل ج١ ص١١٤.

(١٩) عبدالله بن عباس ابن عم رسول الله ﷺ - كان يسمى البحر لسعة علمه ويسمى حبر الأمة ولد قبل الهجرة بثلاث سنين - دعا له الرسول ﷺ توفي سنة ٦٨ بالطائف وهو ابن سبعين سنة. أسد الغابة ج٣ ص٨ (٣٠٣٧).

(٢٠) مناظرة ابن عباس للخوارج جامع بيان العلم وفضله ج٢/ص١٢٧ والكامل للمبرد ج٢ ص١٢٠.

(٢١) أخرج ابن عبدالبر في كتاب «جامع العلم وفضله» مسندة إلى ابن عباس رضي الله عنهما أنه لما اجتمعت الحرورية يخرجون على علي - رضي الله عنه - سأله ابن عباس أن يأذن له في المجيء إليهم فأذن له فتكلم ابن عباس فتوسم عليهم ووصف ما رآه فيهم من التقشف والزهادة والعبادة، وأنه دعاهم للمناظرة فأبى بعضهم وأجاب بعضهم قال فكلمني منهم اثنان أو ثلاثة فقلت=

مستنده من النصوص، إما في العموم وإما في الخصوص مع اعترافهما بصحة كل من النصين في بابه.

اقرأ المناظرة المذكورة(٢١) لتعرف كيف تختلف القرائح والأفهام في الاهتداء إلى مظان الأحكام، أو في إلحاق المسائل المسكوت عنها بأي تلك المظان.

ومن أمثلة الاختلاف في النصين المتعارضين في الظاهر أيهما هو من القطعية والإحكام بحيث لا يهدر ولا يؤول، وأيهما هو من الظنية أو الإشكال بحيث يترك أو يؤول، مع الاتفاق على التأويل أو الإهدار لأحدهما في الجملة ـ أن المرجئ(٢٢) يجعل أصله في الإيمان قوله عليه الصلاة والسلام: «من قال لا إله إلا الله دخل الجنة وإن زنى وإن سرق»(٢٣) ويؤول الحديث الآخر: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»(٢٤) ولكن الخارجي يعكس المسألة.

وأن القدري يجعل(٢٥) الأصل في خلق الأعمال قوله تعالى:

﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾

(الروم: ٣٠)

وقوله عليه السلام: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»(٢٦) والمفوض(٢٧) يجعل الأصل هو قوله تعالى:

«ماذا نقمتم عليه؟ قالوا ثلاثا قلت ما هن؟ قالوا حكم الرجال في أمر الله وقد قال الله: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ «الأنعام ٥٧»، قال: قلت هذه واحدة وماذا أيضا قالوا قاتل فلم يسب ولم يغنم، فلئن كانوا مؤمنين ما حل قتالهم، ولئن كانوا كافرين لقد حل قتالهم وسبيهم قال قلت: وماذا أيضا؟ قالوا محا نفسه من إمرة المؤمنين فهو أمير الكافرين قال قلت أرأيتم إن أتيتكم من كتاب الله وسنة رسوله بما ينقض قولكم هذا أترجعون؟ قالوا وما لنا لا نرجع؟ قال قلت: أما قولكم حكم الرجال في أمر الله فإن الله تعالى قد قال في كتابه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ «المائدة: ٩٥»، وقال في المرأة وزوجها ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾ «النساء: ٣٥». فصير الله ذلك إلى حكم الرجال فناشدتكم الله أتعلمون حكم الرجال في بضع امرأة أو في دم أرنب ثمنه ربع درهم أفضل أو في دماء المسلمين وإصلاح ذات بينهم؟ قالوا بلى هذا أفضل قال أخرجتم من هذه؟ قالوا: نعم قال وأما قولكم «قاتل ولم يسب ولم يغنم» أتسبون أمكم عائشة؟ فإن قلتم نسبيها من غيرها فقد كفرتم، وإن قلتم ليست بأمنا، فقد كفرتم فأنتم ترددون بين ضلالتين أخرجتم من هذه؟ قالوا: نعم قال وأما قولكم محا نفسه من إمرة المؤمنين فإنما آتيكم بمن ترضون أن نبي الله ﷺ يوم الحديبية حين صالح أبا سفيان وسهيل بن عمرو وقال رسول الله ﷺ: اكتب يا علي: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ﷺ. «فقال أبو سفيان وسهيل بن عمرو: «ما نعلم أنك رسول الله، ولو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك». فقال رسول الله: «اللهم إنك تعلم أني رسولك اكتب يا علي: هذا ما صالح عليه محمد بن عبدالله وأبو سفيان وسهيل بن عمرو». قال: فرجع منهم ألفان». «د/دراز».

(٢٢) المرجئة: إحدى الفرق الإسلامية التي ظهرت في الدولة الإسلامية وسموا مرجئة لأنهم كانوا يقولون بتأخير العمل عن النية. وقيل: لأنهم كانوا يعطون الرجاء بقولهم: لا تضر مع الإيمان معصية ولا تنفع مع الكفر طاعة وقيل لأنهم كانوا يرجئون حكم صاحب الكبيرة إلى يوم القيامة الملل والنحل ج١ ص١٣٩.

(٢٣) رواه البخاري عن أبي ذر كتاب اللباس باب الثياب البيض ج١٩ ص٢٩٨. ورواه مسلم عن عثمان كتاب الإيمان بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون ج١ ص٤١.

(٢٤) رواه البخاري عن أبي هريرة كتاب الحدود باب الزنا وشرب الخمر ج١٥ ص٦١

(٢٥) القدرية: هم المعتزلة وهم فرق من المتكلمين يخالفون أهل السنة في بعض المعتقدات وعلى رأس هؤلاء واصل بن عطاء الذي اعتزل الحسن البصري ومن مبادئهم أن الفاسق لا مؤمن ولا كافر بل في منزلة بين المنزلتين انظر الملل والنحل ج١ ص٤٣ الفرق بين الفرق ص٢٦.

(٢٦) كل مولود.. الحديث أخرجه مسلم ك القدر باب/ معنى كل مولود يولد على الفطرة (٦٦٩٧)، رواه البخاري عن أبي هريرة كتاب الجنائز باب ما قيل في أولاد المشركين.

(٢٧) المفوضة «هم جمهور أهل السنة والجماعة وكلهم متفقون على مقالة واحدة على توحيد الصانع وصفاته وعدله وحكمته»

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾

(الشمس: ٧-٨)

وقوله عليه السلام: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له»(٢٨).

وأن الأشعري(٢٩) يجعل الأصل في رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة قوله تعالى:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾

(القيامة: ٢٢-٢٣)

والمعتزل يجعل الأصل فيها قوله تعالى:

﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾

(الأنعام: ١٠٣)

ومن أمثلة الاختلاف بالتأويل وعدمه في بعض نصوص المسألة مع الاتفاق على الأصل القطعي الذي لا تأويل له فيها أن الجمهور اتفقوا على أن المرجع في الصفات هو قوله تعالى:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾

(الشورى: ١١)

ثم اختلفوا في الصفات الموهمة للتشبيه كالفوقية والاستواء ونحوهما، فأجراها أحمد بن حنبل(٣٠) على ما جاءت عليه، إذ لم ير فيها الإيهام قويا أو رآها من المتشابه الحقيقي فتركها إلى عالمها وأمسك عن تأويل شيء منها، اللهم إلا في ثلاثة مواضع نقلها الغزالي في بعض كتبه(٣١) والأشاعرة رأوا أن التشبيه الذي فهمته الحنابلة في الصفات الثلاث جار في كافة الصفات الموهمة فأولوها كلها، ولكنهم وقفوا عند الظاهر في إثبات أصل الصفات المعنوية. أما المعتزلة فقد تأولوها كذلك، فرارًا من هذا التشبيه، وفرارًا من محظور آخر وهو كثرة القدماء.

يتبع

في أسمائه وصفاته وفي أبواب النبوة والإمامة وفي سائر أصول الدين وإنما يختلفون في الفروع وليس بينهم تضليل ولا تفسيق انظر الفرق بين الفرق ص٢٦ الملل والنحل ج١ ص٩٤/ الحلبي.

(٢٨) رواه البخاري عن علي: كتاب تفسير القرآن. باب قوله تعالى ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ «الليل ١٠»، جـ١٠ ص٣٣٨. ورواه البخاري عن عبدالله بن عمران كتاب التوحيد باب قول الله تعالى ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ «القمر: ١٧»، جـ ١٢ ص ٣٠٤.

ورواه مسلم عن عمران بن حصين كتاب القدر باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابه جـ٨ ص٤٨.

(٢٩) الأشعري: أبوالحسن الأشعري ولد سنة ستين ومائتين للهجرة وتوفي سنة ٣٢٤هـ وقيل غير ذلك. تعلم الكلام من زوج أمه واعتنق مبدأ الاعتزال وبلغ الغاية فيه ثم تاب وأظهر للناس فضائح المعتزلة ومن مؤلفاته «الإبانة عن أصول الديانة» انظر البداية والنهاية ١١/١٨٧.

(٣٠) أحمد بن حنبل: هو أبوعبدالله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني ولد ببغداد سنة ١٦٤هـ توفي أبوه وهو ابن ثلاث فكفلته أمه. طلب العلم على يد شيوخ عصره وارتحل في طلبه وامتحن في محنة خلق القرآن وثبت إلى أن توفي عام ٢٤١هـ وحضر جنازته ألوف مؤلفة. انظر سير النبلاء ١١/١٧٧ بعدها البداية والنهاية ١٠/٣٢٥ وما بعده تهذيب التهذيب ١/٦٢.

(٣١) قال الغزالي في كتابه «فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة»: سمعت الثقات من أئمة الحنابلة ببغداد يقولون إن أحمد بن حنبل رحمه الله صرح بتأويل ثلاثة أحاديث فقط: أحدهما قوله ﷺ: «الحجر الأسود يمين الله في الأرض»، والثاني قوله ﷺ: «قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن»، والثالث قوله ﷺ: «إني لأجد نفس الرحمن من قبل اليمين». فقال: اليمين تقبل في العادة تقربا إلى صاحبها، والحجر الأسود يقبل أيضا تقربا إلى الله تعالى فهو مثل اليمين لا في ذاته ولا في صفات ذاته ولكن في عارض من عوارضه فسمي بذلك يمينا. وهذا هو أبعد وجوه التأويل فانظر كيف اضطر إليه أبعد الناس عن التأويل (حيث قام البرهان عنده على استحالة ظاهره) وكذلك لما استحال عنده وجود الأصبعين لله حسا إذ من فتش في صدره لم يجد فيه أصبعين، تأوله على روح الأصبعين وهي الأصبع العقلية أعني أن روح الأصبع ما به يتيسر تقليب الأشياء، وقلب الإنسان بين لمة الملك ولمة الشيطان وبهما يقلب الله القلوب، فكنى بالأصبعين عنهما (د/دراز).

التراث والتجديد مناقشات وردود



لفضيلة الإمام الأكبر أ.د. أحمد الطيب
شيخ الأزهر

الأخيرة

تفريغ الإلحاد من معناه العقدي ونسبته إلى مقياس عملي

أو يُفسّر لنا الإلحاد: بأنه مفهومٌ ينتمي إلى مقياس عمليّ، وليس إلى مقياس نظريّ اعتقاديّ، وأنّ الإلحادَ - كما يعرفه الغربيون - يُؤدّى إلى الخير أكثر ممّا يُؤدّى إليه الإيمان، فقد استطاعَ الإلحادُ هناك أنْ يقضيَ على الأسطورة والغيب في الفكر الأوروبيّ، وهذا هو (الخيرُ) في مفهوم (التراث والتجديد) الذي يجبُ أنْ نسعى إليه من خلال التجديد، فلا بأسَ بالإلحاد إذا حقّق لنا مصالحَ الواقع من تحرير للأرض، أو تصنيع أو توفير للقمة العَيْش.

ومن مُجازفات الأستاذ، التي لا تُقبَلُ أبدًا، أنْ يُبرّر نظرته المقلوبة هذه: بأنّ (الإيمانَ في تراثنا ليست له أهميةُ العمل)، فهذا القولُ هو عكسُ ما في التراث تمامًا، إذ منَ البدهيّات المعروفة في تراثنا القديم: أنّ الإيمانَ أصلٌ وأساسٌ، وهذا ممّا لا خلافَ فيه بين المسلمين جميعًا. أمّا العملُ فقد وقعَ فيه خلافٌ معروفٌ في علاقته بأصل الإيمان.

ومهما يكنْ من أمر هذا الخلاف، فإنّ الذى لا خلاف حولَه هو أنّه لا قيمة للعمل إذا لم يَعتمدْ على الإيمان. فقد تكونُ له قيمتُه الكبرى على مستوى المصلحة الدنيويّة المادّيّة، ولكنْ من قال: إنّ المصلحة في نظر الإسلام هي المصلحةُ الدنيويةُ فقط.. حتّى يكتسبَ (الإلحادُ المُحقّق للمصالح) هذه القيمة التي يلصقُها الأستاذُ بالتراث؟

ولنستمعْ إليه في نصّ صريح يُؤكّدُ أنّ سيادته غريبٌ على مجال التراث وأصوله وقواعده، يقولُ فيه: (.. مع أنّ الإيمانَ والإلحادَ بمقاييس تراثنا القديم وحياتنا المُعاصرة مقياسٌ عمليٌّ لا نظريٌّ، ففي تراثنا القديم لا يَهُمّ الإيمانُ بقدر ما يَهُمّ العمل، وفي حياتنا المُعاصرة مَن يلتزمُ بقضايا العصر ومَنْ يُساهمُ في ثورات الشّعوب، ومَنْ يعمل على تحرير الأرض، وعلى إطعام الجَوْعى فهو المؤمنُ حقًا، وهو إيمانُ المُثقّفين الثوريّين منّا، الإيمانُ بالتقدّم ومصلحة الشّعوب؛ لذلك إنّ الإلحادَ الأوروبيّ هو الإيمانُ الحقّ، كما أدّى الإلحادُ في أوروبا إلى خيرٍ أكثر ممّا أدّاه الإيمانُ، فعن طريق الإلحاد تمّ رفضُ الجوانب الأسطورية والغيبيّة في الفكر الأوروبيّ، فأصبحت الحياةُ أفضلَ منَ الموت، والدنيا أفضلَ منَ الآخرة، وتمّت رعايةُ الإنسان أوّلاً قبلَ إقامة المراسيم لله، وفي حياتنا المعاصرة نرَى مَن نتّهمُهم بالكفر والإلحاد يُساعدوننا على تحرير الأرض، وعلى التصنيع، وعلى الاطمئنان على لُقمة العَيْش)(١).

وهذا كلامٌ مرفوضٌ جُملةً وتفصيلاً؛ فالمؤمنُ - في التراث - هو من يُؤمنُ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدَر، والتّجديدُ في هذا المفهوم تدميرٌ مهما كانت اللافتاتُ التى تُخترعُ له، أو يتمّ ذبحُه تحت ظلالها.

ومقاييسُ الإيمان في تراث الإسلام - وكما يعرفُ الأستاذُ - هي مقاييسُ حدّدها القرآنُ الكريمُ والسّنّةُ الثابتة وانتهى أمرُها، وهي - لحُسن الحظ - لا تخضعُ لمقاييس الثوريّين: مُثقّفين كانوا أو عُمّالاً، أو فلاحين أو شعبيّين، ومنْ حقّ الثوريّين أنْ يُؤمنوا بما شاءوا، ويكفروا بما يشاءون، ولكنْ من الحماقة والسّذاجة أنْ يَفرضوا على الجماهير إيمانًا لا تعرفُه هذه الجماهيرُ، بل تُنكرُه أشدّ الإنكار.

الطعن في الذات الإلهيّة بدعوى أنها غيرُ مُتصوّرة في المنطق، ولا يُمكنُ التعبيرُ عنها في اللغة:

وفي إطار المنهجيّة المغلوطة التي يستعملُها (التراثُ والتّجديدُ) في تقطيع أوصال التّراث تُطالعُنا نصوصُه أيضًا بمُتناقضات حادّة عن أقدس المُقدّسات في التّراث، وأعني به الألوهية حينَ يُعلنُ أنّ ذاتَ الله لا يُمكنُ تصوّرُها من ناحية، ولا يُمكنُ الحديثُ عنها من ناحية أخرى.

ومنذُ البداية ينبغي ألّا تخدعَنا لفظةُ (ذات) المضافة إلى الله في نصوص الأستاذ، فالنصوصُ كلُّها - نفيًا أو إثباتًا - مُنصبّةٌ على معرفة الله أو العلم بالله. أمّا لفظةُ الذّات فهي هنا مُختارةٌ - في عناية - كغطاء لتمرير ما يُرادُ تمريرُه للقارئ، وهذا الذي يُرادُ تمريرُه هو:

أولاً: أنّ ذاتَ الله تعالى لا يُمكنُ تصوّرُها ولا إدراكُها؛ لأنّه لا تُمكنُ الإشارةُ إليها، فالله مفهومٌ بلا (ما صَدَق) كما يُعبّرُ المؤلّفُ، وإذا كان الله - حسبما هو مُقرّرٌ في التّراث - ليس مُتعيّنًا في زمانٍ أو مكانٍ، فلا يُمكنُ - إذًا - أنْ يكونَ موضوعًا للعلم.

الأمرُ الثاني: الحديثُ عن ذات الله لُغويًا غيرُ مُمكنٍ؛ لأنّ اللّغةَ الإنسانيّةَ لا يُمكنُ أنْ تُعبّرَ إلّا عن التصوّرات أو الإدراكات أو المعاني الإنسانيّة.

وفيما يتعلّقُ بالأمر الأوّل: يتناسى الأستاذ - وربّما عن عَمد - ما يُقرّرُه علمُ المنطق من أنّ أفرادَ الكُلّيّ الذى هو موضوعُ العلم قد تكونُ ممتنعةَ الوجود في الخارج، ومع ذلك يتعلّقُ العلمُ بها ويَصحُّ الحُكمُ عليها؛ إذ لولا تصوّرُ الموضوع - ولو بوجه ما - لما أمكنَ الحُكمُ عليه لا سلبًا ولا إيجابًا، وإذا كان المنطقُ يُقرّرُ هذا بالنسبة للمعدوم، فكيف - باسم المنطق

١ - في فكرنا المعاصر، لحسن حنفي: ٣٠.

- يُنكِرُ الأستاذُ أن يكونَ (واجبُ الوجود) موضوعًا للعلم؟!

وليعلم الأستاذ - وهو يعلمُ بلا شك - أنّ مفهومَ واجبِ الوجود أو (الله) مفهومٌ كليٌّ، وله (ما صَدَق) خارجَ الذهن، والخارجُ في تراثنا - وكما هو معلومٌ لسيادته - أعمُّ من الخارج الماديّ (٢)، فالله تعالى موجودٌ وجودًا حقيقيًا، ولوجوده تحققٌ في نفس الأمر، وهذا الوجودُ موضوعٌ للعلم ما في ذلك ريبٌ، وهذا أصلٌ أوّلٌ يعتمدُ عليه التراثُ كلّه اعتمادًا كليًا، ونحن نتفقُ مع الأستاذ: أنّ الذاتَ المقدّسة ليست موضوعًا لأيّ نوع من أنواع الإدراك، لكنّ الأستاذ لا يتفقُ مع عامّة المسلمين قديمًا وحديثًا في أنّ الله تعالى بصفاته وأسمائه موضوعٌ للعلم وموضوعٌ للإيمان، وإلّا فليقلْ لنا الأستاذ: ماذا نصنعُ بالخطاب الإلهيّ في القرآن الكريم:

﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾

(محمد: ١٩)

وهل يطلبُ منّا القرآنُ الكريمُ العلمَ بألوهيته تعالى، ثم يُصادرُ علينا التراثُ والتجديدُ هذا العلمَ؟!

ثم يقولُ الأستاذ: (وإذا كان ذاتُ الله لا يُمكنُ تصوّرُه أو إدراكُه، فإنّه أيضًا لا يُمكنُ الإشارةُ إليه، حتى يُمكنَ أنْ يتمّ به تصديقٌ أو تحقّقٌ في العلم (٣)، وواضحٌ من هذه النصوص - ونصوص أخرى.. لا نُطوّلُ البحثَ بإيرادها - أنّ الأستاذ يَخلطُ - عامدًا أو غيرَ عامد - بينَ الذات وبينَ الأسماء والصفات، وبين الإدراك الحسّيّ والإدراك العقليّ (٤)، ثُمّ بينَ تصوُّر الموضوع في القضية المنطقيّة ووجوده الحسّيّ، وكلّ هذه تحديداتٌ لا سبيلَ إلى التداخل بينها في تراثنا العقليّ بحال؛ ممّا يدلُّ على غُربة الأستاذ الواضحة في ميدان التُّراث.

ولنستمعْ إلى الأستاذ في تناقضٍ جديد يُعلنُ فيه استحالةَ الحديث عن الله تعالى، فيقولُ: (وإذا كان ذاتُ الله لا يُمكنُ تصوُّرُه أو إدراكُه أو الإشارةُ إليه؛ فإنّه لا يُمكنُ أيضًا التعبيرُ عنه (...) كيف يتمُّ للإنسان التعبيرُ عن شيءٍ لا يَقدرُ على التعامل معه أو ضبطه، ولا يُمكنُ العثورُ له على صياغة؟ الحديثُ عن ذات الله إذًا خطأٌ في تصور وظيفة اللُّغة(٥).

وتعقيبُنا على هذه الدَّعْوى لا يتعدّى مطالبةَ الأستاذ بتطبيق قاعدته هذه على نفسه؛ فإذا كان الحديثُ عن الله - في ضوء هذه القاعدة - خطأً من ناحية التصوُّر اللُّغويّ، فإنّ حديثَ سيادته عن الله، وتأليفَه مجلدًا كبيرًا يقعُ في ٦٧٠ صفحةً بعنوان: (التوحيدُ كلّه خطأٌ في خطأ) بنفس المقاييس التي وضعها سابقًا، ونُطالبُه بطرْدِ قاعدته هذه في كلّ ما عرضه علينا من أحكامٍ وأقاويلَ عن الله.

على أنّنا نتساءلُ: كيف صحّ في ذهن الأستاذ الحكيم بخطأ الحديث عن الله، واتّسق اتّساقًا منطقيًا، واستمتعَ بنوعٍ من الصّدق في خياله - لو لم تفترضْ مُسبقًا إمكانيّةَ جعْل الله موضوعًا للعلم؟ لكنّ أستاذنا لا يرى بأسًا من أنْ يَقبلَ موضوعيةَ العلم لله إذا ترتّبَ على ذلك نفيٌ للموضوع، وأنْ يرفضَ ذاتَ ما قَبِلَه إذا ترتّبَ عليه إثباتُ الموضوع، ويبدو أنّ الأستاذ أحسّ باعتراضٍ من هذا النّوع يطرحُ نفسَه بنفسه، وبدلًا من أن يُراجعَ أحكامَه في ضوء الاعتراض، دفعَ بالقضيّة كلّها في متاهةٍ جديدة، انتهى فيها إلى أنّ الصّمتَ هو اللُّغةُ القادرةُ على التعبير عن الله: (وقد تكونُ لغةُ الصّمت - وهي أقدرُ لغةٍ على التعبير عن ذات الله - هروبًا من قضيّة اللُّغة (٦)، غيرَ أنّ أستاذنا لم يصمتْ، وإنّما عبّر بألفاظ اللُّغة عن كلّ ما يريدُ أنْ يقولَه عن الله إيجابًا وسلبًا، وليتَه صمتَ!

ويبدو - أيضًا - أنّ هذه الفلسفةَ الجديدةَ في الإيمان بالله كانت وراءَ التصوُّر الخاصّ لمشروع (التُّراث والتّجديد) عن الله، فقد اتّسعَ هذا التصوُّرُ حتى صار (لا - تصوُّر) على الإطلاق، وأصبح معنى الألوهيّة إطارًا خاويَ المضمون، يُملأُ ويُفرَّغُ حسبَ أولويّات الواقع، وهكذا يُمكنُ أنْ يُعبّرَ لفظُ الله عن توترٍ أو قلقٍ، أو صرخةٍ وجوديّة، أو حالةٍ شعوريّة، أو أُمنيّةٍ عزّ علينا تحقيقُها، أو رغيفِ خبزٍ في نظر الجائع، أو الحُبِّ في وجدان محرومٍ من العواطف، أو أيّ شيءٍ آخرَ ما عدا مفهومَه الحقيقيّ الذي هو الله تعالى بالمعنى الذي جاءتنا به الأديانُ السماويّة.

وهذا ما نقرؤُه في النصّ التالي من التُّراث والتّجديد: (إنّ لفظَ الله يُعبّر عن القضاء أو مَطلب.. أي: إنّه صرخةٌ وجوديّةٌ أكثرُ منه معنًى يُمكنُ التعبيرُ عنه بلفظ من اللُّغة بتصور من العقل، وكلّ ما تصبو إليه ولا تستطيعُ تحقيقَه، فهو أيضًا في الشعور الجماهيريّ هو الله؛ فالله عند الجائع هو الرغيفُ، وعند المُستعبَد هو الحريّةُ، وعند المظلوم هو العدلُ، وعند المحروم عاطفيًا هو الحُبّ، وعند المكبوت هو الإشباعُ، والله في مُجتمعٍ يخرُجُ من الخرافة هو العلمُ، وفي مجتمعٍ آخرَ يخرُجُ من التخلّف هو التقدّمُ، وإذا كان الله هو ما يُقيمُ أَوَدَنا وأساسَ وجودنا، ويحفظُنا - فهو الخبزُ والرّزقُ والقُوتُ والإرادةُ والحريّة.. وهو القُوّةُ والعَتادُ والعُدّةُ والاستعدادُ) (٧).

وواضحٌ أنّنا نُواجهُ في هذا النصّ صورةً من الخيال الشعريّ المريض لا تنتسبُ إلى حقائق العلم، ولا تمُتُّ إليه بوشيجةٍ أو صلةٍ، ومثلُ هذه الخيالات الواقعة خارجَ حدود العلم لا تُمكنُ مناقشتُها على أساسٍ من البُرهان والحُجّة، وإنّما تظلّ تعبيرًا أو انعكاسًا لانفعالاتٍ وتهويماتٍ وأوهامٍ خاصّةٍ بالقائل.

أمّا خطأُ الحديث عن ذات الله لغويًا، فسببُه في فلسفة هذا التجديد: أنّ لفظَ الله لفظٌ مُتضاربٌ في معناه، وله دلالاتٌ عدّةٌ، فهو الشارعُ في أصول الفقه، والحكيمُ في أصول الدّين، والموجودُ الأوّلُ في الفلسفة، والواحدُ في التصوّف، ثم يخطو بنا التُّراثُ والتّجديدُ خُطوةً مُتقدّمةً يُفصحُ فيها عن الهدف المقصود، فيقولُ: (بل إنّ لفظَ الله يحتوي

٢ - الإشارات والتنبيهات لابن سينا بشرح الطوسي: ١/ ١٤٩ تحقيق: شيخنا سليمان دنيا.

٣ - من العقيدة إلى الثورة، المقدمات النظرية، لحسن حنفي: ٨٨، ونلفت نظر القارئ إلى ما يُشبه لُعبة (الحُوَاة المَهَرة) في صياغة هذا النصّ: فالأستاذ يتحدّثُ عن الذات، ولكنّ حديثه وأحكامَه في النصّ جاءتْ بضمائر المذكّر مما يحقّقُ هدفًا مُبيّتًا وراء السطور، ثم يُبيّنُ في الهامش أنّ كلمة (ذات) تُذكّر وتؤنّث مثل كلمة (روح)، وهكذا يضعُ كلمة (ذات) ليمرّرَ على القارئ نفْيَ العلم بالله تعالى ثم يستعمل الضمائر المذكّرة بدل المؤنّثة: ليتمّ التعبيرُ عن القضية المرادة من النصّ.

٤ - الإشارات والتنبيهات لابن سينا بشرح الطوسي: ٣/ ٢

٥ - من العقيدة إلى الثورة لحسن حنفي: ٨٧.

٦ - م. ن: ٨٧، وانظر أيضًا: التراث والتجديد، لحسن حنفي: ١٢٧ وما بعدها.

٧ - م. ن: ١٣٠.

على تناقضٍ في اســتعماله باعتباره مــادَّةً لغويةً لتحديد المعاني أو التعبيرات، وباعتباره معنًى مُطلقًا يُرادُ التعبيرُ عنه بلفظٍ محدودٍ)(٨).

وبؤرةُ الإحراجِ التي يهـدفُ إليها هذا النصُّ تتَّضحُ من التقابُلِ بيـنَ المحـدودِ والمُطلَقِ، فاللغةُ بما أنَّهـا ألفاظٌ: مادَّةٌ، فدلالتُها محدودةٌ ونسبيَّةٌ ضرورةَ محدوديَّةِ اللَّفظِ ذاته ونسـبيَّتـه، وبهذا الاعتبار يُصبـحُ لفظُ (الله) لفظًا محدودَ الدَّلالة، لكنَّه – باعتبارٍ آخرَ – يدلُّ على مفهومٍ مُطلقٍ وهو مفهومُ الله.

وبعبـارةٍ أخـرى: لفـظُ (الله) دالٌّ محـدودُ الدَّلالة؛ لأنَّـه لفظٌ لغويٌّ، بينمـا مدلولُه مُطلقٌ من جميع الوجوه، فكيف تُمكنُ الدَّلالةُ إذًا؟

ولا ينتبهُ الأستاذُ إلى أنَّ تحليلَه هذا يتضمَّنُ الـردَّ على نفس الدَّعـوَى، وأنَّه يقعُ في نفس ما حذَّر منه؛ لأنَّه يَسـتعملُ – في استدلاله – لفظَ المُطلَق، والمُطلَقُ – من حيثُ كونُه دالًّا – لفظٌ محـدودٌ ونسـبيٌّ، ومن حيـثُ معنـاه المدلولُ عليه باللفظ مُطلقٌ وغيرُ محدودٍ، فكيف أمكنَ للأستاذِ أنْ يُفهِمَنا: أنَّ اللفـظَ الدالَّ المحدودَ دلَّ على مفهومٍ لامحدودٍ؟!

وسـببُ الإشـكالِ الذي يُثيرُه الأسـتاذُ: نابعٌ من تقيُّدِه بمبدأ (أسـبقيةِ الواقعِ على الفكرِ)، ثـمَّ محاكمةِ المصطلحـاتِ الميتافيزيقيةِ بهذا

المبـدأِ اللاميتافيزيقيِّ، ففي إطـارِ هذه النظريَّةِ تصبـحُ الأشـياءُ هي المُنشِـئةَ للألفـاظِ، وترتُّبًا على ذلـك تكـونُ اللُّغةُ أساسًـا للفكـرِ وليس العكـسُ(٩)، ولا يتَّسـعُ المَقـامُ هنا لمناقشـةِ هـذا المبدأِ الذي يقفُ وراءَ كلِّ تناقضٍ وقعَ فيه مَشـروعُ التُّراثِ والتَّجديد وهو بصددِ الحديثِ عـن تراثنا القديـم، ولا لإيرادِ الردودِ الواسـعةِ المُسـتفيضةِ التـي تُثبتُ خطـأَ هـذه النظريَّة، وتبنِّي الاتجاهِ المُعاكِسِ، وهو أنَّ الإنسـانَ لمَّا كانَ مُفكرًا، ولمَّا كانَ مُحتاجًا إلى ترجمةِ أفكارِه ونقلِها للغير.. ظهرَتِ اللُّغةُ بوصفها تعبيرًا أو إعلانًـا عمَّا يـدورُ في ذهنه، وأنَّ هذا يُفسِّـرُ لنا ظهورَ اللُّغةِ متمثِّلةً في ألفاظٍ ومعانٍ ميَّزَتْ حياةَ الإنسـانِ دونَ غيـرِه من أنـواعِ الحيواناتِ، بل لماذا وُجِدَ المجتمعُ الإنسانيُّ على هذه الصورةِ منَ التعقيدِ، ولم يُوجَـدْ مُجتمعٌ مُماثلٌ من بينِ الكائناتِ الحيَّةِ الأخرى(١٠)، ولكن نُذكِّرُ بأنَّ مبدأَ أسـبقيَّةِ الفكـرِ على اللُّغةِ وعلـى الألفاظِ هو مُنطلَقٌ أساسـيٌّ فـي تراثنا؛ وصحيحٌ أنَّ ثمَّةَ تصـوراتٍ ونظريـاتٍ عـدَّةً طُرِحتْ فـي كيفيَّةِ الربـطِ الأولِ بيـنَ الألفـاظِ ودلالتِهـا، غيرَ أنَّ أسـبقيَّةَ الواقعِ على الفكرِ، وربطَ الفكرِ باللُّغةِ – وجـودًا وعدمًـا – أمرٌ غيـرُ واردٍ فـي التُّراثِ الإسـلاميِّ، ولا يُعـرَفُ فـي هـذا التُّـراثِ على

٨ – و ن: ١٢٩.

٩ – يتبنَّـى (الـتراث والتجديد) هذه النظرية، ويعتمدُ عليها فـي تفسيره لنشأة العلوم في التراث القـديم، حيث يرى: أنَّ اللغة تلعب دورًا كبيرًا في نشأة العلم وفـي بنائه، بل إن مصطلحات العلوم هي التي تحدِّد بناءهـا، فألفاظ التواتر والآحاد، والعام والخاص، والأمر والنهي، والحلال والحرام، هي التي حددت نشأة علم أصول الفقه، وكذلك ألفاظ الممكن والواجب والمستحيل أو الذات والصفات والأفعال، كلها ألفاظ مستعارة من اللغة تعبِّر عن مضمون آخر وبناء نظري آخر لعلم أصول الدين (راجع: التراث والتجديـد ١٢٨)، ولا نتفـقُ مع الأستاذ في استنتاجه هذا، فليس مجرد وجود المصطلحات العلمية بوصفها ألفاظًا في اللغة قبل ظهورهـا في العلـوم شيئًا في أن هذه الألفاظ تُنشئ العلوم؛ ذلك لأن هذه الألفاظ لم تكـن في اللغة بدلالتها الاصطلاحية، وإنما اكتسبـت هـذه الدلالات بعد نقلها إلى العلـوم، وإلا فلماذا صارت طائفة معينة من ألفاظ اللغـة اصطلاحات في علوم دون بقية الألفاظ الأخرى!!

١٠ – راجع النقد القيم الذي كتبه الأستاذ محمد باقر الصدر ردًّا على هذه الفكرة في كتابه اقتصادنا: ٢٧ وما بعدها.

طُولِـه وعَرضِه رأيٌ أو اتجاهٌ يَقصُرُ دَلالاتِ اللُّغةِ وتعبيراتِهـا علـى الموضوعـاتِ أو التصوُّراتِ المحسوسـةِ لدى الإنسـانِ، فاللُّغةُ أداةٌ للتعبيرِ عن موضوعاتٍ حسيَّةٍ، وعن موضوعاتٍ أُخرى تستقلُّ استقلالًا تامًّا عن واقعِنا المحسوسِ.

ولنسـتمعْ إلى الفخـرِ الرازيِّ وهـو يُبيِّنُ لنا لماذا كانت دَلالاتُ الألفـاظِ هي أعمَّ الدَّلالاتِ فـي نـصٍّ مُختصـرٍ، يقـولُ فيـه: (وأمَّـا أنَّهـا أعمُّها: فليس يُمكنُ أنْ يكونَ لكلِّ شـيءٍ نقشٌ كـذاتِ الله – تعالى – وكالعلومِ، أو إليه إشـارةٌ كالغائباتِ، ويُمكنُ أنْ يكونَ لكلِّ شـيءٍ لفظٌ، فلمَّـا كانت الألفاظُ أيسـرَ وأفيدَ وأعمَّ، صارت موضوعةً بإزاءِ المعاني)(١١).

ويدعو (التُّراثُ والتَّجديدُ) إلى تجاوُزِ لغتنا القديمـةِ ومصطلحاتِها، وإحـلالِ مصطلحاتٍ أكثرَ ارتباطًا بالواقعِ محلَّها، فلم تَعُدْ مصطلحاتُ الواجبِ والحـلالِ والحرامِ، والصـلاةِ والزكاةِ والصِّـيامِ تؤثِّرُ فـي مفكري اليومِ أو تَسـتلفتُ أنظارَهـم، وعلينـا أنْ نتخلَّى عن أشـكالِ هذه المصطلحاتِ، ونعيدَ بناءَهـا في ألفاظٍ جديدةٍ تُغري الشـبابَ وتُغري الطُّـلَّابَ، مثل: الحريَّةِ والعدلِ والمسـاواةِ، وكأنَّ هـذه المصطلحاتِ قد اخترعَها الأستاذُ أو المفكرونَ المعاصرونَ، وكأنَّ تراثَنـا يخلو من مضامينِ ومحتوياتِ هذه الألفاظِ.

ويُقدِّمُ الأسـتاذُ نموذجًا لتطويرِ مصطلحاتِنا القديمـةِ فـي قولـه: (وما أسـهلَ التعبيـرَ عن المضمونِ القديمِ بلفظٍ جديدٍ، فالصلاةُ تكشفُ عن الفعلِ في الزَّمانِ، عن الفتورِ والتراخي، وعن الحالِ والقضاءِ، والزكاةُ مُشـاركةٌ في الأموالِ، والصيامُ إحسـاسٌ بالآخـرِ، والواجبُ هو الفعلُ الملتـزَمُ، والحـرامُ هـو الفعلُ الـذي ينتجُ عنه ضررٌ وسلبٌ وعدمٌ وفناءٌ...)(١٢).

تعقيب

وإذا كنَّا توقَّفنا عند كثيرٍ من نصوصِ التُّراثِ والتَّجديدِ، فإنَّنا نُجملُ وجهةَ نظرِنا فيما يلي:

أولًا: ثمَّـةَ فرقٌ بيـنَ التَّجديدِ وبينَ التغييرِ؛ الأوَّلُ: حفـاظٌ علـى الأصـولِ وإضافـةٌ إليهـا، ونفضٌ لما يتراكـمُ عليها من غُبارٍ يحجُبُها عن الأنظـارِ، والثاني: هـدمٌ وبدءٌ جديـدٌ من فراغٍ يتـمُّ تحتَ أيِّ مسـمًّى.. إلَّا مُسـمَّى التجديدِ، اللَّهمَّ إلَّا إذا كانَ القصدُ تغييبَ الوَعْي أو خداعَ الجماهيرِ.

ثانيًـا: إنَّ التُّـراثَ والتَّجديـدَ ينتهي بنا في التحليلِ الأخيرِ إلى المتاهاتِ الآتيةِ:

الأولـى: اعتبارُ الإسـلامِ (مُعطًـى تاريخيًّا، وواقعـةً حضاريَّةً حدثَتْ في التاريـخِ يهمُّنا منه ما نشـأَ بوصفـه حضـارةً، وليس مصـدرُه: من أيـنَ أتـى؟ تهمُّنا حضارتُه بعدَ حدوثِه بالفعلِ، وتجديدُ التُّراثِ ليس هو البحثَ عن النشـأةِ بل عن التَّطورِ).

الثانيـة: البدايةُ العلميَّـةُ للتغييرِ تعني البدءَ بالواقـعِ واعتبارَه المصـدرَ الأوَّلَ والأخيرَ لكلِّ فكرةٍ.

الثالثـةُ: تحريمُ عمليةِ التغييـرِ على الطبقةِ البورجوازيةِ أو مَن ينتمي إليها، وإسنادُ المَهمَّةِ بكاملِها إلى الطليعةِ المُنتسِـبةِ نفسيًّا ونضاليًّا إلى الطبقةِ العاملةِ.

ومـن حقِّنا أنْ نقرِّرَ: أنَّ (التُّراثَ والتَّجديدَ)

١١ – المزهر، للسيوطي ٣٨/١.

١٢ – الفلسفة في الوطن العربي، لحسن حنفي: ٢٦، ٢٧.

- في هذا الإطار - نظرةً خاصةً وشخصيةً إلى أبعد حدٍ ممكنٍ، وأنه لا يُعبّرُ عن آلام وآمال الجماهير، بل جاء تعبيرًا عن آمال فئة محدودة العدد جدًا، وإلى الحدِّ الذى يُسقطُها من حساب النسبة والتناسُب، ومن حقنا أيضًا أن نقول: إنّ تجديدَ التُراث الإسلاميّ لا يُحسنُه إلا عالمٌ ثابتُ القدمَيْن فى دراسة المنقول والمعقول، فاهمٌ لطبيعة التُراث المُعقَّد، مُدركٌ لطبيعة المناهج وأدوات التحليل الفكريّ المُستخدَمة فى البحث والتقصّي، وهل تتلاءمُ مع طبيعة تراثٍ يعتمدُ على أصولٍ ثابتة مُوجّهة للواقع وحاكمة عليه، أو تتنافرُ معه منذ الخطوة الأولى من البحث.

والذى لا شكَّ فيه أنّ (التُراث والتّجديد) - بل أكثرَ مشاريع التجديد - خلا من هذه الشروط الضروريّة، ونظرَ إلى تراثنا فى أصوله الثابتة من منظار منهج تطوريّ أولى مُسلّماته: أنْ لا ثابتَ ولا مُقدّسَ؛ فلا شكَّ أنْ تجيءَ النتائجُ كلُّها مضطربةً مُتناقضةً، الأمرُ الذى يجعلنا نتساءلُ عن أهداف مثل هذه الدراسات، وهل هى - حقيقةً - تجديدٌ لتراث الأُمّة الإسلاميّة، وبحثٌ عن هُويّتها، وتأكيدٌ لذاتيّتها، أو هو استئصالٌ لما تبقّى من عناصر قُوّتها وحيويّتها، تأكيدًا لاستمرار التبعيّة واستلاب الذات.

كما نُسجّلُ أيضًا: أنّ مشروعَ (التُراث والتّجديد) قد أهدرَ كثيرًا من دلالات النصوص اللغويّة والتاريخيّة لحساب رؤية خاصّة لم تَحُلّ الإشكالَ، بل زادته اضطرابًا وغموضًا.

ثالثًا: لا نُنكرُ أنّنا فى حاجة إلى التّجديد، بل مُشكلتُنا الأمّ: هى غَيبةُ التّجديد، لكنْ شريطةَ الوضوح والفصل بين مجال الثوابت ومجال المُتغيّرات، والتّفرقة الحاسمة بين أصول الدّين وتراث أصول الدّين.

ومن المؤسف - حقًا - أنْ نُقرّرَ أنّ ارتباطَ جماهيرنا بالتُراث قاصرٌ علي مجال العبادات، بينما يختفى هذا الارتباط - أو يكادُ - في مجال العمليات والاجتماعيات، وأنّه لا يزال أمام دُعاة المسلمين من أُولى الفَهم والوَعْي الكثيرُ ممّا هو مطلوبٌ لربط المسلم بتُراثه فى هذا المجال.

رابعًا: لا أرى أنّ التُراثَ هو المُحرّكُ لتصرفاتنا، والمسئولُ الأوّلُ والأخيرُ عن أزماتنا المعاصرة، بل أستطيعُ أنْ أنطلق من نقيض هذه الدعوَى - وأزعمُ أنّنا لا نستلهمُ تراثَنا الإسلاميّ فى كثير مما نفعلُ أو نتركُ.. وإلّا فأين فى أُمّتنا العربيّة - والتى يُعلّقون تخلّفها على مشجب التُراث - أين فيها هذا المجتمعُ الذى تنضبطُ قواعدُ حياته على أصول الحلال والحرام فى التُراث؟

ولنضربْ لذلك - مثلًا - موقفَ مجتمعاتنا الإسلامية من المرأة.. إنّ بعضَ هذه المجتمعات ينظُرُ إليها فى إطار العورة، ويُصادرُ فى هذا الإطار كثيرًا من حقوقها التى يُقرّرُها الإسلامُ والإنسانيّةُ في وضوحٍ لا لبسَ فيه، هل هذا الموقفُ مقولةٌ تراثيّةٌ إسلاميّةٌ، أو هو مرضٌ مُزمنٌ ورِثْناه من عصرِ ما قبلَ الإسلام؟

نموذجٌ آخر

والبعضُ الآخرُ من مجتمعاتنا ينظرُ إليها في إطارٍ غربيٍ تختلطُ فيه الإيجابياتُ والسلبياتُ معًا، فهل هذه نظرةٌ تراثيّةٌ إسلاميةٌ، أو هو انسحاقٌ فى تراثٍ آخرَ غيرِ تراث الإسلام؟ إنّ هذا أو ذاك تقليدٌ وافدٌ علي تراثنا من خلفٍ ومن أمامٍ، ولا يستطيعُ مُنصفٌ أنْ يُلحقَ أيًا منهما بتراث الإسلام، ونحن لا نُنكرُ أنّ فى تراثنا أقوالًا منغلقةً وفهومًا قَبَليّةً قدّمت لنا أحكامًا خاليةً من رُوح النّصّ ومقاصده، بل ومُتعارضةً مع رُوح النّصّ ومقاصده، ولكنْ - وبكلّ التأكيد - ليس هذا هو التوجه السائدَ أو التوجه الأغلبَ فى هذا التُراث المظلوم.

وإذًا.. فقدرٌ كبيرٌ جدًا من أنماط سلوكنا لا يعكسُ تراثَنا الإسلاميّ بقدرِ ما يعكسُ إمّا تأثيرات مُزمنةً من مجتمعات قَبَليّة سابقة على ظهور الإسلام، أو تأثُّرات مُستجلَبة من بيئات غربيّة، أو من خليطٍ غيرِ مُتجانسٍ ولا مُتوازنٍ بين هذَيْن المصدَرَيْن المتضادَّيْن.

فليس صحيحًا ما يُؤكّده (التُراث والتّجديد) من أنّ سببَ خلط الأوراق فى أذهاننا هو أنّنا نعتملُ بالكِنْديّ، ونتنفّسُ بالفارابيّ، ونرى ابن سينا فى كلّ الطُرقات، بل المشكلة - فيما أرى - أنّنا نعيشُ عصرَنا وإحدى قدَمَيْنا فى ميدان (داحس والغبراء) والأُخرى فى (البيكادلي والشانزليزيه) - Piccadilly & Champs-Elysees)، وغيابُ التُراث الحقيقيّ كان دائمًا مصدرَ الخلَل، وسيظلُّ مقولاتُه الثابتةُ هى الحلقةَ المفقودةَ لاستعادة توازن المسلمين فى عصرهم الحاضر

ثَبَتُ المصادر والمراجع

- الإتقان فى علوم القرآن، لجلال الدين السيوطى (ت. ٩١١هـ) تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم (ت. ١٤٠١هـ)، طبعة الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة: ١٩٧٤م.
- أسباب نزول القرآن، لأبى الحسن على بن أحمد الواحدى (ت. ٤٦٨هـ)، تحقيق سيد أحمد صقر، دار الكتاب الجديد، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.
- أسباب النزول، لجلال الدين السيوطي، باعتناء: قرني أبوعميرة، المكتبة التوفيقية للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة: ١٩٨٣م.
- الإشارات والتنبيهات بشرح الطوسي، لأبي على بن سينا (ت. ٤٢٧هـ) تحقيق: سليمان دنيا (ت. ١٤٠٧هـ)، دار المعارف، مصر: ١٩٧١م.
- اقتصادنا، لمحمد باقر الصدر (ت. ١٣٩٩هـ) الطبعة: ١٦، بيروت: ١٩٨٢م.
- بنية العقل العربي: دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة فى الثقافة العربية، لمحمد عابد الجابرى (ت. ١٤٣١هـ)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت: ١٩٨٦م.
- بحوث ومناقشات الندوة الفكرية (التراث وتحديات العصر فى الوطن العربي) مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت: ١٩٨٥م.
- البرهان فى علوم القرآن، لبدر الدين محمد بن عبدالله الزركشى (ت. ٧٩٤هـ) تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم (ت. ١٤٠١هـ)، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابى الحلبى وشركاؤه، القاهرة: ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م.
- التحرير والتنوير، لمحمد الطاهر بن عاشور (ت. ١٣٩٣هـ)، الدار التونسية للنشر، تونس: ١٩٨٤م.
- التراث والتجديد، لحسن حنفي، تونس: بدون تاريخ، كما رجعت إلى طبعة دار الكتاب الجامعى بالقاهرة.

- التـراث وتحديـات العصـر فى الوطـن العربي، لحسـن حنفي، بحـث لمجموعة مؤلفيـن ضمن بحوث ومناقشات الندوة الفكرية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت: ١٩٨٥م.
- تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا (ت. ١٣٥٤هـ)، دار المعرفة، بيروت: د.ت.
- تقرير عن رحلة بعثة الأزهر إلى إندونيسيا من ١٧ يناير إلى ١٧ فبراير سنة ١٩٦١م (سِرِّى جدًا) نسخة خاصة مكتوبة بالآلة الكاتبة محفوظة عند الأستاذ مهدى شلتوت.
- الحقيقة والوهم فى الحركة العربية المعاصرة، لفؤاد زكريا (ت. ١٤٣١هـ) دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة: ١٩٨٦م.
- الدين والثقافة الوطنية، لحسن حنفي، مكتبة مدبولي، القاهرة: ١٩٨٨م.
- رُوحُ الحَداثَة المَدْخَلُ إلى تأسيس الحَداثَة الإسلاميَّة، لطه عبدالرحمن، المركز الثقافيّ العربيّ، المغرب: ٢٠٠٦م.
- الصحوة الإسلامية فى ميزان العقل، لفؤاد زكريا (ت. ١٤٣١هـ) دار الفكر المعاصر، القاهرة: ١٩٨٧م.
- صحيفة الحياة اللندنية، بتاريخ: ٦/١/١٩٩٣م، ١٠/٣/١٩٩٣م.
- الفلسـفة فى الوطن العربى المعاصر (بحوث المؤتمر الفلسـفى العربى الأول) مركز دراسـات الوحدة العربية، بيروت: ١٩٨٧م.
- فى فكرنا المعاصر، لحسن حنفي، طبعة بمصر بدون بيانات المطبعة أو تاريخها.
- فى اليسار الإسلامي، لحسن حنفي، طبعة تونس، يناير ١٩٨١م.
- المثقفـون العـرب والتراث: التحليل النفسـى لعصاب جماعـي، لجورج طرابيشـي، دار رياض الريس، لندن: ١٩٩١م.
- مجمـوع الفتـاوي، لتقي الدين أحمد بـن تيمية الحرانـى (ت. ٧٢٨هـ) طبعة: دار الوفـاء، المنصورة، الطبعة: ٣، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- مداخلات، لعلى حرب، دار الحداثة، بيروت: ١٩٨٥م.
- المزهر فى علوم اللغة وأنواعها، لجلال الدين السيوطى (ت. ٩١١هـ) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (ت. ١٤٠١هـ)، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابى الحلبي، القاهرة: ١٣٧٨هـ.
- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، لأبى الحسن على بن إسماعيل الأشعرى (ت. ٣٢٤هـ) تحقيق: هلموت ريتر، دار فرانز شتاير، فيسبادن، ألمانيا.
- المسـتصفى فى علـم الأصول، لأبى حامد الغزالى (ت. ٥٠٥هـ)، تحقيـق: حمزة زهير حافظ، المدينة المنورة. د. ت.
- من العقيدة إلى الثورة: المقدمات النظرية، لحسن حنفي، مكتبة مدبولي، القاهرة: ١٩٨٨م.
- موقفنا الحضاري، لحسـن حنفي، بحث نشـر ضمن أعمال ندوة الفلسـفة فى الوطـن العربى المعاصر، بحوث المؤتمر الفلسفى العربى الأول - مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت: ١٩٨٧م.
- نحن والتراث: قراءات معاصرة فى تراثنا الفلسـفي، لمحمد عابد الجابرى (ت. ١٤٣١هـ) دار الطليعة، بيروت: ١٩٨٠م.

معنى النسخ عند الأستاذ عبد الكريم الخطيب

(١٣٢٨-١٤٠٦هـ/ ١٩١٠-١٩٨٥م)

(٢)

﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾

(البقرة: ١٠٦)

وتعود إلى الآيـة الكريمة، التى فتحت على المسلمين بابًا فسيحًا للتأويل، ثم الخلاف فى هذا التأويل، ثم الانتقال به إلى دائرة فسيحة فى القرآن ذاته؛ حيث يقال عن آيات كثيرة إنها منسوخة حكمًا، وإن بقيت تلاوتها.

وإذ ننظر فى وجه الآية الكريمة ننظر أولاً: هل إذا جاء شـرط فى القرآن الكريم .. أيجب أن يقع هذا الشرط. وأن يتحقق تبعًا لذلك جوابه؟

والجـواب علـى هـذا: أن ليـس مـن الحتم اللازم أنه إذا ورد فى القرآن أسـلوب شـرطى أن يقع هذا الشـرط، وإنما الحتم اللازم هو، أنه إذا وقع الشـرط فلابد من أن يقع ويتحقق الجواب المعلق على وقوع هذا الشرط.

فمـا أكثـر مـا وردت أسـاليب شـرطية فى القـرآن غير مراد وقوعهـا، وتحقيق جوابها .. ومن ذلك قوله تعالى، لنبيه الكريم:

﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾

(الأنعام: ١١٦)

وقوله تعالى عن نبيه الكريم أيضًا:

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴾

(الحاقة: ٤٤-٤٦)

وقوله تعالى خطابًا له:

﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾

(الزمر: ٦٥)

فلم يقع شـرط أى آية من هـذه الآيات، ولم يقع جوابها كذلك.

وعلى هذا، يجوز فى الآية الكريمة:

﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾

(البقرة: ١٠٦)

يجوز ألا يقع شـرطها وجوابها، وتكون من قبيـل القضايـا الفرضية، التى يـراد بها العبرة والعظة!.

والـذى نأخذه من هذا، هو أن النسـخ الذى أشـارت إليه الآية الكريمة، ليس لازمًا أن يقع، وإنما وقوعه أمر احتمالي، يشـهد له الواقع، أو لا يشهد، فإن شهد له اعتبر، وإلا فلا.

وإذن فلا نستصحب هذا الحكم، ونحن ننظر فى الآيات التى يقال إنها ناسخة أو منسوخة ..

معنى النسخ عند الأستاذ عبد الكريم الخطيب

بل ننظر في تلك الآيات نظرًا منقطعًا عن كل تأثير لهذا المفهوم الذى فهمت الآية الكريمة عليه.

وأمر آخر: وهو معنى «آية» الواردة في قوله تعالى:

﴿ ما ننسخ من آية ﴾.

(البقرة: ١٠٦)

هل من الحتم اللازم أن تكون تلك الآية آية قرآنية في جميع الأحوال؟ لقد ورد في القرآن الكريم للآية أكثر من معنى، فناقة صالح آية:

﴿ هذه ناقة الله لكم آية ﴾

(هود: ٦٤)

وعيسى ابن مريم وأمه آية:

﴿ وجعلنا ابن مريم وأمه آية ﴾

(المؤمنون: ٥٠)

وحبس لسان زكريا عن الكلام ثلاثة أيام آية:

﴿ قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا ﴾

(آل عمران: ٤١)

والذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها آية:

﴿ فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس ﴾

(البقرة: ٢٥٩)

وكل من الليل والنهار آية:

﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة ﴾

(الإسراء: ١٢)

﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ﴾

(فصلت: ٣٧)

وفى كل ما خلق الله من صغير وكبير، في الأرض أو في السماء آية:

﴿ وفي الأرض آيات للموقنين ۝ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾

(الذاريات: ٢٠، ٢١)

وقد نظر أبو نواس إلى هذا المعنى؛ إذ يقول:

وفى كل شيء له آية
تدل على أنه الواحد

فالآية إذن ليست معنى لازمًا للآية القرآنية.. وعلى هذا يمكن أن يحمل معنى الآية هنا على وجه آخر - غير الوجه الذى ألزمها القائلون بالنسخ إياه - إذا كان ذلك مما يعين عليه المقام.. وسنرى.

والآن ننظر في آية النسخ نفسها..

﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير ﴾

(البقرة: ١٠٦)

هذه الآية: قد جاءت مع آيات كثيرة غيرها دفاعًا عن أمر أراده الله للمسلمين، وهو تحويل قبلتهم التى كانوا عليها، من بيت المقدس إلى البيت الحرام.

وهذا التحول كان حدثًا كبيرًا من أحداث الإسلام في حينه، كما كان فتنة وابتلاء لكثير من المسلمين، ومدخلًا كبيرًا للطعن في الدين، والتشويش على المسلمين.

فلقد فتح هذا التحول لقبلة المسلمين من بيت المقدس إلى المسجد الحرام - فتح هذا بابًا لليهود الذين كانوا يرصدون كل حركة يمكن أن يدخلوا منها على المسلمين والإسلام، بالكيد والفتنة.. فلقد انتهزها اليهود فرصة لإشاعة الأقاويل الباطلة المضللة، فقالوا فيما قالوا: إن محمدًا يصور دينه، ويلونه حسب هواه.. وإن تحوله بأصحابه في الصلاة إلى مكة، بعد أن كان يتوجه بأصحابه في الصلاة إلى بيت المقدس - هذا التحول إنما كان من تدبيره، ليخالف اليهود، تحت تأثير الخصومة التى كانت بينه وبينهم.. ذلك أن هذا التحول لا يكون من شريعة الله، لأن بيت المقدس - كما يقولون - هو وجهة الأنبياء جميعًا.. هذا من جهة.. ومن جهة أخرى فإنه لو كان الإسلام شريعة سماوية منزلة من عند الله، لما كان من حكمة الله أن يأمر المسلمين بالتوجه في صلاتهم إلى بيت المقدس قبل الهجرة، ثم يدعهم يصلون نحو بيت المقدس نحو ثمانية عشر شهرًا بعد الهجرة.. لأن هذا يعنى أنه قد بدا لله أمر لم يكن بدا له.. والبداء لا يجوز في حق الله، لأنه لا يكون إلا عن جهل!!

هذه بعض مقولات اليهود الضالة المضللة، في هذا الحدث، وقد كان هذا سببًا في فتنة ضعاف الإيمان من المسلمين، فدخل قلوبهم الشك، وارتد بعضهم عن الإسلام.. ثم كان هذا سببًا أيضًا في تصدى بعض المسلمين - فيما بعد - للرد على مقولة اليهود بأن هذا من البداء، والبداء لا يجوز على الله، وكان من هذا أن تشكلت قضية النسخ، وأنه يجوز أن يشرع الله تعالى حكمًا لزمن محدد، ثم يحل محل هذا الحكم حكمًا آخر لمرحلة جديدة من مسيرة الناس في الحياة، يناسب تلك المرحلة.. ومن أمثلة هذا أن الرسول ﷺ نهى المسلمين في أول الإسلام عن زيارة القبور، لقرب عهدهم بعبادة الأصنام، التى لا تختلف كثيرًا عن مشاهد القبور، فلما رسخ الإسلام في قلوب المؤمنين، أباح هذا الحظر، بل وأمر بزيارة القبور. وذلك في قوله ﷺ:

«كنت نهيتكم عن زيارة القبور، ألا فزوروها، فإنها تذكر بالموت»..

فقد كان الحظر منظورًا إليه على أنه حكم وقتي، لمرحلة من مراحل الدعوة الإسلامية، ثم يجئ بعده الحكم العام، بعد أن زالت العوارض التى كانت تعترضه.. ونعود إلى قضية تحويل القبلة، التى نسخت القبلة السابقة، فنقول:

كان من تدبير القرآن الكريم لهذا الأمر، أن قدم له هذه الآيات الكريمة، قبل أن يقع، لتكون إرهاصًا به من جهة، وقوة يستند إليها المسلمون في دفع كيد اليهود، ووسوسة الشيطان.. من جهة أخرى!

واستمع لتلك الآيات الكريمات، مرة أخرى ثم استمع للأمر الذى جاء بعده: ولكن قبل هذا، أحب أن تستصحب معك آية النسخ هذه.. ومناسبتها للآيات التى سبقتها..

فقد سبق هذه الآية مباشرة قوله تعالى:

﴿ ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾

(البقرة: ١٠٥)

فهذه الآية تصريح بما في قلوب الذين كفروا من أهل الكتاب من كمد وحسد، لما كان من فضل الله على الناس، باصطفاء محمد

- صلوات الله وسلامه عليه - لهذه الرسالة الجامعة الشاملة، التي تنسخ كل دين سماوى قبلها، وتحيل أهل الكتاب جميعًا إلى كتاب الله الجامع لكل ما سبقه من كتب..

فهذا النسخ للرسالات والكتب السابقة، هو نسخ لآية من آيات الله وهو شريعة موسى، وإذ نسخ الله تعالى تلك الآية، فقد جاء بما هو خير منها أو مثلها.. فالقرآن خير منها من حيث أنه الذى حمل دين الله، وهو الإسلام كاملاً.. وهو مثلها، لأنهما معًا من متنزل واحد، ومن معدن واحد، وهو الحق..

وكذلك الشأن فى تحويل قبلة المسلمين من بيت المقدس إلى المسجد الحرام.. ففى ذلك خير مستحدث للمسلمين، بعد الخير الذى حازوه بتوجيههم إلى بيت المقدس.. فكلا القبلتين إلى بيتين كريمين من بيوت الله.

وهذا يعنى أن الله تعالى جمع للمسلمين الخيرين، ووجههم إلى المسجدين، وأورثهم منسك الدين كله، وجعل من إيمانهم الإيمان برسل الله جميعًا، وما أنزل عليهم من كتب كما يشير إلى ذلك قوله تعالى:

﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾

(البقرة: ١٣٦).

فكان توجه المسلمين إلى بيت المقدس فى أول الإسلام، إشارة إلى تلك الصلة التى بينهم وبين أنبياء الله ورسله، الذين تقدموا نبوة محمد ورسالته.. فلم يكن توجيههم إلى بيت المقدس إلا تثبيتًا لما أمرهم الله تعالى به من الإيمان بجميع رسل الله، وبكل كتبه، إيمانًا عامًا مجملاً، لا يتصل بفروع الشرائع..

وإذ كانت جامعة رسل الله جميعًا، وملاك دعوتهم، هو الإيمان بالله، وحده لا شريك له، وإذ كانت الصلاة فى جميع الشرائع السماوية هى أول وأهم ركن من أركان الدين، فقد كان من مقتضى حكمة الشريعة العامة الجامعة، وهى شريعة الإسلام - أن تولى وجهها فى الصلاة أول ما تولى إلى ما ولى إليه أنبياء الله ورسله وجوههم، وهو بيت المقدس.. ثم يكون بعد هذا ما ادخره تعالى لتلك الأمة من الاختصاص بالتوجه إلى البيت العتيق، أول بيت وضع للناس، كما يقول سبحانه:

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝٩٦ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ ﴾

(آل عمران: ٩٦، ٩٧).

وهذا الأمن الذى أضفاه الله تعالى على كل من لاذ بحمى هذا البيت، تكريم لهذا البيت، ورفع لقدره عند الله، الأمر الذى لم يشاركه فيه بيت المقدس!

وقد آن بعد هذا أن نلتقى بآية النسخ وما بين يديها من آيات:

﴿ ۞ مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝١٠٦ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ۝١٠٧ أَمۡ تُرِيدُونَ أَن تَسۡـَٔلُواْ رَسُولَكُمۡ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾

(البقرة: ١٠٦-١٠٨).

فهذا الاستفهام الإنكاري:

﴿ أَمۡ تُرِيدُونَ أَن تَسۡـَٔلُواْ رَسُولَكُمۡ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۗ ﴾

(البقرة: ١٠٨)

والذى يتوجه به القرآن إلى المسلمين - فيه تحذير لهم من أن يكونوا مع النبي، كما كان اليهود مع موسى، كلما جاءهم بأمر لم يتلقوه بالامتثال والطاعة، بل قابلوه بالحذر والريب، وواجهوه بالأسئلة الكثيرة، التى تنبيء عن خبث طوية، وفساد سريرة.

ثم إن النسيان لا يمكن أن يقع لرسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - فيما أنزل الله عليه من قرآن، وشاهد هذا هو القرآن الكريم نفسه.. فآية البقرة

﴿ ۞ مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا ﴾

(البقرة: ١٠٦)

آية مدنية، فى سورة مدنية، والله سبحانه وتعالى يقول لنبيه الكريم:

﴿ سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ﴾

(الأعلي: ٦، ٧).

وهاتان الآيتان قرآن مكي، من سورة مكية - «سورة الأعلى» - فهذا إخبار من الله للنبى ﷺ أنه لا ينسى ما يقرؤه الله إياه من قرآن، وأنه سبحانه - سيتولى حفظه.. وأما قوله تعالى:

﴿ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ ﴾

(الأعلي: ٧)

فإنها مشيئة معلقة لم تقع، مثل قوله تعالى:

﴿ وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ﴾

(الإسراء: ٨٦).

>>>

ولو كان معنى قوله تعالي:

﴿ وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ ﴾

(النحل: ١٠١)

لو كان معنى ذلك نسخ آية بآية، لما كان من المناسب أن يكون التعقيب على ذلك قوله تعالي:

﴿ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴾

(النحل: ١٠٢).

إذ إن النسخ للآيات القرآنية ليس من شأنه أن يثبت قلوب المؤمنين، بل إنه يكون داعية من دواعى الإزعاج النفسي، بسبب تلك الآيات التى يعيش معها المسلمون زمنًا، ثم يتخلون عنها.

ثم - قبل هذا كله - إن هذه الآية :

﴿ وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ ﴾

(النحل: ١٠١)

هى مكية النزول، بل من أوائل القرآن المكي، حيث لم تكن قد شرعت الأحكام بعد، فى العبادات، والمعاملات، وفى القتال، وما يتصل به من غنائم، وأسرى، وغير ذلك مما يمكن أن يرد عليه النسخ، إن كان هناك نسخ.. إذ إن النسخ إنما تناول الأحكام الشرعية وحدها دون غيرها من الأخبار والقصص.

هذا هو رأينا الذى اطمأن إليه قلبنا: أنه لا نسخ فى القرآن الكريم[1].

(1) عبدالكريم الخطيب: القرآن: نظمه، جمعه، ترتيبه (ص١٣-٢٩، ٥٠، ٧٥، ٧٦، ٦٨) طبعة دار الفكر العربي، القاهرة (١٩٧٤). وانظر تفاصيل ذلك في: محمد عمارة (حقائق وشبهات حول معنى النسخ فى القرآن الكريم) طبعة دار السلام - القاهرة سنة ١٤٣١- ٢٠١٠م.

كلمات ربي وآياته في القرآن والكون

(٢)

أ.د. أحمد فؤاد باشا
الأستاذ بكلية العلوم - جامعة القاهرة



﴿ اتَّسَقَ ﴾

وردت كلمة اتسق في القرآن الكريم مرة واحدة في قوله تعالى:

﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴾

(الانشقاق: ١٨)

وهنا يقسم الحق جل وعلا بالقمر في أحد أطواره إذا تكامل وتم نوره، أي عندما يكون بدرا كامل الاستدارة ويعطي للناس أقصى استضاءة قال ابن عباس في معنى ﴿إِذَا اتَّسَقَ﴾: إذا اجتمع واستوى، وقال الحسن: إذا اجتمع وامتلأ، وقال قتادة: إذا استدار. ومعنى كلامهم أنه: إذا تكامل نوره وأبدر ظاهريا بعد الشمس التي يتعكس ضوءها على سطحه، حيث يصل لمعان القمر إلى حوالي ٢٨٠٠٠ مرة مثل نجم الشعرى اليمانية ألمع نجوم السماء في الليل. ويقل لمعان القمر بشدة كلما صغر الجزء المضاء من سطحه، فلمعانه عند كل من التربيعين الأول والثاني لا يزيد على عشر قيمة لمعانه عندما يكون بدرا، بالرغم من أن المساحة قد نقصت فقط إلى النصف،

ويرجع ذلك الانخفاض الشديد في اللمعان إلى اختلاف ميل أشعة الشمس الساقطة على سطح القمر من طور إلى آخر.

ويحدث الاتساق عندما يكون القمر في جهة من الأرض والشمس في الجهة الأخرى، حيث تقل العواصف والزوابع والأنواء الكهربية. فالقمر يدور حول محوره ويدور حول الأرض كما يدور معها حول الشمس. ومدار القمر حول الأرض بيضاوي؛ ولهذا فإنه يسرع ويبطئ في مداره، ولو كان مدار القمر دائريا لكانت سرعته ثابتة لا تتغير. وهو في مداره البيضاوي يبعد عن الأرض حتى يبلغ الأوج على بعد ٤٠٧٠٦٨ كيلو متر، ويقترب منها حتى يبلغ الحضيض على بعد ٣٥٦٦٠٨ كيلو متر. ويبدو لنا اتساقه عند الحضيض أكبر منه عند الأوج.

ومن المعروف أن كتلة القمر منسوبة إلى كتلة الأرض هي ١ : ٨١ وحجمه منسوبا لحجمها يبلغ ١ : ٤٩. ومساحة سطح قمر الأرض ٣٧ ألف كيلو متر مربع تقريبا، ولا يمكننا أن نرى سوى نصفها لأن القمر يدور حول محوره متوافقا مع دورانه

حول الأرض. ويرى قرص القمر حين يكون بدرا مساويا تقريبا لقرص الشمس، نظرا لأن بعد الشمس عن الأرض يزيد ٣٩٠ مرة على بعد القمر عن الأرض.

﴿ أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾

طاع، وانطاع، وطاوع: خضع وانقاد. والطائع: الطيع (المعجم الوسيط).

وقد وردت المادة بهذه الصيغة مرة واحدة في القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾

(فصلت: ١١)

تدحض هذه الآية الكريمة بالحجة المنطقية والضرورة العقلية كل مزاعم الماديين والكافرين والملحدين، وتقرر في الوقت نفسه سنة إلهية كونية مؤداها أن الحركة وليس السكون، هي ما يجب أن يكون الأساس في هذا الوجود. ولقد ظل الإنسان ردحا طويلا من الزمن يعتقد في عكس ذلك، وذلك عندما خدعته المظاهر الحركية لبعض الكائنات، فاعتقد خطأ أن الأرض ساكنة، وأن بعض النجوم ثابتة، وأنه هو نفسه ثابت قائم على الأرض الثابتة في مركز الكون، ولكن تطور المعرفة العلمية ساعد على تغيير هذه الصورة القديمة عن الكون، القائمة على التأمل الفلسفي الخالص في مرحلة طفولة العقل البشري، وأصبح في حكم المؤكد علميا الآن أن الحركة هي أهم صفات الكون الذي نعيش على أحد كواكبه، فكل ما في الكون من

وحدات ومكونات في حالة حركة دائمة لا تنقطع. وأثبتت الدراسات العلمية والخبرة العملية أن الأجسام المتحركة بسرعة فائقة تبدو لعين الناظر كأنها ثابتة لا تتحرك، وكلما زادت سرعة الجسم المتحرك بدا للمشاهد أنه أكثر متانة وصلابة وتمسكا وثباتا. وكل الظواهر الكونية في السماء، من مادة وإشعاع، توجد في حالة حركة أمكن قياسها والوقوف على سرعتها، ولا يجرى عليها السكون إطلاقا.

فالعين المجردة وآلات الرؤية وأجهزة الرصد الفلكية تؤكد لنا حركة الأرض والقمر والشمس والنجوم والمجرات السابحة في الفضاء في أفلاك خاصة قدرها لها الخالق العليم سبحانه وتعالى، وحركة الأرض تجر حولها الغلاف الجوي الذي تتدرج سرعة الهواء فيه إلى أن تصل إلى الأعاصير ذات السرعات الكبيرة. والمياه التي في الأنهار والبحار والمحيطات تتحرك أبدا في أمواج رتيبة تختلف درجة قوتها، وتتلاحق حركة الأمواج نحو الشاطئ، كل موجة تدفعها الموجة السابقة، وتتكسر الموجات عند الشاطئين المتقابلين. فكيف يحدث هذا؟! ومن قسم الموجة الأولى وحركها بحيث تنشأت عنها هذه السلسلة التي لا تنتهي من الأمواج؟!

وفي الكائنات الحية نجد الحركة صفة أساسية من صفاتها، حتى السوائل داخل أوعيتها، والخلية ومكوناتها والنواة وما فيها كلها في حالة حركة مستمرة. أما الجماد، وهو مادة غير حية، فقد كان يظن أنه في حالة سكون، إلا أن العلم في العصر

الحديث أثبت أن ذرات المادة الجامدة توجد في حالة اهتزازات حول مواضع اتزان تؤثر على خصائصها المختلفة، وأن ذرات المادة السائلة والغازية توجد فى حالة حركة انتقالية لها قوانينها الخاصة التى توصل العلماء إلى اكتشافها، بل إن الذرة ذاتها تتكون من كهارب دقيقة جدا تسمى إلكترونات تدور حول نواة تتكون هى الأخرى من جسيمات دقيقة تسمى بروتونات ونيوترونات. والكل فى حالة حركة أمكن للعلماء قياسها بطرق علمية حديثة، وبذلك يكون الجماد، أيا كان شكله أو نوعه أو حالته، مؤلفا من ذرات دائبة الحركة. ولما كانت الذرة هى أساس بناء كل ما فى الوجود المادى فإن وحدة الوجود هى الذرة المتحركة.

وبعد أن توصل العلم حديثا إلى التكافؤ بين المادة والطاقة وإمكانية تحول كل منهما إلى الأخرى، أصبح من السهل تفهم حقيقة ناموس الحركة فى الكون، وكل ما فى الأمر أننا اعتدنا أن نطلق اسم «المادة» على كل الكائنات والظاهرات المجسمة التى تسير ببطء شديد أو تبدو لأعيننا كأنها ثابتة، وكيف يمكن أن نصف أى شيء أمامنا على الأرض بالثبات، والأرض ذاتها تتحرك بسرعة هائلة حول نفسها وحول الشمس. وربما يتساءل البعض: كيف تبدو الأشياء لراصد يسير بسرعة الضوء (وهى أقصى سرعة معروفة للحركة حتى الآن)، والإجابة هى أن الإشعاع الذى يصحب هذا الراصد يسير معه جنبا إلى جنب ويبدو كأنه مادة، أما الأشياء المادية التي تمر عندئذ بسرعة النور فتكون إشعاعا. وهكذا نجد أن حالة السكون والحركة أمر نسبي يمكن تفهمه في ضوء تصور العلاقة المتكافئة بين المادة والإشعاع.

ولما كانت بديهيات العقل والمنطق والعلم تقضى بأن كل حركة لا بد لها من محرك، وأن كل حركة الآن اكتسبت من الدفعة الأولى، فمن هو المحرك الأول الذي أمر بالحركة فكانت؟ إنه الله الخالق الواحد الذي يقول للشيء كن فيكون، أمر السماوات والأرض فكانت الطاعة التامة منهما. هذه هي الطاعة التي بها تسير كل مكونات الكون، بالسرعة المقررة وإلى الاتجاهات التي حددها لها خالقها. فسبحان الله وحده الذي يغيّر ولا يتغير! فهو المحرك الأول الذي أمر بحركة الكون فكانت وستظل إلى ما شاء.

﴿ وَأَثْلٍ ﴾

الأثل واحدته أثلة، وجمعه أثول، كتمر وتمور، ويجمع أثلات، والأثل شجر يرتفع عدة أمتار ويعطى فروعا خشبية طويلة وليس له ورق عريض، إنما حراشيف صغيرة. وهو ينمو فى الصحارى والأراضى الملحية الرطبة. وغالبا ما يوجد فى الأودية وفروع النبات الخضراء الهدبية تحمل على سطوحها الأملاح التى يفرزها النبات.

وينمو الأثل بريا فى شمال أفريقيا وشبه الجزيرة العربية وأفغانستان وباكستان والهند، وقد يزرع مصدات للرياح حول المزارع والمناطق الصحراوية لسلامة سوقه وفروعه وتحمله للجفاف.

والأثل والطرفاء نوعان من النباتات يتبعان جنسا واحدا ينتمي إلى الفصيلة الأثلية أو الطرفاوية، وقد ورد ذكرهما فى كتب السنة المطهرة فى مجال استعمال الخشب لصنع منبر رسول الله ﷺ.

وقد وردت كلمة ﴿ وَأَثْلٍ ﴾ مرة واحدة فى القرآن الكريم فى قوله تعالى:

﴿ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾

(سبأ: ١٦)

وقد جاء ذلك فى سياق الحديث عن قوم سبأ الذين كانوا يسكنون اليمن، وكانوا فى أرض مخصبة، وأقاموا سدا خزنوا خلفه الماء فى الوادى، وكان لهم مورد مائى عظيم، فعاشوا فى رخاء وجنات مليئة بالنعمة تفيض عليهم بالرخاء. ولما أعرضوا عن شكر الله وعن العمل الصالح، والتصرف الحميد فيما أنعم الله عليهم، سلبهم سبب هذا الرخاء، وأرسل السيل الجارف الذى يحمل العرم فى طريقه وهى الحجارة لشدة تدفقه، فتحطم السد وانساحت المياه فطغت وأغرقت، ثم لم يعد الماء يخزن بعد ذلك، فجفت الجنان واحترقت، وتبدلت صحراء لا يوجد فيها إلا الأشجار البرية الخشبية: الخمط والأثل، وهما من النباتات التى تنتج ثمارا مرة لا ينتفع بها وقليل من نبات السدر الذى ينتج النبق، وهكذا كما أخبر القرآن الكريم:

﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾

(سبأ: ١٧)

وإذا كان «الأَكل» من الأفعال الحيوية فإن ورود لفظة «الأُكُل» بضم الهمزة فى القرآن الكريم يعد أكثر ألفاظ المادة علاقة بالنبات. وقد فُسّر الأُكُل بأنه الشيء المأكول، وبأنه التمر الذى يؤكل، وإذا أطلق على الطعم، فهذا لأنه يؤكل، كما فى قوله تعالى:

﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ ﴾

(الأنعام: ١٤١).

وفى قوله سبحانه:

﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ﴾

(الرعد: ٤).

***

المحرم ١٤٣٥ هـ
نوفمبر ديسمبر ٢٠١٣ م

القصة والأمثال فى القرآن الكريم



الأستاذ الدكتور محمد المختار محمد المهدي
عضو مجمع البحوث الإسلامية

فى كيفية فهم النص القرآني من خلال التحليل اللغوي

حمدًا لمن وفقنا لحمده، وصلاة وسلامًا على خير خلقه، وخاتم رسله، محمد وآله وصحبه، ومن سار على دربه، إلى يوم الدين.. أما بعد:

فلما كانت مناهج التفسير لكتاب الله عز وجل تتنوع حسب ثقافة المفسر واهتماماته فى إبراز جانب العظمة فى آيات الله من الناحية الأسلوبية، ومن الناحية التشريعية، وكان فهم هذه التفاسير صعبًا على غير المتخصصين، والقرآن الكريم فيه شفاء لكل صدور البشر أيا كانت ثقافتهم، وهو الذى يعمر قلب الإنسان ويطرد وساوس الشيطان كما قال المصطفى ﷺ: «إن الذى ليس فى جوفه شيء من القرآن كالبيت الخراب»(١).

ولا يحوى البيت الخرب سوى الحشرات والهوام والشياطين.. ولما كان حكم المصطفى ﷺ أن خير هذه الأمة من تعلم القرآن وعلمه(٢) والمفروض أن يطلب المسلم هذه المنزلة - كان واجب الدعاة أن ييسروا فهمه وتعلمه، وأن يراعوا الوسائل المناسبة لكل عصر ولكل جيل.. وأن يتدارسوه فى بيوتهم، وفى بيوت الله، وفى مناهج التعليم؛ ليحصنوا به أنفسهم وأولادهم.

لكل هذا كانت هذه المحاولة التى تجمع بين المنهج التحليلى والموضوعى واللغوى من حيث إن فهم اللغة التى نزل بها القرآن الكريم فى عصر الوحى ضرورى لإدراك مراد الله من آياته. وكان أقرب وصف لهذا التفسير أنه تفسير دعوى من خلال التحليل اللغوى يعنى بتثبيت عناصر الإيمان، وبإبراز أسرار القرآن، ومعانى ألفاظه، وأسباب نزوله، والإشارة إلى ما تعانيه فى واقعنا المعاصر من مؤامرات حدث مثلها لرسول الله ﷺ وتحدث عنها القرآن الكريم ووضع لها خطة المواجهة وبين كيفية إبطالها، وقد التزمت فيه بتنحية الإسرائيليات والأقوال الشاذة جانبًا، تلك التى تستند إلى نقول ضعيفة تردد ما تسمع من خرافات زمانهم دون أن يدركوا آثارها المدمرة فى استغلال الأعداء لما ذكر من هذه الآراء فى تراثنا؛ ليشوهوا وجه الإسلام النقي. على أننى لا أصادر رأيا له وجاهته بحيث يحتمله الأسلوب العربى الذى نزل به كلام الله ولا يعارض ثوابت الدين.

أدعو الله أن يحفظنا من الزلل، وأن يتم هذا العمل على ما يرضى الله ورسوله، وأن ينفع به الأمة إنه ولى ذلك والقادر عليه.

أهمية فهم كتاب الله عز وجل

إن منهج الرسول ﷺ كما علمنا ربنا أن نصاحب القرآن تلاوة وفهمًا وعملا، فذلك قوله سبحانه وتعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

(الجمعة: ٢)

وليس ذلك خاصا بعصر المصطفى ﷺ؛ فالقرآن نفسه يقول بعد ذلك:

﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

(الجمعة: ٣)

ثم يعقب على ذلك بقوله:

﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾

(الجمعة: ٤)

وحينما تحدث القرآن عمن يرث هذا النور وهذا الهدى، قال سبحانه:

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾

(فاطر: ٣٢)

فالسابق بالخيرات هو الذى يتعلم القرآن ويفهمه ويعمل به ويبلغه للآخرين فينال هذا الفضل الكبير فى قوله سبحانه وتعالى:

﴿ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾

(فاطر: ٣٣)

أفلا يدعونا ذلك إلى أن نرتفع إلى هذا المستوى، وخاصة فى ظل هذه التحديات التى يواجهنا بها أعداء الإسلام فهم يتحينون الفرص لإثارة الشبهات والعمل على إبعاد شبابنا عن كتاب ربنا، شجعهم عليها أن شبابنا لم يتعلموا فى مدارسهم من مرحلة الحضانة إلى مرحلة الجامعة قدرًا معقولاً من كتاب الله فمضوا فى دراستهم وهم بعيدون عن نور القرآن.

ونحن مطالبون شرعًا بأن نعلم أهلنا ونعلم أبناءنا كتاب ربنا عز وجل، ونحن مسئولون أمام الله عز وجل عن أهلنا. قال ﷺ: «والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية

(١) رواه الترمذي (٢٩١٣)، كتاب فضائل القرآن، باب فيمن قرأ حرفا من القرآن فيما له من الأجر، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وقال أبو عيسى: حديث حسن صحيح.
(٢) رواه البخاري (٤٧٣٩)، كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه، من حديث عثمان رضي الله عنه.

على أهل بيت زوجها وولده وهى مسئولة عنهم»(٣).

ومما يغيظ أعداءنا أن القرآن هو الكتاب المحفوظ من قبل رب العزة سبحانه وتعالى، ولا يستطيع أحد أن يشكك فى ذلك، ضرورة أن الله هو الذى تكفل بحفظه، وقال عز وجل:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾

(الحجر: ٩)

وقال:

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾

(القيامة: ١٧-١٩)

من هنا كان هذا القرآن مستعصيًا على أن يغير فيه البشر أو يتدخلوا فيه كما تدخلوا فى الكتب السابقة، فيدعوهم ذلك إلى العدوان، كما قال سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾

(المائدة: ٦٤)

وحتى لا نكون ممن يشكوهم رسول الله إلى ربه بأنهم اتخذوا هذا القرآن مهجورًا لابد لنا من حفظه فى الصدور ومدارسته فى البيوت وفى المساجد وتدبر معانيه والعمل به وتبليغه للعالمين، قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾

(القمر: ١٧)

وقال:

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾

(النساء: ٨٢)

وسيلتنا لفهم القرآن عن طريق الدروس المنتظمة:

من أهم الوسائل التى تبعها المسلمون من عهد النبى ﷺ هى التبليغ فقد قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾

(المائدة: ٦٧)

ثم قال النبى ﷺ: «بلغوا عنى ولو آية»(٤)

وحينما نرجع إلى صحابة رسول الله ﷺ نرى هذا واضحًا غاية الوضوح فقد كان القرآن ينزل على رسول الله ﷺ منجمًا فتنزل عليه سورة قصيرة أو عشر آيات فيقرؤها النبى ﷺ فى الصلاة، ولشوق المسلمين إلى أن يعمروا قلوبهم بهذه الآيات يحفظونها خلف رسول الله ﷺ ثم يذهبون إلى بيوتهم يعلمونها لزوجاتهم ولأبنائهم، فكنت تسير فى الطرقات فتجد دويا كدوى النحل؛ بمعنى أن هناك قرآنا يتلى فى بيوتهم، يعلمون أولادهم ما تعلموه من رسول الله ﷺ، ونحن الآن فى هذا العهد ومع هذه الظروف أحوج ما نكون إلى هذا الأسلوب، نسمع ونتعقل وننقل ما تعلمناه إلى بيوتنا، وخاصة أن الله

(٣) أخرجه مسلم (١٨٢٩)، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الإمام الجائر، من حديث ابن عمر رضى الله عنهما.
(٤) أخرجه البخارى (٤٧٢٣)، كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بنى إسرائيل، من حديث عبدالله بن عمرو رضى الله عنهما.

قد يسر لنا ذلك بما اكتشفه العلم الحديث من وسائل.

مقدمات فى علوم القرآن

هناك بعض المقدمات لنفهم بعد ذلك تفسير كلام الله عز وجل:

أولا: ما معنى تفسير وتأويل؟

تفسير القرآن: يعنى بيان مدلول اللفظ كما جاء على لسان العرب وقت نزول القرآن؛ لأن القرآن نزل بلسان عربى مبين قال تعالى:

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

(يوسف: ٢)

وقال لنا أيضًا:

﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾

(الشعراء: ١٩٣-١٩٥)

أما التأويل فيراد به الوصول إلى المعنى المراد بدلالة تضاف إلى المعنى اللغوى مثل السياق أو المجاز، ولذا لابد أن نفتش عن سبب النزول وعن تفسير النبى ﷺ فيما ورد من أحاديث، وستجد فى ذلك الأعاجيب من ناحية التفسير والتأويل، إذن لابد قبل التأويل من فهم التفسير؛ إذ لا يمكن حمل الألفاظ على معانيها المستحدثة التى نسمعها الآن، إنما لابد من البحث عن معناها وقت نزول القرآن.

وقفة قبل البدء

قبائل ولهجات:

من يريد فهم القرآن الكريم فهمًا صحيحًا لا عوج فيه، ولا خطل معه لابد أن تكون لديه الأدوات التى تعينه على ذلك، والقرآن نفسه هو الذى وضح لنا الوسيلة الأولى والأساسية لفهمه، وهو أنه - كما سبق - نزل بلسان عربى مبين، ومعنى ذلك أنك كلما تعمقت فى هذا اللسان، وفهمت مدلولاته استطعت أن تغوص إلى أعماق معانيه، فأول وسيلة لفهم كتاب الله أن تتعلم اللغة التى نزل بها كتاب الله عز وجل، ونحن محتاجون فى أول الأمر إلى إلمامة سريعة بوضع اللغة العربية فى الجزيرة العربية قبيل نزول الوحي. لقد كان لكل قبيلة عربية لهجة ولغة تختلف عن لهجات ولغات القبائل العربية الأخرى، من ذلك ما حدث بين سيدنا أبى هريرة رضى الله عنه وبين رسول الله ﷺ. فسيدنا أبوهريرة رضى الله عنه من قبيلة دوس، وذات يوم جلس مع النبى ﷺ فقال له النبى ﷺ: «ناولنى السكين»، فأخذ أبوهريرة يطوف فى المكان ويبحث عما طلبه الرسول منه، لا يعرف ما هى السكين، فقال له: آلمدية تريد؟ فقال: «نعم» فقبيلة «دوس» يسمون السكين «مدية»، والنبى يقول لأبى هريرة: «ناولنى السكين»، وهى الكلمة المستعملة فى قريش، وهكذا نجد أنه كانت فى القبائل العربية لهجات مختلفة، فهذه قبيلة تقول على الأسد إنه «سبع»، وقبيلة أخرى تقول إنه «ليث»، وقبيلة ثالثة تقول إنه «غضنفر»، ورابعة تقول إنه «ضيغم».. أسماء كثيرة لحيوان واحد.

وأراد الله عز وجل أن يجمع العرب على لغة واحدة، وكانت رحلة الحج إلى بيت الله الحرام وقداسة هذا البيت هى الوسيلة الأولى

لتوحيد العرب على لغة واحدة، إذ كانوا جميعا يأتون إلى البيت الحرام يحجون، وعندما فكروا في استغلال فترة الحج في البيع والشراء، كان لابد من واحد يدعو إلى هذه السلع بلغة يعرفها الناس كلهم، فإذا تكلم بلغته هو لن تفهمها القبائل الأخرى، فاتفقوا على أن يتعلموا لغة قريش باعتبار أن قريشًا هى خادمة الكعبة، وهم يأتون إليها، فبدأوا يعلمون شعراءهم وخطباءهم لغة قريش، ويأتون إلى المواسم فيخطبون ويتحدثون عن مآثرهم وشجاعتهم وأماكنهم وما إلى ذلك، فاحتاجوا إلى أسواق في أثناء الحج، فوضعوا ثلاثة أسواق في المشاعر: سوق «عكاظ» وسوق «مجنة» وسوق «ذى المجاز» في «منى والمزدلفة وعرفة»، وأقاموا هذه الأسواق؛ ليبيعوا ويشتروا فيها في أثناء فترة الحج، وتطور الأمر إلى أن يتفاخروا ويمدحوا قبائلهم، فبدأ الشعراء والخطباء يتحدثون بلغة قريش، كما أن لغة قريش أيضا استوعبت كثيرًا من الكلمات التى سادت في بعض القبائل وأدخلتها لغتها؛ حتى تيسر على من يريد أن يتعلمها، وبناء على ذلك بدأت اللغة الفصحى تأخذ سمت لغة قريش، وبدأ من يريد أن يتفاهم مع الآخرين يتكلم بهذه اللغة، فإذا عادوا إلى قبائلهم تكلموا كما يريدون.

فقد حرص الصالح من العلماء على بيان هذا الموضوع، فيسروا لنا ذلك، وقام علماؤنا بجهودهم المباركة في جمع الألفاظ الغريبة فى القرآن الكريم في كتب مستقلة وجعلوها في مادة تسمى «غريب القرآن»، وبدأت بسيدنا عبدالله بن عباس رضى الله عنهما وهو ترجمان القرآن، الذى دعا له الرسول ﷺ ربه أن يعلمه التأويل - لما جلس يشرح القرآن الكريم وهو فى سن صغيرة حقد عليه نافع ابن الأزرق، وهو رأس الأزارقة من الخوارج، وقال: كيف لهذا الغلام أن يتحدث في القرآن وأن يفسره؟ فجاء يتحداه بمائتى مسألة من القرآن الكريم يقول له: ما معنى قوله تعالى كذا؟ فيقول له سيدنا عبدالله: معناه كذا فيقول له: أوتعرف العرب ذلك فى كلامهم؟ - وما كان ذلك منه إلا لعلم الجميع أنه نزل باللسان العربى، وحسنًا فعل نافع فقد كان سيدنا عبدالله بن عباس رضى الله عنهما من أندر العباقرة فى الحفظ، وكان يحفظ الشعر من أول مرة يسمعه - مع حفظه للشعر الجاهلى والإسلامى - فكان عبدالله بن عباس يرد على نافع ويقول له: ألم تقرأ قول امرئ القيس كذا؟ ألم تقرأ قول فلان كذا؟ فرد عليه فى مائتى مسألة كلها بالاستشهاد بالشعر العربى الذى كان يحفظه سيدنا عبدالله بن عباس وتسمى هذه المسائل «مسائل نافع بن الأزرق» وهى موجودة فى «الإتقان فى علوم القرآن»، وفى غيره.

تفسير الغريب

بدأ سيدنا عبدالله بن عباس فى نوع من أنواع تفسير القرآن بتفسير الغريب واستمر العلماء فى العصور المتعاقبة على هذا النمط يأتون بالكلمات الغريبة ويشرحونها، غير أنه مما يجب التنبيه عليه أنه يسود لدينا مقولة: «إن القرآن يفسر بعضه بعضا» نعم يفسر بعضه بعضًا فى المعانى العامة بحيث لا نرى فيه تناقضًا وليس ذلك فى الألفاظ، فقد تختلف المعانى للفظ الواحد حسب لهجات العرب، وكتب غريب القرآن مهمتها تفسير الألفاظ الغريبة من القرآن وذلك على الأحرف السبعة التى نزل بها القرآن على أساس ما كان سائدًا من لهجات فى الجزيرة العربية.

ومن هنا كان لابد من التدقيق فى فهم مدلول الكلمة وعلى أى لهجة وردت ومن أمثلة ذلك كلمة: الفتح، واليأس، والتخوف.. الخ، وسيأتى توضيحها.

أهمية معرفة الصيغ:

ثم بعد أن نعرف المعنى اللغوى للكلمة لابد من البحث عن الصيغة التى ورد عليها اللفظ حيث لكل صيغة معنى يضاف إلى المعنى اللغوي.

وحتى ندرك أهمية معرفة الصيغة ننظر إلى قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ فبعضهم قال: لماذا تكرر الوصف بالرحمة، أما يكفى أن يقول: الرحمن أو الرحيم؟ وبعض المفسرين أراد أن يجيب عن هذا السؤال فقال: رحمن الدنيا ورحيم الآخرة، وقال غيره: الرحمن بالنعم الكبيرة الرحيم بالنعم الصغيرة، وهكذا، غير أن من يعرف أسرار اللغة يدرك أن وضع الكلمة فى وزن معين يضيف معنى الوزن إلى معناها اللغوى كما يحدث لدى الصائغ يضع مادة الذهب فى قالب فتصير أسورة فلا يقال: إن هذا ذهب، وإنما يقال: هذه أسورة من ذهب، وعلى هذا نفهم أن كلمتى «الرحمن الرحيم» من مادة واحدة فعلاً هى الرحمة لكن وزن «فعلان» يدل على بلوغ الصفة منتهاها كما تقول: جوعان وجائع، فالجوعان قد بلغ منه الجوع منتهاه، أما وزن «فعيل» فيدل على الانتشار والذيوع، فإذا قلت: فلان كريم معناه أنه أكرم كثيرًا وتحدث الناس عن كرمه، وإذن فكلمة رحمن تعنى أن الرحمة قد بلغت منتهاها، ومنتهى الرحمة لا يتأتى إلا مع الخالق سبحانه وتعالى ولذلك تجد اسم الرحمن خاصًا بالذات العلية، لا يمكن لأحد أن يوصف بأنه رحمن، بل إن القرآن الكريم أورد كلمة الرحمن مساوية تمامًا للفظ الجلالة، قال تعالى:

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾

(طه: ٥)

وقال:

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾

(الرحمن: ١ - ٢)

ولذلك يعبر الإمام ابن القيم فى كتابه «بدائع الفوائد» عن هذا المعنى فيقول: «الرحمن صفة ذات والرحيم صفة فعل» ومعنى صفة الذات أنها صفة خاصة بالذات العلية، وصفة الفعل تعنى انتشارها وشمولها للخلق أجمعين، ومن ذلك كلمة: ضائق، وضيق، وكلمة: عم وأعمى، وكلمة: يتطهر ويطهر، ويتفقه ويفقه.. الخ كما سيأتي.

إذن الإقدام على فهم القرآن الكريم يحتاج إلى علوم كثيرة؛ ولذلك كان علماؤنا يحجمون ويخافون من الولوج فى تفسير القرآن ما لم يكن عندهم الأدوات الحقيقية لولوج هذا الباب.

يتبع

منزلة السنة النبوية فى الإسلام



أ. د. أحمد عمر هاشم
عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر

السنة هى الأصل الثانى من أصول الإسلام، أجمع فقهاء المسلمين قديما وحديثا من لدن الصحابة رضوان الله عليهم إلى يومنا هذا -إلا من شذ من بعض الطوائف- على الاحتجاج بها واعتبارها المصدر الثانى للدين بعد القرآن الكريم، فيجب اتباعها وتحرم مخالفتها، وقد تضافرت الأدلة القطعية على ذلك فأوجب الله سبحانه على الناس طاعة رسوله ﷺ وبين أنه عليه الصلاة والسلام هو المبين لما أنزل من القرآن وذلك بعد أن عصمه الله من الخطأ والهوى فى كل أمر من الأمور:

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾

(النجم: ٣-٥).

كما عصمه من الناس حين أمره بتبليغ ما أنزل إليه قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾

(المائدة: ٦٧).

فهو إذًا قد مهد لرسوله طريق الدعوة، وذلل له مهمة تبليغها فبين سبحانه وتعالى للناس ما يأتى:

أولا: وجوب طاعة الرسول ﷺ.

ثانيا: أن الرسول ﷺ هو الذى يبين للناس كتاب ربهم سبحانه وتعالى.

وهذان الأمران متلازمان فى إثبات حجّية السنة لأن الله تعالى أوجب طاعة رسوله ﷺ لأنه بيّن للناس ما أُنزل إليهم. قال الشاطبى: «فإذا عمل المكلف على وفق البيان أطاع الله فيما أراد بكلامه وأطاع رسوله فى مقتضى بيانه، ولو عمل على مخالفة البيان صار عمله على خلاف ما أراد بكلامه وعصى رسوله فى مقتضى بيانه.

وسأتناول الحديث عن هذين الأمرين، وهما وجوب طاعة الرسول ﷺ وبيان أن الرسول عليه الصلاة والسلام هو الذى بين للناس ما نزل إليهم.

أولا: وجوب طاعة الرسول ﷺ

فرض الله سبحانه وتعالى طاعة رسوله ﷺ وورد الأمر بها فى القرآن الكريم على

وجوه تختلف باختلاف أحوال المخاطبين ومشاربهم ونياتهم، فمنهم اليهودى الذى يحتاج إلى كثرة الأدلة والمنافق الذى يحتاج إلى أسلوب التهديد والمؤمن الذى يقبل الأمر ويعرف هداية الله من أقرب طريق، وقد سلكت آيات القرآن الكريم فى بيان ذلك مسلكا مناسبا ونهجت منهجا حكيما:

١- فقد دلت مرة على وجوب طاعة الرسول بالأمر والإيمان وبالرسل وهذا يستلزم وجوب طاعة الرسول ﷺ من ذلك قوله تعالى:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾

(النساء: ١٧١).

وقال تعالى:

﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

(آل عمران: ١٧٩).

فالأمر بالإيمان بالرسل مع الإيمان بالله لا يكون إلا إذا كان مع الإيمان تصديق لما يبلغه الرسول عن الله وإذعان وطاعة لهديهم، وعلى هذا فرسولنا صلوات الله وسلامه عليه يوجب الإيمان بالرسل وطاعته واجبة كطاعتهم التى استلزمها الأمر بالإيمان بهم.

٢- ودلت الآيات أيضا على وجوب طاعة الرسول ﷺ باقتران الأمر بالإيمان به مع الأمر بالإيمان بالله سبحانه قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾

(النساء: ١٣٦).

وقال الله تعالى:

﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

(التغابن: ٨).

وقد أظهر الله تعالى فى هذه الآيات وغيرها مكانة نبيه فنص على الإيمان به ولم يكتف بالأمر العام السابق رغم دخوله فيه وذلك لأن رسالته خاتمة وبعثته عامة فاقتضت الحكمة أن يُخص بمزيد عناية ويفهم من ذلك الأمر بطاعته، قال الإمام الشافعى رضى الله عنه: "وضع الله جل ثناؤه رسوله من دينه وفرضه وكتابه الموضع الذى أبان جل ثناؤه أنه جعله علمًا لدينه بما افترض من طاعته وحرم من معصيته وأبان فضيلته بما قرن الإيمان برسوله مع الإيمان به فقال تبارك وتعالى:

﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾

(النساء: ١٧١).

وقال:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ

﴿ ... يستئذنوه ﴾

«النور: ٦٢».

فجعل لما ابتداء الإيمان الذى ماسواه تبع له الإيمان بالله ثم برسوله" أ. هـ

٣- كذلك دلت الآيات على وجوب طاعة الرسول ﷺ بإيجاب الله تعالى طاعة الرسل بإيجاب الله تعالى طاعة الرسول فقال تعالى:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾

«النساء: ٦٤».

فطاعة الرسل إذا هى الهدف من إرسالهم، ورسولنا ﷺ كواحد من الرسل داخل فى مضمون الحكم العام، فينطبق عليه الحكم بوجوب طاعته لاسيما والرسل قبله كانت شرائعهم خاصة بطائفة معينة أما رسولنا عليه الصلاة والسلام فشريعته عامة وخاتمة لذا كانت طاعته آكد وألزم.

٤- إقران الأمر بطاعة الرسول بطاعة الله

قال تعالى:

﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾

«آل عمران: ٣٢»

وقال تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾

«النساء: ٥٩»

والناظر إلى الآيات الواردة فى وجوب طاعة الرسول ﷺ يرى أن منها ما جاء فيه الأمر بطاعة الله مقرونا بالأمر بطاعة الرسول بالعطف بالواو كالآية الأولى حيث يفيد ذلك مطلق الاشتراك والجمع بينهما، أو بطريق العطف بها مع إعادة العامل حيث يفيد طلب تأكيد عموم الطاعة فى كل ما يصدر عن الرسول ﷺ ومنها ما جاء بتكرار العامل فى شيئين مع العطف على الأخير بدون تكرار العامل الأول كقوله تعالى:

﴿ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾

«النساء: ٥٩»

بدون تكرار العامل فى عطف أولى الأمر.

وهذا يدل على أن أولى الأمر ليس لهم طاعة مستقلة وليس لهم تشريع خاص يعبر عنهم وإنما يطاعون فيما شأنه أن يتلوه ويباشروه قرآنا كان أو سنة فطاعة الرسول ﷺ واجبة فى كل ما أتى سواء كان فى الكتاب الكريم أو ليس فيه.

٥- أمر الله بطاعة الرسول على الانفراد قال الله تعالى:

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾

«النساء: ٦٥»

وقال تعالى:

﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

«النور: ٥٦»

وقال تعالى:

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾

«الحشر: ٧»

ففى هذ الآيات نص صريح على وجوب طاعة الرسول والتسليم لحكمة واتباعه وهذه الطاعة فى حال حياته وبعد وفاته ففى حال حياته كان الصحابة يتلقون أحكام الشرع من القرآن الذى أخذوه عن رسولهم ﷺ حيث كان يبين لهم ما نزل إليهم، وحيث كان كذلك يبين لهم كثيرا من الأحكام حين تقع بهم الحوادث التى لم ينص عليها فى القرآن فهو إذا كان يطبق لهم الأحكام من حلال وحرام مما كان مصدره القرآن أو الوحى الذى يوحيه الله إليه:

﴿ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾

«الأعراف: ١٥٧»

ولقد حث الله على الاستجابة لما يدعو إليه الرسول ﷺ فقال تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

«الأنفال: ٢٤»

ولم يبح الله لمؤمن ولا مؤمنة مخالفة حكم الرسول أوامره قال تعالى:

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا ﴾

«الأحزاب: ٣٦»

وقد كان المسلمون ملتزمين حدود أمره ونهيه ومتبعين له فى عباداتهم ومعاملاتهم وقد بلغ من طاعتهم للرسول واقتدائهم به أنهم كانوا يفعلون ما يفعل ويتركون ما يترك ولم يجز واحد منهم لنفسه مراجعة الرسول إلا إذا كان هناك أمرا غريبا عن عقولهم فيناقشوه ليعرفوا الحكمة فيه فقط كما لم يجز واحد منهم مراجعته فى أمر إلا إذا كان فعله أو قوله اجتهادا منه فى أمر دنيوى كما فى غزوة بدر حين راجعه الحباب بن المنذر فى مكان النزول، ومثل هذا إنما حدث تطبيقا لمبدأ الشورى فى الإسلام.

وإذا كان الحال هكذا فى حياة الرسول ﷺ فإنه إنما يجب طاعته واتباع سنته بعد وفاته لأنه صلوات الله وسلامه عليه انتقل إلى الرفيق الأعلى بعد أن اطمأن تماما على أنه أرسى معالم الدين وأدى الأمانة الإلهية على منهاج الحق ووصى المسلمين أن يطيعوه ويتبعوه بعد وفاته تمسكا بالكتاب والسنة وسيرا على هديهما كما قال ﷺ: «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنتي» «رواه مسلم»

وكما وجب على الصحابة بنص القرآن اتباع الرسول وطاعته فى حياته وبعد مماته كما فى الحديث السابق وجب على من بعدهم من المسلمين اتباع سنته بعد وفاته لأن النصوص التى أوجبت طاعته عامة لم تقيد ذلك بزمن حياته ولا بصحابته دون

غيرهم، ولأن العلة جامعة بينهم وبين من بعدهم وهي اتباع لرسول أمر الله باتباعه وطاعته لهذا كله تلقى الصحابة السنة النبوية وبلغوها إلى من بعدهم.

ثانيا- منزلة السنة من القرآن وبيانها له:

تبين من البحث أن طاعة الرسول ﷺ واجبة على المسلمين وأنهم تقبلوا منه السنة كما تقبلوا القرآن مستجيبين لله الذي أمرهم باتباع النبي وطاعته وذلك لأن للرسول ﷺ مهمة هي التبليغ وبيان ما في القرآن من أحكام وقواعد وغير ذلك، فرسالته ليست قاصرة على التبليغ وإنما لابد مع التبليغ من البيان وهو الأمر الثاني في إثبات حجية السنة.

فالقرآن الكريم جاء بالأصول العامة ولم يتعرض للتفاصيل والجزئيات ولم يفرع عليها إلا بالقدر الذي يتفق مع تلك الأصول، ويكون ثابتا بثبوتها لا يعتريه تغيير أو تطور باختلاف الأعراف والهيئات ومرور الزمن لأنه الكتاب الخالد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، اشتمل على العقائد والشرائع وعلى الآداب والأخلاق فكان تبيانا لكل شيء، وجاءت السنة الشريفة توافق الكتاب الكريم وتتعرض للتفصيلات والجزئيات ففسرت مبهمه وفصلت مجمله وقيدت مطلقه وخصصت عامه وشرحت أحكامه، كما أتت السنة كذلك بأحكام لم يرد في القرآن نص عليها وجاءت بهذا متممة ومطبقة لما في القرآن الكريم فكانت مرتبتها بعد القرآن الكريم، وأيضا فإن السنة إما أن تكون بيانا للكتاب أو زيادة عليه فإن كانت بيانا فهي في الاعتبار بالمرتبة الثانية عن المبين فإن النص الأصلي أساس، والتفسير بناء عليه وإن كانت زيادة فهي غير معتبرة إلا بعد أن توجد في الكتاب، وذلك دليل على تقدم اعتبار الكتاب، وكل ما جاء في السنة النبوية على لسان الرسول ﷺ إنما يتبع مايوحى إليه لقوله تعالى:

﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾

(الأنعام: ٥٠).

ولهذا جعل الله تعالى طاعة رسوله طاعة له، وأوجب على المسلمين اتباع بيانه فيما يأمر وينهى قال تعالى:

﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾

(النساء: ٨٠).

وقال:

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾

(الحشر: ٧).

إذا قال الرسول صلوات الله وسلامه عليه حين يبين للناس ما نزل إليهم لا يصدر في بيانه من تلقاء نفسه وإنما يتبع ما يوحى إليه، وقد امتن الله تعالى على رسوله بأن أنزل عليه الكتاب ليشرح ما جاء فيه، ويظهر المراد منه فقال تعالى:

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾

(النحل: ٤٤).

الهجرة النبوية والمسلمون اليوم

أ.د. ربيع خليفة عبد الصادق بيومي
أستاذ العقيدة والفلسفة ووكيل كلية الدراسات الإسلامية والعربية البنين بالشرقية - جامعة الأزهر الشريف

كانت الهجرة النبوية الشريفة حلقة من حلقات الصراع بين الحق والباطل بين القوة والهوان، بين عبادة الله الواحد مبدع الكون وخالق البشر، وبين عبادة الحجر والوثن .. بين فترة عاش المسلمون فيها في مكة مستضعفين لا يكاد أحدهم يعلن عن شعيرة من شعائر إسلامية حتى يناله العذاب أشكالا وألوانا، وبين فترة هاجر المسلمون فيها من مكة إلى المدينة فامتلكوا بذلك زمام المبادرة وبدأوا عهدا جديدا بنى فيه النبي ﷺ أسس مجتمع إسلامي قوي نشر الحق والعدل والسلام والمساواة في ربوع الجزيرة العربية ومنها انطلقت رسالة الإسلام في أركان الدنيا تبشر بميلاد عصر الإخاء الإنساني بعيدا عن أي تمييز بين عباد الله جل وعلا.

مضت المسيرة بالنبي محمد ﷺ ونزل عليه الوحي مرة ومرة وعندئذ أدرك ﷺ أن رب الكون قد اختاره ليكون مسك الختام للأنبياء والمرسلين ولكلمة الله الأخيرة للبشرية وبدأت خطواته تلو الأخرى في تبليغ رسالة السماء فآمن به نفر قليل، استعمل المشركون معهم كل ألوان القهر والاستبداد

﴿ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

[آل عمران: ١٤٦]

وقد مرت الأيام بطيئة وبلغ الإيذاء مداه بأتباعه فما كان من النبي ﷺ إلا أن أمر أصحابه بالهجرة إلى الحبشة ثم بعدها إلى المدينة حتى لم يبق بمكة إلا عدد قليل من بينهم الرسول وأبو بكر وعلي بن أبي طالب .. وتتواصل المؤامرات على النبي ودعوته وبلغت ذروتها بالتدبير لقتل نبي الأمة ولكن تدبير الله كان أقوى فخرج من بيته وهم وقوف أمام بابه وهو يردد في مواجهتهم «شاهت الوجوه» ...

﴿ فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾

[يس: ٩]

وعند هذه اللحظة الفارقة بدأ النبي –وقد صحبه أبو بكر– الهجرة إلى المدينة حيث استقبل أروع استقبال «طلع البدر علينا من ثنيات الوداع أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع»، وفي المدينة أقام النبي ﷺ فيهم مجتمعا جديدا يقوم على الإخاء والتكافل والتعاون والشورى والوحدة والإيثار وأنهى

ما بينهم من صراعات ونزاعات قبلية وانتقل بهم إلى عبادة الله الواحد .

ونظرة تأمل بسيطة تجعلنا ندرك أن تجربة الهجرة كانت فى حقيقتها وجوهرها ثورة على الضعف وتضحية فى سبيل العقيدة والوطن وانتصارا للحق على الباطل وتحقق للنبى وأتباعه نصر الله والفتح حيث عاد المهاجرون إلى مكة وبالرغم من هذه العودة المنتصرة عفا عنهم ﷺ فى سماحة صنعت منهم أمة : «لا تثريب عليكم اليوم، اذهبوا فأنتم الطلقاء» [رواه الطبرانى] ، فماذا تقول تجربة الهجرة النبوية الشريفة للمسلمين المعاصرين فى شتى أوطانهم ومواقع إقاماتهم ؟ .

١ - الهجرة ونصرة الإسلام

لم تكن هجرة النبى ﷺ من مكة إلى المدينة فرارا من الأذى والتعذيب وإنما كانت منطلقا للدعوة وإقامة الدولة وتمكيناً لدين الله فى الأرض حيث صارت المدينة أرضا طيبة خصبة فنزلوا بها واستقبلتهم القلوب المؤمنة بالحب والود والإيثار والمؤازرة والنصرة .

إن هجرة خاتم المرسلين ﷺ وأصحابه جاءت بعد أن فتنوا وعذبوا وذاقوا كثيرا من ألوان الاستهزاء والسخرية ولكنهم صبروا واحتسبوا وأيقنوا أن المحنة تعقبها المنحة وأن الفرج يأتى بعد الشدة وأن النصر مع الصبر وأن مع العسر يسرا ، وعد الله بنصر المؤمنين حقا حين قال جل وعلا :

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾

[الصافات: ١٧١-١٧٣] .

ويقول تعالى:

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾

[الأنعام: ٣٤]

وهكذا تحمل رسول الله ﷺ والمؤمنون فما وهنت عزيمتهم ولا ضعفت نفوسهم بل ازدادوا إيمانا مع إيمانهم .

كما أثبتت الهجرة النبوية أن القوة المعنوية هى الحافظة للمكاسب وليست القوة المادية فإذا كانت الأمة غنية فى خلقها وعقيدتها ومبادئها الاجتماعية الصحيحة فإن سلطانها المادى يغدو أكثر تماسكا وأرسخ بقاء أما إذا كانت فقيرة فى خلقها مضطربة فى عقيدتها ونظمها ومبادئها فإن سلطانها المادى يغدو أقرب إلى الاضمحلال ومكتسباتها المادية أسرع إلى الزوال .

على تلك السنة كانت هجرة النبى ﷺ وأصحابه حيث كانوا أوفياء لدينهم مخلصين لربهم امتحنوا بترك وطنهم وأموالهم وعلى ذلك ضحوا بكل شىء تاركين كل متاع الدنيا ليسلم لهم الدين واستعاضوا عنه بالأخوة الإيمانية لله وفى الله وهذا هو المثل الصحيح للمسلم الحق الذى يخلص لله فى دينه .

٢ - والهجرة لم تعرقلها المكايد

لم تكن الهجرة هى ترك بلد ما إلى بلد ظروفه أفضل وأمواله أكثر ، ولا كانت هروبا وفرارا من الأذى والتعذيب ، وإنما جاءت امتثالا للأمر الإلهى فاستجاب المؤمنون وتركوا ديارهم وأعمالهم وأموالهم وذكرياتهم وذهبوا إلى المصير المجهول .. إلى حياة جديدة لن تكون أنعم مما تركوا بل هى أشق وأصعب ، فيها جهاد وحروب .

وحتى فى طريق هجرتهم لاقى المسلمون الأوائل الصعاب واستخدمت قريش معهم أساليب متعددة للحيلولة دون هذه الهجرة .

ومن الأساليب التى حاولت بها قريش إثناء المسلمين عن هجرتهم أسلوب التجريد من المال الذى استخدموه مع صهيب الرومى -رضى الله عنه- حيث أوقفوه وقالوا له: أتيتنا صعلوكا حقيرا فكثر مالك عندنا وبلغت ما بلغت ثم تنطلق بنفسك ومالك ؟ والله لا يكون ذلك ، فقال : أرأيتم إن تركت مالى تخلون أنتم سبيلى ؟ فوافقوا ، فجمع ماله كله وأعطاهم إياه ، فلما بلغ ذلك النبى ﷺ قال : «ربح صهيب .. ربح صهيب» وأنزل الله تعالى قوله :

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾

[البقرة : ٢٠٧] .

٣ - الهجرة والإخاء الإنسانى

إن الهدف من الرسالات السماوية أن يتعاون الناس جميعا فى صنع التنمية ورفاهية الشعوب ، ومطلوب من الأمة الإسلامية أن تغادر محنتها التى صنعها التشرذم والاستغراق فى الذات وأن تبادر بالانغماس فى روح العصر واستخدام لغته فى بناء الكيانات الكبرى سياسيا واقتصاديا وعلميا .. وأمامنا كمثال الاتحاد الأوروبى الذى تجمعت دوله على أهداف كبيرة يبنون بها مستقبل أوروبا .

وأزعم أننا لسنا أقل منهم ، فلدينا كعرب ومسلمين كل مفردات وعناصر الكيانات الكبيرة : البشر والثروات المتعددة فى باطن الأرض وفوقها والموقع الجغرافى والعلماء الذين يصنعون التقدم وغير ذلك من المفردات التى يمكن لو استغلت وتجمعت الإرادات فى إرادة واحدة وتوحدت الأهداف أن تبنى الأمة كيانها الكبير الذى يقف على قدم المساواة مع الكيانات الأخرى ويتفاعل معها أخذا وعطاء وفى تنافس يحافظ على الهوية ويدعم شخصية هذه الأمة ويحمى إرادتها فى استقلال قرارها واستغلال ثرواتها ويحول بينها وبين اعتداءات غير مبررة على وطن من أوطانها أو فرض الهيمنة عليها ..

ومن منظور الهجرة النبوية ندرك أنها لم تكن مجرد انتقال من مكة إلى المدينة وإنما كانت عبورا بالمسلمين والعالم من حولهم يوحى إليهم بالأمل والعمل ويذكرهم دوما بأنهم أبناء رسالة حررت العقول وحضارة مدنت العالم وعبرت بالإنسانية إلى طريق العدل والخير والسلام .

إن على المسلمين فى عام جديد أن ينبذوا الفرقة والخصام والشتات وليكن دينهم رحما بينهم وبين إخوانهم من أتباع الديانات الأخرى ، ووطنا يجمع شمل الجميع ، ولنعلم جميعا أننا فى قارب واحد .. ننجو معا أو نغرق معا .. وهنا يبرز دور مصر التى تقول وقائع التاريخ إن أى يقظة عربية أو إسلامية تبدأ من مصر التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم عدة مرات وأوصى بها سيدنا محمد نبى الأمة ﷺ خيرا : عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جندا كثيرا ، فذلك الجند خير أجناد الأرض» فقال له أبو بكر الصديق : «ولم يا رسول الله ؟» قال لأنهم وأزواجهم فى رباط إلى يوم القيامة» [كنز العمال – حديث رقم ٣٨٢٦٢] ، وعبر

الزمن الممتد مارست مصر ومازالت تمارس دور الرائد الذى لا يكذب أهله والدرع الواقية لأمتها أمنا وسلاما.

٤ـ الهجرة وحب الوطن

إن حب الوطن لبنة مهمة فى بناء الإنسان، ولقد كانت مؤتمرات الكفار تدور حول شل الحركة، والقتل، والإخراج من الوطن، يقول جل شأنه:

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾

[الأنفال: ٣٠].

والهجرة علمتنا حب المكان، وهو الوطن فنرى المهاجر الأعظم المخلص لبلده ومكانه ﷺ، نرى حبه واشتياقه حينما يقف مودعا مكة، وعيناه تذرف دمعا قائلا ومخاطبا البلد الذى منحه الكثير والكثير فى طفولته ورجولته وكهولته (مكة مهبط الوحى) كل ذلك يسترجعه النبى ﷺ قائلا: «والله لأنك أحب بلاد الله إلى الله وأحب البلاد إلىّ، ولولا أن قومك أخرجونى منك ما خرجت»، ولكن قانون العودة يأتى للنبى ﷺ فى فترة قصيرة فى أثناء خروجه من مكة فيتنزل عليه قوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾

[القصص: ٨٥]

مشفوعا بقوله تعالى أيضا:

﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾

[الإسراء: ٨٥].

ولقد ضرب الرسول ﷺ ساعة الهجرة حب الأوطان المثل الأعلى موجها إلى البشرية بعامة والمسلمين خاصة أن يحسنوا الولاء والانتماء إلى الوطن وأن يكونوا متآلفين متعاطفين متوادين، يودعون حياة السلبية والكسل ويلتزمون حسن القول وصالح العمل وجادة الإيجابية، يحرصون على طاعة الله سبحانه وتعالى وطاعة رسوله ﷺ.

٥ـ الهجرة والتغيير

كانت الهجرة نقلة استراتيجية حرص فيها الرسول ﷺ على أن يحمى الدعوة الإسلامية وبعد مرور ما يقرب من خمسة عشر قرنا تتأكد حاجتنا دائما إلى الهجرة التى لا ترتبط بزمان ولا مكان ولا أشخاص، إنها هجرة حتمية من السيئات إلى الحسنات، ومن المعاصى إلى الطاعات.

نعم نحتاج إلى هجر الاحتكار والتدليس والرشوة إلى قيم الالتزام الضابطة لمعاملاتنا نهاجر من الجهل إلى العلم، ومن الجمود إلى الاجتهاد والتفكر.. نهاجر من الضعف إلى القوة ومن التفكك والتشرذم إلى الوحدة والترابط.

فالهجرة لا بد أن يتبعها تغيير يفعّل دورها، وهو ما يؤكده القرآن الكريم فى غير موضع، منها قوله تعالى:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

[الأنفال: ٥٣]

والتغيير لابد أن يكون إيجابيا، حتى يتحقق الرقى والتقدم ونصل به إلى رضا

المولى عز وجل.. فإذا ما أيقنا حاجتنا للتغيير وهجر المنكرات والمعاصى والسلبيات.. كنا قادرين على أن تستعيد أمتنا قوتها من جديد لتتأكد لها الخيرية التى اختصها بها المولى عز وجل فى قوله تعالى:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾

[آل عمران: ١١٠].

وبعد: فإننا نحتاج إلى أن نخاطب العالم بلغته التى يفهمها، ونحتاج إلى أن نُبَصِّر إخوتنا فى الإنسانية بعظمة الرسول ﷺ سيد البشرية ومنقذ الإنسانية وفق منهج علمى مدروس، وذلك من خلال جامعاتها لاستعراض سيرته العطرة وتعريف العالمين بها شريطة أن تكون هذه المحاضرات مصحوبة بترجمة فورية للغة أهل البلاد التى يتم زيارتها، وأن تقدم كتب إسلامية مترجمة إلى اللغات الأجنبية.

إننى من منبر مجلة الأزهر الغراء أوجه ندائى إلى المخلصين الذين يحبون رسول الله ﷺ فى حصن الإسلام المنيع، الأزهر الشريف ووزارة الأوقاف ومجمع البحوث الإسلامية، إلى تبنى فكرة التعريف بالنبى ﷺ ونشر سيرته والدفاع عنه بجميع اللغات.

إن أحداث الهجرة وفلسفتها وما أسفرت عنه من نتائج تصرخ فى المسلمين وتهتف بهم أن يهاجروا من الضعف إلى القوة ومن التشرذم إلى التوحيد وأن يستوعبوا لغة العصر وأن يتعاملوا مع العالم الجديد بنفس أسلحته وأن يضعوا فى اعتبارهم أن المجتمع الدولى لا يقيم وزنا للكيانات الصغيرة.. وأنتم يا مسلمون تملكون كل مفردات وعناصر الكيانات الكبرى.. وكل ما تحتاجون إليه هو توظيف هذه المفردات ليكون لكم كيان ينافس فى قوة تلك الكيانات التى تحاول الهيمنة عليكم وطمس هويتكم.

إن الهجرة حولت حقيقة هذا العالم الإسلامى من فوضى إلى نظام، ومن جمود إلى حركة، ومن ضعف إلى قوة، ومن ذل إلى عزة، ومن وهاد سحيقة إلى قمم عالية.

وغار ثور الذى تحول من غار ضيق وكهف مظلم إلى مكان متسع فيه النور والطمأنينة وفيه حماية الله للنبى وصحبه. فمن هذا المكان خرجت الهجرة بالنبى وصاحبه إلى عالم أرحب وأفسح وأوسع.

وبعد أربعة عشر قرنا وربع القرن ما يقرب من مليار ونصف مليار مسلم يجب عليهم جميعا أن يهاجروا من المعصية إلى الطاعة ومن الجهل إلى العلم، ومن الرضوخ والاستكانة إلى القوة، ومن التخلف والتقهقر والتراجع إلى التقدم والرقى. وهذه هى الهجرة التى نحتاجها اليوم والتى لا تزال.. وتلك لعمرى مهمة جليلة لعلكم تستفيدون من الهجرة فى حسن أدائها لتعودوا كما بدأتم خير أمة.

ندعو الله أن تكون أيام العام الهجرى الجديد خير وبركة وأمنا وسلاما ورخاء على مصر وأمتها العربية والإسلامية وعلى العالم بأسره.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الدولة النبوية النشأة والتأسيس «٢»



أ. د. محمد الشحات الجندى
عضو مجمع البحوث الإسلامية

اتفاق قوى المجتمع فى يثرب

وفى غمرة تطور الأحداث، بادر الرسول ﷺ إلى اتباع أسلوب لم يسبق إليه، حتى يمكن من خلاله استطلاع رأى الأنصار بحرية وشفافية، فى شأن الوطن، والسياسة الحاكمة فيه، بغية تحقيق الخير والصالح المشترك للمهاجرين والأنصار وسائر القاطنين فيه.

وتمثل ذلك الأسلوب فى اختيار ممثلين عن الأنصار يعبرون عن رأيهم، ويطرحون فكرهم ويشاركون فى رسم السياسة العامة، ودعم حقوق الأفراد فى الكيان السياسى الجديد المؤسس على المرجعية الإسلامية على أرض يثرب، ذات التنوع الدينى والعرقى والأيدولوجي.

ويأتى اختيار هؤلاء الممثلين للتعبير عن رأى قوى وأطياف المجتمع فى يثرب، ليتكون من هذا النسيج القاعدة العريضة وقوفًا على كل رأي، وتعبيرًا عنه بدقة وأمانة، يأتى ذلك كوسيلة فاعلة وجادة وغير مسبوقة فى تجارب الأمم والعالم فى ذلك الوقت، وقبل أن تسفر عنه التطورات الأخيرة فى الفكر السياسى الحديث

وعلى هذا الأساس اختار الرسول ﷺ اثنى عشر نقيبًا ليكونوا على قومهم بما فيهم، فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيبًا، تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس، فلما تخيرهم، قال للنقباء: أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم، وأنا كفيل على قومي.

وفى ذلك يقول عبادة بن الصامت: بايعنا رسول الله ﷺ بيعة الحرب، على السمع والطاعة فى عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا وأثرة علينا، وألا ننازع الأمر أهله، وأن نقول بالحق أينما كنا، ولا نخاف فى الله لومة لائم.. وهى أيدولوجية تتجه إلى بناء شخصية الفرد، وتأهيله فى المشاركة المجتمعية على سند من التربية الإيمانية التى غرسها الرسول ﷺ فى أصحابه، وشكلت مواقفهم تجاه الدين والمجتمع، حتى أصبحت سمة خاصة من سمات الشخصية المسلمة.

التحول بالدين إلى الوطن الجديد

من الطبيعى تحت إمرة القيادة الإسلامية، التى اتخذت أسباب الاستقرار فى مجتمع يثرب، أن يطمئن المهاجرون إلى الوطن الجديد، بنصر الله لهم، بعد أن تمهدت للهجرة أسبابها، وصار للإسلام موطنٌ يلوذ إليه أتباعه وأصبح أهل الإسلام فى منعة وعدة من أهل يثرب ينافحون عنه، ويردون نصرته والذود عن حياضه ورسالته عن حب واقتناع.

ولم يكن هذا التطور الجديد يرضى المشركين، فقد ازدادوا فى التضييق على المسلمين، فشكا ذلك الأصحاب إليه، فقال لهم الرسول[١]: «قد أخبرت بدار هجرتكم وهى يثرب، فمن أراد الخروج فليخرج إليها»، وبذلك فقد أعطاهم الرسول إشارة البدء التى على أساسها أقبل المسلمون فرارًا بدينهم إلى موطن الإسلام الجديد فى يثرب «المدينة»، فكان من يهاجر منهم إلى يثرب يلقى التأييد والترحاب، ويجدوا تمكين الإقامة فيها، بتوفير الأنصار لهم المأوى والنصرة والعيش الكريم، فى ظل التكافل المبنى على الإيثار وهو ما وصفه الله تعالى:

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾

(الحشر: ٩).

كانت الهجرة إذًا فتحًا لوطن آمن، الأمان للدين ولأتباعه من بطش المشركين المتربصين بأصحابه، قصد بها انتشار الدعوة ونشر الرسالة، وبث الثقة لدى المسلمين على مستقبل الإسلام ومواجهة المعادين له والساعين إلى وأده والمتربصين له الحريصين على ألا تقوم له قائمة فى أم القرى وفى أى مكان من جزيرة العرب، ناهيك عن أى مكان آخر سواها وعلى حين غلب هذا المشهد الرافض للدين، فقد واكبه تحرك المسلمين للمواجهة بالفهم والتبصر بكل المعطيات القائمة المحركة للأحداث على أرض الحجاز، فقد وضع الرسول ﷺ خططه لإحكام وتماسك بنية المجتمع، وتعايش أبنائه، واختيار الموقع الأكثر أمنًا وسلامًا للدعوة والدين الجديد، لنشر الإسلام وجمع الكلمة، مع قناعة وإيمان عميق من المسلمين بنصرة الله وعون منه تعالى، وحسن بلاء وإخلاص وسلوك سبل النجاح وتوطيد أركان الموطن الجديد الناهض وتأسيس مجتمع الإيمان ودولة الحق، لتحقيق الغاية من رسالة الإسلام:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾

(الأنبياء ١٠٧)

عن طريق التكامل بين العنصرين المادى والروحى، وتقوية نسيج الفرد والجماعة على سواء.

دعائم وأسس المجتمع الناشئ

من الحقائق المسلم بها أن المقدمات الصحيحة تقود إلى نتائج سديدة، وأن التهيئة الجادة للأمر، والعمل الواعى من أجله، يؤدى إلى إنجاز فعال، وهو الحاصل فى مبدأ الهجرة، وفى وقائعها، وفى التدابير والفعاليات التى اتخذت فى سبيل بلوغ

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، جـ١، ص ٢١.

المراد منها وفيما انتهت إليه فقد أعطت النموذج الفذ في التعامل مع كل شيء، سواء من حيث قدرات الأشخاص أو أهمية المكان والزمان والسياسات أو الاستراتيجيات. فهي على الجملة جسدت في كل أحداثها بحق قيادة رشيدة، لم تتوفر لأي شخصية قادت للتحولات العظيمة للبشرية كلها في أمور الدين والتاريخ والاجتماع والسياسة على المستويات جميعًا وفي كل الجوانب والمقومات الشخصية والقيادية بغرس الفطنة والحنكة والقوة والإخلاص والأمانة، فلم يجتمع لإنسان آخر مثل ما توفر لقيادة محمد النبي والرسول:

﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾

(الأنعام: ١٢٤)

وإذا كان ذلك على مستوى الشخصية الرئيسة، فإن الأتباع والأصحاب حازوا من الإيمان والفضل والجدارة والبذل والتضحية ما فاق الأتباع والحواريين في الأمم الأخرى للأنبياء والمرسلين، وشعوب القادة الفاتحين عبر التاريخ الإنساني كله، ويكفي في سبق هذا الجيل وأثره ودوره الشهادة القرآنية:

﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾

(التوبة: ١٠٠).

كما أنهم طليعة الأمة الإسلامية، ورأس الخيرية ومصدر الأعمال الكبيرة وبناة الحضارة:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾

(آل عمران: ١١٠).

ويقينًا فإن منظومة الدين الجامعة، والعطاء النبوي والعمل الراشد للأصحاب والأتباع وقوة اليقين بأن الإسلام دين الحق، وأن الرسول محمداً ﷺ هو عنوان الصدق والعدل، كانت القاطرة إلى المنجزات وحققت السبق والتقدم والأعمال الكبار، التي آلت إليها إسهامات الأمة على مدى الأزمان والأجيال. فضلًا عن أنها النبراس والهدف الذي تتمثله الأمة وتعمل على بلوغه والوصول إليه.

ولا يقف أثر هذه الأعمال والفعاليات على الدين والمدنية والحضارة التي جاء بها الإسلام للأمة، وإنما امتد هذا الأثر إلى الاجتماع الإنساني في الدين والسياسة والثقافة والحضارة، بحيث يعتبر معلمًا فارقًا، يؤرخ به لمسيرة البشرية في حقبة ما قبل وما بعد الإسلام، بما يسجل عطاءً بالإسلام للإنسانية بعد ظهوره، وبعث النبوة في محمد ﷺ رسول الله للعالمين، ويسجل به باعتباره نقطة تحول لمسيرة الإنسانية في عصور ما قبل الإسلام، ولهذه المسيرة في عصور ما بعد ظهور دولة وأمة الإسلام.

ولا أدل على شواهد هذا الأثر البارز بكل المقاييس، من إيراد نماذج للإسهام الإسلامي الذي أحدثه الإسلام، ووضع لبناته الرسول ﷺ لتشييد مقومات الدولة، وبيان أصول ومعالم الدين في الجوانب الإيمانية والحياتية في كل مسار الإنسانية وتاريخ العالم كله.

(١) تأسيس مجتمع الإيمان

بالهجرة إلى يثرب فتحت الأبواب على مصراعيها لترسيخ المعتقد الإيماني الصحيح الذي يصوب العقيدة الإيمانية، ويؤكد على جوهرها الناصع المبني على الإيمان بالله والملائكة والكتب المقدسة والرسل جميعا، في إطار يجمع فيه الإسلام بين أصول الأديان السماوية، ليرسي بين أتباعها سبل التعايش والتفاهم والتوادد ويلتزم فيها المسلم بعبقرية دين التوحيد بالإيمان بالإسلام والمسيحية واليهودية، وبالأنبياء جميعًا بلا تفرقة بينهم، وهو مقرر ومعلوم من الإسلام بالضرورة:

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾

(الشورى: ١٣).

فلم يأل الرسول ﷺ جهدًا في غرس هذا المفهوم الشامل للإسلام لدى الفرد والجماعة في كل الأنحاء والأوقات في محيط أم القرى «مكة المكرمة» ويثرب المدينة المنورة وفي كل مكان إذ قدم به مجتمعًا إيمانيًا، وقيمًا حضارية ما لبثت أن عم نورها أرجاء الجزيرة وانتقلت إلى آفاق رحبة تجاوزت الحدود والسدود، وأينعت ثمارها وسطعت على شعوب العالم قاطبة بدعوة أتباع الأديان وقادة الأمم إلى كلمة سواء ولا غرو فهو مفهوم يؤصل المشترك الإنساني على الدين الجامع، ويرتقي بالعالمية، ويوجه إليها، ويضاد الصراعات والخصومات، وهو ما يجعله بعثًا جديدًا وقدومًا مظفرًا للدين الخاتم على المستوى الديني، وقد صحح التصورات الخاطئة والضالة عن الله الإله المعبود بحق، المتفرد في وحدانيته وطلاقة قدرته وحاكميته للخلق والخلائق جميعًا، ليس في العقيدة وحدها، وإنما في أمر الحكم والتشريع:

﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(يوسف: ٤٠).

وقيمة التفرد الإسلامي في إبراز وتأكيد ذلك المفهوم الشامل للدين أنه بتصوره الجامع والعميق أرسى أصول المدنية المتحضرة في إقامة مجتمع التنوع في الأديان والأجناس والألوان، وقام على تحرير العقل من سطوة الجهالة وربقة التقليد وسيطرة الخرافات والأوهام تلك التي رانت على العقل وحجته عن التفكير السديد، والرؤى البصيرة ففتحت الآذان الصم والبصائر العمي والقلوب المغلقة:

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾

(ق: ٣٧)

ففتح الباب أمام العقل على طريق الإبداع والفكر الخلاق:

﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾

(يونس: ١٠١)

فهذا هو العقل الإيماني المتبصر يكشف عن التلاقي بين النقل والعقل وأنه لا خصومة

بين الإيمان والعلم، ويحث الفكر على النظر والتأمل فى ملكوت الله، وسلوك طريق الاجتهاد الرشيد لما ينفع الناس ويرتقى بالحياة.

لقد حرص الرسول ﷺ أن ينتصر للإيمان فى البيئة الجديدة، وأن يتحول بالإسلام إلى التأييد والقبول بديلا عن الرفض والمقاومة على نحو يجد فيه الإنسان نفسه ويكتشف ذاته، ويستعيد به حقوق الإنسان وأخصها حقه فى المساواة والكرامة والحرية، والعدالة فالكل فى نظر الشرع الإسلامى سواء فى صفة العبودية فهم عباد الله جميعا، وهذا قمة الحرية فى علاقة الإنسان مع الأباطرة والحكام، ونقض للدولة الدينية وخطاب القرآن والسنة يرسى أسس المواطنة الآدمية، فإن الإنسان أخ للإنسان بغض النظر عن اختلاف العنصر أو الجنس أو اللون أو اللغة كمعلم من معالم الشخصية الإنسانية التى يتساوى فيها الناس فى العبودية، والإيمان بخالق الوجود، وأن الكل متساو فى أصل النشأة وأمام الشرع والقانون:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

(البقرة: ٢١)

فإذا عقل المخاطبون تلك الحقيقة الإيمانية، فلا مجال للتفاخر بالأنساب ولا بالأحساب، ولا عصبية جاهلية تمتهن كرامة الإنسان أو تفرق بينه وبين غيره وهى من الآفات التى طالما نتج عنها العديد من المساوئ والشرور للبشرية ومن هنا فإن حقيقة الإيمان بالإله الحق، أن الناس جميعا جاءوا من أب واحد هو آدم، وأم البشر حواء وأن منهما تناسل الخلق، وعمرت الحياة، ووجدت البشرية:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾

(النساء: ١)

هذا الخطاب العالمي الإنساني، يؤكد بما لا يدع مجالا للشك فى أن الإيمان بالله يؤصل القواسم المشتركة الجامعة بين الناس، ويدعوهم إلى كلمة سواء، وهو ما افتقدته البشرية طول تاريخها، فى العالم القديم والوسيط، التى كانت غارقة فى مستنقع الوثنية والشرك.

هذا التحول الذى أحدثه بناء الدولة فى الإسلام، على أسس الأخوة العالمية يمثل طفرة غير مسبوقة لا تزال البشرية فى حاجة ملحة إليها، وينبغى أن تتصالح جميعا على الإيمان، وأن تتجه جديا من أجل بعثه فى النفوس الضالة، وأن تتكاتف لمكافحة الإلحاد، والوقوف سويا ضده كملاذ أو طوق نجاة للإنقاذ والسير على جادة الطريق الذى يملأ العالم عدلا وحرية وكرامة، وهى من أسس الحياة الكريمة.

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

(الأنعام: ١٢٢)

(٢) الانتماء والولاء للهوية والوطن:

الانتماء شعور وإحساس وجدانى كامن فى النفس، يعمق فيها الارتباط بالمبدأ أو الوطن بحيث يملك على الفرد كيانه، ووجوده يتمثل فى انحيازه له والتضحية من أجله فيكون موجها له يهتم به ويعيش فيه كجزء منه لا ينفصل عنه.

فالانتماء رباط جامع بين الفرد والدولة لا ينفك أحدهما عن الآخر، بما يؤسس بينهما، بحسبانه يجعل من الفرد موطنا صالحا فيه يلتزم بمصالح الوطن الذى يحتضنه فيتعاون فيه مع أبنائه ويدفع عنه الأخطار المحدقة وفيه يكتسب حقوقا ذات أبعاد سياسية وقانونية واجتماعية، وتفرض عليه أن يلتزم بهوية الدولة والنظام العام فيها، كتعبير خالص عن مسئولية واجبة عليه، يجد ذاته فيه ويسعى لرفعته والنهوض به.

فإذا عبرنا من مفهوم الانتماء إلى الولاء، فسنجد أن الولاء أعمق من الانتماء فإنه رابطة إيمانية متجذرة فى نفس الفرد تعبر عن شعور متجذر فى النفس والقلب والعقل تجعل من حب المبدأ أو الوطن ركنا ركينا فى شخصيته وتسمو به عن رابطة الانتماء.

ومهما كان الأمر، فإنه لا تعارض بين الانتماء والولاء، فالصلة ممتدة وقوية بينهما ويكمل كل منهما الآخر، إذ يجتمعان فى قواسم مشتركة وأسس جامعة، آية ذلك ما فعله الرسول ﷺ فى مجتمع المدينة بخصائصه القائمة على التنوع فى الدين والثقافة والجنس واللغة، فقد اجتمع لدى المسلم العنصران الانتماء للدولة والولاء للدين.

وجاء القرآن مخاطبا المسلمين:

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾

(المائدة: ٥٥)

فهذا الولاء يتأسس على الرابطة الإيمانية النابعة من الإيمان بالله ورسوله وأخوة الإيمان، وإقامة أركان الإسلام، ومن ثم يلتزم المسلم بالوفاء بحقوقه عليه كجزء من العقيدة، ويؤديه كعبادة.

فمن استمسك بهذا الولاء فإن سبيله الفلاح والنصرة فى الدين والدنيا، لأنه طريق تجذر الإيمان وعزة الأوطان:

﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾

(المائدة: ٥٦)

وليس من الولاء الصحيح ولا الانتماء الحق أن يتبارز المختلفون فى العقيدة أو الجنس أو اللون أو اللغة بالعصبية التى تناقض حقيقة الولاء، وتضيق من رحابة مفهومه المتسع وأن يسعى كل طرف بفرض دينه أو ثقافته على المخالف أو يتعالى بها على أخيه فى الوطن، فإن هذا يولد الصراع، ويفجر الخلاف، ويشعل نار الفتنة، وهذا منهى عنه فى دين الإسلام، ومعول هدم للأمة والوطن.

﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾

(الأنفال: ٤٦)

فالواجب ترشيد هذا الاختلاف، ومنع النزاعات، وسد أبواب الفتن بين عناصر الأمة وجماعاتها، والقيام بما يفرضه الدين، وتستلزمه الأخوة الوطنية برعاية المصلحة وإقامة العدل والحماية لهم:

﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾

(الممتحنة: ٨)

وهو الصنيع الذى فعله رسول الله ﷺ معهم وجعله حقيقة كائنة على أرض الواقع، يشهد له ما رواه البخارى أنه قال: أطعموا الجائع وعودوا المريض، وفكوا العانى «قال أبو عبيد: (٢) وكذلك أهل الذمة يجاهد من دونهم، ويفتك عناتهم، فإذا استنقذوا رجعوا إلى ذمتهم وعهدهم أحرارًا».

فإذا كان ذلك، ثبت الانتماء، وارتبط بهذا الوطن الذى آواه وأيده، وكان عونا له فى السراء والضراء.

تكريس الانتماء والولاء

الولاء والانتماء صلة عميقة، ليست عرضية، تتغلغل فى بنية الفرد، وعلى هذا الأساس تأصل رباط الانتماء والولاء للدين والوطن وقامت الدولة الفتية على هديه، وصار أداة الألفة بين القلوب المتنافرة، والأطياف المتخالفة، ولم يكن بدونه أن يتأسس البنيان على أعمدة راسخة وأن يترسخ الشعور بالمودة والتراحم بين أمة المؤمنين، وأن يمتلك فؤاد الرسول ﷺ فيما أظهره من عاطفة دافقة وحب عميق، ولسان صادق عندما قال ﷺ: «والله إنك لأحب بلاد الله إلى، ولولا أن أهلك أخرجونى منك ما خرجت» (٣) وعلى حين كان ذلك الموقف من النبى نحو وطنه المولد ومهد الدعوة، والمربى والنشأة، فإنه عمق هذا الولاء فى وطن الدولة فى يثرب، فى بيعة العقبة الثانية عند التمهيد لإنشاء دولة المدينة، عندما قال له الهيثم بن النبهان (٤) يا رسول الله: إن بيننا وبين الرجال حبالا وإنا قاطعوها، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟.

فيتبسم رسول الله ﷺ وقال: بل الدم الدم والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم منى، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتهم» فتأمل هذا الولاء الذى شابه لحمة الدم، ورابطة النسب.

توجه الرسول بهذا الولاء فى كل جهد وعمل، وألح عليه حتى انطبع فى ضمير الفرد وفى بناء المجتمع والأمة فأصبحت قوية متماسكة، امتزجت عناصرها والتلفت فى نسيج واحد لتشييد بنيان دولة التوحد والتنوع والدين والمدنية، وهو النموذج المتفرد فى عالم الدول، انطلقت به تدفع عن نفسها الأخطار المحدقة بها من الأعداء، ويتعايش فيها أبناؤها فى مودة وسلام وأمن وأمان، يحصل فيها كل فرد وجماعة على حقوقه الدينية والاجتماعية، وتقوم على المواطنة على نحو يكون الفرد فيها مواطنا يتمتع بالحقوق ويتحمل بالواجبات، بلا تمييز بسبب الدين أو الجنس أو اللون أو العرق، ينصهر فيها الجميع بالانتماء للدولة الوليدة والهوية الإيمانية.

وإذا كان النبى ﷺ قد أرسى الانتماء

(٢) كتاب الأموال، تحقيق محمد خليل هراس، ١٩٧٥، ص١٦٨.
(٣) مسند أحمد، طبعة الرسالة.
(٤) راجع، مسند الإمام أحمد، والطبري، وسيرة ابن هشام.

فى الوطن الجديد فإن الانتماء لهوية الدولة ونظامها العام لم يصادر الولاء الذى يحمل خصوصية أعمق، يكون لأصحاب الأديان المختلفة ولاؤهم وإيمانهم بعقائدهم الخاصة، وشرائعهم المتباينة:

﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾

المائدة: ٤٨.

وشاهد ذلك التعايش والترابط بين المسلمين واليهود فقد احتفظ اليهود بولائهم لدينهم ومعتقدهم:

﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾

(الكافرون: ٦)

فقد اعترف لكل فرد فى المجتمع بخصوصيته، وفقا للقاعدة: «أمرنا بتركهم وما يدينون» ومع هذه الخصوصية الدينية، فقد انضوى الجميع تحت لواء الأمة، كما جاء فى صحيفة المدينة فهم أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته (٥).

وهذا النص يبرهن على قيمة الانتماء والولاء للدين والوطن ويؤكد مشروعيته وضرورته فى دعم بناء الأوطان، ويضحى القيام به، وسلوك السبل الموصلة إليه، واجبا شرعيا، وحتمية وطنية.

إذا كان ذلك، فإن الحاكم المسلم يتعين عليه أن يحرص عليه، وأن يتخذ من الإجراءات والفعاليات ما يؤدى إلى تحقيقه وتعمل على تجسيده، وإشاعة ثقافته بين أبناء الوطن، استنادا إلى القاعدة الشرعية: «ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب».

ويجب أن يدعم الحاكم فى ذلك المؤسسات العامة والخاصة فى الدولة، مؤسسة المسجد ومؤسسات الإعلام والتعليم والثقافة، ومنظمات المجتمع المدنى، ويكون الضامن والحامى لذلك الضمير الحى لجموع الشعب وأبناء الوطن، فإن دورهم فى تعميق الإحساس بالانتماء والولاء أساس مكين وعليهم أن يجعلوا منهما حقيقة واقعة، تبرهن عليها المواقف والأحداث عند الشدائد والخطوب.

ولا يجوز على هدى ذلك أن يكون الانتماء لفئة دون فئة أو لأتباع دين دون الدين الآخر، إذ المسئولية عامة، ومطلب ينطبق على الكل: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالأمير الذى على الناس راع عليهم، وهو مسئول عن رعيته والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عنهم، وامرأة الرجل راعية على بيت زوجها وولدها وهى مسئولة عنهم.... ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته» (٦).

ومن ذلك نعلم أنه لا وطن ولا دين دون ولاء وانتماء فلا يمكن لبناء قويم، وشعب قوى أن تقوم له قائمة دون أن يؤمن المواطن فيه بهوية الدولة، ويعمل على احترام نظامها، وأن يدرأ الضرر عنها، يقوم على مصالحها، قيام الحريص عليها، الباذل كل غال ونفيس من أجلها.

(٥) انظر، مسند الإمام أحمد، جـ٢١، ص١٠.
(٦) يعلق أبو عبيد فى كتاب الأموال، مرجع سابق، ص١١ بقوله: هذا حديث عظيم فى توزيع المسئولية على المؤمنين كل بحسب وظيفته واختصاصه.

ملامح منهج النبى ﷺ فى التربية اللغوية للصحابة رضى الله عنهم



أ. د. خالد فهمى
كلية الآداب/ جامعة المنوفية

النبـــوة واللغـــة :

استقر الأمر فى باب النظر إلى أمر النبوة فى الاعتقاد الإسلامى أنها هبة ربانية ، لا مدخل للصناعة البشرية فيها ، وهو ما يفسره قول القائلين إن النبوة اصطفاء ربانى وهو بعض المعنى الذى يسكن قوله تعالى:

﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ﴾

[سورة الحج :٧٥]

و مع هذا المستقر فإن ثمة ملامح مهمة توحى بما يمكن للناس أن يستفيدوه ، من علامات الرعاية الربانية للنبى ﷺ على طريق تهيئته ﷺ لحمل الرسالة و توظيف ذلك الذى استفادوه فى برامج التربية المختلفة ، و لا سيما اللغوية منها .

ومن ملامح رعاية الله لنبيه ﷺ ملمح يمكن أن يستثمر فى نطاق التربية اللغوية ، يقول تعالى :

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ﴾

[سورة الضحى :٦]

وفى الآية لفظ مهم يحتاج إلى قدر من الفحص ، وهو آوى ، ذلك أن الإيواء معنى جامع هنا بما توافر لتحقيقه انتقال النبى ﷺ إلى البادية فى بنى سعد ، و البادية بيئة لغوية نوعية فصيحة ، و يصبح مفهوم استرضاع النبى ﷺ فى بنى سعد متوجها إلى الاسترضاع الذى به نمو الجسم ، والاسترضاع الذى به نمو اللغة نموا خاصا و متميزا من خلال الاختلاط بلغة البادية الفصيحة ، و هو نوع تهيئة تعين على الوظيفة الكبرى فى حياة كل نبى ألا وهى البيان و البلاغ إلى الناس ، يقول ﷺ « أنا من قريش و نشأت فى بنى سعد فأنى لى اللحن» (مراتب اللغويين ص٢٣) .

ومن ثم فإن بإمكاننا أن نقرر أن رعاية الله تعالى لنبيه بتربيته لغويا أمر ظاهر العلامات، ومنطقى من جهة أن اللغة هى الآلة العبقرية الحاملة للرسالة ، و المؤدية للهدى و المحققة للبلاغ.

ومن المباحث النادرة فى تناول السيرة النبوية معالجة منهج النبى ﷺ فى تربية الصحابة رضوان الله عليهم لغويا .

صحيح أن العلم الإسلامى يرى فى الصحابة منجزا تربويا أنتجه النبى ﷺ بامتياز ، لكن أحدا لم يفحص جهده ﷺ فى تربيتهم لغويا .

وسوف يقف هذا المقال أمام مجموعة من العلامات و الملامح التى يمكن أن تقرر من ورائها أن ثمة منهجا نبويا للتربية اللغوية للصحابة .

و هذا المنهج النبوى يحتاج إلى قدر كبير من الصبر على تتبع إجراءاته وأساليبه، ويحتاج إلى مزيد دراسة ، و فحص و استجماع الأدوات للكشف عنه و الإفادة منه فى التخطيط التربوى فى برامج التربية اللغوية.

و فيما يلى محاولة للكشف عن هذه الملامح الكبرى العامة التى توافر عليها المقام النبوى الكريم فى تربية الصحابة تربية لغوية تعينهم على حمل رسالة الإسلام، و أداء الدعوة إلى الله سبحانه.

ومن ثم فإن تربية النبى ﷺ للصحابة لغويا تدخل فى باب قيامه بالبلاغ و البيان بتنشئة الجيل الأول الذى سيواصل بلاغ الرسالة و حملها إلى الآفاق.

تربية النبى ﷺ للصحابة لغويا

علامات على الطريق

و فيما يلى محاولة لرصد العلامات على طريق تربية النبى ﷺ للصحابة لغويا .

و نبدأ فنقرر أن التربية اللغوية مبحث شركة بين علم اللغة التطبيقى و بين علم النفس و علم التربية و علم الاجتماع ، ويقصد بها دراسة كيفية تنمية لغة قطاع من الناس ، و تطوير ما لديهم ، و دراسة وسائل هذه التنمية ، و إجراءاتها ووسائلها .

وثمة سؤال مهم يقول : لماذا نفترض أن هناك منهجية نبوية فى تربية الصحابة لغويا ؟ للإجابة عن هذا السؤال أرجو أن نتذكر ما يلى:

أولا- أن للغة أهمية تأسيسية فى تصور البلاغ و البيان و الدعوة النبوية.

ثانيا- أن ثمة أخبارًا و روايات تقرر عناية النبى ﷺ بتربية الصحابة لغويا ، و لاسيما أن اللغة كانت بابا واسعا لإيمان كثير من العرب الفصحاء .

ثالثا- أن عددا كبيرا من علماء العربية، و لاسيما علماء البلاغة يقررون أن هناك ما يشبه أن يكون طريقة خاصة لكلام جيل الصحابة ، يسميها الدكتور محمد محمد أبو موسى (سمت الكلام الأول) ، يقول: «لم أجد دراسة تعنى ببيان مذهب الكلام و منهاجه . . . و بيان سمت البيان فى الأزمنة المختلفة وخصوصا سمت كلام الجيل الذى نزل فيه القرآن » . بمراجعة كتاب الرجل :(شرح أحاديث من صحيح البخارى : دراسة فى سمت الكلام الأول) [مكتبة وهبة بالقاهرة سنة ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م] توقفنا على نسب تكرارية مرتفعة لهذا المصطلح : سمت الكلام الأول، مستعمل فى سياقات تحليلية للأحاديث المختارة .

رابعا – استقرار أمر تأثير البيئة في لغة الأفراد.

خامسا – استقرار أمر تأثير القادة النوعيين في لغة متبوعهم ، وهو ما نلمسه في المدارس الشعرية و الأدبية ، من تأثير المتقدم المبدع في عدد كبير ممن يأخذون و يروون عنه وتعلق الصحابة رضوان الله عليه بالنبي ﷺ و ملازمته و الحرص على تقليده و التأسي به أمور متواترة ، مستفاضة .

و إليك العلامات التي توافرت لنا في هذا المجال المبكر:

أولا– المدونة الحديثية الراعية للتربية اللغوية (تهيئة البيئة التربوية)

أخرجت كثير من كتب السنة الشريفة عددا من الأحاديث تدور حول ما يمكن أن يسمى إطارا إعداديا للتربية اللغوية للصحابة رضى الله عنهم منها :

يقول رسول الله ﷺ لرجل لحن ، أى أخطأ في اللغة بحضرته : « أرشدوا أخاكم فقد ضل » (مراتب اللغويين ، لأبى الطيب ص ٢٣)

ما جاء عن عُمر من أنه كان يعاقب عمال (موظفي الجهاز الإدارى للدولة) على الخطأ في اللغة ، فيما يرفعونه من وثائق و تقارير و مستندات ، روى أبو الطيب اللغوى في كتابه (مراتب اللغويين ص ٢٣) « وكتب كاتب لأبى موسى الأشعرى إلى عمر : من أبى موسى ، فكتب إليه عمر : « سلام عليك . أما بعد فاضرب كاتبك سوطا و أخر عطاءه » . و بعيدا عن فحص الأثر من جهة الرد و القبول ، فإن تواتر الرواية تاريخيا كاف في تقدير المسألة .

ما روى من أن الصحابة العلماء كانوا يرون الخطأ في اللسان كالخطأ في الرمى أو أقبح .

من هذه النصوص أو الأخبار و غيرها تدرك أن ثمة بيئة أولية تهيأت للصحابة رضوان الله عليهم تتلخص ملامحها في الرفض للخطأ في اللغة ، وهذه البيئة أو الأجواء من العوامل المعينة على الاستجابة لبرامج التربية اللغوية كنوع من الفرار مما هو مذموم معيب من جهة النبى ﷺ على الأقل ، لو كان من باب الكراهة التي ترفضها أخلاق الناس أو ما يسمى باسم خوارم المروءة .

ثانيا – تدريب النبى ﷺ للصحابة على النطق الصحيح بالطرق المختلفة

مما تواتر الخبر به أن النبى ﷺ كان يقرئ الصحابة ؛ أى : يسمعهم كيفية أداء النص الكريم أداء صحيحا ، وهناك أدلة كثيرة على هذا الذى نقرره :

١ – تواتر الأحاديث التي تأمر بقراءة القرآن : « اقرءوا القرآن » (انظر : الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير ١ / ٥٢ مكتبة الحلبى ١٩٨٢م) و المفهوم من القراءة هو تحريك اللسان بالكلام.

٢ – اشتراط القراءة ، التى هى تحريك اللسان ، في الصلاة ، وهو تكرار يؤدى إلى اشتقاقه الملكة اللغوية ، وهو الأمر المعروف بتمارين التقدم في الكلام بالتدريب المستمر.

٣ –تواتر الأحاديث المخبرة عن أن النبى ﷺ كان يقرئ الصحابة ؛ أى : يعلمهم قراءة الذكر الحكيم من مثل :

- أقرأنى رسول الله .

- أقرأنيها رسول الله

- إنك أقرأتها إياه.

- اقرأنى آية كذا .

- على غير ما أقرأتنيها .

- أم تقرئنى كذا؟! (انظر : المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى لفنسنك ، ليدن سنة ١٩٦٥م ٥ / ٣٣٨-٣٣٩)

والإقراء باب ضخم من أبواب تدريب اللسان على القراءة الصحيحة ، وهو الأمر المستقر اليوم في باب تعلم اللغات عن طريق الاستماع ، إلى المتدرب المتعلم و التصحيح له.

٤ – تواتر تشجيع حلقات القراءة ، بما هى معامل تربوية لغوية ، يقول سهل بن سعد الأنصارى ، قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ، ونحن نقترئ ، يقرئ بعضنا بعضا ، فقال : الحمد لله كتاب الله عز و جل واحد فيه الأحمر و الأسود ، اقرءوا . اقرءوا . اقرءوا (فضائل القرآن لأبى عبيد ، تحقيق مروان العطية ، آخرين دار ابن كثير دمشق سنة ١٤٢٠هـ=١٩٩٩م ص٦٨) ومصطلح الاقتراء هنا مصطلح شديد الأهمية في برامج التربية اللغوية ، يقوم عليه المختبرات اللغوية المعاصرة .

٥ – تواتر الأحاديث التى تخبر أن رسول الله ﷺ كان – يسمع القرآن من الصحابة ، وهو نوع من التدريب لهم ، تعرفه أدبيات التربية اللغوية المعاصرة في باب تثمين القراءة بالصوت المرتفع و أثرها في تنمية الملكة اللغوية لمن يفعلها .

يقول رسول الله ﷺ : « إنى أحب أن أسمعه من غيرى » (المعجم المفهرس ٢ / ٥٣٨) ذلك أن القراءة بالصوت المرتفع مقدرة الأثر في التربية اللغوية.

ثالثا – قيام النبى ﷺ بوظيفة المعجم الحى المتحرك.

و أقصد بذلك ما كان يؤديه رسول الله صلى الله عليه وسلم لمجتمع الصحابة رضى الله عنهم من بيان للألفاظ و التعابير الغامضة وهو ما يمكن أن نعبر عنه بأنه كان يقوم بوظيفة المعجم الحى المتحرك بينهم.

و لعل أظهر دليل على ذلك هو ما جمعه علماء السنة في مصنفاتهم تحت عنوان باب التفسير ؛ أى ما فسره النبى ﷺ من كلمات القرآن و آياته للصحابة وهناك أمثلة كثيرة جدا لهذا الباب ، يلغ حجمها في البخارى ما يقرب من ثُمن الصحيح.

وهذا النوع من الأحاديث مهم جدا في باب التربية اللغوية للصحابة بما هم حاملوا الرسالة و مؤدوها ، ذلك أن بيان معانى المفردات بعد تحصيل نطقها الصحيح يكمل دائرة الارتقاء اللغوى بتحصيل عنصرى العلامة اللغوية :(الدالى أو اللفظ و المدلول ، أو المعنى)

و يرتبط بهذا النوع من الأحاديث ، أحاديث تصحيح المفاهيم من مثل سؤالاته ﷺ للصحابة عن مفاهيم معينة ، و تصحيحه لما في أذهانهم من مثل : حديث « ليس الشديد بالصرعة ، و إنما الذى يملك نفسه عند الغضب » فأنشأ مفهوما جديدا للشديد يتعلق بنسق قيمى مراد ، هو امتلاك النفس عند الغضب .

و يرتبط بهذا النوع أيضا الأحاديث التى يمكن تسميتها بالحوارية ، التى يتبادل فيها النبى ﷺ الحوار مع بعض صحابته من مثل حديث : « كيف أصبحت يا حارثة؟

فقال: أصبحت مؤمنا حقا، فقال: وما حقيقة إيمانك؟ فقال: أصبحت زاهدا في الدنيا، فأسهرت ليلي و أظمأت نهاري ...قال: عرفت فالزم».

وعلماء التربية اللغوية المعاصرين يقررون الأثر الإيجابي للحوار في عملية التربية اللغوية،ومنهم جان بياجيه، و سيرجيوسبيني فيما كتبه عن التربية اللغوية.

رابعا- استعمال الموضحات البصرية في تجويد عمليات التواصل

لقد ورد في السنة الشريفة آثار كثيرة ظهر فيها استعمال الموضحات البصرية، من الرسوم و الخطوط و الأشكال، و الحركات - لتصميم عمليات التواصل بجوار الكلام أو الحديث.

و التربية اللغوية في العصر الحديث تقرر أهمية الوسائل المساعدة في عمليات التواصل و تحصيل المفاهيم، ومن ثم يقولون إن عمليات التواصل الناجحة هي التي تعتمد الحديث اللغوي مضموما إليه العناصر غير اللغوية مما ذكرت لك.

و قد تواتر الخبر عنه ﷺ باستعمال عدد من الموضحات على طريق صناعة تواصل جديد، من مثل ما ورد من الإشارة، ورسم الخطوط على الأرض بالنكت بالعصا إلى غير ذلك مما ورد عنه ﷺ ،و قد وقف عدد من المعاصرين أمام استعمال النبي ﷺ لوسائط الاتصال غير اللفظي بالفحص و التحليل من مثل الدكتور الصاوي الجويني رحمه الله.

خامسا- تأسيس النبي ﷺ لما يشبه ديوان الإنشاء.

ومن المدهش حقا أن تقف أمام شيء معروف في سيرته، وتتأمله بشكل مختلف فقد عرف عنه ﷺ مخاطبة الملوك والأمراء على عهده، من باب دعوتهم إلى الإسلام و عرضه عليهم.

وقد اتخذ له من أجل ذلك كتابا عرفوا في التاريخ الإسلامي بكتاب النبي ﷺ، و قد اعتنى غير واحد بجمعهم و جمع ما كتبوه له ﷺ في مراسلات الملوك و الأمراء في مصنفات مستقلة من مثل:

١-المصباح المضئ في كتاب النبي ﷺ إلى ملوك الأرض من عربي و عجمي، لابن حديدة الأنصاري المتوفى سنة ٧٨٣هـ.

٢- إعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين ﷺ، لابن طولون الدمشقي المتوفى سنة ٩٥٣هـ.

وممن ذكرهما هذان الكتابان: أبو بكر الصديق، و عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، و علي بن أبي طالب، أبي بن كعب والأرقم بن أبي الأرقم ،وثابت بن قيس، و جهيم بن سعد، وحنظلة بن الربيع، و حويطب بن عبدالله ،و الحصين بن نمير، و حاطب بن عمرو ،و حذيفة بن اليمان، و أبو أيوب الأنصاري ،وخالد بن سعيد ،وخالد ابن الوليد ،و زيد بن ثابت ،و الزبير بن العوام و سعيد بن العاص، و شرحبيل بن حسنة، وأبو سفيان بن حرب، وطلحة بن عبيد الله، و عامر بن فهيرة، و عبد الله بن رواحة، وعمرو بن العاص، و العلاء بن الحضرمي ومعاوية بن أبي سفيان، ويزيد بن أبي سفيان وغيرهم.

و من الممكن النظر إلى هؤلاء بماهم مدرسة بالمعنى العلمي كان لهم إنشاء أول ديوان للإنشاء، تدرب فيه الصحابة رضي الله عنهم على يد رسول الله ﷺ على نوع من التربية اللغوية في مكاتبة عظماء ذلك الزمان ممن دعاهم النبي ﷺ إلى الإسلام والإيمان، وهي مؤسسة نبوية رعت ما يلي:

١- تدريب الصحابة على الكتابة بالمعنى الفني.

٢- تدريب الصحابة على مراعاة اختلاف البيئات المتلقية في رعاية مقام المخاطب المكتوب إليه من جهة:

أ- جغرافية الإقامة من بدو أو حضر الخ.

ب- مقام المتلقي الرسمي (ملك، أمير، عظيم الخ).

ج-مقام المتلقي الفكري (الأيدولوجي) (عربي مشرك، نصراني، وثني، مجوسي الخ).

د- مقام المتلقي النفسي، وخصائصه الوجدانية.

وهي الأمور التي نلمح لها آثار في تصميم الرسائل التي كان يرسل بها رسول الله ﷺ إلى ملوك الأرض و أمرائها.

من مجموع العلامات السابقة و غيرها يتضح لنا أن ثمة ملامح لمنهج نبوي في تربية الصحابة تربية لغوية.

وهو باب من العلم يحتاج إلى قدر من التأني، و مزيد من الفحص و الدراسة. وهو أمر يزيد المسلمين المعاصرين ثقة و يقينا في عظمة النبوة و شمول رعايتها للمجتمع الإنساني في كل جوانب الحياة.

و قد ظهر من هذه الورقة مجموعة من النتائج المهمة، يرجى التنبه إليها، ومنها:

أولا- نحن نرى في تربية النبي ﷺ لغويا من تمام قيامه بالبلاغ بتنشئة الجيل الأول لغويا؛ لأن اللغة آلة البلاغ.

ثانيا- نحن نرى شمول المنهج النبوي في التربية اللغوية، و رعايته للأداء اللغوي، نطقا، وترقية للفهم، و استعمالا للقراءة بالصوت المرتفع، ورعاية للوسائل غير اللغوية (غير اللفظية) و تقدير قيمتها في عمليات التواصل الناجح.

ثالثا- نحن نرى في العناية بجيل من الكتاب بذرة أول مؤسسة تدربت على الكتابة الفنية و الوظيفية، فيما يعرف تاريخيا بديوان الإنشاء، ونرى في كتاب النبي ﷺ أول مؤسسة اعتنت بتخريج جيل من الكتاب المدربين على تنويع الكتابات ومراعاة مقامات المرسل إليهم، ومراعاة تنوع بيئاتهم المختلفة.

رابعا- اتضح مما سبق أن في السيرة النبوية أبوابا لا حدود لها يمكن أن تنفع المجتمع المعاصر في برامج التربية عموما و برامج التربية اللغوية خصوصا، من مثل تقدير:

السماع و أثره في التربية اللغوية، من قبل المتعلمين.

الاستماع و التصحيح و أثرهما في التربية اللغوية على يد المعلمين.

تشجيع برامج القراءة بالصوت المرتفع وأثرها في التربية اللغوية استثمارا لآثار الإقراء و الاقتراء، كما مر.

و لا يملك المرء في النهاية إلا أن يقرر أن السيرة منهج منقذ للبشرية.

من مقاصد الهجرة النبوية



د. وصفي عاشور أبو زيد
دكتوراه في مقاصد الشريعة الإسلامية
Wasfy75@gmail.com

تعتبر الهجرة النبوية حدثًا مهما في التاريخ الإسلامي بل التاريخ الإنساني، لما لهذا الحدث من أثر بالغ على أصعدة كثيرة؛ فقد تحول عنده التاريخ، وتبدلت به الأوضاع، وتغيرت به الأحوال، وتطورت به شبه الجزيرة العربية تمهيدا لتغيير العالم أجمع.

وكثير هي الكتابات التي تحدثت عن الهجرة النبوية من زوايا متعددة أغلبها يصب في أحداثها، والدروس والعبر التي تعود بالنفع على الأفراد والأسر والمجتمعات، وكيف نستضيء بها في واقعنا الدعوي المعاصر، وهي كتابات مقدورة ومهمة، لكننا في حاجة إلى إلقاء نظرة على مقاصد هذه الهجرة العظيمة التي حولت مجرى التاريخ، وهذه خمسة مقاصد وقفت عليها بالتأمل والتدبر، ومن تأمل وتدبر وعايش الأحداث وتفاعل معها يقف على الكثير والكثير:

أولا: حفظ تدين الأفراد:

وهذا مقصد رئيس من مقاصد الهجرة، وإن كان يرفضه البعض بحجة أن الهجرة كانت لبناء أمة وإقامة دولة وليست هروبا بالدين إلى مكان آمن، غير أن هذا لا يتعارض مع ذلك، فلا مانع من أن تكون الهجرة حفاظا على تدين الفرد، وابتغاء إقامة دولة للإسلام في الوقت نفسه.

وأعني بـ "تدين الأفراد" مستوى الإيمان وحفظه في قلوبهم، وثباته في نفوسهم؛ لأنهم في ظل هذا الاضطهاد غير المسبوق ربما تزعزعت نفوسهم، ورجعوا عن دينهم تحت سياط القهر الاجتماعي، والظلم الإنساني، وعواقب الحرص على الزعامة والسلطة، وآثار التقليد الأعمى في عبادة الآباء والأجداد.

وليس هناك تعارض بين حفظ التدين وحفظ الدين، فحفظ التدين أمر مخصوص بدرجة الالتزام بالدين في نفوس البشر، ومستوى الإيمان في قلوبهم، ومدى حفاظهم عليه. أما حفظ الدين فيرجع إلى الرسالة الإسلامية نفسها والدين الإسلامي كله.

وعلى هذا فالتدين نسبي ومتغير، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب الخلق، فاسألوا الله أن يجدد الإيمان في قلوبكم»(١).

أما الدين فثابت لا يتغير، وبناء على هذا فلا تعارض بين حفظ التدين وحفظ الدين، بل إن حفظ التدين يصب في حفظ الدين وتقوية شوكته وترسيخه في الأرض عبر المؤمنين به والمدافعين عنه، ولا شك أن الهجرة ضمنت هذا إلى حد كبير.

ثانيا: إقامة المجتمع الإسلامي:

وهو مقصد رئيس كان في اعتبار الرسول الكريم - ﷺ - فور وصوله المدينة الطيبة؛ بل خطط له قبل الهجرة إلى المدينة، وتمثل ذلك في مظاهر:

أولها: إرساله لمصعب بن عمير هناك مبكرا ليمهد لإقامة هذا المجتمع، والذي كان من ثماره بيعة العقبة الكبرى التي كان عددها أضعاف الأولى.

وثانيها: حين بايع المسلمين بيعتي العقبة، فقد أورد ابن كثير في التفسير عن محمد بن كعب القرظي وغيره أن عبدالله بن رواحة - رضي الله عنه - قال لرسول الله ﷺ (يعني ليلة العقبة): اشترط لربك ولنفسك ما شئت. فقال: "أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا؛ وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم". قالوا: فما لنا إذا نحن فعلنا ذلك؟ قال: "الجنة" قالوا: ربح البيع، ولا نقيل ولا نستقيل(٢).

وقد كان الأنصار مدركين تبعات هذه البيعة وخطورتها، فلم يعدهم النبي بشيء من حطام الدنيا إنما وعدهم الجنة، فلا عجب أن يكونوا قاعدة قوية يتأسس عليها مجتمع المسلمين الأول.

وثالثها: أن النبي ﷺ أقام المسجد الذي يتلاقى فيه هذا المجتمع للتلاقي والتعارف والتآلف، بعد نزوله بالمدينة مباشرة، وهو معقل الإيمان، ومورد تنميته وتعهده، ومنطلق النشاط الاجتماعي والعلمي والسياسي والعسكري فيما بعد.

ورابعها: نفوس الأنصار الطيبة التي رباها المنهج الإسلامي بقيمه ومثله وأخلاقه، وما أروع ما وصفهم به صاحب الظلال حين قال: "ولم يعرف تاريخ البشرية كله حادثاً جماعياً كحادث استقبال الأنصار للمهاجرين. بهذا الحب الكريم. وبهذا البذل السخي. وبهذه المشاركة الرضية وبهذا التسابق إلى الإيواء واحتمال الأعباء حتى ليروى أنه لم ينزل مهاجر في دار أنصاري إلا بقرعة. لأن عدد الراغبين في الإيواء المتزاحمين عليه أكثر من عدد المهاجرين!

﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا﴾

(الحشر: ٩)

مما يناله المهاجرون من مقام مفضل في بعض المواضع، ومن مال يختصون به كهذا الفيء، فلا يجدون في أنفسهم شيئاً من هذا. ولا يقول: حسدا ولا ضيقا إنما يقول: { شيئاً }. مما يلقي ظلال

(١) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الإيمان، حديث رقم (٥)، وقال: "هذا حديث لم يخرج في الصحيحين ورواته مصريون ثقات".

(٢) تفسير القرآن العظيم، ٤/٢١٨، بتحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر.

النظافة الكاملة لصدورهم والبراءة المطلقة لقلوبهم ، فلا تجد شيئاً أصلاً"(٣).

وخامسها : المؤاخاة التي أبدعها النبي - عليه السلام - بين كل مهاجري وأنصاري، حتى صار الجميع يتوارثون ويتقاسمون أموالهم، ويتناصفون أمتعتهم، حتى كان أحدهم ينزل لأخيه عن إحدى زوجاته.

ثالثا: توسيع مجال الدعوة إلى الإسلام:

ويمتد هذا المقصد منذ الهجرة إلى الحبشة؛ حيث يقول ابن إسحاق : "فلما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء وما هو فيه من العافية بمكانه من الله ومن عمه أبي طالب وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء قال لهم لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا"(٤).

وهناك دار الحوار المشهور بحضرة النجاشي بين وفد المهاجرين وعلى رأسهم جعفر بن أبي طالب ووفد مكة الذي كان على رأسه عمرو بن العاص، فكانت أرضا خصبة يعرضون فيها مبادئهم وقيمهم وتصورات الإسلام الكبرى حتى دخل النجاشي سرًا في دين الله.

ثم كانت الهجرة إلى المدينة التي مثلت الانطلاقة الكبرى في الدعوة لرسالة الإسلام عبر المنهج الإسلامي العظيم في الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنى، والمجادلة بالتي هي أحسن، ومن خلال الغزوات التي أعطت للمسلمين فتوحات مكنتهم مساحاتها الواسعة من نشر دين الإسلام، وقد ترتب على هذا كله يوم فتح مكة العظيم الذي قال الله تعالى فيه:

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾

(سورة النصر)

رابعا: إقامة دولة تحمي الإسلام وتدعو إليه:

وهذا مقصد يترتب على ما قبله، فما دمنا أقمنا المجتمع الإسلامي على قاعدتين قويتين: الأولى: الإيمان وتعميقه في النفوس، والثانية: الأخوة وتقوية أواصرها، فعليهما يتحقق المقصد الكبير وهو إقامة دولة تدعو إلى الإسلام وتحمي ذماره.

ولقد كان المجتمع المدني في ذلك العهد يتكون من شرائح يلخصها الإمام ابن القيم فيقول: "ولما قدم النبي ﷺ المدينة ، صار الكفار معه ثلاثة أقسام: قسم صالحهم و وادعهم على ألا يحاربوه ولا يظاهروا عليه ولا يوالوا عليه عدوه وهم على كفرهم آمنون على دمائهم وأموالهم . وقسم حاربوه ونصبوا له العداوة . وقسم تاركوه فلم يصالحوه ولم يحاربوه بل انتظروا ما يئول إليه أمره وأمر أعدائه ثم من هؤلاء من كان يحب ظهوره وانتصاره

(٣)في ظلال القرآن: تفسير قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ ، الحشر: ٩.
(٤)سيرة ابن هشام: ١/٣٢١.

في الباطن، ومنهم من كان يحب ظهور عدوه عليه وانتصارهم، ومنهم من دخل معه في الظاهر وهو مع عدوه في الباطن ليأمن الفريقين، وهؤلاء هم المنافقون فعامل كل طائفة من هذه الطوائف بما أمره به ربه تبارك وتعالى"(٥).

فهذه كلها تنظيمات سياسية للمجتمع القائم، وتكوين للدولة المسلمة وإعداد المواثيق لحمايتها وحفظها، والوثيقة التي كتبها النبي ﷺ مشهورة ومعروفة، وهي أول ميثاق لحقوق الإنسان، وأول دستور في تاريخ البشرية.

خامسا: تحقيق الشهود الحضاري:

وهو المقصد الكبير الذي من أجله جعل الله الأمة المسلمة، وأنزل لها الكتاب وأرسل لها الرسول:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾

(البقرة: ١٤٣).

وهو نهاية المطاف بعد الحفاظ على الفرد وإقامة المجتمع، وتكوين الدولة، وظهور بوادر الأمة التي جعلها الله وسطا في التشريع و الزمان والمكان.

يقول الكاتب القدير والمفكر الكبير الأستاذ عمر عبيد حسنة: "هذا الجعل الوسط، بكل آفاقه وأبعاده ومقتضياته، هيأ الأمة المسلمة لأهلية تحمل الشهادة على الناس، وأهلية أدائها لهم، ليستقيم أمرهم؛ ذلك أن النكوص عن هذا التحمل، والقعود عن هذا الأداء، يترتب عليه مسئوليات جسام، ويكون سبيلاً لإشاعة الفساد في الأرض، والخراب الحضاري، وظهور الآلهة المزيفة والأنبياء الكذبة، وعودة أصول الشر الكامن في تسلط الإنسان على الإنسان، وإهدار إنسانية الإنسان وكرامته"(٦).

فالأمة المسلمة أمة شاهدة على الأمم، أناط الله بها المسئولية عن الناس جميعا، ومن هنا بدأ النبي ﷺ في مكاتبات الأمراء، ومخاطبة الملوك والرؤساء يدعوهم إلى الإسلام؛ إقامةً للحجة وإبراء للذمة.

وهنا دان للرسول - ﷺ - العرب والعجم، لا سيما بعد فتح مكة، ودخل الناس في دين الله أفواجا، وتحققت العالمية الواقعية للدين الإسلامي، وأصبح الشهود الحضاري ماثلا للأمة المسلمة الذي يُلقي عليها اليوم - وقد تغيرت الأحوال - تبعات ثقيلة وأعباءً كبارًا تقوم على استعادة حراسة قيم العدالة والأمن والحرية والشورى والمساواة كي تعود أمة قوية فتية، فهي أمة باقية ببقاء مصادرها التي تستمد منها "الوسطية" والتي هي الميزة الأساسية في جعلها شهيدة على الناس.

○○○

(٥)زاد المعاد: ٣/١١٤، بتحقيق آل الأرناؤوط.
(٦)من مقدمته للعدد ٨١ من كتاب الأمة بعنوان: نحن والحضارة والشهود الجزء الثاني للدكتور نعمان عبد الرزاق السامرائي.

قصة العدد

فرار إلى الله



أ. د. محمد رجب البيومي

اتجه زيد بن عمرو بن نوفل إلى الكعبة ناقمًا، لأنه رأى الأصنام تعبد من دون الله، وشاهد الزائرين من كل صوب يطوفون حولها خاشعين، ويذبحون الضحايا من الإبل والبقر والغنم تقربًا لها، ويعقدون عليها الآمال الدنيوية، فالمريض يلتمس شفاءه بزيارتها، والتاجر يرجو ربحه بعبادتها، والطريد يسألها الأمن، والمحارب يرجو منها النصر، وهى ألواح خشبية كانت مرماة فى قارعة الطريق، فأخذها نجار ليصنع منها آلهة، وجعل لها أسماء!

اتجه زيد بن عمرو إلى الطوفان الزاخر حول الكعبة، ليقول فى نفسه: أين عقول هؤلاء؟ أهذا دين إبراهيم الحنيف الذى دعا لعبادة الله وحده، وكسر أصنام قومه، فجعلها جذاذا إلا كبيرًا منها اتخذه مدعاة سخرية واستخفاف! ثم مضى يتساءل عن سر هذا الانصياع الذى امتد به الزمن، فلا يجد صيحة تعصف به، ورآه ورقة بن نوفل متأففا يريد وجهه من الحنق، فخاف على انفعاله أن يشتد، وصحبه إلى مكان فى أقصى البيت ليقول له: هون عليك يا زيد، فقد كابدت ما كابدت، ونصحت القوم فما استمع إلىّ أحد، وأوشك سفهاؤهم أن يريقوا دمي، هون عليك يا زيد!

قال زيد: ولماذا لا نهديهم إلى الحق، وهو جلى للعيان! فرمقه ورقة متكلفا ثم قال: لكل صنم سادن يا زيد، يذيع عنه الأباطيل، ويزعم أنه يدير الكون، ويرصد شئون الحياة؟ إن السدنة يجمعون الذهب والفضة مما يزعمون، فما يجدون صاحب حاجة يرجو، إلا فرضوا عليه النذور، وأخذوا ما معه من الفتات إن كان فقيرًا، ومن الجامد والسائل إن كان غنيا، وقالوا له: إنهم يبذلون ما يأخذون فى سبيل الآلهة، وهم يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها!

قال زيد: وإذا كان السدنة مضللين؟ فأين عقول قريش؟!

فضغط ورقة على يد زيد! وقال: سامحك الله يا زيد! تسألنى عن عقول قريش، وهى ترى عزها الشامخ، ومجدها الباذخ فى أن يفد الناس من شرق وغرب، ليطوفوا بهذه الأصنام! كما ترى فى حمايتها عزة ومهابة لها من العرب، هذا إلى ما تربحه من الموسم التجارى حين يأتى الناس بعروضهم يبيعون ويشترون، ومنهم من يطمع فى الرئاسة فى بلده حين يزعم أنه أهدى الأصنام من حر ماله، وساق الهدى لها عن طوع، فيزداد مكانة وحظوة! وهكذا تآمر الناس على أن تكون الأصنام مجلبة جاه، ومورد ثراء، والناس هم الناس!

فظهر الغضب الآسف فى وجه زيد، وقال: ولكنى لن أرجع عن مهاجمة الأصنام! لأن الله وحده هو المعبود، تلك ملة إبراهيم الحق، فلماذا أسكت عن الأباطيل يا ورقة!

قال ورقة: أخزى الله عمرو بن لحى فهو الذى جلب هذا العار للبيت منذ مئات السنين؟

فانتبه زيد كمن استيقظ من غفلة. وصاح بورقة: سمعت عن عمرو هذا؟ ولم أتحقق حديثه، فبالله خبرنى عما تعلم عنه، فقد نستطيع بما نعرف من غيه أن نرشد الناس إلى ما ابتدع من ضلال!

قال ورقة: كان عمرو بن لحى زعيمًا فى مكة، فنازعه ابن عمه، وغلب عليه بماله وسطوته، وعز على عمرو أن يندحر بعد استعلاء، وقد نظر فرأى المال باب السيطرة فى القوم، وبه استطاع ابن عمه أن يستحوذ على نفوذه، فأصر على أن يضرب فى شاسع الأرض، حتى يعود بما يرفع من قدره، أو يظل شريدا تائها، لا يرى عزته تزول بمكة، وسيطرته تغيب عنها، وهو قابع فى منزله لا يملك شيئا!

سار عمرو فى فجاج الأرض، حتى وصل إلى البلقاء من أرض الشام، فشاهد أصناما تعبد هناك، وسأل عنها بعض السدنة، فقال إنها آلهة تنفع وتضر! فتعجب لما سمع، ثم رأى السادن يجمع المال من كل وافد، حتى ضاقت خزائنه بما يجمع، فتودد إليه وقال له: ولماذا يبذل الناس لك المال عن طوع! فقال: ليس لى ولكنه للآلهة وقد أجازت لى أن أتصرف فيه كما أشاء! وقد أنفقت ما أنفقت، وبقيت كنوز الذهب معى لا أستطيع لها إنفاقا، وهنا تنبه عمرو إلى ما أهمه، فحدث نفسه أن يكون سادنا للأصنام، وأن يجمع المال فيثرى ويعظم، وهنا قال للسادن أتسمح أن أحمل أحد هذه الأصنام إلى الكعبة، ليعبده الناس! فضحك السادن، وقال: عجبا لك يا مكي، تحمل الصنم من البلقاء إلى مكة متعبًا جاهدًا، وأنت تستطيع أن تصنعه من خشبة هناك! فسكت عمرو قليلا ثم قال: وكيف أصنع الصنم من الخشبة أمام القوم، ويصدقون أنه إله يعبد، وله قوة الأمر والنهي؟

قال السادن: خذ الخشبة إلى منزلك، واصنعها مستترًا، واخرج بها إلى الناس، وكأنك أتيت بالصنم من البلقاء.

قال عمرو: وإن كذبتنى امرأتي؟ وهى تشهد الخشبة قبل أن تصنع! فضحك السادن وقال: تكذبك، وهى ترى المال يملأ بيتها، والناس يعظمون قدرك، هى إذن حمقاء! وقد اقتنع عمرو بحديث السادن، وشاهد المكيون صاحبهم يخرج عليهم بصنم سماه «هبل» ودعا الناس إلى عبادته، وجعله مصدر الرجاء والأمل، فهرع عليه ذوو الحاجة من كل صوب، ولم يكتف عمرو بصنم واحد، بل كان يصنع أصناما متعددة بتوالى الأيام، حتى امتلأت الكعبة على عهده وعهد من تبعه! هذه قصة الأصنام يا زيد!

فصاح زيد: تعرف هذه القصة، ولا تذيعها فى الناس! أما والله لا بد أن أشيعها بين

فرار إلى الله

الزائريـن والقاطنين حتى أكشـف هذا الزيف الصريـح! ولم يتمالك زيد أن وقف على أعلى الصفـا وصـاح: إليّ يا قوم، فهـرع الناس نحو الصفـا مـن كل حـدب، فقال: إنكـم تعبدون خشبًا وأحجارًا، ابتدأ بها عمرو بن لحي، وإن ملة إبراهيـم الحنيف تدعو إلى رب واحد، هو رب السموات والأرض!

دهش الناس، وقالوا: أمجنون هذا؟ أيعيب عبـادة الأصنام وهموا به، ولكـن الخطاب بن نوفـل عـم زيـد، رأى أن يكون هـو المتصدى لزيد، كيلا يسيئه أحد مـن القبائل الأخرى، فيضطـر إلى نصرته باسـم العصبية، وتسـمه قريـش بالجبـن والعقـوق إن تلـكأ، فأقـدم الخطـاب إلى أعلى الصفا ليزيح زيد بن أخيه، ويقـول له: أعـرف أنك مجنون يـا زيد، ولئن استمررت على غيك لأريقن دمـك! ويصفق القـوم للخطـاب، وينسـحب زيـد مخـذولا، فيتلقاه ورقة آسفا ويقول له في عتاب: ألم أقل لك؟ جربت يا أخي من قبل، فلقيت الهوان!

لم يصبـر الخطاب بن نوفـل على فعل ابن أخيـه، بل توجه إليه في منزله مع مشـيخة من بنى عـدى قومه، وقـادوه مقيـدًا بالحبال إلى مغارة بجبل أبي قبيس، يأتيه طعامه وشـرابه، ولا يخـرج حتـى ينتهـى موسـم الحـج قبـل الإسـلام، وزيد صابر يتلمـس رجلا ينصره في محنته فلا يرى غير دموع ولده الصغير سـعيد بـن زيـد، الـذى يقول له سـأظل معـك يا أبي فـى مغـارة الجبل، فيقول زيد: تعال يا سـعيد لأعرفك ما في نفسي، أنت غلام صغير، فانظر إلـى هـذه الصخـرة القائمـة في مـرأى عينك بأعلـى الجبل، مـا قيمتها؟ فيقـول حجارة لا تضر ولا تنفع، فيقول الوالد، لو جاء الخطاب بـن نوفل من الغد وقطعهـا، وحمل منها جزءا يجعلـه صنمـا، هـل تغيـر وضعهـا؟ فيقـول الغلام، لا: يقـول الوالد: هذا ما أريد أن أعلنه بيـن الناس فأقول تعبدون مـن دون الله حجارة لا تضر ولا تنفع! فيقول سـعيد: ولكن الناس جميعـا يعبدون الحجارة، فمـاذا تفعل معهم: قال الوالد، لقد قلت يا بني وسأقول:

انتهى موسـم الحج، وفكت أغلال زيد بعد تهديد الخطـاب ووعيده، وكانـت صحته قد توعكـت لما لاقـى من برودة الجبل، وقسـوة المعاملـة، وتهكم الناس، وقد اشـترطوا عليه ألا يبرح داره إلا بإذن الخطاب فقبل ظاهرًا، ثم ارتقب حتى إذا حان موسم عكاظ تسلل خفية إليه، وفي نفسـه أن يصادف رجـلاً عاقلاً يبثه نجـواه، إذ ليس من المعقـول أن تكون جميع القبائـل الضاربة فـى الجزيرة العربية شـمالا وجنوبًـا خالية من رجل عاقـل يأتى إلى عكاظ فيعلـن رأيه في سـوقها، كما أعلن زيد رأيه في ساحة البيت، وفى أعلى الصفا، وصح ما توقع زيـد أن يكـون، إذ مـا كاد يأتي هذه السـوق، حتى وجد رجلاً مهيبًا يلبس السـواد، ولحيته البيضـاء تملأ وجهه نـورًا، وقـد ركب جملاً أورق فعلا مكانه وارتفع صوته وهو يقول:

(أيهـا النـاس اسـمعوا وعـوا، وإذا دعيتم فانتفعـوا، اعلموا أن من عاش مات، ومن مات فـات، وكل مـا هـو آت آت، ليـل داج، ونهار ساج، وسماء ذات أبراج، ونجوم تزهر، وبحار تزخـر، إن فـى الأرض لعبرًا، وإن في السـماء لخبـرًا ما بـال النـاس يذهبـون ولا يرجعون؟ أرضوا بالمقام فأقاموا؟ أم تركوا هناك فناموا، لا ورأس قـس، إن للكون إلهًـا هو وحده الذى يملكه، ويتصرف فيه).

ذهل زيد لروعة ما يسـمع، وأخذ يتأمل قول الرجل (إن للكون إلهًا هو وحده الذى يملكه، ويتصرف فيه).

ويقـول: هـذا مـا أعنيـه! وكأنـه هـاب الخطيـب فلـم يشـأ أن يتقدم إليـه، وهو على جملـه الأورق، فوقـف غيـر بعيـد، يحـادث رجلاً، رأى على وجه الدهشـة ما يرى مثله في نفسه، فقال له في تردد: من هذا يا أخاه! فقال الرجل: ألا تعرفه.. إنه خطيب العرب قس بن ساعدة الإيادي! وهو من قومه في منعة، يتكلم بما يشاء فيسـمعون ولا يعترضون! قال زيد: ولمـاذا يحبـه قومـه، ولا يؤذونه، وقـد آذاني قومي لأني قلت بمثل ما قال.

فنظر الرجل إلـى زيد وقال: إن بني إياد قد رأوا قسًّـا يجلـس في الصحراء وحوله الآسـاد تقرب منه ولا تؤذيه فعلموا أن له مكانة تحول دون إيذائـه، فهل تقدر أنت إخضاع الآسـاد! قال: أما هذه فلا!

زاد زيـد رسـوخًا في عقيدتـه، وصمم على أن يهاجـر بدينه إلـى حيث يـرى بصيصًا من ضيـاء! وأيـن؟ لقد علـم أن صوامـع الرهبان تمـلأ الآفاق فـي العراق والشـام واليمن، وأن بها مـن يهدونه السـبيل؟ وإذا كانت مكة قد ضاقـت به، وإذا كان رئيـس قومه الخطاب بن نوفل قد جعل عشـيرته إلبًا عليه، فليرحل إلى حيـث يطمئن قلبه دون اضطهـاد، وانتهز زيد أول قافلة تسـير، فالتحق بهـا، ورحب ببعده عـن مكة، كمـا رحب بذلك مـن تضايقوا منه في أهله وعشـيرته، وصاحب الفكر المستمد من يقينه يستشـعر قوة تعينه على البلاء، وإذا كانت الرحلة مجهدة على مثله، فإن هذه القوة ظلـت تمده بالعـزم، وتطلـق من لسـانه، إذا اجتمع بالرهبان والمتألهين! لقد كانت خطبة قـس موقـد لهيـب متأجج فـى صـدره، فلعله يسـمع أمثالهـا ممن يؤمهم فـى كل دير، وقد سـئل عن نسـبه وبلده، فقال إنه عربي مكي! وكان عجيبًا أن يسـمع أن مكة ستكون مشرق النـور، بل سـمع فعلاً أن نبيًا بعـث بمكة بعد أن ارتحـل، وأنه يدعو دعـوة إبراهيم، ويقول لقومه:

(إني نذير لكم بين يدى عذاب شديد)، وقد خطب بأعلى الصفا فقال في أول كلمة علنيـة هتـف بهـا، والله لتموتن كمـا تنامون ولتبعثن كما تستيقظون، ولتجزون بالإحسان إحسـانا وبالسـوء سوءا وإنها لجنة أبدًا أو النار أبدًا).

مـا هذا الذى فوجئ به زيـد! لقد ظن مكة موئل الشـرك فإذا هى الآن مشـرق التوحيد، وعليـه أن يسـرع إلـى القافلة الجديـدة التي أشـرق عليهـا الضيـاء، لـو كان يعلـم ذلك مـا تكبد هـذه الرحلة المضنيـة، وما تعرض لصعـاب شـاقة تغلـب عليهـا بقـوة يقينـه، وسـيتغلب علـى مثلهـا وقـد هـم بالرجوع، كانت كل خطـوة تدنيه من مكة مبعث فرحة في قلبه، وابتسامة في ثغره، وقد تصور نفسه وقـد رجع إلـى مكـة، فوقـف بأعلـى الصفا وصـاح، يـا قـوم لقـد حدثتكـم بالأمس في هـذا المكان بما كنتـم تنكـرون، وأنا اليوم أحدثكم بما يعرفـه نفر من خياركم، إذ ظهر نبـي التوحيد، وأنـا أول متبعيـه! تصور زيد نفسـه هكـذا، ولعله أعد فـى خياله خطوات متابعـة ينهـض بها في سـبيل تأييـد الدعوة ولكـن ما يعـده المرء فـى خياله، لـن يكون حقيقـة واثقة، إلا إذا قدر لهـا أن تكون، وقد

قدر الله أن يموت زيد في طريق العودة إذ هجم عليه من يريد أن يأسره ليصبح عبدًا تحت يده، وقد دافع الرجل عن نفسه ما استطاع، حتى لقى حتفه، موحدًا غريبًا! وسئل الرسول عنه، فقال إنه سيبعث أمة وحده أشرق النور الوضيء في مكة! وأفاق سعيد بن زيد بن عمرو وعلى أصداء الرسالة الجديدة، رسالة التوحيد، فاستمع إليها في حنين، وتذكر ما قاله أبوه له وهو في مغارة أبي قبيس إذ سأله: يا سعيد، انظر إلى هذه الصخرة القائمة في مرأى عينك بأعلى الجبل، ما قيمتها؟ فيقول سعيد: حجارة لا تضر ولا تنفع! فيقول زيد لو جاء الخطاب بن نوفل من الغد وقطعها، وحمل منها جزءا يجعله صنمًا، هل تغير وضعها؟ فيقول سعيد: لا، فيرد الوالد، هذا ما أريد أن أعلنه للناس، فأقول إنكم تعبدون حجارة لا تضر ولا تنفع! تذكر سعيد ذلك، فجاشت في نفسه عواطف شريفة واندفع إلى زوجته فاطمة بنت الخطاب بن نوفل، يحدثها حديث الأمس عن أبيه زيد، وحديث اليوم عن رسالة محمد بن عبدالله، فأشرق في صدرها نور الإيمان، كما أشرق في صدر سعيد، وذهبا إلى الرسول فأديا الشهادة، وكتبا ما سمعاه من آيات القرآن، ورجعا إلى منزل زيد، يعيدان ذكراه، ويتلوان كتاب الله.

مات الخطاب بن نوفل، ولم يشهد مشرق النور في مكة، وقام ولده عمر بن الخطاب مقامه في محاربة الإسلام، وقد سمع أن أخته فاطمة وزوجها سعيدًا قد اعتنقاه، فهاج هائجة، وتوجه إلى منزلهما يقرع الباب في عنف، وهما يتلوان شيئًا من كتاب الله، ودخل مغيظًا فسارعت فاطمة تخفي الصحيفة بين فخذيها، وأخوها يسأل في حنق، ما هذه الهينمة التي سمعتها قبل أن ألج الباب، لعلكما صبأتما كما صبأ المستضعفون، فقال سعيد في هدوء: أرأيت يا عمر لو كان الحق على غير دينك، ماذا أنت صانع؟ فوثب عمر عليه وبطش بلحيته وتواثبا وكان عمر شديدًا فضرب بسعيد الأرض، وجلس فوق صدره، وهرعت فاطمة تدفعه فلطمها بيده حتى أدمى وجهها، فصاحت به أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله رغم أنفك!! فلما سمع عمر مقالة أخته، أدرك هدوءاً لم يعهده، وقال: أين الصحيفة التي كنتما تقرءان منها، فقالت أخته، إنك رجس، ولا تمسكها حتى تغتسل، فنهض مذعنًا، وكأن قوة خافية بدلت شعوره، فدفعت إليه الصحيفة، وكانت تحمل الآيات الأولى من سورة طه، فجعل عمر يقرأ حتى إذا وصل إلى قول الله:

﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (١٤) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ (١٥) فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾

(طه: ١٤، ١٦)

فصاح عمر: (ينبغي لمن يقول هذا، أن لا يعبد معه غيره، دلوني على محمد).

ابتهجت فاطمة وابتهج سعيد، إذ رأيا ما لم يكونا يتوقعان، وهتف سعيد، في هذه الدار المؤمنة هتف زيد والدي بالحق، وفي هذه الدار أسلم فتى قريش عمر بن الخطاب، وهتفت فاطمة، وسيكون إسلام أخي عزة لمحمد وتأييدًا لدينه الحنيف.

قالوا عن الإسلام



أ. د/ عماد الدين خليل

سميث(١)

-١- «... إنه ما من دين استطاع أن يوحي إلى المتدين به شعورًا بالعزة كالشعور الذي يخامر المسلم في غير تكلف ولا اصطناع، وأن الفخر بالعربية قد يمازج هذا الشعور أحيانًا، ولكن اعتزاز المسلم بدينه يعم المسلم على اختلاف القومية واللغة، وكون الإنسان مسلمًا باعث من بواعث الحمد تسمعه من جميع المسلمين»(٢).

-٢- «... إن الغرب لا يفهم الإسلام حق فهمه إلا إذا أدرك أنه أسلوب حياة تصطبغ به معيشة المسلم ظاهرًا وباطنًا وليس مجرد أفكار أو عقائد يناقشها بفكره أو يتقبلها بغير مناقشة، فليس التفكير بنافع شيئًا إن لم يكن مصحوبًا بتطور المعيشة وتطور أسلوب الحياة الظاهر والباطن في المجتمع الإسلامي...»(٣).

سورديل(٤)

-١- «الإسلام، هو دين التوحيد الذي بشر به محمد بن عبدالله ﷺ في الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي، ثم انتشر عبر العصور في جميع أقطار المعمورة. والمسلمون هم الذين يدينون بهذا الدين، والحضارة الإسلامية هي الحضارة التي انبثقت عنه»(٥).

-٢- «الله واحد أزلي ليس كمثله شيء وقادر على كل شيء. ويؤكد القرآن هذه الوحدانية في آيات عدة، لكنها تظهر بصورة أوضح في سورة (الإخلاص) الشهيرة التي كثيرًا ما أعتبرت أقدم السور:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾

(الإخلاص: ١-٤).

والإيمان بإله واحد هو ما يميز في أعين المسلمين دينهم عن الديانات الأخرى تمييزًا

١- ولفريد كانتويل سميث أستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة مونتريال. وقد أقام زمنًا في باكستان، وساح في بلاد الشرق الأوسط، وبعض البلاد الإسلامية في القارتين الأسيوية والأفريقية، ومن أشهر مؤلفاته: (الإسلام في التاريخ الحديث).

٢- الإسلام في التاريخ الحديث، عن العقاد: ما يقال عن الإسلام، ص ٧٨.

٣- نفسه، ص ٧٩.

٤- دومينيك سورديل ولد عام ١٩٢١، حقق الكثير من النصوص العربية، كان أبرزها (الأعلاق الخطيرة) لابن شداد، فضلاً عن عدد من الأبحاث في المجلات المعروفة.

٥- الإسلام، ص ٥.

جذريًا، حتى عن المسيحية التى يعتبر اعتقادها بالثالوث منسًا بالوحدانية ويصبغها بصبغة الشرك»[٦].

-٣- «لا سبيل إلى إنكار كون الإسلام قد مارس فضائل حقيقية، لا سيما الفضائل ذات القيمة الاجتماعية. وهى تتجاوب مع دعوة من القرآن تستطيع أن تجد فيما عناه (أوامر)، وتبدو امتدادًا للتقوى كما تحددها الآية (١٧٧) من سورة البقرة. فالتعاون وحسن الضيافة والكرم والوفاء بالعهود مع أفراد الأمة، والاعتدال فى الرغائب والقناعة، تلك هى الفضائل التى تميز المسلمين حتى يومنا هذا..»[٧].

-٤- «.. ظلت الشريعة دائمًا المصدر الرئيسى لتنظيم الحياة الاجتماعية والسياسية والدينية. لذلك نستطيع القول بأن الإسلام، وإن كان دينا، فهو فى الآن ذاته أمة تحدد فيها الصلة الدينية لكل فرد ولجميع الأفراد معًا شروط الحياة وقواعدها والخير المباشر للحياة الأرضية، والخير المباشر لكل مؤمن فى الحياة الآخرة، كل ذلك يشكل وحدة، إن لم يكن الإسلام قد أوجدها فى جميع تفاصيلها، فإن الإسلام قد تسرب إليها ونفخ الحياة فى جميع تفاصيلها»[٨].

أحمد سوسة

-١- «... على المرء الذى وقف على حقيقة الإسلام أن يعترف بأن الإسلام هو فى الحقيقة دين الحرية والفطرة بعيدًا عن قيود الكنيسة واستبدادها فى المسيحية وغريبًا عن العصبية وتقاليدها الثقلية فى اليهودية...»[٩].

«... إن المرء الذى تغلغل فى أعماق الحضارة (الغربية) وأدرك منطوياتها ومحصها تمحيصًا دقيقًا نظريًا وعمليا لابد له من الانقياد بقوة نفسية كمينة إلى منهل العقيدة الإسلامية ليروى غليله منها..»[١٠].

-٢- «... ما أعظم سرورى الآن حين جاء الاستدلال العلمى الصحيح مؤيدًا للميل الفطرى فانتميت إلى الدين الإسلامى بدافع طبيعى غريزى وبتأييد علمى تمحيصى فأصبحت بذلك مسلمًا شعورًا وموطنًا ودينًا»[١١].

-٣- «جاء الإسلام بعد الديانتين التوحيديتين منقحًا موضحًا للحقيقة، معترفًا بجوهر الديانتين السابقتين، مشيرًا إلى التحوير والأخطاء التى طرأت عليهما.. مضيفًا كثيرًا من الإرشادات والتعاليم الروحية التى أرادها الله لعباده المؤمنين.. (واضعًا) شريعة تحتوى على كل ما يتعلق بالمجتمع من أمور اجتماعية دينية اقتصادية سياسية. ومن ذلك يتضح أن الإسلام لم يظهر لهداية القبائل الوثنية فحسب وإنما جاء أيضًا لتوحيد الأديان ورفع الشكوك والارتباكات التى انطوت عليها الديانتان اليهودية والمسيحية وإرشاد أتباعهما إلى الدين الجديد.. ولكن تأصل جذور الديانتين ونفوذ الأحبار والساسة والعصبية اليهودية بصورة خاصة كل هذه كانت من العوامل التى حالت دون تحقق التوحيد المنشود. ولو أن هؤلاء كانوا من المهتدين إلى (الإسلام) دين الحقيقة لكان انقشع ضباب الضلال والكراهية والارتباك وانبثق نور السعادة على البشرية جمعاء فى جو مشبع بالصفاء والولاء»[١٢].

«الواقع أنه ليس من دين من أديان العالم البشرى حافظ على جوهره وقاعدة تعاليمه كالدين الإسلامي، وهذا ما يمتاز به الإسلام عن الديانتين اليهودية والمسيحية..»[١٣].

«.. إذا كان يصح ما يقال بأن خير الأمور أوسطها، فإن الديانة الإسلامية هى التى تستحق أن تحتل المكانة السامية بين الديانات العالمية لأنها جاءت مشبعة بروح الطبيعة والفطرة، معتدلة فى طقوسها.. متوسطة فى مسلكها.. فهى الشريعة الوسط التى تدعو إلى العمل للدنيا والآخرة فى آن واحد..»[١٤].

«.. إن الإسلام هو الدين الصافى الذى أراده الله للإنسانية، صفى بمصفاة وحيه الإلهى ليكون دينا صالحًا لكل إنسان ولكل زمان ومكان..»[١٥].

-٤- «لو أدرك هذا العالم التائه جوهر المبادئ الإسلامية لوجد فيها خير كفيل لحل معظم الأدواء البشرية الحالية ولما احتاج إلى عصبة أمم أو نظائرها من الاتجاهات لنشر مبادئ السلم والتعاون لأن الإسلام يضم بين تعاليمه أنبل مبدأ وأمتن أساس لتوطيد عرى العلاقات السلمية بين الأمم...»[١٦].

لويس سيليو

-١- «من شأن مبدأ التوحيد الجليل، الذى نشر بين قوم وثنيين، أن يضرم الحمية فى النفس المتحمسة العالية، ويسود هذا المبدأ القرآن، وإليه يعود إبداعه، ويجعل محمد ﷺ هذا المبدأ أساس دينه، وإليه يرجع سبب سموه على جميع الأديان. ويبدو هذا التوحيد المحض جازمًا تجاه علم اللاهوت الذى تورط فى الفرق النصرانية بعد أن زاد عددها بفعل البدع، ولا مراء فى أن عظمة الله العلى وقدرته وحكمته وعدله وحلمه أمور تستوقف أنظار ذوى النفوس المثقلة بالأباطيل، و(أحد، أحد) كان وغى المسلمين ببدر، ولا تخلو سورة فى القرآن من قول: .. بالتوحيد»[١٧].

-٢- «.. إن المبدأ الذى يحتويه (القرآن) لم يكن من نوع قضاء القدماء، ولا من نوع قدر بعض المذاهب الحديثة، فليس فى القدر الإسلامى ما يميت شجاعة المسلم أو يؤدى إلى فتور همته، فهذا القدر مرادف لسنة الكون التى تهيمن على جميع الناس وتضع حدًا لأعمالنا.. وهنالك من المبادئ ما يؤدى إلى أسوأ النتائج عند سوء فهمها، فما أعظم الفرق بين تأثير مبدأ القضاء والقدر فى قوم حطهم الاستعباد وتأثيره فى قوم حمس مقاديم لا يبتغون غير الحرب والفتوح»[١٨].

-٣- «.. الصلاة تمسك الإسلام بغير هياكل وتضمن دوامه بغير كهان»[١٩].

-٤- «.. لا ترى (فى الإسلام) سلسلة مراتب ولا طوائف كهنوتيه ولا طبقات ذات امتيازات»[٢٠].

٦- نفسه، ص ٣٣- ٣٤.
٧- نفسه، ص ٥٤.
٨- نفسه، ص ٦٨.
٩- فى طريقى إلى الإسلام، ١/ ٤٢.
١٠- نفسه، ١/ ٥٢-٥٣.
١١- نفسه، ١/ ٥٥.
١٢- نفسه، ١/ ٧١-٧٢.
١٣- نفسه، ١/ ٧٤-٧٥.
١٤- نفسه، ١/ ٧٧.
١٥- نفسه ١/ ٨٠.
١٦- نفسه، ١/ ٦٩.
١٧- تاريخ العرب العام، ص ٨٨.
١٨- نفسه، ص ٩٢.
١٩- نفسه، ص ١٠٤.
٢٠- نفسه، ص ١١٧.

الشيخ عبد العزيز جاويش رائد الإصلاح والعمل الوطني



الأخيرة

أ . د . حلمي محمد القاعود

برز عبد العزيز جاويش واحدًا من رواد مدرسة الصحافة الوطنية وحاملي لوائها، فقد تسلم رئاسة تحرير صحيفة «اللواء» خلفا للزعيم مصطفى كامل وواصل رفع لواء الحركة الوطنية من بعده، وأصدر العديد من المجلات الوطنية، وظل يصدع بالحق الذى عرضه للمحاكمات والسجن. ومع ذلك كان في هذا الوقت مربيا جليلا ومصلحا اجتماعيا وضع على عاتقه مهمة إصلاح التعليم وتطويره .

ظهرت مقالاته تتوالى دفاعا عن الأمة وصيانة لحقوقها، وهجوما على الاستعمار وأذنابه والقصر ورجاله، ولم تشغله القضية الوطنية عن قضايا العالم الإسلامي، فإذا كان يرى حق الأمة المصرية في الحرية والجلاء والدستور، فإنه يراه أيضا حقا للعالم الإسلامي، وكان يؤمن بوحدته تحت راية الدولة العثمانية التي يرى في تمزيقها ضياعا للوطن وتمكينا للعدو؛ ولذلك هاجم أحمد لطفى السيد، وشن عليه حملة عنيفة حين عارض معاونة مصر لطرابلس التى تعرضت للغزو الإيطالي.

وكانت مقالاته الصادقة وحملاته على المفسدين تؤرق الاحتلال ورجاله، ووجدوا فيها خطرا داهما على نفوذهم وتنبيها للأمة من غفلتها وإيقاظا لها من سباتها؛ فجابهوا جاويش بالمحاكمة والسجن، لكن ذلك لم يزده إلا صمودا وثباتا، فلما اشتد الخناق عليه وأحس بتعقب الاحتلال البريطاني له وتدبير نفيه أو محاكمته محاكمة ظالمة هاجر مرغما .

وبصفة عامة فقد تمتع جاويش بموهبة أدبية ومهارة صحفية منذ نعومة أظفاره، حيث بدأ يكتب في اللواء حين كان طالبا بدار العلوم، وقد ارتبط جاويش بالحركة الوطنية يوم أن قابله الزعيم محمد فريد في مؤتمر المستشرقين الذى عقد عام ١٣٢٣هـ = ١٩٠٥م ، وقد لفت جاويش أنظار محمد فريد حين قام بالرد على المستشرق الألماني «دلفروسي» الذى ادعى في كلمته أن القرآن الكريم كان أول كتاب عربي وضع بالعامية لعرب ما قبل الإسلام، فرد عليه الشيخ ردا قويا قائما على العلم بتاريخ اللغة وتاريخ الدين، كما بدا تمكنه من اللغات الأجنبية وغيرته على لغة قومه ودينهم، فعرض عليه محمد فريد أن يعرفه بالزعيم مصطفى كامل الذى كان في رحلة عمل بلندن فوافق جاويش وسافر على الفور وقابله، وكان هذا اللقاء فتحا جديدا في حياة عبد العزيز جاويش، وحينما توفي الزعيم مصطفى كامل لم يجد محمد فريد أكفأ من جاويش ليخلف الزعيم الراحل في رئاسة تحرير «اللواء» فبدأ بذلك مرحلة جديدة من حياته صدرها بمقال تحت عنوان «دنشواى أخرى في السودان» قدم على أثرها للمحاكمة عام ١٣٢٦هـ = ١٩٠٨م وحكم عليه لكنه نال البراءة في الاستئناف. أعيد للمحاكمة في العام التالي لنشره مقالا عن ذكرى دنشواى وحكم بحبسه ثلاثة أشهر، غير أن الشعب قدر له هذه الوطنية فقدم له وساما بعد الإفراج عنه.

أما المحاكمة الأكثر شهرة في التاريخ فكانت محاكمته عام ١٣٢٨هـ = ١٩١٠م بسبب اشتراكه مع محمد فريد في كتابة مقدمة لديوان «وطنيتي» للشاعر على الغاياتي، وسجن ثلاثة أشهر، وبعدها بعامين أبعد إلى تركيا فواصل رحلة الجهاد والعمل .

ويشير أنور الجندى إلى مرحلة التألق في حياة عبد العزيز جاويش فيقول : « في أوائل عام ١٩٠٨ ترك جاويش منصبه العلمي في وزارة المعارف وتولى رئاسة تحرير جريدة «اللواء»، وبدأ اسمه منذ ذلك اليوم يتألق في مجال الصحافة السياسية والإصلاح الاجتماعي على نحو سريع خاطف ، وفي خلال أربع سنوات (هي كل سنوات عمله الصحفي) كان جاويش قد ملأ الدنيا وشغل الناس بآرائه الجريئة وأسلوبه العنيف وحملاته النارية على الاحتلال والاستبداد الداخلي والمستوزرين ، حتى إنه قدم للمحاكمة ثلاث مرات ، وحقق معه أربع مرات ، وسجن مرتين ، وأنذرت « اللواء» وأغلق «العلم»، ومن أجل حملاته القاسية وقلمه المر أعيد قانون المطبوعات القديم ، وعدلت نظم محاكمات الصحفيين..» (أنور الجندى : عبد العزيز جاويش ، من رواد التربية والصحافة والاجتماع ، ص ٥٨).

كان جاويش يشعر فعلا بأنه يواجه مرحلة صعبة حين أمسك قلمه ليكتب الكلمة الأولى في جريدة اللواء وكان يحس مسئوليته تجاه أمته ، مسئوليته وهو يكشف عن نفس مؤمنة صادقة اليقين في الكفاح وقد استهدف غايات خمس هي :

خدمة الأمة المصرية – والدفاع عن الأريكة الخديوية، ما حرصت على مصلحة رعاياها– وجهاد الإنجليز ما بقوا محتلين البلاد – والحث على الفضيلة والأخلاق الكريمة – والدعوة إلى توحيد عناصر الأمة ..(السابق ، ص ٦٧).

وجاء في مقاله الأول بجريدة اللواء :

« باسمك اللهم استدبرت حياة زادها الجبن وخور العزيمة ومطيتها الدهان والتلبيس، في أسواقها النافقة تشترى نفيسات النفوس، بزيوف الفلوس ، وتباع الذمم والسرائر بالابتسام ،وهز الرءوس ، وبيمنك اللهم أستقبل فاتحة الحياة الجديدة ، حياة الصراحة في القول ، حياة الجهر بالرأى، حياة الإرشاد العام ، حياة الاستماتة في سبيل الدفاع عن البلاد العزيزة ، بعد أن قضيت في سابقتها ثماني حجج ، بلغت بها ذلك المنصب الذى كنت فيه ما بين محسود عليه ومرجو فيه ، أستقبل هذه الحياة المحفوفة بالمخاطر متبريا في ميدانها ، فإما إلى الصدر وإما إلى القبر، موقنا بما أعده الله لعباده العاملين المخلصين من الظفر والفتح المبين ، عارفا أن الحي لا يموت إلا مرة ، والموت أحلى من حياة مُرة ، وكيف لا

تقدم أنفسنا قرابين بين أيدى أهرام هذا القطر ونيله . أم كيف لا نصرف كل مرتخص وغال فى سبيل تحريره ، وقطع اليد الغاصبة له جزاء بما كسبت ، فلنتمسك بهذا المبدأ الشريف ما حيينا ، ولنعتصم به ما بقينا . سيسير «اللواء» على ما كان عليه خادما للأمة المصرية مدافعا عن الأريكة الخديوية ما حرصت على مصالح رعاياها مجاهدا الإنجليز ما بقوا فى بلاده ، حاثا على الفضيلة والأخلاق الكريمة ، داعيا إلى توحيد عناصر الأمة على اختلاف مللها ونحلها ، وتباين مشاربها ولهجاتها ، فاللهم أسألك لسانا ناطقا بالصواب» (اللواء عدد ٣ مايو ١٩٠٨) .

وكان فيما يكتب يدعو إلى الموت فى سبيل الحرية والحق والقوة والكرامة والعزة ويملأ نفوس المواطنين بحب الكفاح «نحن لا نرضى أن نقيم على الضيم ، ثم لا نرضى بسلطان أجنبى علينا ، نحن لا نقبل أن نباع بيع السلع فى الأسواق ، نحن لا نصبر على العسف والجور ، نحن لا نعرف للاحتلال بيننا صبغة تكسب المحتلين شيئا من النفوذ والسلطة الشرعية» (السابق ، ص ٧٤) .

ولذا كان موقفه من لطفى السيد واللورد كرومر المندوب السامى على مصر حادا وعنيفا ، وكان لطفى السيد يهاجم من هاجموا تكريم اللورد كرومر عند انتهاء مدة حكمه فقال جاويش : «أنسيت حملته الصادقة على الجريدة عندما كنت تدعو القوم إلى إقامة احتفال بلورد كرومر ؟ وتنشر فى صحيفتك (الجريدة) هذه العبارة : «ومما يذكر لجناب اللورد كرومر من علو الهمة والثبات على مبدئه أن كبار الأعيان طلبوا إليه أن يقدموا له هدية تذكارا لشخصه يذكر به المصريين الذين أقام بينهم هذا الزمن الطويل موفور القسط من الرفعة الذاتية والشمم وحسن البلاء والحلم» .

وردد جاويش - فى مجال تصوير الفرق بين مفاهيم الجريدة واللواء للوطنية قول مصطفى كامل «إن سياسة الجريدة تدلنا على أنها أشد الجرائد تعلقا بالاحتلال وحسبنا قدحها فيمن استنكروا الاحتفال باللورد كرومر ، أعدى أعداء المصريين ، والطاعن على الإسلام والمسلمين» .

وأضاف جاويش قوله : «ولا عجب من أن يكون مدير الجريدة هو الآلة الخادمة لهذه السياسة» (السابق ، ص ١٠٨ وما بعدها) .

غادر جاويش مصر فى (١٣٣٠ هـ = ١٩١٢م) إلى تركيا ، وكان يحكمها رجال حزب الاتحاد والترقى وكانت له بهم معرفة وثيقة ، ولم يكن يرمى جاويش من توجهه إلى تركيا طلب الراحة والركون إلى حياة الدعة والهدوء ، بل ذهب إلى هناك ليستأنف نضاله ويعاود نشاطه وكفاحه ؛ فأنشأ هناك صحيفة «الهلال العثمانى» ، وجعل هدفها الدفاع عن حقوق مصر فى الحرية والاستقلال ومناهضة الإنجليز فى كل مكان ، وبعدها أصدر جريدة «الحق يعلو» ، وكانت تصل إلى مصر وتلقى إعجابا وتقديرا .

كما أعاد هناك إصدار مجلة الهداية التى كانت توقفت فى مصر ، ودفعه لذلك العديد من الأسباب من أهمها ما رآه من انصراف المسلمين عن دينهم وتقليدهم الأعمى للغرب فسعى لرد الشبهات ودحض الأكاذيب التى تروج حول الإسلام ، كما سعى للدفاع عن اللغة العربية وحرص على بيان أن الإسلام دين الفطرة ؛ لذا قام بتفسير القرآن الكريم فى أعداد المجلة . وشاركت المجلة فى الجدال الدائر حول المرأة وحجابها فشن حربا شعواء على دعاة التبرج والسفور ، كما اهتمت المجلة باللغة العربية والأدب وإنشاء نادى دار العلوم للغة العربية ، كما أولت اهتماما كبيرا بأحوال المسلمين فتحدثت عن مسلمى بلغاريا وروسيا والبوسنة والهرسك وغيرها من بلاد العالم ، واهتمت بإحياء التراث الإسلامى . لكنها توقفت نهائيا عام ١٣٣٢هـ = ١٩١٤م .

فيما بين سنتى ١٩١٥م و١٩١٨م كان ينتقل ما بين ألمانيا وتركيا والشام ، وقد أنشأ بعض المجلات إحداها باللغة الألمانية باسم «Die Islamische Welt» ، وأخرى فى استانبول باسم (العالم الإسلامى) ، وثالثة فى سويسرا باسم Egypte ؛ وذلك للدفاع عن استقلال مصر ، كما اشترك فى مؤتمر الدفاع عن الدول المحتلة فى استكهولم .

وفى سنة ١٩١٨م غادر الشيخ جاويش تركيا خفيةً حيث اتصل بالوفد المصرى بباريس . وفى سنة ١٩٢٢م استدعاه الغازى مصطفى كمال باشا وعيّنه رئيسًا للجنة الشئون التأليفية الإسلامية بأنقرة . وفى سنة ١٩٢٣م حدث خلاف بينه وبين الغازى أتاتورك فى شأن إلغاء الخلافة ، فعاد لمصر خفيةً ونشرت جميع الصحف مقالاً تحت عنوان (تجديد العهد) بتوقيع الشيخ جاويش ، وبعد فترة سمحت له الحكومة بالإقامة فى مصر .

⁂

تأثر جاويش بأستاذه محمد عبده ، إذ كان حريصا على حضور دروسه فى التفسير ، وسلك طريقة أستاذه فى الكتابة فكتب كتابه الشهير «الإسلام دين الفطرة» عام ١٣٢٣هـ = ١٩٠٥م فى لندن ، متبعا فيه طريقة الإمام فى البحث الإسلامى ، واستشهد كثيرا بآرائه . ويكشف الكتاب عن مرامى الدين الإسلامى التى يتم بها إصلاح العقيدة ، وقد استخرج أهداف الإصلاح من أسرار هذا الدين . واستوحى جاويش اسم الكتاب من قول أحد طلبته الإنجليز أثناء تدريسه بلندن : «يخيل إلىّ يا شيخ أن هذا الدين لا ينافى الفطرة» . . فسعى لتأصيل المفاهيم حول الإسلام وبيان أثر القرآن فى تحرير الجنس البشرى . وحين نفدت طبعة الكتاب الأولى قامت جريدة «المؤيد» بنشره كاملا فى السنة نفسها ، ثم أعيد طبعه أكثر من مرة ، وترجم إلى اللغة الإنجليزية .

وقد دعا جاويش فى مجال الإصلاح الاجتماعى إلى ترابط رؤوس الأموال الصغيرة وإنشاء مصرف وطنى ، وكتب فى محاربة الخمر كتابه «أذى الخمر ومضاره» ، وارتفع صوته بضرورة العناية بالمرأة وتعليمها وإصلاح أحوالها ورفع شأنها ، وعارض زواج المصريين من الأجنبيات .

وتحت عنوان «وجوب مراعاة أحوال الزمان والمكان فى تطبيق أحكام الشريعة الغراء» ألقى جاويش خطبته الجامعة بمؤتمر الإصلاح العام الذى عقدته الحكومة المصرية بمصر الجديدة ، وكان يردد دائما الإسلام صالح لكل زمان ومكان ، وقد شارك فى إنشاء جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة وانتخب وكيلا لها .

لم يكن الشيخ عبد العزيز جاويش شخصا عاديا أو مجرد أديب أو صحفى أو حتى سياسيا يدلى بتصريح هنا أو هناك أو يشارك فى هذا الحزب أو ذاك ، لقد كان أكبر من ذلك كله ،

ويكفى أنه خلف مصطفى كامل الزعيم الوطنى الذى أحبه الشعب المصرى فى رئاسة الحزب ورئاسة تحرير جريدة « اللواء » وما ذلك إلا لكونه رجلا مهما ومتفردا له مواقفه وآراؤه التى تنحاز إلى الإسلام والوطن والاستقلال والحرية والعدل ، كما كان مخلصا للحركة الوطنية فى مصر ومبادئها الراسخة كالجامعة الإسلامية والجلاء ووحدة وادى النيل ، والدستور والدفاع عن المستضعفين. ولذا كان من أشهر زعماء العصر الحديث فى مصر تعرضا للمحاكمات ، وأكثرهم استهدافا من جانبا السلطة الغشوم التى لا تحب أن يعكر صفو وجودها بحديثه عن قضايا الأمة ، فقدم للمحكمة مرات عديدة

ومع ذلك فقد كرمه الشعب المصرى وقدره ورد إليه اعتباره ، ففى ٢٧ نوفمبر ١٩٠٩م قدَّم له الشعب وسامًا فى حفل خاص تقديرًا لوطنيته .

وتشير بشيء من التفصيل إلى بعض المحاكمات التى تعرض لها الشيخ جاويش ، ونتوقف عند أشهرها لنكشف مدى استهدافه الظالم من أجل إسكات قلمه وتكميم فمه ، ومنها :

١ – قُدِّم للمحاكمة أمام محكمة عابدين عام ١٩٠٨م لنشره مقالاً تحت عنوان (دنشواى أخرى فى السودان) ، وقد حُكم عليه ابتدائيًا وبرِّئ استئنافيًا . فقد حوكم فى يوليو - أغسطس سنة ١٩٠٨م بتهمة إهانة وزارة الحربية لنشر قضية « الكاملين » التى دافع فيها الشيخ جاويش عن أهالى بلدة الكاملين بالسودان بقيادة الشيخ عبد القادر واتهم الحكومة بإحداث مذبحة مثل مذبحة دنشواى فى بلدة الكاملين بالسودان وأنها أعدمت ٧٠ رجلا ، وحكمت المحكمة بالسجن المؤبد على ١٣ آخرين .

٢ – وقُدِّم للمحاكمة سنة ١٩٠٩م بسبب نشره مقالا فى اللواء بعنوان (ذكرى دنشواى) وصدر الحكم بحبسه ثلاثة أشهر .

٣ – فى سنة ١٩١٠م كانت المحاكمة الأشهر فقد قُدِّم للمحاكمة بسبب مشاركته فى وضع مقدمة لديوان (وطنيتى) لعلى الغاياتى ، وحُكم عليه بالحبس ثلاثة أشهر .

٤ – فى سنة ١٩١٣م طلبت الحكومة المصرية تسليم الشيخ جاويش لمحاكمته عن تهمة إرسال منشورات ضُبطت مع أحد الطلبة المصريين القادمين من تركيا وتم تسليمه بالفعل وأُودع سجن الحضرة ثم أفرج عنه .

٥ – ثم أبعد الشيخ جاويش إلى تركيا حيث تابع نشاطه الصحفى والدعوى والوطنى .

المحاكمة الأشهر فى التاريخ الأدبى

لا شك أن المحاكمة الأشهر فى التاريخ الأدبى الحديث هى قضية ديوان وطنيتى للشاعر على الغاياتى ، وقد اكتسبت شهرتها بسبب الأطراف التى اتهمت فيها وقدمت للمحاكمة بقصد تحقيق أهداف سياسية للاحتلال الإنجيزى والاستبداد الحاكم فى مصر آنئذ ، فقد كان القصد من المحاكمة ، الانتقام من الزعيم الوطنى محمد فريد ، والكاتب المجاهد عبد العزيز جاويش ، والشاعر الحر على الغاياتى ، والثلاثة يشعلون الحماسة الوطنية ضد الاحتلال والاستبداد والتخلف ، وكان الهدف فى كل الأحوال كسر شوكتهم ، وتكميم أفواههم ، وتخويف بقية الوطنيين ، وإرغام محمد فريد وحزبه على القبول بما يريده المحتلون الغزاة من مهادنة وترك ميدان الجهاد السلمى الذى يقودونه ويحرك الجمهور للمطالبة بالاستقلال والحرية والعدالة والمساواة ، ولذلك يسجل الحكم الصادر فى قضية الشيخ عبد العزيز جاويش والزعيم محمد فريد ومصادرة ديوان « وطنيتى » حكما تاريخيا يكشف طبيعة الاستبداد والظلم الاجتماعى والعسف فى مطاردة الحرية وحق التعبير ، وقد سبقت الإشارة بإيجاز إلى هذا الحكم عند تناولنا لسيرة الشيخ على الغاياتى ، ولكننا نشير إليه هنا ببعض التفصيل لبيان بعض الجوانب المتعلقة بالشيخ جاويش على نحو خاص .

فقد عقدت محكمة الجنايات جلستها للفصل فى قضية النيابة العمومية المتخصصة بديوان وطنيتى وهى . مؤلفة من حضرة عزتلو ، ومحمد مجدى بك رئيسا ومن زميله على ذوالفقار بك و المستر سودان عضوين وجلس فى كرسى النيابة العمومية حضره عزتلو محمد توفيق نسيم بك أحد رؤساء النيابة فى محكمة الاستئناف العليا بدلا من حضرة عزتلو على توفيق بك رئيس نيابة محكمة مصر الذى ألم بصحته انحراف خفيف منعه من الموافقة فى هذه الدعوى ، ورأينا قاعة الجلسة مزدحمة بالمحامين ومندوبى الصحف وجمهور غفير من المتفرجين و المتهمين الثلاثة الحاضرين قعودا فى مجلسهم وهم : الشيخ عبد العزيز جاويش و الشيخ محمد حسن القزوينى و إلياس دياب أفندى (كان محمد فريد وعلى الغاياتى غائبين عن المحاكمة الأول لوجوده خارج البلاد ، والآخر لهروبه) ، وكذلك رأينا خارج القاعة جمهورا غفيرا آخر من المتفرجين لم يجد له موضعا فى داخلها .

وبعد فتح الجلسة أعلن الرئيس أنه لم يضع نظاما استثنائيا للمحاكمة وأبقى حضورهم عموميا مباحا مؤملا أن يحافظ الحاضرون أنفسهم على النظام ويلزموا السكينة ثم تلا كاتب الجلسة ورقة الاتهام ، وسئل المتهمون الثلاثة عن التهم المعزوة إليهم فأنكروها وعن أسمائهم وصناعتهم إلى آخر ما هو معروف من هذا القبيل ثم قسم المحامون دفاعهم عن المتهمين ، وبعد ذلك نهض حضرة عزتلو محمد توفيق نسيم بك رئيس النيابة العمومية فى محكمة الاستئناف العليا فألقى مرافعته التالية بما اشتهر عنه من طلاقة اللسان وفصاحة البيان وهذه صورتها :

مرافعة النيابة

تطالب النيابة العمومية معاقبة المتهم الأول بالمواد ١٤٨ – ١٤٩ – ١٥١ – ١٥٤- ١٥٦ -١٥٩- ١٦٠ من قانون العقوبات ، بوضعه وطبعه كتاب – وطنيتى – ولما كان فعل المتهمين الآخرين يحتمل أن يوصف بفعل أصلى أو باشتراك فتطلب معاقبتهم بالمواد المذكورة و بالمادة ٣١ فقرة الثانية و ٤٠ فقرة ثالثة من قانون العقوبات مع مراعاة تطبيق المادة ١٥٤ عقوبات فى حالة ما إذا اعتبر المتهم الثانى مرتكبا لجريمة تمجيد الجرائم .

و فى حالة اعتبار المتهم الثانى فاعلا أو شريكا مع الأول يلاحظ أنه سبق الحكم عليه لارتكابه بواسطة طرق النشر المنصوص عليها فى المادة ١٤٨ جريمة قذف وإهانة الموظفين وقد ضمنت جريمة الإهانة إلى جريمة القذف أخذا بأشدهما .

و قد أخذت النيابة العامة فى شيطنة ديوان وطنيتى وتجريمه وتجريد صاحبه من العقل

والحكمة واتهمته بصفات عديدة غير طيبة واستطردت فى جعل الشاعر على الغاياتى صورة بشعة للإجرام وبث التعاليم الفاسدة. وقد أخذت تدلل علـى ذلك من خلال اجتزاء بعض الجمل والأبيات فى الديوان وخاصة ما يتعاطف فيها الغاياتى مع الحزب الوطنى .

ثـم تنتقل النيابة إلـى تجريم محمد فريد والشيخ الغاياتـى اللذيـن كتبـا مقدمتيـن للديوان حيث تراهمـا جزءا من أجزائه وهما عنوان خاطر المتهمين وترجمة ضميرهم.

لسان الدفاع

وقـد دافـع حضـرة محمـد على بـك عن الأسـتاذ الشـيخ جاويش فأخـذ ينتقض خطة النيابـة فى التحقيـق نقطة نقطـة ، ورد على أسـئلة المحكمة التى وجهـت إليه من خلال دفوع قانونية مهنية . وتتابع دفاع المتهمين الآخريـن لتبرئـة موكليهـم وهيـب دوس صاحب المكتبة التى وزعت الكتاب والشيخ القزوينى وإلياس دياب . ثم اسـتأنف حضرة عزتلو محمد على بك الكلام بعده .

وبعد ذلك انفضت الجلسـة على أن تعقد فى السـاعة الرابعة مساء للنطق بالحكم.

وقـد كان الحكـم صـورة غريبـة وعجيبة حيث اقتطعت المحكمة أبياتـا وجملا من الكتـاب وأوّلتها لتطبق عليها مواد العقوبات فـى القانـون التى انتهـت بعدها إلـى تجريم الشـيخ الغاياتـى مـع محمد فريـد وصاحب الديوان ومن شاركوا فى طبعه وتوزيعه .

ونقـدم مثـالا على ما فعلتـه المحكمة فى فهمها لشعر الغاياتى وتجريمه :

يقـول الحكـم : «وكذلـك فـى الظروف المذكورة أهان الشـيخ على الغاياتى سـعادة ناظر الحقانية بصفته موظفا عموميا وبسبب وظيفتـه هذه وبصحيفـة ٦٣ ، ٦٤ حيث قال موجها كلامه إليه :

حكمت فلم تنصف وقلت فلم تصب
ورمـت مـرامـا دونـه الله و النـاس
وبحـت بـأسـرار الـوزارة معلنا
وأبـديـت مـا لـم يُبـد غالـى و عباس
فأغضبت فـى مصر القضاء وأهله
وأرضـاك أن يرضـى خنـوع ودسـاس
فـلا تـك بـعد الآن لـلعـدل موئـلا
فـغيـرك بـعد الآن لـلعـدل حـراس
وحارب بسيف الظلم من شئت بيننا
فـغـايـة مـا يغنى مـن الظـلـم إفـلاس

وعقوبتـه على هذا الأمر تكـون بمقتضى المادة ١٤٨ و١٥٩ عقوبات» .

وبعد حيثيات عديدة انتهت المحكمة إلى إصدار حكمها التالى :

حكمت المحكمة غيابيا بالنسـية للشيخ علـى الغاياتى وحضوريا للشـيخ عبد العزيز جاويش و الشيخ القزوينى و إلياس دياب أولا – بمعاقبة الشيخ على الغاياتى بالحبس لمده سـنة مع الشـغل و تبرئته من تهمة التحريض علـى القتـل – ثانيـا – يحبـس الشـيخ عبد العزيز جاويش مده ٣ أشـهر حبسـا بسيطا . ثالثا – بمعاقبة كل من الشـيخ محمد حسـن القزوينى و إلياس أفندى دياب مده شهرين و إيقاف تنفيذ هذا الحكم الآن طبقا للماده ٥٢ ، ٥٤ عقوبات .

وكانت المحكمة قد حكمت على محمد فريد بالحبس بعد عودته من ألمانيا ، وقضى العقوبة دون أن يسـتجيب للمسـاومات التى طرحت عليه لإخلاء سبيله .

حول الفكر القومى



المستشار طارق البشرى

نتنقل إلى موضوع القومية والعروبة. ونحن لا نتكلم عنها هنا فى إطار تلك المفاضلة الكلية والتاريخية التى تجرى بين الجامعة الدينية الإسلامية، التى تعتمد أساسًا على وحدة الدين والعقيدة، وبين الجامعة القومية التى تعتمد فى الأساس على وحدة اللغة والإقليم. إنما نريد أن نتكلم عن الدعوة القومية فى إطار الضال منها والحميد، بوصفها أمثلة لخبرة تاريخية مرت بنا فعلا، والحديث عنها يجرى كالحديث عن سابقاتها من الموضوعات، وذلك لبيان أن ليس ثمة مقولة فى الفكر السياسى هى حميدة صالحة فى ذاتها وإنما العبرة دائماً بطريقة تركيبها وتوظيفها فى سياق ما يمكنها به أن تستجيب للتحديات التى تطرحها الظروف التاريخية والاجتماعية على الجماعة، وهل تكون الفكرة فى وضع معين لها قادرة على حل المعضلات ومواجهة التحديات، أم هى تساعد على تعقيدها وبقائها.

لقد كانت الدولة العثمانية قائمة ، وظهر التحـدى لها من وجهين ، أولا أطماع الدول الأوروبيـة فيها ، خاصـة روسـيا وانجلترا ، وثانيهما ضعف أنظمتهـا الداخلية . ونحن هنـا شـأننا فـى سـابق الأمثلة التـى وردت بهذه الدراسـة ، نقيس المفاهيم والدعوات السـياسـية بمقيـاس الصـلاح والفسـاد فى مقاومة التحديات الأساسـية والمشـكلات التى تواجه الجماعة المعنية ، وإن التحديات والمشـكلات الأساسـية فـى تقديرنـا فى العصـر الذى نعيش فيه ونتحـدث عنه منذ بدأ مع نهايات القرن الثامن عشر ، هو الغزو الاسـتعمارى فـى كل مظاهـره السـياسـية والعسـكرية والاقتصاديـة والاجتماعية والثقافيـة والفكريـة . وقد ظهـرت الفكرة القوميـة فـى بلادنا فـى هذا العصـر ، وهذا عامـل جوهـرى يفـرق بين ظهورهـا عندنا وبيـن ظهورهـا السـابق فـى المجتمعـات الأوروبيـة وهذا العامل فرق بيـن نوعين أو مجموعتين من الأفكار القومية التى ظهرت بين العرب ، وهما بين ضال وحميد.

ومثال النوع الأول من تقديرى هو تجيب

عازوري، وهو يعتبر من رواد حركة القومية العربية حسبما يشتهر عنه. إذ نادى بانفصال العرب عن الترك، وبلور أفكاره في كتابه الصادر في ١٩٠٥ م باسم «يقظة الأمة العربية». ويعتبر نجيب ممن هيأوا الثورة العربية الكبرى في ١٩١٦ م، ومن رواد القوميين الذين عملوا على فصل الدين عن الدولة وعن السلطة المدنية. ولم يكن نجيب ذا جهد فكرى فقط، بل نشط نشاطًا عمليًا، ودعا في ١٩٠٤ م لتأسيس حزب قومي عربي باسم «جامعة الوطن العربي»، وشارك في تنظيم المؤتمر العربي الأول في ١٩٠٥ م في السنة التي أصدر فيها كتابه، كما شارك في تنظيم المؤتمر السوري في ١٩١٣ م، ثم نشط في تأمين وصول السلاح للثوار ضد الدولة العثمانية. وعرف أنه كانت له علاقات وثيقة بالأوساط السياسية الأوروبية، ولم تكن تخفى صلاته مع السفارة الإيطالية ولا مع ماكسويل قائد القوات البريطانية في مصر، ولا مع السفير الفرنسي، وكان حلقة الاتصال بين هؤلاء وبين العرب. كما قام بتنظيم المحافل الماسونية ذات التاريخ المشبوه بين العرب والمسلمين في ذلك الوقت.

وحسبما يظهر من قراءة كتابه الشهير، فإن دعوته للقومية العربية لم تقم على أساس نظرى من وحدة اللغة والإقليم والتاريخ والتكوين النفسي المشترك، كما هي العادة لدى من يدعون إلى الجماعة القومية، إنما قامت دعوته على أساس من استبداد الحكم العثماني وفساده. والاستبداد والفساد والظلم، كل أولئك يبرر عند توافره الدعوة إلى التغيير السياسي والاجتماعي، أي للإصلاح، ولكنها لا تبرر ولا يجوز أن يستند إليها في دعوة للانفصال السياسي. إن الحديث المطنب لنجيب عازورى عن ظلم جباة الضرائب والرشوة والسرقة والفوضى والإضراب، كل ذلك بلاء يبتلى به العثمانيون جميعا وليس العرب وحدهم، وإصلاحه يعود على الجميع. إنما ما يبرر الدعوة للانفصال هو الاستناد إلى جامع سياسي للجماعة البشرية المحكومة، جامع يفصل بينها وبين جماعة الحاكمين أو الجماعة التي ينتمي إليها الحاكمون، ملة كانت أو دينا أو قومية أو غير ذلك. وهذه النقطة الفارقة بين العرب وبين الأتراك على الأساس القومي، قد أولاها الكاتب أقل اهتمام.

ويؤكد هذا العوار في البناء النظرى للكتاب، أن نجيب عازورى طفق يمتدح ما صنعه الإنجليز في مصر، ويتمنى أن يقوم في فلسطين نظام يصنع ما صنعه الإنجليز بمصر من إدارة صالحة وعدالة صارمة، ويتكلم عن السياسة البريطانية بلهجة الإعجاب بأساليبها، ثم ينتقد المصريين لأنهم ساخطون على الاحتلال الإنجليزى ويقول «هذا الواقع يكفى للدلالة على عدم قدرة المصريين على حكم أنفسهم بأنفسهم، وبعد مرور أربعة وعشرين عامًا على وجود عدالة سريعة ومتجددة ونظام بوليس جيد.. يناقش المصريون كثيرًا حقوق الخليفة التركى على مصر وطرد الإنجليز والعودة إلى سيطرة السلاطين»، ثم يذكر أن نظام المستعمرات البريطانية ينشر ويساهم في نشر الرخاء في جميع البلدان، ونحن بطبيعة الحال نعلم ماذا صنعت العدالة البريطانية بفلسطين في عشرات من السنين تلت صدور كتاب عازوري.

ومن هنا يبدو ظاهرا الوجه الآخر لدعوة عازوري، فهي دعوة للانفصال العربى يقيمها على أساس من فساد الحكم العثماني، ودعوة لخضوع المصريين للحكم الإنجليزى يقيمها على أساس العدالة البريطانية. وهو بهذا لا يضع الفكرة القومية في صورتها الجامعة كشعب توحده عوامل اللغة والتاريخ والجغرافيا، وإنما يضعها في صورة انفصالية تفتيتية تابعة، وأن نظرته إلى العدالة البريطانية هي أقرب للدعاية السياسية منها للنظرة الموضوعية، وتتجاهل أن احتلال بلد لبلد آخر دون قيام جامع بينهما من دين أو قومية أو اشتراك في إقليم لهو من ذرى الاستبداد والظلم.

وقد خضع الإطار الإقليمي للأمة العربية لدى نجيب عازورى لمنطقه التفتيتي نفسه، فقصر دعوته العربية على ما عبر عنه بقوله «من دجلة إلى برزخ السويس، ومن البحر المتوسط إلى بحر عمان..» وكانت هذه بعينها هي المنطقة التي تشملها الدولة العثمانية وقت إصدار المؤلف كتابه. أما ما كان من البلاد العربية خاضعا وقتها للاستعمار البريطاني كمصر، أو الاستعمار الفرنسي كالجزائر وتونس، أو ما كان في وضع الأطماع الأوروبية الوشيكة مثل ليبيا (احتلها الإيطاليون في ١٩١٢م) أو المغرب (احتلها الفرنسيون في ١٩١٢م)، أما كل هذه الأقطار العربية فقد استبعدها عازورى من دائرة أمته العربية.

ثم هو يؤكد أن الإنجليز لم يعد لهم أطماع في المنطقة التي يتوجه إليها بدعوته (رغم أنهم سيطروا بعد الحرب على فلسطين والأردن والعراق، وكانوا مسيطرين في وقت عازورى على عدن)، ويتجه إلى فرنسا التي يراها تحظى بالنفوذ والمحبة في سوريا «وتمتلك حقوقا تاريخية»، ويذكر من فضائل فرنسا «أنها تقدم المساعدة الأسمى والأكثر عفوية للمظلومين والتعساء»، «مشعل الحضارة والحرية الأسطع إشعاعًا إلى جانب كونها حامية المقهور»، «يمكننا أن نجد قاعدة تفاهم صالحة بين فرنسا وإنجلترا وألمانيا في تقسيم ممتلكات السلطان الآسيوية». وهو يرشح فرنسا التي تمتلك حقوقا ومصالح أكثر من غيرها ويقول «لا يملك أحد الحق في حكمنا غير فرنسا ولن يهتف أحد بحرارة لأى دولة غيرها إذا نزلت في البلدان العربية، يوم يتقرر تجزئة الإمبراطورية التركية».

هذه هي دعوة القومية العربية التي أطلقها عازورى في ١٩٠٥ م هي أمة تتحد في اللغة والتاريخ والأدب، ولكن دعوته تنحصر فيما يؤدى إلى الانسلاخ عن الجامعة الإسلامية التي كانت تقوم عليها الدولة العثمانية وقتها فهي دعوة انفصال وانسلاخ لدى عازوري، وضعت فيها الأقطار العربية وضعا تجزيئيا واستبعد منها الجانب التوحيدى للعرب،

باستبعاد ما وراء برزخ السويس غربا من أقطار العرب الإفريقية، استبعدت لأنها لم تكن خاضعة للنفوذ العثماني. ثم وضعت دعوته العربية في وضع تابع للسياسات الأوروبية، ثم هو يقول «على الفاتح أن يظهر تفوقه على المقهورين وأن يكون وديعًا عادلا حذرا منهم، وأن يفرض عليهم حضارته الأخلاقية قبل حضارته المادية».

وهذا التوظيف التفسيخي التفتيتي الذى دعا إليه عازورى للقومية العربية، هو بعينه ما حدث فى التطبيق خلال الحرب العالمية الأولى وما تولد عن الثورة العربية الكبرى فى ١٩١٦ م.

ومن هنا يتعين أن تحذر من وضع فكر ودعوة كهذه فى إطار دعاوى القومية العربية التى تفترض أنها ترمى إلى تشكيل وطن عربى واحد وأمة واحدة ناهضة مستقلة. نحن نتكلم لا عن عازورى فقط، ولكن عن المؤرخين والكتاب الذين يضعون مثل هذا الفكر وصاحبه فى إطار «بناة الأمة العربية».

الاتجاه المقابل، نختار المثل عنه من أرض الشام نفسها التى ظهر فيها عازوري، ومن الفترة الزمنية عينها. هو اتجاه آخر للعروبة ودعوتها، نضرب عليه المثل برفيق العظم. ولد رفيق بسوريا فى ١٨٦٧م لأسرة عربية إسلامية عريقة وتوفى فى ١٩٢٥ م. نشط منذ شبابه فى العمل السياسى الإصلاحى بالدولة العثمانية، حتى هاجر إلى مصر فى ١٨٩٤ م ابتعادا من مطاردة السلطة العثمانية، وكان ينشر مقالاته بالصحف المصرية، وتعرف على السيد رشيد رضا عند مجيء السيد رشيد رضا إلى مصر فى ١٨٩٧ م. ثم كان أهم نشاط سياسى له فى تلك الحقبة أن أنشأ مع صحبة «جمعية الشورى العثمانية»، وأصدروا جريدة «الثورة العثمانية» فى ١٩٠٧ م.

كانت هذه الجمعية حريصة على أن تضم شخصيات من مختلف الديار العثمانية، عربا وتركا وجراكسة وأرمن. وفى الفترة ذاتها نشأت جمعية الاتحاد والترقي، وتبين لرفيق وصحبه أن هذه الجمعية تصطبغ بالصبغة القومية التركية والطورانية، وأنها جمعية لا تضم إلا الأتراك دون غيرهم من عناصر الدولة العثمانية، فكانت الجمعيتان مختلفتين تمامًا فى تركيبهما العضوي، لا تكادان تتفقان إلا فى مقاومة استبداد السلطة العثمانية.

وما لبثت جمعية الشورى أن انحلت، ودخل رفيق جمعية الاتحاد والترقي، ثم تركها لما تأكد لديه تعصب الاتحاديين للتركية وأسس رفيق وصحبه ما سمى بحزب اللامركزية كان هدفهم منه الدفاع عن حقوق العرب ضد العصبية الطورانية والتركية، التى غلا فى تأكيدها رجال الاتحاد والترقى بعد أن تولوا السلطة فى الانقلاب الذى قاموا به فى ١٩٠٨م وخلعوا بعده السلطان عبدالحميد فى ١٩٠٩م، كانوا يتبعون سياسة ترمى إلى تتريك أقطار الدولة العثمانية كلها. لقد شاهد رفيق وأصحابه الاتحاديين يلجأون لسياسة تتريك تؤدى إلى انفصال الدولة، حذفوا الألفاظ العربية من اللغة التركية وكانت قرابة الثلث، ولم يحذفوا مثلا الألفاظ الفرنسية الدخيلة على التركية، وأحلوا موظفين أتراكا محل من كان من العرب يشغل أيا من الوظائف، وجعلوا اللغة العربية اختيارية حتى فى مدارس الأقطار العربية وعينوا لتدريسها مدرسين أتراكا كل ذلك اضطر رفيق وصحبه إلى اتخاذ سياسة عربية تدافع عن مصالح العرب، وتحاول أن تتفادى الانهيار الشامل الذى رأوا الاتحاديين يقودون الدولة العثمانية إليه، فحاول بحزب اللامركزية أن يجنب الأقطار العربية خطر الانهيار، وأن تكون بمنجى عن السقوط فريسة للأوروبيين إذا أزفت الآزفة، ولما يئس رفيق من الدولة العثمانية عندما قامت الحرب العالمية الأولى، أنشأ حزب الاتحاد السوري.

فى هذا الإطار من الحركة السياسية يمكن أن نقرأ فكر رفيق العظم، ونكتشف وجوه المفارقة الحادة بينه وبين أمثال عازوري. فقد كان رفيق توحيديا تجميعيا وليس تفسيخيا تفتيتيا، كان مقاوما للاستعمار واقفا ضد الغزو بصوره المختلفة. ولا يفقد هذه القبلة فى نشاطه، مهما اضطرته الأحداث لتعديل أو تغيير زاوية رؤيته. وذلك على عكس عازورى وأمثاله.

لقد وضع رفيق العظم الإسلام والعثمانية والعروبة والسورية، وضع كل فكرة أو كيان تنقل منه أو إليه مع تغير الظروف والحادثات، وضع كل شيء من ذلك فى الموضع المناسب للتصدى للتحدى الذى يواجه جماعته، وهو على التحديد الاستعمار والغزو الأجنبي، والاحتلال وهو يرى أن ثمة روابط عديدة تجمع أى قوم أو أقوام، منها العشيرة والجنس (الوطن) والدين، وكلها عصبيات طبيعية تربط بين البشر. وهو يرى أن كل مجتمع إنسانى يتهدد كيانه مجتمع آخر، إلا أن يكون المجتمع الأول «متكافئا معه فى القوة» وكلما اتخذ المجتمع المعتدى رابطة أوسع، وجب على المجتمع المعتدى عليه أو المهدد بالاعتداء عليه أن يتخذ الرابطة الأوسع التى ينتسب إليها وتتكافأ فى المواجهة.

وعند رفيق لا يصح مواجهة الرابطة الوطنية للمجتمع المعتدى برابطة العشيرة للمجتمع المعتدى عليه، ولا مواجهة الرابطة الدينية الأوسع بالرابطة الوطنية الأضيق، ويرى أن الترك أضعف برابطتهم التركية فى مواجهة الأمم المسيحية التى تتكاثر عليهم هذه الصياغة الفكرية التى يضعها رفيق، يظهر منها أنه ينظر إلى الروابط المختلفة للمجتمع الإنسانى تتسلسل بين الخصوص والعموم، ويضع تعدد الروابط وتنوعها لا فى موضع الصراع والتنافى بين بعضها البعض ولكن فى موضع التسلسل بين الأوسع والأضيق، وتتسلسل كلها لديه حسب الحلقة الأقوى التى تتناسب مع وضع المواجهة والمقاومة الحادث ويستند كل ذلك إلى مواقف المواجهة مع القوى الطامعة التى ينبغى أن يتحشد لها ما يلائمها من روابط الكفاح.

ورفيق إذ يجمع بين الرابطتين الوطنية والدينية، فإن تجربته التاريخية علمته فى إطار ظروف بدايات القرن العشرين، أن الجامع الدينى لا يكفى وحده وعاء وأنه لم يستطع أن يجمع أهله، وأن الجامع الوطنى

هو الغالب. ثم يرى أن أوروبا تجتمع على اكتساح المسلمين، وأن هذا يوجب توحيد المسلمين، وأن الوحدة الإسلامية تقوم وفاء بحق القومية ثم هو بعد هذا التوفيق يجرى توفيقا آخر توحيديا وتجميعيا أيضًا، يجريه بين المسلم والمسيحى واليهودى من أهل الوطن الواحد، ويدعو إلى تناصرهم جميعًا فى مواجهة الأوروبيين ويذكر أن ليس أحد من أهل وطننا بأقل من أخيه حاجة إلى الاعتضاد بالقومية وتوثيق وشائج الإخاء الوطنى، وأن أوروبا تحجب كل دعاوى الديمقراطية عن سكان ممالكها فى آسيا وأفريقيا، حتى لو كانوا من ذات عقيدة الأوروبيين، وأنه فى مقابل هذه العصبية الأوروبية، يتعين على الشرقيين مع اختلاف أديانهم أن يكونوا أولى بأنفسهم، فيترابطون بالعوائد والأخلاق والمعيشة الواحدة، ويجمعهم وطن واحد رغم اختلاف أديانهم.

وقد كان هذا تقريبًا موقف السيد رشيد رضا، زميل رفيق العظم فى جمعية الشورى العثمانية وفى حزب اللامركزية. بدأها مع غيرهما يريدون إصلاح النظام العثمانى، فلما بدا من حكم الاتحاديين ما بدا، اندفع رشيد رضا فى اتجاه عروبى غالى فيه، فى رأى البعض، إلى حد أنه أثناء الحرب العالمية لم ير مانعًا من الاتفاق مع الإنجليز على هدم العثمانيين، ثم لما نكث الإنجليز عن دعوتهم ووعودهم للعرب بعد الحرب، واحتلوا مع الفرنسيين أرض العرب جميعها قسمة بينهم (كانوا اتفقوا عليها بما عرف باتفاقية سايكس بيكو)، لما ظهر ذلك أدرك السيد رشيد أن اليد التى كانت تريد هدم العثمانيين هى ذاتها التى كانت تريد هدم العرب، وثار ضد الإنجليز وضد الشريف حسين ودعا لابن سعود أن ينقذ الحجاز من هؤلاء.

هذان هما المثلان المقابلان فى الدعوة القومية إلى العروبة، يبدو لنا منهما أنه ينبغى ألا ننظر إلى هذه الدعوة أو الفكرة على أنها نشأت بغاية واحدة ولتحقيق هدف واحد، ولا أن الخلافات بين روافدها المتعددة هى مجرد اختلافات كمية، ولا أن مصدر هذه الأفكار واحد إن النظر الصحيح يوجب علينا أن نقيس المدارس المختلفة للفكر القومى بمقياس مدى استجابة كل منها للتحديات المطروحة على المجتمع العربى الإسلامي، والنظر إلى طريقة صياغة الفكرة القومية وحركتها الواقعية بما يوفر أو لا يوفر إمكانيات المواجهة والتوحيد والحشد والتجميع الملائم، أو بما يقضى على ذلك ويدفع بإمكانيات التفسيخ والتفكيك فى تلك المواجهة التاريخية التى يخضع لها عصرنا كله.

وبهذا نجد حركة إسلامية وحركة قومية تتفقان فى المصدر والهدف وتقفان معا ضد التحديات المطروحة وضد الغزو، ونجد حركتين منهما يقومان بالعكس وقد يفسدان قوام الأمة. وهنا يظهر الفارق الفكر الضال والفكر الرشيد، وبين الفاسد والحميد وإن اتخذوا عنوانًا واحدًا أو تغلفوا فى غلاف واحد.

المعقولية.. ووجهان للعقل



للعلامة: محمد فتح الله كولن

العقل «جوهر» مجرد عن المادة، لكنه ملاصق لها.. وامتداد نورانى للغيب فى عالم الشهادة.. وهو من أهم جوانب الروح، وأضوأ وأنفذُ نورٍ لماهية الإنسان، فارق بين الحق والباطل... وهو «النفس الناطقة» الذي يعبّر عنه القدماء بالـ «أنا».. ومن مقترب المتصوفة هو: اسم من أسماء جبريل -عليه السلام- كما يسمونه «النور الأعظم» و«عرش محمد»... وفي مصطلح بعض الصوفية: هو جوهر إنساني يسمونه: «العقل الجزئي» أو«العقل المجازي»، وبالنسبة لتعلقه بالأمور الأخروية «عقل المَعاد».

إن العقل - بمعنى من معانيه - هو مركزُ حراسةٍ للروح باعتباره موجّهًا للإنسان إلى التفكر والإدراك والفهم ومانعا له عن القبائح وحاثا له على المحاسن. والفلسفةُ تهتم كثيرا بهذا «العقل»، وعلمُ الكلام يربط به كثيرًا من مسائل «أصول الدين»، وبعضُ المتصوفة يقسمونه باعتباره خيرا أو شراً ومقيدا أو ضارا إلى قسمين: «العقل السماوي» و«العقل الترابي». ونكتفى هنا بهذه الإشارات، لأن تناول العقل بكل خصائصه، الأصلية منها والتبعية، تضيق عنها مقالتنا هذه. كذلك نطوى هنا صفحة اعتبار العقل - حسب المنظور الإسلامى - سببًا من أسباب العلم، مع أهميته الخاصة. وكذا سنكتفى بالتذكير بأن العقل مناط التكليف والعنصرُ الأساسى للتفكر، والجوهرُ الأول للمحاكمة المنطقية، والمميزُ للإنسان عن الحيوان والناقلُ إياه إلى مستوى الإنسان الحقيقي، وخيرُ هبة من الخالق للإنسان.. فنتناول هذه الجوانب منها على أنها موضوعات تبعية بالنسبة إلى هذه المقالة القصيرة، قد نعرّج عليها هنا بإشارات سريعة للتذكير ببعض أوجهها.

ما نريد أن نركز عليه هنا بإيجاز هو العقل فى إطار وظائفه - وذلك حسب رؤية الأستاذ النورسى فى رسائل النور - وهو إما العقل المنشئ «العقل المكوِّن» الذى يتكاتف مع الوحى والإلهام والوجدان، وإما ضده الذى

هو العقل الضيّق غيرُ الملتفت إلى النواحي الروحية، المتسلخُ من العلائق السماوية، المحدَّد قدرةَ مرونته ومجال حركته. ولا نخوض أثناء البحث -حتى وإن وُجدت مناسباتٌ من بعض الأوجه - في فرضيات «العقل النظري» و«العقل العملي» من مقترب «كانْط» أو في ملاحظات «لالَند» عن «العقل المُنشِئ» و«العقل المُنْشَأ». ونكتفي بهذا التذكير السريع، لأنها مواضيع تستوعب كتبا ولكن ليس لها فوائد ملموسة في الواقع العملي.

العقل باعتبار أعماقه الكامنة - في رأي بديع الزمان النورسي والمفكرين المسلمين - عينٌ تقرأ كتابَ الكائنات، وأُذنٌ داخليةٌ منفتحةٌ على اهتزازات واسعة ومتنوعة. إذ يقوِّم الأصوات والأنغام التي يسمعها ويربطها بمعانٍ مختلفة، وإدراكٌ شامل ومحيطٌ متطلعٌ بتفحص يتجاوز حدود الأشياء والحوادث، وبصرٌ باطنيٌّ منفسح في كشف عوالم الوجود وما بعد الوجود. والإنسان بالعقل يقوِّم ما يراه بالعين ويسمعه بالأذن، فيصل إلى حُكم، وبدلالته يسيح خلف أستار الوجود، بل يرتقي به إلى مقام مخاطبة الله - جل وعلا -، ويتأهل لحمل بعض مسؤولياته: الجبرية منها والاختيارية، ويتحرى عن الكائنات والحوادث طرًّا، ويشخّصها، ويؤصلها، ويسير إلى الله تعالى. ففي الخير والأمور الحسنة يجمع العقلُ منطقنا وتفكيرنا مع الثراء الواسع للوحي والإلهام، ويصير مرجعًا للنداءات الواردة من الماورائيات. أما في الشر والقبح، فيورد التفسيرَ المنطقيَّ للحدود الإلهية ويكبح جماح الرغبات المنفلتة للنفس ويضع إستراتيجيات ضد هجماتها. وفوق هذا، يمنحنا خططًا للتفلت من شباك الشيطان المختلفة، ويضرب على أهوائنا ورغباتنا الجسمانية قيودًا وسلاسل مصنوعة من أفكار منصهرة في بوتقة المحاسبة والمراقبة. وهو يكبت الأهواء النفسانية ما دام محافظًا على سماويته ويمنعُها من دناءاتها المتولدة من خصوصياتها، فكأنه شُرطيٌّ حارس أو موظف رقيب يحفظ القيم الإنسانية. وبدهي أن هذه من خصائص «العقل السماوي» أو «عقل المَعاد» ولا تمتُّ إلى «العقل الترابي» أو «عقل المَعاش» بصلة.

وقد كان من المناسب في هذا السياق أن نتحدث عن العقل وقيمته ومكانته في المسئولية وحجيته في القرآن والإسلام، لكننا نريد أن نحصر الكلام فيما هو معقول وغير معقول حسب القرآن الكريم ومن منظور بديع الزمان النورسي.

لقد تقرر في نظام التفكير الإسلامي - من المنظور القرآني - أن هناك ما يسمَّى بـ«العاقل» و«غير العاقل»، والطبيعة والخلق، والأسباب والقدرة الخالقة فوق الأسباب، والموجود بنفسه والموجود بإرادة محيطة، أو بتعبير عام آخر: هناك التحليق في أفق التوحيد أو التخبط في وحل الشرك. فمنذ وجود الإنسان استمرت مسرحيةُ «مَفِيسْتو - فاوست»[1]... «الملحوظة الزمنية المربوطة بوجود الإنسان هي من وجهة وجودٍ خصوصي لمفسِّرٍ وممثل خارجي وهو الإنسان. فالأصل من وجهة التفسير المجرد للكائنات والحوادث، شموليةُ الحال بعينه على ما قبل خلق الإنسان أيضا، وسيدوم صراع الأخيار والأشرار أبدا، وستستمر المفاصلة بين الشياطين والأرواح الشيطانية، وبين الأرواح المستعدة لقبول الحق والحقيقة.

ففي كل عصر ما فتئ ممثلو «غير المعقول» الذين يربطون وجود الكائنات والحوادث بفكر التكون الطبيعي والأسباب المادية والطبيعة يشكلون صفًا، ويتجمعون حينًا حول آلهة الطبيعة المصطنعة، وحينًا آخر حول القدرة الموهومة للأسباب، فلم يتوانوا عن محاربة ممثلي «المعقول»: الأنبياء والأصفياء والمؤمنين. وأصحابُ هذا الصف مع أنهم بدلوا استراتيجياتهم حسب الزمان والمكان، ولكن عزيمة الحرب وعقلية الكفاح عندهم واحدة لم تتبدل؛ فإما أنهم أحالوا الخلق والتنظيم والإماتة والإحياء وأمثال ذلك من لوازم حقيقة الألوهية إلى ما لا يتجاوز وجودُه الوهمَ كالأسباب والصُّدَف والطبيعة، وإما حاوَلوا ربط الأفعال الإلهية - ولو من بعض الوجوه- بهذه المسائل. ولا شك في إلحاد الصنف الأول من هذا الصف. أما الصنف الثاني فقد وقعوا في الشرك، لإشراكهم الأشياء التي خلقها الله تعالى، في أفعاله الإلهية. فإن عقيدة التوحيد تعتبر أدنى مُحاصّة ومشاركة أو مماثلة - بأي وجه من الوجوه - للقدير المطلق، الخالق، المنشئ، المحيي، المميت، الرازق، القيوم، السميع، البصير، القيوم.. شركا وغير معقول.

فمن هذا المنظور، فإن عقيدة التوحيد التي هي من القواعد الأساسية في القرآن الكريم موافقة للعقل، فهو «معقول»؛ وربْط الوجودِ بالأسباب والطبيعة وأشياء أخرى مناقضٌ للعقل، فهو «غير معقول». ولعل من المفيد أن ننوّه هنا إلى أن المعقول يتضح أكثر فأكثر بذكر اللامعقول حسب ما تقرر من أن «الأشياء تُعرف بأضدادها».

إذن، الضرورة تحكم - في حال التخلي عن ربط كل الأمور بالتوحيد الحقيقي - بالحاجة إلى مؤثّرين كثيرين يمتلكون قوة الإله في الخلق والإنشاء والإماتة والإحياء والإبصار والقيومية.. فتصورٌ كهذا، يقود

(1) مفيستو - فاوست: ظهرت شخصية «مفيستوفيلس» الأسطورية في أواخر القرن السادس عشر في التراجيديات الأوروبية كالشياء أبالسة يتزلفون للشيطان: ففي مسرحية «مارلو» المأساوية، تقمصت شخصية «فاوست» (حوالي ١٤٨٨) إبليسا باسم «مفيستوفيلس» يضلل الإنسان انتقاما من طرده من الجنة. أما غوته، فقد أضفى على «فاوست» من خلال «مفيستوفيلس» صفة جديدة، فجعله رمزًا لإبليس يساير الأحداث المستجدة وينفخ في الإنسان وهم القدرة على الهيمنة على مقدرات الكون وعلى فهم كل الأشياء من جهة، ومن جهة أخرى جعله رمزًا معترضا على كل شيء ومخربا لكل شيء. وينهي «غوته» تراجيديته بهزيمة «مفيستوفيلس» الذي يعبر عن تعطش «فاوست» ونهمه الدائم إلى الخلود والعمل الدائب. إن كل الأعمال المستلهمة من أسطورة «فاوست» تستعين بشخصيات مفيستوفيلس (Mephistopheles) وفاوست شخصية الغريم الباطن. «يراجع هامش ص ١٢٩ من كتاب: ونحن نقيم صرح الروح للمؤلف، دار النيل، ط. ٣، ٢٠٠٩» «المترجم».

إلى تقبّل محالات متسلسلة كثيرة لا تعد ولا تحصى، وهو تناقض صريح مع العقل.

يتحول مفهوم «المعقول» و«غير المعقول» (الذى يلجأ إليه الكلاميون بعناوين متعددة) عند بديع الزمان النورسى إلى صوتٍ قرآنيّ ونفَس توحيدى خاص. فالمتتبع للقضايا الإيمانية فى رسائله سيتعرف على المعانى التى أضفاها القرآن الكريم على هذين المفهومين («المعقول» و«غير المعقول»).. والقرآن الكريم فى آيات كثيرة مثل:

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾

«الأنبياء: ٢٢»..

يدعونا دائما إلى المحاكمة العقلية والمنطقية فى هذا الموضوع، ويفتح أمام المنطق آفاقا جديدة.

إن القرآن، يحيل كل المسائل التى يتناولها - ما عدا أوامره التعبدية المتعالية - إلى العقل والمنطق والمحاكمة، ولا يترك فى توجيهاته وندآته ثغرات عقلية أو قلبية أو روحية البتة. بل لم يزل معبرا عن الفكر السليم والمحاكمة العقلية المنهجية والمنطق المنضبط ضد الأحكام والمزاعم المختلفة التى يتبنيها خصومه الكثيرون على «غير المعقول».. فأفحمهم، هم وكلّ أنواع مغالطاتهم وديماغوجياتهم وجدليتهم، وحسم الأمر بظهوره وغلبته عليهم. وهو ما نعتبره، فى الوقت عينه، ظهورا وغلبة لرسل الحق تعالى وللعقل السليم عليهم.

وإن دورة التاريخ الدائمة هى التناوب بين مراحل الفتور إزاء الوحى وإهمال «العقلي»، ومراحل ظهور التنور السماوى والنشاط العقلي. فمتى ما استطاعت القلوب وتنورت العقول بالأنوار التى ينشرها الأنبياء، وانكفأت الجسمانية والمادية فى زاويتيهما، واستقرت الفيزيائية والميتافيزيقية فى مكانهما الصحيح، وتقدم «العقل السماوي» (بتعبير مولانا جلال الدين الرومي) و«عقلُ المعاد» (بتعبير الإمام الغزالي) على «عقل المعاش» و«العقل الترابي»، فقد تحقق - حينئذ - تزاوجٌ جديدٌ بين القلب والعقل وميلادٌ جديد. هذا الميلاد هو ميلادُ ربط الوجود بمالكه الحقيقى حسب وعي العصر وإدراكه مرة أخرى، بتفسير الوجود من جديد، وميلادُ خلاص الإنسان من التناقضات الداخلية.. ومتى ما عميت الأبصار عن أنوار السماوات وأهمل العقل وأُبعد التفكير ونُسي «المعقول» بالكلية (بمعناه الخاص)، فقد ارتفعت راياتُ «غير المعقول» فى كل المجالات، وانكب حشود البشر على وجوههم فى التناقضات. فجعلوا زرادشت أو عُزيرا (عليه السلام) أو المسيح (عليه السلام) ولدًا لله - حاشاه - ووقعوا فى انحرافات وضلالات مثل «ثالث ثلاثة»!.. وحينئذ انقلبت الموازنات والنُظم المتعلقة بالوحى والعقل عاليها سافلها.

وقد يتجسد «غير المعقول» فى «وَدّ» و«يَغوث» و«يَعوق» و«نَسْر»، أو فى «النور والظلمة» كما عند المجوس، أو فى روح كلية، أو فى أصنام «اللات» و«مناة» و«العُزّي» و«نائلة» و«إساف»، أو فى

حوادث مخيفة ومفزعة فى كتاب الطبيعة مثل النار والنهر والبرق والريح. وفى كل حال، الأرواحُ القابلة للاعوجاج والانحراف تنجرف أحيانا إلى هاوية الانحراف انطلاقا من حسن النية، كما فى تأليه «ودّ» و«يغوث» و«يعوق» و«نسر»، أو تندفع فى طريق خاطئ فتبعد عن الصواب، لالتفاتهم عما هو معقول وسماوي. وقد يغفلون عن القضية لضيق زاوية الانحراف فى المركز. وحين الانتباه فى نقطة على المحيط بعيدًا عن المركز تتعسر العَودة إلى نقطة البدء لتوسع الزاوية. ثم يبدأ التلطخ بتفسير أجل الحقائق، تعلقا بالأوهام والخيال. إن هذه «اللامعقولية» هي مخالفة صريحة للعقل وللوحى وانحراف واضح، سواء بإحالة صريحة لكل قضاء إلهيّ إلى صنم من الأصنام المتنوعة، أو بربط خفيّ للمشركين فى منظور «الوسطاء» الشفعاء المقرّبين زلفى، ربما بدوافع اختلاقهم للتبريرات أو الديماغوجية.

المعقول واحد أبدًا.. فكلما حصل انحراف عنه، حصل السقوط فى الكثرة غير المعقولة بلا انتباه ولا وعى.. فأقاموا «الكثير الحقيقي» مقام «الواحد الحقيقي» فى صور شتى: كما أسند الصابئون الولادة والموت والسعادة والشقاء والبلاء والمصائب إلى الشمس والقمر والنجوم بكيفية تشبه معتقداتنا حول القدر، وأسند الأنيميون هذه الأمور إلى الروح الكلية، والمجوسُ إلى النور والظلمة، والوثنيون إلى الأصنام بأسمائها وصفاتها المختلفة. حتى إذا أراد الوحى أن يردهم عن هذا الانحراف قالوا:

﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾

«الزخرف: ٢٣»..

ولم يفكروا بتاتا بتعديل مسارهم إلى الطريق السماوى أو العقلي.

فأولئك ما كانوا يبالون بالمعقولية فيما يعتقدون ويؤلهون. ومآربهم كانت محصورة فى أهوائهم ورغباتهم والاقتداء بآثار آبائهم متى ما نفعهم ذلك. القرآن الكريم يستصرخ العقل فى أولئك المقلدين العُمي، وكلّ اللاهثين وراء الهيكلية الصورية الجوفاء من قبلهم ومن بعدهم:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٧٠) وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ۚ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

«البقرة: ١٧٠ - ١٧١».

ولنا أن نستطلع هذا فى الأسلوب العام للقرآن الكريم؛ فالقرآن الكريم يخاطب المشركين المعاصرين لسيدنا ﷺ مرة بعد مرة بلسان العقل، ويوسع آفاقهم بلسان المنطق، ويحقنهم بالمعقول بقوة المحاكمة المنطقية، ويعيد عليهم صفحات من ديمومة التكرر التاريخي، ويضعضع - بسرد الأمثال - لامنطقية الشرك فى تلك الأيام إلى جانب الفكر

الإلحادى فى قابل الأيام، ويدعو إلى التعقل فى كل الأمور.

إن سيرة الأنبياء والمرشدين الذين اتبعوهم مشهرٌ لعرض نماذج حية ضد كل نوع من أنواع الكفر والإلحاد والشرك، ومنبر لسرد أشد الخطب إقناعا. والقرآن الكريم يأخذ بيد تلاميذه مرة بعد مرة ليسيح بهم فى تلك المشاعر، ويُسمع خدامه أجل الخطب العصماء بأصدق الأصوات.

ومثال ذلك قصة إبراهيم «عليه السلام» التى تتكرر فى القرآن الكريم مرارًا، لأنه من أقوى أصوات فكر التوحيد. فتراه محطمًا لأصنام المشركين من قومه، أو مقوضًا لأركان فكر المشركين، أو ضاربا على أفواههم بالأقفال المصنوعة فى مصنع العقل، فهم لا ينطقون، أو حاملاً إلى السماء فَهْمَهم المشركَ وتوهُّمَهم الألوهيةَ فى النجوم والشمس والقمر، ليحلّ رباط الأجسام السماوية، فتتساقط على أفهامهم المنحرفة عن الربوبية، فتخرَ أنقاضا وركاما يتطون تحتها، ويفتح سبلاً واسعة توصلُ إلى الله تعالى للقادمين من بعدهم.

ثم يصرخ فى المصرين على غير المعقول تارة أخرى:

﴿ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

«الأنبياء: ٥٤»

ثم تراه قد حطم أصنامهم وقام منتصبًا وموبِّخا منطق شركهم المنحرف الضال قائلا:

﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

«الأنبياء: ٦٦-٦٧»

إنه يصرخ ويوبخ حتى يوجف أرواح المشركين من قومه والمشركين من بعدهم جميعًا.

ومثلما كان إبراهيم «عليه السلام»، كان الأنبياء العظام: نوح وهود وصالح وشعيب وموسى.. وكلهم أجمعون صلى الله عليهم وسلم، أدَّوا الرسالة نفسها وساروا فى الطريق بعينه مع تنوع اللون والنمط حسب تنوع الأحوال والأوضاع، فاتبعوا نهج «العقل السماوي» ونشروا «المعقول» جميعًا. وعلى النقيض كان صفُّ أهل الكفر والإلحاد والشرك الذين أفنوا أعمارهم فى السجن الضيِّق للهوى والرغبات، وأسر الفهم والفكر المتوارث من الأجداد، فأهدروها فى مد الشعور المنحرف والفكر الضال وجزرهما وأشهروا اللامنطق على الدوام.

لقد حث الأستاذ النورسى بإصرار على قراءة كتاب الكون واستشراف آفاقه والتطلع إلى معرض الوجود. وحثُّه هذا تعبير عن المفهوم المتوارث من ممثلى المعقول: الأنبياء والأصفياء والأولياء وعلماء الإسلام. ومع استحضار اختلاف الخط حسب الزمان، كان محتوى الرسالة والطريق المتبعة واحدًا لا يتغير: التحرى المستمر فى الأرض والسماء.. وخضُّ الأشياء واستبطان مغازى الأشياء والأحداث.. وتسليمُ كل الأشياء إلى مالكها الحقيقي.. وبعد ذلك، الإحساسُ باطمئنان هذه المعقولية فى الوجدان، وتحوُّلُ العلوم المؤدية إلى المعرفة: كل علم إلى نبع يروى الذوق الروحاني.. ومن ثم، تقاسُمُ من فى الأرض ومن فى السماء تلك الحالَ الروحية.

يرشدنا القرآن الكريم فى كثير من آياته البينات إلى هذه الطريق ويدلنا على أن المعقولية هى تعلق الفكر وانشداده باللانهاية:

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾

«ق ٦-١١»

فيلفتُ النظر إلى السموات وإلى الأرض وإلى الرزق، ويدعونا إلى التعقل والتفكر والتعمق فى الإيمان والإثراء فى المعرفة، ويؤكد مرارًا على أهمية المحسوسات، ويدعونا دائمًا إلى استطلاع الأرض التى نعيش عليها:

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾

«الحج: ٤٦»

والقرآن هنا يومئ إلى أصل الحرمان والخسران وإلى أنه فى القلوب التى عميت بصيرتُها. وهو يوبخ مرارًا من لا يستعمل عقله وبصيرته حين يمر من غير تحقيق وتدبر بآيات الأرض والسماء، وكذلك ينبه إلى أهمية «النية» و«النظر»، وأن الرؤية المجردة لا تجدى شيئا:

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾

«يوسف: ١٠٥».

والقرآن الكريم أنموذج فريد للمعقولية من أوجه كثيرة تجتمع كلها فيه.. فهو - مع حثه على استطلاع كتاب الكائنات - أنموذجٌ بمتانة تقديمه للقضايا الكبرى وإثراء الفكر بمحتواه، وإحاطة رسالته، وسحر ألفاظه، وتأثير أسلوبه، ووقع صدقيته.. نعم، إن مستند القرآن هو الوحي، لكن طريقه لا يغادر فَلَك العقل. فهو يَطرق باب المخاطَبين مسجِّلاً ومُثبِتا كل معانيه ومفاهيمه لدى العقل والمنطق والتفكير، ويمضى إلى القلوب بأسلوب يحفِّز الانتباه، وينطق كابحًا اعتراض العقل والحس والشعور، ويروِّض المتلمذين عليه دوما بالمعقولية... فالقرآن الكريم يستند إلى الوحى ويتعامل مع البشر فى سفح المعقول فى كل الأمور.. والأمر سواءٌ؛ فى تقديمه مئات المسائل المتشابكة بتناغم وتجانس لا يُدرك شأوه حتى فى تحليل المسألة الجزئية، أو فى صفاء وخلوص وتأثير كل تذكرة ومعنى من معانيه، وكذا فى الارتقاء بالقلوب المستعدة للإيمان إلى

الاطمئنان، أو في إقناع الأرواح المترددة.

فنقول من هذه الوجهة: إن مستطلعي الأشياء والحوادث القادرين على قراءتها، والمسندين إياها - من ثم - إلى التوحيد، هم في طريق المعقول.. وكذلك الذين يستمعون إلى القرآن الكريم وينصتون إليه ويستمرئونه يُعدّون في الطريق العقلي. وبالمقابل، من يعجز عن النفوذ إلى بواطن الوجود والحوادث ويبقى خارجها، فليس في الطريق العقلي، وكذلك من لا يستمع إلى القرآن ولا ينصت إليه ولا يستمرئه فليس مستفيدًا من أنوار العقل استفادة كاملة.

نعم، المعقول: هو قراءة الوجود والأشياء، والتفكيرُ بها وتقويمها.. ومن بعد التقويم ربطُها بوشائج الإيمان والمعرفة والخالق. واللامعقول: هو إسناد كل شيء من الأشياء وكلِّ حادثة من الحوادث إلى الأسباب المختلفة أو الطبيعة أو أمور أخرى.. المعقول: هو استغناء الخالق وجودًا وتوحيدًا عن الشريك والنظير والمُعين؛ وغيرُ المعقول: هو فكر الشرك والإلحاد بصوره وأشكاله كافة.. المعقول: هو ضرورة الأنبياء والرسل المرسَلين من الله إلى البشر لشرح الأشياء والحوادث وتفسير الوجود وربطه بالحقيقة المفردة؛ وغير المعقول: هو رد النبوة والرسالات الإلهية.. ويمكن توسيع هذا الإطار حسب الملاحظات الواردة في رسائل النور، إلى أن يستوعب الأركانَ الإيمانية جميعًا. وأظن أن هذا القدر كافٍ هنا، وأحيلُ إلى كتب مفكري الإسلام للتوسع في الموضوع.

من زاوية أخرى، العقل يعني الفهم والإدراك واستجماع الفكر. وهو بهذا المعنى وسيلة مهمة لتفهُّم الأمور الداخلة ضمن تعريفه، ومن المقومات الحيَوية للروح؛ فبالعقل نفهم ما نفهم، وبه نعلم ما نعلم، ونقوِّم ونستنبط الحاصلَ والناتج. وضده الحمق والغباء وعدم الإدراك. الحمقى والأغبياء ومعدومو الإدراك لاهثون في طريق اللامعقول بلا هدف ولا مقصود.. فلا يفهمون كتاب الكائنات ولا يتآلفون مع الأشياء ولا يستمعون إلى القرآن ولا يدركون أسرار التكليف.. ومحال على هؤلاء أن يفهموا الدين وروحه وغاية الوجود ومقصوده. ويُسند إلى نبينا محمد ﷺ قول مآله: «أن الأحمق عدونا».. فجعله مولانا جلال الدين الرومي عنوانا وصاغه شعرًا بلسانه الفصيح «ترجمته»:

«قال النبي ﷺ: الأحمق عدو لنا، شقي يقطع طريقنا.

إذنْ العاقلُ حبيبنا.. نَسيمُه المعتلُّ بردةً يفوح رَوْحًا وريحانا.

فإنْ غضبَ العقلُ مني.. فسبَّني وشتمني، أُطأطئ رأسي وأدِمْ صمتي،

لأن العقل من «الله» الذي يمنُّ عليَّ بالفيوض أبدًا.

أما الأحمق فإنْ وَضع في فمي حلوى، أعتلّ من حلواه ويصيبني بالحمّى.

وكذلك كبار الربانيين الآخرون يرون العقلَ السماوي المستمدّ من «الأخرويات» وثاقًا يوثَق به الرغباتُ الجسمانية، فلا تستطيع الميولُ الجسدية أن تعبر عن نفسها إلا إذا انفلتت من هذا الوثاق. فالعقل في هذا المعنى قفل حديديٌ لحفظ القيم الإنسانية ومفتاح سحريٌ للسعادة البشرية. العقل لجام الرغبات النفسية وقفلٌ يُغلق فمها، وهو أيضًا جناح ملائكيٌ تُحلّق به الروح إلى عالم الخلود. النفس تجرف الإنسان إلى معضلات ومشكلات مختلفة كل ساعة بأباطيلها وترهاتها. وضدُّها العقل، إذ هو قوة سماوية تبدد لعبة النفس. فإذا ارتبط بالقلب وتزود وتغذى من «وارداته»، وأدام التزودَ منه، فإنه لا يترك عدوًا إلا صرعه ودحره؛ أما إذا انقطعت وشيجته عن القلب وانقلب من السماوية إلى الترابية، فإنه يصير خائنًا يرشد الأعداء ويقيم في جيرة الشهوات ويدافع عن الحقد والبغض وينضم إلى القوة العمياء فيقاوم السماوية ويخوض في الجدَلية فيكدُّ في إلباس الباطل لباس الحق ويحسب المغالطة براعة، فيجادل مخلّفًا وراءه الاختلاف والتفرق، ويحسب فضح الآخرين وتراجُعَهم غلبةً وظفرًا.. فيتمادى في قتل القلب كل ساعة ويقيم على أنقاضه سرادق النفس، ويتلطخ كلَّ يوم مراتٍ عديدةً بلوثيات تسر الشيطان وتفجر الروح بالبارود.

فالعقل الذي انفلت إلى هذا الحد وصار عنصرا للجماح، يكون - بحسب تعبير مولانا الرومي - «مصدرَ وهم وظنٍّ، لا بدّ من أن يُذبَح قربانًا أمام المصطفى ﷺ ثم يُقال: حسبنا الله، ويستأنف المسير إلى الله».

ويقولُ الشاعر فضولي رحمه الله (٢) بيتًا في هذا العقل المشؤوم «ترجمته»:

أريد من عقلي إشارة ودلالة
وعقلي يريني ضياعًا وضلالة

ويؤكد الكاتب الهولندي أراسموس في «مدح للجنون»: أن لا نفع ولا فائدة ترجى من عقل كهذا.. مستهزئًا وساخرًا به.

نتذكر خلاصة حكيمة هي أنه: «إذا فسدت الأشياء الثمينة، صار ضررها أشد من الأشياء المضرة».. ونقول: إن هذا العمق العميق هو الفارق بين الإنسان وسائر الأحياء، والجوهر الناصع الذي يصعد به إلى مقام «المتلقي لخطاب الله تعالى»، والمعلم والدليل الأول له للارتقاء إلى الحياة القلبية والروحية، يجعله كالملائكة ما دام متغذيًا بالسماوية وقارئًا لكتاب الكائنات ومحوّلًا ما يطالعه إلى المعرفة. أما إذا انقطع عن الله تعالى وارتبط بالطبيعة أو النفس، فيكون حية تلسع وعقربا تلدغ في كيان الإنسان، وينقلب إلى سم يميته موتا أبديا، بدلا عن أن يكون إكسير حياته الأبدية.

(٢) هو أبو فضلي محمد بن سليمان فضولي البغدادي البياتي التركماني. ولد في حلة أو كربلاء من حواضر العراق وتوفي سنة ١٥٥٦ ميلادية ودفن في النجف. ولم يعرف عنه مغادرته العراق قط. جمع العلوم العقلية «كالفلك والفيزياء والجبر» والعلوم النقلية والشرعية «كالحديث والأصول والمنطق والكلام».. أتقن العربية والفارسية وله ديوان في كل منهما إلى جانب لسانه التركي. اختلف في تشيعه لنظمه قصائد رائعة في حب آل البيت وسيدنا الحسين «رضي الله عنه».. لا يخفى أثر التصوف على شعره وفكره. ويقال إن مثنويته «ليلى ومجنون» الذائعة الصيت هي في معاني التصوف. ويؤيد هذا القول رأيه في الشعر وأن الأصل فيه هو العلم وأن الشعر بلا علم قالب أجوف وخاو. وقصيدته في مدح النبي ﷺ من الروائع المشهورة على الألسن في مشرق العالم الإسلامي كله. هو من أعظم الشعراء تأثيرا في الأدب التركي باللهجة الأذرية - التركمانية «بديهية» وبالجغتائية «أيضا».. وأثره في الأخيرة ينافس أثر «علي شير نوائي». أما تأثيره في الشعر باللهجة العثمانية فلا يجارى. فقد أثر في كبار معاصريه العثمانيين أمثال خيالي ويحيا طاشليجه لي، ثم في كبار الجيل اللاحق أمثال روحي البغدادي وباقي ونابي ونديم والشيخ غالب وكثيرون غيرهم. «المترجم».

المحرم ١٤٣٥ هـ
نوفمبر ديسمبر ٢٠١٣ م

وجود الله بين الإيمان والإلحاد

دراسة تجديدية موجزة فى علم الكلام

مستقاه من نتاج فارس العلم والإيمان د. مصطفى محمود

د. يحيى رضا جاد
طبيب بشرى وباحث وكاتب مصري

● هذا مقال استخلصناه بالكامل من مجموع الكتب المذكورة للأستاذ الكبير، فارس العلم والإيمان كما أسميه دائماً، د/مصطفى محمود، أسكنه الله الفردوس الأعلى من الجنة: رحلتي من الشك إلى الإيمان، ص «٨٠،١١١،١١٠،١٠٥،١٠٥،٢٣،٢٢،٢١». ولغز الحياة، ص«٥٤». والغد المشتعل، ص«١٧٥». والإسلام: ما هو؟، ص «٤١،٤٠،١١٠،١١١،١٠٩،١٠٢». وعظماء الدنيا وعظماء الآخرة، ص«٩٦». وحوار مع صديقي الملحد، ص «١٣٦،١٢،١١،٩،٨،٧،١٠». وكلها ط دار أخبار اليوم-القاهرة[1].

● وقد قمنا فى هذا «المقال- الوثيقة» والموجز بالاستقراء والتجميع والتوليف، ليخرج قائمًا بذاته، مضيفًا للجديد المفيد فى موضوعه، مع شيء من «تصرف قليل» فى صياغة العبارات والمعاني، لتكون الثمرة محكمة مصفاة فيها شفاء للناس بإذن الله.

● وبهذا المقال وأشباهه، وما يجرى فى مهيعه، يتجدد شباب «علم الكلام»، ليصير علمًا مثمرًا، جوهرًا وأسلوبًا، بعد أن كبر الكثيرون عليه أربعاً من قديم، بسبب الهجمات الشرسة التى شنتها، فى أحيان كثيرة- المذاهب الكلامية الإسلامية على بعضها البعض، فكريًا وسياسيًا وحياتيًا، وكأنهم أتباع أديان مختلفة متحاربة، لا أصحاب اجتهادات- صحت أو أخطأت- فى إطار الدين الواحد، ولا داعى لذكر أمثلة، فهى مأساوية، ولا نحب أن نسود بها صفحتنا هذه.

والبعض الآن - فى محاضراته ودروسه وكتبه ووسائل إعلامه ومواقعه على الإنترنت- يعمل جاهداً على إحياء هذا «الركام الانحطاطي» بكل ما أوتى من قوة، فاحذروهم، لأن المسلمين لم يختلفوا فى أصول الدين ولا فى أمهات الاعتقادات، فلقد كانت «عقائد الدين وأركانه» و«ثوابت الشريعة وحدودها» هى الجامع الموحد للأمة فى الإيمان الدينى.

وفى إطار هذا الجامع:

أ- كانت التعددية والتنوع والاختلاف فى فروع الفقه، عبادات ومعاملات، الأمر الذى أثمر «المذاهب الفقهية» الإسلامية- التى اشتهرت والتى لم تشتهر، والتى عاشت والتى اندثرت- بما مثلت من ثراء فى الاجتهادات، وغنى فى التنوع.

ب- وكانت التعددية والتنوع والاختلاف بين «المذاهب الكلامية» الإسلامية «والمسماة فى التراث بـ«الفرق الإسلامية»، ولنا مع هذه التسمية، وهذا الأمر برمته، وقفة تأصيلية مطولة، تشمل جوانبه كافة، تاريخياً وأصولياً وحديثياً، ليس محلها ههنا، وإنما محلها بعض فصول كتابنا قيد الطبع بإذن الله: «فى العلاقة بين السنة والشيعة الإمامية الجعفرية- رؤية إسلامية جديدة لأجل مستقبل أفضل» فى إطار علم الكلام، فإن خلافها وتعدديتها لم تكن فى ثوابت الإيمان، وإنما كانت فى «المقالات» أى «النظريات والتصورات» المتعلقة بفروع الأصول والثوابت الإيمانية الاعتقادية.. فهى «هوامش» على مباحث الإلهيات والنبوات والغيبيات والمعجزات، لا علاقة لها بـ«جوهر» الإيمان.. ولقد عكست الاختلافات فيها- بتعبير أستاذنا الجليل د. محمد عمارة- «مراتب الناظرين» على سلم التنزيه والتشبيه، التجريد والحشو، العقلانية المؤمنة والتفسير والتأويل أو الجمود على حرفية النصوص.. إلخ.


د. مصطفى محمود

والذى أحدثه البعض- من قديم- هو الارتفاع بهذه الخلافات الاجتهادية الكلامية «لدوافع وأسباب مختلفة لا مجال لبسطها ههنا، وانظرها إن شئت فى كتابنا المشار إليه قبل قليل» من مستوى الخطأ والصواب، والقرب والبعد، والقوة والضعف، إلى مستوى الطاعة والمعصية، والاتباع والابتداع، والاستقامة والفسق، والهدى والضلال، بل والإيمان والكفر أحياناً!.. فكان هذا «الركام الانحطاطي» الذى يراد له- من قبل البعض- أن يبعث من القبور الآن.. وبه كان ما كان من أمر هذه المذاهب الكلامية، واتساد العلاقة العلمية والاجتماعية بين بعضها البعض، حتى وصلت بين أتباعها إلى درجات عليا متبادلة من الكيد والاستهداف والسجن والتقاتل[2].. انشغل الناس بمسألة «خَلْق القرآن» وتناسوا- عن غفلة أو عن عمد- «خُلُق القرآن»!

ونعود فنقول: بهذا «المقال- الوثيقة» على صغر حجمه، وما جرى

1- كتبت أصل هذا المقال في حياة فارسنا الكبير «الذي سعيت كثيراً سعياً جاداً حثيثاً يشهد عليه الكثيرون - للجلوس في رحابه، وإحاطته بشيء من التكريم والعناية والرعاية، في ظل أجواء الإهمال التي ضربت خيامها حوله في سنواته الأخيرة بعد مرضه. لكن الله لم ييسر لي هذا الأمر، لعلة لا يعلمها إلا هو جل في علاه»، وهو جزء من مشروع كتاب لي عنه، أسأله سبحانه أن يعينني على إتمامه.

2- انظر: الحرية الفكرية والدينية- رؤية إسلامية جديدة. د. يحيى رضا جاد. تقديم د. كمال أبو المجد ود. جمال الدين عطية ود. هيثم الخياط. ص ٦٩، ٧٧، ٧٨. ط ٢٠١٣م، الدار المصرية اللبنانية- القاهرة.

ويجرى وسيجرى فى مهيعه ومن خلال دراسته – ودراسة أترابه من نتاج يوازيه ويفوقه[٣] – والتأمل فيه: فيه مداخلة ومخارجة وأدواته الفكرية المستخدمة والموضوعات التى عالجها = تُحيى علم الكلام، وتجدد شبابه ومقاصده، وتضخ فيه دماء جديدة.

وهذا – مع أمور أخرى لا محل لذكرها ههنا – يستلزم الالتفات إلى أهمية توسعة أوعية علم الكلام المعاصر إن شئنا له أن يكون حاضرًا، فاعلاً، مؤثرًا، مثمرًا، ومن ثم مزكيًا، لتضم مع أبواب الإلحاد وشبهاته المتعلقة بالله، وكتبه ورسله ..إلخ[٤]، الشبهات والموضوعات ذات الصلة بالعلمانية والماركسية والتفكيكية والهرمينوطيقا والمرأة والسياسة وحقوق الإنسان ..إلخ، والشبهات ذات الصلة بالفقه وأصوله وعلوم القرآن وعلم الحديث ..إلخ ... مع أهمية تنقية هذه الأوعية من المسائل التاريخية التى تجاوزها عصرنا وتجاوزتها همومه «مثل: مسألة خلق القرآن».. بالإضافة إلى الاكتفاء بخصوص بعض المسائل القديمة الأخرى بأن تناقش فى الميدان اللائق بها «مثل: ما يسمى بآيات الصفات[٥]، فمكانها الأصلى والطبيعي – واللائق بها فى عصرنا هذا على أقل تقدير – هو كتب تفسير القرآن المجيد».

• ولنجلس الآن فى رحاب د. مصطفى محمود رحمه الله، فبسم الله، وعلى بركة الله[٦]:

أولاً: هناك وحدة فى خامة الوجود ومادته الأولية التى بنى منها كل شيء.. وحدة فى النسيج والقوانين والسنن.. فكل صنوف الحياة من نبات وحيوان وإنسان بنيت من تواليف الكربون مع الهيدروجين والأكسجين، ولهذا تتحول إلى فحم بالاحتراق.. وكل صنوف الحياة تقوم على الخلية الواحدة ومضاعفاتها، إذ هي الوحدة التكوينية الأولى فى الجميع، تتنفس وتتكاثر وتولد وتموت بنفس الطريقة، بل هى ذاتها – بنفس المواصفات – فى كل شيء حى، مع تغير طفيف لتناسب مهمة كل نوع.. والخطة التشريحية فى الجميع واحدة، فالقلب هو دائماً نفس القلب بغرفه الأربع، فى الحوت كما فى الفأر كما فى

٣- على سبيل المثال انظر كتب د. مصطفى محمود المتعلقة بالإيمان والإلحاد، ط أخبار اليوم، وكتابات د. عمرو شريف، ط الشروق الدولية، وأورخان محمد على «تركيا»، وعبدالوهاب المسيرى، ط الشروق ودار الفكر، ومحمد فريد وجدى، ط دار الكتاب اللبناني، ونديم الجسر والعقاد وبراز المتعلقة بذات الباب، وسلسلة «حقائق وشبهات»، ط دار السلام، للدكتور محمد عمارة المتعلقة بمناقشة عدد من الشبهات الفكرية والفقهية المثارة حول الإسلام والمسلمين «السياسة، المرأة، الفنون، غير المسلمين، حقوق الإنسان.. إلخ»، وكتب العقاد المتعلقة برد الشبهات.. إلخ

٤- يضم التراث الكلامي بخصوص هذه الموضوعات – من النفائس المنهجية، والأدلة، والأدوات، والمناقشات شيئاً كثيراً ينبغى استحضاره واستثماره والبناء عليه.

٥- قلت «ما يسمى»، لأن لى بخصوصها وجهة نظر طرحتها فى رسالة «التأويل وضوابطه» الواردة ضمن كتابي: ثلاث رسائل فى تجديد أصول الفقه وعلوم الحديث، ديحيى رضا جاد، ط ٢٠١٣م، دار المعارف – القاهرة فليراجعها من شاء.

٦- انظر: فى فقه الاجتهاد والتجديد – دراسة تأصيلية تطبيقية، يحيى رضا جاد، تقديم د. محمد عمارة، ص ٢٤١–٢٤٦، ط ٢٠١٠م، دار السلام – القاهرة.

القرد كما فى الوطواط كما فى الإنسان.. والدورة الدموية والشرايين لها نظائرها فى كل نوع.. والجهاز العصبى هو نفسه فى الكل.. والجهاز العضلى بعضلاته خطته واحدة فى الكل.. والهيكل العظمى بعظامه، عظمة عظمة، كل عظمة لها نظيرتها مع اختلافات طفيفة فى الشكل والحجم والعدد لتلائم وظيفة وحجم ووزن كل حيوان .. والجهاز التناسلى هو نفسه فى الجميع .. والجهازان الهضمى والبولى كذلك.

• إن جميع صنوف الموجودات مردودة إلى خطة واحدة، وخامة واحدة، أى إلى «فتلة حريرية واحدة» غزل منها الكون فى تفصيلات وتصميمات وطرز مختلفة .. والخلاف بين صنف وصنف، وبين مخلوق ومخلوق، هو خلاف فى العلاقات الكمية والكيفية، فى المعادلات والشفرات التكوينية، لكن الخامة واحدة والخطة واحدة.. وهذا هو سر الشعور بالصلة بين «الإنسان» و«الحيوان» وبين «الوحش» و«مروضه»، وبين «الأنف التى تشم» و«الزهرة العطرة»، وبين «العين» و«منظر الغروب البديع».

والنتيجة الطبيعية التى تقفز إلى الذهن أن خالق جميع هذه اللوحات واحد، إذ الوحدة بين الموجودات تعنى وحدة خالقها.. إن كل شيء فى هذا الوجود، من الذرة إلى المجرة، ينطق بالهندسة المحكمة والتدبير البديع، ويشهد بأن الله شاخص ماثل حاضر لا يغيب ولا ينام ولا يغفل ولا يسهو.. ومن ثم لا يظلم مثقال ذرة.

أما القول بأن كل هذا الاتساق والانسجام والنظام قد حدث صدفة أو اتفاقاً أو حدث بذاته، فهو السذاجة بعينها، كالقول بأن انفجارا فى مطبعة قد أدى إلى أن تصطف حروفها على هيئة قاموس محكم!

ثانيا: إننا نعلم بالبداهة والفطرة – اللتين ولدنا بهما – أن «العدل والنظام» هما «ناموس الوجود»، وأن «المسئولية» هى «القاعدة».

ومن البديهى تمامًا أن نتصور – بناء على ما سبق – أن الظالم الذى أفلت من العقاب فى الدنيا، وأن القاتل الذى أفلت من القصاص فى الأرض، كلاهما، وأشباههما – لابد من محاسبته ومعاقبته، لأن الوجود الذى نعيش فيه يفصح عن النظام والانضباط من أصغر ذرة إلى أكبر فلك، والعبث غير موجود – إلا فى عقولنا وأحكامنا المنحرفة.

إن فكرة العدل والنظام وضرورتهما تقودنا إلى ضرورة وجود عالم آخر يتم فيه العدل والنظام والمحاسبة بشكل عام كامل تام بلا حيف ولا ظلم ولا محاباة.. نحن نموت فى سبيل تحقيق العدل، وفى النهاية لا يتحقق أبدًا ذلك العدل – المطلق التام الكامل – وهذا يعنى أنه سوف يتحقق بصورة ما لا شك فيها، لأنه حقيقة مطلقة فرضت نفسها على عقولنا وضمائرنا.. وإلا ما ضحى أحد فى سبيله.. وإذا كان الظمأ إلى الماء يدل على وجود الماء، فكذلك الظمأ إلى العدل – أى المطلق الكامل التام – يدل قطعًا وحتمًا – على وجود العدل، ولا عدل بشكل تام كامل

فـي الدنيـا، فذلك دليل ولابـد على وجود «آخرة» يحاسبنا فيها «إله عادل».. يحاسبنا فيها «العدل» -جل في علاه بـ «العدل»..

ولـو كانت حياتنا عبثًا ونهايتها لا شـيء- كما يتصـور الملحـدون- فلمـاذا نتحرق شـوقًا إلى الحق والعدل؟! ولمـاذا نفتدى هـذه القيم بالـدم والحياة؟! إنـه لولا تيقن نفوسـنا جميعًـا من تحقق تلـك الأمور في الآخـرة على يد إله عادل لما أقدمنا على ما فعلناه أبداً!!.. إن الحياة دون يقين بوجود «إلـه عـادل» هي عبث صرف، بـلا معنى، وبلا سـند، وبلا رصيـد.. وهى عذاب بلا حكمة، وألم بلا عوض، ومغامرة بلا عائد، ومشروع بلا ضمان ولا تأمين!

ثالثًا: قـد يقـول قائـل: إن النظـرة العلمية «التجريبية» لا تعتـرف بوجـود الله، إذ ليـس مـن العلم الإيمـان بالغيب.. إن مجـال العلم هو المحســوس.. أرنا الله جهرة تعترف به!

فأقـول: كذبـت.. إن نصـف العلـم «التجريبـي» الآن قـد أصبح غيبًـا.. فنحن نؤمـن بالجاذبيـة، ولكـن أحـداً لا يعـرف كنهها.. حتـى نيوتن نفسـه- مكتشـف الجاذبيـة- يقول فـى خطاب إلـى صديقه بنتلـي: «إنه لأمر غير مفهـوم أن تجد مادة لا حيـاة فيها، ولا إحسـاس، تؤثر في مادة أخرى وتجذبها، مع أنه لا توجد بينهما أية علاقة»..

فهـا هـى حقيقـة علميـة تسـلم بهـا جميعًـا، وهـى غيـب فـى غيـب.. والإلكتـرون، والموجـات اللاسـلكية، والذرة، والنيوترون: كلهـا أمور- وغيرها كثيـر- لم نر منها شيئًا، ومـع ذلك نؤمن بوجودها اكتفاء بآثارها ونقيم عليها علومًا متخصصة، ونبنى لها المعامل والمختبرات والأجهـزة، وهـى غيب في غيب بالنسـبة لحواسنا.. أفي ذلك شك؟!

فأولـى بنـا أن نؤمـن بالغيـب وعالمه، وعالمـه: الله جـل جلالـه الذى نـرى آثاره فـى كل لمحة عين، وكل خفقة قلب، وكل لحظة تأمل في الوجود.

رابعًا: قـد يقول قائل: أنتـم تقولون إن الله موجـود، وعمـدة براهينكم هـو قانون السـببية الـذى ينص علـى أن لـكل صنعة صانعًـا، وأن لـكل خلـق خالقًـا، وأن لكل موجود موجدًا، النسيج يدل على النساج، والرسم على الرسام، والنقش على النقاش، والكـون بهذا المنطق أبلـغ دليل على الإله القديـر الـذى خلقـه.. ألا يحق لنـا بنفس المنطـق أن نسـأل: ومـن خلـق الخالق؟! ألا يقودنـا نفس اسـتدلالكم إلى هـذا تبعًا لقانون السـببية؟!

فأقول: سؤالك فاسـد، فأنت تسلم بأن الله خالـق، ثم تقول: مـن خلقه؟! فتجعل منه خالقًـا ومخلوقاً في نفـس الأمر.. هذا منتهى التناقض!

والوجـه الآخـر لفسـاد السـؤال: أنـك تتصور خضوع الخالق لقوانين مخلوقاته.. وهذا خلل منطقى إذ السـببية قانونها نحن أبنـاء الزمـان والمكان. أمـا الله الذى خلق الزمان والمكان فهو بالضرورة فوق الزمان والمـكان، ولا يصـح أن تتصوره مقيـدًا بالزمان أوالمكان، ولا بقوانينها..

وأنت بهذه السفسـطة أشبه بالعرائس التى تتحرك بزمبلك، وتتصور أن الإنسـان الـذى صنعهـا لابد أنـه هو الآخـر يتحرك بزمبلـك.. فإذا قلنا لها: بل هو يتحرك من تلقاء نفسـه «أى بإقـدار الله له على ذلك»، قالت: مسـتحيل أن يتحرك شيء من تلقاء نفسه. إني أرى في عالمي كل شيء يتحرك بزمبلك!..

وأنت بالمثـل: لا تتصور أن الله موجود بذاته دون موجد لمجرد أنك ترى كل شيء حولك في حاجة إلى موجد.

بـل إن لـى أن أقـول «في لمحـة أو وقفة صوفيـة»: إن سـؤال «مـن خلـق الخالق»؟ سـؤال فاسـد، لأن الله لا يحتاج إلى دليل، بل إنه سـبحانه هو الدليل الذى يسـتدل به على كل شـيء، فهـو الجوهر الـذى ندرك به اختـلاف الظواهـر، وهـو الحقيقة التى تكشـف بها الباطـل، وهو البرهـان الذى ندرك به حكمة عالمنـا الزائل.. إن العقل الـذى يطلب برهانًا على وجود الله هو عقل فقـد التعقل، إذ النور هو الذى يكشـف لنا الأشـياء ويدلنا عليها، ولا يمكن - بحال من الأحوال - أن تكون الأشـياء هى دليلنا علـى النور، وإلا تكون قـد قلبنا الأوضاع، لأن الله حقيقة قطرية لا تحتمل الجدل، بله التكذيـب.. ولهـذا كانت حقيقـة مطلقة تقبلهـا العقـول السـوية التى لم تفسـدها لقلقات السفسـطة، والقلوب البكر التى لم تفقد عذريتها، والقطر السـليمة التى لم تخدش نقاوتها.

خامسًا: قـد يسـأل سـائل مسـتنكر: أليس عجيبًـا ربكم ذلك الـذى يتدخل في كل صغيـرة وكبيرة، فيأخذ بناصية الدابة، ويوحـى إلـى النحـل أن تتخذ مـن الجبال بيوتًا، وما تسـقط من ورقة إلا يعلمها، وما تخرج من ثمرات مـن أكمامها إلا أحصاها عـددًا، ومـا تحمل مـن أنثـى ولا تضع إلا بعلمـه، وإذا سـقطت ذبابة فـى طعام فهو الذى أسقطها؟، وإذا امتنع المطر فهو الذى أمسـكه، وإذا هطل فهو الذى أهطله.. إنكم لتشغلون إلهكم بالكثير التافه من الأمور!

فأقـول: أيكون الـرب في نظـرك أجدر بالربوبيـة لـو أنـه «أعفى نفسـه مـن هذه المسـئوليات» و«أخذ إجـازة» و«أدار ظهره للكـون» الـذى خلقه، وتركـه يخبط خبط عشواء! هل الرب الجليل في نظرك هو رب «عاطل» «مغمـى عليه»: لا يسـمع ولا يرى ولا يستجيب ولا يعتنى بمخلوقاته؟!

ثـم، من أين لك بأن موضوعـاً ما تافه لا يستحق عناية الله ولا رعايته، وأن آخر مهم خطيـر الشـأن؟! هل تظن نفسـك «وصيًا علـى الله» تحدد له اختصاصاته.. تعالى الله عن ذلك علوا كبيرًا.

ثم إن الذبابة التى تبدو تافهة في نظرك يمكـن أن تغيـر التاريـخ بسـقوطها التافه ذلـك إنهـا يمكـن أن تنقل الكوليـرا إلى جيش بأكمله، فترجح طرفًا على طرف في معركة تتغير بعدها موازين التاريخ كله، إن أتفـه المقدمات يمكـن أن تؤدى إلى أخطر النتائج، كما أن أخطر المقدمات يمكن أن ينتهى إلى لا شـيء.. وعالـم الغيب وحده هو الذى يعلم قيمة كل شيء.

إن الإلـه الجدير بالألوهيـة حقًا هو الإله الذى يحيط بكل شيء علمًا، ولا يعزب عنه مثقـال ذرة في الأرض ولا في السـماء، وهو

الإله السميع المجيب المعتنى بمخلوقاته.

سادسًا: وقد يسأل سائل: لم لا يباشر الله جميع الشئون بذاته ما دامت بيده مقاليد كل شيء، وما دام يرجع إليه الأمر كله؟ لماذا لا يفعل بذاته دون وسائط؟!

فأقول: إن الأسباب سنة الله فى خلقه.. حيث شاء الله بكرمه أن يتجلى باسمه الشافى على الطبيب ليعالج مرضاه، وباسمه العليم على المعلم ليوسع أفق تلاميذه، وباسمه البديع على الفنان ليمتع الناس، وباسمه الرزاق على التاجر ليوفر للناس احتياجاتهم، وباسمه القوى على حملة العرش تكريمًا لهم.. فتلك كلها - ومثلها كثير - «شواهد تكرم منه علينا» لا «شواهد حاجة إلينا».

ثم إنه سبحانه إذا أراد أن يعالج الجبل - مثلا - سلط عليه وسائط مادية - كالرياح والأمطار والسيول والإنسان - مثله لتشكيله ونحت الكهوف والسدود فيه(٧).

والأنبياء، بحكم طبيعتهم البشرية، لا يحتملون أنوار الذات الإلهية ولا يطيقون حضرتها - تذكر حال الجبل الذى أصبح دكا، وحال موسى الذى خر صعقًا - فاستدعى التواصل بين الطبيعتين البشرية والإلهية اتخاذ البرازخ، فكان جبريل هو البرزخ والوسيط بين الله وجميع أنبيائه.

وكذلك محمد ﷺ، فهو برزخنا ووسيلتنا وواسطتنا وبابنا إلى الفهم عن الله، لأننا بحكم طبيعتنا لسنا مؤهلين لتلقى وحى السماء.

وكذلك استدعى التواصل بين طبيعة الخالق وطبيعة المخلوقات اتخاذ البرازخ، فكانت الوسائط المادية - التى هى من جنس المخلوق، مخلوقة مثله، حتى يتحمل المخلوق معالجة الخالق له.

إن الوسائط والبرازخ من سننه فى كونه - مثلما الأسباب - «لتفاوت مقامات» «الألوهية» و«البشرية»، و«الخالقية»، و«المخلوقية».

سابعًا: وفى الختام أتساءل متعجبًا غاية العجب: إذا كان الواحد منا مؤمنًا بوجود الله، وبأنه أحد لا سواه، وبأنه هو الضار النافع لا غيره، فلماذا يمد اليد إلى غيره متزلفًا متملقًا منافقًا؟!

ولماذا يكدس المال والعقار إن كان يعلم حقا أن الله هو المالك للأرض وما عليها، وهو الوارث للجميع؟! ولماذا يكذب والله سميع؟! ولماذا ينافق والله حسيب؟! ولماذا يسرق والله بصير؟!

ولماذا يخون والله رقيب؟! ولماذا يتخفى والله شهيد؟!

إن الإقرار بوجود الله: «عمل» لا مجرد «تمتمة» و«حمحمة».. اللهم بلغت.. اللهم فاشهد والله أعلى وأعلم.

ooo

٧- ستعرف سر ذلك فى السطور اللاحقة مباشرة. فلا تعجل من قبل أن يقضى إليك أمر المقال.

من عيون التراث

الإحكام فى أصول الأحكام

تأليف/
الآمدى سيف الدين أبى الحسن علي
ضبطه وكتب حواشيه/ الشيخ إبراهيم العجوز
المجلد الأول، الجزء الثاني
بيروت: دار الكتب العلمية، بدون سنة نشر

عرض الكتاب:

يقع هذا الجزء فى (٣٠٦) صفحات من القطع المتوسط، ويشمل الصفحات من (٢٤٤ - ٥٥٣)، ويستكمل فيه المؤلف ما ورد فى الجزء الأول من أصول الأحكام، فيبدأ بعرض الأصل الرابع:

- الأصل الرابع: فيما يشترك فيه الكتاب والسُّنة والإجماع:

وهو نوعان: يتعلق أحدهما بالنظر فى السند، والآخر بالنظر فى المتن:

النوع الأول: النظر فى السند: وهو الإخبار عن المتن، ويشتمل على ثلاثة أبواب:

الباب الأول: حقيقة الخبر وأقسامه:

الخبر Predicate هو: الكلام المحتمل الصدق والكذب، ويطلق على الإشارات الحالية والدلائل المعنوية؛ أو قد يكون مجازًا، وينقسم معنى الخبر إلى ثلاث قسم:

الأولى: ينقسم الخبر إلى صادق وكاذب (ص٢٥٣).

الثانية: ينقسم الخبر إلى ما يعلم صدقه، وما يعلم كذبه، وما لا يعلم صدقه ولا كذبه.

الثالثة: ينقسم الخبر إلى متواتر وآحاد.

الباب الثانى: المتواتر Recurrent:

التواتر فى اللغة هو: تتابع الأشياء واحدًا بعد واحد بينهما مهلة Frequenc، وفى الشرع تتابع الخبر عن جماعة بلغوا فى الكثرة إلى حيث فصل العلم بقولهم؛ وفيه ست مسائل:

١- إن خبر التواتر مفيد للعلم، ودليل ذلك هو ما يرد علينا من الأخبار حسب وجداننا، كالعلم بالمحسوسات عند إدراكنا لها بالحواس «الإحساس Sensation والإدراك Perception» (ص٢٥٩) ومن أنكر ذلك فقد ظهر جنونه.

٢- العلم الحاصل عن خبر التواتر ضرورى، أى لا يحتاج إلى واسطة مفضية إليه.

٣- إن خبر التواتر لا يولّد العلم.

٤- يحصل العلم عن الخبر المتواتر بشروط، إما ترجع إلى المُخبر، أو إلى المستمعين؛ فالشروط الراجعة إلى المُخبر أن يكون علمه مستندًا إلى الحس لا إلى دليل العقل (ص٢٦٧). أما الشروط الراجعة إلى المستمعين فمنها أن يكونوا مؤهلين لقبول العلم.

٥- يتفاوت الناس فى قوة إدراك وفهم القرائن Evidences (ص٢٧٢).

٦- إذا بلغ عدد المخبرين حد التواتر؛ واختلفت الشواهد Indications التى أخبروا عنها؛ فالكل مخبرون إما بالتضمن أو بالالتزام.

الباب الثالث: الآحاد Ones:

ويشمل أربعة أقسام:

- القسم الأول: خبر الواحد ما أفاد الظن Doubt، وهو غير مطرد ولا منعكس، وبه سبع مسائل.

١- الواحد العدل إذا أخبر بخبر هل يفيد خبره العلم؟ اختلف العلماء، فمنهم من يقول إنه يفيد العلم ومنهم من يقول إنه يفيد الظن.

٢- إذا أخبر الواحد بين يدى الرسول ﷺ بخبر؛ ولم ينكر عليه؛ هل يعلم كونه صادقًا فيه؟ يقول البعض إن ذلك دليل العلم بصدقه.

٣- إذا أخبر واحد بخبر عن أمر مُحس بين يدى جماعة؛ وسكتوا عن تكذيبه؛ فقد عُلم من ذلك صدقه؛ لأن سكوتهم عن التكذيب يدل على صدقه.

٤- إذا روى واحد خبرًا، وعملت الأمة مجمعة بمقتضاه؛ فإن ذلك يدل على صدقه قطعًا.

٥- لو وجد شىء بمشهد من الخلق الكثير؛ لتوفرت الدواعى على نقله إذا انفرد الواحد بروايته عن باقى الخلق ولم يخبر بذلك أحد سواه؛ فذلك يدل على كذبه.

٦- جواز التعبد بخبر الواحد العدل عقلًا.

٧- الذين قالوا بجواز التعبد بخبر الواحد العدل عقلًا؛ اختلفوا فى وجوب العمل به، فمنهم من نفاه، ومنهم من أثبته.

- القسم الثانى: شروط وجوب العمل بخبر الواحد، وهى أربعة:

١- أن يكون الراوى مكلفًا: أى لا يكون مجنونًا، ولا صبيًا، «راشد Adult» ولا مراهقًا Adolescent (ص٣٠٤).

٢- أن يكون مسلمًا.

٣- أن يكون ضبطه لما يسمعه أرجح من عدم ضبطه، وذكره له أرجح من سهوه الذاكرة Memory والاستدعاء Recall (ص٣٠٧).

٤- أن يكون الراوى متصفًا بصفة العدالة Justice (ص٣٠٨).

وهناك مسائل متشعبة عن شروط العدالة وهى ثمان مسائل:

١- مجهول الحال غير مقبول الرواية؛ بل لابد من معرفة سيرته وكشف سريرته (ص٣١٠).

٢- الفاسق المتأول الذى لا يعلم فسق نفسه؛ إما أن يكون فسقه مظنونًا، أو مقطوعًا به.

٣- هل يثبت الجرح والتعديل بقول الواحد أم لا؟ اختلف العلماء.

٤- اختلفوا فى قبول الجرح والتعديل دون ذكر سببهما.

٥- إذا تعارض الجرح والتعديل؛ فإما أن يكون الجارح قد عيَّن السبب، أو لم يُعينه.

٦- طرق التعديل متفاوتة، إما أن يُصرح المُزكى بالتعديل قولًا «أى يقول هو عدل» أو لم يصرح ولكن عَمِلَ بشهادته أو بروايته.

٧- اتفق الجمهور على عدالة الصحابة، وأن حكمهم فى العدالة حكم من بعدهم، وذلك لوجود أدلة على عدالتهم ونزاهتهم (ص٣٢٠).

٨- اختلفوا فى مسمى الصحابى، هل هو مَن رأى النبى ﷺ ولم يرو عنه، أو هو مَن رأى النبى ﷺ وطالت مدة صحبته وأخذ العلم عنه.

- القسم الثالث: مستند الراوى Narrator وكيفية روايته: الراوى إما أن يكون صحابيًا أو غير صحابى، فإن كان صحابيًا وأخبر عن الرسول ﷺ بحديث فهو واجب القبول، واختلفوا فى خمس مسائل:

١- يجب الكشف عن حال الراوى، هل سمعه من النبى أم سمعه من غيره.

٢- إذا قال الصحابى سمعت النبى ﷺ يأمر بكذا أو ينهى عن كذا، يكون حُجَّة.

٣- إذا قال الصحابى أُمرنا بكذا، أو نهينا عن كذا، وأوجب علينا كذا، وحرم علينا كذا، وأبيح كذا، فيجب إضافة ذلك إلى النبى.

٤- إذا قال الصحابى من السنة كذا؛ فيجب أن يوضح سنة النبى أم الخلفاء.

٥- إذا قال الصحابى كنا نفعل كذا، وكانوا يفعلون كذا، فهو محمول على فعل الجماعة.

- القسم الرابع: فيما اختلف فى رد خبر الواحد به: وفيه عشر مسائل:

١- اختلفوا فى نقل حديث النبى ﷺ بالمعنى دون اللفظ (ص٣٣١).

٢- إذا أنكر الشيخ رواية الفرع عنه، فإما أن يكون إنكار جحود وتكذيب، أو نسيان وتوقف، فإن كان الأول يمتنع العمل به، وإن كان الثانى اختلفوا فيه.

٣- إذا روى جماعة حديثًا، وانفرد واحد منهم بزيادة فى الحديث، فإما أن يكون مجلس الرواية مختلفًا أو متحدًا.

٤- إذا سمع الراوى خبرًا؛ ونقل بعضه وحذف بعضه، فإذا كان الخبر متضمنًا أحكامًا لا يتعلق بعضها ببعض جاز ذلك.

٥- خبر الواحد إذا ورد موجبًا للعمل فيما تعم به البلوى؛ فهو مقبول عند الأكثرين.

٦- إذا روى الصحابى خبرًا؛ فإما أن يكون مجملًا، أو ظاهرًا، أو نصًا قاطعًا فى متنه.

٧- خبر الواحد العدل إذا ثبت أن النبى ﷺ عمل بخلافه؛ فلا يرد له الخبر (ص٣٤٣).

٨- قبول خبر الواحد فيما يُوجب الحد وفى كل ما يسقط بالشبهة.

٩- خبر الواحد إذا خالف القياس Reasoning؛ فإما أن يتعارض من كل وجه؛ بأن يكون أحدهما مثبتًا لما نفاه الآخر، أو من وجه دون وجه.

اختلفوا فى قبول الخبر المرسل Frequency؛ بأن يقول الفرد العدل: قال رسول الله ﷺ ولم يلق النبى، واتفقوا أنه إذا كان من مراسيل الصحابة كان مقبولا.

ooo

النوع الثانى: وفيه بابان:

الباب الأول: فيما يشترك فيه الكتاب والسُّنة والإجماع:

كل من الأصول الثلاثة إما أن يدل على المطلوب بمنظومه أو لا بمنظومه، كالتالي:

- القسم الأول: دلالات المنظوم:

وهي تسعة أصناف:

الصنف الأول: الأمر: وفيه أربعة أبحاث:

البحث الأول: فيما يطلق عليه اسم الأمر حقيقة: الأمر **Imperative** قسم من أقسام الكلام، والكلام أمر ونهي وخبر واستخبار ووعد ووعيد ونداء، والكلام **Speech** هو المعنى القائم بالنفس، أو العبارة الدالة بالاصطلاح (ص٣٥٦). واختلفوا في إطلاق اسم الأمر على الفعل، فوافقوا على أنه ليس حقيقة في نفس الفعل من حيث هو فعل، بل من حيث هو شيء.

البحث الثاني: حدّ الأمر **Definition of Imperative**: الأمر هو: قول القائل لمن دونه أو ما يقوم مقامه، وهذا فاسد لأنه قد يوجد فيما ليس بأمر؛ كالتهديد والإباحة والإرشاد والامتنان والإكرام والتسخير والتعجيز.

البحث الثالث: الصيغة الدالة على الأمر: للأمر صيغة تخصه وتدل عليه دون غيره في اللغة.

البحث الرابع: مقتضى صيغة الأمر: وفيه اثنتا عشرة مسألة:

١- صيغة الأمر حقيقة فيه إذا وردت مطلقة بدون شواهد **Indications**.

٢- إذا كانت صيغة افعل ظاهرة في الطلب؛ فالفعل المطلوب إما أن يكون راجحًا على تركه، أو واجبًا، أو مندوبًا.

٣- اختلفوا في الأمر الخالي من القرائن، أنه مقتضٍ للتكرار، أو مرة واحدة، أو محتمل التكرار.

٤- الأمر المعلق بشرط أو بصفة؛ هل يقتضي تكرار المأمور بتكرر الشرط والصفة؟ اختلفوا.

٥- هل يقتضي في الأمر المطلق تعجيل فعل المأمور به؟ منهم من قال بالتعجيل، ومنهم من قال بالتراخي.

٦- هل الأمر بشيء معين نهي عن أضداده؟ وإذا كان نهيًا؛ فهل نهي تحريم أم تنزيه أو كراهة؟

٧- الإتيان بالمأمور به يدل على الجواز (ص٣٩٥) أم أنه مسقط للفريضة؟

٨- إذا وردت صيغة الأمر «افعل» قبل الحظر؛ مثل «إذا حللتم فاصطادوا»؛ هل هي للوجوب؟ البعض أقرها والبعض نفاها.

٩- الأمر بالعبادة في وقت محدد إذا لم تُفعل فيه لعذر؛ هل يجب قضاؤها بعد ذلك الوقت؟ نعم.

١٠- أمر المُكلَّف لغيره بفعل؛ لا يكون آمرًا لذلك الغير بذلك الفعل، مثل: «مروهم بالصلاة وهم أبناء سبع» لأنه أمر الشارع.

١١- هل الأمر المتعلق بالأعم يكون متعلقًا بالأخص؟ لا.

١٢- الأمران المتعاقبان إما أن لا يكون الثاني معطوفًا على الأول أو يكون معطوفًا.

الصنف الثاني: النهي: النهي **Prohibition** مقابل الأمر، وصيغة «لا تفعل» لها سبعة محامل: التحريم والكراهة والتحقير وبيان العاقبة والدعاء واليأس والإرشاد. وفيه ثلاث مسائل:

١- هل النهي عن التصرفات يقتضي فسادها؟ نعم، ولكن اختلفوا في جهة الفساد؛ هل من جهة اللغة أم المعنى؟

٢- النهي عن الفعل لا يدل على صحته.

٣- النهي عن الفعل يقتضي الانتهاء عنه دائمًا.

الصنف الثالث: معنى اللفظ العام والخاص: العام هو اللفظ المستغرق لجميع ما يصلح له، والخاص هو كل ما ليس بعام، وهو غير مانع لدخول الألفاظ المهملة فيه. وفي العام والخاص خمس وعشرون مسألة:

١- لا يوصف شيء من الخاصة بكونه عامًا لا حقيقة ولا مجازًا.

٢- لمعنى العموم صيغة في اللغة تدل عليه، وهي كل وجميع.

٣- أقل الجمع اثنان؛ فالاثنان فأكثر جماعة في الكتاب والسُّنة واللغة.

٤- هل العام بعد التخصيص حقيقة في الباقي أم مجاز؟ اختلفوا.

٥- هل يصح الاحتجاج بالعموم بعد التخصيص فيما بقي؟ اختلفوا.

٦- جواب السؤال تابع له في عمومه وخصوصه.

٧- هل اللفظ الواحد من متكلم واحد في وقت واحد له معنيان؟ يجوز بشرط عدم الجمع بينهما.

٨- نفي المساواة بين الشيئين يقتضي نفي الاستواء في العموم.

٩- المقتضى لا عموم له «والمقتضى هو: ما أضمر ضرورة صدق المتكلم».

١٠- الفعل المتعدى إلى مفعولين أو أكثر؛ هل هو عام بالنسبة لمفعولاته كلها؟ أثبته البعض ونفاه الآخر.

١١- إن انقسم الفعل إلى أقسام؛ فالواقع منه لا يقع إلا على قسم واحد منه فقط، ولا يكون عامًا لجميعها.

١٢- نهى الرسول عن بيع الغَرر، ما يكون مجهول العاقبة لا يدرى أيكون أم لا يكون، وقضاؤه بالشفعة للجار؛ هل يعمم على كل غرر وكل جار؟ إذا كان الراوي عدلًا وعارفًا باللغة يجوز.

١٣- إذا حكم النبي ﷺ بحكم في واقعة خاصة؛ وذكر علته، فإنه يعم من وُجدت في حقه تلك العلة.

١٤- هل دلالة المفهوم لها عموم؟ يختلف حسب نوع المفهوم، إما مفهوم موافقة أو مخالفة.

١٥- العطف على العام هل يوجب العموم في المعطوف؟ اختلفوا.

١٦- إذا ورد في القرآن خطاب خاص بالنبي، لا يعم الأمة ذلك الخطاب، والبعض قال: يعم في بعض الحالات.

١٧- هل خطاب النبي لأمته خطاب للباقين؟ أي: هل حكمه على الواحد هو حكم على الجماعة؟ اختلفوا.

١٨- اختلفوا في جمع المذكر هل يدخل الإناث فيه أم لا؟ كالمسلمين والمؤمنين.

١٩- هل اللفظ العام «مثل مَن» يعم المذكر والمؤنث؟ أثبته الأكثرون ونفاه الأقلون.

٢٠- هل يدخل العبد في لفظ المؤمنين

أو الناس كلفظ مطلق؟ نعم لأنه ليس كالبهائم.

٢١ـ هل يدخل الرسول ﷺ في لفظ الخطاب «الذين آمنوا» أو «أيها الناس» أو «عبادي»؟ نعم لأن النبوة غير مخرجة له عن هذه الأسماء.

٢٢ـ الخطاب والأوامر العامة للنبي ﷺ هل تخص الموجودين في زمنه أم لمن بعدهم؟ اختلفوا فيه.

٢٣ـ هل المُخاطِب «المتكلم» يدخل في عموم الخطاب أم يمتنع؟ يدخل سواء كان الخطاب أمرًا أو نهيًا أو خبرًا.

٢٤ـ قوله تعالى:

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾

(التوبة: ١٠٣)

يقتضي أخذ صدقة واحدة من نوع واحد وليس من كل نوع صدقة.

٢٥ـ إذا قصد باللفظ المدح أو الذم؛ منع من عمومه.

الصنف الرابع: تخصيص العموم:

التخصيص هو: قصر العام على بعض منه، وهو إخراج بعض ما تناوله الخطاب عنه، وفيه مسألتان:

١ـ جواز تخصيص العموم على أي حال، سواء إخبار أو أمر.

٢ـ اختلفوا في الغاية التي يقع انتهاء التخصيص إليها؛ هل في جميع ألفاظ العموم إلى الواحد «مثل مَن».

الصنف الخامس: أدلة تخصيص العموم:

القسم الأول: الأدلة المتصلة: وهي أربعة أنواع:

النوع الأول: الاستثناء: Exception

الاستثناء: قول ذو صيغ مخصوصة محصورة، دال على أن المذكور به لم يرد بالقول الأول. أو هو إخراج بعض الجملة عن الجملة بلفظ «إلا»، أو ما يقوم مقامه.

وصيغ الاستثناء هي: إلا وغير وسوى وخلا وحاشا وعدا وما عدا وما خلا وليس ولا يكون. ومسائله خمس:

١ـ شرط صحة الاستثناء أن يكون متصلًا بالمستثنى منه حقيقة من غير فاصل بينهما.

٢ـ هل يصح الاستثناء من غير الجنس؟ جَوَّزَهُ البعض ومنعه البعض.

٣ـ الاستثناء المستغرق هل يستثنى النصف أم أكثر أم أقل أم المساوي؟ اختلفوا.

٤ـ الجمل المتعاقبة بالواو إذا تعقبها الاستثناء رجع إلى جميعها أم إلى الجملة الأخيرة؟ اختلفوا.

٥ـ أن الاستثناء من الإثبات نفي Negation، ومن النفي إثبات Affirmation.

النوع الثاني: التخصيص بالشرط: حد التخصيص هو ما لا يوجد المشروط دونه ولا يلزم أنه يوجد عند وجوده، وصيغ الشرط هي: إن وإذا ومن ومهما وحيثما وأينما وإذا ما.

النوع الثالث: تخصيص العام بالصفة: الصفة إما أن تكون مذكورة عقب جملة واحدة أو جمل.

النوع الرابع: التخصيص بالغاية: وصيغها هي: إلى وحتى، ويكون حكم ما

بعدها مخالفًا لما قبلها.

القسم الثاني: التخصيص بالأدلة المنفصلة: وفيه أربعة عشرة مسألة:

١ـ يجوز تخصيص العموم بالدليل العقلي (ص٥١٧).

٢ـ يجوز تخصيص الكتاب بالكتاب، فإذا اجتمع نصان عام وخاص؛ فإما أن يعمل بالعام ويبطل الخاص أو العكس.

٣ـ يجوز تخصيص السُّنة بالسُّنة.

٤ـ يجوز تخصيص عموم السُّنة بخصوص القرآن.

٥ـ يجوز تخصيص عموم القرآن بالسُّنة؛ إلا إذا كانت السُّنة من أخبار الآحاد فاختلفوا.

٦ـ يخصص القرآن والسُّنة بالإجماع.

٧ـ يجوز تخصيص العموم بالمفهوم؛ لأن العام منطوق به، والمنطوق Verbal (ص٥٣٠) أقوى في دلالته من المفهوم.

٨ـ هل فعل الرسول ﷺ حجة على غيره؟ أي هل يجوز تخصيصه للعموم؟ أثبته الأكثرون ونفاه الأقلون.

٩ـ تقرير النبي ﷺ لما يفعله الواحد مخالفًا للعموم مخصص لذلك العام، ودليل على جواز ذلك الفعل.

١٠ـ مذهب الصحابي إذا كان على خلاف العموم لا يكون مخصصًا للعموم.

١١ـ إذا كان من العادة تناول طعام خاص وورد خطاب عام بتحريم الطعام، فإن اللفظ يجرى على عموم كل طعام.

١٢ـ إذا ورد لفظ عام ولفظ خاص يدل على بعض ما يدل عليه العام؛ لا يكون الخاص مخصصًا للعام بجنس مدلول الخاص ومخرجًا عنه ما سواه.

١٣ـ اللفظ العام إذا عُقِّبَ بما فيه ضمير عائد إلى بعض العام المتقدم لا إلى كله، هل يكون خصوص المتأخر مخصصًا للعام المتقدم بما الضمير عائد إليه أم لا؟ اختلفوا.

١٤ـ العموم والقياس حجة، فهل يجوز تخصيص العموم بالقياس؟ اختلفوا.

إلى هنا نهاية المجلد الأول بجزئيه الأول والثاني، ويستكمل المؤلف بقية أصول الأحكام في المجلد الثاني بجزئيه الثالث والرابع.

الخلاصة:

ورد في هذا الكتاب الإشارة إلى المفاهيم النفسية الآتية:

- إحساس Sensation.
- إدراك Perception.
- شواهد Evidences.
- دليل عقلي Intellectual evidence.
- ظن Doubt.
- فروق فردية Individual differences.
- راشد Adult.
- مراهق Adolescent.
- ذاكرة Memory.
- استدعاء Recall.
- عدل Justify.
- قياس Reasoning.
- الخبر المرسل Frequency.
- كلام Speech.

القائم بالعرض
د. صفا إسماعيل مرسي

التوراة أو أسفار موسى الخمسة
PENTATEUQUE



أ. د. موريس بوكاي

التوراة هو الاسم السامى. أما التعبير اليونانى الذى أعطى كلمة **PENTATEUQUE** الفرنسية فهى تعنى: مؤلفًا يتكون من خمسة أجزاء هى: التكوين، والخروج، وسفر اللاويين، وسفر العدد، وسفر التثنية، وهى الأسفار التى كونت العناصر الخمسة الأولى لكتاب العهد القديم من تسعة وثلاثين مجلدًا.

وتتناول هذه المجموعة من النصوص أصل الكون وحتى دخول الشعب اليهودى أرض كنعان - الأرض الموعودة بعد الخروج من مصر - وبالتحديد حتى موت «موسى». وتستخدم حكاية هذه الأحداث كإطار لعرض التدابير الخاصة بالحياة الدينية والحياة الاجتماعية للشعب اليهودي، ومن هنا جاء اسم التوراة - أى: الناموس -.

وظلت اليهودية والمسيحية لقرون طويلة، تعتبر أن «موسى» نفسه هو كاتب التوراة. وربما كان من دفع بتلك الدعوى قد اعتمد على واقع أن الرب قد قال لـ «موسى» (الخروج - الإصحاح ١٧ الآية ١٤): «اكتب هذا تذكارًا فى الكتاب» والمقصود بهذا هزيمة عماليق، أو ربما أيضًا قد اعتمد على الآية الثانية من الإصحاح الثالث والثلاثين من سفر العدد: «وكتب موسى مخارجهم برحلاتهم حسب قول الرب»، أو قد اعتمد على الآية التاسعة من الإصحاح الحادى والثلاثين من سفر التثنية: «وكتب موسى هذه التوراة». وابتداء من القرن الأول قبل الميلاد كان هناك دفاع عن الرأى القائل: بأن «موسى» قد كتب الأسفار الخمسة كلها، دافع عن هذا الرأى كل من «فلافيوس جوزيف **flavius jose'phe**» و«فليون الإسكندرى **philon**». أما اليوم فقد هجر هذا الفرض تمامًا والكل يتفق على تلك النقطة، ولكن هذا لا يمنع أن العهد الجديد ينسب إلى «موسى» هذه الكتب. الواقع أن «بولس» يقول فى رسالته إلى أهل رومية (الإصحاح العاشر - الآية ٥) «لأن «موسى» يكتب فى البر[١] الذى يصدر من الناموس...» وهو بذلك يذكر عبارة من سفر اللاويين، أما «يوحنا» فإنه يجعل المسيح يقول تلك العبارة: «لأنكم لو كنتم تروَن «موسى» لكنتم تصدقوننى، لأنه هو كتب عني، فإن كنتم لستم تصدقون ما كتب فكيف تصدقون كلامي». (إنجيل «يوحنا»، الإصحاح الخامس: ٤٦ : ٤٧). المقصود هنا كما هو واضح هو فعل الكتابة والكلمة اليونانية التى نجدها فى النص الأصلى (المكتوب باليونانية) هى **Episteute** وهذا تأكيد مغلوط تمامًا يضعه «يوحنا» على لسان المسيح: وما يلى يبرهن على ذلك.

وإنى أستعير عناصر هذه البرهنة من «الأب ديفو **R. pdevaux**» مدير مدرسة الكتاب المقدس بالقدس، وقد قدم «الأب ديفو» لترجمته لسفر التكوين عام ١٩٦٢م بمقدمة عامة لأسفار «موسى» الخمسة، وهى مقدمة تحتوى على حجج قيمة تناقض الدعاوى الإنجيلية الخاصة بأبوة المؤلف المعنى له.

يذكر «الأب ديفو» أن: «التراث اليهودى الذى امتثل له عيسى والرسل»، كان مقبولاً حتى نهاية القرون الوسطى، وكان الرافض الوحيد لهذه الدعوى «أبين إسرا **Aben Esra**» فى القرن الثانى عشر. وفى القرن السادس عشر أشار «كارلشتاد **Carlstadt**» إلى استحالة أن يكون «موسى» قد كتب بنفسه كيف مات (سفر التثنية الإصحاح ٣٤ الآيات من ٥ إلى ١٢) ويذكر المؤلف بعد ذلك نقادًا آخرين يرفضون أبوة «موسى» على الأقل لجزء من الأسفار الخمسة، ويذكر على وجه الخصوص دراسة «ريتشار سيمون **Richard simon de L'oratoire**» التاريخ النقدى للعهد القديم **Historie critique du vieux testament** (١٦٧٨م) وفيها يؤكد «ر. سيمون» على الصعوبات الخاصة بتسلسل الأحداث والتكرارات وفوضى الروايات وفوارق الأسلوب فى أسفار «موسى» الخمسة. لقد أثار الكتاب ضجة وسخطًا، ولم يتابع أحد حجة «ر. سيمون» تقريبًا، وهى أن مراجع العصور القديمة فى كتب التاريخ فى بداية القرن الثامن عشر كثيرًا ما تستعين «بما كتب موسى».

يستطيع المرء إذن أن يتصور إلى أى حد كان من الصعب تدحيض خرافة تمتعت بالتأييد الذى أتى به المسيح نفسه فى العهد الجديد، كما رأينا ونحن ندين لـ «جان أسترورك **Jean Astruc**» طبيب لويس الخامس عشر بالبرهان الحاسم الذى قدمه فى هذا الموضوع.

فقد نشر «جان أسترورك» فى ١٧٥٣م دراسة بعنوان: «قرائن على المذكرات الأصلية التى يبدو أن موسى قد استخدمها لتحرير سفر التكوين **Conjonctures sur les Momoires Originaux dont il parati que moises ést servi pour composer le liver de le Gens' se**».

يؤكد فيها على تعدد المصادر، ولم يكن

١. المقصود هنا العدل.

أول من أشار إلى هذا، وعلى أى حال كانت لديه شجاعة أن ينشر على الملأ ملاحظة أساسية هي: وجود نصين جنبًا إلى جنب في سفر التكوين يحتوي كل منهما على خاصية مختلفة في تسمية الرب، إذ يسميه أحدهما بيهوه ويسميه الثاني بالوهيم. إذن فسفر التكوين يحتوى على نصين جنبًا إلى جنب. ثم قام «إيخهورن Eichhorn» (١٧٨٠ - ١٧٨٣م) بنفس الاكتشاف بالنسبة للكتب الأربعة الأخرى. ثم جاء «إيلجن Ilgen» (١٧٩٨م) ولاحظ أن أحد النصين اللذين ميزهما «أستروك» وهو النص الذي يسمى فيه الرب بالوهيم ينقسم هو أيضًا إلى قسمين، وبهذا تفتت تمامًا كتاب أسفار «موسى» الخمسة.

أما بحاثة القرن التاسع عشر فقد كرسوا جهدهم في بحث عن مصادر أكثر دقة. وفي ١٨٥٤م كانت هناك أربعة مصادر مقبولة وتسمى بالأسماء التالية: الوثيقة اليهودية، والوثيقة الألوهيمية، وسفر التثنية، والنص الكهنوتي، وقد أفلح الباحثون في إعطائها أعمارًا:

١- تقع الوثيقة اليهودية في القرن التاسع قبل الميلاد (وقد حررت في مملكة الجنوب).

٢- أما الوثيقة الألوهيمية فهي أقرب تاريخيا بقليل (وقد حررت بإسرائيل).

٣- وأما سفر التثنية فينتمي إلى القرن الثامن قبل الميلاد في رأي «إدموند جاكوب» وهناك بحاثة آخرون، مثل «الأب ديفو» يرون أنه ينتمي إلى عصر «جوزياس» أي القرن السابع قبل الميلاد.

٤- وأما النص الكهنوتي فينتمي إلى عصر النفي أو ما بعد النفي أي: القرن السادس قبل الميلاد:

بهذا إذن يمتد تحرير نص أسفار «موسي» الخمسة على ثلاثة قرون بأقل تقدير، ولكن المشكلة أكثر تعقيدا من هذا؛ ففي ١٩٤١م استطاع «أ. لودز A. lods» أن يميز في الوثيقة اليهوية ثلاثة مصادر وفي الوثيقة الإلهيمية أربعة، وفي سفر التثنية ستة، وفي النص الكهنوتي تسعة، وهذا «دون حساب الإضافات الموزعة بين ثمانية محررين» كما يقول «الأب ديفو»: منذ فترة أكثر قربًا وصل التفكير إلى «أن كثيرًا من نواميس أو قوانين أسفار «موسي» الخمسة، كان لها ما يوازيها خارج التوراة، وفي فترة تسبق بكثير التاريخ المنسوب إلى هذه الوثائق» وإن «عددًا من روايات أسفار «موسى» الخمسة يفترض وجود مصدر آخر أكثر قدما من ذلك الذي يفترض أن هذه الوثائق قد خرجت منه» وذلك يدفع إلى الاهتمام بمشكلة «تشكل التراث». إن المشكلة تبدو عندئذ على درجة من التعقد بحيث إن الأمر يختلط على الكل.

ويجر تعدد المصادر تنافرات وتكرارات عديدة في هذه النصوص، ويعطي «الأب ديفو» أمثلة على تعقد هذه الأقوال الموروثة الخاصة بالخلق وأنسال قابيل والطوفان واختطاف يوسف وما جرى له بمصر والاختلافات الخاصة بأسماء شخص واحد والتصويرات المختلفة للأحداث الهامة.

وبهذا يتضح تكون كتاب أسفار «موسى» الخمسة من أقوال موروثة مختلفة جمعها - بشكل يقل أو يزيد حذقا - محررون وضعوا تارة ما جمعوا جنبًا إلى جنب، وطورًا غيروا من شكل هذه الروايات بهدف إيجاد وحدة مركبة، تاركين للعين أمورًا غير معقولة وأخرى متنافرة، كان من شأنها أن قادت المحدثين إلى البحث الموضوعي عن المصادر.

ويعطي كتاب أسفار «موسى» الخمسة على مستوى نقد النصوص أكثر الأمثلة وضوحًا عن التعديلات التي قام بها بشر في فترات مختلفة من تاريخ الشعب اليهودي، كما يعطي أمثلة جلية عن تعديلات التراث الشفهي والنصوص التي تلقتها الأجيال السابقة.

كان كتاب أسفار «موسي» الخمسة قد بدأ في القرن العاشر أو التاسع قبل الميلاد، مع التراث اليهودي الذي يتناول الرواية ابتداء من أصل العالم، وهو لا يفعل أكثر من وضع الخطوط العريضة لمصير إسرائيل الخاص، كما يقول «الأب ديفو» وذلك حتى «يضع هذا المصير في إطار إرادة الله الخاصة بالإنسانية». والكتاب ينتهي في القرن السادس قبل الميلاد بالنص الكهنوتي الذي ينصب اهتمامه على الإشارة إلى التواريخ والأنساب(٢).

يقول «الأب ديفو»: «إن ما تتميز به هذه الأقوال الموروثة من روايات نادرة تشهد باهتماماتها التشريعية: ومن ذلك الراحة يوم السبت عند نهاية الخلق، والارتباط بنوح، والارتباط بإبراهيم، والطهور، وشراء مغارة مكيلا التي أعطت للآباء الأولين سندًا ملكيًا بأرض كنعان». ولنذكر أن النص الكهنوتي يقع تاريخيًا عند العودة من النفي ببابل، وعند الاستقرار مرة ثانية بفلسطين ابتداء من ٥٣٨ قبل الميلاد هناك إذن تداخل معقد بين المشاكل الدينية وبين المشاكل السياسية الصرف.

فيما يخص سفر التكوين وحده، فإن انقسام الكتاب إلى ثلاثة مصادر ثابت فعلا: ويحدد «الأب ديفو» في تعليقات على ترجمته فقرات نص سفر التكوين الحالي، التي تخضع لكل مصدر من هذه المصادر، وإذا اعتمدنا على هذه المعطيات، نستطيع أن نحدد بالنسبة لكل فصل ما يأتي به كل مصدر، على سبيل المثال وفيما يخص الخلق والطوفان والفترة التي تمتد من الطوفان وحتى إبراهيم، وهي العصور التي تحتل الأحد عشر فصلًا الأولى من سفر التكوين: نرى في رواية التوراة جزءًا من النص اليهوى يتبعه جزء من النص الكهنوتي، وليس النص الألهيمي حاضرًا في هذه الفصول الأحد عشر الأولى. ويظهر بجلاء تام هنا تداخل وتعقد الإسهامات اليهوية والكهنوتية، أما فيما يتعلق بالخلق وحتى نوح - أي: الفصول الأولى - فانتظامها بسيط، ففقرة يهوية تعقب فقرة كهنوتية وهكذا من البداية وحتى نهاية الرواية، أما فيما يتعلق بالطوفان وخاصة الفصلين السابع والثامن، فإن تقسيم النص حسب مصادره يعزل فقرات قصيرة جدًا قد تصل إلى جملة واحدة. ففي أكثر قليلًا من مائة سطر من النص الفرنسي ننتقل سبع عشرة مرة من مصدر لآخر: ومن هنا كانت تلك المتناقضات والأمور غير المعقولة التي تدرك عند قراءة هذا النص اليوم.

يتبع

٢- سنرى في الفصل التالي أخطاء الرواية التي ظهرت بعد المقابلة مع المعطيات الحديثة للعلم والتي لها محرر والنص الكهنوتي وذلك بالنسبة لقدم الإنسان على الأرض وبالنسبة لتاريخ أحداث الخلق ومجراها، كما سيتضح أن الأخطاء ناجمة بشكل واضح عن تعديل البشر بالنصوص.

الدين الواحد والأخلاق العالمية

د. طه عبدالرحمن
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة محمد الخامس - المغرب

الأديان تتفاوت مكوناتها الاعتقادية والعملية عددًا، بل أيضًا قد تتفاوت نوعًا، ولا يمكن أن يوجد مثل هذا التفاوت في المكونات، بين الأديان من غير أن تترتب عليه آثار من جنسه، فإذا اختلفت المكونات. لابد أن تختلف آثارها، والأخلاق أول هذه الآثار، وعلى هذا، فلابد أن تختلف الأخلاق نوعًا وقدرًا من دين إلى آخر، كما تختلف المكونات التى تورث هذه الأخلاق وحينئذ، يصح أن بعض الأديان يوصل إلى تقدم خلقى لا يوصل إليه غيره، فإذن متى يكون دين بعينه أبلغ فى التقدم الأخلاقى من غيره، أو قل ما هى معايير التقدم الأخلاقى للأديان؟

ليس عسيرًا أن نتبين هذه المعايير متى تأملنا قليلًا ما ذكرناه بصدد إعلان الأخلاق العالمية من مقتضيات منهجية ومضمونية، فهذا التأمل يجعلنا نستخرج أربعة معايير أساس لهذا التقدم، بحيث إذا استوفاها جميعها أى دين كان حظه من التقدم الأخلاقى أوفر من حظ دين آخر لا يستوفيها أو يستوفى بعضها، وهي:

- أ) معيار الوعي بالصلة بين التدين والتخلق، مقتضاه أن يكون الدين أبلغ أدراكا للصلة الموجودة بين العمل الدينى والسلوك الأخلاقى من دين غيره فواضح أن هذا المعيار عبارة عن الأساس العملى الذى ينبغى أن يستند إليه كل صنف من الأخلاق، والذى ظهر أن إعلان الأخلاق العالمية يفتقده.

ب) معيار الأخذ بالتوجيهات الأخلاقية الضرورية، مقتضاه أن يكون الدين أوفى بالتوجيهات الأخلاقية من دين آخر، وواضح أيضًا أن هذا المعيار الثانى يقضى بأن يتضمن الدين على الأقل التوجيهات الأخلاقية الخمسة التى لم ينص الإعلان المذكور إلا على أربعة منها.

- ج) معيار التوسع الأخلاقي، مقتضاه أن يدخل الدين فى باب الأخلاق ما لا يدخله غيره فيه يلزم هذا المعيار الثالث من التوجيه الذاتى الذى أورده هذا الإعلان، والذى سماه بـ«مطلب المعاملة الإنسانية»، إذ حقيقة المعاملة الإنسانية ليست سوى المعاملة الأخلاقية، فكلما أصبغ المتدين على التعامل مع غيره صبغة أخلاقية، كائنًا ما كان هذا التعامل، كان أقرب إلى أن يعامله معاملة إنسانية.

د) معيار التفاضل الأخلاقي، مقتضاه أن ينزل الدين من الأطوار الأخلاقية للإنسانية طورًا لاحقًا للذى ينزله دين آخر يتفرع هذا المعيار الرابع من الصبغة العالمية للأخلاق التى تبناها هذا الإعلان والتى تفترض وحدة التاريخ الأخلاقى للإنسانية، فيلزم أن أمم هذا العالم قد تقلبت فى أطوار

أخلاقية متعددة، لاحقها أكثر تقدمًا من سابقها بموجب قانون التراكم الأخلاقي[١].

فإذا طبقنا هذه المعايير الأربعة على الأديان - ولو أن هذا التطبيق يستحيل أن تنهض به جهود فرد واحد - فلابد أن نحصل منه على قسمين اثنين من الأديان: «قسم تنطبق عليه بعض المعايير»، و«قسم تنطبق عليه المعايير كلها»، وبين أن ضالتنا توجد فى هذا القسم الأخير، ويجوز أن يكون فيه أكثر من دين، وإذا كان الأمر كذلك، لزم أن نورد معيارًا أعلى رتبة يمكننا من أن نتخير من الأديان التى تستجيب للمعايير الأربعة، ما هو أحق بأن يحصل التقدم الأخلاقى المطلوب، وبأن يكون مصدرًا للأخلاق العالمية ونصوغ هذا المعيار الجديد كما يأتي:

- ينبغي أن يبلغ الدين أعلى رتبة في استيفاء هذه المعايير الأربعة على الوجه التالي:

- يبلغ الدين أعلى رتبة فى استيفاء «معيار الوعي بالصلة بين التدين والتخلق» متى بلغت الصلة بين الطرفين حد التطابق بينهما، بحيث لا سلوك خلقى بغير عمل ديني، ولا عمل دينى بغير سلوك خلقي.

- يبلغ الدين أعلى رتبة فى الوفاء بـ«معيار الأخذ بالتوجيهات الخمسة» متى تقررت فيه هذه التوجيهات على وجه القطع، مع تقديم التوجيه الخاص بالإيمان - أى «الالتزام بثقافة الإيمان واحترام الدين» - على باقى التوجيهات الأخرى.

- يبلغ الدين أعلى رتبة فى التوفية بـ«معيار التوسع الأخلاقي» متى ارتقى بالعمل الدنيوى إلى منزلة العمل الديني، وجعله يورث التخلق كما يورثه.

- يبلغ الدين أعلى رتبة فى استيفاء «معيار التفاضل الأخلاقي» متى دخل الطور الأخير من أطوار التخليق الذى تنهض به الأديان.

فواضح أنه متى نهض الدين بهذا المعيار الأعلى، تصدر غيره وتفرد دونه، وبالتالى استحق أن يمد الأمم كلها بأخلاقه.

ولما كان المجال لا يتسع لإجراء المقارنة بين الأديان التى تدخل فى القسم الثاني، جاز لنا أن ننظر فى واحد منها، فإذا تبين أنه يوفى بمقتضى هذا المعيار، اكتفينا به ولم نمض إلى غيره، واعتبرناه أكثر تقدمًا وأوفى بالأخلاق العالمية، ومتى عورض فى شأنه، طالبنا المعارض أن يقيم الدليل على أن غيره هو الذى يستحق هذه الرتبة.

تطبيق المعيار الأعلى على الدين الإسلامي

من الطبيعي أن يبدأ المرء بدينه، فيعرضه على هذا المعيار، مختبرا درجة كماله الخلقى فإذن لنعرض الإسلام الذى ابتغيناه دينًا على المعيار المذكور، ولننظر هل بإمكان هذا الدين أن يبلغ النهاية فى الوفاء بمعايير التقدم الأخلاقى الأربعة.

١- التطابق بين العمل الدينى والسلوك الخلقي: اتخذ الإسلام هدفًا أساسًا لرسالته هو تكميل التخليق الإنسانى الذى ابتدأته الأديان من قبله كما نص على ذلك الحديث الشريف: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، فكل ما أقره الإسلام من أعمال الجوارح أو أعمال القلوب هو بمنزلة أسباب مختلفة يتوصل بها إلى تحصيل

(١) قصدنا أن هناك تراكما فى المعارف والتجارب التى يكتسبها الإنسان فى تعامله مع الأشياء، فكذلك هناك تراكم فى الأخلاق والتصرفات التى يحصلها فى تعامله مع الآخرين.

مزيد التخلق الإنساني، ويتخذ هذا التكميل، بالأساس، أشكالا ثلاثة:

أحدها الإضافة، إذ يزيد في الخلق السابق على الأقل رتبة لم تكن منظورة كما في خلق «الإخلاص»، فهناك الإخلاص، وهي درجة عليا في السلوك، وهناك «إخلاص الإخلاص» الذي هو أعلى درجة منها تقضي بعدم شهود الإخلاص نفسه في الأفعال المأتي بها.

والثاني الكشف، إذ يفتح في الخلق السابق بابًا لم يكن مطروقًا في خلق «الظلم»، فقد جاء الإسلام بمعنى «ظلم النفس»، فضلا عن «ظلم الآخر»، بل جعل «ظلم الآخر» تابعا لـ «ظلم النفس»، بل أدخل فيه ما لم يكن معدودًا في الظلم مثل «الشرك».

والثالث الإنشاء، إذ يخرج الخلق مما لم يكن كذلك في السابق، حسبك شاهدًا على ذلك ما جاء به في باب «أخلاق الحرب»، كـ «النهي عن التمثيل بالجثث»، و«قطع الشجر»، و«حرق الحقول»، و«هدم البيوت».

ب) اعتبار التوجيهات الأخلاقيات الخمسة قطعية، مع تقديم التوجيه الخاص بالإيمان: أتفق علماء المسلمين على أن الشريعة الإسلامية تنبني على ما أسموه بـ «المقاصد الضرورية الخمسة»، وإذا نحن قارنا بين هذه المقاصد الخمسة والتوجيهات الخمسة المذكورة، وجدنا بينهما تطابقًا عجيبًا، ويظهر هذا التطابق في وجوه التقابل التي يمكن أن نقيمها بين الجانبين:

- الالتزام بثقافة الإيمان واحترام الدين - ويمكن أن نختصره في «احترام الدين» - يقابل مقصد «حفظ الدين».

- الالتزام بثقافة المسالمة واحترام الحياة - ويمكن أن نختصره في «احترام الحياة» - يقابل مقصد «حفظ النفس».

- الالتزام بثقافة التسامح وبالصدق في الحياة - ويمكن أن نختصره في «الصدق في الحياة» - يقابل مقصد «حفظ العقل».

- الالتزام بثقافة التضامن والنظام الاقتصادي العادل - ويمكن أن نختصره في «نظام الاقتصاد العادل» - يقابل مقصد «حفظ المال».

- الالتزام بثقافة المساواة في الحقوق والشراكة بين الجنسين - ويمكن أن نختصره في «الشراكة بين الجنسين» - يقابل مقصد «حفظ النسل».

ولو أن المقاصد الأربعة الأخيرة تتضمن حفظ الدين - إذ يفهم من السياق أن حفظها لا يتحقق إلا بأحكام الشريعة الإسلامية وحدها - فقد أجمع علماء المسلمين على إيراد مقصد «حفظ الدين» في صدرها، وما ذاك إلا لفرط تبصرهم بأن هذه المقاصد قد تحفظ، على نحو ما، بأحكام أخرى غير أحكام الدين. وقد رأينا ما يترتب على حذف هذا الالتزام من إعلان الأخلاق العالمية، إذ يجعله عبارة عن بيان مبتور لا يليق بمقام المتدينين، بيان أولى بوضعه غيرهم ممن لا يتدينون، لأنهم أقدر عليه بموجب صدق حالهم فيه.

ج) الارتقاء بالعمل الدنيوي إلى منزلة العمل الديني: لقد أنزل الإسلام، بموجب الحديث الشريف: «إنما الأعمال بالنيات»، القيم القلبية مكانة رفيعة، وتأتي على رأس هذه القيم ثلاث هي: «القصد» و«الصدق» و«الإخلاص»، وقد استطاع بفضلها أن يتوسع في العمل الديني بما يجعله يشمل ما لم يكن معدودا فيه، فيصبح ما ليس عبادة عبادة، وما ليس قربة قربة ألا ترى كيف أن العملين الماديين الصريحين: «تجارة السوق»، و«مباشرة الزوج»، ما أن تدخلهما نية الطاعة لأوامر الله، حتى يصيرا عملين يثاب عليهما كما يثاب على عبادتين خالصتين؟

والجدير بالذكر بهذا الصدد.. هو أن امكانية هذا التوسع التي يتوفر عليها الدين الإسلامي تجعله قادرًا على رفع التحدي الذي تشكله التحولات في مجال العمل الدنيوي، إذ بمقدوره أن يجدد الأخلاق بما يتلاءم مع هذه التحولات المادية، ذلك أن كل صورة مستحدثة من العمل تستطيع، في إطاره، أن تكتسب العامل الخلق الخاص بها متى ازدوجت بنية التعبد.

- د) دخول الطور الأخير من أطوار التخليق الإنساني: معلوم أن الأديان التوحيدية السماوية تعد، بمنظور تاريخ الأديان، أطوارًا لاحقة على الأديان التعددية ولو أن وجودها مازال مستمرًا بين أظهرنا، فدل على أن الأديان تأخذ بأسباب التراكم مثلها في ذلك مثل المعارف الإنسانية، فتكون للدين التوحيدي أخلاقية متقدمة على أخلاقية الدين التعددي، ومعلوم أيضًا أن الدين الإسلامي، بموجب خاتميته، ينزل آخر طور من أطوار التخليق بواسطة التوحيد يترتب على هذا أن الإسلام يضيف إلى الإمكانات الأخلاقية التي يشترك فيها مع الأديان السابقة، إمكانات أخرى يستقل بها دونها، وما ذاك إلا لأن الزمن الأخلاقي الذي تحياه الإنسانية اليوم هو، بحق، الزمن الذي يخص الإسلام، ولا تشاركه فيه باقي الأديان - توحيدية كانت أو تعددية - بحيث يكون المسلمون مسئولين معنويًا عن كل ما يحدثه الناس في زمنهم ذلك أن لكل دين زمنين اثنين: الزمن الأخلاقي، وهو الزمن الذي يبدأ بنزوله وينتهي بنزول دين آخر، والحال أنه لا دين ينزل بعد الإسلام، فيختص الإسلام بالزمن الآني، والآني، والزمن التاريخي، وهو الزمن الذي يبدأ بنزوله وينتهي بنهاية الاعتقاد فيه وهذا الزمن الثاني هو وحده الذي تشارك فيه الأديان الأخرى دين الإسلام.

فإذا ثبت أن أخلاق الدين الواحد هي التي بمقدورها أن تنهض بحاجتنا من الأخلاق العالمية، وليست هي الأخلاق المبتورة التي تضمنها إعلان برلمان الأديان، وثبت أيضًا أن الإسلام يوفي بمعايير التقدم الأخلاقي على الوجه الأكمل، بات من الراجح اعتباره الدين الأوفى بالمتطلبات الأخلاقية القادرة على إخراج عالمنا المعاصر من أزماته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والبيئية، حتى يقوم الدليل على خلاف ذلك.

وفي الختام، نستجمع ما أتينا على ذكره، فنقول إن الإعلان من أجل الأخلاق العالمية الذي أصدره «برلمان الأديان»، دعا إلى أربع قيم أساس هي: «التضامن» و«التسامح» و«المسالمة» و«المساواة»، باعتبارها قيما عالمية مأخوذة من الدين ومندرجة تحت القاعدة الذهبية للمعاملة التي تأخذ بها مختلف الأديان لكنه أسقط القيمتين اللتين ينبني عليهما الدين، وهما: «الإيمان» و«العمل»، باعتبارهما، في نظر واضعيه، قيمتين غير عالميتين، طمعًا في أن يقبل غير المتدينين على هذه الأخلاق، وبهذا الإسقاط، أخل بواجبين اثنين:

- أحدهما: واجب تمكين الدين في العالم، وعندئذ، يكون غير المتدينين أولى بإنشاء الأخلاق العالمية التي تعاطى لها هذا الإعلان، وذلك لاتساق موقفهم والتزامهم بمبادئ أقدر على تأسيس الأخلاق الخالية من الاعتبارات الدينية.

• والثاني: واجب الارتقاء بالأخلاق في العالم، وحينئذ، يكون الدين الواحد أولى من هذا الإعلان بتحقيق التقدم الأخلاقي المطلوب، ممثلاً خير تمثيل في الدين الإسلامي، وذلك لكون إمكاناته الأخلاقية تسع إمكانات غيره من الأديان السماوية وتزيد عليها.

تترتب على هذا النقد للإعلان من أجل الأخلاق العالمية، نتائج غاية في الأهمية، تبطل آراء بصدد الأخلاق والأديان رسخت في الأذهان، حتى كأنها بديهيات عقلية وهذه النتائج هي كالتالي:

- هناك طريقان اثنان للتوصل إلى الأخلاق العالمية، لا ثالث لهما، إما طريق العلمانية متى تم حذف الدين منها، وإما طريق الدين الواحد متى تم حفظ الدين فيها.

- ليس واجب «برلمان الأديان» هو الاقتناع بموقف غير المتدينين والسعي إلى إرضائهم ولو بمخالفة مبادئه، وإنما، على العكس من ذلك، إقناعهم بعالمية الدين، وعقلانية الالتزام بتعاليمه، وواقعية الرجوع إليها في حل مشكلات العالم.

- ليست عالمية الأخلاق في أن تتفق غالبية الأفراد والأمم عليها، لأنها قد تتفق على باطل أو ظلم، وإنما في أن يثبت بالبرهان أن هذه الأخلاق قادرة على دفع التحديات الأخلاقية العالمية.

- ليس هم الحوار بين الأديان أن يخوض المتدينون في قضايا العالم التي قد يضاهيهم غير المتدينين في الخوض فيها، وإنما أن ينكبوا بالخصوص على القضايا الدينية التي تتناول العقائد والعبادات والمعاملات في مختلف الأديان.

- الحوار بين المتدينين وغير المتدينين - أو العلمانيين - أفيد في تحصيل القدرة على رفع التحديات الدينية والأخلاقية العالمية من الحوار بين المتدينين فيما بينهم والحوار بين غير المتدينين فيما بينهم، لأن من شأنه أن يطرح مسألتين أساسيتين تعيدان تقويم العلاقات بين الطرفين، إحداهما عالمية الدين في مقابل دعوى محلية الدين، والثانية عمومية الدين في مقابل دعوى خصوصيته.

- ليست الأعمال الدينية أفعالا باطنة تخص الأفراد، ولا آثارها لازمة لهم لا تتعداها، وإنما أفعالا ظاهرة تعم المجتمعات، وآثارها تتعدى الفاعلين إلى الآخرين.

- لا تمتنع القضايا الروحية على المناقشة العقلانية، ولا على المقارنة الاخلاقية، إلا أن عقلانيتها أكثر اتساعاً من عقلانية القضايا المادية، وأخلاقيتها أكثر رسوخًا من أخلاقيتها.

- الأديان تتفاضل فيما بينها بحسب حظها من هذه العقلانية الواسعة وهذه الأخلاقية الراسخة، كما تتفاضل الأفكار والنظريات فيما بينها بحسب نصيبها من العقلانية المجردة والأخلاقية المرسلة.

- السلام العالمي لا يوصل إليه تسالم الأديان وحده، ولا مطمع فيه طالما أن حساب المصالح و«منطق القوة» هما السيدان اللذان يحكمان التعامل بين الأفراد والأمم ولا نظن إلا أن حكمهما باق إلى نهاية هذا العالم.

- لا يعدو تسخير روحانية الدين لبسط السلطان المادي أن يكون حربًا على الدين بقدر ما هو حرب على الإنسان، وحربًا على الذات بقدر ما هو حرب على الآخر(٢).

(٢) نشرت هذه الدراسة بمجلة «الإسلام اليوم» الصادرة عن الإيسيسكو عدد ٢٩ سنة ١٤٣٤ هـ سنة ٢٠١٣م

مناهج تعليم القرآن في إفريقيا (*)

أ. د. ناصر بن محمد المنيع
جامعة الملك سعود - كلية التربية
قسم الثقافة الإسلامية

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد فإن تعليم القرآن الكريم هو أصل مناهج التعليم في العالم الإسلامي، ومؤسسات تعليم القرآن الكريم هي رائدة مؤسسات التعليم في الوطن الإسلامي.

وقد استوقفني عنوان مؤتمر (الإسلام في إفريقيا الأبعاد التاريخية والثقافية والعالمية) الذي خصص للحديث عن قارة مهمة انتشر الإسلام فيها وترعرع، فعزمت على المشاركة فيه وأنا أعلم أن أهل هذه القارة الغنية بأفرادها قد اهتموا بتعلم القرآن وتعليمه وكان لهم في ذلك طرق ومناهج.

يعالج بحث: (مناهج تعليم القرآن الكريم في أفريقيا) الذي أقدمه لهذا المؤتمر تاريخ العمل القرآني، والمشاكل التي تواجهه، ويبحث في طرق تحفيظ القرآن الكريم في أفريقيا والمناشط القرآنية وطرق المراجعة والواقع التطبيقي، وينظر في وسائل تطوير العمل القرآني، ثم يقدم رؤية مستقبلية.

والبحث سيكون في مجمله خطوط عامة وأضواء تكشف عن بعض الجوانب التي تحتاج إلى نظر في التجربة التطبيقية لطرق تحفيظ القرآن الكريم ووسائل تطويرها في أفريقيا والاستفادة منها في العالم الإسلامي وتقديم البديل الناجح للوسائل الحديثة في تعليم القرآن حسب إمكانيات الدول الأفريقية.

أولاً: مشكلات تعليم القرآن في أفريقيا

إن أهم مشكلات تعليم القرآن في أفريقيا تكمن فيما يأتي:

١- غياب المنهج الحق في الاعتقاد

★ من أبحاث المؤتمر العالمي عن الإسلام في إفريقيا التيارات الفكرية والمصادر التاريخية ومناهج البحث ٩١ - ١٢ يوليو ٢٠٠٢م ٧١ - ٩١ شعبان ١٣٤١ هـ المعهد العالمي للفكر والحضارة الإسلامية (ISTAC) الجامعة الإسلامية العالمية الإسلامية بماليزيا (IIUM).

لدى كثير من المدارس الإسلامية.. مع وجود صبغة صوفية شديدة تتنوع من قادرية أو أحمدية إدريسية أو تيجانية، بل إنه قد وفدت على القارة فرق ومذاهب هدّامة، كالشيعة والقاديانية الأحمدية (١).

٢- دعوات أصحاب المنهج العلماني وهم الذين تعلموا في مدارس أوروبية أو ذات صبغة أوروبية، ويرى كثير منهم أنه ما أقعد القارة ولا أبقاها في ظلامها إلا العلوم الإسلامية واللغة العربية وقد أفرز هذا المنهج تعليمًا غابت فيه الأهداف الشرعية، فقل الاكتراث بالشعائر التعبدية وبالمسجد وظهر الاختلاط وزاد الجهل بالدين (٢).

٣- اختلاف مناهج التعليم، واستقلال كل معهد بوضع منهجه ومنح شهادته، وعدم استقرار المنهج حتى في المعهد الواحد أحيانًا، وهذا عادة ما يكون في التعليم الأهلي لا الحكومي (٣).

٤- انحصار مناهج هذه المعاهد في العلوم الشرعية والعربية، وجهل خريجيها باللغات الأوروبية والعلوم الحياتية (٤).

٥- قلة الإمكانات المادية والضعف الإداري، وعدم وجود مساعدات خارجية أو قلتها لقيام مثل هذه المدارس القرآنية والمدارس الإسلامية على وجه العموم، إن الضعف المادي أدى إلى انعدام المباني المدرسية المناسبة الحديثة في أكثر القارة أو إلى قلتها، وكذلك في الأثاثات اللازمة للعملية التربوية كالكراسي، فهي قليلة، وكثير من الطلاب - خاصة في المدارس الإسلامية الأهلية - يفترشون الأرض والحصائر، ونتيجة للضعف المادي عجز بعض أصحاب المدارس عن تسيير الدراسة في مؤسساتهم التعليمية (٥).

٦- ضعف مستوى كثير من الأساتذة ومعلمي القرآن في المدارس الإسلامية، سواء من جهة الحصيلة العلمية أو الخبرة العملية في التعليم، ولذلك عبر بعض الباحثين بقوله: (إن مستويات أكثر معلمي المدارس الإسلامية متوسط أو دون ذلك وهذا ينعكس بطبيعة الحال على التلاميذ، وبالتالي يؤثر في مستواهم، وينتهي إلى ضعف في الطائفة الإسلامية (٦).

٧- قلة المعلمين في بعض بلاد القارة، حتى ذكر أنه في بعض المدارس الإسلامية يوجد معلمون نصارى! وكذلك قلة المشرفين على أعمال المدرسين (٧).

٨- قلة ذات اليد لدى كثير من المعلمين

(١) معوقات التعليم الإسلامي في سيراليون - إعداد محمد أحمد بري - ص ١٧٩، وأزمة التعليم الإسلامي في أفريقيا ص ٦٧، وطرق تدريس القرآن الكريم في الصومال - ماجستير ص (١٣٦ - ١٦٠، ١٣٨ - ١٧٢)، ومجلة البيان ع/٨١ ص ٧١ - ٧٥، ع ٩١، ص ٦٢ - ٦٩، ع ١١٥ ص ٨٥، عن جهود الرافضة في أفريقيا عامة وفي شرقها وفي المستقبل.

(٢) مشكلات التعليم الإسلامي في أفريقيا - إعداد عبدالرحمن أحمد عثمان، ص ٦، والتعليم الإسلامي في المستقبل إعداد عطا المنان بخيت الحاج ص ١٤٣.

(٣) مشروع تطوير التعليم الإسلامي في أفريقيا - إعداد د. يوسف الخليفة أبوبكر ص ١٢٦.

(٤) مشروع تطوير التعليم الإسلامي في أفريقيا ص ١٢٦

(٥) أزمة التعليم الإسلامي في أفريقيا ص ٤٨

(٦) أزمة التعليم الإسلامي في أفريقيا ص ٥٦

(٧) مشكلات التعليم الإسلامي في أفريقيا ص ٢٧

أدت إلى انشغالهم - أو انشغال أكثرهم - بشئون الحياة وجلب الرزق، فربما انقطع بعضهم عن التعليم وتركه، إما لضعف اقتصاد الدول التي أثقل كاهلها الأعباء والمشكلات من الحروب والديون.

٩- انحسار تعلم اللغة العربية وضعف انتشارها وذلك لجهود المستعمرين في إقصائها وإضعافها بشتى الوسائل، مع بقاء لغاتهم إلى اليوم لغات رسمية للتخاطب والتداول، وقد كان تعليم اللغة العربية قاصرًا على الزوايا والكتاتيب، ولا تستعمل لغة للتخاطب والتحدث حتى بين المتعلمين أنفسهم فضلاً عن بقية المجتمع.

١٠- ندرة المصاحف والألواح وأدوات الكتابة، وأما الوسائل المعاصرة كالأشرطة السمعية والبصرية فهي في حكم المفقود.

ثانيًا - بدايات تعليم القرآن في أفريقيا

ويعود الفضل في تأسيس الخلوة إلى وفد العلماء الذين بعث بهم الخليفة العباسي هارون الرشيد في العقد الأخير من القرن الثاني الهجري، وتذهب دراسة أخرى إلى أنّ مؤسس أول خلوة هو غلام الله بن عائد الركابي في دنقلا في العام الثامن الهجري، وتذهب دراسة أخرى إلى أن أول مؤسسة تعليمية أنشئت في قرية (ترتج) بالقرب من كريمة في محلية مروى في الولاية الشمالية أسسها إبراهيم بن جابر في القرن التاسع الهجري.

إن تعدُّد الروايات يرجع إلى أن كل رواية تؤرخ لمنطقة من مناطق أفريقيا المترامية الأطراف.

ثالثًا - أماكن تعليم القرآن وتحفيظه ومناهجه:

(أ) الخلوة:

مصطلح (الخلوة) من خلا يخلو خلوًا أو خلاً، وأخلى إذا لم يكن فيه أحد ولا شيء فيه وهو خالٍ، وخلا لك الشيء بمعنى فرغ، ومنه أخل أمرك وأخل بأمرك، أي تفرد به وتفرغ له، ومنه استخلاء المجلس وتستخلى به، أي تستقل به وتنفرد، وخلا على الشيء اقتصر عليه(٨).

الخلوة هي: دار تعليم القرآن الكريم وتعلُّمه في البلد، وقد كانت، وما تزال، الوحدة التعليمية الرئيسة لتحفيظ القرآن الكريم، وتتعدد الروايات في تاريخ نشأة الخلوة (٩).

الخلوة وطرقها في تحفيظ القرآن الكريم:

هي دار تعليم القرآن الكريم وتعلُّمه، نشأت منذ بداية التعليم الديني، وربما كان الأصل في التسمية أن الشيوخ كانوا يتفرغون لتعليم القرآن الكريم والعلوم الشرعية، ثم يتخذ كل واحد منهم لنفسه

(٨) ابن منظور: لسان العرب ١٤/ ٢٣٧، ٢٤٣. وانظر: الخلوة والعودة الخلوة أ. د. أحمد علي الإمام، دار مصحف إفريقيا، ط ٢، ٢٠٠٢، ص ١٤.

(٩) انظر بحث: جهود تعليم القرآن الكريم في جمهورية السودان في الربع الأول من القرن الخامس عشر الهجري، أ. د. سليمان عثمان محمد، مؤتمر القرآن الكريم والجهود المبذولة في خدمته، جامعة الشارقة، كلية الشريعة، صفر ١٤٢٤ هـ أبريل ٢٠٠٣ م، ص ٤.

خلوة يتعبد فيها ويقرئ القرآن ويعلم الناس أمور دينهم (١٠).

تقوم الخلوة بواجب حفظ السند والمتن وتواتر روايات حفظ القرآن الكريم واستظهار آياته، من جيل إلى جيل، وبهذا تقوم بمسئولية حماية صحة النص القرآني وحفظه في الصدور، ويقوم المجتمع برعاية الخلوة وتقديم الدعم لها في أداء رسالتها العلمية (١١).

إن اسم (الخلوة) تسمية محلية واستعمال خاص بأهل السودان ثم غلب على مدن أفريقيا، وكانت الخلوة هي أساس للتعليم في السودان، ومازالت حتى اليوم هي أكثر مؤسسات التعليم الأهلي انتشارًا في المجتمع السوداني.

طرق تحفيظ القرآن الكريم في الخلوة

يكمل الطالب مرحلة تعليم الكتابة والقراءة العربية في الخلوة، وينتقل إلى مرحلة حفظ آيات وسور القرآن الكريم، يقوم معلم القرآن (شيخ الخلوة) بإملاء الآيات المطلوب حفظها من ذاكرته على تلاميذه ويكتبها الطالب على اللوح، ولكل طالب درس معين (الآيات المطلوب حفظها)، ويقوم الطالب بتصحيح ما كتب في اللوح، ثم يقوم الطالب بترديد الآيات المكتوبة حتى يحفظها عن ظهر قلب، ويقوم الطالب بعرض حفظه على الشيخ.

يبدأ التلميذ بكتابة سورة الفاتحة، يمليها عليه الشيخ الكبير كلمة فكلمة، حتى إذا ما انتهت السورة أخذ منه لوحه وصحح كتابة الكلمات التي أخطأ التلميذ في كتابتها، ثم يأمره بحفظ هذه السورة وتسميعها مساء اليوم نفسه، وهكذا يكون الحال بالنسبة للسور القصيرة الأخرى: الناس، الفلق، الإخلاص، وتستمر عملية الكتابة والتصحيح والحفظ والتسميع هكذا حتى ينتهي حفظ التلميذ بسورة البقرة، ويكون التلميذ قد ختم حفظ القرآن الكريم (١٢).

يتم تقويم طالب الخلوة من خلال التصحيح والحفظ والعرض (التسميع) في كل يوم، وتستمر حتى يكمل الطالب حفظه ويتمكن من إتقان الأداء، ثم يقوم الطالب بعد إكمال حفظه وإتقانه بعرض حفظه في حفل عام ويجيزه شيخه ويحتفي به طلاب الخلوة وينال شرف حفظ القرآن العظيم.

الجانب التطبيقي لطريقة التحفيظ في الخلوة:

يقوم التدريس في الخلوة على أسلوب التفريد، ويجد كل طالب في الخلوة فرصة على انفراد للدراسة، يحدد الشيخ للطالب الواجب وفقًا لمقدرته في الحفظ، كما يحدد له الوقت المناسب لإنجازه.

يعتمد الجانب التطبيقي على خطوات معلومة (١٣).

(١) الرمية: وهي مصطلح على عملية تلقي الطالب عن الشيخ الجملة القرآنية (آية أو جزء من آية)، يلقيها الشيخ على

(١٠) المصدر نفسه، ص ١٥

(١١) انظر بحث: جهود تعليم القرآن الكريم في جمهورية السودان، سليمان عثمان محمد، مصدر سابق، ص ١١.

(١٢) المصدر نفسه، المكان نفسه.

(١٣) المصدر نفسه، ص ٩، ١٠.

الطالب ثم يكتبها في اللوح من ذاكرته دون أن يسقط منها شيء حتى يكمل كتابة مقدار من الآيات يكلف بحفظها.

(٢) الصحة: وهي عملية التصحيح التي يقوم بها الشيخ في لوح الطالب الذي كتبه بنفسه من إملاء الشيخ عليه ويتتبع الشيخ اللوح من أول سطر فيه إلى آخر سطر.

(٣) الحفظ: يقوم الطالب بترديد الآيات المطلوب حفظها آية آية حتى يتقن حفظ المقدار المكتوب في اللوح حسب قدرة الطالب على الحفظ.

(٤) العرضة: وهي عملية تسميع الطالب للشيخ المقدار الذي حفظه، ويقف الطالب قريبًا من الشيخ ويأخذ في قراءة ما حفظه، ويستمع الشيخ إليه ويصلح له خطأه إذا ما أخطأ.

(٥) العودة المرة: وهي إعادة الطالب عملية الحفظ مرة ثانية من سورة البقرة إلى سورة الناس بعد أن يكمل الحفظ في المرة الأولى من سورة الناس إلى سورة البقرة.

(٦) العودة الحلوة: وهي إعادة الطالب الحفظ لمرة ثالثة بعد أن يكمل إعادة الحفظ في العودة المرة (إعادة الحفظ لمرة ثانية).

[ب] مدارس القرآن:

تقوم فكرة المدارس القرآنية على مزج نظام تعليم القرآن الكريم في الخلوة مع نظام تعليم مرحلة الأساس في التعليم العام، ويجمع منهج المدرسة القرآنية بين نظام تعليم القرآن الكريم في الخلوة ومنهج تعليم الأساس في التعليم العام، وأهم ما يميز المدرسة القرآنية تحفيظ القرآن الكريم كاملاً مع الالتزام بتدريس المواد المقررة في منهج التعليم العام (١٤).

يعتمد تنفيذ منهج المدرسة القرآنية على معلمي القرآن الكريم ومعلمي التعليم العام في الوقت نفسه، ويتم تأهيل شيوخ القرآن الكريم في دورات تأهيل فني، ويتأهل معلمو التعليم العام في كليات التربية (إعداد معلمي مرحلة الأساس)، ويكتسب شيوخ القرآن الكريم الخبرة العملية من خلال الممارسة لعملية التعليم على نظام التعليم في الخلوة.

يتم قبول طلاب المدارس القرآنية في سن السادسة على الأسس التربوية نفسها لقبول طلاب مدارس التعليم العام الإلزامي في مرحلة الأساس.

أساس منهج المدرسة القرآنية حفظ القرآن الكريم كاملا خلال سنوات المرحلة الدراسية ودراسة منهج مرحلة الأساس في التعليم العام، وتدرس اللغة العربية القراءة والكتابة والقواعد والتعبير والأدب، كما تدرس الرياضيات من الصف الأول، كما تدرس العلوم الاجتماعية من الصف الثالث، والعلوم الطبيعية، ويتضمن منهج المدرسة القرآنية النشاط التربوي ويشتمل على التربية البدنية والنشاط الأدبي والفنون (١٥).

طريقة تحفيظ القرآن في المدرسة القرآنية:

تأخذ المدرسة القرآنية بالطريقة الموروثة لتعليم القرآن الكريم في الخلوة

(١٤) انظر: أزهري التيجاني عوض السيد، التعليم الديني والمدارس القرآنية، ص ٩.

(١٥) انظر: أزهري التيجاني عوض السيد، التعليم الديني والمدارس القرآنية، ص ٩.

بكل مراحلها من تعليم الكتابة والقراءة إلى إجازة الحفظ (١٦)، مع إدخال بعض المصطلحات والتحسينات مثل توزيع حفظ القرآن الكريم خلال سنوات الدراسة بالمدرسة القرآنية (ثمان سنوات).

يدخل تلاميذ الصف إلى حجرة الدراسة، ومن ثم يجلسون في شكل حلقات كل في مكانه المعلوم، ويأخذ كل تلميذ لوحه كي يستذكر ما حفظه بالأمس بقراءة مسموعة، فيسمع لهم صوت كدوى النحل (الأثر)، علمًا بأن كل تلميذ يقرأ سورته التي تختلف عن سورة الآخر، لا يؤثر كلاهما في الآخر إلا إيجابًا (١٧).

يدخل الشيوخ إلى الفصل بعد خمس دقائق من دخول التلاميذ، ويجلس كل شيخ بعد ذلك يقوم كل تلميذ ليسمّع ما حفظه على الشيخ بصوت مرتفع وبتجويد تام واحدًا تلو الآخر (١٨)، ومن لا يحفظ يعيده الشيخ ليذاكر لوحه مرات ومرات واقفًا على ناحية من الحلقة ويتابعه من وقت لآخر.

التلاميذ الذين سمّعوا يذهبون مباشرة لمسح اللوح (١٩) وتجفيفه ثم العودة ومعهم أقلامهم ودوياتهم وفرشهم الخاصة بالكتابة (٢٠) ويجلسون في حلقة الرمية.

يبدأ الشيخ بالرمية للتلاميذ كلهم في وقت واحد، بحيث يمكن أن يكون في الحلقة أكثر من ثلاثين تلميذًا كل يقرأ للشيخ آخر آية في لوحه فيرمي له الشيخ الآية التي تليها، وهكذا حتى يكتب كل تلميذ المقرر له حفظه.

وقد يكتب بعض التلاميذ لوحين كاملين (أي ثمن حزب)، وربما يكتب بعضهم لوحًا واحدًا (أي نصف ثمن حزب) في حين يكتفي بعضهم بكتابة ربع الثمن، وهو ما يعرف في الخلوة بـ(الخَرُوبة)، وكل حسب مقدرته على الحفظ السريع والإتقان.

بعد ذلك يصطف التلاميذ في فترة تصحيح اللوح، وهي على قسمين:

(أ) صحة نظر: وفي هذه تتم مطابقة المكتوب على اللوح مع القراءة الصحيحة من الشيخ.

(ب) صحة نطق: وفي هذه يلقن الشيخ التلميذ القراءة الصحيحة بالتجويد والترتيل مع الصوت الجميل.

أما المرحلة الأخيرة فهي مرحلة التسيير، وفيها يقوم التلميذ بتكرار قراءة لوحه مرات ومرات بتلاوة وتجويد حتى يحفظه عن ظهر قلب، ويستمر كذلك في فترة العصر مع مراجعة حفظه السابق من الأجزاء ثم يعود في صباح الغد ليبدأ يومًا دراسيًا جديدًا.

[ج] مدارس التعليم العام:

يبدأ التعليم العام في المرحلة الأولى (تعليم الأساس) وهو التعليم الموجه لجميع الأطفال في سن السادسة وتمتد المرحلة إلى ثمان سنوات دراسية، وهو تعليم شامل للمعارف والمهارات والقراءة والكتابة وبعض السور القصار، ثم يأتي تعليم القرآن الكريم في مرحلة التعليم العام مادة مقررة للدراسة ضمن مواد المقررات الدراسية الأخرى، ويلاحظ أن مقرر حفظ القرآن الكريم يكون إلى جانب مقررات التربية الإسلامية واللغة العربية والرياضيات واللغة الأجنبية والعلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية (٢١).

رابعًا - أوقات الدراسة والحفظ والتسميع

طالب القرآن الكريم في المجتمع الأفريقي في الخلوة منقطع للتعليم يومه وليله من قبل طلوع الفجر إلى ما بعد صلاة العشاء الآخرة وفي كل وقت من اليوم واجب مقرر من العملية التعليمية.

يبدأ طالب القرآن يومه في الخلوة قبل الفجر إلى شروق الشمس، وتعرف هذه الفترة الزمنية محليا بـ(الدغشية)، يجلس كل طالب ممسكًا بلوحه يردد الآيات المكتوبة في اللوح ليحفظها.

وتبدأ الفترة الزمنية الثانية من شروق الشمس إلى زوال ظل الصباح، وتعرف محليًا بـ(الضحوية)، وهي الفترة التي يقوم فيها الطالب بكتابة اللوح الجديد وتصحيح ما كتب على الشيخ.

ثم تبدأ الفترة الزمنية الثالثة من صلاة الظهر حتى صلاة العصر، وتعرف محليا باسم (الضهيرية)، وهي فترة القيلولة وطعام الغداء.

وبعد صلاة العصر حتى قبل صلاة المغرب، في هذه الفترة يستأنف الطالب حفظ الآيات التي تعرض على الشيخ في المساء.

والفترة الزمنية الأخيرة عقب صلاة المغرب إلى ما بعد صلاة العشاء، وتعرف محليًا بـ(العشوية) يقوم الطلاب بمراجعة الحفظ في حلقة حول الضوء المتوهج (التقابة)، وهي نار توقد يراد منها الإضاءة.

أما أوقات الدراسة في المدرسة القرآنية تبدأ الدراسة يوميًا في السابعة صباحًا وتنتهي بعد صلاة الظهر، ثم يحضر الطلاب عدا طلاب الصف الأول بعد صلاة العصر إلى صلاة المغرب للمراجعة والنشاط الثقافي، ثم يمكث طلاب الصفوف من الرابع إلى الثامن حتى صلاة العشاء، وذلك لمراجعة حفظ القرآن على نظام تعليم الخلوة.

وعدد ساعات اليوم الدراسي في المدرسة القرآنية عشر ساعات، وعدد أيام العام الدراسي في المدرسة القرآنية مائتان وأربعون يومًا (٢٢).

الجانب التطبيقي لطرق التحفيظ في التعلم العام:

قام مركز تطوير المناهج في وزارة التربية والتعليم السودانية بتطوير خطوات التدريس المعروفة (التمهيد والربط والموازنة

(١٦) انظر: منهج التعليم في الخلوة، ص ١٢ وما بعدها.

(١٧) بعض التلاميذ يقوم بحفظ لوح جاره كاملاً من خلال سماعه لقراءته المتكررة أثناء فترة التيسير، وهذا من بركة القرآن ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ (القمر: ١٧)، وهو ما يسمى بـ (حفظ الالتقاط).

(١٨) بعض الشيوخ يمكنهم أن يسمعوا لأكثر من تلميذ في وقت واحد.

(١٩) يستعمل الماء مع الجير لمسح اللوح، كما هي العادة عند تلاميذ الخلوات، لأن الجير يجعل اللوح المصنوع من شجر الهجليج الأحمر يجعله أبيض ويسهل الكتابة عليه بالدواية، كما يسهل المسح في المرة التالية.

(٢٠) يستعمل التلاميذ فرش من المشمعات البلاستيكية للمحافظة على نظافة حجرتهم الدراسية.

(٢١) مقابلة شخصية مع معلمي مرحلة الأساس، مدرسة أسماء لتعليم الأساس، محلية أم بدة بولاية الخرطوم.

(٢٢) انظر: أثر حفظ القرآن على مستوى تحصيل اللغة العربية والتربية الإسلامية، عبدالله أحمد سعيد، ص ٤٠.

والاستنباط والتطبيق) لتلائم تدريس القرآن الكريم في مرحلة التعليم العام في شكل خطوات محددة (٢٣)، وهي:

(١) التمهيد.

(٢) عرض الآيات على السبورة أو أي وسيلة حديثة.

(٣) القراءة النموذجية من المعلم.

(٤) قراءة التلاميذ الفردية.

(٥) أسئلة لتوضيح المعاني الجديدة.

(٦) شرح الآيات.

(٧) استنباط ما ترشد إليه الآيات.

(٨) قراءة أخيرة من التلاميذ.

(٩) كتابة الإرشادات المستفادة من الآيات.

تنوع أساليب التدريس:

يقوم المعلمون باستخدام أساليب متنوعة لملاحظة الفروق الفردية بين التلاميذ وتذليل الصعوبات التي تواجه التلاميذ، ومن هذه الأساليب:

(أ) أسلوب الوحدات: يقوم المعلم بتجزئة السورة القرآنية الطويلة إلى وحدات مترابطة موضوعية لا يختلف المعنى المقصود منها، وذلك لتبسيط النص وتسهيل حفظه.

(ب) أسباب النزول: وهي من أساليب تحليل النص المدروس ومعرفة أسباب النزول، تجعل الطالب متفهمًا لدلالة الآيات، وتساعد على فهم النص، وهو من أهم عوامل إتقان الحفظ.

(ج) القصة: وللقصة أثر فعال في فهم مغزى الآيات القرآنية، ومن أنجح أساليب التدريس التي تقود إلى تعليم إيجابي.

خامسًا - تطوير العمل القرآني وتقويم مناهج تعليمه

نجد في واقع العمل القرآني أن طريقة تعليم القرآن الكريم في (الخلوة) هي أساس طرق التحفيظ، والعامل المؤثر بفاعلية في طرق مؤسسات تعليم القرآن الأخرى، وهي مدارس التعليم العام والمدارس القرآنية والتي أضافت بعض التعديل أو التطوير لنظام الخلوة مع المحافظة على أصل النظام الموروث.

ومن الملاحظات على طرق تعليم القرآن في الخلوة ما يأتي:

١- يحتاج معلم القرآن إلى تأهيل وتدريب تربوي وإلى معرفة وسائل وأساليب التعليم.

٢- تعتمد الخلوة على وسائل التعليم التقليدية وتحتاج إلى تحديث الوسائل والإفادة من تقانة المعلومات.

٣- لا يشتمل منهج الخلوة على دراسة العلوم الشرعية التي تعين الطالب على فقه الدين وصحة العقيدة.

٤- يحتاج طالب الخلوة إلى قدر مناسب من علوم الحياة التي تساعد على ارتباطه بالمجتمع.

٥- لا تعتمد طريقة التعليم في الخلوة منهج تفسير الآيات وبيان معاني الكلمات لتذليل صعوبة الحفظ.

(٢٣) انظر: تحليل وتقويم طرق تدريس القرآن الكريم في مرحلة الأساس بمحافظة أم درمان، عثمان العالم، رسالة لنيل درجة التخصص الأولى (الماجستير) جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية، ص ٤٨.

توصيات

ومما يهمني أن أوصي به في هذا المقام ما يأتي:

١- دعم البرامج العلمية في مجالات إعداد المتخصصين في تعليم القرآن الكريم (الخبراء والموجهين الفنيين).

٢- تدريب معلمي القرآن الكريم على الطرق التعليمية والأساليب التربوية الحديثة، واستخدام الوسائل التعليمية المعاصرة.

٣- تسخير وتوظيف استخدام تقانة حفظ المعلومات المعاصرة في تيسير حفظ القرآن الكريم وتحديث الوسائل التعليمية.

٤- أن يضاف لمحتوى منهج مدارس تحفيظ القرآن الكريم دراسة العلوم الشرعية واللغات والرياضيات والعلوم الاجتماعية والعلوم التجريبية والمناشط التربوية بما يؤهل الطالب للمشاركة الفاعلة في المجتمع.

٥- الاستمساك بمنهج حفظ القرآن الكريم في الصدور الموروث عن سلف الأمة الحافظ الثقة عن الحافظ الثقة بالقراءات المشهورة المتواترة بين جمهور المسلمين.

٦- اعتماد تجربة المدرسة القرآنية القائمة على الالتزام بمنهج حفظ القرآن الكريم كاملًا، مع دراسة جميع مواد مقررات التعليم العام لتكون البديل الأصيل لمرحلة تعليم الأساس في التعليم العام.

٧- المحافظة على نظام الخلوة في تحفيظ القرآن الكريم، وأن يقوم المجتمع برعاية الخلوة أول مؤسسات التعليم الأهلي في السودان وأكثرها انتشارًا، وتقديم الدعم لها حتى تقوم برسالتها المتميزة في تحفيظ القرآن الكريم.

٨- تطوير معاهد القراءات لتكون معاهد تأهيل تربوي لمعلمي القرآن الكريم إلى جانب رسالتها في إعداد متخصصين في علم القراءات.

٩- تحديث وتطوير الوسائل والأساليب المعينة على إحسان التعامل مع نص القرآن المتصل السند المتواتر القراءة في مواجهة مخاطر مؤامرات تحريف نص القرآن الكريم المنظمة من القوى المعادية لدين الإسلام وتأثير اتجاهات العولمة الفكرية والثقافية الوافدة.

١٠- مضاعفة الجهود المبذولة لتحفيظ القرآن الكريم وتنظيم برامج التعليم المستمر والتعليم للجميع وتحفيظ القرآن الكريم في قطاعات المجتمع كافة.

المسلمون فى «ميانمار» بين الإبادة والتهجير

أ. د. عبدالله نجيب محمد
معهد البحوث والدراسات الإفريقية

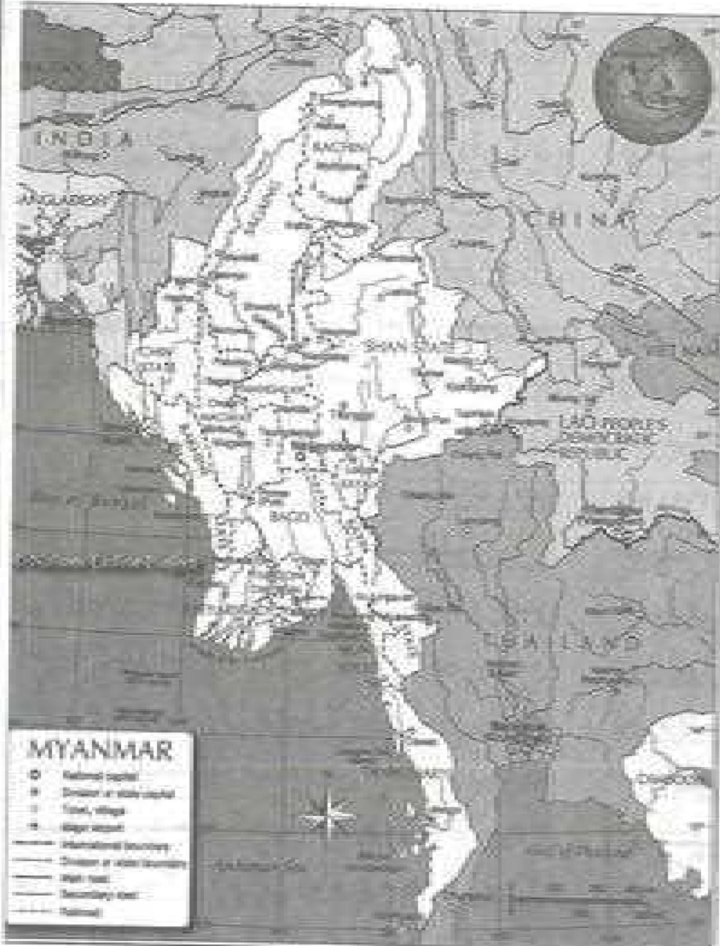
تقع دولة «ميانمار» (بورما سابقا) فى جنوب شرق آسيا، بين «تايلاند» التى تقع إلى الشرق منها و«بنجالاديش» التى تقع فى غربها، بينما تقع الصين إلى الشمال منها. ولها سواحل تطل على المحيط الهندي، حيث توجد «ماليزيا» والأرخبيل الأندونيسي وأرخبيل الملايو [١] الذى يعد من الممرات الهامة التى سلكها تجار المسلمين من العرب والفرس والهنود، حيث طرقوا بلادا عديدة فى الجزر الملاوية عبر طريقهم إلى الصين، حيث وصل الإسلام إلى جنوب تايلاند، خاصة منطقة «فطاني»، كما انتشر الإسلام فى الأرخبيل الأندونيسي، الذى يقع فى أقصى جنوب شرق آسيا منذ القرن الثالث عشر الميلادى على أرجح الأقوال، انتشر الإسلام دون حرب، وتغلب على الديانات البوذية والبرهمية والكونفوشية، التى كانت موجودة قبل الإسلام، وتكون أكبر تجمع إسلامي فى العالم، حيث يعتنق الإسلام الآن أكثر من ٣٠٠ مليون نسمة.

كذلك انتشر الإسلام من شبه جزيرة «ملقا» باتجاه الشمال نحو «سيام» و«بورما» «ميانمار الآن»، كما اتجه من شرق «سومطرة» نحو الشرق [٢].

وكما واجه الإسلام الديانات القديمة، واجه فى مرحلة لاحقة، التنصير المسيحي، الذى بدأ على يد الأسبان، واستمر على عهد البرتغاليين والهولنديين منذ عام ١٦٠٥م، حيث لم يفلح التنصير فى اعتراض مسيرة الإسلام فى هذه المناطق، ويفرد المؤرخون السبب فى ذلك إلى ما يلي:

(١) راجع الخريطة المرفقة.

(٢) زار «ماركو بولو» سومطرة سنة ١٢٩٢م وقال: إن سكانها جميعا كانوا على الوثنية، ما عدا سكان مملكة «برلاك» الصغيرة، الواقعة فى الزاوية الشمالية الشرقية من الجزيرة، وهناك دلائل تاريخية تشير إلى أن الإسلام وصل إلى هذه البلاد منذ القرن الثامن الميلادي.



أولاً: التمازج الاجتماعى الذى تم بالزواج والامتزاج بسكان البلاد.

ثانيا: اكتساب التجار المسلمين احترام أهل البلاد، وقبولهم الارتباط المادى والمعنوى والعائلى بهم، مما ترتب عليه دخول الكثيرين فى الإسلام.

ثالثًا: انتهج المسلمون أيسر السبل لتقديم مضامين الدين الإسلامي، كما تم على أيديهم تقليص ظاهرة الاستعباد ومحو آثار التفرقة العنصرية، كما أنهم خاطبوا الناس بلغاتهم، وتعاملوا معهم بأساليبهم، واحترموا مشاعرهم وثقافتهم؛

ويقال إن الدعاة الأوائل الذين وصلوا إلى المنطقة قد اهتموا بالعمل الإسلامى بكل عناية وحكمة، ونشروا الإسلام بالقدوة الحسنة والسلوك الفاضل [٣].

هذا ويتميز سكان المنطقة عموما بطباع حميدة، واشتهروا بسماحة النفس واعتدال السلوك وسمو الخلق، وإلف الغريب، فرأوا فى وضوح العقيدة الإسلامية وسماحة المبادئ الإسلامية المتمثلة فى العدل والمساواة ونبذ التعصب العرقى وتقسيم المجتمع إلى طبقات - كما دأبت عليه الديانة البرهمية - رأوا فى ذلك ما يدعوهم إلى اعتناق الإسلام والإيمان بمبادئه، والتحول عن ديانتهم القديمة.

***

يبلغ عدد المسلمين الآن فى «ميانمار» نحو عشرة ملايين نسمة، ويمثلون نحو ٢٠٪ من سكان «ميانمار» البالغ عددهم نحو ٥٠ مليون نسمة، ويسكن منطقة «أراكان» [٤] الواقعة شمال غرب البلاد نحو ٦ ملايين نسمة، بينهم نحو ٤

(٣) راجع د. محمود شاكر: مواطن الشعوب الإسلامية فى آسيا أندونيسيا، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٧١م.

(٤) أحيانا تكتب «أراخان»

ملايين من المسلمين، يمثلون نحو ٧٠٪ من سكان الإقليم.

دخل الإسلام إلى منطقة «أراكان» منذ القرن التاسع الميلادي، مع قدوم التجار من العرب والفرس وغيرهم إلى البلاد، كما هاجر بعض المسلمين إلى المنطقة من أنحاء قارة آسيا، وأغلبهم من المغول الذين دخلوا في الإسلام، وكذلك البنغاليين، حيث اختلطوا بالسكان، مما أدى إلى انتشار الإسلام في المنطقة.

أقبل كثير من أهالي «أراكان» على اعتناق الإسلام، ولما زاد عددهم سموا «الروهينجيا» (٥) وهؤلاء تمكنوا بقيادة ملكهم «سليمان شاه» من تكوين مملكة إسلامية، دام حكمها للمنطقة نحو ٣٥٠ عامًا من ١٤٣٠م إلى عام ١٧٨٤م، حيث حكم بعد «سليمان شاه» نحو ٤٨ ملكا مسلما على التوالي.

بدأ الإنجليز في التطرق إلى هذه البلاد منذ عام ١٧٨٤م.

حيث احتلوا المنطقة، واستمر احتلالهم لها حتى نهاية عام ١٨٤٨م حيث تمكن «البورميون» من تحرير «بورما» جملة.

***

اتخذ البورميون منذ ذلك التاريخ سياسة معادية للمسلمين في «أراكان» وقاموا بتهجير أكثر من ٢ مليون مسلم من الإقليم، واتبعوا معهم سياسة القمع والتشريد، وكنتيجة لهذه السياسة، هاجرت أعداد كبيرة من المسلمين إلى «بنجالاديش» و«باكستان» وبعض دول الخليج العربي، كما هاجرت مجموعات قليلة إلى أوروبا وأمريكا وأستراليا.

لم تنقطع حتى اليوم سياسة التطهير العرقي والديني، بالإضافة إلى القتل والإبادة الجماعية والتهجير القسري للمسلمين في «أراكان» بل وعمد حكام «بورما» إلى عزل الإقليم عن العالم، وعينوا عليه حكاما من البوذيين الذين اغتصبوا حقوق المسلمين، وأساءوا معاملتهم ومازالوا حتى يومنا هذا يقومون بهذا الدور تجاه المسلمين.

وكنتيجة لهذه السياسة – لم يتمكن المسلمون في «أراكان» من التواصل مع إخوانهم من المسلمين في البلاد المجاورة، كما أهمل حكامهم من البوذيين تنمية الإقليم اقتصاديا، وأهملوا التعليم بشكل مقصود، واستمر هذا الوضع المأساوي في التفاقم حتى يومنا هذا، مما يضطر المسلمين من الروهينجيا إلى ترك ديارهم وأموالهم والهجرة من بلادهم.

ما زال المسلمون في ميانمار يتعرضون للظلم والاستبداد والاضطهاد والاعتداءات المستمرة على الأنفس والأموال ومازالت عمليات القتل والإبادة والتهجير مستمرة تحت سمع وبصر العالم، لقد هاجر نحو نصف سكان الإقليم من بلادهم حتى الآن، ويعيش بقية السكان تحت وطأة الاضطهاد والفقر والاستعباد والخوف، وكما سمعنا في الأيام والشهور الماضية، حدثت اعتداءات غاشمة على بقية المسلمين في البلاد؛ واغتصبت أراضيهم ومساكنهم مما اضطر الكثيرين منهم إلى العيش في مخيمات، أوحتى في العراء بلا مأوى.

يقول رئيس منظمة «الروهينجيا» «الشيخ دين محمد» في حديث له: «إن عدد المبعدين من ديارهم يصل إلى أكثر من مليون نسمة، وإن هناك عشرين ألفا منهم يعيشون في مخيمات نصبت بالقرب من الحدود البنجلاديشية البورمية، واضطر الباقون إلى السياحة في أرجاء الدنيا بحثا عن لقمة العيش وعن الأمان، وأكد أن الذين أصروا على البقاء في وطنهم يواجهون سياسة الاضطهاد المنظم، حيث يقوم البوذيون بإرغامهم على بناء معابد بوذية بأيديهم على أنقاض المساجد القديمة، التي ترفض الحكومة إعادة ترميمها، كما أن الأموال التي تنفق على بناء هذه المعابد تجبى من المسلمين أنفسهم».

لا يسمح للمسلمين ببناء مساجد جديدة على مدى قرنين من الزمان، بل لم يسمح لهم بترميم مساجدهم القديمة، ويحاول البوذيون أيضا تذويب المسلمين في الثقافة البوذية والقضاء على هويتهم الإسلامية عن طريق نوع من التعليم والسلوك الإجباري.

وإزاء هذه السياسة البغيضة يحاول المسلمون من جانبهم الدفاع عن هويتهم، وقد تأسست عام ١٩٨٢م منظمة تضامن «الروهينجيا» وهي منظمة إسلامية تسعى إلى تحسين ظروف المسلمين في «أراكان» سياسيًا واجتماعيًا وتربويًا ودينيًا، وتحاول التخفيف من معاناتهم بتنفيذ عدد من البرامج الإغاثية والتعليمية وغيرها – كما تعمل على مقاومة الظلم الذي يتعرض له المسلمون من قبل البوذيين، وقد تعرضت المنظمة في الأيام القليلة الماضية إلى الاعتداء والإغلاق والتضييق على عملها من قبل جماعات من البوذيين المتطرفين، كما تعرض بعض أعضائها للاعتداء والقتل والتشريد على مرأى ومسمع من العالم.

هذا ويحاول المسلمون في البلاد المجاورة، وخاصة بنجالاديش مساعدة إخوانهم في «أركان» بقدر الإمكان، ويمدونهم ببعض الخيام والمعونات الغذائية، ولكن الأمر يتفاقم، وتزداد عمليات الإبادة والتهجير المنظم يوما بعد يوم.

ونحن على صفحات مجلة الأزهر الشريف نهيب بالمسلمين في كافة أرجاء العالم إلى الوقوف بجانب إخوانهم ومساعدتهم وحمايتهم من ظلم الظالمين المعتدين – لقد أصبح أمر واجبًا وفرضا على كافة الدول الإسلامية، وعليها أن تسعى في المحافل الدولية والمنظمات الإنسانية للدفاع عن اخوانهم وحمايتهم والعمل على وقف عمليات الإبادة والتهجير لهم.

والله المستعان

(٥) الروهينجيا اسم مشتق من «روهانج» وهو الاسم القديم «أراكان».

المحرم ١٤٣٥ هـ - نوفمبر ديسمبر ٢٠١٣م

من تراث الهلال

عالمية الدعوة الإسلامية

للأستاذ/ عاطف مصطفى

صدر عدد مايو من مجلة الهلال والذى صادف يوم الخامس عشر من شهر رمضان ١٤٠٨هـ وحرصت على تقديم جزء خاص يعد بمثابة مائدة ثقافية لفكر كبار المثقفين وإبداعاتهم، خاصة أن هذا الشهر الفضيل يعد موسما دينيا أصيلا، منذ نزل القرآن الكريم على النبي الأمين قبل ١٤٣٤ عاما.

كان من أبرز من شاركوا فى كتابته الدكتور محمد رجب البيومى والدكتور محمد عمارة والدكتور الطاهر أحمد مكى والأستاذ عبدالرحمن شاكر والدكتورة نعمات أحمد فؤاد والأستاذ أنور الجندي.

وتتوقف عند مقال «عالمية الدعوة الإسلامية تدخل مرحلة جديدة» للمؤرخ أنور الجندى والذى قال فى بدايته: تدخل الدعوة الإسلامية فى نهاية العقد الأول من القرن الخامس عشر مرحلة جديدة قوامها تصحيح المسيرة وتحريرها من العقبات والمعوقات والأشواك التى تعترض طريقها، سواء من ناحية الجمود الذى أصابها فى المرحلة السابقة، أو من جراء محاولات التشويه والتزييف التى قامت بها قوى الاستشراق والتبشير، على مدى أكثر من قرن من الزمان، فى سبيل خدمة النفوذ الأجنبى وتثبيت قبضته وإحكامها فى احتواء عالم الإسلام، عن طريق إخضاعه واحتوائه فى دائرة الفكر البشرى والعالمى والأممي، وعدم تمكينه من تحقيق انطلاقته الحقيقية السمحاء، وقد تزايدت هذه المحاولة فى خلال المرحلة الجديدة التى وصفت بالصحوة الإسلامية.

تصحيح مفهوم الإسلام

ويتحدث عن حركة تصحيح مسيرة الدعوة الإسلامية ويحددها فى أربع قنوات متصلة متكاملة.

القناة الأولى: تصحيح مفهوم الإسلام بوصفه منهجا جامعًا يضم العقيدة والنظام، ويقدم منظومة كاملة لمختلف جوانب الاجتماع والسياسة والاقتصاد.

القناة الثانية: تصحيح مفهوم الإسلام بوصفه دينا عالميا خاتما، جاء ختاما للرسالات السماوية والبشرية كافة، منذ

ظهوره بالنبوة الخاتمة لمحمد ﷺ وكتابه القرآن.

تصحيح إسلام المسلمين الجدد الداخلين فيه فى عالم الغرب وحمايتهم من خطر الاحتواء حول مذاهب باطنية أو فلسفية صوفية أو غيرها مما لا يتحقق معه إبلاغهم رسالة التوحيد الخالص.

القناة الرابعة: تصحيح مفهوم علاقة الإسلام بالأديان المنزلة من حيث أنها جميعا جاءت تدعو إلى عبادة الله تبارك وتعالى، والإيمان به، وإخراج الناس من دائرة الوثنية والشرك والتعدد.

وقد ظلت هذه الأديان مرتبطة ببيئاتها وأممها، حتى إذا بلغت البشرية رشدها، جاء الإسلام مصدقا لما بين يديه، للناس كافة وإلى أن تقوم الساعة.

وجاء القرآن مصدقا لما بين يديه من الكتب، ومهيمنا عليها.

وقد قامت الحضارة الإسلامية من عصارة تراث رسالات السماء كلها، التى انصهرت فى بوتقة شاركت فيها جميع العناصر، داعية إلى إصلاح النفس البشرية، وإهدائها إلى الخير والرحمة والعدل والإخاء البشري.

ولا ريب أن هذا المفهوم يكشف فساد دعاوى البهائية والقاديانية، ومقولة مدعى النبوة، فقد قدم الإسلام كل الدلائل والأسانيد الدامغة التى تؤكد (عموم الرسالة وختم النبوة) حيث لم يستطع أى متنبىء خلال أربعة عشر قرنا أن يقيم هذه الدعوى المدعاة.

ولقد كان تركيز اليقظة الإسلامية واضحا على شجب هذا التيار القائم على التأويل الباطنى للقرآن، لتسريب مفاهيم الفرق الضالة فى محاولة للاحتيال على بعض النصوص، لخداع الطلائع التى لم يتيسر لها الإلمام بأصول الإسلام، وكذلك شجب مفاهيم وحدة الوجود والحلول والاتحاد والتناسخ، ومذهب الروحية الحديثة، والحذر مما أوردته كتابات بعض دعاة الباطنية والقرامطة، وما تضمنته رسائل أخوان الصفا، وما أورده ابن المقفع فى مقدمة كتاب كليلة ودمنة، وكذلك أفكار ما يتعلق بنظرية الفيض والعقول العشرة والتجسيد وذلك ليظل مفهوم الإسلام الجامع قائما، ويظل مفهوم الغيب والنبوة، والبعث والجزاء الأخروى أساسا لفهم الإسلام.

الإسلام وحل مشكلات العصر

ويواصل الكاتب أنور الجندى قائلا: ولا ريب أن ما توصل إليه علماء غربيون منصفون من قدرة الإسلام على العطاء، وحل مشكلات العصر، بعد أن تعقدت أمور الأيديولوجيات، وتطلعت النفوس المحبة للخير إلى الإسلام كمنقذ، كل هذا يجب أن يكون موضع تقدير.

ففى كتاب عنوانه «من دين لآخر، اعتناق الإسلام فى الغرب» صدر بالفرنسية ليزبات روتي، يقول: ما برح الإسلام يلاقى صدى طيبا فى نفوس الغربيين، فيدخلون فيه عن طواعية، بعدما أفلست كل النظريات فى إسعادهم، ولم تعد أديانهم قادرة على إطفاء ظمئهم الروحي».

ويقول إيفادى فتراي: القرآن هو آخر وحى، ومحمد هو خاتم الرسل والقيمة

المتجمعة للإسلام، تجعل الفرد مرتبطا بمجموعة عالمية، والإسلام يجبر على الاعتراف بكل الملل وبكل الرسل السابقين.

إن العقل الأوروبي لا يرفض الإسلام إذا عرف حقيقته، إذا أتيحت له فرصة النظر دون أن تكرهه قوى أخرى على التعصب لفكره القديم.

ويستشهد الجندى بقول الدكتور عبدالكريم دانتون: لقد بهرتني المودة في العالم الإسلامي، كانوا يقدمون العون دون مقابل، رائدهم القناعة ورضاء النفس، بينما كنت أنفر من نمط الحضارة الغربية لما فيها من مادية الجفاف الروحاني والفراغ العقلي.

«وجدت في الإسلام رسالة واقعية، تعترف بغرائز الإنسان ولكنها تسمو بها، فهو الدين الأكثر ارتباطا بالواقع، وأعمق تأثيرا في نفوس الناس، وحدث في الإسلام ما كنت أبحث عنه وأي مشكلة يواجهها الإنسان تجد حلها في القرآن الكريم.

والعالم الغربي يدرك اليوم أن الإسلام هو الذي يحل جميع مشاكل البشر.

هذا الذي يقوله بعض المثقفين الغربيين الذين عرفوا طريق الإسلام وتلك ظاهرة شديدة الأهمية، فإن الذين يدخلون الإسلام من الغرب اليوم، ليسوا من عامة الناس، ولكن من خاصتهم، فهم على حظ كبير من الثقافة ومنهم مفكرون وعلماء وفلاسفة.

فهم حقيقة الإسلام وجوهره

ومن هنا فإن هناك ضرورة ملحة للمحافظة على المسلمين الجدد وحمايتهم من أخطار الإذابة في المحيط الغربي، أو أن تتلقفهم قوى تدعى الإسلام لتبعدهم عن مفهوم الإسلام الجامع الصحيح.

ويضيف الكاتب: إن فهم حقيقة الإسلام وجوهره هو الركيزة الحقيقية لهذه المرحلة الجديدة من عالمية الإسلام التي يتسع نطاقها في قارات أوروبا وأمريكا وأستراليا.

لقد جاء الإسلام ليصحح كثيرا من أخطاء الفكر البشرى الوثني والمادي، وأهمها الصلة المباشرة بين الله تبارك وتعالى وبين الإنسان بدون وسيط، والارتفاع على التجسيد والتجسيم، ورفض الفلسفات، التي نشأت في ظلها فكرة التعدد، كما كشف الإسلام فساد المواريث القديمة للباطنية والمجوسية، وعبادة الفرعون والقيصر، وجدد تراث النبوة، وكشف زيف تراث طفولة البشرية، كذلك فقد رفض الإسلام نزعة اليأس والتشاؤم، وقد أعلن مسئولية كل إنسان عن عمله، وأبرز عطاء الإسلام في هذا العصر سكينة النفس، وطمأنينة القلب والتخلص من أزمات الفكر، التي تؤدى بصاحبها إلى القنوط، وهي التي يحلها الإيمان بالله تبارك وتعالى، خالقا ورازقا:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

(الفاتحة: ٥)

يضيف المفكر أنور الجندي: ولقد تبين أن أعظم ما جذبهم إلى الإسلام هو روح العدل والمساواة التي يدعو إليها القرآن الكريم، والنظافة التي يتحدث عنها الرسول ﷺ: «الطهارة نظافة اليد والقلب واللسان».

وقد أذهلهم تواضع النبي محمد ﷺ، وكرم خلقه وسماحته مع أعدائه ورحمته وتطلعه إلى أن يخلف هؤلاء المتغيبين من يؤمن بالله.

هذه المعاني هي التي هزت نفس الغربي هزا شديدا، لأنه لا يجدها في واقع الحياة المعاصرة، صورة من عالم مضيء، يستعلى على الأحقاد والخصومات والمادة، ويتطلع إلى أنوار السماء.

ومن أجل هذا يتوقع المراقبون للصحوة الإسلامية انطلاقًا واسعا حتى تنطلق عالمية الإسلام بعد أن نقل المجتمع الإسلامي إلى داخل عشرات من دول الغرب، وبقي ظاهرة طبيعية متجددة.

أكثر من مليار مسلم

ولقد كشف علماء الغرب وقادته عن نواقص الحضارة الغربية المعاصرة واضطرابها وخروجها عن الجادة، وما يصيبها اليوم من عطب من حيث عجز منهجها السياسي والاقتصادي والاجتماعي، عن إعطاء الإنسان أشواقه ومطامحه الروحية مما يدعوه إلى التطلع إلى الإسلام كمنقذ للحضارة والمجتمعات، ويأتي هذا في الوقت الذي يتنامى فيه تعداد المسلمين متجاوزين الألف مليون، وحيث تقام مجتمعاته الآن في قلب أوروبا «الغرب»، وتتفجر قضايا شرح الإسلام للغرب وتجاوز الصورة القديمة التي حملها الغرب للإسلام قرونا طويلة، وحماية هذه المجموعات الجديدة من فقدان مفهوم وجودهم الحقيقي.

ولعله من الخير أن توضح هذه الحقائق الثلاث بين أيدي الدارسين لهذه القضية.

- أولا: جدد الإسلام تراث النبوة، وكيف زيف تراث البشرية، وقدم للإنسان في كل عصر وبيئة روح الإيمان بالله تبارك وتعالي، والثقة بقدرته، والتحرر من اليأس والتشاؤم ومن التبعية للموروثات، وقيام الصلة المتحررة من كل وسيط بين الله تبارك وتعالى والإنسان، وهدم عبودية الفرد للفرد، أو عبودية الفرد للوثنية في صورها الحديثة، وبذلك استطاع أن يقدم نفسه للبشرية في هذا العصر، على أنه قادر على حل كل مشكلاتها ومعضلاتها.

- ثانيا: كشفت الأبحاث العلمية واللاهوتية عددا من الحقائق التي أكدت الأصول والثوابت التي قررها الإسلام منذ أربعة عشر قرنا في شأن خلق الكون والإنسان والإعجاز العلمي، مما أكد صدق النص القرآني وسلامته على مدى العصور، وقدرته على مظاهرة ما كشفت عنه الحفريات في شأن تاريخ الأمم والحضارات مما يعطى القرآن الكريم اليوم المكانة الأولى في اعتماده كمصدر لحركة الجنس البشرى.

- ثالثا: قدرة الإسلام على استيعاب القضايا العالمية التي أحدثت أزمات كبرى من جراء الفصل بين القيم، كقضية الدين، والعلم، والانتماء الديني والقومي، والدنيا والآخرة، والالتقاء بين العقل والوجدان، والتلاقي بين العصور والأجيال والمرأة والرجل، والآباء والأبناء، على أساس مفهوم التكامل الذى رسمه الإسلام، وقاعدة الثوابت والمتغيرات.

وبذلك أعطى المسلم القدرة على الاستجابة لمتغيرات العصر مع الاحتفاظ بالقيم والثوابت الأصيلة.

مكتبة مجلة الأزهر

إعداد الأستاذ: محمد شعبان

تسعى «الأزهر» عبر هذا الباب إلى التواصل مع القارئ العزيز من خلال تقديم نبذة عن أحدث الإصدارات الجادة فى شتى مجالات المعرفة، ذلك للمساهمة فى تكوين عقلية واعية وعصرية.

عن الهيئة المصرية العامة للكتاب - مشروع مكتبة الأسرة - صدرت الطبعة الجديدة لكتاب «المصريون المحدثون: شمائلهم وعاداتهم» للمستشرق الإنجليزى إدوارد وليم لين وترجمة عدلى طاهر نور.. يسجل الكتاب عادات وتقاليد واعتقادات وأساطير المصريين فى القرن التاسع عشر.. يقول المترجم فى مقدمته: لم أر بعد المقريزى فى كتابه «المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار» ولا بعد الجبرتى فى كتابه «عجائب الآثار فى التراجم والأخبار».. من عنى بتسجيل العادات المصرية والآداب الشعبية بدقة وأمانة إلا المستشرق الكبير إدوارد وليم لين فى هذا الكتاب.. لذلك لم أكد أفرغ من قراءته حتى عقدت النية على ترجمته لأنقل إلى لغتنا العربية سجلا حافلا لعاداتنا واعتقاداتنا وأساطيرنا فى القرن التاسع عشر.

«وبمعنى: أن مصر ابتداء من القرن العشرين أخذت تحث الخطى فى سبيل المدنية الغربية وقد قطعت فى تلك السبيل مراحل كادت تبعد الجيل الحاضر عن ماضيه ناحية وتنسيه شمائل قومه فانتشرت العادات الأوروبية بالمحاكاة والاقتباس وانكمشت العادات المصرية».



يبحر كتاب «ما المعرفة» الصادر ضمن سلسلة عالم المعرفة الكويتية بالقارئ فى مختلف نظريات الإبستمولوجيا بطريقة مبسطة بعيدة عن التعقيد ووفق مقدمة الكتاب الذى ترجمه مصطفى ناصر: «جرى تأليف الكتاب بأسلوب سلس تسهل قراءته قدر الإمكان وذلك ليكون مرشدا للقارئ».. ينقسم الكتاب إلى أربعة عشر فصلا تبتعد عن الإسهاب وتقع ضمن ثلاثة أجزاء. يتناول الجزء الأول موضوعات عامة ضمن إطار نظرية المعرفة.. وتطرح فيه جملة من التساؤلات مثل: ما قيمة المعرفة؟ ويلقى الجزء الثانى الضوء على الموارد التى تستمد منها المعرفة ويفحص الإدراك الحسى والذاكرة مثلا فى مساعدتنا على اكتساب المعرفة والتمسك بها.. أما الجزء الثالث فيتطرق إلى نطاق معرفتنا.



أعادت مكتبة الأسرة أخيرا نشر موسوعة «الأزهر جامعا وجامعة» للمؤرخ الكبير عبدالعزيز الشناوى.. يتناول الكتاب فى جزأيه تاريخ الأزهر ومكانته عربيا وإسلاميا منذ نشأته وحتى ثورة ١٩٥٢م.. يوضح المؤلف فى مقدمته أن الداعى لتأليف الكتاب هو الاحتفال بالعيد الألفى للأزهر.

يتناول الكتاب فى جزئه الأول تاريخ المساجد الجامعة فى القاهرة قبل الأزهر وطبيعتها تمهيدا لفهم الواقع الجديد الذى فرضه الأزهر ثم يتحدث عن الأزهر فى العصر الفاطمى والأيوبى وعصر المماليك والشراكسة والدولة العثمانية ثم عن الأروقة تفصيلا ودور الأزهر فى الثورات آخر الحكم العثمانى.

يتعرض الجزء الثانى لموقف الأزهر من الحملة الفرنسية على مصر وأسباب ثورة الأزهر على الفرنسيين وكان الملاحظ فى ذلك الوقت أن الجامع الأزهر كان ملتقى المعارضين للحكم الفرنسى والساخطين عليه حيث كانوا يجتمعون فى رحاب الجامع الأزهر كلما صدر عن السلطات الفرنسية تصرف يسىء إليهم.

عن وحدة الدراسات المستقبلية بمكتبة الإسكندرية صدر أخيرا العدد الثامن عشر فى سلسلة مراصد بعنوان «الدين والدولة: إشكالية العلمانية فى الفكر الإسلامى المعاصر عبدالسلام ياسين نموذجا» للدكتور عبد السلام طويل.. ترصد الدراسة رؤية عبدالسلام ياسين المرشد الراحل لجماعة العدل والإحسان بالمغرب للدين والدولة.

بحسب الدراسة يميز ياسين بين علمانيتين: «علمانية كاشفة عن أنيابها» و«علمانية رقطاء» محذرا تحذيرا خاصا من الثانية قائلا: الخطر العلمانى الذى ينبغى لأهل الإيمان أن يترقبوه ويحترسوا منه أشد الاحتراس ليس العلمانية الكاشفة عن أنيابها، لكن العلمانية الرقطاء المتسربة إلى المسلمين، وهى لابسة ثوب زور، إنها علمانية «جغرافية الكلام» المستقبلية التراثية المتجددة.. تلك التى تمجد الإسلام وتنقد الماركسية والإمبريالية والتزلف للمخزون النفسى الجماهيرى.. ومن أبرز ممثلى الثانية حسن حنفى ومحمد أركون ومحمد عابد الجابرى.



فى عرض شائق يقدم جون جريبين رائد تبسيط العلوم فى العالم اليوم نظرية «الفوضى» فى إيجاز غير مخل وذلك فى كتاب «الساحة العميقة الانتظام فى الشواش - الفوضى - والتعقد».. تعد نظرية الفوضى أحدث نظريات علوم الطبيعة التى تبدأ من الحدود التى يتوقف عندها العلم التقليدى ويعجز.. فمنذ شرع العلم فى حل ألغاز الكون عانى دوما من الجهل بشأن ظاهرة الاضطراب، مثل تقلبات المناخ، وحركة أمواج البحر، والتقلبات فى الأنواع الحية وأعدادها، والتذبذب فى عمل القلب والدماغ. إن الجانب غير المنظوم من الطبيعة: غير المنسجم وغير المتناسق والمفاجئ والانقلابى.. يقول جريبين فى مقدمة الكتاب «يمكن» من خلال نظرية الفوضى - تفسير ظواهر معقدة مثل حدوث الزلازل وتقلبات البورصة والنظم المناخية وحتى البشر لكن دون توقع حازم.

فتاوى لها تاريخ

رفـــع عيســـى



الشيخ / محمود شلتوت

ورد إلى مشيخة الأزهر الجليلة من حضرة عبدالكريم خان بالقيادة العامة لجيوش الشرق الأوسط سؤال جاء فيه:

هل (عيسى) حى أو ميت فى نظر القرآن الكريم والسنة المطهرة؟ وما حكم المسلم الذى ينكر أنه حى؟ وما حكم من لا يؤمن به إذا فرض أنه عاد إلى الدنيا مرة أخرى؟

وقد حول هذا السؤال إلينا فأجبنا بالفتوى التالية التى نشرتها مجلة الرسالة فى سنتها العاشرة بالعدد ٢٦٤.

القرآن الكريم ونهاية عيسى

أما بعد، فإن القرآن الكريم قد عرض لعيسى عليه السلام فيما يتصل بنهاية شأنه مع قومه فى ثلاث سور:

١- فى سورة آل عمران: قوله تعالى:

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢) رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٥٣) وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤) إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾

(آل عمران: ٥٢ - ٥٥)

٢- وفى سورة النساء قوله تعالي:

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾

(النساء: ١٥٧، ١٥٨)

٣- وفى سورة المائدة قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾

(المائدة: ١١٦، ١١٧)

هذه هى الآيات التى عرض القرآن فيها لنهاية شأن عيسى مع قومه.

والآية الأخيرة (آية المائدة) تذكر لنا شأنًا أخرويًا يتعلق بعبادة قومه له ولأمه فى الدنيا وقد سأله الله عنها؛ وهى تقرر على لسان عيسى عليه السلام أنه لم يقل لهم إلا ما أمره الله به:

﴿اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾

(المائدة: ١١٧)

وأنه كان شهيدًا عليهم مدة إقامته بينهم، وأنه لا يعلم ما حدث منهم بعد أن (توفاه الله).

معنى التوفي

وكلمة (توفى) قد وردت فى القرآن كثيرًا بمعنى الموت حتى صار هذا المعنى هو الغالب عليها المتبادر منها، ولم تستعمل فى غير هذا المعنى إلا وبجانبها ما يصرفها عن هذا المعنى المتبادر:

﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾

(السجدة: ١١)،

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾

(النساء: ٩٧)

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ﴾

(الأنفال: ٥٠)

﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾

(الأنعام: ٦١)،

﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾

(الحج: ٥)

﴿حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ﴾

(النساء: ١٥)

﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾

(يوسف: ١٠١)

ومن حق كلمة (توفيتنى) فى الآية أن تحمل هذا المعنى المتبادر وهو الإماتة العادية التى يعرفها الناس ويدركها من اللفظ والسياق الناطقون بالضاد، وإذن فالآية لو لم يتصل بها غيرها فى تقرير نهاية عيسى مع قومه لما كان هناك مبرر للقول بأن عيسى حى لم يمت.

ولا سبيل إلى القول بأن الوفاة هنا مراد بها وفاة عيسى بعد نزوله من السماء بناءً على زعم من يرى أنه حى فى السماء، وأنه سينزل منها آخر الزمان؛ لأن الآية ظاهرة فى تحديد علاقته بقومه هو لا بالقوم الذين يكونون آخر الزمان وهم قوم محمد باتفاق لا قوم عيسى.

معنى [رفعه الله إليه]: وهل هو إلى السماء؟

أما آية النساء فإنها تقول:

﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ﴾

(النساء : ١٥٨)

وقد فسرها بعض المفسرين، بل جمهورهم بالرفع إلى السماء، ويقولون إن الله ألقى شبهه على غيره، ورفعه بجسده إلى السماء، فهو حى فيها وسينزل منها آخر الزمان، فيقتل الخنزير ويكسر الصليب، ويعتمدون في ذلك:

- أولاً: على روايات تفيد نزول عيسى بعد الدجال، وهى روايات مضطربة مختلفة فى ألفاظها ومعانيها اختلافًا لا مجال معه للجمع بينها، وقد نص على ذلك علماء الحديث، وهى فوق ذلك من رواية وهب بن منبه وكعب الأحبار وهما من أهل الكتاب الذين اعتنقوا الإسلام وقد عرفت درجتهما فى الحديث عند علماء الجرح والتعديل.
- ثانيا: على حديث مروى عن أبى هريرة اقتصر فيه على الأخبار بنزول عيسى، وإذا صح هذا الحديث فهو حديث آحاد، وقد أجمع العلماء على أن أحاديث الآحاد لا تفيد عقيدة ولا يصح الاعتماد عليها فى شأن المغيبات.
- ثالثًا: على ما جاء فى حديث المعراج من أن محمدًا ﷺ حينما صعد إلى السماء، وأخذ يستفتحها واحدة بعد واحدة فتفتح له ويدخل، رأى عيسى عليه السلام هو وابن خالته يحيى فى السماء الثانية، ويكفينا فى توهين هذا المستند ما قرره كثير من شراح الحديث فى شأن المعراج وفى شأن اجتماع محمد ﷺ بالأنبياء، وأنه كان اجتماعًا روحيًا لا جسمانيًا (انظر فتح البارى وزاد المعاد وغيرهما).

ومن الطريف أنهم يستدلون على أن معنى الرفع فى الآية هو رفع عيسى بجسده إلى السماء بحديث المعراج، ، بينما نرى فريقًا منهم يستدل على أن اجتماع محمد بعيسى فى المعراج كان اجتماعًا جسديًا بقوله تعالى:

﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ﴾

(النساء : ١٥٨)

وهكذا يتخذون الآية دليلاً على ما يفهمونه من الحديث حين يكونون فى تفسير الحديث، ويتخذون الحديث دليلاً على ما يفهمونه من الآية حين يكونون فى تفسير الآية.

الرفع فى آية آل عمران:

ونحن إذا رجعنا إلى قوله تعالى:

﴿ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾

(آل عمران : ٥٥)

فى آيات آل عمران مع قوله:

﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ﴾

فى آيات النساء وجدنا الثانية إخبارًا عن تحقيق الوعد الذى تضمنته الأولى، وقد كان هذا الوعد بالتوفية والرفع والتطهير من الذين كفروا، فإذا كانت الآية الثانية قد جاءت خالية من التوفية والتطهير، واقتصرت على ذكر الرفع إلى الله فإنه يجب أن يلاحظ فيها ما ذكر فى الأولى جمعًا بين الآيتين.

والمعنى أن الله توفى عيسى ورفعه إليه وطهره من الذين كفروا.

وقد فسر الألوسى قوله تعالى:

﴿ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ ﴾

بوجوه منها - وهو أظهرها - إنى مستوفى أجلك ومميتك حتف أنفك لا أسلط عليك من يقتلك، وهو كناية عن عصمته من الأعداء وما هم بصدده من الفتك به عليه السلام؛ لأنه يلزم من استيفاء الله أجله وموته حتف أنفه ذلك.

وظاهر أن الرفع - الذى يكون بعد التوفية - هو رفع المكانة لا رفع الجسد، خصوصًا وقد جاء بجانبه قوله:

﴿ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾

(آل عمران : ٥٥)

مما يدل على أن الأمر أمر تشريف وتكريم. وقد جاء الرفع فى القرآن كثيرًا بهذا المعنى:

﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ ﴾

(النور : ٣٦)

﴿ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴾

(يوسف : ٧٦)

﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾

(الشرح : ٤)

﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾

(مريم : ٥٧)

﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾

(المجادلة : ١١)

.... إلخ

وإذن فالتعبير بقوله:

﴿ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾

(آل عمران : ٥٥)

وقوله:

﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ﴾

(النساء : ١٥٨)

كالتعبير فى قولهم لحق فلان بالرفيق الأعلى وفى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾

(التوبة : ٤٠)

وفى:

﴿ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴾

(القمر : ٥٥)

وكلها لا يفهم منها سوى معنى الرعاية والحفظ والدخول فى الكنف المقدس.

فمن أين تؤخذ كلمة السماء من كلمة (إليه)؟ اللهم إن هذا لظلم للتعبير القرآنى الواضح خضوعًا لقصص وروايات لم يقم على الظن بها - فضلاً عن اليقين - برهان ولا شبه برهان!

الفهم المتبادر من الآيات

وبعد.. فما عيسى إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، ناصبه قومه العداء، وظهرت على وجوههم بوادر الشر بالنسبة إليه، فالتجأ إلى الله - شأن الأنبياء والمرسلين - فأنقذه الله بعزته وحكمته وخيب مكر أعدائه، وهذا هو ما تضمنته الآيات:

﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾

(آل عمران : ٥٢)

إلى آخرها، بين الله فيها قوة مكره بالنسبة إلى مكرهم، وأن مكرهم فى اغتيال عيسى قد ضاع أمام مكر الله فى

حفظه وعصمته إذ قال :

﴿ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾

(آل عمران : ٥٥)

فهو يبشره بإنجائه من مكرهم ورد كيدهم فى نحورهم، وأنه سيستوفى أجله حتى يموت حتف أنفه من غير قتل ولا صلب، ثم يرفعه الله إليه.

وهذا هو ما يفهمه القارئ للآيات الواردة فى شأن نهاية عيسى مع قومه متى وقف على سنة الله مع أنبيائه حين يتألب عليهم خصومهم، ومتى خلا ذهنه من تلك الروايات التى لا ينبغى أن تحكم فى القرآن، ولست أدرى كيف يكون إنقاذ عيسى بطريق انتزاعه من بينهم، ورفعه بجسده إلى السماء مكرًا؟ وكيف يوصف بأنه خير من مكرهم مع أنه شىء ليس فى استطاعتهم أن يقاوموه، شىء ليس فى قدرة البشر؟

ألا إنه لا يتحقق مكر فى مقابلة مكر إلا إذا كان جاريًا على أسلوبه، غير خارج عن مقتضى العادة فيه، وقد جاء مثل هذا فى شأن محمد ﷺ:

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾

(الأنفال: ٣٠)

رفع عيسى ليس عقيدة يكفر منكرها:

والخلاصة من هذا البحث:

١- أنه ليس فى القرآن الكريم، ولا فى السنة المطهرة مستند يصلح لتكوين عقيدة يطمئن إليها القلب بأن عيسى رفع بجسمه إلى السماء، وأنه حى إلى الآن فيها، وأنه سينزل منها آخر الزمان إلى الأرض.

٢- أن كل ما تفيده الآيات الواردة فى هذا الشأن هو وعد الله عيسى بأنه متوفيه أجله ورافعه إليه وعاصمه من الذين كفروا، وأن هذا الوعد قد تحقق فلم يقتله أعداؤه ولم يصلبوه، ولكن وفاه الله أجله ورفعه إليه.

٣- أن من أنكر أن عيسى قد رفع بجسمه إلى السماء، وأنه فيها حى إلى الآن، وأنه سينزل منها آخر الزمان، فإنه لا يكون بذلك منكرًا لما ثبت بدليل قطعي، فلا يخرج عن إسلامه وإيمانه، ولا ينبغى أن يحكم عليه بالردة، بل هو مسلم مؤمن، إذا مات فهو من المؤمنين، يصلى عليه كما يصلى على المؤمنين، ويدفن فى مقابر المؤمنين، ولا شية فى إيمانه عند الله والله بعباده خبير بصير.

* * *

تأملات فى السيرة الذاتية

غـزوة الخنـدق

لفضيلة الشيخ/ الطاهر الحامدى

بيان عن: تأبير النخل، وناولنى الزراع

كنتُ قد تعرضتُ فى المقال السابق إلى ما رواه ابن عساكر عن عبد الله بن أبى رافع من حديث النبى ﷺ وما دار بينه وبين رسول الله ﷺ ومقابلة ذلك مع قوله ﷺ لمن يؤبرون النخل «أنتم أعلم بأمور دنياكم» وقلت إنى أحسب أن ثنايا مقالتى فى مجلة الأزهر لا تحتمل روعة وتحليل المقابلات بين الحديثَيْن إلا أن صديقى هرع إلىّ كالعادة قائلاً: لماذا تبخل علينا بما من الله على شيوخك من أهل التصوف؟ قلت فى تواضع حقيقى: ليس بخلاً منى ولكنى خشيت من الإفراط أو التفريط.

إفراط منى فيما تصورت أنه انفراد من رجل من رجال التصوف فيما لم يتعرض له عالم آخر. أو تفريط منى فى عرض ما ارتآه شيخ من شيوخ التصوف ورغم محاذير الوقوع فى شرك الإفراط أو التفريط فإنى أعرض ما رواه ابن المبارك عن شيخه عبد العزيز الدباغ كما ورد بنصه من كتاب الإبريز، وكتاب الإبريز هو فى الواقع من كلام سيدى عبد العزيز الدباغ وهو أيضًا من تأليف ابن المبارك. كيف ذلك؟ الكتاب هو حوار بين تلميذ وأستاذ، وإن شئت فقل هو أسئلة حَيْرَى يعرضها تلميذ ويجيب عنها أستاذ بارع وبأمانة تلميذ جمع ما قاله أستاذه جوابًا على أسئلة أبداها رغم أنه بذل جهد «المؤلف» ولغته. إلا أنه حرص فى تواضع حقيقى على نسبة الكتاب إلى شيخه رضى الله عنهما؛ لأنه صاحب الإجابات السديدة فرضى الله عن الأستاذ وعن التلميذ. يقول ابن المبارك: سألته - أى الشيخ - عمّا أشكل علىّ فى فهم الحديث فسألته رضى الله عنه عن حديث تأبير النخل الذى فى صحيح مسلم حيث مر عليهم النبى ﷺ وهم يؤبرون النخل فقال ﷺ: «ما هذا؟ فقالوا: بهذا تصلح يا رسول الله، فقال ﷺ: لو لم تفعلوا لصلحت. فلم يؤبروها فجاءت شيصًا غير صالحة فلما رآها ﷺ بعد ذلك قال: ما بال التمر هكذا؟ قالوا: يا رسول الله، قلت لنا كذا وكذا. فقال ﷺ: أنتم أعلم بدنياكم.» أقول إن تحرير محل سؤال ابن

المبارك أنّ قول رسول الله: لو لم تفعلوا لصلحت. كيف ذلك مع أنهم لم يفعلوا ولم تصلح فما وجه قوله ﷺ (لو لم تفعلوا لصلحت)؟ فهل ذلك منه ﷺ قول صدق وحق أم أنه – حاشى لله – غير ذلك؟

الجواب:

يقول سيدى عبد العزيز الدباغ – رضى الله عنه –: «قوله ﷺ: (لو لم تفعلوا لصلحت) كلام حق وقول صدق وقد خرج منه هذا الكلام على ما عنده من الجزم واليقين بأنه تعالى هو الفاعل بالإطلاق» - أقول: إن الأنبياء والخُلّص من الأولياء والصالحين - بفضل الله - يرون أن يد القدرة تحرك كل شىء وما من ذرة فى الأرض ولا فى السماء إلا وتتحرك بقدرة الله وعلمه وإرادته وهم يرون ذلك مشاهدة يقينية ولا يرون الأسباب مطلقًا، إنما يرون الله سبحانه وتعالى فاعلا لكل شىء -» وذلك الجزم مبنى على مشاهدة سريان فعله تعالى فى سائر الممكنات مباشرة بلا واسطة ولا سبب بحيث إنه لا تسكن ذرة ولا تتحرك شعرة ولا يخفق قلب ولا يضرب عرق ولا تطرف عين ولا يومئ حاجب إلا هو تعالى فاعله مباشرة من غير واسطة وهذا أمر يشاهده النبى ﷺ كما يشاهد غيره من سائر المحسوسات ولا يغيب ذلك عن نظره لا فى اليقظة ولا فى المنام؛ لأنه ﷺ لا ينام قلبه الذى فيه هذه المشاهدة. ولا شك أن صاحب هذه المشاهدة تطيح الأسباب فى نظره ويترقى عن الإيمان بالغيب إلى الشهود والعيان» - أقول وكذلك ما تشاهده من حال أولياء الله الخُلّص الذين تراهم تكاد الدنيا من حولهم تضطرب وتموج وهم لا يتحركون وكأنهم نيام فى عالم آخر لا يدركون ما حولهم وذلك أنهم يرون يد القدرة تحرك كل شىء، وهكذا نرى فى أخبار النبى ﷺ أنه كان كلما اشتدت الأمور فى ظاهر الأمر وحمى وطيس معركة من المعارك لا يلجأ إلى الأسباب يمارسها ويعالجها، إنما يلجأ إلى ربه بالدعاء والتضرع.

هكذا كان يفعل، وهكذا فعل فى غزوة أحد، وشاهدناه فى غزوة الخندق؛ لأنه كان يلجأ إلى الله مسبب الأسباب فى كل شىء - «فعنده ﷺ فى قوله تعالى:

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾

(الصافات: ٩٦)

مشاهدة دائمة لا تغيب ويقين يناسب هذه المشاهدة وهو أن يجزم بمعنى الآية جزمًا لا يخطر معه بالبال نسبة الفعل إلى غيره تعالى ولو كان هذا الخاطر قدر رأس النملة «أو أقل»، ولا شك أن الجزم الذى يكون على هذه الصفة تُخرقُ به العوائد وتنفعل به الأشياء وهو سر الله تعالى الذى لا يبقى معه سبب ولا واسطة، فصاحب هذا المقام إذا أشار إلى سقوط الأسباب ونسبة الفعل إلى رب الأرباب كان قوله حقًا وكلامه صدقًا» - أقول وعلى هذا فقوله ﷺ: «لو لم تفعلوا لصلحت» قول صدق وحق بحسب حاله ﷺ من الاستغراق فى المشاهدة الدائمة لفعل الله وقدرته سبحانه وتعالى - «وأما صاحب الإيمان والغيب(١) فليس عنده فى قوله تعالى:

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾

مشاهدة، بل إنما يشاهد نسبة الأفعال إلى من ظهرت على يده ولا يجذبه إلى معنى الآية ونسبة الفعل إليه إلا الإيمان الذى وهبه الله تعالى له فعنده - أى صاحب الإيمان والغيب جاذب بأن أحدهما من ربه وهو الإيمان الذى يجذبه إلى الحق ثانيهما - جاذب من طبعه - وهو مشاهدة الفعل من الغير الذى يجذبه إلى الباطل فهو بين هذين الأمرين دائمًا لكن تارة يقوى جاذب الإيمان فتجده - أى صاحب الإيمان بالغيب - يستحضر معنى الآية السابقة(٢) ساعة أو ساعتين وتارة يقوى الجاذب الطبيعى فتجده يغفل عن معناه اليوم واليومين وفى أوقات الغفلة ينتفى اليقين الخارق للعادة، ولهذا لم يقع ما أشار النبى ﷺ» - أقول: أى لم يقع صلاح للتمر مع عدم التأبير حيث إنه ﷺ قال: «لو لم تفعلوا لصلحت» فهم لم يفعلوا ولم تصلح أى أنها فسدت بعدم تأبيرهم وما ذاك إلا - «لأن الصحابة رضى الله تعالى عنهم فاتهم اليقين الخارق الذى اشتمل باطنه ﷺ وبحسبه خرج كلامه الحق وقوله الصدق(٣)» ولمّا علم ﷺ العلّة فى عدم وقوع ما ذكر وعلم أن زوال تلك العلة ليس فى طوقهم - أى فى مقدورهم رضى الله عنهم - أبقاهم ﷺ على حالتهم وقال: (أنتم أعلم بأمور دنياكم).

وكذلك فعل النبى ﷺ مع أبى رافع لمّا قال له: (ناولنى الذراع) ولم يصل أبو رافع لحال المشاهدة التى اشتمل عليها باطنه ﷺ ولم يكن فى طوقه ذلك وعلم ﷺ أنّ زوال تلك العلة ليس فى طوقه أبقاه على حاله فقال: (لو سكتَّ ساعة) أى لو لم يقل أبو رافع: «يا رسول الله أللشاة ذراعان؟» يقول ابن المبارك: «فانظر وفقك الله هل سمعت مثل هذا الجواب أو رأيته مسطورًا فى كتاب مع إشكال الحديث على الفحول من علماء الأصول وغيرهم مثل ابن الحاجب والآمدى وصفيّ الدين الهندى وأبى حامد الغزالى رضى الله عن الجميع والله سبحانه وتعالى أعلى وأعلم.

٥٥٥

---

١ – والغيب. هكذا وردت بالأصل والصواب فيما أعلم أنها بالغيب.

٢ – قوله ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾.

٣ – يعنى عم باطنه ﷺ ولم يترك فيه ذرة ولا طرفة عين للغفلة وبحسب تلك اليقين خرج كلامه حقًا وقوله صدقًا ﷺ.

﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

استفتاءات القراء

(الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين)

اطلعنا على الطلب المقدم من/ مجلة الأزهر - المتضمن لبعض الأسئلة وهي:

إقامة الشعائر لصلاة الجمعة

● السؤال من أ.م.د: اختلطت الأمور علينا بين ما نقوم به المساجد التابعة لإدارة الأوقاف وبين المساجد التي تتولاها الجماعات الإسلامية من إقامة الشعائر لصلاة الجمعة من تلاوة القرآن قبل الصلاة والأذان الثاني، وزاد الخلاف بين رواد المساجد وبين من يمثل هذه الجماعات.

أرجو من السادة علماء الدين والقائمين على الفتوى الفصل بشكل واضح بين الحلال والحرام في إقامة شعائر صلاة الجمعة والأذان الثاني حتى تتضح الأمور وتنهي الخلاف.

●● الجواب: قراءة القرآن يوم الجمعة قبل الأذان مشروعة بعموم الأدلة الشرعية التي جاءت في الحث على قراءة كتاب الله واستماعه والإنصات إليه مطلقا، كما في قوله تعالى:

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ «الأعراف: ٢٠٤».

ولم يأت ما يقيد قراءة القرآن قبل أذان الجمعة، كما أن الاجتماع لها مشروع بعموم الأدلة التي جاءت في الحث على الاجتماع على الذكر والقرآن، كما في قول النبي ﷺ: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده» رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ولم يأت أيضًا ما يخصص يوم الجمعة من ذلك ومن المقرر أن الأمر المطلق يقتضي عموم الأمكنة والأزمنة والأشخاص والأحوال، فلا يجوز تخصيص شيء من ذلك إلا بدليل، وإلا عُدَّ ذلك ابتداعًا في الدين بتضييق ما وسعه الله ورسوله ﷺ.

وبناء على ذلك: فإن قراءة القرآن قبل

يجيب عنها فضيلة الأستاذ الدكتور

شوقي علام

مفتي جمهورية مصر العربية

خطبة الجمعة واجتماع الناس على سماعه هو أمر مشروع حسن يجمع الناس على كتاب الله تعالى ويهيئهم لأداء شعائر الجمعة، ولا إثم فيه ولا بدعة، وإنما البدعة في التضييق على المسلمين فيما فسح الله تعالى لهم ورسوله ﷺ وجرت عليه أعرافهم وعاداتهم وعلماؤهم وعوائدهم من أمر الذكر وقراءة القرآن.

وبالنسبة للأذان الثاني يوم الجمعة: فإن الله قد شرع الأذان لإعلام الناس بدخول وقت الصلاة، وتنبيههم للإقدام عليها، وشرعت الإقامة لاستنهاض الناس لأداء الصلاة، وشرع أذان واحد لكل فريضة، وكان زمن التشريع للأذان بعد الهجرة في السنة الأولى، كما ثبت في حديث رؤيا عبدالله بن زيد وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، رواه الترمذي وصححه ابن خزيمة وابن حبان، وكان لكل فريضة أذان واحد وإقامة، وكانت الجمعة كسائر الفرائض في عهد النبي ﷺ وصاحبيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وزاد عثمان رضي الله عنه الأذان الثاني يوم الجمعة للحاجة إليه، وهي كثرة الناس، فعلم أن الأذان مشروع بأصله، وليس هناك مانع من زيادة أذان مشروع في وقت يحتاج الناس إليه، كما فهم بلال رضي الله عنه ذلك عندما صلى سنة الوضوء مع كونها لم تكن مشروعة بخصوصها.

وأورد الإمام البخاري زيادة عثمان رضي الله عنه للأذان الثاني، فعن السائب بن يزيد رضي الله عنه قال: «كان النداء يوم الجمعة أوله إذا جلس الإمام على المنبر على عهد النبي ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما فلما كان عثمان رضي الله عنه وكثر الناس زاد النداء الثالث على الزوراء» وسماه البخاري الثالث، لأنه يسمى الإقامة أذانا.

وما فعله عثمان رضي الله عنه لم يشذ به عن باقي الأمة، فقد أقره الصحابة في عهده، وثبت الأمر على ذلك بعده في عهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى يومنا هذا، ولقد روى البخاري نفس الحديث برواية أخرى زاد فيها «عن الزهري قال: سمعت السائب بن يزيد رضي الله عنه يقول: «إن الأذان يوم الجمعة كان أوله حين يجلس الإمام يوم الجمعة على المنبر في عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فلما كان في خلافة عثمان رضي الله عنه وكثروا أمر عثمان يوم الجمعة بالأذان الثالث، فأذن به

على الزوراء، فثبت الأمر على ذلك».

ويقول الحافظ ابن حجر العسقلانى فى «فتح البارى» (٢ / ٣٩٤): «والذى يظهر أن الناس أخذوا بفعل عثمان فى جميع البلاد إذ ذاك، لكونه خليفة مطاع الأمر» إلى أن قال: «وكل ما لم يكن فى زمنه ﷺ يسمى بدعة، لكن منها ما يكون حسنا، ومنها ما يكون بخلاف ذلك. وتبين بما مضى أن عثمان أحدثه لإعلام الناس بدخول وقت الصلاة، قياسا على بقية الصلوات، فألحق الجمعة بها، وأبقى خصوصيتها بالأذان بين يدى الخطيب، وفيه استنباط معنى من الأصل لا يبطله».

ومما سبق نعلم أن الأذان الثاني للجمعة سنة سيدنا عثمان رضى الله عنه، وقد قال النبي ﷺ: «من يعش منكم بعدى فسيرى اختلافا كثيرًا، فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء المهديين الراشدين» رواه ابن حبان والحاكم، وعثمان رضى الله عنه من الخلفاء الراشدين، ولقد قام الإجماع العملى من لدن الصحابة إلى يومنا هذا على قبول الأذان الثاني، فالذى يطعن فيه وينكره إنما يطعن فى إجماع عملى وفى مظهر من مظاهر شعائر الإسلام التى ارتضاها العلماء عبر القرون، والذى يدعى أنه بدعة ضلالة يخالف ما تواتر عن النبى ﷺ من أن الله سبحانه لا يجمع أمته على ضلالة.

والله سبحانه وتعالى أعلم

وضع شاشة عرض بالمسجد

● السؤال من ص.ف.ق: تم بناء مسجد بمساحة كبيرة، والدور الثانى مخصص كمصلى للسيدات، ونرغب فى وضع شاشة عرض فى مصلى السيدات متصلة بكاميرا توضع على المنبر أمام الخطيب لنقل خطبة الجمعة.

فما الحكم الشرعى لوضع هذه الكاميرا، ولوضع الشاشة بمصلى السيدات؟

●● الجواب: وضع شاشة فى مصلى السيدات متصلة بكاميرا موضوعة أمام المنبر لنقل صورة الخطيب أثناء الخطبة أمر لا مانع منه شرعًا، غير أن ذلك من الإجراءات التنظيمية التى ينبغى الرجوع فيها لوزارة الأوقاف لكونها الجهة المشرفة على المساجد وأعمالها.

والله سبحانه وتعالى أعلم

بناء عظامة أعلى المقابر

● السؤال من ع.م.ذ: نرجو من سيادتكم الإفتاء من الناحية الشرعية فى إمكانية بناء عظامة أعلى المقابر الموجودة حاليا، يخصص جزء منها للرجال والآخر للنساء؟

●● الجواب: فى حال امتلاء القبور يجب الدفن فى قبور أخرى، لأنه لا يجوز الجمع بين أكثر من ميت فى القبر الواحد إلا للضرورة، ويجب الفصل بين الأموات بحاجز حتى ولو كانوا من جنس واحد.

وإذا حصلت الضرورة فيمكن عمل أدوار داخل القبر الواحد إن أمكن، أو تغطية الميت القديم بقبو من طوب أو حجارة لا تمس جسمه ثم يوضع على القبو التراب ويدفن فوقه الميت الجديد، كما أنه يمكن أيضًا عمل عظامات فوق المقابر، وذلك كله بشرط التعامل بإكرام واحترام مع الموتى أو ما تبقى منهم، لأن حرمة المسلم ميتًا كحرمته حيًا.

والله سبحانه وتعالى أعلم

الشىء بالشىء يُذكر



لفضيلة الشيخ/ معوض عوض إبراهيم

إن معرفة الله عز وجل هى غاية ما خلق له الأبرار الصالحين، والله تعالى يقول:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾
(الذاريات: ٥٦)

ومعرفة النفس من أقوى الوسائل إلى معرفة الله خالقا رازقا سميعا بصيرا عليما خبيرا

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾
(يس: ٨٢)

ورحم الله الإمام الزاهد إبراهيم بن الأدهم، فقد قال: «إن من عرف نفسه اشتغل بنفسه، ومن عرف ربه اشتغل بربه عن غيره»، ولله درّ من قال:

ما يفعل العبدُ بعز الغنى
والعز كل العز للمُتقى
من عرف الله ولم تُغنه
معرفة الله فذاك الشقى

والعاقل الرشيد يحرص دائما على معرفة ذاته ماذا كان وماذا هو كائن الآن وإلى أى شىء يكون غدا أو بعد غد، وجل الله الذى يقول:

﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾
(الطارق: ٥)

ويقول:

﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾
(الذاريات: ٢١)

ويقول:

﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ﴾
(عبس: ٢٤)

والمرء بتدبر مثل هذه الآيات يكون موضع رعاية الله وتوفيقه إياه فى كل ما يأخذ وما يدع، والعلم بالله وهداياته وكلماته التى أودعها القرآن الكريم المستوعب لكل الكمالات التى تؤخذ، والمثالب التى تنبذ هو المعرفة الحقة، والعطاء الإلهى الذى تصغر إلى جواره كل الأموال وكل ما يحرص الناس على اكتسابه من مباهج هذه الحياة ورحم الله أمير المؤمنين فى الحديث أبى عبدالله محمد بن إسماعيل البخارى فقد قال فى كتاب العلم من صحيحه «باب العلم قبل القول والعمل»، واستأنس بقول الله تعالى:

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ

لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴾

(محمد: ١٩)

ولقد نادانا الله عز وجل فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

(الأنفال: ٢٤)

والحياة الحقة هي حال من رضوا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ رسولا، فما أكثر من تراهم وقد بلغوا من الطول مستوى، ومن امتلاء الجسم مُرادا يتكلمون ويعملون على غير هدى من الله، أولئك موتى وإن غدوا بيننا وراحوا، وأهل العلم يغدون ويروحون بيننا وهم طب القلوب، وسكينة الأنفس بعلم الله وهداياته وبالرسول صلوات الله عليه، وبما بلّغ عن ربنا تبارك وتعالى مستجيبا لله الذى يقول

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾

(المائدة: ٦٧).

يقول الإمام شهاب الدين السهروردى رحمه الله ما يزيدنا حرصا على معرفة النفس:

«فمن عرف أصول النفس وجبلّاتها عرف أن لا قدرة له عليها إلا بالاستعانة ببارئها وفاطرها، فإذا امتلأ القلب سكينة خُلع على القلب لأن السكينة مزيد الإيمان»، ولقد كان العلم النافع دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول «اللهم علمنا ما ينفعنا وزدنا علما».

ولقد جئت من معهد دمياط عام ...

١٩٣١م ولى صلات كريمة وروابط طيبة مع إخوانى محمد خاطر الذى صار بعد ذلك مفتيا للديار المصرية، ثم مستشارا اقتصاديا لبنك فيصل الإسلامى، وللزميل وابن قريتى أحمد العُسيلى الذى لقى ربه وهو مدير إحدى مدارس وزارة المعارف فى كفر سعد القريبة من قريتنا، وحسن جاد حسن الذى صار بعد ذلك عميدا لكلية اللغة العربية، وطاهر أبو فاشا، وشعرُه يُنبئ عنه، ولقد ذهب بعض هؤلاء الزملاء إلى معهد الزقازيق وذهبت أنا وبعض زملائى إلى معهد طنطا الذى ردنى إليه ردا رفيقا الأستاذ الدكتور محمد عمارة في مقاله الذى طرز به صدر مجلة الأزهر فى عدد رمضان الذى لا يبعد عنا إلا بشهور رمضان وشوال وذى القعدة وذى الحجة، فلقد لقيت فى معهد طنطا عبد التواب الشناوى، ومحمد أبو فرحة، وأحمد نبيه، وكامل نبيه الفقى وعبد المنعم النمر، ومحمد بيصار، وهم من المراكز العلمية والإدارية بمكان، وكان عبد التواب الشناوى على بُعد ما بينه وبين الدكتور عمارة من الحقبة الزمنية ممن انتفع بمكتبته الدكتور عمارة، وسأعود إلى أمر هذه المكتبة بعد أن أذكر صدر مقال «مسيرة قلم» حيث يقول الدكتور عمارة فى افتتاحية مجلة الأزهر: «قبل ما يقرب من سبعين عاما وفى مدينة دسوق يوم ٨ إبريل عام ٤٨ وقفت أمام كشك لبيع الصحف والمجلات، واشتريت نسخة من صحيفة «مصر الفتاة» الأسبوعية، ووجدت بها أول مقال نشرته لى صحيفة من الصحف وكان عنوانه «جهاد» وموضوعه عن جهاد

الفدائيين العرب الذين دخلوا أرض فلسطين قبل دخول الجيوش العربية النظامية دفاعا عن الأرض المقدسة التى بارك الله فيها للعالمين، وهو موقف قد سبقتُ إلى مثله يوم حصلتُ على شهادة الكفاءة فى معهد طنطا الثانوى، وكنت قد أرسلت للأستاذ العقاد قصيدة تحت عنوان «استعذاب العذاب»، وكنت على غير يقين بأنه سينشرها فى جريدة الجهاد للأستاذ محمد توفيق دياب، وكان العقاد رحمه الله مشرفا على الصفحة الأدبية فيها، فلما حمل خالى إلى.. جريدة الجهاد فرحا متهللا بقصيدتى التى قلتُ فيها:

يا ماخرا فى عُباب الهموم أى عُباب
وضاربا فى فيافى الآلام والأوصاب
والسُّحْبُ تجرى بسَح من دمعها المنساب
أقصر عناك رويدا لم تلق بعض عذابى

وفرحتُ فرحا شديدا كتلك الفرحة التى غمرت الدكتور عمارة يوم رأى لأول مرة مقاله منشورا فى جريدة «مصر الفتاة»، والشئ بالشئ يُذكر، وما أكرمه حين يكون فضائلَ تُذكّر بأشباهها، فلقد ذكّرنى كلام الدكتور عمارة عن حرصه على اقتناء مكتبة الزميل الشيخ عبد التواب الشناوى رحمه الله وكلامه فى هذا الموضوع طلى يلمس شغاف القلب بما كنت عليه منذ حداثة عمرى فى معهد دمياط، فقد كنت أتردد على محل «ألف صنف» فى شارع الشرباصى بدمياط لأشترى بعض ما تُعين عليه طاقتى المادية يومئذ، فقد شغف نفسى حب الكتاب منذ ذلك التاريخ، وإلى يومنا هذا بعد أن بلغت من العمر ما بلغت.

وأعاد الدكتور عمارة إلى ذاكرتى كامل الفقي، شقيق أحمد نبيه الفقى الذى كان أقرب إلى نفسى من شقيقه كامل، لكننى حُرمت من لقائه مبكرا فى السنة الأولى الثانوية فقد فُصل من المعهد بغيا وظلما يوم أطللنا من نوافذ المعهد المُطلة على الطريق المؤدى إلى القطار الذاهب إلى الشمال، وفيه «سمنود» بلد النحاس باشا رحمه الله تعالى، وهتفنا يحيا النحاس باشا فإذا بالمعهد بعد لحظات قد صار ثكنة عسكرية مليئة بجنود اللواء الطرابُلسى مدير أمن الغربية يومئذ، والحديث قد يطول، لكنى أذكر منه أن كامل الفقى كان أحد مدرسى الدكتور محمد عمارة فى معهد دسوق الابتدائى حتى صار بعد ذلك عميدا لكلية اللغة العربية يوم كانت ثالثة ثلاث كليات كُنّ جامعة الأزهر المعطاء يومئذ.

إن حديث مسيرة قلم للدكتور عمارة خليق بأن يُقرأ مرة ومرة لنتعلم منه حسن عرض الذات وتقديم النشأة ومسيرة الحياة للآخرين وهى من ذلك فى القمة والتذكير بمثل ما قال الله تعالى:

﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

(الذاريات: ٥٥)

ويقول تعالى

﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾

(الأعلى: ٩)

ونحن نُذكّر بكل جميل، ونضع قيد الأبصار والبصائر الصادق من القول والجميل من العمل، والله المستعان على كل خير.

نحو تصحيح مفاهيم في الحياة

متابعة الأستاذين: رمضان ثابت أبو السعود محمد

تحت رعاية فضيلة الإمام الأكبر أ.د/ أحمد الطيب شيخ الأزهر الشريف أقامت الرابطة العالمية لخريجي الأزهر ندوة بعنوان: "نحو تصحيح مفاهيم في الحياة" حاضر فيها الأستاذ شريف صلاح الدين رئيس الأكاديمية الدولية للتدريب والاستشارات وذلك يوم الخميس ٥ ذو الحجة ١٤٣٤هـ الموافق ١٠/١٠/٢٠١٣م بالقاعة الكبرى بمدينة البعوث الإسلامية.

افتتحت الندوة باستهلال لمديرة المشروعات بالرابطة العالمية لخريجي الأزهر الأستاذة أنوار وسط حضور من الطلاب والطالبات ووسائل الإعلام حيث فيه السادة الحضور وعرفت بأنشطة الرابطة بما فيها مبادرة (لتعارفوا) التي تهدف إلى تحقيق التعارف بين خريجي الأزهر بمختلف جنسياتهم من أجل النهوض بالأزهريين ليكونوا مشاعل نور وسفراء للأزهر برسالته "الوسطية" في مختلف بلدان العالم.

ثم تحدث خبير التنمية البشرية الأستاذ/ شريف صلاح الدين، فقال بعد حمد الله والصلاة والسلام على رسول الله: "يسعدني تواجدي وسط إخواني وأبنائي وبناتي فأنتم حاملو مشاعل الإسلام، وهناك فجوة كبيرة جدا بين الإسلام في الحاضر والإسلام في الماضي ونريد تصحيح المسار مرة ثانية، لماذا تأخرنا؟ لأننا أخطأنا في حق القرآن والسنة النبوية، وربنا يقول:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾

واليوم سأعرض بمشيئة الله حديثا نبويا معجزا مع بعض الآيات لتصحيح بعض المفاهيم كمفهوم المؤمن القوي والمؤمن الضعيف، وهل يريد الله لنا السعادة أم الشقاء، وما المعنى الحقيقي للبلوى. يقول النبي ﷺ: "المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان" [صحيح مسلم].

ومعنى القوة ليس قوة الإيمان بدليل استواء الإيمان في شطري العبارة: (المؤمن القوي، والمؤمن الضعيف)، فكلا الفردين مؤمن، وإنما مصادر القوة هي ما تناولها الحديث بعدُ لكن دعوني أطرح سؤالا: هل يوجد مؤمن ضعيف؟ وجوابه نعم بدليل قول الله تعالى في قصة طالوت وجالوت:

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وقال الأستاذ صلاح الدين رئيس الأكاديمية الدولية للتدريب والاستشارات: مصادر قوة المؤمن في الحديث ثلاثة:

أولها: (احرص على ما ينفعك) بكاف الخطاب وليس ما ينفع بصفة عامة، وهناك فرق كبير بين المعنيين إذ لو كان اللفظ ما ينفع لاجتمع علماء الأمة وحددوا ما ينفع وانتهى الموضوع ولكن جاء اللفظ بكاف الخطاب ليحرص كل امرئ على ما ينفعه هو وينطلق به نحو منطقة تبوغه وفق ما وهبه الله من قدرات، ولا عجب في ذلك فقد كان الصحابة يتندرون على خالد بن الوليد ويقولون إنه يخطئ في قصار السور وهو مَنْ هو في المجال العسكري هو سيف الله المسلول لم يُهزم في معركة قط لا في شرك ولا في إسلام فهذه هي منطقة تبوغه، لذا تنسب إليه أعظم عملية انسحاب تكتيكي في العالم في معركة مؤتة يدرسها الغرب حاليا في خطط خالد العسكرية، إذ كان عدد جيش المسلمين ثلاثة آلاف وكان عدد جيش الأعداء مائتي ألف مقاتل، واستطاع خالد بمهارته العسكرية أن ينقذ جيش المسلمين كاملا، أما حفظ القرآن فنبغ فيه من كتبة الوحي (الـ٢٥) أربعة قال عنهم النبي ﷺ: (خذوا القرآن عن أربعة: عن ابن أم عبد فبدأ به، وعن معاذ، وعن سالم مولى أبي حذيفة، قال يعلى ونسيت الرابع)[صحيح على شرط الشيخين]. فهل سالم مولى أبي حذيفة أعلى رتبة إيمانية من أبي بكر الصديق أو من عمر بن الخطاب؟ بالطبع لا، ولكن سالما تميز في حفظ القرآن، فهذه هي منطقة نبوغه.

أما مهارة العلم فكانت لعلي بن أبي طالب -رضي الله عنه- إذ قال عنه النبي ﷺ: (أنا مدينة العلم وعليٌّ بابُها فمن أراد العلم فليأت الباب) [المستدرك على الصحيحين للحاكم].

وثاني مصادر القوة في الحديث هي: (واستعن بالله ولا تعجز)، وثالثها: (فإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان).

وأشار سيادته إلى كتاب عنوانه: "البحث عن ذاتك الحقيقية" لمؤلف أمريكي يتحدث فيه عن الخلل في المنظومة البشرية لماذا يفشل البشر فقال: "إن سبب الفشل إما خلل في القدرة، وإما خلل في الرغبة، وإما خلل في الاعتقاد بإمكانية الفعل". وأكد أن هذا الكتاب لا يعدو في مجمله ما ذكره النبي ﷺ في إيجاز معجز في حديث المؤمن القوي والمؤمن الضعيف؛ فقوله ﷺ: (احرص على ما ينفعك) فإن لم تفعل يكن لديك نقص في القدرة، وقوله ﷺ: (واستعن بالله ولا تعجز) لتظل الرغبة متأججة لا تفتر، أما الاعتقاد في إمكانية الفعل فقال عنه ﷺ: (فإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان).

تخيل رب العالمين يخاطب النبي ﷺ ويقول:

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ إذن علينا العمل مع التزام: العلم قبل العمل، والوعي قبل السعي، ما الهدف، وما الطريق إلى تحقيقه، ولذلك يقول العلماء: "إن السلحفاة في الطريق الصحيح أفضل كثيرا من الغزال في الطريق الخطأ" فرغم تأخر وصول السلحفاة بسبب بطئها إلا أنها تصل قبل الغزال لأنه يسير في الطريق الخطأ، والإنجاز في الحياة دائما لا يبدأ من: (مِنْ أين أنت قادم)، ولكن يبدأ منْ: (إلى أينَ أنت ذاهب).

وناقش رئيس الأكاديمية الدولية للتدريب والاستشارات مسألة ثانية من خلال طرح سؤال مفاده: هل خلقنا الله لنكون سعداء أم أشقياء؟

ليفاجأ برد أحد الحاضرين من المبعوثين بقوله: خلقنا الله في هذه الدنيا من أهل الكبد. فاستحسن المحاضر قوله ليصحح له مفهوم الكبد

قائلا: تعالوا بنا ننظر ما معنى الكَبَد في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ الكَبَد هو: التعب والنصب لكن ماذا يخسر الإنسان لو حرم الكَبَد ماذا يحدث له ؟ ويجيب قائلا: الكَبَد هو الشيء الذي يصلح حياتك! وهو الشيء الوحيد الذي لا يمكن بدونه أبدا أن يتحقق قول الله تعالى:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ولدينا الكثير من الأمثلة على ذلك مثل:

١) تمت تجربة في إحدى المزارع السمكية على التماسيح إذ تقوم التماسيح بإرسال إشارات للمجسات الحرارية التي توضع في المزارع السمكية للمحافظة على درجة الحرارة عند حد معين؛ فبمجرد أن يتحرك التمساح داخل البيضة وقبل أن تفقس تلتقط المجسات تلك الإشارة فقال القائمون بالتجربة: "ماذا لو كسرنا البيض وأخرجنا التماسيح فنوفر الوقت ونريح التماسيح؟ وبالفعل كسروا البيض فخرجت التماسيح مشلولة لماذا؟ لأنها حرمت الحركة داخل البيض إذ خلقها الله لتكسر بيضها بنفسها وتعاني في ذلك حتى تكتسب القدرة على الحركة؛ فسبحان الله حرموها الكَبَد داخل البيضة فحُرِمَت الحركة في الحياة خارج البيضة!

٢) ولتأكيد النتيجة قاموا بتجربة ثانية على اليرقات فراقبوها حتى بدأت تتحرك داخل الشرنقة وقبل خروجها منها قاموا بقطع الشرنقة لتسهيل عملية الخروج فخرجت الفراشة ولم تستطع الطيران لماذا؟! لأنهم حرموها التحرك الطبيعي وحرموها الكَبَد داخل الشرنقة.

٣) ثم طرح سؤالا مفاده: لماذا كثرت في وقتنا المعاصر حالات الولادة القيصرية للنساء رغم التقدم في كماليات الحياة في حين لم نسمع عن ولادة قيصرية على عهد الجدات (أم الأب أو أم الأم) رغم خلو عصرهن من وسائل الراحة؟ لا شك أن السبب الرئيس على الإطلاق هو خلو حياة المعاصرات من الكَبَد والحركة وانصرافهن إلى الدعة والراحة.

٤) ودلل على ذلك بقوله: ما سمعنا أبدا بغزالة تلد ولادة قيصرية في الغابة إلا بعد أن تم حَبْسُها في قفص داخل حديقة الحيوان فتعثرت ولادتها طبيعيا وتمت ولادتها قيصريا لماذا! لأنها حُرِمت الكَبَد والحركة الكثيرة التي كانت تتمتع بها في الغابة هربا من الأسد والنمر والفهد... وهنا وجب أن نقول: اللهم لك الحمد ولك الشكر أن خلقتنا في كبد لنكون أصحاء أشداء.

كما تعرض سيادته لمفهوم البلوى بسؤال مفاده: ماذا تعني البلوى؟ ليفاجأ برد أحد الحاضرين بقوله: البلوى هي المصيبة وشرع سيادته في توضيح المقصود بكلمة البلوى وأنها تعني الاختبار بالخير والشر على السواء ولا ترتبط بأحدهما على حساب الآخر وليست المشكلة في نوع الابتلاء بالخير أو بالشر لكن المشكلة في كيفية تعاملك أنت مع الابتلاء مستشهدا بقصة نبي الله سليمان عليه السلام حينما أتى له الذي عنده علم من الكتاب بعرش بلقيس ملكة سبأ في غمضة عين: ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾

[النمل: ٤٠]

وقال رئيس الأكاديمية الدولية للتدريب في ختام كلمته: "كل منّا يستطيع إصلاح نفسه بهذه المفاهيم البسيطة وأنتم تعلمون الآية:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾

[الرعد: ١١]

وإصلاح النفس يكون من داخلها، فمن حاول إصلاحها من الخارج أفسدها كمن حاول كسر بيضة الطائر من الخارج، فكَسْرُ البيضة من الداخل إيذانٌ ببداية الحياة، وكَسْرُها من الخارج إيذانٌ بنهاية الحياة. وشكرا لكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أيام لها تاريخ

وعد بإقامة دولة

إعداد: أ/ عبدالله كمال

من أحداث شهر المحرم ما أسماه المؤرخون والكتاب بـ"وعد من لا يملك لمن لا يستحق" ألا هو وعد بلفور.

وأورد لك أيها القارئ الكريم ما كان من قصة ذلكم الوعد ومن هو صاحبه القاطع به، ففي الثاني من نوفمبر ١٩١٧م صدر الوعد البريطاني الشهير بمنح اليهود وطنًا قوميًا في فلسطين؛ حمل الوعد توقيع وزير الخارجية في ذلك الوقت آرثر بلفور. من هو بلفور؟ وما هي خلفية الوعد الذي أصدره؟ كان بلفور من المؤمنين بأن التاريخ ليس سوى أداة لتنفيذ الهدف الإلهي. وأن الإنسان مكلف بالعمل على تنفيذ هذا الهدف وأن أول ما يتطلبه منه ذلك، الإيمان أولًا بأن ثمة هدفًا إلهيًا، وثانيًا بإمكانية تحقيق هذا الهدف أيًا تكن الصعوبات. آمن بلفور – كما أوضح في كتابه العقيدة والإنسانية "Theism and Humanity" – أن الله أغدق على اليهود وعدًا بالعودة إلى أرض الميعاد، وأن هذه العودة هي شرط مسبق للعودة الثانية للمسيح، وأن هذه العودة الثانية تحمل معها خلاص الإنسانية من الشرور والمحن ليعمّ السلام والرخاء مدة ألف عام تقوم بعدها القيامة وينتهي كل شيء كما بدأ. اكتسب بلفور هذه الثقافة من عائلته، وخاصة من والدته التي تركت في شخصيته الدينية بصمات واضحة من إيمانها بالعقيدة البروتستنتية المرتبطة أساسًا بالعهد القديم وما فيه من نبوءات توراتية. ولذلك فإن بلفور عندما صاغ الوعد بمنح اليهود وطنًا في فلسطين، كان يعتقد أنه بذلك يحقق إرادة الله، وأنه يوفر الشروط المسبقة للعودة الثانية للمسيح وبالتالي؛ فإنه من خلال مساعدة اليهود على العودة فإنه يؤدي وظيفة من يقوم بتحقيق هدف إلهي. مع ذلك لم يكن بلفور قادرًا على أن يجعل من الوعد أساسًا مركزيًا في السياسة البريطانية لو لم يكن يشاركه في ذلك شخص آخر، هو لويد جورج رئيس الحكومة في ذلك الوقت. فقد ذكر لويد جورج في كتابين له هما: "حقيقة معاهدات السلام" و"ذكريات الحرب"، أن حاييم وايزمن الكيميائي الذي قدم خدماته العلمية لبريطانيا في الحرب

العالمية الأولى هو الذى فتح له عينيه على الصهيونية، حتى أصبح أكثر صهيونية من وايزمن نفسه. وهكذا عندما تشكلت الحكومة البريطانية من لويد جورج رئيسا ومن آرثر بلفور وزيرًا للخارجية، بدا وكأن كل شيء بات مؤهلًا لتمرير بيان الوعد.

فى عام ١٩٥٢م نشرت وزارة الخارجية البريطانية وثائق سرّية عن فترة ١٩١٩م – ١٩٣٩م، بما فيها تلك التى تتعلق بتوطين اليهود فى فلسطين.. ويتضمن المجلد الرابع من المجموعة الأولى، فى الصفحة السابعة نقلًا عن مذكرة وضعها آرثر بلفور وزير الخارجية البريطانى فى عام ١٩١٧م ما يأتى: "ليس فى نيّتنا حتى مراعاة مشاعر سكان فلسطين الحاليين، مع أن اللجنة الأميركية تحاول استقصاءها. إن القوى الأربع الكبرى ملتزمة بالصهيونية. وسواء أكانت الصهيونية على حق أم على باطل، جيدة أم سيئة، فإنها متأصلة الجذور فى التقاليد القديمة العهد وفى الحاجات الحالية وفى آمال المستقبل، وهى ذات أهمية تفوق بكثير رغبات وميول السبعمائة ألف عربى الذين يسكنون الآن هذه الأرض القديمة".

أما بالنسبة للاستيطان اليهودى فى فلسطين فقد أوصى فى الجزء الأخير من هذه المذكرة بما يلى: "إذا كان للصهيونية أن تؤثر على المشكلة اليهودية فى العالم فينبغى أن تكون فلسطين متاحة لأكبر عدد من المهاجرين اليهود. ولذا فإن من المرغوب فيه أن تكون لها السيادة على القوة المائية التى تخصّها بشكل طبيعى سواء أكان ذلك عن طريق توسيع حدودها شمالًا (أى باتجاه لبنان) أم عن طريق عقد معاهدة مع سوريا الواقعة تحت الانتداب (الفرنسى)؛ وللسبب ذاته يجب أن تمتد فلسطين لتشمل الأراضى الواقعة شرقى نهر الأردن".

لم يكن العامل الدينى السبب الوحيد وراء إصدار الوعد. كانت هناك مصالح ذات بعد استراتيجى. وقد توافق العمل على خدمة هذه المصالح ورعايتها مع الإيمان الدينى بالصهيونية المسيحية مما أدى إلى الالتزام بالوعد وبتنفيذه. ففى الأساس كانت بريطانيا قلقة جراء هجرة يهود روسيا وأوروبا الشرقية الذين كانوا يتعرضون للاضطهاد. وفى عام ١٩٠٢م تشكلت "اللجنة الملكية لهجرة الغرباء". استدعى هرتزل إلى لندن للإدلاء بشهادته أمام اللجنة. فقدم مطالعة قال فيها: "لا شيء يحلّ المشكلة التى دعيت اللجنة لبحثها وتقديم الرأى بشأنها سوى تحويل تيار الهجرة الذى سيستمر بقوة متزايدة من أوروبا الشرقية. إن يهود أوروبا الشرقية لا يستطيعون أن يبقوا حيث هم فأين يذهبون؟ إذا كنتم ترون أن بقاءهم هنا – أى فى بريطانيا – غير مرغوب فيه، فلابد من إيجاد مكان آخر يهاجرون إليه دون أن تثير هجرتهم المشاكل التى تواجههم هنا. لن تبرز هذه المشاكل إذا وجد وطن لهم يتم الاعتراف به قانونيًا وطنًا يهوديًا". اقترح تشمبرلين – وكان رئيسًا للحكومة – منطقة العريش لتكون وطنًا لليهود. ولكن لجنة الخبراء الصهيونيين رفضت الاقتراح

لأن العريش تفتقر إلى المياه، ثم لأن توطين اليهود فيها يثير مشاكل لبريطانيا مع مصر. ثم اقترحت الحكومة البريطانية برئاسة اللورد آرثر بلفور هذه المرة، تقديم أوغندة لتكون الوطن الموعود. ولكن المؤتمر الصهيونى السادس لم يقبل الاقتراح لافتقار يوغندا إلى عنصر الجاذبية اللازم لاستقطاب اليهود ولحثّهم على الهجرة إليها. فى ذلك الوقت كان همّ الحكومة البريطانية وقف تدفق اليهود من أوروبا الشرقية. ولذلك فقد قدمت مشروع قانون إلى مجلس العموم لوقف الهجرة فى عام ١٩٠٤م ثم اضطرت إلى سحبه تحت ضغط المعارضة. وأعادت تقديمه ثانية فى عام ١٩٠٥م وأصبح قانونًا فى العام التالى.

هنا كان لا بدّ بعد تشريع وقف الهجرة من تأمين ملجأ بديل، فكان قرار بلفور بمنح فلسطين وطنًا لليهود. كان لويد جورج رئيسًا للحكومة وآرثر بلفور وزيرًا للخارجية عندما وضع التشريع التوطيني، كانت بريطانيا تعتبر احتلال فلسطين ضرورة استراتيجية إلا أن طموحها الاحتلالى كان يصطدم بمبادئ الرئيس الأمريكى ولسون حول حق الشعوب فى تقرير مصيرها. فجاء وعد بلفور بمثابة عملية التفافية على هذه المبادئ، وذلك باحتلال فلسطين من خلال توطين اليهود. وهكذا صدر الوعد فى الثانى من نوفمبر ١٩١٧م ليعطى من لا يملك إلى من لا يستحق. كان بإمكان بريطانيا التدخل لمنع تهجير اليهود من أوروبا الشرقية، إلا أنها وجدت أن لها مصلحة فى توظيف هذه العملية فى برنامج توسعها فى الشرق الأوسط، فحوّلت قوافل المهاجرين إلى فلسطين بعد أن منحتهم الوعد بالوطن وبعد أن وفرت لهم الحماية والمساعدة اللازمتين. ولعل من أبرز الدلالات على الربط الاستراتيجى بين أهداف الحركة الصهيونية وأهداف الدولة البريطانية ما ذكرته صحيفة "مانشستر غارديان" بقلم رئيس تحريرها فى ذلك الوقت –١٩١٦م– تشارلز سكوت الذى قال: "كانت بلاد ما بين النهرين مهد الشعب اليهودى ومكان منفاه فى الأسر. وجاء من مصر موسى مؤسس الدولة اليهودية. وإذا ما انتهت هذه الحرب بالقضاء على الإمبراطورية التركية فى بلاد ما بين النهرين أدت الحاجة إلى تأمين جبهة دفاعية فى مصر إلى تأسيس دولة يهودية فى فلسطين فيكون القدر قد دار دورة كاملة". أما عن أهل فلسطين، فإن الكلام الذى يقال اليوم هو نفسه الكلام الذى كان يقال قبل قرن تقريبًا. فقد قال سكوت: "ليس لفلسطين فى الواقع وجود قومى أو جغرافى مستقل إلا ما كان لها من تاريخ اليهود القديم الذى اختفى مع استقلالهم. ولذلك، فعندما أطلق عليها بلفور اسم وطن قومى لم يكن يعطى شيئًا يخص شعبًا آخر. إنها روح الماضى التى لم يستطع ألفا عام دفنها والتى يمكن أن يكون لها وجود فعلى من خلال اليهود فقط. لقد كانت فلسطين هى الأرض المقدسة للمسيحيين أما بالنسبة لغيرهم فإنها تعتبر تابعة لمصر أو سوريا أو الجزيرة العربية، ولكنها تعد

وطنًا قائمًا بذاته بالنسبة لليهود فقط".

اعتبر وعد بلفور جزءًا من الانتداب البريطاني على فلسطين. وهو انتداب قرره في مؤتمر سان ريمو ١٩٢٠م المجلس الأعلى لقوات الحلفاء. وفي عام ١٩٢٢م أقرّت عصبة الأمم الانتداب بما فيه الوعد. بعد الحرب العالمية الثانية وما رافقها من مجازر نازية، اتسع نطاق الهجرة اليهودية من أوروبا الغربية هذه المرة إلى فلسطين، وتحوّل الوعد بوطن قومي لليهود إلى دولة سرعان ما تنافست على الاعتراف بها كل من موسكو وواشنطن ومن ثم منظمة الأمم المتحدة في عام ١٩٤٨م.(١)

بطلان وعد بلفور

يعد وعد بلفور باطلا قانونيا وتاريخيا وذلك لعدة أسباب:

• منحت بريطانيا أرضا لا تملكها وهي فلسطين للصهاينة الذين هم غرباء عن هذه الأرض وهذا العمل أدى إلى اغتصاب وطن وتشريد شعب فلسطين فكيف تصدر بريطانيا وعدا بمنح أراض لم تكن لها أصلا ولا تملكها ولم تكن من مستعمراتها.

• أصدر الإنجليز وعد بلفور في ٢ / ١١ / ١٩١٧ م بينما دخل الإنجليز فلسطين ٩ / ١٢ / ١٩١٧ م أي أن الوعد صدر قبل شهر وأسبوع من دخولهم فلسطين وتوقع الإنجليز أن ينتصروا في الحرب العالمية الأولى فلو هزموا في الحرب لما تحقق وعد بلفور.

• لم يذكر وعد بلفور كلمة العرب لا المسلمين و لا المسيحيين وإنما ذكر عبارة غير اليهود في فلسطين علما أن العرب يشكلون ٩٣٪ من الشعب في فلسطين بينما اليهود في فلسطين يشكلون ٧٪ فقط وقد صدر الوعد إلى ٧٪ وليس إلى ٩٣ ٪ .

• صدر هذا الوعد بشكل سري أرسله اللورد بلفور إلى اللورد روتشيلد وظل هذا الوعد مكتوما عن العرب عموما والشعب الفلسطيني خصوصا حتى عام ١٩١٧م حين سربته الثورة البلشفية في روسيا وسربت أيضا معاهدة سايكس بيكو أي بعد نهاية الحرب العالمية ولم يكن روتشيلد ذا صفة دولية وإنما كان أحد أغنياء اليهود.

• من الناحية التاريخية : فلسطين للعرب قبل أن يسكنها اليهود فقد سكنها العرب الكنعانيون قبل الميلاد بآلاف السنين وتدل الآثار العربية الكنعانية على ذلك ولا يوجد أي أثر يهودي فيها رغم التفتيش والبحث الدقيق للعثور على أي أثر عبري بلافائدة .

(١) أ. محمد السماك، قصة وعد بلفور، جريدة المستقبل ١٢/١١/٢٠١٢م.

خشية الله ومراقبته



لفضيلة الشيخ/ فوزي الزفزاف
عضو مجمع البحوث الإسلامية

خشية الله صفة المؤمنين، وسمة الصالحين، ودرب الطائعين، وطريق القانتين، وسلاح الناجين، وزاد المتقين، من تمسك بها فاز، ومن ابتعد عنها خسر، من جعلها أمامه نجا، ومن رماها وراء ظهره هلك.

بشر الله الخائفين منه بالأمن من عذابه، وجعل جزاءهم النعيم في الجنة، يقول الله تعالى:

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ (النازعات: ٤٠-٤١).

أي: من خاف عظمة الله وجلاله، وسلح نفسه بالإيمان والعمل الصالح، وزجر نفسه وكفها عن السيئات والمعاصي، وتجنب الأهواء الضالة المضلة، وابتعد عن الفساد والإفساد، استعدادا ليوم الحساب الذي يجازى فيه كل إنسان بما يستحقه وبما قدمت يداه، فإن الجنة في هذا اليوم الشديد ستكون هي مأواه ومنزله ومستقره.

وقد أجزل الله سبحانه وتعالى العطاء والثواب للذين يخافون الله ويخشونه في كل وقت، ويخافون وعيده بالعذاب لمن عصاه، ويخشون وقوفهم بين يديه جل وعلا يوم الحساب والجزاء، يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، ويؤمنون بأن الله سبحانه وتعالى يراقب أعمالهم في كل صغيرة وكبيرة، وأنه أقرب إليهم من حبل الوريد.

ولم يقصر الله وعده للذين يخشونه على أن ينالوا جزاءهم في الآخرة، بل بشرهم بأن ينالوا ثوابهم في الدنيا أيضا... يقول الله تعالى:

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ (إبراهيم: ١٣-١٤).

وإسكان المظلومين ديار الظالمين، وامتلاكهم إياها، وانتفاعهم بها نصر ما بعده نصر، وشعور بالنعمة، وإحساس بالغلبة، وفرحة بالعاقبة التي وعدهم الله بها، وهكذا ينال الخائفين من الله العطاء والجزاء والثواب من خالقهم.

والذين يخشون الله ويخافونه تبكي أعينهم، وتقشعر أبدانهم وجلودهم كلما ذكروا الله في

خلواتهم أو سمعوا ذكره من غيرهم، وذلك مخافة تقصيرهم في حق من حقوق الله، وخوفًا من حسابه وعقابه.

وقد بشر رسول الله ﷺ البكائين من خشية الله بالمغفرة والرحمة، والنجاة من النار، وبالدرجات العلا في الجنة، فعن أنس -رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: «من ذكر الله ففاضت عيناه من خشية الله حتى يصيب الأرض من دموعه لم يعذب يوم القيامة»(١)، وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يلج النار رجل بكى من خشية الله، حتى يعود اللبن في الضرع، ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم»(٢)، وروى عن العباس بن عبدالمطلب -رضي الله عنه- قال: كنا جلوسًا مع رسول الله ﷺ تحت شجرة، فهاجت الريح، فوقع ما كان فيها من ورق نخر «بلى وتفتت» وبقي ما كان من ورق أخضر، فقال رسول الله ﷺ: «ما مثل هذه الشجرة؟» فقال القوم: الله ورسوله أعلم، فقال عليه الصلاة والسلام: «مثل المؤمن إذا اقشعر من خشية الله - عز وجل - وقعت عنه ذنوبه وبقيت له حسناته».

وسئل ابن عباس عن الخائفين لله، فقال: هم الذين صدقوا الله في مخافة وعيده، قلوبهم بالخوف قرحة، وأعينهم على أنفسهم باكية، ودموعهم على خدودهم جارية، يقولون: كيف نفرح والموت من ورائنا، والقبور من أمامنا، والقيامة موعدنا، وعلى جهنم طريقنا، وبين يدى ربنا موقفنا!!!

ومن سمات الذين يخشون الله ويخافونه أنهم هم الذين يتعظون بآياته، ويعتبرون بسنن الله في خلقه، ويؤمنون بوعده ووعيده، ويسلمون عن يقين بأن عقاب الله نازل لا محالة بالمكذبين، والظالمين، والباغين الذين يعتدون على حقوق الآخرين أيا كانت هذه الحقوق، ويتجبرون ويتعالون على من دونهم مغترين بمناصبهم أو جاههم أو قوتهم وصحتهم أو مالهم أو مراكزهم الوظيفية... يقول الله تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾

«هود: ١٠٢-١٠٣»

فالخائفون من الله هم المنتفعون بالعبر والعظات لصدق إيمانهم بالله، وصفاء نفوسهم، ونقاء سريرتهم، وإيمانهم الكامل بالثواب والعقاب في الآخرة، فلا يتزعزع إيمانهم، ولا تهتز عقيدتهم بتمادى الظالم في ظلمه، واستعلائه وتجبره وتكبره على غيره، وتأخير عقاب الله له، فعن أبي موسى الأشعري -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ رسول الله ﷺ:

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾

«هود: ١٠٢»(٣).

والذين يخشون الله ويخافونه قلوبهم مشغولة دائمة بالله، وجوارحهم لا تعمل إلا في طاعة الله، وأعينهم لا تكف عن البكاء من خشية الله، فكانت مكافآتهم من الله أن حرم عليهم ناره، وأنعم عليهم بجنته، فقد روى عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل عين باكية يوم القيامة إلا عين غضت عن محارم الله، وعين سهرت في سبيل الله، وعين خرج منها مثل رأس الذباب من خشية الله عز وجل»(٤)، وعن أبي إمامة -رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «ليس شيء أحب إلى الله من قطرتين وأثرين: قطرة دموع من خشية الله، وقطرة دم تراق في سبيل الله، وأما الأثران: فأثر في سبيل الله، وأثر في فريضة من فرائض الله عز وجل»(٥)، وعن مسلم بن يسار قال: قال رسول الله ﷺ: «ما اغرورقت عين بمائها إلا حرم الله سائر ذلك الجسد على النار، ولا سالت قطرة على خدها فيرهق ذلك الوجه قتر ولا ذلة، ولو أن باكيا بكى في أمة من الأمم رحموا، وما من شيء إلا له مقدار وميزان إلا الدمعة فإنه تطفأ بها بحار من نار»(٦).

والخشية من الله والخوف منه يمنع الإنسان من ارتكاب المعاصي، ويقف سدًا منيعا حائلا بينه وبين فعل ما يغضب الله حتى ولو ترتب على ذلك إلحاق الأذى والضرر به، ويجعل الإنسان مستسلماً ومفوضًا أمره إلى الله، راضيا بما يقدره الله تعالى ويقضي به، مطمئنًا إلى ما سيجنيه من خالقه من ثواب وجزاء وأجر في الدار الآخرة.

ولقد ضرب الله لنا مثلا لهذا كي نتعظ ونعتبر، ونتخذ هذا المثل قدوة لنا في حياتنا وسلوكنا في معاملاتنا مع الله ومع الناس، يقول الله تعالى:

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

«المائدة: ٢٧-٣٠»

فقد منع خوف هابيل من الله وخشيته منه أن يجارى أخاه قابيل في التهديد بالقتل وإلحاق الأذى به، رغم تأكيد قابيل - ذلك الأخ الظالم - وعيده بقتل أخيه هابيل بقوله: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ وهذا القول يفيد التصميم على القتل بما انطوى عليه بالقسم الذى تدل عليه اللام، وبنون التوكيد الثقيلة، أى: والله لأقتلنك بسبب قبول قربانك، وكان في إمكان وقدرة هابيل أن يرد التهديد بتهديد، والوعيد بوعيد - فهو في حالة الدفاع عن النفس - ولكن هابيل قابل ذلك بنصح أخيه وإرشاده، والتوجيه لأخيه قابيل - الظالم الحاسد - بقوله: إنما يتقبل الله الأعمال الصالحة من عباده المتقين الذين يخشون الله في السر والعلن، ولا يتقبل من سواهم من الظالمين الحاسدين لغيرهم على ما آتاهم الله من نعم، فعليك أن تكون من المتقين لكي يتقبل الله منك... ثم حاول هابيل إثارة عاطفة وحقوق الأخوة في أخيه قابيل، وما تقتضيه هذه الأخوة من بر، وصلة، وتسامح، ومودة، وحب، وعدم اعتداء... معللا عدم مقابلة التهديد بتهديد،

١- الحاكم
٢- الترمذي والنسائي والحاكم
٣- البخاري ومسلم
٤- الأصبهاني
٥- الترمذي
٦- البيهقي

والوعيد بوعيد بأن سبب ذلك يرجع ويعود إلى الخوف من الله عز وجل، القادر الخالق للكون، رب العالمين وصاحب العطاء الذى يعطيه لمن يشاء، فقال - كما يحكى القرآن الكريم عنه - :

﴿ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾

«المائدة: ٢٨»

وهكذا نرى الخوف من الله منع هابيل من أن يرتكب معصية تغضب الله، وآثر مقابلة التهديد والوعيد بقتله بنصح وإرشاد من يهدده إلى طريق الخير، وتفويض أمره إلى الله الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور.

وخوف الله تعالى يدفع الخائفين منه إلى المبادرة والمسارعة فى فعل الخير والأعمال الصالحة، وبذل الجهد فى طاعة الله، والإخلاص فى العبادة، وشكر الله على نعمه، وإيثار الفقراء والمساكين واليتامى والمحتاجين على أنفسهم بتقديم الطعام والشراب والمعونة إليهم، فى كرم وسخاء، ورضى نفس - وقد يكونون فى حاجة ماسة إلى ما يقدمون ويبذلون - يفعلون كل هذه الأعمال الصالحة بإخلاص شديد خال من الرياء والنفاق والفخر، وذلك ابتغاء وجه الله تعالى، وطلبا لمثوبته ورحمته ومغفرته، وخوفا من ربهم فى يوم القيامة، يوم الشدة والمساءلة والحساب، اليوم الذى تعبس فيه وجوه وتنقبض من شدة هوله وعظم أمره وطول بلائه.

وبسبب هذا الخوف الصادق من الله، وعد الله الخائفين منه بأن يحفظهم ويقيهم شر ذلك اليوم، وبأن يجازيهم خير الجزاء فيه، فتكون وجوههم فيه حسنة نضرة، ضاحكة مستبشرة، سعيدة مسرورة، وصدورهم منشرحة، بدل العبوس والكلوح الذى يحل بوجوه الكفار والعصاة.. وتكون عاقبتهم فى النهاية - بعد الحساب - جنات عالية يتعمون فيها ويتمتعون بكل أنواع الشراب والطعام الذى حرموه على أنفسهم فى الدنيا امتثالا لأوامر الله وطاعته فى تحريمه، والنهى عن تناوله فى الدنيا... غير أن شراب وطعام الجنة طيب غير خبيث لا يشبه ما كان فى الدنيا إلا فى مجرد الاسم فقط.

كل هذا العطاء والنعيم الواسع الدائم المستمر الخالد بلا نهاية إنما هو جزاء لكم يا من خفتم الله فى الدنيا.. يقول المنعم جل شأنه:

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا
كَافُورًا (٥) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا
(٦) يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (٧)
وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨)
إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (٩)
إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (١٠) فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ
ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (١١) وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا
جَنَّةً وَحَرِيرًا (١٢) مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا
شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا (١٣) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا
تَذْلِيلًا (١٤) وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ
قَوَارِيرَا (١٥) قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (١٦) وَيُسْقَوْنَ فِيهَا
كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا (١٧) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا
(١٨) ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ
لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا (١٩) وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا
(٢٠) عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ
مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١) إِنَّ هَٰذَا
كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾

«الإنسان: ٥ - ٢٢»

قراءة فى كتاب

مالك بن نبي

مشكلات الحضارة

فكرة كمنويلث إسلامي

دار الفكر

بقلم / أ: عادل خفاجة

يقول الله تعالى فى كتابه العزيز:

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾

(آل عمران: ١٠٣)

غير أن أمتنا الإسلامية أبت إلا الاختلاف، كيف لأمة ربها واحد ونبيها واحد وقبلتها واحدة وشريعتها واحدة، ومن المفروض أن تكون أمة واحدة يحدث لها كل هذا التشرذم؟ إن الأمل مازال معقودا على حكماء هذه الأمة كي يبحثوا عن السبيل الذى يلم شتات هذه الأمة التى نكبت بمن يحاربها فى الداخل والخارج.

إن عقلاء هذه الأمة مازالوا يتلمسون الطريق لإقامة كيان ما يكون نواة للوحدة المنشودة، فمن قائل: لابد من إقامة سوق عربية مشتركة ومن قائل: لابد من تفعيل «اتفاقية الدفاع العربى المشترك»، ومنهم من تكلم عن فكرة كومنولث إسلامي وهو المفكر الجزائرى مالك بن نبي، الذى توفى فى مثل هذه الأيام منذ أربعين سنة. ومن أجل ذلك كان اختيارنا لهذا الكتاب «فكرة كومنولث إسلامي».

وعن هذا المصطلح نقول:

مصطلح الكومنولث «بالإنجليزية: Commonwealth»، ظهر فى القرن الخامس عشر، وهى كلمة أصلها بمعنى الثروة المشتركة (Coommon - Wealth) أو الرخاء الجماعي ويعنى المصطلح حرفيًا الرخاء الجماعي، ولذلك فإن مصطلح الكومنولث يطلق على دولة أو دولة يحكمها الشعب من أجل الشعب على عكس الدول السلطوية التى تحكم من أجل طبقة معينة من الملاك.

ولكن فى الوقت الحاضر فالمصطلح أكثر عمومية ويعنى تجمع سياسى «من أكثر من دولة»(١).

مؤلف الكتاب:

هو «مالك بن نبي» واحد من أعلام الفكر الإسلامى العربى فى القرن العشرين، ولد فى أسرة محافظة بالجزائر فى الخامس من ذى القعدة من عام ١٣٢٣ هـ الموافق للأول من يناير من عام ١٩٠٥م بمدينة قسنطينة.

(١) موسوعة ويكيبيديا. بتصرف يسير.

سفر بعد تخرجه سنة ١٩٢٥م مع أحد أصدقائه إلى فرنسا ولم يوفق فعاد إلى مسقط رأسه وفي مارس ١٩٢٧م عمل في محكمة أفلو حيث احتك بالفئات البسيطة من الشعب فبدأ عقله يتفتح على حالة بلاده. ثم سافر لفرنسا مرة أخرى طلبا للعلم سنة ١٩٣٠م أملا في الالتحاق بمعهد الدراسات الشرقية، ولم يكن يسمح في ذلك الوقت للجزائريين بالالتحاق في مثل هذه الدراسات.

فاضطر للالتحاق بمدرسة «اللاسلكي» للتخرج كمساعد مهندس، انغمس مالك بن نبي في الدراسة في فرنسا، وتزوج من فرنسية ثم شرع يؤلف الكتب في قضايا العالم الإسلامي، ويعد مالك بن نبي أحد رواد النهضة الفكرية الإسلامية في القرن العشرين ويعتبره المفكرون والباحثون امتدادا للعلامة ابن خلدون كما يعتبر مالك بن نبي ومدرسته من أكثر المدارس الفكرية التي كان لها أثر واضح في تحديد وصنع ملامح الفكر الإسلامي الحديث، خاصة أن هذه المدرسة الفكرية التي كان لها أثر واضح في تحديد وصنع ملامح الفكر الإسلامي الحديث. لأن هذه المدرسة اهتمت أكثر من غيرها من المدارس الأخرى بدراسة مشكلات الأمة الإسلامية؛ انطلاقا من رؤية حضارية شاملة ومتكاملة وكان بن نبي أول باحث حاول أن يحدد أبعاد المشكلة، ويحدد العناصر الأساسية في الإصلاح، وكان كذلك أول من أودع منهجا محددا في بحث مشكلة المسلمين على أساس من علم النفس والاجتماع وسنة التاريخ، له العديد من المؤلفات نذكر منها:

الظاهرة القرآنية ١٩٤٦.

شروط النهضة ١٩٤٨

وجهة العالم الإسلامي ١٩٥٤.


مالك بن نبي

الفكرة الإفريقية الآسيوية ١٩٥٦.

«النجدة... الشعب الجزائري يباد» ١٩٥٧.

فكرة كومنولث إسلامي ١٩٥٨.

مشكل الثقافة ١٩٥٨.

الصراع الفكري في البلاد المستعمرة ١٩٥٩.

«حديث في البناء الجديد» ١٩٦٠ (ألحق بكتاب تأملات).

في مهب المعركة ١٩٦٢.

«آفاق جزائرية» ١٩٦٤.

مذكرات شاهد للقرن - الطفل ١٩٦٥.

«إنتاج المستشرقين» ١٩٦٨.

«الإسلام والديمقراطية» ١٩٦٨.

«معنى المرحلة» ١٩٧٠.

مذكرات شاهد للقرن - الطالب ١٩٧٠.

مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ١٩٧٠.

دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين (محاضرة ألقيت في ١٩٧٢).

المسلم في عالم الاقتصاد ١٩٧٢.

وله أيضا:

> القضايا الكبري.

> من أجل التغيير.

> ميلاد مجتمع.

توفي رحمه الله في ٣١ من أكتوبر ١٩٧٣م بالجزائر.

الكتاب:

يقع الكتاب في أربع وتسعين صفحة من قطع ١٧ - ٢٥سم وقد صدرت الطبعة الأولى منه سنة ١٩٦٠م وأعيد طبعه فصدر عن دار الفكر المعاصر في بيروت ودار الفكر في دمشق في طبعته الثانية سنة ١٤٢١ هجرية / ٢٠٠٠م.

يضم الكتاب ثلاثة أقسام تضم عددا من الموضوعات جاءت على النحو التالي:

القسم الأول - مشروع دراسة شاملة ويضم:

أ - تاريخ الفكرة.

١ - المحيط الجديد.

٢ - أولية المعيار الاجتماعي.

٣ - التقليد والتمثل.

٤ - فوضى الأشياء والأفكار.

٥ - الاضطراب.

٦ - تكوين الفكرة.

ب - مشروع دراسة مكتملة.

١ - تبرير عام.

٢ - أسباب جغرافية سياسية.

٣ - أسباب نفسية.

٤ - المظهر الفني.

٥ - اعتبارات عامة.

آ - تخطيط يتعين تجنبه.

ب - التخطيط الصحيح.

القسم الثاني قيمة الفكرة في المجتمع الإسلامي ويشمل:

أ - الفكرة في المجتمع الإسلامي.

١ - ضعف أساسنا المفاهيمي.

٢ - الفكرة ومراقب الاستعمار.

ب - اللافعالية في المجتمع الإسلامي. مظاهرها المختلفة.

القسم الثالث والذي جاء تحت عنوان: كومنولث إسلامي، فقد تضمن:

١ - مناطق الحضور.

٢ - تبعية المشاكل.

٣ - الشهادة.

٤ - الرسالة.

٥ - المثال البريطاني.

٦ - نوعية المشاكل.

ينطلق المؤلف من نقطة شعور الرجل المسلم الذي يحس بعدم جدواه وبأن أحداث التاريخ تسجل دون أن يكون له دخل فيها «كعضو في منطقة جغرافية سياسية غير مخططة» يرى أن تطور العالم قد سبقه.

وبما أنه يستبطن هذه المعطيات يصبح المسلم يفكر بمقتضاها بمصير العالم الإسلامي فتراه يحمل بين جنباته بذور ثورة.

ومن ثم يجد نفسه أمام احتمالين:

ويتساءل:

١ - هل بوسع العالم الإسلامي أن يقوم بثورة طبقًا لتطورات معينة؟

أي خطة يراعي فيه العوامل النفسية والاجتماعية الخاصة به.

أم يجد العالم الإسلامي نفسه مندفعًا «بضرورة انسجامه في التطور العالمي الذي لازالت سرعته تتزايد» إلى ثورة تأتيه من الخارج أي ثورة لن يكون في مقدوره التحكم فيها وذلك في حالة عدم وجود قيادة حكيمة ترسم له خطته؟

ويرى المؤلف أنه ينبغي علينا منذ الآن، أن تحدد الحدودة المفروضة التي نستطيع تناول الموضوع في نطاقها، فالعالم الإسلامي، وهو في المرحلة الراهنة من تطوره، ليس مجهزًا لهذا النوع من العمل؛ فتجهيزه في هذا النطاق ليس كافيًا، لأسباب عديدة: منها ما هو ذو صبغة نفسية، ومنها ما هو ذو صبغة مادية.

كما يرى المؤلف أن موضوع الوحدة لا يتطلب عملاً إداريًا فحسب، أو مجرد مقايسة نظرية ولكنه يستدعي عملاً دقيقًا، على مجال القضية نفسها، وتحقيقًا معمقًا على صعيد العالم الإسلامي؛ مضافًا إلى ذلك أن تحقيقًا من هذا النوع، لا يمكن أن يقوم به فرد متعزل، لأن

ذلك من مهام هيئة مشتركة من الاخصائيين، الذين يتقاسمون فيما بينهم المظاهر والقطاعات المختلفة لهذه المهمة، كل في دائرة اختصاصه، وهذا يعني أن دراستنا يجب أن تتناول تحت إشراف «مركز للبحوث» لما يوجد بعد في العالم الإسلامي. حيث المنشآت التي تستطيع أن تؤدى هذا الدور لا تعدو أحد أمرين:

إما أن تكون قد شاخت وهرمت، كما هو الحال في يومنا هذا بالنسبة إلى الهيئات التي سبق أن لعبت دورًا هامًا في الحياة العقلية للعالم الإسلامي، وإما أنها لاتزال حديثة وشابة، ومن ثم فهي لم تتكيف بعد مع عمل علمي واسع النطاق.

صحيح أن جهودًا قيمة تبذل في مصر، بقصد التكيف مع ضرورات البحث، في مجالات عدة، ولكن العالم الإسلامي بصفة عامة يجتاز فترة تحول «وحمل»؛ فبعض الأشياء قد أصبح ميتًا، ولم يعد صالحًا للاستعمال، وبعضها الآخر لما يولد بعد، ومن هنا نجمت فترة من «اللاتكيف»، يتعين على المنشآت والأفراد: الأشياء والأفكار، أن تجتازها جميعها بالضرورة، لكي تتكيف مع عالم جديد، لما تزل مقاييسه بعيدة عن متناولنا حتى الآن ويصف المؤلف هذه الفترة بأنها فترة ذات صبغة طفولية يمكن أن يعوّق فيها فعل الإنسان المسلم وفكره، جراء مركبات معينة.

ويرى المؤلف أن العالم الإسلامي متعلق في المرحلة الراهنة من تطوره «بالأشياء» لا «بالأفكار»، ونحن نستطيع أن نفهم هذا الميل، على ضوء السيكولوجية الصبيانية: فالطفل لا يرى في العالم أفكارًا، ولكنه يرى أشياء؛ فكومة من قطع الحلوى، أثمن لديه بكثير من كومة من الجواهر.. ! وكل المجتمعات البشرية تمر بهذه المرحلة من الصبيانية؛ وليس لغير ما سبب، أن يكون «لينين» قد كرس أحد كتبه «لأمراض الماركسية الصبيانية» غير أن هذا النزوع الفكرى قد واكب، في العالم الإسلامي، استمراء السهولة، وأنه لمن المؤكد، أن شراء سيارة «كدلاك» أو ثلاجة، أسهل بكثير من الحصول على «الأفكار» الضرورية لصنعهما.

ومن ثم نصل إلى هذا التقرير المتميز المتمثل في أن المادة التي كان من نتائجها في العالم المصمم التنمية من كمية «الأفكار»، كان من نتائجها العكسية في العالم الإسلامي، مضاعفة «الأشياء» فحسب.. ولا أحب أن أدفع بهذا التحليل الذى تجازف معه بالخروج عن الإطار الضيق المرصود لهذا المدك خلاصة لها أهميتها بالنسبة إلى موضوعنا وهي: أن «الفكرة» ليس لها فعاليتها الكافية في العالم الإسلامي، أو هي لا تلعب دورها فيه، ولا ريب في أن فحص كل العوامل التي كان لها مفعول ما، في هذا القصور، سيكون ذا أهمية بالغة. ولكن المؤكد، أن أحد مظاهر هذا القصور، هو ما نلاحظه في التطور الراهن للعالم الإسلامي، من تخلف بالنسبة إلى التطور العام. وإن هذا المظهر بالذات، لهو الذى تتضمنه بصفة خاصة، دراستنا هذه، لأنه يتصل بكل العوامل النفسية - الزمنية، التي تبرر فكرة «الكومنولث».

وعن تاريخ الفكرة: يرى المؤلف أن هناك انقلاب واضح في سلم الأشياء؛ إذ إن المسلم الذى ولد في عالم تقاس فيه الأطوال، على مستوى المساجد - كمسجد «ابن طولون أو «الجامع الأزهر» - وهو يحيا الآن في عالم، تقاس فيه الأطوال على مستوى بناية إدارية.. وهذا الانقلاب، يمثل عرضًا من أعراض تطور العالم الإسلامي، منذ نصف قرن، ويعني أن سلم

الأشياء عندنا قد تبدل، ولكننا يجب أن نضع الإنسان المسلم هو الآخر، في هذا المستوى نفسه - «المسلم المقود كإنسان بضرورات اجتماعية، والمدفوع كإنسان عقيدى برغائب أخلاقية معينة» - لنفهم ما يحتمل في داخله؛ ويمر بوعيه.. هذا عن تاريخ الفكرة، أما أولية المعيار الاجتماعي فيرى المؤلف أن المسلم يعيش في عالم غريب، له منه «أشياؤه» وليس «أفكاره»؛ وتلك خاصية النفسية الصبيانية، عندما يبدأ الطفل بوضع يده على الأشياء عن غير استعداد لفهمها، فإذا بنا نراه أحيانًا يمد يده إلى القمر جادًا في طلابه ولكن من غير طائل بطبيعة الحال! فهذه الحركة تبدو لنا جذابة، لدى الطفل الذى تضحكنا منه هذه البادرة الدالة على براءته، عندما يندفع في أول تجاربه، لالتقاط عود ثقاب مثلا، أشعل بغية إثارة حبوره.. ولكننا ندرك كم يكون مثل هذه الحركة فاجعًا، في مجتمع مندفع وراء «الأشياء»، وكم يمكن أن تكون حروق هذا المجتمع نفسه شديدة الإيلام!

التقليد:

وينتقل المؤلف إلى مرحلة من مراحل تطور المجتمع وهي مرحلة التقليد لنرى ما ثمرات التقليد التي جناها المجتمع الإسلامي بالمقارنة بما جناه غيره من المجتمعات فيقول:

إن الذى يحصل بالفعل، هو أن المجتمع الإسلامي، يقوم بتجربة مؤلمة، منذ نصف قرن، وإذا أردنا الدقة قلنا منذ منتصف القرن التاسع عشر. فهذا المجتمع قد انضوى منذ أن استيقظ على ضربات النزعة الاستعمارية، وعلى نداء رجال من أمثال جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده - في حركة «النهضة»؛ وقد تعورف على تسمية هذه المرحلة بالنهضة - وهي المرحلة التي تبدأ منذ اليقظة الأولى لهذا المجتمع حوالى سنة ١٨٥٨، وتستمر حتى وضعه الراهن - ولكننا إذا ما حللنا هذه المرحلة لإبراز خصائص الفكر الإسلامي، طوال هذا القرن من تطوره، نجدها تنقسم إلى ثلاثة عصور متميزة:

أ - عصر النوم الذى استمر قرونًا عديدة.

ب - عصر الانتباه واسترداد الوعي.

جـ - عصر الفوضى والذبذبة الراهنة.

وهذه العصور الثلاثة تتطابق بدقة، مع الأطوار الثلاثة لتجربة الطفل:

أ - الطور الأمومي: حيث لا يكون لدى الرضيع المتشبث بثدى أمه أى مفهوم لعالم الأشياء.

ب - والطور «قبل الاجتماعي» حيث يبدأ الطفل في الدخول إلى عالم الأشياء، وإن كان لايزال يجهل كل شيء عن عالم الأفكار.

جـ - والطور الاجتماعي «المدرسي وما بعد المدرسي» حيث يحاول الطفل أن يقيم في داخله الصلة بين عالم الأشياء وعالم الأفكار.

ولو حاول موجهو العالم الإسلامي تأمل هذا التخطيط البسيط، لتفهموا بكل تأكيد، وبطريقة أفضل، الآلية النفسية المهيمنة على تجربة الجيل الإسلامي الراهن، والصعوبات التي يتعين على هذا الجيل التفوق عليها، وكذلك المشاكل الناتجة عن هذه الصعوبات في المجال السياسي والاجتماعي.

ومهما يكون من شيء فنحن إذا طبقنا على دراستنا التخطيط المتعلق بنفسية الطفل، علمنا أن الطفل يجتاز مرحلة من التقليد يسلك أثناءها سلوك كبار الأشخاص، أمثال أمه وأبيه والكبار من إخوته، من غير أن يفهمهم إنه يقلدهم وكفى. فهو يقلدهم أولا في اللغة، وبتقليده للأصوات التي لا يفهمها، يتعلم الحديث، ولكن لنفترض أنه لسبب ما قد

واصل تقليد هذه الأصوات حتى سن الثامنة والعاشرة.. إننا نرى في هذا بالتأكيد حالة شاذة؛ أعني على وجه الدقة حالة مرضية يكون لأهل الطفل إزاءها الحق ولاشك في التحير، واللجوء إلى أحد الأخصائيين. وهناك ملاحظة أخرى يجب مراعاتها أيضًا في نفسية الطفل قبل تطبيقها على المجتمع الإسلامي: فالأهل يعرفون جيدًا، وبدقة كافية جراء ظاهرة التقليد نفسها، خطر القدوة أو المثال السيء بالنسبة إلى طفلهم، ولذلك تراهم يعدون لهذا الأخير رقابة معينة في المنزل والمدرسة والشارع، لأنهم لا يرون من الضروري ولا من المفيد، أن يقوم الطفل بكل تجربة يقع عليها بصره.. فهناك حتى التجارب المؤذية التي يمكنها أن تعطل لديه كل تقدم أخلاقي وعقلي.

والآن فلنتنقل بهذه الملاحظة المزدوجة ـ المتعلقة بالطفل المتأخر في تكوينه اللغوي، والبالغ الذي اختل سلوكه، جراء تجربة بعيدة، لننتقل بها إلى موضوعنا لكي نتفهم ماهية المشاكل التي تعترض المجتمع الإسلامي حاليًا، ولكي يزداد تفهمنا لمدى الاعتبار الأول، المنصب على نزعة التقليد، لنحاول تأمله على ضوء مثال محسوس، يضفي على ذلك الاعتبار كل دلالته الاجتماعية. لقد أرخنا طفولة العالم الإسلامي الراهن، بسنة ١٨٥٨، بغية تتبع تطورها بمدى معين من الدقة، ولنأخذ تاريخا آخر، وليكن سنة ١٨٦٨، التي تسجل ميلاد مجتمع آخر: هو المجتمع الياباني الحديث. ها نحن إذن، وبفارق عشر سنوات تقريبًا ـ وهو فارق غير معدود، أو لا يعتد به كثيرًا، في حياة المجتمعات البشرية ـ أمام ظاهرتين معاصرتين لطفلين توأمين. ولكن العجيب أن نلاحظ، بأي مدى من السرعة، استطاع الطفل الياباني، اجتياز الطور الذي أطلقنا عليه اسم «الطور ما قبل الاجتماعي» في نفسية الطفل، فهو قد قلد «الكبار» كسائر الأطفال، لكي يتعلم أول الأمر إنشاء الألفاظ، ولقد قلد أوروبا في هذا المجال بطبيعة الحال؛ فاشترى له «الأشياء» من غير ما فهم «للأفكار» التي تمثلها، ومع ذلك، فالعجيب حقًا هو تلك السرعة التي تعود بها هذا الطفل، على لغة الكبار من الأشخاص، حتى لقد اعترف لها سنة ١٩٠٥، بأنه قد أصبح يجيد الكلام بإطلاق المدافع في موقعة «ميناء أرثير **Port arthur**»، وهي لغة سيئة بالتأكيد، ولكننا ندرس هنا حالة اجتماعية، وليس حالة أخلاقية!.. وهذه الحالة تبلور لنا حالتنا نحن، بصورة مميزة؛ إذ أننا، وحتى بعد مرور قرن من الزمان، لما نتعود بعد، على لغة كبار الأشخاص، فاليابان قد تمثلت «الأفكار»، بينما المجتمع الإسلامي لايزال يشترى «الأشياء»!.

ويعود المؤلف ليتساءل مرة أخري، عن ذلك السؤال الذي يمثل مأزقًا بحق؛ ليسلط الضوء على ضرورة وضع تخطيط للعالم الإسلامي، وبالذات في المجال الأخلاقي؛ إذ يتعين التخفيف عن الشباب المسلم من ثقل الأحاسيس السلبية.

أولاً ـ هل يستطيع العالم الإسلامي إنجاز ثورته حسب اطراد محدد منسق بمشروع معد يؤخذ فيه اعتبار العناصر النفسية والعوامل الاجتماعية الخاصة بالمجتمع الإسلامي الراهن؟

ثانيًا ـ أو أن العالم الإسلامي سيجد نفسه منقادًا ـ لعدم توافر توجيه سديد، حسب مشروع معد وبضرورات تكفيه مع تطور عالمي، لم ينفك في إسراع دائب ـ يتزايد يومًا فيومًا ـ إلى ثورة لا يكون مسيطرًا عليها؟

(يتبع)

بين المجلة والقارئ

للأستاذ/ أحمد السيد تقي الدين

بين الهجرة.. والتهجير

تحت هذا العنوان جاءت رسالة الشيخ/ مصطفى الأزهري - إمام وخطيب مسجد سوق الحمام - السيدة عائشة - القاهرة، قال فيها:

كانت مكة (المكرمة) هي نقطة الارتكاز التي أرادها الله تعالى كأول مهبط للوحي الكريم؛ لما لهذا البلد الأمين من مكانة تاريخية وجذور ضاربة في عمق الزمان زلفى إلى الله وحسن مآب، ومكة في الواقع الجغرافي مكانة أكثر منها مكان؛ إذا إنها واد تحيط به الجبال الراسيات، لكنها خير بقاع الأرض باختيار الله تعالى ليكون بيته الأول فيها كما قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ فلم يكن الله تعالى ليذر بيتا بهذه المكانة الجليلة تحوطه الأصنام ويمارس فيها أهل الجاهلية الأولى مظاهر الكفر والفسوق والعصيان وحول الكعبة المشرفة التي إليها تهوى القلوب وتتطلع البصائر والأبصار؛ فكانت حكمة الله البالغة في اختيار خاتم المرسلين من هذه البقعة المقدسة ليقوم ﷺ بأكبر عملية إزالة وتطهير دعوى ونفسي وأخلاقي من كل ما يشرك به من دون الله عز وجل؛ وظلت دعوة النبي تؤتي أكلها في صعوبة بالغة وجهاد لا مثيل له لاقتلاع جذور الشرك من قلوب غلبتها العادات والتقاليد على نفسها فهم يصرخون في وجه الدعوة الجديدة: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ وكان الثمن فادحاً والضريبة بالغة التكاليف من رسول الله نفسه ومن أصحابه الأوائل الذين آمنوا به واتبعوا النور الذي أنزل معه رضوان الله عليهم أجمعين؛ حتى ضاقت مكة بتلك الدعوة التي يزداد أتباعها وينمو أثرها في نفوس الناس الذين رأوا في الدين الجديد مخلصا لهم من كل مظاهر العبودية لغير الله تعالى ورفعا لهم إلى مراقي الحرية وآفاق النور المبين، ومرت الخطوات الأصعب في مكة على طريق الهدى حتى كانت اللحظة (الفارقة) بأن أذن الله تعالى لرسوله بالهجرة المباركة لتكون نقطة فاصلة في تاريخ الإسلام ليس لأنها رحلة هروب وفرار ـ كما قد يظن البعض ـ بل هي بداية جديدة لمرحلة أخرى من مراحل الإسلام لإتمام البناء الحضاري والإنساني للعالمين؛ وتمت الرحلة وفق ما أراد الله تعالى لدينه أن يصل وكانت على النحو المذكور

في كتب السيرة النبوية الكثيرة، غير أنه بقيت في عصور المسلمين الحديثة سفرات مشابهة لأفراد وجماعات تعرضت في بلادها لاضطهاد بسبب ما تعتقد من حق، ثم رأينا - وللأسف الشديد - في بعض مجتمعاتنا العربية والتي حفرت فيها سنابك خيول الصحابة علامات على طريق الفتح والنصر؛ هذا فضلاً عن بلاد الأقليات المسلمة مثل «ميانمار» أقول شهدت العديد من البلاد والمجتمعات بل وبعض البلاد (العربية) رحلات (تهجير) قسرية بسبب ممارسات غاشمة أجبرت أهل البلاد على الفرار بدينهم وما تبقى من أسرهم وأموالهم وأعراضهم إلى بلاد أخرى مثل ما يحدث في العراق وسوريا ولبنان في مشهد لا يليق أبداً ببلادنا العربية التي أشرقت في جنباتها شمس الحضارة الإسلامية الأولى على الرحمة المهداة محمد ﷺ، وبهذه المناسبة فنحن ندعو إلى أن تتبنى رابطة العالم الإسلامي - مثلاً - مؤتمراً عالمياً يناقش فيها ما تمر به المجتمعات العربية من نوبات «تهجير» إجباري لأهل البلاد وأثر ذلك على مستقبل المجتمع المسلم على كافة المستويات، وأقترح أن تكون (مكة - المكرمة) هي مكان انعقاد هذا المؤتمر برعاية كريمة من خادم الحرمين الشريفين، ولعل ذلك يكون خير احتفاء واحتفال بالعام الهجري الجديد.

بيوت الله

تحت هذا العنوان جاءت رسالة الشيخ/ أحمد سعيد منصور بحيري، عضو نقابة القراء، القاهرة، قليوب البلد - قليوبية:

أخبر الهادي الحبيب ﷺ أن من السبعة الذين يظلهم الله في ظل رحمته يوم لا ظل إلا ظله رجل قلبه معلق بالمساجد، وقال بعض السلف إذا رأيتم الرجل يعمر المسجد فأحسنوا الظن به.

إن المساجد بيوت الله عز وجل فيها يعبد وفيها يذكر وهي منارة الهدي وإعلام الدين شرفها الله عز وجل وعظمها بإضافتها إليه:

﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾

أي توجهوا إليه وحده بالعبادة والدعاء واحذروا الشرك بسؤال غيره وإنما تبني المساجد للصلاة وذكر الله عز وجل وقراءة القرآن والتقرب إلي المولي والذل بين يديه والرغبة فيما عنده من الثواب والخشية من غضبه.

إن عمارة المساجد من أعظم القربات إليه عز وجل وتكون عمارتها ببنائها وتنظيفها وفرشها وإنارتها وإمدادها بالمياه الطاهرة للتيسير علي المؤمنين وغير ذلك من صنوف العناية بالمساجد، كما تكون عمارتها بالاعتكاف فيها والصلاة وكثرة التردد عليها لإقامة الجماعات.

وإن زائر المسجد يكون في رعاية الله ورحمته ما دام جالساً في مراعاة أدب الجلوس منصرفاً بقلبه إلي الله وقد جاء في الحديث القدسي: «إن المؤمن إذا مشي إلي المسجد قال الله تبارك اسمه: «عبدي زارني وعلي قراه ولم أرض له قري دون الجنة».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول ﷺ قال: «إلا أدلكم علي ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟ قالوا: «بلي يا رسول الله، قال: إسباغ الوضوء علي المكاره وكثرة الخطا إلي المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذالكم الرباط فذالكم الرباط».

والله عز وجل يحفظ عمار المساجد المتعلقة قلوبهم بها المواظبين علي حضور الجماعات فيها يحفظهم في أنفسهم وأموالهم.

قال تعالي:

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

التدخين: سارق الصحة والعمر والمال

تحت هذا العنوان جاءت رسالة الدكتور/ يحيى سنبل - دماص - ميت غمر - دقهلية، جاء فيها:

التدخين عادة سيئة، تدمر الإنسان، وتسرق صحته وعمره وماله، وتدفعه إلى عالم المخدرات والإدمان، وتصيب قرينه بالضعف والوهن والمرض، وتجعله عبداً للسيجارة، وتسلب إرادته وكرامته: هذه بعض أضرار التدخين نوردها فيما يلي:

- التدخين والجهاز الهضمي: قرحة المعدة والإثنى عشر تكون أكثر انتشاراً بين مدخني السجائر من الذكور والإناث، وتؤدى إلى وفيات أكثر بين المدخنين الذكور عن غير المدخنين، كما أن التدخين يعوق التئام القرح البيبسينية، ويثبط إفراز البيكرياس للبيكربونات، ويقلل ضغط بوابتي المرئ والمعدة.
- التدخين والحمل: التدخين أثناء الحمل يؤثر في الجنين، حيث تبين أن الأطفال الذين يولدون لأمهات مدخنات يكون وزنهم أقل حوالى ١٧٠ جراماً عن الأطفال الذين يولدون لأمهات غير مدخنات.
- تدخين المرأة أثناء الحمل يرتبط بخطورة عالية لحدوث إجهاض تلقائى Spontaneous Abortion وكذلك موت الجنين داخل الرحم، وموت المولود حديث الولادة، هذه الخطورة عالية نتيجة لعوامل أخري، جدير بالذكر أن تدخين الحامل قد يؤدى إلى ضعف النمو الجسدى على المدى الطويل، وكذلك ضعف تطور الذكاء للمولود.
- التدخين والإصابة بالسرطان: يقول الدكتور/ جون هولبروك - أستاذ الأمراض الباطنة: على الرغم من أن الدراسات العلمية أثبتت وجود علاقة بين تدخين السجائر وسرطان الرئة إلا أن مزيداً من الأمريكيين يموتون بسبب سرطان الرئة أكثر من أى ورم آخر، فى عام ١٩٨١ تم تقدير عدد الوفيات بسبب سرطان الرئة فى الولايات المتحدة الأمريكية بمائة وخمسة آلاف (١٠٥,٠٠٠) حوالى ٨٠٪ من هذا العدد تعزى إلى تدخين السجائر، خطورة حدوث سرطان الرئة بصفة كمية يرتبط بالتعرض لدخان السجائر، الرجال

الذين يدخنون علبة سجائر واحدة يوميًا تزداد الخطورة لديهم عشرة مرات مقارنة بغير المدخنين، الذين يدخنون علبتين من السجائر يوميًا قد تصل الخطورة لديهم إلى ٢٥ مرة مقارنة بغير المدخنين، العمال الذين يعملون في مناجم اليورانيوم ومصانع الأسبستوس ويدخنون السجائر تزداد خطورة إصابتهم بسرطان الرئة، النساء اللاتي يدخن السجائر يزداد معدل وفياتهن من سرطان الرئة عن الرجال، جدير بالذكر أن البقاء لمدة خمس سنوات على قيد الحياة لمرضى سرطان الرئة أقل من ١٠٪ مما يحتم ضرورة الوقاية من سرطان الرئة، الإقلاع عن التدخين يرتبط بانخفاض الخطورة للإصابة بسرطان الرئة بعد الإقلاع عن التدخين بخمسة عشر عامًا تصبح خطورة الإصابة بسرطان الرئة مساوية لغير المدخن.

تدخين السجائر عند الرجال والنساء يسبب الإصابة بسرطان الحنجرة، وسرطان تجويف الفم، وسرطان المرئ، تعاطى الخمور مع تدخين السجائر يزيد من خطورة الإصابة بالسرطانات السابقة، سرطان المثانة والكلية والبنكرياس أيضًا ترتبط بتدخين السجائر.

● التدخين وأمراض الجهاز التنفسي: تدخين السجائر هو أهم عامل يسهم في الإصابة بمرض الرئة الانسدادى المزمن Copd الذى يتمثل فى التهاب الشعب الهوائية المزمن Chronic bronchitis وانتفاخ الرئة Emphysema، من عدد يقدر بخمسين ألف حالة وفاة من جراء مرض الرئة الانسدادى المزمن في الولايات المتحدة الأمريكية فى عام ١٩٨٠ حوالى ٧٠٪ منها كان سببها التدخين، والعديد من حالات الوفاة هذه سبقها إعاقة تنفسية لمدة طويلة، بالاعتماد على مدى التعرض للدخان، فإن الذكور الذين يدخنون السجائر تكون وفياتهم من مرض الرئة الانسدادى المزمن من ٤ إلى ٢٥ مرة أعلى من غير المدخنين، على الرغم من أن معدل الوفيات بسبب مرض الرئة الانسدادى المزمن بين الإناث المدخنات عن الذكور المدخنين.

السعال المزمن، وخروج البلغم، وصعوبة التنفس أكثر شيوعًا بين المدخنين.. المدخنون أكثر عرضة من غير المدخنين لحدوث اضطرابات فى عدد من اختبارات الوظائف الرئوية، هذه الاضطرابات في الوظائف الرئوية قد تظهر بدرجة خفيفة فى المدخنين من المراهقين، تدخين السجائر مرتبط بزيادة معدل حدوث عدوى تنفسية والوفاة من جراء الالتهاب الرئوى والإنفلونزا.

المضاعفات التنفسية التى تحدث عقب العمليات الجراحية وحدوث الاسترواح الصدرى التلقائي «أى وجود الهواء أو الغاز في التجويف الغشائي الجنبي» أكثر حدوثًا بين المدخنين، لأن دخان التبغ قد يزيد من انسداد الشعب الهوائية، لذلك يجب التنبيه بشدة على مرضى الربو الشعبي «حساسية الصدر» بعدم التدخين، التهاب الفم المزمن، والتهاب الحنجرة المزمن، أكثر شيوعًا بين المدخنين عن غير المدخنين.

التدخين وأمراض القلب: تأثير التدخين على القلب يتمثل فيما يلي:

● حدوث أمراض الشرايين التاجية فى سن مبكر أحد أهم نتائج تدخين السجائر.

خطورة الإصابة بأمراض الشرايين التاجية القاتلة أو غير القاتلة أعلى بنسبة ٦٠ إلى ٧٠٪ في المدخنين الذكور عن غير المدخنين.

● الموت المفاجئ قد يكون المظهر الأول لأمراض الشرايين التاجية وهو أكثر حدوثًا فى المدخنين الذكور من سن ٣٥ إلى ٥٤ سنة بضعفين إلى ثلاثة أضعاف عن غير المدخنين.

● النساء اللاتي يدخن السجائر أكثر عرضة للإصابة بأمراض الشرايين التاجية عن غير المدخنات، واستخدام حبوب منع الحمل من قبل النساء المدخنات يزيد من خطورة الإصابة بأمراض الشرايين التاجية عشرة أضعاف، حيث يتعاون التدخين مع حبوب منع الحمل.

● تدخين السجائر يعمل بصفة مستقلة أو بالتعاون مع العوامل الأخرى لزيادة خطورة الإصابة بأمراض الشرايين التاجية.

● التوقف عن التدخين يقلل من الوفاة نتيجة الإصابة بأمراض الشرايين التاجية.

● الأشخاص الذين يستمرون فى التدخين بعد الإصابة باحتشاء عضلة القلب «جلطة بالشرايين التاجية» من المحتمل أن يموتوا بسبب أمراض الشرايين التاجية عن أولئك الذين يتوقفون عن تدخين السجائر وغيرها.

● تدخين السجائر يؤدى إلى حالة من عدم التوازن بين إمداد عضلة القلب بالأكسجين واحتياجات عضلة القلب من الأكسجين.. يقلل من حدوث الاختلاج البطيني «نوع من اضطراب الإيقاع البطيني» ويزيد من تجمع الصفائح الدموية، تجنب هذه التأثيرات قد يفسر فوائد التوقف عن التدخين التى تحدث بسرعة.

● تصلب الشرايين وزيادة سمك بطان الشرايين الموجودة داخل عضلة القلب وكذلك الشرايين الصغيرة أكثر حدوثًا فى المدخنين عن غير المدخنين.

● تدخين السجائر هو أحد عوامل الخطورة الرئيسية التى تؤدى إلى تصلب الشرايين الانسدادي، والتهاب الأوعية الدموية التخثرى الانسدادى Thrombodngitis obliterans كما أنه يزيد من سوء حالات الإقفار الطرفى «الإمداد الدموى للأطراف» ويؤثر بصورة سلبية فى الجرافت Graft الطرفى التحويلى فى الشرايين.

● معدل الوفيات بسبب أنيورسم الأورطى aortic aneurysm «انتفاخ في جدار الأورطى نتيجة لوجود ضعف فى هذا الجدار» أكثر فى المدخنين الذكور عن غير المدخنين.

النزيف تحت العنكبوتية «غشاء موجود حول المخ» أكثر حدوث بين النساء المدخنات عن غير المدخنات، التدخين مع استخدام حبوب منع الحمل يزيد من خطورة حدوث هذه الحالة.

● التدخين السلبي: إيذاء الآخرين من غير المدخنين بدخان سجائر المدخنين يمثل مشكلة كبيرة تعرف بالتدخين السلبي، وكان غير المدخن يجبر على التدخين ويجبر على إلحاق أضرار التدخين به، دون أى ذنب.

يقول الدكتور جون هوليروك - أستاذ الأمراض الباطنة: التدخين السلبى «اللا إرادي» يؤدى إلى حالة من تهيج الأغشية مثل حرق العين واحتقان الأنف، هناك بيانات متراكمة أظهرت أن المصابين بأمراض القلب المزمنة وأمراض الانسداد الرئوى تتفاقم الأعراض المرضية لديهم مع التعرض للهواء الملوث بدخان السجائر.. نحن ذن أمام مشكلة تحتاج إلى تشريعات صارمة تحمى غير المدخنين، كما تحتاج إلى تشريعات تحمى المدخنين من أنفسهم ومن الهلاك الذى يقودهم التدخين إليه.

طرائف ومواقف

للشيخ عبدالحفيظ محمد عبدالحليم

اتضاع الأعالي بارتفاع الأسافل

تقول العرب إن الأعالي وذوي السؤدد والشرف لا يتضعون ولكن الأسافل هم الذين يرتفعون، فيكون اتضاع الأعالي بارتفاع الأسافل، يعني العالي لا ينزل، ولكن الواطي هو الذي يعلو، وذلك فعل الزمان.

وقال سعيد بن المسيب -رحمه الله- الدنيا نذلة تميل إلى الأنذال، وميلها إلى الأنذال وامتلاكهم لها يؤكد هوانها على الله- عز وجل- فلو كانت تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء، ويقال: إذا ارتفعت الأراذل هلكت الأفاضل.

وقال قيس بن زهير: أربعة لا يطاقون: عبد ملك، ونذل شبع، وأمة ورثت، وقبيحة تزوجت.

وقال الشاعر:

محن الزمان كثيرة لا تنقضي
وسروره يأتيك كالأعياد
ملك الأكابر فاسترق رقابهم
وتراه رقا في يد الأوغاد

وقال ابن الرومي:

رأيت الدهر يرفع كل وغد
ويخفض كل ذي شيم شريفة
كمثل البحر يغرق كل حي
ولا ينفك تطفو فيه جيفة
أو الميزان يخفض كل واف
ويرفع كل ذي زنة خفيفة

وصية

كتب عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- إلى ابنه عبدالله، أما بعد: فإنه من اتقى الله وقاه، ومن توكل عليه كفاه، ومن شكر له زاده، ومن أقرضه جزاه، فاجعل التقوى عماد قلبك، وجلاء بصرك، فإنه لا عمل لمن لا نية له، ولا أجر لمن لا خشية له، ولا جديد لمن لا خلق له.

أجموا هذه القلوب

قال سيدنا علي- رضي الله عنه:- أجموا هذه القلوب والتمسوا لها طرق الحكمة، فإنها تمل كما تمل الأبدان والنفس مؤثرة للهوى، آخذه بالهوينا، جانحة إلى اللهو، أمارة بالسوء، مستوطنة بالعجز، طالبة للراحة، نافرة عن العمل فإن أكرهتها أنضيتها، وإن أهملتها أرديتها.

وقال سيدنا عمر رضي الله عنه:- عليكم بطرائف الأخبار، فإنها من علم الملوك والسادة، وبها تنال المنزلة والخطوة منهم.

حقاً

قال شاعر حكيم:

ادفع بصبرك حادث الأيام
وترج لطف الواحد العلام
لا تيأسن وإن تضايق كربها
ورماك ريب صروفها بسهام
فله تعالى بين ذلك فرجة
تخفى على الأبصار والأوهام
كم من نجي بين أطراف القنا
وفريسة سلمت من الضرغام

كيف أصبحت؟!

قيل لأحد العلماء الأئمة:- رضي الله عنهم- كيف أصبحت؟

قال: أصبحت تطلبني ثمانية:

الله- تبارك وتعالى بالفروض.

ورسوله- عليه الصلاة والسلام بالسنة.

والدهر بصروفه.

والعيال بقوتهم.

والحفظة بما ينطق لساني.

والشيطان بالمعاصي.

والنفس بالشهوات.

وملك الموت بقبض روحي.

آداب الرعية مع السلطان

قلة الغشيان لبابه، وترك الاستعانة به إلا بشيء يلزم أمره، ودوام الهيبة له، وإن كان ذا رفق، وترك الجرأة عليه، وإن كان ذا لين، وقلة السؤال وإن كان مجيباً، والدعاء له.

كيف تعامل الناس؟

لا تعامل الناس على أنهم ملائكة فتعيش مغفلاً، ولا تعاملهم على أنهم شياطين فتعيش شيطاناً، ولكن عاملهم على أن فيهم بعض أخلاق الملائكة، وكثيراً من أخلاق الشياطين.

إلى بيتنا يذهبون!

قال عثمان بن دراج الطفيلي: مرت بنا جنازة يوماً ومعي ابني، ومع الجنازة امرأة تبكي وتقول: الآن يذهبون بك إلى بيت لا فراش فيه، ولا غطاء، ولا وطاء، ولا خبز ولا ماء.

فقال ابني: يا أبتي إلى بيتنا والله يذهبون.

دعاء

اللهم إنا نسألك علم الخائفين منك، وخوف العالمين بك، ويقين المتوكلين عليك، وتوكل المؤمنين بك، وإنابة المخبتين إليك، وإخبات المنيبين إليك، وشكر الصابرين، وصبر الشاكرين لك.

٦٠- روضوها وأريحوها

٢٠- مكروب يناجي ربه سبحانه

المحرم
١٤٣٥ هـ
نوفمبر ديسمبر
٢٠١٣ م

خميلة الشعر



للأستاذ/ محمد عبدالوهاب

لما بعث «أبو طالب» لابن أخيه «محمد» ﷺ، قال له: يا ابن أخي إن قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا، فابق عليّ وعلى نفسك، ولا تحمّلني من الأمر ما لا أطيق؛ فظنّ رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمه فيه بداء، وأنه خاذله ومُسْلِمُه، وأنه قد توقف عن نصرته فقال النبي ﷺ: «يا عمّاه، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر، حتى يُظهره الله أو أهلك فيه ما تركته، ثم استعبر ﷺ فبكى.

ثلاث عشرة سنة كانت ثلاثة عشر دليلا على أن النبي «ﷺ» ليس رجل مُلْك، ولا زعامة، ولو كان واحدا منهما لأدرك ما أراده في وطنه ولكنه «صلوات الله وسلامه عليه» كان مُبلغا لرسالات ربه، مؤمنًا بها وأمينا عليها، وبعد أن فقد عمه «أبا طالب» وكذلك زوجه السيدة «خديجة» في السنة العاشرة للنبوة، نالت منه قريش ووصلوا من أذاه إلى ما لم يكونوا يصلون إليه في حياة عمه حتى نثر بعضهم التراب على رأسه الشريف فدخل ﷺ بيته والتراب على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته تغسل عنه التراب وهي تبكي فقال لها: «يا بنية لا تبكي فإن الله مانع أباك» قال أن حفنة من تراب لا يمكنها أن تطمس النجم، ثم خرج النبي ﷺ إلى الطائف، يلتمس من ثقيف النصرة والمنعة له من قومه، فلم يفعلوا ولكنهم أغروا سفهاءهم وعبيدهم يصيحون به ويسبّونه حتى ألجأوه إلى بستان لعتبة وشيبة ابني ربيعة وهما فيه، فلما اطمأن ﷺ دعا ربه قائلا: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت ربُّ المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني؛ إلى بعيد يتجهمني، أو إلى عدو ملكته أمري إن لم يكن بك غضبٌ عليّ فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن ينزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، لا حول ولا قوة إلا بك» فسرى الله عن النبي ﷺ برحلتي الإسراء والمعراج، ثم أمره سبحانه بالهجرة إلى المدينة كي تبدأ الدعوة للإسلام في العمل في ديار مسلمة تحمي الدعوة وترسي دعائمها ولتنطلق لتعم كل أرجاء الجزيرة العربية والآن لا تخلو بلد من بلاد الدنيا من المسلمين.

هذا ويسعدنا أن نُهنّئ المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها بالعام الهجري الجديد ضارعين إلى الله أن يعم السلام والرخاء على الدنيا بأجمعها وأن يزول الشقاق والخلاف بين أبناء الوطن.

ماذا قال بعض كبار الشعراء في استقبال العام الجديد



تمنيت للأستاذ الكبير/ عباس العقاد

تمنّيتَ لي الإسعادَ فاسعدْ وأمّلِ
وعلّلتني بالخيرِ فاسلمْ وعلّلِ
وبشّرت بالعامِ الجديدِ كأنني
أبدّل حالاً بين ماضٍ ومُقبلِ
فبشّر بعامٍ زال عنّا مذمّمًا
وإلاّ فما البُشرى بعامٍ مؤمّلِ
يرمّنا بما يمضي الغداة، فبعده
أحبُّ إلينا من مُلاقاة ما يلي
ذر النجمَ يجري في الفضاء لشأوه
ويعبرُ منه منزلا بعد منزلِ
ويُبدل أيامًا بأخرى ويومُنا
على الدهرِ يومٌ ليس بالمتبدّلِ
سقاها لعمري عدّنا الخطو بعده
إذا كان لا يدنو بنا من مؤمّلِ
يجدُّ سيقصنا عن الغفلة التي
تعمنا بها في أمسنا المترحّلِ

وقال حافظ إبراهيم:



قصُرتُ عليكَ العمرَ وهو قصيرُ
وغالبتُ فيكَ الشوقَ وهو قديرُ
عسى ذلك العامُ الجديدُ يَسُرّني
بِبُشرى وهل لليائسين بَشيرُ؟
جرَتْ أمّةُ «اليابان» شوطًا إلى العُلا
ومصرُ على آثارها ستسيرُ!
ولا يمنعُ المصريَّ إدراكَ شأوها
وأنت لطلّابِ العلاءِ نصيرُ

وقال أحمد شوقي:



العـــام أقبلَ، قُمْ نُحيّي هـلالا
كالتاج في هامِ الوجودِ جلالا
عيد «المسيح» وعيدُ «أحمد» أقبلا
يتباريان وضاءةً وجمالا
ميلادُ إحسانٍ، وهجرةُ سُؤددٍ
قد غيّرا وجه البسيطة حالا
قم للهلالِ قيامَ محتفلٍ به
أثني، وبالِغْ في الثناءِ وغالي
هذا هلالُكُمُ تكفّل بالهُدى
هل تعلمونَ مع الهلالِ ضلالا؟
سرت الحضارةُ حقبةً في ضوئهِ
ومشى الزمانُ بنورهِ مختالا
وبنى له العربُ الأجاودُ دولةً
كالشمسِ عرشًا، والنجومِ رجالا
حتى إذا انقسموا تقوّضَ ملكهم
والمُلكُ إن بطَلَ التعاونُ زالا

الهجرة النبويّة

الشاعر/ محمد حسن داود

لي زورقٌ فوقَ العبابِ مسيّرُ
يهتزُّ تحتَ عواصفٍ تتفجّرُ
مترقّبًا خوضَ المصاعبِ واثقًا
وعلى المخاطرِ همّتي لا تفترُ

ينساب نورُ الله يحدو خطوتى
فمضيت جذلانًا أخوض و أبحرُ
وشرعتُ أقتنصُ الجواهرَ
والسنا ومشاعرى بين المعارج تُزهرُ
لأصوغ فى شرف الحبيب يتيمة
تمحو كبائرَ نادم يستغفـــــــرُ
فى هجرة المُختار تشتبك الرؤى
والنبع كاد من الأسى يتحجّرُ
والحمد لله الذى وهب الفتـى
قبسًا من الفيض الجليل يُسَطِرُ
رفضت قريش نفحة علويّـــة
جاءت بدين للعباد يُطَهِّـــرُ
دينٌ على الأخلاق يبنى أمّـــة
فيها الأمانةُ والجهادُ الأكبـرُ
حريّة تُرجى بغير تحكّـــم
وعدالة فى العالمينَ تُقـــرَّرُ
ماكان للطبقات حظ يُرتجـى
فالحبُّ وَحّدَهم، وطاب العُنصُرُ
إن الأخوّة والمحبّة أصبحت
فى المسلمين وشيجةً لا تُبترُ
شر القبائل قدّمت فتيانهـــا
لتكون حادثة عليها أضمروا
فى دار ندوتهم تجمع شملهم
مثل الأفاعى بالمصائب تخطُرُ
وتآمروا كي يمحقوا نور الهُدى
وتخيروا شتّى السيوف ليغدروا
وسعوا إلى دار الرسول وعسكروا
وتجمّعتْ أحقادُهم كي يثأروا
ويطير «جبريل» الأمينُ مُحذرًا:
فدع الفراشَ فإنهم قد قرروا
فاخرج وهاجرْ.. أمرُ ربّك قد أتى
فمضى إلي الصّدّيق كى يتدبّروا
نثرَ التراب على رؤوس عصابة
فاستغرقوا فى النوم حين تخدّروا
وقضى «عليٌّ» ليلة بفراشه
متوشّحًا بُردَ النبيّ يفكّرُ

ليرُدَّ كلَّ وديعة فى داره
إن الأمين على الودائع يسهرُ
وتدارسوا خطط المسير لمخبأ
فى «غار ثور» قمة لا تُقهرُ
فى عتمة الليل البهيم تسللوا
كى يحذروا من حاقد يتنمّرُ
«أسماءُ» تأتيهم بأطيب مطعم
بشجاعة ويقينها لا يُقهـــرُ
أمسى «لعامر» واجبًا يسعى له
ويسوق أغنامًا تسيرُ فتطمرُ
يصطاد «عبد الله» أخبارَ العدا
يأتي بها للصاحبين فيخبرُ
«ذاتُ النطاقين» الكريمة جاهدتْ
وتعاونُ الشركاء غرسٌ يُثمرُ
بالرغم من هذا الكفاح تكشّفتْ
آثارُ أقدام ولاح الجوهَرُ
المشركُون تجمّعوا والكهفُ بَيْـ
ـنَ عيونهم وقلوبهم تتسعّرُ
ورأى «أبوبكر» جموعًا أطبقتْ
فيها «أبو جهل» يصول و يفجُرُ
قال الحبيبُ مُهدئًا من روعه:
«الله يحفظنا» وربُّك أقدَرُ
زاغت عيونُ القوم عن قصّادها
ونجا الأحبة والعداة تقهقروا
يئست «قريش» وانتهت آمالها
وغدتْ على كبرائها تتعثّرُ
سينالُ مائة ناقة من يأتها
بمحمّد فغدا الطموح يُفكرُ
أضحى «سُراقة» بالغنيمة هائمًا
وانقضّ فى الصحراء وحشًا يزأرُ
ومواكبُ الأنوار تُسرعُ فى الخُطى
محفوظة من كل باغ يظهرُ
وكبا الجوادُ وضاعتِ الأحلامُ فى
نَيْل المُراد.. وهل «سُراقة» يقدرُ؟
فيعودُ للمُختار يطلبُ عفوَه
ومضى على الدين الحنيف يُبَشّرُ

قد كان «إبنُ أريقط» مُتمتعًا
بكياسة بين الفيافى يعبُرُ
كان الدّليل لرحلة ميمونـــة
فى المشركين ومُخلصًا لا يُمكُرُ
طال المسيرُ وأجهدوا فاستروحوا
و«لأم معبد» فى المكارم مخبَرُ
واستقبلتْ أضيافها في خيمة
والشاةُ بالألبان باتتْ تمطُرُ

شكرَ الرسولُ صنيعَها وأثابها
وغدتْ حديثًا فى الكتاب يُسَطّرُ
وتحركوا صوبَ المدينة ضُحيَةً
والمسلمونَ على المشارف بكروا
واستقبلوا ركبَ النبيِّ بفرحة
وتناشدوا حلوَ الغناء وكبّروا
تاريخ هذا اليوم أصبحَ خالدًا
فى العالمين وذكرُهُ يتعطّرُ

وهذه قصيدة «المهاجر المنتصر» للشاعر فضيلة الشيخ عبد القادر محمد مطر

انوار «أحمد» أشرقت بالـــوادى
يطوى المفاوز يفتديه فؤادي
بين الهضاب وللهجير ضـــراوةٌ
فوق المهاد وسامق الأوتادِ
يمشى على الرمضاء خيرُ مُهاجرِ
وسماحة الرضوان فيضٌ بادِ
للحق يمضى ضاحيًا بصفاتـــه
نورٌ تبدّى فى رحاب الوادي
قمم الجبال تواضعت لمسيـــره
بالحب ترنو لخطوه المُتهادي
ودّعت بيتك والديارُ عزيـــزةٌ
مهد الرسالة، موطن الأجدادِ
من مكة الغرّاء تصدعُ داعيـــا
برسالة التوحيد قمتَ تُنادى
الصدق والصّديقُ أكرمُ صُحبةٍ
مهدوا الرمال لراحة الأجسادِ
جند السماء تنزّلت أرتالـــــها
وملائك الرحمان حول الهادي
وسراقة المأفون يلهثُ طامعًا
يعدو حثيثًا، باديَ الإلحـــادِ
أقعى الجوادُ بطلقه مُتعثـــرًا
ألقى الشقيّ يئنُّ بالأصفادِ

من غير قيد كبّلتهُ مهابـــــةٌ
لعق الرغامَ بذلّة ويُنـــادي
ضاعَ النبيُّ معاهدًا بوفائـــه
خط الرفيق مسطرًا بمـــدادِ
فارتحل مزهوًا بعهد أمانـــة
ويُدبّجُ الألفاظَ للأوغـــادِ
يتساءلون عن المُهاجر لهفـةً
فيروغ مختالاً بكلّ عنــادِ
والمشركون أذلة بعنادهـــم
جرعوا المهانة، وغُصّة الأحقادِ
ركبُ الجلال تتابعت أنـــوارُهُ
صوب المدينة قلعة الأمجادِ
المُعجزاتُ نبيّةٌ فوق الرُّبــى
أرجاءُ «يثرب» هلّلت للهـــادي
بين الربوع بشائرٌ ومعالـــمٌ
شعب يُرتّل أعذبَ الإنشادِ
ومهاجرون تحلّقوا بنبيِّهـــم
هجروا الديارَ وفلذةَ الأكبادِ
السابقون الأولون بصدقهـــم
رمز الوفاء وخيرة الأجنادِ
مجدٌ تليدٌ سُطّرتْ آياتـــهُ
بخير ما نطق الورى بالضادْ !

بين الصحف والمجلات

أ. محمد جمعة

من تاريخ الإسلام في الولايات المتحدة

تحت هذا العنوان جاء مقال الأستاذ/ محمد وقيع الله المنشور بمجلة البيان بعددها رقم ٣١٥ لسنة ١٤٣٤ / ٢٠١٣م جاء فيه:

أكثرت الوثائق التاريخية من ذكر أخبار الأقوام الذين هبطوا العالم الجديد قبل كولومبوس، فتحدثنا الوثائق الصينية القديمة التي تعرّضت للحديث عن مختلف الهجرات العالمية، مفصلة القول في هجرة بعض العرب المسلمين من أتباع دولة المرابطين المغربية التي دامت بين القرنين الحادي والثاني عشر الميلاديين، فتقول إن تلك الهجرة قطعت بحراً كبيراً خالياً من الجزر ومخرت أمواجه لأكثر من مائة يوم حتى انتهت إلى ما يعرف اليوم بأمريكا. وفي أوائل القرن الرابع عشر الميلادي طرقت بعثة استكشافية إسلامية إفريقية أخرى شواطئ أمريكا، يقودها ملك من مالي يسمى أبو بكر، كان غنياً غنى أسطورياً تحدث عنه ابن بطوطة [و] القلقشندي وابن فضل الله العمري. وقد قرر ذلك الملك أن يستخدم تلك الثروة الهائلة فيركب ثبج البحر ليكتشف ما وراءه من الآفاق وربما كان بقايا هؤلاء الرجال هم أولئك السود الذين التقاهم كريستوفر كولومبس وتحدث عنهم في مذكراته عن الرحلة الثالثة، ووصفهم بأنهم كانوا سود البشرة، ويحملون أسلحة مذهبة، وأنهم أغنياء بما لهم من متاع وأدوات، وربما تمت إبادة هؤلاء السكان لاحقاً ضمن الأقوام والسكان المحليين الذين أجهز عليهم المهاجرون الأوروبيون الذين توافدوا على القارة الأمريكية إثر كولومبس. وربما كانت المساجد الأثرية التي اكتشفت في كل من نيفادا وتكساس والمكسيك من بقايا آثارهم. وقد ذكر كولومبس في مذكراته بتاريخ الحادي عشر من أكتوبر ١٤٩٢م، أنه ربما رأى مسجداً بمنارة طويلة قبالة الساحل الكوبي. وكولومبس يعرف المساجد جيداً؛ لأنه أتى من الأندلس المسلمة في عام سقوطها في يد النصارى، فإن كان ما رآه مسجداً بالفعل فلعله كان أيضاً من آثار أولئك الأفارقة المسلمين الذين هبطوا أمريكا قبله. وقد ذكر كولمبس أنه رأى أقواماً يشبهون أهل الأندلس، واستغرب من انتشار الحجاب في أوساط نسائهم. وتوجد بأنحاء الولايات المتحدة الأمريكية اليوم نحو ثلاثمائة مدرسة إسلامية للتعليم العام، وعدة مؤسسات للدراسات الجامعية، منها: الجامعة الأمريكية المفتوحة، والجامعة الإسلامية العالمية، وجامعة الإنترنت، والجامعة الإسلامية بشيكاغو، ومدرسة الدراسات العليا للعلوم الاجتماعية والإسلامية، كما أنشئت بعض المراكز البحثية المتقدمة المتخصصة في الفكر الإسلامي، أهمها: المعهد العالمي للفكر الإسلامي بفرجينيا.

فقه الهوية والمسألة الدستورية

تحت هذا العنوان كتب الدكتور / إبراهيم البيومى غانم مقالا نشر بجريدة الأهرام بتاريخ: ١٤ / ٩ / ٢٠١٣ م يقول فيه:

... هل المحافظة على هوية مصر تكون بمادة أو بعدة مواد فى نصوص الدستور؟ أم أن الوضع الصحيح هو أن تكون الهوية المصرية بمكوناتها وروافدها المتنوعة بمثابة «روح» تسرى فى جنبات الدستور، وتتغلغل فى كل مادة من مواده؟ فى رأيى أن الهوية المصرية يتعين أن تكون من الدستور بمثابة الروح من الجسد. وفى هذه الحالة فإن كل مادة من مواد الدستور يجب أن تأتى مشبعة ومترعة بمضمون الهوية وحافظة للمشتركات العامة التى تتشكل منها هذه الهوية. إن الوظيفة السياسية للهوية هى أن تكون نواة صلبة تلتقى حولها كل طوائف المجتمع وتتمسك وتدافع عنها كل تكويناته وجماعاته أيا كانت توجهاتها واختياراتها السياسية والفكرية. الأصل فى «فقه الهوية» هو أن يتمكن الإنسان من تعريف ذاته بذاته لا أن يعرفها بنسبة نفسه إلى شىء خارج عنها. وكمال الهوية هو أن يتحرر المواطن من الضعف، ومن الذل، ومن العوز ومن الشعور بالخوف أو بالنقص. أن يمتلئ قلبه بالاطمئنان، ونفسه بالسكينة، وضميره بالراحة، وعقله بالحرية، وهذه مشتركات عامة لا يمكن نسبتها لفئة دون أخرى. مع الاحتفاظ بما يميز الذات عن غيرها فى جانب أو آخر، فهذه هى الخصوصية، وهى لا تعادل الهوية أبدا. وما ينطبق على الفرد ينطبق على الجماعة والمذهب والملة والقومية والمجتمع والشعب والأمة فى مجموعها الأكبر، وينطبق على كل تكوين ينتمى إلى الإنسانية. والحكمة من فقه الهوية هى التعرف وفق الأصول المشتركة الجامعة للإنسانية فى مجموعها، لا وفق الفروع المنفصلة المفرقة للإنسانية إلى شعوب وقبائل كما قد يتبادر إلى الذهن. إن الحكمة من الاعتزاز بالهوية فى السياسة والاجتماع هى التواصل لا التقاطع. هى التعارف والتقريب لا التخالف والتبعيد. الأصل فى نزعة الانفصال أن يمتلئ قلب الإنسان بالشك وانعدام الثقة، ونفسه بالخوف والرهبة، وضميره بالعذاب، وعقله بالقيود والكوابح. وما ينطبق على الفرد ينطبق أيضا على الجماعة والمذهب والملة والقومية والمجتمع والشعب والأمة فى مجموعها الأكبر. وينطبق كذلك على كل تكوين ينتمى إلى الإنسانية. الغرض من النزعة الانفصالية هو التصرف وفق الرغبات الخاصة، لا الأصول المشتركة. هى التقاطع والتنافر، لا التقارب والتعارف. هى كالحكمة من «ضمير الفصل» فى فقه اللغة العربية، حيث لا موقع له من الإعراب دوما. لكن سيرورة فقه الهوية والخصوصية والانفصال فى الأزمنة الحديثة لم تنسجم مع المعنى الذى قدمناه. فبدلاً من أن يكون فقه الهوية والخصوصية مدخلا إلى التواصل والتشارك والانفتاح، بات فى خضم صراعات القرن التاسع عشر وما تلاها من أحداث جسام إلى اليوم؛ سببا للانفصال والتقاطع والانغلاق، وعوضا من أن تصبح الأخوة الإنسانية هى جوهر فقه الهوية، بات جوهر هذا الفقه هو الانقسام على أسس رأسية: عرقية، وعنصرية، وثقافية، ولغوية، ومذهبية. بل الأدهى والأمر من ذلك هو أن أضحى «الخلاف السياسي» أساسا للانقسام والتنصل المتبادل بين التيارات والقوى الحزبية المتنافسة، فى حين أن تباين وجهات النظر فى تقدير المصالح العامة وكيفية تحقيقها هو الأصل فى الخلاف السياسى لا أكثر ولا أقل. ولم يعد يتردد فى سمع أبناء الزمن الحديث والمعاصر المعنى الذى نبهنا ونبه البشرية كلها إليه الرسول صلى الله عليه وسلم فى قوله «كلكم لآدم وآدم من تراب، لا فضل لعربى

على عجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى». «الهوية» بالمعنى الذى أشرنا إليه تنتمي إلى الفقه السياسي والاجتماعي، انتماؤها إلى الفكر الفلسفي. فلهذا المفهوم جذور عميقة تشده إلى بدايات الفكر الإنساني ومحاولاته الأولى من أجل «معرفة الذات المجتمعية». كما أن له حضوراً كثيفا في التاريخ الحديث والمعاصر، حيث أمسى موضوعا على قائمة مطارحات الفلاسفة، وقادة الفكر السياسي والاجتماعي، ومؤسسي النظريات الفلسفية الحديثة، وواضعي الدساتير.

وداعاً د/ عبد الفتاح الشيخ

تحت هذا العنوان كتب أ. د/ جعفر عبد السلام مقاله المنشور بجريدة [المصريون] بتاريخ : ١١ / ٩ / ٢٠١٣م جاء فيه :

انتهت السبت ١ من ذي القعدة سنة ١٤٣٤هـ رحلة عطاء لأحد علماء الأزهر الذين بذلوا حياتهم في خدمته تعليماً وعلماً ودعوة، إنه رجل الأزهر عبد الفتاح الشيخ الذي كان رئيساً لجامعة الأزهر لفترتين متتاليتين، ورئيساً للجنة الفقه في مجمع البحوث الإسلامية وأستاذاً لمادتي الفقه والأصول في العديد من الجامعات والمعاهد العلمية، كمعهد الدراسات الإسلامية، وقد ألف سيادته في العديد من الموضوعات المتصلة بتخصصي الفقه والأصول، ويعتبر نموذجاً للأزهري المتمسك بأزهريته المؤمن بقيمة هذا الصرح العلمي الذي ورث فيه العلم كابراً عن كابر، فوالده كان يدرّس نفس تخصصه، ومد الله في عمره ليظل هو وابنه يدرّسان معاً نفس العلوم وقضى والده منذ سنوات قليلة وظل هو يحمل الأمانة ويؤدي رسالة التدريس والبحث وإبداء الآراء الفقهية من خلال لجنة الفقه في المجمع.

وعُرف عنه دائماً صلابته في الذود عما يراه صحيحاً، والدخول في معارك مع من يختلف معه في الرأي حتى ينتصر لرأيه طالما آمن أنه هو الصحيح، ولم يكن – رحمه الله- يتنازل لخصمه طالما رأى أن رأيه خطأ، أو أن الرأي قام بدافع من مجاملة لشخص أو لأي اتجاه.

ويذكر المنصفون أن الرجل ترك بصمات واضحة في إدارة جامعة الأزهر ساعدت على تحقيق ما كان يصبو إليه من رُقي بأحوال الجامعة وفي جعلها تتبوأ مكانتها اللائق بها بين الجامعات الإسلامية من ناحية وبين الجامعات الدولية من ناحية أخرى، كما كان له دوره الفاعل في نقل رابطة الجامعات الإسلامية من مدينة القرويين إلى مدينة القاهرة، وكان اسم الأزهر يرفرف على المؤتمرات والندوات العالمية التي عُقدت في أماكن متفرقة من العالم كأول جامعة أسست في العالم الإسلامي، شهدتُ ذلك في مؤتمرات دولية عُقدت في إيطاليا وفي النمسا وفي فرنسا وغيرها.

كما يذكر المنصفون أيضا أن الأداء العلمي والإداري في الجامعة كان في عصره الذهبي عندما تولى رئاسة الجامعة عبد الفتاح الشيخ، فقد اعتاد أن يأتي الجامعة فور أن يستيقظ مبكراً، ويتفقد مرافق الجامعة ومبانيها، ويطمئن بنفسه على حُسن قيام كل بواجباته، ويعلم الجميع أنه لم يكن يؤخر طلبا أو مصلحة لأحد، ولا شك أن نشاطه الإداري على وجه الخصوص قد أوجد روحا جديدة لدى العاملين بالجامعة، فلم يكن يسمح لأحد أن يتهاون في أداء عمله أو يقصر فيما عليه من واجبات.

لقد ترك عبد الفتاح الشيخ نموذجا طيبا ساميا للعمل في جامعة شامخة كبيرة، اتسعت مبانيها ومرافقها وبالتالي أعمالها في فترة رئاسته اتساعا كبيرا، ويشهد الجميع أن عصر رئاسته للجامعة كان عصراً ذهبياً اتسم بالأداء المتميز الراقي وإعطاء كل ذي حق حقه.

أنباء الأزهر

إعداد الأستاذين:
محمود الفشني - وعبدالموجود أمين

شيخ الأزهر يستنكر الحادث الإرهابي على كنيسة العذراء بالوراق

استنكر فضيلة الإمام الأكبر أ. د/ أحمد الطيب، شيخ الأزهر الشريف، وأدان بشدة الحادث الإرهابي الأسود الذي استهدف كنيسة العذراء بالورّاق، مؤكدًا أنه تصرف إجرامي ينافي الدين والأخلاق، وأعرب فضيلته عن تعازيه لأسر الضحايا.

وبيت العائلة ينعى ضحايا حادث كنيسة الوراق

كما تقدم بيت العائلة المصرية بأصدق آيات التعزية لقداسة البابا تواضروس الثاني بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية، في ضحايا الحادث الإرهابي الأليم الذي تعرضت له كنيسة السيدة العذراء والملاك بالوراق.

ويشد بيت العائلة المصرية على أيدي الكنيسة القبطية الأرثوذكسية والمصريين جميعا وأهالي الضحايا خصوصًا، ويؤكد أن الإرهاب عمل إجرامي لا دين له ولا وطن.

قريبًا.. عودة بعثة الأزهر إلى الصومال

بحث فضيلة الدكتور عباس شومان وكيل الأزهر، والدكتور قارح شيخ عبد القادر وزير الدولة الصومالي لشئون الرئاسة، والوفد المرافق له عودة بعثة الأزهر إلى مقديشو خلال المرحلة المقبلة.

وأكد وكيل الأزهر خلال اللقاء أن فضيلة الإمام الأكبر أصدر توجيهاته بضرورة دعم البعثات الأزهرية إلى جميع الدول التي تحتاج إلى علماء الأزهر في كافة التخصصات خاصة الدول العربية، والتي يعتبرها الأزهر امتدادًا لمصر.

وطمأن وكيل الأزهر الوزير الصومالي إلى أن الأزهر مستعدٌ للتعاون مع الشعب الصومالي لأبعد الحدود، خاصة فيما يتعلق بإرسال البعثات والمدرسين، وكذلك القوافل الدعوية بالإضافة لتدريب الدعاة والمدرسين على أحدث المستجدات العصرية.

وأشار وكيل الأزهر إلى أن الشعب الصومالي له مكانة خاصة في قلوب المصريين يتألم

لحاله ويراقب أوضاعه جيدًا ويسعى إلى أن يعود الاستقرار إليه.

ومن جانبه، قال الدكتور فارح شيخ عبد القادر إن الصومال بدأ عصرًا جديدًا نحو الاستقرار والأمن ويسعى لتحقيق التقارب السياسي بين جميع الأطراف، ولدينا خطة طموحة لتطوير التعليم لا يمكن أن يكتب لها النجاح بدون مشاركة رئيسية من الأزهر الشريف، وهو ما تسعى إليه خلال المرحلة المقبلة، خاصة فيما يتعلق بتعليم اللغة العربية وتدريب الدعاة وهو ما نأمل أن تحققه بمساندة الأزهر الشريف.

وقال السفير الصومالي عبدالله حسن إن الشعب الصومالي يطمئن لرسالة الأزهر ويستمع بإنصات إلى علمائه، ونحن أحوج ما نكون خلال هذه المرحلة إلى دعم الأزهر من خلال إرسال البعثات المتتابعة.

الإمام الأكبر يدعو طلاب الأزهر للهدوء والتركيز في طلب العلم

دعا فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب، شيخ الأزهر، طلاب جامعة الأزهر إلى الهدوء والالتزام بآداب الإسلام في طلب العلم والاهتمام بالدراسة؛ حتى يتمكنوا من الإسهام في بناء الوطن.

جاء ذلك على خلفية المظاهرات التي قام بها بعض الطلاب في جامعة الأزهر بالقاهرة وبعض المحافظات.

نائب رئيس جامعة الأزهر يؤكد: الدراسة لن تتوقف

أكد الدكتور إبراهيم هدهد، نائب رئيس جامعة الأزهر، على استمرار الدراسة في جامعة الأزهر رغم الأحداث التي شهدها الحرم الجامعي، مشيرًا إلى أنه ليس من المنطقي أن يتم تعطيل مصالح أكثر من ٤٠٠ ألف طالب وطالبة بسبب ما قام به فئة صغيرة من الطلاب.

وأوضح نائب رئيس جامعة الأزهر في تصريحات له نشرتها عدد من المواقع الإلكترونية أن التظاهرات التي حدثت بحرم الجامعة خرجت عن السلمية، مشيرًا إلى أن الطلاب حاولوا الخروج عن نطاق الحرم الجامعي.

وأكد هدهد على أن قوات الأمن غير موجودة داخل الحرم الجامعي للأزهر، وأن الشرطة وصلت حتى الباب الحديدي فقط، حتى تمنع خروج المظاهرات عن نطاق الحرم الجامعي.

الجدير بالذكر أن شهود عيان ذكروا أن قوات الأمن نجحت في احتواء الموقف وإعادة تسيير حركة المرور مرة أخرى بعد الشلل التام الذي أصاب محيط جامعة الأزهر جراء هذه المظاهرات والمناوشات.

قرارات صارمة لرئيس قطاع المعاهد الأزهرية بعد جولته المفاجئة

قام فضيلة الشيخ جعفر عبدالله رئيس قطاع المعاهد الأزهرية، برافقه الأستاذ أحمد عبدالرحمن، مستشار اللغة الإنجليزية بقطاع المعاهد الأزهرية، والأستاذ محمد محمود مدير الشئون القانونية بمنطقة القاهرة الأزهرية، بجولة مفاجئة لمعهدي المرج الإعدادي الثانوي بنين وفتيات. حرص فيها كعادته على حضور طابور الصباح وإلقاء كلمة فيه، حثّ فيها الطلاب على طلب العلم من أجل رفعة الوطن، وأن البلاد لن تنهض إلا به، مضيفًا أن محراب العلم يجب أن يكون بمنأى عن السياسة وأن لا تمتد إليه بأي حال من الأحوال.

وخلال الجولة تبين تقصير شديد لمدرسي معهد المرج الإعدادي والثانوي بنين مما دفع فضيلته إلى تحويل ٣٦ مدرسًا للتحقيق وخصم يوم من راتبهم، وكذلك خصم يومين من راتب أربعة موجهين لتقصيرهم في أداء عملهم، وتحويل شيخ المعهد ومسئول الجدول للتحقيق لعدم اعتماد جداول المدرسين وختمها بخاتم المعهد.

ثم انتقل مباشرة بعد ذلك إلى معهد فتيات المرج، والذي ظهر فيه سوء توزيع لمدرسي مادة الفلسفة حيث تبين وجود ٦ مدرسين بالمعهد على ٣ حصص فقط، وكذلك عدد ١٧ إداريًا، في حين أن المعهد لا يحتاج إلا إلى ستة فقط، فوجه سيادته بضرورة سد العجز بهؤلاء المدرسين والإداريين في أماكن أخرى تحتاج إليهم.

وبمروره على فصول المعهد وجد رئيس القطاع عبارات سياسية مسيئة ما بين مؤيد ومعارض لما يحدث في مصر، وعلى الفور أمر فضيلته بإعادة دهان الفصول التي يوجد بها كل تلك العبارات.

وفي السياق ذاته شدد فضيلته على بنات الطالبات خلال زيارته لمعهد المرج الإعدادي فتيات بضرورة الفصل بين السياسة والعلم، فالسياسة لها مكانها والعلم له محرابه المقدس.

تخصيص رقم ساخن لتلقي الشكاوى بالأزهر الشريف

خصص الأزهر الشريف خطًا ساخنًا برقم ١٩٤٩٣ لتلقي شكاوى واستفسارات المواطنين.

وقد تم توفير ٤ خطوط للرد على تلك الشكاوى بمكتب كل من فضيلة وكيل شيخ الأزهر، والأمين العام للمجلس الأعلى للأزهر، ورئيس الإدارة المركزية لمكتب فضيلة وكيل شيخ الأزهر، والمدير العام لمكتب الأمين العام للمجلس الأعلى للأزهر.

وعلى السادة المتعاملين مع الأزهر الشريف التأكد من الرقم المطلوب وهو ١٩٤٩٣.



للأستاذين أحمد رضوان - يحيى سليمان

مجلس الأمن يقر توصيات (بان) بشأن كيميائي سوريا

قال دبلوماسيون أمميون: إن أعضاء مجلس الأمن الدولي أقروا بشكل عام التوصيات التي تقدم بها الأمين العام للأمم المتحدة بان كي مون بإنشاء لجنة مشتركة - هي الأولى من نوعها - من الأمم المتحدة ومنظمة حظر الأسلحة الكيميائية للإشراف على تدمير الترسانة الكيميائية السورية.

وقال السفير الروسي لدى الأمم المتحدة فيتالي تشوركين للصحفيين إن الأعضاء الـ١٥ في مجلس الأمن لم يقدموا أي اعتراض على هذه التوصيات في جلسة محادثات أولية عقدت لبحثها، مضيفا أنه تم تسجيل التعاون الجيد من قبل الحكومة السورية.

ومن ناحيته، قال السفير الفرنسي جيرار أرو إن الجميع قالوا إن الأمم المتحدة ومنظمة حظر الأسلحة الكيميائية تقومان بعمل رائع، متحدثا عن اجتماع سادة التوافق، وهو ما أكده أيضا السفير البريطاني لدى الأمم المتحدة مارك ليال غرانت في تغريدة كتبها على تويتر.

وسوف يعد رئيس مجلس الأمن السفير الأذري أغشين مهدييف مشروع رسالة من مجلس الأمن إلى منظمة حظر الأسلحة النووية تتضمن بنود توصيات بان كي مون.

ودعت منظمة حظر الأسلحة الكيميائية إلى وقف إطلاق النار في سوريا حتى يتمكن خبراؤها من إتمام المهمة المنوطة بهم وفق الجدول الزمني المتفق عليه..

٨٠٠ مليار دولار خسائر الربيع العربي

ذكرت شبكة سكاي نيوز، نقلا عن دراسة أعدها بنك إتش إس بي سي، أن انتفاضات الربيع العربي ستكبد دول الشرق الأوسط نحو ٨٠٠ مليار دولار من الناتج الإجمالي الاقتصادي، إذ تواجه تلك الدول صعوبة في استعادة الاستقرار.

وأوضحت الدراسة، في سياق تقرير أوردته الشبكة على موقعها الإلكتروني، أنه بنهاية عام ٢٠١٤م سيكون الناتج المحلي الإجمالي للدول السبع الأكثر تأثرا (مصر وتونس وليبيا وسوريا والأردن ولبنان والبحرين) أقل بنسبة ٣٥٪ عما كان سيسجله لو لم تحدث تلك الانتفاضات خلال عام ٢٠١١م وقالت الدراسة إن التدهور الشديد في الميزانية، وتراجع فاعلية الحكومة، والأمن، وسيادة القانون ستضغط بشدة على جهود صانعي السياسات حتى فيما يتعلق بإعادة التوظيف إلى مستويات ما قبل الثورة. وتوقعت الدراسة تباطؤ نمو الناتج المحلي الإجمالي في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا إلى ٤٪ هذا العام، ثم ارتفاعه قليلا إلى ٤,٢٪ العام المقبل مقارنة بـ ٤,٥٪ في العام الماضي، و٤,٩٪ خلال عام ٢٠١١م وأشارت الدراسة إلى ازدهار دول الخليج بوجه عام منذ عام ٢٠١١م، وهو ما يرجع جزئيا إلى أن انتفاضات الربيع العربي أسهمت في رفع أسعار النفط، وشجعت حكوماتها على تعزيز الإنفاق على المنح الاجتماعية، بينما توقعت نمو الاقتصاد السعودي هذا العام إلى ٤,٣٪ ثم تباطؤه إلى ٤٪ في عام ٢٠١٤م، غير أن الدراسة أكدت في الوقت نفسه أن الربيع العربي ألحق ضررا باقتصادات دول الخليج أيضا لأنه زاد اعتمادها على الإنفاق الحكومي، الذي تموله إيرادات النفط.

وخلصت الدراسة إلى أن هذا الأسلوب لا يمكن أن تتحمله إلا الاقتصادات الأكثر ثراء في الخليج، وهي قطر وأبو ظبي والكويت.

مؤتمر استثنائي للاتحاد البرلماني العربي في دولة الكويت لمناقشة الانتهاكات الإسرائيلية ضد المسجد الأقصى

أشاد عدد من رؤساء الوفود العربية المشاركة في مؤتمر الاتحاد البرلماني الدولي الـ١٢٩ بمبادرة الكويت لاستضافة مؤتمر طارئ حول الانتهاكات الإسرائيلية ضد المسجد الأقصى.

جاء ذلك في تصريحات لرؤساء الوفود المشاركة في المؤتمر لوكالة الأنباء الكويتية (كونا) وتلفزيون الكويت أثنوا فيها على مبادرة رئيس مجلس الأمة مرزوق الغانم باستضافة الكويت مؤتمرا بشأن ما يتعرض له المسجد الأقصى من انتهاكات واعتداءات. وثمن رئيس مجلس النواب اللبناني نبيه بري تلك المبادرة لعقد هذا المؤتمر حول القضية الفلسطينية وخاصة القدس. وقال بري في الوقت ذاته إن العلاقات بين الكويت ولبنان وطيدة واصفًا إياها بتوأم العالم العربي وأن الكويت لم تتخل عن لبنان في جميع ظروفه حسب ما ذكرت كونا. من جهته أعرب رئيس الوفد الفلسطيني عزام الأحمد عن شكره وتقديره لمبادرة الكويت لمؤتمر خاص حول الانتهاكات الإسرائيلية للمسجد الأقصى مشيرًا إلى ما يتعرض له المسجد الأقصى من اعتداءات متكررة من قبل القوات الإسرائيلية.

رؤساء جامعات العالم الإسلامي يدعون إلى تعزيز التكامل والتعاون بين جامعاتهم

أوصى المشاركون في المنتدى الثاني لرؤساء جامعات العالم الإسلامي، في ختام أعماله في إسلام أباد، بإقامة أمانة دائمة لمنتدى رؤساء الجامعات يتولى عقد الاجتماعات المستقبلية للمنتدى، ويعمل على تعزيز التكامل والتعاون بين جامعات العالم الإسلامي في إطار اتحاد جامعات العالم الإسلامي. كما دعوا إلى المحافظة على جسور التواصل بين أعضاء المنتدى بما يسهم في النهوض بقضايا التعليم العالي في العالم الإسلامي.

وأكدوا ضرورة إحداث صندوق مشترك للبحث والتطوير من خلال الانفتاح على المؤسسات والمنظمات ذات الصلة في العالم الإسلامي ونظيراتها على المستوى الدولي من أجل النهوض بالبحث والتعليم العالي في جامعات العالم الإسلامي.

وأوصوا بتسهيل حركة الخبراء والمفكرين والطلاب في العالم الإسلامي تيسيرًا لتبادل التجارب والاستفادة من مرافق البحث المتوفرة لدى الجامعات الأخرى في العالم الإسلامي، وذلك من خلال توفير الدعم المالي وتطوير التدابير المؤسسية تحقيقًا لهذا الهدف.

وأكدوا أهمية التفاعل مع أعضاء المنتدى من أجل إحداث مراكز للتفوق في مختلف المجالات، والارتقاء بمستوى تصنيف الجامعات في العالم الإسلامي ليكتسي طابعاً مؤسسيا.

يذكر أن المنتدى الثاني لرؤساء جامعات العالم الإسلامي، نظمته الإيسيسكو، واتحاد جامعات العالم الإسلامي التابع لها. ولجنة التعليم العالي في الجمهورية الإسلامية الباكستانية، ومعهد كومستاس لتكنولوجيا المعلومات في مدينة إسلام أباد بالجمهورية الإسلامية الباكستانية تحت عنوان: (الجامعات في العالم الإسلامي: التحديات العالمية) وقد شارك الدكتور عبد العزيز بن عثمان التويجري، المدير العام للإيسيسكو، الأمين العام لاتحاد جامعات العالم الإسلامي، في أعماله وألقى كلمة في جلسته الافتتاحية.

مؤتمر مكة يبحث حقوق الإنسان بين الشريعة الإسلامية والمواثيق الدولية

انطلقت أعمال مؤتمر مكة المكرمة الرابع عشر تحت عنوان «حقوق الإنسان بين الشريعة الإسلامية والمواثيق الدولية» الذي نظمته رابطة العالم الإسلامي في مقرها بمكة المكرمة.

وقال وزير الأوقاف محمود الهباش الذي حضر حفل الافتتاح إن مثل هذه المؤتمرات تمثل فرصة لعرض الصورة الحقيقة الناصعة للإسلام التي اعتراها بعض الضبابية من بعض الطروحات المنحرفة التي فهمت الإسلام على عكس حقيقته.

وأضاف أنها فرصة أيضا للتلاقي مع العلماء والمختصين لتبادل الرأي وطرح الأفكار المشتركة ووضع القواعد والأسس وتقويتها بين أبناء الأمة الإسلامية وخصوصا مع هذه المواسم الإيمانية مثل موسم الحج.

ودعا الهباش العرب والمسلمين إلى زيارة القدس ودعمها، مؤكدا أن قضية القدس مطروحة دائما وهي تمثل عصب أي جهد وتحرك فلسطيني.

وكان الأمير خالد الفيصل آل سعود أمير منطقة مكة المكرمة أكد في كلمة ألقاها بالنيابة عن خادم الحرمين الشريفين على دعم السعودية لمثل هذه المؤتمرات التي تبين مبادئ حقوق الإنسان في الشريعة الإسلامية. كما رحب آل سعود بالحضور ناقلا لهم تحيات الملك عبد الله بن عبد العزيز آل سعود.

إضراب عام بالعراق احتجاجًا على سب الصحابة

دعت منظمات وهيئات وشخصيات عراقية إلى إضراب عام في البلاد تنديدًا بما جرى من تطاول على الصحابة. هذا في الوقت الذي حذر فيه رئيس الوزراء نوري المالكي مما وصفه بإذكاء الفتنة الطائفية. ونقلت وسائل إعلام محلية عن بيان أصدرته اللجان التنسيقية للحراك الشعبي في العراق تعلن فيه الإضراب العام عن العمل احتجاجا على الإساءة لصحابة الرسول.

وكانت مجموعة من الأشخاص قامت بدخول حي الأعظمية بشمال بغداد في مسيرة راجلة وسط حماية أمنية وهي تهتف بشعارات طائفية وتشتم صحابة رسول الله ﷺ وأم المؤمنين السيدة عائشة. وهو ما اعتبر محاولة لاستفزاز حي الأعظمية الذي يعد من أبرز أحياء بغداد السنية المعارضة لحكومة المالكي، ولجر البلاد نحو حرب طائفية.

وقال المتحدث باسم الحراك الشعبي محمد طه الحمدون إن محافظات الأنبار وصلاح الدين وكركوك ونينوى وديالى بالإضافة إلى العاصمة بغداد ستشهد إضرابا عاما يشمل جميع المرافق العامة، ما عدا الأمنية والصحية، احتجاجا على الإساءة لصحابة رسول الله.

يشار إلى أن هذه المحافظات الست تشهد مظاهرات واعتصامات متواصلة منذ قرابة عام احتجاجا على سياسات المالكي.

ودعا الحمدون الحكومة المركزية إلى «التدخل لمحاسبة جميع المتجاوزين على الرموز الدينية»، مهددًا بـ«الرد المناسب تجاه هذا التحدي الذي تجاوز جميع الخطوط الحمراء».

كما حذر رئيس الحكومة نوري المالكي من إذكاء الفتنة الطائفية في البلاد، وقال إن «انتكاسة مدمرة» حصلت في العراق بفعل ما وصفه بالجهل والجهلاء، «حيث خرجت مجموعة تسب بعض رجالات المسلمين والصحابة «من أجل إثارة فتنة طائفية». وأضاف أن التداعيات التي يشهدها العراق، «وإرادة لها أن تتخذ شكل الفتنة الطائفية، هي أعمال إرهابية تحركها إرادات سياسية دولية». وقال المالكي في المؤتمر الدولي لمكافحة الإرهاب في بغداد: إن الدول «الداعمة للإرهاب» ضربت العملية السياسية في العراق، وعطلت عملية البناء والاستثمار، داعيا المجتمع الدولي للتعاون الأمني من أجل القضاء على «آفة الإرهاب التي تهدد الجميع».

ألمانيا: ندوة عن الدين بين القانون والسياسة

في ندوة بمنطقة مصرف الادخار في مدينة «فورتهوزن» الألمانية تحدث الأستاذ الدكتور «هانز جورج أبيرت» من المعهد الشرقي في مدينة «ليبتسيج» الألمانية عن موضوع «الدين بين القانون والسياسة»، وأجاب عن الأسئلة في نهاية اللقاء، وأكد «أبيرت» أن الإسلام اليوم موجود في جميع قارات العالم كدين عالمي، وتعتبر عقائده الدينية والسياسية أمرًا مُعقدًا، إلا أنها تختلف - وبصرف النظر عن المبادئ التي تكون مقبولة بصفة عامة إلا أنها مهمة بالنسبة للزمان والمكان.

ويشكل هذا التوضيح جسرًا للمناقشات الحالية حول دور الدين في المجتمع في إطار ما يسمى بالربيع العربي. ويتعلق الأمر أولا بالظروف والأسباب المختلفة التي أدت إلى الصراعات والتي تعود بشكل كبير إلى الظروف الاجتماعية.

وفي نهاية المحاضرة كانت هناك محاولة لعرض وجهات النظر والسيناريوهات للمنطقة العربية.

فرنسا: رابطة الدفاع عن المسلمين تقاضي صحيفة شارلي إيبدو

أعلنت رابطة الدفاع القضائي عن المسلمين عبر بيان لها على صفحتها الاجتماعية بموقع «الفيس بوك» أنها ستقدم شكوى ضد الصحيفة الهزلية الفرنسية «شارلي إيبدو»؛ بسبب نشرها رسومًا كاريكاتورية مسيئة للإسلام.

وأكدت الرابطة أنه سيتم رفع حدثين أمام محكمتين جنائيتين، مؤكدًا أن الصحيفة تستخدم التمييز والحقد والعنف تجاه مجموعة من الأشخاص بسبب أصلهم أو انتمائهم أو دينهم، وهذه يعاقب عليها القانون بالسجن لمدة سنة أو دفع غرامة قدرها ٤٥ ألف يورو.

كما ستتدخل المحكمة الجنائية بمدينة «ستراسبورج» للحكم في هذه المنشورات باعتبار القانون الخاص بمحافظات «الألزاس - موزيل»، والعقوبة الجنائية هنا يمكن أن تصل إلى السجن ٣ سنوات.

ميانمار: مسلمو الروهنجيا يصلون العيد في المنازل بعد منعهم من التجمع

لم يستطع مسلمو الروهنجيا في ولاية «أراكان» في «بورما» أداء صلاة عيد الأضحى المبارك، ولا ذبح الأضاحي، إلا بعد دفع رشاوى، في ظل حظر التجوال المفروض على مسلمي الروهنجيا في الولاية.

وقال «أنور» - وهو زعيم محلي من مدينة «منغدو» -: مسلمو الروهنجيا في المدينة لم يتمكنوا من إقامة الاحتفال بهذه المناسبة الإسلامية، ولم يستطيعوا ذبح الأضاحي إلا بعد دفع رشوة للضابط المسؤول عن إدارة القرية؛ حيث طلب مبلغ ٢٠٠٠ - ٣٥٠٠ كيات بورمي عن كل بقرة تذبح كأضحية في هذا اليوم المبارك.

وقال «أنور»: صلينا صلاة العيد في المنازل مع الأقارب، وذبح بعضنا الأضحية، ووزعنا اللحوم على الفقراء في «منغدو»، ونحن سعداء لتوزيع اللحوم على الفقراء؛ لأنهم غير قادرين على شراء اللحوم.

وقد اجتمع مسئول المدينة من طرف الحكومة «أونغ مينت سوي» مع الضباط المشرفين في مكتبه يوم ١٤ أكتوبر؛ حيث قال أحد المشاركين في الاجتماع: إن الضابط المشرف طلب قائمة أسماء من طلاب الجامعة الذين طلبوا من الرئيس «ثين سين» رؤيته حول مستقبل الطلاب الروهنجيين، ومساعدة أفراد الأمن للحفاظ على القانون والنظام في المناطق، والنظر في قانون الطوارئ.

the worldly affairs to the human being, as he is the matter in managing the worldly affairs. It is the outcome of the rationalism of the positive enlightenment, which replaced Allah and religion with reason and experiment. It was separated from religion with regard to managing the affairs of the world. To sum up, the followers of the Western enlightenment said:

"The human being submitted only to his mind in the ideology of enlightenment, which established great epistemological separation, isolating two ages from the human spirit: the age of the theological of Saint Thomas Aquinas and the encyclopedic age of the philosophers of enlightenment. They lost heart in divinity, leaving space for the age of rationalism and the dominance of mind. Belief in the Divine Grace diminished before naturalism. Then, Allah's Dominance became subject to the human awareness, which makes judgment in the name of freedom."[14]

This is the isolation of heaven from earth, and religion from the worldly life, and replacing Allah with the human being in managing the human civilization.

The advent of secularism along with the colonial conquest:

The French Campaign (1769-1821) on Egypt (1213-1798 A.H.) represented the beginning of the modern Western colonialism to the Arab nation, the heart of the Islamic nation, after colonialism remained in this nation throughout four centuries. This invasion differed from the Crusade invasion (489-690 A.H. / 1096-1291) in targeting the mind, replacing thought, and changing the identity along with occupying the land, plundering wealth, and enslaving the people.

[14] Emile Paula: [Freedom, secularism: The war of the two parts of France and the principle of modernism], Cerf's publications, Paris, 1987, cited by Hashim Saleh, Al-Wehdah Magazine, Morocco, February and March issues, 1993 [pp. 20-21].

Secularism was one of the things that came with the invaders, and the first time when the French word "Lalique", i.e., secularist was added to the French Dictionary was in 1828 A.D. It was prepared by Luis Buqtar Al-Masri, who served the troops of the French Campaign in Egypt, then he departed with it to teach the Egyptian colloquial language in the schools of Paris. The word "secularism" in the French language was translated to mean "the world" versus "religion".[15]

Every place in the Islamic countries where the Western colonialism established a state and had authority, colonialism started gradually to replace the Islamic trend with the secularist trend in managing the state's affairs, ruling the society, and organizing the state, as it implanted the positive secularist laws where it removed the Islamic laws and its jurisprudence in its transactions.

- In Algeria and Tunisia, the French colonialism replaced Islamic laws with the positive secularist laws. England also did the same in Egypt after it has occupied it. `Abdullah Al-Nadim (1261-1313 A.H. / 1845-1896 A.D.) said about this coming secularist invasion:

"When each of the European countries entered an Eastern country, it entered claiming that it would spread reformation and urbanism, not that it would capture it. It also claimed that it would not interfere with the religious affairs or the habits of the country, but it could change it gradually, as what France did in Algeria and Tunisia, as it legislated laws including articles contradicting the Islamic Sharī`ah, and cancelled some of the corresponding rulings in Sharī`ah.

[15] Dr. Al-Sayyid Ahmad Farrag, Secularist, secularism, the lexical origin, Al-Hiwar magazine, issue 2, pp. 101-110, 1986.

"Allah's protection is limited to Himself, without any interference on this part in the partial events of the world and nature."[13]

The world is sufficed with itself, being managed by its inner means and reasons. It is solely the source of actual knowledge, which is provable and justifiable. The management of the world is caused by the human being with his mind and experiment without any interference from Heaven. This is what secularism is based on in establishing its belief in the worldly sole effect on the part of the conception of Aristotle of Divinity. Allah is the Creator, Who is confined to take care of Himself after finishing the creation of the world without any management of the affairs of the creatures, like the maker of the watch, which made its mechanism without any need to be with it while working.

Secularism was helped to support this approach by the Christian conception of the relationship between religion and the state. It isolated the regime from religion without presenting a certain law for the society and the state. This matter led to confining the religion to the Church, and in the individual's conscience "the revolution of the religious reformation" and not antagonism to religion.

It was also helped by the Roman heritage in the philosophy of legislation, as it considers that benefit is not linked to religion and its morals, and the divine law is the criterion. Thus, the way to positive law was opened in front of secularism, being supported by this heritage.

Secularism rose in this atmosphere; within the context of the Western enlightenment, representing the isolation of heaven from earth, and liberating the human society from the divine laws and its limits, and limiting the management of

[13] Dr. 'Abdul Rahman Badawy: "The Encyclopedia of philosophy," chapter on Aristotle, pp. 104 and 106, Beirut edition, 1984.

societies, and sciences. The Secular Revolution restored to the Church its earlier limits, which is spirituality and divinity without any interference in the regime. In addition, it relied on the mind and experiment instead of religion and divinity in managing the affairs of the human society. It erupted in response to the European Enlightenment, which was isolated from the priestly regime and established the modern Secularism on the old European heritage and the rationality of the modern European Enlightenment, as it replaced the religion and divinity with mind and experiment.

It isolated heaven from earth, stemming from the idea that the world is sufficed by itself, and its nature and power dominate everything in it, without any need to divine protection or legal arrangement of affairs. Secularism means referring to mere humanism in managing the affairs of the world from inside the world, without any need to divine laws, which are divine Revelation, which is not part of the world.

The European secularism, apart from the atheist materialism, is an approach that believes in Allah. Its philosophers such as Hobbes (1588-1679), Lok (1632-1716), Leigbnis (1646-1716), Rousseau (1712-1778), and Lessince (1729-1871) managed to reconcile between believing in the existence of Allah, Who created the world and secularism, which sees that the world is sufficed with itself. It limited the management of the human community in the human authority, which is free from Allah's obligations. This reconciliation was based on the conception of Aristotle with regard to the scope of Divinity. In the conception of Aristotle, that Allah created the world and is isolated from it. However, it left in the world and nature, the reasons and means that manage the affairs of the world subjectively, without any need to the divine interference and protection after the phase of creation.

"Movement exists without any incentive that causes this movement to take place."

Secularism…!

By: Dr. Muhammad Imarah

Editor – in – Chief of Al-Azhar Magazine.

The term and the circumstances of its rise:

The word "'Almaniyyah" is translated in English as "Secularism" and this term is prevailing in Arab Republic of Egypt and the Arab states. It means something real, worldly, and global, and it is the opposite of the "Sacred", i.e., the religious or priestly, which replaces heaven, assumes complete control of its authority, and exceeds the norms of nature, and sanctifies the worldly life in the way religion is sanctifies. It also implanted its variables, such as the scientific, legal, and social variables in the way religion is implanted and firmly established.[11]

As this is the term in its European rise and circumstances, which is the worldly and realistic approach in managing the world affairs without resorting to Sharī'ah, the analogical form of this term is universality and the non-analogical form, i.e., Secularism is the form which prevailed and became well-known.

Secularism as a tendency to manage the affairs of the world and an approach to the worldly reference of the human affairs, can not be understood – as well as Islamic attitude towards it – apart from the European circumstances surrounding its rise in

[11] See "The Social Sciences Lexicon", produced by the Arabic Language Academy, in Cairo, 1975' "Sociology Lexicon", supervised by Dr. 'Atef Ghayth, Cairo edition in 1970' and "Secularism and Islam between Thought and Practice.", pp. 7 and 7, Cairo edition, 1976.

the framework of the Christian Western civilization, with its philosophical Greek origins, legal Roman heritage, and the Christian addition to this origin and heritage.

If detailing these issues is out of the point of this study, we will refer only to some of these issues in brief.

-Christianity remained since its rise and throughout long centuries in its European communities a religion, not a state, and a legislation of love that do not provide the society with any legal reference or a regime. The mission of the Church was relevant to heaven only and has nothing to do with earth and managing the affairs of the human communities in politics, sociology, economy, and knowledge.

The Theory of the Two Swords governed the relation between the Church and the state. These swords are the spiritual sword or the religious authority of the Church and the worldly sword of the civil authority of the state.

When the state exceeded the limits of the spiritual message and seized the worldly authority, it added to the world the sanctity of religion and established the variables of the human society in the way it established the religion. The European communities entered the phase of stagnation, decline, and the dark ages. In this period, the Theory of the One Sword dominated, and it combines the religious and worldly affairs, as the states at that time were ruled by the priests or the kings who were appointed by the priests. This system was known in the European history by the Divine Right of the King.[12]

Secular Revolution appeared to confront this system and cultural decline, resulted from the sanctifying the state and its rules and stagnated the worldly life, its

[12] See" The Political Encyclopedia", col. 1, Chapter of the Right of the Divine Governance, Kuwait University edition, 1994.

care attached to choosing these terms and employing them in a way to remove obstacles and the intermingling of borders between the origins of heritage and the tradition of origins. As tradition and innovation means changing the real state of affairs, the treatment is to display the old tradition according to the needs of the age, as it revives the heritage and forms it in new forms and concepts. As the real state of affairs changes, the heritage changes in terms of frameworks and concepts, and origins and branches.

At this point, the projects surprise us with the following text: "We start from religion fundamentals science which gives the audience the general theoretical bases, which define our conceptions of the universe. And starting from the reformation of the origins, we find that the form of the branches change by its nature. This means changing from the mind to the nature, from soul to material, from Allah to the world, and from the unity of the creed to the unity of behavior."[8] The text with its general clarity does not need any comment. Innovation process depends firstly on which is called by the project "changing the central axes," on which the tradition focuses. This means innovation starts with amending these axes and changing its directions and centers. The same axis may have many names, and it may result in other axes intermingling with it.[9]

For example, if the old tradition focuses on Allah, then the innovation in this regard is concentrating on the human being. This is achieved through the second

[8] M/N: 63

[9] Religion and culture of patriotism, by Hasan Hanafy, 36.

party of the Revelation. Revelation is Allah's Address to the human being, and the priority is given to innovation with regard to the Revelation. This means addressing the human being and not addressing Allah, or as the professor says "anthropology" not "theology". Tradition and innovation does not suffice with the unreasonable, as the wording "Address" or "Revelation" can not be understood except between two parties" Revealer and the person revealed to, and sender and recipient, and addresser and addressee. As this address is divine, then the divine side is taken absolutely as an origin in addressing. Rather, the address does not acquire its value and effect on the human being except through being linked to this source and to stem from it.

We say that innovation and tradition does not suffice with eliminating the divine source from the address. However, it keeps changing the concept of theology through the new unreasonable concept from its well-known meaning to a strange meaning.

The professor says: "Allah includes the dimension of comprehensiveness and generality in the human life, on the basis of which we can deal with others on equal footing with the guarantee of the presence of a comprehensive standard for judgment and a general standard for behavior. This occurred in the West after the age of Renaissance in the sixteenth century.[10]

[10] M/N: 36

which were at the back of sending down the verses. This only aims at understanding the meaning of the verses."[2]

Then, the contradictions of the same idea follow through frank texts which embody this contradiction. They deny after affirmation, and affirm after denial to the extent that it becomes impossible to realize the stance of the professor towards the issue "the relationship between the real state of circumstances and the Revelation". Rather, we can say that this issue is emptied of any significance or meaning.

One time the professor warns against explaining the Qu'anic verses, Hadiths, and rulings as "accidental circumstances or occasions submitting to the current events or time"[3], and at another time he calls for the necessity that the exegesis should transcend "the historical explanation in which most of the exegetes fell in. This is as if the Qur'an handles material events in certain time and place by collecting as much information as possible about past events."[4]

In another time, he regards the positive phenomena in our mental sciences "the reason for the religious text after explaining and understanding it without any remains that back to history or any other cultural environment. As for the negative phenomena, they have no ground in the religious texts which can not

[2] Al-Tahrir wal Tanwir, Ibn 'Ashour: 1/50.

[3] M.N.

[4] M.N.

back to them. In other words, these are the remaining phenomena which back either to history or to other origins."[5]

The professor again destroys what he proved here, adopting the contrary opinion. This is called by those who commented on the project of tradition and innovation the dance of contradictions,[6] which dominates most of the outcomes of this project.

The mission of tradition and innovation from the viewpoint of the profession is getting liberated from the authority with all its types – the authority of the past and the authority of the heritage – as there is no authority except of the mind and no authority except for the necessity of the real state of circumstances and liberating our contemporary conscience from obeying the authority, whether this is the authority of the heritage or that of the authority of the religious texts."[7]

The eyes do not err in using intentional use of some of the open terms such as inherited tradition, legend, idolization, the authority of the religious text, and the talismans and secrets of the past. It is most probable for me that there is great

[5] In Al-Yasar Al-Ismay, Hasan Hanafy: 43.

[6] "The Cultured Arabs, by George Tarabishy: 114; Fu'ad Zakariya commented on the contradictions in "heritage and innovation" by the following inquiry: "...If we assumed that a historian wanted in the future to determine the general stance of Hasan Hanafy in this issue, will the mental faculties of this historian remain intact after swinging with our author in these mad contradictions which handle this subject? Refer to "Fact and Illusion in the Contemporary Islamic Movement", 57.

George Tarabishy specified a great part in his book to "The Cultured Arabs and Heritage" to analyze the contradictions of "Tradition and Innovation" which are divided into:

1- Contradiction in the methodological stance.

2- Contradiction in the stance towards issues.

[7] M/N

Tradition and Innovation:

-6-

"The lost effort of pioneer of "Tradition and Innovation" in his attempt to subject the revelation to the real state of affairs"

By: The Grand Imam Prof-Dr. Ahmad Al-Tayyeb, Al-Azhar Sheikh.

Sheikh Ibn ʿAshour commented on these types saying: "The Qur'an was sent down to guide the nation and to make legislations for it. This guidance may have been sent down before the need for it or may be addressing a group of people for the sake of rebuking, praising them, or both of them. Also, it may address whoever can be addressed by it. In all cases, it was sent down with Sharīʿah and to refine the people."[1]

We apologize for the reader if we wrote in detail about something he knows well. However, we wanted to say that the reasons for sending down the noble Qur'an in our old heritage do not mean linking the revelation to the real state of affairs in its intensity or stability, as the followers of tradition and innovation say.

[1] M.N.

However, this is opposite to this idea, as the reasons for sending down the noble Qura'n mean amending the real state of affairs according to the revelation. It can not be understood from the reasons for sending down the noble Qur'an that the revelation in our old heritage is not a set of permanent and stable facts. However, this is an explanation of a certain occasion, certain historical situation, and certain group. Also, it is understood from the reasons for sending down the noble Qur'an after refining and correcting their narrations that what matters is the general meaning of the word not the specialty of the reason.

It is strange to understand that the viewpoint holding that the Revelation follows the real state of circumstances in which it was sent down, and which the originator of "tradition and innovation" exerted hard effort to spread, the same project denies it in many other positions. The reader following the relation between the Revelation and the real state of circumstances becomes confused, not knowing whether the innovation in this project stems from the opinion that the Revelation affects the real state of circumstances or that Revelation is affected by it.

The previous theory which was handled in detail is concluded with another opinion. We do not say that it is turned upside down in another context. However, we say that it reveals itself in another position, in which the professor said: "We do not care in the exegesis of the Qur'anic verses to refer to the historical events,

(Glory be to Him) commanded the Messenger to immigrate, the first action he took is to go to Abu Bakr's house secretly, as we said before.

The Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) chose certain people whom he asked to do certain things; he ordered `Ali ibn Abu Taleb to sleep on his bed and to be covered with his cover, and he ordered him to render back the trusts owed to certain people from Makkah to their owners. This is because they had confidence in the Prophet's honesty.

The purpose behind `Ali's sleeping in the bed of the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) was to let the disbelievers of Makkah surrounding his house to believe that he is still sleeping, not to chase and follow up him. He also ordered Asma'a bint (daughter) of Abu Bakr to send food for them while they were in Thawr Cave, the place chosen by the Messenger to stay in on their way to Yathrib. He also ordered `Aishaa (may Allah be pleased with her) to stay at home to prepare food, and ordered `Abdullah ibn (son)Abu Bakr to wander at the places where Quraysh members gathered and to try to get news about their attempts to reach the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) and his Companion on their way to Al-Madinah.

The disbelievers of Makkah reached in course of their search for the Prophet Thawr Cave, Allah (Glory be to Him) harnessed to them a spider that spin its web at the door of the cave and two pigeons that stood at the door. This was to assert that it is impossible that any person had entered this cave for long years. Abu Bakr feared when he heard the footsteps of the disbelievers of Makkah and their conversations. He said to the Messenger of Allah: "If anyone of them looks under his feet, he will see us." The Messenger of Allah replied to him in a state of reassurance: "O Abu Bakr, what do you think about two persons, whom Allah is their Third."

About this incident, Allah said:

{If you help him (Muhammad peace be upon him) not (it does not matter), for Allâh did indeed help him when the disbelievers drove him out, the second of the two; when they (Muhammad peace be upon him, and Abu Bakr (may Allah be pleased with him) were in the cave, he (peace be upon him) said to his companion (Abu Bakr may Allah be pleased with him): "Be not sad (or afraid), surely Allâh is with us." Then Allâh sent down His Sakinah (calmness, tranquillity, peace) upon him, and strengthened him with forces (angels) whom you saw not, and made the word of those who disbelieved the lowermost, while the Word of Allâh that became the uppermost; and Allâh is All-Mighty, All-Wise.}

[Al-Tawbah (Repentance); 40]

Abu Bakr did nor fear for himself, but he feared for the Messenger (may the blessings and peace of Allah be upon him), as he declared that because the Islamic Da`wah is linked to him. If he had been killed (may Allah forbid) the Islamic Da`wah would have ended, but Allah willed for it to continue.

The Messenger of Allah ordered `Amir ibn Fuhayrah to bring the goats, which he was responsible for graze to go to Thawr Cave to remove the footsteps of Asmaa bint Aby Bakr, who used to bring food for them by the imprints of the goats. The Messenger of Allah also hired `Abdullah ibn Uraiqet to guide them to the way to Al-Madinah (and he had not yet embraced Islam).

In this way, the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) taught us not to forget throughout the phases of our lives, either in prosperity or adversity, that we should not wait for supernatural events to solve our problems. We should benefit from all the possible means around us, and our imagination should not let us fail.

The lesson learnt from the Prophetic Hijira: 'The necessity that every Muslim should follow the cosmic reasons"

By: Dr. Ibrahim Al-Assil

After Allah (Glory be to Him) permitted His Messenger Muhammad (may the blessings and peace of Allah be upon him) to immigrate to Yathrib, the Messenger of Allah met with the delegations of the people of Yathrib, who Allah opened their breasts to Islam. They pledged allegiance with him to believe in Allah, and to support him against those who disbelieve in his message or launched war against him. The first meeting was called, " The first `Aqabah pledge of allegiance", and the second meeting was called" The second `Aqabah pledge of allegiance". Then, the Messenger of Allah permitted his Companions to immigrate to Yathrib (Al-Madinah Al-Munawwarah) after being reassured with the Ansars' support to him in Yathrib, where he and his companions would dwell. When the disbelievers of Makkah felt that the Muslims immigrated, they harmed the rest of muslims greatly and tried to prevent them from immigrating.

The first of the Companiosn of the Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him) to go to Al-Madinah was Abu Salamah `Abd Al-Asad, followed by `Amer ibn Rabi`ah with his wife Laila bint Hishmah, who were the first Muslim lady to immigrate to Al-Madinah. Then, the Companions followed in succession and dwelled at the Ansars' houses, and the Ansar welcomed them.

All the Companions of the Prophet immigrated secretly except sayyudna (our master)`Umar ibn Al-Khattab (may Allah be pleased with him), as it was narrated that when he was about to immigrate, he held his sword, in one hand, and arrows in the other hand and heeded towards the Ka`bah, where the men of Quraish were sitting at a corner. He started with performing Tawaf circumambulation seven times, then he went to the Station of Ibrahim and performed two Rak`ahs. Then, he stood and said in a voice that could be heard by all people: "Whoever wants his mother, his wife, or son to lose him, he may meet me behind this valley."

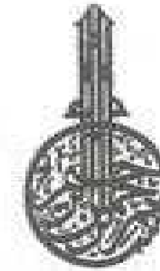
No one of the disbelievers of Makkah dared to respond to him, and he headed towards Yathrib with seriousness and bravery. Then, the Muslims followed each other to Al-Madinah and no one of them remained except the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him, Abu Bakr Al-Siddiq, `Ali Ibn Aby Taleb, and some of the weak and ill Muslims as well as those who were prevented by the disbelievers of Makkah from immigrating.

The Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) determined to immigrate, being accompanied by Abu Bakr, being fully prepared although Allah protects him with His Ability without any need on the part of the Prophet to be cautious or to hide himself.

The Messenger of Allah went to Abu Bakr's house at a time when he was not used to visit him, which is at the noon, to hide from the people of Makkah and he entered the house from a rear door, from which he had never entered.

It is well known that Abu Bakr asked the Messenger's permission before the immigration to immigrate alone, but the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) asked him to wait, so that Allah (Glory be to Him) may cause him (Abu Bakr) to accompany him (the Messenger, may the blessings and peace of Allah be upon him). When Allah

AL-AZHAR MAGAZINE
Al-Muharram, 1435 A.H



ENGLISH SECTION
November, 2013

In the name of Allah the Beneficent the Merciful

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾

الأعراف/ ٤٣

"Praise be to Allah, Who guided us to this; and in no way could we have been guided, unless Allah has guided us."
(Al-A'raf 43)

Editor: Dr. IBRAHIM Al-ASSIL
Professor at the Faculty of Languages and Translation.
Al-Azhar University.



الافتتاحية

المفهوم الإسلامى للإبداع
أ.د. محمد عمارة

تفسير القرآن
للإمام محمد عبده

الرق فى الإسلام
للإمام محمد البشير الإبراهيمى

رؤية جديدة لمقاصد الشريعة
أ.د. عبد المجيد النجار

هدية العدد

الصهيونية المسيحية والموقف الأمريكى
أ. محمد السماك

السعر جنيهان

www.AlazharMag.com

الأزهر

الافتتاحية

المفهوم الإسلامي للإبداع




الإمام محمد عبده


الشيخ محمود شلتوت


المستشار طارق البشري

هدية العدد

الصهيونية المسيحية والموقف الأمريكي

أ. محمد السماك

الرق فى الإسلام — الإمام البشير الإبراهيمى

الفنون الجميلة ومقاصد الشريعة — د. إبراهيم البيومى غانم

القدر والتسليم لله — د. على عزت بيجوفيتش

... شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية — صفر ١٤٣٥هـ ديسمبر/يناير ٢٠١٣م الجزء ٢ السنة ٨٧

داخل العدد



إلى السادة قراء مجلة الأزهر

تتوافر لدى إدارة مجلة الأزهر بعض الأعداد السابقة، فمن فاته عدد ويرغب فى الحصول عليه فيمكنه التوجه لمقر مجلة الأزهر بمجمع البحوث الإسلامية - شارع الطيران - مدينة نصر - الدور الثانى.



﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾



الأزهر

مجلة شهرية جامعة يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
بالأزهر الشريف فى مطلع كل شهر عربى
صدر العدد الأول فى المحرم عام ١٣٤٩هـ / ١٩٣١م
وحمل اسم «نور الإسلام»
ورأس تحريرها فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين



الاشتراك السنوي

داخل مصر ٢٤ جنيهاً مصرياً - الدول العربية ٥٠ دولاراً أمريكياً
أوربا وأمريكا ٨٥ دولاراً أمريكياً - اليابان وشرق آسيا ١٢٠ دولاراً أمريكياً
عن طريق قسم الاشتراكات بمؤسسة الأهرام
شارع الجلاء - القاهرة
ت: ٢٥٧٨٦١٠٠ - ٢٨٧٥٦٢٠٠

المراسلات باسم:

مدير التحرير - مجمع البحوث الإسلامية - مدينة نصر
ت: ٢٢٦٣٨٥٩٩

editor@alazharmag.com
readers@alazharmag.com

المفهوم الإسلامى للإبداع



لفضيلة الأستاذ الدكتور / محمد عمارة

من المواقف الفكرية المحتاجة إلى جلاء، موقف الإسلام من «الإبداع».. ذلك أن بعض الناس – حسن ظن بالإسلام.. أو إساءة ظن به – قد انطلقوا – جميعًا! – إلى الاتفاق على موقف خاطئ من رأى الإسلام فى «الإبداع».. ومن عجب أن اتفاق هؤلاء البعض – المتعصبين للإسلام والمتعصبين ضده – فى هذا الموقف الخاطئ، قد حدث انطلاقًا من تفسيرهم لحديث رسول الله ﷺ الذى يقول فيه: «إن أصدق الحديث كتاب الله، وإن أفضل الهدى هدى محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة فى النار»(١).

فانطلاقًا من هذا الحديث ظن البعض تحريم الإسلام لكل إبداع، ولجميع المحدثات والمستجدات، دونما تمييز بين إبداع يخالف ويناقض الكتاب والسنة – وهى البدعة فى ثوابت الدين، التى تخالف ما يجب فيه «الاتباع»، ويحرم فيه «الابتداع» – وبين الإبداع المحمود فى الفكر الإنسانى والصناعات العمرانية، بل وفى الفضائل الدينية التى لا تقع فى حيز المخالفة لأصدق الحديث – كتاب الله – ولأفضل الهدى – سنة رسول الله ﷺ – بل ودون وعى بأن اشتمال الكتاب والسنة على «أفضل» الحديث والهدى لا يعنى نفى «الفضل» عن جميع ما لم يرد فيهما!.. ولأن هذه القضية هى واحدة من القضايا الكبرى – والمشكلة – فى العقل المسلم المعاصر؛ زاد الجدل حولها، واشتد الاستقطاب بسببها – فإنها فى حاجة إلى جلاء، تبدأ خطواته من الأصول والجذور.

إن «الإبداع» – كما يعرفه علماء مصطلحات القرآن – هو: «إنشاء صنعة جديدة بلا احتذاء واقتداء».. وهو ذات التعريف الذى تجده فى معاجم العربية «فبدع الشيء يبدعه بدعًا، وابتدعه: أنشأه وبدأه، واخترعه، لا على مثال».

فـ«الإبداع» هو: إنشاء الجديد، واختراع غير المسبوق، وصناعة مالا مثال له، سواء أكان ذلك

١- رواه مسلم، والنسائي، وأبو داود، والدارمي، وابن ماجه، والإمام أحمد

فى صناعة الفكر أم فى الصناعات العملية للأشياء.

لكن علماء الاصطلاحات، فى حضارتنا، يميزون فى هذا «الإبداع» بين «البدعة فى الدين» – الذى اكتمل فى البلاغ القرآنى وفى البيان النبوى لهذا البلاغ – وبين الإبداع والاختراع فى «الفكر الإنسانى» الذى لم يقل أحد بإغلاق أبواب الإبداع فيه؛ لأنه – الفكر – ثمرة للوجود الدائم أبدًا، والمتغير دائمًا!.. و«الفكر» صناعة إنسانية، يأتى ثمرة «للتفكر»، بينما «الدين» وحى إلهى، وليس ثمرة «للتفكر»، حتى إنه لا يسمى – على الحقيقة – «فكرًا»؟!.. إنه «علم إلهى»، وليس «فكرًا إنسانيًا»، وفارق بين «العلم الإلهى» الذى هو سبب لوجود الموجودات، وبين «الفكر الإنسانى»، الذى هو مسبب عن هذه الموجودات، ومتغير ومتطور بتغيرها وتطورها!.

يميز علماء المصطلحات – الفنية.. واللغوية – بين «الإبداع الفكري» وبين «البدعة فى الدين»، عندما يعرفون هذه البدعة بأنها «الحدث، وما ابتدع فى الدين بعد الإكمال».

وإذا كان «التجديد» سنة من سنن الاجتماع الدينى فى النسق الفكرى الإسلامى، دائمة الفعل، عبر الزمان والمكان، لا تبديل لها ولا تحويل.. يقرر ذلك لها وفيها رسول الله ﷺ، عندما يقول: «يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها»(٢).. فإن «التجديد» لا يمكن إلا أن يكون ثمرة لـ«الإبداع»، ومثمرًا لمقادير، قلت أو كثرت، من «الإبداع»!.

وإذا كان «الاجتهاد» فريضة إسلامية، يتوقف عليها بقاء أصول الشريعة دائمة العطاء والإثمار لما يواكب المتغيرات والمستجدات والمحدثات، عبر الزمان والمكان.. فهذا «الاجتهاد» – الذى يختلف فيه إمام عن إمام.. ومذهب عن مذهب.. وعصر عن عصر – لا بد أن يكون ثمرة لـ«إبداع»، وحاملًا لقدر من «الإبداع»!.

٢- رواه أبو داود

فالتمييز بين «الإبداع في الفكر والصناعة» – أي في «العمران» وعلومه – الشرعية منها والمدنية – وبين «البدعة في الدين» – أي في ثوابته التي اكتملت بختم الوحي والنبوة – موقف واضح، لا غموض فيه ولا خلاف عليه بين علماء الإسلام.

بل إن أئمة المسلمين وفقهاءهم – من كل المذاهب الإسلامية – قد ميزوا في «البدعة الدينية»، بين تلك التي «خالفت» الكتاب والسنة، فهي «بدعة الضلالة» التي نهى عن إحداثها رسول الله ﷺ، في الدين.. وبين «بدعة الهدى» التي لا تخالف ما جاء به الكتاب والسنة، وإن لم يأت بها قرآن أو حديث.. وفيها تدخل الفضائل والخيرات وأصناف المعارف التي يبدعها ويبتدعها الإنسان، فتتحقق بها مقاصد دينية، رغم أنها لم ينص عليها البلاغ القرآني ولا السنة النبوية تحديدًا.. فهي إبداع يحقق «المقاصد الدينية» وليس «اتباعًا» لشعيرة حددتها الشريعة الدينية..

وفي هذا التمييز بين «البدعة الضالة»، و«البدعة المحمودة» يقول الإمام الشافعي (١٥٠ – ٢٠٤ هـ/ ٧٦٧ – ٨٢٠م): «البدعة: ما أحدث وخالف كتابًا أو سنة أو إجماعًا أو أثرًا، فهو البدعة الضالة. وما أحدث من الخير، ولم يخالف شيئًا من ذلك، فهو البدعة المحمودة».

فالبدعة، التي هي ضلالة، وفي النار، ليست الإبداع الجديد الذي لم يرد به وحي، ولم تنطق به سنة.. وإنما هي المخالفة لما جاء في الكتاب والسنة.. فالوحي الإلهي والسنة النبوية لم تحصر – نصًا وتفصيلًا – كل ما هو محمود، ومن ثم فأبواب «الإبداع» والابتداع للأمور المحمودة كانت وستظل مفتوحة أبدًا.. والمنهي عنه من «البدع» هو المخالف لمبادئ الشريعة وأحكام الدين.

ولم يكن الإمام الشافعي – ولا غيره من أئمة الإسلام – مبتدعًا لهذا التمييز – في البدعة الدينية – بين «البدعة الضالة» و«البدعة المحمودة» إنما كان هذا التمييز منهاجًا متعارفًا عليه في اجتهادات الصحابة واستجابة الخلفاء الراشدين للمقاصد المشروعة بأعمال صالحة لا تخالف النصوص والأحكام، وإن لم ترد في هذه النصوص والأحكام.

ومما روى الأئمة في هذا المقام «بدعة» عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – التي ابتدعها عندما جمع الناس على «قيام» رمضان، وذلك بأداء صلاة التراويح جماعة، وبانتظام.. وهو ما لم يفعله رسول الله ﷺ إذ كان يصليها أحيانًا ويتركها أحيانًا، ثم هو ﷺ، لم يجمع الناس لها.. فجاء عمر رضي الله عنه، فجعلها شعيرة دائمة في ليالي رمضان، وجمع الناس عليها وفيها.. بل وسماها «بدعة» فقال: «نعمت البدعة هذه» (٣)!.

روى الأئمة ذلك، واستشهدوا به على وجود «بدعة هدى محمودة» مغايرة لـ «بدعة الضلالة المذمومة»، وعلى ضرورة التمييز بين «البدعة».. و«الإبداع» حتى في الأمور الدينية.. ووجدنا عز الدين بن الأثير (٥٥٥ – ٦٣٠هـ/ ١١٦٠ – ١٢٣٣م) – وهو يتحدث عن «البدعة» – يقول: «البدعة بدعتان: بدعة هدى، وبدعة ضلالة. فما كان في خلاف ما أمر الله به ورسوله ﷺ؛ فهو في حيز الذم والإنكار، وما كان واقعًا تحت عموم ما ندب الله إليه وحض عليه رسوله؛ فهو في حيز المدح. وما لم يكن له مثال موجود – (وهو «الإبداع» والاختراع على غير مثال سابق) – كنوع من

٣– رواه البخاري، ومالك في «الموطأ».

الجود والسخاء، وفعل المعروف، فهو من الأفعال المحمودة، ولا يجوز أن يكون ذلك في خلاف ما ورد الشرع به؛ لأن النبي ﷺ، قد جعل له في ذلك ثوابًا فقال: «من سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها». وقال في ضدة: «ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها». (٤) وذلك إذا كان في خلاف ما أمر الله به ورسوله.»

ويمضي ابن الأثير، فيدعم هذا الرأي بما روى عن عمر بن الخطاب، فيقول: «ومن هذا النوع، قول عمر رضي الله عنه: «نعمت البدعة هذه»، لما كانت من أفعال الخير، وداخلة في حيز المدح سماها بدعة، ومدحها؛ لأن النبي ﷺ، لم يسنها لهم، وإنما صلاها ليالي ثم تركها، ولم يحافظ عليها، ولا جمع الناس لها، ولا كانت في زمن أبي بكر، وإنما عمر – رضي الله عنهما – جمع الناس عليها، وندبهم إليها، فبهذا سماها بدعة.. فيحمل حديث: «كل محدثة بدعة» على ما خالف أصول الشريعة ولم يوافق السنة».

وتأسيسًا على هذا المنهاج، في الفقه الذي يميز – في البدعة الدينية – بين «الضلالة.. المذمومة»، التي تخالف الدين الثابت.. وبين «بدعة الهدى المحمودة» التي لم تأت بها أحكام الدين، لكنها لا تخالف تلك الأحكام، فهي إبداع وابتداع فيما لا يخالف كتابًا ولا سنة.. تأسيسًا على هذا المنهاج في الفقه والنظر أجرى العلماء الأحكام الخمسة – الوجوب.. والحرمة.. والندب.. والكراهة والإباحة – على كل إبداع وابتداع.

فواجب إبداع وابتداع العلوم التي لا تقوم فرائض الدين وواجبات خلافة الإنسان لله في عمران الأرض إلا بإبداعها وابتداعها.. شرعية كانت أو مدنية تلك العلوم.

ومحرم ابتداع المحرمات المخالفة لأوامر الشرع ونواهيه.

ومندوب ومستحب إبداع ما يلزم لمندوبات ومستحبات الدين والدنيا.

ومكروه إبداع وابتداع ما يؤدي إلى المكروه دينيًا ودنيويًا.

ومباح إبداع وابتداع كل ما يدخل في المباحات من أمور الدين والدنيا (٥).

وإذا كان «الإبداع» – حتى في الإطار الديني – مفتوحة أمامه الأبواب فيما لا يخالف مبادئ الدين وأحكام الشريعة.. فمن باب أولى يكون الحال في «الإبداع» في سياسات الدنيا وشئون العمران.

ويلفت النظر، ويستدعي التأمل، أن ذلك لم يكن موطن خلاف بين فقهاء الإسلام أو في مذاهب الإسلاميين.. فحتى علماء «مدرسة الأثر»، الذين تحرج الكثيرون منهم في استخدام «الرأي» و«القياس» و«التأويل» وأشباهها من سبل النظر والبحث والاستنباط، رأيناهم يفتحون الباب لـ «الإبداع» في السياسات، بل ويجعلون السياسات التي يبدعها العقل الإنساني جزءًا من السياسة الشرعية، حتى وإن لم يرد لها ذكر في الكتاب أو السنة، طالما أنها لا تخالف ما جاء فيهما

٤– رواه مسلم، والنسائي، والإمام أحمد.

٥– انظر في ذلك الراغب الأصفهاني (المفردات في غريب القرآن)– مادة «بدع».. ط. القاهرة سنة (١٩٩١م). والتهانوي (كشاف اصطلاحات الفنون) ط. الهندسة سنة (١٨٩١م). وابن منظور (لسان العرب) ط. دار المعارف. القاهرة

من نصوص ومبادئ وأحكام .. فحثوا على الإبداع «الموافق للشرع»، ولم يكتفوا بما «نطق به الشرع».

ولقد حدثت «مناظرة» بين الإمام السلفي أبي الوفاء علي بن عقيل محمد بن عقيل البغدادي (٤٣١-٥١٣هـ/ ١٠٤٠ - ١١١٩م) وبين أحد فقهاء الشافعية، قال فيها ابن عقيل كلامًا نفيسًا، عن «شرعية» الإبداع الإنساني في السياسة، طالما لم يخالف الدين، حتى وإن لم يأت به الوحي ولم ينطق به رسول.

قال ابن عقيل في بيان المعنى الحق لقول الفقيه الشافعي: «لا سياسة إلا ما وافق الشرع». «السياسة: ما كان من الأفعال بحيث يكون الناس معه أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد، وإن لم يشرعه الرسول ولا نزل به وحي، فإن أردت بقولك: «لا سياسة إلا ما وافق الشرع» أي: لم يخالف ما نطق به الشرع فصحيح، وإن أردت: ما نطق به الشرع، فغلط وتغليط للصحابة. فقد جرى من الخلفاء الراشدين .. ما كان رأيًا اعتمدوا فيه على المصلحة» مما لم ينطق به الشرع.

ولقد عقب ابن القيم (٦٩١ - ٧٥١هـ/ ١٢٩٢ - ١٣٥٠م) على أهمية هذه القضية وخطورة الآثار المترتبة على الخلاف فيها .. فقال: «وهذا موضع مزلة أقدام، ومضلة أفهام، وهو مقام ضنك في معترك صعب فرط فيه طائفة فعطلوا الحدود، وضيعوا الحقوق، وجرأوا أهل الفجور على الفساد، وجعلوا الشريعة قاصرة لا تقوم بمصالح العباد، وسدوا على أنفسهم طرقا صحيحة من الطرق التي يعرف بها المحق من المبطل، وعطلوها، مع علمهم وعلم الناس بها أنها أدلة حق؛ ظنا منهم منافاتها لقواعد الشرع. والذي أوجب لهم ذلك: نوع تقصير في معرفة حقيقة الشريعة، والتطبيق بين الواقع وبينها .. إن الله قد أرسل رسله، وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط، وهو العدل الذي قامت به السموات والأرض، فإذا ظهرت أمارات الحق، وقامت أدلة العدل، وأسفر صبحه بأي طريق كان، فثم شرع الله ودينه ورضاه وأمره. والله تعالى لم يحصر طرق العدل وأدلته وأماراته في نوع واحد، وأبطل غيره من الطرق التي هي أقوى منه وأدل وأظهر، بل بين بما شرعه من الطرق أن مقصوده: إقامة الحق والعدل وقيام الناس بالقسط، فأي طريق استخرج بها الحق ومعرفة العدل وجب الحكم بموجبها ومقتضاها. والطرق أسباب ووسائل لا تراد لذواتها، وإنما المراد غاياتها، التي هي المقاصد، ولكن نبه بما شرعه من الطرق على أسبابها وأمثالها، ولن تجد طريقًا من الطرق المثبتة للحق إلا وهي شرعة وسبيل للدلالة عليها. وهل يظن بالشريعة الكاملة خلاف ذلك؟!.

إننا لا نقول: إن السياسة العادلة مخالفة للشريعة الكاملة، بل هي جزء من أجزائها وباب من أبوابها، وتسميتها سياسة أمر اصطلاحي، وإلا فإذا كانت عادلة فهي من الشرع .. فالسياسة نوعان: سياسة ظالمة، فالشريعة تحرمها، وسياسة عادلة، تخرج الحق من الظالم الفاجر، فهي من الشريعة، علمها من علمها، وجهلها من جهلها .. وهذا أصل من أهم الأصول وأنفعها»(٦)!.

فـ«الإبداع الإسلامي» في السياسات، ليس فقط مطلوبًا، وإنما هو - إذا تحقق به العدل

٦- ابن القيم (إعلام الموقعين) (٤/ ٣٧٢،٣٧٣،٣٧٥)، ط بيروت سنة (١٩٧٣م)، والطرق الحكمية في السياسة الشرعية) (ص ١٧ - ١٩ - ٥) تحقيق د. جميل غازي، ط القاهرة سنة (١٩٧٧م).

والقسط - جزء من الشريعة الكاملة، وباب من أبوابها، حتى وإن لم ينزل به الوحي أو ينطق به الرسول ﷺ !.

ذلك هو الموقف الإسلامي من «الإبداع» .. و«الابتداع».

فمن الأفعال الإنسانية ما هو محاكاة وتقليد واتباع.

ومنها ما هو إبداع وتجديد .. أي إنشاء واختراع لا على مثال سابق.

وإذا كان هذا الإبداع مخالفًا لما أمر به الله سبحانه وتعالى، أو رسوله ﷺ، فتلك هي «بدعة الضلالة .. المذمومة» إسلاميًا.

أما إن كان الإبداع واقعًا تحت عموم ما ندب الله إليه، ودعا إليه الرسول، فهو في حيز الممدوح .. وكذلك إذا كان الإبداع فيما لا يخالف أمر الله ورسوله، فهو محمود، حتى وإن لم ينزل به وحي ولم يرد فيه حديث.

وإذا كانت عمارة الأرض هي المقاصد العظمى من وراء استخلاف الله للإنسان، فإن الإبداع الإنساني في سائر ميادين العمران البشري داخل في السبل والآليات التي لا بد منها لتحقيق مقاصد هذا الاستخلاف .. شريطة أن لا يخالف هذا الإبداع دينًا ثابتًا في البلاغ القرآني أو في البيان النبوي لهذا البلاغ.

ولأن المسلمين قد أجمعوا على جواز وصف الإنسان بـ«العلم» و«العالم»، مع أنها من صفات الله سبحانه وتعالى، الذي ليس كمثله شيء، لا في الذات ولا في الصفات .. وذلك وعيًا منهم باختلاف المضامين والمفاهيم في الصفة، عندما يوصف بها الله، عنها عندما يوصف بها الإنسان - فعلم الله كلي ومحيط وسبب في وجود الموجودات .. بينما علم الإنسان جزئي ونسبي ومعلوم ومسبب عن الموجودات .. لأن المسلمين صنعوا ذلك، دون تحرج؛ رأينا علماءنا يميزون بين الإبداع الإلهي - والله ﴿بَدِيعُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ - وبين الإبداع الإنساني، قائلين: «إن «الإبداع» إذا استعمل في الله تعالى، فهو: إيجاد الشيء بغير آله، ولا مادة، ولا زمان، ولا مكان، وليس ذلك إلا لله»(٧). بينما الإبداع الإنساني له آلياته، ومواده، وهو داخل في الزمان والمكان.

وهكذا تميز منهاج النظر الإسلامي، في هذا المبحث، بالجرأة والدقة، عندما لم يقف عند حدود المصطلحات، وإنما عين الفروق في مضامين المصطلحات ومفاهيمها، فحافظ على أرقى مستويات التنزيه والتجريد في صفات الذات الإلهية، في نفس الوقت الذي فتح فيه أمام الإنسان المسلم أوسع الأبواب لـ«الإبداع» والابتداع فيما لا يخالف ما جاء به البلاغ القرآني والبيان النبوي من أحكام الإسلام.

٧- (المفردات في غريب القرآن) مادة «بدع».

تفسير سورة البقرة

لفضيلة الأستاذ الإمام
محمد عبده

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

(البقرة: ٨٧ - ٩١)

عهد في سيرة البشر أن الأمة توعظ وتنذر، فتتعظ وتتدبر.. فإذا طال عليها الأمد بعد التذير تقسو القلوب، ويذهب أثر الموعظة من الصدور، وتفسق عن أمر ربها، وتنسى ما لم تعمل به مما أنذرت به، أو تحرفه عن موضعه بضروب التأويل، وزخرف القال والقيل.. ولقد يكون للمتأخرين منها بعض العذر، لجهله بما فعل المتقدم، وأخذه بما يؤثر عنه بالتسليم لكمال الثقة وحسن الظن.

بين الله تعالى هذه السنة الاجتماعية في سورة الحديد بقوله:

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾

(الحديد: ١٦)

ولهذا كان تعالى يرسل الرسل بعضهم في إثر بعض، حتى لا يطول أمد الإنذار على الناس فيفسقوا ويضلوا.. ولا يعرف التاريخ شعبًا جاءت فيه الرسل تترى كشعب إسرائيل، لذلك كانوا بمعزل عن صحة العذر بطول الأمد على الإنذار، وفي ناحية عما يرجى قبوله من التعلل والاعتذار، لهذا قال تعالى بعد كل ما تقدم:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ﴾

فلم يمر زمن بين موسى وعيسى آخر أنبيائهم إلا وكان فيه نبي مرسل أو أنبياء متعددون يأمرون وينهون.. كأنه يقول: اعلموا يا بني إسرائيل أنه إن كان لطول الأمد على النبوة وبعد العهد بالرسل يد في تغيير الأوضاع ونسيان الشرائع، وكان في ذلك وجه لاعتذار بعض المتأخرين، فإن ذلك لا يتناولكم، فإن الرسل قد جاءتكم تترى ثم كان من أمركم معهم ما كان.

ذكر رسل بني إسرائيل بالإجمال لبيان ما ذكر، ثم خص بالذكر المسيح - عليه السلام -، فقال:

﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾.. فأما البينات، فهي ما يتبين به الحق من الحجج القيمة والآيات الباهرة، والمراد بها ما دعا إليه من أحكام التوراة.. وأما روح القدس، فهو روح الوحي الذي يؤيد الله تعالى به أنبياءه في عقولهم ومعارفهم، وهو المراد بقوله تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾

(الشورى: ٥٢)

ويطلق عليه روح القدس، لأن التعليم الذي يكون به مقدس، أو لأنه يقدس النفوس، كما يطلق عليه (الروح الأمين)، لأن النبي الموحى إليه يكون على بينة من ربه، فيه يأمن معه التلبيس فيما يلقى إليه، قال تعالى في القرآن:

﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾

(الشعراء: ١٩٣ - ١٩٤)

ذهب جمهور المفسرين إلى أن المراد بروح القدس الملك المسمى جبريل الذي ينزل على الأنبياء، ومنه يستمدون الشرائع عن الله تعالى، وهو على حد قولهم: (حاتم الجود).. وذكر بعضهم وجهًا آخر، وهو أن المراد بها روح عيسى نفسه ووصفها بالقدامة والطهارة، بمعنى إعاذته من الشيطان أن يكون له حظ فيه، أو لأنه أنزل عليه الإنجيل بالتعاليم التي تقدس النفس.. بل قال بعضهم إن روح القدس هو الإنجيل.. والمراد من الكل واحد، وهو أن الله تعالى أرسل إليهم عيسى بعد ظهور رسل كثيرين فيهم بعد موسى، وأعطاه ما لم يعط كل رسول من أولئك الرسل أو من قوة الروح، وزكاء النفس، ومكارم الأخلاق، ونسخ بعض الأحكام، وقد كان حظه مع ذلك منهم كحظ سابقيه الذين لم يؤتوا من المواهب مثلما أوتي.

ماذا كان حظ أولئك الرسل من بني إسرائيل؟ كان حظهم منهم ما أفاده الاستفهام التوبيخي في قوله:

﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ ﴾

فاتبعتم الهوى، وأطعتم الشهوات وعصيتم الرسل واحتميتم عليهم أن أنذروكم ودعوكم إلى أحكام كتابكم. ﴿ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ ؟! كان المعهود في التخاطب وكلام الناس أن تذكر هذه المساوئ ثم يوبخون عليها، ولكن طواها في الخطاب وأدمجها في الاستفهام لتفاجئ النفوس بقوة التشنيع والتقبيح، وتبرز لها في ثوب الإنكار والتوبيخ.. وفي ذلك، الإيماء إلى أن هذه المعاملة السوءى مما لا يخفى خبرها، ولا تغيب عن الأفكار صورها، فلا ينبغي الإلماع إليها إلا في سياق تقريع مجترحيها.. وهذا من إيجاز القرآن الذي لا يعرج إليه فكر الإنسان.. وانظر كيف أورد خبر القتل بصيغة المضارع التي

تدل على الحال لاستحضار تلك الصورة الفظيعة، وتمثيلها للسامع حتى يمثلها فى الخيال، وإن مرت عليها القرون والأحوال، لأنها أفاعيل لا تخلق جدتها، ودماء لا تطير رغوتها.. وإن مثل هذا التعبير ليمثل تلك الصورة المشوهة، لأن الألفاظ إذا قرعت الذهن بمفهومها يتناول الخيال ذلك المفهوم ويصوره بالصورة اللائقة به، فيكون له من التأثير ما يناسبه.

قتلوا من الأنبياء المرسلين: زكريا ويحيى - عليهما السلام - .. ويروى أنهم قتلوا فى يوم واحد مائة وخمسين نبيًا.. فإن صح هذا، فالمراد بأولئك الأنبياء من كانت نبوتهم محصورة فى الدعوة إلى إقامة التوراة، ودليلها محصورًا فى الإنباء ببعض المغيبات، وكان هذا الفريق منتشرًا فى أسباط بنى إسرائيل، وكثيرًا بكثرتهم.

وفى هذه الآية حجتان للنبى ﷺ حجة على بنى إسرائيل، وحجة على الذين يعجبون لعدم إيمانهم به وإجابتهم دعوته، وبيان أن المجاحدة والمعاندة من شأنهم ومما عرف من شنشنتهم.. وناسب بعد هذا أن يذكر ما كانوا يعتذرون به عن الإيمان به، والاهتداء بكتابه، بعد تقرير الدعوة، وإقامة الحجة، فقال: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ .. الغلف بضم وسكون وبضمتين جمع أغلف، وهو ما يحيط به غلاف يمنع أن يصيبه شيء، والمراد: أننا لا نعقل قولك، ولا ينفذ إلى قلوبنا مفهوم دعوتك، فهو بمعنى قوله تعالى:

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾

(فصلت: ٥)

وقد رد الله تعالى عليهم بما يشعر بكذبهم وعنادهم، فقال:

﴿بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾

أى أن قلوبهم ليست غلفًا لا تفهم الحق بطبعها، وإنما أبعدهم الله تعالى من رحمته بسبب كفرهم بالأنبياء السابقين وبالكتاب الذى تركوا العمل به وحرفوه اتباعًا لأهوائهم.. فهم قد أنسوا بالكفر وانطبعوا عليه، فكان ذلك سببًا فى حرمانهم من قبول الرحمة الكبرى بإجابة دعوة خاتم النبيين.. هذا هو معنى اللعن.. وقد ذكرت معه علته، ليعلم أنه جرى على سنة الله تعالى فى الأسباب والمسببات، وأن الله لم يظلمهم بهذا، وإنما ظلموا أنفسهم بالكفر الذى يستتبع الكفر، والعصيان الذى يجر إلى التمادى فى العصيان، كما هى السنة فى أخلاق الإنسان.

ولما كان ذكر اللعن معللاً بالكفر الذى هو نتيجة تأثير أعمالهم السابقة فى أنفسهم، وكان مما يخطر بالبال أن أولئك القوم لم يكونوا كافرين، بل مؤمنين بالله وكتابه ورسله إليهم، استدرك فقال:

﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾

وإنما القلة فى الإيمان باعتبار ما يؤمن به من أصول الدين وأحكام الشريعة، وبالنسبة إلى اليقين فى الإيمان، وتحكيمه فى الفكر والوجدان.

ولقد كان القوم يؤمنون بالشريعة فى الجملة، وكما تعطيه ظواهر الألفاظ.. ولكنهم لم يلبسوها مفصلة تفصيلاً، ولم يفقهوا حكمها وأسرارها، فلم يكن لها سلطان على قلوبهم، ولم تكن هى المحركة لإرادتهم فى أعمالهم، وإنما كان يحركها الهوى والشهوة، ويصرفها عامل اللذة.. فالإيمان، إنما كان عندهم قوة باللسان، وربما يلوح فى الخيال، تكذبه الأعمال، وتطمسه السجايا الراسخة والخلال.. وهذا هو الإيمان الذى لا قيمة له عند الله تعالى.. ومن العجب، أن نرى آيات القرآن تبطله بالحجج القيمة، والأساليب المؤثرة، وأهل القرآن عن ذلك غافلون. فقليلاً ما يعتبرون ويتذكرون.

ومن مباحث اللفظ فى الآية، أن كثيرًا من المفسرين يزعمون أن ﴿مَّا﴾ زائدة، وما هى

بزائدة وفاقًا لابن جرير الطبرى.. وجل القرآن أن يكون فيه كلمة زائدة، وإنما تأتى ﴿مَّا﴾ هذه لإفادة العموم تارة، ولتفخيم الشىء تارة.. ويقول ابن جرير: إنما يؤتى بها فى مثل هذا المقام كمبتدأ كلام جديد يفيد العموم، كأنه قال: فإيمانًا قليلاً ذلك الذى يؤمنون به.. وأما التى لتفخيم الشىء، فكقوله تعالى:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾

(آل عمران: ١٥٩)

أى فبسبب رحمة عظيمة الشأن خصك الله بها لنت لهم على ما لقيت منهم.. وقد بين تعالى هذه الرحمة بقوله فى وصفه ﷺ:

﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

(التوبة: ١٢٨)

وقوله:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾

(الأنبياء: ١٠٧).

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۚ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٩٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٩١)﴾

(البقرة: ٨٩-٩١)

إن قوله تعالى:

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ﴾

إلخ متصل بقوله قبله:

﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾

والمعنى: أن إيمانهم كان قليلا حال كونهم كانوا ينتظرون نبيا وكتابا مصدقا لما معهم، وكانوا يستفتحون به على المشركين.. فكيف لا يكون قليلاً، أو أقل بعد ما جاء ما كانوا ينتظرون، وعرفوا أنه الحق ثم كفروا؟ فالجملة حالية.. وقوله:

﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾

معناه أنه موافق له فى التوحيد وأصول الدين ومقاصده.

والاستفتاح فى قوله:

﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾

معناه طلب الفتح، وهو الفصل فى الشىء والحكم، ويستعمل بمعنى النصر لأنه فصل بين المتحاربين.. وكانت اليهود تستفتح على مشركى العرب بالنبى المنتظر، يقولون: إنه سيظهر فينصر كتابه التوحيد الذى نحن عليه، ويخذل الوثنية التى تنتحلونها ويبطلها، فيكون مؤيدا لدين موسى.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ .. أعاد ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم﴾، وهى عين الأولى: لطول الفصل، ووصل به الجواب وهو ﴿كَفَرُوا بِهِ﴾ .. وذلك أنه راعهم كونه بعث فى العرب، فحسدوه فحملهم الحسد على الكفر به جحودًا وبغيًا، فسجلت عليهم اللعنة التى أصابتهم بكفرهم الأول بأن الكفر صار وصفًا لازمًا لهم، ولذلك قال:

﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾

ولم يقل عليهم لأن المظهر أبلغ وأهم وأشمل.

ثم ذكر علة هذا الكفر وسببه، وبين فساد رأيهم فيه بقوله:

﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾

أى بئس شيئًا اشتروا به أنفسهم، هو كفرهم بما أنزل الله مصدقًا لما معهم كما كانوا ينتظرون.. شرى الشيء واشتراه، يستعمل كل منهما بمعنى باع الشيء، وبمعنى ابتاعه، لأن الحرف يدل على المعارضة.. وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن اشتروا هنا بمعنى باعوا، أى أنهم بذلوا أنفسهم وباعوها بما حرصوا عليه من الكفر بغيًا وحسدًا للنبي، وحبًا فى الرياسة واعتزازًا بالجنسية، وبما كان لكل من الرؤساء والمرءوسين من المنافع المتبادلة فى المحافظة عليها، فهذا كله يعد ثمنًا لأنفسهم التى خسروها بالكفر حتى كأنهم فقدوها كما يفقد البائع المبيع.. وذكر ابن جرير وجهًا آخر، وهو أن اشتروا هنا بمعنى ابتاعوا، أى أنهم جعلوا أنفسهم ثمنًا للكفر الذى ذكرت علته آنفًا.. وفيه من الزيادة على معنى المعاوضة فى الوجه الأول، أنهم قد أنقذوا أنفسهم بذلك الكفر، أى أنهم يزعمون ذلك ويدعونه فى الظاهر، وإن كانوا فى الباطن قد عرفوا أن ما جاءهم هو الحق الذى كانوا ينتظرون، وأنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ولكنهم يكتمون.

وقد فهم مما تقدم معنى قوله تعالى:

﴿بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾

فهو تعليل لكفرهم لا لشرائهم، أى كفروا به لمحض البغى الذى أثاره الحسد كراهة أن ينزل الله الوحى من فضله بمقتضى مشيئته.. وأى بغى أقبح من بغى من يريد أن يحجر على فضل الله، ويقيد رحمته، فلا يرضى منه أن يجعل الوحى فى آل إسماعيل كما جعله فى أخيه إسحاق؟ قرأ ابن كثير وأبو عمرو (ينزل) بالتخفيف من الإنزال والباقون بالتشديد من التنزيل.

وأما قوله:

﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾

فهو الغضب الذى استوجبوه حديثًا بالكفر بالنبى ﷺ، فوق ذلك الغضب الذى لحقهم من قبل بإعنات موسى عليه السلام والكفر به، وقد ذكر فى قوله:

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾

(البقرة: ٦١)..

ثم توعدهم بعد الغضب المزدوج، فقال:

﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أى مقرون بالإهانة والإذلال.. وبذلك صار بمعنى الآية السابقة، فكأن الجزاء واحد تكرر بتكرر الذنب..

وقال ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ ولم يقل (ولهم)، لما فى المظهر من بيان التعليل بالوصف الذى سجله عليهم كما تقدم آنفًا.. وهذا العذاب مطلق يشمل عذاب الدنيا وعذاب الآخرة.. وقد تقدم أن ذنوب الأمم تتبعها عقوبتها فى الدنيا لأنها أثر طبيعى لها، وإنما جعلها الله كذلك لتكون عبرة يتأدب المتأخرون بما أصاب منها المتقدمين.. وكذلك الحال فى عقوبة الآخرة بالنسبة إلى الأفراد، فإن عذاب كل شخص إنما يكون بحسب تأثير الجهل فى عقله، وفساد الأخلاق وسوء الأعمال فى نفسه.

اعتذر بعض اليهود فى عصر التنزيل عن عدم الإيمان به بأن قلوبهم غلف، لم تفهم الدعوة ولم تعقل الخطاب، فرد الله تعالى عليهم ببيان السبب الحقيقى فى ترك الإيمان، وما استحقوه عليه من الغضب والهوان.. ثم ذكر اعتذارًا آخر لهم مقرونًا بالرد والإبطال، وإقامة الحجة عليهم به، فقال:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾

صيغة الدعوة تشعر بوجوب الإيمان بما أنزل على محمد.. فإن ما أنزل عليه، لو أنزل على غيره لوجب الإيمان به، فإن الوحى هو المقصود بالذات والأنبياء إنما هم مبلغون، فتقييد الخضوع لوحى الله بكونه لابد أن يكون منزلا على شخص من شعب كذا بعينه تحكم على الله تعالى، وقضاء عليه بأن تكون رحمته مقيدة بأهواء فريق من خلقه.. فإيراد الدعوة بما ذكر من الإطلاق، مع إيراد الجواب مقيدًا بقيد ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾، يشعر بقوة حجة الدعوة، ووهن ما بنى عليه الجواب من الشبهة.

ثم صرح بالحقيقة، وهى أنهم إنما يدعون هذا الإيمان بألسنتهم، ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾ من مدلول ولازم لا ينفك عنه كالبشارة برسول من بنى إخوتهم أى ولد إسماعيل، وكون ما تثبت به نبوة محمد بمساواته لما تثبت به نبوة موسى يستلزم وجوب اتباع محمد كما اتبع موسى لأن المدلول يتبع دليله فى كل زمن وكل موضوع.. قال: إنهم يكفرون بما وراء المنزل إليهم ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾، أى والحال أنه الحق الثابت فى نفسه بالدليل، حال كونه ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾، فهو مؤيد عندهم بالعقل والنقل، وقد كان من مكابرتهم وعنادهم ما كان، فلم يبق إلا إلزامهم الحجة بما اقترفوا من فحش المخالفة لما أنزل إليهم والفسوق عنه، ليعلم أنهم إنما يتبعون أهواءهم، ويحكمون شهواتهم بما أنزل إليهم وما أنزل على محمد ﷺ، ولذلك قال:

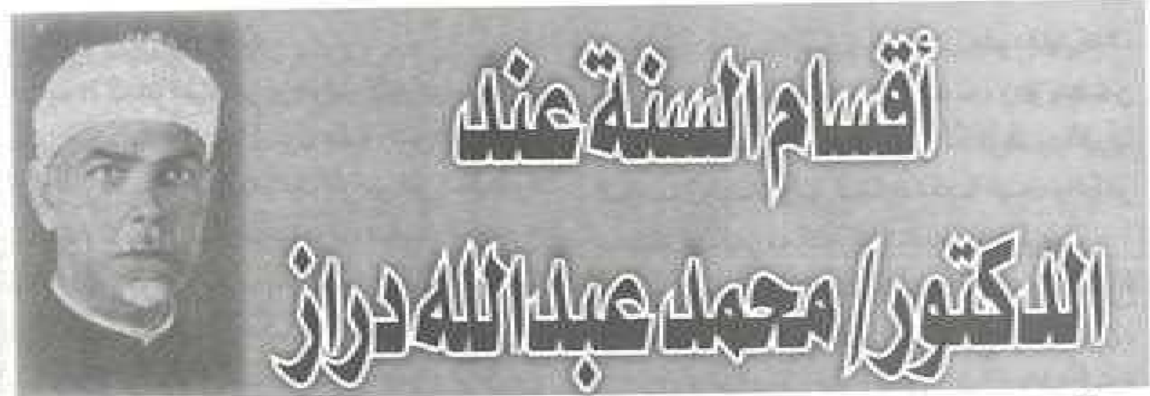
﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾ بما أنزل إليكم، وليس فيه الأمر بقتل الأنبياء، بل فيه النهى الشديد عن قتل أنفسكم؟!

ومن مباحث اللفظ، قوله:

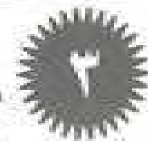
﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ حال مفردة مؤكدة، والأصل فيها المقارنة لما هى قيد له، وهو يتضمن إثبات كفرهم بالتوراة بالتبع لكفرهم بالقرآن المصدق لها، ولو فيما صدقها فيه، والكفر ببعضه كالكفر به كله كما تقدم بيانه قريبًا.

ومن مباحث اللفظ أيضًا، وضع المضارع ﴿تَقْتُلُونَ﴾ موضع الماضى (قتلتم)، لما سبق بيانه فى مثل هذا التعبير من إرادة استحضار صورة هذا الجرم الفظيع مبالغة فى التقريع، وإغراقًا فى التشنيع.. ولما كانت هذه الصيغة تدل على الحال، فتوهم أن الذين فى زمن التنزيل كانوا لا يزالون يقترفون هذه الجريمة، على أنه لم يكن فى ذلك العهد أنبياء إلا من يكتهم ويحتج عليهم ـ وصلها بقوله ﴿مِن قَبْلُ﴾ دفعًا لذلك الوهم.. والفاء فى قوله ﴿فَلِمَ﴾ واقعة فى جواب شرط دل عليه ما بعده.

وقد سبق القول غير مرة بأن خطاب الخلف بإسناد ما كان من سلفهم إليهم مقصود، لبيان وحدة الأمة وتكافلها وكونها فى الأخلاق والسجايا المشتركة بين أفرادها كالشخص الواحد، وبيان أن ما تبلى به الأمم من الحسنات والسيئات إنما هو أثر الأخلاق الغالية، والأعمال الفاشية فيها منبعثة عن تلك الأخلاق.. فما جرى من بنى إسرائيل من المنكرات، لم يكن من فلتات المصادفة، وإنما كان عن أخلاق راسخة فى الشعب تبع الآخرون فيها الأولين، إما بالعمل وإما بالإقرار وترك الإنكار.. ولو أنكر المجموع ما كان من بعض الأفراد لما تفاقم الأمر، ولما تمادى واستمر.. فالحجة تقوم على الحاضرين بأن الغابرين قتلوا الأنبياء فأقرهم من كان معهم ولم يعدوا ذلك خروجًا من الدين ولا رفضًا للشريعة، وتبعهم من بعدهم على ذلك، وفاعل الكفر ومجيزه واحد، وقد سبق تقرير هذا غير مرة.



أقسام السنة عند الدكتور/ محمد عبدالله دراز



ومن أمثلة الاتفاق على التأويل مع الاختلاف في درجته أن الأشعرية والمعتزلة متفقون على تأويل «وزن الأعمال» في الآخرة، ثم يختلفون في طريقة التأويل، فالأشعري يؤوله بوزن صحائف الأعمال، والمعتزلي يؤول الميزان نفسه بأنه كناية عن سبب ينكشف به لكل عامل درجة عمله.

والأمر في هذا الاختلاف لا يقف عند علماء الخلف، بل السلف الصالح وفيهم الصحابة أنفسهم قد جاء عنهم بعض الاختلاف:

اختلفوا هل رأى النبي ﷺ ربه ليلة الإسراء؟ فأثبتها ابن عباس وجماعة، وأنكرتها عائشة(١) وجماعة، حتى قالت عائشة رضي الله عنها: «من زعم أن محمد ﷺ رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية»(٢). أو لم تسمع أن الله يقول:

﴿ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾

(الأنعام: ١٠٣)

ويقول:

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾

(الشورى: ٥١)

وقد ردت عائشة حديث عمر وابنه رضي الله عنهما في عذاب الميت ببكاء أهله عليه فقالت: «إنكم لتحدثوني عن غير كاذبين ولا مكذبين ولكن السمع يخطيء. وحسبكم القرآن: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾»(٣)

وكذلك وهمت ابن عمر في حديثه عن قتلى بدر من المشركين وأنهم سمعوا كلام النبي ﷺ لهم وهم في قبورهم وقوله ﷺ لأصحابه: «ما أنتم بأسمع منهم لما قلت»، فقالت: إنما قال النبي ﷺ «إنهم ليعلمون أن ما كنت أقول لهم حق»(٤). ثم قرأت:

﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ ﴾

(النمل: ٨٠)

﴿ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴾

(فاطر: ٢٢)

هذا طرف من خلافهم في النظريات.

فإذا جاوزناها إلى العمليات رأينا اختلاف الفهم فيها أبعد مدى وأوسع مجالاً، من لدن الصحابة فمن بعدهم. بل كان بعض ذلك بين ظهراني الوحي نفسه، ففي البخاري عن ابن عمر قال: قال لنا النبي ﷺ لما رجع من الأحزاب: «لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة، فأدرك بعضهم العصر في الطريق، فقال بعضهم: لا نصلي حتى نأتيها. وقال بعضهم: بل نصلي، لم يرد منا ذلك - يعني وإنما أريد الإسراع - فذكر ذلك للنبي ﷺ فلم يعنف أحداً منهم»(٥).

وهذا - كما ترى - أصل في تردد نظر المجتهدين بين النص والمعنى.

وإذا بلغ الاختلاف بين علماء المسلمين هذا الحد وكلهم طالبون للسنة، وكل صاحب مذهب يزعم أنه هو الذي أصاب السنة في رده المسألة إلى الأصل الذي يجب ردها إليه، وفي أخذه بالنص حيث يجب وبالمعنى حيث يجب وبالقدر من التأويل الذي يجب، فقد يشكل أمر السنة والبدعة على طالبه إلا في مواضع الإجماع وقليل ما هي. أما مواضع الاختلاف وهي أكثر مسائل الشريعة فالأمر فيها دائر بين ثلاثة أوجه:

- «أحدها» أن نقول إنه لا بدعة إلا بدعة الكفر والتكذيب، وإن كل مجتهد من أهل القبلة مصيب. فيكون الحق في المسألة الواحدة مختلفاً باختلافهم.
- «الثاني» أن نقول إن الحق واحد يصيبه من أصابه ويخطئه من أخطأه وهو غيب لا يعلمه إلا الله فيجوز أن يكون الكل مخطئين.
- «الثالث» أن نقول إن الحق واحد أيضاً، ولكنه لابد أن يصيبه أحد المختلفين في كل مسألة.

أما الأول فباطل عقلاً، لأنه يؤدي إلى جواز اجتماع النقيضين في الواقع، ثم هو قبل ذلك باطل فرضاً، لأن الأصل استمساك كل ذي مذهب بمذهبه ورفض مذهب من عداه يتضمن حكمه بتصويب رأي نفسه وتخطئة رأي غيره فهم في اختلافهم مجمعون(٦)

---

(١) السيدة عائشة رضي الله عنها الصديقة بنت الصديق أم المؤمنين زوج النبي ﷺ وأشهر نسائه. تزوجها الرسول قبل الهجرة بسنتين وقيل بثلاث. وهي بنت ست وقيل سبع سنين وبنى بها وهي بنت تسع سنين وكناها الرسول ﷺ بأم عبدالله بابن أختها عبدالله بن الزبير توفيت سنة ٥٧ ودفنت بالبقيع وصلى عليها أبوهريرة. أسد الغابة ج٥ ص٣٤١ (٧٠٩٤).

(٢) من زعم أن محمداً قد رأى ربه. الحديث أخرجه مسلم ك/الإيمان باب/ بمعنى قول الله عز وجل ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ حديث رقم (٤٣٨) والبخاري /التفسير باب/ ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ مختصراً (٤٦١٢). وفي الكتاب نفسه تفسير سورة النجم (٤٨٥٥).

(٣) رواه مسلم عن عبدالله بن أبي مليكة. كتاب الجنائز. باب الميت يعذب ببكاء أهله عليه. جـ٣ ص٤١.

(٤) الحديث أخرجه البخاري. كتاب المغازي/باب قتل أبي جهل ج ٧ ص٣٥١.

(٥) رواه البخاري عن ابن عمر. كتاب المغازي. باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب جـ٥ ص٤٦٢.

(٦) قد يقال من أين هذا الإجماع وقد اختلف الأصوليون في أن كل مجتهد مصيب أو المصيب واحد؟

والجواب أن اختلاف الأصوليين في الحق الإضافي بالنسبة إلى ما يكلف به كل مجتهد من الأحكام هل هو مكلف بطلب الحق في الواقع بقدر وسعه فإن أصابه أجر أجرين وإن أخطأه أجر أجراً واحداً؟ أم هو مكلف بما يؤديه إليه اجتهاده فهو أبداً مصيب للحكم الذي عليه؟ أما الحق الذاتي في المسألة بقطع النظر عن علم الناس أو عدم علمهم فلا يستطيع أحد أن يدعي أنه متعدد وإلا لاجتمع النقيضان في الواقع. وهذا هو ما تدعي الإجماع على نفيه من كافة العقلاء. بل المسلمون على أن المعنى الأول أيضاً ليس مختلفاً فيه على إطلاقه فقد أجمع الفريقان من المصوبة والمخطئة على وقوع الخطأ في الاجتهاد في كثير من المسائل منها أن يكون المجتهد ليس أهلاً للاجتهاد. ومنها أن يكون أهلاً له ولكنه قصر في النظر وطلب الأدلة، والخطأ في هذين إثم ومعصية، ومنها أن يكون أهلاً ولم يقصر في طلبها ولكنها تعذر وصوله إليها لبعد المسافة أو عدم التبليغ له أو نحو ذلك. فوقع في مخالفة نص أو إجماع أو قياس جلي، والخطأ في هذه الحالة لا إثم فيه، كما أجمعوا على جواز خطأ المجتهد في تطبيق الأحكام لقوله ﷺ «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران. وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر واحد».

نعم نقل عن عبيد الله بن الحسن العنبري، وهو من كبار علماء الحديث العارفين بالسنة إطلاق التصويب بالمعنى الأول في كل اختلاف بين العلماء في المسائل الكلامية والفقهية. حكى القتيبي عنه أنه سئل يوماً عن أهل القدر وأهل الإجبار فقال: كل مصيب. هؤلاء قوم عظموا الله وهؤلاء قوم نزهوا الله. ولكل من القولين أصل في الكتاب. قال وكذلك قوله في الأسماء. فمن سمى الزاني مؤمناً فقد أصاب ومن سماه كافراً فقد أصاب ومن قال هو فاسق وليس بمؤمن ولا كافر فقد أصاب ومن قال هو كافر وليس بمشرك...

على تخطئة البعض في الجملة وإن اختلفوا في التعيين.

وأما الثاني فباطل أيضا لأدائه إلى جواز ارتفاع النقيضين وإلى جواز خلو الأمة عن الحق وقد تظاهرت أدلة الشرع على أن الأمة لا تجتمع على ضلالة.. فتعين الثالث وهو أن يكون واحد منهم مصيبًا والباقي مخطئين لا محالة وحينئذ نقول إن المخطئين «إما» أن يكونوا كلهم مبتدعين ضالين مأزورين، «وإما» أن يكونوا كلهم مجتهدين معذورين بل مأجورين، «وأما» أن يكون بعض الاختلاف جورًا وبدعة، ضلالة ووزرًا، وبعضه زللًا وخطأ بعذر وأجر.

والأول باطل، لأن من هؤلاء المختلفين من شهد لهم الله ورسوله بالهدى وبالرحمة والرِّضوان أعني الصحابة رضي الله عنهم.

والثاني باطل أيضًا، لأن هؤلاء الأصحاب ـ وهم الشهود والعُدول بنص الكتاب مازالوا يرمون بعض المختلفين بالضلالة والإثم.

فتعين أن يكون الحق هو الثالث، وهو التفصيل. وهكذا انتهى بنا البحث إلى تقرير هذه النتيجة وهي انقسام الآراء الإسلامية إلى ثلاثة أقسام:

١ـ صواب مقبول هو حقيقة السنة.

٢ـ وخطأ مردود هو عين البدعة.

٣ـ قسم ثالث له من البدعة وصفها وهو المُخالفة لحكم الله في الواقع ونفس الأمر، وله من السنة حُكمها وهو القَبول وعدم التأثير لأن صاحبه قاصد للسنة وسالك إليها طريقًا وباذل جهده في طلبها وإن أخطأ الحكم الواقعي وله في خطئه كل العذر.

والسنة تتسع لمذهبه في ظاهر الأمر ـ هذه الأقسام الثلاثة متحققة قطعًا في كل مسألة يكثر الخلاف فيها بين المسلمين.

وإنما الإشكال في التعيين، إذ الكل متسمون أمامنا بسمة العلم والاجتهاد ومستندون في مذاهبهم إلى أدلة من الشريعة منصوصة أو مستنبطة. فلماذا نحكم على طائفة من الآراء بعينها بأنها خطأ مردود ونسميها بدعة وضلالة، ونقول في طائفة أخرى بعينها إنها من الاجتهاد المقبول ونجعلها من السنة احتمالًا؟ ما الحد الذي يفصل بين خلاف المبتدعين وخلاف المجتهدين حتى نستبين به سبيل ما هو خارج عن السنة جزمًا، وسبيل ما هو منها أو هو حائم حولها؟ ثم ما الحد الذي يفصل بين خطأ المجتهدين وصوابهم حتى نستبين حقيقة السنة ناصعة من بين خلافهم؟

وقد آن لنا أن نواجه الإشكال على وجه الإجمال بالجواب عن هذين السؤالين..

● «الجواب عن السؤال الأول» أما الحد الفاصل بين خلاف المبتدعين وخلاف المجتهدين بوجه عام فهو الميزان الذي وضعه لنا القدوة الأعظم حين سُئل عن وصف الفرقة الناجية من هذه الأمة فقال ﷺ: «ما أنا عليه وأصحابي»(٧). وقد نظرنا في المعنى الذي يقصد موافقة النبي ﷺ والأصحاب عليه هل يمكن أن يكون المقصود الموافقة لهم في عين أفعالهم وأحكامهم التي استنبطوها، فلم نر ذلك ممكنًا لوجهين: «أحدهما» أن الميزان بذلك يصير ميزانًا قاصرًا ناقصًا لأنهم لم تُخلق في عصرهم كل النوازل التي يُطلب معرفة أحكامها.

«وثانيهما» أن الوزن به يكون ردًا إلى الجهالة والاختلاف في الظاهر، لأن الحوادث التي وقعت على عهد الصحابة كانوا كثيرًا ما يختلفون فيها رأيًا وعملًا حتى لقد يلوح للناظر أنهم فرق كثيرة لا فرقة واحدة.

غير أننا رجعنا إلى اختلافهم: فيما اختلفوا؟ وإلى اتفاقهم فيما اتفقوا؟ وإلى طرق استنباطهم كيف استنبطو؟ فرأينا لهم في ذلك منهجًا مسلوكًا لا يحيدون عنه، وطريقًا جامعًا يلتقون فيه، ومبادئ مقررة لا يجاوزونها. فاستبان لنا بذلك معنى وحدة سبيلهم ومعنى وجوب اتباعهم في كل زمان ومكان وعرفنا أن الميزان الذي أمرنا أن نزن به أنواع الخلاف ليس هو ما استنبطوه بالفعل فقط من الأحكام، بل هو طريقهم في استخراج تلك الأحكام: فكل اختلاف لا يجاوز به طريقهم ولا تترك فيه مبادئهم فهو من الاختلاف المأذون فيه، وهو من اختلاف المجتهدين في طريق السنة. وكل اختلاف خارج عن هذا الطريق فهو من الاختلاف المطلوب رفعه، وهو من اختلاف الضالين في طرق البدعة.

أما القانون الكلي الذي يضبط طريق الصحابة رضي الله عنهم فهو أنهم كانوا إذا بدا لهم حكم حاكم الشرع لم يشركوا معه ـ فضلًا عن أن يؤثروا عليه ـ حكم حاكم آخر من نظر العقل أو هوى الطبع، بل كان حكم الشرع عندهم هو السابق المقدم، وحكم العقل(٨) والهوى تابعًا متأخرًا، وكانوا إذا جاءوا لأخذ الحكم من حاكم الشرع وصلوا إليه من طريقه، وأتوه من بابه، وهو فهم اللسان العربي الذي هم أهله، وفهم مقاصد الشريعة التي أدركوها بسلامة فكرتهم وطول صحبتهم للنبي ﷺ ودقة ملاحظتهم لوجوه ترتيب الأحكام على أسبابها وتطبيقها على وقائعها ـ وبهذا وذاك كانوا أحرياء بمنصب الاجتهاد في تخريج الأحكام، وكانوا من أولي الأمر الذين كتب الله علينا طاعتهم، وطلب منا رد الأمر إلى استنباطهم. فقال تعالى:

«فقد أصاب لأن القرآن يدل على كل هذه المعاني. قال ولو قال قائل إن القاتل في النار كان مصيبا ولو قال في الجنة كان مصيبا ولو وقف وأرجأ أمره كان مصيبا. قال: وكذلك السنن المختلفة كالقول بقتل المؤمن بالكافر وعدم قتل المؤمن بالكافر فبأي ذلك أخذ الفقيه فهو مصيب إذا كان إنما يريد أن الله تعبده بذلك وليس عليه علم بالغيب. بل نقل عنه وعن الجاحظ من المعتزلة أنهما جاوزا ذلك إلى ما هو أشنع فقال إن كل مجتهد من أهل الأديان مصيب. يعنيان أن من خالف ملة الإسلام بغير عناد بل بنظر واجتهاد أداه إلى معتقده فهو معذور مرفوع عنه الإثم لأنه إنما أتى بما وسعه من الاجتهاد. وهذا كما لا يخفى خلاف ما هو معلوم بالقطع من دلائل الكتاب والسنة والإجماع القاضية بذم الكفار وقتالهم وعدم قبول عذرهم بغير تفرقة بين المعاندين والضالين. لأن الوصول إلى الحق ممكن وداخل في الوسع باستعمال الأدلة المنصوبة. ولشناعة هذا القول رمى العلماء قائله بالبدعة، بل كفروا. القاضي أبابكر الباقلاني وغيره.

ولكن بعض المعتزلة تأولوا كلام الجاحظ بحمله على المسائل الكلامية الظنية كالقول بالرؤية وخلق القرآن ونحوهما. ثم روى عن العنبري أنه رجع عن رأيه هذا لما تبين له الصواب وقال: «الآن أرجع وأنا من الأصاغر ولأن أكون ذنبا في الحق أحب إلي من أن أكون رأسا في الباطل». أ. هـ بتصرف من أحكام الآمدي (ج) ٤ ـ ص ٢٣٩، ٢٥٢). واعتصام الشاطبي (ج١ ـ ص ١٨٩).

(٧) أخرجه الترمذي عن عبدالله بن عمرو، كتاب الإيمان، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة جـ ٢ ص٢٩٧ (٢٦٤٣).

(٨) لا نعني بحكم العقل قضاياه القطعية من الأوليات والضروريات، بل نعني أحكامه المستندة إلى مجاري العادات والأحكام العادية وإن كانت قطعية في وقوعها ولكنها ظنية في استمرارها وعدم قبولها للتخلف. فبناء الحكم القطعي عليها اتباع الظن الذي لا يغني من الحق شيئًا (دراز).

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾

(النساء: ٥٩).

وقال:

﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾

(النساء: ٨٣)

ولا ريب أنه تعالى ما أوجب علينا طاعتهم ورد الأمر إليهم لنتخذهم حُكامًا مستقلين فى تشريع الأحكام يحرمون ويحكمون كما تشاء عقولهم وأهواؤهم، كمثل اليهود والنصارى

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾

(التوبة: ٣١)

كلا، بل لأنهم مترجمون عن حكم الله ورسوله، ولأنهم يحسنون هذه الترجمة ويملكون أدواتها.

فمن كان هذا طريقه فى استخراج الأحكام فهو إن شاء الله مُهتد مُتبع وهو على طريق السُّنة وإن زل، ومن سلك سبيلا آخر فهو على طريق من طُرق البدعة وإن اتفقت مصادفته للصواب عن غير قصد. وهذه جُملة يقع إن شاء الله بسطها بعد الجواب عن السؤال الثاني.

● «الجواب عن السؤال الثاني»: وأما تمييز خطأ المجتهد من صوابه فى المسائل المختلف فيها بين المجتهدين فإنه لا ينضبط بقانون كلي، وإنما يبحث عنه فى مسألة بالموازنة بين أدلتها المختلفة حتى يحصل الاطمئنان إلى تعيين الصواب فيها. واعلم أنه ليس كل أحد يستطيع أن ينتدب لهذا البحث والموازنة، بل لا ينهض بهذا العبء فى مسألة ما إلا من اجتمعت فيه صفات ثلاث أولاها أن يقف على جملة مآخذ كل إمام فى تلك المسألة، والثانية أن يكون قد رزق حظا من الفقه فى الدين، والثالثة أن يكون على قدم المجتهدين فى التجرد من الهوى والعصبية.

وبعد هذا كله فإن حكمه بصوابية هذا الرأى أو ذاك لا يعبر دائمًا عن الحق فى الواقع ونفس الأمر، وإنما يعبر عن الحق فى رأيه ويصور وجهة نظره فيه، فإن سرى الحكم به عليه وعلى من يُشاكله فى اعتبار تلك الوجهة، فإنه لا يصح أن يقضى به على سائر النظار والباحثين بل يجب أن يفسح صدره لخلافهم، اعترافا بجواز أن يكون الصواب عند من حكم بخطئه والخطأ عند من حكم بإصابته. ألا ترى كيف صنع مالك بن أنس حين عرض عليه المنصور(٩) أن يجعل العلم علمًا واحدًا فمن خالفه ضرب عنقه فما كان جواب مالك إلا أن قال: «يا أمير المؤمنين إن عمر بن الخطاب لما فتح البلاد بعث إليها أصحاب رسول الله ﷺ معلمين يؤخذ منهم كابرًا عن كابر فإن ذهبت توليهم عما يعرفون إلى ما لا يعرفون رأوا ذلك كفرًا. وقال ما ينبغى لك يا أمير المؤمنين أن تحمل الناس على قول رجل واحد يخطئ ويصيب،

(٩) أبو جعفر المنصور: هو الخليفة العباسي أبو جعفر عبدالله بن محمد بن علي الهاشمي كانت خلافته اثنتين وعشرين سنة كان ذا حزم وعزم ودهاء ورأي وشجاعة وعقل وفيه جبروت وظلم توفي محرما على باب مكة في سنة ١٥٨هـ. سير أعلام النبلاء ٧/٨٣، البداية والنهاية ١٠/١٢١ ـ ١٢٩.

وإنما الحق من رسول الله ﷺ وقد تفرق أصحابه فى البلدان، وقلد أهل كل بلد من صار إليهم. فأقر أهل كل بلد على ما فيها، وخذ هذا العلم لنفسك. وكذلك شاوره الرشيد فى ثلاث مسائل منها أن يُعلق الموطأ فى الكعبة ويحمل الناس على ما فيه فأجابه بمثل ذلك»(١٠). وهكذا كان كل مجتهد من أئمة الحق وفقًا على رأيه، ولا يرى أن علم السنة قد جُمع فى يده. وكان اتفاقهم على هذا المبدأ منشأ لأعظم التسامح واحترام الآراء فيما بينهم، فلم يتفرقوا شيعًا وأحزابًا بسبب اختلاف الرأى ولم يكفر بعضهم بعضا، ولم يفسق بعضهم بعضا، بل كانوا متآخين متحابين موقرين بعضهم لبعض فى صميم أفئدتهم. وبذلك دخلوا فى أهل الرحمة الذين استثناهم الله تعالى بقوله:

﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾

(هود: ١١٨ ـ ١١٩).

فانظر كيف لم يسم اختلافهم اختلافا بل جعلهم غير مختلفين ـ إذ كان الاختلاف الحقيقى بهذا الاسم هو اختلاف القلوب بالتفرق والعداوة فى الدين الموجبة للتكفير أو التفسيق من الجانبين بسبب الاختلاف فى المبادئ القريبة أو البعيدة وليس كذلك اختلاف أئمة الرحمة كما علمت فإذا كان كل إمام. منهم وهو مالئ يده من أدلة الحكم ومآخذه قد اتسع صدره هكذا لخلاف غيره من المجتهدين ألا يكون الناظرون فى أقوالهم أحق بسعة الصدر للخلاف بينهم؟ ولئن ظنوا أنهم أصبحوا أقدر منهم على رفع الخلاف فى هذه المسائل لأنهم وقفوا على مآخذ كل إمام ومسالكه، وأحاطوا من ذلك بما لم يحط به كل إمام بمفرده لقد ظنوا غلطا وركبوا شططا، إذ هم مطالبون أولا بتحقيق دعوى الإحاطة المذكورة التى لا يوصل إليها إلا بعد طول البحث والتنقيب وإن تيسرت فى بعض المسائل لم تتيسر فى الجميع. ثم يقال لهم بعد تسليم الإحاطة منهم بدلائل الطرفين على كمالها أن النظر فيها لن ينتج إلا ظنًا والظنون تختلف قرب دليل واحد يلهمك النظر فيه حكمًا غير الذى يلهمه لصاحبك. فلا يمكن إذا بيان الحق فى هذه الخلافيات على وجه يقبله الناس حكمًا بينهم ومزيلا لاختلافهم بالكلية، وكيف والخلاف فى المسألة الاجتهادية لا يرتفع ما دامت اجتهادية وإلا لكانت اجتهادية غير اجتهادية! ثم أليس الاختلاف فى هذه المواضع من مقتضى الفطرة التى فطر الله الناس عليها إذ فطرهم متفاوتى القرائح والأفهام، وقد نزلت الشريعة السمحة مجيبة لحاجات الفطرة كلها مراعية طاقات العقول جميعها فكان من كمال تيسيرها ورحمتها التشريعية فى مواضع اختلاف الظنون أنها لم تكلف أحدا من المجتهدين بغير ما يهديه

(١٠) قال مالك: شاورني الرشيد أن يعلق الموطأ في الكعبة ويحمل الناس على ما فيه وأن ينقض منبر رسول الله ﷺ ويجعله من فضة وذهب وجوهر، وأن يجعل نافعا القارئ إماما للناس في المسجد النبوي. فقلت: يا أمير المؤمنين أما تعليق الموطأ في الكعبة فإن أصحاب رسول الله ﷺ اختلفوا في الفروع وكل عن نفسه مصيب. وأما نقض المنبر واتخاذه من فضة وذهب وجواهر فلا أرى أن تحرم الناس أثر النبي ﷺ. وأما تقديم نافع إماما للناس فنافع إمام في القراءة، ولا يؤمن أن تبدر منه بادرة في المحراب فتحفظ عنه. فقال: وفقك الله يا أبا عبدالله. أ. هـ (دراز)

إليه فهمه ما دام في حدود النظر المقبول عند العلماء. وهكذا صار الاختلاف في تلك المسائل من المقاصد الشرعية كما هو من الظواهر الطبيعية وصار طلب رفعه منها مصادمة للمعقول والمنقول جميعًا.

ثم نقول أخيرًا: إن حقيقة السنة في المسائل الاجتهادية لو كانت لائحة في جانب ما لصار كل المجتهدين إليها غالبًا، إذ الفرض أنهم أهل لمناصب الاجتهاد وأنهم باذلون جهدهم في طلب الحق، فلا يصير أحد منهم إلى الخطأ البين إلا في الزلات والفلتات النادرة، وذلك حين يعوزه نقل السنة فيجتهد فيها رأيه، حتى إذا تبينت له أو لمتبعيه وجب رجوعهم إليها وكانت هي مذهبهم ومذهب إمامهم حكمًا. وفيما عدا هذه الزلات تتقارب مآخذ الأئمة وتتعارض أنظارهم حتى لا يكون الترجيح بينها إلا بضرب من التقريب والحكم بأدنى الظن الذي يختلف باختلاف الناظرين. فليعمل كل واحد بما أداه إليه ترجيحه إن كان من أهل الترجيح أو ترجيح من يراه لذلك أهلًا له، وليكن علمه بذلك طلبا للسنة التي أرشد إليها قوله تعالى:

﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾

(الزمر: ٥٥)

على أنه إما مصيب مأجور أو مخطئ معذور. فإن التبس عليه تعيين الصواب ووقف عند ترجيح أحد الجانبين بقيت حقيقة السنة على الاحتمال والدوران بينهما ودخلت المسألة عنده في جملة المتشابهات اللاتي لا يعلمهن كثير من الناس. وصارت السنة فيها بالنسبة إليه هي ما بينه النبي ﷺ بقوله: «فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه»[١١] وقوله: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الشر ريبة وإن الخير طمأنينة»[١٢] ـ رواه البيهقي هكذا».

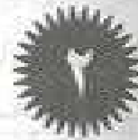
وجملة القول في هذا الباب أن هدى السنة إذا تعين في المسائل التي يجمع عليها المجتهدون فإنه يتعسر تعيينه عند اختلافهم. وكل ما على المرء في هذه الحال أن يجتهد في طلبه من بين الأقوال بقدر طاقته إما بالترجيح أو بالاحتياط كما بينا، وليس عليه أن يصيب الواقع فالله أرحم بعباده من أن يكلف أحدا ما ليس في وسعه.

○○○

(١١) الحديث أخرجه البخاري عن النعمان بن بشير كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه. جـ١ ص١٣٤.

(١٢) أخرجه الترمذي عن أبي الحوراء السعدي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب اعقلها وتوكل جـ٢ ص٢٠٤ (٢٥٢٠).

القصة والأمثال في القرآن الكريم





الأستاذ الدكتور محمد المختار محمد المهدي
الرئيس العام للجمعيات الشرعية
عضو مجمع البحوث الإسلامية

الأحرف السبعة

نزل القرآن الكريم في مكة المكرمة في مدة العهد المكي على لغة قريش، وكان أهل مكة يفهمونه جيدًا دون شرح، لا يحتاجون إلى تفسير؛ لأنها لغتهم التي أخذت بمجامع أفئدتهم، وكانوا يتناوبون في ظلام الليل الأماكن التي يتلى فيها قرآن ليسمعوه بعيدًا عن أعين الناس، وهذه شهادة واحد من أسياد قريش للقرآن، وهو الوليد بن عتبة ـ وكان معاديًا للرسول أشد العداء ـ: «إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يعلى عليه»[١].

واستمر هذا في العهد المكي، فلم يسأل أحد النبي ﷺ عن معنى كلمة أو معنى آية؛ لأن اللغة مفهومة، وبالطبع لم تكن قبائل أخرى موجودة في مكة في الفترة المكية. فلما انتقل النبي ﷺ إلى المدينة، وجد فيها الأوس والخزرج واليهود، والأوس والخزرج في الأصل من قبائل اليمن ولما انهار سد مأرب، وتمزقت قبائل اليمن ـ ومنهم قبيلتا الأوس والخزرج، هاجرت القبيلتان من اليمن إلى يثرب، إذن لغة يثرب ـ وهي لغة الأوس والخزرج ـ كانت في الأصل من لغة اليمن في الجنوب، ثم اختلطوا بعرب الشمال فأصبح لهم لغة مشتركة ـ أي مختلطة ـ بين لغة اليمن ولغة الشمال، فلما جاء النبي ﷺ قرأ عليهم القرآن على لغة قريش، فكانوا يفهمونه؛ لأن الأسواق جعلتهم يفهمون لغة قريش، لكن القراءة كانت صعبة بالنسبة لهم.

فالقرآن كان يفهم في المدينة، لكن الأنصار يريدون أن يقرؤوه؛ فقد سمى هذا الكتاب قرآنا ليقرأ، كما أنهم يسعون لتحصيل الحسنات، ولذلك شكوا إلى رسول الله ﷺ وطلبوا منه أن يسأل ربه أن ينزل القرآن بحرف آخر غير حرف قريش، فنزل القرآن بحرف ثانٍ.

وجاءت القبائل الأخرى من أسد ومن تميم ومن هنا ومن هناك ليسلموا أيضًا، وكل قبيلة منهم لها لهجة تختلف عن الأخرى، فطلبوا من النبي ﷺ أيضًا أن ينزل القرآن بلغتهم،

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٢/٧٥

فبدأ القرآن ينزل بحرف ثالث، ورابع، وخامس، وسادس، وسابع، وأصبح القرآن بأحرف سبعة، وهذا حديث عن النبي ﷺ قال لأبي بن كعب: «يا أبي أرسل إليّ أن اقرأ القرآن على حرف فرددت إليه أن هون على أمتي، فرد إليّ الثانية اقرأه على حرفين، فرددت إليه أن هون على أمتي، فرد إلى الثالثة اقرأه على سبعة أحرف فلك بكل ردة رددتكها مسألة تسألنيها، فقلت: اللهم اغفر لأمتي، اللهم اغفر لأمتي، وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلى الخلق كلهم حتى إبراهيم - صلى الله عليه وسلم -»(٢).

نزول القرآن وجمعه وكتابته

بقي لدينا أن نعلم كيف نزل القرآن، وكيف كتب، وكيف وصل إلينا محفوظًا بلا تحريف ولا تزييف.

إن القرآن كان ينزل على رسول الله ﷺ مرة سورة كاملة، ومرة عشر آيات أو أكثر أو أقل، وفور نزول الوحي ينادي الرسول ﷺ الكتبة فيكتبون ما نزل على ما كان متاحًا لديهم من الوسائل، ثم يقرأ النبي ﷺ ما نزل عليه في صلوات الجماعة، ولشوق الصحابة لتعمير قلوبهم بالقرآن كانوا يلتقطون الوحي من فم رسول الله فيثبت في حافظتهم، ويعودون إلى بيوتهم، فيقرؤون ما حفظوه على زوجاتهم وأولادهم، وبذلك يكون القرآن قد حفظ في السطور وفي الصدور.

وحين تنزل الآيات يحدد سيدنا جبريل موقعها، فيقول: «ضع هذه الآية بعد آية كذا» حتى نزلت آخر آية، وهي:

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

(البقرة: ٢٨١)

فقال النبي ﷺ: «أمرني جبريل أن أضعها بين آية الربا وآية الدين»(٣).

نفهم من هذا أنه كان هناك تحديد لمواقع الآيات وترتيب للمصحف وترتيب لآياته، وهذا الترتيب توقيفي من النبي ﷺ.

ولما توفي النبي ﷺ كانت المكتوبات عند كتبة الوحي، فجمعها سيدنا أبوبكر في مكان واحد أمين، وهذا ما نسميه «الجمع الأول»، حيث كلف سيدنا أبوبكر سيدنا زيد ابن ثابت بجمع كل هذه المكتوبات؛ لأنه كان شابًا مؤتمنًا في عهد رسول الله ﷺ، وكان من كتبة الوحي. فقال سيدنا زيد: لو كلفت نقل جبل كان أهون عليّ مما كلفني به أبوبكر. فبدأ يجمع ما كان عند الكتبة، ويرتبها كما سمعها؛ لأنه كان ممن سمع العرضة الأخيرة مع رسول الله ﷺ، وقرر الخليفة وضع هذه المكتوبات في بيت السيدة عائشة؛ باعتبار أن السيدة عائشة أم المؤمنين وبنت الخليفة سيدنا أبي بكر، فلما توفي سيدنا أبوبكر نقلت المكتوبات لحفصة بنت أمير المؤمنين عمر؛ لأن حفصة أم المؤمنين أيضًا وأبوها أمير المؤمنين، وظلت المكتوبات عند حفصة في عهد سيدنا عمر وأوائل عهد سيدنا عثمان، وفي هذه الفترة كان كلما يفتح قطر من الأقطار

(٢) رواه البخاري (٤٧٠٥): كتاب فضائل القرآن، باب أنزل القرآن على سبعة أحرف، من حديث ابن عباس ولفظه: «أقرأني جبريل على حرف فراجعته فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف»، ومسلم (١٩٤١): كتاب صلاة المسافرين، باب بيان أن القرآن على سبعة أحرف وبيان معناه، من حديث أبي بن كعب.

(٣) انظر: تفسير القرطبي ٣/٣٧٥، وتفسير الثعالبي ١/٢٢٨.

أو مدينة يذهب الصحابة ليقرؤوا القرآن على الناس فيقرؤونه كما تعلموه من رسول الله ﷺ فيجتمع حولهم المسلمون الجدد، ومنهم شباب كثير كونوا حلقات يحفظون فيها القرآن من فم الصحابة، وقد بلغ عدد من في الحلقة الواحدة آلافًا، كما كان في الشام، وفي العراق، وفي مصر، فبدأوا يحفظون القرآن على يد الصحابة، وإذا اختلفوا في كلمة يرجعون للمكتوبات الموجودة عند السيدة حفصة.

وكان الناس في عهد سيدنا عمر مشغولين بالفتوح وبتبليغ الإسلام، فلم يحدث خلاف حتى جاء عهد سيدنا عثمان، وكان قد بعث الجيوش إلى منطقة شرق آسيا، وكان القائد يصلي بهم إمامًا، فيقرأ أمير الجيش آيات سمعها من الصحابي على حرف من الأحرف، وبعض الجنود حفظوا القرآن على حرف آخر، فحدث خلاف رجع على أثره سيدنا حذيفة ابن اليمان إلى المدينة وقال لسيدنا عثمان: أدرك الأمة يا أمير المؤمنين؛ حتى لا يختلفوا كما اختلفت اليهود والنصارى، ونقل له ما حدث، فأمر سيدنا عثمان بن عفان بجمع القرآن، وكان قد توافر للمسلمين ورق البردي - والذي كان يأتي من مصر وقتها - ليكون بديلاً للجلود، أو العظام، أو سعف النخيل، وكلف سيدنا عثمان أربعة من أمهر الكتاب بهذه المهمة العظيمة، هم: سيدنا عبدالله بن الحارث، وعبدالله بن الزبير، وسعيد بن العاص - والثلاثة من مكة ولغتهم لغة قريش -، وزيد بن ثابت - وهو من المدينة - وكلفهم بجمع القرآن وعرضه على ما حفظوه، وعلى حفاظ القرآن من الصحابة، وكانوا في ذلك الوقت في المدينة اثني عشر ألفًا «١٢,٠٠٠»، فجمعهم سيدنا عثمان في مسجد الرسول، وأخذ هؤلاء الأربعة يعرضون على هذا الجمع الآية تلو الآية، فإذا أقروا بأنهم سمعوها من النبي ﷺ كتبوها، ولا يكتبون إلا ما أجمع عليه كل الحفاظ من الصحابة.

وبدأ الأربعة المكلفون يكتبون، فأتموا خمسة مصاحف، لا اختلاف بين أي واحد منها والآخر، فأبقى سيدنا عثمان مصحفًا، وبعث بالباقي إلى عواصم البلاد المفتوحة، وصارت هذه المصاحف مرجعًا لمن يقرأ القرآن.

ويفترى المشوشون ويطلقون على سيدنا عثمان بأنه أحرق المصاحف، وحقيقة هذه المصاحف أن بعض الصحابة كانوا يكتبون بعض المعاني التي كانوا يسمعونها من النبي ﷺ أو يعرفونها من اللغة بين الآيات، فأمر سيدنا عثمان بإحراق هذه المصاحف وتوحيد الأمة على المصحف الذي يشتمل على كلام الله فقط، وكان عملاً مباركًا، وخطوة عظيمة نحو جمع الأمة وحفظ كتابها من أي تحريف، وسبحان من قال:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾

(الحجر: ٩)

أدوات فهم وتفسير النص القرآني

توضيحا لما سبق من ضرورة فهم المعنى اللغوي، والصيغي، والتركيبي للألفاظ العربية الواردة في كتاب الله نورد بعض الأمثلة:

١ - كلمة «الفتح»: قال سيدنا عبدالله بن عباس - رضي الله عنهما - فيها: توقفت عند قوله تعالى:

﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ (الأعراف: ٨٩)

فلم أستطع أن أفهم معناها حتى سمعت ابنة ذى يزن وهى تقول لخصمها: تعال أفاتحك ففهمت معنى الآية.

هكذا سمع سيدنا عبدالله «بنت ذى يزن»، - وهى من اليمن من قبيلة حمير - تستعمل كلمة الفتح بمعنى الحكم والقضاء حين قالت: تعال أفاتحك: أى أقاضيك، ففهم سيدنا عبدالله أن معنى كلمة:

﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾

أى احكم بيننا وبين قومنا بالحق، ووردت هذه الكلمة أيضًا فى سورة السجدة بهذا المعنى فى قوله:

﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ﴾

(السجدة: ٢٩)

يعنى يوم الفصل والحكم بين العباد، وفى نفس الوقت جاءت كلمة «الفتح» بمعنى آخر عند الشمال هى:

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾

(الحجر: ١٤)

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾

(الأعراف: ٩٦)

٢ - كلنا يعلم بأن الخوف والتخوف يعنى أن الإنسان يخشى إنسانًا آخر ويخاف منه، هذا هو المعنى العام الذى نعرفه حتى فى القرآن، فكلمة الخوف موجودة فى القرآن كله بكثرة على هذا المعنى، ومع هذا جاء أحد الصحابة وسيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه، على المنبر وقال له: يا أمير المؤمنين، ما معنى قوله تعالى:

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾

(النحل: ٤٧)

أى هل يخاف ربنا من أحد حين يأخذه؟ فتوقف سيدنا عمر، فقام أحد الصحابة وقال: يا أمير المؤمنين هذه لغتنا: التخوف عندنا التنقص، فقال له: ما دليلك؟ فقال له: قال شاعرنا:

تخوف الرحل منها تامكا قردا..
كما تخوف عود النبعة السفن

وهنا قال سيدنا عمر: عليكم بديوان العرب لا تضلوا، فقالوا: وما ديوان العرب يا أمير المؤمنين؟ فقال: الشعر فيه بيان كلام الله.

فالشاعر يتكلم عن الناقة بأنها ضمرت وأصبحت مؤهلة لأن تسير المسافات البعيدة جدًا فيقول: تخوف الرحل، والرحل معروف يوضع على السنام وحين تمشى كثيرًا يحتك بالسنام فيأكل منه جزءًا فى ذهابه وعودته فيضمر فيقول: «تخوف الرحل منها تامكا قردا» وهو الدهن والشحم فوق السنام فينقص الموجود فيها «كما تخوف عود النبعة السفن» النبعة واحدة شجر النبع الذى يصنعون منه الرماح بواسطة البرى كما نفعل فى القلم الرصاص حتى يسوى الرمح.

«تخوف» معناها هنا: نقص، فإذا رجعنا إلى الآية التى قبلها وجدناها تتحدث عن الذين مكروا السيئات وأن الله عز وجل قادر على أن ينتقم من أعدائه بشتى الطرق إذ يقول:

﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

(النحل: ٤٥ - ٤٧)

أى بالخسف تارة، أو يفاجئهم بالعذاب الفورى فى نومهم أو فى يقظتهم، أو بالتدرج فى هلاكهم شيئًا فشيئًا، وهذا هو التنقص.

٣ - وكذلك لفظة اليأس هى مستعملة فى القرآن كثيرًا بمعنى فقدان الأمل كما قال تعالى:

﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾

(يوسف: ٨٧)

غير أنها وردت فى آية أخرى بغير هذا المعنى وهى قوله تعالى:

﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾

(الرعد: ٣١)

فالمراد: أفلم يعلم الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا، وذلك على لغة بعض القبائل.

- المعنى الصيغى:

١ - كلمة: «ضائق»، و«ضيق»، فى قول الله عز وجل:

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾

(هود: ١٢)

وضيق الصدر خلق سيئ فكيف يتصف النبى ﷺ بضيق الصدر؟ وهنا تجد الصيغة تحل الإشكال فكلمة ضائق فى اللغة: اسم فاعل، واسم الفاعل يدل على التجدد والحدوث يعنى أنها صفة طرأت وستزول، عكس الصفة المشبهة التى تعنى الثبوت والدوام، وصيغتها «ضيق»؛ ولذلك لم يأت التعبير عن النبى ﷺ «وضيق به صدرك» إنما قال: «وضائق» أى يطرأ الضيق عليك يانبى الله مما يقولون ويزول عنك؛ ولما تكلم القرآن عن الضيق الملازم لجهنم قال:

﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾

(الفرقان: ١٣)

فالضيق ملازم لها لا تنفرج أبدا ولا تتسع، ولذلك قال عنها: «مكانا ضيقا» لم يقل: «مكانا ضائقا».

٢ - قوله تعالى:

﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾

(النمل: ٦٦)

العمى قد يكون للعين وقد يكون للقلب، فعمى البصر يأتى فى اللغة وصفه على صيغة «أفعل» فيقال فيه: أعمى، ويجمع على: عمى وعميان. كما فى قولك: أعرج، أصفر، أحول، أكتع.. أما عمى البصيرة فيأتى الوصف منه على صيغة «فعل» فيقال: عم وجمعه: عمون. كما فى قولك: قلق، أرق، فرح، جزع، حزن، لبق، جشع. فإذا وصف الله الكافرين هنا بأنهم عمون فهمنا أنه يقصد أن عماهم فى بصائرهم وقلوبهم، كما قال عن قوم نوح:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾

(الأعراف: ٦٤)

تحقيقًا لقوله تعالى:

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾

(الحج: ٤٦)

٣ـ قوله ﷺ : «فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعلَّم»(٤). الفقه هو الفهم، لكن إذا أريد الدلالة على هذا المعنى فقط جاء الفعل على صيغة «فعِل يفعَل» فيكون: فقِه يفقَه مثل فهِم يفهَم وعلِم يعلَم. أما إذا أريد وصول هذا الفهم إلى درجة الملكات الثابتة والغرائز الدائمة بحيث يتصف بموهبة الفقه جاء التعبير بصيغة «فعُل» كطهُر وشرُف وكرُم.

وهذا ما يريده النبى ﷺ لمن ينتفع بعلمه وهداه، فينفع نفسه وغيره، ويكون الفقه لديه كالطبيعة والغريزة التى خلق عليها.

المعنى التركيبي

بقى أن تعرف كيف تركب الكلمة مع غيرها، وهذا هو علم النحو، إذ يختلف المعنى باختلاف الإعراب، وكان هذا من أسباب اختلاف الفقهاء فى فهم بعض النصوص، مثل قوله تعالى:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ﴾

(البقرة: ١٧٨)

اختلف الفقهاء فى فهم هذه الآية، فعندما نتصور حرًا قتل عبدًا فهل يقتل الحر بالعبد؟! فريق قال: لا، لأنهما غير متساويين، والقصاص لابد أن يكون بين متساويين، ففهموا معنى الآية على أنها جملة واحدة، وهى:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ﴾

أى أن القتلى تفسرها الحر بالحر، والعبد بالعبد، إذن لا يجوز أن أقتل الحر بالعبد، ونظر المحققون فى هذا التركيب، وقالوا: هذا مناقض لقضية العدالة فى الآية الأخرى

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾

(المائدة: ٤٥)

فالعبد نفس، والصحيح أن نفهم الآية على أنها جملتان:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾

وتلك جملة مستقلة، أى سواء كان حرًا بحر، أو عبدًا بعبد، أو حرًا بعبد، أو عبدًا بحر، فحكم القتل عمومًا هو النفس بالنفس، أما الجملة الثانية ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ﴾ فهى تتكلم عن ظاهرة كانت عند بعض القبائل العربية حين يقتل منها عبد لا يرضيهم فى أخذ الثأر لهذا العبد إلا قتل حر أو رئيس القبيلة مع أن أحدًا منهما لم يباشر القتل، فالآية ترشدنا إلى أنه: إذا قتل الحر حرًا فاقتلوا الحر به، وإذا قتل العبد عبدًا اقتلوا العبد، أى اقتلوا القاتل فقط.

فالخلاف الفقهى فى هذه المسألة جاء من فهم التركيب النحوى، فأحدهما يرى أن الجملة الأولى فى الآية مستقلة وهى:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾

و ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ﴾

جملة ثانية، ويرى الآخر أنهما جملة واحدة، وتكون ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ﴾ تفسيرًا لكلمة ﴿الْقَتْلَى﴾.

(٤) رواه البخارى (٧٩) كتاب العلم، باب فضل من علم وعلَّم، من حديث أبى موسى رضى الله عنه.

ومثال آخر لفهم تركيب الجملة: حينما تقرأ قوله تعالى:

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾

(الأنعام: ١٥١)

لو أنك وقفت على قوله تعالى:

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾

ثم ذكرت: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا﴾ لكان أمرًا بالإشراك كيف ذلك؟ إنك تقول:

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾

إذن الذى سيأتى هو ما حرمه الله فحينما تقول ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا﴾ يعنى عدم الشرك حرام ومعنى أن عدمه حرام أن الشرك هو المطلوب والمعنى يكون متناقضًا، أما إن وقفت عند قوله

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾

ثم تبدأ:

﴿عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾

أى تبدأ الجملة من كلمة ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بمعنى الزموا عدم الإشراك والزموا الإحسان إلى الوالدين، كان هو المعنى المراد، كيف تعرف هذا إلا من دراسة اللغة العربية وقواعدها ونحوها وما إلى ذلك؟!

ـ مثال آخر:

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

(النور: ٤ ـ ٥)

اختلف الفقهاء فى تحديد ما يسقط بالتوبة عن القاذف من العقوبات المفروضة عليه فى هذه الآية، ويرجع اختلافهم إلى القواعد النحوية التركيبية، ذلك أن الجملة يمكن أن ينتهى فيها الخبر عن اسم الموصول: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ﴾، عند قوله: ﴿ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ وتكون العقوبة التى لا مناص منها هى الجلد، ثم تبدأ جملة جديدة من قوله:

﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

على أساس أن «الواو» للاستئناف، ثم يأتى الاستثناء: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾، فتكون التوبة مسقطة للعقوبتين: عدم قبول الشهادة ووصفهم بالفسق.. فيعود القاذف بالتوبة إلى صفوف المسلمين تقبل شهادته ولا يوصف بفسق.

كما أن الأسلوب يحتمل معنى آخر وهو أن تكون الواو فى قوله: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا﴾ عاطفة على قوله: ﴿فَاجْلِدُوهُمْ﴾، فيكون من اللازم جلده ورفض شهادته مطلقًا سواء تاب أو لم يتب. وتكون جملة: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، هى المستأنفة، وبخاصة أنها خبرية، ويكون الاستثناء منها فقط، فالتوبة إذن لا تسقط إلا وصفه بالفسق. والمعتمد فى كلا الرأيين على ملحظ نحوى تركيبى هو اعتبار الواو حرف استئناف أو حرف عطف.

(يتبع)

معنى النسخ عند الشيخ محمد الخضرى بك

(١٢٨٩ - ١٣٤٥هـ/ ١٨٧٢ - ١٩٢٧م)

لقد كان الشيخ محمد الخضرى واحدًا من أعلام علماء الإحياء والتجديد الدينى فى عصرنا الحديث.. وترك آثارًا متميزة فى التاريخ.. وتاريخ التشريع.. والأصول.. ولقد عرض لقضية النسخ فى كتابين من كتبه، الأول (تاريخ التشريع الإسلامي).. والثانى (أصول الفقه).

ولقد فصل القول فى أن معنى النسخ هو: «رفع عموم نص سابق أو تقييد مطلقه».

وأكد على أن الخلاف حول المصطلحات والأسماء ليس القضية، وإنما الأهم هو المضمون والمسمى.. وأن «العام والمطلق لايزال دليلاً فيما عدا ما دل الخاص على خروجه من دائرة الحكم السابق».

ولقد استبعد الشيخ الخضرى - فى كتابيه - أن يكون هناك نص أو حكم - فى القرآن - قد نسخ، بمعنى أنه محى وأبطل وأزيل وأعدم؛ لأن العام وما خصصه نص واحد، وكذلك المطلق وما قيده نص واحد.

وتتبع الكثير من الآيات التى قيل إن النسخ - بمعنى إبطال الأحكام - قد وقع فيها.. والتى ذكرها السيوطى فى «الإتقان» - وهى عشرون - وزاد الخضرى عليها آيتين - وانتهى إلى الجمع بينها.. والدفاع عن مذهب أبى مسلم الأصفهانى (٢٥٤ - ٣٢٢هـ/ ٨٦٨ - ٩٣٤م) - الذى أيده الفخر الرازى (٥٤٤ - ٦٠٦هـ/ ١١٥٠ - ١٢١٠م) - فى رفض وقوع النسخ فى القرآن الكريم.. وفى هذا الإطار قال الشيخ الخضرى.

معنى النسخ

النسخ فى اصطلاح الفقهاء يطلق على معنيين:

(الأول) إبطال الحكم المستفاد من نص سابق بنص لاحق، ومثاله ما ورد فى حديث «كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها»، فالنص الأول يطلب الكف عن الزيارة، والنص الثانى يرفع ذلك النهى ويحل محله الإباحة أو الطلب.

(الثانى) رفع عموم نص سابق أو تقييد مطلقه. ومثاله قوله تعالى فى سورة البقرة:

﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ﴾ (البقرة: ٢٢٨)

ثم قال فى سورة الأحزاب:

﴿ إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ﴾

(الأحزاب: ٤٩)

فإن النص الأول عام ينتظم المدخول بها وغيرها، والنص الثانى يعطى غير المدخول بها حكمًا خاصًا بها، وكذلك قوله تعالى فى سورة النور:

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ﴾

(النور: ٤)

ثم قال عقب ذلك:

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

(النور: ٦)

فإن النص الأول عام ينتظم جميع القاذفين أزواجًا كانوا أم غير أزواج، والنص الثانى جعل للأزواج حكمًا خاصًا بهم حيث جعل أيمانهم الخمس قائمة مقام الشهداء الأربعة، وجعل للمرأة حق الخلاص من حد الزنا بأيمانها الخمس.

ومثال تقييد المطلق: قوله تعالى فى سورة المائدة:

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ ﴾

(المائدة: ٣)

وقال فى آية أخرى فى سورة الأنعام:

﴿ قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا ﴾

(الأنعام: ١٤٥)

فالنص الأول مطلق الدم المحرم، والثانى مقيد له بالدم المسفوح.

هذا النوع الثانى[١] موجود فى القرآن بدون نزاع سواء كنا نعلم من تاريخ التنزيل أن العام والمطلق سابقان فى التنزيل على الخاص والمقيد أم متأخران عنه، وسواء كان المتأخر متصلاً أم متراخيًا، وسواء سرنا مع بعض الفقهاء الذين يطلقون على المتراخى من الخاص والمقيد أنه ناسخ للعام والمطلق، أم سرنا مع من يسميه تخصيصًا وتقييدًا؛ لأن الأسماء لا تهمنا بعد الاتفاق على وجود المسميات، ويكفى أن نقول إن العام والمطلق لم ينلهما الإبطال. فإن العام لا يزال دليلاً فيما عدا ما دل الخاص على خروجه من دائرة الحكم السابق، ويرجع ذلك إلى الأصل الذى قررناه فى التشريع الإسلامى وهو التدريج فى التشريع والتنزيل بحيث إذا أكمل الدين، يؤخذ العام وما خصصه كأنهما نص واحد عامه كالمستثنى منه وخاصه كالمستثنى، ومن أجل ذلك لم يكن مما اهتم به القرآن الدلالة على السابق من النصين واللاحق منهما ولا مما اهتم الأصحاب بمعرفته لأن جملة الكتاب كما قدمنا شىء واحد.

أما النوع الأول وهو وجود نص فى القرآن أبطل حكمه - أو بتحسين فى العبارة انتهى

[١] أى الذى هو تخصيص العام وتقييد المطلق.

أمد حكمه ولم يعد بقاؤه إلا بصفة أنه ذكر يتلى - فهو محل النظر.

إن إبطال نص لاحق بنص سابق موقوف على أحد أمرين أولهما: أن ينص اللاحق على أنه ناسخ للسابق. ثانيهما: أن يكون بين النصين تناقض بحيث لا يمكن الجمع بينهما. فهل فى نصوص القرآن شىء من ذلك؟ أما الأمر الأول فليس فى القرآن شىء منه اللهم إلا فى ثلاثة مواضع يمكن أن تؤيد قبل بحثها رأى الجمهور القائلين بأن فى القرآن منسوخًا.

قال تعالى فى سورة الأنفال:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾

(الأنفال: ٦٥)

ثم قال فى الآية التى تليها:

﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾

(الأنفال: ٦٦)

النص فى هاتين الآيتين خبر، والغرض منه الإنشاء؛ فإن الله تعالى يقول فى هذه السورة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾

(الأنفال: ٤٥)

وقد أراد أن يضع حدًا لهذا الأمر المطلق فإنه يوجب الثبات فى جميع الأحوال أيا كان عدد المسلمين وعدد من يقاتلهم، فأولى الآيتين تحدد ما يجب الثبات أمامه بعشرة الأمثال ولم يأت فى ذلك بالأمر الصريح كما جاء قبله ﴿فَاثْبُتُوا﴾ بل جاء به على صورة الخبر؛ لأن المراد بعث الحمية فى أنفسهم والهاب الغيرة فى صدورهم.

ثم جاءت الآية الثانية معنونة بعنوان التخفيف، إذ علم الله فيهم ضعفا، والمراد بالعلم هنا الظهور يعنى أنه قد ظهر فيهم ضعف لم يكن؛ لأنه لو كان سابقًا لكان الله قد علمه موجودًا ولم يكن محل للتشريع السابق، فهذا الضعف الحادث هو الذى اقتضى التخفيف فإذا قلنا إن نسبة الآية الثانية للأولى هى نسبة النص المخفف لعارض مع بقاء حكم النص الأول عند زوال العارض، كان حكمها حكم العزيمة مع الرخصة. فإذا لم يكن بفئة هذا الضعف الذى ذكره الله سببًا للتخفيف كان عليها أن تثبت لعشرة أمثالها، ويؤيد هذا الرأى أن العشرين المذكورة فى النص الأول موصوفة بالصابرين، وكذلك المائة موصوفة بكونها صابرة، فمتى وجدت صفة الصبر ثبت الحكم الأول، والصبر من لوازمه المتقدمة عليه القوة المادية وقوة القلب المعنوية. وإذا قلنا إن النص الثانى عام فى جميع الأحوال كان الأول منسوخ الحكم وهذا بعيد. ويقرب من هاتين الآيتين قوله تعالى فى سورة المزمل:

﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِّصْفَهُ
أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ
تَرْتِيلًا (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥) إِنَّ
نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا (٦) إِنَّ لَكَ فِي
النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾

(المزمل: ١ - ٧)

ثم قال فى آخر السورة:

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾

(المزمل: ٢٠)

الآية الأولى نص صريح فى طلب قيام جزء من الليل قريب من نصفه، وبينت السبب فى هذا الإيجاب، والخطاب فيها موجه إلى النبى ﷺ، والنص الثانى دال على أن الرسول كان يقوم بهذا التكليف وكذلك طائفة من الذين معه ثم ذكر أن هناك سببًا يقتضى التخفيف عن الأصحاب، وهو علم الله بأن سيكون منهم الأصناف الثلاثة الذين ذكرهم، ومن أجل ذلك كان التكليف مقصورًا على قراءة ما تيسر من القرآن، فإذا كان النص الأول مقصورًا على النبى ﷺ، والأصحاب إنما قاموا بقيام الليل اقتداء به ﷺ، والتخفيف مقصورًا عليهم للأسباب المذكورة، لم يكن النص الأول منسوخًا بل حكمه باق بالنسبة إلى رسوله ﷺ، وهذا رأى ابن عباس. وإن قلنا إن الأول عام والتخفيف عام كان النص الأول منسوخًا وهو بعيد.

الثالث: قوله تعالى فى سورة المجادلة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

(المجادلة: ١٢)

ثم قال فى السورة نفسها:

﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾

(المجادلة: ١٣)

فالآية الأولى تحتم تقديم الصدقات بين يدى النجوى، والثانية ترفع ذلك التحتيم من غير تصريح بالرفع، هذا ما يمكن تطبيقه على الأول، وهو إعلام النص اللاحق بإلغاء النص السابق، وقد علمت أن هذه النصوص الثلاثة غير معينة لإفادة النسخ.

أما الطريق الثانى وهو الالتجاء إلى النسخ لوجود نصين متناقضين ولا مجال لتأويل أحدهما، فمن العسر أن نرى فى كتاب الله ما هو كذلك. وقد أفضنا القول فى بيان الآيات التى قيل إنها منسوخة وإجابة ما تعى ذلك من العلماء فى كتابنا الموسوم بأصول الفقه فارجع إليه إن شئت، ومن سلف العلماء الذين منعوا أن يكون فى القرآن منسوخ أبو مسلم الأصفهانى المفسر الكبير، وقد رأينا أقواله فى تفسيرى الرازى، ويظهر من خلال كلام الرازى أنه ميال لرأى أبى مسلم فى ذلك[٢].

(٢) الشيخ محمد الخضرى، تاريخ التشريع الإسلامى (ص٢٠ ـ ٢٤)، طبعة القاهرة، التاسعة، المكتبة التجارية الكبرى (١٣٩٠هـ/١٩٧٢م).

وفى كتاب الشيخ الخضرى «أصول الفقه» تتبع الآيات التى أوردها السيوطى - فى «الإتقان فى علوم القرآن» - باعتبار أن النسخ قد وقع فيها.. فجمع - الشيخ الخضرى - بينها.. منتصرًا لرأى أبى مسلم الأصفهانى - الذى أيده الفخر الرازى - وفى ذلك قال: والظاهر أن خلاف أبى مسلم إنما هو فى نسخ نصوص القرآن، فهو يرى أن القرآن كله محكم:

﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾

(يونس: ٦٤)

ولكن الأصوليين يخالفونه فى ذلك ويحتجون بآيات لم يبق حكمها، إما بآيات أخرى وإما بأحاديث مشهورة، وقد أكثر بعض الناس من تعديد ما نسخ من آيات الكتاب وخطأهم آخرون، واختار السيوطى فى الإتقان أنها عشرون آية، ونحن نسوقها هنا مع بيان ما يمكنه أن يتمسك به من يحتج لرأى أبى مسلم:

الأولى: قوله تعالى:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾

(البقرة: ١٨٠)

واختلفوا فى ناسخها فقيل: آية المواريث، وقيل: حديث: «لا وصية لوارث» وقيل: الإجماع، أما آية المواريث فلم تبين إلغاء ما دلت عليه هذه الآية، وليس هنالك تناقض بين الحكمين حتى نضطر إلى إبطال إحدى الآيتين بالأخرى، وأما الحديث فإنما يحتج به من يقول: إن النص القطعى ينسخ بالظنى. وأما الإجماع ففيه كلام؛ لأن بعض الفقهاء يرى أن آية البقرة محكمة، فمنهم من يوفق بينها وبين الحديث ويخصص الموصى لهم بكونهم غير وارثين لمانع يمنع الإرث كاختلاف الدين، ومنهم من يبقيها على عمومها ولا يحكم ببطلان الوصية للوالدين والأقربين أيا كانوا، ولكن جمهور المجتهدين على القول بالنسخ وإبطال الوصية للوارث.

الثانية: قوله تعالى:

﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾

(البقرة: ١٨٤)

نسخت بقوله:

﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾

(البقرة: ١٨٥)

وبعض الفقهاء يرى الآية الأولى محكمة وأنها خاصة بالمرضى والمسافرين الذين يطيقون الصوم، فهؤلاء إن أفطروا كان عليهم أن يقدروا مع القضاء، ونظام الآية لا يأباه؛ لأنها تقول:

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾

(البقرة: ١٨٤)

ثم قال عنهم:

﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ۚ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

(البقرة: ١٨٤)

وهذا محال أن يكون خطابًا لمن لا يطيقونه من المرضى والمسافرين ولا لغيرهم، فظهر أن الكلام مسوق من أوله فى شأنهم.

الثالث: قوله تعالى:

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾

(البقرة: ١٨٧)

ولا معنى لإيراد هذه الآية لأنها غير منسوخة إجماعًا ولا ناسخة لأمر ورد فى القرآن.

الرابعة:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾

(البقرة: ٢١٧)

قيل إنها منسوخة بقوله تعالى:

﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾

(التوبة: ٣٦)

وهذا عجيب مع اختلاف الموضوعين، لأن الأولى تتعلق بالزمان والثانية تتعلق بالأفراد فلا تناقض بين الحكمين، على أن الآية لا تقضى بامتناع القتال فى الأشهر الحرم إذا كان جزاء لما هو أشد، فإن تمامها:

﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ ۚ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾

(البقرة: ٢١٧)

فهى تشير إلى أن من فعل كل هذه الكبائر لا حق له أن يلوم من قاتله فى شهر حرام؛ لأنه فعل ما هو أكبر، وعلى الجملة فلا يوجد دليل قاطع على نسخ الحكم.

الخامسة:

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾

(البقرة: ٢٤٠)

نسخت بقوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾

(البقرة: ٢٣٤)

والناظر إلى الآيتين يراهما مختلفتى الموضوع، فالأولى تبين حقا للمتوفى عنهن، ولذلك قال:

﴿وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم﴾

(البقرة: ٢٤٠)

وهذا الحق بيّن بقوله:

﴿مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾

(البقرة: ٢٤٠)

ثم جعل لهن الحرية فى الخروج إن شئن فقال:

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾

(البقرة: ٢٣٤)

والآية الأولى تبين واجبًا عليهن وهو أن يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرًا لا يتزوجن فى أثنائها، فإذا انتهت كان لهن أن يتزوجن، فلا تناقض بين الحكمين، فلا معنى للنسخ إلا إذا قيل: إن آية الوصية نسخت بشىء آخر غير آية العدة ومن اللازم بيانه،

قالوا: إن الوصية منسوخة بآية الميراث، وفى هذا ما تقدم.

السادسة: قوله تعالى:

﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾

(البقرة: ٢٨٤)

نسخت بقوله تعالى:

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾

(البقرة: ٢٨٦)

وليس ذلك ظاهرًا لأن الله يحاسب الناس على ما أظهروه من الأقوال والأعمال وما أضمروه، وهو مع ذلك لا يكلفهم إلا ما فى وسعهم، ولا يترتب على ذلك محال؛ لأن فى وسع الإنسان ألا يضمر شرا، كما فى وسعه بقية الأعمال التكليفية، وليس من ذلك خطرات النفس التى تعرض ثم تزول بدون أن يترتب عليها شر.

السابعة: قوله تعالى:

﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾

(آل عمران: ١٠٢)

نسخت بقوله:

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾

(التغابن: ١٦)

وليس النسخ واضحًا لأن:

﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾

(التغابن: ١٦)

هو:

﴿حَقَّ تُقَاتِهِ﴾

(آل عمران: ١٠٢)

لم يطلب منهم غير ذلك.

الثامنة: قوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾

(النساء: ٣٣)

نسخت بقوله تعالى:

﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾

(الأحزاب: ٦)

وهذا غير ظاهر فيه النسخ؛ لأن توريث مولى الموالاة قال به فقهاء العراق محتجين بهذه الآية، وغاية الأمر أن رتبته متأخرة عن ذوى الأرحام، فتكون كل من الآيتين مبينة حكمًا غير ما بينته الأخرى، فمن كان له ذو رحم فهو أولى بميراثه عملاً بالآية الثانية، ومن لم يكن ذا رحم وله مولى موالاة فهو الذى يرثه.

التاسعة:

﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾

(النساء: ٨)

وليس هناك دليل على نسخها حتى قال بعضهم: هى محكمة ولكن تهاون الناس فى العمل بها.

العاشرة:

﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾

(النساء: ١٥)

نسخت بآية النور، وقد فسر هذه الآية بعضهم بأنها خاصة بالنساء اللاتى عرف

عنهن إتيان مواضع الريب وبيوت الفسق من غير أن يتحقق زناهن فهؤلاء يجازين، إذا شهد عليهن أربعة رجال، بالحبس المؤبد فى البيوت بحيث لا يعطين حق الخروج من بيوتهن حتى الموت، أو أن يطلقهن أزواجهن، وهو السبيل الذى يجعله الله لهن، فإن صح هذا التفسير كان مما يمكن أبا مسلم أن يدعى به عدم النسخ.

الحادية عشرة: قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾

(المائدة: ٢)

قيل: قوله:

﴿وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾

(المائدة: ٢)

منسوخ بإباحة القتال فيه، وقد تقدم القول فى ذلك.

الثانية عشرة: قوله تعالى:

﴿فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾

(المائدة: ٤٢)

نسخت بقوله:

﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾

(المائدة: ٤٨)

ولا معنى للنسخ هنا؛ لأن الثانية متممة للأولى، فهو مخير أن يحكم أو يعرض، وإذا اختار الحكم حكم بما أنزل الله، فالطلب منصب على القيد.

الثالثة عشرة: قوله تعالى:

﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾

(المائدة: ١٠٦)

منسوخة بقوله:

﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾

(الطلاق: ٢)

من المعلوم أن الآية الأولى نزلت فى شأن خاص وهو حكم الرجل إذا ضرب فى الأرض فنزل به الموت، فإذا أوصى بوصية ثبتت بشهادة اثنين ذوى عدل من المسلمين أو آخرين من غيرهم، وإنما أجاز الشارع ذلك فى هذه الحادثة وأمثالها؛ لأن المسافر ربما لم يجد أحدًا من أهل دينه يشهده على وصيته، فإذا ضيق الباب ضاعت الوصية، فأباح الشارع فى هذه الحال قبول الشهادة من غير أهل دينه توسيعًا على الناس، أما الآية الثانية فهى القاعدة العامة فى غير ظروف الآية الأولى.

الرابعة عشرة: قوله تعالى:

﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾

(الأنفال: ٦٥)

نسخت بقوله تعالى:

﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ﴾

(الأنفال: ٦٦)

الآيتان وردتا على صورة الإخبار والمراد بهما طلب، أى يطلب من العشرين أن يثبتوا للمائتين ولا ينهزموا عنهم، ويطلب من المائة أن تثبت للألف، ثم خفف الله هذا الحكم فطلب من المائة أن تصبر للمائتين وللألف أن يصبروا للألفين، فالأولى عزيمة

والثانية رخصة بالنص بدليل التخفيف، والظاهر أن تعريف النسخ ينطبق على هذه الآية؛ لأن الأولى كانت توجب عليهم الصبر لعشرة أمثالهم، والثانية رفعت هذا الوجوب وأوجبت شيئًا آخر وهو صبرهم لضعفهم، وربما يقال: إن الرخص مع العزائم كذلك، ولم يقل أحد: إن الرخصة تنسخ العزيمة، فآية التيمم لم تنسخ آية الوضوء، مع أن آية الوضوء توجبه على كل حال، وآية التيمم توجب رفع الأول وإيجاب شيء آخر في حال فكذلك هنا.

الخامسة عشرة: قوله تعالى:

﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾

(التوبة: ٤١)

نسخت بآيات العذر وهي قوله:

﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾

(الفتح: ١٧)

وقوله:

﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ﴾

(التوبة: ٩١)

وقوله:

﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾

(التوبة: ١٢٢)

وواضح أن الآية الأخيرة لا شأن لها هنا؛ لأنها في موضوع النفر للتعلم بدليل بقية الآية:

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾

(التوبة: ١٢٢)

وآيات العذر مبينة للمراد بالآية الأولى قطعًا؛ لأنه محال أن يكون الله قد أمر غير القادرين على النفر به، فذلك من باب التخصيص لا من باب النسخ، ويظهر أن نزول آية العذر موصول بآيات النفر.

السادسة عشرة:

﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾

(النور: ٣)

وواضح أن هذه الآية خبر معناه النهي، وذلك أن الزانية التي عرفت بذلك والمشركة لا ينبغي أن يقدم على نكاحها إلا رجل لا يريد التحصين وإنما يريد المسافحة، كما أن الشخص المعروف بالزنا المشرك لا ينبغي أن يتزوجها إلا امرأة لا تريد التحصين، وهذا المعنى لا تبطله:

﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾

(النور: ٣٢)

التي قالوا: إنها ناسخة لها.

السابعة عشرة:

﴿لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾

(النور: ٥٨)

ولا دليل على نسخ هذه الآية، بل هي أدب عظيم أدب الله به المسلمين حتى لا يدخل عليهم خدمهم وصغارهم في هذه الأوقات - أوقات التبذل عادة - بدون استئذان.

الثامنة عشرة:

﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ﴾

(الأحزاب: ٥٢)

نسخت بقوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾

(الأحزاب: ٥٠)

وادعاء النسخ هنا لا دليل عليه، بل الآيتان متفقتان لا تناقض بينهما، فإن الثانية تشير إلى أن الله أحل له من ذكرهن وهن زوجاته، والثانية تفيد نهيه عن تزوج غيرهن أو طلاقهن وأن يتبدل بهن.

التاسعة عشرة: قوله تعالى:

﴿إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾

(المجادلة: ١٢)

نسختها الآية بعدها ونصها:

﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾

(المجادلة: ١٣)

وهذه الآية بيان من الله سبحانه أن الصدقة لا يلزم أن تكون مالية زائدة عما يجب بل يكفيهم إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وهذا صدقة.

العشرون:

﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا﴾

(الممتحنة: ١١)

قيل نسخت بآية الغنيمة، وقيل: محكمة، وذلك واضح.

الحادية والعشرون:

﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾

(المزمل: ١ - ٤)

نسخت بآخر السورة ونصها:

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾

(المزمل: ٢٠)

والظاهر أن الآية الثانية تخفيف فهي رفع للحكم الأول وهو طلب قيام أكثر الليل.

الثانية والعشرون:

﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾

(البقرة: ١١٥)

نسخت بآية القبلة، والنسخ فيها غير ظاهر.

هذه هي المواضع التي اختار السيوطي أن فيها نسخًا، وقد أسقط منها اثنين فصار الباقي عشرين، وهي كما ترى تحتمل التأويل فأبو مسلم لا يستحق أن يشنع عليه إلى الحد الذي وصلوا إليه[٣].

---

(٣) الشيخ الخضري، أصول الفقه (ص٢٤٨ - ٢٥٢)، طبعة دار الحديث، القاهرة (١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣م)، وانظر تفصيل ذلك في: د. محمد عمارة (حقائق وشبهات حول معنى النسخ في القرآن الكريم) طبعة دار السلام - القاهرة سنة ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.

الحكم فى الإسلام



الشيخ محمود شلتوت

السيادة والحكم لله والأمة مستخلفة

يقرر القرآن الكريم صراحة أن الله سبحانه هو الخالق للكون وما فيه من كائنات، فهو رب الناس، رب العالمين، وأنه مالك الملك يؤتيه لمن يشاء وينزعه ممن يشاء، فهو السيد المطلق وحده، والناس كلهم عبيده، وهم سواء فى درجة العبودية لله، كما أنهم سواء فى نسبتهم إلى الخالق المالك، لا يتفاضلون إلا بمبلغ إيمانهم بالله، واستمساكهم بشرعه، ومدى ما يقدمونه من خدمات لصالح المؤمنين.

ويقرر القرآن الكريم أن الله استخلف آحادًا من الناس خصهم برحمته، وحملهم هدايته إلى الناس، ابتغاء سعادتهم فى الدنيا والآخرة.

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾
(البقرة: ٣٠)

﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً﴾
(ص: ٢٦)

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا﴾ إلخ.

كما أنه تعالى استخلف الشعوب والجماعات، ووكل إليها مثل ما وكل إلى الرسل والهداة من رسالات:

﴿إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾
(الأعراف: ٦٩)

وتلك سنة الله فى الناس منذ خلقهم: يستخلف شعبًا أو جماعة يحملها الرسالة العامة ثم يصطفى منها فردًا يجعله مناط وحيه ورسوله إلى الناس بالهداية. ولن تلغى مسئولية الرسول مسئولية الشعوب أو الجماعات.

﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾
(الأنعام: ٥٢)

ولقد اتجه القرآن الكريم فى خطابه العام بجميع أنواع التشريع إلى الجماعة؛ لأن لها الاعتبار الأول فى الرعاية والمسئولية، فناداها بوصف الإنسانية تارة وبوصف الإيمان تارة، وخاطبها بإطلاق تارة أخرى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾
﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾
﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾
﴿فَاجْلِدُوا﴾ .. إلخ،

وبهذا سلط الجماعة على الفرد، وكلفها بتنفيذ الشرع واختيار طريقة التنفيذ والإشراف على المتنفذين من الأفراد. وجعل الحكم أمانة يجب أن تؤدى على الوجه الأكمل، وخدمة للمسلمين عامة، ولم يجعل لغيره بالحكم أى لون من ألوان السيادة على العامة؛ لأنه وحده السيد المطلق والناس جميعًا عبيده.

وقطعا لما عساه يتوهم من سيادة للحاكم على المحكومين، كما كان شائعًا قبل الإسلام، جعل الحكم حقًا له فى الأصل وللأمة المستخلفة بطريق التبعية، وللخليفة بطريق الوكالة عن الأمة التى تنصبه.

﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾
(يوسف: ٤٠)

﴿أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾
(هود: ٤٥)

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾
(النساء: ٥٨).

وهكذا يجعل الإسلام الحكم حقًا للأمة التى استخلفها فى الأرض واستعمرها فيها، ومنحها وصف السيادة عن هذا الطريق على كل فرد منها ولو كان حاكمًا.

الشورى أساس الحكم

وزيادة فى تأكيد هذا المعنى السامى، الذى لم يسبق الإسلام إليه، قرر أن يكون الحكم شورى بين المسلمين، وأمر الرسول المعصوم أن يشاور المسلمين فى أمرهم، وهو بالطبع لا يشاورهم فيما هو من شأن الوحى والتشريع، بل فى غيره، وأهم أمر المسلمين، مما لا دخل للوحى فيه هو أمر الحكم، وهو موضع الشورى بينهم، لا يستبد به الحاكم ولو كان رسولا معصومًا:

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾
(آل عمران: ١٥٩)

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾
(الشورى: ٣٨)

﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾
(الغاشية: ٢٢)

﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾
(ق: ٤٥)

أما ما هو شكل الشورى؟ وما هو مداها؟ فقد ترك ذلك للأمة تشكله حسب ما ترى من مصلحتها فى كل مكان وزمان، فالمبدأ ثابت دائم ولا رأى لأحد فيه. ولا تملك الأمة تغييره لأنه تشريع دائم والشكل متغير متطور.

للأمة الرأى فى تغييره وتطويره برأى ذوى العلم والخبرة من بنيها، وهم أولياء أمرها وأهل الحل والعقد فيها.

ولقد كان هذا مفهومًا عند المسلمين الأولين، فهذا الحباب بن المنذر يغير الوضع الحربى للمسلمين فى بدر بعد أن علم أن الرسول لم ينزلهم المنازل الأولى

التي عدل عنها بوحي. وهذا سعد بن معاذ يمزق ورقة المعاهدة التي عقدها الرسول مع أهل الطائف في غزوة الأحزاب، بعد مفاوضات طويلة بين الرسول وبينهم؛ وذلك أن الحصار اشتد على المسلمين وزلزلوا زلزالا شديدًا، فرأى عليه السلام أن يصنع شيئًا يخفف به متاعبهم ويفرق جمع الأعداء، فدخل في مفاوضات مع أهل الطائف، واتفقوا على أن يرجع الطائفيون ولهم ثلث ثمار المدينة. فسأل سعد رسول الله عن ذلك وهل للوحي دخل فيه؟ فقال ﷺ: إنما هو أمر صنعته لكم رجوت من ورائه الخير؛ فأخذ سعد المعاهدة ومزقها - وقد كانت معدة للتوقيع - قائلاً: إنهم لم ينالوا منا ثمرة إلا قرى، أفبعد أن أعزنا الله بك يأخذون ثلث ثمار المدينة عنوة؟ لا والله. فلم يغضب الرسول، وسر بذلك المسلمون جميعًا.

وهذه الحادثة تضع تقليدًا دستوريًا مهمًا للمسلمين، هو أن الحاكم - ولو كان رسولاً معصومًا - يجب عليه ألا يستبد بأمر المسلمين، ولا أن يقطع برأى في شأن مهم، ولا أن يعقد معاهدة تلزم المسلمين بأى التزام دون مشورتهم وأخذ آرائهم، فإن فعل كان للأمة حق إلغاء كل ما استبد به من دونهم، وتمزيق كل معاهدة لم يكن لهم رأى فيها.

أهل الحل والعقد

وليضمن الإسلام تنفيذ أوامره أمر أن تكون في الأمة جماعة دائمة تدعو إلى الخير، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر. وهذه الجماعة غالبًا تكون من أهل العلم والبصر بأمور الدين والدنيا، ومن كل ذى رأى وخبرة في ناحية من نواحي الحياة. وكل فرد من المسلمين يرى نفسه أهلاً للقيام بذلك فحق عليه كالصلاة والزكاة والصيام والحج أن يدعو إلى الخير ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، والغرض من ذلك ضمان صلاح المسلمين في دينهم ودنياهم، وتقويم المعوج من أمورهم، وبهذا يتضامن أفراد الأمة جميعًا في كفالة صوالحها ودفع الشر عنها. وكل فرد هذا شأنه مسئول عن صالح الأمة مسئولية تامة لا يخلصه منها إلا أداؤها واحتمال تبعاتها بصبر وأمانة، ولا يعفيه من الحساب عليها عذر مهما كان.

من هذه المسئولية ينشأ التضامن الجماعي بين الأمة، وتنشأ مسئولية الجماعة عن أمورها كافة، وتحمل من تبعة فساد أمرها مثل ما يحتمله الحاكم الذى جرى الفساد على يديه، إن لم تكن مسئوليتها أكبر وأخطر.

الحاكم وكيل الأمة

ولهذا كان من حق الأمة أن تختار حكامها، تعينهم وتعزلهم، وتراقبهم في كل تصرفاتهم الشخصية والعامة. فالحاكم يجب أن يكون حميد السيرة، فإن ساءت سيرته فللأمة عزله، ويجب أن يكون عادلاً، فإن ظلم فللأمة عزله. ويتفق الفقهاء على أن (خليفة المسلمين) هو مجرد وكيل عن الأمة يخضع لسلطان موكله في جميع أموره، وهو مثل أى وكيل لفرد من الأمة في البيع والشراء يخضع لما يخضع له الوكيل الشخصى.

كما يجمعون أن موظفى الدولة الذين يعينهم الخليفة أو يعزلهم لا يعملون بولايته ولا ينعزلون بعزله باعتباره الشخصى، وإنما بولاية الأمة وعزل الأمة التى وكلته في التولية والعزل، ولهذا إذا عزل الخليفة لا ينعزل ولاته وقضاته؛ لأنهم يعملون باسم الأمة وفى حق الأمة، لا باسم الخليفة ولا في خالص حق الخليفة.

خليفة المسلمين فرد عادى

كما أجمع الفقهاء على أن خليفة المسلمين ورئيس دولتهم ليس إلا فردًا عاديًا من الأفراد. ولا يمتاز على واحد منهم إلا بثقل مسئوليته كوكيل عنهم؛ فيؤخذ بالقصاص إذا قتل عمدًا، ويحتمل المغارم التى يلحقها بالناس، ويلزم برد ما يغتصبه من الأفراد ويجلد بحد الزنا إذا زنى، وتقطع يده إذا سرق، والأمة صاحبة الولاية عليه في كل ذلك، تقيم عليه الحدود وتنفذ عليه الأحكام.

ومن هنا نفهم لماذا كان القضاة في صدر الإسلام يحكمون على الخلفاء، ويسوون بينهم وبين خصومهم في مجالس القضاء، وينفذون عليهم أحكام الله لأن هؤلاء القضاة كانوا يفهمون: أن الخليفة الذى يحاكمونه، إنما ولاهم بسلطان الأمة، فهم قضاتها لا قضاته.

وإذا عرفنا أن الرسول ﷺ كان يقيد من نفسه ويقول: «من جلدت له ظهرا فهذا ظهرى فليستقد منه إلخ»، وأن الراشدين جميعًا كانوا يشترطون لطاعة الناس لهم أن يطيعوا الله في سيرتهم الشخصية وسيرتهم العامة؛ لأنه (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق).

وإذا كان الفسوق الشخصى في السيرة الخاصة معصية لله، فالظلم في الرعية، والجور في الحكم، وأكل حقوق الناس بالباطل، وتعطيل حرياتهم من أكبر المعاصى عند الله، ومن هذا يرون أن كلمة «السلطان ظل الله في الأرض» لا أصل لها في الإسلام.

الحريات العامة وحدود التمتع بها

وإذا كان الإسلام يقرر الحريات العامة للناس كافة، حرية العقيدة، حرية الرأى، حرية الاستيطان، حرية التملك، حرية التنقل، وكل ما تشتمله كلمة حريات، ويرى أن إطلاق الحريات في مصلحة الدولة نفسها بقدر ما هو في مصلحة الأفراد، فإنه يشترط لتمتع كل فرد بحرياته، ألا يكون ذلك عن طريق الطغيان على حريات الآخرين، أو عن طريق الإضرار بصالح الدين والدولة، فإذا اعتدى فرد على حرية فرد آخر، أو كان تمتعه بحريته مضرًا بالدين أو الدولة، مثل أن يستغل حريته في الطعن على الإسلام، أو إفشاء أسرار الدولة، أو التجسس عليها ونقل أخبارها إلى أعدائها وما شابه ذلك، وجب على الدولة أن تقيد حرية ذلك الفرد، لأن ذلك هو مصلحته ومصلحة الدين والدولة. ويقابل هذا أن الدولة لا تملك حق تقييد الحريات إلا عن هذا الطريق، فإذا قيدت حرية شخص ما بلا موجب، فلا طاعة لها عليه.

التنظيم الاقتصادى

والإسلام أول تشريع عام يربط السياسة

بالاقتصاد، ويترتب على هذا الربط أمن المجتمع واستقراره، فهو يقرر الزكاة وهى نسبة معلومة على قدر معلوم من الأموال والحيوان والزروع والثمار. ويقرر الإنفاق المطلق على كل غنى حسبما يملى عليه إيمانه وشعوره بالمسئولية لصالح الدين والدولة وأفرادها، ولم يحدد فيه نسبة خاصة امتحانًا للمؤمنين، واختبارًا لمدى شعورهم بالصالح العام الذى يتطلب غالبا نفقات تقصر عنها موارد الزكاة المحددة، فإذا لم ينفق كل ذى سعة من سعته فللدولة أن تشرع ما يلزم الأغنياء بالإنفاق على حاجات الدولة عند اللزوم، حتى رأينا «أبا ذر» يبالغ فى ذلك، ويحاول أن يحمل معاوية والخليفة عثمان على أن يقراه على أن يمسك الغنى قوته ويتصدق بكل ما يزيد عليه، فأجابه عثمان: دع الناس لما تركهم الله إليهم: فإنا لا نكره الناس على الطاعة.

وإلى جانب هذا يأمر بالتصدق تطوعًا عند الاقتضاء، إذكاء لروح التكافل والتضامن بين المسلمين.

وبنظرة بسيطة إلى مصارف الزكاة والإنفاق والصدقات، ترى أن الإسلام يعمل على تمليك كل فقير محروم، ليشعره بعزة وكرامة، وليجعل منه لبنة قوية فى بناء الدولة، لا يلبث كثيرًا حتى يكون من المساهمين مع غيره فى إنشاء هذه الملكيات الصغيرة الجديدة التى يهدف الإسلام إلى نشرها والإكثار منها فى دولته، حملا للناس على العمل، وقضاء على التعطل، وإشعارًا لهم بالكرامة، وإرضاء لما فى غرائزهم من حب التملك، فى الوقت الذى يهذب فيه هذه الغرائز ويحد من جموحها فى الموسرين.

وإذا ضممت إلى ذلك نظرة إلى تشريع الإسلام فى المواريث، وجدت بوضوح أنه يعمل على الحد من تضخم الثروات بتجزئة التركات، كما يحد منه بالزكاة، والإنفاق والصدقة.. وفى نفس الوقت الذى يهد فيه التضخم فى الملكيات والثروات يبنى ملكيات صغيرة وثروات صغيرة.

وهو بذلك يعالج أخطر مشاكل البشرية علاجا ناجعًا حاسمًا باسم الدين الذى لا مناص من التزامه: مشكلة الفقر الذى يدفع إلى الحسد والجريمة، والتربص بالأغنياء، ومشكلة الغنى الفاحش الذى يدفع إلى البخل، والخوف من الفقراء وكراهيتهم، والعمل على إذلالهم وظلمهم وإضعافهم، حتى لا يسلبون ما فى يد الأغنياء، ولو أدى ذلك إلى الجريمة، ومشكلة الغرور القاتل فى نفوس الأغنياء، والتعالى والتجبر بكثرة المال، ومنعهم من الجنوح إلى الشر فى الحفاظ على أموالهم، والحد من جموح غرائز التملك فيهم، ومشكلة الشعور بالحرمان عند الفقراء الذى يدفعهم إلى إرضاء غرائز التملك فيهم ولو عن طريق الجريمة، والقضاء على الميل إلى الشر فيهم.

وعن طريق هذا العلاج المزدوج المادى والروحى، يضمن الإسلام فى مجتمعه سيادة المحبة والمودة والرحمة، كما يضمن أمن المجتمع واستقراره، وإشاعة السلام فيه وهو أمر لم تزل البشرية جاهدة فى بلوغه، وإدراك أسبابه، وهيهات هيهات أن تصل إليه إلا عن طريق الإسلام.

خلاصة المبادئ الإسلامية فى الحكم

ومن هذا نخلص إلى المبادئ الآتية:

١- السيادة لله وحده لأنه الخالق المالك.. وهى فى كل شعب للشعب نفسه بعد الله الذى استخلفه فى وطنه.

٢- الحكم: لله وهو حقه وحق الشعب يباشره نيابة عن الله.

٣- الحاكم: وكيل للأمة وليس له عليها سيادة بل هى سيدته وهو خادمها الأمين.

٤- الشورى: أساس الحكم وكل حكم لا يقوم على الشورى لا يكون شرعيًا.

٥- التضامن الجماعى: الأفراد جميعًا يتضامنون فى المسئولية عن صوالحهم وصوالح الدين والدولة.

٦- الرقابة الشعبية: حق للأمة أن تراقب حكامها، وتحاسبهم، وترسم لهم خطوط تدبير مصالحها، وتشرف على التنفيذ، وتعدله حسب مصلحتها.

٧- عزل الخليفة: للأمة إن جار وظلم وظهر غشمه ولم يرعو لناصح أو زاجر فإن رفض العزل عزلته بالقوة، ولو أدى ذلك إلى نصب الحرب وشهر السلاح فى وجهه إذا رأت الأمة ذلك فى صالحها.

٨- أهل الحل والعقد: هم أهل العلم والرأى والخبرة فى كل نواحى النشاط الحيوى بالأمة، وهم لسانها المعبر عن رضاها وسخطها، ومن حقهم ترشيح أصلحهم للخلافة، وتقديمه للأمة لترى رأيها فيه عن رضى واختيار، دون ضغط أو قهر، ومن حق كل مسلم أن يكون له رأى فى اختيار الخليفة، وأن يمكن من إعلان رأيه بحرية تامة، دون أن يضار بسبب رأيه ولو خالف الأغلبية، وعليه مع هذا أن يلزم الجماعة.

٩- هدف الحكم: سعادة المحكومين، وتحقيق السلام فى الداخل، والعزة فى الخارج، ونشر السلام.

وبعد فهذه كلمة سريعة عن نظرة الإسلام إلى الحكم وأهدافه أحببت أن أقدمها إلى الأمة فى عيد جمهوريتها الأول، حتى تهتدى بهدى الإسلام فى دعم جمهوريتها، وتركيزها على أسس قويمة تضمن لها البقاء والخلود، وتشيع فيها الأمن والرضا والاستقرار، وتضمن لجميع بنيها حرياتهم وجميع حقوقهم، وتدفعهم إلى المجد دفعًا، وتقربهم إلى الله ورضوانه:

﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾

(التوبة: ٦٢)

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾

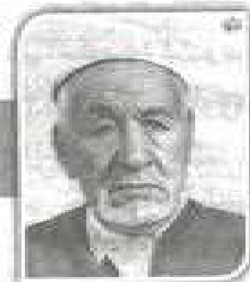
(النساء: ٦٦ - ٦٨)

وأسأل الله العلى العظيم الكريم السميع القريب أن يكلأنا بعنايته ويرعانا بتوفيقه، ويهدى أمتنا إلى فقه دينها والتمسك بشريعتها والاستظلال برايتها، وأن تتبوأ مكانها الذى أراده الله لها، فتسعد نفسها والبشرية معها، والحمد لله الذى تتم بنعمته الصالحات.

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾

(آل عمران: ٨)

الرق فى الإسلام (*)



للإمام محمد البشير الإبراهيمي

يرى كثير من الباحثين الغربيين فى شرائع الإسلام أنه شرع الاسترقاق ومكّن له وحماه، وجعله كلمة باقية فى أتباعه، وأبقاه سمة مميزة له، حتى إنه كلما ذكروا الإسلام ذكروا معه الاسترقاق كنقيصة اختصّ بها، ويذكرون معه تعدّد الزوجات، ونقص ميراث المرأة، وضرب الحجاب عليها واستبداد الرجل بالعصمة والطلاق، وينتزعون من إباحة التسرّي بالإماء فى الإسلام بلا حد دليلا- فى زعمهم- على أنه هو المقصود من شرعية الاسترقاق، ويعمون عن جميع حكم الإسلام وأحكامه فى هذه القضية، ولا يرون إلا أنه دين اتباع للأهواء واسترسال فى الشهوات، كل ذلك لينفروا قومهم ويصدّونهم عن سبيله، ولينفسوا عن أنفسهم ذلك الحقد المتأجج على الإسلام والمسلمين.

وهذا الصنف من الباحثين المسيحيين فى شئون الإسلام لا يصدرون فى أبحاثهم عن أذهان صافية ومنطق مستقيم وفهم صحيح لأصول الإسلام وحقائقه، ولا يستندون إلى اطلاع واسع على كتبه وتاريخه ولا يبحثون بحثًا مجردًا عن الهوى والغرض، ولا يحبسون أفكارهم عند الحقيقة ليحملوها لمن يقرأ كلامهم، ولا تذهب بهم هممهم إلى الماضى البعيد من تاريخ الإسلام وأسباب امتداد سلطانه وانتظامه بالمشارق والمغارب، وآثاره فى أتباعه الأولين وسير رجاله البارزين فى العلم والحكم، والحرب والسلم، والاجتماع والتشريع ... لا شيء من هذا فيما بلونا من أمرهم، وإنما يصدرون عن أهواء غالية، وأحقاد دفينة وتعصّب موروث، يرثون كل ذلك عن سلفهم من رجال الكنيسة وفلول الحروب الصليبية، وعن التصويرات التبشيرية العصرية التى يخططها أئمة الكهنوت، وينفق عليها المهووسون من أتباعهم، وتحميها الدول الاستعمارية بالجيوش والأساطيل.

وخصلة أخرى ذميمة ركبت كل الكاتبين

(*) محاضرة لم نعثر على تاريخ ومكان إلقائها

الغربيين حين يكتبون عن الشرق عمومًا، وعن الإسلام والمسلمين خصوصًا، وهى القصور فى الاستقراء، والعقم فى الاستنتاج والسطحية فى التفكير، فتراهم يقفون على الجزئيات فيجعلون منها كليات، ويبنون عليها أحكامهم، ويوهمون قرّاءهم من بنى جلدتهم ومن تلاميذهم منا أنهم استقرأوا ذلك الموضوع استقراءً تامًا، وخرجوا منه بحكم لا ينقض، وعلى هذه الطريقة الخاطئة والمنهاج الأعوج درج أولهم وآخرهم، ومن كتب منهم فى التشريع الإسلامى، ومن كتب فى تاريخ الإسلام، وكل من كتب فى فروع الشرقيات، وإن لهم لخطيئة أخرى علتها الغرض والهوى والجهل مجتمعات، - وهذا الثالوث إن اجتمع كان آفة الفكر وجائحة التاريخ- وهى أنهم يحكمون على الإسلام بأعمال المسلمين وأحوالهم المخالفة له، ليتوصلوا إلى غرضهم فى تنقص الإسلام والإزراء عليه والحط منه، ولا يريدون أن يفهموا أن الإسلام شيء وأن المسلمين شيء آخر، ولو فهموا هذا لفهموا معه أن المسلمين لو أقاموا دينهم ومشوا على صراطه السوى لما طمع الغربيون من أوطانهم فى قلامة ظفر، ولما ظفر هؤلاء الباحثون الحاقدون بثغرة يدخلون إليهم أو ينفذون إلى دينهم منها، ولو جارينا هؤلاء الباحثين المسيحيين فى منطقهم هذا وكايلناهم صاعًا بصاع لقلنا لهم: إن الاستعمار الذى هو رجس من عمل الشيطان محسوب على المسيح، وإن محاكم التفتيش نسخة من أعمال المسيح، ولكننا لا نجاريهم، لأننا نعلم من كمالات المسيح وتعاليم المسيح ما لا يعلمون.

ثم دخل عامل جديد على مباحث الغربيين المتعلقة بالإسلام، وهو السياسة الاستعمارية المبنية على إذلال المسلمين وابتزاز أموالهم واحتجاز خيرات أوطانهم، فكان من أسلحة هذه السياسة، بعد الحديد و النار وتشويه الإسلام وتقبيحه فى نفوس أبنائه الجاهلين به، وتشجيع الخرافات لإفساد عقائده، وإلقاء الشبهات فى كثير من حقائقه، وتزهيدهم بكل الوسائل فى أحكامه حتى يهجروها، وإذا زاغت العقائد وهجرت الأحكام وسادت الخرافات فأى سلطان مادى أو معنوى يبقى للدين على نفوس معتنقيه؟ وهذا هو الذى يرمى إليه الاستعمار فى كل ما يكتب عن الإسلام وفى كل ما يعامل به المسلمين، وقد بلغ مراده منا.

كان طبيعيًا للدول المسيحية المستعمرة أن تجنّد جنودًا لفتح الأوطان، وتجنّد جنودًا أخرى لفتح الأذهان، فكان الجند الثانى مؤلفًا من هؤلاء الباحثين الذين يكتبون فى شئون الإسلام، فتصدّى فريق منهم لتشويه التاريخ الإسلامى، وفريق للطعن فى أحكامه، والقدح فى فضائله، وفريق لفتنة الأجيال الناشئة من أبنائه ببريق الحضارة الغربية، ويصحب ذلك كله تحقير الشرق وحضارته وعلومه، وفى مقدمتها حضارة الإسلام وعلومه، وإن هدفهم فى كل أعمالهم هو الدعائم التى تبنى عليها الأسرة الإسلامية، ينالونها بالتوهين ثم بالهدم، لعلمهم أن الأسرة هى أساس الأمة، فإذا صحّ بناء الأسرة صحّ بناء الأمة، والعكس بالعكس،

ونحن لا نعلم دينًا سماويًا ولا قانونًا وضعيًا بنى الأسرة على صخرة ثابتة، مثل الدين الإسلامي، ولكن أهله- هداهم الله- فرطوا في التليد، ثم أفرطوا في التقليد، فكانت عاقبة أمرهم خسرًا، ولو أنهم عادوا إلى الله وإلى تعاليم دينه لعادت عليهم عوائد بره ورحمته.

ويزيد السر في هذه الحملات القلمية على الإسلام انكشافًا واتضاحًا أن هؤلاء القوم ينقمون من الإسلام كدين أنه زكّى نفوس أبنائه حتى حققوا المثل العليا للإنسانية، وهؤلاء القوم يحاولون أن لا يسجّل التاريخ مثلا أعلى للإنسانية غيرهم، وأنّى يكونون كذلك والمثل العليا لا تتحقق إلا بالعنصر الروحي وهم مقلسون منه، وينقمون منه كنظام اجتماعي سياسي أنه ساد نصف المعمورة قرونًا، فهم يخشون أن تتهيأ له الوسائل فتعود له تلك السيادة كرة أخرى، لذلك تجدهم يكتبون عنه كتابة الحاقد الموتور، فلا يبالون بحقيقة تاريخية يشوّهونها، ولا بحق ثابت ينكرونه، ولا بحسنة بارزة يطمسونها، وأعانهم على ذلك سوء حال المسلمين في القرون الأخيرة، وانحلال عرى جامعتهم، وانحطاط مستوى تربيتهم، واستغراق جمهرة فقهائهم في التقليد للأشخاص والعادات، تقليدًا يكاد يكون تأليهًا، وهجرهم للينابيع الصافية لشريعتهم، وانقطاع الصلة الوثيقة بينهم وبين سلفهم وهي التاريخ المتسلسل، وجهلهم بكل ما يدور حولهم، وهل أتاك أن كثيرًا من فقهائنا لا يعلمون شيئًا عن هذه المطاعن الموجّهة للإسلام، ولو علموا لما استطاعوا لها دفعًا، وأنّى يعلمون وهم غير متصلين بزمنهم؟

إن لميدان الكلام والأقلام رجالا، وإن لميدان الصدام والحسام رجالا، وقد خلا الميدانان منا، فلا نلم المتطاول علينا بقلمه أو بسيفه، ولنلم أنفسنا، فالدهر دول.

على أننا لا ننكر أن في أولئك الباحثين نفرًا يتحرّون الحقائق، ويتسمون بسمات العلماء من الإنصاف والتمحيص وخدمة العلم لذات العلم، وقد انتهى البحث بهؤلاء إلى الاعتراف بمحاسن الإسلام دينًا ونظامًا اجتماعيًا تحوطه أحكام عادلة حكيمة، وإلى الاعتراف بمعجزات القرآن في العلوم الكونية، ولكن هذه الفئة قليلة وليس في قدرتنا أن نحجر على الباحثين والكاتبين أن يكتبوا في أحوالنا، وأقلّ الواجب أن نرد الفرية، وأن نكشف المرية، وأن نحمد لمن ينتقدنا بإنصاف ولمن ينبهنا على عيوبنا.

ونعود إلى موضوعنا وهو «الرق في الإسلام».

تحرّرت أمريكا من استعمار أوروبا لها، والاستعمار استعباد، وتحرّرت بعد ذلك دول أوروبا من استبداد ملوكها، والاستبداد استعباد، وتحرّر كثير منهم من طغيان الكنيسة وهو أشنع أنواع الاستعباد، فرسخت أصول الحرية في هذه الأمم، واستمرأوا طعمها، وجنوا ثمراتها، وتنوّعت مناحيها من حرية الرأي والمعتقد إلى حرية الاجتماع والقول، فأرادوا أن يخرجوا على العالم بشيء جديد، فتداعوا إلى مؤتمر، وأسفر المؤتمر عن قانون سمّوه «قانون إلغاء الرق» يحرّم ملك الرقيق والاتجار به، وعرضوه على حكومات العالم فوافق عليه الكثير منها، ومنها الدولة العثمانية، وكانت دولة الخلافة الإسلامية إذ ذاك، ولكنها كانت من الضعف بحيث لا تستطيع أن تخالف لأوروبا رأيًا وإن كان سخيفًا أو مرادًا به غير ظاهره، ولا تستطيع أن تمنع النخاسة في ممالكها الواسعة الممتدة الأطراف، ولما كان مما ورثه الأوروبيون عن أسلافهم وعن الكنيسة عداوة الإسلام، وكان من أعمال الكنيسة تعهّد تلك الشجرة الخبيثة، شجرة الحقد على الإسلام وأهله، بالسقيا والتنمية، كان من ثمرة ذلك الحمل على الإسلام وإلصاق النقائص كلها به كلّما وجدوا إلى ذلك سبيلا، فقد اتفقت حكومات أوروبا وأمريكا على تحريم الاسترقاق وتضييق الخناق على المتّجرين بالرقيق، وبقيت بعض الحكومات الإسلامية متساهلة في ذلك- صدقت الحملة من الحكومات المسيحية وكتابها على الإسلام من هذه الثغرة وهي الاسترقاق- فعابوه بأنه دين استرقاق لا دين حرية، وفهموا أن الاسترقاق أصل من أصوله كالصلاة والحج وحكم من أحكامه لا يجوز للحاكم المسلم أن يلغيه ولا أن يهدمه، وقد تكشفت الحكومات الأوروبية والكتّاب الأوروبيون في هذه القضية عن جهل فاضح بمقاصد الإسلام وسياسته في تنظيم الاجتماع الإنساني، وهذا هو ما نحاول توضيحه في هذه الكلمة.

دين التحرير

استشرف العالم الإنساني قبيل البعثة المحمدية إلى دين سماوي عام، يحرّر الإنسانية تحريرًا كاملا في جميع جوانب الحياة، ويبتدئ بتحرير العقل الذي هو القوة الروحية المصرفة للإنسان، والمميزة بين الخير والشر، وكان ذلك الاستشراف بعد أن عجزت نبوة الأنبياء وحكمة الحكماء عن تحريره، فجاء الله بالإسلام دينًا سماويًا عامًا كاملا ليحقق للإنسانية آمالها في التحرير العام، فكان الإسلام هو دين التحرير، وهو النبأ الذي كان أصحاب الأرواح الصافية يترقبونه، وهو الأمنية التي كانت تملأ نفوس المصطفين الأخيار من عباد الله ثم ماتوا قبل أن تتحقق.

نقول: إن الإسلام هو «دين التحرير العام»، فنرسل هذا الوصف إرسالا بدون تحفظ ولا استثناء، لأنه الحق الذي قامت شواهده وتواترت بيّناته، ومن شواهده وشهوده تلك الأجيال التي صحبت محمدًا وآمنت به واتّبعت النور الذي أنزل معه، ثم الذين صحبوهم، ثم الذين اتّبعوهم بإحسان، ونحمد الله على أن العلاقة بين الألفاظ ومعانيها لم تنقطع عند جميع العقلاء من أجناس البشر، والعقلاء هم حجة الله على من سواهم، وما زال الخير يسمّى خيرًا، والشرّ يسمى شرًا، والفضيلة فضيلة، والرذيلة رذيلة. فالسارق يسرق وهو يعتقد أنه متعد على مال الغير، والمتبع لخطوات الشيطان لا يقول رضي الله عن إبليس، وإنما يقول: لعنه الله وإن هذه لمن أسرار فطرة الله التي فطر خلقه عليها يواقعون الشر ولا يسمونه خيرا، فيسجلون بذلك الشهادة على أنفسهم، إلا المطبوع على قلوبهم، الفاقدين للشعور، كالذين إذا قيل لهم لا

تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون، وكصرعى التقليد للحضارة الغربية الذين استرقتهم الشهوات فاستباحوا المحرمات باسم الحرية. وكالمسايرين للدول الغربية، أسكرتهم القوة فبغوا على الضعفاء وسلبوا أوطانهم، وسمّوا بغيهم استعمارا.

إن من الظلم والحيف والغش والفساد فى الأرض تسمية الأشياء بغير أسمائها، لأنه قطع للأسباب عن مسبباتها، وقد قيل فى قوله تعالى:

﴿ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ ﴾

(الرعد: ٢٥)

إن منه قطع الدوال عن مدلولاتها، وإن أعظم شرور هذه الحضارة الغربية أنها فتحت الباب لهذا النوع من المسخ وشجعت عليه، فأفسدت الفطرة، والضمير الذى سمّاه محمد ﷺ: (وازع الله فى نفس المؤمن).

والتحرير الذى جاء به الإسلام شامل لكل ما تقوم به الحياة وتصلح عليه المعانى والأشخاص، والدين الإسلامى لا يفهم التحرير بالمعنى الضيق، وإنما يفهمه على أنه كل إطلاق من تقييد، أو تعديل لوضع منحرف، أو إنصاف لضعيف من قوى، أو نقل شىء من غير نصابه إلى نصابه. قالت أسماء بنت أبى بكر حينما بعث لها أبوها بجارية تقوم لها بعلف الفرس: فكأنما أعتقني.

حرّر الإسلام العقل وجميع القوى التابعة له فى النفس البشرية، والعقل هو القوة المميزة للمتضادات والمتنافرات التى بنى عليها هذا العالم، كالصلاح والفساد، والخير والشر، والنفع والضر، ولذلك جعل مناطا للتكاليف الدينية والدنيوية، وقد يطرأ عليه ما يطرأ على الموازين المادية من الاختلال فيتعطل أو ينعكس إدراكه، والإسلام يعلو بتقدير العقل والفكر إلى أعلى درجة، ويقرر أن إدراك الحقائق العليا فى الدين والكون إنما هو حظ العقول الراجحة والأفكار المسددة، وأن العقول المريضة والأفكار العقيمة تنزل بصاحبها إلى الحيوانية بل إلى أحط من الحيوانية، ففى القرآن العظيم:

﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾

(الأعراف: ١٧٩)

ولهذه المنزلة التى وضع الإسلام العقل فيها حماه من المؤثرات والأمراض والعوائق، وأحط دركة يرتكس فيها العقل هى الوثنية، فهى أكبر معطل له عن أداء وظيفته حين لا يسمو إلى الجولان فى العوالم الروحية وحين تفتنه الماديات بظواهرها من طريق الجوارح الحسية.

أعلن الإسلام من أول يوم حربًا شعواء على الوثنية بجميع أنواعها، وهى أشدّ ما كانت سلطانا على النفوس، وتغلغلا فيها، وإفسادًا لفطرة الخير وإطفاء لنورها، حتى اجتثها ومحا آثارها من النفوس ومن الآفاق، وعمر مكانها بالتوحيد. أتدرون السر فى تلك الحملات على الوثنية؟ هو تحرير العقل من نفوذها وسلطانها حتى يواجه أمانة الدين الجديد صحيحا معافى، ويؤدى الوظيفة التى خلق لأدائها، وما هدم أصحاب محمد الأصنام بأيديهم إلا بعد أن هدم محمد الوثنية فى نفوسهم، وبعد أن بنى عقولهم من جديد على صخرة التوحيد، ولولا ذلك لما أقدم خالد على هدم طاغية ثقيف.

وحرّر الخلفاء بعضهم ببعض بما شرعه من أحكام عادلة تقوم بالقسط، وترفع الحيف والظلم، ووقف بكل واحد عند حده، وحفظ له حقوقه.

فحدّ الحدود بين المرأة والرجل وبين المحكوم والحاكم وبين الفقير والغنى وبين العبيد والسادة وبين العمال وأصحاب المال، وهذه الأنواع من التحرير تناولتها النصوص القطعية من القرآن والأحاديث، واكتنفتها فى صلب النصوص مؤثرات من الترغيب والترهيب تزيدها قوة ورسوخا فى النفس، فأما تحرير المحكومين من الحاكمين فلا مطمع أن يأتى فيه على وجه الدهر ما جاء به الإسلام من شرائع العدل والإحسان والشورى والرفق والرحمة وعدم المحاباة حتى فى النظرة والكلمة والمجلس.

وأول ما يسترعى النظر من ذلك سيرة محمد ﷺ وأقضيته فى حياته وما أدبه به ربه من مثل قوله:

﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾

(المائدة: ٤٩)

﴿ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾

(الأنعام: ٦٦)

﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾

(الغاشية: ٢٢)

﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ﴾

(ق: ٤٥)

ثم سيرة الخلفاء الراشدين فى الحكم فإنها كانت مثالا من أحكام النبوة التى هى وحى يوحى، وإن الأمثلة التى ضربها عمر فى إقامة العدل وقوة الاضطلاع، لأمثلة خالدة على الدهر، فاق بها من قبله، وأعجز من بعده، وما أروع قوله: «من رأى منكم فىّ اعوجاجا فليقومه»، وأروع منه قول مجيب من أفراد الرعية: لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا، وأبلغ منهما فى الروعة أن يحمد عمر ربه على أن يكون فى أمة محمد ﷺ من يقوم عمر بسيفه.

والتشريع الإسلامى تشريع متصل الحلقات من العقائد والعبادات إلى الآداب والمعاملات، وكله يرمى إلى غاية واحدة، وهى إنشاء أمة متحدة المبادئ والغايات، متناسقة ما بينهما، لتحمل الأمانة كاملة صحيحة إلى الأجيال اللاحقة، وقد تم للإسلام ما أراد عدة قرون، وما زلنا – بحمد الله – نحمل بقايا من ذلك، ولولاها لكنا فى الغابرين.

وحرر الإسلام الفقير من الغنى، فجعل للفقراء حقا معلوما فى أموال الأغنياء، ووجه التحرير هنا أن الفقير كان يسأل الغنى فيعطيه أو يحرمه تبعا لخلقه من تسهل أو كزازة، فإذا أعطاه شيئا أخذه على أنه مكرمة ممنونة، تجرح نفسه، وإن أشبعت بطنه، ولكن الإسلام ألزم الغنى بدفع الزكاة للفقير وسماها حقا معلوما، وتسمية هذا المال حقا لله تشعر الغنى بالرضا والتسليم والاطمئنان إلى إخلافه ومضاعفته، وترفع عن الفقير

غضاضة الاستجداء ومهانة السؤال، وتطهر نفسه مع ذلك من رذيلة الحقد على الغنى، وهذا الحقد هو أساس الشيوعية. ومن عجائب الإسلام فى إدخال التربية النفسية فى الأحكام، أنه لا يأمر بشىء ولا ينهى عن شىء من العمليات إلا بعد ان يمهد للنفس ويعمرها بخوف الله وحده، ويقنعها بالآثار التى تترتب على المأمور به أو المنهى عنه، فإذا جاء دور العمل كانت النفس مطمئنة بالعلم وراضية بالعمل مهما شق، ولهذا كانت عقائد الإسلام وعباداته وأحكامه وآدابه كلها مترابطة وكلها متعاونة على تهذيب المسلم، ولهذا السر أيضا صلح شأن المسلمين الأولين، لأنهم أقاموا الدين كله، عينيا فى العينيات، وكفائيا فى الكفائيات، وكانوا لا يتهاونون فى الصغيرة، احتياطا للكبيرة، ومن أوامر القرآن:

﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾

(الشورى: ١٣)

وحرر الإسلام الحيوان الأعجم من الإنسان، وحرم عليه أن يحمله ما لا يطيق من الأحمال والأعمال، وأن يجيعه أو يعطشه، فإذا فعل به شيئا من ذلك بيع عليه جبرا بحكم الحاكم، وأوصى فى الرفق بالحيوان وصايا زاجرة، وفى حديث نبوى أن امرأة دخلت النار بسبب هرة أمسكتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل خشاش الأرض، وأن امرأة عاصية لله دخلت الجنة بسبب كلب وجدته يلهث عطشا على حف بئر فأدلت خفها وسقته، وما من شىء تفعله جمعيات الرفق بالحيوان فى هذا العصر إلا وقد سبق الإسلام إلى أكمل منه.

وحرر الإسلام المرأة من ظلم الرجال وتحكمهم، فقد كانت المرأة فى العالم كله فى منزلة بين الحيوانية والإنسانية بل هى إلى الحيوانية أقرب، تتحكم فيها أهواء الرجال وتتصرف فيها الاعتبارات العادية المجردة من العقل، فهى حينا متاع يتخطف، وهى تارة كرة تتلقف، تعتبر أداة للنسل أو مطية للشهوات، وربما كانت حالتها عند العرب أحسن، ومنزلتها أرفع، يرون فيها عاملا من عوامل ترقيق العواطف وإرهاف النفس، ودواء لكثافة الطبع وبلادة الحس، ويجدون فيها معانى جليلة من السمو الإنسانى، وأشعارهم - على كثرتها - عامرة بالاعتراف بسلطان المرأة على قلوبهم وبشرح المعانى العالية التى يجدونها فيها، ولا عبرة بما شاع عنهم من وأد البنات، فإنه لم يكن عاما فاشيا فيهم، وتعليله عند فاعليه يشعر أنه نتيجة حب طغى حتى انحرف، وأثر عقل أسرف فى تقدير العواقب، لا نتيجة كراهية لنوع الأنثى، وعلى كل حال فالوأد خطأ كبير، وجريمة شنيعة، وشذوذ فى أحكام الرجال خارج عن نطاق الإنسانية، وحسبه تسفيه قوله تعالى:

﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾

(النحل: ٥٩)

وجاء الإسلام فنبه على منزلتها وشرفها وكرم جنسها، وأعطاها كل ما يناسب قوتها العقلية وتركيبها الجسمى وسوى بينها وبين الرجل فى التكاليف الدينية، وخاطبها بذلك استقلالا تشريفا لها، وإبرازا لشخصيتها، ولم يجعل للرجل عليها سبيلا فى كل ما يرجع إلى دينها وفضائلها، وراعى ضعفها البدنى بالنسبة للرجل، فأراحها من التكاليف المادية فى مراحل حياتها الثلاث، من يوم تولد إلى يوم تموت، بنتا وزوجا وأما، فأوجب على أبيها الإنفاق عليها وتأديبها ما دامت فى حجره إلى أن تتزوج، وهذا حق تنفرد به البنت على الابن الذى يسقط الإنفاق عليه ببلوغه قادرا على الكسب، فإذا تزوجت انتقل كل ما لها من حق أدبى أو مادى من ذمة الأب إلى ذمة الزوج، فتأخذ منه الصداق فريضة لازمة، ونحلة مسوّغة وتستحق عليه نفقتها ونفقة أولادها منه بالمعروف فإذا خلت من الزوج ولها أولاد مكتسبون وجبت الحقوق على أولادها، ولا تنفق شيئًا من مالها إلا باختيارها، ووصايا القرآن والسنة وأحكامها فى بر الأمهات معروفة، وهى أظهر من الشمس، فالإسلام أعطى المرأة وأولادها من الإعزاز والتكريم ما لم يعطها إياه دين آخر ولا قانون وضعى وأعطاها حق التصرف فى أموالها، وحق التملك من دون أن يجعل للزوج عليها من سبيل، وأحاطها بالقلوب الرحيمة المتنوعة النوازع، المتلونة العواطف: قلب الأب وما يحمل من حنان، إلى قلب الزوج وما يحمل من حب، إلى قلب الولد وما يحمل من بر ورحمة، فهى لا تزال تنتقل من حضن كرامة وبر إلى حضن كرامة وبر، إلى أن تفارق الدنيا، وبين المهد واللحد تتبوأ المراتب الكاملة فى الإنسانية.

نرى من هذه المعاملة الصريحة للمرأة فى الإسلام أنه سلحها بأحكام قطعية، وحماها بتشريع سماوى عادل ولم يكلها إلى طبائع الآباء الذين يلينون ويقسون، ولا إلى أهواء الأزواج الذين يرضون ويغضبون، ولا إلى نزعات الأبناء الذين يبرون ويعقون، وإنما هى أحكام إلهية واجبة التنفيذ، لا تدور مع الأهواء والعواطف والنزعات وجودًا وعدمًا.

ولا ينقض علينا هذه الأصول شذاذ العصور المتجاوزون لحدود الله الخارجون عن الفطرة الصحيحة كمسلمى زماننا الذين منعوا المرأة المسلمة كل أو جل حقوقها، وحسب هؤلاء أنهم ظلموا أنفسهم قبل أن يظلموا المرأة، وأنهم هدموها فهدمتهم عن غير قصد، فى أبنائهم، وأفسدوا كونها، فحرموا عونها.

وفى موضوع «المرأة فى الإسلام» يتدخل علماء الغرب ملاحدة ومتألهين، ويتعاطون ما لا يحسنون من القول فى هذا الموضوع، ويجعلون منه ذريعة للنيل من الإسلام، ولقد ناظرنا جماعة منهم فى الموضوع فأفحمناهم وألقمناهم حجرًا، قلنا لهم: هاتوا مثالا نتناقش فيه، فقالوا: الميراث، قلنا: من أى جهة؟ فإن المرأة ترث بعدة أسباب، فنظر بعضهم إلى بعض، هل يراكم من أحد، وكادوا يتسللون، وكأنهم كانوا لا يعرفون إلا أن المرأة مظلومة فى القرآن الذى يقول:

﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾

(النساء: ١١)

فقال لنا أحدهم: نعنى ميراث البنت مع أخيها، فقلت: أنتم قوم تبنون الحياة كلها على الحساب، فهلم «نتحاسب»، ولنفرض أن مورثًا مسلما مات وترك ابنا

وبتسا وثلاثمائة نقدا، قال الإسلام: للابن مائتان، وللبنت مائة، فقلتم، هذا ظلم... هذا غبن... هذا إجحاف... ولم تفهموا أن الإسلام نظر إلى المرأة ككل، ونظر إلى مراحل حياتها الثلاث كمنظومة متناسقة، فإذا نقص لها في جزئية، جبر لها في جزئية أخرى، ولنجر معكم على مثالنا ولانخرج عنه، ولنفرض أن الأخوين الذكر والأنثى تزوجا في يوم واحد، وليس لهما من المال إلا ذلك الميراث، فالذكر يدفع لزوجته مائة صداقا، فيمسي بمائة واحدة وأخته تأخذ من زوجها مائة صداقا فتصبح ذات مائتين، والذكر مطلوب بالإنفاق على نفسه وزوجته وأولاده إن ولد، وأخته لا تنفق شيئا على نفسها ولا على أولادها.

فهذا هو الميزان العادل في الإسلام يتجلى من هذا المثال، وتتجلى منه رحمة الله في هذا المخلوق الذي ركبه الله على ضعف، ورشحه لحمل أعظم أمانة، وهي تربية الناشئة وإعدادها للحياة.

هذه أنواع قليلة من التحرير العام الذي جاء به الإسلام، ألمعنا إلى بعضها إلماعا وأطلنا في تحرير المرأة قليلا، لأن خصوم الإسلام يتخذون منها نقطة الهجوم عليه، وحديثهم في موضوع المرأة أكثر من حديثهم في الاسترقاق، لأن مركز المرأة في المجتمع ممتاز، ولأن الحياة كلها تتوقف عليها، ولأن جوانب الحديث عنها متعددة، فالحجاب والطلاق والوظيفة والعمل والتعلم والاختلاط والميراث، والانتخاب أخيرا... كلها جوانب للحديث عنها هجوما ودفاعا.

أفمن حرر المعاني والقوى والأجناس والأصناف والأشخاص، ثم حرر الحيوان الأعجم، لا يحرر الأرقاء من بني آدم؟...

وهات الحديث عن الرقيق وقل
إن الحديث عن الرقيق رقيق

الاسترقاق في التاريخ

الاسترقاق قديم ممتد مع تاريخ البشر، وأصله الظلم المتأصل في الغرائز، فكانت القبائل في أطوار البداوة يغزو قويها ضعيفها فيأسر الرجال ويسبي النساء والذراري، ويتبع السبي الاسترقاق.

وجاءت الحضارات فلم تنسخ هذه السنة، وإنما وضعت لها حدودا وقوانين، صيرتها شرا منظما. وشأن الحضارات قديمها وحديثها أنها لا تهذب الغرائز الحيوانية في الإنسان، وإنما تموهها بطلاء ظاهر وتخترع لها من حيل العقل والعلم ما يزيدها ضراوة بالشر واحتيالا لارتكابه وتبصيرا بطرقه، فالحضارة القائمة الآن لا تسبي النساء والأطفال في حروبها، ولكنها ترتكب ما هو شر من السبي، وهو القتل الذريع الشنيع للضعيفين المرأة والطفل، وتأسر المقاتل، والأسر استرقاق في أبشع صوره، والألوف المؤلفة من أسارى الحرب تحت أيدي الغالبين يسخرونهم في أشق الأعمال.

وجاءت النبوات الخاصة فلم تفعل شيئا في إصلاح هذه المفسدة، بل سايرت فيها مذاهب العامة، وفيها ما أباح الاسترقاق لغير الأمم المفضلة بالنبوة، إلى أن جاءت النبوة المحمدية العامة بالتشريع التام الكامل، والإصلاح العام الشامل، فكان لها تدبير حكيم لعلاج هذه المشكلة التي لم

تحلها الحضارات ولا النبوات.

عمل الإسلام في الرق

أول ما بدأ به الإسلام في إصلاح قضية الاسترقاق التضييق في أسبابها فحصرها في سبب واحد وهو الكفر، الموجب للجهاد الديني في أهله ثم يورث من جهة الأمة فقط، فابن الأمة رقيق.

والقتال بين البشر بحسب أسبابه يرجع إلى نوعين:

- الأول وهو المتعارف بين الناس منذ صاروا شعوبًا وقبائل إلى الآن، هو القتال للتسلط أو للغنيمة أو للتشفي أو توسيع رقعة المملكة واستغلال الغالب لوطن المغلوب، وهذه هي حرب البغي والعدوان، وليست لها غايات إنسانية، ولا بواعث شريفة، وحروب هذه العصور كلها من هذا القبيل، وغاياتها كلها شر، وقد أيدتها الحضارة الحاضرة بعلومها وصنائعها فزادتها شرًا على شر وقطاعة وفتكًا على فتك، والتاريخ يحمل علماء هذه الحضارة تبعات هذه الشرور كلها بما يخترعون من وسائل التدمير، وكان واجب الأمانة أن يوجهوا علومهم لحياة البشر لا لموتهم، وهذا النوع من القتال لا يبيحه الإسلام ولا يبيح استرقاق من يسبى فيه.

- النوع الثاني: هو ما جاء به الإسلام وسماه جهادًا وهو قتال المعارضين لدعوته، الواقفين في سبيلها، بعد تبليغهم الدعوة، وتمكينهم من النظر فيها بالعقل والروية وإنظارهم إلى المدة الكافية لذلك، فإن لم يقبلوها بعد ذلك ولم يقفوا في طريقها تركوا وشأنهم، ولا إكراه في دين الإسلام بالنص القرآني القاطع، وإنما الواجب في الإسلام التبليغ والبيان، وإن لم يقبلوا دعوة الإسلام ووقفوا في طريقها يصدون الناس عنها بالكلام أو بالتحريض وجب في حكم الإسلام قتالهم وقتل المقاتلة منهم فقط أو أسرهم، وسبي النساء والذراري واسترقاقهم، فهذا هو شرط الاسترقاق في الإسلام، وفيه - كما ترى - تضييق لدائرته الواسعة المتعارفة في البشر قبل الإسلام، وتخصيص لعمومها، واستقراء ما أدخله الإسلام على هذه القضية من إصلاح يكاد يمحو آثارها من الوجود. وفي الحديث النبوي تقسيم بديع لأنواع القتال وفيه أن المشروع منه أنواع، وهو أن يكون لإعلاء كلمة الله، وكلمة الله في جملتها هي توحيده الخالص والإذعان للأحكام التي جاء بها كتابه وبينها نبيه، ومنها جمع البشر على ما يسعدهم ويرفع من بينهم أسباب الشرور والعداوات.

إن رأي الإسلام في الحرب أنها مفسدة لا ترتكب إلا لدفع مفسدة أعظم منها، وأعظم مفسدة هي الوثنية التي تعطل العقول وجميع المواهب التابعة لها المتصرفة بأمرها، وإذا تعطل العقل تعطلت ثمراته وفوائده وأصبح الناس في حكم المجانين، وتسلطت عليهم الأوهام، وأصبح نظرهم إلى الحقائق زائغا منحرفا، وحسبهم نتيجة لذلك أنهم يؤلهون أشياء كلها أحط من الإنسان، ومنها ما هو من صنعه، وقد بينا سابقًا كيف حرر الإسلام العقل منها لأنها يخس له ولقيمته.

يتبع

مشاركة المرأة فى العمل السياسي مشروعيتها ومقاصدها (*)



د. وصفي عاشور أبو زيد
مدير مركز بناء للبحوث والاستشارات الأكاديمية - مصر
متخصص في مقاصد الشريعة الإسلامية

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وآله وصحبه ومن والاه، وبعد،

فإن النساء شقائق الرجال، والمرأة هي إحدى رئتي الأمة التي لا تستطيع الحياة بدونها، فالمرأة والرجل كجناحي الطائر الذي لا يستطيع أن يطير إلا بهما، وإذا تعطل أحد الجناحين فلا يستطيع أن يحلق في الهواء، أو يطير في السماء.

ولقد قرن القرآن الكريم بين الرجل والمرأة، وبين الذكر والأنثى، وبين المؤمنين والمؤمنات:

قال تعالى:

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾

(النساء: ١٢٤)

وقال:

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

(النحل: ٩٧)

وقال:

﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

(غافر: ٤٠)

وقال - عز من قائل -:

(*) ورقة مقدمة إلى مؤتمر «الإصلاحات السياسية في الجزائر: المسار والأهداف» الذي أقامه المجلس الشعبي الوطني في عاصمة الجزائر في الفترة ١٠ - ١١ يونيو ٢٠١٣م.

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

(التوبة: ٧١)

وقال سبحانه:

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾

(الأحزاب: ٣٦)

فهذه مواضع قرآنية - مجرد مواضع - وليست حصرًا، تقرن بين الذكر والأنثى، وتجمع بين المؤمنين والمؤمنات، في أعمال، وفي مهمات وولايات، وفي المقامات والجزاء والحساب والثواب والعقاب، وهي آيات قرآنية مؤذنة بتساوي المرأة بالرجل في المقام، وإن اختلفا في بعض المهام.

ومن المجالات المهمة التي تعمل فيها المرأة مع الرجل بضوابط شرعية معروفة: مجال العمل السياسي، والمرأة منذ فجر التاريخ تحملت المسئولية السياسية عن الدولة الإسلامية والدعوة الإسلامية مع الرجل.

وفي عصرنا - لا سيما بعد التحولات العربية والإسلامية والعالمية - وجب أن يطرح هذا الموضوع، ويتم فيه النقاش، وتقليب وجهات النظر حول المرأة وطبيعة مشاركتها في هذا المجال؛ وذلك لأنها وقعت في المجالات جميعا، ومجال العمل السياسي خصوصا بين طرفي إفراط وتفريط.

فريق يريد أن يحررها من الإسلام، ويخلع عنها كل رداء حتى ملابسها، ويبعدها عن شريعتها وتقاليدها الأصيلة التي يعتبرها الشرع ويشهد لها، ثم يصبها في القالب الغربي الذي يجعل المرأة سلعة من السلع، تبيع جسدها إن شاءت، وتجعله مساغًا يلغ فيه من يحلها ومن يحرم عليها.

وفريق يريد أن يحبس المرأة في بيتها، لا يريد لها الخروج؛ فضلا عن المشاركة في الحياة، بله الاشتغال بالعمل السياسي والإسهام الفاعل فيه، فهي - عندهم - تخرج من بطن أمها، ثم إلى بيت زوجها، ثم إلى عالم البرزخ!

وبين هذا وذاك يقوم فريق الوسطية الإسلامية الجامعة الذي يأخذ من الفريق الأول تحرير المرأة بالإسلام وليس من الإسلام، وإتاحة الفرصة المنضبطة لها؛ تسهم في بناء المجتمع، وتشارك في نهضته، وتعمل على تقدمه وازدهاره، وتأخذ من الفريق الثاني الضوابط الشرعية التي يجب أن تضبط حركة المرأة في ساحة العمل العام، وبخاصة العمل السياسي:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾

(البقرة: ١٤٣)

من أجل هذا كانت هذه الورقة التي تتحدث عن مشاركة المرأة في العمل السياسي: مشروعيتها ومقاصدها؛ حيث تكونت من مبحثين: الأول عن المشروعية، والثاني عن المقاصد.

المبحث الأول: مدى مشروعية مشاركة المرأة في العمل السياسي:

في معظم الأحيان نقصر العمل السياسي على الترشيح والترشح في البلديات وفي مجالس الأمة، وتولي الوزارات، ونحو ذلك، في حين أن الرؤية الإسلامية للعمل السياسي أشمل وأوسع وأعمق من هذا بكثير.

وقد نقل العلامة المحقق ابن قيم الجوزية عن ابن عقيل قوله في تعريف السياسة: "السياسة ما كان فعلا يكون معه الناس أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد، وإن لم يضعه الرسول ﷺ، ولا نزل به وحي"(١).

حتى المفهوم الضيق للعمل السياسي الذي يحصره البعض في الترشيح والترشح يقول عنه د. مصطفى السباعي: "الإسلام لا يمنع من إعطائها هذا الحق، فالانتخاب هو اختيار الأمة لوكلاء ينوبون عنها في التشريع ومراقبة الحكومة، فعملية الانتخاب عملية توكيل، يذهب الشخص إلى مركز الاقتراع فيدلي بصوته فيمن يختارهم وكلاء عنه في المجلس النيابي يتكلمون باسمه ويدافعون عن حقوقه، والمرأة في الإسلام ليست ممنوعة من أن توكل إنسانا بالدفاع عن حقوقها والتعبير عن إرادتها كمواطنة في المجتمع"(٢). مع تنبيه السباعي فيما بعد لاتخاذ تدابير تحفظ المرأة من الاختلاط والوقوع في المحظور.

وربما استنكر البعض أن يكون العمل السياسي مجالاً تصلح له المرأة ويصلح لها، ولن نستطيع أن نتقدم في الحديث حول هذا المجال إلا إذا تكلمنا عن مشاركة المرأة في العمل السياسي بمفهومه الواسع على عهد النبي ﷺ، وإذا ثبت ذلك كان حجة وتشريعا لا يسع مسلمًا أن يجادل حوله أو يختلف فيه.

فها هي النساء تهاجر إلى المدينة بنص القرآن الكريم:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ﴾

(الأحزاب: ٥٠)

وروى البخاري بسنده عن ابن شهاب قال: أخبرني عروة بن الزبير: أنه سمع مروان والمسور بن مخرمة رضي الله عنهما: يخبران عن أصحاب رسول الله ﷺ، قال: لما كاتب سهيل بن عمرو يومئذ، كان فيما اشترط سهيل بن عمرو على النبي ﷺ: أنه لا يأتيك منا أحد، وإن كان على دينك، إلا رددته إلينا وخليت بيننا وبينه، فكره المؤمنون ذلك وامتعضوا منه، وأبى سهيل إلا ذلك، فكاتبه النبي ﷺ على ذلك، فرد يومئذ أبا جندل إلى أبيه سهيل بن عمرو، ولم يأته أحد من الرجال إلا رده في تلك المدة وإن كان مسلما، وجاءت المؤمنات مهاجرات، وكانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ممن خرج إلى رسول الله يومئذ وهي عاتق، فجاء أهلها يسألون النبي ﷺ أن يرجعها إليهم، فلم يرجعها إليهم، لما أنزل الله فيهن:

﴿ إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ

---

(١) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية لابن القيم ١٧، تحقيق: د. محمد جميل غازي، مطبعة المدني، القاهرة.
(٢) المرأة بين الفقه والقانون: ١٥٥.

أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾(٣)

(الممتحنة: ١٠)

وها هي المرأة تبايع النبي ﷺ وهو إمام الأمة، وقد ذكر القرآن الكريم هذه البيعة - والبيعة في صلب السياسة - فقال:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

(الممتحنة: ١٢)

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: شهدت الفطر مع النبي ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، يصلونها قبل الخطبة، ثم يخطب بعد، خرج النبي ﷺ، كأني أنظر إليه حين يجلس بيده، ثم أقبل يشقهم، حتى جاء النساء معه بلال، فقال:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ ﴾

(الممتحنة: ١٢)

ثم قال حين فرغ منها: (أنتن على ذلك)، قالت امرأة واحدة منهن، لم يجبه غيرها: نعم، لا يدري حسن من هي، قال: (فتصدقن)، فبسط بلال ثوبه، ثم قال: (هلم، لكن فداء أبي وأمي)، فيلقين الفتخ والخواتيم في ثوب بلال(٤).

يعلق الأستاذ أبو شقة على هذا الحديث فيقول: إن مبايعة النساء النبيَّ ﷺ لها عدة دلالات:

الدلالة الأولى: استقلال شخصية المرأة وأنها ليست مجرد تابع للرجل في المجال العام للحياة، بل هي تبايع كما يبايع الرجل.

والدلالة الثانية: بيعة النساء هي بيعة الإسلام والطاعة لرسول الله ﷺ وهذه يستوي فيها الرجال والنساء..

والدلالة الثالثة: مبايعة النساء النبيَّ تقوم على أساسين: الأول: باعتباره ﷺ المبلغ عن الله، والثاني: باعتباره ﷺ إمام المسلمين، ومما يؤكد وجود الاعتبار الثاني قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾(٥)

(الممتحنة: ١٢)

والأستاذ عبد الحليم أبو شقة نفسه صاحب موسوعة: "تحرير المرأة في عصر الرسالة" قد استخرج نحو ٣٠٠ دليل من السنة الصحيحة وحدها على أن مشاركة النساء في الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية أمر لا يمنعه الشرع(٦).

وهذا ما أخذت به المجامع الفقهية واللجان الشرعية؛ حيث قرر ذلك المجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث، وجاء في قراره: "نبه المجلس إلى المكانة المتميزة التي خولها الإسلام المرأة؛ إذ جعلها شقيقة للرجل، مساوية له في الإنسانية وفي حمل أمانة الله في تكامل بين الحقوق والواجبات:

---

(٣) صحيح البخاري، كتاب الشروط، باب ما يجوز من الشروط في الإسلام والأحكام والمبايعة.
(٤) صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب موعظة الإمام النساء يوم العيد.
(٥) تحرير المرأة في عصر الرسالة: ٢/٤٢٥ - ٤٢٦.
(٦) راجع "المرأة والعمل السياسي" مقال بجريدة القبس الكويتية للأستاذ الدكتور محمد سليم العوا بتاريخ ٨/٦/٢٠٠٢م، وانظر الإسلاميون والمرأة له أيضا ٤١، دار الوفاء، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾

(البقرة: ٢٢٨)

ولا ريب أن المرأة تعرضت قديمًا وحديثًا لمظالم شتى إفراطًا وتفريطًا، وما أنصفها غير الإسلام، وفيما يخص مشاركة المرأة في العمل العام، فإن المجلس قد أكد أن لها حقًا قد يرتفع أحيانًا إلى درجة الواجب في أن تؤسس أو تشارك في تأسيس وإدارة المراكز الإسلامية والجمعيات الخيرية، فتنهض بدعوة المسلمين وغيرهم، وتقدم الخدمات إليهم، لا سيما لبنات جنسها، كما أن لها أن تشارك في الأعمال المنظمة بقصد استئناف الحياة الإسلامية، كما لها المشاركة في العمل السياسي انتخابًا وترشيحًا، وكل ذلك مشروط بأن يكون وفق أحكام الشريعة الإسلامية الغراء وآدابها في جميع الأحوال"(٧).

بالإضافة إلى مشاركة المرأة للرجال في الجهاد وهو من السياسة الشرعية، فكم قاتلت مع رسول الله ومع صحابته، وكذلك إجارة المرأة للرجال، والرسول يقر إجارتها كما سبق القول، ومشورة أم سلمة على النبي ﷺ يوم الحديبية، كل هذا وغيره كثير، يؤكد وقائع وأحداث جرت في عهد الرسالة تؤصل لهذا العمل، وتبين أهمية وجود المرأة في المشهد السياسي على مسرح الأحداث.

يقول الدكتور محمد سليم العوا: "والحق أن المرأة - من حيث تمتعها بحقوقها وحرياتها العامة، ومشاركتها في العمل السياسي العام - كالرجل سواء بسواء، وأنه لا تعارض بين قيامها بواجبها السياسي وبين قيامها بواجباتها الأخرى إلا بقدر ما يقع مثل هذا التعارض بين واجبات الرجل السياسية وواجباته الأخرى كذلك، وهو تعارض يزال - حين يقع - بصورة فردية في كل حالة على حدة، وليس من بين وسائل إزالته أو رفعه وضع قواعد مانعة للمرأة من العمل العام، أو قبول هذه القواعد حين يضعها الآخرون"(٨).

والناظر في كتب التراجم يجد عجبًا؛ حيث إن كتب التراجم التي ترجمت للصحابة الكرام، مثل: "أسد الغابة"، و"الإصابة"، وغيرها بلغت بهم حوالي ٨٠٠٠ قيادة منها أكثر من ١٠٠٠ امرأة، وهو يدل على أن موقف الإسلام من المرأة موقف عملي وليس مجرد نظريات.

ذلك؛ أنهم يتحدثون في الفكر الأوروبي عن العقد الاجتماعي، وهو في الفكر الأوروبي عقد نظري متوهم، لكنه في الإسلام عقد عملي؛ حيث قام تأسيس الدولة الإسلامية في بيعة العقبة على الرجال والنساء؛ كان العدد: ٧٥ من الأنصار تعاقدوا مع النبي على الهجرة وبناء الدولة، وكان منهم امرأتان، وهي جمعية عمومية وهذا يعني أن المرأة شاركت قبل ١٤ قرنًا في أعلى مستوى من مستويات الولاية السياسية في مؤسسات الدولة.

لقد تولت ولايات في السوق، وفي الحسبة، وفي التجارة، والفريضة الجامعة لهذا هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي جعله الله تعالى قسيمًا مشتركًا بين الرجال والنساء، بين المؤمنين والمؤمنات، كما قال تعالى:

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ

(٧) قرارات المجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث ١٨/٢/١٤٢٦هـ/٢٨/٣-٠٣/٠٥/٢٠٠٥م. القرار: ٥/٥.
(٨) الفقه الإسلامي في طريق التجديد: ١٤٩.

يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

(التوبة: ٧١)

بل إن الهجرة التي تعتبر الحدث المحوري والأهم في تاريخ الدعوة الإسلامية شاركت فيه المرأة، وتركت أهلها ووطنها، وأحيانا تركت زوجها لأنها استجابت للإسلام دونه؛ ولهذا سمعنا عن مهاجر أم قيس الذي ورد فيه حديث النيات.

وإذا كان المؤرخون في القديم أحصوا ١٠٠٠ قيادة نسائية في التاريخ من الصحابيات، فإن مؤرخا معاصرًا هو عمر رضا كحالة كتب كتابًا أسماه "أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام" في خمسة مجلدات، وأكثر من ٢٠٠٠ صفحة، أحصى فيه حوالي ١٥ ألف قيادة إسلامية وعربية من النساء في التاريخ الإسلامي.

وقد حاول المؤلف جهد استطاعته في البحث والتنقيب عن أكبر عدد يمكن جمعه من شهيرات النساء، اللاتي تركن في مجتمعي العرب والإسلام أثرًا بارزًا في العلم والحضارة والأدب والفن، والسياسة والدهاء، والنفوذ والسلطان، والبر والإحسان، والدين والصلاح والزهد والورع.. إلخ، مما يميط اللثام عن الأدوار المختلفة التي قضتها المرأة في تاريخ العرب والإسلام.

بل إن رسالة علمية رصينة وعميقة ودقيقة تحدثت عن هذا الجانب، وهي رسالة الباحثة الجادة والواعدة أسماء محمد أحمد زيادة للماجستير بعنوان: "دور المرأة السياسي في عهد النبي ﷺ والخلفاء الراشدين"(٩) وهي تتحدث في زمن الرسالة، وهو زمن التشريع والحجية والمصدرية والمرجعية لكل مسلم، وتتحدث أيضًا في زمن الخلفاء الراشدين، وهم خير القرون بشهادة الرسول ﷺ.

ومن هنا فالعمل السياسي واجب شرعي لا ينفك عنه أحد من الناس، إما على وجه العينية أو على وجه الكفائية، والعمل السياسي ليس نافلة ولا تطوعًا، بل فريضة تتأسس على مفهوم الاستخلاف الذي هو مصدر الالتزامات الإيجابية والسلبية التي تقع على عاتق كل مسلم(١٠).

بل إن الدكتور محمد فريد صادق في رسالته للدكتوراه ناقش أدلة المانعين من ممارسة المرأة للنشاط السياسي، ثم قال: "إن قصر الحقوق السياسية على الرجال دون النساء أمر لا يقره الإسلام الصحيح، الحريص على المساواة بين الرجل والمرأة في التمتع بهذه الحقوق السياسية، فليس ذنب الإسلام، وإنما هو ذنب بعض الذين يتحدثون باسمه"(١١).

ولقد كان للمرأة دور سياسي في كل عصور التاريخ حتى العصور التي نصفها بأنها عصور انحطاط كانت لها فيها مشاركة فعالة، وحسبنا دراسة قامت بها د. نريمان عبدالكريم أحمد - مدرسة التاريخ الإسلامي بآداب المنوفية - تستعرض فيها أحوال المرأة في العصر الفاطمي ومشاركتها في الأنشطة العامة، والسياسة

(٩) نشرت دار السلام طبعتها الأولى عام ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.
(١٠) المرأة والعمل السياسي رؤية إسلامية: ٩٢، د. هبة رءوف عزت، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.
(١١) الحقوق السياسية للمرأة: من ٧٨ - ٩٨، ١٥٦ - ١٦٣، د. محمد فريد الصادق، رسالة دكتوراه، كلية الحقوق، جامعة القاهرة ١٩٩٧م.

أيضًا، وفي الحياة الاقتصادية، ودور المرأة أيام المجاعات، والمهن المختلفة التي زاولتها، وموقفها من الحاكم بأمر الله، وغير ذلك(١٢).

ولا يشغب على هذا بأن توليها مثل هذه المناصب هو نوع من القوامة على الرجال؛ إذ القوامة مخصوصة بمجال الأسرة فقط، ما التزمت المرأة المسلمة بضوابط الشرع في هذا العمل، وراعت أولوياتها، ووازنت بين واجباتها، وأطاعت زوجها في المعروف.

وتتمثل أهم مظاهر العمل السياسي في الواقع المعاصر:

١- الاشتراك في النشاط الحزبي السياسي مع القوى والأحزاب.

٢- إبداء الرأي العام في شئون السياسة وممارسات السلطات المختلفة في الدولة.

٣- المشاركة في اختيار ممثل الأمة في المجالس المختلفة.

٤- المشاركة في اختيار الحاكم.

٥- الترشيح لعضوية المجالس المحلية والتشريعية(١٣).

أشرف وظائف المرأة

وأود أن أقف قليلاً مع "أشرف وظائف المرأة"(١٤)؛ لأنها تغيب تمامًا في خطابنا الشرعي المعاصر حين نتحدث عن عمل المرأة، ومشاركتها في مناحي الحياة، وأنشطة المجتمع المختلفة، ويتم التركيز على جواز العمل، وشرعية الخروج، وضرورة المشاركة، وكيف أن الإسلام كرمها وشرفها، والبحث عن الطريق لمساواتها بالرجل، ومقارنة ذلك بما حدث لها في الحضارات المختلفة، وما يحدث لها في بلاد الغرب، ومقارنة أوضاعها في الشرق بأوضاعها في الغرب، وكأن الغرب أصبح مرجعيتنا التي منها تأخذ وعنها تصدر وإليها ترجع، ونسينا أو تناسينا الحديث عن أهم دور للمرأة في الحياة، الذي إن تعارض معه شيء قُدِّم على غيره كما اتفق على ذلك الفقهاء قديمًا وحديثًا.

ومن العجيب هنا أننا إذا ذكرنا العمل جاء ذكر الرجل على اللسان، وأنه هو الكادح وراء الرزق، الساعي المجهد وراء لقمة العيش.. ويصور عمل الرجل كأنه هو كل شيء، وعمل المرأة في بيتها لا شيء، وهذا بلا شك جهل وإخسار للميزان، وبخس لحق المرأة، وعدم إدراك لطبيعة عملها الذي لا يمكن الاستغناء عنه(١٥).

وسوف أعرض هنا لكلام علمين كبيرين، وداعيتين جليلين، لا يُتهمان أبدًا بالتعصب أو التمييز ضد المرأة، بل كانا في كل ما يكتبانه منصفَين لها من خلال الموازنة بين نصوص الشرع ومتطلبات العصر، أحدهما: الداعية المجدد الشيخ محمد الغزالي رحمه الله، والآخر: الفقيه الكبير الشيخ يوسف القرضاوي حفظه الله.

يقول الشيخ محمد الغزالي تحت عنوان "لا تُهوِّنوا من وظيفة ربة البيت": "ولا ريب أن كيان المرأة النفسي والجسدي قد خلقه

(١٢) المرأة في العصر الفاطمي: ٨ – ١٠، د. نريمان عبد الكريم أحمد، طبع الهيئة العامة المصرية للكتاب، ١٩٩٢م.

(١٣) راجع: تحرير المرأة في عصر الرسالة: ٢/ ٤٤٠، بتصرف.

(١٤) هذا من تعبير الشيخ الغزالي، يرحمه الله.

(١٥) راجع في هذا المعنى: المرأة بين البيت والمجتمع للبهي الخولي: ٣١٢ – ٣١٣.

الله على هيئة تخالف تكوين الرجل، فقد بني جسم المرأة على نحو يتلاءم ووظيفة الأمومة تلاؤمًا كاملاً، كما أن نفسيتها قد هُيئت لتكون ربة الأسرة وسيدة البيت، وبالجملة فإن أعضاء المرأة الظاهرة والخفية وعضلاتها وعظامها، وكثيرًا من وظائفها العضوية، مختلفة إلى حد كبير عن مثيلاتها في الرجل.

وليس هذا البناء الهيكلي والعضوي المختلف عبثًا؛ إذ ليس في جسم الإنسان ولا في الكون كله شيء إلا وله حكمة، وهيكل الرجل قد بني ليخرج إلى ميدان العمل كادحًا مكافحًا، أما المرأة فلها وظيفة عظمى هي الحمل والولادة، وتربية الأطفال، وتهيئة عش الزوجية ليسكن إليها الرجل بعد الكدح والشقاء"(١٦).

وليس معنى هذا أن الشيخ يرفض عمل المرأة، فكفاحه ونفاحه عنها معروف ومشهور، وساكن في الأنفس، وطائر في الآفاق، وهو صاحب التفسير غير المسبوق لحديث: "لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة"، بأنها واقعة حال لا تتعدى إلى غيرها.

يقول في كلام آخر متوازن أيضًا، ويمثل الرؤية الوسطية تمامًا، تحت عنوان: "الوسطية في معاملة الإسلام للمرأة": "نحن لا نجنح إلى طرف من الطرفين المتباعدين، هذا يسجن المرأة في البيت، وهذا يطلقها في الشارع.. لقد أغنانا الإسلام عن تجارب تخطئ وتصيب وتحلو وتمر، وهدانا صراطًا مستقيمًا. نحن بحاجة إلى من يعرف دين الله حق المعرفة ثم يعالج القضايا كلها بإيمان واعٍ، لا بفكر قاصر متشائم هدام. الذي يمنع المرأة من حق الحياة والعمل في الإطار الشرعي المناسب لفطرتها لا يقرر حقيقة شرعية ولا وضعية، والذي يتيح لها كل اختلاط وييسر لها كل احتراف لا يقرر حقيقة شرعية ولا وضعية!! هناك مجتمع بناه صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام، ورجاله الكبار، لماذا لا ندرسه ونتأسى به، ونحاول أن نضع المرأة في المكانة التي وضعها فيها القرآن، ورعاها الرسول عليه الصلاة والسلام"(١٧). ا.هـ.

أما الشيخ يوسف القرضاوي فيقرر -كما نقلنا عنه آنفًا- أن عمل المرأة الأول والأعظم الذي لا ينازعها فيه منازع، ولا ينافسها فيه منافس هو تربية الأجيال الذي هيأها الله له بدنيًا ونفسيًا، ويجب ألا يشغلها عن هذه الرسالة الجليلة شاغل مادي أو أدبي مهما كان؛ فإن أحدًا لا يستطيع أن يقوم مقام المرأة في هذا العمل الكبير الذي عليه يتوقف مستقبل الأمة، وبه تتكون أعظم ثرواتها وهي الثروة البشرية، ومثل ذلك عملها في رعاية بيتها وإسعاد زوجها.

ويستدرك الشيخ قائلاً: "وهذا لا يعني أن عمل المرأة خارج بيتها محرم شرعًا، فليس لأحد أن يحرم بغير نص شرعي صحيح الثبوت، صريح الدلالة، والأصل في الأشياء والتصرفات العادية الإباحة كما هو معلوم".

يقول الشيخ: إن عمل المرأة -بناء على هذا الأساس- في ذاته جائز، وقد يكون مطلوبًا طلب استحباب، أو طلب وجوب، إذا احتاجت إليه: كأن تكون أرملة أو مطلقة لا

(١٦) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة: ١١٦ – ١١٧، طبعة دار الشروق.

(١٧) من مقالات الشيخ محمد الغزالي: ١/ ٢٢٠.

مورد لها ولا عائل.. وقد تكون الأسرة هي التي تحتاج إلى عملها كأن تعاون زوجها، أو تربي أولادها أو إخوتها الصغار أو تساعد أباها في شيخوخته.. وقد يكون المجتمع نفسه في حاجة إلى عمل المرأة كما في تطبيب النساء وتمريضهن، وتعليم البنات، ونحو ذلك"(١٨). ا.هـ.

أريد أن ألفت النظر من خلال كلام هذين الإمامين إلى أننا يجب عند حديثنا عن المرأة وقضاياها المجتمعية ألا يغيب عنا هذا الدور، وألا ننفلت بعيدا عن الضوابط والقواعد الشرعية والآداب الإسلامية حين نطالب بتمكين المرأة أو مساواتها في الحقوق والواجبات.

بل إن كاتبة أمريكية - فيليس ماكجنلي - تقول في مقال لها بعنوان: البيت.. مملكة المرأة بدون منازع: "وهل نعد نحن النساء - بعد أن نلنا حرياتنا أخيرا - خائنات لجنسنا إذا ارتددنا لدورنا القديم في البيوت؟". وتجيب على هذا السؤال بقولها: "إن لي آراء حاسمة في هذه النقطة، فإنني أصر على أن للنساء أكثر من حق في البقاء كربات بيوت.. وإنني أقدر مهنتنا وأهميتها في الحقل البشري إلى حد أنى أراها كافية لأن تملأ الحياة والقلب".

ثم تقول: "وإذا قيل لنا على نحو تعسفي: إن من واجبنا أن تعمل في أي مكان آخر غير المنزل، فهذا لغو زائف، فإنه لا يوجد عمل يستحق أن يُمزِّق شملُ الأسرة من أجله"(١٩).

وهذا كلام بلسان الأنوثة والتجربة، وهي مع ذلك غربية أمريكية.

المبحث الثاني: آثار المشاركة ومقاصدها

إذا اتضح جواز مشاركة المرأة في العمل العام عامة، والعمل السياسي خاصة من حيث الأصل، وظهر الأساس الذي من خلاله تنطلق إلى القول بمنع عمل ما عن المرأة وجواز آخر، فمن المفيد الآن أن تبين مقاصد وآثار مشاركة المرأة في العمل عمومًا والعمل السياسي خصوصا.

وما من شك في أن مشاركة المرأة في العمل السياسي لها فوائد وثمرات تعود عليها وعلى أسرتها وعلى المجتمع، وبغير مشاركة المرأة تظل المرأة حبيسة ثقافة وعادات معينة، وتظل الأسرة بمعزل عن الحراك المجتمعي إن أتيح للمرأة المشاركة ولم تشارك، ويظل المجتمع متأخرًا عن النهضة الشاملة.

يقول الشيخ محمد حسين: "وكان من ثمرات هذه المشاركة نمو وعي المرأة وبلوغها درجة عالية من النضج، وتحقيقها الكثير من أعمال الخير لنفسها ولمجتمعها ولدينها"(٢٠).

ولهذا فإن لمشاركة المرأة في العمل العام آثار ومقاصد مقدورة تعود عليها، وعلى أسرتها، وعلى مجتمعها، وعلى الأمة جمعاء.

أولاً: فمما يعود على المرأة نفسها:

١- تنمية قدرات المرأة الاجتماعية والسياسية في التعامل مع الناس والأشياء في ضوء ضوابط الشرع.

٢- توسيع أفق ومدارك المرأة المعرفية من خلال متابعتها لما يجري في المجتمع بشكل واقعي وملموس، ومن خلال مشاركاتها الاجتماعية في الأندية والجماعات والمنظمات العاملة، وما تلقى من رجال ونساء ذوي خبرة في ساحة العمل السياسي "ذلك كله جدير بأن يملأ فراغ نفسها ووقتها بمشاغل قيمة تشعرها بنفاسة الحياة، وبأنها في نفسها ذات قدرة وأهمية، ويوسع آفاقها وصلتها بالحياة، وينمي مقومات شخصيتها أبين وأقوم ما تكون"(٢١).

٣- تنمية ثقافة المرأة العامة من خلال مشاركتها في الفعاليات الثقافية.

ثانيًا: ومما يعود على أسرتها:

١- إعالة أبويها وأخواتها وإخوانها إن لم يكن لهم عائل أو دخل يكفي.

٢- تعليم الأبناء كيف يمارسون الحياة العملية بناء على خبرتها داخل البيت وخارجه.

٣- المشاركة الفاعلة والجادة للزوج والأقارب في الشورى والآراء السديدة من خلال الخبرة العملية.

ثالثًا: ومما يعود على المجتمع:

وحق المجتمع مؤكد على من يعيش فيه بعيدا عن النوع: ذكرا وأنثى، فما بالك إن كانت الأنثى نصف المجتمع؟ يقول شيخنا الدكتور يوسف القرضاوي: "ولا يتصور من الإسلام أن يعطل نصف مجتمعه، ويحكم عليها بالجمود والشلل، فيأخذ من الحياة ولا يعطيها، ويستهلك من طيباتها، ولا ينتج لها شيئا"(٢٢). ومما يعود عليه:

١- تحقيق حد الكفاية للمجتمع من فروض الكفايات في المجالات التشريعية والسياسية التي تخص المرأة.

٢- استفادة المجتمع من طاقات وإبداعات المرأة لا سيما فيما لا يحسنه الرجال.

٣- تحقيق النهضة الشاملة والكاملة بمساهمة النساء مع الرجال في هذا المجال، فللرجال ملكات وطاقات، وللنساء ملكات وقدرات، وبتحصيلها جميعا يحدث التكامل والتفاعل، فتتحقق النهضة الشاملة.

رابعًا: ومما يعود على الأمة:

أن يتحقق لها مجدها، فمجد الأمة - كما يقول الأستاذ البهي الخولي - في كثرة الأيدي العاملة، والمرأة نصف المجتمع، وليس مما يتحقق به هذا المجد أن يكون نصف المجتمع عاطلا"(٢٣).

والمتأمل في هذه الآثار العظيمة والمقاصد الكريمة التي تترتب على مشاركة المرأة في العمل عموما، والعمل السياسي على وجه الخصوص، يتبين له بجلاء أن للمرأة من الآثار ما يسهم في بناء المجتمع، سواء على المستوى الأفقي أم المستوى الرأسي؛ فمن ناحية المستوى الرأسي تسعى المرأة لتطوير نفسها بشكل ملحوظ وخدمة بيتها ومجتمعها، ومن ناحية المستوى الأفقي فمجال الثمار والمقاصد المترتب على مشاركة المرأة والهادف له أوسع وأرحب.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

(١٨) فتاوى معاصرة: ٢/٣٠٤ - ٣٠٥، دار القلم، الكويت، القاهرة، الطبعة الخامسة، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

(١٩) مجلة المختار عدد مارس ١٩٦٥م، نقلا عن المرأة بين البيت والمجتمع للبهي الخولي: ٣٠٦، ٣١١، وراجع كلاما قيما له في الكتاب نفسه تحت عنوان: "وجوب تقدير رسالة المرأة" صفحة ٣٤٨ - ٣٥١.

(٢٠) دور المرأة في حمل الدعوة ١٢، الشيخ محمد حسين عيسى، تقديم الشيخ محمد عبدالله الخطيب، دار الدعوة، الإسكندرية، طبعة ثانية ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.

(٢١) راجع المرأة بين البيت والمجتمع: ٣٠٥، وما بعدها.

(٢٢) فتاوى المرأة المسلمة ٧٣، د. يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

(٢٣) المرأة بين البيت والمجتمع: ٣٠١ - ٣٠٢، و٣٠٧ - ٣١٢.

عن مؤسسات الدولة فى النظم الإسلامية والغربية



المستشار طارق البشرى

عندما نتكلم عما يسمى «بالنظم» أو «التنظيمات» إنما نحاول أن نجيب عن سؤال بسيط ولكنه شديد الأهمية فى حياة الجماعة، وهذا السؤال هو: كيف يمكن للمجموع من الناس أن ينشط ويدافع عن مصالحه ويحقق أهدافه؟ كيف يمكن لهذا المجموع أن يدير شئونه المشتركة، وأن يعبر عن مشيئته ويضعها موضع التنفيذ؟

هل يتولى مجموع الناس هذا الأمر أم يناط ببعض منهم، وإذا قام البعض فقط بتولى مهام النشاط المشترك للجماعة كلها، فكيف يضمن المجموع أن يكون هذا البعض مرتبطا بهم معبرا عنهم، وما هو نمط العلاقات التى تحكم صلة الجماعة فى عمومها بمن يتولى أمورها.

هذه هى مشكلة «التنظيم» من الناحية الفنية أيا كانت طبيعة هذا التنظيم أو طبيعة الجماعة التى يتكون منها ويتكون لها. وسواء فى ذلك أن يكون تنظيما سياسيا على نطاق المجتمع كله كالدولة، أو تنظيما سياسيا على نطاق جماعات محدودة كالأحزاب والجمعيات، أو كان تنظيما اقتصاديا كالشركات أو الجمعيات التعاونية أو النقابات التى تنشأ للمهنيين أو العمال. فإن أيا من هذه الجماعات إنما يشكل مجموعة من الناس ذات مصالح مترابطة تلتف حول أهداف معينة وتحاول تأديتها.

وتتمثل المشكلة فى أنه يستحيل عمليا على أية جماعة أن تمارس بجمعها كله شئونها العامة بشكل يومى دائم متتابع. ولا يمكن تحقيق ذلك إلا عن طريق أفراد يقومون به لحساب المجموع، وإلا عن طريق مستويات متعددة لهؤلاء الأفراد ومهام محددة لكل منهم.

ولكن نشاط الفرد أو الأفراد هو نشاط فردى ينزع لتحقيق مصالحه الخاصة أو مصالح الجماعة الضيقة التى تحيط به. ومن ناحية أخرى فإن الخبرة الفردية هى بالضرورة خبرة محدودة ومنقطعة، فلا تستطيع أن تستوعب ما تتطلبه حاجات الجماعة العامة فى تعددها وتنوعها وتشابكها واستمرارها على مدى زمنى تقصر عنه حياة الأفراد. ويقصر النشاط الفردى من هذه الجوانب عن إدراك المصالح العامة للجماعة ومصالحها المستمرة الدائمة المتجددة. ولا يحل هذا المشكل إلا بالاهتداء إلى الأساليب التى تمكن من تجريد الفرد من فرديته عند ممارسته للنشاط العام، وإلا بإنشاء كيانات لها القدرة على استيعاب الخبرات المتعددة والمتنوعة التى تتطلبها حاجة الجماعة، ولها القدرة على الاستمرار بما يتجاوز حياة الأفراد.

و«النظم» هى الوسيلة التى تمكن من إيجاد تلك الإرادة العامة التى تكفل للمجموع تحقيق أهدافه وحماية مصالحه. وفرص النجاح فى أى نشاط تعتمد بالدرجة الأولى على درجة التضامن والتساند الذى يقوم بين أفراد الجماعة ذات المصالح الواحدة أو المشتركة.

لم تكد تقوم مشكلة كبيرة فى المجتمعات القديمة، كانت الجماعات محدودة العدد نسبيا، وكان الجهد البشرى الفردى يسع إلى حد كبير إمكانية إدراك المشاكل على تنوعها المحدد ويسع المعرفة بوجوه المسائل ووجوه الناس المهتمين بها. وكان للوجود القبلى والعشيرى القدرة على إدراك نوع من أنواع التسيير الذاتى «لشئون الجماعات» المحدودة، وكذلك كان الشأن بالنسبة للجماعات المحلية كالقرية أو الحى السكنى فى المدن القليلة القائمة.

لذلك فإن الجانب «التنظيمى» لأوضاع الجماعات كان يراعى إدراك مشاكلها فى إطار تلك الظروف وبما يستجيب لأوضاع المجتمع واحتياجاته.

ومن جانب آخر، فإنه فى الظروف التاريخية التى تفرض تغييرات كبرى فى أوضاع الجماعات، تقوم زعامات أو شخصيات قيادية قد تفرض عليها الأوضاع أن تنقطع للعمل العام وأن تستوعب فيما نسميه بالمصلحة العامة وتستوعب فى الشعور العام بالجماعة وأهدافها. وأن الأحداث الجليلة مع القدرة الشخصية المتميزة لهما مما يمكن هؤلاء الأفراد من أن يتجاوزوا فرديتهم ويتجردوا مما نسميه بالصالح الفردى أو المصلحة الخاصة.

ولكن هذه الأوضاع استثنائية لا تشكل قاعدة فى الموضوع الذى نناقشه، فإن تلك الأحداث الجليلة مع أهميتها العظمى فهى نادرة الحدوث من حيث عدد المرات وعدد السنوات التى تستمر فيها، منسوبة إلى التاريخ العام كله، وأشخاصها أفذاذ لا تستطيع أن تبنى نظما مستديمة على أساس افتراض وجودهم أو ظهورهم فى كل وقت.

تبدو المشكلة جلية واضحة لدى غير الجماعات المحدودة البسيطة وفى الأوقات غير الاستثنائية.

وقد انشغل فكر «التنظيمات» أى الفكر السياسى والإدارى باستنباط خير الوسائل لتكوين أجهزة النشاط العام بصورة يكون طابعها الفعلى هو الطابع العام وتحررها

لأقصى درجة ممكنة من ذوات الأفراد العاملين فيها. انشغل بذلك الفكر الإسلامى وخاصة على عهد الماوردى وأبى يعلى وغيرهما منذ القرن الرابع الهجرى. كما انشغل بها الفكر الأوروبى والغربى فى القرنين الماضيين بشكل لم يكن له مثيل من قبل، وذلك بسبب التضخم والتنوع الهائلين فى أحجام الجماعات المختلفة وأنشطتها.

ونحن نود أن نلم بالأسس التى تقررت فى هذا الشأن كحلول لما أسميناه المشكلة «التنظيمية»، وذلك سواء فى الفكر الغربى ذى الشيوع بيننا الآن فى تنظيماتنا كافة، أو الفكر الإسلامى حسب النظم التى سادت لدينا قديما، ويمكن أن نبدأ بما يشيع الآن من فكر ونظم تطبيقية لنستخلص منه الدلالات ثم نناقش بهذه الدلالات أسس النظم التى كانت سائدة لدينا فى القديم حسبما أتيته الفقهاء والمفكرون الإسلاميون.

١ - فمن أهم المبادئ التى تقررت مبدأ «النيابة» التى تكفل تعدد الأفراد مع «واحدية» الشخص. أو تكفل تمثيل الفرد الواحد لأشخاص عديدين. والصورة الأولى نجدها عندما يعين شخص للقيام بوظيفة معينة، ولا يكفى جهده الفردى لاستيفاء كل ما هو مطلوب منه، فيلجأ «للإنابة» أى تعيين مساعدين له ينظرون فى الشئون الموكولة له حسب نظام لتوزيع العمل إما أن يكون محليا فيختص كل نائب بإقليم معين أو يكون نوعيا حيث يختص بنوع معين من الأعمال. والصورة الثانية للنيابة، أن أفراد جماعة معينة لا يستطيعون بجمعهم أن يباشروا مجتمعين شئونهم العامة، فيكلون هذا الشأن إلى واحد أو أفراد قليلين منهم يقومون به نيابة عنهم، والمثل الواضح لهذه الصورة هو مبدأ الانتخاب، سواء كانت الجماعة هى المجتمع أو أية جمعية أو شركة أو نقابة.

٢ - ومن أهم تلك المبادئ أيضا مبدأ توزيع العمل الواحد بين العديد من الأجهزة والمؤسسات، فلا يستقل فرد أو مؤسسة واحدة بالعمل العام، إنما يتناول العمل العام الواحد عددًا من الأجهزة يتداوله كل واحد منها فى مرحلة محددة من مراحل تكونه حتى يصدر فى النهاية ولكل من هذه الأجهزة سهم شائع فى تكوينه وإصداره. وهذا التوزيع للعمل الواحد على عديد من الأجهزة والمؤسسات، يمكن أن يؤدى إلى قدر من التباطؤ والتعقيد فى الإجراءات وفى تحريك الأعمال. ولكنه من ناحية أخرى يمكن من مشاركة تخصصات فنية كثيرة ومتنوعة فى إعداد العمل ودراسته من وجوهه المتعددة، كما أنه يحفظ العمل العام من أن يكون مستوعبا فى إرادة فردية واحدة أو فى إطار النظرة المحدودة لجهاز واحد. ويجعل مجالات السلطة موزعة على العديد من المؤسسات.

وقد رئى أنه إذا تركزت سلطة إصدار القرار العام فى مؤسسة وحيدة أو فرد واحد، فإنه يتولد ميل لدى هذه الجهة مؤسسة كانت أو فردا لأن تضغط ذاتيتها على مكانتها فى إنشاء العمل العام، الأمر الذى يؤثر فى مدى رعاية الصالح العام للجماعة كلها عند النظر والتقدير. وتعدد المؤسسات لا يعنى تكرارها أو أن توجد كلها على مواصفات واحدة، إن التكرار يعنى إيجاد عدة مؤسسات يملك كل منها إمكانيات ممارسة العمل العام كله

إقرارا وتنفيذا له. وهذا يؤدى إلى التضارب والتشتت، كما أن من شأنه أن يؤدى إلى التنازع بين هذه المؤسسات فيما بعد.

إنما التعدد المقصود هو الذى يعنى بتثبيت سلطة واحدة لإصدار القرار العام ولكنه يوزع هذه السلطة الوحيدة على العديد من المؤسسات، بحيث لا تكتمل ممارسة السلطة الواحدة ولا يكتمل قيام العمل الواحد إلا عن طريق نشاط كل هذه المؤسسات مجتمعة. فالتعدد هنا هو أقرب للتقسيم الموضوعى لأنماط العمل المختلفة بحيث يفيد تخصصا لكل مؤسسة فى بعض مراحل العمل العام.

إن التنظيمات الحديثة تنتهى إلى تحديد ثلاث جهات يتوزع بينها العمل العام أو النشاط العام، بحيث يكون من يصدر القرار أو يصوغ الإرادة العامة غير من ينفذ هذه الإرادة غير من يشرف على صحة تطبيقها.

الأولى هى المؤسسة التشريعية:

فالمؤسسة التشريعية هى مصدر القرار العام وهى تتكون بطريقة تمكنها من أن تقوم بهذه الوظيفة، إذ يكفل لها أسلوب اختيار أعضائها أن تكون على علاقة مباشرة بقوى الرأى العام الموجودة فى المجتمع، وتمارس عملها بإجراءات تتيح لها أن تكون بقدر الإمكان جهازا متصلا بالرأى العام خارجها، عن طريق اتصال أعضاء هذا الجهاز بالمؤسسات ذات الشأن فى المجتمع، وفى الغالب ما يكون أعضاء هذه المؤسسة التشريعية متساوين فى أوضاعهم ومراكزهم داخل هذه المؤسسة دون أن تقوم بينهم علاقات رئاسة، فالغالب فى أسلوب بناء هذه المؤسسات أنه بناء أفقى وليس بناء رأسيا هرميا، والإشراف والرقابة هنا لا يملكها رئيس على مرءوس ولكن يملكها المجموع على الفرد فهى تقوم بالتبادل والتداول، وكل فرد خاضع لإشراف الباقين ويساهم معهم فى الإشراف على غيره وهكذا.

وهذا هو الوضع بالنسبة للمجالس المختلفة التى تنشأ للنظر فى أية مسائل يتبادل فيها الرأى ويتدارس للوصول للقرار الذى يتخذ، فهذا الأسلوب فى البناء يتفق أكثر ما يتفق مع الوظائف الخاصة بإبداء الرأى واتخاذ القرار، وذلك سواء كانت مجالس مشورة أو مجالس تشريع أو مجالس لإدارة الشركات أو الجمعيات أو غيرها.

الثانية هى المؤسسة التنفيذية:

وتتعلق بالإدارة والتنفيذ، وتخضع فى عملها للسياسة التى تقررها الهيئة التشريعية، فهى أداة لتنفيذ هذه السياسة وأداة لإدارة العمل اليومى. ومؤسسة التنفيذ تبنى بطريق هرمى رئاسى، حيث تقوم رئاسة مفردة أو قليلة لعدد من الأشخاص، وتقوم هى باختيار الأشخاص فى الوظائف الأدنى نزولا من قمة الهرم إلى أسفله وقاعدته العريضة. وحركة الدفع ترد من أعلى إلى أسفل، فالسياسات ترسم فى المستويات الأعلى كما أن الإشراف والرقابة يأتيان من المستويات الأعلى للمستويات الأدنى منها وهكذا. وهذا هو أسلوب التشكيل الذى يتلاءم مع الوظيفة التنفيذية التى تأتى بعد اتخاذ القرارات ورسم السياسات. ولذلك تعتمد على إصدار الأوامر للتنفيذ، وهذا هو شأن الوزارات والمصالح المختلفة وهو كذلك الشأن بالنسبة لأجهزة

الضبط كالشرطة والجيش.

والمؤسسة الثالثة هى «القضاء»:

وتختلف نظمنا القائمة فى طريقة تعيين القضاة. ولكن يبقى أنه جهاز يراقب الشرعية ويقضى بها سواء فى تعاملات الأفراد أو فى عقاب المجرمين أو فى رقابة نشاط السلطات العامة. وهو يتكون من وحدات متماثلة فى الأساس يتوزع العمل عليها حسب التوزيع المحلى للأعمال فى المناطق المختلفة، أو التوزيع النوعى الذى تنشأ به محكمة لكل من أنواع القضايا المدنية والجنائية والتجارية.. وهكذا.

والقضاء الآن جهاز محصور النشاط فى تطبيق القوانين والقرارات التى تصدرها جهة التشريع، وفى الإشراف على سلامة تطبيق تلك القرارات على الوقائع والأنشطة المختلفة، وهو يمارس عمله فى النظم القائمة الآن وفقا لمجموعة كبيرة من الإجراءات المحددة سلفا، والتى نظمتها القوانين المختلفة.

والمهم أن جهاز الدولة والمؤسسة التنفيذية على وجه الخصوص هى الجهاز الوحيد فى المجتمع الذى يمتلك وسائل العنف المشروع، بمعنى أنه هو الجهاز الوحيد الذى يعترف له المجتمع بحيازة أدوات استخدام العنف وباستخدامها، وذلك ضمانا لأمن الجماعة مما يتهددها من أخطار خارجية أو من اضطرابات داخلية، وكفالة لقرارات الدولة أن تنفذ.

وكان من أهم ما شغل الفكر السياسى والدستورى هو استنباط الوسائل الكفيلة بلجم هذه القوة المادية وضمان بقاء استخدامها فى إطار القوانين والقرارات المرسومة، وضمان عدم هيمنتها على غيرها، وتأكيد تبعيتها للمؤسسات الأخرى التى لا تحوز هذه الإمكانية المادية، فلا تمارس هذه الأجهزة نشاطها إلا فى حدود القواعد والنظم التى تفرضها سلطات الدولة الأخرى وفى حدود الأوامر التى تصدر من هذه السلطات. وبهذا يتأكد أن من يحوز وسائل العنف يجب أن يخضع فى عمله لأجهزة الدولة الأخرى التى لا تملك هذه الوسائل وتتعاون الأجهزة جميعا فى إضفاء الشرعية على العمل العام بجوانبه المختلفة.

وعلينا الآن أن ننظر فى الأصول التنظيمية القائمة الآن وتستطلع فى ضوئها أسس الشكل التنظيمى والسياسى فى التاريخ الإسلامى. والشائع أن النظام الإسلامى لم يعرف توزيع السلطة على هذا المنوال الذى أشرنا إليه فيما سبق. على أننا نرى أن عدم معرفته لتوزيع السلطة بالصورة السابق شرحها إنما مرده أن أسس النظام الإسلامى تختلف اختلافا جذريا عن أسس النظام السائد الآن. من حيث إن النظام الحديث نظام وضعى لا يعترف بشريعة أو شرعية للحكم منزلة من السماء، فى حين أن النظام الإسلامى يبدأ من مقولة أساسية هى مصدرية السماء لتشريع الأرض. وبهذه المقولة الأساسية استقامت فى الإسلام خريطة متميزة فى توزيع السلطات.

وإذا نظرنا إلى وظيفة الإمام وسلطته فى النظام الإسلامى، نجد أن الوظيفة الأساسية للإمام هى «حراسة الدين وسياسة الدنيا».

فالإمام هنا حارس وسائس، وهى معان أقرب إلى العمل التنفيذى وإلى الواجبات التى تلقى على مسئول التنفيذ بالمصطلح الذى يستعمل حاليا لما يسمى «السلطة التنفيذية».

وعند جمهور مجتهدى الأمة تنعقد الإمامة بالبيعة، والبيعة دائما تصدر للإمام على أساس أن يعمل بكتاب الله وسنة نبيه. فهى بيعة مشروطة دائما، وشرطها يعنى أن سلطة الإمام سلطة مقيدة وأنها تجرى فى إطار نظام قانونى مضروب عليها من أحكام التشريع الإسلامى المنزلة.

والولاية فى قول ابن تيمية من أعظم واجبات الدين «ولا يقام الدين إلا بها» و «أن الله أوجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة، ومثل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر سائر ما أوجبه الله من الجهاد والعدل وإقامة الحدود وغيرها مما لا يتم إلا بالقوة والإمارة ....»، وكذلك أحكام القتال وأحكام القصاص تحتاج إلى قوة الإمارة.

ويحدد أبو الحسن على محمد بن حبيب الماوردى سلطات الإمام فى عشرة أمور، أولها «حفظ الدين على أصوله المستقرة .. وثانيها تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين فلا يتعدى الظالم، ثم حماية الأمن، وإقامة الحدود، وتحصين الثغور، وجهاد من عاند الإسلام، وجباية الفىء والصدقات، وتقدير العطايا، واستكفاء الأمناء وتقليد النصحاء (أى تعيينهم)، وأن يباشر بنفسه تصفح الأحوال والإشراف على الأمور «لينهض بسياسة الأمة وحراسة الملة».

ونحن نشاهد أن هذه السلطات جميعها سلطات تنفيذية مما تقوم به فى عرف النظم الحاضرة «السلطة التنفيذية». ثم يرد بعد سلطات الوزير. والماوردى يذكر نوعين من الوزارة، وزارة التفويض ووزارة التنفيذ، و «وزير التفويض» هو من يفوضه الإمام فى تدبير الأمور حسب تقدير الوزير وحسب رأى الوزير، فهى وظيفة أقرب إلى نظام «مجلس الوزراء» فى النظام البرلمانى الحديث حيث تقوم الوزارة برسم السياسات. والنوع الثانى هو «وزير التنفيذ» وهو ينفذ مشيئة الإمام ويبلغ قراراته ويشرف على نفاذها دون أن يكون هو راسم السياسة، وهى وظيفة أقرب إلى وظيفة الوزير فى النظام الرئاسى الحديث كالنظام الأمريكى.

ووزير التفويض عند الماوردى لا يملك بطبيعة الحال سلطات أكبر من سلطات الإمام، فهو مفوض من الإمام وسلطاته مستمدة من سلطات الإمام محدودة بها مشروطة بشرطها، بل إن سلطته أقل من سلطة الإمام فى تفصيلات لا وجه لذكرها هنا، ثم ترد سلطات وزير التنفيذ وهو لا يملك رسم السياسة أصلا ولا إمضاء الأمور إنما تقتصر مهمته على أن يبلغ للسلطان ما يتعين معرفته ويبلغ عنه ما يتعين إمضاؤه ويشارك برأيه. وسلطات «الأمير» وهو الوالى على أى إقليم من أقاليم الدولة، لا تزيد عن سلطات وزير التفويض فى أقوى حالاتها.

وهكذا نلحظ أن الجهاز كله من الإمام إلى كبار عماله، يدور فى إطار محدد مما يطلق عليه بالمصطلح الدستورى والتنظيمى الحديث «السلطة التنفيذية».

يتبع

القرآن والتوراة والإنجيل والعلم (٣)

التوراة أو أسفار موسى الخمسة
PENTATEUQUE



أ. د. موريس بوكاي

الكتب التاريخية

تتناول الكتب التاريخية تاريخ الشعب اليهودى منذ دخوله إلى أرض الميعاد (ويحدد على أحسن تقدير معقول بنهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد) حتى النفى إلى بابل فى القرن السادس قبل الميلاد.

وتؤكد نبرة هذه الكتب على ما يمكن تسميته «بالواقع القومي» وتقدمه الكتب باعتباره تنفيذا لكلام الله. والرواية لا تحفل بالدقة التاريخية. فسفر يشوع على سبيل المثال: يخضع قبل كل شيء لدوافع دينية، ويشير الأستاذ «أ. جاكوب» بهذه المناسبة إلى التناقض الصريح بين علم الآثار والنصوص فيما يتعلق بما يدعى بتدمير مدينتى «جيريكو jericho» و«آى Ay».

إن محور سفر القضاة هو الدوافع عن الشعب المختار ضد الذين كانوا يحيقون به، وإغاثة الرب له ولقد تعدل الكتاب مرات عدة، وذلك ما يشير إليه بموضوعية كبيرة الأب «أ. لوفيفر A. Lefever» فى تمهيده لتوراة «كرامبون Crampon»، وتشهد بذلك المقدمات والحواشى المتداخلة، أن حكاية راعوث ترتبط بهذه الروايات فى سفر القضاة.

أما كتاب صموئيل وكتب الملوك فهى أساسا مجموعات من السير تخص «صموئيل وطالوت وسليمان» وقيمتها التاريخية مشكوك فيها. من وجهة النظر هذه يجد «أ. جاكوب» فى هذه الكتب أخطاء متعددة، فالحدث الواحد له روايات مزدوجة وحتى ثلاثية، ويجد الأنبياء «إليا واليشع وأشعيا» مكانهم فى هذه الروايات، وبهذا تختلط الخطوط التاريخية بالأساطير، ولكن هناك معلقين مثل الأب «أ. لوفيفر R. P. Alefever» يرون: «أن القيمة التاريخية لهذه الكتب أساسية».

إن الإصحاحين الأول والثانى من أخبار الأيام وكتب عزرا ونحميا تنتمى إلى كاتب واحد اسمه: القصاص، الذى عاش فى نهاية القرن الرابع قبل الميلاد، وهو يتناول من جديد التاريخ برمته منذ الخلق وحتى ذلك العصر، بالرغم من أن الأنساب عنده تتوقف عند داود. الواقع أنه يستخدم فوق كل شيء كتاب صموئيل وكتاب الملوك «بل هو ينسخها آليا دون أن يهتم بالمتناقضات الناجمة عن هذا النسخ» «أ. جاكوب» غير أنه يضيف أيضا أمورا معينة يؤكد علم الآثار صحتها. فى هذه المؤلفات إذن اهتمام بتكييف التاريخ مع الضرورات اللاهوتية، وكما يقول «أ. جاكوب» فإن الكاتب هنا يكتب التاريخ منطلقا من اللاهوت. وعلى هذا ولكى يشرح الكاتب أن ملك الملك منسى، الذى اضطهد ودنس القدسيات، قد دام طويلا وازدهر، فإنه يفترض أن هذا الملك آمن فى رحلة له بآشور (أخبار الأيام الإصحاح الثاني، ٣٣ / ١١) وليس لهذا الأمر أى مصدر فى أى كتاب من كتب التوراة أو خارجها، لقد انتقضت كتابى عزرا ونحميا بشدة، لأنهما يمتلئان بالإبهام، ولأنهما يتعلقان بعصر هو نفسه غير معروف وذلك لعدم وجود وثائق خارج الكتب المقدسة والمعنى به هو: عصر القرن الرابع عشر قبل الميلاد.

وتصنف كتب طوبيا وجوديت وإستيريين الكتب التاريخية، وفيها تجاسر وتصرف شديدان إزاء التاريخ، ففيها تغيير لأسماء الأعلام واختراع لشخصيات وأحداث، وكل هذا بنية دينية طيبة. الواقع أن هذه الكتب تحتوى على حكايات أخلاقية النزعة محشوة بالأخطاء التاريخية وبأمور مستبعدة تاريخيا.

أما كتابا المكابيين فيختلفان تماما، إذ يعطيان أحداث القرن الثانى قبل الميلاد رواية صحيحة بأكبر قدر ممكن عن تاريخ ذلك العصر وهى بهذا الشكل شهادات قيمة.

إذن فمجموع الكتب المسماة بالتاريخية شديدة التباين، والتاريخ فيها معالج بشكل علمى بمثل ما هو معالج بشكل وهمي.

الكتب النبوية

يجمع تحت هذا الاسم وصايا مختلف الأنبياء الذين يحتوى العهد القديم عليهم باستثناء كبار الأنبياء المشار إلى تعاليمهم فى كتب أخرى مثل: «موسى»، و«صموئيل»، و«إليا»، «واليشع».

وتعطى الكتب النبوية الفترة بين القرن الثامن والقرن الثانى قبل الميلاد، أما كتب القرن الثامن قبل الميلاد فهى كتب عاموس، وهوشع، وأشعيا، وميخا. ويشتهر الأول بإدانته للمظالم الاجتماعية، والثانى بإدانته للفساد الديني، وذلك الذى تسبب فى تعذيبه جسديا - بعد أن تزوج من عاهرة مقدسة فى عبادة وثنية - كصورة الله الذى يتألم بسبب انحلال شعبه وإن أعطاه حبه دائما. أما أشعيا فهو وجه للتاريخ السياسي؛ إنه يسود الأحداث لأن الملوك يستشيرونه لأنه نبى العظمة، وإلى مؤلفاته تضاف نبوءاته التى نشرها تلاميذه حتى القرن الثالث قبل الميلاد: ومنها

الاحتجاجات ضد الظلم، والخوف من يوم القيامة، والتبشير بالتحرر فى عصر النفي، والتنبؤ فى فترة لاحقة بعودة اليهود إلى فلسطين، ومن المؤكد أن نبوءتى أشعيا الثانية والثالثة تحتويان أيضًا - إلى جانب الاهتمام النبوى - على اهتمام سياسى يظهر واضحًا. وتتبع رسالة ميخا - وهو معاصر لأشعيا - من نفس عامة هذه الأفكار.

وفى القرن السابع قبل الميلاد يبرز صفنيا وأرميا وناحوم وحبقوق فى التبشير، وينتهى أرميا بالاستشهاد، وتلقى باروك نبوءاته، وربما كان أرميا كاتب المراثى. لقد أعطى النفى إلى بابل فى بداية القرن السادس قبل الميلاد نشاطًا نبويًا كبيرًا. ويعد النبى حزقيال بارزًا فى هذا النشاط باعتباره مواسيًا لإخوته، الذين بذر الأمل بينهم - ورؤاه مشهورة - ويرتبط كتاب عوبيديا بكوارث القدس المقهورة.

وبعد النفى الذى انتهى فى عام ٥٣٨ قبل الميلاد استأنف النشاط النبوى مع حجاى وزكريا للحث على إعادة بناء المعبد. إن ما كتب باسم ملاخى وبعد الانتهاء من بناء المعبد، نبوءات متنوعة ذات طبيعة روحانية.

ما سبب إدراج كتاب يونس بين كتب الأنبياء، حيث إن العهد القديم لا ينسب إليه نصوصًا بالمعنى الحقيقى للكلمة..؟ إن كتاب يونس حكاية يستخلص منها أمر رئيسي، هو الخضوع الضرورى للإرادة الإلهية.

أما رؤيا «دانيال» فهى «مذهلة» من وجهة النظر التاريخية، كما يقول المعلقون المسيحيون، وهى مكتوبة بثلاث لغات (العبرية والآرامية واليونانية) ويقول البعض: إنها مؤلف يرجع إلى القرن الثانى قبل الميلاد فى عصر المكابيين. ويحتمل أن يكون كاتب هذه الرؤيا قد أراد إقناع مواطنيه فى عصر «منتهى الشر» بأن ميعاد الخلاص قريب وذلك حتى يغذى إيمانهم «أ. جاكوب».

كتب الشعر والحكمة

وتكون كتب الشعر والحكمة مجموعات تتمتع بوحدة أدبية لا جدال فيها، وتحتل المزامير المقام الأول بين هذه المجموعات، إنها الصرح الشامخ فى الشعر العبري، وقد كتب داود عددًا كبيرًا منها وكتب الباقى الكهنة واللاويون، وموضوعها المدائح والتضرعات والتأملات. كانت وظيفة المزامير طقوسية الطابع.

أما كتاب أيوب، كتاب الحكمة والبر، بكل معنى الكلمة، فيرجع فيما يقال إلى ٤٠٠ أو ٥٠٠ قبل الميلاد، وأما المراثى على سقوط القدس، فى بداية القرن السادس قبل الميلاد، فربما كان كاتبها هو أرميا.

ولنذكر أيضا نشيد الإنشاد: وهو أناشيد رمزية تنصب على الحب الإلهى فوق كل شيء، وسفر الأمثال يتكون من مجموعة من أقوال سليمان وحكماء آخرين فى بلاطه، وسفر الجامعة يتحدث عن السعادة الدنيوية والحكمة.

والسؤال الآن هو: كيف استطاع هذا المجموع المتنافر بمضمونه، الذى يتكون من أسفار كتبت على مدى سبعة قرون على الأقل، وأتت من مصادر شديدة التنوع ثم تجمعت بعد ذلك داخل مؤلف واحد؟ كيف استطاع عبر القرون أن يكون كلًا لا ينفصم وأن يصبح - مع بعض الاختلافات بين الجماعات الدينية - كتاب الوحى اليهودى - المسيحي؟ كيف أصبح «القانون Canon»، وهى كلمة يونانية يرتبط بها معنى عدم المساس..؟

إن التجميع لا يرجع إلى عصر المسيحية بل إلى اليهودية نفسها، ولاشك أن مرحلته الأولى تعود إلى القرن السابع قبل الميلاد، حيث إن الكتب اللاحقة قد أتت بعد ذلك لتضاف إلى ما احتفظ به من قبل، ومع ذلك يجب أن نلاحظ المكانة الخاصة التى أعطت فى كل العصور الأسفار الخمسة الأولى التى تكون التوراة أو ما يعرف بأسفار «موسى» الخمسة Pentateuque.

فإن تحقق نذائر الأنبياء - هى وعد بالعقاب - يرتبط وظيفيًا بالخطايا، كان من شأنه أن سهل إضافة كتبهم إلى الكتب المقبولة سلفًا، إن «قانون Canon» الأنبياء كان قد تشكل فعلًا قبل القرن الثانى قبل الميلاد.

أما الكتب الأخرى مثل المزامير، وبسبب وظيفتها فى الطقوس الدينية، فقد أدمجت مع الكتابات الأخرى وكتابات سليمان أو أيوب الحكيمة.

إن المسيحية التى كانت أولًا يهودية مسيحية، والتى درسها جيدًا (كما سنرى) كتاب محدثون، مثل «الكردنيال دانيلو Danie lou»، قد تلقت بشكل طبيعى جدًا ميراث العهد القديم، الذى ارتبط به وثيقًا كتاب الأناجيل، وذلك قبل أن يجرى عليها التحول الذى حدث بتأثير «بولس»، ولكن إذا كان «تطهير» الأناجيل قد تم باستبعاد الأناجيل المزورة، فإن المسئولين لم يروا ضرورة القيام بنفس الفرز بالنسبة إلى العهد القديم، وقبلوا ما يحتويه كلية تقريبًا.

هل هناك من جرؤ على الاعتراض على هذا المجموع المتنافر حتى القرون الوسطى وفى الغرب على الأقل..؟ لا أحد أو تقريبًا لا أحد. ومن القرون الوسطى وحتى بداية العصور الحديثة ظهرت بعض الانتقادات، كما رأينا أعلاه، ولكن الكنائس نجحت دائمًا فى فرض سلطتها. ولاشك أن عصرنا قد شهد ميلاد نقد أصيل للنصوص، ولكن إذا كان المتخصصون الكثيرون فى نقد النصوص قد كرسوا قرائحهم لدراسة حشد كبير من النقاط التفصيلية، فإنهم قد حكموا بأفضلية عدم الذهاب إلى أبعد مما يسمونه تلميحًا «صعوبات» ولا يبدو أن بهم ميلًا لدراسة هذه الصعوبات على ضوء المعارف الحديثة، وإذا كان هناك من لا يعترض على إقامة موازنات تاريخية، وخاصة عندما يكون هناك توافق بين المعارف الحديثة وروايات الكتب المقدسة، فلا أحد حتى الآن من هؤلاء المتخصصين قد خط الخطى على طريق مقارنة صريحة وعميقة مع المعلومات العلمية التى ندرك أنها ستقود إلى الاعتراض على فكرة صحة الكتابات اليهودية - المسيحية التى لا يجادلها أحد منهم حتى يومنا هذا.

يتبع

بنو إسرائيل فى الكتاب والسنة

ثانيًا: تعنتهم فى الأسئلة بقصد إحراج الرسول ﷺ



أ.د. محمد سيد طنطاوي

استعمل اليهود فى المسلك السابق الذى تكلمنا عنه باستفاضة المجادلات الدينية، والمخاصمات الكلامية، لزلزلة الإيمان فى نفوس أتباع الدعوة الإسلامية، ولكنهم حين وجدوا أن هذه المجادلات قد فشلوا فيها، وخرجوا منها بالخيبة والخسران، لأن القرآن الكريم لقن رسول الله ﷺ الإجابات التى تبطل حجتهم، وتخرس ألسنتهم، لجأوا إلى مسلك آخر لتشكيك المسلمين فى عقيدتهم ألا وهو توجيه الأسئلة المتعنتة إلى الرسول ﷺ بقصد إحراجه، وإظهاره بمظهر العاجز عن إجابة مطالبهم.

وقد حكى القرآن الكريم هذا المسلك الخبيث من اليهود، ووبخهم عليه، فقال تعالى فى سورة النساء:

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا (١٥٣) وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ (النساء: ١٥٣، ١٥٤)

أخرج ابن جرير، عن محمد بن كعب القرظي، قال: جاء أناس من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: - يا محمد - إن موسى جاء بالألواح من عند الله، فأتنا أنت بالألواح من عند الله، حتى نصدقك، فأنزل الله:

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ [1].

(1) تفسير ابن جرير جـ٦ ص٧.

والمراد بأهل الكتاب هنا: اليهود خاصة، بدليل سياق الآيات الكريمة التى ذكرت أوصافا لا تنطبق إلا عليهم.

وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ معناه: يسألك اليهود - يا محمد - على سبيل التعنت والعناد، أن تنزل عليهم كتابا من السماء مكتوبا جملة، كما جاء موسى لآبائهم بالتوراة، مكتوبة فى الألواح جملة، أو يسألونك أن تنزل على رجال منهم بأعيانهم كتبا من السماء، تأمرهم بتصديقك، واعلم - يا محمد - أنهم لو أجيبوا إلى ما طلبوا ما آمنوا بك، لأن الذى حملهم على سؤالهم هو: التعنت والجحود، والمتعنت والجاحد لا يقنعه دليل، أو برهان، ولو كانوا يريدون الإيمان حقا، لما سألوك ذلك، لأن الأدلة القاطعة قد قامت على صدقك.

ثم وبخهم الله - تعالى - على سؤالهم هذا، وسلى نبيه ﷺ، فقال تعالى: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ أى: لا تحزن - يا محمد - لأسئلتهم، ولا تبتئس لتعنتهم، فإن آباء هؤلاء الذين سألوك، وسار أبناؤهم على نهجهم فى العناد، قد سألوا نبيهم موسى - عليه السلام - أعظم مما سألوك، من تنزيل كتاب عليهم من السماء، فحاضر هؤلاء اليهود، كماضى آبائهم الأقدمين، لا يهمهم قوة الدليل، وإنما يهمهم إعنات الرسل - عليهم الصلاة والسلام.

قال صاحب الكشاف: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ جواب الشرط مقدر، معناه: إن استكبرت ما سألوك عنه، فقد سألوا موسى أكبر من ذلك، وإنما أسند السؤال إليهم، وإن وجد من آبائهم فى أيام موسى، لأنهم كانوا على طريقتهم، وراضين بسؤالهم، ومضاهين لهم فى التعنت» [2].

ثم بين - سبحانه - ما سأل عنه بنو إسرائيل موسى - عليه السلام - وما أصابهم نتيجة لتعنتهم، فقال تعالى: ﴿فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ أى: فقد سأل بنو إسرائيل السابقون نبيهم موسى - عليه السلام - أعظم مما سألك عنه المعاصرون، فقالوا له، رغم الآيات الظاهرة، والأدلة الباهرة، التى دلت على صدقه، يا موسى: ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ أى: عيانا نعاينه بأبصارنا، ونراه بعيوننا، فترتب على قولهم هذا الذى يدل على جرأتهم على الله، أن ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾

أى: نزلت عليهم نار من السماء، تجلجل بصوت رهيب، فصعقتهم بسبب طغيانهم وظلمهم.

ثم ذكر - سبحانه - رذيلة أخرى من رذائلهم الكثيرة، فقال تعالى:

﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾

أى: أن هؤلاء الذين سألوا موسى - عليه السلام - رؤية الله جهرة، بعد أن أحياهم الله من صعقتهم، وبعد أن أنقذهم الله من فرعون وظلمه، وبعد أن رأوا من الآيات الدالة على صدق نبيهم موسى ما رأوا، بعد كل ذلك، اتخذوا العجل إلها معبودا من دون الله:

﴿فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ﴾ بسبب توبتهم، التى

(2) تفسير ابن كثير جـ١ ص٣٩٤.

تابوا إلى ربهم بقتلهم أنفسهم، وصبرهم فى ذلك على أمر ربهم:

﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾

أى: أعطيناه حججا بينات، ومعجزات باهرات، وقوة وقدرة على الانتصار، على من خالفه.

ثم بين - سبحانه - لونا آخر من جحودهم وعنادهم فقال تعالى:

﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾

(الأعراف: ١٧١)

قال الإمام ابن كثير:

﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ ﴾ وذلك أنهم حين امتنعوا عن الالتزام بأحكام التوراة وظهر منهم إباء، عما جاء به موسى - عليه السلام -: رفع الله على رءوسهم جبلا، ثم ألزموا فالتزموا وسجدوا وجعلوا ينظرون إلى الجبل فوق رءوسهم؛ خشية أن يسقط عليهم، كما قال تعالى:

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ ﴾ «٣».

ثم قال تعالى:

﴿ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾

أى: وقلنا لهم حين أمرناهم بدخول باب مدينة بيت المقدس، ادخلوه خاضعين لربكم، طائعين لأمره، مطأطئين رءوسكم؛ شكرا له، ولكنهم خالفوا ما أمروا به من القول والفعل.

وقلنا لهم كذلك:

﴿ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ ﴾ أى: لا تتجاوزوا الحدود، التى أمركم بالتزامها يوم السبت، وهى ألا تصطادوا الحيتان فى هذا اليوم، ولكنهم تحايلوا على صيدها، وارتكبوا ما نهى الله عنه، فصيرناهم قردة خاسئين.

﴿ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾ أى: عهدا مؤكدا شديدا، بأن يعملوا بما أمرهم الله به، وينتهوا عما نهاهم عنه، ولكنهم نقضوا عهودهم، وكفروا بآيات الله، وقتلوا أنبياءه بغير حق، وانغمسوا فى السيئات والمعاصى، فأخذهم الله تعالى أخذ عزيز مقتدر.

وبذلك تكون الآيتان الكريمتان، قد كشفتا عما يريده اليهود، من إحراج للرسول ﷺ عن طريق أسئلتهم المتعنتة، ووبختاهم على ذلك، وساقتا طرفا من رذائلهم وقبائحهم، ليعرفهم المؤمنون على حقيقتهم، فينصرفوا عنهم ويتقوهم، وبذلك يرجع كيد اليهود إلى نحورهم.

هذا، ومن قبيل الأسئلة المتعنتة التى وجهها اليهود إلى النبى ﷺ، سؤالهم إياه عن الروح، وعن طعام أهل الجنة، وشرابهم، وعن الجنازة، وهل تتكلم؟ وعن وحدانية الله، وعن ذى القرنين، وعن ذات الله - تعالى - إلى غير ذلك من الأسئلة التى وجهوها إلى النبى ﷺ بقصد إحراجه، والإساءة إليه، لا بقصد المعرفة، والوصول إلى الحق.

١ - فقد جاء فى الصحيحين، عن عبدالله ابن مسعود، قال: «بينا أنا مع النبى ﷺ فى

«٣» تفسير ابن كثير جـ١ ص٥٧٣.

حرث، وهو متكئ على عسيب - أى جريدة نخل - إذ مر اليهود فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، فقال ما رابكم إليه؟ - أى: ما دعاكم إلى سؤال تخشون سوء عقباه - وقال بعضهم: لا يستقبلكم بشىء تكرهونه، فقالوا: سلوه، فسألوه عن الروح، فأمسك النبى ﷺ فلم يرد عليهم شيئا، فعلمت أنه يوحى إليه، فقمت مقامى، فلما نزل الوحى قال: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ «٤».

٢ - وفى صحيح مسلم، عن ثوبان، أنه قال: «كنت قائما عند رسول الله ﷺ فجاء حبر من أحبار اليهود، فقال: السلام عليك يا محمد، فدفعته دفعة كاد يصرع منها، فقال: لم تدفعنى؟ قلت: ألا تقول يا رسول الله! فقال اليهودى: إنما ندعوه باسمه الذى سماه به أهله، فقال رسول الله ﷺ: «اسمى الذى سمانى به أهلى محمد»، فقال اليهودى: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات؟ فقال رسول الله ﷺ: «هم فى الظلمة دون الجسر» - أى: الصراط - فقال اليهودى: فمن أول الناس إجازة - أى: عبورا على الصراط -؟ قال: «فقراء المهاجرين»، فقال اليهودى: فما تحفتهم - أى: هديتهم - حين يدخلون الجنة؟ فقال رسول الله ﷺ: «زيادة كبد الحوت»، فقال اليهودى: فما غذاؤهم على إثرها؟ قال: «ينحر لهم ثور الجنة الذى كان يأكل من أطرافها»، فقال: فما شرابهم عليه؟ قال: «من عين تسمى سلسبيلا»، فقال اليهودى صدقت.

وجئت أسألك عن شىء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبى، أو رجل أو رجلان قال: «ينفعك إن حدثتك»، فقال اليهودى: أسمع بأذنى، ثم قال: جئت أسألك عن الولد؟ فقال النبى ﷺ: «ماء الرجل أبيض، وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا فعلا منى الرجل منى المرأة أذكرا - بإذن الله - أى: كان الولد ذكرا - وإذا علا منى المرأة منى الرجل آنثا - بإذن الله - أى: كان الولد أنثى - فقال اليهودى: لقد صدقت وإنك لنبى، ثم انصرف فذهب» «٥».

٣ - وأخرج أبو داود، عن أبى نملة الأنصارى، عن أبيه، أنه بينما هو جالس عند رسول الله ﷺ وعنده رجل من اليهود، إذ مر بجنازة، فقال اليهودى: يا محمد هل تتكلم الجنازة، فقال النبى ﷺ: «الله أعلم»، فقال اليهودى: إنها تتكلم، فقال النبى ﷺ: «ما حدثكم به أهل الكتاب فلا تصدقوهم، ولا تكذبوهم وقولوا: آمنا بالله ورسله، فإن كان باطلا لم تصدقوه وإن كان حقا لم تكذبوه» «٦».

٤ - وقال ابن إسحاق: «أتى رسول الله ﷺ النحام بن زيد وقردم بن كعب، وبحرى بن عمرو، فقالوا له يا محمد: أما تعلم أن مع الله إلها آخر؟ فقال رسول الله ﷺ: «الله لا إله إلا هو، بذلك بعثت، وإلى ذلك أدعو، فأنزل الله فيهم:

﴿ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ

«٤» أخرجه البخارى - واللفظ له - باب يسألونك عن الروح من كتاب «التفسير» جـ٨ ص١٠٩ وأخرجه مسلم فى باب «سؤال اليهود» من كتاب «صفات المنافقين» جـ٤ ص٢١٥٢ تحقيق محمد فؤاد عبدالباقى.

«٥» صحيح مسلم كتاب الحيض جـ١ ص٢٥٢.

«٦» سنن أبى داود «كتاب العلم» جـ٣ ص٣٨٥.

﴿لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (١٩) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

(الأنعام: ١٩ ، ٢٠) [٧].

٥- وقال أيضا: قال جبل بن أبي قشير، وشمويل بن زيد لرسول الله ﷺ: يا محمد أخبرنا، متى تقوم الساعة إن كنت نبيا كما تقول؟ فأنزل الله فيهما:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

(الأعراف: ١٨٧) [٨].

٦- وقال - أيضا - قال حيي بن أخطب، وكعب بن أسد، وأبو رافع، وأشيع، وشمويل بن زيد، لعبدالله بن سلام، حين أسلم: ما تكون النبوة في العرب، ولكن صاحبك ملك، ثم جاءوا إلى رسول الله ﷺ فسألوه عن ذي القرنين، فقص عليهم ما جاءه من الله - تعالى - فيه، مما كان قص على قريش، وهم كانوا ممن أمر قريشا أن يسألوا رسول الله ﷺ عنه، حين بعثوا إليهم النضر بن الحارث، وعقبة ابن أبي معيط [٩].

وقال - أيضا - وحدثت عن سعيد بن جبير أنه قال أتى رهط من يهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد هذا الله خلق الخلق فمن خلق الله؟

قال: فغضب رسول الله ﷺ حتى انتقع لونه، أي: تغير: ثم ساورهم - أي باطشهم - غضبا لربه، قال: فجاء جبريل - عليه السلام - فسكنه فقال: خفض عليك يا محمد، وجاءه من الله - تعالى - بجواب ما سألوه عنه:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)﴾

(الإخلاص: ١- ٤)

قال: فلما تلاها عليهم! قالوا فصف لنا - يا محمد - كيف خلقه؟ كيف ذراعه؟ كيف عضده؟ فغضب ﷺ أشد من غضبه الأول، وساورهم فأتاه جبريل - عليه السلام - فقال له مثل ما قال أول مرة، وجاءه من الله - تعالى - بجواب ما سألوه بقول الله - تعالى -:

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

(الزمر: ٦٧) [١٠].

هذه بعض النماذج للأسئلة المتعنتة، التي وجهها اليهود إلى النبي ﷺ، بقصد مضايقته، وإظهاره بمظهر العاجز عن إجابة أسئلتهم، ولقد خابوا فيما سلكوه ولم يصلوا إلى ما أرادوه، فقد كان النبي ﷺ يجيبهم بما يخرس ألسنتهم، ويردهم على أعقابهم خاسرين ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾.

(التوبة: ٣٢)

[٧] سيرة ابن هشام جـ٢ ص٢١٧.

[٨] المصدر السابق ص٢١٨.

[٩] المصدر السابق ص٢٢٠.

[١٠] سيرة ابن هشام جـ٢ ص٢٢٠.

فتاوى الحاخامات

د. منصور عبدالوهاب

عنوان الفتوى: صديقك المسيحي دعاك لزفاف ابنه، فهل تذهب؟

مصدر الفتوى www.masoret.com مارس ٢٠٠٦ فتوى من: هيئة تحرير الموقع

يبحث درس الجمارا اليوم (فصل عبادة الأوثان ٨:١) ما إذا كان يمكنك الذهاب إلى حفل زفاف ابن صديقك غير اليهودي، الذي قد يكون عميلاً مهماً لك، أو شريكاً في العمل. وقد يعتبر عدم ذهابك إهانة له وإساءة لعلاقتكما، ناهيك عن العلاقة بين اليهود وعبدة الأوثان المقيمين في نفس المدينة ونفس الدولة.

على مر الأجيال بحث رجال الفتوى هذا السؤال وتخبطوا بشأنه لكن علينا دائما أن نتذكر المبدأ الذي تضعه أمامنا الجمارا. ومن المؤكد أن لكل قاعدة استثناء، وهناك حالات خاصة كثيرة يجب تناول كل منها على حدة، ولكن المبدأ الذي وضعته الجمارا واضح.

تبدأ بالشريعة التي تقول إنه عندما يقيم عابد الأوثان حفلاً لابنه، يعد ذلك عيداً له، ولذلك فإنه محرم علينا عقد صفقات أو التفاوض معه في ذلك اليوم، والتحريم يسري فقط على هذا الشخص، وليس هناك قيد على الأيام الثلاثة السابقة على الاحتفال.

إلى هنا يبدو كل شيء جميلاً وعلى ما يرام، لكن الجمارا تلقي بقنبلة بعد ذلك، وتقول (وفقا لرأي الحاخام يشمعئيل) إن بني إسرائيل الذين يذهبون إلى ذلك الزفاف المذكور هم «عبدة أوثان على طهارة». هذا تعبير غريب، فكيف تتفق عبادة الأوثان مع الطهارة، كيف يتماشيان؟ تواصل الجمارا صفعنا وتقول إنه إذا أعد أحد الأغيار حفلاً لابنه ودعا كل اليهود - حتى لو أكلوا من طعام خاص بهم وكان خادمهم الخاص يخدمهم - فإنهم كمن أكلوا الميتة (وهي قمة عبادة الأوثان).

الإجابة هي أنه عند حضور اليهودي لعيد عبدة الأوثان، حتى لو كان «حفلاً بريئاً» مثل زفاف الابن - فلا يجب أن ننسى أن هذه طقوس كاملة تجري كلها وفقا لعبادة الأوثان، ومجرد وجود اليهود هناك، هو مظهر لمشاركة اليهود في عيد عبدة الأوثان، بل وفي طقس شديد الخصوصية مثل الزفاف. ولذلك فإنه عندما يأكل اليهود ويشربون ويفعلون كل شيء فإنهم بالفعل يشاركون في فرحة عبدة الأوثان، ويدعمونه ويشجعون استمرار عبادة الأوثان، بل وقد يختلطون بعبدة الأوثان، وبالتالي يكون اندماج اليهود بهم قصيرًا وسريعًا. والسبب الأساسي هو ألا يسود حب وإخاء بين الطرفين فيتسبب في تجاوز سافر لتحريم صريح وارد في التوراة يقول: «احترز من أن تقطع عهدًا .. وتأخذ من بناتهم...».

على مر الأجيال كان هناك من يستخفون بذلك خشية العداء والكراهية، ولكن إذا كانت العلاقات مستقرة يجب محاولة التهرب من المشاركة في حفل أو مأدبة الابن. وهناك سبل محترمة للقيام بذلك، مثل إقامة حفل منفصل مع اليهود (بعد الحفل)، وما إلى ذلك، وكل ذلك من أجل السلام، ولكن يجب محاولة الامتناع عن المشاركة المباشرة.

قصص الأنبياء:

اتخاذ بنى إسرائيل العجل إلها يعبدونه

للعلامة الشيخ / عبدالوهاب النجار

قلنا فيما مضى أن بنى إسرائيل لم تكن أنفس أكثرهم مرتاضة بالإيمان، وإنهم كانوا ذوى جهالة لم يحصلوا على الثقافة الكافية لصون عقائدهم من الزيغ. والقوم عاشوا فى مصر وألفوا أن يروا عبادة المصريين للعجل أبيس. وكان للمصريين عناية فائقة بعبادة هذا العجل.

وكانت العجول المؤلهة إذا ماتت حنطوها - كما يحنط الآدمى بما يحفظ جسمها من التلف ودفنوها فى مقبرة خاصة فى جهة سقارة. تسمى «سرابيوم».

كانت بساطتهم وإلفهم للوثنية مسهلة لرجل ماكر كان فيهم سماه القرآن «السامري» فجاءهم بعجل له خوار. وقال لهم: هذا إلهكم وإله موسى نسيه موسى هنا وذهب لملاقاته فى الغيبة الطويلة.

وذلك أن موسى أخبرهم - قبل ذهابه لميقات ربه أن غيبته عنهم لا تطول أكثر من ثلاثين يوما مع مسافة الطريق إلى جبل حوريب، وهو جبل الطور. فلما أمر الله موسى أن يستأنف صوم عشرة أيام طالت غيبته عن قومه، واستبطأ القوم موسى.

فانتهز رجل يقال له السامرى غيبة موسى وأخذ من بنى إسرائيل بعض حليهم التى كانت نساؤهم أخذتها من المصريات قبل رحيل بنى إسرائيل وألقاها فى النار وسبك منها عجلا. وجعله بحيث إنه كان له خوار، أى صوت الثور وقال لهم: هذا إلهكم وإله موسى.

وليس غريبا أن يكون رجل له علم بالهندسة والحيل يجعل تمثال الثور يخور كما يخور الثور وقد رأيت عند صديق لى تمثال بقرة من الجبس، عند سرته سلك من الخيط، إذا جذب إلى أسفل ثم أرسل الخيط دارت آلة فى داخله ولقمته على جسمها، وحينئذ يحدث ما يشبه خوار العجل الصغير وبعض الناس يأخذ عظم رأس الحمار - بعد أن يبلى عنه اللحم - ثم يضع ضفدعا داخل تجويف الرأس، ثم يقربها من الحرارة أو من دخان نار، فتنق الضفدع ويخرج نقيقها من الرأس مكبرا، حتى ليخيل للسامعين أن الصوت صوت حمار.

سعى إليهم هارون وأراد ردهم عن عبادة هذا العجل. وأفهم القوم أنهم فتنوا به وجهد أن يردهم فلم يفلح ولم يصغوا إليه.

وقالوا له:

﴿قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾

(طه: ٩٢).

فلما قضى موسى أجل الصوم وكلم ربه وأعطاه الألواح سأله الله تعالى وهو أعلم، عما أعجله عن قومه. فقال إنهم آتون على أثرى وعجلت إليك ربى طلبا لرضاك.

وحينئذ أخبره الله تعالى بأنهم فتنوا عن دينهم وأن السامرى أضلهم، فرجع موسى إلى قومه غضبان حزينا حردا على أخيه إذ لم يردهم عن فتنتهم وظن به التقصير فى النصح. فلما لقيه أخذ بلحية هارون ورأسه يجره إليه وكان موسى رجلا أيدا فيه حدة لا يقوم لغضبه أحد. فاعتذر هارون بأنه عمل جهده، ولو قام بقتال من ارتد لكان ذلك سببا للفرقة خشى هارون أن تكون سببا لغضب موسى لأنه لم يرتقب رأى موسى فى هذه الفتنة. ولام موسى بنى إسرائيل أشد اللوم وألقى الألواح التى كتبها الله له. ويقال إنها كسرت.

بعد ذلك ذهب موسى إلى السامرى وسأله عن شأنه والأسباب التى حدت به إلى هذا العمل المنكر؟ فقال:

﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾

(طه: ٩٦)

فقال له موسى: اذهب فإن الله عاقبك بأن تقول فى حياتك ﴿لَا مِسَاسَ﴾ وأن لك موعدا لن تخلفه، وأخبره إن هذا الإله الذى ظل عاكفا عليه سيحرقه موسى وينسفه فى ماء البحر. وقال لبنى إسرائيل:

﴿إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾

(طه: ٩٨).

ثم أن الله تعالى أوحى إلى موسى أن توبة بنى إسرائيل: أن يقتلوا أنفسهم بأن يقتل كل إنسان من يقابله من قريب أو أخ أو نحو ذلك. ثم عفا الله عنهم بعد أن قتلوا من أنفسهم عددا عظيما. وكان اعتذار بنى إسرائيل أنهم حملوا من زينة المصريين شيئا كثيرا فقذفوه هم والسامرى وكان عن ذلك العجل.

● ما حقيقة العجل الذى عبده بنو إسرائيل - ومن هو السامري؟!

ويقول المفسرون والتوراة: إنه كان عجلا من ذهب صاغه لهم صائغه من حلى المصريات - كما قدمنا - ويقول المفسرون: إن السامرى اسمه موسى وكان مولودا من سفاح، وأن الله أمر جبريل أن يربيه ويقوم بمصالحه، فكان جبريل يأتيه على فرس. وكان يلاحظ - بعد أن كبر أن فرس جبريل لا يضع حافره على شيء إلا صار حيا فأخذ من تراب أثر الحافر بعضا، فلما صاغ العجل من الذهب ألقى ذلك التراب فى فم العجل فصار له خوار.

ويقول البيضاوى: إن الذهب صار عجلا جسدا ذا لحم ودم له خوار - صوت البقر - وقال بعضهم: إنه كان صائغا وقد دبره بطريقة خاصة تجعل للريح إذا مرت من دبره وخرجت من فمه صوت البقر.

والذى أراه أن حكاية السامرى وجبريل ليست صحيحة، فلا جبريل جاء إلى

السامرى ولا السامرى أخذ ترابا من أثر حافر فرسه. وأن القول بأنه صاغه بحيث إذا استدبر الريح خرجت الريح من فمه ولها صوت البقر - وهو الخوار - أقرب من ذلك بل لا غرابة فى هذا أصلا.

ولو قال القائل: إن الرجل خدع بنى إسرائيل وأخذ منهم الحلى، وبصر بعجل على هيئة العجول التى تعبد فى مصر - ولم يبصروا به فاشتراه وجاءهم به وقال لهم ما قال، وإنهم قبلوا ذلك منه واعتقدوا أن ذلك العجل إلههم وإله موسى، وعكفوا على عبادته مع إنه عجل جسد لحم ودم له خوار لا يفترق من أبناء جلدته من البقر فى شيء! ومع ذلك كله فإنهم لبلادة أذهانهم وسخافة عقولهم قد جعلوه إلها وعبدوه، وظلوا عاكفين على عبادته مع نهى هارون لهم وقوله:

﴿إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي﴾

فلم يلتفتوا إليه لما أشربوه فى قلوبهم من حب العجل لما هم عليه من الكفر لم يكن بعيدا من الصواب ولم يكن مخلا بنظم القرآن هذا هو الذى أميل إليه. ويكون السامرى قد خدعهم بأخذ الحلى وإلقائه فى النار ليوهمهم أن حليهم صار عجلا. وأخذ المال لنفسه. فشأنه شأن الدجالين الذين يخدعون الناس بإيهامهم الكنوز المطلسمة وافتتاحها لهم ثم يجردونهم من كل شيء. فيأتون إليهم بالفقر حيث يرجون الثروة والغنى - وهنا يعرض سؤال لاكه البعض وهو: كيف يكون السامرى هو الذى أضل بنى إسرائيل بالعجل مع أن السامرى نسبة إلى سامرة - والسامرة بلد من فلسطين لم توجد فى زمن موسى! وإنما اشتراها «عمري» وهو الرابع من ملوك إسرائيل بعد أن انشقت مملكة اليهود إلى قسمين: قسم هو سبط يهوذا ومقره أورشليم وملوكه من ذرية داود وسليمان. وكان أول ملوك إسرائيل «يربعام بن ناباط» ورابعهم «عمري» اشترى جبل السامرة وبنى تلك المدينة وجعلها مقر مملكة إسرائيل. وذلك بعد موسى بنحو ثلاث وعشرين وخمسمائة سنة؟

والجواب على ذلك أن السامرى ليس منسوبا إلى «سامرة» بل إلى «شامر» بالشين فى اللغة العبرية.

ويغلب أن تكون «الشين» فى العبرية «سينا» فى العربية فهو سامر - كما ينطقها أيضا سبط أفرايم بن يوسف وقد كان رجال سبط يهوذا فى بعض الحروب يمتحنون الرجل ليعرف هل هو من سبط يهوذا أو أفرايمى؟ بأن يأمروه بأن ينطق «شبولت» - سنبلة - فإذا قال «سوبلت» علم إنه أفرايمى ومعنى شامر أو سامر كما هو النطق العربى والإفرايمى «حارس» فالسامرى نسبة إلى سامر وتطقها فى العبرية «شومير» من مادة: شمر، أى حرس.

راجعوا الآية ٩ من الإصحاح الرابع من سفر التكوين ونصها: فقال الرب لقابيل: أين هابيل أخوك فقال: لا أعلم «شومير أخي أنواخي؟» وترجمتها «أحارس أنا لأخي؟».

وقد كان مصير العجل الذى عبده بنو إسرائيل إن أحرق وذرى فى الماء.

أما قول السامرى: ﴿فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا﴾ فمعناها على ما اخترت: إنه قبض قبضة من أثر الرسول، أى تعليمه وأحكام التوحيد التى جاء بها الرسول - وهو موسى - فنبذتها، أى ألقيتها وأهملتها وكذلك سولت لى نفسي.

كان عقاب السامرى فى الدنيا عقابا بدنيا، وهو أن يتألم من مس أى إنسان له، فكان إذا لقى إنسانا وخشى أن يمسه يقول له: ﴿لَا مِسَاسَ﴾ وأما فى الآخرة فإن الله حسيبه بما صنع.

وأما الذين اتخذوا العجل من بنى إسرائيل فكان جزاؤهم أن الله لا يقبل توبتهم حتى يقتل بعضهم بعضا وستأتى كيفية ذلك فيما نقصه من التوراة.

ويقول أهل الكتاب: إن الذى صنع العجل لبنى إسرائيل هو هارون أخو موسى: حاشاه أن يكفر بعد الإيمان وهو نبى معصوم عن ذلك. ولكن هذا دأبهم مع أنبياء الله ينسبون إليهم النقائص وما ينزه نفسه عنه أحط الناس قدرا ويلصقون ذلك بهم.

اقرءوا هذه الآيات:

﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ (٨٣) قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي (٨٦) قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ (٨٧) فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ (٨٨) أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا (٨٩) وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي (٩٠) قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ (٩١) قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي (٩٣) قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي (٩٤) قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ (٩٥) قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي (٩٦) قَالَ فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدٗا لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا (٩٧) إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا (٩٨)﴾

(طه: ٨٣، ٩٨).

***

من عيون التراث

عرض الكتاب:

يقع هذا الجزء فى (٢٤٦) صفحة من القطع المتوسط ويشغل الصفحات (من ٢٦٧ إلى ٥١٣) ويستكمل فيه المؤلف موضوع القياس وعلاقة الأصل بالفرع:

الباب الثالث: أقسام القياس Syllogism وأنواعه: وهى خمسة أقسام:

الأول: ينقسم القياس إلى ما معنى الجامع فيه باقتضاء الحكم فى الفرع أولى منه فى الأصل، وإلى ما هو مساو، وإلى ما هو أدنى.

الثانى: ينقسم القياس إلى جلى وخفى، والجلى ما كانت العلة فيه منصوصة، أما الخفى ما كانت العلة فيه مستنبطة من حكم الأصل.

الثالث: ينقسم القياس إلى مؤثر وملائم.

الرابع: ينقسم القياس إلى قياس علة، ودلالة، والقياس فى معنى الأصل.

الخامس: القياس إما أن يكون طريق إثبات العلة المستنبطة فيه، أو المناسبة، أو الشبه، أو السبر والتقسيم، أو الطرد والعكس.

الباب الرابع: مواقع الخلاف فى القياس وإثباته على منكريه: وفيه ست مسائل:

الأولى: يجوز التعبد بالقياس فى الشرعيات عقلاً: مثل «لا يقضى القاضى وهو غضبان» قاسوا على الغضب ما كان فى معناه، كالجوع والعطش والإعياء المفرط الدوافع Motives (ص ٢٧٢) والعاقل إذا صح نظره واستدلاله الاستدلال Reasoning (ص ٢٧٣)، أدرك

الإحكام فى أصول الأحكام

تأليف/
الآمدى سيف الدين أبى الحسن على
ضبطه وكتب حواشيه: الشيخ إبراهيم العجوز
المجلد الثانى (الجزء الرابع)
بيروت، دار الكتب العلمية، بدون سنة نشر

بالأمارات الحاضرة المدلولات الغائبة.

الثانية: اختلاف المتفقين على جواز التعبد بالقياس عقلاً (ص٢٨٧).

الثالثة: إذا نص الشارع على علة الحكم، هل يكفى ذلك فى تعدية الحكم بها إلى غير محل الحكم المنصوص، دون ورود التعبد بالقياس بها؟ اختلفوا (ص ٣١٢).

الرابعة: يجوز إثبات الحدود والكفارات بالقياس؛ ودليل ذلك ثلاث: النص، والإجماع، والمعقول.

الخامسة: يجوز إجراء القياس فى الأسباب، مثل قياس الوضوء على التيمم؛ فالنية هى الطهارة المقصودة للصلاة وذلك هو السبب.

السادسة: اختلفوا فى جواز إجراء القياس فى جميع الأحكام الشرعية.

الباب الخامس: الاعتراضات الواردة على القياس: خمسة وعشرون اعتراضًا:

١- الاستفسار: وهو طلب شرح دلالة اللفظ المذكور؛ وصيغه متعددة منها الهمزة، وهل، وما، ومن، وأين، وكيف، ومتى، وكم، وأى.

٢- فساد الاعتبار: يفسد اعتبار القياس لعدم صحة الاحتجاج به مع النص المخالف له.

٣- فساد الوضع قد يكون القياس صحيح الوضع فاسد الاعتبار؛ لأن صحة وضع القياس أن يكون على هيئة صالحة لاعتباره فى ترتيب الحكم عليه.

٤- منع حكم الأصل: وذلك من قبيل النظر فى تفصيل القياس.

٥- التقسيم: عبارة عن ترديد اللفظ بين احتمالين، أحدهما ممنوع، والآخر مسلم، وذلك بناء على الغرض منه.

٦- منع وجود العلة فى الأصل: لكون النظر فى علة الأصل متفرعًا عن حكم الأصل، وجب تأخيره عن النظر فى حكم الأصل.

٧- منع كون الوصف المدعى علة: لما كانت العلية صفة للوصف المذكور ومتوقفة على وجوده، وجب أن يكون النظر فيها نفيًا وإثباتًا، متأخرًا عن النظر فى وجود الوصف.

٨- سؤال عدم التأثير: وهو إبداء وصف فى الدليل مستغنى عنه فى إثبات الحكم أو نفيه، وينقسم إلى أربعة أقسام: عدم التأثير فى الوصف، وفى الأصل، وفى الحكم، وفى محل النزاع.

٩- القدح فى مناسبة الوصف المعلل به: يلزم ترتيب الحكم لتحصيل المصلحة المطلوبة.

١٠- القدح فى صلاحية إفضاء الحكم إلى ما علل به من المقصود.

١١- أن يكون الوصف المعلل به خفيًا، وذلك لو علل بالرضا أو القصد فهما من الأوصاف الباطنة الخفية.

١٢- أن يكون الوصف المعلل به مضطربًا غير منضبط، كالتعليل بالحكم والأمثال والمقاصد (ص٣٣٧).

١٣- النقض: وهو تخلف الحكم مع وجود ما ادعى كونه علة له.

١٤- الكسر: وهو النقض على المعنى.

١٥- المعارضة: وهى وراء ما علل به المستدل.

١٦- سؤال التركيب: وهو الوارد عن القياس المركب.

١٧- سؤال التعدية: وهو أن يعين المعترض فى الأصل معنى ويعارض به، ثم يقول للمستدل ما عللت به وإن تعدى إلى فرع مختلف فيه.

١٨- منع وجود الوصف المعلل به فى الفرع.

١٩- المعارضة فى الفرع بما يقتضى نقيض حكم المستدل، إما بنص أو إجماع ظاهر، أو بوجود مانع الحكم، أو بفوات شرط الحكم.

٢٠- الفرق: سؤال الفرق هو المعارضة فى الأصل أو الفرع.

٢١- إذا اختلف الضابط بين الأصل والفرع واتحدت الحكمة.

٢٢- إذا اتحد الضابط بين الأصل والفرع، واختلف جنس المصلحة.

٢٣- إذا قيل حكم الفرع مخالف

لحكم الأصل فلا قياس؛ لأن القياس عبارة عن تعدية حكم الأصل إلى الفرع بواسطة الجامع بينهما.

٢٤- سؤال القلب: وهو قسمان قلب الدعوى وقلب الدليل.

٢٥- سؤال القول بالموجب: وهو تسليم ما اتخذه حكمًا لدليله على وجه لا يلزم منه تسليم الحكم المتنازع فيه.

●●●

- الأصل السادس: معنى الاستدلال استدلال Reasoning (ص ٣٦١) وأنواعه:

الاستدلال في اللغة استفعال من طلب الدليل والطريق المرشد إلى المطلوب وفي اصطلاح الفقهاء فيطلق تارة بمعنى ذكر الدليل وتارة نوع من الأدلة لا يكون نصًا ولا إجماعًا ولا قياسًا. ومن أنواع الاستدلال اصطحاب الحال، وفيه مسألتان:

الأولى: الاستدلال باستصحاب الحال: اختلفوا في بطلانه أو صحة الاحتجاج به.

الثانية: اختلفوا في جواز استصحاب حكم الإجماع في محل الخلاف فنفاه جماعة وأثبته آخرون.

●●●

القسم الثاني: فيما ظن أنه دليل صحيح وليس كذلك: وهو أربعة أنواع:

النوع الأول: شرع من قبلنا: وفيه مسألتان:

الأولى: اختلفوا في النبي ﷺ قبل بعثته، هل كان متعبدًا بشرع أحد من الأنبياء قبله؟ منهم من نفى ذلك ومنهم من أثبته.

الثانية: اختلفوا في النبي ﷺ وأمته، بعد البعث، هل هم متعبدون بشرع من تقدم؟ روى أن النبي ﷺ كان متعبدًا بما صح من شرائع من قبله بطريقة الوحي إليه، لا من جهة كتبهم المبدلة.

- النوع الثاني: مذهب الصحابي: وفيه مسألتان:

الأولى: اتفق الكل على أن مذهب الصحابي في مسائل الاجتهاد لا يكون بحجة على غيره من الصحابة المجتهدين إمامًا كان أو حاكمًا أو مفتيًا، واختلفوا في كونه حجة على التابعين ومن بعدهم من المجتهدين.

الثانية: إذا ثبت أن مذهب الصحابي ليس بحجة واجبة الاتباع، فهل يجوز لغيره تقليده؟ يجوز للعامي والمجتهد ذلك.

- النوع الثالث: الاستحسان APProval (ص ٣٩٠):

اختلف فيه، فقال به البعض، وأنكره الباقون. والاستحسان هو ما يميل إليه الإنسان ويهواه من الصور والمعاني.

- النوع الرابع: المصالح المرسلة: المصالح قسمان، معتبرة وملغاة.

●●●

● القاعدة الثالثة: المجتهدين وأحوال المفتين والمستفتين: وتشمل بابين:

الباب الأول: المجتهدون:

الاجتهاد Diligence في اللغة استفراغ الوسع في تحقيق أمر من الأمور مستلزم للكلفة والمشقة، أما في اصطلاح الأصوليين فهو استفراغ الوسع في طلب الظن بشيء من الأحكام الشرعية على وجه يحس من النفس العجز عن المزيد فيه، وفيه

اثنتا عشرة مسألة:

١- اختلفوا في أن النبي ﷺ هل كان متعبدًا بالاجتهاد فيما لا نص فيه؟ يوجد دليل عقلي على تعبد النبي ﷺ بالاجتهاد والقياس؛ بدليل أمر الله له بالمشاورة

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾

(آل عمران: ١٥٩)

٢- اتفقوا على جواز الاجتهاد بعد النبي ﷺ، واختلفوا في جواز الاجتهاد لمن عاصره.

٣- ليس كل مجتهد في العقليات مصيبًا وإن الإثم غير محطوط عن مخالف ملة الإسلام، سواء نظر وعجز عن معرفة الحق أم لم ينظر (ص ٤٠٩).

٤- اتفقوا على أن الإثم محطوط عن المجتهدين في الأحكام الشرعية.

٥- المسألة الظنية من الفقهيات إما أن يكون فيها نص، أو لا يكون. الأمة مجمعة على تجويز المناظرة Debate (ص ٤١٨) بين المجتهدين، ولو كان كل واحد مصيبًا فيما ذهب إليه لم يكن للمناظرة معنى أو فائدة.

٦- اتفقوا في الأدلة العقلية المتقابلة بالنفي والإثبات، على استحالة التعادل بينهما؛ وذلك لأن دلالة الدليل العقلي يجب أن يكون مدلولها حاصلاً، فلو تعادل الدليلان في نفسيهما لزم من ذلك حصول مدلوليهما.

٧- لا خلاف في صحة اعتقاد الوجوب والتحريم، أو النفي والإثبات معًا، في مسألتين مختلفتين، كوجوب الصلاة وتحريم الزنا.

٨- اتفقوا على أن حكم الحاكم لا يجوز نقضه في المسائل الاجتهادية لمصلحة الحكم.

٩- المكلف إذا اجتهد في مسألة خلصت له أهلية الاجتهاد فيها اتفقوا على أنه لا يجوز له تقليد غيره في خلاف ما أوجبه ظنه.

١٠- هل يجوز أن يقال للمجتهد: احكم فإنك لا تحكم إلا بالصواب.

١١- القائلون بجواز الاجتهاد للنبي ﷺ اختلفوا في جواز الخطأ عليه في اجتهاده.

١٢- اختلفوا في النافي، هل عليه دليل أو لا؟ النافي إما أن يكون نافيًا بمعنى ادعائه عدم علمه بذلك وظنه، أو مدعيًا للعلم، أو الظن بالنفي.

الباب الثاني:
التقليد، المفتي، المستفتي:

● التقليد: عبارة عن العمل بقول الغير من غير حجة ملزمة، أو أخذ المجتهد بقول من هو مثله، أما الرجوع إلى قول النبي أوما أجمع عليه أهل العصر فلا يكون تقليدًا.

● أما المفتي: فلا بد أن يكون من أهل الاجتهاد، وأن يكون عارفًا بالأدلة العقلية.

● أما المستفتي: فهو إما أن يكون عالمًا بلغ رتبة الاجتهاد أو لا.

أما ما فيه الاستفتاء فهو إما أن يكون من القضايا العلمية أو الظنية الاجتهادية.

وفيه ثمان مسائل:

الأولى: اختلفوا في جواز التقليد في المسائل الأصولية المتعلقة بالاعتقاد في وجود الله تعالى، وما يجوز عليه، وما لا يجوز (ص ٤٤٦).

الثانية: العامي من ليس له أهلية الاجتهاد يلزمه اتباع قول المجتهدين والأخذ بفتواهم، والبعض قال: لا يجوز ذلك إلا بعد أن يتبين له صحة اجتهادهم بدليله.

الثالثة: القائلون بوجوب الاستفتاء على العامي، اتفقوا على جواز استفتائه لمن عرفه بالعلم، وأهلية الاجتهاد، والعدالة (قيمة العدل Justify) (ص ٤٥٣).

الرابعة: إذا استفتى العامي عالمًا في مسألة، فأفتاه، ثم حدث مثل تلك الواقعة، فهل يجب على المفتي أن يجتهد لها ثانيًا، ولا يعتمد على الاجتهاد الأول؟ اختلفوا.

الخامسة: هل يجوز خلو عصر من الأعصار عن مجتهد يمكن تفويض الفتاوى إليه؟ اختلفوا.

السادسة: من ليس بمجتهد، هل تجوز له الفتوى بمذهب غيره من المجتهدين؟ البعض جوزه والبعض نفاه.

السابعة: إذاحدثت للعامي حادثة، وأراد الاستفتاء عن حكمها، فإما أن يكون في البلد مفت واحد، أو أكثر، فإن كان الأول وجب عليه الرجوع إليه، وإن كان الثاني اختلفوا فيه.

الثامنة: إذا اتبع العامي بعض المجتهدين في حكم حادثة فليس له الرجوع عنه.

●●●

● القاعدة الرابعة: الترجيحات:

الترجيح brobability عبارة عن اقتران أحد الصالحين للدلالة على المطلوب، مع تعارضهما بما يوجب العمل به وإهمال الآخر.

الباب الأول: ترجيحات الطرق الموصلة إلى التصديقات الشرعية:

التعارض إما أن يكون بين منقولين، أو معقولين، أو منقول ومعقول:

- القسم الأول: التعارض بين منقولين:

الترجيح بينهما منه ما يعود إلى السند، ومنه ما يعود إلى المتن، ومنه ما يعود إلى المدلول، ومنه ما يعود إلى أمر من الخارج.

- القسم الثاني: التعارض بين معقولين:

المعقولان إما قياسان، أو استدلالان، أو قياس واستدلال. فإن كان التعارض بين قياسين، فالترجيح بينهما قد يكون بما يعود إلى أصل القياس، وقد يكون بما يعود إلى فرعه، وقد يكون بما يعود إلى مدلوله، وقد يكون بما يعود إلى أمر خارج (ص٤٨٧).

الباب الثاني: الترجيحات الواقعة بين الحدود الموصلة إلى المعاني المفردة التصورية:

تنقسم الحدود إلى عقلية وسمعية؛ كانقسام الحجج.

الخلاصة:

ورد في هذا الكتاب الإشارة إلى المفاهيم النفسية الآتية:

- قياس Syllogism.
- استحسان Approval.
- دوافع Motives.
- اجتهاد Diligence.
- مناظرة Debate.
- استدلال Reasoning.
- قيمة العدل justify.
- ترجيح prodability.

القائم بالعرض

د. صفاء إسماعيل مرسي

عالمية العلم



للعلامة محمد أسد

لم يصل العالم الإسلامي والعالم الغربي إلى درجة الاحتكاك التي أصبحنا عليها اليوم، وكان الاحتكاك يتضمن صراعًا ظاهرًا وخافيًا، وتحت وطأة ثقافة الفكر الغربي، ترتجف أرواح كثير من المسلمين والمسلمات، لقد سقطوا تحت وطأة مفهوم متناقض مع مفاهيمهم، يتضمن أنه لكي يحققوا مستوى أفضل من العيش، لابد أن يحسنوا مستوى إدراكهم، فسقطوا في وثنية التقدم التي سقط فيها الغرب حين قلص دور الدين إلى نغمة خافتة مصاحبة؛ وبذلك تقزموا ولم ينموا فكل محاكاة معادية للإبداع، لابد أن تجعل البشر أقزامًا.

لا أرفض أن يتعلم المسلمون من الغرب، خصوصًا العلوم والتقنية، فاكتساب العلم ليس تقليدًا ولا محاكاة، والعلم ليس شرقيًا ولا غربيًا، جميع المكتشفات العلمية ليست إلا حلقات في سلسلة لا تنتهي من المساعي العقلية للجنس البشري كله.. كل عالم يكمل ما أنجزه الآخرون، إن كانوا من أمته أو من أمم أخرى؛ عملية متواصلة من البناء من عصر إلى آخر، ومن حضارة إلى أخرى، حتى إنه لا يجوز أن ننسب منجزات علمية معينة ملكا مقصورًا على عصر بعينه دون آخر يليه.

في كل عصر، توجد أمة أنشط من غيرها من الأمم، تضيف إلى الموجود من المعارف؛ ولكن على المدى البعيد يصبح ما أضافته علمًا مشتركا ومشروعًا لجميع البشر، ويحق لهم أن يزيدوا عليه، ففي عصر مضى كانت الأمة الإسلامية أكثر نشاطا وحيوية من غيرها من الأمم، ونقلت إلى أوروبا كثيرًا من المخترعات التي كانت رائدة في حينها، بل نقلت إلى أوروبا ما هو أهم كثيرًا من المخترعات وهو «المنهج العلمي» الذي بنت عليه أوروبا علمها وحضارتها.

لم تجعل مكتشفات «جابر بن حيان» وأبحاثه في الكيمياء «كيمياء عربية»؛ ولا يمكن وصف الجبر والهندسة بأنهما علوم «إسلامية» مع أن الجبر ظهر إلى الوجود على يد «الخوارزمي» وظهرت الهندسة على يد «البتاني» وكلاهما كان مسلمًا، تمامًا كما لا يمكن لأحد أن يتحدث عن نظرية الجاذبية الأرضية «الإنجليزية»، مع أن من اكتشفها وصاغها كان رجلا إنجليزيًا، جميع المنجزات والمعارف ملكية عامة للجنس البشري، لذلك إذا تبنى المسلمون، كما يجب أن يفعلوا، المناهج المعاصرة الحديثة في العلوم والتقنية، فلن يكونوا إلا كمن يتبع غريزة التطور التي تتيح للبشر الاستفادة من إنجازات الجنس البشري، ولكن إذا تبنوا - ولا يجب أن يفعلوا - أشكال الحياة الغربية وأنماطها وسلوكيات أهل الغرب وعاداتهم ومفاهيمهم الاجتماعية فسيكونون خاسرين؛ لأن ما سيأخذونه عن الغرب في تلك النواحي ليس أفضل مما وهبته لهم ثقافتهم، وما توجههم إليه عقيدتهم الإسلامية.

لو احتفظ المسلمون برباطة جأشهم، وقبلوا بالتقدم وسائل لا غايات، لما استعادوا فقط حريتهم الداخلية، بل ربما ينقلون إلى المواطن الغربي السر المفقود لحلاوة الحياة.

صفر ١٤٣٥هـ
ديسمبر ٢٠١٣م

الفنون الجميلة ومقاصد الشريعة



أ. د. إبراهيم البيومي غانم
أستاذ بالمركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية

ما نجده من شروح في المصادر القديمة لمقاصد الشريعة، يدور في أغلبه حول الحفظ من جهة الصيانة لا من جهة التحصيل، وبأسلوب الزجر والعقاب، لا بأسلوب الترغيب والثواب، ونادرًا ما نجد شرحًا لتلك المقاصد من جهتي التحصيل والصيانة. ويدلنا على ذلك أن الأمثلة الشارحة لكيفية «حفظ» العقل، أو النسل، أو حفظ المال مثلًا، لا تكاد تتجاوز: جلد شارب الخمر، وجلد الزاني والزانية إن كانا غير محصنين، وقتلهما رجمًا إن كانا محصنين، وقطع يد السارق، أو تعزيره بحسب الشروط والضوابط التي بينها الفقهاء. ولا تكاد نجد شرحًا لأي من تلك المقاصد جهة التحصيل: أي بناء القدرة العقلية بالتربية والتعليم والتثقيف وضمان الحق في ذلك كله لكل إنسان كي تتوافر فرص متساوية لبناء العقل على نحو يكون معه قادرًا على التفكر والابتكار، وعلى حرية الرأي وحرية التعبير، وكذلك بالنسبة لصون النفس صيانة تكون معها في طمأنينة وسلام وراحة بال؛ بحيث تنعكس آثارها الإيجابية على من حولها. وإذا فتحنا باب النظر إلى مقاصد الشريعة من جهة كيفيات تحصيلها ابتداء؛ فسوف نكتشف أن نظرية المقاصد بالغة الثراء والاتساع، وسوف يتبين لنا أن «الفنون الجميلة» داخلة بالضرورة في خدمة المقاصد العامة للشريعة؛ فبصر الإنسان إذا كان لا يقع غالبًا إلا على مشاهد جميلة، وسمعه إذا كان لا يستمع إلا الطيب من القول؛ فإنه سيتمتع على الأرجح بصحة عقلية ونفسية تجعله أكثر إيجابية وأكثر إقبالًا على الحياة ومحبة لغيره. أما إذا حدث العكس، ووقع بصره غالبًا على مشاهد قبيحة المنظر، واستقبل سمعه ما يسترذل من القول؛ فإنه سيعاني ـ غالبًا ـ من اعتلال في صحته العقلية، واختلال في صحته النفسية.

وسؤالنا هنا هو: هل يمكن تحقيق المقاصد العامة للشريعة دون توظيف «الفنون الجميلة» في خدمة هذه المقاصد؟ وهل يمكن فهم ثراء الحضارة الإسلامية وازدهارها الذي ترافق مع إبداعات الفنون الجميلة بعيدًا عن نظرية المقاصد العامة للشريعة؟. الإجابة التي اقترحها في هذا البحث على هذين السؤالين هي: لا.. وأزيد على هذا فأقول أيضًا: إن بعض النظم الشرعية الإسلامية قد أسهمت بشكل مباشر، أو غير مباشر في إبداع كثير من أشكال الفنون الجميلة. أقول ذلك رغم معرفتي بأنه يكتنف علاقة الفنون الجميلة والآثار بالمقاصد العامة للشريعة غموض وشك ونفور في الوعي الإسلامي المعاصر بصفة عامة، وفي وعي جيل الشباب بصفة خاصة. وفي الوقت الذي يجد فيه هذا الجيل فرصة كبيرة للانفتاح على مختلف ألوان الفنون والآداب العالمية والمحلية عبر الوسائط المتطورة لنقل المعلومات، يجد نفسه أيضًا لا يمتلك رؤية واضحة لوظيفة هذه الفنون ولا لأهميتها في الحياة، ولا كيفية التفريق بين النافع منها والضار؛ ناهيك عن علاقتها بقيم المرجعية الإسلامية ومقاصدها العامة.

وقد يكون من الأسباب الرئيسية التي تفسر سمات الغموض والشك والنفور من الفنون؛ أن أكثر ما تبثه مؤسسات التربية والتنشئة الفكرية والثقافية في أغلب مجتمعاتنا الإسلامية عن علاقة الفنون بمقاصد الشريعة يستند في أحسن الأحوال إلى رؤى تقليدية منقطعة الصلة بالواقع من جهة، أو يختزل تلك العلاقة في عدد محدود من النماذج والأمثال الشارحة مقطوعة الصلة بالواقع المعاصر من جهة أخرى. والأكثر من ذلك هو التجاهل والإغفال لهذه العلاقة من أساسها؛ وهو ما يغذي الشك تجاه مختلف الفنون والآداب لدى السواد الأعظم من المواطنين، ويصل الأمر إلى حد النفور منها ورفضها باسم التدين أو الالتزام، أو باسم المحافظة على الأصول والتقاليد لدى أبناء التيارات الإسلامية خاصة أولئك الذين يشاركون في المجال العام ويتطلعون إلى النهوض بمجتمعاتهم.

ولسنا معنيين في هذه الدراسة بالإجابة على السؤال الذي يقول: هل الفنون الجميلة وما يلحق بها من «آثار» أو «أوابد»، أو «قمم سياحية وتاريخية»: حلال، أم حرام، مندوبة أم مكروهة أم مباحة؟. ذلك لأننا نعتقد أن مثل هذا السؤال قد جرى تجاوزه ولم يعد الجدل حوله ذا شأن. ونعتقد أن هناك أدلة قوية وتحظى بقبول واسع، وهي تؤكد على أن القاعدة العامة هي: أن كل الفنون مباحة ما لم تمس وحدانية الله تعالى، أو تتعدى على أنبيائه ورسله، أو تمجد الوثنية ومعتقداتها.

إن كون الإسلام منهجًا شاملًا للحياة يعني ـ بالضرورة ـ أن الفنون والآداب بمختلف أشكالها هي جزء أصيل من هذا «المنهج»؛ ليس هذا فحسب، وإنما تحتاج كل الفنون إلى رؤية واضحة تضعها في مكانها الصحيح من هذا المنهج الشامل، وتجعلها في خدمته. ولا مجادلة في ذلك؛ وخاصة إذا علمنا أن ميدان عمل الفنون الجميلة وحواشيها هو بناء «الوجدان»، وترقية «الذوق»، ومن ثم السمو بالعواطف والمشاعر، وتغذية «الروح» بما يسهم في تحقيق السكينة والطمأنينة الفردية والجماعية. وميدان الوجدان هو ذاته الميدان الأول لعمل رسالة الإسلام في النفس الإنسانية المهيأة بحكم الفطرة للاختيار بين الخير والشر، وبين النافع والضار، وبين الهداية والغواية، بل بين الإيمان والكفر.

السؤال الذي شغلني فانشغلت به هو: ما علاقة الفنون الجميلة بنظرية المقاصد العامة للشريعة الإسلامية من جانب؟. وكيف تجلت هذه العلاقة في تراث الحضارة الإسلامية ونظمها المعمارية وثروتها الأثرية من جانب آخر؟. إن نقطة البدء في الإجابة عن هذا السؤال بجانبيه هي: أن التوجيهات القرآنية والنبوية بشأن الجماليات والفنون المختلفة قد شجعت على ظهور ألوان كثيرة من الإبداعات الفنية والجمالية؛ حتى إن بعض المهندسين

الفنون الجميلة ومقاصد الشريعة

المعماريين حاولوا محاكاة الأوصاف الجمالية القرآنية للجنة؛ وقصر الحمراء بغرناطة من أشهر الأمثلة على هذه المحاولة!. وتجلت تلك الإبداعات أيضًا في النظم المعمارية، وفي كيفيات تخطيط المدن والحواضر؛ إضافة إلى أن بعض النظم الشرعية، مثل نظام الوقف، قد اقتضى تطبيقه إبداع كثير من ألوان الفنون الجميلة، ومن ثم أسهم في تكوين ثروة أثرية عملت في خدمة المقاصد العامة للشريعة بطرق مباشرة وغير مباشرة.

أولاً: لمحة عن الفنون الإسلامية ومقاصدها

ترجع النشأة الأولى للفنون الإسلامية إلى العام الأول للهجرة النبوية من مكة إلى المدينة؛ حيث ظهر نموذجها الأول في تخطيط مسجد قباء؛ وهو أول مسجد بناه الرسول ﷺ. وكان نزوله ﷺ أرض قباء في ربيع الأول من السنة الأولى للهجرة، الموافق سبتمبر من سنة ٦٢٢م. ورغم ندرة المعلومات التي وصلتنا عن تفاصيل تصميم ذلك المسجد ومكوناته المعمارية؛ إلا أن المتوافر من تلك المعلومات يؤكد في أغلبه على أن البساطة والانسجام بين عناصر المسجد المعمارية والوظيفية هي أوضح المعالم الجمالية الأولى التي تجلت في مسجد قباء، ومنه انتقلت تلك العناصر إلى بقية المساجد. ولم يمض وقت طويل حتى «اتخذ الفن الإسلامي المعماري الجديد أهم أشكاله المميزة خلال العقدين الأخيرين من القرن الأول الهجري، وهما العقدان الأولان من القرن الثامن الميلادي، وأشهر الأمثلة على ذلك هو الجامع الأموي في دمشق»(١). ودخل «المسجد» في صلب التخطيط العمراني للمدن والأمصار؛ وأصبح لا يمكن تصور مدينة إسلامية إلا بوجود المسجد الجامع في وسطها. ثم تكاثرت الفنون المرتبطة بتصميم المساجد وتشييدها، وتطورت بمرور الزمن مع انتشار الإسلام ودخول أمم ذات حضارات عريقة فيه، ومنها حضارات: الصين، والهند، وفارس، وروما، واليونان (٢).

ودون الدخول في تفاصيل تاريخ الفنون التي عرفتها الحضارة الإسلامية في تاريخها الطويل؛ فإن مقتنيات المتاحف والمعارض المتخصصة في الفنون الإسلامية وآثارها شرقًا وغربًا، وشمالاً وجنوبًا(٣). وأحدثها هو متحف «السلام عليك أيها النبي»(٤)؛ تدلنا على أن الفنون الجميلة بمختلف أنواعها نالت حظًا وافرًا من العناية والاهتمام، وأنها أيضًا قد انفتحت على مختلف الخبرات الحضارية وهذبتها واستوعبتها وأضافت إليها وصبغتها

(١) انظر: جوزيف شاخت، وكليفورد بوزورث: تراث الإسلام ـ الجزء الأول. ترجمة محمد زهير السمهوري وآخرين ،الكويت: عالم المعرفة. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكتاب رقم ١١ ـ، ص٢٩٢.

(٢) لمعرفة مزيد من التفاصيل عن الخلفيات التاريخية لنشأة الفنون الإسلامية وتطورها وتأثرها بفنون الحضارات الأخرى انظر: عمر رضا كحالة: الفنون الجميلة في العصور الإسلامية ،دمشق: المطبعة التعاونية، ١٩٧٢م، ص٥ ـ ص٢١.

(٣) لمزيد من المعلومات عن أهم تلك المعارض الفنية الإسلامية التي أقيمت تباعًا منذ أواخر القرن التاسع عشر انظر: جوزيف شاخت. مرجع سابق، ص٣٢٢.

(٤) تم افتتاح «متحف السلام عليك أيها النبي» في مكة المكرمة مع مطلع العام الهجري الجديد ١٤٣٤هـ ـ يناير ٢٠١٣م. والمتحف يحتوي على ١٥٠٠ قطعة من الآثار وأعمال الفنون الجميلة القديمة التي كانت على عهد النبي ﷺ أو في محاكاة لها وهو توثيق لعصر النبي وصحابته الكرام. وقد لقي المتحف إقبالاً كبيرًا وترحيبًا واسعًا من جمهور المسلمين الأمر الذي يؤكد أهمية الفنون الجميلة في مخاطبة الوجدان وترقية المشاعر. وغرس القيم النبيلة في نفوس الناس.

بطابعها الإسلامي الخاص. كما تدلنا تلك الآثار على أن «وجود الله» هو الأساس العقيدي الذي صبغ كل أعمال الفن الإسلامي، وكما يقول روجيه جارودي «إن كل غرض حتى ذلك الأكثر استعمالاً؛ سواء كان سيفًا أو إبريقًا، أو طبقًا من نحاس، أو سرج حصان، أو منبرًا، أو محرابًا في مسجد؛ هو محفور ومرصع أو مطروق ليشهد أنه علامة على وجود الله»(٥).

ورغم كثرة البحوث في قضايا الفنون الإسلامية ومشكلاتها النظرية والعملية؛ إلا أن السؤال عن علاقة هذه الفنون بالمقاصد العامة للشريعة، لم يحظ بما يستحقه من الدرس والتأصيل. ولا تزال أغلب البحوث في الفنون الإسلامية معنية بالجوانب التاريخية، أو الفقهية «الحلال والحرام»، أو المعمارية والهندسية، أو بعلاقات التأثير والتأثر بين الفنون الإسلامية وغيرها من فنون الحضارات الأخرى. أو هي معنية بمسائل وموضوعات مفردة مثل: فن الرسم، أو فن التصوير، أو فن التمثيل، أو فن الشعر، أو فن الموسيقى، أو فن الغناء، أو فن الزخرفة والزركشة؛ دون محاولة اكتشاف علاقة كل هذه الفنون بالمقاصد العامة للشريعة.

قديمًا؛ تناول علماء المسلمين الفنون الجميلة ومسائلها بقدر كبير من التوسع مع التعمق الفلسفي. فالمعتزلة مثلاً ربطوا الأخلاق والجمال بالعقل وبالشرع معًا؛ وذهبوا إلى أن ما حسن في نظر العقل يكون حسنًا في نظر الشرع.


جارودي

وابن سينا (٣٧٠-٤٢٨هـ/ ٩٨٠-١٠٣٧م) رأى أن «جمال الشيء، وبهاءه هو أن يكون على ما يجب له»(٦). وابن طفيل كتب رسالة في «فن الموسيقى» استعاد فيها النظرية الكلاسيكية حول التوافق بين أجناس الألحان والأمزجة البشرية؛ وأكد على الامتدادات التربوية والتطبيقية لهذا التوافق؛ بما في ذلك التطبيقات الطبية عنده(٧). أما الإمام أبو حامد الغزالي فقد قسم الجمال إلى «جمال الصورة الظاهرة المدركة بعين الرأس، وجمال الصورة الباطنة المدركة بعين القلب ونور البصيرة»(٨). وشرح الغزالي كيف أن الموسيقى أو فن «السماع» يثمر حالة في القلب تسمى الوجد، وأن الوجد يؤدي إلى تحريك الأطراف بحركات غير موزونة تسمى اضطراب، أو بحركات موزونة تسمى التصفيق والرقص. وأكد على أن كل سماع يتم عن طريق قوة إدراك. وأن قوى الإدراك الحسية هي الحواس الخمس... وأما القوى الباطنة فمنها قوة العقل وقوة القلب، وكل قوة من هذه القوى تلتذ بموضوعها إذا استحق هذا الموضوع هذا الشعور باللذة(٩). ويرجع الإمام الغزالي كل ألوان الجمال والخير إلى الله تعالى المتصف بصفات

(٥) روجيه جارودي: وعود الإسلام ،القاهرة: مكتبة غريب، ١٩٧٦، ن ص١٩٠.

(٦) ابن سينا: كتاب النجاة ،القاهرة: معهد المخطوطات العربية، ١٩٣٨، ص٧٩.

(٧) دومينيك أورفوا: تاريخ الفكر العربي الإسلامي. ترجمة رندة بعث. مراجعة سهيل سليمان ،بيروت: المكتبة الشرقية، ٢٠١٠م، ص٥٤٠.

(٨) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين ،بيروت: دار المعرفة للنشر، ب. ت، ج/٢/ص٣١٦.

(٩) انظر: أبو حامد الغزالي، مرجع سابق، ج/٢/ص٣٠٥.

الجمال والجلال فيقول: «لا خير ولا جمال ولا محبوب في العالم إلا وهو حسنة من حسنات الله، وأثر من آثار كرمه، وغرفة من بحر جوده؛ سواء أدرك هذا الجمال بالعقول، أو بالحواس، وجماله تعالى لا يتصور له ثان، ولا في الإمكان ولا في الموجود»(١٠). وتستشف من مثل تلك الرؤى العقيدية والفلسفية للفنون والجماليات الكونية والنفسية أن فلاسفة المسلمين قد أدركوا عمق علاقة الفنون بمقاصد الشريعة؛ وخاصة بمقاصد حفظ الدين، وحفظ العقل، وحفظ النفس. ومقتضى كلامهم أن التأمل في الجماليات مؤد حتمًا إلى الإقرار بوحدانية الله تعالى، وإلى الاتزان العقلي، والهدوء النفسي، على مستوى الأفراد والجماعات. ومن ثم يسهم الاهتمام بتلك الجماليات وفنونها في تقوية ما نسميه «الصحة العامة»، و«السلم الأهلي» وفق مصطلحاتنا المعاصرة.

أما حديثًا، فبحوث العلماء في موضوع الفنون الجميلة وعلاقتها بمقاصد الشريعة قليلة، بل هي نادرة جدًا كما أسلفنا، ومنها مثلًا: كتاب الدكتور محمد عمارة «الإسلام والفنون الجميلة»، وفصل من كتاب الرئيس علي عزت بيجوفتش: «الإسلام بين الشرق والغرب».

الدكتور عمارة بين في كتابه أن الفنون يجب أن تكون جميلة في ذاتها، وجميلة في تأثيراتها ووظائفها ومقاصدها وأن «فنون الدعة والبطالة والتواكل والاسترخاء والسطحية والتفاهة، غير فنون الحمية والعمل والعزم والانتماء والنهوض»(١١).


بيجوفيتش

الأولى فنون جميلة بناءة، والثانية فنون ولكنها ليست جميلة وهدامة، وهو يرى أن «الفن الجميل.. مهارة يحكمها الذوق الجميل والمواهب الرشيدة.. لإثارة المشاعر والعواطف».

وذهب الدكتور عمارة أيضًا إلى أن خروج المهارات والفنون عن المقاصد الرشيدة يجردها من شرف الاتصاف بالجمال، واستشهد على ذلك بقول ابن سينا الذي أورده قبل قليل وهو أن «جمال كل شيء وبهاؤه هو أن يكون على ما يجب له». وينتهي الدكتور عمارة إلى أن الفن المتسق مع الإسلام هو الذي يحقق مقاصده في أمته، وفي الإنسانية، عندما تشيع فيه الصبغة التي صبغت بها عقيدته وميزت بها أيديولوجيته إبداع الإنسان الفنان، إنها خيوط غير مرئية تلك التي تربط الوضع الإلهي بالإبداع الإنساني الجميل»(١٢).

أما الرئيس بيجوفتش، فقد رسم. في الفصل الثالث من كتابه. معالم نظرية إسلامية في الفنون من منظور إسلامي وبرؤية فلسفية عميقة. وكشف لنا ببراعة عن عمق الصلة بين الدين والفن والأخلاق عندما قال إن «الدين يؤكد على الخلود والمطلق، وتؤكد الأخلاق على الخير والحرية، ويؤكد الفن على الإنسان والخلق.. وفي جذور الدين والفن هناك وحدة مبدئية»(١٣). وذهب بيجوفتش إلى أن وجود عالم آخر ونظام آخر إلى جانب عالم الطبيعة هو المصدر الأساسي لكل دين وفن، فإذا لم يكن هناك سوى عالم واحد لكان الفن مستحيلًا. وهو يعتبر العمل الفني من حيث هو إبداع «ثمرة للروح». وبينما يكون المطلوب في العلم أن يكون دقيقًا، فإن المطلوب في الفن هو أن يكون صادقًا، لأنه يعكس النظام الكوني دون أن يستقسر عنه(١٤).

إذا نظرنا إلى المدارس الغربية الحديثة في مجال الفنون الجميلة من حيث فلسفتها ووظائفها وأنماطها المختلفة، فسوف نجدها بالغة الثراء، وسنجد أن فيها ما لا يجافي الرؤية الإسلامية ويتفق معها حينًا، كما أن فيها ما يجافيها ويتناقض معها أحيانًا. ولا يصح أن نتجاهل «جماليات» الرؤية الغربية بحجة أن لها قبائح، مثلما لا يصح أن نتهاون بشأن قبائحها بحجة أن لها جماليات.

هناك من علماء الغرب وفلاسفته المعاصرين من ذهب إلى أن الشيء الجميل هو ناتج الممارسة الاجتماعية التاريخية. ويعتبر هيجل من أشهر القائلين بذلك. وهناك من لاحظ. بحق أن ظاهرة الانسجام وهي أساس الشعور بالجمال والسلام، وكذلك «عدم الانسجام» الذي هو أساس الشعور بالقبح والعنف، ترجعان إلى تاريخ طويل في حياة الإنسان. ومنهم من ركز على علاقة الفن بالحياة، وبالدين، وبالعلم، وخلصوا إلى أن الفن أداة ربط اجتماعي، ووسيلة تطهير للنفس الإنسانية، وضمانة للتماسك والتجانس بين أبناء المجتمع الواحد. وهناك علماء وفلاسفة آخرون ربطوا بين الجمال والأخلاق ونبهوا إلى الدور التربوي لكليهما، بل وأقاموا علاقة وثيقة بين «الخير. والحق. والجمال»(١٥)، ومن هؤلاء مثلا الأديب الروسي بلنسكي (١٨١١-١٨٤٨م) الذي قال: «إن الجمال شقيق الأخلاق. والصور الفنية الإيجابية التي تعكس حياة الناس ونبلها وجمالها تفرض الاحترام والحب والإعجاب المخلص. وتعطي أنماط الأبطال الحقيقيين في الحياة للقارئ والمتفرج متعة وبهجة جماليتين. أما الصور السلبية فهي تثير مشاعر الاستنكار الأخلاقي، والاحتقار التي ترتبط ارتباطًا وثيقًا في طابعها بمشاعر الازدراء والاحتقار التي نحسها عندما ندرك ما هو قبيح ودنيء، ومن ثم فإن وحدة الجمالي والأخلاقي هي أساس الدور التربوي ودور التحويل الأيديولوجي اللذين تقوم بهما الفنون في الحياة الاجتماعية»(١٦).

للفنون. إذن. مهمات لا غنى عنها في كل حضارة من الحضارات، وإن اختلفت مرجعياتها الفلسفية أو تباينت غاياتها النهائية. وتكاد أغلب الرؤى الحضارية والفلسفية تشترك في أن أهم مقاصد الفنون تتمثل في تنمية العاطفة والوجدان، وتنمية مهارات الحواس

١٠- المرجع السابق. ج/٢/ص٣٠٦.
١١- محمد عمارة الإسلام والفنون الجميلة (القاهرة: دار الشروق، ١٤١١هـ - ١٩٩١م)ص٧.
١٢- المرجع السابق. ص١١.

١٣- علي عزت بيجوفتش. الإسلام بين الشرق والغرب. ترجمة محمد يوسف عدس (القاهرة: دار النشر للجامعات، الطبعة الثانية ١٩٩٧م) ص١٤٦.
١٤- المرجع السابق. ص١٣٧ - ١٧٦.
١٥- للإلمام بمجمل آراء طائفة كبيرة من فلاسفة الغرب وعلمائه انظر بصفة خاصة: محمد علي أبوريان. فلسفة الجمال ونشأة الفنون الجميلة (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٣م) ص ٢٥ - ٤٩ وأيضا الفصل الثاني من ص ٦٥ - ٧٩.
١٦- انظر: «الموسوعة الفلسفية». السوفيتية. إشراف ف روزنتال. وب. يودين. ترجمة سمير كرم (بيروت: ١٩٧٤) مادة الجمالي والأخلاقي.

وتدريبها على الإجادة والإتقان، وحفز الإنسان على الإبداع والابتكار وتأكيد الذات، وضبط الانفعالات وترويض النزعات الجامحة ووضعها فى حالة اتزان، وتقدير العمل اليدوى ومهارات الصناعة، وفتح المجال أمام الخيال واستثماره فى خدمة الإنسان والعمران، وكلها مقاصد تندرج تحت الإطار العام لمقاصد الشريعة.

ولكن، رغم نبل تلك المقاصد أو الغايات، إلا أن الفنون لم تسلم من سوء الاستخدام لتأجيج الصراعات الدينية والمذهبية، أو لتحقيق مآرب اقتصادية وسياسية على حساب الغير، حتى إن بعض الحركات ذات «النزعة الإنسانية» العالمية لا تخفى رغبتها فى استبدال الفن بالدين[17] وفى سبيل ذلك تقوم تلك الحركات بتسخير المعارض الفنية والمسلسلات التليفزيونية والأفلام السينمائية، والأعمال المسرحية والغنائية، ومختلف الفنون التشكيلية، من أجل تدمير الدين والاستغناء بالفن عنه. وإذا كانت الفنون الإسلامية تشترك مع غيرها من الفنون فى أغلب تلك الغايات، إلا أنها تظل مرتبطة بتصور الوجود حسب رؤية الإسلام للكون والحياة والإنسان والخالق سبحانه وتعالى. ووفق هذا التصور فإن الفنون الإسلامية ترسم صورة الوجود من زاوية التصور الإسلامى لهذا الوجود. ولهذا اتسع نطاق عمل الفنون الجميلة فى حضارتنا الإسلامية، ولدينا سوابق بارعة الجمال في: النقش والنحت، والرسم والزخرفة، والتصوير والحفر، والموسيقى والشعر، والغناء، والخط، والمنمنمات، وأيضًا فى أصول تنظيم المدن والأمصار وتخطيطها، وهندسة البناء،... إلخ.

فى كتب أصول البنيان والخطط العمرانية للأمصار والمدن الإسلامية[18] نجد تشديدًا على ضرورة توافر الجوانب الجمالية، وتأكيدًا على وجوب مراعاة معايير الجودة فى التخطيط وهندسة البناء، ونجد اهتمامًا خاصًا بما نسميه جماليات «المجال العام» من السقايات، والفوارات، والمفترجات، والميادين الرحبة، والأشجار الوارقة، والاستراحات العامة.. إلخ. ولم يهتم المعماريون المسلمون وحدهم بتلك الجوانب الجمالية، وإنما اهتم بها أيضًا كتاب الحكمة السياسية والأحكام السلطانية فى معرض حديثهم عن إنشاء الأمصار. ومن ذلك الشروط التى ذكرها الماوردى فى كتابه «تسهيل النظر» ومنها: سعة المياه المستعذبة، وإمكان الميرة المستمدة، واعتدال المكان الموافق لصحة الهوى والتربة، وقرب المكان مما تدعو إليه الحاجة من المراعي والأحطاب، وتحصين المنازل من الأعداء[19]. ولا بد أن مراعاة تلك الشروط فى تأسيس المدن

١٧. أحمد مصطفى القضاة، الشريعة الإسلامية والفنون (بيروت: دار الجيل، عمان: دار عمار، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م) ص٣٥

١٨. منهـا مثلا كتاب أبوعبدالله محمد بن إبراهيم اللخمى بن الرامي البناء، الإعلان بأحكام البنيان، تحقيق فريد بن سليمان (تونس: دار النشر الجامعي، ١٩٩٩) وكتاب: زكى محمد حسن، أطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الإسلامية (القاهرة: مطبعة مصر ١٩٣٧) وكتاب محمد عبدالستار عثمان، المدينة الإسلامية (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، أغسطس ١٩٨٨) وانظر قائمة ببلوجرافية بعناوين مراجع في الفنون الإسلامية ملحقة بهذا البحث.

١٩. أبوالحسن على بن حبيب الماوردى (ت ٤٥٠ هـ) تسهيل النظر وتعجيل الظفر فى أخلاق الملك وسياسة الملك، تحقيق ودراسة رضوان السيد (بيروت: مركز ابن الأزرق لدراسات التراث السياسي، ١٤٣٢ هـ - ٢٠١٢م).

استلزم تطبيق معايير جمالية متنوعة، وكان من شأن ذلك أن يوفر ضمانات لا غنى عنها لسلامة الصحة النفسية والاتزان العقلى لسكان المدينة، فالمشاهد الجميلة، والألوان المتناسقة، والمساحات الخضراء والزهور المبهجة، والموقع الملائم للهواء النقي، كلها تؤثر إيجابيًا على المزاج النفسي العام، بخلاف مشاهد التلوث والقبح والفوضى والعشوائية التى تضر بالصحة النفسية وتشجع على العنف وارتكاب الجرائم، ومن ثم إلحاق الأذى بالنفس، والمال، والنسل، والعقل، والدين فى آن واحد، أى إهدار المقاصد العامة للشريعة.

وبالنظر فى أحوال مجتمعاتنا الإسلامية المعاصرة، نجد أن ما يقدمه مبدعو الفنون الجميلة يتسم بالهزال والركاكة، ولا ينطوى على ابتكارات جديدة، وتغلب عليه ملامح التبعية لمدارس الفنون الغربية، وقد أسهمت بعض الرؤى السلفية المتشددة فى تكريس هذه الحالة الفنية المتردية، مثلما أسهمت بعض الرؤى المتغربة فى ذلك أيضًا، وكانت النتيجة هى ما نراه من تشوه في الوعي، وتمزق فى الوجدان، واختلال فى عمليات التنشئة على المستويات الفردية والجماعية، ومن ثم تكونت أجيال مجروحة الهوية فى مختلف مجتمعاتنا المعاصرة، وكان للمدارس الأجنبية التى نشأت في بلادنا الإسلامية دور خطير فى تشويه وجدان أجيال عدة من أبناء المجتمعات الإسلامية وخاصة من أبناء الطبقات العليا وأصحاب السلطات والثروة. وقد كان إنشاء ثلاثة آلاف مدرسة أجنبية فى أرجاء الدولة العثمانية خلال القرن التاسع عشر وحتى إلغاء الخلافة فى سنة ١٩٢٤م، كفيل بتكوين نخبة منفصلة عن هويتها ومعادية لأمتها نتيجة ما تلقته من مقررات تربوية وفنية وتعليمية تنتمى لتراث فلسفي وحضارى له مقاصد وغايات لا تنسجم بالضرورة مع غايات المجتمعات الإسلامية ولا مع مقاصدها العامة.

إن أهم ما يكشف عنه التاريخ الحديث والمعاصر للفنون فى مجتمعاتنا الإسلامية هو أنها أصبحت فى خدمة عمليات إعادة تشكيل الوجدان الفردى والجماعى بعيدًا عن المرجعية الإسلامية ومقاصدها العامة، بل وعلى نحو معاد لهذه المرجعية، ونعتقد أن «الفنون الحديثة» فى بلادنا بجملتها قد أسهمت فى تعميق حالة الانقسام الثقافى بين اتجاهات متعارضة، بعضها يتمسك بهويته الموروثة، وبعضها ينفتح على هويات وثقافات أخرى وافدة. وكان من نتائج ذلك أن مجتمعاتنا عاشت ولا تزال تعيش ضمن سيناريوهات سياسية وثقافية واجتماعية واقتصادية ليست فاعلة فيها ولا منتمية وجدانيًا إليها، بل كانت فى أغلب الأحوال مادة استعمالية لتلك السيناريوهات. وبمرور الوقت زادت التحديات التى تواجه مبدعى الفنون الجميلة الإسلامية، وزاد انفصالهم عن استلهام مقاصد الشريعة، وزاد ابتعادهم عن خدمة هذه المقاصد. وبات من يتصدى للإبداع الفنى والجمالى بمرجعية إسلامية بحاجة ماسة إلى تأهيل رفيع المستوى، وحرفية بارعة، ورؤية فلسفية واسعة الأفق تستجيب لمقاصد الشريعة وتكون فى خدمتها، على النحو الذى كان عليه أسلافه من مبدعى الفنون الجميلة فى عصور الازدهار الحضارى الإسلامى.

(يتبع)

أبعاد جديدة لمقاصد الشريعة

مقدمات فى مقاصد الشريعة


أ. د. عبدالمجيد النجار

تحتل مقاصد الشريعة منزلة هامة فى الفكر الشرعي؛ ولذلك فقد أصبحت علما أساسيا من العلوم الفقهية، ألفت فيها المؤلفات، وفصلت فيها الأقوال، وتوسعت فيها الآراء، وأصبح الدارس للعلوم الفقهية، والطامح فيها إلى مراتب الفهم السديد، والنظر البعيد، بله مراتب التفقه والاجتهاد لا مناص له من أن يدرس علم المقاصد ويتفقه فيه، ومما يساعد على هذا الدرس أن يبدأ الدارس لهذا العلم بمقدمات عامة فيه، من شأنها أن تعين على ولوجه، وأن تكسبه القدرة على تحصيل كلياته وفهم دقائقه وجزئياته.

ولعل من المقدمات المساعدة على ذلك أن يتبين الدارس لهذا العلم المفهوم المبتغى من مصطلح مقاصد الشريعة، فهو وإن كان مصطلحا أصبح كثير التداول إلا أنه يحتاج إلى الضبط والتدقيق، وذلك لتتوارد الأذهان عند الدرس على معنى موحد، ومما يتأكد معه ذلك ما داخل مفهوم هذا المصطلح منذ بعض الزمن من اضطراب جراء ما أقحم فيه من مفاهيم وهمية وأخرى ضعيفة ضعفا يقترب بها من الوهم، وذلك من قبل بعض المنتسبين إلى الإسلام من الذين يحملون نزعات علمانية، ويزعمون أن لهم قراءة جديدة للنص الديني مبنية على مفاهيم جديدة للمقاصد الدينية، فهذا مما يستلزم تحديد هذا المصطلح وضبطه.

ومنها العلم بأهمية المقاصد فى النظر الفقهى بصفة عامة، وأهمية دورها فى الاجتهاد بصفة خاصة، سواء من حيث ما يقتضيه الدين ذاته من ذلك بحسب توجيهاته المباشرة وغير المباشرة، أو من حيث ما بذله المجتهدون والنظار المسلمون من جهد فى بيانه أساسا من أسس الاجتهاد الفقهي، وما بذلوه من جهد فى تحريره أصولا وقواعد حتى انتهي به إلى أن يصبح علما مستقلاً من العلوم الفقهية.

ومنها أيضا العلم بالمسالك التى منها تعرف مقاصد الشريعة، سواء فى أصولها العامة، أو فى تفاصيلها وجزئياتها، فإذا لم تكن مقاصد الشريعة منصوصا عليها على وجه القطع والتفصيل فإن الحاجة تدعو إلى أن يعلم الدارس لعلم المقاصد كمقدمة من مقدمات الدرس المسالك العامة التى تعرف بالمقاصد، ليكون على بينة وهو يلج إلى تفاصيلها طرق الدخول إليها، فأبواب الدخول فى البيوت مقدمة لمعرفة محتوياتها من الغرف وما فيها؛ ولذلك فقد جعل شيخ المقاصديين فى العصر الحديث الإمام ابن عاشور إحدى مقدمات كتابه بحثا فى «طرق إثبات المقاصد الشرعية»(١).

وإذا كان شيخ المقاصديين القدامى الإمام الشاطبي قد أورد هذه الطرق فى خاتمة كتابه»(٢)، فقد أشار إلى أن ذلك ليس إلا تلخيصا لما كان مبثوثا فى كتابه من بيان لهذه الطرق من بدايته.

١ ـ الشريعة ومقاصد الشريعة

لقد استقر فى الثقافة الإسلامية مصطلح الشريعة على أن المقصود به هو: الأوامر والنواهى الإلهية المتعلقة بالسلوك العملى من حياة الإنسان، وذلك فى مقابل العقيدة التى هى الأوامر والنواهي المتعلقة بالإيمان تصديقا قلبيا بحقائق الغيب كما جاء بها الدين وما يتفرع عنها من الحقائق، وبناء على ذلك فإن مصطلح مقاصد الشريعة ظل يتجه فى بادئ الرأى إلى مقاصد الأحكام المتعلقة بالسلوك، دون تلك المتعلقة بالإيمان باعتبار أنها عقيدة وليست شريعة، وقد درجت كثير من الدراسات المقاصدية على هذا المفهوم للمقاصد، سواء من حيث التقرير النظرى، أو من حيث ضرب الأمثلة بالأحكام الشرعية العملية.

إلا أنه فى الحقيقة ينبغى أن يكون مصطلح مقاصد الشريعة متجها إلى كل ما هو أمر إلهى أو نهى، فذلك الأمر والنهى المتعلق بالإيمان هو أيضا تشريع إلهى، وهو أيضا وضع من أجل مقاصد يهدف إلى تحقيقها، فأمر الإنسان بأن يؤمن بالله وحده وأن يؤمن برسله، وأن يؤمن بالقدر والبعث لئن كان أمرا بالإيمان بحقيقة موضوعية ثابتة إلا أنه جاء يحقق للإنسان مصلحة فى حياته الدنيا قبل حياته الأخرى، وهو ما يفيده مثل قوله تعالى:

﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾

(الرعد: ٢٨)

إشارة إلى ما يحققه الإيمان بالله من مقصد الاطمئنان فى الحياة النفسية قبل ما يحققه من نعيم فى الحياة الأخروية؛ ولهذا السبب فإنه ينبغى على ما نرى أن يكون مصطلح مقاصد الشريعة شاملا لمقاصد الدين عقيدة وشريعة، وإن كانت هذه المقاصد فى الأحكام الشرعية العملية أبين، والحاجة إلى العلم بها أوكد لدوران الاجتهاد عليها، وأما العقائد فإن مجال الاجتهاد فيها مجال محدود ضيق.

وبناء على هذا المعنى الموسع لمصطلح مقاصد الشريعة، وبناء على ما أسلفنا من أن كل تشريع بصفة عامة إنما يشرع من أجل تحقيق غاية تتعلق بحياة الإنسان الذى من أجله كان التشريع، فإن المقصود بمقاصد الشريعة الإسلامية يمكن أن يتحدد بأنه: هو الغاية التى من أجلها وضعت تلك الشريعة فى كلياتها وجزئياتها متحرية أن تجرى حياة الإنسان المشرع له على ما فيه خيره وصلاحه. وهذا المعنى لمقاصد الشريعة هو الذى ضبطه الشيخ ابن عاشور فى قوله: «مقاصد التشريع العامة هى المعانى والحكم الملحوظة للشارع فى جميع أحوال التشريع أو معظمها»(٣)، وهو أيضا الذى ضبطه الأستاذ علال الفاسى فى قوله: «المراد بمقاصد الشريعة الغاية منها، والأسرار التى

(١) راجع: ابن عاشور ـ مقاصد الشريعة: ١٤١.
(٢) راجع: الشاطبي ـ الموافقات: ٢/٢٩٦.
(٣) ابن عاشور ـ مقاصد الشريعة: ١٩١.

وضعها الشارع عند كل حكم من أحكامها(٤).

وإذا كان مفهوم مقاصد الشريعة في معناه العام هو الغاية التي من أجلها وضعت، أو الحكمة التي تضمنتها أحكامها، فما هي هذه الغاية على وجه التحديد، وما هي هذه الحكمة التي تضمنتها أحكامها؟ إذا كانت الشريعة الإسلامية وضعها الله تعالى ليخاطب بها الإنسان على سبيل التكليف، فإنها ستكون إذن موضوعة لتحقيق الغاية التي من أجلها خلق الله تعالى هذا الإنسان، فالله تعالى قد خلق الإنسان لغاية، وشرع له شريعة تهدف إلى أن يحقق من خلال تحملها تلك الغاية.

وإذا كانت الغاية من خلق الإنسان هي أن يكون خليفة في الأرض خلافة قائمة على العبادة كما تحدد ذلك في قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾

(البقرة: ٣٠)

وفي قوله تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾

(الذاريات: ٥٦)

وإذا كانت هذه الخلافة لا يمكن للإنسان تحقيقها إلا بأن يكون الإنسان الفرد منتظما ضمن هيئة جماعية، أصبح إذن المقصد من الشريعة مرتبطا بتحقيق الإنسان غاية الخلافة في الأرض من خلال بعديه الفردي والجماعي.

وينتج من هذا الارتباط أن يقال إذن إن المقصد الأعلى للشريعة الإسلامية هو تمكين الإنسان من تحقيق ما فيه خيره ومصلحته بتحقيق غاية وجوده وهي الخلافة في الأرض، وذلك بصلاح الذات الفردية والهيئة الاجتماعية بما يفضي إلى سعادته في الدنيا والآخرة، إن الشريعة الإسلامية كلما تأمل المتأمل فيها من حيث مبانيها الكلية، ومن حيث أحكامها الفرعية، وجد أنها تقصد إلى هذا المقصد الأعلى لا تحيد عنه ولا تبتغي سواه مهما تفرعت بها المقاصد التفصيلية الجزئية، وقد ضبط ابن عاشور المقصد الأعلى للشريعة بما هو قريب من المعنى الذي أوردناه إذ قال: «إذا نحن استقرينا موارد الشريعة الإسلامية الدالة على مقاصدها من التشريع استبان لنا من كليات دلائلها ومن جزئياتها المستقرة أن المقصد العام من التشريع فيها هو حفظ نظام الأمة واستدامة صلاحه بصلاح المهيمن عليه، وهو نوع الإنسان، ويشمل صلاحه صلاح عقله وصلاح عمله وصلاح ما بين يديه من موجودات العالم الذي يعيش فيه»(٥).

قد يقال بل قد قيل: إن الشريعة ليس لها من مقصد، إذ هي من فعل الله تعالى، وأفعال الله متعالية على أن تكون لها علل وغايات كما هي أفعال الإنسان، ولذلك فإن أحكام الله ينبغي الوقوف فيها على الأمر والنهي، والالتزام بهما بصفة مطلقة دون البحث عما فيهما من مقصد أو حكمة، فالله تعالى إنما شرع بالأمر والنهي لأن إرادته تعلقت بالأمر والنهي وليس لأية غاية أخرى كما هو شأن الإنسان، فيكون إذن البحث في مقاصد الشريعة بحثا فيما ليس من ورائه طائل، لأنه بحث عن شيء غير موجود.

وقد ذهب إلى هذا الرأي جماعة من العلماء، وهم أولئك الذين ينفون التعليل في أحكام الله تعالى ومن أشهرهم ابن حزم من الظاهرية

(٤) علال الفاسي - مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها ٣.

(٥) ابن عاشور - مقاصد الشريعة ٢٠٩.

والفخر الرازي من الأشاعرة(٦).

وأكثر أهل العلم في هذا الشأن يذهبون إلى إثبات المقاصد الشرعية، ويقولون بأن الله تعالى ما شرع شرائعه إلا لغاية تتعلق بمصلحة الإنسان، وهو ما يؤخذ من نصوص القرآن الكريم بصفة جلية، سواء فيما يتعلق بالتشريع في عمومه كما في قوله تعالى:

﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾

(النساء: ١٦٥)

وفي قوله تعالى:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾

(الأنبياء: ١٠٧)

أو فيما يتعلق بالأحكام الشرعية في تفاصيلها كما في قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾

(العنكبوت: ٤٥)

وفي قوله تعالى:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

(البقرة: ١٨٣)

وهكذا يتبين لنا أن استقراء أدلة كثيرة من القرآن والسنة الصحيحة يوجب لنا اليقين بأن أحكام الشريعة منوطة بحكم وعلل راجعة للصلاح العام للمجتمع والأفراد(٧).

٢ - أهمية العلم بمقاصد الشريعة

إن للعلم بالمقاصد المبتغاة من القوانين والشرائع أهمية كبيرة لمن يهمهم أمرها بالتشريع أو بالتطبيق؛ ذلك لأن العلم بالمقصد من القانون أو الحكم الشرعي يفيد أيما إفادة في فهمه الفهم الصحيح أولا، ثم في تطبيقه التطبيق الرشيد ثانيا، بحيث يكون كل من الفهم والتطبيق مفضيا إلى تحقيق الهدف المقصود الذي ابتغاه المشرع، وحينما يكون المقصد مجهولا أو مختلطا غير محرر فإن الفهم قد يفقد دليله الموجه وكذلك التطبيق، فإذن القانون أو الحكم الشرعي يخطئ أهدافه فلا يتحقق غرض المشرع منه، وهو أمر كثير الوقوع عند المشرعين بالقوانين الوضعية وبالشرائع الدينية على حد سواء.

وإذا كان الأمر كذلك بصفة عامة فإنه يكون أهم وأوكد بالنسبة للشريعة الإسلامية؛ ذلك لأن هذه الشريعة قد وضعت مكتملة، وانقطعت عن مصدرها الذي شرعها، فانقطع بذلك إمكان تغييرها أو تعديلها أو تبديلها، ولم يبق للمتدين بها إلا أن يتحرى مقاصدها ليحسن فهمها وتطبيقها دون أن ينتظر مددا في ذلك من مشرعها، إذ الوحي قد انقطع باكتمالها، فتحري تلك المقاصد بالتحقيق والضبط في كلياتها وجزئياتها سيكون للمسلم أحد أهم المسالك للاجتهاد في الأحكام الشرعية فهما، وفي العمل بها سلوكا، فإذا ما غابت عنه المقاصد منها فإنه قد يشتط به الفهم كما قد يشتط به التطبيق إلى مآل لا تتحقق فيه تلك

(٦) راجع آراء نفاة التعليل لأحكام الشريعة في: محمد سعد اليوبي - مقاصد الشريعة الإسلامية: ٨٠ وما بعدها.

(٧) ابن عاشور - مقاصد الشريعة: ١٣٤. وراجع في القول بإثبات علل الشريعة: الشاطبي - الموافقات ٢/٣ وما بعدها. وابن القيم - شفاء العليل: ٢٨٥ وما بعدها، وقد استدل على ذلك بتفاصيل واسعة. وراجع أيضا: الريسوني - نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي: ١٦٩ وما بعدها.

المقاصد التى من أجلها شرعت، فى حين تكون القوانين الوضعية وكثير من الشرائع التى أصلها سماوى متوقفة على إمكان أن يتدخل مشرعوها ببيان حقائقها ووسائل تطبيقها لتصحيح فهمها وترشيد العمل السلوكى بها، إذ هم على ما يرون يملكون ذلك الحق فى البيان، بل فى التعديل والتغيير والتبديل.

وتظهر أهمية العلم بالمقاصد للمجتهد فى أحكام الشريعة فى كل من مجالى فهم الأحكام وتنزيلها على الواقع، أما فيما يتعلق بالحاجة إلى المقاصد فى الفهم، فإن تحصيل أحكام الشريعة من أدلتها يساعد عليه كثيرا العلم بالمقاصد، وذلك من حيث تكون تلك المقاصد المعلومة مرجحة لحكم على آخر عند النظر فى النصوص الظنية الدلالة. كما تكون جد مفيدة فى استخراج الأحكام بطريق القياس، إذ القياس إنما يعتمد على معرفة العلة كما هو معلوم، وليست العلة إلا مقصدا شرعيا جزئيا كما مر بيانه، فالعلم بها مقصدا يتوقف عليه استنباط الحكم الشرعى بالقياس.

وبالإضافة إلى ذلك فإن العلم بالمقاصد قد يكون أحيانا ميزانا فى تحصيل الأحكام، وذلك بقبول الآثار من السنة أو ردها، وهو ما صنعته عائشة أم المؤمنين حينما أبت قبول خبر ابن عمر بأن الميت يعذب ببكاء أهله قارنة قوله تعالى:

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾

(الأنعام: ١٦٤)

فردها الخبر إنما كان بميزان أن لا يتحمل الإنسان إلا نتيجة ما يعمل مقصدا شرعيا(٨).

وأما فيما يتعلق بالاجتهاد فى تنزيل الأحكام على الواقع، فإن للعلم بالمقاصد دورا كبيرا فيه؛ وذلك لأن أيما حكم شرعى إنما يراد منه عند العمل به أن يحقق مقصده فى الواقع، ولكن قد تعرض عوارض زمنية أو مكانية أو شخصية تجعل المقصد المبتغى من الحكم لا يحصل منه مقصده عند تطبيقه على حالة معينة من الحالات، وحينئذ فالمقصد حينما يكون معلوما، ويكون معلوما أيضا أنه لن يتحقق فى الواقع عند تنزيل الحكم الذى شرع من أجله، فإن المجتهد قد يحكم بعدم التنزيل، ويلجأ إلى التأجيل إلى حين تتوفر الشروط التى تجعل المقصد متحققا عند تطبيق الحكم، وذلك هو صنيع عمر بن الخطاب حينما أجل تطبيق حد السرقة عام المجاعة، فقد كان يعلم المقصد من هذا الحكم، ويعلم أنه لن يتحقق فى الواقع لو نزل حكم حد السرقة فى ظروف المجاعة، فكان علمه ذلك مؤذنا بتأجيل التنزيل(٩).

وليست أهمية العلم بمقاصد الشريعة على نحو ما وصفنا بمقتصرة على المختصين فى العلوم الشرعية ترشيدا لأنظارهم واجتهاداتهم الفقهية كما قد يتبادر إلى بعض الأذهان، بل هذا العلم بالغ الأهمية لكل مسلم مهما كان اختصاصه العلمى، ومهما كان نشاطه فى الحياة العملية؛ وذلك لأن كل مختص فى علم من العلوم، وكل مباشر لعمل من الأعمال ينبغى أن تكون آراؤه فى اختصاصه وتطبيقاته فى أعماله جارية وفق أحكام الشريعة، محققة لمقاصدها، وهو ما يقتضيه مبدأ الشمول الذى اختص به

(٨) راجع فى ذلك: نفس المرجع: ١٣٥ وما بعدها.

(٩) راجع فى ذلك كتابنا: فقه التدين فهما وتنزيلا: ٢٠١ وما بعدها. وكتابنا: فى المنهج التطبيقى للشريعة الإسلامية: ٧٥ وما بعدها. وراجع فى فائدة العلم بمقاصد الشريعة بصفة عامة فى: نعمان جغيم: طرق الكشف عن مقاصد الشريعة: ٣٩ وما بعدها.

الإسلام، وإذن فإن علمه بالمقاصد من شأنه أن يرشد ما يكون له من نظر فى علمه، وما يكون له من تطبيق فى عمله ليصير كل ذلك موافقا للحكم الشرعى نتيجة ما حصل له من علم بالمقاصد، وإذا كان ذلك أمرا فى غاية الأهمية بالنسبة لكل مسلم فإن التفاوت فى الانتفاع به يتفاضل فيه الأفراد بحسب حظوظهم الثقافية، ولكنه يبقى هدفا ينبغى على كل مسلم السعى إلى تحقيقه بقدر الإمكان.

٣ - الاهتمام العلمى بمقاصد الشريعة

لقد استشعر المسلمون منذ وقت مبكر أهمية العلم بمقاصد الشريعة، فوجهوا إليها عناية علمية فائقة، واهتموا بها أيما اهتمام، وإننا لنحسب أن اهتمامهم بذلك لم يكن له نظير فى أى قانون وضعى أو شريعة دينية، حتى لقد انتهى الأمر بهم إلى أن خصصوا علما قائما بذاته يهتم بمقاصد الشريعة هو الذى أصبح معروفا بعلم مقاصد الشريعة، وهو علم لئن بدأ مختلطا بعلوم شرعية أخرى وعلى الأخص منها علم أصول الفقه إلا أنه انتهى اليوم إلى وضع أصبح فيه يشبه أن يكون علما مستقلا، تؤلف فيه المؤلفات، وتخصص له المقررات الجامعية، وتوجه إليه الأطاريح والبحوث، وقد شهد منذ بعض الزمن اهتماما متزايدا من قبل الباحثين والدارسين والمؤلفين، فأصبح يتدعم يوما بعد يوم ويثرى ويتطور باطراد.

وقد مر بحث المسلمين فى مقاصد الشريعة بثلاث مراحل بينة:

- المرحلة الأولى: كان الفقهاء والأصوليون فيها يبحثون فى مقاصد الشريعة بغير هذا الاسم فى الغالب وإنما باسم علل الشريعة أو حكمة الشريعة أو أسرار الشريعة أو ما فى معناها، وكان بحثهم فى ذلك يرد أثناء بحثهم فى مسائل أخرى بصفة متناثرة لا يتميز فيها عن غيره من المباحث، وامتدت هذه المرحلة ما يقارب أربعة قرون، وقد كانت بوادر ذلك البحث تتم فى عهد الصحابة والتابعين إلى عهد بداية التأليف فى العلوم بصفة إشارات وتلميحات واستخلاصات لحكمة الشريعة وعلل أحكامها، فلما تقدم التأليف فى العلوم تطور هذا البحث واندرج معظمه فى علم أصول الفقه، فإذا مصطلحات «علل الشريعة» و«محاسن الشريعة» و«أسرار الشريعة» تروج فى مؤلفات هذا العلم، وقد تفرد مؤلفات وتخص بهذه العناوين، ولعل أبرز من فعل ذلك الحكيم الترمذى (القرن الثالث)، وأبومنصور الماتريدى (ت ٣٣٣هـ)، وأبوبكر الأبهرى (ت ٣٧٥هـ) وأبوبكر الباقلانى (ت ٤٠٣هـ).

- المرحلة الثانية: شهد فيها البحث فى المقاصد تطورا تمثل فى نشأة مباحث بهذا المصطلح ذات تميز عن غيرها من المباحث الأصولية وإن لم تكن مفردة فى فصول خاصة بها أو مؤلفات مستقلة فى شأنها، وفى هذه المرحلة ظهر التقسيم الثلاثى الشهير لمقاصد الشريعة بين مقاصد ضرورية ومقاصد حاجية ومقاصد تحسينية، ذلك التقسيم الذى أصبح العمود الفقرى لعلم مقاصد الشريعة إلى اليوم. ومن أشهر أعلام هذه المرحلة إمام الحرمين الجوينى (ت ٤٧٨هـ) الذى يعتبر المؤسس الحقيقى لتميز البحوث المقاصدية عن سائر البحوث الأصولية وخاصة فى كتابه «البرهان»، والإمام أبوحامد الغزالى (ت ٥٠٥ هـ) وخاصة فى كتابيه: «شفاء العليل» و«المستصفى»، والإمام فخرالدين الرازى (ت ٦٠٦هـ) وخاصة فى كتابه «المحصول»، والإمام سيف الدين

الآمدي (٦٣١هـ) وخاصة في كتابه «الإحكام».

● المرحلة الثالثة: هي مرحلة أصبح فيها علم المقاصد يتجه إلى أن يكون فرعا مستقلا بذاته من فروع العلوم الشرعية متولدا من علم أصول الفقه.

وقد تم ذلك تدريجيا بأن أصبح البحث في مقاصد الشريعة يتم ضمن أبواب بأكملها متميزة عن سائر أبواب أصول الفقه، ثم بأن أصبح يتم في مؤلفات مستقلة إيذانا بكونه أصبح علما قائما بذاته قسيما لعلم أصول الفقه وليس قسما منه. ولعل هذه المرحلة ابتدأت بالإمام عزالدين بن عبدالسلام (ت ٦٦٠هـ) في كتابه «قواعد الأحكام في مصالح الأنام» فهو كتاب يكاد يكون متمحضا لمقاصد الشريعة، وعلى منواله نسج تلميذه شهاب الدين القرافي في كتابه «الفروق». ثم جاء الإمام ابن تيمية (ت ٨٢٧هـ) فتوسع في بحوث المقاصد في مجمل مؤلفاته وإن لم يعلم له كتاب خاص في ذلك، وجاء بعده تلميذه ابن القيم (ت ١٥٧ هـ) فزاد توسعا في تلك البحوث وخاصة في كتابه «شفاء العليل» و«إعلام الموقعين».

فلما جاء أبوإسحاق الشاطبي (ت ٧٩٠هـ) طور علم المقاصد تطويرا نوعيا، حيث وضع أسسه كعلم مستقل، وذلك بأن خصص له الجزء الثاني كاملا من كتابه الذائع الصيت «الموافقات»، وأصبح هذا الجزء كأنما هو كتاب خاص بعلم مقاصد الشريعة استقل به عن علم أصول الفقه أو أوشك، ثم جاء بعد ذلك على تطاول من الزمن في العصر الحديث الإمام محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٩٧٣م) فدعا إلى إقامة علم المقاصد علما مستقلا قائما بذاته، وألف في ذلك كتابه الشهير «مقاصد الشريعة الإسلامية»، وعلى ذات النسق ألف الأستاذ علال الفاسي كتابه الشهير «مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها» وقد أصبح اليوم علم المقاصد علما مستقلا يدرس في الجامعات مقررا قائما بذاته، وهو يحظى باهتمام كبير من الباحثين والدارسين في الشريعة الإسلامية(١٠).

إن اهتمام المسلمين بعلم مقاصد الشريعة إنما هو من أجل أن يكون لهم علم بما قصده الشارع من غايات في وضعه للشريعة بصفة كلية، وما تضمنته من أحكام بصفة تفصيلية. وذلك ليكون فهمهم لتلك الأحكام من أدلتها المباشرة وغير المباشرة فهما صحيحا يناسب ما وضعت له من مقصد، وليكون تنزيلهم لها في واقع السلوك تنزيلا رشيدا يفضي بالفعل إلى تحقق مقاصدها، فإنما شرعت الشريعة بأحكامها من أجل أن تحقق تلك المقاصد في توجيه الحياة، فإذا ما جهلت المقاصد لم يؤمن أن تخطئ العقول في فهم الأحكام، وتخطئ الإرادة في مسالك التطبيق، فتضيع إذن الشريعة بضياع تحقق أهدافها. ومن أجل ذلك نجتهد في أن نقدم هذا البحث لطلاب العلم لتنشأ عندهم ملكة شرعية مقاصدية تفضي بهم إلى صحة الفهم للأحكام، ورشد التطبيق لها، سواء في خاصة أنفسهم أو فيما يلونه من البيان للناس، والله الموفق إلى سواء السبيل.

«يتبع»

(١٠) راجع في مراحل البحث في مقاصد الشريعة وأطواره: محمد الحبيب ابن الخوجة ـ محمد الطاهر بن عاشور وكتابه مقاصد الشريعة: ٢/٧٩ وما بعدها. وأحمد الريسوني ـ نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي: ٣٧ وما بعدها. ومحمد سعد اليوبي ـ مقاصد الشريعة الإسلامية: ٣٩ وما بعدها.

القدر والتسليم لله



للدكتور/ علي عزت بيجوفيتش

للطبيعة حتمية تحكمها، وللإنسان قدره. والتسليم بهذا القدر هو الفكرة النهائية العليا للإسلام.

فهل القدر موجود .. وأي شكل يتخذ؟ دعنا ننظر في حياتنا لنرى ماذا تبقى من خططنا العزيزة على أنفسنا وما بقي من أحلام شبابنا؟ ألم نأت إلى هذا العالم بلا حول لنا ولا قوة في ذلك، ثم واجهنا تركيباتنا الشخصية، ومنحنا قدرًا من الذكاء قل أو كثر، وملامح جذابة أو منفرة، وتركيبة بدنية رياضية أو قزمية، ونشأنا في قصر ملك أو كوخ شحاذ، في أوقات عصيبة أو زمن سلام، تحت سلطان طاغية جبار أو أمير نبيل، وفي ظروف جغرافية وتاريخية لم يتم استشارتنا بشأنها؟ كم هي محدودة تلك التي نسميها إرادتنا .. وكم هو هائل وغير محدود قدرنا!!.

لقد وضع الإنسان في هذا العالم وقدر له أن يعتمد في وجوده على كثير من الحقائق التي لا يملك عليها سلطانًا. وتتأثر حياته بعوامل قريبة منه وعوامل أخرى نائية عنه أكثر مما يتخيل.

في أثناء اقتحام الحلفاء لأوروبا سنة ١٩٤٤م (خلال الحرب العالمية الثانية) حدث للحظات قليلة اضطراب شمل جميع الاتصالات اللاسلكية، وكان من الممكن أن يسبب هذا كارثة تقضي على العمليات العسكرية التي كانت قد بدأت تشق طريقها.

ولم يعرف أحد سبب هذا الاضطراب إلا بعد عدة سنوات، حيث عزي هذا الاضطراب إلى انفجار حدث في مجموعة نجمية يطلق عليها مجموعة «أندروميدا» Andromeda، علمًا بأن هذه المجموعة تبعد عن كوكبنا عدة ملايين من السنوات الضوئية. ويوجد على الأرض نوع من الزلازل الفاجعة يرجع إلى تغيرات معينة تحدث على سطح الشمس. وكلما نمت معرفتنا عن العالم تزايد إدراكنا بأننا لا يمكن أن نكون أسياد مصائرنا. حتى مع افتراض أعظم تقدم ممكن للعلم، فإن مقدار ما سيكون تحت سيطرتنا من عوامل لا يساوي شيئًا إذا قورن بالكم الهائل من

العوامل الخارجة عن هذه السيطرة. إن حجم الإنسان لا يتناسب مع حجم هذا الكون الفسيح، وعمر الإنسانية كلها ليس وحدة قياس لما يجرى فى هذا الكون من أحداث. وهذا هو سبب ما يعترى الإنسان من شعور دائم بالخطر، وما ينعكس على نفسيته من حالات التشاؤم والتمرد واليأس واللامبالاة، أو التسليم لله.

إن الإسلام يجتهد فى تنظيم هذا العالم عن طريق التنشئة والتعليم والقوانين التى شرعها، وهذا هو مجاله المحدود أما مجاله الرحيب فهو التسليم لله.

إن العدالة الفردية لا يمكن أن تكون كافية فى إطار هذا الوجود المحدود.

إننا قد نتبع جميع القواعد والتعاليم الإسلامية والتى من شأنها أن تمنحنا السعادة فى الدارين (الدنيا والآخرة)، وقد نضيف إلي ذلك اتخاذ جميع الإجراءات الطبية والاجتماعية والأخلاقية، بسبب التشابك الرهيب للأقدار والرغبات والحوادث، فإننا سنظل نصاب فى أجسامنا وفى نفوسنا بكثير من المعاناة. فما الذى يمكن أن يعزى أمًا فقدت ابنها الوحيد؟ وأى سلوى ممكنة لرجل أصيب فى حادثة فأصبح قعيدًا معوقًا؟.

لا بد أن نكون على وعى بظروفنا الإنسانية، فنحن منغمسون فى أوضاع معينة. وقد أستطيع أن أعمل على تغيير هذا الوضع، ولكن تبقى هناك أوضاع لا تقبل بطبيعتها التغيير. قد تتخذ هذه الأوضاع أشكالاً مختلفة وقد تحجب عنا قوتها الغالية، ولكن تبقى أمامنا هذه الحقائق: إننى لا مفر من أن أموت، ولا بد أن أعاني، وأن أناضل، إننى ضحية الحظ، إننى أتعثر دون رغبة منى فى مشاعر الذنب. هذه الظروف الأساسية فى حياة الإنسان يطلق عليها «الأوضاع الحدية»(١).

من المؤكد أن واجب الإنسان هو أن يبذل جهده لتحسين كل شىء فى هذا العالم بمقدوره أن يحسنه. ومع ذلك، فسيظل أطفال يموتون بطريقة مأساوية حتى فى أكثر المجتمعات كمالاً. والإنسان على أحسن الفروض قد يستطيع أن يقلل من كم المعاناة فى هذا العالم. ومع ذلك سيبقى الظلم والألم مستمرين، ومهما كانا محدودين، فلن يتوقفا عن أن يكونا سببًا للتجديف والانحراف (٢).

التسليم لله أو التمرد - إجابتان مختلفان للسؤال نفسه.

فى التسليم لله يوجد شىء من كل حكمة

1- انظر، «كارل جاسبرز» karl Jaspers: An Introduction to philosophy. VOl2 (Chicago: The University of Chicago. 1970)

يقول: «إن الموت والمعاناة من الأوضاع الحدية التي وجدت لي دون فعل مني. وأستطيع بنظرة واحدة أن أرى أنهما من ملامح هذا الوجود. أما النضال والشعور بالذنب فهما «أوضاع حدية» بقدر ما أساعد على إحداثهما إنهما جزء من أفعالي وتكتفهما من «الأوضاع الحدية» لأني لا أستطيع أن أكون دون أن أسببهما لنفسي، ولا سبيل لإيقافهما لأنني بمجرد وجودي نفسه أساهم في تكوينهما وأي محاولة مني لتجنبهما ستبرهن على أنني إما أصوغ هذين الوضعين صياغة أخرى أو أنني أحطم نفسي. إنني أتعامل مع الموت والمعاناة تعاملاً وجوديًا في إطار «الوضع الحدي» الذي أراه. أما الصراع والمعاناة فلا مناص من أن أخلقهما مسبقًا «كوضع حدي» أيضًا ويمكن أن أصبح واعيًا بهما وجوديًا وأن أتبناهما بصرف النظر عن كيف أفعل ذلك».

٢- انظر، «ألبير كامو» Albert Gamus: L homme revolté (paris: Gallimard.

إنسانية فيما عدا واحدة: تلك هى التفاؤل السطحي، فإن التسليم هو قصة المصير الإنسانى ولذا فإن التشاؤم نافذ إليه، لأن كل مصير هو مصير تراجيدى مأساوى إذا نحن قمنا بتحليله إلى أعمق أعماقه (٣).

الاعتراف بالقدر، استجابة مثيرة للقضية الإنسانية الكبيرة التى تنطوى فى جوهرها عن المعاناة التى لا مرد لها. إنه اعتراف بالحياة على ما هى عليه، وقرار واع بالتحمل والصمود والتجمل بالصبر. وفى هذه النقطة يختلف الإسلام اختلافًا حادًا عن المثالية المصطنعة وعن الفلسفة الأوروبية التفاؤلية وحكاياتها الساذجة عن «الأفضل من كل ما هو ممكن فى العالمين».

ذلك لأن التسليم لله هو ضوء يانع يخترق التشاؤم ويتجاوزه.

كنتيجة لاعتراف الإنسان بعجزه وشعوره بالخطر وعدم الأمن يجد أن التسليم لله فى حد ذاته قوة جديدة وطمأنينة جديدة. إن الإيمان بالله والإيمان بعنايته يمنحنا الشعور بالأمن الذى لا يمكن تعويضه بأى شىء آخر. ولا يعنى التسليم لله سلبية فى موقف الإنسان كما يظن كثير من الناس خاطئين. فى الحقيقة «كل السلالات البطولية كانوا من المؤمنين بالقدر» (٤).

إن طاعة الله تستبعد طاعة البشر والخضوع لهم. إنها صلة جديدة بين الإنسان وبين الله، ومن ثم بين الإنسان والإنسان.

إنها أيضًا حرية يكتسبها الإنسان بمواصلته الإيمان بقدره، ومواصلة الكدح والجهاد سمتان إنسانيتان معقولتان، وفيهما يتحقق الاعتدال والصفاء إذا نحن آمنا بأن النتيجة النهائية ليست بأيدينا، إنما علينا أن نسعى ونعمل، أما الباقى فبين يدى الله.

فلكى ندرك حقيقة وضعنا فى هذا العالم يعنى أن نستسلم لله، وأن نتنفس السلام، وألا يحملنا الوهم على أن نبدد جهودنا فى الإحاطة بكل شىء والتغلب عليه. علينا أن نتقبل المكان والزمان اللذين أحاطا بميلادنا، فالزمان والمكان قدر الله وإرادته. إن التسليم لله هو الطريقة الإنسانية الوحيدة للخروج من ظروف الحياة المأساوية التى لا حل لها ولا معنى .. إنه طريق للخروج بدون تمرد ولا قنوط ولا عدمية ولا انتحار. إنه شعور بطولى (لا شعور بطل)، بل شعور إنسان عادى قام بأداء واجبه وتقبل قدره.

إن الإسلام لم يأخذ اسمه من قوانينه ولا نظامه ولا محرماته ولا من جهود النفس والبدن التى يطالب الإنسان بها، وإنما من شىء يشمل هذا كله ويسمو عليه: من لحظة فارقة تنقدح فيها شرارة وعى باطنى .. من قوة النفس فى مواجهة محن الزمان .. من التهيؤ لاحتمال كل ما يأتى به الوجود .. من حقيقة التسليم لله. إنه استسلام لله .. والاسم إسلام!.

٣- «جاسيت» Gasset. n. p. d

٤- «إمرسون» Emerson. n. p. d

الشورى في معركة البناء

أهمية الشورى بين النصوص الشرعية والاحتياجات العملية

أ. د. أحمد الريسوني

في البدء كانت الشورى

اعتاد العلماء والكتاب، حين يتحدثون عن الشورى وأدلتها الشرعية أن يركزوا على الآيتين الكريمتين من سورتي الشورى وآل عمران. وهما فعلاً آيتان مركزيتان في الموضوع، سآتي - بعون الله تعالى - على ذكرهما وبيانهما، إلا أنني أجعلهما المنتهى وليس المبتدى.

وأبدأ من قوله سبحانه:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾

(البقرة: ٣٠-٣٢)

ذهب العلامة محمد الطاهر بن عاشور إلى ملحظ لطيف واستنباط طريف، وهو أن هذه المحاورة تنطوي على نوع من المشاورة، مشاورة أريد لها أن تكون في بدء الخليقة، لتكون هديا ملازما لبني آدم منذ الخلق الأول. قال رحمه الله: «وقول الله هذا موجه إلى الملائكة على وجه الإخبار ليسوقهم إلى معرفة فضل الجنس الإنساني على وجه يزيل ما علم الله أنه في نفوسهم من سوء الظن بهذا الجنس، وليكون كالاستشارة لهم، تكريما لهم، فيكون تعليما في قالب تكريم.. وليسن الاستشارة في الأمور، ولتنبيه الملائكة على ما دق وخفي من حكمة خلق آدم. كذا ذكر المفسرون.

وعندي أن هاته الاستشارة جعلت لتكون حقيقة مقارنة في الوجود لخلق أول البشر، حتى تكون ناموسا أشربته نفوس ذريته، لأن مقارنة شيء من الأحوال والمعاني لتكوين شيء ما، تؤثر تآلفا بين ذلك الكائن وبين المقارن»[1].

وإذا بنينا على رأي ابن عاشور وغيره من المفسرين الذين أشار إليهم، فإن الشورى هي أول سنة اجتماعية سنها الله لخلقه ولعباده ليقتدوا بها ويهتدوا بهداها. كما يستفاد من هذه النازلة أن الشورى مسنونة حتى في القضايا المحسومة والمعروفة، على أساس أن هذا النوع من أنواع الشورى له مقاصده وفوائده المذكورة - أو المذكور بعضها في كلام ابن عاشور ومنها التعليم والتكريم، ثم الحث على التأسي والتأدب.

١- التحرير والتنوير ١/٤٠٠.

ويمكن أن ندرج في هذا الباب مشاورة إبراهيم لولده - عليهما السلام - في قوله تعالى:

﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾

(الصافات: ١٠٢)

فالمسألة محسومة معزومة، ومع ذلك يقول إبراهيم لولده:

﴿فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾

(الصافات: ١٠٢)

فيجيب الولد:

﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾

(الصافات: ١٠٢)

قال الطرطوشي رحمه الله: ولا يمنعك عزمك عن إنفاذ رأيك وظهور صوابه لك عن الاستشارة ألا ترى أن إبراهيم عليه السلام أمر بذبح ابنه عزمة لا مشورة فيها، فحمله حسن الأدب وعلمه بموقعه في النفوس على الاستشارة فيه، فقال لابنه:

﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾[2]

وبمثل هذا قال القاضي بدر الدين بن جماعة: «وما زالت المشاورة من عادات الأنبياء، حتى إن إبراهيم الخليل - عليه الصلاة والسلام - أمر بذبح ولده عزمة، ومع ذلك لم يدع مشاورته مع صباه»[3].

إن من يعتاد المشاورة حتى فيما هو واضح وجلي لا يمكن أن يتنكبها فيما هو غامض وخفي، فكون الشورى مسنونة ومحمودة ومفيدة في قضايا قطعية ومحسومة، إنما هو إيذان بمدى ضرورتها ولزومها وأولويتها فيما تتعدد فيه الوجوه والإشكالات وتتضارب فيه الأنظار والاحتمالات.

على أن مشاورة إبراهيم لولده تقودني إلى نموذج آخر من الشورى العائلية المذكورة في القرآن، وذلك في قوله عز وجل:

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢٣٢) وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾

(البقرة: ٢٣٢-٢٣٣).

في الآية الثانية جاء ذكر الشورى صريحا ﴿عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ﴾ وفي الآية الأولى جاء ضمنيا:

﴿إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾

وفي الحالتين لا يقع التراضي الحقيقي إلا بعد تحاور وتشاور، وعلى أساس من المعروف، بما يعنيه من خير وإصلاح، وتعقل وإنصاف.

في الآية الأولى، إذا وقع التفاهم والتراضي بين الزوجين المطلقين من أجل التراجع والمراجعة، واستئناف علاقتهما الزوجية، فلا يجوز للولي أن يمنع ذلك.

وفي الآية الثانية، أن الرضاع المحدد في حولين كاملين يمكن تخفيض مدته، لكن على

٢- سراج الملوك، ص ١٣٢.

٣- تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام، ص ١٦٩.

أن يتم الفطام بتشاور وتراض، لا أن يستبد به أحد الأبوين. وهذا يعني أن تدبير أمر الأولاد هو حق وواجب مشترك بين الوالدين، وأنه يجب أن يتم بالتراضي والتشاور، لاختيار أفضل ما يصلح للولد وينفعه، مما هو ممكن.

فكون المرأة هي التي تمارس الإرضاع، لا يخولها التفرد بقرار توقيفه أو تمديده. وكذلك الزوج، باعتباره صاحب القوامة والنفقة، لا يحق له الاستبداد بأمر أولاده. فالأم شريكة له في تدبير شئونهم، فلا بد أن يكون ذلك كله ناشئا ﴿عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ﴾، أو عن «ائتمار» كما عبرت آية أخرى:

﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾

(الطلاق: ٦)

قال ابن كثير .. ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ أي: فإن اتفق والدا الطفل على فطامه قبل الحولين، ورأيا في ذلك مصلحة له، وتشاورا في ذلك وأجمعا عليه، فلا جناح عليهما في ذلك.

فيؤخذ منه: أن انفراد أحدهما بذلك دون الآخر لا يكفي، ولا يجوز لواحد منهما أن يستبد بذلك من غير مشاورة الآخر. قاله الثوري وغيره.

وهذا فيه احتياط للطفل، وإلزام للنظر في أمره، وهو من رحمة الله بعباده، حيث حجر على الوالدين في تربية طفلهما، وأرشدهما الى ما يصلحه ويصلحهما، كما قال في سورة الطلاق:

﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾

(الطلاق: ٦)

وعلى هذا، فالقرارات المتعلقة بتعليم الأبناء الصغار، من حيث مكانه ونوعه ومدته، واستمراره وانقطاعه، أو المتعلقة بصحتهم، وبإقامتهم وسفرهم، وسائر أنشطتهم، مما يقبل منها وما لا يقبل، وما يشجع منها وما لا يشجع، وكذلك المتعلقة بتوجيههم المهني أو بتزويجهم إذا كانوا متوقفين على التوجيه والمساعدة من آبائهم وأمهاتهم....، كل هذا وغيره يحتاج الى تدبير شورى مشترك بين الوالدين، أو بينهما وبين الولد نفسه إذا أصبح له تمييز وفهم ونظر. وتستحسن مشاورة الصغار أنفسهم، لأجل تعليمهم وتدريبهم وتأديبهم بأدب المشاورة.

وقد جاءت الأحاديث النبوية حاثة على استئمار البنات في شأن زواجهن. والأحاديث في ذلك كثيرة، منها عن عائشة رضي الله عنها قالت: سألت رسول الله ﷺ عن الجارية ينكحها أهلها، أتستأمر أم لا؟ قال: نعم تستأمر(٤).

ففي الزواج والتزويج شورى، وفي تدبير شئون الأسرة والأبناء شورى، وفي حال التنازع والخصام شورى ألا ترى إلى قوله تعالى:

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾

(النساء: ٣٥)

فها هنا أمر ضمني بالشورى، فما دام هناك حكمان اثنان، فلا يمكن أن يكون تقدير الحالة واعتماد الحل الممكن إلا شورى وائتمارا بينهما، ثم اتفاقا وتراضيا على الحل والمخرج.

وكما تكون الشورى عند الزواج، فإنها تكون كذلك قبل الطلاق، وعند التفكير في الطلاق. وهذا ما سنه رسول الله ﷺ لنفسه ولأزواجه، ومن ثم لأمته. فعن عائشة رضي الله عنها، في قصة الإفك، قالت: «ودعا رسول الله ﷺ علي

٤- مسند أحمد بن حنبل

ابن أبي طالب وأسامة بن زيد- حين استلبث الوحي- يستشيرهما في فراق أهله..»(٥)

وكذلك حث زوجاته على مشاورة آبائهن وأمهاتهن، حين وقعت بينه وبينهن جفوة، لكثرة ما كن يحرجنه به من طلبات النفقة، فأنزل الله في ذلك:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾

(الأحزاب: ٢٨-٢٩)

فقد عرض رسول الله ﷺ الأمر على نسائه، وخيرهن بما نصت عليه الآيات، وبدأ بعائشة رضي الله عنها... وقال لها: «فلا عليك أن تستعجلي حتى تستأمري أبويك....»(٦) وفي رواية أخرى: «وأحب أن لا تعجلي حتى تستشيري أبويك.. فقالت: أفيك يا رسول الله أستشير أبوي؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة...»(٧)

الشورى من المجال الخاص إلى المجال العام

إذا ثبتت الشورى ولزمت في القضايا الخاصة والحياة الخاصة، للفرد مع نفسه، وللفرد مع مثله من الأفراد، وثبتت ولزمت للزوج مع زوجه، وللأب مع أبنائه، فكيف تكون ضرورتها وأولويتها في الشئون العامة والقضايا الكبرى؟!

جواب ذلك وبيانه في آيتي الباب وعمدته:

الآية الأولى:

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾

وهي في سياق قوله تعالى:

﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾

(الشورى: ٣٦-٣٨)

الآية الثانية:

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾

وقد وقعت خطابا لرسول الله ﷺ في سياق قوله تعالى:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾

(آل عمران: ١٥٩)

الآية الأولى- كما هو معلوم- تقع في سورة سميت باسمها، وهي سورة الشورى، وتسمية إحدى سور القرآن الكريم باسم الشورى هو في حد ذاته تشريف لأمر الشورى وتنويه بأهميتها ومنزلتها.

جاءت الشورى في هذه الآية وصفا تقريريا، ضمن صفات أساسية لجماعة المؤمنين المسلمين. فهم بعد إيمانهم متوكلون على ربهم، مجتنبون لكبائر الآثام والفواحش، مستجيبون لأمر ربهم، مقيمون لصلاتهم، وأمرهم شورى بينهم، ويزكون أموالهم وينفقون منها في سبيل الله.

فهذا هو موقع الآية الكريمة التي وصفت

٥- صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب حديث الإفك.
٦- صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة الأحزاب.
٧- صحيح مسلم، كتاب الطلاق، باب أن تخيير المرأة لا يكون طلاقا إلا بالنية

جماعة المسلمين بوصف قائم ثابت ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ والمراد تشاورهم في كل أمر يعرض لهم، فلا يستأثر بعضهم على بعض برأي.[٨]

وقد انتبه عدد من العلماء الى وقوع هذه الصفة ضمن صفات تعد من المقومات والأركان الأساسية في الدين، وهو ما يعني أنها واحدة من تلك الفرائض والأركان. قال الجصاص رحمه الله: وقوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾

(الشورى: ٣٨)

يدل على جلالة موقع المشورة، لذكره لها مع الإيمان وإقامة الصلاة، ويدل على أنهم مأمورون بها.[٩]

أما الآية الثانية- آية آل عمران- فقد جاءت خطابا لرسول الله ﷺ بصفته داعيا وهاديا، ومرشدا مربيا، وأميرا قائدا. وهذا ما يقتضيه أن يكون رفيقا بالناس، متلطفا معهم رحيما لهم، عفوا عنهم متسامحا معهم، بل مستغفرا لهم في أخطائهم وذنوبهم، ومستشيرا لهم مراعيا لآرائهم.

وهذا الأمر لرسول الله ﷺ بمشاورة أصحابه هو أمر لكل من يقوم مقامه من الدعاة والقادة والأمراء. بل إن العلماء والمفسرين يعتبرون أن هؤلاء مأمورون من باب أولى وأحرى فهم الأحوج إلى هذا الأمر ويفارق كبير جدا عن رسول الله.

ومن هنا عدت هذه الآية قاعدة كبرى في الحكم والإمارة وعلاقة الحاكم بالمحكومين.

وعند تفسيرها قال القاضي ابن عطية رحمه الله قولته البليغة المتداولة: «والشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام. ومن لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب. هذا ما لا خلاف فيه».[١٠]

حكم الشورى

مسألة حكم الشورى، وهل هو الوجوب أو الندب، قد تبدو مسألة واضحة ومتجاوزة، وخاصة إذا نظرنا إلى القولين السابقين للجصاص وابن عطية. ولكن المسألة تحتاج إلى شيء من التمييز والتفصيل لكي تخرج من الخلط والتعميم.

فإذا تعلق الأمر بالحكام والرؤساء والأمراء، ممن يسري عليهم قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾، فلا شك أن الحكم هو الوجوب. لأن الوجوب إذا كان قد قيل به في حق رسول الله ﷺ بكل خصائصه ومزاياه النبوية والشخصية، فهو في غيره أوضح وآكد.

وإذا كان حديث أبي هريرة رضي الله عنه يقول: «ما رأيت أحدا أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ»[١١] فنحن نعرف أن لا أحد أكثر استغناء عن مشورة أصحابه من رسول الله ﷺ وأن كل حاكم أو أمير أو مسئول هو حتما أكثر حاجة وأشد افتقارا لمشورة أصحابه من رسول الله ﷺ فأمر الله لرسوله ﷺ بالمشاورة، حتى لو فرضناه على الندب، كما في بعض، لكان في حق غيره على الوجوب، ولو كان في حقه على الوجوب- وهو الصحيح- لكان في حق غيره أوجب وألزم. ومن هنا رأينا ابن عطية لا

٨- فتح البيان في مقاصد القرآن لصديق بن حسن القنوجي ٣١١/١٢.
٩- أحكام القرآن ٣٨٦/٣.
١٠- المحرر الوجيز ٣ في تفسير الكتاب العزيز ٣٩٧/٣.
١١- أخرجه الترمذي في أبواب الجهاد.

يكتفي بوجوب الشورى، بل يعدها من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام وحكى أن الواجب الذي لا خلاف فيه هو عزل من لا يستشير أهل العلم والدين.

وقد رام الفقيه التونسي الإمام أبو عبدالله بن عرفة إبطال القول بوجوب عزل من لا يستشير، معتبرا قول ابن عطية «غير صحيح، ولم يقله غيره» وأن ما عليه العلماء هو أنه إذا صدر من الإمام حتى ما هو أشد من عدم مشاورة أهل العلم والدين، فإن ذلك لا يوجب عزله[١٢]

غير أن إماما تونسيا آخر- هو العلامة ابن عاشور- قد تصدى للرد على ابن عرفة وتصحيح قول ابن عطية، على أساس أن ابن عرفة قاس ترك الشورى على الأفعال الموجبة للفسق، مع أن فسق الإمام إن حصل لا يوجب عزله، فكيف بترك الشورى الذي لا يرقى إلى درجة الفسق. ولكن هذا القياس لا يستقيم ولا يصح.

قال ابن عاشور: «إن القياس فيه فارق معتبر، فإن الفسق مضرته قاصرة على النفس، وترك التشاور تعريض بمصالح المسلمين للخطر والفوات. ومحمل الأمر عند المالكية للوجوب، والأصل عندهم عدم الخصوصية في التشريع[١٣] إلا لدليل[١٤]».

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾، فهو يفيد أن كل ما هو أمر مشترك بين الجماعة، فهو شورى بينهم، فلا يحق لأحد أن يغتصب الانفراد به والاستبداد بالتصرف فيه.

ومعنى هذا أن الشورى لازمة للجماعة في أمورها العامة، ولكل من يريد التصرف في شأن من شئونها الجماعية المشتركة.

وأساس الوجوب هنا هو الاشتراك في الأمر، والاشتراك في الحق، والاشتراك في المصلحة أو المفسدة، والنفع أو الضرر. فكل ما هو مشترك، أو جماعي، فحق تدبيره أيضا مشترك، ولا يحق للأمير ولا لغيره التصرف فيه بغير مشورة ولا إذن من ذوي الشأن قال القرطبي.. فإن كان أمر يشملهم نفعه وضره، جمعهم للتشاور في ذلك.

وقد رأينا- قبل قليل- أن الله تعالي ذكر التشاور مرتين فيما يخص إرضاع الطفل، لأن الطفل مشترك بين أبيه وأمه، وليس أحدهما أولى به من الآخر، فلزم الائتمار والتشاور والتراضي في شأنه. وكذلك الأمر في الزواج والتزويج، يتشاور فيه كل أطرافه، ويستشار فيه كل من له فيه حق وعليه تبعة.

أما حين يتعلق الأمر بالشئون الشخصية والحقوق الفردية، فالشورى فيها متروكة لصاحب الشأن وصاحب الحق، فهو يقدر أن يستشير أو لا يستشير، وممن يستشير، وهو يقدر أن استشارته في أمر معين واجبة أو مندوبة.. وذلك بحسب كل أمر وكل نازلة، ومدى ما يكتنف ذلك من غموض أو وضوح، ومن نتائج وآثار، ومصالح وأضرار.. ولكن في جميع الحالات تكون الشورى مسنونة ومشروعة وحميدة، أي أن حكمها لا ينزل عن الندب والاستحباب. وهذا ما يدل عليه مجمل النصوص والآثار التي تمدح الشورى والمستشيرين وتنوه بحسن عاقبتها وجميل آثارها، من مثل ما تقدم، ومثل الحديث: «ما خاب من استخار ولا ندم من استشار»[١٥]

«يتبع»

١٢- نكت وتنبيهات في تفسير القرآن المجيد، لأبي العباس البسيلي التونسي، مما اختصره من تقييده الكبير عن شيخه الإمام ابن عرفة، ١١١/٢- ١١٢.
١٣- يقصد أن قوله تعالى ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ عام لجميع الولاة وليس خاصا برسول الله ﷺ وهو على الوجوب.
١٤- التحرير والتنوير ١٤٨/٤.
١٥- أخرجه الطبراني في الأوسط، وانظر الجامع الصغير للسيوطي ٤٢٥/٢.

نحو «سلطنة» القلوب



للعلامة: محمد فتح الله كولن

منذ الزمان الغابر وإلى يومنا الحاضر، قادت أمم كثيرة شعوبا متنوعة فى بلاد عديدة من هذه الأرض الواسعة، وصارت أحيانًا من عناصر التوازن.. ومَن يدري، لعلنا نشهد أمما أخرى أمثالها ولكنها جديدة فى رؤيتها للعالم وفى حلتها الحضارية ونسيجها الثقافي. لقد طَبعت روما ومصر واليونان والصين والهند -وكذلك تركستان باعتبارها مهدًا لحضاراتٍ مختلفة- نقوشَها على زخارف هذا النسيج العام، أما ما تركه الإسلام من طابع على هذا النسيج قرونًا طويلة فى قارات عديدة كعنصر للتوازن الدولي، فهو عمق فريد له مزاياه الذاتية.

وما عرفه التاريخ من السموق إلى القمم والذرى لم يحصل كله مرة واحدة وفى عصر واحد، بل -كما هو الحال فى فيزياء الأرض- ما فتئت القمم والذرى تتبادل مواقعها مع السهول والسهوب أو شواطئ البحار، والأعماق السحيقة مع الجبال والتلال؛ فالذين ظهروا على مسرح التاريخ، قد اندثروا واحدًا تلو الآخر، ثم تبعهم الذين جاءوا من بعدهم فى مداولة تاريخية لا تتوقف.. والزمان فى خضم سيلانه بينما كان يقدم باقات زهور الإقبال لطائفة، كان يطبع بأختام الإدبار على طائفة غيرها.. فربما قفزت أمم من ذروة إلى ذروة أعلى، فى حين أن أمما أخرى عجزت عن دس رءوسها فى حفرة تحميها، مع أنها كلها كانت تعيش فى حقبة زمنية واحدة.. ولذلك لا تُعدّ القرون الوسطى قرونا مظلمة للأمم جمعاء، كما لا يُعدّ عصرُ التكنولوجيا والعلوم الذى نعيش فيه نورًا وضياء للمجتمعات كلها.

نعم، إن التداول التاريخي ماقتئ يعيد نفسه فى تشابه يقترب من التماثل.. فظهر التصاعد إلى الذرى هنا أو هناك، وفى هذا العصر وذاك؛ لكن لم ينحصر السموق ولا الهبوط أبدًا فى قارة بذاتها وفى عصر بعينه.. وكذلك هو الحال الذى نحن فيه اليوم؛ ففى العقود الأولى من القرن الحادى والعشرين، نرى شعوبا فى بلاد من الأرض يسابقون العصر ويسبقون غيرهم بأشواط تذهل العقول؛ فيطأون بقدم القمرَ، وبأخرى كوكبا غيره.. فى حين أن آلافا من الذين خاب حظهم فى بلاد مظلمة من الأرض، يئنون وجعًا فى براثن بداوة وبؤس موروث من ألف عام.

وينبغى أن لا نرتاب فى أن إنساننا وبخاصة الأجيال الفتية منه، سيكونون فى القابل القريب أصحاب القول الفصل فى سنوات الألفية الثالثة، ما لم تعصف رياح معاكسة فلم تتبدد المكاسب المتراكمة حتى الآن بطريقة أو بأخرى.. فإن أجيال اليوم المؤمنة السائرة فى الطريق، المشدودة بالتحفز الروحى الكامل استعدادًا لمنازلة الغبن والقهر والظلم الذى أصابها منذ قرون، يزفون بتحفزهم هذا من الآن بشائر مهمة عما سيتحقق من تجديدات أساسية فى جميع طبقات المجتمع فى مطالع الألفية الثالثة.. وحينما يحل الموسم سيؤتى الإيمانُ والعزم والثبات وعشقُ الحقيقة والفكرُ المنهجى بثماره -علما بأن كلا منها طاقة كامنة للقوة فى حد ذاته- وسنعيش «انبعاثات عديدة» تحتضن وحدات الحياة كلها.

إن الذى سيحدد ملامح هذا «الانبعاث» القديم قِدَمَ التاريخ البشرى والذى يُعدّ قَدَره الأبيض السعيد.. هو المستوى الفكرى والثقافى للإنسان المعاصر وأعماقُه الإنسانية وسعتُه الميتافيزيقية ورحابته الروحية..

لقد وَجد عصرُنا نفْسه وهو على أعتاب القرن الواحد والعشرين فى جو من الرهَق والاضطراب والقلق والانهيار.. ولئن ساقت هذه الحال بعضهم إلى اليأس والانكسار، فقد أيقظ فى الذين لم يستسلموا تماما للظلمات الغيرةَ «الوطنية» ومشاعرَ الإخلاص، بقدر حرية وجدانهم وصفاء أفكارهم.. وإذ أيقظها فيهم، صار وسيلة لتطرح استعدادات كثيرة تضاهى العبقرية.. وكان له وقْعٌ وأثر -كنفخ الصور- فى العالم الثالث خاصة، أدى إلى ظهور حركاتٍ إحيائية متتابعة.. فهذا العصر العفريت الذى كان مَحضنا لمفاسد لم يُرَ مثلُها حتى الآن، كان فى الوقت نفسه منطلقا لأمتنا وأمثالها من الأمم للارتقاء المباشر، وميناءً للإبحار نحو آفاق البعث والنهوض.

والأمر الوحيد الذى ينبغى أن نعمله اليوم هو أن نهرع إلى أخذ موقعنا فى التوازن الدولى بالشعور الجاد بالمسئولية وبهويتنا الذاتية ومن غير هدر للزمن. فإن تلكّأنا فى تعيين هذا الهدف، فقد نعجز عن إدراك الغد، بَلْه التقدمَ والتطور. فنحن اليوم أمام أحد خيارين: إما الكفاح المصيرى فى الهمة والذى يؤدى بنا إلى «الانبعاث».. وإما الخلود إلى الراحة والاسترخاء الذى يعنى «الاستسلام للموت الأبدي».

إن القرآن الكريم يحثنا على تجديد الذات والحفاظ على جدتنا بالعرض المتكرر لقضية أن «تكون» أو «لا تكون»، بقوله تعالى:

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾

«إبراهيم: ١٩».

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾

«فاطر: ١٦-١٧».

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾

«محمد: ٣٨».

وآيات كثيرة أخرى شرّفَتنا بالنزول، نكتفى بإيراد هذه النماذج منها لأنها -على ما أعتقد- تفى بالمقصود.

ومن المحتمل بقوة أن المَعْنيين اليوم فى الآيات الكريمة بالإذهاب والاستبدال هم النفوس الميتة وسكانُ العالم الثالث الذين

لم يجددوا أنفسهم وفشلوا في الحفاظ على حيويتهم وفرّطوا في حق إيمانهم وتفحمت عوالمهم الداخلية - مع تقديرنا مبدئيا لجوهر الإيمان الذي يحملونه - أما الآتون بدلا عنهم، فإنهم «الجيل الجديد» وكادر القدسيين، الذين أتموا التحقق المعنوي بطول الشحذ والتعبئة منذ قرون في دنيا المحزونين والمغمومين هذه، والمرشحون للارتقاء بإنساننا المستصغر والمستهان به إلى ذرى قيم فوق القيم.

وما فعله الغرب حتى اليوم هو إهمال قيمه الدينية ووصايا السيد المسيح عليه السلام؛ إذ شنوا الحروب في القارات وأشاعوا الرق والاستغلال أينما حلوا؛ فلطخوا وجه العالم بالسواد. فعالم الغرب الآن يحلم بالكوابيس تحت أنقاض الدنيا المعنوية التي هدمها بنفسه وجعلها خرائب في قلوب البشر، ويسقط في الحيرة والقلق إزاء العقل السليم والفكر الحر الذي بدأ يصحو في كل مكان.. والأنكى للجرح أن هذا العالم - لأنه لا يدري عن جزم أين أخطأ - يائسٌ مهزوز لا حيلة له، ومرتعش هلعًا خشية صفعات الرأي العام الداخلي المتوقعة؟! لكنه - إذ يئن في شدة البؤس - بدلا من أن يعيد النظر في نفسه، يبذل قصارى جهده ليصرف الناس عن التفكير في الفوضى الحالية ويتملص عن مسئوليتها بدفعها للبشرية إلى عالم الترف والسفه واللذائذ الجسمية.

إن هذا العالم يحاول أن يسلّي نفسه بالمنجزات العلمية والتكنولوجية هنا وهناك، وأن يُسرّي عن غمه بالثروة والراحة أحيانا.. لكن من البدهي أنها لن تمنح الإنسان سعادة مستمرة أبدا ولن تلبي رغبة البقاء والخلود المكنونة في أعماقه. ولذلك، ما من شيء يتخذه دواء وعلاجًا إلا ويزيد في قتام أفق الأمل الإنساني ويضيف بؤسًا إلى بؤسه الروحي.

إذن لندَعْ هذا العالم يتباهى بالعلم والتكنولوجيا إزاء الفراغ والاكتئاب الذي أوجده في الحياة الاجتماعية نتيجة لخطئه العظيم في تحديد نقطة الانطلاق.. ولْنتركه يسلي نفسه ويلهو باللذائذ والأذواق، أو يتطلع ببصره إلى أعماق الفضاء في حين أنه يعاني من افتقاد الروح والمعنى الذي ضيعه في قلبه، مُهدرا العمرَ خلف ضالته في وديان أخرى.

فنحن نعيش منذ جيلين ابتهاج العودة إلى روحنا بوتيرةٍ أسرعَ سيرًا وأدق منهجًا مما شهدناه في الماضي.. فإن إنساننا الذي اعتاد حتى الآن أن يلجأ إلى المادة والآلة ويقيسَ كل شيء بالمعايير المادية، بدأ يستيقظ -ولو من غير وعي تام - بالصفعات المتوالية للطواطم التي عبدها منذ قرنين عبوديةً لا تريد له عتقا، فبدأ يشعر بأنه ضحية في معبرِ تحولٍ تاريخي، وعلم أن عليه أن يسد الهوة السحيقة بين واقعه وذاته، بالهمة والإخلاص والدموع والشعور بالمحاسبة، وحمل عصا الترحال بخزين من العزم والتوكل والثبات. وسيسير إلى الآباد في هذا المسير الذي لن ينتهي وإن انتهت السبل وانقطعت، بعدما قال: «السياحة يا رسول الله!»[1].. وإن مصدر قوة روحه اللازم الذي لا فكاك منه في هذه السبيل؛ هو اكتشاف حقيقة الإيمان من جديد، واستشعاره في وجدانه، وتغذية إرادته بالعبودية لله، حتى تبقى متفتحة ومستعدة للإقبال على الخير والصلاح، وتعميقُ روح «الإحسان» يومًا بعد يوم بالإحساس بحقيقة: «لي مع الله وقت»[2]، ثم الارتباط الدائم «بالعالم الآخر» وامتلاك آفاقٍ روحية رحبة.. فإن أفلحنا في التزود بمثل هذه الذخائر المعنوية، فعندما يهتف الربيع ويحل الموسم ستُهرع إلى الحياة تلك البذورُ المنثورة بنشوة العبادة في أرجاء الأرض كلها، وستحيى عهودا وردية عديدة دفعة واحدة في مجتمع المغمومين.

إن من أجدى الأمور في بناء الجيل الحاضر هو تيسير تنقلهم بين عوالمهم الداخلية وبين حقائق الوجود بتحفيز عزم التفكر المنظم لديهم، وتحبيب الإيمان والتعلم والتمحيص والتفكير إليهم بتدريبهم على مطالعة الآفاق والأنفس ككتاب مفتوح.. فعلينا أن نقدم إلى آفاق مداركهم وعقولهم تلك التصوراتِ المذكورةَ بالوسائل المرئية والمسموعة، وأن تنقلهم إلى عوالم أرحب عن طريق إنقاذ أرواحهم من السجن البدني الضيق.. ثم إزالة الكدر والقسوة من أرواحهم، وإيقاظ قلوبهم المتأججة شوقا إلى الآفاق الماورائية على أجمل التطلعات الإنسانية وأرقها وأخفاها وأكثرها سحرا ودلالا.. وإذا نجحنا في ذلك فسنكون قد بشرناهم بالانبعاث من جديد.

وبدهي أن الأرواح التي لم تكتسب خفة بالتصفية بالإيمان والمعرفة والمحبة لن تقْدر أبدا على التحليق في سماوات ما بعد الأفق. بل دع التحليق في سماوات ما بعد الأفق، فتلك الأرواح الجائعة لا تنفك عن التلوث بالرغبات الدنيوية، فتمتلئ قلوبهم بالأحقاد وتطفح بالكراهية، ويقع نظامُ الروح أسيرا في قبضة جهاز النفس، ولا يزيدون على الأكل والشرب والنوم والجلوس والقيام، فيغدون عبيدًا للبدن يأبون الانعتاق!

إن الحقيقة الفريدة التي يتلقاها روح الإنسان من كل من الإيمان والمعرفة وتعلق القلب بالله هي المحبة، أما الحقد والكراهية وجوانب الضعف البشري فتزول - حتما - بحلول هذه القيم السامية.. أجل، إن معاني الإيمان والمعرفة والمحبة توحد بين الإنسان والكون، وفي الوقت عينه تنجيه من عذاب الكثرة وآلامها، فتذيب وحدته ووحشته الجوانية في إكسير «معية» الحق تعالى، فتحوّل حياته إلى لذة أبدية ونشوة خالدة تجعله يرتشفها كأسًا بعد كأس!

فالأجيال المنطلقة إلى الغد المجهّزةُ بهذا الجهاز والمزودةُ بهذا الزاد، تنتشر وتهاجر إلى جهات الأرض الأربع بعشق عميق وشوق عظيم ومن غير الانسياق لمكسب أو مربح، بل من أجل الارتقاء بالنوع البشري كله إلى الكمالات الإنسانية.. ومع الابتعاد عن تطلعات الشهرة والمجد ابتعادا كاملا، ستتحمل أقسى الظروف وتنهض بأثقل الأعمال ثم تغادر ولا تلتفت إلى الوراء ولا تعبأ بحمد أو إطراء.. هؤلاء، أينما حلوا، سيَصبغون كل عين وكل قلب بألوان الاحترام والخشية البادية والفائضة على تصرفاتهم، حتى إن لم يتحدثوا عن الدين، أو لم يلفظوا بقول عن التدين.. وسينفتح كل من يتصل بهم على آفاق «الروح» الرحبة والغنية، بدلاً عن الحقائق النسبية والقصيرة الأبعادِ للمادة، فيبلغ سعةً تتعدى الخيال في الدنيا نفسها، وينال «عرش مملكة» يعجز الكلام عن وصفها.

---

(١) إشارة إلى رحلات الرحالة المؤرخ الشهير «أولياء جلبي» (ولادته سنة ١٦١١م ووفاته ما بعد سنة ١٦٨٢م) الذي ذكر أن ما بعثه إلى رحلة بعد رحلة هي رؤيا رأى فيها النبي ﷺ فأراد أن يناجي: «شفاعت يا رسول الله» طلبا للشفاعة لكنه قال: «سياحت يا رسول الله»؛ فدعا له ﷺ في الرؤيا بالسياحة، فحبب إليه التنقل والسياحة في البلاد بعدها. (المترجم)

(٢) الأسرار المرفوعة لعلي القاري ص٢٩٩، كشف الخفا للعجلوني ٢/٢٢٩.

الدولة النبوية النشأة والتأسيس



أ.د/ محمد الشحات الجندى
عضو مجمع البحوث الإسلامية

(٢) المصالحة والوفاق

وفد الرسول ﷺ إلى المدينة بين أهلها والمقيمين فيها من الأنصار واليهود وبعض الوثنيين من عبدة الأصنام، واضعا نصب عينيه أن يجمع كل الفرقاء على المحبة والألفة، وأن يزيل ما بينهم من خلاف ويرأب ما بينهم من صدع، وأن يحل الوئام محل الخصام وأن يتناسوا ما كان بينهم من صراعات وحروب، جعلت من سكان يثرب فرقاء متصارعين ما بين الأوس والخزرج من ناحية، وما بين الأوس والخزرج واليهود من ناحية أخرى.

قدم الرسول ﷺ إلى يثرب وهو على دراية بهذا الاختلاف والطائفية، وسط أجواء لا تعرف للوحدة طريقًا، فلا ينعم شعبها بالأمان والاستقرار فى الحياة اليومية، فلم يكن للوطن حرمة ولا للفرد كرامة، فسادت العداوات مما قسم شعبهم وأوجد الخصومات فى علاقتهم ببعضهم البعض.

وألقت هذه الأجواء المتوترة بظلالها على المشهد برمته، وكشفت عن ضرورة معالجة المشكلات وإزالة التوترات وتصحيح الأوضاع الخاطئة على النحو الذى يتحقق به التعايش السلمى بين الجميع بإيجاد مواطن الاتفاق وإزالة العوائق أمام التوحد الذى يلم الشمل، ويحقق المصالح.

وأدرك الرسول -صلوات الله عليه- ببصيرته الثاقبة، وحكمته النافذة، ضرورة التعامل الرشيد مع هذه الأوضاع البائسة.

وعلى هذا الطريق اتخذ الرسول جملة من التدابير والخطوات الفعالة التى أحيا بها الضمائر، والنفوس، وأصلح بها الخلل والاعوجاج الذى كان ضاربا فى بنية المجتمع، ونبه الأذهان إلى ما ينبغى أن يكون عليه الاجتماع الراشد، الذى على أساسه يحتفظ به كل فرد خصوصيته، ويبلغ به الهدف، وتنتظم معها حياته، ويحيا آمنا على نفسه وذويه.

مؤسسة المسجد والتربية الإيمانية

للمسجد رسالة عظيمة فى بناء شخصية المسلم، وتهذيب القلب والعقل بالتربية

وغرس الإيمان فى النفوس، فهو مدرسة إصلاحية تربى الضمير، ويزداد بارتيادها المسلم التقى والصلاح، ويتخلق روادها بأخلاق المؤمنين الموحدين الله، المؤدين لشعائر الدين: قال تعالى:

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾

(التوبة: ١٨).

ففيه تعمر القلوب وتسمو بها الأرواح، وتشرق فى رحابها القدسية أنوار الأخوة، ورباط الألفة والمحبة. فكان مسجد قباء بيت الله ومأوى أفئدة المسلمين، ومدرسة النبوة التى تربت فيها الشخصية المسلمة على الهدى والتقى والصلاح.

﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾

(التوبة: ١٠٨).

فقد تأسس هذا المسجد من أول يوم بنائه على خير زاد، زاد التقوى، بإخلاص لله والطاعة لرسوله، وجمع كلمة المؤمنين وأصبح معقلا وموئلا للإسلام وأهله. والآية كما يقول ابن كثير(١) دليل على استحباب الصلاة فى المساجد القديمة المؤسسة من أول بنائها على عبادة الله وحده لا شريك له، وعلى استحباب الصلاة مع جماعة الصالحين، والعباد العاملين المحافظين على إسباغ الوضوء، والتنزه عن ملابسة القاذورات، وعن كل ما فيه الضرر والضرار.

ومغزى هذه الخطوة بتشييد المسجد واعتباره من أولويات الدعوة، ومن مؤسسات الدولة الناشئة المؤسسة على عماد التربية الإيمانية، كأساس لبناء الشخصية لتحقيق أهداف رسالة الإسلام، فى بعث القلوب وإيقاظ العقول، مما يعد الشخصية الحاملة للهداية الربانية، والقدوة النبوية، السائرة على درب التربية القرآنية، والسنة النبوية.

ولاشك فى أثر هذه التربية، فى تكوين نموذج شخصية المسلم، التى تتصلح بها النفوس، وتسلم بها الصدور من الكراهية والحسد ويتآخى العباد، وتقام جسور الثقة والمودة، وينفتح طريق الإصلاح، وتسد أبواب الخصومات، فهذه هى ثمرة التقوى، وأثر التربية الإيمانية.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

(الحجرات: ١٠)

وفيها يقوى رباط الأخوة: وكونوا عباد الله إخوانًا.

وهى الأخوة التى يتسع مداها فى الدين والوطن لتأسيس الدولة، وسرعان ما أصبحت هذه الدعوة القرآنية حقيقة تولتها يد الرسول ﷺ الهادية بالرعاية وبالعناية فقام بإرساء مبدأ التآخي، وأكد على المحبة القلبية لبعضهم البعض، وأن يتعامل المسلم مع المسلم بالمودة والتراحم، وأن يكون فى علاقته مع أخيه مثالا على الصدق والمحبة والصفاء.

١. تفسير القرآن العظيم المجلد الرابع كتاب الشعب ص ١٥٣.

ولم يفتأ صاحب الرسالة في أحواله كلها، في مجالس الخاصة، وفي تعليمه إياهم شعائر الدين إلا أن يدعوهم ويعلمهم أن الإسلام دين إخاء ومحبة وتساند وتعاضد، فنبههم إليه وحثهم على التمسك به، وترجمه في واقع الحياة في ربوع المجتمع الإيماني والدولة الناشئة، بحيث يكون سلوكا يتعاملون به فيما بينهم.

وظهر أثر ذلك التوجه، في خطبه الجامعة إليهم في مسجده الجديد، فكان مما قاله لهم في بواكير خطبته(٢): «أحسن الحديث كتاب الله تبارك وتعالى، قد أفلح من زينه الله في قلبه، وأدخله في الإسلام بعد الكفر، واختاره على ما سواه من حديث الناس، إنه أحسن الحديث وأبلغه، وأحبوا ما أحب الله، أحبوا الله من كل قلوبكم، ولا تملوا كلام الله وذكره ولا تقس عنه قلوبكم».

إلى قوله: «فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا واتقوه حق تقاته، واصدقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم، وتحابوا بروح الله بينكم، إن الله يغضب أن ينكث عهده والسلام عليكم».

يلمس من يطلع على هذا أن المنهج النبوي يقترن بالسلوك القديم مع هذا الرعيل الأول المؤسس لدولة الإسلام، بإرساء الركائز الصلبة لبناء مجتمع المدينة الفاضلة بحق، فليس أقوى في تربية الأفراد، وتعميق أواصر العلاقة الوطيدة من قيامها على الحب لله من أعماق القلوب، ولا من حب المسلم للمسلم في الله، ابتغاء وجه الله وطلبا لرضوانه، فهو مقوم من مقومات الإيمان، وقيام المجتمعات المتحضرة، كما في الحديث: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» (رواه البخاري ومسلم).

وفي المسجد بنيت العلاقات الطيبة لمجتمع المؤمنين، ففي الأديان دعوة إلى المحبة والتآخي، والتسامح وحث على القول والفعل الحسن:

﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾

(البقرة: ٨٣).

والتحلي بمكارم الأخلاق وحميد الصفات:

﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾

(فصلت: ٣٤).

وعلى هذه الأسس، قام المسجد بوظيفة تربوية ودعوية، ورسالة إصلاحية بين أبناء الوطن الناشئ، عن طريق الإصلاح بين المتخاصمين وعلاج الشقاق بين جماعة المؤمنين، والتآزر والتآلف، فكان سبيلا لجمع الصف ولم الشمل، على سند من أن عبادة الصلاة التي تؤدى فيه يوميا خمس صلوات، تتراضى فيه جموع المصلين فتسلم الصدور، وتأتلف القلوب، فهو عنوان الجماعية ومركز التطهير ومدرسة الصلاح الاجتماعي، وفيه كانت تسوى الخلافات الناشئة وتنقضي الخصومات القائمة. وقد أثمرت هذه التربية الإيمانية والرسالة الإصلاحية شخصية متميزة تتحلى بيقظة الضمير، صحيحة السلوك، تؤمن بالله وتخلص للوطن، وتتواصل بالخير والمودة مع إخوتها في الدين والوطن.

٢. سيرة ابن هشام، جـ ١ ص ٥٠١.

أحدث هذا النمط الجديد للشخصية الإيمانية والمجتمعية، تأسيس مجتمع قوي متماسك، يعرف حق الأخوة الدينية والوطنية والاجتماعية فلا يخل بها، ولا يقوض بنيانها، ولا يوهن من عراها، وإنما يعمل على تجسيدها كواقع حي وشعار كحق للمؤمنين والجماعة الوطنية.

فإذا حدث ما يعكر صفو هذه العلاقة بسلوك خاطئ أو بتصرف معيب لزم التنبيه ووجب التصحيح عن طريق تقنين ثقافة الاعتصام بالدين، وحب الوطن، والانحياز للمصلحة العامة.

عقبات على طريق المصالحة

ولم يكن الطريق معبدا ولا ممهدا بالوفاق والالتقاء وإنما كانت آثار الماضي تلقى بظلالها في بعض الأحيان يشهد على ذلك ما كان بين الأوس والخزرج من العداوة والبغضاء وسفك الدماء في الجاهلية قبل مقدم الرسول ﷺ وتنوير يثرب بالإسلام، فلم يكن خافيا على أحد، كيف كان حال يثرب قبل الإسلام فقد تطاولت الحروب بين الأوس والخزرج مائة وعشرين سنة حتى أطفأها الإسلام، وألف الله بين قلوبهم برسوله ﷺ حيث قام الرسول على خطته في الإصلاح ومحو ميراث الماضي المليء بالكراهية والتعصب والعداوات وقام بنزع فتيل الفتنة التي كان يشعلها بعض الموتورين اليهود.

من ذلك ما روى عن زيد بن أسلم(٣) أنه مر شاس بن قيس، وكان شيخا عسا في جاهليته، عظيم الكفر، شديد الضغن على المسلمين، شديد الحسد لهم، مر على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه فغاظه ما رأى من جماعتهم وألفتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الذي كان منهم من العداوة في الجاهلية فقال: قد اجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد، والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملأهم بها من قرار، فأمر فتى شابا من اليهود - وكان معه - فقال: اعمد إليهم فاجلس معهم ذكرهم يوم بعاث وما كان قبله، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار، وكان يوم بعاث يوما اقتتلت فيه الأوس والخزرج، وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج ففعل، فتكلم القوم عند ذلك، فتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب - أوس بن قيظي أحد بني حارثة بن الحارث من الأوس وجبار بن صخر أحد بني سلمة من الخزرج فتقاولا ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم والله رددناها الآن جذعة، وغضب الفريقان وقالوا قد فعلنا: السلاح السلاح، موعدكم الظاهرة، والظاهرة: الحرة، فخرجوا إليها وتحاور الناس، فانضمت الأوس بعضها إلى بعض والخزرج بعضها إلى بعض على دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه حتى جاءهم، فقال: يا معشر المسلمين الله الله، أتدعون بدعوى الجاهلية، تدعون، وأنا بين أظهركم بعد إذ هداكم الله إلى الإسلام وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألف به بينكم ترجعون إلى ما كنتم عليه

٣. انظر تفسير الطبري، الآية ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (آل عمران: ٩٩).

كفارا؟! فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم، فألقوا السلاح من أيديهم، وبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضا، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين، قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس بن قيس وما صنع(٤).

إن القيادة الفذة، هي تلك التي تخمد نيران الفتن، وتحفظ وحدة الجماعة وتماسكها عند الأزمات، بما تملك من قدرات وملكات، وأسرع الرسول بغرض أن يئد الفتنة. فلقيت دعوته لدى جماعة الأنصار بعنصريها الأوس والخزرج القبول والسمع والطاعة في التو واللحظة، وأسفرت عن تحول أعداء الأمس إلى أبناء بررة أشربت قلوبهم بالإيمان، وتطهرت نفوسهم من البغضاء بالإسلام الذي حول خلافهم إلى وفاق وخصامهم إلى مصالحة، وشكلوا مع إخوانهم المهاجرين مادة الدولة الإسلامية الجديدة على مثال غير مسبوق في أقوى رباط اجتماعي بين أطياف عديدة جمع بينهم الإسلام وأقام بينهم أمة ومجتمعا ودولة، فأصبحوا كما وصف القرآن:

﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

(الأنفال: ٦٣).

الوفاق والأمان مع اليهود

امتد بصر الرسول ﷺ إلى شركاء الوطن، المجاورين للمسلمين، من أتباع الملة الإبراهيمية، والرفاق في دار الإسلام في المدينة، فعاملهم بالمودة وأبان لهم عن الأخوة النابعة من الملة الإبراهيمية ودعاهم ليكونوا ضمن نسيج المجتمع الإيماني، كل بحسب اعتقاده، تحت لواء المواطنة الإسلامية وسلك في بلوغ هذه الغاية إلى بناء العلاقة معهم على أساس السلم والوفاق والمساواة بين أبناء الوطن وسعى إلى التوافق مع القبائل الثلاث: بنو قينقاع، وبنو النضير وبنو قريظة وحرص على التواصل معهم، من أجل بناء جسور الثقة، ودعم أواصر المواطنة، واتبع لبلوغ هذه الغاية سبيلين:

● السبيل الأول: الموادعة والأمان، وميثاق التحالف والصحبة والولاء في العسر واليسر، وبموجب هذه الموادعة توافق المسلمون واليهود على الشراكة في الوطن والسلامة في النفس، وحماية المال، والحفاظ على الأعراض واستحقاق الكرامة، وكتب الصحيفة التي نقتطف منها في هذه الدراسة كل في موضعه، على سند من كونها بمثابة دستور الدولة القائم على ضمان حقوق المواطنة، والعدالة والكرامة وحرص الرسول على تنفيذ بنودها وتفعيل موجباتها، مما انتقل بها من حيز النظر إلى نطاق التطبيق.

ولزم من هذه الموادعة، وسياسة الوفاق وحسن الجوار وحق الشراكة في الوطن، أن أصبحت المدينة كيانا واحدا متعدد الأديان والأعراق يرتبط كل من يعيش فيه من المسلمين واليهود بعلاقات الأمن والسلام الاجتماعي، ويلتزم كل فرد وجماعة بالتعاون على ما فيه الخير والمصلحة، والدفاع عن المدينة في مواجهة العدو الخارجي.

٤- محمد رشيد رضا تفسير المنار الجزء الرابع (١٥) ص ١٤، الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٢م.

● السبيل الثاني: اتخاذ بيت المقدس قبلة في الصلاة، فإن الرسول ﷺ استقبل بيت المقدس حين قدم إلى المدينة ستة عشر شهرا، كما يقول ابن القيم: (٥) ثم قرأ:

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾

(الشورى: ١٣)

وكان في توجهه في القبلة إلى بيت المقدس ثم تحويلها إلى الكعبة حكم عظيمة ومحنة للمسلمين والمشركين واليهود والمنافقين، كما كشفت عنها الأحداث.

ولاشك أن اتخاذ بيت المقدس، وهي قبلة اليهود ومسرى الرسول ﷺ قبلة للمسلمين في البداية، ولقائه بالأنبياء وصلاته بهم في رحاب بيت المقدس، لدلالة على وحدة الدين وتعظيم المسلمين لبيت المقدس أولى القبلتين وثالث الحرمين، والمسجد الذي باركه الله وبارك حوله، مما أظهر المكانة المقدسة لهذا البيت العظيم، وبما يقوى الصلة المشتركة بين الإسلام واليهودية وأن اليهود أتباع أديان سماوية تلتقي في أصول الوحدانية والعدالة والحق والتسامح.

وفي ظل هذه المبادرة النبوية، ارتسمت معالم الدولة الناشئة، وتحددت أصول السياسة الشرعية فيها قياما يحق الكل في الوطن لا فرق بين مسلم ويهودي وضمان الحقوق الناشئة عن ذلك مثل الملكية والانتفاع بالموارد المشتركة والعيش الكريم وتوفير مقومات الحياة، وتمكين كل فرد من الحصول عليها، وكذا حقه في المشاركة في الحياة العامة وحقه في الحرية والتعبير عن الرأي في نطاق احترام هوية الدولة، وتحقيق المصالح العامة، ودفع المفاسد والشرور في هذا الكيان المدني ذي المرجعية الدينية.

(٤) الاعتراف بالتعددية

مبدأ التعددية من السنن التي خلق الله الناس عليها، فهم مختلفون في أديانهم وأجناسهم وألوانهم ولغاتهم، ومراكزهم الاجتماعية.

وإن في وجود التعددية والاختلاف بين البشر لحكمة وغاية، من بينهما أن يكون هذا التنوع دليلا على القدرة الإلهية، وعظم الصنعة الربانية، كما أن التنوع وسيلة للتكامل، وهو مع ذلك عنصر للثراء والخصوبة، وليس للتضاد والتناقض.

وقد راعى الإسلام في تشريعاته وسياسته أهمية التنوع، وأخذه في الاعتبار، واعتبره قيمة إلهية وفطرة إنسانية، أرست هذه القيمة مبدءا عميقا في الدولة الإسلامية، هو مبدأ التعددية في مناحيها المتنوعة الدينية والثقافية وفي الجنس واللون والهيئة الاجتماعية، لكنها التعددية التي تجعل من هؤلاء المختلفين أمة موحدة في دولة واحدة، يتساوى فيها الأفراد والجماعات في أمور المعايش، وضمان المقومات الأساسية للحياة، طبقا لقاعدة: لهم ما لنا وعليهم ما علينا.

بل إن مبدأ التعددية وهو معلم من معالم دولة الإسلام، يتسع ليضم كل المختلفين في داخل الدولة وخارجها، ويقبلهم ويتسالم معهم.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ

٥- زاد المعاد في هدي خير العباد جـ ٢، ص٥٧.

﴿وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

(البقرة: ٦٢).

هذا المبدأ جعله الإسلام حقيقة من حقائق الاجتماع البشري، يوجد في بناء الدولة الإسلامية يعبر عن السياق الحضارى الذى دشنته الدولة الفتية، دولة النبوة فتقدم من خلاله رسالتها العالمية، في اتساعها ورحابة أفقها في القبول والاعتراف والتعاون مع الآخر من أجل التفاهم والاجتماع والتعايش الودى فالكل يتعاون لما فيه تحقيق المصلحة ودرء الضرر:

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

(المائدة: ٢).

وعلى ذلك، جاءت قاعدة: نتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه.

ولابد لإحكام هذا البناء المجتمعى أن يرتكز على العدالة، التي لا تميز بين فرد وآخر مهما كان هذا الاختلاف، وذلك التباين:

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا ۘ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

(المائدة: ٢).

وهى العدالة التى تجسدت فى الواقع العملى تأسيس مجتمع التعايش وقبول الآخر والعدالة والكرامة: انطلاقا من غاية الإسلام فى جمع الناس على المشترك الدينى والإنسانى فقد أرسى الرسول ﷺ عقب الهجرة إلى المدينة نموذجا جديدًا بإقامة سلام اجتماعي، وتعايش حياتى بين المختلفين من أبناء شعب المدينة المتعدد الأديان والأجناس والأفكار، فإلى جانب المسلمين الأنصار والمهاجرين، وجد اليهود بنو قينقاع، وبنو قريظة وبنو النضير، مع بعض الوثنيين من عبدة الأصنام ويعجب المرء من صياغة عقد دستورى اجتماعي بين جماعات متنافرة، وانتماءات متعددة، واتجاهات شتى، فقد أصبح هؤلاء الفرقاء شعبًا واحدًا، يعترف لهم فى وثيقة المدينة بحق المواطنة، وتختفي بينهم الخلافات وتتوارى الصراعات ليحل محلها الوفاق والسلام الاجتماعي، والتعايش السلمي، حيث ذكرت الوثيقة[٦]. المؤمنين كوصف للمسلمين واليهود، فقد نصت علي:

إن المؤمنين المتقين، على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعا، ولو كان ولد أحدهم.

وفى الوثيقة: لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ -يهلك- إلا نفسه وأهل بيته.

هذا المنظور الذى قدمته الوثيقة لتقرير الحقوق والواجبات لأبناء شعب دولة المدينة، تأكيدًا وترسيخًا للسلام والتعايش، وتأيا للإقصاء والصراع وتذويب الفوارق، وإزالة فكر الطائفية والعصبية بين أبناء الوطن جميعًا يعبر عن حقيقة راسخة فى

٦. انظر ابن سيد الناس عيون الأثر جـ ١، ص ١٩٨ وما بعدها، الإمام أحمد المسند جـ ٢١، ص ١٠

الدولة الإسلامية فأى إخلال بهذه الأصول والمقومات يعد جريمة ضد الوطن بل والإنسانية، وفى المقابل فإن أى تعظيم ومساندة لهذه الحقيقة، مما يعد قيمة دينية ومجتمعية وحضارية، لا يجوز التعدى عليها أو انتهاك حرماتها:

﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾

(المائدة: ٣٢).

وتمشيا مع هذا الفكر الأصيل، فإن كل فرد فى المجتمع يتمتع بحقوق الإنسان، مثل الكرامة والحرية والعدالة، فهى حق للجميع، ولا تمييز ولا محاباة ضد أحد بسبب معتقده أو جنسه أو لونه أو الطبقة الاجتماعية، على ما جاء به قوله تعالى:

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ۚ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾

(النساء: ١٠٥).

فهى مثال متفرد على العدالة المجردة.

فقد روى فى أسباب نزول الآية[٧] أخبار كثيرة. كلها متفقة على أنها نزلت فى شأن رجل يقال له طعمة بن أبيرق، على خلاف فيما وقع، قال الفخر الرازي: إن طعمة سرق درعا فلما طلبت الدرع منه رمى واحدًا من اليهود بسرقتها ولما اشتدت الخصومة بين قومه وبين قوم اليهودي، جاء قوم طعمة إلى النبى ﷺ وطلبوا منه أن يعينهم على مقصودهم وأن يلحق الخيانة باليهودي، فهم الرسول ﷺ بذلك فنزلت الآية: انصافًا وتبرئة لساحة اليهودي، وإدانة للمسلم وقومه، فالعدالة محققة بين المتخاصمين بصرف النظر عن أى اختلاف فيما بينهم. وليست العدالة هى المرعية وحدها، وإنما يتلازم معها الكرامة المتأصلة والثابتة فى نظر الإسلام لكل إنسان:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾

(الإسراء: ٧٠)

تلك الكرامة التى لا تقف عند تقريرها كمبدأ على الحاكم المسلم، وعلى الدولة حمايته وضمانه لكل فرد.

يشهد على ذلك ما روى أنه عندما مرت جنازة ليهودى على رسول الله ﷺ فقام واقفا، فقال له بعض الصحابة: إنها ليهودي، فقال: «أليست نفسا» «صحيح مسلم ٩٦٠» يقصد ﷺ أنها نفس جديرة بالكرامة والتقدير مهما كان دينها أو جنسها، وهو منهج تشريعى جسدته وقائع عديدة وقننته قاعدة، لهم ما لنا وعليهم ما علينا فصار قاعدة مرعية فى كل دولة إسلامية، وهو ما ينبغى أن يكون فى أذهان الباحثين عن قيام الدولة التى تستلهم الفكر الصحيح للإسلام، والاجتماع الوطنى الرشيد.

٧ - محمد السايس، تفسير آيات الأحكام ١٩٥٣م، جـ ٢ ص ١٤٢

بين حروب نابليون وحروب الفتوحات العربية الإسلامية الأولى



أ. منير شفيق
المفكر الإسلامي والباحث الاستراتيجي

مدخل

عندما تقوم حروب الفتوحات العربية الإسلامية الأولى، يركز الجميع على الحماسة الدينية التى بثها الإسلام فى قلوب العرب فجعلهم يعجلون لنيل الشهادة، وقد حرصوا على كسب الآخرة أكثر مما حرص أعداؤهم على كسب الدنيا، وبولغ فى إبراز هذه الناحية إلى حد طغت معه على كل ما عداها.

فالذين أرخوا لتلك الحروب من زاوية عربية إسلامية، أرادوا أساسًا، من تناول تلك المعارك إظهار الدور الذى لعبه الإيمان فى كسب تلك الحروب، مما حول تلك المعارك إلى سلسلة من البطولات الفردية والجماعية، وضروب الشجاعة الخارقة، الأمر الذى جعلهم يقدمون تاريخ تلك الحروب على شكل قصص، وقصائد، وروايات.. وقد أدى هذا إلى طمس جانب الفنّ العسكرى فى تلك الحروب، وإضاعة ما أحدثه القادة العرب المسلمون من تطوير فى هذا الفنّ استراتيجيًا وتكتيكيًا.

فلو أخذنا مثلاً كتاب «المدرسة العسكرية الإسلامية» للأستاذ محمد فرج الذى حاول أن يقدم الموضوع من خلال تحليل علمى عسكرى، لوجدناه يستهلك معظم الكتاب فى إبراز تلك الناحية التى أشرنا إليها، وبالرغم من أنه حاول فى بعض الأحيان تناول الفنّ العسكرى الإسلامى إلا أنه حوله إلى عبارات تقريظ ومديح مع قليل من التحليل لدعم عباراته، بل إنه حاول فى آخر فصول مؤلفه أن يظهر كيف طبق المسلمون قواعد علم الحرب التى استخلصها «كلاوزيفتز» و«جوميني» و«فوللر»، بعد اثنى عشر قرنًا، بيد أن حروب المسلمين الأوائل كان يمكن أن تكون أساسًا لاشتقاق تلك القواعد التى اشتقت من دراسة حروب نابليون.

أما الذين أرخوا لتلك الحروب من زاوية معادية للعرب والمسلمين فقد التقوا فى الجوهر مع ذلك المنطق، فقد راحوا يصورون الجيوش العربية الإسلامية أرتالاً من المتعصبين الذين امتلأوا بالحماسة لدخول الجنة فراحوا يكتسحون كل ما أمامهم بهجمات محمومة دون أن يمتلكوا ناصية علم الحرب، فلو أخذنا مثلاً كتاب الجنرال ج. ب. غلوب «الفتوحات العربية الكبرى»، لوجدناه يؤكد المرة تلو الأخرى على تخلف العرب المسلمين من ناحية الفنّ العسكرى، بل حتى إنه حين كان يمر ببعض التفصيلات المدهشة فى تلك المعارك كان يحاول تقديمه بروح تنكر عليها وجود استراتيجية (عملانية) وتكتيك عسكرى متطورين جدًا.

وإذا كان المرء يجد بعض العذر لمحمد فرج حين لم يوفق، إلا بحدود، بالرغم من جهده المشكور والمقدر، فى تقويم تلك الحروب من زاوية علمية عسكرية، إلا أن المرء لا يستطيع أن يجد أى عذر للجنرال غلوب، لا سيما وأنه قدم تلك الحروب مدعومة بتفصيلات وخرائط تتناول فيها العمليات والتكتيك، ولم يبق إلا الخروج بالاستنتاجات المنطقية من تلك التفصيلات والخرائط إلا أن تعصبه الأعمى قاده إلى استنتاجات ليست خاطئة فحسب، وإنما منافية أيضًا للروح العلمية والأمانة، علمًا أنه مطلع على كلاوزيفتز.

ومن هنا، فإن النقطة الأولى التى لابد من إجلائها هى أن الانتصارات العسكرية التى تحققت فى حروب الفتوحات الأولى لم تكن نتاج الحماسة الدينية فحسب، وإنما أيضًا، نتاج وجود فنّ عسكرى متطور جدًا، ووجود قيادات استراتيجية وتكتيكية على أعلى مستوى.

إن هذه الموضوعة لا تستهدف الإنقاص من أهمية الجانب المعنوى لا من قريب ولا من بعيد، ولكنها تستهدف إبراز جانب الفنّ العسكرى، وإن كان من الضرورى قبل إبراز ذلك الجانب رؤية العلاقة بين اجتماع القوة المعنوية التى ولدها الإسلام فى العرب والفن العسكرى.

الجانب المعنوى والفنّ العسكرى

خصص كلاوزيفتز جزءًا كبيرًا من كتابه «حول الحرب» (ON WAR) على إبراز أهمية الجانب المعنوى فى الحرب، لا سيما الشجاعة والاستبسال فى القتال، ولهذا فإن مناقشة أهمية الناحية المعنوية مسألة مفروغ منها، ولكن لا يعنى هذا أن الحروب تكسب فقط بتوفر التفوق المعنوى، إذ أن أهمية الفنّ العسكرى - الاستراتيجية والعمليات وقيادة التكتيك فى المعركة - لا تقل أهمية عن الجانب المعنوى فهما صنوان كل منهما يكمل الآخر، ولا يؤدى افتقاد أحدهما إلا إلى الهزيمة.

طبعًا لا نقصد القول هنا إن الحرب هى جانب معنوى وفن عسكرى فقط.. إذ هنالك عوامل أخرى تلعب دورًا هامًا فى مصير الحرب مثل التفوق العددى والتقنى والوضع المدنى الاقتصادى، إن الذى يناقش الآن هو العلاقة بين الجانب المعنوى والفن العسكرى فى الفتوحات العربية الإسلامية الأولى.

ثمة جواب بسيط على أولئك الذين يفسرون الانتصارات العربية الإسلامية من زاوية واحدة فقط هى الحماسة الدينية، إذ كيف يستطيعون أن يفسروا بعض الهزائم التى منى بها المسلمون عندما كانوا فى أوج حماستهم الدينية وشغفهم بالاستشهاد، فإذا أخذنا معركة أحد فلن نجد وهنًا فى إيمان المسلمين، إنما سنجد الهزيمة نتاج خطأ تكتيكى ارتكبه

رماة النبل عندما تخلوا عن موقعهم الذى حدده الرسول ﷺ لهم وأمرهم ألا يتخلوا عنه تحت أى ظرف من الظروف، هنا نجد أن الحماسة الدينية والشغف بالاستشهاد لم يؤديا إلى نصر عندما وقع خلل تكتيكى، وقد استغله خالد ابن الوليد الذى احتفظ بقوة الاحتياط، ولم يستخدمها حتى وهو يرى قريش تنهزم وتولى الأدبار، ولكنه استخدمها عندما لاحت الفرصة المناسبة واللحظة الحاسمة.

هذا ويمكن أن يقال الشىء نفسه عن معركة الجسر ومعركة مؤتة بالإضافة إلى عدة حوادث هزم فيه المقاتلون المسلمون مثل هزيمة عقبة ابن نافع وكامل جيشه الذى كان معه على يد «البربر» فى شمال أفريقيا، أو الأربعة آلاف مسلم الذين شقوا طريقهم إلى باكو بعد معركة نهاوند حيث قضى عليهم الخزر ولم ينج منهم أحد.

إن المسلمين فى هذه المعارك طلبوا الاستشهاد بقوة لا تقل عن أية معركة ظافرة أخرى إن لم تزد عليها، فى الواقع لا يستطيع أحد أن يجد مطعنًا من الناحية المعنوية فى تلك الهزائم، بل على العكس سيجد طغيان الناحية المعنوية كان قويًا إلى حد أهملت بسببه بعض القواعد الأساسية فى الحرب، تلك القواعد التى حرص عليها المسلمون فى كل معاركهم الظافرة.

إذا أردنا أن نقوم الأهمية المعنوية التى لعبها الإسلام فى حروب الفتوحات فسنجد تلك الأهمية تتجلى:

أولا – من الناحية الاستراتيجية:

استطاع الإسلام أن يوحد العرب فى الجزيرة العربية، ثم فى سائر المناطق التى تواجد فيها العرب خارج الجزيرة، وبث فيهم روحًا ثورية عالية لنقل الإسلام خارج حدودهم: (حمل الرسالة)، ومن ثم كون الجيوش الجرارة، وحقق ما نسميه اليوم بالتعبئة العامة والحرب الكلية، وهى الأساس الذى ارتكزت عليه حروب نابليون بفضل الثورة الفرنسية.

ثانيا – الناحية التكتيكية والعملانية:

١- ولدت ثورة الإسلام قوات منظمة، وأرست قواعد الانضباط الصارم، مما عوض النقص فى التدريب النظامى.

٢- أدت الحماسة الإيمانية والشغف بالاستشهاد إلى إنجاح عمليات المناورة التى تتطلب جهودًا كبيرة على تحمل صعوبات السير مئات الأميال، وتحمل كل أنواع المشقات وشظف الحياة القتالية ولكن هذه العمليات تدخل فى إطار «التكتيك الكبير»، كما أسماه نابليون، هذا فضلاً عن الدور التكتيكى فى المعركة نفسها حيث أصبحت هجمات الصدام تتميز بزخم شديد للغاية، كان يأتى بعد المناورة وتحديد اتجاه الضربة الرئيسة.

إن ما تقدم لا يغطى كل شىء ولكنه يلقى ضوءًا على الأهمية الحاسمة، والأثر الكبير للدور الذى لعبته الناحية المعنوية استراتيجيًا وتكتيكياً، بل يمكن القول أن الفنّ العسكرى العربى الإسلامى ما كان له أن يتجلى بأروع صورة لولا توفر الناحية المعنوية تلك.

ولكن، كما سبق وقدمنا القول إن الناحية المعنوية وحدها ما كانت لتستطيع أن تحقق الانتصارات لولا أن توفر إلى جانبها مجتمع معبأ تم توحيده مع فن عسكرى متطور جدًا، فما هو هذا الفنّ العسكرى الذى لعب دورًا حاسمًا هو الآخر؟

لكى نقوّم المستوى الذى كان عليه الفنّ العسكرى فى تلك الحروب، سنعقد مقارنة بينه وبين نظيره فى حروب نابليون بونابرت، وهنا ينشأ سؤالان:

● الأول: لماذا المقارنة مع حروب نابليون؟ تعتبر حروب نابليون – استراتيجية عملياته وتكتيكه – الأساس الذى قام عليه علم الحرب الحديث، إذ لا يختلف اثنان من مؤرخى ومنظرى الحرب، فى الغرب فى أن نابليون يشكل نقطة الانعطاف التاريخية فى فنّ الحرب، فالجميع يتفقون على أن الحروب قبل نابليون كانت عبارة عن تحرك الجيش المركز من نقطة فى المكان إلى ساحة المعركة حيث يلتقى الجيشان فى معركة تخلو من المناورة الاستراتيجية، وفى أحسن الحالات تتضمن بعض المنورات التكتيكية.

ولكن الحرب فى عهد نابليون أصبحت حرب حركة.. تتميز بمناورات استراتيجية أسماها «التكتيك الكبير» تلعب دورًا حاسمًا فى تقرير مصير الاشتباك قبل حدوثه، ولهذا نظر كلاوزيفتز وجومينى لعلم الحرب المعاصر انطلاقًا من دراسة حروب نابليون، وسار على نهجها من جاء بعدهما من مؤرخين ومنظرين.

فى الواقع إن كل الذين كتبوا عن تاريخ الحروب، وقوّموا حروب نابليون، تجاهلوا الحروب العربية الإسلامية، ربما بسبب الجهل، أو التجاهل، بالدرجة الأولى، لأن نظرة سريعة إلى الفنّ العسكرى الذى استخدم فى حروب الفتوحات تكفى للخروج بالموضوعين التاليين:

أ- لا يمكن وضع حروب الفتوحات الإسلامية من ناحية الفنّ العسكرى استراتيجيًا وتكتيكيًا ضمن عائلة الحروب التى سبقت عهد نابليون، لأنها تمتاز عليها بكل ما امتازت به حروب نابليون، وذلك بالرغم من انتمائها زمنيًا إلى عهود ما قبل مرحلة نابليون.

ب- إن التطوير الذى أحدثه نابليون على فنّ الحرب، قد سبق واستحدث قبل ذلك بأكثر من ألف ومائة عام على يد العرب المسلمين، رغم أن التطوير الذى جاء به نابليون لم يكن استمرار موصول النسب بالتطوير الذى أحدثه العرب، أو فى الأقل لم يقم الدليل حتى الآن على أن نابليون اطلع على حروب الفتوحات، ومع ذلك من غير المستبعد أن يكون قد اطلع عليها، وهو المشهور بشديد اهتمامه بدراسته تاريخ الحروب القديمة.

● الثانى: هل من الصحيح إجراء مقارنة بين حروب نابليون وبين حروب الفتوحات؟ حقًا إن إجراء مثل هذه المقارنة يتضمن مخاطرة كبيرة لأن كلا من تلك الحروب قد وقع ضمن ظروف مختلفة اختلافًا جوهريًا.. إنها مختلفة زمانًا أى من ناحية التطور التقنى وأداة الحرب وقوى الإنتاج والعلوم، وهى مختلفة من ناحية المكان أى طبيعة الأرض والمناخ والظروف المادية والبشرية.. وهى مختلفة من حيث طبيعة كل منهما، أى من ناحية الأهداف التى قامت تلك الحروب من أجل تحقيقها، كما من ناحية القوى التى قادتها، ولكن إذا أخذنا هذه الاختلافات بعين الاعتبار وأجرينا المقارنة فسنجد تلك المقارنة مسوغة، خاصة عندما نضع أيدينا على أوجه الشبه المذهلة، بل إننا سندهش حقًا حين نرى أوجه الشبه بالرغم من تلك الاختلافات، ولكن يجب التذكر فى أثناء المقارنة أن الجانب النابليونى كان أكثر تطورًا بسبب تطور الأسلحة ووسائط النقل والعلوم

والإنتاج، ولكن في الاتجاه نفسه.

على أن الحكم الفيصل سيتقرر بعد خوضنا لهذه المخاطرة إذ سيظهر بالبرهان الملموس إن كنا على حق في ما ذهبنا إليه.

حروب نابليون وخالد بن الوليد

يقسم الجنرال الفرنسي أندريه بوفر ANDRE BEAUFRE (١٩٠٢م - ١٩٧٥م) في كتابه «مدخل إلى الاستراتيجية» INTRODUCTIAN TO STRATEGY تاريخ الحروب إلى عدة مراحل يهمنا منها الآن المرحلة الأولى والمرحلة الثانية. أما المرحلة الأولى فتمتد منذ أولى الحروب التي سجلها التاريخ حتى نهاية القرن الثامن عشر، أو على التحديد، حتى نابليون وقد تميزت هذه المرحلة الأخيرة باستقلال كل من العمليات والاشتباك، أي كانت العمليات والمعركة شيئين مختلفين مستقلين عن بعضهما البعض.

يرجع السبب في ذلك إلى أن مستوى تطور المعدات العسكرية والسلاح لا يتيح لوحدة صغيرة معزولة أن تقاوم مدة طويلة، أي إذا كان عليك التحرك بأمن فيجب أن يكون جيشك متراصًا يسير ككتلة واحدة، ولهذا فقد كانت عملية انتقال الجيش عبارة عن انتقال من نقطة إلى نقطة أخرى لمواجهة العدو، وكان من الممكن لأحد الجيشين أو لكليهما رفض القتال عن طريق الانسحاب من نقطة الالتقاء، أو بعبارة أخرى لم تكن هنالك عمليات تطويق استراتيجي ومناورات استراتيجية تفرض على العدو معركة سواء أرضي أم أبى، لذا كان على الجنرال أن يدخل المعركة بعد أن يؤمن تفوقا عدديًا أو وضعًا أقوى.

أما المرحلة الثانية - مرحلة حروب نابليون - فقد أصبحت العمليات والمعركة شيئين متمايزين ولكنهما مرحلتين متداخلتين، فقد تم على يد نابليون الجمع بين نظام التشكيلات المرنة للعمليات وبين التركيز المطلوب للمعركة، أما أعداؤه فظلوا يناورون مركزين، وقد أدى توزيع نابليون لقواته بعد أن قسمها إلى جيوش وحركها من نقاط مختلفة إلى شل عدوه وجعله لا يدرى أين ستكون نقطة التركيز في المعركة.

وبهذا كان بمقدور نابليون محاصرة العدو كما حدث في أولم ULM، أو الالتفاف من خلفه وقطع خطوط مواصلاته وإجباره على القتال، كما حدث في معركة جينا JENA، ومن ثم كان العدو مضطرًا إلى خوض المعركة حتى ضمن ظروف غير ملائمة، وهنا كانت العمليات الاستراتيجية هي العامل الحاسم أكثر من المعركة.

وبكلمات أخرى كان تحرك جيوش نابليون سريعًا مرنًا يستطيع أن ينسحب إذا شاء ويستطيع أن يفرض على العدو المعركة من دون أن يتيح له إمكان الانسحاب، الأمر الذى جعل استراتيجية العمليات تؤمن له نصرًا بعد نصر.

أما الجنرال البريطاني د. ك. باليت D. K. PALIT (من منظرى الاستراتيجية النووية، في كتابه «أوليات المعرفة العسكرية» THE ESSENTIALIS OF MILITARY KNOWLEDGE فيعتبر هو الآخر نابليون نقطة الأساس في العلم العسكرى الحديث، ويرى أن الثورة الفرنسية خلقت الظروف التي أتاحت لنابليون استغلالها، وذلك حين أصبح بالمقدور أن يقسم الجيش الشعبي إلى عدة جيوش كل جيش منها

تحت قيادة مستقلة، وكل جيش يتشكل من مختلف الأسلحة وقادر على خوض المعارك بمفرده، الأمر الذى فتح إمكانات استراتيجية وتكتيكية جديدة.

وكذلك أدى تطوير الطرقات ووسائط النقل إلى زيادة قوة المناورة، وولد مفاهيم مثل «خطوط العمليات» و«الخطوط الداخلية»، و«الخطوط الخارجية» في حين كان أعداء نابليون يعملون ضمن جيوش مكثفة تحت قيادة مركزية مما جعلهم غير قادرين على ممارسة المناورة الاستراتيجية والمناورات التكتيكية، أما نابليون فقد كانت فرقه المنفصلة تعمل على نقاط متباعدة، وذات إمكانات على المناورة الذاتية، ومن ثم كانت قادرة على رسم خطة للمعركة بمرونة أكبر وقوة حركة أسرع.

كان نابليون قادرًا على تقسيم التنفيذ إلى مرحلتين منفصلتين، مرحلة المناورات قبل الاشتباك ومرحلة المعركة نفسها، فقد استهدف من المرحلة الأولى كسب موقع استراتيجي من خلال تتابع تحرك مختلف الفرق التي تقوم بتطويق العدو أو الالتفاف على أحد أجنحته بحركة فائقة كما حدث في «أولم»، أو قطع خطوط مواصلاته كما حدث في «جينا»، وأخيرًا عندما يوضع العدو في وضع غير ملائم له، كان نابليون ينفذ المرحلة الثانية من خلال تجميع جيوشه أو فرقه والإطباق على العدو بتشكيلات هجومية.

أما جوميني JOMINI الذى عمل تحت قيادة نابليون والذى يعتبر أفضل من أرّخ لحروب نابليون من الناحية العسكرية العملياتية والتكتيكية، فقد ركز في كتابه «خلاصة فن الحرب» SUMMARY OF THE ART OF WAR على أهم الدروس التي استقاها من حروب نابليون، وهي جلب القسم الأعظم من قوات الجيش بالتتابع من خلال إجراءات استراتيجية إلى المسرح الرئيس في الحرب، على أن تقطع طرق مواصلات العدو دون أن تعرض طرق مواصلاتها هي إلى الخطر، إن المناورة بهذه الطريقة تستهدف وضع قواتك الرئيسة ضد أجزاء من قوات العدو، وهذا لا يكفي أن يكون جلب تلك القوات إلى احتلال النقاط الحاسمة فحسب، وإنما يجب أيضًا جعلها تعمل بسرعة وجماعيًا بحيث تقوم بجهد موحد.

وإذا كان كلاوسيفتز CGAUSEWITZ قد حلل حروب نابليون ضمن تلك الخطوط إلا أنه اهتم بصورة خاصة في كتابه «حول الحرب» (ON WAR) في مسألة أخذ القرار الاستراتيجي الحاسم الذى يعني دفع الحرب «إلى حدها الأقصى»، حيث يجب أن تنتهي إما بسحق العدو نهائيًا أو بالإطاحة به إطاحة كاملة، كما كانت استراتيجية نابليون دائمًا، كما اهتم دور الجانب المدني للأمة في الحرب.

أما جيمس مارشال كورنول JAMES MARSHAL - CORNWALL في مؤلفه الضخم «نابليون كقائد عسكرى» NAPOLION AS MILITRAY COMMANDER فقد حاول أن يبرهن على التطوير الذى عرفه الفنّ العسكرى على يد نابليون لم يكن من إبداع نابليون بالذات، وإنما سبق وولدته التجارب السابقة، وتناولته كتابات عسكرية تقدمت على عصر نابليون، أما دور نابليون فقد تلخص بالتطبيق الخلاق لكل التجارب والكتابات على أرض الحرب والمعركة، فمثلا:

أ- المبدء التكتيكي الذى سبق واستخلصته

الثورة الفرنسية فى الفترة ما بين ١٧٩٢ – ١٧٩٥، وهو أن يشن القائد هجومه الرئيسى بأرتال COLUMNS مكثفة هجومية ضد النقطة التى يعتبرها مفتاح موقع العدو، وبعد أن يكون قد زعزع الدفاع بنيران تحضيرية عن طريق المناوشين SKIRMISHERS وتركيز المدفعية، أما إضافة نابليون على هذا المبدء فلم تتعد زيادة نسبة المدافع والاحتفاظ بمدفعية احتياط تحت تصرفه من أجل تركز نيرانها عندما تصل المعركة أوجها.

ب- وكذلك الحال بالنسبة إلى «التكتيك الكبير» (GRAND TACTICS) والالتفاف حول الأجنحة وتنظيم الجيش إلى فرق وفيالق من أجل امتلاك مرونة أكبر فى الزحف وفى المعركة فقد جاء نتيجة تجربة حرب السنوات السبع.

ج – تشديد نابليون على ضرورة أن تعيش جنوده من البلاد التى تدخلها، أو تعمل فيها، وبهذا تمتلك حرية المناورة حين تتحرر من الاعتماد على الإمدادات والمخازن الخلفية هو تقليد الجيوش الثورية، وقد رجع منشأه من حاجة فرنسا إلى إطعام الجيش من خارج الحدود.

د- كان مرشال كونت دى ساكس MARSHAL COUNT MAURICE DE SAXE (١٦٩٦ – ١٧٥٠) والذى وصفه ليدل هارت بأنه «نبى العسكرية» قد كتب فى مذكراته REVERIES (١٧٣٢) حول ضرورة زيادة حركة الجيش ومناوراته، واقترح من أجل تحقيق ذلك، تنظيم الجيش على أساس ليجونات (أو قل فرق باللغة الحديثة) على أن تكون كل فرقة قوة قتالية مستقلة مؤلفة من كل الأسلحة.

هـ- إن تقسيم الجيش إلى جسم رئيس تسبقه قوات طليعة وله احتياط فى الأجنحة جاء نتيجة تجربة حرب السبع سنوات، وقد أكسب هذا التنظيم الجيش مزيدًا من الحركة والمناورة إذ أتاح للجسم الرئيسى أن ينشر صفوفه DEPLOY أو يلتف حول أجنحة العدو بينما تكون قواته الطليعية قد أشغلت الجسم الرئيسى فى قوات العدو وجمدته، وكانت هذه التشكيلة هى تشكيلة فرق جيش نابليون عام ١٧٩٦ م فى حملته الأولى على بيدمونت PIEDMONT.

إن الفنّ العسكرى هنا يتلخص فى تقسيم الجيش إلى عدة أقسام، وإبقاء الأقسام تحت سيطرة القائد وضمن تعاون قريب لتجنب هزيمة أى قسم على حدة من جهة، ومن أجل التركيز للمعركة فى اللحظة الحاسمة من الجهة الأخرى.. إن المبدأ العام هنا هو الزحف بأرتال مختلفة، ولكن القتال يتم على أساس توحيد تلك الأرتال وتركيزها فى المعركة.

و- كان الجنرال ج. جيوبرت J. A.H GUIBERT (١٧٤٣ – ١٧٩٠) وهو الذى درسه نابليون جيدًا قد كتب «فى الماضى كانت الحركات الضرورية لجعل الجيش يأخذ شكل رتل أو خط للمعركة، بطيئة ومعقدة إلى حد كانت تستغرق فيه عدة ساعات من أجل أخذ المواقع، وكان على الجيش أن يصطف من مسافة بعيدة عن العدو، أما فى المستقبل فيجب أن تكون الحركات بسيطة سريعة متأقلمة مع كل أنواع الأرض، كما يجب أن تنظم تشكيلة القتال فى آخر لحظة ومن أقرب مسافة ممكنة من العدو، لأن الأرتال COLUMNS أسهل على المناورة من الخطوط LINES.. وذلك لأن تضييق نقطة الهجوم فى اللحظة الأخيرة سيؤدى إلى إرباك العدو وعدم

إتاحة فرصة له لمواجهته».

لقد أراد جيمس كورنول من كل ما تقدم أن يؤكد على أن تلك التطويرات العسكرية التى تنسب إلى نابليون كان مسبوقًا عليها، أما عبقريته فتتلخص فى تطبيقها تطبيقًا خلاقًا.

أما فريدريك إنجلز فى موضوعه «نظرية القوة» فى كتابه «ضد دوهرنغ»، فقد أبرز كيف ألغيت قيمة تشكيلة الخطوط LINES القتالية أمام زمر الثوار الأمريكيين فى حرب الاستقلال الأمريكية حيث أعيد اكتشاف القتال بأسلوب المناوشات، وهو أسلوب جديد فى الحرب جاء نتيجة تغير المادة الإنسانية، أى الرجال الذين يقاتلون من أجل قضية، وليس كجيوش مرتزقة.

ثم يشير إلى الثورة الفرنسية التى أكملت ما بدأته الثورة الأمريكية فى المجال العسكرى حيث واجهت جيوشًا مرتزقة حسنة التدريب بقوات تمثل تجنيد أمة بأسرها، ولكن كان على الثورة الفرنسية أن تدافع عن باريس وتدخل معارك مكشوفة مما جعل أسلوب قتال بالمناوشات غير كافٍ، فتم اكتشاف شكل جديد يستخدم من قبل كتل كبيرة من المقاتلين وهو تشكيلة الرتل COLUMN.. وقد أتاحت هذه التشكيلة إمكان التحرك بسرعة وبدرجة جيدة من النظام بالنسبة إلى قوات ضعيفة التدريب كما أتاحت تشكيلة الرتل إمكان القتال على أى أرض حتى على الأرض التى تعتبر غير مواتية إطلاقًا لتشكيلة الخطوط، لقد أتاحت تشكيلة الرتل العمل جنبًا إلى جنب مع هجمات من قبل قوات المناوشة لإشغال تشكيلات خطوط العدو وإبقائها فى حالة اشتباك، وإنهاكها إلى أن تأتى اللحظة المناسبة لتندفع كتل الاحتياط الهجومية فتخرق تلك الخطوط فى النقطة الحاسمة.

ويتابع إنجلز قائلاً: «إن هذا الأسلوب الجديد فى الحرب والقائم على أساس الجمع بين قتال المناوشات وقتال الأرتال، والقائم أيضًا على أسس تقسيم الجيش إلى فرق أو فيالق مستقلة مؤلفة من كل أنماط الأسلحة، قد بلغ غاية كماله على يد نابليون سواء أكان من ناحيته الاستراتيجية أم من ناحيته التكتيكية».

وإلى هنا، نكون قد استعرضنا كيف يقوّم المنظرون والمؤرخون العسكريون التطوير الذى حدث فى فنّ الحرب فى عهد حروب نابليون، وبهذا تكون الخطوط الأساسية، أو قل السمات الرئيسية التى تميز بها الفن العسكرى على يد نابليون قد حددت وهى التى اعتبرت نقطة انعطاف فى فن الحرب انتقلت به من مرحلة متدنية إلى مرحلة أرقى مختلفة كيفيًا عن المراحل التى سبقتها.

ولكن نزعم، أن الفنّ العسكرى فى عهد الفتوحات العربية الإسلامية الأولى لا يمكن وضعه استراتيجيًا وتكتيكيًا ضمن عائلة الحروب التى سبقت عهد نابليون، لأنه يمتاز عليها بكل ما امتازت به حروب نابليون عليها، فكل ما أحدثه نابليون من تطوير على فنّ الحرب قد سبق واستحدث قبل ذلك بأكثر من ألف عام (١١٦٠ سنة) على يد العرب المسلمين، والآن، لابد من إقامة الدليل الذى يحوّل الزعم إلى حقيقة ملموسة.

ولكى تصح المقارنة يتوجب ملاحظة تلك السمات التى امتاز بها الفنّ العسكرى تحت قيادة نابليون كأجزاء أولاً ثم رؤية ديناميكية عملها مجتمعة ثانيًا.

«يتبع»



الشيخ عبد العزيز جاويش رائد الإصلاح والعمل الوطني



أ . د . حلمي محمد القاعود

كان الشيخ يحضر دروس الإمام محمد عبده فتأثر به في تفسير القرآن وفي البحث الديني وفي اتجاهاته الإصلاحية، فسلك في ذلك سبيل التأليف والخطابة، فألف كتاب (الإسلام دين الفطرة) أثناء وجوده في إنجلترا وترجمه للغة الإنجليزية ليسهم في بناء مفاهيم الإسلام والكشف عنها.

وقد تابع نشاطاته الدعوية بحضور المؤتمرات والندوات التي يدعو فيها إلى قيم الإسلام وفضائله، ويدافع عن الدين والقرآن الكريم بكل ما أوتي من قوة، يساعده على ذلك وعي عميق بأصول الإسلام وغاياته.

ولعل أهم ما خلفه عبد العزيز جاويش في مجال الدفاع عن الإسلام وبيان قيمه وفضائله الإنسانية كان مجموعة من المحاضرات حققها الدكتور محمد عمارة ونشرتها مجلة الأزهر، القاهرة، ١٤٣٣هـ تحت عنوان «أثر القرآن في تحرير الفكر البشري».

هذا الكتاب عبارة عن مجموعة محاضرات ألقاها الشيخ جاويش للرد على الدعاوى التي شاعت عقب سقوط الخلافة الإسلامية، وظهور «الفتن الفكرية التي يباع فيها الدين بيع سماح!» لإهالة التراب على هذا الرمز وهذا الوعاء، وطال الهجوم التغريبي - كما يقول محمد عمارة - عددا من ثوابت الإسلام!

ومن ذلك صدور كتاب «الإسلام وأصول الحكم» المنسوب لعلي عبد الرازق لادعاء علمنة الإسلام والفصل بين الدين والدولة وتشويه الخلافة الإسلامية وتقديمها في صورة الكهانة القائمة على القهر والاستبداد.

ومنه أيضا صدور كتاب «في الشعر الجاهلي» لطه حسين» الذي شكك في الصدق التاريخي لعدد من قصص القرآن الكريم وبعض العقائد الواردة فيه، ومنها علاقة الإسلام بالحنيفية والحنفاء، وصلته بملة إبراهيم - عليه السلام - والرحلة الحجازية لأبي الأنبياء، وإقامته وإسماعيل - عليهما السلام - قواعد البيت الحرام.

وكان الشيخ جاويش في طليعة من شاركوا في الجهاد الفكري ضد هذه الأفكار الصادمة، والهجوم عليها من خلال هذه المحاضرات التي ضمها هذا الكتاب الذي يقول لخصوم الإسلام: إن الذكر الحكيم هو الذي حرر الفكر البشري من القيود، ووضع الإصر والأغلال عن الحضارة الغربية. (ص ١٤ - ١٥).

ويطرح جاويش إجابة منطقية على تساؤل متداول في المجتمعات الغربية وهو: إذا كان القرآن هو دين الفطرة وإذا كان مقياس صحة الأحكام من الوجهة القرآنية هو العقل والمنطق فماذا عسى أن تكون فائدة الدين؟ ومن ثم لماذا يترك العقل يجاهد وحده في سبيل الحق والحقيقة حتى يبلغهما؟ ولقد كانت الإجابة مؤداها ضرورة انسلاخ بعض القرون في التجارب والأبحاث للوصول إلى ما تنشده النفس البشرية من وجوه الصواب والمطابقة للمصلحة، من هنا فقد جاء القرآن بدين الفطرة في كل شيء فطابقت أحكامه وأصول آدابه وشرائعه مقتضيات تلك الفطرة.

وقد حلق جاويش بفكره في محاولة لترجمة المقاصد الظاهرة والخفية في كل ما ارتبط بالإسلام عقيدة ومنهجا. ولعل في مقولاته التالية ما يضيء منهج الإسلام في الإعلاء من شأن العقل والتفكير:

«إن القرآن ومن ورائه علماء الكلام وأصول الدين، كلهم يجمعون على ضرورة طلب عقيدة الإيمان بوجود الله عن طريق النظر والاستدلال».

«ونحن على ثقة أنه لو درس شيوخ المسلمين العلوم الكونية وعرفوا أسرار سنة الله في خليقته لما كثرت الملاحدة وفشت المناكير».

«إن القرآن لم يذر وسيلة موصلة إلى إنعاش العقل وتحرير الفكر إلا وتذرع بها، فهو إذا تحاكم إلى العقل، وإذا حاج فبحكم العقل، وإذا سخط فعلى معطلي العقل، وإذا رضي فعن أولي العقل».

يعرض الشيخ جاويش لما كانت عليه الأمم الكبرى في طائفة من القرون التي سبقت ظهور الإسلام من التطورات وما تعاقب على العقول من مد وجزر وتحرير واستعباد، وذلك في إدراك ما فعل القرآن في إنصاف العقل الإنساني وإحلاله المقام الذي خوله خالقه منذ فطره وأوجده (ص٢٥).

ولعل القضية الأهم التي عالجها في سلسلة هذه المحاضرات هو موقف القرآن الكريم من قضية العلم والمعرفة، كما ورد في المحاضرة الرابعة وهي بعنوان: «مقام القرآن الحكيم إزاء العلوم والمعارف الكونية»، والمحاضرة طويلة ويشير في سياقها إلى ما يتوهمه بعض المثقفين العصريين في كتاباتهم بالصحف والمجلات حول العداوة الدائمة بين العلم والدين، ويرى أن هؤلاء اتبعوا الظن وما تهوى الأنفس مع جهلهم بتاريخ الأمم الغربية ومصدر تقلباتهم وتطوراتهم، ويكتفون بالإشارة إلى «المستر» فلان الإنجليزي أو «المسيو» فلان الفرنسي أو «الهر» فلان الألماني دليلا وبرهانا على صحة ما يقولون ليصدقهم الناس دون مناقشة أو تمييز، ويقودهم ذلك إلى الإرجاف بمقولة فصل الدولة عن الدين وإن حرية الفكر الإنساني تستلزم انقلابه ماديا طليقا لا يتقيد بشيء من قيود الأديان. ثم يركز على المرحلة اليهودية المسيحية وما حدث فيها من انحرافات وفواحش، وهو ما فرض على علمائهم أن يفرضوا عليهم عقوبات قاسية زجرا لهم عن رجس الشهوات التي عكفوا على مرضاتها وأسلموا مقاليدهم لها حتى أنستهم وهبطت بهم إلى مراتب سائر الحيوان الأعجم. وكان من العقوبة والتنكيل ما حضوا عليه من الرهبانية والترغيب في الخصاء وإفناء القوى العقلية والبدنية بالصوم المرهق والتعذيب بالتحرج عن أكثر مطالب الحياة..

ويستطرد في حديث مسهب حول الواقع اليهودي المسيحي وما جرى فيه من بعد عن

*وقع خطأ في العدد السابق بكتابة كلمة «الأخيرة» على المقال في حين أنه تبقى منه حلقتان لذا لزم التنويه

الفطرة الإنسانية وجوهر الرسالة السماوية ليشير إلى أن القرآن جاء لتحرير العقول البشرية من رق التقليد وإخراج الوجدان الإنسانى من نطاق الحجر الذى ضربه من حوله رجال الدين، كما جاء لإنهاض العقل الآدمى واستحثاثه فى سبيل التفكير والنظر جاء يحفز النفس البشرية ويسوقها لتقرأ صحف الطبيعة وتتدبر آيات صنعتها البديعة. وقد بغّض القرآن إلى الإنسان رذيلة التقليد ونعى عليه الجمود على ما ورثه آباؤه الأولون أو شاءه الأحبار والربانيون حتى لقد سمى القرآن هؤلاء أربابا لمقلديهم فى قوله تعالى:

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾

(التوبة: ٣١).

ويقارن بين ما جاء فى القرآن وما وضعه الفلاسفة الماديون منذ فجر التاريخ، وما قامت به الكنيسة من اضطهاد ومطاردة لأصحاب العقول حول البحث والعلم والنظر ويتساءل: هل اضطهد القرآن وأهل القرآن أمثال برونو وغاليليو وأمعنوا فيهم تنكيلا وتحريقا لغير علة سوى أنهم بعد إذ اعتمدوا على الحس والمعاينة وتسلحوا بالآلات المكبرة والمقربة استنكروا عتيق الخرافات وأعلنوا الدعوة إلى المشهودات وآذنوا بالحرب والقطيعة أصحاب الظنيات؟» (ص ١٣٣).

ويشير إلى ما أنتجه العلماء المسلمون فى ظل القرآن الكريم من موسوعات العلوم العقلية فى الرياضيات والطبيعيات وما وراء الطبيعة، فهو الذى دعا إليها ورغب فى البحث عن دقائقها وأسرارها وببركته وُجد بين المسلمين آلاف من أمثال الكندى ومحمد بن موسى الخوارزمى ويحيى بن أبى منصور والعباس بن سعيد الجوهرى وأحمد بن كثير الفرغانى وجعفر بن محمد البلخى ونصير الدين الطوسى، وألوغ بك وثابت بن قرة وعمر الخيام وابن سينا وأبى نصر الفارابى وابن رشد والحسن بن الهيثم وأشباه هؤلاء من فطاحل العلوم الرياضية والطبيعية والفلكية والأثقال والموسيقى وغيرها.

ويناقش الشيخ جاويش موقف القرآن الكريم من العلوم sciences وهل فى طبيعة دراستها بالأساليب الحديثة ما يجعل بينها وبين القرآن وتعاليمه سدًا لا يتعاونان معه وقتالا لا يرجوان سلامًا بعده؟! ثم يدخل فى تناول دقيق لمعنى كلمة العلم فى المفهوم الغربى والمفهوم الشرقى من خلال مقولات العلماء الأعلام، وموقف الكنيسة وقفة المحارب العنيد فى بدء بناء العلم مذ حكمت بالكفر على شعبة الإلهيات فى جامعة توبنجن بألمانيا وعلى الفيلسوف كيلر سنة ١٥٩٦م، وأصدرت محكمة التفتيش قرارها بأن نظرية الشمس مركز الدنيا وأنها لا تتحرك من مكانها هذيان فلسفى ونظامى وهرطقة مناقضة للكتاب المقدس. وأيضا نظرية الأرض ليست مركز الدنيا وأنها غير قارة ومتحركة ومتنقلة مساوية للنظرية السابقة فى هذياتها وخطئها من الناحية الدينية، وهى عقيدة خاطئة على أقل فرض. ويستعرض الشيخ جاويش نماذج أخرى لحركة العداء للعلم فى الغرب، ويقرر بكل توكيد أن القرآن الكريم مذ نزل لا يفتأ يدعو العقل إلى التفكير، والأبصار إلى الاعتبار والآذان إلى الاستماع، ولا ينفك يستدرج الناس إلى التحسس من أسرار الكائنات، ويحفزهم إلى الكشف عن غوامضها والتنقيب عن دقائقها..

ويسهب الشيخ جاويش فى بيان عدة نقاط حول القرآن والعلم، فهو ليس كتاب بحث علمى يبحث فى الشئون الكونية والمسائل العلمية الفنية على النحو المألوف فى كتب

العلم المتخصصة. بيد أن القرآن يسترعى الناس بالضرورة إلى وجه الخطأ فى عقائدهم ومعلوماتهم الخاطئة بالكون ويشككهم فى الباطل الذى اتبعوه، ثم يضرب لهم الأمثال لم تفكر؟ وفيم تفكر؟ وكيف تفكر؟ فيمهد بذلك أرض العلم لتقيم العقول البشرية عليها صروحه الشامخة المتينة، وقد طالب الناس بسؤال أهل الذكر فيما لا يعلمون وترك ما لا يدركون إلى من يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير، ثم إن ثورة المسيحيين فى أوربا فى وجه العلم ونظام الحكم لا تشبه الشعوب الإسلامية، فقد كانت ثورتهم الدموية نتيجة لأن رجال الكنيسة باسم الدين حجروا على العقول والوجدان وحرّموا على الناس استيضاح ما غمض عليهم وقرروا تكفير من يقول بغير آرائهم.

ثم يدخل الشيخ فى مقارنة بين ما وصل إليه العلم الحديث وما أشار إليه القرآن الكريم من خلال أمثلة عديدة ليكشف أن القرآن الكريم يحض على العلم ويدعو إليه. ومن ذلك على سبيل المثال: تكون أصول جميع الكائنات من زوجين اثنين وبلسان العلم الحديث - ألكترون وبروتون: الآية

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾

(الذاريات: ٤٩).

فما من شيء فى الوجود إلا منه الذكر والأنثى سواء فى ذلك النبات والحيوان والجماد وغيرهن مما لا نعلم، وجاء فى بيان إجمال ذلك قوله تعالى:

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(يس: ٣٦).

وفى قوله: ﴿ مِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ من المعانى ما يسكن إليه عقل الإنسان فى كل زمان ويطابقه كما رأينا أحدث نظرية فى أصول الأكوان. (ص ١٣٨ وما بعدها).

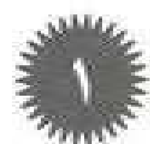
لا يحتمل المجال استعراض بقية الأمثلة والنتائج التى ذكرها جاويش، وتدل على عمق وعيه بالقضية التى يعالجها، واطلاعه العميق على تفاصيلها وقراءاته الجيدة فى المجال العلمى، لقد رأى أن ما قدمه عجالات وبعض أمثال لأن استقصاء هذه المباحث يحتاج وفق تعبيره إلى ضخام المطولات، ويسأل الله أن يوفقه إلى إكمال هذه الموضوعات وإيفائها حقها من الشرح والبيان خدمة للدين وهداية للمستهدين من المؤمنين.

لقد أثنى على هذه المحاضرات وصاحبها نفر من أعلام عصره منهم عبد العزيز البشرى وأحمد يوسف نجاتى أحد أساتذة البيان والأدب بمدرسة دار العلوم وكلية اللغة العربية، الذى قال فى وصف الشيخ عبد العزيز جاويش بك مراقب التعليم الأولى بوزارة المعارف: «ذاكم العلم الواضح الذى ضم إلى الثقافة الشرقية العربية الثقافة الحديثة الغربية، فجمع بين المزيتين، وأنال منهما الحسنيين، وعنى منهما باللباب دون القشر فميز الرشد من الغيّ وزاد تضلعه فى العلوم الحديثة وتمكنه من اللغات الحية الراقية علما إلى علم وإيمانا إلى إيمان، وعرف من أسرار الكتاب الكريم والذكر الحكيم ما جهله الذين التبست عليهم سبل المدنية الصحيحة، واشتبهت عليهم طرق الحضارة الحقة فأخطأوا القصد وتاهوا عن المحجة فضلوا وأضلوا.....» (ص ١٦٦ وما بعدها).

ومثل هذه الشهادة، يؤكد أن الشيخ جاويش كان عالما عاملا فى سبيل الدعوة، وأنه كان نموذجا للرائد الذى لا يكذب أهله.

يتبع

الفقه الإسلامى فى طريق التجديد



أ. د/ محمد سليم العوا



الفقه الإسلامى هو العمل البشرى لمحاولة فهم النصوص الإلهية التى يتضمنها القرآن الكريم وصحيح السنة النبوية، وفى ضوء هذا الفهم وحدوده يتم تطبيق تلك النصوص فى الواقع العملي.

وقد عرف العلماء الفقه بأنه: «العلم بالأحكام الشرعية العملية علمًا مستمدًا من الأدلة التفصيلية لهذه الأحكام»، واشترط فى الفقيه، إلى جانب المعرفة العلمية المتميزة، معرفة متميزة بالواقع الذى يعيش فيه، ويفتى الناس، أو يقضى بينهم، أو يعلمهم، فى ظل ظروفه وأوضاعه، واهتموا بهذا الشرط حتى منعوا من الإفتاء من لا يحسن معرفة الواقع ويحيط بالأعراف القائمة فيه، وعبر عن هذا الاهتمام أحسن تعبير الإمام شهاب الدين القرافى «المالكى المصري» حين قال: «فمهما تجدد العرف اعتبره، ومهما سقط أسقطه، ولا تجمد على المسطور فى الكتب طول عمرك، بل إذا جاءك رجل من غير أهل إقليمك يستفتيك لا تجره على عرف بلدك، واسأله عن عرف بلده وأجره عليه وأفته به، دون عرف بلدك والمقرر فى كتبك، فهذا هو الحق الواضح والجمود على المنقولات أبدًا ضلال فى الدين، وجهل بمقاصد علماء المسلمين والسلف الماضين» (١). والمختصون فى تاريخ الفقه الإسلامى وتطوره يقررون أنه مر بأدوار ثلاثة:

- أولها: دور الاجتهاد المتحرر من كل قيد سوى الالتزام بالكتاب وصحيح السنة.
- وثانيها: دور نشأة المذاهب الفقهية الكبرى وتميزها ونسبتها إلى أصحابها الذين أسسوها، ثم تدوينها فى المصنفات الفقهية المذهبية.
- وثالثها: دور التقليد الذى قعدت فيه الهمم عن الاجتهاد، واكتفى المنتسبون إلى العلم الشرعى بتقليد الأئمة السابقين وأصحابهم وتلاميذهم ونقل أقوالهم وفتاواهم، وبالغ بعضهم فجعلها أصولاً يقيس عليها وأدلة يحتج بها، وهذا أو ذاك لا يصح إلا فى نصوص الشرع التى مصدرها الوحي.

ثم يضيف بعض أهل العلم بهذا التاريخ دورًا رابعًا بدأ فى هذا العصر الحديث يسمونه دور الإحياء أو دور النهضة الفقهية المعاصرة.

ويرصد المتابعون للحركة الفقهية الإسلامية مئات الأدلة على بدء هذا الدور الجديد وعلى كسبه كل يوم أرضًا جديدة بين علماء الأمة ومفكريها حتى لم يعد أحد، ممن يعتد بقوله ويؤبه لرأيه، يذهب فى شأن التقليد ولزومه، والاجتهاد ومنعه، مذهب الأجيال المقلدة من الفقهاء الذين حجروا ما وسعه الله على خلقه فمنعوا الاجتهاد، وحملوا على من دعا إليه أو مارسه، وزعموا إغلاق بابه دون سند من الشرع أو العقل.

ولكن هذا الدور من أدوار الفقه الإسلامى لا يستطيع أن يبلغ مداه، ويؤتى أكله، فتحصد الأمة ثماره فهمًا للشريعة يلائم متطلبات العصر، إلا إذا تأصلت مدرسته الفكرية بين العلماء وطلاب العلم، والدعاة والمفكرين والحركيين الإسلاميين سواء بسواء.

ولست ممن يقولون بإهمال الفقه المدون على أصول المذاهب الإسلامية كلها، بتراثها وتنوعها، بل أنا ممن يرونه ثروتنا القانونية التى لا تماثلها ثروة أمة أخرى، ولكننى أقول: إن كثيرًا من المسائل التى تقع للناس اليوم تحتاج إلى اجتهاد جديد يؤدى دوره فى تيسير تطبيق الشريعة الإسلامية على واقع الناس، وفى تقريب العباد إلى الله سبحانه وتعالى بتشجيعهم على طاعته بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، ولا يكون ذلك إلا باستصحاب قواعد الاجتهاد الأصيلة ومن أهمها قاعدة ضرورة المعرفة بالواقع مع المعرفة بالنصوص، حتى يكون تنزيل النصوص على الواقع تنزيلا عن بينة وبصيرة، يلائم بين حاجات الناس وبين الرأى الفقهى أو التشريعي، كما فعل الصحابة والتابعون وأعلام الفقهاء المجتهدين على امتداد قرون المجد العلمى الإسلامي، وكما فعل أفذاذ العلماء فى كل عصر على طول التاريخ الإسلامى كله.

وحاجتنا إلى فقه جديد، وقيام المؤهلين من العلماء بالتجديد الفقهي، ضرورتان تظهرهما النظرة العابرة إلى بعض الموضوعات التى تتناولها أقلام الكاتبين وألسنة المتكلمين تناولا يظهر الفقه الإسلامى بمظهر «التراث» الجامد الذى لا يتطور ولا يتغير، ولا يفكر أصحابه فى مواجهة حقائق الواقع بقدرات العقل واحتمالات الوجوه المتعددة لكل نص.

فالكتابة الإسلامية - أو المنتسبة إلى الإسلام - عن مسائل شديدة الخطورة فى حياتنا الثقافية والسياسية والدينية كثيرًا ما تعبر عن مجرد القدرة على نقل ما قرره الفقهاء الأقدمون من أحكام اجتهدوا فيها أو قلدوا من سبقهم فى تقريرها، وكثير من هذه الأحكام مبنى على واقع العصر الذى تقرر فيه، أو مبنى على عرف بلد أو قوم بعينهم، أو مبنى على الوقوف عند سبب نزول الآية القرآنية أو سبب ورود الحديث الشريف، مع أن القاعدة المتفق عليها عند الجميع أن «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب»، أو مبنى على تعميم نص خاص، أو إطلاق حكم مقيد.. وكل ذلك وغيره، مما ينبغى النظر فيه نظرًا جديدًا يلائم فيه الفقيه بين حقائق الدين الثابتة وبين واقع الناس الذى لا يستقر على حال.

ثم ينبغى أن يعمد الجميع إلى إشاعة هذا الفقه الجديد والفكر المتجدد بين الناس، علمائهم وعامتهم- حتى يستقر للأجيال الحاضرة نصيبها من الإسهام فى أداء واجب تقريب الشرع إلى الخلق وتيسير حياتهم فى ظلاله، وبهذا الاجتهاد والتجديد، والعلم به علمًا عامًا، وقبول الأمة له، تستمر للفقه الإسلامى حياته وقدرته على التطور الفاعل الذى لا يبقى نظام قانونى يفقد القدرة عليه، مهما يكن أساسه صحيحًا وماضيه مضيئًا.

- وقائمة الموضوعات التى تبرز فى شأنها حاجتنا إلى فقه جديد، يستصحب أصول شريعتنا ومناهج الاستدلال المقررة فيها، ويلبى - من خلال إنزال هذين العنصرين الثابتين على الواقع، المتجدد دائمًا المتغير أبدًا - حاجات المسلم المعاصر، فردًا كان أم جماعة، قائمة هذه الموضوعات بالغة الطول، بل لعلها تستعصى على الحصر.

وجدول الأولويات فى هذه القائمة لا يمكن أن يرتب ترتيبًا نظريًا مجردًا يصلح لكل زمان ومكان ولكنه يجب أن يرتب عند النظر إلى حال كل مجتمع بحسب الضروريات القائمة فيه والحاجات الملحة التى تفرض نفسها على أهله

(١) «الفروق» ج ١، ص ١٧٦.

ثم بحسب الكماليات «التحسينات» التي تجمل الحياة وتيسرها وتحسن تفاصيلها.

وهي أمور - بدورها - تتغير من زمان إلى زمان ولا يكاد يتفق في ترتيبها مجتمعان.

وأي ترتيب يقوم به فرد لن يكون صحيحًا إلا بقدر صحة نظر هذا الفرد وحده وهي صحة تتأثر حتمًا بعشرات العوامل الشخصية التي تتيح لآخرين من ذوي الرأي والفكر والفقه أن يختلفوا معها، وأن يروا تأخير ما قدمته أو تقديم ما أخرته، وإضافة بعض ما أهملته تلك الرؤية الفردية أو إغفال بعض ما قدرت أهميته.

وفي المجتمعات التي تطورت نظمها الاجتماعية والسياسية تقوم مجامع مختلفة التخصصات تضم أعضاء من اتجاهات متباينة، تعبر عن القوى والتيارات الفاعلة في المجتمع، بمهمة ترتيب الأولويات التي يتفق عليها ولفت الانتباه إليها، وتوجيه مراكز البحث والتفكير إلى العناية بها، وحث المشرعين وصناع القرار على الاستجابة إلى موقف الرأي العام منها، ونحن نفتقد ذلك كله في جل أقطار الإسلام أو كلها. فلم يبق بد من أن ينتدب بعض الأفراد أنفسهم للحديث عما يظنونه جزءا من هذه الموضوعات المهمة التي تستثير حاجتنا إلى «فقه جديد».

والمتابع للواقع الفكري المصري - مثلاً - يستطيع أن يرصد طائفة صالحة من الموضوعات التي تستحث الفقه المعاصر إلى مواجهتها بأدوات الاجتهاد المقررة في الشرع ووسائله، ووفق أصول هذا الاجتهاد المعروفة عند العلماء المؤهلين لممارسته، حتى تكون الكلمة الإسلامية - أو الكلمات حين يسوغ الاختلاف لسبب من أسبابه المقبولة - محددة للمكلفين بطاعتها والعمل بها، وبينة بيانًا لا يشوبه غموض ولا يحوطه لبس للمدعوين إلى معرفتها والبصر بحقيقتها.

وعدم قيام أولئك العلماء المؤهلين للاجتهاد بهذا الواجب، أو عدم وصول آرائهم العملية واجتهاداتهم الفقهية إلى الناس على أوسع نطاق بسبب العوائق الإعلامية والتعليمية التي تمنع ذلك، ووجود قيادات إسلامية رسمية وشعبية غير مؤهلة علميًا لممارسة الاجتهاد الفقهي، بل بعضها لا بصر له بالفقه أصلاً وهم يسألون فيما يعرفون ويحسنون فيكون جوابهم حسنًا صالحًا، ولكنهم حين يسألون فيما لا يحسنون ولا يعرفون لا يعتصمون بكلمة الأسلاف العظيمة «لا أدري» وإنما يستحيون من قولها أو يستكبرون عنها فيقولون ما يستحقون به ما قاله الإمام مالك - رضي الله عنه - فيمن لم يقل: «لا أدري» في الوقت المناسب قال: (إذا أخطأ العالم «لا أدري» أصيب مقاتله) أي إن العالم لا يكون كذلك حتى يقول: «لا أدري» في الوقت المناسب، وعدم قوله إياها يذهب صدقه وصلاحه وثقة الناس به فيكون كمن مات موتًا علميًا، وقد تعجبه نفسه فيقول في كل ما يسأل عنه مما يعرف جوابه ومما يجهله، فيهلك في الدنيا، ولا ينجو في الآخرة.

ولا يكفي أن يكون في كل جيل واحد أو اثنان من العلماء العاملين الذين يعرفون الحق ويبينونه للناس ولا يكتمونه؛ بل يجب أن يكون القائمون بذلك - من حيث عددهم وكفايتهم وتأهيلهم وتأثيرهم - جمعًا كافيًا لتحقيق أمرين:

البيان العلمي والديني، والتغيير الاجتماعي والسياسي، لأن هؤلاء هم أهل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذين يعرف الناس بهم الحق من الباطل ويميزون الخبيث من الطيب.

وقد أمر الله تبارك وتعالى أن تكون من المؤمنين «أمة» يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

والأمة جماعة لا فرد ولا اثنان، وهي جماعة كافية لأداء الواجب، وإلا تأثم الأمة كلها بقعودها عن أدائه.

وهؤلاء العلماء العاملون هم المدعوون - في كل جيل - إلى بيان جديد، يحقق الملاءمة بين ثوابت الشرع ومتغيرات الزمان والمكان، نصحًا منهم لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة الناس وعامتهم.

كلمات ربي وآياته في القرآن والكون



أ. د. أحمد فؤاد باشا
الأستاذ بكلية العلوم - جامعة القاهرة

﴿ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾

قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا
تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ
سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢) وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ
بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ (٣) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ
عَذَابِ السَّعِيرِ (٤) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن
نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا
نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ
وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ
هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾

(الحج: ١ - ٥)

ومن كلمات ربي المتعلقة بخلق الإنسان ما يلي:

١ - ﴿ تُرَابٍ ﴾: تخبرنا بعض معاني هذه الآية الكريمة في بيان معجز بخلاصة ما توصل إليه العلم الحديث بعد مشوار طويل من البحث في أسرار الخلق الإنساني التي يعنى بها علم الطب Medicine بصورة عامة، وعلم الأجنة Embryology بصورة خاصة. فقد أثبتت التحاليل الدقيقة أن جسم الإنسان يحتوي على نفس العناصر التي يتكون منها تراب الأرض، وإن اختلفت نسبها من شخص لآخر. والقرآن الكريم يقرر هذه الحقيقة في آيات أخرى تشير إلى خلق الإنسان من طين. كما في قوله سبحانه:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴾
(المؤمنون: ١٢)

أو خلقه من صلصال، كما في قوله جل شأنه:

﴿ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴾
(الرحمن: ١٤).

والطين هو التراب إذا أضيف إليه الماء، والصلصال هو الطين اليابس، فالأصل إذا تراب بإضافة الماء أو بغير إضافته.. هذا عن خلق الإنسان الأول آدم عليه السلام.

٢ - ﴿ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾: ثم تأتي المرحلة التالية للخلق المتكرر من الزوجين عن طريق النطفة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم بمعنى النطفة المذكرة «وهي الحيوانات المنوية عند الرجل»، والنطفة المؤنثة «وهي البويضات التي يفرزها مبيض المرأة»، والنطفة الأمشاج «أي المختلطة من الحيوان المنوي والبويضة عندما يتم التلقيح».. قال تعالى:

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾

«الإنسان: ٢»

ويتجلى هنا الإعجاز القرآني الباهر عندما نعلم أن البشرية لم تعرف طبيعة هذا التلقيح إلا في عام ١٩١٢م، عندما أثبت توماس مورجان دور الصبغيات «الكروموسومات» والجينات «حاملات الصفات الوراثية» في تكوين الجنين بعد أن يسهم كل من الحيوان المنوي والبويضة بالتساوي في تكوين النطفة الأمشاج «أي البويضة المخصبة» التي تعطي هذا التنوع العجيب في أشكال وألوان أجناس البشر جميعًا.

٣ - ﴿ عَلَقَةً ﴾: ويواصل العلم الحديث اكتشافاته لمراحل تكوين الجنين، فيثبت أن نواة البويضة المخصبة تشتمل على ٤٦ من الكروموسومات، نصفها من الأنثى والنصف الآخر من الذكر، ويحتوي هذا الأخير على الكروموسوم المحدد لجنس الجنين، إما ذكرا وإما أنثى.. أي أن الحيوانات المنوية عند الذكر، وليست بويضات الأنثى، هي المسئولة عن تحديد نوعية الجنين، الذكر والأنثى.. ويظهر ذلك من قوله تعالى:

﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴾
«القيامة: ٣٩»

ويقرر العلم الحديث كذلك أن تلك النطفة المخصبة تتحول إلى مرحلة «العلقة» التي تتكون من مجموعة خلوية عالقة بجدار الرحم تستمد منه السكن والغذاء، وتستمر مرحلة العلوق لمدة ٢٤ ساعة، تبدأ بعدها في الأسبوع الثالث من الحمل مرحلة «المضغة» التي يكون فيها الجنين على هيئة قرص مؤلف من خلايا متلاصقة، أشبه بقطعة من لحم ممضوغ لم تتشكل بعد يمكن تسميتها بالمضغة غير المخلقة، ثم تصير بعد ذلك مضغة مخلقة وجنينا كاملا قبل الولادة في أحسن تقويم، مصداقا لقوله تعالى:

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾

«المؤمنين: ١٤».

٤ - ﴿ قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾: ولكي نزيد الأمر إيضاحا بالنسبة للمضغة المخلقة وغير المخلقة حسب الترتيب القرآني في الآية الخامسة من سورة الحج، فإننا نستهدي أيضا بقوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ «المؤمنون: ١٢ - ١٤».

يرجح بعض الباحثين أن يكون الجنين نفسه هو المقصود بالمضغة المخلقة، والمشيمة «الخلاص» هي المضغة غير المخلقة، فلا جنين بلا مشيمة لأنها هي التي تمده بالغذاء من دم أمه، وتمده كذلك بالأكسجين والحرارة وكل ما يحفظ حياته، وهي تلازمه في الرحم وتنمو معه حتى تخرج بعده إلى الدنيا وهي مرتبطة به، وهي لا تبدأ في التكوين إلا في طور المضغة التي تترتب خلاياها على هيئة قرص جنيني ينمو خلقا بعد خلق، وتظل المضغة الأخرى مشيمة لا تتخلق.. ولذا قدم الله - تعالى - المضغة المخلقة على غير المخلقة.

ومع بداية الأسبوع الخامس من الحمل يبدأ القرص الجنيني، أو المضغة المخلقة، في التمايز أو «التخلق»، وقد ثبت في علم الأجنة أن العظام تنشأ بعد تطور المضغة مباشرة، ويكون «الحبل الأول» لعظام الجنين، أو الجزء المركزي من العمود الفقري، هو أول شيء يظهر في القرص الجنيني، ثم تتكون حوله العضلات، وتنشأ باقي العظام التي سرعان ما يتكون حولها العضلات واللحم، وتظهر أجزاء الجسم الجنيني شيئا فشيئا حتى تنتهي عملية التمايز في نهاية الشهر الثالث تقريبا.

وفي بداية الشهر الرابع يكون اتصال الجهاز العصبي بباقي أجهزة جسم الجنين قد تم، ويبدأ سماع نبضات قلب الجنين، وتشعر الحامل بحركته في أحشائها، وعند تمام الحمل يكون وزن الجنين قد بلغ حوالي ثلاثة كيلو جرامات، وطوله قد وصل إلى حوالي ٥٠ سنتيمترا، ويتكامل شكله على النحو المعروف. وقد أثبتت تجارب علمية حديثة أن الجنين يستطيع السمع في نهاية مدة الحمل.

٥ - ﴿ يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ ﴾:

قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾
(آل عمران: ٦)

وقال سبحانه:

﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾

(الانفطار: ٦ - ٨)

تتضمن هذه الآيات الكريمة إشارة واضحة إلى وجه من الوجوه المعجزة لقدرة الخالق البارئ المصور، وهو تحول البويضة المخصبة - وهي خلية واحدة ضئيلة الحجم - إلى جنين مكتمل وإنسان سوي بكل ما يحويه جسمه من أجهزة وأعضاء وأنسجة بملايين الخلايا وآيات في البنيان والوظيفة.

كما تشير الآيات إلى المشيئة الإلهية المطلقة في إيجاد الجنين وتصويره في أي صورة من الصور شاءها الله وأوجده عليها، إذ إن الله يودع في البويضة المخصبة الدقيقة الحجم جميع المورثات (الجينات) التي تحدد جنس المولود ونصيبه من الخصائص الجسمانية، بل ومواهبه العقلية والنفسية والسمات الرئيسية في تكوين الشخصية الوارثة، وإن كانت تسير على قوانين ثابتة، إلا أن هذا التحديد لكل فرد بذاته من التقاء بويضة بعينها وحيوان منوي بعينه من بين الملايين من أقرانه هو من دلائل المشيئة المطلقة، حتى إنه لا يتماثل فردان في العالم تماثلا كاملا، اللهم إلا في توائم البويضة الواحدة، تكاد تتطابق.

وتفيد التقنيات الحديثة في تصوير الجنين في الرحم بالموجات فوق الصوتية وتتبع مراحل تكوينه ونموه. وأول ما يتكون من الجنين رأسه ومخه، ثم جسمه الأساسي، ثم الذراعان والرجلان. وتبدأ الحياة عندما تنقسم البويضة

المخصبة إلى خليتين، ثم بعد ذلك إلى أربع، ثم إلى ثمان، وهكذا، حتى تتكون مئات من الخلايا بعد أيام قلائل. ثم تزداد تدريجيا إلى ملايين الخلايا التي تبني أجزاء الجسم المختلفة.

يبدأ قلب الجنين في النبض بعد أربعة أسابيع فقط، رغم أنه لا يكون قد اتخذ شكله الكامل بعد. وبعد ثمانية أسابيع تكون الأجزاء الأساسية كلها قد تكونت، حتى أصابع اليدين والقدمين، لكن هذا الجسم الصغير يكون فقط بحجم حبة العنب. وقبل منتصف فترة الحمل قد ينتفض الجنين ويتحرك فجأة عند الضوضاء العالية مما يشير إلى أنه يمكن أن يسمع. وفي الفترة من مرور ثمانية أسابيع حتى الولادة، يطلق على الجنين لفظ «جنين مكتمل»، ويقضي معظم هذه الفترة في النمو في تكوين أجزاء الجسم الصغيرة مثل جفون العين وأظافر اليدين والقدمين. في الرحم المكان مظلم ولا يوجد شيء يرى، ومع ذلك فإن العينين تعملان أيضا، رغم أن الجفون تكون مغلقة. والجنين في الرحم لا يتنفس، حيث يكون محاطا ومحميا بأغشية وسوائل تشبه الكيس. ومع ذلك لا يزال يحتاج إلى الأكسجين الذي يأتيه من الأم ليبقى حيا. يتدفق دم الطفل عبر الحبل السرى الملتوي إلى جزء شبيه بالدرع، وهو المشيمة، في بطانة الرحم. هنا يمر دم الجنين قريبا جدا من دم الأم ويمكن أن يتسرب الأكسجين بسهولة أو يصب في دم الجنين، والذي يتدفق بعد ذلك عائدا خلال الحبل السرى إلى جسمه، يحصل الجنين على المواد الغذائية بالطريقة نفسها.

عندما يقترب وقت الولادة تبدأ العضلات القوية الموجودة في جدار الرحم في الانكماش والانقباض ويؤدي ذلك إلى دفع الجنين عبر عنق الرحم وقناة الولادة حتى يخرج ويولد.

وتصل إلى روعة الإعجاز القرآني عندما نفطن إلى ما تشير إليه آيات القرآن الكريم من قدرة الخالق الواحد سبحانه وتعالى في خلق الإنسان، فتوضح لنا بأن هذا الإنسان وإن كان قد جرى خلقه في بدء تكوينه على نسق المخلوقات الحيوانية، التي تبدأ كذلك من النطفة فالعلقة فالمضغة فالعظام، ثم تكسى العظام باللحم، إلا أنه قد انفرد بميزة عن هذه المخلوقات الحيوانية. هذه الميزة تتضح في أعقاب هذه السلسلة من الأطوار بقوله تعالى:

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴾

«المؤمنون: ١٤»

أي مخالفا ومغايرا لهذه المخلوقات الحيوانية بما ميزه الله سبحانه وتعالى من تسوية في الخلق والهيئة وإنعام بالعقل والإرادة، وتهيئة للاستخلاف في الأرض وإعمار الحياة عليها إلى ما شاء الله.

٦- ﴿ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ ﴾: أما الرحم uterus، وهو من الجهاز التناسلي الأنثوي، فمكانه تجويف الحوض من البطن وليس بين أعضاء الجسم ما هو مهيأ للنماء والانتفاخ بمقدار ما يتهيأ للرحم الحامل يقول الله تعالى:

﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ﴾

«الرعد: ٨»

والراجح أن زيادة الأرحام تكون بالحمل، وأن غيضها يكون بالإسقاط، كما يكون من زيادة مدة الحمل أو نقصانها عن تمامها والله سبحانه وتعالى:

﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾

«سورة آل عمران: ٦»

وهو الذي يثبت ويمكن في الأرحام ما يشاء إلى أجل مسمى، قال تعالى:

﴿ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾

«الحج: ٥»

ويقول علماء الطب والوراثة إن عملية استقرار النطفة في الرحم وتثبيتها عملية معقدة تتحكم فيها درجة كفاءة الرحم، وخصوبته، والاستعداد للحمل بمشيئة الله الذي يوجد بقدرته جرثوما مسئولا عن التغيرات الإفرازية في عضلة الرحم الداخلية، ومهمته تهيئة المناخ الملائم للحمل، وتجهيز التربة المناسبة للبويضة الجديدة المخصبة التي يراد لها التثبيت.

وقد أثبت التشريح أن الرحم في أسفل بطن المرأة كأنه الوعاء بجداره العريض السميك، تشده وتمسكه أربطة عريضة وأربطة مستديرة، ثم أجزاء من البريتون تشده إلى المثانة والمستقيم، وكلها تحفظ توازن الرحم وتشد أزره وتحميه من الميل أو السقوط، حيث تطول معا إذا ارتفع عند تقدم الحمل وتقصر إلى طولها الطبيعي تدريجيا بعد الولادة ومن يدرك هذا؟! ثم يتعرف على تكوين الحوض نفسه وعظامه سوف يدرك أيضا بعض المعاني الدقيقة في قوله تعالى:

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾

«المؤمنون: ١٣»

وقوله: ﴿ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾

«المرسلات: ٢١».

ترى كيف يعرف النبي الأمي العربي هذه المراحل والأوصاف الدقيقة لمراحل خلق الإنسان وتكوين الجنين قبل عدة قرون من ظهور علم التشريح؟! وكيف أخبر عن كل هذه الأسرار التي تتم في ظلام الرحم قبل أن يكون هناك مجهر أو أجهزة للتحاليل؟! إنه الله سبحانه وتعالى الذي أوحى إليه بهذه الحقائق التي لا يزال العلم عاجزا عن الإحاطة بكل تفاصيلها:

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾

«النساء: ٨٢»

وإذا انتقلنا إلى المخاض وعملية الولادة أي المرحلة الختامية التي يتم فيها نمو الجنين في تسعة أشهر قمرية «٣٨ أسبوعا»، فهذا هو الأجل المسمى في الآية الكريمة:

﴿ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾

«الحج: ٥»

وأطوار المخاض تتم على أربع مراحل: الأولى مرحلة توسع عنق الرحم وانقباض عضلاته بسبب الهرمونات التي تفرزها في بدء المخاض، ومدتها تتراوح بين ٧ و١٢ ساعة لإعداد الجنين للخروج والمرحلة الثانية هي خروج الجنين وتستغرق من ٣٠ إلى ٥٠ دقيقة، وتبدأ بعد توسع عنق الرحم بما يكفي لمرور الجنين والمرحلة الثالثة هي مرحلة خروج المشيمة وقطع الحبل السرى الذي يغذي الجنين من أمه، وتستغرق حوالي ١٥ دقيقة وأخيرا مرحلة انقباض الرحم لتخفيف النزف الدموي وتستمر حوالي ساعتين.

ألا ما أروع وأجمل أن يسهم العلم في تعميق اليقين الإيماني وتأسيسه، ولو تأمل الإنسان نفسه، وعلم نشأته، ووقف على بعض أوجه الإعجاز الإلهي في خلقه لما كفر بربه الذي أحسن خلقه، ولما جحد نعمته عليه ورعايته له طوال مراحل نموه وتكامل خلقه في بطن أمه، ثم رعايته له بعد ولادته إلى أن يشتد عوده ويبلغ من عمره في الحياة الدنيا ما قدره الله له قال تعالى:

﴿ قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ۝١٧ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۝١٨ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴾

«عبس: ١٧ - ١٩».

يتبع

طرائف.. ومواقف

للشيخ/ عبدالحفيظ محمد عبدالحليم

وليكن همك ما بعد الموت

قال سيدنا عبدالله بن عباس - رضي الله عنهما: ما انتفعت بكلام أحد بعد رسول الله ﷺ ما انتفعت بكلام بعثه إليّ علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - كتب إلي: أما بعد، فإن المرء يسره إدراك ما لم يكن ليفوته، ويسوؤه فوت ما لم يكن ليدركه، فليكن سرورك بما نلت من أمر آخرتك، وليكن أسفك على ما فات منها، وما نلت من أمر دنياك فلا تكن به فرحا، وما فاتك منها فلا تأس عليه جزعا، وليكن همك ما بعد الموت.

الحيص بيص

قال نصر بن مجلي، وكان من الثقاة وأهل السنة: رأيت علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - في المنام، فقلت له: يا أمير المؤمنين تفتحون مكة فتقولون: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ثم يتم على ولدك الحسين ما تم، فقال لي: أما سمعت أبيات ابن الصيفي في هذا؟ فقلت: لا، فقال: اسمعها منه، ثم انتبهت فبادرت إلى حيص بيص فذكرت له الرؤيا فشهق وبكى، وحلف بالله لم تخرج من فمه ولا خطه إلى أحد، وما نظمها إلا في ليلته ثم أنشدني قوله:

ملكنا فكان العفو منا سجية
فلما ملكتم سال بالدم أبطح
وحللتمو قتل الأسارى وطالما
عدونا على الأسرى فنعفوا ونصفح
وحسبكمو هذا التفاوت بيننا
وكل إناء بالذى فيه ينضح

واسم الحيص البيص: سعد بن محمد أبوالفوارس التميمي شاعر مشهور ويعرف بابن الصيفي، ولقب بالحيص بيص لأنه رأى الناس يوما في حركة مزعجة وأمر شديد، فقال: ما للناس في حيص بيص؟ فبقي عليه هذا اللقب - ومعنى هاتين الكلمتين: الشدة والاختلاط، وتفقه على مذهب الإمام الشافعي، وغلب عليه الأدب، ونظم الشعر وكان مجيدا فيه، وكان إذا سئل عن عمره يقول: أنا أعيش في الدنيا مجازفة، لأنه كان لا يحفظ مولده - وتوفي سنة أربع وسبعين وخمسمائة هجرية.

ومن شعره:

أنفق ولا تخشى إقلالا فقد قسمت
على العباد من الرحمن أرزاق
لا ينفع البخل مع دنيا مولية
ولا يضر مع الإقبال إنفاق

صن علمك

سمع يونس بن حبيب رجلا ينشد:

استودع العلم قرطاسا فضيعه
وبئس مستودع العلم القراطيس

فقال يونس: قاتله الله، ما أشد صيانته للعلم وصيانته للحفظ؟ إن علمك من روحك وإن مالك من بدنك، فصن علمك صيانتك روحك، وصن مالك صيانتك بدنك.

قال شاعر حكيم:

إذا ما الحيي عاش بذكر ميت
فذاك الميت حي وهو ميت
ومن يك بيته بيت رفيعا
وهدمه فليس لذاك بيت

سيد القوم أشقاهم

قال أبوالحسن الماوردي: الفرق بين العقل والمروءة أن العقل يأمر بالأنفع، والمروءة تأمر بالأجمل، ولا ينقاد للمروءة إلا من سهلت عليه المشاق رغبة في الحمد، ولذلك سيد القوم أشقاهم.

قال أبوالطيب:

لولا المشقة ساد الناس كلهم
الجود يفقر والإقدام قتال

وقال أيضا:

وإذا كانت النفوس كبارا
تعبت في مرادها الأجسام

وقال شاعر حكيم:

الماء يغسل ما بالجسم من دنس
وليس يغسل قلب المذنب الماء

أصعدت الغرف

قال رجل من العرب: رأيت البارحة الجنة في منامي، فرأيت جميع ما فيها من القصور، فقلت لمن هذه؟ فقيل لي: للعرب، قال له رجل من الموالي: أصعدت الغرف؟ قال: لا، قال: تلك لنا.

من المروءة

للشاعر أبوبكر الإسماعيلي:

وإذا جلست وكان مثلك قائما
فمن المروءة أن تقوم وإن أبى
وإذا اتكأت وكان مثلك جالسا
فمن المروءة أن تزيل المتكا
وإذا ركبت وكان مثلك ماشيا
فمن المروءة أن مشيت كما مشي

العالم النصوح

وورد في القول المأثور:

لا تجلسوا عند كل عالم، إلا عالم يدعوكم من خمس إلى خمس: من الشك إلى اليقين، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الرغبة إلى الزهد، ومن الكبر إلى التواضع، ومن العداوة إلى النصيحة.

مسكين

قال بعض الحكماء: مسكين ابن آدم، لو خاف من النار كما يخاف من الفقر لنجا منهما جميعا.

ولو رغب في الجنة كما يرغب في الدنيا لفاز بهما جميعا.

ولو خاف الله في الباطن كما يخاف خلقه في الظاهر لسعد في الدارين جميعا.

دعاء

اللهم إنك تسمع كلامنا، وترى مكاننا وتعلم سرنا ونجوانا، لا يخفى عليك شيء من أمرنا. نسألك يا خير المسئولين ويا أكرم المعطين أن تهدينا وتيسر لنا الهدي، وأن تغفر لنا، وأن تجعلنا ممن يقولون فيعملون، ويعملون فيخلصون، ويخلصون فيقبلون.

أبعاد إسهام اللغة فى المنجز العلمى للدكتور عبد الستار فتح الله سعيد: (المادة والتوظيف)



أ.د. خالد فهمى
كلية الآداب /جامعة المنوفية

تسعى هذه الورقة إلى فحص أبعاد إسهام اللغة فى المنجز العلمى للدكتور عبدالستار فتح الله سعيد من جهتى المادة والتوظيف.

هذه المقالة التحليلية تنطلق من حقيقتين أساسيتين هما :

أ- الوعى بأثر الحركة الإسلامية فى التكوين العلمى لعلماء الإسلام المعاصرين.

ب-أن فحص منجز هؤلاء الأعلام مسألة علمية و أخلاقية معا.

مدخل: مكمن النور فى منجز عبد الستار فتح الله سعيد

يمثل الدكتور عبد الستار فتح الله سعيد صوتا له حضوره الخاص فى مجال تفسير القرآن الكريم فى العصر الحديث بوجه خاص. وهو الحضور الذى صنعته مجموعة من العلامات المهمة فى هذا السياق ، نذكر منها:

- أولا- العكوف شبه التام لخدمة هذا العلم الشريف ، تنظيرا ، وتطبيقا ، ودفاعا.
- ثانيا- التماس منهجيات تجديدية فى التعامل مع قضايا علم التفسير ، وهو الأمر الذى بدأه بأطروحته للدكتوراه حول : المنهاج القرآنى فى التشريع.
- ثالثا- المتابعة المستمرة و الجادة والدقيقة للقضايا التى تظهر فى هذا الميدان ، والتعقيب العلمى على ما يخالف منها أصول العلم بتفسير القرآن الكريم.
- رابعا- الحرص على تكوين مدرسة علمية، تنهض بآرائه ، وتعمقها و توصل لها من خلال مسارات متنوعة ، يظهر منها :

أ- التدريس ، وهو المسار الذى استمر فترة طويلة فى جامعة الأزهر و أم القرى .

ب-الإشراف العلمى على الباحثين فى هذا المجال.

ج- الدعوة ، وهو المسار الممتد إلى الآن والذى تنوع عبر المساجد والجامعات والإذاعات والتلفزيونات المختلفة فى مصر والعالم العربى و الإسلامى .

ومن هنا نستطيع أن نقرر أن مكمن النور كامن

فى العلاقة الوثيقة بين الدكتور عبدالستار فتح الله سعيد والقرآن الكريم ، درسا ، وتفسيرا ، ودفاعا و نقضا للشبهات الموجهة إليه .

اللغة فى المنجز العلمى للدكتور عبد الستار فتح الله سعيد: (مقال فى حدود المادة)

إن الفحص العام لمكتبة الدكتور عبد الستار فتح الله سعيد يكشف عن حلول المسائل اللغوية بمستوياتها المختلفة ، ولاسيما المستوى النحوى التركيبى فى كتاباته ، مكانا متميزا.

وفيما يلى رصد لأكثر كتبه عناية بالمعلومات اللغوية ، وتوظيفها لخدمة تخصصه العلمى الدائر حول علوم القرآن بشكل عام وعلم تفسير القرآن الكريم بشكل خاص وأصيل ؛ وسيكتفى هذا الرصد على الكتب التى مثل توظيف اللغة فيها نسبة عالية وكثيفة ؛ مع الأخذ فى الاعتبار أن الشيخ دائم الفزع إلى اللغة ، ولاسيما على مستوى المعجم فى كتاباته كلها ؛ وهو منهج مستقر منذ بدايات التأليف إلى اليوم ، وهو ما سوف يظهر فيما بعد:

- أولا- مؤلفات اللغة عنصر أصيل فى بنائها:

أ- أباطيل القراءة الجديدة للقرآن والنصوص الدينية ، القاهرة ١٤٢٨هـ= ٢٠٠٧م.

ب-إبطال مزاعم (الهيروغليفية تفسر القرآن) ، القاهرة ١٤٢٨هـ=٢٠٠٧م

ج-المنهاج القرآني في التشريع ، القاهرة ١٤١٣هـ=١٩٩٢م ، وهو أهم كتبه بإطلاق.

د- نظرات فى الاستدلال القرآنى ، القاهرة

- ثانيا- مؤلفات توظف اللغة بشكل غير أصيل فى بنائها ، وهى كثيرة تمثل بما يلى منها:

أ- آن الأوان لتجديد الإيمان ، القاهرة سنة ١٤٢٩هـ=٢٠٠٨م

ب- محاضرات فى التفسير الموضوعى (عشرون محاضرة) ، القاهرة ، ٢٠٠٨م

اللغة فى المنجز العلمى للدكتور عبد الستار فتح الله سعيد: مقال فى المستويات اللغوية الموظفة فى التطبيق

ومن جهة أخرى فإن فحص هذه الكتب ، ودراستها فى ضوء المنهجية الفيلولوجية ؛ (أى من منظور فقه اللغة الذى يعنى بتحليل الكتابات) يكشف عن تنوع فى المستويات اللغوية التى لجأ إليها الشيخ الكريم ، ووظفها لخدمة علوم القرآن الكريم وعلم التفسير بوجه خاص منها .

وفيما يلى كشف عن هذه المستويات التى وظفها فى مؤلفاته المختلفة .

أولا- مستوى المعرفة بالصوتيات:

يظهر من قراءة كتب الدكتور عبدالستار فتح الله سعيد المظنون اعتمادها المعرفة اللغوية فى بنائها أن توظيف المعلومات الصوتية كان معدوما أو فى حكم المعدوم ؛ وربما كان تفسير ذلك كامن فى ابتعاد الرجل عن العناية بما يسمى فى مناهج المفسرين باسم التفسير التحليلى الذى يعنى بتفصيل القول فى كل ما يتعلق بلغة الآيات ، وما يسكنها من معرفة لغوية توصلا إلى الكشف عن تفسيرها ، والإحاطة بمعانيها من خلال فحص المعلومات اللغوية المتنوعة الموزعة على مستوياتها المختلفة.

وإن كان تعرض فى كتابه (إبطال مزاعم الهيروغليفية تفسر القرآن) ص ١٦ لمسألة مهمة جدا ، وهى صحيحة أيضا وهى إنكار نسبة معان للحروف الهجائية بما هى حروف بيان تتكون منها الكلمات يقول فى التعقيب على من يرى أن للسين معنى ، وللياء معنى ، وللميم معنى بما هى حروف مبان : ص ١٧ ؛ وهذه وأمثالها يجب الاستغفار منها ؛ لأن هذا ... لا يسوغ فيه هذا بوجه من الوجوه».

وقد استقر النظر أن الحرف فى تكوين الكلمة لا يستقل بجزء من المعنى ، و فى تعريف الكلمة

فى الاصطلاح النحوى إلحاح على فكرة الإفراد الذى يعنى فى هذا المجال ما ليس يدل جزؤه على جزء معناه.

ثانيا- مستوى المعرفة بالأبنية [أو الصرف]: وعلى هذا المستوى يتضح توظيف المؤلف الكريم عددا من المعلومات اللغوية المندرجة فى علم الأبنية، فى صورته التقليدية الموروثة عن العلوم اللغوية عند العرب.

وهذا التوظيف يأتى متناسبا مع ما استقر فى أصول التفسير من ضرورة إحاطة المفسر بمسائل علم الصرف، لاعتبار ظاهر جدا يتمثل فى أن مادة الذكر الحكيم الأساسية تتكون من الكلمات. والكلمات هى مشغلة علم الصرف، أو علم البنية.

وفيما يلى ستحاول هذه الورقة أن تكشف عن حدود توظيف معلومات هذا المستوى اللغوى فى كتابات هذا الرجل الكريم، وأبعاد هذا التوظيف ووظائفه:

[فى ميدان الأبنية: أبنية الأسماء والأفعال، وما يتعلق بها من مباحث]

لجأ الدكتور عبد الستار فتح الله سعيد فى كتبه مادة هذه الورقة إلى المعلومات الخاصة بأبنية الأسماء و الأفعال جميعا فى كثير من الأحيان ولاسيما فى كتابه (المنهاج القرآنى فى التشريع) و استثمرها لخدمة قضاياه الموضوعية الفكرية المتعلقة بطرحه الكاشف عن قيمة التشريع الإسلامى كما يعبر عنه النص الكريم.

وقد تنوعت أشكال الإفادة من المعلومات اللغوية المستمدة من مستوى الأبنية وسلكت مسارات متعددة، يمكن أن نمثل عليها فيما يلى:

١-أورد فى تعليقه على قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾

فى كتابه (آن الأوان لتجديد الإيمان ص ٧٦): «يقال: أنى الأمر يأنى أنيا: إذا جاء وقته وحان حينه» وفى هذا بيان لعدد من المعلومات الصرفية تتعلق بـ:

أ- الباب الصرفى للفعل (فعل يفعل) بفتح العين فى الماضى وكسرها فى المضارع.

ب- ومصدر الفعل وهو (فعل) بفتح فسكون.

ج- و المسار الاشتقاقى للفعل وما انحدر منه.

وهذه المعلومات الصرفية، مهمة فى هذا السياق؛ لأنها تسهم فى:

أ- بيان أصول الفعل المستعمل (فى النص الكريم) ﴿يَأْنِ﴾، ليقرب حصول المعلومات الخاصة به، ولاسيما فى إطار تفسير ذهاب الياء بسبب من جزم الفعل بعد (لم).

ب- الإعانة لمن رام البحث عن معناها، وتوثيقه، ببيان أصولها الاشتقاقية.

ج- الإعانة على صحة نطق الفعل برد القارئين إلى الباب الصرفى.

٢-أورد فى تعليقه على قوله تعالى:

﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾

فى كتابه (إبطال مزاعم الهيبروغليفية تفسر القرآن ص ٣٤): «ولذلك جعل العلماء قوله تعالى ... من باب نفى نسبة الظلم إلى الله تعالى، وليس من نفى كثرة الظلم الذى تفيده صيغة (فعال)».

وهذا كلام صحيح فى نتائجه، ولكنه غير صحيح فى مسلك استنتاجه؛ ذلك أن غياب استثمار المعرفة الصرفية التى تقرر أن عددا من صيغ المشتقات تستعمل للدلالة على النسبة من مثل المشتقات من أوزان (فاعل و فعال)، وهو ما يعنى حسم مسألة المعنى فى هذه الآية من غير لجوء إلى المنطق الاعتقادى فى النظر إلى الله تعالى، كما فعل المؤلف الكريم، ولكنها من صيغ النسبة كذلك، يقول الدكتور جابر النجار فى كتابه (المنسوبات السماعية، مكتبة الآداب،

بالقاهرة سنة ٢٠٠٤م ص ١٥٧): «وتستعمل صيغة (فعال) فى النسب» ثم يقول «وهذا الباب لكثرته يعد قياسيا عند بعض النحاة».

ومع إقرارنا بأن الطريق التى أتيت بها المؤلف معنى الآية الكريمة هى الطريق المأنوسة عند جمهرة المفسرين، كما فى القرطبى مثلا، فإن الطريق الواضحة هى اللجوء إلى المعرفة الصرفية فى هذا الباب المعروف.

٣-وأورد فى حديثه عن (الجاهلية) فى كتابه (المنهاج القرآنى للتشريع ص ١٤٣): «و الجاهلية لغة: مصدر صناعى وأصلها من الجهل الذى هو: ضد العلم، أو الجهل بمعنى الضلال وهو ضد الهدى يقال: أرض مجهل؛ كمقعد: لا يهتدى فيها، ومنه: المجهلة، كمرحلة: الأمر الذى يحمل على الجهل» وفى هذا النقل مجموعة من المعلومات الصرفية هى:

أ-بيان نوع الصيغة الصرفية، وأنها مصدر صناعى، بدليل الياء المشددة و التاء المربوطة فى آخرها.

ب- بيان عدد من المشتقات المتنوعة، من مثل: مجهل، ومجهلة.

ج- استعمال بعض الصيغ الشائعة المنتشرة، طريقا للضبط، وهى طريقة معجمية قديمة مستعملة فى ضبط الكلمات والتدرج إلى نطقها نطقا صحيحا.

٤-ويورد فى أحيان أخرى بعض المعلومات الصرفية الاشتقاقية لخدمة قضية تزاحم المعانى فى الذكر الحكيم، وهى بعض خصائصه فى إنتاج المعنى على ما نجد مثالا له فى استثمار المعرفة الاشتقاقية حول الفعل ﴿ وَقَرْنَ ﴾ فى قوله تعالى:

﴿ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ ﴾

من أنه صالح لأن يكون بمعنى:

أ- الوقار، من التزام السكينة والاحتشام.

ب- والقرار، أى: لزوم البيت.

وهو يقرر ذلك على سبيل نسبة حفارة النص الكريم باستعمال الكلمات التى تحمل معانى مكتنزة، ومتزاحمة ومزدوجة.

ومع الاتفاق حول صحة السمة أو الخصيصة بما هى سمة للنظم القرآنى فإن هذا الكلام التطبيقى على هذا المثال فى حاجة إلى قدر من المراجعة اللغوية، ذلك أن الإسناد الفعلى لا يدعمه بالكلية، فالفعل (وقر) من الوقار، يتحول عند إسناده إلى نون النسوة إلى ما جاء به الذكر الحكيم وهو (قرن).

والأولى أن يكون الفعل عند إرادة هذا المعنى من الأصل: قار بمعنى اجتمع، وبهذا تخرج من أى شبهة تكلف لإثبات معنى القرار بطريق الاشتقاق المذكور، وهو وجه معروف عند النحاة فى هذا الموضع من قديم.

٥-و فى أحيان أخرى يوظف ما يعرف باسم معانى الأبنية من مثل كلامه عن معنى صيغة المفاعلة فى كتابه (المنهاج القرآنى للتشريع ص ٤٧٥): «وصيغة «مفاعلة» تقتضى مشاركة بين طرفين فأكثر فى الفعل الذى هو موضوع التعامل كالبيع والهبة ونحوهما» فى سياق بيانه معنى المعاملات.

و يظهر من هذه الأمثلة القليلة استثمار للمعلومات الصرفية فى خدمة القضايا التفسيرية التفصيلية أو الجزئية، كشفا عن معناها ابتداء، أو دعما لما يظهر من معانى الآيات، وقد ظهر من استثماره لمعلومات أبنية الأسماء و الأفعال، وأبوابها، بعض الوظائف المعينة لعمله التفسيرى.

صحيح أنها ليست كثيرة الدوران فى أعماله؛ لأن عمل المفسر يتوجه إلى التركيب بنسبة أكبر من توجهه إلى البنية، ذلك أن القرآن الكريم فى النهاية نص، أو نظام مكون من تضام الكلمات.

ثالثا- مستوى المعرفة بالتراكيب [أو النحو]: ومن جانب آخر يظهر اعتماد الدكتور عبد الستار فتح الله سعيد على المعلومات النحوية فى منجزه المتنوع الدائر حول تخصص تفسير

الكتاب الكريم.

ويبدو توظيف معلومات المستوى التركيبي أعلى حضورا من معلومات المستويين الصوتي والصرفي، لاعتبارات كثيرة يأتي في مقدمتها أن عمود النظر إلى الذكر الحكيم ماثل في كونه نصا مترابطا متماسكا، وهو المظنون في الكتاب العظيم.

وقد بدا العالم الجليل منتصرا للمفهوم الأصيل القديم للنحو الذى يتجاوز قضية العلم بأحوال أواخر الكلم العربية إعرابا وبناء، وهو المفهوم الذى استقر في تاريخ تطور علم النحو إلى الوفاء لمفهوم النحو بما هو طريق للكشف عن أسرار التراكيب القرآنية، وهو المفهوم الذى بدا جليا في كتابات النحاة الأوائل من أمثال سيبويه، وعلماء معاني القرآن الكريم، بما هو نمط من التفسير النحوى للذكر الحكيم. وهو الذى يسميه فريق من المعاصرين باسم: النحو الرشيد.

وفيما يلي نماذج كاشفة عن حدود استثمار المعرفة النحوية في خدمة المنجز العلمي للدكتور عبد الستار فتح الله سعيد حول تفسير الذكر الحكيم أو الدفاع عنه:

١-أورد في سياق نقض كلام بعض المدعين المغرضين في كتابه (إبطال مزاعم الهيروغليفية تفسر القرآن ص٥٠) كلاما كثيرا صحيحا عن جواز حذف جملة القسم.

ويقول: «وإن علماء العربية والمفسرين يجمعون على خلاف أوهام المؤلف (الذى يفترى على كتاب الله)» وينقل الدكتور عبد الستار فتح الله سعيد عن المصادر النحوية ممثلة في: مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام المصرى ٧٦١هـ، وشرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك الحقائق النحوية التي تقرر: كثرة حذف جملة القسم، فإذا كان القول: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ﴾ فثم جملة قسم مقدرة.

ب-ورود حذف جواب القسم في الكلام العربي إذا ظهر في الكلام ما يغنى عنه ذكره في مثل قوله تعالى:

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾

أى: لتبعثن.

ومن أنواع الحذف ما هو واجب عند اجتماع الشرط والقسم، وفي هذا السياق نقل عن ابن مالك:

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم
جواب ما أخرت فهو ملتزم

وهذه الإطالة في بيان أمثال هذه المسائل النحوية من جانبه جاء ليقرر عددا من الحقائق المنهجية تتعلق بعلم التفسير مما يختص بالمعرفة النحوية من مثل:

أ- ضرورة التحصين بالمعرفة النحوية عند التعرض لأى عمل يتوخى تفسير النص الكريم، حتى يصل إلى الإقرار بأن تجاهل المعرفة النحوية عند تعاطى التفسير نوع من مصادمة العلم والمنطق الذى أجمع عليه العلماء و المفسرون، ويحدد أن بعض مقصوده بالعلم والمنطق هنا هو الوعى بأن القرآن الكريم عربى مبين في: أسلوبه وقواعد تركيب الجمل فيه، وهو عين مقصود المعرفة النحوية.

٢-يكثر العالم الكريم من توظيف ما يسمى بمعاني النحو، أو أسراره، حيث يلح على ما تفيده المعرفة النحوية في خدمة نواتج الآيات من المعاني ومن أمثلة توظيف ذلك قوله في توظيف إعراب ﴿حَقًّا﴾ في قوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾

(سورة النساء: ١٥٠-١٥١)

يقول: «الحق في الاعتقاد لا يتجزأ، و الكفر ببعض الرسل إخلال بأصل من أصول الإيمان فهو كالكفر بالجميع في النتيجة، ولذلك تؤكد الآية الحكم عليهم بعدة أمور كإسمية الجملة / وتعريف الطرفين / وضمير الفصل، والوصف بالمصدر (حقا) أو التأكيد به، حتى لا تدع مجالا لريبة ما في أن الوحى قصد إلى هذا الحكم قصدا»

ويظهر لنا في هذا النقل استثمار المعرفة النحوية بطبيعة الجملة الإسمية الخادمة لمسألة تأبيد الحكم الذى تقرره، و بطبيعة ضمير الفصل ﴿هُمُ﴾ و بالتنوع في وجوه إعراب ﴿حَقًّا﴾ دعما لتثبيت قضية الآية الجليلة.

رابعا- مستوى المعرفة بالدلالة: ومن جهة أخرى فقد ظهر استثمار المعرفة بالمستوى الدلالي في كثير من كتابات الرجل الكريم، وأستطيع أن أقرر أن كتاباته يمكن أن تشكل وعيا طيبا بالمعرفة الدلالية العربية في إطار التطبيق المتلبس بالنص الكريم ذلك أن الغاية المركزية لعمل المفسرين هو الكشف عن معاني الذكر الحكيم وهو نقطة المركز الذى تسعى المعرفة الدلالية العربية إلى تجليته، وتحقيقه.

وقد كان أهم ما ألح عليه في منجزه العلمي هو استثمار أنواع المعاني أو الدلالات حيث كان دائم اللجوء إلى توظيف ما يلي:

أ- الدلالة اللغوية العامة، بما هي مدخل أو تمهيد لكثير من تقريراته العلمية.

ب- الدلالة الشرعية، بما هي مقصوده الأعلى حضورا في كتاباته التفسيرية.

ج- الدلالة الاصطلاحية، بما هي مقصوده أيضا في كثير من الأحيان ولا سيما في كتاباته التي عنيت بالتشريع، والأحكام.

وهذان النوعان من الدلالات وإن كانا متقاربين أو متداخلين، فهما متغايران من جهة العموم والخصوص.

د- الدلالة العرفية، أو التي ينتجها السياق الاجتماعي الذى استقر في ظل الإسلام وتصوره للحياة.

ومن أمثلة توظيفه لهذه المعرفة الدلالية:

١- ما أورده في كتابه (المنهاج القرآني للتشريع) ص٤٣٣ حول معنى العبادة، يقول: «و العبادة في الإسلام لها معنى واسع يشمل كل جوانب النفس و الحياة و الفرد و المجتمع وقد تطلق و يراد بها معناها (العام) الذى يعنى كل انقياد وطاعة لله عز وجل، ومنهاجه... وقد تطلق بمعناها (الاصطلاحي)، أعنى: ما كان أدخل في باب الطاعات العملية»:

و في هذا النقل يظهر وعى بفارق ما بين الدلالات العامة، والاصطلاحية من اتساع وتعميم في الأولى وتضييق وتخصيص في الآخرة وهو شأن غالب في العلاقة بين هذين النوعين، وإن انخرمت قليلا.

٢-ما أورده في الكتاب نفسه (ص٤٧٥) حول معنى المعاملات حيث يقول: «المعاملات لغة: جمع معاملة: وهي مأخوذة من العمل، بمعنى الحرفة، أو الصنعة أو مطلق الفعل...

واصطلاحا: هي الأحكام المتعلقة بتصرفات الناس في شئون حياتهم الدنيوية وذلك كأحكام البيع والرهن والتجارة والمزارعة»

وفي هذا النقل بيان لنوعين من المعنى أو الدلالة، حيث افتتح بيانه بالحديث عن المعنى العام، أو اللغوى، وهو المتداول بين عموم الناس من دون حصرها في مجال بعينه.

ثم اختتم بيانه بالحديث عن المعنى الخاص الذى أوجدته الشريعة، أو خلقه النظام الإسلامي.

وهذا الوعى بالدلالات الاصطلاحية مهم هنا، لأن الرجل معنى بمسألة منهجية التشريع التي ينطق بها القرآن الكريم والشريعة كيان منضبط معرفيا، يهدف إلى ضبط الحياة.

و ينضاف في هذا المستوى استثماره لمعلومات المعربات في خدمة كثير من معلومات علوم القرآن حيث اعتمد معلومات التأصيل لأغراض كثيرة.

يتبع

صفر ١٤٣٥ هـ
ديسمبر ٢٠١٣م

من تراث الهلال

النبى ﷺ والعلم

للأستاذ/ عاطف مصطفى

«برزت مكانة العلم فى مجتمع المدينة حينما حدد النبى لكل أسير من غزوة «بدر» أن يعلم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة فكان فداء الأسير مقابلاً لتحرير المسلم من رق الأمية».

ما زال المسلمون فى كل أرجاء العالم يحتفلون بالعام الهجرى الجديد، وهم يتطلعون إلى الدور الكبير الذى حققه نبى البشرية الأعظم محمد ﷺ، وهو يبنى أول دولة إسلامية فى المدينة المنورة - بعد هجرته إليها - تقوم على العدل والمساواة والإخاء والرحمة من خلال صحيفة المدينة التى تعد أول دستور عرفته الإنسانية، ولم يترك ﷺ صغيرة أو كبيرة، وهو يبنى دولته الإسلامية الناهضة، إلا وضمنها فى هذه الصحيفة «الوثيقة» والتى استفاد من بنودها ونصوصها العالم المعاصر شرقه وغربه.

وكثيرًا ما تناولت مجلة الهلال هذه الذكرى العطرة الأثيرة على قلوب المسلمين على مدار صدورها منذ عام ١٨٩٢ م، ولكنها فى شهر أكتوبر ١٩٧٢ م خصصت عددًا بعنوان «النبى»، ولأهمية ما جاء فى هذا العدد من مقالات، ربما تناولنا بعضها على صفحات «الأزهر» الغراء من قبل.

ولكن هذا المقال للدكتور عبدالعزيز كامل بعنوان «النبى ﷺ والعلم»، يحمل جديدًا وتجربة معاشة لكاتبه.

يقول فى بداية مقاله: منذ عامين، وبالتحديد فى أوائل شهر شوال ١٣٩٠ هـ، كنت فى مكة أؤدى منسك العمر بعد عودتى من رحلة فى الشرق الأقصى.

كان قمر شوال يغمر الجبال حول مكة يفيض من النور الهادي، ومعى صديق حجازى قديم الود، واتفقنا على أن نقضى الليلة أقرب ما نكون إلى رسولنا ﷺ.

وذهبنا إلى شعب بنى هاشم، حيث ولد المصطفى، وقد أصبح المكان الآن «مكتبة عامة» يفد إليها طلاب العلم، وارتبط مكان المولد - عمليًا - بالعلم والسعى إليه وغير بعيد عن مكان المولد الشريف، بيت أبى طالب، وبيوت الكرام من الصحب والأهل والعترة التى حملت مع الرسول الأعظم لواء العلم والعمل.

نور من القمر

سرنا من الطريق التى كان يسلكها الرسول الأعظم إلى غار حراء.. ووقف صديقى عند صخرة: هنا كان يجلس الرسول فى طريقه إلى الغار.. هنا مساره..

وتابعنا السير ما استطعنا وحملتنا السيارة إلى قرب جبل النور.. وصعدت عيوننا على الطريق الوعر إلى الجبل الصديق الذى قضى فيه الرسول ما شاء الله أن يقضي.

نور من القمر.. ونور نحس به منبعثًا من الجبل.

والليل قارب على الانتصاف.. والصمت يلفنا ويلف الأحياء من حولنا، وجلال الذكرى يصرفنا عن الإحساس بالزمان.

أنحن قريبون من المكان الذى نزل فيه الروح الأمين؟

وهنا.. نعم هنا نزل الأمر الإلهى الأول «اقرأ»، نزل على النبى الأمى الذى أجاب أول ما أجاب: «ما أنا بقارئ».. ويتكرر الأمر ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾.

توجيهات الله لنا فى طلب العلم

ولنقف قليلاً عند هذا الأمر الأول، لنرى فيه بعض توجيهات الله لنا فى طلب العلم.

وأن أكبر تكريم للعلم أن يكون الأمر الأول الذى أنزله الله على رسوله.

وإذا ما رجعنا إلى سورة القلم، وهى ثانية سور القرآن نزولاً بعد سورة العلق، وجدنا فى صدرها أن ربنا يقسم بالقلم وما يسطرون.

الأمر الإلهى الأول هو القراءة: القسم الإلهى الأول بالقلم أداة الكتابة، والله يقسم بالقلم فى حركته ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ فعامل الحركة إنما هو تعبير عن وظيفة القلم، عن الأداء.

ونعود إلى سورة العلق لنرى فيها أن القراءة ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ ونحن فى حياتنا نرى أنواعًا كثيرة من القراءة.

قد تكون القراءة باسم التسلط والهوى والشهرة والاستعلاء الكاذب، قراءة الدول الاستعمارية وما عندها من علم وضعته فى خدمة عدوانها الاستعماري.

قراءة الاستعمار الأمريكى فى أرض فيتنام، وقراءة إسرائيل فى فلسطين والأرض العربية السليبة.

كل أولئك علم وقراءة، ولكنها ليست باسم الله.

ويبدو من ذلك ضرورة ربط العلم فى الإسلام بهدفه الأخلاقي، أن يكون باسم الله، وأن يكون فى خدمة الإنسان.

بل لو تعمقنا التأمل فى هذا الأمر الأول لوجدنا فيه عمقًا عميقًا فى قول الله: ﴿ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ ولم يقل باسم الله.. لماذا؟

لفظ رب يدل على التربية والتكوين والرعاية، رعاية تبدو فى الآية فى رحلتين:

الأولى: رحلة الخلق: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾.

الثانية: رحلة العلم: ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾

وكان القلم فى الآية أول «أداة» يذكرها القرآن، كما كان أول ما أقسم به الله، كما رأينا فى سورة «القلم».

جاء رحمة للعالمين

بكل الخشوع يواصل الدكتور عبدالعزيز كامل، وأعود إلى ليلة فى مكة، على خطا الرسول الأعظم، وهو فى تقلبه بين داره وغار حراء، أسير مع صاحبى فى ليل يغمره ضوء القمر، ويحتوينا صمت مبين، نسمع فيه بآذان القلب صوتًا حبيبًا جاء رحمة للعالمين.

وكنت أتخيل لفظ ﴿ اقرأ ﴾ حينما نزل على الرسول، كأنما نزل على سطح التاريخ، فأحدث فيه سلسلة من التموجات المستمرة، التى استطاعت أن تعبر الجزيرة العربية إلى ما وراءها فى مشارق الأرض ومغاربها، وما زال أثرها مستمرًا.

عبقرية هذا الدين

فلننظر إلى بعض هذه الآثار فى حياة الرسول وبعد لقاء ربه..

الظاهرة الكبرى فى حياة الرسول أن المجتمع الإسلامى - بكل مقوماته - كان يتكون والوحى ينزل، وبعبارة أخرى: أن تكوين المجتمع الإسلامى لم يأت «لاحقًا» و«متأخرًا تاريخيًا» عن نزول الوحى على الرسول.

وتبدو من هذه الزاوية عبقرية هذا الدين، إذا ما قارناه بغيره من الأديان الكبرى.

فالأوامر الإلهية لم تبق نصوصًا مكتوبة تبحث عن التنفيذ، ولم يعش الإسلام على المستوى النظرى دون ارتباط وثيق بالقاعدة العملية، وإنما جمع الرسول بين شخصية «القائد» الذى يدير المجتمع و«الداعى» إلى ربه بالحكمة والموعظة الحسنة والقيادة مشكلات وصراعات، والسمة الغالبة للنبوة - دعوة وتجميع - وكان على الرسول أن يخوض - على الأقل - هاتين المعركتين بكل أبعادهما.. ووسط هذه الصراعات جميعًا، كانت الدعوة إلى العلم ووضعه فى مكانته الكريمة.

١ - كان الوحى يسجل أولاً بأول.. والذين قاموا بهذا حملوا اللقب الكريم «كُتاب الوحى»، وكان هناك تجميع دقيق من أول الأمر بمقاييس العصر لهذا العمل، ومراجعة مستمرة عن طريق القراءة والحفظ والتطبيق.

ولم يشهد القرآن فجوة تاريخية بين نزول الوحى والتسجيل.

وعندما اشتد الصراع بين القاعدة الإسلامية وما حولها، واستشهد فيه نفر غير قليل من حفظة القرآن، بذل الخلفاء الراشدون جهودًا علمية دائبة دقيقة فى حفظ وجمع وكتابة المصحف الجامع، فكان الدفاع عن الإسلام دفاعًا عن أرض الدين وكتابه الأكبر فى الوقت نفسه، ويسر الله لهذا الكتاب ما لم ييسره لغيره، وما زال فى مقدور الطفل قبل أن يبلغ الحلم أن يحفظ القرآن كله.

٢ - ولم يكن حفظ القرآن مجرد ترديد كلمات، وإنما دعوة دائبة إلى طلب العلم والعمل به...

المسلم يقرأ فى كتاب الله:

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(الزمر : ٩)

﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾

(طه : ١١٤)

﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾

(النساء : ١١٣)

٣ - وهو يسمع من الرسول الأعظم صلوات الله وسلامه عليه:

- العلماء ورثة الأنبياء.
- العلماء أمناء الله على خلقه.

٤ - وهو يرى هذا العلم شاملا كل نواحى المعرفة الإنسانية، وطلب المعرفة عبادة وحياة.. ويقرأ قول الله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾

(فاطر : ٢٧، ٢٨)

فيرى فى الآية إشارات إلى الظاهرات الجوية والنبات والصخور والناس والحيوان، وهى رءوس موضوعات أصبح كل منها علما بل علوما رحبة والآية تضم هذه العلوم جميعا، وتربطها بخشية الله، فتعطى العلم العبادة الأخلاقية، وتراه طريقا إلى معرفة الله وخشيته وأن مطالعة آيات تزيد الإنسان إحساسا وإيمانا بعظمة الله وقدرته.

٥ - وبرزت مكانة العلم فى مجتمع المدينة حينما حدد الرسول ﷺ لكل أسير من غزوة «بدر» أن يعلم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة، فكان فداء الأسير مقابلا لتحرير المسلم من رق الأمية.

٦ - وشجع الرسول الصحابة على طلب العلم ومعرفة اللغات الأجنبية فكان الصحابى الحافظ زيد بن ثابت يعرف السريانية والفارسية والحبشية والقبطية والرومية، وعندما احتاج المجتمع إلى من يجيد العبرية، ليكون ترجمان الرسول بها، تعلمها زيد وقام بهذه المهمة.

٧ - واستعان الرسول بخبرات الصحابة والبعوث العلمية لتعلم فنون من الحرب استلزمها حصار المدن كصناعة المجانيق والمعدات والدبابات.

وثبة بالفكر الإنسانى

يؤكد الدكتور عبدالعزيز كامل فى مقاله: ومما يسترعى الانتباه تمجيد القرآن للعلم، وضخامة هذه المادة فى القرآن، بحيث أنها وردت هى واشتقاقاتها نحو ثمانمائة وثمانين مرة.

هذا الرقم الذى يقرب من الألف، يعطينا وحده فكرة عن مكانة هذه المادة فى الإسلام، والوثبة الجبارة التى وثبها بالفكر الإنسانى حاملاً معه التراث القديم من الصين والهند وفارس واليونان والرومان، فى الوقت الذى كانت أوروبا فيه متنكرة لهذا التراث وحفظه، وأضاف إليه إضافات مبدعة، وقدمه إلى الأجيال التالية فى أمانة وسعة أفق.

جهاد الإنسانية واحد

وقد تكون من أدق المقاييس التى توزن بها دعوة، قدرتها على الاستمرار بعد وفاة قائدها.

والنبى عليه الصلاة والسلام علم المسلمين، والدنيا معهم أن جهاد الإنسانية واحد، والإسلام - كدين - ليس

منقطعا عن النبوات السابقة، ومحمد ﷺ كنبي ورسول هو ختام هذه السلسلة النورانية من الأنبياء والمرسلين، والذين يأتون من بعده هم الأمناء على هذا التراث الكبير.

ولنا أن نعود إلى سورة الأنبياء في القرآن الكريم لنرى تصويرا لهذا الإخاء الإنساني الكريم.

في السورة يقص علينا ربنا قصص موسى وهارون وإبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب، ويعود إلى قصة نوح ثم يدرس قصص داود وسليمان وأيوب وإسماعيل وإدريس وذى النون وزكريا ويحيى ومريم وعيسى.. ويعقب على هذا القصص بآية جامعة.. هي قوله تعالي:

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾

(الأنبياء: ٩٢)

أمة تضم هذا الجهاد كله، وتتقرب إلى الله باحترام جميع الأنبياء وما دعوا إليه من خير.. آية هي على الصعيد المحلي، آية الوحدة الوطنية، وعلى الصعيد العربي آية الوحدة العربية، وعلى صعيد العالم الإسلامي آية الإخاء، وعلى الصعيد العالمي آية المحبة التي تصور الناس جميعا أمة واحدة ومن هذا المنطلق المؤمن، جاءت نظرة الإسلام إلى التراث الإنساني.

هذا هو الأساس الذى نظر به المسلمون بعد عهد الرسالة إلى التراث الإنساني، وحفظوا به ما أبدعته عقول الأمم الأخرى وأضافوا إليه.

وإذا ما تتبعنا هذه النهضة العلمية الكبيرة والساحة العلمية التي شهد بها مؤرخو تاريخ العلم مثل «جورج سارتون» في مؤلفاته ليعد بنا القول عن الموضوع الذى نطرقه في هذا الحديث ولكننا نرد هذا إلى البذور الأولى في عهد النبوة.

ولم يقتصر جهد الحركة العلمية الإسلامية على مجرد التحصيل والتوثيق وإنما امتدت إلى البحث عن قوانين الحياة في مجالاتها الطبيعية والبشرية، وإذا شئنا تعبيرا قرآنيا كان مجال البحث هو الآفاق والأنفس وأقرب النماذج إلينا ما قام به ابن خلدون في مقدمته من محاولات لكشف قوانين تطور المجتمع.

وفي مجال الفن تستطيع أن ترد أى قطعة من الفن الإسلامى إلى أصلها ومن اليسير عليك أن تعرف ملامحها إذا ما رأيتها بين قطع من فنون أخرى، وكأن هؤلاء جميعًا تأثروا بمصدر أصيل هو العقيدة الإسلامية التي عبرت عن نفسها في مجالات الحياة جميعًا.

يختتم الدكتور عبدالعزيز كامل مقاله بقوله: وأعود إلى ليلة في مكة غير بعيد عن جبل النور، وأتذكر نزول الوحى أول ما نزل والقرآن وكيف شع نور العلم من جبل النور يحمله الرسول الأعظم ﷺ ويتحرك لسانى بقول الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾

(الأحزاب: ٤٥، ٤٦)

سمات طالب العلم



للشيخ فوزى فاضل الزفزاف
عضو مجمع البحوث الإسلامية

إن طالب العلم له سمات خاصة في سلوكه الأخلاقي وتصرفاته الشخصية من أبرزها: احترام أساتذته والاستماع في أدب إلى تلقي العلم منهم وإلى توجيهاتهم وإرشاداتهم، وإلى المحافظة على المباني التي يتلقى العلم فيها، وعلى الأجهزة والمعامل والأدوات التي يستخدمها، والالتزام بالاستقامة والإخلاص ومراقبة الله وخشيته في كل أقواله وأفعاله..

وطالب العلم إذا أخلص في طلبه، وراقب الله في تحصيله، وابتعد عن المعاصي، وتجنب السيئات، واحترم أساتذته ومشايخه، وتعاون مع زملائه في تحصيل العلم وفهم مقاصده في أسلوب لين كريم، محافظا على العلاقة الطيبة والمودة القائمة بينه وبينهم.

طالب العلم هذا الذى هي صفاته وسلوكه يكون في رعاية الله وكنفه وفضله، ييسر الله له العسير، ويسهل له الصعب ويبارك الله له في وقته، وتحفه الملائكة من كل جانب، ويستغفر له من في السموات والأرض، فعن أبى الدرداء- رضى الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سلك طريقا يبتغي فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاء لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، إنما ورثوا العلم فمن أخذ به أخذ بحظ وافر»[١].

وقال داود لابنه سليمان- عليهما السلام- لفّ العلم حول عنقك، واكتبه في ألواح قلبك.

وقال له أيضا: اجعل العلم مالك والأدب حليتك.

(١) أخرجه أحمد في مسنده

سمات طالب العلم

أما من أعرض عن طلب العلم، وانشغل عنه بحطام الدنيا الزائل، وصار همه وهدفه هو نشر الفوضى والخراب والدمار، وغرس بذور الفتنة والشقاق بين أبناء الوطن الواحد، واتلاف المال العام، وتعطيل الدراسة، وصار سلوكه الأخلاقي هو التعصب للرأي والفكر، والتقليد الأعمى العقيم، والانقياد إلى الهوى، والرغبة في تحقيق مآرب شخصية، والطموح إلى الشهرة، والابتعاد عن مجالس العلماء ونصائحهم، وغلب عليه المراء والمجادلة في الباطل فقد حل عليه غضب الله، روى عن الترمذي عن سيدنا رسول الله ﷺ قوله: «إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم»(٢) والألد هو دائم الخصومة، وهو الذي لا يميل إلى الحق متى اتضح وجهه، ولكنه يظل يماري ويجادل بالباطل، لأنه لا يريد في نقاشه أن تظهر الحقيقة، بل يريد الغلبة والسيطرة، وبذر الشقاق والخلاف، واشعال الضغائن والفتنة.. وهؤلاء الذين يكرهم الإسلام، ويقول الله تعالى عنهم:

﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾

«سورة البقرة: ٢٠٥»

كما أنه حرم من رحمة الله ورضوانه، وحل عليه سخط الله، فعن أبي واقد الليثي أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس في المسجد والناس معه إذ أقبل ثلاثة نفر، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ وذهب واحد، قال: فوقفا على رسول الله ﷺ فأما أحدهما فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها، وأما الآخر فجلس خلفهم، وأما الثالث فأدبر ذاهبا، فلما فرغ رسول الله ﷺ قال: ألا أخبركم عن النفر الثلاثة: أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه».

يا من تدعون انتسابكم إلى الإسلام وإلى طلب العلم وتأتون من المنكرات عودوا إلى رشدكم وأصلحوا أمور دينكم ودنياكم، واطلبوا العلم والتزموا بآداب طلبه، وأذكركم بقول معاذ بن جبل- رضي الله عنه-: تعلموا العلم فإن تعلمه حسنة، وطلبه عبادة، وبذله لأهله قربة. والعلم منار سبيل أهل الجنة، والأنيس في الوحشة، والصاحب في الغربة، والمحدث في الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والزين عند الأخلاء، والسلام على الأعداء، يرفع الله به قوما فيجعلهم قادة أئمة، يقتفى آثارهم، ويقتدى بفعالهم والعلم حياة القلب من الجهل، ومصباح الأبصار من الظلمة، وقوة الأبدان من الضعف، يبلغ بالعبد منازل الأخيار، والدرجات العلا في الدنيا والآخرة، الفكر فيه يعدل الصيام ومذاكرته القيام، وبه توصل الأرحام، ويعرف الحلال من الحرام.

عن كحيل النخعي قال: أخذ بيدي على بن أبي طالب كرم الله وجه، فخرج بي إلى ناحية الجبانة، فلما أصحر «بلغ الصحراء» تنفس الصعداء، ثم قال: يا كميل، إن هذه القلوب أوعية، فخيرها اوعها فاحفظ عني ما أقول لك.

الناس ثلاثة: عالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع، أتباع كل ناعق، مع كل ريح يميلون، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق، يا كميل: العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق، ومنفعة المال تزول بزواله.

يا كميل: محبة العلم دين يدان به، به يكسب الإنسان الطاعة في حياته، وجميل الأحدوثة بعد وفاته، والعلم حاكم والمال محكوم عليه.

يا كميل: مات خُزّان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة، إن ها هنا لعلما جما- وأشار بيده إلى صدره- لو وجدت له حملة، بل أجد لقنا غير مأمون عليه، يستعمل آلة الدين للدنيا، ويستظهر بحجج الله على أوليائه، وبنعمه على عباده، أو منقادا لحملة الحق ولا بصيرة له، ينقدح الشك في قلبه لأول عارض من شبهة. لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، أو منهوما باللذة، سلس القياد للشهوة، أو مغرما بالجمع والادخار ليس من رعاة الدين في شيء، أقرب شبها به الأنعام السائمة، كذلك يموت العلم بموت حامليه، اللهم بلى، لا تخلو الأرض من قائم بحجة الله إما ظاهرا مشهورا، أو خائفا مغمورا، لئلا تبطل حجج الله وبياناته، وكم ذا وأين؟

أولئك والله الأقلون عددا، والأعظمون عند الله قدرا، بهم يحفظ الله حججه حتى يودعها نظراءهم، ويزرعوها في قلوب أشباهم، هجم بهم العلم على حقيقة الإيمان حتى باشروا روح اليقين، فاستلانوا ما استخشن المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، وصحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالرفيق الأعلى.

ياكميل: أولئك خلفاء الله في أرضه، والدعاة إلى دينه، آه آه، شوقا إليهم، انصرف إذا شئت.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري ومسلم والترمذي من حديث عائشة انظر «جامع الأصول» (٢/٢٥١).

تنويه

في افتتاحية العدد الماضي وقعت أخطاء طباعية حلت فيها أرقام محل أرقام أخرى.. وذلك على هذا النحو:

	الخطأ	الصواب
ص٥ س١٥	١٩٢١م	١٢٩١م
ص٥ س٢٧	١٦٢١ - ٣١٣١هـ ٥٤٨١ - ٦٩٨٨م	١٢٦١ - ١٣١٣هـ ١٨٤٥ - ١٨٩٦م
ص٦ س٢٥	٧٣٢١ - ٩٧٢١هـ ٢٢٨١ - ٣٦٨١م	١٢٣٧ - ١٢٧٩هـ ١٨٢٢ - ١٨٦٣م
ص٦ س٢٦	٢٧٢١هـ ٥٥٨١م	١٢٧٢هـ ١٨٥٥م
ص٧ س٤	٧٥٨١م	١٨٧٥م
ص٧ س١٦	٦١٢١ - ٠٩٢١هـ ١٠٨١ - ٣٧٨١م ٦٨٢١	١٢١٦ - ١٢٩٠هـ ١٨٠١ - ١٨٧٣م - ١٢٨٦
ص٧ س١٧	٩٦٨١م	١٨٦٩م
ص٩ س١٣	٤٥٢١ - ٤١٣١هـ ٨٣٨١ - ٧٩٨١م	١٢٥٤ - ١٣١٤هـ ١٨٣٨ - ١٨٩٧م
ص٩ س١٤	٢٨٢١ - ٤٥٣١هـ ٥٦٨١ - ٥٣٩١م	١٢٨٢ - ١٣٥٤هـ ١٨٦٥ - ١٩٣٥م
ص٩ س١٦	٢٤٣١هـ ٤٢٩١م	١٣٤٢هـ ١٩٢٤م

فتاوى لها تاريخ

الوطنية والقومية والعصبية والإسلام (١)



الإمام/ محمد رشيد رضا

س: من صاحب الإمضاء نصر الدين طه الأندونيسي:

صاحب الفضيلة والعالم العلامة الشيخ رشيد رضا أطال الله عمره.

تحية وسلامًا.. وبعد... فإن في بلادي أندونيسيا الآن حركة استقلالية قوية، وكفاحًا مستمرًا بين الأندونيسيين والمستعمرين، ولسوء الحظ ظهر في وسط هذا الجهاد وفي خلال هذه المعمعة والنضال، فريق من علماء الدين، والحاملين لواء الحق، يحرمون الوطنية، ويحاربون الوطنيين باسم الدين الإسلامي وتعاليمه ويرمونهم بالمروق، ويغرون العداوة بين العامة والزعماء والقادة، حتى أصبحوا بين نارين، نار المستعمرين ونار علماء الدين، وهذا بلا شك بلاء عظيم.

أعلم تطور الحركة الوطنية في مصر، وأعلم أن رجال الدين فيها كانوا في طليعة المجاهدين والحاملين لواء الوطنية، وما كانوا يومًا ما من ألد أعدائها، نعم أذكر رجال الأزهر، علماءها وطلابها الذين يقودون المظاهرة تلو المظاهرة، ويسقطون في الميدان والشوارع، فلأجل هذا كله توجهت إلى مقامكم الكريم لاستجلاء هذه الأمور والاستفهام عن الأسئلة الآتية. فإذا تكرمتم بالجواب فقد أسديتم للأمة الأندونيسية نعمًا عظيمة، وبينتم لها طرق الهدى وسبل الحق، وهذه الأسئلة هي ما يأتي:

١ - أصحيح أن هناك أحاديث تحرم الفكرة الوطنية والقومية؟

٢ - هل قوله «لا عصبية في الإسلام»، وقوله «ليس منا من دعا بدعاء الجاهلية»، حديثان صريحان في تحريم الوطنية؟

٣ - هل هناك فاصل بين العصبية والوطنية؟ وهل الوطنية داخلة في معنى العصبية؟ ما هي العصبية عند العرب؟

٤ - ما وجهة نظر الإسلام نحو الفكرة الوطنية وهل هي تعارض الوحدة الإسلامية؟ وما المقصود بالوحدة الإسلامية؟

٥ - المعروف أن الشيخ محمد عبده الفيلسوف العظيم أبو الوطنية والوطنيين لأن في بيته في حلوان تشأ سعد واجتمع رجالات مصر؟ ما رأيكم في هذا باعتباركم ناشر مذهبه وناشر تاريخ حياته؟

(١) المنار ج ٣٣ (١٩٣٢) ص ١٩٠ - ١٩٢.

٦ - ما نوع الوطنية التي يجب أن يتحلى بها الشاب المسلم؟

هذه هي الأسئلة التي أرجو أن تتكرموا بالجواب عنها، ويستحسن الجواب على صورة مقالة متسلسلة، ولكم مني بالنيابة عن الأمة الأندونيسية جزيل الشكر والسلام.

ج - هذه الأسئلة في موضوع مسألة واحدة ذات شعب، وقد قدمناها على غيرها لأنها أهم من كل ما لدينا من الأسئلة، فنجيب عنها جوابًا واحدًا مجملًا مختصرًا، لأن ما بعد هذه الورقة من هذا الجزء قد طبع فنقول: إن العصبية عند العرب نسبة إلى العصبة بالتحريك، وهم قوم الرجل الذين يتعصبون له أي يحموته ويحامون عنه وينصرونه ظالمًا كان أو مظلومًا، وأصل العصبة أقارب الرجل الذين يرثونه ثم توسعوا فيها، وهي مأخوذة من العصب وهو شجر اللبلاب الذي يلتوي على الشجر ونحوه. ومن المعلوم من الإسلام بالضرورة أنه يحرم تعصب الظلم للأقارب وللقوم وللوطن، ويحرم العداوة والشقاق بين المسلمين بتعصب كل فريق لقومه وأهل بلده أو إقليمه على إخوانهم في الدين وغيرهم إلا أهل الحرب، وقد بين النبي ﷺ هذا بقوله: «العصبية أن يعين الرجل قومه على الظلم»، رواه الإمام أحمد..

ومن المعلوم من الإسلام بالضرورة أيضًا أنه يفرض على أهله عداوة من يعتدي عليهم من الأجانب وقتالهم، فقد صرح جميع الفقهاء بأن الجهاد يكون فرضًا عينيًا إذا اعتدى العدو على المسلمين أو استولى على بعض بلادهم، هذا دفع للظلم، فمن الجهل الفاضح أن يحرم عليهم ويستدل على تحريمه بعصبية الجاهلية المنهي عنها في بعض الأحاديث، كالذي كان بين الأوس والخزرج من الأنصار رضي الله عنهم، وهذا مجمل الجواب عن الأسئلة الثلاثة الأولى.

وأما فكرة الوطنية العصرية فهي عبارة عن اتحاد أهل الوطن المختلفي الأديان، وتعاونهم على الدفاع عن وطنهم المشترك وحفظ استقلاله، أو إعادته إن فقد، وعلى عمرانه، فهي لا تظهر في جزائر أندونيسية كظهورها في مصر، ونظر الإسلام فيها أنه يوجب على المسلمين الدفاع عمن يدخل في حكمهم من غيرهم ومساواته بهم في الأحكام الشرعية العادلة، فكيف لا يجيز اشتراكهم معهم في الدفاع عن البلاد، وحفظ استقلالها والعناية بعمرانها؟ وقد رفع الصحابة رضي الله عنهم الجزية عمن شاركهم من أهل الذمة في الحرب في خلافة عمر رضي الله عنه، كما بيناه بالشواهد في الجزء العاشر من تفسير المنار.

وأما نوع الوطنية التي يجب أن يتحلى بها الشاب، فهو أن يكون أسوة حسنة لأهل وطنه على اختلاف مللهم ونحلهم، ومشاركًا لهم في كل عمل مشروع لاستقلاله وترقيته بالعلم والفضيلة والقوة والثروة على قاعدة الشرع الإسلامي في تقديم الأقرب فالأقرب في الحقوق والواجبات، وأن لا يغفل في خدمته لوطنه وقومه عن كون الإسلام قد كرمه ورفع قدره بجعله أخًا لمئات الملايين من المسلمين في العالم، فهو عضو لجسم أكبر من قومه، ووطنه الشخصي جزء من وطنه الملي، وأنه يجب عليه أن يتحرى جعل ترقي الجزء وسيلة لترقي الكل.

وأما الوحدة الإسلامية فهي تتحقق ببضع روابط بيناها في كتابنا الوحي المحمدي، وفي تفسيرنا ومنارنا، فراجعوها وراجعوا في الجزء الأول من تاريخ الأستاذ الإمام (ص ٩١٧) رأيه في الوطنية والدين، وفي الجزء الثاني منه مقالاته في الجنسية وفي التعصب.

﴿فَسْئَلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

استفتاءات القراء

(الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبى بعده سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين)

اطلعنا على الطلب المقدم من/ مجلة الأزهر - المتضمن لبعض الأسئلة وهى:

عقد عن القمح والشعير

في بلادنا عند العوام هناك عقد عن القمح والشعير وأمثالهما من الحبوب قبل نضجها، فالبائع يأخذ المال مقدمًا، وحين تظهر الحبوب وتنضج يحصدها المشترى ويأخذها. والمطلوب: هل هذا البيع جائز، وهل يدخل تحت بيع السَّلم من منظور المذهب الحنفي؟

الجواب: السَّلم: هو بيع مؤجل بمعجل، وأصل مشروعيته ما رواه الإمام البخارى ومسلم فى «صحيحيهما» من حديث ابن عباس رضى الله عنهما قال: قدم النبى ﷺ المدينة وهم يسلفون بالتمر السنتين والثلاث، فقال: «من أسلف فى شىء، ففى كيل معلوم، ووزن معلوم، إلى أجل معلوم».

وهو عند الجمهور جائز فى كل مال يجوز بيعه وتضبط صفاته بما فى ذلك النقود، أما ما لا يمكن ضبط صفاته من الأموال فلا يصح السَّلم فيه، لأنه يفضى إلى المنازعة والمشاقة، وعدمها مطلوب شرعًا.

والسَّلم يجوز- عند الحنفية- فى أربعة أشياء، فى المكيلات، والموزونات، والمزروعات، والمعدودات إذا لم يكن بين الموصوف فى الذمة والمسلم فيه تفاوت كبير، ولا يجوز فى النقود، فكل شىء عرفت صفته وقرب تفاوته يجوز فيه السَّلم، وكل شىء جهلت صفته وبعد تفاوته لا يجوز فيه السَّلم، قال الإمام ابن نجيم الحنفى فى «البحر الرائق» (٦/ ١٦٩، ط. دار الكتاب الإسلامي): «ما أمكن ضبط صفته ومعرفة قدره صح السَّلم فيه»، لأنه لا يفضى إلى المنازعة»، إلى أن قال: «وما لا فلا» وما لا يمكن ضبط صفته ومعرفة قدره لا يصح السَّلم فيه، لأنه يفضى إلى المنازعة. ثم شرع يبين الفصلين بالفاء التفصيلية بقوله «فيصح فى المكيل، كالبر والشعير، والموزون المثمن، كالعسل والزيت» أ. هـ.

يجيب عنها فضيلة الأستاذ الدكتور
شوقى عـــلام
مفتي جمهورية مصر العربية

وشرائط السَّلم ثمانية أشياء فى قول الإمام أبى حنيفة كما فى «النتف فى الفتاوى» (١/ ٤٥٩، ط. دار الفرقان):

- أولها: أن يعين الجنس، حنطة أو شعيرا.
- والثاني: أن يعين المقدار، كيلاً أو وزنا.
- والثالث: أن يبين الشرب، سهليا أو جبليا، تمرًا كرمانيا أو سجزيا.
- والرابع: أن يبين الصفة، جيدا أو رديئا أو وسطًا.
- والخامس: أن يبين الأجل، سنة أو شهرًا أو أيامًا.
- والسادس: أن يبين المكان الذى يوجد فيه إن كان للسَّلم حمل ومؤنة.
- والسابع: أن يكون رأس المال معلوما،
- والثامن: أن يكون رأس المال مدفوعًا قبل الافتراق.

وفى قول أبى يوسف ومحمد وأبى عبدالله- وهو: الحسين بن محمد البلخي- شرائطه ستة أشياء، وهى ما قال أبو حنيفة إلا اثنين، وهما أن يكون رأس المال غير مقوم جاز، وإن لم يبين المكان جاز.

وبناء على ذلك وفى واقعة السؤال: فالمعاملة المذكورة تعد سلما إذا تم الاتفاق على المبيع ووصفه بما ينفى الجهالة عنه، فإذا حل الوقت وكانت الحبوب مطابقة للشروط والمواصفات التى اتفق عليها الطرفان من قبل استحق المشترى الثمر بمقتضى المطابقة للمواصفات والشروط، وإلا وجب على البائع توفير ما يوفى بما اتفق عليه من المواصفات.

والله سبحانه وتعالى أعلم

حكم فوائد البنوك

ما حكم فوائد البنوك؟ وهل يجوز الإنفاق منها على الفقراء والمحتاجين والمرضى، خاصة إذا كانوا فى ظروف صعبة جدًا؟

الجواب: فوائد البنوك من الأمور المختلف فيها بين العلماء المعاصرين، فمن العلماء من أباحها، ومنهم من حرمها، وشأن المسائل المختلف فيها أنها على السعة، فيجوز أخذ الزيادة «الأرباح» والانتفاع بها أو الإنفاق منها على الفقراء والمحتاجين والمرضى، ولا إثم فى ذلك ولا حرج.

والله سبحانه وتعالى أعلم

أثر منهج المحدثين في المنهج الأوروبي التاريخي الحديث



أ. د. أحمد عمر هاشم
عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر

بعد تدوين السنة النبوية وازدهارها بعشرة قرون ظهرت فكرة مستحدثة في أوروبا تهدف إلى تحديد منهج جديد للتاريخ، وعندما برز المنهج إلى حيز الوجود قوبل بالتقدير البالغ وتناقله الشرقيون على أنه جديد، ولكنه في الحقيقة مأخوذ من حيث الجملة من منهج المحدثين ومتأثر به، ومع هذا فلم يصل المنهج التاريخي إلى ما وصل إليه منهج المحدثين الثقات الأخيار الذين جمعوا بين العلم والعمل، ودفعهم إخلاصهم لعقيدتهم، وحبهم لرسولهم - صلوات الله وسلامه عليه - إلى أن ينقلوا سنته الشريفة بحرص بالغ، ودقة فائقة، فأودعوها سويداء قلوبهم، ونقشوها على صفحات صدورهم الأمينة، متبعين في التحمل والأداء أقصى ما في الوسع الإنساني، ومترسمين أدق الطرق وأسماها حتى تدون السنة نقية مشرقة، وكيف لا، وصاحبها هو حبيبهم ورسولهم ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

وسأقدم هنا المنهج التاريخي الحديث حتى يتبين لنا بالمقارنة أثر مناهج المحدثين وأئمة السنة فيمن جاء بعدهم، وأثرها في هذا المنهج الحديث، وحتى يتضح أن هذا المنهج ليس له من القداسة ما لمناهج أئمة السنة النبوية الذين استجابوا لله وللرسول، يقول الدكتور محمود قاسم: «لم يتبع القدماء الأوربيون» منهجا سليما في دراسة التاريخ فكانوا يخلطون بينه وبين فن القصص، وكانوا يجمعون الوثائق والروايات كيفما اتفق ثم يصهرونها ويصبونها في قالب أدبي جذاب، لكن علماء المسلمين عنوا عناية كبرى بنقد الرواة وبتمحيص طرقهم في النقل، ولاسيما فيما يتعلق بدراسة أحاديث الرسول ﷺ وقد حدد ابن خلدون قواعد البحث في التاريخ حتى ينهض به إلى مستوى العلوم الجديرة بهذا الاسم، ثم اتجه الأوربيون إلى العناية بالدراسات التاريخية وبينوا القواعد التي يجب على المبتدئ احترامها، وانتهوا إلى تحديد مراحل البحث تحديدا دقيقا. ا.هـ.

مراحل البحث التاريخي (التحليل والتركيب والعرض)

[ا] التحليل التاريخي:

١ - إذا انتهى الباحث من اختيار موضوع دراسته، ومن جمع الوثائق الخاصة به بدأ يحللها ويمحصها. والتحليل نوعان خارجي وداخلي.

أولا: التحليل الخارجي:

وتتكون هذه المرحلة من عمليتين رئيستين هما:

[ا] نقد الوثائق:

لما كانت مادة التاريخ لا تقع تحت ملاحظاتنا بطريقة مباشرة.

ولما كانت الوثائق هي السبيل الوحيد إلى معرفتها فإنه يجب الحذر في استخدامها والعناية بالتفرقة بين الصحيح والزيف منها. وتتبين ضرورة هذا النقد إذا علمنا أن الإنسان يميل بطبعه إلى تصديق الأخبار دون تمحيص، إذ التصديق أقل مجهودا من المناقشة، والتسليم أيسر من النقد، وتكديس الوثائق كيفما اتفق أقل عناء من وزنها وتقديرها.

وقد بين العلامة «سينيوبوس» أنه يجب الحذر من بعض العادات العقلية كالميل إلى استخدام أول نسخة تقع في أيدينا، ولو كانت غير دقيقة، وكالميل إلى الاعتماد على أقدم النسخ ولو كانت أردأ من النسخ الأقرب منها عهدا، وكالميل إلى اتخاذ الأغلبية حكما إذا اختلفت النسخ فيما بينها، مع أن هذا لا يدل على شيء البتة.

[ب] التحقق من شخصية صاحب الوثيقة:

لا تكفي المقارنة بين مختلف النسخ، بل لابد من الوقوف أيضا على مصدر كل وثيقة أين ومتى كتبت؟ ومن كتبها؟ وذلك لأنه لا فائدة من استخدام وثيقة يُجهل صاحبها. وهذه العملية هامة جدا، ولاسيما إذا كان المؤرخ يدرس إحدى وثائق العصور القديمة أو المتوسطة، فإن كتابها ما كانوا يعنون عناية المعاصرين بتوقيع كتاباتهم أو تحديد تاريخها وقد يسارع الباحث إلى تصديق نسبة إحدى الوثائق إلى أحد الكتاب إذا رأى أنها تحمل توقيعه، لكن يجب الحذر من هذا الميل الساذج إلى معرفة التصديق، فإن الانتحال أمر مألوف وأسبابه عديدة، ونحن نعلم أن بعض فراعنة مصر لم يتورعوا عن محو أسماء سابقيهم ونسبة آثارهم إلى أنفسهم. حقا إن خير وسيلة إلى معرفة شخصية الكاتب هي التحليل الداخلي، غير أنه يجب الاعتماد، قبل ذلك، على بعض العلاقات الخارجية كالخط والورق واللغة، وكثيرا ما تكون دلالة هذه العلامات حاسمة فتقرر تزوير الوثائق أو انتحالها، فإن كثيرا من المزيفين لا يتخذون جميع أسباب

الحيطة فيستخدمون كلمات وجملا وألوانا من الأساليب التى لم تكن مألوفة فى العصر الذى ينسبون الوثائق إليه كذلك تجب المقارنة بين الوثائق المختلفة؛ فإن ذلك يزيدنا علما بالظروف التى دونت فيها الوثائق الصحيحة، وبمواضع التزييف أو التحريف فى غيرها، وتستخدم المقارنة أيضا فى التفرقة بين النص الذى اشترك فى كتابته أفراد عديدون، لأن اضطراب الأسلوب أو عدم تجانسه دليل على تعدد كاتبى الوثيقة، أو على أن بعضهم ينقل عن بعض، وتؤدى هذه العملية إلى بعض النتائج السلبية، إذ تبين لنا أن بعض الوثائق مزور أو منقول، وأنه لا فائدة من استخدامه، لكن يجب الاعتدال فى النقد فإن بعض دارسى الوثائق يغالون فى النقد فيرون التحريف والتزوير والطلاسم فى كل مكان على الرغم من وضوح النصوص التى يدرسونها.

ولذا يجب الوقوف عند حد معلوم وإلا انتهى الأمر إلى الشك المطلق، وهناك آخرون ينقدون لمجرد النقد، وكلما انتهوا من وثيقة بحثوا عن غيرها ظانين أن التاريخ نوع من الرياضة العقلية، وأن أهمية الوثيقة لا تقاس بما تحتوى عليه من حقائق بل بما تثيره من صعوبات.

ثانيا: التحليل الداخلى:

ويطلق على مجموعة العمليات التى يستخدمها الباحث فى فهم محتويات الوثائق، وتقدير الظروف التى أحاطت بكتابتها، ويتكون التحليل الداخلى من نوعين:

[أ] تحليل داخلى إيجابى:

ويستخدم للتفرقة بين العناصر الأولية التى يحتوى عليها النص التاريخى تمهيدا لفهم كل عنصر على حدة، وللوقوف على المعنى الحقيقى الذى ترمى إليه الألفاظ والعبارات.

[ب] تحليل داخلى سلبى:

ويتمثل فى دراسة الظروف التى وجد فيها كاتب الوثيقة أو شهادة الآخرين الذين رأوا الظواهر أو الحوادث التاريخية، كما تتمثل فى دراسة الأسباب الخارجية والبواعث النفسية الداخلية التى ربما تدعو إلى الكذب أو تؤدى إلى الخطأ، والقاعدة العامة تنص على وجود الشك فى كل راو حتى تتوفر بعض الأسباب القوية التى تدعو إلى الثقة به، وهذا يحتاج إلى جهد كبير.

وقد حدد «سينيوبوس» القواعد العامة التى يجب اتباعها فى هذه الحالة ووضعها على هيئة مجموعتين من الأسئلة تمس إحداهما الدوافع التى تعود إلى الكذب، وتمس الأخرى البواعث التى ينشأ عنها الخطأ، وتتكون المجموعة الأولى من الأسئلة الآتية باختصار.

١ - هل أراد صاحب الوثيقة تحقيق مصلحة خاصة؟ وهل أراد أن يخدع القارىء؟

٢ - هل كان الراوى ينتمى إلى جماعة خاصة يميل إلى نصرتها ويبرر سلوكها ويظهرها فى وضع مشرف؟

٣ - هل وجد الراوى فى مركز أو ظروف أكرهته على الكذب؟ وهذا ما يحدث عندما لا يتفق الصدق مع السياسة العامة للدولة؟

٤ - هل جره الضرر بشخصه أو بجماعته إلى الاختلاق والتحريف؟

٥ - هل أراد الراوى التقرب إلى الجمهور وتملقه وإثارة عواطفه؟

٦ - هل حاول صاحب الوثيقة التأثير فى الجمهور بأسلوبه الأدبي؟ وهل شوه الحقائق عندما ألبسها ثوبا أدبيا؟

وأما عن البواعث التى ينشأ عنها الخطأ فتتلخص فى مجموعة من الأسئلة الآتية:

١ - هل كان الكاتب فى حالة عقلية تسمح له بملاحظة الحادثة؟ وهل سلم من بعض العوامل التى تدعو إلى الخطأ كالوهم؟

٢ - هل تحققت الشروط العلمية فى الملاحظة؟ وهل كان خاليا من الهوى؟ وهل فهم ما سمع أو رأى؟

٣ - هل أصدر حكمه على حوادث صرفه الكسل أو الإهمال عن ملاحظتها؟ وهل ذكر أمورا لم يرها ولم يسمع عنها شيئا بل استنبطها بخياله؟

٤ - هل كانت طبيعة الحادثة تسمح بملاحظتها؟ لأن بعض الحوادث تحاط بالكتمان.

وينتهى التحليل الداخلى بنوعيه: الإيجابى والسلبى إلى تقرير بعض النتائج الجزئية المبعثرة المنعزلة، وإنما كانت كذلك لأنها تتصل بأمور مختلفة تذكرها الوثائق دون ترتيب.

مرحلة التركيب التاريخى:

تقوم مهمة المؤرخ بعد هذا بالتركيب التاريخى ويتلخص فى الآتى:

أولا - جمع المعلومات وتنظيمها على أساس طبيعتها الداخلية فيقسمها إلى ظواهر لغوية وعلمية ودينية.. إلخ. وعلى أساس طبيعة الشروط الخاصة المتصلة بمظاهر النشاط الإنسانى كالعادات المادية: من مأكل وملبس ونظم اجتماعية.

ثانيا - الاجتهاد: وقد أباحوا فى منهجهم الحديث أن يستخدم المؤرخ الخيال لسد الفجوات فى التاريخ بشرط أن يكون مقيدا بنتائج التحليل.

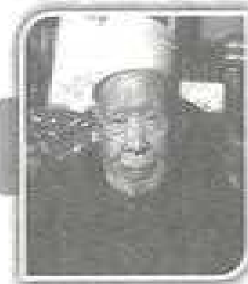
ثالثا: التعليل: وذلك بربط النتائج جميعها عن طريق بيان العلاقات التى توجد بينها.

مرحلة العرض:

ونظرة المحدثين إلى التاريخ على أنه وصف للحضارة، أى لمختلف مظاهر النشاط الإنسانى غير اتجاههم فى طريقة عرضه فجعلوا يستخدمون أساليب واضحة بريئة من طابع الخطابة أو الإنشاء أو الفلسفة، ويرجع الفضل فى هذا الاتجاه الجديد إلى المؤرخين الذين بدأوا محاولتهم على استحياء فى القرن التاسع عشر، وبالجملة لم يعد العرض التاريخى يرمى إلى إمتاع القارئ أو إسداء النصح إليه أو إثارة عواطفه. بل إلى مجرد المعرفة. وليس معنى هذا أن يتحرر المؤرخ من كل قيد، فمن الواجب أن يستخدم لغة واضحة دقيقة حتى يستطيع تحديد تلك الظواهر الإنسانية المرنة. ويمكن القول بأن المؤرخ لا يمكنه العمل إلا إذا أجاد اللغة وإلا إذا ابتعد عن استخدام تلك الألفاظ التى تدل على معان مجردة أدعى إلى الغموض واللبس منها إلى الوضوح.

يتبع

يد بمفردها لا تصفق



لفضيلة الشيخ/ معوض عوض إبراهيم

المؤمن السوى له يدان يأخذ بهما ويعطى وإن كانت اليمنى منهما أبرك فائدة وأجدى من اليسرى عادة، ولليمنى شريف الأعمال، وفى اليسرى لإزالة الزوائد عن جسم الإنسان وعما يعترض طريقنا من أشواك وغيرها مما لا ينأسب أمن الطريق، ولقد أدب النبى ﷺ سلمة ابن أم المؤمنين أم سلمة، وكان صغيرا تطيش يده فى صفحة الطعام فقال له: «يا غلام سم الله وكل بيمينك، وكل مما يليك»، وقال لرجل يأكل بشماله «كل بيمينك فقال: لا أستطيع، ما منعه إلا الكبر، فقال النبى ﷺ: «لا استطعت فما رفعها إلى فيه» رواه مسلم.

وكم يكون التصفيق مغنيا عن الكلام حينما نضرب يُسرانا يُمنانا أو نضرب يُمنانا بيسرانا لكى ينتبه غافل ويخفض غيرُه صوتَه، والله تعالى يقول:

﴿وَٱقۡصِدۡ فِى مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾

وكم يكون التصفيق ضروريا عندما تكون الأخت المسلمة بين مثيلاتها فى إقام الصلاة وراء الإمام وتُصفق حتى يتذكر ما نسى فى قراءته أو فى حركات الصلاة الأخرى، بينما يكتفى الشرع الشريف من الرجل بالتسبيح، وقد قالوا فى التعريف بالصحابى الجليل أبى هريرة رضى الله عنه بأنه سَبَقَ سَبْقًا بعيدا فى الرواية عن رسول الله ﷺ لأن الصحابة كان يشغلهم الصفق فى الأسواق (البيع والشراء والتجارة التى لا بد منها لخير الناس ولنظام الحياة).

وكان أبو هريرة رضى الله عنه يصحب الرسول على ما يؤتى له من طعام أو شراب وهو يسمع ما يقول النبى ويرى ما يفعل صلوات الله وسلامه عليه.

إن يدًا بمفردها لا تُصفق وإن اكتنزت باللحم والشحم وكانت فى سُمك حجر الطاحون ومساحته، والنبى صلوات الله وسلامه عليه يقول: «عليكم بالجماعة، وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد ...» ويقول: «يد الله مع الجماعة ومن شذ شذ إلى النار»، والناس يقولون: «ضعيفان يغلبان قويا»، ويقول النبى ﷺ: «إذا كانوا ثلاثة فليؤمروا عليهم واحدا منهم».

ولقد كان النبى صلوات الله وسلامه عليه وهو الصادق المصدوق يستشير أصحابه فى الأمر الذى لم ينزل عليه فيه الوحى من الله عز وجل، وفى ذلك ما يعنى أنه صلوات الله عليه كان يدعم الحق والخير والصواب من الرأى فيما يراه الأكثرون، وكم من مرة نزل فيها النبى ﷺ على رأى الواحد مثل نزوله على

رأى الحُباب بن المنذر يوم بدر حين سأل النبى أذلك الموقف الذى وقفنا فيه وحى من الله أم هو الرأى والمكيدة؟ فقال النبى ﷺ بل هو الرأى والمكيدة، فقال له: يا رسول الله ليس بمنزل ولكن انهض حتى تجعل القُلب كلها من وراء ظهرك ثم غور كل قليب بها إلا قليبا واحدا ثم احفر عليه حوضا فنقاتل القوم ونشرب ولا يشربون حتى يحكم الله بيننا وبينهم. فقال رسول الله: (قد أشرت بالرأى) ففعل ذلك، وفى يوم أحد رأى شيوخ الصحابة من المهاجرين والأنصار أن يلقى النبى أعداءَهُ داخل المدينة فى شوارعها وسطوح منازلها، ولكن الشبيبة التى تخرجت فى مدرسة الوحى قالت يارسول الله بل نخرج لمناجزة قريش خارج المدينة ورأى النبى ﷺ رأى الشباب، فيدخل النبى إلى بيته ويلبس لامته وقال الصحابة للشباب لقد أكرهتم الرسول على أمر لم يُرده، وقال الشباب للنبى بعد أن خرج إليهم يارسول الله اصنع ما شئت، فقال النبى صلوات الله عليه «ما كان لنبى لبس لامته أن ينزعها فى لقاء أعدائه حتى يحكم الله بينه وبينهم»، وكانت الجماعة ووحدة الكلمة واستقامة الصف ولقاء أمور الحياة وغِيَرَ الزمان على قلب رجل واحد حال المسلمين دائما.

وإنه لمن جلال الأخوة وجمال الصحبة أن نأخذ أنفسنا بقول معلم الناس الخير صلوات الله عليه «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما فإن ذلك يُحزنه» ويتركه عرضا للشيطان الذى يُسيطر عليه بسوء الظن والوقوع فى مهاوى الفرقة والانقسام.

وكم كان حكيما ذلك الأعرابى الذى دعا إليه أبناءه وكانوا عشرة وأمر كل واحد منهم أن يأتى بعود من حطب فلما جاءوه بما أراد أمرهم أن يجمعوها فى حزمة ثم دعاهم واحدا واحدا إلى أن يكسروها مجتمعة مبتدئا بأصغرهم ومنتهيا بأكبرهم فعجزوا عن كسر هذه الحزمة ثم أمرهم أن يأخذوها بعد ذلك عودا عودا وأن يكسر كل عوده فكسره فقال لهم هكذا كونوا يا بنى على قلب رجل واحد.

ألا ما أحوجنا اليوم لرجل شديد يهتف بأمتنا الماجدة بما أمر الله عز وجل فى قوله:

﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾

فلعل ذلك الأمر الإلهى بصنع ما صنع بأصحاب النبى يوم ساء شاس بن قيس أن يرى الأنصار والمهاجرين على قلب رجل واحد فسلط عليهم غلامه يُذكرهم بيوم (بُعاث) فإذا بالصحابة رضوان الله عليهم تفعل بهم مقالة غلام شاس وإذا بهم رضوان الله عليهم ينادى فريق منهم يا للمهاجرين، وينادى الآخر يا للأنصار وكادت سيوفهم ترتوى من ذلك الدم العزيز لولا أن بادرهم النبى الذى تمى إليه صلوات الله عليه خيرهم فجاء يناديهم: «دعوها فإنها منتنة، أتريدون أن ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض بعد أن هداكم الله للإسلام».

إلى الإسلام يا بنى قومى لا إلى ما جهله الكثيرون من قول الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾

لتعارفوا لا للاختلاف والفرقة وإيثار الباطل والتناجى بالإثم والعدوان، والله تعالى يقول:

﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾

عصمنا الله فى شتى ديارنا وأقطارنا من أن نكون ممن برأ الله منهم رسوله فقال

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِى شَىۡءٍۚ﴾

والله عز وجل حسبنا ونعم الوكيل.

تأملات في السيرة النبوية

غزوة الخندق (٦)

فطنة مقاتل ورجل نوَّر الله قلبه بالإسلام

لفضيلة الشيخ الطاهر الحامدي

روى الحاكم وصححه ابن مردَوَيْه وأبو نعيم كلاهما في الدلائل من طرق عدة وغيرهم وابن اسحق عن ابن عمر أن حذيفة رضي الله عنه كان جالسًا مع أصحابه يومًا وذكر لهم مشاهدَه مع رسول الله ﷺ فقال جلساؤه أما والله لو شهدنا ذلك مع رسول الله ﷺ لكنا فعلنا وفعلنا فقال رجل: لو أدركت رسول الله ﷺ لقاتلت معه وأبليت وأبليت - أقول بكل صدق ومودة لستَ وحدك أيها الرجل المبارك لكنّ هذا شعورُنا وتحسَبُ أنا تملك أكثرَ منه بل هو شعورُ كل مسلم إلى يوم القيامة - فواصل حذيفة رضي الله عنه كلامه فقال: لقد رأيتنا ونحن صافّون قعودًا يوم الأحزاب وأبو سفيان ومن معه من الأحزاب فوقنا وقريظة اليهود أسفل منّا تخافهم على ذرارينا، وما أتتْ علينا ليلة قط أشد ظلمة وبردًا ولا أشد ريحًا منها وأصوات ريحها أمثال الصواعق وهي ظلمة ما يرى أحدنا أصبعه - ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج أحدنا يده لم يكد يراها - فجعل المنافقون يستأذنون رسول الله ﷺ ويقولون:

﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾

(الأحزاب - ١٣)

فما يستأذنه أحدٌ منهم إلا أذن له فيتسللون ونحن ثلاثمائة أو نحو ذلك فاستقبلنا رسول الله ﷺ رجلا رجلًا يقول - يستحثنا - ألا رجل يأتيني بخبر القوم يكون معي يوم القيامة جعله الله رفيق إبراهيم يوم القيامة؟. فلم يجبه منا أحد ثم نادى ﷺ الثانية مثل ذلك ثم الثالثة. فأشار أبو بكر رضي الله عنه فقال: «يا رسول الله ابعث حذيفة، فقلت دونك والله.

فمر عليَّ رسول الله ﷺ وما عليَّ جُنّة تقيني من العدو أو من البرد إلا مرطًا لإمرأتي ما تجاوز ركبتي فأتاني رسول الله ﷺ وأنا جالس على ركبتي. فقال: من هذا؟ فقلت: حذيفة. قال رسول الله ﷺ كأنه يستوثق من وجودي: حذيفة؟ يقول حذيفة فتقاصرت إلى الأرض كراهية أن أقوم - خشية أن تظهر عورتي بسبب قصر مرطي - ثم قلت: بلى يا رسول الله قال: قم. فقمت فقال: إنه كائن في القوم خبر فأتني بخبر القوم. فقلت: والذي بعثك بالحق ما قمت إلا حياءً منك من شدة البرد فقال رسول الله ﷺ: لا بأس عليك من حر ولا برد حتى ترجع إلينا. قال: وأنا من أشد الناس فزعًا وأشدهم بردًا فقلت: والله ما بي خوف من أن أقتل ولكن أخشى أن أُأسر. فقال: إنك لن تؤسر - ما أشد فطنة حذيفة! كان يخشى البرد والأسر فأخذ لنفسه أمانة من الحر والبرد والأسر يقول حذيفة: فخرجت ودعا لي رسول الله ﷺ فقال: اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن فوقه ومن تحته. يقول حذيفة: فوالله ما كان فيَّ من فزع أو برد إلا خرج فما أجد منه شيئًا فمضيت كأنما أمشي في الحمى فلما وليْتُ دعاني فقال: يا حذيفة لا تحدثنّ في القوم شيئًا حتى تأتيني.

وتحكي رواية أخرى قصة فيها أوامر محددة أكثر تحديدًا أنه لما نادى رسول الله ﷺ حذيفة ردّ حذيفة فقال: يا رسول الله مُرني بما شئت. فقال ﷺ: اذهبْ حتى تدخل بين ظهري القوم فأت قريشًا فقل يا معشر قريش إنما يريد الناس إذا كان غدًا أن يقولوا أين قريش أين قادة الناس أين رءوس الناس فيقدموكم فتصلوا القتال فيكون القتل فيكم. ثم ائت بني كنانة فقل مثل ذلك ثم ائت قيسًا فقل مثل ذلك.

وإذا رجل أدهم ضخم يقول بيده على النار - يعني يدفيء يده على النار - ويمسح خاصرته وحوله عصبة قد تفرق عنه الأحزاب - ويقول: الرحيل الرحيل. ولم أكن أعرف أبا سفيان قبل ذلك فانتزعت سهمًا من كنانتي فوضعته في كبد القوس لأرمي به الرجل في ضوء النار فتذكرت قول رسول الله ﷺ، لا تحدثنّ في القوم شيئًا، فأمسكت ورددت سهمي - فلما جلست فيهم فكأنما الرجل أحسّ أنّ قد دخل فيهم غيرهم فنادى - ليأخذ كلٌ منكم بيد جليسه وليعرف من جليسه. - وهنا ظهرت فطنة حذيفة فأسرع وضرب بيده على يد الذي بيمينه فقال: من أنت فقال: معاوية بن أبي سفيان. يقول: ثم ضربت بيدي على يد الذي بشمالي فقلت: من أنت؟ قال: عمرو بن العاص.... فعلت ذلك خشية أن يفطن القوم بي فبادرتهم المسألة ثم تلبثت فيهم هنيهًا وإذا القوم يصيحون بأصحابهم: الرحيل الرحيل. والريح تضرب في عسكر المشركين ما تجاوزهم شبرًا - يعني أنّ الريح تسلط عليهم لا تتباعد عنهم إلى سواهم فهي تتصرف بأمر الله - فوالله إني لأسمع صوت الحجارة في رحالهم وفرشهم والريح تضرب بها فلما دنى الصبح نادوا: أين قريش؟ أين رءوس الناس؟ فلما رأى ذلك أبو سفيان أمرهم بأن يحملوا أمتعتهم فما هي إلا أن رأيت أبا سفيان وثب على جمل له في عقاله فجعل يستحثه حتى قام واقفًا وهو ينادي الرحيل الرحيل ثم خرجت إلى رسول الله ﷺ فلما انتصف بيْ الطريق أو نحو ذلك إذا أنا بعشرين فارسًا ينادونني: أخبر صاحبك أن الله كفاه القوم بالريح. فرجعت إلى رسول الله ﷺ - وقبل أن أخبرك بما قاله حذيفة حين رجع إلى رسول الله ﷺ أقول لك أرجو أن تصف لي حال قائد في معركة؟ أي قائد وأي معركة تكالبت عليه جنود أعدائه من فوقه ومن أسفل منه وقد زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، كيف يكون حال القائد حين ذاك؟ لعله يحتسي كؤوسًا من الخمر يطفئ بها

غـــزوة الخنـــدق (٦)

رَوْعَهُ أو يشحذ بها عزيمته وهيهات أن تأتي الخمر بعزيمة!!! أو أن القائد يصرخ في غطرسة وجنون في رءوس جنده. هلموا إلى المعركة. وعلى أى حال فلن يكون كما وجد حذيفة رسول الله ﷺ لكن كيف وجد حذيفة رسول الله ﷺ ؟ ـ يقول حذيفة: فرجعت إلى رسول الله ﷺ وهو في شملة ـ أى وهو ملتف بغطاء ـ قائم يصلي. فوالله ما إن رجعتُ حتى راجعني القُر والبرد وجعلت اقرقف فاومأ إلىّ رسول الله ﷺ بيده وهو يصلي فدنوت منه فسدل علىّ من فضل شملته. ـ هنيئاً لك يا حذيفة إذ آواك رسول الله ﷺ إلى حضنه ولفك بشملته تستدفئ بحضنه ـ وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمرٌ صلى. وأخبرته خبر القوم وإني تركتهم يرحلون فلم أزل نائمًا حتى جاء الصبح فلما أن أصبحتُ قال رسول الله ﷺ: قُمْ يا نومان. ـ أرأيت كيف يفعل رسول الله ﷺ إذا اشتد أمر قتال إنه لا يهرع إلى خمر ولا يصرخ في قواده بجنون لكنه يفزع إلى ربه يصلي في تبتل وخشوع يستمطر رحمته ويرجو نصرَه..

يقول الله سبحانه وتعالى في محكم كتابه

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾

(الزمر - ٢٢)

ذلك الرجل هو نُعيم ابن مسعود الذى سار مع قومه يوم الأحزاب وهو على دينهم وأقام معهم ما أقاموا حتى أجدب الجناب وهلك الخف والكراع، فقذف الله في قلبه الإسلام وكتم عن قومه إسلامه وكان ما كان من أمره ماتحكيه كتب السنة فهو على نور من ربه وسداد في رأيه. يروى البخاري عن ابن مسعود عن عبد الله بن أبي أوفى أن رسول الله ﷺ دعا يوم الأحزاب وقال: «أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فإن لقيتم العدو فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف». هل في كلام سيد المرسلين دعوة إلى قتال أو سفك للدماء؟ فلماذا يقول المرجفون إن الإسلام انتشر بالسيف؟ ها هو نبي الله يقول لأصحابه والعدو على الأبواب لا تتمنوا لقاء العدو ويطلب منهم أن يسألوا الله العافية فهل في هذه الدعوات قتل أو دعوة إلى قتل؟ فلماذا يرجف المرجفون ويتقولون على الإسلام ونبي الإسلام؟ لكنْ إذا هجم عليهم العدو فعليهم الصبر. لماذا يرمينا أصحاب هيروشيما ونجازاكي بأن ديننا دين حرب وأنه انتشر بالسيف؟ مع أنهم يدمرون ويتنصتون على العالم كله ولا يخجلون!! وبلا حياء يكشفون أسرار الناس ويهتكون حرماتهم حتى حلفائهم!! أيّنا يجلب العار على نفسه؟ نحن أم هم؟ مالهم يشمئزون لما رفضت دولة عربية مقعداً في مجلس الأمن؟ مُعربة بصدق أنه مجلس فاقد لمصداقيته وأنهم جماعة يحكمون بأهوائهم ومصالحهم، وليس بالحق الذى أُنشئ من أجله المجلس:

أنا ابن دارة معروفاً بها نسبي
وهل بدارة ياللناس من عار

تروى كتب السنة والسيرة أن نُعيم بن مسعود لما قذف الله في قلبه الإسلام ونوّر الله قلبه كتم عن قومه إسلامه فخرج حتى أتى رسول ﷺ بين المغرب والعشاء فوجده يصلي فجلس حتى أنهى رسول ﷺ صلاته ثم قال له: ما جاء بك يا نُعيم؟ قال جئت أصدقك وأشهد أنّ ما جئت به حق وأُسلم بين يديك ـ وأخبره أن قريشاً تحزّبوا عليه وأنهم بعثوا إلى بني قريظة أنه قد طال مكثنا وأجدب ما حولنا وجئنا لنقاتل محمدا وأصحابه فنستريح منه وأرسلت إليهم بنو قريظة وقالت «نعم ما رأيتم» ثم قال رسول الله لنعيم: إنهم قد أرسلوا إلىّ يدعونني إلى الصلح وأرد بني النضير إلى ديارهم وأموالهم فقال نُعيم: يا رسول الله مُرني بما شئت والله لا تأمرني بأمر إلا مضيت له، ولا قومي ولا أحد يعلم بأمر إسلامي فقال ﷺ إنما أنت فينا رجل واحد فخذِّل عنّا الناس ما استطعت فإن الحرب خدعة. فقال نُعيم: أفعل يا رسول الله ثم أراد أن يستبيح لنفسه خداع القوم ويتكلم بكلام هو في السلم غير مقبول فأراد أن يستوثق لنفسه ـ لكن قد يكون مقبولاً في الحرب ـ فقال يا رسول الله إني أقول قولاً فأذن لي فأقول. فقال ﷺ: قل ما بدى لك أنت في حل.

وألهم الله نُعيم بن مسعود حيلة خدعت القوم جميعاً يقول رضى الله عنه: فذهبت حتى جئت بني قريظة فلمّا رأوني رحّبوا بىّ وأكرموني وعرضوا علىّ الطعام والشراب فقلت إني لم آت لطعام و شراب إنما جئت مهتماً بأمركم متخوفاً عليكم لأشير عليكم برأيي. ثم قال: قد عرفتم ودّى إياكم وخاصة ما بيني وبينكم. فقالوا جميعاً: قد عرفنا ولست عندنا بمتهم وأنت عندنا على ما نحب من الصدق والبر. قال: أكتموا عني. قالوا: نفعل. فقال: إن أمر هذا الرجل بلاء. صنع ما رأيتم ببني قينقاع وبني النضير وأجلاهم عن بلادهم بعد قبض الأموال وأرى أن الأمر قد تطاول كما ترون وإنكم والله ما أنتم وقريش وغطفان من محمد بمنزلة واحدة وأما قريش وغطفان فإنهم قوم جاءوا حتى نزلوا حيث رأيتم وإن وجدوا فرصة انتهزوها وإن كانت الحرب فأصابهم ما يكرهون رجعوا إلى بلادهم وأنتم لا تقدرون على ذلك. البلد بلدكم فيها أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم وقد كبر عليهم جانب محمد. لا غنى بهم عنكم لما يعرفون عنكم فلا تقاتلوا مع قريش ولا غطفان حتى تأخذوا منهم رهنا من أشرافهم تستوثقون به منهم ألا يبرحوا حتى يناجزوا محمدا قالوا أشرْتَ علينا بالرأى والنصح. ـ وشكروه ثم قالوا نحن فاعلون فقال ولكن أكتموا علىّ قالوا نفعل.

ثم ذهب إلى أبي سفيان وقال له جئتك بنصيحة فاكتم علىّ ـ ويخيل إلىّ أن أبا سفيان طار فرحاً لما سمع نُعيماً يقول «فاكتم علىّ» لأنه داهية أبو المؤامرات ـ وأسرع فأجاب نُعيم وقال ((أجل)) فأخبره بأن بني قريظة سوف يطلبون منه رهناً من أشرافكم فليحذر.

ثم أتى إلى غطفان فقال يا معشر غطفان قد عرفتم أني رجل منكم فاكتموا علىّ واعلموا أن بني قريظة بعثوا إلى محمد ـ فقال لهم مثل ما قال لأبي سفيان ـ فاحذروا أن تدفعوا إليهم أحداً من رجالكم. ـ وهكذا نجحت حيلة نُعيم وأرسل الله ريحاً على القوم فأهلكتهم ودمرت خيامهم وقدورهم وتفرقت الأحزاب وعاد كل واحد إلى بلده مهزوماً مخذولاً:

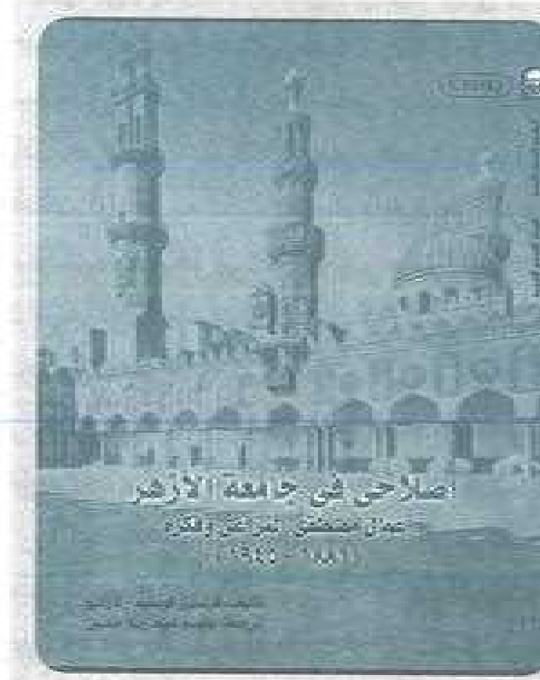
﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾

(الأحزاب - ٢٥)

مكتبة مجلة الأزهر

إعداد الأستاذ: محمد شعبان

تسعى «الأزهر» عبر هذا الباب إلى التواصل مع القارئ العزيز من خلال تقديم نبذة عن أحدث الإصدارات الجادة في شتى مجالات المعرفة، ذلك للمساهمة في تكوين عقلية واعية وعصرية.



يتتبع كتاب «إصلاحي في جامعة الأزهر» الصادر أخيراً عن المركز القومي للترجمة المشروع الإصلاحي للشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الأزهر في ثلاثينيات القرن الماضي.

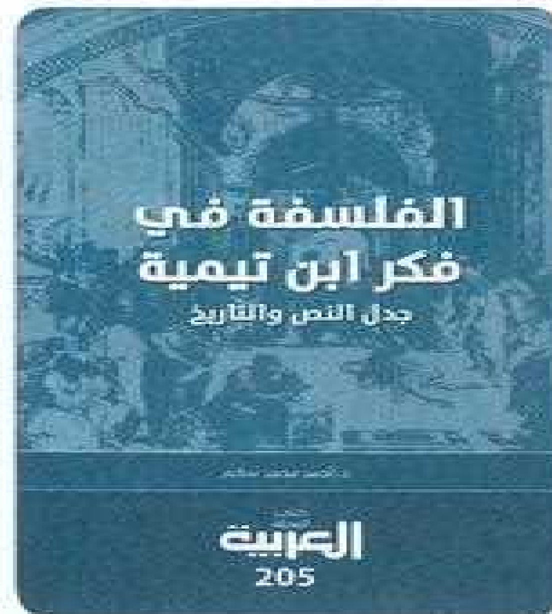
الكتاب الذي ترجمه عاصم عبد ربه حسين في الأصل رسالة دكتوراه نوقشت عام ٢٠٠٣ في فرنسا بالمعهد الوطني للغات والحضارات الشرقية أمام د. محمود عزب المحاضر بالمعهد الباحثة فرنسين كوستيه -تارديو.

تكمن أهمية الكتاب في رصده الدقيق وتتبعه لمواقف المراغي في مختلف القضايا السياسية والدينية الهامة التي شهدتها مصر والعالم العربي والعالم الإسلامي في فترة حياته مثل موقفه من إصلاح الأزهر وقضية حائط البراق والأزمة الفلسطينية برمتها منذ الانتداب الإنجليزي... كما يعرض الكتاب لموقف الرجل من دستور ١٩٢٣م وإعادة الخلافة وحملته ضد المبشرين وخلافه مع الحكومة وحزب الوفد فضلاً عن خلافه مع طه حسين ومحمد حسين هيكل... تقول المؤلفة في مقدمة الكتاب: كانت الإصلاحات التي حاول المراغي إدخالها إلى الأزهر تهدف بالتحديد إلى أن يجد العلماء مكانتهم في المجتمع وأن يقوموا بأداء رسالتهم تجاهه وبذلك يتم تفادي تهميش هذه المؤسسة.



يستعرض د. خالد حربي في كتابه «أسس العلوم الحديثة في الحضارة الإسلامية» العلوم التي سادت في الحضارة الإسلامية وتطورها الممتد في العصر الحديث والمعاصر وتحديداً علوم الرياضيات وعلوم التقنية والتكنولوجيا وعلم الكيمياء وعلم الطب وعلم الطفيليات والأحياء المجهرية.

يقول المؤلف: «تمثل الحضارة الإسلامية حلقة مهمة جداً - إن لم تكن أهم الحلقات - في سلسلة الحضارة الإنسانية التي لا يمكن أن يكتمل بناؤها بعيداً عن أسس ومبادئ تلك الحضارة المجيدة؛ وذلك لسبب بسيط، هو أن الحضارة الإسلامية تعد أطول حضارة سادت الدنيا؛ فعلى مدار ما يقرب من ألف سنة كان العلم على مستوى العالم ينطق بالعربية، وقامت معظم العلوم الحديثة على ما أسسه علماء الحضارة الإسلامية وطوروه من علوم، ومن هنا تأتي هذه الدراسة في الحضارة الإسلامية».



يعالج كتاب «الفلسفة في فكر ابن تيمية» للمؤلف أحمد محمد سالم موقف شيخ الإسلام من الفلسفة اليونانية تحديداً وليس من الفكر الفلسفي عموماً...... مهد المؤلف لفكرته باستعراض موقف المجتمع المسلم من الفلسفة اليونانية منذ ترجمة نصوصها إلى العربية وكذلك حملة الرفض والتكفير التي واجهها أعلام تيار الفلسفة المشائية في الحضارة الإسلامية مثل الفارابي وابن سينا وابن رشد... كما يشير الكتاب إلى الموقف من منطق أرسطو حيث قبله بعض الرافضين للفلسفة اليونانية مثل الغزالي وابن حزم بخلاف ابن تيمية الذي ماثل موقفه الرافض للفلسفة موقفه من المنطق... يعلل الكتاب هذا الرفض الجذري للفلسفة والمنطق اليونانيين عند شيخ الإسلام بحالة تحلل العالم الإسلامي في الفترة التي عاش فيها ابن تيمية وأصبحت بلاد المسلمين مطمعاً لكل الطامعين والمغرضين فضلاً عن تعاون الشيعة مع التتار الأمر الذي دفع شيخ الإسلام للسعي للعودة بالعقيدة إلى بساطتها الأولى حتى يستطيع جمع شمل المسلمين وإحياء السنة بعد أن تم تحريفها وتغييرها.



يعرض الباحث الأمريكي نيكولاس وايت في كتاب «السعادة موجز تاريخي» لمعنى السعادة كما وردت في كتابات الفلاسفة في مختلف العصور خاصة الفلاسفة القدماء.

الكتاب الصادر عن سلسلة عالم المعرفة الكويتية بترجمة للدكتور سعيد توفيق يبرز التضارب في المواقف والآراء حول الأهداف والرغبات التي تتعلق بالسعادة.. هل تكمن السعادة في اللذة أم في الانسجام بين الأهداف والرغبات أم في التأمل العقلي؟.. يقول المؤلف في تصدير كتابه: إن محاولة تضمين كل الموضوعات التي طالما كان هناك اعتقاد في ارتباطها بالسعادة أو تضمين كل الشخصيات التي قالت بآراء في السعادة لها أهميتها هي محاولة سوف تحول من مهمة صياغة تاريخ للسعادة مهمة مستحيلة لاسيما إذا كانت مهمة موجزة.. ويضيف: «لقد اقتضت بانتقاء تلك الأفكار التي يمكن تطويرها وتصحيحها وتطبيقها وبالكيفية التي يمكن بها جعل تلك الإشكالية العريضة مفهومة. وهذا يعني أن تاريخ السعادة لاسيما حينما يكون موجزاً ينبغي أن يمثل إلى حد كبير التاريخ القديم للسعادة».



في أسلوب شيق يقدم كتاب «نهاية كل شيء» الصادر حديثاً عن دار كلمات عربية ومؤسسة هنداوي للنشر الترجمة العربية لأحدث التصورات العلمية عن الموت.

يؤرخ مؤلف الكتاب كريس إمبي عالم الفلك في ٤١٢ صفحة من القطع المتوسط لمعنى موت النظام بأكمله: بداية من موت الفرد، والنوع، والغلاف الحيوي، والأرض، والشمس، ومجرة درب التبانة، وانتهاء بموت الكون بأسره وذلك بلغة طريفة تستخدم الأدب والتاريخ وتصورات الأديان السماوية... كما يناقش المؤلف التقنيات والأساليب التي استخدمت على مر العصور لإطالة عمر الإنسان.

ورغم أن الكتاب يتحدث عن قضية محددة وهي الموت إلا أنه بفضل موسوعية مؤلفه يعد موسوعة مختصرة لمختلف المفاهيم العلمية والفلسفية فنجد حديثاً بسيطاً عن الجينوم والانتخاب الطبيعي وفكرة الخلود والبعث بعد الموت وغيرها فضلاً عن تزويده بأحدث الإحصائيات العلمية والطبية التي تعطي لأحكام المؤلف مصداقية ومنطقية.

قراءة في كتاب



تناول المؤلف في القسم الأول أزمة النمو التي يجتازها العالم العربي منذ استيقظ وعيه، ويرى أن مشاكل المجتمع الإسلامي في طبيعتها وعددها ليست هي التي دفعت إلى عدم الأمن، ولكنه عدم العثور على حلول لتلك المشاكل، بل عدم الوصول إلى الطرق المؤدية إلى تلك الحلول، وأن العالم الإسلامي بحاجة إلى إرادة جماعية لتبديل هذا الموقف بالنسبة للمشاكل التي يواجهها لتحدث ما أحدثته تلك الإرادة الجماعية لستمائة مليون صيني ومن هنا تنبثق فكرة كومنويلث إسلامي.

كما أشار المؤلف - أيضًا - إلى أنه لابد من تركيز الانتباه حول العوامل التي تؤثر على تلك الوضعية بوصفها عوامل مسرعة أو معجلة للتطور العالمي، وفي نفس الوقت مساعدة ومسرعة إلى المضاعفة من تخلف المجتمع الإسلامي.

وأن الأزمة ليست في طبيعة مشاكل المجتمع، بقدر ما هي في موقف الإنسان المسلم من تلك المشاكل. الذي يهمنا اعتباره هو كيف كان رد الإنسان المسلم في عالم مخطط يمثل كتلة بشرية لا يستهان بها تتصف بطابع الحركة المعجلة حيث نرى مستوى غير مألوف، تصوره لنا أحيانًا أرقام قياسية عجيبة، وحينئذ فالإنسان المسلم يستشعر أحيانًا في هذا العالم المخطط عدم جدواه، استشعاره لما هو واقع من أن التاريخ يصنع بدونه.

والآن لو استبطن الإنسان المسلم هذه المعطيات - وهو أمر من الطبيعي أن يفعله، بقدر ما يسترد وعيه وينتبه لمدى تخلفه - فسيتاح لنا أن نفهم عنه، أنه سيأخذ بعين الاعتبار في هذا المستوى، أن العالم الإسلامي الذي ينتمي إليه، يحمل في طواياه بذور ثورة.

هل يستطيع العالم الإسلامي إنجاز ثورته

مالك بن نبي

مشكلات الحضارة

فكرة كمنويلث إسلامي

بقلم/ أ: عادل خفاجة

حسب اطراد محدد منسق بمشروع معد يؤخذ فيه اعتبار العناصر النفسية والعوامل الاجتماعية الخاصة بالمجتمع الإسلامي الراهن؟

وإذن فإننا إذا ما تناولنا موضوع (كومنويلث إسلامي) باعتباره مجرد موضوع للدراسة، المقصود منه معرفة أكثر بالعالم الإسلامي، أو بغية وضع تصميم لهذا العالم، يتعين علينا بالضرورة أن نأخذ بعين الاعتبار عددًا معينًا من المعطيات العضوية والضرورات المنطقية.

ومن بين هذه المعطيات أن العالم الإسلامي قد احتفظ - بالرغم من تقلبات تاريخية - بوحدة روحية، تكون عاملا أساسيًا من الوجهة النفسية في تماسك المشروع.

القسم الثاني: قيمة الفكرة في المجتمع الإسلامي: يواصل المؤلف في هذا القسم من الكتاب التركيز على الفكرة وأهميتها وقيمتها وعلى وجودها في المجتمع الإسلامي

فيقول: إن (عالم الأفكار) هو الذي يدعم (عالم الأشياء) إذ يرى أن عالم الأشياء هو العالم الذي لا يقف على قدميه بدون العالم الأول، (أي: عالم الأفكار)، ولا يمكن أن يقف على قدميه بنفسه إذا ما أطاحت به النوائب.

ويقدم المؤلف هذه المعادلة: إنسان + تراب + وقت = حضارة.

ثم يؤكد أنه يمكننا، بل يتعين علينا أن نقول: إن الإنسان هو الذي يحدد في النهاية، القيمة الاجتماعية لهذه المعادلة؛ لأن التراب والوقت لا يقومان - إذ اقتصر عليهما فحسب - بأي تحويل اجتماعي وأن أفكاره، وأفكاره فحسب، هي التي أتاحت له أن يحقق ذلك النهوض.

أما (عالم الأشياء) بمصانعه، وآلاته، ومناجمه، وبنوكه، ومختبراته، فكل هذه (الأشياء) إلى زوال، إذا ما تعرضت لدمار الحروب، ثم يضرب المثال بألمانيا إذ كانت على وجه الدقة وبطريقة تكاد تكون رياضية - لا تملك سنة ١٩٤٥م، أي مجموعة من (الأشياء)، ولكن مجموعة من (الأفكار) فحسب، وهي قد كونت من جديد، وابتداء من هذا (الرأسمال المفاهيمي) كل حياتها الاجتماعية، واحتلت مجددًا مكانتها السياسية في العالم.

ويخلص من هذا المثال إلى أن تجربتها بالنسبة إلينا لا تقدر بثمن، فهي تتيح لنا أن ندرك أن قيمة مجتمع معين في فترة ما من تاريخه، لا يعبر عنها بمجموعة (الأشياء) في هذا المجتمع، ولكن بمجموعة (أفكاره).

ويتساءل: ما قيمة مجتمعنا الآن؟

ويجيب بشيء من الأسى قائلاً: مهما يكن من أمر، فإن شيئًا واحدًا هو المؤكد: وهو أن (أساسنا المفاهيمي) ضعيف للغاية، و(عالم أشيائنا) لا يرتكز على كبير شيء: مضافًا إلى ذلك أنه حتى (الأشياء) الموجودة في هذا العالم، كنا قد اشتريناها من مجتمعات تملك (أفكارًا).

الفكرة ومراقب الاستعمار


مالك بن نبي

يشير المؤلف إلى أهمية الفكرة لدى المستعمر؛ ليس اهتمامًا بأفكار ينشد تطبيقها في مجتمعه، بل بالأفكار التي يراها تنبت في المجتمع الإسلامي، فيتعهدها بالدراسة والتحليل بل والتغيير إذا كانت هذه الأفكار تضر مصالحه فيقول: عندما نجهل قيمة شيء معين، لا يعني هذا مطلقًا أن كل العالم يجهلها مثلنا.

وقس على ذلك الحال بالنسبة إلى القيمة الاجتماعية للفكرة؛ إذ يمكن أن نكون على جهل بقيمتها، بل نحن نجهلها فعلاً، ولكن الاستعمار لا يجهلها مثلنا.

فقد مكن في العالم لجهاز من المراقب التي تقتصر مهمتها على ترصد حركة الأفكار، ومنها نفهم أن كل ما يمر في العالم الإسلامي من أفكار يهمه بصفة خاصة، بقدر ما يهمه البترول، بل أكثر من ذلك بكثير.

والاستعمار لا يقنع بمجرد الاستعلام عن حركة الأفكار: فهذا شأن (الفيلسوف)، إلا أن للاستعمار فلسفته الخاصة التي تتمثل في التخلص من الأفكار التي تضايقه، وفي الانحراف بها عن مراميها، بتوجيهها خارج المدار الذي أراد أصحابها استبقاءها فيه.

- كيف يتخلص من فكرة معينة! .. كيف ينحرف بها ويوجهها خارج مدارها؟ .. هاهنا بالذات تتجلى عبقرية الاستعمار الجهنمية.

ويعود المؤلف مرة أخرى ليضع مفكري العالم الإسلامي أمام واقعهم فيقول: «ويتعين علينا أولاً أن نقبل مبدئيًا: أن الاستعمار يعرف عنا - على الأقل - أكثر مما نعرف نحن عن أنفسنا

وإذن فهو محيط علمًا بكل ثغرات نفسيتنا، ولذلك فهو عندما يقوم بمعركة مفاهيمية، يكون على معرفة تامة بأرض المعركة أولاً وبالذات، ثم إنه على معرفة فنية (بالفكرة) باعتبارها وسيلة من الوسائل، من حيث معرفته لقيمتها الرياضية، وأن هذه (الفكرة) لم تغب عن مراقب الاستعمار المختصة، منذ الوهلة الأولى التى أذيعت فيها على الجمهور بين سلسلة الدراسات التى يزمع نشرها فى (سلسلة الثقافة الإسلامية)، ثم يعقب على ذلك قائلاً: «إذن فنحن قلبًا وقالبًا أمام (مرآة) تستعمل بدقة متناهية فى (إسقاط) انعكاسات معينة على فكرة الكومنويلث الإسلامي، ويتعين علينا أن ندع للقارئ التمرن على زيادة تحليل آليتها إذا أراد.

والواقع أننا عندما نحلل بعض النشاطات النموذجية فى المجتمع الإسلامي، نلاحظ أن (التبديد) هو الغالب بكثير فى معظم الأحيان على (المحصول): وبملاحظتنا لبعض النشاطات النموذجية فى الجزائر، تمكنت فى دراسة ظهرت لى منذ سنين، من الإشارة بالأرقام إلى تبديد مفرط، لطاقتنا الاجتماعية، وتبذير مسرف وغير محسوس فى وسائلنا، وهذا مظهر من مظاهر اللافعالية التى تعزى إلى العجز فى (أفكارنا) نلاحظ أن هذا العجز يخلق مفعولاً اجتماعيًا معينًا، وسببًا نفسيًا مصطنعًا يمدد فى هذا المفعول ويمنحه تسويغا ومغالطة، لأننا نلاحظ على الصعيد نفسه (التبديد) فى الوسائل، مما يؤول إلى (نتائج) محدودة من ناحية، ثم نجد أن الأشخاص يفسرون هذه المحدودية فى النتائج لا بسببها الحقيقى المتمثل فى التبديد، ولكن بسبب ثانوى هو: (الفقر)!

وبما أن هذا السبب الثاني، ليس هو السبب الحقيقي، نجدنا على نحو من الأنحاء، منحبسين فى مناقضة أضعنا مفتاح مغاليقها: فنحن لا نعاني اللافعالية فحسب، ولكننا نخترع شيئًا ما: (ترهة معينة) لاستبقائها! ونحن عندما نتفحص عن كثب حياتنا الاجتماعية، نجد فيها ما لا يستهان به من الترهات من هذا القبيل، بغية تسويغ لافعاليتنا.

وبالإضافة إلى ترهة (الفقر)، يمكننا أن نذكر ترهة (الجهل) التى تسوّغ لافعاليتنا فى مجال آخر؛ بل وهناك حتى ترهة (المسافة) وبالإضافة إلى ما نصفه من ترهات؛ لتسويغ ضعفنا و(لافاعليتنا) فهناك – أيضًا – انسلاخنا من الواقع، حيث نقول ما لا نفعل أو نقول ما نتمنى أن نفعل، ولقد ضرب المؤلف مثالاً بأحد الوعاظ فى يوم الجمعة ليرينا أن، دعوته تنصب عمليًا على الفضائل التى كونت عظمة الإسلام فى القرون الأولي. ولكن لنراقب هذا الواعظ عندما يغادر المنبر. حياته العائلية مطابقة فى معظم الأحيان للمثال الذى كان ينتقده، فغالبًا ما تكون أسرته مالكة لما هو غير ضروري.

إن وعظه ليس عملاً اجتماعيًا، ولكنه مجرد واقعة لفظية؛ أو هو فى أحسن الأحوال مجرد أخلاقية ملتفتة إلى الماضي أكثر من اتجاهها صوب المستقبل.

إننا فى كل مرة نقف فيها أمام مظهر من مظاهر اللافعالية فى المجتمع الإسلامي، نرى أنفسنا مجبرين على ربطه (بعالم أفكارنا) لأنه فى هذا العالم تكمن أدواؤنا!

القسم الثالث: وفى القسم الثالث يشير المؤلف إلى وظيفة الكومنويلث الإسلامي، فنجده يتكلم عما أسماه (مناطق الحضور) ويمهد لفكرته بتشبيه نمو المجتمع بنمو الطفل، وإن (عالم أفكارنا) يتكون بالتدريج، ابتداء من المرحلة / ما قبل الاجتماعية /، فى انتقالنا تقدميًا من محيط الأسرة إلى المحيط الاجتماعي، ويشير إلى مدى تكيف الأطفال مع (عالم الأفكار)، لأن الطفل نفسه قد أصبح يعيش فى مجال أوسع، بفضل المذياع، والسينما والتلفزيون، ومجلات الأطفال المصورة. فقد حدث ما يشبه التمدد فى مستواه الشخصي، وعلى العكس من ذلك، إذا ما طرأت ظروف خاصة لا تمكنه من التكيف بهذه الطريقة، فهو يبدو متخلفا بالنسبة إلى جيله، ومن ثم تطول مرحلته ما قبل الاجتماعية. ومن هذا المثال يرى أن هناك مجالاً لكى نأخذ فى اعتبارنا بطريقة منهجية الإطار الاجتماعى الذى يتكون فيه وعي المسلم المعاصر بغية منحه أقصى مستوى شخصى ممكن. والواقع أن فكرة الكومنويلث الإسلامي تمثل فى ذاتها تمديدا فى المنظر الذى يتكون فيه الإنسان المسلم، وبالتالي امتدادا فى مستواه الشخصي.

ويلخص المؤلف هذه الاعتبارات بالنسبة إلى مسلم معين فيقول عن ذلك المسلم: (يمكننا أن نقول إن وعيه يتكون وسط عدد معين من الدوائر التى نستطيع تخطيطها، فى اعتبارنا لها بالنسبة إلى فرد (عربى جزائري) لا يتعدى نطاق حضوره الدائرة المشار إليها بالرقم (١)، ولتكن (مدينة الجزائر) على سبيل المثال:



فنشاهد على هذا التخطيط، أنه بقدر ما يعي فيه الفرد المولود فى الدائرة رقم (١)، الدائرة رقم (٢)، أعنى مشاكل العالم العربى واتجاهاته وآماله، بقدر ما يكتمل وعيه ذاته، وينمو مستواه الشخصي، وبقدر ما يتخطى دائرة داخلية إلى أخرى خارجية، بقدر ما ينمو عالم أفكاره، وعندما يبلغ وعيه الاكتمال المتطابق مع (الدائرة العالمية) يكون مستواه الشخصى قد بلغ أقصى اكتماله، بحيث ينتشر (حضوره) فى سائر أجزاء المعمورة.

بعد أن قدم المؤلف هذا البيان يعود فيقول: إن الإنسان المسلم بتطوره فى الاتجاه (الانبساطي)، يستدرك تقدميا من تأخره، ويملأ فراغ تخلفه كذلك. وإذن فانتقاله من دائرة مواطنه إلى دائرة العالم الإسلامى حيث تحتل فكرة الكمنويلث الإسلامى مكانها، يمثل اتجاه اكتماله الطبيعى فى عصر المساحات الكبيرة المخططة!

ولكننا حتى الآن لم نضع مشكلة الإنسان المسلم إلا بالنسبة إلى المجال المحدد (بدار الإسلام). ويمكن للقارئ أن يقدر أننا بهذه الطريقة، قد استطعنا أن نهمل، فى قليل أو كثير، المعطيات التى تتدخل على حد سواء فى تلك المشكلة، إما باعتبارها عاملا محددا لموقف الإنسان المسلم الاجتماعي، أو باعتبارها نتيجة مترتبة على هذا الموقف.

لقد لاحظنا أن كل انتقال من دائرة داخلية إلى دائرة خارجية، يسجل تقدما فى التطور النفسى للفرد، وتمددا فى مستواه الشخصى يمنحه سعة أكبر على نحو من الأنحاء.

ونخلص من هذا البحث إلى أن المؤلف فى محاولته تحديد الوظيفة السياسية للمثال الإسلامي، يرى أنها تتركز فى (إقامة الحق والعدل)، اقتباسا من قول فضيلة الشيخ (أبى زهرة) فى أحد أعداد سلسلة الثقافة الإسلامية حين قال: (إن الوحدة التى نبتغيها لا تمس سلطان ذى سلطان يقوم بالحق

والعدل في المسلمين، ولا شكل الحكم في الأقاليم الإسلامية، فلكل إقليم أسلوب حكمه ما دام يؤدى إلى إقامة الحق والعدل فيه، ويحقق المعاني الإسلامية السامية).

ثم يعقب على ذلك بقوله: إننا نقتبس هذه العبارات ليس فحسب لأن اتجاهها يلتقى مع التعريف الذى نوافق على منحه لفكرة الكومنويلث الإسلامي، ولكن لأنه يدعم هذا التعريف كذلك، بمنحه قاعدة شرعية.. لأنني لا أشك مطلقا في أن وجهة نظر الشيخ (أبي زهرة) تعبر دائما عن مذهب القانون الإسلامي في أدق الحدود. وهذه واحدة من النقاط التي نريد تنبيه القارئ إليها.

وفي نهاية كتابه أو بالأحرى في نهاية فكرته عن الكومنويلث الإسلامي يحذر من شيء جد خطير يتعلق ببعض المجهولات التي لم تتبلور بعد بوضوح في الواعية الإسلامية الموضوعة أمام مشهد العالم المخطط. وهذه المجهولات يمكن التعبير عنها بطرق عديدة، ومن الراجح جدا أن يكون المختصون بمراقبة سير القضايا الإسلامية في العالم، متبعين لتطورها باهتمام بالغ. ويشبه المؤلف الوضع في العالم الإسلامي بتجربة معملية فيقول: يمكننا نحن أنفسنا أن نتمثل هذا التطور في صورة عملية كيميائية تتم في إناء مغلق. ومنذئذ نصبح بإزاء مشكلة ميكانيكية، فإذا توازنت القوى الداخلية والقوى الخارجية على جانبي حواجز الإناء، أمكن للعملية أن تستمر في تساوق، وأن تؤول إلى نتيجتها الطبيعية. أما إذا حدث أي اختلال في التوازن فإن حواجز الإناء تتطاير شظايا بديدة في الهواء، وتتوقف العملية الكيميائية توقفا لا يمكن تداركه.

إن الإناء المغلق يصور العالم الإسلامي في مجرى تطوره الراهن، فهناك قوى داخلية تعمل على تحويله بغية تكييفه مع الحياة العالمية الراهنة إلا أنه يعاني على دائرة محيطه مفعول قوى خارجية مريبة. فإذا لم يتح للقوى الداخلية أن توازن مفعول القوى الخارجية، فإن الأمر سيؤول لا محالة إلى تطاير حواجز الإناء شظايا بديدة في الهواء: وحينئذ يتسنى للنزعة الاستعمارية وللشيوعية التقاط تلك الشظايا البديدة.


أبو زهرة

إلا أنه يجب علينا أن نقول بأن خطورة المشكلة قائمة في داخل ذلك الإناء بوجه خاص. وهي متوقفة على أولئك الذين يوجهون العملية الكيميائية التي تعمل على تغيير العالم الإسلامي في هذه المرحلة من تاريخه. إن أي سهو من جانبهم قد يؤدي إلى انفجار الإناء. وإذا حدث الانفجار، فلن يكون مجديا أن تقول لأولئك المتطلعين لهذه اللحظة، لا تلتقطوا شظاياه!.. ومن ثم فلا ريب في أن الخطر سيظل يتهددنا طوال العشرين سنة القادمة.. ولكن (الإسلام) يظل دائما القوة التي لا تحطم.

وبعد.. فإن هذه الأفكار التي نبه إليها المفكر الكبير مالك بن نبي منذ ما يزيد عن خمسين عاما تبدو أكثر وضوحا هذه الأيام، بل وتدعو القائمين على تغيير العالم الإسلامي إلى مزيد من الحرص حتى لا ينفجر الإناء وتكون شظاياه نهبة لكل المتربصين وتدعو- أيضا- لقراءة متأنية لبقية أفكار ذلك الرجل العظيم.

بين المجلة والقارئ

للأستاذ/ أحمد السيد تقي الدين


أحمد عرابي

عرابي

«لقد خلقنا الله أحرارا، ولم يخلقنا تراثا أو عقارا، ووالله الذى لا إله إلا هو لن نورث ولن نستعبد بعد اليوم».

كلمات قوية ومؤثرة نطق بها بطل من أبطال مصر العظام.. قائد من قادة خير أجناد الأرض(١) ذلك الرجل الذي تولى قيادة الجيش المصري في نهاية القرن التاسع عشر ليكتب في التاريخ أعظم صفحات المجد كقائد لأول ثورة شعبية يدعمها الجيش المصري.

كلمات صاغها منطق الإسلام.. هذا المنطق الذي كان ولازال نبراسا يضيء الطريق أمام خير أجناد الأرض.

كلمات استلهمها بطلنا من سيرة الفاروق عمر بن الخطاب يوم قالها لوالي مصر الصحابي الجليل عمرو بن العاص: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا» كلمات خرجت من فم البطل أحمد عرابي كرصاصات موجهة إلى طاغية لم يرع الله في شعبه.. طاغية تمترس خلف ولاية شرعية تولى بها حكم مصر وفق رغبة الخليفة

(١) جاء في كنز العمال: «عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جندا كثيرا فذلك الجند خير أجناد الأرض» فقال له أبو بكر الصديق ولم يا رسول الله؟ قال: «لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة». رواه ابن عبدالحكم في فتوح مصر، وابن عساكر، ثم ذكر أن في سنده الأسود بن مالك الحميري، وقال لم أر للأسود ترجمة، وبناء على جهالة بعض رواة الحديث فإنه يكون ضعيفا والله أعلم».

وقال العجلوني في كشف الخفاء: عن عمرو بن العاص، حدثني عمر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إذا فتح الله عليكم مصر بعدي فاتخذوا فيها جندا كثيفا فذلك الجند خير أجناد الأرض» قال أبو بكر: ولم ذاك يا رسول الله؟ قال: «إنهم في رباط إلى يوم القيامة».

وفي حديث مرفوع رواه عمرو بن الحمق أنه قال في جمع من أهل مصر: «قال رسول الله ﷺ: «تكون فتنة يكون أسلم الناس فيها أو قال: خير الناس فيها، الجند الغربي» فلذلك قدمت عليكم مصر» (تقع مصر في الغرب من الأمة الإسلامية).

«في جمع الجوامع ٦/٤٩: «عن عمر بن الخطاب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جندا كثيرا فذلك الجند خير أجناد الأرض» قال أبو بكر: ولم يا رسول الله؟ قال: «لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة» عن ابن عبد الحكم في فتوح مصر، وابن عساكر، وفيه عبدالله بن لهيعة، عن الأسود بن مالك الحميري، عن بحر بن ذاخر المعافري، ولم أر للأسود ترجمة إلا أن ابن حبان ذكر في الثقات أنه يروي عن بحر بن ذاخر، ووثق بحرا».

وفي النهاية لا أنكر أن العلماء اتفقوا على ضعف الحديث بسبب جهل حال واحد من رواته ولكن أحدا منهم لم يصرح بأن الحديث مكذوب أو موضوع بل قالوا جميعا: «ضعيف والله أعلم» حرجا من تكذيب حديث رسول الله ﷺ القائل فيما رواه مسلم والبخاري، والترمذي، وأبو داود، وابن ماجة، وأحمد: «من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار».

فما بال قوم أدنى مقاما من علماء الحديث ورجاله الأوائل يكذبون ويستنكرون حديث «خير أجناد الأرض» صدق عمرو بن العاص رضي الله عنه يوم قال: «لعن الله السياسة».

التركي في زمن كانت فيه مصر مجرد ولاية تابعة للدولة العثمانية التركية.

فوجئ الطاغية توفيق خديوي مصر بكلمات عرابي وفوجئ أكثر بالتفاف الجيش والشعب حول بطل مصر، فاضطر للرضوخ لما أملاه عليه القائد الشاب الذي طالب باسم الشعب بإقالة الحكومة وتشكيل وزارة وطنية تشرف على وضع دستور للبلاد وتشكيل مجلس نواب.

وافق الخديوي على مضض على مطالب الجيش والشعب ولكنه في نفس الوقت لجأ للدسائس والمؤامرات فاستنجد بالخليفة التركي الذي يستمد منه الشرعية، واستنجد بالدول الأوروبية وفي المقدمة انجلترا التي وجدت الفرصة أمامها سانحة لاحتلال مصر وإخضاعها، فمارس الإنجليز ضغوطا قوية ضد الخليفة التركي الذي أصدر فتوى بعصيان عرابي، وأنه خارج عن الطاعة، وأن الخديوي توفيق هو الحاكم الشرعي للبلاد المصرية.. فكانت الكارثة!! شطرت الفتوى الدينية للخليفة التركي الشعب المصري شطرين.. الشطر الأعظم منه كان مع عرابي في حين وقف نفر من رجال الدين ممن لا يفقهون يدافعون عن فتوى الخليفة التركي ويؤكدون عصيان عرابي وخروجه عن طاعة الخليفة، وخروجه عن ملة الإسلام رغم أن الشيخ محمد عبده في ذلك الوقت كان من أقوى أنصار الزعيم أحمد عرابي ومعه نفر كبير من كبار رجال الدين وأعلام الثقافة والفكر والسياسة في مصر، ولعب خلط الدين بالسياسة دوره في إسقاط الإرادة الشعبية وتحطيم الجيش.

قرر هذا النفر من رجال الدين الذين أيدوا فتوى الخليفة التركي تأليب العامة والدهماء ضد أحمد عرابي وجيش مصر فخرجت مظاهرات التأييد تهتف للخليفة التركي وللخديوي توفيق وتسب البطل أحمد عرابي وتلحق به كل نقيصة هو وزملائه، وامتلأت الحوائط والجدران بكل ألفاظ السب واللعن.

انتهز الإنجليز الفرصة.. فرصة الانقسام الشعبي وحاكوا الدسائس والمؤامرات ودسوا عملاءهم ينشرون الشائعات، ويحرضون العامة ضد الجيش المصري وفي عام ١٨٨٢ هاجم الجيش الإنجليزي مصر ونجحت المؤامرة بعد معارك طاحنة لتسقط مصر في قبضة الاحتلال الإنجليزي ويسقط العالم الإسلامي كله في قبضة الاستعمار. ودفع الشعب المصري، بل ودفعت الأمة الإسلامية كلها الثمن غاليا.

▪ جثم الاحتلال الإنجليزي على صدر مصر سبعين عاما.

▪ وبدأ التخطيط لتهجير اليهود إلى فلسطين لتكون وطنا لهم، ففي نفس عام احتلال الإنجليز لمصر ١٨٨٢ حاول القس الإنجليزي هشلر إقناع السلطان العثماني بتسهيل هجرة اليهود إلى فلسطين وعقدت العديد من المؤتمرات على مدى ثمانية وعشرين عاما انتهت بصدور وعد بلفور سنة ١٩١٧ بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين وبعدها بثلاثين عاما تم إعلان قيام إسرائيل.

كل هذا حدث بعد أن قام جيش الاحتلال الإنجليزي بتسريح الجيش المصري وإلغائه والتنكيل بجنوده ضباطه.. لماذا؟ لأنهم وقفوا ضد شرعية زائفة!! أجل وقف الجيش المصري ضد شرعية زائفة وأصر على أن الشعب وحده هو صاحب الشرعية الجديرة بالاحترام، ومرت السنوات تلو السنوات. سبعون عاما عجافا رزحت فيها مصر تحت الاحتلال الإنجليزي!! ولكن هيهات أن تركع مصر.. فمصر قدس من أقداس الله[٢] حباها الله بعنايته ورعايته وحراسته.. قيض الله لمصر أبطالا أفذاذا من خير أجناد الأرض.. بل هم جند الله على الأرض لتثور مصر ضد الاحتلال بقيادة بطلها جمال

(٢) مصر ذكرت في القرآن الكريم في ثمانية وعشرين موضعا، خمس مواضع منها صرح بها القرآن الكريم، والباقي بسيناء أو إشارات لها، ولا يعلم بلد في أقطار الأرض أثنى عليه في القرآن بمثل هذا الثناء ولا وصفه بمثل هذا الوصف ولا شهد له بالكرم غير مصر».

عبدالناصر ورفاقه لتتحرر مصر في ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وتتحرر الأمة الإسلامية كلها من ربقة الاستعمار بعد سبعين عاما ذاق فيها شعب مصر الذل والهوان على يد الاستعمار ومن لا يصدق فليسأل تراب «دنشواي» عما فعل الانجليز بمصر، وليسأل تراب بورسعيد والاسماعيلية والسويس!! واليوم مرت ستون عاما على جلاء جيش الاحتلال الانجليزي، وأبدا لن تعود الذكريات الأليمة.

فلنقرأ التاريخ جيدا لنعرف من أين نؤتي.

وهيهات أن يسمح الشعب المصري بتكرار الماضي الأليم

• رحم الله الزعيم أحمد عرابي ورفاقه كانوا حقا خير أجناد الأرض

• رحم الله الزعيم جمال عبدالناصر[٣] ورفاقه، كانوا حقا خير أجناد الأرض

• رحم الله الزعيم محمد أنور السادات[٤] ورفاقه، كانوا حقا خير أجناد الأرض

عاشت مصر حرة أبية على مر الزمان

عاش جيش مصر وعاش قادة جيش مصر.. خير أجناد الأرض، حراس مصر قدس الله على الأرض ولو كره الكارهون.

أحمد تقي الدين

«شهدت مصر من الأنبياء:

١- نبي الله إدريس: ولد بمنف بأرض مصر وفيها بعث.

٢- إبراهيم: رحل إلى مصر وفيها تزوج هاجر التي أنجبت إسماعيل أبو العرب فصارت مصر أصل أمة العرب.

٣- لوط: صحب عمه إبراهيم في مصر وآمن برسالته واهتدى بهديه ومنها خرج بأمر الله رسولا إلى أهل سدوم في الأردن.

٤- يوسف بن يعقوب: نبي الله، وسيرته في مصر يعلمها القاصي والداني عاش على أرضها حتى صار عزيزها والمتصرف في شئونها

٥- يعقوب بن إسرائيل: استدعاه ابنه يوسف ليقيم معه بمصر وفيها توفي بعد أن عاش بها سبعة عشر سنة.

٦- موسى وهارون: وقد عبر القرآن الكريم عن حياتهما بمصر بما لا مزيد عليه.

٧- عيسى ابن مريم لجأ إلى مصر هو وأمه هربا من بطش الرومان ووجدا فيها الأمن والاستقرار والحب من أهل مصر

٨- ولد فيها يوشع بن نون، ودانيال، وأرميا ولقمان.

وكان بها من الصديقين والصديقات: مؤمن آل فرعون، وآسيا امرأة فرعون، وأم إسحق، ومريم ابنة عمران، وماشطة بنت فرعون.

وروى مسلم: قال رسول الله ﷺ: ستفتح عليكم بعدي مصر فاستوصوا بقبطها خيرا فإن لكم منهم ذمة ورحما، حيث كان رسول الله ﷺ قد تزوج السيدة مارية القبطية التي أهداها له المقوقس عظيم مصر، ولما اجتمع الحسين بن علي مع معاوية قال له الحسين: إن أهل حفن بصعيد مصر هي قرية مارية أم إبراهيم ابن رسول الله، فأسقط عنها الخراج إكراما لرسول الله فأسقطه.

وقال عبدالله بن عمرو لما خلق الله آدم مثل لـه الدنيا شرقها وغربها وسهلها وجبلها وأنهارها وبحارها وبناءها وخرابها ومن يسكنها من الأمم ومن يملكها من الملوك، فلما رأى مصر رآها أرضا سهلة ذات نهر جار مادته من الجنة تنحدر فيه البركة وتمزجه الرحمة، ورأى جبلا من جبالها مكسوا نورا لا يخلوا من نظر الرب إليه بالرحمة، في سفحه أشجار مثمرة فروعها في الجنة تسقى بماء الرحمة فدعا في النيل بالبركة، ودعا في أرض مصر بالرحمة والبر والتقوى وبارك على نيلها وجبلها سبع مرات، وقال يا أيها الجبل المرحوم سفحك جنة وتربتك مسك يدفن فيها غراس الجنة، أرض حافظة مطيعة رحيمة. لاخلتك يا مصر بركة ولازال بك حفظ ولازال منك ملك وعز. السيوطي ط١ ص٢٠

قال عبدالله بن عباس: «دعا نوح عليه السلام لابنه بيصر بن حام أبو مصر فقال: اللهم إنه قد أجاب دعوتي فبارك فيه وفي ذريته وأسكنه الأرض الطيبة المباركة التي هي أم البلاد وغوث العباد».

لهذا أقول: مصر قدس من أقداس الله، والله كفيل بحفظ قدسه ولو كره الكارهون.

(٣،٤) لئن كان جيش مصر هزم سنة ١٩٦٧ ولكنها أبدا لم تسقط واستعادت كرامتها وثأرت لهزيمتها في حرب العاشر من رمضان. وأقول لمن شمت في هزيمة الجيش المصري سنة ١٩٦٧ أقول لا يشمت في المسلمين إلا المنافق تماما كما فعل المنافقون عندما شمتوا في المسلمين يوما أحد عندما هزموا أمام قريش، وأقول لمن سب مصر يوم وقعت معاهدة السلام مع إسرائيل ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب/٢١) فلا تنسوا أن رسول الله ﷺ صالح كفار قريش عبدة الأصنام في الحديبية على شروط أغضبت كبار الصحابة وفي مقدمتهم عمر بن الخطاب الذي قال يومها «لم نعط الدنية في ديننا؟!». والجيش المصري عقيدته كانت ولازالت تعتبر إسرائيل العدو الاستراتيجي ولا يضيره أبدا أن يتوقف ليعيد بناء قوته استعدادا لجولة جديدة الله وحده يعلم متى ستكون.

وطن اسمه .. مصر!

تحت هذا العنوان جاءت كلمة الشيخ/ مصطفى الأزهرى - إمام وخطيب مسجد سوق الحمام - السيدة عائشة - القاهرة، قال فيها:

لعل عنوان هذا المقال يحمل ما نشعر به جميعا مما تمر به "أم الدنيا" من وجع وآلام بل وما تتعرض له من تجريح وتقطيع لأوصالها حتى على مستوى الغناء الذى كان - فى الزمن الماضى - تلخصه أنشودة:

(مصر التى فى خاطرى وفى فمى
أحبها من كل قلبى ودمى)

ونشيد: (بلادى بلادى لك حبى وفؤادى)

والتى نشعر أنها تلاشت معانيها تحت ضغط الأحداث التى تمر بها بلادنا .. إن بلدا فى حجم مصر بتاريخها الضارب فى عمق الزمان وحضارتها الملهمة للأمم والأجيال وذكرها فى القرآن الكريم مرات عديدة تصريحا وتلميحا، لم تكن أمام المكاره والفتن الخارجية التى تحيق بها بين الفينة والأخرى إلا "مقبرة للطغاة"، فحدث عن الطامعين فيها - على مر التاريخ - ولا حرج، فهى البلد الأثيرة لدى الناس جميعا بالتاريخ والجغرافيا بل وبطبيعة أهلها البسطاء الطيبين المحبين للحياة والسهر والأنس والاجتماع فى الأفراح والأحزان، فى السلم والحرب فى الكوارث والمسرات، تلك طبيعة مصرية تنفرد بها "أم الدنيا"، عادات وتقاليد اجتماعية كلها دفء قلبى ومشاعر إنسانية لا ترتبط بغنى ولا فقر ولا ضيق أو سعة، وكأن لأهل "المحروسة" نشأة أخرى من دون البشر! فما دهانا؟ وما الذى جرى؟!

أجدنى حتى الآن محفورا فى ذاكرتى درس من دروس اللغة العربية وأنا طالب فى المرحلة الإعدادية وفيه نص من شعر العقاد - رحمه الله - يقول فيه:

بنى مصر صونوا لها حقها
كبار النفوس كبار الشيم
لكم مصر لا لدعى دعا
ولا لذى سطوة أو غشم

وكان العقاد يبعث من جديد ليجدد ذلك النداء الحار بل تلك الاستغاثة لأبناء مصر وشبابها الحر الثائر الواعد:

(.. صونوا لها حقها)

إن ما حدث باختصار .. هو أنه تم تجريف معنى الانتماء لمصر بشكل لم يسبق له مثيل - وذلك لأسباب عديدة - حتى صار هذا المفهوم - الانتماء - بغير مضمون وصار شعور المواطن المصرى بـ(الغربة) داخل وطنه ينذر بخطر نفسى واجتماعى شديد؛ فالمصريون بطبعهم لا يحبون مفارقة الوطن وكم جادت قريحة شعرائهم بلوعة الغربة حينما يغادرون مصر إلى أى بلد من بلاد العالم؛ فهذا الوطن العزيز له طعم خاص والحياة على أرضه فيها من خصوبة المعانى والمشاعر ما تعجز الكلمات عن وصفه، والخلاص من هذه المحنة أن نعود إلى حالة العفو والمسامحة ودرء آفة التخوين وسوء الظن؛ ولنذكر أننا (شعب النيل) الذى روى الأجيال حبا وعطفا وتراحما وتعطفا .. ولنعمل جميعا على تحقيق قول الله تعالى على لسان نبيه يوسف عليه السلام:

﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾

يوسف: ٩٩

اللهم احفظ مصر وأهلها من كل شر .. يارب العالمين.

مصر فى القرآن الكريم

ومن الشيخ خيرى محمد إبراهيم أبو الروس - إمام وخطيب ومدرس بمسجد كفر الجرايدة - بيلا - كفر الشيخ كانت هذه الكلمات:

● شرف المولى عز وجل مصرنا الحبيبة بأن ذكرها فى كتابه الكريم دون سائر الأمم وجاء ذكرها خمس مرات دلالة على رفعة شأنها.

١- قال المولى سبحانه وتعالى فى سورة يونس:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: ٨٧).

٢- وقال عز وجل فى سورة يوسف:

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾

(يوسف: ٢١)

٣- وقال جل وعلا فى سورة يوسف:

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾

٤- وفى سورة الزخرف قال جل شأنه:

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾

(الزخرف: ٥١).

٥- وفى سورة البقرة قال عز وجل:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾

● بل وأقسم المولى عز وجل ببقعة من بقاع مصر الغالية

﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾

(التين: ١ - ٤).

أقسم الله بطور سينين، وهى بقعة من سيناء الحبيبة، وجعل القسم مقدما على قسمه سبحانه بالبلد الأمين مكة المكرمة بيت الله الحرام وقبلة المسلمين.

دلونى على بلد واحد حظى بهذا التشريف والتكريم فى كتاب الله عز وجل.

ولكم كان إمامنا وشيخنا مجدد الدين الإمام محمد متولى الشعراوى مصيبا وموفقا فى كلماته التى قالها عن مصر والتى يتردد صداها قويامدويا فى المحطات الفضائية، وقد حفظناها جميعا عن ظهر قلب.

اللهم احفظ مصر وأهلها وجيشها وأرضها وسماءها من كل مكروه وسوء وجنبها الفتن والفواحش ما ظهر منها وما بطن. آمين آمين يارب العالمين.

خميلة الشعر



للأستاذ / محمد عبدالوهاب

هناك نوعان من الشعر هما شعر الاحتراف وشعر الطبع وهذان النوعان يختلفان اختلافا شديدا في الأسلوب و في الروح و في الغرض ، و نحن نعدهما فنين متباينين ولا يجمعهما إلا النظم ، وحتى هذا وأعني به النظم قد يختلفان فيه ، وقد لا يتكسب شاعر الاحتراف من نظمه ولكنه يسير على درب من اتخذوا الشعر حرفة و وسيلة للتكسب والعيش ، حيث أن شعر الاحتراف هو الذي يعبر به الشاعر عن أشياء لا تمس أعماق نفسه ولا تعبر عن صادق عواطفه ، ولكنه كالصانع الماهر أو كالصائغ الذي يعنيه أن يخرج حلية جميلة تظهر مهارته ، وهو بعمله هذا لا يعبر عن عواطفه أو أحاسيس قلبه وإنما عن مهارة يده ؛ وأكثر الشعر القديم لا يخرج عن هذا الإطار وكان النقاد القدماء يعنون بهذا النوع من الشعر ويعجبون به ، بينما نحن في عصرنا الحديث ، لا نستطيع أن نجاري هؤلاء النقاد فيما أعجبوا به ، وأيضا لا يمكننا أن نقيس جمال الشعر بالمقاييس التي استخدموها لتقدير جماليات الشعر في أزمانهم ، حيث تغيرت لدينا تلك المقاييس .

أما شعر الطبع فيعبر الشاعر فيه عن إحساسه و عواطفه المختلفة بصدق عاطفته وحسن أدائه مما يجعل المتلقي لشعره يتأثر بتلك العواطف تأثرا كبيرا قد يصل لدرجة الدهشة الشعورية وهنا يكون الشاعر قد حقق ما يسعى إليه .

كان نقاد الشعر يقولون عن الشعر إن أعذبه أكذبه ، والجمال فيه يرجع إلى الصياغة ، وكان المراد منه هو أن يكون حلية يفخر بها الممدوح ويزين بها هامته ، وهو يجزى الشاعر على قدر ما يستحسنه من الشعر الذى مدحه به ، هذا وكان شعر الاحتراف يعتني كل الاعتناء بالمحسنات اللفظية والمعنوية ، فتسير في الآفاق ويتغنى بها الحداة ، فأسرف الشعراء في استخدام البديع والتشبيهات الغريبة ، والتي كانت في معظمها معادة في الألفاظ والمعاني ، وكذلك في التمسك بعمود الشعر العربى .

ولكننا في شعر الطبع فإننا نرى أن أعذبه أصدقه وأجوده خال من تعقيدات المحسنات اللفظية وأسلوبه مستقيم و واضح فيه تتضح العواطف الإنسانية الصادقة ، وتتجلى متلألئة ومشرقة كالبدر في تمامه وكالزهر الفواح في أكمامه .

هذا وأرجو أن ينال ما تحتويه الخميلة من أدب وشعر ، ما يصبو إليه قارئ الأزهر ، و لعلنا هنا نهيب به أن يوافينا برأيه ، و بما يتمنى أن يراه في صفحاتنا ، حفظ الله مصر .

قصيدة : سأوصي بصيرًا

للأعشى الكبير ، {صناجة العرب} [*]

قريني لك الويلاتُ آتي الغوانيا
متى كنتُ ذرّاعًا أسوقُ السّوانيا (١)
تُرجّي ثراءً من سياسٍ ومثلها
ومَن قبلها ما كنتَ للمال راجيا (٢)
سأوصي بصيرًا إن دنوتُ من البلى
وكلُّ امرئٍ يومًا سيصبحُ فانيا
بأن لا تبَغِ الودَّ من متباعدٍ
ولا تنأَ إن أمسى بقربك راضيا
فذا الشَّنْءِ فاشنأه وذا الودِّ فاجزه
على ودِّه أو زد عليه العلانيا (٣)
وآسِ سَراةَ الحيِّ حيثُ لقيتَهم
ولا تكُ عن حمل الرّباعة وانيا (٤)
وإنْ بشرٌ يومًا أحال بوجهه
فَخلِّ عنهُ وإن كان دانيا
وإنْ تُقى الرحمن لا شيءَ مثلُهُ
فصبرًا إذا تلقى السّحاق الغراثيا (٥)
وربَّك لا تُشْرِكْ بهِ ، إنّ شركهُ
يَحُطُّ من الخيرات تلك البواقيا
بَلِ اللهَ فاعبُدْ ، لا شريكَ لوجههِ
يكُن لكَ فيما تكدحُ اليومَ راعيا
وإيّاكَ والمَيْتاتِ لا تقرَبَنَّها
كفَى بكلامِ اللهِ عن ذاكَ ناهيا
ولا تَعدُوَنَّ الناسَ ما لَسْتَ ناجزًا
ولا تَشتُمَنْ جارًا لطيفًا مُصافيا
و لا تزهدنْ في وصْلِ أهلِ قرابةٍ
ولا تكُ سَبُعًا في العشيرةِ عاديا
وإن امرؤٌ أسْدى إليكَ أمانةً
فأوْفِ بها ، إنْ متَّ سُمِّيتَ وافيا
وجارةِ جنبِ البيتِ لا تَبْغِ سِرَّها
فإنّكَ لا تَخْفَى على اللهِ خافيا
ولا تحسُدَنْ مولاكَ إن كانَ ذا غِنى
ولا تجفُهُ إنْ كُنتَ في المالِ غانيا
ولا تخذُلَنَّ القومَ إن نابَ مَغْرَمٌ
فإنّكَ لا تَعدمْ إلى المجدِ داعيا
وكُنْ وراءَ الجارِ حِصْنًا مُمنَّعًا
و أوقدْ شِهابًا يَسْفَعُ الوجهَ حاميا

(*) هو ميمون بن قيس ، وكنى بأبي بصير تيمنًا بشفاء بصره ، ولد باليمامة بقرية تدعى (منفوحة) ولقب بالأعشى لضعف في بصره أدى في النهاية إلى انطفاء النور في مقلتيه فقال : « متى تقرن أصم بحبل أعشى *** يلجّا في الضلالة والخسار ـ فلست بمبصر شيئا أراه *** وليس بسامع متى حوارى » . ولد الشاعر في العام الثالث والسبعين قبل الهجرة ، وكان مسيحيًا ، ويقال بأنه كان في طريقه للقاء النبي صلى الله عليه وسلم لإعلان إسلامه على يديه ، ولكن قريشا حالوا دون وصوله وكان فيهم أبو سفيان بن حرب ، وقالوا : هذا صناجة العرب وما مدح أحدا قط إلا رفع قدره ، فلما ورد عليهم قالوا : « أين أردت يا أبا بصير » قال الأعشى : « أردت صاحبكم لأسلم » فقالوا : « ينهاك عن عدة خلال ويحرمها عليك وكلها موافق لك » . قال : « وما هي ؟ » قالوا : « القمار والربا والخمر » فقال الأعشى : « أما القمار فلعلي لو لقيته أن أصيب منه عوضًا عن القمار ، وأما الربا فما دنت ولا أدنت ، وأما الخمر ، فأرجع إلى صبابة كانت في المهراس فأشربها » فقال أبو سفيان : « هل لك في خير مما هممت به ؟ » فقال : « وما هو ؟ » قال : « نحن الآن وهو في هدنة ، فتأخذ مائة من الإبل وترجع إلى بلدك عامك هذا ، وتنتظر ماذا يصير إليه أمرنا ، فإن ظهرنا عليه كنت قد أخذت خلفًا ، وإن ظهر علينا أتيته » فوافقهم الأعشى فجمعت له قريش مائة من الإبل فأخذها وانطلق إلى بلده ، فلما كان قريبًا من قريته رمى به بعيره فقتله .

(١) الذراع هو طويل الذراع أي يضع القرب على الإبل - السواني مفردها سانية وهي الناقة التي تحمل ماء السقاء .
سياس : امرأة

(٢) بصير : هو ابن الشاعر . (٣) الشنء : البغضاء (٤) الرباعة : الدية والحمالة

(٥) السحاق الغراثي : الهزيلات الجائعات .

قصيدة: إمام الهُدَى

لشاعر الزهد أبي العتاهية

في عهد هارون الرشيد ، كانت الروم قد ملكت امرأةٌ ، لأنه لم يبقى من أسرتها المالكة إلا هي ، وكانت تعظم وتبجل المهدى والهادى ومن بعدهما الرشيد ، و كانت تدر عليهم الهدايا فلما بلغ ابنها مبلغ الرجال حاز المُلك دونها ، وعاث في الأرض فسادًا ، ولم يابه بالرشيد ، فخافت أمه على مُلك الروم أن يذهب ، وعلى بلادهم أن تعطب ، لعلمها بقوة الرشيد وسطوته فاحتالت لابنها ففقأت عينيه ، واستعادت المُلك منه ، فاستنكر ذلك أهل المملكة وأبغضوها لفعلتها ، فخرج عليها منهم كاتبها ويدعى « نقفور » واستعان بأهل المملكة الذين أيدوه وأعانوه عليها وقام بأمر المُلك وضبط أمر الروم ، فلما استتب له الأمر وتمكن من مُلكه كتبَ إلى الرشيد «: من نقفور ملك الروم إلى الرشيد ملك العرب ، أما بعد ؛ فإن هذه المرأة كانت وضعتك وأباك وأخاك موضع الملوك ، ووضعت نفسها موضع السوقة ، وإني واضعك بغير ذلك الموضع ، و عامل على تطرّق بلادك والهجوم على أمصارك أو تؤدى إليّ ما كانت تؤدّى إليك ، والسلام ».

فلما وردَ كتابه على الرشيد كتب إليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم – من عبد الله هارونَ أمير المؤمنين إلى نقفور كَلْبِ الرُّوم أما بعد ، فقد فهمتُ كتابك ، وجوابُك عندى ما تراهُ عيانًا لا ما تسمَعُه » .

ثم شَخَصَ من شهره ذلك يَؤمُّ بلادَ الروم في جمعٍ لم يُسمع بمثله ، وقُوَّادٍ لا يُجارُون نجدةً ورأيًا ، فلمّا بلغَ ذلك « نقفور » ضاقت عليه الأرضُ بما رَحُبَتْ ، حين وجَدَ الرشيد يتوغّل في بلاد الروم فيقتُلُ ويغنم ، ويُخرِّبُ الحُصونَ ويُعَفِّي الآثار حتى أشرفَ على « القسطنطينيّة » فسارع « نقفور » إلى تقديم الهدايا والخضوع ، وأدّى الجزية عن رأسه فضلا عن أصحابه ، فقال أبو العتاهية في ذلك :

إمامَ الهُدَى أصبحتَ بالدِّينِ معنيًا
وأصبحت تَسقي كُلَّ مُستَمطِرٍ رِيًّا

لكَ اسمانِ شُقّا مِنْ رَشَادٍ ومِنْ هُدَى
فأنتَ الذى تُدعَى رَشِيدًا ومَهدِيًّا

إذا ما سَخِطْتَ الشيءَ كانَ مُسَخَّطًا
وإن ترضَ شيئًا كانَ في الناسِ مرضيًا

بَسَطتَ لنا شرقًا و غربًا يدَ العُلا
فأوسَعتَ شرقيًا و أوسعتَ غربيًا

و وشَّيتَ وَجهَ الأرضِ بالجودِ والندَى
فأصبحَ وجهُ الأرضِ بالجودِ مُوَشَّيًا

وأنتَ – أميرَ المؤمنين – فتى التُّقَى
نَشرتَ من الإحسانِ ما كانَ مطويًّا

قَضَى اللهُ أن يبقى لهارونَ مُلْكُهُ
وكانَ قضاءُ اللهِ في الكونِ مَقضيًا

تَجَلَّلَت الدنيا « لهارونَ » ذي الرِّضا
وأصبحَ «نقفور» « لهارونَ » ذِمِّيًا

مصري الحبيبة

مصطفى عكرمة

يا مصر يا من قد أعدت لي الصِّبا
وافيت ظلك أستريح بأمنه
أذهبت عن قلبي مواجعه التي
أوليس حسبك يا فؤادي أن ترى
إخوان صدق قد سباني أنسهم
لأحس أن الشام قد جاءت معي
هل كان مثل الشام يومًا موطن
فالشام مصر، ومصر تبقى شامنا
يا مصر حبك صاغ مني شاعرًا
ما جئت ظلك هائمًا متغربًا
أو لست يا مصر الحبيبة أمنا
أمي، وأحلف أن أم عروبتي
أوليس أزهرها الشريف بعلمه
أوما هي التي تهب النوابغ أرضها
إن تلق نجمًا في بلاد قد خبا
أفلا علم كم سعوا وتنافسوا
واليوم في مصر العزيزة ثورة
ذلت لها كل الطغاة، وزلزلت
فلك الأماني يا عزيزة أمتي
مصري الحبيبة دون قدرك مقول
فالقلب بات مصدعًا من هول ما
ما مثل ذلة من تنكر للهدى
فلتعذريني يا حبيبة إن أكن
هي زفرة المصدور تهزأ باللظى
لا ضير فالمولى نصير من اهتدى
فتن تزول وليس يبقى بعدها
يا مصر عفوك لست إلا شاعرًا
هذا فؤادي صغته لك أشطرًا
الله كون مصر دار حضارة
وتظل للحق الصراح نصيرة
يا مصر أحسب أن قدرك عاذري
ما كان هذا القلب إلا معربًا
يا مصر عذري عن قصوري أنه
عمري الذي قد مر قد جددته
اليوم قاهرة الطغاة تضمني
أو لم تكوني يا حبيبة أمنا

لو تعلمين إليك كم قلبي صبا
فمنحتني يا مصر صدرًا أرحبا
ما كنت أحسب ساعة أن تذهبا
أني التفت رأيت من بك رحبا
إن أنتسب فلغيرهم لن أنسبا
وأتى معي بردى، وخلان الصبا
قد كان من مصر العزيزة أقربا
ما مثلنا رحم المعالي أنجبا
كلفًا بما ألهمته قد شبّبا
ما دمت أمي لن أعد مغربا
وعلى بنيك ألم تكوني الأحدبا!!
مصر التي منها الزمان تعربا
عمر المشارق فضله، والمغربا
فبكل أرض عن نوابغها نبا
فبمصر لن تلقى شهابًا قد خبا
يرجون عيشًا للعوالم أطيبا
تزكي الشعوب لكي تنال المأربا
ما كان صعبًا قبلها، والأصعبا
ولتسلمي في الدهر أعلى منكبا
أعياه ما أفنى الظلوم، وخربا
أدناه كان لسامعيه المرعبا
وعن الصراط المستقيم تنكبا
آذيت سمعك بالذي قد أوجبا
ليكاد منها القول أن يتلهبا
فقضاؤه ما كان إلا الأغلبا
إلا الذي قد عز يومًا مطلبا
أشجى، وكان رجاؤه أن يطربا
غلب الحنين بها، وإبداعي كبا
لتعلم الدنيا السبيل الأصوبا
هيهات يومًا أن تهادن مذنبا
إن كان همي في الكلام تسربا
رام الصلاح، وحسبه إن أعربا
ولى الشباب، وجئت حضنك أشيبا
فلأنت أكرم من أراح المتعبا
لأعيش رغم كهولتي رغد الصبا
والحق إن أنا قلت قد كنت الأبا

«التاريخ الهجري أحداث ومناسبات»

شوقٌ إلى أيام العزة (خيبر)

إعداد: سعد فتحي

"الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين "[1]

بهذه الكلمات استقبل رسول الله ﷺ حصون خيبر فمنحه الله الفتح المبين وعنت له رءوس المعاندين ،ففي مثل هذا الشهرمن السنة السابعة للهجرة ٧هـ حاصر جيش الإسلام - وبالأخص من شهد بيعة الرضوان - حصون خيبر فأجرى الله تعالى على أيديهم فتح خيبر وغنم المسلمون أموالها، وكان ذلك فتحًا مبينًا.

﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾

(الفتح - ٢٠)

موقع خيبر فى جزيرة العرب :

خيبر: الموضع المذكور في غزوة النبي (ﷺ) وهي ناحية على ثمانية بُرُد من المدينة لمن يريد الشام. وتشتمل على سبعة حصون ومزارع ونخل كثير ، وأسماء حصونها: حصن ناعم، والقموص حصن أبي الحقيق، وحصن الشق، وحصن النطاة، وحصن السلالم، وحصن الوطيح، وحصن الكتيبة. وأما لفظ خيبر فهو بلسان اليهود: أي الحصن. ولكون هذه البقعة تشتمل على هذه الحصون سميت «خيابر».

وقيل سميت خيبر على اسم خيبر أخو يثرب بن قانية بن مهلاييل بن آدم.

وحصون خيبر منقسمة إلى شطرين:

- شطر فيه خمسة حصون: حصن ناعم - حصن الصَّعْب بن معاذ - حصن قلعة الزبير - حصن أبي - حصن النِّزار.

والحصون الثلاثة الأولى منها كانت تقع في منطقة يقال لها (النطاة)، وأما الحصنان الآخران فيقعان في منطقة تسمى الشَّق.

- وأما الشطر الثاني، ويعرف بالكتيبة، ففيه ثلاثة حصون فقط: حصن القَمُوص (وكان حصن بني أبي الحقيق من بني النضير) حصن الوطيح - حصن السُّلالم.

وفي "خيبر" حصون وقلاع غير هذه الثمانية، إلا أنها كانت صغيرة، لا تبلغ إلى درجة هذه القلاع في مناعتها وقوتها.

والقتال إنما دار في الشطر الأول منها، أما الشطر الثاني، فحصونه الثلاثة - مع كثرة المحاربين فيها ، سلمت دونما قتال.

اليهود فى جزيرة العرب:

هاجر اليهود بعد المسيح (عليه السلام) إلى جزيرة العرب ينتظرون النبي الموعود (ﷺ) ، ونزلوا في مواضع منها تيماء ووادى القرى وخيبر وحول المدينة، وكان في خيبر أودية فيها بعض العيون، ويقربها قبيلة عبس وبعض قبائل غطفان النجدية، لكنهم كانوا أهل إبل وشاء ولم يكونوا أهل زراعة، فسكن فيها اليهود وزرعوها ونجحت فيها زراعة النخيل، واشتهر تمرها، وكان يهود خيبر عندما بعث النبي (ﷺ) نحو عشرة آلاف نسمة، ومقاتلوهم بضعة آلاف، وروى أربعة عشر ألفًا . ثم انضم إليهم كثير ممن أجلاهم النبي (ﷺ) من يهود قينقاع والنضير وقريظة، ومنهم حاخامات وزعماء كبار، مثل حيي بن أخطب الذى ذهب إلى مكة لحث قريش وقبائل العرب على حرب النبي (ﷺ) ،وهو الذى وعد قبائل نجد بموسم تمر خيبر.

أسباب غزو خيبر

ظل يهود خيبر يمثلون خطرًا أمنيًا للدولة الإسلام الناشئة، وبخاصة عندما نزل بعض كبار زعماء بني النضير بخيبر، بعد إجلائهم عن المدينة: سلام بن أبي الحقيق وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق وحيي بن أخطب. فلما نزلوها دان لهم أهلها. نزلوها بأحقادهم القديمة ضد المسلمين، ولذا كانوا يتحينون الفرص للانتقام، ووجدوا في قريش وبعض قبائل العرب المشركة مطية ذلولا للوصول إلى هدفهم، فحملوهم على غزوة الخندق، وسعوا في إقناع بني قريظة للانضمام إليهم والغدر بالمسلمين. وقد وجد حيي بن أخطب داخل حصن بني قريظة حين حاصرهم الرسول ﷺ ، وأخرج، فقال له رسول الله ﷺ : "هل أخزاك الله؟" قال: قد ظهرت عليّ، وما ألوم نفسي فيك، فأمر به الرسول ﷺ فقتل.

وبعد أن عقد الرسول ﷺ هدنة الحديبية مع قريش في مكة وحلفائها وأصبح في مأمن من ناحية الجنوب جاءته أنباء مقلقة من ناحية الشمال فقد وصلته الأخبار بأن يهود خيبر بدأوا يكونون جبهة مناوئة للإسلام بالتعاون مع غطفان والأعراب الضاربين حولهم فكان على الرسول والمسلمين أن يتحركوا بسرعة لضرب هذا المخطط الجديد قبل أن يتم إعداده، ووعد الله المسلمين بمغانم كثيرة يأخذونها إذا فتحوا خيبر، كما أشارت الآية الكريمة:

﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢٠ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾

(الفتح - ٢٠ ، ٢١).

ودارت رحى المعركة:

قسم الرسول ﷺ الجيش إلى قسمين، القسم الأكبر لمهاجمة حصون اليهود حصنا حصنا، وانطلق القسم الآخر إلى الطريق بين خيبر وغطفان لقطع الاتصال بينهما وليحول بين غطفان ومساعدتها ليهود خيبر.

وأول حصن هاجمه المسلمون من هذه الحصون الثمانية هو حصن ناعم، وكان خط الدفاع الأول لليهود لمكانه الإستراتيجي، وكان هذا الحصن

(١) معجم البلدان لياقوت الحموي.

هو حصن مرحب البطل اليهودى الذى كان يعد بالألف.

فلما أشرف الرسول (ﷺ) على خيبر قال لأصحابه: "قفوا" ثم قال: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّماواتِ وما أظْلَلْنَ، وربَّ الأرَضِينَ وما أقْلَلْنَ، وربَّ الشَّياطِينِ وما أضْلَلْنَ، وربَّ الرِّياحِ وما ذَرَيْنَ، إنَّا نَسألُكَ مِنْ خَيْرِ هذهِ القَرْيَةِ، وخَيْرِ أهْلِها، وخَيْرِ ما فِيها، ونَعوذُ بكَ مِنْ شَرِّها، وشَرِّ أهْلِها، وشَرِّ ما فِيها، أقْدِمُوا بِسْمِ اللهِ» - وكان يقولها فى كل قرية يدخلها-.(٢)

أخذ اللواء أبو بكر ثم عمر، فرجعا ولم يفتح لهما، ورجع الناس، فقال رسول الله ﷺ: لأدفعن لوائى غدا إلى رجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله لن يرجع حتى يفتح الله له، فبات الصحابة طيبة نفوسهم أن الفتح غدا، فصلى رسول الله ﷺ صلاة الغداة، ثم دعا باللواء وقام فما من الصحابة رجل له منزلة من رسول الله ﷺ إلا وهو يرجو أن يكون هو ذلك الرجل.

فلما أصبح الناس غدوا على النبى ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها فقال: أين على بن أبى طالب؟ فقالوا: هو يا رسول الله يشتكى عينيه، فأرسل إليه فأتى فتفل رسول الله ﷺ فى عينيه ودعا له فبرأ حتى كان لم يكن به وجع، فأعطاه الراية، فقال علي: علام أقاتل الناس؟ قال: قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منا دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله. وانفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، فوالله لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من أن يكون لك حمر النعم.

ثم قال: خذ الراية وامض بها حتى يفتح الله عليك، فخرج بها يصول بهرول هرولة حتى ركز رايته فى رضم من حجارة تحت الحصن، فاطلع يهودى من رأس الحصن فقال: من أنت؟ قال: أنا على بن أبى طالب. فقال اليهودي: علتم وما أنزل على موسى.

وخرج عامر بن الأكوع فجعل يرتجز فيقول:

والله لولا أنت ما اهتدينا
ولا تصدقنا ولا صلينا
إنا إذا قوم بغوا علينا
وإن أرادوا فتنة أبينا
فأنزلن سكينة علينا
وثبت الأقدام إن لاقينا(٣)

فقال رسول الله ﷺ: من هذا القائل؟ فقالوا: عامر. فقال: يرحمك الله.

فخرج (مرحب اليهودي) من الحصن وهو يخطر بسيفه، فبرز له عامر رضى الله عنه، فتبارزا فاختلفا ضربتين فوقع سيف مرحب فى ترس عامر فذهب يسفل له عامر: أى يضربه من أسفله، فرجع على نفسه فقطع أكحله، فتسببت هذه الضربة فى وفاته، فإذا نفر من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون بطل عمل عامر، قتل نفسه.

فأتى (سلمة ابن أخى عمرو) رسول الله ﷺ وهو يبكى فقال مالك؟ فقلت قالوا: إن عامرا بطل عمله. فقال: من قال ذلك؟ فقلت: نفر من أصحابك. فقال: كذب أولئك، بل له الأجر مرتين.

فخرج سيدنا علي: فضرب مرحبا ففلق رأسه فقتله.

وجاء عبد حبشى أسود من أهل خيبر كان يرعى غنما لسيده فلما رأى أهل خيبر قد أخذوا السلاح سألهم: ما تريدون؟ قالوا: نقاتل هذا الرجل الذى يزعم أنه نبي.

فوقع فى نفسه ذكر النبى فأقبل بغنمه حتى عمد لرسول الله ﷺ فقال إلام تدعو؟ قال: أدعوك إلى الإسلام إلى أن تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ﷺ وأن لا تعبدوا إلا الله. فقال العبد: فماذا يكون لى إن شهدت بذلك وآمنت بالله. قال رسول الله ﷺ: الجنة إن مت على ذلك.

فأسلم العبد، فقال: يا نبى الله إن هذه الغنم عندى أمانة. فقال رسول الله ﷺ أخرجها من عسكرنا وارمها بالحصا فإن الله سيؤدى عنك أمانتك. ففعل فرجعت الغنم إلى سيدها فعرف اليهودى أن غلامه أسلم، فقال يا رسول الله إنى رجل أسود اللون قبيح الوجه لا مال لى فإن قاتلت هؤلاء حتى أقتل أدخل الجنة؟ قال: نعم، فتقدم فقاتل حتى قتل فأتى عليه رسول الله ﷺ وهو مقتول فقال: لقد حسن الله وجهك وطيب روحك وكثر مالك وقال: لقد رأيت زوجتيه من الحور العين يتنازعان جبته عليه يدخلان فيما بين جلده وجبته. وقيل فيه: قتل شهيدا وما سجد لله سجدة.

وكان فى جيش المسلمين رجل من الأعراب كان يقوم بمهمة الحراسة خلف ظهور المسلمين، وغنم المسلمون شيئا، فقسمه الرسول بين المقاتلين ومنهم هذا الرجل فلما دفعوه إليه قال: ما هذا؟ قالوا: قسم لك رسول الله ﷺ، فأخذه فجاء به إلى النبى فقال: ما هذا يا رسول الله؟ قال قسم قسمته لك، قال: ما على هذا اتبعتك ولكن اتبعتك على أن أرمى ههنا وأشار إلى حلقة بسهم، فأموت فأدخل الجنة فقال الرسول: إن تصدق الله يصدقك ثم نهضوا على قتال العدو، فأتى به إلى رسول الله ﷺ وهو مقتول فقال أهو هو؟ قالوا: نعم، قال: صدق الله فصدقه، فكفنه النبى فى جبته ثم قدمه فصلى عليه وكان من دعائه له: «اللهم هذا عبدك خرج مهاجرا فى سبيلك قتل شهيدا وأنا عليه شهيد».

واقتحم المسلمون حصن ناعم.

حصن الصعب:

وكان حصن الصعب الحصن الثانى من حيث القوة والمناعة بعد حصن ناعم، قام المسلمون بالهجوم عليه تحت قيادة الحباب بن المنذر الأنصاري، ففرضوا عليه الحصار ثلاثة أيام، وفى اليوم الثالث دعا رسول الله ﷺ لفتح هذا الحصن دعوة خاصة.

روى ابن إسحاق: أن بنى سهم من أسلم أتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: لقد جهدنا وما بأيدينا من شيء، فقال: «اللهم إنك قد عرفت حالهم، وأن ليست بهم قوة، وأن ليس بيدى شيء أعطيهم إياه، فافتح عليهم أعظم حصونها عنهم غناء، وأكثرها طعاما وودكا». فغدا الناس ففتح الله عز وجل حصن الصعب بن معاذ، وما بخيبر حصن كان أكثر طعاما وودكا منه.(٤)

فتح حصن النزار:

كان هذا الحصن أمنع حصون هذا الشطر، وكان اليهود على شبه اليقين بأن المسلمين لا يستطيعون اقتحام هذه القلعة، فرض المسلمون على هذا الحصن أشد الحصار، ولكون الحصن يقع على جبل مرتفع منيع لم يكونوا يجدون سبيلا للاقتحام فيه، أما اليهود فلم يجترئوا على الخروج من الحصن، للاشتباك مع قوات المسلمين، لكنهم قاوموا المسلمين مقاومة عنيدة برشق النبال، وبإلقاء الحجارة.

وعندما استعصى حصن النزار على قوات المسلمين، أمر النبى ﷺ بنصب آلات المنجنيق،

(٢) الرحيق المختوم، المباركفوري. (٣) البداية والنهاية ابن كثير.

(٤) السيرة النبوية لابن هشام.

ويبدو أن المسلمين قذفوا بها القذائف، فأوقعوا الخلل في جدران الحصن، واقتحموه، ودار قتال مرير في داخل الحصن، انهزم أمامه اليهود هزيمة منكرة، وبعد فتح هذا الحصن المنيع تم فتح الشطر الأول من خيبر، وهي ناحية النطاة والشق، وكانت في هذه الناحية حصون صغيرة أخرى، إلا أن اليهود بمجرد فتح هذا الحصن أخلوا هذه الحصون، وهربوا إلى الشطر الثاني من بلدة خيبر.

فتح الشطر الثاني من خيبر:

ولما فتح ناحية النطاة والشق، تحول رسول الله ﷺ إلى أهل الكتيبة والوطيح والسلام حصن أبي الحقيق من بني النضير، وجاءهم كل من انهزم من النطاة والشق، وتحصن هؤلاء أشد التحصن.

فلما أتى رسول الله ﷺ إلى هذه الناحية، الكتيبة - فرض على أهلها أشد الحصار، ودام الحصار أربعة عشر يوما، واليهود لا يخرجون من حصونهم، حتى هم رسول الله ﷺ أن ينصب عليهم المنجنيق، فلما أيقنوا بالهلكة سألوا رسول الله ﷺ الصلح.

مصالحة الرسول أهل خيبر:

وحاصر رسول الله ﷺ، أهل خيبر في حصنيهم الوطيح والسلالم، حتى إذا أيقنوا بالهلكة، سألوه أن يسيرهم وأن يحقن لهم دماءهم، ففعل. وكان رسول الله ﷺ قد حاز الأموال كلها: الشق ونطاة والكتيبة وجميع حصونهم، إلا ما كان من ذينك الحصنين. فلما سمع بهم أهل فدك قد صنعوا ما صنعوا، بعثوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه أن يسيرهم، وأن يحقن دماءهم، ويخلوا له الأموال، ففعل. وكان فيمن مشى بين رسول الله ﷺ وبينهم في ذلك محيصة بن مسعود، أخو بني حارثة، فلما نزل أهل خيبر على ذلك، سألوا رسول الله ﷺ أن يعاملهم في الأموال على النصف، وقالوا: نحن أعلم بها منكم، وأعمر لها، فصالحهم رسول الله ﷺ على النصف، على أنا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم، فصالحه أهل فدك على مثل ذلك، فكانت خيبر فيئا بين المسلمين، وكانت فدك خالصة لرسول الله ﷺ، لأنهم لم يجلبوا عليها بخيل ولا ركاب.

نهي الرسول يوم خيبر عن أشياء:

نهى رسول الله ﷺ أصحابه يومئذ عن أربع: عن إتيان الحبالى من السبايا، وعن أكل الحمار الأهلي، وعن أكل كل ذي ناب من السباع، وعن بيع المغانم حتى تقسم.

عن حنش الصنعاني، قال: غزونا مع رويفع بن ثابت الأنصاري المغرب، فافتتح قرية من قرى المغرب يقال لها جربة، فقام فينا خطيبًا، فقال: يا أيها الناس، إني لا أقول فيكم إلا ما سمعت من رسول الله ﷺ يقوله فينا يوم خيبر، قام فينا رسول الله ﷺ فقال: لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقي ماءه زرع غيره، يعني إتيان الحبالى من السبايا، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يصيب امرأة من السبي حتى يستبرئها، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيع مغنمًا حتى يقسم، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يركب دابة من فيء المسلمين حتى إذا أعجفها ردها فيه، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يلبس ثوبًا من فيء المسلمين حتى إذا أخلقه رده فيه.

وعن عبادة ابن الصامت، قال: نهانا رسول الله ﷺ يوم خيبر عن أن نبيع أو نبتاع تبر الذهب بالذهب العين، وتبر الفضة بالورق العين، وقال: ابتاعوا تبر الذهب بالورق العين، وتبر الفضة بالذهب العين

على هامش المعركة

• قصة صفية بنت حيي النضرية: كان من شأنها أنه لما أجلى رسول الله ﷺ يهود بني النضير من المدينة، فذهب عامتهم إلى خيبر وفيهم حيي بن أخطب وبنو أبي الحقيق، وكانوا ذوي أموال وشرف في قومهم وكانت صفية إذ ذاك طفلة دون البلوغ، ثم لما تأهلت للتزويج تزوجها أحد بني عمها فلما زفت إليه، وأدخلت إليه بني بها ومضى على ذلك ليالي رأت في منامها كأن قمر السماء قد سقط في حجرها فقصت رؤياها على ابن عمها فلطم وجهها وقال أتتمنين ملك يثرب أن يصير بعلك.

فما كان إلا مجيء رسول الله ﷺ وحصاره إياهم فكانت صفية في جملة السبي وكان زوجها في جملة القتلى.

ولما اصطفاها رسول الله ﷺ وصارت في حوزه وملكه، وبنى بها بعد استبرائها وحلها، وجد أثر تلك اللطمة في خدها فسألها ما شأنها. فذكرت له ما كانت رأت من تلك الرؤيا الصالحة رضي الله عنها وأرضاها.

• مر سيدنا بلال بالسيدة صفية بنت حيي بن أخطب وأخرى معها - وهو الذي جاء بهما أسيرتين - على قتلى من قتلى يهود، فلما رأتهم التي مع صفية صاحت، وصكت وجهها، وحثت التراب على رأسها، فلما رآها رسول الله ﷺ قال لبلال: أنزعت منك الرحمة يا بلال، حتى تمر بامرأتين على قتلى رجالهما؟

• غنم الرسول في غزوة خيبر صحائف التوراة، ومع أنه يعلم أنها محرّفة تمام التحريف، وأنها قد أزيلت عنها البشارات التي تبشر به، وأنه قد اعتدى اليهود فيها كثيرًا على حرمات الله، إلا أنه سلّم هذه الصحائف كاملة لليهود عندما طلبوها منه، ولم يحرق هذه الصحف، وسمح لهم بالمعتقد الذي يعتقدونه، وإن كان يعلم أنه معتقد فاسد تمامًا، وهذا من سعة الصدر عند المؤمنين، والله قال في كتابه الكريم:

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾

(البقرة: ٢٥٦).

نتائج فتح خيبر

لقد أظهرت غزوة خيبر حقيقة ثابتة وهي أن اليهود على مر التاريخ والعصور ومنذ عهد النبي ﷺ إلى يومنا هذا مصدر خطر داهم على الإسلام والمسلمين، فهم قوم خيانة وغدر، وينقضون العهود والمواثيق، وبحقدهم وكفرهم قتلوا عددا من الأنبياء، وما زالوا إلى أيامنا هذه مصدر خطر كبير وشر مستطير ينبغي التنبه له ومواجهته..

لقد أحدث فتح خيبر دويًا هائلاً في الجزيرة العربية بين مختلف القبائل، وقد أصيبت قريش بالغيظ إذ لم تكن تتوقع ذلك، وهي تعلم مدى حصانة قلاع يهود خيبر، وكثرة مقاتليهم ووفرة سلاحهم، أما القبائل العربية الأخرى المناصرة لقريش فقد أدهشها خبر هزيمة يهود خيبر وخذلها انتصار المسلمين الساحق، ولذلك فإنها جنحت إلى مسالمة المسلمين وموادعتهم بعد أن أدركت عدم جدوى استمرارها في عدائهم، مما فتح الباب واسعاً لنشر الإسلام في أرجاء الجزيرة العربية، بعد أن تعززت مكانة المسلمين في أعين أعدائهم إلى جانب ما تحقق لهم من خير وتعزيز لوضعهم الاقتصادي.

وتمر السنون والأعوام وتظل غزوات النبي ﷺ عامة ومع اليهود خاصة نبراسا وهاديا يضيء لنا الطريق في تعاملنا مع أعداء الأمس واليوم والغد من اليهود وغيرهم.

بين الصحف والمجلات

إعداد: أ/ محمد جمعة

إسبانيا تعلن عن إعطاء الجنسية لمن يرتد عن الإسلام

تحت هذا العنوان جاء التقرير الإخباري المنشور بـ [الشروق اون لاين] بتاريخ: ٣٠/١٠/٢٠١٣م جاء فيه:

وقعت الحكومة الإسبانية التي يرأسها حكومة ماريانو راخوي، اتفاقية مع رئيس المؤتمر الأسقفي أنطونيو ماريا وبحضور الأمين العام لحزب الاتحاد الديمقراطي الكاطالاني، حيث ترمي هذه الاتفاقية لمنح الجنسية الإسبانية للمسلمين الراغبين في تغيير ديانتهم إلى المسيحية الكاثوليكية، وهي أكبر طوائف الدين المسيحي.

وبحسب وكالة rnw الأوروبية فالاتفاقية التي أبرمها وزير العدل الإسباني، أليبرتو رويس غياردون، ورئيس المؤتمر الأسقفي، أنطونيو ماريا روكو فاريلا حملت تسهيلات كبيرة للحصول على الجنسية الإسبانية وذلك مقابل التخلي عن الديانة الإسلامية، واعتناق المسيحية الكاثوليكية.

وعلقت منية بلماحي القيادية بالجالية الإسلامية، بالتأكيد على أن الاتفاقية التي تستهدف المسلمين تحديدًا، ليست هي أول اتفاقية تبرمها الحكومة الإسبانية مع الكنيسة، بل كانت هناك اتفاقية مماثلة سنة ١٩٨٨م مع رئيس الوزراء الإسباني السابق، فيليبي غونثاليث ماركيث، حيث كانت هناك اتفاقية مشابهة، لكنها تخص اليهود بدل المسلمين، إلا علل الرئيس الإسباني حينها قرار الاتفاقية برغبته في «إصلاح موقف إسبانيا من طرد اليهود سنة ١٤٩٢م».

وأضافت بلماحي أن الاتفاقية استفاد منها حوالي ١٢٠ مقيمًا في إسبانيا من ذوي الديانة اليهودية، قبل أن يصعد خوسيه لويس رودريغيس ثاباتيرو إلى رئاسة الحكومة الإسبانية، ويلغي الاتفاقية، لتعاود حكومة ماريانو راخوي، تفعيلها هذه المرة لتشمل المسلمين.

وتساءلت عن دوافع هذه الاتفاقية، التي اعتبرتها بمثابة «متاجرة بالدين»، واستغلال بشع لأزمة المهاجرين، ورغبتهم في تأمين استقرارهم، خصوصًا أن الحكومة الإسبانية تعاني من مشاكل اقتصادية كبيرة دفعتها لشن حملات قاسية على المهاجرين برفضها تجديد إقامة العديد منهم، ومع ذلك تطرح تبسيط الجنسية الإسبانية لمن يتخلى عن الدين الإسلامي، لصالح المسيحية، وهو ما لا يعتبر خيارًا دينيًا، بل بيعًا للدين واستغلالاً بشعًا للمهاجرين».

وتطال هذه الاتفاقية أكثر من ٧٠ ألف مهاجر مغربي في إسبانيا، حيث ترمي هذه الاتفاقية الجديدة جلب المهاجرين المغاربيين تحديدًا، لتغيير ديانتهم مقابل الاستفادة من امتيازات حددتها الحكومة الإسبانية، والكنيسة في الحصول على الجنسية الإسبانية التي تضمن للمهاجرين الإقامة الدائمة على الأراضي الإسبانية، مع التوفر على امتيازات اجتماعية مختلفة.

لماذا يهجر الصهاينة إسرائيل؟

تحت هذا العنوان جاء مقال الأستاذ / صالح النعامي المنشور بموقع الإسلام اليوم بتاريخ ٢٩ / ١٠ / ٢٠١٣م يقول فيه:

يثور جدل إسرائيلي عاصف حاليًا حول مظاهر الهجرة العكسية، والتي تهدد أسس المشروع الصهيوني. فحسب المعطيات الرسمية، فإن ١٦ ألف إسرائيلي يغادرون إسرائيل سنويًا للغرب، بحثًا عن ظروف حياة اقتصادية أفضل .وقد أظهرت تقارير صهيونية متتالية أن الإسرائيليين لم يعودوا يرون في مغادرة إسرائيل تناقضًا مع القيم الصهيونية. وعلى الرغم من أن معدل الدخل السنوي للفرد في إسرائيل يبلغ حوالي ٢١ ألف دولار، تبين أن العامل الاقتصادي هو الدافع الرئيس للهجرة العكسية. ومن المفارقة إن العاصمة الألمانية برلين تحديدًا هي المدينة الغربية التي تجذب أكبر عدد من الإسرائيليين الراغبين في مغادرة الدولة العبرية. ودللت دراسة إسرائيلية حديثة على أن مليون إسرائيلي قد غادروا إسرائيل بالفعل خلال العقدين الماضيين، وهي نسبة كبيرة حسب كل المقاييس.

إن المشروع الصهيوني أقيم على ركيزتين أساسيتين، وهما: الاستيلاء على الأرض الفلسطينية وجلب أكبر عدد ممكن من اليهود لاستيطانها، ومن الواضح أن تعاظم الهجرة العكسية في ظل الكثير من المعطيات التي تدلل على تراجع معدلات الهجرة الإيجابية ينذر بخسارة إسرائيل الصراع الديموغرافي مع الفلسطينيين.

وما زال العدوان على المسجد الأقصى مستمرًا

تحت عنوان " تقسيم المسجد الأقصى.. إفك مبين " جاء مقال د/ سحر المجالي المنشور بجريدة الراي الصادرة بتاريخ: ٦/١١/٢٠١٣م جاء فيه:

في خضم لملمة جراحنا معشر العرب، وأثناء حلمنا في إمكانية الحل السلمي للصراع على الأرض الفلسطينية، صحونا على أنباء المخطط الإسرائيلي الهادف إلى بناء آلاف من الوحدات السكنية الاستيطانية في الضفة الغربية، خاصة في القدس الشريف. بالإضافة إلى قرارات الحاكم العسكري الإسرائيلي المتوالية بهدم عشرات المنازل في الأراضي العربية المحتلة وتحديدًا في القدس، بهدف تهويد هذه المدينة العربية المقدسة والتي تشكل ذروة سنام الصراع العربي- الإسرائيلي.

واليوم نشهد تصعيدًا آخر في العدوان

الإسرائيلي على المسجد الأقصى، والمتمثل بتسارع عمليات الحفر والترميم في الطرف الغربي للمسجد ومن ساحة البراق تحديدًا، وبعملية كبيرة شملت إزالة أبنية عربية وإسلامية- تراثية. يتزامن ذلك مع السياسة الإسرائيلية التهويدية الجديدة للقدس والضفة الغربية والقاضية بهدم آلاف المنازل وتشريد آلاف العائلات العربية المقدسية، بالإضافة إلى بناء مئات الآلاف من الوحدات السكنية للمستعمرين اليهود في الضفة الغربية.

(الجدير بالذكر أن حزب الليكود أعد وثيقة وخارطة يقترحها لتقسيم المسجد الأقصى زمانيًا ومكانيًا وتتضمن - الوثيقة - شرحًا تفصيليًا لهذا المقترح بما يشمل مشروعًا لوضع قوانين ولوائح ونُظم لتقسيم الأقصى بين المسلمين واليهود.

وقد حذر رئيس دائرة شئون القدس وعضو اللجنة التنفيذية في منظمة التحرير الفلسطينية أحمد قريع من هذا المخطط ووصفه بـ«الإجرامي»، مؤكدًا أن المقترح وضع على طاولة وزير الأديان الإسرائيلي، تحت اسم «مشروع قانون ونُظم للمحافظة على جبل الهيكل - كمكان مقدس».

وأعلنوا أنهم سيعملون على إقراره في الكنيست والحكومة الإسرائيلية بالتعاون والتنسيق مع لجنة الداخلية التابعة للكنيست... «الأردن اليوم»).

الإسلام في أوروبا حقيقة واقعية رغمًا عن التحديات

تحت هذا العنوان جاءت متابعة فعاليات مؤتمر عقد بالعاصمة الباكستانية "إسلام اباد". المنشورة في شبكة الألوكة بتاريخ: ٦ / ١١ / ٢٠١٣م ومما جاء فيه:

الإسلامُ في أوروبا اليوم حقيقة واقعية يجبُ على العالَم أن يقتنعَ بها رغمًا عن التحديات الكبيرة التي يواجهُها هناك.

لقد كان هذا رأي الأغلبية من المتحدِّثين خلال فاعليات مؤتمر استغرق يومَيْن تحت عنوان: «الإسلام في أوروبا»، والذي عُقد مؤخرًا تحت رعاية مركز الدراسات المساحية الأوروبي وجامعة كراتشي ومؤسسة «Hanns Seidel» بالعاصمة الباكستانية «إسلام آباد».

في البداية أكدتْ البروفسيرة «Naveed Ahmed Tahir» مديرة مركز المساحة بجامعة كراتشي، أنَّ الإسلامَ في أوروبا حقيقةٌ لا يمكن أن يُنظرَ إليها على أنها ظاهرة مؤقتة، ولا أن يتم التستُّرُ عليها من قبل صُنَّاع القرار من الصفوة الأوروبية.

وقالت: إنَّ المسلمين يشكِّلون ٢٣٪ من الإنسانية، ويمتلكون أفضلَ وسائل ممنوحة لعالَم صناعي؛ البترول والغاز، وقالت أيضًا: إنَّ الإسلامَ أصبح اليوم أسرعَ أديان العالم انتشارًا.

وأمَّا «د. بيرزادا قاسم رازا صديقي»؛ نائب مستشار جامعة كراتشي، فقد قال: إنَّ البلقان وغالبية المسلمين في ألمانيا وفرنسا؛ حيث إنَّ الواقعَ يشيرُ إلى بلوغ عددهم ٤٤ مليونًا أو ٦٪ من كثافة أوروبا السُّكانية، جعلت الإسلامَ حقيقةً يجبُ على أوروبا التعايش معها، وقد يكون المسلمون تعلموا من أوروبا، إلا أنه لا يمكنُ إنكار أنهم علَّموها أيضًا!

وأمَّا السفير السابق «شهيد أمين» فيرى أنَّ العلاقات بين الغرب والإسلام بدأت تتحدر وتسوء بعد أحداث (١١ / ٩)، وقال: إنه قد يكونُ في مصلحة كليهما إدراك أنَّ لديهم جميعًا مصيرًا مشتركًا، وإنهم قريبًا يجبُ عليهم إيجادُ طرقٍ ووسائل للعيش في تآلف.

أنباء الأزهر

إعداد الأستاذين:
محمود الفشني . وعبد الموجود أمين

أبو مازن: بدون مصر لا يوجد عالم عربي أو إسلامي



استقبل فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب، شيخ الأزهر، فخامة الرئيس الفلسطيني محمود عباس أبو مازن، والوفد المرافق لفخامته وبحضور السيد صائب عريقات، كبير المفاوضين الفلسطينيين وذلك ظهر الإثنين ٧ من المحرم ١٤٣٥هـ، الموافق ١١ من نوفمبر ٢٠١٣.

واستعرض الجانبان خلال اللقاء القضايا المحلية والدولية محل الاهتمام المشترك،

حيث تطابقت وجهتا النظر بين الأزهر الشريف ودولة فلسطين.

وأعرب فضيلة الإمام عن أن القضية الفلسطينية تظل القضية المركزية للعالم العربي عمومًا، ومصر خصوصًا، مشددًا على أن الأزهر الشريف موقفه واضحٌ وثابتٌ في نصرة الدولة الفلسطينية وقضيتها.

ومن جهته، ثمَّن فخامة الرئيس مواقف الإمام الأكبر الثابتة والمؤثرة على مستوى القضية الفلسطينية والسلام الدولي، وطالب بتعزيز دور الأزهر لنشر الثقافة الوسطية، لما للأزهر من مكانة في العالم الإسلامي.

وقال أبو مازن خلال المؤتمر الصحفي الذي عُقد عقب اللقاء: تشرفنا بلقاء فضيلة الإمام الذي نسعد دائما بلقائه، ونسترشد بآرائه ونصائحه، لما له من حكمة، فهو عالم حكيم يقود مؤسسة عمرها أكثر من ألف عام، أخذت على عاتقها نشر الإسلام الوسطي في العالم. رغم المعوقات التي تقف دوما أمامه، ولكن يبقى الأزهر شامخًا قويًا يؤدي دوره العظيم.

وأضاف: تحدثنا حول القضية الفلسطينية، والمفاوضات الدائرة مع الكيان الصهيوني الآن، وأكدنا أننا على ثوابتنا والتي من أهمها أن تكون القدس عاصمة لفلسطين، وأن يبقى المسجد الأقصى مصونًا.

كما تحدثنا عن مصر العزيزة التي نسعد أن نراها مستقرة سعيدة في قمة عطائها وهي كذلك، مصر التي بدونها لا يوجد عالم عربي ولا إسلامي.

بيان من الأزهر الشريف بشأن حادث رفح الأخير

إن الجرم الإرهابي الذى أودى بحياة عدد من جنود مصر الأوفياء الذين حملوا أرواحهم على أكفهم من أجل الحفاظ على حرمة مصر وحرمها وأرواح شعبها، وكرامتهم، لهو خيانة للدين والوطن، وينم عن خسة وجبن من تبنوه وقاموا به والدين والوطن منهم براء.

ويا جند مصر الأوفياء استمروا فى أداء واجبكم فى الحفاظ على أمن مصر القومى بأبعاده الداخلية والخارجية ضد كل معتد آثم ويكفيكم شرفا أنكم خير أجناد الأرض، ومن ورائكم شعب عريق فى رباط إلى يوم الدين، وأزهر شريف ارتضته الأمة ضميرا لدينها.

حمى الله مصر من كل سوء ووقاها شر الفتن.

السفير الأمريكى لشيخ الأزهر: واشنطن حريصة على تقوية علاقاتها مع مصر



أكد ديفيد ساترفيلد السفير الأمريكى بالقاهرة ان بلاده تدرس استمرار وتقوية علاقاتها بمصر.. جاء ذلك خلال استقبال الدكتور أحمد الطيب ـ شيخ الأزهر ـ له والوفد المرافق أمس حيث قدم فضيلة الإمام الأكبر للضيف شرحا وافيا عن دور الأزهر كمؤسسة علمية في توضيح حقائق الدين الإسلامى بوسطيتها واعتدالها ونبذها للعنف والإرهاب، مؤكدا الدور الوطني للأزهر الشريف عبر تاريخه وبخاصة خلال المرحلة الحالية ودوره المستمر فى تحقيق تطلعات الشعب المصرى.. ومن جانبه أكد السفير الأمريكى احترام وتقدير حكومته لدور الأزهر وقيادته وما يقوم به من أجل تحقيق المطالب الوطنية ودعم الحكومة الأمريكية لدور الأزهر واصفا اللقاء بأنه إيجابي وبناء.. مضيفا إن الولايات المتحدة تقدر علاقتها بمصر وجميع المؤسسات خاصة الأزهر، معربا عن أمله في أن تتقدم مصر الى الأمام لمستقبل أفضل يعكس إرادة المصريين.

مجمع البحوث الإسلامية: فتوى «هاشم إسلام» رأى شخصى لا صحة ولا أصل له

نفى مجمع البحوث الإسلامية عضوية الشيخ / هاشم إسلام- بلجنة الفتوى بالأزهر الشريف.

وشدد مجمع البحوث الإسلامية فى بيان له أن الشيخ المذكور لا يمثل لجنة الفتوى بالأزهر، وأن كل ما يصدر عن لسانه يمثل رأيه الشخصى ولا يعد فتوى شرعية.

وأكد مجمع البحوث الإسلامية أن الفتوى التى صدرت عنه ببطلان محاكمة الرئيس السابق، ونشرت فى بعض الصحف والمواقع كذب وافتراء على اللجنة، ولا أصل ولا صحة لها، مؤكدا أن فتاوى لجنة الفتوى لا تصدر إلا ممهورة بخاتم اللجنة.

ومن الجدير بالذكر أن الشيخ المذكور قد أصدر فتوى قبل ٣٠ يونيو وعزل الرئيس السابق أهدر فيها دم المتظاهرين المناوئين له، وقضت محكمة تأديبية بمعاقبته، وتنزول درجته الوظيفية إلى أدنى درجة مع خفض راتبه إلى القدر الذى كان عليه قبل ترقيته.

الإمام الأكبر: حريصون على قيام الأزهر بدوره الوطنى بعيدا عن السياسة

بحث فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر والسفير الهولندى بالقاهرة جيرارد ستيغز، سبل دعم التعاون العلمي بين الأزهر والمسلمين فى هولندا، وتعزيز التعايش السلمى بين أهل الحضارات والأديان والثقافات المختلفة، لسيادة القيم العليا المشتركة.

وأكد فضيلة الإمام على ضرورة احترام المقدسات والرموز الدينية الإسلامية وعدم الإساءة إليها، مشيرا إلى أن الأزهر حريص على القيام بدوره الوطنى، وألا يزج بنفسه فى الأمور السياسية.

ومن جانبه أشاد السفير الهولندى بالدور الذى يقوم به فضيلة الإمام الأكبر وحكمته فى تحقيق استقلالية الأزهر وعودته إلى مكانته اللائقة به، كأكبر مؤسسة إسلامية فى العالم، مؤكدا أنه يتابع ذلك جيدا من خلال وسائل الإعلام.

الإمام الأكبر: منح وبرامج تعليمية خاصة للطلاب الروس



التقى فضيلة الإمام الأكبر الدكتور / أحمد الطيب – شيخ الأزهر– الوفد الشعبى الروسى فى زيارة تعد الأولى من نوعها منذ عشرين عاما.

حيث أعرب فضيلة الإمام الأكبر عن تفاؤله بعودة العلاقات بين البلدين فقد آن الأوان لنبدأ حوارا حقيقيا بين الحضارات فلدينا فى الأزهر مركز الأزهر للحوار بين الحضارات وأهل الأديان وكذلك على مستوى العلاقة بين المسلمين والمسيحيين، لدينا بيت العائلة الذى يقوم بإزالة كافة أسباب التوتر، وهو يعمل حاليا على إعادة ترميم دور العبادة التى تأثرت بعد الأحداث الأخيرة.

وأكد فضيلته إن الأزهر على استعداد لزيادة المنح الدراسية للطلاب الروس، وكذلك إعداد برامج تعليمية خاصة بهم لدراسة اللغة العربية والإسلام.

وقال الوفد الروسى إن مصر تعد من أهم الدول الصديقة لروسيا وهذه الزيارة تأتى بمناسبة مرور ٧٠ عاما على العلاقات المصرية الروسية والتى نأمل أن تشهد تحولات إيجابية خلال المرحلة المقبلة بخاصة فى مجال حوار الحضارات نظرا للتشابه الكبير بين الشعبين وهو ما سيساعد كثيرا على التآلف.

وأشاد الوفد بالدور التاريخى للأزهر خاصة خلال المرحلة الأخيرة من خلال محافظته على الهدوء

والاستقرار والعلاقات القوية بين المسلمين والمسيحيين، مؤكدين أن الأزهر يمثل المركز الحقيقي للإسلام في العالم.

شيخ الأزهر يبحث وسفير أفغانستان دعم التعاون العلمي بين البلدين

بحث فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب – شيخ الأزهر – وسفير أفغانستان بالقاهرة فضل الرحمن فاضل، سبل دعم التعاون العلمي بين الأزهر وأفغانستان ،من خلال البعثات العلمية الأزهرية واستقبال الطلاب الأفغان للدراسة بالأزهر.

وأعرب السفير عن سعادته بلقاء فضيلة الإمام، موضحًا أن الأزهر مرجعية المسلمين في العالم، وكل علمائه يتميزون بالوسطية والاعتدال، ونبذ الغلو والتشدد.

وكيل الأزهر يتوعد القيادات المقصرة بالنقل من أماكنهم

قال فضيلة الدكتور عباس شومان وكيل الأزهر أن الأسبوع الجارى سيشهد قرارات مؤثرة في العملية التعليمية بالأزهر وسيتم نقل القيادات المقصرة في عملها والتي تعتمد على التقارير التي تأتيها دون التأكد من صحتها .

وأكد وكيل الأزهر أنه أعطى مهلة كافية لرؤساء المناطق الأزهرية لسد العجز في المعاهد وذلك بعد تعدد الشكاوى من العجز الصارخ في كثير من المعاهد ،والذى تبين أن معظمه يرجع إلى سوء التوزيع.

وشدد د. شومان على أن المهلة انتهت و سيتم اتخاذ قرارت شديدة ضد غير القادرين على ممارسة صلاحياتهم مطالبا وكلاء الوزارة المقصرين بترك مواقعهم اختيارا، لتولى غيرهم المسؤلية. فقد نفد الصبر على هذا الخلل.

وأكد وكيل الأزهر أنه سيقوم بجولات تفقدية للمناطق الأزهرية خلال الأيام المقبلة وسيتم خلال تلك الجولات عقد لقاءات مع العاملين بالأزهر وبحث مشاكلهم على أرض الواقع والعمل على حلها واتخاذ القرارات المناسبة.

وأشار وكيل الأزهر إلى أن الغرض من هذه الزيارات ليس المتابعة فقط أو توقيع الجزاءات على المقصرين كما يردد البعض فهدفنا الأساسى وضع الجميع أمام مسئولياتهم من أجل نهضة الأزهر.

وأكد أنه تم وضع قواعد للنقل بحيث يتم نقل الأحدث ثم الأقدم إلى المناطق التي لاتبعد كثيرا عن مقار إقامتهم بمسافة لا تتجاوز ما بين ١٥ الى ٢٠ كم على أقصى تقدير.

من ناحية أخرى قام وكيل الأزهر بمتابعة العملية التعليمية بمعهدى القاهرة الثانوى والبرموني، حيث تبين له الحالة السيئة للمعهدين وقرر إحالة رئيس منطقة القاهرة الأزهرية والمتقاعسين عن حل مشكلة انقطاع المياه عن المعهدين لمدة تجاوزت الثلاث سنوات إلى التحقيق الفوري، كما تقرر نقل عميدى المعهدين و أكثر من سبعين من المدرسين المتغيبين عن العمل إلى معاهد أخرى لسد العجز لاسيما وبالمعهدين زيادة في أعضاء الهيئة التدريسية مع توقيع الجزاء المناسب بعد التحقيق العاجل بمقر المشيخة، وسيعامل كل متهاون بنفس الطريقة إلى أن تنتظم العملية التعليمية مهما كانت درجة المقصر.


أ.د عباس شومان

وأكد فضيلته أن نقل المدرسين لسد العجز وليس بسبب التقصير في العمل.

مشددا على أنه لن يلتفت إلى أى شكاوى ترد ممن يتم نقلهم من المدرسين لسد العجز مالم يثبت أن نقلهم كان تعسفيا لأن الجميع يعمل تحت مظلة الأزهر الشريف وليس بالضرورة أن يبقى في مكان بعينه إذا اقتضت الضرورة ذلك فمصلحة الطلاب مقدمة مع مراعاة مصلحة المدرسين

وأصدر فضيلته قرارا بمنع خروج أى مدرس من معهده دون مأمورية رسمية ومن دون الحصول على إجازة أو مأمورية معتمدة من المنطقة التابع لها خاصة إذا كان الأمر يتعلق بالذهاب إلى مشيخة الأزهر أو قطاع المعاهد لإنهاء مصلحة خاصة مثل الإجازات أو التقديم لعمل ما .

وقرر فضيلته إحالة من يحضر مخالفا للشئون القانونية ،مؤكدا أن هذا القرار تم اتخاذه لملاحظته حضور أعداد كبيرة من المدرسين إلى مبنى المشيخة معترضين على نقلهم من معاهدهم لسد العجز ،مطالبا الجميع بالالتزام بالقرارات لأن النقل للمصلحة ونهائى فلنتعاون من أجل المصلحة العامة لأبنائنا الطلاب .

وأشار وكيل الأزهر إلى أنه تم تخصيص خط ساخن يحمل رقم ١٩٤٩٣ بالأزهر لتلقى شكاوى العاملين بالأزهر على كافة المستويات وكذلك الطلاب وأولياء الأمور وأنه يتم التعامل بكل جدية وحسم مع الشكاوى الواردة طالما ثبتت صحتها ويتم اتخاذ القرار الفورى المناسب مناشدا جميع العاملين التعامل مع الخط الساخن لأنه أنسب وأسهل وأقرب وسيلة للتعامل مع شكاواهم بكل سرية .

شومان يدعو رجال الأعمال للمساهمة في إنشاء فرع لجامعة الأزهر بسوهاج

دعا فضيلة الدكتور عباس شومان وكيل الأزهر رجال الأعمال إلى المساهمة والمشاركة في إنشاء فرع لجامعة الأزهر في محافظة سوهاج وقال إن الصعيد حرم وتم تجاهله على مدار عقود كثيرة، ولقد حزنت وأنا أزور محافظتي سوهاج، حين رأيت مبنى كلية الدراسات الإسلامية للبنات اليتيم والذى لايصلح لأكثر من معهد أزهرى وليس ١٦ ألف طالبة، من بينهن الحاصلات على درجات كانت تؤهلهن لدخول كليات عملية، ولم يجدن بدًا من التكدس في هذا المبنى العتيق نظرًا لبعد الكليات الأخرى وتحفظ الأسر على ذهاب بناتهن إلى القاهرة وغيرها ومعهم كل الحق.

وأضاف وكيل الأزهر أن جامعة الأزهر لها أرض مخصصة بحي الكوثر بسوهاج مساحتها عشرة أفدنة ،تحتاج إلى تمويل لإنشاء نواة لفرع جامعة الأزهر بسوهاج عليها ،ولنبدأ بكليتين للبنات إحداهن عملية ،والأخرى نظرية قبل أن تسحب الأرض ويلغى التخصيص بعد عدة أشهر وتحديدا في شهر أبريل المقبل

وأشار وكيل الأزهر إلى أنه قام بمخاطبة مؤسسة مصر الخير للمساهمة حيث أبدت مشكورة استعدادها لدفع مبلغ كبير لانطلاق المشروع، موجها نداء لرجال الأعمال للمساهمة والاتصال بعميد كلية الدراسات بسوهاج أو المحافظ أو به شخصيا للتنسيق، وإنجاز المشروع.

سماحة الإسلام في مواجهة التحديات الفكرية

جلسة افتتاح اللجان العلمية للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية

متابعة: أ. رمضان ثابت

تحت رعاية فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر عُقدت جلسة افتتاح اللجان العلمية للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية برئاسة الأستاذ الدكتور محمد مختار جمعة وزير الأوقاف رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية تحت عنوان: «سماحة الإسلام في مواجهة التحديات الفكرية» وذلك بقاعة الأزهر للمؤتمرات في يوم الاثنين الرابع عشر من المحرم ١٤٣٥هـ الموافق ١٨ نوفمبر ٢٠١٣م.

استهلت جلسة الافتتاح وسط حضور حاشد وكوكبة من العلماء والمفكرين والمسئولين وأئمة الأزهر والأوقاف بقراءة الفاتحة على أرواح الشهداء وآيات من الذكر الحكيم.

ورحّب الأستاذ الدكتور أحمد علي عجيبة الأمين العام للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالسادة الحضور من مصر والعالم العربي، مؤكدا على ضرورة توحيد صفوف الأمة الإسلامية لمواجهة تحديات الوضع الراهن واستعادة هيبتها بين الأمم وإلّا فقد صدق فينا قول رسول الله ﷺ لثوبان: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة على قصعتها؛ قال: قلنا يا رسول الله أمن قلة بنا يومئذ؟ قال: «أنتم يومئذ كثير ولكن غثاء كغثاء السيل تُنتزعُ المهابةُ من قلوب عدوكم ويَجعل في قلوبكم الوهنَ؛ قال قلنا: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: «حب الحياة وكراهية الموت» [مسند أحمد].

واستعرض د. عجيبة أنشطة وإنجازات المجلس عبر لجانه العلمية منذ نشأته عام ١٩٦٠م وحتى الآن ودوره في نشر الثقافة الإسلامية والتعريف بسماحة الإسلام والرد على الشبهات وتقوية الروابط بين الدول الإسلامية.

ثم تحدث معالي وزير الأوقاف والشئون الإسلامية البحريني الدكتور خالد بن علي آل خليفة فحمد الله وأثنى على رسوله ﷺ وقدم الشكر لمصر وشعبها وخص بالشكر مؤسسة الأزهر الشريف كمنارة للفكر الإسلامي المعتدل.

وحول سماحة الإسلام قال سيادته: «إذا كانت سماحة الإسلام خُلقًا فهي كذلك مِلّةٌ ونَهْجٌ جاء بها الإسلام موافقا لمقاصد الشرائع والنبوات، وهي من أهم دعائم الإسلام في تطبيقاته وهديه وتعاملاته قال تعالى:

﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾

[الحج: ٧٨]

وملة إبراهيم -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام- هي الحنيفية السمحة، والحنيفية السمحة هي جوهر الرسالات، ورسالة الإسلام تحض على السماحة بين الناس وفق حديث جابر رضي الله عنه «رحم الله رجلا سمحا إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى» [صحيح البخاري]، وقد ضرب رسول الله ﷺ أروع الأمثلة في ذلك امتثالا لأمر ربه:

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

[التوبة: ١٢٨]

وهكذا كان يعيش رسول الله ﷺ في المدينة متسامحا ودودا محبا محبوبا من كل أطيافها ويموت ودرعُهُ مرهونة عند يهودي وعلى نَهْجه سار الخلفاء من بعده، وبذا اقتضى علماء الأمة؛ وما أحوجنا اليوم إلى ذلك؛ لتتوقف الكراهية البغيضة والحروب المدمرة، وتَسْعَدَ البشرية بالأمن والتسامح، وتتحقق خلافةُ الله تعالى في أرضه معمورةً بعبوديته وتوحيده لبناء علاقات إنسانية أخلاقية تامة؛ ليعيش الجميع على اختلاف عقائدهم ومذاهبهم وأفكارهم ومشاربهم في سلم واحترام وتسامح وعفو وصفح وتجرُّد، ويتعاونوا جميعا للبناء والنماء والتطور والتحضر. وشكرا لكم والسلام عليكم ورحمة الله».

ثم تحدث وزير الأوقاف أ. د. محمد مختار جمعة رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية فشكر السادة العلماء والأدباء والدعاة والحضور الكريم ثم قال: «أؤكد للعالم كلِّه أن الأزهر الشريف هو صمام الأمان العلمي والدعوي والتربوي والفكري لهذه الأمة، إضافة إلى دوره الوطني الذي يظهر كثيرا عند الشدائد والمُلِمَّات.

وقد اخترنا أن تكون جائزة الأوقاف في الدراسات الإسلامية لهذا العام حول: (دور الأزهر في ترسيخ القيم الإنسانية المشتركة والتعايش السلمي بين الواقع والمأمول أنموذجا). وحرصنا على أن يكون تشكيل هذا المجلس متنوعا تنوعا ثقافيا يضم العلماء والفقهاء والمفكرين والأدباء والإعلاميين لتتكامل منظومة الفكر البشري في مصلحة الدعوة والوطن، وستوسع بإذن الله قاعدته الاستشارية لتشمل بعض العلماء من خارج مصر.

وجاءت كلمة فضيلة أ. د. علي جمعة المفتي السابق فوصَفَ الوضع الذي تمر به البلاد، ودعا الله أن ينزل السكينة والصبر بعدما قدّر البلاء، وكيف أن الإسلام جاء في مواجهة هذا البلاء بالسماحة فقال: «أمام هذا- يقول الرسول ﷺ «إنما بُعثتُ لأُتمم مكارم الأخلاق» [مسند البزار]، أمام هذا فإنّ ما ورد لنا من حديث رسول الله ﷺ بكل طريق نحو ستين ألف حديث منها ألفان فقط في كل الفقه الإسلامي والشريعة، والباقي في الأخلاق ومنها «إنما بُعثت بالحنيفية السمحة» [المعجم الكبير للطبراني]، ومنها هذه السماحة في البيع وفي الشراء وفي القضاء حتى إنه ﷺ أمرنا أن نتسامح في النقود فنأخذ نقدا ليس جيدا وقلْسا ليس على ما يُرام وعَدَّ هذا من مكارم الأخلاق».

ودعا سيادته في نهاية كلمته إلى طبع ونشر الموسوعة في سماحة الإسلام للشيخ محمد الصادق عرجون لنتعلم منها مكونات السماحة في الإسلام، شاكرا المجلس الأعلى للشئون الإسلامية على هذه البداية معتبرا أن هذا أول الغيث.

وفي ختام الجلسة تحدث فضيلة الأستاذ الدكتور شوقي علام مفتي الديار المصرية فقال بعد حمد الله والثناء على رسوله: «أما بعد فيا أيها الإخوة العلماء! إذا كان فلاسفة الغرب وأساتذته اليوم ينادون في بحوثهم الاقتصادية والطبية بالعودة إلى الأخلاق مرة أخرى، وقد انفصلت هذه الأخلاق عن سياساتهم وعن نفوسهم وعن أوضاعهم؛ فحريٌّ بنا -نحن المسلمين- التمسك بهذه الأخلاق -ومنها السماحة- فهي جزء أصيل من الإسلام وفق (حديث جبريل عليه السلام: أخبرني عن الإسلام) الذي رواه عمر بن الخطاب والذي قال فيه عن الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك...» [صحيح مسلم].

فهذه هي أركان هذا الدين القويم؛ عمل ظاهر، وإيمان مترسخ عميق في القلوب، يصاحبهما مراقبة دائمة لله عز وجل كأنك تراه، كل ذلك في معين واحد من العقيدة والأخلاق والمعاملات، وفقكم الله، ووفق مصر إلى بَرّ الأمان... والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

أنباء العالم الإسلامي



للأستاذين أحمد رضوان . يحيى سليمان

روسيا: فلاديمير بوتين: الإسلام عنصر بارز في الثقافة الروسية

أكد الرئيس الروسي «فلاديمير بوتين» خلال احتفالات الذكرى الـ ٢٢٥ لتأسيس الإدارة الدينية المركزية لمسلمي «روسيا» أن الإسلام عنصر مهم في ثقافة البلاد، مشيرًا إلى مرسوم الإمبراطورة كاترين الثانية الصادر عام ١٧٨٨م، الذي أثبت وجود إدارة روحية للمسلمين وحّدت كل القادة المسلمين.

ومن جهته، اعتبر «بوتين» أن تأسيس الإدارة الروحية للمسلمين مثالاً في العالم أجمع على الحكمة والتسامح الديني.

وفي «روسيا» يوجد ٨٢ منظمة دينية مركزية، وفيما يختص بالمسلمين هناك المجلس الديني المركزي للمسلمين، ومجلس المفتين، ومركز التنسيق لمسلمي شمال القوقاز.

وأيضًا هناك ٩ مؤسسات إسلامية في البلاد تحت حماية الإدارة الروحية بقيادة «طلعت تاج الدين».

الكيان الصهيوني يطرح مناقصات لبناء ١٧٠٠ وحدة استيطانية

طرح الكيان الصهيوني مناقصات لبناء ما يزيد على ١٧٠٠ وحدة سكنية جديدة للمستوطنين اليهود في الضفة الغربية المحتلة لتمضي قدما في مشروعات تعارضها الولايات المتحدة وآخرون. وتقع الأراضي التي أعلن عن البناء عليها في تسع مستوطنات بمناطق يقول الكيان الصهيوني الغاصب أنه يعتزم الاحتفاظ بها في ظل أي «اتفاق سلام» يبرمه مستقبلا مع

الفلسطينيين.

وقال مسئول حكومي: إن هذه الوحدات جزء من ٣٥٠٠ وحدة استيطانية أعلن الكيان الصهيوني خطط بنائها حين أطلقت سراح ٢٦ أسيرا فلسطينيا خلال الأيام الماضية..

وقال نبيل أبو ردينة المتحدث باسم الرئيس الفلسطيني محمود عباس: إن خطط البناء الصهيونية تدمر عملية السلام.

وتقول السلطة الفلسطينية التي تسعى لإقامة دولة في «الضفة الغربية والقدس الشرقية وقطاع غزة»: إن المستوطنات التي يقيمها الكيان الصهيوني على أراض احتلتها إسرائيل عام١٩٦٧م- تؤدي إلى حرمانهم من إقامة دولة لها مقومات البقاء.

ويقيم نحو ٥٠٠ ألف يهودي وزهاء ٢,٥ مليون فلسطيني في الضفة الغربية والقدس الشرقية وتعتبر معظم دول العالم المستوطنات الصهيونية غير مشروعة.

بريطانيا: مساهمات المسلمين في الاقتصاد ٣١ مليار إسترليني سنويا

أصدر المجلس الإسلامي البريطاني - أكبر مجلس يتفرع منه نحو ٣٠٠ جمعية فرعية - تقريرًا يشير إلى أن المسلمين البالغ عددهم نحو ٢,٨ مليون مسلم يساهمون في الاقتصاد البريطاني بنحو ٣١ مليار استرليني سنويًا، وأنه يوجد ١٠ آلاف مسلم تبلغ ثرواتهم ملايين الجنيهات الإسترلينية؛ حيث تضمن قائمة أثرياء «بريطانيا» نحو ١٢ مسلمًا.

وأشار التقرير إلى أن «لندن» تتضمن ١٣٤٠٠ فرد يملكون أعمالاً خاصة توفر ٧٠ ألف فرصة عمل، وقد صدر هذا التقرير ضمن فعاليات المنتدى الاقتصادي الإسلامي العالمي.

النمسا: جامعة فيينا ستخرج الأئمة للنمسا

لقد أثمرت النقاشات التي استمرت طويلاً من أجل تخريج وتنشئة أئمة الدين الإسلامي داخل «النمسا»؛ حيث تم افتتاح قسم العلوم الشرعية؛ ليتخرج فيه الأئمة من أجل المسلمين المقيمين في «النمسا».

رفع قسم الشريعة بـ«جامعة فيينا» شعار «تنشئة علماء دين يمكنهم فهم مشكلات مسلمي النمسا عن قرب»، وألقى رئيس هذا القسم الجديد الأستاذ الدكتور «عدنان أصلان» كلمة افتتاح قصيرة في أول محاضرة للقسم، وشارك في البرنامج الافتتاحي الدكتور «فؤاد سانانتش» - رئيس الجمعية الإسلامية في «النمسا» - وألقى كلمة ترحيبية تمنى من خلالها أن يكون قسم العلوم الشرعية وسيلة للخير من أجل مسلمي «النمسا».

أما المحاضرة الأولى، فألقاها الأستاذ الدكتور «عمر هاندان»، وهو من كان السبب في افتتاح أول قسم للعلوم الشرعية في «ألمانيا» بأسرها.

الولايات المتحدة: فصل ٢٤ موظفا مسلما لطلبهم استراحة للصلاة

قامت شركة DHL الأمريكية بفصل «٢٤» موظفًا مسلمًا من فرعها بـ«هيرون» بعد رفض المشرف السماح لهم بالحصول على فترة استراحة لأداء الصلاة بتعديل لائحة الاستراحات

التى كانت تسمح لهم بذلك.

وقد تم التقدم بـ١١ شكوى لمفوضية تكافؤ الفرص الوظيفية، تتهم الشركة بانتهاك حقوق المسلمين الدينية وحرياتهم.

وقد أكد مجلس العلاقات الأمريكية الإسلامية «كير» المدافع عن المسلمين فى هذه القضية - أنهم عازمون على الحصول على حقوق الموظفين وتعويضات نتيجة تغيير السياسة التى أخلت بحقوق المسلمين التى يكفلها الدستور.

.. ومدرسة تستخدم تميمة مسيئة للعرب والمسلمين

وفى السياق نفسه قامت مفوضية مكافحة العنصرية العربية الأمريكية بالتقدم بشكوى ضد إحدى مدارس «كاليفورنيا» الثانوية؛ وذلك لاستخدام تميمة تفاؤل على هيئة شخص يحمل مظهرًا عربيًا مسلمًا بشكل ساخر ومنفر خلال مبارياتهم الرياضية وبشعار المدرسة.

وقد أعربت المفوضية عن استيائها من هذا الشكل، الذى يساهم فى السخرية وترسيخ الصورة النمطية السلبية، وهو ما أكدت إدارة مدرسة «كوتشيلا فالي» الثانوية ردًا عليه أنها بصدد الوصول فيه لحل مع المنظمات الحقوقية.

هيومن رايتس ووتش تتهم نظام الأسد باستخدام قنابل حارقة

قالت منظمة «هيومن رايتس ووتش»: إن القوات الجوية السورية استخدمت قنابل حارقة فى عشرات الهجمات خلال العام الماضى من بينها قنبلة تزن نصف طن قتلت ٣٧ شخصا فى مدرسة بمحافظة حلب فى شمال البلاد.

ودعت المنظمة العالم إلى إدانة استخدام سوريا لهذه الأسلحة التى تحتوى على مواد قابلة للاشتعال، وقالت إنه يجب أيضا تشديد القوانين الدولية التى تقيد انتشارها مطالبة بإدانة مماثلة لاستخدام الكيماوى.

وقال بونى دوكرتى، الباحث المتخصص فى الأسلحة بالمنظمة التى قدمت تقريرا بهذا الشأن فى اجتماع دولى فى جنيف استخدمت سوريا أسلحة حارقة لإلحاق أضرار مروعة بالمدنيين وبينهم الكثير من الأطفال.

وعلاوة على الأسلحة الحارقة استخدمت قوات الأسد قنابل عنقودية وفراغية، كما يتهمها الغرب باستخدام أسلحة كيماوية فى قصف مناطق على مشارف دمشق فى أغسطس، مما أودى بحياة المئات.

واعتبر دوكرتى أنه «يتعين على الدول الأخرى إدانة استخدام سوريا للأسلحة الحارقة مثلما أدانت استخدامها للأسلحة الكيماوية والقنابل العنقودية».

وذكرت المنظمة الحقوقية أن الطائرات المقاتلة والهليكوبتر السورية ألقت قنابل حارقة ٥٦ مرة على الأقل منذ نوفمبر من العام الماضى حين وثقت المنظمة واحدة من الحالات الأولى لاستخدام القنابل الحارقة فى ضاحية داريا بدمشق. وأضافت أن جميع هذه الأسلحة سوفيتية الصنع.

other on the evil one (heresy). Whatever is opposite to Allah and His Prophet's (Peace be upon him) orders, is in the area of dispraise and disclaim, and whatever in the area of what Allah and His Messenger motivate and order is in the area of praise. This is on the condition that it is not an imitation of something already present (which is the creativity of something without copying or following other) such as generosity and doing good deed, this is considered right kind of creation and can never be considered against the rules. This is because the Prophet (Peace Be Upon Him) admits that this must be rewarded when he said "Whoever did good tradition to be followed by people will be rewarded for his deeds and for the deeds of those who follow him", and said on the contrary of this idea " whoever did a sin to be followed by people will carry the burden of his sin and that of the people who follow him", and this of course if this new creation is contradictory to the rules of God and prophet Muhammad (Peace Be Upon Him))).

Then Ibn Al-Atheer supports his opinion by mentioning what is narrated by Omar Ibn Al Khattab (May Allah Be Pleased with Him) and said: ((This kind of creation can illustrated through the say of Omar "what an excellent creation this is!" because it includes good deeds and is mentioned in the area of praise , but he called it "creation" and praises it , this is because the prophet (Peace Be Upon Him) did not clarify it as a tradition to be followed but he did it some nights and didn't do it in others , but he never take as a habit and wasn't also in the time of Abu Bakr (May Allah Be Pleased With Him) , only Omar who gathered people for it , and motivates them to do it and that's why it is called a new creation... Thus the Hadith "Every unprecedented is a heresy" is only for what violates Sharia and is not convenient with Sunna.

Based on this approach, in the jurisprudence which differentiates in the "new creation in religion" between "deviant heresy" that is contradictory with the fixed rules of religion and the "right guiding creation" which is not mentioned in the rules of religion but is a kind of invention and innovation and creation which never contradicts the Quran and Sunna...Thus based on this approach in jurisprudence and theories, scientists agreed upon five judgments which are –necessary.. forbidden... preferred... detested..... allowed- and these can be applied on every new creation or invention.

similar to others, or to innovate without copying whether in creating thought or concrete things.

In spite of this, terminology scientists in our culture differentiate, in the idea of creativity, between " new creation in religion" which is completed throughout the Quran and its rhetoric and then the prophetic clarification and explanation of this rhetoric, and between the creativity and innovation in the human thought in which people never stop inventing and creating new things because this thought is the outcome of the eternal permanent presence which is always changeable. "Thought" is human creation comes out as an outcome to "contemplation", while "religion" is Divine inspiration and not outcome to "contemplation" and the evidence that it is not called "thought" but it is "Divine science" and not " human thought". There is a difference between the "Divine science" which is the cause of the presence of the creatures, and the "Human thought " which is caused by these creatures and is developing and changeable by its development and change.

Artistic and linguistic terminology scientists differentiate between "intellectual creativity" and "a new creation in religion" when they define this new creation as " something new, or what is newly invented in religion after being completed".

Since innovation is a tradition of the religious society in the Islamic intellectual patterns that usually occurs over time and place without changing or modification, and also this fact is clarified thought God's prophet say when he said" God sends to this nation every hundred years someone who renews its religion", thus, inventing something new can never be an outcome to creativity and can't produce things related to creativity whether too much or even not.

Since (Ijtehad) "exerting effort to say one's opinion" is an Islamic duty upon which Sharia rules, that is always fruitful and bestowing, depends and survives the thing that leads it to cope with the new changes, latest developments and innovations over time and place. Thus this (Ijtehad) in which an imam differs from the other and an era from the other and a doctrine from the other, is an outcome to a kind of creativity and carries some of it.

Indeed, Differentiation between "creativity in thought and industry" or in "civilization" with all its civil and legitimate sciences, and "new creation in religion" or creating new things in its rules that are completed by the end of the revelation and prophecy, is an obvious attitude with no ambiguity or disagreement between Muslim scientists.

Muslim leaders and scholars from all Islamic doctrines differentiate in the idea of " new creation in religion" between the one which contradicts the

Quran and Sunna and can be called " heresy" on one hand and which is forbidden by the prophet (Peace be upon him), and on the other hand " the new creation in the right path" which never contradicts what come in the Quran and Sunna even if the new creation is not mentioned in Quran or Hadith and under which virtues and good deeds are listed that are almost created by Man. Then it achieves many religious aims and targets although it is not specified in the Quran or Sunna. So it is a kind of creation which achieves religious targets but not following certain religious rituals mentioned accurately and strictly throughout the religious rules.

Through this differentiation between "heresy" and "creation in the right path", El Imam El-Shafei (150-204 A.H/767- 820 A.D) said " Heresy is what is newly created and contradicts Quran and Sunna or what scholars agree about or what is transmitted through other scholars, and this is the deviated creation (heresy). Whatever in newly created and benevolent, and never contradicts this is the creation in the good path"

That's why , heresy which is deviation from the right path and which leads to hell is not the new creation and innovation that is not mentioned through the revelation or not listed through the Sunna. But it contradicts what comes in the Quran and Sunna. Divine revelation is not only limited to whatever on the right path, then, creativity in all fields of good deeds is permitted and will be permitted forever. What is only forbidden is the creativity which is opposite to the rules of Sharia and laws of the religion.

El-Imam El-Shafie and other Muslim scholars do not innovate this differentiation between the "heresy" and the "new good creation", but it was a well-known approach in efforts of the Prophet's companions and it was also a response by the orthodox caliphs to the legal targets by good deeds which are not opposite to the rules.

Most of the scholars give example by the new invention of Omar Ibn El-Khatab (May Allah Be Pleased with Him) when he gathered all people to pray in the night during Ramadan, and this was through performing El Taraweeh prayer collectively and regularly, the thing that was not done by the prophet (Peace Be upon Him) but he used to pray it sometimes and left it others in addition to the fact that he never gathered the people to it. Then Omar makes it a regular ritual in the nights of Ramadan and gathered people to it. He called it a new creation and then said "what an excellent creation this is!".

Scholars took this as an example to be followed for the presence of "good creation that is guidance" which is different to the "deviant heresy". Within the ideas of differentiating between "new creation" and "real creativity" even in the religious aspects, Ezz Ad Deen Ibn Al Atheer (555-630 A.H/1160-1233 A.D) said ((creation is two kinds: creating something on the right path , and

Existence is verified. This Existence is undoubtedly well-known, and this is the first origin on which tradition depends wholly, and we agree with the professor on the idea that the Sacred Entity is not subject for any type of realization, but the professor does not agree with the Muslims in general formerly or recently in the idea that Allah (Glory be to Him) with His Attributes and Names is a subject for science and faith.

The professor had to explain to us what to do with the Divine speech in the Noble Qur'an:

{So know (O Muhammad peace be upon him) that, Lâ ilâha illallâh (none has the right to be worshipped but Allâh)}

[Muhammad: 19)

Does the Noble Qur'an ask us to know that Allah is the Deity, then the project of tradition and innovation denies this knowledge?!

The professor proceeds to say: "If Divinity cannot be depicted or realized, then it cannot be referred to that it can be believed in or verified through knowledge."[5]

[5] From creed to the revolution: The theoretical introduction, Hasan Hanay: 85. We draw the reader's attention to something like the game of the skillful jugglers with regard to the formulation of this text, as the professor handles Entity (which is in Arabic a feminine word) while the words and rulings he used refer to masculine pronoun. This achieves a manifested objective targeted in these lines. Then, he indicated in the draft that the word "entity" may be used to as masculine or feminine such as the word "spirit" (Ruh). He uses the word "Entity" to introduce to the reader the denial of knowing Allah (Glory be to Him). Them he used the masculine pronouns instead of the feminine pronouns to express the issue he wants to handle.

Islamic Concept about Creativity...!

By: Dr. Mohammad 'Imarah

Editor-in-Chief of Al-Azhar Magazine

Among the intellectual attitudes that need to be clarified is that of Islam towards "Creativity". This is because some people, whether those who have good intentions towards Islam or even those who suspect it, they all agreed upon wrong attitudes towards Islam's opinion concerning "Creativity". What leads to an astonishment is the fact that all of these people whether they are with Islam or against it , they have this wrong attitude as a result of their understanding to God's prophet (Peace be upon him) Hadith in which he says :" The most truthful say is that of the Quran, and the best guidance is that of Muhammad (Peace Be Upon Him), and the most evil thing is the unprecedented, and every unprecedented is a heresy, and every heresy is a deviation from the right path, and every deviation from the right path leads to hell".

As a result of this Hadith, some people think that Islam prohibits all kinds of creativity and all newly created and recent things without differentiation between a kind of creativity which disagrees with and contradicts the Holy Quran and Sunna (Prophet Mohammed peace be upon him) norms and traditions on one hand, and this is what is called heresy in the rules of the religion which contradicts the ideas that must be followed and in which newly originated ideas are prohibited, and on the other hand, good kinds of creativity in the human thought and development industries in addition to religious morals that never contradict the most truthful say (the Holy Quran) and the best guidance (God's prophet Peace Be Upon Him Sunna) .In spite of the fact that the Quran and Sunna include the best say and guidance, but this does not mean that what is not mentioned in both of them is not good.

Since this is one of the greatest issues and is a problem to the contemporary Muslim mind, many disputes are aroused around it, furthermore, it caused intensified polarization, that's why it needs kind of clarification that begins its steps from the roots and basis.

Creativity, as defined by Quran terminology scientists is" originating new craft without imitation or following". This is the same definition which is mentioned in the Arabic dictionaries " create a thing is a kind of creation, and to be creative is to establish or start or invent without imitation". So, creativity is originating something new, or inventing something which is not

this point is indisputable among the Muslims. However, there is well known controversy concerning work in its relation with belief.

Whatever the controversy is, the indisputable matter is that work is valueless if it does not depend on belief, as it may have a great value on the level of the materialistic worldly interest. However, the interest from the Islamic point of view is not only a worldly interest, so that atheism which achieves interests gains this value, which the professor sticks to tradition.

He says frankly what confirms that he has nothing to do with the field of tradition, its origins, and bases. He says: "Although belief and atheism in the old traditional standards and our contemporary life is a practical standard and not a theoretical one, belief is not important in our old tradition in the way work is. In our contemporary life, the person who sticks to the contemporary issues, the one who contributes in the people's revolutions, the one who liberates lands, and the one who feeds the hungry people is the real believer. This is the belief of the well-educated revolutionists. This is the belief in progress and the people's common interests. Thus, the European atheism is the real belief, as atheism led in Europe to more goodness than that which belief led to. Throughout atheism, matters relevant to myths and the unseen are rejected in the European thought. Thu, life became better than death and the worldly life is better than the Hereafter. Caring for the human being had priority over performing rituals for the sake of Allah. In our contemporary life, we see those whom we accuse with disbelief and atheism helps us in liberating the lands, manufacturing and finding sustenance."[3]

This saying is completely refused, as the believer in the tradition is the one who believes in Allah, His Books and Messengers, and predestination. Innovation in this concept is a real destruction whatever is done for this sake.

Standards for belief in the Islamic heritage – as is known by the professor – are determined by the Qur'an and the Sunnah and they are well-established. Fortunately, they are not subject to the standards of the revolutionists, whether workers, peasants, or folks. The revolutionists have the right to believe in whatever they want and disbelieve in whatever they want, but it is foolish of them to impose on the people a

[3] In our contemporary thought, by Hasan Hanafy: 70.

type of belief that is not known by them, rather is denied by them extremely.

Impugning Divinity with the claim that He is not depicted by logic and can not be expressed in language:

Within the framework of the mistaken methodology used by tradition and innovation in breaking the bonds of our tradition, this project's texts present sharp contradictions about the most sacred entity in tradition. I mean here Divinity, when he reveals that the Divine Entity can not be depicted from one side of spoken about from the other side.

From the very beginning, we should not be deceived by the word "Entity" which follows the word "Divine" in the texts of the professor, as all the texts – whether in denial or approval – focus on knowing Allah. As for the word "Entity", it is carefully selected as a cover to introduce what is wanted to be passed to the reader. The following is what is wanted to be introduced:

First: The Divine "Entity" cannot be depicted or realized, as it cannot be pointed to. Allah is understood without 'what confirms that' as the author expresses. As Allah, according to what is determined in the tradition, is not identified in a certain time or place, thus it should not be a subject for science.

Second: Speaking about the Divine Entity can not be possibly done linguistically, as the human language can not express but depictions, realizations, of human meanings.

As for the first matter, the professor pretends to have forgotten – perhaps intentionally – what is determined by logic, as the elements of the subject of science may not exist outside. In spite of this, science relates to it and can be judged. Except for depicting the subject – even if in a certain way – it could not be judged negatively or positively. If logic determines this for the nonexistent, how the professor denied in the name of logic "the Necessity of Existence" as a subject for science?

The professor should undoubtedly know that the concept of the "Necessity of existence" or Allah is a general concept, and what is true is outside our intellect or heritage, and as is known for him, is more general than the material exterior[4]. Allah actually exists and His

[4] Al-Isharat wal Tanbihat, Ibn Al-Tusy: 1/14, verified by our Sheikh Suliman Dunia.

Tradition and Innovation:

-7-

"Denying the effect of creeds on souls and behavior and limiting it to practical life and the real state of affairs only"

By: The Grand Imam Prof-Dr. Ahmad Al-Tayyeb, Al-Azhar Sheikh.

He was denying the effect of creeds on souls and behavior and limiting it to practical life and the real state of affairs only:

Then, he says: "The creeds have no internal truthfulness in itself, but its truthfulness is derived from the extent of its effect on practical life and its ability to change the real state of affairs. The creeds direct the behavior and are incentives for it only."[1]

We believe that this hesitation, in which the pioneer of tradition and innovation fell amidst, approving and denying one fact, is inevitable along with the logically collapsing methodology, which is approved by this project. I mean by this judging the tradition, especially leading and directing the real state of affairs with its changeable and new matters, as the real state of affairs in this project is something sacred and can not be wronged, and its changeable matters can include any falsehood. And tradition including religion and other things is changeable, whether this change means innovation, i.e., keeping the origins and developing the branches or changing and replacing both of the origins and branches absolutely.

In the light of this criterion, which contradicts from the very moment with our tradition in form and content, atheist became a proportional concept and not a definite description as we understand from our tradition and the tradition of all religions.

"Concept of atheism in the philosophy of tradition and innovation":

[1] M/N: 65

Atheism in the philosophy of tradition and innovation, even if it means denying all or part of the fundamentals of religion, can not be regarded as atheism with its well-known meaning if it is derived from a mentality that affects the real state of affairs, or it can be regarded as atheism that is required by the project of innovation in the heritage of the Muslims.

We do not realize the objective value of the Islamic creed in the presence of the tradition and innovation trend. Why do we ask ourselves while the professor resolved this issue in the previous text when he decided that the creeds have internal truthfulness? We know that emptying the creed from its internal truthfulness is the other side of the philosophy of atheism, which does not see in monotheism, prophecy, or resurrection fixed objective facts. However, it regards it as the suppression of the human soul or social phenomena that arose with the communication of the human being with the environment, real state f affairs, or economic circumstances and other well-known materialistic interpretations of the reality of religion.

The professor who proceeded to innovate the Muslims' tradition does not go far from these interpretations, as he said, for example, that it does not intend to confirm rich absolute existence that does not need to others. However, it means to develop the real state of affairs in the historic moment, through which we pass.[2]

Emptying atheism from its ideological standard and attributing it to a practical standard:

He interprets atheism as a concept that belongs to a practical standard and not to a theoretical and ideological standard. Atheism, as known by the Westerners, leads to goodness more than what faith leads to. Atheism has been able to eliminate the legend and the unseen in the European thought, and this is goodness in the concept of tradition and innovation, which we should seek throughout innovation. There is nothing wrong with atheism if it achieves out common interests such as liberating the real state of affairs, manufacturing, or providing provision.

A sign of the professor's rashness which can not be accepted is justifying his overturned theory stating that belief in our tradition does not have the importance of work. This saying is contrary to our tradition, as it is self-evident in our old tradition that belief is the origin and basis, and

[2] M/N: 68

them. Obey me if I obey Allah and His Messenger. If I disobeyed Allah, do not obey me. Let you establish the Prayer, may Allah be merciful with you.

When Abu Bakr was appointed as the caliph, he saved the army of Usamah ibn Zayd which was supplied and equipped by the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) before his death. Some of the Companions objected to dispatch this army due to the disturbance that took place after the death of the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him).

Some of the people and tribes apostatized while others abstained from paying Zakah. Some of the people objected to appoint Zaid as the leader of the army due to his young age, as it included some of the old Companions. `Umar ibn Al-Khattab (may Allah be pleased with him) was one of those who held that opinion. He suggested appointing a person older than Usamah to be the leader of the army. Then Abu Bakr became angry and said: "The Messenger of Allah appointed him and you want me to discharge him."

Abu Bakr (may Allah be pleased with him) came out to bid farewell to the army while walking and Usamah was riding, and he (Usamah) said: "O Caliph, you should ride or I should dismount the horse." Abu Bakr said: "I swear that you will not dismount the horse and I will not ride it and I want to dust my feet in the cause of Allah."

At the beginning of the caliphate of Abu Bakr, he found that the Muslims' state was about to fall down, and seditions and turmoil were about to eliminate it. Some people apostatized and disbelieved, others announced to abstain from paying Zakah, while there were some people who claimed to be prophets. Abu Bakr declared to launch war against them. As the matter of the apostates was more dangerous for the Islam and the nation, Abu Bakr attached care to them and sent a letter for them to leave apostasy and to come back to guidance. Due to the importance of this letter, I will mention a part of it as follows:

"In the Name of Allah. From Abu Bakr the Caliph to every person whom my letter reaches, whether embracing Islam or apostatizing. Peace be upon the one who follows guidance and did not convert to delusion. I praise Allah, Who is the Only Deity without partner, and I witness that there is no god but Allah, Alone, with no partner or associate, and that Muhammad (may the blessings and peace of Allah be upon him) is his Messenger and I believe in the message that came with him.

To proceed: Allah sent Muhammad (may the blessings and peace of Allah be upon him) with Truth to the creation as a warner and bringer of good news, and to give warning to him who is living (a healthy minded — the believer), and that truth may be justified against the disbelievers (as they reject the warnings). Allah guides to the Truth whoever responds to it, and the Messenger of Allah died after he carried out Allah's Command and he advised his nation and fulfilled his responsibility until he met His Lord. Allah revealed this to the Muslims, saying:

{Verily, you (O Muhammad peace be upon him) will die, and verily they (too) will die.}

[Al-Zumar (The Troops): 30].

Abu Bakr As-Seddiq (may Allah be pleased with him):

Non-hesitant steadfast faith, and unmatched sincerity in friendship, resolution in truth stronger than huge mountains...!

By: Dr. Ibrahim Al-Assil

The Islamic Nation agreed unanimously on selecting a caliph after the death of the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) to manage the affairs of the Islamic state, to rule with justice, and to protect it from any external aggression or internal conspiracy.

They selected a caliph to call Muslims to abide by what Allah commanded and to abstain from what Allah prohibited. When Al-Ansar the Companions of the Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him) knew the news of the death of the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) met in Saqifat bany Sa`idah on the very day of his death and consulted each other to select the Caliph. Al-Ansar were about to select Sa`d ibn `Ubadah (may Allah be pleased with him), and Abu Bakr As-Seddiq and `Umar ibn Al-Khattab (may Allah be pleased with them) and some of the emigrants knew this piece of news and they had met to consult with each other after the death of the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him).

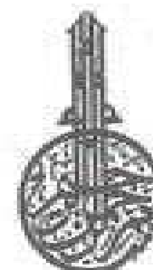
They headed to Saqifat bany Sa`idah and joined Al-Ansar in their gathering and listened to the sayings of some of them, including the saying of Sa`d ibn `Ubadah (may Allah be pleased with him): "We are Ansar Ul-Islam and the battalion of Muslims, and the emigrants are our brothers in religion."

When he stopped speaking, Abu Bakr said: "What you mentioned before about goodness done for Islam and the Muslims is right, but the successor of the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) should be from Quraysh, as they are the most moderate of the Arabs with regard to lineage and residence, and the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) selected them for this matter, as he said: 'The Imams should be from Quraysh,' and I selected these two men, `Umar ib n Al-Khattab and Abu `Ubaydah Ibn Al-Jarrah." He said: "Let you select one of them as pledge allegiance to him as a Caliph of the Muslims." One of Al-Ansar stood and said: "One caliph from us and one from Quraysh." Abu Bakr said: "You heard the saying of the Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him) while sitting: 'Quraysh will undertake this mission."

At this point all the people kept silence and appeared to be convinced. Then, `Umar ibn Al-Khattab addressed his speech to Abu Bakr and said: "Extend your hand to pledge allegiance to you and he pledged allegiance to Abu Bakr As-Seddiq and he was followed by the attending emigrants and pledged allegiance to him. Then, Al-Ansar pledged allegiance to Abu Bakr to be the first Caliph of the Muslims. One of them said: "We seek refuge in Allah from getting forward before Abu Bakr." Then all of them pledged allegiance to Abu Bakr to be the first Caliph after the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) to lead the Muslims.

On the next day, the emigrants and Al-Ansar headed to the mosque and Abu Bakr ascended the pulpit, then he praised Allah in the way He deserves and said: "O people, I was appointed lo lead you while I am not the best of you. Thus, if I did well, then help me and if I did badly, then reform me. Truthfulness is a trust, telling a lie is a betrayal, the weak from you is strong for me until I restore his right and the strong from you is weak for me until I take back right from him, if Allah wills. No one of you should abstain from fighting in the sake of Allah, as no nation abstained from it except Allah humiliated

AL-AZHAR MAGAZINE
Safar, 1434 A.H



ENGLISH SECTION
December, 2013

In the name of Allah the Beneficent the Merciful

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾
الأعراف/ ٤٣

"Praise be to Allah, Who guided us to this; and in no way could we have been guided, unless Allah has guided us."
(Al-A'raf 43)

Editor: Dr. IBRAHIM Al-ASSIL
Professor at the Faculty of Languages and Translation.
Al-Azhar University.



عدد ربيع الأول

الافتتاحية

مفهوم الأمة الإسلامية
أ.د. محمد عمارة

هل يجوز للمعاصرين الاجتهاد في الجرح والتعديل والتصحيح والتضعيف ؟
د. يحيى رضا جاد

الشورى في معركة البناء
أ.د. أحمد الريسوني

الفقه الإسلامي في طريق التجديد
أ.د. محمد سليم العوا

هدية العدد

ضلالة فصل الدين عن السياسة
الإمام الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين
دراسة وتحقيق أ.د. محمد عمارة

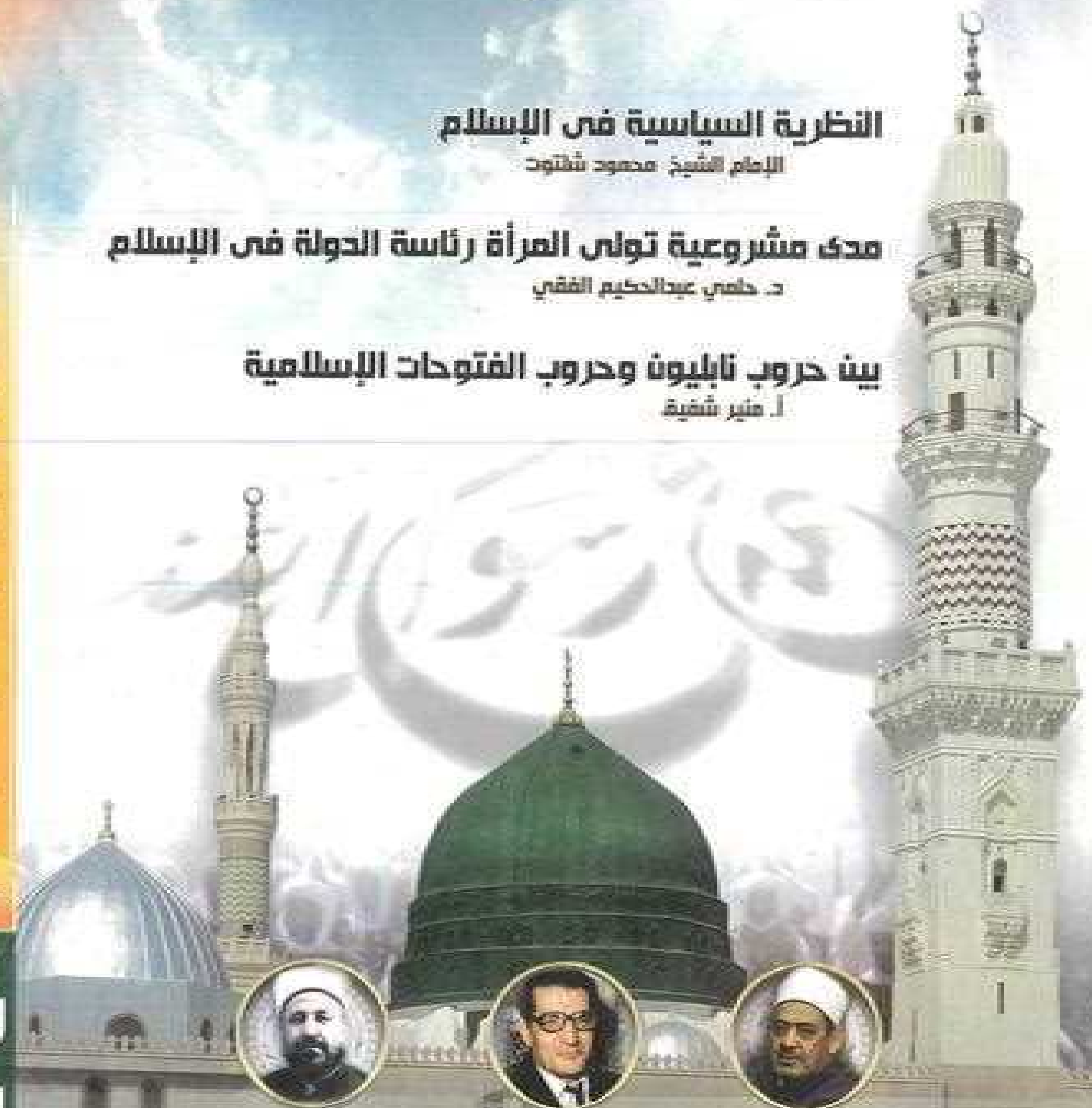
www.AlazharMag.com

الأزهر

الافتتاحية

مفهوم الأمة الإسلامية

أ.د. محمد عمارة



النظرية السياسية فى الإسلام
الإمام الشيخ محمود شلتوت

مدى مشروعية تولى المرأة رئاسة الدولة فى الإسلام
د. حلمي عبدالحكيم الفقي

بين حروب نابليون وحروب الفتوحات الإسلامية
أ. منير شفيق

هدية العدد

فصل الدين عن السياسة ضلالة
الإمام الشيخ محمد الخضر حسين

ربيع الأول

أ.د. أحمد الطيب — أ.د. محمد رجب البيومي — الإمام محمد رشيد رضا

شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية — ربيع الأول ١٤٣٥ هـ يناير / فبراير ٢٠١٤م الجزء "٣" السنة "٨٧"





﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾



الأزهر

مجلة شهرية جامعة يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
بالأزهر الشريف في مطلع كل شهر عربي
صدر العدد الأول في المحرم عام ١٣٤٩هـ / ١٩٣١م
وحمل اسم «نور الإسلام»
وراس تحريرها فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين





رئيس التحرير
أ. د. محمد عمارة

مدير عام المجلة
عادل رفاعي خفاجة

مدير التحرير
أحمد السيد تقي الدين

سكرتير التحرير
محمود القشني

الإخراج الفني: أحمد القطب

الاشتراك السنوي

داخل مصر ٢٤ جنيهاً مصرياً - الدول العربية ٥٠ دولاراً أمريكياً
أوربا وأمريكا ٨٥ دولاراً أمريكياً - اليابان وشرق آسيا ١٢٠ دولاراً أمريكياً
عن طريق قسم الاشتراكات بمؤسسة الأهرام
شارع الجلاء - القاهرة
ت: ٢٥٧٨٦١٠٠ - ٢٨٧٥٦٢٠٠

المراسلات باسم:

مدير التحرير - مجمع البحوث الإسلامية - مدينة نصر
ت: ٢٢٦٣٨٥٩٩

editor@alazharmag.com
readers@alazharmag.com

• الافتتاحية •

مفهوم الأمة الإسلامية



لفضيلة الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة

المسلمون تتنوع شعوبهم وأجناسهم وألسنتهم وقومياتهم.. لكن هذا التنوع لا يعدو أن يكون تمايزًا فى إطار «أمة واحدة»، وحَّدها الإسلام فى العقيدة والشريعة والحضارة ومعايير الأخلاق والسلوك.. ووحدة الأمة - أى: الجماعة - الإسلامية حقيقة قرآنية تعبر عن إرادة إلهية

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾

(الأنبياء: ٩٢)

﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾

(المؤمنون: ٥٢).

وهذه الوحدة، التى صنعها الإسلام، وصبغها بصبغته، قد أهَّلت الأمة الواحدة لأن تعيش فى وطن واحد.. سماه علماء الإسلام ومؤرخوه «دار الإسلام».. وهذا الوطن الإسلامى عاش حينًا من الدهر تحت سلطة «دولة» واحدة.. وحينًا آخر تعددت فيه «الدول».. لكن كل تاريخ الإسلام والمسلمين إلى ما قبل التجزئة التى فرضتها الغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة على المسلمين، قد احتفظ - حتى مع تعدد «الدول» - بوحدة الأمة فى العقيدة والشريعة والحضارة ومعايير الأخلاق والسلوك.. بل واحتفظ كذلك بوحدة «الدار - الوطن».. فكان المسلم - بل والمواطن من أهل الكتاب - ينتقل بحرية تامة عبر الأقاليم والإمارات والولايات.. ويقيم أنى شاء وحيث أراد، فيعامل - دون إجراءات جديدة - معاملة المواطنين فى المكان الذى يستقر فيه، له كل حقوقهم وعليه ما عليهم من واجبات.. فجمعت «دار الإسلام» بين «الوحدة» فى حقوق المواطنة وواجباتها، وبين «تنوع وتعدد» «الدول» و«الحكومات».

ولذلك، استقر الرأى فى الفكر السياسى الإسلامى - منذ بداية تاريخه وحتى عصرنا الحديث - على أن الإسلام جنسية ووطن ودار واحدة لـ «أمة واحدة»، لا تمزقها «الجنسيات» - بالمعنى الغربى - و«الامتيازات» الخاصة بالجنسيات المختلفة.

وعندما ورد إلى الأستاذ الإمام محمد عبده (١٢٦٦-١٣٢٣هـ/ ١٨٤٩-١٩٠٥م) - وهو مفتى الديار المصرية - سؤال: «فى المسلم إذا دخل بمملكة إسلامية، هل يعد من رعيتها؟ له ما لهم وعليه ما عليهم، على الوجه المطلق؟ وهل يكون تحت شرعها فيما له وعليه، عمومًا وخصوصًا؟ وما هى الجنسية عندنا؟

وهل حقوق الامتيازات، المعبر عنها عند غير المسلمين «بالكبيتولاسيون» - (Capitulations) - موجودة بين ممالك الإسلام مع بعضهم بعضا؟».. جاء فى فتوى الأستاذ الإمام على هذا السؤال:

«.. إن وطن المسلم من البلاد الإسلامية هو المحل الذى ينوى الإقامة فيه، ويتخذ فيه طريقة كسبه لعيشه، ويقر فيه مع أهله، إن كان له أهل، ولا ينظر إلى مولده، ولا إلى البلد الذى نشأ فيه، ولا يلتفت إلى عادات أهل بلده الأول، ولا إلى ما يتعارفون عليه من الأحكام والمعاملات، وإنما بلده ووطنه الذى يجرى عليه عرفه وينفذ فيه حكمه هو البلد الذى انتقل إليه واستقر فيه، فهو رعية الحاكم الذى يقيم تحت ولايته، دون سواه من سائر الحكام، وله من حقوق رعية ذلك الحاكم ما لهم وعليه ما عليهم، لا يميزه عنهم شىء، لا خاص ولا عام.

أما الجنسية فليست معروفة عند المسلمين، ولا لها أحكام تجرى عليهم، لا فى خاصتهم ولا عامتهم، وإنما الجنسية عند الأمم الأوروبية تشبه ما كان يسمى عند العرب عصبية، وهو: ارتباط أهل قبيلة واحدة أو عدة قبائل بنسب أو حلف يكون من حق ذلك الارتباط أن


السنهوري

ينتصر كل منتسب إليه من يشاركه فيه، وقد كان لأهل العصبية ذات القوة والشوكة حقوق يمتازون بها على من سواهم.

جاء الإسلام فألغى تلك العصبية، ومحا آثارها، وسوى بين الناس في الحقوق، فلم يبق للنسب ولا لما يتصل به أثر في الحقوق ولا في الأحكام، فالجنسية لا أثر لها عند المسلمين قاطبة، فقد قال ﷺ: «إن الله أذهب عنكم عبية الجاهلية -أي: عظمتها- وفخرها بالآباء، وإنما هو مؤمن تقي وفاجر شقي. الناس كلهم بنو آدم، وآدم خلق من تراب»(١)، وروى كذلك عنه: «ليس منا من دعا إلى عصبية»(٢).

وبالجملة، فالاختلاف في الأصناف البشرية، كالعربي والهندي والرومي والشامي والمصري والتونسي والمراكشي، مما لا دخل له في اختلاف الأحكام والمعاملات بوجه من الوجوه، ومن كان مصريا وسكن في بلاد المغرب وأقام بها جرت عليه أحكام بلاد المغرب، ولا ينظر إلى أصله المصري بوجه من الوجوه.

وأما حقوق الامتيازات، المعبر عنها «بالكابيتولاسيون»، فلا يوجد شيء منها بين الحكومات الإسلامية قاطبة.. هذا ما تقضي به الشريعة الإسلامية، على اختلاف مذاهبها، لا جنسية في الإسلام، ولا امتياز في الحقوق بين مسلم ومسلم، والبلد الذي يقيم فيه المسلم من بلاد المسلمين هو بلده، ولأحكامه عليه السلطان دون أحكام غيره، والله أعلم..»(٣).

هكذا استقر الفكر السياسي الإسلامي على أن وحدة الأمة في الدين والحضارة قد أثمرت واستلزمت وحدة دار الإسلام، حتى مع تعدد الإمارات والولايات والحكومات.. بل إننا نستطيع أن نقول: إن الخلافة الإسلامية، حتى عندما كانت واحدة، قد تميزت في دار الإسلام، تحت حكمها، الولايات والأقاليم!..

وعندما فرض الاستعمار الغربي -وخاصة بعد سقوط الخلافة العثمانية سنة (١٩٢٤م)- التجزئة الكاملة على عالم الإسلام، ذهب الفكر الإسلامي يبحث عن شكل جديد يحقق «وحدة دار الإسلام، ويحافظ على وحدة الأمة، دون تجاهل لواقع التجزئة، وتعدد الدول والحكومات، أو قفز على «الواقع» الذي كرسه الاستعمار.. وكان من أبرز الاجتهادات الإسلامية، في هذا الميدان، كتاب الفقيه الأستاذ الدكتور عبدالرزاق السنهوري باشا (١٣١٣-١٣٩١هـ/ ١٨٩٥-١٩٧١م):

(١) رواه أبو داود.
(٢) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه والإمام أحمد. «ليس منا من دعا بدعوى الجاهلية».
(٣) تاريخ هذه الفتوى ٩ رمضان سنة ١٣٢٢هـ/ ١٧ نوفمبر سنة ١٩٠٤م) انظرها في (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) ٦/ ٢٥٣-٢٥٥ دراسة وتحقيق د. محمد عمارة. ط بيروت سنة (١٩٧٤م).


حريق المسجد الأقصى ١٩٦٩/٨/٢٨

«فقه الخلافة وتطورها»(٤).. والذي قدم فيه صورة الخلافة الإسلامية المنشودة في شكل «عصبة أمم إسلامية» تتعدد فيها الحكومات، مع إعادة الوحدة إلى دار الإسلام.

هذا عن الموقف الإسلامي من الخلافة الإسلامية بين حكومات وأقطار عالم الإسلام.. وهو موقف له منطلق عقدي، مؤسس على وحدة الأمة، التي تستدعي -للمحافظة على مقوماتها- وحدة الدار.. وهو -في ذات الوقت- يلبي احتياجات وضرورات التضامن التي تفرضها صراعات القوى والمصالح على الساحة العالمية.



إن خريطة عالمنا المعاصر تتحرك نحو إقامة التكتلات والوحدات، سواء بروابط إقليمية، أو حضارية، أو أيديولوجية.. فالوحدة الأوروبية، وإن استهدفت المصالح المادية، إلا أن الأيديولوجية الليبرالية، والتراث النصراني، والبعد الحضاري الغربي هي منطلقات ومكونات في صنع هذه الوحدة.. بل إن هذه العوامل هي التي تجعلها تفتح أبوابها لشعوب أوروبا الشرقية، التي تشترك معها في هذه المنطلقات، بعد أن انهار التكتل الأيديولوجي الماركسي الذي كان يجمعها - منظمة الكوميكون - وحلف وارسو.. وكذلك الحال في المنظمات الإقليمية.. عربية.. وأفريقية.. وآسيوية.. وفي أمريكا اللاتينية.. إلخ.

وعندما حدث حريق المسجد الأقصى في ٢٨ أغسطس سنة ١٩٦٩م اهتز الضمير الإسلامي.. فانعقد أول مؤتمر قمة للبلاد الإسلامية في سبتمبر من نفس العام.. وتأسست في العام التالي «منظمة المؤتمر الإسلامي».. وهي التي تمثل، وخاصة إذا دبت فيها روح

(٤) وهذا الكتاب -في الأصل- رسالة دكتوراه -بالفرنسية- من باريس سنة (١٩٢٦م) انظر ترجمته العربية. ط. القاهرة سنة (١٩٨٩م).

الحياة الحقة - عصية الشعوب الإسلامية.. وإذا حدث وعادت أغلب حكوماتها عن خلط الإسلام بالعلمانية فى تشريعاتها، والتزمت بالإسلام عقيدة وشريعة وحضارة وخلقًا، فتحولت إلى «دول» إسلامية، أمكن يومئذ، أن تتطور من منظمة «مؤتمر إسلامى» إلى منظمة «دول» إسلامية؟!.

وبهذا التطور، تكون قد استجابت لضرورات الواقع المعاصر فى التكتل على أساس المصالح المادية، وحققت المبدأ الإسلامى فى وحدة دار الإسلام، المؤسسة على مبدأ وحدة أمة الإسلام فى العقيدة والشريعة، الحضارة والأخلاق.

وجدير بالذكر، أن وحدة أمة الإسلام ووحدة دار الإسلام لا تعنى عزلة المسلمين عن المشاركة فى الحياة الدولية، سواء من خلال المنظمات الإقليمية مع الدول غير الإسلامية، أو من خلال المنظمات الدولية.. بل ومن خلال الأحلاف مع الدول غير الإسلامية، طالما أن هذه المشاركات والتحالفات تحقق للمسلمين مصلحة، أو تدفع عنهم مضرة، أو تحقق نفعًا عامًا للإنسانية، المسلمين منها وغير المسلمين، فتحقيق المصلحة الشرعية المعتبرة، للمسلمين وللإنسانية كلها، ودفع المضرة والمفسدة عن المسلمين وعن الإنسانية، هما معايير الموالاة والمعاداة فى علاقات المسلمين بغير المسلمين.. وهذه المعايير هى التى أوجزت التعبير عنها آيات القرآن الكريم التى تقول:

﴿ ۞ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَاللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧) لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

(الممتحنة: ٧ - ٩)

فالذين لا يقاتلون المسلمين فى الدين.. ولا يخرجونهم من ديارهم - بالاقتلاع والتهجير، أو باغتصاب مقدراتهم وحريتهم فى اتخاذ قرارات إدارة شئونهم.. ولا يظاهرون ويعينون على إخراجنا من ديارنا.. نحن فى حل من إقامة العلاقات والتحالفات - على اختلاف درجاتهما - معهم، طالما كانت محققة لمصلحة من المصالح الشرعية المعتبرة للإسلام والمسلمين.

❁❁❁

تفسير سورة البقرة



لفضيلة الأستاذ الإمام
محمد عبده

﴿ ۞ وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ (٩٢) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ۖ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٩٣) قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٩٤) وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾

(البقرة: ٩٢ - ٩٦)

سبق التذكير باتخاذ العجل فى قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾

(البقرة: ٥١)

ثم أعاده هنا بعبارة وأسلوب آخرين فى سياق آخر.. أما اختلاف العبارة والأسلوب فظاهر.. وأما السياق، فقد كان أولا فى تعداد النعم على بنى إسرائيل، وبيان ما قابلوها به من الكفران، وهو هنا فى ذكر الآيات ورد شبهاتهم المانعة بزعمهم من الإيمان بالنبى ﷺ.. فهناك يقول: إن النعم التى أسبغها الله عليكم لم يكن لها من شكر عندكم إلا اتخاذ عجل تعبدونه من دونه.. وههنا يقول: إن الآيات البينات على النبوة والوحدانية، لم تزدكم إلا إيغالا فى الشرك وانهماكًا فى الوثنية، فكيف تعتذرون عن الإيمان بمحمد بأنكم لا تؤمنون إلا بما أنزل إليكم وهذا شأنكم فيه؟

ومجموع الآيتين ينبئ بفساد قلوب القوم وفساد عقولهم حتى لا مطمع فى هداية أكثرهم من جهة الوجدان، ولا من ناحية العقل والجنان.. وهذه البينات التى ذكرها ههنا قد كانت فى مصر قبل الميعاد الذى نزلت فيه التوراة.. وأما النعم التى ذكرها هناك، فقد

كانت في أرض الميعاد كما تقدم.. ووجه الاتصال بين هذه الآية وما قبلها قدم علم مما قلناه في السياق، وفيه المقابلة بين معاملتهم لموسى عليه السلام ومعاملتهم للنبي ﷺ إذ قالوا: قلوبنا غلف، وادعوا أنهم مأمورون بأن لا يؤمنوا إلا بما أنزل عليهم خاصة.. وقد علم من هذه الحجج كلها بطلان شبههم وكذبهم في دعواهم وأنه لا عذر لهم في ترك الإيمان.

وقال:

﴿ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾

أي من بعد هذا المجيء لا من بعد موسى.. والمراد أنه لم يكن لهم عذر في ذلك الاتخاذ، فإنه بعد بلوغ الدعوة وقيام الحجة، ولذلك قال: ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ وأى ظلم أعظم من الشرك بالله تعالى؟ ولا تغفل عن الإيجاز في قوله ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ وحذف مفعول ﴿ٱتَّخَذْتُمُ﴾ أي اتخذتموه إلها.

ثم ذكرهم هنا أيضًا بأخذ الميثاق ورفع الطور كما ذكرهم به في آية تقدمت.. وقد قال هناك:

﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ﴾

(البقرة: ٦٣)،

وقال هنا:

﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟﴾.. وأمرهم في تلك بالحفظ، وأمرهم في هذه بالفهم والطاعة.. وقلنا في تفسير ﴿وَٱذْكُرُوا۟﴾ أن المراد الحث به على العمل، فالعبارتان تتلاقيان في المعنى والمراد.

وفي اختلاف النظم والأسلوب حجة على الذين توهموا أن إعجاز القرآن في البلاغة إنما هو في السبق إلى العبارة التي يتأدى بها المعنى على أكمل الوجوه الممكنة في نظم الكلمات العربية.. رأى هؤلاء أن المعنى الذي يفيد علما بشيء ما، له كلمات في اللغة تؤديه بوجوه من النظم، وأن الكلمات والوجوه محدودة، فمن سبق إلى أتمها أداء وأبلغها تأثيرًا كان كالسابق إلى انتقاء أكرم جوهرة من طائفة من الجواهر أمامه، أو إلى أنفس عقد وأحسنه نظمًا من عقود عرضت عليه.. مثال ذلك قوله تعالى:

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ ﴾

(غافر: ٢٨)..

قال علماء هذا الشأن إنه يتألف من هذه الكلمات عشرة ضروب من النظم بالتقديم والتأخير، ما من ضرب منها إلا وهو منتقد بالخطل أو إيهام خلاف المراد أو الخطأ في الإعراب، إلا نظم الآية فهو الذي يؤدي المعنى على أكمل الوجوه، ولا يتأتى نظم آخر يؤدي مؤداه.. وزعم بعض الناس أن هذا الإعجاز ليس إلهيًا.

لو أخذ ما قالوه مسلمًا على إطلاقه، لكان لنا أن نقول إنه ليس في قدرة أحد من البشر أن يأتي بكلام طويل يتجلى له في كل جملة منه جميع الكلمات التي تدخل في تأدية المعنى المراد له وجميع ضروب النظم ووجوه الأساليب الممكنة في ترتيب تلك الكلمات وتأليفها، فيختار الأحسن الأبلغ منها.. وإذا لم يكن هذا في قدرة البشر كما هو ظاهر، فلابد أن يكون من جاء به مؤيدا بعناية من الله تعالى.. على أننا لا نسلم بما قالوه على إطلاقه.. فإنه لا يتجه إلا في ألفاظ معينة كألفاظ آية:

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾

وإذا نظرنا إلى المعاني لا سيما الكلية، نراها تتجلى في صور كثيرة من النظم الذي

تختلف ألفاظه.. وأمامنا الآن معنى الآية التي نفسرها، وهو أن الله أخذ هذا العهد على بني إسرائيل بأن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وأن يعملوا بشريعته ووصاياه، وكان أخذ هذا العهد في موقف رهبة وخشوع يعين على أخذه بالجد والعزيمة، إذ كان الجبل مرفوعًا فوقهم بصفة لم يعهدوها، حتى ظنوا أنه يريد أن يقع بهم.. ولكنهم لم يلبثوا أن نقضوا هذا الميثاق، وتركوا العمل به، وعبدوا العجل الذي صاغوه من حليهم بأيديهم عن حب متمكن من النفس، وغالب على العقل والحس.. وقد ذكر الله تعالى هذا المعنى في كتابه غير مرة، ولكن بعبارات مختلفة، كالآية التي تقدمت وذكر هناك أنهم تولوا عن الميثاق بعد الأمر بحفظه والعمل به رجاء التقوى، وكآية الأعراف

﴿ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ ﴾

(الأعراف: ١٧١)،

وتقدمت الإشارة إليها هناك، وكلاهما غاية في البلاغة.

وذكره هنا بنظم آخر تنتهي إليه البلاغة في سياق آخر فقال:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟﴾.. ثم التفت عن خطاب الحاضرين إلى الحكاية عن الغابرين، فقال: ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، أي أنهم قبلوا الميثاق وفهموه ولكنهم لم يعملوا به بل خالفوه تعنتًا وتأولاً.. وليس المراد أنهم نطقوا بهاتين الكلمتين ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، بل المراد أنهم بمثابة من قال ذلك. ومثل هذا التجوز معروف في عهد العرب. وفي هذا العهد، يعبرون عن حال الإنسان وغيره بقول يحكيه عن نفسه، حتى حكى مثل ذلك عن الحيوانات والطيور وعن الجمادات أيضًا، وهو أسلوب أظن أنه يوجد في كل لغة أو في اللغات الراقية فقط.

ثم ذكر أقبح أمثلة هذا العصيان بعبارة مدهشة في بلاغتها، فقال:

﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ هذه الاستعارة من فرائد الاستعارات، يتمثل بها عند ذكر بلاغة القرآن.. وإشراب الشيء الشيء مخالطته إياه، وامتزاجه به، يقال بياض مشرب بحمرة.. أو هو من الشرب كأن الشيء المحبوب شراب يساغ، فهو يسري في قلب المحب ويمازجه، كما يسري الشراب العذب البارد في لهاته.. وقد قدر الأكثرون هنا مضافًا محذوفا، فقالوا المراد: (حب العجل).. وذهب بعض الجامدين على الظواهر إلى أن المراد بالشرب هنا حقيقته وزعموا أن موسى لما سحق العجل وذراه في اليم، طفقوا يشربون المسحوق مع الماء.. وغفل صاحب هذا الزعم عن قوله تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِمُ﴾ والشراب الحقيقي لا يكون في القلب.. والشرب غير الإشراب.. ولبعض المفسرين مزاعم وقصص في العجل لا يدل عليها وحي منزل، ولا تاريخ صحيح ينقل، والباء في قوله: ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ للسببية، أي سبب هذا الحب الشديد لعبادة العجل هو ما كانوا عليه من الوثنية في مصر، فقد رسخ الكفر في قلوبهم بطول الزمن، وورثه الأبناء عن الآباء.

وأما السياق الذي وردت فيه هذه الآية بهذا النظم والأسلوب المخالفين لأسلوب تلك الآية مع الاتحاد في المعنى، فهو إقامة الحجة على اليهود الذين لم يؤمنوا بالنبي ﷺ، ورد

زعمهم أنهم مؤمنون بشريعة لا يطالبهم الله بالإيمان بغيرها، كما قلنا في التي قبلها، ولذلك ختم الآية بقوله تعالى: مخاطبًا للنبي عليه السلام:

﴿ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَـٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

أي إن صح زعمكم أنكم مؤمنون بشريعة -والإيمان الحقيقي يقتضي العمل بما له من السلطان على الإرادة- فبئسما يأمركم به ذلك الإيمان من الأعمال التي منها عبادة العجل وقتل الأنبياء ونقض الميثاق. لكن هذا الزعم مشكوك فيه، بل يصح القطع بعدمه، بدليل الأعمال التي يستحيل أن تكون أثرًا له.

هذه حجة عليهم بطبيعة الإيمان وأثره في عمل المؤمن. وتليها حجة أخرى تتعلق بفائدة الإيمان ومثوبته في الحياة الأخرى، وهي قوله عز وجل:

﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾

المراد من الدار الآخرة ثوابها ونعيمها، لأن حال الإنسان فيها لا يخلو من أحد الأمرين -المثوبة بالنعيم المقيم، والعقوبة بالعذاب الأليم- واستغنى عن التصريح بالنعيم أو الثواب بقوله: ﴿ لَكُمُ ﴾، فإنه يشعر بالمحذوف. وإنما أوجز هنا في خطاب اليهود، لأنه يحكى عن شئ يعرفونه في أنفسهم، وقد أوضح المراد بقوله:

﴿ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ ﴾. والخالصة هي السالمة من الشوائب.

فسر مفسرنا (الجلال) الخالصة بالخاصة. وقالوا إنه استعمال لم يعهد في الكلام الفصيح، والتخصيص مفهوم من قوله:

﴿ مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ ﴾ - يقول إن صحت دعواكم وصدق قولكم أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هودا، وأنكم شعب الله المختار فلن تمسكم النار إلا أيامًا معدودات لا تزيد على أيام عبادة العجل ولا تتجاوز عابديه. فتمنوا الموت الذي يوصلكم إلى ذلك النعيم الخالص الدائم، الذي لا منازع لكم فيه ولا مزاحم. وإن لم تتمنوا الموت، فما أنتم بصادقين، إذ لا يعقل أن يرغب الإنسان عن السعادة ويختار الشقاء عليها.

والتمني، هو ارتياح النفس وتشوقها إلى الشيء توده وتحب المصير إليه. وروى عن ابن عباس تفسير التمني بالسؤال والطلب، وهو غير معروف عن غيره من العرب. ولعله فسره باللازم، فإن من تمنى شيئًا طلبه بالقول أو الفعل أو بهما. وقد روى عن كثير من الصحابة عليهم رضوان الله تمنى الموت عند القتال، وبعد القتال يعبرون بألسنتهم عما في نفوسهم، وما هو إلا صدق الإيمان بما أعد الله للمؤمنين في الدار الآخرة.

إن الكلام حجة على مدعى الإيمان واستحقاق ما أعده الله لأهله في الآخرة تقنعهم في أنفسهم بأنهم: إما صادقون في دعواهم، وذلك إذا كانوا يتمنون في أنفسهم الموت والوصول إلى الدار الآخرة، ويبذلون أرواحهم في سبيل الله بارتياح إذا كان حفظ الحق يقتضي بذلها. وإما كاذبون فيها، وذلك إذا كانوا شديدى الحرص على هذه الحياة. وليس المراد به الحجة الإلزامية أمام الناس. ولذلك كانت العبرة في الآية عامة، فهي واردة في سياق الاحتجاج على اليهود، ويجب على المسلمين أن يتخذوها ميزانًا يزنون به دعواهم اليقين في الإيمان والقيام بحقوقه لأن الله أنزلها لذلك.

لو كان المراد بقوله:

﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا ﴾ أنهم لن يقولوا: يا ليتنا نموت: أو كلمة هذا معناها، لكان الاحتجاج عليهم إنما هو بالتعجيز عن لفظ يحركون به ألسنتهم، ولكان ذلك من الخوارق الكونية، ولما صح تعليل نفى التمني بقوله:

﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾، فإن هذا التعليل صريح بأن المانع لهم من تمنى الموت هو أنهم يعرفون من أنفسهم أنهم عاصون مقترفون للذنوب التي يستحقون عليها العقوبة، لا أن ألسنتهم عاجزة عن النطق بكلمة تدل على تمنى الموت وإن كذبا، وكثيرًا ما كانوا يكذبون. وقد أسند الفعل إلى الأيدى، لأن أكثر الأعمال تزاول بها، ولذلك جرى عرف اللغة على جعلها كناية عن الشخص باعتبار أنه عامل مطلقًا. وقد ختم الآية بقوله:

﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ ليبين أنهم ظالمون في حكمهم بأن الدار الآخرة خالصة لهم، وأن غيرهم من الشعوب محروم منها، وأن كل من كان مثلهم مفتاتا على الله تعالى فهو ظالم مثلهم.

ثم بين حقيقة حالهم في الإخلاد إلى الأرض، والفناء في حب البقاء، وأنهم ليسوا على بينة مما يدعون، ولا ثقة لهم بأنفسهم فيما يزعمون، فقال:

﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ﴾ كذلك كانوا، وكذلك هم الآن. والظاهر من سيرتهم ونظام معيشتهم أنهم كذلك يكونون إلى ما شاء الله، وإن كان الظاهر أن الكلام خاص بمن كانوا في عصر التنزيل يحاجهم النبي ﷺ، ويشاغبونه ويجاحدونه معتزين بشعبهم، مغترين بكتابهم. بل ذهب بعض المفسرين إلى أن المراد علماؤهم فقط.

ونكر الحياة للتحقير، كأنه يقول إنهم شديدو الحرص على الحياة وإن كانت في بؤس وشقاء.

ثم خص طائفة من الناس بالذكر، عرفوا بشدة الحرص على الحياة وتمنى طول البقاء في الدنيا، لأنهم لا يؤمنون بحياة بعدها، فقال:

﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ﴾، أى أنهم أحرص الناس من جميع الناس حتى من الذين أشركوا.

ثم بين مثالا من هذا الحرص مستأنفا فقال:

﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾، أى يتمنى لو يعمره الله ويبقيه ألف سنة، أو أكثر، فإن لفظ الألف عند العرب منتهى أسماء العدد، فيعبر به عن المبالغة في الكثرة لأنه يعرف من نفسه أنه مخالف لكتابه، ويتوقع سخط الله وعقابه، فيرى أن الدنيا على ما فيها من المنغصات خير له من الآخرة وما يتوقعه فيها.

قال تعالى: ﴿ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ﴾ أى وما تعميره الطويل بمزحزحه، أى منجيه ومبعده عن العذاب المعد له ولأمثاله، فإنه ميت مهما طال عمره، وكل ما له حد فهو منته إليه.

﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ لا تخفى عليه خافية من أمرهم. ولو عرفوه حق معرفته، لعلموا أن طول العمر لا يخرجهم من قبضته، ولا ينجيهم من عقوبته، فإن المرجع إليه، والأمر كله بيديه.

ومن مباحث اللفظ أن الضمير في قوله:

﴿ وَمَا هُوَ ﴾ مبهم يفسره ما بعده. وأكثر المفسرين على أن ما حجازية. والضمير العائد على ﴿ أَحَدُهُمْ ﴾ اسمها، وبمزحزحه خبرها، والباء زائدة في الإعراب، و﴿ أَن يُعَمَّرَ ﴾ فاعل مزحزحه.

أقسام السنة عند الدكتور/ محمد عبد الله دراز





أصل حدوث البدع أو منشأ الابتداع فى الدين:

قلنا إن للسنة مظنة تلتمس فيها، وإن للبدعة مظنة كذلك، وإن السنة تلتمس عند أهل الذكر وهم المجتهدون الجديرون بمنصب الاجتهاد فى الشريعة، وأن البدعة تلتمس عند الواغلين فى هذا المنصب الذين ليسوا من أهله.. ثم ذكرنا العلاقة الإجمالية التى يعرف بها المجتهد الحق والمجتهد المتطفل، وقلنا إن لهذه الجملة تفصيلاً يذكر بعد. فهذا أوان الوفاء بالوعد.

أعلم أن مسألة أهلية الاجتهاد مسألة مبينة فى أصول الفقه، إلا أن الشاطبى رحمه الله قد بسطها على وجه حسن فى عدة مواضع من كتابه «الاعتصام» فذكرها فى الباب الثالث والباب الرابع والباب التاسع ثم أفرد لها الباب العاشر منه آخر الكتاب، ونحن نعالج هذا الموضوع لا نرى خيرًا من أن نقدم لك خلاصة وافية مما بسطه الإمام الشاطبى هنا وهناك دون أن نتقيد بنصه وترتيبه إذ ربما أضفنا إليه فوائد أخرى. فاستمع إلى ما يتلى عليك:

تقوم أهلية الاجتهاد على أربع، يرجع جانب منها إلى تحديد مصدر التشريع، والجانب الآخر إلى طريقة الأخذ عن ذلك المصدر.

فأما الجانب الأول فإنه لما كان مصدر التشريع بإجماع المسلمين هو كتاب الله وسنه رسوله ﷺ أو ما يرجع إليهما وجبت العناية بتجريد هذه الأصول عن الاختلاط بشئ قط، ووجب الحذر من أن يزاحمها أو يتقدم عليها شىء من تحسينات العقول أو ميول الطباع، ولا يكون ذلك إلا بالتخلى عن رذيلة اتباع الظن أولاً، ورذيلة اتباع الهوى ثانيًا، فهاتان دعامتان.

أما الجانب الآخر فإنه لما كان استنباط الأحكام من الكلام لا سبيل إليه إلا بأداتين، معرفة لسان المتكلم ومعرفة قصده فى الخطاب، وكان لسان الكتاب والسنة لسانًا عربيًا، وكان قصدهما من التشريع إقامة مصالح المكلفين دنيويًا وأخرويًا، وجب إحكام هاتين الوسيلتين قبل الإقدام على هذا الشأن. وذلك بالرسوخ فى علم القواعد والمقاصد الشرعية. فهاتان دعامتان أخريان.

وبضدها تتميز الأشياء. فلن تجد بدعة

ضلالة أبدًا إلا كان منشؤها دعامة(١) أو أكثر من هذه الدعائم الأربع وحلول ضدها محلها. فصارت أصول الابتداع أربعة أيضًا «الأصل الأول» تحكيم العقل فى الدين والأخذ فيه بالرأى المذموم «الأصل الثانى» اتباع الهوى الذى يضل صاحبه عن سبيل الله «الأصل الثالث» الجهل بتصاريف اللغة وأساليبها «الأصل الرابع» الجهل بقواعد الشريعة ومقاصدها. فلنتكلم فيها على هذا الترتيب(٢):

الأصل الأول: تحكيم العقل فى الدين، والأخذ فيه بالرأى المذموم:

ونقول المذموم إذ ليس كل رأى فى الدين مذمومًا. وذلك أن دخول العقل فى تأصيل العقائد وتشريع الأحكام على ثلاثة أضرب. فهو تارة يدخل فى مسألة لا نص فيها من كتاب ولا سنة، وتارة يدخل فى مسألة منصوصة، والمسألة التى فيها نص لا يخلو أن يكون نظر العقل فيها بتأويل النص حتى يوافق معقوله، إن أمكن أو بالطعن فى روايته إن لم يجد لها تأويلاً معقولاً، أو يكون نظر العقل برد حكم الشرع وإيثار حكم العقل عليه كفاحًا.

«فأما هذا الضرب الثالث» فلا شبهة فى ذمه أنه فى أقصى مراتب الحظر والمذمة، وأن مسلمًا يحمل اسم الإسلام لا يجرؤ أن يدنو من شقته إذا كان يعقل ما يقول، لأنه كفر بواح.

«وأما الضربان الأولان» فإن العقل إن دخل فيهما لا يدخل باسم الحاكم المتعصب لحكم الشرع أو المهيمن عليه، وإنما يدخل باسم الباحث المنقب عن حكم الشرع، أو الكاشف له غير أنه فى ذلك قد يكون على قصد، وقد يكون على غلو فهو إذا ليس مذمومًا أبدًا ولا محمودًا أبدًا، بل ينقسم فى كلا الضربين إلى المحمود والمذموم.

«ففى الضرب الأول» وهو ما لا نص فيه من قبل الشارع «إن دخل العقل مسترشدًا بنصوص الشرع ومقاصده، متخذًا منها غرارًا يطبع على مثاله، وإمامًا يسير على نهجه» فذلك هو الرأى المحمود الذى أخذ به الصحابة والأئمة من بعدهم حتى قال أبو بكر(٣) رضى الله عنه: أقول في الكلالة برأيي، فإن كان صوابًا فمن عند الله، وإن كان خطأ فمنى ومن الشيطان..

وإن دخل العقل فى المسألة التى لا نص فيها مجتهدًا رأيه المحض، غير مستند إلى أصل من كتاب ولا سنة فهذا هو الرأى المذموم، وهو التشريع الموضوع، ونسبته إلى الدين هو عين الابتداع، ومن هنا أنكر العلماء على من أفتى بعض السلاطين عن كفارة الوقاع فى نهار رمضان بأن عليه صوم شهرين متتابعين، مستندًا فى فتياه إلى أن المقصود من تشريع الكفارة الزجر والردع والتكفير بالعتق لا يصلح رادعًا لمثله لأنه يملك رقابًا كثيرة فيسهل عليه انتهاك حرمة الشهر مرة أخرى لسهولة كفارته

(١) هكذا في النص، وأحسب صحة العبارة هكذا (إلا كان منشؤها تركه دعامة أو أكثر)

(٢) ذكر الشيخ أنه سيتناول هذه الأصول الأربعة بالحديث، ولكنه لم يتحدث عن الأصل الرابع وانتهي كلامه بالأصل الثالث. لذا ألحقنا بالبحث كلام الإمام الشاطبي عن هذا الأصل في كتابه «الاعتصام» ليكون أكمل للبحث وأنفع للقارئ وآثرنا كتاب الشاطبي نظرا لاعتماد الشيخ عليه

(٣) أبو بكر الصديق هو عبدالله بن أبي قحافة التيمي، أول من آمن من الرجال كان لقبه (عتيق) كان أبيض نحيفًا خفيف العارضين معروق الوجه، غائر العينين- ناتئ الجبهة، هاجر مع رسول الله إلي المدينة له فضائل كثيرة، توفي وله ثلاث وستون سنة. تهذيب الكمال ج ١٥/ ٢٨٢- ٢٨٥.

عنده ، فهذا معنى مناسب بحسب الرأى . ولكن الشارع لم يعتبر فى تشريع الكفارات على الأغنياء شيئا غير الذى اعتبره فى الفقراء بل الكل عنده سواء، ولذلك لم يقل أحد من الأئمة قط بوجوب تقديم الصيام على العتق بالنسبة للغنى ولا غيره، بل هم بين قائل بالتخيير فى الخصال الثلاث . وقائل بوجوب تقديم العتق على الصيام وعلى الإطعام . ولا ثالث . فالقول به مردود بإجماع المسلمين.

«وفى الضرب الثانى» وهو تأويل النصوص «إن كان ظاهر النص» مما تنكره بديهة العقول لوروده بما يصادم اليقينيات الضرورية . فالتأويل هنا محمود ، بل هو واجب لا مفر منه متى ثبتت صحة النص ولا يعد ذلك تحكمًا فى نصوص الشارع ، بل هو نزول على حكم الشرع نفسه ، لأن الله الذى كرم الإنسان بالعلم والعقل وأمره بالمحافظة على عقله مما يذهبه أو يغيبه ودعاه إليه مقيمًا أصول دعوته كلها على أساس قضية العقل وندبه فى غير موضع إلى النظر والتعقل ، والتفكر ، والتدبر ، لم يكن ليأمره بإلغاء عقله جملة عند تلقى خطابه الذى لا يتلقى إلا بالعقل ولم يكن ليكرهه على الإيمان بما هو ضد صريح هذا العقل:

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾

(البقرة: ٢٥٦)

ولابد فى هذا القسم من قيام قرينة مانعة من إرادة ظاهر اللفظ وكفى بالاستحالة العقلية قرينة ولابد أيضًا من وجود شواهد تبين المعنى المقصود من عبارة الشارع حتى يكون العقل فى تأويله ناظرًا لها . ومثال ذلك أن الحديث المشهور وهو قوله عليه الصلاة والسلام: «رفع عن أمتى الخطأ والنسيان»(٤).

لو أخذ على ظاهره كان معناه أن أحدًا من الأمة لا يقع فى نسيان ولا خطأ مع أن العقل والحس شاهدان بوقوعهما . فلابد من التأويل إما بأن المراد رفع إثمهما أو المؤاخذة عليهما كما قال تعالى:

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾

(البقرة: ٢٨٦)

وإما بغير ذلك(٥) «وإن كان ظاهر النص» مما يوقف فيه نظر العقول لوروده فى باب الأخبار الاعتقادية بما يخالف السنن الكونية المألوفة والعوائد الجارية المستمرة(٦) أو لوروده فى باب الأوامر التشريعية بما لا تعقل حكمته(٧) أو بما يخالف فى بادئ الرأى التحسينات المصلحية(٨)، فإن المسارعة إلي إنكار الظاهر فى هذا القسم والتزام تأويله تنزيلا له على مألوف العقل ، أو الطعن فى سنده ، إن كان آحادًا ، بغير قادح سوى عدم وجدان ما يؤيده من التجارب العادية أو ما يقتضيه من الأغراض المصلحية ،

(٤) رواه الطبراني في الكبير عن ابن عباس وفي الأوسط عن ابن عمر بإسناد صحيح كما قال السيوطي في الأشباه وابن ماجه عن ابن عباس وأبي ذر والحاكم وقال صحيح.

(٥) كأن يقال إن المراد رفعهما عن جملة الأمة لا عن آحادها فيكون الحديث بمعنى أن الأمة لا تجتمع على باطل والتأويل الأول أقرب وهو الأوفق بقوله تعالي: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ (البقرة: ٢٨٦) (د/دراز)

(٦) كالنصوص الواردة بإحياء الميت في قبره للسؤال، ووزن الأعمال يوم الحساب، ورؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة بالبصر في غير جهة محدودة، والتمثال مكان في الجنة لا ينقض ونحو ذلك من عجائب البرزخ وأحوال القيامة وغيرها. (د/دراز)

(٧) كغسل الإناء بالتراب إذا ولغ فيه الكلب.

(٨) كغمس الذباب إذا وقع في الشراب (د/دراز)

تقول إن المسارعة إلى مثل هذه الظواهر بإلتزام تأويلها أو ردها ليست من الرأى المحمود فى شئ ، بل هى بدعة الضرب الأول ، وسوء الأدب مع الشرع فيها أبين منه فى تلك ، فإن قصارى ما فى الضرب الأول أنه إعمال للرأى فى مسألة مسكوتة نيابة عن حكم الشرع فيها عند عدم وجوده نصًا ، وهذا القدر مشروع فى أصله ، وإنما الخطأ فى وصفه وهو كونه نيابة استبداد لا نيابة استرشاد . أما إعمال الرأى هنا فهو فى مسألة منصوصة يتخذ فيها حكمًا على ضد ما هو فى الظاهر مقول الشرع ومقصوده من غير ضرورة ملجئة ، ولا قرينة مانعة أو معينة . فهو تقدم بالعقل بين يدى الشرع وإيثار لحكمه على حكمه ، وهذا لو كان مقصودًا للباحث لالتحق بمرتبة الكفر الصراح ولكنها عادة التدخل بالعقل فى كل شئ مع الثقة بأحكامه وعدم اتهامه هى التى تورد صاحبها هذه الموارد من حيث لا يشعر.

فهل صحيح أن يد العقل البشرى مبسوطة كل البسط يتناول بها الحكم فى كافة الأشياء ، أم أن لها مجالاً محدودًا ودائرة معينة لا يتعداها؟ ثم هل كل أحكام العقل فيما يتعاطى الحكم فيه لها هذه المنزلة من الوثوق والاعتداد حتى فى هذا الضرب الذى نحن بصدده؟

ذلك ما نريد أن نقرر الحقيقة فيه مفصلة على وجه لا بخس فيه ولا إطراء.

كل امرئ لو خلي ونفسه وأخذ يفتش حدود معلوماته ومجهولاته واجد لا محالة من وراء علمه أسرارًا كثيرة لا يعلمها جملة ولا تفصيلاً ، ولو أحاط بها علمًا لما مسه السوء ولبقى فى الحياة والنعيم خالدًا أبدًا ، ثم هو واجد علمه بما يعلمه ناقصًا فى تعقل كنه الأشياء وصفاتها وأحوالها وأنه إنما يعلمها من وجه دون وجه ، وعلى حال دون حال.

تلك حقيقة يعترف بها كل عاقل فى دخيلة نفسه ، ويقررها الطبيعيون من العلماء والإلهيون منهم على سواء . وقف أستاذ علم الحيوان فى كلية العلوم بالقاهرة وسط محفل حاشد من علمائها وطلابها يشرح أسباب اختلاف ألوان الحيوان ، ويرد ذلك إلى اختلاف الخليات الملونة فى الجسم ويقسم تلك الخليات إلى ثلاثة أنواع: سوداء وحمراء وشفافة . . فسأله سائل: لماذا ترى بعض الحيوان «كالقرش مثلاً» حين يولد ذا لون خاص «كالأزرق» ثم تراه يتغير بعد إلى لون آخر فيكون منه الأدهم والأشهب إلى غير ذلك . . فأجاب الأستاذ قائلاً: ذلك مما لا يصل إليه العلم؛ أما نحن فأكبرنا منه هذا الإنصاف ، وقلنا: نعم هذا هو العلم الذى حدثنا عنه الله ورسوله وصدق الله ورسوله . . ألم يحدثنا القرآن بأن اختلاف الألوان من آيات الله سبحانه . ثم لم يكتف بهذا حتى جعل العلم نفسه شاهدًا على ذلك فقال:

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾

(الروم: ٢٢)

انظر قوله ﴿ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ ، وانظر الآية الأخرى:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ﴾

(فاطر: ٢٨)

كيف أتبعها بقوله:

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾

(فاطر: ٢٨)

هذا ولو بحث الإنسان فى طريق وصول المعلومات إلى العقل لوجدها على ثلاثة أنواع: نوع يدركه العقل بنفسه، ونوع يدركه بواسطة من نفسه، ونوع لا يدركه بنفسه ولا بواسطة من نفسه، وإنما يدركه بواسطة من خارج وهى الأخبار ممن يعلمه.. فالأول هو ما يسمى بالضروريات، والثانى ما يسمى بالنظريات، والثالث المغيبات. إنه لو لم يكن هناك برهان على قصور العقل البشرى وتحديد مجال تصرفه سوى وجود هذا النوع الثالث لكفى برهانا مبينًا. ومن عجب أن الإنسان كلما تبحر فى العلوم والمعارف تبينت له هذه الحقيقة المدهشة، وهى أن هذا النوع الثالث هو أوسع الأنواع الثلاثة وأن فيه تنطوى أكثر حقائق الكون وعوالمه، ويليه النوع الثانى وهو النظريات، ثم الضروريات فهى أقل القليل.

ونعود مرة ثانية فنقول إن هذه حقيقة أخرى يقررها الطبيعيون والعلماء والإلهيون منهم على سواء.

يقول العالم الإنجليزى هربرت سبنسر فى رسالته فى التربية: «إن العلم الطبيعى يرينا جليا صغر العقل الإنسانى بإزاء ذلك الذى يفوت العقل، وأنه لا يسلك بنا سبيل الاستبداد فى تفهيمنا استحالة الوصول إلى السبب الأول، ولكنه ينهج بنا النهج القويم فى تفهيمنا هذه الاستحالة بإبلاغنا جميع الحدود التى لا يستطاع اجتيازها ثم يقف بنا فى رفق وهوادة عند تلك الغاية». وصدق الله العظيم:

﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾

(يوسف: ٧٦)

﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

(الإسراء: ٨٥)

هنا إذا حقائق مغيبة عن العقل البشرى والعقل محجوب عنها بنفسه وبوسائله، وإنما يستفيدها من جهة عالم الغيب سبحانه فهو إذا معزول عن الحكم فيها بطبيعته. أفلو صح عن الشارع خبر فى أمر من تلك الغيوب المحضة التى لا يحكم العقل فيها بنفى ولا إثبات، أيسوغ للعقل أن يتحكم بتأويل ذلك الخبر أو رده؟ كلا، بل هو بين خطتين إما التسليم بالخبر على وجهه إن كان مؤمنًا، وإما الوقوف عن تصديقه وتكذيبه إن كان غير ذلك.. هذا ما لا نزاع فيه، ولا ينبغى لعاقل أن ينازع فيه.

بقيت الأجناس التى يتعاطى العقل الحكم فيها وهى الضروريات والنظريات. فنقول إنه لا نزاع أيضًا فى الطرف الآخر وهو الضروريات أن العقل شئ متى توجه[٩] إليها كان أهلاً لأن يستقل بالحكم فيها بقينى لا يتخلف لنبى ولا لغيره، وأن الأديان لم تجئ بما يناقض هذا النوع البتة، فلم يدع أحد من الأنبياء، الجمع بين النقيضين ولم يتحد أحد يكون الكل أقل من جزئه مثلاً، ولذلك قلنا بوجوب التوفيق بين أحكام العقل فيها وبين ظواهر الشرع.

وإنما الكلام فى النوع الوسط وهو النظريات هل حكم العقل فيها أهل لأن يوثق به دائمًا حتى ينزل حكم الشرع عليه جزمًا كما فى الضروريات؟ أم العقل عنها معزول كما فى المغيبات؟.

وفصل الخطاب فيها أنها تنقسم إلى قسمين كل قسم منها يلحق بالطرف الذى يليه من الطرفين المذكورين، وبيان ذلك أن العقل لا يستفيد المجهول فيها إلا بإحالته على معلوم سابق استدلالاً بما عرفه على ما لم يعرفه فلابد من البحث عن ذلك المعلوم الواسطة: من أى قبيل هو؟ أمن قبيل الضروريات أو ما ينتهى إليها؟ أم ليس كذلك، فأما إن كان منها أو مما ينتهى إليها انتهاء محققًا فإن له ما لها من الثقة واليقين، وإلا فإن حكم العقل فيها لا يكون إلا ظنًا.

﴿ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾

(النجم: ٢٨)

ذلك لأن الأنظار فيها تختلف، والأدلة تتعارض على طرفى النفى والإثبات فيها عادة، فلابد من حكم خارجى معصوم من الخطأ والتردد والتناقض يصدق حكم العقل أو يكذبه وما ذلك إلا العليم الخبير. فمن جهة الشرع وحده يلتمس اليقين فيها، لا من غير تلك الجهة.

وإذا تقرر هذا التقسيم فلنفرض عليه مسألة السنن الكونية والتحسينات المصلحية. لنرى هل يعتمد العقل فيهما حقًا على معلوم ضرورى ابتداء أو انتهاء؟ والجواب أن لا.

(أ) أما السنن الكونية فإن العقل فيها إنما يحيل على تجاربه المعتادة فى هذه الحياة:

وهذه التجارب العادية، وإن كانت قطعية فى أصل وقوعها فهى ظنية فى وجوب استمرارها وعدم قبولها للتخلف. ولو رجع الإنسان فى أمرها إلى ضرورة العقل لعلم أنه كما جاز على كل كائن أن يصير من العدم إلى الوجود جاز عليه أن يصير من الوجود إلى العدم، ثم لو رجع فيها إلى الواقع لرأى الوجود قد وسع ما لا يحصى من خوارق العادات التى جاءت بها النبوات وغيرها «نشرت الصحف الإنجليزية فى هذه الأيام ١٣٥٣هـ- ١٩٣٥م» صورة فتاة من بودابست[١٠] فى نحو العشرين من عمرها لها قوة نظر خارقة تبصر بها ما وراء الجدران وقد اختبرت فى عدة تجارب حضرها كثير من العلماء فأدهشهم أنها تبصر ما يجرى فى الحجرات التى تفصل بينها جدران ضخمة «جريدة الإخوان المسلمين ٤٣- أول محرم ١٣٥٤هـ» حتى أصبح وضع الثقة الكلية فى هذه العوائد الجارية وبناء الأحكام القطعية عليها وضعًا للثقة فى غير موضعها وبناءً للأحكام على أساس غير ثابت لا يصح الاطمئنان إليه فى نفى ولا إثبات. ومن ظن أنه لا يمكن أن يقع فى الوجود شئ مخالف لما جرت به سنة[١١]

(٩) تقول «متى توجه إليها» لأنه قد يغفل المرء عن بعض الضروريات وقد يقصر عن إدراك بعضها لكونها مغمورة بالعوائد فيحتاج إلى تنبيه عليها من الشارع. فمن يكون قد أحاط بها علما ولم يحدث فيها غفلة ولا نسيانا ومن هنا جاءت الشرائع لتقرير حقائق هى من متناولات الحس والبديهة فى الأنفس والآفاق. والبحث على مصالح هى من مقتضيات الغريزة والفطرة ولولا غفلة بعض النفوس عنها لكان التنبيه عليها عبثا فانظر إلى أي حد تحتاج العقول البشرية إلى هداية الشرائع فى جميع أطوارها حتى فى التذكير بالحقائق الجلية. (د/دراز).

(١٠) بودابست عاصمة دولة المجر- انظر الأطلس العربي ص ٨٢ الطبعة الخامسة (١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م).

(١١) ربما اختلجت فى صدر الناظر هنا شبهة وهى أن الله تعالى يقول فى كتابه ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ (فاطر: ٤٣) وهذا نص يكاد يكون صريحًا فى رد ما نقرره من تخلف هذه السنن، وجواب هذه الشبهة عندنا يسير جدا بأدنى نظر فى علم العربية وفى الفرق بين صيغة التفعيل وصيغة التفعل. فلم يقل الله تعالى فلن تجد لسنة الله تبدلا ولا تحولا، وإنما قال ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ (الأحزاب: ٦٢) يعنى أنه لا يقدر أحد على تبديل سنته، ولكن هو وحده القادر الذى لا يعجزه شئ فى السموات والأرض فلو شاء لبدلها وقلب طبائعها انظر كيف يقول فى شأن المطر ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ (الواقعة: ٧٠) ويقول فى شأن الأمم المكذبة ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (يونس: ٩٨).

الوجود بالفعل فقد برهن على جهله أولاً، ويلزم أن ينكر المعجزات ثانيًا فيخرج عن الإسلام والأديان كلها. وإلا فليقل لنا أن النار الحامية كيف لا تحرق، والسكين المحددة كيف لا تقطع. والمسافات الشاسعة كيف تطوى فى لمح البصر، والبحر الزاخر كيف تشق العصى فيه طريقا يبسا بين فرقين كل فرق منهما كالطود العظيم؟ وإذا لم ينكر خرق العوائد فى الدنيا فكيف ينكر خرقها فى النشأة الآخرة يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات. والذى يخرقها يومئذ هو الذى خرقها أول مرة؟ بل قد تجرى العوائد المستمرة في هذه الدنيا بأمور هى خارجة عن العادات المستمرة في جنسها، كما نبهت عليه مناظرة خالد بن يزيد بن معاوية لأحد الرهبان بالشام. قال الشاطبى حكى ابن وهب قال: سمعت شعيب بن أبي سعيد يحدث أن راهبًا كان بالشام من أعمالهم، وكان ينزل مرة في السنة فتجتمع إليه الرهبان فيعلمهم ما أشكل عليهم من دينهم. فجاءه خالد بن يزيد بن معاوية فيمن جاء، فقال له الراهب: أمن علمائهم أنت؟ قال خالد: إن فيهم لمن هو أعلم منى، قال الراهب: ألستم تقولون إنكم تأكلون في الجنة وتشربون ثم لا يخرج منكم أذى؟ قال خالد: بلى. قال الراهب: أفلهذا مثل تعرفونه في الدنيا؟ قال نعم: الجنين في بطن أمه يتغذى من طعامها وشرابها ثم لا يخرج منه أذى. قال الراهب: أليس تقول إنك من علمائهم؟ قال خالد: إن فيهم لمن هو أعلم منى. قال: أفلستم تقولون إن في الجنة فواكه لا ينقص منها شئ؟ قال خالد: بلى. قال: أفلهذا مثل فى الدنيا تعرفونه؟ قال نعم: الكتاب يكتب منه كل أحد ثم لا ينقص منه شئ؛ وإن شئت قلت والنار أيضًا يستوقد منها كل أحد ولا ينقصها ذلك شيئًا، إلى آخر القصة.

قال بعض المحققين: سبحان من ربط المسببات بأسبابها ليهتدى العاملون، وفرق بينهما أحيانا ليتعظ العارفون تنبيها على أنه هو الفاعل المختار وأن هذه الحوادث لم تكن بالطبع ولا بالاضطرار.

ولقد تمضى على الناس عصور تضمحل فيها العلوم والصناعات اضمحلالا حتى يرى بعض الممكنات محالا. ثم يأتى من بعد ذلك عصر تزدهر فيه تلك العلوم ويتسع نطاقها فتجئ بالأعاجيب التى لو سمعها الناس قبل لكذبوا بها كذابا: كان الناس يقولون باستحالة وزن الأعراض لأنهم لم يروا موازين موضوعة لغير الأجسام، ولذلك اتفق الأشاعرة والمعتزلة قديمًا على تأويل النصوص الواردة بوزن الأعمال مع اختلافهم فى كيفية التأويل، ثم أصبحنا اليوم وقد وضعت الموازين بالقسط للضغط والكثافة والحرارة الجوية والحيوانية وغيرها، وكان يقال إن الصوت عرض سيال يذهب فى الهواء ينقضى بمجرد النطق. ثم هو اليوم يحفظ ويدخر ويبقى دهرًا بعد موت صاحبه ويحكى صداه مرة بعد مرة متى وأين شاء سامعه. أرأيت لو أن واحدًا فيما مضى قال سمعت حديدًا يتكلم بكلام عربى مبين، أو قال رأيت قومًا يتكلم أحدهم فى أقصى المشرق فيسمعه من فى أقصى المغرب ويلمس أحدهم جدار الغرفة بإصبعه فينقلب ظلامها نورًا وهاجًا ولم تمسه نار، ثم يلمسها مرة أخرى فيستحيل نورها ظلامًا دامسًا، أليس كان يعد ذلك كله جهالة وحديث خرافة(١٢) ولكنها اليوم حقائق عادية ما فيها عجب ولا ارتياب.

فالواجب إذا فى كل النصوص التى تقتضى ظواهرها خرق العوائد الجارية ألا تجعل العوائد أصلا قطعيًا نبنى عليه الجزم بتأويل تلك النصوص أو ردها بل لنا سعة فى أحد أمرين إما أن نصدق بها على حسب ما أراد الله منها ونكل علمها إلى عالمه كما هو ظاهر قوله:

﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾

(آل عمران: ٧)

وهذا هو طريق الصحابة رضى الله عنهم: فإنه لم ينقل عنهم إلا الإيمان بهذه السمعيات والصفات من غير بحث عن مادة الميزان وكيفية الوزن وعينية الصفات وغيريتها إلى أشباه ذلك، وإما أن نتأولها بتأويل قريب مع الإقرار بإمكان مقتضى الظاهر.

[ب] وكذلك نقول فى مسألة التحسينات المصلحية النظرية أنه لا ينبغى الوثوق بما يقضى به العقل فى شأنها إلى حد ترك العمل بالظواهر الشرعية المخالفة لها، لأن العقل قد يرتضى اليوم فيها مذهبًا ثم يرجع عنه غدًا، وربما صار منه بعد غد إلى رأى ثالث، وقد يزعم فى الأمر أنه قد أتقنه فهما وأحاط به علما ثم لا يأتى عليه الزمان إلا وقد عقل فيه ما لم يكن قد عقل من قبل فاستحسن ما كان ينكره وأنكر ما كان يستحسنه، ألم يتوقف الناس زمنًا طويلاً فى حكمة غسل الإناء بالتراب إذا ولغ فيه الكلب حتى رد بعض الأئمة الحديث فيه باضطراب سنده ومتنه.

ثم كشف العلم أخيرًا ما فى التراب من خاصية فى قلع داء الكلب(١٣) بفتحتين وهى أنه لا تعيش فيه جرثومة ذلك الداء. أولم يستنكر الناس أشد الاستنكار حديث غمس الذباب(١٤) فى الإناء إذا وقع فى الشراب، حتى قدح بعض علمائنا فى الصحابى الجليل الذى روى الحديث، وهو أبو هريرة(١٥) رضى الله عنه، بقلة ضبطه وكثرة نسيانه لإكثاره من الرواية، وكان الباعث الحقيقى على استنكارهم هو أن العلم الذى يأمر به الحديث(١٦) مما تنفر منه الطباع. وتخالفه التجارب الطبية التى مازالت تقرر أن الذباب عدو الإنسان يحمل إليه أسباب هلاكه بنقله جراثيم المرض من المصابين إلى الأصحاء ثم كشفت التقارير الطبية الإنجليزية فى هذه السنين الأخيرة عن وجه المعجزة للنبى الأمى ﷺ فى هذا الحديث كما فى سابقه إذ ثبت أن الذباب كما يحمل جراثيم المرض من فضلات المرضى يحمل جراثيم النقاهة من فضلات الناقهين بل إن جسمه فوق ذلك فيه خاصية تحويل الجراثيم المرضية إلى

(١٢) حديث خرافة: (خرافة) اسم رجل من عذرة استهوته الجن فكان يحدث بما رأى فكذبوه وقالوا: «حديث خرافة». مختار الصحاح للرازي ص١٧٣ مادة (خرف). مسند أحمد عن عائشة حديث رقم (٢٤٠٨٥).
(١٣) رواه مسلم عن أبي هريرة كتاب الطهارة، باب حكم ولوغ الكلب جـ١ ص١٦١.
(١٤) داء الكلب: مرض خطير جداً ينتقل إلى الإنسان والحيوان.
(١٥) رواه البخاري عن أبي هريرة كتاب بدء الخلق، باب إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه جـ٧ ص٣.
(١٦) أبو هريرة: هو عبدالرحمن بن صخر (اختلف في اسمه واسم أبيه) على أقوال أحد المكثرين من الرواة عن رسول الله – كان من أهل الصفة. انظر ترجمته مفصلة في سير أعلام النبلاء جـ٢ ص٥٧٨ وما بعدها.

جراثيم أقوى منها فتاكة بها، فثبت بذلك مصداق الحديث أن فى أحد جناحيه داء وفى الآخر دواء. أو لم يقل بعض الناس(١٧) فى مصر بتخصيص حرمة الربا بما كان فاحشًا منه وأضعافًا مضاعفة وبإباحته إذا كان بفائدة قليلة، لأنهم رأوا الحاجة ماسة إليه بإنقاذ البائسين وترفيه المقترين، ولم يتبينوا ما فى هذا الربا اليسير من الضرر البليغ، حتى تبين أن هذه الفوائد القليلة أصبحت فى بضع سنين أضعافًا مضاعفة، وانقلبت جائحة مهلكة اكتسحت ثروة الأهلين وتركتهم يرزحون تحت أعباء الديون الفادحة، بل أصبح أكثر الأرض المصرية ملكًا للدائنين من غير أهلها وأشباه هذه الأمثلة كثيرة.

ألم تر إلى الدساتير والقوانين التى يضعها البشر بأيديهم كيف هى كل يوم فى تغيير وتبديل لا لتغيير المصالح بتغيير الأزمان والأحوال فحسب، بل لأن التجارب لا تفتأ تظهر فشلها وتثبت خطأ تقديرها عند تطبيقها.

أبعد هذا البيان الذى عرفت به مبلغ قصور العقل البشرى فى معرفة الحق والباطل والحسن والقبيح، وعرفت به أن مجال إدراكه محدود فى أجناس الأشياء التى يدركها، وفى الجوانب التى يدركها من تلك الأجناس، وفى طريق إدراكه لها، وفى ثبات ذلك الإدراك واستقراره، تظن أن هذا العقل يصلح ميزانًا يرجع إليه الحكم فى قبول ظواهر الشرع أو تأويلها فيأخذ منها ما يشاء ويذر منها ما يشاء حتى ما لم يحط به علمه ولما يأته؟ أم الأمر بالعكس أن العقل هو المحتاج إلى هداية الشرائع فى جميع أطواره وأن منزلته منها منزلة البصر من نور الشمس، فليت شعرى كيف ينقلب المسترشد مرشدًا والمحكوم حاكمًا؟ وليت شعرى لو كان العقل كافيًا لإقامة مصالح الخلق فى معاشهم ومعادهم فأى حاجة لبعثة الرسل إذا؟ ألا تكون عبثًا محضًا؟ بل ليت شعرى لو أننا كلما ظهرت فى عصرنا نظرية طبية أو فلكية أو طبيعية أو اجتماعية أو غيرها من النظريات المتقلبة، وشأن النظريات(١٨) التقلب وعدم الثبات خولناها حق الحكم فى الأدلة الشرعية بالتصديق والتكذيب، والتخصيص والتأويل، والتحريم والتحليل، أيكون لنا دين واحد أم تتخذ كل يوم دينًا جديدًا(١٩)؟ ولو أننا تركنا هذه النصوص بأخبارها وأوامرها معلقة فى الميزان وأبقينا ما فيها من عقائد الإيمان وشرائع الإسلام تحت الاختبار رهينة البحث حتى تشهد التجربة لها أو عليها أنكون إذا مؤمنين بالله ورسوله أم نكون مؤمنين بأنفسنا

(١٧) القائلون بذلك الشيخ عبدالعزيز جاويش والأستاذ/حفني ناصف. انظر مجلة الوعي الإسلامي ع/١٤٩ وانظر ملحق مجلة لواء الإسلام الربا والنظريات الحديثة في الاقتصاد وموقف الإسلام منها ص٢٠.

(١٨) يفرق الاصطلاح العلمي بين النظرية والقانون، فالقانون يعتمد على الحقائق الثابتة والنظرية تبدأ في أول نشأتها فرضًا يحاول تطبيق الحقائق عليه فإن شهدت له كلها أصبحت قانونه وإن كذبه بعضها رجعت فرضًا باطلا، وإن صدقت بعضها وتوقف بعضها عن تصديقه بقيت نظرية «د/ دراز».

(١٩) قال مالك رحمه الله: «قبض رسول الله ﷺ وقد تم هذا الأمر واستكمل، فإنما ينبغي أن تتبع آثار رسول الله ﷺ ولا تتبع الرأي، فإنك متى اتبعت الرأي جاءك رجل أقوى منك في الرأي فاتبعته، وأنت إنما جاءك رجل غلبك اتبعته أرى هذا الأمر لا يتم». قال الشاطبي: «ومع ذلك فقد كان مالك يقول برأيه المطرق في القياس لا يفارق السنة اهـ وحيث يقول لو كان الدين بالرأي لكان باطن الخف أولى بالمسح من ظاهره» «د/ دراز».

وآرائنا؟ وأين يكون الإيمان بالغيب إذا؟

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (النساء: ٦٥)

وقبل أن نغادر هذا الموضوع نحب أن نهدى لكم قطعة نفيسة تتصل بهذه المعانى وقفنا عليها فى كتاب للإمام الغزالى اسمه «المنقذ من الضلال»، قال رحمه الله «وفى فصل حقيقة النبوة»(٢٠)، ثم قال فى بيان سبب نشره للعلم به.

ولنختم الكلام فى هذا الأصل بما صح عن سهل بن حنيف(٢١) رضى الله عنه أنه قال يوم صفين وحكم الحكمين «يأيها الناس اتهموا رأيكم، فلقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ يوم أبى جندل ولو نستطيع أن نرد على رسول الله ﷺ أمره لرددناه(٢٢) والله ما وضعنا سيوفنا من على عواتقنا لأمر يفظعنا إلا أسهلن بنا إلى أمر نعرفه»، قال الشاطبى: فهذا منه رضى الله عنه تنبيه على أن ما ورد فى الشرع مما يصادم الرأى فستكشف الأيام أنه كان هو الحق المبين وأن الرأى إنما كان شبهة عرضت، بل لو فرض أنه لم يتكشف فلا ضير فى ذلك، فإن المستمسك به مستمسك بالعروة الوثقى التى لا انفصام لها.

«يتبع»

○○○

(٢٠) قال الإمام الغزالي: ووراء العقل طور آخر تنفتح فيه عين أخرى يبصر بها الغيب وما سيكون في المستقبل، وأمورًا أخرى العقل معزول عنها كعزل قوة التمييز عن إدراك المعقولات، وكعزل قوة الحس عن مدركات التمييز، وكما أن المميز لو عرضت عليه مدركات العقل لأباها، واستبعدها فكذلك بعض العقلاء أبوا مدركات النبوة واستبعدوها وذلك الجهل، إذ لا مستند لهم إلا أنه طور لم يبلغه ولم يوجد في حقه فيظن أنه غير موجود في نفسه والأكمه لو لم يعلم بالتواتر والتسامع الألوان والأشكال وحكي له ذلك ابتداء لم يفهمها ولم يقر بها وقد قرب الله تعالى ذلك على خلقه بأن أعطاهم نموذجًا من خاصية النبوة وهو النوم إذ النائم يدرك ما سيكون من الغيب إما صريحًا وإما في كسوة مثال يكشف عنه التعبير وهذا لو لم يجربه الإنسان من نفسه، وقيل له إن من الناس من يسقط مغشيًا عليه كالميت ويزول عنه إحساسه وسمعه وبصره فيدرك الغيب، لأنكره، وأقام بالبرهان على استحالته. وقال: القوى الحساسة أسباب الإدراك فمن لا يدرك الأشياء مع وجودها فأن لا يدركها مع ركودها أولى وأحق وهذا نوع قياس يكذبه الوجود والمشاهدة فكما أن العقل طور من أطوار الآدمي يحصل فيه عين يبصر بها أنواعًا من المعقولات، والحواس معزولة عنه، فالنبوة أيضًا عبارة عن طور يحصل فيها عين لها نور يظهر في نورها الغيب، وأمور لا يدركها العقل.

(٢١) سهل بن حنيف أبو ثابت الأنصاري الأوسي العوفي والد أبي أمامة بن سهل وأخو عثمان بن حنيف شهد بدرًا والمشاهد وكان من أمراء علي رضي الله عنه مات بالكوفة في سنة ثمان وثلاثين وصلى عليه علي انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء جـ٢ ص٣٢٥ رقم الترجمة (٦٣).

(٢٢) رواه البخاري عن أبي وائل عن سهل بن حنيف كتاب الاعتصام بالسنة باب ما يذكر من ذم الرأي وتكلف القياس ولا تقف ما ليس لك به علم جـ١٢ ص٥٠.
ورواه مسلم عن الأعمش عن شقيق عن سهل بن حنيف كتاب الجهاد والسير باب صلح الحديبية في الحديبية جـ٥ ص١٧٦.

ربيع الأول ١٤٣٥ هـ
يناير ٢٠١٤ م

نظرات فى فكر الإمام الأشعرى:

أصول نظرية العلم عند الإمام الأشعرى



لفضيلة الإمام الأكبر أ. د. أحمد الطيب
شيخ الأزهر

تمهيد:

تحاول صفحات هذا الفصل (١) الموجز أن تعرض فى شىء من التركيز نظرية «العلم» عند الإمام أبى الحسن الأشعرى (ت. ٣٢٤هـ) شيخ الأشاعرة والمؤسس الأول لمذهبهم.

ونظرية العلم ـ أو نظرية المعرفة ـ واحدة من أهم النظريات فى علم الكلام عند المسلمين:

أما أولًا، فلأن حديث المتكلمين فيها حديث متميز ـ إلى حد بعيد ـ عن حديث الفلاسفة المسلمين، سواء كانوا مشائين أو إشراقيين، الذين تبنوا ـ فى الأعم الأغلب ـ المنهج العقلى المتضمن فى منطق أرسطو، بينما تفرد المتكلمون بمنهج مستقل فى معالجة هذه النظرية أدى فى النهاية إلى اليقين ذاته الذى تؤدى إليه نظرية الاستدلال عند أرسطو.

وأما ثانيًا: فلأن نظرية العلم عند المتكلمين الأوائل نظرية إسلامية المحتوى والمضمون، وهى نابعة من تحليل عقلى دقيق اضطلع به أئمة هذا الفن وهم بصدد الحوار مع تيارات فلسفية غربية، وقد ارتبطوا فى كل ذلك بمنهج القرآن الكريم، وبمنهج الأئمة الأوائل واستنباطاتهم واستدلالاتهم ارتباطًا واضح المعالم، لا تخطئه عين باحث منصف فى نظرية المعرفة عند قدماء المتكلمين.

وقد كان التوجه فى بداية الأمر أن يدور هذا الفصل على نظرية العلم عند الأشاعرة بوجه عام، غير أننى ما كدت أدقق النظر فيه حتى وجدت أنه لا مفر من أن تجىء الخطوة الأولى فيه لبيان هذه النظرية عند «الأشعرى» فقط، ذلك أن كل من عالج هذه النظرية بعد ذلك من الأشاعرة، كان يبدأ بنقد نظرية الشيخ وتضعيفها، وينتهى من ذلك إلى أن دلائل العقول عند الشيخ، والتى بنى عليها نظريته فى حصول العلم، كلها طرق ضعيفة لا تؤدى إلى اليقين. وربما كان «إمام الحرمين الجوينى» (ت. ٤٧٨هـ) أول من رد أدلة العقول عند الشيخ، ثم تابعه الإمام أبو حامد الغزالى (ت. ٥٠٥هـ) بعد ذلك، ثم اطرد هذا النقد فى مدرسة الأشاعرة على وتيرة متصلة، بحيث أصبح الباحث يعرف ـ عند هؤلاء ـ عن نقد نظرية الأشعرى وتضعيفها أكثر مما يعرف عن النظرية ذاتها، ومن هنا كانت معرفة هذه النظرية ـ من خلال كلام الأشعرى ـ خطوة أولى لابد منها قبل متابعة سير هذه النظرية لدى النقاد من التلاميذ.

وربما كان كتاب الأستاذ أبى بكر محمد بن الحسن بن فورك (ت. ٤٠٦هـ): «مجرد مقالات الشيخ أبى الحسن على بن إسماعيل الأشعرى» مصدرًا وحيدًا لإمداد الباحث بمعلومات محددة عما قاله الأشعرى فى هذه النظرية، ومن ثم كان لابد من الاعتماد على هذا المصدر اعتمادًا كليًا؛ نظرًا لأن كتب الأشعرى الأخرى لا تشتمل ـ فى هذا الموضوع ـ على معلومات متكاملة مثل تلك التى اشتمل عليها كتاب «ابن فورك» من روايات الشيخ وأقواله وآرائه.

أما خطوات البحث فى هذا الفصل فقد بدأت ببيان معنى العلم عند الأشعرى، ثم عالجت تقسيم العلم الحادث إلى ضرورى ونظرى، ثم عرضت بعد ذلك لنظرية الشيخ فى مدارك العلوم وهى: الحس والخبر والنظر، ومن موضوع النظر تطرق البحث إلى الأدلة التى يتم بها النظر وهى: دليل قياس الغائب على الشاهد، ودليل السبر والتقسيم، ثم دليل رد المختلف إلى المتفق.

وأخيرًا عرضنا لشروط عامة يشترطها الأشعرى فى عملية النظر وتحصيل العلم.

والله ولى التوفيق.

مصادر أصول نظرية العلم عند الأشعرى

إن الباحث عن عقيدة الشيخ الأشعرى، أو عن مذهبه فى علم الكلام بصفة عامة، يواجه مشكلة لا يستهان بها، تلك هى مشكلة «المصادر الرئيسية» التى تركها الشيخ من بعده، وقد نعلم أن للشيخ الأشعرى مذاهب مفصلة فى كل المباحث الكلامية، سواء منها المباحث الكلامية العامة، أو تلك التى يسمونها «دقيق الكلام» أو «لطيف الكلام»، كمباحث الذرة والأجسام والأعراض، ونظرية المعرفة، وقواعد الحد، وأدب الجدل (٢). وهى مسائل تشكل التأسيسات العقلية لمباحث الإلهيات فى علم الكلام، سواء فيما يتعلق بتقرير هذه المباحث، أو فيما يتعلَّق بالبرهنة عليها. ومذهبُ الشيخ الأشعريّ ـ فى هذا المجال ـ لا يزالُ بحاجة إلى أبحاث كثيرة، تكشِفُ النقاب عن فلسفته

(١) نشر هذا الفصل فى كتيب مستقل بدار الطباعة المحمدية بالقاهرة سنة ١٤٠٧هـ.

(٢) تجد إشارات عديدة إلى فلسفة الشيخ فى هذه المباحث الدقيقة فى: «أصول الدين» لعبد القاهر البغدادى: ٤٠، ٤١، ٤٥، ٥٦ وأيضًا فى «الشامل» لإمام الحرمين: ٣٤٥ وانظر أيضًا البحث القيم للأستاذ Daniel Gimaret بعنوان Un Document Majeur pour L.Histoire Du kAlAma نشر فى مجلة Arabica. Tome xxxll 1985pp.185 -218.

المتميزة في هذه الموضوعات - وهي فلسفة ما ترتاب في أنها شغلت مساحة واسعة من اهتمامات الشيخ وتوجهاته الفكرية نحو بناء متكامل للعقيدة كما يراها، وكما ظلت تنسب إليه عبر أكثر من عشرة قرون من الزمان. والتساؤل الذي يطرح نفسه في هذا المقام، هو: ماذا كتب الشيخ من مؤلفات في هذا المجال؟

وللإجابة على هذا التساؤل: تعرض نصين يعدان - فيما تعتقد - وثيقتين مهمتين تكشفان عن التراث الضخم الذي تركه الشيخ في مختلف العلوم بوجه عام. إحدى هاتين الوثيقتين تشير إلى ما كتبه الشيخ نفسه عن مؤلفاته مما قد نسميه: «فهرسًا»، أحصى فيه الشيخ غالب ما صنفه حتى سنة ٣٢٠ هـ، أي: قبل وفاته بأربع سنوات فقط.

والوثيقةُ الأخرى - وثيقة تكميلية كتبها تلميذُ تلامذته أبو بكر بن فورك (٣)، وأحصى فيها مصنفات الإمام الأشعري في ما بعد سنة ٣٢٠ هـ وحتى تاريخ وفاة الشيخ سنة: ٣٢٤ هـ.

وقد حفظ هاتين الوثيقتين أبو القاسم عليّ بنُ الحسن بن هبة الله بن عساكر (ت. ٥٧١ هـ) في كتابه القيم: «تبيين كذب المفترى فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري».

وفيما يتعلق بالنص الأول، يقول ابن عساكر: «قال: أسامي كتب الشيخ أبي الحسن رضي الله عنه مما صنفه إلى سنة عشرين وثلاثمئة، فإنه ذكر في كتابه الذي سمّاه «العُمَد في الرؤية» أسامي أكثر كتبه، فمن ذلك...» (٤).

وفي ما يتعلق بالنص الثاني، يقول ابن عساكر أيضًا: «قال أبو بكر محمد بن فورك: هذا هو أسامي كتبه التي ألفها إلى سنة عشرين وثلاثمئة، سوى أماليه على الناس، والجوابات المتفرقة عن المسائل الواردات من الجهات المختلفات، وسوى ما أملاه على الناس مما لم يذكر أساميه هنا، وقد عاش بعد ذلك إلى سنة أربع وعشرين وثلاثمئة، وصنف فيها كتبًا منها...» (٥).

ونلاحظ على النصين السابقين: أن ابن عساكر عدد في النص الأول من مؤلفات الأشعري (٦) اثنين وسبعين كتابًا، كما نلاحظ أن ابن فورك يذكر أسامي عشرين كتابًا - عدا المسائل والمجالسات - صنفها الشيخ في الفترة ما بين (٣٢٠ - ٣٢٤ هـ) (٧).

أمّا مصنفات الشيخ الخاصة بعلم التوحيد، فإن ابن عساكر يقولُ عنها: «وقد وجدتُ لأبي الحسن الأشعري - رضي الله عنه - كتبًا كثيرة في هذا الفنّ «التوحيد» وهي قريبة من مئتي كتاب» (٨).

(٣) تلميذ من الطبقة الثانية من تلاميذ الشيخ. انظر: أصول الدين، للبغدادي.
(٤) تبيين كذب المفترى، لابن عساكر: ١٢٨ (مع مقدمة للشيخ محمد زاهد الكوثري).
(٥) م. ن: ١٣٥.
(٦) م. ن: ١٢٨ - ١٣٤.
(٧) م. ن: ١٣٥ - ١٣٦.
(٨) م. ن: ١٤٠، وانظر أيضًا: أصول الدين، لأبي اليسر البزدوي: ٢، ودراسة الأب مكارثي عن الأشعري بعنوان: The Thedogy of al - Ash'ri: ٢١١ - ٢٣٠، وقد وصل بمصنفات الأشعري - اعتمادًا على ابن عساكر - إلى مئة وستين مصنفًا.

ومما يعجب له الباحث المنقب عن آثار الشيخ: أن هذا التراث المترامي الأطراف، والذي كاد يبلغ مئتي كتاب في فن واحد - لم يصلنا منه غير ستة مصنفات فقط، هي:

١ - رسالة الإيمان (٩).

٢ - كتاب الإبانة في أصول الديانة (١٠).

٣ - رسالة استحسان الخوض في علم الكلام (١١).

٤ - رسالة إلى أهل الثغر (١٢).

٥ - كتاب مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين (١٣).

٦ - كتاب اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع (١٤).

على أن هذه المصنفات الستة السابقة لا تمثل - فيما يرى الأستاذ الكبير جيماريه Daniel Gimaret (١٥) - البعد الحقيقي لفلسفة الشيخ، ولا تعكس عمق مذهبه الكلامي كما صورته عناوين هذه السلسلة الطويلة من مصنفاته، أو أجوبته على المسائل، أو أماليه على الناس، بل يذهب الأستاذ - ويحق - إلى أن هذه المؤلفات الستة يصعب اعتبارها مؤلفات رئيسة أو مصادر أمهات لعقيدة الأشعري، وذلك للأسباب الآتية:

١ - إن المؤلفات الأربعة الأولى، وهي: «رسالة الإيمان»، و«كتاب الإبانة»، و«رسالة استحسان الخوض في علم الكلام»، أو «الحث على البحث»، و«رسالة إلى أهل الثغر» - لا يرد لها ذكر لا في قائمة الشيخ ولا في قائمة أبي بكر بن فورك، وهذا وإن كان لا يعني التشكيك في صحة نسبتها، إلا أنه يدل دلالة قوية على أن كلا من الشيخ والتلميذ قد اعتبرها ذات قيمة ثانوية في أهمية المؤلفات، وإلا فكيف يهمل ذكرها إذا كانت ذات شأن يجعلها تقف جنبًا إلى جنب مع المصنفات المذكورة؟!

٢ - وكتابُ المقالات هو أيضًا كتاب ذو أهمية ثانوية، لأنه لا يعني - من بيان فلسفة الشيخ - إلا بسرد إشارات مقتضبة لا تكفي لتكوين بناء متكامل لمذهب كلامي كمثل الذي يُعرف للأشعري.

٣ - ويبقى كتاب اللمع - وهو لا شك

(٩) نشرها المستشرق الألماني ويلهلم سبيتا (Willhelm Spitta) (ت. ١٨٨٣م) ضمن كتابه عن الإمام الأشعري باللغة الألمانية (ص١٣٨ - ١٤٠) سنة ١٨٧٦م، وانظر: البحث السابق لجيماريه (بالفرنسية): ٢٠١.
(١٠) طبع للمرة الأولى بمطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، بحيدر أباد بالهند سنة ١٣٢١ هـ ثم قامت بتحقيقه الأستاذة الكبيرة فوقية حسين محمود ونشرته بدار الأنصار بالقاهرة ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧م.
(١١) طبعت للمرة الأولى بحيدر أباد سنة ١٣٢٣ هـ ثم طبع ثانية سنة ١٣٤٤ هـ وعن هذه الطبعة نشر الأب مكارثي هذه الرسالة مع ترجمتها إلى اللغة الانجليزية ضمن نشرته لكتاب «اللمع» (٨٥ - ٩٩) ثم جاء الأستاذ فرانك فحققها بالاعتماد على عدة نسخ مخطوطة، ونشرها بعنوان: «الحث على البحث» في مجلة الدومنيكان للدراسات الشرقية بالقاهرة، المجلد ١٨ ص١٣٥ - ١٥٢، سنة ١٩٨٨.
(١٢) طبعت للمرة الأولى في تركيا بتحقيق قوام الدين في مجموعة كلية الإلهيات، المجلد ٧ - ٨ سنة ١٩٢٨م، ثم طبعت بتحقيق محمد السيد الجليند بعنوان: «أصول أهل السنة والجماعة، المسماة: «رسالة أهل الثغر» القاهرة سنة ١٩٨٧م.
(١٣) نشره للمرة الأولى بتحقيق: هلموت ريتر Hellmut Ritter، (ت. ١٩٧١م) استانبول ١٩٢٩ - ١٩٣٠م، ثم نشره محمد محيي الدين عبدالحميد بالقاهرة ١٩٥٠، ١٩٥٤م.
(١٤) نشره - مع ترجمته إلى الانجليزية - الأب مكارثي في كتابه السابق: (١ - ٨٣)، ١٩٥٢م، ثم نشره الدكتور حمودة غرابة بالقاهرة ١٩٥٥م.
(١٥) جيماريه، المصدر السابق.

مذكور فى أوائل المصنفات الواردة بقائمة الشيخ، التى نقلها عنه ابن عساكر فى المصدر السابق، ثم هو كتاب قد أحدث ردود فعل متباينة عند مفكرى المعتزلة والأشاعرة على السواء، ويكفى أن نعلم أن القاضى عبدالجبار الهمدانى (ت. ٤١٥ هـ) يعرف له كتاب بعنوان: «نقض اللمع»(١٦)، وأن أبا بكر الباقلانى (ت. ٤٠٣ هـ) يعرف له كتاب بعنوان: «شرح اللمع»(١٧). فضلا عن أن «كتاب اللمع» لا يعدو أن يكون كتيبًا صغيرًا محدودَ المباحث والفصول، بل تكادُ تكونُ أبحاثه قاصرة على إلهيَاتِ علم الكلام، لا تعدوها إلى مجالاته الأخرى.

وإذًا فليس من المعقول فى شئ أن تمثل هذه المصنفات المحدودة - شكلا أو موضوعًا - مذهب الشيخ الأشعرى وفلسفته بأبعادها المتعددة فى علم الكلام، أو فى علم المُناظرة والجدل، أو فى المعقولات بوجه عام - وبخاصة حين تحدثنا المصادر المُوثقة عن المكانة العُليا التى كان يحتلها الأشعرى كإمام من أئمة الدين فى علم الكلام، وتصفه بأنه: «شيخ النظر، وإمام الآفاق فى الجدل والتحقيق»، وأنه كان شجا فى حلوق المعتزلة، وأنه ملأ الدنيا بمؤلفاته ومناظراته(١٨).

إن إماما بهذا الوصف من العلم والمعرفة وبعد الشهرة لا يمكن أبدا أن يتبين مذهبه كاملا من مصنفات ستة، معظمها إما رسائل صغيرة، أو إشارات سريعة، أو معالجات قاصرة على مجالات محدودة من مجالات علم الكلام وبناء على ذلك يصبح البحث عن مذهب الشيخ - بصورة متكاملة، أو شبه متكاملة قدر الإمكان - رهنا بمصادر أخرى إلى جوار هذه المصادر المعروفة التى ذكرناها آنفًا.

وهنا تجدُر الإشارة إلى مصنف بعنوان: «مُجرد مقالات الشيخ أبى الحسن على بن إسماعيل الأشعريّ» من إملاء الإمام أبى بكر محمد بن الحسن بن فورك(١٩) هذا المصنف وإن لم يكن من تأليف الشيخ الأشعرى نفسه، أو مما كتبه أو أملاه على الناس، إلا أنه يعد مصدرًا مهمًا لمذهب الشيخ وآرائه ودقائق فلسفته وعلمه، سواء ما تعلق بعلم الكلام، أو بعلم الجدل، أو بأصول الفقه والمتصفح لهذا الكتاب يطالعه عرض موجز أو مفصل لمذهب الشيخ فى أدق المسائل الكلامية والأصولية والجدلية، نذكر منها - على سبيل المثال لا الحصر مفهوم العلم - مدارك العلوم - دلائل العقول - الصفة والوصفَ والموصوف - الكسبَ - التوليدَ - اللطفَ - الصلاحَ والأصلحَ - الآجالَ - الرزق - التعديل والتجوير - النفى والإثبات - الترك - الأكوانَ - المعدوم

(١٦) انظر المغنى: ٦ (القسم الثانى) ٧١،٧٢/ ٩١، ١٤٨، ٨/ ٣٢، وانظر أيضا جيماريه، المصدر السابق.
(١٧) الشامل، لإمام الحرمين الجوينى: ١٢٣.
(١٨) أصول الدين، للبغدادى: ٣٠٩.
(١٩) مخطوط بمكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة تحت رقم (اللوحة: ٢٥٣ توحيد) وقد حصلت على نسخة مصورة من هذا المخطوط، واعتنى بتحقيق، ونشره نشرة علمية نقدية الأستاذ «دانيال جيماريه» أستاذ علم الكلام بالدراسات العليا بالسوربون، وطبعه سنة ١٩٨٧م ببيروت.

- المعرفة - الروح - الإدراك - التضاد - التشابه والاختلاف والتغير - الكمون والظهور - الخلاء والملاء - المكان - الاعتماد - آداب الجدل وقواعده - الاستشهاد بالشاهد على الغائب. والذى يعنينا فى بحثنا هذا من هذه المفاهيم هو معنى «العلم» وما يتعلق به من أبحاث كلامية كانت - ولا تزال - مثار تأمل عميق ونظر فلسفى فى تاريخ علم الكلام ومدارسه وأئمته.

معنى العلم

والعلم عند الأشعرى هو: «ما به يعلم العالم المعلوم». وهذا التعريفُ يلتزمُه الشيخ ويكرره فى كثير من كتبه كما يقول ابن فورك(٢٠)، ومعنى هذا التعريف هو: أن العالم لا يعلم المعلومات بذاته أو بنفسه، وإنما يعلمها بأمر آخر مغاير لذاته، وهذا الأمر الآخر هو ما يسمى: «العلم»، فالعلم هو الصفة أو الأمر الذى به يعلم العالم المعلوم.

ومن هذا المنطلق يرى الشيخ أن الوصف بالمشتق يثبت أصل الاشتقاق لمن قام به هذا الوصف، أى أن الوصف بعالم أو قادر يثبت أصل الاشتقاق الذى هو المصدر، وهو: علم وقدرة، للذات التى اتصفت بعالم وقادر، وذلك لأن ثبوت مصدر الاشتقاق أو أصل الاشتقاق هو «العلة» التى تسوغ الوصف، ومن هنا كان العالم عالما بسبب مصدر الاشتقاق الذى هو: «العلم»، لا بسبب ذاته أو بسبب أية علة أخرى غير هذا الأصل الذى هو المصدر.

وعلى هذا الأساس وصف الشيخ العلم بأنه: «السبب أو العلة التى يعلم بها العالم المعلومات»(٢١).

وقد أنكر الشيخ(٢٢) تعريف أوائل المعتزلة العلم بأنه «اعتقاد الشىء على ما هو به»(٢٣)، لأن المقلد يعتقد فى ثبوت الصانع، ويصدق على تقليده هذا أنه اعتقاد للشىء على ما هو به، مع أن التقليد شىء والعلم شىء آخر، فيكون دليل المعتزلة غير مانع، وهو مما يفسد التعريف(٢٤) على أن الاعتقاد دائما ما يطلق على العلم تجوزا، إذ لا ضرورة فى أن يكون الاعتقاد علما، بل قد يتحقق الاعتقاد بدون معنى العلم، وبدون الاتصاف به.

وعند الأشعرى لا فرق بين معنى «العلم»

(٢٠) مجرد مقالات الشيخ أبى الحسن الأشعرى، لابن فورك (اللوحة ١/أ) ١٠.
(٢١) م.ن.
(٢٢) كما فى المجرد، لابن فورك (اللوحة ١/أ) ١١.
(٢٣) انظر المغنى: ١٢/ ١٣، وشرح الأصول الخمسة، للقاضى عبدالجبار ٤٦ هذا ويذكر إمام الحرمين الجوينى أن متأخرى المعتزلة زادوا فى تعريف العلم قولهم: «العلم هو اعتقاد الشىء على ما هو به مع توطين النفس إلى المعتقد إذا وقع ضرورة أو نظرا» (كتاب الإرشاد ١٣)، وذلك للخروج من الاعتراض الأشعرى على تعريفهم الأول. غير أن الجوينى لم يرتض أيضا هذا التعريف الثانى، لأنه قيد فى الاعتقاد بأنه اعتقاد فى شىء وهذا القيد يخرج العلم باستحالة شريك البارى، والعلم بالمستحيلات والعلم باستحالة اجتماع المتضادات، فكل هذه علوم ولكن ليست علوما بأشياء ولا بموجودات بل هى علوم بأعدام يستحيل وجودها أو تشيؤها وإذا فاشتمال التعريف على قيد «الشىء» يخرج بعض أفراد المعرف، فتعريف متأخرى المعتزلة للعلم غير جامع، كما كان تعريف الأوائل غير مانع ولا يقال إن هذا الاعتراض لا يلزم المعتزلة لأنهم قائلون بشيئية المعدوم، وذلك لأن الشىء عندهم هو المعدوم القابل للوجود أو الذى يصح وجوده، والعلوم الثلاثة - الأمثلة - أعدام لا يصح وجودها، فقد شذت علوم عن الحد، كما يقول الجوينى (م. ن ١٣).
(٢٤) انظر شرح المواقف للشريف الجرجانى: ١/ ٦٩، (ط. السعادة).

ومعنى كل من اليقين، والفهم والدراية والفقه والفطنة، فكل ذلك عنده بمعنى العلم وهي مترادفات على معنى واحد، كما يتبين من مذهبه الذى يحكيه ابن فورك(٢٥).

وكذلك يسوى الأشعرى بين معنى «العلم» من ناحية ومعنى العقل والمعرفة من ناحية أخرى، مستدلا على ذلك بما ذهب إليه أهل اللغة من أنه لا فرق بين قول القائل: «عقلته وعرفته وعلمته» وأنهم يحيلون قول القائل: «عقلته ولم أعلمه» أو «علمته ولم أعقله» أو «عرفته ولم أعلمه» «فكما تبين بذلك أن العلم والمعرفة معناهما واحد، فكذلك تبين بمثله أن العقل والعلم معناهما واحد»(٢٦)، والذى يطلق على الله تعالى من بين هذه المعانى للعلم فى مذهب الأشعرى هو «العلم» فقط دون سائرها، وكان لا يسمى علم الله بالعقل، ولا يوصف الله عنده بأنه عاقل أو عارف أو دار أو فطن أو فقيه.

وإذا كان الإمام الأشعرى قد سوى بين معانى هذه الأسماء فقد كان مقتضى القياس أن تتساوى كل هذه المعانى فى جواز اتصاف الله تعالى بها مادامت قد اتحدت فى المعنى، وذلك لأن حكم الأمثال فيما يجوز وما لا يجوز واحد، فكيف صح هذا الاستثناء لدى الأشعري؟

إن هذا الاستثناء يستند عنده إلى مبدأين ثابتين:

الأول: أن الله تعالى اختص نفسه باسم العلم دون باقى الأسماء المذكورة، وقد أجمعت الأمة على ذلك.

والثانى: أن الأسماء والصفات فى جواز إطلاقها على الله تعالى وعدم جوازها، مردّه للتوقيف وليس للقياس(٢٧)، أى الوقوف عند حدود ما ورد فى الشرع، فما ورد من ذلك فى الشرع صح إطلاقه، وإلا فلا، وهذا ما عبر عنه الإمام الجوينى بقوله: «ما ورد الشرع بإطلاقه فى أسماء الله تعالى وصفاته أطلقناه، وما منع الشرع من إطلاقه منعناه، وما لم يرد فيه إذن ولا منع لم نقض فيه بتحليل ولا تحريم، فإن الأحكام الشرعية تتلقى من موارد السمع»(٢٨). هذا التأصيل الأشعرى، المستند إلى التوقيف بدلاً من قياس العقل هو الذى صحح للأشعرى أن يفرق بين الأمثال فى الحكم الواحد، والإطلاق الواحد، وهذا على خلاف ما يذهب إليه المعتزلة فى مسألة إطلاق الأسماء والصفات على الله تعالى، فهم وإن كانوا يمتنعون من إطلاق كثير من المعانى - التى منعها الأشعرى - إلا أن منطلقهم يختلف جذريًا عن منطلق الأشاعرة فى هذه المسألة فعند المعتزلة أن القياس العقلى هو الذى يصحح الإطلاق أو لا يصححه، فإذا كان معنى الاسم يثبت فى الأصل لله تعالى ولا يلحق به نقصًا صح إطلاقه، والعكس صحيح. وهم حين يمتنعون إطلاق الفطنة

(٢٥) المجرد: (اللوحة: ١/أ) ١١.
(٢٦) المجرد: (اللوحة: ١٣٧/ب) ٢٨٤.
(٢٧) م. ن. «اللوحة: ١/أ، ١٣٧/ب»، ١١، ٤٤، ٢٤٨.
(٢٨) الإرشاد للجويني: ١٤٣.

والعقل والفهم وغيرها، على الله تعالى، فليس ذلك لأن الشرع لم يرد بهذا الإطلاق، ولكن لأن معانى هذه الألفاظ لا تتساوى مع معنى «العلم» فهى ليست أمثالا ولا مرادفات للعلم، وذلك لما تقتضيه معانى هذه الألفاظ من سبق الجهل، واكتساب للعلم وتحصيل له بعد عدم، وكل هذا مما لا يليق بذاته تعالى، فيستحيل - عقلًا - اتصافه بأى منها، ولعل هذا ما دفع شيخ المعتزلة: «الجبائى» إلى القول بجواز إطلاق وصف «عالم» و«عارف» و«دار» على الله تعالى، بعدما تبين له أن الأوصاف الثلاثة متساوية المعنى.

وأن معنى «عارف» و «دار» كمعنى «عالم» ومعناهما يثبت لله تعالى ويليق به، لكنه يمنع إطلاق بقية الأسماء كالفهم والفطنة والفقه والاستبصار والاستبيان، لأن هذه الأسماء تقتضى - كما قلنا - سبق الجهل أو عدم العلم، فلا يثبت معناها فى حق الله تعالى. وهكذا كل اسم يليق معناه بذاته تعالى من جهة العقل أو القياس، يجوز أن يشتق منه وصف تتصف به الذات حتى وإن لم يرد به سمع أو لم تجمع الأمة عليه.(٢٩)

وعند الأشعرى أن معنى العلم لا يقتصر على الإدراك العقلى وينحصر فيه، بل يتعداه إلى الإدراك الحسى كذلك، وبناء على هذه النظرة تكون الرؤية الحسية علما بالمرئى، كما يكون السمع علما بالمسموع، أى: يكون الحس علما بالمحسوس. غير أن «ابن فورك» لا يرتضى هذا القول، ويرجع قولا آخر ذكره الأشعرى فى بعض كتبه، خلاصته: أن العلم ليس هو الإدراك، بل الإدراك معنى زائد على العلم، وهو يختص بإدراك الحواس لمحسوساتها، وكان الأشعرى يفرق عند الإنسان بين علم يتعلق بالمعلومات العقلية، وإدراك يتعلق بالمدركات الحسية، أما فى الجانب الإلهى فهناك العلم الأزلى بجميع المعلومات، وهناك أيضًا الإدراك الأزلى لجميع المدركات.

وفيما يتعلق بإدراكاتنا، فإن الأشعرى يشترط فى عملية الإدراك وجود المُدرِك والمُدرَك وحياة المُدرِك، أما الشرائط الأخرى من انفتاح العين مثلًا، واتصال الضوء، وقرب المرئى، فإنها ليست شروطا ضرورية، ولا عللا حتمية فى حصول الإدراك، بل هى ليست أكثر من أمور عادية جرت العادة بحدوثها عند حصول الإدراك.(٣٠)

يقول ابن فورك فى نقل مذهب «الشيخ» فى هذا الموضوع: «أعلم أنه كان يقول: إن المُدرَك لا يصح أن يكون مُدركًا إلا بإدراك هو معنى موجود قائم به شاهدًا وغائبًا، وإنه هو معنى زائد على العلم، وليس هو نفس العلم، وكان يسوى بينه وبين البصر ويقول: إن إبصار المرئيات إدراكها. وكان يقول: «إن الإدراك يتعلق بالموجود، وإن المُدرِك منا يدرك كل مُدرَكٍ بإدراك، والبارى تعالى مُدرِكٌ لجميع المدركات بإدراك أزلى، كما هو عالم بعلم أزلى.. وكان يقول: إن

(٢٩) راجع: مقالات الإسلاميين للأشعري: ٥٢٦ والمغنى للقاضي عبدالجبار: ٥/٢٢١، وأصول الدين للبغدادي ١١٦، ولوامع البينات للرازي: ٤٠.
(٣٠) م. ن. (اللوحة: ١٢٢/أ - ب) ٢٦٣.

وجود الإدراك لا يقتضى أكثر من وجود المُدرِك والمُدرَك وحياة المُدرِك، وإن الإدراك الذى يحصل فى أحدنا بشريطة فتح العين واتصال الضوء وحضور المرئى وقربه، ليس ذلك شروطًا لازمة وأسبابًا موجبة، ولكنها مما جرت العادة بفعلها عند حدوث الإدراك لها.. وكان يقول: «يجوز أن يخلق الله تعالى العلم باللون فى قلب الأعمى»(٣١).

ومن هذا النص يتبين أن الإدراك - عند الأشعرى - لا يسمى علمًا، بل هو أمر آخر غير العلم، وهو عند الإنسان مما ينتمى إلى معنى الحواس والمحسوسات ومن أجل ذلك أنكر الأشعرى قول المعتزلة: «إن الإدراك هو العلم بالمُدرَك»(٣٢) ومن أجله أيضا كانت تفرقته بين الإدراك والرؤية فى مبحث جواز رؤية الله تعالى.

وعند الشيخ أن الإدراك إذا كان يتعلق بالمحسوسات فهو - إذا - مما يختص بالموجودات فقط دون المعدومات، أى: لا يصح أن يتعلق الإدراك عنده بالمعدوم. وهذا فرق آخر بين العلم وبين الإدراك من حيث طبيعة «التعلق» فى كل منهما، فإذا كان العلم يتعلق بالموجود وبالمعدوم على السواء، فإن الإدراك لا يتعلق إلا بالمُدرَك الموجود فقط. ونلاحظ أن الشيخ لا يجوز أن يدرك مدركان بإدراك واحد.

وكذلك لا يتعلق العلم الواحد بمعلومين، وهذا أمر منطقى إذا أخذنا فى الاعتبار أن العلم والإدراك هما من قبيل الأعراض عند الشيخ، ومن حكم الأعراض والجواهر - عنده - استحالة وجودها فى محلين أو فى مكانين معًا.

والتعريف السابق للعلم يطرد - فيما يرى الأشعرى - شاهدًا وغائبًا، أى: كما يقال فى العلم الحادث: «إنه ما به يعلم العالم المعلوم» كذلك يقال هذا التعريف نفسه بالنسبة للعلم القديم.

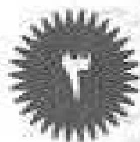
وقد عول الأشعرى على هذا التعريف فى إثبات الصفات لله - تعالى - وفى إثبات زيادتها على الذات أيضا، فما دام التعريف السابق يثبت أصل الاشتقاق لمن قام به الوصف: أى يثبت «العلم» لمن قام به وصف عالم، فكذلك يطرد القول فى كل وصف آخر مثل: قادر ومريد وسميع ومتكلم، ويثبت تبعًا لذلك صفة القدرة والإرادة.. الخ.

على أن ثبوت الصفة لمن قام به الوصف يقتضى - لا محالة - مغايرة بين الصفة التى تقوم بالذات وبين الذات التى يثبت لها هذه الصفة، ومعنى هذا ألا يكون سبب العلم فى العالم هو ذات العالم، أى: لا يعلم المعلومات بذاته، وإنما بصفة مغايرة لذاته وزائدة عليها هى: صفة العلم. وهذا القول - كما سبق - مطرد فى كل عالم شاهدًا وغائبًا، وهو يثبت زيادة الصفة على الذات ومغايرتها لها فى الشاهد والغائب على السواء.

يتبع

(٣١) م. ن. اللوحة: ١٢٧/ب - ١٢٨/أ، ٢٦٣ - ٢٦٤
(٣٢) مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين للأشعرى ٢/١٠٥.

القصة والأمثال فى القرآن الكريم





الأستاذ الدكتور محمد المختار محمد المهدى
عضو جماعة كبار العلماء

فهم السياق

أما ضرورة فهم السياق فيتضح فى قوله سبحانه وتعالى:

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾

(البقرة: ٢٥٦)

وقوله عز وجل:

﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾

(الكهف: ٢٩)

فإذا اقتطعنا هاتين الجملتين من سياقهما كان الكفر مباحا، لكن حينما نقرأ ما قبلهما وما بعدهما سنفهم المقصود، ففى الآية الأولى يتبعها بيان بعاقبة المؤمن والكافر:

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦) اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

(البقرة: ٢٥٦، ٢٥٧).

وفى الثانية يعقبها قوله تعالى:

﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (٣٠) أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾

(الكهف ٢٩، ٣٠، ٣١)

وإذن فالآيتان مسوقتان للتحذير من الوقوع فى الكفر والتبشير لمن آمن وعمل صالحا.

وكثيرا ما نستدل على فضل العلم بقوله سبحانه وتعالى:

﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾

(الزمر: ٩)

غير أننا حين نقرأ الآية من أولها إلى آخرها سيكون هناك معنى آخر، إذ يقول سبحانه وتعالى:

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾

(الزمر: ٩)

فالعلم المقصود في الآية هو ما دفع صاحبه إلى العمل، فقنت بالليل، وسجد، لأنه علم الجزاء، فهنا لا يستوى من يعلم ومن لا يعلم، فالذى تقصد الآية تفضيله هو يعلم ويعمل بعلمه، أما من يعلم ولا يعمل فالجاهل أحسن منه إذن فهم الآيات لابد أن نلاحظ فيه السياق وسبب النزول إذا وجد.

حينما نتحدث أيضا عن السياق بمعنى أنك تبحث عن الجملة وما قبلها وما بعدها حتى تفهم لماذا جاءت؟ وما موقعها في هذا؟ وما سبب نزولها؟ نجد مثلا قوله تعالى:

﴿ قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾

(الأنعام: ١٤٥)

فى هذه الآية الكريمة توقف الإمام مالك والإمام الشافعى فى فهمها، قال الإمام مالك: حصر القرآن الكريم المحرمات من الأطعمة فى هذه الأربعة ووردت أيضا فى آيات كثيرة:

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾

(النحل: ١١٥)

فقال الإمام مالك: إذن ليس هناك شيء محرم من الأطعمة إلا هذه الأربعة بمقتضى القصر لأن الله حصر المحرمات فى هذه الآيات، والإمام الشافعى رضى الله عنه كان يصلى صلاة الليل متهجدا وهو مشغول بهذه الآية من حيث إن النبى ﷺ حرم الحمر الأهلية وحرم كل ذى ناب من السباع وكل ذى مخلب من الطيور، فكيف نحصر الأربعة فى الآية؟ وماذا نفعل فى أحاديث رسول الله ﷺ؟ هذه القضية كانت تشغل ذهن إمامنا الشافعى رضى الله عنه وفتح الله عليه وهو فى الصلاة واهتدى إلى الحل، من أين أتاه الحل؟ أتاه من علم البلاغة يقول: هناك قصر إضافى وهناك قصر حقيقى حينما أقول: لا إله إلا الله هذا قصر حقيقى، ليس هناك إله لا من البشر ولا من الحجر ولا من هنا ولا من هناك سوى الله عز وجل، فهذا قصر حقيقى، أما حينما يحضر عالمان فأفضل عالما على آخر فأبالغ وأقول: ما العالم إلا فلان!! هل هذه حقيقة؟ إن الثانى عالم أيضا كل ما فى الأمر أنك قارنت وأضفت هذا إلى الثانى، يعنى فلان هو العالم بالنسبة لفلان الذى سمعت، فهذا يسمى قصرا إضافيا، اهتدى الإمام الشافعى إلى حل هذه المعضلة بهذه القاعدة.

فأشار إلى السر فى اقتصار القرآن على هذه الأربعة بأنها كانت محل جدل بين المسلمين والكفرة حيث كانوا يقولون: أتحلون ما ذبحتم وتحرمون ما قتل الله؟ وكيف تحرمون لحم الخنزير مع أنه لا يختلف عن لحم الأنعام وكيف تحرمون الدم المسفوح مع أنه خلاصة الغذاء، وكيف تحرمون ما ذبحناه لآلهتنا تبركا بها؟ فجاءت هذه الآيات لتقول: إن ما ادعيتم حله هو الحرام بعينه.

التفسير بالأثر

ورد عن رسول الله ﷺ تفسيرات لبعض ما غمض من القرآن على الصحابة وقد عقدت لذلك أبواب فى كتب الصحاح فهذا يسمى تفسيرًا بالأثر، ومنها ما جاء عن الصحابة ثم ما جاء عن التابعين، وقد ورد فى هذا حديثان، الحديث الأول: «من قال فى القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ»(١) يعنى من قال برأيه الذى لم يعتمد على العلم وأدوات فهم كتاب الله عز وجل أى أنه ليس لديه علم مثلما جاء فى حديث القاضى، إذا قضى القاضى فى قضية، وليس عنده علم بالقضاء وجاء حكمه صحيحا هل يعفى من المسئولية؟ لا، هو فى النار مثل الذى حكم بغير ما يعلم، هما الإثنان فى النار، أما من فى الجنة فالقاضى الذى يعلم، ويحكم بما يعلم هذا هو الذى فى الجنة، وهذا فى قوله سبحانه وتعالى «القضاة ثلاثة: قاضيان فى النار، وقاض فى الجنة: قاض عرف الحق فقضى به فهو فى الجنة وقاض عرف الحق فجار متعمدا فهو فى النار وقاض قضى بغير علم فهو فى النار»(٢) فكذلك هنا من يقول فى القرآن برأيه بدون أن يكون له من الأدوات والعلم ما يعتمد عليه فى هذا الرأى يكون قد أخطأ وإن أصاب، والحديث الآخر عن السيدة عائشة تقول فيه: «إن النبى ﷺ كان لا يفسر شيئا من القرآن برأيه إلا آيا بعدد علمه إياهن جبريل»(٣).

ومعنى هذا أنه وحى من الله عز وجل فى تفسير هذه الآيات، ويأتى هنا سؤال: هل كانت تفسيرات النبى للقرآن فى أبواب التفسير من كتب السنة بوحى من الله؟ قال أهل العلم: لا، هذا فى المغيبات فقط يعنى أنه لا يتكلم عن عالم الغيب فى التفسير إلا بعد أن يعلمه إياها سيدنا جبريل.

أوقاف القرآن

الوقف مهم جدًا فى إبراز المعنى ولذلك حديث الأحرف السبعة أشار إلى أهمية الوقف، قال النبى ﷺ لأُبى بن كعب: «يا أُبى أُرسل إلىَّ «أن أقرأ القرآن على حرف فرددت إليه أن هون على أمتى، فرد إلىَّ الثانية اقرأه على حرفين، فرددت إليه أن هون على أمتى، فرد إلىَّ الثالثة اقرأه على سبعة أحرف فلك بكل ردة رددتكها مسألة

(١) رواه الترمذى (٢٩٥٢)، كتاب تفسير القرآن، باب الذى يفسر القرآن برأيه، من حديث عبدالله بن مسعود رضى الله عنه، وقال أبو عيسى: هكذا روى عن بعض أهل العلم من أصحاب النبى ﷺ وغيرهم أنهم شددوا فى أن يفسر القرآن بغير علم، وقال: وفيه سهيل بن أبى حزم، وقد تكلم أهل الحديث فيه.

(٢) رواه الحاكم فى المستدرك ٤/١٠١، كتاب الأحكام، من حديث عبدالله بن بريدة عن أبيه، وقال صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

(٣) رواه أبو يعلى فى مسنده ٨/٢٣، عن عائشة، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد ٦/٣٣١: فيه راو لم يتحرر اسمه، وبقية رجاله رجال الصحيح.

تسألنيها، فقلت: اللهم اغفر لأمتى، اللهم اغفر لأمتى، وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلىّ الخلق كلهم حتى إبراهيم ﷺ»(٤)

ماذا يعنى الحديث بكلمة تخنم هنا؟ إنه يتكلم عن الوقف ـ ففى سورة غافر قوله تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ۝٦ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ﴾

(غافر: ٦، ٧)

لو وصلت الآيتين ووقفت على كلمة العرش تكون قد أدخلت الملائكة جهنم، ومن هنا لابد من إدراك مواضع الوقف وأنت تقرأ القرآن، واحتياطًا أو تسهيلًا وتيسيرًا نلتزم بالعلامات الموجودة فى القرآن وهى:

(قلى، صلى، ج، م) فـ(قلي) يعنى الوقف أولى أى أن الوقف هنا أحسن، و(صلي) يعنى الوصل أولى، و(م) يعنى الوقف لازم مثل قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾

(الأنعام: ٣٦)

لو وقفت على «يسمعون والموتى» فقد حكمت على الموتى بأنهم يسمعون ويستجيبون، ثانيًا لا يصح أن تقف على بعض الجملة وتترك البعض الآخر، يعنى مثلا حين تقرأ:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ﴾

(المائدة: ٦٤)

ووقفت ثم بدأت تقول: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾، هل أنت الذى تقول ذلك أو اليهود؟ وحين تقول:

﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾

(الماعون: ٤)

وتقف قاطعًا كلامك تكون بذلك قد توعدت المصلين بالويل، لذلك لابد فى الوقوف من مراعاة المعنى، ولذلك القراء العشرة سبعة منهم يقفون حيث ينتهى المعنى وثلاثة يلتزمون الوقوف على نهاية الآيات ـ الفواصل ـ ونسمع من قراء كثيرين يقول لك أحدهم: الوقوف على رؤوس الآى سنة، ومعنى أنك تقول إنها سنة يصير من لا يقف على رأس الآية مبتدعًا ومعنى هذا أيضًا أنك تحكم على سبعة من القراء بالبدعة مع أن ثلاثة فقط هم الذين يقفون على رؤوس الآى، ومنهم ابن كثير وأبو عمرو، ولذلك نصحح المعلومة بأن الوقوف على رؤوس الآى مطلوب إلا إذا أدى إلى تغيير المعنى، يعنى مثلا فى آية:

﴿أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ﴾

(الصافات: ١٥١)

وهى رأس آية فلو بدأت بقولك:

﴿وَلَدَ اللَّهُ﴾

(الصافات: ١٥٢)

كنت مقررًا لله الولد ـ تعالى الله عن ذلك

(٤) رواه البخاري (٤٧٠٥) كتاب فضائل القرآن، باب أنزل القرآن على سبعة أحرف، من حديث ابن عباس ولفظه: «أقرأني جبريل على حرف فراجعته فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف»، ومسلم (١٩٤١) كتاب صلاة المسافرين، باب بيان أن القرآن على سبعة أحرف، وبيان معناه، من حديث أبي بن كعب.

علوًا كبيرًا ـ ومثلها فى قوله تعالى:

﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾

(الماعون: ٤)

وهى رأس آية إذن لابد من مراعاة المعنى حين نقف ولذلك قسم العلماء الأوقاف إلى: وقف تام، ووقف كاف، ووقف حسن، ووقف قبيح.

تفسير الاستعاذة

يأمرنا القرآن بقوله:

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾

(النحل: ٩٨)

فالاستعاذة مطلوبة من المسلم حين يقرأ القرآن من أى موضع أراد القراءة، سواء كان من أول سورة، أو من داخلها، لأن الأمر هنا عام ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ﴾ وليس مقصود الآية الاستعاذة بعد القراءة، فالفعل ﴿قَرَأْتَ﴾ هنا وهو فعل ماض ـ يعنى: إذا أردت القراءة، وهذه قاعدة مهمة فى اللغة، وكذلك قوله:

﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ﴾

(الطلاق: ١)

فما دام الزوج قد طلق فهل يطلب منه أن يطلق مرة أخرى؟ ولكن المعنى المراد: إذا أردتم تطليق النساء فطلقوهن، وكذلك الأمر فى الآية:

﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا﴾

(المائدة: ٦)

فهل تعنى الآية أن نتوضأ بعد أن نقوم للصلاة؟!، أم نتوضأ قبل الصلاة؟!

وللاستعاذة ثلاث صيغ: الصيغة المشهورة: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) والثانية: (أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم)، والثالثة: (أعوذ بالله القوى من الشيطان الغوي)، وهنا نلحظ أنه على خلاف نسق التحدث بلسان الجمع الذى نسير عليه فى قراءتنا لسورة الفاتحة:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾

(الفاتحة: ٥: ٦)

تأتى صيغة الاستعاذة بالإفراد: (أعوذ)، وذلك لأن الآية التى تضمنت الأمر بالاستعاذة تخاطب المفرد: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ﴾ وامتثالًا لأمر الله فى الآية نقول: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم).

(أعوذ): أى ألجأ وألتجئ إلى الله عز وجل أن يعيننى على هذا الشيطان وغوايته، وللاستعاذة أهميتها العظيمة، وفائدتها الكبيرة، وتستمد تلك الفائدة من اللجوء إلى الله سبحانه وتعالى خالق السماوات والأرض وبارئهن، وهو قادر على أن يقى الإنسان ويحميه من وساوس هذا الخناس، وقد أدركت ذلك امرأة عمران، واتخذتها تحصينًا لابنتها، فقالت:

﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾

(آل عمران: ٣٦)

وورد عن النبى ﷺ أنه قال: «ما من بنى آدم مولود إلا يمسه الشيطان حين

يولد فيستهل صارخًا من مس الشيطان غير مريم وابنها ثم يقول أبو هريرة:

﴿ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾(٥).

وكان اللجوء إلى الله من الشيطان بالذات، لأن مكائده وحيله لا يكاد ينجو منهما أحد إلا بفضل الله وبرحمته، قال سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾

(النساء: من الآية ٨٣)

وقال:

﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ﴾

(النور: ٢١)

وذلك لأن الشيطان له من الحيل والأساليب ما يستطيع بها أن يتغلب على ذوى العقول وأصحاب الفطنة، كما أنه يملك من الأساليب ما يعجز عنها كل عبقرى، ولا يقدر على الشيطان إلا خالقه، لذلك وجب على المسلم - إذا أراد أن يتقى مكائد ووساوس الشيطان - أن يلجأ إلى ذى القوة والحول رب العزة سبحانه وتعالى.

وبنظرة متأملة فى سورتى المعوذتين نجد أن سورة (الفلق) ذكرت من صفات الخالق عز وجل صفة واحدة، هى:

﴿ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ﴾

(الفلق: ١)

ليستعيذ بها:

﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾

(الفلق: ٢ - ٥)

صفة واحدة من صفات الله: ﴿ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ﴾ نستعيذ بها من أربعة أشياء، أما فى سورة الناس:

﴿ قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ﴾

(الناس: ١ - ٤)

نستعيذ بثلاث صفات من صفات الله عز وجل: ﴿ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾، ﴿ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴾، و﴿ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴾ من شىء واحد هو الشيطان، لأنه يوسوس فى صدر الإنسان، أى يوسوس إلى الإنسان من داخله، فيتداخل على المرء ما يوسوس به الشيطان: أهو رأيه وما وصل إليه إلا بذكائه؟!، أم هى وساوس من الشيطان؟! وإذا كانت وساوس فكيف تصدر من داخل صدره؟! فيرتبك المرء ويحتار، وإن لم يلجأ ويحتم برب الكون ومليكه، فلا ملجأ له ولا حمى سواه، لذلك يرشدنا الله عز وجل إلى الركن الشديد لكى نأوى إليه اتقاء من ذلك العدو الذى لا قبل لنا وحدنا به، قال سبحانه وتعالى:

﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾

(المؤمنون: ٩٧)

(٥) أخرجه البخارى (٣٢٤٨)، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: واذكر فى الكتاب مريم، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

وقال:

﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾

(فاطر: ٦)

عداوة قائمة وحرب ضارية مستعرة مستمرة إلى يوم القيامة، أقسم على استمرارها عدو عنيد لا يعرف اليأس إليه طريقًا:

﴿ لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾

(الأعراف: ١٦)

قاعد هو فى طريق الخير، ملازم له، يزين المعصية، ويكره إلى المسلم الطاعة، له فى الغواية والإضلال مراتب ودرجات، مستعينًا على ذلك بخطوات ومراحل، يضع كل فرد فى درجته المناسبة، ومرتبته اللائقة به، يعرف مستلزمات كل درجة، وخطوات كل مرتبة، هدفه الأسمى أن يجعل من المسلم كافرًا، ومن الشاكر جاحدًا، ومن المطيع عصيًا، فإن لم يستطع فهو بما دون ذلك منه قانع، آملًا أن يصل به صعودًا على درجات الغى إلى الكفر بالله - نعوذ بالله من ذلك.

ولو كان يقتصر على وسائل الغى والضلال والسيئات فحسب، لكان الأمر هينًا، لكنه - بمكره وخبثه - اتخذ من الطاعات والعبادات ذخيرة احتياطية، فإذا تأبى عليه المسلم فى اقتراف السيئات والموبقات زين له الطاعات، وجعله يجتهد فى العبادات، ثم يقذف فى قلبه نفاقًا، رياءً، أو عجبًا، استكبارًا فيضيع عمله هباء منثورًا، فيجلب عليه خسران الدنيا والآخرة.

إن الشيطان عليم بأسرار النفس الإنسانية ومداخلها، ويعلم مدخل كل واحد، فوسوسته ليست واحدة لكل الناس، فوسوسته للعالم تختلف عن وسوسته لقليل الحظ من العلم، وتختلف عن وسوسته لعديم الحظ منه، ووسوسته للمنقطع للعبادة تختلفة عن وسوسته للمنقطع عنها.

وإذا بحثت فى معنى كلمة (شيطان) ستجد من (شطن)، أو من (شاط): من (شطن) يعنى (بعد) عن رحمة الله، فهو لعين ومطرود.

أو من (شاط) بمعنى (هاج) واحترق، وهيج غيره.

وورد عن النبى ﷺ أنه لما لقى رجلًا اشتد غضبه قال: «إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم».

و«الرجيم» يعنى المرجوم، أى الملعون، أو هو (الراجم) الذى يرجم الإنسان بوسوسته فى صدره، كلاهما - (رجيم) بمعنى (مرجوم) و(رجيم) بمعنى (راجم) - صحيح محتمل، والواجب علينا أن نستعيذ بالله دائمًا من هذا الشيطان فى كل أعمالنا، ونتوجس منه خيفة، لأنه عرف مصيره فى جهنم، ويريدنا معه.

يتبع

أبعاد جديدة لمقاصد الشريعة:

مقدمات في مقاصد الشريعة (٢)

أ. د. عبدالمجيد النجار

٤- مسالك العلم بمقاصد الشريعة

إذا كانت مقاصد الشريعة أمرا ثابتا كما بيناه ، فإن المشكلة التي تعترض الباحث فيها للاستفادة منها في الاجتهاد الفقهي هي : كيف يمكن أن تعرف تلك المقاصد ، سواء ما كان منها عامًا أو ما كان خاصًا أو جزئيًا ؟ وكيف يمكن تحصيل يقين أو ظن بأن هذا النوع من الأحكام أو هذا الحكم العيني إنما وضعه الشارع لهذا المقصد أو ذاك ؟ وكيف يمكن الفصل بين ما هو مقصد حقيقي للشارع وضع من أجله الأحكام وبين ما قد يكون مقصدا موهوما ينتهي إليه بعض الباحثين لسبب أو آخر من الأسباب ؟

وتعتبر هذه المشكلة مشكلة التعرف على مقاصد الشريعة من أخطر المشكلات في هذا الباب ، وذلك لأن تعيين المقصد الشرعي يترتب عليه تعيين الأحكام بالفهم من نصوصها أو باستنباطها بالقياس والمصلحة ، وكذلك تنزيلها على الواقع ، فإذا ما داخل تعيين تلك المقاصد خلل أو وهم لحق الخطأ بالأحكام ذاتها ، فإذا الأمر يجري على غير ما أراده الله تعالى أحكاما نتيجة لجريانه على غير ما أراده مقاصد ، وذلك انحراف بالشريعة عن حقيقتها ينشأ بسبب الخطأ في تعيين المقصد الشرعي ، وقد كان الإمام ابن عاشور مستشعرا لفداحة هذا الأمر حينما قال : «على الباحث في مقاصد الشريعة أن يطيل التأمل ويجيد التثبت في إثبات مقصد شرعي ، وإياه والتساهل والتسرع في ذلك ، لأن تعيين مقصد شرعي كلي أو جزئي أمر تتفرع عنه أدلة وأحكام كثيرة في الاستنباط ، ففي الخطأ فيه خطر عظيم»(١) .

وإذا ما علمت المقاصد التي من أجلها وضعت الأحكام في صورتها النظرية المجردة فإن ذلك لا يعتبر نهاية المطاف في العلم بالمقاصد بالنسبة

١- ابن عاشور- مقاصد الشريعة: ١٧٧

للفقيه ، وذلك لأن هذه المقاصد وإن علمت بصفتها النظرية فترشد الفقيه إلى التحري في الأحكام فهما واستنباطا فإن الأمر يحتاج إلى أن يقع العلم بأيلولة تلك المقاصد في الواقع من تحقق جراء إجراء الأحكام الموضوعة من أجلها أو عدم تحقق ، فيقع إذن إجراء الحكم في الواقع أو عدم إجرائه بالتأجيل أو بالاستثناء أو بالتغيير ، فالأحكام الشرعية لئن وضعها الشارع من أجل تحقيق مقاصدها ، إلا أن ذلك يكون بحسب العموم والكلية ، وإلا فإن بعض الأفراد من الأحكام المشروعة لتحقيق مقصد من المقاصد قد تحف به ظروف وملابسات تجعل مقصده لا يتحقق في الواقع عند إجرائه ، وحينئذ فإن الفقيه عموما والمفتي والقاضي على وجه الخصوص ينبغي أن يكون على علم بذلك ليكيف الحكم بحسبه ، فيكون إذن العلم بأيلولة المقصد الشرعي إلى الحصول في الواقع من عدمه أمرا لا يقل في الأهمية عن العلم بالمقاصد الشرعية من أحكامها بصفة نظرية مجردة .

ومع خطورة هذه المشكلة وخطورة نتائجها في وجهيها النظري والعملي فإننا لا نجد الدارسين لمقاصد الشريعة والباحثين فيها يولونها الأهمية اللائقة بها لا في القديم ولا في الحديث . وإذا كان الإمامان الشاطبي وابن عاشور قد انفردا فيما نعلم بتخصيص مبحث لشرح طرق العلم بمقاصد الشريعة(٢) ، فإن شروحهما في هذا الباب تحتاج إلى المزيد من العمق والتوسع والضبط لينتهي الأمر إلى أقصى ما يمكن أن يضمن الوصول إلى العلم بمقاصد الشريعة كما أرادها الشارع من أحكامه ، والعلم بأيلولتها في الواقع إلى التحقق ، ويزداد هذا الأمر أهمية بالنظر إلى ما نبت حديثا من نابتة تنسب نفسها إلى الإسلام ، وتدرس الشريعة من هذا المنطلق ، فتحدد لها من المقاصد ما هو ضلالات وأوهام كفيلة بأن تنقض الشريعة كلها وتهدمها من أساسها .

وإذا كانت الشريعة إنما تؤخذ من الوحي قرآنا وسنة ، فإن هذا المصدر كما هو مصدر وحيد للأحكام بصفة مباشرة أو غير مباشرة ، فإنه ينبغي أيضا أن يكون مصدر المقاصد على ذات النحو ، ولذلك فإن الباحث عن مقاصد الشريعة لتعيينها أجناسا أو أنواعا أو أفرادا ينبغي أن يتمعن في نصوص القرآن والسنة ليعين من خلالها تلك المقاصد مهما يكن وجود تلك المقاصد فيها ظاهرا أو خفيا كما هو شأن الأحكام ذاتها ، فيكون إذن تعيين المقاصد عملا اجتهاديا لا يقل في ثقله عن الاجتهاد من أجل استخلاص الأحكام لولا أن الاجتهاد في هذه أوسع من الاجتهاد في تلك ، إذ المقاصد يمكن أن تكون محدودة في حين أن الأحكام غير محدودة لتعلقها بالنوازل المستأنفة المتجددة على الدوام . وسنحاول فيما يلي إيراد جملة من المسالك التي تعلم بها مقاصد الشريعة

٢- راجع: الشاطبي- الموافقات: ٢: ٢٩٨، وابن عاشور- مقاصد الشريعة: ١٤١. ونشير هنا إلى أن بعض الدراسات الحديثة بدأت تهتم بهذا المبحث اهتماما يليق بخطورته. راجع في ذلك نعمان جغيم: طرق الكشف عن مقاصد الشريعة.

من نصوص الوحى اقتباسا فى الغالب مما حدده الإمامان الشاطبى وابن عاشور.

أ- مسلك الأمر الإلهى

تقدم لنا أن الشريعة الإسلامية باعتبارها كلا متكاملا إنما شرعت لمقصد يتعلق بتحقيق مصلحة الإنسان، وأن كل نوع من أنواع الأحكام شرع لمقصد ينتهى إلى ذلك المقصد الأعلى، وأن كل حكم شرعى مفرد شرع كذلك، فلا يكون إذن حكم من أحكام الشريعة مهما تكن درجته فى سلم الطلب إلا وهو موضوع من أجل تحقيق مقصد شرعى عام أو خاص أو جزئى.

والأحكام الشرعية إنما تعرف من جهة كونها أحكاما تقتضيها الأوامر الإلهية المتعلقة بالأفعال المنوطة بها فعلا أو تركا، سواء كان ذلك أمرا مباشرا تغيره الصياغة اللغوية بالطلب، أو كان أمرا غير مباشر كأن يكون مثلا بطريق الأفعال والتقريرات النبوية، أو بطريق القياس، إذ أيما حكم شرعى ثبت بدليل معتبر من أدلة الشريعة فهو يعتبر طلبا إلهيا إما طلبا لفعل أو لترك أو لإباحة.

وحينما يثبت أى حكم شرعى بطلب إلهى، فمعنى ذلك أن ذلك الطلب الذى ثبت به الحكم هو طلب وضع لذلك الحكم مقصدا شرعيا من أجله شرع، فيكون الطلب إذن مقتضيا للحكم، وذلك كطلب الترك للسرقة المتضمن لحكم تحريم السرقة، ومقتضيا فى ذات الوقت للمقصد الذى وضع من أجله ذلك الحكم وهو فى هذا المثال مقصد حفظ المال ضرورة أن كل حكم إنما وضع لتحقيق مقصد شرعى، وقد يكون الطلب المتضمن للحكم متضمنا للمقصد على وجه التعيين الصريح، وقد لا يكون كذلك، وفى كل الحالات فإن الطلب الإلهى يكون دوما متضمنا للمقصد الشرعى المبتغى من الحكم الذى يقتضيه.

وينتهى الأمر من ذلك إلى أن الطلب الإلهى بمقتضى كونه طلبا لفعل أو طلبا لترك إذا ما ثبت أنه طلب معتبر يثبت به أى حكم شرعى فإنه يكون مسلكا لإثبات المقصد الشرعى، ومعنى ذلك أن الباحث عن المقاصد الشرعية يعلم أن هذه المقاصد يكون لها وجود ثابت حيثما يكون طلب إلهى معتبر، فيصبح إذن الطلب الإلهى حينما يكون طلبا معتبرا يثبت به حكم شرعى مسلكا من مسالك العلم بالمقصد الشرعى.

وإذا كان هذا المسلك من مسالك العلم بمقاصد الشريعة ليس من طبيعته أن يعرف بهذه المقاصد على وجه التعيين، فإنه كفيل بأن يعرف بها على وجه الإطلاق، إذ يحصل به لدى الباحث عن المقاصد علم جملى بأن كل طلب إلهى يتضمن مقصدا شرعيا، وعليه يعد هذا العلم العام بوجود المقصد الشرعى أن يشرع بمسالك أخرى فى البحث عن ذلك المقصد على وجه التعيين.

وقد نبتت فى القديم والحديث نوابت من الأفراد والفرق والجماعات شطت فى التعامل مع نصوص القرآن والحديث شططا انتهى بها أحيانا إلى هدم أن يكون للطلب الإلهى أى مقصد شرعى، وذلك بما ركبته من مراكب التأويل الذى يفرغ الطلب من مضمونه المقصدى. فقديما على سبيل المثال ذهب بعض المؤولة إلى أن الله تعالى فى قوله:

﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾

«الحجر: ٩٩»

أمر بعبادته إلى حين بلوغ العابد درجة من درجات القربى منه وهى درجة اليقين، وحين بلوغ تلك الدرجة تسقط فى حق العابد العبادة، فهذا التأويل يجعل هذا الطلب الإلهى وهو طلب العبادة ينتهى إلى غير مقصد شرعى إذ هو طلب يأتى على نفسه بالنقض فلا يبقى إذن له مقصد، والحال أن هذا الطلب للعبادة يتضمن -باعتبار كونه طلبا- مقصد المصالح العديدة التى تحققها العبادة، فيعلم منه أن العبادة تكون دوما متضمنة للمصلحة إلى أن يلقى الإنسان مصيره اليقين وهو الموت وليس إلى أن يبلغ درجة من درجات القربى من الله كما هو التأويل الآنف.

وعند المتأولة حديثا أمثلة كثيرة من هذا الإهدار للمقاصد بإنكار أن المطالب الإلهية تقتضيها، وذلك على سبيل المثال بزعم أن هذه المطالب إنما كانت تخص زمنا دون زمن أو قوما دون قوم، وفى خارج دائرة ذلك الزمن أو أولئك القوم تصبح غير مقتضية لمقصد بل غير مقتضية لحكم أصلا(٣). ونحسب أن الإمام الشاطبى كان مستشعرا لهذه التأويل الهادمة لمقاصد الشريعة حينما قال فى فاتحة بيانه لطرق العلم بالمقاصد: «إحداها مجرد الأمر والنهى الابتدائى التصريحى، فإن الأمر معلوم أنه إنما كان أمرا لاقتضائه الفعل، فوقوع الفعل عند وجود الأمر به مقصود للشارع، وكذلك النهى معلوم أنه مقتض لنفى الفعل أو الكف عنه، فعدم وقوعه مقصود له»(٤)، فقد جعل إذن أن الطلب الإلهى بذاته أمرا ونهيا يتضمن المقصد الشرعى، فيكون مسلكا من مسالك العلم بالمقاصد على وجه الإجمال.

ب- مسلك البيان النصى (٥)

فى نصوص القرآن والحديث بيانات تحدد المقاصد الشرعية، وهى بيانات لا تشمل كل المقاصد لا العامة ولا الخاصة والجزئية، كما أنها تتفاوت فى دلالتها على المقاصد فى درجة اليقين والظن، ولكنها مع ذلك تعتبر مسلكا أصليا فى العلم بمقاصد الشريعة، إذ هى بالإضافة إلى كونها تحدد جملة واسعة من المقاصد الكلية والجزئية فإنها تمثل قاعدة متينة ترشد إلى الكيفية التى يتم بها تحديد المقاصد التى لم يشملها البيان النصى، وتكسب ملكة فى تبين تلك المقاصد وتعيينها، فهى إذن تعتبر كالموجه المعين على تعيين المقاصد التى لم يرد فيها تعيين باعتبارها أنموذجا يؤسس لجملة أصلية منها، وعلى هديها يمكن

٣- راجع تفاصيل فى هذا الشأن فى بحثنا القراءة الجديدة للنص الدينى: عرض ونقد.

٤- الشاطبى- الموافقات: ٢/٢٩٨.

٥- نقصد بالنص عند الإطلاق المعنى اللغوى لا الاصطلاح الأصولى.

أن يستبين الباحث ما يطلب من المقاصد العامة والخاصة والجزئية.

ويتفاوت البيان النصي للمقاصد في درجة الوضوح، فقد يعين النص المقصد بصفة قاطعة يحصل معها اليقين بأن ما وقع تعيينه هو المقصد الشرعي، وهو ما يعرف في اصطلاح الأصوليين بالبيان النصي، ومعناه البيان الذي لا يحتمل إلا معنى واحدا ولا يكون للاحتمال فيه مدخل، وذلك في مثل قوله تعالى:

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾

«المائدة: ٣٢»

في إفادته أن حكم القصاص مقصده درء المفاسد التي تترتب على القتل.

وقد يبين النص المقصد الشرعي بما هو أقل من ذلك في القطعية كأن يكون محتملا للتأويل وهو في اصطلاح الأصوليين البيان بالظاهر، وذلك في مثل قوله تعالى:

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾

«البقرة: ١٩٣»

في إفادته بيان أن المقصد من قتال المقاتلين من المشركين هو أن لا يفتنوا المسلمين عن دينهم. وقد يبين النص المقصد الشرعي بما هو أكثر ظنية من ذلك، كأن يكون البيان بطريق الإيماء والتنبيه، ومثاله ما جاء في قوله ﷺ لمن سأله عن أداء الحج عن والده هل ينفعه؟ فأجاب: «أرأيت لو كان على أبيك دين فقضيته، أكان ينفعه؟» (٦) في إفادته بيان أن مقصد قضاء الواجبات المتخلدة بذمة الوالد هو حصول المنفعة له (٧).

وبقطع النظر عن درجة القطعية والظنية في البيان النصي لمقاصد الشريعة فإن هذا البيان قد يكون بيانا للمقاصد العالية كما في قوله تعالى:

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾

«البقرة: ١٨٥»

في إفادته مقصد التيسير ورفع الحرج في كل أحكام الشريعة. وقد يكون بيانا للمقاصد الخاصة بأنواع الأحكام مثل قوله تعالى:

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ﴾

«المائدة: ٩١»

في إفادته أن مقصد الحكم بتحريم الخمر والميسر وما شابههما هو حسم أسباب العداوة والبغضاء. وقد يكون بيانا للمقاصد الجزئية مثل قوله تعالى:

﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴾

«النساء: ٣»

في إفادته أن المقصد من الاقتصار في الزواج على الواحدة عند خوف عدم العدل

٦- أخرجه ابن ماجة: ١٩٠٩.

٧- راجع تفاصيل في هذه الدلالة النصية على المقاصد في: الشوكاني- إرشاد الفحول: ٢/٨٨١ وما بعدها.

هو قطع أسباب الميل الذي ينتهي إلى الظلم.

وإذا كان البيان النصي لمقاصد الأحكام من أقوى المسالك للعلم بها فإن تردده بين القطعية والظنية يوجب على الدارس أن يكون متحريا أشد التحري في استخلاص المقصد من نصه، فإن الظنيات في ذلك أكثر من القطعيات، وهو ما يستلزم تقليب النص الظني في هذا الشأن على وجوهه المختلفة من الاحتمالات، والاستعانة على تعيين المقصد المراد من بينها استرشادا بما ثبت قطعيته من المقاصد، وبطرق أخرى ضبطها الأصوليون فيما عرف بمسالك العلة وإن يكن أغلبها متعلقا بالمقاصد الجزئية. وإنما يلزم التحري الشديد في العلم بالمقاصد من نصوصها لما يقع فيه كثيرون من تعيين مقاصد موهومة اتكاء على أنها منصوص عليها، والحال أن المقصد الحق في ذلك النص يتبين بالتقصي أنه الاحتمال الآخر غير ذلك الذي حصل موهوما بالظن (٨).

ج- مسلك الاستقراء

ذكرنا سابقا أن أحكام الشريعة كلها شرعت لمقاصد تهدف إلى تحقيقها، وذكرنا أيضا أن هذه الأحكام وقع في بعض منها تنصيص مباشر أو غير مباشر على مقاصدها، إلا أن الأغلب من هذه الأحكام وإن كانت مبنية على مقاصدها فتلك المقاصد غير منصوص عليها فيها، وإنما هي جارية عليها بصفة ضمنية. وبما أن الأحكام جزئيات كثيرة، مندرجة ضمن أنواع، وأنواع مندرجة ضمن أجناس، فإن الكثير من الأحكام تلتقي عند المقصد الواحد، كأن يكون المقصد موضوعا لنوع من الأحكام فإن المفردات الكثيرة المندرجة ضمن ذلك النوع تلتقي كلها عند ذلك المقصد الذي وضع له.

وبناء على هذا الوضع فإنه يتبين مسلك مهم من مسالك العلم بالمقاصد، وهو مسلك الاستقراء، الذي يتم بتتبع المفردات الكثيرة من الأحكام، فيلحظ أنها في بنيتها تشترك جميعا في تحقيق هدف واحد، فيعلم إذن أن ذلك الهدف المشترك هو مقصد من مقاصد الشريعة جعله الشارع غاية تنتهي إليها كل تلك المفردات من الأحكام، فيكون المقصد الشرعي قد علم إذن بطريق استقراء الأحكام الجزئية وملاحظة ما اشتركت فيه من غاية، وذلك على غرار ما يتم في المنطق من استقراء جزئيات كثيرة تشترك في حكم واحد ليقع الانتهاء منها إلى القوانين الكلية.

ومن طرق الاستقراء أن يعمد الباحث إلى جملة من الأحكام فيجد أن كلا منها قد تحدد مقصده بوجه من وجوه التحديد، فكان مقصدا واحدا، فيتبين بهذا الاستقراء أن ذلك المقصد هو مقصد شرعي لنوع الأحكام التي تندرج تحته تلك المفردات منها. ومثال ذلك ما جاء من نهي عن بيع الرطب بالتمر المجذوذ وهو المزابنة،

٨- من ذلك ما توهمه البعض من أن المقصد المبين في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ هو قطع أسباب الفقر لكثرة العيال. راجع في ذلك الرازي- التفسير الكبير: ٥/١٨٤ وما بعدها.

وبيع الثمار قبل بدو صلاحها، وبيع ما في بطون الأنعام قبل وضعها، وبيع الإنسان ما ليس في ملكه كالسمك في البحر قبل صيده، فهذه الأحكام جميعا تشترك في علة الجهالة في أحد العوضين، وهو ما يفضي إلى استخلاص مقصد منها يجمعها كلها وما هو في حكمها، وهو منع الغرر في البيع، وقد تحصل هذا المقصد بالاستقراء (٩).

ومن تلك الطرق الاستقرائية تتبع أحكام شرعية كثيرة يسفر تتبعها عن أنها تهدف إلى نفس الغاية، فيثبت بذلك أن تلك الغاية هي المقصد الشرعي الذي وضعت من أجله. ومثال ذلك ما جاء في الشريعة من حث على أن يعود المسلم بفضل ظهره وماله وزاده على من لا ظهر ولا مال ولا زاد له، وما جاء من أمر الجار بأن يرعى جاره فلا يبيت شبعان وجاره جائع، وما جاء من إيجاب للزكاة، وإيجاب للنفقات غير الزكاة إذا احتاج الناس إليها، وما شرع من وجوب النفقة على الأقارب ذوي الحاجة، فيعلم من ذلك كله أن لهذه الأحكام مقصدا جامعا هو التكافل الاجتماعي بين أفراد الأمة وفئاتها.

إن هذا المسلك الاستقرائي هو مسلك يقع فيه تتبع تصرفات الشريعة من خلال أحكامها، إذ لما تكون تلك التصرفات قائمة على مبدأ المقاصد فإنها ستكون باعتبار اشتراكها في تلك المقاصد مبنية عليها في غايتها، فيكون إذن المتتبع للأحكام، المتمرس بها، الواقف على مراميها ملاحظا لاشتراك الكثير من مفردات أحكامها في ذات المرامي من تلقاء اطراد تصرفها، فيحصل له بذلك العلم بالمقاصد من جراء ذلك التتبع على نحو ما وصفنا، ويقوم ذلك مقام التصريح بها.

وكما هو شأن الاستقراء بصفة عامة فإن العلم الحاصل به يزداد قوة باكتماله ويزداد ضعفا بنقصانه، فكلما اتسعت دائرة الأحكام الشرعية التي تشترك في ذات الهدف انتهى الدارس لها بالاستقراء إلى علم أقرب إلى اليقين بالمقصد الذي من أجله شرعت، وكلما ضاقت الدائرة التي تنتمي إليها تلك الأحكام نزل العلم بالمقصد المستخلص منها في درجات الظن، ولكن يبقى الاستقراء مع ذلك مسلكا مهما من مسالك العلم بمقاصد الشريعة لا يمكن الاستغناء عنه(١٠).

د. مسلك العمل النبوي

أحكام الشريعة قد يكون دليلها الذي تؤخذ منه بيانا قوليا قرآنا كان أو حديثا، وقد يكون فعلا يقوم به النبي لا يرافقه بيان قولي، بل قد يكون فعلا يقوم به أصحابه على عين منه فيقره بصيغة أو أخرى من صيغ الإقرار، ويمكن أن يعتبر هذا ملحقا بفعله باعتبار إقراره له. وإنما تكون الأفعال النبوية أدلة للأحكام الشرعية إذا كانت مندرجة ضمن ما هو من التصرفات

٩- راجع في تلك: نعمان جغيم- طرق الكشف عن مقاصد الشريعة: ٢٤٠.

١٠- راجع هذا المسلك في: ابن عاشور- مقاصد الشريعة: ١٤٢ وما بعدها

النبوية التبليغية، خلافا لغير ذلك من أفعاله كتلك المتأتية بمقتضى الصفات الفطرية من ميل إلى نوع من الطعام دون غيره، أو من سبل للتحقيق القضائي في النوازل التي تعرض عليه للفصل فيها، أو غير ذلك من أفعاله غير التشريعية (١١).

إن الأفعال النبوية التبليغية يمكن أن تكون بذاتها أو بقرائن ظروفها وأحوالها مسلكا يعرف منه المقصد الشرعي، وذلك لأن النبي ﷺ لما يداوم على إتيان فعل ما في مناسبات متعددة، وفي ظروف مختلفة، فإن تلك المداومة يتحصل منها للناظر فيها أن تلك الأفعال إنما كانت لتحقيق هدف من أجله وقعت وتكررت، وذلك هو المقصد الشرعي منها، فيعرف إذن من خلال ذات تلك الأفعال المتكررة.

ومثال ذلك أن النبي ﷺ كان يزور أصحابه في بيوتهم فيعلم من تلك الزيارات أن المقصد منها تقوية الرابطة الأخوية بين المسلمين، ويتبين أن ذلك مقصد من مقاصد الشريعة. وكذلك فإنه عليه السلام كان يزور بعض جيرانه المرضى من اليهود، كما قد وقف خاشعا عند مرور جنازة يهودي، فيعلم من ذلك أن المقصد منه تكريم الذات البشرية، فيكون ذلك مقصدا شرعيا. وقد كان عليه السلام يستشير أصحابه في أمور كثيرة وفي مناسبات مختلفة، فيعلم من ذلك أن المقصد من ذلك هو التوافق الاجتماعي، وحسم أسباب الاختلاف والفرقة، فيتبين أنه مقصد شرعي، وهكذا الأمر في أمور كثيرة من الأفعال النبوية.

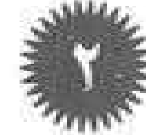
إن الأفعال النبوية كانت تقع على أعين الصحابة، بل ولأجل أن يروها فيأخذوها دينا، ويبلغوها لمن بعدهم من الأجيال، واطراد تلك الأفعال لأجل تحقيق ذات المقاصد أثمر عندهم- وخاصة منهم الأكثر صحبة- علما بتلك المقاصد تأتى من ملاحظة ذات تلك الأفعال في اطرادها بقطع النظر عن الأحكام القولية التي جاءت في القرآن والحديث تتناول ذات موضوعها، إذ لما كانوا يرون النبي ﷺ يتعامل مع الناس بسماحة وتيسير استقر من ذلك في الأذهان أن التيسير مقصد شرعي، ولما كانوا يرونه يؤالف بين الناس ويحسم الخلافات ويؤاخي بين الأفراد كما آخى بين المهاجرين والأنصار استقر في الأذهان أن التآلف بين المسلمين ووحدة كلمتهم مقصد شرعي، وهكذا الأمر في الكثير من الأفعال النبوية التبليغية، وذلك على نحو ما استقر في ذهن أبي برزة الأسلمي من مقصد التيسير استخلاصا من المواقف النبوية الفعلية، وهو ما جعله يقطع صلاته ليلحق بفرس له شردت أثناءها، فلما قيل له في ذلك على وجه الاستنقاص أجاب بأنه صحب الرسول ﷺ فرأى من تيسيره ما دفعه إلى فعل ما فعل (١٢). فتصرفه هذا إنما كان على أساس مقصد التيسير الذي استقر عنده من اطراد الأفعال النبوية.

١١- راجع تفاصيل الأفعال النبوية والفروق بين ما هو منها تشريعي وبين غيره في: ابن عاشور- مقاصد الشريعة: ١٥٢ وما بعدها

١٢- أخرجه البخاري، كتاب العمل في الصلاة. وراجع ابن عاشور- مقاصد الشريعة: ١٤٥.

الشورى فى معركة البناء

أهمية الشورى بين النصوص الشرعية والاحتياجات العملية



أ. د. أحمد الريسوني

مجالات الشورى

هذه قد تكون أهم قضية تظهر فيها أهمية الشورى، ومدى اتساع نطاقها وتأثيرها، خاصة وأنها هى التى يتحدد على أساسها من هم أهل الشورى، أى شورى من؟ ومع من؟ فما هى المجالات والقضايا التى تدخلها الشورى وتكون مطلوبة فيها وجوبا أو ندبا، أو استحبابا وفضيلة؟ وهل هناك مجالات وقضايا ليس فيها شوري؟

١- المجال السياسى الدنيوي

هذا هو المجال المعروف للعمل بالشورى، ويقترن ذكره بذكرها. قال الحافظ ابن حجر: «وقد اختلف فى متعلق المشاورة: فقيل فى كل شيء ليس فيه نص. وقيل فى الأمر الدنيوى فقط. وقال الداودى: إنما كان يشاورهم فى أمر الحرب مما ليس فيه حكم، لأن معرفة الحكم إنما تلتمس منه(١)...»

وقال القاضى ابن عطية: «ومشاورته عليه السلام إنما هى فى أمور الحروب والبعوث ونحوه من أشخاص النوازل، وأما فى حلال أو حرام أو حد، فتلك قوانين شرع».(٢)

وعلى العموم فإن من أبرز المجالات الشورية التى يكثر ذكرها وذكر أمثلتها، مجالين اثنين هما: المجال السياسى والمجال العسكرى أو الحربي. ويمكن جمعهما معا تحت اسم «التدبير السياسى» بشقيه المدنى والعسكرى. ويدخل فى ذلك التشاور لاختيار الخليفة، أو الحكام عموما. ثم تشاور الحكام والقادة السياسيين والعسكريين، مع مستشاريهم ومساعديهم، فى رسم الخطط وتنفيذها، واتخاذ القرارات فى مختلف الإشكالات والنوازل السياسية والحربية، بما فى ذلك عقد السلم، أو إعلان الحرب، أو إجراء الصلح..

هذا ما يتركز عليه الحديث والتمثيل حين ذكر مجالات الشورى.

وعند التوسع فى العبارة يقال: الشورى تكون فى الأمور الدنيوية. وأما الشورى فى قضايا الدين وأحكامه فقليل من يقول بها، وكثير من ينازع فيها.

وإذا كانت المجالات السياسية- المدنية والعسكرية- حاضرة بقوة ووضوح فى كل حديث عن الشورى ومجالاتها، حتى ليمكننا اعتبار هذه المجالات مجمعا عليها، فإنى أريد التركيز على غير هذه المجالات، لأجل إبرازها ولفت الانتباه إليها.

٢- قضايا الشورى بين التعميم والتخصيص

ولعل أول ما يحتاج الى تثبيت وتوضيح، هو العموم الوارد فى النصوص المتعلقة بالشورى، وخاصة فى الآيتين: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾، ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾، فإن «الأمر» الذى يكون محلا للشورى، جاء عاما ومطلقا غير مقصور ولا مقيد. والأصل فى العام إجراؤه على عمومه حتى يثبت التخصيص، فإذا ثبت التخصيص بشيء بقى العموم ساريا فيما سوى ذلك وكذلك القول فى الإطلاق.

وبناء عليه، فالأمور التى تدخلها الشوري- وجوبا أو ندبا- تشمل جميع المجالات وجميع أصناف القضايا. هذا هو الأصل فيها، وهذا هو مقتضى عمومها. إلا أن هذا العموم يخصصه قوله تعالى:

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾

فما قضى فيه الله ورسوله بحكم قاطع لا احتمال فيه يكون خارجا عن الشورى ولا خيار فيه من حيث أصله. فما دام المتشاورون إنما ينظرون فى الخيارات الممكنة والاحتمالات الممكنة، أى أنهم ينظرون فى خيارات واحتمالات متعددة لترجيح أحدها والأخذ به، فلا مشاورة لهم ولا خيار أمامهم فيما حكم فيه الشرع حكما قطعيا لا غبار عليه ولا خيار فيه.

٣- الشورى فى تنزيل الأحكام القطعية

على أن الحكم الشرعى القطعي- رغم ذلك- يبقى محلا للشورى من حيث التنزيل والتنفيذ، وما يتصل بذلك من شروط وكيفيات وآجال وعوائق أو موانع، فيمكن التشاور بشأنه من هذه النواحى لا من حيث المبدأ. وهذا ما نبه عليه أبو عبدالله بن الأزرق فى النوع الثانى مما يستشار فيه بقوله: المستشار فيه - أى ما تقع فيه المشاورة - نوعان:

- أحدهما: ما هو من أمور الدنيا وخفى وجه الصواب فيه فيطلب العثور عليه بالمشورة.
- الثانى: ما هو من مقاصد الدين، ولم يتعين فى الحال، أو أشكل فيه التلبس بالعمل به، باعتبار أمر خارج عن ذاته.(٣)

ويمكن أن أدرج هنا المثال الذى سبق ذكره، وهو مشاورة ابراهيم عليه السلام لولده بقوله:

﴿ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾

وقد كنت منذ سنين طويلة استشكل هذا الموضع وهذه القولة الإبراهيمية، وكنت أتساءل: كيف جعل إبراهيم عليه السلام هذا الأمر الإلهى الواضح المحسوم محل نظر لولده؟

وأتساءل عن مغزى قوله: ﴿ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ وما عساه يرى مع أمر الله؟!

واليوم يتسع نظرى لأدرك أن هذه المشاورة لا تتعلق بالقبول والرفض، ولا تتعلق بالامتثال أو عدمه، بل قد يكن لها تعلق بكيفية التنفيذ، أو بزمانه، أو مكانه. وقد تتيح الفرصة لإسماعيل لطلب مهلة، أو ليتوجه الى ربه لطلب العفو ورفع الحكم أو تعديله.. ألا ترى الى رسول الله ﷺ بعد إشارة وتنبيه من موسى عليه السلام- قد راجع ربه وتوسل إليه حتى جعل الخمسين صلاة خمسا..

١- فتح البارى ١٥/ ١٨٤.

٢- المحرر الوجيز ٣/ ٣٩٨.

٣- بدائع السلك فى طبائع الملك ١/ ٣١٦- ٣١٧.

وهكذا يمكن أن تجد أنفسنا بحاجة الى الاجتهاد والتشاور فى مسائل تتعلق بالجهاد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وبعض أحكام الحج والصيام ومصارف الزكاة وإقامة الحدود... مع أن هذه كلها أحكام منصوصة قطعية ولكنها- وغيرها- قد تعترى تطبيقها ملابسات وإشكالات وموانع ومستجدات، تحتاج الى نظر وتناظر، وموازنة وحسن تدبير.

٤- الشورى فى الأحكام الاجتهادية والخلافية

ومما يحتاج الى نظر وتناظر وتشاور- وهو غير بعيد عما سبق- الأحكام الشرعية القائمة أصلا على الاستنباط والترجيح بين مقتضيات الأدلة ودلالاتها.

ويدخل كذلك فى مجالات الشورى- ومن باب أولى- الاجتهاد فى أحكام ما ليس فيه نص، مما سبيله القياس والاستحسان والاستصلاح...

فهذه كلها مجالات دينية شرعية، ومع ذلك فالشورى فيها بين أهل العلم والنظر والاجتهاد، هى سنة الصحابة والخلفاء الراشدين، بل هى سنة النبى ﷺ القولية والفعلية.

روى ابن عبدالبر بسنده(٤) إلى على بن أبى طالب رضى الله عنه قال: قلت يا رسول الله: الأمر ينزل بنا لم ينزل فيه قرآن ولم تمض منك فيه سنة؟ قال: اجمعوا له العالمين- أو قال العابدين- من المؤمنين، اجعلوه شورى بينكم ولا تقضوا فيه برأى واحد.(٥)

وأخرج الأئمة حديث ابن عمر فى سن الأذان، وفيه: كان المسلمون حين قدموا المدينة يجتمعون فيتحينون الصلوات، وليس ينادى بها أحد، فتكلموا يوما فى ذلك، فقال بعضهم: اتخذوا ناقوسا مثل ناقوس النصارى. وقال بعضهم: اتخذوا قرنا مثل قرن اليهود. فقال عمر: ألا تبعثون رجلا ينادى بالصلاة؟ قال، فقال رسول الله ﷺ: يا بلال، قم فناد بالصلاة.(٦)

قال القاضى أبو بكر بن العربى: «وفى هذا الحديث دليل على أصل عظيم من أصول الفقه، وهو القول فى الدين بالقياس والاجتهاد. ألا ترى الى مشاورة النبى ﷺ مع أصحابه فى الأذان، ولم ينتظر فى ذلك من الله وحيا ولا طلب منه بيانا، وإنما أراد أن يأخذ فيه ما عند أصحابه من رأى يستنبطونه من أصول الشريعة وينتزعونه من أغراضها»(٧)

وهذا القول لابن العربى، ينقض قوله فى «أحكام القرآن»: قال علماؤنا: المراد به- يقصد آية آل عمران- الاستشارة فى الحرب. ولا شك فى ذلك، لأن الأحكام لم يكن لهم فيها رأى بقول، وإنما هى بوحى مطلق من الله عز وجل، أو باجتهاد من النبى ﷺ على من يجوز له الاجتهاد.(٨)

وقد نقل الحافظ ابن حجر قول الداودى ومن زعم أنه- أى النبى ﷺ - كان يشاورهم فى الأحكام، فقد غفل غفلة عظيمة... للاتفاق على أنه لم يكن يشاورهم فى فرائض الأحكام.

قال الحافظ وفى هذا الإطلاق نظر، فقد أخرج الترمذى وحسنه، وصححه ابن حبان، من

٤- بغض النظر عما فى هذا السند من ضعف، فإن مضمون الحديث مشهود له بالصحة والتسليم.
٥- جامع بيان العلم ٢/ ٧٣.
٦- صحيح البخاري، كتاب الأذان، والترمذي، أبواب الصلاة.
٧- القبس فى شرح موطأ مالك بن أنس ١/ ١٩٤- ١٩٥.
٨- أحكام القرآن ١/ ٣٨٩.

حديث على قال: لما نزلت:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ﴾

قال لى النبى ﷺ: ما ترى؟ دينار؟ قلت: شعيرة. قال: إنك زهيد. فنزلت ﴿أَأَشْفَقْتُمْ﴾. قال: فبى خفف الله عن هذه الأمة ففى الحديث المشاورة فى بعض الأحكام.(٩)

وروى ابن سعد فى «الطبقات» من حديث أبى هريرة أن النبى ﷺ كان يخطب وهو مستند الى جذع، فقال: إن القيام قد شق على: فقال له تميم الدارى: ألا أعمل لك منبرا كما رأيت يصنع بالشام؟ فشاور النبى ﷺ المسلمين فى ذلك، فرأوا أن يتخذوه.(١٠)

وإذا كانت المشاورات النبوية للصحابة فى استنباط الأحكام قليلة أو نادرة، فلأنه- ﷺ- كان ينزل عليه الوحى بها، وهو أصله ومرجعه فيها، وإنما كان يستشير فى ذلك ليسن لمن بعده ولما بعده. فالاحتياج الحقيقى للشورى فى هذا المجال إنما هو بعد غياب رسول الله ﷺ وانقطاع الوحى. قال ابن العربى: فأما الصحابة- بعد استئثار الله به علينا- فكانوا يتشاورون فى الأحكام، ويستنبطونها من الكتاب والسنة.(١١)

وممن ناقشوا هذه المسألة كذلك أبو بكر الجصاص الذى يرى أن الشورى تكون فى كل ما ليس فيه نص، دنيويا كان أو دينيا. فقد ذكر من يرون أن الشورى التى أمر بها رسول الله ﷺ إنما هى فى أمور الدنيا خاصة، ثم قال: وقال آخرون: كان مأمورا بمشاورتهم فى أمور الدين والحوادث التى لا توقيف فيها عن الله تعالى، وفى أمور الدنيا أيضا، مما طريقه الرأى وغالب الظن.

وقد شاورهم يوم بدر فى الأسارى، وكان ذلك من أمور الدين.(١٢)

ثم انتصر لهذا الرأى فقال: ولما لم يخص الله تعالى أمر الدين من أمور الدنيا فى أمره ﷺ بالمشاورة، وجب أن يكون ذلك فيهما جميعا.(١٣)

وفى خلافة عمر رضى الله عنه، ثار الاختلاف والنقاش بين الصحابة حول الجماع الذى تتحقق به الجنابة ويوجب الغسل منها، هل هو الذى يحصل فيه نزول المنى، أو هو كل جماع التقى فيه الفرجان، ولو لم ينته الى إنزال؟ وقد وجد من الصحابة من يقول بهذا ومن يقول بهذا، ولكل سنده وفهمه من السنة النبوية، فكان لابد من التشاور والنظر فيما عند كل طرف، لأجل الوصول الى الصواب فى المسألة.

وقد أورد ابن القيم خلاصة النقاشات والمشاورات التى دارت بين الصحابة فى هذه المسألة، وما استقر عليه الأمر فيها، نقلا عن أبى بكر بن أبى شيبة، قال حدثنا عبد الأعلى عن محمد بن إسحاق، عن يزيد بن حبيب عن معمر بن أبى حبيبة مولى بنت صفوان عن عبيد بن رفاعة عن أبيه رفاعة بن رافع قال: بينما أنا عند عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذ دخل عليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين هذا زيد بن ثابت يفتى الناس فى المسجد برأيه فى الغسل من الجنابة، فقال عمر: علىّ به، فجاء زيد، فلما رآه عمر فقال عمر: أى عدو نفسه قد بلغت أن تفتى الناس برأيك؟ فقال: يا أمير المؤمنين، والله ما فعلت، وكنت سمعت من أعمامى حديثا فحدثت به: من أبى أيوب، ومن أبى بن كعب،

٩- فتح البارى ١٥/ ٢٨٤.
١٠- عن فتح البارى ٣/ ٦٠.
١١- أحكام القرآن ٤/ ٩٢.
١٢- أحكام القرآن ٢/ ٤١.
١٣- المرجع نفسه.

ومن رفاعة بن رافع، فقال عمر: عليّ برفاعة بن رافع، فقال: قد كنتم تفعلون ذلك، إذا أصاب أحدكم المرأة فأكسل(١٤) أن يغتسل؟ قال: قد كنا نفعل ذلك على عهد رسول الله ﷺ لم يأتنا فيه عن الله تحريم، ولم يكن فيه عن رسول الله ﷺ شيء، فقال عمر: ورسول الله ﷺ يعلم ذلك؟ قال: ما أدرى، فأمر عمر بجمع المهاجرين والأنصار، فجمعوا، فشاورهم فشار الناس أن لا غسل، إلا ما كان من معاذ وعلى فإنهما قالا: إذا جاوز الختان الختان وجب الغسل، فقال عمر: هذا وأنتم أصحاب بدر قد اختلفتم، فمن بعدكم أشد اختلافا، فقال على: يا أمير المؤمنين إنه ليس أحد أعلم بهذا من شأن رسول الله ﷺ من أزواجه. فأرسل إلى حفصة فقالت: لا علم لى، فأرسل إلى عائشة فقالت: «اذا جاوز الختان الختان فقد وجب الغسل، فقال: لا أسمع برجل فعل ذلك إلا أوجعته ضربا».(١٥).

فقد أسفرت هذه المشاورات عن أن الحكم الذى استقر عليه العمل فى سنة رسول الله ﷺ القولية والفعلية، هو الغسل من التقاء الختانين، سواء وقع إنزال أو لم يقع. وبذلك انعقد إجماع أو شبه إجماع فى المسألة، بفضل التشاور والبحث المشترك عن الصواب وأدلته.

والحقيقة أن الذين يقصرون الشورى- أو يركزون فيها- على الشئون السياسية والدنيوية، ويتركون شئون الدين وأحكامه لآحاد الفقهاء والمفتين والولاة والقضاة، إنما هم فى النهاية يعظمون الأولى ويهونون أمر الثانية فالأمر الذى يسند النظر فيه إلى جماعة، يتباحثون ويتناظرون ويتشاورون قبل البت فيه، يكون- بدون شك- أكثر حرمة وأعلى منزلة، وأحظى بالسداد والرشاد، من الذى يوكل للأفراد واجتهادهم الفردى.

٥- الشورى فى القضاء

القاضى يظل يحكم فى الأموال والدماء والأرواح والفروج، وغيرها من المصالح والتظلمات والنزاعات، ويحكم على الأفراد والجماعات، وربما على الدول والحكومات.

وإذا كان الفقيه أو المفتى يجتهد لاستنباط الحكم من أدلته، فإن القاضى يفعل هذا، ثم يجتهد مرة أخرى فى النازلة المعروضة عليه وفى أدلة كل طرف من أطرافها، وحقيقة خفاياها وملابساتها. فهو يجتهد مرتين. ولهذا فحاجته الى المشاورة فى حكمه، هى أشد وآكد من حاجة الفقيه فى فتواه، وخاصة فى القضايا المعقدة، والنوازل الكبيرة. فما يروى من الأحاديث والآثار فى المشاورة للنوازل التى ليس فيها كتاب ولا سنة، منطبق بالضرورة وبالدرجة الأولى على النوازل التى كانت ترد على الخلفاء وغيرهم من الصحابة للفصل فيها بين المتنازعين. وهو ما ينطبق على جميع المنتصبين للحكم والقضاء بين الناس.

كان أبو بكر رضى الله عنه إذا ورد عليه خصم نظر فى كتاب الله، فإن وجد فيه ما يقضى به قضى به، فإن لم يجد فى كتاب الله نظر أكانت من النبى سنة؟ فإن علمها قضى بها، فإن لم يجد خرج فسأل الناس.. وإن أعياه ذلك دعا رؤوس المسلمين وعلماءهم فاستشارهم، فإذا اجتمع رأيهم على الأمر قضى به(١٦)، وروى عن الشعبى قال: من سره أن يأخذه بالوثيقة من القضاء فليأخذ بقضاء عمر، فإنه كان يستشير.(١٧).

١٤ – أكسل: جامع ولم ينزل.

١٥ – أعلام الموقعين ١/٥٦.

١٦– موسوعة فقه أبى بكر، ص١٥٥.

١٧ – فتح البارى ١٥/٥٠.

وعن عمر بن عبدالعزيز قال: لا ينبغى للقاضى أن يكون قاضيا حتى يكون فيه خمس خصال: عفيف، حليم، عالم بما كان قبله، يستشير ذوى الرأى، لا يبالى بملامة الناس(١٨).

وفى كتاب عمر بن عبدالعزيز إلى عروة: كتبت إلىّ تسألنى عن القضاء بين الناس، وإن رأس القضاء اتباع ما فى كتاب الله، ثم القضاء بسنة رسول الله ﷺ ثم بحكم أئمة الهدى، ثم استشارة ذوى العلم والرأى(١٩).

وإذا كان بعض الفقهاء قد جعلوا المشاورة للقاضى على الندب لا على الوجوب، فهذا يمكن أن يقبل فى القضايا البسيطة الواضحة والمتكررة، أما القضايا المعقدة والملتبسة والجسيمة فلا يصح فيها إلا القول بالوجوب واللزوم، وهو قول جمهور الفقهاء. قال أبو عمر بن عبدالبر: وقد ذكر الشافعى فى كتاب أدب القضاة أن القاضى لا يجوز له أن يقضى ويفتى حتى يكون عالما... مشاورا فيما اشتبه عليه. وهذا كله مذهب مالك وسائر فقهاء المسلمين فى كل مصر، يشترطون أن القاضى والمفتى لا يجوز أن يكون إلا فى هذه الصفات(٢٠).

وهكذا يظهر جليا أن اشتراط صفة المشاورة فى القضاة والزامهم بها ليس شيئا عارضا أو طارئا، أو دخيلا، كما يشير إلى ذلك كلام الدكتور قحطان الدورى فى قوله: بل إن الفقهاء تأثرا منهم بمبدأ الشورى وأهميته سحبوه إلى السلطة القضائية، فقالوا بوجوب أو ندب المشاورة للقاضى قبل أن يصدر حكمه(٢١)

وهذا ناشىء عن الاعتقاد السائد، وهو أن الشورى مسألة سياسية، يعمل بها فى المجال السياسى لدى السلطة السياسية، التشريعية والتنفيذية، فالشورى- حسب هذا الاعتقاد- تحيل مباشرة على مجلس الشورى وعلى رئيس الدولة ومن معه.

وهو ما أعمل على تصحيحه فى ثنايا هذا البحث بحول الله تعالى.

٦- الشورى فى تنظيم الشوري

من القضايا التى أصبحت جلية ومسلمة، كون الإسلام أرسى مبدأ الشورى وأمر به وحث عليه، ونوه بفضله وأهميته، ثم ترك تنزيله وتنظيمه مرسلا مفوضا للاجتهاد والتدبير والتكييف، بما يناسب كل زمان أو مكان أو مجال، أو ظرف. وبهذا أستطيع أن أقول إن التفاصيل والكيفيات التطبيقية للشورى هى نفسها مجال من مجالات الشورى، ومثلها كافة الشئون التنظيمية والإدارية للدولة والمجتمع والجماعات. فهى داخلة فى قوله تعالى:

﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾

فهى كلها من أمورنا التى يجب أن نبت فيها وننظمها ونعدلها ونلائمها شورى بيننا. وهو ما سأعود لتوضيحه لاحقا إن شاء الله.

وإجمالا فإن كل ما يتطرق إليه الاحتمال والاستشكال، ويدخله الاجتهاد البشرى، وكل ما يثير عادة الخلاف والتنازع، وكل ما سكت عنه الوحى، وكل ما هو مشترك بين الناس من واجبات وحقوق ومصالح، ففيه مجال للشورى، وجوبا أو ندبا، حسب أهمية كل مسألة وحجم انعكاساتها على الناس، فى دينهم ودنياهم وعلاقاتهم.

يتبع

١٨– فتح البارى ١٥/٥٠.

١٩ – جامع بيان العلم لابن عبدالبر ٢/٣٠.

٢٠– جامع بيان العلم ٢/١٠١.

٢١– الشورى بين النظرية والتطبيق، ص٥٦.

النظرية السياسية فى الإسلام



الشيخ/ محمود شلتوت

مفهوم النظرية

يقصد بالنظريات المبادئ العامة التى يستند إليها نظام معين.

والنظرية: اصطلاح علمى يطلقه العلماء على فكرة من الفكر نتيجة بحث فكرى أو ملاحظة تجريبية.

وقد عرفت النظرية فى جميع فروع العلم التجريبى والنظرى، وكثيرًا ما يربط باسم صاحبها.. فمثلا تجد نظرية «أرشميدس» فى الطبيعة لتقرير الضغط على الأجسام الطافية على الماء، كما تجد نظرية «فرويد» فى علم النفس لتقرير أثر الغرائز والوراثة فى الإنسان، كما تجد نظرية «روسو» فى التعاقد الاجتماعى، ونظرية «منتسيكو» فى فصل السلطات فى العلوم السياسية والدستورية، وهكذا.. فى كل علم من العلوم نجد نظرية إنسانية لعالم من العلماء له مقررات خاصة فى الموضوع الذى يبحثه.

مبادئ الإسلام ليست نظريات بشرية

أما الإسلام وهو دين سماوى عام جاء لتقرير صوالح البشرية فى كل نواحى الحياة بمقررات ربانية عامة، وقواعد كلية تقوم عليها جميع التنظيمات الحيوية، فإنه لذلك لا يمكن أن يوجد فى مبادئه العامة «نظرية بشرية»، لأن القواعد الكليةفى الإسلام، فى العبادات والمعاملات، فى شئون السلم والحرب، فى الأمور السياسية والدستورية، من وضع الخالق سبحانه وتعالى، وإنما يأتى دور العلماء فى فهم النصوص والقواعد الكلية، واستنباط أحكام الفروع والأحكام الجزئية للأمور الطارئة، أى أن العلماء شراح للقواعد الكلية، ومقننون فى الفروع على هدى هذه القواعد.

مصادر المبادئ السياسية للإسلام

والمبادئ السياسية للإسلام هى المبادئ التى تتحدث عنها أصوله ويمكن التعرف عليها فى القرآن وصحيح السنة، والاسترشاد فى ذلك بالتطبيق العملى للرسول عليه السلام والخلفاء الراشدين من بعده.

على أنه يجب ألا نخلط بين هذه المبادئ المستندة إلى الأصول الأولية الإسلامية وبين المبادئ السياسية التى عبرت عن الحكم الواقعى ونظمه بعد تفرق المسلمين، والتى تضمنتها كتب المسلمين السياسية التى كتبت بعد التفرق مثل كتب «الأحكام السلطانية» للماوردى، وأبى يعلى وابن جماعة «وكتب السياسة» للكندى وابن الطيب والفارابى، وابن أبى الربيع والطرطوشى وأبى المكارم بن الخطير وغيرهم، فى أكثر من ثلاثين مرجعا أو كتابًا كتبها العلماء المسلمون فى عصور شتى عن نظم الحكم الواقعى عند المسلمين، على الرغم من أنها فى كثير من مقرراتها تستند إلى الأصول الإسلامية العامة، ومع هذا نجد الفرق واضحا بينها وبين النظام المثالى الذى تقرره مبادئ الإسلام العامة التى هى موضوع حديثنا هذا.

الدين والدولة

منذ تعددت مطالب الإنسان فى الحياة وهو فى كفاح مع أخيه الإنسان، ومن هنا قامت الحروب وتعددت المعارك، وتعددت التشريعات البشرية للحد من أخطارها، وتنظيم حياة بنى الإنسان، ومع ذلك لم تكف البشرية عن خوض غمار الحروب عصرًا بعد عصر، ومن هنا أيضًا كانت حاجة البشرية إلى هداية ربانية، تحدد لها ماهو خير وما هو شر، وتعين الحقوق والواجبات للفرد والجماعة، فكان الرسل، وكانت الأديان السماوية.. فالدين إذن مجموعة من المبادئ العامة لتنظيم السلوك البشرى العام فى الحياة الدنيا، أملا فى السعادة فيها وفى الحياة الآخرة، وهداية الإنسان إلى الخير والجمال، وتحقيق السلام والرخاء للجنس البشرى كله.

والإسلام بصفة خاصة تظهر فيه هذه الخصائص بوضوح تام، فهو يهدف إلى تحقيق الصالح العام للإنسانية كلها، من أسلم ومن لم يسلم، ومقرراته فى العبادات والمعاملات، فى الاجتماع والاقتصاد، فى الحكم والسياسة، فى السلم والحرب، يقررها على أنها دين واجب الاتباع لا اختيار للفرد فى تركه أو فصله، ومن ثم كان عنصر الإلزام فى المقررات الإسلامية السياسية والاجتماعية والاقتصادية أقوى منه فى المقررات الوضعية، لأن الأولى مقررات ربانية مقطوع بصدق توخيها للصالح العام أكثر من غيرها، والفرد يلتزم أداءها راضيًا مطمئن القلب، لأنه يراها دينا واجب الاتباع يجب أن يؤدى كما أراده الله سبحانه وتعالى. ويصعب أن تفرق فى الإسلام بين ما يمكن أن يسمى دينا فقط أو سياسة فقط، فكل ما يتعلق بالعقيدة والعبادة دين، ويمكن أن يسمى سياسة الإسلام فى إصلاح العقيدة والعبادة، وكل ما يتعلق بالخلق والتربية دين، ويمكن أن يسمى سياسة الإسلام فى التربية والخلق، وكل ما يتعلق بالمعاملات العامة دين، ويمكن أن يسمى سياسة الإسلام الاقتصادية والاجتماعية، وكل ما يتعلق بالحكم وتدبير مصالح المسلمين فى دنياهم دين أيضًا، ويمكن أن يسمى نظام الإسلام فى الحكم وإدارة

الدولة.. وهكذا يرتبط الدين بالدولة ارتباطًا كبيرًا في الإسلام، ارتباط القاعدة بالبناء، فالدين أساس الدولة وموجهها، ولا يمكن تصور دولة إسلامية بلا دين، كما لا يمكن تصور الدين الإسلامي فارغًا من توجيه المجتمع وسياسة الدولة، لأنه حينئذ لا يكون إسلامًا.

الدولة في الإسلام

الإسلام لا يعنى بالبحوث الفرضية والخيالية التي قامت حول الدولة، وإنما يقرر أحكامها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وفق ما يعلمه الخالق سبحانه من مصالح الناس وما ينفعهم وما يضرهم.

ومعنى هذا أن الإسلام يقيم تنظيمه لجميع أمور البشر على أساس إشعار الناس بشدة ارتباطهم بخالقهم، وتعريفهم بالخير في العبادة والمعاملة، وتوجيههم إليه، وصرفهم عن الشر في كل معانيه، وبعبارة أخرى أن الإسلام يقيم جميع النظم البشرية العامة على أساس أخلاقي، يلحظه العلماء دائمًا في جميع مقررات الإسلام في كل نواحي الحياة الإنسانية، ومن ثم كانت الدولة في نظر الإسلام دولة أخلاقية لها دستورها المكتوب «القرآن» الدائم الخالد، ولها حدودها «بلاد المسلمين أو دار الإسلام»، ولها جيشها من كل مؤمن قادر على حمل السلاح، ولها سياستها الخارجية المرسومة القائمة على السلام:

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾
(النحل: ١٢٥)

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾
(الحج: ٧٨)

﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾
(الأنفال: ٦١)

﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾
(البقرة: ١٩٤)

ولها قانونها الخاص الذي يرتب الأجزية على الجرائم المحلية، وقانونها الدولي الذي يرسم لها كيف تعامل الدول في السلم والحرب... إلخ.

فأنت ترى الدين يحدد ويرسم كل شيء في الدولة، ويوجه للعمل كل شيء في الدولة، ويضع الموازين للأعمال وتقدير العاملين المخلصين:

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾
(الحجرات: ١٣)

«إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه»[1] وهكذا لا تستطيع فصل الدين عن الدولة في الإسلام إلا إذا استطعت أن تفصل الروح عن جسم الإنسان الحي مع بقائه حيا.

ولما كان الإسلام سهل المبادئ ميسرًا لكل عقل وفهم، حيث لا غموض في تعاليمه، ولا أسرار يختص بها بعض الناس دون بعض، ولما كانت التكاليف العامة، الفردية والجماعية، معروفة لدى جميع

(١) رواه أبو يعلى في مسنده والطبراني في المعجم الوسيط والبيهقي في شعب الإيمان.

المسلمين مفهومة عندهم يعرفون حقوقهم على الدولة، وحقوق الدولة عليهم، كان من السهل قيام هذه الدولة الخيرة المثالية في أمان من تحكم فئة خاصة في الدولة باسم الدين وما يعرفونه من أسراره الخافية عن العامة، إذ لا غموض في الدين ولا أسرار، ولهذا لا يمكن التحكم عن طريقه بغير حق.

الفرد والمجتمع

أما كيف يقيم الإسلام دولته؟ فاعلم أن الإسلام جاء والأوضاع البشرية يغشاها الفساد من كل ناحية: فساد في عقيدة الناس في رب الناس، وفساد في علاقات الناس بالناس، هذه العلاقات التي تتحكم فيها العصبية الجنسية أو الإقليمية تحكما لا يتصل بصالح الإنسانية العام، بل يحطم الروح الإنساني والسلام العام، ويجعل المجتمع أشبه بمجتمع من الحيوانات المفترسة، فأصلح العقيدة بتقرير وحدة الخالق وتصرفه وحده في كل ما خلق، وأصلح هذا الفساد الاجتماعي بإلغاء العصبيات والفروق بين الناس، ودعا إلى المحبة والرحمة والتعاون في الخير وتحقيق السلام ابتغاء الخير والعدل المطلق لبني الإنسانية جميعًا.

إصلاح الأفراد أساس لإصلاح المجتمع

ولضمان سلامة الإصلاح اتجه إلى بناء مجتمع سليم من كل الآفات، حتى يمكن أن تقوم فيه هذه الدولة المثالية.. وهل يمكن بقاء مجتمع صالح دون إعداد اللبنات التي يبنى منها هذا المجتمع؟ هذه اللبنات هي الأفراد الذين يتألف منهم المجتمع، فليتجه الإصلاح أولا إلى الفرد.. فالفرد الصالح هو أساس المجتمع الصالح.. وللفرد في حياته شخصيتان: شخصية مستقلة يسأل بها عن نفسه في جسمه وعقله وروحه وماله وعمله، وإليها تتجه التكاليف الفردية، وشخصية عامة يكون بها لبنة في بناء المجتمع، بها يسأل عن صلاح مجتمعه، ومدى ما يقدم له من خدمات، وعما يحققه له المجتمع من سعادة، وإليها تتجه التكاليف الجماعية.. وبقدر نصيب الفرد من إدراك الحقائق والشعور بالمسئولية، وقوة الخلق والإرادة، وسمو الروح وشرف الغاية، يكون نصيب المجتمع من الصلاح والقوة والسعادة، وبالعكس، فسعادة الفرد سعادة للمجتمع وصلاح المجتمع من صلاح الفرد، وشقاؤه من شقائه، وفساده من فساده، فهما متفاعلان، ومن هنا كانت العناية بتربية الفرد تربية قويمة يقوم عليها المجتمع الفاضل على أساس من تعاليم الإسلام التي نوضحها فيما يلي:

القرآن دستور المسلمين:

١ ـ القرآن دستور عام خالد لا يتغير، وهو هداية من الله إلى أكمل منهج يحقق مصالح البشر في الدنيا والآخرة:

﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾
(الإسراء: ٩)

إلى المنهج الكامل لعبادة الله، والمنهج الكامل لضمان الصالح العام للإنسانية.

إلغاء الشرك والفوارق:

٢ ـ يدعو القرآن إلى تحرير العقل من قيود الجمود الموروثة، حتى إذا تحرر العقل

اقتنع بوحدة الإله الخالق، المالك لكل ما خلق من أرض وناس، وبهذا ألغى الشرك، إصلاحا للعقيدة، وألغى الفروق بين الناس إصلاحا للمجتمع، فليس من العقل عبادة غير الله مما خلق، وليس من العقل كذلك التفرقة بين الناس الأحرار، المتساوين في الخلق والعبودية للخالق، فالله خالقهم وهو سيدهم لا سواه:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾

(الحجرات: ١٣)

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾

(النساء: ١)

«الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى».

ومقياس الفضل والكرامة هو العمل، فأفضل الناس ألزمهم للدين وأنفعهم للناس، وأشقى الناس من شقي به الناس.

وعن هذا الطريق ـ توحيد الله ـ تتقرر الحرية المطلقة للناس، وتقوم بينهم الأخوة، وتتحقق المساواة التامة.

روابط قوية تجمع الأمة:

٣ ـ يقوم المجتمع على مبادئ الإسلام، ويرتبط أفراده ارتباطا قويا باعترافهم بالسيادة المطلقة لله رب العالمين، وبالأخوة الإنسانية العامة لأنهم بنو أب واحد وأم واحدة، وبالأخوة في الإيمان وبوحدة الهدف في نشر الإسلام، وبوحدة التكاليف، إذ لا اختيار ولا امتياز لأحد في التكاليف، ويستوي في ذلك الرسول عليه السلام أو الخليفة وأصغر المسلمين شأنا، ثم يرتبطون بمسئولية عامة عن سلامة الدين وسلامة الفرد والجماعة.

تضامن الأمة الإسلامية:

٤ ـ هذا المجتمع يقوم في أرض الله، وأفراده «الأمة» مخاطبون رأسا بتكاليف الله سلبا وإيجابا:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾

(النساء: ١)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾

(البقرة: ٢٧٨)

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾

(البقرة: ٤٣)

﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾

(الحج: ٧٧)

﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا﴾

(النساء: ٣٦)

وخطاب الله للأمة شمل التكاليف الفردية والجماعية، فدل هذا على مسئولية الأمة عن كل شئونها، وإذا كانت كذلك وجب أن تكون في يدها جميع سلطاتها، فقد استخلفها الله في أرضه لعمارتها وإقامة أحكامه بها:

﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾

(النساء: ٥٨)

﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾

(الحديد: ٧)

﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾

(المائدة: ٨)

هذه الأمة المتكافلة في المسئولية هي الأمة الإسلامية، سواء عاشت كلها تحت لواء واحد وحكم واحد في الأرض التي يعيش فيها شعوبها، ولا يسيطر عليها غير أبنائها، ولا تخضع سيادتها لسيادة غيرها، كما كان الحال في عصور الخلافة الإسلامية، أو عاشت شعوبها مستقلة كل شعب في أرضه يحكمه حاكم خاص غير حكام بقية الشعوب، وتتميز بكل مميزات الدولة الإسلامية كما هو الحال اليوم، لأن هذا الاستقلال يجب ألا يخرجها عن كونها حلقة قوية في سلسلة الدولة الإسلامية الكبرى

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾

(الأنبياء: ٩٢)

الأمة تختار من ينوب عنها:

٥ ـ الدولة الإسلامية أيا كانت، لها شخصية معنوية هي مناط التكليف والمسئولية، ولها سيادة عامة على بنيها وأرضها وكل إمكانياتها، لا تخضع في شيء من ذلك لسيادة دولة أخرى، إذ هي نائبة عن الله في مباشرة مقتضى عزته وسيادته في أرضه التي استخلفها فيها، فقد رد إليها العزة والسيادة بعد الله والرسول:

﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾

(المنافقون: ٨)

﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾

(النساء: ١٤١)

ومن حق هذه الأمة المكلفة أن تختار من يباشر سلطتها نيابة عنها ـ فردا أو جماعة ـ ما دامت لا تستطيع مجتمعة مباشرة تكاليفها، اختيارا يقوم على الرضا وتوخي المصلحة العامة دون قهر ولا خديعة، ومن تختاره الأمة لقيادتها يخضع لرقابتها، وليس له عليها سيادة، لأنه وكيل يخضع لما يخضع له الوكيل في سائر العقود، من رقابة الأصيل الذي يحدد له كل تصرفاته.. فهناك تعاقد بين الأمة وحاكمها «الخليفة» يتمثل في البيعة على كتاب الله وسنة رسوله وصالح المؤمنين، وتعهده هو بالتزام ذلك، فإذا أخل بالعقد انخلع من الحكم أو خلعته الأمة ولو بالقوة.

حقوق متبادلة بين الفرد والدولة:

٦ ـ لكل مسلم حق الإشراف على شئون المجتمع ومراقبة حكام الدولة، لأنه مسئول بوصفه الفردي عن صالحه وصالح إخوانه وصالح الجماعة، ومطالب بوصفه الجماعي بالعمل على سلامة بناء المجتمع الذي يتألف منه ومن أمثاله، والمحافظة على قوته وكرامته:

﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾

(هود: ١١٣)

وفي الوقت نفسه يلزم الإسلام الدولة بالعمل على إسعاد الفرد الذي يعتبر مقوما من مقوماتها، فعلى الدولة أن تساعده بكل ما تستطيع من قوة على القيام بتكاليفه، فتضمن له حياة حرة كريمة، وتحفظ حياته وماله وحريته، وتمكنه من كل الوسائل التي تساعده على أداء واجباته العامة. فإن منعته الدولة حقوقه وحرمته حريته بلا مبرر شرعي فلا طاعة لها عليه.

ربيع الأول ١٤٣٥ هـ
يناير ٢٠١٤ م

هل يجوز للمعاصرين الاجتهاد فى الجرح والتعديل والتصحيح والتضعيف؟


د. يحيى رضا جاد

• لقد شاع بين الناس أن النقد الحديثى يقوم على الإسناد والنظر فيما قرره النقاد الجهابذة من أحوال الرواة جرحًا أو تعديلًا لا غير، وهذا غير صحيح ولا دقيق؛ فالنقد الحديثى قد مر بعدة مراحل، نوجز الحديث عنها، فى إشارات مركزة، فيما يلى:

*** المرحلة الأولى: وتقوم على نقد المتون، وعلى أساسها تم الكلام فى الرواة جرحًا وتعديلًا**، وهى مرحلة تمتد من عصر الصحابة حتى نهاية النصف الأول من القرن الثانى الهجرى على وجه التقريب، فقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يرد بعضهم على بعض حينما يستمعون إلى متون الأحاديث المروية، والأحكام المتصلة بها؛ بعرضها على القرآن الكريم والثابت عندهم عن رسول الله ﷺ؛ فترد عائشة مثلًا على أبى هريرة وابن عمر وأبيه، ويرد عمر على عائشة وفاطمة بنت قيس، وهلم جرا، ويظهر ذلك فى العديد من الأحاديث التى ساقها البخارى ومسلم فى «صحيحيهما»، وكذلك ما أورده الزركشى فى كتابه «الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة»، وغير ذلك كثير.

*** المرحلة الثانية: وهى طور التبويب والتنظيم، وجمع أحاديث كل محدث والحكم عليه من خلال دراستها**، ويبدى ذلك فى الأحكام التى أصدرها سادتنا وأئمتنا الكبار: على بن المدينى، ويحيى بن معين، وأحمد بن حنبل، وأبوزرعة، وأبوحاتم الرازيان، والبخاري، ومسلم، وأبوداود، وأضرابهم.

لكن، كيف نفسر كلام كبار علماء الجرح والتعديل ممن عاشوا فى المائة الثالثة (٢٠٠ - ٣٠٠هـ) فى رواة لم يلحقوهم من التابعين ومن بعدهم، ولم يؤثر فيهم جرح أو تعديل ممن عاصرهم؟ هذا ليس له إلا إجابة واحدة لا ثانى لها، هى: أن نقادنا الكبار لم يصدروا أحكامهم على هؤلاء الرواة إلا بعد جمع حديثهم وتفتيشه.

مثال ذلك: قول البخارى (ت ٢٥٦هـ) فى إبراهيم بن إسماعيل بن أبى حبيبة الأشهلى المدنى (٨٣ - ١٦٥هـ): منكر الحديث.

وقول أبى حاتم الرازى (ت٢٧٧هـ) فيه شيخ ليس بقوي، يكتب حديثه ولا يحتج به، منكر الحديث، وقول النسائى فيه: ضعيف[١].

فهؤلاء العلماء الثلاثة لم يدركوه، بله أن يعرفوه عن قرب، ولا نقلوا عن شيوخهم أو شيوخ شيوخهم ما يفيد ذلك (إذ لو فعلوا لصرحوا بذلك وأخبروا به)، فكيف تم لهم الحصول على هذه النتائج والأقوال؟ بين أنهم جمعوا حديثه ودرسوه، وأصدروا أحكامهم اعتمادًا على هذه الدراسة.

ومثال ذلك أيضًا - على نحو أبين وأجلى -:

قول ابن أبى حاتم فى ترجمة أحمد بن إبراهيم الحلبي: «سألت أبى عنه، وعرضت عليه حديثه، فقال: لا أعرفه، وأحاديثه باطلة موضوعة كلها ليس لها أصول، يدل حديثه على أنه كذاب»[٢].

وقوله فى ترجمة أحمد بن المنذر بن الجارود القزاز: «سألت أبى عنه، فقال: لا أعرفه، وعرضت عليه حديثه، فقال: حديث صحيح»[٣].

وقول أبو عبيد الآجرى فى مسلمة بن محمد الثقفى البصري: «سألت أبا داود عنه، قلت: قال يحيى (يعنى ابن معين): ليس بشيء؟ قال (يعنى أبوداود): حدثنا عنه مسدد، أحاديثه مستقيمة.

قلت: حدث عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة: إياكم والزنج، فإنهم خلق مشوه. فقال (يعنى أبوداود): من حدث بهذا فاتهمه!»[٤]

والخلاصة أن هذه المرحلة هى المرحلة الأخطر، والأكثر أهمية، فى تاريخ الجرح والتعديل، وهى التى - مع لاحقتها التى سيأتى الحديث عنها - ينبغى أن تتبع اليوم، لا سيما فى المختلف فيهم - أو المشكوك فى أمرهم لأى سبب علمى استدعى ذلك الشك -، إذ يتعين جمع حديثهم، ودراسته من عدة أوجه - كما فعل الصحابة فى المرحلة الأولى، والنقاد الكبار فى المرحلتين الثانية والثالثة، كل قدر طاقته وبحسب وسعه - كالآتي:

- أولها: أن ينظر فى الراوى هل تفرد بمجمل ما يرويه أم تابعه عليه غيره.
- والثانى: المقارنة بين مجمل رواياته تلك وروايات من تابعه عليها من الثقات المتفق على توثيقهم.
- والثالث: أن يعرض مجمل حديثه على القرآن الكريم والثابت المتفق على ثبوته عن رسول الله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم - إذ القرآن وصحيح السنة متون صحيحة وقواعد كلية لا يمكن أن يأتى عن رسول الله ما يخالفها - فإن خالفتها - صادمتها كان ذلك علامة على خلل فى المروى؛ وهم الراوي، أو ضعفه، أو كذبه.

وبهذه الأوجه الثلاثة كلها يتبين لنا مدى ضبط الراوى وإتقانه، ومدى استقامة حديثه أو اضطرابه أو نكارته. ومن ثم، نقبل منه بعد ذلك ما قد ينفرد به إذا لم تقم شواهد أو أمارات خارجية على ضعفه؛ كمخالفة القرآن وصحيح السنة، أو مصادمة قواطع العقل المؤمن، أو مصادمة الواقع المحسوس، أو أن يكون هذا الراوى ممن يحدث عن، أو يرجع إلى، أصول - أعنى مما هو مكتوب عنده - ولا يوجد ذلك الحديث فى أصوله - مما يدل على وهمه فى التحديث به، أو غير ذلك من أوجه فن علل

(١) تهذيب الكمال للمزي (٢/٤٣)، ط مؤسسة الرسالة - بيروت.
(٢) الجرح والتعديل لابن أبى حاتم (٢/ الترجمة رقم ٥).
(٣) المرجع السابق (٢/ الترجمة رقم ١٧٠).
(٤) تهذيب الكمال للمزي (٢٧/٥٧٤).

الحديث - وهو أدق وأخفى أبواب التصحيح والتضعيف، لا يقوم به إلا ناقد خبير -.

*** المرحلة الثالثة: الجمع بين «أقوال المتقدمين في الرواة» و«جمع حديث الراوي وسبره وإصدار الحكم عليه»** كما تراه واضحًا عند علماء القرن الرابع الهجري مثل ابن حبان (ت ٣٥٤هـ) وابن عدي الجرجاني (ت ٣٦٥هـ) والدارقطني (ت ٣٨٥هـ).

انظر في كتاب ابن عدي «الكامل في ضعفاء الرجال» تراه يورد أقوال النقاد المتقدمين في صدر الترجمة، ثم يفتش حديث الرجل؛ فيجمع حديثه، ويسوق منه أحاديثه المنكرة، أو ما أنكر عليه، أو الأحاديث التي ضعفه البعض من أجلها؛ فيدرسها ويبين طرقها - إن كانت لها طرق أخرى -، ثم يصدر حكمًا في نهاية الترجمة يبين فيه نتيجة دراسته هذه، ويعبر عن ذلك بأقوال من مثل: «لم أجد له حديثًا منكرًا»، أو «لا أعرف له من الحديث إلا دون عشرة»، أو «هذه الأحاديث التي ذكرتها أنكر ما رأيت له»، أو نحو ذلك من الأقوال والأحكام التي تشير إلى أن الأساس في الحكم على أي شخص جرحًا أو تعديلاً هي الأسانيد التي ساقها والمتون التي رواها، لا مجرد ما قاله أهل الجرح والتعديل - على عظمتهم وجليل عملهم ودقة الكثير من أحكامهم -.

وقد دفعه هذا المنهج إلى إيراد رجال لم يتكلم فيهم أحد قبله، لكنه وجد لهم أحاديث استنكرت عليهم لمخالفتهم ما هو معروف متداول من الأسانيد والمتون «أي ما هو ثابت رواية ودراية»، وهو ما يعبر عنه بعدم متابعة الناس له عليها، أو أنها غير محفوظة، نحو قوله في ترجمة سعد بن سعيد بن أبي سعيد المقبري بعد أن ساق له جملة أحاديث غير محفوظة: «ولسعد غير ما ذكرت، وعامة ما يرويه غير محفوظ، ولم أر للمتقدمين فيه كلامًا، إلا أني ذكرته لأبين أن رواياته عن أخيه عن أبيه عن أبي هريرة عامتها لا يتابعه أحد عليها»(*).

وههنا تنبيه مهم - يشمل المرحلتين الثانية والثالثة -، وهو أن عملية التصحيح والتضعيف والحكم على الرواة اجتهادية رأسًا، بل الحكم على الرواة في كثير منه - إن لم أقل في غالبه - لم يبن على «الاستقراء التام»، وإنما على «الاستقراء الناقص / غير التام».

والأحكام الصادرة عن الأئمة النقاد - كما يتضح لكل ذي عينين إذا نظر في كتب الرجال والجرح والتعديل - تختلف باختلاف ثقافتهم، وبيئاتهم والمؤثرات التي أحاطت بهم، وقدراتهم العلمية والذهنية، وبحسب ما يتراءى لهم من حال الراوي تبعًا لمعرفتهم بأحاديثه ونقدهم مروياته، وتبينهم فيه قوة العدالة أو الضبط أو الضعف فيهما، ولذلك قد يختلف - كما رأينا ونرى - كلام إمامين من أئمة الحديث في الراوي الواحد، وفي الحديث الواحد، فيضعف هذا حديثًا، وهذا يصححه، ويرمي هذا رجلاً من الرواة بالجرح، وآخر يعدله، وهذا يعني - بما لا يدع مجالاً للشك - أن التصحيح والتضعيف

(*) وكذلك قال ابن حبان متحدثًا عن سعد هذا: «يروي عن أخيه وأبيه عن جده بصحيفة لا تشبه حديث أبي هريرة يتخايل إلى المستمع لها أنها موضوعة أو مقلوبة أو موهومة، لا يحل الاحتجاج بخبره». المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين لابن حبان: (١/ الترجمة رقم ٤٦٨)، ط ١٣٩٦ هـ دار الوعي - حلب.

وابن حبان وإن كان متساهلا في التوثيق، فإن أحكامه واستقراءاته الواردة في كتابه «المجروحين» تضعه في مصاف كبار النقاد بارتياح، إذ يذكر فيها الجرح مفسرًا معللاً بعد جمع واستقراء وسبر ابن حبان إذا جرح رأيته - في الأعم الأغلب - يتفجر علمًا.

والجرح والتعديل: من مسائل الاجتهاد التي يجوز أن تختلف فيها الآراء.

ألم تر كيف يضعف بعض النقاد راويًا بسبب غلط يسير وقع فيه لا وزن له بجانب العدد الكثير من الأحاديث الصحيحة التي رواها؟!.. ألم تجد يومًا من وثق راويًا على الرغم من كثرة أوهامه وأخطائه؟!.. ألا يدل ذلك - وغيره كثير - على ما أشرنا إليه؟!

*** المرحلة الرابعة: التأكيد على نقد السند استنادًا إلى أقوال أئمة الجرح والتعديل بعد جمعهم لها والموازنة بينها، ووضع القواعد الخاصة بهذا الأمر - بما تجده في كتب المصطلح -**، فصححوا الأحاديث التي اتصل إسنادها برواية الثقات العدول وخلت من الشذوذ والعلة، وحسنوا الأحاديث التي اتصلت أسانيدها واختلف النقاد في واحد أو أكثر من رواتها، وضعفوا الأحاديث التي لم تتصل أسانيدها أو ضعف واحد أو أكثر من رواتها، على اختلاف بينهم بين متشدد ومتساهل بحسب مناهجهم التي ارتضوها، وما أداهم إليه اجتهادهم. وقد ظهر هذا الاتجاه - على وجه التقريب - منذ القرن الخامس فما بعده «أي ٤٠٠ هـ وما بعدها».

*** المرحلة الخامسة: وهي المرحلة التي سادت بين أوساط المشتغلين بهذا العلم - على قلتهم - في العصور المتأخرة وإلى يوم الناس هذا**، وهي التي تعتمد أقوال المتأخرين في نقد الرجال، ولا سيما الأحكام التي صاغها الحافظ ابن حجر في «التقريب» حيث صار دستورًا - لا ينقض ولا ينتقد! - للمشتغلين في هذا العلم، فيحكمون على أسانيد الأحاديث استنادًا إليه، ولا يرجعون - في الأعم الأغلب - إلى أقوال المتقدمين، ولم يكتفوا بذلك بل راحوا يعتمدون بإطلاق تصحيح المتأخرين وتضعيفهم للأحاديث - مثل الحاكم، والمنذري، وابن الصلاح، والنووي، والذهبي، وابن كثير، والعراقي، وابن حجر، وأضرابهم -، مع تساهل غير قليل عند بعضهم مثل الحاكم.

وبعد هذا البيان المركز نقول:

- نعم، لا يجوز التعالم والتفلسف والقول بالخرص والأوهام، ولكن لا يجوز كذلك التسليم المطلق للسابقين، حتى في التصحيح والتضعيف والجرح والتعديل - مع حفظ الود والفضل والأدب والتقدير لهم في كل مقام - لأن العلوم في كل المجالات تتنامى وتتطور ويبني فيها اللاحق على السابق، إن في العمق والشمول، أو في الاستدراك والتأصيل، أو في الصياغة والترتيب.

والقول - بعد هذا البيان الجلي - بأن العلوم الدينية وحدها هي التي تتراجع، إذ السابق لم يترك للاحق شيئًا ولا مجالاً ولا متنفسًا، وليس للمحدثين إلا تلمس آثار أقدام السابقين للسير على هداها، وإلا ضلوا الطريق، وأضلوا الناس، وأحدثوا في دين الله!

نعم، الأقدمون لهم فضل السبق، ولكن المتأخرون لديهم مزية الإحاطة - نظرًا وتأصيلا وتحليلا ونقدًا -، لا سيما في التصحيح والتضعيف والجرح والتعديل، فمع انتشار الطباعة والفهرسة والحواسيب، أصبح بالإمكان في يوم إنجاز ما كان يقضي فيه المتقدم شهرًا!

والمشكلة في جوهرها ليست في ضعف إمكانيات المحدثين، ولا في قدر العلم وكثرته

وتطوره على مدى السنين، وإنما في قلة عدد النابهين والنابغين المشتغلين بالعلوم الشرعية والمتفرغين لها حق التفرغ، أليس أكثر المشتغلين بها اليوم أنصاف متعلمين، وأنصاف علماء، ومتسلقون! أكثرهم يدور في التصنيف بين المتردية، والنطيحة، وما أكل السبع!

ولندلف الآن من هذه الديباجة إلى هذا السؤال المفصلي: كيف كان يحكم علماء الجرح والتعديل على أناس لم يعاصروهم- أو عاصروهم ولم يلتقوا بهم أو يعاشروهم- بالضعف والوهن، أو بالعدالة والضبط؟

من المؤكد- كما شرحنا من قبل وكما سيأتي كذلك- أنهم كانوا ينظرون في روايات هؤلاء، ويعرضونها على روايات الذين اشتهرت عدالتهم وضبطهم، وعلى معاني القرآن وما ثبت من السنة، ومن خلال المقارنة يظهر لهم من هو ثقة، يوافق الثقات في غالب روايته ولا يأتي بما يخالف القرآن وصحيح السنة، ومن هو ضعيف، يغرب ويزيد وينقص و/ أو يأتي بما يخالف القرآن وصحيح السنة.

هذه الطريقة هي عمدتهم في الجرح والتعديل.. فإذا كان ذلك كذلك، ألا نستطيع أن نسلك السبيل نفسه اليوم في الرواة «لا سيما المختلف فيهم عند علماء الجرح والتعديل، أو المشكوك فيهم من قبلنا، لدواع استدعت ذلك الشك»، فنجمع ما نستطيع جمعه من روايات أحدهم التي تصح نسبتها إليه، ثم نعرضها على روايات الأثبات الثقات وعلى القرآن وصحيح السنة، ثم ننزل كل راو المنزلة التي يستحقها، تبعا لموافقته ومخالفته وتفرده، سيما أن هذا الأمر- في عصرنا هذا، ومع وجود الحاسوب، وتوافر كم هائل من كتب الحديث ومسانيده

والعلل والرجال والجرح والتعديل- أيسر وأسرع وأدق مما كان عند المتقدمين، وأنى لأحدهم أن يتيسر له ما تيسر لنا الآن؟! إنه أمر تنقطع دونه الأعناق منهم، وتفنى أعمارهم في سبيله دون تحصيله على الوجه الذي وقع لنا نحن المعاصرين، فالحمد لله على فضله وتيسيره، ونسأله أن يوفقنا إلى شكره عليها بحسن توظيفها واستغلالها، كما نسأله ألا نجحد نعمه تلك بالهجران لها ومحض التقليد لسابقينا لمجرد أنهم قد سبقونا إلى قول ما قالوا!

وبناء على ما سبق، إذا انتهينا إلى نتيجة تخالف قول الجارح أو المعدل المتقدم، أخذنا بما انتهينا إليه، وعزونا ما قاله الناقد المتقدم إلى نقص استقرائه، فإنه ليس بمعصوم، وكلامه لم ينزل من السماء.

نعم، ليس كل استقراء منا- نحن المعاصرين- سيكون استقراء تاما لا يند عنه شيء- كما لا يجوز أن يدعى مثل ذلك في أعيان كافة الأحكام التي أصدرها المتقدمون في حق الرواة- لكن:

- الأول لا يعني إجازة التشنيع على ما أدعو إليه «إذ من سيفعل، لم يضع بعد رأينا هذا على منضدة التشريح العلمي، تحقيقا ودراسة واشتغالا، أو هو ممن لم تشغله هذه المسألة من قبل، فتنبهه طرحنا هذا على ضرورة دراستها علميا، ومن كان هذا وصفه لا يجوز له النقد، بله التشنيع!».

- والثاني لا يعني أن نرمي كلام نقادنا في البحر أو أن نضرب به عرض الحائط.

بل الواجب هو المزاوجة، والموازنة، والاستفادة من الأئمة النقاد الجهابذة- كما سبق البيان في «أولا».

لم أقل- ولا يجوز لي ذلك-: «نلغي كلام

النقاد»، كيف ذلك وإنما انبنت آراؤهم- في كثير منها على أقل تقدير- في الرجال على المنهج العلمي الاستقرائي، كل بحسب وسعه وطاقته وجهده وسقفه المعرفي؟!

نعم، هناك قضايا فاتت، لها رجالها الذين انصرموا، وأخرى انقضت، لا يجوز لنا فيها إلا التسليم بما يقوله النقاد الجهابذة بعد التأكد من صحة نسبة أقوالهم إليهم- من مثل:

- معرفة تاريخ ميلاد ووفاة الرواة، أو اختلاط أحدهم من عدمه، أو قبوله التلقين من عدمه.

- أو معرفة أنه كان يحدث من كتبه، أو معرفة وقوع الدس فيها من قبل بعض الوضاعين والمتلاعبين في غفلة عنه- وما يستتبع ذلك من دلالات-، أو احتراق كتبه ذاتها- وما يستتبع ذلك من دلالات-، أو عدم خروجه من بلده إلى غيرها، أو حكاية مواقف ما ذات أهمية أو دلالة واجبة التوظيف حين سبر أحاديث الراوي.

إلى غير ذلك من الأمور الفنية الدقيقة التي لا تحصى، والتي، في ذات الوقت، لا منفذ لنا إليها إلا من خلال الرواية، أي من خلال ما يخبرنا به أئمتنا ومتقدمونا العظام-، ولكن هذا شيء، وإعمالنا للمنهج العلمي في جمع وسبر وفحص أحاديث الرواة شيء آخر «مع الاستعانة الواجبة، بل اللازمة، بما أخبر به المتقدمون من الأمور الفنية السابق الإشارة إلى بعضها».

وليس الإمام ابن عدى- كما ذكرنا من قبل- عنا ببعيد، فهذا كتابه «الكامل في ضعفاء الرجال» خير شاهد على ما أدعو إليه وأنادى به.

وليس الدارقطني- كما ذكرنا من قبل- عنا ببعيد، فهذا كتابه «علل الحديث» خير شاهد على ما سبق.

نعم، أين أمثال ابن عدى والدارقطني وابن

حبان؟! هم أقل القليل، لكن لا يمنع ادعاء قلتهم من انعدام وجودهم، كما لا يمنع من وجوب إيجاد أمثالهم، كما لا يمنع من الأخذ بنتائج من سار على دربهم- وهو عينه، في المجمل، منهج نقاد الحديث وجهابذته في كل زمان ومكان-.

أنا لا أدعو إلى الهدم، وإنما إلى نقد ما يستحق النقد، بل- إن شئت الدقة في التعبير-: أنا أدعو إلى ألا يبخسنا أحد حقنا في أن نخالف المتقدمين إذا ظهر لنا ما يستدعي المخالفة، وإلى أن نغربل ما يستدعي الغربلة من أقوالهم في الجرح والتعديل، والتصحيح والتضعيف؟! على وفق مجمل ذات الأصول التي بنوا عليها، إذ هي عندنا، في المجمل، وبعد إعمال العقل فيها تأملا وفحصا، أصول صحيحة في نفسها لا مطعن فيها ولا ملحظ عليها.

فمعلوم عند الجميع أن من المنهجية العلمية التي لا تقبل الجدل: عدم قبول القول دون برهان، فـ«البينة على من ادعى»، و﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، وهذا يصدق على كل العلوم، فلماذا يستثنى الجرح والتعديل والتصحيح والتضعيف؟! ولماذا يجب علينا ألا نقبل قول كل قائل من غير دليل، إلا قول علماء الجرح والتعديل والتصحيح والتضعيف، فإن التسليم له لا مناص منه، ولو كان مبنيا على غير دليل، أو حتى على دليل لم نتبينه، أو على دليل ظهر لنا ضعفه، أو قدرنا ذلك فيه.. تلك إذا قسمة ضيزى!

نعم، النقاد لا يوثقون أحدًا- أو: هذا هو المفترض- حتى يطلعوا على عدد من مروياته صحيحة النسبة إليه، فإذا وجدوها مستقيمة وتقوه (وهؤلاء هم الثقات الأثبات الحفاظ الجبال الجهابذة)

وصححوا حديثه وقبلوا ما ينفرد به عمن يروى عنه - مما لم يشاركه غيره في روايته - وإذا وجدوا أكثرها مستقيمة صحيحة مع خطأ نادر أو قليل فيما يرويه: ترجح / غلب على الظن أن الاستقامة والإتقان ملكة له، حكموا له بمثل ما حكموا لسابقه - فإن الوهم والخطأ لا يسلم منه أحد، إذ ليس هناك بشر معصوم - (وهؤلاء هم الصدوقون الورعون الثقات الأثبات)، وإذا وجدوا الخطأ والوهم والغلط والسهو كثيرًا أو غالبًا: حكموا عليه باللين والضعف والغفلة - أو بالترك مطلقًا؛ كل بحسبه -، وتركوا الاحتجاج بحديثه، وإنما يكتبون من حديثه الترغيب والترهيب والزهد والآداب والحكمة .. وهكذا وهكذا.

وهذا يعني - كما أوضحنا من قبل - أن جل الاعتماد إنما هو على الجمع والسبر والمقارنة .. فاستبان بهذا أن طريق معرفة حال الراوى تحتاج إلى إطلاع واسع على مرويات الرواة وأسانيدهم .. إن اعتبار الروايات والموازنة بينها هو روح منهج النقد عند المحدثين والمرتكز الأساس فيه.

فإذا كان هذا هو منهج النقاد، ولكنهم - في الأعم الأغلب، أو قل: في كثير من الأحيان - لم يفصلوه بالبيان وذكر البرهان في كل راو، فلماذا لا يجوز لنا الآن أن نقوم بهذا العمل عند الحاجة إليه؟

قد يقال: إن النقاد الأوائل اطلعوا على روايات كثيرة لم تصل إلينا، وعليه فاستقراؤهم صحيح تام واستقراؤنا ناقص.

والجواب: هذا الكلام ينبني على دعوى أن أكثر الروايات والأحاديث فقد ولم يصل إلينا، وهذا محل نظر، لأنه يتنافى مع أصل حفظ السنة التي هي بيان تطبيقي عملي للكتاب، وما كان الله ليضيع بيان كلامه، أم تراه يفعل؟! إذن لنسبت إليه عدم الحكمة، تعالى الله عن ذلك وتقدس!

ولو سلمنا بتلك الدعوى المتهافتة، فلا حجة علينا بما لم يصل إلينا، وإنما الحجة فيما وصل إلينا ووقفنا عليه، مثلما أن السابقين من أئمة الجرح والتعديل إنما قامت الحجة عندهم بما وصل إليهم وبما جمعوه هم، وبديهي أن الناقد الواحد منهم يمتنع عقلًا وواقعًا إحاطته به، أو جمعه له، مجمل المرويات.

ثم، ما المانع من النظر فيما وصل إلينا من روايات الراوى وأحاديثه؛ إذ ما سنحصله في هذا بعد تدوين السنة، وبعد وجود الطباعة التي ألقت إلينا بأطنان من كتب الحديث والمسانيد والعلل والرجال، وبعد اختراع الحاسوب وما يوفره من وقت وجهد - أكثر مما كان يحصله آحاد النقاد في كل راو من قبل، وهذا كاف - وزيادة - في توفير أرضية استقرائية متينة نبني عليها - بالسبر والمقارنة والموازنة - حكمنا على الرواة .. بل أكاد أقول بعلو كعب استقرائنا المنتظر على استقرائهم - ومن ثم، أحكامنا على أحكامهم!

ثم إن دعوى «شمولية» استقراء آحاد النقاد لمرويات كل راو تحتاج إلى تدليل، ولا يكفي ذكر مثال أو مثالين - أو حتى عشرة أو مائة - من استقراء ناقد ما لروايات راو ما، إذ المطلوب إثبات وقوع هذا من كل النقاد في كل الرواة، وهذا مستحيل أو يكاد.

سلمنا - جدلًا أو حقًا - أن قول علماء الجرح والتعديل مسلم لا نقاش فيه ولا حاجة إلى بيان براهينه، فهذا يمكن إمضاؤه في التطبيق - بل يجب، أكاد أقول - فيمن اتفقوا على توثيقه أو تجريحه (إذ صدور الاستقراءات غير التامة من قبل نقاد - موثوق فيهم بالطبع - مختلفي البيئات والثقافات والأوضاع والمناهج والعلم، وانتهاؤها إلى ذات النتيجة، يفيد الظن الغالب المقارب للقطع على أقل تقدير)، لكن ماذا نفعل فيمن اختلفوا فيه ما بين مجرح وموثق، وهو كثير كثير؟:

أنصنف النقاد إلى متشدد ومعتدل ومتراخ، ونوازن بين آرائهم في ظل هذه التصنيف غير الموضوعي في مجمله؟ ما هي المعايير الموضوعية لهذا التصنيف - دون الاعتماد الكلي على الثقة العمياء بأقوال المتأخرين كالإمام الذهبي والحافظ ابن حجر وأضرابهم -؟! لن تجد في ذلك برهانًا إلا فيما يذكر - بحق - من تساهل ابن حبان وأضرابه في توثيق الرواة وتصحيح الأحاديث.

أم نأخذ بقول الجارح ونقدمه على قول الموثق كما ذكروه في قواعد الجرح والتعديل؟ ولماذا يقدم استقراء الجارح على استقراء الموثق؟ هذا في «العدالة» مقبول؛ لأن الجارح ربما أطلع على ما لم يطلع عليه الموثق، أما في «الضبط» فاستقراء الجارح والموثق كلاهما يتكافأ أو يكاد - إلا فيما ينص عليه النقاد من كونهم قد جمعوا الكثير أو جمعوا كذا وكذا -؛ لأن «الضبط» نسبي يعتمد على «مقدار» ما «جمع» الموثق والجارح من روايات الراوى و«سبراه»، فإن كان المجموع كبيرًا، كان الحكم أقرب إلى الصواب، وإن كان قليلًا كان الحكم أقرب إلى الخطأ - بغض النظر عن نوع الحكم الصادر في حق الراوى جرحًا أو توثيقًا.

نعم هناك من الأخطاء ما لا يغتفر لو ثبت وقوعه من قبل الراوى ولو مرة واحدة، ولكن ليس هذا بشائع ولا غالب - .. وهنا، أنى لنا أن نقف على «قدر المستقرأ عند كل ناقد بعينه»؟.. ولماذا لا يحق لنا أن نقوم نحن بهذا الاستقراء؟

ثم، بعد هذا وفوقه ومعه، لماذا لا نفعل الاجتهاد الجماعي في علم الرجال والجرح والتعديل؟!، وكيفيته: أن نحصر الرواة المختلف فيهم، ثم نجمع مرويات كل راو منهم، ثم نجمع روايات الثقات - المتفق على توثيقهم - لنفس تلك الأحاديث، ثم يتولى المعاصرون من المتخصصين في الحديث وعلومه، كل بحسب وسعه، المقارنة وعد الأخطاء والأوهام والموافقات والتفردات، ويعطى كل راو نسبة في الضبط - بالنظر إلى مجموع أخطائه مقسومًا على مجموع رواياته.

ولا يشترط أن يقوم عالم واحد بهذا الأمر، بل يمكن أن ينظر عالم في راو واحد فقط، ويخرج بعد ذلك بنتيجة، وغيره يفعل في غير الراوى الأول.

نحن - بحق وصدق - محتاجون إلى هذا، سيما في الرواة المشكل أمرهم، والمستعر حولهم الخلاف، حتى الآن، وأكثر - إن لم أقل: كل - ما صنف فيهم من قبل المحدثين، هجومًا عليهم وجرحًا، أو دفاعًا عنهم وتوثيقًا، إنما اعتمد منهج النقل عن النقاد، لا استقراء روايات الراوى وسبرها من جديد، بل لم يخطر على بال أحد منهم ذلك، وإلا أشار إليه!

وختامًا، أرجو ملاحظة أني لا أدعو إلى اطراح ما قاله النقاد، وإنما إلى البناء عليه ببيان براهينه الاستقرائية التي سكتوا عن بيانها كثيرًا، إذا احتاج الأمر لذلك -، وإلى إعادة النظر فيمن اختلف فيه من الرواة، لا فيمن اتفق على توثيقهم أو جرحهم .. اللهم بلغت .. اللهم فاشهد.

والله تعالى أعلى وأعلم

أثر منهج المحدثين في المنهج الأوروبي التاريخي الحديث





أ. د. أحمد عمر هاشم
عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر

نقد المنهج التاريخي ومقارنته بمنهج المحدثين:

أولا– من ناحية نقد الوثائق: وأما بالنسبة لنقد الوثائق فإن أصحاب المنهج الحديث يرون وجوب الحذر في استخدامها، كالحذر من استخدام أول نسخة تقع لديهم أو الاعتماد على أقدم النسخ، أو الميل إلى اتخاذ حكم الأغلبية. وبفحص هذه الطريقة لم نجد للوثيقة اتصالا إلى صاحبها الأول وكاتبها، وكل ما يعنون به إنما هو الحذر من استخدامهم لأول نسخة أو الاعتماد على أقدم النسخ أو اتخاذ حكم الأغلبية فكأنهم يدرسون ظاهرة الوثيقة كما هي أمامهم دون تتبع طرق وصولها إلى أيديهم فأين هذا من منهج المحدثين الذي تقوم الرواية فيه على نقل الثقة عن الثقة يبلغ به النبي ﷺ مع الاتصال، ولا شك أن الإسناد الصحيح المتصل من خصائص الأمة الإسلامية.

وأما هذا الذي وجهوه إلى نقد الوثائق من حيث الحذر في استخدامها.. إلخ فقد تأثروا فيه ببعض طرق المحدثين، ولكنهم لم يصلوا إلى ما وصل إليه المحدثون حيث وضعوا للحيطة والمحافظة على الحديث أدق ما وصل إليه النقد القديم والحديث، ووضعوا قرائن تدل على الوضع في المتن منها إقرار واضعه، وركاكة اللفظ، وفساد المعنى، ومناقضة الخبر للكتاب والسنة، ومخالفته للحقائق التاريخية، ومخالفته للعقل وغير ذلك.

وبتلك الدراسات الحديثة تكونت الملكات العلمية عند المحدثين فكانوا يدركون الحديث الصحيح في ثوبه الإلهي، وبضوئه المشرق، ويعرفون المنكر فيقشعر منه جلدهم وتنفر قلوبهم منه.

كما قام رجال السنة بحصر الأخبار الموضوعة، وحكموا على بعض الأحاديث بالشذوذ والنكارة والاضطراب والوضع والاختلاق.

ثانيا: من ناحية التحقق من شخصية صاحب الوثيقة: ولما كانت طرقهم في ذلك لا توصلهم إلى بعض النتائج الإيجابية، ولا توقفهم على كيفية استخدام الوثائق الجيدة، فإننا نرى «سينيوبوس» يعيب على من يشك عند وضوح النص، ويحرم الإسراف في النقد الواضح للناس، ثم يقرر كل من «دونو» و«فريمان» و«سينيوبوس» أن هناك من الكتب ما هي صحيحة معتمدة مسلم بصحتها عندهم ولم يصل الشك إليها في رأيهم، وهي كتب كبار كتابهم وفلاسفتهم، ثم يرون أنه من الضروري قراءتها، فمن وسائل منهجهم الاستعانة بالعلوم المساعدة التي تعين الباحث على فهم الوثائق التاريخية وهي كتب كبار الكتاب والفلاسفة، فياليت التابعين للفكر الغربي وللمستشرقين ينظرون إلى ما يقوله هؤلاء في منهجهم لوضوح النص فقط فكيف بالنص النبوي الشريف الذي توافرت فيه شروط الصحة، وتوافر لصاحبه أسمى صفات الصدق والثقة، حتى دونت السنة النبوية على أدق المناهج والمقاييس العلمية؟ أوليس أولى بكتب السنة إذا الاعتراف بها وخاصة أن رواتها قد جمعوا الشروط العالية: الإسلام، والعقل، والصدق وعدم التدليس، والضبط، والعدالة «فيكون الراوي مسلما بالغا عاقلا خاليا من أسباب الفسق وخوارم المروءة»، وألا يكون سفيها به حمق وعدم اتزان، وألا يكون عابدا لا يزن الأمور بدقة، وألا يكون صاحب بدعة يدعو إليها.

قال الإمام مالك: لا يؤخذ العلم من أربعة ويؤخذ من سواهم: لا يؤخذ من سفيه، ولا يؤخذ من صاحب هوى يدعو إلى بدعته، ولا من كذاب يكذب في أحاديث الناس، وإن كان لا يتهم على حديث رسول الله، ولا من شيخ له فضل وصلاح وعبادة إذا كان لا يعرف ما يحمل وما يحدث به.

ثالثا: من ناحية التحليل الداخلي الإيجابي: يرى أصحاب المنهج الحديث أنه لا ضرورة إلى تحليل الوثائق الخاصة بالعصور الحديثة، تحليلا تاما لقرب لغتها من لغة المؤرخ، ويكتفون بالتحليل بالنسبة لوثائق العصرين: القديم والوسيط.

فأين هذه من المناولة فضلا عن السماع عند البخاري والمحدثين.

رابعا: من ناحية التحليل الداخلي السلبي: ويتمثل في دراسة الأسباب الخارجية والبواعث النفسية الداخلية التي ربما دعت المؤرخ إلى الكذب أو الخطأ.. وفي الواقع أن أصول هذه المبادئ مأخوذة من المحدثين إلا أنها قاصرة ولم تبلغ شأن مبادئ المحدثين لطول الزمن عليها، ولعدم قدامة المعلومات بالنسبة لما فيها: أما المحدثون فقد بينوا أسباب الكذب والوضع، منها الزندقة، والخلافات السياسية، والتعصب العنصري، والخلافات الفقهية والكلامية، وما صنعه بعض القصاص من استهواء العامة واتباع هوى الملوك والأمراء.

خامسا – من ناحية التركيب التاريخي: فنراهم يبحثون للمؤرخ استخدام الخيال لسد فجوات التاريخ بشرط أن يكون مقيدًا بنتائج التحليل، وهذا لا يقبله المحدثون ولا يرضى منهجهم أبدًا بحال من الأحوال.

سادسا – من ناحية العرض: فقد صاغه المحدثون في شروط دقيقة هي: الإسلام، والثقة، والعدالة، والضبط، وألا يكون متبعا لبدعة يدعو إليها.. إلخ.

كما تميزت طرق التحمل والأداء عند المحدثين بالدقة الفائقة التي لا يمكن أن يصل

إليها أصحاب المنهج التاريخي ولا غيرهم .. ومثال هذه الطرق:

١- السماع: من صيغ الأداء عن هذا الطريق سمعت أو سمعنا.

٢- القراءة: ومن صيغ الأداء عن هذا الطريق قرأت على فلان، وقرئ على فلان وأنا أسمع.

٣- الإجازة: ومن صيغ الأداء هذا الطريق أجازني أو أجازنا فلان.

٤- المناولة: ومن صيغ الأداء هذا الطريق ناولني أو ناولنا فلان من الإجازة.

٥- المكاتبة: ومن صيغ الأداء عن هذا الطريق كتب إلي أو إلينا فلان.

٦- الإعلام: ومن صيغ الأداء عن هذا الطريق أعلمني وأعلمنا فلان.

٧- الوصية: ومن صيغ الأداء عن هذا الطريق أوصى إلي أو إلينا فلان، وحدثني فلان بالوصية.

٨- الوجادة: ومن صيغ الأداء عن هذا الطريق وجدت بخط فلان، إذا عرف الخط ووثق به، أما أصحاب المنهج التاريخي فيعتمدون في صحة وثائقهم على الحفريات والأوراق المتناثرة التي قد تكون منذ آلاف السنين، ولا يعترف بها رجال الحديث، وأين هذه الأمور مما اشترطه المحدثون من طرق التحمل والأداء، ولو أن أصحاب هذا المنهج التاريخي اشترطوا شروطًا كشروط المحدثين أو صاغوا مناهج كمناهجهم ما كان ليصلهم شيء من تاريخه القديم والأوسط وأكثر العصر الحديث، بل ولا ثبت عندهم من كتبهم التي عدوها أصولا في نظرهم شيء ما.

وأنى لهم ذلك؟ والمحدثون في دقتهم وتحريهم قد وصلوا إلى درجة عالية فيها، فها هو الإمام البخاري يقول: كتبت عن ألف ثقة من العلماء وزيادة وليس عندي حديث لا أذكر إسناده(١).

وقال أيضًا: لم تكن كتابتي للحديث كما كتب هؤلاء، كنت إذا كتبت عن رجل سألته عن اسمه وكنيته ونسبه وحمل الحديث إن كان الرجل فهما فإن لم يكن سألته أن يخرج إلى أصله ونسخته، أما الآخرون فلا يبالون بما يكتبون وكيف يكتبون، ولم يكن من بين أهل الحديث من يحابي في الحديث أباه ولا أخاه، ولا ولده – كشأن غيرهم، وهذا علي بن المديني شيخ البخاري ولا يروى عنه حرف واحد في تقوية أبيه، بل يروى عنه ضد ذلك(٢).

هذا بالإضافة إلى أن المحدثين يقدمون الحديث متنا وسندا بكامل رواته، فيبحث عنه من شاء الاستيثاق به، ليراه موصولا في موضع آخر، وعن رواة آخرين ثقات وهكذا، أما أصحاب المنهج التاريخي الحديث فيطبقون منهجهم فيما بينهم ولا يوقفون القارئ على خطوات بحثهم.

وهكذا نخلص من مقارنة المنهج التاريخي بمنهج المحدثين بما لمنهج المحدثين من أثر عظيم فيه، وبما له من جلالة قدر، وسمو في مجال النقد العلمي، وهكذا كانت مكانة السنة النبوية عند أئمة الحديث وأهميتها في نفوسهم وقداستها وحرمتها وقيامهم عليها بالحفظ والعناية، والضبط والصيانة.

١- تاريخ بغداد جـ ٢ ص ١٩.

٢- شرف أصحاب الحديث للخطيب البغدادي ص ١٠ مخطوط بدار الكتب المصرية.

الإمام البخاري فقيها (٣)



لفضيلة الشيخ: عبدالمجيد حامد صبح

المسألة التاسعة:

حماية المتعرض للموت بإطعام غير المباح

عند البخاري: أن فاعل ذلك أو المعين عليه لا يأثم، لأنه خلص نفسًا من الهلاك.

وعند الأحناف: أنه يأثم، لأنه ليس له أن يدفع عن غيره بإثم يرتكبه.

والقرآن يشهد لرأي البخاري لظاهر قوله تعالى:

﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾

«البقرة:١٧٣»

(باغ: أي طالب للحرام متعمد للحلال، والعاد: هو المتجاوز للمقدار: بمعنى أن يكون مضطر لأكل الحرام وعلى قدر دفع الهلاك).

المسألة العاشرة:

إسقاط الزكاة قبل تمام الحول بالحيلة

يرى البخاري عدم الجواز، لحديث «لا يجمع بين متفرق ولا يفرق بين مجتمع»، والحديث رواه البخاري في كتاب الزكاة باب: «لا يجمع بين مفترق...».

قال الحافظ في شرح الحديث: من كان عنده دون النصاب من الفضة ودون النصاب من الذهب مثلا أنه لا يجب ضم بعضه إلى بعض، ونقل عن أحمد أن من كان له ماشية ببلد لا تبلغ النصاب كعشرين شاة مثلا بالكوفة ومثلها بالبصرة أنها لا تُضم وإن كانت ملكًا لواحد.

قلت: وهذا من الغلو في الوقوف عند ظاهر الحديث، والجمهور على خلاف ما قال أحمد.

وفي مسألتنا العاشرة يقول الأحناف: إذا كان عنده مال بلغ النصاب كمائة وعشرين بعير فنقصها متعمدًا للخروج من الزكاة بالهبة وبأي حيلة سقطت عنه الزكاة.

وعندي أن الاحتيال على التهرب مما فرض الله دليل على ضعف الإيمان، والمسلم الحق يفرح بأن يجعله الله مفتاحًا للخير مزيلا الحاجة عن المحتاج سادًا لخلته.

وصدق العلماء إذ قالوا: من ترك المطلوب بحيلة دخل النار بألف حيلة.

المسألة الحادية عشرة:

نكاح الشغار

وهو أن يزوج رجل ابنته لآخر على أن يزوجه الآخر ابنته كلاهما من غير مهر وهو باطل عند البخارى بحديث ابن عمر - رضى الله عنهما -: أن رسول الله ﷺ نهى عن الشغار. أخرجه الستة وذكره البخارى فى كتاب النكاح (٩ / ٣٣).

قال الحافظ: قال ابن عبدالبر: أجمع العلماء على أن نكاح الشغار لا يجوز، ولكن اختلفوا فى صحته، فالجمهور على البطلان، وذهب الحنفية إلى صحته.

وحسبنا فى مخالفتنا للأحناف وأخذنا برأى البخارى: أنه رأى جمهور العلماء أما جوازه فهو إصغار لكرامة المرأة التى كرمها القرآن وكرمها رسول الله ﷺ، قال الله تعالى:

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾

«التوبة: ٧١»

وقال ﷺ: «النساء شقائق الرجال». ولا مهانة للمرأة أشد من أن تزوج من غير مهر والله يقول:

﴿ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ﴾

«النساء: ٤»

ومعنى النحلة: العطية بغير مقابل، فالعلماء الذين قالوا: إن المهر مقابل البُضع: جعلوا المرأة سلعة تباع وتشترى، وخالفوا نص القرآن الكريم فى قوله «نحلة».

المسألة الثانية عشر:

القضية: شهادة الزور على تمام النكاح:

قال البخارى غير صحيح. وأبو حنيفة اعتبره صحيحًا بناء على حديث منسوب إلى أمير المؤمنين «على»، والذى حكم فيه بصحة نكاح بشاهدى زور، وقال للمرأة: شاهداك زوجاك.

وهذا حديث موقوف لا تثبت به حجة: ولا يصح به النكاح ظاهرًا وباطنًا.

وأقول: إن رأى البخارى فى عدم صحة هذا النكاح هو الواجب الأخذ به، ولا سيما إذا عرفنا فى أيامنا هذه شيوع (النكاح العُرفي) الذى يتم بين فتى وفتاة بشهود من سقط المتاع، ويتواصون بكتمان النكاح، وكثيرا هى القضايا التى عُرضت عليّ من هذا النكاح، وضاعت الفتاة، واختفى الزوج، وقد تكون حاملا، وضاع الوليد، وتبرأ الأهل من ابنتهم.

وعندما شرّع المشرع الحديث ضرورة توثيق عقد الزواج إنما كان ذلك تكريمًا للمرأة وحفظًا لعرضها، وقد علمتُ بعض هؤلاء الشباب يقولون: لم يكن توثيق فى عهد الرسول ولا فى عهد الصحابة.

قلتُ: لم يكن التوثيق بالكتابة فى عهد الصالحين من الصحابة الذين لا ينكرون الزواج ولا ينكرون ثمرته، وكان النكاح بشهود صالحين ويضرب عليه بالدفوف مزيدًا من الإعلان، ولم يكن أحد ينكر زواجه أو ثمرته. فإذا فسد العصر والزمان وفسد الناس كان توثيق عقد الزواج ضرورة تقرها الشريعة الإسلامية التى هدفها الأول حفظ جماعة المسلمين.

وإذا أمر القرآن بتوثيق الدين المالى قل أو كثر بقوله تعالى:

﴿ وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ﴾

«البقرة: ٢٨٢»

فإذا وثق المال قليله وكثيره، فتوثيق العرض الذى إذا جرح لا يبرأ، يكون أولى وأشد.

ومحكمة الأسرة لا تقبل النظر فى نكاح ليس له توثيق رسمى.

هذا ما ابتدأ به صحيحه وما ختمه به

افتتح البخارى صحيحه بقوله: بسم الله الرحمن الرحيم: باب: كيف كان بدء الوحى إلى رسول الله ﷺ وقول الله عز وجل:

﴿ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾

«النساء: ١٦٣»

ثم ذكر حديث عمر بن الخطاب بسنده أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إنما الأعمال بالنيات).

قال الحافظ: تواتر النقل عن الأئمة فى تعظيم هذا الحديث، وأنه ليس فى الأخبار التى نقلت عن النبى ﷺ أنه أجمع وأغنى وأكثر فائدة من هذا الحديث.

وقال: اتفق الأئمة عبدالرحمن بن مهدى والشافعى وأحمد وعلى بن المدينى وغيرهم على أن هذا الحديث ثلث الإسلام، ومنهم من قال ربع الإسلام ولم يبين وجه ذلك أنه ثلث أو ربع.

وأقول: يبينها ما ذكره ابن نجيم (فى الأشباه والنظائر) عندما قال: النيات أربع: نية العبادة، ونية الطاعة، ونية القربى، ونية مصلحة الدين. ومن هذا تبين أن نية العبادة هى الربع، وإذا تجاوزنا عن النية الأخيرة (مصلحة الدين) كانت نية العبادة «الثلث».

أما من حيث اتساع مدلول الحديث، فقد قال الإمام الشافعى: إن هذا الحديث يدخل فى سبعين بابًا من أبواب العلم ولم يُبينه ولا بالإشارة.

وأقول: معرفتها يسير، وأذكر الطريقة بالإجمال:

- كل أبواب الإيمان، عندما يفعلها المسلم يلزمه أن ينوى بفعلها وجه الله.

- والصلوات بجميع أنواعها، وعدد ركعاتها، يلزم فيها النية أولا عند ابتدائها ومصاحبة قصد الله فى جميع حركاتها.

- وجميع أنواع الزكوات والصدقات كذلك.

- وأعمال الحج من أول التلبية لله بالحج والعمرة إلى انتهاء أعمال الحج كلها تصحبها النية بقصد الله.

- والأذكار الموظفة.

- وفى المعاملات ينوى بها المتعامل وجه الله وتنفيذ أحكامه.

كل هذه أبواب تشمل سبعينيات من الأبواب.

ويمكن للمسلم أن يحول العادات إلى عبادات، بنية عملها لله، كأن يأكل ويشرب بنية القوة لتحصيل العلم والدعوة إلى الله.

وأقول: لهذا الحديث وجه آخر من الفقه يتعلق بالقوى الداخلية للإنسان، التى تصدر عنها الأعمال الخارجية، يبين هذا ما قاله رئيس جمهورية البوسنة والهرسك، المرحوم / على عزت بيجوفيتش فى كتابه

(الإسلام بين الشرق والغرب) حيث قسم العالم إلى قسمين:

- عالم الأشياء: وهو خارج عن داخل الإنسان.

- والعالم الداخلي للإنسان: قلبه - وجدانه - ضميره.

فقال: في العالم الخارجي توجد الأشياء، علمنا أم لم نعلم، رضينا أم كرهنا: كدوران الأرض حول الشمس..

أما في العالم الداخلي، فلا توجد فيه الأشياء الطبيعية التي توجد في العالم الخارجي، وإنما القلب له عمل آخر كالنية، وهو شيء من صنع عالمنا الداخلي - فنحن الذين نصنع عالمنا الداخلي بالفكر والإرادة - فقوام عالمنا الداخلي: الحرية والإرادة.

وعلى هذا فحديث (الأعمال بالنيات..) يقرر هذه الحرية في عمل الإنسان الداخلي الذي يصدر عنه عمله الحسي فهو مثلاً ينوى أن يُصلي فيقوم يصلي، وبَيّن الحديث: أنه لا بد أن تكون هذه النية ليقبل العمل عند الله.

ثم بين ابن نُجيم: أن الأعمال الداخلية للقلب ستة هي:

الهاجس - الخاطر - حديث النفس - الهم - العزم - النية (بهذا الترتيب).

والنية: هي قصد الشيء مقترنًا بفعله. فإذا تأخر الفعل عن النية سُميت النية عزمًا ولم تكن هي النية المعتبرة في الأعمال الشرعية.

فمن أهم فقه حديث (إنما الأعمال..) أنه يقرر الحقيقة الأخلاقية وهي: حريتنا الداخلية التي تصدر عنها أعمالنا الخارجية.

وهذا فقه عظيم يقرر طبيعة سلوكنا واختيارنا، كما يرشدنا إلى حُسن العلاقة بالله.

ومن فقه حديث (إنما الأعمال بالنيات) بيان الصواب في مسألة (النية) في (شروط العبادات كالوضوء للصلاة من الحدث الأصغر، وكالغسل للطهارة من الحدث الأكبر.

فالأحناف يقولون: لا تُشترط النية للوضوء ولا للغسل، لأنها (وسائل) والوسائل يُراد حُصولها لا تحصيلها. ا. هـ.

فإذا وضّأ أُناس شخصًا قهرًا عنه صح وضوؤه على رأى الأحناف، لأن الوضوء حصل وإن كان بدون تحصيل.

وحديث (إنما الأعمال بالنيات) يُجيب عن هذه المسألة ويُبين الحكم الصحيح فيها.

بيانه: أن الحديث يقول (الأعمال) (بالنيات).

ففيه مقابلة الجمع (الأعمال) بالجمع (النيات).

وعلماء اللغة قالوا: مقابلة الجمع بالجمع تقتضي القسمة آحادًا، فيكون المعنى: كل عمل بنية، وهذه الكلية تدخل فيها وسائل العبادة كالوضوء والغسل، لأنها أعمال، فينطبق عليها لزوم النية لتكون مقبولة.

وهذا ما عليه من غير الأحناف، الإمام الشافعي وغيره.

وقد اُعترِضَ على البخارى بأنه لم يفتتح الكتاب بخطبة تنبئ عن مقصوده، مفتتحة بالحمد والشهادة امتثالاً لقوله ﷺ: «كل خطبة ليس فيها شهادة فهي كاليد الجذماء» أخرجه أبو داود وغيره.

والجواب عن هذا الاعتراض: أن الحمد لا يتحتم ابتداء الخطبة به بل يجوز أن يكون بسياق آخر، وأما تركه الشهادة فهو بسبب: أن حديث ذكر الشهادة ليس على شرط البخارى، بل حديث البدء بالحمد والشهادتين فيه مقال.

قال الحافظ: ولو سلمنا بصحة الحديثين فليس فيهما أن يكون الحمد بالنطق والكتابة معًا فلعله حمد وتشهد نطقًا عند وضع الكتاب.

وقد صدّر الكتاب بما دل على مقصوده، وبالحديث الدال على مقصوده. فكأنه اكتفى بالتلويح عن التصريح، وقد سلك بهذه الطريقة في معظم تراجم الكتاب.

قال الحافظ: ومن المناسبات البديعة الوجيزة أن الكتاب لما كان موضوعًا لجمع وحي السنة صدّره بعنوان (كيف كان بدء الوحي) ولما كان الوحي لبيان الأعمال الشرعية صدّره بحديث (الأعمال..).

قلت: أما ابتداؤه بالوحي فهو مثل آخر من فقه العنوان، لأن كل ما سيذكره بعده متوقف الانتفاع به على ثبوت أن محمدًا ﷺ نبي أوحي إليه.

وأما ابتداؤه بحديث (إنما الأعمال بالنيات) فهو من فقه الإمام، لأن صحة الأعمال الشرعية وقبولها عند الله متوقف على صحة النية بأن تكون خالصة لله فكأنه قال: ونيتي لله في عمل هذا الصحيح.

وأما الفقه في اختتام صحيحه بحديث قوله ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم» وسبقه بقوله: (باب قول الله تعالى:

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾

«الأنبياء:٤٧»

وأن أعمال بني آدم وقولهم يوزن» والمناسبة بين ذكر وزن الأعمال والأقوال بينة بين حديث الختام الذى أخبر بوزن هذه التسبيحة وهي «سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم» أما الختام بالحديث فمن فقهه، ما بينه الحافظ: قال شيخنا شيخ الإسلام أبو الفضل العراقي: لما كان أصل العصمة أولا وآخرًا هو توحيد الله فختم بكتاب التوحيد وكان آخر الأمور التي يظهر بها المفلح من الخاسر ثقل الموازين وخفتها فجعله آخر تراجم الكتاب فبدأ بحديث الأعمال بالنيات وذلك في الدنيا وختم بأن الأعمال توزن يوم القيامة، هذا مما يتعلق بالبداية والنهاية من الصحيح.

وأقول: ختم البخارى صحيحه بحديث تسبيح الله وبحمده، قريب الشبه جدًا بختم دعوة الرسول بنزول سورة النصر:

«بسم الله الرحمن الرحيم:

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾».

فقد علم الصحابة منها أن أجل الرسول قريب ووافقهم الرسول ﷺ على ما فهموا، وطلب منه التسبيح والحمد

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾

كما قال في الحديث الذى ختم به البخارى «سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم» وهذا مما يبين فقه الإمام البخارى الدقيق في إدراك المعاني الخفية التي لا يدركها إلا ذوو الفطنة..

«يتبع»

من عيون التراث

إحكام الفصول في أحكام الأصول

تأليف

الباجي أبو الوليد (٤٠٣ - ٤٧٤هـ)

حققه وقدم له / عبد المجيد تركي

الناشر: دار الغرب الإسلامي بيروت (١٩٨٦م)

الطبعة الأولى

عرض الكتاب:

يقع الكتاب في (٩٨٢) صفحة من القطع المتوسط يتضمن:

- التمهيد ويحتوي تمهيداً لأصول الفقه، وأوضح أن هذا الكتاب في أصول الفقه على الطريقة الجدلية، أو المنهجية التشريعية، ألفه فقيه أصولي من علماء الأندلس في القرن الخامس الهجري (٤٧٤ هـ - ١٠٨١م) وتناول:

مكانة «ابن حزم» الأصولي والمنطقي في تاريخ الأصول والمنطق الإسلامي: [مقارنته بالغزالي ثم بابن تيمية]

حيث تعلق «ابن حزم» بتبني المنطق اليوناني وتطبيقه على الشريعة الإسلامية ورفض منطق الفقهاء؛ أي أن «ابن حزم» يقول بقياس المناطقة ويرفض قياس الفقهاء ويبين ما يتمتع به الأولون من قدرة على التحديد الصحيح ثم على بناء النتائج على المقدمات بناءً مستقيمًا وهو ما يشير إلى مفهوم: (القياس المنطقي syllogism) انظر (ص ٦٩).

في حين طبق الغزالي المنطق اليوناني على النصوص الدينية الإسلامية، ولكن دون رفض لقياس الفقهاء والجدل في المنهجية التشريعية. وفعلاً لقد مجد المنطق اليوناني في كتابه «المنقذ من الضلال»، ويذهب الغزالي إلى أن يقرن تمثيل المناطقة المنطق بالقياس الشرعي وهو ما يشير إلى مفهوم (المماثلة Analogy) انظر (ص ٧٠)، فكلاهما يؤدي إلى أحكام ظنية وذلك بإضافة أمر إلى أمر، دون المرور بالكليات.

- رفض «ابن تيمية الحنبلي» (٧٢٨ هـ ١٣٢٨م) للمنطق اليوناني جملة ونقضه إياه مع تمجيده بالقياس الشرعي الإسلامي، فهو أيسر استعمالاً وأكثر وضوحًا وأوفر خصبًا من القياس اليوناني.

والخلاصة أن «ابن تيمية» لا يؤمن بجدوى الأشكال المنطقية للوصول إلى حقائق ثابتة، ويؤكد أن محور النظر مادة العلم لا صورة القياس.

تطبيق «ابن جزم» لمنطق ارسطو على الشريعة الإسلامية: المدخل إلى المنطق:

وهو خاصة من تأليف «فرفوريوس» الصوري؛ ويبين فيه صاحبه ما معنى الحد والرسم والفرق بينهما، ثم يفصل الحديث في الجنس والنوع والفصل والخاصة والعرض.

وقد أراد «ابن حزم» من الأصوليين أن يستفيدوا من هذا الباب ليدققوا تحديد معنى الكلمات التي بدونها لا يتم فهم شيء من الشريعة وتبين تطبيق أحكامها تطبيقًا صحيحًا.

ويرى أن أصحاب القياس إذ يجهلون هذا الباب يلحقون الأشياء بأشباهها معتمدين على ظاهر الأشياء، بينما المنطق السليم يقتضي الإلحاق حسب الجنس والنوع وهو ما يشير إلى مفهوم (المنطق Logic) انظر (ص ٧٢).

ويفرق «ابن حزم» بين الحد: وهي الصفات والمعاني الدالة على طبيعة ما في الشيء والمميزة له مما سواه، والرسم: وهي الصفات والمعاني المميزة له مما سواه، إلا أنها غير دالة على طبيعته، وذلك أن الحد يعتمد على تمييز «يوجد من أجناس وأنواع» بينما الرسم يعتمد على تمييز «يوجد من أعراض أو من خواص». وهو ما يشير إلى مفهوم (التعريف الإجرائي operational Definition) انظر (ص ٧٦).

عندما قاوم «ابن حزم» أصحاب القياس الفقهي لجأ إلى عدة حجج نقلية وعقلية وكذلك لجأ إلى اعتبارات داخلة في باب التحديد وراجعة إلى معاني الجنس والنوع.

وهو ما يشير إلى مفهوم (الحجج Arguments) انظر (ص ٧٧).

ويفرق «ابن حزم» بين قياس الفقهاء الذي يرفضه وقياس الفلاسفة الذي يقول به:

قياس الفقهاء: هو شيء سماه الأوائل الاستقراء، ومرة أخرى يرجع إلى معاني الجنس والنوع ليبين لماذا يرفض هذا النمط من النظر والبحث؛ فالاستقراء عنده «هو أن تتبع بفكرك أشياء موجودات يجمعها نوع واحد وجنس واحد ويحكم فيها بحكم واحد»، ثم يلجأ إلى تعبير فلسفي من المنطق اليوناني؛ إذ ينصح كل شخص «أن لا يسكن إلى الاستقراء أصلاً إلا أن يحيط علمًا بجميع الجزئيات التي تقع تحت الكل الذي يحكم فيه»، وهو ما يشير إلى مفهوم الاستقراء (Induction) انظر (ص ٧٨).

ويقدر ما ينفر من القياس الفقهي - وذلك حرصًا منه على طلب الحقيقة التي أوجبها العقل، أو فرضتها المشاهدة، أو أقرها الحس، أو أقام عليها البرهان - يقبل؛ ولهذه الأسباب يقبل على القياس الفلسفي. وتفصيل ذلك أن القضيتين، أي المقدمة الأولى والمقدمة الثانية إذا كانتا صحيحتين في طبعهما وتركيبهما فالانقياد لهما حينئذ لازم وهو ما يشير إلى مفهوم المقدمات (premises) انظر (ص ٧٩).

وعلى غرار «ابن حزم» تقريبًا حاول «الغزالي» الاستفادة من المنطق. إلا أنه على خلاف «ابن حزم» لم يرفض منطق الفقهاء. وهكذا حاول التوفيق بينهما وصاغ أقيسة فقهية على شكل القياس الفلسفي، كما

سعى إلى إقامة نقاط شبه بينهما، وقربه من القياس الشرعي؛ اعتبار العلة نوعًا من المقدمة الثانية من البرهان.

الجدل في المنهجية التشريعية:

يرجع الفقيه في صناعته إلى القرآن أولاً فيستمد من نصه أصولاً عامة يعتمد على نهجها، ويستوحي من سوره فلسفة أخلاقية يستنير بهديها، ويستخرج من آياته قضايا أمهات يقيس على حكمها.

ولقد أوضح الإمام «الشافعي» (٢٠٤ هـ ٨١٩م) السبيل المنجى لما وضع في الرسالة أصول الفقه وقرر في مقدمتها أن «ليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفي كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها».

كذلك يلجأ المجتهد إلى الحديث النبوي فيجده مكملاً للقرآن مبينًا له ومتممًا، فيأخذ عنه وكأنه أخذ عن القرآن، وقد قصد «الشافعي» بوضعه علم أصول الفقه إلى إقامة الاجتهاد على أسس منطقية وموضوعية محكمة.

وفي خضم من المسائل الخلافية التشريعية، ظهر فن الجدل الذي يستمد حجيته من القرآن والحديث وأقوال الأئمة، أصحاب المذاهب الفقهية والمدارس الكلامية، بقطع النظر عن الخلاف الذي يبرر وجوده بل يفرض الاعتماد عليه. ذلك أن هذا الفن يحرص على أن يمد المجتهد بأحسن المناهج وأحكمها وأدقها وأصوبها حتى يستفيد عن خبرة وبصيرة من هذه المسائل الخلافية المستنبطة عبر العصور المختلفة. وهو ما يشير إلى مفهوم (المحاجة Argumentation) انظر (ص ٨٩)، ثم تناول الجدل في الشريعة والعقيدة وتطوره التاريخي.

فصل في بيان الحدود التي يحتاج إليها في معرفة الأصول:

- الحد هو اللفظ الجامع المانع. ومعنى ذلك أنه يجمع المحدود على معناه فيمنع ما ليس منه أن يدخل فيه وما هو منه أن يخرج عنه.. وهو ما يشير إلى مفهوم (التعريف الإجرائي Operational Definition) انظر (ص ١٧٠).
- وحد العلم معرفة المعلوم على ما هو به.
- والعلم المحدث ينقسم إلى: ضروري ونظري.

فالضروري ما لزم نفس المخلوق لزومًا لا يمكنه الانفكاك عنه ولا الخروج منه. وهو يقع من ستة أوجه، الحواس الخمس وهي حاسة البصر والسمع والشم والذوق واللمس. والسادس ما علمه المخلوق ابتداء من غير إدراك حاسة من هذه الحواس كالعلم بحال نفسه من صحته وسقمه وفرحة وحزنه. والعلم النظري ما احتاج إلى تقدم النظر والاستدلال ووقع عقيبه بغير فصل.

- والاعتقاد تيقن المعتقد من غير علم. والجهل اعتقاد المعتقد على ما ليس به. والفقه معرفة الأحكام الشرعية. وأصول الفقه ما انبنت عليه معرفة الأحكام الشرعية. والدليل ما صح أن يرشد إلى المطلوب، وهو الدلالة والبرهان والحجة والسلطان.

- والمستدل هو الطالب للدليل، وقد يسمى بذلك المحتج بالدليل. والمستدل عليه هو الحكم، وقد يقع على السائل أيضًا. والمستدل له هو الحكم. والاستدلال هو التفكر في حال المنظور فيه طلبًا للوقوف على حقيقة حكم بما هو نظر فيه أولغلبة الظن، وإن كان مما طريقه غلبة الظن. وهو ما يشير إلى مفهوم (الاستدلال Reasoning) انظر (ص ١٧١).
- والظاهر في الأقوال هو المعنى الذي يسبق إلى فهم السامع من المعاني التي يحتملها اللفظ.
- والعموم استغراق ما تناوله اللفظ به.
- والخصوص إفراد بعض الجملة بالذكر، وقد يكون إخراج بعض ما تناوله العموم عن حكمه، ولفظ التخصيص أبين فيه.

فصل في بيان الحروف التي تدور بين المتناظرين:

– من ذلك «ما» لها عشرة مواضع، خمسة منها تكون فيها اسمًا وخمسة منها تكون فيها حرفًا.

فأما الخمسة التي تكون فيها اسمًا فأحدها أن تكون موصولة نحو قولك: ما أكلت الخبز. والثاني أن تكون موصوفة نكرة نحو قولهم: مررت بما خير منك وبما معجب لك. وتكون للتعجب، وللاستفهام، وللجزاء. أما المواضع التي تكون فيها حرفًا فأحدها أن تكون نافية نحو قولك: ما رأيت زيدًا، وتكون كافة، ومسلطة، وزائدة، ومغيرة.

– وأما «من» بفتح الميم فإنها عامة لمن يعقل، ولها ثلاثة مواضع، الخبر والجزاء والاستفهام.

وأما «أي» فإنها تقع لمن يعقل ولما لا يعقل، وهي من ألفاظ العموم، ولها ثلاثة مواضع، الاستفهام، والجزاء، وبمعنى الذي.

– وأما «من» بكسر الميم فلها خمسة مواضع، لابتداء الغاية وتمييز الجنس وللتبعيض نحو قولك: أكلت من مال زيد، والرابع أن تكون زائدة، والخامس أن تكون أمرًا من المين وهو الكذب، تقول: من يا هذا.

– وأما «إلى» فموضوعة لانتهاء الغاية وتدخل حدًا وهي في معنى الغاية.

– وأما «حتى» فلها أربعة مواضع. تكون جارة نحو قولك: جاء القوم حتى زيدِ (بكسر الدال في زيد)، وتكون عاطفة: جاء القوم حتى زيدٌ (بتنوين الضم على الدال في زيد)، وتكون ناصبة: سرت حتى أدخلَ المدينة، وتكون حرف ابتداء، وفي هذه المواضع حكم ما بعدها حكم ما قبلها.

– وأما «أم» فلها موضعان أحدهما السؤال عن معين مثل: أزيد عندك في الدار أم عمر؟ والثاني أن تكون بمعنى «بل» هل رأيت زيدًا أم عمرًا؟

– وأما «بل» فلها ثلاثة مواضع، أحدها أن تكون حرف عطف إعراب ما بعده كإعراب ما قبله مثل: ما هذا بشرًا بل ملكًا، والثاني: أن تكون لا ستئناف الجمل مثل قوله تعالى:

﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ (٢١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ﴾

(الانشقاق: ٢١، ٢٢)

وهي هنا لإثبات حكمين، أحدهما في السجود والثاني للإخبار عن تكذيبهم، ويقتضي ذلك أن الحكم الثاني أعظم وأبلغ من الأول. والثالث: أن تأتي في أول الكلام فإذا وليت اسمًا خفضته.

– وأما «الواو» فلها عشرة مواضع، تكون للعطف، وصلة وبمعنى «أو» تكون للحال، وللاستئناف، وللقسم، وجوابًا، وتكون بمعنى «رب» وبمعنى «مع» و «الباء».

– وأما «الفاء» فلها ثلاثة مواضع. تكون عاطفة وجوابًا وزائدة.

– وأما «ثم» فإنها تقتضي الرتبة والمهلة، تقول: رأيت زيدًا ثم عمرًا. وتكون بمعنى «الواو»، مثل قوله تعالى:

﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾

(يونس: ٤٦)

– وأما «لا» فلها ستة مواضع. تكون عاطفة ومؤكدة وللنهي وللنفي وللدعاء وزائدة.

باب أقسام أدلة الشرع:

الأدلة على ثلاثة: أصل، ومعقول أصل، واستصحاب حال.

فأما الأصل فهو الكتاب والسنة والإجماع.

وأما معقول الأصل فعلى أربعة أقسام: لحن الخطاب وفحوى الخطاب والحصر ومعنى الخطاب.

وأما استصحاب الحال فهو استصحاب العقل إذا ثبت ذلك.

باب في بيان حكم المفصل:

المفصل ينقسم إلى قسمين، غير محتمل ومحتمل.

فأما غير المحتمل فهو النص، مأخوذ من النص، فإذا وجد النص وجب المصير إليه والعمل به.

وأما المحتمل فعلى ضربين: ظاهر وعام.

ذكر الظاهر وأقسامه وأحكامه

فالظاهر كالأوامر والنواهي، وغير ذلك يحتمل معنيين فزائدًا هو في أحدها أظهر، فإذا ورد وجب حمله على ظاهره، إلا أن يدل دليل على العدول عن ظاهره فيعدل إلى ما يوجب الدليل، ثم تناول مسائل الأمر وقسم الكلام إلى أربعة: أمر ونهي وخبر واستخبار.

باب المخير فيها من الأفعال:

إن المخير فيها من الأفعال يجب أن يكون حكمها واحدًا في الوجوب أو الندب أو الإباحة، فإن لم يكن كذلك لم يصح التخيير. إذا ثبت ذلك فالأفعال المخير فيها على ضربين:

- ضرب يجوز الجمع بينهما كالإطعام والصيام.
- وضرب لا يصح الجمع بينهما كالتأجيل والتعجيل بمنى.

مسائل النهي: النهي له صيغة تختص به، فإذا وردت متجردة عن القرائن اقتضت التحريم. ويكون النهي على ضربين: نهي تحريم ونهي كراهية.

ذكر العموم وأقسامه وأحكامه:

ذكرنا سابقًا أن المحتمل على ضربين، ظاهر وعموم وتحدثنا عن الظاهر وهنا نتحدث عن العموم. اعلم أن العموم ثمانية ألفاظ: لفظ الجمع كالمسلمين والمؤمنين والفجار، ولفظ الجنس كالحيوان والإبل والناس، والألفاظ الموضوعة للنفي: ما جاءني أحد، والألفاظ المبهمة كمن فيمن يعقل وما فيما لا يعقل، وأي فيهما، وأين في

المكان، ومتى في الزمان. وهذان وهؤلاء والأسماء الموضوعة للاستيعاب كالكل والجميع والعموم والشمول والاستيعاب والاستيفاء، والاسم المفرد إذا تعرف بالألف واللام، وما أضيف إلى شيء من هذه الأقسام، وضمير التثنية والجمع.

باب في أحكام ما يقع به التخصيص:

التخصيص يقع بأدلة العقل؛ هذا قول كافة الناس. والدليل على ذلك أن الشرع لا يجوز أن يرد مخالفًا لما علم بالعقل. فإذا ورد اللفظ عامًا فيما تعلم صحته بالعقل وفيما تعلم استحالته بالعقل علم أنه مقصور على ما علمت صحته بالعقل، وهو ما يشير إلى مفهوم أهمية العقل Mind انظر (ص ٢٦١).

استدلوا بأن القياس إنما يطلب به علم الحكم فيما لم يرد نطق به؛ ولو نطق بحكمه لم يحتج إلى القياس؛ وما دخل تحت العموم مما يخرجه القياس منطوق بحكمه؛ فالقياس إذا عارضه بمثابة معارضته للنص على العين الواحدة، فلم يجز تخصيص العموم به، والجواب هو أنه يبطل بتخصيص العموم المخصوص بالقياس الخفي.

وتناول المطلق والمقيد:

وأوضح أن التقييد يقع بثلاثة: بالغاية والشرط والصفة.

وتناول بيان حكم المجمل والأسماء العرفية:

وأوضح أن الأسماء العرفية أن تكون اللفظة موضوعة لجنس في أصل اللغة، ثم يغلب عليها عرف الاستعمال في نوع من ذلك الجنس.

ثم تناول أقسام أدلة الشرع:

الكلام في الأصل أحكام أفعال النبي ﷺ وبين الأقوال والأفعال والإقرار، وتناول أحكام الأخبار وصفة الرواية وأحكامها وبيان أحكام الناسخ والمنسوخ وبين القول في الإجماع وأحكامه، وتناول حكم الاجتهاد، وما يقع به الترجيح من الأخبار والترجيح في المعاني.

وأخيرًا تناول قائمة المراجع والمصادر باللغة العربية واللغات الأجنبية، وأبرز فهرس الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية الشريفة، وأقوال الصحابة. كما تناول فهرس الأبيات الشعرية، والأعلام، والكتب، والأماكن، والتعليقات العامة.

الخلاصة:

ورد في هذا الكتاب الإشارة إلى المفاهيم النفسية الآتية:

- القياس المنطقي syllogism.
- المماثلة Analogy.
- المنطق Logic.
- الحجة Arguments.
- الاستقراء Induction.
- المقدمات premises.
- التعريف الإجرائي Operational Definition.
- المحاجة Argumentation.
- الاستدلال Reasoning.
- العقل Mind.

القائم بالعرض

د. أشرف محمد علي شلبي

القرآن والتوراة والإنجيل والعلم [٤]

العهد القديم والعلم الحديث



د. موريس بوكاي

ملاحظات:

قليل من الموضوعات التى يعالجها العهد القديم ـ كالأناجيل ـ تسمح بالمقابلة مع معطيات العلوم الحديثة؛ ولكن عندما يحدث تعارض بين نص التوراة والعلم، فإنه يجيء فى مسائل نستطيع أن نصفها بالمهمة.

ولقد رأينا أن التوراة تحتوى على أخطاء ذات طابع تاريخي، وذكرنا بعض هذه الأخطاء، مما اكتشفه عدة مفسرين يهود ومسيحيين. وينزع المفسرون المسيحيون بشكل طبيعى إلى التقليل من أهمية هذه الأخطاء؛ يرون أنه طبيعى تمامًا أن يقدم الكاتب الدينى أمورًا تاريخية بحسب وجهة النظر الدينية.

هم يكتبون التاريخ إذن حسب مقتضيات الحال، وسنرى فيما بعد بالنسبة إلى إنجيل «متى» نفس هذه التصرفات إزاء الواقع، ونفس التعليقات التى تهدف إلى فرض ما يناقض الحقيقة كحقيقة أن الروح الموضوعى والمنطقى لا يمكن أن يرضى بهذه الطريقة فى العمل.

من زاوية المنطق يمكن أن تتبين عددًا كبيرًا من المتناقضات، والأمور غير المعقولة فى التوراة يمكن أن تكون المصادر المختلفة التى استخدمت فى تأليف النص هى أصل رواية حدث واحد بشكلين مختلفين؛ ولكن هناك أكثر من ذلك: إن التعديلات المختلفة والإضافات اللاحقة إلى النص نفسه، كالتعليقات التى أضيفت استدلاليًا ثم دخلت فيما بعد على النص عند نسخه مرة أخرى، كل هذا يعرفه المتخصصون فى نقد النصوص، ويشير البعض إليه بمنتهى الأمانة، وعلى سبيل المثال قدم «الأب ديفو» بالنسبة لأسفار «موسى» الخمسة وحدها، فى المقدمة العامة التى تسبق ترجمته لسفر التكوين (ص١٣ و١٤)، قدم تفصيلًا بكثير من النقاط المتنافرة التى لا يبدو لنا ـ مهما أعيد ذكرها هنا حيث نذكر الكثير منها فى هذه الدراسة ـ أن الفكرة العامة التى نستطيع الخروج بها من هذه الأخطاء، هو أنه لا يجب أن تأخذ النص مأخذًا حرفيًا.

وإليكم مثالاً معبرًا عن هذا:

فى سفر التكوين (الإصحاح ٦ الآية ٣) يقرر الله قبل الطوفان بقليل، أن يحدد عمر الإنسان بمائة وعشرين سنة. تقول التوراة: «... وتكون أيامه مائة وعشرين سنة»، ومع ذلك يلاحظ فيما بعد فى نفس سفر التكوين (الإصحاح ١١ الآيات من ١٠ إلى ٣٢) أن حياة أنسال نوح العشرة قد دامت من ١٤٨ إلى ٦٠٠ سنة!! إن التناقض بين العبارتين واضح وتعليله بسيط. فالعبارة الأولى (التكوين. إصحاح ٦ الآية ٣) نص يهوى يعود تاريخه كما رأينا، إلى القرن العاشر قبل الميلاد. أما العبارة الثانية فى سفر التكوين (الإصحاح ١١ ـ الآيات من ١٠ إلى ٣٢) فهى من نص قريب تاريخيًا «القرن السادس قبل الميلاد» فى التراث الكهنوتي، الذى هو أصل هذه الأنساب، التى تبدو شديدة الدقة فى إحصاء الأعمار بنفس القدر الذى تبدو به غير معقولة إذا أخذناها كتلة واحدة.

فى سفر التكوين توجد أكثر المتناقضات وضوحًا مع العلم الحديث، وتخص هذه التناقضات ثلاث نقاط جوهرية:

١ـ خلق العالم ومراحله.

٢ـ تاريخ خلق العالم وتاريخ ظهور الإنسان على الأرض.

٣ـ رواية الطوفان.

خلق العالم:

يلاحظ «الأب ديفو» أن سفر التكوين «يبدأ بروايتين عن الخلق، كل منهما موضوعة إلى جانب الأخرى». ومن وجهة نظر دراسة اتفاق هذين النصين مع المعطيات العلمية، فلابد من دراسة كل منهما منفصلًا عن الآخر.

الرواية الأولى عن الخلق

وتحتل الرواية الأولى الإصحاح الأول والآيات الأولى من الإصحاح الثاني، إنها بناء يتكون من أخطاء من وجهة النظر العلمية. ولابد من القيام بنقدها فقرة فقرة، والنص الذى نقدم هنا هو نص ترجمة فرنسية لمدرسة الكتاب المقدس بالقدس.

الإصحاح الأول ـ الآيتان ١ و٢: «فى البدء خلق الله السماء والأرض، وكانت الأرض خربة وخالية والظلمات تغطى اللجة وروح الله يرف على المياه».

ونستطيع أن نقبل تمامًا أن فى مرحلة ما قبل خلق الأرض كان ما سيصبح الكون، كما نعرفه غارقًا فى الظلمات. ولكن الإشارة إلى المياه فى تلك المرحلة أمر رمزى صرف، وربما كان ترجمة لأسطورة وسنرى أن هناك ما يسمح بالاعتقاد بوجود كتلة غازية فى المرحلة الأولى لتكون الكون، إن القول بوجود الماء فى تلك المرحلة غلط.

الآيات من ٣ إلى ٥: «ليكن نور فكان النور، ورأى الله أن النور حسن وفصل بين النور والظلمات، ودعا الله النور نهارًا والظلمات ليلًا، وكان مساء وكان صباح اليوم الأول».

إن الضوء الذى يقطع الكون هو نتيجة ردود أفعال معقدة، تحدث فى النجوم حسب قول التوراة، لم تكن قد تشكلت

يعد في هذه المرحلة، حيث إن «أنوار» السماوات لا تذكر في سفر التكوين إلا في الآية ١٤ باعتبارها ما خلق الله في اليوم الرابع «ليفصل بين النهار والليل» «ولينير الأرض» وذلك صحيح تمامًا؛ ولكن من غير المنطقي أن تذكر النتيجة الفعلية - أي: النور - في اليوم الأول، على حين تذكر وسيلة إنتاج هذا النور - أي: المنيرة - في اليوم الرابع، يُضاف إلى ذلك أن وضع الليل والنهار في اليوم الأول هو أمر مجازي صرف: فالليل والنهار باعتبارهما عنصرين ليوم غير معقولين إلا بعد وجود الأرض ودورانها تحت ضوء نجمها الخاص بها - أي: الشمس -.

«الآيات من ٦ إلى ٨» وقال الله: «ليكن جلد في وسط المياه، وليكن فاصل بين مياه ومياه، وكان كذلك. فعمل الله الجلد وفصل بين المياه التي تحت الجلد والمياه التي فوق الجلد، ودعا الله الجلد سماء، وكان مساء وكان صباح اليوم الثاني».

أسطورة المياه هنا تستمر بانفصالها إلى طبقتين بواسطة الجلد، الذي سيجعل الطبقة العليا عند الطوفان تنفذ من خلاله تمر لتنصب على الأرض، إن صورة انقسام المياه هذه إلى كتلتين غير مقبولة علميًا.

الآيات من ٩ إلى ١٣ - وقال الله: «لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد في كتلة واحدة، ولتظهر اليابسة، وكان كذلك. ودعا الله اليابسة أرضًا، ومجتمع المياه دعاه «بحارًا» ورأى الله ذلك أنه حسنٌ».

وقال الله: «لتنبت الأرض خضرة عشبًا يحمل بذرًا كجنسه، وشجرًا يُعطي ثمرًا من جنسه وبذرًا، ورأى الله ذلك أنه حسن وكان مساء وكان صباح اليوم الثالث».

ومقبول علميًا أن القارات قد ظهرت في مرحلة من تاريخ الأرض، كانت هذه مغطاة بالماء؛ ولكن أن يكون هناك في تلك الفترة عالم نباتي ينتظم جيدًا بالتناسل بالبذرة قبل ظهور الشمس «التي تظهر كما يقول سفر التكوين في اليوم الرابع»، وأن ينتظم تعاقب النهار والليل، فذلك ما لا يمكن مطلقًا القول به.

الآيات من ١٤ إلى ١٩ - وقال الله: «لتكن أنوار في جلد السماء لتفصل بين النهار والليل، وتكون علامات للأعياد كما للأيام والسنين، ولتكن أنوار في جلد السماء لتضيء الأرض، وكان كذلك، وعمل الله المنيرين العظيمين - المنير الأكبر لحكم النهار والمنير الأصغر لحكم الليل - والنجوم، وجعلها الله في جلد السماء لتنير على الأرض، ولتحكم على النهار والليل، ولتفصل بين النور والظلمة، ورأى الله ذلك أنه حسن، وكان مساء وكان صباح اليوم الرابع».

إن وصف كاتب التوراة هنا مقبول، والنقد الوحيد الذي يمكن إقامته على هذه العبارة هو المكان، الذي تحتله في مجموع الرواية. إن الأرض والقمر كما نعرف قد نبعا من نجمهما الأصلي - أي: الشمس - ووضع خلق الشمس والقمر بعد خلق الأرض يناقض المعلومات الأساسية عن تشكل عناصر النظام الشمسي.

الآيات من ٢٠ إلى ٢٣ - وقال الله: «ولتعج المياه بعجيج الكائنات الحية، ولتطر طيور فوق الأرض وعلى وجه جلد السماء، وكان كذلك. وخلق الله كبار تعابين البحر، وكل الكائنات الحية التي تنزلق وتعج في البحار، كل بحسب جنسه، وكل ذي جناح بحسب جنسه. ورأى الله ذلك أنه حسن»، وباركها الله قائلا: «أثمري وأكثري واملئي البحار وليتكاثر الطير على الأرض، وكان ليل وكان نهار اليوم الخامس».

وتحتوي هذه الفقرة على مزاعم لا يمكن قبولها، يقول سفر التكوين بظهور عالم الحيوان أولا، وابتداء من حيوانات البحر والطيور، الواقع أن رواية التوراة تقول: إن في اليوم التالي - كما سترى ذلك في الآيات التالية - أسكنت الأرض بالحيوانات.

ولاشك في أن أصل الحياة مائي، وابتداء من هنا - إن جاز القول - احتل عالم الحيوان الأرض، ومن الحيوانات التي تعيش على سطح الأرض، وهي فئة خاصة من الزواحف تسمى Pseudo suchiens كانت تعيش في العصر الثاني. جاءت الطيور فيما يُعتقد: وهناك كثير من السمات البيولوجية المشتركة بين هاتين الفئتين، التي تسمح بهذا الاستنتاج؛ ولكن سفر التكوين لا يشير إلى الحيوانات الأرضية، إلا في اليوم السادس بعد ظهور الطيور، وإذن فنظام ظهور الحيوانات الأرضية والطير هذا غير مقبول.

الآيات من ٢٤ إلى ٣١ - وقال الله: «لتخرج الأرض الكائنات الحية كجنسها بهائم ودبابات ووحوش كجنسها، وكان كذلك. عمل الله الوحوش كجنسها والدبابات كجنسها وكل دبابات الأرض كجنسها. ورأى الله ذلك أنه حسن».

وقال الله: «لنعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا. ويتسلطو «كذا» على سمك البحر وعلى طيور السماء وعلى البهائم وعلى كل الوحوش والدبابات التي تزحف على الأرض». فخلق الله الإنسان على صورته، وعلى صورة الله خلقه ذكرًا وأنثى خلقهما.

«وباركهما الله وقال لهما: أثمرا وأكثرا واملأ الأرض وأخضعاها، وتسلطا على سمك البحار وطيور السماء، وعلى كل حيوان يدب على الأرض». وقال الله «إني قد أعطيتكما كل بقل يحمل بذرًا على وجه الأرض وكل شجر فيه ثمر ويحمل بذرًا، لكما يكون طعامًا ولكل الوحوش ولكل طيور السماء ولكل دابة على الأرض وكائن حي، أعطيت كل خضرة النباتات طعامًا» وكان كذلك. ورأى الله كل ما عمله: «فإذا هو حسن جدًا، وكان مساء وكان صباح اليوم السادس».

في وصف تمام الخلق يعدد الكاتب كل المخلوقات الحية غير المذكورة سابقًا، ويشير إلى الأقوات المختلفة الموضوعة تحت تصرف الناس والحيوانات.

وكما نرى فإن الخطأ يكمن في وضع ظهور الحيوانات الأرضية بعد ظهور الطيور؛ ولكن ظهور الإنسان على الأرض

محدد بشكل صحيح بعد ظهور الفئات الأخرى من الكائنات الحية.

وتنتهي رواية الخلق بالآيات الثلاثة الأولى من الإصحاح الثاني: «فأكملت السماوات والأرض بكل جندها «كذا». وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذى عمل، فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذى عمل، وبارك الله اليوم السابع وقدسه؛ لأنه فيه استراح من جميع عمله للخلق، وهذه مبادئ السماوات والأرض حين خُلقت».

تتطلب رواية اليوم السابع هذه التعليقات:

- أولًا: معنى الكلمات، والنص هو نص ترجمة مدرسة الكتاب المقدس بالقدس. «جند» تعني هنا على الأرجح: حشد الكائنات المخلوقة، أما في ما يخص التعبير «استراح» **I'lchoma** فتلك طريقة مدير مدرسة الكتاب المقدس بالقدس في ترجمة الكلمة العبرية «شباط» والتي تعني ذلك على وجه الدقة، ومن هنا جاء يوم الراحة عند اليهود «يوم السبت».

وواضح أن هذه «الراحة» التي يفترض أن الله قد أخذها بعد أن عمل ستة أيام هي أسطورة؛ لكن لها تعليل إذ لا يجب نسيان أن رواية الخلق المدروسة هنا تأتي من النص الذى يسمى بالكهنوتي – كتبة الكهنة أو الكتبة –، وهم الوارثون الروحيون لحزقيال نبي النفي ببابل في القرن السادس قبل الميلاد. ومعروف أن هؤلاء الكهنة قد أعادوا روايتي الخلق اليهوية والألوهيمية وأعادوا صياغتهما على مشيئتهم وحسب اهتماماتهم الخاصة، التي كتب «الأب ديفو» عنها قائلًا: إن طابعها «التشريعي» كان جوهريا، وقد أعطينا لمحة عن ذلك. على حين لا يشير النص اليهوي، الذى يسبق النص الكهنوتي بعدة قرون، إلى راحة الله الذى تعب من عمله طيلة الأسبوع، يدخلها الكاتب الكهنوتي في روايته. إنه يُقسم روايته إلى أيام بالمعنى الدقيق لأيام الأسبوع، وهو يضع محور الرواية على راحة السبت التي يعللها أمام المؤمنين، مؤكدًا على هذا بقوله أن الله هو أول من احترمها وابتدأ من هذه الضرورة العلمية انتقاد رواية الخلق بمنطق ديني ظاهر، وإن كان هذا بشكل تسمح معطيات العلم بوصفه بالوهم.

إن إدراج مراحل الخلق المتعاقبة في إطار أسبوع، هذا الإدراج الذى أراده الكاتب الكهنوتي بهدف الحث على الطاعة الدينية، لا يقبل الدفاع من وجهة النظر العلمية. فمعروف تمامًا في أيامنا أن تشكل الكون والأرض قد تم على مراحل تمتد على فترات زمنية شديدة الطول، لا تسمح المعطيات الحديثة بتحديد مدتها حتى تقريبيًا، وحتى إذا كانت الرواية تنتهي مساء اليوم السادس ولا تحتوى على إشارة إلى اليوم السابع، يوم الراحة الذى استراح فيه الله، وحتى إذا كان مسموحًا لنا، كما هو الأمر بالنسبة للرواية القرآنية، أن نعتبر أن المقصود فعلًا هو فترات غير محدودة وليس أيامًا بالمعنى الحقيقي فإن النص الكهنوتي يظل غير مقبول، حيث إن تعاقب الأحداث فيه يناقض المعلومات العلمية الأصلية. وهكذا إذن تبدو الرواية الكهنوتية للخلق، كبناء خيالي مبتكر كان يهدف إلى شيء آخر غير التعريف بالحقيقة.

الرواية الثانية:

لا تسمح بنفس الانتقادات رواية الخلق الثانية التي يحتوى عليها سفر التكوين والتي تلي دون انتقال ودون تعليقات الرواية السالفة.

ولنذكر بأن هذه الرواية ترجع إلى تاريخ أكثر قدمًا من الأولى بحوالي ثلاثة قرون وهي رواية قصيرة جدًا؛ ولكنها أكثر إفاضة فيما يخص خلق الإنسان وجنة الأرض مما يخص خلق الأرض والسماء، الذى تذكره بإيجاز شديد، تقول هذه الرواية: «عندما عمل يهوه الرب الأرض والسماء، كل شجر البرية لم يكن بعد في الأرض، وكل عشب البرية لم ينبت بعد؛ لأن يهوه الرب لم يكن قد أمطر على الأرض، ولا كان إنسان ليفلح الأرض؛ لكن كان سيل يطلع منها ويسقي كل وجهها. وعندئذ جبل يهوه الإنسان من طين الأرض. ونفخ في أنفه نسمة حياة فصار الإنسان نفسًا حية» (الإصحاح ٢ الآيات ٤ ب إلى ٧).

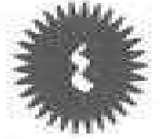
تلك هي الرواية اليهوية الموجودة في نصوص كتب العهد القديم التي نملكها حاليًا، هذه الرواية التي أضيفت إليها فيما بعد الرواية الكهنوتية، هل كانت على هذا القدر من القصر..؟ لا يستطيع أحد أن يقول ما إذا كان النص اليهوى قد قطع عبر الأزمنة، ولا يستطيع أحد أن يقول ما إذا كانت السطور القليلة التي في حوزتنا تمثل فعلًا كل ما كان يمكن أن يحتوى عليه أقدم نص للتوراة عن الخلق.

إن هذه الرواية اليهوية لا تشير إلى تشكل الأرض بشكل واضح وخاص، ولا إلى تشكل السماء، إنه يدع للفهم الضمني أن عند خلق الله للإنسان لم تكن هناك نباتات أرضية «فلم يكن المطر قد نزل بعد»، هذا بالرغم من أن المياه الآتية من العمق كانت تُغطي سطح الأرض، وتؤكد هذا البقية التالية للنص: زرع الله بستانًا في نفس الوقت الذى خلق فيه الإنسان، وهكذا يظهر عالم النبات في نفس وقت ظهور الإنسان على الأرض، وهذا علميًا خطأ؛ فقد ظهر الإنسان على الأرض حين كانت الأرض منذ زمن بعيد حاملة للنباتات، وإن كنا لا نستطيع أن نقول: كم من مئات الملايين من السنوات قد مرت بين الحدثين؟

ذلك هو الانتقاص الوحيد الذى يمكن توجيهه إلى النص اليهوى للخلق، فيما أنه لا يحدد في الزمن لحظة خلق الإنسان بالنسبة إلى تشكل العالم وتشكل الأرض، هذا الذى يضعه النص الكهنوتي في نفس أسبوع الخلق، فإنه يفلت من انتقاد خطير كان يوجه لهذا الأخير.

«يتبع»

كلمات ربى وآياته فى القرآن الكريم





أ.د. أحمد فؤاد باشا

﴿وَأَحْصَىٰ﴾

أحصى الشيء: عرف قدره، وحصيت الأرض: كثر حصاها فهي حصية، والإحصاء: التحصيل بالعد، مأخوذ من الحصا.

وقد وردت كلمة «أحصى» بصور اشتقاقية مختلفة ١١ مرة في القرآن الكريم، منها ما جاء مقترنًا بالعد والعدد، كما في قوله تعالى:

﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾

(مريم: ٩٤)

وقوله سبحانه:

﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾

(الجن: ٢٨)

وقوله عز وجل:

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾

(إبراهيم: ٣٤) (النحل: ١٨)

وعلم الإحصاء هو أحد فروع علم الرياضيات، الذي تطور كثيرًا بعد استحداث الحاسبات الإلكترونية.

- **حساب - حسبان:**

الحساب: العد، أو استعمال العدد. والحسبان: الحساب، أو هو جمع حساب. يقال: حسب المال ونحوه يحسبه حسابًا، وحسبانًا: عده وقدره وأحصاه.

وقد ورد لفظ «الْحِسَابِ» في القرآن الكريم ٣٩ مرة، جاء معظمها مرتبطًا بالذات الإلهية، كقوله تعالى:

﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾

(البقرة: ٢٠٢)

وقوله:

﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

(البقرة: ٢١٢)

وجاء بعضها في تركيب عباري يشير إلى يوم القيامة: (سورة ص: ٢٦) وجاء في آيتين متضمنًا دعوة إلى معرفة السنين وحساب حركات الكواكب، وذلك في قوله تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾

(يونس: ٥)

وقوله:

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِن رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾

(الإسراء: ١٢)

وقد قال القرطبي في شأن هذه الآية: فلو ترك الله الشمس والقمر كما خلقهما لم يعرف الليل من النهار، ولا كان الأجير يدري إلى متى يعمل، ولا الصائم إلى متى يصوم، ولا المرأة كيف تعتد، ولا تدرى أوقات الصلوات والحج، ولا محل الديون، ولا حين يبذرون ويزرعون، ولا متى يسكنون للراحة.

أما لفظ «حسبان» بمعنى الحساب، فقد ورد مرتين في القرآن الكريم، هما قوله تعالي:

﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾

(الأنعام: ٩٦)

وقوله:

﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾

(الرحمن: ٥)

ويبدو أنهما أيضًا تدعوان البشر إلى معرفة عدد السنين والأشهر والأيام، وأجزاء الليالي والأيام، فالحديث هنا عن نوع آخر من الحسابات الإلهية الدقيقة المعقدة التي تحكم حركتي الشمس والقمر، والتي قدرها الله بعلمه، وضبطها بقدرته، وحكم بها العلاقة بين الأجرام والنجوم والكواكب.

لهذا اهتم المسلمون بوضع التقاويم وتطوير علوم الرياضيات والفلك بشقيها النظري والعملي، وأفادوا من ذلك في تحديد مواقيت الصلاة، وبداية شهر رمضان المبارك. وتحديد اتجاه القبلة، وتقسيم المواريث والغنائم بين المنتفعين والمستحقين بالحق والعدل، بالإضافة إلى ما يحتاج إليه المتعلمون والكتاب والعمال والصناع من علوم الحساب والقياس والهندسة وغيرها. وهناك من العلماء من كرس جهده للتخصص في جانب معين، مثل ابن الهائم الفرضي الذي اشتغل بالحساب والفرائض، ومن هنا جاء لقبه، ومثل الحسن بن الهيثم الذي اهتم بالهندسة التطبيقية فعرف بالمهندس، وألف كتبا ورسائل، منها: «كيفية استخراج سمت القبلة في جميع أنحاء العالم» «وعلم الهندسة والمثلثات وحساب المعاملات» و«ما تدعو إليه حاجة الأمور الشرعية من الأمور الهندسية».

- **عد، عدد:**

العدد: مقدار ما يعد، والعد: إحصاء الشيء، والعد: ضم الأعداد بعضها إلى بعض. ويرتبط بالعد والعدد: الإحصاء، والحساب، وكتابة الأرقام.

ولقد ساعد علماء المسلمين على تطوير فكرة العدد والخانة «أو المرتبة»، بالإضافة إلي النظام العشري وفكرة الأعداد الترتيبية، ما وجدوه في القرآن الكريم من إشارات واضحة إلى الأرقام وتركيب الأعداد من هذه الأرقام. ذلك أن أي عدد من الأعداد التي تتركب من رقمين أو أكثر يستخدم الأرقام العشرة الأولي، كما وجدوا إلى جانب ذلك إشارات واضحة إلى الآحاد والعشرات والمئات والآلاف.

مثال ذلك قوله تعالى:

﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾

(الأنعام: ١٩)

وقوله:

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾

(النحل: ٥١)

وقوله:

﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ﴾

(النساء: ١٧١)

وقوله:

﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾

(التوبة: ٢)

وقوله:

﴿ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ﴾

(الكهف: ٢٢)

وقوله:

﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴾

(الحجر: ٤٤)

وقوله:

﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾

(الحاقة: ١٧)

وقوله:

﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾

(النمل: ٤٨)

وقوله: ﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾

(البقرة: ١٩٦)

هذه الإشارات الواضحة إلي الأرقام الطبيعية العشرة Natural numbers تحمل معني النظام العشري الذي تؤكده الأعداد الأكبر المكونة من رقمين أو أكثر عن طريق التجميع بالعشرات أو المئات أو الآلاف. قال تعالى:

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾

(يوسف: ٤)

وقال سبحانه وتعالى:

﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ (التوبة: ٣٦)

وقال عز من قائل:

﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾

(المدثر: ٣٠)

وقال جل وعلا:

﴿ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ﴾

(الأنفال: ٦٥)

وهكذا تجد باقي الآيات التي تشير إلي العشرات والمئات والألوف: (سورة الأحقاف: ١٥)؛ (سورة البقرة: ٥١)؛ (سورة العنكبوت: ١٤)؛ (سورة المجادلة: ٤)؛ (سورة الحاقة: ٣٢)؛ (سورة النور: ٤)؛

(سورة ص: ٢٣)؛ (سورة البقرة: ٢٥٩)؛ (سورة الأنفال: ٦٥-٦٦)؛ (سورة الكهف: ٢٥)؛ (سورة آل عمران: ١٢٤-١٢٥)؛ (سورة المعارج: ٤)؛ (سورة الصافات: ١٤٧). الأمر الذي يدل دلالة قاطعة على معرفة العرب في الجاهلية وصدر الإسلام بالنظام العشري ومراتب (خانات) العدد، لأننا لم نسمع عن احتجاج كفار قريش أو استنكارهم لما ورد في القرآن الكريم من الأرقام وترتيبها في الأعداد المكونة منها.

ووردت كسور الأعداد في بعض الآيات، وخاصة عند الحديث عن أحكام المواريث، أو قواعد توزيع الغنائم (نصف، ثلث، ربع، خمس، سدس، ثمن،..).

ويعود الفضل الأكبر في توطين النظام العشري الترتيبي وإشاعة استعماله إلى العالم الرياضي الشهير محمد بن موسى الخوارزمي (ت نحو ٨٥٠م)، وكان قد وضع كتابًا في الحساب الهندي شرح فيه النظام العشري وأشكال أرقامه، وقد فقد الأصل العربي لهذا الكتاب بعد أن تمت ترجمته إلى اللغة اللاتينية عدة مرات.

يتبع

أبعاد إسهام اللغة فى المنجز العلمى للدكتور عبد الستار فتح الله سعيد: (المادة والتوظيف)

٢



أ. د. خالد فهمى
كلية الآداب / جامعة المنوفية

(٤) اللغة فى المنجز العلمى للدكتور عبد الستار فتح الله سعيد: مقال فى الحقائق اللسانية العربية

إن قراءة المنجز العلمى للدكتور عبد الستار فتح الله سعيد يكشف عن إدراك ظاهر للمعرفة اللغوية العربية، أهميتها لعلم التفسير، وقد تجلى هذا الإدراك فى عدد من المظاهر، يتقدمها:

أولا- توظيف المعرفة اللغوية فى المستويات الأربعة، الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية، بما هى وسائل وآلات إلى استنطاق النص القرآنى الكريم، وخدمة مسائل علومه، ونقض كلام خصومه، وتصحيح أخطاء الدارسين فيما يتعلق به، وهو الأمر الذى توزع وانتشر فى كتبه جميعا مما أظهرناه وكشفنا عنه فى المطلب السابق هنا مباشرة.

ثانيا- اعتماد عدد من حقائق اللغة العربية الداعمة لاختصاصه الأصيل وهو عمود الصورة فى هذا المطلب.

صنع الدكتور عبد الستار فتح الله سعيد أمرا جديرا بالفحص يتمثل فيما وضعه من معلومات تتعلق باللسان العربى، وخصائصه، وقواعده فى الباب الرابع من كتابه (منهاج القرآن فى التشريع) جعل عنوانه (الأساليب و الوسائل).

وواضح من هذا المسلك تأثر المنهجية المتبعة فى التصنيف الأصولى حيث يعمد علماء أصول الفقه إلى تجلية المقدمات اللغوية التى يؤسسون عليها المعرفة الأصولية.

وتحاول هذه الورقة أن تقف أمام ما جمعه المؤلف الكريم من حقائق لغوية لازمة لعمل المفسر على وجه التعيين، وهى مجملة فيما يلى:

أولا- الوعى بأهمية المعرفة اللغوية؛ لأنها وسيلة لا غنى عنها للتعامل مع النصوص الشرعية، بما هى آلة مركزية فى هذا الميدان وهو ما يعنى

أن التوسع في معرفة اللسان وقوانينه أمر لازم حتمي، وأنه بمقدار خدمة هذا التوسع في دراسة اللسان العربي يكون فقه الأصلين العظيمين.

ثانيا- الوعي الظاهر جدا بما أحدثه وخلقه الإسلام من ألفاظ ومعان جديدة استعان بها على ترسيخ دعائم تصوره للحياة و الكون، عرفت في تاريخ علم اللغة عند العرب باسم الألفاظ العربية الإسلامية.

وهو ما سماه بهذه التسمية في تضاعيف بعض كتبه؛ أو ما سماه باسم تجديد المفردات والمصطلحات (ص٧٠١ وما بعدها) من كتابه (المنهاج) و يسمى ذلك أحيانا باسم المصطلح الإسلامي.

و الرجل مدرك لآلية توليد هذه المعاني الجديدة بطريق : النقل، يقول عنها (ص٧٠١) : «وهي أسماء أخذت من لغة العرب نفسها ... ونقلت بواسطة العرف الشرعي إلى معان ذات دلالات شرعية اصطلاحية خاصة بهذا الدين»

وهذا الذي سمي إجمالا باسم نقل الدلالة صحيح إجمالا، يتفرع عند التفصيل إلى:

ما له دلالة شرعية بسبب التخصيص أو تضييق الدلالة بالنظر إلى الدلالة العامة (وهو الطريق الواسعة لخلق المعاني الشرعية)

٢-ما له دلالة شرعية بسبب التعميم أو توسيع الدلالة بالنظر إلى دلالة اللفظ الضيقة في اللغة العامة.

٣-ما له دلالة شرعية بسبب انتقال الدلالة بطريقين هما :

أ-طريق المجاز و المشابهة.

ب- طريق غير المجاز والمشابهة.

ثالثا- الوعي بمعيار التفهيم و إيثار الوضوح في بناء النصوص التشريعية، وهو ملمح سبق لعدد من الأصوليين أن يبلوره في قاعدة واضحة عبر عنها الشاطبي في الموافقات بقاعدة أن الشريعة مبنية على التفهيم .

وهو الأمر الذي آثاره وعلاماته على النصوص التشريعية المتعلقة بالأحكام في الذكر الحكيم و السنة المطهرة التي أظهرها:

١-إيثار التراكيب مفتوحة الزمن؛ خدمة لقضية تأبيد الأحكام الشرعية الإسلامية، ونفي توقيتها.

٢-إحكام الصياغة، وخلوصها إلى المراد من أقصر طريق باستعمال :

أ- ألفاظ دقيقة الدلالة.

ب- وتراكيب محكمة.

رابعا- الانسجام بين الغايات الدلالية ووسائل التعبير عنها

وهو الأمر الذي يتجلى أكثر ما يتجلى في الأحكام المتعلقة بالجسد الإنساني، حيث يلجأ النص الشرعي (قرآن وسنة) إلى استثمار التعبير بالكنايات، ليتحقق الانسجام بين أمرين هما:

١-التعبير عن المرادات التشريعية المنظمة لعلاقات الأجساد، وما يستحيا منه من الغرائز.

٢-عدم صدم المشاعر، وصيانة النفس المتلقية من آثار التصريح اللغوي الخادش.

ويمثل الدكتور / عبد الستار فتح الله سعيد على ذلك بمعجم للكنايات القرآنية التي توفي مطالب التشريع مع الحفاظ على النسق الأخلاقي التهذيبي الراقي في الوقت نفسه بما يلي:

الموضوع التشريعي .

الكناية القرآنية .

لقاء الرجل بالمرأة (الجماع) .

الرفث/ المباشرة / الملامسة / السر / الغشيان.

كشف فحص المنجز العلمي للدكتور عبد

(٥) المصادر اللغوية في المنجز العلمي للدكتور عبد الستار فتح الله سعيد: مقال في أنواعها ووظائفها

الستار فتح الله سعيد عن معرفته بعدد من المصادر اللغوية المختلفة، استعملها لوظائف متنوعة .

أما فيما يتعلق بأنواع المصادر، فقد توزعت بشكل مركز في الأنواع التالية :

أولا- المصادر الصرفية والنحوية .

من مثل : ألفية ابن مالك، وشرح ابن عقيل عليها، وشرح شذور الذهب لابن هشام، ومغني اللبيب له.

ثانيا- المصادر المعجمية :

من مثل: القاموس المحيط، للمجد الفيروزآبادي، المفردات للراغب الأصفهاني، لسان العرب، لابن منظور، المعجم الوسيط، لمجمع اللغة العربية بالقاهرة، والمعجمات التعريبية، كالمهذب للسيوطي:

وقد تنوع منهج استعمالها، والنقل عنها، فاخذ الأشكال التالية :

أ- النقل الحرفي، أي استعمال نقول بنصوصها كاملة .

ب- النقل بالمعنى، أي استعمال المعلومات بغير ألفاظها، وإنما بالإشارة إليها .

ويؤخذ على كتابات الدكتور عبد الستار فتح الله سعيد في باب استعمال المصادر اللغوية مجموعة من الملاحظ السلبية من مثل:

أ- قلة هذه المصادر اللغوية، ووجازة مستواها.

ب- غياب المصادر اللغوية المختصة بالمصطلحات الشرعية، وتاريخ علم اللغة عند العرب يعرف أصنافا كثيرة للمعجمات التي جمعت مصطلحات الفقهاء والأصوليين، والمحدثين وغيرهم.

ج- التسامح في مستوى التوثيق، والنقل عن المصادر، ولعل له أسبابا خاصة بظروف تأليف بعض كتبه.

وأما فيما يتعلق بوظائف هذه المصادر فقد توزعت على الوظائف التالية:

أ- الوظيفة التأسيسية بمعنى استثمار المعرفة اللغوية بما هي وسيلة لتأسيس المعرفة التفسيرية المتخصصة، سواء كانت (استنباطا أو نقضا لآراء الآخرين على ما نرى في كتابيه (المنهاج) و(إبطال مزاعم الهيروغليفية تفسر القرآن)

ب- الوظيفة التصحيحية، أي استثمار المعرفة اللغوية لتصحيح عدد من الآراء التفسيرية، أو الاستدراك عليها، أو ترجيح بعضها.

ج- الوظيفة التدليلية، بمعنى توظيف المصادر اللغوية وما فيها من معلومات؛ لأغراض التدليل على رأي من الآراء، أو دعمه وتأكيده وتعضيده.

(٦) خصائص توظيف اللغة في المنجز العلمي للدكتور عبد الستار فتح الله سعيد

إن قراءة الكتابات العلمية تكشف عن مجموعة من الخصائص والسمات تسهم سهمة اللغة فيها، تتركز حول الملامح التالية :

أولا- الشمول في توظيف المعلومات.

بمعنى أن الرجل يعي أهمية المستويات اللغوية جميعا (صوتيا وصرفيا ونحويا، ودلاليا، وتاريخ لغة، وأسلوبيا، وفقه لغة) بالنسبة للتعامل مع النص الكريم .

ثانيا- الوعي بالأهمية :

بمعنى أن الرجل يعي موقع العلوم العربية بالنسبة

للتعامل مع القرآن الكريم ، وأهمية هذا الموقع ، وما يترتب عليه من ارتباط الدين باللغة ارتباط الغاية بالوسيلة المؤسسة الكاشفة عنها والوعى بمسالك تهديد الإسلام من بوابة اللغة وهو ما لا يمكن إدراكه من غير تصور حصول الوعى بقيمة اللسان.

ثالثا- التنوع الوظيفى:

لقد ظهر من خلال رصد وظائف المصادر اللغوية أنها تنوعت لتخدم وظائف ثلاثة هى:

١- الوظيفة التأسيسية للمعرفة المختصة ، بعلوم القرآن الكريم .

٢- الوظيفة التصحيحية والاستدراكية ، لما لا يوافق عليه من آراء وأفكار .

٣- الوظيفة التدليلية ، لما يرجحه من آراء وأفكار وهى ذات الوظائف التى استثمر الرجل المعلومات اللغوية من أجل تحقيقها ، وخدمتها.

رابعا- المنهجية المنضبطة:

وقد أظهر فحص توظيف المعلومات اللغوية فى كتابات الدكتور / عبدالستار فتح الله سعيد منهجية منضبطة ، انعكست علاماتها فيما يلى:

١- تحصيل فارق ما بين المعلومات فى كل مستوى لغوى.

٢- استدعاء معلومات كل مستوى فى الموضوع المناسب.

٣- الوعى بحقائق اللغة ، وطرق تكوين الدلالات ، وخصائص اللغة.

٤- المعرفة بأنواع المصادر اللغوية ، وتنوعها (وإن بدت فقيرة إلى حد ما).

إن المنجز العلمى للدكتور / عبدالستار فتح الله سعيد يكشف عما تركته اللغة العربية فى النفس المسلمة المعاصرة عموما ، وفى نفوس علماء الحركة الإسلامية بوجه عام ، بسبب من بقايا كريمة للربط العضوى والمركزى والأصيل بين الدين واللغة ، حتى صح قديما قول القائل إن تفهم العربية من الديانة.

خاتمة :

إن إسهام المعرفة اللسانية فى المنجز العلمى لعلماء الحركة الإسلامية المعاصرة ومنهم الدكتور :عبد الستار فتح الله سعيد يكشف عن مجموعة من النتائج المهمة ، منها :

أولا- تقدير قيمة المعرفة اللغوية الأصيلة فى مجال خدمة العلم الإسلامى عموما ، وهى القيمة التى كشفت عن وعى ظاهر بمؤامرات الأعداء فى حربهم للإسلام من بوابة اللغة وهو ما ظهر فى كثير مما كتب المعاصرون ومنهم عالمنا الجليل.

ثانيا- توزع استثمار المعرفة اللغوية فى ميدان علم التفسير ، وعلوم القرآن الكريم والشريعة عموما على ستة مسارات جامعة هى :

- مستوى المعلومات الصوتية .
- مستوى المعلومات الصرفية.
- مستوى المعلومات النحوية .
- مستوى المعلومات الدلالية .
- مستوى المعلومات الخاصة بتاريخ اللغة العربية
- مستوى المعلومات الخاصة بخصائص اللغة وخصائص ظواهرها ، مما يسمى باسم فقه اللغة.

ثالثا- ظهرت بعض علامات سلبية تتعلق بشبهة عدم التعمق والاتساع فى المعرفة اللسانية ، كأثر باق من التهوين بالعلم اللغوى على عدد من قطاعات العلم بالذكر الحكيم، قال(وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ).

رابعا- الكشف عن أثر الحركة الإسلامية فى تكوين العلماء المعاصرين فى باب تحصيل المعرفة اللغوية ؛ نظرا لتواتر الربط بين اللغة والدين بشكل عام.

قصة العدد

الوفـــاء بالعهـــد



أ. د. محمد رجب البيومى

جلس مخيريق اليهودى يفكر فى أمر القرآن الكريم ، وقد ذاعت آياته الكريمة فى ربوع المدينة المنورة منذ هاجر رسول الله ﷺ إليها مع صحبه الأكرمين ، وكان دارسًا للتوراة، عالمًا بالكثير منها .. فوجد آيات الكتاب المبين تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتدعو إلى العدل والإحسان وإيتاء ذى القربى، ثم نظر من وجهة ثانية إلى المسلمين بالمدينة فوجدهم يلتزمون أوامر القرآن ولا يحيدون عنه قيد شعرة، فهم أمثلة مضيئة للإنسان الشريف فى اتجاهه المخلص فى رأيه ومعتقده؛ وقد كتب رسول الله ﷺ معاهدة سياسية مع اليهود عند مقدمه الكريم ضمنت لهم حقوقهم.. وجعلت حق التناصر بينهم وبينه، فمن اعتدى عليهم كان المسلمون عليه إذا كانوا ذوى حق، ومن اعتدى على المسلمين كان اليهود معهم فى الدفاع عن المدينة ومقاومة العدوان! أخذ مخيريق يفكر فى ذلك، وكان ذا صداقة حميمة مع حبر اليهود عبد الله بن سلام فرأى أن يذهب إليه متحدثًا عن شعوره نحو هؤلاء المهاجرين، وملتمسًا رأيه فى رسول الله، وما جاء به من آيات الكتاب المبين، وكان عبدالله أعلم اليهود بالتوراة، وإمامًا محكمًا فيهم يصدرون عن رأيه ويعتقدون فيه النزاهة والتقوى والإخلاص، وهو من مخيريق بمنزلة الصديق الحميم، فلا تخفى عنه شيئًا من هواجس نفسه، وهو موضع سره حين يحزبه الأمر، ومكان استشارته حين يحتاج إلى المشير، وهذا ما صمم عليه فى ليلة لم يذق فيها طعم النوم، لأنه كان غريقًا فى أفكاره التى تتجه إلى الدعوة الجديدة ويريد منفذًا إلى لبها المكنون، بعد أن مال إلى ما تأمر إليه من بر ومعروف، وما أشرق الصبح حتى اتجه إلى منزل عبدالله بن سلام!

كان الحبر فى عزلة هادئة، كعادته فى الصباح، وكان أهل منزله يعرفون مكانة مخيريق منه، ويعلمون أنه يسر كثيرًا بمقدمه، فسارعوا إلى استقباله.. وأعلموا ابن سلام بمقدمه، فخرج إليه مرحبًا مصافحًا.. ودعاه إلى مجلسه فى خلوته، وقال له ما اتجهت فى الصباح إلىّ إلا لأمر شغل بالك، لأن زيارتك دائمًا تكون فى الأصيل، وكل زمان لدى يصلح

للقائك، فبيني وبينك من التجاوب الروحي والانسجام النفسي ما أرجو أن يتأكد على مر السنين!

فابتسم مخيريق، وقال: كل ما ذكرت صحيح، وكأنك تقرأ خاطري المستتر، وتعلم ضميري المستكن، فقد أرقت الليلة الماضية أرسل فكري في شأن محمد وأصحابه، وأتلو ما علمت من كتابه الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ونحن معشر اليهود قد تجاوزنا تعاليم التوراة في كثير مما تعمل، فجاء القرآن ليؤكد تعاليم البر والإحسان، ويدعو للتي هي أقوم.

فنظر عبدالله إلى صديقه كالمتعجب، وقال: يشهد الله أني منذ حل هذا الرجل المكي إلى المدينة وأنا في شغل شاغل من دينه، وأحس في قلبي ـ ولا أكذبك ـ ميلا شديدًا إليه، أنظر إلى سلوكه الطاهر فأراه موضع الشرف والأمانة والعفاف، والاستعلاء عن مظاهر الكبر والرئاسة بين قومه، فالمؤمنون من أتباعه إخوة متساندون يشد بعضهم بعضًا كالبنيان المرصوص، وهم في مستوى خلقي رباني، يمثلون مجتمعًا شريفًا لم نعهده من قبل!

قال مخيريق: لقد شفيت صدري فكل ما قلته قد مر بخاطري، وكان مصدر قلقي وسهادي في ليلة أمس، ولكن ماذا تعمل إزاء هذا الشعور الجديد.

قال عبدالله بن سلام، أنا امرؤ ذو عزم وحزم، وإذا اتجهت إلى أمر رأيته أصح الأمور في ديني ومسلكي بين ربي أولا وبيني وبين الناس ثانيا، فلابد من تنفيذه دون إبطاء.

تحير مخيريق، وقال: أأفهم من ذلك أنك تريد أن تعتنق الإسلام؟

فقال عبدالله: هذا ما صممت عليه، وأرى أن تكون معي في هذا الاتجاه!

فرد مخيريق يقول: لست خالصا لأمر نفسي مثلك، فأنت امرؤ شغلتك العبادة والرهبانية عن الناس أما أنا فتاجر ذو علاقة بيني وبين اليهود، ولديهم من الأموال الكثيرة ما اقترضوه دينًا، أو ثمنًا لعروض البيع والشراء، ولئن جاهرت بما تريد أن أجهر به لتحزب القوم عليّ، وأنكروا ما عليهم من الحقوق، وأكثرهم كما تعلم يعبدون الدرهم والدينار، فلا يجدون سببًا قويًا أو ضعيفًا للتخلص من ديونهم إلا سلكوه فإذا عرفوا أني أسلمت فرحوا وابتهجوا، لا لأنهم يعشقون الإسلام، بل لأنهم يجدون الفرصة مواتية لإنكار الحق، ومن لم ينكر راوغ، وقال: ليس منا، ولسنا منه!

فقال عبدالله: هو ما تقول! ولك أن تنظر في أمر نفسك متئدًا متمهلًا، أما أنا فأذهب إلى نبي الإسلام من الغد، فعلى ذلك صممت، ولن يعوقني عائق من هؤلاء!

كان الرسول في منزله بعد أن أدى صلاة العصر، فاتجه إليه من يخبره أن عبدالله بن سلام حبر اليهود وإمامهم في شريعتهم يطلب الإذن عليه، فظهرت دلائل البشر على وجهه الكريم، وقال مرحبًا مرضيًا، فلن يقدم إلا لخير!

ووقف لاستقباله، وكأنه صديق أثير!!

جلس عبدالله وعلى محياه آيات البشر، ثم قال: يا محمد، لقد درست ما علمت من القرآن المنزل عليك، فرأيت أنه كما قال النجاشي ينبع مع التوراة من مشكاة واحدة!

واطمأن قلبي إلى الإسلام، وجئتك مسلمًا دون تردد! فقال الرسول: أهلا ومرحبًا، لك ما لنا، وعليك ما علينا.

فسكت عبدالله قليلًا، ثم قال: اليهود قوم بهت، إذا عرفوا إسلامي افتروا عليّ الأقاويل، وهم الآن يجعلونني إمامهم الأمين، وأرى أن تجتمع بهم، وتسألهم عني، فسيقصون عليك كل ثناء ومديح، ثم أفد عليك بعد قليل في مجلسك، وهم حاضرون! فأعلن إسلامي، وإذ ذاك لا يستطيعون أن يذموا إنسانًا مدحوه قبل لحظات! ولئن فعلوا فهم مفضوحون ملامون!

قال الرسول: ومتى؟ فقال عبدالله في مثل هذه الساعة من الغد:

وكان ابن سلام كان ينظر إلى المغيب، من ستر رقيق، فما أزف الموعد حتى كان الرسول ﷺ في ملأ من اليهود، وقد جاذبهم الرأي في بعض المسائل المختلفة، ثم سألهم عن عبدالله بن سلام، فقالوا جميعًا: هو إمامنا، وصاحب الرأي الصائب، والداعي إلى الخير والمعروف، وكلنا نأتم به، وجرى الحديث في شئون أخرى، حتى جاء عبدالله بن سلام فحيا الرسول بتحية الإسلام، ثم قال: الحمد لله أن وجدت ملأ بين قومي لديك، فيعرف الناس أني قدمت لأعلن إسلامي: فأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله!

بُهت القوم بما سمعوه، ونظروا إلى عبدالله نظرة استنكار! وصاحوا به! ما عهدناك إلا ضالًا متسرعًا ولا تثبت على رأي، ولا تهتدي إلى صواب!

فقال الرسول متعجباً: أكذلك قلتم من قبل! فقال عبدالله: لا أبالي بقولهم، فيكفي أنني قد اقتنعت بما قررت وأسلمت عن يقين؟

وكان إسلام عبدالله مصدر فزع لقومه! إذ عنت إحدى الحجج البينة على صدق الرسول، وسلامة اتجاهه القويم!

ودخل شاس بن قيس على مخيريق، وهو يتلهب من الغيظ فقال له: أسمعت بنبأ الفضيحة! فيتجاهل مخيريق سؤال صاحبه عارفًا ما يعنيه، وقال في استنكار:

لم أسمع بفضيحة من بعد، إلا أن تكون أنت ملفق الأكاذيب، فأنا أعرف من تاريخك في الدسائس بين المسلمين واليهود، وبين اليهود أنفسهم ما أشاع الريبة في سلوكك.

فقال شاس: يجوز لي بل يجب علي أن أدس بين المسلمين، ولكني لم أدس بين اليهود واليهود!

فصاح مخيريق: المؤمن الحقيقي بالتوراة وبدين موسى كما أنزله الله، لا يدس بين الناس حتى ولو كانوا لا يؤمنون بكتاب كالوثنيين!

فأطرق شاس على مضض وقال: اعلم يامخيريق، فأنا أكبر منك سنًا، وأعمق تجربة، ولن يصلح أمر لليهود في المدينة إذا لم تحدث الفرقة بين المسلمين، لقد كان صلاحنا قبل أن يأتي محمد في إيقاع الفتنة بين الأوس والخزرج من أهل المدينة، فلما التأم شملهم بالإسلام، ضاعت الفرصة، فأردت أن أعيدها جذعة، وحاولت وحاولت! لقد هيجت شابًا متحمسًا من اليهود، ليحدث هذه الفرقة! فقلت له: لقد التأم شمل الأوس والخزرج بالمدينة، ولن يصلح لنا الأمر على اجتماعهم، فاذهب إلى مجالسهم، وذكرهم بالأخطاء القديمة ومعارك الدماء في يوم بعاث! وقد فعل!

قال مخيريق: تقول قد فعل! لقد خاب فألك يا شاس، فالقوم قد تنازعوا مقدار ساعة أو

ساعتين ثم جاء رسول الله ﷺ فأطفأ الحريق! وعلم أنك أصل الشقاق فتحاشاك الناس!

صرخ شاس وصاح: كأنك أصبحت مسلمًا مثل صديقك الصابئ عبدالله بن سلام! وقد جئتك الآن لأتحدث عن فضيحة، فمهدت لي الطريق!

فرد مخيريق! إن عبدالله بن سلام حر فيما يشاء! وقد أسلم عن اقتناع، فما شأنك به! الرجل فكر وفكر فهداه تفكيره إلى الإسلام، ولو كنت سليم الصدر لما اتقدت غيظًا عليه!

فعض شاس إصبعه تحت أسنانه من الغيظ، وقال: أعرف أن عبدالله بن سلام ليس واحدًا، ولكن بيننا من أمثاله من سينهجون طريقه، ولابد من فضيحتهم قبل أن ينتشر الحريق! وسأذيع بين الملأ أنك موافق له، أو على الأقل! لا تواجهه بالسخط على ما فعل!

قال مخيريق: أذع ماتشاء! فلن يكون لحديثك صدى ملموس!

وجاء الموقف الحاسم، فلقد هاجم المشركون المدينة ومن تبعهم من الأحزاب وطلب رسول الله من اليهود أن ينفذوا شروط المعاهدة التي تقضي بمقاومة المسلمين إذا دهمهم مكروه! واجتمع القوم يتشاورون، فقال شاس ومن لف لفه وهم كثيرون: لا شأن لنا بمناصرة محمد، فأعداؤه كثير، وسيهزم لا محالة، ونحن مع الكفة الراجحة، فلا نبذل دماءنا للمسلمين، وليسوا منا، بل هم خصومنا عن يقين.

هنا صاح مخيريق لست معك يا شاس! فأنت لا ضمير لك حين تنبذ العهود لقد تعاهدنا على المؤازرة والمناصرة في الحرب والسلم ففيم النكوص! هنا صاح شاس: مخيريق ليس منا يا قوم، لقد أسلم صديقه عبدالله بن سلام!!

فنظر المجتمعون إلى مخيريق متسائلين عما يقول شاس: فقال في هدوء: أنا لا أخشى أحدًا، ولو كنت أسلمت لواجهتكم بما فعلت! فاتقوا الله يا قوم: فأنتم أهل كتاب!

فقال شاس: كتاب صحيح! وليس بكتاب مكذوب! وخاف القوم أن يتشعب الخلاف، فقال قائل منهم: لقد اجتمعنا لنرد على طلب العون الذي تقدم به محمد فما أنتم قائلون؟

فصاحوا جميعًا: ليس بيننا وبينه عهد؟ ولن ننضم إلى الفئة الخاسرة! وهنا لم يستطع مخيريق السكوت فقال: ولكني سألتزم بعهدي لمحمد، وسأحارب معه فالله لا يهدي كيد الخائنين!

قال شاس: ألم أقل لكم: مخيريق قد صبأ عن اليهودية! وخاتمته تكراء. لم يكن مخيريق متحمسا دون اعتقاد، بل اعتزم أن يفي بالعهد مهما قامت الحوائل، وقد تقدم إلى رسول الله ﷺ منضمًا لكتيبة المسلمين! فرحب به وقال قولته المأثورة: (مخيريق خير يهود).

ودارت الحرب فلقي مصرعه مجاهدا في صفوف المسلمين ورأت زوجته ألا بقاء لها بالمدينة بعد أن تنكر لها اليهود، فصحبت ولدها (كعبا) في رحلة إلى الشام لدى ذوي القربى من أرحام مخيريق، ومضت سنوات وشب كعب بن مخيريق، فالتحم بجيش الرومان مجاهدًا مع أبي عبيدة بن الجراح في تصميم أكيد، وكأنه يأخذ بثأر أبيه، ثم رزق الشهادة، وتمت كلمة الله بنصر المؤمنين!!

الفنون الجميلة ومقاصد الشريعة (٢)



أ.د. إبراهيم البيومي غانم

ثانيا: نظام الوقف ودوره في تكوين الثروة الفنية والأثرية

ارتبطت الفنون الجميلة في نشأتها وتطورها ببعض الأنظمة الشرعية. وأسهمت تلك الأنظمة بدور كبير وممتد - عبر أحقاب زمنية متطاولة - في غرس تلك الفنون وجمالياتها في الوعي الاجتماعي العام. وكان نظام الوقف من أهم تلك الأنظمة الشرعية التي نمت في ظلها الفنون الجميلة وتنوعت وازدهرت على مر العصور. وقد كشفنا في دراسة سابقة لنا عن أن نظام الوقف الإسلامي قد كان له دور فاعل وحيوي في خدمة المقاصد العامة للشريعة بصفة عامة [١]. ونبين هنا كيف أن نظام الوقف قد دعم القيم الجمالية والفنية في حضارتنا الإسلامية ووضعها في خدمة مقاصد الشريعة أيضًا. ونحاول الكشف عن بعض أسرار علاقة نظام الوقف بالآثار والفنون الجميلة، حيث لا يعرف الكثيرون أن الفضل يرجع إلى «نظام الوقف الإسلامي» في وجود وبقاء عدد من المباني والمنشآت الأثرية ذات القيمة التاريخية والفنية والمعمارية التي نستمتع بمشاهدتها، وتزخر بها معظم المدن والحواضر العربية والإسلامية، ومن أهم هذه الآثار الوقفية: المساجد، والجوامع، والأسبلة، والتكايا، والحمامات الشعبية، والأسواق، والقيساريات، والقصور، والقباب، والأضرحة والمقامات والعتبات المقدسة، والمزارات الشريفة، والقلاع والحصون والأسوار الحربية، ومثل تلك الآثار تزينها - في أغلب الحالات - نقوش بديعة، وزخارف ورسومات رائعة الجمال، فضلًا عن محتوياتها من أعمال الفنون الجميلة مثل التحف، والمقتنيات النادرة من السيوف، والمنابر، والمصاحف، والمخطوطات، والقناديل، والثريات، والأواني، والمشغولات الذهبية والفضية، والسجاجيد، وما شابه ذلك.

من أين أتت العلاقة بين الوقف من ناحية ومقاصد الشريعة، والآثار وأعمال الفنون الجميلة الموروثة عن العهود الإسلامية السالفة من ناحية أخرى؟. وما الذي يفسر الارتباط بين نظرية عملاقة مثل «نظرية المقاصد» ونظام اقتصادي اجتماعي فرعي ذي طابع ديني - هو الوقف - وبين

١- إبراهيم البيومي غانم، «مقاصد الشريعة في مجال الوقف»، في: محمد سليم العوا (محرر)، مقاصد الشريعة الإسلامية: دراسات في قضايا المنهج ومجالات التطبيق (لندن: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ٢٠٠٦م) ص٤٢٥ - ٤٨٣.

عالم الفنون الجميلة والآثار؟ إن ثمة أكثر من مصدر لتلك العلاقة منها الآتي:

١ - قيام الوقف على فكرة «الصدقة الجارية» التي ذكرها الرسول ﷺ في حديثه الذي يقول: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»(٢) والصدقة الجارية فكرة مجردة، فتحت أبواب الخيال في أعمال الخير على مصراعيه. ودعم من ذلك سعة أفق المسلمين الأوائل في فهمهم للحكمة من هذه الفكرة التي نبع منها نظام الوقف. فهم لم يقصروا هذه الفكرة على مجرد إعطاء إحسانات نقدية أو عينية للفقراء وذوي الخصاصة، وإنما انطلقوا بها إلى كافة ميادين الخدمات والمرافق العامة، وحولوها إلى مؤسسات نافعة منها: الجوامع، والمدارس، والأسواق، ومشافي العلاج (البيمارستانات)، وأسبلة مياه الشرب النقية، والتكايا، والمكتبات العامة.. إلخ.

ولما كان الأصل المعنوي للوقف هو أنه عمل من أعمال التقوى، وقربة إلى الله تعالى طمعًا في نيل ثوابه ودخول جنته، وبما أن الله جل شأنه جميل يحب الجمال، وطيب لا يقبل إلا طيبًا، فقد اجتهد الواقفون على مر الزمن في أن تكون قرباتهم الوقفية - تلك المؤسسات التي أشرنا إليها - في غاية الإتقان، وآية من آيات الجمال الفني والمعماري الأثري، وبخاصة أنها حملت أسماءهم - في كثير من الحالات - وخلدت ذكراهم، ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر: الجامع الأزهر، وقبة السلطان الغوري، وسبيل محمد علي بشارع المعز لدين الله، وشقيقه النعمان بالخيامية (وهي كلها من أوقاف وآثار مدينة القاهرة) والجامع الأموي بدمشق(٣)، والتكية السليمانية التي أمر بإنشائها ووقفها السلطان سليمان بن سليم الأول على أنقاض القصر الأبلق للملك الظاهر بيبرس عند المدخل الغربي لمدينة دمشق، وهي من آثارها المعمارية الرائعة، وقد وردت أوصافها المعمارية في حجة وقف السلطان سليمان القانوني(٤).

٢ - ساعد في توثيق العلاقة بين الوقف والآثار أن الفقهاء قد جعلوا للوقف حرمة مصانة، ولمؤسساته قدسية تجب المحافظة عليها، وقد تجلى ذلك فيما أكدوا عليه من أن «شرط الواقف كنص الشارع في لزومه ووجوب العمل به»، أي أن ما يضعه «الواقف» من شروط ومواصفات خاصة لوقفياتهم وكيفية إدارتها تكون واجبة التطبيق، وجوب تطبيق الأحكام والأوامر الشرعية، سواء تعلقت تلك الشروط بإنشاء مؤسسات خدمية أو خيرية، أو تعلقت بحجم الإنفاق عليها وصيانتها وتجميلها وتجديدها كلما لزم الأمر.

وقد دعمت الأحكام التفصيلية لفقه الوقف إمكانية بقائه لأزمنة متطاولة، ومن تلك الأحكام: حكم التأبيد، عند بعض الفقهاء، وعدم جواز الرجوع في الوقف أو الإخلال بأي من شروط الواقف المتعلقة بصرف ريع الأعيان الموقوفة، إذ نصوا على أولوية الإنفاق على ما فيه بقاؤها، والمحافظة على المؤسسات الوقفية كالجوامع والمدارس والتكايا.. إلخ، حتى ولو استغرق

٢- رواه الإمام مسلم في صحيحه.

٣- انظر مثلًا: عفيف البهنسي، الجامع الأموي الكبير: أول روائع الفن الإسلامي (دمشق: دار طلاس للترجمة والدراسات والنشر، ١٩٨٨ م).

٤- لمعرفة تفاصيل وقفية التكية السليمانية انظر: جعفر الحسني، التكية السليمانية في دمشق، مجلة المجمع العلمي العربي - دمشق - الجزء الثاني، المجلد الحادي والثلاثون ١ نيسان/ أبريل ١٩٥٦م/١٩ شعبان ١٣٥٧ هـ ص٢٢٢ - ٤٥٠.

هذا البند كل الريع. كما حذروا من تبديله أو إلغائه، خاصة إذا كان مخصصًا للخيرات والمنافع العمومية، وقرروا كثيرًا من الأحكام التي جعلت للوقف ولمؤسساته ومنشآته المختلفة «شخصية اعتبارية» قائمة بذاتها، ومستقلة عن شخصية الواقف وعن ذمته القانونية بحيث لا تزول شخصية المؤسسة الوقفية بموت الواقف، بل تستمر وتبقى صالحة لتحمل الالتزامات والتمتع بالحقوق، والمطالبة بها إذا سلبها ذوو الأيادي القوية والنفوس الضعيفة. وإذا أضفنا إلى ذلك أن الفقهاء أسندوا للقضاء سلطة الولاية العامة على الأوقاف، وعقدوا له وحده الاختصاص الولائي إلى جانب الاختصاص القضائي في النظر في جميع المسائل المتعلقة بالوقف وشئونه(٥)، فسوف يتضح لنا أن تلك القواعد الفقهية والمبادئ التشريعية والتقاليد القضائية قد أسهمت على نحو تلقائي - وغير متعمد - في خدمة المنشآت والمباني الأثرية؛ إذ أحاطتها بكثير من الضمانات المعنوية والقانونية التي كفلت لها البقاء والاستمرار، حتى صارت - بمرور الزمن - في ذمة الآثار وفنونها الجميلة، وتظمنها القوانين والتشريعات الحديثة، ودخلت في مسئولية هيئات حكومية رسمية مختصة بشئون الفنون والآثار والثقافة في البلدان الإسلامية.

٣ - أسهمت التشريعات القانونية واللائحية الحديثة والمعاصرة أيضًا في المحافظة على الآثار الوقفية وفنونها ومقتنياتها النادرة، وذلك بتنظيم مهمة الإشراف عليها وإسنادها إلى هيئات متخصصة ومسئولة.

وكانت تلك الهيئات في أول الأمر متمثلة في الدواوين الحكومية للأوقاف أو وزارتها، ثم انتقلت إلى هيئات الآثار والسياحة والثقافة، حسب النظام المعمول به في كل بلد من بلدان العالم الإسلامي.

والحاصل هو أن «الوقف» كان إحدى آليات تكوين الثروة الفنية والأثرية ومصدرًا من مصادر تراكمها عبر العصور في مختلف البقاع الإسلامية(٦). وتجلى في نموذج العمارة الوقفية أنه قام على خمسة مبادئ رئيسية كانت داعمة لتكوين تلك الثروة الفنية والأثرية الوقفية. وهذه المبادئ هي: الإتقان والمتانة، والمنفعة الوظيفية، والنمو والبقاء، والذوق والجمال(٧). وكانت فنون العمائر الوقفية وجمالياتها ذات إشعاع روحي يبعث في النفس الطمأنينة والراحة بما أنه تذكير دائم بمعنى الخير وأهميته في دنيا الإنسان وفي آخرته، كما كانت ذات جمال مرئي عبرت عنه معايير الجودة والإتقان واختيار الأفضل لأنه قربة إلى الله تعالى. وحافظت أعمال الصيانة والترميم على بقاء تلك العمائر وزيادة قدرتها على تحدي عوادي الزمن واعتداءات البشر.

وإذا كان «الخلود» هو السمت الأول للآثار، فإن التأبيد هو السمت الأول للأوقاف الخيرية، ومن هنا ضمن سمت «التأبيد» دخول عديد من العمائر الوقفية في ذمة الآثار، وضمن مبدأ «القربة» إبداع كثير من الفنون الجميلة في تلك العمائر الوقفية.

٥- لمزيد من التفاصيل حول أصول البناء المؤسسي لنظام الوقف انظر كتابنا: الأوقاف والسياسة (القاهرة: دار الشروق ١٩٩٨م).

٦- كان للوقف دور كبير في تكوين الثروة الفنية والأثرية في الدولة العثمانية انظر لمحة عامة عن ذلك في: نعمان تره أوغلو، مؤسسة الأوقاف والاقتصاد العثماني: الأوقاف والخدمات العامة، مجلة حراء - إسطنبول - العدد ٣١ يوليو/ أغسطس ٢٠١٢ م.

٧- نوبي محمد حسن، قيم الوقف والنظرية المعمارية: صياغة معاصرة، مجلة «أوقاف» - الكويت - العدد ٨ - مايو ٢٠٠٥م.

أصــــوات



للعلامة / محمد أسد

ذهبت مع صديقي ومضيفي إلى الجامع الأموى يوم الجمعة، الأعمدة الرخامية التى تعلوها قبة عظيمة كانت تلمع تحت ضوء الشمس الساقط من النوافذ، الجامع يفوح برائحة المسك، الأرض مغطاة بأبسطة حمراء وزرقاء، اصطف مئات المصلين فى صفوف طويلة منتظمة خلف الإمام، ركعوا، سجدوا، مسوا الأرض بجباههم، ثم نهضوا من جديد؛ كلهم فى توحد مثل الجنود، كان المكان يسوده الصمت والناس وقوف، يسمع المرء صوت الإمام العجوز من أعماق صحن الجامع الواسع، يتلو آيات من القرآن الكريم؛ وحين يركع أو يسجد، يتبعه كل المصلين كرجل واحد، يركعون ويسجدون لله.

أدركت فى تلك اللحظة مدى قرب الله منهم وقربهم منه، بدا لى أن صلاتهم لا تنفصل عن حياتهم اليومية؛ بل كانت جزءًا منها – لا تعينهم صلاتهم على نسيان الحياة، بل تعمقها أكثر بذكرهم لله.

قلت لصديقي ومضيفي ونحن ننصرف من الجامع بعد الصلاة: «ما أغرب ذلك وأعظمه! إنكم تشعرون أن الله قريب منكم، أتمنى أن يملؤنى أنا أيضًا مثل ذلك الشعور».

رد صديقي: «ما الذى يمكن أن تحسه غير ذلك يا أخي؟ الله يقول فى كتابه العزيز:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾

(ق: ١٦).

***

قضيت جل وقتى فى دمشق أقرأ من الكتب كل ما له علاقة بالإسلام بدافع إدراكى الجديد، كانت لغتى العربية تسعفنى فى تبادل الحديث، إلا أنها كانت أضعف من أن تمكننى من قراءة القرآن الكريم، لذ لجأت إلى ترجمتين لمعانى القرآن الكريم – واحدة فرنسية والأخرى ألمانية – استعرتهما من مكتبة. أما ما عدا القرآن الكريم، فقد اعتمدت فيه على أعمال المستشرقين الأوروبيين، وعلى ما يشرحه لى صديقي.

ومهما كانت ضآلة ما عرفت، إلا أنه كان أشبه برفع ستار، بدأت فى معرفة عالم من الأفكار كنت غافلاً عنه وجاهلاً به حتى ذلك الوقت.

لم يبد الإسلام لى دينًا بالمعنى المتعارف عليه بين الناس لكلمة دين، بل بدا لى أسلوبًا للحياة؛ ليس نظامًا لاهوتيًا بقدر ما هو سلوك فرد ومجتمع يرتكز على الوعى بوجود الله الواحد. لم أجد فى أى آية من آيات القرآن الكريم أى إشارة إلى احتياج البشر إلى «الخلاص» الروحى، ولا يوجد ذكر «الخطيئة الأولى»، موروثة تقف حائلاً بين المرء وقدره الذى قدره الله له، ولا يبقى لابن آدم إلا عمله الذى سعى إليه، ولا توجد حاجة إلى الترهب والزهد لفتح أبواب خفية لتحقيق الخلاص: الخلاص حق مكفول لكل البشر بالولادة، والخطيئة لا تعني إلا ابتعاد الناس عن الفطرة التى خلقهم الله عليها، لم أجد أى أثر يدل على الثنائية فى الطبيعة البشرية: فالبدن والروح يعملان فى المنظور الإسلامى كوحدة واحدة متكاملة لا ينفصل أحدهما عن الآخر.



أدهشنى فى البداية اهتمام القرآن الكريم ليس بالجوانب الروحية فقط، بل بجوانب أخرى غير مهمة من الأمور الدنيوية؛ ولكن مع مرور الوقت بدأت أدرك أن البشر وحدة متكاملة من بدن وروح – وقد أكد الإسلام ذلك – لا يوجد وجه من أوجه الحياة يمكن أن نعده «مهمشا»، بل إن كل جوانب حياة البشر تأتى فى صلب اهتمامات الدين، فى كل المجالات، لم يدع القرآن الكريم المسلمين ينسون أن الحياة الدنيا ليست إلا مرحلة فى طريق البشر نحو تحقيق وجود أسمى وأبقى، وأن الهدف النهائى ذو سمة روحية، ويرى أن الرخاء المادى لا ضرر منه إلا أنه ليس غاية فى حد ذاته؛ لذلك لابد أن تقنن شهية الإنسان وشهواته ويتم السيطرة عليها بوعى أخلاقى من الفرد، وهذا الوعى لا يوجه إلى الله فقط، بل يوجه أيضًا إلى البشر فيما بينهم؛ لا من أجل الكمال الدينى وحده، بل من أجل خلق حالة اجتماعية تؤدى إلى تطور روحى للمجتمع بأجمعه، حتى يتمكن المجتمع من أن يحيا حياة كاملة.

نظرت إلى كل تلك الجوانب الفكرية والأخلاقية بتقدير وإجلال، كان منهجه فى تناول مشكلات الروح أعمق كثيرًا من تلك التى وجدتها فى التوراة، هذا عدا أنه لم يأت لبشر دون بشر ولا لأمة بذاتها دون أخرى، كما أن منهجه فى مسألة البدن بعكس الإنجيل، منهج إيجابى لا يتجاهل البدن، الروح والبدن معًا يكونان البشر، كتوأمين متلازمين سألت: ألا يمكن أن يكون ذلك المنهج هو السبب الكامن وراء الإحساس بالأمن والتوازن الفكرى والنفسى الذى يميز العرب والمسلمين؟!

الإدارة فى الإسلام



أ. د/ محمد الشحات الجندى
عضو مجمع البحوث الإسلامية

مفهوم الإدارة:

هى فن قيادة المرءوسين، والقائمين على أمر العمل العام والوظيفة العامة، تحقيقًا للأهداف الموضوعة. تعظم الحاجة إلى التنظيم الإدارى، فى علاقة الأفراد بالدولة، وفى علاقات المؤسسات العامة بعضها مع البعض، وعلى قدر انتظام الجهاز الإدارى فى الدولة، وضبط الأداء فيه، تتحقق الأهداف، وتتقدم الدولة، وتقدم الخدمات للأفراد على أفضل ما تكون.

وتظهر أهمية الإدارة فى النظم المتقدمة والدول المتخلفة على سواء، ويعد كفاءة النظام الإدارى وفعاليته، هو المحك الذى يميز بين تقدم الدول أو تخلفها، حتى لقد قيل إن المشكلة الرئيسية فى الدول المتخلفة، هى مشكلة إدارة، قبل أن تكون نقص إمكانيات مالية.

الإدارة أداة تحقيق التنمية:

وتبدى أهمية الإدارة فى كونها أداة تحقيق التنمية قبل كل شىء وهو المفهوم الحديث للإدارة الذى يعبر بها من مجرد أداء الوظيفة التنفيذية التقليدية، إلى كونها أداة للإسهام فى تشكيل السياسات، وصنع القرارات، وقاطرة التقدم فى مسيرة الدولة والمجتمع.

أداة تطوير وحركة دائبة:

وتفعيل الإدارة، يتطلب أن تكون إدارة تطوير وحركة دائبة، واستشراف للمستقبل، ولن يتأتى ذلك عن طريق الجمود والسكون والمحافظة على القديم، وإنما يكمن التطوير فى أن يتحلى القادة الإداريون والعاملون معهم بالفكر المتجدد الخلاق، وبأن لديهم الفكر الذى يتخذ من المبادرة وزمام المبادأة شعارًا ومسلكًا، وأن يصوغ ويصمم برامج للتغيير تستهدف بحق إحداث هذا التغيير بشكل يحقق الانطلاق على درب التنمية والتقدم.

أداة تسيير المرافق العامة:

ولا ينبغى أن تكون الإدارة، أداة تسيير المرافق العامة، والقيام على الوظيفة الإدارية التقليدية فحسب، وإنما يجب

أن تضع هذه الإدارة نصب عينيها الارتقاء بالوظيفة الإدارية، على النحو الذى يقلل من سلبيتها، ويخلصها من عيوبها، وأن يبتكر من الأساليب والحلول الفعالة لبلوغ الأهداف الموضوعة لها، وترشيد الجهود وضبطها، وتوزيع الخدمات لمستحقيها، وانضباط العملية الإدارية، والعدالة فى أدائها، وفى التعامل مع الجماهير.

مرتكز القيادة الإدارية:

مرتكز القيادة الإدارية فى الإسلام معتمدها الولاء والانتماء، والالتحام مع الآخرين، ما يقوم به الخليفة أو الحاكم العام وولاته فى الجهاز الإدارى الإسلامى، من الأعمال التى تقتضيها تنظيم المرافق، وتحقيق المصالح العامة.

والمبدأ الإدارى فى الإسلام: هو الانتماء والولاء للنظام الإسلامى بحيث يجعل من قيم الإخلاص والنصيحة، والانضباط والجودة والإتقان آليات ووسائل لإنجاز مقاصد وأهداف النظام الإدارى فى الدولة الإسلامية، بما يحقق صالح الدين والدنيا، والفرد والجماعة، والوطن والأمة.

وسبيل ذلك أن يمارس كل عامل اختصاصاته بنفسه، وألا يعول على تقاعس غيره أو عدم قيامه بواجباته، وألا يعتمد فى أداء العمل على زملائه، لأنه مسئول مسئولية فردية، وهذه المسئولية تبرز بشكل واضح بالنسبة للقائد الإدارى الذى ينبغى أن يعتمد على الالتحام بالمرءوسين، وأن ينخرط فى مواقع العمل، وأن يباشر الوظيفة بنفسه، وينتقل إلى ميادين ومواقع الخدمة، على أرض الواقع، ويتعرف على مواطن الخلل، وأن يسمع من الجماهير، كما كان يفعل عمر فى قيامه بالتجول فى الطرقات ـ المعروف بالعسس ـ ومن ثم فلا يجوز فى المنطق الإسلامى، أن تكون الوسيلة الوحيدة للتعرف على تسيير الأمور، التقارير التى يرفعها إليه الأعوان والمرءوسون، وينبغى ألا يعول القائد الإدارى على التفويض، كما يقول الماوردى تشاغلاً بلذة أو عبادة، لأنه قد يخون الأمين ويغش الناصح.

ويحتاج ذلك إلى غرس الولاء والانتماء على مستوى القيم المعنوية، وأن يقوم على تقسيم العمل، ويعتمد التخصص، وإسناد العمل إلى من يصلح له، والقادر عليه.

مواصفات القادة، والتنمية البشرية

قوة الإدارة وتفعيلها تكون بالإنسان، والإنسان هو محرر التنظيم الإدارى، فهو رأس القيادة، وهو صانع القرار، ومخطط السياسات، ثم هو من بعد صانع مستقبل التنظيم الإدارى، وهو فى كلمة أس العملية الإدارية، الذى يدور عليه نجاحها أو فشلها، فهو القادر على الابتكار، وبث الروح البناءة.

وبموجب ذلك، فإن القائد الإدارى روح المنظمة، وليس مجرد رئيس لها، والقيادة هى مفتاح نجاح الإدارة العامة، لكونها مسئولة عن سلامة التنظيم وإدارة الأعمال، وحث العاملين على إنجازها بحماس وكفاءة.

ولن يكون القائد الإدارى كذلك، إلا بأن يكون هو الموجه والمنسق والمراقب

لأعمال الآخرين، وأن يمارس نفوذه وإشرافه على مرءوسيه، والتواصل معهم، والتفاعل معهم بحيث يعمل الجميع في تناغم وتناسق، وأن ينمي بينهم العمل بروح الفريق.

وهذا يتطلب تنمية الموارد البشرية، والارتقاء بالعنصر البشري فبدونه لا تتحقق تنمية إدارية على الإطلاق وسبيل ذلك حسن تربية الفرد، والعمل على إعداده وتأهيله بما يمكنه من استعداده بأداء العمل المنوط به، وأهليته في القيام بمتطلباته، منجزًا أهدافه.

وهذا ظاهر في طلب الترشيح للولاية، في قول يوسف:

﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾

(يوسف: ٥٥)

وطلب استئجار موسى في قوله تعالى:

﴿إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾

(القصص: ٢٦)

فإذن مطلوب فيمن يخول إليه القيام بعمل إداري توفر شروط القدرة والصلاحية والتأهيل، وأن يكون إسناد العمل إليه وفق أسس موضوعية: «من ولي من أمر المسلمين شيئًا وهو يجد من هو أصلح منه، فقد خان الله ورسوله وجماعة المؤمنين».

وتوفر مثل ذلك قليل فيمن يسند إليه الولاية، وهو ما شكا منه عمر بقوله: «اللهم إني أشكو إليك جلد الفاجر وعجز الثقة».

وينبغي أن تجرى مسابقة لاختيار القائد الإداري، وأن توضع عناصر لتقييمه، يختار على أساسها من بين المتقدمين للوظيفة، مثل الجدارة لتولي الوظيفة القيادية، القدرة على العمل بروح الفريق، إدارة الأزمات والمواقف الطارئة، قدرته على المبادأة والابتكار في ترقية الوظيفة العامة.

مشروعية الإدارة في الإسلام:

الإدارة في الإسلام مطلوبة شرعًا، ولأهميتها وضرورتها لانتظام مسيرة الأفراد والجماعة، فإنها قد شرعت على مستوى الأفراد، وعلى مستوى الدولة، لأن بوجودها انتظام الجماعة، وتوحد الرأي، وتحري المصلحة، وفي هذا قوة للأفراد والمجتمع على سواء.

يلمس هذا التوجه الإداري في حديث الرسول ﷺ: «لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض، إلا أمروا عليهم أحدهم»[1].

وحديث: «إذا خرج ثلاثة في سفر، فليؤمروا عليهم أحدهم»[2].

وإذا كان اختيار الأمير في الصحبة القليلة، فأحرى وأوجب أن تكون في التجمعات الكبيرة، وفي المرافق العامة، ومؤسسات الدولة، مثل مرافق التعليم، والصحة، والأمن، والإسكان، والصناعة، والجيش، والثقافة، والاقتصاد، وغيرها من الشئون الحياتية.

إلى جانب أن الإسلام يوصي بلزوم

(١) مسند الإمام أحمد ١٦/٣٢٧.
(٢) المعجم الأوسط ٨/١٠٠.

الجماعة والعمل بروح الفريق، وليس الانعزال والتفرد، وهو ما يجسده قول الرسول ﷺ: «يد الله مع الجماعة، ومن شذ شذ إلى النار»[3]، وقوله: «من فارق الجماعة مات ميتة جاهلية»[4].

وإذا كان الأمر كذلك، فإن وجود القائد على رأس المؤسسة أو المرفق الإداري، والعمل بروح الفريق، يعد من الواجبات الدينية لصريح الأمر فيها، وشدة الوعيد على المخالف لها. ولأن ذلك يندرج تحت قاعدة: «ما لم يتم الواجب إلا به فهو واجب».

وإنه متى وجد الأمير، وعمل الجميع بروح الفريق انتظمت الأمور، وحسن العمل، ولا يكون ذلك إلا بطاعة الرئيس، والتكامل بين الجميع، والتعاون لما فيه المصلحة العامة، وخدمة الجمهور، وهو المطلوب الشرعي بقوله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾

(النساء: ٥٩)

ففرض علينا طاعة أولي الأمر فينا، وهم القادة المتأمرون علينا، ومعلوم أن الرئيس الإداري أمير على مرءوسيه، وهو ما يتعين طاعته.

فلسفة العمل الإداري الوضعي والإسلامي:

ثمة مفارقة جلية بين مقومات العمل الإداري، في النظام الوضعي، والنظام الإسلامي، يتبدى في أن النظام الإداري يعتمد على أنه: يعتنق الفلسفة النفعية، والكسب المادي، وتعظيم الربح المالي، دون اكتراث بالمبادئ الأخلاقية، والروح الإنسانية في التعامل بين العاملين والجماهير.

وفي النظام الإسلامي، فإنه يعتبر القيم الأخلاقية، هي الطابع الذي يطبع العلاقات بين العاملين والمتلقين للخدمة، ومن مبادئه في هذا الخصوص: «أحب لأخيك ما تحب لنفسك»[5].

يعتمد النظام الوضعي على الرقابة المادية، والأجزية القانونية والتأديبية، كوسيلة لإجبار العاملين على حسن أداء أعمالهم، وانضباط مسلكهم.

أما النظام الإسلامي، فإنه يعتمد على الرقابة الضميرية، والمحاسبة الذاتية النابعة من الضمير، والمنضبطة بالوازع الديني:

﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾

(البقرة: ٢٨٤)

وقوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾

(النساء: ١)

وقوله عز وجل:

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب الفتن، باب لزوم الجماعة، وأخرجه الحاكم في المستدرك كتاب العلم ١/١٩٩، ح ٣٩٦، بلفظ «يد الله مع الجماعة فاتبعوا السواد الأعظم فإنه من شذ شذ في النار».
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإمارة - باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن ٦/٢٠، ح ٤٨٩٢».
(٥) مسند الإمام أحمد ٢٧/٢١٧.

﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾

(غافر : ١٩)

وميزة هذه الرقابة أنها تغنى عن رقابة الرؤساء، والشرطة، والأجهزة الرقابية المختلفة، التى تفوق ما تكلفه من أعباء مالية، فإنه يسهل التفلت منها، من خلال استغلال الثغرات، والتحايل على القرارات.

يقوم النظام الوظيفى على فكرة الحق والواجب، والتلازم بينهما، فلا يؤدى العامل الواجب الذى عليه إلا بعد حصوله على حقه، أو اقتران حصوله على حقه بالواجب الملقى على عاتقه.

بينما الأمر فى النظام الإسلامى، يتأسس على العطاء، وعلى أداء الواجب قبل أخذ الحق، حيث إن حق الله تعالى، هو حق المجتمع، لذلك فإن فكرة الواجب تسبق الحق، لأن أداء العمل جزء من الإيمان بالله، والله هو المطلع على العمل المراقب له، وهو الشاهد عليه ورسوله والمؤمنون.

يقول تعالى:

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

(التوبة : ١٠٥)

طبيعة الإدارة:

تعددت الاتجاهات فى النظام الإداى، فاتجه البعض إلى أن الإدارة علم، بمعنى أن الإدارى الكفء لا يكون إلا لمن درس وبحث وحصل المعارف الإدارية، وتمرس بالنظريات القيادية، ونظم التنفيذ فالقيادة الإدارية أو التنفيذية تعتمد على أساس موضوعى يتأسس على البحث العلمى.

ويذهب اتجاه ثان إلى أن القيادة أو الإدارة فن، بمعنى أنها تعتمد على صفات الشخص وقدراته، وتتأسس على موهبته وحنكته وحصافته فى قيادة العمل الإدارى، فهى تؤدى بطريقة تلقائية، وهى استعداد طبيعى موروث فى الشخص، وليس مكتسبًا، وهى أقرب إلى الفطرة الطبيعية منها إلى العلم المنظم.

والاتجاه الثالث يرى أن القيادة التنفيذية، هى علم فى أصولها المعرفية، وفن فى تطبيقها وفى تعاملها مع الواقع، وتحقيقها لمبدأ الإدارة بالأهداف، وبمعنى آخر، فإن الحنكة الإدارية المترسخة فى الشخصية الإدارية لابد من صقلها بالعلم الإدارى والمعرفة القيادية الرصينة.

طبيعة القيادة فى النظام الإسلامى، ومواصفات القائد:

القيادة الإدارية فى النظام الإسلامى تقوم على العلم والفن معًا، فإن المتقلد لها ينبغى أن يكون على دراية بالمبادئ الإدارية العامة فى الإسلام مثل:

١ – تصرف الإمام على الرعية منوط بالمصلحة.

٢ – وقاعدة «أن المصلحة العامة تقدم على المصلحة الخاصة».

٣ – ومبدأ النصيحة لله ولرسوله وجماعة المؤمنين.

٤ – ومبدأ الثواب والعقاب.

٥ – ومبدأ الجدارة والكفاءة فى تولى الوظائف العامة.

٦ – ومبدأ الجودة وإتقان العمل.

هذه المبادئ التى تجد أصولها فى الشريعة الإسلامية، والتى يعد تمثلها والالتزام بها من قبيل النظام العام الإسلامى، فلا يجوز إهدارها أو تعطيلها فى العمل الإدارى، وإلا فقد النظام الإدارى خاصته الإسلامية.

وبالإضافة إلى العلم بهذه المبادئ الإدارية الإسلامية، فإن الإسلام يولى عنايته للموهبة والحكمة والحصافة، فإن من يؤتى الحكمة فقد أوتى خيرًا كثيرًا.

وقد كانت القيادة الإدارية لعمر بن الخطاب نموذجًا يحتذى فى ذلك، فقد أوتى الحكمة والحنكة وحصافة الرأى، وهو صاحب الأوليات فى المجال الإدارى:

– فهو أول من أرخ بالتقويم الهجرى للدولة الإسلامية.

– وأول من دون الدواوين.

– وأول من أخذ العشور الرسوم الجمركية على السلع الداخلة للدولة الإسلامية.

– وأول من فرض الإعانات الاجتماعية للأطفال الرضع.

– وأول من جعل الأراضى المفتوحة ملكًا للأجيال الإسلامية، دون أن تكون حكرًا على الفاتحين.

– وأول من حفر قناة تصل النيل بالبحر الأحمر.

إلى غير ذلك من مبادراته الخلاقة، والتى استلهم فيها المصلحة الإسلامية، وأول من عس فى الطرقات، وأول من سن قانون من أين لك هذا؟ «الكسب غير المشروع».

ولعل رعاية المصلحة، وتطبيق الملاءمة، واختيار الكفء لأداء العمل هو ما أدى بالرسول – صلوات الله عليه – إلى اختيار أسامة بن زيد، لقيادة الجيش الإسلامى فى وجود أبى بكر وعمر، وتمسك أبو بكر باختياره بعد انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى، وإعلانه أنه وعمر من بين جنده، مصطحبًا إياه خارج المدينة على هذا الأساس، والاستئذان منه فى أن يعفى عمر من الجندية ليعاونه فى إدارة شئون الدولة.

واعتبار الإدارة من الفنون التى تحتاج إلى موهبة ودراية وبصيرة ذاتية هى التى أوحت إلى عمر أن يعزل شرحبيل بن حسنة من ولاية الشام، معلنًا أنه لم يعزله عن سخط أو خيانة، ولكن بحسب مقولته: «أردت رجلا أقوى من رجل» لكون الشام بها العديد من ثغور الإسلام. فتطلب رجلا داهية يحسن التصرف، والاستعداد لكل أمر بما يناسبه وبما يصلح له.

ومثل هذا الصنيع، أدى بعمر أن يختار شريحًا قاضيًا على الكوفة، لما تنازع مع آخر على فرس، فحكم شريح لصالح الآخر ضد عمر، فأعجب به عمر لعدله وجرأته فى الحق، وقال:

«وهل القضاء إلا هكذا، قول بالحق، وفصل بالعدل».

وهذه النماذج مناطها المصلحة العامة، والقوة على العمل، والأمانة فى أداء الحقوق لأصحابها.

الشيخ عبد العزيز جاويش رائد الإصلاح والعمل الوطني





أ. د. حلمي محمد القاعود

يمكن القول إن أهم صفة تميز عبد العزيز جاويش هي قول الحق والجهر به دون أن يخشى في الله لومة لائم. يروى أن بعض المستشرقين جاء في زيارة إلى القاهرة فاحتفلت به الدوائر الرسمية احتفالا رنانًا، وأسهبت الجرائد في تعداد مآثره وما حقق من كتب، وما نشر من موسوعات، وأقيمت له حفلة استقبال ضخمة شهدها جمهور من ذوي الثقافة وفيهم من هو مفتون بالاستشراق ويسبح بحمد المستشرقين، ويفرح بما يرجفون من مفتريات ويستشهد به ويروج له.

ومع بدء الاحتفال نهض وزير المعارف لتكريم المستشرق الزائر، ويفتتح الكلام عن مزاياه وفضائله، وكان من المتوقع أن يتوالى الأساتذة الجامعيون وأمثالهم على المنصة ليصلوا بالثناء إلى منتهاه وفوجئ الجمهور بالشيخ عبد العزيز جاويش ينهض بقامته الممتدة وعمامته العالية وعباءته الفضفاضة وعصاه الممتلئة يعتلي المنصة مقحما نفسه - بعد انتهاء الوزير من كلمته - ثم يرسل عينيه المتلألئتين فتومضان ببريق يمتد إلى ثناياه اللامعة ويدور حول لحيته السوداء ذات المشهد الوقور، ويبتدئ الحديث بحمد الله ثم يقول ما معناه:

إن كلمة الوزير تدل على أنه لم يقرأ شيئا للمستشرق محل التكريم، فمؤلفاته ليست إلا طعنات مسمومة للفكرة الإسلامية وقد قرأتها لدى إقامتي في إنجلترا، وناقشت صاحبها فلم أجده يخطئ إلا عمدا، وهو يعلم الصواب ويتجنبه، ثم يلتمس أوهى الروايات ليبني عليها ما يروق من التدليس والافتراء!

ولو كان لدينا وعي ثقافي لكرّمنا الرجل ضيفا وليس مؤلفا وعلامة وبحاثة!

ارتج الحفل ارتجاجا واضطرب الوزير وتساقط عرق الخزي على وجوه من أعدوا أنفسهم للكلام ثم اشتعل الموقف حين وقف عبد الحميد سعيد رئيس جمعيات الشبان المسلمين - وهو مسلم شهم - لينهي الاحتفال ويشير للحاضرين بالانصراف، والشيخ جاويش يصيح: يا للمذلة! أوصل الانهيار بالمسلمين إلى حد يجعلهم يقيمون حفلات التكريم لمن يصم دينهم بالتوحش والغلظة والشهوة والاستعباد! ثم يكون رئيس الاحتفال وزير المعارف، ومتكلموه أساتذة الجامعة في عاصمة الإسلام؟ (محمد رجب البيومي، مرجع سابق، ١/ ٦٩).

يقول الأستاذ تشارلز آدامس في كتابه "الإسلام والتجديد في مصر": "وممن حضروا دروس محمد عبده الشيخ عبد العزيز جاويش، ولكنه كان في حياته السياسية أقرب إلى جمال الدين الأفغاني منه إلى الشيخ محمد عبده" (السابق، ١/ ٧٠).

كان الشيخ صريحًا في كل آرائه؛ ولذلك كثرت محاكماته وكثرت سكناه السجون، كما اتسم بخفة الروح والظل لا يمله الجالس كما كان أبيّ النفس.

كان الشيخ في سنواته الأخيرة يرعى أسرة زميل جهاده محمد فريد الذي توفّي في برلين سنة (١٣٣٩هـ = ١٩٢٠م)، ثم كان عليه أن يقوم على رعاية أسرة الصحفي المجاهد أمين الرافعي الذي توفّي قبله، وفي غمرة هذا العمل المتصل وافاه الأجل المحتوم في فجر يوم الجمعة الموافق (١٣ من شعبان ١٣٤٧هـ الموافق ٢٥ من يناير ١٩٢٩م)، تاركًا ذكرى عطرة وسيرة طيبة لأجيال أمته.

أصيب عام ١٩١٨م بذبحة صدرية كاذبة وهو في منفاه على أثر المجهود الضخم الذي بذله في سنوات الغربة الكئيبة المظلمة أو ما عبر عنه بـ "غصص العيش المرّ في ديار هجرتي".

وعندما عاد إلى مصر ١٩٢٣م واصل العمل ولم يتوقف مع ضعف صحته. ولم يستمع إلى تحذير الأطباء من عودة المرض مرة أخرى فبذل جهدا كبيرا في التربية والتعليم والسفر في أرجاء مصر، في الوقت الذي كان يرعى فيه أسرة الزعيم محمد فريد وأسرة أمين الرافعي الذي توفي قبله بعام واحد. وقبل أن يموت اتفق مع الأوقاف والجمعية الخيرية على دفع مرتبات ثابتة للأسرتين. وحين مات هو لم يكن في بيته مليم واحد، وكان بيته مدينا للبقال والجزار والخضري. وكان يردد: لو مت اليوم لا أدري ماذا يأكل أولادي غدا.

لقد وهب الرجل حياته كلها لمصر والأمة ولم يجعل لأسرته منها إلا أيسر اليسير، وكان يلم بداره إلمام الراحة والضرورة.

سكن في أول عمله باللواء عام ١٩٠٨م في منشية الصدر في بيت شعبي بالبغالة. وعاش بمرتبه (أربعون جنيها) يحصل عليها من اللواء مجزأة وينفقها قسمة بين بيته وبين إعانة الأسر الفقيرة ومساعدة القادمين من هنا وهناك.

كان حفيا بالفقراء يقف معهم ويحادثهم ويعطيهم ثم لا يكتفي بذلك بل يبحث لهم عن أعمال يلحقهم بها. وكان ودودا في أسرته عطوفا حنونا، ولكنه كان قاسيا على من يخطئ، وكان حليما غاية الحلم، فإذا ثار فثورة عارمة.

وقد أنشأ أولاده ورباهم على نحو كريم، وكفاء العمل النافع والخير الذي كان يؤمن جاويش بإفاضته على الناس، أتيح لأولاده حياة كريمة بعد وفاته دون أن يترك لهم قرشا واحدا.

وكان لا يجد غضاضة في الاعتذار لمن يتصور أنه قسا عليهم من أجل مصلحتهم كما فعل مع صهره الذي قسا عليه في الغربة ليحصل على الدكتوراه، ثم اعتذر له بعد ذلك.

لقد كانت حياته في ظاهرها أمام الناس مثل باطنها الذي يعتمل في داخله، وهي حياة عريضة عاشها بالإيمان الصادق والمعنويات الطيبة والقيم العليا والمثل الرفيعة على النحو الذي تمثله عبارته الخالدة:

"إن لله رجالا تخلد حياتهم إذا ماتوا، ويزيدون ظهورا إذا قبروا، كما أن للنار أناسا يموتون وهم أحياء، ويقبرون في ظلمات أعمالهم وهم على الأرض يعيشون.." (أنور الجندي، مصدر سابق،

١٥٣ - ١٥٩).

وكان العقاد يرى فيه نموذجا للذكاء الفطرى والعالم الأزهرى الناضج، والهمة التى لا تتوقف ولا تهدأ فى إنجاز عملها. ويشير العقاد إلى ارتباط الشيخ عبد العزيز جاويش فى ذهنه بزيه الأزهرى لأنه كان أول ما لفته إليه، ولم يزل موضع التفاته بعد ذلك كلما رآه أو سمع بخبر من أخباره فى بعض المناسبات.

ويشير العقاد إلى واقعة جرت فى مدرسة أسوان الأميرية حيث كان أحد زملائه مشهورا بالجهل والعبث وقلة المبالاة، وكان مدرسا للترجمة، وذات يوم كان يلقى درسه فى الترجمة ففوجئ بشيخ معمم يدخل عليه فظنه مفتشا للغة العربية فمضى فى درسه مطمئنا إلى جهله وعدم مبالاته وفوجئ باعتراض المفتش المعمم فقال بغير تردد "إن هذه القطعة منقولة من كتاب مقرر".

وسأل المفتش: ما هو؟

فقال: كتاب مرشد المترجم.

وطلب المفتش أن يريه القطعة فى الكتاب، فقلب الصفحات كأنما يبحث عن واحدة معينة، ثم أشار إلى جملة فى الصفحة.. وقال للمفتش بكل ثقة واطمئنان:

هى هذه القطعة!

وهنا المباغتة التى كان أهون منها على صاحبنا أن ينفتح أمامه قمقم مغلق ويخرج منه مارد من الجن؛ لأن الشيخ المعمم قد أخذ يقرأ القطعة الإنجليزية ويسأله عن العلاقة بينها وبين العبارة العربية.

إن المفتش المعمم هو الشيخ عبد العزيز جاويش مؤلف كتاب مرشد المترجم مع زميل من المعلمين!

وضجت المدينة ليلتها من الضحك، ولم يزل شاهدو القصة يذكرونها..

لا عجب إذن أن يظل زى الشيخ الذكى النشيط عالقا بذهن العقاد حتى رحيله (العقاد، رجال عرفتهم، ١٤٧ وما بعدها).

ويشير العقاد إلى ثبات الرجل على مواقفه ومبادئه، ويقول: الحمد لله.. لقد تغيرت مصر كثيرا فى عشر سنوات، وإن لم يتغير الشيخ عبد العزيز جاويش، ومن جرى على مجراه" (السابق، ص ١٤٩).

ويرى العقاد أن هناك جامعة لا غنى عنها تربط بين الشيخ رشيد رضا والشيخ جاويش، ويذكر أنه بعد جمال الدين ومحمد عبده أصبح من كل شيء أن يصبح أستاذا إماما أو نمطا آخر من جمال الدين ومدرسته التى ضمت رشيد رضا ومصطفى المراغى وعبد الحميد الزهراوى ومحمد الخضرى ومحمد المهدى والنجار وغيرهم.

كان الشيخ عبد العزيز جاويش يتشبه بجمال الدين حيث يتشبه أقرانه على الأكثر بالأستاذ الإمام.. ويرى العقاد أن فارقا آخر بين جاويش والشيخ رشيد الذى كانت به جفوة عن الفكاهة والكياسة، أما الشيخ عبد العزيز فقد كانت فيه من أبناء البلد الظرفاء مشابهة كثيرة. (نفسه، ص ١٤٩ وما بعدها).

كانت سنوات حياته الأخيرة حافلة بشتى الأعمال التى لا تنسى له؛ وفى غمرة العمل المتصل وافاه الأجل المحتوم فى فجر يوم الجمعة الموافق (١٣ شعبان ١٣٤٧هـ = ٢٥ يناير ١٩٢٩م)، تاركا ذكرى عطرة وسيرة طيبة لأجيال أمته.

رحمه الله.

المثنى بن حارثة الشيبانى (المؤمر نفسه)

لواء أ. ح. د. محمد بهاء الدين حنفى

المثنى بن حارثة الشيبانى من الشخصيات التى تترك بصماتها قوية فى وجدان القارئ لمعارك الفتح الإسلامى لتميزها بسمات تكاد أن تنفرد بها، برغم أنها لم تنل ما تستحقه من تكريم فيما دونه المؤرخون. كنت كلما تعمقت فى دراسة تفاصيل المعارك التى دارت رحاها عند فتح العراق، أزداد إعجابًا وحبا لهذا الرجل، بل كنت أتوقع تصرفاته. لعل مفتاح شخصية ذلك القائد المسلم هو الإيجابية وصدق العزيمة، بل يمكن أن نقول «التفرد» فقد كان سباقا فى إتخاذ القرار وفى إنفاذه بإصرار.

كان أول لقاء للمثنى برسول الله ﷺ عندما ذهب النبى بعد أحداث الطائف إلى القبائل عند تجمعها فى موسم الحج، طالبا منهم النصرة والدفاع عنه حتى يبلغ الناس رسالة ربه. وعندما التقى النبى ﷺ بقبيلة بنى شيبان.. وعرض عليهم الإسلام، ردوا عليه بأن ما يدعو إليه هو مكارم الأخلاق، لكن المثنى قال إنهم يحبون ذلك الدين ويعرضون حماية النبى من جانب العرب فقط ولا يحمونه من الفرس لعهد قطعوه لكسرى.

فرفض النبى ﷺ عرضهم وقال لهم: «إن هذا الدين لا يدخل فيه إلا من أحاطه من جميع جوانبه» أى بنصره من جميع الناس.

ثم قال لهم: «أرأيتم إن أظهرنى الله وملكنى أرض فارس أتسبحون الله وتقدسوه.» فقالوا: لك عندنا هذا. انتهى اللقاء دون أن يدخل المثنى الإسلام، لكنه تعرف على رسالته وتقبلها وأصبح مهيأ للدخول فيها. مرت سنوات إلى أن أذن الله للمثنى بالإسلام. يذكر صاحب (الإصابة)، قال أبو عمر عن المثنى: كان إسلامه وقدومه على النبى ﷺ سنة تسع، ويقال سنة عشر، وقد أورد «ابن منده» فى ترجمته شيئا يوحى بقدم إسلامه، وقال «ابن حبان»: له صحبة، أى أنه كان أحد الصحابة الكرام. وقال البعض أنه أسلم سنة تسع؛ مع وفد قومه، إلا أننى راجعت كتب المؤرخين الأول كالطبرى وابن كثير والبلاذرى وكتاب السيرة لابن

المثنى بن حارثة الشيباني (المؤمر نفسه)

هشام، فلم أجد اسمه مذكورًا في أي من الوفود التي قدمت إلى النبي ﷺ لتبايعه، لذلك فإنني أرجح والله أعلم، أنه سعى منفردا إلى لقاء النبي ﷺ ليحظى بشرف صحبته ويعلن إسلامه. وهو تصرف أرجحه لتوافقه مع سمة «التفرد» في شخصية ذلك الرجل.

عاد المثنى إلى قومه وبادر، منفردًا، بنشر الإسلام بينهم. وباندلاع حروب الردة بعد وفاة الرسول ﷺ، علم المثنى أن الفرس يدعمون القبائل المرتدة لزيادة الفتنة. فقرر منفردًا، دون أمر من أحد أو دعم من أية جهة، أن يخوض معارك ضد الفرس برغم قلة عدد من أسلم معه من رجال عشيرته. واستمر في شن حرب عصابات أنهكت الفرس من خلال الإغارة عليهم من عدة اتجاهات، تارة من ناحية «كسكر» (بين الكوفة والبصرة) وتارة أخرى أسفل نهر الفرات. إن مبادرة المثنى بقتال الفرس منفردًا، قبل أن يتخذ أبو بكر قراره بفتح العراق، دليل على تميز شخصية المثنى المبهرة، لذلك سماه أمير المؤمنين عمر (المؤمر نفسه) كما ذكر ثابت في كتاب (الدلائل).

وقد وصفه أبو عمر كما جاء في (الإصابة) بقوله: كان شهما، شجاعًا، ميمون النقيبة، حسن الرأي، أبلى في حرب العراق بلاء لم يبلغه أحد.

ما أن شعر المثنى بأنه قد نجح في إنهاك الفرس وإزالة الرهبة منهم التي كانت تملأ قلوب القبائل العربية، حتى أيقن أن الوقت قد حان كي تتحول المواجهة مع الفرس من مجرد شن حرب عصابات إلى عمل هجومي كبير يستهدف الفتح. لذلك قام كعادته، منفردًا، بالمسارعة إلى المدينة المنورة ليقابل الصديق طالبًا منه الدعم.

قال البلاذري في (فتوح البلدان)، كان المثنى بن حارثة بن ضمضم الشيباني يغير على السواد في رجال من قومه فبلغ أبا بكر خبره فسأل عنه، فقال له «قيس بن عاصم»: هذا رجل غير خامل الذكر، ولا مجهول النسب، ولا ذليل العماد، هذا المثنى بن حارثة الشيباني!! ثم إن المثنى قدم على أبي بكر فقال له: يا خليفة رسول الله ﷺ استعملني على من أسلم من قومي أقاتل هذه الأعاجم من أهل فارس، فكتب له أبو بكر في ذلك عهدًا، ولاشك أن المثنى شرح للصديق الوضع في العراق محاولاً إقناعه بفتح جبهة قتال بفارس، ولا شك أن الصديق اقتنع برأيه واتخذ قراره بالحرب.

يقول البلاذري: ثم إن أبا بكر كتب إلى خالد بن الوليد يأمره بالمسير إلى العراق، وكتب إلى المثنى بن حارثة يأمره بالسمع والطاعة لخالد وتلقيه.

لم تكن شجاعة المثنى وقوة شكيمته غير صفة متوارثة في عشيرته «بني شيبان» أحد بطون «بكر بن وائل» لقد هاجر عرب اليمن في مرحلة مبكرة من التاريخ، بعد سيل العرم، إلى ريف العراق وانتشرت قبائل «بكر بن وائل» ومنها «بني شيبان» بين الحيرة والسواحل الجنوبية للخليج العربي، وكانت تمثل الجزء الأكبر من رعايا اللخميين. كان «النعمان بن المنذر» على رأس اللخميين، وعندما غضب عليه

«كسرى» ملك الفرس وعزله وولى بدلا منه «أياس بن قبيصة الطائي»، هرب «النعمان» وطلب المنعة والحماية عند «بني شيبان» فأعانوه، وقاتلوا الفرس وهزموهم في أول معركة ينتصر فيها العرب على الفرس وهي موقعة «ذي قار» وقيل: أن المثنى هو من قاد «بني شيبان» فيها لكن الضعف الذي أبداه «المنذر» مكن الفرس من استعادة سيطرتهم على العراق وظل هذا الوضع قائما إلى أن بادر المثنى بقتالهم بعد إسلامه.

يخطئ المؤرخ عندما تستغرقه صفات الشخصية ذات الشهرة ذائعة الصيت، كشخصية خالد بن الوليد، وتحجبه عن تتبع صفات من أعانوه على بلوغ تلك الشهرة كان خالد بن الوليد يحرز انتصاراته الساحقة معتمدًا على القادة الأكفاء من أمراء جيشه، ذوي الخبرة في القتال وجرأة القلب والرغبة في الجهاد، وكان في مقدمتهم المثنى بن حارثة الشيباني.

كان المثنى يقود طليعة الجيش ويقع على عاتقه تلقي صدمات القتال الأولى، وكان يكلف بقيادة القوات التي تطارد فلول العدو المنسحبة لمنعها من إعادة تنظيم صفوفها. وكان خالد يدفع بالمثنى لتحقيق أصعب المهام وأدقها عندما يتطلب موقف القتال قائدًا كفءاً شجاعًا سديد الرأي.

كما كان للمثنى أكبر الفضل في جمع المعلومات عن الفرس وإبلاغها بسرعة إلى خالد كي يتخذ القرار الصحيح في الوقت المناسب. وكان المثنى يخالط رجال جيشه حتى اعتبروه واحدا منهم يحب ما يحبون ويكره ما يكرهون ويقولون له: لقد أنصفتنا من نفسك في القول والفعل.

إن تتبع الدور الذي قام به المثنى في معارك فتح العراق، هو قصة فتحها دون مبالغة، ولا يتسع المجال لذكر تفاصيلها بل نكتفي بعرض لمحات ومشاهد منها.

لقد كان للمثنى نصيب كبير في كل نصر تحقق فيها. تنفيذًا لأمر الصديق سار خالد بن الوليد بجيشه (عشرة آلاف مقاتل) وانضم إليه المثنى بقواته (ثمانية آلاف مقاتل). قام خالد بتقسيم جيشه إلى ثلاث فرق، الأولى بقيادة المثنى والثانية بقيادة «عدي بن حاتم». والثالثة قادها خالد بنفسه بدأت أولى المعارك عندما علم خالد بتجمع جيش الفرس في «كاظمة»، فأمر المثنى بالاندفاع بفرقته قبله بيومين ثم تلحقه الفرقتان الأخريان بفارق يومين بينهما تجمع جيش المسلمين عند «الحضير» (غرب البصرة وإلى الجنوب الغربي للفرات). دارت المعركة وانتصر المسلمون وسميت «ذات السلاسل» لأن الفرس كانوا يربطون جنودهم بالسلاسل لئلا يفروا.

كلف خالد المثنى بمطاردة الفرس الفارين فظل يلاحقهم دون أن يقطع التماس معهم مع بث العيون لجمع الأخبار والمعلومات. علم المثنى أن جيشًا فارسيًا ضخمًا خرج من «المدائن» بقيادة «قارن بن قريانس» انضمت إليه فلول الفرس وتمركز في منطقة «المذار» (على ضفة نهر الثني بين دجلة والفرات). سارع المثنى بإبلاغ خالد طالبًا منه الدعم، فكان خالد نفسه هو المدد يقود جيشه على كامل تعبئته

مستعدًا للقتال.

بادر خالد، كعادته، بالهجوم على جيش الفرس محققًا المفاجأة فكانت معركة شرسة هزم فيها الفرس وقتل منهم ثلاثون ألفًا سوى من غرق منهم فى النهر عند فرارهم. ولاشك أن الدور الذى قام به المثنى فى جمع المعلومات وسرعة إبلاغها لخالد، كان له أثر كبير فى تحقيق ذلك النصر.

توالت المعارك، «الولجة» ثم «أليس» وغيرها وكان النصر حليف المسلمين فيها كان فتح «الحيرة»، مقر ملك اللخميين، يمثل هدفًا بالغ الأهمية للمسلمين. لذلك تابع خالد تقدمه دون تردد إلى معسكر «المرزبان» قرب الحيرة، ثم أمر المثنى بمحاصرة «قصر ابن بقيله» أقوى حصون الحيرة. سارع المثنى إلى تنفيذ المهمة فاستسلم له الحصن وبذلك توالى استسلام باقى الحصون وسقطت الحيرة فى يد خالد فاقام بها مركز قيادته وجاءت إليه الوفود من كل صوب يطلبون منه الصلح.

بلغ خالدًا وهو فى الحيرة أن قائد الفرس «جابان» جاء فى حشد عظيم من القوات وتجمع فى منطقة «تستر»، فوجه إليه المثنى ابن حارثة وحنظلة، فما أن وصلا إليه حتى تشتت قواته فهرب. سار خالد إلى «الأنبار» يريد فتحها. فتحصن أهلها، فبعث إليهم المثنى فاقتحمها وطلب أهلها الصلح وقد سميت بمعركة «ذات العيون» حيث تمكن رماة النبال المسلمون من رشق عيون ألف من مقاتلى الفرس. تتابعت المعارك، «عين التمر» ثم «دومة الجندل» وغيرها إلى أن كانت معركة «الفراض» وهى آخر المعارك التى يخوضها خالد عندما تلقى كتاب الصديق يأمره باللحاق بقوات المسلمين بالشام ومعه نصف قوات جيشه بالعراق (تسعة آلاف مقاتل). وبذلك يكون الفصل الأول من دور المثنى قد طوى، وهو قتاله تحت إمرة خالد بن الوليد.

لاشك أن قبول المثنى العمل تحت إمرة خالد، بعد أن كان هو من يتولى القيادة، دليل على سماحة نفسه ونقاء قلبه وطاعته لقائده الأعلى (الخليفة) وأيضًا دليل على قوة انضباطه الذى يثير الإعجاب. ولابد أن رفقة السلاح التى جمعت بين الرجلين العظيمين، خالد والمثنى، أدت إلى وجود رابطة قوية بينهما قوامها الإعجاب والاحترام. ولم أعثر فى أى مرجع تاريخى على ما يشير إلى وقوع خلاف بينهما اللهم إلا فى موقف واحد عندما أراد خالد أن يختار نصف جيشه كله من الصحابة ليناور بهم إلى الشام. وهو ما اعترض عليه المثنى، فقد غضب وقال لخالد: (والله لا أقيم إلا على إنفاذ أمر أبى بكر كله فى استصحاب نصف الصحابة أو بعض النصف، وبالله ما أرجو النصر إلا بهم فيكفى تعريتى منهم). فعدل خالد عن رأيه وتم للمثنى ما أراد.

بدأ الفصل الثانى من دور المثنى عندما استخلفه خالد قائدًا على من بقى من جيش العراق قائلاً له: (ارجع رحمك الله إلى سلطانك) اتخذ المثنى مركز قيادته فى الحيرة، وكانت معركة «بابل» هى أولى المعارك التى يخوضها منفردًا بالقيادة. قام «شهريار» ملك الفرس بدفع جيش ضخم بقيادة «هرمز جاذويه» وأرسل للمثنى كتابًا قال فيه: إنى قد بعثت إليك جندًا من وحش أهل فارس إنما هم رعاة الدجاج والخنازير، ولست أقاتلكم، إلا بهم. فكتب المثنى إليه (إنما أنت أحد رجلين، إما باغ فذلك شر لك وخير لنا، وإما كاذب فأعظم الكاذبين عقوبة وفضيحة عند الله فى الناس الملوك، وأما الذى يدلنا عليه الرأى فإنكم إنما اضطررتم إليه، فالحمد لله الذى رد كيدكم إلى رعاة الدجاج والخنازير) فجزع أهل فارس من كتاب المثنى ولاموا «شهريار» على كتابه. خرج المثنى بجيشه من الحيرة والتقى بجيش «هرمز» فى «بابل» فهزمهم واحتل كل الأراضى جنوب نهر دجلة، وكبدهم خسائر فادحة فى الرجال والمال والعتاد، وظل يطاردهم حتى وصلوا إلى عاصمة ملكهم «المدائن».

كان المثنى قلقًا من أمرين، أولهما عدم ورود أخبار عن الخليفة أبى بكر الصديق، وثانيهما حاجة المثنى إلى المدد والدعم. فما أن تأكد أن الفرس لن يتمكنوا من إعادة تنظيم صفوفهم قبل مرور عدة أسابيع، حتى قرر أن يذهب منفردًا إلى المدينة المنورة. استخلف المثنى «بشير بن الخصاصية» على جيشه، وسارع إلى المدينة حاملاً فكرة جديدة هى أنه آن الأوان لإشراك التائبين من القبائل المرتدة فى القتال، فقد كان الصديق يمنعهم من ذلك مع بداية الفتح.

حضرت الوفاة أبا بكر فطلب عمر وأوصاه قائلاً: (إنى لأرجو أن أموت يومى هذا فإذا أنا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى ولا تشغلنكم مصيبة عن أمر دينكم ووصية ربكم فقد رأيتنى متوفى رسول الله ﷺ وما صنعت وما أصيب الخلق بمثله وإذا فتح الله على أهل الشام فاردد أهل العراق إلى العراق فإنهم أهله وولاة أمره وأهل الجرأة عليه).

لقد كان دعم المثنى يشغل بال الصديق حتى وهو على وشك لقاء ربه. أخذ عمر بعد أن تولى أمر الخلافة برأى المثنى بالسماح لمن سبقت ردتهم وحسنت توبتهم بالاشتراك فى القتال، وقام يندب الناس مع المثنى، لكنهم كرهوا ذلك لشدة بأس الفرس فقام المثنى خطيبا فيهم وقال (أيها الناس لا يعظمن عليكم هذا الوجه فإنا قد فتحنا ريف فارس وغلبناهم على خير شقى السواد «أرض العراق» ونلنا منهم واجترأنا عليهم ولنا إن شاء الله ما بعدها). قام عمر بتولية «أبى عبيد بن عمرو» قيادة الجيش بدلا من المثنى معتذرًا عن ذلك بأنه خاف الفتنة على الناس لتعظيمهم للمثنى وقال عمر (حتى يعلم الناس أن الصانع هو الله). لم يجد المثنى غضاضة فى ذلك وظل مطيعًا لأمر قائده الأعلى (الخليفة) واستمر فى القتال تحت إمرة «أبى عبيد» تمامًا كما فعل مع خالد بن الوليد من قبل، فخاض معركة «النمارق» حيث تحقق النصر فيها للمسلمين. ثم وقعت معركة «قس الناطف» التى سميت بمعركة «الجسر» والتى قتل فيها «أبو عبيد» بعد أن قاتل بشجاعة نادرة. لقد نصح المثنى «أبا عبيد» بعدم عبور المسلمين للنهر إلى

الجانب الذى يحتله الفرس لكنه لم يأخذ بنصيحته وعبر بجيشه فدارت المعركة فى غير صالح المسلمين فقد توقف هجومهم وحوصروا بين الفرس وبين النهر من خلفهم، لم يتردد المثنى، فقام فورًا بتولى القيادة وكون قوة من الفرسان الفدائيين قادهم بنفسه لبناء الجسر وحمايته كى ينسحب جيش المسلمين وظل يصيح وهو يقاتل مدافعًا عن الجسر (إنا دونكم فاعبروا على هينتكم ولا تدهشوا ولا تغرقوا أنفسكم .. من عبر نجا .. أيها الناس، على هينتكم، فإنى واقف على فم الجسر لا أجوزه حتى لا يبقى منكم أحد ها هنا ..).

نجح المثنى بذلك فى إنقاذ الجيش مع وقوع خسائر، لكنه أصيب بجراح شديدة أثناء دفاعه المستميت عن الجسر.

أصبح دعم الجيش وإمداده له الأهمية القصوى، فقام أمير المؤمنين عمر بحشد الناس وكتب إلى القبائل وجمع من استجاب منهم وبعثهم إلى المثنى. وفى نفس الوقت أرسل المثنى رسله إلى القبائل فتوافدوا إليه فى جمع عظيم بل إن «أنس بن هلال النمرى» على رأس قبيلته من النصارى، دعم المثنى بقوة حمية للعرب. لم يتوان المثنى، رغم شدة جراحه، فى إعادة تنظيم جيش جديد بلغت أخباره «رستم» قائد الفرس فحشد جيشًا ضخمًا بقيادة «مهران الهمدانى» ووضعه وراء نهر الفرات بينما تجمع المسلمون فى الجانب المقابل عند «البويب».

وكما كان العرف فى ذلك الزمان.

قال قائد الفرس: إما أن تعبر إلينا أو نعبر إليك، فرد عليه المثنى (اعبروا). بدأ الفرس القتال فور عبورهم للنهر، وكان المثنى قد أمر المسلمين بالإفطار لأن الشهر كان رمضان والقوم صيام أدار المثنى المعركة بمهارة فائقة، فأرسل قوة سريعة الحركة من الفرسان قطعت طريق الانسحاب على الفرس، ثم بادر بالهجوم متبعًا خطة تشابه خطة خالد بن الوليد فى معركة «اليرموك» بالشام. قام المسلمون بتثبيت أجناب قوات الفرس ثم اختراق القلب مع ضرب ميمنتهم. وما أن بدأ الفرس فى الانسحاب حتى تحولت قوات ميمنة وميسرة المسلمين إلى مطاردتهم دون توقف ليلا ونهارًا ليومين متتالين الأمر الذى كبد الفرس خسائر فادحة، فكانت معركة «البويب» انتقاما شديدًا لما جرى يوم «الجسر» لم تخل معركة «البويب» من المواقف ذات الدلالة على سمات شخصية المثنى.

فعندما قتل «مسعود بن حارثة» أخو المثنى أثناء المعركة، صاح المثنى (يا معشر المسلمين! لا يرعكم مصرع أخى، فإن مصارع خياركم هكذا..).

وعلى الرغم من تحقيق المثنى لهذا النصر الساحق، فإنه اعترف بأنه أخطأ فى إدارته للمعركة.

كانت قوة الفرس تعادل عشرة أمثال قوة المسلمين، وكان من الممكن أن يؤدى قطع خط الرجعة عليهم إلى اشتدادهم فى قتال يائس لا قبل للمسلمين على تحمله وكان من الأولى ترك منفذ يسمح لهم بالفرار

(وهو ما فعله خالد فى اليرموك). لذلك قال المثنى: (عجزت عجزة - أى أخطأت خطأ - وقى الله شرها بمسابقتى إياهم إلى الجسر حتى أحرجتهم، فلا تعودوا أيها الناس إلى مثلها، فإنها كانت زلة فلا ينبغى إحراج من لا يقوى على امتناع) أى أنه يمكن اتباع خطة قطع الرجعة على الفرس إذا امتلك المسلمون القوة الكافية.

تجلت صفة المرونة فى القيادة عندما أدرك المثنى بذكائه وحنكته، أن مسرح العمليات أصبح مهيأ للمناورة بالقوات فى قتال سريع متحرك فاختط أسلوبًا جديدًا اعتمد على ضرب مراكز التجمع التجارية بهجمات مباغتة شتت تجار «مدائن» الفرس فى كل من «الخنافس» و«سوق بغداد» (قبل إنشائها). كما اتخذ من «الأنبار» مركزا لقيادته يدفع منه دوريات مقاتلة خفيفة الحركة من الفرسان تمكن بها من تأمين أطراف المدينة فى «صفين» و«شاطئ دجلة» و«تكريت» وبذلك أصبح الوضع فى جبهة العراق، بفضل كفاءة المثنى، صالحًا للاكتساح العظيم لقلب الإمبراطورية الفارسية ذاتها.

قام أمير المؤمنين عمر باتخاذ القرار فورًا، فحشد جيشًا جديدًا بقيادة «سعد بن أبى وقاص» ودفعه لخوض المعركة الفاصلة فى «القادسية». سار «سعد» بجيشه إلى العراق حتى وصل إلى نهر «زرود» ولم يبق بينه وبين أن يجتمع بالمثنى بن حارثة إلا اليسير، وكل منهما مشتاق إلى لقاء صاحبه، لكن انتفض جرح المثنى الذى أصيب به يوم «الجسر» فمات رحمه الله.

وعندما وصل «سعد» وجد وصية تركها له المثنى مع أخيه «المعنى بن حارثة» جاء بها (أن يبلغ سعدًا إذا قدم أن يقاتلوا الفرس على حدود أرضهم على أدنى حجر من أرض العرب ولا يقاتلوهم فى قعر دارهم، فإن يظهر الله المسلمين فلهم ما وراءهم وإن كانت الأخرى رجعوا إلى فئة ثم يكون أعلم بسبيلهم وأجرأ على أن يرد الله الكرة عليهم). لقد ظل ما ينفع جيش المسلمين هو ما يشغل بال المثنى حتى وهو يهم بلقاء خالقه. توفى المثنى - رحمه الله - سنة أربع عشرة، قبل «القادسية» أى أنه قضى أربع أو خمس سنوات فى الإسلام، أنجز فيها على قصرها ما عجز عن تحقيقه الكثيرون.

وبذلك طويت تلك الصفحة الرائعة التى سطرها المثنى بن حارثة الشيبانى، الرجل الذى اتصف بجميع صفات القائد العسكرى العظيم، وقد أصاب أمير المؤمنين عمر عندما سماه (المؤمر نفسه).. إن جيشا به مثل هذا القائد لا يغلب بإذن الله.

ربيع الأول ١٤٣٥ هـ
يناير ٢٠١٤ م

بين حروب نابليون وحروب الفتوحات العربية الإسلامية الأولى



للباحث والمفكر الاستراتيجي
أ. منير شفيق

تقسيم الجيش والمناورة الاستراتيجية

يلاحظ من كل الموضوعات السابقة حول نابليون أنها ركزت على أهمية تقسيمه للجيش إلى فرق أو فيالق، كل منها ذات قيادة مستقلة، وكانت كل فرقة تتشكل من مختلف صنوف الأسلحة وتستطيع الدخول بمعارك منفردة إلى جانب تحريكها من نقاط مختلفة. مما جعل ساحة الحرب ساحة واسعة جدا تتحرك فيها تلك الفرق بمناورات استراتيجية لا تسمح للعدو بتحديد اتجاه التركيز ولا مداه، ولا حجمه، كما تؤدي إلى قطع مواصلاته أو تطويقه وإجباره على دخول معركة حتى حين يجد نفسه في وضع غير ملائم. وكان هذا عكس ما جرى عليه التقليد العسكرى فى الماضى حيث كان الجيش يتحرك ككتلة واحدة جبارة باتجاه نقطة المعركة حيث يلتقى مع الخصم فى معركة مواجهة دون عمليات مناورة استراتيجية، فقد كان الشيء الحاسم هو عملية الاشتباك بالذات.

عندما حدثت ردة القبائل العربية عن الإسلام قسم الخليفة أبو بكر الصديق رضى الله عنه جيش المسلمين إلى أحد عشر لواء، وجعل على كل لواء قائدا.. وحرك تلك الألوية لتعمل مستقلة ومتعاونة فى آن، فقد كان على كل لواء أن يقوم بعمليات مستقلة فى جبهة محددة، فأحيانا كانت مهمته تثبيت العدو وإزعاجه باستمرار، وأحيانا كانت مهمته الدخول فى معركة فاصلة معه، حسب مقتضيات الوضع.

ولكن كان من بين تلك الألوية لواء رئيس يشكل الجسم الرئيس الذى يقوم بمهمة

الدخول فى المعركة الحاسمة مع قوات العدو الواحدة بعد الأخرى، وكان على رأس هذا الجيش خالد بن الوليد، وكان كلما واجه قوة رئيسة من قوات المرتدين، يقوم بالتركيز ضدها عن طريق انضمام بعض الألوية الأخرى له. ثم ينتقل ليكرر تلك العملية. وهنا نجد كل ملامح التقسيم الذى يجمع بين مرونة الحركة والمناورة الاستراتيجية وبين التركيز فى المعركة.

كان لنجاح هذه التجربة أثر حاسم إذ أصبحت إحدى السمات الرئيسة فى الفنّ العسكرى فى حروب الفتوحات.

ولعل حملة بر الشام من أروع الأمثلة على تأكيد هذه النقطة فقد قسّم أبو بكر الصديق «وبالتأكيد، بالتشاور مع الصحابة رضى الله عنهم» جيش المسلمين إلى ثلاثة جيوش قاد أحدها عمرو بن العاص، وقاد شرحبيل بن حسنة الجيش الثانى بينما قاد يزيد بن أبى سفيان الجيش الثالث. وأخذ كل جيش خطّ عمليات مستقل، فانطلق جيش عمرو بن العاص باتجاه العقبة ومنها إلى جنوب فلسطين.. بينما كانت منطقة جيش يزيد عبر تبوك ثم شمالا إلى البحر الميت ومنطقة شرقى الأردن. أما جيش شرحبيل فاتجه شرقا نحو دمشق وكانت التعليمات التى حملها قادة تلك الجيوش أن يعملوا بتناغم بحيث يظل الاتصال مستمرا فيما بينهم كما يظل مستمرا فيما بينهم وبين الخليفة. وإذا ما ارتطم أحدهم بمقاومة تعنى معركة حاسمة انضم إليه الجيشان الآخران وركزت القيادة بيد القائد الذى تجرى العمليات فى منطقته.. نجد هنا السمات التالية:

أ- منطقة الحرب أصبحت ساحة واسعة جدا تناور فيها الجيوش من حول جيش العدو وعلى خطوطه الداخلية ومن دون أن تفقد الاتصال فيما بينها ومن دون تعرض خطوط مواصلاتها للخطر. وكانت الصحراء من خلفها وكانت قريبة منها لحماية ظهرها وتأمين الانسحاب عند الضرورة.

وكان ذلك من شرط توفير أمن القوات.

ب- الجمع بين مرونة المناورة والحركة الاستراتيجية الواسعة وبين التركيز المطلوب للمعركة.

ج- كل جيش له قيادته المستقلة، ويتشكل من مختلف صنوف الأسلحة وقادر على خوض معارك بمفرده.

د- إبقاء الاتصال وخطّ المواصلات مع المركز فى المدينة من أجل استمرار التعبئة والتعزيز وإشراف القيادة الاستراتيجية للعمليات. إلى جانب المحافظة على الاتصال وخطّ المواصلات فيما بين تلك الجيوش الثلاثة.

بدلا من أن يقوّم الجنرال غلوب هذا التقسيم، واستراتيجية عملياته على ضوء ما يقوّم تقسيم جيوش نابليون واستراتيجية عملياته، راح يبدى استغرابه لماذا قسّم أبو بكر القوات على هذه الصورة وحاول تأويل ذلك فى كتابه «الفتوحات العربية الكبرى» «الصفحات ١٣١ و١٣٢- الطبعة الإنكليزية» بطرح الاحتمالات التالية:

١- «ربما جعل نقص الماء فى الصحراء من الضرورى التحرك بقوات منفصلة» ولكنه نسى أن هذه النقطة مردود عليها فى حملة تبوك التى سبقت ذلك العهد حيث سار جيش موحد من ثلاثين ألفا إلى تبوك.

٢- أو ربما «بسبب الحسد بين القادة الذين يرفضون الخدمة تحت بعضهم البعض». ولكن هذا التأويل أدهى من سابقه،

إذ ثمة دلائل كثيرة على أن مسألة الحسد غير واردة، فقد خدم كل أولئك القادة تحت قيادة خالد بن الوليد فى حروب الردة، كما خدموا فيما بعد تحت قيادة خالد فى تلك الحملة نفسها، ثم تحت قيادة أبى عبيدة بن الجراح. بل إن كلمة خليفة المسلمين ما كانت لتخالف عندما كان يختار قائدا عاما أو عندما كان يعزل قائدا. هذا وثمة أمثلة كثيرة دليلا على ذلك.

٣- ويتابع غلوب: «منطقيا يمكن الاستنتاج أن أبا بكر أراد لهذه القوات أن تلعب دور إزعاج أكثر من غزو البلاد» وهنا أيضا يسقط منطق غلوب أمام جدية الحملة التى دخلت معارك فاصلة. وفتحت بر الشام كله.

ثم كيف يستطيع أن يفسر إعادة تقسيم قوات المسلمين إلى عدة جيوش بعد أن دحرت قوات البيزنطيين فى اليرموك وفتحت دمشق. إذا لم يكن هذا التقسيم قد قام على أساس مدروس وفهم كامل لدوره وأهميته وذلك ضمن خطة استراتيجية متكاملة؟ وكيف يفسر نقل أحد الجيوش من جبهة سوريا لتعزيز جبهة العراق، أو نقل أحد الجيوش من جبهة العراق لتعزيز جبهة سوريا؟

يبقى السؤال ما هى العوامل التى جعلت العرب المسلمين يكتشفون هذا الشكل من القتال وتقسيم الجيش؟ إذا كان تقسيم الجيش الفرنسى بعد الثورة قد جاء نتيجة ثلاثة عوامل رئيسة:

أ- عندما أصبح الجيش كتلا من الجماهير المعبأة بعد الثورة الفرنسية، أو عندما أصبح يمثل تجنيد أمة بأسرها كما يقول إنجلز، غدا من الممكن تقسيمه إلى أرتال وفرق، فإن هذا الشرط توفر لجيوش العرب بعد انتصار ثورة الإسلام التى أصبحت تمثل تجنيد أمة بأسرها.

ب- زيادة كثافة النيران لوحدة صغيرة أتاح لها إمكانات المقاومة مدة أطول، ومن ثم خلقت الشروط لتقسيم الجيش إلى فرق دون تعريض أمنه وحركته للخطر.. إن هذا الشرط لم يتوفر فى فترة الفتوحات الأولى، ولكن كان مقابله شرط آخر يؤدى فى الجوهر إلى النتيجة نفسها، وهو اعتماد التقليد العربى الصحراوى على سرعة الحركة والمقدرة على الاختفاء والظهور وكثرة التنقل والمناورة، مما أتاح لوحدة صغيرة إمكانات المقاومة مدة أطول من خلال التحرك الخاطف، أو الاختفاء الخاطف أو الظهور الخاطف، أرقى من عمليات المناوشة فهى فن فى العمليات قائم بذاته.

الأمر الذى أمن هذا إمكان تقسيم الجيش إلى فرق دون تعريض أمنه وحركته للخطر. وهذا بدوره أتاح للعرب المسلمين إمكان اكتشاف أهمية المحافظة على خطوطهم الداخلية والعمل على خطوط العدو الداخلية، لأن العمل العسكرى هنا أصبح يعتمد على الحركة والسرعة والاتصال المستمر بالمركز وبالقوات الأخرى من أجل تأمين المساندة والتعاون.

ج- تطور الطرق والمواصلات فى عصر نابليون زاد من قوة المناورة إلى جانب تطور وسائط النقل.. إن هذا الشرط الذى لعب دورا هاما فى تقسيم جيش نابليون وبروز مفاهيم مثل «خطوط العمليات»، و«الخطوط الداخلية» و«الخطوط الخارجية»، قابله شرط آخر لدى الجيوش العربية الإسلامية وهو خفة أحمالها وسهولة تنقلها وتقاليدها فى التنقل والترحال. ومن ثم أصبحت كل الأراضى عبارة عن طرق مواصلات ليست بحاجة لأن تعبد.

يتبع

الشريعة الإسلامية
خصائص الثبات والتغير



المستشار طارق البشرى

عندما نتكلم عن الشريعة الإسلامية وصلاحيتها للزمان والمكان يتعين علينا أن نميز بين أمرين، أولهما الشريعة الإسلامية وثانيهما الفقه الإسلامى.

والشريعة الإسلامية هى الأحكام المنزلة من الله سبحانه على نبيه محمد بن عبد الله، والتى وردت فى القرآن الكريم وفى السنة الصحيحة والقرآن هو كلام الله المنزل على نبيه محمد والذى يضمه المصحف من سورة الفاتحة إلى سورة الناس، والذى انتقل إلينا بالتواتر جيلاً عن جيل محفوظاً من أى تغيير أو تعديل مصداق قوله تعالى:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾

(الحجر: ٩)

والسنة هى كل قول أو فعل أو تقرير ورد عن رسول الله وكان مقصودًا به التشريع والاقتداء.

والقرآن كله ثابت ثبوتًا يقينا لا يأتيه الشك أبدًا، والسنة منها ما هو ثابت ثبوتًا يقينا لنزولها إلينا بالتواتر مثل حركات الصلاة وعدد ركعات كل منها، ومنها ما يثبت بالظن الراجح أى ثبوتًا أقل من ثبوت القرآن والسنة المتواترة.

ونصوص القرآن والسنة بعضها قطعى الدلالة لا يرد الخلاف بين العقول حول الحكم المقصود من النص مثل نصيب الزوجة فى ميراث زوجها، وبعضها ظنى الدلالة أى يمكن أن تتباين العقول فى إدراك معانيه.

وأحكام القرآن والسنة لها وضع إلهى وهى لا يطرأ عليها تغيير ولا تبديل، وهذه الأحكام هى المقصودة بالشريعة الإسلامية وهى تشمل جملة ما يتضمنه الإسلام من أصول حاكمة للعقيدة الإسلامية وللعبادات ولمعاملات البشر.

والفقه الإسلامى هو اجتهادات البشر فى إدراك أحكام الشريعة وفى استخلاص المعانى

المقصودة، ووصل تلك الأحكام بأحوال البشر في كل بيئة، أي هو اجتهادات العلماء في إدراك معاني النصوص والتفريع على الأصول العامة الواردة بالقرآن والسنة، وتطبيق النصوص الثابتة التي لا تتغير على أحوال البشر المتنوعة ووقائعهم المتغيرة مع تغير الأزمان والأمصار. وهذه الاجتهادات ذات وضع بشرى تحتمل الخطأ وتحتمل التغير والتنوع مع اختلاف البيئات والأحوال. وهي كلها تتعلق بتفاصيل الأحكام وبفروع المسائل.

هذا فارق نظرى يتعين أن نلحظه بدقة عند نظرنا في الأحكام وعندما نتدبر عنصر الثبات فيها ووجوه التغير والاختلاف.

فالشريعة ثابتة وهي ذات وضع إلهي وأحكامها ونصوصها ليست تاريخية بمعنى أنها ليست نتاج تاريخ الإنسان وأنها ليست من الأحداث التي ترد إلى أسباب حادثة وتتغير بتغير أحوال البشر عبر مراحل التاريخ والفقه من حيث اجتهاد الفقهاء والمفكرين يمكن أن يرد عليه التنوع والتغير بتغير الزمان والمكان، فهو ذو وضع تاريخي واجتماعي كما يرد عليه احتمال الخطأ بحسبانه من جهد البشر.

إذا نظرنا إلى عهود الإسلام في تاريخنا منذ بعث النبي ﷺ بالرسالة حتى يومنا هذا، نجد أن هناك عهدا ليس كالعهود وهو يتميز عنها تميزا جوهريا وذلك هو عهد الرسالة وما تلاه في زمان الخلفاء الراشدين، تلك الفترة التي لا تتجاوز نصف القرن بكثير.

الفارق الأساسي بين عهد الصدر الأول هذا وبين ما تلاه من عهود يتعلق بأن العهد الأول هو عهد «الشريعة» أي عهد تأصيل الشريعة بينما كل ما تلا ذلك من عهود فهي عهود «تطبيق الشريعة» أي عهود الفقه.

العهد الأول هو الذي يتضمن في الزمان المدة التي نزلت فيها الرسالة السماوية قرآنا وسنة، وهي مدة البعثة النبوية التي نزل فيها القرآن منجما على ثلاث وعشرين سنة، وهي مدة حياة الرسول ﷺ بما شرع وسن، وهي كذلك مدة العمل الأول للصحابة الذين نقلوا إلينا بأعمالهم ما أخذوه عن النبي عليه الصلاة والسلام.

هذا العهد هو الوعاء الزمني الذي أنزلت فيه أصول الدين واستخلصت فيه أحكامه. فهي فترة التنزيل بالنسبة للقرآن وفترة صدور السنة عن النبي ﷺ ثم هي أيضا الفترة التي جمع فيها القرآن وحفظ وهي كذلك الفترة التي تشكلت فيها الحلقة الأولى من حلقات الأسانيد بالنسبة للسنة النبوية لأن السنة المرفوعة كلها تتصل بالنبي ﷺ عن طريق الصحابة، وغالب أحاديث السنة ظهر في هذه الفترة أو في الأعوام القليلة التالية لها، ومن ثم فهي تشكل الحلقة الأولى الهامة في سلسلة ما انتقل إلينا بالرواية والتدوين من أحكام الشريعة.

وهذا العهد نفسه هو عهد أعمال الخلفاء الراشدين وهم ومن حولهم كانوا من صحابة الرسول ﷺ المبرزين وفيهم المبشرون بالجنة وعهدهم قريب من عهد الرسول ﷺ وحياته؛ لذلك كانت أعمالهم أقرب إلى ما نسميه اليوم بـ«السوابق التشريعية» لأن من أعمالهم ما كانت دلالته تتجاوز حدود الدلالة التطبيقية وتعلو بالفعل المؤدى إلى مستوى أنه دليل على قيام حكم تشريعي.

ونحن نعلم أن الشريعة الإسلامية مصادرها الأصلية هي القرآن والسنة ولها مصادر فرعية

أخرى، وأول هذه المصادر الفرعية الإجماع، وأقوى الإجماع هو إجماع الصحابة بمعنى أنه إذا اتفق الصحابة على حكم في مسألة ولم يظهر معارض فيهم لهذا الحكم فإنه يصير في قوة الحكم الشرعي، ولهذا المصدر أهميته وخاصة في موضوع الإمامة ونظام الحكم. وإجماع الصحابة إذ ينعقد فإنما ينعقد في هذه الفترة وما تلاها من أعوام قليلة، ويكون العمل الذي يجتمعون عليه قوة السابقة التشريعية.

لذلك فإن هذا العهد لا ترد أهميته من كونه تجربة تاريخية ولكن أهميته ترد من قيمته التشريعية الأصولية. وإن مقتضى النظرة الإيمانية أن ما نستخلصه من هذه الفترة من أصول إنما يتعلق بما يعتبر لدينا نصوصا وأحكاما ذات دوام وتعلو على نطاق الزمان والمكان، وشأنها في ذلك شأن سوابق التشريع. والمقصود بالسوابق التشريعية أن تصرفا أو قرارا أو إجراء ما، أو حكما يصدر من محكمة؛ أن أمرا من هذا إذا حدث في واقعة معينة فنحن نستخلص من حدوث هذا التصرف أو القرار حكما عاما يعلو على ملابسات تلك الواقعة، ويصير له قوته الملزمة على الوقائع التي تحدث بعد ذلك وتتوافر فيها الأوصاف ذاتها.

مثال ذلك: عندما لم يوقع عمر في عام المجاعة حد السرقة، واستخلص الفقهُ من هذا التصرف أن من شروط توقيع حد السرقة أن يكون المجتمع قد كفل للناس ضروراتهم. وكذلك اجتماع الصحابة بالسقيفة فور وفاة الرسول ﷺ استخلص الفقه منه وجوب قيام الحكومة في الشريعة الإسلامية.

هناك بطبيعة الحال جانب تاريخي في هذا العهد، أي جانب لا يتعلق بالتشريع ولا بالشريعة الإسلامية أو تأصيل أحكامها وهو كل ما يصدر عن رسول الله ﷺ بموجب صفته البشرية من حيث إنه إنسان يحيى حياة الناس، ومن حيث إنه يجتهد برأيه فيما يعرض عليه من أمور، فكان يجتهد ثم يعدل إلى الصواب إن تبين أن الصواب في غير ما اختار أولاً. أي في كل ما ليس مقصودا به التشريع والاقتداء من أعماله ﷺ. وكذلك اجتهادات الصحابة ومعايشتهم مما لا يظهر معه دليل أنهم إنما يتبعون سنة عن الرسول ﷺ أو يصدرون عن سنة الإسلام، والمقصود أن هذا العهد يضم فيما يضم «الوعاء الزمني» لرسالة الإسلام، وأن ما به من نقاء وصفاء إنما يرد من هذا الوضع، ومن أنه كان «وعاء النصوص». والنص دائما «مثال» يستمد مثاليته من ذاته وليس من غيره فهو قائد وليس مقودا وهو حاكم وليس محكوما.

أما ما بعد ذلك من عهود وأزمان فهي تاريخ من التاريخ وما حدث فيها تجارب من تجارب المجتمعات والبشر، وناسها وعلماؤها وفقهاؤها هم رجال من الرجال في كل أحوالهم وأوضاعهم. نحن ندرسهم ونأخذ منهم العبرة ونسترشد بما قالوا وفعلوا، ولكننا نأخذ من أقوالهم وأفعالهم ونترك حسبما يتراءى لنا وجه الصواب ووجه المصلحة. وكل إنتاج هذه العهود هو مما ينسب للفقه وليس الشريعة. ولنا أن ندرس اجتهاداتهم من حيث ما استدلوا به من البراهين والأدلة ومن حيث ما طبقوه بمراعاة مصالح الناس في أوقاتهم، ولنا أن نقارن ذلك بأحوالنا الآن. وذلك في إطار ما تفرضه أصول الدين وأحكام الشريعة من ضوابط وحدود، سواء لفهم النصوص والاستدلال منها أو لمراعاة مصالح الإسلام والمسلمين، وذلك بغير التزام منا بوجوب اتباعهم.

يتبع

الرق فى الإسلام (٢)

المقاصد العامة فى التشريع الإسلامى



للإمام محمد البشير الإبراهيمي

وللتشريع الإسلامي فى كل قضية عامة تدعو حاجة الناس إليها وتدخل صميم حياتهم، مقاصد بعيدة المدى، شديدة المواقع، واضحة الآثار فى المجتمع الإسلامي، وعلى هذه المقاصد بنيت الأحكام الفرعية، والذى يغفل عن هذه المقاصد لا يسلم من الخطأ فى النظر إلى الجزئيات، ولا يضمن الإصابة فى ترجيح دليل على دليل عند التعارض.

وباعتبار هذه المقاصد العامة فى التشريع الإسلامي كانت الشريعة الإسلامية نظامًا اجتماعيًا كاملا كافلًا لمصالح الجمهور ضابطًا لها، صالحًا لكل زمان ولكل مكان ولكل جنس.

وكل من يستقرئ أحكام الشريعة الإسلامية المنصوصة فى المعاملات العامة، ثم يعمل نظره فى استخراج هذه المقاصد، يخرج بحقيقة- ترمى إليها جميع النصوص-، وهى أن من مقاصد الإسلام إبطال الاسترقاق بالتدريج، لأن غضاضته لا تدفع إلا بإبطاله، وإذا كانت إباحته بحكمة فليكن إبطاله بحكمة.

ذلك أن الإسلام جاء بجلب المصالح ودرء المفاسد، فإذا وجدت قضية عامة يتجاذبها الصلاح والفساد- وهما ضدان- فهنا تأتى حكمة الإسلام وبعد نظره ودقته فى الترجيح، والإسلام لم يخترع الاسترقاق ولم ينشئه، وإنما وجده فاشيًا فى العالم، درجت عليه الأمم كلها من أحقاب قديمة متطاولة، ودخل فى حياتهم وتمكن، ونزل منها منزلة الضرورات الحيوية، وتعوده الفريقان السادة والعبيد، وبنى كل واحد منهما أمره على ما قسم له من الأعمال، ورأى أن الخير فيه، وأن خروجه منه مضيعة له وقضاء على حياته، واطمأن إلى هذا كله من يوم أدرك وعقل، وقد فصلت الحياة وقوانينها والمواضعات العرفية وظائف الفريقين فى عشرات القرون، فأصبح الخروج عنها كالخروج من الحياة، ولكل من السيادة والعبودية آثار متطرفة فى نفوس أصحابها لا يجمعها وسط، فالسادة تعوّدوا الاعتماد على العبيد فى تصريف مصالحهم الحيوية المتنوّعة شريفها وخسيسها من منزلية وفلاحية، فإذا فارقهم العبيد ضاعت تلك المصالح كلها إذ لا يستطيع القيام بها بنفسه، فضاعت المصالح فاختلّ التوازن الاجتماعي، والعبيد تعوّدوا الاعتماد على السادة فى معاشهم وكسوتهم وتدبير ضرورياتهم كلها فإذا فارقوهم وتحرّروا دفعة واحدة لم يستطيعوا الاستقلال بالحياة، واختل التوازن الاجتماعى أيضا.

فجاء الإسلام بعلاج المعضلة، وهو أنه حرّم من أول يوم معاملة العبيد بالقسوة التى كانت مألوفة يرتكبها المالك لأنها شيء معتاد، ويتحملها العبد لأنها شيء معتاد فأوجب معاملتهم بالإحسان والرفق والرحمة، وبالغ نبى الإسلام فى التلطف والحنو على هذا الصنف حفظًا للكرامة الإنسانية، فسمّاهم إخوانًا للمالكين وفرض لهم المساواة معهم من المآكل والملبس وحدّد لهم مقدار العمل، فقال فى حديثه المشهور الذى هو دستور كامل لهذه القضية فى جمل قصيرة، ولفظه فى حديث أبى ذر: «إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن جعل الله تحت يده أحدًا من إخوانه فليطعمه مما يأكل ويلبسه مما يلبس ولا يكلفه من العمل ما لا يطيق».

ومن عرف مقدار تأثر الصحابة بالدين ومبالغتهم فى امتثال أوامره واجتناب نواهيه ومسارعتهم فى تنفيذها، عرف أنهم نفذوا هذا الدستور بمجرد سماعه كما وقع لأبى ذر راوى الحديث، فإنه كان لا يستأثر بأكلة دون غلامه ولا يلبس حلة إلا ألبس غلامه مثلها.

من لى بالباحث الغربى المنصف المبرأ من وصمة الغرض والحقد والهوى ليعلم مواقع الإنسانية فى دين الإسلام- وما أكثرها- ثم يعلنها فى قومه، وإذا لأعلن كثير منهم إسلامه بإعلانها. ومن مواقع الإنسانية فى الإسلام ما شرعه هذا الحديث العظيم فى معاملة العبيد، فليعلم هؤلاء الباحثون الجاهلون لمحاسن الإسلام، أو المتجاهلون لها، وليعلم من بعدهم الواضعون للقوانين من بنى جلدتهم، والمسيّرون لشعوبهم من الحكام ليعلموا جميعًا- فيما يعلمون- أن محمدًا ﷺ سبقهم من أربعة عشر قرنا إلى إعلان حقوق الإنسان التى مازلوا يتخبطون فيها بين السلب والإيجاب، ومازالوا ينقضون بالفعل ما أبرموه فيها بالقول، وليعلموا جميعاً أن محمداً ﷺ سبقهم كذلك إلى إعلان حقوق العبيد وإقرار الكرامة الإنسانية لأول مرة فى تاريخ العالم- بل نقولها جهيرة مدوية لا تتوارى بحجاب ولا تستتر بجلباب، أنه أعلن بحديثه السابق ولأول مرة فى تاريخ الحضارة البشرية إلغاء الرق الذى يتبجحون بابتكاره، ولكن بمعنى حكيم غير الذى يفهمونه من الإلغاء المسطّر على الأوراق فى قوانينهم: إنه محا آثار الرق فى نفوس الأرقاء، وآثار الاسترقاق فى نفوس السادة، وأى معنى يبقى للرق بعد هذا؟ أى معنى يبقى لهذه الكلمة بعد أن فقدت معناها أو تصافت نفوس الفريقين وتلاقت على الأخوة والمساواة، واستشعر كل فريق منهما عزة النفس، وحظّه من تلك العزّة، وكرامة الإنسان ونصيبه من تلك الكرامة؟

إن كلمة العبقرية فى ذلك الحديث هى كلمة «إخوانكم» وقد جاءت فى أول الجملة لتكون أول ما يقرع الأسماع فتفعل فعلها فى النفوس، وخصوصًا فى ذلك الزمان. فالعبد

حين يسمع تلك الكلمة يحسّ كأن نفسه الذليلة انتقلت في رحلة روحية من عالم إلى عالم، وكأنه استلم صك التحرير فجأة بيده وأنه أصبح أخا لسيّده لا عبدًا له، وهذا ما لم تسمعه أذن في أطوار الحضارات التي من شأنها أن ترقي العقول، ولا في أطوار النبوّات التي من شأنها أن ترقي الأرواح، والسيد المالك حين يسمعها تتطامن نفسه الشرهة وأخلاقه الشرسة وغرائزه المتشبعة بحب التملك والتسلّط ويتنزّل من عالم الاستعلاء إلى عالم الاستواء، فيرى ببصيرته أن هذا المخلوق أخ، وليس من الرجولة ولا من الإنسانية أن يمتهن الأخ أخاه.

وأي معنى يبقى للرق بعد هذا؟

على أن التشريع الإسلامي من أربعة عشر قرنا إلى إعلان حقوق الإنسان التي ما زالوا يتخبطون فيها بين السلب والإيجاب، ومازالوا ينقضون بالفعل ما أبرموه فيها بالقول، وليعلموا جميعا أن محمدا ﷺ سبقهم في أن التشريع الإسلامي عند تكامله انتهى إلى تشريع أحكام كثيرة كلها في مصلحة الرقيق وترجيح جانبه وإعلاء كلمته، وكلها ترمي إلى بطلان الرق من ذاته تدريجيا، والتدرج سمة واضحة الحكمة من سمات التشريع الإسلامي تظهر في التفاوت الزمني بين العبادات، فقد شرعت الصلاة بمكة ولم تشرع بقيتها إلا بعد الهجرة، وفي أزمنة متفاوتة أيضًا، وتظهر في تحريم الخمر وتحريم الربا، وتظهر في وصية النبي ﷺ لمعاذ بن جبل حينما بعثه إلى اليمن وأوصاه بعرض شرائع الإسلام عليهم واحدة واحدة وأن لا يعرض عليهم الثانية حتى يتقبلوا الأولى.

وهذه التشريعات المنصوصة وما تفرع عنها بالاجتهاد أو القياس هي الدليل القاطع على أن إبطال الاسترقاق وقطع دابره كانا من مقاصد الإسلام، ولكن بطريقته التدريجية الحكيمة كما وقع في تحريم الخمر، ولو أن المسلمين بعد خلافة عمر تقلدوا تلك التشريعات بحزم لما بقي للاسترقاق بينهم أثر. رأى محمد ﷺ أن إبطال الرق دفعة واحدة يفضي إلى مفاسد اجتماعية وإلى شلل محقق في المرافق الحيوية كما أسلفنا القول فيه، فجاء بذلك الدستور الذي أزهق روحه، بحيث أصبح رقيق ذلك الزمن أسعد حالًا وأوفر كرامة بآلاف المرات من أحرار هذا الزمن الذين يسامون سوء العذاب من الأقوياء المتحضرة، بدأ محمد ﷺ الحملة على الاسترقاق بالترغيب في العتق، وأحاديثه في ذلك لا تكاد تحصر، حتى أنه جعل العتق أصلًا يقاس عليه جميع القربات، فكثيرًا ما كان يقول: من فعل كذا فكأنما أعتق رقبة، فكان الإسلام يعد عتق العبيد أشرف أعمال الخير، يقدر ثوابها بثوابه، ولا دليل أدل من هذا على رغبة الإسلام في تحرير الرقيق، وقطع دابر الاسترقاق، وقد كان المسلمون الأولون يتبارون في العتق، ويبعثون في الأسواق حاشرين لشراء العبيد بنية العتق اغتناما لأجره، وتحقيقًا لحكمته.

ثم جعل عتق الرقاب عقابًا دنيويًا على كثير من المخالفات وكفارة لها عند الله، فقتل الخطأ يكفر بعتق رقبة بعد الدية، ومن مكفرات الحنث في اليمين عتق رقبة، وفي الظهار الذي لم يبلغ أن يكون طلاقًا عتق رقبة، وجعل العتق عقوبة دنيوية على الذنوب، واعتباره ماحيًا لها عند الله، هو طريق إلى التقليل من عدد الأرقاء والتقليل من الشيء مدرجة لزواله.

وهنالك كثير من الأحكام في التشريع الإسلامي توجب العتق إيجابًا وتفضي إلى التقليل. فمنها أن السيد إذا ضرب عبده أو أمته ضربًا يجاوز حد التأديب أو الكي بالنار فإنه يعتق عليه جبرًا بحكم الحاكم.

ومنها أن الجارية إذا ولدت من سيدها فإنها تحرر من أعمال الإماء، وتزول عنها هجنة الرقيق، وتحرر بموت سيدها وتسمى أم ولد في الاصطلاح الفقهي.

ومنها أن العبد إذا كان يملكه أشخاص اشتركوا في قيمته فعتق أحد الشركاء نصيبه الذي يملكه فإن الحاكم يعتق بقية الأجزاء على أصحابها جبرًا، ويصبح حرًا مهما كان الجزء الذي بني عليه العتق قليلًا، ومنها أن العبد إذ ادعى أن سيده عتقه وأنكر السيد ذلك فإن قول العبد يرجح على قول سيده بيمين.

وهناك أحكام كثيرة من هذا الباب كلها تحقق ذلك المقصد العام وهو إلغاء الرق، وللفقهاء كلمة متداولة في تعليل هذه الأحكام وهي قولهم: «لتشوف الشارع للحرية» وهي كلمة صريحة الدلالة على أن هؤلاء الفقهاء يفهمون أن الإسلام أحكام مبنية على حكم، وأن الحكمة في ترجيح جانب العبيد هي التقليل من عددهم، وأن التقليل يفضي بطبيعته إلى الزوال.

حكم التسري وحكمته في الإسلام

أما التسري الذي يعيبه الحاقدون على الإسلام، وهو وطء الجواري بملك اليمين، فحكمه الإباحة بالنص القاطع من القرآن وهو النوع الثاني من النوعين الجائزين في قرب النساء، وأولهما التزوج بالحرائر بشروطه المعروفة، وما عدا هذين النوعين حرام ومجاوزة لحدود الله، وليس في الإسلام حكم بلا حكمة في جميع علائق البشر بعضهم ببعض، فإن وجد حكم بلا حكمة، ولو دقيقة، فهو إما توسع في الاجتهاد، وإما خطأ من العباد، والحكمة الواضحة في التسري تتألف من عدة عناصر، فهو تأليف بين العنصرين المتفاوتين وهم السادة والعبيد بعلاقة نفسية جسمية، وتقريب بينهما، وتنقيص من النفور الطبيعي بملابسة طبيعية، ولا يخفى ما في هذا من طي المسافة بين السيادة والعبودية، ومن الحكم الظاهرة فيه أنه خطوة واسعة إلى التحرير ووسيلة قوية من وسائله، فإن الأمة إذا ولدت من سيدها ترتفع درجة عن العبودية حتى في الاسم فتسمى أم ولد، وترتفع إذا بطريق شرعية إلى التحرير، فهي من الذرائع المحققة لحكمة الإسلام في العتق ولمقصده في التشوف للتحرير، وكل هذا زيادة على ما تحصل عليه أم الولد من سيدها من الاستيلاء على قلبه والحظوة عنده، ولقد وصل كثير من أمهات الأولاد من طريق هذه الحظوة إلى درجات رفيعة لم تبلغها الحرائر. وأما المبالغة في الإكثار منهن إلى درجة مستهجنة بناء على عدم تحديد الشرع لعدد خاص - فهذا من سوء تصرف المسلمين - لا من حسن تصريف الإسلام.

يتبع

فتاوى لها تاريخ

اشتراط الولى فى النكاح[١]



للشيخ/ رشيد رضا

السؤال من: أ. م. المدرس فى «القاهرة»: لقد أنصفتم فيما كتبتموه فى مقالة «الأولياء والكفاءة الخ» إذ اقتصرتم فيها على ما ورد فى الكفاءة من الأحاديث مع بيان مذهب الحنفية فى ذلك وتركتم الحكم للرأى العام، وإنما نود أن تبينوا لنا رأيكم فى وجوب اشتراط الولى أو عدمه مستدلين على ذلك بالكتاب والسنة كما هى طريقتكم مع بيان حكمة الشريعة فى ذلك بتفصيل كاف وبيان شاف لا زال مناركم هاديًا، وعلمكم نافعا كافيًا.

ج- الذى يفهم من القرآن العزيز وكلام الرسول ﷺ ومضت به السنة ونقل عن جماهير الصحابة ولم ينقل عنهم خلافه أن الولى هو الذى يزوج وأنه لا بد منه إن وجد وأن الأنثى لا تزوج نفسها، ولكن ليس للولى أن يزوجها بدون رضاها واكتفى الشرع بسكوت البكر لحيائها واشترط أمر الثيب للولى، وبذلك أعطى النساء حقًا لم يكن لهن فى غير هذه الشريعة العادلة، وجعل الرجال قوامين عليهن مع العدل والشفقة وعدم الإكراه حفظًا لنظام البيوت وجمعا بين مصلحة الرجال والنساء وإليك الدلائل.

قال تعالى:

﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ﴾

(النور: ٣٢)

وهو خطاب الرجال الذين يولون العقد.

وقال تعالى مخاطبًا لعموم المكلفين:

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾

(البقرة: ٢٣٢)

فالآية صريحة فى نهى الأولياء عن عضل الثيب، ولا يملك العضل إلا من بيده عقدة النكاح، ومن زعم أن الخطاب بالنهى للأزواج ترد عليه بالسياق وبما أخرجه البخارى وأصحاب السنن وغيرهم بأسانيد شتى من حديث معقل

(١) المنار ج ٧ (١٩٠٤م) ص ٤٥٧ - ٤٦٢.

بن يسار قال: كانت لى أخت فأتانى ابن عم لى فأنكحتها إياه فكانت عنده ما كانت ثم طلقها تطليقة ولم يراجعها حتى انقضت العدة فهويها وهويته ثم خطبها مع الخطاب فقلت له: يالكع أكرمتك بها وزوجتكها فطلقتها ثم جئت تخطبها!! والله لا ترجع إليك أبدًا، وكان رجلا لا بأس به وكانت المرأة تريد أن ترجع إليه فعلم الله حاجته إليها وحاجتها إلى بعلها، فأنزل الله هذه الآية. قال ففىّ نزلت فكفرت عن يمينى وأنكحتها إياه.

وفى لفظ، فلما سمعها معقل قال سمعا لربى وطاعة، ثم دعاه فقال أزوجك وأكرمك، ولو كان لها أن تزوج نفسها لفعلت مع ما ذكر من رغبتها.

ثم إن الآية إنما حرمت العضل على الولى ولو أراد الله أن لا يجعل للولى حقا على الثيب لنزلت الآية فى بيان أن لهن أن يزوجن أنفسهن.

ولا يقال إنها خاصة بتحريم العضل عن الأزواج السابقين، لأن العبرة بالعموم لاسيما مع اتحاد العلة المشار إليها فى تتمة الآية وهى قوله تعالى:

﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

(البقرة: ٢٣٢)

فإنها تشير إلى مراعاة المصالح فى هذه المعاملات ولا تجعلها أمورا تعبدية، ومصلحة المرأة فى العودة إلى زوجها الأول مع التراضى كما أن مصلحتها أن تتزوج مطلقا، فالعضل محرم على كل حال وهو لا يتحقق إلا إذا كان الولى هو الذى له حق التزويج برضاها.

وقال تعالى:

﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

(البقرة: ٢٣٧)

الظاهر أن الذى بيده عقدة النكاح هو الولىّ، وهو مروى عن ابن عباس وعائشة وطاووس ومجاهد وعطاء والحسن وعلقمة والزهرى ولكن روى ابن جرير وغيره فى المرفوع أنه الزوج وفى إسناده مقال وإن حسنوه.

ولم يذكره السيوطى فى أسباب النزول، ولم نرجح الأول عليه لهذا ولكن للسياق، فإنه يقول للأزواج إذا طلقتم قبل الدخول فعليكم أن تدفعوا نصف المهر المفروض، إلا إذا سمحت المعقود عليها بذلك بنفسها أو سمح وليها به وليس يظهر أو سمح الزوج به لأن الزوج هو المكلف بالدفع، وإنما قال به قوم وأولوه لأن من قواعدهم أن الولى لا يملك التصرف بمال موليته ولذلك خصه بعض من قال إنه الولى بالمطلقة الصغيرة، وفاتهم أن المذاهب لا يصح أن تقيد القرآن ولا أن تخصصه. على أن الجمع بين الآية وبين قاعدتهم سهل، وهو أن يحمل على عفو وسماح يعلم به الولى رضاها أو يعوضها عنه مثله أو خيرًا منه إذا رأى أن اللائق به أن لا يأخذ من الزوج شيئا لأنه لم يدخل بها. وقد رأيت أن الآية تحث على هذا العفو لأن المأخوذ فى هذه الحالة يثقل على النفوس من الجانبين، الزوج يراه كالغرامة، والولى والزوجة يريانه كالصدقة. ومن نظر فى التعامل والآداب الإسلامية يرى أن ما جرى عليه المسلمون من إمضاء الولى أمثال هذه الأمور وعدم حضور البنت المطلقة إلى مجلس الطلاق وتصريحها بعفو أو مباشرتها لقبض، ومن اتفاق الناس على أن هذا لا يليق بها، ومن التسامح بين الأولياء والبنات

لاسيما إذا كان الولي أبا أو جدا - كل ذلك من العمل بآداب القرآن وفضائل الإسلام. وهناك آيات أخرى كآية النساء:

﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾

(النساء: ١٩)

وآية البقرة:

﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ﴾

(البقرة: ٢٢١)

خاطب الرجال لأنهم هم الذين يزوجون ولم يخاطب النساء بذلك قط.

وأما الحديث فقد روى أحمد والبخاري ومسلم وأصحاب السنن من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تنكح الأيم حتى تستأمر ولا البكر حتى تستأذن»، وهو يفهم أن حق مباشرة العقد للرجال ولكنه أوجب أن يكون برضى النساء، فالثيب لابد من أمرها صريحا ويكتفي أن يستأذن البكر فتسكت ولذلك قالوا: يا رسول الله وكيف إذنها؟ قال: «أن تسكت». وهذا أصح حديث في الباب، اتفق عليه أهل الصحيح. وهو يدل على أن من الآداب الإسلامية أن تصرح البكر بطلب الزواج لأنه لا يليق بالحياء الإسلامي الذي هو فخر لها وهي لا تعرف الرجال فليعقل هذا من يقولون إن الشريعة أعطت للبنت الحق في أن تزوج نفسها بدون رضاء أبيها أو غيره، فلا يصح أن يقال إن ذلك مخالف للآداب الدينية. وفي حديث عائشة المتفق عليه قالت: يا رسول الله، تستأمر النساء في أبضاعهن؟ قال: نعم، قلت: إن البكر تستأمر فتستحي فتسكت. فقال: «سكاتها إذنها». وفي رواية «إذنها صماتها». وهذا الاستفهام من عائشة يدل على أنه لم يكن يعهد في ذلك العصر أن يزوج المرأة غير وليها، وكأنهم رأوا من الغريب أن تستأمر في ذلك.

وقالوا: ينبغي أن تعلم البكر أن سكاتها إذن. ولا ينافي هذا حديث ابن عباس عند مسلم وأصحاب السنن «الثيب أحق بنفسها من وليها والبكر تستأذن في نفسها وإذنها صماتها» لأنه يحمل على أنه لا يزوجها إلا بأمر صريح منها، جمعا بين الأخبار الماضية والآتية، وموافقة للكتاب، وأنه لا يصح العقد إلا بذلك، وأما البكر فيجب استئذانها ولو زوجها بدون إذنها، يكون العقد موقوفا على إجازتها، ويدل على ذلك في الموضعين ما تقدم في الجزء العاشر من حديث عبدالله بن بريدة وأن النبي ﷺ جعل أمر الفتاة لها، فأجازت عقد أبيها وتزويجه إياها. وحديث خنساء بنت خدام الأنصارية، وهو أن أباها زوجها وهي ثيب فكرهت ذلك، فأتت رسول الله ﷺ فرد نكاحها. رواه أحمد والبخاري وأصحاب السنن.

وعن أبي موسى أن النبي ﷺ قال «لا نكاح إلا بولي» رواه أحمد وأصحاب السنن إلا النسائي، وكذلك ابن حبان والحاكم وصححاه، وذكر له الحاكم طرقا، وقال: قد صحت الرواية فيه عن أزواج النبي ﷺ عائشة وأم سلمة وزينب بنت جحش. ثم سرد تمام ثلاثين صحابيا. فلا يضر مع هذا، وما سيأتي الاختلاف في وصله وإرساله.

وعن عائشة أن النبي ﷺ قال: «أيما امرأة نكحت بدون إذن وليها فنكاحها باطل، فنكاحها باطل، فنكاحها باطل، فإن دخل بها فلها المهر بما استحل من فرجها، فإن اشتجروا فالسلطان ولي من لا ولي له». رواه الذين رووا ما قبله، وحسنه الترمذي منهم، وأخرجه أيضا أبو عوانة وابن حبان والحاكم، وأعلوه بانكار الزهري له وأي مانع من نسيانه إياه، وقد رواه عن ابن جريج عشرون رجلا. ورواه أبو داود الطيالسي بلفظ «لا نكاح إلا بولي وأيما امرأة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل باطل باطل، فإن لم يكن لها ولي فالسلطان ولي من لا ولي له».

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«لا تزوج المرأة المرأة ولا تزوج المرأة نفسها، فإن الزانية هي التي تزوج نفسها». رواه ابن ماجه والدارقطني والبيهقي، وقال الحافظ ابن حجر: رجاله ثقات. وروى الشافعي والدارقطني عن عكرمة بن خالد، قال: جمعت الطريق ركبا، فجعلت امرأة ثيب أمرها بيد رجل غير ولي، فأنكحها. فبلغ ذلك عمر فجلد الناكح والمنكح، ورد نكاحها. وقد نقل بطلان العقد بغير ولي عن علي وعمر وابن عمر وابن عباس وابن مسعود وأبي هريرة وعائشة، وهؤلاء أعلم الصحابة. وقال الحافظ ابن المنذر: إنه لا يعرف عن أحد من الصحابة خلاف ذلك. فتبين أن الكتاب والسنة وعمل الصحابة وأقوالهم، وإن شئت قلت كما يقول الفقهاء إجماعهم على أن النكاح لا يصح بدون ولي، وجرى على هذا سلف الأمة وخلفها عملا حتى الحنفية الذين رووا عن أئمتهم في المسألة روايتين، ظاهر الرواية أن نكاح الحرة العاقلة البالغة ينعقد برضاها ولو بدون ولي. قال في الهداية: «وعن أبي يوسف أنه لا ينعقد بدون ولي، وعن محمد ينعقد موقوفا» وقولهما هو الموافق للأحاديث: فهل يصح أن يترك الحنفية هذا القول عندهم المؤيد بما رأيت من النصوص وعمل الصحابة، لأجل تلك الرواية المخالفة لذلك؟ تأمل وأنصف.

هذا هو شرع الله في المسألة، وحكمته ظاهرة، وشرحها بالتفصيل يتوقف على إعادة ما كتبناه غير مرة في استقلال النساء وولاية الرجال عليهن. ونقول هنا بالإيجاز: إن النساء كن قبل الإسلام، كالعبيد والماعون عند العرب وغيرهم، فرفعهن الله إلى مساواة الرجال في الحقوق والتصرف في الأموال، ولكنه جعلهن تحت ولاية الرجال، ولم يعطهن تمام الاستقلال، فأوجب أن يكون للمرأة قيم يسوسها، ولكن ليس له أن يتصرف في مالها ولا في نفسها، بدون إذنها ورضاها بالمعروف، وهذا القيم هو الأب ثم الأقرب فالأقرب من محارمها حتى تتزوج، فيكون الزوج هو القيم والرئيس عليها، فليس لها أن تنفصل من البيت موقتا بسفر بعيد بدون ذي محرم، وليس لها أن تنفصل منه بالمرة بالزواج، بدون إذن الأقرب فالأقرب من قوام البيت، فلابد من اتفاقها مع وليها في إنفاذ هذا الأمر الذي يهمه ويهمها، لأنها خلقت للقيام بأمر بيت، فإذا طلقها الزوج، فإنها تعود إلى بيت الولي، فلابد أن يكون للولي يد في اختيار الزوج لها، لئلا يلحقه من سوء اختيارها أذى أو عار. ولأنه أعرف بأحوال الرجال منها، وأبعد عن الهوى في الاختيار، ولأن من مقاصد المصاهرة، التآلف بين البيوت «العائلات» والعشائر، وانفراد المرأة باختيار الزوج ينافي ذلك ويكون سببا للعداوة والبغضاء. ولأنه ليس في اتفاق الولي معها، على انتقاء الزوج وتوليه العقد عنها أدنى هضم لحريتها، بعدما علم من اشتراط رضاها - ولهذا المعنى ورد في الأحاديث أيضا، طلب استئذان الأم والعلم برضاها - وما علم من تحريم العضل أي الامتناع من تزويجها بمن يليق بها، ويرجى أن يحسن عيشها معه، كما نطقت به النصوص السابقة. وإذا اتفق أنها إذا أرادت زوجا لم يرده هو بلا عذر، ككونه غير كفء يلحقه به العار هو وبيته، فقد جعل لها الشرع مخرجا برفع أمرها إلى الحاكم. فتبين بهذا أن اشتراط الولي مع رضى الزوجة في العقد، هو الذي يتم به نظام البيوت ويليق بكرامة النساء والرجال معا، وأن الخروج عنه خروج عن الشريعة والمصلحة جميعا. وأي فساد في العائلات أكبر من خروج العذارى من بيوتهن وعدم عودتهن إليها، لاختيارهن أزواجا يعقدن عليهم، ويدعن آباءهن وأهلهن في حيرة واضطراب، ويوقعن بينهم وبين الزوج وأهله العداوة والخصام، والله عليم حكيم!

﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

استفتاءات القراء

(الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين)

اطلعنا على الطلب المقدم من/ مجلة الأزهر - المتضمن لبعض الأسئلة وهي:

حكم قراءة القرآن بعد صلاة الفجر

ماهو الحكم الشرعي في قراءة القرآن والذكر بعد صلاة الفجر، جماعة وجهرًا؟

الجواب: ورد في السنة النبوية المطهرة الحث على ذكر الله تعالى بعد صلاة الفجر، ومن ذلك ما رواه الإمام الترمذي في جامعه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى الغداة في جماعة ثم قعد يذكر الله حتى تطلع الشمس ثم صلى ركعتين كانت له كأجر حجة وعمرة، تامة تامة تامة».

ومن أعظم الذكر قراءة القرآن الكريم، وقد ورد الأمر الشرعي بقراءته مطلقًا، والأمر المطلق يقتضي عموم الزمان والمكان والأشخاص والأحوال. فامتثاله يحصل بالقراءة فرادى أو جماعات، سرًا أو جهرًا، ولا يجوز تقييده بهيئة دون هيئة إلا بدليل، وكذلك الحال بالنسبة للذكر عمومًا.

وبناء على ذلك وفي واقعة السؤال: فلا مانع من الذكر وقراءة القرآن الكريم بعد صلاة الفجر، ولا بأس بالمواظبة على ذلك، ولكن الجهر بذلك في جماعة مشروط بموافقة القائمين على المسجد، ليتم ذلك بشكل ليس فيه تشويش على بقية الذاكرين وقراء كتاب الله تعالى، استرشادًا بالأدب النبوي الكريم في قوله ﷺ: «لا يجهر بعضكم على بعض بالقرآن» رواه الإمام مالك في «الموطأ» والإمام أحمد في «المسند».

والله سبحانه وتعالى أعلم

حكم اصطحاب الأطفال إلى المساجد

ما حكم اصطحاب الأطفال إلى المساجد؟

الجواب: اصطحاب الأطفال المميزين إلى المسجد هو أمر مستحب شرعًا، لتعويدهم على الصلاة، وتنشئتهم على حب هذه الأجواء الإيمانية التي يجتمع المسلمون فيها لعبادة الله تعالى، حتى يكون ذلك مكونًا من مكونات شخصيتهم بعد ذلك، وذلك مع الحرص على تعليمهم الأدب، ونهيهم عن التشويش على المصلين أو العبث في المسجد، على أن يكون ذلك برفق ورحمة، وأن يُتعامل مع الطفل بمنتهى



يجيب عنها فضيلة الأستاذ الدكتور
شوقي علام
مفتي جمهورية مصر العربية

الحلم وسعة الصدر من غير تخويف أو ترهيب له، فإن ردود الأفعال العنيفة التي قد يلقاها الطفل من بعض المصلين ربما تولد عنده صدمة أو خوفًا ورعبًا من هذا المكان، والأصل أن يتربى الطفل على أن المسجد مليء بالرحمات والنفحات والبركات، فيكبر على حب هذا المكان ويتعلق قلبه ببيت الله تعالى، كما جاء في حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله، حيث ذكر النبي ﷺ منهم: «ورجل قلبه معلق في المسجد» رواه البخاري.

وأما اصطحاب الأطفال الذين يعلم أو يغلب على الظن أن الواحد منهم لا ينكف عن التشويش وإلهاء المصلين إذا نهي عن ذلك فهو أمر مكروه شرعًا، وذلك للحفاظ على جو الهدوء المطلوب شرعًا في المسجد لحصول الخشوع الواجب أثناء الصلاة أو الخطبة، وللحفاظ كذلك على طهارة المسجد وسلامة محتوياته.

وقد استدل العلماء على جواز إحضار الأطفال عمومًا إلى المساجد بأحاديث، منها ما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يصلي وهو حامل أمامة بنت زينب بنت رسول الله ﷺ.

قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (١ / ٥٩٢ ط. دار المعرفة): «واستدل به على جواز إدخال الصبيان في المساجد» أ. هـ. بتصرف.

وأخرج الإمامان البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إني لأدخل في الصلاة وأنا أريد إطالتها، فأسمع بكاء الصبي، فأتجوز في صلاتي مما أعلم من شدة وجد أمه من بكائه».

كما أخرج الأئمة أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم عن بريدة رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يخطب، فأقبل الحسن والحسين رضي الله عنهما عليهما قميصان أحمران، يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما، واحدًا من ذا الشق، وواحدًا من ذا الشق، ثم صعد المنبر فقال: «صدق الله:

﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾

إني لما نظرت إلى هذين الغلامين يمشيان ويعثران لم أصبر أن قطعت كلامي ونزلت إليهما».

ومن هذه الأحاديث أخذ العلماء جواز إحضار الأطفال للمسجد، واستثنوا منهم من كان لا

يتنهى عن التشويش على المصلين إذا نهي عنه، فبينوا مشروعية منعهم من دخول المساجد، على أن يكون ذلك المنع بالرفق والرحمة.

قال الإمام الأبي الأزهري المالكي في «جواهر الإكليل شرح مختصر خليل» ١/ ٨٠، ط. دار الفكر»: «(و) جاز «إحضار صبي به لا يعبث ويكف» عن العبث «إذا نهي» عنه، فإن كان شأنه العبث أو عدم الكف فلا يجوز إحضاره به، لحديث جنبوا مساجدكم مجانينكم وصبيانكم» أ. هـ.

وقال الإمام الشوكاني في «نيل الأوطار» ٢/ ١٤٤، ط. دار الحديث»: «وفيه جواز إدخال الصبيان المساجد. وقد أخرج الطبراني من حديث معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: «جنبوا مساجدكم صبيانكم وخصوماتكم وحدودكم وشراءكم وبيعكم وجمروها يوم جمعكم واجعلوا على أبوابها مطاهركم» ولكن الراوي له عن معاذ مكحول وهو لم يسمع منه، وأخرج ابن ماجه من حديث واثلة بن الأسقع أن النبي ﷺ قال: «جنبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم وشراءكم وبيعكم وخصوماتكم ورفع أصواتكم وإقامة حدودكم وسل سيوفكم واتخذوا على أبوابها المطاهر وجمروها في الجمع» وفي إسناده الحارث بن شهاب وهو ضعيف. وقد عارض هذين الحديثين الضعيفين حديث أمامة المتقدم وهو متفق عليه. وحديث الباب وحديث أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إني لأسمع بكاء الصبي وأنا في الصلاة فأخفف، مخافة أن تفتتن أمه» وهو متفق عليه فيجمع بين الأحاديث بحمل الأمر بالتجنيب على الندب كما قال العراقي في «شرح الترمذي»، أو بأنها تنزه المساجد عمن لا يؤمن حدثه فيها» أ. هـ.

وقال العلامة الإمام النووي الشافعي في «المجموع شرح المهذب» ٢/ ١٧٦، ط. دار الفكر»: «قال المتولي وغيره: يكره إدخال البهائم والمجانين والصبيان الذين لا يميزون المسجد، لأنه لا يؤمن تلويثهم إياه، ولا يحرم ذلك، لأنه ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ حمل أمامة بنت زينب رضي الله عنهما وطاف على بعيره، ولا ينفي هذا الكراهة، لأنه ﷺ فعله لبيان الجواز فيكون حينئذ أفضل في حقه فإن البيان واجب» أ. هـ.

وبناء على ذلك: فإنه لا مانع شرعًا من اصطحاب الصبيان المميزين إلى المساجد، لتعويدهم على الصلاة، وتنشئتهم على حب الأجواء الإيمانية، وأما من يعلم منهم عدم الانتهاء عن التشويش وإلهاء المصلين فيكره اصطحابهم إلى المساجد، حفاظًا على مقصود الخشوع في الصلاة، مع الالتزام بالرفق وعدم العنف في إرشادهم إذا تم اصطحابهم.

والله سبحانه وتعالى أعلم.

زكاة المال على شهادات الاستثمار

أرجو إفادتنا عن زكاة المال على شهادات الاستثمار المحددة بمدة عشر أو خمس سنوات، فهل تستخرج زكاة المال على قيمة الشهادة والفائدة عندما يحول عليها الحول أم تستخرج على الفائدة فقط وتستخرج الزكاة على أصل الشهادة حين انتهاء مدتها؟

الجواب: زكاة المال المودع في البنوك على هيئة ودائع أو شهادات تكون بمقدار ربع العشر على المال المودع في البنك مضافًا إليه الأرباح، إذا حال عليه الحول القمري وكان بالغًا للنصاب.

والله سبحانه وتعالى أعلم.

مدى مشروعية تولى المرأة رئاسة الدولة فى الفقه الإسلامى

د. حلمي عبدالحكيم الفقي

تعريف الإمامة العظمى، وشروطها، والفرق بينها وبين رئاسة الدولة

تعريف الإمامة العظمى: ساق علماؤنا الكرام تعريفات عديدة للإمامة العظمى، نكتفي هنا بذكر أشهرها:

١- تعريف الماوردي (٣٦٤- ٤٥٠هـ، ٩٧٤- ١٠٥٨م):

يرى الماوردي أن الإمامة العظمى هي: خلافة النبوة في حراسة الدين، وسياسة الدنيا[1]

ويفيد هذا التعريف تفرد الشريعة الإسلامية وتميزها من بين سائر الشرائع بإيجابها على الحاكم أن يهتم ببناء الضمائر، وتنمية الوازع الديني في قلوب الجماهير، ليكون ذلك الضمانة الأولى لتنفيذ القوانين والسير بالأمة إلى قيادة ركب الحضارة الإنسانية نحو الرخاء والرفاهية والتقدم بشقيه المادي والمعنوي.

٢- تعريف إمام الحرمين الجويني (٤١٩- ٤٧٨هـ= ١٠٢٨- ١٠٨٥م):

الإمامة رياسة تامة، وزعامة عامة، تتعلق بالخاصة والعامة، في مهمات الدين والدنيا[2].

٣- تعريف التفتازاني (٧١٢- ٧٩٣هـ= ١٣١٢- ١٣٩٠م):

الإمامة رئاسة عامة في أمر الدين والدنيا، خلافة عن النبي ﷺ[3]، وهذا التعريف قريب من تعريف الماوردي، ولا خلاف بينهما، لأن النبي ﷺ كان نبيًا مرسلاً، وحاكمًا موفقًا لأمة كانت أفضل الأمم في تقديم النموذج الحضاري الكامل بشقيه المعنوي والمادي للإنسانية كلها.

والتعريفات الثلاث تفيد معنى واحدًا هو أن الإمام الأعظم هو: رئيس المسلمين في شتى أقطار الدنيا ومدبر أمور دينهم ودنياهم.

أما رئيس الدولة: فمنصب دون منصب الإمام الأعظم فهو الشخص الذي يقبض على أزمة الأمور في قطر أو بلد من البلدان[4].

هل يوجد فرق بين رئاسة الدولة والإمامة العظمى؟ ذهب كثير من العلماء المعاصرين إلى أن الإمامة العظمى غير رئاسة الدولة ومن هؤلاء الدكتور يوسف القرضاوي[5]، والدكتور محمد عمارة[6]، والشيخ محمد الغزالي[7]، وكثير غيرهم، وهذا ما أرجحه حيث أن الإمام الأعظم هو منصب واحد لجميع

١- انظر الأحكام السلطانية للماوردي ص٣، دار الوفاء بالمنصورة، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م.
٢- انظر غياث الأمم في التياث الظلم، لإمام الحرمين الجويني، ص ٢٢، مكتبة إمام الحرمين، الطبعة الثانية، عام ١٤٠١هـ.
٣- انظر رئاسة الدولة في الفقه الإسلامي ص ٥٠، رسالة دكتوراه للدكتور محمد رأفت عثمان، دار الكتاب الجامعي القاهرة.
٤- انظر اختصاصات السلطة التنفيذية في الشريعة الإسلامية والنظم الدستورية المعاصرة ص ٢٣ د/ إسماعيل البدوي، دار النهضة، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م.
٥- انظر فتاوى معاصرة ٢/٣٨٨، للدكتور يوسف القرضاوي، طبعة دار الوفاء المنصورة، الطبعة الثالثة ١٤١٥هـ.
٦- انظر التحرير الإسلامي للمرأة، الرد على شبهات الغلاة للدكتور/ محمد عمارة ص ١٠٤، ط دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ- ٢٠٠٢م.
٧- انظر السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، ص ٥٦ وما بعدها، طبعة دار الشروق القاهرة، الطبعة السادسة، بلا سنة.

المسلمين فى الدنيا كلها مهمته القيام على سائر أمور المسلمين الدينية والدنيوية، ولا يجوز أن يوجد أكثر من إمام فى وقت واحد، مهما تناءت الديار، وتباعدت الأقطار.

أما رئيس الدولة فهو منصب أقل من منصب الإمام الأعظم فهو يعد- أى رئيس الدولة- كأحد الولاة عند الإمام الأعظم فى عصر وحدة الدولة الإسلامية ويجوز تعدده بتعدد الدول بخلاف الإمام الأعظم.

نظام الحكم فى الأنظمة الدستورية المعاصرة

١- نظام الحكم الرئاسي: ويقوم على حصر السلطة التنفيذية بيد رئيس الدولة، كما يقوم على الفصل التام بين السلطات، فرئيس الدولة منتخب من قبل الأمة التى هى مصدر السلطات، وهو الذى يرأس الحكومة، ويمارس سلطاته بنفسه، وهو الذى يختار وزراءه الذين يقومون بتنفيذ السياسة العامة التى يرسمها لهم[٨].

٢- النظام البرلماني: ورئيس الدولة فى هذا النظام منصب شرفي، وتقوم الحكومة المختارة من حزب الأغلبية داخل البرلمان بممارسة السلطة الفعلية وتكون مسئولة عنها أمام البرلمان[٩].

٣- الملكية المطلقة: وتتمركز السلطة الفعلية فيها فى يد الملك وغير مسموح فيها بالمشاركة من القوى الموجودة فى الشارع السياسي[١٠].

٤- الملكية الدستورية: وأفضل نموذج لها بريطانيا الملكية فصاحب الجلالة يملك اسميا ولا يحكم فعليا، فالنظام برلماني بالدرجة الأولي، إذ يتمتع رئيس الوزراء بالصلاحيات التنفيذية الرئيسية فى الدولة[١١].

الشروط الواجب توافرها فى رئيس الدولة

سأتناول هنا على سبيل الإجمال الشروط التى اشترطها الفقهاء فى الشخص الذى يتولى رئاسة الدولة وأوضح هنا نقطتين:

- الأولى: أن بعض الفقهاء ومنهم الأستاذ عبدالقادر عودة[١٢] والأستاذ الدكتور محمد رأفت[١٣] عثمان يقولون إن رئيس الدولة مرادف للإمام الأعظم ولكن الذى نختاره كما ذكرنا من قبل أن الإمام الأعظم منصب أعلى من منصب رئيس الدولة فهما متغايران ومختلفان.
- الثانية: أن الدولة الإسلامية هى دولة مدنية وليست دولة ثيوقراطية أو دينية[١٤] كما يحلو للبعض أن يصفها بذلك، فالأمة هى مصدر السلطات فى الدولة الإسلامية، والأمة هى التى تمنح الحاكم الشرعية، وهى التى تنزعها منه إذا خالف مبادئ الشريعة الغراء. ويجب على الأمة حين تختار رئيسها أو أى مسئول فيها، أن تختار الأكفأ والأجدر والأصلح لتولى شئون الحكم ومقاليد السلطة فى البلاد فيجب على الناخب حين الاختيار والانتخاب أن يتجرد من كل نوازع القرابة، والقبيلة، والصداقة، والجيرة وأن يتجرد من كل غرض، وأن يخلص نيته لله عز وجل ولا يختار إلا الأكفأ والأصلح للمنصب محل الانتخاب، وللكفاءة فى معيار الشرع أساسان مهمان بينهما القرآن الكريم فى قوله تعالي:

﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ (القصص ٢٦)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١- ٧٢٨هـ = ١٢٦٣- ١٣٢٨م): الولاية لها ركنان: القوة، والأمانة فالقوة فى الحكم: ترجع إلى العلم بالعدل، وتنفيذ الحكم. والأمانة: ترجع إلى خشية الله عز وجل. قال: وهذه الشروط تعتبر حسب الإمكان. ويجب تولية الأمثل فالأمثل. قال: وعلى هذا يدل كلام الإمام أحمد- رحمه الله- (١٦٤- ٢٤١ هـ = ٧٨٠- ٨٥٥م) وغيره. فيولى للعدم: أنفع الفاسقين- وأقلهما شر، وأعدل المقلدين وأعرفهما بالتقليد[١٥].

ولكى يحض الرسول- ﷺ- المؤمنين على مراعاة الدقة فى الاختيار فقد روى عبدالله بن عباس- رضى الله عنهما- (٣ ق هـ- ٦٨هـ = ٦١٩- ٦٨٧م) أن رسول الله ﷺ- قال:

(من استعمل رجلا من عصابة وفى تلك العصابة من هو أرضى لله منه فقد خان الله وخان رسوله وخان المؤمنين)[١٦].

أما عن الشروط التى يجب توافرها فى رئيس الدولة فقد ذكر الماوردى فى الأحكام السلطانية[١٧] شروط الإمام فقال:

وأما أهل الإمامة فالشروط المعتبرة فيهم سبعة:

- أحدها: العدالة على شروطها الجامعة.
- والثاني: العلم المؤدى إلى الاجتهاد فى النوازل والأحكام.
- والثالث: سلامة الحواس من السمع والبصر واللسان ليصح معها مباشرة ما يدرك بها.
- والرابع: سلامة الأعضاء من نقص يمنع عن استيفاء الحركة وسرعة النهوض.
- والخامس: الرأى المفضى إلى سياسة الرعية وتدبير مصالح الأمة.
- والسادس: الشجاعة والنجدة المؤدية إلى حماية البيضة، وجهاد العدو.
- والسابع: النسب وهو أن يكون من قريش لورود النص والإجماع المنعقد على ذلك.

وقال أبو يعلى الحنبلى (٣٨٠- ٤٥٨ هـ = ٩٩٠- ١٠٦٦م) فى الأحكام السلطانية[١٨]:

وأما أهل الإمامة فيعتبر فيهم أربع شروط:

- أحدها: أن يكون قرشيا من الصميم وهو من يكون من ولد قريش بن بدر بن النضر دليل بنى كنانة، وقد قال أحمد فى رواية مهنا: (لا يكون من غير قريش خليفة).
- والثاني: أن يكون على صفة من يصلح أن يكون قاضيا من الحرية، والبلوغ، والعقل، والعلم، والعدالة.
- والثالث: أن يكون قيما بأمر الحرب والسياسة، لا تلحقه فى ذلك رأفة، والذب عن الأمة.
- والرابع: أن يكون من أفضلهم فى العلم والدين.

وقال العلامة ابن خلدون (٧٣٢- ٨٠٨ هـ = ١٣٣٢- ١٤٠٦م) فى مقدمته[١٩]:

وأما شروط هذا المنصب فهى أربعة: (العلم والعدالة والكفاية وسلامة الحواس والأعضاء مما يؤثر فى الرأى والعمل واختلف فى شرط خامس وهو النسب القرشي).

ويقول الدكتور محمد رأفت عثمان[٢٠]: (ويشترط فى الإمام الذكورة، وقد اشترطها العلماء بالإجماع فيمن يرشح لتولى منصب رئاسة الدولة)

والناظر فيما ذكره هؤلاء القمم يجد أنهم لم يتعرضوا لشرط الذكورة، باستثناء أستاذنا الدكتور محمد رأفت عثمان، وقد حكى الإجماع فى اشتراط الذكورة، وسأبين فيما بعد أن اشتراط الذكورة فى كثير من كتب السياسة الشرعية، وفى تراثنا الفقهى العظيم مرده إلى التأثر بالواقع أكثر من التأثر بنصوص الشرع وروحه ومقاصده.

يتبع

=طبع وانظر سر تأخر العرب والمسلمين، للشيخ محمد الغزالي، ص ٤٨ طبعة دار الريان للتراث، القاهرة ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧م.

٨- انظر الدولة المصرية والرؤية العصرية ٢٦٦ للدكتور مصطفى الفقي، الهيئة العامة للكتاب طبعة ٢٠٠٧م.

٩- انظر نفس المرجع السابق والصفحة.

١٠- انظر نفس المرجع السابق والصفحة.

١١- انظر نفس المرجع السابق والصفحة.

١٢- انظر الإسلام وأوضاعنا السياسية لعبد القادر عودة، ص ١٣٥، طبعة مؤسسة الرسالة، بيروت لبنان، ١٤٠١هـ ١٩٨١م.

١٣- انظر رياسة الدولة فى الفقه الإسلامي، ص أ، ب، وص ٤٨، طبعة دار الكتاب الجامعي، القاهرة، وانظر أيضا فى هذا المعنى كتاب السياسة الشرعية ٩٠/١، ٤ مناهج جامعة المدينة العالمية بماليزيا.

١٤- الدولة الدينية أو الثيوقراطية: تكون الدولة دينية أو ثيوقراطية بهذا المعنى الغربى إذا كان حاكمها أو حكامها يزعمون أنهم يصدرون فى كل ما يقولون ويفعلون عن وحى من الله إليهم مباشرة، ولذلك لا يمكن مناقشتهم أو محاسبتهم.
انظر معجم اللغة العربية المعاصرة ٣٠٨/١، د/ أحمد مختار عمر، الطبعة الأولي، ١٤٢٩ هـ ٢٠٠٨م، الناشر عالم الكتب.
وانظر طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد لعبد الرحمن الكواكبي، ص٢٣، ٢٤، هدية مجلة الأزهر لشهر ذى الحجة ١٤٣٢هـ.

١٥- انظر السياسة الشرعية لابن تيمية ص١٢، ط وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالسعودية، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.

١٦- رواه الحاكم فى المستدرك على الصحيحين ١٠٤/٤ حديث رقم ٧٠٢٣، وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يتعرض له الذهبي المستدرك ط دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولي ١٤١١هـ ١٩٩٠م تحقيق مصطفى عبدالقادر عطا والبيهقى فى السنن الكبرى فى كتاب آداب القاضي باب لا يولى الوالي امرأة ولا فاسقا ولا جاهلا ٢٠١/١٠ حديث رقم ٢٠٣٦٤، ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان الطبعة الثالثة ١٤٢٤ هـ ٢٠٠٣م.

١٧- انظر الأحكام السلطانية للماوردى ص ٥ مرجع سابق.

١٨- انظر الأحكام السلطانية لأبى يعلى الحنبلي ص٢٠، ط دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م تحقيق محمد حامد الفقي.

١٩- انظر تاريخ ابن خلدون ٢٤١/١، ط دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٨ هـ.

٢٠- انظر رئاسة الدولة فى الفقه الإسلامى ص ١٣٠ رسالة دكتوراه للدكتور محمد رأفت عثمان مرجع سابق

أولو الأمر في القرآن الكريم



لفضيلة الشيخ/ معوض عوض إبراهيم

القرآن الكريم كلام رب العالمين:

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾

(النساء: ٨٧)

وصدق رسول الله ﷺ في قوله: «فيه نبأ من قبلكم، وخبر من بعدكم وحكم ما بينكم، وهو حبل الله الذي يقول:

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾

(آل عمران: ١٠٣)

ومن قال إن حبل الله هو دينه تبارك وتعالى فإن القرآن الكريم هو جماع الدين وعين اليقين، والله تعالى يقول:

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾

(الإسراء: ٩)

والمؤمن يقرأ في صدر سورة الرحمن:

﴿الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾

وفي الآيات امتنان الله عزوجل علينا بأنه تعالى علم القرآن قبل أية منة وأي عطاء، وما أمر الله عزوجل في كتابه الكريم إلا بخير، ولا نهى إلا عن شر، وحسبنا في ذلك قوله تبارك وتعالى:

﴿۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

(النحل: ٩٠)

فقد جمع سبحانه وتعالى كل ما أمر به في العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وجمع كل مانهى عنه في الفحشاء والمنكر والبغي وعلى رأس ما ينبغي لله عزوجل طاعة أمره وإفراده بالعبادة دون سواه، قال تعالى:

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾

(البينة: ٥)

وما من نبي ولا رسول إلا كان على رأس ما دعا إليه قومه:

﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾

(الأعراف: ٨٥)

قالها نوح عليه السلام في عديد من سور القرآن الكريم، وقالها أبو الأنبياء إبراهيم، وقالها الكليم موسى بعد أن قال الله تعالى له:

﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾

(طه: ١٤)

وقال عيسى عليه السلام:

﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ﴾

(مريم: ٣٠)

وجاء القرآن الكريم بسورة الإخلاص، وما أراد الله من عباده أن يكونوا عليه في قوله تعالى:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾

وقد وردت عدة أحاديث عن فضل هذه السورة فمنها ما جاء في صحيح البخاري:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كَانَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ يَؤُمُّهُمْ فِي مَسْجِدِ قُبَاءٍ، وَكَانَ كُلَّمَا افْتَتَحَ سُورَةً يَقْرَأُ بِهَا لَهُمْ فِي الصَّلاَةِ مِمَّا يَقْرَأُ بِهِ افْتَتَحَ: بِقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ حَتَّى يَفْرُغَ مِنْهَا، ثُمَّ يَقْرَأُ سُورَةً أُخْرَى مَعَهَا، وَكَانَ يَصْنَعُ ذَلِكَ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ، فَكَلَّمَهُ أَصْحَابُهُ، فَقَالُوا: إِنَّكَ تَفْتَتِحُ بِهَذِهِ السُّورَةِ، ثُمَّ لاَ تَرَى أَنَّهَا تُجْزِئُكَ حَتَّى تَقْرَأَ بِأُخْرَى، فَإِمَّا تَقْرَأُ بِهَا وَإِمَّا أَنْ تَدَعَهَا، وَتَقْرَأَ بِأُخْرَى فَقَالَ: مَا أَنَا بِتَارِكِهَا، إِنْ أَحْبَبْتُمْ أَنْ أَؤُمَّكُمْ بِذَلِكَ فَعَلْتُ، وَإِنْ كَرِهْتُمْ تَرَكْتُكُمْ، وَكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْ أَفْضَلِهِمْ، وَكَرِهُوا أَنْ يَؤُمَّهُمْ غَيْرُهُ، فَلَمَّا أَتَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَخْبَرُوهُ الخَبَرَ، فَقَالَ: «يَا فُلاَنُ، مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَفْعَلَ مَا يَأْمُرُكَ بِهِ أَصْحَابُكَ، وَمَا يَحْمِلُكَ عَلَى لُزُومِ هَذِهِ السُّورَةِ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ» فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّهَا، فَقَالَ: «حُبُّكَ إِيَّاهَا أَدْخَلَكَ الجَنَّةَ»، والله تعالى يقول:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾

(النساء: ٥٩)

والآية قد تقدمتها قوله تعالى:

﴿۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾

(النساء: ٥٨)

وإذا كانت رعاية الأمانة مما يُرعى ويجب التزامه فيما بيننا وبين الناس وكان من الحق إن حكمنا بين الناس أن يكون العدل سبيلنا إلى صفو العيش ورغد الحياة والتناجي بالبر والتقوى مع غيرنا كانت طاعة الله وطاعة رسوله وما عُطف عليهما من طاعة ولي الأمر من أوجب الواجبات وأولى الحقوق، فطاعة الله عزوجل أولى حقوقه على عباده، وطاعة رسوله صلوات الله عليه هي كما قال الله تعالى:

﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾

(النساء: ٨٠)

وقوله تعالى:

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

(آل عمران: ٣١)

وكان شرفا لأولي الأمر أن يوجب الله تعالى طاعتهم والارتفاع عن مخالفتهم، فمن يكونوا أولي الأمر الذين رفعهم الله إلى ذلك المستوى؟ أهم صحابة النبي عليه الصلاة والسلام بعامة، أم هم أبو بكر وعمر بخاصة أم هم العلماء أم هم الأمراء، ولا طاعة لأمير إلا في معروف وإن كان من العلماء من رأوا طاعة الحاكم دفعا لشره والتماسا للنجاة من مكايده وآثامه، ولقد نوه القرآن الكريم بأولي الأبصار وأولي العلم وأولي الألباب وأولي النهى في سور متعددة من كتاب الله تعالى، كما نوه بقوله ﴿وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾، وقيد ﴿مِنْكُمْ﴾ تدفع كل خلاف في أولي الأمر الذين عطفهم الله عزوجل على من ناداهم بقوله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾

(النساء: ٥٩)

ورحم الله عبدالله بن عمر بن الخطاب، فقد قال «إذا رأيت الله عزوجل ينادي يأيها الذين آمنوا فأرعها سمعك فإنه خير تؤمر به أو شر تنهى عنه».

فاللهم أرنا الخير خيرا وأعنا على التزامه وحل بيننا وبين الشر على كل حال، إنك رب كل ذلك والقادر عليه، وأنت حسبنا ونعم الوكيل.

الفقه الإسلامي فى طريق التجديد



أ.د/ محمد سليم العوا



المسألة الأولى التى يجب تحرير القول فيها ونحن نبحث فى حاجتنا إلى فقه جديد هى مسألة الاجتهاد. وهى مسألة مبدئية وأصولية فى الوقت نفسه.

فهى مسألة مبدئية لأنها الأساس الذى إن اتفقنا عليه كانت الخلافات بعده كلها محتملة لأنها نتيجة الرأى والنظر وهما أمران لا يجوز لأحد أن يحجر فيهما على أحد أو يمنعه من ممارستهما... حتى قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لمن طلب منه نقض قضاء قضى به عليّ بن أبى طالب: «لو كنت أردك إلى كتاب الله أو سنة رسوله لفعلت. ولكنى أردك إلى رأيى، والرأى مشترك» أى لا فضل فيه لأحد على أحد.

وهى مسألة أصولية لأن موضع بحثها هو علم أصول الفقه الذى يهتدى طلاب العلم الشرعى بقواعده، وبحوث العلماء الأعلام فيه، لمعرفة الطرق المقبولة فى الفقه الإسلامى للنظر فى أدلة الأحكام من القرآن والسنة والإجماع والقياس والاستحسان والعرف والمصالح بأنواعها... ثم الوصول من هذا النظر إلى «الرأى» الذى هو فتوى الفقيه واجتهاد المجتهد وقضاء القاضى فى كل مسألة تعرض على واحد منهم.

وأصل الاجتهاد مقرر فى الشريعة بفعل النبى ﷺ نفسه، وبأمره أصحابه بالاجتهاد فى حضرته، وبإقراره اجتهاد من اجتهد منهم فى غيبته، ووقائع فى ذلك مذكورة بالتفصيل فى كتب أصول الفقه وفى كتب تاريخ التشريع وفى كتب عديدة خصصها مؤلفوها لموضوع الاجتهاد دون سواه.

ولعل من أقوى الأدلة على مشروعية الاجتهاد الحديث الصحيح - بل المتفق عليه - الذى قال فيه رسول الله ﷺ لعمرو بن العاص: «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر»(١).

وقد كان هذا الحديث وأشباهه فى المعنى من أعظم الدواعى إلى نشوء تلك الثروة الفقهية العظيمة عند المسلمين، وإلى ممارسة الاجتهاد الفردى، على طول التاريخ، طمعًا فى الأجر أو الأجرين.

وفى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى نشأ القول بمنع الاجتهاد وعرفت المسألة باسم: «قفل باب الاجتهاد». وقيل بعد ذلك بوجوب التقليد مطلقًا دون تحديد من الذى يجب تقليده

١ - الحاكم: القاضى. وينطبق الحكم الوارد فى الحديث على كل مجتهد ولو لم يكن قاضيا فى خصومة معينة.

من العلماء.. ثم تطور الأمر إلى القول بوجوب تقليد واحد من الأئمة الأربعة.

وواجب تقليد حبر منهم، كما حكى القوم بلفظ يفهم.

بل قال بعض الغلاة من المقلدين: إن التقليد واجب لإمامهم وحده دون سائر الأربعة المتبوعين...!!

وعلى الرغم من أن مسألة القول بقفل باب الاجتهاد لم يرد فيها نص من الكتاب ولا السنة، فقد لجأ إليها القائلون بها من العلماء لأسباب من أهمها: تدوين المذاهب وتكامل نصوص مؤسسيها وأتباعهم، والضعف السياسى الذى أصاب هيكل الدولة الإسلامية فتفتت إلى دويلات متنافسة، وتولية القضاء لأتباع المذاهب فشاع تقليدها طمعًا فى الولايات الدنيوية.

وأهم من ذلك كله أن العلماء وجدوا من لم يتأهلوا للاجتهاد يدعون أنهم مجتهدون ويفتون الناس بآرائهم «كما يحدث اليوم فى بقاع كثيرة من الوطن الإسلامى» فأرادوا سدّ الطريق أمام هؤلاء المدعين فقالوا بقفل باب الاجتهاد، بل قالوا بأن هذا محل «إجماع».

فلم يكن الذين قالوا بمنع الاجتهاد من أعداء الأمة أو أعداء الدين - كما يقول بعض الكاتبين العصريين - ولكنهم كانوا فقهاء أرادوا تحقيق هدف نبيل لكنهم أخطئوا الطريق إليه. أرادوا منع أولئك المدعين من إضلال العباد باجتهادهم المزعوم، وأخطئوا بادعاء ما ليس لهم أن يدّعوه.

ومع ذلك فإن هذا العمل لم يمنع العلماء فى كل عصر من الاجتهاد فى الجديد من الوقائع التى تعرض عليهم. وكتب الفتاوى فى المذاهب المختلفة، وكتب الفتاوى التى لا يلتزم أصحابها مذهبًا بعينه، دليل حى على ذلك.

ودعوى «قفل باب الاجتهاد» - كما يقول شيخنا العلامة محمد مصطفى شلبى رحمه الله - تحمل فى طياتها دليل بطلانها. فالقول بذلك قول بالاجتهاد، إذ ليس فى القرآن أو السنة دليل يُستند إليه فيه. وكل مسألة لا دليل لها من القرآن أو السنة - فضلاً عما لا يحصى من المسائل التى تحتمل أدلتها الاجتهاد - فسبيل القول فيها هو الاجتهاد.

فإذا كان القائلون بهذا «المنع» من الاجتهاد، أو بقفل بابه، من المجتهدين فقولهم يرده مجرد وجودهم. إذ المجتهد لا يجوز له تقليد غيره. إذ لا يسع المجتهد - كما يقول الشافعى رحمه الله - إلا العمل بما أداه إليه اجتهاده. وليس له أن يعمل بما قال به غيره من المجتهدين خلافًا لرأيه.

وإذا كان القائلون بالمنع من الاجتهاد من المقلدين، فكلامهم مردود بأنهم لا يملكون القول فى مسائل الاجتهاد أصلاً، وكل قول لهم فيها غير مقبول ولا حجة فيه.

لذلك فإن الصحيح الذى يذهب إليه الفقه العصرى، بلسان أعلامه وأقلامهم، أن الاجتهاد باق ما بقى الإسلام نفسه. لا يملك أحد منع من استكمل التأهل له من ممارسته.

والصحيح أن مذاهب الفقه الإسلامى غير محصورة فى المذاهب الأربعة السنية المشهورة (الحنفى والمالكى والشافعى والحنبلي)، بل هى تتعدد بتعدد المجتهدين، فقد عاصر المؤسسين لهذه المذاهب أعلام نظراء لهم، بل لعل بعضهم كان أفقه وأعلم من بعض هؤلاء... فقد قال الشافعى رحمه الله عن إمام مصر الليث بن سعد: «الليث أفقه من مالك، لكن أصحابه لم يقوموا به» يعنى لم يعتنوا بآرائه ومسائله ورواياته مثل اعتناء أصحاب مالك بذلك كله.

ولم يدْعُ الأربعة ـ ولا غيرهم ـ العصمة أو وجوب تقليدهم، بل نهوا كلهم عن ذلك نهيًا شديدًا. وليس في القرآن أو السنة دليل واحد على وجوب تقليد مذهب بعينه. والصحيح أن يسأل الناس من وجدوه من أهل العلم والورع دون بحث عن مذهبه أو تعصب عرقي أو فقهي.

ولأن المقام لا يتسع ـ ولا يصلح ـ لبيان تفصيلي في هذه المسألة فإننا نحيل القارئ إلى فتاوى الأعلام المعاصرين: (محمد عبده والمراغي وشلتوت ومحمد مصطفى شلبي ومحمد يوسف موسى ومحمد أبو زهرة ومصطفى عبدالرازق وعلي الخفيف ومئات من نظرائهم) من قضية الاجتهاد ووجوبه في كل عصر.

● الاجتهاد الذي أمرت به نصوص عديدة من القرآن والسنة معناه بذل الجهد العقلي والفكري في التعرف على الحكم الشرعي لما يعرض للفقيه أو المفتي أو القاضي من مسائل.

والعقول متفاوتة في استخلاص المعاني من النصوص، ومتفاوته في إدراك المصالح والمفاسد والمنافع والمضار، وهي لذلك تصل إلى نتائج متباينة في الطرف الواحد، وهي تنظر في مرجعية واحدة من نصوص الكتاب والسنة، وترمي إلى تحقيق هدف واحد هو تحصيل المصلحة ودرء المفسدة.

والخلاف الذي يقع لهذه الأسباب لا ضرر فيه ولا بأس على الناس منه، إنما الضرر كل الضرر في التعصب للآراء والأفكار والمذاهب والفتاوى تعصبًا يجعل أصحابها يظنون أنهم يحتكرون الحقيقة وحدهم، ويملكون مفاتح الحكمة التي حرم من مثلها غيرهم، ويصيبون دائمًا ويخطئ من سواهم.

وهذا التعصب المذموم ينتقده الأئمة الأعلام على مر العصور، فقد حفظ الناس من كلام الإمام أبي حنيفة النعمان ـ رحمه الله تعالى ـ أنه سئل عن قوله: أهو الحق الذي لا ريب فيه؟ فقال لسائله: والله لا أدري لعله الباطل الذي لا ريب فيه.

وحفظوا من كلام إمام دار الهجرة مالك بن أنس ـ رحمه الله ـ قوله:

«إنما أنا بشر أخطئ وأصيب، فانظروا في رأيي، فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوه، وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه».

وكان الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ ينهى عن تقليده وتقليد غيره.

وكان الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ يقول: «لا تقلدني ولا تقلد مالكا ولا الشافعي ولا الأوزاعي ولا الثوري، وخذ من حيث أخذوا». أي من الكتاب والسنة.

وقد كان أصحاب النبي ﷺ والتابعون من بعدهم، ثم العلماء والمجتهدون يختلفون في الرأي، ويناقش بعضهم بعضًا، فإن اتفقوا بعد المناقشة فرحوا بذلك، وإن لم يقنع أحدهما صاحبه لم يكن لذلك من أثر في تقدير أحدهما للآخر، واحترامه إياه والتماسه العذر له فيما يختلفان فيه، بل كان بعضهم يؤنب من يسأله في مسألة خلافية، فقال الشافعي لرجل سأله عن مسألة خلافية بينه وبين أبي حنيفة: «أتريدني ألا أصلي خلف أبي حنيفة؟!» وكفى بذلك تقريعًا لمثيري الفتنة وباعثي الخلافات بعصبية وضيق أفق.

وجمود العلماء على نقل آراء أصحاب الكتب المذهبية دون نظر في صحة الآراء أو خطئها، ودون بحث في مدى قوة الدليل الذي يستند إليه كل قول أو ضعفه، واكتفاؤهم بالإحالة إلى أقوال مؤلفي هذه الكتب وكأنها هي الوحي المعصوم، كل ذلك غير جائز.

وما أجمل قول العلامة الشيخ عبدالجليل عيسى، في مقدمة كتابه ـ صغير الحجم جليل النفع ـ «ما لا يجوز فيه الخلاف بين المسلمين» قال: «لا يصح لنا اليوم أن تعذر أحدًا في السير وراء المتأخرين، والجمود على آراء الغير، واعتبارها كأنها تنزيل من حكيم عليم، خصوصًا إذا قارن ذلك هجر كتب السلف الأول.. (وقد) استغل ذلك بعض سيئي القصد في الطعن واللمز في أصل الشريعة نفسها». (٢)

والعودة إلى الاجتهاد المشروع، والدفاع عن حق العلماء ـ بل عن واجبهم ـ في ممارسته تقضي على داء التعصب الذميم، وتفتح الآفاق التي تعيد إلى الناس الشعور بسماحة الإسلام واتساع نظرته إلى الحق في البحث والتفكير والتعبير، وهو حق يقابله مقابلة حتمية الاعتراف بالحق في النقد والرد والتعقيب والمناقشة، ومن خلال الفعل ورد الفعل تتضح الحقيقة، ويختار كل إنسان على بصيرة ما يقبله ويرده من أقوال القائلين وآرائهم.

ومن أعجب الآفات التي تعاني منها مجتمعاتنا العربية اليوم آفة طلب كل ذي رأي أن يكون له الحق والحرية في إبداء رأيه وإعلانه والدعوة إليه، ثم حجره هو نفسه على الآخرين أن يتمتعوا بمثل هذا الحق وأن يمارسوا مثل تلك الحرية.

والإيمان بالحق في الاجتهاد يقضي على هذه الآفة ويحاصرها ويمنع انتشارها ويئد مضارها الكثيرة، وأخطرها نشوء أجيال من المتعصبين الذين لا يرون إلا رأيهم ولا يسلمون إلا بحقوق أنفسهم، وهؤلاء هم وقود الغلو (الذي يسميه الناس تطرفا) الذي يقضي في نهاية مطافه على الأخضر واليابس من حياتنا الفكرية والثقافية.

والقضايا التي تحتاج إلى اجتهاد جديد لا تحصى، وهي لا تتوقف عن الحدوث لأنها نتيجة طبيعية لسير الحياة البشرية كل يوم إلى طور جديد لم يكن معروفًا في الأمس، بل ربما كان بعض أطوارها الجديدة بعيدًا حتى عن الخيال.

فهل يعقل أن يقف الدين الصالح لكل زمان ومكان عاجزًا عن مواجهة هذه الأطوار الجديدة باجتهاد العلماء الذي يبين للناس حدود الحلال والحرام والمباح والممنوع فيما يواجهونه من تطورات الاختراع والابتكار والإبداع؟؟

وهل يعقل أن يظل المسلمون أسرى ما قاله علماء أجلاء في القرون السابقة في وصف نظم الحكم التي كانت سائدة لديهم وهي كلها نظم فردية، محورها هو الحاكم الذي تدين له بالطاعة، وتستمد منه القوة، سائر السلطات والهيئات والأفراد؟

وهل يعقل أن يظل المسلمون يحتكمون ويرجعون في علاقاتهم بغير المسلمين من مواطنيهم إلى أفكار وآراء صيغت لتناسب حال الحرب التي كانت سائدة في وقت ما، بعد أن مضت على الحياة المتآخية بين الفريقين قرون؟

وهل يعقل أن يظل الناس أسرى أفكار العلماء ذوي المناصب الرسمية الحكومية لا يستمعون إلا إليهم ولا يقتدون إلا بهم ونحن أتباع دين يجعل العلم متاحًا للجميع، وطلبه من المهد إلى اللحد واجبًا على الجميع، من أخلص في طلبه، ورزق التقوى في نفسه رأى الناس فيه عالمًا يُقتدى به، سواء رضي السلاطين عن ذلك أم كرهوه؟ لأن ذلك كله غير معقول، فنحن في أشد الحاجة إلى فقه جديد نتابع الحديث فيه إن شاء الله.

٢ ـ ص٧ من طبعة ١٩٩٥م.

السوفسطائية الساذجة أو اللادينية العربية

بقلم الفيلسوف: أبو يعرب المرزوقي

تمهيد

ليس هذا العمل ردًا على اللادينيين العرب، ولا هو حتى رد لموقفهم: فكلامهم يغنيك بتهافته عن هذا الهم، وموقفهم لسذاجته يغريك بممازحتهم، لذلك فهو نزهة فكرية في أمر تمتعت بجدية السذاجة التي تغلب على أصحابه لأنهم لو قرأوا القرآن حقا وفهموا إعجابه لهالهم خلطهم بين تبر التدين وترابه، ذلك ما أغراني بالسؤال عن ضمائر هذه النزعة ذات الوهن المنطقي الذي يراه حتى العميان، و الضحالة الفكرية التي ليس دونها هذيان، والغريب أن منظومتها البسيطة التي لو أدركها اللادينيون العرب لاكتشفوا أنهم أصلانيون حتى النخاع استبدلوا عقائد العجائز التي ربوا عليها بسقط المتاع فضلا عن كون كل حججهم واستدلالاتهم لا تعدو أن تكون من احتجاج الأطفال الذين لم يجدوا ما كانوا يحلمون به فأصبحوا قبلة تهدم الفخار الراقي لجهلهم بالمراقي.

ويمكن حصر هذه الضمائر في خمسة مزاعم غير واعية أصحابها بمقدماتها وشروطها الدالة على عكس ما يزعمون أنفسهم به قائلين، وسنكتفي بتحليل أولها خلال علاج آخرها لكونهما متحدين بالجوهر إذ الأول هو المسمى والثاني هو الاسم حتى نترك البقية لمن هم منهم أقل غفلة عليهم يدركون خواء الحقلة في هذا الموقع المدقع اعتمادًا على ما قدمنا من مدفع:

١- زعم نفي وجود الله: غفلة اللادينيين جعلتهم لا ينتبهون إلى أن الإلحاد تربيهية (التدليل على العدل الإلهي) سلبية ذات مستويين: تنزيه لا واع هو الشكوى من الشر في الوجود وامتناع نسبة ذلك للإله من دون اعتباره عاجزًا وتنزيه واع هو تأليه مجرى الوجود تحت مسمى الضرورة والصدفة.

والتنزيه الأول إفراط آل إلى نفي وجود الله لئلا ينسب إليه ما في العالم من شر، والتنزيه الثاني تفريط آل إلى نسبة ما في العلم من شرور إلى نقيض صفتين من صفات التمام الإلهي أي الضرورة (ضد الحرية والاختيار) والصدفة (ضد القصد والغاية).

٢- زعم نفي النبوة: غفلة اللادينيين جعلتهم لا ينتبهون إلى أن نفيها ادعاء لما هو أكثر منها استحالة.

فنفيها يعني أمرين كلاهما مستحيل: إما أن يزعم النافي أن العقل غير محدود أو يزعم أن العقل لا يدرك حدوده فيكون حبيسها لا يتخطاها وكلتا الفرضيتين يكذبهما الواقع: فكلنا يدرك حدود عقله وكلنا يعتقد أن ذلك ليس وهما بل حقيقة أي أن العقل محدود حقا.

٣- زعم نفي التفسير الديني: غفلة اللادينيين جعلتهم لا ينتبهون إلى أن هذا النفي ممتنع من غير أسطرة التفسير العلمي.

فالعلم ينقلب في هذه الحالة إلى أسطورة بمعنيين:

أ- النظريات التي تساعد على التعامل مع الظاهرات المادية مختلقات خيالية لو اعتبرت حقائق لا متنعت تاريخيتها ومن ثم لما توالت تكذيباتها اللامتناهية.

ب- لكن العلم يكون أسطورة من القوة الثانية عندما يدعي الوجود منحصرًا في موضوعاته أو فيما يدركه منها فينفي من الوجود ما يتسع إليه أفق الدين.

عندئذ يكون العلم دونه الدين استجابة لحاجات الإنسان شمولا ونفاذا إلى الحقائق فيصبح أقل من الأسطورة بالمعنى الأول، فإذا اعتبرنا نظريات

التفسير العلمية مخترعات بشرية كان الدين أقل من العلم أسطورية لأنه لا يشوه الوجود بل يرى فيه إبعادًا لا يستطيع العلم تكرانها من دون التحول إلى أسطورة أدنى مما يزعمه في وصفه الدين.

٤- زعم نفي الشرائع المتعالية: غفلة اللادينيين جعلتهم لا ينتبهون إلى أن نفي الشرائع المتعالية وحصر التشريع في الأوضاع البشرية غير ممكن من دون الخلط بين أعيان الموضوعات التشريعية وضرورة الوضع التي ليس يمكن للعمران أن يكون من دونها، فإذا كان التشريع المتعالي متعلقا بشروط التشريع وصفاته لا بمضموناته كان كل كلام اللادينيين دالا على عدم فهم المتعالي ما هو؟

ولنأخذ مثالا واحدا قد يساعد على إفهام أكثر العقول بلادة، فلا شك أن الموازين والمقاييس والعملات مختلفة من أمة إلى أمة ومن عصر إلى عصر في نفس الأمة ولا شك أنها كلها موضوعة، لكن التعاوض الذي من أجله جعلت هذه الوسائل وشرط كونه تعاوضا حقيقيًا أو غير مغشوش هل هو متعال أم تواضعي؟ وهل يمكن للتواضع من دونه أن يحصل؟ كيف تتواضع على المقاييس والموازين والعملات إذا لم تكن قد انطلقنا من أن التعاوض العادل أو غير المغشوش هو أساس العمران؟ وليقرأ اللادينيون «المطففين» كيلا واكتيالا لعلهم يفهمون؟

٥- زعم نفي الدين أو اللادينية: غفلة اللادينيين العرب جعلتهم لا ينتبهون إلى أن اللادين مستحيل الوجود إلا من حيث هو أحد الأديان حتى ولو كان جامعًا لها بالسلب.

فهي موقف وجودي ومعرفي وقيمي له ثوابت عقدية حتى عند حصرها في السلوب الأربعة السابقة: الإلحاد ونفي النبوة ونفي التفسير الديني ونفي التشريع المتعالي، لذلك فهو دين: إذ ليس من ضرورة الدين أن يكون منزلا و لا من ضرورته أن يكون ذا كتاب ومؤسسات بل المهم أن توجد جماعة تدين بمنظومة معتقدات، وحتى لا ينزعج أصحاب هذا الموقف فإني أنبههم أن قراءة القرآن الكريم بروية تبين أن كل هذه الآراء التي يزعمونها أمر مهم يؤسسون عليه موقفهم لا تخلو تجربة نبي واحد من علاجها بل إني أزعم أن الرسالة المحمدية تنطلق منها للوصول إلى الدين الحق الذي ينبغي أن يتصف بصفات الإسلام أعني القول بأن الدين فطرة وبأنه شامل للإنسانية كلها وبأنه يؤمن بحرية الدين و بحق الجميع في عدم الإكراه في الدين بما في ذلك الشرك كما في آية الإرجاء و التفويض (الحج: ١٧) فهي الشبهات الوجودية الأساسية التي بتدبرها يعاني المرء جوهر التجربة الدينية فتجعل الإيمان خيارًا حرًا لا إكراه فيه ولا عنت.

مزيد تحليل في المسألتين الأولى والأخيرة

نزل القرآن الكريم موقف اللادينيين في الجنس السادس من الأديان عندما حصر الأديان كلها وحدد منها موقف الأمة الشاهدة المبدئي (الذي قد تغيره الضرورات في التشريع الفعلي كما يحدد القانون أحيانا بعض تطبيق المبادئ الدستورية) أعني موقف الإرجاء فيما يتعلق بالمعتقد الذي لا إكراه فيه بعد تبين الرشد من الغي، فاللادينيون لسذاجتهم لم يفهموا أنهم مشركون لقولهم بفواعل خمسة يفسرون بها خروج النظام من عدم النظام في الوجود فيكونون ذوي دين و ليسوا لا دينيين:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾

(الحج: ١٧).

فهم يقولون بالفواعل الخمسة التالية: ١- بالضرورة. ٢- وبالصدفة. ٣- وبفعل الضرورة في الصدفة. ٤- وبفعل الصدفة في الضرورة. ٥- بخروج النظام اللاحق من اللانظام السابق، من وحدة الفواعل الأربعة، وحدتها التي هي غيرها ومن ثم فهي فاعل خامس من طبقة أرقى (وإذا اعتبرنا التفاعلين راجعين إلى المبدأين الأولين كان هذا الموقف جنس التثليث المسيحي الذي يبني عليه هيجل كل فلسفته في

التاريخ فضلا عن منطقه الذى هو ميتافيزيقاه). ولما كنا نشك فى قدرة القائلين من اللادينيين على فهم هذا النوع من المجردات سنضرب مثال نظرية التطور التى هى الأساس الذى تبنى عليه الدهرية الحديثة كما فهمها العلامة جمال الدين الأفغانى فى رده على الطبعانية:

١- فالضرورة هنا هى قوانين الوراثة الرياضية ذات التحقق الفعلى.

٢- والصدفة هى الطفرة التكيفية ذات الأثر الفعلى.

٣- وأثر الضرورة فى الصدفة هو ثبات الخاصية المطفورة فى الطافر وفناء غير الطافرين.

٤- وأثر الصدفة فى الضرورة هو تكيف الطافر وعدم تكيف غير الطافر.

وجملة المؤثرات هى التطور العضوى للأنواع التى تصبح سلسلة واحدة تشملها النقلة من عدم النظام إلى النظام أو من قدر أصغر من النظام إلى قدر أكبر يحقق التكيف الأفضل ليكون البقاء للأصلح فى صراع الصدف.

لكن ذلك يصبح غائية عامة للظاهرات العضوية حتى لو أنكر أصحابها القول بالغائية الخاصة بالأنواع التى دخلت فى السيلان الأبدى للتطور، وهم ينكرون ذلك لغفلتهم أو لسذاجتهم، إذ ما معنى الوراثة إن لم تكن قانونا ينقل الخاصيات بحسب قوانين ثابتة ويحافظ عليها بحسب تلك القوانين؟ وكيف تكون الطفرة تكيفية إذا لم يكن بين الطفرة والبيئة (التى تخضع هى بدورها لضرورتين طبيعية وعضوية بمقتضى مقوميها المادى والعضوى) تلاق يقتضى - حتى وإن لم يكن مقصودًا قبليا - حصولا بعديا للتوافق بين المحددات؟ وأى معنى لثبات الخاصية المطفورة المحققة للتكيف بالقضاء على الخاصيات التى لا تحقق التكيف إذا لم يكن ذلك من التوافق بين توافقين إيجابى هو السابق وسلبى هو عكسه لغير الطافرين؟ إلخ.

وفى الجملة فإن نفى اللادينيين للإعجاز الذى احتاج إليه الدين مرة واحدة لتفسير النظام فى الكون بعقل ناظم وخالق ينتهى إلى تعميم الإعجاز فى كل صغيرة وكبيرة فيصبح كل شىء يحصل فى الوجود الطبيعى والتاريخى يحصل بمعجزة يسمونها الصدفة: أليس ذلك هو عين أسطرة العالم كله أسطرة مطلقة وعودة إلى العقلية السحرية التى يرمز إليها الدين بالوثنية يعنى بتعدد الخالقين و معجزات الخلق بهذه الفواعل الخمسة؟! وبذلك نعود إلى مسألة الإلحاد، فلو كان الإلحاد ممكنا عقلا إمكانًا صادقًا خلقيًا مثله مثل اللاأدرية (أى فى حديث النفس مع نفسها وليس فى ما نقول وخاصة خلال كل التجارب الوجودية التى تمر بها والتى يصف القرآن الكريم بعضها عندما يلجأ المرء إلى خالقه) لكنت أول القائلين بهما. لكنهما مستحيلان صادقان. فالجمع بين التربيهين الواعى و اللاواعى اللذين أشرت إليهما فى المسألة الأولى يعود إلى الدليل الوجودى مسلوبًا رغم غفلة من يرى العالم مقلوبا. وعظمة القرآن أنه قد نبه إلى ذلك فى أغلب آيات الاستدلال التأملى على الوجود الإلهى.

فالدليل الوجودى الموجب يقول: تصور الله أو ماهيته يقتضى وجوده أو إنيته.

وبين أن هذا الدليل يضمر أن كل الموجودات الأخرى تصورها لا يقتضى وجودها. وعليه بنت الفلسفة والكلام الإسلاميان كل الفكر الإسلامى انطلاقًا من الترجيح الجهوى، فيكون الدليل الوجودى تناظر خفى بين وجودين مطلق (الخالق) ونسبى (المخلوق)، ومن ثم فهو كما يقول هيجل محصلة الأدلة الثلاثة الأخرى على وجود الله: الدليل الفاعلى (فاعل النظام الوجودى) و الدليل الغائى (غاية النظام الوجودى) والدليل الخلقى (خير النظام الوجودى) فهذه العناصر الثلاثة المحتاجة إلى تعليل فى الموجودات المخلوقة تصبح غنية عنه فى الموجود الخالق: وذلك هو معنى أن ماهيته تقتضى وجوده.

ولننظر الآن فى الإلحاد ما مدلوله؟ أليس هو مجرد جمع لسلوب هذه الأدلة؟ فهو دليل وجودى سلبى بالمعنى التالى، فصاحبه يقول: تصور الله أو ماهيته

يقتضى عدم وجوده وعدم إنيته، والعلة أنه بخلاف صاحب الدليل الوجودى الموجب لا يضمر المناظرة بين الموجودين بل هو يعلن أن تصور الله أو ما هيته متنافية مع ما يتصف به الموجود النسبى من عدم نظام وعدم غاية وعدم خلق (نفى الأدلة الثلاثة)؟ فهل كان العالم عامة والتاريخ خاصة يكون ما هو لو كان الله كما تحدده ماهيته عالما قادرًا مريدًا وخيرًا؟! لذلك فالإلحاد يستند إلى ضمير هو نقيض الشرطية المتصلة:

- لو كان الله موجودًا لكان العالم كله خيرًا.
- لكن العالم ليس خيرًا.
- إذن الله ليس موجودًا (نقيض التالى ينتج نقيض المقدم).

وطبعًا فهذا يضمر أن ماهية الله تقتضى أن يكون قادرًا على جعل العالم أفضل مما هو. وطبعًا فلا أحد يمكن أن يقتنع أن العالم يمتاز بالأبدعية سواء أخذناها بمفهومها عند الغزالى أو بمفهومها عند لايبنتس التى كانت موضع سخرية ديدرو وفولتير فيكون احتجاج اللادينى وكأن لسان حاله يقول: الأفضل أن أنفى وجود الله من أن أعترف بأنه عاجز على منع الشر والظلم والفوضى فى الوجود! لذلك قلت إن أصل الإلحاد تربيهية سلبية أو دفاع سلبى عن العدل الإلهى ينفى الإله غير العادل استقراء من الوجود بدل من نفى حقائق الوجود التي لا ينكرها إلا معاند والتى يصعب أن يقبل العقل أن الله راض عنها! أفيكون الله عاجزًا عن منع ما لا يرضى عنه؟ أو يكون الشيطان هو الأقوى؟.

ألا يستحق الإلحاد إذن أن يوصف بكونه مجرد احتجاج علته تحول وجودى السؤال إلى ثورة ببراءة الأطفال؟ لذلك فإنى اعتبر اللادينيين العرب وكل اللادينيين فى التاريخ - إذا كانوا حقا صادقين فى التعبير عن التجربة الوجودية التى حاولت وصفها هنا ولم يكونوا دجالين يحاولون تشويه أسمى تجارب الوعى البشرى بمزح السكارى - إما أصوليين يائسين أو أطفال يائسين لم يدركوا أن الدين لم ينف كل هذه الحجج بل هو يعتبرها شرط التدين الحقيقى المحرر للإنسان من هذا الانتفاء بالفعل التاريخى.

ولولا ذلك لما اعتبر الدين الإسلامى الدين الخاتم عملا تاريخيا أساسه النظرى الاجتهاد (لا العلم المطلق) وأساسه العملى الجهاد (لا مجرد التمنى) وكلاهما يحصل بعملية التواصى بين المؤمنين من أجل التصدى إلى هذه الأمور: وتلك هى أمانة المستخلف ومجال حريته لتحقيق الامتحان الوجودى المطلق لبنى آدم.

فأما التواصى الأول فهو تواص بالحق للوصول الاجتهادى إلى معرفة ما يحرر الوجود من اللانظام واللاغاية واللاخير، وأما التواصى الثانى فهو تواص بالصبر لتحقيق ذلك فى التاريخ الفعلى، وتلك هى الشهادة على العالمين.

ليست القضية الدينية نزهة فكرية: إنها معاناة وجودية لمعرفة الحقيقة ولتحقيقها وذلك هو معنى الاجتهاد والجهاد والتحرر من السلطان الروحى والسلطان الزمانى التحريرين اللذين لا يحصلان بالأمانى بل بالتفانى فى فهم المعانى وتحقيق المبانى، ألم يقل الرسول الكريم: رهبانية الإسلام هى الاجتهاد والجهاد؟ أما إذا اخترنا الموقف المزعوم لا دينيا والذى بينا أنه دين من الأديان فإن النتيجة ستكون كما يلى:

١- لن يبقى معنى للاحتجاج على الشر والظلم وعدم النظام: فتلك سنن الدهر وتلك هى مفاعيل الضرورة والصدفة.

٢- لن يبقى معنى للسعى لتغيير الأحوال بغير منطق الضرورة والصدفة: سنعود إلى قيم كاليكلاس حيث لا قانون إلا قانون القوة والغلبة.

ومن ثم فإن اللادينية ليست لا دينية بل هى عودة إلى الطبعانية التى وصفنا فى المثال الذى ضربناه من نظرية التطور، فليكن اللادينيون صرحاء وليقولوا إنهم مع كل جبابرة العالم وسفاحيه والسلام. ألم يفاخر أحدهم وهو فى قمة السعادة والسذاجة بأن النزعة من مصر الفرعونية: وذلك هو وصف فرعون فى القرآن الكريم؟.

بنو إسرائيل في الكتاب والسنة

محاولتهم الدس والوقيعة وإثارة الفتنة بين المؤمنين



أ.د. محمد سيد طنطاوي

ومن المسالك الخبيثة التي اتبعها اليهود لكيد الإسلام والمسلمين، مسلك الدس والوقيعة، وإثارة الفتنة بين المؤمنين، وقد حكى القرآن الكريم هذا المسلك، ووبخ اليهود على سلوكهم إياه، وأرشدهم إلى الطريقة المثلى التي تهديهم إلى الصراط المستقيم، فقال تعالى في سورة آل عمران:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ (٩٨) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٠١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

(آل عمران: ٩٨- ١٠٣)

أخرج ابن جرير- في سبب نزول هذه الآيات- عن زيد بن أسلم، قال:

«مر شاس بن قيس، وكان شيخا قد عسا[1] في الجاهلية، عظيم الكفر، شديد الضغن على المسلمين، شديد الحسد لهم- على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج، في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من جماعتهم، وألفتهم، وصلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية، فقال: قد اجتمع ملأ بني قيلة[2] بهذه البلاد، والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم

[1] عسا الشيخ: كبر وأسن. من عسا القضيب إذا يبس.

[2] هي قيلة بنت كاهل بن عذرة القضاعية وهي أم الأوس والخزرج.

بها من قرار، فأمر فتى شابا من اليهود كان معه، فقال اعتمد إليهم فاجلس معهم، وذكرهم يوم بعاث وما كان قبله، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار. وكان يوم بعاث يوما اقتتلت فيه الأوس والخزرج، وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج، ففعل. فتكلم القوم عند ذلك، فتنازعوا وتفاخروا، حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب: «أوس بن قيظي»- أحد بني الحارثة بن الحارث، من الأوس- «وجبار بن صخر»- أحد بني سلمة من الخزرج- فتقاولا، ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم والله رددناها الآن جذعة[3] وغضب الفريقان، وقالوا: قد فعلنا، السلاح السلاح، موعدكم الظاهرة- والظاهرة: الحرة- فخرجوا إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه، حتى جاءهم، فقال: يا معشر المسلمين: الله الله، أبدعوى الجاهلية، وأنا بين أظهركم، بعد إذ هداكم الله إلى الإسلام، وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألف به بينكم، ترجعون إلى ما كنتم عليه كفارا؟ فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان، وكيد من عدوهم، فألقوا السلاح من أيديهم، وبكوا، وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضا، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين، قد أطفأ الله كيد عدو الله «شاس بن قيس» وما صنع فأنزل الله في شاس بن قيس، وما صنع:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾

وأنزل الله- عز وجل- في أوس بن قيظي وجبار بن صخر، ومن كان معهما من قومهما، الذين صنعوا، مما صنعوا، مما أدخل عليهم شاس بن قيس من أمر الجاهلية:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٠١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[4]

(آل عمران: ١٠٠- ١٠٥)

وقوله تعالى:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾

معناه: قل- يا محمد- لهؤلاء اليهود الذين كفروا بالحق بعد أن جاءتهم البينات: لم تعاندون الحق، وتكفرون بآيات الله السمعية والعقلية، الدالة على صدقي فيما أبلغه عن ربي، والحال أن الله مطلع عليكم، وعالم علم

[3] جذعة: شابة فتية. يريد عودة الحرب قوية كما كانت.

[4] تفسير ابن جرير جـ ٤ ص ٢٣ و ٢٤ طبعة الحلبي.

المعاين المشاهد لأعمالكم الظاهرة والخفية، فيجازيكم عليها، ويحاسبكم على مقاصدكم في أقوالكم وأفعالكم.

فالآية الكريمة: قد تضمنت تأنيبهم على الكفر، وتهديدهم بالعقاب إذا استمروا في مسالكهم الأثيمة، ولكي يكون التأنيب أوجع، أمر الله- تعالى- نبيه ﷺ أن يناديهم: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ لأن علمهم بالكتاب يستلزم منهم الإيمان والإذعان للحق ولكنهم اتخذوا علمهم وسيلة للشر والتضليل، فكان مسلكهم هذا دليلا على فساد فطرتهم، وخبث طويتهم، وسوء طباعهم.

وبعد أن أنبأهم القرآن الكريم في هذه الآية على كفرهم وضلالهم، ساق آية أخرى يوبخهم فيها على محاولتهم إضلالهم لغيرهم، فقال تعالى:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

والمعنى: قل يا محمد- مرة أخرى لهؤلاء اليهود، مبالغة في تقريعهم، وإزاحة لأعذارهم، لأي شيء تصرفون المؤمنين عن الإيمان الحق، وتمنعون من آمن بمحمد ﷺ عن الاستمرار على اتباعه، وتثيرون الفتنة والوقيعة في صفوف المسلمين.

ثم كشف القرآن الكريم عن حالهم في الصد عن سبيل الله، فقال: ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: تطلبون العوج لسبيل الله الواضحة، والميل بها عن القصد والاستقامة، وتريدون أن تكون ملتوية غير واضحة، في أعين المهتدين، كما التوت نفوسكم، وانحرفت عقولكم.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: كيف قال تبغونها عوجا وهو محال؟

قلت: فيه معنيان: أحدهما أنكم تلبسون على الناس حتى توهموهم أن فيها عوجا بقولكم بأن شريعة موسى لا تنسخ، وبتغييركم صفة رسول الله ﷺ عن وجهها، ونحو ذلك. والثاني: أنكم تتعبون أنفسكم في إخفاء الحق وابتغاء ما لا يتأتى لكم من وجود العوج فيما هو أقوم من كل مستقيم(٥).

وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ﴾ معناه: والحال أنكم عالمون بأن سبيل الإسلام هو الدين الحق، علم من يعاين ويشاهد الشيء على حقيقته، فجحودكم عن علم، وكفركم ليس عن جهل.

وقوله تعالى:

﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

تهديد ووعيد لهم على ضلالهم ومحاولتهم إضلال غيرهم، لأنه- سبحانه- ليس غافلا عن أعمالهم، بل هو سيجازيهم على هذه المسالك الخبيثة، بالقتل والذلة في الدنيا، وبالعذاب والهوان في الآخرة.

قال الإمام ابن كثير: «هذا تعنيف من الله- تعالى- للكفرة من أهل الكتاب، على عنادهم للحق، وكفرهم بآيات الله، وصدهم عن سبيل الله من أراده من أهل الإيمان بجهدهم وطاقتهم، مع علمهم بأن ما جاء به الرسول حق من الله، وبما عندهم من العلم عن الأنبياء الأقدمين، والسادة المرسلين- صلوات الله وسلامه

(٥) تفسير الكشاف جـ١ ص ٣١٢.

عليهم أجمعين- وما بشروا به من ذكر النبي الأمي الهاشمي العربي المكي، سيد ولد آدم، وخاتم الأنبياء، ورسول رب الأرض والسماء، وقد توعدهم الله على ذلك، وأخبرهم بأنه شهيد على صنيعهم ذلك، وهو مخالفتهم ما بأيديهم عن الأنبياء، ومعاملتهم الرسول المبشر به بالتكذيب والجحود والعناد، فأخبر الله- تعالى- أنه ليس بغافل عما يعملون، أي: سيجزيهم على ذلك

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ (٦).

(الشعراء: ٨٨)

وبعد أن بين القرآن الكريم أن اليهود قد جمعوا الخستين، ضلال أنفسهم، ومحاولتهم تضليل غيرهم، تركهم مؤقتا في طغيانهم يعمهون، ووجه نداء إلى المؤمنين يحذرهم فيه من دسائس اليهود وكيدهم، وينهاهم عن الركون إليهم، والاستماع إلى دسائسهم، فقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾

والمعنى: إنكم أيها المؤمنون إن استمعتم إلى ما يلقيه هؤلاء اليهود بينكم من دسائس ولنتم لهم، وأصغيتم لدسائسهم لا يكتفون بإيقاع العداوة والبغضاء بينكم، كما كنتم في الجاهلية، بل يتجاوزون ذلك إلى محاولتهم إعادتكم إلى وثنيتكم القديمة، وكفركم بالله بعد إيمانكم. وقد خاطب الله المؤمنين بذاته في هذه الآية بعد أن أمر رسوله ﷺ بأن يخاطب أهل الكتاب في الآيتين السابقتين، إظهارا لجلالة قدرهم، وإشعارا بأنهم هم الأحقاء بالمخاطبة من الله- تعالى- وناداهم بصفة الإيمان، لتحريك حرارة العقيدة في قلوبهم، وتوجيه عقولهم إلى ما يستدعيه الإيمان من فطنة ويقظة، فالمؤمن ليس خبا، ولكن الخب لا يخدعه.

وفي التعبير بـ(إن) إشارة إلى أن طاعتهم لليهود ليست متوقعة، لأن إيمانهم يمنعهم من ذلك، ووصف- سبحانه- الذين يحاولون الدسيسة بين المؤمنين، بأنهم فريق من الذين أوتوا الكتاب، إنصافا لمن لم يفعل ذلك منهم، ونعتهم بأنهم ﴿أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ للإشارة إلى أن تضليلهم متعمد، وتآمرهم على إيذاء المؤمنين مقصود، فهم أهل كتاب وعلم، ولكنهم استعملوا علمهم في الشرور والآثام.

ثم بين القرآن الكريم بعد ذلك، أنه ما يسوغ للمؤمنين أن يطيعوا هذا الفريق من الذين أوتوا الكتاب، أو أن يكفروا بعد إيمانهم، أو أن يتفرقوا بعد وحدتهم، فقال تعالى:

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

(آل عمران: ١٠١)

الاستفهام للإنكار، واستبعاد كفرهم في حال اجتمع لهم فيها كل الأسباب الداعية إلى الإيمان.

والمعنى: كيف تكفرون، أو يتصور منكم الكفر، أو يسوغ لكم أن تسيروا في أسبابه، وآيات الله تقرأ على مسامعكم غضة طرية صباح مساء، ورسول الله ﷺ بين ظهرانيكم، يردكم إلى الصواب إن أخطأتم، ويزيح شبهكم إن التبس عليكم أمر، وفي هذا ما يومئ إلى

(٦) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٣٨٧.

إلقاء اليأس فى قلوب اليهود من أن يصلوا إلى ما يبغونه بين المؤمنين، فى وقت يذكر النبى المؤمنين بما ينفعهم، ويحذرهم مما يؤذيهم ويضرهم.

ثم أرشد الله عباده إلى الوسيلة التى تعصمهم من مكر اليهود وغيرهم فقال تعالى:

﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

أى: من يلتجئ إلى الله فى كل أحواله، ويتوكل عليه حق التوكل، ويتمسك بدينه، فقد هدى إلى الطريق الذى لا عوج فيه، ولا انحراف.

ثم أمرهم الله - تعالى - بعد ذلك بمجامع الطاعات، ومعاقد الخيرات، فقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾

أى: بالغوا فى التقوى حتى لا تتركوا منها شيئا، ولا تكونن على ملة سوى الإسلام إذا أدرككم الموت، بل عليكم أن تستمروا على دينكم القويم حتى يأتيكم الأجل، الذى لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون.

وقوله تعالى:

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾

معناه: كونوا جميعا مستمسكين بكتاب الله، الذى هو حبل الله المتين، ونوره المبين، واجتمعوا على استعانتكم بالله، ووثوقكم به، ولا تتفرقوا فى أنفسكم، كما كان شأنكم فى الجاهلية يضرب بعضكم رقاب بعض، ولا تتفرقوا فى دينكم فتؤمنوا ببعض القرآن وتكفروا ببعض، فتضلوا عن سواء السبيل.

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾

أى: اذكروا نعمة الله عليكم بتأليف القلوب، ورأب الصدوع بعد أن كنتم فى الجاهلية أعداء متقاتلين، فألف بين قلوبكم بأخوة الإسلام، فأصبحتم متحابين، متناصحين، مترابطين.

ثم كرر - سبحانه - التذكير بعواقب الاختلاف والتفرقة، وما يترتب عليهما من شرور بعد أن أشار إلى نعمة الوفاق، فقال تعالى:

﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾

أى: كنتم - بسبب اختلافكم وضلالكم على وشك الوقوع فى النار فمن عليكم، وأنقذكم من التردى فيها بهدايتكم إلى الإسلام.

شبهت حالهم وترديهم فى الاختلاف والوثنية وسيرهم فى طريق الآثام والضلال قبل الإسلام، بحال من يكون على حافة حفرة من النار يوشك أن يقع فيها.

وشبهت هداية الله - تعالى - لهم بحالة من يبعد غيره عن التردى فى النار، وينقذه.

ثم بين - سبحانه - أن من شأنه أن يبين للناس آياته بيانا شافيا فى كل مقام كما بينها فى هذا المقام، فقال تعالى:

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

أى: كهذا البيان الواضح الذى سمعتموه فى هذه الآيات الكريمة يبين الله لكم دائما ما يسعدكم فى الدنيا والآخرة، وما يأخذ بيدكم إلى وسائل الهداية وأسبابها، رجاء أن تكونوا ممن رضى الله عنهم وأرضاهم.

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد بينت مسلكا من مسالك اليهود الخبيثة لكيد الإسلام والمسلمين، ووبختهم على ذلك توبيخا موجعا، وفضحتهم على مر العصور والدهور، وحذرت المؤمنين من شرورهم وأرشدتهم إلى ما يعصمهم من كيدهم، وذكرتهم بنعم الله الجليلة عليهم، لكى يعودوا إلى الطريق المستقيم.

فتاوى الحاخامات

د. منصور عبدالوهاب

زيارة الكنيسة

فتوى من: الحاخام تسفى كوستينر

سؤال:

هل يسمح بزيارة الكنيسة «ليس أثناء صلاتهم» بهدف رؤية أو دراسة الفن باعتبار ذلك دراسة لحكمة الأغيار؟

جواب:

لا تدخل رجسا إلى بيتك لئلا تكون محرما مثله. تستقبحه وتكرهه لأنه محرم. «التثنية ٧ : ٢٦»، و«لا تشفق عليهم» «التثنية ٧ : ٣» وهناك الكثير من المحظورات بشأن عبادة الأوثان، ونحن مأمورون بالقضاء عليها والابتعاد عنها. لذلك فدخول الكنيسة حرام حتى لو كان من أجل الفن، لأن هذه الصور عبارة عن عبادة وثنية.

وفى حالة وجود صور غير معروضة فى الكنائس، ولا يوجد بها مضمون كنسى أو سخرية من شخصيات العهد القديم بصفة خاصة، ومن الديانة اليهودية بصفة عامة، فيسمح بالنظر إليها باعتبارها نموذجا «لحكمة الأغيار».

ضبط الساعة بالاستعانة بساعة الكنيسة

فتوى من: الحاخام موشيه عمينيل

سؤال:

معذرة إذا كان هذا السؤال غريبا لكنى أريد أن أسأل هل يجوز أن أضبط الساعة مستعينا بساعة الكنيسة؟ هل هناك مشكلة فى ذلك تتعلق بالأغيار؟

جواب:

حرام!

فأى منفعة من عبادة الأوثان حرام.

والمسيحية توصف بأنها عبادة وثنية، ولذلك فإن كل ما يتعلق بالديانة المسيحية محرم باعتبارها عبادة أوثان، وأى منفعة منها حرام.

وسوف أذكر لك حقيقة.. فقد روت لى امرأة محافظة على الفرائض الدينية أنها سمعت قبل الغروب صوت «المؤذن» فى المسجد وفكرت فى أن تتحقق من وقت الغروب بمساعدة الأذان للقيام بالطهارة الشخصية، لكنها شعرت بإحساس رهيب بداخلها فامتنعت والحمد لله عن ذلك.

وهذه بالتأكيد حقيقة صحيحة، فلا تلتفت لهذه الأصوات المحرمة سواء للتحقق من الوقت أو لأى غرض آخر.

قصص الأنبياء

أمر الله بنى إسرائيل على لسان موسى بدخول الأرض المقدسة

للعلامة/ عبدالوهاب النجار

قرب بنى إسرائيل من أرض الموعد وهى فلسطين: التى وعد الله إبراهيم وإسحاق ويعقوب أن تكون ملكًا لأولادهم، وأن يطردوا من أمامهم الأمم التى يسكنونها، فى ذلك الوقت - وأمر الله تعالى موسى أن يذهب ببنى إسرائيل إلى تلك الأرض لامتلاكها، ولكن بنى إسرائيل قوم قد ثقفوا بالذلة وتمكن الصغار والهوان من أنفسهم. وألفوا الذل فى أرض الفراعنة فلم تكن لهم قوة على الدخول إلى تلك الأرض، وتمثل لهم شبح الموت فى كل خطوة فى ذلك السبيل فلم يشاءوا أن يذهبوا لأمر ربهم. وقالوا يا موسى

﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾

كان موسى قبل أن يطلب إلى بنى إسرائيل دخول تلك الأرض قد أرسل من قبله روادًا يتجسسون فى الأرض وحال أهلها. ويقول المفسرون: إنهم كانوا اثنى عشر رجلًا، فرأوا من جسامة أجسام أولئك القوم ما هالهم! فلما عادوا أخبروا بنى إسرائيل بما رأوا فضعفت قلوبهم وتراءى لهم شبح الهلاك فى القدوم على هذه البلاد! فلما أمرهم موسى بالعبور أبوا. وقال رجلان من الذين جاسوا خلال البلاد لبنى إسرائيل: ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه غلبتم على المدينة (أريحاء) فأبوا وقالوا لموسى:

﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾

وأبوا عليه كل الإباء.

شكى موسى أمر بنى إسرائيل معه إلى الله قائلًا:

﴿رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾

فأخبره الله تعالى بأنها - (أى الأرض) - محرمة عليهم وأنهم سيتيهون فى الأرض أربعين سنة. فكان بقاء بنى إسرائيل فى البرية - من عهد خروجهم من مصر إلى أن مات موسى، وعبروا نهر الأردن، وملكوا أريحاء وما معها من الأرضين غرب الأردن - أربعين سنة.

والسر فى ذلك كما أوضحه ابن خلدون: أن نفس بنى إسرائيل كانت صغيرة ضئيلة لأنهم رئموا الذل والهوان فى ملك المصريين! ومن كان كذلك لا يصلح لقتال ولا استقلال! ولذلك ذابت قلوبهم فى صدورهم وملأ الخوف أنفسهم حين أمروا بقتال أولئك الجبارين.

والعلماء يقررون: إن حضانة العلم خمس عشرة سنة؛ فإذا ابتدأت أمة تتعلم فإنها تجنى ثمرة العلم بعد خمس عشرة سنة. وأما حضانة الأخلاق فمدتها أربعون سنة؛ فإذا أخذت الأمة تستمسك بالأخلاق فإنها لا تجنى الثمرة إلا بعد أربعين سنة. لذلك أراد الله تعالى أن يبقى بنى إسرائيل فى البرية أربعين سنة، حتى يفنى الجيل الذى نشأ فى الذل والاستعباد وينشأ جيل ألف الحرية ولم تذله العبودية. وهكذا كان حال بنى إسرائيل. فإن الجيل الذى ولد فى الذل وكبر حتى مرن عليه هلك فى البرية. وجاء الجيل الذى كان صغيرًا أيام عبوديتهم فى مصر، والذى نشأ أو ولد فى البرية فى الحرية والعزة، فلم يبال بأولئك الناس ودخل عليهم بلادهم مع يوشع بن نون فتى موسى فملكها.

وهنا لطيفة أريد التنبيه عليها: وهى أن يوقف عند قوله: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ ويبتدأ بقوله تعالى: ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ لأنها حرمت عليهم تحريمًا أبديًا لا تحريمًا مقيدًا بأربعين سنة. وذلك أن الرجال الصالحين للحرب الذى عصوا أمر موسى وقالوا:

﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا﴾

ماتوا فى البرية أثناء السنين الأربعين، ولم يدخل أحد منهم إلى أرض الموعد. فكانت محرمة عليهم بإطلاق.

اقرءوا هذه الآيات:-

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ (٢٠) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٣) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾

هذا الموقف من مواقف موسى مع بنى إسرائيل لم يذكر فى سفر الخروج. وكل ما ذكر إنما هو مواقف عنيفة بين موسى وقومه، ووصفهم بصلابة الأعناق والتمرد وأن الله عرقهم فى البرية أربعين سنة، ولم يشأ لموسى ولا لهرون أن يعبر أحد منهما إلى تلك الأرض، فمات هرون قبل موسى ودفن فى جبل هور من جبال سيناء التى فى البرية. وأما موسى فأمره الله أن يصعد إلى جبل «نبو» وينظر أرض الموعد دون أن يدخلها. ففعل ومات على الفسجة أى الأكمة التى هى من رمل أحمر ودفن هناك وخفيت معالم قبره.

وأهل فلسطين يدعون أن قبره فى موضع من بلادهم ويقيمون له مولدًا يقصد من كل ناحية فى كل سنة فى موعد معين.

وقد ذكر هذا الموقف «فى الإصحاح ١٤ سفر العدد» وذكر أيضًا على سبيل الحكاية والتذكير «فى سفر التثنية» - أثناء تعداد موسى أعمال بنى إسرائيل وعصيانهم عليه ومخالفتهم لأمر الله تعالى ما ننقل بعضه «من الإصحاح الأول - تثنية».

نتق الجبل فوق بنى إسرائيل

ذكر الله تعالى فى سورتى البقرة والأعراف أنه رفع جبل الطور فوق بنى إسرائيل حتى صار كأنه ظلة وظنوا أنه واقع عليهم أو أيقنوا ذلك. وأمرهم أن يأخذوا ما آتاهم من الأحكام بقوة بأن يفعلوها دون تذمر أو توقف، وأن يحافظوا عليها أشد محافظة بجد وعزم قوى على تحمل مشاق ما أوتوه.

وأن يذكروا ما فيه بالعمل به، وألا يتركوه كالمنسى. فإنهم إذا فعلوا ذلك كان مرجوا لهم أن يكونوا ممن اتقى قبائح الأعمال ورذائل الأخلاق. ثم لم يكن منهم إلا الإعراض عن الميثاق بعد أخذه. ولولا فضل الله عليهم ورحمته بتوفيقهم للتوبة لكانوا من الخاسرين المغبونين بالمعاصى والتخبط فى الضلال.

هكذا قال المفسرون، ونحوا هذا النحو.

وشايعهم أستاذنا المرحوم الشيخ محمد عبده لأنه لم ير موجبا للعدول عن ظاهر القرآن إلى تأويله؛ إذ لم يصرف عنه صارف والمسألة من الممكنات العقلية وقد خلت الآية من قرينة صارفة عن الظاهر إلى تأويله.

وقد أورد السيد رشيد رضا في تفسير المنار أن هذا المعنى اعترض عليه بأنه إكراه على الإيمان والجاء إليه وذلك ينافي التكليف. قال أجيب عنه بأجوبة منها أن ما يفعل بالإكراه يعود اختياريًا بعد زوال ما به الإكراه. ومنها أن مثل هذه الإلجاء كان جائزًا في الأمم السابقة. ويزيد من قال هذا أن نفي الإكراه في الدين خاص بالإسلام لقوله تعالي: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾ وقوله: ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ قال الأستاذ الإمام: لا حاجة لنا في فهم كتاب الله إلى غير ما يدل عليه بأسلوبه الفصيح. فهو لا يحتاج في فهمه إلى إضافات ولا ملحقات. وقد ذكر لنا مسألة رفع الطور فوق بني إسرائيل ولم يقل إنه أراد بذلك الإكراه على الإيمان. وإنما حكى عنهم في آية أخرى أنهم ظنوا أنه واقع بهم. فقد قال تعالى في سورة الأعراف:

﴿ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (الأعراف: ١٧١)

والنتق: الزعزعة والهز والجذب والنفض. ونتق الشيء ينتقه وينتقه من بابي ضرب ونصر نتقا جذبه واقتلعه. وقد يكون ذلك في الآية بضرب من الزلزال كما يدل عليه التعبير بالنتق وهو في الأصل بمعنى الزعزعة والنفض.

والمفهوم من أخذ الميثاق أنهم قبلوا الإيمان. وعاهدوا موسى عليه. فرفع الطور وظنهم أنه واقع بهم من الآيات التي رأوها بعد أخذ الميثاق كان لأخذ ما أوتوه من الكتاب بقوة واجتهاد لأن رؤية الآيات تقوى الإيمان وتحرك الشعور والوجدان؛ ولذلك خاطبهم عند رؤية تلك الآية بقوله: ﴿ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ ﴾

(البقرة: ٦٣)

أي بالمحافظة عليه والعمل به. فإن العمل هو الذي يجعل العلم راسخا في النفس مستقرًا عندها. أي أن نتق الجبل فوقهم لم يكن الغرض منه الإكراه على الإيمان، وإنما كان للعمل بما أوتوه من الشريعة والمحافظة عليه بعد أن أقروا بالإيمان.

ثم ذكرهم بما كان منهم من التولي عن الطاعة بعد أخذ الميثاق ومشاهدات الآيات. وقد حال دون اندراجهم في سلك الخاسرين ما أدركهم من فضل الله عليهم ورحمته بهم.

وقد قال السيد رشيد رضا في تفسير المنار أيضًا: شايع الأستاذ الإمام المفسرين على أن رفع الطور كان آية كونية، أي أنه انتزع من الأرض وصار معلقا فوقهم في الهواء. وهذا هو المتبادر من الآية بمعونة السياق وإن لم تكن ألفاظها نصا فيه؛ إذ الرفع هو الارتفاع وجعل الشيء - أو أن يكون الشيء - رفيعًا عاليًا كما قال تعالى: ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴾ وقال: ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ فكل من السرر والفرش تكون مرفوعة وهي على الأرض. وقوله تعالى في سورة الأعراف

﴿ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ ﴾

ليس أيضا في كون الجبل رفع في الهواء.

وأصل النتق في اللغة الزعزعة والزلزلة - كما سبق - قال في حقيقة الأساس: نتق البعير الرحل زعزعه. ونتقت الزبد أخرجته بالمخض. ونتق الله الجبل رفعه مزعزعًا فوقهم. والظلة كل ما أظلك سواء كان فوقك أو في جانبك وهو مرتفع له ظل.

فيحتمل أنهم لما كانوا بجانب الطور رأوه منتوقا أي مرتفعًا مزعزعًا فظنوا أن سيقع بهم وينقض عليهم. ويجوز أن ذلك كان في أثر زلزال تزعزع له الجبل. ثم قال: وإذا صح هذا التأويل لا يكون منكر ارتفاع الجبل في الهواء مكذبًا للقرآن اهـ.

أقول قد يكون جزء عظيم من الجبل اقتلع من مكانه أثناء رجفة أو زلزال، ورأوه بأعينهم وهم في أسفل الجبل كأنه ظلة وخافوا وقوعه بهم، وذلك عند أخذ ميثاقهم على العمل بالتوراة.

من تراث الهلال

أصحاب النبي ﷺ

للأستاذ/ عاطف مصطفى

رسول الله ﷺ كان خلقه القرآن، ولقد بُعث ليتمم مكارم الأخلاق، ليتممها بذاته: بسلوكه، وليتممها برسالته ﷺ.
في ذكراه العطرة المحببة إلى نفوس المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها نتناول مقالاً لواحد من علمائنا الراحلين وهو الدكتور بدوي طبانه، الأستاذ بكلية دار العلوم «بنت الأزهر» يلقى فيه الضوء على أصحاب النبي ﷺ، ونشر المقال فى العدد الخاص بعنوان «النبي» الذى أصدرته مجلة الهلال فى شهر أكتوبر ١٩٧٢م. يبدأ قائلاً:

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾

(الفتح: ٢٩)

تضمنت هذه الآية الكريمة من كتاب الله شيئًا من خلال رسول الله ﷺ، وشمائل صحابته الذين شرفهم الله تعالى بتلك الصحبة، وكتب لهم السبق إلى الإيمان به، وبالنور الذى أنزل معه.

وصحابة رسول الله ﷺ هم أولئك:

﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾

(الأعراف: ١٥٧)

وهم أولئك:

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (التوبة: ١٠٠)

يقول الدكتور بدوى طبانه: لقد كان أولئك المؤمنون - أصحاب النبى - هم الذين حملوا الأمانة، وأدوها كما تلقوها عن إمامهم الذى رفعوا معه راية الجهاد، وحملوا معه مشاعل الهداية ليشمل نور الله الذى جاء به محمد مشارق الأرض ومغاربها، وليخرج الناس من ظلمات الجهل وضلال الشرك، ومن حياة البغى والهمجية إلى حياة الأمن والعمل والسلام، وإلى نور الحق، وإلى الصراط المستقيم.

وفى الآية الكريمة وفى غيرها من آيات الكتاب المجيد، وصف الله نبيه وأصحابه الذين آمنوا معه بالأوصاف من الكمال الإنسانى.

وتلك الأوصاف فى جملتها هى شمائل المؤمنين، الذين توغل الإيمان فى قلوبهم، وصدقوا ما عاهدوا الله عليه، وهى الخلال التى اقتبسوها من إمامهم المصطفى، ورسول الله الذى أدبه فأحسن تأديبه، وجمله بالفضائل، ووصفه بقوله:

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾

(القلم : ٤)

ثم كرمه بحمل رسالة السماء المشرقة ليحيى بها موات القلوب، ويضىء بها ظلمات النفوس، ويطهر الأرض من الرجس والأوثان، ويملأ الدنيا نورًا وعدلاً، كما ملئت ظلامًا وجورًا.

ولقد كان لأولئك الصحب فى محمد ﷺ النور الذى به يهتدون، والإمام الذى به يقتدون، كما أخبر بذلك كتاب الله فى قوله جل شأنه:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾

(الأحزاب : ٢١)

غايات عظيمة الخطر

والحقيقة أنه لم تكن هناك مسئولية أشق من هذه المسئولية، ولم تكن هناك تبعة أخطر من تلك التبعة التى ألقيت أعباؤها على الرسول الكريم ﷺ، وعلى ذلك الرعيل الأول من صحابته الأبرار لأنها مسئولية كثيرة الجوانب، متعددة الأبعاد والاتجاهات تتسع لتشمل حياة الفرد فى مجتمعه الصغير، وحياة المجتمع الإنسان الكبير، بدقائقه وتفصيلاته، وتتعمق حتى تصل إلى أغوار النفس الإنسانية، وتمس خلجات القلوب، وحركات العقول، وتبحث فى أسرار الوجود، وعظمة الملكوت، وتتدبر فى خلق السموات والأرض، وفيما وراء الطبيعة والحياة.

ثم لأن لها بعد ذلك هدفًا بعيدًا هو سعادة الإنسان بالعيشة الراضية والنعيم المقيم، واسترجاع ما ذهب من كرامته واحترام وجوده، واستنقاذ عقله من المهاوى التى تردى فيها، ومن أسباب الذل والاستعباد، الذى رزح تحت نيره فترات طويلة من الزمان.

وهى بعد ذلك مسئولية تحطيم عروش، وقضاء على زعامات وقيادات، قامت على البغى والضلال، واستئصال قيم فاسدة وتقاليد بالية، وعقائد وخرافات لا تليق

بمقام الذكاء البشرى، وما أودع الله فى الإنسان من بذور العقل والتفكير، والقدرة على استبانة معالم الرشاد من الغى والفساد، وتمييز الخبيث من الطيب، وما يجئ بعد ذلك من غرس العقائد الصافية، والقيم الرشيدة، ومكارم الأخلاق وتوجيه البشرية إلى العمل الجاد الشريف فى الدنيا والسعادة فى الآخرة، ولذلك اصطفى الله محمدًا واجتباه من خيرة خلقه، وكمله بمستوفى الكمالات، حتى يكون أهلاً لحمل الأمانة، وأداء الرسالة، والنهوض بتلك التبعات التى لا ينهض بها بشر، إلا بحول من الله، ولا يعصم من أهوالها إلا عناية من السماء، لأنها دعوة إلى الله، وجهاد فى سبيله، وإعلاء لكلمته ونشر لدينه، وبذلك ثبت الله قلب نبيه، وقلوب الذين آمنوا معه، وألقى فى قلوب الذين كفرو الرعب، وعصم الله أولياءه من كيدهم، وقال لنبيه:

﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

(الحجر : ٩٤)

كما قال:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾

(المائدة : ٦٧)

مجاهدون فى سبيل الله

يواصل د. بدوى طبانه: ونعود إلى تلك الآية الكريمة لنرى ما وصف به الله تعالى صحابة نبيه، إذ كانت تلك الآية على وجازتها، وكانت تلك الأوصاف على قلتها جماع كثير من الأخلاق والشمائل التى هى ألزم اللوازم للمؤمنين الصادقين، فهم أقوياء أشداء على الكفار والمعاندين، وهم ضعاف أمام إخوانهم المؤمنين، لا يحملون لهم ضغنًا، ولا يرفعون فى وجوههم سيفًا.

وهاتان خلتان من صميم الخلال التى تميز المؤمنين وأصحاب العقائد الخالصة، الذين لا يحبون إلا فى الله، ولا يبغضون إلا لله، أى أن عواطفهم تدور مع عقيدتهم ومع مقتضيات إيمانهم، لأنها المحور الذى حوله تفكيرهم، والأساس الذى يبنون عليه سلوكهم وعلاقاتهم فى هذه الحياة الدنيا، ولا تتحكم فيهم عصبية جاهلية، ولا شهوة من شهوات الدنيا الفانية.

ولم تكن تلك الشدة التى وصف الله بها عباده المؤمنين، وصحابة رسوله الأمين، شدة الحمقى أو المغرورين، ولا شدة البغاة المعتدين الذين يستبدون بالضعفاء أو المستضعفين، ولكنها الشدة على الطغاة، وعلى المعتدين الآثمين الذين كفروا بربهم، واعترضوا سبيل دعوتهم، وأجمعوا على حربهم، وحاولوا أن يئدوا رسالتهم فى مهدها، فتصدى لهم المؤمنون، ولقوهم بشجاعة قلوبهم، وقوة إيمانهم، وإن قلت فئتهم وضعفت شوكتهم، لأنهم أقوياء بربهم، يؤمنون بنصره، وتأييده، وهم يعرفون أنهم أصحاب حق ونصراء حق، ودعاة إلى الحق الذى لا مرية فيه، ولم يشعروا

أن حياتهم أغلى عندهم من كرامتهم، أو كرامة العقيدة التى جرت فيهم مجرى الأرواح فى الأجساد، أو مجرى الدماء فى العروق:

﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل (١٧٣) فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم﴾

(آل عمران: ١٧٣ - ١٧٤)

وقد قال لهم ربهم:

﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾

(آل عمران: ١٣٩)

وقد صدقوا وصدقوا:

﴿فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين﴾

(آل عمران: ١٤٦)

وقد تكرر ذلك الوصف لأولئك الصحابة الصادقين بالشدة على الكفار، والرحمة بالمؤمنين فى آية أخرى من الكتاب الكريم، وذلك فى قوله تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم﴾

(المائدة: ٥٤)

فهى إذن شدة الإباء، وحمية العقيدة التى يبدو فيها المؤمن قويًا عزيزًا، شامخًا بأنفه، لا تهوله الأعداء، ولا تفزعه كثرة العتاد، حتى أصبح بما ثبته الله يرى كثرة أعدائه فى نور بصيرته قلة، وقوتهم ضعفًا، فثبت فى مواقف يشيب لهولها الولدان، وهانت عليه حياته فى سبيل نصرة دينه، وإعلاء كلمة الله.

وكذلك كانت شدتهم مظهر عزتهم، وعزتهم من عزة دينهم وشرف عقيدتهم، وهيهات أن يرضى مؤمن بالذل أو يقيم على الهوان، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين.

ولقد صبر أولئك المؤمنون ما وسعهم الصبر على البلاء، وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، وقدموا أرواحهم ودماءهم قربانًا لدينهم، وزلفى إلى ربهم، يملؤهم اليقين بأنهم:

﴿ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ولا يطئون موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين (١٢٠) ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون﴾

(التوبة: ١٢٠، ١٢١)

هذه هى شدة الصحابة الأطهار على المشركين والكفار، بلغ من تشددهم عليهم أنهم كانوا يتحرزون من ثيابهم أن تلزق بثيابهم، ويتحرزون من أبدانهم أن تمس أبدانهم.

بل إن الغيرة على الدين، وعلى من جاء به، كانت تدفع أولئك الصحابة إلى الشدة مع أقرب الناس إليهم، وأمسهم بهم رحمًا، لأنهم نسوا ذلك الرحم، وماتت فيهم تلك العصبية، ولم يبق إلا رحم الدين، وآصرة العقيدة.

وذلك من أعجب ما فعل الإسلام بتلك القلوب المؤمنة، فقد انتزع منها بتلك السرعة المذهلة حمية الجاهلية، وعصبيتها للآباء أو للأهل أو للقبيلة وأوليائها، ولم يبق فيها إلا ذلك الولاء لله ورسوله، وللدين الذى جمع شملهم ووحد قلوبهم.

مضرب الأمثال فى الشجاعة

يقول الدكتور طبانه مواصلا حديثه عن صحابة رسول الله ﷺ: ومصداق ذلك أمثلة كثيرة: منها ما كان من أبى بكر الصديق الذى سمع أباه أبا قحافة يذكر الرسول ﷺ بسوء، فصكه صكة شديدة هوى بها إلى الأرض، ثم ذكر ذلك لرسول الله، فقال له رسول الله: أوفعلته؟ قال: نعم! فقال له الرسول: فلا تعد إليه. فقال أبوبكر: لو كان السيف قريبًا منى لقتلته!

ومنها ما كان من أبى عبيدة عامر بن الجراح الذى قال فيه رسول الله ﷺ: لكل أمة أمين، وأمين أمتى أبوعبيدة بن الجراح - لم يتردد أبو عبيدة الأمين فى أن يقتل أباه الجراح فى يوم «بدر» وقد جاء

فى جموع المشركين يحارب محمدًا ومن آمن به.

ومنها ما كان من مصعب بن عمير الذى أجمع أصحاب السير أن راية رسول الله ﷺ كانت بيده يوم «بدر» ويوم «أحد» ولم يستشهد فى يوم «أحد» إلا بعد أن قتل كثيرًا من المشركين، فيهم أخوه عبيد بن حمنه.

ومنها ما كان من عبدالله بن عبدالله بن أبى، كان جالسًا إلى جنب رسول الله، فشرب رسول الله ماء، فقال عبدالله: يا رسول الله أبق لى فضلة من شرابك. قال: وما تصنع بها؟ قال: أسقيها أبي، لعل الله سبحانه يطهر قلبه! ففعل، فأتى بها أباه، فقال له: ما هذا، قال: فضلة من شراب رسول الله، جئتك بها لتشربها، لعل الله يطهر قلبك.. فرفض باستنكار، فرجع إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إئذن لى فى قتل أبي، فقال له رسول الله ﷺ: ارفق به وأحسن إليه.

بسالة وشجاعة صحب رسول الله ﷺ

وفى أولئك الصحب جميعًا، وفى كثير من أمثالهم نزل قول الله تعالى:

﴿لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه

﴿ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

(المجادلة : ٢٢)

وقد بينت هذه الآية أن مودة الكفار تقدح في صحة الإيمان، وأن من كان مؤمنًا لم يزل كافرًا، وإن كان أباه أو ابنه أو أحدًا من عشيرته.

ويقصر الحديث عن صحب رسول الله، وما ملأ الله قلوبهم من الشجاعة، فإن هذا الحديث ليملأ أسفارًا كثيرة من الروايات الوثيقة، والأخبار الصادقة، وإنما نلم إلمامًا بالقليل، ليكون شاهدًا يستدل به على الكثير، وقد كان رسول الله الإمام قدوتهم في تلك البسالة، وقائدهم إلى البذل والفداء، يتقدم الصفوف المجاهدة من صحابته، ويلقى بهم عدوه وعدو الله، ويضرب بسيفه رقاب الكافرين.

فقد قاتل رسول الله في قلة من أصحابه جموع الكفار يوم «أحد»، حتى أصابته جراحات، ووقف أصحابه من دونه يحمونه بظهورهم من نبل المشركين، حتى خلص إليه واحد من صناديد الكفار، ممتطيًا صهوة جواده، وهو يقول: أي محمد، لا نجوت إن نجوت!.. فقال الصحابة: يا رسول الله، أيعطف عليه رجل منا؟ فقال لهم رسول الله: دعوه، فلما دنا منه تناول رسول الله ﷺ بيده حربة رجل من أصحابه، واستقبل هذا الفارس المتحدي، فطعنه في عنقه طعنة خرّ بها عن فرسه صريعًا إلى الأرض وعاد به المشركون قتيلاً إلى مكة.

وموقفه ﷺ يوم حنين، وفي حرب هوازن وثقيف، وفي سائر المشاهد مضرب الأمثال في الشجاعة، وقد اقتدى به صحابته الأبرار.. ويحدثنا الطبري عن رسول الله ﷺ أنه قال يوم «أحد» حين غشيه القوم: من رجل يشري منا نفسه، فنهض إليه خمسة من الأنصار، فقاتلوا دونه رجلاً رجلاً حتى قتلوا جميعًا.

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

يقول الدكتور بدوي طبانه في مقاله: أما الخلق الآخر الذي وصفت به الآية الكريمة أصحاب محمد، فهو الرحمة بالمؤمنين، أو التراحم بينهم، فقد كان ذلك الخلق مظهرًا من مظاهر التكامل في بناء المجتمع الإسلامي الوليد، الذي وضع الرسول ﷺ أساسه الراسخ في كلمته الخالدة التي قال فيها «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا» وفي كلمته الأخرى التي شبه فيها المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم بالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالحمى والسهر.

وقد كان الرسول الإمام المثل الأعلى لصحابته وللمؤمنين في هذا الخلق الكريم، قال الله تعالى:

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

(التوبة : ١٢٨)

ويتخذ هذا الخلق مظهرًا عمليًا منذ أول يوم وطئت فيه أقدام المهاجرين المدينة

المنورة، في ذلك الإخاء بين المهاجرين والأنصار، الذين قاسموهم عيشهم، ونزلوا لهم عن ديارهم، وعما تحرص عليه النفوس من مال الدنيا ومتاعها.

فقد آخى النبي بين أصحابه من المهاجرين والأنصار، وقال: تآخوا في الله أخوين أخوين، ليذهب عنهم وحشة الغربة، ويؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة، وليشد أزر بعضهم ببعض، وأخذ بيد علي بن أبي طالب فقال: هذا أخي، وكان حمزة بن عبدالمطلب عم رسول الله وزيد بن حارثة مولى رسول الله أخوين، وكان جعفر بن أبي طالب ومعاذ بن جبل أخوين، وعمر بن الخطاب وعتبان بن مالك من الخزرج أخوين، وأبوعبيدة وسعد بن معاذ أخوين، وعبدالرحمن بن عوف وسعد بن الربيع أخوين، والزبير بن العوام وسلامة بن سلامة أخوين، وعثمان بن عفان وأوس بن ثابت من بني النجار أخوين، وطلحة بن عبيدالله وكعب بن مالك أخوين، وأبوبكر وخارجة بن زهير من الخزرج أخوين.

وهكذا حتى انتهى الرسول من إيجاد هذه الرابطة، حتى أنزل الله تعالى:

﴿ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

(الأنفال : ٧٥)

فكان ذلك في الميراث فقط، ثم جعل المسلمين أخوة في قوله تعالى:

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾

(الحجرات : ١٠)

فضيلتا الرحمة والإيثار

ونختم مقال د. بدوي طبانه بقوله: وقد ذكر الله تعالى فضل الفريقين من المهاجرين والأنصار وإلى فضيلتي الرحمة والإيثار اللتين تحلى بهما أولئك الصحابة الأبرار تشير الآية الكريم وهي قوله تعالى:

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩) وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

(الحشر : ٨ - ١٠)

فأي بر هذا البر، وأية رحمة وراء هذه الرحمة، وأية محبة تفوق هذه المحبة في الله ولله؟.. يحبون من هاجر إليهم من الذين أخرجوا من ديارهم، وأبعدوا عن أموالهم حفاظًا على دينهم، ونصرا الله ولرسوله، ويؤثرونهم بالخير على أنفسهم ولو كانوا في أشد الحاجة إليه، ويسألون الله المغفرة لإخوانهم الذين سبقوهم بإيمان، وأن ينتزع من صدورهم كل حقد على إخوانهم المؤمنين.

فى ظلال المولد النبوى

إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق



لفضيلة الشيخ فوزى فاضل الزفزاف

يحتفل المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها فى هذا الشهر الكريم بحلول ذكرى مولد خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد بن عبدالله ﷺ، وهذه مناسبة عظيمة القدر، جليلة الشأن، تتطلب أن يرجع المسلمون فيها إلى سيرة المصطفى ﷺ، إمام المرسلين، وخاتم النبيين، وسيد الخلق أجمعين، الذى حياه ربه الكريم، ومدحه فى القرآن الكريم بالثناء العظيم، والمدح الصميم فى قوله - جله شأنه ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾

سأل سعد بن هشام السيدة عائشة - رضى الله عنها - عن معنى هذه الآية فقالت: ألست تقرأ القرآن؟ قال: بلى، قالت: فإن خلق رسول الله ﷺ كان القرآن.

لقد شملك الله - جل وعلا - منذ ولادتك بعنايته، وأحاطك برعايته، فكنت - فى مجتمعك - نموذجًا فريدًا فى خلقك منذ أن نشأت بينهم، وقبل أن يبعثك الله نبيا ورسولاً إلى البشرية كلها، وكنت محل تقدير واحترام وتبجيل قومك رغم عزلتك عن مجالس لهوهم وعبثهم ومجونهم، ورغم عدم مشاركتك لهم فى عباداتهم الأصنام والأوثان، ووصفك قومك: بالصادق الأمين، لما لمسوه فى أقوالك وأعمالك وسلوكك من خلال احتكاكهم بك ومعاملاتهم معك فى جميع مجالات الحياة.

ولأن حسن الخلق أرقى منازل الكمال فى عظماء الرجال، ولأن حسن الخلق يجمع من الفضائل والمكارم والشمائل عند من يتحلى به الكثير والكثير منها، فقد كان سببًا من أسباب بعثتك فقلت: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

ولقد أفاض كثير من العلماء والأولياء وأهل الصلاح والتقوى فى شرح حسن الخلق وتعريفه وبيانه، وحظى ذلك على قدر كبير من اهتماماتهم وكتاباتهم، لما له من آثار إيجابية قوية مؤثرة فى المجتمع الذى يتحلى أفراده بحسن الخلق.

فقالوا: حسن الخلق قسمان: أحدهما: مع الله - عز وجل، والثانى: مع الناس.

وتجل السيرة العطرة لرسول الله ﷺ الكثير من المواقف العظيمة التى تنطق بحسن الخلق للرسول ﷺ فى الجانب الذى يتعلق بذات الله تعالى وأنه ﷺ كان يتحمل قسوة الكفار وصدهم العنيف له، وسخريتهم منه، وأنه لم يكن يبالى بكل ذلك - رغم شدته - مادام أن ما يصيبه ويلحقه ليس غضبًا من الله أو سخطًا عليه.

فقبل هجرته ﷺ إلى المدينة بثلاث سنوات مات عمه أبو طالب وماتت زوجته السيدة خديجة - رضى الله عنها - فى عام واحد، فتتابعت على رسول الله ﷺ المصائب - فقد كانت السيدة خديجة - رضى الله عنها - بالنسبة له الصدر الحنون والملجأ الرحيم، يشكو إليها ويبثها أحزانه.. فتواسيه وتخفف عنه آلامه، وتشد من أزره.. وكان عمه أبو طالب له عضدا وحرزًا فى أمره، ومنعة وناصراً له على قومه، وبموتهما نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تناله فى حياتهما.. حتى اعترضه يوما سفيه من سفهاء قريش فنثر على رأسه ترابا، فدخل الرسول بيته والتراب على رأسه فقامت إليه إحدى بناته، فجعلت تغسل عنه التراب وهى تبكى، ورسول الله ﷺ يقول لها: «لا تبك يا بنية فإن الله مانع أباك».

ولما اشتد به الأذى من قريش - بعد وفاة زوجته السيدة خديجة وعمه أبى طالب - خرج ﷺ إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف، والمنعة بهم من قومه، رجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عز وجل - خرج إليهم وحده - ولما انتهى إلى الطائف عمد إلى نفر من سادة ثقيف وأشرافهم، فجلس إليهم فدعاهم إلى الإيمان بالله، وكلمهم بما جاءهم ونصرته، والقيام معه على من خالفه من قومه، فسخروا منه واستهزأوا به، وردوا عليه منكرين ما يقول.. فقام رسول الله ﷺ من عندهم وقد يئس من خير ثقيف، وقد كره أن يبلغ قومه عنه ما حدث فيزيدهم ذلك أذى به وبمن آمن معه، فقال لهم: إذ ما فعلتم فاكتموا عنى، فلم يفعلوا، بل أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس، وألجأوه إلى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة - وهما فيه - ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه، فعمد إلى ظل من عنب فجلس فيه - وابنا ربيعه ينظران إليه - ويريان ما لقى من سفهاء أهل الطائف.

وهنا وفى هذا الموقف العصيب تظهر عظمة الرسول ﷺ، فيناجى ربه قائلا: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتى، وقلة حيلتى، وهوانى على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربى، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك علىّ غضب فلا أبالى، ولكن عافيتك هى أوسع لى، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل بى غضبك، أو يحل علىّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولاحول ولا قوة إلا بك».

ما أعظم خلقك ياسيدى رسول الله!!

ففى هذا الموقف العصيب الذى تواجهه من المشركين والسفهاء بدلا من تدعو الله أن ينزل عليهم غضبه، ويذيقهم عذابه،

ويخسف بهم الأرض .. تناجى ربك وتشكو إليه ضعف قوتك، وترجوه أن يكون ما حل بك ليس غضبًا عليك من الله !!

هذه بعض أمثلة من خلق الرسول ﷺ فى الجانب الذى يتعلق بذات الله - تعالى.

كان حسن خلقه هو المسيطر والمهيمن على كل أقواله وأفعاله ومعاملاته مع الناس، وأمثلة ذلك من الكثرة والوفرة بحيث تعجز من أراد أن يعدها ويحصيها.

● يقول أنس - رضى الله عنه: خدمت النبى ﷺ عشر سنين فما قال لى أف قط، وما قال لشيء صنعته لم صنعته، ولا لشيء تركته لم تركته، وكان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقًا، ولا لمست خزا قط ولا حريرًا ولا شيئًا ألين من كف رسول الله ﷺ، ولا شممت مسكا ولا عطرًا كان أطيب من عرق النبى.

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه- قال: قبَّل رسول الله ﷺ الحسن بن على وعنده الأقرع بن حابس التميمى جالسًا، فقال الأقرع: إن لى عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدًا، فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: من لا يَرحم لا يُرحم.

ولأن رسول الله ﷺ اشتهر وعرف بحسن الخلق كان الناس - رجالاً ونساء - يأنسون إليه، فيتحدثون ويتكلمون معه فى راحة واطمئنان من غير خوف من غضب أو غلظة فى الرد، فقد رُوِيَ أن عمر بن الخطاب- رضى الله عنه - استأذن على النبى ﷺ وعنده نساء قريش يكلمنه عالية أصواتهن على صوته، فلما استأذن عمر - رضى الله عنه - تبادرن الحجاب، فدخل عمر ورسول الله ﷺ يضحك، فقال عمر رضى الله عنه: مم تضحك بأبى أنت وأمى يا رسول الله؟ فقال: عجبت لهؤلاء اللاتى كنَّ عندى لما سمعن صوتك تبادرن الحجاب فقال عمر: أنت كنت أحق أن تهبنك يارسول الله، ثم أقبل عليهن عمر فقال: يا عدوات أنفسهن أتهبننى ولا تهبن رسول الله ﷺ؟ قلن: نعم أنت علينا أغلظ وأفظ، فقال ﷺ: إيه يا ابن الخطاب والذى نفسى بيده مالقيك الشيطان قط سالكا فجا إلا سلك فجا غير فجك.

ولعظم قدر حسن الخلق، ومكانته العالية، وأنه على قمة الصفات التى ترفع منزلة صاحبه فى الدنيا والآخرة، وتقربه من رسول الله ﷺ يوم القيامة، يحبينا ﷺ فى التحلى بحسن الخلق، فيبين فضل صاحبه، فعن جابر بن عبدالله - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: إن من أحبكم إلىّ وأقربكم منى مجلسا يوم القيامة، أحاسنكم أخلاقا، وإن من أبغضكم إلىّ وأبعدكم منى مجلسا يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون قالوا: يارسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون، فما المتفيهقون؟ قال: المتكبرون.

● وقال ابن القيم - رحمه الله - جمع النبى ﷺ بين تقوى الله وحسن الخلق، لأن تقوى الله تصلح ما بين العبد وبين ربه، وحسن الخلق يصلح ما بينه وبين خلقه، فتقوى الله توجب له محبة الله، وحسن الخلق يدعو الناس إلى محبته.

صلاة الله وسلامة عليك ياسيدى يا رسول الله يا إمام من أحبهم الله فرزقهم حسن الخلق.

تأملات فى السيرة

بنوقريظة وطبائع اليهود



لفضيلة الشيخ الطاهر الحامدى

كانت مدة مكث المشركين حول الخندق خمسة عشر يوماً وبعض رواة السيرة ذكروا أنها كانت بضعاً وعشرين ليلة وأوصلها بعضهم إلى شهر.

ومهما يكن من أمر فإذا أضفنا إلى ذلك مدة حفر الخندق وما عاناه الأنصار والمهاجرون وما بذلوه من جهد نكون قد قاربنا من تصور بعض الجهد والمشقة التى عاناها النبى ﷺ وأصحابه ويضاف إلى هذا الجهد وهذه المشقة نقض بنى قريظة عهدهم مع رسول الله ﷺ وضاعف من هذه المعاناة أنه تزامن نقض العهد مع هجوم المشركين وجموعهم فى غزوة الخندق وأن بنى قريظة يقطنون أسفل المدينة يعنى أن الأحزاب وجيوشهم يقعون فى مواجهة المسلمين.

وبنوقريظة يكونون بموقعهم خلف رسول الله ﷺ والأنصار والمهاجرين وهذا مما يضاعف العنت والمشقة والتى عبر عنها القرآن الكريم فى قوله تعالى:

﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ﴾ (جموع الأحزاب)

﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ (بنوقريظة)

﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ (الأحزاب: ١٠)

وإذا رجعنا إلى حوار دار بين حُيَى بن أخطب كبير المنافقين عدو الله وبين كعب بن أسد القرظى وكان قد واعد رسول الله ﷺ على عدم مشاركة قريش والأحزاب فى حرب النبى ﷺ وعاهده على ذلك. ولما سمع كعب بقدوم حيى بن أخطب أغلق بابه دونه وأبى أن يقابله فألح عليه حتى فتح له وقابله وأخذ يغريه بنقض عهده فقال له كعب: يا حيى إنك رجل مشؤم أنى قد عاهدت محمداً ولست بناقض ما بينى وبينه فإنى لم أر منه إلا صدقًا ووفاءً.

وما زال يغريه ويُحرِّضه لكن كَعْبًا قال له: ويحك يا حيى خلنى وما أنا فيه فإنى لم أر من محمد إلا صدقًا ووفاءً.

ولم يزل حتى يراجع كعْبًا إلى أن اعطاه عهدًا وميثاقًا لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمدًا لأدخلن معك حتى يصيبنى ما أصابك.

وقبل أن أستطرد معك فيما انتهى إليه أمر بنى قريظة ونقضهم عهد رسول الله ﷺ أرجو

بنو قريظة وطبائع اليهود

أن نتأمل سويًا هذا النصّ السابق فأنت ترى أن كعب بن أسد القرظي يشهد ويعترف بأنه لم يرَ من محمد إلا صدقًا ووفاءً. كيف لا؟ ومحمد ﷺ قبل بعثته كان يلقبه قومه بالصادق الأمين وبعد بعثته ﷺ وقومه لم يدخلوا في دينه ليس تكذيبًا له ولكن عنادًا وصلفًا ومع كل ذلك كانوا لا يرون أمينًا في مكة كلها إلا هو ﷺ فكانوا يضعون عنده ودائعهم وأماناتهم لأنه هو الصادق الأمين. ولذلك أبقى سيدنا عليًا كرم الله وجهه بعد هجرته إلى المدينة حتى يرد أمانات أعدائه المشركين إليهم. منتهى الأمانة والوفاء.

لكن لماذا ينقض كعب القرظي عهده مع من لم يرَ منه إلا صدقًا ووفاءً؟ إنها الطبيعة اليهودية والخلق الصهيوني الردىء وطبائع الخيانة وعدم الأمانة. لقد قال له حيي لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمدًا سوف أدخل معك في حصنك حتى يصيبني ما أصابك. نعم هي طبائع اليهود والخيانة والجبن من لدن حيي وكعب حتى هرتزل وصولاً إلى جولدامائير وموشي ديان وحتى نتنياهو.

لكن تعال إلى نبي الإسلام وشرعه وسنته، تروي كتب السنة أن رسول الله ﷺ سمع إمرأة تقول لوليدها: تعال أعطيك. فقال لها النبي ﷺ أو أنت معطيته؟ قالت نعم. فقال ﷺ لو لم تعطه لكتبت عليك كذبة. تأمل رعاك الله كيف أن الرسول ﷺ لم يرض من المرأة وهي مع وليدها تداعبه لا يرضى لها رسول الله ﷺ أن تحدثه إلا صدقاً مع أن ذلك مقبول ومتاح في شرع كل مؤدب، وفلسفة كل راع لأطفال؛ لكنه في شرع النبي ﷺ مرفوض وغير مقبول. هل تعلمنا نحن؟ وكيف يسوّغ لنا نحن أتباع محمد ﷺ أن نترك هذا المنهج القويم وهذا الصدق حتى مع الأطفال؟ بل - لا أتجاوز الحقيقة إن قلت أننا نعلم أولادنا الكذب ونربيهم عليه - الواحد منا يربي ابنه على الكذب بكل بساطة فعندما يطرق الباب يسأل الطارق عن الأب. والأب في داخل المنزل ويقول لابنه إن كان فلان يسأل عني فقل له اني غير موجود. فالولد ينشأ على هذا الكذب ومن الذي يعلمه الكذب والجرأة عليه؟ إنه ابوه. أنا وأنت نربي أولادنا على الكذب فهل نحن اتباع محمد ﷺ حقاً؟.

إن هذا في شرع النبي ﷺ ومنهجه غير مقبول بل هو من الموبقات ولذلك لا تعجب عندما قال كعب القرظي لحيي بن أخطب (إني لم أرَ من محمد إلا صدقاً ووفاءً) نعم فمن يوفي ويصدق غير رسول الله ﷺ.!!

لما تفرق المشركون من الخندق ورجع أبو سفيان بقريش خائبًا مدحورًا خافت بنو قريظة خوفًا شديدًا لأنهم أدركوا أن حيي بن أخطب خانهم وخدعهم ومكر بهم وتخلى عنهم وتركهم وحدهم يواجهون قوة جيش المسلمين وصدق الله حيث يقول في بيان خيبة قريش والأحزاب وخسران بني قريظة: ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾. (الأحزاب: ٢٥-٢٦)

تروي كتب السنة أن رسول الله ﷺ لما رجع عن الخندق والمسلمون قد عضهم الحصار رجعوا مجهدين فوضعوا السلاح ووضعه رسول الله ﷺ ودخل بيت عائشة ودعى بإناء فغسل رأسه واغتسل ودعى بالمجمرة يتبخر وقد صلى

الظهر. قالت عائشة فسلم علينا رجل ونحن بالبيت فنادى "عذيرك من محارب" - يعني من يعذرك أيها المحارب حيث أنك تركت قومًا غدروا بك عليك أن تقضي عليهم قبل أن تقعد - فقام ﷺ فزعًا فخرج إليه - تقول عائشة: وقمت في أثره أنظر من خلل الباب فإذا هو دحية الكلبي - وكان جبريل يأتي على صورة دحية الكلبي - فيما كنت أرى وهو ينفض الغبار عن وجهه وهو معتم بعمامة سوداء من استبرق مُرخ من عمامته بين كتفيه على بغلة شهباء وعليها رحاله وعليها قطيفة من ديباج قد عصب رأسه الغبار. فاتكأ رسول الله ﷺ على الدابة فقال: - أي جبريل - يا رسول الله ما أسرع ما حللتم. عذيرك من محارب. عفا الله عنك. غفر الله لك. أوقد وضعتم السلاح قبل أن نضعه؟ فقال رسول الله ﷺ: نعم. قال فوالله ما وضعناه منذ أن نزل بك العدو وما رجعنا إلا في طلب القوم حتى بلغنا حمراء الأسد قد هزمهم الله تعالى. إن الله يأمرك بقتال بني قريظة وأنا عامد إليهم بمن معي من الملائكة لأزلزل عليهم الحصون فاخرج إلى الناس. فقال رسول الله ﷺ: إن في أصحابي جهدًا فلو أنذرتهم أيامًا. قال جبريل: انهض إليهم فوالله لأدقنهم كدق البيض على الصفا. فأدبر جبريل ومن معه من الملائكة حتى سطع الغبار خلفه. قال أنس رضي الله عنه فيما رواه البخاري عنه: كأني أنظر إلى الغبار ساطعاً في زقاق بني غنم من الأنصار على موكب جبريل حين سار إلى بني قريظة.

تقول عائشة رضي الله عنها: فرجعت. فلما دخل النبي ﷺ قلت يا رسول الله من ذاك الرجل الذي كنت تكلمه؟ قال: أورأيته؟ قلت: نعم. قال: لمن تشبهت؟ قلت: دحية بن خليفة الكلبي. قال رسول الله ﷺ: ذاك جبريل أمرني أن أمضي إلى بني قريظة.

ثم بعث رسول الله ﷺ منادٍ ينادي: يا خيل الله اركبي. ثم أمر بلالاً فأذن في الناس: من كان سامعًا مطيعًا فلا يصلين العصر إلا ببني قريظة. فأدركتهم صلاة العصر في الطريق فقال بعضهم لا نصليه حتى نأتي بني قريظة إنا في عزيمة رسول الله ﷺ وما علينا من إثم. فصلوا العصر ببني قريظة حين وصلوها بعد غروب الشمس. وقال بعضهم بل نصلي فإن رسول الله ﷺ لم يرد منا أن ندع الصلاة. فصلوا. فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فلم يعنف واحدًا من الفريقين ثم دعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب فدفع إليه لوائه وكان اللواء على حاله لم يُحل بعد رجوعهم من الخندق.

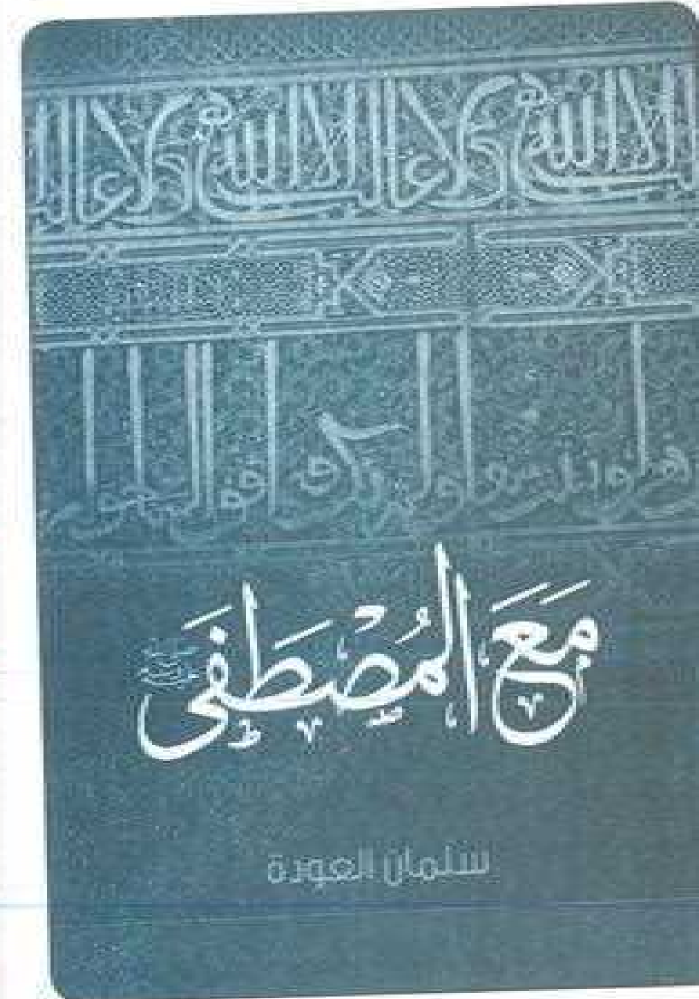
وقبل أن ندخل معًا في معركة بني قريظة أحب أن نقف سويًا مع ألفاظ الحديث السابق واختلاف المسلمين بعد سماعهم لكلام رسول الله ﷺ «لا يصلين أحدكم العصر إلا ببني قريظة» ومع ذلك صلى أناس في الطريق عند وجوب العصر وآخرون لم يصلوا وأخروا الصلاة حتى غربت الشمس ودخلوا بني قريظة. واللافت للنظر والانتباه أن رسول الله ﷺ صوّب الفريقين. صوب الذين لم يصلوا حتى دخل المغرب، وصوب الذين صلوا رغم قوله ﷺ «لا يصلين أحد العصر إلا ببني قريظة» فهل في عمل أي من الفريقين تقصير؟ وإذا لم يكن فما هو توجيه ذلك؟ وإن كان فلماذا؟ مع أن التصرف مختلف والحق واحد كما يقولون.. وهل يسوغ لواحد من المسلمين أن يخالف أمر الرسول ﷺ؟ وإذا لم يكن فكيف ساغ ذلك؟ وهل يجوز الخلاف تبعًا لهوى؟ أم أن للخلاف أصولاً فما هي؟ نترك ذلك إلى الحلقة القادمة بإذن الله تعالى.

«يتبع»

قراءة في كتاب

سئلت السيدة عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ ، فقالت : كان خلقه القرآن» (١) ، تعني : أنه تأدب بآدابه ، وتخلق بأخلاقه ، فما مدحه القرآن ، كان فيه رضاه ، وما ذمه القرآن ، كان فيه سخطه ، وجاء في رواية عنها ، قالت : كان خلقه القرآن يرضى لرضاه ويسخط لسخطه وكان يدفع السيئة بالحسنة . وكان ﷺ لشدة حيائه لا يواجه أحدا بما يكره ، بل تعرف الكراهة في وجهه ، وكان ﷺ يسبق حكمه غضبه.

فعن عبد الله بن سلام ، قال : إن الله لما أراد هدى زيد بن سعنة ، قال زيد بن سعنة : ما من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتها في وجه محمد ﷺ حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أخبرهما منه ، يسبق حلمه جهله ولا تزيد شدة الجهل عليه إلا حلما ، فكنت ألطف له لأن أخالطه ، فأعرف حلمه من جهله . قال زيد بن سعنة : فخرج رسول الله ﷺ يوما من الحجرات ومعه علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فأتاه رجل على راحلته كالبدوي ، فقال : يا رسول الله ، إن بصرى قرية بني فلان قد أسلموا ، ودخلوا في الإسلام ، وكنت حدثتهم إن أسلموا أتاهم الرزق رغدا ، وقد أصابتهم سنة وشدة وقحوط من الغيث ، فأنا أخشى يا رسول الله أن يخرجوا من الإسلام طمعا كما دخلوا فيه



بقلم أ: عادل خفاجة

طمعا ، فإن رأيت أن ترسل إليهم بشيء تعينهم به فعلت ، فنظر إلى رجل إلى جانبه أراه عليا رضي الله عنه ، فقال : يا رسول الله ، ما بقي منه شيء ، قال زيد بن سعنة : فدنوت إليه ، فقلت : يا محمد ، هل لك أن تبيعني تمرا معلوما من حائط بني فلان إلى أجل كذا وكذا ؟ فقال : لا يا يهودي ، ولكني أبيعك تمرا معلوما إلى أجل كذا وكذا ، ولا تسمي حائط بني فلان» قلت : بلى ، فبايعني فأطلقت همياني ، فأعطيته ثمانين مثقالا من ذهب في تمر معلوم إلى أجل

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٣٠٨) ، ومسلم ٢/١٦٩

كذا وكذا ، فأعطاها الرجل ، فقال : اغد عليهم فأعنهم بها، فقال زيد بن سعنة : فلما كان قبل محل الأجل بيومين أو ثلاث ، أتيته فأخذت بمجامع قميصه وردائه ، ونظرت إليه بوجه غليظ ، فقلت له : ألا تقضيني يا محمد حقي ؟ فوالله ما علمتكم بني عبد المطلب لمطل ، ولقد كان لي بمخالطتكم علم ، ونظرت إلى عمر ، وإذا عيناه تدوران في وجهه كالفلك المستدير ، ثم رماني ببصره ، فقال : يا عدو الله أتقول لرسول الله ﷺ ما أسمع ، وتصنع به ما أرى ، فوالذي بعثه بالحق لولا ما أحاذر فوته لضربت بسيفي رأسك ، ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر في سكون وتؤدة ، ثم قال : يا عمر ، أنا وهو كنا أحوج إلى غير هذا ، أن تأمرني بحسن الأداء ، وتأمره بحسن التباعة ، اذهب به يا عمر وأعطه حقه وزده عشرين صاعا من تمر مكان ما روعته» قال زيد : فذهب بي عمر رضي الله عنه ، فأعطاني حقي ، وزادني عشرين صاعا من تمر ، فقلت : ما هذه الزيادة يا عمر ؟ فقال : أمرني رسول الله ﷺ أن أزيدك مكان ما روعتك ، قلت : وتعرفني يا عمر ؟ قال : لا ، من أنت ؟ قلت : أنا زيد بن سعنة ، قال : الحبر ، قلت : الحبر ، قال : فما دعاك أن فعلت برسول الله ﷺ ما فعلت وقلت له ما قلت ؟ قلت : يا عمر ، لم تكن من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفته في وجه رسول الله ﷺ حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أخبرهما منه ، يسبق حلمه جهله ، ولا يزيده الجهل عليه إلا حلما ، فقد أخبرتهما ، فأشهدك يا عمر أني قد رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا ، وأشهدك أن شطر مالي - وإني أكثرها مالا - صدقة على أمة محمد . فقال عمر رضي الله عنه : أو على بعضهم ، فإنك لا تسعهم . قلت : أو على بعضهم ، فرجع عمر وزيد إلى رسول الله ﷺ ، فقال زيد :


سلمان العودة

أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ﷺ . وآمن به وصدقه وبايعه وشهد معه مشاهد كثيرة ، ثم توفي زيد في غزوة تبوك مقبلا غير مدبر ، رحم الله زيدا (٢)

هكذا كان خلق رسول الله وما أحوجنا أن نتأسى به و نحض شبابنا على التأسي به صلوات الله وسلامه عليه ، حتى نفوز بمجتمع يرضى عنه الله تبارك وتعالى.

من أجل ذلك كان اختيارنا لكتاب «مع المصطفى» للأستاذ الكبير سلمان العودة .

وتعريفا بمؤلف الكتاب نقول :

هو سلمان بن فهد بن عبد الله العودة (٣)

ولد في شهر جمادى الأولى عام ١٣٧٦ هـ ١٩٥٦ م في قرية البصر التابعة لمدينة بريدة بمنطقة القصيم.

التحق بكلية اللغة العربية وبعدها بكلية الشريعة في جامعة الإمام محمد بن سعود في القصيم . اختير معيداً في ذات الجامعة ، وحصل خلال تلك الفترة على درجة الماجستير من قسم السنّة وعلومها في كلية أصول الدين بالرياض ، بعد ذلك نال شهادة الدكتوراه في الشريعة.

(٢) المعجم الكبير - لأبي القاسم الطبراني ، ص٢٢٣ ، مكتبة ابن تيمية، القاهرة

(٣) http://fb.com/SalmanAlodah

شغل العديد من المناصب وعضوية العديد من الجمعيات والمؤسسات الخيريّة والعلميّة في العالم الإسلامي نذكر منها أنه:

نائب رئيس منظمة النصرة العالمية.

الأمين المساعد للاتحاد العالمي لعلماء المسلمين.

عضو مجلس الإفتاء الأوروبي.

من مؤلفاته:

- مع المصطفى نشر بدار مؤسسة الإسلام اليوم :سنة ١٤٢٨ هـ وهي المؤسسة التي نشرت أغلب إنتاجه .
- الأمة الواحدة نشر في ١٤٢٨هـ.
- مع الله (في أسمائه الحسنى) نشر: ١٤٢٩هـ .
- مع العلم سنة النشر: نشر ١٤٢٩هـ .
- ولا يزالون مختلفين نشر : ١٤٢٩ هـ .
- تعليق على مختصر صحيح مسلم دار النشر : مكتبة الرشد الرياض سنة النشر ١٤٢٩هـ .
- بناتي سنة النشر : ١٤٢٩هـ .
- شكراً أيها الأعداء سنة النشر ١٤٣١ هـ .
- لو كنت طيراً نشر في ١٤٣٢ هـ .
- طفولة قلب دون التذكر فوق النسيان سنة النشر : ١٤٣٢هـ .
- فقه العبادة سنة النشر : ١٤٣٢ هـ .

أنا وأخواتها .. رحلة في أسرار الذات في سنة ١٤٣٤ هـ .

أسباب تأليف الكتاب:

لاحظ المؤلف أن بعض شبابنا بسبب الفتح الإعلامي الهائل من القنوات الفضائية يعرفون الكثير عن نجوم الفن وأبطال الرياضة، وصار عندهم اهتمام ومتابعة للمعلومات التي تنشر عنهم، بل يسارعون إلى تقليدهم.

فرأى أن من الواجب إعادة تأهل هؤلاء الشباب وربطهم بالتاريخ الإسلامي وخاصة بسيرة النبي محمد ﷺ لأننا لو عرضنا سيرته ﷺ بالشكل الصحيح لأولادنا وبناتنا، لما ابتغوا عنه بديلا.

وهذا الكتاب محاولة لتوضيح البساطة والعفوية المباشرة في سيرة الرسول ﷺ ، ويشير المؤلف إلى ذلك فيقول:

حين تقرأ سيرة بعض العلماء أو العظماء، تجد أن هؤلاء قد يُلزمون أنفسهم بألوان من التعامل أو ببرامج معينة يشعر الإنسان عند قراءتها أنه عاجز عن تطبيقها والاقتداء بها؛ لكن حين تقرأ سيرة النبي ﷺ تشعر بأنها قريبة منك ، وأن بمقدورك أن تقتدى به ﷺ .

فالحاكم يجد في سيرة النبي ﷺ أنموذج العدل والإنصاف والتواضع وحفظ الحقوق والأموال ورد المظالم لأهلها ووضع الأمور في نصابها.

والعالم يجد في سيرته ﷺ طريقة نشر العلم وتوصيله إلى الناس.

والداعية يجد في سيرته ﷺ كيفية الصبر على ما يلاقيه ، وكيفية إيصال رسالته وصوته إلى الآخرين .

والأب يجد في سيرته ﷺ كيفية التعامل مع الأولاد ، ومراعاة مستواهم وظروفهم.

والزوج يجد في سيرته ﷺ كيفية التعامل مع الزوجة والصبر على ما قد يصدر منها.

وهكذا الزوجة؟ أيضا- تجد في سيرته ﷺ وتوجيهاته ، وتعليمه لنسائه ، ومعاملة نسائه معه ﷺ ما يعينها في التعامل مع زوجها.

وهكذا .. فالغني والفقير ، والصحيح والمريض، والمقيم والمسافر ، والمنتصر والمهزوم ، يجد بغيته في سيرة الحبيب المصطفى ﷺ ، فقد تقلبت به ﷺ الأحوال كلها ، وذاق منها الكثير ، وكان في كل الأحوال أنموذجا للعبد الرسول المطيع لربه، الذي يرى من نفسه قدوة لغيره ﷺ .

الكتاب: هذا الكتاب الذي بين أيدينا يهتم بسيرة النبي صلوات الله وسلامه عليه، من أجل إلقاء الضوء وتبصرة الشباب بذلك النهج النوراني العظيم . وقد صدر في طبعته الرابعة سنة ١٤٣٣هـ وتزيد صفحات الكتاب عن أربعمائة صفحة من مقاس ١٧ X ٢٢ سم وهو أحد إصدارات مؤسسة الإسلام اليوم.

يتكون الكتاب من مقدمة وأربعين فصلا منها:

الإسراء والمعراج- بين التصديق بالغيب والتكذيب بالخرافة- الصلاة في الإسلام- إلى العمل- أسرى بدر- اليوم يوم وفاء وبر- في بيت خديجة- من وحى الحياة الزوجية - في بيت عائشة- كان خلقه القرآن- الرسول العبد- لا تغضب- النبي الداعية- النبي الرحمة- النبي الواثق- النبي الصابر- النبي وقربه من الله- النبي وأدب الحوار- الإسلام وحقوق الإنسان -حرمة المسلمين- حفظ العورات - البلد الأمين.

الإسراء والمعراج

وتستوقفنا معجزة الإسراء والمعراج وقد تناولها المؤلف من عدة جوانب : كونها آية كبرى ثم كونها مليئة بالمعالم والمعاني وكذلك كونها تؤكد وحدة الرسالات وأن الإسلام ليس الدين الذي بعث به محمد ﷺ فحسب بل كل الأنبياء بعثوا بالإسلام.

وفي معرض حديثه هذا عن الإسراء والمعراج ينصح المؤلف الأمة الإسلامية ألا يلقوا بالا لما ألصق بالإسراء والمعراج من خرافات ، ويجب أن تطرح بعيدا عن صحيح السنة ويلقي باللوم على العقل الإسلامي الذي لا يأخذ بتعاليم الإسلام، وأنه لابد أن يلتزم بما أنزل الله في محكم كتابه.

مشيرا إلى قول الله تعالى:

﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾

البقرة ١١١

إذ في هذه الآية دعوة للنقاء والتجرد والدقة المعيارية في عدم قبول الأخبار إلا بالبرهان والدليل.

ثم يقول:

ما أحوج هذه الأمة إلى مناد يصيح بأعلى صوته : إن هذه الأمة ليست كما أمر الله عز وجل ، وليست كما يحب الله تعالى ، ولا كما ربّى نبيه ﷺ أصحابه الأولين. فحينما يأتي لأبي بكر رضي الله عنه الخبر عن حادثة الإسراء نقلا عن النبي ﷺ ، والنبي ﷺ على مقربة منه بمكة المكرمة، يقول : إن كان قاله فقد صدق، فيعلق تصديق الأمر بأن يكون النبي ﷺ قاله ، ويتأنى ويتثبت .

هذا العقل الذي هو جوهرة نفيسة عزيزة، وبه صار الإنسان إنسانا يجب ألا نسمح له أن يكون وعاء يستوعب الخرافات والأساطير، ولكن كلما تجولت في بلد من البلاد الإسلامية لاحظت أن الخرافة تعشش في البيئات المتدينة.

ويختتم هذا الفصل بقوله: هذه المعاني

يجب أن تبعث في قلوبنا الأمل على أن الأرض المقدسة سوف تعود لأصحابها الشرعيين وأن علينا جميعا ألا نكتفي بمجرد الانتظار، بل علينا أن نسعى في حماية هذه الأرض ومناصرة جندها المرابطين في سبيل الله من الطائفة المنصورة والمؤلف هنا يشير إلى قول النبي ﷺ : لا تزال طائفة من أمتي على الدين ظاهرين لعدوهم قاهرين لا يضرهم من خالفهم إلا ما أصابهم من لأواء حتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك قالوا يا رسول الله وأين هم قال ببيت المقدس وأكناف بيت المقدس(٤).

ويخلص المؤلف إلى أنه يجب أن نسعى إلى تحقيق هذا المعنى، بل وتأويل هذا الخبر الإلهي الرباني الذي يؤكد حادث الإسراء، ويبين أن هذه الأرض سوف تعود إلى أصحابها طال الزمان أم قصر.

مات وهو ساجد

وتحت عنوان مات وهو ساجد يشير المؤلف إلى أن التمني لا يصنع شيئا وأن المسلم اليوم بحاجة إلى أن يعرف أن الانتماء للإسلام يعني الجدية والإتقان في كل أعماله وأقواله وإذا كان المسلمون يمتدحون فلانا الذي مات وهو ساجد فإنه يجب عليهم أيضا أن ينظروا نظرة مماثلة للكادحين الذين يحسنون أعمالهم ويقدمون أرواحهم في سبيل هذا الإتقان.

يقول المؤلف: لماذا لا يمتدح المسلمون أيضا ذلك المسلم الذي مات وهو يدأب في عمله الدنيوي، أو يجتهد في وظيفته، أو يعكف في معمله أو مختبره ؟ أليس هذا من الدين ؟ أليست هذه الأشياء عبادة؟! أليس فيها نفع وإحسان إلى الناس ؟ والله تعالى كتب الإحسان على كل شيء وأثاب عليه، بل يؤجر المحسن حتى لو كان بغير نية، أليست هذه المعاني من صميم الدين؟ أليس الذي علمنا الركوع والسجود هو الذي يقول بأبي هو وأمي ﷺ : "إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه"؟(٥)

وقوله ﷺ : "عملا" نكرة يشمل أي عمل كبيرا كان أم صغيرا، عمل دين أو عمل دنيا، فكما هو مطلوب من العبد مثلا أن يخشع في صلاته، كذلك مطلوب من العبد أن يجتهد في وظيفته ودراسته وتعليمه وأن يجتهد في أي عمل يقوم به ما دام هذا العمل مباحا ينفعه في دنياه.

وهو يفعل هذا لينجح أو يتفوق أو يحصل على ترقية، ولكنه يجد هنا حافزا هائلا ضخما تذهب من أجله الأرواح شعاعا، إنه محبة الله.

فهذا الدين ليس فيه انفصال بين أمر الدنيا وأمر الآخرة والطريق إلى الجنة يمر من خلال الإحسان إلى الأهل والجيران وأداء الأمانة والقيام بالوظيفة والتفوق في العمل، والإخلاص في التعامل مع الناس، وليس فقط من خلال الأعمال التعبدية المحضة.

فليستشعر المسلم معنى العبادة وهو يصلي ويسجد، ويركع ويسعى ويحفد، وليستشعر المسلم معنى العبادة وهو يؤدي حق أهله أو يحضن طفله، أو يخلص في عمله، أو يجتهد في دراسته.

(٤) أخرجه أحمد ٥/٢٦٩ (٢٢٦٧٦)
(٥) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال.

وفاء في وجه الغدر

أسر خبيب -رضي الله عنه- وكان معه آخران واستسلم الثلاثة تحت عهد وميثاق ألا يقتلوا فأخذ خبيب وبيع لبعض المشركين بمكة ليقتلوه بأبيهم الذي قتل يوم بدر.

يقول المؤلف تحت عنوان: وفاء في وجه الغدر.

جاء في صحيح البخاري "أن خبيبا رضي الله عنه كان قد تهيأ للموت وهو في الأسر، فطلب من صاحبة البيت موسى حتى يستحد بها ويزيل شعره من بدنه، وفي هذه الأثناء تسلل إليه طفل صغير من أطفالهم.

تقول صاحبة البيت: ما إن فقدت الطفل حتى شعرت باللوعة والخوف، أين ذهب ابني فنظرت فإذا هو على فخذ خبيب، فأصابني ما أصابني، وقلت السكين في يده، والطفل في حجره، وهو رجل مأسور ينتظر الموت، فلابد أنه سوف يأخذ بثأره فورا، ويقتل هذا الطفل بنفسه.

لقد عرف خبيب ما في نفسها وابتسم وقال لها: أتخشين أن أقتله؟ والله ما كنت لأفعل ذلك.

يريد المؤلف من سرد هذه القصة إظهار أثر الدين الإسلامي في ترقية الشعور التي يغرسها في أبنائه من خلال الممارسة العملية، فإن هذا الصحابي الأسير، ما أقبل على أي عمل مع أن العاطفة البشرية قد تحمله على أن يعمل عملا ما لكن هذا الدين رباه تربية خاصة بحيث إنه لم يفكر أن ينتقم ويقتل هذا الطفل البريء.

ومن هذا المنطلق كتب المؤلف تحت عنوان: ولا تعتدوا :

نحن اليوم أمام ما يسمى بالحرب على الإرهاب، والتي وجدنا أنها عرت الكثير من الادعاءات التي تقال عن حقوق الإنسان، خصوصا حين تنتقل الجيوش إلى دول أخرى غير دولها، فأصبح هناك عدوان، وتعذيب، وإطاحة، بالإنسانية، واستخفاف بالجنس البشري ويصاحب ذلك حملة هائلة وضخمة ومضللة من ادعاءات تتعلق بالحفاظ على حقوق الإنسان ونشر الديمقراطية، لكن الإسلام ينشر هذه الحقوق بطريقته الخاصة، وهذه القصة هي أبلغ تعبير يجب أن يوصل للمسلمين كما يوصل لغيرهم.

طفل صغير في حجر رجل يتهيأ للموت ظلما وعدوانا وقهرا، فقد أخذ بالخدعة والعهد والميثاق، ومع ذلك يقول لها: لاتخافي على طفلك، ما كنت لأقتله.

هذه تربية محمد ﷺ أَدِّ الأَمَانَةَ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ، وَلا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ»(٦).

أين شباب المسلمين من هذا المعنى؟

إن تربية محمد ﷺ تقتضي أن تطيع الله فيمن عصى الله فيك، ولا تخن من خانك، ولاتظلم من ظلمك ولا تغدر من غدر بك، ولا تهتك عرض من هتك عرضك.

هذه قيم وأخلاقيات يفرضها الإسلام على أبنائه حتى في وقت الحرب.

وبعد، فقد قدم المؤلف إضافة طيبة إلى المكتبة الإسلامية، حيث أبرز جانبا من سيرة النبي ﷺ بأسلوب ميسر قريب إلى النفس ولم ينقصه الربط بالأحداث المعاصرة حتى خرج الكتاب جامعا بين الأصالة والمعاصرة أصالة التعاليم النبوية وكيفية الاستفادة منها في أحداث العصر الراهن.

(٦) شرح رياض الصالحين - دار الوطن للنشر، الرياض ١٤٢٦ هـ.

فى ذكرى المولد النبوى الشريف

د/ السيد محمد السيد عبد النبى
الأمين العام المساعد للثقافة الإسلامية بمجمع البحوث الإسلامية

إذا احتفلت الأمم والشعوب بذكرى ميلاد علمائها وفلاسفتها ورجال الفكر والإصلاح فيها فإن من واجب العالم أجمع أن يحتفل بذكرى ميلاد رسول الله ﷺ؛ لأن الله عز وجل أنقذ به الدنيا من الشقاء الذى حل بها ومن الشرك والجهل الذى خيم عليها، ومن الفرقة إلى الوحدة، ومن النزاع والخصام إلى المحبة والوئام، وانتقل بالعالم أجمع إلى نور الإيمان والعلم.

وما أروع الأبيات التى صاغها أمير الشعراء أحمد شوقى التى عبر بها عن روعة الحدث وجلاله، عن مولد خير البرية:

ولد الهدى فالكائنات ضياء
وفم الزمان تبسم وثناء
الروح والملأ الملائك حوله
للدين والدنيا به بشراء

أجل.. لقد أضاء مولده الشريف وجه الأرض مبشرًا بعهد جديد ينقل البشرية من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد.. وكثيرون من استشعروا آنذاك أن شيئًا ما قد حدث.. وأن أمرًا جللاً قد وقع.. لقد ارتج إيوان كسرى وتصدع، وانطفأت نار المجوس واهتزت الأرض كلها للحدث الذى ما لبث أن غير وجه الدنيا بأسرها.

لقد كان مولد الهادى ﷺ بعثا وميلادا جديدا لأمة العرب قال تعالى:

﴿هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين﴾

(الجمعة: ٢)

والمنقذ لأهل الكتاب، قال تعالى:

﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفوا عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ﴿١٥﴾ يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾

(المائدة: ١٥، ١٦)

بل هو المنقذ للعالم أجمع، قال تعالى:

﴿قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا الذى له ملك السماوات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون﴾

(الأعراف: ١٥٨)

﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾

(سبأ: ٢٨)

لقد كان العالم يموج بالشرك والانحلال واستعباد الإنسان لأخيه الإنسان، وساد فيه التناحر والخصام والشقاق والحروب، والتفاخر بالأحساب والأنساب، وأكل أموال الناس بالباطل، كذلك سادت العصبية الظالمة الهوجاء والظلم والبغى فى الأرض بغير الحق، كان الناس يقدسون الأصنام والأوثان ويعبدونها آلهة من دون الله وهذا الفساد الذى هيمن على المشاعر والضمائر أهدر كرامة الإنسان وجعل الناس كوحوش الغابة، يفتك الأقوياء بالضعفاء دون أن يردعهم رادع من دين، أو يزجرهم زاجر من خُلق.

لقد كان العالم قبل مولده ﷺ مضطربا فى الباطل ويتخبط فى الضلال ولا يأبه بفعل المنكر، وكان يقود العالم آنذاك قوتان متصارعتان: فى الشرق الفرس على ما هم فيه من انحلال وفساد، وفى الغرب الروم على ما هم عليه من إباحية وفسوق.

وكان إيوان كسرى وبلاط قيصر يتنازعان الولاية على الأرض بالكفران والطغيان والقهر، حتى تفشت فى المجتمع الأمراض التى تفتك بالعقائد والقيم الإنسانية الخالدة، والأمم إذا أصيبت فى عقائدها وأخلاقها فإنها تفقد أهم مقومات الحياة وبالتالى يكون مآلها إلى الزوال والانهيار، لذا كان العالم قبل مولده ﷺ فى حاجة إلى نبى يرسله الله عز وجل بعقيدة يقتلع بها جذور الفساد، ويستأصل شأفة الوثنية، ويرسخ عقيدة التوحيد فى أعماق النفس البشرية لكى تولد من جديد، ولادة تسلك بها طريق السعادة فى الدنيا والآخرة.

وكان من فضل الله عز وجل على البشرية جمعاء أن يكون إنقاذ البشرية من براثن الشرك والوثنية والجاهلية على يد سيدنا محمد ﷺ الذى اصطفاه الله عز وجل لهذه المهمة الصعبة والشاقة التى لا يبعث لها إلا أولو العزم من الرسل؛ ولهذا كله كان مولد الهادى ﷺ ثورة على الفساد العقائدى والاجتماعى والخلقى.

وكانت البعثة المحمدية، حيث حمل ﷺ رسالة الإسلام فهذب الطباع وغير العادات والتقاليد وحمى الحقوق ورعى العهود والأمانات، ونظم شئون المجتمع: الفرد والمرأة والعامل والفقير واليتيم، ومحا ما كان فاشيا من الفساد والضلال، داعيا إلى المحبة والوئام والسلام بين الناس وساوى بينهم فى الحقوق والواجبات، لا فرق بين عربى وعجمى إلا بالتقوى والعمل الصالح، قال تعالى:

﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾

(الحجرات: ١٣)

إنها شريعة الله، إنها رسالة الإسلام، التى حاربت ولازالت تحارب المعتقدات الزائفة والعقائد الباطلة والأوهام الفاشية:

﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة﴾

(البينة: ٥)

بعث الإسلام فى أمة العرب حب المعرفة والتفكير والعلم والاستقامة، واستقلال الشخصية ودعا إلى المحافظة على حقوق الفرد وحقوق الناس دون بغى أو عدوان أو فساد فى الأرض وبذلك صاروا:

﴿خير أمة أخرجت للناس﴾

(آل عمران: ١١٠)

طرائف.. ومواقف

للشيخ / عبدالحفيظ محمد عبدالحليم

«نصيحة»

حضر لدى ابن هبيرة الحسن البصرى فاستفتاه ابن هبيرة فى كتب تأتيه من عند يزيد بن عبدالملك، وفيها من الأمر ما لم يأذن به الله، وقال: «إن نفذتها وافقت سخط الله، وإن لم أنفذها خشيت على دمي».

فقال الحسن: يابن هبيرة خف الله فى يزيد ولا تخف يزيد فى الله، يابن هبيرة إن الله ما نعك من يزيد، وإن يزيد لا يمنعك من الله، يابن هبيرة لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق، فانظر ما كتب إليك فيه يزيد فاعرضه على كتاب الله تعالى فما وافق كتاب الله فأنفذه، وما خالف كتاب الله فلا تنفذه، فإن الله أولى بك من يزيد، وكتاب الله أولى بك من كتابه؛ فضرب ابن هبيرة على كتف الحسن، وقال: «هذا الشيخ صدقني ورب الكعبة».

«توكلت على الله»

قال الإمام الشافعي - رحمه الله

توكلت فى رزقى على الله خالقي
وأيقنت أن الله لاشك رازقي
ومايك من رزقى فليس يفوتني
ولو كان فى قاع البحار الغوامق
سيأتى به الله العظيم بفضله
ولو لم يكن منى اللسان بناطق
ففى أى. شيء تذهب النفس حسرة
وقد قسم الرحمن رزق الخلائق

«أنت وأهلك قدوة»

كان عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – إذا صعد المنبر فنهى الناس عن شيء جمع أهله، فقال: إنى نهيت الناس عن كذا، وكذا، وإن الناس ينظرون إليكم نظر الطير إلى اللحم، وأقسم بالله لا أجد أحدا منكم فعله إلا ضاعفت عليه العقوبة.

«موعظة لخليفة»

لما استخلف عمر بن العزيز أرسل إلى سالم بن عبدالله أن ينصحه، فقال له سالم:

اجعل الناس أبا وأخا وابنا
فبر أباك، واحفظ أخاك، وارحم ابنك.

«العلم والحلم»

قال إبراهيم بن أدهم: ما من شيء أشد على الشيطان من عالم حليم: إن تكلم تكلم بعلم، وإن سكت سكت بحلم.

يقول الشيطان: انظرو إلى كلامه أشد عليَّ من سكوته.

«نعم الوفاء»

• قال الأصمعي: دخلت بعض مقابر الأعراب، ومعى صاحب لى فإذا جارية على قبر كأنها تمثال وعليها من الحلى والحلل ما لم أرمثله، وهى تبكى بعين غزيرة وصوت شجى فالتفت إلى صاحبي، فقلت: هل رأيت أعجب من هذه؟ قال: لا والله ولا أحسبنى أراه، ثم قلت لها: يا هذه إنى أراك حزينة، وما عليك زى الحزن، فأنشدت تقول:

فإن تسألانى فيم حزنى فإننى
رهينة هذا القبر يا فتيان
وإنى لأستحييه والترب بيننا
كما كنت أستحييه حين يراني
أهابك إجلالا وإن كنت فى الثرى
مخافة يوم أن يسؤك لساني

• ثم اندفعت فى البكاء وجعلت تقول:

ياصاحب القبر يامن كان ينعم بي
بالا ويكثر فى الدنيا مواساتي
قد زرت قبرك فى حلى وفى حلل
كأننى لست من أهل المصيبات
أردت آتيك فيما كنت أعرفه
أن قد تسر به من بعض هيآتى
فمن رآنى رأى عبرى مولهة
عجيبة الزى تبكى بين أموات

«مدح للغنى ذم للفقير»

ليس من خلة هى للغنى مدح إلا وهى للفقير عيب فإن كان شجاعًا سمي أهوج، وإن كان جوادًا سمى مفسدًا، وإن كان حليمًا سمى ضعيفًا، وإن كان وقورًا سمى بليدًا، وإن كان لينا سمى مهذارًا، وإن كان صمتًا سمى عييًا.

«أترك.. حبها»

رأى أعرابى من ينظر إلى زوجته فطلقها غيرة على المحارم، فلما عوتب فى ذلك قال قصيدته الهائية المشهورة ومنها:

وأترك حبها من غير بغض
وذاك لكثرة الشركاء فيه
إذا وقع الذباب على طعام
رفعت يدى ونفسى تشتهيه
وتجتنب الأسود ورود ماء
إذا رأت الكلاب ولغن فيه

«الضيف الضجر الممل»

أضاف رجل رجلا، فأطال المقام حتى كرهه، فقال الرجل لامرأته: كيف لنا أن تعلم مقدار مقامه، فقالت له: ألق بيننا شرا حتى تتحاكم إليه.. ففعل.

فقالت المرأة للضيف: بالذى يبارك لك فى غدوك غدا أينا أظلم، فقال: والذى يبارك فى قيامى عندكم شهرًا ما أعلم.

«دعاء»

اللهم عافنا من بلائك. ونجنا من سوء قضائك، وهب لنا ما وهبته لأوليائك، اللهم بك آمنا، ولك أسلمنا فاجعلنا لآلائك ذاكرين، ولنعمائك شاكرين، وجنبنا الفزع الأكبر يوم الدين.

كلمات ونفحات في سيرة الدكتور مصطفى عمران

(١٣٤٤-١٤٣٥هـ / ١٩٢٦-٢٠١٣م)

للأستاذ / أحمد ممدوح سعد
أمين الفتوى ومدير إدارة الأبحاث الشرعية
بدار الإفتاء المصرية

إن موت العلماء الربانيين يعد من أعظم الرزايا التي تنزل بالمسلمين؛ فهم هداة الخلق، وحراس الشريعة، وفرسان الدين، وهم ورثة الأنبياء على الحقيقة؛ فإن الأنبياء ما ورثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه فقد أخذ بحظ وافر - كما في حديث أبي الدرداء رضي الله عنه يرفعه عند أبي داود وغيره-؛ وقد روى الإمام أحمد في مسنده من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن مثل العلماء في الأرض، كمثل النجوم في السماء، يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، فإذا انطمست النجوم، أوشك أن تضل الهداة». وروى الشيخان عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالمًا اتخذ الناس رؤسًا جهالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا» وكان السلف يقولون: «موت العالم ثلمة في الإسلام، لا يسدها شيء ما اختلف الليل والنهار».

وقد انثلم في بناء العلم ثلمة، ونقب في جداره نقب؛ بوفاة أستاذ الجيل العلامة المحقق المتكلم المعقولي الأديب عديم النظير الأستاذ الدكتور مصطفى عمران، والذي لقبه شيخ علماء الأزهر الشيخ معوض عوض إبراهيم في نعية له بـ «الغزالي الثاني».

وقد أردت أن أكتب عن فقيد الإسلام بعض كلمات أحكي من خلالها شيئًا من سيرته العلمية، وأنقل ما رأيته من كريم أخلاقه وما شهدته من المواقف التربوية التي عاينتها وعاينها غيري من أبنائه وطلابه، فتواصلت مع بعض أحبابه لأضم ما عندهم إلى الذي عندي، وعلى رأس هؤلاء: رفيقه وصديق عمره أستاذنا العلامة المعقولي الكبير الأستاذ الدكتور عبدالعزيزي سيف النصر، ثم جماعة من نبلاء طلاب الفقيد يضيق المقام عن سرد أسمائهم، فالشكر لهم جميعًا على جهدهم المشكور، وقد انتخبت بعضًا من المجموع الذي تحصل لدي مما أراه مناسبًا للمقام، فأقول وبالله تعالى التوفيق:

ولد الأستاذ الدكتور مصطفى عبدالجواد عمران العدوي في ١١ فبراير ١٩٢٦ بالتقويم

الميلادي بمدينة القاهرة، وأصل عائلته من بني عديات بمحافظة أسيوط.

وكان أبوه يرجو أن يكون ابنه عالمًا، فكان يحثه على طلب العلم، وألحقه بالتعليم الأزهري لأجل هذه الغاية، وتدرج شيخنا فيه حتى حصل على الإجازة العالية (الليسانس) عام ١٩٥٣م ثم نال تخصص التدريس عام ١٩٥٤م، ثم عمل مدرسًا لمادة المنطق في معهد ملوي الديني بالمنيا، واستمر في العمل بالمعاهد الأزهرية إلى عام ١٩٦٤م ثم سافر إلى ليبيا مدرسًا فيها أيضًا لمدة أربع سنوات وهناك كان يستفيد منه الطلاب والأساتذة على حد سواء، ثم عاد إلى مصر عام ١٩٦٨م، فعمل مدرسًا في معهد القاهرة الديني، ثم التحق بالدراسات العليا بكلية أصول الدين، وكان السبب في ذلك قصة لطيفة؛ حيث عرض عليه أحد أصدقائه من كلية الشريعة فكرة أن يلتحقا معًا بالدراسات العليا كل في كليته، وكان شيخنا ساعتها قد تقدم في العمر عن السن الذي يلتحق فيه الطلاب بالدراسات العليا عادة، فقال لزميله هذا: أنجلس مع تلاميذنا؟ فقال له زميله: نجلس معهم الآن أفضل من أن نجلس خلفهم فيما بعد.

فجد شيخنا واجتهد في الدراسة والتحصيل حتى انتهى من هذه المرحلة في زمن قياسي؛ فحصل على درجة التخصص (الماجستير) سنة ١٩٧٠م، وكانت هذه الدرجة ساعتها يحصل الطالب عليها بعد دراسة لمدة سنتين يقدم في آخرهما بحثًا، فإن نجح وأجيز حصل على الدرجة، وعين بعدها في كلية أصول الدين على درجة مدرس مساعد، ثم حصل على شهادة العالمية (الدكتوراه) عام ١٩٧٣م، وكانت في دراسة وتحقيق جزء من كتاب «المطالب العالية» للإمام فخر الدين الرازي، وقد نال بها العالمية بمرتبة الشرف الأولى مع الإيصاء بالطبع، وكان مشرفه في هذه الرسالة العلامة الكبير المرحوم الشيخ صالح موسى شرف عضو جماعة كبار العلماء بالأزهر الشريف، والذي كان شيخنا يعتز بالانتساب إليه اعتزازًا شديدًا، ويفخر بأنه أحد أساتذته وشيوخه الذين تلقى العلم عنهم، وكان من أبرزهم أيضًا: أصحاب الفضيلة المشايخ: عبدالحليم محمود، وسليمان دنيا، والسنوسي أحمد، والشافعي الداوخلي، ومحمد يوسف الشيخ، ومحمد عبدالله دراز.

ولم يكتف شيخنا بمجرد الحضور على هؤلاء الأكابر الفحول، بل ضم إلى ذلك الجد والمثابرة والدأب في التحصيل والقراءة والمراجعة، وكان يفخر بذلك جدًا، ويرى أنه لولا ذلك لم يكن ليحصل له التميز المرجو في العلم، حتى إنه لما سأله أحد طلابه مرة عن شيوخه، أجابه بقوله: «شيوخي: جدي واجتهادي».

ومما حكاه في هذا المعنى أنه كان جالسًا مرة في شبابه إبان طلبه للعلم يراجع دروسه في الجامع الأزهر بالقرب من رواق الشراقوة، فاندمج مع مقروءه حتى قل إحساسه بمن حوله فإذا بعقرب يعلو ظهره والطلبة حوله يصرخون منبهين له، وهو لا ينتبه، حتى جاء أحدهم فضربه على ظهره، فولت العقرب هاربة، فلم ينتبه إلا ساعتها.

وكان له اتصال وتواصل مع غير من ذكر من العلماء الأماجد؛ مثل: الشيخ عبدالرحمن بيصار شيخ الأزهر الأسبق والذي كان أحد أعضاء اللجنة التي ناقشته في رسالة العالمية، والشيخ حسنين محمد مخلوف مفتي الديار المصرية الأسبق، والشيخ عبدالغني عبد

الخالق، والشيخ محمد محى الدين عبدالحميد، والشيخ صادق العدوى - والد الشيخ إسماعيل - والشيخ صالح الجعفرى، وكان يقول فى حقه: «كان رجلا صالحًا، لم أر أحدًا أسمر الوجه ووجهه منير مثله»، وكذلك لقى الإمام الرائد الشيخ محمد زكى الدين إبراهيم، وقال فيه: «لقد لقيت الشيخ محمد زكى إبراهيم، فرأيت رجلا تقطر لحيته علمًا»، رحم الله الجميع ورضى عنهم.

وقد درس شيخنا فى عدد من المعاهد العلمية بعد حصوله على الدكتوراه؛ فدرس فى كلية أصول الدين بالقاهرة، وفى كلية التربية بجامعة الملك عبدالعزيز بجدة والتى أصبحت فيما بعد تابعة لجامعة أم القرى، ثم فى كلية الشريعة بالكويت ومكث هناك ما يقرب من خمسة عشر عامًا، وكانت له أحاديث فى الإذاعة الكويتية، جمعها بعد ذلك وطبعها فى كتاب مفرد بعنوان: «أحاديث الصباح الدينية».

وله من المؤلفات النافعة أيضًا: حاشيته المفيدة على كتاب «الاقتصاد فى الاعتقاد» لحجة الإسلام الغزالى، المسماة بـ«السداد فى الإرشاد»، وقد ظهر فى هذه الحاشية تمكن الشيخ من فنى الكلام والمنطق، وله أيضًا: «تحرير المقالات فى العقائد والنحل والديانات»، و«تحفة المريد فى النظر والتقليد»، و«تهافت البابية والبهائية».

ولما عاد الشيخ إلى مصر عام ٢٠٠٠م كان يتردد عليه بعض طلاب العلم فى بيته للدراسة الخاصة عليه فى العلوم العقلية، وأخذ بعض هؤلاء فى ترغيبه فى أن ينزل للتدريس والإقراء فى الجامع الأزهر الشريف، فكان الشيخ يعتذر، حتى كان يوم أخبرهم فيه عن انشراح صدره لمباشرة التدريس بالأزهر، فلما روجع فى سبب تحوله عما كان عليه من الرغبة عن ذلك، قال: إنه قد تذكر مقولة سمعها من رفيقه فى الكويت العلامة الشيخ محمد فوزى فيض الله، قال له فيها: «لقد بقى لى من أمنيات عمرى أمنية واحدة، وهى أن أنزل إلى الأزهر الشريف، فأعقد فيه مجلسًا للتعليم والتدريس»، فقال شيخنا معقبًا: «أيتشوف علماء الآفاق للجلوس للإقراء بالأزهر، وأنا أدعى إليه فأمتنع؟!».

فشرع الشيخ فى التدريس فى رواق الأتراك بالجامع الأزهر، ثم درس أيضًا فى المعهد العالى بالعشيرة المحمدية، وكذلك فى مضيفة الشيخ إسماعيل صادق العدوى - رحمه الله تعالى -، وفى مركز التعليم عن بعد بدار الإفتاء المصرية، وكذلك فى الدراسات العليا بكلية أصول الدين.

ومن الكتب التى كان يدرسها فى مجالسه العامة: شرح الخبيصى على تهذيب السعد فى المنطق مع مراجعة حاشيتى العطار والدسوقى وشرح الملوى على سلم الأخضرى مع مراجعة حاشية الصبان، وحاشية البيجورى على السلم، كلها فى فن المنطق، وفى علم التوحيد: الاقتصاد فى الاعتقاد لحجة الإسلام أبى حامد الغزالى مع الحاشية التى كتبها الشيخ على هذا الكتاب، وشرح أم البراهين للسنوسى مع مراجعة حاشية الدسوقى، وشرح الشيخ عبدالسلام اللقانى على جوهرة التوحيد مع مراجعة حاشية الأمير، وفى الأدب: الكامل للمبرد، وقد كان الشيخ مولعًا بهذا الكتاب جدًا يستظهره ويكرره ويجرى على لسانه كأنه يحفظه، وكان يراه أبدع ما كتب فى الأدب، حتى إنه عنده مغن عن العقد الفريد لابن عبد ربه.

وأما الكتب التى أقرأها الشيخ لخواص

طلابه فى بيته العامر، فكثيرة: منها بعض ما ذكر، ومنها: شرح المقاصد، وشرح السنوسية الكبرى، والمطالب العالية للرازى، والحاشية الثانية فى علم المقولات للشيخ محمد حسنين مخلوف العدوى، وشرح الرسالة الرشيدية فى أدب البحث والمناظرة، ورسالة الآداب فى فن أدب البحث والمناظرة للشيخ محمد محيى الدين عبدالحميد، وشرح ابن عقيل على ألفية بن مالك.

وكان رحمه الله تعالى فى غاية التدقيق فى العلم، بالغ الاحترام للدرس؛ حتى إنه كان أحيانًا ينظر فى درسه قبل إلقائه ما يقرب من عشرين مرة؛ أداء لأمانة العلم؛ فيستوعب كل ما كتب حوله، ويستظهر المحتوى لفظًا ومعنى، ليمكنه أن يوضح أى إشكال يتعلق بالعبارة، ويجلى أى غموض قد يكتنف المسألة، ويكون مستعدًا للجواب عن أى إيراد يمكن أن يورده الطلاب عليه.

وعلى ما كان عليه من الدقة الشديدة والعمق العلمى وعلو الكعب فى العلم، كان جامعًا إلى هذا قدرة عجيبة على شرح أعقد العبارات وإيصال أصعب المعلومات إلى أذهان الطلاب، وكان يستطيع أن ينزل فى شرحه إلى المستوى الذى يجعل أضعف الطلاب يفهم، ومما أثر عنه أنه قال: «عندى مقدرة أن أشرح علم المنطق للعوام فى الشارع فيفهمونه»، ومما أذكره أنه ذات مرة فى درس المنطق فى شرح الملوى على السلم صعب على بعض الحضور فهم بعض المعلومات المنطقية، فأخذ الشيخ يشرح ويكرر الشرح بطرائق مختلفة وأمثلة متنوعة، حتى أصابنى طرب عظيم من فرط إعجابى بقدرته على إيصال المعلومات وبيان العويصات بأسلوب عجيب، وكان - رحمه الله - قوى العارضة فى النقاش مع سرعة بديهة وذهن وقّاد؛ حتى كان يقول عن نفسه: «أنا لست من الأساتذة الذين ينقطعون فى دروسهم»؛ يقصد أولئك الذين يُغلبون ويستسلمون للاعتراضات بمجرد ورودها من الطلاب، ولا يُحسنون تقليبها والجواب عنها ما كان إلى ذلك سبيل.

وكان يلاحظ طلبته ويظهر لهم الاهتمام والحنو والعطف والشفقة ويتابعهم فى حضورهم وغيابهم، ولا يبخل عليهم بنصح أو إرشاد.

وكان يُرشد طلابه إلى ألا ينفقوا أعمارهم فى الانتقال بين العلوم المختلفة دون إتقان شىء منها، بل كان يحب أن يتقن الطالب علمًا أو علمين، ويبلغ فيهما الغاية، ويشارك فى باقى العلوم مشاركة حسنة دون ذلك؛ لأن الشواغل كثيرة، والأعمار لا تتسع.

ولما عادت هيئة كبار العلماء بالأزهر إلى الوجود فى عهد الإمام الأكبر الشيخ أحمد الطيب عام ٢٠١٢م - بعد أن كانت قد حُلّت فى عهد الرئيس عبدالناصر عام ١٩٦١م -، تشرفت هذه الهيئة بأن كان شيخنا أحد الأعضاء المختارين لتأسيسها فى شكلها الجديد، وقد كتب عنها مقالة ماتعة نشرت فى جريدة اليوم السابع بتاريخ ٢٠١٢/٨/٥م، بعنوان: «الأزهر وعودة كبار العلماء».

وانتقل شيخنا إلى جوار ربه الكريم فى تاريخ الأحد ١٣ من محرم ١٤٣٥هـ الموافق ١٧ من نوفمبر ٢٠١٣م، ووُرى جسده الشريف فى مدفن العائلة المبارك فى منطقة السيدة عائشة بالقاهرة، فرحمه الله تعالى، ورضى عنه، ونفعنا بعلومه فى الدارين، وجازاه عن الدين وأهله والعلم وطلابه كل خير.

مكتبة مجلة الأزهر

إعداد الأستاذ: محمد شعبان

تسعى «الأزهر» عبر هذا الباب إلى التواصل مع القارئ العزيز من خلال تقديم نبذة عن أحدث الإصدارات الجادة فى شتى مجالات المعرفة، ذلك للمساهمة فى تكوين عقلية واعية وعصرية.



يتناول العلامة الراحل إبراهيم مصطفى -العميد الثاني لدار العلوم- في كتابه «إحياء النحو» كتب النحو القديمة -المدققة للقواعد النحوية المعروفة- محددا الهدف من ذلك بقوله: «أطمع أن أغير منهج البحث النحوي للغة العربية، وأن أرفع عن المتعلمين إصر هذا النحو، وأبدلهم منه أصولا سهلة يسيرة، تقربهم من العربية، وتهديهم إلى حظ من الفقه بأساليبها».

الكتاب صدرت طبعته الأولى عام ١٩٣٧م بمقدمة لطه حسين، وأعادت مكتبة الآداب نشره أخيرا بمقدمة جديدة للدكتور محمد حماسة عبد اللطيف.. يرفض مصطفى توجه النحاة لقصر النحو على ضبط أواخر الكلمات دون مراعاة لأحكام نظم الكلام وأسرار تأليف العبارة لذلك يصر المؤلف على إدراج كتب أبوعبيدة معمر بن المثنى وعبد القاهر الجرجاني في السياق النحوي وليس البلاغي كما هو شائع.. كذلك يرفض المؤلف نظرية العامل النحو التي قام عليها علم النحو متأثرا بالمذاهب الكلامية والفلسفية.. ويصل المؤلف في نهاية المطاف للفكرة التالية: «الرفع علم الإسناد ودليل أن الكلمة يتحدث عنها.. والجر علم الإضافة سواء أكانت بحرف أم بغير حرف.. والفتحة ليست بعلم على إعراب ولكنها الحركة الخفيفة المستحبة لدى العرب».



يتتبع كتاب «مولد مشكلة اللاجئين الفلسطينيين» جذور فكرة التهجير القسري للفلسطينيين من مدنهم وقراهم، في الأيديولوجية الصهيونية.. الكتاب المترجم في سلسلة عالم المعرفة الكويتية بالتعاون مع المركز القومي للترجمة يأتي في سياق كتابات «المؤرخين الجدد» التي تفضح الرؤى والأكاذيب الصهيونية التي قامت على أساسها إسرائيل.. يؤكد الكتاب أنه على الرغم من عدم وجود خطة ممنهجة لتحقيق التهجير فإن الفكرة كانت حاضرة في أذهان مختلف القيادات الإسرائيلية، ومن ثم لم يعاقب المسئولون العسكريون الذين ارتكبوا فظائع بحق الفلسطينيين، مما يعني الموافقة الضمنية على ما اقترف بهدف الوصول إلى تحقيق «الدولة اليهودية» أو الدولة الإسرائيلية. يعتمد الكتاب على وثائق يهودية رفع غطاء السرية عنها داخل مؤسسات أمنية إسرائيلية.

يؤكد د. عماد عواد مترجم العمل أن الكتاب يدعم الموقف التفاوضي العربي بالحجج القوية اليهودية المصدر، مع تجنب الوقوع في شرك تسويات قد تهدر حقوقه، وتقتصر على خدمة أهداف الطرف الصهيوني.



يتعقب زيجمونت باومان عالم الاجتماع البولندي في كتابه «الحرية» عن الموقف الفلسفي الشهير الذي يرى الحرية كحق طبيعي لينطلق من فرضية مفادها: «الفرد الحر خلق اجتماعي تاريخي» ومن ثم قد توجد وقد تختفي الحرية مع نوع معين من المجتمع.

الكتاب الذي ترجمته د. فريال حسن خليفة وصدر عن مكتبة مدبولي يستعرض تاريخ الحرية في السياق الغربي منذ العصور الوسطى مؤكدا على أن الحرية التي يتم الحديث عنها الآن كقيمة إنسانية وعالمية ترتبط بمفهومي «الفردية» و«الرأسمالية»... رافضا التمركز حول الفردية، لأن الحاجة إلى الحرية والحاجة إلى التفاعل الاجتماعي لا ينفصلان... ففي تفرقته بين الحرية في المجتمعات القديمة والمجتمعات الحديثة يقول باومان «فردية القدماء من أجل العالم الآخر نهاية طريق الاستقامة بينما فردية العالم الحديث مع أنها داخلية إلا أنها تنطق بالصفة الدنيوية للموجودات الإنسانية وجدت داخل الحياة الاجتماعية بشكل ثابت واتسمت بالازدواجية، فهي من جانب كحق طبيعي لا يمكن تغريبه عن الإنسان ومن جانب آخر شيء منتج ويمارس ومشروع بقوة السلطات الفاعلة لما يسمى الخير العام لكل المجتمع».



«التفكير الفقهي الحر لا يحلق في فضاء مفتوح مطلق من الحدود، والعقل الشرعي لا يسبح في بحر متلاطم لا يحد السباحة فيه فذلك محكوم بضوابط تحكم العقل كما تحكم الأساس، وبهذه الفكرة يؤسس ويقعد د. عبد اللطيف محمد عامر لكتابه «ضوابط التفكير الفقهي.. دراسة أصولية تطبيقية في القواعد الشرعية» الصادر عن مكتبة الآداب.

يشير المؤلف في مقدمة الكتاب لأهمية الحديث عن ضوابط التفكير الفقهي وقواعده بقوله «مبادئ الإسلام إن تعددت فإنها لا تتصادم وإن اختلفت فإنها لا تتعارض، فإننا من ثم نؤمن بوجود قواعد تؤلف بين هذه المبادئ وتضبط حركة المرور بينها بحيث لا يعبر مبدأ فيخطف غيره، وبحيث لا يصح مبدأ فيعطل غيره».

يستعرض الكتاب التعريف اللغوي والاصطلاحي للقاعدة الفقهية ونشأتها والفارق بينها وبين الضابط الفقهي والنظرية والفروق والأشباه والنظائر والكليات.. ويخصص فصلا للحكم التكليفي والقواعد الشرعية متوقفا عند نظرية المصلحة لدى علماء الشريعة.



برؤية نقدية ومنطقية مستندة إلى أسلوب سلس يحلل د. إبراهيم عوض عوامل قيام الحضارة الإسلامية وانهيارها في كتابه «الحضارة الإسلامية نصوص من القرآن والحديث ولمحات من التاريخ» الصادر عن مكتبة جزيرة الورد.. يبدأ الكتاب بالحديث عن معنى «الحضارة» كما وردت في لسان العرب وفي المعاجم الغربية والكتابات المتخصصة في «الحضارة».. ثم ينطلق مستعرضا الأركان التي قامت عليها حضارة الإسلام من وجهة نظره - وهي: العقيدة والأخلاق والعلم والعمل والذوق ثم يخصص فصلا لأهم منجزات الحضارة الإسلامية... ويستعرض الفصل الأخير أسباب انهيار هذه الحضارة... فضلا عن الأسلوب السلس الذي يمتاز به الكتاب إلا أن استناد المؤلف لقواميس وموسوعات ودوائر معارف عربية وغربية وشهادات لكبار المفكرين شرقا وغربا أعطى العمل عمقا وجعله إضافة حقيقية وليس تكرارا لما هو معروف ومعاد في الكتابات التقليدية.

خميلة الشعر



للأستاذ/ محمد عبدالوهاب

ولد الهُدَى فالكائناتُ ضياءُ	وفمُ الزمانِ تبسُّم وثناءُ
الروحُ والملأُ الملائكُ حولهُ	للدِّينِ والدنيا بهِ بُشراءُ
والعرشُ يزهو والحظيرةُ تزدهي	والمُنتهى والسِّدرةُ العصماءُ
وحديقةُ الفُرقانِ ضاحِكَةُ الرُّبى	بالترجمانِ ، شَذِيَّةٌ ، غنّاءُ
والوَحيُ يقطُرُ سلسَلاً مِنْ سَلْسَلٍ	واللوحُ والقلمُ البديعُ رُوَاءُ
نُظِمَتْ أسامي الرُّسْلِ فهيَ صحيفةٌ	في اللوحِ واسم محمدٍ طُغراءُ
اسمُ الجلالةِ في بديعِ حروفِهِ	ألفٌ هنالك ، واسم (طه) الياءُ

كان المعنى الإنساني في الدنيا قبل الإسلام قد وهن و ضعف ، وكادت تختفي ملامحه ، لما تحيفه قدم العهد بالشرور والمنكرات ، حتى ابتعث الله سبحانه وتعالى مُجَدِّدًا ومطورًا ومتساميًا بالإنسانية ، لتصبح البشريةُ أعظم بصيرة وأكبر تسامحا و محبة ، وكي تبدأ به الدنيا من جديد تطورها الأعلى ، و كي يسمو الإنسان فيها على ذاته ، كما بدأت من حيث يوجد الإنسان في ذاته ، ذلك هو محمدٌ رسول الله ، المتمم من الأخلاق مكارمها ، ومن الفضائل عظائمها ، صلّوا عليه وسلموا تسليما فالإسلام هو إسلام النفس إلى واجبها الإنساني فينكر الإنسان المسلم ذاته فيسلمها إلى الإنسانية ، لتعتملها في كمالها ، وترقى بها في معارجها ، فمبدأ إنكار الذات هو إسلام النفس طائعة لفروضها وواجباتها ، وكلما نزعت إلى طابعها الحيواني ، أسلمها صاحبها إلى وازعها الإلهي ، فينتزعها كل وقت من أوهام دنياها ، ليضعها بين يدى حقيقتها الإلهية ، ولا غرو إذا قلنا : إن إنكار الذات هو القيمة الأولى للإسلام .

هذا ، و حين يهل شهر ربيع الأول من كل عام هجرى ، ترد إلى خواطر المسلمين - بخاصة في مصر الطيبة - أطيب ذكرى و أغلى مناسبة ، ألا وهى ذكرى ميلاد الحبيب المصطفى سيدنا محمد ﷺ الذى كان ميلاده بهجة للكون بأجمعه ، ومسرةً لبنى آدم كلهم ، ولقد عمرت الخميلة اليوم بالعديد من تغريد الشعراء ، تحية لذكرى مولد المصطفى صلوات الله وسلامه عليه وآله ، اللهم احفظ مصر و أهلها جميعهم ، وأنر بصائرهم لنور الحق ، واجمع أفئدتهم على حب مصر .

ياربِّ شعبك يشكو ما ألمَّ بــه من الشرور فسلِّم كُلَّ إنسان

أدرك بفضلك شعبًا بات في فتنٍ قد فرّقوا بين ألوانٍ وأديان

اللهم احفظ مصر وارحم شهداءها و ألهم أهلها نفاذ البصيرة ، و انشر المودة بين كل طوائفها وربوعها ، اللهم آمين.

في رحاب المولد

شعر فضيلة الشيخ عبد القادر جابر

جاء الأمين فنوَّر الأكوانا
و أزاح عن قلب الورَى الكفرانا
وأطل فجر الهاشمي محمدٍ
وإلى الصراط المستقيم هدانا
وأبان عن وجه الحقيقة للورَى
فهدَى الوجودَ و علّم الإنسانا
وتفجرت دنيا الخليقة فرحةً
نشوَى بذكر الهاشمي مُنانا
وتزينت بالنيِّرات سماؤنا
والبدر من عليائه قد باتا
وتضوَّعت أرجاء مكّة بالعطرِ
فأنشدت أطيارها ألحانا
وتمزّقت سحب الجهالة والعمَى
وأقامَ شرعَ اللهِ والفُرقانا
بدرٌ تنورت الدجَى بظهوره
فمحا الفجور وهدَمَ الطغيانا
نورٌ أضاء فبدّدَ الأوثانا
نورٌ أضاء فأرشد الحيرانا
وتفجرت ماء الحياة ينابعا
من راحتيه فروّت الظمآنا
وتنوّرت دنيا العوالم كلها
يا دُرّةَ الأكوانِ ، يا مولانا
يا وارثًا للحق والعلم الذى
أحيا القلوبَ و جدد الإيمانا

مولد الهادى

شعر الأستاذ / محمد داوُد

يا حبيبى مال قلبى واهتدَى
في رحاب النور يجتازُ المدَى
هائمًا في حُب طه المصطفى
راجيًا يوم التلاقى موردًا
مولد الهادى سقانى نهلةً
فانتشت روحى وطارت للهُدَى
طالما أسرجتُ خيلي نحوهُ
عبر أبيات تُنيلُ المقصدا
يا حبيبى بتُّ مُشتاقًا إلى
كلماتٍ أبتغى فيها الندَى
هذه الذكرَى أضاءت خاطرى
بضياءٍ وانطلاقٍ عاطرٍ
يوم أن وافَى تعالت فرحةٌ
تسكب البُشرَى لعيدٍ ساحرٍ
جاء إشراقًا ونورًا صادقًا
جاء هَديًا للفؤادِ الحائرِ
وتوالت معجزاتٌ جَمّةٌ
فيض آياتٍ لنورٍ باهرٍ
جاء والدنيا ظلامٌ حالكٌ
صار قنديلاً لعينَيْ سائرٍ
يا شفيعى: ما لنا في محنةٍ؟
لم تدعنا في سلامٍ حالمٍ
كم تفرقنا و صرنا شيعةً
ما لنا عزمٌ لرد الظالمِ
هذه الأحداثُ دوّتْ حولنا
واحترقنا في الصراع الآثمِ
لا ترانا اخوةً نمشى معًا
للأمانى ، للنضال العاصمِ

نحن فرّطنا ، هجرنا سُنّةً
فهوينا في الضلال الداهم
قد تعادينا فضيعنا الهُدَى
ومضينا في سراب الفتنة
صارت الفرقة غاية همّنا
ما لنا لم نعتصم بالفطنة

ليتنا نخطو لنبع طاهر
علنا نجني زهور الحكمة
لا ترى العدل يُؤاخي بيننا
وافتقدنا موئلاً للوحدة
يا رسول الله هبني قطرةً
من ضياء الحق تجلو ظلمتي

صلاةٌ تحتَ العاصفة

للشاعرة جليلة رضا

يا اللهُ ! ياربَّ الأمن وربَّ الإعصارْ !
ارحمنا ! فالبردُ القارسُ جبّارْ
و عظامُ الأحياءِ مناخلْ
والريحُ تُبعثرُنا مِزَقًا .. و تُزَلْزِلُ أعماقَ الأشجارْ
والوطنُ المزهوّ الشامخُ مقلوبُ الأوضاعْ
والسطحُ يغوص .. يغوص .. يغوصُ إلى القاعْ .. يا اللهُ !
فلقد ذقنا كل مرارة دُنيانا .. وعرفنا الموتا
وتشرّدنا تحت العاصفة الكُبرى .. بيتًا بيتًا
هذا الحزنُ المُوغِلُ فينا ، هو حزنٌ مجهول الأسماءْ
هذا العبءُ الضخم الجاثمُ فوق صدور الأحياءْ
هو كل أنين الجرحى .. كل قبور الموتى ، تثوى في القلب
هو ألمُ الحُب .. لأرض الحُب .. يا ربَّ الحُب
فاجعلنا في ظلِّ رضاك .. ولتغفر ضعف الإنسانْ
فالإنسان .. هو أغلى ما صاغتهُ يداك !

و نقدم من ديوان : [على الارض السلام] للشاعر محمد الجيّار ، قصيدة بعنوان :

لم يكن إلا أنا

لم يكن إلاَّ أنا .. أو أنت .. أو كلَّ البشرْ ..
كلُّ فردٍ كان يبكي .. بدموعٍ تستعر ..
كلُّ حمّالٍ .. تهاوى .. خائرًا تحت الحجرْ ..
كلُّ خبّازٍ يجوعُ الليلَ .. لكنْ .. ينتظرْ ..
كلُّهم في قلبه .. صاحوا بصوتٍ ينفجرْ ..
والتقوا في وحدة المأساة .. شتّى من صُوَرْ ..
ثُمّ ذابوا من مآقيه .. دُمُوعًا .. تنتثرْ ..
واطمأنّوا .. في حنايا مُهجة .. لا تستقرّ !!
صاح : ياشعبي .. لقد شُدّت مع الناس رحالي ..
أنا نهرٌ ظامئٌ .. تاهَ غريبًا .. في الجبال ..
أنا من أنثرُ أنغامي .. بُذورًا .. في الرّمال ..
ليراها الناسُ .. زيتونًا .. على أعلى التلال ..
وغدًا .. إن طاف إنسانٌ .. غريبٌ .. في الليالي ..
أنشدَ الجُرحَ .. على صدرى .. وصلّى في ابتهال ..
مُنذُ كم .. من عُمرِ هذى الأرض .. أرض الكادحينْ ؟
عاش هذا المُتعَبُ الشادى .. يُواسي المُتعبين؟
كان مَوّالاً « لأيوبَ » بليل الصابرين ..
كان في مزمار داوُد .. صلاةً من أنينْ ..
كم ليالٍ .. أرعشَ البردُ خُطاها .. في السكونْ ..

جدٌ بلا أحفاد

للشاعر الكبير مصطفى عكرمة

عقرًا إذا ما هزّني التحنانُ
والشعرُ رقّ كأنه الألحانُ
اليوم أمشي للكهولة مسرعًا
وأنا بها متلذذٌ، هيمانُ
فهي الوقار وإن تكن خطواتنا
ثقلت بها... لكنها اطمئنانُ
لا تعجبوا من فرحتي بكهولتي
فمع الكهولة كم يكون أمانُ!!
قد كنتُ طفلاً ثم شبتُ، وفي غدٍ
جدٌّ تجمّع حوله الفتيانُ
كلٌّ له ما يشتهي من جدّه
أوَلستُ جدًّا ما له أقرانُ!!
فأنا البطولة عندهم، وأنا لهم
كنزٌ بكلّ عجيبةٍ ملآنُ
لا يعتريني الضعفُ يومًا عندهم
كلا وليس لثروتي نقصانُ
أنا للجميع منفذٌ رغباتِهم
فيما يرون... فكلّهم سلطانُ
هذا «معاذ» جاء يطلب نجدتي
من بطش من نادته يا (شيطانُ)
يندسُّ في حضني، ويكمنُ آمنًا
إلا لهذا يثبت الأحضانُ
ويفرّ نحوي «مصطفى» ممّا جنى
فأنا له ممّا جناه ضمانُ
وتراه يجري إن أمرتُ وإنه
ليلذّ منه تمرّدٌ، وحِرانُ
و«محمّدٌ» يرجو لديّ حكايةً
عمّا أجاد بفعله الشجعانُ
وعن الفتوحات العظام لأمتي
والنصرُ تُعلي بنده الفرسانُ
وتجيئني «هندٌ» تقبل لحيتي
فتشبُّ من تقبيلها الأشجانُ
وتروح ترجو أن تنال شفاعتي
عند ابنتي ليجيئها «الفستانُ»
ونبيلُ يقفز غاضبًا أو أشتري
حالاً له ما تحتوي الدكّانُ
ويجرّني «سعدٌ» إلى حاجاته
ما همّه أن جدّه وسنانُ
وأنا على «عمرٍ» أذوبُ توجّعًا
إن آلمتْهُ يشقّها الأسنانُ
وأكاد من آهاته أقضي أسى
وأودّ لو أني له قربانُ
وعلى صلاح الدين تذهب حسرةً
نفسي إذا ما سال منه بنانُ
وبكلّ آهٍ منهمو لي حرقةٌ
فهمو بقلبي كلّهم صنوانُ
ولأجلهم كلُّ الصغار أحبّتي
ولي الصغارُ جميعهم ولدانُ
أحببتُ حتى شقوتي من أجلهم
إن يسعدوا فأنا بها نشوانُ
هم في ضميري، في فؤادي، في دمي
في مقلتي إن أقبلوا، أو بانوا
هم في سكوتي، في كلامي، في يدي
في مسمعي همْ... أينما هم كانوا
فأنا بهم أحيا المنى... وهمو على
هامات كلّ مطامحي تيجانُ
جدٌّ أنا جدٌّ... وترجعُ قوّتي
في قولها... ويهزّني التحنانُ
فلكلّ من يرجو، وما يُرجى ترى
«جدّو» هو المضمونُ، والضمّانُ
فإذا حلمتُ بغفوةٍ لدقيقةٍ
ألقى الصُّراخَ كأنه البركانُ
فإذا غضبتُ تبسّموا فنسيتُ ما
فعلوا... فكان الصفحُ والغفرانُ
سبحان من في قول يا «بابا» ويا
«ماما» ويا «جدّو» له برهانُ
فسماعُها شلّالُ موسيقى، ولا
أحلى... وتخجلُ عنده الألحانُ
فادم إلهي للطفولة مجدها
حسبي بسؤلي أنك الرحمنُ

أيام لها تاريخ

يوم سقطت غرناطة

الثاني من ربيع الأول ٨٧٩هـ - الثاني من يناير ١٤٧٤م

أ/ عبدالله كمال نصير

أكلت يوم أكل الثور الأبيض

بذلك المثل المشهور نطق لسان حال صاحب غرناطة، محمد بن الأحمر - حفيد سعد ابن عبادة الخزرجي، صاحب رسول الله، ولكن شتان ما بين الجد والحفيد - فابن الأحمر هذا عقد مهادنة مع الملك فرناندو صاحب قشتالة، مفادها: أن يدفع الجزية لملك قشتالة، وأن يهب للحرب معه ضد أي أحد كائنا من كان. وما كان من فرناندو إلا أن يستغل تلكم الخيانة؛ فاستعان به وأسقطا سويا ولاية إشبيلية، وكان ذلك فى عام٦٤٦هـ - ١٢٤٨م، ولم يتبق أمام فرناندو غير غرناطة فاستولى عليها، ولم يعصمها منه ما كان عقده معه صاحبها من معاهدات، وبذلك نكس آخر علم للتوحيد فى بلاد الأندلس ورفع الصليب.

ما قبل الكارثة

الوضع الآن هو سقوط دولة الموحدين على إثر موقعة العقاب ،ولسقوطها أسباب متعددة يعد من أبرزها:

- الظلم والقتل اللذين أحدثوهما في دولة المرابطين.

- عقيدتهم الفاسدة في عصمة ابن تومرت(رأس دولتهم) وتكفيرهم للمرابطين.

- الثورات الداخلية، وهمة النصارى وفتور المسلمين عن بلادهم وحقوقهم.

- انفتاح الدنيا عليهم، وبطانة السوء.

ثم تلا ذلك سقوط مدن المسلمين الواحدة تلو الأخرى، حتى سقطت قرطبة حاضرة الإسلام وعاصمة الخلافة، وسقطت جيان فى سنة ٦٤٣ هـ = ١٢٤٥ م.

وبذلك طويت صفحات المسلمين عن أراضى الأندلس وإليك الصفحة الأخيرة من ذلك الكتاب الأسود.

لم يبق بعد فى الأندلس إلا ولايتان فقط - كبيرتان نسبيا- الأولى: ولاية غرناطة، وتقع في الجنوب الشرقي، وتمثل حوالى ١٥ ٪ من بلاد الأندلس. والثانية: ولاية إشبيلية، وتقع فى الجنوب الغربي، وتمثل حوالى ١٠ ٪ منها.

وعلمنا كيف سقطت إشبيلية، ومن أراد معرفة بنود تلكم المعاهدة بين فرناندو وابن الأحمر فليراجع كتاب "الأندلس من الفتح إلى السقوط" للدكتور راغب السرجاني.

ومن عجب أن يظل الإسلام فى بلاد الأندلس بعد هذا الوضع وبعد سقوط قرطبة، وبعد هذا الانهيار الكبير لمدة تقرب من ٢٥٠ سنة. فكانت هذه علامات استفهام كبيرة، ولا بد من وقفة معها بعض الشئ.

المأساة!!

بعد أن سقطت إشبيلية نقض النصارى الهدنة مع غرناطة، واتجهوا ليحاصروها، ومن ثَمَّ استعان الأندلسيون بيعقوب بن منصور المارينى وولده يوسف ليساعدوهم فى الانتصار على النصارى، ولكن أثناء مساعدتهم لهم يشعر الأندلسيون بالخوف على ملكهم منهم؛ فاستعانوا بالنصارى ضدهم، ومن ثم احتلوا سبتة فى بلاد المغرب ،وبذلك انقطعت مساعدات بلاد المغرب للأندلس إلى الأبد.

وفى الوقت نفسه تزوج فرناندو الثالث ملك أراجون من إيزابيلا وريثة عرش قشتالة، ثم اتحدوا معًا وكونا مملكة إسبانيا، وكان ذلك فى سنة ٨٧٩ هـ/ ١٤٧٤م، واستغل ملك إسبانيا أوضاع الأندلس - أى ما تبقى منها وهى غرناطة - واستطاع أن يدخلها صلحًا على أن لا يمسّ المسلمين، ولكن هذا لم يحدث، فما إن دخلوا الأندلس حتى هجّروا من فيها من المسلمين، ونصّروا من ظل بها، وأقاموا محاكم التفتيش للبحث عمّن يخفى إسلامه، وأبادوا من بها من المسلمين.

لا بد من الاستفادة من تاريخ الأندلس لننظر لماذا انتهى الإسلام من الأندلس، ولم يبق بها من المسلمين إلا العدد القليل، وكان ذلك بسبب ما فعله الاستعمار الإسبانى فى بلاد الأندلس من إبادة المسلمين إبادة جماعية، وطردهم وتهجيرهم خارج الأندلس.

محاكم التفتيش

ولا يسعنا ذكر سقوط الأندلس دون أن نعرج على ذكر ما حدث للمسلمين بعد سقوطها من قتل وتعقب وإرهاب بأبشع الصور وكان هذا ما أسماه المؤرخون بمحاكم التفتيش. فما هي؟ وماذا حصل فيها؟ هذا ما نورده فى السطور التالية:

"هدفت إلى تنصير المسلمين بإشراف السلطات الكنسية، وبأشد وسائل العنف، ولم تكن العهود التى قطعت للمسلمين لتحول دون النزعة الصليبية، التى أسبغت على السياسة الإسبانية الغادرة ثوب الدين والورع؛ ولما رفض المسلمون عقائد النصارى وامتنعوا عنه، اعتبرهم نصارى الإسبان ثوارًا وعملاء لجهات خارجية فى المغرب والقاهرة والقسطنطينية، وبدأ القتل فيهم وجاهد المسلمون ببسالة فى غرناطة والبازين والبشرات، فمزقوا بلا رأفة ولا شفقة ولا رحمة، وفى يوليو ١٥٠١ م= ذى الحجة ٩٠٦ هـ أصدر الملكان الكاثوليكيان أمرًا خلاصته "أنه لما كان الله قد اختارهما لتطهير مملكة غرناطة من الكفرة، فإنه يحظر وجود المسلمين فيها، ويعاقب المخالفون بالموت أو مصادرة الأموال".

وكان تعمل جاهدة على البحث عن المسلمين الذين ادّعوا النصرانية وأخفوا الإسلام، فكانوا إذا وجدوا رجلا يدّعى النصرانية ويخفى إسلامه، كأن يجدوا فى بيته مصحفا، أو يجدوه يصلى، أو كان لا يشرب خمرا، أو عُلم أنه اغتسل يوم الجمعة يصدر فى حقه حكم بالموت، وإذا وجدوا رجلا لابسًا للزينة يوم العيد عرفوا أنه مسلم فيصدر فى حقه الإعدام. أقاموا عليهم الحدود المغلظة، فكانوا يلقون بهم فى السجون، ويعذبونهم عذابا لا يخطر على بال بشر، فكانوا يملأون بطونهم بالماء حتى الاختناق، وكانوا يضعون فى أجسادهم أسياخا محمية، وكانوا يسحقون عظامهم بآلات ضاغطة، وكانوا يمزقون الأرجل ويفسخون الفك، وكان

لهم توابيت مغلقة بها مسامير حديدية ضخمة تنغرس في جسم المعذب تدريجيا، وأيضا أحواض يقيد فيها الرجل ثم يسقط عليه الماء قطرة قطرة حتى يملأ الحوض ويموت. كانوا أيضا يقومون بدفنهم أحياء، ويجلدونهم بسياط من حديد شائك، وكانوا يقطعون اللسان بآلات خاصة.

وهناك عذاب اختصت به النساء وهو تعرية المرأة إلا ما يستر عورتها، وكانوا يضعون المرأة في مقبرة مهجورة ويُجلسونها على قبر من القبور، يضعون رأسها بين ركبتيها ويشدون وثاقها، وهي على هذه الحالة السيئة، ولا يمكنها الحراك، وكانوا يربطونها إلى القبر بسلاسل حديدية، ويرخون شعرها فيجللها وتظهر لمن يراها عن كثب كأنما هي جنية لا سيما إذا ما أرخى الليل سدوله، وتترك المسكينة على هذه الحال إلى أن تجن أو تموت جوعًا ورعبًا.

وكان دستور محاكم التفتيش في ديوان التحقيق يجيز محاكمة الموتى والغائبين وتصدر الأحكام في حقهم وتوقع العقوبات عليهم كالأحياء. فتصادر أموالهم وتعمل لهم تماثيل تنفذ فيها عقوبة الحرق. أو نبش قبورهم وتستخرج رفاتهم لتحرق وذلك يتعدى أثر الأحكام الصادرة بإدانة من المحكوم عليه إلى أسرته وولده فيقضي بحرمانهم من تولي الوظائف العامة وامتهان بعض المهن الخاصة.

لقد قام النصارى بإجبار المسلمين على الدخول في دينهم، وصارت الأندلس كلها نصرانية، ولم يبق فيها من يقول لا إله إلا الله، محمد رسول الله. إلا من يقولها في قلبه وفي خفية من الناس، وجعلت النواقيس في صوامعها بعد الأذان، وفي مساجدها الصور والصلبان بعد ذكر الله وتلاوة القرآن، فكم فيها من عين باكية وقلب حزين، وكم فيها من الضعفاء والمعذورين، لم يقدروا على الهجرة واللحاق بإخوانهم المسلمين، قلوبهم تشتعل نارًا، ودموعهم تسيل سيلاً غزيرًا، وينظرون إلى أولادهم وبناتهم يعبدون الصلبان، ويسجدون للأوثان، ويأكلون الخنزير والميتات، ويشربون الخمر التي هي أم الخبائث والمنكرات، فلا يقدرون على منعهم ولا على نهيهم، ومن فعل ذلك عوقب بأشد العقاب، فيا لها من فجيعة ما أمرها! ومصيبة ما أعظمها وطامة ما أكبرها.

من الأندلس .. إلى فلسطين !!

وإن ما حدث ليضع أيدينا على أمر غاية في الأهمية، ذلك أن الاحتلال الاستيطاني هذا الذي حدث في بلاد الأندلس لم يتكرر في أي من بلاد العالم إلا في مكان واحد فقط، وهو أيضا يخص المسلمين، وهو فلسطين.

وإن ما يحدث الآن فيها وعلى أرضها ما هو إلا تكرار لأندلس جديدة، ما يفعله اليهود الآن من تهجير اليهود إلى أرض فلسطين، وإبادة في الشعب الفلسطيني بالقتل والطرد والتشريد، وإصرارهم (اليهود) على عدم عودة اللاجئين إلى ديارهم، ثم الإكثار من بناء المستعمرات، كل ذلك وغيره ما هو إلا خطوة من خطوات إحلال الشعب اليهودي مكان الفلسطيني.

فقد شُرِّد الشعب الفلسطيني وبات مصيره في طي النسيان، بات العالم أجمع ينسى قضيته يوما بعد الآخر، بل بات محتملا أن ينسى هو نفسه (الشعب الفلسطيني) قضيته، وأخشى والله أن ينسى الفلسطينيون المشردون القضية تماما كما نسيها أهل الأندلس الذين هاجروا إلى بلاد المغرب وإلى تونس والجزائر بعد عام أو عامين، أو حتى بعد عشرة أو مائة عام، فقد مر الآن على سقوط الأندلس ما يقارب الستة قرون، فمن يفكر في العودة إليها؟!

وهكذا وعلى هذا الوضع يسير اليهود ويجمعون ويُهجّرون شتاتهم إلى بلاد فلسطين لإحلال الشعب اليهودي مكان الشعب الفلسطيني.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾

للأستاذ / أحمد السيد تقي الدين

مصر أمة موحدة بالله منذ فجر التاريخ..

على أرضها وُلد أول نبي مرسل هو إدريس عليه السلام، وفيها بعث، وفيها رفعه الله مكانًا عليا وهو الملقب في الكتب القديمة بـ (هرمس الهرامسة) وتعني أعلم علماء الأرض.

عاش فيها وارتبط بها ومر على أرضها وامتدحها كافة أنبياء الله والمرسلين الذين ذكرهم الله في كتابه المبين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه أو قل معظمهم.

- وإليها ارتحل إبراهيم ليتزوج من واحدة من بناتها، هاجر التي أنجبت إسماعيل أبو العرب لتصبح مصر ويصبح المصريون أصل أمة العرب التي قال عنها المولى عز وجل:

﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾

(آل عمران: ١١٠)

- وفيها عاش لوط مع عمه إبراهيم وآمن برسالته، ومنها خرج رسولا إلى أهل سدوم.
- وإلى مصر قدم يوسف بن يعقوب الذي صار عزيز مصر وسيدها المطاع.
- على أرضها عاش يعقوب بن إسرائيل.
- وإليها قدم الأسباط.
- وفيها ولد نبي الله موسى وأخوه هارون..

وعلى أرضها كلم الله موسى تكليما لتحظى مصر بشرف لم تحظ به أمة على مر التاريخ ولن تحظى به أمة حتى قيام الساعة.

- إلى مصر لجأت مريم العذراء البتول وولدها نبي الله عيسى.
- على أرض مصر وُلد أنبياء الله يوشع بن نون، ودانيال، وأرميا، ولقمان.
- وعنها قال نبي الله نوح: «هي أم البلاد وغوث العباد».
- ومن قبله قال سيدنا آدم أبو البشر: «لاخلتك يا مصر بركة ولازال بك حفظ ولازال منك ملك وعز».
- عن العابدين الساجدين من أهلها حدثنا القرآن الكريم: عن مؤمن آل فرعون، وعن آسيا، وعن ماشطة بنت فرعون.
- ومن بناتها تزوج سيدنا محمد بن عبدالله مارية القبطية أم ابنه الوحيد إبراهيم.
- مصر وطن الأنبياء والمرسلين منذ بدء الخليقة.

أفبعد هذا يقال عن الحضارة المصرية حضارة كافرة!! لا والله مصر أمة مؤمنة بربها الواحد الأحد الفرد الصمد وأنه تعالى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد.

مصر أمة موحدة بالله منذ فجر التاريخ..

مصر أرض الأنبياء ومنطلقهم لهداية البشر..

مصر حاضنة رسالات السماء.

وقد خاب وخسر من طعن في إيمان أهلها منذ أقدم العصور وحتى اليوم!!

ولئن ابتليت مصر في بعض مراحل تاريخها بمن ألحد وأشرك فيها بالله الواحد الأحد، فإن هذا الأمر لم يكن أبدًا قاعدة عامة في تاريخ

الأمة المصرية فها هو خليل الله إبراهيم وولده إسماعيل يرفعان قواعد بيت الله الحرام بمكة المكرمة ويطهرانه للطائفين والعاكفين والركع السجود.. ثم يأتي بعد ذلك من يلحد فيه ويضع الأصنام لتعبد من دون الله.. أيجوز أن نقول إن مكة أمة كافرة منذ فجر التاريخ؟؟

لا والله.. مصر أمة مؤمنة موحدة بربها.. على ترابها انكسر المعتدون بفضل الله(١).

- أنظروا معي: أين الفرس.. أين الهكسوس.. أين الروم.. أين الصليبيين.. أين التتار.. أين الأتراك العثمانيين.. أين الفرنسيين.. أين الإنجليز؟؟
- كل هؤلاء قهرتهم إرادة الله قبل إرادة المصريين حبًا وتفضيلًا من المولى عز وجل لهذا الشعب.

لقد ترك الاستعمار الأوروبي أثره العميق والغائر على ثقافات الشعوب العربية والإسلامية ولغاتها:

- اللغة الفرنسية هي اللغة السائدة والأكثر انتشارًا في تونس والجزائر والمغرب.
- هناك صراعات عرقية وثقافية في المغرب العربي لبعث اللغات الإقليمية التي كانت سائدة فيها قبل الفتح الإسلامي لها.
- هناك صراعات عرقية وثقافية في العراق لبعث الثقافة الكردية واللغة الكردية، واللغة الفارسية والثقافة الفارسية.
- في إيران وأفغانستان اللغة الفارسية هي اللغة السائدة.
- في باكستان اللغة الأوردية هي اللغة السائدة.
- في تركيا اللغة التركية هي اللغة السائدة.
- في جنوبي شرقي آسيا لغة الملايو.
- اللهجات العربية من المحيط إلى الخليج تبعد في كثير من مفرداتها عن لغة القرآن في النطق وأحيانًا في الكتابة.. إلا في مصر.
- أجل لا يوجد اليوم أنقى من اللسان

(١) تدخلت العناية الإلهية والقدر لانقاذ مصر والمصريين من كارثة مروعة حيث فشلت محاولة عناصر إرهابية في تفجير محطة وقود «وطنية» تابعة للجيش بطريق القاهرة - السويس بسيارة «نيسان» مفخخة مسروقة من مواطن بالإسماعيلية. كما أنقذ القدر المنطقة المجاورة للمحطة من كارثة مروعة لو تم تفجير السيارة.
كشفت معاينة المباحث الأولية أن تحرك سلك التفجير في الدائرة الموصلة بهاتفي المحمول داخل السيارة أدى إلى عدم تمكن الإرهابيين من تفجيرها بالرغم من اتصالهم بالموبايل الخاص بالفزع ١٢ مرة على مدار يومين تواجدت خلالهما السيارة بمكان التفجير.
تلقى اللواء أسامة الصغير مساعد وزير الداخلية لأمن القاهرة إخطاراً من اللواء ممدوح عبدالقادر مدير الإدارة العامة للحماية المدنية بورود بلاغ إلى الرائد مصطفى فؤاد بوجود سيارة مفخخة بجوار محطة تموين وقود وطنية بطريق القاهرة - الإسماعيلية.
انتقل المقدم خالد كمال والنقيب أحمد الليثي بإشراف اللواء علاء عبدالقادر مدير إدارة المفرقعات وتبين وجود ثلاثة أنابيب بوتاجاز وجركن به ٢٠ لتر جاز داخل السيارة نيسان صفى رقم ١١٦٢٥ ملاكى الإسماعيلية وموصلين بدائرة كهربائية للتفجير من خلال هاتفي محمول وتم إبطال مفعولها. «المساء ٣/١٢/٢٠١٣».
ولئن كان المجرمون نجحوا في تفجير مبنى مديرية أمن الدقهلية بمدينة المنصورة في الساعات الأولى من صباح الثلاثاء ٢٠١٣/١٢/٢٤م، وقتلوا وأصابوا نحو مئتي مواطن مصري، ودمروا كذلك العشرات من المحال التجارية وأصابوا العديد من المنازل بأضرار بالغة، وكل هذا لتحقيق هدف واحد هو ترويع الشعب المصري ومنعه من الانطلاق نحو عهد تشرق فيه شمس الحرية والعدالة والرخاء، أجل الهدف ترويع شعب مصر وترويع شرطة شعب مصر، وترويع جيش مصر. ولكن أبدا لن تُراع وسيظل التلاحم الشعبي بين أبناء الأمة المصرية شاهدا على قوة إرادة وعزيمة هذا الشعب، حيث اندفع نحو خمسين ألف مواطن مصري من أبناء مدينة المنصورة والمدن المحيطة بها للتبرع بالدم، هاتفين ضد الإرهاب، وتم الإعلان عن تشكيل لجان شعبية لمواجهة الإرهابيين ومقاومتهم. إنها إرادة الله حتى تطهر صفوفنا من القتلة والخونة والإرهابيين
﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج: ٤٠)

المصري في اللغة العربية.. حتى تلك اللغة الدارجة في الأحياء الشعبية وفي ريف مصر.. لغة عربية أصيلة.. لغة القرآن ظلت هي السائدة في مصر.. حتى مع تنوع اللهجات في مدنها وقراها ظلت محافظة على أصولها العربية الفصيحة..

مصر هي موطن اللغة العربية.. لغة كتاب الله..

مصر هي قلب العروبة النابض.. بدونها لا توجد عروبة، وبدون العروبة لا يوجد إسلام.. القرآن الكريم كتاب الله المبين نزل بلسان عربي مبين.. فمن أراد أن يكون مسلمًا فعليه أولا أن يكون عربي الحس والشعور والوجدان ليفقه آي القرآن ويتدبر معانيه!!

ومن أراد أن يتعلم علوم اللغة العربية والشريعة وأصول الدين لا يذهب إلا إلى مصر.. حصن اللغة والشرع لهذا مصر قدس من أقداس الله.. كيف لا وهي الحارسة على الإسلام إلى يوم الدين!!

- فيها قال عمرو بن العاص: «ولاية مصر جامعة تعدل الخلافة».

صدق والله عمر بن العاص

وفيها قال عبدالله بن عمرو: «من أراد أن ينظر إلى الفردوس فلينظر إلى ارض مصر».

- مصر كما قال كعب الأحبار: «بلد معافاة من الفتن من أرادها بسوء كبه الله على وجهه».
- مصر كما قال عنها أبو موسى الأشعري: «أهل مصر الجند الضعاف ما كادهم أحد إلا كفاهم الله مؤونته».
- مصر كما قال رسول الله ﷺ في حق جندها، في حديث مرفوع رواه عمرو بن الحمق وحكاه لأهل مصر يوم قرر العيش فيها: «تكون فتنة يكون أسلم الناس فيها (أو قال خير الناس فيها) الجند الغربي فلذلك قدمت عليكم مصر، ولم تمر على الأمة الإسلامية فتنة لها علاقة بالجند الغربي «جند مصر» كالتي تشهدها اليوم، هي الأشد على الإطلاق في تاريخ أمة محمد ﷺ فالأمة الإسلامية تشهد فتنة مدمرة في العراق وسوريا واليمن وليبيا وتونس والصومال والسودان وعدد الضحايا يتجاوز المليون قتيل وملايين الجرحى والمشردين بعكس الحال في مصر حيث الجند الغربي.. جند مصر.. خير أجناد الأرض أجل خير أجناد الأرض ذلك الحديث الشريف (الضعيف إسنادا وليس متنا) الذي يغتاظ منه من يغتاظ.

ويغيظهم أكثر ما يغيظهم وصايا رسول الله ﷺ المسلمين بأقباط مصر: ألا لا سامح الله من انتهك وصايا رسول الله بحق جند مصر، وأقباط مصر!!

لقد أسقط الخليفة معاوية بن أبي سفيان، الصحابي الجليل، كاتب الوحي، أسقط الجزية عن أهل السيدة مارية القبطية أم المؤمنين ﷺ -رضي الله عنها- زوج رسول الله ﷺ، وأم ولده إبراهيم، بل أسقط معاوية الجزية عن أهل بلدتها بصعيد مصر، إكراماً لأصهار رسول الله ﷺ، وامتثالا لوصاياه ﷺ بحق أقباط مصر.

١- قال رسول الله ﷺ فيما رواه الإمام مسلم: «ستفتح عليكم بعدي مصر، فاستوصوا بقبطها خيرا، فإن لهم ذمة ورحما».

٢- وعن كعب بن مالك الأنصاري قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: إذا فتحت مصر فاستوصوا بالقبط خيرا فإن لهم دما ورحما» وفي رواية: «فإن لهم ذمة ورحما» يعني أن اسماعيل عليه السلام منهم» (٢).

٣- وأورد الإمام مسلم في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: «إنكم ستفتحون مصر، وهي أرض

(٢) أورده الهيثمي ج ٦٢/١٠، وقال رواه الطبراني بإسنادين، ورجال أحدهما رجال الصحيح، كما رواه الحاكم بالرواية الثانية وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي ج ٧٥٣/٢ وعند الزهري: «الرحم بأن أم إسماعيل منهم».

يسمى فيها القيراط، فإذا فتحتموها فاحسنوا إلى أهلها، فإن لهم ذمة ورحما، أو قال: «ذمة وصهرا»(٣).

٤- ورووت أم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال: «الله الله في قبط مصر، فإنكم ستظهرون عليهم ويكونون لكم عدة وأعوانا في سبيل الله»(٤).

وهنا نروى واقعة هامة فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر، هى قصة ضابط قبطى بالقوات المسلحة المصرية.. ضابط من خير أجناد الأرض كان كما قال رسول الله ﷺ عنه وعن غيره من أقباط مصر «عدة وأعوانا فى سبيل الله».

تعالوا بنا نقرأ صفحة مشرقة من صفحات التاريخ

هو بطل من أبطال حرب أكتوبر المجيدة، حرب العاشر من رمضان، تلك المعركة الفاصلة فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر والتى رفعت الرايات المصرية والعربية والإسلامية عالية خفاقة، تلك المعركة التى أكدت أن الأمة المصرية صار لها درع يحميها وسيف يبطش بأعدائها.

هو بطل من أبطال قواتنا المسلحة، ونموذج فذ لخير أجناد الأرض.. إنه العميد شفيق مترى سدراك وهو أول شهداء القوات المسلحة من الضباط.

ولد بطلنا عام ١٩٣١ فى قرية المطيعة بمحافظة أسيوط وتخرج فى الكلية الحربية عام ١٩٨٤.

- كان من أوائل من حصلوا على شهادة أركان حرب برتبة رائد.
- عمل مدرسًا لمادة «التكتيك وفن القتال» بالكلية الحربية، ثم عين كبيرًا للمعلمين بها.


شفيق مترى سدراك

ثم ما لبث شفيق مترى سدراك أن فرض نفسه على ساحة العمليات العسكرية مثبتًا جدارته كرجل عسكرى من الطراز الأول، حيث شارك فى معركة «أبو عجيلة» سنة ١٩٦٧، وهى واحدة من أقوى وأشرس المعارك التى خاضتها قواتنا المسلحة فى أعقاب نكسة ٥ يونيو، وكان قائدًا لكتيبة مشاة وأبلى بلاء حسنا دفع القائد الأعلى للقوات المسلحة الرئيس جمال عبدالناصر لأن يصدر قرارًا بترقيته استثنائيا لدوره المشرف جدًا فى المعركة، حيث كبد العدو قدرًا هائلا من الخسائر فى الأرواح والعتاد وكان الضابط الوحيد الذى تم تكريمه فى هذه الأيام العصيبة.

وكان «سدراك» هو أحد ألمع المقاتلين المصريين خلال حرب الاستنزاف، حيث خاض معارك هائلة فى مناطق بورسعيد، والدفرسوار شرق، وجنوب البلاح، والفردان.

وفى ليلة السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣م قام العميد شفيق مترى سدراك قائد اللواء الثالث التابع للفرقة ١٦ بالجيش الثانى الميدانى باستدعاء قادة الكتائب ليبلغهم بقرار القيادة العامة للقوات المسلحة المصرية ببدء المعارك العسكرية وعبور قناة السويس لاستعادة سيناء وتحريرها.

بدأ القائد المسيحى اجتماعه مع ضباطه

(٣) والحديث بروايتيه فى صحيح مسلم رقم ٢٥٤٣ باب وصية النبى ﷺ بأهل مصر وفى مسند أحمد ج ٥/١٧٤).
(٤) أخرجه الهيثمى فى مجمع الزوائد ج١٠/٦٣ وقال: رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح

بتلاوة آيات بينات من سورة الصافات:

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾

أبلغ العميد شفيق مترى سدراك ضباطه بأن يوم السادس من أكتوبر ١٩٧٣ سيكون يومًا من أيام التاريخ وأن مصر بأسرها تتشوق إلى اليوم الذى ترتفع فيه الأعلام المصرية عالية خفاقة على الضفة الشرقية لقناة السويس.

وفى يوم السادس من أكتوبر قام العميد سدراك بقيادة قواته والعبور بها إلى الضفة الشرقية لقناة السويس بالقطاع الأوسط من سيناء، ووصل بقواته إلى قرب الممرات، وكان دائما يتقدم قواته ليبث فى نفوسهم الشجاعة والإقدام.

وفى يوم ٩ أكتوبر أدار عمليات تحرير النقطة ٥٧ جنوب الطالية كان سدراك يقاتل برجاله داخل عمق بلغ مداه ما يقرب من ١٤ كيلومترًا فى سيناء، وكان يتقدم قواته بمسافة كيلومتر، وهى مسافة متميزة فى لغة المعارك العسكرية، تكشف حجم الجسارة والكفاءة التى كان يتمتع بها، وقبل وصوله إلى عمق منطقة الممرات أصيبت سيارته المدرعة بدانة مدفع إسرائيلى ليلقى ربه هو وخمسة من رجاله كانوا بصحبته شهداء عند ربهم بعد أن أبلى بلاء حسنا كان به كما قال رسول الله ﷺ جنديا من خير أجناد الأرض، كان به كما قال من لا ينطق عن الهوى «عدة وأعوانا فى سبيل الله».

وكان شفيق مترى سدراك هو أول بطل تم تكريمه، حيث قرر القائد الأعلى للقوات المسلحة الرئيس الشهيد محمد أنور السادات ترقية العميد شفيق مترى سدراك إلى رتبه اللواء ومنح أسرته وسام نجمه سيناء من الطبقة الأولى وهو أعلى وسام عسكرى مصرى تقديرا لما أظهره الفقيد من شجاعة وبطولة.

أقول للكارهين لأهل مصر من مسلمين وأقباط، أقول للكارهين لجيش مصر، أقول للكارهين لقادة جيش مصر.. خير أجناد الأرض مسلميهم ومسيحييهم الذين رووا الأرض بدمائهم الطاهرة دفاعا عنها.. عن قدس الله فى أرضه أقول لهم:

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

(آل عمران/ ٢٦).

﴿ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

(الأعراف/ ١٢٨).

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

(القصص/ ٨٣،٨٤).

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾

(محمد: ٢٤)

- أيها المصريون لا تراعوا فأنتم فى حفظ الله وعنايته.
- مصر لن تسقط، وجيشها لن يسقط.
- لأنها إرادة الله.
- عاشت مصر..
- عاش جيش مصر..
- عاش قادة جيش مصر..
- عاش خير أجناد الأرض.

بين الصحف والمجلات

أ. محمد جمعة

بناء الهيكل المزعوم يدخل مرحلة التنفيذ

تحت هذا العنوان جاء «رأى الدستور» المنشور بجريدة الدستور الأردنية الصادرة بتاريخ: ٢٠١٣/١٢/٤م يتضمن ما يلى:

دخلت مرحلة بناء الهيكل المزعوم مرحلة التنفيذ حينما قام رئيس حكومة العدو نتنياهو بإنارة الشمعدان التلمودى، وإدخاله إلى الأقصى مستغلا الأعياد الدينية.. دافعًا اليهود المتطرفين إلى اقتحام الأقصى وتدنيسه، والاعتداء على المصلين وطلاب العلم وإرهاب النساء والأطفال.

هذا الاستفزاز الصهيونى لم يأت صدفة، بل يندرج فى سياق نهج خبيث لاقتسام المسجد زمانيًا ومكانيًا، تمهيدًا لهدمه وإقامة الهيكل، بعد أن أنجز العدو المخططات الهندسية، وتم عرضها فى ساحات الأقصى، وفى هذا السياق لا بد من الإشارة إلى الإجراءات العنصرية التى اتخذها العدو، وصولا إلى الإعلان عن بناء الهيكل وفى مقدمتها كافة المبانى الوقفية والتراثية المحيطة بالمسجد، وبناء كنائس توراتية على أنقاضها، وتوسيع ساحة البراق وإقامة جسر حديدى يصلها بباب المغاربة رغم احتجاج «اليونسكو» ورفضها لهذا الإجراء الذى يشكل انتهاكًا صارخًا للقانون الدولى والمعاهدات ذات الصلة التى تحظر إجراء أية تغييرات فى الأماكن المقدسة، تمس حق المواطنين فى العبادة وحريتهم بأداء صلواتهم.

العدو الصهيونى لم يتردد فى الإعلان عن خططه وأهدافه العنصرية الفاشية مستغلا الخلافات العربية والانقسام الفلسطينى، والدعم الأميركى والتواطؤ الأوروبى، والمستجدات التى تعصف بالمنطقة، والتى تكاد تزلزلها بعد انفجار الصراع الطائفى، وهذا يحتم على الشعب الفلسطينى أن يعلن النفير العام إلى الأقصى والمرابطة فيه لحمايته من التهويد، وإفشال مؤامرة بناء الهيكل المزعوم.

ولينصرن الله من ينصره

سوريا إلى أين

تحت عنوان «ما لهم غيرك يا الله» جاء «رأى القدس» المنشور بجريدة القدس العربى الصادرة بتاريخ: ٢٠١٣/١٢/١٣م يتضمن ما يلى:

تصريح المدير السابق لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية (سى أى إيه) مايكل هايدن أن انتصار قوات الرئيس بشار الأسد فى سوريا قد يكون الأفضل بين ثلاثة سيناريوهات مرعبة جدا جدا، يعتبر أجمل هدية يتلقاها الرئيس السورى منذ بداية الانتفاضة قبل ٣٢ شهرا.

يعتبر هايدن أن السيناريوهين الأخيرين: تفتت البلاد بين فصائل متخاصمة مما سيؤثر على دول المنطقة، واستمرار المعارك إلى ما لا نهاية بين متطرفين سنة ومتعصبين شيعة، ولم يقل هايدن أن سلبية حكومته بتعاملها مع الأزمة يحملها مسئولية كبيرة بوصول الوضع إلى ما هو عليه.

وسيناريو بقاء الأسد يبدو أنه كان منذ البداية الحل الأنسب للإدارة الأمريكية التى تخشى وصول قوى جديدة، لا تعلم مدى قدرتها على بسط السيطرة على الدولة، تتزامن هذه التطورات، مع مواصلة النظام منع وصول المساعدات الإنسانية للمدنيين فى ظل هذا الشتاء القاسى، وهذا بحد ذاته يعتبر جريمة، فكيف إذا ترافق ذلك بقرائن تشير إلى قصف المدنيين وذبح المئات واستخدام الأسلحة الكيميائية.

الرد الأمريكى على هذا كان الإدانة والدعوة لمحاسبة المسئولين عن الأعمال الوحشية، دون تسميتهم، والإشارة إلى استمرار عمل وزارة الخارجية الأمريكية مع الناشطين السوريين والمجتمع المدنى لتطوير تفهم سليم ومناقشة العدالة الانتقالية المستقبلية، مثل هذه التصريحات لم نعتد عليها إلا من لجان حقوقية ومؤسسات مدنية، وليس من قوة عظمى.

ومن هنا يكون المواطنون البسطاء فى سوريا، فهموها مبكرًا حين رددوا «ما لنا غيرك يا الله».

على خطى بورما.. أنغولا تحارب الإسلام

تحت هذا العنوان جاء مقال الدكتور/ عامر الهوشان بموقع «المسلم» بتاريخ ٢٠١٣/١١/٢٧ يقول فيه:

رغم أن المظاهر بين البلدين مختلفة حيث وصلت الأولى إلى أدنى درجات الانحطاط الإنسانى فى معاملة مسلمى الروهنجيا وإلى أقصى درجات الوحشية فى القتل والإجرام بينما لا تزال الثانية فى حدود الاضطهاد والظلم من خلال هدم بعض المساجد والتضييق على المسلمين هناك إلا أن الغاية والنتيجة المرجوة واحدة ألا وهى حظر الإسلام ومنعه من الانتشار.

فقد صرح رئيس أنغولا من قبل (دوس سانتوس) «بأنه حان الوقت لوضع حد للتأثير الإسلامى على بلادنا» بحسب ما نقلته صحف محلية أنغولية كما شرعت الحكومة فى إغلاق بعض المساجد وهدم البعض الآخر.

ورغم نفى السلطات الأنغولية لخبر حظر الإسلام فى بلادها واضطهاد المسلمين، إلا أن الوقائع تدل على عكس ذلك، فقد أكد شهود عيان أن الحكومة هدمت مسجدين وأغلقت سبعة خلال الأشهر القليلة الماضية، وهناك تهديد بهدم المساجد الباقية التى يبلغ عددها نحو عشرين مسجدا، وذلك بذريعة أن المساجد بُنيت دون رخصة.

ولدراسة أسباب مثل هذا القرار يمكن التركيز على سببين رئيسيين:

١- لقد ضاقت أنغولا ذرعا بازدياد عدد المسلمين فيها بسرعة رهيبة، فبعد أن كانوا حوالى ٢٠ ألفا حسب تقديرات الحكومة الأنغولية، فإن البعض يقدرهم اليوم بحوالى مليون مسلم من أصل ١٩ مليونا عدد سكان أنغولا، وهو الرقم الذى أخاف السلطات الحكومية هناك، ناهيك عن العداء الكاثوليكى للمسلمين، والذين يشكلون غالبية الشعب هناك.

وللعلم فإن اضطهاد المسلمين بأنغولا ليس بجديد، وإغلاق وهدم المساجد أيضا ليس بحديث، فقد كشفت المفوضية السامية للأمم المتحدة لحقوق الإنسان عن عمليات تضييق وتمييز يتعرض لها مسلمو أنغولا وعلى رأسها إغلاق مساجدهم والربط بينهم وبين الإرهاب فى معظم وسائل الإعلام، وفى بيان للمفوضية فقد تم إغلاق أربعة جوامع فى العاصمة لواندا من قبل الشرطة فى عام ٢٠٠٦م.

٢- لا يمكن إغفال السبب السياسى والاقتصادى، فرئيس أنغولا على علاقة جيدة بإسرائيل، والمصالح الاقتصادية اليهودية والأمريكية فى أنغولا -وإفريقيا عامة- ليست خافية على أحد.

ومع موجة التنديد والاستنكار على هذا القرار من المنظمات والمؤسسات الإسلامية الدولية، كمنظمة التعاون الإسلامى والاتحاد العالمى لعلماء المسلمين والأزهر الشريف، إلا أن دور الدول الإسلامية لم يظهر بشكل واضح وفاعل، وهو الأمر الذى يجعل معاناة المسلمين فى العالم تستمر؛ لأن الدول لا تلقى بالا بلغة التنديد والاستنكار، بقدر ما تحسب ألف حساب للغة القوة والمنافع والمصالح.

ندوة: الإعلام بين المهنية والضوابط الشرعية

متابعة الأستاذين:
رمضان ثابت - أبو السعود محمد

تحت رعاية فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر وبرئاسة كل من أ.د/ ألفت كامل رئيس الجامعة الحديثة للتكنولوجيا والمعلومات وأ.د/ جعفر عبد السلام الأمين العام لرابطة الجامعات الإسلامية عقدت رابطة الجامعات الإسلامية بالتعاون مع كلية الإعلام بالجامعة الحديثة ندوة بعنوان «الإعلام بين المهنية والضوابط الشرعية» وذلك يوم الإثنين ١٣ صفر ١٤٣٥ هـ الموافق ١٦ / ١٢ / ٢٠١٣ م بمقر الجامعة بالمقطم.

انطلقت فعاليات الندوة بجلسة افتتاحية وسط حضور كوكبة من العلماء والمفكرين ورجال الإعلام، وناقشت (١٦) ورقة بحثية في جلستين أخريين، استهل الافتتاح بالقرآن الكريم أعقبه ترحيب أ.د/ سامي الشريف عميد كلية الإعلام بالجامعة الحديثة للتكنولوجيا والمعلومات، فشكر السادة الحضور، وبيّن أهداف الندوة قائلاً: «بسم الله الرحمن الرحيم ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين أيها السادة يشرفنا عقد هذه الندوة انطلاقًا من الهدف الرئيسي لها وهو وضع الضوابط التي تحكم العمل الإعلامي بما في ذلك المبادئ العامة لتحديث أطر الممارسة الإعلامية، والضوابط القانونية والتشريعية والأخلاقية والمهنية، ومناقشة آليات إعداد الكوادر الإعلامية وتسبيتها في ظل ما تشهده الساحة الإعلامية من انفلات إعلامي خطير».

ثم تحدث أ.د حسن عماد مكاوي عميد كلية إعلام القاهرة وكيل المجلس الأعلى للصحافة فقال بعد التحية: «الهدف من التحول الديمقراطي الذي تمر به البلاد هو الوصول إلى الحكم الرشيد الذي يجب أن يكون الإعلام أحد عناصره وهو ما يتطلب: احترام حقوق الإنسان والحريات الأساسية، قدرة المواطن على التأثير على القرارات ومحاسبة صانعي القرار، عدالة القوانين والممارسات التي تحكم التفاعل الاجتماعي، عدم التمييز بين المواطنين بناء على الجنس أو اللون أو العرق أو الانتماء السياسي أو الانتماء الديني، استجابة السياسات الاقتصادية والاجتماعية لاحتياجات وطموحات المواطنين، والقضاء على الفقر والأمية، وتوسيع الخيارات المتاحة أمام المواطنين ودور وسائل الإعلام في ذلك يتمحور حول أربع نقاط هي: بث المعلومات وتداولها، إتاحة مساحة من الحوار والمناقشة وتبادل الآراء، مراقبة السلطة وكشف الخلل، تثقيف الجمهور والنهوض بمستوى الذوق العام. وهذا يتطلب تمكين وسائل الإعلام من الوصول إلى المعلومات وحرية طباعة الصحف والنشر والتوزيع وحظر الرقابة وحماية الإعلاميين واستقلالية المؤسسة الإعلامية».

واستعرض أ.د. جعفر عبد السلام الأمين العام لرابطة الجامعات الإسلامية المنطلقات الفكرية للحريات الإسلامية، فطرح سؤالاً مفاده: إلى أي مدى يجب أن نلتزم بحرية الإعلام؟ وإلى أي مدى تسمح بالتقييد عليها؟ وعرض النصوص الدستورية والقانونية والموقف الدولي من حرية الإعلام فقال: «إن المادة ١٩ في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان تنص على أن ضوابط حرية الإعلام لابد أن تصدر من المُشرِّع، وأضاف أنه يجب على المُشرِّع أن يراعي: مقتضيات الأمن القومي للدولة، مع المحافظة على حريات الآخرين، عدم التمييز أو التفرقة بين المواطنين. وأشار في ختام كلمته إلى أنه إذا كان هناك من قال: «إن أفضل قانون للإعلام هو ألا يكون هناك قانون يحدُّ من حرية الإعلام»؛ فإن من القانونيين من يقول: «مجتمع يستطيع كل فرد فيه أن يفعل ما يريد، وحيث يستطيع الكل فعل ما يريد لا يستطيع أحد فعل شيء مما يريد، مجتمع لا تجد فيه سيِّدًا أو مسودًا فحيث لا سيِّد فالكل سيِّد وحيث الكل سيِّد: فالكل عبيد».

كما تقدم الأستاذ علي عبد الرحمن مستشار وزيرة الإعلام بورقة عنوانها (رؤية نقدية للممارسات الإعلامية) انتقد فيها الانفلات الإعلامي الراهن المتمثل في تحول الإعلامي إلى ناشط أكثر من ناشطي الميدان وإلى ثائر أكثر من ثوار الميدان وفق أجندات يسارية أو يمينية، ثم عرج على مسيرة الإعلام السلطوي قبل ثورة يناير ٢٠١١ -رغم نص دساتير مصر منذ دستور ١٩٢٣ على حرية الصحافة- ليؤكد في نهاية كلمته على ضرورة تفعيل ثقافة المسئولية المجتمعية للإعلاميين تجاه المواطنين فيما يتعلق بالموضوعية والمهنية والصدق والحياد في التناول الإعلامي، وأن مهمة الإعلامي هي نقل الحدث فقط دون إبداء الرأي، ودون صناعة للحدث.

كان هذا في الجلسة الافتتاحية للندوة، أما الجلسة الأولى فأدارها أ.د/ إسماعيل شاهين نائب رئيس جامعة الأزهر وناقش فيها الضوابط القانونية والشرعية والأخلاقية للعمل الإعلامي في سبع ورقات بحثية أعقبها مداخلات فقال بعد التحية: «الإعلام هو السيد الأول في تكوين الرأي العام في أي دولة من دول العالم وخطورته تكمن في أنه يشكل صياغة العقول وخاصة في الشباب وبخاصة في التعليم وهو بذلك يشكل مشكلة كبيرة ما لم يكن إعلاما صادقا ومستنيرا وأنا أدعوكم جميعا أن تركزوا على ذلك الإعلام الإسلامي النظيف فأول دعوة من السماء لتنظيم الإعلام كانت قول الله تعالى:

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]

وقوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات: ١١]

وقوله سبحانه وتعالى:

﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦]

فلينأ الإعلام المصري والعربي عن الجري وراء الشائعات وعن العنف».

وأوجز أ.د/ محمد كمال إمام الأستاذ بكلية حقوق جامعة الأسكندرية ورقته: (الإعلام الديني بين الواقع والمأمول) قائلا: «إذا كان الإعلام جزءا أساسيا لعمليات النهوض والتغيير فلماذا إعلامنا في حالة إفلاس؟ لعله بسبب ترهل الشرعية (الدستورية والسياسية) في العالم العربي، ولافتقاده قواعد الإعلام كفن ومهنة وتخليه عن أخلاق وقيم المجتمع؛ فأضحت الكوادر الإعلامية ضعيفة وتحت هيمنة قوى ومصالح سياسية واقتصادية فاسدة ومتوغلة في ظل الأنظمة الراهنة وهو بدوره يؤثر على العقل العربي تأثيرا سلبيا ولن ننهض إلا بوضع الحقائق أمام أعيننا وبحث سبل علاجها».

وطالب أ.د/ نبيل دعبس رئيس مجلس أمناء الجامعة الحديثة رجال الإعلام بعدم الإفتاء في غير تخصصاتهم من خلال سرد أمثلة لتدخلات مقدمي البرامج وأثرها الخطير على اقتصاد الدولة كحديث أحدهم عن أهمية الضريبة التصاعدية في مصر، وهو غير متخصص في ذلك.

وحول مواثيق الشرف الإعلامي قالت أ.د. ليلى عبد المجيد عميد كلية الإعلام سابقا في ورقتها المعنونة بـ: (الضوابط الأخلاقية للعمل الإعلامي): «إن التجارب

السابقة أثبتت أن الحرية المطلقة غير واردة فلابد من تنظيم حرية الإعلام والتزامه بمجموعة من المعايير المتفق عليها دوليا ومنها:

الدقة والموضوعية والمصداقية في التناول الإعلامي للحدث. معالجة القضايا التي تمس مطالب واهتمامات الجمهور الحقيقية. شمولية القضايا وعرض وجهات النظر المختلفة والحيادية في التعامل معها. الاتجاه إلى الوثائق والإحصائيات والأدلة المنطقية وعدم الاستخفاف بعقول الجمهور. نبذ الدعوة إلى العنف، وترك الأهواء الشخصية، والتمتع بالاستقلالية الإعلامية.

وفي نهاية الجلسة الأولى ناشد أ.د. محمد وهدان الأستاذ بجامعة الأزهر رجال الإعلام أن يقتدوا بالنملة عندما أعلمت أمة النمل بسليمان وجنوده في قوله تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾

[النمل: ١٨]

فقال: «نملة استخدمت عشر أدوات اتصال في جملة واحدة: نادت ونبهت وسمّت وأمرت ونصّت وحذّرت وخصّت وعمّت وأشارت وأعذرت». ووجّهه: نادت: يا، نبهت: ها، سمّت: النمل، أمرت: ادخلوا، نصّت: مساكنكم، حذّرت: لا يحطمنكم، خصّت: سليمان، عمّت: وجنوده، أشارت: وهم، أعذرت: لا يشعرون.

وهي مع ذلك لم تقع في مخالفة شرعية، ولم تفحش في القول، ولم تتعرض لخصوصيات أحد، بل نصحت قومها وأضحكت سليمان عليه السلام فهل من مُقتد!

ودارت الجلسة الثانية حول الضوابط الإعلامية للعمل الإعلامي برئاسة أ.د. فاروق أبو زيد نائب رئيس الجامعة الحديثة فاستعرضت سبع ورقات بحثية تضمنت الضوابط الشرعية والمهنية والأخلاقية للإعلام الجديد ومواثيق الشرف الإعلامي وكذا الإعداد الأكاديمي والتدريبي للإعلاميين منها ورقة بعنوان أخلاقيات الإعلام ومواثيق الشرف في مصر، للمستشار الإعلامي لرابطة الجامعات الإسلامية أ. عاطف مصطفى عرض فيها نشأة مواثيق الشرف الإعلامي في الولايات المتحدة وبريطانيا والدول العربية بما فيها مصر والتطورات التي مرت بها والضوابط التي نصت على التزامها كالصدق والأمانة والحرص على الحرية الشخصية ومراعاة أمن الوطن والمواطن. وجدير بالذكر أن واقع المهنية الإعلامية برز بجلاء من خلال عدة أبحاث مشاركة منها ورقة أ.د. عبد الصبور فاضل عميد كلية الإعلام جامعة الأزهر -وهو ممثل الأزهر الرسمي في هذه الندوة- وعنوانها: (واقع المهنية الإعلامية بعد ثورة ٢٥ يناير في ضوء الشريعة الإسلامية – رؤية نقدية)، ولسان حال هذا الواقع يقول: «أعطني إعلاما بلا ضمير أعطك شعبا بلا وعي»، ويقول أيضا: «أيها الإعلامي بوسائلك المختلفة كثر شاكروك وقل شاكروك؛ فإما اعتدلت وإما اعتزلت».

وفيما يلي أبرز توصيات الندوة:

- التأكيد على أهمية حرية وسائل الإعلام والتزامها بالقيم والمبادئ والرؤى التعددية والتنوع في عرض وجهات النظر.
- أن تتسم التغطيات الإعلامية بالشمول والعمق والاتجاه إلى الوثائق والإحصائيات والأدلة المنطقية وعدم الاستخفاف بعقول الجمهور.
- عدم استغلال الحرية الإعلامية في الدعوة إلى العنف أو الكراهية، وضرورة احترام الحريات الخاصة وتجنب ما يمس السمعة.
- إصدار القوانين والتشريعات التي تكفل منافسة عادلة بين المؤسسات الإعلامية وتؤكد استقلالها وتحد من السيطرة والاحتكار.
- إنشاء جهاز مستقل لمتابعة أداء وسائل الإعلام لكفالة حرية الإعلام ومراقبة التجاوزات.
- تعميق سبل التعاون بين المؤسسات الإعلامية والأكاديمية ومؤسسات المجتمع المدني للنهوض بالأداء الإعلامي وعقد الدورات التدريبية للارتقاء بمهارات الكوادر الإعلامية ورفع مستواها المهني والأخلاقي.
- ضرورة تفعيل مواثيق الشرف الإعلامية واحترامها واعتبارها بمثابة دساتير أخلاقية وتجنب كل ما يسيء إلى الأديان والأنبياء والرسل، والتحلي بالصدق والأمانة والمسئولية المجتمعية تجاه الجماهير.

أنباء الأزهر

إعداد الأستاذين:
محمود القشني - وعبدالموجود أمين


د. أحمد الطيب

بيان الأزهر الشريف حول الاستفتاء

أصدر الأزهر الشريف بيانًا فى ٢٢ / ١٢ / ٢٠١٣ حول الاستفتاء على الدستور جاء فيه:

إن الشعب المصرى – وهو يستعد للاستفتاء على مشروع الدستور– مُطالبٌ فى هذه اللحظات التاريخية أن يحسم أمره، ويحدد مصيره، ويخرج بوطنه من فترات القلق والاضطراب والحيرة إلى مرحلة البناء والعمل والأمن والاستقرار، فالخروج للاستفتاء على مشروع الدستور واجبٌ وطنيٌ، وما يصب فى مصلحة الوطن يُعد من مقاصد الشريعة؛ إذ لا حرمة لدماء، ولا حفظ لعقل، ولا صون لعرض، ولا أمن على مال دون وطن آمن مستقر يجمع الشمل، ويوحّد الصف، ويزيل الفرقة، ويبعث على الأمل.

ويؤكد الأزهر الشريف رفضه لدعاوى تحريم الخروج للاستفتاء أو الحكم على مشروع الدستور بأنه ضد الدين أو ضد الشريعة الإسلامية؛ فهذه كلها فتاوى شاذة ومجافية للشرع والدين.

والأزهر الشريف يثق فى أن الشعب المصرى الذى ألقى على العالم درسًا حضاريًا فى ثوراته التاريخية، لقادرٌ على تجسيد إرادته الحرة فى الخروج للاستفتاء على مشروع الدستور الحالي.

حفظ الله مصر!!

الأزهر يدين حادث مديرية أمن الدقهلية الأليم

أدان فضيلة الإمام الأكبر أ.د. أحمد الطيب، شيخ الأزهر الحادث الإرهابي الآثم الذى وقع فى المنصورة، فى الساعات الأولى من صباح يوم الثلاثاء ٢٤ / ١٢ / ٢٠١٣ مصيبًا مصر فى فلذات أكبادها من أبنائها الأوفياء، وجنودها الأبرار، فأودى بحياة بعضهم وأصاب الكثير من البعض الآخر.

ويؤكد أن مثل هذه الأعمال التخريبية التى تتسبب فى ترويع الآمنين، وتخل بأمن المجتمع، أمر يحرّمه الشرع، وتنبذه الأعراف والقوانين، ويشدّد شيخ الأزهر على أن الدم المصرى كله حرام، داعيًا فى الوقت نفسه إلى تعقب المتسببين فى الحادث والقصاص منهم عبر محاكمة عاجلة.

ويدعو الأزهر الشريف الشعب المصرى بجميع أطيافه أن يتكاتفوا ويتحدوا فى دعم مؤسسات الدولة للحفاظ على أمن مصر واستقرارها ضد هذه التصرفات الإرهابية الحمقاء.

ويتقدّم الإمام الأكبر شيخ الأزهر الشريف بخالص تعازيه إلى أسر الشهداء، وصادق دعائه بالشفاء العاجل للمصابين، كما يتقدّم بخالص مواساته لرجال الشرطة الساهرين على أمن الوطن وحماية المواطنين.

بيان حول أحداث إفريقيا الوسطى

أصدر الأزهر الشريف يوم ٢٢ / ١٢ / ٢٠١٣ بيانًا حول الأحداث التي تشهدها إفريقيا الوسطى جاء فيه:

تابع الأزهر الشريف ما يحدث في إفريقيا الوسطى من حملة اضطهاد ظالمة ضد المواطنين المسلمين، أدت إلى إصابة واستشهاد الكثير من المسلمين وطردهم من ديارهم وتدمير ممتلكاتهم، على مرأى ومسمع الحكومة والعالم أجمع.

وأمام هذا المشهد الظالم يؤكد الأزهر على ما يلي:

١- يدعو الأزهر حكومة إفريقيا الوسطى إلى تحمل مسئوليتها أمام مواطنيها المسلمين وغيرهم، باتخاذ كافة السبل لحمايتهم من اعتداءات المتطرفين، والتي تعد تطورًا خطيرًا مناهضًا للقيم الإنسانية والحريات والتنوع الثقافي والتسامح واحترام حقوق الإنسان.

٢- كما يدعو الأزهر الجميع إلى الرحمة والتسامح والعودة إلى الحوار البناء، والتصالح؛ لأن عمليات القتل والترويع لا تخدم التعايش بين أبناء الوطن الواحد، بل تزيد من الفرقة والاقتتال والفتنة التي تهدم الأوطان.

٣- يطالب الأزهر منظمة التعاون الإسلامي والاتحاد الإفريقي والأمم المتحدة والعالم الحر ببذل كل جهودها لحماية المضطهدين في إفريقيا الوسطى، ويوجه نداءً خاصًا إلى الدول الإسلامية باستعمال علاقتها الدبلوماسية وكل الوسائل المشروعة لحماية المسلمين، وعودة الهدوء والأمن والأمان إليهم، ومعاقبة المعتدين حسب القانون.

فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر يستقبل سمو وزير الخارجية الإماراتي

استقبل فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الدكتور أحمد الطيب صباح يوم الأحد ٢٢ / ١٢ / ٢٠١٣ سمو الشيخ عبد الله بن زايد وزير الخارجية الإماراتي والوفد المرافق له وذلك بمقر مشيخة الأزهر بالقاهرة.

حضر اللقاء معالي الدكتور سلطان بن أحمد سلطان الجابر وزير الدولة ومعالي محمد بن نخيرة الظاهري سفير الدولة بالقاهرة ومندوبها الدائم لدى جامعة الدول العربية.

وأكد سمو الشيخ عبد الله بن زايد آل نهيان وزير الخارجية على تقديره البالغ للأزهر الشريف والدور الذي يقوم به في ترسيخ مبادئ الوسطية في الإسلام ونشرها في العالم العربي والإسلامي مشيدًا بالدور المهم الذي يقوم به فضيلة الإمام الأكبر في الفترة الراهنة التي تمر بها أمتنا العربية.

ومن جانبه أعرب الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر عن شكره إلى دولة الإمارات العربية المتحدة قيادة وشعبا لمواقفها الداعمة لمصر، وقال نحن في الأزهر نقدر دور دولة الإمارات وقياداتها في خدمة ومساندة الأزهر كجامعة عالمية.

وقال: إن العلاقات بين الأزهر والإمارات قوية وهناك مشاريع عديدة بين الأزهر والإمارات من بينها مركز الشيخ زايد لتعليم للغة العربية لغير الناطقين بها، وهذا المركز موجود بجامعة الأزهر، حيث يلتحق به الطلاب الوافدون من آسيا وأفريقيا وأوروبا وروسيا لتعلم العربية قبل التحاقهم بكليات جامعة الأزهر.

وأضاف فضيلة الإمام الأكبر: إسهامات الإمارات في خدمة الأزهر ومصر كبيرة ومنها تمويل مشروع ترميم مكتبة الأزهر الشريف وصيانتها وترميم مقتنياتها من المخطوطات والمطبوعات وترقيمها وتوفير أنظمة حماية وتعقب إلكتروني لمراقبتها وتعقبها والمحافظة عليها وكذلك تمويل إنشاء ٤ مبان سكنية لطلاب الأزهر في القاهرة، بالإضافة إلى تمويل أعمال تصميم إنشاء مكتبة جديدة على أحدث النظم المكتبية العالمية للأزهر الشريف تليق بمكانته وما تحويه مكتبته من نفائس المخطوطات والمطبوعات

حتى تستطيع مكتبة الأزهر القيام بالدور المنوط بها في نشر الثقافة الإسلامية وإتاحة أوعيتها النادرة لطلاب العلم والباحثين وكي تكون مركزًا عالميًا للإشعاع الإسلامي والثقافي.

شيخ الأزهر يستقبل السفير الروسي

بحث فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور/ أحمد الطيب شيخ الأزهر خلال استقباله السفير/ سيرجي كيربيتشينكو – سفير روسيا الاتحادية بالقاهرة في ١٩ / ١٢ / ٢٠١٣ إرسال مدرسين من الأزهر للمراكز الإسلامية والعربية للقيام بشرح صحيح الإسلام الذي يتسم بالوسطية والاعتدال للمسلمين في روسيا.

وأكد فضيلة الإمام الأكبر على عمق العلاقات بين مصر وروسيا مشيدا بالطلاب الروس الذين يتعلمون بالأزهر وسرعة إجادتهم للغة العربية.

ومن جانبه شكر السفير الروسي شيخ الأزهر على هذا اللقاء الذي يسوده المحبة والتقدير معربًا عن أن هذا هو ما عهده من الأزهر المشهود له بأنه صرح علمي كبير، يمتاز بالحكمة والتقدير والسماحة في العالم أجمع.

الإمام الأكبر: دعم كامل للطلاب الوافدين

أكد فضيلة الإمام الأكبر الدكتور/ أحمد الطيب – شيخ الأزهر – دعمه الكامل للطلاب الوافدين حتى ينالوا أعلى الشهادات العلمية من جامعة الأزهر جاء ذلك خلال استقبال فضيلته وفد برلمان الطلاب الوافدين في يوم ١٩ / ١٢ / ٢٠١٣.

وقال فضيلة الدكتور عباس شومان وكيل الأزهر: إن الأزهر يولي رعاية خاصة للطلاب الوافدين ويعمل على تسهيل كافة الأمور لهم حتى يتسنى لهم مواصلة التعليم والتفوق داخل جامعة الأزهر، ليعودوا إلى بلادهم وهم يحملون الخير الذي تعلموه من الأزهر.

وأوضح أن هناك تعليمات مشددة لجميع المسئولين بالأزهر من أجل العمل على تذليل كافة الصعوبات التي تواجه الطلاب الوافدين خاصة من لديه الرغبة الجادة في التعليم والنيل من منهل العلوم الأزهرية.

وطلب وكيل الأزهر من أعضاء البرلمان التواصل مع جميع المسئولين بالأزهر من أجل حل المشاكل التي تواجههم.

ومن جانبه حث السفير عبد الرحمن موسى مستشار شيخ الأزهر الطلاب على ضرورة الاستفادة من التعليم الأزهري؛ حتى ينالوا الدرجات العلمية من الأزهر والتي تعتبر تاجا على رأس كل من يحملها، مؤكدا أن الأمانة العليا للطلاب الوافدين تعمل ليل نهار على حل جميع مشاكل الطلاب الوافدين.

الأزهر ينفي زيارة أي من قياداته «للمركز الثقافي الأمريكي»

نفى الأزهر الشريف ما ورد على موقع «أخبارنا اليوم» حول حضور كل من: فضيلة الأستاذ الدكتور/ عباس شومان، وكيل الأزهر الشريف، والأستاذ الدكتور/ أسامة العبد، رئيس جامعة الأزهر، حفل عبد الشكر اليهودي، الذي أقامه مركز الثقافة الأمريكي.

وقرر الأزهر - وفق ما جاء في بيانه - رفع دعوى قضائية عاجلة ضد الموقع المذكور لنشره هذه الأكاذيب بهدف تشويه الأزهر الشريف وتحريف رسالته السامية.

وأوضح البيان أنه لا يوجد مركز ثقافي أمريكي بجامعة الأزهر أو أي من مؤسسات الأزهر الشريف، ولم يشهد أي مسئول أزهري مثل هذه الاحتفالية المزعومة، فضلا عن قياداته الرفيعة.

كما أعرب سعادة السفير عن سعادته بلقاء فضيلة الإمام وقد أشاد بدور الأزهر في الحوار بين الأديان، وأوضح أن التنوع في الحضارة أو الثقافة هو مصدر التنمية.

انتظام امتحانات الدراسات العليا بجامعة الأزهر



د. أسامة العبد

أكد الدكتور أسامة العبد، رئيس جامعة الأزهر، انتظام امتحانات الدراسات العليا في كليات جامعة الأزهر بقطاعات أصول الدين واللغة العربية والشريعة والقانون، للدور الثاني للباحثين وطلاب الدراسات العليا.

وصرح الدكتور توفيق نور الدين نائب رئيس جامعة الأزهر للدراسات العليا والبحوث، والذي أوفده فضيلة رئيس الجامعة لتفقد أعمال امتحانات الدراسات العليا أن امتحانات الدور الثاني بدأت السبت في قطاعات الجامعة الثلاثة بكليات: اللغة العربية وأصول الدين والشريعة، لافتًا إلى أن الامتحانات شهدت هدوءًا تامًا ولم تحدث أي شكاوى في أيٍّ من القطاعات الثلاث.

وأوضح نور الدين أنه قد تابع لجان الامتحانات، مشيرًا إلى أنه قام بالمرور على اللجان وتأكد من حسن سير وانتظام الامتحانات، إضافة إلى تهيئة المناخ المناسب لأداء الامتحانات لتخرج بالصورة اللائقة بجامعة الأزهر.

الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية: الأزهر لا يألو جهدًا في مد يد العون للأشقاء الليبيين

استقبل فضيلة الشيخ محمد زكي الأمين العام لمجمع البحوث يوم الثلاثاء ٢٩ من المحرم ١٤٣٥ هـ الموافق ٣ / ١٢ / ٢٠١٣ وفدًا من السفارة الليبية بالقاهرة برئاسة سعادة السفير محمد قايز جبريل، وضم الوفد: الدكتور محمد الوليد المستشار الثقافي بالسفارة الليبية، والأستاذ سامي عبدالخالق المستشار الإعلامي.

رحب فضيلة الشيخ محمد زكي بالوفد الليبي، مؤكدًا على عمق العلاقات الأخوية بين الشعبين المصري والليبي، والتي تضرب بجذورها في أعماق التاريخ، وأن الأزهر الشريف لا يألو جهدًا في مد يد العون للأشقاء الليبيين.

من جانبه أعرب سعادة السفير محمد قايز جبريل عن شكره وامتنانه لحفاوة الاستقبال، مؤكدًا بدوره على العلاقات الأخوية التي تربط الشعبين الليبي والمصري، وعلى الدور الذي يلعبه الأزهر الشريف في التعريف بالإسلام ووسطيته، مؤكدًا كذلك على دور الأزهر في مواجهة الهجمة الشرسة التي يتعرض لها الإسلام والمفاهيم المغلوطة التي يروج لها البعض عن جهل أو عن سوء نية.

وطلب سعادة السفير أن يقدم الأزهر الشريف سبل الدعم للحكومة الليبية حتى تستطيع مواجهة التطرف الديني وذلك في إطار بروتوكول تعاون لنشر مذهب الوسطية والاعتدال في الأراضي الليبية وفي الدول الأفريقية كذلك.

من جانبه أكد فضيلة الشيخ محمد زكي الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية أن الأزهر على استعداد تام لتلبية طلبات الوفد الليبي، ووعد ببحثها واتخاذ الإجراءات المناسبة لتفعيلها وتنفيذها.

وفي نهاية اللقاء أعرب الضيوف عن عميق شكرهم وتقديرهم لما لمسوه من استعداد جاد من جانب الأزهر الشريف على التعاون المثمر والبناء الذي يؤكد على عمق وأصالة العلاقات المصرية الليبية.

حضر اللقاء الدكتور عبدالباسط محمد أمين عضو هيئة مكتب فضيلة الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية.

أنباء العالم الإسلامي



أ. أحمد رضوان

أنجولا تهدم المساجد وتمنع ممارسة شعائر الإسلام

أعلنت وزيرة الثقافة في أنجولا روزا كروز دسيلفا منع ممارسة شعائر الإسلام في بلادها، وشرعت في هدم المساجد، بحسب ما تنقله صحف إفريقية.

وقالت كروز إن بلادها ستعيد النظر في قانون حرية الأديان وسوف تقوم بتكثيف حربها ضد الإسلام المتطرف الذي ينتشر في القارة الإفريقية، وخاصة ضد الجاليات اللبنانية والإفريقية والغربية التي تمارس الشعائر الإسلامية بأنجولا».

وقال بونتو محافظ مدينة لواندا «إن هدم المساجد يجري لأن من وصفهم بالمسلمين المتطرفين ليس مرحبا بهم في أنجولا وممنوع من الآن فصاعدا بناء المساجد».

و تسارعت ردود الفعل الإسلامية حول ما تنقله وسائل إعلام عن حظر السلطات الأنجولية للديانة الإسلامية وإغلاق المساجد، إذ دعا خالد بن عبدالرحمن الشايع، الأمين العام المساعد للهيئة العالمية للتعريف بالنبي محمد، إلى تحرك إسلامي واسع لمواجهة هذا التطور الذي اعتبره «مثيرًا للدهشة».

وقال الشايع، في اتصال مع CNN بالعربية: «الأمر مثير للدهشة بالفعل، ونأمل أن يكون هناك موقف من منظمة التعاون الإسلامي لأن القرار يخالف الأعراف الدولية، فحتى الدول الأوروبية تسمح ببناء مساجد وتعترف بالإسلام، ولا بد بالتالي من موقف لوزراء خارجية الدول الإسلامية، كما نتطلع إلى تحرك منظمة التعاون الإسلامي وأن تتصل بالحكومة الأنجولية لتوضيح أي سوء فهم».

و تعد أنجولا - وهي الدولة الصغيرة الواقعة غرب إفريقيا - هي أول بلد في العالم تحظر الإسلام والمسلمين وتتخذ تدابير من خلال تدمير المساجد في البلاد.

وحسب التقديرات الرسمية فإن تعداد المسلمين في أنجولا يبلغ ٩٠٠ ألف نسمة من إجمالي عدد السكان البالغ ١٨

مليون نسمة لذا لم يتم الاعتراف بالإسلام كديانة دستورية. ويتسارع نمو الأقلية المسلمة الناشئة بشكل كبير عن طريق هجرة مسلمين من بعض دول غرب إفريقيا مثل نيجيريا والسنغال والنيجر واعتناق الأنجوليين الإسلام.. وأغلب السكان في أنجولا مسيحيون على المذهب الكاثوليكي ومع أقليات مذهبية مسيحية أخرى و ديانات إفريقية قديمة.

فرنسا تعلن تدخلها عسكريا في أفريقيا الوسطى

أعلنت فرنسا تدخلها عسكريًا في أفريقيا الوسطى بعد تدخلها في مالي، وتستعد باريس لإرسال ألف جندي إلى أفريقيا الوسطى مدعومة بمشروع قرار من الأمم المتحدة يقترح إرسال قوات دولية إلى هذا البلد الذي تسوده الفوضى.

وقال وزير الدفاع الفرنسي جان إيف لودريان إن فرنسا ستنشر ألف جندي في أفريقيا الوسطى لفترة قصيرة تقارب الستة الأشهر لإرساء الأمن دعمًا لقوة أفريقية.

وصرح الوزير الفرنسي لإذاعة أوروبا أن فرنسا سترافق قوة أفريقية بصدد التشكيل تتكون من عناصر عسكرية قادمة من البلدان المجاورة من أجل وقف المجزرة.

وأضاف أن عملية أفريقيا الوسطى لا علاقة لها بمالي مؤكدا أن الدولة تنهار وهناك بوادر مواجهة دينية.

وتحاول فرنسا أن تظهر على أنها تدعم فحسب ولا تكرر في مستعمرتها السابقة - أفريقيا الوسطى - تدخلها المسلح في مالي بداية السنة، الذي كان يهدف إلى دحر مجموعات إسلامية مسلحة.

وفي الأمم المتحدة عرضت باريس على شركائها في مجلس الأمن الدولي مشروع قرار يهدف إلى تعزيز القوات الدولية لدعم أفريقيا الوسطى.

وأعلنت الأمم المتحدة أنه من دون تحرك سريع وحاسم في أفريقيا الوسطى فهناك مخاطر من أن تخرج الأزمة عن أي سيطرة وأن تتفاقم في شكل نزاع ديني وعرقي بين مسيحيين ومسلمين قد يؤدي إلى فظاعات هائلة.

واستند مشروع القرار إلى البند السابع من ميثاق الأمم المتحدة الذي ينص على اللجوء إلى القوة.

وأعلن رئيس الوزراء الانتقالي في أفريقيا الوسطى نيكولا تيانغاي عقب لقائه في باريس مع وزير الخارجية الفرنسي لوران فابيوس أن فرنسا مستعدة لإرسال ٨٠٠ جندي إلى أفريقيا الوسطى لينضموا إلى الـ ٤١٠ المنتشرين هناك.

وتشهد أفريقيا الوسطى أعمال عنف منذ أن أطاح قائد حركة تمرد سيليكا ميشال جوتوديا الذي أصبح رئيسا انتقاليا، بالرئيس فرنسوا بوزيزيه في ٢٤ مارس.

وقبل بضعة أشهر كان المسيحيون الذين يشكلون أغلبية السكان، يتعايشون مع المسلمين في وئام، إلى أن تشكلت مجاميع مسلحة من الطرفين بدأت في شن هجمات ضد بعضها وضد المدنيين.

وتحدث نيكولا تيانغاي عن «انعدام كامل للأمن وجرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية»، واعتبر أن فرنسا لديها الإمكانيات العسكرية والمالية والدبلوماسية كي يكون تحركها فعالاً.

نيجيريا: الشرطة الإسلامية لدعم الأخلاق ومكافحة الجريمة

أعرب المجتمع النيجيري الإسلامي عن سعادته بالدور البارز الذي يقوم به رجال الحسبة، الذين ينظمون دوريات يومية للقضاء على الجريمة ونشر الأخلاق؛ حيث يتعقبون من يشربون الخمر أو يتعاطون المخدرات، وذوي المظاهر غير الأخلاقية.

وجدير بالذكر أن الحملات مؤخرًا أدت إلى اعتقال العديد من ممارسي الأعمال المخالفة، ومداهمة أوكار تعاطي المخدرات والخمور؛ حيث تم تدمير آلاف اللترات من الخمور، وإتلاف مئات الآلاف من السجائر، وتطهير عديد من البؤر في مدينة «كانو» وحدها.

depends on the notion of the unity for the nation of Al-Islam in its beliefs, sharia, culture, and ethics.

Furthermore, it is worth saying that the unity of the Islamic nation and the unity of the Islamic homeland in general does not mean the separation and isolation of the Muslims from the participation in the global life whether throughout the regional organizations with the non-Muslim countries, or throughout the international organizations. But it participates through the alliances with the non-Muslim countries since these participations and alliances achieve interest to the Muslims, or protect them from any harm, or provide them with any benefit in general to the mankind whether Muslims or not. Thus, achieving legal interest to the Muslims and to mankind in general, and protecting them from harm and damage are the only criteria on which Muslims will decide their support and loyalty or their hostility and aggression in their relations with the non-Muslims. These criterias are obviously shown in the verses of the Quran when Allah said: "Perhaps Allah will make friendship between you and those whom you hold as enemies. And Allah has power (over all things), and Allah is Oft-Forgiving, Most Merciful …….Allah does not forbid you to deal justly and kindly with those who fought not against you on account of religion and did not drive you out of your homes. Verily, Allah loves those who deal with equity….. It is only as regards those who fought against you on account of religion, and have driven you out of your homes, and helped to drive you out, that Allah forbids you to befriend them. And whosoever will befriend them, then such are the *Zalimun* (wrong-doers those who disobey Allah)." (Surat Al Mumtahana verses from 7-9)

Then, those who do not fight the Muslims in their religion and never get them out of their homes either by pulling them out, or evicting and displacing them and making them homeless, or by violating their abilities and taking decisions to manage their affairs, we have the choice to have any kind of relations or alliances with them on different levels, since this achieves a true legal interest to Islam and Muslims.

(Adam's sons), and Adam was created from dust", and the prophet (May the blessings and peace of Allah be upon him) also said "Whoever calls for tribalism is not a Muslim like us".

In general, there are differences in the kinds of human beings such as the Arab, the Indian, the Roman, ones from Al-Sham, the Egyptian, the Tunisian, and the Moroccan and this never means the difference in the ways they deal or in the rules by any way.

Concerning the rights of privileges which is known as "capitulations" , it never exists between the Islamic governments at all. This is the rules of the Islamic sharia, in spite of having different doctrines but there is no special nationality in Islam and no privileges in the rights between one Muslim and the other. The Islamic country in which the Muslim lives in is considered his country, and he has to obey its rules and laws rather than the rules of other countries... And Allah knows better.))

Then, the Islamic political thought agrees on the idea that the unity of the nation in the religion and culture produces and requires the unity of the Islamic homeland, even with the variety of the emirates, states, and governments. Moreover, we can say that: the Islamic caliphate, even when it was one, was distinguished in the Islamic homeland, and the states and the territories were under its rule.

When the western colonialism, especially after the fall of the Ottoman caliphate (1924 A.D), imposed total division upon the Islamic world, the Islamic thought began to search for a new form which achieves "unity" to Al- Islam homeland that can protect the unity of the nation without ignoring the truth of division and the variety of countries and governments, and also without skipping the reality that is fixed by imperialism.

One among the most obvious Islamic innovations in this field is the book ((Jurisprudence of Caliphate and its Developments)) by the professor and the scholar Abd Ar-Razeq As-Sanhoury Pasha (1313-1391 A.H / 1895-1971 A.D),when he provides the shape of the desired Islamic caliphate in the form of

"league of Islamic nations" in which governments are varied , but it returns back the unity to Al-Islam homeland.

This is the real Islamic attitude concerning the Islamic relation between the regions and governments of the world of peace, and it is an attitude which is totally related to beliefs and based upon the nation's unity which requires the unity of the whole homeland so as to protect its components. Meanwhile, it saturates the needs and essentials of solidarity that is imposed by the conflicts of forces and interests upon the global arena.

The map of the modern world is moving towards the establishment of blocs and units through regional or cultural or ideological bonds. For example, the European bonds, even when it targets the financial interests, but the liberal ideology and the Christian heritage and the western cultural background are the components and ingredients in forming this unity. Moreover, these factors help to welcome the Eastern Europe peoples who share these components after the collapse of the Marxist ideological bloc which combined by The Komikon organization and war so alliance. It was the same with the regional, Arabic, African, and Asian organization, and also in Latin America and ..and so .

When the fire of Al-Aqsa mosque happened in 28th of August 1969, the Arabic conscience was shocked and then the first summit conference for the Islamic countries was held in September 1969, and the ((Islamic Conference Organization)) was established the following year which represents the league of the Islamic peoples especially if true life really is presented in them.

Then, if most of its governments stop combing Islam with secularism and its rules and stick to Islam and its ethics and culture and sharia and beliefs and then turned to be Islamic countries ,at that time it will be possible to turn the organization of "Islamic conference" to organization of "Islamic countries" .

Through this development, the organization really responded to the necessities and needs of the contemporary time in making blocs based on financial interests, and achieves the Islamic concept concerning the unity of the homeland which

The concept of Islamic Nation…!

By: Dr. Muhammad Imarah

Editor – in – Chief of Al-Azhar Magazine.

Muslims varied into different peoples, species, languages, and nationalities, but this variation never exceeds the difference in the domain of "One Nation", which is united by Islam in its belief, sharia, culture, and criteria of ethics and behavior. The unity of this nation or the Islamic group is a Quranic truth expresses a divine desire when God said " Truly, this, your Ummah [nation shariah or religion (Islamic Monotheism)] is one religion, and I am your lord, therefore worship Me (Alone)." (Surat Al-Anbiaa verse 92). And also said "And verily, this your nation's religion (of Islamic Monotheism) is one religion, and I am your Lord, so fear (keep your duty to) Me." (Surat Al-Mu'minoon verse 52)

This unity which is created by Islam, and characterized by its characteristics prepared the One nation to live into one country. This country was named by the Islamic scientists and historians as "Al-Islam homeland", and this Islamic homeland lived a very long time under the authority of one country, and other times it was different countries. In spite of the variety of countries, the history of Islam and Muslims keeps the unity of the nation in its beliefs, sharia, culture and criteria of ethics and behavior and this was before the time of division which was imposed upon Muslims through the new western imperialistic attack. The Muslim or even any other citizen from the Christians and Jews can transfer with total freedom across territories, emirates, and states, and he can also stay and inhabit wherever he wants and to be dealt with without any new procedures, the same way of dealing with any citizen in the place in which he stayed in, having all the rights and has to do all the duties like them. Thus, "Al-Islam homeland" combines both "unity" in citizenship rights and duties, and also "diversities and varieties" in countries and governments.

As a result of this, the Islamic political thought since the beginning of its history and till our time now agrees upon the opinion which said that Islam is one nationality and one country and one homeland to "One Nation", which will never be torn by the idea of nationalities in the West that every different nationality is characterized by certain privileges.

Al Imam Muhammed Abdo (1266-1323 A.H/1849-1905 A.D), the Egyptian Mufti, was once asked " if the Muslim moved to an Islamic state, will he be considered one of its citizens? Having their rights and duties in general? And will he be under its laws in what he has to do and what he hasn't in both general and specific aspects? And What is the nationality in Islamic states and do the right of privileges which is called "Capitulations" by the Non-Muslims present in our Islamic states and between each others?". The Imam answered:

((The homeland of the Muslim is the country in which he decides to live in and work and settle with his family if he has, without putting into consideration the place in which he was born and grew up. He has also not to pay attention to the habits of people in the first country and their traditions and practices in their dealings, but his country and homeland that he has to follow its rules and traditions is the one that he transferred to and settled in. He is a citizen to the ruler who governs this country and no other ruler, having the rights of these citizens and their duties without any discrimination whether in general or specific aspects.

Concerning the idea of nationality, it is not known to the Muslims, and they do not follow its rules whether in general or specific aspects. But, to the European nations, nationality is similar to what Arabs call "Tribalism" which is: the connection between the people of one tribe or several tribes either by affinity or alliance, and as a result of this connection they have to support whoever is connected to and joined this tribe or participated in it. Moreover, the leaders of this tribe enjoy certain privileges more than others.

Islam, then, stops this tribalism and removes all its effects so that affinity and kinship do not lead to specific rights or rules. That's why, nationality doesn't exist in the Muslim culture at all. Prophet Muhammad (May the blessings and peace of Allah be upon him) said:" God has removed and protected you from the haughtiness of the pre-Islamic times and the pride of people with their ancestors, You are either a pious believer or immoral villain. All people are human beings

approaches, the intellectual analysis tools used in research and inspection, and whether they suit the nature of tradition, which is based on firmly established fundamentals that are directed to the real state of affairs and judge them, or in inharmonious with it from the very step of the research.

Undoubtedly, the tradition and innovation project – rather most of the projects of innovation – are free from these necessary conditions and considered the firmly established fundamentals of our tradition as a developing approach, the first of its unquestionable issues us that there is nothing fixed or sacred.

Consequently, the results are found to be contradicting and inharmonious with each other, the matter that made us wonder about the objectives of these studies. We wonder whether it is really an attempt to innovate the tradition of the Islamic nation, searching for its entity, affirmation of identity, or an attempt to implant the remaining elements of its strength and vitality to emphasize the continuation of its subordination and to strip it of its identity.

Moreover, the tradition and innovation project wasted many of the connotations of the linguistic and historic texts for the sake of a special vision that did not solve the problem, but it aggravated it.

Third: We do not deny that we need innovation, but our main problem is the absence of innovation, but this should be on condition of clarity and separation between the firmly established facts and the changeable matters, and the decisive differentiation between the fundamentals of religion and the tradition of the fundamentals of religion.

Unfortunately, we decide that our people's clinging to the tradition is limited to the acts of worship, but this clinging disappears in the field of operation and social matters. The understanding Muslim heralds need more than what is required for linking the Muslim to his tradition in this field.

Fourth: I do not see that tradition is the first inciter or motive for our actions and the first and last reason for our contemporary crises. Rather, I can say an idea contrary to this claim, which is that we do not depend on the Islamic tradition in

our actions. Where is our Arab nation whose retardation is claimed to results from adhering to tradition? Where is the society, whose rules depend on what is allowed and forbidden according to our tradition?

For example, the attitude of the Islamic societies towards the woman and some of these societies regard her as full of defects and accordingly confiscate many of her rights, which are acknowledged by Islam and humanity clearly. Is this attitude considered as an Islamic traditional saying or a chronic disease inherited from the pre-Islamic era?

Another example:

Some people in our societies consider her from a Western prospective in which the pros and cons mix. Is it regarded as an Islamic traditional view or melting away in another tradition apart from Islam? This view or the other one has nothing to do with Islam, and no fair person can attribute any of them to the Islamic tradition.

We do not deny that there are inflexible opinions and tribal concepts which presented to us rulings free from the spirit and objectives of the text, rather, contradicting to them. However, certainly this approach is not the dominating one in this wronged tradition.

Thus, a great deal of our behaviors do not reflect our Islamic tradition in the same way they reflect chronic effects from tribal societies that preceded the emergence of Islam, from Western environment, or from an imbalanced mixture of these two contradicting sources.

The opinion set forth by the project of tradition and innovation, which is being affected by Al-Kindy, Al-Faraby, and Ibn Sina, is not true. However, the problem is that we live in our age while being divided between the opinions held by Dahis and Al-Ghabraa' from one side and Piccadilly and Champs-Elysees from the other side. The absence of the real tradition is the source of disorder, and its firmly established sayings will remain the missing link for restoring the balance of the Muslims in their present time.

action at a certain time, languor, the condition, and making up for it. Zakah is a participation in money, fasting is a type of feeling of the other, Wajib is an obligatory action, and Haram means an action that causes harm...etc."[5]

Comment:

If we stopped frequently at many texts of tradition and innovation, we will sum up our point of view as follows:

First: This a great change between innovation and changing; the first involved maintaining the origins, adding to it, and clarifying it The second is to demolish what was present and reconstruct it anew under any name except the name of innovating, unless the purpose behind that is to delude the people and to draw away their awareness.

Second: Tradition and innovation reaches in the last analysis the following maze:

First: Regarding Islam a historic granted matter and a cultural event which took place in the past. What we care about in this regard is describing its civilization and not its source. Innovating the tradition does not mean searching for the rise but for the development."

Second: The scientific beginning of change means starting with the real state of affairs and regarding it the first and last source of every idea.

Third: Forbidding change to the bourgeois class and those belonging to it and assigning the whole mission to the people who belong psychologically to the working class in their strife.

We have the right to decide that tradition and innovation in this context is a private and personal view to the greatest extent possible. It does not express the hopes and pains of the people, and it expresses only the hopes of a category very limited in number, to the extent that it is beyond comparison.

In addition, we are entitled to say that innovating the Islamic tradition can not be done except by a well-established scholar in the field of the text and mind, who understands well the complicated nature of tradition and the nature of the

[5] Philosophy in the Arab nation, Hasan Hanafy: 26-27.

reader that the precedence of thought over language is a basic principle in our tradition.

There are many perceptions and theories that we raised concerning the way of linking words to their significances. However, the precedence of the real state of affairs over the thought and linking the thought to language are not found in the Islamic tradition. We do not know in this tradition any opinion or attitude that limits the significances and expressions of the language to the issues and perceptions sensed by the human being. Language is the way of expressing perceivable things or other issues that are completely isolated from our tangible reality.

We will state what Al-Fakhr Al-Razy stated while revealing the reason that the significances of words are the most general significances in a summed up text. He says: "As for being the most general significances, it is not possible that everything has a reference such as the third persons, and everything has a word to describe it. The more the words are easier and more general, they become their synonyms."[4]

Tradition and innovation project calls to surpassing our old language and its expressions and replacing them with the words that are more relevant to the real state of affairs. The expressions of the allowed and prohibited matters, prayer, Zakah, and fasting affect thinkers nowadays or attract their attention. We should desert these expressions and reconstruct them in new words that attract the youth such as freedom, fairness, and equality. It seems that these expressed are invented by the professor or the contemporary thinkers, and it seems that our tradition does not include the contents or significances of these words.

The professor presents a model of the development of the old expressions in his saying: "It is easy to express the old content with a new word "prayer" reveals

and special", "command and prohibition", and "allowed and forbidden" determined the rise of the fundamentals of Fiqh. Also, the words of "possible, obligatory, impossible, Divine Entity, Attributes and actions are derived from language. They express another content and another theoretical structure of the Fundamentals of religion "see tradition and innovation: 128". We do not agree with the professor in his conclusion. The presence of the scientific expressions described as words in the language is not merely the reason that these words give rise to sciences. This is because these words were not found in the language with their idiomatic expressions, but they acquired these significances after being conveyed to sciences. Why did some words become expressions in sciences without the other words?

[4] Al-Muzahar, by Al-Sioutv: 1/38.

Tradition and Innovation:

-8-

(What the writer of tradition and innovation wrote is an ill poetic image, which has nothing to do with the scientific facts)

By: The Grand Imam Prof-Dr.

Ahmad Al-Tayyeb, Al-Azhar Sheikh.

It seems that we face in this text ill poetic imagination, which has nothing to do with scientific facts, and such imagination which is outside the limits of science can not be discussed on the basis of any proof or evidence. However, they remain an expression or a reflection of emotions, illusions, or delusions that are connected with the sayer.

The mistake of speaking about the Divine Entity linguistically in the philosophy of innovation backs to the fact that the word "Allah" has a wide meaning and many indications. He is the Legislator in the fundamentals of Legislation, the Ever-Wise in the fundamentals of religion, the First Existent in philosophy, and the One in Sufism. Then the tradition and innovation project moves a step forward, in which he reveals the desired objective, saying: "Rather, the word "Allah" includes contradictions in its use as a linguistic material for defining meanings or expressions, or as an absolute meaning meant to be expressed by a word that has a definite meaning."[1]

The focus point of embarrassment to which the text aims is indicated from the opposition between the finite and the infinite. As the language consists of a set of words, then they have definite significances and infinite concept. Thus, the word

[1] M.N: 129

"Allah" has finite significance and indicates an infinite concept, which is the concept of Allah.

In other words: The word "Allah" has limited significance, as it is a linguistic word, and its indication is indefinite from all aspects.

The professor has not noticed that his analysis includes response to the same claim, and that he falls in the same things against which he warned, as he uses in his conclusion the indefinite word. The indefinite - with respect to being an indication – is a definite and relative word, and from the meaning indicated by the word is indefinite, then how could the professor make us understand that the definite word indicates an indefinite concept?

The reason for the problem set forth by the professor stems from his adherence to the principle "the precedence of the real state of affairs over thought" then judging the metaphysical expressions using this non-metaphysical principle. Within the framework of this theory, things became the originator of words. Consequently, language becomes the basis of thought, not the contrary[2].

The context here is not suitable for discussing such a principle, which is the reason for every contradiction found in the tradition and innovation project while handling our old tradition. The context also is not suitable for stating the detailed responses proving that this theory is mistaken and adopting the contradicting attitude.

The point is that as the human being thinks and needs conveying his ideas to others, language emerged as an expression of everything he has in his mind. This explains to us the emergence of language, being represented in words and meaning that made a distinction between the human being and the animals. Then, why the human community is that complicated and there is no community of the human beings which is complicated to the same extent[3]. However, we remind the

[2] M.N: 130.

[3] M.N: The project of tradition and innovation adopts this theory, and depends on it in explaining the rise of sciences in the old tradition, as he sees that language plays a great role in the rise and advancement of science and the scientific expressions determine its structure. The words of 'general

When Allah likened them to the preceding nations in their saying which revealed fanaticism and stubbornness, He said:

{Has not the news reached you, of those before you, the people of Nûh (Noah), and 'Ad, and Thamûd? And those after them? None knows them but Allâh. To them came their Messengers with clear proofs, but they put their hands in their mouths (biting them from anger) and said: "Verily, we disbelieve in that with which you have been sent, and we are really in grave doubt as to that to which you invite us (i.e. Islâmic Monotheism)."}

[Ibrahim (Abraham) : 9]

When they stuck to the pretext of imitating their fathers, this led to attributing to their fathers the lack of mind and guidance, the matter that stirred their grudge and hostility towards the Messenger.

They said to Abu Taleb: "Either you prevent him from insulting us or we fight him until either of the parties is ruined, and they left him. It was hard for Abu Taleb to get separated from his people and it was painful for him to disappoint his nephew. He told him (the Messenger): "O my nephew, our people came to me and told me so-and-so, thus leave that matter and do not overburden me."

The Messenger of Allah thought that his uncle disappointed him, thus he said: "O my uncle, if they put the sun at my right hand and the moon at my left hand to leave this matter, I will not leave it until Allah reveals it or I get ruined without it." Then he wept and left away. Abu Taleb said: "Come my nephew." Then, he came to him and Abu Taleb said: "Go and say whatever you want and I will not forsake you."

The Messenger of Allah received severe harm and suffering from the disbelievers, especially when he went to the Ka`bah for prayer. Due to the great harm they caused to him, A group of them was called the mockers. At the top of them was Abu Jahl `Amr ibn Hisham ibn Al-Mughirah Al-Makhzoumy Al-Qurashy.

One day he said: "O Quraysh, don't you see that your gods are insulted, you rreligion is reviled, your minds are belittled, and your fathers are insulted? I took a covenant that I will come with a stone which is too hard for me to bear and will break Muhammad's head with it while he is praying. Thus permit or disallow me in this regard. Then, the people of Abd Manaf may do with me whatever they want."

In the morning, he took the stone as he said and waited for the Messenger of Allah, who came to pray as he used to do, and Quraysh were waiting for what Abu Jahl will do. When the Messenger of Allah prostrated, Abu Jahl held the stone and came close to him, then he retreated and he was terrified and threw the stone out of his hand. Then some of the men of Quraysh came near him and

said: "What is wrong with you Abul Hakam?" He said: "When I was about to do what I told you, I saw a camel I have never seen its like before that was about to eat me.

When this was mentioned to the Messenger of Allah, he said that this was Jibril; and if he came closer, he would take him. Abu Jahl used to prevent the Messenger of Allah from praying in the Holy Mosque, as he once said to him: "Did not I forbid you from this? Then the Messenger (may the blessings and peace of Allah be upon him) spoke to him roughly and threatened him. He (Abu Jahl) said: "Do you threaten me while I have the greatest number of helpers in this area?" Allah sent down on this occasion a threat to him in Surah Al-`Alaq:

{Nay! If he (Abû Jahl) ceases not, We will catch him by the forelock. A lying, sinful forelock! Then let him call upon his council (of helpers). We will call out the guards of Hell (to deal with him)! Nay! (O Muhammad peace be upon him)! Do not obey him (Abû Jahl). Fall prostrate and draw nearer (to Allâh)!}

[Al-`Alaq (The Clot): 15-19]

Among the various times in which he harmed the Messenger of Allah is what `Abdullah ibn Mas`ud narrated on the authority of Al-Bukhary as he said: "We were with the Messenger of Allah at the Mosque while he was praying, and Abu Jahl said: "Is there anyone who may bring a camel's stool to throw it on Muhammad while prostrating.

`Uqbah ibn Me`yait ibn Abu `Amr ibn Umayah ibn `Abd Shams brought this stool and threw it on the Prophet (peace be upon him) while prostrating, and none of the Muslims who were in the mosque was able to throw it away from him as they were unable to resist their enemies. While he was prostrating, Fatima came and throw away the stool from him. When he rose, he supplicated Allah against the one who did this horrible action and said: "O Allah, may the people of Quraysh turn against you," and he mentioned some people, and Ibn Mas`ud said: "I saw them killed in the Battle of Badr."

Every prophet was sent to his people in particular and his message remained for a limited time until another prophet came to renew or cancel it, and two prophets may be sent in the same age. Lut and Ibrahim were sent at one time and in adjacent places. Dawud and Suliman are two prophets and also Zakariya and Yahia and one of them was the father of the other.

Then Allah sent down Muhammad (may the blessings and peace of Allah be upon him) with the eternal and general message which asserted the wisdom of the seal of prophecy, as Allah's religion prevailed.

Muhammad the messenger of Allah (May the blessings and peace of Allah be upon him): "on the anniversary of his noble birth…!"

By: Dr. Ibrahim Al-Assil

The Messenger Muhammad (may the blessings and peace of Allah be upon him) had used to resort to Hira' Cave before the Islamic mission to spend some days and nights. He used to stay in seclusion in this cave in which he was solely preoccupied with contemplation and speculation until Angel Jibril was descended to him with the glad tidings of the Islamic Message. He said to him: "Read" and he (the Messenger) said: "I am not able to read." Jibril repeated this thrice and said:

{Read! In the Name of your Lord Who has created (all that exists). He has created man from a clot (a piece of thick coagulated blood). Read! And your Lord is the Most Generous. Who has taught (the writing) by the pen. 'He has taught man that which he knew not.}

[Al-`Alaq (The Clot): 1-5]

When Jibril informed him that Allah chose him to be His Messenger and Prophet in order to be a bearer of glad tidings and a warner, he did not command him to call the people to Islam in public immediately in order that the idolaters would not gather against him from the very beginning and start to get rid of him and of Allah's Message. He started with calling the closest people to him to Islam, as his wife Khadija (may Allah be pleased with her) embraced Islam as well as his friend Abu Bakr (may Allah be pleased with him) and his cousin `Ali ibn Abu Taleb (may Allah be pleased with him).

Also, some people who were informed with the Islamic message embraced Islam when the Da`wah was in secret. The Da`wah remained in secret for three years until a considerable number of people embraced Islam. The Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) used to meet them in the house of Al-Arqam ibn Al-Arqam to inform them with Qur'an revealed by Allah to him as well as Allah's Commands and the way of worshipping Allah Alone and discarding any other deity.

When the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) publicized the Da`wah, the men of Quraysh mocked at him and made fun

of him in their gatherings. When he passed by them, they used to say: "This ibn Abu Kabshah is spoken to from heaven" and "The grandson of `Abdul Mutalib is spoken to from heaven" with saying anything more. When he criticized them for their idols and deities and depreciated their mind: "By Allah, O people, you opposed the religion of your father Ibrahim", they felt jealous for their deities which they worshipped and went to his uncle Abu Taleb, the master of Banu Hashem, who took upon himself protecting him from the enemies.

They asked him to let Muahmmad stop saying what he used to say to them. The Messenger of Allah proceeded with his Da`wah with nothing preventing him, the matter that caused Quraysh to be hostile to him. They urged each other in this regard.

They went to Abu Taleb once more and said: "You attain a high status for us due to your age, honor, and status; and we asked you to prevent Muhammad from what he does but he has not responded to that. We do not tolerate insulting our fathers, belittling our minds, and reviling our gods." When they claimed that they will not follow the truth due to imitating their fathers, the Messenger used to blame them for not using their minds in the purpose for which they were created.

Allah (Glorified be He) said:

{When it is said to them: "Follow what Allâh has sent down," they say: "Nay! We shall follow what we found our fathers following." (Would they do that!) even though their fathers did not understand anything nor were they guided?)}

[Al-Baqarah (The Cow): 170]

Allah (Glory be to Him) said:

{And when it is said to them: "Come to what Allâh has revealed to the Messenger (Muhammad may the blessings and peace of Allah be upon him for the verdict of that which you have made unlawful)." They say: "Enough for us is that which we found our fathers following," even though their fathers had neither knowledge whatsoever nor guidance.}

[Al-Ma'idah (The Table): 104]

Allah also said:

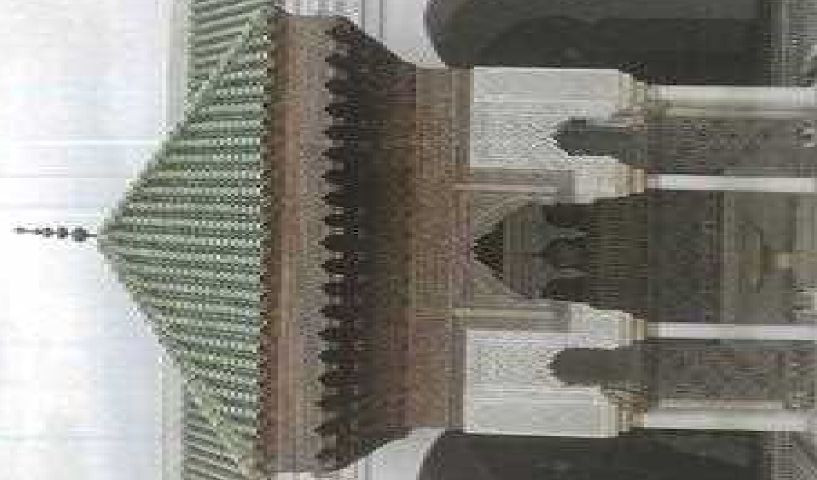
{And when it is said to them: "Follow that which Allâh has sent down", they say: "Nay, we shall follow that which we found our fathers (following)." (Would they do so) even if Shaitân (Satan) invites them to the torment of the Fire.}

[Luqman: 21]

Allah said concerning showing their invalid arguments:

{Nay! They say: "We found our fathers following a certain way and religion, and we guide ourselves by their footsteps."}

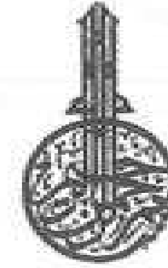
[Al-Zukhruf (Ornaments of Gold): 22]



جامع القرويين بمدينة فاس بالمملكة المغربية
رائعة من روائع العمارة الإسلامية

AL-AZHAR MAGAZINE

Rabiul-Awwal, 1435 A.H



ENGLISH SECTION

January, 2014

In the name of Allah the Beneficent the Merciful

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾

الأعراف/ ٤٣

"Praise be to Allah, Who guided us to this; and in no way could we have been guided, unless Allah has guided us."
(Al-A'raf 43)

Editor: Dr. IBRAHIM Al-ASSIL
Professor at the Faculty of Languages and Translation.
Al-Azhar University.

الأزهر

ربيع الآخر

الافتتاحية

الهوية الثقافية الإسلامية

بين الأصالة والمعاصرة والتحديات

أ.د. محمد عمارة

الوســــطية

أ. رانيا رجب شعبان

القرآن والعلم

العلامة د. علي عزت بيجوفيتش

مجلة الأزهر بين الرسالة والواقع

د. أحمد محمد حنطور

الهدية

الفتوحات العربية في ميزان الإسلام والتاريخ

لواء أركان حرب (متقاعد) د. محمد بهاء الدين حنفي

تقديم أ.د. محمد عمارة

السعر جنيهان

www.AlazharMag.com

www.AlazharMag.com

الأزهر

الافتتاحية

الهوية الثقافية الإسلامية




الإمام محمد عبده


الشيخ محمود شلتوت


المستشار طارق البشرى

الفتوحات العربية في ميزان الإسلام والتاريخ

لواء أ. ح. د. محمد بهاء الدين حنفي

نظرات في فكر الإمام الأشعري — الإمام الأكبر أ.د. أحمد الطيب

شمائل النبيّ صلى الله عليه وسلم — أ. د. خالد فهمي

الفنون الجميلة ومقاصد الشريعة — أ. د. إبراهيم البيومي غانم

الهدية

ربيع الآخر

مجلة شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية ربيع الآخر ١٤٣٥هـ - فبراير ٢٠١٤م الجزء "٤" السنة "٨٧"

داخل العدد





﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾



الأزهر

مجلة شهرية جامعة يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
بالأزهر الشريف فى مطلع كل شهر عربى
صدر العدد الأول فى المحرم عام ١٣٤٩هـ / ١٩٣١م
وحمل اسم «نور الإسلام»
ورأس تحريرها فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين



رئيس التحرير
أ. د. محمد عمارة

مدير عام المجلة
عادل رفاعي خفاجة

مدير التحرير
أحمد السيد تقي الدين

سكرتير التحرير
محمود القشتي

الإخراج الفني: أحمد القطب

الاشتراك السنوي

داخل مصر ٢٤ جنيهاً مصرياً - الدول العربية ٥٠ دولاراً أمريكياً
أوربا وأمريكا ٨٥ دولاراً أمريكياً - اليابان وشرق آسيا ١٢٠ دولاراً أمريكياً
عن طريق قسم الاشتراكات بمؤسسة الأهرام
شارع الجلاء - القاهرة
ت: ٢٥٧٨٦١٠٠ - ٢٨٧٥٦٢٠٠

المراسلات باسم:

مدير التحرير - مجمع البحوث الإسلامية - مدينة نصر
ت: ٢٢٦٣٨٥٩٩

editor@alazharmag.com
readers@alazharmag.com

• الافتتاحية •

الهوية الثقافية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة والتحديات

لفضيلة الأستاذ الدكتور محمد عمارة

١. تحرير مضامين المصطلحات:

فى بداية الحديث عن قضية «الهوية الثقافية الإسلامية»، وأبعادها المختلفة، وعلاقتها بكل من «الأصالة» و«المعاصرة»، و«الثوابت»، و«المتغيرات».. لابد من تحديد المعنى العلمى للمصطلحات.

• «فالهوية» فى اصطلاح حضارتنا العربية الإسلامية مأخوذة من «هُوَ.. هُوَ»، بمعنى: جوهر الشئ.. وحقيقته.. وبتعبير «الشريف الجرجانى» (٧٤٠ - ٨١٦هـ، ١٣٤٠ - ١٤١٣م) فهى: «الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة».. وعند «أبو البقاء الكفوى» (١٠٩٤هـ ١٦٨٣م) هى: «ما يتميز به الشىء عن الأغيار» (١).. فهوية الإنسان، أو الثقافة، أو الحضارة.. هى: «جوهرها وحقيقتها، وثوابتها السارية فيها، والمصاحبة لها.

ولما كان فى كل شىء من الأشياء - إنسانًا أو ثقافة أو حضارة - «الثوابت» و«المتغيرات»، فإن هوية الشىء هى «ثوابته» التى «تتجدد» ولا «تتغير».. تتجلى وتفصح عن ذاتها، دون أن تخلى مكانها لنقيضها، طالما بقيت الذات على قيد الحياة.. إنها كالبصمة بالنسبة للإنسان، تتجدد فاعليتها، ويتجلى وجهها كلما أزيلت من فوقها طوارئ الغبار وعوامل الطمس والحجب، دون أن تخلى مكانها ومكانتها لغيرها من البصمات.

• و«الثقافة» هى كل ما يسهم فى عمران النفس وتهذيبها.. فالتثقيف: من معانيه التهذيب.. وإذا كانت «المدنية» هى تهذيب الواقع بالأشياء، فإن «الثقافة» هى تهذيب النفس الإنسانية بالأفكار.. فكلاهما عمران.. عمران للواقع.. وعمران للنفس.. فهما شقا «الحضارة» التى هى «العمران».

وتعلق «الثقافة» واختصاصها بعمران النفس الإنسانية وتهذيبها، هو الذى يعطى لثقافات الحضارات المتميزة تمايزًا.. منبعه ومنطلقه ودواعيه: تميز النفس الإنسانية، فى كل حضارة

(١) الجرجانى (التعريفات) طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨م. وأبو البقاء الكفوى (الكليات). تحقيق د. عدنان درويش، محمد المصرى - طبعة دمشق سنة ١٩٨٢م.



من الحضارات، بتميز المكونات والمواريث والعقائد والفلسفات التى تمايز بين «البصمات الثقافية» فى أمم هذه الحضارات.

• و«الأصالة»: فى عرف العربية من «الأصل».. وأصل كل شىء نسبه الذى إليه يرجع وله ينتسب، وجوهره وحقيقته وثوابته الباقية، والمستعصية على الفناء والزوال.. فالأصالة، فى ثقافة ما، هى جذورها الأصلية، وثوابتها المستمرة، أى هويتها الممثلة «للبصمة» التى تميزها عن غيرها من ثقافات أمم الحضارات الأخرى.

• أما «المعاصرة»: فإنها المفاعلة، أى التفاعل بين الإنسان.. أو الثقافة أو الحضارة وبين العصر - أى الزمن - المعيش.. فإن تمايزت الأمم فى ثقافاتها، لتمايز هويات هذه الثقافات، فإنها ولابد متمايزة فى تفاعلها مع العصر الذى تعيش فيه.. فللأمم المتمايزة فى الهويات الثقافية «معاصرات» متميزة.. وليست هناك فى العصر الواحد معاصرة واحدة لكل الأمم والثقافات والحضارات كما يزعم الذين يحسبون أن المعاصرة هى استعارة الثقافة السائدة والمهيمنة فى عصر ما!

إنها أشبه ما تكون بتفاعل الإنسان وتلاؤمه مع اللحظة الراهنة من عمره، تفاعلا يضيف به الجديد، ويتجاوز به غير الملائم من مواريثه، وفق المعايير التى هى ثوابته، وأصالته، وهويته.. إنها: الهوية المتميزة، والأصالة المتميزة، تتجلى فى طور جديد.. كالإنسان الذى ينمو ويتطور دون أن يفقد هويته أو يتنازل عن أصالته أو يمحو «البصمة» التى تميزه عن غيره من الناس.

إذن.. فكل ثقافة أصالة متميزة، هى هويتها، وجوهرها، وحقيقتها، وثوابتها.. ولكل أصالة ثقافية متميزة معاصرتها المتميزة كذلك.

هذا عن المصطلحات، ومضامينها.. وما يمثله ضبط هذه المضامين من إسهام فى وضوح الرؤية الذى تطمح إليه.. وضوح الرؤية لموضوع «الهوية الثقافية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة».

٢. إسلامية الهوية الثقافية:

فإذا ما انتقلنا إلى صلب الموضوع، وتساءلنا عن هوية ثقافة أمتنا، التى هى جوهر هذه الثقافة، وحقيقتها، والأصالة المميزة لها، فإننا نستطيع أن نقول إنها «الإسلام.. والعروبة».

فمنذ أن تدينت أغلبية هذه الأمة بالإسلام، أصبح هذا الإسلام هو الهوية الممثلة لثقافة هذه الأمة.. فهو الذى طبع ويطبع وصبغ ويصبغ ثقافتها بطابعه وصبغته.. فعاداتها وتقاليدها، وآدابها وفنونها، وسائر علومها الإنسانية - فى السياسة والاقتصاد والاجتماع - وفلسفة علومها الطبيعية والتجريبية.. ونظرتها للكون.. وللذات.. وللآخر وتصوراتها لمكانة الإنسان فى هذا الكون.. من أين أتى؟.. وإلى أين ينتهى؟.. وحكمة هذا الوجود وغايته؟.. كل ذلك وما ماثله قد انطبع بطابع الإسلام، واصطبغ بصبغته.. حتى لنستطيع أن نقول، ونحن مطمئنون كل الاطمئنان.. إن ثقافتنا إسلامية، وأن معيار الدخول والخروج فى ميدان ثقافتنا، والقبول والرفض فيها، هو المعيار الإسلامى.

- ولأن الإسلام هو خاتم الرسالات التوحيدية؛ ولأنه انتشر فى بلاد كانت تتدين شعوبها بديانات سماوية سابقة، فإنه لم يقم قطيعة معرفية مع هذه الديانات، وإنما جاء مصدقًا لثوابتها النقية، ومضيفًا إليها.. مصدقًا ومهيمنًا، لا بمعنى قاهرًا.. وإلا لم يكن مصدقًا وإنما بمعنى مستوعبًا ومصححًا ومضيفًا.. ولقد تجلت هذه الحقيقة، التى جعلت الهوية الإسلامية مستوعبة للهويات الدينية التى سبقت ظهوره.. تجلت فى عقيدة «وحدة الدين» من بدئه إلى ختامه، مع تعدد الشرائع عبر التاريخ فى إطار وحدة الدين.. على النحو الذى يجعل الإيمان الدينى أشبه ما يكون «بالسلم» الذى تمثل كل شريعة من شرائعه درجة من الدرجات، فالأمم تصعد درجات هذا السلم حتى ختام درجاته، مضيفة الجديد، دونما قطيعة معرفية مع الثوابت والأصول.

ولقد عبر عن وضوح الرؤية الإسلامية لهذه الحقيقة - حقيقة استيعاب الإسلام لمواريث النبوات السابقة، واشتماله على ثوابتها وأصولها، ذلك الحوار الذى دار بين الصحابى «حاطب ابن أبى بلتعة» (٣٥ ق. هـ - ٣٠هـ ٥٨٦ - ٦٥٠م) وبين «المقوقس» - عظيم القبط - عندما حمل حاطب إليه رسالة رسول الله ﷺ سنة ٧هـ سنة ٦٢٨م.. ففى هذا الحوار قال حاطب للمقوقس: «إن لك دينا - أى النصرانية - لن تدعه إلا لما هو خير منه، وهو الإسلام الكافى به الله فقد ما سواه.. وما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد.. وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل.. ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكنا نأمرك به»(٢).

فالإسلام - إلى جانب تقريره حرية الاعتقاد - هو الوارث والمستوعب لثوابت كل الرسالات السابقة، على النحو الذى جعله «الكافى به فقد ما سواه»!.. وليس الذى يقيم قطيعة معرفية مع ما سواه.

(٢) ابن عبدالحكم «فتوح مصر وأخبارها» ص٤٦ - طبعة ليدن سنة ١٩٢٠م - و«مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة» ص٧٢ - ٧٣. تحقيق: د. محمد حميد الله - طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م.

- وكما استوعب الإسلام المواريث الثقافية والحضارية السابقة على ظهوره - بل وإحيائه لها وإنقاذها من الموات! فلقد فتح الأبواب لأهل الديانات السابقة كى يسهموا فى بناء ثقافته وحضارته التى غدت ثقافتهم وحضارتهم.. وتفاعل مع ما لديهم من ثقافات فرعية، وترك بصماته عليها.. فاندمجت مواريثهم فى الثقافة الإسلامية الجامعة.. وتأثرت ثقافاتهم الفرعية بثقافة الإسلام.. وكما يقول المستشرق الألمانى «شاخت» (١٩٠٢ - ١٩٦٩م): «فإن التشريع الإسلامى قد أثر تأثيرًا عميقًا فى جميع فروع القانون عند أهل الديانات الأخرى، من اليهود والنصارى الذين شملهم تسامح الإسلام وعاشوا فى الدولة الإسلامية.. فموسى بن ميمون (٦٠١هـ ١٢٠٤م) قد تأثر ببعض ملامح المؤلفات الإسلامية فى تنظيمه للمادة القانونية فى مدونته «مشنة توراة» وهو عمل لم يسبقه إليه أحد من اليهود.. وبالنسبة للجانب المسيحى، فليس هناك شك فى أن اليعاقبة والمونوفيزية (أصحاب الطبيعة الواحدة) والنسطوريين لم يترددوا فى الاقتباس بحرية من قواعد التشريع الإسلامى»(٣).

هكذا نضج المزيج الثقافى الإسلامى الجديد، مستوعبًا مواريث الثقافات والحضارات والديانات السابقة، ومشركًا الطوائف والأقوام الشرقيين فى بناء هذا المزيج الثقافى الجديد، ومؤثرًا فى الثقافات الفرعية التى فتح أمامها أبواب الازدهار.

- وكما أن فى الإسلام عقائد وعبادات، هى خاصة بالأغلبية التى آمنت به ودخلت فيه، فإن فيه - أيضًا - شرائع وفقه معاملات قوانين غدت سمات جامعة وقسمات شاملة لكل الذين عاشوا فى ديار الإسلام، على اختلاف عقائدهم ولغاتهم ولهجاتهم.. وكذلك الحال مع منظومة القيم والأخلاق، التى جاء الإسلام متممًا لها.. وليس ناسخًا لما سبقته بها الرسالات السماوية السابقة.. أصبحت هذه المنظومة من القيم والأخلاق جزءًا من الهوية الثقافية الإسلامية الجامعة لكل الذين استظلوا براية الإسلام.

هكذا أصبحت هوية الأمة إسلامية.. وغدت «الإسلامية» ثابتًا وجامعًا فى هذه الهوية الحضارية.

٣. عروبة الهوية الثقافية:

- أما قسمة العروبة، فإنها معيار لغوى وثقافى، وليست عرقًا ولا دمًا.. ولقد حدد هذا المعيار - المتسق مع عالمية الإسلام - حديث رسول الله ﷺ الذى قال فيه: «ليست العربية بأحدكم من أب أو أم، وإنما هى اللسان، فمن تكلم العربية فهو عربى»(٤).

فحيثما امتدت العربية وثقافتها، غدت هوية للذين اتخذوها لغة لهم، ومنحوها ولاءهم وانتماءهم.. بصرف النظر عن أصولهم الجنسية والقومية.

- ولأن العربية هى لغة القرآن الكريم - النص المؤسس والمركزى الذى انداحت من حوله

(٣) شاخت «الشريعة الإسلامية» - كتاب «تراث الإسلام» القسم الثالث - ص٢٢ - ٢٩ - طبعة عالم المعرفة - الكويت ١٩٧٨م.
(٤) رواه ابن كثير عن معاذ بن جبل.

دوائر الثقافة والمدنية والحضارة ــ فلقد غدت هى الأخرى مكونًا رئيسيًا فى الهوية الثقافية ــ والحضارية لكل الذين استظلوا براية الحضارة الإسلامية.. ولقد كان موقفها من اللغات واللهجات القومية فى البلاد التى انتشر فيها الإسلام مماثلا لموقف الإسلام من الموازيث الدينية التى سبقت ظهوره.. فهى لم تقهر اللغات واللهجات التى استمسك بها أقوامها، وإنما تبوأت موقع اللغة الأم، والرباط الجامع، مع بقاء اللغات واللهجات القومية الأخرى ـ مثل الفارسية والكردية ـ والأردية والتركية والأمازيغية ـ لغات أو لهجات فرعية خاصة بأقوامها.. فالإسلام هو المكون الأول لهوية الأمة، مع بقاء العقائد السماوية الأخرى دوائر عقدية فى المحيط الإسلامى الجامع.. والعربية هى المكون الثانى للهوية ـ الثقافية ـ والحضارية، مع بقاء اللغات واللهجات القومية الأخرى دوائر فى الثقافات الفرعية لأقوامها.. وهكذا أصبحت الهوية الإسلامية العربية أشبه ما تكون بـ «المحيط» الذى يحتضن «جزرًا» من العقائد واللغات واللهجات، دونما تناقض بين الهوية الأم والأساسية؛ وبين الثقافات الفرعية ولغاتها ولهجاتها.. فالتعددية ـ حتى فى العقائد ـ سنة من سنن الله فى الاجتماع الدينى والاختلاف فى الألسنة ــ اللغات ـ آية من آيات الله!.. إنها الوحدة فى الهوية الثقافية الإسلامية التى صاغها الإسلام، والتنوع فى الثقافات الفرعية التى استظلت بشريعة الإسلام ولغة القرآن الكريم.

٤. شهادات مؤيدة وداعمة:

• وإذا كانت تيارات الأصالة الفكرية فى واقعنا المعاصر إنما تتمثل ـ أساسًا ـ بل وتكاد تنحصر فى:

أ ـ تيار إسلامى.. تنتمى إلى فصائله المتعددة أغلبية الأمة.

ب ــ وتيار قومى، هو فى أغلب فصائله امتداد لأصالة الأمة اللغوية والتاريخية.. وإذا كان الإيمان بأن الإسلام هو ثقافة أمتنا وأصالتها ومعيار تميز هويتها.. ومن ثم معاصرتها.. عن أمثالهما فى ثقافات أمم الحضارات الأخرى.. إذا كان ذلك مسلمة من المسلمات الفكرية لدى المسلمين والإسلاميين من أبناء أمتنا.. فإنه، أيضًا، من المسلمات التى يدعو إليها العديد من الرموز فى الدوائر غير المسلمة وغير الإسلامية فى واقعنا الوطنى والعربى والإسلامى المعاصر.. وعلى سبيل المثال:

• فمكرم عبيد باشا (١٨٨٩ ــ ١٩٦١م) يعلن عن عروبة مصر والمصريين فى اللغة والثقافة.. وعن إسلامية حضارتهم ـ بمن فيهم النصارى الأقباط ـ أى عن أن هوية الأمة ـ بدياناتها المختلفة ـ هى العروبة والإسلام.. يعلن عن ذلك، فيقول: «المصريون عرب.. وتاريخ العرب سلسلة متصلة الحلقات، لا بل هو شبكة محكمة العقد.. ورابطة اللغة، والثقافة العربية، والتسامح الدينى، هى الوشائج التى لم تفصمها الحدود الجغرافية، ولم تنل منها الأطماع السياسية منالا، على الرغم من وسائلها التى تتذرع بها إلى قطع العلاقات بين الأقطار العربية واضطهاد العاملين لتحقيق الوحدة العربية التى لا ريب فى أنها أعظم الأركان التى يجب أن تقوم عليها النهضة الحديثة فى الشرق العربى.. وأبناء العروبة فى حاجة إلى أن يؤمنوا


مكرم عبيد باشا

بعروبتهم وبما فيها من عناصر قوية استطاعت أن تبنى حضارة زاهرة.

نحن عرب، ويجب أن تذكر فى هذا العصر دائمًا أننا عرب، وحدت بيننا الآلام والآمال، ووثقت روابطنا الكوارث والأشجان، وصهرتنا المظالم وخطوب الزمان.. نحن عرب من هذه الناحية، ومن ناحية تاريخ الحضارة العربية فى مصر، وامتداد أصلنا السامى القديم إلى الأصل السامى الذى هاجر إلى بلادنا من الجزيرة العربية.. فالوحدة العربية حقيقة قائمة موجودة لكنها فى حاجة إلى تنظيم، فتصير كتلة واحدة وتصير أوطاننا جامعة وطنية واحدة» (٥).

هكذا تحدث مكرم عبيد باشا عن عروبة الهوية الحضارية للأمة.. وتحدث ـ أيضًا ـ عن إسلامية هذه الهوية الحضارية.. بالنسبة لأقباط مصر، فقال: «نحن مسلمون وطنًا، ونصارى دينًا.. اللهم اجعلنا نحن المسلمين لك، وللوطن أنصارًا.. واللهم اجعلنا نحن نصارى لك، وللوطن مسلمين» (٦).

• ومن رجال الكهنوت الأرثوذكسى، تحدث الأنبا موسى ـ أسقف الشباب بالكنيسة الأرثوذكسية، وعضو المجمع المقدس ـ عن عروبة الهوية الثقافية والحضارية وإسلاميتها، فقال: «من جهة الهوية العربية: نحن مصريون عرقا، لكن الثقافة الإسلامية هى السائدة الآن.. كانت الثقافة القبطية هى السائدة قبل دخول الإسلام.. وأى قبطى يحمل فى الكثير من حديثه تعبيرات إسلامية، يتحدث بها ببساطة ودون شعور بأنها دخيلة، بل هى جزء من مكوناته.. نحن نحيا العربية لأنها هويتنا الثقافية، ومقتنعون بالطبع بأن فكرة العروبة فكرة سياسية واقتصادية وثقافية، بالإضافة لوحدة المصير المشترك.. والعلاقة بين الجذور والعروبة علاقة تناصرية.. هذه دوائر متداخلة.. ومصر دائماً دولة مسلمة ومتدينة، ولكن بدون تطرف، ولو عشنا، كمسلمين وأقباط، وفى إطار الصحوة الدينية المصحوبة بصحوة وطنية فسيكون المستقبل أكثر من مشرق» (٧).

• ومن رجال الكهنوت الكاثوليك، تحدث الأنبا يوحنا قلته نائب البطرك الكاثوليكى، فقال: «أوافق تمامًا على أن أكون مصريًا.. مسيحيًا، تحت حضارة إسلامية.. أنا مسلم ثقافة مائة فى المائة.. أنا عضو فى الحضارة الإسلامية كما تعلمتها فى الجامعة المصرية.. تعلمت أن النبى ﷺ سمح لمسيحيى اليمن أن يصلوا صلاة الفصح فى مسجد المدينة.. فإذا كانت الحضارة الإسلامية بهذه الصورة.. التى تجعل الدولة الإسلامية تحارب لتحرير الأسير المسيحى.. والتى تعلى من قيمة الإنسان كخليفة عن الله فى الأرض.. فكلنا مسلمون حضارة وثقافة.. وإنه ليشرفنى، وأفخر أننى مسيحى عربى، أعيش فى حضارة إسلامية.. وفى بلد إسلامى، وأساهم

---

(٥) مكرم عبيد ـ مجلة «الهلال» ـ عدد إبريل سنة ١٩٣٩م.

(٦) صحيفة «الوفد» عدد ٢١ ـ ١ ـ ١٩٩٣م.

(٧) الأنبا موسى ـ فى: د. سعد الدين إبراهيم «الملل والنحل والأعراق» ص٥٢٩ ـ ٥٣١ ـ طبعة القاهرة سنة ١٩٩٠م.

وابنى، مع جميع المواطنين، هذه الحضارة الرائعة»(٨).


أنور عبدالملك

● ومن المفكرين المسيحيين، تحدث الدكتور غالى شكرى (١٩٣٥-١٩٩٨م) فقال: «إن الحضارة الإسلامية هي الانتماء الأساسى لأقباط مصر.. وعلى الشباب القبطى أن يدرك جيدًا أن هذه الحضارة العربية الإسلامية هى حضارته الأساسية.. إنها الانتماء الأساسي لكافة المواطنين.. صحيح أن لدينا حضارات عديدة من الفرعونية إلى اليوم، ولكن الحضارة العربية الإسلامية قد ورثت كل ما سبقها من حضارات، وأصبحت هى الانتماء الأساسى، والذى بدونه يصبح المواطن فى ضياع.. إننا ننتمى كعرب من مصر :إلى الإسلام الحضارى والثقافى، وبدون هذا الانتماء نصبح فى ضياع مطلق.. وهذا الانتماء لا يتعارض مطلقا مع العقيدة الدينية.. بالعكس.. لماذا؟ لأن الإسلام وحد العرب، وكان عاملا توحيديًا للشعوب والقبائل والمذاهب والعقائد»(٩).

● ونفس الموقف، يعلنه الدكتور أنور عبدالملك (١٩٢٢-٢٠١٢م) الذى كتب يقول: «إن أى إنسان عاقل يدرك أن مصر هى أقدم أمة وحضارة فى التاريخ قاطبة.. ومنذ الفتح العربى الإسلامى دخلنا بالتدريج فى إطار دائرة أسميناها - منذ خمسين عامًا - الدائرة العربية، ولكنها فى الواقع هى دائرة الحضارة الإسلامية، التى تتمركز حول مبدأ واحد هو «التوحيد» الذى يتفق بشكل مطلق مع خصوصية مصر.. فالحياة العامة فى مصر بها قبول بالسليقة للتوحيد، ناتج من وحدة الأمة المصرية منذ ما يزيد على ثلاثة آلاف سنة، وبالتالى فالإطار الحضارى للإسلام يشمل المرحلة القبطية «أى المسيحية المصرية» كما أن لغتنا هى العربية، لغة القرآن»(١٠).

● وعن وحدة المرجعية والهوية الإسلامية لكل الأمة، تحدث المفكر الحضارى د. رءوف نظمى «محجوب عمر» (١٩٣٢-٢٠١٢م) فقال: «الأمة مرجعيتها واحدة، وهى الإسلام، بما له من تراث وعقائد وأصول.. والأساس هو أن يكون للأمة مرجعية واحدة، فإذا كانت الأمة إسلامية فمرجعيتها الإسلام، وإذا كانت كونفوشيوسية، فمرجعيتها الكونفوشيوسية.. إن أغلبية الأمة مسلمون، والمطلوب هو توجيه الجهود للعمل مع الأغلبية التى لاتزال على مرجعيتها التاريخية، على تراثها الحضارى، وعلى عقيدتها.. نحن لدينا دستور يقول: إن دين الدولة هو الإسلام، وكافة مواد القانون تكون فى حدود الشريعة، والمطلوب فقط ترويج هذا الفهم لإطلاق طاقات الإبداع فى المشروع الحضارى.. إذا كانت المرجعية الإسلامية هى مرجعية الجميع، تنتهى المشكلة.. فالمطلوب أن يكون مشروعنا حضاريًا، من حضارتنا، وحضارتنا إسلامية، فالمطلوب أن يكون الإسلام هو المرجعية العامة للجميع»(١١).

(٨) الأنبا يوحنا قلته - من حوار دار عقب محاضرة لى - فى جمهور من النخبة المسيحية - الممثلة لمختلف الطوائف. دعت إليه «اللجنة المصرية للعدالة والسلام» بفندق الحرية - بمصر الجديدة - بتاريخ ٩ نوفمبر سنة ١٩٩١م.
(٩) صحيفة «الوفد» عدد ٢١ - ١ - ١٩٩٣م.
(١٠) د. أنور عبدالملك - صحيفة «أخبار الأدب» عدد ٣٠ - ٤ - ٢٠٠٠م.
(١١) د. محجوب عمر - رؤوف نظمى - مجلة «منبر الحوار» عدد خريف سنة ١٩٨٩م ص٤١، ٤٢ - بيروت.

● وعلى ذات الدرب سار الكاتب المسيحى صادق عزيز.. الذى كتب يقول: «إن مصر دولة إسلامية منذ دخلها الإسلام، ويومها كان المسلمون هم الأقلية، وكان الأقباط هم الأغلبية، ومع ذلك كانت إسلامية.. بل إن مصر فى تاريخها لم تكن دولة «قبطية» حتى من قبل الإسلام، فهى تقع دائمًا تحت الحكم الرومانى أو البيزنطى أو المقدونى، أما الحكم القبطى فلم نسمع عنه أبدًا.. وفيما عدا الأحوال الشخصية فإن أحكام الشريعة الإسلامية لا تتعارض إطلاقًا مع المسيحية، وذلك لعدة أسباب أهمها:

١ - إنه إذا كانت الدولة إسلامية، فالقوانين الوضعية يجب أن تكون إسلامية، وعلينا قبول ذلك، بل والترحيب به عملا بقول المسيح: «أعطوا مالقيصر لقيصر ومالله لله».

٢ - إن أحكام الشريعة الإسلامية تنطبق فى كثير جدًا من الأحوال مع شريعة العهد القديم، وهى ما جاء المسيح لا لينقضها.. بل ليكملها.

٣ - إن المسيحية لم تأت بأحكام وقوانين وضعية، عملا بقوله «المسيح»: «مملكتى ليست فى هذا العالم»، ومن ثم ترك للحكام أو لقيصر وضع الأحكام الأرضية، وأمرنا بأن نعطى ما للحكام للحكام»(١٢).

● وعلى النطاق العربى، قال فيلسوف البعث العربى ميشيل عفلق (١٩١٠-١٩٨٩م) وهو المسيحى الذى غدا أبرز المفكرين القوميين العرب: «لا يوجد عربى غير مسلم.. فالإسلام هو تاريخنا، وهو بطولاتنا، وهو لغتنا، وفلسفتنا، ونظرتنا إلى الكون.. إنه الثقافة القومية الموحدة للعرب على اختلاف أديانهم ومذاهبهم.. وبهذا المعنى لا يوجد عربى غير مسلم، إذا كان هذا العربى صادق العروبة، وإذا كان متجردًا من الأهواء ومتجردًا من المصالح الذاتية.. وإن المسيحيين العرب عندما تستيقظ فيهم قوميتهم سوف يعرفون بأن الإسلام هو ثقافة قومية يجب أن يتشبعوا بها ويحبوها ويحرصوا عليها حرصهم على أثمن شىء فى عروبتهم.. ولئن كان عجبى شديدًا للمسلم الذى لا يحب العرب، فعجبى أشد للعربى الذى لا يحب الإسلام»(١٣).

● وجدير بالذكر أن «المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية» سنة ١٩٨٥م استطلاعًا للرأى العام حول تطبيق الشريعة الإسلامية - بما فيها الحدود - وانحاز فى هذا الاستطلاع ٦٣٪ من المسيحيين المصريين لتطبيق هذه الشريعة بالمنظومة القانونية المصرية(١٤).. وأيد ذلك البابا شنودة الثالث (١٩٢٣-٢٠١٢م) وقال: «إن الأقباط فى ظل حكم الشريعة الإسلامية، يكونون أسعد حالا وأكثر أمنًا.. ولقد كانوا كذلك فى الماضى حينما كان حكم الشريعة هو السائد.. نحن نتوق إلى أن نعيش فى ظل «لهم ما لنا وعليهم ما علينا».. إن مصر

(١٢) جمال بدوى «الفتنة الطائفية: جذورها وأسبابها - دراسة تاريخية ورؤية تحليلية» ص١٣٢ - ١٤١ - طبعة القاهرة سنة ١٩٩٢م.
(١٣) ميشيل عفلق «الكتابات السياسية الكاملة» جـ٣ ص٣٣، ٢٦٩ وجـ٥ ص٦٨ - طبعة بغداد سنة ١٩٨٧، سنة ١٩٨٨م. وانظر كتابنا «التيار القومى الإسلامى» طبعة دار الشروق - القاهرة سنة ١٤١٧هـ سنة ١٩٩٧م.
(١٤) انظر: «استطلاع الرأى العام فى مصر حول تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية على جرائم الحدود» طبعة القاهرة سنة ١٩٨٥م.

تجلب القوانين من الخارج حتى الآن، وتطبقها علينا.. ونحن ليس عندنا ما فى الإسلام من قوانين مفصلة، فكيف نرضى بالقوانين المجلوبة، ولا نرضى بقوانين الإسلام؟»(١٥).

وبعد أن أعلن البابا شنودة تأييده لمبدأ «عمومية القانون الإسلامى» على كل أبناء الوطن، فقال - بمناسبة تشريع «قانون الخلع» -: «إن الخلع مبدأ موجود منذ القدم فى الشريعة الإسلامية، ولم يكن عديد من الناس على معرفة به.. وبمقتضى مبدأ الخلع من حق المرأة أن تطلب الانفصال عن زوجها لأسباب تبينها للمحكمة، منها استحالة الحياة الزوجية بينهما وإذا كان قانون الخلع يسمح للمرأة المسلمة بأن تستفيد من هذا الوضع، فما المانع من أن تستفيد منه المرأة المسيحية.. فالمعروف فى القانون هو عمومية القانون، فلا نطبقه فى حالة معينة لفائدة البعض ونرفضه فى حالة أخرى لفائدة البعض الآخر.. إذن، الخلع يسمح للمرأة - مسيحية كانت أو مسلمة - أن تتخلص من الزوج «المتعب»، وبخاصة لو كانت هناك أسباب تجعل استمرار الحياة بينهما مستحيلا»(١٦).

هكذا ارتفعت أصوات الزعماء والقادة والمفكرين غير المسلمين لتشهد على أن الهوية الثقافية والحضارية للأمة هى العروبة والإسلام. ثم ارتفعت أصوات تعارض ذلك.

٥.ومواقف رافضة:

- لكن هناك أصواتًا أخرى - قومية.. وطائفية - قد ارتفعت بعد تراجع الصيغة الإسلامية الجامعة.. وبعد تكريس التشرذم القطرى - الذى أسست له اتفاقية «سيكس - بيكو» سنة ١٩١٦م.. وتصاعد الغلو القومى والطائفى الذى أنعشه نجاح الإمبريالية والصهيونية فى إقامة الكيان الصهيونى على أرض فلسطين سنة ١٩٤٨م وهو الكيان الذى لا يتحقق أمنه واستقراره، ولا تتحقق هيمنته إلا بتفتيت المفتت وتجزئة المجزء فى المحيط العربى والإسلامى.. وذلك على حد تعبير «استراتيجية إسرائيل فى الثمانينيات» التى قالت: «إنه لا يمكن بقاء إسرائيل إلا بتفكيك الكيانات وبعثرة السكان.. وهذا دافع استراتيجى، وإذا لم يحدث ذلك فليس باستطاعتنا البقاء مهما كانت الحدود»(١٧).. ووفق توصيات ندوة «الموقف الإسرائيلى من الجماعات الإثنية والطائفية فى منطقة الشرق الأوسط» - التى عقدها «مركز بارايلان للأبحاث الإستراتيجية» - بإسرائيل فى ٢٠ مايو سنة ١٩٩٢م التى قررت: «أن هذه الأقليات هى شريكة لإسرائيل فى المصير، ولابد من أن تقف مع إسرائيل فى مواجهة ضغط الإسلام والقومية العربية»(١٨).

إن أصواتا قومية وطائفية - فى هذا المناخ وتلك الملابسات التى صاحبت قيام الكيان الصهيونى بعد الحرب العالمية الثانية - قد ارتفعت بالدعوة إلى إقامة كانتونات طائفية وقومية،

(١٥) البابا شنودة «الأهرام» عدد ٦ - ٣ - ١٩٨٥م.

(١٦) البابا شنودة «الأهرام» فى ٢٦ - ٣ - ٢٠٠٢م.

(١٧) محمد السماك «الأقليات بين العروبة والإسلام» ص١٤٤ - طبعة بيروت سنة ١٩٩٠م.

(١٨) «ندوة الموقف الإسرائيلى من الجماعات الإثنية والطائفية فى العالم العربى» ص٦ - ترجمة الدار العربية للدراسات والنشر - طبعة القاهرة سنة ١٩٩٢م.

بدلا من الصيغة الجامعة المؤسسة على الهوية العربية الإسلامية.. وفى هذا الفضاء:

- خاضت المارونية السياسية - بالتحالف مع إسرائيل - حربًا أهلية دامت خمسة عشر عامًا (١٩٧٥ - ١٩٨٩م).
- ولم تقف النزعة القومية الكردية، التى أعانها الأمريكان على حكم شمال العراق، عند الإحياء اللغوى والثقافى للقومية الكردية، وإنما أحلت هذه الثقافة الفرعية محل الهوية العربية الإسلامية الجامعة.. فمدارس هذا الإقليم وجامعاته تخرج عشرات الألوف الذين لم يدرسوا حرفًا واحدًا من لغة القرآن - اللغة التى خدم الأكراد تراثها الأدبى والشرعى على امتداد تاريخ الإسلام - فبدلا من أن يكون مستقبل الكرد جماعة قومية مفتحة أمامها أبواب الجامعة الإسلامية والأمة الإسلامية، تتجه البوصلة إلى إقامة «كانتون» خاص بالأكراد! ولقد أصبحت هذه النزعة بتفتيت الجماعة الكردية بين أربع دول.. وغفلت عن أن الجماعة العربية قد تم تفتيتها بين أكثر من عشرين دولة!.. ومن ثم فإن الحل هو الاتجاه والنضال من أجل إقامة الصيغة الجامعة للأقوام فى إطار الجامعة الإسلامية، وليس النكوص على الأعقاب لتفتيت المفتت وتجزئة المجزأ فى وطن العروبة وعالم الإسلام!
- وعلى ذات الدرب يسير أنصار الأمازيغية السياسية فى بلاد المغرب العربى، متنكرين للآباء والأجداد الذين نشروا الإسلام والعربية فى بلاد المغرب العربى الكبير!
- وفى الإطار القبطى - المصرى - ارتفعت أصوات تريد إحلال هوية قبطية محل الهوية العربية الإسلامية الجامعة..

٦.الهوية والقانون:

وإذا كانت الهوية العربية الإسلامية هى السمات والقسمات والثوابت التى تمثل الأرض المشتركة للأمة.. وإذا كان القانون وفقه المعاملات هو الضابط لحركة المجتمع.. فلقد ظلت هذه الهوية الإسلامية هى الروح السارية والمرجعية الحاكمة للقانون فى بلادنا على امتداد تاريخ الإسلام.

وقديمًا، وقبل مزاحمة المرجعية الفكرية الغربية - الوضعية العلمانية - للهوية الإسلامية ولمرجعية الشريعة فى القوانين، لم تكن هناك حاجة للنص فى القوانين على إسلاميتها، لأنه لم يكن هناك بديل يزاحم هذه الإسلامية.. فالفقه والقانون فى بلادنا لم يكن يوصف تاريخيًا بوصف الإسلامى، أما بعد تسلل القانون الوضعى الغربى فى ركاب النفوذ والغزو الاستعمارى إلى العالم الإسلامى فى القرن التاسع عشر فلقد برزت الحاجة إلى الإعلان عن ضرورة إسلامية المرجعية القانونية عندنا، كموقف منحاز للهوية الإسلامية التى تميزت قوانينها عن القوانين الوضعية الغربية.

لقد قال المستشرق الإيطالى «دافيد دى سانتيلانا (١٨٤٥ - ١٩٣١م)» - وهو أستاذ الشريعة الإسلامية والقانون الرومانى - قال عن تميز القانون الإسلامى عن نظيره الغربى - ومن ثم تميز الهوية القانونية الإسلامية عن نظيرتها الغربية: «عبثا تحاول أن نجد أصولا واحدة

تلتقى فيها الشريعتان الشرقية والغربية ـ «الإسلامية والرومانية» ـ كما استقر الرأى على ذلك ـ إن الشريعة الإسلامية ذات الحدود المرسومة والمبادئ الثابتة لا يمكن إرجاعها أو نسبتها إلى شرائعنا وقوانيننا «الغربية»، لأنها شريعة دينية تُغاير أفكارنا أصلا.. إن معنى الفقه والقانون بالنسبة إلينا وإلى أسلافنا: هو مجموعة من القواعد السائدة التى أقرها الشعب، إما رأسًا وإما عن طريق ممثليه، وسلطانه مستمد من الإرادة والإدراك وأخلاق البشر وعاداتهم.

إلا أن التفسير الإسلامى للقانون هو خلاف ذلك.. فالخضوع لهذا القانون هو واجب اجتماعى وفرض دينى فى الوقت نفسه، ومن ينتهك حرمته أو يشق عصا الطاعة عليه لا يأثم تجاه النظام الاجتماعى فقط، بل ويقترف خطيئة دينية أيضًا.. إن هذا القانون ـ الذى يوزع العدالة بالقسطاس على الجميع بلا تفضيل، إنما يستند إلى الإيمان القويم أساسًا.. ومع ذلك، فإن هذه الشريعة الإسلامية تفسح أوسع المجال لتحكيم الإرادة البشرية، وتعلق أعظم الأهمية على القصد القانونى، لا على نص القانون الحرفى.. وهكذا ترسم الأخلاق والآداب فى كل مسألة حدود القانون.. والشريعة الإسلامية شريعة تطورية، غير جامدة «وما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن».. لذلك، فإننا نجرؤ على وضعها فى أرفع مكان، وتقليدها أعظم مديح علماء القانون»(١٩).

• ولهذا التميز ـ فى الفقه والقانون والشريعة ـ ومن ثم الهوية ـ كان موقف رفاعة الطهطاوى (١٢١٦ ـ ١٢٩٠ هـ ١٨٠١ ـ ١٨٧٣م) الرافض لتسلل القانون الوضعى الأوروبى إلى محاكم الموانئ التجارية ـ على عهد الخديوى سعيد (١٢٣٧ ـ ١٢٧٩ هـ ١٨٢٢ ـ ١٨٦٣م) فى إبريل سنة ١٨٥٥م.. ودفاعه عن الفقه والقانون الإسلامى، والشريعة التى تمثل هوية الأمة..

وفى هذا قال الطهطاوى: «إن المعاملات الفقهية لو انتظمت وجرى عليها العمل لما أخلت بالحقوق، بتوفيقها على الوقت والحالة.. ومن أمعن النظر فى كتب الفقه الإسلامية ظهر له أنها لا تخلو من تنظيم الوسائل النافعة من المنافع العمومية، حيث بوبوا للمعاملات الشرعية أبوابًا مستوعبة للأحكام التجارية.. وإن بحر الشريعة الغراء، على تفرع مشارعه، لم يغادر من أمهات المسائل صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وأحياها بالسقى والرى، ولم تخرج الأحكام السياسية عن المذاهب الشرعية؛ لأنها أصل، وجميع مذاهب السياسات عنها بمنزلة الفرع»(٢٠).

• ومنذ الطهطاوى، أصبح الدفاع عن الهوية الإسلامية للأمة.. وعن المدنية الإسلامية ـ المتميزة عن المدنية الغربية ـ وعن الشريعة الإسلامية ـ التى تتجلى فى التشريعات والقوانين ـ أصبح موقفًا ثابتًا لمفكرى الأمة الشرعيين والدستوريين والقانونيين.. وكنموذج لهؤلاء كتب الدكتور عبدالرزاق السنهورى (١٣١٣ ـ ١٣٩١ هـ ١٨٩٥ ـ ١٩٧١م) ـ أبو القانون المدنى وواضعه وشارحه ـ وواضع المقومات الدستورية والقانونية

(١٩) سانتيلانا «القانون والمجتمع» ـ كتاب «تراث الإسلام» ص٤٣١ ـ ٤٣٥، ٤٣٨، ٤٣٩ ترجمة جرجيس فتح الله ـ طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م.

(٢٠) الطهطاوى «الأعمال الكاملة» جـ١ ص٥٤٤، ٣٦٩، ٣٧٠ ـ دراسة وتحقيق د. محمد عمارة ـ طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م ـ وطبعة مكتبة الأسرة ـ القاهرة سنة ٢٠١٠م.

لكثير من البلاد العربية ـ مصر والعراق وسوريا والكويت والإمارات وليبيا والسودان ـ كتب فقال: «الإسلام: دين ودولة.. مُلك إلى جانب العقيدة، وقانون إلى جانب الشعائر.. والنبى ﷺ هو مؤسس الحكومة الإسلامية، كما أنه نبى المسلمين، أقام الوحدة الدينية للأمة العربية، والوحدة السياسية للجزيرة العربية ووضع قواعد الحياة الاجتماعية والحياة السياسية.. فالإسلام دين الأرض كما هو دين السماء.

والإسلام دين ومدنية.. والمدنية الإسلامية أكثر تهذيبًا من المدنية الأوروبية.. والرابطة الإسلامية هى المدنية الإسلامية، وأساسها الشريعة الإسلامية.. وأمتنا ذات مدنية أصيلة، وليست الأمة الطفيلية التى ترقع لدنيتها ثوبًا من فضلات الأقمشة التى يلقيها الخياطون!

ولقد أعطى الإسلام للعالم شريعة هى أرسخ الشرائع ثباتًا، وهى تفوق الشرائع الأوروبية.. وإن استقاء تشريعنا المعاصر من الشريعة الإسلامية هو المتسق مع تقاليدنا القانونية.. إنها تراثنا التشريعى العظيم، وبها يتحقق استقلالنا فى الفقه والقضاء والتشريع.. إنها النور الذى تستطيع أن نضىء به جوانب الثقافة العالمية فى القانون.. لقد اعترف الغرب بفضلها، فلماذا تنكره نحن؟! وما بالنا نترك كنوز هذه الشريعة مغمورة فى بطون الكتب الصفراء، ونتطفل على موائد الغير، نتسقط فضلات الطعام؟!».

كما تحدث السنهورى عن الشريعة الإسلامية باعتبارها شريعة الدولة والمجتمع ـ شريعة إقليمية ـ وليست شريعة طائفية للمؤمنين بعقائد الإسلام دون غيرهم.. فقال:

«لقد أخطأ بعض الباحثين عندما اعتقدوا أن الإسلام ليس إلا دينا منزلا.. ودفعهم إلى هذا الخطأ تقريب خاطئ ما بين الإسلام والمسيحية، فالمسيحية أعطت مالله لله، ومالقيصر لقيصر.. ولكن الإسلام يختلف عن المسيحية اختلافًا جوهريًا، فقد جمع مالله ومالقيصر وخص المسلمين بمالله، وجعل مالقيصر عاما واجب التطبيق على الكافة، مسلمين وغير مسلمين.. والأصل فى أحكام الشريعة أنها خطاب لجميع الناس ـ مسلمين وغير مسلمين ـ فهى إذن أحكام إقليمية، إذ هى واجبة التطبيق فى دار الإسلام على جميع المقيمين فيها من مسلمين وغيرهم بل إن أعظم المذاهب الإسلامية شأنًا وأوسعها انتشارًا ـ وهو مذهب الحنفية ـ يطبق أحكام الشريعة الإسلامية فى دار الإسلام حتى على المستأمنين.

والواجب التطبيق من أحكام الشريعة الإسلامية على جميع المقيمين في دار الإسلام هى كل أحكام المعاملات، لا فرق فى ذلك بين أحوال عينية وأحوال شخصية، فإن هذا التفريق لا يعرفه الفقه الإسلامى، وهو دخيل عليه استحدثه الكتاب فى هذا العصر متأثرين فى ذلك بالنظم الأوروبية التى دخلت مصر حديثًا.. فأحكام المعاملات جميعًا، سواء ما تعلق منها بالمال والعقود، وما تعلق بالمواريث والوصايا، وما تعلق بالأهلية والحجر، وما تعلق بالأنكحة والنفقات، يجب تطبيقها على كل المقيمين فى دار الإسلام، مسلمين وغير مسلمين.. والمستثنى من ذلك مسائل قليلة، هى الزواج ونفى المهر وتقوم الخمر

والخنزير، لاتصالها بالعقيدة والدين فيتركون فيها وما يدينون.. وحتى فى هذه المسائل، فإنهم يترافعون فيها إلى القضاء الإسلامى فيحكم بينهم بأحكام دينهم، إلا إذا تراضوا جميعًا على التحاكم إلى أهل ملتهم، وهذا تحكيم مباح للمسلمين وغير المسلمين.. على هذا أجمعت مذاهب الحنفية والشافعية والحنابلة.. غير المسلمين مخاطبون بأحكام الإسلام فى غير العقائد والعبادات.. لهم ما لنا من الإنصاف، وعليهم ما علينا من الانتصاف»(٢١).


عبدالرزاق السنهورى

هكذا اجتمع الفكر والتطبيق - فى الثقافة والحضارة والتاريخ - على إسلامية الهوية.. هوية الدولة.. والمدنية والقانون.. وعبر عن هذه الحقيقة - بحسم ووضوح - أبو القانون المدنى، وفقيه الشريعة الإسلامية، القاضى العادل الدكتور عبدالرزاق السنهورى باشا.

٧ - الهوية الإسلامية والوطن والوطنية:

• وهنا.. وعند هذا الموقف الذى تقررت فيه «إسلامية» الهوية و«عروبتها».. يرد السؤال عن علاقة هذه الإسلامية بدائرة الانتماء الوطنى والولاء للوطنية.

- هل تهمش إسلامية الهوية الانتماءات الوطنية؟

- وهل تذوب الأوطان والوطنيات - فى ظل الهوية العربية الإسلامية - فى الدائرة الأوسع، عربية أو إسلامية؟!

إن هذا التساؤل المشروع، قد تحول - عند البعض - إلى شبهة - بل إلى اتهام - موجه إلى الهوية الإسلامية، وإلى إطار الجامعة الإسلامية - بل وإلى إطار القومية العربية - اتهام بإذابة الأوطان والوطنيات وتهميشها.

وفى جلاء الموقف الإسلامى من هذه القضية علينا أن نعيد التذكير بأن الإسلام، ودولته الجامعة، وتجربته التاريخية، قد أكدت على تعدد وتكامل دوائر الانتماء والولاء.. فللإنسان انتماء وولاء لأهله وعشيرته، يليه انتماء وولاء لشعبه ووطنه، يليه انتماء وولاء لقومه وقوميته، يليه انتماء وولاء لأمته وحضارته.. ثم هناك الولاء والانتماء للإنسانية، التى تتنوع هى الأخرى إلى أمم وحضارات وشعوب وقبائل.

• إن الوطن - فى اصطلاح العربية - كما فى «لسان العرب» لابن منظور (٦٣٠ - ٧١١هـ ١٢٣٢ - ١٣١١م) و«أساس البلاغة» للزمخشرى (٤٦٧ - ٥٣٨هـ ١٠٧٥ - ١١٤٤م) هو: «المنزل الذى يمثل موطن الإنسان ومحل إقامته، وفيه يكون المولد والمنشأ وهو الديار التى ينتسب إليها الإنسان، ولها يكون الحنين والولاء والانتماء».

• وفى القرآن الكريم - كتاب الرسالة العالمية ومنبع الهوية الإسلامية - آيات تقرر أن حب

(٢١) د. عبدالرزاق السنهورى «إسلاميات السنهورى باشا» جـ١ ص١٣٣، ١٤٥، ١٦٠ وجـ٢ ص٤٠٢، ٧٠٧ دراسة وتحقيق د. محمد عمارة - طبعة دار السلام - القاهرة سنة ١٤٣١هـ سنة ٢٠١٠م.

الإنسان لوطنه هو معادل لحياة هذا الإنسان.. ولقد تحدثت هذه الآيات القرآنية - لذلك - عن أن الإخراج من الديار معادل للقتل والإخراج من الحياة، فالوطن حياة، والحرمان من الوطن موت وموات!:

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾

(النساء: ٦٦)

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾

(البقرة: ٨٤)

كما ساوى القرآن الكريم بين الإخراج من الديار والحرمان من الوطن وبين الفتنة فى الدين، فجعلهما وحدهما المبرر للقتال - القتال لتحرير الوطن ومقدراته ولحرية الضمير وتحريره كى يتدين دون إكراه، فى إشارة إلى أن الوطن الحر هو الوعاء الذى بدونه لا يتأتى قيام كامل الدين، وكامل الحرية فى التدين بالدين:

﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝٨﴾

(الممتحنة: ٨)

• ولقد كان موقف رسول الله ﷺ من وطنه مكة، عندما ظلمته وعذبته هو وصحابته الكرام، وعندما تعصبت للشرك والوثنية ضد التوحيد، وعندما أخرجت الرسول والذين آمنوا معه من وطنهم.. كان موقف الرسول من هذه البلدة الظالمة مصداقًا لهذه الفطرة السوية - فطرة الحب والولاء والانتماء للوطن - فناجى مكة - لحظة فراقه لها - قائلاً: «والله إنى أعلم أنك أحب البلاد إلى الله، وأحب البلاد إلى نفسى، ولولا أن قومك أخرجونى منك ما خرجت».

ولقد ظل حنينه إليها جارفًا، حتى لقد كان يدعو ربه - وهو بالمدينة - أن يحبب إليه المدينة حبه لمكة! وظل هذا الحب للوطن يملأ القلب حتى عاد إلى مكة فاتحًا، وحانيًا على مواطنيه الذين عذبوه وجاروا عليه وظلموه!

• ولأن هذه هى مكانة الوطن فى الرؤية الإسلامية: النسب الذى ينقذ الإنسان من الضياع، والقبلة التى تتجه إليها الأفئدة بالشوق والولاء والانتماء، قال الإمام الشيخ محمد عبده (٦٦٢١ — ٣٢٣١ هـ ٩٤٨١ — ٥٠٩١م) — وهو يفسر قول الله — سبحانه وتعالى —:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾

(البقرة: ٢٤٣)

— قال: «إن الخروج من الوطن بمعنى التفريط فى استقلاله، موت، بينما الحفاظ على استقلال الوطن حياة وإحياء»!(٢٢).

(٢٢) الإمام محمد عبده «الأعمال الكاملة» جـ٤ ص٦٩٥ - دراسة وتحقيق د. محمد عمارة - طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م - وطبعة دار الشروق - القاهرة سنة ١٩٩٣م.


جمال الدين الأفغاني


مصطفى كامل

● ولهذه الحقيقة، حقيقة الارتفاع بمكانة الوطن ومحبته والولاء له والانتماء إليه، كان للوطن ـ والوطن المصرى تحديدًا وعلى وجه الخصوص ـ عند رواد اليقظة الإسلامية الحديثة ـ الذين رفعوا شعار الجامعة الإسلامية، وأكدوا على الهوية الإسلامية ـ كان لهذا الوطن ـ عند هؤلاء الرواد ـ المكانة المتميزة والممتازة.

فرائد هذه اليقظة الإسلامية جمال الدين الأفغانى (١٢٥٤ ـ ١٣١٤هـ ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧م) ـ الذى رفع شعار «الجامعة الإسلامية» هو الذى رفع شعار «مصر للمصريين».. وهو أول من أنشأ ـ بمصر ـ «الحزب الوطنى الحر».. ولقد عبر عن مكانة الوطن المصرى، فى عقله ووجدانه، وفى جهاده، فقال: «مصر أحب بلاد الله إلىّ، وهى أهم مواقع الشرق وهى عند المسلمين من الأراضى المقدسة، ولها فى قلوبهم منزلة لا يحتلها سواها، نظرا لموقعها من الممالك الإسلامية؛ ولأنها باب الحرمين الشريفين، فإن كان هذا الباب آمنا كانت خواطر المسلمين مطمئنة على تلك البقاع وعلى سلامة ركن عظيم من أركان الديانة الإسلامية».

وعندما نظر الأفغانى إلى المستقبل، علق الآمال على قيادة الوطن المصرى للبعث الإسلامى والنهضة الشرقية، فقال:

«وربما لا يكون بعيدًا من الواقع أن تصير عاصمة مصر كرسى مدنية لأعظم الممالك الشرقية.. بل لقد كان ذلك أمرًا مقررًا فى أنفس جيرانها من سكان البلاد المتاخمة لها، وهو أملهم الفرد كلما ألم بهم خطب أو عرض لهم خطر»(٢٣).

● ومصطفى كامل (١٢٩١ ـ ١٣٢٦هـ ـ ١٨٧٤ ـ ١٩٠٨م) ـ الذى جاهد تحت رايات الجامعة الإسلامية، هو «شاعر الوطنية المصرية» الذى صك شعار: «لو لم أكن مصريًا لوددت أن أكون مصريًا»!.

● وحسن البنا (١٣٢٤ ـ ١٣٦٨هـ ١٩٠٦ ـ ١٩٤٩م) هو الذى تحدث ـ بعمق ـ عن تكامل دوائر الانتماء، التى تبدأ بالانتماء الوطنى، فقال: «إن مصر هى قطعة من أرض الإسلام، وزعيمة أممه، وفى المقدمة من دول الإسلام وشعوبه.. ونحن نرجو أن تقوم فى مصر دولة إسلامية، تحتضن الإسلام، وتجمع كلمة العرب، وتحمى المسلمين فى أكناف الأرض من عدوان كل ذى عدوان، وتنشر كلمة الله وتبلغ رسالته.. إننا نحب وطننا مصر، ونحرص على وحدته، ولا نجد غضاضة على أى إنسان أن يخلص لبلده، وأن يفنى فى سبيل قومه، وأن يتمنى لوطنه كل مجد وفخار، وأن يقدمه فى العمل على ما سواه.. وأن يقدم فى ذلك الأقرب فالأقرب رحمًا وجوارًا.. إننا مع دعاة الوطنية، بل مع غلاتهم فى كل معانيها الصالحة التى تعود بالخير على

(٢٣) جمال الدين الأفغانى «الأعمال الكاملة» ص٤٧٩، ٤٨٦، ٤٦٧ ـ دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م.


حسن البنا

البلاد والعباد، فالوطنية لم تخرج عن أنها جزء من تعاليم الإسلام.. فالدائرة الوطنية فى دعوتنا، هى الأساس الأول للنهوض، والوحدة العربية هى الحلقة الثانية فى النهوض.. أما الجامعة الإسلامية فهى السياج الكامل للوطن الإسلامى العام، ولا تعارض بين هذه الحلقات الثلاث، لأن كلا منها تشد أزر الأخرى، وتحقق الغاية منها»(٢٤).

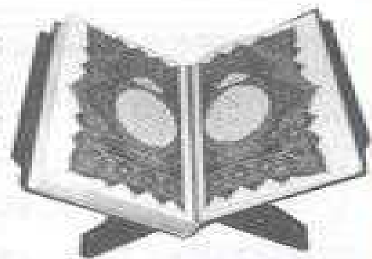
●●●

هكذا تبلورت الهوية العربية الإسلامية، فى مسيرتنا التاريخية، وفى تراثنا الحضارى.. ولدت من رحم القرآن الكريم، وأقامت بناءها شعوب الأمة الإسلامية، على اختلاف أقوامها وتعدد دياناتها ومذاهبها.. وهكذا أفصحت عن تميزها بلسان عربى مبين، هو لسان القرآن الكريم.. ولخلود هذا القرآن ومركزيته، ولخلود اللغة التى نزل بها، استعصت هذه الهوية العربية الإسلامية على كل التحديات.. تحديات التتريك.. وتحديات الفرنسة والجلنزة والروسنة ـ رغم شراسة هذه التحديات.

وإذا كانت أمم الحضارات المختلفة تسعى نحو التكامل والتساند، رغم ما بينها من تناقضات، فإن أوطان عالم الإسلام، فى حاجة إلى أن تتقارب لتسلك الوطنيات فى الأطر القومية، ولتسلك القوميات فى إطار الجامعة الإسلامية، وذلك لمواجهة تحديات الهيمنة الخارجية، التى تريد لعالم الإسلام المزيد من التجزئة والتشرذم والتفتيت.

● إن أمة يزيد تعدادها على المليار وسبعمائة مليون نسمة..
● وتمتلك وطنا مساحته ٣٥,٠٠٠,٠٠٠ كيلو مترا مربعا ـ أى أربعة أضعاف الصين..
● ولديها من الثروات ما يجعلها العالم الأول فى كثير من الميادين الاقتصادية..
● ولديها من المواريث الفكرية والثقافية والحضارية ما لا نظير له عند الآخرين..
● وفى تاريخها تجربة حضارية جعلتها العالم الأول على ظهر هذه الأرض لأكثر من عشرة قرون..
● ولها فى الهوية الثقافية هذه الثروة وهذه الآفاق التى تفتح الأبواب أمام شعوبها وأقطارها وأقوامها وأديانها لتعيد إحياء تجربتها التاريخية فى «التنوع بإطار الوحدة»..
● إن أمة تمتلك هذا التراث.. وهذا الثراء.. وهذا التاريخ لجديرة بأن تعى هذا التاريخ، لتستأنف صناعة التاريخ.

(٢٤) حسن البنا «مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا» ـ رسالة «المؤتمر الخامس» ورسالة «دعوتنا» ص١٧٦، ١٧٨، ٦١٠ ـ طبعة دار الشباب ـ القاهرة ـ بدون تاريخ.



تفسير سورة البقرة



لفضيلة الأستاذ الإمام
محمد عبده

﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ
وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧) مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ
فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ (٩٨) وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا
الْفَاسِقُونَ (٩٩) أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٠) ﴾

(البقرة: ٩٧ - ١٠٠)

الكلام متصل بما قبله من ذكر تعلات اليهود، واعتذارهم عن الإيمان بالنبى عليه الصلاة والسلام وبما جاء به من البينات والهدي. زعموا أنهم مؤمنون بكتاب لا حاجة لهم بهداية فى غيره، فاحتج عليهم بما ينقض دعواهم. وزعموا أنهم ناجون فى الآخرة، على كل حال لأنهم شعب الله وأبناؤه، فأبطل زعمهم. ثم ذكر تعلة أخرى أغرب مما سبقها، وفندها كما فند ما قبلها، وهى أن جبريل الذى ينزل بالوحى على النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم - عدوهم فلا يؤمنون بوحى يجيء هو به.

وقد جاء فى أسباب النزول روايات عنهم فى ذلك: منها، أن عبدالله بن صوريا، من علمائهم، سأل النبى عليه السلام عن الملك الذى ينزل عليه بالوحى فقال هو جبريل، فزعم أنه عدو اليهود، وذكر من عداوته أنه أنذرهم خراب بيت المقدس فكان. ومنها: أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه دخل مدارسهم فذكر جبريل، فقالوا: ذاك عدونا، يطلع محمدًا على أسرارنا، وأنه صاحب كل خسف وعذاب، وميكائيل صاحب الخصب والسلم، إلخ. وهذا القول هراء، وخطله بين، وإنما عنى القرآن بذكره ورده لأنه مؤذن بتعنتهم وعنادهم، وشاهد على فساد تصورهم وعدم تدبرهم، ليعلم الذين كانوا ينتظرون ما يقول أهل الكتاب فيه أنه لا قيمة لأقوالهم، ولا اعتداد بمرائهم وجدالهم.

قال تعالى:

﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾

أى قل لهم أيها الرسول حكاية عن الله تعالى: من كان عدوًا لجبريل فإن شأن جبريل كذا، فهو إذن عدو لوحى الله الذى يشمل التوراة وغيرها، ولهداية الله تعالى لخلقه وبشراه للمؤمنين - على ما يأتى فى بيان ذلك - وإذا كان يناجى روحك ويخاطب قلبك بإذن الله، لا افتياتًا من نفسه، فعداوته لا يصح أن تصد عن الإيمان بك، وليس للعاقل أن يتخذها تعلة وينتحلها عذرًا، فإن القرآن من عند الله لا من عنده، فقوله: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ حجة أولى عليهم.

ثم قال: ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أى حال كونه موافقًا للكتب التى تقدمته فى الأصول التى تدعو إليها، من التوحيد واتباع الحق والعمل الصالح، ومطابقًا لما فيها من البشارات بالنبى الذى يجيء من أبناء إسماعيل. كأنه يقول: فآمنوا به لهذه المطابقة والموافقة، لا لأن جبريل واسطة فى تبليغه وتنزيله. وهذه حجة ثانية.

ثم عززهما بثالثة، وهى قوله: ﴿ وَهُدًى ﴾ أى نزل هاديًا من الضلالات والبدع التى طرأت على الأديان، فألقت أهلها فى حضيض الهوان. والعاقل لا يرفض الهداية التى تأتيه، وتنقذه من ضلال هو فيه، لأن الوسطة فى مجيئها كان عدوا له من قبل، فإن هذا الرفض من عمل الغبى الجاهل الذى لا يعرف الخير بذاته، وإنما يعرفه بمن كان سببًا فى حصوله.

ثم أيد الحجج الثلاث برابعة، فقال:

﴿ وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى إذا كنتم تعادون جبريل لأنه أنذر بخراب بيت المقدس، فهو إنما أنذر المفسدين وقد أنزل هذا القرآن على بشرى للمؤمنين، فما لكم أن تتركوا هذه البشرى إن كنتم من أهل الإيمان، لأن الذى نزل فيها قد نزل بإنذار أهل الفساد والطغيان.

ومن مباحث اللفظ فى الآية، أن جبريل اسم أعجمى مركب من «جبر» ومعناه بالعبرانية أو السريانية القوة، ومن «إيل» ومعناه الإله، أى قوة الله. وقيل معناه عبدالله. وفيه ١٣ لغة، منها ثمانى لغات قرئ بهن أربع فى المشهورات: جَبْرَئيل كسلسبيل، قرأ بها حمزة والكسائى، وجبريل بفتح الراء وحذف الهمزة، قرأ بها ابن كثير والحسن وابن محيصن. وجبرئل كجحمرش قرأ بها عاصم برواية أبى بكر، وجبريل كقنديل قرأ بها الباقون. وأربع فى الشواذ جبرال وجبرائيل وجبرئل وجبرين. ومنها، أن قوله: ﴿ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ ورد على طريق الالتفات عن التكلم إلى الخطاب، إذ كان مقتضى السياق أن يقول «نزله على قلبى» وقد قالوا فى نكتته إنها حكاية ما خاطبه الله تعالى به. ولا أرى صاحب الذوق السليم إلا مستنكرًا صيغة التكلم فى هذا المقام، والعلة فى ذلك لاتبعد عن الأفهام.

ومنها، أن الضمير المنصوب البارز فى ﴿ نَزَّلَهُ ﴾ للقرآن، وهو لم يذكر فيما قبلها وإنما عينته قرينة الحال، وذلك يدل على فخامة شأنه، كأنه لشهرته قد استغنى عن ذكره.

أقام الحجج على حماقتهم وسخفهم فى دعوى عداوة جبريل، وبيان أنها لا يصح أن تكون مانعة من الإيمان بكتاب أنزله الله بتلك الصفات التى طويت فيها الحجج، ثم بين فى آية أخرى حقيقة حالهم فى هذه العداوة، فقال:

﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ ﴾ بكفره بما ينزله من الهداية،

﴿ وَمَلَائِكَتِهِ ﴾ برفض الحق والخير الذى فطروا عليه، وكراهة القيام بما يعهد به إليهم ربهم عز وجل، لأنهم: ﴿ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾

(التحريم: ٦)

﴿ وَرُسُلِهِ ﴾ بتكذيب بعض وقتل بعض،

﴿ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ ﴾ بأن الأول ينزل بالآيات والنذر، ومن كان عدوا لجبريل فهو عدو لميكال لأن فطرتهما واحدة وحقيقتهما واحدة من مقتها وعاداها فى أحدهما فقد عاداها فى الآخرة. ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴾

أى من عادى الله وعادى هؤلاء المقربين من الله الذين جعلهم رحمة لخلقه، فإن الله عدو له لأنه كافر بالله ومعاد له والله عدو للكافرين، أى يعاملهم معاملة الأعداء للأعداء، وهم الظالمون لأنفسهم إذ دعاهم فلم يقبلوا أن يكونوا مع الأولياء.

﴿ وَمِيكَالَ ﴾: بوزن ميعاد، قراءة أبى عمرو ويعقوب وعاصم برواية حفص، وقرأ نافع ميكائل وحمزة والكسائى وابن عامر ميكائيل وفى الشواذ ميكئل وميكئيل ميكائل.

هذا وعيد لهم بعد بيان فساد العلة التى جاءوا

بهـا، وهم لم يدعوا عداوة هـؤلاء كلهم، ولكنهم كذلك في نفس الأمر، فأراد أن يبين حقيقة حالهم في الواقـع، وهـي أنهم أعـداء الحق وأعـداء كل من يمثله وينقلـه ويدعو إليـه. فالتصريح بعداوة جبريـل كالتصريح بعداوة ميـكال الذى يزعمون أنهـم يحبونـه، وأنهـم كانـوا يؤمنـون بالنبي لو كان هو الذى ينزل بالوحـي عليه. ومعاداة القرآن كمعـاداة سـائر الكتـب الإلهيـة، لأن الغرض من الجميع واحد. ومعاداة محمد ﷺ كمعاداة سـائر رسـل الله، لأن وظيفتهـم واحدة. فقولهم السـابق وحالهم يدلان على معـاداة كل من ذكر. وهذا من ضروب إيجاز القرآن التي انفرد بها.

وفي قوله تعالي: ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ وضع للمظهر في موضع المضمر، لبيان أن سبب عداوته تعالى لهم هو الكفر، فإن الله لا يعادى قومًا لذواتهم ولا لأنسـابهم، وإنمـا يكره لهم الكفر ويعاقبهم عليـه معاقبة العدو للعـدو. وقـد بينا غير مرة أن عـذاب الله وانتقامه من الكفرة والفجرة لا يشبه انتقام ملوك الدنيا وزعمائها. وإنما قضت سـنته تعالى بأن يكون لكل عمل يعمله الإنسـان في ظاهره أو في نفسـه وضميره أثر في نفس العامل يزكيها ويدسيها، وسعادة الإنسان في الآخرة أو شـقاؤه تابع لآثـار اعتقاداتـه وأعماله في نفسـه، ولذلك قال تعالي:

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾

(الزخرف: ٧٦).

ثم صرح بأن القرآن منزل من عند الله وحده، وأنـه في نفسـه آيات بينـات لا يحتـاج إلى آية أخرى تبينه وتشهد له، فإن ما كان بينا في نفسـه أولـى بالقبول ممـا يحتاج في بيانـه إلى غيره، فقـال: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ وقد تقدم أن الوحي من الله للنبي يسـمى تنزيلا وإنـزالا ونزولا لبيان علـو مرتبة الربوبية، لا أن هنـاك نزولا حسـيًا من مكان مرتفع إلى مكان منخفض.

وأمـا كون آيات القرآن بينات، فهي أنهـا بإعجازها البشـر، وبفـرد المسـائل الاعتقادية فيهـا ببراهينهـا والأحكام الأدبيـة والعمليـة بوجوه منافعهـا، لا تحتاج إلـى دليل آخر يدل علـى أنها هداية مـن الله تعالى وأنها جديـرة بالاتباع، بل هي دليل على نفسـها عند صاحب الفطرة السـليمة، كالنور يظهر الأشياء وهو ظاهر بنفسه لا يحتاج إلى شـيء آخـر يظهـره، ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ الذين خرجوا من نور الفطرة وانغمسـوا في ظلمـة التقليـد فتركوا طلـب الحق بذاتـه لاعتقادهم أن فطرتهم ناقصة لا اسـتعداد فيها لإدراكه بذاته على شـدة ظهوره، وإنما يطلبونه من كلام مقلديهم، وكذلك الذين ظهر لهم الحق فاسـتحبوا العمى على الهدى حسدًا لمن ظهـر الحق على يديـه وعنادًا له. بعد هـذا كله، بين الله تعالى شـأنين من شـئون أهل الكتاب، وهمـا: أنه لا ثقة بهم في شـيء، لما عرف عنهم من نقض العهود، وأنه لا رجاء فـي إيمان أكثرهم، لأن الضلالـة قد ملكت عليهم أمرهـم، إلا قليـلًا منهم. فـإن كل ما تقدم مـن الأعمال والأقـوال قد صدر عن بعضهم، وإن كان نقض العهود قد وقـع في كل زمن من فريـق منهم دون فريق، فلا يتوهمن أحد أن أولئك هم الأقلون، كلا بل هم الأكثرون، ولذلك قال:

﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾

؟؟همـزة الاسـتفهام التوبيخـي داخلـة على محـذوف، أي: أكفـروا بالآيات وقالوا مـا قالوا، وكلما عاهدوا عهدًا نبذه فريق منهم؟! النبذ طرح الشـيء وإلقـاؤه، والمـراد بالعهـود هنـا عهودهم للنبـي ﷺ. ولمـا كان لفـظ فريـق وهـم العـدد القليـل، وكان الواقع أن الذين كانـوا يرون الوفاء لـه ﷺ قليلون، والناقضين هم الأكثرون، أضرب عنه وقال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

فهم لا إيمان لهم لأنهم لا أيمان لهم. أي لا عهود لهـم وفيه من خبـر الغيب أن أكثر اليهـود لا يؤمنون بالنبي ﷺ وكذلك كان وصدق الله العظيم.

أقسام السنة



الدكتور محمد عبدالله دراز

> تحكيم الهوى فى الدين والأخذ فيه بما يميل إليه القلب ويستحسنه الطبع وتشتهيه النفس بغير إذن بين من الشرع.

الأصل الثانى

والفـرق مـا بيـن أحـكام العقـل وأحكام الهوى أن تلك يثمرها التفكير والبحث طلبًا للوقوف على حقيقة علمية أو مصلحة عملية، وهذا يلدها الوجدان والشعور بالمحبة للشيء والميـل إليـه طلبًا لما فيه من لـذة تجتلب أو بالكراهية له والانقباض عنه هربًا مما فيه من ألم يستدفع.

علـى أنه ليـس كل وجدان يسـمى هوى، وإنمـا يسـمى بذلك علـى الحقيقـة وجدان يميـل بالنفس عـن فطرتها السـليمة ويضع قيادتهـا في يد الأغـراض والشـهوات الدنيا فتهوى بهـا نازلة عـن مطالبها القدسـية إلى طلـب الحظوظ العاجلة من سـعة المال وعلو الجاه، والمحاباة للنفـس والأهل، والممالأة للأصدقـاء، والمناوأة للأعداء، والحظوة عند الأمراء، والعصبية للعوائد والأشياخ إلى غير ذلك.

ومن هنا يجيء بينهما فـرق آخر وهو أن الهوى مذمـوم كله، وأحكامه مردودة جملة، ولذلـك لم يرد في القرآن ذكره إلا قرينًا للذم والتحذير:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾

(محمد: ١٦)

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾

(القصص: ٥٠)

﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾

(ص: ٢٦)

﴿فَأَمَّا مَن طَغَى (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾

(النازعات: ٣٧ - ٣٩)

أما الأحكام العقلية فإنها منقسـمة كما تقـدم إلى الصـواب المحمـود والخطأ لأن

سبيلها هو الفكر الذى يخطئ تارة ويصيب تارة أخرى، وقد عرفت أن خطأ الفكر لا يكون إلا حين يخرج عن طوره ويقفوا ما ليس له به علم فيأخذه ببادىء الرأى ويتمسك فيه بأسباب الظن وفيما عدا ذلك فهو حكم ترضى حكومته، ولذلك لم يرد فى القرآن ذكر العقل بصريح اسمه فى معرض الذم قط وإنما ورد الذم الأكيد والتحذير الشديد من اتباع الظن خاصة كما فى قوله تعالى:

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾

(يونس: ٣٦)

على أن انقسام الأحكام العقلية إلى الصواب والخطأ إنما يكون حيث يستقل العقل فى حكمه وينفصل فيه عن داعية الهوى ولكن الواقع الغالب هو أن العقل متى بعد عن قيادة الشرع لا تلبث أن تتخطفه شياطين الأهواء والنزعات فتتخذه مطية إلى مآربها من حيث يشعر أو لا يشعر، وكم رأينا من باحث متعمق فى بحوثه خدعته نفسه فحسب أنه يحكم بعقله لا بعاطفته وهو إنما يسير فى بحثه خاضعًا لشهوة خفية يمليها عليه طبعه، ولذلك قيل: إن «الفكرة» كثيرًا ما تكون وليدة الرغبة.

فإذا اجتمع فى حكم من الأحكام كونه اتباعًا للظن فى نفسه، واتباعًا للهوى فى باعثه فقد اجتمع فيه الأصلان الأصيلان فى ابتداع الضلالات، ألم تر أن الله حين وصف أهل الضلالة الكبرى لم يذم طريقتهم بشىء أبلغ من كونها اتباعًا للظن والهوى، وذلك حيث يقول عز من قائل:

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾

(النجم: ٢٣)

انظر قوله: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾
فهذا هو الأصل الأول، وقوله تعالى:
﴿وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ﴾
فهذا هو الأصل الثانى ثم انظر قوله:
﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾

فقد بين به أن للهدى سبيلاً واحداً وهو الشرع السماوى وأن الظن والهوى ليسا من الهدى بسبيل بل هما العدوان اللذان جاءت هداية الشرائع لمحاربتهما والحلول محلهما.

فى الحق، لقد كانت الناس فى أزمان الفترات إذا فكروا فهم أسارى الظنون والأوهام، وإذا أرادوا فهم أسارى الأهواء والشهوات، وعلم الله أن الناس لا تصلح أعمالهم إلا إذا صحت علومهم ومحصت إرادتهم، فأتى الإصلاح من أساسه إذ أنزل شرائعه محررة للعقول من سلطان الظن ومخلصة للقلوب من سلطان الهوى، وأرسل رسله ممثلاً كاملة لتلك الشرائع فى حكمتها العقلية البريئة من الأوهام والخرافات، وطهارتها الخلقية البريئة من الأهواء والشهوات فكانوا بهذا وذاك متجردين من شائبة كل عبودية إلا العبودية لله وحده، ومن شائبة كل خضوع إلا الخضوع لشرعه ووحيه، حتى كان أشرف لقب يلقب به أحدهم: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ﴾.

(ص: ٣٠)

﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾

(يوسف: ٢٤)

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾

(الإسراء: ١)

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾

(الزمر: ٣٦)

وهذا قدوتنا الأعظم صلوات الله وسلامه عليه تصفه السيدة عائشة رضى الله عنها بأنه قد بلغ من تحكيمه الوحي على قلبه وعقله وجوارحه «أن كان خلقه القرآن»(١)، ومن أجل ذلك نزل فيه:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾

(القلم: ٤)

فكذلك ينبغى لسائر الخلق أن يلقوا إلى الشريعة بمقاليدهم، ويجعلوها وحدها هى الحاكمة عليهم لا يشركون معها شيئًا من أضدادها لأنه بدون ذلك لا يتم إخلاص التوحيد الذى يعبر عنه المؤمن دائما بقوله:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾

(الفاتحة: ٥)

قلنا إن الهوى مذموم كله، ونقول الآن إنه ليس فى الذم على مرتبة واحدة.. فأشنعه الهوى المخرج عن الملة، وهو ما أدى بصاحبه إلى رد حكم الشرع عنادًا وتحكيم الطبع بحتًا وانفرادًا، هذا هو الذى قال الله فى مثله:

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾

(الجاثية: ٢٣)

وقال:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ۚ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾

(الأعراف: ١٧٥، ١٧٦)

والظاهر أن هذه الأوصاف لا تنطبق انطباقًا حقيقيًا تامًا على أحد من أهل البدع المنتسبين إلى الإسلام، إذ لا يقال فى الأصل «كذب بآيات الله» و«اتخذ إلهه هواه» إلا لمن كان متبعًا لهواه محضًا، وعدل بحكمه حكم الله عمدا، وأنت لا ترى مبتدعًا مما ينتسب إلى الملة إلا وهو يستشهد على بدعته بدليل شرعي، فهو إذا مؤمن بآيات الله قاصدًا إلى استنباط حكم بحسب ما ظهر له من أماراته، غير أنه لم يكف داعية هواه عند استنباط تقدم الهوى بين يديه وسار رائدًا له فى تعرف حكم الشرع فصار هو آخذا بحكم هواه من حيث يظن أنه آخذ بحكم الله.

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك ٢/٤٩٩ عن سعد بن هشام بن عامر فى قول الله عز وجل ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم ٤) قال: «سألت عائشة رضي الله عنها يا أم المؤمنين أنبئيني عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: أتقرأ القرآن؟ قلت: نعم فقالت: إن خلق رسول الله ﷺ القرآن والحديث على شرط البخاري ومسلم قال الحاكم رحمه الله: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. والحق أن مسلم أخرجه فى صلاة المسافرين برقم ١٧٣٦. وأخرجه أحمد فى المسند برقم ٢٥٣٠٢ عن سعد بن هشام قال سألت عائشة فقلت أخبريني عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: كان خلقه القرآن وأخرجه مسلم فى باب صلاة المسافرين برقم ١٧٣٦ بسياق طويل جميل مفيد نافع وأخرجه أحمد بنفس السند والسياق برقم ٢٤٢٦٩.

وإنما يقع ذلك من المسلم فى أحد أربعة مواضع:

١- موضع لم يجد فيه دليلاً شرعيًا يقضى فى مسألته بنفى أو إثبات.

٢- موضع وجد فيه دليلاً ظنيًا فى سنده بحيث يمكن له الطعن فى روايته.

٣- موضع وجد فيه دليلاً ظنيا فى دلالته بحيث يكون محتملا لوجهين أو لوجوه من التأويل.

٤- موضع وجد فيه أدلة متعارضة أو آراءً مختلفة بين العلماء.

ففى كل ذلك يتسع المجال أمامه للتخيير والاختيار.. فإذا خلى بين نفسه وهواها فى ساعة الحكم، أو الرد أو التأويل، أو الترجيح، سبق له ما هو أوفق بطبعه وأقرب إلى غرضه فى مسألة، وكانت الأدلة الشرعية لو روعيت هنالك فإنما تراعى من حيث هى قناطر ومعابر إلى تلك النزعات والأغراض.

فلنتكلم على هذه الأنواع الأربعة:

النوع الأول: تحكيم الطبع فى الموضع الذى يفقد فيه دليل الشرع:

ويضاهيه فيما تقدم تحكيم الرأى المحض فى المسائل المسكوتة، بل هذا أشد من ذاك، لأن إعمال الرأى والفكر واجتهاد النظر فى إقامة العدل مأمور به فى الدين على الجملة. أما تحكيم الميول والرغبات فإنه منهى عنه بإطلاق، وغير مأذون فيه بوجه من الوجوه فالاعتماد عليه إحداث أصل ثالث فى الدين مباين للكتاب والسنة، نعنى أنه ليس منهما ولا راجعًا إليهما، بل كأنه ادعاء وحى بعد انقطاع الوحى، وما هو إلا وحى الشيطان بعد تمام وحى الرحمن، وقد يكون عجيبًا أن يدخل هذا النوع فى غمار المذاهب الإسلامية إلا أن أصحاب هذه البدعة(٢) ربما استندوا فى تأصيلها إلى بعض شيء فى الكتاب والسنة، فكان لابد لنا من عرضها والكشف عن وجه الصواب فى معناها.

ففى ذلك قوله تعالى:

﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾(٣)

(الزمر: ١٧-١٨)

وقوله عليه الصلاة والسلام فى حديث مسلم: «البر حسن الخلق والإثم ما حاك فى صدرك وكرهت أن يطلع الناس عليه»(٤) وفيه أيضا: «البر ما سكنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما لم تسكن إليه النفس ولم يطمئن إليه القلب وإن أفتاك المفتون»(٥) وفى حديث الترمذى وابن حبان والبيهقى

(٢) ومنهم من ينتسبون إلى التصوف ويزعمون أنهم خاصة الله وأهل صفوته والناظرون بنوره فعلامة كون الشيء حقا عندهم ميل القلوب إليه وانشراح الصدور له. والصوفية الحقيقيون بريئون من هذه الدعوى، فإن القاعدة التى شحنت بها كتبهم هى أن كل إلهام يستند إلى غير الكتاب والسنة فهو رد على صاحبه (د/ دراز)

(٣) وهذا النص وإن كان ظاهرًا فى النوع وهو اتخاذ الاستحسان مرجحًا بين الأدلة والأقوال إلا أنه يدل على اعتماد الاستحسان أصلا شرعيًا فى الجملة، فصح ذكره هنا تتميما لأدلتهم. (د/ دراز)

(٤) أخرجه مسلم عن النواس بن سمعان الأنصاري، كتاب البر والصلة والآداب، باب تفسير البر والإثم ج ٨ ص ٧.

(٥) أخرجه أحمد فى المسند ٤/١٩٤ وأبونعيم فى الحلية ٢/٣٠ والهيثمى فى المجمع ١/١٧٦ (وقال رواه أحمد والطبراني وفى الصحيح طرف من أوله. ورجاله ثقات) عن أبى ثعلبة الخشنى

وغيرهم: «دع ما يريبك إلا ما لا يريبك فإن الشر ريبة وإن الخير طمأنينة»(٦). أو كما قال، وقول ابن مسعود(٧) رضى الله عنه فيما رواه أحمد وغيره: «ما رآه المسلمون حسنًا فهو عند الله حسن وما رآه المسلمون قبيحا فهو عند الله قبيح»، قالوا فظهر من هذه الأدلة صحة الرجوع فى أحكام شرعية إلى ما يقع بالقلب ويهجس بالنفس ويستحسن فى الرأى وأن ما اطمأنت إليه النفس فالإقدام عليه صحيح، وما توقفت أو ترددت فيه فالإقدام عليه محظور.

وجوابنا عن هذا الكلام من طريقين: إجمالى وتفصيلى:

أما الإجمالى: فهو أن هذا كله استدلال فى مقابلة الضرورة القاطعة، فإنا نعلم أن النبى ﷺ لم يترك لنا من أصول أدلة الأحكام غير كتاب الله وسنة رسوله، ولم يأذن لنا فى العمل بشيء وراءهما. ولو قد فعل لكان ذلك نقضًا للأمر باتباعهما، إذ لا شيء من أفعال المكلفين إلا وفى الكتاب أو فى السنة بيان حكمه إما بالنص وإما بالمعنى والدلالة، وقد سمعنا الله فى كتابه يأمر العلماء، عند التنازع بالرجوع إليهما إذ يقول:

﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾

(النساء: ٥٩)

وسمعناه يأمر الجاهل بسؤال العالم إذ يقول:

﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

(النحل: ٤٣)

وكذلك فى أصل الإيمان سمعناه يأمر الناس بالرجوع إلى أدلته التى نصبها لهم فى الأنفس والآفاق، فلم يأمر هؤلاء بالصدور عن عواطفهم وما تفتى به قلوبهم وتمليه ميولهم، وقد رأينا منهج الصحابة فى استنباطهم للأحكام فى الوقائع فما رأينا أحدًا منهم يقول إنى أحكم فى هذه الواقعة بكذا لأنه يميل إليه طبعى ويوافق محبتى، فإن ذلك من عمل الجاهلية، وإنما كانت مآخذهم من الكتاب والسنة لا زائد، روى أبوداود عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء تقذرًا، فبعث الله نبيه وأنزل الكتاب وأحل حلاله وحرم حرامه فما أحل فهو حلال وما حرم فهو حرام وما سكت عنه فهو عفو، وروى أبوداود والترمذى أن رجلاً سأل النبى ﷺ فقال إن من الطعام طعامًا ما أتحرج منه.. فقال ﷺ: «لا يختلجن فى صدرك شيء ضارعت فيه النصرانية»، وروى الشيخان أن أبا موسى الأشعرى رضى الله عنه جيء له بدجاجة فتنحى رجل من القوم فقال له أبوموسى: ما شأنك؟ قال: رأيته يأكل شيئًا فقذرته فحلفت ألا آكله فقال له أبوموسى: إذن فكل، فإنى رأيت رسول الله ﷺ يأكله، وأمره أن يكفر عن يمينه»(٨)

(٦) رواه الترمذي عن أبي الحوراء السعدي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب اعقلها وتوكل ج ٧ ص ٢٠٥ (٢٥٢٠).

(٧) قال الحافظ اللكنوي فى تحفة الأخيار: نسب جماعة هذا الأثر إلى النبى ﷺ، ولكن قال ابن نجيم فى الأشباه والنظائر قال العلائى لم أجده مرفوعا فى شيء من كتب الحديث أصلاً ولا بسند ضعيف بعد طول البحث وكثرة الكشف والسؤال وإنما هو من قول ابن مسعود موقوف عليه. ا هـ (د/ دراز)

(٨) لا يخفى أن المحظور فى هذه المسائل كلها إنما هو ترك تناول المباح تحرجا منه وتحريما له لأن هذا هو تحكيم الطبع فى الأحكام الشرعية. أما ترك شيء من المباح لعدم اشتهائه من غير تحريم له فلا حرج فيه إلا أن من حقيقة المباح التخيير فيه بين الفعل والترك. فالتعويل على إلف الطبع أو نفوره فى الإقدام عليه أو الإحجام عنه معقول شرعًا. ولذلك امتنع النبى ﷺ من أكل الضب وقال (هو حلال لكنه لم يكن بأرض قومى فأجدنى أعافه) وينتظم فى هذا المسلك مسألة الاستخارة الشرعية والتعويل على انشراح الصدر بعدها إلى الفعل والترك لأنها إنما تكون فى أمر طرفاه مباحان (د/ دراز)

ولو جعل الحكم فى الشريعة إلى مجرد الاستحسان لما أمكن انضباط الأحكام، لأن الناس تختلف أهواؤهم وأغراضهم اختلافًا بينًا، وإذن لرجع أمرهم إلى الفوضى التى ما جاءت الشريعة إلا لإنقاذهم منها، إذ ما من استحسان إلا ويمكن للخصم معارضته باستحسان ضده، بل يمكن تقرير هذه المعارضة فى أصل الاستحسان جملة، فنقول إن قلوبنا تميل إلى بطلانه وأنه ليس بحجة وإنما الحجة فى الأدلة المتلقاة عن الشارع.

وأيضًا فإننا نعلم أن الصحابة والأئمة من بعدهم كانوا يتناظرون فى مآخذ أحكامهم ويعترض بعضهم على بعض، فلو كان الفصل بينهم لمجرد الاستحسان لكانت تلك المناظرات كلها عبثًا، كما لو تناظر الناس فى الأطعمة والأشربة فجعل بعضهم يقول لبعض: لم كان هذا أشهى عندك من الآخر.

وجملة القول: أن الحكم فى الدين بميل النفوس واستحسان الطباع مضاد للشريعة قطعًا، فلا يمكن أن يكون من الأصول المعتمدة فيها:

﴿أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ (٢٤) فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ﴾

(النجم: ٢٤-٢٥)

﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (٣٨) أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (٣٩) سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾

(القلم: ٣٧-٤٠)

وأما التفصيلى فنقول:

أما الآية الكريمة فإن غاية ما دلت عليه مدح اتباع الأحسن والأرجح، ونحن نقول به على شريطة أن يكون الحكم بالحسن والأحسنية ناشئًا من النظر فى أدلة الشرع ومقاصده، فمن أين لهم أنه استحسان الطبع والهوى مجردًا عن الاستناد إلى دليل شرعي، مع قيام الأدلة على أنه لا يقبل فى الشرع شيء مخالف لأدلة ولا شيء غير مخالف ولا موافق، اقرأ قوله تعالى:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾

(يونس: ٥٩)

فهو بين فى أن ما لم يرد فيه إذن من الله فهو افتراء على الله.

وأما كلام ابن مسعود رضى الله عنه فلا حجة لهم فيه قط، لأنه لم يقل: «ما رآه المسلم» وإنما قال: ما رآه المسلمون، فناط الاستحسان بجماعة المسلمين، فإن نظرنا إلى عموم لفظه فهو متناول لكل إجماع حجة، وإن نظرنا إلى سياقه فهو خاص بإجماع الصحابة رضى الله عنهم لأن لفظه كما رواه أحمد وغيره: «إن الله تعالى نظر فى قلوب العباد فاختار محمدًا فبعثه برسالته ثم نظر فى قلوب العباد فاختار له أصحابًا فجعلهم أنصار دينه ووزراءه فيه فما رآه المسلمون»[٩].. إلخ وعلى التقديرين فنحن نقول بمقتضاه ولا ننكره، لأنا نعلم أن الأمة

(٩) أخرجه أحمد فى المسند ٣٧٩/١، وفى فضائل الصحابة ٣٦٧/١ والحاكم ٧٨/٣ والخطيب فى الفقيه والمتفقه والمتفقة ١٦٦/١ والهيثمى فى المجمع ١٧٨/١ وقال رجاله موثقون وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح وهو موقوف على ابن مسعود ٢١١/٥ وقال الساعاتى مثله ١٧٠/٢٢.

وخصوصًا الصحابة لا ترى حُسنًا فى الدين إلا ما قامت الأدلة الشرعية على استحسانه ولا يصح بحال أن يكون المراد بعض المسلمين أيا كانوا وإلا للزم أن يكون استحسان العوام حجة أيضًا ولا قائل به، وللزم أن يكون الشيء الواحد حسنًا وقبيحًا معًا عند الله إذا اختلفت أهواء الناس فيه.

وأما سائر الأحاديث المذكورة فى السؤال فقد أنكرها جماعة من أهل العلم لمخالفتها القواطع[١٠] المتقدمة وقبلها جماعة منهم الإمام الطبرى فى تهذيب الآثار لما ثبت لديهم من استفاضة المعنى المشترك الذى تدور عليه نصوصها ورواياتها المختلفة، ولكنهم حصروا العمل بها فى مسألة واحدة وهى مسألة المتشابهات التى لا يدرى أحلال هى أم حرام؟ كمن أخبرته امرأة -لا يدرى أصدقت أم كذبت- أنها أرضعته وأرضعت مخطوبته، وكمن رأى صيدًا لا حراك به لم يدر أسمى عليه أم لم يسم عليه، وليس معنى العمل بفتيا القلب فى ذلك أن ما استحسنه المرء من فعل أو ترك فهو حكم الله فى حقه، بل المعنى طلب طمأنينة القلب وتنزيهه من شائبة الشك وذلك إنما يكون بإيثار الترك على الفعل عند التوقف فى الحكم.

وهذا الذى ذهب إليه الطبرى فى الجمع بين الأخبار وبين القواعد القطعية هو الصحيح غير أن الفرق بينه وبين مذهب أهل الأهواء فى موضوعنا قد يبدو دقيقًا جدًا محتاجًا إلى بيان شاف إذ رب قائل يقول:

إن الأخذ بفتيا القلوب فى المتشابهات هو عين تحكيم الطبع فى الموضع الذى يفتقد فيه دليل الشرع، وإن الاقتصار به على جانب الإحجام دون الإقدام لم يصنع شيئًا سوى أنه ضيق مجال الابتداع ولم يرفعه جملة، فإن كلا من الفعل والترك لابد أن يتعلق به حكم شرعى هو الجواز أو عدمه، فإذا علقنا عدم جواز الفعل على مجرد عدم طمأنينة النفس فقد أسندنا حكمًا شرعيًا إلى غير دليل وهو عين ما أنكرناه.

وقد حقق الشاطبى جواب هذا الإشكال تحقيقًا بليغًا، وقرر فيه قاعدة أصولية نافعة فى مواضع كثيرة، وحاصلها أن كل مسألة شرعية لابد فيها من نظرين: نظر فى دليل الحكم وأصل تشريعه، ونظر فى تطبيقه وتحقيق مناطه، وبعبارة أخرى أنه لابد فى كل مسألة من مقدمتين إحداهما وهى الصغرى يثبت بها الفعل الذى يتعلق به الحكم، والأخرى وهى الكبرى يثبت بها الحكم المتعلق بذلك الفعل، كما تقول هذا بيع، والبيع حلال أو هذا ربا، والربا حرام، فأما دليل الحكم وهو مضمون الكبرى فلا يكون إلا من الكتاب أو السنة أو ما يرجع إليهما، ولا تعتبر فيه طمأنينة النفس ولا ريب القلب إلا من جهة اعتقاد صحة نقل الدليل وصحة دلالته. وأما مناط الحكم وهو مضمون الصغرى فقد يتكفل الشرع بتحديده بدليل شرعي، وقد يكل تحقيقه إلى المكلف يثبته بدليل عقلي أو عرفي أو بأى وجه اتفق له ووقع فى قلبه

(١٠) ومخالفة النص الظني للقاطع دليل على وجود علة خفية فيه تقدح فى صحته، وإن كان صحيح السند بحسب الظاهر (د/ مرازا).

مثال ما تكفل الشارع ببيانه أنه لما أوجب الزكاة على الأغنياء لم يترك حدًا لغنى حتى قدره بالنصاب المعلوم، وكذلك لما أحل الطيبات وحرم الخبائث لم يترك للأهواء والطبائع تحديد الطيب من الخبيث، بل تولى بيان أصول كل منهما، ومثال ما وكل تحقيقه إلى المكلف أنه حرم كل ضار ولم يفصل أفراده، إذ رب شيء ينفع واحدًا ويضر آخر، وأباح من المحرمات كل ما ألجأ إليه الاضطرار فرخص لمن أصابته مخمصة أن يأكل الميتة ولحم الخنزير ولم يحدد قدر المخمصة بجوع ساعات أو أيام بل ناطها بما يجده المرء في نفسه من الاضطرار الحقيقي حين يخشى التلف والهلاك، وكل إنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره وكذلك حرم الصلاة والصوم لكل حائض في أيام الحيض دون أيام الاستحاضة، ولم يحدد عدة أيام الحيض بل ترك تقديرها لكل حائض بحسب عادتها وبحسب تمييزها لحيضها من استحاضتها، وإلى غير ذلك، فالمتروك للعقل والطبع والعرف(١١) والتجربة في هذه المسائل ونحوها ليس هو دليل الحكم بل هو مناطه.

ولذلك لا يشترط للناظر فيه أن يكون عالمًا فضلاً عن أن يبلغ درجة الاجتهاد فالعامي إذا سأل عن الفعل الذى ليس من جنس الصلاة إذا وقع فيها فقيل له إن كان كثيرًا فمبطل وإن كان يسيرًا فمغتفر لم يحتج في التفرقة بين اليسير والكثير إلى دليل أكثر مما يقع في نفسه من الفرق العرفي بينهما. فيبنى الحكم بينهما بالبطلان أو عدمه على ما وقع بنفسه من ذلك.

إذا تقرر هذا فمسألة المتشابهات من هذا القبيل إذ جعل الشارع مناط الحكم بالكف هو ما يختلج في صدر المرء نفسه(١٢) من الريبة والشبهة. أما دليل هذا الحكم فيها فهو النص الشرعي وهو قوله ﷺ فيما رواه البخاري: «الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور متشابهة، فمن ترك ما شبه عليه من الإثم كان لما استبان أترك ومن اجترأ على ما يشك فيه من الإثم أوشك أن يواقع ما استبان، والمعاصي حمى الله، من يرتع حول الحمى يوشك أن يواقعه»(١٣).

فاستفتاء المرء قلبه في هذه المتشابهات ليس اتباعًا لاستحسانه هو في الحقيقة وإنما هو اتباع لما استحسنه الشارع وناطه بهذه القاعدة الكلية.

(١١) مــن هنا يعــرف حل المغالطة الواردة على حديث (كل بدعة ضلالة) وهي أن العرف دائم التغير والتجدد في العصور والحكم الشرعي يختلف باختلاف العرف قطعا فكيف يكون بدعة ومطلوبا معا (د/ دراز).

(١٢) وإن لم يختلج في صدر غيره حتى إنه قد يكون الشيء حلالا لامرئ وحراما لغيره بحسب ما تحقق من المناط عند كل، فمن تحقــق عنــده كون هذه المرأة حليلته وكون هذا الطعام مذكى حل له الإقدام، ومن اختلــط عليه الطعام المذكى بغيره أو الحليلة بالمحــرم حرم عليه الإقــدام، ولذلك قال ﷺ (وإن أفتاك المفتون) فليس معناه وإن نقلوا لك الحكم الشرعي فاتركه واعمل بما يفتيك به قلبك فإن هذا باطل، وإنما المعنى أنه يطلب منك الترك متى أشكل عليك الأمر وإن لم يشكل على غيره لأن تحقيق مناطك أخص بك وربما لم يعرض لغيرك مثل ما عرض لك (د/ دراز).

(١٣) أخرجه البخاري عن النعمان بن بشير كتاب البيوع- باب الحلال بين والحرام بين وبينهما مشتبهات. ج ٣، ص ١٩٤، وأخرجه مسلم عن النعمان بن بشير – كتاب البيوع- باب أخذ الحلال وترك الشبهات. ج ٥، ص ٥٠.

نظرات في فكر الإمام الأشعري:



أصول نظرية العلم عند الإمام الأشعري (٢)

لفضيلة الإمام الأكبر أ.د. أحمد الطيب
شيخ الأزهر

أقسام العلم

مذهب الشيخ أن العلم ينقسم إلى علم ضروري وإلى علم كسبي، ويجب أن تنتبه - منذ البداية - إلى أن العلم المنقسم إلى هذين القسمين هو العلم الحادث لا العلم القديم الذى هو صفة من صفات الله تعالى، إذ العلم القديم لا ينقسم ولا تختلف مصادره، أو تتباين جهاته، ولا يقال فيه إنه ضروري أو إنه كسبي، بل المنقسم إلى هذين القسمين هو العلم الحادث فقط.

والعلوم الضرورية: هي العلوم التي يضطر الإنسان للتصديق بها اضطرارًا، أي: هي المعارف التي يصدق بها المرء ولا يجد لتصديقه بها تفسيرًا ولا تعليلاً لاضطراره بالتصديق بها

وقد اختلفت عبارة «الشيخ» في إطلاق معنى «الضرورة» على العلم أو على غير العلم من المعاني الأخرى، وكما ينقل ابن فورك فإن الشيخ قال في بعض كتبه: إن معنى الضروري ما حمل عليه الإنسان وأجبر عليه، ولو أراد التخلص منه لم يجد إليه سبيلاً، وقال في غيره من الكتب: إن الضرورة تستعمل في هذه المعاني على أحد وجهين:

أحدهما: بمعنى الحاجة كقوله تبارك وتعالى:

﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ ﴾
(المائدة: ٣).

وقوله سبحانه:

﴿ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ﴾
(الأنعام: ١١٩).

فهذه ضرورة الحاجة، أو تكون ضرورة على معنى ما يحدث فيه كارها له، كقول القائل:

اضطررت إلى فعل كذا، أو اضطرني السلطان إلى دفع مالي إليه: إذا أكرهه عليه(١).

وتستطيع أن نستنبط من هذا أن معنى الضرورة يدور حول معنى الاضطرار أو الإكراه، سواء كان هذا الاضطرار مقصودًا من جانب المضطر، مثل أن يقصد الشخص إلى فعل ما يضطر إليه من أكل ميتة أو من ركوب متن الأخطار والأهوال، أو كان الاضطرار غير مقصود للشخص، إلا أنه مفروض عليه ومضطر إليه، مثل أن يجبر الشخص على فعل معين هو له كاره.

ومن هذه التفرقة بين ضرورة يسعى إليها الشخص وبين ضرورة تفرض عليه فرضًا، يرى «الشيخ» أن الشيء الواحد قد يكون كسبًا من جهة، وضرورة من جهة أخرى، أى: يكون كسبًا باعتبار توجه قصد الفاعل ومباشرة الفعل، ويكون ضرورة باعتبار أن الفاعل مُضطرٌ ومُلجأٌ وكارهٌ لهذا الفعل.

وإذا كان الشيء الواحد يمكن أن يكون من جهتين مختلفتين كسبًا وضرورة، فمن هذا المنطق نفسه يُجوِّزُ «الشيخ» وقوع «علم» لا هو ضرورة ولا هو كسب، أى: علم لا يقصد إليه العالم ولا يستنبطه، وهو في الوقت ذاته غير مضطر ولا كاره له، ولم يضرب الشيخ مثلًا لهذا العلم الذى هو لا ضرورة ولا كسب، غير أن إمام الحرمين وهو بصدد تقسيم العلم يضرب مثلًا لهذا النوع من العلم بالعلم البدهى، والعلم الواقع على الحواس(٢)، ومن هذين المثالين يتضح أن المعنى الحقيقى الذى ينبغى أن يتضمنه مفهوم الضرورة هو معنى «الضرر» أو معنى «الإكراه».

ولا شك أن «بدهيات العقل» بهذا المعنى المقصود من لفظ الضرورة، ليست علومًا ضرورية؛ لأنها علوم تألفها النفس فى غير كره ولا ضرر، وكذلك مدركات البصر والسمع - مثلًا - يمكن أن تتصف بهذا الوصف، أى: تتصف بأنها غير مكتسبة عن طريق استنباط أو إعمال فكر ونظر، كما تتصف أيضًا بأنها غير ضرورية بالمعنى الذى حدده الجوينى وهو: الضرر أو الإكراه.

بيد أننا سنرى أن «الشيخ» يصنف بدهيات العقل - فى أكثر من موضع - تحت قسم الضروريات أو العلوم الضرورية، بل ويجعل مدركات الحواس من هذا القبيل أيضًا، وهذا يجعل رأى الشيخ يختلف فى المسألة الواحدة نفسها من موضع لآخر، وفيما أعتقد فإن ثمة تداخلًا واضحًا - فى كتابات الشيخ - بين الضرورى بالمعنى المقابل للنظرى، أى: بين الوضوح الذاتى من جهة، والاستنباط من جهة أخرى، وبين الضرورى بالمعنى المقابل للكسبى، أى: بين الاضطرار والإكراه من جانب، والإرادة والاختيار من جانب آخر.

والذى لا شك فيه أن الشيخ يقسم العلم الحادث بين نوع هو «ضرورى» ونوع ثان هو «كسبى»، وأن «الضرورى» يستعمله مرة بمعنى الكره والضرر- وهذا الاستعمال يصح معه انقسام العلم إلى أقسام، منها هذا القسم الموصوف بأنه لا هو ضرورى ولا كسبى - كما يستعمله مرة أخرى بمعنى العلم المركوز فى فطرة الإنسان، أو العلم اليقينى المبنى على العلم الفطرى، وهذا

(١) المجرد، لابن فورك، (اللوحة ٢/أ) ١٦.

(٢) الكافية فى الجدل، لإمام الحرمين الجوينى: ٢٩.

الاستعمال الثانى لا يمكن أن ينقسم العلم باعتباره إلا إلى قسمين اثنين فقط هما: العلم الضرورى، والعلم الكسبى(٣).

وأغلب الظن أن استدلال المعتزلة على نفى صفة العلم عن الله تعالى «بأن العلم لو ثبت لكان إما كسبًا وإما ضرورة، وكلاهما محال»، هو الذى دفع بالإمام الأشعرى إلى تحليل العلم الضرورى بالصورة التى أوضحناها، ذلك أن إبطال دليل المعتزلة هذا، لا بد فيه من أحد وجهين:

- فإما تسليم حصر انقسام العلم إلى ضرورى وكسبى فى الشاهد فقط ومنع ذلك فى الغائب.

- وإما منع هذا الحصر بتجويز قسم ثالث لا هو ضرورى ولا هو كسبى.

وأكبر الظن - أيضًا - أن الشيخ يرتضى الوجه الأول من هذين الوجهين وهو بصدد نقد دليل المعتزلة، وأن مذهبه فى ذلك هو: تسليم الحصر فى العلم الحادث، ومنع الانقسام فى العلم القديم. وأما منع الحصر فى الشاهد بتجويز علم خارج عن وصف الضرورة والاكتساب معًا، فقد كان مجرد احتمال أدى إليه نزاعه مع المعتزلة، والدليل على ذلك أن الشيخ - فى أكثر من موضع - صريح فى أن العلم الحادث منقسم إلى ضرورى وكسبى، فلو كان هناك قسم ثالث للعلم لما تم للشيخ حصر القسمة فى الضرورى والكسبى، ولعل هذا ما عناه إمام الحرمين بقوله - بعد تقسيمه للعلم إلى أربعة أقسام: علم ليس بضرورى ولا كسبى، وعلم كسبى وضرورى، وعلم ضرورى ليس بكسبى، وعلم كسبى ليس بضرورى -: «فقد حصل من جملة هذا فى الشاهد علم ليس بضرورى ولا كسبى، فلا ينكر فى الغائب أيضًا ثبوت علم لا ضرورى ولا كسبى»(٤).

وتستطيع أن نميز فى العلوم الضرورية - عند الشيخ بين مستويين:

- مستوى يسميه «الأشعرى»، أوائل العقول، وهو يوازى - تمامًا - القضايا الفطرية أو القضايا التى تسمى «الأوليات» تلك التى تستمتع بوضوح عال من الوضوح الذاتى، لا يمكن البرهنة عليه بحال من الأحوال.

- ومستوى يسميه: «ضروريات العلم»، وهى ما يوازى بقية اليقينيات، التى تستخدم كمبادئ أو مقدمات ثابتة لاكتساب العلوم والمعارف التى تبنى عليها.

ويرى الأشعرى أن هذا النوع الثانى - وهو «ضروريات العلم» - مشترك بين كل الناس إذا انتفت الآفات، «ولا يصح أن ينفرد بعضهم بالدعوى فيه بما لا يجده صاحبه، إذا اتفقت حواسهم فى الصحة، فأما إذا تباينت فسائغ»(٥).

أما النوع الأول - وهو أوائل العقول - فهو متفق عليه ومشترك بين العقلاء جميعًا، ويقرر الأشعرى أن العقل السليم لا يتصور اختلافًا حول أوائل العقول؛ لأن تجويز الاختلاف حول هذا النوع من الضروريات معناه: هدم الحقائق وإبطال كل الطرق المؤدية إلى إثباتها، وقد مثل الأشعرى لهذا النوع من العلم الضرورى بالمعارف الآتية:

(أ) العلم بأن الموجود لا يخلو من أن يكون أزليًا، أو أنه لم يكن فكان.

(ب) العلم بأن الجوهرين أو الجسمين لا يخلوان من أن يكونا متقاربين أو متباعدين.

ومن هذين المثالين اللذين أوردهما الأشعرى

(٣) المجرد، لابن فورك، (اللوحة ٢/ب) ١٣.

(٤) الكافية فى الجدل، لإمام الحرمين الجوينى: ٢٩.

(٥) المجرد، لابن فورك، (اللوحة ٤/ب) ١٦.

يتضح أن «أوائل العقول» – عنده – هي بعينها التي يعبر عنها في المنطق الأرسطي بالأوليات، ومدار هذين المثالين هو: استحالة اجتماع النقيضين؛ لأن المثال الأول يردد بين نقيضين لا يجتمعان ولا يرتفعان، إذ الموجود إما أن يكون أزليا، وإما أن يكون حادثًا، والأزلية والحدوث – بالمفهوم الأشعري – نقيضان أو في قوة النقيضين.

وكذلك المثال الثاني يُرَدِّدُ بين أمرين لا يجتمعان معًا ولا يرتفعان معًا عن أي جوهر أو جسم، فكل جسمين إما أن يكونا متقاربين، وإما أن يكونا متباعدين، والقرب والبعد بين جسمين محددين نقيضان أو في قوة النقيضين أيضًا.

ونستطيع القول بأن «استحالة اجتماع النقيضين» هي أول أوائل العقول في نظرية العلم عند الأشعري، وهي نقطة الارتكاز في عملية التفكير في فلسفته، شأنه في ذلك شأن كل الفلاسفة العقليين في انطلاقهم من قضايا بدهية يتأسس عليها الفكر البشري، وأولها: قضية استحالة اجتماع النقيضين.

ومن المعارف الضرورية – أيضًا – معرفة الإنسان بنفسه، وكذلك معرفته بصدق الأخبار المتواترة.

ويبدو أن الأشعري يستعمل مصطلح «الضرورة» هنا استعمالاً عامًا، أي إنه: لا يفرق فيه بين الضرورة بمعنى: «بدهيات العقل»، والضرورة بمعنى: «العلم اليقيني المكتسب»، وإلا فإن معرفة الإنسان بنفسه علم ينتمي إلى الضرورة بالمعنى الأول، بينما العلم بصدق القضايا المتواترة من قبيل اليقينيات أو الضرورة بالمعنى الثاني، والدليل على ذلك أن الأشعري نفسه يقول في هذا الصدد: «ومن هذه المعارف الضرورية ما يعلم أنها ضرورة بالاستدلال مما قد تنازعها المتنازعون، فقال قوم: إنها اكتساب، وقال قوم: إنها ضرورة، لأن العلم بأنها ضرورة ليس بضرورة، ولذلك تنازع الناس كثيرًا في المعارف، فقال بعضهم: إنها ضرورة، وقال بعضهم: إنها اكتساب» (٦).

وإذا فحديث الأشعري عن الضرورة هنا حديث عن القضايا اليقينية الرئيسية التي تشكل المنطلقات الأولية لليقين في المعرفة البشرية (٧)، أي ما كان منها أوليًا وما كان فطريًا أو مستدلاً ومبرهنًا عليه، فمعرفة الإنسان بنفسه قضية بدهية، ومعرفة الصدق في الخبر المتواتر قضية يقينية، والبون بينهما شاسع، برغم أن الأشعري قد سوى بينهما في معنى الضرورة في نصه السابق.

وثمة علوم أخرى يصنفها الأشعري تحت مفهوم العلوم الضرورية، هذه العلوم هي العلوم العادية، وهي العلم بما تقضي به العادة وتقتضيه مجريات الأحداث، فالعادة تحيل أن يكون الجبل الذي قد رأيته منذ لحظات قد انقلب إلى جبل من ذهب، أو القط الأليف الذي تركته في منزلي قد انقلب أسدًا مفترسًا، كما تحيل أن يكون بيننا الآن فيل أو وحش مفترس، فمثل هذه العلوم هي علوم ضرورية، أي: علوم يقينية وصادقة ولا يمكن التشكيك فيها بحال، غير أنها لا تدخل ضمن «أوائل العقول»، أو أنها لا تتمتع باليقين الذي تتمتع به قضايا هذا المستوى من العلم: فالفرق بين استحالة اجتماع النقيضين وبين استحالة انقلاب الجبل ذهبًا، فرق واضح جدًا لدى العقل.

(٦) م. ن: اللوحة ١١٩ (ب) ٢٤٨.

(٧) الأسس المنطقية للاستقراء، لمحمد باقر الصدر: ٤١٣.

إن الاستحالة في القضية الأولى لا تقبل جدلاً ولا مناقشة، وهي استحالة بينة بذاتها، فالأبيض واللا أبيض لا يجتمعان معًا في شيء واحد – في حكم العقل – ومهما أطلق الإنسان العنان لخياله فإنه لا يستطيع أن يتصور اجتماع النقيضين، والعقل قاض بهذه الاستحالة مهما تبدل به المكان أو الزمان.

والسبب في ذلك أن الحكم في مثل هذه القضايا حكم عقلي، فحيثما كان العقل فهو – لا محالة – مستبطن لهذا الحكم وجار على مقتضى مضمونه وفحواه، ولذلك كلما تصور العقل شيئين متناقضين، حكم باستحالة التقائهما على الفور – وليس الأمر كذلك فيما يتعلق باستحالة انقلاب الجبل ذهبًا، فصحيح أن هذا الانقلاب مستحيل، وأن العقل يستبعد ذلك استبعادًا تامًا، ولكن لأن الحكم هنا ليس حكمًا عقليًا بل هو حكم عادي، أي: هو مقتضى العادة وما تجري به الأمور – عادة – فالعقل وهو يتصور إمكان انقلاب الجبل ذهبًا، لا يقع في الحرج الذي يقع فيه حين يتصور إمكان اجتماع النقيضين، بل إنه مع استبعاده انقلاب الجبل ذهبًا فإنه يجوزه بصورة أو بأخرى، وانقلاب الجبل ذهبًا بعد أن كان حجرًا، لا تترتب عليه استحالة عقلية تمنع من تصوره أو تخيله.

ومن أجل ذلك، وبسبب اختلاف درجة اليقين بين العلوم العادية، وبين مبادئ العلوم – فرق الأشعري بين هذين النوعين: فجعل العلوم العادية من قبيل العلوم الضرورية، بينما جعل مبادئ العلوم من قبيل أوائل العلوم.

وقضية معرفة الله تعالى ليست قضية ضرورية بل هي – عنده – قضية كسبية؛ لأنها لو كانت ضرورية لما صح أن تحوم حولها خواطر الشكوك أو دواعي الإنكار، ولما رأينا أن ثمة عقولاً لا تعد كثرة ولا تحصى، قد صرفتها الصوارف، ودعتها الدواعي إلى إنكار هذه القضية وإلى القول بخلافها، علمنا أن هذه القضية ليست من القضايا التي يضطر إليها الإنسان اضطرارًا، بل هي مما تحصُل عنده بعد نظر وروية واستنباط ومقايسة، والقرآن الكريم نفسه قد أمر الناس بالعلم بوحدانية الله تعالى وبصفاته فقال تعالى:

﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾

(محمد: ١٩).

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

(البقرة: ١٩٦).

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

(البقرة: ٢٣١).

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾

(التوبة: ٣٦).

وآيات أخرى كثيرة ورد فيها الأمر بالعلم به تعالى وبصفاته والأمر بالعلم لا يمكن أن يتوجه على الضروريات المعلومة من قبل، وإلا كان هذا الأمر تحصيلا لحاصل.

فهذه الأوامر المتكررة في القرآن الكريم والمتعلقة بمعرفة الله تعالى تدل دلالة قاطعة على أن قضية معرفة الله تعالى قضية كسبية يتوقف تحصيلها على نظر واستدلال (٨).

وإذا فالعلوم الضرورية عند الأشعري؛ منها ما هو محل اتفاق بين الناس جميعًا، وهي: «بدهيات العقل» أو «أوائل العلوم»، ومنها ما هو مختلف في ضروريتها مما يراه البعض كذلك، ويراه البعض الآخر أمرًا مكتسبًا عن طريق النظر والاستدلال.

(يتبع)

(٨) المجرد، لابن فورك، اللوحة ١٢٠ (ب) ٢٤٩.

القرآن والعلم



الفيلسوف المسلم علي عزت بيجوفيتش

لا يحتوى القرآن الكريم على حقائق علمية جاهزة، ولكنه يتضمن موقفًا علميًا جوهريًا، اهتمامًا بالعالم الخارجي وهو أمر غير مألوف في الأديان، يشير القرآن إلى حقائق كثيرة في الطبيعة ويدعو الإنسان للاستجابة إليها، الأمر بالعلم (بالقراءة) لا يبدو هنا متعارضًا مع فكرة الألوهية، بل إنه قد صدر باسم الله:

﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾

(العلق: ١)

الإنسان بمقتضى هذا الأمر لا يلاحظ ويبحث ويفهم (طبيعة خلقت نفسها) ولكن الكون الذي أبدعه الله، ولذلك فإن الملاحظة ليست بلا هدف أو لا مبالية أو خالية من الشوق، وإنما هي مزيج من العلم وحب الاستطلاع، والإعجاب الديني، وكثير من أوصاف الطبيعة في القرآن على درجة عالية من الشاعرية، ويصور هذا أحسن تصوير الآيات التالية، فلنستمع إليها:

﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾

(البقرة: ١٦٤)

﴿إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ذلكم الله فأنى تؤفكون (٩٥) فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم (٩٦) وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون (٩٧) وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون (٩٨) وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها

وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون﴾

(الأنعام: ٩٥- ٩٩)

﴿هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون (١٠) ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون (١١) وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون (١٢) وما ذرأ لكم في الأرض مختلفا ألوانه إن في ذلك لآية لقوم يذكرون (١٣) وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾

(النحل: ١٠- ١٤)

﴿والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآية لقوم يسمعون (٦٥) وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين (٦٦) ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا إن في ذلك لآية لقوم يعقلون (٦٧) وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون (٦٨) ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾

(النحل: ٦٥- ٦٩)

﴿وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون﴾

(الأنبياء: ٣٣)

﴿فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد (٤٥) أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾

(الحج: ٤٥، ٤٦)

﴿أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم (٧) إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين﴾

(الشعراء: ٧، ٨)

﴿أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾

(الروم: ٩)

﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج (٦) والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج

﴿ ... (٧) تبصرة وذكرى لكل عبد منيب (٨) ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد (٩) والنخل باسقات لها طلع نضيد (١٠) رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج ﴾

(ق: ٦-١١)

﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت (١٧) وإلى السماء كيف رفعت (١٨) وإلى الجبال كيف نصبت (١٩) وإلى الأرض كيف سطحت ﴾

(الغاشية: ١٧ - ٢٠)

﴿ أفرأيتم ما تحرثون (٦٣) أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون (٦٤) لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون (٦٥) إنا لمغرمون (٦٦) بل نحن محرومون (٦٧) أفرأيتم الماء الذي تشربون (٦٨) أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون (٦٩) لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون (٧٠) أفرأيتم النار التي تورون (٧١) أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون (٧٢) نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين (٧٣) فسبح باسم ربك العظيم ﴾

(الواقعة: ٦٣- ٧٤)

فى هذه الآيات التى اتجهت بكليتها إلى الطبيعة نجد فيها تقبلاً كاملاً للعالم، ولا أثر فيها لأى نوع من الصراع مع الطبيعة، فالإسلام يبرز ما فى المادة من جمال ونبل كما هو الحال بالنسبة للجسم فى موقف الصلاة، والممتلكات فى الزكاة، إن العالم المادى ليس مملكة للشيطان، وليس الجسم مستودعًا للخطيئة، حتى عالم الآخرة، وهو غاية آمال الإنسان وأعظمها، صوره القرآن معموسًا بألوان هذا العالم، ويرى المسيحيون فى هذا حسية تتنافى مع عقيدتهم، ولكن الإسلام لا يرى العالم المادى مستغربًا فى إطاره الروحى.

بعض آيات القرآن توقظ الفضول الفكرى وتعطى قوة دافعة للعقل المكتشف:

﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾

(الأنبياء: ٣٠)

أو:

﴿ وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل ﴾

(الرعد: ٤)

والآية الأخيرة على الأخص تستفز الفكر، فهى تطرح مشكلة تكمن فى أعماق علوم الكيمياء، والنتيجة أن المسلمين هم الذين وضعوا النهاية للجدل الذى دار حول قضايا جوهرية استحوذت على المسيحية عندما اتجهوا إلى الكيمياء، وكان هذا تحولا من الفلسفة الصوفية إلى العلم العقلانى.

وفى جميع الآيات التى سبق اقتباسها من القرآن الكريم عنصر مشترك وهو الدعوة إلى الملاحظة، وهى فعالية بواسطتها بدأت قدرة الإنسان على العالم والطبيعة.

ولقد أثبت البحث فى أساس القوة الغربية، أن هذه القوة لا تكمن فى أسلحتها واقتصادها، فهذا هو المظهر الخارجى للأشياء فقط، وإنما يكمن فى الملاحظة والمنهج التجريبى فى التفكير.

من المستحيل تطبيق الإسلام فى الممارسة العملية انطلاقًا من مستوى بدائى، فالصلاة لا يمكن أداؤها أداء صحيحًا إلا بضبط الوقت والاتجاه فى المكان، فالمسلمون، مع انتشارهم على سطح الكرة الأرضية، عليهم أن يتوجهوا جميعًا فى الصلاة نحو الكعبة مكيفين أوضاعهم فى المكان - على اختلاف مواقعهم - وتحديد مواقيت الصلاة تحكمه حقائق علم الفلك، ولابد من تحديد هذه المواقيت، للصلوات الخمس، تحديدًا دقيقًا خلال أيام السنة كلها، ويقتضى هذا تحديد موقع الأرض فى مدارها الفلكى حول الشمس وتحتاج الزكاة إلى إحصاء ودليل وحساب، ويتصل الحج بالسفر وضرورة الإلمام بكثير من الحقائق التى يتطلبها المسافر إلى مسافات بعيدة، فإذا وضعنا الأمر فى أبسط صوره، وإذا صرفنا النظر عن أى شيء آخر، فى الإسلام، لوجدنا أن المجتمع المسلم، بدون أن يمارس أى شيء سوى هذه الأعمدة الخمسة للإسلام، يجب عليه أن يبلغ حدًا أدنى من الحضارة، ومعنى هذا أن الإنسان لا يستطيع أن يكون مسلمًا ويبقى متخلفًا.

كان هذا الاتجاه مقصودًا ولا شك، وتأتى الحجة على ذلك من تاريخ العلوم الإسلامية نفسها، فهى تبين لنا كيف أن تطور جميع الميادين العلمية فى القرن الأول الإسلامى قد بدأت بمحاولات تحقيق الفرائض الإسلامية بأكثر دقة ممكنة.

لقد كان هذا أكثر وضوحًا، فيما يتعلق بتطوير علم الفلك نجد فى كتاب (جنتسر) (تاريخ العلوم الطبيعية) حقائق تؤكد فاعلية العالم الإسلامى وإنجازاته فى مجال هذا العلم. وجد المسلمون فى وادى نهر الفرات علم التنجيم مزدهرًا، وقد جمع معرفة هامة عن الظواهر الفلكية عبر ثلاثة آلاف سنة، ولكن لأن الاعتقاد بارتباط مصير الإنسان بالنجوم، (وهو ميدان اهتمام علم التنجيم)، كان غريبًا عن الإسلام، فإن التوحيد الإسلامى والعقلانية الإسلامية استطاعت أن تحول علم التنجيم إلى علم فلك، وقد أنشئت لهذا الغرض مدرسة بغداد لعلوم الفلك، وسميت باسم مرصدها الشهير، ويتحدث «سيديلوت» عن ذلك، فيقول: (كان من أخص خصائص مدرسة بغداد لعلم الفلك منذ نشأتها - روحها العلمية - أن تنتقل من المعلوم إلى المجهول، وألا تقبل شيئًا كأمر ثابت ما لم يتم التحقق منه عن طريق الملاحظة)، وقد اقترب تقويم (الخيام) من الدقة التى يتميز بها التقويم (الجريجوري) الذى تستخدمه أوروبا حتى اليوم، أما قوائم (توليدو) التى تنسب إلى مؤلفها (إبراهيم الزركلي) وتختص بدراسة حركات الكواكب، فقد ظلت لفترة طويلة من الزمن أساس علم الفلك فى أوروبا، وأعلن (البيروني) أن الأرض تدور حول محورها أمام الشمس (وليست الشمس هى التى تدور حول الأرض كما كان شائعًا قبله) وذهب (ابن باجة) إلى أن مدارات الكواكب بيضاوية وليست دائرية.

هذا الاهتمام الفذ بعلم الفلك وبالعلوم الطبيعية خلال القرون الأولى للإسلام، كان نتيجة مباشرة لتأثير القرآن، لقد تحول الدين نحو الطبيعة، فبدأت مرحلة عظيمة فى تطور العلوم، وكان هذا من أعظم الإنجازات التى تحققت فى التاريخ.

إن احتضان الدين للعلم اتجاه إسلامى،

يمكن أن يرى فى أحسن صوره فى التحام المسجد بالمدرسة، ويرجع أول قرار لبناء المدارس قرب المساجد إلى الخليفة الثانى عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، وقد تكرر الأمر بذلك في عهد الخليفة هارون الرشيد (٧٨٦- ٨٠٨ م) ولم تنفصل المدارس عن المساجدإلا بعد ذلك بعهد طويل، وذلك عندما أنشئت المدرسة (النظامية) في بغداد، ومع ذلك فقد استمرت البرامج الدراسية قائمة على مبدأ (الوحدة ثنائية القطب) ذاته.

لم يكن المسجد خلال تاريخه كله مجرد مكان للعبادة، يقول «رسلر» مؤكدًا هذه الحقيقة: فى القرون الأولى للإسلام كان أى مكان يتجمع فيه أناس مخلصون سواء كان مدرسة أو ناديًا أو سوقًا يعتبر مسجدًا.

وقد نتج عن هذا الاتجاه ظاهرة لا تعرف إلا فى إطار الثقافة الإسلامية، وهى ما يمكن أن يطلق عليه (المسجدرسة)، وهو بناء فريد يجمع بين وظيفتى المسجد والمدرسة معًا، ولا يوجد له تسمية موازية فى اللغات الأوروبية، هذا البناء المتميز هو المعادل المادى أو التقنى لتلك المسلمة الإسلامية لوحدة الدين والعلم التى بدأ بها نزول القرآن نفسه:

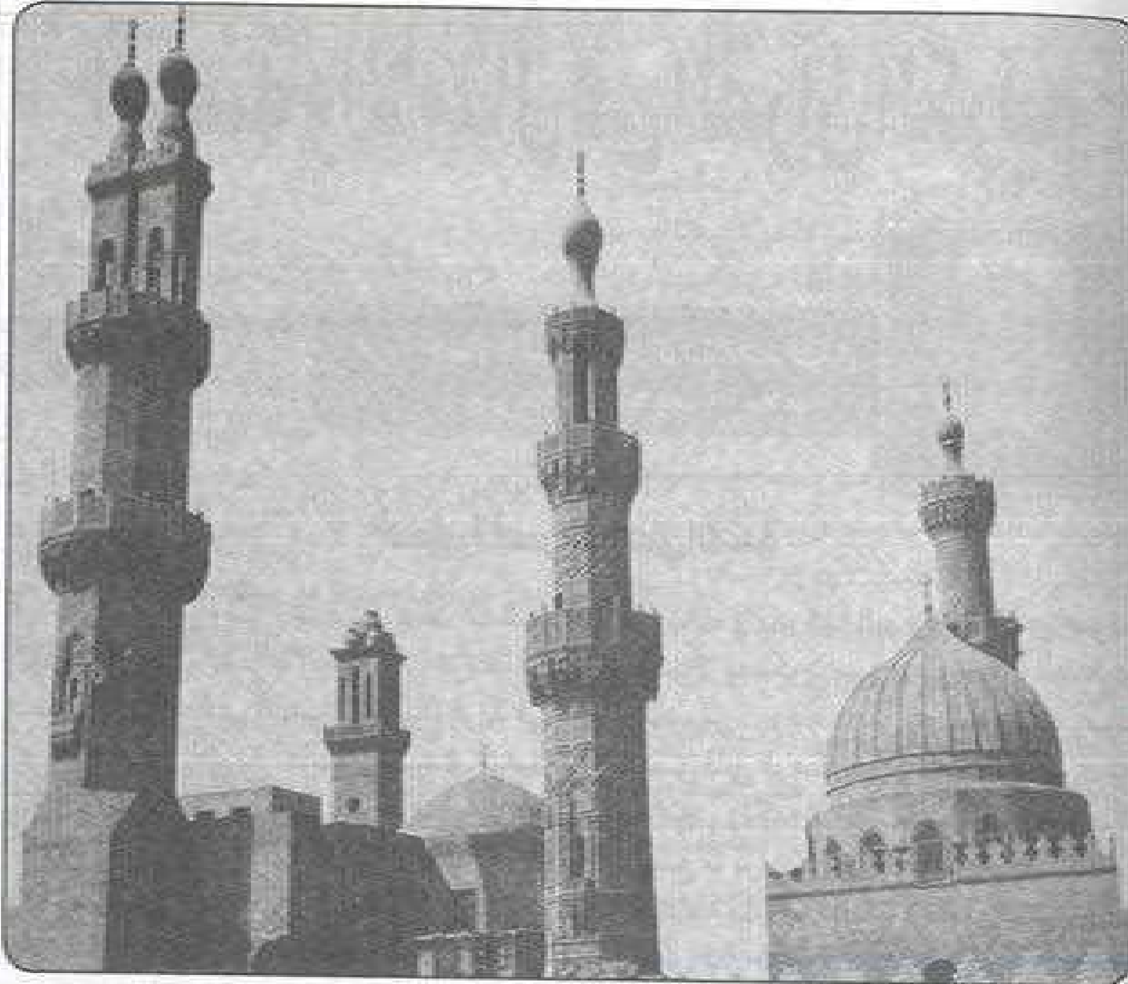
﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾

(العلق: ١)

وقد انعكس المفهوم نفسه فى جميع البرامج التى قدمتها هذه المدارس، وكانت المدرسة (النظامية) فى بغداد، لزمن طويل، نموذجًا للمدرسة الإسلامية فى كل مكان، وقد رأى الأوروبيون أن هذه المدرسة تعتبر مدرسة دينية عليا، والحقيقة أن برامج هذه المدرسة، إلى جانب اشتمالها على علوم الدين من تفسير وحديث وأخلاق وعقائد - كانت تعنى على المستوى ذاته بالقانون (الفقه) والفلسفة والآداب والرياضيات والفلك والحقائق الأساسية لعلم الطب، كجزء لا يتجزأ من برامجها، وقد كانت (النظامية) نموذجًا يحتذى لكثير من المدارس المماثلة، وأصبحت أكثر الأنماط شيوعًا فى جميع المدن الإسلامية الكبرى.

ولذلك لا يمكن تصنيف المدارس فى العالم الإسلامى وفقًا للمعايير الأوروبية، التى تقسم المدارس إلى مدنية ودينية، فهذا النوع من المدارس، اعتبرها المسلمون جميعًا أمرًا طبيعيًا، لأنها انبثقت مباشرة من الروح الإسلامية، وقد ظل الموقف سائدًا إلى الوقت الحاضر، وحيثما وجد اختلاف فمرجعه إلى التأثير الأجنبى، الوضع الأصلى للمدرسة يتوازى مع المفهوم الإسلامى الأساسى الذى يوحد بين الدين والعلم، فأزهر القاهرة هو أكبر وأقدم مدرسة (أنشئ سنة ٩٧٢ م)، ويشار إليه دائمًا كمسجد وجامعة.

ولم يقتصر التعلم فى الأزهر على الدين فقط، إلا فى أحلك فترات التدهور، وفى سنة ١٩٦١م تم إصلاح الأزهر واستعاد خاصيته الأصيلة المتكاملة، وفى باكستان عهدت الدولة إلى أئمة المساجد بتنفيذ برامج محو الأمية، وهو إجراء صحيح فى حد ذاته، وإن كان يتم بفعالية غير كافية، ويوجد نموذج مماثل فى إيران، حيث يقوم الجنود المتعلمون الذين يؤدون الخدمة العسكرية من خلال تعليم الأميين القراءة والكتابة.



وحيث تستخدم المساجد كمبان مدرسية.

إن (المسجدرسة) أحد الرموز الإسلامية المعبرة التى لا تقبل الزيادة أو النقص.

إن توجه الإسلام نحو العالم الخارجى يمنحه واقعية خاصة فى فهمه للإنسان، فتقبل الطبيعة بصفة عامة يتضمن أيضًا تقبل الطبيعة الإنسانية، لقد رفضت جميع الأديان الأخرى هذا العالم، بما فى ذلك جسم الإنسان، والإسلام هو تحقيق الهدف المستحيل فى نظر المسيحية، ألا وهو الاعتراف بواقعية العالم، وتبدو بعض الآيات القرآنية غريبة فى نظر الدين المجرد، (على سبيل المثال تلك الآيات المتعلقة بتقبل المتعة البدنية والحب الجنسى، والكدح والصحة)، وهكذا تبلورت أكبر حقيقة حاسمة فى تاريخ الأديان وفى تاريخ العقل الإنسانى بصفة عامة، تميزت بظهور دين العالمين، أو ظهور النظام الذى يحتضن الحياة الإنسانية بكل جوانبها، وتحقق الإنسان أنه ليس فى حاجة إلى أن يرفض الدين من أجل العلم، أو يتخلى عن الكدح فى سبيل حياة أفضل من أجل الدين، إن الأهمية البالغة للإسلام تكمن فى حقيقة أنه لم يغفل وجود المعاناة، وضرورة النضال ضد المعاناة وهذا هو المحك الحاسم فى التاريخ الإنسانى.

القصة والأمثال فى القرآن الكريم

الأستاذ الدكتور محمد المختار محمد المهدي
عضو مجمع البحوث الإسلامية



أسطورة قصر الفن على المتعة

نمط فريد، ونوع ممتاز.. ذلك النسق القصصي فى القرآن الكريم.. فريد فى نسجه، فريد فى غايته وهدفه، فريد فى تصويره لواقع التاريخ، فريد فى المدى البعيد لتأثيره على المسلمين، فريد فى التربية بكل كلمة، وبكل حرف.. ليس ذلك تحيزا ولا تعصبا.. ولكنها الحقيقة الواضحة، والاستقراء الواعي لما يلقى على الأسماع.

ولطالما أنس الإنسان باستماعه إلى أخبار الأولين.. حبا منه لاستطلاع سر هذا الوجود الغامض، إذ إنه لا يستطيع أن يحقق كل ما يريد من آمال، ولا يستطيع أن يستشف من داخل نفسه ماذا سيحدث فى المستقبل؟ ولكم رأى إخوة في الإنسانية ساروا فى درب الحياة لا ينقصهم الذكاء ولا الطاقات، وإذا أقدامهم تضل الطريق، وعاد إلى من يحيط بهم يتساءل عن سبب هذا الفشل.. وظل يستمتع بالإصغاء إلى القصص تحكى على مسامعه الأحداث والمفاجآت.. وإذا هو يسمع من أغوار نفسه صوت الواقع: أليس هذا الذى حدثت له تلك المخاطر بشرا مثلما نحن بشر؟ أليس هذا نذيرا وتحذيرا؟ لكنه يطامن من حيرته وهلعه باحتمال أسباب خفية أدت بهؤلاء إلى الأخطار.. وهذه الأسباب لا يدركها الرواة ولا القصاصون، لأنهم لا يملكون سوى الوصف الظاهرى الملموس.. وهنا يحس هو أيضا أنه أصابه الفشل فى الوصول إلى سر ما يجرى من أحداث.. ولكنه لا يجد متنفسا له سوى أن يسمع ما يروى محاولا أن يتخذ مما تطمئن إليه نفسه مقياسا لحياته وتصرفاته.

ومن هنا حرص المرء منذ القدم أن يصيخ سمعه إلى القصة والرواية والتمثيلية، وبمقدار ما فيها من إثارة وحركة وحيوية تجعله يتفاعل مع الأحداث، وتنقله إلى الجو الذى حدثت فيه، يكون أنسه إليها وإعجابه بها.

وإن فى تاريخ كل لغة قصصا وحكايات تدور على ألسنة المتحدثين بها، وتحمل لهم غرائب ما حدث للسابقين.. وفى لغتنا العربية فى العصر الجاهلى ثروة من هذه القصص طمست معالمها أمية العرب، وعدم اعتنائهم بتسجيل ذلك التراث، ولم يبق منها سوى رموز إليها تسمى بـ الأمثال، وما هى إلا عناوين فقط لقصص شاعت وذاعت فى محيط العرب الأولين، متمثلة فى مضارب هذه الأمثال.

وجاء القرآن الكريم يقص أنباء السابقين، على غير ما ألفوا من القصص، فالتف حوله العرب يستمدون منه المتعة الفنية، والعبرة السلوكية، وإزاء هذا الإعجاب والالتفاف من العرب حول القصة القرآنية حدثت محاولة من الحاقدين لصرف الناس عن هذا القصص، فانطلق «النضر بن الحارث» يتلقى قصصا فارسية ويجلس إلى القوم يحدثهم عن «رستم»(١) وعن «اسفنديار» ويصف لهم ما لدى الفرس من خرافات.. ولكن هذه المحاولة نفسها كانت فى صالح القصة القرآنية إذ كانت فرصة للموازنة والمقارنة عند السامعين، وإذا هم يدركون الفرق الشاسع والبون العريض بين العجز والإعجاز، بين الأرض والسماء.

ذلك أن حقيقة مهمة قد تغيب عن الأذهان فى إدراك سر هذا الإعجاب من العرب.. تلك هى أن الحكم على الشىء بأنه رائع أو فاتر يعود إلى وسائل التأثير فى المخاطبين.. فالسامع يحس حين يهتز قلبه لما يسمع بأن هناك قوة جبارة خرقت حجب قلبه، واكتشفت موطن الإثارة فيه، فحركته كما تشاء، فاستحال إلى معجب بتلك البلاغة الآسرة التى نفذ شعاعها إلى مشاعره، وبلغ سحرها إلى فؤاده.. ومن هنا يخضع الإنسان لهذا العمل الفني ويسميه «بلاغة» ويسمى صاحبه «بليغا».. هذه الحقيقة تساعدنا على أن نفهم كيف كان القرآن معجزا للبشر.. وللبشر جميعا.. حيث إن حلاوته قد سلكت طريقها إلى كل قلب، وانشرح لها كل صدر حتى صدور أعدائه ومعانديه الذين دلفوا فى الظلام إليه، لأنه يعلو ولا يعلى عليه، والقضية سهلة ومعقولة.. فالذى أنزله هو الذى يعلم مدى وقع الكلمة على القلب، لأنه وحده يعلم تفاصيل هذا القلب، فهو الذى خلقه، وهو الذى أودع فيه مشاعره وإحساساته

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾

(الملك: ١٤)

ومن هنا يتمتع القارئ والسامع لكتاب الله فى أى جيل من الأجيال دون أن يعرف كل الأسرار لما يسمع من آيات، وستظل كل آية منه تحمل شحنة قوية إلى كل العصور.. ولن تنتهى قوتها، ولن ينقص حجمها ما دامت حياة البشر، لأن فى زواياها طاقة تسع كل الأجيال.. وبهذا لن يستنفد القرآن أغراضه وسيبقى بكرا إلى أن يأذن الله للدنيا بالفناء.

القصة القرآنية ومبدأ الالتزام

قد يكون ذلك وحده مبررا كافيا لإدراك الحقيقة التى صدرنا بها هذا المقال وهى أن القصة فى القرآن نمط فريد ونوع ممتاز، ولكن ماذا يكون الموقف لو علمنا أيضا أن هذه القصة هى أول قصة فى لغتنا العربية عرفت «الالتزام» وحددت رسالة الأدب بمعناه الإنساني الرفيع ووظيفته الاجتماعية الرائدة، فلم تسف القصة فيه إلى درك شهواني، أو إلى إثارة الغرائز الرخيصة، أو إلى تسلية الوقت وقتل الفراغ كما هو حادث الآن فى قصصنا الذائع، وكما كان موجودا قبل عهد النبوة وفيما نقله «النضر» من قصص فارس وخرافاتها.

إن بعض الباحثين اليوم ينكرون للقصة غاية خاصة لأن التزام فكرة معينة يؤدى إلى إقحام كل ما من شأنه أن يساعد على إبرازها

(١) رستم أو رستم دستان أو رستم بن زال يسمي بالفارسية (رستم بسر زال) هو بطل أسطوري فارسي خيالي أبدعهم صيتا وأبقاهم ذكرا.

دون أن يهمه ما إذا كان له دخل في نسج القصة أو لا، فينقلب القصاص إلى داعية، ولنا مع هذا الفريق نقاش، هل يقصد بذلك ألا يتخلى الكاتب عن فنه في سبيل هدفه وفكرته؟ إذا كان هذا هو المراد فإننا نعضد ما يقول.. أم يقصد أن يتخلى الكاتب عن هدفه من أجل فنه بحجة أن الفن يجب أن يكون هدفه لذاته من حيث المتعة والجمال فقط؟ إن كان ذلك هو المقصود فهي دعوة إلى استخدام الفن في هدم المجتمع.. بل ودعوة إلى هدم قيمة الفن فقيمته ليست في المتعة فقط.. ولكن «المتعة والفائدة معا»، وبذلك يتسامى الفن وتكون له رسالة تحميه من الضياع.. وبهذا تميز القصص القرآني في التزامه الوظيفة الاجتماعية للأدب بحيث يجعل من القصة معبرًا إلى هدف، لا قتلا للوقت، وتسلية للفراغ، ومع هذا يتكفل بتحقيق المتعة الفنية معتمدا على تخير اللفظ المصور الذي يؤدى دور المنظر المحس المشاهد، فما إن تقرأ القصة أو تسمعها حتى تحس أنك تنظر وتشاهد، بل قد تشعر بأنك فرد يتفاعل ويشترك في نفس الأحداث.

القصة بين الحقيقة والخيال

وكان من مقتضيات هذا الهدف النبيل أن تعرض القصة عن التفاصيل التي لا تفيد العبرة المقصودة، فذلك شأن القصة التاريخية التي تهتم بالأسماء والأماكن والأزمنة، وتجعل ذلك أساسا لنسجها الفني.. ولكن.. وبالأسف.. بدلا من أن تكون هذه الميزة الفريدة مفخرة للقصة القرآنية اتخذ منها البعض مطعنا في صدقها وواقعيتها، وثار جدل كبير حول هذا الموضوع والتبس الأمر على كثير من الأقلام اللامعة في المحيط الأدبي والجامعي في عصرنا الحاضر من أولئك الذين تأثروا بما كتبه بعض المستشرقين بقصد سيئ وغرض خبيث، متبعين سبلا ملتوية المسالك موحدة الغرض، فلقد ألقوا على كلامهم بريقا من الخداع والتمويه الذى ينطلي على السذج وقصار النظر. قال بعضهم: «إن القصة القرآنية هي أول قصة حرة في اختراع أشخاص خياليين أو حقيقيين لتصل إلى غرضها المنشود.. وإنها قد التزمت المنهج الأدبي البحت- وهو يعنى في اصطلاحهم أن لا غبار على ملتزمه أن يتخيل ما شاء له الخيال- وساقوا إهمالها لذكر الأمكنة والأزمنة والتفاصيل دليلا على ذلك، وخلاصة ما يهدفون إليه أن القرآن لا يلزمنا باعتقاد أن هذه القصص تتحدث عن حقائق وقعت، أو شخصيات وجدت، ولكن قد تكون ذلك وربما لا تكون، إذ إن القرآن ليس سجلا لأحداث تاريخية!

وقد تبع هؤلاء منهجا بعيد المغزى يهدف إلى زعزعة قداسة القرآن في نفوس متبعيه، ثم إلى إثبات الكذب التاريخي فيه.. ليصلوا من كل ذلك إلى أن هذا القرآن ليس من عند الله، لأن الله لا ينبغي أن يكذب!! لكنهم لا يبدون سافرين هكذا، فللمسلمين عقول!! ولذلك يلجأون إلى اللف والدوران بالألفاظ البراقة في امتداح القرآن والثناء عليه ذرًا للرماد في العيون.. وقد مثل هذا الفكر من المستشرقين «مرجليوث» «٢» وعارضه في أدلته المستشرق الآخر «أربر» «٣»، ورغم هذا فإن أفكار «مرجليوث» هي التي راجت

(٢) ديفيد صموئيل مرجليوث ولد في ١٧ أيلول ١٨٥٨ في لندن من أب أنجليكاني مبشر من أصل يهودي، عمل لفترة قسا في إحدى كنائس لندن، وبدأ حياته العلمية بدراسة اليونانية واللاتينية، ثم اهتم بدراسة اللغات السامية والعربية خصوصا فأصبح من كبار المستشرقين.

(٣) آرثر جون آربري: مستشرق بريطاني اختص في التصوف والأدب الفارسي ولد في بورتسموث ١٢ مايو ١٩٠٥- توفي في ٢ أكتوبر ١٩٦٩م.

في عقول بعض المسلمين المغرمين بكل جديد وغريب!!

إن نقل كتابنا هؤلاء لهذه الأفكار الغربية عن الإسلام ليؤدى إلى نتيجة واحدة هي التشكيك المريب، وتهوين الثقة في صدق القرآن.

ولنا مع هؤلاء القوم نقاش وتساؤلات: ما المانع أن تكون أحداث القصة قد وقعت فعلا ويرويها القرآن ليستخلص منها العبرة؟ ومن الذى خص الأدب بالتعبير عن الخيال، وبعد به عن تصوير الواقع؟ وهل العبرة لا تحصل إلا إذا كانت القصة خيالية؟ وهل إذا علم الجمهور أن القصة المعروضة عليه من وحي الخيال كان أكثر تأثرا مما لو علم أنها حقيقة واقعية، أم العكس هو الصحيح؟ وهل هناك مانع أن تكون حقيقية ومؤثرة في آن واحد؟ وكيف واجه القرآن بهذه القصص المختلقة- كما تدعون- ثقافات اليهود والنصارى وما كان يحكى من الآباء للأبناء والأحفاد في جزيرة العرب عن ماضيهم وتاريخهم؟ إذن لكانت فرصة ثمينة للطعن على النبي بأنه يفترى ويختلق ويكذب، مع أنه ظل لديهم الصادق الأمين طول حياته؟ وكيف ذكر القرآن في سياق كثير من قصصه تنبيهًا إلى العقول أن تبحث؟ هل تبحث عن خيال لم يقع؟ إنه في قصة «لوط» مثلا يقول:

﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

(الصافات: ١٣٧، ١٣٨)

هل هناك أصدق ممن يشير إلى موقع الحادثة ويدعو إلى البحث والاقتناع بآثارها؟! وفي قصة «موسى» يتحدث عنها، ويحكيها كما لو كان سيدنا محمد يقف شاهدا لها ويسوقها دليلا على صدقه في الوحي المنزل فيقول:

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾

(القصص: ٤٤)

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾

(القصص: ٤٦)

وإذا كان النبي ليس من الشاهدين فكيف يحكيها بهذه الدقة المعجزة الصادقة إلا إذا كان موحى إليه؟

وقصة «يوسف» تبدأ هكذا:

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ﴾

(يوسف: ٣)

وتنتهي هكذا:

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾

(يوسف: ١٠٢)

نعم، من ذا الذي كان مع إخوة يوسف حين اتفاقهم على رميه في الجب؟ وكيف استطاع النبي أن يعبر عن ذلك دون وحي من الله؟

وبنفس الأسلوب تتحدث قصة «مريم»:

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾

(آل عمران: ٤٤)

وتنتهي قصة «نوح» في سورة هود بقول الله:

﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾

(هود: ٤٩)

وتبدأ قصة «آدم» يقول الله عن رسوله:

﴿ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾

(ص: ٦٩)

وهنا تقف كل وسائل البشر مدهوشة عاجزة لا تستطيع أن ترقى إلى الملأ الأعلى.

ألا تحمل هذه الأساليب فى طياتها تحديا واضحا لكل ثقافات العالم- يومئذ وبعدئذ- أن تأتى بهذه الحقائق التاريخية بهذه الدقة وبهذا العمق الذى يصل إلى أدق المواقف حتى ما يعمل فى نفوس الأشخاص من مشاعر وأحاسيس؟ وهل يثبت القرآن صدق الرسول بقصص كاذبة؟ وأين هذا المصدر الذى ترونه أصدق من كتاب الله فى رواية هذا القصص؟ وهل أتى مصدر تاريخى صحيح بما يتزحزح قيد شعرة عما جاء به القرآن؟

إن من السخرية بالعقل والتفكير أن ينطلى هذا الهراء على إنسان يحترم عقله وتفكيره! وعجبا ثم عجبا لما يدعيه بعض آخر منهم أن ما يكتشفه العلم الحديث من أخبار القرآن تصدقه، وما لم يكتشفه العلم لا تلزم تصديقه!! أهكذا نخضع القرآن وأخباره الإلهية إلى اكتشاف العقل الإنسانى؟ وهل إذا لم يكتشف العقل أخبار القيامة- وهو لن يكتشفها- نرفضها أيضا؟!

إن المشكلة الحقيقية مشكلة إيمان وكفر.. مشكلة الحقد الأسود على القرآن الذى لبى كل متطلبات النفس الإنسانية السوية ووحد كل مشاعرها حول قطب التوحيد الخالص. أما حجتهم فداحضة بمجرد النظر الواعى الذى لا يستعمل أسلوب المغالطات.. نعم، إن القرآن لم يقصد إلى التاريخ، ولكن ليس معنى هذا أن يتخيل أشخاصا وقصصا غير واقعية، ويتخذ منها مادة لأهدافه، فكل كلمة، وكل حرف ورد فى القرآن صدق وحقيقة

﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾

(النساء: ٨٧)

ولا منافاة مطلقا بين نسج القصة وبين إهمال الأزمنة والأمكنة والأشخاص، فهناك نوع واحد من القصص هو الذى يلتزم ذلك فى بنائه الفنى وهو القصص التاريخى فقط.. أما الأقصوصة- مثلا- فقد اشترط الباحثون المحدثون فيها ألا تهتم كذلك بترتيب الأحداث حسب ظهورها، فهى تلتزم فكرة واحدة معزولة عن كل شيء، ولا تخضع للحبكة، ولا تعنى بالتفاصيل، ولا تهتم إلا بما له علاقة مباشرة بالحادثة أو الفكرة، ولا يلزم لها بداية ونهاية، بل قد تكون صورة أو مشهداً أو جوا نفسيا خاصا كلمحة من حياة البطل، وقد ظهر هذا الفن بظهور الكاتب الروسى «نيكولاى» (٤) سنة ١٨٠٩م وإليه ينسب الغربيون الفضل فى إنشائه.

وإننا لا نذكر هذا دليلا أو برهانا على فنية القصة القرآنية، فحاشا لهؤلاء البشر أن يقوموا نتاج خالق البشر.. ولكننا نذكره فقط دليلا على أن البشر يلحظون من تجاربهم خصائص يرونها أدعى إلى التأثير فى المخاطبين.. وبمقدار ما يلحظون يقربون من الحقيقة القرآنية الكبرى التى تعلم وقع الكلمة على القلب، وتأثيرها على النفس، لأنها صادرة ممن خلق القلب والنفس.. لا تخفى عليه خافية، ولا تند عنه شاردة.

(يتبع)

(٤) كاتب روسى يعد من آباء الأدب الروسى، ولد فى ١ إبريل ١٨٠٩م وتوفى فى ٤ مارس ١٨٥٢م، من أعماله الأكثر شهرة رواية «النفوس الميتة»، وقصته القصيرة «المعطف»، بالإضافة إلى المسرحيتين الكوميديتين «المفتش العام» و«خطوبة».

الرق فى الإسلام (الأخيرة)

الاسترقاق عند المسلمين اليوم



للإمام محمد البشير الإبراهيمى

ترك المسلمون منذ قرون صفة الجهاد فى سبيل نشر دعوتهم الدينية، فلم يبق سبب للاسترقاق الحقيقى؛ والموجود عند بعضهم اليوم من الرقيق إنما هو متوارث أو مجلوب من الشعوب الوثنية فى أفريقيا، أو مجلب عليه بالقوة من غير الوثنيين، وهذان النوعان الأخيران قد يدخلهما التزوير من الجانبين، وحكم إباحة الاسترقاق فى الإسلام قائم لا تنسخه هذه القوانين الوضعية، وغلبة الظن محكمة فى الإسلام ولكن الأحوط فى مسألة الاسترقاق هو اليقين، فإذا غلب الظن فى صحة الرق رجعنا إلى القاعدة العامة، والمقصد الأمين وهو تشوف الشارع للحرية، وغلبنا جانبها على جانب الاسترقاق، فإذا كان المالك من المتأدبين بأدب الإسلام ومنها إكرام الإنسانية فى شخص الرقيق، والإحسان إليه، ومعاملته على أساس الأخوة لا العبودية، فهنا يسوغ له الإقدام على ملك الرقيق المشبوه بغلبة الظن مادام الملك ينقله من حالة سيئة إلى حالة حسنة، وعلى الجملة فالقضية فى هذا الزمان من المتشابه الذى تعتوره أحكام الحظر والإباحة، والمبالغة فى الاحتراز أقرب إلى رضا الله وإلى قصد الشريعة.

ونقول إنه إذا كان الاسترقاق مباحًا بشروطه فإن باب العتق مفتوح على مصراعيه، فإذا ملك بنية العتق فإن عمله أعرق فى الإنسانية وأدنى إلى مراضى الله.

إذا تقرر فى الذهن ما أصلناه فى هذه الفصول القصيرة لم يبق معنى لهذه الضجة التى يتردد صداها حينًا بعد حين فى ما وراء البحار من أوروبا وأمريكا فى التشنيع على الإسلام بأنه يبيح الاسترقاق، وعلى المسلمين وحكوماتهم بأنهم يزاولون شراء الرقيق ويبيحون الاتجار فيه، وما لهؤلاء القوم المشنعين على الإسلام لا يمنعون تجارة «الرقيق الأبيض» المتفشية بينهم، والمسجلة عليهم وعلى حضارتهم عارًا لا يمحى؟ وما بالهم يرون القذاة فى أعين غيرهم، ولا يرون الخشبة المركوزة فى أعينهم؟ وما بال إنسانيتهم انحصرت فى الإشفاق على عشرات أو مئات أو آلاف من العبيد يملكهم المسلمون بإحسان، ولم تتسع رحمتهم وإشفاقهم لمئات

الملايين من الشعوب التى استعبدوها فى أفريقيا وآسيا، فأذلوا رقابهم، ومسخوا معنوياتهم، وجردوها من كل أسباب الحياة؟

ثم إن لنا موقفًا نصفى فيه الحساب مع هؤلاء الكتاب الناعقين، ومن وراءهم من الحكومات المتفقة على إبطال الاسترقاق، ونرد عليهم دعواهم وزعمهم أن ذلك القانون هو أشرف عمل إنسانى تم على أيديهم وسبقوا إليه كل من مضى ومن حضر من الدول والأديان، وأنه هو الغرة اللائحة فى جبين هذه الحضارة، والصفحة المشرقة فى تاريخها، إلى آخر ما يفيضونه من النعوت على هذه «العملية».

- نقول لهم أولاً: أمن الإنسانية ما تفعله أمريكا مع الزنوج إلى اليوم، وما تفعله جنوب أفريقيا مع الزنوج فيها؟
- ونقول لهم ثانيًا: أمن الإنسانية والتحرير، استعماركم لأفريقيا وآسيا؟ وما فعلتموه من الفضائح فى فتحهما، وما تفعلونه من الموبقات إلى اليوم فى استعباد أهلها؟

قد يكون كلامكم فى إلغاء الاسترقاق صحيحًا ومعقولاً عند الناس لو لم تقرنوه بجريمة الاستعمار فى آن واحد، فلم تزيدوا على أن سفهتم أنفسكم، ونقضتم قولكم بفعلكم، وصيرتم تلك الغرة المزعومة، عرة معلومة، من الذى يصدقكم فى تحرير الآلاف من العبيد، بعد أن استعبدتم مكانهم مئات الملايين؟ فكأنكم ما وضعتم ذلك القانون إلا تلهية للعالم، وتغطية عن الجريمة التى ارتكبتموها، وكأنكم ما رضيتم للشعوب الضعيفة أن تسترق أفرادًا، فألغيتم ذلك النوع الفردى، وأبدلتموه بالاسترقاق الجماعى «وبالجملة» على لغة التجار.

فكان حقًا عليكم - لولا النفاق - أن تزيدوا كلمة فى عنوان ذلك القانون فيصير «إلغاء الاسترقاق الفردى» ولو فعلتم لكنتم صادقين فى الواقع، وإن كذبتم على الحقيقة والتاريخ، والكذب فى الشر يصيره شرين.

إن هؤلاء القوم لم يزيدوا على أن حرروا العبد زعمًا، واستعبدوا الأحرار فعلاً، ثم لجوا فى الزعم سترًا للشناعة وتغطية عن الشر، وإلهاء للأغرار، وهيهات أن تغطى الشمس بالغرابيل. وإذا كان إلغاء الرقيق عملاً إنسانيًا، فاستعباد الأحرار بماذا يسمى؟ وأنهار الدماء التى سالت بالأمس القريب فى الهند الصينية وفى كوريا، والتى تسيل اليوم فى شمال أفريقيا وشرقها.. تسيل، فى أى سبيل؟

أيها القوم العائبون على الإسلام.. لا تنهوا عن المنكر الجزئى حتى تنتهوا عن المنكر الكلى.. واذكروا ما هو محسوب عليكم وعلى حضارتكم من المتناقضات الشنيعة، وأشنعها أنكم استعبدتم شعوب أفريقيا كلهم نساءها ورجالها وأطفالها أبشع استعباد وقع فى التاريخ، ثم جئتم تتباكون على مئات منهم نقلوا من الاستعباد الغاشم إلى الاستعباد الراحم، ومن الاستعباد الذى يجيع البطون، ويعرى الظهور، ويُخرج من البيوت - إلى الاستعباد الذى يشبع ويكسو ويئوى وبعبارة أجمع.. من الاستعباد الذى يميت إلى الاستعباد الذى يحيى.. ومن استعباد لا ضمير له، ولا إنسانية فيه، ولا رحمة معه، إلى استعباد كله ضمير وإنسانية ورحمة.. ومن استعباد حقيقى إلى شىء ليس فيه من الاستعباد إلا اسمه.

لقد فضحكم الله بشىء أعماكم الغرور عن التبصر فيه. فكانت أفريقيا هى الفاضحة. إن قانونكم الذى تتبجحون به كان منصبًا على

أفريقيا، وكانت هى المعنية به، إذ كانت سوقًا لتجارة الرقيق.. ثم كانت هى هدفكم ومزدحمكم فى الاستعمار فلم يبق منها شبر ولا شخص إلا وهو خاضع لسلطانكم الظالم الغاشم.

أما أن هؤلاء الأفريقيين لو فروا من وجوهكم - إذ لم يستطيعوا صفعها - ليكونوا عبيدًا للمسلمين لكانوا أعقل العقلاء، لأن ما يلقاه العبد فى الشرق الإسلامى من سيد عات عنيف جبار، لا يساوى عشر معشار الشعوب المستعبدة من حكوماتكم المتحضرة وظلم السيد المسلم العاتى لعبده يعد رحمة فى جنب الظلم الاستعمارى، على أن ظلم السيد المسلم لعبده يعد جريمة توجب عتقه رغمًا عليه فى حكم الإسلام، أما المظالم المسلطة منكم على هذه الشعوب فهى جرائم جماعية، تتفق عليها حكومات متحضرة، وتسن لها القوانين من البرلمانات، ويزينها الفلاسفة والعلماء، ويحث عليها الخطباء، ويتغنى بها الشعراء، وتجبى لها الأموال من الخاصة والعامة عن طوع واختيار، كما تجبى لسبل الخير العام.

أيها القوم: إنكم بهذا التجنى على الإسلام تريدون أن تشغلوا المسلمين بالباطل عن الحق، وتسكتوهم بالاستعباد الموهوم عن الاستعباد المحقق، وبقضية الآحاد عن قضية مئات الملايين ولكنهم لا يسكتون.

سمعنا كثيرًا عن غرائب التطورات، ولكننا لم نسمع أن إبليس أصبح واعظًا مذكرًا يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر حتى رأيناه رأى العين، ولكن هل يصدق العقل ما تراه العين وتسمعه الأذن من هذا؟

يتلخص هذا العرض المختصر فى نقط:

- أولاً: أن الإسلام لم ينشىء الاسترقاق ولم يشرعه.
- ثانيًا: أنه وجده عادة راسخة فى الأمم وضرورة من ضرورات حياتها.
- ثالثًا: أن روح الإسلام تستهجنه وتعتبره نقيصة إنسانية.
- رابعًا: أنه بادر بإصلاحه وإزهاق روحه بحيث لم يبق منه إلا اسمه.
- خامسًا: أنه رأى أن إبطاله دفعة واحدة يؤدى إلى مفسدة اجتماعية هى أعظم ضررًا من إبقائه، فسن له من الآداب والأحكام ما جعله يتلاشى من تلقاء نفسه بالتدريج.
- سادسًا: أبرز نقطة فى هذا الإصلاح، اعتماده على النفوس والضمائر، باعتبار العبد أخًا لسيده، ليستشعر الكرامة والعزة، فترتفع معنوياته، فيصبح إنسانًا فى المجتمع لا بهيمة كما كان، ثم سوى بينه وبين سيده فى مظاهر الحياة لتزول الفوارق الحسية، كما زالت الفوارق النفسية، ثم ألزم المالكين بحدود لا يتجاوزونها فى الاستغلال المادى، وأوصاهم بالرفق والإحسان إلى إخوانهم، حتى كان آخر ما أوصى به فى مرض الموت قوله ﷺ: «استوصوا بالضعيفين خيرًا: المرأة والرقيق»، وأنه رغب فى العتق ووعد عليه الثواب الجزيل فى الحياة الباقية - والإيمان بالحياة الباقية هو أساس عقيدة المؤمن - حتى جعل العتق أصلاً لأعمال البر كلها، وأنه قرر عتق الرقاب عقوبة على عدة مخالفات يرتكبها المسلم وكفارة عنها عند الله، وأنه شرع من أسباب التحرير أشياء كثيرة، منها ما هو بسيط، ومنها ما هو مخالف فى ظاهره لقواعد المعاملة، كل ذلك لتشوفه للحرية، وللتقليل من عدد الأرقاء حتى يزول مع الزمن.

منزلة السنة فى الدين

أ.د. أحمد عمر هاشم
عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر

السنة هى الأصل الثانى من أصول الإسلام أجمع فقهاء المسلمين قديما وحديثا من لدن الصحابة رضوان الله عليهم إلى يومنا هذا- إلا من شذ من بعض الطوائف-على الاحتجاج بها واعتبارها المصدر الثانى للدين بعد القرآن الكريم فيجب اتباعها وتحرم مخالفتها، وقد تضافرت الأدلة القطعية على ذلك فأوجب الله سبحانه على الناس طاعة رسوله ﷺ وبين أنه عليه الصلاة والسلام هو المبين لما أنزل من القرآن، وذلك بعد أن عصمه من الخطأ والهوى فى كل أمر من الأمور:

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴾

(النجم: ٣-٥)

كما عصمه من الناس حين أمره بتبليغ ما أنزل إليه قال تعالى:

﴿ ۞ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾

(المائدة: ٦٧)

فهو إذا قد مهد لرسوله طريق الدعوة وذلل له مهمة تبليغها فبين سبحانه وتعالى للناس ما يأتى:

- أولا: وجوب طاعة الرسول ﷺ.
- ثانيا: أن الرسول ﷺ هو الذى يبين للناس كتاب ربهم سبحانه وتعالى.

وهذان الأمران متلازمان فى إثبات حجية السنة لأن الله تعالى أوجب طاعة رسوله عليه الصلاة والسلام لأنه مبين للناس ما أنزل إليهم، قال الشاطبى: «فإذا عمل المكلف وفق البيان أطاع الله فيما أراد وأطاع رسوله فى مقتضى بيانه، ولو عمل على مخالفة البيان عصى الله تعالى فى عمله على مخالفة البيان إذ صار عمله على خلاف ما أراد بكلامه وعصى رسوله فى مقتضى بيانه»(١).

وسأتناول الحديث عن هذين الأمرين وهما وجوب طاعة الرسول ﷺ وبيان أن الرسول عليه الصلاة والسلام هو الذى بين للناس ما نزل إليهم:

وجوب طاعة الرسول ﷺ

فرض الله سبحانه وتعالى طاعة رسوله ﷺ، وورد الأمر بها فى القرآن الكريم على وجوه

(١) الموافقات (٤ / ١٩)

كثيرة تختلف باختلاف أحوال المخاطبين ومشاربهم ونياتهم، فمنهم اليهودى الذى يحتاج إلى كثرة الأدلة والمنافق الذى يحتاج إلى أسلوب التهديد والمؤمن الذى يقبل الأمر ويعرف هداية الله من أقرب طريق، وقد سلكت آيات القرآن الكريم في بيان ذلك مسلكا مناسبا ونهجت منهجا حكيما:

١ ـ فقد دلت مرة على وجوب طاعة الرسول، بالأمر بالإيمان بالرسل، وهذا يستلزم وجوب طاعة الرسول ﷺ، من ذلك قوله تعالى:

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾

(النساء: ١٧١)

فالأمر بالإيمان بالرسل مع الإيمان بالله لا يكون إلا إذا كان مع الإيمان تصديق لما يبلغه الرسل عن الله وإذعان وطاعة لهديهم على هذا فرسولنا صلوات الله وسلامه عليه يجب الإيمان به للأمر بالإيمان بالرسل وطاعته واجبة كطاعتهم التى استلزمها الأمر بالإيمان بهم.

٢ ـ ودلت الآيات أيضا على وجوب طاعة الرسول ﷺ باقتران الأمر بالإيمان به مع الأمر بالإيمان بالله سبحانه قال الله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ ﴾

(النساء: ١٣٦)

وقال الله تعالى:

﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

(التغابن: ٨)

وقد أظهر الله تعالى فى هذه الآيات وغيرها مكانة نبيه ﷺ فنص على الإيمان به ولم يكتف بالأمر العام السابق رغم دخوله فيه، وذلك لأن رسالته خاتمة وبعثته عامة فاقتضت الحكمة أن يخص بمزيد عنايته، ويفهم من ذلك الأمر بطاعته، قال الإمام الشافعى رضى الله عنه: «وضع الله رسوله من دينه وفرضه وكتابه الموضع الذى أبان جل شأنه أن جعله علما لدينه لما افترض من طاعته وحرم من معصيته وأبان من فضيلته بما قرن من الإيمان برسوله مع الإيمان به فقال تبارك وتعالى:

﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ﴾

(النساء: ١٧١)

وقال:

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ ﴾

(النور: ٦٢)

فجعل كمال ابتداء الإيمان الذى ما سواه تبع له الإيمان بالله ثم برسوله»(٢) ا. هـ.

(٢) الرسالة للإمام الشافعى ص٧٣.

٣ - كذلك دلت الآيات على وجوب طاعة الرسول ﷺ بإيجاب الله تعالى طاعة الرسل قال تعالى:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾

(النساء: ٦٤)

فطاعة الرسل إذًا هى الهدف من إرسالهم، ورسولنا ﷺ كواحد من الرسل داخل فى مضمون الحكم العام فينطبق عليه الحكم بوجوب طاعته لاسيما والرسل قبله كانت شرائعهم خاصة بطائفة معينة أما رسولنا عليه الصلاة والسلام فشريعته عامة وخاتمة، لذا كانت طاعته آكد وألزم.

٤ - اقتران الأمر بطاعة الرسول بالأمر بطاعة الله تعالى:

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾

(آل عمران: ٣٢)

وقال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾

(النساء: ٥٩)

والناظر إلى الآيات الواردة فى وجوب طاعة الرسول ﷺ يرى أن منها ما جاء بالأمر بطاعة الله مقرونا بالأمر بطاعة الرسول بالعطف بالواو كالآية الأولى حيث يفيد ذلك مطلق الاشتراك والجمع بينهما، أو بطريق العطف بها مع إعادة العامل حيث يفيد ذلك تأكيد عموم الطاعة فى كل ما يصدر عن الرسول ﷺ ومنها ما جاء بتكرار العامل فى شيئين مع العطف على الأخير بدون تكرار العامل كقوله تعالى:

﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾

(النساء: ٥٩)

بدون تكرار العامل فى عطف أولى الأمر، وهذا يدل على أن أولى الأمر ليس لهم طاعة مستقلة، وليس لهم تشريع خاص يصدر عنهم يخالف الإسلام، وإنما يطاعون فيما شأنه أن يتلوه ويباشروه فى إطار من الدين الذى شرعه الله قرآنا كان أو سنة»(٣) فطاعة الرسول إذًا واجبة فى كل ما أتى به سواء كان فى الكتاب الكريم أو ليس فيه.

٥ - أمر الله بطاعة الرسول على الانفراد قال الله تعالى:

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾

(النساء: ٦٥)

وقال تعالى:

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

(النور: ٥٦)

وقال تعالى:

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾

(الحشر: ٧)

ففى هذه الآيات نص صريح على وجوب طاعة الرسول والتسليم لحكمه واتباعه، وهذه الطاعة فى حال حياته وبعد وفاته، ففى حال حياته كان الصحابة يتلقون أحكام الشرع من القرآن الذى أخذوه عن رسولهم ﷺ حيث كان يبين لهم ما أنزل إليهم وحيث كان يبين لهم كثيرا من الأحكام حين تقع لهم الحوادث التى لم ينص عليها فى القرآن فهو إذا كان يطبق لهم الأحكام من حلال أو حرام مما كان مصدره القرآن أو الوحى الذى يوحيه الله له

﴿ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾

(الأعراف: ١٥٧)

وقد حث الله على الاستجابة لما يدعو له الرسول ﷺ فقال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

(الأنفال: ٢٤)

ولم يبح الله لمؤمن ولا مؤمنة مخالفة حكم الرسول أو أمره قال تعالى:

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾

(الأحزاب: ٣٦)

وقد كان المسلمون ملتزمين حدود أمره ونهيه ومتبعين له فى عباداتهم ومعاملاتهم وقد بلغ من طاعتهم للرسول واقتدائهم به أنهم كانوا يفعلون ما يفعل ويتركون ما يترك ولم يجز واحد منهم لنفسه مراجعة الرسول إلا إذا كان هناك أمر غريب عن عقولهم فيناقشونه ليعرفوا الحكمة فيه فقط كما لم يجز واحد منهم مراجعته فى أمر «إلا إذا كان فعله أو قوله اجتهادا منه فى أمر دنيوى كما فى غزوة بدر حين راجعه الحباب بن المنذر فى مكان النزول»(٤) ومثل هذا إنما حدث تطبيقا لمبدأ الشورى فى الإسلام.

وإذا كان الحال هكذا فى حياة الرسول ﷺ، فإنه أيضا تجب طاعته واتباع سنته بعد وفاته، لأنه صلوات الله وسلامه عليه انتقل إلى الرفيق الأعلى بعد أن اطمأن تماما على أنه أرسى معالم الدين وأدى الأمانة الإلهية على منهاج الحق ووصى المسلمين أن يطيعوه ويتبعوه بعد وفاته تمسكا بالكتاب والسنة وسيرا على هديهما كما قال ﷺ: «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنتى»(٥) وكما وجب على الصحابة بنص القرآن اتباع الرسول وطاعته فى حياته وبعد مماته كما فى الحديث السابق وجب على من بعدهم من المسلمين اتباع سنته بعد وفاته، لأن النصوص التى أوجبت طاعته عامة لم تقيد ذلك بزمن حياته ولا بصحابته دون غيرهم، ولأن العلة جامعة بينهم وبين من بعدهم وهى أنهم أتباع لرسول أمر الله باتباعه وطاعته(٦) لهذا كله تلقى الصحابة السنة النبوية وبلغوها إلى من بعدهم.

(٣) السنة النبوية ومكانتها فى التشريع ص٥٨.

(٤) السنة ومكانتها فى التشريع ص٦٦.

(٥) أخرجه الحاكم فى المستدرك وفى جامع بيان العلم وفضله جـ٢ ص١٨٠ والموطأ شرح الزرقانى، والترغيب والترهيب.

(٦) السنة ومكانتها فى التشريع ص٦٧.

شمائل النبى ﷺ

مفهومها، وأدبياتها، ووظائفها، وقيمتها الحضارية



أ.د. خالد فهمى
كلية الآداب/ جامعة المنوفية

مطلع النور!

يمثل ميلاد النبى ﷺ، النقطة الفاصلة فى تاريخ البشرية، ومسيرة الإنسانية، وحضارة الدنيا، وعمرانها، حتى استحق عن جدارة أن يكون أعظم العظماء. وكان التحول الذى أدركته الإنسانية من بعد ميلاده الكريم بسبب ما حازه من تكوينه الذى كان برعاية الله تعالى، وعلى عينه، إذ توافرت له من قبل ميلاده كل علامات الكمال الإنسانى، فى خلقه وجسده الشريف، وفى خلقه ونفسيته العظيمة المتسامية، وفى معيشته وحركته فى الوجود.

إن ما صح عن عائشة رضى الله عنها من حديث شمائل النبى (ص ٦٢ حديث ١٧٨، ١٧٩) الذى يقول: «إن خلق النبى ﷺ كان القرآن».

ولقد استقر فى اليقين العلمى الإخبار عن الذكر الحكيم بأنه النور، وهو ما يجعل ميلاد النبى ﷺ مطلع النور بطريق الاستنتاج، ويجعله مطلع النور بطريق الإخبار والرواية، فقد ورد الحديث عن العرباض بن سارية السلمى أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنى عند الله فى أم الكتاب لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل فى طينته وسأنبئكم بتأويل ذلك... رؤيا أمى التى رأت أنه خرج منها نور» (كما جاء فى شمائل النبى ص ٤ حديث ١)

شمائل النبى ﷺ: مفهومها وتطوره

ذكرت معاجم مصطلحات الحديث العربية المعاصرة، تعريفات لمصطلح الشمائل النبوية، وقد جاءت متفقة على عدد من السمات الأساسية، وإن اختلفت تعابيرها وطرق شرحها له، يقول الدكتور عبد الرحمن الخميس فى: معجم علوم الحديث النبوى (ص ١٣٢ فقرة ٣٥٧ رسم الشمائل، طبعة جدة، السعودية سنة ١٤١٩ هـ): «المقصود بها عند الإطلاق أخلاق النبى وأحواله المعيشية».

ويقول الدكتور محمد رضا الأعظمى فى: معجم مصطلحات الحديث ص ٢٠٢ طبعة أضواء السلف، الرياض، سنة ١٤٢٠ هـ-١٩٩٩ م: «نوع من التأليف عند المحدثين يقصدون به جمع أخلاق النبى ﷺ وشمائله» ويقول معجم مصطلح الحديث النبوى (ص ٤٥ رسم شمائل فقرة ٥٩ طبعة مجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة ١٤٢٢ هـ-٢٠٠٢ م) «ويراد بها أوصاف النبى ﷺ الخلقية والخُلقية، والأحاديث التى تتضمنها تسمى أحاديث الشمائل».

وقد جمعت هذه التعريفات الثلاثة السمات الدلالية التالية:

أ- صفات رسول الله ﷺ فى جسده وأعضائه.
ب- صفات رسول الله ﷺ فى نفسه وخلقه.
ج- طريقته ﷺ فى معيشته اليومية.

وهى السمات التى يقترحها كتاب: شمائل النبى ﷺ (طبعة المكنز الإسلامى، القاهرة سنة ١٤٢٥ هـ): «الشمائل فى الاصطلاح، قال المناوى: صورته ﷺ الظاهرة والباطنة، وهى نفسه وأوصافها ومعانيها الخاصة بها، وتزيد أمور معاشه، وهو تعريف يرى أصحابه أنه: «يستوعب ما جرى عليه تصرف أئمة المصنفين فى هذا الموضوع» وحقا قالوا!! وبه تصحح التعريفات التى اضطربت واختلت فيما سبق من معجمات مختصة هنا.

ويبدو من تأويل أدبيات هذا المجال أن مفهوم المصطلح مرّ بثلاث مراحل، ويمكن إجمالها فيما يلى:

● أولا: مرحلة التوسع فى المفهوم، بحيث شمل كل ما تعلق برسول الله ﷺ حتى دخل فى هذا المفهوم ما يتعلق بسنته ﷺ وبوفاته ﷺ وما إلى ذلك.

● ثانيا: مرحلة التضييق فى المفهوم، بحيث اقتصر على ما تعلق بجسد رسول الله ﷺ ونفسيته، وهو ما يعبر عنه بخُلقه وخَلقه.

● ثالثا: مرحلة الانضباط فى المفهوم، أو التوسط بحيث شمل كل ما تعلق برسول الله ﷺ فى جسده ونفسه ومعيشته، على تقدم هنا.

ومن أمثلة أحاديث شمائله من جهة خلقه وجسده ما جاء فى حديث علىّ رضى الله عنه (شمائل النبى ص ٨٢ / حديث ١٨٠): (وكان ربعة من القوم... وكان فى الوجه تدوير أبيض مشرب، أدعج العينين) والربعة المعتدل فى طوله، والمشرب الأبيض المائل للحمرة، وأدعج العينين: واسعهما، صفى اللون منهما.

ومن أمثلة أحاديث شمائله من جهة معيشته ما جاء من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه (شمائل النبى ص ٢٠٣ / حديث ٨٥٥): (لبس رسول الله ﷺ الصوف، واحتذى المخصوف). وقال: (وأكل بشعا -الشعير الغليظ -ولبس خشنا)

ومما مرّ يتبين لنا استقرار مفهوم الشمائل على هذه المحاور الثلاثة.

مصادر أحاديث الشمائل: حدودها وأنواعها

لست أبالغ إن قررت أن مساحة كبيرة من العلوم الشرعية والعربية والحكمية تأثرت تأثرا متفاوت الدرجات بمادة أحاديث شمائل النبى ﷺ حتى صح مع ذلك أن نقر أن الإحاطة بمصادر أحاديث الشمائل النبوية أمر خارج عن الوسع والطاقة. ولكننا فى هذه الفقرة نسعى إلى بيان الحدود المتوقعة لهذه المصادر فى ضوء أن الإيمان به، وشمائله ركن أساسى فى تأسيس الدخول فى هذه الملة الحنيفية السمحة، وفيما يلى محاولة لبيان هذه المصادر.

● أولا- الكتاب العزيز، وهو أوثق مصدر

فى الوجود، وما جاء فيه من شمائل النبى ﷺ لازم التحصيل، ولازم التصديق؛ لأنه ركن من الإيمان بالدين الذى جاء به النبى الكريم.

وقد حفل الكتاب العزيز بآيات شمائله، توزعت امتداح أخلاقه وأعضائه، ومعيشته وحركته بين الناس، من مثل:

أ- يقول تعالى:

﴿وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾

[الحاقة: ٤٨]

وفهم منها أن التذكرة من أسمائه ﷺ.

ب- يقول تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾

[الفرقان: ٢٠]

فهم منها تواضعه ﷺ، ويقول تعالى:

﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾

[الأعراف: ١٩٩]

ويقول تعالى:

﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾

[الحجر: ٨٥]

وفيهما دليل على عفوه وصفحه، ويقول تعالى:

﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾

(التكوير: ٢١)

وفيها دليل أمانته ﷺ.

ج- ويقول تعالى:

﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ﴾

(التوبة: ٦١)

فيه امتداح سمعه ﷺ. ففى هذه الآيات جميعا بيان لشمائل نبوته ممتدحة موثقة تحيط بكمال أخلاقه وأعضائه، وتمتدح معيشته ومخالطته بالناس، وهذه الآيات تلزمنا بأمرين هما: تصديقها وتحصيلها وامتداحها، ومحبته ﷺ.

● ثانيا- كتب السنة الشريفة الصحاح الموسعة. فقد احتوت كتب السنة الصحاح، من مثل: صحيح الإمام البخارى، وصحيح الإمام مسلم، وسنن أبى داود، وسنن الترمذى، وسنن النسائى، وسنن ابن ماجه، وموطأ الإمام مالك، وسنن الدارمى، والدارقطنى، والمسانيد المختلفة، والمعاجم الحديثية المتنوعة.

● ثالثا- كتب السنة المستقلة بواحد من شمائله ﷺ. ويمكننا أن نصنفها وفق ما يلى:

أ- كتب الشمائل النبوية.

ب- كتب حلية الرسول وصفته ﷺ.

ج- كتب أخلاق النبى ﷺ.

د- كتب خصائص النبى ﷺ.

هـ- كتب فضائله ﷺ.

و- كتب مناقبه ﷺ.

ز- الكتب المفردة فى بعض أخلاقه وبعض أعضائه وبعض معيشته، من مثل:

- شجاعة الرسول ﷺ. من مثل: شجاعة الرسول لمصطفى أبى سيف، القاهرة سنة ١٩٣٣م

- صدقه ﷺ، من مثل كتاب: علامات صدق النبى، لأبى هذيل العلاف، المتوفى سنة ٢٢٦هـ.

- شرف النبى ﷺ، من مثل: الوفا فى شرف المصطفى، لابن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧هـ.

- الفروسية، من مثل: الفروسية المحمدية، لابن القيم المتوفى سنة ٧٥١هـ.

- شعرُ النبى ﷺ، من مثل: رسالة فى شعر النبى ﷺ (بفتح الشين) للقارى المتوفى سنة ١٠١٤هـ.

ويعد العمل الذى صنفه صلاح الدين المنجد، بعنوان: معجم ما ألف عن رسول الله ﷺ أوسع الأعمال المرجعية النافعة والجامعة لما ألف عن رسول الله ﷺ فى المجالات المختلفة، وقد توسع فى ذكر المصادر النوعية التى تتناول شمائله المجموعة أو المفردة، ولا سيما القسم الرابع وما يليه (ص ١٧٥ وما بعدها)

● رابعا- كتب السيرة على اختلاف مناهجها، إذ هى سجل عظيم يضم بين جنباته ما ورد به الخبر ووصف أخلاقه وأعضاءه ومعيشته.

فهذه هى أكبر أربعة أنواع جامعة لنصوص الأحاديث التى تمتدح شمائله، وتكشف عنها، وتشرحها. وهى تمثل ثروة مؤسسة للإيمان، وثروة معرفية لم تستثمر حق الاستثمار فى أى من مجالات الحياة المعاصرة.

الشمائل النبوية: قراءة فى الأدبيات

وقد وصل إلينا عدد كبير من كتب شمائل النبى ﷺ، نذكر منها القائمة التالية مرتبة ترتيبا تاريخيا:

أ- الشمائل المحمدية، للترمذى، المتوفى سنة ٢٧٩هـ (القاهرة سنة ١٩٨٧م)

ب- الأنوار فى شمائل النبى المختار، للبغوى، المتوفى سنة ٥١٦هـ (دمشق سنة ١٤٠٩هـ)

ج- زهر الخمائل على الشمائل، للسيوطى، المتوفى ٩١١هـ (القاهرة ١٩٨٨م)

د- جمع الوسائل فى شرح الخمائل، للقارى الحنفى، المتوفى سنة ١٠١٤هـ (القاهرة ١٣٨٠هـ)

هـ- شرح جمع الوسائل فى شرح الشمائل، للمناوى، المتوفى سنة ١٠٣١هـ (القاهرة ١٣٨٠هـ).

و- شرح الشمائل، لعبد المجيد الشرنوبى الأزهرى، المتوفى سنة ١٣٤٨هـ-١٩٢٩م (القاهرة ١٩٨٧م)

ز- شمائل النبى، لجمعية المكنز الإسلامى، القاهرة سنة ١٤٢٥هـ، وهو أعظم كتب الشمائل من جهة:

أ- منهج الجمع والترتيب.

ب- الصحة والموثوقية إذ اعتمد عددا كبيرا من المصادر الصحيحة.

ج- صناعة التصنيف (تقديما وبناء وتحريرا وضبطا وتنسيقا وشرحا-للغريب من لغة الأحاديث-وتوثيقا)

ونلحظ على هذه القائمة التى اخترنا منها هذه المجموعة ما يلى:

أ- الامتداد الزمنى على التاريخ الإسلامى، منذ نزول الكتاب العزيز إلى يوم الناس هذا، وهو ما يترجم المنزلة البديعة التى يشغلها مقام النبى الكريم ﷺ.

ب- الامتداد المكانى، حيث لم تخل بقعة جغرافية من ظهور العناية بالتصنيف فى شمائله ﷺ.

ج- التنوع الموهبى لمؤلفيها، اعتقادا وفقها.

د- التنوع المنهجى، حيث ظهرت مصنفات جامعة، ومختصرة، وشارحة، ومحللة وما إلى ذلك.

هـ- التنوع الكمى، إذ ظهرت مصنفات متنوعة فى الحجوم، تبعا لأغراضها وطبائع

من تتوجه إليهم من مستعمليها، فظهرت متون، وشروح ومنظومات.

ويعد كتاب شمائل النبى الذى أخرجته جمعية المكنز الإسلامى، بالقاهرة سنة ١٤٢٥ هـ أصح كتاب فى هذا الباب، لاعتبارات كثيرة.

وقد اعتمد لها من شروط جودة التصنيف الكثير نذكرها فيما يلى:

● أولا - إدراك أهمية أحاديث هذا الباب الجليل، فهو مفتاح وطريق لتحصيل محبة النبى ﷺ، تقول مقدمة الكتاب: إنها (وسيلة إلى محبته ﷺ، فالنفوس مجبولة على حب الحسن والإحسان، ولا حسن يماثل حسنه، ولا إحسان يماثل إحسانه ﷺ).

كما أن هذا الكتاب أدرك أهمية أحاديث هذا الباب الجليل، إذ هى مفتاح وطريق لتحصيل إدراك عظمته ﷺ، تقول المقدمة: (ولا شك أن معرفة صفاته البهية ونعوته السنية ﷺ وسيلة إلى امتلاء القلب بتعظيمه، وتعظيمه وسيلة إلى تعظيم شريعته السنية. وبذلك يكون أول أسباب حكمنا على هذا الكتاب وعى بأهمية أحاديث الشمائل، وأنها طريق لتأسيس الإيمان بالنبى ﷺ، ومن قبله الإيمان بالله تعالى الذى اصطفاه ثم الإيمان بما جاء به من تشريعات).

● ثانيا - أن هذا الكتاب جاء وفق منهج منضبط فى التصنيف، جمعا وترتيبا وتوثيقا وتعليقا، فقد راعوا الخطوات التالية:

أ - الانتقاء لكل أحاديث الشمائل من كل ما وصل إلينا من كتب الحديث بطريق التتبع والاستقراء والتقصى فى البحث، ولذلك جاء جامعا مستوعبا لأحاديث هذا الباب.

ب - عدم التكرار إلا لحاجة الاستدلال.

ج - القصد إلى تراث كتب الشمائل جميعا أصالة وتبعية، بهدف جمع النصوص والاستدراك منعا لفوات شىء منها، تقول المقدمة: (ثم قصدنا إلى الكتب المصنفة فى الشمائل، ومن تكلم فيها خاصة، أو تبعا لغيرها، لاستدراك ما فاتنا من تصويب أو استدلال أثناء مرحلة الجمع والاستقصاء، فأدخلنا فيها ما يوافق شرطنا فى الكتاب) وقد بلغ عدد أحاديث هذا الباب الجليل ١٣٧٣ حديثا شريفا، من دون حذف المكرر.

د - جودة التقسيم وحسن التبويب، فقد قسم الكتاب أربعة أقسام يتوزع عليها مفهوم الشمائل وهى:

١ - فى أسمائه وكناه. (فى أربعة أبواب: مولده / ونسبه الشريف / وأسمائه / وكناه).

٢ - صفاته الخلقية والنفسية (فى تسعة وعشرين بابا).

٣ - صفات جسده الشريف (فى ستة وأربعين بابا).

٤ - أحواله وأمور معيشته (فى عشرين بابا).

٥ - خاتمة فى نصحه لأمته فى مرض وفاته ﷺ (فى ثمانية أبواب).

وهذا النمط من التقسيم راعى بشكل موضوعى المحاور التى يدور عليها هذا الباب العلمى الفريد بشمائله ﷺ.

هـ - الوضوح والسلاسة والترابط بمعنى أن التبويب وإيراد الأحاديث موزعة على أقسامها وأبوابها وفصولها جاء واضحا سلسا يسهل تتبعه وتوقعه، وزاد من أمر هذه السمة صناعة فهرس جامع لمحتوى الكتاب كما وردت الأحاديث مترابطة موضوعيا.

[ملاحظة نقدية]:

وإن كان مهما جدا حاجة الكتاب إلى كشاف (فهرس) ألفبائى أو هجائى، يشمل بشكل متوسع محتوياته، ولا سيما ألفاظه، وبقية موارده الحضارية والعمرانية، والمعيشية، والنفسية، والبدنية.. إلخ.

و - مصادر الأحاديث الصحيحة الموثقة، فقد اعتمد الكتاب على عدد كبير من المصادر الحديثية، وعلى الصحيح المعتبر منها، فقد كشفت المقدمة عما استعمل من مصادر الكتاب فكانت:

(صحيح البخارى / وصحيح مسلم / وسنن أبى داود / وسنن الترمذى / وسنن ابن ماجه / وموطأ مالك) وغيرها، بالإضافة إلى استفراغ الوسع فى جمع الآيات القرآنية الكريمة التى لها علاقة بالشمائل صراحة أو ضمنا.

ز - ترقيم الأحاديث فى المطبوعة، وترقيم الحديث فى حواشى التوثيق إحالة إلى المصادر المستعملة، وهو أمر منهجى يعين على التيسير على مستعملى هذا السفر الجليل.

ح - خدمة الأحاديث بنمط من التعليق والتحقيق والتعليق، وقد قدم الكتاب خدمة جليلة تمثلت فى تقدير خطر هذه النصوص فى المجالات المعرفية المتنوعة فى الحضارة العربية الإسلامية، وتشعبها فى الفنون المختلفة باعتماد عدد من إجراءات التحقيق العلمى تمثلت فى:

١ - جمع الروايات المختلفة.

٢ - توثيق النصوص بذكر مصادرها التى وردت فيها مرتبة ترتيبا علميا دقيقا، مدققة فى هذا التوثيق.

٣ - شرح الألفاظ الغريبة التى وردت فى الأحاديث بلغة واضحة دالة على المعنى المقصود، مع بيان وجه الدلالة فى الحديث بشكل موجز وسريع عند الحاجة دون توسع أو إطالة.

ط - الحرص على الإيجاز والاختصار منعا من مادة الاسترسال والإملال، باستعمال إجراءات محددة هى:

١ - عدم الإطالة فى الشروح والتعليقات.

٢ - استعمال رموز ومختصرات للمصادر، كما يلى:

(خ = البخارى / و م = مسلم / و د = أبو داود / و ت = للترمذى / و س = النسائى / و ن = ابن ماجه / و ك = موطأ مالك / و حم = مسند أحمد / و عم = زوائد عبد الله على المسند / و ح = مسند الحميدى / و مى = الدارمى / و قط = الدارقطنى / و تم = شمائل الترمذى)

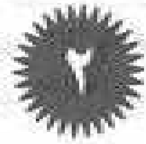
ى - ضبط نصوص الأحاديث (متن كل حديث) ضبطا تاما كاملا (بنية وإعرابا) وهو أمر أكثر من رائع له فوائد كثيرة علمية، ودينية، ولغوية واقتصادية تؤكدها دراسات علم اللغة الكتابى.

ك - روعة الإخراج الطباعى والفنى معا.

فهذه الخصائص جميعا التى توافرت لهذا الكتاب الجليل المعاصر فى شمائل النبى ﷺ يبرهن على ما يمكن أن يقدم العلم المعاصر لهذا الباب العظيم من أبواب السنة المشرقة، ولما يمكن أن يقدم الوعى المعاصر بما اتسع فيه من معارف وعلوم ومنهجيات من خدمات جليلة لتراث هذه الأمة الكريمة.

«يتبع»

الشريعة الإسلامية خصائص الثبات والتغير





المستشار طارق البشرى

لكى نفهم القدرة الهائلة التى للشريعة الإسلامية على التجدد فى فروعها مع المحافظة على أصولها، يمكن أن نتصور حركة سريان الشريعة الإسلامية على مدى القرن الهجرى الأول.

إن المصدرين الرئيسيين للشريعة وهما القرآن والسنة قد صدرا فى مجتمع الحرمين مكة والمدينة وهما بأرض الحجاز فى أرض العرب، ثم مع الفتوحات الإسلامية ودخول الشعوب الأخرى فى الإسلام، لم تمض بضع عشرات من السنين حتى انتشر الإسلام وانطبقت معه الشريعة الإسلامية فى رقعة جغرافية تمتد من الهند شرقا حتى الأندلس غربًا ومن الجزيرة العربية جنوبًا حتى بحر قزوين شمالاً، وهى بيئات جد متنوعة ومختلفة فى لغاتها وتاريخها وعوائد أهلها وأعرافهم، فيها مجتمعات زراعية وفيها مجتمعات رعوية تعيش على الرعى، وفيها مجتمعات تجارية وفيهم مسيحيون من أهل الكتاب وفيهم يهود كتابيون أيضا، وفيهم وثنيون وفيهم ديانات مختلطة وفيهم أجواء باردة وأجواء حارة .. إلخ.

هذا التنوع الهائل فى كل ظرف وفى كل عنصر من عناصر البيئة الجغرافية التاريخية الاجتماعية السياسية، بدأت الشريعة الإسلامية تنطبق فيها كلها وتحكم كل أوضاع الناس عقيدة وعبادة ومعاملات. واستطاع الفقهاء فى فترة وجيزة أن يلائموا بين الأحكام الكلية للشريعة وبين أوضاع تلك البيئات جميعها مع المحافظة على أصول الشريعة واحدة ثابتة راسخة فى الجذور متنوعة الفروع.

هذا الاختبار التاريخى الواقعى للشريعة الإسلامية يظهر مدى قدرتها على تمثل أوضاع البيئات المختلفة ومدى مرونتها فى التصدى لكل هذه الظروف والأحوال المتغيرة مع محافظتها على الأصول ثابتة مكينة غير مختلف عليها. هذه القدرة الهائلة على الوحدة مع التنوع لم تكن مسبوقة فى التاريخ، ولا أظن أنها تكررت بعد ذلك.

فأما ما سبقها، فنحن نعرف كيف انقسمت المسيحية كعقيدة وككنيسة بعد أن امتدت شمالا حتى بلاد الروم، وجنوبا حتى شمال أفريقيا، وكيف كان الانقسام العقيدى يصل إلى حد التكفير والاضطهاد وسفك الدماء. وأما ما تلا الإسلام فنحن نعرف ماذا جرى فى ماضينا القريب من انقسام البلدان التى تدين بالشيوعية انقساما صار به كل منها (وخاصة الاتحاد السوفيتى والصين) ينكر على صاحبه وصف الماركسية، وهو نوع من التكفير المتبادل. وليس هذا بسبب مهارة فقهاء المسلمين فليس فقهاء المسيحية أو فقهاء الماركسية أقل مهارة، ولكن السبب يرجع إلى ما تضمنته شريعة الإسلام المحفوظة المنزلة من قدرة فريدة على المحافظة على ذلك التوازن الدقيق بين الوحدة والتنوع وبين المحافظة والتجدد. ويسهل أن نقول إن ذلك كان بسبب أنها صيغت على أساس «إجمال ما يتغير من الأحكام وتفصيل ما لا يتغير» ولكن يبقى الإعجاز فى هذا الضبط الدقيق فى التمييز بين ما يتغير وما لا يتغير من أحوال الأفراد والجماعات. وهذا الضبط الدقيق لحدود ما يجمل من الأحكام وما يفصل منها. وهذه المعرفة الناصعة لما هو ثابت من أحوال البشر وما هو متغير مع تغير ظروف البيئة.

قد يقال إن ثمة فرقا نشأت وحروبا وصراعات سياسية قامت، وهذا صحيح ولكن لم يحدث بحمد الله أن انقسمت الجماعة انقساما يؤدى إلى تكفير كل قسم للآخر، وما حدث من ذلك كان من جماعات محدودة انسلخت دون أن تصدع الجماعة، فهى لا يعول عليها من حيث الحجم أو من حيث الزمن الذى بقى فيه الخلاف. أما ما بقى من خلافات فهى إلى التنوع أقرب منها إلى الانقسامات.

ومن جهة أخرى، فإن العلاقات القانونية المستمدة من الشريعة الإسلامية، تغطى كل أنواع الأنشطة البشرية فى المجتمع، من المعاملات المالية بالبيع والإيجار والرهن والمضاربة، إلى المراكز القانونية كالملكية وحقوق الانتفاع، إلى وسائل عقاب المجرمين والشذاذ فى المجتمع بالحدود والقصاص والتعازير، إلى علاقات الأسرة ودرجات القرابة مثل الزواج والطلاق والنسب والبنوة، وما يترتب على ذلك من آثار كالميراث والنفقة، وذلك كله فضلا عن أحكام العبادات مثل قواعد الصلاة والصيام وأحكام الزكاة، وكل ذلك بما لا يكاد يقع تحت حصر.

وفى هذا المجال العريض المتنوع لم تفرض الشريعة من عل، إنما نمت من شيوع الإسلام بين الناس وانتشاره فى الأصقاع والأمصار، ونحن نتذكر أن الخليفة العباسى رغب فى أن يفرض على الناس كتاب «الموطأ» الذى كتبه مالك، وأودعه ثمرة فكره وعلمه، فعارضه الإمام مالك نفسه، ولم يفرض على الناس حكمًا فقهيًا فى تلك الفترة التى نما فيها الفقه وازدهرت مدارسه ومذاهبه.

وكانت أحكام الفقه الإسلامى تتراكم بالصلة المباشرة التى تنشأ بين الناس وبين الفقهاء. يجلس الفقهاء فى المساجد يدرسون لتلاميذهم ويتناظرون فيما يجد من بحوث.

ويقصد إلى هؤلاء الناس بمشكلاتهم وأنزعتهم، يتجهون إلى من يتوسمون فيه العلم بأمور دينهم فيفتونهم ويحلون لهم أنزعتهم. لذلك ارتبط الفقه على أيدى الفقهاء بالمشكلات العلمية، واشتهر بالحس الواقعى وارتبط بالمقاصد والغايات من جلب المنافع ودفع المضار.

بهذه الروح نما الفقه الإسلامى وتفرعت عليه التفاريع بما يحقق مقاصد الشريعة من الحفاظ على الأحكام الشرعية العامة ويرعى مصالح العباد ويشيع العدل بين الناس. وهى نشأة ونمو استقلا عن أجهزة الدولة ووجهات

نظر الحاكمين. وإن من وقائع أئمة المذاهب وغيرهم ما يؤكد مدى استقلال هؤلاء عن الولاة والسلاطين في ذلك الوقت الذى نما شريعة فيه الفقه ورسخت مناهجه وورثت أحكامه.

وإذا كانت جاءت بعد ذلك فترات ركود، وعانى الفقه والفقهاء من تسلط الحاكمين خلالها. فقد بقيت الشريعة بصيغتها الفريدة فى ثبات أصولها مع تنوع أحكامها التفصيلية. وبقيت مناهج الفقه فى تخريج الأحكام الفرعية من أدلتها الكلية، بقى ذلك كله سليما يمثل الرصيد العظيم لشريعة الإسلام وفقهها.

متى صارت لدينا القدرة على التمييز بين ما هو ثابت، أى يشكل وضعا إلهيا وهى النصوص والأحكام المنزلة قرآنا وسنة، وبين ما هو متغير واجتماعى وتاريخى من اجتهادات الفقهاء، فإننا نستطيع بذلك أن ندرك كيف تحفظ أصول الشريعة وفى الوقت نفسه تعمل عقولنا فى المجال الفسيح المتاح للاجتهاد فى هذه الأحكام بما يحفظ الشريعة ويرعى مصالح العباد وبما يشيع العدل.

وفى هذا المجال الاجتهادى الأخير، المجال الاجتماعى التاريخى فى الفكر الإسلامى وفقهه، ينبغى ربط الحلول الفكرية الفقهية بوظائفها الاجتماعية، التى تعنى الربط بينها وبين مقاصد الشرع الإسلامى فى حفظ الدين وجماعة المسلمين وحفظ العقول والأعراض والأموال. وتجرى هذه المحافظة بمراعاة ملاءمة تطبيق الأحكام لأوضاع المجتمع وظروف العمران.

إن لكل حكم دينى أثرًا فى التاريخ والمجتمع، ويمكن أن يتأثر بعمل التاريخ وبتفاعلات المجتمع، والعقيدة نفسها يمكن أن تتأثر قوتها فى قلوب الرجال ونفوسهم بالسياسات التى تتبع فى المجتمع وبأوضاع الحياة المفروضة على الناس، فتقوى أو تضعف فى نفوس المؤمنين بها، وتنتشر أو تتقلص. ونحن يجب أن نتعامل مع تلك الأسباب، وإن إدراكنا لها هو ما ييسر علينا معالجة تلك الأوضاع المعالجة الحافظة للدين والجماعة الداعمة لهما.

إن محاولة إضعاف الإسلام فى نفوس المسلمين خلال القرن الماضى، لم يتخذ شكل محاربة الإسلام من حيث هو عقيدة، ولا اتخذ شكل الهجوم الصريح عليه من حيث هو نظام للحياة، ولم تكن هذه الأساليب مما تنجح بها تلك المحاولات، لأنها كانت ستثير لدى المسلم دوافع التجمع والمقاومة.

إنما كان الأسلوب الأكثر نجاحا هو تغيير الأوضاع الاجتماعية وأنماط العلاقات بين الناس، بطريقة تجعلها قائمة على تعارض مع تصورات الشريعة الإسلامية وأحكامها، وتغيير سلوك الناس وعادات العيش وأساليب الحياة اليومية بما يقيم التعارض بين هذه الأساليب وأحكام الشريعة. وقد جرى هذا الأسلوب لا بطريق الإقناع وتبادل الرأى. ولكنه جرى فى الأساس بالترويج والدعاية والإغراء وإثارة نوازع التقليد والمحاكاة. وذلك فى أساليب المآكل والمشرب والملبس والمسكن وعادات المعيشة.

ولما استتبت قاعدة اجتماعية من هذه العادات والأساليب ونماذج السلوك بدأ يظهر التعارض بينها وبين فقه الشريعة وفكرها، وبدأ الفقه الإسلامى يحاصر بين بديلين، إما أن يعترف بهذه الأساليب والأوضاع، حتى ولو كان ذلك على حساب الشريعة وأصولها العامة، وإما أن يتهم بالجمود والعجز عن ملاحقة الواقع و«التطور»، ولفظ التطور لفظ لا يدل على مجرد الحركة والتغيير، ولكنه يوحى بأن الحركة والتغيير يجريان للأحسن والأرقى فى مدارج الارتقاء والعمران البشرى

والحضارى.

ومناط الحكم على الفقه بالتجديد لا يتأتى من قدرته على ملاحقة مثل تلك المظاهر، ولا يتأتى أيضا من قدرته على مخالفة أصول الشريعة الإسلامية العامة التى أتت بها أحكام القرآن والسنة. ولكن مناط التجديد الفقهى يتأتى من قدرة الفقه على أن يستجيب للتحديات التى يفرضها الواقع والتاريخ فى زمان ومكان معينين على الجماعة الإسلامية، وأن تكون هذه الاستجابة مما يحفظ مصالح الإسلام والمسلمين.

ولذلك فإننا علينا واجبان، الأول: هو أن تحفظ للشريعة الإسلامية كأصول عامة، سيادتها وفاعليتها على أوضاعنا الاجتماعية ونظم الحياة، مدركين أن الشريعة تئول إلى الاضمحلال وأن العقيدة قد تئول إلى الضعف إذا قامت الأوضاع الاجتماعية على تعارض وتناقض مع هذه الأحكام والأصول. وعلى سبيل المثال فإن استبقاء النظام الربوى فى التعامل الاقتصادى للمؤسسات المالية وفى التنظيم القانونى للمعاملات يقيم هذا التناقض الذى لا ينحل إلا بإضعاف أسس الشريعة الإسلامية.

لذلك يتعين أن نكون متنبهين للمقتضيات الاجتماعية التى يحسن الاستمساك بها دعما للفاعلية الاجتماعية للأحكام المنزلة. فمثلا قد يكون نظام الميراث والزواج وحقوق الزوجة، ذا فاعلية اجتماعية أعظم وأثبت مع نظام الأسرة الكبيرة الممتدة. لذلك يحسن الحض على الحفاظ على الأسرة الممتدة ودعم العلائق الاجتماعية بين أعضائها. ومثل آخر عن حقوق الشفعة والجوار وعن الشيوع، فهى تفيد بمقتضاها الاجتماعى دعم الأواصر وروابط الإنتاج بين الوحدات الاجتماعية المحلية سواء فى الحى أو القرية. ثم هناك المسجد كمؤسسة اجتماعية حية يحسن ألا يقتصر دوره على الصلاة فقط، ويحسن أن تلحق به وتتفرع عنه مجموعة الأنشطة الاجتماعية المحلية.

وثانى هذين الواجبين يتعلق بالمجال الذى يعمل فيه الفقه، وهو مجال الاجتهاد فى إدراك معنى الأحكام مطبقة على الواقع المعيش، وهنا فإننا إزاء اجتهادات الفقهاء المسلمين فى العصور السابقة يحسن أن ندرك الأوضاع الاجتماعية والتاريخية التى لابست الاجتهاد الفقهى فى أى من فروع المسائل والأحكام التفصيلية؛ لأن ذلك يفيدنا فى إدراك الدلالة الواقعية للحكم المقضى به أو الرأى المفتى به.

ومن ناحية أخرى فيحسن بالفقه الإسلامى المعاصر، أن يدرك وجوه التحدى الواقعى التى تواجه المجتمع الذى يعيش فيه، وأن يُعمل اجتهاداته الفقهية بما يحقق الاستجابة لهذه التحديات على النحو الذى يحقق وجوه النفع لدينه ولأمته، وأن يربط بين الحلول الفكرية والفقهية وبين الوظائف الاجتماعية التى تترتب عليها.

والمهم من ذلك كله أن تتكون لدينا ملكة تواكب الواقع الاجتماعى وفقا للأحكام المنزلة، وأن يكون الواقع على اتساق وانسجام مع هذه الأحكام المنزلة، وأن تتكون لدينا أيضًا ملكة الإفساح فى الاجتهادات الفقهية لما يطرأ من تغيير فى تركيب الواقع الاجتماعى وفقا لوجوه الاستجابة للتحديات المطروحة على الجماعة فى كل ظرف خاص.

وبهذا يجرى التوظيف والتطابق بين الواقع الاجتماعى ومؤسساته وعلاقاته ونماذج سلوكه وبين الأحكام والأفكار، ويجرى الدمج بين علم الدين وعلم الدنيا، ويترابط العمل والعبادة.

أسس الدولة فى الإسلام



الشيخ محمود شلتوت

نظر الإسلام إلى المسلمين باعتبارهم أمة يتكون منهم ما عرف فى اصطلاح الناس بعد باسم (الدولة) فاعتبر فيهم مزايا ومقومات هى سر العظمة والمجد والقوة، التى كانت طابع الدولة الإسلامية، وأهم هذه المقومات أربعة:

١- الأخوة الدينية

لم يعتبر الإسلام فى تكوين الدولة الجنسية ولا العنصرية ولا التوطن فى بلد معين كما ألفته الأوضاع البشرية للدول، ولقد رأى أن فى ذلك تحديدا وتضييقا ينافى عالميته وعمومه كدين سماوى أريد به خير البشر جميعا، فسما عن جميع هذه الاعتبارات البدائية الشخصية، ورفع درجة الجماعة الإنسانية عن أن يكون اتحادها وتعاونها راجعا إلى غير المبادئ والمثل العليا، فرأى أن يوحد بين الجميع بالفكرة أو العقيدة التى يعتنقها الكل عن إيمان ورضا، وتكون تلك العقيدة هى الوحدة المشتركة بينهم، والروح السارية فيهم.

فكانت (الأخوة الدينية) بين المسلمين هى أصدق تعبير عن هذه الوحدة المشتركة أو هى هذه الوحدة المشتركة: قررها القرآن الكريم:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾

(الحجرات: ١٠)

وقررها رسول الله ﷺ: (المسلم أخو المسلم) (١).

قررت الأخوة الدينية بين المسلمين على أنها شأن طبيعى من شئون المؤمنين يتحقق من تلقاء نفسه بمجرد الإيمان، ويستتبع جميع آثاره من حقوق وواجبات وليست وصية يوصيهم بها ولا تكليفا جديدا يطلب تحقيقه بعد الإيمان.

وقد غلبت أخوة الإيمان كل صلة سواها حتى صلة النسب، فنسى المرء بها قبيلته، وخرج على عشيرته، وخاصم الولد أباه، وقاتل الأخ أخاه:

﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ

(١) رواه مسلم (١٩٨٦/٤، رقم ٢٥٦٤) وأحمد (٢٢٧/٣، رقم ٧٧١٣)

عَشِيرَتَهُمْ﴾

(المجادلة: ٢٢)

كما اصطلح بها المتخاصمون، واجتمع عليها المتفرقون، فنسيت عداوات الجاهلية، وأهدرت دماؤها وتراتها، وأصبح المرء يجلس آمنا مطمئنا فى ملأ أو خلوة مع من قتل أباه أو أخاه وهو لا يخشى انتقامه، ولا يتوقع أذاه.

وأصبحت صلة النسب عارية عن الفائدة والأثر إذا تجردت عن أخوة الإيمان، فلا يرث غير المسلم المسلم ولو كان أباه أو أخاه.

وربطت هذه الأخوة بين قلوب المسلمين حتى أصبحوا أسرة واحدة كبرى، يفرح المسلم لفرح أخيه، ويحزن لحزنه، ويمد يد المعونة إليه عند الحاجة، ويرشده إذا غوى، ويهديه إذا ضل، ويرحمه إذا ضعف، ويعامله بما يحب أن يعامل به، ويمحضه النصح إذا استنصحه أو رأى عليه ما ينكره الشرع والدين، ويحفظه فى ماله وعرضه غائبا وحاضرا، ويسعى فى إصلاح ذات البين ورفع ما يقع من الخلاف: أخوة متصافون رحماء بينهم شعارهم (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه)، (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا) (متفق عليه)، (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) (متفق عليه)، ودعاؤهم:

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾

(الحشر: ١٠)

وقد طبق مبدأ الأخوة الدينية لأول مرة بمؤاخاة النبى ﷺ بين المهاجرين والأنصار حين قدم المدينة مهاجرا، وكانت مظهرا من مظاهر القوة الذاتية لتعاليم الإسلام، واختلاطها بالنفوس والقلوب، آوى الأنصار إخوانهم المهاجرين، وآثروهم على أنفسهم فى كل ما يحتاجون إليه، حتى سجل القرآن هذا الإيثار الكريم:

﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾

(الحشر: ٩)

هذه هى الأخوة الدينية التى اعتبرها الإسلام بين المسلمين كأساس من أسس دولتهم وجماعتهم، وقد امتن الله على نبيه وعلى المؤمنين، فذكرهم بنعمة التآلف بعد التقاطع:

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾

(آل عمران: ١٠٣)

﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

(الأنفال: ٦٢، ٦٣)

(٢) التكافل الاجتماعى

والتكافل الاجتماعى لازم من لوازم الأخوة، بل هو أبرز لوازمها، وهو شعور الجميع بمسئولية بعضهم عن بعض، وأن كل واحد منهم حامل لتبعات أخيه، ومحمول على أخيه، يسأل عن نفسه ويسأل عن غيره.

وهذا في الواقع قانون من قوانين الاجتماع الراقي، وعنصر من عناصر الحياة الطيبة، يتوقف عليه: كمال السعادة، بل هو الأساس في حياة الأمم وبقائها عزيزة كريمة متمتعة بهيبتها، قائمة بواجبها.

وللتكافل شعبتان:

● شعبة مادية: وسبيلها مد يد المعونة في حاجة المحتاج، وإغاثة الملهوف، وتفريج كربة المكروب، وتأمين الخائف، وإشباع الجائع، والمساهمة العملية في إقامة المصالح العامة، وقد دعا القرآن الكريم إلى هذا التعاون المادي وحث عليه، واستنهض الهمم فيه، وأطلق عليه جملة من العناوين المحببة فيه، الداعية إليه، أطلق عليه عناوين (إحسان، زكاة، صدقة، حق، إنفاق في سبيل الله)، ثم طلبه بصفته ركنا من أركان الدين وبصفته فضيلة إنسانية وأوجبه في أصناف المال كله: نقده، وزرعه، وماشيته، أوجبه للفقير على الغني، وأوجبه للفقير على الفقير وكان ذلك منه تدريبا للفقير على الإعطاء، والمساهمة في سد الحاجات بقدر ما يستطيع، وليدرك لذة اليد العليا، فيسعى في تحصيل الأموال، وتكون له اليد العليا على الدوام، وليجد في ضميره ما يدفعه إلى المعونة الكبرى متى وجد إليها سبيلا، ولعل أوضح شاهد لذلك ما شرعه الإسلام في آخر شهر رمضان من كل عام باسم (زكاة الفطر).

● وشعبة أدبية: ونعني بها تكافل المسلمين جميعا وتعاونهم المعنوي بالتعليم والنصح والإرشاد والتوجيه.

وقد أعطاه القرآن اسما كريما يحببه إلى النفوس، ويغري به العقول والقلوب، فسماه: (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) ولا شك أن كلمة (المعروف) عنوان أخاذ يجذب إليه القلوب، ويحمل على الأمر به، وأن كلمة (المنكر) من شأنها أن تيشع الشر والفساد وأن تثير النفوس عليهما، وأن توجه إليهما من الجماعة حربا لا هوادة فيها.

والإسلام يجعل هذا التكافل الأدبي فريضة لازمة على كل مسلم، بل جاء على لسان الرسول أنه الدين كله بالنسبة إلى جميع الطبقات: (الدين النصيحة. قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم) (صحيح مسلم)

وقد طلبه الله على وجه خاص من القادرين عليه، الواقفين على حدود الله، ورتب عليه الفلاح المطلق،

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

(آل عمران: ١٠٤)

وجعل له شأنا من شئون المؤمنين، وألبسه ثوب الولاية:

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾

(التوبة: ٧١)

وقد صور رسول الله ﷺ صلة المسلم بالمسلم بقوله:

(المؤمن مرآة المؤمن) (سنن أبو داود)

وفي بعض الآثار: المسلم للمسلم كاليدين تغسل إحداهما الأخرى.

هكذا فهم المسلمون الأولون مبدأ مسئولية المؤمنين بعضهم عن بعض، فقاموا بالنصح والإرشاد: ينصح عالمهم جاهلهم، ويرشد كبيرهم صغيرهم، بل لقد نصح الصغير الكبير، والمرءوس الرئيس، والمحكوم الحاكم، وتقبل الجميع من الجميع شاكرة ألسنتهم، مطمئنة قلوبهم، فاستقامت لهم الأمور، وتقدمت بهم الحياة، وكانوا أقوياء وغيرهم الضعيف، وأعزاء وغيرهم الذليل.

وظلوا كذلك يتعاونون وعلى البر والتقوى ويتناصحون بالخير والمعروف، حتى نبتت فيهم نابتة الشهوة والهوى فأفسدت عليهم تصورهم للحياة، وظنوها مادة عليها يتنافسون، وأموالا وجاها بها يتفاخرون ويتكاثرون، وبذلك ضعف ما تكنه قلوبهم نحو روابط الإيمان، فضعف شعورهم بتلك المسئولية، فنظر بعضهم إلى بعض كوحدات مبعثرة لا يضم شتاتها رباط، وانساب كل منهم في مهاب الشهوة والهوى، وعندئذ رأى الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر أن أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر قد يغضب عليهم الناس، أو يمنعهم متاع الحياة، أو يفقدهم النفوذ والجاه، فعاشروا الناس على ما يعلمون منهم ويعرفون فيهم، فألف الناس المنكر، وأنكروا المعروف وأصبح التوجيه للحق عليهم ثقيلا، والموجه المخلص بينهم دخيلا.

ولقد قص الله علينا مصير الأولين من الأمم التي تركت هذه المسئولية، فحل بها من الويلات ما حل:

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾

(هود: ١١٦)

وجاء على لسان النبي ﷺ: (لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي ودخل النقص عليهم في دينهم نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا، فجالسوهم وواكلوهم وشاربوهم ولم يمنعهم العصيان عن مخالطتهم فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ففرق كلمتهم وأذلهم وشتت شملهم، ثم اقرأ:

﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾

(المائدة: ٧٨، ٧٩) (سنن الترمذي)

٣- الشورى

أما الشورى فهي أساس الحكم الصالح، وهي السبيل إلى تبين الحق، ومعرفة الآراء الناضجة، أمر بها القرآن، وجعلها عنصرا من العناصر التي تقوم عليها الدولة الإسلامية، ففي الكتاب الكريم سورة عرفت باسم (سورة الشوري) وقد سميت بذلك لأنها السورة الوحيدة التي قررت (الشوري) عنصرا من عناصر الشخصية الإيمانية الحقة، ونظمتها في عقد، حباته طهارة القلب بالإيمان والتوكل، وطهارة الجوارح من الإثم والفواحش، ومراقبة الله بإقامة الصلاة، وحسن التضامن بالشورى، والإنفاق في سبيل الله، ثم عنصر العزة بالانتصار على البغي والعدوان، وذلك في قوله تعالى من تلك السورة:

﴿ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾

(الشورى: ٣٦ - ٣٩)

وقد نزل بعد أن أصيب المسلمون في غزوة أحد بما أصيبوا، أمر الله لنبيه ﷺ بمشاورة أصحابه فيما يطرأ لهم لهم من الشئون ربطا للقلوب وتقريرا لما يجب أن يكون بين المؤمنين من حسن التضامن في سياسة الأمور، وتدبير الشئون، وذلك في قوله تعالى في سورة آل عمران:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾

(آل عمران: ١٥٩)

الشورى في عهد الرسول وأصحابه:

وقد كان النبي ﷺ يشاور أصحابه فيما لم ينزل عليه فيه الوحي وكان في بعض الأحيان يعدل عن رأيه، ويأخذ برأى أصحابه، وقد حدث أنه أخذ برأيه، ورأى أبي بكر في حادثة أسرى بدر، ورفض العمل برأى عمر ومن وافقه، فنزلت آيات شديدة العتب على النبي ﷺ في أنه لم يأخذ برأى الآخرين، وقد كان هو الأوفق بحالتهم في هذا الوقت:

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

(الأنفال: ٦٧، ٦٨)

ومن هنا كانت الشورى أصلا في إدارة الشئون الجماعية، وكان تحرى الحق أو الموافقة في المصلحة من ألزم الواجبات على صاحب الأمر، وقد درج على ذلك أصحاب الرسول بعده، فكان أبو بكر يستشير الصحابة فيما يعرض له من شئون الجماعة، وكان يأخذ برأى غيره متى بدت آيات الحق فيه وكان عمر يجمع كبار الصحابة في عهده، وكان يمنعهم من الخروج من المدينة لمكان حاجته إلى استشارتهم.

وكان الأساس في الاستشارة كفالة الحرية التامة في إبداء الآراء ما لم تمس أصلا من أصول العقيدة أو العبادة.

ولم يضع القرآن، ولا الرسول للشورى نظاما خاصا، وإنما هو النظام الفطرى يجمع النبي أو الخليفة من بعده أصحابه، ويطرح عليهم المسألة، ويبدون آراءهم فيها، ومتى أجمعوا على رأى، أو ترجح عندهم رأى عن طريق الأغلبية أو عن طريق قوة البرهان أخذ به وتقيد.

وإنما ترك هذا الجانب من غير أن يوضع له نظام خاص؛ لأنه من الشئون التي تتغير فيها وجهة النظر بتغير الأجيال، والتقدم البشرى، فلو وضع نظام في ذلك العهد لاتخذ أصلا لا يحيد عنه من يجيء بعدهم، ويكون في ذلك التضييق كل التضييق عليهم ألا يجاوزوا غيرهم في نظام الشورى.

فالشورى من الأمور التي تركت نظمها دون تحديد، رحمة بالناس غير نسيان، توسعة عليهم، وتمكينا لهم من اختيار ما يتاح للعقول وتدركه البشرية الناضجة، وما دام المقصود هو أصل المشورة، والوصول بها إلى قوانين التنظيم العادل التي تجمع الأمة ولا تفرقها، والتي تعمر وتبني، ولا تخرب وتهدم، فالأمر في الوسيلة سهل ميسور.

الاستبداد عدو الإنسانية:

وبتقرير القرآن مبدأ الشورى، قضى الإسلام على عدو الإنسانية الفاضلة ومفسدها، وهو: الاستبداد بالحكم والرأى، واحتكار التشريع والتصريف والإدارة، وحقق للفرد كرامته الفكرية، وللجماعة حقها الطبيعي في تدبير شئونها والقرآن لا يريد من (الشورى) حين يضعها بين عنصرى الصلاة، والإنفاق في سبيل الله، لا يريد هذه الصورة الهزلية التي ألفناها في الماضي، وتواضع أرباب البغي والاحتكار عليها، واتخاذها ستارا يخفون به طغيانهم النفسي في إدارة سلب الحقوق، وإنما يريدها حقيقة نقية في واقعها كما يريد من الصلاة والإنفاق حقيقتهما المحققة لأثرهما، الخالصة مما يكدر صفوها.

الشورى التي لا قيمة لها عند الله:

وإن الإسلام الذي يحكم بالبرهان، والمنطق الإنساني السليم في عقائده وشرائعه وينعي على التقليد والمقلدين، وعلى اتخاذ الهوى إلها يمتثل أمره، لا يمكن أن يهمل من أصول الحكم، ذلكم المبدء الطبيعي في الحياة وهو (الشورى).

كما لا يمكن أن يريده حين يضعه (محمدة اختيارية) يقصد بها مجرد تأليف القلوب، (وتطييب النفوس) دون العمل به، كما يذهب إلى ذلك صنائع الملوك المستبدين، ولا أن يريده (صورة مفتعلة) يبرر بها أرباب الطغيان طغيانهم، وإنما يريده أمرا ثابتا مقررا، مأمورا به، هو حق للأمة تأخذه بالقوة، وواجب عليها، تأثم جميعها بتركه، وحقيقة لها أثرها العملي في الحكم وسياسة الجماعة.

وإذن فالشورى التي تنسج خيوطها بكثرة العدد، أو عن طريق الإغراء والإرهاب لا قيمة لها عند الله، والشورى التي تجعل من الفرد المفسد، أو الذي لا يعقل حاكما بأمره في الأمة لا قيمة لها عند الله، والشورى التي لا يجد المخلصون في جوها متنفسا يكشفون فيه عن عبث العابثين، وفساد المفسدين، لا قيمة لها عند الله، والشورى التي يلبس المنافقون في جوها مسوح الصدق والإخلاص، ويكتمون عن الحاكم المخلص بذور الشر والفساد، لا قيمة لها عند الله.

الشورى وأولو الأمر:

وضع الإسلام مبدأ الشورى، وعمل به النبي في حياته، والخليفتان من بعده وكان له في صدر الإسلام، شأن تجلى به سمو الإسلام في تقرير حق الإنسان وكان الأساس فيه - كما قلنا - الحرية التامة في إبداء الرأى من أهل الرأى، ما لم يمس أصلا من أصول العقيدة أو العبادة، وقد جاء في بيان المصادر التي يجب على المؤمنين اتباع الأحكام والنظم والأوامر الصادرة عنها، قوله تعالى في سورة النساء:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾

(النساء: ٥٩)

وإذا كانت إطاعة الله هي العمل بما تضمنته كتابه الواضح الذي لا يحتمل الرأى، وكانت إطاعة الرسول، هي العمل بما تضمنته أقواله

التشريعية العامة الموثوق بنسبتها إليه، كان (أولو الأمر) هم أهل النظر الذين عرفوا فى الأمة بكمال الاختصاص فى بحث الشئون وإدراك المصالح والغيرة عليها، وكانت إطاعتهم هى الأخذ بما يتفقون عليه فى المسألة ذات النظر والاجتهاد، أو بما يترجح فيها عن طريق الأغلبية أو قوة البرهان.

وليس من شك فى أن شئون الأمة متعددة بتعدد عناصر الحياة، وأن الله قد وزع الاستعداد الإدراكى على الأفراد حسب تنوع الشئون، وصار لكل شأن بهذا التوزيع رجال، هم أهل معرفته، ومعرفة ما يجب أن يكون عليه، ففى الأمة جانب القوة التى تحمى حماها، والتى تحفظ أمنها الداخلى، وفى الأمة جانب القضاء وفض المنازعات وحسم الخصومات، وفيها جانب المال والاقتصاد، وفيها جانب السياسة الخارجية وفيها غير ذلك من الجوانب، ولكل جانب رجال عرفوا فيه بنضج الآراء وعظيم الآثار وطول الخبرة والمران، وهؤلاء الرجال هم (أولو الأمر من الأمة) وهم الذين يجب على الأمة أن تعرفهم بآثارهم وتمنحهم ثقتها، وتنيبهم عنها فى نظمها وتشريعها والهيمنة على حياتها، وهم الوسيلة الدائمة فى نظر الإسلام لمعرفة ما تسوس به الأمة أمورها مما لم يرد من المصادر السماوية الحاسمة، وأخيرا هم (أهل الإجماع) الذى يكون اتفاقهم (حجة) يجب النزول عليها والعمل بمقتضاها ما دام الشأن هو الشأن والمصلحة هى المصلحة، حتى إذا ما تبدل الشأن وتغير وجه المصلحة بتغير المقتضيات الحافة بموضوع النظر، كان عليهم أو على من يخلفهم إعادة النظر على ضوء ما جد من ظروف ومقتضيات، وحل الاتفاق اللاحق، محل الاتفاق السابق، وكانت الأمة فى الحالين خاضعة لما أمرها الله بطاعته فقد أقام من رحمته رأى أولى الأمر فيما ترك التشريع العينى فيه مقام تشريع كتابه، وتشريع رسوله فيما وردا فيه، وسوى بين الثلاثة (كل فى دائرته) فى عموم وجوب الطاعة والامتثال.

الحكام والفقهاء:

وإذن، فليس أولو الأمر، الذين أمر المؤمنون بإطاعتهم، خصوص الأمراء والحكام كيفما كان شأنهم، وما سلب المسلمين مبدأ الشورى سوى هذا التخريج الذى اتخذ فى كثير من الفترات سبيلا لإخضاع الأمة للحاكم ولو كان غاشما ظالما، أو جاهلا مفسدا، وكذلك ليس (أولو الأمر) خصوص المعروفين فى الفقه الإسلامى باسم (الفقهاء أو المجتهدين) الذين يشترط فيهم أن يكونوا على درجة خاصة من علوم اللغة وعلوم الكتاب والسنة فإن هؤلاء - مع عظيم احترامنا لهم - لاتعدو معرفتهم فى الغالب هذا الجانب، ولم يألفوا البحث فى تعرف كثير من الشئون العامة، كشئون السلم والحرب والزراعة والتجارة والصناعة والإدارة والسياسة، نعم، هم - كغيرهم - لهم جانب خاص يعرفونه حق المعرفة وهم أرباب الاختصاص وأولو الأمر فيه، وهو ما يتصل من التشريعات العامة بأصول الحل والحرمة فى دائرة ما رسم القرآن من قواعد تشريعية أو تشريعات جزئية.

(يتبع)

الشورى فى معركة البناء (٣)

وظائف الشورى ومقاصدها

أ. د. أحمد الريسوني

مقاصد الشورى وفوائدها

الوظائف والمقاصد التى تحققها الشورى والتى لأجلها شرعت، لا تحظى من العلماء والكتاب عادة إلا بجُملٍ وعبارات وجيزة، وعادة ما تتركز هذه الجمل والكلمات على مقصد واحد وهو استخراج الرأى الصواب والتدبير السديد. وهذا يؤدى إلى اختزال مقاصد الشورى ووظائفها، مما يستتبع تقليصًا فى مساحاتها ومجالاتها، وتضييقا فى أهلها والمعنيين بها. ولذلك رأيت أن أتناول - بشىء من الاستقصاء والبيان - مقاصد الشورى ووظائفها، لتتضح أكثر قيمتها وأهميتها.

ومن الإنصاف أن أورد فى البداية نصوصًا لبعض الفقهاء الأجلاء، فيها قدر يسير من التوسع فى ذكر مقاصد الشورى وفوائدها، ولو أن أيا منهم لم يقصد الاستقصاء والاستيعاب.

النص الأول للفقيه الحنفى أبى بكر الجصاص، حيث قال رحمه الله عند قوله تعالى:

﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى الْأَمْرِ ﴾

(آل عمران: ١٥٩)

«وكان فى ذلك ضروب من الفوائد:

- أحدها: إعلام الناس أن ما لا نص فيه من الحوادث، فسبيل استدراك حكمه الاجتهاد وغالب الظن.
- الثانى: إشعارهم بمنزلة الصحابة رضى الله عنهم، وأنهم أهل الاجتهاد، وجائز اتباع آرائهم، إذ رفعهم إلى المنزلة التى يشاورهم النبى ﷺ ويرضى اجتهادهم وتحريهم لموافقة المنصوص من أحكام الله تعالى.
- الثالث: أن باطن ضمائرهم مرضى عند الله تعالى، ولولا ذلك لم يأمره بمشاورتهم. فدل ذلك على يقينهم وصحة إيمانهم وعلو منزلتهم مع ذلك من العلم، وعلى تسويغ الاجتهاد فى أحكام الحوادث التى لا نصوص فيها لتقتدى به الأمة بعده ﷺ فى مثله.» (١).

- النص الثانى للفقيه المالكى أبى بكر ابن العربى، وهو يأتى مكملا لما فى النص الأول. قال رحمه الله فى شرحه على الترمذى (أبواب الجهاد، باب ما جاء فى المشورة):

«... المشورة فيها بركات:

- منها الإقدام على معلوم. (أى بعد التحرى

١ - أحكام القرآن ٢/٤١.

والتثبت واتضاح الرؤية»
- ومنها تخليص الحق من احتمالات الخواطر.
- ومنها استخراج عقول الناس
- ومنها تأليف قلوبهم على العمل
وكذلك فعل النبي ﷺ في بدر مرتين..»(٢).

وله كلمة أخرى جامعة في الموضوع، وإن كانت لا تخرج عما سبق، قال فيها: «الشورى ألفة للجماعة، ومسبار للعقول، وسبب إلى الصواب. وما تشاور قوم إلا هدوا»(٣).

- النص الثالث للقاضي أبي بكر المرادي، قال فيه رحمه الله: «والمشورة يحتاج إليها لأوجه أربعة:

- أحدها: تقصير المستشير عن معرفة التدبير.
- الثاني: خوفه من الغلط في التقدير، وإن لم يكن من أهل التقصير.
- الثالث: أن الفطن النحرير، ربما ستر عليه الحب والبغض وجوه الرأي والروية، فإنهما يعدلان بالفكر عن الإصابة، فيحتاج إلى مشورة من رأيه صاف من كدر الهوى، مبصر لوجوه الآراء.
- الرابع: أن المستشار ربما كان في الفعل شريكا أو عليه معينا، فتكون مشورته داعية إلى استيلافه، وإغراء له في معونته إذا كان الفعل إنما يفعل برأيه»(٤).

انطلاقا من هذه النصوص، وسعيا إلى تجلية هذا الجانب من جوانب الشورى، فقد استقصيت ما أمكنني من المقاصد والفوائد التي تحققها الشورى، وجمعتها في عشرة:

١- الوصول إلى الصواب والأصوب

هذا - بدون شك - هو المقصد الأساسي والمقصد الأصلي للشورى. وهو ما يقتصر عليه - أو يركز عليه - من يذكرون الشورى ومقصودها وثمرتها. فالشورى عادة ما تكون في أمور تتوارد عليها الاحتمالات والإشكالات، وتتعدد فيها المسالك والخيارات. فيحتاج المستشير أو المتشاورون، إلى معرفة وجه الحق والصواب ومسلك الرشد والسداد، في المسألة.

وقد لا تكون المشاورة لتمييز الصواب من الخطأ، ولكنها قد تكون من أجل الموازنة والمفاضلة بين صواب وأصوب، وحسن وأحسن، أي أن المشاورة تفضي إلى تمييز الأصوب والأحسن من أجل اتباعه والأخذ به إن كان ممكنا.

وربما يكون الاحتياج إلى الشورى لتمييز الأصوب والأفضل، أشد من الاحتياج إليها لتمييز الصواب من الخطأ والخير من الشر، ولذلك قيل: ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشر، بل العاقل الذي يعرف خير الخيرين وشر الشرين.

فالالتباس والاشتباه بين صواب وأصوب، وحسن وأحسن، ونافع وأنفع، هو أكثر حدوثا من الالتباس بين الصواب والخطأ، والحسن والقبيح، والنافع والضار. والشرع قد أمرنا باتباع الأحسن:

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾

(فصلت: ٣٤).

﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾

(الإسراء: ٥٣).

وأثنى على:

﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾

(الزمر: ١٨).

ومما لا غبار عليه ولا يحتاج إلى دفاع أو بيان، كون الشورى هي أضمن الطرق وأرشد السبل إلى معرفة الحق، بعد الوحي. وإذا كانت الشورى غالبا ما تفضي إلى تجنب الخطأ والتمسك بالصواب، أو إلى الارتقاء من صواب إلى أصوب، وإذا كانت الشورى - كما تقدم - تدخل في جميع المجالات، الدينية والدنيوية، الفردية والعائلية والجماعية، بجميع مستوياتها... فلنا أن نتصور كم نربح وكم نكسب حين تعم الشورى حياتنا، وتسدد قراراتنا واجتهاداتنا وتدابيرنا وتصرفاتنا، وكم نخسر ونضيع ونعاني، حين تختفي الشورى من حياتنا وتدبير شئوننا، ويحل محلها التفرد والاستبداد والأنانية والتعسف والنظرة الأحادية والمزاجية...

إذا كانت الخسائر والمصائب والمفاسد هنا، والأرباح والمكاسب والمصالح هناك، لا يمكن أن تعد ولا أن تقدر، فلا أقل من أن نفكر فيها ونستحضر مدى ضخامتها وجسامتها، ونفكر في تراكمها وتراكم آثارها على مدى العصور والأزمان. إننا وبكل بساطة نقف بذلك على جانب كبير من جوانب التقدم أو التخلف في حياة الأمم:

﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾

(المدثر: ٣٧).

والآية فيها «إعلام بأن كل أحد يسلك طريق الهدى والحق إذا حقق النظر، أو هو بعينه يتأخر عن هذه الرتبة لغفلته وسوء نظره»(٥) كما يقول القاضي ابن عطية.

إننا نستطيع القول باطمئنان، إن أحد الأسباب الكبرى لتخلفنا وانحطاطنا - أفرادا ومجتمعات ودولا - هو التعطيل الواسع للشورى في حياتنا العامة والخاصة، عبر قرون وقرون.

٢- الخروج من الأهواء والمؤثرات الذاتية

لكل إنسان نصيبه من الهوى قل أو كثر، ولكل واحد أحواله وميوله النفسية، ولكل واحد اعتباراته الذاتية، سواء كانت دوافع أو موانع. وكل هذه العوامل تجد طريقها - بحق أو بغير حق - إلى عقل الإنسان، عند التفكير والتقدير، وخاصة في القضايا الملتبسة، التي تتجاذبها اعتبارات وحيثيات مختلفة. وتزداد هذه العوامل تأثيرا وضغطا على العقل والفكر، حين النظر في قضايا تتصل بما له تأثير عاطفي عليه، من حب أو بغض أو خوف أو تعظيم أو طمع... فمن الصعب على الإنسان أن يقدر ويعالج مثل هذه الأمور بكامل النزاهة والموضوعية، وبتجرد ومنجاة من هذه المؤثرات. وقديما قالوا: «حبك الشيء يعمي ويصم».

والمخرج من هذا هو الشورى. فإذا نظر في المسألة وناقشها عدد من الناس، تختلف عقولهم ونفوسهم وميولهم، مع ما لهم من علم وخبرة بالمسألة المعروضة، ومع ما يفترض فيهم من نصح وإخلاص، فإن نتيجة التشاور والتداول، والتقدير والترجيح، تكون - بدون شك - أبعد عن المؤثرات الذاتية والمشوشات النفسية، وتكون أقرب إلى الحق والعدل والصواب. ولعل هذا هو ما قصده ابن العربي بقوله المتقدم عن فوائد الشورى: «ومنها تخليص الحق من احتمالات الخواطر».

٢- عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي ٣/٢٠٦.
٣- أحكام القرآن ٤/٩١.
٤- كتاب السياسة، أو الإشارة في تدبير الإمارة ص٦١-٦٢.
٥- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ١٥/١٩٤

٣.منع الاستبداد والطغيان

وهذا من أعظم مقاصد الشورى وفوائدها. فالشورى نقيض الاستبداد، إذا حضرت الشورى غاب الاستبداد، وإذا غابت الشورى حضر الاستبداد. فإذا استقر الاستبداد واستمر تحول إلى طغيان، وتحول إلى مفاسد ومظالم وانحرافات لا حد لها ولآثارها.

وكثير من المستبدين لا تكون عندهم -في البداية- رغبة في الاستبداد ولا نية في الاستبداد ولا ميل إليه. ولكن الاستبداد ينبت وينمو ويترعرع شيئًا فشيئًا، إذا ترك له الحبل على الغارب. فحين يجد صاحب سلطة نفسه يفكر وحده، ويقرر وحده، ويأمر وحده، وينهى وحده، ويحكم وحده، ولا راد لحكمه، ولا أحد يشير عليه، ولا أحد ينصحه، ولا أحد يعترض أو ينكر، ولا أحد يقاوم أو يمانع... وحتى حين يستشير، أو يريد أن يستشير، فلا يجد -على الدوام- إلا من يقول له: أنت أعلم وأحكم، وأنت أدرى وأولى، والرأى رأيك والقول قولك والأمر إليك... فماذا ننتظر من هذا الإنسان، وهو على كل حال إنسانٌ.

﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ﴾

(العلق: ٦).

ماذا ننتظر منه غير الاستبداد والتمادى فيه؟ وغير الطغيان والتجبر؟ أليس هذا هو الذى أوصل فرعون إلى قوله الذى اتخذه قاعدة فى الحكم والتعامل مع:

﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾

(غافر: ٢٩).

وما من مستبد إلا وهو آخذ بهذه القاعدة، صرح بها أو لم يصرح، أقر بذلك أو أنكر.

فالشورى كما تحمى الشعوب من استبداد حكامها، فإنها تحمى الحكام أنفسهم من نزعة الاستبداد والقابلية له، الكامنة فى نفوسهم. حين نقرأ الآية الكريمة:

﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾

(الزخرف: ٥٤).

يجب أن نتساءل: لو أن فرعون حين استخف قومه لم يطيعوه، هل كان سيتمادى فى فرعونيته وتجبره؟ طبعًا لا. فلو ردعوه لارتدع. ولو وجد من أول أمره حدودًا وقيودًا على سلطته لتعقل ورشد. وإذا كان الحاكم مسئولا عن صلاح الأمة وفسادها، فإن الأمة أيضًا مسئولة عن صلاحه وفساده وغيه ورشاده.

على أن الاستبداد ليس خاصًا بالحكام والأمراء والزعماء، فهناك الزوج المستبد، والأب المستبد، والمفتى المستبد... وكل صاحب سلطة، سياسية، أو إدارية، أو علمية، أو اجتماعية، يمكن أن يصبح مستبدًا. وكل يستبد حسب سلطته وحسب طاقته، إذا ترك الشورى، وإذا ترك يتصرف بدون شورى.

فالاستبداد داء، والشورى وقاية ودواء.

٤.تعليم التواضع

إذا كان الاستبداد يعلم الطغيان والتجبر، فإن الشورى تعلم التواضع وتدرب على اكتسابه وممارسته والتطبع به.

الاستبداد يشعر صاحبه بالاستغناء، فهو يستغنى برأيه عن رأى غيره، وبعلمه عن علم غيره، وبتقديره عن تقدير غيره. وقد قرن القرآن الكريم بين الاستغناء والطغيان، ونبه على أن الأول سبب للثانى:

﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾

(العلق: ٦، ٧).

وعلى العكس من ذلك فالشورى تعلم صاحبها أنه محتاج إلى غيره وإلى ما عند غيره، وأن علمه مهما بلغ لا يستغنى عن علم غيره، وأن رأيه مهما سما لا يستغنى عن آراء غيره. فالشورى تكسر نزعة الاستغناء والاستعلاء، ونزعة الاستنكاف عن مشاورة الغير، والاستماع إلى الغير، والاستفادة من الغير.

فمشاورة الناس ليست عيبًا وليست نقصًا، بل تركها والاستنكاف عنها هو العيب وهو النقص. وتثبيت هذه الحقيقة هو بعض ما أراد الله تعالى حين أمر نبيه ﷺ -وهو من هو- أن يشاور أصحابه، وهم دونه. قال سفيان بن عيينة: «أمره بالمشاورة لتقتدى به أمته فيها ولا تراها منقصة، كما مدحهم الله تعالى بأن أمرهم شورى بينهم»[٦]

٥.إعطاء كل ذى حق حقه

هذه الفائدة تنطبق بصفة خاصة على الشورى التى تعلق بها حق الغير، وفى مقدمتها الشورى فى الشئون العامة والمشتركة، التى تدخل فى قوله تعالى:

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾

(الشورى: ٣٨)

فكل أمر من «أمرهم»، فهو شأنهم جميعًا، وحقهم فيه وفى تدبيره هو حق لهم جميعًا، يعالجونه ويبتون فيه مشاورة بينهم، دون أن ينفرد به، أو يستقل به، أو يستبد به أحد دون غيره من أصحاب ذلك الحق، وممن تعود لهم مصلحته، وتعود عليهم مضرته وتبعاته.

فمشاورة أصحاب أى أمر أو من ينوبون عنهم، وأخذ رأيهم بعين الاعتبار هو إنصاف لهم وإحقاق لحقهم. فالتصرف فى حقوق الناس منوط بموافقتهم أو بإذنهم، أو بتفويضهم وتوكيلهم. ألا ترى إلى رسول الله ﷺ حين هم بمصالحة غطفان بثلث تمر المدينة لينسحبوا من حلف المشركين واليهود، المحاصرين للمدينة فى غزوة الأحزاب، فإنه لم يقدم على ذلك حتى استشار رءوس أهل المدينة فقالوا: «يا رسول الله، أوحى من السماء، فالتسليم لأمر الله؟ أو عن رأيك وهواك، فرأينا نتبع هواك ورأيك؟ فإن كنت إنما تريد الإبقاء علينا، فوالله لقد رأيتنا وإياهم على سواء، ما ينالون منا ثمرة إلا شراء أو قرى...»[٧]، فعدل رسول الله ﷺ عن رأيه إلى رأيهم...

وفى غزوة حنين، لما أراد الإحسان إلى هوازن، برد سبيهم عليهم، لم ينفذ ذلك حتى دعا أصحاب الحق، وقال لهم: «إن إخوانكم -يقصد هوازن- جاءوا تائبين، وإنى قد رأيت أن أرد إليهم سبيهم، فمن أحب منكم أن يطيب بذلك فليفعل، ومن أراد منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يفىء الله علينا فليفعل» فقال الناس: قد طبنا بذلك يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: «إنا لا ندرى من أذن منكم فى ذلك ممن لم يأذن. فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم» فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم، ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه أنهم قد طيبوا وأذنوا»[٨].

«يتبع»

---

٦. أحكام القرآن للجصاص ٢/٤٠.
٧. العلي، إبراهيم، صحيح السيرة النبوية، ص٣٦١.
٨. صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب قوله تعالى «ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم».

الوسطية

للأستاذة رانيا رجب شعبان

يُعد مفهوم الوسطية من المفاهيم القرآنية الكلية والمركبة، بل ونستطيع القول بأنه من المفاهيم المهيمنة على سائر المفاهيم القرآنية فهو ينتظمها جميعًا، ولذلك نستطيع القول بأن آية البقرة:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾

(البقرة: ١٤٣)

تؤسس لشخصية هذا الدين ـ إذا صح التعبير ـ والتى يجب أن يتمثلها من ينتسب إليه ليؤدى الدور الذى أسست له تلك الآية. ومع ذلك فإنه يُعد من أكثر المفاهيم القرآنية هلامية ـ لا فى ذاته ـ وإنما فى المقاربات والمعالجات التى تعاطته، حيث جعلته وصفًا لائقًا بكل موصوف، واسمًا حمالاً لكل المعاني، وكأنه لا تعارض بينها، مما ألصق به تهمة الميوعة وحرمنا من إلهاماته. وربما كان ذلك عائدًا لكونه مفهومًا معقدًا وكليًا ـ كما سبق ـ بما يغرى بإسقاط مضامين صيغت خارجه، هى أكثر التصاقًا بالسياقات التاريخية التى صيغت فيها وبما تتضمنه تلك السياقات من خصوصيات ثقافية واجتماعية وسياسية أكثر من التصاقها به.

ومن هنا كانت مهمة بناء هذا المفهوم تقتضى مقاربة تاريخية مقارنة ونقدية، وهذا ما ستجهد تلك الدراسة للقيام به، دون ادعاء ببلوغ الغاية.

الموارد القرآنية:

وردت الآية (١٤٣) من سورة البقرة فى سياق الحديث عن تحويل القبلة من بيت المقدس إلى البيت الحرام، والرد على الشبهات التى أثارها يهود المدينة حول هذا الحدث، وسياق السورة كلها يدور حول بنى إسرائيل لتبيين منهجهم فى التعاطى مع أنبياء الله وفى التعاطى مع الواقع، وبيان خصائص شريعتهم. وعلى ذلك فإن فهم الآية ١٤٣ فى سياق المقارنة أمر منطقى، فالآية تتكلم عن دين له شريعة ومنهج مختلف عما سبقه ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ وبرسالة لأمة لابد وأن تكون مختلفة إذا ما تمثلت هذه الشريعة وهذا المنهاج.

وردت مادة (وسط) خمس مرات فى القرآن: فى الآية موضوع الدراسة، وفى قوله تعالى:

﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾

(القلم: ٢٨)

وقوله تعالى:

﴿ حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾

(البقرة: ٢٣٨)

وقوله:

﴿ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ ﴾

(المائدة: ٨٩)

وقوله

﴿ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴾

(العاديات: ٥)

فماذا تعنى وسط؟

«وسط الشئ: ما له طرفان متساويا القدر.. والوسط تارة يقال فيما له طرفان مذمومان، يُقال هذا أوسطهم حسبًا: إذا كان فى واسطة قومه وأرفعهم محلا، وكالجود الذى هو بين البخل والسرف، فيُستعمل استعمال القصد المصون عن الإفراط والتفريط فيمدح به نحو السواء والعدل والنصفة، نحو قوله تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾

وعلى ذلك ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾. وتارة يُقال فيما له طرف محمود وطرف مذموم كالخير والشر، فيكنى به عن الرذل نحو قولهم فلان وسط من الرجال، تنبيهًا أنه خرج من حد الخير. وقوله تعالى:

﴿ حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾

فمن قال الظهر: فباعتبار النهار، ومن قال المغرب: فلكونها بين الركعتين والأربع.. ومن قال الصبح فلكونها بين صلاة الليل والنهار.. ومن قال صلاة العصر فقد روى ذلك عن النبى ﷺ ولكون وقتها فى أثناء الأشغال العامة للناس بخلاف سائر الصلوات التى لها فراغ إما بعدها أو قبلها..»[١].

وتعددت الأقوال فى تفسير معنى (وسطا) فى الآية، فهناك من ذهب إلى أن وسطا: تعنى عدولا، وهناك من ذهب إلى أنها تعنى خيارًا بمطابقتها لقوله تعالى:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾

(آل عمران: ١١٠)

ومدار القولين على «أنّ أحمد الأشياء أوسطها»[٢].

ويذهب على الصلابى (معاصر) إلى: «أن الوسطية لابد لها من توفر أمرين: الخيرية والبينية.. فهناك أسس لابد من بيانها لُيحدد معنى الوسطية: الغلو أو الإفراط، الجفاء أو التفريط، والصراط المستقيم. فالصراط المستقيم هو وسط بين الغلو والجفاء أو الإفراط والتفريط كما أنه يمثل الخيرية، والصراط المستقيم هو دين الله الذى لا اعوجاج فيه..» ويحترز فى موضع آخر مما

١ ـ أبو القاسم الحسين بن محمد ت ٥٠٢ هـ، المفردات فى غريب القرآن، دار المعرفة، بيروت تحقيق: محمد سيد كيلانى، ج١، ص٥٢٢ ـ ٥٢٣.
٢ ـ القرطبى.

يمكن أن يتبادر إلى الذهن من أن الدلالة الظرفية للبينية فهي «تعطى الدلالة على التوازن والاستقامة والعدل.»(٣).

ومن البديهى أن الصفة والموصوف يدوران معًا ـ أى الأمة الوسط ـ وكلاهما مرتبط بالشهادة، فشهادة الأمة مترتبة على صيرورتها وسطًا ـ بما يعنى ارتباط المفاهيم الثلاثة بعضها البعض كوحدة بنائية، وبما أن ذلك كذلك كان لزامًا علينا التوقف عند معنى الأمة والشهادة ـ وهما مفهومان كليان ومركبان أيضًا ـ قبل الولوج فى مقاربة مفهوم الوسطية.

وردت مادة «أم» مائة وثلاث عشرة مرة فى القرآن الكريم، منها واحد وستون مرة وردت بلفظة «أمة»، يقول ابن فارس: «الهمزة والميم أصل واحد يتفرع منه أربعة أبواب، وهى: الأصل والمرجع والجماعة والدين، وهذه الأربعة متقاربة. قال الخليل: (كل شىء يضم إليه ما سواه فإن العرب تسمى ذلك أمة»... وكل قوم نسبوا إلى شىء وأضيفوا إليه فهم أمة، وكل جيل من الناس أمة على حدة. فأما قوله تعالى:

﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾

(البقرة: ٢١٣)

فقيل: كانوا كفارًا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، وقيل: بل كان جميع من مع نوح فى السفينة مؤمنًا ثم تفرقوا. وقوله تعالى:

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ أى: إمامًا يُهتدى به، وهو سبب الاجتماع..»(٤).

فالأمة إذن ـ بحسب لسان القرآن ـ لا تعبر عن وجود مادى وموضوعى لمجموعة من البشر، بل تعبر عن هذه الجماعة البشرية من حيث إنها تأسست وتشكلت طبقًا لرابط وجامع معنوى ما فتنتسب إليه وتستمد وجودها واستمرارها وخصائصها التى تميزها عن سائر البشر منه.

وقد أسس تطابق مدلول الأمة فى آية آل عمران:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾

والأمة فى آية البقرة ـ باعتبار أن المخاطب فى الآيتين ـ ﴿ جَعَلْنَاكُمْ ﴾ و ﴿ كُنتُمْ ﴾ ـ هو أمة محمد ﷺ أو أمة الإسلام ـ للقول بأن الوسطية تدل على الخيرية. وهنا أيضًا يستوقفنا سياق سورة آل عمران الذى يدور حول النصارى ويرصد الخط الذى انتهجوه فى تعاطيهم مع دينهم، وللسياق دلالة لا تغفل، فورود الآية فى هذا السياق يشى ببعد مقارن كما فى آية البقرة.

وأما الشهادة، فقد وردت مادة (شهد) فى القرآن مائة وست وخمسين مرة، وهى «أصل يدل على حضور وعلم وإعلام، والشهادة تجمع هذه الأصول.»(٥) قال أبو عبيدة: «معنى ﴿ شَهِدَ اللَّهُ ﴾: قضى الله، وحقيقته: علم الله وبين الله؛ لأن الشاهد هو العالم الذى يبين ما علمه.

فالشهادة ـ إذن ـ تقتضى حضورًا للذات ـ

٣ ـ على محمد الصلابى، الوسطية فى القرآن الكريم، دار المعرفة، بيروت، ط٢٠٠٨م/١٤٢٩هـ، ص٤٣ ـ ٦٥، ص١٦٥ ـ ١٦٨.

٤ ـ أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ت ٣٩٥هـ، معجم مقاييس اللغة، دار الجيل، بيروت، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، تحقيق: عبدالسلام هارون، ج١، ص٢٢ ـ ٢٥.

٥ ـ مرجع سابق، ج٣، ص٢٢١ ـ ٢٢٢.

وليس مجرد وجود ـ وبمقتضى هذا الحضور يكون لديها ما تؤديه، فتؤديه حتى تكون علمًا عليه، مع تباين بين شهادة الخالق والمخلوق.

واختُلف فى الشهادة المذكورة فى الآية هل هى شهادة فى الآخرة فقط على الأمم الأخرى بأن أنبياءهم قد بلغوا الرسالة وأدوا الأمانة، كما وردت بذلك الروايات (٦)، أم أنها تشمل شهادة عاجلة فى الدنيا وآجلة فى الآخرة؟!

الحركة الدلالية لـ «وسطا» أو الوسطية

لم يُلتفت مبكرًا إلى استقلالية مفهوم الوسطية كما ورد فى قوله تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾،

وإنما تم التعاطى معها ـ كما فى سائر القرآن الكريم ـ كقضية جزئية يُستشهد بها على قضايا كلية، أو يدعم بها قضايا جزئية أخرى. فعدالة الأمة وخيريتها هى ما استخلصه الجميع من هذه الآية، ولكن ما المقصود بالأمة؟ هل المقصود بها كل من آمن بمحمد ﷺ، وهل يتعلق وصف العدالة بمجموعها، أم ينسحب على آحادها، وهل الأمة الوسط مخصوصة بجيل، أو بطائفة...؟ فالدائرة التى يشملها مفهوم الأمة تضيق وتتسع ومعها تتفاوت دلالة الوسطية حسب حقول الاستدلال المختلفة.

دلالة الوسطية عند الأصوليين

استشهد الأصوليون على حجية الإجماع بآية البقرة، وجعلوا وسطية الأمة موازية لعصمتها، باعتبار أنها ـ إلى جانب قوله تعالى:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾

تدل على عصمة الأمة. ففى ذلك يقول البزدوى الحنفى فى أصوله: «والخيرية توجب الحقية فيما أجمعوا عليه... والوسط: العدل وذلك يضاد الجور، والشهادة على الناس تقتضى الإصابة والحقية إذا كانت شهادة جامعة للدنيا والآخرة، قال النبى ﷺ «لا تجتمع أمتى على ضلالة»..»(٧).

وهل هذه العدالة متحققة فى مجموع الأمة، أم أنها متحققة فى جيل منها؟

يجيب عن ذلك الفخر الرازى: «إنها ـ أى الآية ـ خطاب إلى جميع الأمة أولها وآخرها؛ من كان منهم موجودًا وقت نزول الآية ومن جاء بعدهم إلى قيام الساعة..» ثم برهن الرازى على أن وصف العدالة متحقق فى أهل كل عصر وكذلك الشهادة: «فلو اعتبرنا أول الأمة وآخرها بمجموعها فى كونها حجة على غيرها لزالت الفائدة؛ إذ لم يبق بعد انقضائها من تكون الأمة حجة عليه، فعلمنا أن المراد به أهل كل عصر»... وبذلك تكون شهادة الأمة فى الدنيا المترتبة على كونها وسطًا تعنى: «أن يكون مجموع الأمة إذا أخبروا عن شىء أن يكون قولهم حجة، ولا معنى لقولنا إن الإجماع حجة إلا هذا..»(٨).

وهل تنسحب هذه العدالة على آحاد الأمة، يجيب فخر الدين الرازى أيضًا: «وقوله

٦ ـ محمد بن جرير الطبرى، جامع البيان فى تأويل آى القرآن، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ، ج٢، ص٨.

٧ ـ على بن محمد البزدوى الحنفى ت ٣٨٢هـ، كنز الوصول إلى معرفة الأصول، مطبعة جاويد بريس، كراتشى، ص٢٤٥.

٨ ـ فخر الدين الرازى ت ٦٠٤هـ، التفسير الكبير، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ط١، ج٤، ص٩١.

تعالى ﴿ جَعَلْنَٰكُمْ ﴾ خطاب لمجموعهم لا لكل واحد منهم وحده.. وهذا معنى ما قاله العلماء: ليس المراد من هذه الآية أن كلهم كذلك؛ بل المراد أنه لابد وأن يوجد فيما بينهم من يكون بهذه الصفة.. ولهذا قال كثير من العلماء: إنا لو ميزنا في الأمة من كان مصيبًا عمن كان مخطئًا كانت الحجة قائمة في قول المصيب ولم تعتبر ألبتة بقول المخطئ.. فإذن إخبار الله تعالى عن خيرية الأمة لا يقتضي إخباره عن خيريتهم في كل الأمور، فثبت أن هذا لا ينافي إقدامهم على الكبائر فضلًا عن الصغائر»(٩).

وهنا تضيق دائرة الأمة الوسط ودائرة الشهادة: «فلابد من اعتبار الأهلية لأداء الشهادة.. وإنما يُفترض اتباع العدل المرضي»(١٠).. وبالتالي يخرج من هذه الدائرة أهل الأهواء ولا يُعتد بإجماعهم.

وبذلك حصر الأصوليون والفقهاء معنى وسطية الأمة في العدالة المؤهلة للشهادة، والشهادة في الإجماع.

في سياق التجاذبات الكلامية والمذهبية

استحضرت هذه الآية في سياق التجاذبات الكلامية والمذهبية للاستدلال بها في مسائل كلامية مختلفة.. ففي مسألة الإمامة استشهد بها على صحة خلافة الخلفاء الأربعة(١١) باعتبار أن جيل الصحابة ـــ وهم أول من خوطب بالخيرية والعدالة ـ قد أجمعوا على صحة خلافتهم فلا اعتداد بالمخالفين من «أهل البدع والأهواء».. وفي هذا استدلال ـ أيضًا ـ على عدالة الصحابة(١٢).

في مقابل ذلك هناك من ذهب إلى أن الخيرية المذكورة في آيتي البقرة وآل عمران تنطبق على الأئمة المعصومين من أهل البيت.

وفي مسألة أفعال العباد احتج بها من يرى أن أفعال العباد مخلوقة.. ووجه احتجاجهم: «أن هذه الآية دالة على أن عدالة هذه الأمة وخيريتها بجعل الله وخلقه، وفي مقابل ذلك: «قالت المعتزلة: المراد من هذا الجعل فعل الألطاف التي علم الله تعالى أنه متى فعلها لهذه الأمة اختاروا عندها الصواب في القول والعمل..»(١٣).

وكنتيجة لتلك التجاذبات المذهبية، حيث يرى أتباع كل فرقة وكل مذهب أنهم الفرقة الناجية والطائفة المحقة التي لا يضرها من خذلها ـــ أقول كنتيجة لهذه الأجواء ـ كان من البديهي أن يلجأ أتباع كل مذهب إلى الوسطية؛ فهم الأمة الوسط وهم الشهداء على من سواهم.

«وأهل السنة في الإسلام كأهل الإسلام في أهل الملل؛ فهم وسط في باب صفات الله عز وجل بين أهل الجحد والتعطيل، وبين

٩ ـ مرجع سابق، ج٤، ص٩٣.

١٠ ـ السرخسي، أصول السرخسي، ص١٣١.

١١ ـ أبو عبدالله محمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، المنتقى من منهاج الاعتدال في نقض كلام أهل الرفض والاعتزال، تحقيق محب الدين الخطيب، ص٥٤٢ ـ ٥٤٩.

١٢ ـ أبو العباس أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيثمي (ت ٩٧٣هـ)، الصواعق المحرقة على أهل الرفض والضلال والزندقة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ط١، تحقيق عبدالرحمن التركي، كامل الخياط، ج٢، ص٦٠٤.

١٣ ـ الفخر الرازي، التفسير الكبير، مرجع سابق، ج٤، ص٩٠.

أهل التشبيه والتمثيل.. وهم وسط في باب أفعال الله عز وجل بين المعتزلة المكذبين للقدر والجبرية النافين لحكمة الله ورحمته وعدله، والمعارضين بالقدر أمر الله ونهيه وثوابه وعقابه. وفي باب الوعد والوعيد بين الوعيدية وبين المرجئة.. وهم وسط في أصحاب رسول الله ﷺ بين الغالي فيهم... والجافي فيهم...»(١٤).

وهم أهل الشهادة: «... ولهذا لما كان أهل السنة والجماعة الذين محضوا الإسلام ولم يشوبوه بغيره كانت شهادتهم مقبولة على سائر فرق الأمة بخلاف أهل البدع والأهواء.. قال النبي فيهم «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين....»(١٥).

وليس هذا حكرًا على أهل السنة، فالزيدية ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ يرون أنهم الفرقة الوسطى فيهم: «الذين استقر فيهم الحق، واستقام عمود دين أهل الولاية، لم يغلوا ولم يقصروا..»(١٦).

في مجادلة أهل الأديان الأخرى

وتجلى هذا الاتجاه ـــ أيضًا ـ بصورة قوية في أجواء الصراع مع الصليبيين ـ وإن كان هذا لا يعني أن ذلك الاتجاه لم يكن موجودًا قبل ذلك ـ حيث كان الانتصار للذات الجريحة في مقابل المخالف في الدين المحتل للأرض.. ففي رده على كتاب منسوب إلى أسقف صيدا الأنطاكي يحتج فيه لدين النصارى يقول ابن تيمية: «كما جعل أمته ـــ أي محمد ﷺ ـ خير أمة أخرجت للناس فهم يوفون سبعين أمة هم خيرها وأكرمها على الله من جميع الناس؛ هداهم الله بكتابه ورسوله لما اختلفوا فيه من الحق قبلهم وجعلهم وسطًا عدلا خيارًا. فهم وسط في توحيد الله وأسمائه وصفاته وفي الإيمان برسله وكتبه وشرائع دينه.. ولذلك المسلمون وسط في الشريعة فلم يجحدوا شرعة الناسخ لأجل شرعة المنسوخ كما فعلت اليهود، ولا غيروا شيئًا من شرعه المحكم، ولا ابتدعوا شرعًا لم يأذن به الله كما فعلت النصارى، ولا غلوا في الأنبياء والصالحين كغلو النصارى، ولا بخسوهم حقوقهم كفعل اليهود، ولا جعلوا الخالق سبحانه وتعالى متصفًا بخصائص المخلوق ونقائصه ومعايبه من الفقر والبخل والعجز كما فعل اليهود، ولا المخلوق متصفًا بخصائص الخالق سبحانه وتعالى التي ليس كمثله شيء فيها كفعل النصارى، ولم يستكبروا عن عبادته كفعل اليهود، ولا أشركوا بعبادته أحدًا كفعل النصارى»(١٧).

وفي موضع آخر قارن بين شريعة التوراة التي يغلب عليها الشدة وشريعة الإنجيل

١٤ـ أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن تيمية (٧٢٨هـ)، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، مطبعة المدني، تحقيق سيد صبح المدني، ج١، ص٦٨.

١٥ـ أحمد بن عبدالحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في التفسير، مكتبة ابن تيمية، ط٢، تحقيق عبدالرحمن بن محمد النجدي، ج١٥، ص٢٩٨.

١٦ـ الإمام عبدالله بن حمزة بن سليمان (ت ٦١٤هـ)، الشافي في الإمامة، مكتبة أهل البيت، صنعاء، ط١، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م، طبع مؤسسة دلتا بيروت، ج١، ص٤٩٠.

(١٧) ابن تيمية، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، مرجع سابق، ج١، ص٦٧-٦٨.

التى يغلب عليها اللين[١٨].

وعرض للخصائص التى أهلت أمة محمد للشهادة على سائر الأمم: «وأيد أمته تأييدًا أطاقت به حمل ما ألقاه إليهم.. ولا ريب أن أمة محمد أكمل عقولًا وأعظم إيمانًا وأتم تصديقًا وجهادًا...». ثم تكلم عن شهادة محمد لعيسى عليهما السلام وتنزيهه عما افترته عليه اليهود، وعما غلت فيه النصارى. ليصل لشهادة أمة محمد على الناس: «وجعل الله أمة محمد شهداء على الناس يشهدون عليهم بما علموه من الحق... فإن الشاهد لا يكون إلا عدلًا بخلاف من جار فى شهادته فزاد على الحق ونقص منه كشهادة اليهود والنصارى فى المسيح...»[١٩] ولا يستثنى من ذلك الفضل والكرامة إلا أهل البدع فهم كاليهود والنصارى[٢٠].

ومما سبق نستطيع القول إن للوسطية فى هذا الاتجاه دلالة ذات بعدين.

الأول: وسطية شريعة الإسلام بين الشدة واللين مقارنة بالشرائع السماوية الأخرى.

الثانى: وسطية الأمة التى تتحلى بخصائص - أودعها الله فيها - لتكون أهلًا لتحمل الأمانة وأداء الشهادة.

وكما سبق فإن هذا التصور قد تم بناؤه فى سياق تاريخى معين، وكنتيجة لمنهج يتعاطى مع القرآن الكريم كخطاب توصيفى لا خطاب توجيهى وتكليفى. لكن هذا السياق التاريخى قد تغير فى عصر النهضة - بدءًا من القرن التاسع عشر الميلادى - حيث فرض التفاوت الحضارى بين الغرب والشرق نفسه، خاصة مع وصول أمواج الثقافة الغربية إلى سواحل المشرق، فانتهج خطاب التجديد والإصلاح نقد الذات التى تفوق عليها الآخر حضاريًا، وأصبح التأكيد على خصائص ذاتية تتحلى بها أمة محمد، وخيرية لصيقة بها؛ نوع من الغرور الذى أورث انحدارًا وتراجعًا أمام الآخر.. وهذا لا يعنى أن الاتجاه الأول قد اختفى تمامًا بل ظل قائمًا بشكل أو بآخر لكن دون أن يكون منفردًا بالساحة.

(يتبع)

* * *

١٨ - مرجع سابق، ج٥، ص٨٠.
١٩- مرجع سابق، ج٥، ص٣٠٠- ٣٠٢.
٢٠ - مرجع سابق، ج١، ص٩٢، ٩٨.

أبعاد جديدة لمقاصد الشريعة (٣)

مقصد حفظ الدين

أ.د. عبدالمجيد النجار

لقد وضعنا حفظ الدين مقصدا من المقاصد العليا للشريعة الإسلامية، بل هو المقصد الأعلى فى سلم المقاصد الكلية العامة، إذ هو متعلق بحقيقة الوجود الإنسانى وقيمته على المعنى الذى شرحناه، فإذا ما تحقق هذا المقصد كان ذلك أساسا لتحقق معنى الحياة وقيمتها، وانتهى الأمر إلى تحقق المقصد الأعلى من الشريعة وهو قيام الإنسان بمهمة الخلافة فى الأرض، وإذا ما تعطل تعطلت كلها، فتئول إلى البوار.

وإنه لحرى بنا قبل الخوض فى بيان هذا الموضوع أن نحدد المفهوم من الدين ومن حفظ الدين كما سنستعملهما لاحقا، إذ هو مفهوم قد تختلط فيه المعانى، فتحديده يجعل الأذهان واردة فيه على كلمة سواء، كما نبين أيضا كيف أن حفظ الدين يندرج ضمن دائرة أوسع هى حفظ حقيقة الحياة الإنسانية باعتبار أن هذه الحقيقة لا تقوم إلا بعنصر الدين.

إن الإسلام يحدد قيمة الحياة الإنسانية على هذا النحو، فتكون مرتفعة أو نازلة فى سلم القيمة بقدر ما يأخذ الدين فيها من مكانة موجهة فى الفكر والسلوك، وربما ذهبت مذاهب وفلسفات أخرى إلى نقيض هذا التصور، إلا أن التاريخ يثبت يومًا بعد يوم صحة الرؤية الإسلامية من حيث دور الدين فى تحديد قيمة الحياة الإنسانية.

١. الدين

إذا كان الدين فى اللغة يعنى الطاعة من دان يدين أى أطاع، فإنه أصبح يطلق اصطلاحا على معنى مخصوص من الطاعة، وهو طاعة إله يتخذه المطيع معبودا يؤمن به ويعبر عن طاعته بشعائر من الأقوال والأفعال يعتقد أنه يطلبها منه. وفى الثقافة الإسلامية أصبح لفظ الدين يطلق على الدين الإسلامى بمقتضى التعبير على سبيل الغلبة، فقد جاء في القرآن الكريم:

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾

(آل عمران: ١٩)

وإن كان لفظ الإسلام نفسه يطلق على كل دين جاء به نبى حق، وإنما أصبح هو بدوره يطلق على الدين الذى جاء به محمد ﷺ على سبيل الغلبة فى الاستعمال.

والدين - لئن أصبح من المتعارف عليه أن يطلق على مجموع المعتقدات النظرية والفروض

العملية المطلوب من المتدين أن يتحملها فيما يدين به من دين - فإنه في الأصل وبمقتضى المدلول اللغوى يطلق على التحمل نفسه، إذ معناه اللغوى هو الطاعة، والطاعة هي انصياع إرادة المطيع لأوامر من يطيعه. فالدين يطلق أيضا على تحمل المتدين للمعتقدات والفروض المطلوبة منه، أو هو بتعبير آخر تدينه بها، وهذا المعنى هو الأولى أن يكون معنى مقصودا للفظ الدين، إلا أن الاستعمال أصبح غالبا في إطلاقه على المعتقدات والفروض نفسها. ونحن في هذا المقام سنستعمل لفظ الدين وعبارة حفظ الدين إطلاقا على المعنيين معا أي: المعتقدات وما يتبعها من فروض، والتدين بها على معنى تحملها بالتصديق وبالتطبيق.

ولعل استعمال الدين بهذا المعنى الثاني سيكون أغلب فيما سنبينه في معنى حفظ الدين، وفي المقتضيات التي يقتضيها ذلك الحفظ.

والدين بمعنى التدين هو في المفهوم الإسلامي يتصف بالشمول، كما يتصف به الدين بمعنى المعتقدات والفروض، فهو على خلاف سائر الأديان يشمل الإيمان بكل ما جاء به محمد ﷺ على أنه حق في ذاته، وعلى أنه حق في كونه قد جاء به من عند ربه، ما تعلق من ذلك بعالم الغيب كالإيمان بوجود الله والملائكة واليوم الآخر، وما تعلق بعالم الشهادة كالإيمان بالصلاة والزكاة وكرامة الإنسان وطلب العلم.

ويشمل العمل السلوكي كل ما هو مطلوب العمل به فعلا لما هو مأمور به، وتركا لما هو منهي عنه.

ويشمل التدين في بعده السلوكي ما يتعلق بسلوك الإنسان مع نفسه بإعطائها حقوقها والحفاظ عليها من التهلكة، وبسلوكه مع أسرته، وسلوكه مع مجتمعه الذي يعيش فيه، وسلوكه مع الدولة التي تحكمه، وسلوكه مع مطلق الإنسان الذي يختلط به، وسلوكه مع البيئة الطبيعية التي يتحرك فيها، ثم سلوكه مع ربه الذي خلقه، وذلك كله سواء نظرنا إلى الإنسان على أنه فرد، أو نظرنا إليه على أنه هيئة اجتماعية، فسلوكه بهذا الاعتبار وذاك هو مناط للتدين، وذلك على معنى أن الإنسان مطلوب منه أن يجرى سلوكه على مقتضى ما هو مطلوب من قبل الله تعالى فعلا أو تركا، فالتدين الذي هو موضوع بحثنا يشمل جميع ما ذكرناه من الوجوه، وهو ما تقتضيه خاصية الشمول التي اختص بها الإسلام.

٢. حفظ الدين

إن الإنسان إذا ما اختار الإيمان بالدين، ووجه الإرادة إلى أن يكون متدينا، فإن ذلك لا يتم له بصفة تلقائية بمقتضى عزمه العقلي على الإيمان وعزمه الإرادي على السلوك، وإنما قد تعترضه العوائق التي تعطل عزمه إن قليلا أو كثيرا، فإذا تدينه يعتريه الخلل في التحمل الإيماني أو السلوكي، وقد يستفحل ذلك الخلل باستفحال أسبابه حتى ليوشك أن يأتي على التدين كله، فينتكس العزم العقلي والإرادي إلى وضع من الردة عن التدين إن في السلوك أو في أصل التصديق، وبين هذا الوضع والوضع الذي يكون فيه التدين كاملا أو قريبا من الكمال درجات.

ولم يترك الدين في تعاليمه هذا الأمر مرسلا، بل لقد شرع ضمن تشريعه من الأحكام ما من شأنه أن يقاوم الأسباب التي تنكص بعزيمة التدين، وجعل تلك الأحكام كسبب من أسباب المناعة التي ركبها الله تعالى في الأجسام الحية، والتي من شأنها الدفاع عن الحياة لدفع العوامل المضادة لها، فهذه الأحكام الشرعية إنما شرعت للدفاع عن الدين أن يتدين به من اختاره دينا، ومقاومة العوامل المضادة لذلك، فكان مقصدها إذن حفظ الدين على معنى أن تكون تلك الأحكام مؤدية إلى ضمان أن تيسر لمن اختار الإيمان بالدين أن يتدين بالدين الذي اختاره اعتقادا وسلوكا دون أن تحول بينه وبين ذلك العوامل المانعة أو المعطلة.

وكما جاء الدين شاملا بالبيان لكل وجوه الحياة، فيما يتعلق بالفرد والمجتمع، فإن حفظ الدين بالمعنى الذي بيناه يكون أيضا شاملا لكل تلك الوجوه، وذلك على معنى أن الأحكام التي جاءت لمقصد حفظ الدين جاءت تتعلق بتيسير التدين ودفع العوائق دونه في جميع وجوه الحياة، وفي خصوص التدين الفردي والتدين الجماعي، فكما يحفظ الدين على سبيل المثال بأن يتمكن المسلم من التدين بإقامة الصلاة، ودفع العوائق دون ذلك، فإنه يحفظ أيضا بأن يتمكن المجتمع من التدين بإقامة حياته الجماعية على أساس من الدين في التعامل الاجتماعي، ودفع العوائق دون ذلك، فليس إذن حفظ الدين بمقتصر على حفظ التدين في خاصة النفس كما يتوهم البعض، بل يمتد ذلك الحفظ إلى كل ما للدين فيه حكم، وللدين حكم في جميع وجوه الحياة، وفي جماع هذا المعنى قال ابن عاشور: «حفظ الدين معناه حفظ دين كل أحد من المسلمين أن يدخل عليه ما يفسد اعتقاده وعمله اللاحق بالدين، وحفظ الدين بالنسبة لعموم الأمة هو دفع كل ما من شأنه أن ينقض أصول الدين القطعية»[١].

وبما أن الدين هو قوام الحياة من حيث إنه هو الذي يوجهها نحو غايتها وهي غاية وجود الإنسان، فإن حفظ الدين كان هو المقصد الأعلى ضمن درجات المقاصد العامة؛ ولذلك فإن علماء المقاصد حينما يذكرون المقاصد الضرورية، وهي كليات المقاصد الشرعية تجدهم يضعون حفظ الدين في المرتبة العليا منها، ويأتي بعده حفظ النفس والعقل والمال والنسل، وفي ذلك إشارة إلى أن حفظ الدين هو الدرجة الأعلى في سلم الكليات الضرورية، وإن يكن تحرير المعنى المراد من حفظ الدين على وجه الدقة لم يأخذ حظه في كتب التراث، وكذلك بيان الكيفيات التي يكون بها هذا الحفظ، وهو ما يستلزم المزيد من البيان.

٣. مسالك حفظ الدين

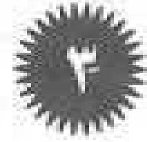
إذا كان حفظ الدين هو المقصد الأعلى في سلم الكليات الضرورية فكيف يكون هذا الحفظ للدين؟ وما هي الأحكام الشرعية التي شرعت من أجل تحقيق هذا المقصد؟ إن استقراء أحكام الشريعة يسفر عن تبين أنه إذا كان حفظ الدين بالمعنى الذي حررناه سابقا مقصدًا أصليًا ضروريًا فإن أحكامًا كثيرة شرعت من أجل يتيسر للإنسان التدين، ومن أجل أن ترفع العوائق المعترضة لممارسة هذا التدين والمعيقة دونه.

وإذا تجاوزنا كون كل حكم شرعي إنما هو مشتمل بمعنى من المعاني على معنى من التيسير الذي به يتيسر للإنسان أن يتدين، ففيه إذن معنى من معاني حفظ الدين وإن بصفة غير مباشرة، إذا تجاوزنا ذلك إلى الأحكام التي مقصدها حفظ الدين بصفة أساسية مباشرة فإننا يمكن أن نصنفها أصنافا، سلك كل منها مسلكا في حفظ الدين، لتلتقي عند ذات الهدف، ولكن من جهات متعددة. ولعل تلك المسالك في حفظ الدين تعود في معرض تعددها إلى مسلكين أساسيين، يتعلق أولهما بما به يكون تيسير التدين وتمهيد سبله والمساعدة عليه، ويتعلق الثاني بدفع العوائق التي تعيقه والعراقيل التي تعرقله.

يتبع،

(١) ابن عاشور - مقاصد الشريعة : ٢٣٤.

الفنون الجميلة ومقاصد الشريعة





أ.د. إبراهيم البيومي غانم

ثالثاً: الفنون الجميلة والآثار الوقفية في مصر الحديثة

مع بدايات القرن الثالث عشر الهجري، التاسع عشر الميلادي، كانت المقتنيات الفنية والمباني والعمائر الأثرية المتراكمة بفعل نظام الوقف الإسلامي قد انتشرت في معظم المدائن والحواضر المصرية وتنبهت الإدارة الحكومية المصرية الحديثة في عهد محمد علي باشا إلى أهمية تلك الموروثات الوقفية، واعتبرتها مصدرًا من مصادر تكوين الثروة الأثرية في مصر بصفة عام. وحفظت لنا سجلات ووثائق تلك الفترة وقائع الاهتمام الحكومي الرسمي بالآثار الوقفية، ومن ذلك أنه حدث في سنة ١٢٤٢هـ- ١٨٢٦م أن تقدم بعض الباحثين الإنجليز عن الآثار- في مصر- بطلب إلى محمد علي باشا للحصول على إذن منه ليسمح لهم بخلع عتبة «جامع الميرآخور» بباب النصر بالقاهرة؛ لأن على تلك العتبة خطوطًا أثرية قديمة. فكان جواب الباشا هو الرفض الشديد، وتقول الوثيقة التي سجلت الواقعة: إن محمد علي طلب «تفهيمهم عدم جواز ذلك، وأن يقال إننا ما زلنا نسمح لهم بإعطاء كل حجر يجدونه في مواضع مختلفة، فلا يصح أن نعطيهم الأحجار التي في مباني الجوامع أيضا»(١) ومعلوم فقها وقضاء أن المسجد وما وقف عليه لا يكون إلا وقفا مؤبدا لا يجوز تغييره أو تبديده أو التفريط فيه على أي نحو كان.

واستمر الاهتمام الرسمي بالمؤسسات الوقفية في عهد محمد علي، وتضمنت اللائحة الأولى لديوان عموم الأوقاف الذي أنشأه في سنة ١٢٥١هـ- ١٨٣٥م نصوصا كانت في معظمها متعلقة بالمحافظة على الجوامع والتكايا وأسبلة المياه الموقوفة، كما أن اللائحة الثانية للديوان الصادرة في سنة ١٢٧٦هـ- ١٨٥١م في عهد عباس باشا الأول قد تضمنت نصوصا مشابهة لما نصت عليه اللائحة الأولى بشأن حماية العمائر والمنشآت الوقفية.

ثم صدر في ١٨/ ١٢/ ١٨٨١م أول دكريتو «قانون» بتشكيل «لجنة حفظ الآثار العربية القديمة» تحت رئاسة «ناظر عموم الأوقاف» «وزير الأوقاف»، وكان من المهام الرئيسية لتلك اللجنة حسب نص الدكريتو: «ملاحظة صيانة الآثار العربية، وإخبار نظارة الأوقاف بالإصلاحات والمرمّات المقتضي إجراؤها، وذلك حتى يمكن للنظارة أن تطابق الإصلاحات المراد عملها مع «شروط الواقفين» المنصوص عليها في حجج وقفياتهم بخصوص ما سيتم إصلاحه، على أن يكون تمويل ذلك من ريع الأوقاف الداخلة تحت إشراف نظارة الأوقاف.

(١) دار الوثائق بالقاهرة - محفظة الأبحاث رقم ١٢٧ - ملخص مكاتبة بتاريخ ٢٦ شوال ١٢٤٢هـ.

١- حماية الآثار من مسئوليات وزارة الأوقاف:

في سنة ١٩١٨م صدر القانون رقم ٨ بشأن «حماية آثار العصر العربي»، ونصت مادته الأولى على «أنه يعد أثرًا من آثار العصر العربي كل ثابت أو منقول يرجع عهده إلى المدة المنحصرة بين فتح العرب لمصر وبين وفاة محمد علي في منتصف القرن التاسع عشر، مما له قيمة فنية أو تاريخية أو أثرية، باعتباره مظهرا من مظاهر الحضارة الإسلامية»، ونصت المادة نفسها- أيضا- على سريان أحكام القانون «على ما له قيمة فنية أو أثرية من الأديرة والكنائس القبطية المعمورة التي تقام فيها الشعائر الدينية، وتكون وزارة الأوقاف هي المسئولة عن تسجيل تلك الآثار والإشراف عليها وصيانتها، كما نص القانون أيضًا على أنه «لا يجوز إجراء أي تعديلات أو تجديدات على تلك الآثار إلا برخصة من وزارة الأوقاف. بعد أخذ رأي لجنة حفظ الآثار العربية»(٢) وتشير الأعمال التحضيرية لذلك القانون إلى أن الأعيان الموقوفة التي تنطبق عليها أحكامه شملت الجوامع، والخوانق، والأسبلة، وبعض الكنائس، ومخطوطات الكتب، والعملات، والسيوف، وما شابه ذلك من المقتنيات الأثرية التي هي- في الوقت نفسه- من أعمال الفنون الجميلة. وكان آخر القوانين التي اطلعنا عليها بهذا الشأن: القانون رقم ١١٧ لسنة ١٩٨٣م الذي أعطى صلاحيات واسعة للجنة المحافظة على الآثار الإسلامية، ومن ذلك حقها في إخلاء أو إزالة التعديات على الآثار الموقوفة، مقابل تعويض بأوامر إدارية ودون اللجوء للقضاء. ومن أسف أنه لا توجد إحصاءات رسمية شاملة بالآثار الوقفية في مصر، والذي توصلنا إليه هو فقط إحصاءات جزئية لبعض الآثار في بعض الأحياء بمدينة القاهرة مثل أحياء: الجمالية، والدرب الأحمر، والأزهر، وكلها إحصاءات تتعلق بالتعديات على الآثار الوقفية بتلك الأحياء. (٣)

وقد استمر إشراف وزارة الأوقاف على قطاع الآثار المصري برمته إلى سنة ١٩٣٦م، ثم نقل إلى وزارة المعارف في تلك السنة، ثم أصبحت هناك هيئات رسمية متخصصة بعضها يتبع وزارة الثقافة، وبعضها الآخر يتبع وزارة السياحة، وذلك في أعقاب ثورة يوليو سنة ١٩٥٢م، وانحسر اختصاص وزارة الأوقاف عن هذا المجال، وأصبح مقتصرا فقط على إدارة الأعيان الموقوفة واستغلالها اقتصاديا، للإنفاق على المنشآت والمباني الأثرية صاحبة الاستحقاق في ريع تلك الأوقاف.

٢- تأسيس متحف الفن الإسلامي بالقاهرة لحفظ المقتنيات الوقفية:

إذا انتقلنا إلى المتاحف الإسلامية وأعمال الفنون الجميلة التي تزخر بها، فسوف نلحظ الدور البارز للأوقاف في إنشاء هذه المتاحف وإثرائها بفنونها المتنوعة. وتشير وقائع نشأة

(٢) أنظر: الأوقاف والسياسة ص ١٥٩.
(٣) المرجع السابق ص ١٦٠.

متحف الفن الإسلامي بالقاهرة إلى أن التفكير في إنشائه قد بدأ سنة ١٨٩٢م لجمع المقتنيات الوقفية ووضعها فيه وعرضها على الجمهور العام (٤) وفي سنة ١٨٩٩م طلبت «لجنة حفظ الآثار العربية» من الحكومة المصرية آنذاك أن تقوم بوقف بعض الأطيان الأميرية الحرة «على ذمة الأنتكخانة العربية»، ولكن اللجنة المالية، التي كان يسيرها صندوق الدين الأجنبي آنذاك رفضت فكرة الوقف، واكتفت بتخصيص ريع الأطيان للغرض المقصود تخصيصًا إداريًا فقط، والسبب هو أن صندوق الدين كان يعارض سياسة تحويل الأراضي الأميرية إلى الأوقاف؛ لأن وقفها كان يخرجها من دائرة نفوذه وسيطرته على مالية البلاد. (٥)

وتكشف «وثائق لجنة الآثار العربية»- بما فيها وثائق تأسيس متحف الفن الإسلامي بباب الخلق بالقاهرة- عن عزم اللجنة آنذاك للعناية بتلك الآثار التي حفظتها المؤسسات الوقفية على مر العصور السالفة، من أجل إعادة توظيفها لتكون «من وسائط الرقي في الصناعة الشرقية، والمحافظة على خصوصية التراث، ولجذب السواحين، على حد ما عبر عنه دكريتو تعيين قومسيون للآثار التاريخية بمصر». (٦)

والزائر لمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة اليوم يجد أن كثيرًا من مقتنياته عبارة عن آثار وقفية من الثريات، ومنابر المساجد، والسيوف، والمشغولات الذهبية، والمصاحف، والدروع، وغير ذلك من التحف النادرة التي تم جمعها من مصادر مختلفة، كان من أهمها المؤسسات والمباني الوقفية القديمة. وتوجد فيه أيضًا بعض الوقفيات الأثرية التي خصصها الأمير يوسف كمال- من أعضاء الأسرة العلوية بمصر- التي وقفها تباعًا من سنة ١٩١٣م إلى سنة ١٩٢٧م. وقد سجل الأمير يوسف كمال وقفياته الأثرية بموجب أحد عشر حجة بمحكمة مصر الشرعية، وكان أولها بتاريخ ٢٠ من محرم سنة ١٣٣٠هـ ١٨ من فبراير سنة ١٩١٣م، أما آخرها فهو بتاريخ ٢١ من شعبان سنة ١٣٤٥هـ. ١٤ من فبراير ١٩٢٧م. (٧)

وقد اشتملت وقفيات الأمير يوسف كمال على مجموعات نادرة من المقتنيات الأثرية، من نفائس التحف ذات القيمة العالية في فنها وجمالها الذي لا يقدر بثمن. وحرص الواقف على تسجيل القطع الأثرية التي وقفها قطعة قطعة، مع وصف تفصيلي لكل منها، وذكر منشأ صناعتها، وتاريخ صنعها وثمنها الذي قدرت به «في سنة وقفها»، وهي تشمل مجموعات من الأطباق والصحون والأباريق، والثريات، والخناجر، والسيوف، والمشغولات الفضية والذهبية، واللوحات الفنية، وكلها ذات نقوش وزخارف ورسوم مبهجة وبارعة في الجمال، وتنتمي إلى بلدان متعددة من الصين شرقا إلى تركيا شمالا، ومراكش غربا، والسودان جنوبا، ويرجع تاريخها إلى عصور مختلفة منها القديم، ومنها الوسيط، ومنها الحديث. وقد بلغ عدد القطع التي وقفها ٤٩٥ قطعة -

(٤) انظر المكاتبة بشأن إقامة متحف الفن الإسلامي المؤرخة في ٦/٦/١٨٩٢م [دار الوثائق القومية. محافظة عابدين - محفظة رقم ١٦٣].
(٥) انظر الأوقاف الإسلامية ص ٢٨٦ - ٢٨٧.
(٦) من وثيقة محفوظة في [دار الوثائق بالقاهرة - محافظة عابدين - محفظة رقم ١٦٣].
(٧) جميع حجج الأمير يوسف كمال التي أشرنا إليها محفوظة في سجلات وزارة الأوقاف المصرية ولها صور بملف التولية رقم ١٥٠٥ الخاص بمستندات أوقاف الأمير يوسف كمال.

أربعمائه وخمسة وتسعين قطعة - وأمر بنقلها بعد أن وقفها إلى: «دار الآثار العربية الإسلامية المصرية» بجهة باب الخلق، لينتفع بها استغلالا فقراء المسلمين، وبرؤيتها ومشاهدتها الصناع والمخترعون، وغيرهم من الهيئة الاجتماعية تعلمًا واستفادة ومشاهدة، ويصرف ريعها- من الرسوم التي يدفعها الزائرون- للفقراء والمساكين على الدوام» (٨) وانطوى هذا النص على فكرة مبدعة في تراث حجج الأوقاف وهي أن الواقف قد جمع بين متعة الأغنياء، واستفادة طلاب العلم وأرباب الفنون من جهة، وإعانة الفقراء والمساكين من جهة ثانية.

اشترط الأمير يوسف كمال- أيضًا- في وقفيته على المتحف الإسلامي أنه «ليس للنظار على هذا الوقف ولا لأي قاض شرعي، ولا لأحد غيرهم حق مطلقًا في بيع الأشياء الأثرية الموقوفة، ولا أي منها، ولا هبته، ولا استبداله، ولا تغييره، بل تبقى وقفا محفوظا على وجه ما ذكر، وأن يكون النظر عليها لكل من يكون ناظرًا لوزارة الأوقاف المصرية بصفته، فإن تعذر يكون النظر لمن يقرره قاضي المسلمين الشرعي بمصر. (٩)

وإضافة إلى ما سبق قام الأمير «يوسف كمال» في سنة ١٩٢٥م بوقف مجموعات أخرى من القطع الأثرية «صناعة الصين» ومجموعات من الأقمشة القبطية التي يرجع تاريخها إلى القرنين السابع والثامن للميلاد، ومجموعات من «اللوحات الفنية» والكتب والمراجع الخاصة بالفنون الجميلة وبالعمارة، وبعض الصور المجسمة، وجعلها وقفًا ليستفيد منها المشاهدون وطلاب العلم والمبدعون بدون مقابل، وقد وضعها في صيغة الوقف ونقلها إلى المتحف تحصينا لها، وضمانا لبقائها وعدم ضياعها. ولا يعرف أحد أين ذهبت أغلبية هذه الموقوفات بعد أن تعرضت للنقل من مكانها أكثر من مرة خلال الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي؟!


الأمير يوسف كمال

٣- إنشاء أول مدرسة وقفية للفنون الجميلة:

انفتح نظام الوقف أيضًا على تعليم الفنون الجميلة وتأهيل المختصين في إنتاجها تأهيلا نظريا وعمليا في آن واحد. وكان من مآثر الأمير يوسف كمال- أيضًا -أنه بادر بإنشاء أول مدرسة متخصصة في تعليم أصول الفنون الجميلة وذلك في سنة ١٩٠٨م وأجازت المحكمة الشرعية العليا الوقف على تلك المدرسة إجازة شرعية لا لبس فيها. وكان مقر المدرسة في «درب الجماميز بالقاهرة»، وأوقف الأمير يوسف كمال عليها مساحة قدرها ١٢٧ فدانا من الأراضي الزراعية الواقعة بزمام مديرية المنيا بصعيد مصر، وأوقف عليها أيضًا عدة عقارات بمدينة الإسكندرية، وقد نص في حجة وقفه على أن يصرف ريعها «فيما يلزم لتدريس وتعليم مائة وخمسين تلميذا، يكون الثلثان

(٨) حجة وقف الأمير يوسف كمال المحررة بتاريخ ٢٠ محرم سنة ١٣٣٠ - ٨/٢/١٩١٣م أمام محكمة مصر الشرعية [سجلات وزارة الأوقاف سجل مصر - مسلسلة رقم ٧٧].
(٩) انظر: كتابنا: الأوقاف والسياسة ص ٢٨٧.

منهم من المصريين، والثلث من الأجانب، بدون التفات إلى الجنسية والدين «حسب نص حجة الوقف»، ويكون تعليمهم مجانا- بغير استثناء- العلوم العصرية التي منها الخطوط العربية، والنقوش البارزة، وأشغال العمارات، والتصميمات والرسومات وغير ذلك، وكما أسلفنا فقد أجازت محكمة مصر الشرعية الكبرى حجة وقف الأمير بما تضمنته من تلك الشروط الفنية، وذلك بتاريخ ١٤ جمادى أولى ١٣٢٧هـ- ٣ يونيو ١٩٠٩م[10] ويستفاد من ذلك عدم وجود مانع شرعي للوقف على مثل تلك الأغراض- الفنون الجميلة وتعلمها- طبقا لما ورد في حجة الوقف، بموافقة القاضي الشرعي، بما في ذلك موافقته على «أن يقوم بالتدريس مدرسون من فرنسا وإيطاليا، وأن تمنح ميدالية برونزية لكل من الطالب الأول والثاني من الناجحين بالفرقة النهائية، مكتوب على أحد وجهي الميدالية: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ وعلى الوجه الآخر «تذكار من الأمير يوسف كمال»[11] ثم عاد الأمير وغير من شروط وقفيته في سنة ١٩٢٧م وجعل ريعها مخصصا لإرسال بعثات علمية من المائة وخمسين طالبا ليتعلموا الفنون الجميلة في جامعات فرنسا وإيطاليا.

وإلى الأمير يوسف كمال ووقفياته ومدرسة الفنون الجميلة التي أشرنا إليها، يرجع الفضل في اكتشاف عدد كبير من مبدعي الفنون الجميلة، وأكثرهم شهرة «محمود مختار» (١٠ مايو ١٨٩١- ٢٨ مارس ١٩٣٤)، وهو رائد فن النحت والتماثيل في العالم العربي في العصر الحديث.


محمود مختار

ومن أشهر أعماله «تمثال نهضة مصر»، وله متحف معروف باسمه، ويعد مقصدا لدارسي الفنون من مختلف البلدان.

ومن السيرة الذاتية لمختار، عرفنا أنه قدم إلى القاهرة عام ١٩٠٢م وعاش في أحيائها القديمة. وكانت على مقربة منه مدرسة الفنون الجميلة التي أنشأها الأمير يوسف كمال في «درب الجماميز» عام ١٩٠٨م. فالتحق بصف أول دفعة، وهو في السابعة عشرة من عمره. وبدت موهبة مختار ساطعة للأساتذة الأجانب، مما حدا بهم إلى تخصيص «مرسم خاص» له، ضمن مبنى المدرسة، لإعداد منحوتاته بها، من تماثيل، وأشكال تستعيد مشاهد الريف، وملامح رفاق الحي. ودفعت موهبته راعي المدرسة، الأمير يوسف كمال، إلى أن يبعثه، إلى باريس، كي يتم دراسته هناك.

خاتمة

لا تزال بحوث النظرية العامة لمقاصد الشريعة مغرقة في مضمونها «الأصولي»، وبعيدة جدا عن مضامينها التطبيقية ذات الصلة المباشرة بوقائع الحياة اليومية وما تعج به من تحديات، كما أن البحوث التي تتناول الأنظمة والأنساق الفرعية التي خدمت النظرية العامة للمقاصد، ونمت وترعرعت في ظلالها لا تزال هي الأخرى نادرة جدا. وقد حاولنا إلقاء

(١٠) حجج وقفيات الأمير يوسف كمال.

(١١) المرجع السابق نفسه.

بعض الأضواء على موضوع الفنون الجميلة وأهميتها في الإسهام في تحقيق «مقاصد الشريعة» بمعناها الواسع الذي لا يختزلها في جانب «الزجر والعقوبة» وإنما يجمع بين طرفي تحصيل المقصد ابتداء، وتنميته وحفظه وصيانته انتهاء. ومن هذا المنظور المقاصدي تبين لنا أن أهمية الفنون الجميلة نابعة من كونها تعمل في بناء الوجدان، وتهذيب النفس، وترقية الإحساس، ورياضة الروح بما يسهم في حفظ الصحة العقلية والتوازن النفسي للإنسان، وعندما يصبح هذا الإنسان في صحة عقلية ونفسية فإنه يكون أقدر على أداء واجباته الدينية، والدنيوية، ومن ثم تتجلى أمامنا الصلة الوثيقة بين مقاصد الشريعة في حفظ العقل وحفظ النفس وحفظ النسل وحفظ المال وحفظ الدين من جهة، والفنون الجميلة بمختلف ألوانها كخادم لتلك المقاصد ومعين على تحقيقها من جهة أخرى.

وقد لاحظنا من التاريخ الاجتماعي أن بعض الأنظمة الشرعية مثل «نظام الوقف»، كان في خدمة المقاصد العامة للشريعة. وعرفنا جانبا من أثر الوقف في تكوين الثروة الأثرية والجمالية في مصر. وبالإمكان متابعة هذه الثروة في عديد من البلدان العربية والإسلامية كي نستوثق من أن الفنون الجميلة كانت على الدوام في خدمة مقاصد الشريعة ومحكومة بقيمها وأخلاقياتها. فأغلب بلداننا تذخر بعديد من العمائر والمقتنيات الوقفية. ولم تقتصر منشآتها على قطاع العمارة الدينية- من جوامع، وزوايا، وخانقاوات للمتصوفة، وتكايا- وإنما شملت أيضا «العمارة العسكرية» و«العمارة المدنية» من أسوار وقلاع وأربطة، وبيمارستانات، ومدارس، وخانات، وحمامات وقصور ومنازل، وأروقة، ورباع. ولا ننسى كذلك أن حجج الأوقاف المحفوظة- مثلا- بكميات كبيرة في الأرشيفات والخزائن الحكومية (ويبلغ عدد الحجج المحفوظة في أرشيف وزارة الأوقاف المصرية حوالى ١٢٠ ألف وثيقة) هذه الحجج هي بحد ذاتها «قيمة» جمالية بما تحتوى عليه من زخارف كتابية، وخطوط تراثية، وتوقيعات، وأختام، ورنوك، مثلما تحفل معظم الآثار والمنشآت المؤسسية الوقفية بالزخارف الكتابية والنباتية.

إن إسهام الوقف في تلك الجوانب الفنية والجمالية والمعمارية التي أشرنا إليها يؤكد- في أحد أبعاده- على المعنى الحضاري والجمالي العميق لنظام الوقف: في فكرته الخيرية، وفي جمالياته الفنية. كما يؤكد على أن الوقف كان دوما في خدمة مقاصد الشريعة، ولم يكن أبدا نظاما دينيا مغلقا، كما يظن البعض، وإنما هو نظام حضاري مرن ومتطور، وقد قام بدور ملموس في دعم القيم الجمالية والفنية، وأسهم في ترجمتها إلى ممارسة اجتماعية واقعية، هي في جملتها وجه من وجوه «دراما الحياة» في ظل الحضارة الإسلامية، وهذا الوجه جدير بالمحافظة عليه والعناية به، وخاصة أن سمة «الخلود» هي أبرز سمات الوقف الخيري، و«الخلود» هو أبرز سمات الآثار والفنون الراقية، وهذه وتلك تعتز بها الأمم، وتعتبرها من رموزها الحضارية الباقية على مر الزمن وشاهدة على أصالتها.

مدى مشروعية تولى المرأة رئاسة الدولة فى الفقه الإسلامى (٢)



أ.د. حلمى الفقى

حكم تولى المرأة رئاسة الدولة

للعلماء فى ذلك رأيان:

الرأى الأول: يجوز للمرأة أن تتولى رئاسة الدولة، واستدلوا على ذلك بالكتاب، والسنة، وعمل الصحابة.

الرأى الثانى: لا يجوز للمرأة أن تتولى رئاسة الدولة، ودل على ذلك الكتاب، والسنة، والإجماع، والمعقول.

المبحث الأول

المؤيدون لتولى المرأة رئاسة الدولة

ذهب أصحاب هذا الرأى إلى وجوب إسناد منصب رئيس الدولة إلى أكفأ وأجدر فرد فى الدولة سواء كان رجلًا أو امرأة واستدلوا على صحة هذا القول بالكتاب والسنة وعمل الصحابة.

أولًا: الأدلة من القرآن الكريم:

١- عموم آيات الخلافة:

قال الله تعالى:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾

«النور: ٥٥».

وقال تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾

«الحج: ٤١».

وقال تعالى:

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾

«التوبة: ٧١».

● **وجه الدلالة:** لقد وعد الله- عز وجل- عباده المؤمنين أن يمكنهم فى الأرض ويعطيهم الخلافة فيها بشرط الإيمان والعمل الصالح، فإذا توفر الشرط وفى المولى- عز وجل- بالوعد، وأوجب الله- عز وجل- على المسلمين فى هذا المجتمع إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، يستوى فى هذا كله الرجل والمرأة، فالمرأة مطالبة بالإيمان والعمل الصالح كالرجل، وعليها مسئولية الإصلاح والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كالرجل، بلا أدنى فرق بين الذكر والأنثى، وقد جاء النص بصيغة الجمع المذكر فى الآيتين الأوليين تغليبًا للرجال، لكن المراد كلا الجنسين، ثم صرح بالرجال والنساء مفصلًا فى الآية الثالثة، وهذا دليل على أن المرأة مساوية للرجل فى جميع الواجبات والتكاليف، ومنها رئاسة الدولة والحكومة وأمور الإصلاح»[١].

مناقشة هذا الاستدلال:

هذه الآيات عامة للرجل والمرأة، وحديث «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة»[٢] خاص، فيجب أن يحمل العام على الخاص، كما هو معروف لدى علماء الأصول، فلا يجوز للمرأة أن تتولى رئاسة الدولة فى الفقه الإسلامى.

الجواب: استقر الرأى لدى علماء الأصول أن العمل بجميع النصوص الواردة فى المسألة أولى من إعمال بعضها وإهمال الآخر، والأخذ بحديث «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة» يتعارض مع ظاهر القرآن، حيث مدح القرآن ولاية امرأة هى ملكة سبأ، وذم ولاية رجل هو فرعون، ويتعارض مع الواقع، فيجب أن يفهم الحديث على وجه لا يتعارض فيه مع ما سبق، فإذا لا يشترط فى رئيس الدولة الذكورة، والله أعلم.

٢- قصة ملكة سبأ: استدل القائلون بجواز تولى المرأة رئاسة الدولة بما ورد فى القرآن الكريم من قصة ملكة سبأ فقد قال الله تعالى على لسان الهدهد:

﴿إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾

«النمل: ٢٣».

وجه الدلالة: حكاية هذه القصة فى القرآن الكريم ليس عبثًا بل تدل على أن المرأة قد يكون لها من البصيرة وحسن الرأى والتدبير فى شئون السياسة والحكم ما يعجز عنه كثير من الرجال، فقد بين القرآن الكريم ما أوتيت هذه المرأة من سداد الرأى، والحكمة، وكيف قادت قومها أفضل ما تكون القيادة، وحكمتهم أعدل ما يكون الحكم، وتصرفت بحكمة ورشد أحسن ما يكون التصرف ونجوا بحسن رأيها من التورط فى معركة خاسرة يهلك فيها الرجال وتذهب فيها الأموال، ولا يجنون من ورائها شيئًا، فدل ذلك على جواز تولى المرأة رئاسة الدولة.

مناقشة هذا الدليل:

● أولًا: لا يصح الاستدلال بهذه الواقعة على جواز تولى المرأة رئاسة الدولة، ولا على جواز توليها خلافة المسلمين، لأن هذا عمل قوم

(١) انظر ولاية المرأة فى الفقه الإسلامى ص ١٤٢،١٤١، مرجع سابق.

(٢) حديث أبى بكرة أخرجه البخارى فى صحيحه فى كتاب المغازى، باب كتاب النبى صلى الله عليه وسلم إلى كسرى وقيصر حديث رقم «٤٤٢٥»، ٨/١٢٦ ط مكتبة الغزالى دمشق ومؤسسة مناهل العرفان بيروت. والنسائى فى سننه فى كتاب آداب القضاة، باب النهى عن استعمال النساء فى الحكم، حديث رقم «٥٣٨٨»، ٨/٢٢٧ ط مكتبة المطبوعات الإسلامية حلب، تحقيق عبدالفتاح أبو غدة، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م. والترمذى فى سننه، فى أبواب الفتن، حديث رقم «٢٢٦٢»، ٤/٤٢٧ مطبعة مصطفى البابى الحلبى- مصر، الطبعة الثانية ١٣٩٥هـ ١٩٧٥م والحاكم فى المستدرك على الصحيحين، فى كتاب معرفة الصحابة رضى الله عنهم، حديث رقم ٦٠٠٨، ٣/١٢٨، وقال الذهبى: صحيح على شرط البخارى ومسلم. ووافق الترمذى والألبانى، الذهبى والحاكم فيما ذهبا إليه.

كافرين لأنهم كانوا يسجدون للشمس من دون الله تعالى فقد قال الله- عز وجل- على لسان الهدهد:

﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾

«النمل: ٢٤».

فلا يجوز الاحتجاج بعمل قوم كافرين«٣».

• ثانيًا: ليس في قصة ملكة سبأ ما يدل على أن الله مدحها وأثنى عليها«٤».

الجواب عن هذه المناقشات:

• أولا: أنتم تقولون بعدم جواز الاستدلال بهذه الآية على جواز تولي المرأة رئاسة الدولة لأن هذا عمل قوم غير مسلمين، إذن أنتم تتفقون معنا على أن ملكة سبأ نجحت وأفلحت في قيادة قومها ولكنها كافرة، فلا يجوز الاحتجاج بعمل قوم كافرين.

ولكن النبي- ﷺ- يقول: «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة».

فكيف توفقون بين هذا التعارض الظاهر، لأن الحديث جاء بكلمة «قوم» نكرة فيفيد أن كل قوم بصفة عامة في الماضي أو في الحاضر أو في المستقبل لن يفلحوا إذا قادتهم امرأة، وسواء كانوا مسلمين أم كافرين.

ونقول: لا تعارض بين نصوص الشرع قرآنا أم سنة ولكن الذي يؤدي إلى التعارض الفهم السقيم، لا النص المحكم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لأنه تنزيل من حكيم خبير.

فيجب أن يفهم الحديث على نحو صحيح كي لا يحدث تعارض غير موجود في واقع الأمر، لكن أوجده الفهم الخاطئ، والفهم الصحيح للحديث يكون بواحد مما يأتي:

أ- لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة وفيهم رجل أكفأ منها.

ب- الحديث يوضح حكم تولي المرأة للإمامة العظمى، أما ما عداها من رئاسة الدولة وما في معناها فيجوز للمرأة أن تتولاها.

ج- لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة بطريقة استبدادية، لا شورى فيها، وخص المرأة بالذكر دون الرجال لأن سبب ورود الحديث تولي امرأة حكم فارس.

ثانيًا: أما قولكم ليس في قصة سبأ ما يدل على أن الله- عز وجل- مدحها، وأثنى عليها.

والجواب: لقد استقر الرأي لدى أرباب الفكر في شرق الدنيا وغربها أن الحرية والشورى هما أصل كل نجاح في كل البلاد، وفي شتى الأمم، وأن الديكتاتورية والاستبداد أصل كل بلاء وتخلف. وملكة سبأ مارست الشورى ممارسة عملية واقعية على نطاق واسع، وكان ذلك أصل نجاحها وفلاحها، قال الله- عز وجل:

﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾

«النمل: ٣٢».

٣- قال تعالى:

﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾

«القصص: ٢٦».

وجه الدلالة: وضح القرآن الكريم في هذه الآية أن المطلوب فيمن يسند إليه ولاية أن يتوفر فيه شرطان اثنان هما: القوة والأمانة وهما معيار الكفاءة، ولم يشترط القرآن الذكورة.

«٣» انظر ولاية المرأة في الفقه الإسلامي ص ١٤٤.
«٤» المرجع السابق ص ١٤٤.

ثانيا: السنة النبوية

عن أم الحصين الأحمسية قالت: سمعت رسول الله- ﷺ- يقول: «يا أيها الناس اتقوا الله وإن تأمر عليكم عبد حبشي مجدع فاسمعوا له وأطيعوا ما أقام لكم كتاب الله»«٥».

وعنها أيضًا مرفوعًا «ولو استعمل عليكم عبد حبشي يقودكم بكتاب الله فاسمعوا له وأطيعوا»«٦».

وفي سنن ابن ماجه عن أم الحصين أيضًا مرفوعًا: «إن أمر عليكم عبد حبشي مجدع فاسمعوا له وأطيعوا ما قادكم بكتاب الله تعالى»«٧».

وجه الدلالة: يؤكد الرسول- ﷺ- أن رئيس الدولة لابد فيه من شرطين أساسيين هما:

١- الكفاءة اللازمة لقيادة الأمة نحو التقدم والرقي في كل مجالات الحياة.

٢- يشترط في السياسة التي ينتهجها رئيس الدولة أن لا تخالف ما جاء به الشرع.

فإذا توافر هذان الشرطان في فرد ما جاز أن يتقلد رئاسة الدولة، بلا اعتبار لذكورة أو أنوثة.

المناقشة: نوقش هذا الدليل بأنه عام، وحديث «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة» خاص، ويجب أن يحمل العام على الخاص، فإذن لا يجوز للمرأة تولي رئاسة الدولة.

الجواب: حديث «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة» لا يصلح مخصصًا، لأنه خاص بمنصب الإمامة العظمى دون ما عداها، فيبقى الأمر في رئاسة الدولة على عمومه، والأصل الإباحة حتى يرد نص، فيجوز للمرأة أن تتولى رئاسة الدولة في الفقه الإسلامي إذا كانت أكفأ فرد في الأمة.

ثالثا: عمل الصحابة:

خرج أصحاب الجمل للمطالبة بدم أمير المؤمنين عثمان- رضي الله عنه- تحت إمرة أم المؤمنين عائشة، وفيهم كبار الصحابة كطلحة والزبير وابنه عبدالله، ولم ينكر عليهم أحد، فهذا الحدث الهام في تاريخ المسلمين يفيد جواز تولي المرأة قيادة الجيش، وإمارة الإقليم، ورئاسة الدولة.

المناقشة: نوقش هذا الاستدلال بأن أم المؤمنين عائشة- رضي الله عنها- لم تتدخل في أمور الخلافة، ولم تطالب بالخلافة أو البيعة لها، ولم تخرج محاربة، أو قائدة جيش وإنما خرجت داعية للإصلاح بين الناس«٨».

الجواب: قال الحافظ في الفتح«٩»: «ولم يرجع أبو بكرة عن رأي عائشة وإنما تفرس بأنهم يغلبون لما رأى الذين مع عائشة تحت أمرها».

وقال في البداية«١٠»: «وقامت عائشة- رضي الله عنها- في الناس تخطبهم وتحثهم على القيام بطلب دم عثمان، وفي البداية أيضًا«١١»: «وكان الذي يصلي بالناس عن أمر عائشة ابن أختها عبدالله بن الزبير».

فثبت ما قلناه أن أصحاب الجمل كانوا تحت إمرة عائشة- رضي الله عنها- فدل ذلك على صحة تولي المرأة قيادة الجيش وإمارة الإقليم، ورئاسة الدولة دون ما انعقد عليه الإجماع وهو الإمامة الكبرى، أو منصب خليفة المسلمين، والله أعلم..

«يتبع»

«٥» أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الحج، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكبا، وانظر شرح النووي على مسلم ٨/٤٥، ٤٦، والترمذي في سننه، في كتاب الجهاد، باب ما جاء في طاعة الإمام ٣/٢٠٧، حديث رقم «١٧١٢». قال أبو عيسى: وفي الباب عن أبي هريرة وعرباض بن سارية، وهذا حديث حسن صحيح، وقد روي من غير وجه عن أم الحصين.
«٦» أخرجه النسائي في السنن الكبرى، ٤/٤٣١، حديث رقم «٧٨١٥»، وقال الشيخ الألباني: حديث صحيح، ط دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.
«٧» أخرجه ابن ماجه في سننه، ٢/٩٥٥، حديث رقم «٢٨٦١»، وقال الشيخ الألباني: حديث صحيح.
«٨» انظر ولاية المرأة في الفقه الإسلامي ص ١٤٦، مرجع سابق.
«٩» انظر فتح الباري ١٣/٥٦، مرجع سابق.
«١٠» انظر البداية والنهاية لابن كثير ٧/١٨٥، مرجع سابق.
«١١» المرجع السابق ٧/١٨٥.

حث الإسلام على الإنفاق



فضيلة الشيخ/ فوزى فاضل الزفزاف
عضو مجمع البحوث الإسلامية

استرعى انتباهى الإعلانات المتكررة فى وسائل الإعلام المختلفة للدعوة إلى التبرع فى تنفيذ مشروعات خيرية متنوعة فى أماكن متفرقة من أنحاء الوطن.

فدفعنى ذلك إلى بحث هذا الموضوع من الناحية الدينية، وما موقف الإسلام من هذه الدعوة؟ ومدى التجاوب والتفاعل معها؟

لقد حرص الإسلام على أن يبنى المجتمع الإسلامى على أسس سليمة قوية متينة، ولن يتم تحقيق ذلك إلا إذا كانت الجبهة الداخلية فى الأمة الإسلامية متماسكة متلاحمة مترابطة يسودها الحب والإخاء والإيثار... والوسيلة إلى تحقيق هذه الغاية هى نشر التعاون بين أفراد المجتمع، وتطبيق التكافل الاجتماعى بين أفراده عمليا.. وحتى لا يكون التكافل والتعاون منّة من الأغنياء على الفقراء، ربطه الإسلام بركن من أركان الإسلام وهو الزكاة، من أقامه مع بقية أركان الإسلام صار مسلما، ومن أنكرها لا يكون مسلما.

ثم رغب الإسلام فى إخراج المال وإنفاقه زيادة عن الزكاة المفروضة عن طريقين:

● الأول: أنه وسّع فى مصارف الإنفاق لتشمل مجالات عدة.

● الثانى: أنه أجزل الثواب والجزاء للمنفق ليشجعه على البذل والعطاء.

ولقد عرّف الفقهاء الإنفاق بأنه: إخراج المال الطيب فى الطاعات والمباحات، والنفقة على العيال والأهل وهى: مقدرة بالكفاية، وتختلف باختلاف من تجب له النفقة فى مقدارها، وبهذا قال الإمامان: أبو حنيفة ومالك، وقال القاضى أبو يعلى من الحنابلة: هى بمقدار لا يختلف فى القلة والكثرة، وقال ابن علان: النفقة هى سائر المؤن من كسوة ونفقة وسكن على من يعول من زوجة وولد وخادم.

من معانى النفقة فى القرآن الكريم:

وردت النفقة فى القرآن الكريم على وجوه منها:

١- بمعنى فرض الزكاة:

﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾

(البقرة: ٣)

أى يزكون ويتصدقون.

٢- بمعنى التطوع بالصدقات:

﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ﴾

(آل عمران: ١٣٤)

أى يتطوعون بالصدقة، وشبهها:

﴿ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾

(الرعد: ٢٢)

٣- بمعنى الإنفاق فى الجهاد:

﴿ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

(البقرة: ١٩٥)

٤- بمعنى الإنفاق على العيال والأهل:

﴿ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ ﴾

(الطلاق: ٦)

٥- بمعنى الفقر والإملاق: كقوله- تعالى-:

﴿ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ ﴾

(الإسراء: ١٠٠)

ولقد بلغ من حرص الإسلام على دعوته إلى الإنفاق أنه ورد فى سور القرآن الكريم أكثر من أربعين آية تتعلق بالإنفاق: إما بالحث على فعله والترغيب فى البذل والعطاء مطلقا، وإما ببيان فضله ومنزلته عند الله، وإما ببيان أوجه إنفاق المال التى يرضاها الله، وإما ببيان أن إنفاق المال من صفات المؤمنين الصادقين الذين رضى الله عنهم، وإما فى الترهيب من اكتناز المال وعدم إنفاقه فى سبيل الله والتحذير من البخل به ببيان عاقبة الممسكين الأشحاء.

كما أكثر سيدنا رسول الله ﷺ من أحاديثه الشريفة فى دعوته إلى إنفاق المال وبذله، وبيان وإيضاح وشرح الجزاء الذى أعده الله سبحانه وتعالى للمنفقين الطائعين.

كما سجلت كتب التاريخ مواقف لكثير من الصحابة- رضى الله عنهم- الذين ضربوا المثل الأعلى فى الإنفاق، وأثبتوا مدى حرصهم على إنفاق المال وبذله ابتغاء مرضاة الله- تعالى- وأن جمع المال عندهم لم يكن غاية وهدفا فى يوم من الأيام، بل كان وسيلة لإنفاقه فى مرضاة الله وفى سبيل نشر الدعوة الإسلامية وإعلاء كلمة الله.

ومن حرص الإسلام على بناء مجتمع إسلامى سليم، خال من الأحقاد والضغائن، تسوده الألفة والمحبة، ويعمه الحب والإخاء، نوع فى أوجه إنفاق المال، ووسع فى مصارفه، وجعلها دوائر عدة، وجعل لهذه الدوائر أولويات فى الإنفاق والبذل والعطاء، وأعطى لدائرة الأسرة والأهل والأقارب الأولويات والاهتمام فى ذلك، يقول الله- تعالى-:

﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾

(البقرة: ٢١٥)

والرأى الراجح فى تفسير هذه الآية الكريمة أن المقصود بالإنفاق فيها هو صدقة التطوع وليس الزكاة، لأن مصارف الزكاة حددتها الآية الكريمة:

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

(التوبة: ٦٠)

وقد وردت أحاديث سيدنا رسول الله ﷺ لتؤكد وتبين أهمية الإنفاق على الأسرة والأهل والأقارب، وتشير الى أولوية الإنفاق على هذه الدائرة الأولى، وتبشر بالثواب العظيم والجزاء الجزيل الذى أعده الله لهؤلاء المنفقين، فعن أبي هريرة- رضى الله عنه- أنه قال: قال رسول الله ﷺ: (دينار أنفقته فى سبيل الله، ودينار أنفقته فى رقبة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجرا الذى أنفقته على أهلك)(١).

وهكذا يخبرنا رسول الله ﷺ أن أفضل إنفاق وأعظمه أجرا ومثوبة عند الله هو ما ينفقه الإنسان على أهله، فيسد به حاجاتهم، ويغنيهم عن سؤال الناس، ويشبعهم عن التطلع إلى ما فى يد غيرهم، ويعالج آلام الحرمان التى يعانونها، ويقضى على أسباب الحقد والضغائن التى تنبت فى قلوبهم.

(١) مسلم ٩٩٥

حث الإسلام على الإنفاق

ولذلك كان رسول الله ﷺ يوجه أصحابه عندما يعلنون عن إنفاق أموالهم صدقة لله تعالى يوجههم إلى إعطاء هذه الأموال إلى الأهل والأقارب أولاً، فعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: كان الصحابي الجليل أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل، وكان أحبُّ أمواله إليه بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب. قال أنس: فلما أنزلت هذه الآية:

﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾
(آل عمران: ٩٢)

قام أبوطلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن أحب أموالي إليّ بيرحاء، وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها يارسول الله حيث أراك الله، قال: فقال رسول الله ﷺ: (بخ - كلمة استحسان - ذلك مال رابح، ذلك مال رابح، وقد سمعت ما قلت، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين)

فقال أبوطلحة: أفعل يا رسول الله، فقسمها أبوطلحة في أقاربه وبني عمه(٢).

ويبين لنا رسول الله ﷺ فضل الصدقة على الأهل والأقارب، وأن جزاءها مضاعف عند الله تعالى، وذلك تشجيعا على إعطاء أولوية الإنفاق للأهل والأقارب، فعن سليمان بن عامر - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم اثنتان: صدقة وصلة»(٣).

حتى الإنفاق الواجب على المسلم على أهله وبيته إذا أخرجه بنفس راضية من غير تقريع ولا توبيخ ولا مَنّ ولا تعالٍ كان له عند الله أجر وثواب الصدقة، فعن أبي مسعود البدري - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المسلم إذا أنفق على أهله نفقة وهو يحتسبها كانت له صدقة»(٤).

والإسلام عندما يحفز المسلم على الإنفاق على الأهل والأقارب وذوي الأرحام ببيان عظيم الأجر والثواب على تلك النفقة، نراه قد اعتنى عناية خاصة بتوجيه المسلم إلى الإنفاق على الوالدين، وسد احتياجاتهما، وتلبية طلباتهما عناية كبيرة، ويبلغ من شدة تأكيد الإسلام على أهمية ذلك أنه لم يكتف بتوجيه المسلم إلى الإنفاق عليهما في حال حياتهما فقط، بل جعل باب الإنفاق عليهما مفتوحا وممتدا حتى بعد وفاتهما.. وهذا من يسر الإسلام وسماحته، ليرغب المسلم في الإكثار من فعل الطاعات، ويفتح له باب الزيادة في كسب الحسنات.. لاسيما إذا كانت تلك الطاعات تتعلق ببر الوالدين وصلتهما والإنفاق عليهما، فعن عائشة - رضي الله عنها - أن رجلا قال للنبي ﷺ: إن أمي افتلتت نفسها - ماتت فجأة - وأظنها لو تكلمت تصدقت، فهل لها أجر إن تصدقت عنها؟ قال: نعم(٥).

فحديث رسول الله ﷺ صريح في أن الوالدين - بعد وفاتهما - ينالا ثواب صدقة الأبناء عليهما إن شاء الله.

وعن سعد بن عبادة - رضي الله عنه - قال: قلت يا رسول الله إن أمي ماتت أفأتصدق عنها؟ قال: (نعم)، قلت: فأي الصدقة أفضل؟ قال: «سقي الماء فتلك سقاية سعد بالمدينة»(٦)، فهذا الحديث الشريف يؤكد أيضا ويوضح أن الصدقة على الوالدين - بعد وفاتهما - مطلوبة، وأن الوالدين يستفيدان من ثواب الصدقة عليهما بإذن الله، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»(٧)، فالولد الصالح يقدم الخير لوالديه - بعد وفاتهما - بالصدقة عليهما ماليا، وبالدعاء لهما بالرحمة والمغفرة فليسارع الأبناء إلى الإحسان إلى الوالدين وبرهما أحياء كانا أم أمواتا، قبل أن يأتي يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم

«للحديث بقية»

(٢) البخاري الفتح٣(١٤٦١) واللفظ له، ومسلم (٩٨) (٣) النسائي وابن ماجة
(٤) البخاري الفتح ٦/٣ (٥٠٠٦) ومسلم (١٠٠٢) واللفظ له. (٥) البخاري - الفتح ٣ (١٣٨٨) واللفظ له، ومسلم.
(٦) النسائي وأبو داود وابن ماجة (٧) مسلم

بين الصحف والمجلات

أ. محمد جمعة

تجويع مخيم اليرموك فضيحة تاريخية

تحت هذا العنوان جاء "رأي القدس" المنشور بجريدة القدس العربي الصادرة بتاريخ ٥/ ١/ ٢٠١٤م جاء فيه:

حصار مخيم اليرموك وتجويعه حتى الموت فضيحة متكاملة الأركان.

فهذا أول مخيم فلسطيني يقوم على حصاره وتجويعه أشخاص وفصائل محسوبة على الفلسطينيين أنفسهم، ونعني، بشكل رئيسي، تنظيم الجبهة الشعبية القيادة العامة..

بدأت مأساة مخيم اليرموك يوم ١٦ كانون الأول / ديسمبر ٢٠١٢م حين دخلت كتائب معارضة للنظام السوري إلى المخيم وطردت ما يسمى اللجان الشعبية وعناصر القيادة العامة التي استنجدت بجيش النظام المقاوم فقام بقصف المخيم بالطيران وسقط أكثر من مئتين من أهاليه قتلى.

هذا الهجوم العنيف إضافة إلى شائعات بثتها وسائل إعلام النظام عن اتجاه الجيش النظامي للدخول إلى المخيم وتطهيره من المسلحين أدت إلى موجة نزوح كبيرة من المخيم، داخل وخارج سوريا، لكن كثيرين من أهل المخيم، وخصوصا الفقراء منهم، لم تكن لديهم خيارات أخرى غير البقاء، فاعتبرتهم الفصائل الفلسطينية المؤيدة للنظام السوري متعاطفين مع المسلحين وباشرت خطة للانتقام منهم.

منذ قرابة الستة أشهر منع الحاجز الرئيسي على باب المخيم الناس من الخروج أو الدخول، كما منع دخول أية مواد غذائية، وأية تحويلات مالية قادمة من الخارج، ولم تعد هناك أشغال يعيش منها الناس، وشحت المواد وغلت أسعارها، وصار كل من يحاول الاقتراب من الحواجز التي تحيط بالمخيم هدفا للقنص والقتل.

بعض المؤسسات الأوروبية تصل مساعداتها إلى سوريا وتحصل على الموافقات الرسمية لإدخالها إلى المخيم لكن حدود هذه الموافقات تتوقف عند مدخل الحاجز وتعود أدراجها.

فلسطينيو المخيم الذين كانوا يتضامنون بقوة مع غزة ورام الله ومع كل آلام الشعب الفلسطيني في لبنان والأردن لم يجدوا من يتضامن معهم، وهم نهبة لإحساس كبير بالخذلان ليس من الفصائل ومنظمة التحرير فحسب بل حتى من باقي الشعب الفلسطيني.

حصار مخيم اليرموك، هو باختصار، جريمة كبرى بحق الشعب الفلسطيني.

دلالات الاعتراف بيهودية إسرائيل

تحت هذا العنوان كتب الأستاذ / صالح النعامي مقالا نشر بمجلة البيان الصادرة بتاريخ ١٣ / ١ / ٢٠١٤ م بمناسبة طلب وزير الخارجية الأمريكي جون كيري من السلطة الفلسطينية للاعتراف بـ " إسرائيل كدولة يهودية " قال فيه:

إن الإسرائيليين والأمريكيين يعون تماماً أن الاعتراف بيهودية «إسرائيل» يعني باختصار تصفية القضية الوطنية الفلسطينية.

فمن المفارقة أن قادة الصهاينة أنفسهم لا يترددون في إبراز مدلولات الاعتراف بيهودية «إسرائيل»، فقد وصف رئيس الوزراء الصهيوني بنيامين نتنياهو أي اعتراف فلسطيني رسمي بيهودية إسرائيل في المستقبل بأنه «وعد بلفور جديد».

فضمان موافقة الفلسطينيين على يهودية الدولة يعني تنازلهم الضمني عن حق العودة للاجئين، على اعتبار أن عودة اللاجئين ستنسف الواقع الديموغرافي داخل «إسرائيل» وتحول اليهود إلى أقلية.

ويعني اعتراف الفلسطينيين بيهودية «إسرائيل» القبول أو على الأقل التسليم بالقوانين التي سنتها الكنيست في الماضي والحاضر والتي ستسنها في المستقبل من أجل ضمان تهويد الأرض الفلسطينية. فالاعتراف بيهودية الدولة يعني الاعتراف بالقوانين العنصرية التي سنها المشرع الصهيوني، وضمنها قانون العودة الذي يعطي لكل يهودي أينما كان الحق في الهجرة لأرض فلسطين وأن يصبح بشكل تلقائي «مواطناً» في «دولة إسرائيل»، وقانون المواطنة الذي يحرم فلسطينيي ٤٨ من الحق في لم شمل عائلاتهم إن كان أحد الزوجين يقطن الضفة الغربية أو قطاع غزة. وما ينطبق على قانوني «العودة» و«المواطنة» ينطبق على قانون «الولاء» الذي أقرته الحكومة الإسرائيلية مؤخراً والذي يلزم غير اليهود بإعلان الولاء لإسرائيل كـ «دولة يهودية وديموقراطية»، علاوة على أن الاعتراف الفلسطيني بيهودية الدولة سيشكل غطاء لسن مزيد من القوانين العنصرية.

بالنسبة للنخب الحاكمة في إسرائيل فإن الاعتراف الفلسطيني بيهودية الدولة يعني قبل كل شيء تهويد الذاكرة الجمعية الفلسطينية بكل ما تعني الكلمة.



جون كيري

وحتى لا يكون هناك مجال للبس، فإنه من الأهمية بمكان الإشارة إلى ما قاله وزير الداخلية الصهيوني جدعون ساعر عندما تحدث عن المضامين الثقافية لاعتراف الفلسطينيين بيهودية الدولة، حيث حدد ساعر في مقابلة مع التلفزيون الإسرائيلي هذه المضامين في بندين أساسيين:

أولا: إعادة صياغة مناهج التدريس الفلسطينية بما يتوائم مع جوهر الاعتراف الفلسطيني بيهودية إسرائيل، سيما مناهج الجغرافيا والتاريخ والتربية الدينية. ثانيا: يرى ساعر أن الاعتراف بيهودية الدولة يعني أن يفرض الكيان الفلسطيني رقابة مشددة على دور العبادة ووسائل الإعلام الفلسطينية، بحيث يتوقف ما يصفه بـ «التحريض» على إسرائيل.

إن ساعر المعني بوقف التحريض على إسرائيل في دور العبادة ووسائل الإعلام الفلسطينية هو الذي كان يحرص على زيارة الحاخام مردخاي إلياهو أحد أهم مرجعيات الإفتاء في إسرائيل قبل موته و الحصول على «تبريكاته»، مع العلم أن إلياهو صاحب الفتوى التي تبيح ذبح نساء وأطفال وشيوخ الفلسطينيين وحتى بهائمهم. وساعر، عندما كان وزيراً للتعليم، أمر بدفع مبلغ ٢٠٠ ألف دولار سنوياً للمدرسة الصغيرة التي يديرها الحاخام إسحاق شابيرا الذي أصدر مؤخراً كتاب «دين الملك» الذي طرح فيه «التأصيل الفقهي» الذي يسوغ قتل الأطفال الفلسطينيين...

مسلمو بوركينا فاسو بين الفقر والتنصير

تحت هذا العنوان كتب أ / علا محمود سامي مقالا نشر بموقع المسلم بتاريخ: ٢٠١٣/١٢/٥ م جاء فيه:

المتأمل لأوضاع المسلمين في قارة أفريقيا يجدها متقاربة للغاية، إذ أن معاناتهم تكاد تكون متشابهة، إن لم تكن واحدة، حيث يعاني المسلمون هناك من تحديات وأزمات شتى، تنعكس بالضرورة على تمسكهم بعقيدتهم ودينهم فلا يزال المسلمون بهذه القارة منسيين إلى درجة عالية من التجاهل من إخوانهم المسلمين في شتى بقاع الأرض.

ومن هؤلاء المنسيين، يأتي مسلمو بوركينا فاسو، الذين يعانون الفقر والتنصير، للدرجة التي جعلتهم فريسة لكل من يسعى إلى هدم عقيدتهم، والنيل من إسلامهم.

وقد يصاب المرء بالدهشة عندما يعرف أن نسبة المسلمين في بوركينافاسو تصل إلى حوالي ٦٥٪، ما يعني أن عددهم يزيد عن نصف سكان هذه الدولة، غير أن اللافت في هذه الدهشة أن هذا العدد الكبير يمثلون أقلية في داخل البلاد، وأن غيرهم من المسيحيين هم الأكثرية، بل هم من صناع القرار وأصحاب الثراء، ما يعكس حالة ضعف فاعلية المسلمين في هذه البلاد.

هذا الفقر جعل المسلمين في هذه الدولة بمثابة صيدا سهلا لسهام التنصير التي تسعى إلى استقطابهم واستمالتهم بكل الطرق والوسائل، فضلا عن الدور الصهيوني الذي يسيطر على وسائل وأجهزة الإعلام فيعمل على تشويه صورة الإسلام والمسلمين في هذه الدولة، والزعم بأنهم إرهابيون، إلى غيرها من حملات التشويه التي يتعرض لها أبناء الدين الإسلامي في العديد من دول القارة.



والناظر إلى دور منظمات التنصير في هذه البلاد يجدها تعمل على تبني خطط معدة سلفا في محاولة لتذويب هوية مسلمي البلاد، وهي المنظمات التي تستمد دورها وفاعليتها من المنظمات الكنسية الكاثوليكية بالفاتيكان، والتي تسعى من حين لآخر إلى إيفاد «المنصرين» إلى بوركينا فاسو، ودعم هذه المنظمات بالأموال لإنشاء مدارس، ومراكز صحية، ومشاريع استثمارية، وتوظيف سلاح التعليم المجاني، وتوزيع الأدوية والملابس والأطعمة على الطلاب، وخاصة من فقراء المسلمين، في محاولة لجذبهم وربطهم بالديانة المسيحية، والمقارنة بينها وبين الدين الإسلامي، والزعم لفقراء المسلمين بأن الديانة المسيحية تتفق مع الإنسان مهما كان، ما يكون جاذبا لضعاف النفوس والعقيدة في أن التحول عن عقيدتهم الإسلامية، تحت وقع الحاجة والعوز.

أيام لها تاريخ

صلاح الدين .. حطين .. يوم توحدت الدولة

٢٤ من ربيع الآخر ٥٨٣هـ = ٤ من يوليو ١١٨٧م

إعداد الأستاذ/ عبدالله كمال نصر

صلاح الدين .. سيرة عطرة

(٥٣٢ - ٥٨٩هـ / ١١٣٢ - ١١٩٣م)

يوسف بن أيوب بن شادي، أبو المظفر، صلاح الدين الأيوبي، الملقب بالملك الناصر: من أشهر ملوك الإسلام. كان أبوه وأهله من الأكراد. نزلوا بتكريت، وبها ولد صلاح الدين، ثم ولي أبوه (أيوب) أعمالا في بغداد والموصل ودمشق، ودخل مع أبيه (نجم الدين) وعمه (أسد الدين شيركوه) في خدمة نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي (صاحب دمشق وحلب والموصل) واشترك صلاح الدين مع عمه شيركوه في حملة وجهها نور الدين للاستيلاء على مصر (سنة ٥٥٩ هـ) فأبلى بلاء حسنا في وقائع ظهرت فيها مزاياه العسكرية. ثم ولي الوزارة وقيادة الجيش بمصر من بعد عمه أسد الدين شيركوه، بأمر خليفتها الفاطمي العاضد بالله. ثم قطع عنه الخطبة في مرضه وخطب للعباسيين ودعا لهم على المنابر ،وانتهى بذلك أمر الفاطميين في مصر.

ومات نور الدين (سنة ٥٦٩هـ) فاضطربت البلاد الشامية والجزيرة، ودُعي صلاح الدين لضبطها، فأقبل على دمشق (سنة ٥٧٠) فاستقبلته بحفاوة. وانصرف إلى ما وراءها، فاستولى على بعلبك وحمص وحماة وحلب.

انصرف الناصر إلى عملين جديين: أحدهما الإصلاح الداخلي في مصر والشام؛ بحيث كان يتردد بين القطرين، والثاني دفع غارات الصليبيين ومهاجمة حصونهم وقلاعهم في بلاد الشام. وكان أعظم انتصار له على الفرنجة في فلسطين والساحل الشامي ما بعد بيروت، ثم فتح القدس (سنة ٥٨٣).

وانصرف صلاح الدين من القدس، بعد أن بنى فيها مدارس ومستشفيات. ومكث في دمشق مدة قصيرة انتهت بوفاته.

كان رقيق النفس والقلب، على شدة بطولته، رجل سياسة وحرب، بعيد النظر، متواضعا مع جنده وأمراء جيشه، لا يستطيع المتقرب منه إلا أن يحس بحب له ممزوج بهيبة. اطلع على جانب حسن من الحديث والفقه والأدب ولا سيما أنساب العرب ووقائعهم، وحفظ ديوان الحماسة.

ولم يدخر لنفسه مالا ولا عقارا. وكانت مدة حكمه بمصر ٢٤ سنة، وبسورية ١٩ سنة، وخلف من الأولاد ١٧ ذكرا وأنثى واحدة.

ما قبل حطين

ما أن سرى نبأ وفاة الملك العادل نور الدين ابن زنكي؛ إلا وانفرط عقد الأمة، وهادن من بعده الفرنجة على قطيعة تقطع لهم في كل عام، وصلاح الدين حينها بمصر، فهرع إليه العامة والخاصة يرسلون إليه الكتاب تلو الكتاب، والرسول عقب الرسول، حتى جمع أمره وعزم على دخول الشام، وما فصله عنها غير المسير، فلما بلغها ما لبث غير ساعة حتي فتحها له أهلها من داخلها في ثورة على المقصرين ممن تولوا أمورهم من بعد الملك العادل نور الدين، وتم له الأمر - كما سلف الذكر في التعريف به- وتوالت هجماته من بعد على الحصون المتفرقة يجمعها تحت راية واحدة، راية الخلافة العباسية، وبعد أن وحد جهوده كلها، قام بتوجيه الضربات المتوالية على الحصون الإفرنجية حصنا تلو الآخر حتى بلغ الموقعة الفاصلة موقعة حطين، وهو يوم له ما بعده من الأيام وإليك بيانه.

حطين .. كما يرويها محدث الإسلام شمس الدين الذهبي

وأسرع السُلطان حتّى نزل بعشترا، وعرض العساكر وأنفق فيهم، وسار بهم وقد ملئوا الفضاء فنزل الأُرْدُنّ، ونزل مُعظم العساكر. وسار إلى طبريَّة فأخذها عَنوة، فتأهَّبت الفرنج وحشدوا، وجاءوا من كُلّ فجّ وأقبلوا، فرتَّب عساكره في مقابلهم وصابَحهم وبايتهم.

وكان المسلمون اثنى عشر ألف فارس وخلْق من الرجّالة. وقيل كَانَ الفرنج ثمانين ألفا ما بَيْن فارسٍ وراجل. والتجئوا إلى جبل حِطّين، فأحاط المسلمون بهم من كُلّ جانب، فهرب القومّص لَعَنه الله، ووقع القتال، فكانت الدّائرة عَلَى الفرنج، وأسر خلْقٌ منهم الملك كي، وأخوه جفْري، وصاحب جُبَيْل، وهنْفرى بْن هَنْفري، والإبْرنْس أرناط صاحب الكَرَك، وابن صاحب إسكنْدرونة، وصاحب مَرَقيَّة.

وما أحلى قول العماد الكاتب: «فمَنْ شاهد القتْلى يومئذٍ قَالَ: ما هناك أسير، ومَن عايَن الأسرى قَالَ: ما هناك قتيل».

قُلْتُ: ولا عَهْد للإسلام بالشّام بمثل هَذِه الوقعة من زمن الصّحابة.

فقتل السّلطانُ صاحبَ الكَرَك بيده لأنّه تكلّم بما أغضب صلاح الدّين، فتنمّر وقام إليْه طيّر رأسه، فأرْعب الباقون.

وقَالَ ابن شدّاد: بل كَانَ السُلطان نَذَر أن يقتله لأنّه سار ليملك الحجاز، وغَدَر واخذ قَفَلا كبيرا، وَهُوَ الَّذِي كَانَ مقدّم الفرنج نَوْبة الرملة لمّا كبسوا صلاح الدّين وكسروه سنة

ثلاث وسبعين.

وكان أرناط فارس الفرنج في زمانه، وقد وقع في أسر الملك نور الدين، وحبسه مدة بقلعة حلب. فلما مات نور الدين وذهب ابنه إلى حلب وقصده صلاح الدين غير مرة ليأخذ حلب أطلق أرناط وجماعة من كبار الفرنج ليعينوه على صلاح الدين. ثم قيد جميع الأسارى وحملوا إلى الحصون، وأخذ السلطان يومئذ منهم صليب الصلبوت.

وكانت وقعة حطين هذه في نصف ربيع الآخر، ولم ينج فيها من الفرنج إلا القليل، وهي من أعظم الفتح في الإسلام. وقيل كان للفرنج أربعين ألفا. وبيع فيها الأسير بدمشق بدينار فلله الحمد.

قال أبو المظفر بن الجوزي: خيم السلطان على ساحل البحيرة في اثنى عشر ألفا من الفرسان سوى الرجالة، وخرج الفرنج من عكا، فلم يدعوا بها محتلما. فنزلوا صفورية، وتقدم السلطان إلى طبرية، فنصب عليها المجانيق، وافتتحها في ربيع الآخر، وتقدمت الفرنج فنزلوا لوبية من الغد، وملك المسلمون عليهم الماء، وكان يوما حارا. والتهب الغور عليهم، وأضرم مظفر الدين النار في الزروع، وأحاط بهم المسلمون طول الليل. فلما طلع الفجر قاتلوا إلى الظهر، وصعدوا إلى تل حطين والنار تضرم حولهم، وساق القومص على خمسة وحرق، وطلع إلى صفد، وعملت السيوف في الفرنج، وانكسر من الملوك جماعة، وجيء بصليب الصلبوت إلى السلطان، وهو مرصع بالجواهر واليواقيت في غلاف من ذهب. فأسر ملك الفرنج دبواس الكردي، وأسر برنس الكرك إبراهيم غلام المهراني.

قال: واستدعاهم السلطان، فجلس الملك عن يمينه، ويليه برنس الكرك، فنظر السلطان إلى الملك وهو يلهث عطشا، فأمر له بماء وثلج، فشرب وسقى البرنس، فقال السلطان: ما أذنت لك في سقيه. والتفت إلى البرنس فقال: يا ملعون يا غدار، حلفت ونكثت. وجعل يعدد عليه غدراته. ثم قام إليه فضربه حل كتفه، وتممه المماليك، فطار عقل الملك، فأمنه السلطان وقال: هذا كلب غدر غير مرة.

إلى أن قال: وبيعت الأسارى بثمن بخس، حتى باع فقير أسيرا بنعل، فقيل له في ذلك فقال: أردت هوانهم.

ووصل القاضي ابن أبي عصرون دمشق وصليب الصلبوت منكسا بين يديه، وعاد السلطان إلى طبرية، وآمن صاحبها، فخرجت بأموالها إلى عكا. وأما القومص فسار من صفد إلى طرابلس فمات بها، فقيل: مات من جراحات أصابته. وقيل: إن امرأته سمته.

قال القاضي جمال الدين بن واصل: اجتمعت الجحافل على رأس الماء عند الملك الأفضل ابن السلطان، فتأخرت العساكر الحلبية لانشغالها بفرنج أنطاكية وبالأرمن، فدخل الملك مظفر صاحب حماه فأخمد ثائرتهم، ثم رد إلى حماه ومعه فخر الدين مسعود بن الزعفراني على عساكر الموصل وعسكر ماردين، فلحقوا السلطان بعشترا، ثم ساروا، وأحاطت جيوشه بحيرة طبرية عند قرية الصغيرة، ثم نازل طبرية فافتتحها في ساعة من نهار.

رواية ابن الأثير

وحكى ابن الأثير عمن أخبره عن الملك الأفضل قال: كنت إلى جانب والدي السلطان في مصاف حطين، وهو أول مصاف شاهدته، فلما صار ملك الفرنج على التل حملوا حملة منكرة علينا، حتى ألحقوا المسلمين بوالدي، فنظرت إليه وقد اربد لونه، وأمسك بلحيته، وتقدم وهو يصيح: كذب الشيطان. فعاد المسلمون على الفرنج، فرجعوا إلى التل. فلما رأيت ذلك صحت: هزمناهم، هزمناهم. فعاد الفرنج وحملوا حملة ثانية حتى ألحقوا المسلمين بوالدي، وفعل مثل ما فعل أولا، وعطف المسلمون عليهم وألحقوهم بالتل، فصحت أنا: هزمناهم. فقال والدي: اسكت، ما نهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة، يعني خيمة الملك.

قال: فهو يقول لي وإذا الخيمة قد سقطت، فنزل أبي وسجد شكرا لله، وبكى من فرحه.

وكان سبب سقوطها أنهم عطشوا، وكانوا يرجون بالحملات الخلاص، فلما لم يجدوه نزلوا عن خيلهم وجلسوا، فصعد المسلمون إليهم، وألقوا خيمة ملكهم، وأسروهم كلهم.

نتائج المعركة

١- معركة فاصلة وحاسمة: إذ الملاحظ لها يرى أنها غيرت خريطة التوزيعات السياسية في المنطقة، ففي أعقابها اتجه ذلك السلطان المجاهد إلى فتح مدن الساحل الشامي، وهكذا تم حل مشكلة الساحل الشامي الذي طرد منه المسلمون منذ أعوام طوال ولم يعد المسلمون أصحاب وجود بري حبيس، والواقع أن من يطالع نصوص المصادر التاريخية لذلك العصر تتملكه الدهشة من موجة سقوط المدن الصليبية بصورة غير مسبوقة عكست التفوق العسكري الساحق للمسلمين.

٢- بداية النهاية للوجود الصليبي: كانت معركة حطين أعظم من مجرد كارثة عسكرية، حلت بالصليبيين، لقد كانت في حقيقة أمرها بشيرا بنجاح المسلمين في القضاء على أكبر حركة استعمارية، شهدها العالم في العصور الوسطي، وقد أنهت المعركة زهاء تسعة عقود من الاضمحلال والتدهور والتشرذم في المنطقة الإسلامية في الشرق الأدنى؛ لتؤكد أهمية الوحدة بين أقطار هذه المنطقة الجغرافية في جنوب غرب آسيا وفي مصر في مواجهة كل الأخطار. لقد أسست حطين بداية جديدة لموازين القوى وأكدت أن قوة الفرنج يمكن أن تقهر وقد كشفت الدراسات التاريخية الحديثة التي بحثت تفاصيل تلك المرحلة أن معركة حطين انتهت بانتصار صلاح الدين لكنها لم تقتلع نهائيا وجود الفرنج، فهي استراتيجيا معركة فاصلة بين حدين أي أنها ختمت مرحلة التراجع والهزائم وأسست مرحلة الانتصارات.

٣- ارتفاع قدر صلاح الدين: فقد كانت معركة حطين من الأسباب التي رفع الله بها صلاح الدين وأصبح في صفوف كبار المجاهدين والقادة والحكام المسلمين كما

أعاد للمسلمين الثقة بالنفس والكرامة التي كانوا قد فقدوها بعد وفاة نور الدين محمود وقد كان لهذا النصر صدى بالغ في نفوس المسلمين عامة.

٤- معركة حطين مفتاح بيت المقدس: كانت معركة حطين معركة تحرير فلسطين لأنها هي التي فتحت طريق النصر إلى بيت المقدس، وباقي فلسطين، وقد وصف ابن واصل هذه المعركة بقوله: كانت وقعة حطين مفتاح الفتوح الإسلامية وبها تيسر فتح بيت المقدس، وعدّها حلقة وسط بين فتوحات نور الدين محمود وركن الدين بيبرس البندقداري – منذ وفد ملوك الفرنج البلاد الساحلية، واستولوا عليها، فكل من الملك العادل والسلطان الناصر جدّدا الإسلام بعد درسه، وشيّدا بنيان التوحيد بعد طموسه، ثم أيد الله الإسلام بعدهما بالملك المظفر ركن الدين بيبرس، وكان أمره أعجب، إذ جاء بعد أن استولى التتار على معظم البلاد الإسلامية، وآيس الناس أن لا انتعاش للملة فبدد شمل التتار، وحفظ البلاد الإسلامية، وملك من الفرنج أكثر الحصون الساحلية.

٥- أهمية الوعي الجغرافي: أبرزت هذه المعركة أهمية الوعي الكامل بضرورة توظيف معطيات الموقع الجغرافي للشرق الإسلامي، واستثمار ميزاته، بحيث يكون عاملاً فاعلاً من عوامل القوة الذاتية. ومن دلالات المعركة بروز أهمية مصر كقاعدة بشرية مادية بالغة الأهمية في الربط بين العالم الإسلامي في الشرق الأدنى، كما تجلّت أهمية أرض فلسطين التي تُعَد بمثابة الجسر أو المعبر الذي يصل بين بلاد الشام ومصر.

٦- الجهود التراكمية التي سبقته: لم تأت انتصارات صلاح الدين من فراغ ولم تكن النتائج العسكرية التي حققها من دون مقدمات سياسية وتنظيمية وإدارية وإصلاحية وإحيائية. فقد امتدت على أكثر من قرن – إلى أن بدأ قطف ثمارها – في عهدي عماد الدين زنكي ونور الدين زنكي المحاولات المستميتة لاستعادة شمل الأمة وتوحيدها، غير أن الأخير يعتبر المؤسس الحقيقي للتحولات الكبرى التي شهدتها بلاد الشام ثم مصر، فنور الدين هو من أسس لمبدأ الإعداد النفسي للقوات وتبليغ الرسالة وتعليم أصول اللغة والفقه والحديث لقادة جيوشه. وفي هذه الأجواء العلمية تلقى صلاح الدين دروسه وتربيته الدينيه فتعلم علي يد المحدث أحمد بن محمد الأصبهاني، والواعظ علي بن إبراهيم ابن نجا، ونجم الدين الخبوشاني، وهؤلاء جزء من الفقهاء والعلماء الذين أشرفوا على تربية الجيل الثالث من القيادات السياسية والعسكرية الذي كان له شرف إنزال الهزائم بقوات الفرنجة بعد مئة سنة من المواجهات المتقطعة، فصلاح الدين لم يصنع نفسه، بل وفقه الله تعالى – ثم هو نتاج تاريخي وموضوعي لسياق من التقدم بدأ مع بدء الحركة الإصلاحية الدينية، ولقد آتت تلك الجهود ثمارها والتي كان من أهمها معركة حطين وفتح بيت المقدس على يدي صلاح الدين.

الأستاذ الدكتور/ عبد المعطي بيومي

إعداد: أ. سعد فتحي سعد

ما أكثر علماء الأزهر الشريف الذين نفخر بهم، وتفخر بهم أمتهم الإسلامية والعربية في القديم والحديث ود. عبد المعطي بيومي من هؤلاء الصفوة والأعلام، الذي حمل على عاتقه التجديد في الفكر الإسلامي في العصر الحديث فهو علامة مضيئة على هذا العصر.

ولد (عبد المعطي محمد بيومي السيد أحمد) في قرية سيدي غازي محافظة كفر الشيخ، في ٢١ يوليو ١٩٤٠، ونشأ في أسرة دينية، فقد كان والده الشيخ محمد بيومي إمامًا وخطيبًا في القرية.

تتلمذ علي يد مجموعة من شيوخ الأزهر الشريف، منهم شيخ الأزهر الأسبق الدكتور محمد عبد الرحمن بيصار، والشيخ عبد المنعم حجاب، والشيخ عبدالمنعم النمر.

تلقى تعليمه في الأزهر الشريف حيث درس بكلية أصول الدين جامعة الأزهر وتخرج في قسم العقيدة والفلسفة عام ١٩٦٥، وتدرج في المناصب الأكاديمية وحصل على درجة الماجستير عن رسالة بعنوان (فلسفة العلوم بين اليونان والمسلمين) عام ١٩٦٨م. ثم الدكتوراه عام ١٩٧٢م، عن رسالة عنوانها (تجديد الفكر الإسلامي في العصر الحديث)، فبدأ مدرسا في كلية أصول الدين عام ١٩٧٢، ثم أستاذًا مساعدًا، ثم أستاذًا، بعدها عين وكيلاً لكلية أصول الدين لثلاث مرات، ثم عميدا لكلية أصول الدين، ثلاث مرات كان آخرها في عام ٢٠٠٣.

وقد أعير إلى جامعة الرياض (الملك سعود حاليا) من ١٩٧٤إلى ١٩٧٨، وإلى جامعة قطر من ١٩٨٢ إلى ١٩٨٦، ومن ١٩٩١إلى ١٩٩٣.

وكان الشيخ صحفيًا بارعًا بجانب مشواره الأكاديمي، فعمل محررًا بمجلة الوعي الإسلامي عام ١٩٦٥، كما تقلد منصب رئيس تحرير مجلة الأزهر من ١٩٨٠إلى ١٩٨٢، ورئيس تحرير مجلة منبر الإسلام المصرية مرتين من ١٩٧٨إلى ١٩٨٣ و من ١٩٨٧ إلى ١٩٨٩م.

وكان له مقالات أسبوعية بمجلة (المصور المصري) في فترة ٢٠٠٠إلى ٢٠١١م وهي عبارة عن بحوث دينية وفقهية واجتماعية وفلسفية.

شغل مناصب عديدة من بينها عضو مجلس الشعب بالتعيين من رئيس الجمهورية ٢٠٠٠ / ٢٠٠٥م، وعضو باتحاد كتاب مصر، وعضو بمجلس إدارة الجمعية الفلسفية المصرية ،وهيئة كبار العلماء وعضو مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف، ومقرر لجنة العقيدة والفلسفة بمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، وعضو اللجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة في

الصحافة والإعلام بجامعة الأزهر - ورئيس مجلس إدارة الجمعية العربية للخدمات الثقافية والاجتماعية، وعميد المعهد العالى للدراسات الإسلامية والعربية.

كان - رحمه الله - واحدًا من سلسلة ذهبية من الأزهريين الذين لم يقتنعوا بالوقوف عند النقل وإعادة إنتاج وتدريس المتون والحواشي الفقهية أو الحواشي على الحواشي لتلاميذهم، وإنما رأوا أن هذا الجمود مضر للحياة الدينية وللمسلمين المعاصرين، ومن ثم اتخذوا من النقل سندًا لدعم الاجتهاد العقلي، وتطوير الفقه والمعرفة الدينية.

فاتسم المنهج الذى اتبعه بالبعد عن التشدد والمغالاة، وهو ما أبقاه فى صفوف الفريق المدافع عن وسطية الإسلام ومنهجة المعتدل الذى يتسم به الأزهر الشريف، وهو ما تدلل عليه آراؤه فى كثير من القضايا.

كان- رحمه الله- له فتاوى تسد الباب وتغلظ العقوبة لكى يرتدع الغافلون .فقد أفتى بتطبيق حد الحرابة على كل من يقوم باستيراد غشاء البكارة الصينى الذى ييسر للفتاة التى فقدت عذريتها إرجاع هذه العذرية بسهولة، باعتباره مفسدًا فى الأرض، لأنه بهذه الطريقة قد يساعد على نشر الرذيلة فى المجتمع.

وأن كل من يستورد أو يجلب غشاء البكارة الصينى هو مفسد فى الأرض ينطبق عليه حد الحرابة.. لأن من يجلب مثل هذا الغشاء إنما يهون ارتكاب الفاحشة ويغرى ضد التمسك بالقيم الأخلاقية وينشر الفساد".

ودلل على ذلك بأن الزنا يعد كبيرة من الكبائر، كما أن الشرف هو من أخلاقيات مجتمعاتنا الإسلامية، وينبغى ألا نسمح لوسيلة تهون من التخوف من فعل هذه الجريمة، والتى يقصرها البعض على البكارة والعذرية، فى ظل ضعف النفوس".


د. عبدالمعطى بيومى

ومن فتاويه أيضا أنه قد رفض تجسيد الأنبياء والصحابة فى الأعمال الدرامية وقال: أما من ناحية الرسل والأنبياء فهؤلاء نوعية من البشر اصطفاهم المولى عز وجل عن سائر خلقه، وتنطق بهذا آيات القرآن الكريم فى قول المولى عز وجل:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾

(آل عمران:٣٣)

وإذا كان الله عز وجل قد اصطفى هؤلاء البشر، فهل من اللائق أن يتقمص أحد شخصياتهم؟! فالتمثيل استحضار صورة الشخصية التى يقوم بها الممثل، ومهما بالغ الممثل فى الإجادة، فلن يستطيع أن يكون طبق الأصل من شخصية ليست كسائر البشر.

وقد كان للشيخ -رحمه الله- فتاوى واجتهادات آثارت جدلا واسعا منها: النقاب ليس فرضا ولا سنة والاستدلال على فريضته يعتمد على روايات ضعيفة لا يعتد بها وهو مجرد عادة. لأن الزى الشرعى للمرأة يشترط أن يستر جميع جسدها عدا الوجه والكفين وإلا لما وجب كشف المرأة لوجهها وكفيها أثناء أداء فريضة الحج ولما صحت صلاتها وهى كاشفة.. وجهها.

ولسنا أكثر إسلاما من النبى ﷺ حتى نقول إن النقاب سنة أو فرض ونخالف بذلك ما جاء فى صحيحى البخارى ومسلم بأن النبى ﷺ لم يأمر بتغطية وجه المرأة.

وكذلك فتواه الشهيرة التى أثارت جدلا كبيرا الخاصة بإباحة تأجير الأرحام فقال :إن تأجير الرحم مثل تأجير المرضعة حلال، على ألا تضع فى رحم المرأة بويضة ملقحة إلا بعد التأكد من خلو الرحم من أية بويضات، وأن ما ينشأ عن ذلك من مشكلة النسب مسألة قانونية يحددها العقد الذى يكتب بين المالك والمستأجر وهذا ليس زنا لأن الزنا وضع القلم فى المحبرة.

ولقد خاض بيومى العديد من المساجلات الفقهية التى كان لها أثر فى الميدان الفقهى كان منها مع الدكتور على جمعة عند فتواه بالتبرك بشرب بول النبى ﷺ وطالب وقتها بمراجعة المفتى فقهيا، وكذلك معارضته د.محمود حمدى زقزوق عند تطبيق مشروع الأذان الموحد وقال إن الأذان الموحد غير جائز، لأنه إبطال لشعيرة من شعائر الله.

مؤلفاته:

اتسمت كتاباته العلمية بالاجتهاد والاعتدال وسعة الأفق، والتيسير على الناس فى حياتهم ومعاشهم، فكتب بيومى العديد من المؤلفات والدراسات فى مختلف العلوم الإسلامية التى تميزت بالمنهج الفكرى الوسطي، كما أنه أشرف وناقش العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه بجامعة الأزهر.... ومن هذه الآثار الفكرية:

١ -عقد الإمارة فى الفكر الإسلامى "البداية والنهاية".

٢ - المرأة من ضيق القانون إلى سعة الشريعة.

٣ - الإيمان والعقل.

٤ - الإسلام فى القرن الحادى والعشرين.

٥ - اجتهادات معاصرة.

٦ - كيف يعمل القرآن فى هذا العصر.

٧ - فكرة السببية بين ابن رشد والغزالي.

٨ - حكمة القرآن فى بناء المجتمع.

٩ - المدرسة النقدية فى الفلسفة الإسلامية

١٠ - ابن رشد وفلسفته.

١١ - ابن رشد الهوية والموقف العقلي

١٢ - الماركسية فى مواجهة الدين.

١٣ - جذور الفكر المادى (التيارات المادية فى المذهب والأديان القديمة).

١٤ - الإمام الشافعى حياته والعوامل المؤثرة فى منهجه - ثقافتنا عن المرأة وحاجتنا إلى منهج جديد.

١٥ - ولاية المرأة.

١٦ - الإسلام والدولة المدنية.

١٧ - أصول العقيدة الإسلامية من خلال شرح كتاب تهذيب الكلام للتفتازاني.

١٨ - مدخل إلى الفلسفة الإسلامية.

كان رجلاً فاضلاً، طيبًا رحيمًا خيرًا، أينما حل كان يحمل فى أعطافه التسامح والمحبة والتعاطف والسعى إلى بناء الجسور بين الفرقاء. كان يحاور فى لين وعمق ودون غلظة.

كان يعانى رحمه الله من مرض السرطان فى الكبد، جعله الله له فى ميزان حسناته، ولم يمنعه مرضه من أداء صلاة الجمعة بمسجد الأنصار، والذى أدى به خطبة الجمعة الأخيرة من شهر شعبان حيث كان يؤدى صلاة الجمعة، ويؤم المصلين فى هذا المسجد لأكثر من ٢٠ عامًا.

وصلت رحلة الشيخ بيومي، إلى نهايتها، فى يوم الاثنين ٣٠/ ٧/ ٢٠١٢م - عن عمر ناهز ٧٢ عامًا، ولعل أفضل ماتختم به قول الدكتورأحمد الطيب شيخ الأزهر فيه: "ستظل ذكراه حية فى نفوس زملائه الكثيرين، رحمه الله، وعوض الأزهر بفقده خيرا".

مجلة الأزهر بين الرسالة والواقع

أ. د/ أحمد محمد حنطور
أستاذ الأدب والنقد بكلية اللغة العربية بالمنصورة

للمجلات - على اختلاف اهتماماتها - دور كبير في التبصير بالحقيقة والإمداد بالفكرة وتنمية الأفق المعرفي عند القارئين، وذلك بما تملكه من أدوات تجعلها أكثر سيرورة وقدرة على متابعة الظواهر وملاحظة الأحداث، وتناول القضايا بالدرس الموضح والتحليل المستوعب في إيجاز هادف وعرض بليغ، ويزداد ذلك الدور قيمة ومكانة إذا توافر على الكتابة فيها كتاب مجيدون يبحثون عن الحقيقة في تجرد، ويسعون إلى تأدية حق العلم في إخلاص، ويجدون في نشر أفكاره بعيدًا عن الاستطراد الممل والالتواء الممقوت.

على أنه ينبغي أن يكون للمجلة مع تلك الأدوات والعوامل منهج في البحث وخطة في المعالجة ورسالة تهدف إلى غرسها في عقل ووجدان المتلقين، وأن تبقى هذه الأشياء قائمة في فكر وعمل القائمين على إدارة المجلة حتى تظل محافظة على هويتها التي تحققت بها مكانتها لدى القراء، ولا تتقاذفها الاتجاهات يمينًا ويسارًا تبعًا للظروف والأهواء، ومن يرجع إلى مجلة الرسالة برئاسة الأستاذ أحمد حسن الزيات يجد أنها كانت لا يغيب عنها المحاور التي قامت عليها وهي: الآداب العالمية، وآداب الشعوب الإسلامية، والآداب العربية، والآداب المصرية، وتحرص على المواءمة بين هذه المحاور من جهة، وعلى النشر لمن هو أهل للكتابة فيها من جهة ثانية - مصريًا كان أو غير مصري - حتى صارت بذلك جزءا من تاريخ الأدب في العصر الحديث.

وليس معنى ما ذكر أن تجيء المجلة في نمط ثابت شكلًا وموضوعًا، فقد يتوافد على رئاسة تحريرها من يملك القدرة على الإضافة والتطوير، وهو مطالب أن ينهض بتلك المهمة دون توان، لكن حريته في القيام بذلك تبقى مطلقة فيما يتعلق بالوسائل التي يراها كفيلة بتحقيق أهداف المجلة من حيث الإخراج والإضافة المثمرة وطرق النشر، دون أن يعصف بأهدافها ويخرج بها عن رسالتها التي أنشئت من أجلها تلك المجلة، ونظرة إلى ما حدث في مجلة فصول التي كانت المجلة الدورية الوحيدة التي تنهض بمهمة النقد الأدبي المتخصص - على ما كان بها من تغريب في المنهج - تبين كيف تحولت إلى دراسات نقدية اجتماعية وسياسية وثقافية، وجاء النقد الأدبي تابعًا لتلك الدراسات الوافدة؛ لتخلو الساحة النقدية من مجلة كنا نأمل لها في ظل الثورة الجديدة أن تبرز هوية الأمة وجهودها في ميدان النقد الأدبي، فإذا بها تخرج من ساحته غير مأسوف عليها عند المهتمين

بظواهره وقضاياه.

وقد ظفرت إدارة مجلة الأزهر منذ صدورها في المحرم ١٣٤٩هـ حتى اليوم بأعلام مجيدين ذوي أثر بالغ في ميدان الثقافة الإسلامية نذكر منهم الإمام الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين، والأستاذ محمد فريد وجدي، والأستاذ أحمد حسن الزيات، والأستاذ محب الدين الخطيب، ثم الأستاذ عبدالرحيم فودة، والدكتور عبدالمعطي بيومي، والدكتور عبدالودود شلبي، والدكتور علي الخطيب، والدكتور محمد رجب البيومي، وقد كان لكل منهم خطته الناهضة بتحقيق أهداف المجلة النبيلة ورسالتها السامية.

وقد كتب الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومي في افتتاحية العدد الأول من رئاسته تحرير المجلة (شهر ذي القعدة ١٤٢١هـ - فبراير ٢٠٠١م) مقالًا تحت عنوان: رسالة مجلة الأزهر بأقلام أساتذتها الكبار ذكر فيه خطط الرعيل الأول من تحرير مجلة الأزهر الغراء ورؤيتهم لدورها في نشر التعاليم الإسلامية الصافية.

وننقل هنا من هذه الخطط ما جاء في كلمة الإمام الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين، حيث يقول: «خرجت هذه المجلة لتعمل على نشر آداب الإسلام، وإظهار حقائقه نقية من كل لبس، وتكشف عما ألصق بالدين من بدع ومحدثات، وتنبه على ما درس في السنة من أحاديث موضوعة، وتدفع الشبه التي يحوم بها مرضى القلوب على أصل من أصول الشريعة، وتعنى بعد هذا بسير العظماء من رجال الإسلام، وما تجد فائدة في نشره من المباحث، علمية كانت أو أدبية، ولن تحكي رأيًا خارجًا عن منهج الصواب إلا أن تقرنه بما يكشف عن كنهه، وتراعي في تحريرها الأساليب التي تألفها أذواق القراء، ويجتلون فيها صور المعاني ماثلة أمامهم لا لبس فيها ولا التواء مقتدية في نقاشها بقول الله:

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾

(النحل: ١٢٥)

وحين نتابع ما جاء في المقال المذكور عن خطط هؤلاء الأعلام فإننا نجد الأستاذ محمد فريد وجدي أضاف عملًا جديدًا، «هو نقل الشبهات المادية والافتراءات التي تتسربل ظاهرًا بلسان العلم، ليكشف عوارها، ويبين أن الإسلام وطيد البناء لا تناله هذه الأراجيف»، بيد أننا نعود إلى النقل مرة أخرى لنذكر برسالة تلك المجلة التي ذكرها الأستاذ أحمد حسن الزيات في خطته الواعية حيث يقول: «إن المجلة تخطو في سبيل مؤيدة بالشرع، مسددة بالصواب، تدعو إلى الله بالدعاء اللين، وترفع صوت الأزهر نديًا فوق هذه الأصوات المنكرة التي تتخاطب بالجديد، وتتجاوب بالوعيد، وتزعم أن الله مكن أصحابها في الأرض ليبدلوا حكمه، ويبدلوا نظامه، ويقولوا بسلطان القوة: هذا حلال وهذا حرام، والأزهر بحكم وراثته للنبوة، وخلافته للرسالة مكتوب عليه أن يحاول هذا الإنقاذ (إنقاذ البشرية من الضلال)، ولن تهيأ له وسائله إلا إذا وصل علماؤه أسبابهم بأسباب الرسول ﷺ ففهموا الكتاب كما أنزل عليه، وفقهوا السنة كما صدرت عنه، واعتقدوا أنهم جند الله يرمي بهم عدوه في كل وقت، وفي كل أرض، فيعيشون للموت كالجند، ويعملون للحياة كالقادة».

وقد نقلت ما ذكر لأنبه على دور رؤساء التحرير في تحقيق أهداف المجلة ووضع الخطط التي تنهض بأداء رسالتها السامية، وكيف كانت

نبراسًا يستضيء به الدكتور رجب البيومي في فهمه لرسالة المجلة، وتذكير لكتابها بما يجب أن تكون عليه كتاباتهم من موضوعية ورصانة، وفي المرحلة المعاصرة من عمر المجلة المديد تولى رئاستها الدكتور محمد عمارة (من عدد شعبان ١٤٣٢ هـ / يوليو ٢٠١١ م حتى اليوم)، وهو علم من أعلام الفكر الإسلامي المعاصر، وباحث مستوعب لأبعاد القضايا الإسلامية ومعالجتها بفكر ثاقب وفهم عميق، ومناضل دؤوب في الذب عن حياض الإسلام ورد كيد الخصوم، وأشهد أني أتابع ما يسطره في الكتب والمجلات والصحف بإعجاب وتقدير شديدين لهذا الجهد المتواصل في التحليل العميق والمناقشة الواعية، والحرص على الوصول إلى الحقيقة في يقظة ووضوح تامين، والثبات على المبدأ والتمسك بما يرى أنه الحق الصراح فيما يعالجه من قضايا ويتعرض لدراسته من مشكلات.

أقول هذا وأنا بصدد الحديث عن مجلة الأزهر في هذه المرحلة لأعترف للرجل بما هو أهله، وحتى يأتي ما يهدف إليه هذا الحديث إلى متلقيه على وجهه الصحيح، فقد اكتفى الدكتور محمد عمارة في افتتاحية العدد الأول من رئاسته بالدعاء للسابقين من رؤساء التحرير بالرحمة، وله بأن يسدد الله خطاه على الطريق، وخصص مقاله أو سلسلة مقالاته الافتتاحية الأولى عن فرسان المراجعات العلمانية؛ مبتدئًا في هذا العدد بالشيخ علي عبدالرازق، وواضح لمن يتابع المجلة في هذه المرحلة أن الدكتور عمارة صبغ المجلة بمشروعه الفكري الحضاري الإسلامي كاتبًا ومستكتبًا أعلام هذا الاتجاه في السياسة الشرعية والخطط الإصلاحية وقضايا الإسلام المعاصر في الداخل والخارج، وهو عمل جيد تقتضيه المرحلة وتتطلبه الأخطار المحدقة بالإسلام من خصومه والمنتسبين إليه على حد سواء، ومن يقرأ عناوين المقالات ويرى أسماء الكتاب الجدد الذين توافدوا على الكتابة في المجلة يدرك صواب ما أقول. بيد أن المحب ينشد الكمال في المحبوب، ومن ثم أسمح لنفسي أن أبدي حول مجلة الأزهر بين الرسالة والواقع الرؤى والخواطر الآتية:

لقد كانت المادة العلمية التي تنهض بتحقيق الرسالة التي وقفنا على طرف منها في المجالات الأدبية والتاريخية والدينية تمثل اهتمامات كليات الأزهر النظرية الثلاثة وهي: الشريعة والقانون وأصول الدين والدعوة، واللغة العربية والتاريخ، مع المواءمة في توزيعها - قلة وكثرة - مع الاهتمامات الحاضرة والقضايا الملحة التي تستدعي معالجتها المرحلة، ومن ثم كانت العلاقة بين هذه المواد في وجودها تقوم على القلة والكثرة لا على الحضور والغياب، بيد أننا نلحظ في المجلة غلبة الاهتمام بالسياسة الشرعية والقضايا الفكرية والمسائل العقدية والأحداث التاريخية على حساب اللغة والأدب وتطور العلوم الدنيوية والقضايا الفقهية في ظلال الإسلام، وتأتي سمة الغلبة من جهة أخرى، وهي كثرة حديث الأموات من أعلامنا السابقين في المجلة، ونحن ننظر إلى هذا الجانب من جهتين:

• أولاهما: أنه من الأهمية بمكان نشر آراء المتقدمين والتذكير بجهودهم في الدعوة والدفاع عن المنهج، ولكننا نرى أن ذلك يجب ألا يتخطى نسبة ٢٠٪ من مادة المجلة، بينما نجدها في أعداد تلك المرحلة تتردد بين ٣٠٪ و٤٠٪.

• والجهة الثانية: ضرورة إفساح المجال لفرسان المرحلة متى كانت كتاباتهم تتسم بالمنهجية والموضوعية، بل واكتشاف ذوي المواهب والقدرات العلمية التي تمكنهم من أن يكون لهم صوت وصدى في قضايا العصر التي تدخل في اهتمامات المجلة.

ونأتي إلى ملحوظة إجرائية تتعلق بالمقالات الممتدة - أو نشر الكتب المطبوعة - التي وجدنا بعضًا منها يتخطى العام الواحد خلافًا لما يقتضيه دور المجلة في إتاحة الفرصة لأكبر عدد من الكاتبين؛ حتى وجدنا من المجلات ما يجعل من قواعده في النشر ألا يزيد المقال الممتد عن ثلاث حلقات، ونحن ندرك قيمة هذه المقالات التي تقف وراء ظاهرة الكتب المقالية المتنوعة الموضوع، مثل كتاب: «الإسلام دعوة عالمية» للأستاذ عباس العقاد، و«وحي القلم» للأستاذ مصطفى صادق الرافعي، أو الكتب المقالية المتحدة الموضوع، مثل كتاب: «ما يقال عن الإسلام» للأستاذ عباس العقاد، و«على هامش السيرة» للأستاذ طه حسين، لكننا هنا أمام ظاهرة تخالف تلك الظاهرة، وهي نشر الكتب المطبوعة في سلسلة مقالات متفرقة.

وأولى من ذلك الوقوف على ما لم ينشر من قبل من كتابات أهل المرحلة أو السابقين من العلماء، فذلك أجدى في تحقيق التواصل بين القراء والمجلة وقد أيقنوا أن المجلة تقدم الجديد من كتابات فرسان الكلمة ولا تقف كثيرًا عند حد الإعادة والتكرار، وإن كان ثمة ضرورة لذلك فهي تقتصر على نشر الرسائل التي لا تتخطى العام لا الكتب التي يأخذ نشرها سمت الأبواب الثابتة لأعوام عديدة، ويمكن نشر الكتاب ذي الجزء الواحد منها في أعداد متتالية من هدايا المجلة إفساحًا للميدان أمام الكتاب وعونًا للقارئ على جمعها في كتاب واحد لمن أراد، وذلك دون الكتب المتعددة الأجزاء فليس لها - فيما نرى - إلى النشر في صفحات المجلة أو هداياها أي سبيل.

وأمر آخر نجده في اختيارات هدايا المجلة، حيث وجدنا اهتماماتها تدور في فلك اتجاه المجلة الجديد، وقد كانت قبل سبيلًا للتعريف بجهود العلماء النابهين في التراث وفي العصر الحديث وما قدموه لنا من زاد علمي ومعرفي يكون منارة لنا على الطريق، ومحاولة لاستيعاب وجوه القول في قضايا الدين المختلفة عند هؤلاء الأعلام بعيدًا عن مزاحمة كتاباتهم أبواب المجلة، وتدعيمًا لرسالة المجلة بنشر ما لم تتسع له صفحات المجلة الإحاطة به مع الدخول في اهتمامها الأصيل.

إن تقديرنا للمكانة التي تتبوؤها مجلة الأزهر، والدور الذي تقوم به في مصر والخارج يقف وراء هذه الخواطر التي يقدمها هذا المقال طلبًا للكمال وتحقيقًا لأداء رسالتها على نحو مثالي رفيع؛ حتى يظل القارئ مشدودًا إليها متعلقًا بما تقدم من مادة دينية متنوعة، ولا تصير من تلك المجلات التي يزهد فيها القراء ويصير المرتجع منها عبئًا على تكلفتها الاقتصادية، وهو تقدير لا يقل عنه ما تحمله النفس من إكبار واعتزاز بجهود القائمين على تحريرها وعلى رأسهم المفكر الإسلامي الجليل الدكتور محمد عمارة، فهو من فرسان الكلمة الصادقة في هذا العصر، وإن كان لنا في المجلة رأي ونظر فإننا نرجو ألا يكونا في منأى عن الصواب، وأن يحظيا لدى رئاسة المجلة بالرضا والقبول.

فتاوى لها تاريخ

الطلاق - اشتراط القصد فيه [١]



للشيخ: رشيد رضا

السؤال من: ع.ص. بمصر «القاهرة»: كنت أتجاذب أطراف الحديث مع صديق لى فى أمور دينية، فتدرجنا إلى موضوع الطلاق، فاختلفنا فيه. وكان رأيه أن الطلاق يقع لمجرد النطق باللفظ، ولو لم يكن الطلاق مقصودًا، وأما أنا فرأيت أنه لا يقع الطلاق إلا بعد الإصرار عليه. فهل لكم أن تتفضلوا بنشر الحقيقة، فتنقذوا العالم الإسلامى من وهدة الاختلاف التى وقع فيها من كثرة التأويلات، ويكون لكم علينا الفضل، ومنا الشكر ومن الله الأجر.

ج- الزواج عقدة محكمة، توثق بين الزوجين بعقد مقصود مع العزم، فمن المعقول أن لا تحل إلا بعزم، وبذلك جاء الكتاب الحكيم، قال تعالى:

﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾

«البقرة:٢٣٥»

أى لا تعزموا عقد هذه العقدة إلا فى وقتها، وهو انتهاء عدة المرأة والكلام فى المعتدة. وقال تعالى:

﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾

«البقرة:٢٢٧»

إلخ أى إن صمموا عليه وقصدوه قصداً صحيحاً. والقاعدة عند الفقهاء فى العقود، أن العبرة بالمقاصد والمعاني، لا بالألفاظ والمباني.

وظاهر أن أعظم العقود وأهمها: العقد الذى موضعه الإنسان، من حيث يأتلف ويجتمع ويتوالد ويربى مثله، فمثل هذا العقد يجب الحرص التام عليه، لأن فى حله خراب البيوت، وتشتيت شمل المجتمع، وضياع تربية الأولاد وغير ذلك من المضار، ولكن أكثر فقهاء المذاهب المشهورة ذهبوا، إلى أن عقدة

«١» المنار ج ٧ ، ٤٠٩١، ص ٨٩٢

النكاح تنعقد بالهزل وتنحل بالهزل، حتى كأنها أهون من العقد على أحقر الماعون، الذى اشترطوا فيه مع التعاطى الإيجاب والقبول الدالين على القصد الصحيح.

وحجتهم فى حديث غريب كما قال الترمذي، أخرجه أحمد وأصحاب السنن ما عدا النسائي، من حديث أبى هريرة وهو «ثلاث جدهن جد وهزلهن جد النكاح والطلاق والرجعة». وقد صححه الحاكم الذى كثيراً ما صحح الضعاف والموضوعات، وفى إسناده عبدالرحمن بن حبيب بن «أزدك» قال النسائى فيه: منكر الحديث. ولذلك لم يخرج حديثه. ولقد عرف النسائى رحمه الله تعالى من ابن «أزدك» هذا ما خفى على كثيرين، ونحن نقدم جرح النسائى على توثيق غيره، عملًا بقاعدة تقديم الجرح على التعديل، مع كون موضوع الحديث منكرًا لمخالفته ما دل عليه الكتاب من وجوب العزم فى هذا الأمر، ومخالفته القياس فى جميع العقود، وهو أن تكون بقصد وإرادة، وإن جعله الحافظ حسنًا. ولهذا لم يأخذ به مالك ولا أحمد- وهو أحد رواته- على إطلاقه، بل اشترطا النية فى لفظ الطلاق الصريح، واشتراطه فى الكناية أولى لاحتمالها معنيين. ومن العجائب أن بعض الفقهاء يقول إن النكاح لا يقع من الهازل، ولكن الطلاق يقع. فهو يأخذ ببعض الحديث ويترك بعضًا.

وقد دعم بعضهم حديث ابن أزدك، بحديث فضالة عند الطبرانى «ثلاث لا يجوز فيهن اللعب، الطلاق والنكاح والعتق» وهو على ضعفه بابن لهيعة فى سنده ينقض الأول لا يدعمه، لأن عدم الجواز يستلزم الفساد لا الصحة، كما يعرف من الأصول، وجاء بلفظ آخر فيه انقطاع، فلا يعول عليه ولا يبحث فيه. ثم إن مسائل العقود ومنها النكاح والطلاق، كلها مشروعة لمصالح العباد ومنافعهم، ومعقولة المعنى لهم، وليس من مصلحة المرأة ولا الرجل ولا الأمة أن يفرق بين الزوجين بكلمة تبدو من غير قصد ولا إرادة لحل العقدة، بل فيها من المفاسد والمضار، ما لا يخفى على عاقل. فلا يليق بمحاسن الملة الحنيفية السمحة، أن يكون فيها هذا الحرج العظيم. هذا وقد ورد فى الأحاديث الموافقة لأصول الدين وسماحته، ما يدل على أن الخطأ والنسيان غير مؤاخذ به، ومثلهما الإكراه، وقد قال تعالي:

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ﴾

«المائدة/ ٨٩»

أى بتوثيقها بالقصد والنية الصحيحة، والطلاق من قبيل الأيمان. والله أعلم وأحكم.

استفتاءات القراء

(الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبى بعده سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين)

اطلعنا على الطلب المقدم من/ مجلة الأزهر - المتضمن لبعض الأسئلة وهى:

ما حكم الاحتفال بالمولد النبوى وموالد آل البيت وأولياء الله الصالحين، وزيارتهم؟

الجواب: المولد النبوى الشريف إطلالة للرحمة الإلهية بالنسبة للتاريخ البشرى جميعه، فلقد عبّر القرآن الكريم عن وجود النبى صلى الله عليه وآله وسلم بأنه (رحمة للعالمين)، وهذه الرحمة لم تكن محدودة، فهى تشمل تربية البشر وتزكيتهم وتعليمهم وهدايتهم نحو الصراط المستقيم وتقدمهم على صعيد حياتهم المادية والمعنوية، كما أنها لا تقتصر على أهل ذلك الزمان، بل تمتد على امتداد التاريخ بأسره:

﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾

(الجمعة: ٣).

والاحتفال بذكرى مولد سيد الكونين وخاتم الأنبياء والمرسلين نبى الرحمة وغوث الأمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم من أفضل الأعمال وأعظم القربات، لأنها تعبير عن الفرح والحب للنبى صلى الله عليه وآله وسلم، ومحبة النبى صلى الله عليه وآله وسلم أصل من أصول الإيمان، وقد صح عنه أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين) رواه البخاري.

قال ابن رجب: (محبة النبى صلى الله عليه وآل وسلم من أصول الإيمان، وهى مقارنة لمحبة الله عز وجل، وقد قرنها الله بها، وتوعد من قدم عليهما محبة شيء من الأمور المحببة طبعًا من الأقارب والأموال والأوطان وغير ذلك، فقال تعالي:

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾

(التوبة: ٢٤)

يجيب عنها فضيلة الأستاذ الدكتور

شوقى علام

مفتى جمهورية مصر العربية

ولما قال عمر للنبى ﷺ: يا رسول الله، لأنت أحب إلىّ من كل شيء إلا من نفسي، قال النبى ﷺ وآله وسلم: (لا والذى نفسي بيده، حتى أكون أحب إليك من نفسك)، فقال له عمر: فإنه الآن والله لأنت أحب إلىّ من نفسي، فقال النبى صلى الله عليه وآله وسلم: (الآن يا عمر) رواه البخارى اهـ.

والاحتفال بمولده ﷺ هو الاحتفاء به، والاحتفاء به صلى الله عليه وآله وسلم أمر مقطوع بمشروعيته، لأنه أصل الأصول ودعامتها الأولي، فقد علم الله سبحانه وتعالى قدر نبيه، فعرف الوجود بأسره باسمه وبمبعثه وبمقامه وبمكانته، فالكون كله فى سرور دائم وفرح مطلق بنور الله وفرجه ونعمته على العالمين وحجته.

وقد درج سلفنا الصالح منذ القرن الرابع والخامس على الاحتفال بمولد الرسول الأعظم صلوات الله عليه وسلامه بإحياء ليلة المولد بشتى أنواع القربات من إطعام الطعام وتلاوة القرآن والأذكار وإنشاد الأشعار والمدائح فى رسول الله ﷺ وآله وسلم، كما نص على ذلك غير واحد من المؤرخين مثل الحافظين ابن الجوزى وابن كثير، والحافظ ابن دحية الأندلسي، والحافظ ابن حجر، وخاتمة الحفاظ جلال الدين السيوطى رحمهم الله تعالي.

ونص جماهير العلماء سلفًا وخلفًا على مشروعية الاحتفال بالمولد النبوى الشريف، بل ألف فى استحباب ذلك جماعة من العلماء والفقهاء، بينوا بالأدلة الصحيحة استحباب هذا العمل؛ بحيث لا يبقى لمن له عقل وفهم وفكر سليم إنكار ما سلكه سلفنا الصالح من الاحتفال بذكرى المولد النبوى الشريف، وقد أطال ابن الحاج فى (المدخل) فى ذكر المزايا المتعلقة بهذا الاحتفال، وذكر فى ذلك كلامًا مفيدًا يشرح صدور المؤمنين، مع العلم أن ابن الحاج وضع كتابه (المدخل) فى ذم البدع المحدثة التى لا يتناولها دليل شرعي، وللإمام السيوطى فى ذلك رسالة مستقلة سماها (حسن المقصد فى عمل المولد).

والاحتفال فى لغة العرب: من حفل اللبن فى الضرع يحفل حفلاً وحُفُلاً وتحفّل واحتفل: اجتمع، وحفل القوم من باب ضرب. واحتفلوا: اجتمعوا واحتشدوا.. وعنده حفل من الناس: أى جمع، وهو فى الأصل مصدر، ومحفل القوم ومحتفلهم: مجتمعهم، وحفلَهُ: جلاه، فتحفل واحتفل، وحفل كذا:

بالى به، ويقال: لا تحتفل به.

وأما الاحتفال بالمعنى المقصود فى هذا المقام، فهو لا يختلف كثيرا عن معناه فى اللغة؛ إذ المراد من الاحتفال بذكرى المولد النبوى هو تجمع الناس على الذكر، والإنشاد فى مدحه والثناء عليه ﷺ، وإطعام الطعام صدقة لله، إعلانًا لمحبة سيدنا رسول الله ﷺ، وإعلانًا لفرحنا بيوم مجيئه الكريم ﷺ.

ويدخل فى ذلك ما اعتاده الناس من شراء الحلوى والتهادى بها فى المولد الشريف؛ فإن التهادى أمر مطلوب في ذاته، لم يقم دليل على المنع منه أو إباحته فى وقت دون وقت، فإذا انضمت إلى ذلك المقاصد الصالحة الأخرى كإدخال السرور على أهل البيت وصلة الأرحام فإنه يصبح مستحبًا مندوبًا إليه، فإذا كان ذلك تعبيرًا عن الفرح بمولد المصطفى ﷺ كان أشد مشروعية وندبًا واستحبابًا؛ لأن للوسائل أحكام المقاصد، والقول بتحريمه أو المنع منه حينئذ ضرب من التنطع المذموم.

ومما يلتبس على بعضهم دعوى خلو القرون الأولى الفاضلة من أمثال هذه الاحتفالات، ولو سلم هذا -لعمر الحق- فإنه لا يكون مسوغا لمنعها؛ لأنه لا يشك عاقل فى فرحهم -رضى الله تعالى عنهم- به صلى الله عليه وآله وسلم- ولكن للفرح أساليب شتى فى التعبير عنه وإظهاره، ولا حرج فى الأساليب والمسالك، لأنها ليست عبادة فى ذاتها، فالفرح به، صلى الله عليه وآله وسلم عبادة وأى عبادة، والتعبير عن هذا الفرح إنما هو وسيلة مباحة، لكل فيها وجهة هو موليها.

على أنه قد ورد فى السنة النبوية ما يدل على احتفال الصحابة الكرام بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم مع إقراره لذلك وإذنه فيه، فعن بريدة الأسلمى رضى الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ فى بعض مغازيه، فلما انصرف جاءت جارية سوداء فقالت: يا رسول الله، إنى كنت نذرت إن ردك الله سالمًا أن أضرب بين يديك بالدف وأتغني، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (إن كنت نذرت فاضربي، وإلا فلا) رواه الإمام أحمد والترمذى وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب. فإذا كان الضرب بالدف إعلانًا للفرح بقدوم النبى صلى الله عليه وآله وسلم من الغزو أمرًا مشروعًا أقره النبى صلى الله عليه وآله وسلم وأمر بالوفاء بنذره، فإن إعلان الفرح بقدومه صلى الله عليه وآله وسلم إلى الدنيا -بالدف أو غيره من مظاهر الفرح المباحة فى نفسها- أكثر مشروعية وأعظم استحبابًا.

وإذا كان الله تعالى يخفف عن أبى لهب -وهو من هو كفرًا وعنادًا ومحاربة لله ورسوله- بفرحه بمولد خير البشر بأن يجعله يشرب من نقرة من كفه كل يوم اثنين فى النار؛ لأنه أعتق مولاته ثويبة لما بشرته بميلاده الشريف صلى الله عليه وآله وسلم كما جاء فى صحيح البخاري، فما بالكم بجزاء الرب لفرح المؤمنين بميلاده وسطوع نوره على الكون!!

وقد سن لنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بنفسه الشريفة جنس الشكر لله تعالى على ميلاده الشريف، فقد صح أنه كان يصوم يوم الإثنين ويقول: (ذلك يوم ولدت فيه) رواه مسلم من حديث أبى قتادة رضى الله عنه، فهو شكر منه عليه الصلاة والسلام على منة الله تعالى عليه وعلى الأمة بذاته الشريفة، فالأولى بالأمة الائتساء به صلى الله عليه وآله وسلم بشكر الله تعالى على منته ومنحته المصطفوية بكل أنواع الشكر، ومنها الإطعام والمديح والاجتماع للذكر والصيام والقيام وغير ذلك، وكل ماعون ينضح بما فيه، وقد نقل الصالحى فى ديوانه الحافل فى السيرة النبوية (سبل الهدى والرشاد فى هدى خير العباد) عن بعض صالحى زمانه: أنه رأى النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى منامه، فشكى إليه أن بعض من ينتسب إلى العلم يقول ببدعية الاحتفال بالمولد الشريف، فقال له النبى صلى الله عليه وآله وسلم: (من فرح بنا فرحنا به).

وكذلك الحكم فى الاحتفال بموالد آل البيت وأولياء الله الصالحين وإحياء ذكراهم بأنواع القرب المختلفة، فإن ذلك أمر مرغب فيه شرعًا، لما فى ذلك من التأسى بهم والسير على طريقهم، وقد ورد الأمر الشرعى بتذكر الأنبياء والصالحين فقال تعالي:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾

(مريم: ٤١)

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى﴾

(مريم: ٥١)

وهذا الأمر لا يختص بالأنبياء، بل يدخل فيه الصالحون أيضًا؛ حيث يقول تعالي:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾

(مريم: ١٦)

إذ من المقرر عند المحققين أن مريم عليها السلام صديقة لا نبية، كما ورد الأمر الشرعى أيضًا بالتذكير بأيام الله تعالى فى قوله سبحانه:

﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾

(إبراهيم: ٥)

ومن أيام الله تعالى أيام الميلاد وأيام النصر؛ ولذلك كان النبى صلى الله عليه وآله وسلم يصوم يوم الإثنين من كل أسبوع شكرًا لله تعالى على نعمة إيجاده واحتفالاً بيوم ميلاده كما سبق فى حديث أبى قتادة الأنصارى فى صحيح مسلم، كما كان يصوم يوم عاشوراء ويأمر بصيامه شكرًا لله تعالى وفرحًا واحتفالاً بنجاة سيدنا موسى عليه السلام، وقد كرم الله تعالى يوم الولادة فى كتابه وعلى لسان أنبيائه فقال سبحانه:

﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ﴾

(مريم: ١٥)،

وقال جل شأنه على لسان السيد المسيح عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى التسليم:

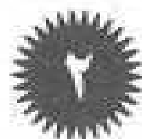
﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ﴾

(مريم: ٣٣)،

وذلك أن يوم الميلاد حصلت فيه نعمة الإيجاد، وهى سبب لحصول كل نعمة تنال الإنسان بعد ذلك؛ فكان تذكره والتذكير به بابًا لشكر نعم الله تعالى على الناس؛ فلا بأس من تحديد أيام معينة يحتفل فيها بذكرى أولياء الله الصالحين، ولا يقدح فى هذه المشروعية ما قد يحدث فى بعض هذه المواسم من أمور محرمة، بل تقام هذه المناسبات مع إنكار ما قد يكتنفها من منكرات، وينبه أصحابها إلى مخالفة هذه المنكرات للمقصد الأساس الذى أقيمت من أجله هذه المناسبات الشريفة.

تأملات فى السيرة

بنو قريظة وطبائع اليهود



لفضيلة الشيخ الطاهر الحامدى



ذات يوم كنتُ فى أحد المساجد أصلى مرسلًا يدىَّ وبعد أن فرغتُ من الصلاة أقبل عليَّ شابٌ أو قل صبيًا معترضًا معنفًا : «ما بالك ترسل يديك فى الصلاة مع أنه ورد عن رسول الله ﷺ أنه وضع يده اليمنى على اليسرى؟!» قلت له إن الإمام مالك ورد عنه الإرسال مستدلًا أو مقتديًا بعمل أهل المدينة. فلم يعجبه ما قلته له ثم صرخ فى المسجد كأنه ملدوغ : «أقول لك قال رسول الله ﷺ فيما ورد عنه ثم تقول لى قال الإمام مالك!!» وأحسست أن كلامه وجد صدى لدى المصلين. وسمعتُ همهمة الاعتراض عليَّ والتأييدَ لما قاله الصبى فقد وقع القولُ فى نفوسهم موقعًا حسنًا فكيف يستسيغُ مسلم أن يعارض كلام النبى ﷺ بكلام أحد الأئمة؟ وأدركتُ أن المسألة فيها خلط شديد وسوء فهم لما قلتُ وإنَّ آيادٍ مشئومة ملوّثة عبثت بأدمغة كثير من الصبية ولوّثتها بغثاء من الفكر المشوش حتى أزهلت عقولَهم عن الطريق السوى ولا أخفيك أنى فزعتُ من تحول العامة وتقبلهم لهذه الحُجج المغلوطة المغلّفة زورًا بحق يراد به باطل وهرعتُ إلى مقالة الصبى وكشف ما فيها من زيف حتى يظهر للناس وجه الحقيقة وبيان ما فيها من عوار وتزييف وقلتُ إنا لا أقولُ إننى أضع رأى الإمام مالك فى مواجهة قول الرسول ﷺ لكننى أقول لك إن هذا فهم الإمام مالك فيما ورد عن النبى ﷺ فما هو قولك أنت فى فهم كلام الرسول ﷺ؟ فلماذا انحرفتَ بالمسألة هذا الانحراف الجائر؟ وبأى سند فهمتَ هذا الفهم؟ إنك أخذتَ حديثًا واحدًا وتشبثتَ به مع أنَّ قواعد الاستنباط خلاف ما قلت ورأيت.

إن للأحكام أصولًا ومناهج وأساليب للاستنباط وأنّ هناك علمًا يحكم هذه المسألة أو قل إنّه يبينُ شروطَها وقواعدَها ويصوبُ انحرافَها. وثمّة قواعد وشروطًا يلتزم بها الفقيه حتى يكونَ الاجتهاد صوابًا ولهذا يسوغُ الاختلاف فى الرأى وتباين الفتاوى. وفى كلٍ صواب تَبَعًا لمَسلَكه فى بيان ما رآه من حكم وما وصل إليه من اجتهاد. هذا العلم هو علم أصول الفقه وقد ذكرت لك فى المقال السابق اختلاف الصحابة فى فهم قولَ رسول الله ﷺ : «لا يُصلّينَّ أحدُكم العصرَ إلّا فى بنى قُرَيْظَة» وحيث قد صلى قومٌ عند آذان العصر وأخَّر قومٌ الصلاة بعد غروب الشمس فصلوها فى بنى قريظة ومع ذلك لم يُخَطّيء النبى ﷺ أحدًا من الفريقين والذى أحبُ أن أُنبّهَ إليه أولًا أنَّ الاختلاف ليس عن هوى بل لابد أن يكونَ لكلِ وجهة توافق اللغة والمنطق ولا تخالف شرع الله وأن تكون مؤيدة بالدليل، وأهمّ شرطٍ فيها أن لا تكونَ نابعةً من هوى وقولُ الصبى فى الواقعةِ المذكورة سلفًا : «أنا أقول لك قال رسول الله ﷺ وتقول لى قال الإمام مالك» قولة حق يراد به باطل وذلك نتيجة تشوش العقول الصغيرة بما يُلْقيه فيها شياطين الأنس من الذين يريدونَ أن يُحقّروا قولَ المذاهب الأربعة فيجدونَ مدخلًا لآرائهم بزعم أنهم رجالٌ مثلهم.

والحق أنَّ الذين قالوا تصلى عند دخول وقت العصر متمسكون بقوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوۡقُوتًا﴾

«النساء : ١٠٣»

وأنَّ رسول الله ﷺ لم يقصد ترك الصلاة فى الوقت ولكنه قصدَ الإسراعَ فى الذهابِ إلى بنى قريظة وهم استجابوا وأسرعوا أما الذينَ أخّروا الصلاة وقالوا إنّا تمسّك بنص ما قاله حيث إنه نهى عن صلاة العصر إلا فى بنى قريظة وبذلك أوجب الصلاة فى بنى قريظة. ورسول الله ﷺ لم يخطّيء أحدًا. فإن لكلٍ وجهة مقبولة ومستساغة ولا تخالف شرعَ الله ولا قول رسول الله ﷺ. أما الهوى والغرض فإنّه مرذول وغير مقبول. نسأل الله سبحانه وتعالى أن يُسلّمنا من الهوى ومن الشك والشرك الظاهر والخفى والظلم والجُور منّا وعلينا... وبعد فأعتقد أنه حان الوقتُ لنرجع إلى خروج النبى ﷺ إلى بنى قريظة.

يروى أنّ النبى ﷺ لما خرج إلى بنى قريظة تهيّأ لهم ولبس لباس الحرب. أرجوك أن تتأمل ما كان عليه ﷺ من لباسٍ وأحمالٍ وهو خارج إلى بنى قريظة. كم تحمّلَ ﷺ؟ فداك نفسى يا رسول الله. لبسَ رسول الله ﷺ السلاح والدرعَ والمغفَر والبيْضة وأخذ قناة بيده وتقلّد الترس وركبَ الخيلَ وكانت خيلهم ستة وثلاثين فرسًا وسار ﷺ والخيل والرجال حوله ومرَّ النبى ﷺ بنفرٍ من بنى النّجّار فيهم حارثة بن النُعمانَ قد صفوا عليهم السلاح فسألهم : هل مرَّ بكم أحد؟ قالوا: نعم. دحية الكلبى مرّ على بغلة عليها رَحْله. فأمرنا بحمل السلاح وأخذنا وصففنا وقال لنا هذا رسول الله ﷺ يطلع عليكم الآن. قال

حارثة بن النعمان: ذلك جبريل بُعث إلى بني قريظة ليزلزل بهم حصونهم ويقذف الرعب في قلوبهم. وهرع بنو قريظة إلى صياصيهم يشتمون رسول الله ﷺ وزوجاته. وقلنا لهم السيفُ بيننا وبينكم. وحاول عليّ بن أبي طالب أن يُبعد رسول الله ﷺ عن حصنهم حتى لا يسمع النبي بذاءتهم لكنّ رسول الله ﷺ دنى ونادى بأعلى صوته نفرًا من أشرافهم حتى أسمعَهم وقال: «أجيبوا يا إخوة القردة والخنازير هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته؟ أتشتموني؟» فجعلوا يحلفون - كذبًا - ما فعلنا. يقولون: «يا أبا القاسم ما كنت جهولًا ولا فاحشًا» ولم يكن رغم كل الجهد طعام عند النبي وأصحابه حتى بَعَثَ سعد بن عُبادة - رضي الله عنه - بأحمال تمرٍ إلى رسول الله ﷺ فكان ذلك طعامُهم. فقال رسول الله ﷺ: نعمَ الطعام التمر. ثم قَدِمَ النبيُّ ﷺ وأصحابُه سَحَرًا وقدّمَ الرُّماة فأحاطوا بحصون اليهود يرمونهم بالنَّبل والحجارة وهم يرمون من حصونهم حتى أمسوا فباتوا حول الحصون وكان المسلمون يتناوبون حول الحصن وما برحَ رسول الله ﷺ وأصحابه يرمونهم حتى أيقنوا الهَلَكة ونادَوا للحوار وقالوا: دعونا نُكلّمكم. فقال رسول الله ﷺ: «نعم». فأنزلوا النبّاش بن قيس فكلّم رسول الله ﷺ على أن ينزلوا على ما نَزَلتْ عليه بنو النضير من الأموال والحَلْقة وتحقنَ دماءنا وتخرج من بلادك بالنساء والذراري ولنا ما حملتْ الإبل إلّا الحلقة. فأبى رسول الله ﷺ وقال نبّاش: تحقن دماءنا وتُسلّمَ لنا النساء والذرية ولا حاجة لنا فيما حملت الإبل. فأبى رسول الله ﷺ إلّا أن ينزلوا إلى حُكمه وعاد نبّاش إليهم بذلك - ولعلّك تقول أيها القارىء الكريم إنّ أيّ محاربٍ يرضى من خصمِه أن يترك البلاد ويرحل فلماذا لم يرضَ منهم رسول الله ﷺ ذلك؟ لعلك واجد جوابك فيما أرويه لك مما جاء في أخبار الواقعة.

عاد نبّاش بن قيس إلى قومه بني قريظة وأخبرهم الخبر فقال كعب بن أسد - لعلك تذكره - : ذلك الذي رفض في بادئ الأمر أن يسمع كلام حييّ بن أخطب وظل يغريه حيي حتى نقض عهده مع رسول الله ﷺ - فقال: يا معشر بني قريظة قد نزل بكم من الأمر ما ترون وإني عارضٌ عليكم خلالًا ثلاثًا فخذوا منها ما شئتم. قالوا: وما هي؟ قال: نتابعُ هذا الرجل ونُصدّقُه فوالله لقد تبيّن لكم أنه نبيّ مرسل وأنه الذي تجدونه في كتابكم فتأمنون بذلك على دمائكم وأموالكم ونسائكم. والله إنكم لتعلمون أن محمدًا نبيّ وما منعنا من الدخول معه إلا الحسد للعرب حيث لم يكن نبياً من بني اسرائيل وهو حيث جعله الله، ولقد كنت كارهًا لنقض العهد معَهُ ولكنّ البلاء والشؤم من هذا الجالس. وأشار إلى حيي بن أخطب. أتذكرون ما قاله لكم ابن جوّاش - كبير من كبرائهم كان عالمًا بالتوراة مات قبل البعثة - حين قدِمَ إليكم؟ قالوا: وما ذاك؟ قال: إنه

يخرج من هذه القرية نبي فإن يخرج وأنا حي فأتّبعه وكونوا أنصارَه وأولياءَه فقد آمنتم بالكتابين كليهما الأول والآخر وأقرؤه مني السلام وأخبروه أني مصدقٌ به. قال كعب: فتعالوا نتّبعه ونُصدّقه. لكنّهم نكصوا على أدبارهم وقالوا لا نفارق حكم التوراة أبدًا ولا نستبدل به غيره. قال فإذا أبيتم هذه فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمدٍ وأصحابه رجالًا مصلتين بالسيوف لم نترك وراءنا ثقلًا حتى يحكم الله بيننا وبين محمد فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا نسلًا نخشى عليه قال فإن أبيتم على هذه فإن الليلة ليلة سبت وإنه عسى أن يكون محمدٌ وأصحابه قد أمنوا فيها فانزلوا لعلّنا نُصيب من محمد وأصحابه غِرّة. قالوا: نُفسد سبتنا ونُحدثُ فيه ما لم يُحدث فيه من كان قبلنا إلا من قد علمت فأصابهم ما لم يخف عليك من المسخ والخسف فقال: ما باتَ رجلٌ منكم منذ ولدته أمه ليلةً من الدهر حازماً. فقال جماعة من هُزَيل ليسوا من بني قريظة: والله إنكم لتعلمون أنه رسول الله وأن صفته عندنا وحدّثنا بها عُلماؤنا وعلماءُ بنو النضير هذا أوّلُهم - وأشاروا إلى حُيي بن أخطب - فهم يعلمون أنه رسول الله.

اشتدّ رسول الله ﷺ في حصار بني قريظة جزاء خيانتهم ونقضهم العهدَ معه في وقت الشدة وكذلك اشتد قبله جبريلُ أمين الوحي ومعه جندٌ من الملائكة ولما ضاق الأمرُ عليهم طلبوا الحوار مع رسول الله ﷺ فلماذا يطلبون الحوار الآن؟ لأنهم ضاقوا بالحصار وأدركوا أنهم فقدوا القدرة على القتال أو المقاومة فطلبوا الحوار وطلبوا من رسول الله ﷺ أن يرسل إليهم أبا لُبابة يستشيرونه في أمرهم وما أعجبَ ما كان من أمرِ أبي لُبابة رضي الله عنه. يقول: لمّا ذهبتُ إليهم قام إليّ الرجال وجهش إليّ النساء والصبية يبكون فقال كعب بن أسد: يا أبا لبابة إنّا قد اخترناك على غيرك وإنّ محمدًا أبى إلّا أن ننزل على حكمه أفترى أن ننزل على حكمه؟ قال أبو لُبابة: نعم. لكنّه أشار بيدهِ إلى نحره - يعني أنه الذبح - في إشارةٍ منه أن يرفضوا شروط الصلح حيث إنها تعني قتلَهُم. يقول أبو لُبابة: فوالله ما برحتُ مكاني حتى أيقنتُ أني قد خنتُ الله ورسوله ﷺ ولحيتي مبتلّة بالدموع والناس منتظرون رجوعي لكني أخذتُ طريقًا أخرى حتى دخلت إلى المسجد فارتبطُ وقلت لا أبرح حتى أموت أو يتوب الله عليّ مما صنعت وعاهدت الله عليّ بأن لا أطأ أرض بني قريظة ولا أُرى في بلد خنت الله تعالى ورسوله فيه وعلِمَ رسول الله ﷺ بما صنعت فقال دعوه حتى يُحدثَ الله تعالى فيه ما شاء. وإلى لقاء آخر نستكمل فيه قصة أبي لُبابة وغزوة بني قريظة إن شاء الله.

من تراث الهلال

حقوق الإنسان فى هذه الأيام

للأستاذ/ عاطف مصطفى

انطلاقًا من دأب مجلة الهلال على متابعة كل جديد يحدث فى عالمنا المعاصر، فقد حرصت على أن تبرز اهتمام العالم - فى ذلك الوقت - بعام حقوق الإنسان، وخصصت مقالاً فى عددها الصادر فى أول ديسمبر ١٩٨٦م الموافق ٢٩ ربيع الأول عام ١٤٠٧ هـ. مقالاً للكاتب المعروف الأستاذ فتحى رضوان بعنوان «حقوق الإنسان فى هذه الأيام»، حيث بدأ افتتاحية مقاله بقوله:

لا أظن أن هناك لفظين يذكران فى هذه الأيام، ويذكران منذ بضع سنوات، كما يذكر لفظا- «حقوق الإنسان»، وقد تردد هذان اللفظان بصفة خاصة، عندما تقرر انعقاد مؤتمر القمة فى «ركيافيك» عاصمة أيسلندا بين عاهلى العالم العملاقين: جورباتشوف وريجان.

فقد أعلن الرئيس الأمريكى أن من موضوعات القمة الأساسية هى حقوق الإنسان ولا أحد يستطيع أن يزعم أن هذه الحقوق التى ستشغل هذين الرئيسين اللذين لم يسبقهما حاكمان على مثالهما من سعة النفوذ والهيمنة على عالم فى مثل غنى العالم السوفييتى وحلفائه وأتباعه والمؤمنين بمبادئه، وعالم الغرب الذى يشمل أغنياء الدول وأعلاها حظا فى التقدم العلمى والآلى، فى كل من أمريكا الشمالية وأوروبا.

ومع ذلك فهذان الزعيمان الغنيان، بل المتخمان بالثروة من مختلف صورها: ثروات مادية، وثروات أدبية، وثروات اكتشفت وثروات فى سبيلها إلى الظهور، ثروات تقى الإنسان وتسعده فى أيام السلام وثروات تسلحه وتعده للحروب والقتال.

هذان الغنيان - على غير عادة الأغنياء - مشغولا البال بحقوق الأغنياء، ريجان يتخذ من الحديث عنها، والتنديد بموقف السوفييت منها، سبيلاً للضغط على السوفييت.

والسوفييت بدورها تتهم أمريكا بالعبث بحقوق الإنسان، وبالاتخاذ منها سبيلاً لمواصلة الحرب الباردة ضد السوفييت، فى حين أن النظام السوفيتي ومنهجه، والمبادئ التى يروج لها هى السبيل الأقوم والمباشر إلى احترام حقوق الإنسان، ورفع القسر والقهر عن البشر.

وبعبارة أخرى يقول السوفييت إن حقوق الإنسان فى أمريكا، مجرد وسيلة لذر الرماد فى العيون، فى حين أن الإنسان يلقى فى ظل النظام الرأسمالى أو فى ظل الرأسمال الحر، من آلام الحرمان والضيق، مالا يعرفه الفرد فى ظل النظام السوفييتى، حيث يجد الجميع قوتًا كافيًا، وتعليمًا لكل طالب علم، وراحة نفس لكل مواطن يعيش على أرضه.

جوهر فلسفة حقوق الإنسان

يقول الأستاذ فتحى رضوان: والخلاصة أن حقوق الإنسان ليست شيئًا معنويًا، يتحدث عنه أحد الفريقين، ويزعم الطرف الثانى أن ما يقدمه للبشرية من حقوق ومزايا، هو جوهر فلسفة حقوق الإنسان، فى حين أن ما يقدمه النظام الغربى لا يعدو إلا قولاً، ومع ذلك فالحديث عن هذه الحقوق يملأ الصحف والمجلات، وتقام له الندوات، وتصدر من أجله القرارات، ويستمر صراع يشغل له أقوام فى الغرب ينتمون للمؤسسات القوية والغنية.

فما الذى رفع مقام حقوق الإنسان إلى هذه الدرجة؟ فى حين أن السنوات التى تلت الثورة الفرنسية أول من تحدث بشكل جماعى وعنيد وصارخ عن حقوق الإنسان فى العهد الحديث، ولم تشغل بهذه الحقوق بالقدر الذى تسمعه الآن، فالآن توجد هيئات ضخمة، تتبنى هذه الحقوق، وتطارد الذين يعتدون عليها، وتندد بهم، وتستثير الناس ضدهم وتنشر صور الذين اعتدى على حقوقهم بزجهم فى السجون، بلا محاكمة، ثم بتعذيبهم فى تلك السجون، وفى أماكن اعتقال وحجز لم يسمع الناس من قبل عنها، ولا عن خصائصها الحديثة، من اتساع ضخم فى مساحتها، ووسائل مختلفة لمنع الهروب، مثل تلك الأسلاك الشائكة والأسلاك المكهربة، والخنادق المليئة بالماء، والحارس الساهر الحامل للأسلحة الخفيفة، كالبنادق والمدافع الرشاشة، إلى جانب المسدسات، مع وجود مصاطب للمدافع الثقيلة وأجهزة الرادار والاستشعار عن بعد زيادة فى الاحتياط ضد محاولات فرار المحتجزين.

فما الذى زاد من الحديث عن حقوق الإنسان، مع هذه الزيادة المفرطة فى العدوان عليها بالكم والكيف، أيكون شعور الإنسان بالإثم لتورطه فى الاعتداء على حقوق أخيه الإنسان، وربما زميله فى الوطن الواحد، أو الدين الواحد، أو المذهب الواحد، فيكفر عن شعوره بفداحة الجرائم التى ارتكبها فى هذه الحقوق، فيقوم بأفعال وينشئ منظمات، ويصدر مطبوعات تفيض بالحماسة لهذه الحقوق المنتهكة، وبالتنديد العنيف، بالمعتدين عليها والمنتهكين لحرماتها، أم أن هذا الانفعال الضخم بحقوق الإنسان وبوجوب الدفاع عنها، وبالتظاهر المستمر بالسعى لحمايتها، هو رد الفعل الطبيعى، لضخامة الهجوم على هذه الحقوق، ودوسها بالأحذية والمدافع، ورجمها بالصواريخ والقنابل.. ولنبدأ القصة من أولها:

الإسلام وحقوق الإنسان

بدأت الدعوة لحقوق الإنسان ببدء الدعوة إلى الحقوق الإنسانية، ببدء عهد الديانات السماوية، فالأديان السماوية وإن لم تذكر هذا التعبير فإنها وضعت أساس الإخاء الإنسانى، وتحدثت عن الإنسان بتجريم المساس به، وباحترام جسمه ونفسه، ولكن لم تفرد بابًا مستقلا فى أى كتاب مقدس عن هذه الحقوق، ولم تورد نصوصًا خاصة بغرض تقديسها، ولعن من يمسها أو ينتهكها.

وبقى الحال على هذا الوضع، حتى جاء الدين الإسلامى، فأصبح له موقف خاص بحقوق الإنسان، جعله أكبر دعوة للمحافظة على حقوق الإنسان، وتقديسها، وتحريم العدوان عليها أو المساس بها إلا أن البداية النظرية الحديثة للدفاع عن حقوق الإنسان كانت مبادئ ثورة سنة ١٧٨٩ م فى باريس.

فقد أعلنت تلك الثورة الشعار الذى بقى إلى اليوم مصدرا للوحى العالمى إلى احترام حقوق الإنسان، والدفاع عنها، وتبشير كل من يستهين بها، أو يعتدى عليها بأقصى العقوبات.

فقد بدأت هذه الثورة بالشعار المثلث، الحرية والمساواة والإخاء، وجعلت هذه الثورة الحرية والمساواة مترادفين، ومع ذلك فقد

لوحظ أن ثمة تناقضًا بين الحرية والمساواة، من حيث كونهما مبدأين عامين، فالحرية هى إطلاق إرادة ورغبات الإنسان الفرد من كل قيد، وفعل كل ما يخطر على باله، أو الجهر بما يوحى إليه، ولا شك فى أن هذه الحرية تتضمن فى ذاتها مساسًا بحرية الآخرين بما يتعارض مع المساواة.

والمساواة هى أن يكون حق كل فرد، مماثلا لحق الأفراد الآخرين فى القول والفعل، وهذا معناه استحالة المساواة، وبالتالى استحالة الحرية، فنحن لسنا متساوين فى القوة البدنية، ولا فى الطاقات الذهنية، فبعضنا أسرع من الآخرين، فإذا صح له أن يعدو بالقدر الذى يرضيه، لم يلحق به أكثر الآخرين، وبذلك تتوقف المساواة ومعها الحرية، فالأكثر سرعة يتصدرون صفوف المتسابقين، وسيتركون وراءهم فى ذيل الموكب من كانت طاقتهم فى العدو محدودة، فإذا قيدنا سرعة السريع بالحد الذى يطيقه البطىء أو الأبطأ زادت الحرية ومعها المساواة كما قلنا.

يضيف الكاتب فتحى رضوان قائلا: ولذلك كان لابد من أن يصدر قانون منظم لحدود الحرية والمساواة.

وعند البدء فى وضع القانون أسدلنا الستار على هذا الشعار بشقيه واستبدلنا به الحرية المنظمة قانونا والمساواة المقننة بالنظام.

الإرهاب حقيقة واقعة

ولقد نشأ من الصراع بين تطرف واعتدال المؤمنين بهذا الشعار بمصراعيه، نشأت دواع للضعف والإرهاب.

فقوم أرادوا المثل الأعلى ولو نظريًا، وآخرون طلبوه فى حدود القيود البشرية، فبدأت النكسة، وأصبح الإرهاب حقيقة واقعة.

فخصوم المثالية رأوا أنهم لن يدافعوا عن مثلهم الأعلى، وهى الحرية الممكنة، والمساواة العملية، ولابد أن يلجئوا فيها إلى السلاح، ولجأ إلى السلاح فى الوقت نفسه خصوم السلاح أيضا فغرقت الإنسانية فى بحور من الدم، وساد الإرهاب، فتأجلت الحرية كما تأجلت المساواة، وكان لابد من أن تقوم ثورات بعد ثورة سنة ١٧٨٩ م وبعد ١٤ يوليو من تلك السنة، عندما فُتح سجن الباستيل وأطلق سراح المعتقلين وظن الثوار وهم يفعلون ذلك أنه لن تقوم معتقلات بعد اليوم، وأنه لن توجد صعوبة فى تحقيق الشعار كاملا مع خلوص النية، والقضاء على دعاة الاعتدال.

وفى ظل هذا الفوران، نشأت نظرية من باطن فكرة الحرية، وإن بدت لبعض الوقت أنها إجهاض لسقف الحرية، تلك فكرة الدولة، فقد رؤى أن ما يطمح إليه الإنسان بعد أن تقرر مبدأ الحرية هو عبث ضخم، وتحقيقه فوق طاقة البشر «الإنسان» الفرد، فلابد من إنشاء كيان جديد يمتاز بقدرات لم يتمتع بها الإنسان من قبل، ذلك هو كيان الدولة الذى ابتكره الإنسان، وبدا أنه مخلوق خارق القوة، وأنه قادر على أن يحقق للأفراد من ضروب السعادة والثروة والحماية، داخل الوطن وبين الأوطان، ما لا سبيل إلى الظفر به بغير الدولة.

ولما نشأت الدولة، وراحت تنتج وتؤسس، وتبنى وتشرِّع، ظهر أنها حققت للمواطنين داخلها وللناس على المستوى العالمى، فرصا للتقدم العظيم، ما لم يكن ممكنا توافره بغير هذا الكائن الجديد، وقيل للناس لا تراعوا من هذا الكائن، وكل ما تفعله الدولة، ويبدو كأنه من تصرفاتها، ورغباتها الخاصة بها، هو فى واقع الأمر ثمرة رغبة المواطنين وإرادتهم، فالفتوحات السياسية والعسكرية، وإنشاء المعاهد والجامعات، وشق الطرق والميادين، ورصد الملايين من الأموال للبحوث العلمية، التى تعين على الوصول إلى الكواكب، والخوض فى أعماق المحيطات، وهى فى الواقع فتوحات لحساب الفرد، الذى أصبح أكثر غنى، وأعظم نفوذًا وأعظم حظًا من لذائذ الفن والعلم.

فالإنسان الخاضع للدولة البروسية بقيادة «بسمارك» رأى نفسه أقوى من المواطنين فى أوروبا، وأكثرهم علمًا، وأقدرهم على تحقيق النصر فى الحرب، بفضل الدولة البروسية الواسعة الحدود، والكثيرة الجنود، فازدادوا بها إيمانًا وحولها التفافا، ولم تلبث هذه الدولة أن أصبحت خطرًا على المواطنين فى الدول الأخرى، فدخلوا فى تنافس لتكون بريطانيا أعظم من ألمانيا، ولتكون فرنسا أقوى من الإثنين.

وقد حدث شىء مناقض لتضخم الدولة، واتساع نفوذها وطاقاتها، أن إمبراطوريات العهد القديم توارت وانهارت تباعًا، انهارت فى الحرب الأولى أضخم إمبراطوريات عرفها التاريخ، الإمبراطورية العثمانية التى حكمت أكثر من نصف أوروبا، ومناطق شاسعة فى آسيا وشاطىء البحر الأبيض الجنوبى وكل البحر الأحمر.

وزالت دولة النمسا والمجر، أطول الإمبراطوريات عمرًا، وإمبراطورية روسيا الصقلبية أو الصربية التى وصلت من شرق أوروبا إلى شرق آسيا، كما زالت إمبراطورية الإمبراطور غليوم أقوى دول أوربا الوسطى.

وفى الحرب العالمية الثانية أخفقت إمبراطورية الأنجلوسكسون وعاصمتها لندن واليابان وعاصمتها طوكيو، فأصبح الفرد مسلحا بمبدأ الحرية والمساواة والإخاء، الذى نجح فى إسقاط النظام القديم كله، وينشأ على أنقاضه نظام الفرد فى صورة أخرى للفرد الذى لا يحكم الشعب، بل الفرد الذى يصوغ القرارات الكبرى، عن طريق تصويت يتساوى فيه الفقراء بالأغنياء والمثقفون بالجهال، والعاملون بالعاطلين.

ولما أحس العمال فى ظل الدولة الضخمة، أن هذه الدول لا تشركهم فى رأى، ولا تسألهم عن شىء انقلبوا ضدها، وأصبحت الدولة الضخمة، إما دولة شعوب وإما دولة عمال.

ونشأت فكرة جديدة من التسابق على الظفر بتأييد العمال للتحدث باسمهم فعلا، وعندما يكتشف العمال زيف هذا الإدعاء ينقلبون خصوما للدولة، فلا ترى سبيلا لوقفهم عند حد إلا بالحديد والنار.

الملك غير المتوج

يختتم الكاتب الكبير فتحى رضوان قائلا: من هنا أصبح الحديث عن حقوق الإنسان هو مزاج العصر.

فالإنسان الآن هو الملك غير المتوج؛ لأنه صاحب الصوت الذى يحكم الحكومات ويسقطها، فإذا لم تظفر الحكومة بتأييد هذا الإنسان فلابد من استعمالها لأقصى العنف، مع ادعاء أنها حكومة الشعب، أو حكومة العمال، والإرهاب مستمر.

وهذا هو سر التناقض فى كثرة الحديث عن الإنسان وعن حقوقه وكثرة ما يصيب الإنسان من الضرب والسحق والشنق والحرق.

وهى مشكلة لا يمكن أن تستمر، ولابد أن تنتهى قريبا إلى الوضع الذى يتفق فعلا مع كرامة الإنسان واحترامه.

تقييم برامج الإصلاح ورؤى المستقبل احتفالية اليوم العالمى للغة العربية

متابعة الأستاذين: رمضان ناصف، أبو السعود محمد

تحت رعاية فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر وبرئاسة أ.د. جعفر عبد السلام أمين عام رابطة الجامعات الإسلامية وأ. د. جابر نصار رئيس جامعة القاهرة وبالتعاون مع لجنة العلاقات الدولية باتحاد كتاب مصر ومركز اللغة العربية بالجامعة أقامت رابطة الجامعات الإسلامية احتفالية اليوم العالمى للغة العربية تحت عنوان: (تقييم برامج الإصلاح ورؤى المستقبل) وذلك بمركز اللغة والثقافة العربية بالجامعة فى الثامن عشر من ديسمبر ٢٠١٣ م الموافق الخامس عشر من صفر ١٤٣٥ هـ.

استهلت الجلسة الافتتاحية – وسط حضور عدد من كبار علماء وأساتذة اللغة العربية والمسئولين والدارسين للغة العربية من غير الناطقين بها- بكلمة أ. د. خيرى دومة رئيس مركز اللغة العربية الذى رحب بالسادة الحضور قائلا: "أهلا بكم فى مركز جامعة القاهرة للغة والثقافة العربية ويسعدنا الاحتفال باليوم العالمى للغة العربية يوم ١٨ ديسمبر من كل عام وهو مناسبة الاعتراف باللغة العربية كلغة سادسة فى الأمم المتحدة وليس الهدف اليوم إقامة ندوة علمية أكاديمية بقدر ما هو احتفالية لنتذكر فضل اللغة العربية علينا وواجباتنا نحوها ونقيم برامج إصلاح ورؤى مستقبل اللغة العربية فى مقابلة اللغات الأخري".

ثم تحدث أ. د. جعفر عبد السلام أمين عام رابطة الجامعات الإسلامية حول فضل اللغة العربية ومدى استعداد الرابطة لتشجيع الأنشطة الهادفة إلى نشر وإحياء اللغة العربية وإيصالها إلى مختلف الفئات واللغات فقال بعد حمد الله والصلاة والسلام على رسول الله: "يسعد الرابطة إقامة هذا الاحتفال وأنا لن أشارككم النقد لكنى سأشارككم التقييم وربما أقول إن اللغة العربية هى التى علمتنى القرآن الكريم الذى أتعبد به لربى وهى التى علمتنى الشعر والأدب والبلاغة والنحو وهى وعاء الحضارة العربية والإسلامية لغة باسلة قوية ومن ثم وجب على أن أعلن أن الرابطة مستعدة لتمويل أى مشاريع أو أنشطة أو جوائز لإحياء اللغة العربية سواء كان ذلك بتخصيص جائزة لأحسن كتاب فى النحو أو الأدب أو القصة وما إلى ذلك مما ينصر اللغة ويحفز ويستحث الجهات والهيئات والمؤسسات ذات الصلة بذلك لكى تبذل قصارى جهودها لخدمة اللغة العربية فى كافة المناحي وبكل الطرق والوسائل الممكنة.

وتحدث أ.د. معتز السيد عبد الله عميد كلية الآداب جامعة القاهرة نيابة عن رئيس الجامعة أ. د. جابر نصار فقال بعد الترحيب بالحضور: "لا تستحق اللغة العربية أن تفود الأمة العربية فحسب ولكنها تستحق أن تقود العالم أجمع والنقد الداخلى للغة العربية قد يكون بنّاءً وسأتناوله من محورين محور داخلى ومحور خارجى فالمحور الداخلى يتمثل فى واقع تدريس اللغة العربية فى الجامعات المصرية وكيفية التعامل معها وممارستها من قبل أهلها سواء الذين يَدْرسون اللغة العربية أو الذين يُدَرِّسونها أو الذين يتحدثون بها فى وسائل الإعلام أو فى الأدب والقصة والشعر وهل هم حريصون على الارتقاء بها أم يفضلون العامية على الفصحى؟ وأمّا المحور الخارجى فيتمثل فى مدى حرص العرب على نشر لغتهم فى الجامعات الأجنبية، وكم مسئول عربى أسهم فى ذلك بتخصيص كرسى لتدريس اللغة العربية فى هذه الجامعات؟.

وفى ختام الجلسة الافتتاحية جاءت كلمة أ. د. صابر عبد الدايم مقرر لجنة العلاقات الدولية باتحاد كتاب مصر والتى تناولت عرضا موجزا وتقييما جامعا لدور العلاقات الدولية بالاتحاد وإسهامهما فى تبنى قضايا اللغة العربية وذلك من خلال بحث عنوانه: (تقييم دور اتحاد كتاب مصر ولجنة العلاقات الدولية بالاتحاد فى تبنى قضايا اللغة العربية تأصيلا وإبداعا) قال فيه: "يقول الله تعالى فى كتابه العزيز:

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾

(الروم: ٢٢)

فتعدد الألسنة والألوان آية من آيات الله لا يعقلها إلا العالمون باللغة وأهل الاختصاص ويواجه مستقبل اللغة العربية تحديات عدة منها الدعوة إلى التحدث بالعامية وإحلالها محل اللغة الفصحى، والدعوة لهدم النحو العربى وأصوله فى المناهج الدراسية، فهل يُعقل أن يُساء إلى اللغة العربية بمثل هذه المحاولات الفاشلة أم أن اللغة العربية تعجز مفرداتها عن التعبير عن مستجدات العصر وعلومه وكيف تعجز وقد قال حافظ إبراهيم على لسان اللغة العربية:

وسعتُ كتابَ الله لفظًا وغاية
وما ضقت عن آى به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة
وتنسيق أسماء لمخترعات
أنا البحر فى أحشائه الدر كامن
فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتي

هذا وقد استعرضت الجلسة الأولى ثمانية أبحاث تمثل قراءات نقدية موضوعية فى برامج إصلاح اللغة العربية وكان فى مقدمتها بحث الأستاذ الدكتور عبد الله التطاوى مقرر لجنة النهوض باللغة العربية ونائب رئيس جامعة القاهرة الأسبق بعنوان: (تقييم جهود جامعة القاهرة ودورها التاريخى والمرحلى فى برامج الإصلاح اللغوى وبرامج تعليم

العربية) والذى قال فيه : " حين تحرص جامعة القاهرة على تقديم كشف حسابها فمن حقها أن تشير إلى أنها قدمت كبار علمائها ومفكريها وباحثيها لمجمع اللغة العربية بين عضوية ورئاسة منذ تولى هذه الأعباء عميد الأدب العربي ومن سار على دربه من أبناء الجامعة على منهجية إبراهيم مدكور وشوقى ضيف ومحمود حافظ وصولا إلى كمال بشر وحسن الشافعى ومع كل رحلة عطاء نخبة من أبناء الجامعة فى التخصصات العلمية المختلفة لتقديم خبرتهم فى شتى مناحى العلم وساحات المعرفة" .

واستعرض سيادته جهود الجامعة فى خدمة اللغة العربية من خلال إقامة الندوات والمؤتمرات والحلقات النقاشية والموائد المستديرة ونشر الإصدارات والشهادات الاستشرافية لخصوصية اللغة العربية وتميزها التاريخى وفى ختام كلمته أكد على دور جامعة القاهرة فى إعداد الوثيقة القومية لمناهج اللغة العربية بوزارة التربية والتعليم لعام ٢٠٠٦م ومعمل اللغة العربية الملحق بالوثيقة والتعديلات اللاحقة وأهمية هذه الوثيقة والتى تنبع من كونها وثيقة عصرية موحدة تتضمن معايير تأليف المناهج ، وتحدد مؤشرات إعدادها ، مع الإفادة من إخراج كتب اللغات الأجنبية ، وشمولية فروع اللغة العربية من نحو وصرف وبلاغة ونصوص ، ودقة انتقاء مضامين النصوص الشعرية والنثرية بما يرسّخ منظومة القيم النبيلة فى نفوس الناشئة ، وذلك كله اتساقا مع مهارات الأجيال الجديدة فى التعامل مع الحاسب الآلى والشبكة العنكبوتية وأنهى كلمته ولسان حاله يتساءل - بعد هذه الجهود - : هل أخذت بذلك وزارات التعليم فى مصر أو العالم العربي ، هل اطلعَ على الوثيقة القائمون على إعداد الوثائق القومية المعاصرة وأفادوا منها ؟

وظل التساؤل عالقا حتى جاءت كلمة الدكتور أحمد سعيد شلبى مستشار اللغة العربية بوزارة التربية والتعليم من خلال بحث قيّم بعنوان : (تقييم دور وزارة التربية والتعليم فى تطوير الوثيقة القومية لمناهج اللغة العربية ومستوى تفعيل مشروع معمل اللغة العربية وتوظيف التكنولوجيا فى تعليم العربية وتعلمها) ، استعرض فيه دور وزارة التربية والتعليم فى تطوير الوثيقة القومية لمناهج اللغة العربية المشار إليها فى التساؤل ، والمشاكل التى تواجهها الوزارة فى تطبيق ذلك على أرض الواقع ، وسبل معالجتها وكيف أن الوزارة تحرص على أن تخرج المقررات الدراسية الخاصة باللغة العربية فى مراحل التعليم المختلفة فى أبهى صورة وبأقل أخطاء طباعية ممكنة مقارنة بمثيلاتها فى السابق ، وأنها بدأت بالفعل فى تطبيق التوصيات وبشّر الحضور بالتطور الذى ستشهده المناهج والمقررات الدراسية خلال الفترة المقبلة ، وأنها ستنافس المقررات الأجنبية .

وقال المستشار الإعلامى لرابطة الجامعات الإسلامية الأستاذ فتحى المُلا : (حددت الأمم المتحدة يوما عالميا من كل عام للاحتفال باللغة ؛ فكان يوم ٢٠ مارس للغة الفرنسية ، و٢٣ أبريل للغة الإنجليزية ، و٦ يونيو للغة الروسية ، و١٢ أكتوبر للغة

الأسبانية ، و٢٠ أبريل للغة الصينية ، و١٨ ديسمبر هو اليوم العالمى للاحتفال باللغة العربية ، وبهذه المناسبة يطيب لى أن أعرض بحثى المقدم للندوة بعنوان : (تقييم جهود مجمع اللغة العربية فى رصد الحالة اللغوية ودراستها) . واستعرض فيه جهود المجمع فى رصد الحالة اللغوية ودراستها وأوجه القصور والسلبيات وسبل معالجتها ، فيما دعا الأستاذ عاطف مصطفى مستشار الرابطة إلى تفعيل دور الجمعيات الأهلية الخاصة باللغة العربية كجمعية لسان العرب وجمعية تعريب العلوم وجمعية حماة اللغة العربية وكذا إنشاء مجلس أعلى للتنسيق بين هذه الجمعيات وتحديد دور ومهمة كل منها ، وذلك فى بحثه المعنون بـ : (تقييم دور الجمعيات الأهلية فى تشخيص قضايا اللغة وتحديات العولمة الثقافية والحلول المقترحة) .

واختتمت فعاليات الاحتفالية بمائدة مستديرة مغلقة ناقشت رؤى المستقبل حول المشروعات العلمية والعملية القابلة للتطبيق لإنقاذ اللغة العربية والنهوض بها بما فى ذلك استراتيجية تدريس وتعليم اللغة العربية للناطقين بها وللأقليات ، وكذا للمعلمين والإعلاميين والأجهزة الإدارية فى الدولة ، واستراتيجية تدريسها كلغة وظيفية فى الجامعات العربية والإسلامية ، وصولاً إلى استراتيجية لجنة النهوض باللغة العربية فى تطوير مناهج تعليم العربية وتعلمها على مستوى الجامعات الأعضاء بالرابطة . وفيما يلى توصيات الندوة .

أولاً : إنشاء مجلس أعلى للغة العربية للتنسيق بين الجهات المختصة ورصد الواقع اللغوى وحل مشاكله .

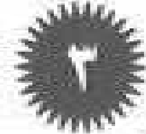
ثانيًا : تشكيل لجنة لتفعيل الوثيقة القومية لمناهج اللغة العربية التى أعدتها جامعة القاهرة لعام ٢٠٠٦م ملحقا بها مشروع معمل اللغة العربية .

ثالثًا : إنشاء قناة إعلامية للغة العربية تعد برامجها باللغة الفصحى الميسرة وتقدم فيها نماذج من التراث العربى والبطولات والأخلاقيات عبر نصوص مشرقة تكفى لهذه الإضاءات مع فواصل شعرية وقصائد مغناة وأعمال درامية تاريخية فصيحة وبرامج كرتونية لتعليم الأطفال وتقريب الفصحى من نفوسهم .

رابعًا : تعميم مشرع متطلب الجامعة ومتطلب الكلية فى اللغة العربية عبر مادة قرائية باللغة العربية حول تاريخ العلم المتخصص مع امتداد هذا المشروع إلى الدراسات العليا بضرورة اجتياز اختبارات لغوية ومهارية كافية باللغة العربية وذلك فى كل الجامعات المصرية الحكومية والأهلية والخاصة ، واعتماد شهادة الكفاءة اللغوية من خلال التنسيق بين الرابطة وهذه الجامعات والجهات المعنية .

خامسًا : عقد مؤتمر دولى سنوى لمناقشة مشاكل اللغة العربية والحلول المقترحة وذلك فى الاحتفال باليوم العالمى للغة العربية . ولمزيد من المشروعات القابلة للتنفيذ يمكن مراجعة كتاب : (الصحة اللغوية فى المكاتبات الجامعية) تأليف د . عبد الله التطاوى وهو كتاب يوزع بالمجان بجامعة القاهرة ، وتم توزيع طبعة خاصة منه بمناسبة الاحتفالية .

بين حروب نابليون وحروب الفتوحات العربية الإسلامية الأولى





أ. منير شفيق
المفكر الإسلامي والباحث الاستراتيجي

التكتيك الكبير GRAND TACTICS

قلنا إن تقسيم الجيش إلى فرق فتح إمكانات واسعة أمام نابليون لتطوير فن الحرب من حيث العمليات الاستراتيجية والمعركة التكتيكية. فقد أصبح بمقدوره امتلاك زمام المبادرة في التحرك على خطوط متعددة، بحيث ينسحب من المعركة إذا شاء بينما يكون قادرًا على فرض معركة على العدو من دون أن يترك له مجالاً للانسحاب.

كان العرب المسلمون كما قلنا قد قسموا جيوشهم إلى فرق وطوروا فن الحرب من حيث العمليات الاستراتيجية والمعركة التكتيكية، فعلى سبيل المثال ركزوا قواتهم في اليرموك وجنوبي درعا عندما واجهوا تركيز البيزنطيين بين جبل حوران واليرموك والجولان - في سهل درعا .. وكان ذلك الموقع الاستراتيجي يشكل مفتاح بلاد الشام كما تتركز فيه القوات العسكرية للعدو.

وهنا أمر الخليفة أبو بكر خالد بن الوليد بالتحرك بجيشه الذي كان يعمل مع جيش المثنى بن حارثة في جبهة العراق لمساندة جيش المسلمين في اليرموك، فقام خالد بن الوليد بعملية التفاف عبقرية حول جيش العدو وضرب طريق مواصلاته مع دمشق .. وتم له الاتصال مع القوات المتمركزة جنوبي درعا.

وعندما حاول هرقل التحرك بجيش كبير جنده خصيصًا لمساندة قواته في درعا. قرر تجاوز تلك المنطقة عن طريق شمالي فلسطين والتوجه لضرب قوات عمرو بن العاص أولاً في جنوب فلسطين ومن ثم يكون بمقدوره محاصرة قوات العرب في اليرموك من الجنوب .. ولكن سرعان ما قررت قوات اليرموك اللحاق به، والقيام بعملية التفاف مضاد ودعم قوات عمرو بن العاص فشقت طريقها عبر شرقي الأردن - عمان فالكرك إلى جنوبي البحر الميت ومن هناك إلى وادي

عربة وبئر السبع حيث جيش عمرو بن العاص .. وكانت حركتهم أسرع بكثير من حركة قوات هرقل رغم أن الطريق التي قطعوها، خاصة، جبال مؤاب الصعبة، أشد وعورة وأطول مسافة. ولكنهم سبقوه. وتم اللقاء في معركة أجنادين التي أطبقوا عليه فيها وأنزلوا الهزيمة بقواته ثم استداروا بسرعة للعودة إلى اليرموك بقواتهم المركزة.

إن الذي راجع حملة نابليون على بيدمونت وشمالي إيطالي يلاحظ شدة الشبه بين تقسيم قواته وعملياته الاستراتيجية وبين تقسيم القوات العربية وعملياتها الاستراتيجية في بر الشام.

كان نابليون قد قسم جيشه إلى ثلاث فرق بقيادة كل من ماسينا MESSENA وأوغريو AUGEREAU وسيروير SERUIER وكان على ماسينا أن يقطع ممر كاديبونا CADIBONA ويتمركز في مونتينوتي وديغو MONTENOTTE AND DEGO لعزل النمساويين بينما يتقدم أوغريو من الغرب وسيروير من الجنوب وبهذا يشن الهجوم على سيفا CEVA التي هي مفتاح بيدمونت.

ولكن اكتشف نابليون أن الحركة التهديدية التي قامت بها الحكومة الفرنسية ضد جنوة لإجبارها على تقديم قرض قد تستدرج القوات النمساوية .. فأمر بتعزيز قوات فولتري VOLTRI مما أزعج النمساويين وجعلهم يطالبون قائدهم بوليو BEAULIEU التحرك لحماية جنوده. فوقع بالفخ وأرسل قواته المتحركة.

وهنا قرر نابليون تغيير خطته فبدلاً من مهاجمة سيفا CEVA تحرك لضرب بوليو أولاً .. وكانت معركة مونتينوتي MONTENOTTE التي قررت مصير الحملة .. ومنها انتقل للإجهاز على القوات النمساوية .. ثم بعد أن تم له ذلك توجه لمحاصرة سيفا CEVA على أن يهاجم أوغريو مواجهة بينما يلتف ماسينا على الميمنة ويلتف سيروير على الميسرة .. ولكن كولي COLLI قائد البيدمونتيين تراجع قليلاً ليتحصن في موقع قوي على نهير كورساغليا CORSAGLIA بين سان ميشيل وليزينغو LESENGO .. وأخيرًا اقتحمه نابليون هناك وفتحت أمامه سهول بيدمونت.

الشيء الغريب الذي حدث في معركة اليرموك الأولى أن العرب حين راحوا يركزون في جنوبي درعا وقد أمر الخليفة جيش خالد بن الوليد بالتحرك من العراق لتعزيز القوات هناك، ظلت قوات عمرو بن العاص تعمل في جنوبي فلسطين ولم تتحرك للانضمام إلى القوات العربية الإسلامية الأخرى في اليرموك. وإذا أضفنا إلى هذه الواقعة عدم محاولة اقتحام دفاع البيزنطيين وإنما القيام بعمليات مناوشة، فمن المشروع أن نستنتج أن القيادة تركت قوات عمرو بن العاص كطعم ينتظر هرقل للتحرك باتجاهه، ما دام يهدد مواقع البيزنطيين الهامة في فلسطين، وإلا فما معنى إبقاء عمرو بن العاص هناك بالوقت الذي يحث فيه خالد بن الوليد للتحرك بأسرع ما يمكن لتعزيز قوات اليرموك؟ وما معنى عدم محاولة اقتحام دفاع البيزنطيين؟ ثم لماذا لم يطلب من عمرو بن

العاص الانسحاب من فلسطين أمام تهديد زحف هرقل بدل أن تنتقل القوات المركزة فى اليرموك إلى فلسطين؟ إن كل هذه التساؤلات تفرض علينا الاستنتاج أن خطة العمليات الاستراتيجية كانت تستهدف استدراج قوات هرقل، وضربها فى فلسطين قبل اقتحام قوات هرقل المتمركزة فى سهل درعا.

وإذا صح هذا الاستنتاج فلن يكون الشبه كاملاً فحسب، وإنما أيضًا تكون العقلية الاستراتيجية العربية فى تلك الحملة أرقى من الطراز النابليونى.

ولكن حتى لو اعتبر هذا الاستنتاج ضعيفًا بسبب عدم وجود دليل مكتوب عليه، فإن تغيير خطة التركيز من اليرموك والتحرك السريع إلى ملاقاة جيش هرقل فى فلسطين يعتبر عملية استراتيجية من أعلى مستوى تمامًا كتغيير تركيز نابليون على ممر سيفا CEVA والتحرك إلى جنوة لضرب الجيش المتحرك.

الأمر المدهش هنا أن مركز الخلافة بنواته الخليفة والصحابة رضى الله عنهم شكلوا القيادة الاستراتيجية التى تقود الحرب بمجموعها فيما كان قادة الجيوش يقودون العمليات (التكتيك الكبير) والمعركة الميدانية.. وقد تخطى هذا قيادة نابليون ليقارن بقيادة الجيوش فى الحربين العالميتين الأولى والثانية.

الجمع بين تشكيلة الرتل والمناوشة

كانت تشكيلة الفلانكس PHALANX المكدونية فى القتال تأخذ شكل خطين متوازيين وهذه تشكيلة تؤمن جبهة واسعة، ولكن ضعفها يتركز فى خلوها من الاحتياط إلى جانب ضعف مناورتها فما أن يشتبك الخطان LINES حتى يصبح أى تحرك غير ممكن عدا المضى فى الصدام حتى النهاية.

كما لها ضعف آخر وهو ارتباطها بالأرض المنبسطة إذ تتبع قوتها من تماسك كتلتها لذلك كان دخولها إلى أرض ضيقة أو متعجرة أو وعرة أو جبلية يضعف تماسكها وقوتها.

اكتشف الرومان نقاط ضعف الفلانكس اليونانى، فاستبدلوه بتشكيلة الليجون LEGION وهو عبارة عن تشكيلة خط الفلانكس، ولكن مع قسمة الخط إلى خطين بينهما ٢٥٠ قدمًا وهما للصدام المباشر بينما ترك وراءهما خط ثالث كتعزيز أو دعم أو احتياط، أى أن الرومان جعلوا تشكيلة الليجون من ثلاثة خطوط LINES وقد اكتسب الليجون من هذا التقسيم عمقًا، وبالتالى أصبحت الكتلة الكبيرة أقوى على الحركة والمناورة.

وعندما اصطدمت تشكيلة الفلانكس اليونانية بتشكيلة الليجون الرومانية فى معركة بيدنا PYDNA (١٦٨ ق.م) استغل الرومان ضعف الفلانكس فجروه إلى أرض غير منبسطة فانفصل جناحاه فى حين اندفع الرومان على شكل رأس سهم فشقوا تماسكه.. وأصبح غير قادر على الحركة فى حين راح الرومان يستخدمون الاحتياط. وبهذا أنزلوا به الهزيمة.

أفاد البيزنطيون من معركة أدريانوبل ADRIANOPLE (٣٧٨ م) وأصبح سلاح الفرسان يشكل قوة الصدمة الأولى التى تستطيع شق الليجونات بينما راح الفرس

يستخدمون سلاح الفيلة لعمليات اختراق الصفوف وتمزيقها، وكانت تشكيلتهم تتألف من ثلاثة خطوط كالليجون.

أدى استخدام الأسلحة النارية حتى عهد نابليون إلى سيادة تشكيلة الخطوط LINES من جديد، لتأمين جبهة أمامية كثيفة فى نيرانها وواسعة جدًا.

وجاءت الثورة الفرنسية بجماهيرها الغفيرة لتبدع تشكيلة الرتل (COLUMN) الذى لم يفرط باتساع الجبهة الأمامية التى تؤمنها تشكيلة الخط فى حين أمن أيضًا العمق الذى برزت أهميته فى معركتى ريفولى RIVOLI ومارينغو MARINGO وبهذا تميز على تشكيلة الخط التى تخلو من العمق كما تميز عليها بسهولة قيادته وسهولة حركته وسرعته ومقدرته على التأقلم مع الأرض.

وقد أبدع نابليون باستخدام كتائب القناصة لحماية أطراف الرتل ودعم نيرانه بنيران المناوشة. إن الشىء الأساسى هنا هو الجمع المرن بين تشكيلة الرتل وبين أسلوب المناوشة فى القتال الذى طورته تجربة حرب الاستقلال الأمريكية.

لقد كان لتشكيلة الرتل أهمية استراتيجية إذ أتاحت إمكانات لحركة المناورة الواسعة كما زادت من سرعة تحرك الجيش، إلى جانب عدم التقيد بالطرقات الممهدة فى أثناء الزحف، أى امتلكت مرونة التحرك على مختلف أشكال الأرض. كما كان لتشكيلة الرتل أهمية تكتيكية إذ أعطت عمقًا للجبهة دفاعيًا كما زودت الهجوم بزخم شديد، وأكسبت الجيش مرونة وسرعة فى إجراء الحركات التكتيكية.

كانت تشكيلة القتال الأساسية فى حروب القبائل العربية أشبه بزمر المناوشة حيث تنظم القوات عل شكل مجموعات لتمتلك المرونة فى تطبيق تكتيك المناوشة الذى كان يسمى بأسلوب الكر والفر، فقد كانوا إذا رأوا ضعفًا فى العدو كروا عليه ولكن إذا امتد الضعف إلى جبهتهم فروا ثم يعودون فيكرون وهكذا. إنه تكتيك مرن الحركة يمتلك المفاجأة والسرعة فى حالتى الدفاع والهجوم، بلا موقع ثابت. فقد كانت حركتهم على شكل كتل وليس صفوفًا.

وعندما جاء الإسلام كرس الرسول ﷺ تشكيلة الصفوف التى تشبه صفوف الصلاة وهى أرقى من تشكيلة الليجونات بسبب توفيرها للعمق، للدفاع والزخم فى الهجوم.

ولكن عندما انتصر الإسلام وأصبحت جيوشه كتلاً ضخمة من المقاتلين كرس خالد بن الوليد تشكيلة الكراديس، وهى أقرب ما تكون لتشكيلة الرتل وقد بلغ جيش المسلمين فى معركة اليرموك الأولى ٣٦ كردوسًا مقسمة إلى كراديس ميمنة وأخرى ميسرة وأخرى قلب إلى جانب مجموعات المناوشة والطليعة.

وبهذا أصبح الجيش كتلاً من الكتائب التى تجمع بين المرونة والتركيز، وبين اتساع الجبهة وتوفر العمق مع إمكانات كبيرة على المناورة التكتيكية. والأهم الاحتفاظ بالاحتياط (الفرسان) السريع الضارب.

فى الواقع لا توجد تفصيلات دقيقة حول طريقة صف الكراديس، وكيف تنظم فى

الزحف وكيف تأخذ تشكيلة القتال فى المعركة. ولكن يمكن الاستدلال من سرعة تحرك جيوش العرب المسلمين فى أثناء الزحف على أن تشكيلاتها لا يمكن أن تكون إلا شبيهة بتشكيلة الرتل أو أكثر مرونة وسرعة منه. فإذا كانت تشكيلة رتل نابليون ضربت رقمًا قياسيًا فى سرعة الزحف إذ كان معدلها ١٤ ميلاً فى اليوم وعلى أرض صعبة، وهذه سرعة لا يمكن أن تتوفر إلا لتشكيلة الرتل، فإن معدل سرعة جيوش المسلمين فاقت تلك السرعة بضعفين أو ثلاثة على الأقل - مثلاً قطع خالد بن الوليد صحراء حمد بخمسة أيام والمسافة حوالى مائتى ميل - وإذا خصمنا لمصلحة جيوش نابليون عامل ثقل معداتها وذخائرها ومدافعها، فإن نسبة سرعة جيوش العرب المسلمين ستظل بالمستوى نفسه أو أكثر.

ثم إذا حسبنا المسافة التى قطعها هرقل من شمالى فلسطين حتى أجنادين، ثم إذا حسبنا المسافة المقابلة من الرمثا إلى عمان فالكرك فوادى عربة ثم صعودًا إلى أجنادين، فنجد أن سرعة جيوش العرب المسلمين كانت تفوق سرعة جيوش الرومان بما لا يقل عن أربعة أضعاف. ولا يمكن لجيش أن يحقق مثل هذه السرعة وعبر مناطق جبلية (سلسلة جبال مؤاب) إلا على أساس تشكيلة الرتل.

ثم يمكن الاستدلال من مجموعة المعارك التى حملت كتب التاريخ بعض التفصيلات عنها، بأن تشكيلة القتال التى تبناها العرب المسلمون أقرب ما تكون لتشكيلة الرتل، فمثلاً فى معركة البويب ضد جيش كسرى الذى تبنى تشكيلة قريبة من تشكيلة الليجون مقسمة إلى ثلاثة صفوف وقد استخدمت الفيلة كقوة الصدمة الهجومية، وجدنا بعض أجنحة العرب أخذت تترنح بادئ ذى بدء خاصة فرقة بنى عجل.

ولكن سرعان ما حثهم المثنى على الثبات فأعادوا تنظيم تشكيلتهم بسرعة وثبتوا.. وهذه صفة لا يمكن أن تتوفر إلا لصفوف تشكل مربعًا كثيفًا أو رتلاً، خاصة، إذا أخذنا بعين الاعتبار أن تشكلية الليجونات أو الخطوط LINES تحتاج إذا ما تخلخلت، إلى درجة عالية جدًا من التدريب العسكرى لجيش محترف وهى تشكيلة لا تناسب قوات شعبية، ثم إذا تابعنا تلك المعركة التى دارت سجالاً. وقد راح المثنى إلى وقت طويل يراقب المعركة، ومعه جيش من الاحتياط مؤلف من قوات نمير وتغلب المسيحية دون أن يلقى بها إلى المعركة.

وظل كذلك حتى بدأ هجوم جيش الفرس الساسانيين يفقد زخمه. وهنا لاحت اللحظة الحاسمة لشن الهجوم المضاد فشد بقوات الاحتياط تلك إلى وسط الجيش الكسروى فخرقه تمامًا فدبت به الفوضى وفقد تماسكه، فى حين تابع المثنى وقوات الاحتياط خرق الجيش وأسرعوا لسد الجسر فى مؤخرة الجيش المزعزع لمنعه من الانسحاب. وبهذا سُحق وتحقق نصر استراتيجى أصبح المسلمون بعده يطرقون أبواب بغداد والمدائن.

إن علمية الهجوم الذى شنه المثنى وطريقة تنفيذه لا يمكن أن يتم إلا على أساس تشكيلة الرتل فهو تركيز على نقطة يتطلب عمقًا وزخمًا لا يمكن أن يتوفرا لتشكيلة الخط.

على أن الشبه الأكبر يكمن بين تكتيك نابليون فى الجمع بين قتال الرتل إلى قتال المناوشات، وبين تكتيك العرب المسلمين فى الجمع بين قتال الكراديس إلى قتال الكر والفر. وقد اعتبر نابليون مطورًا لأسلوب قتال المناوشات الذى بدأته الثورة الأمريكية بسبب ذلك.

فى الواقع، حدث الشىء نفسه بالنسبة إلى الفتوحات العربية الأولى، إذ كان قتال المناوشات هو الشكل السائد فى القتال بين القبائل العربية قبل الإسلام، وقد وصل درجة عالية من الكمال على يد عرب العراق، خاصة، بعد أن عزل كسرى الملك النعمان عام ٦٠٥م ودخل اللخميون فى صراع طويل الأجل ضد الدولة الساسانية حيث راحوا يشنون قتالا غواريًا ضدها.. يقوم على أساس المناوشة وتجنب معارك المواجهة المكشوفة.

وعندما تكونت الجيوش العربية بعد الإسلام وأصبحت تخوض معارك مواجهة مكشوفة حرصت على الجمع بين القتال النظامى وبين قتال المناوشات، فقد احتفظت بمجموعات مناوشة لتقوم بدور الاستطلاع إلى جانب العمل كطليعة أمام الجيش وقوات متحركة على الأطراف تستخدم السهام فى مناوشة العدو. إلى هنا يكون دورها شبيهًا بدور كتائب المناوشة النابليونية، ولكن القيادة العربية الإسلامية استخدمتها أيضًا لإزعاج العدو وإجباره على دخول معارك تحت ظروف غير ملائمة، كما حدث فى معركة القادسية حيث كان رستم قائد الجيش الفارسى قد قرر عدم عبور النهر وانتظار العرب لعبوره لئلا تتكرر معركة البويب. وكان كل من الطرفين يتجنب جعل النهر وراءه لأنه فى حالة الهزيمة يسحق سحقًا كما حدث أيضًا للمسلمين فى معركة الجسر.. وهذا جعل انتظار القوتين وبينهما النهر يمتد عدة أشهر ولكن المسلمين راحوا يشنون عمليات مناوشة غوارية فى مؤخرة الجيش وراء النهر مما أزعج الوضع الداخلى إلى حد جعل الفرس يضطرون إلى عبور النهر ودخول معركة مواجهة فى وضع غير ملائم.

طبق العرب المسلمون أسلوب المناوشة كعمليات إنهاك تحضيرية للهجوم العام كما حدث فى اليرموك فى معركتيه الأولى والثانية.

وأخيرًا يمكن القول حول وجه الشبه بالنسبة إلى التشكيلة القتالية وبالنسبة إلى تشكيلة الزحف إن كلا من جيوش العرب المسلمين لجأت إلى تقسيم الجيش إلى جسم رئيس تسبقه قوات طليعة وله احتياط فى الأجنحة والمؤخرة. ويبدو من رسالة عبدالحميد كاتب محمد بن مروان، ومن الحوار الذى دار فى صفوف إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم.. أن نقاط ضعف تشكيلة الخط بالمقارنة مع تشكيلة الكراديس كانت واضحة جدًا بالنسبة إلى القادة «لأن الكراديس أثبت فى الحرب. فإذا انهزم كردوس ثبت كردوس، أما الصف فإذا انهزم بعضه تداعى سائره» (١).

«يتبع»

(١) محمد فرج - "المدرسة العسكرية الإسلامية".

مكتبة مجلة الأزهر

إعداد الأستاذ: محمد شعبان

تسعي "الأزهر" عبر هذا الباب إلي التواصل مع القارئ العزيز من خلال تقديم نبذة عن أحدث الإصدارات الجادة في شتى مجالات المعرفة، ذلك للمساهمة في تكوين عقلية واعية وعصرية.



يعد العلامة الراحل الشيخ عبد المتعال الصعيدي أحد رموز التجديد والإحياء الإسلاميين في الفكر المعاصر، ولم تقف جهود الرجل عند آرائه الجريئة في قضايا عصرية أو تراثية، بل طالت ميدان التأليف والإبداع وفي هذا السياق يأتي كتاب "القضايا الكبرى في الإسلام" الذي أعادت نشره أخيرا مكتبة الآداب.

الكتاب يعد تأريخا فكريا للإسلام عبر مناقشة أهم ٦٣ قضية فكرية وفقهية وسياسية في التاريخ الإسلامي كان لها بالغ الأثر علي عالم الإسلام وواقع المسلمين.

بدأ المؤلف بالموقف من أسرى بدر والخلاف الذي نشب تجاههم وانتهى بقضيتي "الإسلام وأصول الحكم" لعلي عبد الرازق و"الشعر الجاهلي" لطه حسين، يقول الصعيدي معلقا علي أزمة كتاب الشيخ علي عبد الرازق: "طبلت جرائد أوروبا وزمرت للكتاب كما طبلت وزمرت من بعده لكتاب "من هنا نبدأ" لأنهما يظهران الإسلام بمظهر العاجز عن وظيفة الحكم وهذا يوقع اليأس في نفوس المسلمين من فائدة السعي في إعادة حكم إسلامي صالح فلا يرون إلا أن يرتموا في أحضان أوروبا".



يتتبع كتاب "ثلاث قصص علمية" الصادر عن مكتبة الأسرة أخيرا مسار علوم البيولوجيا والتطور والوراثة منذ بدء الخليقة وحتى عصرنا الحاضر كما سجلتها مختلف العلوم الطبيعية.

يعد الفصل المخصص للتطور من أبرز وأهم أجزاء الكتاب حيث يحسم مؤلفه د. أحمد شوقي الخلاف حول علاقة التطور بالدين ناقلا عن كتاب "هبة داروين للعلم والدين" قائلا: "إن آيالا -مؤلف الكتاب- من أشهر علماء البيولوجيا التطورية يتميز برؤية قاطعة تؤكد عدم التعارض بين التطور والإيمان. بل يذهب إلى أبعد من ذلك عندما يبين التوافق بينهما لذلك يمكن أن يستفيد من أعماله القارئ الناقد الباحث عن المنطق والحقيقة"، ويهاجم المؤلف المواقف التي تربط الإلحاد بالتطور خاصة موقف البيولوجي الملحد ريتشارد دوكنز



ينطلق د. محمود فوزي المناوي في كتابه "العلم واللغة متي يتكلم العلم العربية" من هاجس ضرورة عودة "العربية" للواقع العلمي حيث يقول في مقدمته "يلح علي دائما أمل عزيز وهو أن تكون لغتنا القومية لغة للعلم كما كانت في عصور زاهية سابقة وكان يتسلط علي خاطر لا يفارقني ويأخذ صيغة سؤال هو: متي يتكلم العلم العربية؟" إلا أن المؤلف لم يقف عند هواجسه وأمانيه بل قدم عرضا تاريخيا موجزا- يمكن الاستفادة منه في تعريب العلوم للعربية عندما كانت لغة للطب منذ العصر الأموي وحتي عام ١٩٠٣م عندما أصبحت الإنجليزية لغة الطب بأمر لورد كرومر معددا أسماء المؤلفات الطبية بالعربية ومؤلفيها

وفي فصل "تعريب التعليم الجامعي والعالي" يقدم الدليل القاطع علي أنه لا نهوض بدون تعريب العلوم قائلا: "ما ساعد اليابان علي أن ترقى بصناعتها في خلال نصف قرن أنها وضعت بين يدي العمال والفنيين أحدث النظريات التطبيقية في الصناعة الامريكية والأوروبية بلغتهم القومية".



"هذا كتاب أخرجت بعضه من غرر نجوم الأرض ونكت أعيان أهل الفضل من بلغاء العصر في النثر وحليت بعضه من نظم أمراء الشعر"، بهذه الكلمات البليغة قدم الثعالبي كتابه "سحر البلاغة وسر البراعة" الصادر عن مكتبة جزيرة الورد بتحقيق سليمان القاطوني

الكتاب أتي مؤلفه فيه بألوان كثيرة من البيان مما قد لا يجتمع في كتاب آخر حيث قام بتبويبه عارضا في كل باب موضوعات، مثل وصف الربيع والشتاء والحسن والأخلاق. تشتمل علي أبلغ وأبدع ما قيل فيها من عبارات وأوصاف لبلغاء وأدباء عصره مما يعين أي كاتب علي تجويد أسلوبه وتقوية كتابته وتجميلها بمأثور الكلام وبليغه، مما قاله الكتاب في موضوع "ذم الكاتب": "الحرس أحسن من كلامه والعي أبلغ من بيانه، خاطره ينبو وقلمه يكبو ويسهو ويغلط ويخطئ ويسقط".



"كثير من الناس من يتوهم أن الرياضيات لا تبوح بأسرارها إلا لأهلها وهذا غير صحيح.. فبعض الهواة ممن لم يتوسعوا أو يتبحروا في دراسة العلوم الرياضية حلوا مسائل كانت مطروحة تلقاء المحترفين ولم يحلوها" هكذا لخص د. محمد عبد العظيم سعود فكرة كتابه "الرياضيات في حياتنا" الصادر عن مكتبة الآداب.

الكتاب يقدم بشكل مبسط روائع الخلفيات الرياضية لكثير من الظواهر الحياتية العادية التي تقف وراءها نظريات رياضية متخصصة كما يقدم الكتاب أمثلة عديدة تمكن القارئ من استخدام هذه النظريات في حل ما يواجهه من صعوبات في اختيارات أو توزيعات تحتاج إلي فكر رياضي مركب. أهمية الكتاب تكمن في قدرة المؤلف علي جعل النظريات الرياضية المعقدة في متناول الشخص العادى.

قراءة فى كتاب

إن الاهتمام بمشكلات الشباب هو الأسلوب الأمثل للنهوض بالمجتمع، ففيه خروج من كثير من مشكلات الحاضر كما فيه تحقيق لطموحات أبناء ذلك المجتمع وسبيل لتحقيق نهضة شاملة متكاملة.

فالشباب يتحول من طاقة مبدعة إلى طاقة مدمرة إذا لم يجد من يوجهه من أجل ذلك كان اختيارنا لهذا الكتاب: «مشكلات الشباب فى عصر العولمة – دور الخطاب الدينى النبوى فى علاج مشكلات الشباب».

مؤلف الكتاب:

هو الأستاذ محمد عباس محمد العرابى باحث وكاتب تربوى وأكاديمى عضو رابطة الأدب الإسلامى العالمية وله العديد من المؤلفات نذكر منها:

١- مشكلات اللغة العربية.. كيف نعالجها

٢- تحديات الأمة الإسلامية المعاصرة

٣- مهارات التدريس الفعال

٤- تطور البنية الإيقاعية فى القصيدة العربية

٥- الأدب الإسلامى والأدب العربى المعاصر

٦- دراسات حول مسرح وروايات على أحمد باكثير

٧- مشكلات الشباب فى عصر العولمة.. دور الخطاب الدينى النبوى فى علاج مشكلات الشباب.

٨- دور الأسرة والمدرسة فى تنمية الموهبة والإبداع لدى الأطفال

٩- مهارات الإشراف التربوي.

بالإضافة إلى الكثير من المقالات المنشورة له فى العديد من الدوريات والمجلات.



بقلم/ أ: عادل خفاجة

أسباب تأليف الكتاب:

يرى المؤلف أن شبابنا يتعرضون فى الآونة الأخيرة للعديد من تحديات العصر (عصر العولمة)، الذى يؤثر على عقيدتهم وأخلاقهم وسلوكياتهم، مما يؤدى إلى وقوعهم فى العديد من المشكلات، وأن موجة التغريب من أبرز التحديات التى تؤثر على الشباب حيث تؤدى إلى طمس الهوية الإسلامية وأن الغزو الفكرى والأخلاقى من خلال البث الفضائى يهدم ولا يبني، حيث يعرض ما يتنافى مع عقيدتنا وأخلاقنا ومبادئنا، وأن عصر العولمة، وجهت فيه الطاقات إلى إشباع الجانب المادى فى حياة الإنسان على حساب الجانب الأخلاقي والروحي، مما كان له أكبر الأثر فى اختلال التوازن واتساع الهوة فى حياة الشباب، وظهور مشكلات معقدة لم تكن فى أسلافه.

ويرى المؤلف أن المحافظة على شبابنا من أخطار العولمة تعد فريضة دينية وضرورة وطنية، ووظيفة تربوية تمليها متطلبات صناعة الإنسان الصالح والمجتمع الصالح.

الكتاب: يقع الكتاب فى مائة وست عشرة صفحة من قطع ٢٤ X ١٧ سم وقد صدر فى طبعته الأولى عام ٢٠١٢م، عن دار الهدى للنشر والتوزيع بالجيزة – مصر.

ويشتمل الكتاب على ثلاثة فصول وخاتمة.

الفصل الأول: شبابنا بين الخطاب الدينى ومشكلات العولمة ويشتمل على طرح للقضية الأساسية، ومشكلات البحث وأسئلته وأهدافه وأهميته ومصطلحاته وحدوده ومنهجه والدراسات السابقة عليه.

أما الفصل الثاني: فجاء عن علاج مشكلات الشباب فى ضوء الخطاب الديني، من خلال الأحاديث النبوية ويتضمن ثلاثة مباحث: الأول: تكلم فيه عن ملامح الخطاب الدينى من خلال الأحاديث النبوية الموجهة للشباب.

الثاني: تناول فيه مشكلات الشباب فى عصر العولمة.

أما المبحث الثالث فجاء للحديث عن علاج مشكلات الشباب فى عصر العولمة فى ضوء الأحاديث النبوية الموجهة للشباب.

أما الفصل الثالث والأخير فجاء مشتملاً على النتائج والتوصيات.

«شبابنا بين الخطاب الدينى ومشكلات العولمة»

يستهل المؤلف هذا الفصل بالتأكيد على أن الشباب طاقة المجتمع الحقيقية، وبناة مستقبل الوطن، وعماد نهضته وتطوره، لما تمتلكه هذه الفئة من طاقات هائلة، وما لديها من استعداد للتضحية من أجل النهضة والبناء، وأن الشباب ذخيرة الحاضر وعدة المستقبل، ويؤكد على أن مرحلة الشباب تعد مرحلة القوة فى مواجهة التحديات، الاجتماعية والتاريخية والاقتصادية، وأن هذه المرحلة من أخطر مراحل دورة الحياة؛ لاتساع ما يحدث فيها من تحولات وذلك لأنها تأتى كجزء من مرحلة المراهقة، التى يصفها البعض بأنها مرحلة الأزمة، ومرحلة تشكيل الهوية، ومرحلة تكوين الشخصية والرجولة والاستقلالية، تلك المرحلة التى يكتسب فيها الشباب عاداتهم واتجاهاتهم ومبادئهم الأخلاقية العامة والعليا، من أجل ذلك فلابد أن ينمو الشباب فى بيئة آمنة ومستقرة، وهم مزودون بالعلم والمعرفة، وبالوعى الاجتماعى والانتماء الوطني، إلى جانب تفتح عالمى على عصر لم يعد يعترف بالكيانات الضعيفة علميا أو تكنولوجيًا أو اقتصاديًا أو اجتماعيًا.

ثم يشير المؤلف إلى أن مشكلات الشباب

تعددت في الآونة الأخيرة وتعددت آثارها السلبية الأمر الذي يفرض على الباحثين والمهتمين بقضايا الشباب العمل على دراسة هذه المشكلات، واكتشاف العلاج السريع لها.

ولذلك فإنه يرى أنه من الواجب على الباحثين مناقشة تلك المشكلات التي أوجدتها العولمة ومعالجتها معالجة ناجعة مستمدة من قيمنا ومبادئنا، وأنه يجب أن نتجه إلى الخطاب الديني، من خلال الأحاديث النبوية الموجهة للشباب، لعلاج مشكلاتهم، لما تشمله هذه الأحاديث النبوية من مواقف وأساليب إن طبقت بشكلها السليم كانت الحل الأمثل لعلاج تلك المشكلات بكل سهولة ويسر.

وفي محاولة المؤلف الوصول إلى كيفية معالجة مشكلات الشباب فإنه يلقي الضوء على العديد من النقاط منها:

ملامح الخطاب الديني- أبرز مشكلات الشباب- الأساليب المقترحة في علاج مشكلات الشباب.

ثم يعرض خلاصة مركزة لعدد من الدراسات التي تدور في هذا الفلك وتعنى بالشباب ومشكلاته.

علاج مشكلات الشباب في ضوء الخطاب الديني

فإذا انتقلنا إلى الفصل الثاني من الكتاب نجد المؤلف يؤكد على أن الخطاب الديني يمتاز بالتجديد في إطار أسس العقيدة الإسلامية، وترتبط مضامينه بحاجات المسلمين وفق الاحتياجات والأولويات كما يؤكد على أن التحول الكبير والنجاح العظيم الذي حققه ﷺ في صناعة الأمم والأجيال حتى ارتفعت الأمة من السفح إلى قمة الجبل، كان نتيجة منهج تربوي تعليمي دعوي رصين، له معالمه وسماته، وهو البلسم والدواء الأصيل لما نزل بالأمة من انحدار وانكسار وهوان، وأنه حري بنا أن نتأمل منهج النبي ﷺ وطريقته في تربيته وتعليمه ودعوته، وأن ندرس الخطاب الديني من خلال الأحاديث النبوية الموجهة للشباب دراسة متأنية متفحصة، لتحديد معالمه ولاستنباط سماته وخصائصه. لأنه لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

وفي معرض التأكيد على أن شخصية النبي ﷺ تمثل وتجسد التعاليم الإسلامية قولا وأداء وتعاملات نجده يسوق قول عبدالرحمن النحلاوي من كتابه «أصول التربية الإسلامية وأساليبها»: «شخصية النبي ﷺ هي الشخصية الإنسانية المثالية التي يجد فيها الإنسان مربيًا عظيما ذا أسلوب تربوي فذ، يراعي حاجات الطفولة وطبيعتها، ويأمر بمخاطبة الناس على قدر عقولهم أي: يراعي الفروق الفردية بينهم، كما يراعي مواهبهم واستعداداتهم وطبائعهم كما يراعي في المرأة أنوثتها وفي الرجل رجولته، وفي الكهل كهولته، وفي الطفل طفولته؛ ويلتمس دوافعهم الغريزية، فيجود بالمال لمن يحب المال حتى يتألف قلبه، ويقرب إليه من يحب المكانة، لأنه في قومه ذو مكانة، وهو من خلال ذلك كله يدعوهم إلى الله وإلى تطبيق شريعته، لتكميل فطرتهم، وتهذيب نفوسهم شيئًا فشيئًا، وتوحيد نوازعهم وقلوبهم، وتوجيه طاقاتهم وحسن استغلالها للخير والسمو.

ومن خلال استقراء الخطاب الديني وجد المؤلف أن أبرز مجالاته هي: المجال العقدي- والأخلاقي- والاجتماعي- والاقتصادي.

ويسوق المؤلف العديد من الخصائص التي يتميز بها الخطاب النبوي فيذكر منها:

الربانية - الواقعية - الوسطية - الشمول والتنوع - الإيجابية - التوازن - ومراعاة التدرج.

أما المبحث الثاني من هذا الفصل فقد أشار فيه المؤلف إلى أن العولمة مفهوم جديد أخذ في الظهور والانتشار نتيجة للتغيرات السريعة التي شهدها العالم في السنوات القليلة الماضية والتي كانت نتيجة مباشرة لثورات العلم والتكنولوجيا وبخاصة تلك التي حدثت في مجال الإعلام والاتصال والتي أنتجت تقاربًا وتداخلًا بين بلدان العالم حتى أصبح من المستحيل انغلاق دولة داخل حدودها.

كما يتحدث المؤلف في هذا المبحث عن الظروف التي يعيشها المجتمع الإنساني المعاصر فيتناول:

الجهل الواسع عند قطاعات عريضة من الأمة بأحكام الدين وأهدافه ومقاصده في المجتمع الإنساني.

كما يناقش مشكلة الفراغ عند الشباب.

وكذلك مشكلة الفقر وظروف المعيشة الصعبة، والتناقض بين القيم والمجتمع.

النتائج والتوصيات

ويأتي الفصل الثالث من الكتاب يضم النتائج والتوصيات ونذكر من هذه النتائج:

أولا - النتائج:

١ - الخطاب الديني، من خلال الأحاديث النبوية الموجهة للشباب: هو الخطاب الموجه من النبي ﷺ إلى الشباب، وما تضمنته السنة النبوية من قضايا تدور حول الشباب، وبناء شخصيته، وعلاج مشكلاته.

٢- تضمنت السنة النبوية أحاديث صريحة للخطاب النبوي الموجه للشباب، فشكلت بمضامينها قيما وأساليب لرعاية الشباب، وتوجيه سلوكه وعلاج مشكلاته.

٣- يعد الخطاب الديني من خلال الأحاديث النبوية أرقى خطاب بشري على الإطلاق، في تعليم الإنسان وبنائه وصياغة فكره، وعلاج مشكلاته.

٤- خصائص الخطاب الديني من خلال الأحاديث النبوية الموجهة للشباب كثيرة ومتعددة، وهي نفسها خصائص التربية الإسلامية المميزة لها والمتفردة بها، من الربانية والواقعية والوسطية والشمول والتوازن والإيجابية والاستمرارية، ومراعاة التدرج، والاستعانة بوسائل الإيضاح.

٥- تتعدد مشكلات الشباب في عصر العولمة، فمنها: المشكلات الفكرية، وأبرزها: مشكلة الفراغ الديني - مشكلة القنوات الفضائية والشبكة العنكبوتية، ومنها المشكلات الاقتصادية، وأبرزها: مشكلة البطالة والطاقات المهدرة، ومنها المشكلات الاجتماعية النفسية، وأبرزها: مشكلة تعاطي المخدرات، ومشكلة العنف والتطرف، ومشكلة العزوف عن الزواج والعنوسة، ومشكلة التمرد على الكبار.

٦- امتلاك الأمة لمنهج نبوي متكامل لعلاج كل المشكلات التي تواجه الشباب، يقوم على الوقاية من المشكلات حتى لا تحدث، والتعامل معها بواقعية، مع الاعتماد على التحصين القيمي المعنوي، وتحفيز الطاقات واستثمارها، بحيث يمكن للشباب في كل عصر الأخذ بهذا المنهج، والانطلاق

منه في حياتهم العملية المستقبلية، كما انطلق الشباب في العصر النبوي.

٧- السنة النبوية «القولية والفعلية» من أفضل الأساليب في التعامل مع مشكلات الشباب، لما لها من خصوصية في غاياتها وأهدافها وأساليبها، ذلك أنها تنطلق من منطلقات ربانية، وتسير في منهجية إسلامية دعامتها السنة المشرفة.

ثانيا- التوصيات:

١- التأكيد على ضرورة التزام الخطاب الديني الموجه للشباب في عصر العولمة، بالمرجعية الأساسية «القرآن والسنة».

٢- أن تتضافر جهود المجتمعات المسلمة ومؤسساتها الدينية والثقافية والاجتماعية والتربوية والتعليمية والإعلامية لعلاج المشكلات التي تواجه الشباب، وحمايته من التحديات الفكرية والسلوكية السلبية، التي وفدت إلى المجتمعات الإسلامية مع تيارات العولمة.

٣- أن تتضافر جهود الأفراد والمؤسسات للمساهمة في التوعية بخطر المشكلات التي يواجهها الشباب المسلم اليوم، وخاصة تلك التي تتعلق بالمنظومة الثقافية والانتماء الحضاري، والعمل على معالجتها.

٤- ضرورة اطلاع المربين والمهتمين بقضايا الشباب وتنشئة الأجيال على مجالات التوجيه التربوي النبوي الموجه للشباب، وقيمه وأساليبه.

٥- على العلماء والمثقفين والمربين مسئولية تنمية الوعي الإسلامي لدى الناس بمضمون الخطاب الديني النبوي الموجه للشباب، وتزويد الشباب بالحقائق والمعلومات المقدمة التي تثبت إيمانهم، وتحميهم من المشكلات.

٦- اشتراك الشباب أنفسهم في المناقشات العلمية المنظمة، التي تتناول علاج مشكلاتهم، وتعويدهم طرح مشكلاتهم على الكبار، ومناقشتها معهم في ثقة وصراحة.

٧- أن تقوم وسائل الإعلام ومؤسساته بتقديم مواد وبرامج ومحتويات تناسب تطلعات الشباب، وفي ذات الوقت تكون نابعة من تراثنا وثقافتنا، ومنضبطة بضوابط أصالتنا.

٨- العمل على استغلال تقنيات العصر، والإعلام التربوي الهادف، من أجل نشر الوعي بالخطاب الديني، من خلال الأحاديث النبوية الموجهة للشباب، ليستفيد منها المربون في علاج مشكلات الشباب في عصر العولمة.

٩- على القائمين بوضع المناهج الدراسية، ورسم السياسات بما يخص الشباب تلمُّس الخطاب الديني النبوي، والاستفادة منه في بناء مناهجهم واستراتيجيات تربيتهم وتعليمهم.

وبعد ... فالكتاب ثمرة جيدة لجهد كبير بذله المؤلف ليضيف إلى المكتبة الإسلامية بحثا متميزا وقراءة جادة لمشكلات الشباب بالإضافة إلى تركيز الضوء على ما سبقه من جهود في ذلك المجال مستخلصا في النهاية ما رآه من حلول لهذه المشكلات.

***

الصورة النمطية

رؤية معرفية أولية

د. يحيى رضا جاد
طبيب بشري وباحث وكاتب مصري

«الصورة النمطية»: تصور ذهني معين عن شيء ما، مادي أو معنوي، يتم تعميمه على كل أجزاء/ مكونات/ أفراد هذا الشيء.

وآليات تكوين وإنتاج ونشر «الصورة النمطية» كثيرة، من أهمها:

١- مختلف أدوات الثقافة الشعبية: الأمثال- القصص- السير- الأساطير.. إلخ.

٢- مختلف الأدوات الإعلامية: صحافة- إذاعة- تلفاز- إنترنت- كتب «بمختلف أشكالها وأنواعها».

٣- التجارب الشخصية الواقعية الحياتية.

٤- الخطاب السياسي الحكومي الرسمي «وتزيد ضراوة تأثيره في البلاد الاستبدادية والفاشية».

٥- مضمون المناهج التعليمية بمختلف أشكالها وأنواعها وموادها ومستوياتها «وتزيد ضراوة تأثيره في البلاد الاستبدادية والفاشية».

٦- الخطاب الديني السائد في المجتمع «وتزداد ضراوة وشراسة وسوء تأثيره إذا كان مهيمنًا عليه أرباب مدرسة الرأي الواحد والاتجاه الواحد».

وخصائصها تكمن في الآتي:

١- التبسيط الاختزالي، وفي ذلك تجاهل لتركيبة الإنسان والواقع والأحداث والأسباب وهذا يستوجب عمقًا أكبر في التحليل.

٢- التعميم الكاسح، وفي ذلك تجاهل للتنوع والاختلاف والفروق، دون اعتبار- مثلا- لما بين الأفراد من فروق فردية وسمات شخصية خاصة وهذا يستوجب مراعاة التمايزات.

٣- التصلب، أي رفض تغيير هذا التصور الذهني لاحتوائه- في ذهن حامل الصورة النمطية- على أحكام قيمية «ألصقت بالشيء محل الصورة النمطية»، مشحونة بمشاعر ذاتية وعواطف شخصية «تكونت وترسبت وترسخت عبر الزمن» وفي ذلك تجاهل لحقيقة الصيرورة/ التغير/ التجدد التي تتميز بها الجماعات والمجتمعات البشرية وهذا يستوجب مراجعة الصورة النمطية كل فترة «حتى ولو كان قد تم تكوينها بصورة منهجية صحيحة».

وبناء عليه، فالصورة النمطية: «قولبة» تقود إلى «الجمود» الذي يؤدي إلى «التعصب».. عبر متتاليتنا: «قولبة فجمود فتعصب».

وفي القولبة: اختزال «وفي الاختزال: جهل، وفهم أعور منقوص» يؤدي إلى سوء التعامل مع الظاهرة/ الأمر/ الشيء.

وفي الجمود: تكلس يؤدي إلى السقوط في «جب الأوهام»، بتكرار سوء التعامل مع الظاهرة/ الأمر/ الشيء، ومن ثم: استفحال أمرها وتفاقم مشكلاتها، وهذا بدوره يؤدي إلى السلبية تجاهها، بإعلان العجز عن مواجهتها، بلسان المقال حينا، وبلسان الحال في أكثر الأحايين.

وفي التعصب: تمركز حول الذات، ونفي للآخر، وسقوط في «جب الأنا والذاتية والفردية».. ومن ثم: استحكام حلقات المشكلة حول الرقبة.

طرائف.. ومواقف

للشيخ/ عبدالحفيظ محمد عبدالحليم

أرجى الآيات القرآنية

قال سيدنا أبوبكر ـ رضى الله عنه ـ: تلوت القرآن كله، فما رأيت أرجى آية من قوله: تعالى:

﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾
(الإسراء: ٨٤)

لأن شاكلة العبد المعصية، وشاكلة الرب الرحمة.

وقال سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ قرأت كتاب الله كله، فلم أجد آية أرجى من قوله: تعالى:

﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ ﴾
(غافر: ٣)

وقال سيدنا عثمان ـ رضى الله عنه ـ قرأت القرآن كله فلم أجد آية أرجى من قوله تعالى:

﴿ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾
(الحجر: ٤٩)

وقال سيدنا على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ: لم أجد آية أرجى من قوله ـ تعالى:

﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾
(سورة الزمر: ٥٣)

وإن الله ليريد منا القرض؟

قال الله ـ تعالى:

﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾
(البقرة: ٢٤٥)

روى أنه لما نزلت هذه الآية، جاء أبوالدحداح الأنصارى إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول: وإن الله ليريد منا القرض؟:

قال: نعم يا أبا الدحداح!

قال: أرنى يدك يا رسول الله، فناوله يده، قال: فإنى قد أقرضت ربى حائطى ـ أى بستاني ـ وكان فيه ستمائة نخلة، وأم الدحداح فيه وعيالها، فجاء أبو الدحداح فناداها: يا أم الدحداح!! قالت: لبيك، قال: اخرجى فقد أقرضته ربى ـ عز وجل ـ وفى رواية قالت: ربح بيعك يا أبا الدحداح!!

وخرجت منه مع عيالها.

الآن تذكر ربك؟!

روى أنه لما حضرت الوفاة الخليفة معاوية بن أبى سفيان ـ رضى الله عنه ـ قال: أقعدوني.. فأقعدوه فجعل يذكر الله ـ تعالى ـ ويسبحه ويقدسه، ثم قال: الآن تذكر ربك

يا معاوية بعد الانحطام والانهدام؟.. ألا كان ذلك وغصن الشباب نضير ريان؟!

وبكى حتى علا بكاؤه ثم قال:

هو الموت لا منجى من الموت والذي
نحاذر بعد الموت أدهى وأفظع

العلوم ثلاثة

قال العارف بالله محمد بن الفضل البلخي: العلوم ثلاثة:

علم بالله، وعلم من الله، وعلم مع الله.

- فالعلم بالله: معرفة صفاته ونعوته.
- والعلم من الله: علم الظاهر والباطن، والحلال والحرام، والأمر والنهى فى الأحكام.
- والعلم مع الله: علم الخوف والرجاء والمحبة والشوق.

نصيحة

من شعر الحميدى ـ رحمه الله:

لقاء الناس ليس يفيد شيئًا
سوى الهذيان من قيل وقال
فأقلل من لقاء الناس إلا
لأخذ العلم أو إصلاح حال

إن استطعت

قال عمر بن عبدالعزيز ـ رضى الله عنه ـ: إن استطعت فكن عالمًا، فإن لم تستطع فكن متعلمًا، فإن لم تستطع فأحبهم (أى العلماء) فإن لم تستطع فلا تبغضهم.

نقد لبيت من الشعر

قال المتنبي:

ومن نكد الدنيا على الحر أن يري
عدوا له ما من صداقته بد

فإن الصداقة المخالفة وهى إصفاء المودة، والإنسان لا يضطر إلى أن يصادق عدوه أو يمحض له المودة، وإنما يضطره الحال إلى مداراته وذلك ما يعنيه الشاعر، ومقتضى هذا المعنى أن يقول: «ما من مداراته بد».

ذكر المحاسن

لا تكشفن مساوى الناس ما ستروا
فيهتك الله سترا عن مساويكا
واذكر محاسن ما فيهم إذا ذكروا
ولا تعب أحدا منهم بما فيكا

قانون بخيل

قال بعض البخلاء: إنى لا آكل إلا نصف الليل قيل له: ولم؟ قال: يبرد الماء وآمن فجأة الداخل، وصرخة السائل.

دعاء

اللهم ألف بين قلوبنا، وأصلح ذات بيننا، واهدنا سبل السلام، ونجنا من الظلمات إلى النور، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم، واجعلنا شاكرين لنعمك مثنين بها عليك قابلين لها وأتممها علينا.

***

خميلة الشعر



للأستاذ/ محمد عبد الوهاب

عاشوا، كما عاش آباءٌ لهم سَلَفوا،
وأورثوا الدِّينَ تقليدًا، كما وجدوا
فما يُراعون ما قالوا، وما سمعوا؛
ولا يُبالون، من غيٍّ، لمن سجدوا
والعُدْمُ أروحُ ممّا فيه عالَمُهم؛
وهو التكلّفُ، إن هبّوا، وإن هجدوا
(أبو العلاء المعرّي)

قالت أم المؤمنين السيدة عائشة - رضي الله عنها - : «لم يمتلئ جوف النبي ﷺ شبعًا قط، وإنَّه كان في أهله لا يسألهم طعامًا ولا يتشهاه؛ إن أطعموه أكل، وما أطعموه قبل، وما سقوه شرب» وقالت أيضا: «ما شبع آل محمد من خبز الشعير يومين متتابعين حتى قبض رسول الله ﷺ» وقالت كذلك: «كنا آل محمد نمكث شهرًا ما نستوقد بنار، إن هو إلا التمرُ والماء» وقالت أيضا: ما رفع رسول الله ﷺ قط غداءً لعشاء، ولا عشاءً لغداء، ولا اتخذ من شيء زوجين؛ لا قميصين، ولا رداءين، ولا إزارين، ولا زوجين من النعال ويُروى عنها أنها قالت: «توفي رسول الله ﷺ وليس عندى شيء يأكله ذو كبد، إلا شطرُ شعير في رف لي» وقالت رضي الله عنها: «توفى رسول الله ودرعه مرهونة عند يهودى في ثلاثين صاعًا من شعير» والأحاديث عن انصراف النبي عن متاع الدنيا كثيرة ونذكر منها هنا إنه ﷺ لما خُيِّر أن يكون له مثل (جبل أُحد) ذهبًا فقال: «لا يارب؛ أجوعُ يومًا فأدعوك، وأشبع يوما فأحمد»

هذا هو نبى الأمة وسيدها، فكأنما سطع صفاء نفسه على أديم الأرض ليتحول إلى أشعة من نور، فلم يجعل نفسه في هم المال، ولا جعلته نفسه في هم الفقر، فقد لقى الحياة حاملا، لا محمولا، وهادئا لا مضطربًا ليثبت للدنيا أنه بُعث ليكون إنسانا نورانيا يحل مشاكلها الاجتماعية، فإذا قرأنا الأحاديث السابقة، لا نفهمها على أنها زهد وفقر وجوع واحتياج، بل ننظر فيها على أن هناك حقيقة نفسية عقلية متزنة، قائمة بعناصر سامية من الحكمة واليقين، إلى الرفق والحلم، لتخبر دنيا الفلاسفة والمفكرين أن ذلك النبى العظيم هو الرجل الاجتماعي الكامل بأخلاقه الفاضلة، وهو الذى بُعث لتهذيب غريزة تنازع البقاء، وكسر الحيوانية في النفس الإنسانية، وتهذيب نزواتها والسمو بخواطرها، فكان ﷺ صورة الكمال الإنسانى الممكن لا المحال، الحقيقى لا الخيالي؛ حيث التقدم الأخلاقى الإنسانى لا يؤخذ هينا، وإنما يُنتزع من الحوادث بالتغلب على الأزمات ولا تغلبه الأزمات، فالقناعة التى

تبدو في فقر الرسول ﷺ هى قناعة الليل حول نفسه المتلألئة بالنور من كل جوانبها، فذلك الإقلال في نهم اللذة، هو الذى يزيد قوة الشعور الروحى بالجمال الذى خلقه الله في الكون، فلم يكن النقص في المادة الزائلة، إلا لنفى النقص عن الفضيلة المقدسة الخالدة، ذلك أن الفوز في الحياة لا يأتى من الدعة والرخاء والمال، ولكن من الشدة والمعاناة والصبر، وأن تقدم البشرية الأخلاقى لا يتحقق بسهولة وإنما هو بسمو النفس الإنسانية التى تتغلب على الصعاب ولا تتغلب عليها الصعاب.

لتداعى الأفكار وتلازمها أثر فعال في إنجاز كثير من الأعمال التي يكون القائمون عليها بعيدين كل البعد عن توقع إنجازها، فضلا عن تحقيق هذه الإنجازات، وهذا ما حدث للشاعر العراقى الكبير محمد مهدى الجواهرى وهو يدفع بديوان (بريد العودة) إلى حروف المطبعة وأمشاطها، ومن هذا الديوان المتميز فنيا اخترت قصيدة، بل بعض أبيات منهما، لنروى ظمأ قارئ الأزهر المتميز من نهر الشعر العربى العذب، فنقدم بعض أبيات من قصيدة: (يا دجلة الخير) التى نظمت شتاء عام ١٩٦٢ يقول الشاعر:

حَيَّيْتُ سَفحَكِ عن بُعدٍ فحيِّيني
يا دجلةَ الخيرِ، يا أُمَّ البساتينِ (١)
حييتُ سفحَكِ ظمآنا ألوذ به
لوذَ الحمائمِ بين الماءِ والطينِ
يا دجلةَ الخيرِ يا نبعًا أُفارقُه
على الكراهةِ بين الحينِ والحينِ
إنّى وردتُ عيونَ الماءِ صافيةً
نبعًا فنبعًا.. فما كانت لتَرويني
وأنتِ يا قاربًا تلوى الرياحُ به
ليَّ النسائمِ أطرافَ الأفانينِ (٢)
وددتُ ذاكَ الشراعَ الرخصَ لو
كفني يُحاكُ منه غداةَ البينِ يَطويني (٣)

يا دجلةَ الخيرِ قد هانت مطامحُنا
حتى لأدنى طِماحٍ غيرُ مضمونِ
يا دجلةَ الخيرِ يا أطيافَ ساحرةٍ
يا خمرَ خابيةٍ في ظلِّ عُرجونِ (٤)
يا سَكتةَ الموتِ يا إعصارَ زوبعةٍ
يا خنجرَ الغدرِ يا أغصانَ زيتونِ
يا أُمَّ بغدادَ من ظَرفٍ ومن غَنَجٍ
مشى التبغدُدُ حتى في الدهاقينِ (٥)
يا أم تلك التى من «ألف ليلتها»
للآنَ يعبقُ عطرٌ في التلاحينِ
الغاسلِ الهمِّ في ثغرٍ وفي حببٍ
والمُلبسِ العقلَ أزياءَ المجانينِ

(١) إن الشاعر وقد أضرت به الغربة واشتد به الحنين إلى وطنه (العراق) يرى أن مجرد العودة إليه هو أغلى ما يتمناه ويطمح إليه، وأن هذا المطمح نفسه غير مضمون، وهو لذلك يتمنى أن يكفل له عيشا بين الحشائش على ضفاف نهر (دجلة) إن لم يتيسر له العيش بين الرياحين، كما يتمنى أن يكون ذلك خلوًا من هم وشاغل، سوى شاغل واحد لا يقدر أن يتخلص منه، وكأنما هو جزء خليص من نفسه، هو هذه الأحاسيس التى تعتمل بين جانبيه وتخفق في جوانحه، وهذه الهواجس والأحاسيس والعواطف وهى صلب الكيان الشعرى لا تبرح تهزه هزًا لا يقدر معه أن يجاريها ولا أن يندفع معها، تماما كما تحجل الرياح في دفع الطواحين.
(٢)الأفانين: الأغصان. (٣)الرخص: اللين الناعم.
(٤)الخابية: وعاء من الفخار والعرجون: هو عذق النخل إذا يبس واعوج.
(٥) التبغدد: هو تكلف عادات أهل بغداد وأخلاقهم وطراز معيشتهم والتعامل والتخاطب، وقد انتشر «التبغدد» إبان العصور العباسية الأولى، أخذًا بالظرف واللطف البغدادى - عاصمة الدنيا آنذاك - وتعاطيا لأساليبها وأزيائها وتأنقها. الدهاقين: جمع دهقان بالكسر والضم، وهم رؤساء القرى والمدن، وهى فارسية مُعرّبة -

والساحب يأباه الرزق ويكرهه
والمنفق اليوم يُفدى بالثلاثين (٦)
و الراهن السابريّ الخزّ في قدح
والمُلهم الفنّ من لهو أفانين (٧)
و المُسمع الدهر والدنيا وساكنها
قَرْع النواقيس في عيد الشعانين (٨)
يا دجلة الخير: ما يُغليك من حنق
يُغلى فؤادى وما يُشجيك يُشجيني
ما ان تزال سياط البغى ناقعة
فى مائك الطُهر بين الحين والحين (٩)
ووالغاتٌ خيول البغى مُصبحة
على القُرى آمنات والدهاقين (١٠)
أدرى بأنك من ألف مضت هدرًا
للآن تهزئين من حُكم السلاطين
تهزئين من خصب جنّات منشّرة
على الضفاف ومن بؤس الملايين
تهزئين من عُتقاء يوم ملحمة
أضفوا دروع مطاعيم مطاعين (١١)
الضارعين لأقدار تحلّ بهم
كما تلوّى ببطن الحوت ذو النون

يرون سُودَ الرزايا فى حقيقتها
ويفزعون إلى حدْسٍ وتخمين
والخائفين اجتداعَ الفقر ما لهُمْ
والمفضلين عليه جَدعَ عرنين (١٢)
واللائذين بدعوى الصبر مجبنة
مُستعصمينَ بحبل منه موهون (١٣)
والصبرُ ما انفكّ مَرداة لمُحترِب
ومُستميت، ومنجاة لمسكين (١٤)
يا دجلة الخير: والدنيا مُفارقة
وأيُّ شرٍّ بخيرٍ غيرُ مقرون
وأيُّ خيرٍ بلا شرٍّ يُلقّحه
طُهرُ الملائك من رجس الشياطين
يا دجلة الخير: كم من كنز موهبة
لديك فى "القمقم" المسحور مخزون
لعلّ تلك العفاريتَ التى احتُجِزتْ
مُحمّلاتٌ على أكتاف "دُلفين"
لعلّ يومًا عصوفًا جارفًا عَرِمًا
آتٍ فترضيك عقباهُ، وترضيني
يا دجلة الخير إنّ الشعرَ هَدْهَدَةٌ
للسمعِ ما بين ترخيمٍ وتنوين (١٥)

(٦) الشطر الأول من البيت يشير إلى قول «أبي نواس»:
يا أمّ بغداد من عنوى تأنّقها ... مشى التبغدد حتى في الدهاقين
والشطر الثاني إشارة إلى قول أبي نواس من قصيدة أخرى:
نزلنا على أنّ المقام ثلاثة ... فطابت لنا حتى أقمنا بها شهرا
(٧) وفي هذا البيت إشارة إلى قول أبي نواس من قصيدة له وقد رهن ثيابه الثمينة كلّها ومن جملتها خلع خلفاء العباسيين عليه:
وبعت قميصا سابريًا وجُبّةً ... وبعتُ رداء معلم الطرفين
ثلاثين دينارًا جيادًا ذخرتها ... فأفنيتها حتى شربت بدين
(٨) عيد الشعانين: من أعياد المسيحيين.
(٩) يناجي الشاعر دجلة ويستثيرها أيضا فيقول إنه يعلم بكل ما يغلي فيها من حَنَق. إنّ سياط البغي والبطش بالناس، وخيول العدوان تلغ وكأنّها الكلاب العاوية فيها لتغير على القُرى والمدن الآمنة.
(١٠) والغة: تشرب الدم، ومصبحة: تغير صبحًا (١١) العُتقاء الأذلاء تلهروا بمظهر الشجعان الكرام.
(١٢) جدع عرنينه: قطع أنفه (١٣) مجبنة: جبنة. موهون: واهن ضعيف (١٤) مرداة: مهلكة.
(١٥) الهدهدة: مناغاة الطفل لينام، وهي أيضا ترجيع الطائر المغرد لغنائه وهديله. والترخيم: هو من رخامة الصوت وحلاوته - والتنوين هو تقريب الحركة على الحرف الأخير من الكلمة إلى «النون».

عفوًا يُرَدِّدُ فى رَفْهٍ وفى عَلَلٍ
لحنَ الحياةِ رخيًا غيرَ ملحون (١٦)
يا دجلةَ الخير كان الشعرُ مُذ رسمت
كفُّ الطبيعة لوحًا "سفر تكوين"
"مزمارُ داوُدَ" أقوى من نبوّته
فحْوًي، وأبلغُ منها فى التضامين
هذى الخلائقُ أسفارٌ مُجَنّدةٌ
المُلهَمونَ عليها كالعناوين
إذا دجا الخطبُ شعّت فى ضمائرهم
أضواءُ حرفٍ بليل البؤس مرهون
دينٌ لِزامٌ، ومحسودٌ بنعمته
من راحَ منهم خليصًا غيرَ مديون
يا دجلة الخير؛ ما أبقيتُ جارية
لم أقضِ عندي منها دَيْنَ مديون
وكان جُرحُكِ إلهامي مُشاركة
وكان يأخُذُ من جُرحي ويُعطيني!
وكان ساحلُكِ من ساحي إذا نزلت
به الشدائدُ، أقربه ويقربني
تُندى إليّ على بُعدٍ فتجزيني
يا دجلة الخير من كل الألى خبروا
بلوايَ لم ألقَ حتى من يواسيني
يا دجلة الخير خلّى الموجَ مُرتفقا
طيفًا يمرُّ وإنْ بعضَ الأحايين
يا دجلة الخير: يامن ظلَّ طائفُها
عن كل ما جَلَت الأحلام يُلهيني
لو تعلمين بأطيافى ووحشتها
وددتِ مثلى لو انّ النومَ يجفوني

أحسُّ يقظانَ أطرافى أعالجها
مما تحرّقت فى نومى بأتون
واهًا لنفسى من جمعِ النقيضِ بها
نقيضه جمعَ تحريكٍ وتسكين
جنيًا إلى جنب آلامٍ أُقطّفُها
قطفَ الجياعِ جنَى اللذّات يزهوني
وأركبُ الهَوْلَ فى ريعان مامنة
حبُّ الحياة بحُبِّ الموتِ يُغريني
ما إن أُبالى أصابًا درٌّ أم عسلا
مريَ على العلات يُرضيني
غولاً تسنّمتُ لم أسألْ أكارعَهُ
إلى الهُوى أم على الواحات ترميني
وما البطولاتُ إعجازٌ وإنْ قنعت
نفسُ الجبانِ عن العلياء بالجون
وإنما هيَ صفوٌ من مُمارسَةٍ
للطارئات، وإمعانٍ، وتمرين
لا يولدُ المرءُ لا هرًا ولا سَبُعًا
لكنْ عصارةَ تجريبٍ وتلقين
يا دجلة الخير كم معنى مزجت له
دمى ولحمى فى أحلى المواعين
ألفيته فَرْطَ ما ألوى اللواءُ به
يشكو الأمرّين من عنفٍ ومن هُون
أجرُّه الشوكَ ألفاظًا مُرَصّفةً
أجرُّها الشوكَ سجعٌ شبهُ موزون
فهل يحسبُ الليالى من صدى المي
أنّى مُضيعَةٌ أنيابِ السراحين

(١٦) الرفه: الراحة والعلل: التنهّل.

والساترينَ بشتى عُريَ سوآتهم
كخصف حوّاء دوحَ التُوتِ والتينِ
والميّتينَ وقد هيضت ضمائرهم
بواخزٍ معهم فى القبرِ مدفونِ
صنّاجةَ الأدبِ الغالي وكم حقبٍ
بها المواهبُ سيمت سَوْمَ مغبونِ
جوزيتَ عنها بما أنت الصليُّ به
هذا لعمرى عطاءٌ غيرُ ممنونِ
حامى الظعائنِ لا حمدٌ ولا مقةٌ
وقد يكونُ عزاءٌ حمدُ مطعونِ
لمن؟ وفيمَ؟ وعمّن أنتَ محتملٌ
ثقلَ الدّيات من الأبكارِ والعُونِ
كفرتُ بالعلمِ صفرَ القلبِ تحمله
للبيعِ فى السوقِ أشباهُ البراذين
لهفى على أمةٍ غاضَ الضميرُ بها
من مُدّعى العلم والآدابِ والدين
موتى الضمائرِ تُعطى المَيْتَ دمعتَها
وتستعينُ على حيٍّ بسكينِ
جُبْ أربُعَ النقد واسألْ عن ملامحها
فهل ترى من نبيغ غير مطعونِ
ترَ الفطاحلَ فى قتلٍ على عَمَدٍ
همُ الفطاحلُ فى صوغِ التآبينِ
من ناكرٍ علَمًا تُهدى الغواةُ به
حتى كأنْ لم يكُنْ فى الكافِ والنونِ
أو قارنٍ باسمه خُبثًا وملأمةً
مَن ليس يومًا بقِيْعَيْه بمقرونِ
تشفيًا إن لمَحَ الفكرَ مُنطلقًا
قذى بعينِ دعيّ الفكرِ مأفونِ
عادى المعاجمَ وَغدٌ يَستهينُ بها
يُحصى بها «أبجديّات»ويعدوني
شُلّت يداك وخاست ريشةٌ غفلت
عن البلابلِ فى رسمِ السماديـن
يا دجلة الخير ردّتنى صنيعتها
خوالجٌ هُنّ من صنعى وتكويني
إن المصائبَ طوعًا أو كراهيَةً
أعددنَ نَحتى كما أبدعن تلويني
يا دجلة الخير شكوى أمرُها عجبٌ
إنّ الذى جئتُ أشكو منه يشكوني
ماذا صنعتُ بنفسى قد أحقت بها
ما لم يُحقهُ بـ«روما» عسفُ «نيرون»
ألزمتها الجِدّ حيثُ الناسُ هازلةٌ
والهزلَ فى موقفٍ بالجدّ مقرونِ
وَرحتُ أظمى وأسقى من دمي
زُمرًا راحت تُسقى أخا لؤم وتُظمِيني

عُمَرُبن عبد العزيز والشعر

لما ولِيَ عُمرُ بن عبد العزيز، بدأ بلُحمته وأهلِ بيته، فأخذ ما فى أيديهم، وسمّى أعمالَهم مظالم، ففزعت بنو أُميّة إلى فاطمة بنت مروان عمّته، فأرسلت إليه: «إنه قد عناني أمرٌ لابد من لقائك فيه، فأتته ليلاً، فاستقبلها وقام بنفسه بإنزالها عن دابتها، فلما أخذت مجلسها قال عمر: «يا عمّة، أنت أولى بالكلام لأن الحاجة لك فتكلمي» قالت: «تكلم يا أمير المؤمنين» فقال عمر: «إن الله تبارك وتعالى بعث مُحمّدًا ﷺ رحمةً، ولم يبعثه عذابًا إلى الناس كافة، ثم اختار له ما عنده فقبضه إليه، وترك لهم نهرًا شربُهم فيه سواء، ثم قام أبو بكر فترك النهرَ على حاله، ثم ولِيَ عُمرُ فعمِلَ على عملِ صاحبه، فلما وليَ عثمانُ اشتق من ذلك النهر نهرا، ثم ولي معاوية فشق منه الأنهار، ثم لم يزل ذلك النهرُ يشُق منه يزيد و مروان وعبد الملك والوليد وسليمان حتى أفضى الأمرُ إليّ، وقد يبس النهرُ الأعظم إلى ما كان عليه» فقالت عمته: «قد أردتُ كلامك ومُذاكرتك، فأما إذا كانت هذه مقالتك فلستُ بذاكرة شيئا أبدًا» ورجعت إليهم فأبلغتهم كلامه، وقالت لهم: «ذوقوا مغبة أمركم فى تزويجكم آل عمر بن الخطاب».

هذا هو عمر بن عبد العزيز، أكثر الأمراء عدلا وبرا برعيته، حتى وإن كان ذلك على حساب أهله وعشيرته، وما يهمنا فى الخميلة اليوم هو علاقته بالشعر وبالشعراء، فقد قال الراجزُ دُكَيْنٌ: امتدحت عُمرَ بن عبد العزيز وهو والى المدينة، فأمرَ لى بخمس عشرة ناقة كرائم فكرهت أن أرمى بهنّ الفجاج، ولم تطب نفسى ببيعهن، فقدمَت علينا رفقةٌ من مصر، فسألتهم الصحبةَ، فقالوا ذاكَ إليك، ونحن نخرج الليلة، فأتيته فودّعته وعندهُ شيخان لا أعرفهما. فقال لى يا دُكين، إن لى نفسا توّاقةً، فإن صرتُ إلى أكثرَ مما أنا فيه فأْتني ولك الإحسان. فقلتُ: اشهدْ لى بذلك فقال: أُشهِدُ اللهَ به، قلتُ: ومن خلقه؟ قال هذين الشيخين، فأقبلت على أحدهما فقلت: من أنت أعرفك؟ قال: سالم بن عبد الله بن عمر، فقلت له: قد استسمنت الشاهد، وقلت للآخر: من أنت؟ قال: أبو يحيى مولى الأمير، فخرجتُ إلى بلدى بالإبل، فرمى الله فى أذنابهن بالبركة حتى اعتقدتُ(١٧) منهن الإبل والعبيد، فإنى لبصحراء فلْج(١٨) إذا ناعٍ ينعَى سليمان، فقلتُ: فمن القائم بعده؟ قال: عمرُ بن عبد العزيز، فتوجهت نحوه، فلقيني جريرٌ منصرفا من عنده، فقلتُ: يا أباحرزة، من أين؟ فقال: من عند من يعطى الفقراء، ويمنع الشعراء، فانطلقتُ فإذا هو فى عرصة دار وقد أحاط الناسُ به فلم أخلُص إليه فناديتُ:

يا عُمرَ الخيرات والمكارم
وعُمرَ الدسائع العظائم (١٩)
إنى امرؤٌ من قطنِ بن دارم
طلبتُ دَيْني من أخى مكارم
إذْ تنتحى والليلُ غيرُ نائم
عند أبى يحيى وعند سالم

فقام أبو يحيى فقال: يا أمير المؤمنين، لهذا البدوى عندى شهادة عليك، فقال: أعرفها،

(١٧) اعتقد الشيء: اشتراه أو اقتناه (١٨) فلج: واد بين البصرة وحمى ضرية
(١٩) الدسائع: الشمائل أو العطايا

أُدنُ يـا دُكَيْنُ، أنا كما ذكرتُ لك، إنَّ نفسـي لم تنل شـيئًا قـط إلّا تاقت لما هو فوقه، وقد نلـت غاية الدنيا فنفسـي تتـوقُ إلى الآخرة، والله ما رزأتُ من أموال الناس شيئا، ولا عندى إلا ألف درهم، فخُذ نصفها. قال دُكين: فوالله ما رأيتُ ألفًا كان أعظم بركةً منه، ودُكَيْنُ هذا هو القائلُ:

إذا المرءُ لم يدنس من اللؤمِ عِرضُهُ
فكـلُّ رِداءٍ يرتديـه جميـلُ
و إنْ هو لم يرفعْ عن اللؤمِ نفسَـهُ
فليسَ إلى حُسنِ الثناءِ سبيلُ (٢٠)

يقـول كثيرُ عَزَّة، وكنيته (أبـو صخر) بعد انتظاره أربعةَ أشهر – ومعه الشاعران الأحوَصُ ونُصَيْبٌ: «فأقمنا على بابه (يقصد باب أمير المؤمنين) أربعةَ أشهر لا نصل إليه.. فقلتُ: لو أتيت المسـجدَ يوم الجمعة فتحفّظتُ من كلام عُمرَ شيئًا!. فأتيت المسـجد فأنا أول من حفظ كلامَهُ، فسمعته يقول فى خطبة له: «لكل سَـفَرٍ زادٌ لا محالة، فتـزوّدوا من الدنيا إلي الآخرة التقوي، وكونوا كمن عاينَ ما أعدَّ اللهُ له من ثوابه وعقابه، فعملَ طلَبًا لهذا وخوفا مـن هـذا، ولا يَطولَـنَّ عليكم الأمدُ فتقسـو قلوبُكم، وتنقادوا لعدوّكم، واعلموا أنه إنما يطمئـن بالدنيـا من وَثِـق بالنجاة مـن عذاب الله فـى الآخـرة، فأما من لا يـداوى جرحًا إلاَّ أصابـه جُرحٌ من ناحيةٍ أُخرَي، فكيف يطمئن بالدنيا! أعوذ بالله أن آمركم بما أنهَى نفسى عنه فتخسـر صفقتي، وتبدوَ عَيْلَتي، وتظهر مَسـكنتي يوم لا ينفعُ فيـه إلا الحقُّ والصدقُ» فارتجَّ المسـجدُ بالبُكاء، وبكى عُمرُ حتى بَـلَّ ثوبَه، حتـى ظننا أنه قـاضٍ نَحْبَه، فبلغتُ إلـى صاحبيَّ فقلـتُ: جَدِّدا لعُمر من الشِّعرِ غيرَ مـا أعددناه، فليس الرجـل بدنيوي، ثم أذِنَ لنا بعـد أن أُذِنَ للعامة من الناس، فدخلنا فسـلمنا عليه، فردَّ علينـا، فقلتُ له: يا أميرَ المؤمنين، طال الثواءُ وقلت الفائدة وتحدثت بجفائك إيانـا وفودُ العرب. فقال: يا كُثيِّر، أما سمعتَ إلى قول الله عز وجل فى كتابه:

﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ (التوبة: ٦٠)

أفمن هؤلاء أنت؟ فقلـتُ له وأنا ضاحكٌ: أنا ابن سـبيلٍ ومنقطعٌ به. فقال عمر: أوَلَسْـتَ ضيفَ أبي سعيد؟ قلتُ بلى. قالَ: ما أحسَبُ من كانَ ضيفَ أبي سعيد ابنَ سبيلٍ ولا مُنقطعًا به. فاستأذنته في الإنشاد، فقال: قُل ولا تقُل إلا حقًا؛ فإنَّ اللهَ سائلك. فقال:

وَليتَ فلم تَشْتُم عليًا ولمْ تُخِفْ
بَريًا، ولم تَتْبَع مَقالَــةَ مُجرِمِ
وقُلتَ فصدَّقتَ الذى قالَ بالذي
فعلتَ، فأضحى راضيًا كلُّ مُسلمِ
ألا إنما يكفى الفتى بعد زَيْغِه
من الأوْدِ الباقى ثقافُ المُقَوِّمِ
لقد لَبِسَتْ لُبْسَ الهَلوكِ ثِيابَها
وأبدت لك الدنيا بكفٍّ ومِعصَمِ (٢١)
و تُومِضُ أحيانًـا بعينٍ مريضةٍ
وتَبسِمُ عن مثلِ الجُمانِ المُنظَّمِ
فأعرضتَ عنها مُشْمَئِزًا كأنَّما
سَقَتكَ مَدوفًا من سِمامٍ وعَلقَمِ (٢٢)
وقد كنتَ من أجبالِها فى مُمَنَّعٍ
ومن بحرِها فى مُزبِدِ الموجِ مُفْعَمِ
ومـا زلتَ سبَّاقًـا إلى كلِّ غايةٍ
صَعِدتَ بها أعلى البناءِ المُقدَّمِ
فلمَّا أتاكَ المُلكُ عفوًا ولم يكن
لطالبِ دُنيا بعدَهُ من تكلُّمِ
تركتَ الذى يفنى وإن كانَ مُونِقًا
وآثَرْتَ ما يبقى، برأيٍ مُصَمِّمِ
فأضررْتَ بالفاني وشمَّرتَ للذى
أمامَكَ فى يومٍ من الهَولِ مُظلِمِ
ومالكَ أن كُنتَ الخليفةَ مانعٌ
سوى اللهِ من مالٍ رَغيبٍ ولا دَمِ
سَمَا لكَ هَمٌّ فى الفؤادِ مُؤرِّقٌ
صَعِدتَ به أعلى المعالى بِسُلَّمِ
فما بين شرقِ الأرضِ والغربِ كلِّها
مُنادٍ يُنادى من فصيحٍ وأعجمِ
يقولُ: أميرَ المؤمنينَ ظلمتني
بأخذٍ لدينارٍ ولا أخذِ درهمِ
ولا بسطِ كفٍّ لامرئٍ ظالمٍ لهُ
ولا السفكِ منه ظالمًا ملءَ محجمِ
فلو يستطيعُ المسلمونَ تقسَّموا
لكَ الشطرَ من أعمارِهم غيرَ نُدَّمِ
فعشتَ بهِ ما حجَّ للهِ راكبٌ
مُغِذٌّ مُطيفٌ بالمقامِ وزمزمِ
فاربح بها من صفقةٍ لمبايعٍ
و أعظِم بها أعظِم بها ثم أعظِمِ

فقال عمر بن عبد العزيز: «يا كُثيِّر، إنَّ اللهَ سائلُكَ عن كل ماقُلتَ» ثم تقدم إليه الأحوصُ فاستأذنَهُ فقال عمر: «قُل ولا تقل إلا حقًا، فإنَّ اللهَ سائلك» فأنشده:

وما الشِّعرُ إلا خطبةٌ من مُؤلِّفٍ
بمنطقِ حقٍّ أو بمنطقِ باطلِ
فلا تَقبَلَنْ إلا الذى وافقَ الرِّضا
و لا ترجِعنَّا كالنساءِ الأراملِ
رأيناكَ لم تعدِل عن الحقِّ يَمنةً
ولا يسرةً فعلَ الظلومِ المجادلِ
ولكن أخذتَ القصدَ جهدَكَ كلَّهُ
وتقفو مثالَ الصالحينَ الأوائلِ
فقُلنا ولم نكذِبْ بما قد بدا لنا
ومَن ذا يرُدُّ الحقَّ من قولِ عاذلِ
ومن ذا يرُدُّ السهمَ بعد مروقِهِ
على فُوقِهِ إن عارَ من نزعِ نابلِ (٢٣)
ولولا الذى قد عوَّدتنا خلائفٌ
غطاريفُ كانت كالليوثِ البواسلِ
لما وَخَدَتْ شهرًا برحلي جَسرةٌ
تَفُلُّ متونَ البيدِ بين الرواحلِ
ولكن رجونا منكَ مثلَ الذى به
صُرِفنا قديمًا من ذويكَ الأفاضلِ
فإن لم يكُن للشِّعرِ عندكَ موضعٌ
وإن كان مثلَ الدُّرِّ من قولِ قائلِ
وكان مُصيبًا صادقًا لا يَعيبُهُ
سوى أنَّهُ يَبني بناءَ المنازلِ
فإنَّ لنا قُربى ومحضَ مودَّةٍ

(٢٠) المعروف أن البيتين للسموءل بن عاديا اليهودي، كما ورد في الحماسة وفي الأمالي لأبي علي القالي، صدر البيت الثاني: (وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها)

(٢١) الهلوك من النساء: الفاجرة المتساقطة على الرجال (٢٢) مدوفا: مخلوطا وأكثر ما يستعمل في الدواء والطيب، والسمام: السم
(٢٣) السهم العائر: الذي لا يدري من أين

ومـيـراثَ آبـاءٍ مشَوا بالمناصـــل
فـــقـادوا عــدو الـسّـلم عـن عَـقـر
دارهم وأرسَوا عمودَ الدين بعد تمايـُلِ
فقبلكَ ما أعطى الهُنَيدةَ جِلّـــةً (٢٤)
على الشعر كعبا من سديس وبازِلِ
رســولُ الإلــه المُصطفى بنُبُوّةٍ
عليه سلامٌ بالضُّحى والأصائـــلِ (٢٥)
فكلُّ الذى عـدّدتُ يكفيك بعضُهُ
ونَيلُكَ خيرٌ من بحور السوائـــلِ
فقال له عُمَرُ : يا أحوَصُ، إن الله سائلك عن كل ما

قُلت، ثم تقدم إليه نُصَيبٌ فاستأذَنَ في الإنشاد، فأبى أن يأذَنَ لَهُ وغَضِبَ غضبًا شديدًا، وأمَرَهُ باللحاق بدابق (٢٦) وأمَرَ لي وللأحوَصِ بثلثمائة درهم، وأمرَ لنُصيب بمائة وخمسين درهما، فما رأيتُ أعظمَ بَركةً من الثلاث المائة التي أعطاني.

دعاء من القلب أن يحفظ الله مصر من الشر والفتن، ما ظهر منها وما بطن

بعض حقه التعظيم - للشاعر مصطفى عكرمة

كـل مـا قـلـت أو فـعـلـت عـظـيـم   يـا رسـولاً بـكـل روح رحـيـم
شـاءك الله مـنـذرًا وبـشـيـرًا   جـل مـا شـاءه الـعـلـيـم الـحـكـيـم
كـرم الله يـوم جـئـت الـبـرايـا والـسـموات   مـثـلـه الـدهـر لـم يـكـن تـكـريـم
رحـبـت بـك، والأرض   تـشـهـت سـنـا ثـراهـا الـنـجـوم
كـل شـيء يـسـبـح الله أمـسـي   لـك مـنـه الـصـلاة، والـتـسـلـيـم
أومـا لا يـمـسك الـمـحـب ذكـر   كـلـمـا يـذكـر الـعـزيـز الـعـلـيـم
وبـنـطـق الـشـهـادتـيـن يـرجـي   أن يـنـال الـغـفـران عـاص غـشـوم
وبـهـا اخـتـارك الإلـه رسـولاً   أنـت فـي ذكـره «رءوف رحـيـم»
قـدرك الـقـدر عـنـد ربـك فـرد   وهـو قـدر عـلـى الـزمـان يـدوم
ولـدى الـحـشـر مـا سـواك شـفـيـع   حـيـن يـغـشـى كـل الـوجـوه الـوجـوم
أنـت مـن أكـرم الـجـدود تـنـقـل   ت، فـأنـت الـمـطـهـر الـمـعـصـوم
وتـقـلـبـت فـي الـحـيـاة يـتـيـمًـا   حـسـب كـل الأيـتـام أنـت الـيـتـيـم
لـم تـحـد عـن حـمـيـد خـلـقـك آنـا   أومـا الله قـال عـنـه «عـظـيـم»!
لـم يـضـر يـتـمـك الـمـقـدر ضـر   فـبـه أنـت راحـم مـرحـوم
كـنـت طـفـلاً ومـا عـدتـك خـصـال   أنـت فـيـهـن وحـدك الـمـوسـوم
قـدوة شـاء أن تـكـون عـلـى الـدهـر   بـنـهـج صـراطـه مـسـتـقـيـم!

(٢٤) الهُنَيدة اسم للمائة من الإبل وغيرها. ويريد بكعب: كعب بن زهير. والسديس من الإبل ما دخل في السنة الثامنة. والبازل الذي فطر نابه أي انشق. وذلك في السنة التاسعة
(٢٥) المحفوظ في كتب السيرة أن رسول الله ﷺ، لما أنشده كعب بن زهير لاميته (بانت سعاد) ووصل فيها إلى قوله:
إن الرسول لنورٌ يُستضاءُ بـه * مهنّدٌ من سيوف الله مسلولُ
ألقى رسول الله عليه بُردة كانت عليه. بذل فيها معاوية عشرة آلاف درهم، فرفض كعب وقال: ما كنتُ لأوثر بثوب رسول الله ﷺ أحدا. فلما مات كعب بعث معاوية إلى ورثته بعشرين ألفا فأخذها منهم
(٢٦) دابق: قرية قرب حلب، بينها وبين حلب أربعة فراسخ

قـبـلـك الله كـم أقـام نـبـيـا   لأنـاس زمـانـهـم مـعـلـوم!
وانـتـهـى عـهـدهـم وجـئـت بـشـرع   قـدر الله أنـه سـيـدوم
صـالـحًـا مـصـلـحًـا لـكـل زمـان   فـهـو فـي لـوح ربـك الـمـرقـوم
شـمـل الـخـلـق مـن فـؤادك حـب   يـسـتـوى فـيـه ظـاعـن ومـقـيـم
وتـسـاوى بـالـعـدل عـنـدك آل   ولـه ارتـاح واطـمـأن الـخـصـوم
حـكـمـة مـنـه قـد أتـيـت عـظـيـمًـا   حـقـه .. بـعـض حـقـه الـتـعـظـيـم
كـل شـيء يـقـول أنـت رسـول   دل عـنـه أن الـرضـاع فـطـيـم
أومـا أخـصـبـت ديـار بـنـي سـعـد   فـأمـسـت، بـالـنـعـيـمـات تـعـوم
وجـهـك الـسـمـح حـيـن هـل عـلـيـهـا   حـسـب الـنـاس أن سـقـتـهـا الـغـيـوم
كـل قـفـر عـبـرتـه فـاض ظـلاً   وبـه الـخـيـر وافـر وعـمـيـم
كـل عـسـر إذا حـلـلـت يـسـيـر   كـل وجـه إذا الـتـقـاك وسـيـم
كـنـت قـبـل الـنـبـوة الـفـرد صـدقًـا   وبـهـا أنـت مـا سـواك عـظـيـم
ولـك الـمـعـجـزات صـارت تـوالـي   طـاب مـنـهـا لـمـن هـدوا الـتـسـلـيـم
ولـك الله قـد تـخـيـر صـحـبًـا   مـن بـهـم شـرعـك الـحـنـيـف يـقـوم
لـن يـرى الـدهـر مـثـلـهـم مـن هـداة   قـال عـنـهـم عـيـسـي، وقـال الـكـلـيـم
خـشـع، ركـع إذا جـن لـيـل   وتـبـاهـي بـمـا أجـادوا الـعـلـوم
حـمـلـوا رايـة الـجـهـاد لـفـتـح   الـغـيـث فـيـه لـلـطـغـاة الـتـخـوم
أيـنـمـا حـل ركـبـهـم كـان نـصـر   دونـه كـل مـا ادعـى الـتـنـجـيـم
نـال مـنـه الأنـام كـل نـعـيـم   لـم يـكـن مـثـلـه قـديـمًـا نـعـيـم

***

يـا رسـولا لـلـحـق أرسـى نـظـامًـا   بـك تـنـجـاب مـا ذكـرت الـهـمـوم
جـئـت بـالـحـب والـتـسـامـح والـعـد   ل بـشـيـرًا فـمـا اشـتـكـى مـظـلـوم
كـل مـا كـان حـكـمـة لـك يـنـمـي   وبـه أنـت لـلـزمـان الـحـكـيـم

***

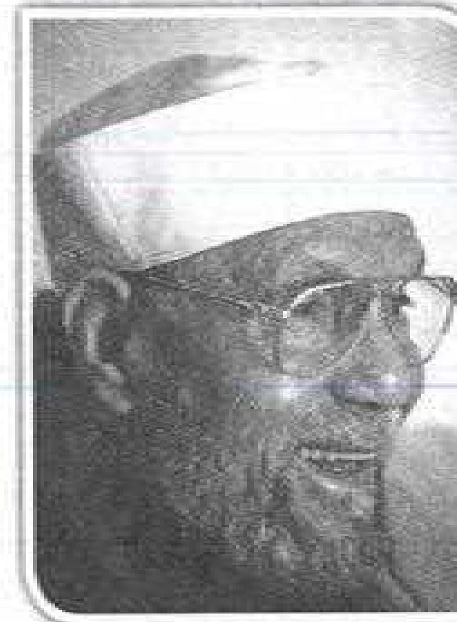
يـا رسـول الأنـام مـاذا تـرانـي   قـائـلاً فـيـك والـكـلام سـقـيـم!
لـم يـعـد يـبـعـث الـجـهـاد نـذيـر   رغـم أن الـردى عـلـيـنـا تـحـوم
هـا هـم الـنـاس بـعـد هـديـك ضـلـوا   وغـدا الـحـق مـا يـشـاء الـظـلـوم
وبـك الـيـوم قـد رجـوت إلـهـي   عـلـهـا تـنـقـضـي الـلـيـالـي الـحـسـوم
مـا سـوى شـرعـك الـحـنـيـف يـرجـي   لـزمـان قـد حـار فـيـه الـحـلـيـم
شـهـد الله، والـمـحـامـد تـنـبـي   أنـمـا تـهـجـك الـسـبـيـل الـقـويـم
سـاعـة لـو وعـاه مـن ضـل عـنـه   مـا تـشـكـي مـن حـاكـم مـحـكـوم
وأولـو الـحـرب لـو هـدوا لـتـلاقـوا   كـحـمـيـم قـد غـاب عـنـه حـمـيـم
وإذا الـخـصـم لـلـخـصـوم حـبـيـب   وسـوى الـخـيـر سـاعـة لا يـروم
وإذا الأرض بـالـسـلام جـنـان   لـيـس فـيـهـا مـن نـعـمـة مـحـروم
هـكـذا الله شـاء شـرعـك مـنـجـي   يـا رسـولاً بـكـل روح رحـيـم

بين المجلة والقارئ

للأستاذ / أحمد السيد تقى الدين

إمام الدعاة

نستحضر هذا الشهر كلمة لإمام الدعاة فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى رحمه الله نرد بها على من يقول بتكفير شعب مصر وجيشها:



"مصر الكنانة التى قال عنها رسول الله ﷺ أهلها فى رباط إلى يوم القيامة؛ من يقول عن مصر: إنها أمة كافرة؟ إذن فمن المسلمون؟ من المؤمنون؟ مصر التى صدرت الإسلام إلى الدنيا كلها، صدرته حتى إلى البلد التى نزل فيها الإسلام، هى التى صدرت للدنيا كلها علم الإسلام.

أما دفاعها عن الإسلام فتعود إلى التاريخ: من الذى رد همجية التتار؟ إنها مصر. من الذى رد هجوم الصليبيين عن الإسلام والمسلمين؟ إنها مصر!!

وستظل مصر دائمًا رغم أنف كل حاقد أو حاسد أو مُستغِل أو مُستقَل، أو مدفوع من خصوم الإسلام هنا أو خارج هنا"

حفظ الله مصر
حفظ الله جيش مصر
خير أجناد الأرض

عطية محمد عطية صقر

وتحت هذا العنوان جاءت رسالة الشيخ/خيري أبوالروس - إمام وخطيب ومدرس بمسجد كفر الجرايدة:



عطية صقر

ولد الشيخ عطية صقر في يوم الأحد ٤ من المحرم ١٣٣٣ هـ الموافق ٢٢ من نوفمبر ١٩١٤ م بقرية بهتيناي بمركز الزقازيق بمحافظة الشرقية بمصر، حفظ القرآن الكريم وعمره تسع سنوات، وجوّده بالأحكام وعمره عشر سنوات، والتحق بالمدرسة الأولية بالقرية، ثم بمعهد الزقازيق الديني سنة ١٩٢٨ م، وتخرج في كلية أصول الدين، وحصل منها على الشهادة العالية سنة ١٩٤١ م، والتحق بتخصص الوعظ، وحصل منه على شهادة العالمية مع إجازة الدعوة والإرشاد سنة ١٩٤٣ م وكان ترتيبه فيها الأول.

عين بالأوقاف فور تخرجه إمامًا وخطيبًا ومدرسًا، بمسجد عبد الكريم الأحمدي، بباب الشعرية بالقاهرة، في ١٦ من أغسطس سنة ١٩٤٣ م، ونقل إلي مسجد الأربعين البحري بالجيزة (عمار بن ياسر حاليًا) في فبراير سنة ١٩٤٤ م، ثم عين واعظًا بالأزهر سنة ١٩٤٥ م في طهطا جرجاوية، ثم في السويس، ثم في رأس غارب بالبحر الأحمر، ثم في القاهرة، ورقي إلي مفتش، ثم مراقب عام بالوعظ، حتى أحيل إلى التقاعد في نوفمبر سنة ١٩٧٩ م.

وعمل في أثناء ذلك مترجمًا للغة الفرنسية بمراقبة البحوث والثقافة بالأزهر سنة ١٩٥٥ م، ووكيلاً لإدارة البعوث سنة ١٩٦٩ م، ومدرسًا بالقسم العالي للدراسات الإسلامية والعربية بالأزهر، ومديرًا لمكتب شيخ الأزهر سنة ١٩٧٠ م، وأمينًا مساعدًا لمجمع البحوث الإسلامية.

وبعد التقاعد عمل مستشارًا لوزير الأوقاف، وعضوًا بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، وعضوًا بمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، ورئيسًا للجنة الفتوى، وانتخب عضوًا بمجلس الشعب سنة ١٩٨٤ م، وعين عضوًا بمجلس الشورى سنة ١٩٨٩ م، ومديرًا للمركز الدولي للسُّنة والسيرة بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالأوقاف سنة ١٩٩١ م.

تعاقد مع وزارة الأوقاف بالكويت سنة ١٩٧٢ م لمدة سبع سنوات، وسافر في رحلات إلى إيران، ثم أندونيسيا سنة ١٩٧١ م، وليبيا سنة ١٩٧٢ م، والبحرين سنة ١٩٧٦ م، والجزائر سنة ١٩٧٧ م، كما سافر في مهام رسمية بعد التقاعد إلى السنغال ونيجيريا وبنين والولايات المتحدة الأمريكية وباكستان وبنجلاديش والعراق، وزار باريس ولندن وماليزيا وبروناي وسنغافورة والاتحاد السوفيتي.

شارك الشيخ في البرامج الدينية

بالإذاعة والتليفزيون، ونشرت له الصحف والمجلات العديد من المقالات والفتاوى، وقام بالخطابة والوعظ، وعقد الندوات في دور التعليم والمؤسسات المختلفة، مع نشاطه في لجنة الفتوى، ومجمع البحوث الإسلامية، والمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، والرد على الاستفسارات الدينية تحريريًا وشفويًا.

أشهر فتاواه: أشهر فتاواه الحكم بربوية الفوائد البنكية ودفاعه عن ختان الإناث بأنه بين الوجوب والاستحباب وجاءت فتواه الشهيرة بتحريم مصافحة المرأة الأجنبية أثناء برنامجه التلفزيوني «فتاوى وأحكام» مما أوجد حالة من الجدل.

جوائزه: جائزة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى سنة ١٩٨٣م. نوط الامتياز من الطبقة الأولى سنة ١٩٨٩م.

مؤلفاته: للشيخ عطية صقر نحو ٣٠ مؤلفا أهمها: الدعوة الإسلامية دعوة علمية: وهو الكتاب الحاصل على جائزة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، كما أنه ألف كتابا من ٦ أجزاء حول الأسرة تحت رعاية الإسلام. ومن مؤلفاته أيضًا: دراسات إسلامية لأهم القضايا المعاصرة- الدين العالمي ومنهج الدعوة إليه- العمل والعمال في نظر الإسلام- الحجاب وعمل المرأة- البابية والبهائية تاريخا ومذهبا- فن إلقاء الموعظة.

وفاته: توفي يوم ٩ ديسمبر ٢٠٠٦ عن عمر يناهز الـ ٩٢ عاما ودفن في قريته بهنباي.

الغيبة والنميمة.. شر مايفسد المجتمع

تحت هذا العنوان جاءت رسالة الأستاذ/ إبراهيم مسلم النجار ـ مدير عام تنظيم وإدارة سابقا ـ سندنهور ـ قليوبية:

إن من أكبر ما ابتلينا به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا.. تلك الآفة الاجتماعية الخطيرة التي كرهها إلينا الإسلام ونبهنا إلى اجتنابها وهي الغيبة والنميمة فقد قال رب العزة سبحانه:

﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾

(الحجرات: ١٢)

وقد شبه سبحانه وتعالى الغيبة والنميمة في هذه الآية الكريمة بأنها أكل لحم من اغتيناه ليس حيا بل ميتا لأنه غير موجود في مجلسنا أثناء الحديث عنه.

ويشرح لنا معلم البشرية الأول محمد ﷺ معني الغيبة بقوله:

«أتدرون ما الغيبة؟ هي ذكرك أخيك بما يكره.. فقالوا: فإذا كان ما ذكره فيه؟ قال: فقد اغتبته وإن لم يكن فيه فقد بهته» أي ظلمته.. وهنا يظهر لنا معنى الغيبة وهي التحدث عن الناس بما يكرهون أن يقال عنهم.. وقد كان المسلمون الأوائل يخشون الوقوع في هذه العادة السيئة حفاظا علي طيب علاقاتهم بعضهم ببعض فقد حكي أن رجلا جاء إلي ابن «سيرين» وذكر له رجلا فقال (ذلك الرجل الأسود) ثم قال: استغفر الله إني قد اغتبته حيث رأي ابن سيرين أنه وصف الرجل بالأسود غيبة للرجل.. فما بالنا ونحن الآن نجد الكثيرين منا لا تخلو جلساتهم من الحديث عن الناس ونقد أفعالهم وأقوالهم ومابهم من سيئات ونقائص ولذلك فهم لا يخرجون من مجالسهم هذه إلا وهم يرتكبون أفدح السيئات والمعاصي وعن عقاب هؤلاء يقول المصطفي ﷺ:

(مررت ليلة أسري بي علي قوم ولهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوهم وصدورهم فقلت من هؤلاء يا أخي يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يغتابون الناس ويقعون في أعراضهم) إن العبادة ليست فقط في الصوم والصلاة.. إلخ بل هي أيضا في الكف عن الخوض في أعراض الناس وذكرهم في غيابهم بما يكرهون.. وآفة الغيبة لا تكون فقط بالقول بل قد تكون بالإشارة أو الإيحاء أو الهمزة أو الغمز أو بالكتابة كذلك.. وكل هذه سلوكيات يأباها البشر وينفرون منها.. وقد حدث أن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت للنبي ﷺ (حسبك من صفية) وأشارت بأنها قصيرة فغضب ﷺ وقال (ياعائشة إنك قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لعكرته).

إن الحاضر في جلسة الاغتياب لا يسلم من إثم الغيبة إلا أنه له ثواب عظيم إن دافع عن أخيه الغائب والذي يغتابه الناس أمامه فقد قال رسولنا الكريم ﷺ:

(من ذهب عن عرض أخيه بالغيب كان حقا على الله أن يعتقه من النار)

إن اجتناب هذه الآفات فيه صلاح للمجتمع ودعم لتماسكه ونشر الاحترام والحب المتبادل بين فصائله اقتداء بالرسول الكريم وقوله (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) لأن آفة الغيبة آفة أخلاقية سيئة ندعو الله سبحانه أن يخلصنا منها وصدق من قال:

وإذا أصيب القوم في أخلاقهم
فأقم عليهم مأتما وعويلا

وكان متكئًا فجلس..!

وتحت هذا العنوان جاء مقال الشيخ/مصطفي الأزهري- إمام وخطيب مسجد سوق الحمام- السيدة عائشة- القاهرة قال فيها:

عن عبدالرحمن بن أبي بكرة عن أبيه، قال: «كنا عند رسول الله ﷺ فقال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ ثلاثا: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور- أو قول الزور- وكان متكئًا فجلس، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت» رواه مسلم.

كثيرًا ما سمعنا من الخطباء والوعاظ عن الآثام والذنوب، صغيرها وكبيرها مستدلين بقوله تعالي:

﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾

(النساء: ٣١)

﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ﴾

(النجم: ٣٢).

وقد شرع العلماء في كتب العلم إلي تقسيم الذنوب إلي صغائر وكبائر كالإمام الذهبي وابن حجر الهيتمي وغيرهما، لكن نادرًا ما يتعرض الدعاة - في ظني - إلي ما فوق الكبائر، وهي الأخطر والأدهي في دين الله وهي التي وردت في الحديث السالف ذكره، مما جعل سيد الأنبياء محمد «صلوات الله عليه» يبدأه بأداة التنبيه «ألا» ليأخذ بمسامع الأمة ويهز وجدانهم وينبههم لخطورة ما سيأتي في حديثه من ذنوب لا هي من الصغائر ولا من الكبائر، بل هي «أكبر الكبائر»، ثم بدأها ﷺ بأكبر جريمة يقترفها العبد المخلوق في حق ربه الخالق - جل وعلا - وهي «الإشراك بالله»، كما قال تعالي:

﴿ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾

(لقمان: ١٣)

ثم كانت الثانية، لا هي «الزنا» ولا (السرقة) ولا حتي (القتل) - ولكنها - قطعًا - من الموبقات، بل كانت الجريمة الثانية بعد - الإشراك بالله -.

«عقوق الوالدين» وذلك ليهز في الأبناء ضمائرهم، ويوقظ وجدانهم وينبههم إلي الحذر من عقوق أبويهم وهي جريمة غير ممكنة الحدوث ممن عرف مقام ربه، وذاق طعم التوحيد، وابتغي إلي ربه سبيلا.

ثم تأتي ثالثة الكبائر التي اعتدل لها النبي الكريم - عليه السلام - في مجلسه وظل يكرر التحذير منها بقوله: ألا وشهادة بالزور - أو قول الزور حتي قال الجالسون (ليته سكت)، فالإشراك بالله - علي فحشه - لا يضر غير صاحبه، ولا يضر الله شيئًا، وعقوق الوالدين - علي بشاعته - مسألة عائلية (خاصة) أما شهادة الزور فهي جرم اجتماعي يؤدي بالمجتمع إلي السير في (الاتجاه المعاكس) للحق والحقيقة، ومن ثم يفقد شخصيته السياسية والاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية، إذ - بالزور - يفشو الكذب ويؤسس لعلاقات اجتماعية علي سوء الظن والتدليس والتخوين وافتراض أي أمر علي غير أصله وحقيقته مما يلزم الناس - نفسيًا - ألا تصدق الأسعار ولا الأخبار حتي لو أقسم عليها القاصي والداني بأغلظ الأيمان، وهذا يؤدي بدوره إلي الحضور الطاغي لمجتمع (متخلف) محليًا ودوليًا ولو ادعي (أهل الزور) ألف مرة أنهم صادقون ومن هنا قالها النبي ﷺ: «وكان متكئًا فجلس.. ألا وشهادة الزور - أو قول الزور».

ولقد سبقت كلمة القرآن الكريم بهذا التحذير الرباني في قوله تباركت أسماؤه:

﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾

(الحج: ٣٠)

الإسلام وحرمة الدماء

د/ السيد محمد السيد عبد النبي
الأمين العام المساعد للثقافة الإسلامية بالأزهر الشريف

الإسلام فى اللغة: الانقياد يقال أسلم يعنى انقاد وصار مسلمًا، وأسلم يعنى دخل فى دين الإسلام.

والإسلام فى الشرع: الخضوع والانقياد والطاعة، لما أخبر به النبى ﷺ فى كل ما جاء به عن الله تعالى.

(انظر القاموس المحيط ولسان العرب والمصباح المتير وقواعد اللغة للبركى والتعريفات للجرجانى).

والحرمة كما يقول علماء اللغة: بضم الحاء وسكون الراء هى: ما لا يحل انتهاكه، وهى الذمة، وهى كذلك المهابة، وجمعها حرمات.

والدماء عرفها فقهاء الشريعة: أنها جمع دم، وهو سائل أحمر فى عروق الحيوان، وقسموه إلى مسفوح وعبيط ومحترق، يقال: أدمى فلانًا، إذا ضربه حتى خرج منه الدم، ودمَّ فلانًا: إذا عذبه عذابًا ما، ويقال: دم القوم: إذا طحنهم فأهلكهم كـ (دمدم) عليهم.

انظر القاموس المحيط والمعجم الوسيط وقواعد اللغة للبركى.

وهذا التعريف فى جملته يدل دلالة قاطعة على أن الدماء لا يحل انتهاكها فى الإسلام لأن لها حرمة وذمامًا.

من أعظم ما جاء به الإسلام وأكده رسول الله ﷺ هو العناية بالنفس الإنسانية وتحريم الاعتداء عليها من غير حق مهما كان صاحب هذه النفس غنيًا أو فقيرًا، قويًا أو ضعيفًا، رجلاً أو امرأة، أميرًا أو مملوكًا، أبيض أو أسود، عاقلاً أو غير عاقل، وذلك بشكل كبير ودعا للحفاظ عليها.

وقد حملت لنا السنة الشريفة الكثير من المواقف التى حث فيها رسول الله ﷺ على حماية النفس الإنسانية ونهى عن التعدى عليها.

ومن هذه المواقف ما قاله النبى ﷺ فى حجة الوداع «يا أيها الناس إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا فى شهركم هذا»، وقد جاء قول النبى ﷺ «يا أيها الناس» ليؤكد لنا أن رسالة الإسلام رسالة للناس جميعًا وليس للمسلمين وحدهم، وهذه الرسالة تعلى من قيمة

الإنسان، وتحفظ حقوق كل الناس، فلم تميز نفسًا على نفس، وهذا يؤكد أن حرمة النفس مقدسة في الشريعة الإسلامية.

وبهذا فإن الإسلام ليس دين حرب أو دمار وقتل أبرياء وإراقة دماء ويحارب أتباع الأديان الأخرى، ولكنه دين سماحة وعدل ودين تراحم وتآخ، ويتعاون مع جميع الأمم والشعوب فيما فيه صالح البشرية وتقدمها ورفاهيتها، دين يدعو إلى الأخوة الإسلامية بين المسلمين جميعا قال تعالى:

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾

[الحجرات: ١٠]

ويقول الحبيب ﷺ «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحقره ولا يخذله»

(رواه مسلم في صحيحه)

وكان في طليعة أعماله ﷺ في المدينة المنورة المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار وكذلك يدعو الإسلام إلى الأخوة بين البشر جميعا مسلمهم وغير مسلميهم فقال جل ذكره:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾

(الحجرات: ١٣).

وقال:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾

(النساء: ١)

التأكيد على تحريم الدماء في الإسلام

إن منهج الدعوة الإسلامية يقوم على الرفق واللين والرأفة والرحمة، ولا يقوم على الشدة والغلظة والعنف والإرهاب وسفك الدماء قال تعالى:

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾

(البقرة: ٢٥٦)

وقد رسم القرآن الكريم منهج الدعوة بقوله:

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾

(النحل: ١٢٥).

والدعوة بالحكمة تعني الخطاب الذي يقنع العقول بالحجة والبرهان. والموعظة الحسنة تعني الخطاب الذي يستميل العواطف ويؤثر في القلوب رغبا ورهبا والجدال بالتي هي أحسن يعني الحوار مع المخالفين بأحسن الطرق، وأرق الأساليب التي تقربهم ولا تبعدهم.

ولا أدل على ذلك من القرآن الكريم الذي يعرض لنا قصص الرسل وكيف خاطبوا أقوامهم.

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾

[الشعراء: ١٠٥، ١٠٦].

وكذلك حديث القرآن عن موسى وهارون مع فرعون، وبهذا حرم الإسلام أن تسفك الدماء تحريما قاطعًا إلا بحقها. إن المؤمن لا يزال في فسحة من دينه ورجاء رحمة من ربه وإن ارتكب الكبائر ما لم يباشر دما حرامًا، فإذا ما تردى في هذه الخطيئة وقتل نفسًا بغير نفس أو حق، ضاقت عليه المسالك ودخل في زمرة الآيسين من رحمة الله.

روى ابن عمر عن رسول الله ﷺ «لن يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دمًا حرامًا» (رواه البخاري) وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ «من أعان على قتل مؤمن ولو بشطر كلمة لقي الله مكتوبًا بين عينيه آيس من رحمة الله» (دليل الفالحين بطرق رياض الصالحين)

وروى البخاري كذلك عن ابن عمر بسنده قال: إن من ورطات الأمور التي لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها سفك الدم الحرام بغير حله.

والورطات جمع ورطة وهي الهلاك. وسفك الدم إراقته والمراد إراقته بأي صفة كان.

وفي الحديث المتفق عليه عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ «أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء» أي الدماء التي وقعت منهم في الدنيا، والبداءة تكون بالأهم، وإعدام البنية الإنسانية غاية في الذم لأن الآدمي «بنيان الله، ملعون من هدمه»، وفي رواية «ملعون من هدم بنيان الرب». والإسلام حرم القتل العمد أي العدوان على النفس التي حرم الله إلا بالحق قال تعالى:

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾

(الأنعام: ١٥١).

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: إني في النقباء الذين بايعوا رسول الله ﷺ، بايعناه على أن لا نشرك بالله شيئًا ولا نسرق ولا نزني ولا نقتل النفس التي حرم الله.. وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «أكبر الكبائر: الإشراك بالله وقتل النفس، وعقوق الوالدين وقول الزور أو قال وشهادة الزور» (فتح الباري ١٢ / ١٩١)

قتل النفس المحرمة كقتل الناس جميعًا: سورة المائدة تبين أول جريمة قتل وقعت على ظهر الأرض قال تعالى:

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾

(المائدة: ٢٧)

وخص بني إسرائيل بالذكر وقد تقدمتهم أمم سابقة كان قتل الناس فيهم محظورا، لأنهم أول أمة تنزل عليهم الوعيد في قتل الأنفس مكتوبًا وكان قبل ذلك قولاً مطلقًا، فغلظ على بني إسرائيل بالكتاب حسب طغيانهم وسفكهم الدماء وقد حرم الله القتل إلا بإحدى ثلاث: كفر بعد إيمان أو زنا بعد إحصان أو قتل نفس ظلمًا تعديًا، وقوله:

﴿ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾

(المائدة: ٣٢)

وقد اختلف المفسرون في المعنى؛ فروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: المعنى من قتل نبيًا أو إمامًا عدلا فكأنما قتل الناس جميعًا، ومن أحياها بأن شد عضده ونصره فكأنما أحيا الناس جميعًا، ومن ترك قتل نفس واحدة وصان حرمتها خوفًا من الله فهو كمن أحيا الناس جميعًا.

وقيل المعنى أن من قتل نفسًا فالمؤمنون كلهم خصماؤه لأنه قد وتر الجميع، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعًا، فيجب شكره على الكل.

قتل النفس والأولاد: نهى الله جل جلاله عن قتل النفس مهما كانت البواعث والأسباب قال تعالى:

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾

(النساء: ٢٩)

وكذلك النهي الصريح عن قتل الأولاد وتحريم ذلك تحريمًا قاطعًا، وكان قد ظهر في العرب قتل الأولاد ووأد البنات خشية العار أو الفقر فنزل القرآن الكريم:

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾

(الإسراء: ٣١)

قتل الجماعة بالواحد: وعن حرمة الدماء المصونة ومكانتها عند ربها وخالقها جاءت النصوص

تقضى بأن تقتل الجماعة بالواحد، ومن ذلك ما رواه نافع عن ابن عمر أن غلامًا قتل غيلة فقال عمر: لو اشترك فيها- أى فى جريمة قتله- أهلُ صنعاء لقتلتهم جميعًا وقال رسول الله ﷺ: «لو أن أهل السماء وأهل الأرض اشتركوا فى دم مؤمن لأكبهم الله فى النار». (رواه الترمذى جـ٢ ص٤٢٧ رقم ١٤١٩).

وقال «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم».. أى أحقر وأسهل عند الله. [تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى جـ٤ ص٦٥٢-٦٥٣].

قال الطيبى: الدنيا عبارة عن الدار القربى التى هى معبر للدار الأخرى ومزرعة لها، وما خلقت السموات والأرض إلا لتكون مسارح أنظار المتبصرين، ومتعبدات الطائعين، فمن حاول قتل من خلقت الدنيا لأجله فقد حاول زوال الدنيا. (تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى ٤ / ٦٥٢-٦٥٣).

الإسلام ليس دين إرهاب أو عدوان:

الإسلام ليس دينًا للإرهاب أو للعنف أو التخويف أو العدوان، والإرهاب والتخويف لا يكونان إلا من الله تعالى قال الله عز وجل:

﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾

(البقرة: ٤٠)

والإرهاب ليس له دين ولا وطن، بل هو بلوى عامة أصيبت بها الأمة، والإرهابيون هم الذين يسلكون سبل العنف والإرهاب لتحقيق أهدافهم، هم بذلك ليسوا من الإسلام فى شىء، والذين يسلكون سبيل العنف والإرهاب لترويع الآمنين أو لتحقيق أهداف يزعمون أنها دينية ليسوا من الإسلام فى شىء، بل هم إما منحرفون بالإسلام أو منحرفون عن الإسلام، ذلك أن الخوف فى الإسلام لا يكون إلا من الله، كما أن إعداد العدة للإرهاب لا تكون إلا لأعداء الله قال تعالى:

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾

(الأنفال: ٦٠)

ولقد نهى الإسلام عن تخويف المسلم وترويعه بأى صورة من الصور، روى البخارى فى صحيحه بسنده عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «لا يشير أحدكم على أخيه بالسلاح فإنه لا يدرى لعل الشيطان ينزغ فى يديه فيقع فى حفرة من حفر النار»..

(البخارى ٩ / ٦٢)

ولما ورد فى حديث أبى سلمة «الملائكة تلعن أحدكم إذا أشار إلى الآخر بحديدة، وإن كان أخاه لأبيه وأمه» رواه النسائى ٧ / ١٢٤.

والإسلام بهذا يحرم تعاطى الأسباب المفضية إلى أذية المسلم بكل وجه، ويحرم العدوان والبغى والظلم. والعدوان هو تجاوز الحد. والظلم وضع الشىء فى غير موضعه.. وقد حرمه الله على نفسه كما حرمه على عباده، جاء فى الحديث القدسى الذى رواه المعصوم ﷺ عن ربه: «يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا» صحيح مسلم ج٤ ص١٩٩٥ رقم ٥٥ / ٢٧٢٥.

وأمر الله عباده المؤمنين بعدم الظلم فقال سبحانه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾

(النساء: ٢٩)

وأخبر سبحانه وتعالى أنه لا يفلح الظالمون قال تعالى:

﴿قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَامِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾

(الأنعام: ١٣٥)

والله أخبر أنه لا يزيد الظالمين إلا خسارًا.

قال تعالى:

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا﴾

(الإسراء: ٨٢)

إلى آخر ما جاء فى النصوص الإلهية التى تحرم الظلم والبغى والعدوان وتجاوز الحد فكيف يتسنى لمسلم مع كل هذه النصوص أن يستبيح شيئًا من ذلك وفى قلبه وهج الإسلام ونوره؟!

فقه جماعات العنف: تعتمد جماعات العنف فى فقهها على المتشابهات وترك المحكمات وتستند إلى الجزئيات وتهمل الكليات، وتتمسك بالظواهر وتغفل المقاصد، وتضع الأدلة فى غير موضعها وتخرجها عن سياقها وإطارها، ولكن على كل حال لها فقه مزعوم يبرر العنف ويروج لدى بعض الأغرار من الشباب والسطحيين من الناس.

وأساس ذلك فقه الخوارج قديمًا الذين كانوا يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم كما صحت بذلك الأحاديث.

وهذه الجماعات تبرر العنف معتمدة على زعمها بأن الحكومات حكومات كافرة لأنها تحكم بغير ما أنزل الله، وأنها توالى أعداء الله، وتعادى أولياءه من دعاة الإسلام وذلك حسب زعمهم.

ولكن يرد عليهم بأنها دعاوى باطلة، لأن الحكومات أعلنت أن دينها الإسلام وأنها تنشئ المساجد لإقامة الصلاة ويبنون المعاهد الدينية ويعينون الأئمة والخطباء، لإقامة الشعائر بالمساجد، وتقوم الحكومات كذلك ببناء الكليات الشرعية لتعليم أبناء المسلمين وعلى الأخص الأزهر الشريف الذى يفد إليه جميع الطلاب من شتى الدول الإسلامية والعربية وغيرها من بلدان العالم، وكذلك الاحتفال بشهر رمضان وعيد الفطر وعيد الأضحى. كذلك إنشاء إذاعات للقرآن الكريم إلى غير ذلك من المظاهر الدينية التى تثبت إسلامية الدولة.

وتعتمد كذلك هذه الجماعات فى تبريرها للعنف على أن هناك بعض المنكرات الظاهرة من الخمر والميسر والخلاعة ويسوقون لذلك الحديث الشريف: «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان».

ويغفل هؤلاء الضوابط الشرعية اللازمة لتغيير المنكر بالقوة التى قررها العلماء.

وبعض هذه الجماعات تنظر إلى المجتمع كله على أنه يأخذ حكم هذه الأنظمة التى رضى بها وسكت عنها ولم يحكم بكفرها والقاعدة التى يزعمونها: إن من لم يكفر الكافر فهو كافر.

وبهذا توسعوا وغلوا فى التكفير وكفروا الناس بالجملة وعلى هذا لا يبالون بمن يقتل من هؤلاء المدنيين الذين لا ناقة لهم ولا جمل لأنهم كفروا فحلت دماؤهم وأموالهم هذا هو فقه جماعات العنف باختصار شديد، وعلى أساسه ارتكبوا ما ارتكبوا من مجازر يشيب لهولها الولدان وتقشعر من بشاعتها الأبدان ضد مواطنيهم من مسلمين وغير مسلمين وضد السياح وغيرهم من الأجانب المسالمين، ولا نزال إلى الآن نرى ونسمع دوى الانفجارات والسيارات المفخخة هنا وهناك وآخرها الحادث التفجيرى البشع فى محافظة الدقهلية فى مديرية

الأمن الذى خلف وراءه شهداء وجرحى، وتدمير للمنشآت وكذلك تفجير مبنى المخابرات العسكرية بإنشاص بالشرقية وهذا قليل من كثير.

والذى مما لا شك فيه أن هذا فقه أعوج وفهم أعرج يعتوره الخلل من كل جانب، ويحتاج من علماء الأمة إلى وقفة علمية متأنية لمناقشتهم فى هذه الأفكار والرد عليها فى ضوء الأدلة الشرعية من القرآن والسنة وما أجمعت عليه هذه الأمة.

العدوان على غير المسلمين: يعتقد البعض أن النهى عن ترويع المسلمين أو إخافتهم أو أذيتهم خاص بهم فقط وهذا ادعاء فى غير محله، لأن غير المسلمين المستظلين بحماية المسلمين وفى المجتمع المسلم، لهم من الحفظ والرعاية ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين دون نقص ولا شطط، لأن الإيمان ثوابه على الله تعالى ولو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء لهوانها على الله تعالى. روى الترمذى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «ألا من قتل نفسًا معاهدة له- أى لهذا الشخص المعاهد ذمة الله وذمة رسوله- فقد أخفر بذمة الله فلا يرح رائحة الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين خريفًا» فتح البارى ج٢ (ص) ٢٥٩.

وروى الإمام أحمد عن أبى بكر أن رسول الله ﷺ قال: «من قتل معاهدًا فى غير كنهه -حقه- حرم الله عليه الجنة» مسند أحمد ج٤ ص٢٣٧.

وفى رواية لأبى داود «من قتل رجلاً من أهل الذمة لم يرح ريح الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين عامًا» النسائى ٨ / ٢٤ وأحمد ٥ / ٢٩.

وذلك كله مما وصانا به ربنا فى الآيات من رقم ١٥١ إلى ١٥٣ من سورة الأنعام، والوصية كما قال القرطبى: «أمر مؤكد». تفسير القرطبى ٧ / ١٣٤.

ومن هنا يتبين أن المسلم وغيره فى تحريم الدم سواء.

الإذن بالقتال المشروع وحرمة التمثيل بالقتلى: قال تعالى:

﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ﴾

(البقرة: ١٩٠)

أى قاتلوا الذين يقاتلونكم، ولا تعتدوا. ولهذا عندما رأى النبى صلى الله عليه وسلم امرأة مقتولة فى بعض الغزوات أنكر ذلك. كان من وصاياه لا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا، وحينما قتل سيدنا أسامة بن زيد رجلاً قال أشهد أن لا إله إلا الله فى إحدى الغزوات عنفه النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول ما قالها إلا خوفا من السيف. فقال: هلا شققت عن قلبه، وكان الخلفاء الراشدون من بعده على نهجه، فلقد أوصى أبو بكر قائده يزيد بن أبى سفيان حين وجهه إلى الشام أن لا يقتل صبيا ولا امرأة ولا هرمًا، ونهى أبو بكر عن قتل الرهبان فى صوامعهم.

وبهذا نهى، النبى صلى الله عليه وسلم عن التمثيل تكريمًا للآدمى الذى هو بنيان الله.. وفى الحديث نهى النبى عن المثلة حتى فى القتال المشروع.

وخلاصة الأمر أن الحرب فى الإسلام لا يقصد بها إلا من قاتل، فكيف بمن يستحلون الدماء ويقتلون الأبرياء ويعتدون على المنشآت ويروعون الآمنين، بل وزاد الطين بلة التمثيل بالجثث زعمًا من جماعات العنف أن هذا من قبيل الجهاد، وهذا ليس من الإسلام فى شىء بل انحراف عنه.

هذا والله ولى التوفيق.

أنباء الأزهر

إعداد الأستاذين:
محمود الفشنى - عبدالموجود أمين

هيئة كبار العلماء: مشروع الدستور ليس فيه شىء ينال من الشريعة الإسلامية


أ.د أحمد الطيب

اجتمعت هيئة كبار العلماء السبت ١٠ من ربيع الأول ١٤٣٥هـ الموافق ١١ من يناير ٢٠١٤م وانتهت الهيئة فى اجتماعها إلى البيان التالى موجهًا لشعب مصر العظيم:

لقد شارك الأزهر فى لجنة إعداد مشروع الدستور بفريق من علمائه، واطمأن إلى أنه ليس فى الدستور ما يُخالف دين الله تعالى، أو أحكام الشريعة الإسلامية، وما كان لعلماء الأزهر أن يقرُّوا شيئًا يُخالف دين الله؛ ولذلك يدعو الأزهر المواطنين إلى المشاركة فى الاستفتاء، مع الاطمئنان إلى أنَّ الدستور ليس فيه شىء ينال من الشريعة الإسلامية، ويهيب الأزهر بالشعب المصرى ألا يلتفت إلى الفتاوى التى تحرِّم الخروج للاستفتاء أو تُبيح الدماء؛ فإنها فتاوى باطلة شرعًا وعقلاً.

الإمام الأكبر يتلقى رسالة خطية من أمير الكويت

قام مبعوث أمير الكويت نائب وزير شئون الديوان الأميرى الشيخ على الجراح، يوم الثلاثاء ١٣ من ربيع الأول ١٤٣٥هـ الموافق ١٤ من يناير ٢٠١٤م، بتسليم رسالة خطيّة من سمو الشيخ صباح الأحمد الجابر الصباح، أمير دولة الكويت، إلى فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب، شيخ الأزهر الشريف، تضمّنت دعوة فضيلته لزيارة دولة الكويت.

وقال الشيخ على الجراح: تشرفت اليوم بمقابلة فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب، لنقل رسالة صاحب السمو الشيخ صباح الأحمد الجابر الصباح إلى فضيلته والمتضمنة دعوة خاصة لزيارة الكويت.

وأضاف: نقلت إلى فضيلة شيخ الأزهر تحيات صاحب السمو أمير البلاد، وتطرقنا إلى العلاقات الطيبة بين الأزهر الشريف والكويت ومؤسساتها الدينية.

وأشاد الشيخ على بالدور الكبير الذى تؤدِّيه المؤسسة الدينية الإسلامية العريقة إزاء القضايا الإسلامية، معتبرًا اللقاء مع شيخ الأزهر مكسبًا كبيرًا.

وحول التعاون بين الأزهر الشريف والمؤسسات الدينية فى الكويت أوضح الشيخ على الجراح أنّ العلاقة بين الأزهر والمؤسسات الكويتية طيبة للغاية، وهى مستمرة ولم تنقطع، لا سيما وأنها تعود إلى بداية حقبة الخمسينيات من القرن الماضى.

كما رحّب فضيلة الإمام الأكبر بمبعوث سمو أمير الكويت الشيخ علي الجراح، وأعرب عن تقديره لرسالة حضرة صاحب السمو أمير الكويت وتقديره الخاص وتقدير الأزهر للتعاون والدعم الدائم والمواقف المشرّفة للكويت الشقيقة مع مصر، كما أعرب عن اعتزازه بالتعاون العلمي والثقافي بين الأزهر الشريف ودولة الكويت الشقيقة.

اجتماع عاجل وطارئ لمجلس إدارة الجامع الأزهر

دعا فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب، شيخ الأزهر الشريف، مجلس إدارة الجامع الأزهر لعقد اجتماع طارئ وعاجل لبحث سُبل تطوير وترميم الجامع الأزهر على كافة المستويات؛ تمهيدًا لتطبيق الخطة العلمية والدعوية بالجامع الأزهر؛ ليكون مركزًا للإشعاع العلمي والدعوي، وفق المنهج الأزهري الوسطي.

انعقد الاجتماع بمقرّ الجامع الأزهر، وبحضور كلٍّ من: المهندس إبراهيم محلب، وزير الإسكان، والدكتور محمد إبراهيم، وزير الدولة لشؤون الآثار، والدكتور جلال مصطفى سعيد، محافظ القاهرة.

وتجدر الإشارة إلى أنّ مجلس إدارة الجامع الأزهر يتشكّل برئاسة الأستاذ الدكتور عباس شومان، وكيل الأزهر، والأستاذ الدكتور محمد مختار جمعة، وزير الأوقاف، والأستاذ الدكتور شوقي علام، مفتي الجمهورية، والمستشار محمد عبدالسلام، المستشار القانوني لفضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر، والأستاذ مؤمن متولي، الأمين العام للمجلس الأعلى للأزهر.

الاجتماع الثاني عشر للجنة التعاون المشترك بين الأزهر الشريف وورازة الأوقاف والشئون الدينية بسلطنة عمان

عقد خلال الفترة من ٢٠ - ٢٣ صفر ١٤٣٥هـ الموافق ٢٣ - ٢٦ من ديسمبر ٢٠١٣م الاجتماع الثاني عشر للجنة التعاون المشترك بين الأزهر الشريف ووزارة الأوقاف والشئون الدينية بسلطنة عمان، تحت رئاسة معالي الأستاذ الدكتور/ عباس شومان وكيل الأزهر للجانب الأزهري، وسعادة الشيخ/ أحمد بن سعود السيابي الأمين العام بمكتب المفتي العام للسلطنة عن الجانب العماني، وكان مقر الاجتماع بقاعة الاجتماعات بمشيخة الأزهر الشريف.

وقد افتتح الاجتماع معالي الأستاذ الدكتور/ عباس شومان وكيل الأزهر باسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ثم رحب بالوفد العماني في بلدهم الثاني مصر متمنيا لهم دوام الصحة والعافية وإقامة سعيدة بمصر، كما أكد على صلة الود والتعاون بين مصر والسلطنة منذ أمد بعيد وعمق الترابط التاريخي بين البلدين الشقيقين.

ثم تحدث سعادة الشيخ/ أحمد بن سعود السيابي الأمين العام بمكتب المفتي العام للسلطنة رئيس الوفد العماني عن عمق العلاقات بين البلدين مؤكـدًا على الدور الكبير الذي يقوم به الأزهر الشريف في كافة المجالات التي من شأنها توحيد الأمة الإسلامية وجمعها على كلمة سواء باعتباره أعلى مرجعية دينية في العالم الإسلامي، كما شكر الأزهر الشريف والقائمين عليه على ما حظي به الوفد من حسن استقبال وكرم ضيافة.

وبعد ذلك تم تداول جدول أعمال الاجتماع وإضافة بنود جديدة عن الاجتماع السابق منها:

١ - طباعة مخطوط فقهي بعنوان «الإيضاح في الأحكام» في القضاء والسياسة الشرعية لأبي زكريا يحيى بن سعيد النزوى بالتعاون مع الأزهر.


د. عباس شومان

٢ - الاطلاع على تجربة التعليم الشرعي عن بعد لجامعة الأزهر، ووضع الآليات الكفيلة للتعاون في هذا المجال سواء من حيث تبادل الخبرات العلمية والفنية.

٣ - مقترح إقامة أسبوع ثقافي ديني بين الوزارة والأزهر يتم فيه عرض المطبوعات والمنشورات وإلقاء المحاضرات في مواضيع سيتم تحديدها لاحقا ويكون في جمهورية مصر العربية.

٤ - مشروع استكتاب جديد بعنوان «جهود علماء عمان والأزهر في التقريب بين المذاهب الإسلامية» حسب المحاور الآتية:

المحور الأول: الأسس العامة للتقريب.

المحور الثاني: رسالة التقريب عند علماء عمان.

المحور الثالث: رسالة التقريب عند علماء الأزهر.

المحور الرابع: نماذج تطبيقية من جهود علماء عمان والأزهر في التقريب.

بروتوكول تعاون بين الأزهر والأوقاف والشباب لتحقيق الأمن الفكري للمجتمع المصري

أناب فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر فضيلة الدكتور عباس شومان وكيل الأزهر لتوقيع بروتوكول التعاون بين مشيخة الأزهر ووزارة الأوقاف ووزارة الشباب بهدف تحقيق الأمن الفكري للمجتمع المصري.

ويهدف البروتوكول الذي تم توقيعه من قبل كل من الدكتور عباس شومان وكيل الأزهر والدكتور محمد مختار جمعة وزير الأوقاف والمهندس خالد عبد العزيز وزير الشباب إلى تعزيز التعاون المشترك بين مؤسسة الأزهر الشريف ووزارة الشباب، من أجل رعاية النشء والشباب اجتماعيًا وثقافيًا وسياسيًا وعلميًا ورياضيًا وروحيًا من خلال دمجهم في البرامج والمشروعات، ورفع مستوى الانتماء والولاء للوطن في نفوس النشء والشباب وتصحيح المفاهيم الخاطئة مع نشر قيم التسامح وقبول الآخر وغرس وإنماء منظومة القيم المميزة للشخصية المصرية.

خلال لقائه مفتي أوكرانيا.. شومان: الأزهر حريص على خدمة الأقليات الإسلامية

بحث فضيلة الدكتور عباس شومان وكيل الأزهر، والشيخ أحمد تميم - مفتي أوكرانيا - سبل تدعيم العلاقات العلمية والثقافية بين مشيخة الأزهر ودار الإفتاء بأوكرانيا، وكيفية الاستفادة من الخبرات العلمية لمؤسسة الأزهر الشريف في تعليم الطلاب، وكذلك إنشاء معهد أزهري في أوكرانيا عن طريق الاتفاق مع الجهات الرسمية في الدولة، بالإضافة إلى الاستفادة من جهود مبعوثي الأزهر في نشر صحيح الدين الإسلامي بما يضمن نشر الوسطية والاعتدال بعيدًا عن فكر الجماعات التي تحاول تشويه صورة الإسلام، من خلال أفكار بعيدة كل البعد عن سماحة الإسلام.

وأكد وكيل الأزهر خلال اللقاء أن توجيهات فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب - شيخ الأزهر - تهدف إلى خدمة الإسلام والمسلمين في كافة أنحاء العالم وخاصة الأقليات الإسلامية كجزء أصيل من رسالة الأزهر العالمية، والتي تهتم بقضايا العالم الإسلامي من خلال الدعم العلمي والثقافي دون التدخل في أي أمر سياسي لتلك الدول؛ لأن الأزهر مؤسسة لا تقحم نفسها في السياسة.

كما أكد الدكتور شومان على دعم مؤسسة الأزهر لأى مؤسسة أو فكرة أو مشروع يضيف ويوضح حقيقة الشريعة الإسلامية، سواء كان المشروع من الأزهر أو خارج الأزهر شريطة أن يكون معترفا به رسميًا فى دولته.

ومن جانبه، عرض مفتى أوكرانيا المساعدة مع مؤسسة الأزهر فى تنقية بعض الترجمات الروسية التى يوجد بها أخطاء تشوه حقيقة الدين الإسلامي، مؤكدًا حاجة المؤسسات الإسلامية فى كل مكان فى العالم لجهود الأزهر الشريف.

عزب يلتقى وفدًا من كبار المفكرين الفرنسيين بمقر المشيخة

أناب فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب، شيخ الأزهر، الدكتور محمود عزب، مستشار شيخ الأزهر لشئون الحوار ومنسق بيت العائلة المصرية، لاستقبال وفد من كبار الأساتذة والمفكرين من جامعات فرنسا ومن مراكز البحث العلمي بباريس، المكلفين من وزارة الخارجية الفرنسية بزيارة لمصر.

وخلال اللقاء نقل إليهم الدكتور محمود عزب تحية الأزهر وفضيلة الإمام الأكبر، وتناول معهم دور الأزهر الوطنى والدينى فى هذه المرحلة وأجاب عن أسئلتهم، موضحًا لهم الكثير من الحقائق والرد على الإعلام المحرض والمغلوط، مشيرًا إلى أن وقوف الأزهر بجوار إرادة الأمة المصرية كعادته في اللحظات الانتقالية، وهو حارس الإسلام الوسطى والأمين على التراث، وهو يتواصل علميًا مع جامعات العالم ومفكريه المنصفين، ويفتح أبوابه لكل حوار موضوعى ومنصف وبناء، وأن مصر ماضية على طريق استكمال أهداف ثورتها وتحقيق كرامتها

الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية يستقبل وفدًا كويتيًا

استقبل فضيلة الشيخ / محمد زكى الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية يوم الاثنين ٥ من ربيع الأول ١٤٣٥هـ الموافق ٦ يناير ٢٠١٤م وفدًا من دولة الكويت الشقيقة يمثل الهيئة العامة للعناية بطباعة ونشر القرآن الكريم والسنة النبوية وعلومهما- وهى هيئة حكومية تابعة لوزارة الأوقاف والشئون الدينية بالكويت وقد تشكل هذا الوفد من :-

١ - الدكتور/ فهد الديحاني- نائب المدير العام للبحوث والدراسات وكيل وزارة مساعد.
٢ - الشيخ/ طلال العتيبي- مدير الشئون المالية والإدارية.
٣ - الشيخ/ سعد الشنفا- رئيس قسم المصادر والمعلومات.
٤ - الشيخ/ خليل المرشود- رئيس قسم دارسي علوم السنة.

وقد بدأ اللقاء بترحيب فضيلة الأمين العام بالوفد وبيان مكانة الأزهر الشريف وعراقة تاريخه ووسطيته. ثم تحدث رئيس الوفد الكويتى فقدم الشكر للأزهر الشريف ممثلا فى مجمع البحوث الإسلامية مبينا أنهم جاءوا ممثلين للهيئة العامة للعناية بطباعة ونشر القرآن الكريم والسنة النبوية وعلومهما وهم يريدون الاستفادة من تجربة الأزهر الشريف فى مجال طباعة وخدمة كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لأن عندهم كثيرًا من المشاريع التى تخدم هذا المجال وهم بصدد إنشاء مطبعة للمصحف الشريف على غرار مجمع الملك فهد لطباعة المصحف، كما أن هناك مشروع المتاحف المتخصصة فى القرآن الكريم والسنة النبوية وقد أبدى الوفد رغبته فى التعاون مع المؤسسات الدينية الإسلامية فى العالم وعلى رأسها الأزهر الشريف ومجمع البحوث الإسلامية اللذين بهما كثير من الأنشطة العلمية والبحثية، وقد طلب الوفد الاستفادة من خبرة الأزهر ومجمع البحوث

الإسلامية فى بحوث السنة والقرآن الكريم والاطلاع على بعض التقارير السنوية والإنجازات فى هذا الشأن وكذلك فى طباعة المصحف الشريف ولجنة مراجعة المصحف.

ومن جانبه أفاد فضيلة الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية بعد أن شرح وبين هيكل مجمع البحوث الإسلامية الإدارى ومهمته ووظيفته ودوره فى الحياة المصرية خاصة وفى العالم عموما من إيفاد وابتعاث لجان علمية متخصصة وفتوى وفقه بأن الأزهر ليس عنده مانع فى التعاون مع الهيئة ووزارة الأوقاف والشئون الدينية لدولة الكويت فيما يخدم الإسلام والمسلمين.

وفى ختام اللقاء قدم الوفد الشكر الجزيل للأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية على حسن الضيافة والاستقبال والتعاون.

حضر اللقاء الدكتور عبدالباسط محمد أمين عضو هيئة مكتب الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية.

الإمام الأكبر يصدر قرارًا بتطبيق الحد الأدنى للعاملين بالأزهر اعتبارًا من أول يناير

أصدر فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب ـ شيخ الأزهر ـ قرارات بتطبيق الحد الأدنى على جميع العاملين بالأزهر.

حيث قرر فضيلته منح المعينين على درجات دائمة والمتعاقد معهم ببند المكافآت الشاملة من غير المخاطبين بالقانون رقم « ١٥٦ » لسنة ٢٠٠٧ ولائحته التنفيذية وتعديلاتها والتابعين للمناطق الأزهرية والمعاهد علاوة الحد الأدنى وذلك اعتبارا من ١ / ١ / ٢٠١٤.

كما قرر فضيلته منح شاغلى وظائف التعليم بالأزهر وما يقابلها علاوة مقابل الأعباء الوظيفية الملقاة على عاتقهم بالمراحل التعليمية المختلفة وذلك بفئات مقطوعة وذلك اعتبارا من ١ / ١ / ٢٠١٤.

كما اشترط القرار أن يكون المعلم قائما بالعمل وبذل مجهودا، واشترط القرار لاستحقاق صرف العلاوة أن يكون المعلم معتمدًا من الأكاديمية المهنية للمعلمين وشاغلا لإحدى وظائف التعليم المنصوص عليها بالمادة رقم ٩٢ مكرر ٢ ب من القانون رقم ١٥٦ب لسنة ٢٠٠٧ وما يقابلها ويعتبر المعلم المساعد متعاقدا معه وفقا لأحكام مواد القانون سالف الذكر.

كذلك أن يكون المعلم قائمًا بالعمل فعلا وبذل جهدًا متميزًا أدى لرفع مستوى الأداء.

وأن يكون المعلم حاصلا على مرتبة «كفء» فى تقارير الكفاية لآخر سنتين.

وألا يكون قد أوقف عن العمل أو أحيل إلى المحاكمة التأديبية أو حرك فى حقه الدعوى الجنائية.

وألا يكون قد وقع عليه جزاء تأديبى لأكثر من خمسة أيام فى السنة التى يتقاضى فيها هذه العلاوة.

وكيل الأزهر يصدر قرارًا بتنظيم الإجازات بدون مرتب للعاملين بالأزهر

أصدر فضيلة الدكتور عباس شومان، وكيل الأزهر الشريف، قرارًا بتنظيم عملية منح الإجازات بدون مرتب للتعاقد الداخلى أو الخارجى للعاملين بالأزهر الشريف.

وأكد القرار اختصاص الإدارة العامة لشئون العاملين بالإجراءات المتعلقة لمنح الإجازات الخاصة بدون مرتب للتعاقد بالخارج أو الداخل، وذلك عملا لأحكام القانون ٤٧ لسنة ١٩٧٨م قانون العاملين المدنيين بالدولة وتعديلاته، والقانون ١٠٣ لسنة ١٩٦١م قانون تنظيم الأزهر والهيئات التى يشملها ولائحته التنفيذية وتعديلاتها.

وشدد القرار على ضرورة أن يراعى عند الرغبة فى الحصول على الإجازات المشار إليها استيفاء موافقة الجهات التابعين لها والعرض على رئيس القطاع المختص توطئة لاعتمادها.

وكلف القرار كافة قطاعات الأزهر المختلفة إعداد المنشورات الدورية وتوزيعها على الجهات التابعة لها التى تحظر الموافقة على التعاقد بالتخصصات التى بها عجز.

د. شومان: يطالب المسئولين بالأزهر بتفعيل الدور الرقابى لتحقيق الكفاءة

قام فضيلة الدكتور عباس شومان - وكيل الأزهر - بالمرور المفاجئ على مكاتب العاملين بمشيخة الأزهر، وذلك للاطمئنان على سير العمل ورفع الروح المعنوية للعاملين، والشد من أزرهم لمواصلة العمل والتخفيف عن المواطنين.

كما قام وكيل الأزهر بالاستماع لشكاوى العاملين، واقتراحاتهم لتطوير العمل داخل المشيخة، ووعد بمراجعة جميع الشكاوى وحلها ودراسة الاقتراحات.

كما قام بالاستماع لشكاوى المواطنين المترددين على المشيخة وأمر بتلبية جميع الطلبات طبقًا للوائح والقوانين.

وصرح د. شومان أن قيامه بالمرور على العاملين فى المشيخة يأتى فى إطار توجيهات فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب، شيخ الأزهر، والذى يؤكد دائمًا على ضرورة التواصل وفتح قنوات الحوار مع جميع العاملين بالأزهر.

وطالب د. شومان جميع المسئولين فى الأزهر بضرورة التواصل مع جميع العاملين من أجل العمل فى جو أسرى يحقق النجاح للمؤسسة وتفعيل الدور الرقابى الذى يساهم فى تحقيق الكفاءة فى العمل.

ومن جانبهم، عبر العاملون بالمشيخة عن شكرهم لقيام وكيل الأزهر بالمرور مؤكدين أن هذا التواصل الفعال سابقة لم تحدث من قبل.

وفى لفتة إنسانية، قام وكيل الأزهر بالمرور على مكتب إشهار الإسلام بالمشيخة، واستمع لإحدى السيدات من الفلبين، والتى جاءت لتشهر إسلامها، وقام بتلقينها الشهادتين حيث عبرت السيدة عن سعادتها.

بدء اختبارات مسابقة محفظى القرآن الكريم بنظام الأجر بالحصة لعام ٢٠١٤م

تنفيذا لتعليمات السيد صاحب الفضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر وفضيلة وكيل الأزهر الشريف فقد تقرر إجراء اختبارات مسابقة محفظى القرآن الكريم بنظام الأجر بالحصة (التى سبق الإعلان عنها) وذلك بدءًا من يوم الأحد الموافق ٢٦ / ١ / ٢٠١٤م بالمناطق الأزهرية. كما صرح فضيلة الشيخ أحمد عبد العظيم محمد المدير العام لشئون القرآن الكريم بقطاع المعاهد الأزهرية - أن عدد المناطق المدرجة ضمن المسابقة ٢٥ منطقة أزهرية موزعة على لجان عددها ٢١٣ لجنة بإجمالى ٤٨٨ عضو لجنة اختيار سوف يقومون باختيار ٤٧٤٢٤ متقدمًا.



أ/ أحمد رضوان

أفريقيا الوسطى: ملايين المسلمين يحاولون مغادرة البلاد بسبب المذابح

يحاول الملايين من المسلمين مغادرة جمهورية "أفريقيا الوسطى" بسبب المذابح التى يتعرض لها المسلمون بعد تدخل "فرنسا" فى البلاد وذكرت وسائل الإعلام أن عشرات الآلاف من المسلمين ينتظرون دورهم فى المطارات ليغادروا "أفريقيا الوسطى"، وينجون بحياتهم، وأعلنت الأمم المتحدة فى تصريح لها أن ٥٠٪ من سكان العاصمة "بانغي" قد غادروا منازلهم بالفعل وكتبت الصحافة الأجنبية أنه بعد تجريد "فرنسا" للمسلمين من السلاح، ازدادت الاعتداءات على المسلمين. كما ذكرت وكالات الأنباء أن الجنود الفرنسيين المكلفين بإعادة الأمن للبلاد، يغضون الطرف عن المذابح وأعمال النهب التى تنظمها العصابات المسلحة.

وقد أعلن مصدر فى الأمم المتحدة عن مقتل ٢٧ مسلمًا فى قرية بغرب أفريقيا الوسطى على يد مسلحين من ميليشيات، وندد المصدر بـ"الأعمال الانتقامية ودوامة العنف" فى البلاد.

حملة دولية لوقف الكارثة الإنسانية بمخيم اليرموك

انطلقت فى عدة مدن عربية وأوروبية حملة للضغط على الرأى العام العربى والعالمى من أجل بذل الجهود لوقف الكارثة الإنسانية التى يعيشها من بقى من سكان مخيم اليرموك للاجئين الفلسطينيين المحاصر جنوبى العاصمة السورية دمشق، وذلك بعد تحذير لوكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين التابعة للأمم المتحدة (أونروا) من خطورة الوضع الإنسانى.

وستتضمن الحملة التى تنظم تحت شعار "أنقذوا مخيم اليرموك" عدة وقفات احتجاجية تشارك فيها عدة حركات وتجمعات أهلية مستقلة، بعد وفاة أكثر من ثلاثين شخصا غالبيتهم من الأطفال

والنساء والشيوخ قضوا جوعا بسبب الحصار التام المفروض منذ سبتمبر الماضي.

وقال شهود عيان من مخيم اليرموك في دمشق: إن أكثر من أربعين ألفًا من سكان المخيم ومثلهم في أحياء جنوب دمشق يعيشون على وجبات من الحشائش.

سريلانكا: رئيس الجمهورية البوذي يشيد بتعاليم النبي محمد ﷺ

أكد "ماهيندا راجابكشا" – رئيس جمهورية سريلانكا – أن تعاليم النبي محمد ﷺ تقدم أسسًا قيّمة تحث المسلمين حول العالم على اتباع السلام والوحدة والمصالحة الوطنية، بتجنب الصراعات العرقية والدينية والأصولية بين الناس.

كما ذكر "راجابكشا" أن معايشة المسلمين في "سريلانكا" تسعده كثيرًا مع غيرهم بالسلام والأخوة وفقًا لتعاليم النبي محمد ﷺ محافظين على هُويتهم الثقافية في حالة الهدنة الحالية التي تسود البلاد.

كما دعا رئيسُ الجمهورية الشعبَ كله إلى ضرورة التزام الوحدة والتسامح والمحبة التي دعت إليها تعاليم النبي "محمد" ﷺ.

عام ٢٠١٣ ينقضي بأكثر من ٧٣ ألف قتيل في سوريا

قال المرصد السوري لحقوق الإنسان إن أكثر من ٧٣ ألف شخص قُتل في سوريا خلال عام ٢٠١٣م الذي يعد الأكثر دموية منذ بدء الثورة قبل أكثر من سنتين.

ووثق المرصد مقتل ٧٣٤٥٥ شخصًا خلال العام المنقضي، بينهم ٢٢٤٣٦ مدنيًا، وقال مدير المرصد رامي عبد الرحمن لوكالة الصحافة الفرنسية إن ٢٠١٣م "كانت السنة الأكثر دموية منذ بدء الثورة في منتصف مارس ٢٠١١م".

وكان المرصد ذكر أن حصيلة القتلى في سوريا بلغت منذ مارس ٢٠١١م أكثر من ١٣٠ ألف شخص، وطالب "الهيئات والمنظمات الدولية.. بالتحرك الفوري والعاجل والجدي من أجل إحالة ملف جرائم الحرب والجرائم ضد الإنسانية والجرائم التي ترتكب في سوريا إلى محكمة الجنايات الدولية والمحاكم الدولية المختصة".

واعتبر المرصد "المجتمع الدولي شريكًا أساسيًا بإراقة دماء أبناء الشعب السوري؛ لأنه لم يتحرك بشكل جدي من أجل وقف المجازر التي ارتكبت ولا تزال ترتكب في سوريا، وإنما اقتصر دوره على التنديد والاستنكار".

الجبل الأسود: مطالبة بإدخال شعار المسلمين في علم الجمهورية

صرح "سليمان مصطفيتش" نائب رئيس البرلمان في جمهورية "الجبل الأسود"، والذي يرأس الحزب البوسني خلال لقاء معه في التلفزيون الرسمي، أنه لا يعارض وجود شعارات مسيحية في علَم الجمهورية، لكن لا بد أن تمثل جميع الديانات وجميع القوميات في ذاك العلَم.

وأضاف: إن المسلمين في "الجبل الأسود" هم من أصول السكان فيها، وساهموا لعدة قرون في بناء الدولة، وهم واقع موجود في المجتمع؛ لذا نطالب أن يتمثل هذا الوجود من خلال شعارات دولتنا.

كما أكد أن هذا الأمر يحتاج إلى رغبة سياسية وتغيير القوانين، ويترك الباقي للمجتمع الذي يمثل في الواقع هذه الدولة، وما زال هناك الكثير لعمله لتحسين وضع البوسنيين المسلمين في "الجبل الأسود"، وكذلك باقي الأقليات.

منظمة العفو الدولية تطلب من بريطانيا الضغط على رئيس ميانمار

صرحت "كيت ألين" مديرة منظمة العفو الدولية في "المملكة المتحدة" بأنه على "ديفيد كاميرون" رئيس وزراء "بريطانيا" أن يتناقش مع رئيس "ميانمار" في وضع حقوق الإنسان في "ميانمار".

وقالت منظمة العفو الدولية" إن زيارة رئيس "ميانمار" إلى "بريطانيا" تمثل فرصة لـ"ديفيد كاميرون" لإثارة المخاوف بشأن الاشتباكات بين المجتمعات المسلمة والبوذيين في ولاية "راكين"، التي استمرت منذ اندلاع العنف في يونيو ٢٠١٢م.

وقد ترك العنف عشرات القتلى والجرحى، وأسفر عن تدمير وتشريد واسع النطاق.

كما أثارت منظمة العفو الدولية مؤخرًا المخاوف بشأن استمرار الاعتقال والاحتجاز، والتهديدات التي يتعرض لها المدافعون عن حقوق الإنسان – والمتظاهرون المسلمون في "بورما" التي تكون بمثابة تذكير صارخ بأن الحريات الأساسية معرضة للخطر في البلاد.

وأضافت "كيت ألين": على "ديفيد كاميرون" أن يضغط على "ثين سين"؛ بسبب انتهاكات حقوق الإنسان المروعة التي لا تزال جارية في "بورما"، ونحن بحاجة لسماع الحكومة البريطانية تتحدث عن المساءلة والمسئوليات.

والأمم المتحدة تدعو إلى التحقيق في تقارير عن سقوط قتلى من المسلمين الروهنجيا

كما دعا «توماس كوينتانا» – مقرر الأمم المتحدة الخاص المعني بحقوق الإنسان بـ«ميانمار» – حكومة «ميانمار» إلى التحقيق في تقارير عن اشتباكات مميتة بين قوات الأمن ومسلمين في قرية بولاية «راخين»؛ حيث تشرد أكثر من مائة ألف شخص بسبب أعمال العنف بين البوذيين والمسلمين.

وكان «كوينتانا» قد تسلم تقارير تفيد بوقوع قتلى وجرحى من مسلمي الروهنجيا، فضلاً عن مقتل عدد من قوات الأمن في قرية «دوتشي باراتان» في «منغدو».

ودعا «كوينتانا» حكومة «ميانمار» إلى اتباع الإجراءات القانونية والقضائية السليمة مع المعتقلين والمحتجزين، والتصدي للمخاطر المحددة التي تتعرض لها النساء والأطفال في الاحتجاز، كما حث سلطات «ميانمار» على السماح لخبراء مستقلين بزيارة المحتجزين بعد ورود تقارير أفادت بتعرضهم للتعذيب.

وكان «كوينتانا» قد أوضح – في آخر تقرير له قدمه للجمعية العامة للأمم المتحدة – أن حالة حقوق الإنسان في ولاية «راخين» تعد من أخطر التهديدات التي تواجه عملية الإصلاح في «ميانمار».

هولندا: برنامج حزب الوحدة الانتخابي يركز على مسألة التربية الإسلامية

وضع «حزب الوحدة» المحلي في مدينة «لاهاي» الهولندية – مسألة الفصل بين الجنسين في دروس السباحة في برنامجه الانتخابي.

وينص برنامج الحزب على أن تُعفى النساء من السباحة في حال عدم شعورهن بالراحة في السباحة

مع الرجال، ويذكر أن المحاسب القانوني لرئيس البلدية «ساندر ديكر» قد ألغى السباحة المنفصلة.

ويركز الحزب على مسألة التربية الإسلامية، ويسعى إلى أن تكون التربية الإسلامية معروفة لدى معاهد التدريب التربوي ومؤسسات رعاية الشباب، إلى جانب ذلك فإن الحزب ينشط في مجال مكافحة صالات الشيشة.

وقائمة الحزب الانتخابية تضم شخصين وهما «عبده خولاني»، وعضو حزب الحرية اليميني السابق الذي أشهر إسلامه «آرنولد فان دورن».

وسيخوض الحزب انتخابات المجالس البلدية في ١٩ مارس القادم للمرة الأولى خارج مدينة «لاهاي»، وذلك في كل من «أمستردام» و«زفايندرخت»

اليونان: تحويل أحد المساجد القديمة إلى متحف

يوجد في مدينة «سيريس» باليونان واحد من أقدم المساجد في أوروبا؛ حيث يرجع تاريخ «مسجد سينسيرلي» المزخرف بأسلوب عثماني إلى أكثر من قرن من الزمن.

كان هذا المسجد مستودعًا للأخشاب، ثم تحول إلى مستودع للجيش أثناء الحرب العالمية الثانية، وأصبح في نهاية المطاف مستودعًا محليًا، وبدأت النباتات في الانتشار على الحوائط الجانبية للمسجد وعلى سطحه.

وأوضحت «ليلى سامبانوبولو» -عالمة الآثار التي اهتمت باستعادة المسجد- أنه في بداية ترميم المسجد كان المبنى في انهيار مع تسرب المياه في كل مكان.

واستغرق الترميم ١٠ سنوات، وأخذ الطابق الأرضي سنتين من التجديد من ٢٠١٠م حتى ٢٠١٢م.

كان إعادة فتح المسجد جزءًا من الأنشطة التذكارية للاحتفال بالذكرى السنوية لتحرير المدينة، وسيستخدم المسجد كمتحف للفن والثقافة

الصين: اعتقال أستاذ جامعي للدفاعه عن مسلمي الإيجور وانتقاده بطش الحكومة

اعتقلت السلطات الصينية الأستاذ الدكتور «إلهام توهتي» الإيجوري، وأستاذ الاقتصاد الجامعي والمقيم بالعاصمة الصينية «بكين»؛ وذلك لنقده الشديد للسياسات الحكومية الغاشمة ضد المسلمين الإيجور بإقليم «شينغيانغ» غرب البلاد.

وفي تصريحات للجارديان أكد المتحدث باسم الخارجية أن الأستاذ الجامعي متهم بخرق القانون، وأنه تم اعتقاله بموجب القانون، وسيخضع للتحقيق بموجبه أيضًا.

وقد أتى اعتقاله بعد أن داهم منزله ٣٠ شرطيا، وصادروا الهواتف وأجهزة الكمبيوتر، وذلك بعد أن كتب عددًا من المقالات التي تكشف حقيقة ما يتعرض له المسلمون الإيجور في غرب البلاد، وذلك طبقًا لتصريحات زوجته عن الاعتقال وملابساته.

وجدير بالذكر أنه تلقى تهديدات من الحكومة في نوفمبر الماضي؛ ليمتنع عن التحدث لوكالات الأنباء الأجنبية، وذلك في إطار التعتيم الذي تفرضه السلطات على الأوضاع المأساوية التي يتعرض لها المسلمون الإيجور.

civilization becomes after then their culture and civilization. Besides, it accepts interaction with their sub-cultures and leaving its mark upon this culture, then their inheritance are merged within the gathering Islamic culture. This sub-culture is affected by the culture of Islam. The German orientalist Shakhet (1902-1969 A.D) said "The Islamic legislation has its deep effect upon all branches of law of other religions such as Jews and Christians who live within the Islamic country and the tolerance and forgiveness of Islam dominates them… Moosa Ibn Maymoon (601 A.H / 1204 A.D) is totally affected by the characteristics of some of the Islamic books when he was producing the legal material in his book "Mishneh Torah" and it is a work which is never preceded by any of the Jews. Concerning the Christians, there is no doubt that Jacobians, Monophysites (with the same nature), and Nastorians never hesitate to quote freely from the rules of the Islamic legislation"

By this way the new Islamic mix grows up and appears including and comprehending the former religions, civilizations and cultures. It also gives the opportunity to the eastern people to build this new cultural mix. Furthermore, it has its effect upon the sub-cultures that the doors of prosperity have been opened to them.

Beside the beliefs and acts of worship of Islam which is specific to those who embrace it, it also has laws and legislations of dealing with all who live in Islamic countries in spite of their difference in their beliefs, languages, and dialects. Similarly, this is the same with values and ethics that the Islam come to complete it and was not a kind of copying and repetition to former missions. This system of ethics and values is considered part and parcel from the general Islamic cultural identity of all who live under the banner of Islam.

Then, the identity of the nation becomes Islamic, and being Islamic is something fixed and general in this civilizational identity.

being who grows up and develops without losing his identity or giving up his originality or removing the impression which distinguishes him from other people Then, every culture has its own distinguished originality which is considered its identity, its core, its reality, and its constants, and also for every cultural originality its distinguished way of adaptation with the time.

This was about the terminologies and their components and what they include and what the adjustment of these terminologies represents and contributes in clearing the vision to which we hope, it is the clearance of the vision concerning the issue of "The Islamic Cultural Identity Between Originality and Being Contemporary"

Islam of cultural identities:

If we move to the core of this issue, and ask about the identity of the culture of our nation which is the core of this culture and its reality and the originality which distinguishes it from others, we can then say that this identity is " Islam and Arabism"

Since most of the people in this nation embrace Islam, then Islam becomes the real identity which represents the culture of this nation. Indeed, it is Islam which imposed and is still imposing its distinctive characteristics and nature upon its culture. Thus, concerning the customs, traditions, literature, and the other sciences specially in politics, economics, sociology, and the philosophy of natural and abstract sciences of this nation, in addition to its point of view towards the universe, and to itself and to the other and its conception concerning the position and status of man within this universe.. from where do all of these things come? And to where will it end? And what is the reason of this universe and its target? all of these things and what is typically like it are affected by the characteristics of Islam, to the extent that we can say without any doubt that: Our culture is Islamic and the criteria to get in or out the field of our culture and what is accepted and what is not in it is according to the criteria of Islam.

Since Islam is the last among the monotheistical missions, and since it spread among countries which its people were embracing other former divine religions, then when Islam comes it never leads to a kind of epistemological break with

these religions, but it comes to prove and confirm its pure constants and adds to it. It really comes to declare its truthfulness and to prevail upon it, not by aggressiveness but by a way of realizing, adding, and correcting. However, this fact appears vividly then makes the identity of Islam realizing other identities of other religions which come before it. It appears in the belief of "the unity of the religion" since its beginning till its end, in addition to the diversity of sharias throughout the history in the same frame of the religion's unity, the way that makes the religious belief something like the ladder in which every divine sharia represents one of its steps. Then nations have to rise up upon this ladder till the end of its steps adding the new things without any epistemological break with the constants and originalities.

The Islamic point of view towards this fact appears in its realization to the heritage of the former prophets and their prophecies and including all their constants and originalities. This appears in the conversation between the prophet's companion "Hateb Ibn AbiBaltaa"(30-35 A.H/ 586-650A.D) and the Copts' senior "Al-Mokwkis", when Hateb came to him with the message of Prophet Muhammad (Peace Be Upon Him) in (7 A.H/628 A.D). In this conversation Hateb said to Al-Mokwkis "You will never leave your religion (he means Christianity) except to a better one which is Islam, and by which Allah completes what is missing in other religions. Moses tidings and news about Jesus are equal to that of Jesus about Muhammad. Moreover, we now call you for Quran typically like your call to the believers of Tawrah to the Gospel. We do not forbid you from believing in Christianity but we order you to believe in it".

Although Islam admits freedom of belief, it is the religion which inherits and comprehends all former missions through a way which makes it "what completes others missing" and not the one which makes epistemological break.

In addition to the complete comprehension of Islam to the civilizational and cultural inheritance that were present before its appearance and also its recreation and saving to this inheritance from death, it opened doors to people from other religions to contribute in building its culture and civilization. This culture and

The Islamic Cultural Identity…! Between Originality, Being contemporary and challenges.

By: Dr. Muhammad Imarah
Editor – in – Chief of Al-Azhar Magazine.

1-Editing the significance of the terminologies:
When talking about the issue of "The Islamic Cultural Identity", its different aspects, and its relation with 'originality', ' being contemporary', and 'constants and variables', it is important first to determine the scientific meaning of the terminology.

2-"The Identity": as an expression in our Islamic Arabic culture is taken from "the thing is itself", which means the essence and the core of something, and its reality. As expressed by Al-Shareef Al Gorgany (740-816 A.H / 1340-1413 A.D), identity is "absolute fact that includes certain facts, typically like the seed which includes the tree". According to Abu Al-baqaa Al Kafawy (1094 A.H- 1683 A.D), it is "what distinguishes something from others". Thus, the identity of the person or his culture or civilization is its core or reality, and its constants that accompany it.

Since everything has its constants and variables whether human being, or culture, or civilization, thus, identity of something is its 'constants' that never varied or renewed. This identity becomes crystal clear and expresses itself without leaving any space for any contraries since the main thing is still alive. It is something like one's fingerprint which appears vividly and is always renewed whenever factors of concealment are removed, and it never leaves its place to any other fingerprint.

3-"Culture": is whatever contributes to the flourishing of the soul and its discipline and refinement.. One of the meanings of "culturing" is discipline. Since 'civilization' is refining the reality in which we live by concrete things ,'Culture' is refining the human soul with thoughts . Both of them are kinds of development

and flourishing [4] Development to the reality in which we live and development to the soul, both are two sides of 'civilization' which is 'development'.

Culture, having its main concern the development and refinement of the human soul, gives the culture of distinguished civilization kind of uniqueness. Its source and reason is the fact that the human soul is very distinguished in every civilization according to the uniqueness of heritage and beliefs that differentiates between the "cultural effect" upon the nations of this civilization.

4-"Originality" : in the Arabic language comes from the word " origin" … The origin of something is its relatedness to what it returns back to, and its core and reality and everlasting constants that will never be removed or disappeared. Thus, originality, in certain culture is its original roots and continuous constants, or its identity which is like the fingerprint that distinguishes it from the culture of other civilization nations.

5-"Being contemporary": it is a kind of interaction , or a reaction between human being, and culture, and civilization on one side, and the era or certain time on the other side. If nations are different in their cultures as a result of difference in the identity of these cultures, then they must be different in their reaction with the time in which they live… Thus nations which are different and distinguished in their cultural identities have certain ways of adaptation with the time. Not all nations, cultures, and civilizations are contemporary with certain time by the same way. This is of course on the contrary with the thought of some people who assume that being contemporary means taking and using the prevailing and dominating culture of certain era.

Indeed, it is something like a reaction or adaptation between human being and the present time of his age. Reaction by which he adds new things and is able to overcome all the unsuitable from his heritage according to the criteria that is considered his constants, originality, and identity.. Thus it is the distinguished identity and originality that appears in its new form typically like the human

[4] Al-Gurgany (in his book) "The Definitions" Cairo edition 1938 A.D, Abul-Baqa'a Al – Cafwy (in his book) "The Totalies" (verification) Dr.Adnan Darweesh and Muhammad Al-misry Damascus edition 1982 A.D

the prophetic Sunna.. So, the country and the constitutional contract that it is based on to be Islamic is a legal concept and a fixed divine state. The holy Quran has talked about this in Surat Al-Nesaa'

"Verily, Allah commands that you should render back the trusts to those, to whom they are due; and that when you judge between men, you judge with justice. Verily, how excellent is the teaching which He (Allah) gives you! Truly, Allah is Ever All-Hearer, All-Seer O you who believe! Obey Allah and obey the Messenger (Muhammad Peace Be Upon Him), and those of you (Muslims) who are in authority. (And) if you differ in anything amongst yourselves, refer it to Allah and His Messenger, if you believe in Allah and in the Last Day. That is better and more suitable for final determination... Have you not seen those (hypocrites) who claim that they believe in that which has been sent down to you, and that which was sent down before you, and they wish to go for judgment (in their disputes) to the Taghut (false judges) while they have been ordered to reject them. But Shaitan (Satan) wishes to lead them for astray" (An-Nisa'a (women) :58 & 59)*

1 – So people in charge have to return back trusts to those who own it, and to judge between people by justice.

2 – Consequently, believers have to obey them.

3 – Ruled people obedience to those in charge is following to their obedience to Allah and the prophet, the Book, and the Sunna.

4 – The condition for the achievement and the completeness of the religious belief in Allah and in the Day of Judgment is that the reference of this constitutional contract will be to the Book and to the Sunna... if not , then this belief is just claim or pretension; because if the reference in the country is not Allah and the prophet, thus it is to the idol.

By this Quran has settled the Islamic reference for the Islamic state.

Prophet Muhammad (May the blessings and Peace of Allah Be Upon Him) has expressed this Quranic concept, which is the religious reference in the constitutional contract of the state's establishment. This is considered an article in the first constitution to the first Islamic state. The paper that represents the constitution of Al-Madina as a state, mentions :"If people of this paper fight , and are afraid of any misunderstanding, they have to return back to Allah and the prophet".

The first khalipha Abu-Bakr Alsedeeq (May Allah be pleased with him) in his first speech after being chosen to be calipha said " Obey me since I obey Allah and the prophet, If I disobey Allah and the prophet so you don't have to obey me". So this combination shows that the state to be Islamic is only by making the religious reference a condition to the establishment and continuation of the constitutional contract. In the history, that the Muslims judge according to it, this combination and its decisiveness are clarity distinguishes the state of Islam apart from many countries that is well known in other intellectual systems.

authority is derived from the people's will, perception, ethics, and habits".

So it is an "earthly" or "secular" pure for earthly material life.

Sautillana continues his say and compares between this secular philosophy and the Islamic philosophy in legislation and said : "The Islamic interpretation to the law is on the contrary with this.. Submission to the Islamic law is a social duty and religious imposition in the same time, and whoever violates its sanctity never sins only towards the social system, but also commits a religious sin. Actually, the judicial system and the religion on one side and the law and the ethics on the other side are only two forms without a third to this will from which the Islamic society extracts its presence and rules. So every legal point is a point of conscience..and the ethical feature prevails the law so as to unify the legal rules and the ethical teachings to be complete unification.. Moreover, ethics and arts in every point determine the limits of the law. Thus, the Islamic Sharia is a religious sharia that is originally unlike our thoughts".

The Swiss Orientalist "MarsellBwazar" also confirms this fact and alerts to the differentiation between the Islamic law and the secular positive law concerning the source and the purposes saying: " It is beneficial to mention basic difference between Islamic Sharia and modern European legislation concerning their different sources or their final targets.. The source of the law in the western democracy is : the people's will, and its target is: the system and justice within

the society. Regarding Islam, the law is issued by Allah, and the main target- that the believer is seeking which is trying to be near to Allah through respecting the revelation and adhering to it- is based on this law. Authority in Islam imposed many ethical criterias, while in the western life people are permitted to choose their criteria according to their needs and prevailing desires in their time.

Thus, the Islamic legislation distinguished philosophy separates between the Muslim and the acceptance of the positive secular law. Besides, the Islamic vision concerning the divine ego affected zone and the position of man in the universe also separates between the Muslim and the acceptance of secularism generally and in details.

Because this fact distinguishes the Islamic intellectual system that comes out from the Quranic rhetoric, in addition to the prophetic clarification to this rhetoric, the roots of the Islamic resistance to the "state's" release from "religion" and the freedom of the "society" from "Sharia" was prior in our Islamic heritage to the confrontation with the western secularism that comes to us within the modern imperialistic invasion.

Thus the constitutional contract that is done by the "state" is not only based on satisfaction between the ruled people and the "rulers" – typically like the case in the positive political thought – but this constitutional contract must be based upon religious reference –to Allah and the Prophet- or to the divine revelation and

Tradition and Innovation:

-9-

(The pioneer of "tradition and innovation" is totally involved in the western civilization).

By: The Grand Imam Prof-Dr. Ahmad Al-Tayyeb, Al-Azhar Sheikh.

The Islamic civilizational inheritance is totally distinguished from the western civilizational inheritance concerning the idea of the divine revelation and its effect, and consequently the position of man in this inheritance.. Moreover, the philosophy of legislation is very distinguished in the Islamic legal system whether in the principles, rules, and purposes of the Islamic legislation which is created by Allah or in its jurisprudence of dealings which is the creativity of the Muslim jurists that is controlled by the principles, laws, limits, and purposes..

The philosophy of Islam in legislation becomes distinguished when it combines "utility" with "ethics", and "interest" with "legitimate purposes", and also "happiness in this world" with " deliverance in the Day of Judgment".. Indeed, this Islamic legislative philosophy closed the doors before the positive secular law and preventing its possibility of adaptation within the legal

system that governs the nation's authority and prevents it from codification as a result of the sovereignty of the divine creation to the limits and outline of the sharia and its principles, rules and its purposes. Thus, "interest" which is aimed by the Islamic law is the "considered legal interest" and not absolute "interest". Besides, the "utility" that the Islamic jurisprudence is seeking for is that which is not pleasure, or lust, or the absolute utility with the secular criteria that is pure for secular life; this is because Muslim is not only sincere towards his Allah by his "prayer" and "rituals", but also with all what in his life and even after death.

" *Say (O Muhammad Peace Be Upon Him):'Verily, my Salat (Prayer), my sacrifice, my living, and my dying are for Allah, the lord of the Alamin (mankind, jinn and all that exists)*"(Al-Anaam : verse 162)

This fact is one among those which distinguish the Islamic codification and legislation philosophy apart from its Eastern and Roman counterparts, and this is what the scholars whether Muslims or Non-Muslims agreed about.. It is enough to point out to the statement of a pioneer orientalist in the secular western law and in the Islamic jurisprudence " David de Sautilllana" (1845-1931 A.D).

He said about the philosophy of legislation in the western positive law:" The meaning of jurisprudence and law to us and to our ancestors is a group of prevailing laws that are approved by the people either directly or through their representatives. And its

Hercules' astonishment increased and he said: You are right, but how did you know about Yunus and Saleh while they were only mentioned in the Injil and Torah?

Dehiyah said: And also in the Qur'an, o king.

Hercules said: "What is the Qur'an?

Dehiyah said: Verses from Allah, which are carried with Jibril from Allah the most high to the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him.

Hercules then became perplexed concerning this person who knows about religions.

He said astonishingly: Do you know Jibril, too? This prophet has a certain status, but I like to make sure.

Dehiyah said: You can ask me whatever question you want and you will find me always truthful.

Hercules said: I do not think that a person in your shape, and eloquence is a liar, but this matter needs contemplation and securitization. Before you come here, I was about to do something (he meant that he was about to meet some of the people of Quraysh, led by Abu Sufian ibn Harb to ask them about the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him). Thus, I ask you to wait until this matter is over, and our appointment is the day after tomorrow.

Dehiyah said: You will find me at your disposition whenever you want.

Hercules said: O patriarch, treat Dehiyah in an honorable manner and let him stay in a good place in my palace and fulfill all his needs.

Dehiyah was then the guest of the royal palace until Hercules summons him.

Later on Hercules said to Dehiyah Al-Kalby: Read the message of your companion, the Prophet.

Dehiyah opened the message which he left with Hercules and started to read it saying: "The noble Messenger says, 'In the Name of Allah, the Most Gracious, the Most Merciful. From Muhammad ibn `Abdullah and the Messenger of Allah to Hercules, the Roman Emperor, Peace be upon those who follow the right guidance. Embrace Islam and you will be secure. When you embrace Islam, Allah will grant you double reward. If you refuse, you will be sinful.

{Say (O Muhammad, peace be upon him): "O people of the Scripture (Jews and Christians)! Come to a word that is just between us and you, that we worship none but Allâh (Alone), and that we associate no partners with Him, and that none of us shall take others as lords besides Allâh. Then, if they turn away, say: "Bear witness that we are Muslims.}

[Al-Imran (The Household of Imran): 64)

Hercules said quietly: "O Dehiyah, I swear that your companion is actually a Prophet. He is the one for whom we waited and there is news about him in our heavenly book."

Dehiyah said: What prevents you from saying this in public, o great king?

Hercules said: You do not know what the patriarchs can do with me, they will turn the people against me and I fear for my throne.

Dehiyah said: The person whose heart is touched by faith will not pay no attention to throne or money.

Hercules said: You are right, but if I said in public what I feel, they will dethrone and kill me, and I fear from the Romans. But if the matter was not like that, I would follow the religion of your prophet.

After that Hercules gathered his patriarchs and said to them: Prophet Muhammad sent to me a message, and actually he is the Prophet for whom we are waiting. His attributes are mentioned in our Heavenly Book and we know about him, his attributes, and time. Thus, embrace Islam and follow him, and you will be safe in this worldly life and in the Hereafter."

There was loud voices and they started rushing towards the doors, and the guards prevented them from coming out. They cried loudly at Hercules, challenging him and saying: "By god, we will not forsake Christianity, even if we are all killed."

At this time, Hercules felt that there was a real danger and his throne was about to be lost. Thus, he retracted and said: "Go to your places, O Romans, I said these words to test you, and I wanted to know how steadfast you are in your religion, and your attitude make me sure and happy."

Muhammad, the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him): on the anniversary of his noble birth.

-2-

Say: O you mankind, surely I am the Messenger of Allah to you altogether...! (Al-A'raf (The Battlements):158)

By: Dr. Ibrahim Al-Assil

One of the outcomes of treaty of Al-Hudaybiyah was that the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) and the believers felt secure from the disbelievers of Makkah, and Allah's Messenger had the time to proceed with the Message of his Lord by calling the kings and rulers of the world along with their subjects to embrace Islam. One of his messages was his message to Hercules, the Roman Emperor, which was brought to him with the Companion, Dehiyah ibn Khalifah Al-Kalby[1], who held a historical[2] dialogue with Hercules. It denotes that Hercules was certain that Muhammad (may the blessings and peace of Allah be upon him) was the Messenger of Allah, who should be believed. The following is a part of the dialogue:

Hercules said: From who is this message?

Dehiyah said: I have two messages, O great king.

Hercules said amazingly: Is your companion sent two messages?

Dehiyah said: No, o king, the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) has sent only one message, but the second is from the ruler of Basra[3].

Hercules said: What is the relation of the ruler of Basra with what you have come for?

[1] He (may Allah be pleased with him) was famous for his beautifulness and handsomeness, and *Jibril* (Allah's peace be upon him) used sometimes to come to the Messenger of Allah in his shape.
[2] "The way to light in the Messenger's biography", the second part. p.301 and following pages, by its writer Prof. Muhammad Muhammad Ibrahim Mostapha.
[3] The ruler of Basra, which was under the authority of Hercules.

Dehiyah said: There is a kind of friendship and cordiality between us, o great king, and I did not want to come to you without consulting him. I came to ask his permission and he sent with me a message for Your Majesty that reveals things about me and my people.

Hercules said: You are a wise man, what is your name, o man?

Dehiyah said: Dehiyah ibn Khalifah Al-Kalby.

Hercules said: What is your rank with the one who sent you? Are you one of his ministers or the commander of his army?

Dehiyah said: No, I am one of his companions, who have believed in what he came with.

Hercules said: Why did not he send one of his ministers in the manner adopted by the other kings?

Dehiyah said: He is not a king and he has no ministers, and he is a person who conveys his Lord's message to the whole mankind.

Hercules then contemplated at the speech as if he was speaking to himself and said: He is not a king, isn't he?

Then he said to Dehiyah: Give me your message, O Dehiyah.

Dehiyah said while giving him the two messages said: This is the message of the ruler of Basra, and this one which is the message of Muhammad ibn `Abdullah (may the blessings and peace of Allah be upon him).

Hercules stretched his arm and took the two messages. He opened the message of the ruler of Basra and read it, and left the message of the Messenger of Allah with its cover. Then he told Dehiyah: I read the message of our ruler of Basra as it is written in my language. As for the message of your companion, I do not understand it, in which language it is written?

Dehiyah said: It is in Arabic, may I read it to Your Majesty?

Hercules said: No problem, I will hand it to one of my men who has good command of your language, then we discuss its content the day after tomorrow. I see that it is sealed?

Dehiyah said: It is the seal of the Messenger of Allah.

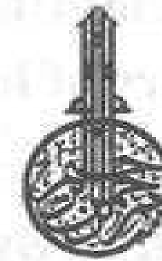
Hercules said amazingly: It is amazing, your companion does neither write nor read, is he illiterate?

Dehiyah said: Yunus and Saleh did not read either.

حدث في ربيع الآخر

AL-AZHAR MAGAZINE

Rabiul-Akher, 1435 A.H



ENGLISH SECTION

February, 2014

In the name of Allah the Beneficent the Merciful

﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾

الأعراف/ ٤٣

"Praise be to Allah, Who guided us to this; and in no way could we have been guided, unless Allah has guided us."
(Al-A'raf 43)

Editor: Dr. IBRAHIM Al-ASSIL
Professor at the Faculty of Languages and Translation.
Al-Azhar University.



تقرأون في جمادى الأولى

الافتتاحية

المفهوم الإسلامى للمواطنة

أ.د. محمد عمارة

كلمات ربى وآياته فى القرآن الكريم

أ. د. أحمد فؤاد باشا

محمد فريد وجدى: فريد عصره غير مدافع !

أ.د. حلمي القاعود

التفكك الأسرى ومخاطره على الأبناء

أ.د. محمد الشحات الجندي

هدية العدد

لماذا أنا مسلم ؟

لفضيلة الشيخ عبد المتعال الصعيدي

تقديم أ.د. محمد عمارة

www.AlazharMag.com

www.AlazharMag.com

الأزهر

جمادى الأولى

الافتتاحية
المفهوم الإسلامي للمواطنة

المصادر الأساسية لميراثنا الثقافي

العلامة فتح الله كولن

العنف باسم الإسلام

د. ربيع خليفة عبدالصادق



أ. د. أحمد الطيب



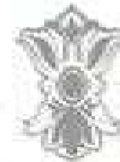
أ. د. شوقي علام

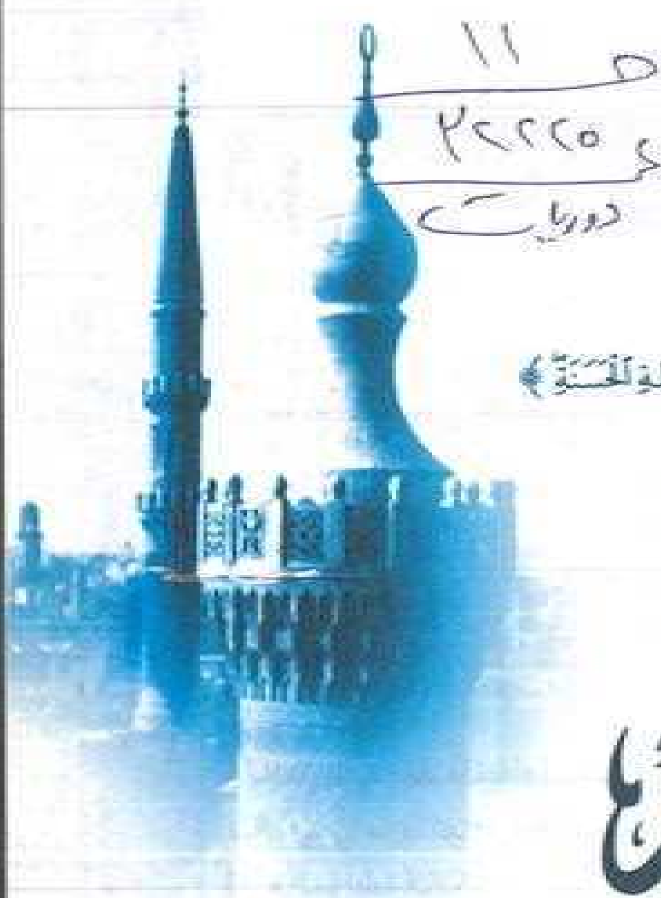


... غانم

...ية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية   جمادى الأولى ١٤٣٥هـ - مارس ٢٠١٤م الجزء "٥" السنة "٨٧"

داخل العدد







﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾



الأزهر

مجلة شهرية جامعة يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
بالأزهر الشريف في مطلع كل شهر عربي
صدر العدد الأول في المحرم عام ١٣٤٩هـ / ١٩٣١م
وحمل اسم « نور الإسلام »
ورأس تحريرها فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين





الاشتراك السنوي

داخل مصر ٢٤ جنيهاً مصرياً - الدول العربية ٥٠ دولاراً أمريكياً
أوربا وأمريكا ٨٥ دولاراً أمريكياً - اليابان وشرق آسيا ١٢٠ دولاراً أمريكياً
عن طريق قسم الاشتراكات بمؤسسة الأهرام
شارع الجلاء - القاهرة
ت: ٢٥٧٨٦١٠٠ - ٢٨٧٥٦٢٠٠

المراسلات باسم:

مدير التحرير - مجمع البحوث الإسلامية - مدينة نصر
ت: ٢٢٦٣٨٥٩٩

editor@alazharmag.com
readers@alazharmag.com

جمادى الأولى ١٤٣٥هـ
مارس ٢٠١٤م

• الافتتاحية •

المفهوم الإسلامى للمـــواطنـــة

لفضيلة الأستاذ الدكتور / محمد عمارة
www.dr_emara.com



المواطنـة: مفاعلة- أى تفاعل بين الإنسـان المواطن وبين الوطن الـذى ينتمى إليه ويعيش فيه.. وهى علاقة تفاعل؛ لأنها ترتب للطرفين وعليهما العديد من الحقوق والواجبات.. فلا بد لقيام المواطنة أن يكون انتماء المواطن وولاؤه كاملين للوطن، يحترم هويته ويؤمن بها وينتمى إليهـا ويدافع عنهـا، بكل ما فى عناصر هذه الهويـة من ثوابت اللغة والتاريـخ والقيم والآداب العامة، والأرض التى تُمثّل وعاء الهوية والمواطنين..

وولاء المواطن لوطنه يستلزم البراء من أعداء هذا الوطن. وكما أن للوطن هذه الحقوق على المواطـن، فإن لهـذا المواطن على وطنه وشـعبه وأمته حقوقًا كذلك، من أهمها المسـاواة فى تكافـؤ الفرص، وانتفاء التمييز فى الحقوق السياسية والاجتماعية والاقتصادية بسـبب اللون والطبقة والاعتقاد، مع تحقيق التكافل الاجتماعى الذى يجعل الأمة والشعب جسدًا واحدًا..

وإذا كان التطـور الحضـارى الغربى لم يعـرف المواطنة وحقوقها إلا بعد الثورة الفرنسـية، بسبب التمييز على أساس الدين- بين الكاثوليك والبروتستانت- وعلى أساس العرق- بسبب الحروب القومية- وعلى أسـاس الجنس- بسـبب التمييز ضد النساء- وعلى أساس اللون- فى التمييـز ضد الملونين- فإن المواطنة الكاملة- فى الحقوق والواجبات- قد اقترنت بالإسـلام، وتأسيس الدولة الإسلامية الأولى- فى المدينة المنورة- على عهد رسول الله ﷺ.. فالإنسـان- فى الرؤية الإسـلامية- هو مطلق الإنسـان.. والتكريم الإلهى هو لجميـع بنى آدم.. والخطاب القرآنـى موجّه أساسًـا إلى عموم النـاس.. ومعايير التفاضل هى التقـوى المفتوحة أبوابها أمام الجميـع. ولقد وضعت الدولة الإسـلامية فلسـفة المواطنة فى الممارسـة والتطبيـق، وقننتها المواثيـق والعهود الدسـتورية منذ اللحظة الأولى لقيام هذه الدولة فى السـنة الأولى للهجرة..

ففى أول دسـتور لهذه الدولة تأسسـت الأمة على التعددية الدينية، وأن لهم النصر والأسـوة مع البـر مـن أهل هذه الصحيفـة.. يتفقون مع المؤمنيـن ما داموا محاربين.. علـى اليهود نفقتهم وعلـى المسـلمين نفقتهـم، وأن بينهم النصر على من حـارب أهل هذه الصحيفـة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم.. هكذا تأسسـت المواطنة، بالإسـلام، فى الدولة الإسلامية عندما جمعت الأمة أهل الديانات المتعددة، على قدم المسـاواة، لأول مرة فى التاريخ..

وعندمـا بـدأت العلاقـات بين سـلطة الدولة الإسـلامية- علـى عهد رسـول الله ﷺ، وبين المتدينيـن بالنصـرانية- نصارى نجران سنة ١٠هـ- قررت لهم الدولة الإسـلامية- بالعهود والمواثيـق- كامـل المسـاواة فى حقـوق المواطنـة وواجباتهـا، وكان الشـعار هـو: «لهم ما للمسـلمين وعليهم ما على المسـلمين».. ولقد نص العهد الذى كتبه رسول الله ﷺ، لنصارى نجران- ولكل النصارى عبر الزمان والمكان- على «أن لنجران وحاشـيتها، وسـائر من ينتحل النصرانية فى أقطار الأرض، جوار الله وذمة محمد رسـول الله، على أموالهم وأنفسهم وملتهم.. وبيعهـم وكل ما تحت أيديهم.. أن أحمى جانبهم وأذبّ عنهم وعن كنائسـهم وبيعهم وبيوت صلواتهـم، ومواضع الرهبان ومواطن السـياح.. وأن أحرس دينهم وملتهم أين كانوا بما أحفظ نفسـى وخاصتى وأهل الإسـلام من ملتى.. لأنـى أعطيتهم عهد الله على أن لهم ما للمسـلمين وعليهم ما على المسـلمين، وعلى المسـلمين ما عليهم، حتى يكونوا للمسـلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم..».

وعندمـا أباح الإسـلام زواج المسـلم من الكتابيـة- اليهودية والنصرانية- أسـس ذلك على شـرط احتـرام عقيدتها الدينيـة احترامًا كاملًا. ولا بد فـى الزواج من رضا الأهـل.. ولقد جاء فـى عهـد رسـول الله ﷺ، لنصارى نجران عن هذا الـزواج: «ولا يحملون من النكاح شططًا لا يريدونه، ولا يكره أهل البنت على تزويج المسـلمين.. لأن ذلك لا يكون إلا بطيبة قلوبهم.. إن أحبوه ورضوا به.. وإذا صارت النصرانية عند المسـلم، فعليه أن يرضى بنصرانيتها، ويتبع هواها فى الاقتداء برؤسائها، والأخذ بمعالم دينها، ولا يمنعها ذلك، فمن خالف ذلك وأكرهها

على شيء من أمر دينه فقد خالف عهد الله وعصى ميثاق رسوله، وهو عند الله من الكاذبين».

بل لقد بلغت آفاق المساواة الإسلامية لهم– عند الحاجة– فى بناء دور عبادتهم وترميمها.. وجاء فى هذا العهد والميثاق النبوى: «ولهم– إن احتاجوا إلى مرمة بيعهم وصوامعهم أو شىء من مصالح أمورهم ودينهم– إلى رمز «أى دعم وإعانة»– من المسلمين وتقوية لهم على مرمتها، أن يُرفدوا على ذلك ويعاونوا، ولا يكون ذلك ديناً عليهم، بل تقوية لهم على مصلحة دينهم، ووفاء بعهد رسول الله لهم، ومنة لله ورسوله عليهم..» وحتى المسائل المالية والاقتصادية– مثل: الخراج، والضرائب– نص عهد رسول الله للنصارى على أنه: «لا يجار عليهم، ولا يحملون إلا قدر طاقتهم وقوتهم على عمل الأرض وعمارتها وإقبال ثمرتها، ولا يكلفون شططًا، ولا يُتجاوز بهم أصحاب الخراج من نظائرهم..».

وكل حقوق المساواة فى المواطنة، التى قررها الإسلام لغير المسلمين فى الدولة الإسلامية– «لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين.. وحماية الأنفس والدماء والأموال والأعراض وأماكن العبادة والحريات» هى فى مقابل الولاء الكامل للوطن والانتماء الخالص للمجتمع والدولة والأمة– وهى واجبات على كل المواطنين، المسلمين منهم وغير المسلمين– وفى تقرير هذه الواجبات نص عهد رسول الله ﷺ، فقال: «واشترط عليهم أمورًا يجب عليهم فى دينهم التمسك والوفاء بما عاهدهم عليه، منها ألا يكون أحد منهم عينًا لأحد من أهل الحرب على المسلمين بسلاح ولا خيل ولا رجال ولا غيرهم، ولا يصانعوهم– وأن يكتموا على المسلمين ولا يظهروا العدو على عوراتهم..».

كذلك نص عهد رسول الله ﷺ للنصارى على الحرية الدينية.. فجاء فيه: «ولا يُجبر أحد ممن كان على ملة النصرانية كرهًا على الإسلام:

﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾

«العنكبوت: ٤٦».

ويخفض لهم جناح الرحمة، ويُكف عنهم أذى المكروه حيث كانوا، وأين كانوا من البلاد..» بل إن هذه المساواة الكاملة فى المواطنة وواجباتها– «لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم، حتى كانوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم»– لم تقف بها الدولة الإسلامية عند أهل الكتاب– اليهود والنصارى– وإنما شملت حتى المتدينين بالديانات الوضعية– من المجوس وغيرهم–.. فبعد فتح فارس عرض عمر بن الخطاب رضى الله عنه الأمر على مجلس الشورى– مجلس السبعين– وقال: نحن نعرف حكم اليهود والنصارى.. فماذا عن حكم هؤلاء المجوس؟.. فوثب عبدالرحمن بن عوف رضى الله عنه قائلًا: «أشهد أنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سنوا فيهم سنة أهل الكتاب».. فعاملت الدولة الإسلامية طوال تاريخها أهل الديانات الوضعية– المجوس.. الزرادشت.. والبوذيين.. والهندوس– معاملة أهل الكتاب، التى قررت مبادئها مواثيق رسول الله ﷺ لغير المسلمين

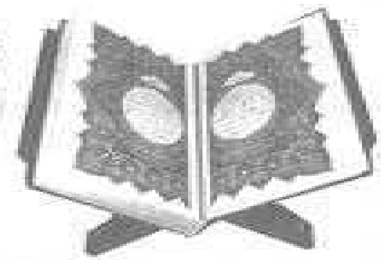
فى الدولة الإسلامية.. وإذا كانت المواطنة وحقوقها قد عرفها الغرب على أنقاض الدين، بعد انتصار العلمانية على الكنيسة الغربية.. ولذلك جاءت مواطنة علمانية– فإن الإسلام الذى أنشأ المواطنة، وشريعته هى التى قررت حقوقها، وبذلك ضمنت القداسة لهذه الحقوق، حتى لا تكون «منحة» يسمح بها حاكم ويمنعها آخر.. وبعبارة رسول الله ﷺ: «فمن خالف عهد الله وعصى ميثاق رسوله فهو عند الله من الكاذبين». كذلك، قرر الإسلام فى دستور دولة المدينة– أن الشريعة الإسلامية– كما هى ضامنة للحقوق والواجبات فى المواطنة– فإنها هى المرجع عند الاختلاف.. فنص هذا الدستور على «أنه ما كان من أهل هذه الصحيفة من حدث أو شجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله».

هكذا أبدع الإسلام– الدين والدولة والحضارة– كامل المساواة فى حقوق المواطنة وواجباتها، قبل أربعة عشر قرنًا.. عندما كانت الدول والحضارات الأخرى لا تعترف بالآخر.. فالمواطنون فى أثينا كانوا هم الرجال الأحرار الملاك الأشراف من اليونان، ومن عداهم برابرة ليست لهم أية حقوق.. وكذلك كان الحال عند الرومان.. لكن الإسلام هو الذى قرر وقنن وطبق كامل المساواة بين الرعية والأمة فى الدولة الإسلامية، فى تكافؤ الفرص.. وفى حرمة الأنفس.. والدماء.. والأعراض.. والأموال– والعقائد.. والحريات.. ولذلك فتحت الأبواب الواسعة أمام مختلف الملل والنحل والمذاهب فشاركوا فى بناء هذه الحضارة الإسلامية وصنع التاريخ الإسلامى..

وإذا كانت السنة النبوية هى البيان النبوى للبلاغ القرآنى.. فإن هذه العهود النبوية التى قننت حقوق المواطنة وواجباتها هى «سنة نبوية قولية»، تحولت– بالتطبيق– إلى «سنة عملية» أيضًا.. وأمام هذه السنة النبوية لا مجال لأى اجتهاد يخالفها، بصرف النظر عن مقام صاحب الاجتهاد المخالف.. لقد شهد التاريخ الإسلامى آراء مختلفة إزاء غير المسلمين فى المجتمعات الإسلامية.. وكانت كثير من هذه الآراء ثمرة لظروف سياسية.. ومخاطر خارجية.. لكن يظل الإسلام هو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ففيهما الحكم العادل فى قضية المواطنة والوحدة الوطنية، التى قررها الإسلام.



جمادى الأولى ١٤٣٥هـ
مارس ٢٠١٤م



تفسير سورة البقرة





لفضيلة الأستاذ الإمام
محمد عبده

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾

(البقرة ١٠١ - ١٠٣)

قوله تعالى:

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾

تقدم معناه في تفسير الآية ٤١ والآية ٨٩.

وقوله:

﴿ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ﴾

بيان لحال جديدة من أحوال أهل الكتاب يصح أن تكون علة لجميع ما صدر عنهم من الشناعات في معاداة النبي ﷺ ومجاحدته، وهي أن فريقًا منهم قد نبذوا كتاب الله الذي يفاخرون به، ويحتجون بأنهم اكتفوا بالهداية به، وأنه لا حاجة لهم بسواه. نبذوه أن جاءهم رسول مصدق له بحاله وصفاته، لأن البشارات التي فيه بالنبي الذي يجيء من آل إسماعيل لا تنطبق إلا على هذا الرسول، ومصدق له بمقاله اعترافه بنبوة موسى عليه السلام وصدقه فيما جاء به من الهدى والشريعة، وتوبيخه اليهود على تحريف بعضها ونسيان بعض وترك العمل بما بقي لهم منها.

وليس المراد بنبذ الكتاب وراء ظهورهم أنهم طرحوه برمته، وتركوا التصديق به في جملته وتفصيله، وإنما المراد أنهم طرحوا جزءًا منه، وهو ما يبشر بالنبي ﷺ ويبين صفاته ويأمرهم بالإيمان به واتباعه، أي فهو تشبيه لتركهم إياه وإنكاره بمن يلقي الشيء وراء ظهره حتى لا يراه فيتذكره. وترك الجزء منه كتركه كله، لأن ترك البعض يذهب بحرمة الوحي من النفس ويجرئ على ترك الباقي:

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾

(المائدة: ٣٢)

ولا فرق في هذا الحكم بين اليهود والنصارى، فكل منهما مبشر بالنبي ﷺ في كتابه، وكل منهما قد نبذ الكتاب فلم يعمل به، ولم يضر النبي ﷺ هذا الجحود من الفريق الجاحد، لأن دعوته قد قبلها الآخرون واهتدى بها من لا يحصى من الأميين ومن سائر الأمم، وإنما يضر الجاحدين لأنهم تركوا كتابهم الذي يزعمون أنه المنجي والمخلص لهم وحرموا من هداية خاتم النبيين، التي هي أكمل هداية أنعم الله بها على العالمين.

قال تعالى بعدما ذكر نبذهم الكتاب:

﴿ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾، أي نبذوه نبذ من لا يعلم أنه كتاب الله. يريد أنهم بالغوا في تركه وإهماله. ومن ترك شيئًا من أمر الله، وهو يعلم أنه أمره، ولكن طاف به طائف من الشيطان فغلب على أمره، فإنه لا يلبث أن يعود. ولكن هذا الفريق النابذ لكتاب الله تعالى من حيث هو مبشر بالنبي وآمر باتباعه، يتمادى بهم الزمان ولا يتوبون ولا يرجعون، وما أحسن التعبير عن ذلك بنفي الحال والاستقبال دون نفي الماضي.

ثم ذكر تعالى أن أولئك الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم مجاحدة للنبي ﷺ وحسدًا له، قد تبدلوا الكفر بالإيمان، واشتروا الضلالة بالهدى:

﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ ﴾

من الإنس في قصصها وأساطيرها، أو من الجن في وسوستها أو منهما جميعًا، على حد قوله تعالى:

﴿ شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾

(الأنعام: ١١٢)

﴿ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾

أي ما كانت تتلو على عهده وفي أيام ملكه، إذ زعموا أن ملكه قام على أساس السحر والطلسمات، وأنه ارتد في آخر عمره وعبد الأصنام مرضاة لنسائه الوثنيات: ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ﴾ وما سحر، و﴿ وَلَٰكِنَّ ﴾ أولئك ﴿ الشَّيَاطِينَ ﴾ الذين يسندون إليه ما انتحلوه من السحر، وما تلبسوا به من الكفر، هم الذين:

﴿ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾

ليفتنوا به العامة، ويضلونهم عن طلب الأشياء من أسبابها الظاهرة ومناهجها المشروعة.

بينا غير مرة أن القصص جاءت في القرآن لأجل الموعظة والاعتبار، لا لبيان التاريخ، ولا للحمل على الاعتقاد بجزئيات الأخبار عند الغابرين. وإنه ليحكي من عقائدهم الحق والباطل، ومن تقاليدهم الصادق والكاذب، ومن عاداتهم النافع والضار، لأجل الموعظة

والاعتبار. فحكاية القرآن لا تعدو موضع العبرة، ولا تتجاوز موطن الهداية. ولابد أن يأتى فى العبارة أو السياق وأسلوب النظم ما يدل على استحسان الحسن واستهجان القبيح. وقد يأتى فى الحكاية بالتعبيرات المستعملة عند المخاطبين أو المحكى عنهم، وإن لم تكن صحيحة فى نفسها، كقوله:

﴿كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾
(البقرة: ٢٧٥)

وكقوله:

﴿بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾
(الكهف: ٩٠)

وهذا الأسلوب مألوف، فإننا نرى كثيرًا من كتاب العربية وكتاب الأفرنج يذكرون آلهة الخير والشر فى خطبهم ومقالاتهم، لاسيما فى سياق كلامهم عن اليونان والمصريين القدماء، ولا يعتقد أحد منهم شيئًا من تلك الخرافات الوثنية. ويقول أهل السواحل: غربت الشمس أو سقط قرص الشمس فى البحر أو فى الماء، ولا يعتقدون ذلك وإنما يعبرون به عن المرئى.

جاء ذكر السحر فى مواضع متعددة فى القرآن، وأكثره فى قصة موسى وفرعون، وذكر هنا فى الكلام عن اليهود. وإذا أردنا فهمه من عرف اللغة، وجدنا أن السحر عند العرب كل من لطف مأخذه ودق وخفى. وقالوا سحره وسحّره بمعنى خدعه وعلله. وقالوا عين ساحرة وعيون سواحر. وفى الحديث الصحيح «إن من البيان لسحرًا» والسحر بالفتح وبالتحريك الرئة، وهى أصل هذه المادة، والرئة فى الباطن. فما لطف مأخذه ودق صنعه حتى لا يهتدى إليه غير أهله فهو باطن خفى. ومنه الخداع، وهو أن يظهر لك شيئًا غير الواقع فى نفس الأمر. فالواقع باطن خفى، وتأثير العيون فى عشاق الحسان، والكلام البليغ فى عشاق البيان، مما يخفى مسلكه ويدق سببه، حتى يعسر على أكثر الناس الوقوف على العلة فى تأثيره.

وقد وصف الله السحر فى القرآن بأنه تخييل يخدع الأعين، فيريها ما ليس بكائن كائنًا، فقال:

﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾
(طه: ٦٦)

والكلام فى حبال السحرة وعصيهم. وفى آية أخرى:

﴿سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾
(الأعراف: ١١٦)

وفى هذه الآية التى نفسرها أن السحر كان يؤخذ بالتعليم، والتاريخ يشهد بهذا. وقد كان المصريون يطلقون لقب الساحر على العالم، كما يؤخذ من قوله تعالى:

﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾
(الزخرف: ٤٩)

ومجموع هذه النصوص يدل على أن السحر إما حيلة وشعوذة، وإما صناعة علمية خفية يعرفها بعض الناس ويجهلها الأكثرون، فيسمون العمل بها سحرًا لخفاء سببه، ولطف مأخذه. ويمكن أن يعد منه تأثير النفس الإنسانية فى نفس أخرى لمثل هذه العلة. وقد قال المؤرخون: إن سحرة فرعون قد استعانوا بالزئبق على إظهار الحبال والعصى بصور الحيات والثعابين وتخييل أنها تسعى.

وقد اعتاد الذين اتخذوا التأثيرات النفسية صناعة ووسيلة للمعاش، أن يستعينوا بكلام مبهم وأسماء غريبة اشتهر عند الناس أنها من أسماء الشياطين وملوك الجان، وأنهم يحضرون إذا دعوا بها ويكونون مسخرين للداعى. ولمثل هذا الكلام تأثير فى إثارة الوهم عرف بالتجربة، وسببه اعتقاد الواهم أن الشياطين يستجيبون لقارئه ويطيعون أمره. ومنهم من يعتقد أن فيه خاصية التأثير، وليس فيه خاصية، وإنما تلك العقيدة الفاسدة تفعل فى النفس الواهمة ما يغنى منتحل السحر عن توجيه همته وتأثير إرادته. وهذا هو السبب فى اعتقاد الدهماء أن السحر عمل يستعان عليه بالشياطين وأرواح الكواكب.

وقد اختلف المتكلمون والمفسرون والفقهاء فى حقيقة السحر، وفى أحكامه، وعده بعضهم من خوارق العادات، وفرقوا بينه وبين المعجزة، ولم يذكروا فى فروقهم أن السحر يتلقى بالتعليم ويتكرر بالعمل، فهو أمر عادى قطعًا بخلاف المعجزة.

وفى قوله تعالى:

﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾

وجهان:

(أحدهما): أنه متصل بقوله:

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟﴾

أى أن الشياطين هم الذين يعلمون الناس السحر.

(وثانيهما): وهو الأظهر، أنه متصل بالكلام عن اليهود، وأن الكلام فى الشياطين قد انتهى عند القول بكفرهم.

وانتحال اليهود لتعليم السحر أمر كان مشهورًا فى زمن التنزيل، ولا يزالون ينتحلون ذلك إلى اليوم. أى أن فريقًا من اليهود نبذوا كتاب الله، واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان. وههنا يقول القائل: بماذا اتبعوا أولئك الشياطين الذين كذبوا على سليمان فى رميه بالكفر، وزعمهم أن السحر استخرج من كتبه التى كانت تحت كرسيه؟ فأجاب على طريق الاستئناف البيانى:

﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾

ونفى الكفر عن سليمان، وإلصاقه بالشياطين الكاذبين ذكر بطريق الاعتراض، فعلم أيضًا أنهم اتبعوا الشياطين بهذه الفرية أيضًا. وإنما كان القصد إلى وصف اليهود بتعليم السحر، لأنه من السيئات التى كانوا متلبسين بها، ويضرون بها الناس خداعًا وتمويهًا وتلبيسًا.

ثم قال:

﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾

فأجمل بهذه العبارة الوجيزة خبر قصة كانوا يتحدثون بها، كما أجمل فى ذكر تعليم السحر فلم يذكر ما هو؟ أشعوذة وتخييل، أم خواص طبيعية، وتأثيرات نفسية؟ وهذا ضرب من الإعجاز فى الإيجاز انفرد به القرآن. يذكر الأمر المشهور بين الناس فى وقت من الأوقات، لأجل الاعتبار به، فينظمه فى أسلوب يمكن لكل أحد أن يقبله فيه مهما يكن اعتقاده لذلك الشىء فى تفصيله. ألا ترى كيف ذكر السحر هنا وفى مواضع أخرى، وبأساليب لا يستطيع أن ينكرها من يدعى أن السحر حيلة وشعوذة أو غير ذلك مما ذكرناه، ولا يستطيع أن يردها من يدعى أنه من خوارق العادات؟!

والحكمة في ذلك، أن الله عز وجل قد وكل معرفة هذه الحقائق الكونية إلى بحث الإنسان واشتغاله بالعلم، لأنه من الأمور الكسبية. ولو بين مسائلها بالنص القاطع، لجاءت مخالفة لعلم الناس واختبارهم في كل جيل لم يرتق العلم فيه إلى أعلى درجة، ولكانت تلك المخالفة من أسباب الشك أو التكذيب. فإننا نرى من الناس من يطعن في كتب الوحي لتفسير بعض تلك الأمور المجملة بما يتراءى لهم، وإن لم تكن نصا ولا ظاهرا فيه، ويزعمون أن كتاب الدين جاء مخالفا للعلم، وإن كان ذلك الذى يطلقون عليه اسم العلم ظنيا أو فرضيا.

في (الملكين) قراءتان: فتح اللام وكسرها. فالأولى قراءة الجمهور، والثانية قراءة ابن عباس والحسن وأبي الأسود والضحاك. وحمل بعضهم قراءة الفتح على قراءة الكسر، ويؤيده ما قيل إن المراد بهما داود وسليمان عليهما السلام. وقيل بل هما رجلان صاحبا وقار وسمت، فشبها بالملائكة، وكانا يؤمهما الناس بالحوائج الأهلية، ويجلونهما أشد الإجلال، فشبها بالملوك. وتلك عادة الناس فيمن ينفرد بالصفات المحمودة، يقولون: هذا ملك وليس بإنسان. كما يقولون فيمن كان سيدًا عزيزًا يظهر الغنى عن الناس من حيث يحتاجون إليه: هذا سلطان زمانه.

جلت حكمة الله في خلقه، فقد قدّ هؤلاء الآدميين من أديم واحد. كان الناس على عهد «هاروت» و«ماروت» - اللذين كان يتحدث بخبرهما ولا يحدد تاريخهما - على مثالهم اليوم، لا يقصدون للفصل في شئونهم الأهلية من الجهة الروحانية إلا إلى أهل السمت والوقار، اللابسين لباس أهل التقوى والصلاح. هذا ما نشاهدهم عليه في زماننا، وهذا ما حكى الله تعالى عنهم في الزمن القديم. ولعل الله تعالى سماهم ملكين «بفتح اللام» حكاية لاعتقاد الناس فيهما، أو على سبيل المجاز، كما قال بعض المفسرين.

قال تعالى في اليهود:

﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ﴾

والظاهر هو العطف، أي أن ما أنزل عليهما هو غير السحر، ضم إليه لأنه من جنسه في كون تعليمه سيئة مذمومة، أو هو لتغاير الاعتبار أو النوع. وليس معنى الإنزال عليهما أنه وحي من الله كوحيه للأنبياء، فيشكل عده من الشر والباطل الذى يذم تعلمه، فإن كلمة أنزل تستعمل في مواضع لا صلة بينها وبين وحي الأنبياء. قالوا: أنزلت حاجتي على كريم، وأنزل لي عن هذه الأبيات. ويقال: قد أنزل الصبر على قلب فلان. وقال تعالى:

﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾

(الحديد: ٢٥)

وقال:

﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

(الفتح: ٢٦)

ولعل التعبير عما أوتياه من العلم بالإنزال، لأنه لم يكن يعرف له مأخذ غيرهما، يراد أنهما ألهماه إلهاما واهتديا إليه من غير أستاذ ولا معلم. ويصح أن يسمى مثل هذا وحيا لخفاء منبعه.

وليس الوحي وإلهام الخواطر خاصا في عرف اللغة ولا عرف القرآن بالأنبياء، ولا بما يكون موضوعه خيرًا أو حقا، فقد قال تعالى:

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾

(النحل: ٦٨)

وقال:

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾

(القصص: ٧)

وقال:

﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾

(الأنعام: ١١٢)

وقال الشاعر:

رأس الغواية في العقل السقيم فما
فيه فأكثره وحي الشياطين

وذكر ابن جرير الطبري وجها آخر في تفسير ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾، ونقله كثير من المفسرين. وهو أن ﴿وَمَآ﴾ نافية، أي أن اليهود يعلمون الناس السحر ويرتقون بسنده إلى الملكين ببابل وما أنزل السحر على الملكين، فكيف كانوا يعلمونه بني إسرائيل؟! وقد ضعفوه بأن الثابت في الواقع أن بني إسرائيل كانوا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين.

ثم قال:

﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾

أي أن ما عندنا هو أمر يبتلي به الله الناس ويختبرهم فلا تتعلم ما هو كفر. فإن أصر علماء.

قال تعالى:

﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾

صيغة المضارع في هذه الجملة وما قبلها لتصوير ما كان كأنه كائن، فالكلام تصوير للقصة لا حكم بمضمونها أي أنهم كانوا يتعلمون منهم ما وضع لأجل التفريق بين الزوجين، وهو نحو ما يسميه الدجاجلة الآن «كتاب البغضة». وليس في العبارة ما يدل على أن ما يتعلمونه لهذا الغرض هو مؤثر فيه بطبعه أو بسبب خفي أو بخارقة لا تعقل لها علة، ولا أنه غير مؤثر، وليس فيها بيان لما يتعلمونه هل هو كتابة تمائم، أو تلاوة رقى وعزائم، أو أساليب سعاية، أو دسائس تنفير ونكاية، أو تأثير نفساني، أو وسواس شيطاني. وأي شيء من ذلك ثبت علمًا، كان تفصيلاً لما أجمله القرآن في الواقع. ولا يجوز لنا أن نتحكم بتفصيل ما أجمله القرآن، فنحمله على أحد ما ذكر أو على غيره. ولو علم الله أن الخير لنا في بيان ذلك، لبينه كما قلنا في مثله مرارًا.

لم يبين القرآن ذلك الإجمال ولا حقيقة ذلك العلم، لأنه موكول إلى بحث البشر وارتقائهم في العلم كما تقدم، ولكنه لم يهمل ما يتعلق بالعقائد وبيان الحق فيها، ولذلك قال بعد حكاية السحر عنهم:

﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾

أي أنهم ليس لهم قوة غيبية وراء الأسباب التي ربط الله بها المسببات، فهم يفعلون بها ما يوهمون الناس أنه فوق استعداد البشر،

وفرق ما منحوا من القوى والقدر. فإذا اتفق أن أصيب أحد بضرر من أعمالهم، فإنما ذلك بإذن الله، أى بسبب من الأسباب التى جرت العادة بأن تحصل المسببات من ضر ونفع عند حصولها بإذن الله تعالى. وهذا الحكم التوحيدى هو المقصود الأول من مقاصد الدين. فالقرآن لا يترك بيانه عند الحاجة، بل عند كل مناسبة. وربما ترد فى القرآن قصة مثل هذه القصة، لأجل بيان الحق فى مسألة اعتقادية كهذه المسألة، لأن إيراد الأحكام فى سياق الوقائع أوقع فى النفس وأعصى على التأويل والتحريف.

ثم قال بعد نفى القوة التى وراء الأسباب عنهم:

﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾

يضرهم لأنه سبب فى الإضرار بالناس، وهو محرم يعاقب الله تعالى عليه فى الآخرة. ومن عرف بإيذاء الناس يمقته الناس ويكونون عليه. ولما كان بعض الضار من جهة نافعًا من جهة أخرى، وربما كانت منفعته أكبر من إثمه، نفى المنفعة بعد إثبات المضرة، فهذا النفى واجب فى قانون البلاغة لابد منه. وقد صدق الله تعالى، فإننا نرى منتحلى السحر وما فى معناه أفقر الناس وأحقرهم، ولو عقل السفهاء الذين يختلفون إليهم يلتمسون المنافع لأنفسهم والإيقاع بأعدائهم، لعلموا أن الشقى فى نفسه لا يمكن أن يهب السعادة لغيره، لأن فاقد الشىء لا يعطيه.

هذه حالهم فى الدنيا، فكيف يكونون فى الآخرة، يوم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون؟ لا جرم أنها تكون حالًا سوءى. واليهود يعلمون ذلك كما قال:

﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾

أى أنهم يعلمون أن من اختار هذا واستبدله بما آتاه الله من أصول الدين الحق وأحكام الشريعة العادلة الموصلين إلى سعادة الدنيا والآخرة، فليس له نصيب فى نعيم الآخرة. وذلك أن التوراة قد حظرت تعليم السحر، وجعلته كعبادة الأوثان، وشددت العقوبة على فاعله وعلى أتباع الجن والشياطين والكهان، ولا ينافى هذا العلم قوله:

﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾

فإن العلم علمان، علم تفصيلى متمكن من النفس متسلط على إرادتها يحركها إلى العمل، وعلم إجمالى خيالى يلوح فى الذهن مبهمًا عندما يعرض ما يذكر به ككتاب وإلقاء سؤال، وهو يقبل التحريف والتأويل، وليس له منفذ إلى الإرادة ولا سبيل، فقد كانوا يستحلون أكل السحت كالرشوة والربا بالتأويل، كما يفعل غيرهم اليوم وقبل اليوم، ولو كانوا يعلمون حرمة ما ذكر علمًا تفصيليًا يستغرق جميع جزئيات المحرم، ويفقهون علة التحريم وسره، ويصدقون بما توعد الله مرتكبه من العقوبة فى الآخرة تصديقًا جازمًا ويتذكرونه وقت العمل بما للعقيدة من السلطان على الإرادة، لما ارتكبوا ما ارتكبوه مع الإصرار عليه، ولكنهم فقدوا هذا النوع من العلم، ولم يغن عنهم تصور أن السحر والخداع كلاهما حرامٌ كالربا والرشوة، لأن فى الكتاب عبارة تدل على ذلك، فإن العبارة تحتمل ضروبًا من التأويل، ككون النهى خاصًا بمعاملة شعب إسرائيل، وكانوا يقولون:

﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾

(آل عمران: ٧٥)

إذا أكلنا أموالهم بالباطل، وكاشتراط الضرر فى السحر مع ادعاء أن ما يأتونه منه نافع غير ضار وغير ذلك.

وإننا نرى كثيرًا من الحرمات قد انتهكت فى المسلمين بمثل تلك التأويلات، حتى جوز بعض المشتغلين بالفقه هدم ركن من أعظم أركان الإسلام بالحيلة، وهو ركن الزكاة الذى يحارب تاركوه شرعًا، ونرى هذه الحيل قد أثرت فى الأمة أسوأ التأثير، فقلما يوجد فيها غنى يؤدى الزكاة، ولا يعتقد المتمسك بالدين من هؤلاء الأغنياء أنه متعرض لمقت الله وعقوبته، وأنه قد فسق عن أمر ربه، لأنه يمنع الزكاة بحيلة يسميها شرعية، وقد أخذها عمن يسمون فقهاء، ويفتخرون بأنهم ورثة الأنبياء. ثم إن الحيل على التزوير وأكل أموال الناس بالباطل لها فى بعض الكتب وعلى ألسنة كثيرين من أصحاب العمائم مجال واسع وميدان فسيح، ولها أقبح التأثير فى إفساد العامة واستباحتهم المحظورات.

وقد صارت هذه الحيل على الله عز وجل والتأويلات الباطلة الهادمة لدينه معدودة من علم الدين، حتى إنه ليأتيها من لا منفعة له فى إتيانها ممن يعدون صالحين، ومن أعجب ذلك أن بعض أهل العلم الصالحين يشهد الزور بمثل هذه التأويلات، وقد نقل الثقات أن طالب الشهادة يستعطفه ويستميل قلبه بالشكوى من الظلم وإرادة الاستعانة بشهادته على دفع المظلمة والتخلص من الأذى، فيأمر الشيخ بأن تطوى الورقة المشتملة على قول الزور بحيث يحجب سواد الكتابة فلا يراه ويضع توقيعه وختمه فى ذيلها كأنه وضعهما على ورقة خالية، وهو يعلم أنها ليست خالية من الكتابة، ويعرف ما فيها من الكذب، فهل تقول إنه غير عالم بقوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾

(الفرقان: ٧٢)

وقوله:

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

(النحل: ١٠٥)

وبما رواه البخارى ومسلم وغيرهما من حديث أبى بكرة أن النبى ﷺ قال -وكان متكئًا-: (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ الإشراك بالله وعقوق الوالدين، ثم قعد فقال: ألا وقول الزور وشهادة الزور)، فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت، وبما روياه من حديث أبى هريرة مرفوعًا أيضًا: (آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان)، وفى رواية لغيرهما: (ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى وحج واعتمر وقال إنى مسلم) وذكرهن، بل إنه عالم بكل ذلك، ولكنه التأويل، أفسد على كل أهل دين دينهم.

ولقد صار العالم المسلم عاجزًا فى أكثر بلاد المسلمين عن إنكار ما يخالف هدى الكتاب والسنة من كتب الميتين، لا سيما إذا اشتهروا باختيار كتبهم للتدريس. وحجة هؤلاء المقلدين على نصر كتب الميتين وترجيحها على كتاب الله وسنة رسوله هى أن القادرين على الاهتداء بهما قد انقرضوا، فوجب على المسلمين ترك العمل بهما والاعتماد على كتب العلماء المتأخرين الذين

استنبطوا من قواعد أئمتهم جميع مسائل الدين، فعلينا أن نأخذ بكل ما قالوا، وأن لا ننظر فى الكتاب والسنة إلا للتبرك بهما، فإن رأينا خلافًا بين قول الله ورسوله وقول الفقيه لا يحتمل التأويل، فعلينا أن نتهم عقولنا وأفهامنا، وننزه فهم الفقيه الميت وعقله، ونعمل بقوله مكابرين أنفسنا التى سجل عليها الحرمان من فهم الكتاب المبين والسنة البيضاء التى وصفها صاحبها بأن ليلها كنهارها أى لا يشتبه فيها أحد!! هذا ما عليه جماهير المسلمين، ولم يبعد من قبلهم عن كتاب ربهم أشد من هذا البعد، وسيعودون إليه بعد حين، فقد أخذهم العذاب على تركه:

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الروم: ٤٧)

ثم قال تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ﴾

أى: لو أنهم استبدلوا الإيمان بما جاء به النبى ﷺ بهذا السحر الخادع واتباع نزغات الشياطين، أو لو آمنوا بكتابهم إيمانًا حقيقيًا ومنه البشارة بالنبى والأمر باتباعه، واتقوا بالعمل به والمحافظة على حدوده مغبة ما ينتظره المجرمون من العقوبة على العصيان، لكان ثواب الله لهم على الإيمان الصحيح، والعمل الصالح خيرًا لهم من جميع ما توهموه فى المخالفة من المنافع.

ثم قال:

﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾

أى أنهم فى كل ما هم عليه من الأباطيل، ومن زعمهم أنها ترجع إلى الكتاب بضروب من التأويل، يتبعون الظنون ويعتمدون على التقليد، وليسوا على شىء من العلم الصحيح، ولو كانوا يعلمون علمًا صحيحًا، لظهر أثره فى أعمالهم، ولآمنوا بالنبى ﷺ واتبعوه فكانوا من المفلحين.

ومن مباحث اللفظ فى الآيات، أن (بابل) بلدة قديمة كانت فى سواد الكوفة - قبل الكوفة - فى أشهر أقوال المفسرين، ويؤخذ من بعض كتب التاريخ أنها كانت فى الجانب الشرقى من نهر الفرات بعيدة عنه، ويقال إن أصل اشتقاقها فى العبرانية يدل على الخلط، إشارة إلى ما يرويه العبرانيون من اختلاط الألسنة هناك.

و﴿هَارُوتَ﴾ و﴿مَارُوتَ﴾ اسمان أعجميان، ولو كانا مشتقين من الهرت والمرت كما زعم بعضهم، لما منعا من الصرف.

و﴿مِنْ﴾ فى قوله تعالى:

﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ﴾

لاستغراق النفى وتأكيده، وهى ليست بزائدة، وإنما الزائدة ما يذكر للتحلية ولا يكون له معنى ما وفاقًا لكثير من المفسرين.

والمثوبة الثواب، و﴿لَمَثُوبَةٌ﴾ خبر ﴿لَوْ﴾، أى لكانت مثوبة من الله خيرًا، وقد قدروا لها فعلاً فقالوا: الأصل لأثيبوا مثوبة، فحذف الفعل وركب الباقى جملة اسمية ليدل على ثبات المثوبة، ونكرت لبيان أنها مهما قلّت فهى خير لهم، وأصلها الثوب بمعنى الرجوع، كأن المحسن يثوب إلى من أحسن إليه بعد الإعراض.

أقسام السنة عند الدكتور/ محمد عبدالله دراز



النوع الثانى: تحكيم الهوى فى رد الأحاديث الصحيحة:

ومنشأ هذه البدعة عند أهلها أنهم سمعوا أن أخبار الآحاد ليست بحجة قطعية فى الدين فأخذوا هذه القضية على علاتها، ولم يرجعوا إلى أهل الذكر يسألونهم عن حدودها، بل جعلوا يتحللون من قيود تلك الأخبار ويضعون أهواءهم فى مكانها، فترى أحدهم إذا سمع الحديث عرض مضمونه على ذوقه واستحسانه فما وافقه كان عنده مقبولاً، وما خالفه كان مردودًا على راويه، بحجة أنه رواية آحاد، يجوز على كل منهم الخطأ والكذب، ولا يتورع عن اتهام أحد حتى الصحابى نفسه بمجرد هذا الاحتمال، كما سبق مثاله فى حديث الذباب.

ولو أن كل ذى هوى طوعت له نفسه أن يتخلص من طائفة من الأحاديث بمثل هذه الحجة لأتت الأهواء المختلفة على أكثر السنة أو عليها جملة حتى لا يبقى بين أيديهم أصل معترف به غير القرآن وحده، وكذلك سمعنا وقرأنا عن كثير منهم أنهم لا يعتمدون فى الدين حكمًا جاء من غير صريح القرآن: وهكذا تحقق فيهم مصداق ما أخبر به النبى ﷺ حين يقول: «يوشك رجل شبعان متكئ على أريكته يبلغه الحديث عنى فيقول لا أدرى، بيننا وبينكم كتاب الله فما وجدنا فيه حلالا استحللناه، وما وجدنا فيه حرامًا استحرمناه» رواه أبو داود والترمذي(١).

ولعمرى إنها لضلالة تجر إلى ضلالات فإن السنة هى بيان الكتاب وترجمانه، وهى رسم الخطط العملية التفصيلية التى يكون بها تنفيذ قواعده.. فمن ترك الأخذ بها تعذر عليه العمل بالكتاب نفسه، إذ يصبح أكثره نصوصًا مجملة لا يمكن الاحتجاج بها، وإليك مثالين اثنين من قواعد الإسلام: إقام الصلاة وإيتاء الزكاة.. هل ترى فى الكتاب نصًا صريحًا يحصى عدد الصلوات المفروضة فى كل يوم وليلة ويحدد ميقات كل منهما تحديدًا لا لبس فيه، ثم يبين كم عدد الركعات فى كل صلاة

(١) رواه أبو داود عن المقداد بن معدي كرب، كتاب السنة، باب لزوم السنة جـ٤ ص١٠ (٤٦٠٤)
ورواه الترمذي عن المقداد بن معدي كرب، كتاب العلم، باب ما نهي عنه أن يقال عند حديث النبي ﷺ جـ٣ ص٣١٠ (٢٦٦٦)

وكم قياما وجلوسا وركوعًا وسجودًا فى كل ركعة؟ ثم بم تبدأ الصلاة وبم تختم وكيف تترتب أركانها إلى غير ذلك من أحكامها؟ وهل ترى فى الكتاب بيان أنواع الأموال التى تجب فيها الزكاة ومقدار النصاب من كل نوع وقدر الواجب منه ووقت أدائه؟ كلا بل لا تجد بيان ذلك كله بطريقة صريحة مضبوطة إلا فى السنة فقل لمن لا يعتمد دليلًا فى مسألة شرعية غير القرآن - إن كان يصلى ويزكى كما يصلى المسلمون ويزكون أو على الأقل إن كان يؤمن بأن الصلاة والزكاة هكذا فرضًا - قل له على أى نص من نصوص القرآن اعتمد فى هذه التفاصيل؟ أم عساه يدعى أن صفة الصلاة والزكاة قد ترك تحديدها أيضًا لأهواء النفوس وأذواق العصور؟ وإذًا يخرج من عداد المسلمين، إذ يكون مكذبًا بما هو من ضروريات الإسلام.

غير أن هاهنا شبهة لهذه القاعدة البدعية فى صدور متبعيها، ونريد أن نأتى عليها بما يزيل غشاوتها عن البصائر.

أما الشبهة فهى (أن من المتفق عليه عند المسلمين، بل عند العقلاء كافة أنه لا تتم الثقة بإسناد قول ما إلى قائله إذا لم يسمع منه مشافهة إلا أن يكون نقله عنه بسند متواتر يحصل اليقين بصدوره عنه حقًا، والنص المنقول إلينا عن النبى ﷺ بهذه الطريقة إنما نجده فى القرآن ولا نجده فيما سواه فى الأخبار النبوية وأين نجده فى تلك الأخبار وهذا الإمام ابن الصلاح(٢) يصرح بأنه يعز وجود حديث نبوى مستوف لشرائط التواتر المفيدة للعلم، بل قال بعض العلماء بعدم وجود حديث كذلك؟(٣).

وجواب هذه الشبهة أننا نسلم بأولى مقدمتيها ولا نسلم بأخراهما فدعوى أن تمام الثقة بالأخبار إنما يكون بالمتواتر منها دعوى صحيحة، ودعوى أنه لم يتواتر عن النبى ﷺ إلا القرآن دعوى منحرفة عن جادة الصواب، وكان أقرب إلى الإنصاف لو قيل إنه ليس هناك نص بلغ تواتره مبلغ تواتر القرآن الذى طرق كل الأسماع ووصل إلى أطراف الأرض ولكن هذا لا ضير فيه، فإنه ليس من

(٢) ابن الصلاح: هو أبو عمرو تقى الدين عثمان بن عبدالرحمن ولد سنة ٥٧٧هـ كان والده يلقب صلاح الدين فنسب إليه وعرف بابن الصلاح. حصل ابن الصلاح العلوم بأنواعها الفقه، الأصول، التفسير، الحديث، اللغة وغيرها ورحل فى طلب العلم إلى بغداد وبلاد خراسان، وبلاد الشام وكان زاهدا ورعًا فى الدنيا وحطامها توفى سنة ٦٤٣هـ لوفيات الأعيان ٣١٢/١، تذكرة الحفاظ ١٤٣٠ طبقات الشافعية ١٣٧/٥، الأعلام للزركلى ٣٦٩/٤١.

(٣) آراء العلماء فى وجود المتواتر: ذهب ابن حبان والحازمى إلى القول بأن الحديث المتواتر غير موجود أصلا وذهب ابن الصلاح وتبعه الإمام النووى - رحمه الله - إلى أنه قليل الوجود نادر المثال، قال ابن الصلاح ولا يكاد يوجد فى رواياتهم، ومن سئل عن إبراز مثال لذلك أعياه تطلبه. مقدمة ابن الصلاح ص ١٣٥. وقال النووى رحمه الله ومنه المتواتر المعروف فى الفقه وأصوله، ولا يذكره المحدثون وهو قليل لا يكاد يوجد فى رواياتهم) تدريب الراوى ١٧٦/٢. وذهب ابن حجر إلى كثرة وجود المتواتر حيث يقول (ما ادعاه ابن الصلاح من عز المتواتر، وكذا ما ادعاه غيره من العدم ممنوع، لأن ذلك نشأ عن قلة الاطلاع على كثرة الطرق وأحوال الرجال، وصفاتهم المقتضية لانتفاء العادة أن يتواطئوا على الكذب أو يحصل منهم اتفاقا) نزهة النظر من ص٢٢، ٢٣ وقد ألف السيوطى كتابا أسماه الأزهار المتناثرة فى الأخبار المتواترة ثم اختصه فى قطف الأزهار.

شرط التواتر أن يكون عامًا كذلك، بل رب تواتر(٤) يصل إلى قطر دون قطر، أو إلى طائفة دون طائفة، أو إلى فرد دون فرد، ولا يتوقف اليقين عند من بلغه الخبر متواترًا على وصول الخبر لغيره فضلًا عن وصوله إليه متواترًا كذلك.

أما كلمة ابن الصلاح فأكثر الظن بابن الصلاح أنه إنما استبعد نوعًا خاصًا من التواتر - نص حرفى - يعلم بالضرورة صدوره عن النبى ﷺ بنصه من غير زيادة حرف ولا نقص حرف ولا إبدال كلمة بمرادفها، وذلك لكثرة ما يشاهد من اختلاف الروايات فى بعض الألفاظ، ومع ذلك فقد خطأه الحفاظ ونسبوا مقالته هذه إلى قلة اطلاعه.

قال الحافظ ابن حجر(٥) ما معناه: ومن وقف على طرق الحديث وأحوال رجالها يعلم كثرة وجود النصوص المستوفية لشرائط التواتر المفيد للعلم هذا إذا نظرنا إلى إفادة العلم الضرورى، الذى يحصل لكل أحد حتى لمن ليس له أهلية النظر، والذى يضطر كل أحد إليه اضطرارًا لا يمكن دفعه عند وجود شرطه، فإذا وسعنا الأمر وطلبنا الخبر الذى يفيد اليقين بإطلاق، ضروريًا بنفسه أو نظريًا بقرائنه وجدناه أكثر مما قبله إذ يدخل فيه أنواع من الحديث الذى يعده الناس آحاديا.

١- كالأحاديث التى اتفق الشيخان على إخراجها فى صحيحيهما (ما لم ينتقده أحد من الحفاظ، ولم يقع التعارض بينه وبين قاطع أو صحيح مثله.. فإن إجماع العلماء على تمييز البخارى ومسلم فى نقد الأخبار وتمييز الصحيح من غيره. وأنهما أودعا كتابيهما من الحديث أصح الصحيح، ثم إجماع العلماء على تلقى هذين الكتابين بالقبول، كل هذا يقوم مقام كثرة الطرق التى فى المتواتر بل يزيد عنها من جهة أخرى وهى أنه لا يشترط فى المتواتر صحة شىء من أفراده فضلا عن كونها أصح الصحيح.. ومما يقرب عليك دخول هذا النوع فى حد المتواتر أن تعلم أن عدد التواتر ليس لأدناه حد محدود على التحقيق، بل المدار فيه على حصول الجزم بعدم إمكان اتفاق ناقليه على الكذب عادة وهذا القدر حاصل فيما اتفق الشيخان على إخراجه بأسانيد مختلفة نعم هذا الجزم لا يحصل إلا للعالم بالحديث المتبحر فيه العارف بأحوال الرواة المطلع على العلل ومن أجل ذلك كان علما نظريًا غير ضرورى، وممن صرح بإفادة رواية الشيخين العلم النظرى من الأصوليين الأستاذ أبو اسحق الإسفرايينى(٦)، ومن أئمة الحديث أبو عبدالله الحميدى، وأبو الفضل بن طاهر وغيرهما.

٢- وكذلك يقال فى الأحاديث

(٤) فمثلا تواتر وجود (بغداد) و(البرازيل) ليس كتواتر وجود (الصين) و(باريس) وتواتر هذين ليس كتواتر وجود (مكة) و(المدينة) عند عامة المسلمين (د/دراز).

(٥) ابن حجر أبو الفضل شهاب الدين من أئمة العلم، وأشهر العلماء، أصله من عسقلان بفلسطين ولد فى القاهرة سنة ٧٧٣هـ ورحل فى طلب العلم ولى قضاء مصر توفى بالقاهرة سنة ٨٥٢هـ ومن كتبه فتح البارى لشرح صحيح البخارى انظر الضوء اللامع ٣٦/٢، الدرر الكامنة ٤٩٢/٤، الأعلام ١٧٨/١، ١٧٩.

(٦) أبو إسحاق الإسفرايينى: أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الإسفرايينى أحد المجتهدين فى عصره وصاحب المصنفات توفى سنة ٤١٨هـ سير أعلام النبلاء ٣٥٣/١٧ البداية والنهاية ٢٤/١٢.

الصحيحة التى كثرت طرقها إلى حد الاستفاضة[٧] من غير قادح، ولو لم يخرجها الصحيحان.. ومن صرح بإفادة هذا النوع للعلم النظرى الأستاذ أبو منصور البغدادي[٨] والأستاذ أبو بكر بن فورك وغيرهما[٩].

٣- وكذلك الأحاديث الآحادية التى يرويها الأئمة المتقنون، بعضهم عن بعض وتتعد طرقها أدنى تعدد، كرواية الإمام أحمد عن الإمام الشافعى عن الإمام مالك إذ كان كل منهم له مشارك فى السماع عن شيخة اهـ

محصول كلام الحافظ ابن حجر فى شرح رسالته المسماة «نخبة الفكر فى مصطلح أهل الأثر».

نقول: وهذا كله إذا نظرنا إلى التواتر اللفظى فى النص الواحد أو التقارب، ولو نظرنا إلى ترادف الأسانيد المتعددة على معنى واحد وقدر مشترك بينها مع اختلاف نصوصها لوجدناه أكثر، وهذا النوع هو المسمى بالتواتر المعنوى، وإفادته للعلم الضرورى كإفادة التواتر اللفظى سواء، ومنه علمنا بشجاعة على بن أبى طالب وكرم حاتم الطائى مع عدم وجود نص معين متواتر فى ذلك فليحذر الذين يردون الحديث بأهوائهم على رواية، أن يصادف ردهم نوعًا من هذه الأنواع المتواترة أو الملحقة بالمتواتر، فتحبط أعمالهم من حيث لا يشعرون، إذ يكون ردهم فى الواقع ردًا لما هو حكم الله ورسوله جزما، وليتبينوا، فإن الله تعالى يقول:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾

(الحجرات: ٦)

والهوى فاسق يجب اتهامه والتحفظ فى قول أحكامه قبل اتهام العدول من أمة محمد ﷺ.

ونعود إلى المقدمة الأولى من الشبهة، وهى قولهم (إن تمام الثقة بالأخبار إنما يكون بالمتواتر منها فنقول إن هذه المقدمة مع كونها صحيحة فى منطوقها تطوى وراءها مقدمة أخرى لا يتم للمبتدع تقريب شبهته إلا بها، يعنى: ولا يجب ـبل لا يجوز ـ العمل من الأخبار إلا بما حصلت فى نقله تلك الثقة التامة التى تبلغ مبلغ الجزم بصدوره عن قائله لأن الأخذ بما دون ذلك اتباع الظن المنهى عنه شرعًا، بل هو مخاطرة يتنزه عنها العاقل الذى لا يقدم على أمر حتى يعلم أحق هو أم باطل.

ولعمرى إنها لسفسطة قد تروج على الغافل، مع أنها تقول على الشرع والعقل ما لا يقوله شرع ولا عقل.. (أما الشرع)

(٧) أي الشهرة التي لا تبلغ درجة التواتر (د/مرزا)

(٨) أبو منصور البغدادي: عبدالله بن محمد بن أبي الحسن البغدادي ولد سنة ٥٥٦ وتوفي سنة ٥٨٩ كان شيخًا نبيلًا وقورًا من أولى الهيئات وأولاد الرؤساء من المحدثين جـ٢ ص٢٣٦.

(٩) أبو بكر بن فورك: هو الحافظ العلامة، محدث أصبهان، أبو بكر أحمد بن موسى بن مردويه بن فورك صاحب التفسير الكبير والتاريخ ولد سنة ٣٢٣هـ كان من فرسان الحديث، مات سنة ٤١٠هـ. عن سبع وثمانين عامة سير أعلام النبلاء جـ١٧ ص٣٠٨ وما بعدها.

فإننا باستقراء النصوص التى نهى فيها عن اتباع الظن نرى أنه إنما نهى عن اتباع الظن فى موضعين: (موضع) أمرنا بالبحث عن حقيقته ويسهل الوصول إلى الحق واليقين فيه، لقيام براهينه الواضحة، وانتصاب أعلامه اللائحة، كأخذ الجهلاء بظنونهم فى العقائد بعد نزول الشريعة، وكاجتهاد المقيم بمكة فى تعيين القبلة مع قدرته على الوصول إلى عينها بالمشاهدة، وشاهد هذا الموضع مقابلته الظن بالحق فى قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚ ﴾

(يونس: ٣٦)

فلم يقل إن الظن لا يغنى شيئًا بإطلاق وموضع لم نؤمر بالبحث عنه ويتعذر الوصول إلى اليقين فيه كالأمور المغيبة التى كثر فيها الحزر والتخمين وكبواطن الناس ودخائلهم التى لا تقوم عليها بينة سوى الريب والهواجس التى يكثر اتهام الأبرياء بسببها وهذا وذلك مما يشير إليه قوله تعالى:

﴿ وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴾

(الإسراء: ٣٦)

وقوله:

﴿ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ ﴾

(الحجرات: ١٢)

وما سوى ذلك من الأمور التى طالبنا الشارع بالبحث عنها وقامت الأمارات الشرعية عليها وتعذر الوصول إلى اليقين فيها فلا جناح على من يأخذ فيها بغالب الظن، بل قواعد الشريعة متظاهرة على وجوب الأخذ فقد أوجبت العمل بشهادات العدول وأخبارهم مع جواز كذبهم وأوجبت العمل بأحكام القضاة والمحكمين مع احتمال خطئهم، وأوجبت توفية المكيال والميزان بالقسط مع أنه لا يؤمن التطفيف فيهما ولو بمقدار حبة إلا على ضرب من الظن قويًا أو ضعيفا، إلى غير ذلك، على أن هذه كلها وإن كانت ظنونا فى جزئية من الوسائل فهى فى الحقيقة راجعة إلى اتباع اليقين فى مقاصدها الكلية القطعية من العبادات والمعاملات بقدر الطاقة:

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ ﴾

(البقرة: ٢٨٦).

وأما العقل، فأرونى عاقلًا واحدًا لا يقدم على عمل قط حتى يأتيه فيه اليقين فلا يركب البحر حتى يوقن بأنه قد كتبت له السلامة منه، ولا يتزوج لطلب الولد إلا إذا أيقن أنه سيولد له، ولا يتناول دواء إلا إذا علم قطعا أن فيه شفاءه،، ولا يبنى الدار إلا إذا جزم بأنه سيسكنها ولا يضع صناعة ولا يتجر تجارة إلا إذا أيقن بربح تجارته ورواج صناعته، ولا يتحرك حركة بناء على إخبار أحد مهما بعدت عنه التهمة والريبة وعرف بالصدق فى حديث إلا إذا أيد خبره خلق كثير يستحيل توافقهم على الكذب! كيف والإنسان فى كل ما يعرض له من

شئون الحياة لابد له من اختيار جانب واحد(١٠)؟ إما جانب الإقدام على الفعل أو جانب الإحجام عنه.

فعلى أى شىء يبنى هذا الاختيار كلما دعاه داعى الإقدام أو داعى الإحجام أيتلبث فى كل مرة حتى يجيئه اليقين الكامل بصحة هذا الداعي؟ إذًا لتعطلت مصالح ووقعت مفاسد لا تحصى، لأنه قليلاً ما يجد برهان هذا اليقين، فلا مناص له إذًا من الترجيح فى كل موضع بما فى وسعه من يقين إن وجده أو ظن قوى أو ضعيف إن فقده، وبدون ذلك لا يستقيم نظام هذه الحياة.

فكذلك يجب على من فقد النص الشرعي من طريق قطعي الثبوت أن يلتمسه من طريق يغلب على ظنه ثبوته، فمتى ظفر به وجب عليه حتما أن يعمل به مع كونه ظنيا غير يقيني، لأن العمل كما علمت يكفى فيه الترجيح بأدنى مرجح، أما العقيدة فلابد فيها من وسائل اليقين الذى لا ريب معه، هذا هو مقتضى الفطرة السليمة كما هو مقتضى الشريعة الحكيمة.

وبعد فإننا وقد برهنا على وجوب العمل بالنصوص الظنية وحرمة ردها بالهوى لمجرد كونها ظنية لا تقول بوجوب العمل بها وحرمة ردها على كل حال حتى لو عارضت قاطعًا أو ظنيا أرجح منها كلا فقد أمرنا الله باتباع الأحسن، ومدح الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه فكيف يأمرنا باتباع الباطل أو المرجوح، ذلك مما لا خلاف فيه بين الأئمة من لدن الصحابة فمن بعدهم وهذه عائشة قد ردت على ابن عمر من الحديث ما وجدت فيه خلافًا لصريح الكتاب وقالت (إن السمع يخطئ) وهذا مالك بن أنس قد رد أحاديث الحج نيابة عن الغير، والصوم نيابة عن الغير، مع صحة سندها ومع كونه هو أحد رواتها، لأنه رأى فيها مخالفة للقواعد(١١) القطعية عنده.

وإنما تنكر أن يتولى هذه الصناعة من ليس من أهلها فيرد الحديث بغير قاطع ولا راجح بل يقضى بظن عقله وشهوة نفسه على كل ما خالف ظنه وشهوته قائلا إنه أسطورة موضوعة:

﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾

(الأحقاف: ١١)

يتبع

(١٠) إذ لا سبيل له إلى جمع النقيضين بالإقدام والإحجام معًا ولا إلى رفع النقيضين بعدم الإقدام وعدم الإحجام معًا.

(١١) كقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ (النجم ٣٩) ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ (الطور ٢١) ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الجاثية ٢٨) ﴿مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ (فصلت ٤٦) ﴿لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ (لقمان ٣٣) وقوله ﷺ: يا فاطمة لا أغنى عنك من الله شيئًا، إلى غير ذلك.

نظرات فى فكر الإمام الأشعرى:

أصول نظرية العلم عند الإمام الأشعرى

٣



لفضيلة الإمام الأكبر أ. د. أحمد الطيب
شيخ الأزهر

مدارك العلوم:

أما مدارك العلوم، أو مصادر المعرفة عند الشيخ، فتنحصر فى:

(أ) الحس.

(ب) الأخبار المتواترة.

(ج) النظر.

(أ) - والحس هو الحواس الخمس، وكذلك ما يرد عن طريقها من علوم تسمى عند الشيخ «إدراكات»، «فالسمع إدراك، والبصر إدراك، والشم والذوق واللمس إدراكات، ولكن عن طريق مماسات مخصوصة بجوارح مخصوصة، يحدث عن كل نوع من هذه المماسة نوع من الإدراك بمدرك مخصوص، وبه (أى: باشتراط المماسة فى الشم والذوق واللمس) كان يفرق بين جواز أن يُسمع البارى - تعالى - ويبصر، ومنع أن يُشم ويذاق ويلمس»(١).

ومما هو جدير بالاعتبار هنا، أن المدركات الحسية - فى ما يراه الشيخ - ليست أمورًا مكتسبة للإنسان، بل إن الإدراك الحسي يعامل - فى نظرية العلم عند الأشعرى - معاملة حركة المرتعش أو الحركات الاضطرارية، فى أنها لا تقع بقدرة العبد وليس له فيها كسب بوجه من الوجوه، ولعل الشيخ يقصد أن الإنسان حين يفتح عينيه - مثلا - فإنه سيبصر الأشياء اضطرارًا، شاء أم أبى، والحال كذلك بالنسبة لبقية الحواس مع مدركاتها الحسية، ويجب أن نتنبه إلى أن الإدراك الذى يصفه الشيخ بالضرورة واللاكسب هو «نوع» الإدراك أو مطلق الإدراك لا هذا المدرك بعينه أو ذاك، لأن

(١) م. ن. اللوحة ٥أ/١٨

هذا الصنف الأخير - أى: المدرك على التعيين - مما يقع تحت كسب العبد وقدرته واختياره، وإذا فمطلق الإدراك - مع فتح العينين - أمر لا طاقة للعبد برده أومنعه، بل هو حاصل له على كل حال، وإن كان الشخص يستطيع - مع فتح عينيه أيضًا - أن يصرف بصره عن هذا المدرك ويوجهه نحو مدرك آخر.

ونستطيع أن نقول: إن الأشعرى يصنف العلوم من حيث كونها كسبًا للعبد أو فعلًا له إلى صنفين:

- العلوم الحاصلة عن النظر وعن خبر التواتر، وهذه العلوم تقع فى دائرة كسب العبد.

- والعلوم الحاصلة عن «الحس» وهى مما يخرج عن كسب العبد واختياره، وبعبارة أخرى: إن علوم النظر والعلوم المترتبة على أخبار التواتر علوم مقدورة للعبد ومكتسبة له، بخلاف علوم الحس فإنها غير مقدورة ولا مكتسبة للعبد. وهنا ينقل ابن فورك أن الأشعرى كان يقول: «إن نوع الإدراك غير مكتسب لأحد من المخلوقين ولا مقدور لهم. وإن العلوم على ضربين: منها مقدور، ومنها غير مقدور، فما وقع منها عن النظر والفكرة كسب، وما وقع خاليًا عن ذلك فليس بكسب، وكان يجعل ما عدا العلوم الحادثة عن الخبر والنظر واقعًا عن الحس، أوجاريًا مجراه داخلًا فى حكمه وبابه»(٢).

(ب) والأخبار طريق يعلم به ما يغيب عن الحس مما لا يتوصل إليه بنظر أو باستدلال، والشيخ لا يشترط فى ناقلى الأخبار عددًا معينًا ولا صفات محددة، بل المقياس عنده هو الاطمئنان إلى صدق المخبرين، وذلك بحصول العلم بهذا الصدق، وزوال الجهل والشك عند متلقى الخبر، والأشعرى هنا يعلق أهمية كبرى على اطمئنان القلب وسكون النفس فى تلقى الخبر، فإذا وجد السامع فى نفسه شيئًا من الريبة أو الاتهام فلا حرج عليه أن يشك فى صدق الخبر ويقينه، وإذا سكنت نفسه وزالت عنها علائم الريبة والتهمة فإن عليه - حالتئذ - أن يقطع بأن المخبرين صادقون فى أخبارهم. غير أن الشيخ يرى أن العادة قد جرت بتصديق المخبرين إذا بلغوا حدًا فى الكثرة يوجب العلم، وإن كان العقل يجيز خلاف ذلك.

يقول ابن فورك: «... وكان لا يحد للمخبرين حدًا بعدد مخصوص أو بصفات مخصوصة؛ بل كان يقول إن المعتبر فى ذلك حدوث العلم وزوال الجهل والشك عن السامع عند سماع تلك الأخبار، وذلك بأن يراعى حال نفسه فى سماعه الأخبار، فإذا وجدها على ريبة وتهمة لم يقطع بصدق المخبرين، وإذا زالت الريب والتهم عنه قطع بصدقهم»(٣).

وإذا فحصول اليقين فى النفس هو مناط اعتبار الأخبار طريقًا من طرق العلم، أما الكثرة فهى غير معتبرة فى حصول العلم، بل يجوز عند الأشعرى أن يحدث هذا النوع الضرورى من العلم ابتداءً أو بخبر الواحد، وهذا أمر طبيعى إذا كانت العلاقة بين الأخبار المتواترة وبين حدوث العلم الضرورى علاقة عادية، أى علاقة غير حتمية وليست واجبة الوقوع، وهذه العلاقة تطرد فى مذهب الأشعرى فى كل نظر يترتب عليه علم أو معرفة، والشيخ ينص على أن سبيل هذه العلاقة هو سبيل «حدوث الولد عن الوطء والزرع عن البذر، وكل ذلك مما يجوز وقوع خلافه على نقض العادة وهو لله - سبحانه - مقدور، وإن لم يحصل الآن إلا على وجه معلوم»(٤).

ولا ينبغى أن نفهم من جواز نقض العادة عند الأشعرى عدم حصول العلم الضرورى عن الأخبار المتواترة، فالاحتمال العقلى هنا شىء، وحكم العادة وجريانها على وجه مطرد وثابت شىء آخر، وإلا لما استقام للشيخ أن يقرر أن الأخبار المتواترة من مدارك العلوم، وأنها طريق من طرق العلم الضرورى الذى لا يتشكك فيه المرء، بل يجده فى صميم وجدانه ولا يملك له ردًا ولا دفعًا.

ومن مدارك العلوم أيضا خبر الصادق «الموثوق بخبره، المأمون فى غيبه» وهو خبر الرسول فإنه طريق من طرق العلم فيما لا يتوصل إليه العقل بنظر أو استدلال، والأشعرى صريح فى أن دلائل العقول قاصرة على بعض المعلومات دون بعضها الآخر، وهو يفرق فى هذه المعلومات بين ما يسميه: أعيان الواجبات وأحكامها، وما يسميه: أحكام الموجودات، والنوع الأول من هذه المعلومات لا سبيل للعقل إلى معرفته أو العلم به علمًا تامًا، وذلك مثل: معرفة القبيح والحسن، ومثل معرفة الوجوب والندب والحرمة، وما إليها من أحكام شرعية، فهذه أمور لا يمكن للعقل أن يعرفها على سبيل التفصيل استقلالًا، وأما النوع الثانى فإن العقل بدلالاته وعلومه يهتدى إلى معرفته وتحصيله، وذلك مثل: الحدوث والقدم وأحكام الجواهر والأعراض وما ينبنى على ذلك من علوم ومعارف(٥).

(جـ) أما النظر فيعرفه الشيخ بأنه «الفكر والتأمل والاعتبار والمقايسة، ورد ما غاب عن الحس إلى ما وجد العلم به فيه، لاستوائهما فى المعنى واجتماعهما فى العلة»(٦) أى إن النظر: هو «الاستدلال العقلى» المنبنى على المقايسة وترديد الفكر بين طرف معلوم وطرف مجهول، وهذه المقايسة أو رد المجهول إلى المعلوم هى لب فكرة الاستدلال عند الأشعرى ومحتواها الحقيقى، وأكثر نصوص الشيخ التى يرويها عنه ابن فورك تدل دلالة قاطعة على أن الاستدلال هو هذه المقايسة أو هو باصطلاح الأشعرى: الاستدلال بالشاهد على الغائب، والشاهد - فيما يرى الشيخ - لا يعنى الشاهد المحسوس، بل يطلقه على ما هو أعم من ذلك، وهو المعلوم مطلقًا، سواء كان عن طريق المشاهدة أو طريق الضرورة أو طريق الاكتساب، فالشاهد هو المعلوم والغائب هو المجهول، وقياس الغائب على الشاهد - بهذا المعنى الذى أشرنا إليه - يشكل قطب الرحى فى نظام الاستدلال عند الأشعرى، بحيث يمكن القول بأن هذا القياس هو لب نظرية الاستدلال فى فلسفة الأشعرى.

يقول «الشيخ» فى توضيح هذا القياس «معنى الشاهد والمشاهدة هو المعلوم بالحس، أو باضطرار وإن لم يكن محسوسًا، ومعنى قولنا: غائب: ما غاب عن الحواس، ولم يكن فى شىء من الحواس أو الضروريات طريق إلى العلم به»(٧).

(٢) م ن اللوحة ٦/أ/٢٠ (٣) م ن اللوحة ٥/ب/١٩

(٤) م ن اللوحة ٥/ب/١٩ (٥) م ن اللوحة ١٢/ب/٣ (٦) م ن اللوحة ٥/أ/١٨

(٧) م ن اللوحة ٣/ب/١٤، اللوحة ١٣٩/ب/٢٨٧.

ويقـول في نص آخر: «إن الاسـتدلال هو.. الاستشـهاد وطلب الشـهادة من الشـاهد على الغائب...، ومعنـى قولنا: أصل وفرع، ومنظور فيـه، ومـردود إلـى المنظـور فيـه، ومعلـوم، ومشـكوك فيه ومطلوب علمـه من المعلوم».. «و» ليس المراد بالغيبة هاهنا البعد والحجاب، وإنما المراد غيبة العلم وذهاب العالم عن العلم بـه.. «و» معنـى المشـاهدة والشـاهد أن ذلك يرجع إلى المعلومـات التى هى الأصل فى باب الاستدلال»(٨).

ويقـول فى نـص ثالث: «إن المسـتدل إنما يطلب باسـتدلاله علم ما لـم يعلم بأن يرده إلى ما علم وينزع حكمه منه»(٩).

ولاشـك فى أن نصوص الشيخ تتطابق كلها علـى أن المقصود عنده من الاسـتدلال هو هذا النوع من القياس: قياس الغائب على الشـاهد، بمعنـى رد المجهول إلى المعلوم، أو اسـتنباط المجهول من المعلوم.

وقياس الغائب على الشـاهد قياس يقوم بين أمرين، أمر معلوم أو أمر مشاهد، يثبت له حكم أو وصف معين بسـبب علة توجب هذا الوصف، وأمر آخر غائب موصوف بهذا الوصف وبسـبب العلة نفسـها كذلك، فالعلم بأن الوصف ثابت فى الشـاهد لعلة، يوجب العلم بثبوت الوصف للعلة نفسها فى الغائب، ومحور الاستدلال فى هذا القياس هو اشتراك العلة بين الفرع والأصل أى: بين الغائب والشـاهد، فلو اشتركت العلة بينهمـا وثبـت بمقتضاها حكم فى الشـاهد، فلابد أن يثبـت نفس الحكم فـى الغائب، وإلا كان الوصف مترتبـا على العلة فى موطن وغير مترتب على العلة نفسـها فـى موطن آخر، وإذا فاشـتراك العلـة بين الشـاهد والغائـب يوجب طردها فى المعلول شـاهدًا وغائبًا على السـواء.

ويتبقى الالتفات إلـى أن هذا القياس يعتمد فى المقـام الأول على فكرة «الاطـراد» اللازمة للعلـة، ومعنى الاطـراد فى العلة هو: اسـتلزام العلـة لمعلولهـا أو اقتضـاء العلـة للوصف أو الحكم الذى يجب عنها، أى: ضرورة اسـتلزام العلـة للحكم مع اسـتحالة تخلفـه عنها، وهو مـا يعبـر عنه -عـادة- بقولهـم: «كلما وجدت العلـة وجد الحكم على سـبيل اللـزوم وامتناع التخلف»(١٠).

ومعنـى ذلك أنـه يسـتحيل بمقتضـى هذا الاطـراد أن تتحقق العلة وحدها دون أن يتحقق معهـا معلولها الذى هو حكمها الواجب عنها، وهذا هو عين ما يؤكده الأشـعرى، إذ يشـترط الطـرد والعكـس فى العلـة العقليـة، لأن العلة العقليـة توجـب حكمهـا لا محالـة، بحيث لا يصـح إثبـات العلة مع نفى الحكـم، ولا إثبات الحكـم مـع نفـى العلـة، أى: لا يصـح إثبات أحدهمـا مع نفى الآخر، ولا نفـى أحدهما مع إثبات الآخـر، وإلا فقدت العلة حكمها العقلى المجمع عليه وهو «الاطراد»(١١).

(٨) م. ن.
(٩) م. ن.
(١٠) شرح المواقف، للشريف الجرجاني: ٦/١٩٨
(١١) المجرد، لابن فورك: (اللوحة: ١٤٨/ب) ٣٠٥.

تدوين السنة



أ. د. أحمد عمر هاشم
عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر

قام أعداء الإسلام يعملون فى ظلام الفرقة التى دبت بين المسلمين على أثر قتل الخليفة الثالث سيدنا عثمان - رضى الله عنه - حين افترق المسلمون فرقا وأحزابا ما بين شيعة وخوارج وجمهور، وساعدهم على ذلك اتساع البلاد، فوجدوا المناخ ملائما لبث سمومهم ودس أكاذيبهم، وبعد أن انقضى عهد الخلافة الراشدة وافترق المسلمون إلى فرق، ظهر أرباب الكذب والنفاق من الملل الأخرى يكذبون ويلفقون ويضعون الأحاديث، فكان ظهور الوضع فى الحديث أهم الأسباب التى حفزت همم العلماء لتدوينه وتصنيفه صيانة له من الأيدى العابثة، يقول الإمام الزهرى: «لولا أحاديث تأتينا من المشرق ننكرها لا نعرفها ما كتبت حديثا ولا أذنت فى كتابته»(١)

ولـم يكن ذلك الوقت الـذى ازداد فيه نشـاط العلمـاء فى الجمـع والتدوين هو مبـدأ زمن التدويـن وإنمـا بـدأت كتابة الحديـث منـذ عهـد النبـى ﷺ بصورة خاصة وغير رسمية فالسنة النبوية لم تبق مهملـة طيلة القرن الأول إلـى عهد عمر ابن عبدالعزيز، وإنما كانت تكتب كتابة فردية فـى عهد الرسـول ﷺ والصحابة والتابعيـن، وحفظـت فـى الكراريـس والصحـف بجانب حفظها فـى الصدور، حيث كانـت توجد بعض الصحائف التى شاركت الصدور فى حفظ السـنة ومن بين هـذه الصحائف صحيفة عبدالله بن عمرو ابـن العاص التـى تسـمى بالصادقة، لأنه كتبها عن رسـول الله ﷺ مباشرة، يقول عبدالله بـن عمرو بـن العـاص لمجاهد: «هذه الصادقة فيها ما سـمعته من رسـول الله ﷺ وليس بينى وبينه أحد»(٢)

وهى تشـتمل علـى ألف حديـث(٣) وكان لـسعد بن عبادة الأنصارى صحيفة، ولـسـمرة بن جندب صحيفة، والصحيفة التـى دونـت فيهـا حقـوق المهاجريـن

(١) تقييد العلم ص ١٠٨.
(٢) المحدث الفاصل، وتقييد العلم ص ٨٤.
(٣) أسد الغابة ٣/ ٢٣٣.

والأنصار واليهود وعرب المدينة.

وكان لجابر بن عبدالله الأنصارى صحيفة ولأنس بن مالك صحيفة كان يبرزها إذا اجتمع الناس ولهمام بن منبه صحيفة تسمى الصحيفة الصحيحة رواها عن أبى هريرة وكان ابن عباس معروفا بطلب العلم وبعد وفاة النبى ﷺ كان يسأل الصحابة ويكتب عنهم وكانت تلك الصحف والمجاميع تحتوى على العدد الأكبر من الأحاديث التى دونت فى القرن الثالث.

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوى فى كتابه «رجال الفكر والدعوة»: «وإذا اجتمعت هذه الصحف والمجاميع وما احتوت عليه من الأحاديث كونت العدد الأكبر من الأحاديث التى جمعت فى الجوامع والمسانـد والسنن فى القرن الثالث وهكذا يتحقق أن المجموع الكبير الأكبر من الأحاديث سبق تدوينه وتسجيله من غير نظام وترتيب فى عهد الرسول ﷺ وفى عصر الصحابة رضى الله عنهم وقد شاع فى الناس حتى المثقفين والمؤلفين أن الحديث لم يكتب ولم يسجل إلا فى القرن الثالث الهجرى وأحسنهم حالا من يرى أنه قد كتب ودون فى القرن الثانى وما نشأ هذا الغلط إلا عن طريقتين:

● الأولى: أن عامة المؤرخين يقتصرون على ذكر مدونى الحديث فى القرن الثانى ولا يعنون بذكر هذه الصحف والمجاميع التى كتبت فى القرن الأول لأن عامتها فقدت وضاعت مع أنها اندمجت وذابت فى المؤلفات المتأخرة.


أبو الحسن الندوى

● الثانية: أن المحدثين يذكرون عدد الأحاديث الضخم الهائل الذى لا يتصور أن يكون قد جاء فى هذه المجاميع الصغيرة التى كتبت من القرن الأول» ا. هـ [4].

ويقول العلامة مناظر أحسن الكيلانى متفقا مع الندوى فى كتابه «تدوين الحديث»: «وقد يتعجب الإنسان من ضخامة عدد الأحاديث المروية فيقال إن أحمد بن حنبل كان يحفظ أكثر من سبعمائة ألف حديث، وكذلك يقال عن أبى زرعة، ويروى عن الإمام البخارى أنه كان يحفظ مائتى ألف من الأحاديث الضعيفة ومائة ألف من الأحاديث الصحيحة. ويروى عن مسلم أنه قال جمعت كتابى من ثلاثمائة ألف حديث ولا يعرف كثير من المتعلمين فضلا عن العامة أن الذى يُكَوِّنُ هذا العدد الضخم هو كثرة المتابعات والشواهد التى عنى بها المحدثون فحديث إنما الأعمال بالنيات يروى من سبعمائة طريق فلو جردنا مجاميع الحديث من هذه المتابعات والشواهد لبقى عدد قليل [5] من الأحاديث، وقد صرح الحاكم أبوعبدالله الذى يعتبر من المتسامحين المتوسعين أن الأحاديث التى فى الدرجة الأولى لا تبلغ

---

(٤) رجال الفكر والدعوة ص ٨٢.

(٥) أى بالنسبة إلى ضخامة عدد الأحاديث المروية فالقلة نسبية.

عشرة آلاف» [6] (ا. هـ).

وأنا أرجح هذا الرأى وهو كتابة الحديث فى القرن الأول، لأن أهل القرن الأول هم حلقة الاتصال بالنسبة لمن بعدهم من أصحاب القرون التالية الذين انتقلت على أيديهم السنة، وأهل العهد الأول وإن كانت الأحاديث المدونة عنهم يظن أنها قليلة إلا أنها صحيحة كلها لا يداخلها شك، إذ لم يكن الكذب أو الوضع قد شاع فيهم كالذين جاءوا من بعدهم فهم عدول وهم خير القرون وما من شك فيما كانوا عليه فى العهد الأول من المنزلة العالية فى الحفظ والضبط، وليس هذا غريبا على قوم انحدروا من أصلاب آباء كانوا قمما عالية فى الحفظ والإتقان، ولكن مع هذا فقد كتب بعضهم الأحاديث فكان وصولها إلى القرون التالية شفاهة وتحريرا وهذا أقوى وأوثق، يقول ابن الصلاح «ولولا تدوينه- أى الحديث- فى الكتب لدرس فى الأعصر الأخر». [7]

ومنذ سنة أربعين من الهجرة بعد وقوع الفتنة وحرب الإمام على ومعاوية دبت الخلافات السياسية والمذهبية وظهر الوضع فى السنة النبوية من الذين لا ثقة فيهم ولا صحبة لهم حقيقية، إلا أن هذه الحركة قوبلت بقوة مؤمنة من علماء السنة الذين حصروا الوضاعين وصانوا سنة نبيهم عليه الصلاة والسلام سيرا على منهجه الكريم الذى وضعه لهم فى الحفاظ على السنة الشريفة، قال عليه الصلاة والسلام: «من كذب علىّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار» [8]

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من قال علىّ ما لم أقل فليتبوأ مقعده من النار» [9]

وقد وردت بعض أحاديث تنهى عن الكتابة منها ما رواه أبو سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال: (لا تكتبوا عنى ومن كتب عنى غير القرآن فليمحه) [10]

وعن أبى نضرة قال: «قيل لأبى سعيد لو اكتتبنا الحديث؟ فقال لا نكتبكم، خذوا عنا، كما أخذنا عن نبينا ﷺ» [11]

وهذا النهى عن كتابة الحديث كان فى بدء الدعوة خشية أن يختلط الحديث بالقرآن فيلتبس على بعض الناس، أو أن النهى كان فى حق من يوثق بحفظه وخيف اتكاله على الكتابة ولذا أذن بالكتابة لمن لا يوثق بحفظه كأبى شاة.

عن أبى هريرة رضى الله عنه: «أن خزاعة قتلوا رجلا من بنى ليث عام فتح مكة بقتيل منهم قتلوه فأخبر بذلك

---

(٦) القرآن والنبى للدكتور عبدالحليم محمود ص ٣٣٧، ص ٣٣٨ عن «تدوين الحديث».

(٧) مقدمة ابن الصلاح ص ٧١.

(٨) مسند أبى داود الطيالسى ٢/ ص ٢٦٨.

(٩) فتح البارى جـ١ ص ١٨٠ عن سلمة بن الأكوع بلفظ «من يقل...» وأخرجه أحمد جـ٢ ص ٥٠١ عن أبى هريرة «بلفظ من قال» بإسناد صحيح وابن ماجه ص ١٠ من طريق محمد بن عمرو وعن أبى سلمة، ومسلم جـ١ ص ٥، والحاكم جـ١ ص ١٠٢، والشافعى فى الرسالة ص ٣٩٦، والدارمى بنحوه جـ١ ص٦٧.

(١٠) صحيح مسلم بشرح النووى جـ١٨ ص ١٢٩ وكتاب جامع بيان العلم وفضله جـ١ ص ٧٦ ورواه الدارمى جـ١ ص ٩٨.

(١١) جامع بيان العلم وفضله جـ١ ص ٧٦.

النبي ﷺ فركب راحلته فخطب فقال: «إن الله حبس عن مكة القتل أو الفيل»، قال أبو عبدالله: كذا قال أبو نعيم وسلط عليهم رسول الله ﷺ والمؤمنون ألا وإنها لم تحل لأحد قبلي ولا تحل لأحد بعدى وإنها أحلت لى ساعة من نهار ألا وإنها ساعتي هذه حرام لا يختلى شوكها ولا يعضد شجرها ولا تلتقط ساقطتها إلا لمنشد فمن قتل فهو بخير النظرين إما أن– يعقل وإما أن يقاد أهل القتيل، فجاء رجل من أهل اليمن– هو أبو شاة فقال: اكتب لي يا رسول الله: فقال: اكتبوا لأبي فلان.....» (١٢)

أى الخطبة التى سمعها من رسول الله ﷺ أو أن النهي كان عاما وخص بالسماح له من كان كاتبا مجيدا لا يلتبس عليه الحال بين السنة والكتاب كعبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما، قال أبو هريرة رضى الله تعالى عنه: «ما من أصحاب النبى ﷺ أحد أكثر حديثا عنه منى إلا ما كان من عبدالله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب» (١٣)

كما كان للنهى عن الكتابة ثمرة عظيمة: هى اتساع المجال أمام القرآن الكريم حتى يأخذ مكانه فى الكتابة ويثبت فى صدور الحفاظ، «أو أن النهى كان خاصا بكتابة الحديث مع القرآن فى صحيفة واحدة والإذن فى تفريقهما» (١٤)

أو أن النهى متقدم والإذن ناسخ له عند الأمن من الالتباس وهو أقرب الآراء وممن روى عنه كراهة الكتابة فى الصدر الأول «عمرو بن مسعود، وزيد بن ثابت، وأبو موسى، وأبو سعيد الخدرى– وممن روى عنه إباحة ذلك أو فعله: على وابنه الحسن وأنس وعبدالله بن عمرو بن العاص» (١٥)

«قال البلقينى: وفى المسألة مذهب ثالث وهو الكتابة والمحو بعد الحفظ» (١٦)

وأرى أن النهى عن الكتابة كان عاما فى بادئ الأمر، وخص الرسول ﷺ بعض الصحابة بالإذن فى الكتابة لأسباب منها أن البعض لا يوثق بحفظه كأبى شاة، ومنها أن البعض كان كاتبا مجيدا لا يلتبس عليه الحال كعبد الله بن عمرو بن العاص، فإنه كان قارئا للكتب المتقدمة ويكتب بالسريانية والعربية (١٧).

وظل النهى عن الكتابة قائما حتى كثرت السنن وخيف عليها أن تضيع من البعض فكان الإذن بالكتابة ناسخا لما تقدم من النهى، ولم يلحق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى إلا وكتابة الحديث مأذون فيها.

وقد هم عمر بن الخطاب رضى الله عنه بكتابة الحديث واستشار أصحاب الرسول ﷺ، فأشاروا عليه، فطفق

(١٢) فتح البارى جـ١ ص ١٨٣، مسند الإمام أحمد جـ١٢ ص٢٣٢، وجامع بيان العلم وفضله ج١ ص٨٩.
(١٣) فتح البارى جـ١ ص١٨٤، وجامع بيان العلم جـ١ ص٨٤، ورواه الدارمى ج١ ص ١٠٣.
(١٤) حاشية الدارمى ج١ ص١٠٣، وتدريب الراوى ص٢٨٧.
(١٥) مقدمة ابن الصلاح ص٧١.
(١٦) تدريب الراوى ص٢٨٥.
(١٧) تأويل مختلف الحديث ص٣٦٦.

يستخير الله فى ذلك مدة ثم عدل عن ذلك، روى البيهقى فى المدخل عن عروة بن الزبير أن عمر بن الخطاب أراد أن يكتب السنن، فاستشار فى ذلك أصحاب الرسول ﷺ، فأشاروا عليه أن يكتبها فطفق عمر يستخير الله فيها شهرا، ثم أصبح يوما وقد عزم الله له وقال: إنى كنت أردت أن أكتب السنن وإنى ذكرت قوما كانوا قبلكم كتبوا كتبا فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله، وإنى والله لا ألبس كتاب الله بشىء أبدا (١٨).

واستمر حال السنة على هذا حتى انتشر الإسلام، واتسعت الفتوحات وتفرق الصحابة فى الأقطار ومات الكثير منهم، فدعت الحالة إلى تدوين الحديث النبوى، وذلك حين أفضت الخلافة إلى الإمام العادل عمر بن عبدالعزيز فأراد أن يجمع السنن ويدونها مخافة أن يضيع منها شىء، وكان ذلك على رأس المائة الأولى، فكتب إلى بعض علماء الأمصار يأمرهم أن يجمعوا الأحاديث، كما كتب إلى عماله فى أمهات المدن الإسلامية، وهكذا أصدر الخليفة العادل أمره إلى أقطار الإسلام: «انظروا حديث رسول الله ﷺ فاجمعوه» (١٩).

وكتب إلى أبى بكر بن محمد بن عمرو ابن حزم ١١٧هـ: (اكتب إلى بما يثبت عندك من الحديث عن رسول الله ﷺ، وحديث عمرة فإنى خشيت دروس العلم وذهابه) وفى رواية: (فإنى خشيت دروس العلم وذهاب العلماء ولا تقبل إلا حديث النبى ﷺ وليفشوا العلم وليجلسوا حتى يعلم من لا يعلم فإن العلم لا يهلك حتى يكون سرا) (٢٠).

كما أوصاه أن يكتب له بما عند القاسم بن محمد بن أبى بكر كما أمر ابن شهاب الزهرى ١٢٤هـ وغيره بجمع السنن فكتبوها مستجيبين لأمر الخليفة الذى حفز هممهم وصادف أمره فى نفوسهم الاستجابة والقبول، وهكذا أتم الله على يد عمر بن عبدالعزيز تنفيذ رغبة جده عمر بن الخطاب التى عدل عنها خشية التباس السنة بالقرآن الكريم.

وكان تدوين الإمام الزهرى للسنة عبارة عن جمع الأحاديث التى تدور حول موضوع واحد فى مؤلف خاص، فكان لكل باب من أبواب العلم مؤلف قائم به، فكتاب للصلاة مثلا، وآخر للصوم، وهكذا وكل مؤلف من هذه المؤلفات تدون فيه الأحاديث المتصلة بموضوعه، ومختلطة بأقوال الصحابة وفتاوى التابعين، وقد أخلص الإمام الزهرى نيته وعمله لله وللرسول فى تدوين السنة والتنبيه على العناية بأساليبها.

أما بعد الإمام الزهرى فقد تناول

(١٨) جامع بيان العلم وفضله ج١ ص٦٢، تدريب الراوى ص ٢٨٧ تقييد العلم ص٥٠.
(١٩) فتح البارى ج١ ص ٢٠٤.
(٢٠) المرجع السابق.

الأئمة رسالته، وأخذوا يكملون ما بداه فقد كان عمل الزهرى بمثابة حجر الأساس لتدوين السنة فى كتب خاصة، ولكى يوضح الإمام الزهرى هذا العمل ويسلم أساس البناء للجيل الذى سيأتى بعده. كان يخرج لطلابه الأجزاء المكتوبة ليرووها عنه.

وفعلا فقد بدأ العمل بعده، وتعاون الأئمة والعلماء فى المدن الإسلامية: فى مكة وفى المدينة وفى البصرة والكوفة والشام وخراسان واليمن وواسط والرى، واضطلع الأئمة من أمثال الإمام ابن جريج ١٥٠ هـ بمكة، والإمام مالك ١٧٩ هـ بالمدينة، والإمام سفيان الثورى ١٦١ هـ بالكوفة وغيرهم بالمهمة الجليلة الملقاة على عاتقهم، فأكملوا ما بداه الزهرى، الذى قام بالتدوين فجمع كل باب فى مؤلف خاص كما سبق، فجاء هؤلاء من بعده، فجمعوا أحاديث كل باب من أبواب العلم على حدة ثم ضموا الأبواب بعضها إلى بعض، فكانت مصنفا واحدا، وخلطوا الأحاديث بأقوال الصحابة والتابعين.

أما ما جاء بعد هؤلاء الأئمة- من أهل عصرهم فقد سار على دربهم ونسج على منوالهم إلى أن رأى بعض الأئمة إفراد الحديث وخاصة على رأس المائتين فى أوائل القرن الثالث الهجرى.. فألفت المسانيد، ثم جاءت طبقة أخرى دونت السنة فى كتب خاصة تحروا فى تدوينها الصحيح على شروطهم وأفردت الحديث عن غيره، وجمعته على أبواب الفقه، واختارت الرواة المشهورين بالثقة، وبهذا يتضح أن تدوين السنة لم يأخذ وضعه فى الظهور والتصنيف تماما إلا فى منتصف القرن الثانى فى خلافة بنى العباس، وإن كان قد بدأ قبل ذلك.

وكان لتدوين السنة على هذه المراحل أثره الجليل فى حفظها من الدخيل، ومن الكذب على الرسول ﷺ، كما كان لتدوين السنة على هذه المراحل أثره حيث سهل الطريق للاجتهاد والاستنباط.

بعد هذا كله أرى أن السنة النبوية كانت تكتب فى عهد الرسول ﷺ وأنه وإن وردت بعض الأخبار بالنهى عن كتابتها، فإن إباحة الكتابة كانت جائزة للبعض، وكانت آخر ما ترك الرسول ﷺ أصحابه عليه، فلم يلحق بالرفيق الأعلى إلا وكتابة الحديث قائمة وقد حفظت فى الصحف بجانب حفظها فى الصدور، ولم تبق مهملة طيلة القرن الأول إلى عهد عمر بن عبدالعزيز، وأحاديث الإذن بالكتابة أكبر شاهد على ذلك. وهكذا كتبت الأحاديث، وحفظ الكثير منها فى الصدور من لدن صدورها من الرسول ﷺ إلى أن تلقفتها الصدور الواعية، والصحف الأمينة، وتناقلتها جيلا بعد جيل إلى أن تسلمها منهم أهل القرن الثالث.

القصة والأمثال فى القرآن الكريم



الأستاذ الدكتور محمد المختار محمد المهدى
عضو هيئة كبار العلماء

فرية الرمزية فى القصة القرآنية

ثم أطلت الحية من مرقدها.. وظهر مستغربون جدد يسيرون على نفس النهج الذى سار عليه أساتذتهم المستشرقون المتحاملون على الإسلام مما بيناه فيما سبق.. وارتفعت عقيرتهم بنغمة جديدة هى فى روحها وما ترمى إليه نفس الفكرة التى بدأها (مرجليوث) سنة ١٩٢٥م وتبناها تلامذة له فى الشرق أرادوا الشهرة بأى ثمن ولو كان على حساب دينهم وعقيدتهم فاستعلن للناس من يسمى القصة القرآنية: عملاً رمزيًا يعتمد على أساطير كانت سائدة لدى جمهرة العرب حين نزول القرآن!!

هكذا بهذه الوقاحة التى تردد ما قاله كفار مكة حسبما يشرحه القرآن نفسه فى غير آية:

﴿ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾

(الفرقان: ٥)

والغريب أن نفس الشبهات المسوقة لتعضيد هذه الفرية هى نفسها التى ساقها من قبل من قال بوجود القصة الخيالية فى القرآن.. ولكن الغرابة تخف حينما نعلم أن الهدف لكليهما واحد:

﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾

(البقرة: ١١٨)

الرمز الحديث معناه.. دوافعه:

ذلك أن الرمز يعنى لغويًا الإشارة والإيماء.. وفى اصطلاح النقاد والأدباء يعنى التعبير عن الحقيقة عن طريق الإيحاء بها، حيث يكون له ظاهر وباطن.. معنى جلى ومعنى خفى.. ويقصد منه التحدث عن فكرة مقنعة من وراء حكاية يقبلها الجمهور ويعتمد فيه على تراسل المشاعر وعلى الإيحاءات النفسية الغامضة.. والرامز عادة لا يضطره إلى هذا النوع إلا خوف من التصريح.. بأن يكون الهدف المقصود جرحا لمشاعر من فى أيديهم السلطة

أو نقدًا لاذعًا لأوضاع لا تروق فى نظر الأديب ويرى التصريح به خطرًا عليه.. ولذلك لا تكاد ترى هذا النوع الرمزى إلا فى عصور اضطهاد وكبت للحريات، إذ يستطيع الأدباء أن يفرغوا ما لديهم من آراء فى هذا الأسلوب الخفى الغامض.. كما حدث فى عصر النهضة الأوروبية الحديثة حينما شع نور العلم على أوروبا ووقفت فى طريقه السلطة والكنيسة!

وهذه المبررات والدوافع لظهور هذا الفن الجديد فى الأدب الحديث لم تكن بحال من الأحوال قائمة حين نزول القرآن، فلا سلطة ولا كنيسة فى الجزيرة، ولا كبت ولا ضغط ولا حجر على أى تعبير.. إذن فحقيقة المسألة أن هناك خلافًا جوهريًا فى النظرة إلى هذا القرآن.. فهؤلاء المستشرقون والمستغربون ينظرون إليه على أنه عمل بشرى يخضع لمقاييس البشر ويعتمد على الأساطير السائدة ويستغلها فى التعبير عما يريد.. تمامًا كما يتصرفون هم.. إذ إنه لو كان لديهم يقين بأن هذا القرآن تنزيل من عند الله لما تطرق إلى ذهنهم أنه استعمل الرمز إذ لا قوة أكبر من قوة الله تدعوه لأن يتستر تحت الرمز فى التعبير عما يريد.. لقد تحدى دولة الفرس فى عنفوانها مقررا أنها ستهزم فى بضع سنين أمام الروم. والقرآن الذى يصرح بهذا بدون رمز أو تخف أو مواربة لا يستطيع أحد أن يقول: إنه استعمل الرمز بهذا المعنى الحديث، إذ ما كان هناك موقف أدعى للرمز والتخفى من هذا

الموقف الذى يخبر عن مستقبل.. ثم م معنى أن القرآن يستغل الأساطير السائدة سوى أن به خداعًا وكذبًا وتمويها على البشر.. وهذه نقطة التلاقى بين من يقول بالرمز ومن يقول بالخيال.. وقد يقول قائل: إنه لم يستعمل الرمز خوفًا من أحد ولكن مراعاة لمعارف عصره ومعلومات العالم التاريخية حينذاك.. ولكننا نتساءل: إذا كان ذلك مقصدًا للقرآن فلماذا تحدث عن السماوات السبع والأرضين السبع، وكيف كانت قبل تكوينها؟ بل لماذا تحدث عن جنة عرضها السماوات والأرض؟ ولماذا ورد فيه كثير من الآيات تشير إلى حقائق ضخمة كان مدى علم الإنسان عنها محدودًا للغاية إلى أن كشفت عنها الأحداث المستقبلة؟ وهل هناك قصة فى القرآن لا تتجاوز معلومات العالم التاريخية فى عصر النبى من حيث الدقة فى الرواية والصدق فى الحديث والعبرة من الأحداث؟

﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا﴾

(هود: ٤٩)

هل هناك رمز فى القرآن؟

من هذا كله نستطيع أن نجزم بأن القرآن الكريم لم يعتمد فى قصصه على الرمز بمعناه الحديث مطلقا ولكن هناك فى القرآن وفى قصص القرآن بالذات لمحات وأغراض وأهداف تفهم من سياق القصة ويدركها العلماء الراسخون من

أسرار الألفاظ العربية، ومن المقارنات بين المواقف المتشابهة والمختلفة.. وكلما تعمق العلماء فى معرفة أسرار هذه اللغة تبينت لهم معان جديدة.. وسيظل العلماء يستحون من آيات القرآن الكريم معانى جديدة.. وأهدافًا بعيدة، ولكن هذه المعانى والأهداف إنما تدرك فى حدود الدلالات المعروفة للألفاظ العربية دون تمحل ولا تحريف.. بهذا يمكن أن يقال: إن هناك رمزًا فى القرآن ولكن بمعناه اللغوى الإشارى فقط، فقد نأخذ من القصة الواحدة عدة أغراض، إذ كل حرف فى القصة يؤدى وظيفة خاصة سواء من ناحية الفن أو من ناحية الغرض.

وهنا أجدنى مضطرًا أن أعرض بعض هذه الأغراض التى يمكن استنتاجها والوقوف عليها من القصص القرآنى جملة.. فمثلاً نرى فيه تصوير الطبيعة الإنسانية على ما هى عليه، بغرائزها فى تساميها وتسفلها، هادفًا بذلك إلى تهذيبها وإقامة توازن واتساق بين ما لدى الإنسان من رغبات حيوانية وما لديه من سبحات روحية.

غريزة حب البقاء

هذه الغريزة تصورها القصة القرآنية أصدق تصوير بحيث تجعلها سببًا فى نسيان آدم لأمر ربه.. فإن إبليس لم يستطع إغواءه إلا بالتلويح له بتحقيق هدفين: الخلود والسيطرة الدائمة

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾

(طه: ١٢٠).

بسبب هذين نسى:

﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾

(طه: ١٢١)

وكانت النتيجة لهذا الحرص أن فقد هو وزوجه الضرورات الأربع من مطعم ومشرب ومسكن وملبس:

﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾

(طه: ١٢١).

وتبع ذلك هبوطهما إلى الأرض:

﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾

(طه: ١٢٣)

هذه النتيجة نفسها تتجلى فى بنى إسرائيل الذين حرصوا على الحياة أيا كانت هذه الحياة:

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾

(البقرة: ٩٦)

وفضلوا الجبن والخور على الجهاد والبذل والإقدام مع نبيهم موسى عليه السلام، فكانت العاقبة أن هانوا:

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾

(البقرة: ٦١)

وحرموا من دخول الأرض المقدسة وفرضت عليهم حياة التيه:

﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً

﴿ يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾

(المائدة: ٢٦)

هذه نتيجة الحرص على الحياة ولو مع الذل والانكسار، أما العربى الحر فيقول:

لا تسقنى ماء الحياة بذلة
بل فاسقنى بالعز كأس الحنظل

أما من يستهين بها أمام عقيدته فتصوره القصة القرآنية فى موقف سحرة فرعون ساعة أن دلف الإيمان إلى قلوبهم فها هم أولاء يهددهم الطاغية الجبار:

﴿ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾

(طه: ٧١)

فيقولون بكل إيمان:

﴿ لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾

(طه: ٧٢)

فماذا كانت العاقبة؟ إنها النصر المبين.. وإغراق الكافرين وانفلاق البحر العظيم ومرورهم منه سالمين:

﴿ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴾

(الشعراء: ٦٥، ٦٦)

وهؤلاء صحابة رسول الله فى غزوة (الأحزاب) يقفون حاملين أرواحهم فى أكفهم، فمنهم من بذلها ومنهم من ينتظر الأوان:

﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ ﴾

(الأحزاب: ٢٣)

فماذا كانت نتيجة هذه الروح الباسلة؟ إنها السلامة والنجاة والنصر:

﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾

(الأحزاب: ٢٥)

وهؤلاء أيضًا جرحى (أحد) يقفون فى (حمراء الأسد)[1] ويمر عليهم بعض الناس يخوفونهم بأن قريشًا قد جمعت جموعها للقائكم فما يزدادون إلا رسوخًا وثباتًا:

﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾

(آل عمران: ١٧٣)

وتكون النتيجة السلامة والنجاة كذلك:

﴿ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ﴾

(آل عمران: ١٧٤)

وكأن القصة القرآنية تريد أن تعمق فى نفس المؤمن تلك الحكمة الصادقة (احرص على الموت؛ توهب لك الحياة)

غريزة الجنس:

أما هذه الغريزة فتصورها قصة (يوسف) وامرأة العزيز فى تسفلها مع طبقة الأسياد المترفين، وتساميها فى نفوس الأنبياء المصطفين الأخيار ومن يسبح على منوالهم.

هذا (يوسف) الخادم تعشقه سيدته.. فليكن خادمًا.. لكنه جميل.. وإذن فالجمال هو الفيصل فى هذا الميل وتهيىء امرأة العزيز كل شىء.. حتى نفسها.. حتى ملابسها الشفافة.. وجسمه المعطر.. والمكان الهادئ الوثير، والحجرة الملائمة المستترة.. ثم تدعو خادمها فى نبرة تنز حنانًا وهيامًا:

﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾

(يوسف: ٢٣)،

إن كل هذه الاستعدادات من أجلك.. من أجلك أنت! إنك لست خادمًا الآن.. لك القصر بما فيه.. لك كل شىء تراه.. والمطلوب منك فقط أن ترضى هذا الطيش، وتتصارع الفضيلة والرذيلة كعادتها دائمًا. ويقف يوسف ذو الذيل الطاهر فى محنة قاسية، إنه شاب.. حقًا.. إن غريزته تثور.. إن شبابه يحترق.. ولكنه مؤمن.. لكنه يرى الله.. لكنه فى مستوى عال رفيع.. بعيد عن الرجس وعن الشبهات، وهنا ينطلق هذا الصوت المؤمن الغضوب:

﴿ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾

(يوسف: ٢٣)

وهكذا تنتصر الفضيلة فى أحرج دقيقة؛ وتأتى النتيجة لهذا الجانب؛ الخزى والعار لامرأة العزيز وهى تعترف:

﴿ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

(يوسف: ٥١)

والشرف والطهر ليوسف العفيف وهو يشمخ بأنفه قائلاً فى اعتزاز:

﴿ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

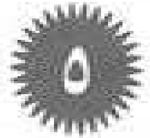
(يوسف: ٥٥-٥٦)

يتبع

❁❁❁

(١) موضع على ثمانية أو عشرة أميال من المدينة، خرج إليها الرسول ﷺ لملاقاة المشركين حينما هموا بالرجوع صبيحة غزوة أحد ولم يخرج إليها إلا من شهد أحدا كما أمر ﷺ بذلك. انظر الرحيق المختوم ١/٢٦٠

كلمات ربى وآياته فى القرآن الكريم





أ.د. أحمد فؤاد باشا

• الأسود من القدم، وبعض النباتات من مجموعة نباتات الحمض، التى تتبع الفصيلة الرمرامية أو «الزربيحية»، مثل السواد، تتخذ لونًا أسود إذا ما عمرت، وذلك نتيجة لموت قشرتها التى تغلف سوقها، أو موت أوراقها، لتراكم الأملاح فيها، وهى من نباتات المراعى، الواسعة الانتشار فى المناطق الصحراوية والمالحة.

وقد وردت كلمة «أحوى» مرة واحدة فى القرآن الكريم. قال تعالى:

﴿ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ﴾

(الأعلى: ٤-٥)

ولعل فى المعنى إشارة إلى خطوات حياة النبات: إخراج المرعى، وتتابع نموه وازدهاره، وتنتهى بموته ويبسه وجفافه، ثم اسوداده من القدم بمرور الوقت.

وأما قوله تعالى: ﴿ فَجَعَلَهُ غُثَاءً ﴾ جففه حتى صيره هشيمًا جافًا كالغثاء الذى يرى فوق السيل. فالغثاء هو الهالك البالى من ورق الشجر، إذا اخرج السيل رأيته مخالطًا زبده. وقد جاءت كلمة ﴿ غُثَاءً ﴾ فى موضع آخر بالقرآن الكريم، قال تعالى:

﴿ أحوى ﴾

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً ﴾

(المؤمنون: ٤١)

أى صاروا بعد نزول عقوبة الله بهم بمنزلة الغثاء. ووجه الشبه عند الطبرى هو قلة النفع، وعند الزمخشرى هو شدة الدمار.

وأما المرعى فيطلق على مكان الرعى الذى ترعاه الماشية من الكلأ ونحوه.

قال سبحانه:

﴿ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴾

(النازعات: ٣٠-٣١)

والراعى: من يرعى الماشية، والجمع: رعـ ورعاة ورعيان. قال تعالى يحكى قول ابنتى لـ مدين لموسى عليه السلام:

﴿ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾

(القصص: ٢٣)

وقد وردت الكلمة ومشتقاتها فى القرآن الكريم عشر مرات بمعان مختلفة.

والسائمة: الحيوانات التى ترعى حيث تشاء.

وقد جاء فى التنزيل:

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾

(النحل: ١٠)

أى تطلقون دوابكم للرعى فيه. ومن معانى تفسير قوله تعالى:

﴿ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ ﴾

(آل عمران: ١٤)

أنها الراعية فى المروج وغيرها من المراعى.

﴿ الأرض ﴾

وردت كلمة الأرض معرفة بالأداة «أل» فى ٤٥١ موضعًا، ومعرفة بالإضافة فى ثمانية مواضع، ومنكرة فى موضعين من القرآن الكريم.

• كيف بدأ الخلق:

قال تعالى:

﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾

(الكهف: ٥١)

وهذا يعنى أن قضية خلق الكون «السموات والأرض» تعتبر من أمور الغيب التى يعلم الله وحده حقيقتها الكاملة. لكن غيبية هذه القضية لم تمنع العلماء ـ بحكم تعاليم الإسلام ـ أن يواصلوا البحث والتنقيب عن آيات الله فى الكون والتعرف على بعض أسرار الخلق الإلهى ليزداد الإنسان إيمانًا بقدرة الخالق المبدع ووحدانيته. قال تعالى:

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾

(العنكبوت: ٢٠)

ويمدنا القرآن الكريم ببعض اللطائف المعرفية عن هذه القضية الغيبية ليحثنا على مواصلة البحث عن الحقيقة، فيقول تعالى:

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾

(الأنبياء: ٣٠)

وقد جاء فى تفسير هذه الآية الكريمة أن السموات والأرض ﴿ كَانَتَا رَتْقًا ﴾، أى شيئًا واحدًا متصلاً، وهذا يدل على أنهما من عناصر واحدة، ﴿ فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾، أى فصل الله بينهما فانتشرتا فى الفضاء أجزاء حيث شاء الخبير العليم، والرتق لغة يعنى: الضم والالتحام، وهو عكس الفتق، يقال: رتقت الشىء فارتتق أى التأم.

ولما كان من معانى «الإعجاز» فى اللغة العربية: الفوت والسبق، فإن القرآن فى هذه الآية الكريمة ينفرد بالسبق المعجز، إلى تقرير حقيقة كونية عن نشأة الكون وخلق السموات والأرض تمثل تحديًا مستمرًا للعلم البشرى مهما تطور وتقدم.

ولقد توصل العلم الحديث، بعد مشوار طويل من البحث بطرق عديدة، إلى أن عمر الكون يتراوح ما بين ١٢ و ٢٠ بليون «ألف مليون سنة»، وأن كوكب الأرض تكون منذ نحو ٤,٦ بليون سنة، وأن الحياة وحيدة الخلية ظهرت فى مياه البحار لأول مرة منذ نحو ٣,٥ بليون سنة، ثم ظهرت الحياة عديدة الخلايا فى البحار أيضًا منذ حوالى ٢ بليون سنة على هيئة نباتات مائية خضراء لتكون الغذاء الرئيسى والأساسى للحيوانات المائية الأولية. وأسهم الضوء القادم من الشمس فى إنتاج كمية كافية من الأكسجين فى عملية تسمى «التمثيل الضوئى»، يصنع النبات الأخضر منها مواد غذائية نباتية من الماء الممتص من التربة وثانى أكسيد الكربون الممتص من الجو

بمساعدة ضوء الشمس ومادة الكلوروفيل «وهي المادة الخضراء في النبات»، وإطلاق الأكسجين الذي استقرت كميته بالغلاف الجوي على ما هي عليه منذ نحو بليون سنة، فأحدثت توازنًا لازمًا لتنفس كل الكائنات الحية. ولولا هذه العملية النباتية لأصبح جو الأرض سامًا.

وظهرت، بعد هذا التوازن المذهل، أنواع متعددة من الحياة الحيوانية حتى وصل الإنسان الذي خلقه الله تعالى في أحسن تقويم، بعد أن هيأ الأرض لاستقباله وجعلها صالحة لاستمرار الحياة عليها قال تعالى:

﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾

(النازعات: ٣٠-٣٣)

﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾

لفت القرآن الكريم الأنظار إلى مفتاح التعرف على تاريخ الأرض والحياة عليها، وذلك بالبحث في مكوناتها:

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾

(العنكبوت: ٢٠)

وتنوعت محاولات العلماء لتحديد هذا التاريخ ومراحله: فمنهم من اعتمد على حساب معدل التبخر في البحيرات التي ليس لها منفذ، مثل بحر قزوين والبحر الميت، وذلك انطلاقًا من أن الازدياد المستمر في ملوحة المحيطات يتناسب مع أعمارها. ومنهم من ربط بين عمر الأرض وبين تشكلها ببطء شديد من سحابة غازية هائلة تسمى «السديم»، ليكون بمثابة اللغة التي يستنبط العلماء من قراءتها ودراستها تاريخ الأرض المسجل في صخور على أساس أن الحاضر هو مفتاح الماضي.

ويعتبر علم الحفريات Fossils هو المعني بدراسة بقايا آثار الحياة الأرضية القديمة والكائنات الحية في صخور القشرة الأرضية للتعرف على البيئات القديمة التي عاشت فيها تلك الكائنات نتيجة مقارنتها بمثيلاتها التي تسكن بيئات الأرض في الوقت الحاضر، كذلك كانت الحفريات ضرورية لتطوير التقويم الجيولوجي وتقسيمه إلى ثلاثة دهور معروفة للحياة القديمة والمتوسطة والحديثة، وقد ساعدت المجاهر فائقة التكبير حديثًا على اكتشاف حفريات من نوع «حبوب اللقاح» أفادت في تتبع مراحل تاريخ الأرض ومصادر ثرواتها الحيوية.

أيضًا، وفرت الطريقة الإشعاعية أداة جديدة لتقدير عمر الأرض بدقة أكثر.

لكن تبقى كل النتائج العلمية التي تم التوصل إليها مجرد خطوة على طريق المعرفة نحو حقيقة بدء الخلق التي تمثل تحديًا مستمرًا للعلم البشري مهما تطور وتقدم.

﴿فَرَشْنَاهَا﴾

قال تعالى:

﴿وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾

(الشمس: ٦)

يقسم الله تعالى في هذه الآية الكريمة بالأرض التي خلقها وبسطها وهيأها لسكن الإنسان المكلف بإعمارها وترقية الحياة عليها. ولقد توصل العلم الحديث إلى أن التركيب الداخلي لطبقات الأرض من الخارج إلى الداخل يبدأ بالقشرة الأرضية التي يتراوح سمكها في جميع القارات بين ٤٠ و٦٠ كيلومترا، في حين تنخفض في قيعان المحيطات إلى ما بين ٥ و٦ كيلومترات،

ولا وجود فيها للطبقة الجرانيتية. ولقد فرض العلماء في ذلك نظرية سميت نظرية الطفو Isostaty، تقضي بأن القارات تتكون من صخور خفيفة نسبيا، أما قيعان المحيطات فتتكون من صخور أثقل نوعًا، ومن ثم توجد حالة من الاتزان، حيث ترتفع القارات بحكم خفة صخورها، فتتكالب عليها عوامل التعرية، ثم النقل، ثم الترسيب في قاع المحيط حاملة معها من معادن القشرة الأرضية الكثير مما يبقى معلقًا في الماء أو يرسب مع رواسبه.

يحدث الترسيب فوق الصخور الأثقل نوعًا في قاع المحيط، ويتبع ذلك انخفاض مستمر لقاع المحيط، ومن ثم غوص في الطبقة التالية من طبقات الأرض، فيحدث التوازن بمزيد من الارتفاعات في القارات.

ولقد غيرت الثورات الجيولوجية تضاريس سطح الأرض عبر بلايين السنين التي مضت قبل أن تصبح هادئة منبسطة صالحة لسكنى الإنسان عليها. ولو كانت الأرض كرة ملساء دون منخفضات أو تعاريج لغطاها الماء الموجود بعلاف مائي كبير، ولو تخيلنا أن الجليد الذي يغطي سلاسل الجبال والجزر عند القطبين قد انصهر، فإن مستوى مياه البحار والمحيطات في العالم كله سوف يرتفع في هذه الحالة عشرات الأمتار ويغرق مدنًا كثيرة آهلة بالسكان.

أما باطن الأرض الذي يلي قشرتها فيقسمه العلماء إلى قسمين كبيرين: القسم الأول، يسمى الوشاح أو الدثار، وهو طبقة صخرية صلبة تمتد تحت القشرة الأرضية حتى عمق حوالي ثلاثة آلاف كيلومتر. وتمثل هذه الطبقة نحو ٧٠٪ من كتلة الكرة الأرضية بكاملها، وفيها توجد بؤر الزلازل التي تضرب سطح الأرض وما عليها بين الحين والحين.

والقسم الثاني من باطن الأرض هو اللب أو القلب «النواة»، ويمثل المجهول كله، ومع ذلك فإنه يخضع في تركيبه لتفسيرات علمية تقضي بتقسيمه هو الآخر إلى طبقتين: إحداهما داخلية تتكون من صخور مختلفة غير متجانسة، وهي صخور صلبة غنية بالحديد، ويبلغ نصف قطر هذه الطبقة نحو ١٢١٦ كيلومترا والأخرى خارجية، وهي فلزية منصهرة يبلغ سمكها ٢٢٧٠ كيلومترا، والصهير في باطن الأرض إذا ما اختلت قوى التوازن المؤثرة عليه فإنه يشق طريقه بين الطباق على شكل جدد وعوائق، أو يصل إلى السطح على شكل بركان تساعد دراسته على معرفة المزيد عن باطن الأرض.

وبرغم الفروض العلمية عن باطن الأرض وتركيبه، فلم تزل أسرار الأرض بعيدة المنال بعمق باطنها السحيق.

ومع ما يعرفه العلم الآن عن حركات الأرض المختلفة، وما يحدث في باطنها وعلى سطحها من تفاعلات متنوعة، فإن سطحها يظل بالنسبة للإنسان أشبه بالفراش المريح والمهاد الممتد اللذين هيأهما الله -تعالى- لتسهيل الحياة، وامتن بهما على عباده في قرآنه الكريم، فقال تعالى:

﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾

(الذاريات: ٤٨)

وهذه حقيقة قرآنية يحسها كل إنسان يعيش على الأرض، ويمشي في مناكبها، ويأكل من خيراتها في أمان واطمئنان. وما حدوث بعض الهزات الأرضية بين الحين والحين إلا تذكير بهذه النعمة التي ينعم بها الإنسان في حضن «أمه» الأرض.

يتبع

بنو إسرائيل في الكتاب والسنة



أ.د. محمد سيد طنطاوي

رابعا: محاولتهم رد المسلمين عن دينهم بطريق الخداع والتلبيس

ومن مسالك اليهود - أيضا - لكيد الإسلام والمسلمين، إظهارهم الإيمان لفترة من الوقت، ثم رجوعهم عنه بعد ذلك إلى الكفر، وقد حكى القرآن الكريم عنهم هذا اللون الخبيث من المخادعة في كثير من آياته، ومن ذلك قوله تعالى في سورة (آل عمران):

﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٢) وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٧٤)﴾

إن هذه الآيات الكريمة قد حكت عن اليهود طريقة ماكرة لئيمة، هو تظاهرهم بالإسلام، ليحسن الظن بهم من ليس خبيرًا بمكرهم وخداعهم، حتى إذا ما اطمأن الناس إليهم جاهروا بكفرهم، ورجعوا إلى يهوديتهم، ليوهموا حديثي العهد بالإسلام، أو ضعاف الإيمان، أنهم قوم يبحثون عن الحقيقة، وأنهم ليس عندهم أي عداء للنبي ﷺ وأن الذي حصل منهم هو أنهم بعد دخولهم في الإسلام واتباعهم لمحمد ﷺ وجدوه دينا باطلا، وأن محمدا ﷺ ليس هو النبي المرتقب.

وأنهم ما عادوا إلى يهوديتهم إلا بعد الاختبار والفحص، وإمعان النظر في دين الإسلام.

ولا شك أن هذه الطريقة التي سلكوها لصرف المسلمين عن دينهم، من أقوى ما تفتق عنه تدبيرهم الشيطاني؛ لأن إعلانهم الكفر بالإسلام بعد إظهارهم الإيمان به، من شأنه أن يدخل الشك في القلوب، ويوقع ضعاف العقول والإيمان في حيرة واضطراب، خاصة وأن العرب قوم أميون ومنهم من كان يظن أن اليهود أعرف منهم بمسائل العقيدة والدين، وأنهم ما ارتدوا عن الإسلام إلا بعد اطلاعهم على نقص في تعاليمه.

والمتتبع لمراحل التاريخ قديما وحديثا، يرى أن كثيرًا من الدهاء في السياسة والحروب يتخذ هذه الخدعة ذريعة لإشاعة الخلل والاضطراب في صفوف الأمم والجماعات.

قال المرحوم الشيخ محمد عبده: «هذا النوع الذي تحكيه الآيات من صد اليهود عن الإسلام، مبني على قاعدة طبيعية في البشر، وهي أن من علامة الحق ألا يرجع عنه من يعرفه، وقد فقه هذا «هرقل» ملك الروم، فكان مما سأل عنه أبا سفيان من شئون النبي ﷺ عندما دعاه إلى الإسلام: هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل في الإسلام؟ فقال أبو سفيان: لا، وقد أرادت هذه الطائفة أن تغش الناس من هذه الناحية ليقولوا: لولا أن ظهر لهؤلاء بطلان الإسلام لما رجعوا عنه بعد أن دخلوا فيه، واطلعوا على بواطنه وخوافيه، إذ لا يعقل أن يترك الإنسان الحق بعد معرفته، ويرغب عنه بعد الرغبة فيه بغير سبب». (١)

وقد روى المفسرون في سبب نزول هذه الآيات الكريمة روايات متعددة، كلها تدور حول المعنى الذي قررناه، ومن هذه الروايات ما أخرجه ابن جرير الطبري عن قتادة، قال: «قال بعض أهل الكتاب لبعض، أعطوهم الرضا بدينهم أول النهار، واكفروا آخره، فإنه أجدر أن يصدقوكم، ويعلموا أنكم قد رأيتم ما تكرهونه، وهو أجدر أن يرجعوا عن دينهم». (٢)

وأخرج ابن جرير - أيضا - عن السدي في قوله تعالى:

﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٢)﴾

قال: «كان أحبار قرى عربية اثني عشر حبرا، فقالوا لبعضهم: ادخلوا في دين محمد أول النهار، وقولوا: نشهد أن محمدا حق وصادق، فإذا كان آخر النهار فاكفروا وقولوا: إنا رجعنا إلى علمائنا وأحبارنا فسألناهم، فحدثونا أن محمدا كاذب، وأنكم لستم على شيء، وقد رجعنا إلى ديننا، فهو أعجب إلينا من دينكم، لعلهم يشكون، يقولون: هؤلاء كانوا معنا أول النهار، فما بالهم؟ فأخبر الله - تعالى - رسوله ﷺ بذلك». (٣)

هذا، وبعد تلك المقدمة التي سقناها بين يدي تفسير الآيات الكريمة نعود إلى تفسيرها فنقول: قوله تعالى:

﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

آل عمران ٧٢

معناه:

وقال جماعة من اليهود: ﴿آمِنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: نافقوا وأظهروا الإيمان بالإسلام ونبيه ﷺ وبما أنزل عليه من قرآن في أول النهار، ثم ارتدوا إلى دينكم اليهودية في آخر النهار، رجاء أن ينخدع بحيلتكم هذه المؤمنون، فيشكوا في دينهم، ويعودوا إلى الكفر بعد الإيمان.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ كشف عن مقصدهم الخبيث، وهو ابتغاؤهم رجوع المؤمنين عن دينهم الحق.

قال الإمام الرازي: «وفي إخبار الله - تعالى - عن تواضعهم على هذا الحيلة، إعجاز وإخبار عن

١- تفسير المنار جـ٣ ص ٣٣٣ ٢- تفسير ابن جرير جـ٣ ص ٣١١
٣- المصدر السابق

الغيب الذى كانوا يضمرونه، وإحباط لما دبروه، وردع لهم عن الإقدام إلى مثله؛ لأنه فضحهم، وكشف سترهم، وخيب مسعاهم. (٤)

ثم بين القرآن الكريم بعد ذلك لونا من عنصريتهم وتعصبهم لباطلهم، وتواصيهم فيما بينهم بألا يدعن أحد منهم لغير طائفته، فقال تعالى:

﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾

آل عمران ٧٣

أي: لا تذعنوا وتظهروا سركم، وما عندكم من الدلائل على صدق هذا النبي، إلا لمن تبع ملتكم اليهودية دون غيرها، فهم يعرفون أن النبي ﷺ صادق ولكنهم يتناهون عن أن يقولوه لغيرهم.

وهنا يسوق القرآن الكريم جملة اعتراضية تأمر النبي ﷺ أن يسارع بردهم إلى الحقيقة التي عموا عنها فيقول:

﴿ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾

آل عمران ٧٣

أي: أسروا تصديقكم ولا تفشوه إلا لمن تبع دينكم، كراهة أن يظن المسلمون بأنهم قد أوتوا من الكتب السماوية مثل ما أوتيتم فيزدادوا إيمانا على إيمانهم، ولا تظهروا ذلك إلا لأبناء دينكم، أو خشية أن تقوم الحجة للمسلمين عليكم عند ربكم بسبب ذلك الإذعان والتصديق.

وللمرة الثانية في آية واحدة يأمر الله نبيه ﷺ أن يبكتهم على أنانيتهم، وأن يبين لهم أن الهداية هي فضل من الله يتفضل به على من يشاء من عباده فيقول:

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

آل عمران ٧٣

أي: قل - يامحمد - لهؤلاء اليهود الذين أبوا الاعتراف بصدق رسالتك حسدا لك، وكرهوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتوا، قل لهم: إن النبوة والرسالة والتوفيق للإيمان - والهداية للإسلام فضل من الله - تعالى - لعباده، والمتفضل المتكرم ليس ملزما بالعطاء، لنوع من الناس خاصة، وإذا كانت الرسالة قد جعلت في بني إسرائيل لحين من الزمان، فبفضل من الله ورحمته، وليس ذلك بملزم له، ولا يسوغ لهم أن يمنعوها عن غيرهم من العرب، وعليهم أن يذعنوا للحق سواء أكان الذى جاء به عربيا أو يهوديا. فالله أعلم حيث يجعل رسالته.

﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي: هو ذو سعة بفضله على من يشاء أن يتفضل عليه، وذو علم بمن هو أهل للفضل. ثم قال تعالى:

﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾

آل عمران ٧٤

أي: يختص بالنبوة وما يترتب عليه من الهداية من يشاء من عباده، وذلك بمحض فضله العظيم وجوده العميم وهؤلاء اليهود الذين يريدون أن تكون النبوة وقفا عليهم لا تتعداهم، إنما يضيقون ما وسعه الله، و يحسدون النبي ﷺ على ما آتاه الله من فضله، وتجاهلوا تلك الحقيقة الكبرى، وهي أن الأمر كله لله، وأنه - سبحانه - يختص برحمته من يشاء من عباده، لا راد لمشيئته، ولا معقب لحكمه.

وبهذا تكون الآيات الكريمة قد كشفت عن مسلك من مسالك اليهود الماكرة لكيد الدعوة الإسلامية، لكي يتنبه المسلمون إلى وسائلهم الخبيثة، فيحذروها ويفطنوا إليها، ويعملوا على إحباطها، بالسلاح الذى يناسبها.

فتاوى الحاخامات

د. منصور عبدالوهاب

عنوان الفتوى: هل يمكن أن تكون هناك نفس يهودية؟

مصدر الفتوى: www.daatermet.org.il

فتوى من: هيئة تحرير الموقع

.. سؤال: مؤخرا، بعد عودة أحد أصدقائي للدين «توبته»، وجدت الكثير من الاختلافات الروحانية المذهلة بين اليهود وسائر البشر.. ومن الاختلافات الشائعة أن اليهود يتمتعون بخصوصية النفس.

وبعد ذلك جالت في خاطري بضعة تساؤلات:

ما معنى أن لليهودى نفسا وللأغيار روحا فقط؟ هل يعني ذلك «اقترابا» روحانيا للرب؟ هل هذه إضافة للمقولة الدينية: «على صورة الرب خلقه» وبهذا يستدلون خلق الإنسان بخلق اليهودي؟ ما المصدر الذى استمدوا منه أن اليهود وحدهم هم الذين يتمتعون بخصوصية النفس؟

.. جواب:

النظرية الرئيسية والأساسية التى تستند إليها اليهودية الدينية هي: حادثة تجلى الرب للشعب اليهودى «المختار» فوق جبل سيناء.. ومن هذه العقيدة تنبع نظرية أن الشعب اليهودى يختلف عن باقى البشر، ولذلك، لماذا يتجلى الرب لليهود فقط لو لم يكونوا مختلفين عن باقي البشر؟

ومن هذا المنطلق، توصل الحاخام شمعون بار يوحاى إلى الاستنتاج العنصرى الآتي:

«أنتم (أيها اليهود) تسمون بشرًا أما الأغيار فلا يسمون بشرًا».. (أحكام الزواج ١ / ١).

للاستزادة راجع مقالاتنا: «الشعب اليهودى هو الشعب المختار» وللتخفيف على القراء نأتى ببضعة اقتباسات من المقال: «النظرية التى تقول بأن الشعب اليهودى هو الشعب المختار أخذ بها كل الحاخامات كما ورد فى الكتب المقدسة بشكل عام والتوراة بشكل خاص.. هذه العقيدة تؤدى إلى استنتاج واحد ووحيد، وهو أن الشعب اليهودى أفضل وأسمى من سائر أمم العالم، وهو استنتاج عنصرى يثير كل نفس متزنة ويصدم أنصار المساواة.

ولذلك لا تتعجب عندما تقرأ الأقوال

العنصرية التى تثير الغضب للحاخام.. يهودا هاليفى فى كتابه «الخزري» (مقال ٥ / ٢٠): «الشيء الأدنى فى البهيمة أعلى درجة من الشيء السامى فى النبات، والشيء الأدنى فى الإنسان أعلى درجة من الشيء السامى فى البهيمة.. وكذلك الشيء الأدنى فى أبناء توراة الرب «اليهود» أعلى درجة من الشيء السامى عند الشعوب «الأغيار» التى ليس لديها توراة الرب، لأن التوراة التى أعطاها الرب تمنح الأنفس عادات الملائكة وصفاتهم».

ويضاف إلى ذلك أقوال الحاخام أفراهام يتسحاق كوك فى كتاب «أضواء إسرائيل» (٥ / ١٠): «الفرق بين النفس اليهودية.. وبين أنفس الأغيار جميعًا، على اختلاف مستوياتهم، أعظم وأعمق من الفرق بين النفس البشرية والنفس الحيوانية؛ لأنه لا يوجد بين الإنسان والبهيمة إلا فرق كمي، ولكن بين اليهود والأغيار يسود فرق ذاتى ونوعي».. وهناك الكثير من مثل هذه الأقوال فى الأدب الديني.

تصل الأمور إلى حد أنه من الضرورى تسجيل الفرق الجوهرى بين اليهود والأغيار على أجسادهم منذ ولادتهم وهم أطفال رضع، وفقًا لوجهة نظر رجال الدين اليهودي.. وقد ورد فى «كتاب التعليم» الوصية الثانية» فى تفسير وصية الختان: «من جذور هذه الوصية كما أراد الله تبارك اسمه أن يضع علامة على أجساد الشعب الذى يسمى باسمه، لتمييزهم عن باقى الشعوب من حيث شكل الجسد، بنفس تميزهم عنهم من حيث النفس والأصل والمنبع وأهم اختلاف هو (العضو الذكري) الذى يعتبر سبب وجود الجنس البشري. فضلاً عن أنه يكمل شكل الجسد كما أسلفنا.. والرب تبارك اسمه يرغب فى أن تكون كل صفات الشعب المختار كاملة.

أنت ترى أن النظرية الحاخامية هى نظرية عنصرية شديدة الخطورة، حيث يختلف الشعب المختار عن باقى شعوب العالم بواسطة وضع علامة فى جسده «لاختلاف الأصل والمنبع» عن باقى الشعوب وذلك لاكتمال صفاته وكماله الجسدي.

***

قصص الأنبياء

بنو إسرائيل ومسألة البقرة

للعلامة الشيخ: عبدالوهاب النجار

أريد أن أقدم بين يدى الكلام على بقرة بنى إسرائيل أن المفسرين يذكرون أن القتيل ضُرب بجزء من البقرة فأحييَ وأخبر بقاتله فأُخِذ وَقُتِل، ويذكرون للبقرة حكايات وروايات ما أنزل الله بهامن سلطان.

أما قولهم: إن القتيل ضرب ببعض البقرة فحيى وأخبر بقاتله، فهذا شيء زائد على ما نص فى كتاب الله تعالى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه- وكل ما قصوه فى هذا الموقف فى كتبهم ليس إلا إسرائيليات تلقفها أولئك المفسرون من مسلمة أهل الكتاب، أمثال كعب الأحبار ووهب بن منبه الذين لا يبالون بما ينسبونه إلى كتاب الله التوراة، والتوراة خالية منه بالمرة وقد أفاضوا على المسلمين ثروة من تلك الإسرائيليات التى لم ينزل الله بها سلطانا ولا يمكن أحدا من المسلمين أن يجعلها برهانا على أمر من الأمور.

وإذا كانت المسألة خالية من نص قطعى الثبوت والدلالة جاء فى القرآن الكريم ومن نص عن المعصوم ﷺ تجب به الحجة وتثبت به القضية، وليس فيه سوى تلك الإسرائيليات المعلوم أمرها كان من الظلم أن تفسر العقول على فهم وجه ليس به حجة ولا برهان، وأن تكف عن فهم كتاب الله تعالى على وجه مقبول فى العقول سائغ فى الأفهام.

• ثانيا، أريد أن أناقش الوجه الذى فسروا عليه آيات الكتاب الكريم وحملوها من المعنى ما لم يأذن به الله فأقول: إذا فرضنا المستحيل فى العادة وأن القتيل أحيىَ وأخبرَ بقاتله، فما فائدة ذلك؟

إنا نعلم أن القتيل إذا أُحيى بعد قتله كان حكمه حكم سائر الناس. فهو مخاطب بأحكام الشرع فإذا شهد فلا تقبل شهادته وحده، بل لابد من قيام نصاب الشهادة، فإذا شهد بمال لواحد من الناس على إنسان فلا بد من شاهد آخر. وإذا شهد بالزنا على أحد فلا بد من شهادة ثلاثة سواه معه ويحد إذا لم يتم نصاب الشهادة ولابد من إعذار إلى المشهود عليه فيه كما يعذر إليه فى سائر الشهود- لعل له طعنا عليه أو على غيره تسقط به أقواله. ولا تقبل شهادته لأبيه ولا لابنه، كما لا تقبل شهادة سائر الناس بذلك. وإذا أوقع على زوجته طلاقا وقع كما يقع طلاق سواه. وإذا أقر بمال لغيره على نفسه قبل منه الإقرار وأخذ به- كما يقبل من غيره. ويؤخذ به- وإذا ادعى مالا على الغير لا يحكم له به بمجرد دعواه بل لابد من إثبات ذلك بالبينة العادلة.

فهو إنسان كبقية الأناسي لا فضل له على سواه ولا مزية له على سائر البشر، وقتله ثم حياته لم يخرجه عن البشرية ولم يجعل له حكما خاصا به ليس لغيره من الناس. وإذا لم تقبل دعواه في درهم مع قلة خطره فكيف يقبل قوله في الدماء المعصومة! وكيف تهدر بقوله وحده النفس التي لا تباح إلا بحقها من كفر بعد إيمان! وزنا بعد إحصان! وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق؟!

قد يقولون: إنه لما كان إحياؤه معجزة كان قوله في الدماء مقبولا. فإنا نقول إن المعجزة إنما كانت في إحيائه إذا كانت قد حصلت وكان عنها عود الحياة إليه. فلما حيي كان قوله كسائر أقوال الناس - كما نص على ذلك الإمام أبوبكر بن العربي ونقله عنه القرطبي في أحكامه - وليس من المعقول ولا المقبول في الأفهام أن يقبل قوله في دعوى القتل، وتباح بذلك إراقة الدم المعصوم. ثم إننا نرد دعواه في الشيء الحقير التافه كالدرهم إذا ادعاه - فإن الدماء يجب فيها الاحتياط، إذ الحياة إذا ذهبت فلا عودة لها في هذه الدار، بخلاف الدرهم فإن خطبه يسير والحصول عليه بعد فوته غير عسير، والأنفس تسمح به، بخلاف الحياة التي ليس لها عودة في هذه الفانية.

• ثالثا: قد تقرر في علم العربية أن الضمير يعود إلى أقرب مذكور. فإذا طال الكلام وكان مرجع الضمير بعيدا، فالبلاغة تقضي بأن يعاد الاسم مرة أخرى ليكون أقرب مذكور ليتأتى عود الضمير إليه بلا تشويش على القارئ أو السامع، وتفاديا من تشتيت الضمائر.

يقول المفسرون: إنه كان في بني إسرائيل شيخ موسر له ابن واحد قتله ابن عمه طمعا في ميراثه. ثم جاء يطلب بدمه قوما آخرين. فأنكر الآخرون قتله، وترافع القوم إلى موسى، فأمرهم أن يأتوه ببقرة ليذبحوها ليبين لهم المجرم من البريء فقالوا له إنك تهزأ بنا. فاستعاذ بالله من أن يكون من الجاهلين الذين يهزأون بغيرهم. فقالو ادع لنا ربك يبين لنا ما هي؟ فقال لهم إن الله يقول: إنها بقرة بين الفتية والمسنة وأنها عوان. ثم طلب منهم أن يفعلوا ما أمرهم الله به ولكن بني إسرائيل قوم جبلوا على عدم امتثال أمر الله وعدم المسارعة إلى أوامره، بل اعتادوا المماطلة والمطاولة فبحكم عادتهم لم يمتثلوا. فسألوه عن لونها فبين لهم أن الله يقول: إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين إليها لحسنها. فلم يشاءوا الامتثال وقالوا له: إن البقر تشابه علينا فبين لهم البقرة بأنها غير مذللة بالعمل، وأنها سليمة الأعضاء، وأن لونها واحد لا شية فيه تخالف لون جسمها. فطلبوا تلك البقرة فذبحوها، وبعد الذبح جاء موسى بلسانها وضرب به القتيل فحيي وأخبر بقاتله بقدرة الله تعالى. ومع ظهور ذلك كله لبني إسرائيل، فإن قلوبهم بقيت على قساوتها كأنها الحجارة أو أشد قسوة منها ولم تؤثر تلك العجيبة في قلوبهم البتة.

اقرءوا هذه الآيات من سورة البقرة:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُ
أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً ۖ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُو
بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧) قَالُوا ادْ
لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ۚ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ
فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَافْعَلُوا
تُؤْمَرُونَ (٦٨) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّ
مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَ
فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (٦٩) قَالُوا ادْ
لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِ
إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ
إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ
مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ۚ
فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (٧١) وَإِذْ قَتَلْتُمْ
نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ
(٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ
الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣)
ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ
أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ
الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ
وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ
عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٤) ﴾

(البقرة: ٦٧- ٧٤)

ويكون نظم القرآن في هذه القصة هكذا: قتل بين بني إسرائيل قتيل فتدافعوا فيه، يدفع كل تهمة القتل عن نفسه. فلما ترافعوا إلى موسى، أمرهم بذبح البقرة. وبعد المراودة بينه وبينهم وبين الله ذبحوها بعد جهد شديد. يقولون فأمرنا موسى أن يضربه ببعضها فحيي القتيل وأخبر بقاتله:

﴿ كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

(البقرة: ٧٣)

ثم إنكم توليتم بعد ذلك وقست قلوبكم:

﴿ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

(البقرة: ٦٤)

إذا تأمل الإنسان في هذه الحادثة وجدها - إذا كانت قد وقعت كما يقولون - قد اشتملت على معجزة غريبة صنعها الله لموسى، وقد صنع الله له من الآيات في تأييده ما هو أبدع منها وأعجب ويجد مع ذلك أنها قد حلت مشكلة من مشكلات بني إسرائيل حلا وقتيا فقط. ففائدتها قاصرة، وخير منها أن يأتيهم بعجيبة تحل مشكلاتهم أبدا على الدوام.

ظاهر الكتاب يقتضي أن سنة الله في إحياء الموتى دائما أن يأتي ببقرة تذبح ويضرب من يريد إحياءه ببعض البقرة فيحيا ذلك الميت وليس مرادا.

أرأيتم لو قتل قتيل اليوم أو قبل اليوم من بني إسرائيل أو من سواهم من البشر وذبحنا أو ذبحوا بقرة على هذا الوصف المذكور في السورة أو ألف بقرة وضرب ببعضها هل يحيا؟ كلا ففائدة هذه الحادثة جزئية لا تحل مشكلاتهم على فرض وقوعها!

أما ما جاء في التوراة متعلقا بأمر ذبح البقرة فيلخص في أن بني إسرائيل فرض عليهم أنه إذا قتل قتيل في الحقل يؤتى بأهل أقرب البلاد من موضع القتيل ويأتون بعجلة من البقر لم يحرث عليها ولم تجر بالنير، ويأتي شيوخ القرية بها إلى واد دائم السيلان لم يحرث فيه ولم يزرع. ويكسرون عنق العجلة في الوادي. ثم يتقدم الكهنة - بنو لاوي - ويباركون الله ويغسل جميع الشيوخ الذين من القرية القريبة من القتيل أيديهم على العجلة. ويصرخون قائلين: أيدينا لم تسفك هذا الدم. وأعيننا لم تبصر اغفر لشعبك إسرائيل الذي فديت يارب ولا تجعل دم بريء في وسط شعبك إسرائيل فيغفر لهم هذا الدم! اهـ

فالناظر إلى التوراة يرى أنها جعلت الأمر شريعة معدة لأن تتبع في النوازل والوقائع التي تقع لبني إسرائيل.

على أن ذلك لا ينافي أن حادثة وقعت عمل فيها موسى ما قصه القرآن. ثم كتب الله عليهم أن يكون ذلك شريعة تتبع في الحوادث المستقبلة المماثلة لها.

وهذا الذى حدث عند بنى إسرائيل يشبه في الجملة ما يحدث عند الأعراب في البلاد المصرية فإن الأعراب إذا قتل عندهم قتيل- لا يعلمون قاتله- واتجهت التهمة إلى قوم آخرين أرسلوا إليهم رسولا يقول لهم: إن دمنا عندكم فاذبحوا لنا ذبيحة. فإذا فعلوا جاء أولياء الدم وأقسم المتهمون يمين القسامة أنهم لم يقتلوا ذلك القتيل ولا يعلمون قاتله. ثم يسوى لهم لحم الذبيحة فيأكلون ويأمن بعضهم بعضا وتثبت براءتهم من القتيل. ويقولون: الدم يمسح العيب.

ولى في هذه الحادثة نظر آخر سوى ما ذهب إليه المفسرون.

هو أننا إذا نظرنا إلى القصص التى قصها الله في هذه السورة قبل هذه القصة- وكلها متعلقة ببنى إسرائيل- وجدنا كل قصة مستقلة عما قبلها وما بعدها مبدوءة بقوله تعالى «وإذ».

اقرءوا:

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾

(البقرة: ٤٩)

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَـٰكُمْ﴾

(البقرة: ٥٠)

﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾

(البقرة: ٥١)

﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ﴾

(البقرة: ٥٣)

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم﴾

(البقرة: ٥٤)

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾

(البقرة: ٥٥)

﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾

(البقرة: ٥٨)

﴿۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾

(البقرة: ٦٠)

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾

(البقرة: ٦١)

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾

(البقرة: ٦٣)

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾

(البقرة: ٦٧)

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا﴾

(البقرة: ٧٢)

فهذا النسق المطرد الذى لم يتخلف يجعل مسألة قتل النفس والتدارؤ فيها مسألة مستقلة بنفسها غير مرتبطة بما قبلها ولا مدمجة فيها وقد حاك في نفسي أن هاتين القصتين تفهمان على ضرب آخر من الفهم وقد قوى عندى ذلك كل القوة.

وها أنا أعرضه على حضرات القراء، راجيا أن يعيره حضرات العلماء اهتماما وأن يوافوني بما يرونه الصواب بعد قتل المسألة بحثا، حتى إذا ظهر لى الحق عدت إلى ما رسموا ضاربا بقولى عرض الحائط فلست بالمتعنت ولا بالمفتون بقولى ورأيي، ولا ممن تنزهوا عن الخطأ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل.

ذلك أن القصة التى أمر فيها موسى قومه بذبح البقرة لم يكن الغرض منها الإتيان بكل ما اشتملت عليه واندرج فيها من الحالات والأحكام، بل الغرض أن يقص الله تعالى على رسوله محمد ﷺ نموذجا مما بلغ إليه تعنت بنى إسرائيل في إبطائهم عن امتثال أمر الله ومطاولتهم ومماطلتهم في تنفيذ ما يأمرهم به، دون استيفاء القصة استيفاء كاملا يشتمل على بيان الحكمة الباعثة على أمرهم بذبح البقرة، بل هو يقص علينا نمطا من تعنتهم وصلابة أعناقهم.

وأما القصة الأخرى المبينة في قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا﴾

البقرة ٧٢

فإنه تعالى يقص علينا فيها لونا من أفضاله على بنى إسرائيل وحل مشكلاتهم بطريقة لم تخطر لهم ولا لبشر ببال وظلت هذه الحكمة العالية المشتملة عليها تلك الطريقة غامضة على بنى إسرائيل وعلى جميع البشر لأجيال الطوال.

والذى فهمته من القصة الأولى أن بنى إسرائيل قد وقعت عندهم واقعة قد حاروا فيها. وهى أن شخصا قد قتل في الحقل. وهم لا يدرون من الذى قتله والحقل واقع بين بلاد كثيرة فأى البلاد تلصق بأهله تهمة القتل؟ رفعوا أمرهم إلى موسى فما كان جوابه إلا أن قال لهم:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾

البقرة :٦٧

ولما كان الجواب بعيدا في رأيهم عن الغرض الذى جاءوا لأجله وقع ذلك عندهم موقع الغرابة وقالوا لموسى:

﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾

ولما كان موسى إنسان صدق بعيدا عن الهزء والسخرية بعباد الله- قال لهم:

﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾

الذين يهزءون بعباد الله..

البقرة :٦٧

ثم كانت المراجعة بينهم وبين موسى وربه حتى بين لهم شأن البقرة ولونها وأحوالها أتم بيان ومع ذلك لم يمتثلوا بل ذبحوها بعد إذ كادوا لا يفعلون أى أنهم ذبحوها بعد جهد شديد.

أتى موسى برجال أقرب محلة من مكان القتيل وأحلفهم عليها بعد ذبحها أى وهى أمامهم أنهم ما قتلوا القتيل ولا علموا به وأنهم برءاء من دمه وكانوا يغسلون أيديهم على البقرة كما قص ذلك في التوراة.

هذه اليمين في شريعتهم كيمين القسامة عندنا معشر المسلمين. إذا قتل قتيل في محلة غير محلة قومه أو بقرب تلك المحلة ولم يعلم قاتله وكان هناك لوث يقع به في النفس صدق المدعى وهو ولى الدم «واللوث القرينة» حلف خمسين يمينا واستحق الوارث بالقسامة في القتل الخطأ أو شبه العمد الدية في القتل العمد حالة على المقسم عليه. ولا قصاص في الجديد لأن القسامة حجة ضعيفة فلا توجب القود احتياطا للدماء. وإن لم يكن هناك لوث أو أنكر المدعى عليه اللوث في حقه فاليمين على المدعى عليه. وأظهر الأقوال أنه يغلظ عليه بالعدد. انتهى باختصار من شرح الخطيب على متن أبى شجاع.

فتلك عند اليهود شرع كالقسامة عند المسلمين في الجملة.

المصادر الأساسية لميراثنا الثقافي



للعلامة محمد فتح الله كولن

يشيع القول بأن «الثقافة» مجموعة نظم وقواعد تحكم التصرفات الاجتماعية والأخلاقية التى أنتجتها وأصلتها أمة أثناء تاريخها الطويل، وجعلتها بمرور الزمان بعدًا من أبعاد وجودها أو حولتها إلى مكتسبات فى اللاشعور... ومع أن بعض الخصوصيات الأساسية للثقافة حسب هذا التعريف يحمل سمات العالمية، لكن الواضح أن لكل مجتمع فى جغرافية اجتماعية معينة، ثقافة سائدة خاصة، وبدهى أن هذه الخصوصية الثقافية عنصر مؤثر قوى فى النظم الفكرية. ولذلك، يعد الفكر المرتبط بثقافة معينة عند فرد من الأفراد، تعبيرًا عن ذاته بواسطة إطار المرجعية المعينة.

وهناك عدد ليس بالقليل من الذين فسروا الثقافة- وربطوها بالفكر نوعًا ما- بأنها مجموع الأحوال التى تعبر بها أمة من الأمم- بجميع طرائق التعبير أو معظمها- عن قيمها الأخلاقية، وملاحظاتها المذهبية «العقدية»، وأفكارها ورؤاها حول الوجود والكائنات والإنسان، وعن سلوكياتها الاجتماعية والسياسية وأصول تصرفاتها.. وأنها المجموع العام للأمور التى تكتسب فى سياق التاريخ فى إطار الالتزام بالتفكير والإحساس «الذاتي»؛ من أمثال الفكر والفن والعرف والعادة والعمل. «وهناك قيود على العرف والعادة والعمل سنذكرها لاحقًا».

إن العلاقة بين «الإنسان- الكائنات- الله» بقراءة جمعية لم يراع فيها الترتيب بين التابع والمتبوع- من أهم الأسس فى نظامنا الثقافي.

وجميع فعالياتنا الذهنية والفكرية والعملية مرتبطة بهذه العلاقة. أما المنطق الأوروبى الحديث- وهو ميراث يونانى تمامًا-، فيربط ملاحظاته كلها بالإنسان والأشياء والحوادث. ولذلك، لا يأخذ حقيقة الألوهية بنظر الاعتبار البتة، أو يتناولها باعتبارها موضوعًا تبعيًا غير مهم؛ والحال أن «الإنسان - الكائنات»[1] - فى نظامنا الفكري- مشهر وكتاب وبيان يعبر بلغة الحوادث، وهو بهذا الاعتبار لسان ومعرض يعرف بـ«الذات الواجب الوجود» عز وجل شأنه، ويشهر آثار صنعته، ويهتف بإجراءاته وشؤونه.

فهناك، فى الفلسفة اليونانية والمنطق الغربى المعاصر المستمد منها، عقل فعال، وبجانبه «فهم» لألوهية عاطلة، وأما فى ثقافتنا فـ- على النقيض من ذلك- هناك مناسبة دائمة بين الصنعة والصانع، وبين الأثر وصاحب الأثر، وبين الخالق والمخلوق. نحن فى نظامنا الفكرى نعتبر الإنسان والكائنات كوسائط تحملنا إلى أفق عرفانى معين، وبها نتوجه إلى الصانع الجليل الأجل ونطلبه ونقصده. أما أولئك فيقفون عند النتائج العملية لـ«مفهوم» الألوهية، ويرجعون كل مسألة إلى الأشياء والحوادث. وزد على ذلك، أننا نربط المسائل بالكتاب والسنة والمصادر الأخرى التى يرشدنا إليها الكتاب والسنة، إلى جانب العقل الفعال... أما أولئك فيرون العقل والمشاهدة سبيًا وحيدًا للعلم، فيضيقون سبل العلم والمعرفة.

الحاصل أن الثقافة هى مجموع المفاهيم والقواعد والانسياقات التى تعلمها الإنسان وآمن بها وطبقها فى حياته فصارت- بعناصرها الأصلية والتبعية- بعدا من طبعه، حتى تحولت إلى مصدر للمعلومات فى اللاشعور.. فهى ظاهرة أبستمولوجية يدرك ويحس بوجودها وتأثيرها بين الحين والآخر، حتى فى غياب الشعور والإرادة.

فكم من معتقدات ومسلمات وأعراف وعادات مندرجة فى الروح وغافية فى اللاشعور، تحفزها المقومات الداخلية للعقل بين فينة وأخرى، بواسطة دوافع وأسباب مؤثرة فى هذه المكتسبات، فتنشطها وتفعلها وتنشئها فتصورها فى أشكال؛ فأحيانًا فى ذات شكلها القديم وأحيانًا فى تماثل قريب من شكلها القديم ولكن ربما بلون باهت. غير أن هذه المكتسبات مهما كانت مندرجة فى طبع الإنسان فلا تظهر فى الحاضر مجددًا بعين الذات القديمة، لأن كل يوم جديد هو عالم خاص بذاته، وإذ يطلع بخصوصياته، وإذ يغيب يغيب بخصوصياته! لذلك، لا نريد أن نكرر مكتسباتنا القابعة فى اللاشعور، كشيء قديم تمامًا، بل بإضافة شيء من العمق إليها حسب متطلبات الأحوال والظروف.. بل القول الأصوب أن نعيش تلك المكتسبات بزيادة ألوان وأعماق طرية، صحيحة النسب، ومستمدة من الأصل.

ونلفت النظر إلى خطأ وقعنا فيه ـ كأمة ـ دائمًا؛ وهو أننا ـ بدلا عن جعل القديم أساسًا متينا ليقام عليه الجديد، وتطوير القديم بمعطيات الجديد ـ فصلناهما فى أكثر الأحوال إلى شريحتين وربطناهما بحقبتين منفصلتين؛ فأحيانا استعدينا بعضهما على بعض، وأحيانا أخرى عارضنا بينهما، فأدينا إلى حصول معضلات فى الأسس؛ فإما قلنا: «الجديد يشم عطره ثم يرمى فى النفايات، والقديم يفوح كالمسك والعنبر كلما رججته يتضوع»؛ فأفرطنا فى «واردات» حقبة من الزمان.. أو قلنا: «لا نفع فى مكتسبات عتيقة لزمان ولى؛ الخير فى العالم الزاهى للجديد»، وأهملنا تمامًا ذلك الجانب للزمان، فأغفلنا مفهوم «الزمان الذاتي»، وتغافلنا عن البعد العالمى الكوني.

والحال أننا ملزمون بإعداد البيئة الطيبة لزمان ثقافى جديد يطور حياتنا الفكرية، بتفسير ثقافتنا تفسيرًا معمقًا، وتقويمها تقويمًا دقيقا ـ ليس من أجل منطقتنا الجغرافية وحدها ـ بل من أجل تأسيس جسر متين ودائم بيننا وبين العالم المتحضر.. بعبارة أخرى:

[1] «١» المعنى هنا مفهوم المناسبة الإنسانية- الكائناتية جمعًا من غير فصل فى المفهوم، وينصرف بداهة إلى العالم برمته «المترجم».

يتحتم علينا ـــ من أجل بناء فهم ثقافي أمتن وأسلم وأقوم وأبقى لأمتنا ـ أن لا نفدى قيم ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا بعضها لبعض مع مراعاة الأولوية للمستقبل، وأن توفر وتصون الديمومة والتوسع بنفس الدرجة.. والحقيقة أن الزمان الثقافي غير مرتبط بفكرة التواجد قبل أو بعد، على خلاف مفهوم الزمان المعروف لدينا.. وأرى من الأنسب أن نسميه بـ «ما فوق الزمان».. بل الأحرى أن ننظر إليه مستقلا عن الزمان ومتعاليا عنه.. والواقع أن ديمومة الثقافة بذاتها منوطة باستقلالها.. لكن من البدهي وجود إطار من المرجعيات تنظم بناءها الذاتي والمستقل تمامًا، وتشكل كيفية علاقتها بالجهات المختلفة.. فمن هذه الوجهة وفي داخل إطار كهذا؛ يمكن أن نقول: إن الثقافة هي عبارة عن مجموع المفاهيم المختلفة وسبل التفكير المتنوعة، وأوجه الرؤية المتعددة، «والتصورات» الفنية والقيم الأخلاقية المرتبطة كل منها بتفسير مختلف.

وثم أسس راسخة تجد أنفسنا ملزمين بأن نربط كل مضمون ومفهوم وأسلوب فكري وتفسير ومقاربة، بتلك الأسس.. حتى إن الثقافة بألوانها المختلفة تحوم وتدور في محيطها، وتنهل من مناهلها، وتتغذى بغذائها، وتنمو بها، ثم تتحول بفضلها إلى حال فوق الزمان والمكان.

وهذه الأسس ـــ باختصار ـــ هي الكتاب والسنة (وسنذكر بهما بإشارات سريعة لاحقًا)، وبالإضافة إلى هذين العمادين ـ وفي إطار مرجعيتهما ـ التفسير والحديث وأصول التفسير وأصول الحديث والفقه وأصول الفقه.. ونخص بالذكر الفقه وأصول الفقه فهما ـ من حيث إنهما ثمار مساع حثيثة وكدح مضن، ومن حيث إنهما من غير مثيل أو شبيه لهما في التاريخ ـ منبعان لا ينضبان ومصدران قابلان للتوسع والثراء الرحيب بحيث إن الشعوب التي تمتلك هذين المصدرين، تعد مالكة لأهم الأشياء الحيوية.. إن كل حضارة تفخر بقيم تخصها بالذات.. فالفقه وأصول الفقه من أهم وأبرز قيم حضارتنا نحن.. وأحسب أننا لو كنا نحتاج إلى أن نصف حضارتنا ـ باعتبار ماضينا ـ بصفة، لكان من الأنسب أن نصفها بـ «حضارة الفقه وأصول الفقه».. حضارة الفقه وأصول الفقه المنفتحة أبوابها على مصاريعها للفكر والحكمة والفلسفة.. ولئن تميزت حضارة اليونان والإغريق بالفلسفة، وحضارة بابل وحران بالعرفان (Gnostisizm)، وحضارة أوروبا الحاضرة بالعلم والتكنولوجيا.. فإن حضارتنا الممتدة عبر العصور هي حضارة الفقه وأصول الفقه المتفسحة للجميع بتمحورها حول الفكر والعقل والمنطق والمحاكمة.. إن الجهود حول أصول الفقه عندنا ـــ كما يؤكد مفكرون كثيرون مع «سيد بك» والأستاذ محمد حميد الله ـ من أهم المجهودات غير المسبوقة لبناء وتطوير نظام حقوقي متكامل وعلم قانوني لا يشوبه نقص، وتوسيعه لاستيعاب كل العصور.. فهذا العلم بالإضافة إلى سبقه منفتح ليكون مصدرًا للحضارات والثقافات الأخرى، باعتباره مؤثرًا في تشكيل العلوم.

وعلى مر الزمان امتلكت مجتمعات مختلفة نظمًا قانونية أو حقوقية، كالرومان والصينيين والهنود واليونانيين.. لكن لا اليونانيون في ألواحهم، ولا الرومانيون في قوانين كاسيوس، ولا العالم المعاصر في متونه القانونية؛ استطاعوا

أن يربطوها بأصول أو قواعد مستقرة كما في نظام الفقه الإسلامي.. فلذلك لن تجد في أمة أخرى مثل هذا العلم المستند إلى القرآن والسنة واجتهادات السلف الصالح وتحقيقاتهم.

إن الفلسفة في أطوارها المختلفة هي نتاج المنطق المتطور دائمًا ليستجيب لحاجة تلك المراحل المختلفة.. وفي حضارتنا قام «أصول الفقه» بهذا الدور في نظامنا الحقوقي طوال التاريخ.. الفقه والحقوق يؤديان وظيفة إدارة المجتمعات بقواعد منظمة، وأصول الفقه يوجه الفقه والقانون.. والذي يحدد نوع الأصول والأساليب التي تتبع حسب طبيعة الموضوع أثناء هذا التوجيه هو «العقل السليم».. ومن الواضح أن لهذه الأصول أثرًا ظاهرًا وصريحًا في فهم القضايا الحقوقية فهمًا جيدًا.. والحقيقة أن ما قيل عن الفقه وأصول الفقه، يقال أيضًا عن العلوم الأخرى المرتبطة بالقرآن الكريم والسنة النبوية.

وقد ظهرت دراسات متنوعة وطورت أنواع من النظم دارت حول الكتب السابقة، لكن المساعي المكثفة والتفاسير المنصبة على القرآن والسنة، تبقى مدى الدهر من الظواهر الجديرة بالتقدير والتوقير.. إن القرآن الكريم ـ سواء بالتفسيرات المروية عن رسول الله ﷺ أو التفسير والتأويل في ضوء قواعد اللغة العربية وأساليبها، أو أسباب النزول ـ لم يزل مصدرًا مهمًا لتراثنا الفكري، حتى إن من ينظر إليه بالنظر السطحي فلا يخفى عليه كم هو مصدر ثراء كبير.. والمعنى عينه جار على الحديث أيضًا.. لكن اللازم أن تصان هذه العلوم بالعقول الوفية والمقتدرة.. وإلا فلا منجى ولا مفر لأمتنا من حياة الشقاء في هذا الثراء، إن دام ما يراد لهذين المصدرين النيرين الفياضين من تكدير لصفائهما أو إغفال لوجودهما، نتيجة للعداوة اللدود من الخصوم، والخذلان أو السكون من الأصدقاء.

ومن مناهل ميراثنا الثقافي، المصادر التبعية والفرعية الدائرة في إطار مرجعية هذين المصدرين الأساسيين: مثل علم الكلام بموضوعاته المقبولة عند أهل السنة، في إثباته بالبراهين العقلية والنقلية على عقيدة الإسلام، ودفعه الشبهات والتخرصات عن ديننا، ورده على الأفكار الفلسفية المنحرفة الضالة كالتشبيه والتجسيم، وإثباته الصفات الإلهية ووضع إطار لفهمها، وموضوعات «الأصلح» و«الحسن والقبح».. ومن تلك المصادر أيضا: المصلحة والاستحسان والعرف والعادة والعمل.. ولا يكفي لشرح كل مصدر من هذه المصادر كتاب.. ولكن لا بأس من لفت الانتباه إلى قسم منها بنظرة كلية شمولية وبإشارات سريعة:

١. الكتاب

إن «الكتاب» المعبر عنه بالكلمة المقدسة: «القرآن»، هو المجلي للبصيرة والمعمق للشعور والموسع للفكر.. وهو المصدر الثر بشكل يأخذ بالألباب، والكافي بمرونته لكل عصر بما فيه من مختلف أنواع البيان؛ من محكمه ومتشابهه ونصه وظاهره ومجمله ومفصله، وأيضا بإيمائه وإشارته وتشبيهه وتمثيله واستعارته ومجازه وكنايته وغير ذلك.. لكن الاستفادة من عظيم خيره منوطة بمقدار ما تتسع له العقول المنصفة.

نعم، القرآن كتاب فوق الزمان والمكان.. لكن انحراف النية والنظر أحيانًا قد يسحبه من مقامه المتعالي إلى سجن الفكر البشري الضيق..

فالناظرون من هذه الزاوية أو المنحرفون في أفكارهم لن يتعرفوا أبدًا على أعماقه الخاصة به والتي تأخذ بالألباب.. فإن الأرواح الأسيرة التي كبلت فكرها بالأحكام المسبقة، لن تحيط علمًا بأسرار هذا الكتاب المعجز ببيانه، ولن تهتدي إلى أفقه الإعجازي أبدًا، في أي عصر من العصور عاشوا.. إنه أبدًا كتاب ذروة في العلاء يتعدى آفاق البشر، وبيان لا مثيل له بتنوع تفسيراته وتأويلاته بطول موجات مختلفة، وذلك إنما ينجلي لمن يفتح صدره له بإخلاص وصدق.. إنه إكرام إلهي مهم للإنسان، والتعرف عليه ثم اللجوء إليه في كل مسألة حظ فوق الحظوظ وجد فوق الجدود.. لكن - يا ترى - كم شخصًا هو على دراية بهذه الحظوة؟ والحق أن لا حل لمعضلة بشرية من غير اللجوء إلى ضيائه، وأن لا سعادة باقية يحظى بها الإنسان من غير البناء على أسس شلال بيانه الدفاق.

وكم أستاذ في اللسان بني - على مر الزمان - من البيان صرحًا ساحرًا، وكم مفكر أقام نظمًا فلسفية ومثالية.. لكن صروحهم تهاوت، فهي خرائب.. ونظمهم المثالية اندثرت، فهي ذكرى من أسطر زاوية في صفحات التاريخ.. ولم يحافظ بيان على جدته إلا القرآن.. وإذا كان هناك بيان حافظ على جدته منذ أن تجلى في أفق البشر، فذاك هو القرآن.. وما من نظام يرسي بسفينة الإنسانية على بر السلامة إلا محتوى هذا الكتاب المبارك.. في بيانه جذب ولمعان سحري يغدو كل كلام معه لغوًا ولغطًا لا معنى فيه.. وصاغة النظم والأفكار يتحولون إلى فقراء متسولين إزاء محتواه الثر.

هذا الكتاب الذي يفسر حقيقة الإنسان والوجود والكائنات يمحص حقيقة الإنسان تمحيصًا بالغ الدقة، ويقوم الأشياء والحوادث تقويمًا بالغ الحساسية ودقيق التوازن، حتى إن كل أحد - بتأمل قصير - يكاد يرى ويلمس غير المتناهي وراء هذا التمحيص والتقويم.. ولذلك، فإن رجال الروح والقلب الداخلين إلى عالم القرآن الآخذ بالألباب، يرون كل شيء يشعرون به ويحسونه في قرارة أنفسهم كمفردات فهرست، فيطالعونها مفصلاً في محتوى كتاب الكائنات، ويستشعرونها، ويمضون أعمارهم كلها في عالم الإشارات والأمارات، في سعي حثيث نحو القرآن كمن يسيح في الأرض.

نعم، هذا الكتاب ينير أفق عرفاننا بحيث لا يتعرض الإنسان - حينما يسير على هداه نحو «عرش كمال» قلبه - لوحشة الطريق، ولا احتقان الفكر، ولا انقباض الروح.. يسير دومًا في هذا الطريق الذي يحس إبان السير فيه بتداخل العلم وتمازجه مع الإثارة والنشوة، والإيمان مع المشاهدة، وتقبل الحمل مع الاطمئنان، والالتزام بالنظام مع الإحساس بالأمن.. ويتسلق السفوح فيرتقي إلى الذرى حتى يصل أصعب الشاهقات منالاً.. فيبلغ آفاقًا يرى فيها وجه حظه وجده المستبشر.

هذا الكتاب - للتذكير ببعض الأمور في مقامها المناسب - يرسل إشارات ويلمح بها إلى الأعماق الداخلية للإنسان والكائنات، وإلى سعة روح بني الإنسان، وإلى أهم أبعاده الحيوية مثل الحس والشعور والإرادة والقلب، وإلى الغاية والمعنى في خلقة هذا الموجود المتكامل «الإنسان» التي تعد ولادة جديدة للكائنات، وإلى الفائقية في تجهيزاته، وسعة دائرة فعالياته، وعظمته الكامنة، ورغباته وآماله وهيجان عواطفه.. يرسلها بحيث لا يبلغ إليها خيال علوم الفلسفة ولا علم الاجتماع ولا علم الأحياء ولا علم النفس ولا علم التربية.

ولا أظن أن من يعرف هذا الكتاب يحتاج إلى مصدر غيره في المواضيع الأساسية المتعلقة بالإنسان - والكون - والله.. إلا في تفصيل مجملاته وتدقيقها.. وإن تفصيل المجمل وتدقيقه لابد أن يستند في إطار مرجعيته، إلى بيان للنبي ﷺ أو مشاهدة متينة أو محاكمة سليمة أو استدلال عقلي قوي.. وهذا يعني أن كل شيء يجري في فلكه هو.

هذا الكتاب، بنزوله على أعظم البشر بركة وأسعدهم طرًا، في نقطة تحول مهمة لسير التاريخ، استهدف تنظيم حياة مجتمع محظوظ، فرديًا واجتماعيًا وسياسيًا وإداريًا، واقتصاديًا وروحيًا وفكريًا... و- بالفعل - حقق هدفه بحملة واحدة ونفخة واحدة، وصار مصدر إلهام قريبًا لانقلابات متشابكة حصلت في مجتمع بدوي، لكنها تعد أنموذجًا يقتدى به في الأمم الحضارية. وهو - لمن يلجأ إليه - لازال حتى اليوم سندًا قويًا وثريًا ومقتدرًا على تحقيق الأمور التي حققها. نعم، القرآن لا مثيل له في ثراء وسعة بيان العلاقة بين الإنسان والكائنات والله.. ولكن مع الحفاظ على التوطد والتناسب اللازم في المسائل التي يمحصها ويحللها. وإذا توخينا أسلوب بديع الزمان وتعبيره، فالقرآن:

صوت هذه الكائنات الشبيهة بمجمع متشابك وقصر ومشهر عظيم، ونفسها وتفسيرها، وأوجز تلخيص لتفسير الأوامر التكوينية وتأويلها، ومفتاح ذهبي مشحون بالسر لهذا «المكان» العظيم الذي ما برحنا مشاهدين له و«الزمان» الذي هو بعد نسبي له، وأبلغ لسان وترجمان لذات الله الحق تعالى وصفاته وأسمائه، ومرصد فريد للاطلاع على أسرار ما وراء ستار الأشياء والحوادث، ورسالة لطف من الله جل جلاله مما وراء الكون والمكان مدوية أصداؤها في قلوبنا وألسنتنا، ومصدر نور لهذا العالم الإسلامي الرائع وهواؤه وضياؤه، والشرط الأساس الضروري للبقاء إلى الآباد، وخريطة وتعريف ومرشد للعوالم الأخرى التي ينتظرها كل إنسان إما بشوق وتطلع بالغ أو بتردد وتوجس... وهو للعالم الإنساني أجمع، كتاب تربية ومجلة معرفة وقاموس علوم ودائرة معارف، لا يضل أحدًا في الطريق إلى الكمالات الإنسانية... وهو للعالم الإسلامي خاصة مصدر علم وعرفان وحكمة أنقى من كل نقي... غاية القول: إنه، كليات قوانين نظمت ووجهت حياة المسلمين؛ الشخصية والعائلية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والإدارية جميعًا على مدى العصور... ودليل السير والسلوك بمحتوياته من الدعاء والذكر والفكر والمناجاة.. وكتاب معجز يرشد إلى أدق تفاصيل الأشياء والحوادث، يوجز أشد الإيجاز ولكن بلا إبهام في شيء، ثر أعظم الثراء، لكنه أجود مع المؤمنين به، كاف ومستوف لكل زمان ومكان، لكنه فوق الزمان والمكان.

فهذا الكتاب الذي لن يستغني عنه أحد؛ لا الملائك ولا الروحانيون ولا الجن، هو مصدر ميراثنا الثقافي الأول الأهم الفذ، الأوسع الأندى، الأعمق الأنقى الذي لا يهدأ تلاطم موجه كالبحار ولكن من غير تكدر.

هذه الأمور التي سردناها هنا حول هذا المصدر المبارك، ليست إلا إشارات صغيرة عابرة.

يتبع

العنف باسم الإسلام

أ.د. ربيع خليفة عبد الصادق بيومى
أستاذ العقيدة والفلسفة
ووكيل كلية الدراسات الإسلامية والعربية
جامعة الأزهر الشريف

لقد أقر الإسلام الحرية الدينية، بل اعتبرها الأساس فى الاعتقاد، وهذه قاعدة أساسية صريحة فى القرآن الكريم، يقول الله تعالى:

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]

وقال ابن كثير فى تفسير هذه الآية: «أى لا تُكرهوا أحدا على الدخول فى دين الإسلام فإنه بيان واضح، جلى دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يُكرَه أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام، وشرح صدره، ونور بصيرته، دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره، فإنه لا يفيده الدخول فى الدين مكرها مقسورا».

ومن أجل ذلك جعل الإسلام قضية الإيمان أو عدمه من الأمور المرتبطة أساسا بمشيئة الإنسان نفسه، واقتناعه الداخلى:

﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]

مفهوم العنف:

العنف فى اللغة: الخرق بالأمر وقلة الرفق، وهو ضد الرفق، وفى الحديث: «أن الله تعالى يعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف»، وهو الشدة والمشقة وكل ما فى الرفق من خير ففى العنف من الشر مثله، كذلك يعرّف صاحب كتاب «لغتنا» العنف: «بالإكراه المادى الواقع على شخص لإجباره على سلوك أو التزام ما»، وبعبارة أخرى هو سوء استعمال القوة.

فالعنف، كما يعرّفه المشروع الجديد للقانون العقابى الفرنسى، أنه: «كل ممارسة للقوة عمدا وجورا». ويعنى بجملة الأذى والضرر الواقع على السلامة الجسدية للشخص من (قتل-جرح)، كما قد يستخدم ضد الأشياء (تدمير-تخريب-إتلاف) حيث تفترض هذه المصطلحات نوعا معينا من العنف.

الإكراه فى الدين وموقف الإسلام منه:

يعالج هذا المقال قضية لها أهميتها وخصوصيتها، وهى علاقة الإسلام بالعنف، تلك القضية المثارة على الساحة، إذ يربط بعض الناس دون وعى أو إدراك حقيقى بين الإسلام والعنف، ويعتمد هؤلاء على صيحات جوفاء تطلقها وسائل الإعلام الغربية، تلك الصيحات التى تشير إلى أن العنف هو من أساسيات الإسلام، وكأن هذه الظاهرة هى حكر على شعب أو أمة دون شعوب وأمم أخرى أو كما لو كان العنف ظاهرة وراثية لصيقة بالتكوين البيولوجى للعرب والمسلمين.

لقد تناسى هؤلاء أن المجتمعات الغربية مليئة بأنواع العنف المنتظم وغير المنتظم.

ولهذا نجد أنه لا سبيل لنشر الإسلام إلا بالحكمة والقدوة الطيبة والحجة القوية والموعظة الحسنة، فالإيمان بالإسلام تصديق بالقلب، يبلغ مرتبة اليقين، ولا يمكن تحصيله بأى سبيل من سبل الإكراه، وبخاصة إذا كان هذا الإكراه قتالا باسم الجهاد، وإذا كانت الآية الكريمة:

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾

تعنى التشريع الإلهى للأمر بذلك، فإننا نفهم منها تقرير حقيقة لاستحالة تحصيل حقيقة الدين والتدين بالإكراه، فالإسلام كما يقول عنه المستشرق الكونت هنرى دى كاسترو: «لم يكره عليه أحد بالسيف ولا باللسان، بل دخل القلوب عن شوق واختيار وكان نتيجة ما أودع فى القرآن من موهبة التأثير والأخذ بالألباب» أو كما تقول المستشرقة الألمانية زيجريد هونكه: «لقد لعب التسامح العربى دورا كبيرا فى انتشار الإسلام، وذلك على العكس تماما من الزعم القائل بأنه انتشر بالنار والسيف، وقد أصبح هذا الزعم من الأغاليط الجامدة ضد الإسلام».

ولذلك يتبين لنا أن مهمة الرسول ﷺ تنحصر فى الموعظة بالرفق واللين، والمجادلة بالحجة والبرهان:

﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]

﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]

ولقد وردت فى القرآن الكريم آيات تزيد على مائة وعشرين آية، تفيد كلها أن نشر الإسلام أساسه الإقناع الهادى والتعليم المجرد. وترك الناس أحرارا بعد عرض الدعوة عليهم ليقبلوها أو يردوها، فهو يحرص على بقاء القدرة على الاختيار فى الفعل بوصفها عاملا ثابتا لا ينقص فى حياة النفس.

ومن هنا رأينا النبى ﷺ بعد فتح مكة ترك أهلها قائلا لهم: «اذهبوا فأنتم الطلقاء» [رواه الطبرانى]، فلم يكرههم على الإسلام بعد الانتصار الحاسم عليهم، كما نجد هذا الأمر يتكرر فى ذلك العهد الذى أعطاه الرسول ﷺ لنصارى نجران فى اليمن حين قال: (بأنها وحاشيتها فى جوار الله وذمة رسوله على أموالهم وأنفسهم، أرضهم وملتهم، لا يغير أسقفا من أسقفيته، ولا راهبا من رهبانيته، ولا كاهنا من كهونيته، ومن سأل حقا بينهم بالنصف غير ظالمين ولا مظلومين).

ولقد سار الصحابة على المنهج نفسه الذى رسمه لهم النبى ﷺ، فكانوا يتجنبون إكراه الناس على تغيير معتقداتهم، روى زيد بن أسلم عن أبيه قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول لعجوز نصرانية: أسلمى، أيتها العجوز تسلمى، إن الله بعث محمدا بالحق. قالت: أنا عجوز كبيرة والموت إلىّ قريب. قال عمر: اللهم اشهد وتلا:

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾

وقد وجدنا هذا الموقف يتكرر حينما حرر عمر بن الخطاب بيت المقدس من المسيحيين فقد أعطاهم الأمان: «على حياتهم وكنائسهم وصلبانهم، لا يضار أحد منهم ولا يرغم بسبب دينه»، وحينما جاء الصليبيون إلى الشرق،

إبان ضعف الخلافة العباسية لمحو الإسلام والقضاء عليه ، جذب الإسلام منهم جموعا ، فدخلوه وحاربوا فى صفوف المسلمين .

موقف الإسلام والديانات الأخرى من العنف :

لقد اتسمت الديانات التى سبقت الإسلام فى حروبها ومعاركها ، بأنها كانت لا تراعى حرمة ولا تفرق بين كبير وصغير ، ولا تترك دابة ولا شجرة ؛ وذلك لأن هدفها هو الانتقام والتشفى وإسكات كل صوت يعارض وجودها أو يرفع السلاح فى وجهها ، فقد ورد فى الإصحاح الثالث عشر من تثنية الاشتراع (فضربا تضرب سكان تلك المدينة بحد السيف ، تجمع كل أمتعتها على وسط ساحتها وتحرق بالنار المدينة وكل أمتعتها كاملة للرب إلهك ..) .

ولعل الحروب الصليبية خير شاهد على ذلك يقول عنها المؤرخ جيبون : «إن الحملة الصليبية الأولى تركت فى التاريخ أقسى ما عرف من التعصب ، لا ضد المسلمين فحسب ، بل ضد مسيحى الشرق ، فإن المسيحيين خدام الرب يوم أن استولوا على بيت المقدس فى ١٧ / ٧ / ١٠٩٩م ، رأوا أن يكرموا الرب بذبح سبعين ألف مسلم ، لم يرحموا الشيوخ والأطفال ، فقد حطموا رءوس الصبيان على الجدران وألقوا الأطفال الرضع من أسوار المعاقل والحصون وشووا الرجال على النار ، وبقروا بطون الحوامل ؛ ليروا هل ابتلع أهلها الذهب . واستمرت هذه المذبحة ثلاثة أيام ، ولم تنته إلا لما أعياهم الإجهاد من القتل ، وقد شوهد القاصد الرسولى مندوب البابا وهو يشارك فى هذا الانتصار» .

ويقول ابن الأثير عن هذه المذبحة : «وقتل الفرنج فى المسجد الأقصى ما يزيد عن سبعين ألفا ، منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ، ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف» .

هكذا عامل الفرنجة كل قرية وكل مدينة عربية اقتحموها فى مشرقنا العربى ، ولنذكر مجزرة بغداد بهولاكو عام ١٢٥٨م ، حيث ذبح فيها طيلة أربعين يوما ٨٠٠ ألف من سكانها ، حيث أشعل النار فيها وقذف محتويات مكتباتها الحضارية فى مياه دجلة ، حتى غدت المياه سوداء ، وقد تكررت مذبحة هولاكو فى بغداد فى كل مدينة دخلها المغول والتتار ، بما فى ذلك حلب وحمص وحماة ودمشق ، وغيرها .

كما أن الصليبيين الجدد المتحضرين ، الذين أعلنوا أن حضارتنا ورقينا أمانة فى أعناقهم ، وكرسوا ذلك فى ميثاق عصبة الأمم المتحدة فى مدتها الثانية ، لم يكونوا أقل همجية من أسلافهم .

ولنذكر الهمجية الفرنسية فى الجزائر والمغرب العربى وسوريا ، والطليان فى ليبيا ، والإنجليز فى مصر ومجزرة دنشواى وبورسعيد ، وغيرها الكثير ، ولنذكر دير ياسين وكفر قاسم وصبرا وشاتيلا ، ومذبحة عين قارة وقانا ، ومذبحة جنين ، وغزة . إنه مسلسل الرعب والإجرام الصليبى واليهودى معا ، الذى لم ينته بعد ، ممن زعموا أنهم حملة رسالة المسيح ، والسيد المسيح منهم برىء .

ولنذكر غطرسة وزير الدفاع الإسرائيلى إسحاق رابين الذى قتل وأسرف فى القتل

وهو يقول : (اقتلوا الفلسطينيين ، اسحقوا عظامهم ، لعلهم يتألمون ، فتهدأ انتفاضتهم .. الفلسطينى أجمل ما يكون ميتا ، لا حراك فيه) ، ومناحم بيجن من قبله ، يتبجح مزهوا بدير ياسين قائلا : (لولا دير ياسين لما كانت إسرائيل) .

أما الإسلام فقد كان يأمر أفراده بأن يدافعوا عن أنفسهم ، وأن ينتصروا لمبادئهم دون أن يخرجوا عن حدود إنسانيتهم ، وإن القول بأن الإسلام انتشر بالسيف ما هو إلا افتراء ، لا يمت بصلة إلى واقع الإسلام الذى انتشر بالدعوة وبالحكمة والموعظة الحسنة أولا ، ودائما تضع البراهين الواحد بعد الآخر فى سلسلة من آيات القرآن الكريم ، ثم فى سلسلة من أحداث التاريخ ، بحيث لا يبقى للشك مجال فأما من القرآن فهناك قوله تعالى :

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة : ٢٥٦]

﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل : ١٢٥]

﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف : ٢٩]

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون : ٦]

﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد : ٤٠]

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية : ٢١، ٢٢] .

أما فى سلسلة التاريخ ، فرأينا بوضوح أن الإسلام سلك طريقه بالدعوة متبعا هذه البينات ، وإليك بيان ذلك . كان النبى ﷺ يوصى دائما جيشه عند تحركه بقوله : «انطلقوا باسم الله .. وعلى بركة رسوله ، لا تقتلوا شيخا فانيا ، ولا طفلا صغيرا ولا امرأة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين ... إياكم المثلة ولو بالكلب العقور ...» .

ولما فتحت مكة ودخلها الرسول ظافرا على رأس عشرة آلاف من أبطاله وجنوده واستسلمت قريش ، ووقفت تحت قدميه أمام باب الكعبة ، تنتظر حكم الرسول ﷺ عليها بعد أن قاومته إحدى وعشرين سنة ، ما زاد ﷺ على أن قال : «يا معشر قريش ماذا تظنون أنى فاعل بكم ؟ .. قالوا خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم . فقال : اليوم أقول لكم ما قال أخى يوسف من قبل : لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ، اذهبوا فأنتم الطلقاء» [رواه الطبرانى] .

ولقد سار على نهجه صحابته الأخيار ، فهذا أبو بكر الصديق رضى الله عنه حين ودع جيش أسامة ، قائد أول جيش حارب بعد وفاة الرسول ﷺ : «يا أيها الناس قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عنى : لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا لمأكلة ، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له» .

ويتبين لنا من خلال الوصية أنها لم تكن ناتجة عن اجتهاد شخصى ، وإنما كانت نابعة

من القرآن الكريم الذى هذب النفوس ووضع القواعد والأسس التى تنظم كل شئون الحياة، إن الخليفة أبا بكر كان حين أوصى جيشه، يتمثل قول الله تعالى:

﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾

[سورة البقرة: ١٩٠].

ففى الآية تجد أن القرآن لا يسوغ القتل من أجل القتل، بل يسوغه دفاعا عن النفس والدين والأرض والكرامة الإنسانية، أو كما يقول ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: «أى قاتلوا في سبيل الله ولا تعتدوا فى ذلك ويدخل فى ذلك ارتكاب المناهى كما قاله الحسن البصرى: من المثلة والغلول وقتل النساء والصبيان والشيوخ الذين لا رأى لهم ولا قتال، والرهبان وأصحاب الصوامع وتحريق الأشجار وقتل الحيوان لغير مصلحة، كما قال ذلك ابن عباس وعمر بن عبد العزيز ومقاتل بن حيان وغيرهم.

وهنا نقول إن المسلمين لم يكونوا إرهابيين عندما كانوا يدخلون البلاد وينشرون فيها الدعوة الحقة، ولم يقل التاريخ يوما كذلك، ومن المؤسف أن نجد فى الموسوعة الإسلامية التى ألفها المستشرق (د. ب. ماكدونالد) مغالطة فادحة فى تفسيره لكلمة الجهاد حيث يقول: «إن الجهاد فى الإسلام هو حمل السلاح لإجبار الشعوب الحرة غير المسلمة على الدخول فى الإسلام، وإن انتشار الإسلام واجب دينى على كل مسلم»، كذلك نجد هذا الرأى يتكرر عند جون هيجل: (كان الإسلام دائما وسيبقى دين السيف، لأنه لا يمكن العثور على أى فكرة للحب فى القرآن)، وما يقوله غيومان لوستير «فى كتابه تاريخ فرنسا»: (إن هؤلاء العرب قد فرضوا دينهم بالقوة وقالوا للناس: أسلموا أو موتوا. بينما أتباع المسيح ربحوا النفوس ببرهم وإحسانهم).

والحقيقة أن التاريخ يحدثنا بصراحة ووضوح بأن أهم فترة انتشر فيها الإسلام هى فترة السلم الذى تلا الحديبية بين قريش والمسلمين، وكانت فترة السلم سنتين؛ ويقول المؤرخون: إن من دخل الإسلام خلال هاتين السنتين أكثر ممن دخله فى المدة التى تقرب من عشرين عاما، من بدء الإسلام حتى هذا الصلح، وهذا يدلنا على أن انتشار الإسلام يتبع السلم، لا الحرب.

إن ما ذكره المستشرقون عار تماما عن الصحة، يعارضه قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾

[يونس: ٩٩].

وليس جون هيجل وماكدونالد وحدهم يشكلون خطرا معرفيا، بل أولئك الذين يطلقون على «الإسلام دين العنف» الذين يستشهدون بأجزاء مبتورة من الآيات؛ ليؤكدوا عنصريتهم وسوف نورد هنا مجموعة من الآراء التى قال بها مجموعة من المستشرقين المنصفين يقول المستشرق جيمس منشز: «اعتقد الغرب أن توسع الإسلام ما كان يمكن أن يتم لو لم يعمد المسلمون إلى السيف، ولكن الباحثين لم يقبلوا هذا الرأى، فالقرآن صريح فى تأييده لحرية العقيدة، والدليل القوى على أن الإسلام رحب بشعوب مختلفة الأديان مادام أهلها يحسنون المعاملة ويدفعون الجزية،

ويقول جوستاف لوبون: (لم ينتشر الإسلام بالسيف، بل انتشر بالدعوة وحدها، وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوب)، ويقول توماس كرليل المصلح الاجتماعى الإنجليزى الشهير والمؤرخ المرموق: «أصبح من العار علينا أن نصغى لتلك الاتهامات التى وجهت للإسلام ونبيه، وواجبنا أن نحارب هذه الأقوال المخجلة العارية من الصحة»، وغاندى يقول عن الإسلام: «درست الإسلام وعرفت من خلاله قيمة الإنسان وحقوقه».

وختاما: فهذه بعض آراء المنصفين من المستشرقين أوردتها هنا، ردا على التهمة التى قال بها المستشرقون المتعصبون، وللأسف إن هؤلاء المستشرقين جعلوا من أنفسهم فريسة التحزب غير العلمى فى كتاباتهم عن الإسلام، ولكن هل نسى هؤلاء المستشرقون أنه لم يترك مسلم حى، ولا مسجد قائم فى اليونان فى أعقاب الانقلاب الذى وقع عام ١٨٢١م حيث قتل من المسلمين ثلاثمائة ألف؟، هل نسى هؤلاء المستشرقون المجازر والمذابح التى ترتكب ضد المسلمين فى فلسطين والشيشان والبلقان وفى العراق.

والقتل فى الشريعة الإسلامية على أوجه مختلفة كقتل المرتد والقتل رجما والقتل بقطع الطريق والقتل قصاصا، فالأصل إذن فى الشريعة الإسلامية أن القتل قد يكون واجبا أو مباحا أو محظورا، ولقد حدد العلماء أسباب القتال التى شرعها الإسلام فى ثلاثة:

أ- دفاع المسلمين عن أنفسهم وعقيدتهم وأوطانهم، إذا ما بدأهم العدو بقتال وفى ذلك يقول الله تعالى:

﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾

[البقرة: ١٩٠]

وقال تعالى:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾

[الحج: ٣٩، ٤٠]

فكان سبب القتال وعلته دفع الظلم وإخراج المسلمين من ديارهم.

ب- تأمين حرية الدين ومنع الاضطهاد فيه، وذلك لقول الله تعالى:

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

[البقرة: ١٩٣].

جـ- توحيد سلطان الإسلام وتأمينه من الأعداء المحيطين به؛ لكل ذلك يقرر أصحاب هذا الرأى أن أساس العلاقة بين المسلمين ومخالفيهم فى الدين هو السلم، مالم يطرأ ما يوجب الحرب من اعتداء على المسلمين، أو مقاومة لدعوتهم بمنع الدعاة من بثها ووضع العقبات فى سبيلها، وفتنة من اهتدى إلى إجابتها.

فالقتال فى الإسلام شرع دفاعا عن النفس والعقيدة والوطن، ولم يفرض لنشر الدعوة؛ لأنه لم يحدث فى عهد الرسول ﷺ أو صحابته أن اتخذ القتال وسيلة لإكراه أحد على الإسلام.

ويجب ألا نعطى الفرصة للإرهابيين ليفسدوا الحياة ويحرموها من نعمة الأمن والأمان، والله أسأل أن يؤلف بين القلوب.

أسس الدولة فى الإسلام (٢)



الشيخ محمود شلتوت

٤- العدل

إن أهم دعائم السعادة التى يسعى إليها البشر أن يطمئن الناس على حقوقهم، وأن يستقر العدل فيما بينهم، وإنا لا نكاد نعرف شيئا أبعث للشقاء والفتن، وأنفى للهدوء والاطمئنان بين الأفراد والجماعات، من سلب الحقوق، واغتيال الأقوياء، حقوق الضعفاء، وتسلط الجبارين على الآمنين المسالمين، وليس من ريب فى أن هذه الظواهر - التى يتحرق بها أهلها من سنن الله ونظامه فى كونه - أشد ما يقطع الصلات، ويغرس الأحقاد، ويثير أعاصير الكيد والانتقام، ويهدد المجتمع بالأخطار التى تحمل الناس ما لا طاقة لهم باحتماله، من آثار الخصومات والضغائن والأحقاد.

مكانة العدل فى القرآن:

وقد كان فى أول ما قرره الإسلام حفظا لكيان المجتمع البشري، مبدأ العدل بين الناس، عنى به القرآن الكريم فى مكيه ومدنيه، وحذر مقابله وهو الظلم فى مكيه ومدنيه، أمر به عاما وخاصا: أمر به عاما حتى مع الأعداء، الذين يحملون لنا وتحمل لهم من الشنآن والبغض ما تنوء بحمله القلوب:

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾
(المائدة: ٨)

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾
(النحل: ٩٠)

﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا ﴾
(الأنعام: ١٥٢)

ومن هنا، جعل الله العدل واسطة حبات العقد، الذى كون به لرسوله منهج الدعوة الإصلاحية، التى حملها إياه، إنقاذا للبشرية من ظلمات الجهل والبغي والعدوان:

﴿ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾
(الشورى: ١٥)

أمر القرآن الكريم بالعدل هكذا أمرا عاما، دون تخصيص بنوع دون نوع، ولا بطائفة دون

طائفة، لأن العدل نظام الله وشرعه، والناس عباده وخلقه، يستوون - أبيضهم وأسودهم - ذكرهم وأنثاهم - مسلمهم وغير مسلمهم - أمام عدله وحكمه:

﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٢٣) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾
(النساء: ١٢٣)

وضع الله العدل هكذا، وجعل إقراره بين الناس، هو الهدف من بعث الرسل وإنزال الشرائع والأحكام:

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾
(الحديد: ٢٥)

ولقد نرى فى ذكر الحديد هنا، إيحاء قويا واضحا، إلى أن إقرار العدل فيما بين الناس، واجب إلهي محتم، للقائمين به أن يستعينوا عليه باستعمال القوة التى سخر لها ولآلاتها الحديد، ذا البأس الشديد.

العدل وتوحيد الله:

وما حاربت الشرائع السماوية، الشرك بالله، لمجرد أنه شرك به سبحانه، وإنما لما يحمل فى طياته من بواعث الظلم والطغيان، التى ينحرف بها الناس عن العدل، ولا نعرف فى القرآن الكريم ذكرا للقوة المادية فى جانب مبدأ من مبادئه، غير مبدأ العدل، حتى عقيدة التوحيد فهو لم يلوح فيها مع كثرة ذكرها والدعوة إليها باستعمال الحديد والقوة بالنسبة للذين جحدوا وحدانية الله، وأشركوا معه غيره فى العبادة والدعاء، ولكنه وقف هذا الموقف، ولوح باستعمال القوة والحديد فى وجه الظالمين، الذين يستمرئون البغي والعدوان على أرباب الحقوق، وقف فى وجوههم ولو كانوا فى عداد الناطقين بشهادة التوحيد والرسالة:

﴿ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ﴾
(الحجرات: ٩)

العدل فى شئون خاصة:

أمر الله بالعدل، أمرا عاما كما رأينا، وأمر به على وجه خاص فى شئون، كثيرا ما يلعب فيها من وجوه الاضطراب ما لا تحتمله الجماعات، أمر به فى الأسرة، وجعله شرطا فى الإقدام على تعدد الزوجات:

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾
(النساء: ٣)

﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴾
(النساء: ٣)

وقد جعل الله هنا مجرد الخوف من الجور، مانعا من إباحة ما أباحه وشرعه، وهو تعدد الزوجات، وأرشدنا بهذا إلى أن إباحته لشيء ما مشروطة بسلامته من الضرر والإيذاء، وأنه متى صحبه ضرر أو إيذاء وجب منعه، وخرج عن أن يكون مباحا، وهذه قاعدة تشريعية تلقاها أئمة الفقه والتشريع بالقبول فى كل العصور، وكان لها من الآثار الحسنة فى السياسة الشرعية، ما استقام به المعوج وتعبد به السبيل الشائك.

العدل في الوثائق:

وكذلك أمر الله بالعدل، أمرا خاصا في كتابة الوثائق، التي تحفظ بها الديون وتحدد شروط الالتزام بين المتعاملين، وقد نزلت فيه أطول آية في القرآن الكريم، وهي قوله تعالى في آخر سورة البقرة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ۚ فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ۚ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ۚ وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾

(البقرة: ٢٨٢)

وكذلك أمر به في الشهادة، والعدل فيما يتناول أداءها على وجهها دون كتمان أو تحريف:

﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾

(البقرة: ٢٨٣)

﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾

(النساء: ١٣٥)

العدل في القضاء

وأخيرا، أمر به في الحكم والقضاء، واعتبره نوعا من أداء الأمانات

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾

(النساء: ٥٨)

وإذا كان هذا شأن العدل في الشهادة - وهي إحدى طرق القضاء - كما ورد في القرآن الكريم، وكان للعدول فيها عن العدل، آثاره السيئة في تضليل القضاء، فما بالنا بالعدول في القضاء نفسه عن العدل؟ وهو الأداة المهيمنة الفعالة في حفظ الحقوق وصيانتها، هو القوة التي يلتجيء إليها الضعيف حتى يأخذ حقه، والمتهم البريء حتى ينصف، هو السيف الذي يجرد في وجه القوي، حتى يؤخذ منه الحق، وفي وجه الباغي، حتى يعدل عن بغيه.

مثل واقعي:

وهذه حادثة، ابتلي بها النبي ﷺ وهو في المدينة، وكثيرا ما يبتلى بمثلها في كل زمان ومكان، العاملون المخلصون، والحكام العادلون، على أيدي نفر من الناس، يتقربون إليهم، ويلبسون لهم مسوح التقى والصلاح ومحبة الصدق والغيرة على الحق بالباطل، ويعملون جهدهم - بأساليب ظاهرها الحرص على الحق والعدل وباطنها الخداع والتمويه - في صرفهم عن إحقاق الحق وإبطال الباطل.

وتتلخص هذه الحادثة في أن رجلا من المسلمين الذين رق إسلامهم، وضعف إيمانهم، يقال له (طعمة بن أبيرق) سرق درعا من جاره، ثم خبأها عند يهودي وحامت الشبهة حول (طعمة) فالتمست الدرع عنده، فلم توجد، وحلف بالله ما أخذها وما له علم بها، ثم وجدت الدرع عند اليهودي، فسئل عنها فقال: دفعها إليّ (طعمة) واستحفظني عليها وشهد له بذلك أناس من اليهود.

فاهتم قوم (طعمة) للأمر، وأخذوا فيما بينهم يتناجون في وسائل تبرئة صاحبهم، وإلصاق السرقة باليهودي، دفعا للعار الذي يلحقهم بين الناس:

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾

(النساء: ١٠٨)

بيت قوم طعمة ما بيتوا وانطلقوا إلى الرسول، وأخذوا يثيرون نفسه على اليهودي بما يعرفه من عداوة اليهود للمسلمين، وبأن صنيعتهم في هذه الحادثة، ليس إلا من كيد اليهودية المعروف، وبأنهم لا يعلمون عن صاحبهم (طعمة) إلا خيرا، وأقسموا جهد أيمانهم على براءته وسرقة اليهودي، وسألوا الرسول ﷺ، أن يخاصم ويدافع عن صاحبهم، في سبيل تبرئته وإنقاذه من تهمة السرقة، وأكثروا عليه في هذا الشأن، حتى كاد - بحكم الطبيعة البشرية التي ليس لها من سبيل إلى معرفة بواطن الأمور - يتأثر بخداعهم وتلبيسهم، فبادره الوحي من السماء، يكشف له حقيقة الأمر، وينزل عليه فيه جملة من الآيات، جدير بكل من يتصدى للحكم بين الناس، وجدير بالناس أجمعين، أن يجعلوها نصب أعينهم، كلما أرادوا الحكم والقضاء، وكلما أرادوا أن يقتربوا من الخصوم وأن يعاونوهم:

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾

(النساء: ١٠٦)

عبرتنا من الحادثة

نسوق هذه الحادثة للناس جميعا، وللمسلمين منهم بخاصة، ونرشد إلى آياتها الواردة في القرآن الكريم، ليعلموا مقدار الغضب الإلهي على الظلم، وتنكب طريق الحق في معاملة الناس، والحكم لهم أو عليهم، كيفما كان دينهم وكيفما كانت علاقتهم بالقاضي أو الخصوم، وليعلموا مرة أخرى، أن الإسلام لا يعرف المجاملة ولا المحاباة في حكمه وقضائه، فالأبيض والأسود، والضعيف والقوي، والمسلم وغير المسلم، والحاكم والمحكوم، أمام حكم الله وعدله سواء.

العدل هو طريق السلم:

وليعلموا ثالثة، أن السلم الذي تنادي به الدول، من شرق العالم وغربه، ويملأون به الجو صراخا وإعلانا، وتنطق به الأبواق، وتنعقد الهيئات، للدعوة إليه والتفكير في سبله، ليس له من سبيل، سوى الإخلاص ونقاء الضمير، ومجابهة الحقائق التي تطهر بها النفوس من طغيان الهوى والشهوة، ومن جراثيم الجشع فيما يملك الناس، وعندئذ، لا يجدون سوى (العدل) الذي نوه الإسلام بشأنه، ودعا إليه، ينشرون أعلامه على ربوع العالم على الأفراد بعضهم مع بعض، وعلى الأمم بعضهم مع بعض، وعندئذ، تكون السعادة ويكون السلم والاطمئنان.

التفكك الأسرى ومخاطره على الأبناء



أ.د. محمد الشحات الجندى
عضو مجمع البحوث الإسلامية

تتعرض الأسرة فى الإسلام لضربات موجعة فى الفكر الذى تتأسس عليه، وفى مسيرتها الراهنة فى العصر الحديث، جعلها تتأرجح يمنة ويسرة ما بين الصمود والتحدى، وما بين التبعية والانكسار التى يفرضها عليها نظام العولمة والنموذج الغربى للأسرة، وهى لا تزال تقاوم وتجابه أحيانًا، وترضخ وتخضع فى أحيان أخرى.

هذا الوضع المتردى لحال الأسرة المسلمة مستمر فى التدهور، ويمضى على طريق التنازل عن بعض ميزاته وخصائصه الأصيلة، لشدة الصدمات التى توجه إليه فى مسعى منظم وفاعل لبلوغ أهدافه فى إضعاف صرحها وتغيير نظامها، وتفكيك منظومتها، وتغريب طفولتها والأجيال الناشئة فيها.

ويعى الغرب جيدًا أن نجاح مسعاه فى هدم كيان الأسرة الإسلامية، يجعل مهمته فى ضرب الإسلام كله فى مقتل ميسورة ممهدة الأركان.

ذلك أن الأسرة صرح متين، يشيد على عاتق أفرادها بناء المجتمع، وبقدر تماسك أعضائها، وترابطهم، وقوة العلاقات فيما بينهم يقوى المجتمع، ويتوحد نسيجه، وتنطلق مسيرته الظافرة فى مجالات الحياة المختلفة دينيًا واجتماعيًا واقتصاديًا وحضاريًا.

وقد ظل نموذج الأسرة المسلمة قويًا، طوال فترات ازدهار الإسلام وتقدمه اجتماعيًا وحضاريًا على مدى القرون والأجيال، حيث قامت الأسرة وفق تعاليم الإسلام، وهويته فى الدين والحياة، فأقامت على ولائها لرسالته، وحافظت على قوة الوطن، وعبرت عن أصالة المجتمع الإسلامى وانطلقت على طريق البناء والعمران.

لكن طرأ على الأسرة المسلمة فى العقود الأخيرة عوارض متعددة أنهكتها واخترقت بنيانها الفولاذى، وفككت روابطها القوية، وأصابت منظومتها بالضعف والهوان، وفتت التماسك

الذى كان مضرب الأمثال إلى أجزاء متناثرة، وشظايا متطايرة، أثر على جدارها الصلب الذى طالما كان مصدًا وحماية لأفرادها، فأقام الوحدة والتكافل بين الأفراد والمجتمع على سواء.

متغيرات طرأت على الأسرة المسلمة

المتابع لمسيرة الأسرة المسلمة يدرك أن ثمة تحولات عبر الأزمان والأجيال المتعاقبة أسفرت عن حالة من التخلف والركود انطبع على المجتمع وطرأ العديد من المتغيرات على جيل الآباء والأبناء حتى بلغ التحول الحاد، فى العصر الحديث نتيجة التدخلات والغزو الأجنبى لبلدان العالم الإسلامى فأصاب فى مقتل صرح الأسرة المتين، الذى تأسس على عمد متينة وأواصر عميقة وأصبحنا فى مواجهة التفكك الأسرى التى لا تخفى على أحد وتبدو أعراضه ماثلة للعيان، فى الضحايا من الأطفال المشردين، الذين هم فى واقع الأمر قنابل موقوتة توشك أن تنفجر فى وجه المجتمع، مصدرها أعظم ثروة يمكن أن تعيد المجتمع إلى المجد والريادة، لو تم التخلص من الآفات التى تحيط بهم من كل حدب وصوب.

فقد صار مألوفًا أن نجد فى العديد من المجتمعات الإسلامية ظواهر غريبة على نظام الأسرة فى الإسلام ينبىء عن حالة الضياع التى يحياها جيل الصغار بسبب المعاناة والتفكك الأسرى، نتج عنه انهيار أسر، وتفسخ علاقات بين أقرب الناس ممن يرتبطون بعلاقات حميمة، فانفرط عقدها، وانحلت الروابط القائمة بين أفرادها، وتمثل فى فقدان الشعور بالدفء العاطفى، والإحساس الوجدانى بالمودة والرحمة، واختلال السلوك القويم بين أفراد يستمدون وجودهم من جذر واحد ويجتمعون فى أصل مشترك.

ولكون هذا الوضع الجديد للأسرة عمق من حالة التوهان التى تعانى منها المجتمعات الإسلامية، وأصابها بالفوضى والاضطراب، كانت مصدر القوة الضاربة فيها منذ النشأة الأولى، حتى كان مطلب الأسرة القوية الصالحة، من صميم دعاء المؤمن ورجائه إلى الله أن ينعم الله بها عليه بقوله تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾

(الفرقان: ٧٤)

إن استقراء حال الأسرة المسلمة، يكشف عن وجود مشكلة التفكك الأسرى بمظاهره المدمرة وآثاره السيئة على الأبناء والجماعة والأمة بأسرها.

مظاهر التفكك وأعراضه:

يمكن رصد هذه المظاهر فى الأمور الآتية:

- أولاً: عدم قيام العديد من الآباء بواجب التربية الصحيحة:

فقد افتقد المجتمع نموذج التربية السليمة من جانب الآباء نحو أولادهم منذ المراحل المبكرة للتنشئة، بسبب عقوق الآباء للأبناء، وعدم قيامهم بواجبهم إما عن عدم اكتراث أو بسبب الجهل أو الجرى خلف الأهواء والمتع الشخصية أو لعدم تحمل المسئولية.

وهو ما يخالف موقف الإسلام، فالمعروف أن الإسلام أحاط بناء وتكوين الأسرة، بمجموعة من الأسس والاشتراطات التى تشكل ضمانات لإقامة البنيان، من بينها:

- حسن اختيار كل طرف لشريكه، وفق معيار التدين الصحيح بصفة أساسية، دون إهمال المعايير الأخرى للاختيار.

وهو ما أشار إليها الحديث فى قول الرسول

ﷺ: «تنكح النساء لأربع لمالها وجمالها ولحسبها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك»(١).

- حسن تسمية الصغير، وإحاطته بالرعاية منذ الفترة السابقة على ولادته، أبرزها الحرص على اختيار أمه، وبعد الولادة بطبيعة الحال بالقيام على حقوقه وهو ما يدل عليه قول الرسول ﷺ: «حق الولد على الوالد أن يحسن اسمه ويحسن أدبه»(٢).

وعلى نحو ما أوضحته قصة الرجل الذى جاء إلى عمر يشكو إليه عقوق ابنه، فأحضر عمر الولد وأنبه على عقوقه لأبيه، فقال الولد: ياأمير المؤمنين: أليس للولد حقوق على أبيه؟ قال: بلى، قال: فما هي؟ قال عمر: أن ينتقى أمه، ويحسن اسمه، ويعلمه القرآن.

قال الولد: يا أمير المؤمنين، إن أبى لم يفعل شيئًا من ذلك، أما أمي فهي زنجية كانت لمجوسي، وقد سماني جعلا (أى خنفساء) ولم يعلمني من القرآن حرفًا واحدًا، فالتفت عمر إلى الرجل، وقال: «جئت تشكو عقوق ابنك، وقد عققته قبل أن يعقك».

ولئن كانت تسمية الابن على النحو المشار إليه تنبيء عن الواقع السيىء للاسم وما توحى به التسمية من التشبه بالخنفساء بما يعرض الابن للإهانة والتندر لكن الإشكالية تبدو أخطر فى شيوع مسميات أجنبية التى يطلقها بعض المسلمين على أولادهم فى العصر الحاضر بسبب طوفان الأسماء للأجنبية التى تشير إلى عدم الانتماء للعروبة أو الإسلام، مما يفرز حالة من التغريب، وعدم الاعتزاز بالدين أو الوطنية أو الهوية الإسلامية.

حقيقة ذلك أن الاسم الأجنبي يومىء إلى قطع صلة المسمى به بدينه أو وطنه أو هويته الإسلامية. وفى ذات الوقت يفقد الاسم مردوده لدى المسلم، بما ينطوى عليه من التهيئة بتغيير ثقافة المجتمع، ويخلعه من أسر يتعلق بجذوره وانتمائه فى الحفاظ على أحد ملامح خصوصيته. فى تداول أسماء مألوفة لديه.

وقد يبدو من وجهة نظر البعض أن هذا الاتجاه فى التسمية لا صلة له بالتخوف من المخاطر، لكن التأمل العميق فى أبعاد الصورة التى أثرت على الشخصية المسلمة فى الآونة الأخيرة، يستشعر بحق أن الانتماء للهوية، يجعل كل المظاهر المتعلقة بها ومنها الاسم جديرة بالمحافظة عليها والتمسك بها، وعدم النظر إليها على أنها من الماضى الذى لا يتناسب مع العصر الراهن، وأمرًا هامشيًا لا قيمة له.

- ثانيًا: تنشئة الصغير فى غير بيئته الطبيعية بين أمه وأبيه:

عدم القيام على تنشئة الصغير فى محضنه الطبيعى على صدر أمه، ورعايته من أبيه، يجعله يشب فى غير بيئته الطبيعية، وبين أشخاص بدلاء لأبويه الحقيقيين، فلا يشعر الصغير بالحنان الطبيعى، حيث يعيش فى أجواء مصطنعة، يفتقد معها الدفء العائلى، لأن الأم والأب البديلين عن الأبوين الأصليين، لن يشعرا الطفل عمق العاطفة الدافئة من أبويه الطبيعيين، وليس لديهما الحب المطبوع فى سويداء قلبيهما.

لذلك وعى الإسلام أهمية توفير الامتداد الطبيعى والعضوى للطفل، ومدى ارتباطه بأمه، إذ هى تمده بكل أسباب النضج والنمو الطبيعى الذى يوفر له الصحة النفسية والعقلية والجسدية، ومن ثم أعطى للابن حق الحضانة والرضاع، وثبوت النسب.

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة
(٢) مسند البزار، ١٥/١٧٦.

أدت ثقافة العناية بالأمومة والطفولة إلى أن نبهت إليه سيدة من العصر النبوى عندما جاءت إلى النبى، مدافعة عن هذا الحق وقالت: يا رسول الله إن ابنى هذا كانت بطنى له وعاء وثديى له سقاء وحجرى له حواء، وإن أباه طلقنى وأراد أن ينتزعه منى، فقال لها رسول الله ﷺ: (أنت أحق به ما لم تنكحى)(٣).

كما أعطى الشرع الحق للأم أن تقوم بإرضاع الصغير من ثديها، لما يحمله من الحنان والحب الخالص الذى ثبت بالدليل العلمى أنه لا يعدله ولا يناظره الصور المعاصرة من إرضاع الطفل بالألبان الصناعية التى إن وفرت له الغذاء فلن تغرس فيه ذلك الوجدان النقى من الأم، الذى يجعل الطفل جزءًا منها.

وفى تصوير قيمة هذا الرضاع الطبيعى من الأم المفعم بالعاطفة، عبر عنه القرآن فى قصة إرضاع أم موسى لوليدها بقوله تعالى:

﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

(القصص: ١٣)

ولا شك أن هذه السعادة حصلت لكل من الأم والطفل لأنهما عضوان لجسد واحد تكاملا بعد رجوع موسى إلى أمه.

والناظر إلى واقع نشأة الطفولة فى العصر الراهن، يروعه ذلك التخلى الإرادى من جانب العديد من الأمهات للقيام بإرضاع الطفل من ثديها، واستبداله بالألبان الصناعية التى يكون لها مردود سلبى على نمو الطفل، لا يستطيع أن يحدث ذات الأثر الإيجابى للرضاع الطبيعى من الأم.

وفى المقابل فإنه حرصًا على النشأة المتوازنة للطفل بين الأم والأب عند الطلاق أو الانفصال، قرر الشرع للأب أن يقوم بالولاية على نفس الطفل(٤) بمتابعة أحواله، والاطمئنان على صحته وتعليمه وتربيته وهو فى حجر أمه، وتوفير ضروريات الحياة له من الطعام والمسكن والملبس.

ويقينًا فإن مشاركة الأم والأب فى العناية بأمر الصغير فى هذه المرحلة السنية المبكرة، يقدمه نموذجًا لشخصية سوية، نشأ فى ظروف مواتية مما يجعل الشخصية صاحية عطاء للمجتمع.

- ثالثًا: الطلاق أو الانفصال أو الهجران بين الأبوين، واضطراب مسيرة الأبناء:

الطلاق أو الانفصال بين الأم والأب، يترك الأثر السلبى يتمثل فى حالات التصدع الأسرى فى العقود الأخيرة، بما يحدثه من أثر سيىء على الأبناء، فهو يحول بينهم وبين العيش الآمن والمستقر مع الآباء ويشعرهم بتهديد حياتهم نتيجة الحرمان من التواجد بين الأبوين معًا، مما يعرضهم إلى التشرد أو الانحراف أو الانجراف إلى الجريمة، وقد يصاحب أحد الأبناء رفاق

(٣) سنن أبي داوود - كتاب الطلاق - حديث رقم ٢٢٧٦ رواه أحمد في مسنده عن عبدالله بن عمر
(٤) هي سلطة شرعية على النفس أو المال يترتب عليه انفاذ التصرف شرعًا فهي من ثم تعني صلاحية الولي للقيام بمقتضيات الولاية على نفس الصغير وماله انظر للباحث. حقوق الأسرة في الشريعة الإسلامية وقوانين الأحوال الشخصية، بدون تاريخ، ص٥٥٧

السـوء ؛ مما يكسبه خصالاً مذمومة وسلوكيات هدامة، تضر به وبأهله ومجتمعه.

وتشير معدلات انهيار الأسر في بلاد الإسلام إلى ظاهرة غير مسبوقة، بسبب تعدد طرق الانفصال، والعجز عن تحمل المسئولية مما أدى إلى زيادة حالات الانفصال للضرر والهجر والحبس والغيبة وسوء العشرة، وعدم الاتفاق وما يتبعها من الانحرافات التي يرتكبها أحد الزوجين أو كلاهما، الأمر الذي يكون معه الصغير ضحية هذا التصدع العائلي، ويجعله يعيش طفولة بائسة.

وقد شاعت هذه الآثار المدمرة على الأسرة، مع أن الله تعالى نهى عن الإضرار بأي من أفراد الأسرة، وخاصة الأطفال، فقال تعالى:

﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾

(البقرة: ٢٣٣)

كما تأيد ذلك بقول الرسول ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار»[٥].

والواقع المشاهد أن انفصال الأبوين مع وجود أولاد لهما، يلقي بظلاله المهددة لحاضر ومستقبل الأبناء، ويجعل وجودهم محفوفًا بالمخاطر إذ يتركهم فريسة للتشرد ونهبًا للضياع، إذ إن الأطفال ينتقلون عقب الانفصال إلى حضانة الأم، وفي العادة ينازع الأب الأم في استحقاق الطفل، ولا يستقر الأمر لها إلا بعد صدور حكم قضائي وتسليم الصغير لها ؛ ولا شك أن هذه المنازعة تترك أثرا سلبيا على الطفل، إذ يشعر الطفل بما يدور حوله، من قلق واضطراب الأم، وحرصها على الاستئثار به، ويتضح ذلك في تعاملها معه، وحالة القلق وعدم الاستقرار في حياتها مع وليدها.

ويدرك الصغير أن ثمة تغييرًا خطيرًا طرأ على حياته، بسبب غياب الأب، فلا وجود له معه، ويحدث ذلك الوضع غير الطبيعي حالة من التوتر والاضطراب وعدم الرضا وربما الصدمة بسبب ما يتناهى إلى أسماعه أو ما يراه من وجود الأب بعيدًا عنه، وما تردده الأم من مقولات غاضبة تكيل فيها الاتهامات إلى الأب، وتصفه بصفات سيئة، مما يشوه صورة الأب في نظره، وتطعن نموذج الأبوة لديه.

ومن ناحية أخرى، فإن الأب رغبة في الكيد للأم، قد يقصر أو يتقاعس عن القيام بواجبه تجاه الصغير، مثل أن يمتنع عن الإنفاق عليه أو لا يقوم بسداد مصروفات تعليمه، أو يتشاجر مع الأم أمامه عند مشاهدة الصغير، وممارسة حقه في رؤيته، أو يرفض إلحاقه بنوع معين من التعليم في الوقت الذي تصر فيه الأم عليه، وتتفجر الخلافات بينهما على ولاية التربية والتعليم مما يجعله ضحية لهذه الخلافات الطاحنة، وما يتبع تلك الخلافات من مشكلات تدور رحاها في ساحات القضاء، وفي أماكن تواجد الصغير.

وأمثال هذه الأحداث تنغص على الصغير، وتضر بحاضره، وتهدد مستقبله إذ يجد أن وجود الأب في حياته يثير العديد من علامات الاستفهام فهو لا يحصل منه على الرعاية والحماية في حدها الأدنى، ويتضاءل دور الأب في توجيه مسيرة حياته اليومية.

بل قد تتفاقم الأمور، ويختفي الأب من حياته، وهو ما يفقد الصغير ركنًا أساسيًا من أركان وجوده، والعائل المتولي أمره.

يتبع

(٥) سنن ابن ماجة - كتاب الأحكام ٣ / ٤٣٠.

الوسطية

«٢»

للأستاذة رانيا رجب شعبان

الوسطية عند أنصار الإصلاح والتجديد:

أخذت الوسطية بعدًا جديدًا يتعلق بالتوازن بين نقد الذات ونقد الآخر؛ بين الموروث والوافد، لتجديد الدين واستنهاض الأمة بتعريفها بمقومات وجودها ودورها. ويعتبر جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده من أبرز أعلام هذه الوسطية. فالنهضة عند الأفغاني لا تتحقق إلا بالخروج من «التخلف الموروث» بـ «الثورة الثقافية»، ومن «الغزوة الأوروبية» بمشروعنا الحضاري المؤسس على الهوية الإسلامية وهو «الجامعة الإسلامية»[١]. وأما الإمام محمد عبده فيصف منهجه الإصلاحي الذي يسعى إلى تحرير الفكر من قيد التقليد بأنه: «يخالف رأي الفئتين العظيمتين اللتين يتركب منهما جسم الأمة: طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم، وطلاب فنون هذا العصر ومن هو في ناحيتهم»[٢]. ويبين أن هذه الوسطية مستقاة من روح الإسلام ومنهجه بالرجوع إلى ينابيعه الأولى قبل الاختلاف.

وعند تفسيره لآية البقرة يقول: «وأما الأمة الإسلامية فقد جمع الله لها في دينها بين الحقين حق الروح وحق الجسد.. وإن شئت قلت إنه أعطاها كل الحقوق الإنسانية.. فكأنه قال لهم: جعلناكم أمة وسطًا تعرفون الحقين وتبلغون الكمالين لتكونوا شهداء على الناس؛ الجسمانيين المفرطين والروحانيين الغالين.. فتشهدون عليهم بأنهم خرجوا من جادة الاعتدال»[٣]. ثم يستطرد:

﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾

«البقرة: ١٤٣»

أي أن الرسول ﷺ هو المثال الأكمل لمرتبة الوسط، وإنما تكون هذه الأمة وسطًا باتباعها له في سيرته وشريعته.. فكأنه قال لهم: إنما يتحقق لكم وصف الوسط إذا حافظتم على العمل بهدي الرسول واستقمتم على سنته، وأما إذا انحرفتم عن الجادة فالرسول بنفسه ودينه وسيرته حجة عليكم بأنكم لستم من أمته التي وصفها الله في كتابه:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾

«آل عمران: ١١٠»

بل تخرجون بالابتداع عن الوسط وتكونون في أحد الطرفين..»[٤].

١ - محمد عمارة، جمال الدين الأفغاني بين حقائق التاريخ وأكاذيب لويس عوض، دار السلام، القاهرة، ط١، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م، ص٢٠٥ - ٢٠٧.

٢ - محمد عبده، الأعمال الكاملة، تحقيق وتقديم: د. محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٩٩٣م، ج٢، ص٣١٠.

(٣) محمد عبده مرجع سابق، ج٤، ص٣١٩.

(٤) مرجع سابق، ج٤، ص٣١٩ - ٣٢٠.

وهنا نلحظ التحول نحو الخيرية المشروطة للأمة بقدر تمثلها لوسطية الإسلام، دون تعال على الآخر المختلف دينًا أو مذهبًا، لأن هذا الفضل هو للإسلام.

وبذلك تكون الوسطية التي هي من خصائص المنهج الإسلامي حائلة دون السقوط في أسر الثنائيات وتجاذباتها وفي ذلك يقول الدكتور محمد عمارة إنها الوسطية الجامعة: «فهي عدسته اللامة لأشعة ضوئه.. فهي تنفي الغلو الظالم والتطرف الباطل فتمثل الفطرة الإنسانية في بساطتها وبداهتها وعمقها.. وهذه الوسطية الجامعة ليست ما يحسبه العامة من المتعلمين والمثقفين انعدام الموقف الواضح والمحدد أمام القضايا والمشكلات، لأنها الموقف الأصعب الذي لا ينحاز الانحياز الأسهل إلى أحد القطبين، وهي كذلك ليست الوسطية الأرسطية؛ والتي ترى الفضيلة هي وسط بين رذيلتين؛ فهي أشبه بالنقطة الرياضية التي تفصلها عن القطبين مسافة متساوية تضمن لها التوسط، إنها نقطة رياضية وموقف ساكن وشيء آخر لا علاقة له بالقطبين اللذين يتوسطهما. وليست هكذا الوسطية في اصطلاح الإسلام. إنها في التصور الإسلامي موقف ثالث حقًا وموقف جديد حقًا ولكن توسطه بين النقيضين المتقابلين لا يعني أنه منبت الصلة بسماتهما وقسماتهما ومكوناتهما، إنه مخالف لهما ولكن ليس في كل شيء، ولكنه يرفض الانحصار والانغلاق على سمات كل قطب من الأقطاب وحدها دون غيرها.. ولذلك فإن الوسطية كموقف ثالث وجديد إنما يتمثل تميزها في أنها تجمع وتؤلف كل ما يمكن جمعه وتأليفه كنسق غير متنافر ولا ملفق من السمات والقسمات والمكونات الموجودة في القطبين النقيضين كليهما، وهي لذلك وسطية جامعة، وحتى لا يتسارع إلى الذهن أن هذه الوسطية قاصرة على مستوى التنظير لا أثر لها في الواقع ولا فاعلية لها في التطبيق والممارسة وصفها الدكتور عمارة بـ«طوق النجاة بالنسبة للإصلاح الإسلامي من تمزق وانشطارية وثنائية المتقابلات المتناقضة؛ وأثبت ذلك بمنظور مقارن مع هذا الانشطار والانقسام الحاد الذي حدث في فلسفة الحضارة الغربية بين: «ماديين ومثاليين، وعقلانيين ولا هوتيين؛ في حين أن الوسطية الجامعة حفظت المنهاج الإسلامي من التناقض الذي لم يجد له حلا بين الروح والجسد، الدنيا والآخرة، الدين والدولة، الذات والموضوع، الفرد والمجموع، الفكر والواقع، المادية والمثالية، المقاصد والوسائل، الثابت والمتغير، القديم والجديد، العقل والنقل، الاجتهاد والتقليد.. وبعد رفض الوقوع في أسر الثنائيات يرى الدكتور عمارة أن هذه الوسطية الجامعة الممثلة للفطرة الإنسانية في بساطتها توازي اليسر الذي هو من أهم صفات المنهاج الإسلامي واستشهد بحديث رسول الله (إن دين الله يسر).. و(ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين في الإسلام إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس منه)[٥].

وفي إطار التحفير وراء مقومات النهوض

٥. محمد عمارة، معالم المنهج الإسلامي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، دار السلام، القاهرة، ٢٠٠٨م، ص ٧٣ - ٧٧.

للقيام بالدور المنوط بهذه الأمة ترى الدكتورة منى أبو الفضل أن الأمة الوسط هي الأمة المستخلفة في الأرض أي أنها الأمة وليست أمة بين الأمم، فهي الأمة القطب، فمفهوم الأمة القطب يتضمن معنى الوسطية والشهادة. وفي ذلك تقول: «وأبرز ما يترتب على مفهوم الأمة الوسط - من حيث ما يترتب عليه من تعزيز للأمة القطب - أنه يؤكد الوظيفة القيادية التي أخرجت لها لتصير الأمة إمامًا للأمم». وبذلك تكون لوسطية الأمة دلالات مرتبطة بشهادتها وإمامتها:

- أولها: أن الجماعة التي تعبر عنها محور جذب واستقطاب، ومن ثم فهي مصدر للتوازن والانسجام بين الجماعات البشرية.
- ثانيا: الاعتدال في المزاج واجتناب الإفراط والتفريط.
- وثالثًا: أن الأمة وسط من حيث موازين القيم والأنظمة التي تقوم عليها. «ثم أشارت إلى دلالات للوسطية متعلقة بجغرافيا الموقع؛ فالحزام القاري الإسلامي يمثل امتدادًا استراتيجيًا إقليميًا وبشريًا متصلا يتوسط المعمورة»[٦].

إذن أصبح للشهود دلالة أرحب حينما ربط بالخلافة في الأرض، بدلًا من قصره على الجانب العقائدي والطقوسي للإسلام، وأطلق عليه البعض (الشهود الحضاري).

فالشهود الحضاري يعني أن يكون المسلم: «مشتغلا بمحاربة الظلم السياسي والاجتماعي منتصرًا للفقراء والمستضعفين مدافعًا عن حقوق الإنسان والحريات بجميع مستوياتها رافضًا للترف والرذيلة مبشرًا بالحياة الطيبة مساهمًا في إرساء قواعدها وتنمية عناصرها تربويًا وسياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا وفنيًا»[٧].

ونستطيع هنا أن نرصد خطًا آخر للربط بين الشهادة والخلافة يعد امتدادا للخط الذاهب إلى القول بأن الأمة الوسط هم الأئمة المعصومون، فالشهادة تمثل عند محمد باقر الصدر: «التدخل الرباني من أجل صيانة الإنسان (الخليفة) من الانحراف وتوجيهه نحو أهداف الخلافة الرشيدة»؛ ويذهب الصدر إلى أن القرآن الكريم قد صنف الشهداء إلى ثلاثة أصناف في قوله تعالى:

﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ ﴾

«المائدة: ٤٤»

والأصناف الثلاثة على ضوء هذه الآية هم النبيون والربانيون والأحبار. والأحبار هم علماء الشريعة، والربانيون درجة وسطى بين النبي والعالم وهي درجة الإمام. «وطالما أن الشهادة تتمثل في الأنبياء والأئمة والمرجعية (علماء الشريعة) كان من المنطقي أن ينتقل الشهيد الصدر إلى إبراز المساحة المشتركة بين أدوار الثلاثة في قيامهم بالشهادة، وكذلك الفروق بينهم، وصولا إلى شروط الشهادة، وهي العدالة (أي الوسطية) والعلم واستيعاب الرسالة والوعي بالواقع القائم؛

٦. منى أبو الفضل، الأمة القطب: نحو تأصيل منهاجي لمفهوم الأمة في الإسلام، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٥م، ص٨٣ - ٨٤.

٧. عبدالعزيز كحيل، مقال (صياغة إنسان الحضارة والشهادة)، موقع مسلم أون لاين، ١٣/٢/٢٠١٠م.

حتى يتمكن الشهيد من دوره الرقابى على ممارسة الإنسان لدوره فى الخلافة على الأرض(٨).

ويميز الشهيد الصدر بين الخلافة على الأرض وبين الخلافة الربانية، والأخيرة تتحقق باندماج الخلافة والشهادة معًا ولا يكون ذلك إلا فى نبى أو إمام معصوم، وأما فى حال غيبة الإمام ومادامت الأمة محكومة بالطاغوت ومقصية عن حقها فى الخلافة العامة، يقوم المرجع بممارستها فى نطاق ضيق، وأما إذا حررت الأمة نفسها فالخلافة تنتقل إليها، فهى التى تمارس القيادة السياسية والاجتماعية على أسس الاستخلاف الربانى.. وهكذا وزع الإسلام فى عصر الغيبة مسئوليات الشهادة والخلافة بين المرجع والأمة، بين الاجتهاد الشرعى والشورى الزمنية»(٩) اهـ بتصرف.

الوسطية فى حقل التجديد الفقهى

اتخذت الوسطية فى هذا الحقل دلالة هى أقرب إلى اليسر والسماحة ورفع الحرج تأسيسًا على أن كلاهما من خصائص شريعة الإسلام. والسماحة كما عرفها ابن عاشور: «هى السهولة المحمودة فيما يظن الناس التشديد فيه» وهى بذلك منسجمة مع الفطرة البشرية التى تنفر من الإعنات والشدة. والتى - أى الفطرة - اعتبرها ابن عاشور «مدار الأحكام الشرعية»(١٠) فالوسطية هنا توازن بين الثوابت والمتغيرات فى الشرع وبين الماضوية والمستقبلية وبين الأخروية والدنيوية وبين الوحى والعقل وتمثل الاعتدال بين التضييق والتساهل ويتحصل من كل ذلك أن الحق ليس منحصرا فى الأحوط، فلا يجب أن تؤسس الفتوى عليه، إنما على الأيسر بمراعاة مقاصد الشرع وعلل الأحكام، فأما من أراد أن يأخذ نفسه بالأحوط فهو وما أراد دون أن يلزم الناس بذلك. «والله يريد بعباده السعة واليسر»(١١).

وهنا يموضع أنصار هذا التيار أنفسهم - كما يذهب الدكتور القرضاوى(١٢) - وسطًا بين من يريد أن يذهب بعيدًا فى هذا المنحى إلى حد تعطيل الشرع باعتباره جوهرًا لا شكلا، وبين من يقفون على ظواهر النصوص بمعزل عن علل الأحكام ومقاصد الشرع ومدى تحققها فى الواقع، وهذا لا يعنى بطبيعة الحال أن هذا التيار يشكل طيفًا واحدًا.

الوسطية عند القاموس الحركى لـ«الإسلام السياسى»

اختزلت الوسطية فى القاموس الحركى لتيار الإسلام السياسى فى كونها مقابلة للتطرف والغلو، فهى توازى فى خطابهم (الاعتدال) ولأن هذا القاموس قد نشأ فى ظل اتهام للإسلام بالتطرف والإرهاب، وظف مفهوم الوسطية فى هذا القاموس توظيفًا

٨. محمد باقر الصدر، الإسلام يقود الحياة، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص١٣١ - ١٣٦.
٩. مرجع سابق، ص١٣٧ - ١٥٤.
١٠. الصبحى عتيق، مقال(الوسطية بين الفكر المقاصدى والفكر الحركى) موقع إسلام أون لاين، ٩/١٠/٢٠١٠م.
١١. يوسف القرضاوى، الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف، المعهد العالمى للفكر الإسلامى، القاهرة، ص٢١٠.
١٢. مرجع سابق.

سياسيًا لدفع التهمة وإثبات براءة الإسلام من تهمة التطرف والإرهاب أولا، وتبرئة من سموا بـ(الإسلاميين المعتدلين) ثانيًا باعتبارهم ممثلين لحقيقة الإسلام السمحة.

ففى كتابه (الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف) الذى جاء من أوله لآخره ردًا على الغلو والتطرف وأهله، طرحت فيه الوسطية كنقيض لهما. يقول الدكتور يوسف القرضاوى: «والوسطية إحدى الخصائص العامة للإسلام وهى إحدى المعالم الأساسية التى ميز الله بها أمته عن غيرها، فهى أمة العدل والاعتدال التى تشهد فى الدنيا والآخرة على كل انحراف يمينًا أو شمالا عن خط الوسط المستقيم.. والنصوص الإسلامية تدعو إلى الاعتدال وتحذر من التطرف الذى يعبر عنه فى لسان الشرع بعدة ألفاظ منها: الغلو، والتنطع، والتشدد، قال تعالى:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾

(المائدة: ٧٧)

ومن أجل ذلك قاوم النبى ﷺ كل اتجاه ينزع إلى الغلو فى التدين، وأنكر على من بالغ من أصحابه فى التعبد والتقشف مبالغة تخرجه عن حد الاعتدال الذى جاء به الإسلام ووازن بين الروحية والمادية ووفق بين الدين والدنيا(١٣).

ولذلك تجد المنتمين لتيار (الإسلام السياسى) يشكون الظلم الواقع عليهم بالخلط بين الاعتدال والتطرف وتصنيف جميع الإسلاميين فى خانة واحدة(١٤).

ماهية الوسطية

ويمكن فى هذا الصدد أن نمسك بأطراف خيوط منهجية فى معالجة ماهية الوسطية - بغض النظر عن مضامينها الفكرية. فهناك من يراها موقفًا ثالثًا بين نقيضين، جديد ولكنه غير منبت الصلة بهما، يؤلف بين بعض عناصرهما فى نسق غير ملفق ولا متنافر، وهذا ما يصفه محمد عمارة بالتصور الإسلامى للوسطية. وهناك - فى إطار التصور الإسلامى أيضا - من لا يراها نتاجًا ثالثًا من نقيضين، وإنما هى - بحسب نصر محمد عارف - : «وسطية تجمع بين المتصور أنه نقائض ومتضادات فى توازن وسياق متناغم بحيث لا يمكن القول بأنها هذا أو ذاك فالله سبحانه وتعالى من أسمائه الحسنى الرافع الخافض والظاهر والباطن والأول والآخر.. إلخ، وقوله تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾

«الفرقان: ٥٣»

كل ذلك دون الحديث عن شىء نقيض لشىء»(١٥)

وفى مقابل ذلك التصور هناك من يرى أن الوسطية التوفيقية قد تستحيل تلفيقية كما يسميها نصر حامد أبو زيد فى سياق نقده لوسطية الشافعى إذ لم يخرج مركبًا

١٣. يوسف القرضاوى، الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف، مرجع سابق، ص٢٣ - ٢٧.
١٤. فهمى هويدى، التدين المنقوص، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٩٩٤، ص٢٠٨.
١٥- نصر محمد عارف، نظريات التنمية السياسية، المعهد العالمى للفكر الإسلامى، دار القارئ العربى، القاهرة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص٢١١.

جديدًا لا ينتمي لأي من الطرفين ويعتبر التردد صفة لصيقة بهذه الوسطية التلفيقية؛ «فالفكر التلفيقي هو الذي يحاول التوفيق بين منهجين على أساس أيديلوجي لا على أساس عقلي يتلمس جوانب الأصالة والإبداع في كل من الاتجاهين المتعارضين ويصل بينهما في مركب جديد لا ينتمي لأي منهما» (١٦)

ومما سبق: يمكن تقديم تصور منهجي لما اتسم به التطور الدلالي للوسطية وللمسار المأمول – كما ترى الباحثة – أن يمضي عليه هذا التطور:

١– إن مفهوم الوسطية مفهوم كلي كان لابد وأن يُبنى بشكل مركب يتجاوب مع شموليته وتعقيده وتعدد جوانبه فلا زال المفهوم يعاني من خلط على غير صعيد فمن ناحية يشار إلى وسطية الإسلام على أنها توفق بين المتعارضات دون تلفيق ولكن الوسطية كما أبدعها الله تعالى بحكمته العلية وعلمه وقدرته المحيطة بكل شيء ليست في مقدور البشر فلابد من التمييز بين الوسطية التي صبغ الله بها دينه ومنهاجه وبين الوسطية التي في وسع المسلم ببشريته أن يطبقها من خلال فهمه وتمثله لمنهج الإسلام وإلا فإننا سنكون بصدد ميوعة لا وسطية وهنا تتجلى أهمية المعالجة المنهجية التي تبني المفهوم –والمفاهيم القرآنية تحديدًا –في مستويات وتضبط التحرك بين تلك المستويات، فالخلط بين مستويات المفاهيم يؤدي إلى الخلط بين الاعتزاء للقرآن وبين الاحتكام إليه كل حسب فهمه وسقفه المعرفي وسياقه التاريخي والاجتماعي وينتج عن هذا الخلط خلط آخر وهو أن كل اختيار لأمر أو طريق بين أمرين يعزى للوسطية كما جاءت في آية البقرة والحق أنه لا توجد نقطة في حيز الفعل البشري إلا وهناك نقاط عن يمينها وعن يسارها وعلى ذلك فلن يعدم أحد المسوغ لتوصيف موقفه بالوسط وبالنتيجة أصبحت الوسطية وصفًا يليق بكل موصوف فالوسطية التي هي بين الغلو والتطرف وبين التفريط والتساهل في حقوق الله تتسع للكثير من المتناقضات وكذلك فإن الوسطية التي تعني التسامح مع الآخر أو التيسير على المسلمين أنفسهم تتسع هي الأخرى لتأويلات قد تصل إلى حد التعارض ولذلك تجد أن كثيرًا من الكتابات التي تناولت الوسطية إنما كانت في حقيقة الأمر تتكلم عن خياراتها السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو الفكرية أو الفقهية ومع ذلك فالكل يعتزي إلى الوسطية والكل يستشهد بآية البقرة وهكذا يقع الخلط وهو الخلط الذي لم يكن للإنصاف من نصيب الوسطية وحدها.

٢– ولأن مفهوم الوسطية مركب وشمولي كان لابد وأن يبنى كمفهوم حركي لا سكوني ولذلك كان تطورًا نوعيًا أن تحولت الوسطية بمعنى الخيرية والعدالة عند أنصار التجديد من صفة لصيقة بالمسلمين كأمة في مقابل النصارى واليهود إلى صفة لمنهج الإسلام والذي ينعكس بخصائصه على الأمة التي بناها هذا المنهج وبقدر تمثلها لهذا المنهج تستحق وصف الأمة الوسط وبطريقة أخرى لم تعد الوسطية هي ما جُعلنا عليه كمسلمين، بل ما يجب أن نكون عليه، ولعل هذا كان من ثمار الطرح الذي قدمته مدرسة التجديد في معالجة إشكالية الجبر

١٦– نصر حامد أبو زيد، الإمام الشافعي وتأسيس الأيديولوجية الوسطية، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط٣، ٢٠٠٣، ص٩٦ – ٩٧.

والاختيار بالإضافة إلى منحاها النقدي للذات وفي المحصلة أدى ذلك إلى تموضع جديد للوسطية كمفهوم مستقل بل ومهيمن لأنه يختزن الإسلام كله بداخله ويختصر شخصيته في كلمة واحدة وبذلك انفتحت آفاقه الدلالية وانفتح معه مفهوم الشهادة حتى لامس مفهوم الخلافة في الأرض ولكن هذا لا يعني أن ضوابط منهجية قد تم التأسيس لها عند معالجة أو مقاربة هذا المفهوم للتمييز بين وسطية الإسلام بكل تجلياتها وبين ما تعنيه وسطية الأمة المنتسبة إليه، فلازال الخلط قائمًا ويتجلى ذلك في المعالجات المقارنة فعندما يكون الحديث عن مقارنة بين اليهود والنصارى والمسلمين تجد استحضارا لمواقف اليهود والنصارى من منظور ما كان، بينما على الجانب الآخر يستشهد بما أورده القرآن الكريم في القضية محل المقارنة باعتبار ذلك ممثلا لموقف المسلمين وفي هذا خلط بيّن، فإما أن تكون المقارنة بين نسق ونسق، أو أن تكون بين جماعة بشرية وأخرى من منظور ما كان وما هو قائم(١٧) وهكذا مقارنات بطبيعة الحال تخلص دائمًا وأبدًا إلى أفضلية مطلقة للمسلمين على سائر الأمم ويتفرع عنها حتمًا أفضلية مطلقة لبعض منهم على سائر الأمة فضلا عن أنها تتنافى مع حكمة القصص القرآني بضرب الأمثال لأخذ العظة والعبرة، فقد رصد القرآن الكريم من خلال القصص القرآني معالم الصيرورة التي انحرفت بالأمم السابقة عن المنهج الإلهي، وبيّن السنن الحاكمة لتلك الصيرورة وهي سنن عامة لا تخص أمة دون أمة رغم اختلاف الشرائع والكتب وقد أنبأنا بها رسول الله ﷺ فأي مقارنة يجب أن تتحرك نحو فهم هذه الصيرورة لا كحتمية لا مفر منها وإنما كفاعلية بشرية (تقوم على فهم للدين وفهم للواقع) تدخل في علاقة تأثير وتأثر بسياقاتها التاريخية (الاجتماعية والاقتصادية والسياسية) في تعاقب مستمر لأدوار ذلك التأثير والتأثر حيث تسلم المقدمات إلى نتائج وهذه الأخيرة تصبح بدورها مقدمات لما يليها وبذلك فلا سبيل لقطع هذه التعاقبية إلا بتغيير مقومات الفاعلية البشرية وهذا موطن اختيار الأمم وتفاضلها الذي لا يجب أن تغفله أي معالجة لمفهوم الوسطية فصحيح أن مساحة الحركة المتاحة لنا هي مساحة التأويل لا التنزيل فقد تعهد الله بحفظ كتابه الكريم

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾

(الحجر: ٩)

لكننا قد نفهمه ونفسره متأثرين بأنساق كتابية أخرى فنسلك مسالك مقاربة لهم ما يحول بيننا وبين تمثل شخصية هذا الدين ووسطيته ومن ثم قيام الأمة الوسط هذه المسافة بين وسطية الإسلام وبين تمثل الأمة لها هو ما يجب أن تستكشفه الدراسات المقارنة.

٣– رغم ما حدث من تطور في إدراك الوسطية إلا أننا مستغرقون في استقراء تجلياتها وتبدياتها كقولنا بأن الإسلام يوازن بين الفرد والمجتمع، والجسد والروح، والعقل والنقل.. وكالحديث عن وسطيته في العقيدة والتشريع والأخلاق.. وما إلى ذلك، وما نحتاج إليه هو فهم منهجي للوسطية بالتحفير وراء هذه التجليات التي تنبع من معينها لاستجلاء الكليات التي تنتظمها.

١٧– يراجع كمثال على ذلك معالجة الدكتور علي الصلابي لوسطية القرآن في العقائد «الوسطية في القرآن الكريم» ص١٩٩ – ٢٦٠.

عن الشريعة الإسلامية



المستشار طارق البشري

موضوع هذا المقال يتعلق بالشريعة الإسلامية، ونحن لا نتكلم عن الشريعة هنا ماهيتها أو كنهها، لا نتكلم عن كونها الأحكام المنزلة من الله تعالى والتى بلغتنا من القرآن الكريم وسنة نبينا الشريفة، ولا نتكلم عن أحكامها فى العبادات والمعاملات وغيرها، فهذا كله ليس موضوع المقال، إنما موضوع المقال هو بيان «المشكلة» التى تثور فى حياتنا المعاصرة الآن حول تطبيق الشريعة الإسلامية أو عدم تطبيقها فى مجتمعاتنا المعاصرة.

لماذا صار مبدأ تطبيق الشريعة الإسلامية «مشكلة» أى قضية خلافية فى هذه المجتمعات، يمكن أن يثور خلاف حول حكم أو أحكام معينة من جهة الحجية الشرعية أو من جهة وجه التطبيق فى الحياة الحاضرة، ولكن أن يصير أصل النظام القانونى هو المشكلة، أى يثور الخلاف حول الأخذ به أو تركه فهذا هو الغريب. وهذا ما نتكلم فيه الآن إن شاء الله، فنتحدث عن ظهور هذه «المشكلة» كيف ظهرت ولماذا، أى تاريخ المشكلة فى حياتنا المعاصرة، ثم نتكلم عن تطور هذه المشكلة سواء بعد التغلغل الغربى أو بعد استقلالنا عنه سياسيًا والحلول التى صرنا إليها فى عهود الاستقلال. ثم نتكلم عن موقفنا من هذه المسألة الآن، أى ما هى العبارات التى يلابسها والتى ينبغى أن نضعها فى اعتبارنا ونحن ننظر فى هذا الأمر، فنشير إلى الشريعة والأخلاق أو القانون والإسلام، والشريعة والجماعة السياسية وحركة التجديد.

●●●

أولا: نقطة البدء فى الحديث عن موضوع الشريعة الإسلامية فى العصر الحديث، أن الإسلام كان هو الوعاء الحاكم للنظام القانونى، ومن الإسلام يستمد المجتمع أسس شرعيته، سواء فى الفكر أو الثقافة أو النظم أو العلاقات بين الناس واستمر الوضع هكذا حتى نهايات القرن الثامن عشر.

وقد يصح القول بأن الفقه الإسلامى والفكر الإسلامى عامة فى تلك الفترة كان يشكو من غلبة الجمود عليه. وكانت تتمثل عناصر الجمود فى طغيان الجبرية على العقل، وطغيان مذاهب وحدة الوجود والحلول والاتحاد على الوجدان، وطغيان التقليد فى مجال الفقه الإسلامى، وما آلت المذاهب الفقهية من شيوع ما يشبه القداسة حولها. والتقليد هو اتباع لرأى الغير دون النظر فى الحجة والبرهان الذى يقوم عليه أو هو اعتماد الإنسان على غيره فى فهم الحكم دون أن ينظر بنفسه فى الدليل الذى يقوم عليه الحكم.

إذا كان هذا الوصف لوضع الجمود صحيحًا حتى نهايات القرن الثامن عشر، فالصحيح أيضًا أن حركة البعث والتجديد فى الفقه الإسلامى والفكر الإسلامى، كانت بدأت ونمت فى ذلك الوقت نفسه، وقبل أن يقوم الاحتكاك الحضارى المباشر مع الغرب فى القرن التاسع عشر.

ومنذ القرن الثامن عشر بدأت حركات التجديد فى الفكر والفقه الإسلامى، بدأت تقوم على أساس من تحرير الإرادة البشرية المهتدية بأصول الإسلام، وعلى أساس رفض أفكار الغلاة من الصوفية الخاصة بالحلول ووحدة الوجود، وفى الوقت نفسه تبنت ودعت إلى فتح باب الاجتهاد فى الفقه الإسلامى والعودة إلى المصادر الشرعية الأصلية وهى القرآن والسنة، يستقى منها المجتهد حكم الإسلام مباشرة فيما يعرض عليه من مشاكل الواقع فى عصره. ومن هنا كانت دعوة الاجتهاد تعمل على رفض الالتزام بمذهب واحد من مذاهب الأقدمين ورفض ما أحيطت به هذه المذاهب من قداسة ليست من الدين فى شىء.

عندما ظهرت هذه الدعوات التجديدية، كانت الدولة العثمانية هى الحاكمة ذات السلطان فى غالب ديار الإسلام من الخليج العربى شرقا حتى المغرب العربى، ومن الأناضول حتى المحيط الهندى. ولم تظهر دعاوى التجديد وقتها فى منطقة القلب من هذه الدولة، وهى المنطقة الممتدة من إستانبول شمالا مرورًا بأرض الشام إلى القاهرة جنوبًا لم يظهر التجديد فى هذه المنطقة لغلبة الروح المحافظة والجمود فيها، فتفتق الفكر المجدد من الأطراف حيث خفتت وضعفت السيطرة المركزية للدولة. وتمثلت هذه الدعوات التجديدية فى الحركة السلفية التى دعا إليها محمد بن عبدالوهاب، وظهرت أول ما ظهرت فى نجد كما تمثلت فى عدد من المفكرين المجددين مثل الإمام الشوكانى فى اليمن، وولى الدين الدهلوى بالهند، والشهاب الألوسى بالعراق، كما ظهر عبدالقادر الجزائرى ثم محمد بن على السنوسى فى المغرب العربى.

وكان لمثل هذه الحركات التجديدية صدى طيب فى المناطق المركزية من الدولة، وهو صدى نلمسه فى تعليقات مؤرخ مثل الجبرتى على دعوة ابن عبدالوهاب فى الجزيرة العربية. وهذا الصدى نفسه يفيد أن أرض الإسلام كانت ممهدة لتقبل الحركات الفكرية التجديدية فى ذلك الوقت. لولا أن الغزو الاستعمارى الأوروبى لديار العرب والمسلمين أوقف هذه الحركة. إذ قويت روح المحافظة لمقاومة الفكر الغربى الوافد.

ثانيا: إن الغزو الاستعمارى لبلاد العرب والمسلمين على ما حدث فى القرن التاسع عشر، لم يكن غزوًا عسكريًا وسياسيًا فقط، إنما بدأ بتغلغل النفوذ الاقتصادى وممارسة الضغوط السياسية والتهديدات بالتدخل العسكرى. وفرض سياسة الباب المفتوح على المراكز الرئيسية فى بلادنا وخاصة فى محور إستانبول ـ الشام ـ القاهرة، بدأت ضغوطه

لصياغة مجتمعاتنا وفقا لصورة المجتمعات الغربية فكرًا ونظمًا، وذلك حتى يسلس إقامة علاقة التبعية بين بلادنا وبينه وحتى تضعف روح المقاومة له، إذ غلب على حركات المقاومة للاستعمار وقتها الطابع الإسلامي.

ومع الثلث الثاني من القرن التاسع عشر، أى منذ سنة ١٨٤٠م على وجه التقريب، بدأت النظم القانونية الغربية تتسرب إلى كل من إستانبول شمالا والقاهرة جنوبًا، في نفس الوقت الذى جرى فيه فصل مصر عن الدولة العثمانية وضرب حركة محمد على. لذلك فإن عامى ١٨٣٩م و١٨٤٠م عرفا معاهدة لندن التى فصلت مصر عن الدولة العثمانية، وعرفا فرض سياسة الباب المفتوح فى مصر التى قضت على سياسة التنمية التى كان أقامها محمد على فى مصر لبناء الجيش، وعرفا ما عرفا باسم «خط جولخانة» الذى بدأ به تغلغل النظم والقوانين الفرنسية والأوروبية فى أقطار الدولة العثمانية وتنشطت حركة التغريب (أى الأخذ عن الغرب) سواء فى التعليم أو فى القوانين. وظهرت فى تركيا مجموعات قانونية تأخذ من النظام الفرنسي، كالقانون التجارى والقانون الجنائى ثم بعض قوانين تتعلق بتنظيم ملكية الأراضى، وكذلك نظم المحاكم.

واستمرت هذه الحركة التى تسمى بحركة التنظيمات حوالى أربعين سنة أخرى حتى تولى السلطان عبدالحميد الحكم فى سنة ١٨٧٦م ولم يفلت من هذا الزحف التشريعى إلا القانون المدنى الذى صدر فى عهد السلطان عبدالحميد على أساس أحكام مأخوذة كلها من الفقه الإسلامى وعرف هذا القانون وقتها باسم «مجلة الأحكام العدلية».


محمد على

أما بالنسبة لمصر فلم تسر عليها القوانين العثمانية الجديدة التى قلدت التشريعات الغربية وعرفت باسم «التنظيمات»، ولا سرت عليها مجلة الأحكام العدلية. وذلك بسبب النظام السياسى الخاص الذى بدأت تتميز به وتنفصل به عن جاراتها من الأقطار العربية والإسلامية بعد معاهدة لندن فى سنة ١٨٤٠م. وهذا الانفصال عرض مصر للوافح الهجمة الغربية فى الاقتصاد والفكر ثم للغزو العسكرى، وتكالبت عليها قوى الاستعمار الأوروبى فى القرن التاسع عشر. وقد آلت أوضاعها إلى أنه مع غلبة النفوذ الأوروبى عليها استبدل نظامها القانونى كله تقريبًا من نظام الشريعة الإسلامية إلى النظم القانونية الوافدة من فرنسا. وجرى كل ذلك فى الفترة من ظهور المحاكم المختلطة بها فى سنة ١٨٧٨م حتى ظهور المحاكم الأهلية فى سنة ١٨٨٣م فصارت القوانين المصرية المدنية والتجارية والبحرية والجنائية ونظم المحاكم المدنية والجنائية كلها من أصل فرنسى. ولم يشذ إلا مسائل الأحوال الشخصية ونظام الوقف.

وبهذا أقبل القرن العشرون وغالب التقنينات فى مصر مأخوذة عن الغرب بعيدة عن الشريعة الإسلامية، وبالنسبة لتركيا وأرض الشام كان وضع الشريعة هناك أقوى منه فى مصر بسبب وجود «مجلة الأحكام العدلية» الآخذة عن المذهب الحنفى فى فقه المعاملات المدنية فضلاً عن مجالى الأحوال الشخصية (الزواج والنفقة والميراث والوقف.. إلخ) أما فى الجزيرة العربية فقد بقى فقه الشريعة هو السائد فى غالب بقاعها، سواء فى الحجاز ونجد أو فى اليمن، رغم تسرب بعض النظم الوافدة إلى الحجاز بسبب تبعيتها للدولة العثمانية.

●●●


ثالثًا: لقد استمرت مصر فى العقود الأولى من القرن العشرين على الصورة السابقة، كما أن البلاد العربية التى انسلخت عن دولة الخلافة العثمانية بعد سقوط هذه الدولة فى سنة ١٩٢٣م، استبقت تقريبًا الأوضاع التشريعية التى كانت آلت إليها من قبل. وزادت نزعة التغريب فى أبنيتها التشريعية بسبب خضوعها العسكرى وتبعيتها السياسية للدول الاستعمارية، إذ خضعت لبنان وسوريا لفرنسا، وخضعت فلسطين والأردن والعراق لبريطانيا.

ثم أتت بعد ذلك مرحلة النظم القانونية «لعهد الاستقلال» وقد حصلت مصر على استقلالها السياسى الشكلى منذ سنة ١٩٢٣م ثم ألغيت الامتيازات الأجنبية بها بموجب معاهدة أبرمت فى ١٩٣٧م ونصت على إلغاء المحاكم المختلطة فى سنة ١٩٤٩م، وحصلت البلاد العربية على استقلالها على مدى السنوات العشر التالية لانتهاء الحرب العالمية الثانية فى سنة ١٩٤٥م.

وأهم مثل للنظام القانونى السائد فى عصر الاستقلال هو القانون المدنى المصرى الذى صدر فى سنة ١٩٤٩م وكان أعد مشروعه الأول الفقيه الكبير الدكتور عبدالرزاق أحمد السنهورى، وشارك فى مناقشته مجموعة كبيرة من أعلام الفقه والقضاء المصريين.

كان هدف وضع هذا القانون هو تحقيق «الاستقلال القانونى» أى إنهاء التبعية التشريعية التى تقوم بين القانون المصرى والقانون الفرنسى. وتوصل واضعو القانون إلى ذلك بتوجهات عامة ثلاثة:


السنهورى

- أولا ألا يقتصر فى استقاء أحكامه على القانون الفرنسى كما كان الحال من قبل، بل يختار من تشريعات الدول الغربية الأخرى الأنسب لبلاده.
- وثانيا أن يستقى أحكامه مما استقرت عليه أحكام المحاكم المصرية من مبادئ وتفسيرات، لأن ذلك يمثل البيئة المحلية فى التعامل.
- والتوجه الثالث أن يستقى بعض الأحكام من الفقه الإسلامى، وكان هذا المصدر الأخير هو آخر المصادر وأقلها من حيث حجم الأحكام المأخوذة منه.

ويهمنا أن نشير هنا إلى أن نمط الاستقلال التشريعى الذى اختير فى هذه الحالة، نمط يتفق مع النظر العلماني الذى كان سائدا بين نخبة الحكم وقتها وقد ساد هذا النمط فى تشريعات البلاد العربية التى حصلت على استقلالها سواء فى سوريا أو فى لبنان ثم فى ليبيا وغيرها.

إلا أن ثمة تجربة قامت فى العراق، عند وضع التقنين المدنى العراقى، فلم يأخذ عن المصدر المصرى إلا بطريق الاستعارة وبطريق المزج بينه وبين الأحكام الشرعية المستقاة من مجلة الأحكام العدلية، فأتى تشريعا أقرب إلى نظم الشريعة الإسلامية من القانون المصرى.

والخلاصة فيما آل إليه الوضع فى هذه

المرحلة، وهى ذاتها المرحلة التى نحياها حتى اليوم، أن مجال الشريعة الإسلامية تراه محصورا فى مجال الأحوال الشخصية، نظام الزواج والنفقة والميراث ومجالها الإقليمى لا يزال قائما فى بعض أقطار الجزيرة العربية وإن كانت بدأت القوانين الوضعية تزداد أثرا وتتسع مجالا فى هذه الأقطار خلال الفترتين الأخيرتين.

وإنه فيما عدا مجال الأحوال الشخصية وفيما عدا أقطار الجزيرة العربية نجد نوعا من سيادة التشريعات الآخذة عن الغرب فى مجال العقوبات وقوانين التجارة ونظم المحاكم.

ويبقى بعد ذلك مجال القانون المدنى فى غير أقطار الجزيرة العربية، حيث تنقسم البلاد نوعين، نوع يصدر عن النظم الغربية كمصر وسوريا ولبنان وليبيا والثانى يزاوج بين القوانين المدنية الغربية ومبادئ الشريعة الإسلامية مثل العراق ومثل تونس فى المغرب العربى هذا هو الوضع القانونى الآن.



رابعًا: هذا هو وضع المسألة من الناحية التاريخية، كيف انحسرت الشريعة الإسلامية عن أن تكون هى النظام الحاكم فى مجتمعاتنا الإسلامية العربية، ولماذا جرى ذلك.

• أولاً: لم يكن العجز عن التجديد وتغلب الجمود هو السبب الذى أزاح نظام الشريعة الإسلامية عن وضعه الحاكم المهيمن لأن مجتمعاتنا وإن كانت تعانى من الجمود، فقد كانت حركات التجديد تتابع من الجنوب فى الجزيرة العربية أو من الشرق فى الهند أو من الغرب فى المغرب وذلك منذ القرن الثامن عشر قبل الاحتكاك بأوروبا.

• ثانيا: إن وفود النظم القانونية الوضعية الأوروبية إلى بلادنا، لم يأت ليعالج داء مستحكما فينا، فلم نكن نحتاج إلى قوانين الغرب فى ذلك الوقت بل وفدت إلينا هذه النظم لتدعم أواصر التبعية بيننا وبين الغرب.

ثالثا: إن استبعاد أنماط التشريعات العربية ودعمها بعد استقلال بلادنا، إنما مرده إلى أن الفكر الغربى قد صارت له ثوابت فى مجتمعاتنا، قامت على أساس تأكيد علمانية الدولة والنظام السياسى والهياكل القانونية.

وقد لا يتسع المقام الآن للحديث عن تجربة الدكتور السنهورى فى هذا المجال، الذى وضع القانون المدنى المصرى لعهد الاستقلال، ثم بعد سنوات تمكن من ارتياد آفاق التشريع الإسلامى مشاركا فى صياغة القانون العراقى، فطفق فى أواخر حياته يؤكد فى دراساته ومؤلفاته على أن تشريع الغد بالنسبة للبلاد العربية لابد أن يكون مأخوذا من الفقه الإسلامى كله.

والسؤال الآن، لماذا الشريعة الإسلامية؟

للتفكير فى السؤال ينبغى أن نضع جملة من الاعتبارات أمام الطالب ونتركها أمامه للتفكير فيها.

أ- القانون والأخلاق:

من المعروف أن دائرتى القانون والأخلاق لا تتطابقان، فالقانون يتكون من أحكام آمرة تعرفها الدولة بسلطاتها ويترتب على مخالفة هذه الأحكام توقيع جزاء مادى كعقاب أو حرمان تفرضه الدولة، أما الأخلاق فلا يحميها هذا الجزاء المادى ولا تفرضها الدولة بقوتها، إنما الجزاء الذى يحمى القاعدة الأخلاقية جزاء أدبى يتعلق باستنكار الجماعة للفعل المشين وازدرائها مرتكب هذا الفعل.

والفارق الآخر بين القانون والأخلاق، يغلب

على مقاييسه أن تكون ظاهرية، أى يكون للفعل مظهر مادى واضح ويتعلق دائما بالسلوك الخارجى للإنسان، بينما الأخلاق تغلب على مقاييسها أنها باطنية تتعلق بالضمير والنوايا وترجع للعقيدة الدينية.

ولكن مع هذا الخلاف بين القاعدة القانونية والقاعدة الأخلاقية، فلابد من وجود علاقة وثيقة متبادلة بينهما، وهذه العلاقة الوثيقة تدعم كلا من المجالين والانفصام بين مجالى القانون والأخلاق يضعف كلا من الجانبين سيما إن تضاربت القاعدة القانونية مع القاعدة الأخلاقية فالربا مثلا مباح قانونا محرم أخلاقا، واغتصاب ملك الغير قانونا يرتب ملكية المغتصب للمال المغتصب إن مضت خمسة عشرة سنة على حيازته الهادئة الظاهرة مع نية التملك، بينما الاغتصاب أخلاقا يتعين ألا يرتب كسبا للملكية وهكذا ولذلك فإن هذا الوضع المجافى للقانون عن الأخلاق من شأنه أن يفسد الأخلاق ويقيم شعورا بالاستهانة بها، كما أن الرفض الأخلاقى لحكم القانون يؤدى لضعف سلطان القانون فى النفوس وتهاون الناس فى احترامه.

ب- القانون والإسلام:

يلاحظ كثير من المؤرخين ومن فقهاء القانون أيضا أن الصلة بين الدين الإسلامى وبين الشريعة صلة تقوم على التغذية المتبادلة، فالشريعة انتشرت حيث انتشرت العقيدة الإسلامية، وبالعكس فإن العقيدة الإسلامية بدأت تنحسر وتضعف حيث تقلص نفوذ الشريعة ودورها فى المجتمعات التى أحلت القوانين الوضعية محل أحكام الشريعة وهذه العلاقة بين الدين والقانون إن وجدت فى مجتمعات غير إسلامية بين ديانات هذه المجتمعات وبين شرائعها فإنها بالنسبة للإسلام خاصة تتخذ وضعا وثيقا للغاية لأن ثمة صلة ارتكاز بين الدين والقانون فى الإسلام.

ج- الشريعة والجماعة السياسية:

إن التشريع الآخذ من الشريعة الإسلامية يشكل أساسا حيويا وجوهريا لتوحيد ما بين أقطار العرب والمسلمين، وقد قام بدوره التوحيدى هذا من قبل ومما له دلالته أن تفتت أمتنا العربية أقطارا جاء متواكبا مع العدول عن التشريع الإسلامى، وأن التقنين الوضعى واختلاف مدارسه صار مما يعوق إمكانات التوحيد بين شعوبنا، إذ يخضع المصرى والشامى للتشريعات اللاتينية «المأخوذة من فرنسا» ويخضع السودانى للتشريع الأنجلوسكسونى «قبل تطبيق الشريعة هناك» وهو التشريع الإنجليزى وتخضع دول الجزيرة للشريعة، وهكذا.

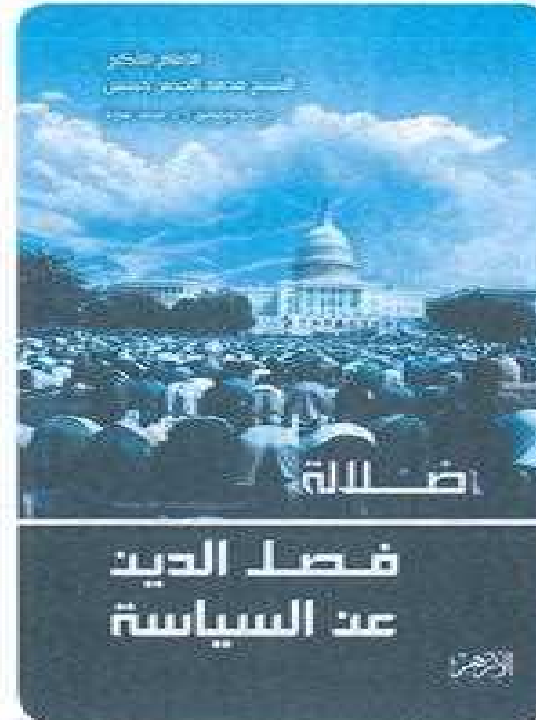
د- التجديد والشريعة:

عند الحديث عن التجديد والمجددين فى الإسلام ينبغى ملاحظة الفارق الهام بين الشريعة الإسلامية وبين الفقه الإسلامى فالشريعة هى الأحكام التى أنزلها الله سبحانه وتعالى لعباده ومصادرها الرئيسية هى القرآن الكريم وسنة المصطفى عليه السلام بينما الفقه هو معرفة الأحكام الشرعية التى تتعلق بأفعال العباد من أدلتها التفصيلية عن طريق الاستدلال والاستنباط والاجتهاد فى فهم نصوص الشريعة فالشريعة فى ذاتها ذات وضع إلهى لا يتغير، أما الفقه فهو فهم البشر للنصوص فى إطار أوضاع مجتمعاتهم وظروفهم وهو ذو وضع بشرى يرد عليه الخطأ والصواب ويرد عليه التجديد وإعادة النظر.

هذه هى الأسس التى يمكن أن تجدد موقف الإنسان العربى والمسلم اليوم من موضوع الشريعة الإسلامية.

حول علاقة الدين بالدولة

مع عدد ربيع الأول ١٤٣٥هـ- فبراير ٢٠١٤م- أهدت مجلة الأزهر قراءها كتاب الشيخ الأكبر محمد الخضر حسين- شيخ الأزهر الأسبق- : «ضلالة فصل الدين عن السياسة». وبقدر ما سعد الكثيرون بهذا الكتاب، فلقد أثار بعض الانتقادات والتساؤلات- من بعض العلمانيين- عن موقف الأزهر من علاقة الدين بالدولة والسياسة.. الأمر الذى استوجب تقديم عدد من الحقائق الكاشفة عن هذا الموقف تجاه هذا الموضوع.. وهى حقائق نوجزها فى عدد من النقاط.. أهمها:



• إن علاقة الدين بالدولة والسياسة لم تكن مثارة فى الفكر الإسلامى قبل الاحتكاك بالحضارة الغربية أثناء الغزوة الاستعمارية الحديثة. فالمسلمون- على مر تاريخهم- قد أبدعوا علما هو «علم السياسة الشرعية»، الذى يعالج «فقه الواقع» المتغير، ويضبط حركته ومستجداته بضوابط «فقه الأحكام».. ولقد قدمت مجلة الأزهر- ضمن هداياها إلى قرائها- فى الأشهر القريبة الماضية ثلاثة من أهم الإبداعات فى هذا العلم، هى «السياسة الشرعية» للعلامة الشيخ عبدالوهاب خلاف. و«السياسة الشرعية والفقه الإسلامى» لشيخ الأزهر الأسبق عبدالرحمن تاج. و«مدخل إلى السياسة الشرعية» للشيخ عبدالعال عطوة.

• فلما حدث الاحتكاك بالنموذج الحضارى الغربى، وعرفت بلادنا مذاهب الغرب فى علاقة الدين بالدولة والسياسة- من الكهانة الثيوقراطية، التى تدمج الدين بالدولة، فتقدس السياسة، وتحكم بالحق الإلهى.. إلى العلمانية، التى تفصل الدين عن الدولة والسياسة فصلا تاما- قدم الأزهر المنهاج الإسلامى الوسطى الرافض لكل من الثيوقراطية والعلمانية معا، وأكد على أن الإسلام دين وشرع، ومنهاج شامل للحياة، وأن الدولة والسلطة فى الإسلام مدنية. ولقد صاغ الشيخ محمد عبده نظرية الإسلام فى هذه العلاقة عندما قال: «إن الإسلام دين وشرع، فهو قد وضع حدودا ورسم حقوقا، ولا تكتمل الحكمة من تشريع الأحكام إلا إذا وجدت قوة لإقامة الحدود وتنفيذ أحكام القاضى بالحق وصون نظام الجماعة، والإسلام لم يدع مالقيصر لقيصر، بل كان من شأنه أن يحاسب قيصر على ماله، ويأخذ على يديه فى عمله، لأن الإسلام كما هو كمال للشخص، هو ألفة فى البيت ونظام للملك.. والإسلام لم يعرف تلك السلطة الدينية التى عرفتها أوروبا، والتى يسميها الإفرنج «ثيوكرتيك»، أى سلطان إلهى، لأن الحاكم فى الإسلام مدنى من جميع الوجوه ولايجوز لصحيح النظر أن يخلط سلطة الخليفة عند المسلمين بالثيوقراطية- الأوروبية وسلطانها الإلهى».

هكذا حدد الإمام محمد عبده الطبيعة المدنية للدولة الإسلامية، مع احتكام «فقه الواقع» إلى ثوابت «فقه الأحكام»، لتقدم السياسة الشرعية الإسلام «كمالا للشخص، وألفة للبيت، ونظاما للملك»، دونما كهانة ولا ثيوقراطية تقدس الدولة والسياسة، وتعزل الأمة عن أن تكون مصدر السلطة والسلطان.


محمد عبده — الخضر حسين

ونبه الإمام محمد عبده على تميز هذا النموذج الإسلامى عن كل النماذج التى عرفتها الحضارات الأخرى، فقال: «إن هذا النموذج قد امتازت به الأمم التى دخلت فى الإسلام عن سواها من الأمم التى لم تدخل فيه».

• وعندما صدر كتاب الشيخ على عبدالرازق «الإسلام وأصول الحكم» ١٩٢٥م داعيا إلى علمنة الإسلام، ومدعيا أنه «دين لا دولة، ورسالة لا حكم، وشريعة روحية محضة»، وقال: «يا بعد ما بين السياسة والدين»، وواصفا عبارة: «دع مالقيصر لقيصر» بأنها «الكلمة البليغة».. اتفقت جماعة كبار العلماء بالأزهر على رفض هذه الدعاوى، بل وأخرجت صاحبها من زمرة العلماء.. فلما عاد الشيخ على عبدالرازق إلى إعلان «أن الإسلام دين تشريعى، وإنه يجب على المسلمين إقامة شرائعه وحدوده، وإن الله خاطبهم جميعا بذلك، ويجب على المسلمين إقامة حكومة منهم تقوم بذلك».. عاد الأزهر فرد إليه شهادة العالمية من جديد..

ولقد ظل الشيخ على عبدالرازق


محمد فريد وجدى


خالد محمد خالد


جاد الحق على جاد الحق


على عبدالرازق

رافضا إعادة طبع كتابه هذا حتى انتقل إلى جوار ربه.. بل وذهب إلى وصف عبارة: «أن الشريعة الإسلامية هى رسالة روحانية محضه» بأنها «كلمة ألقاها الشيطان على لسانه»!

• وعندما تكررت الدعوة إلى علمنة الإسلام ١٩٥٠م فى كتاب الشيخ خالد محمد خالد: «من هنا نبدأ»، نشرت مجلة الأزهر عشر مقالات- فى عشرة أعداد- لرئيس تحريرها العلامة محمد فريد وجدى، تحت عنوان: «ليس من هنا نبدأ»، وذلك تعبيرا عن الموقف الثابت للأزهر الشريف من علاقة الدين بالدولة، والذى تعبر عنه السياسة الشرعية، التى تبرأ من كهانة دمج الدين فى الدولة، ومن علمانية فصل الدين عن الدولة.

ولقد عاد الأستاذ خالد محمد خالد عن رأيه هذا، ونشر كتابه: «الدولة فى الإسلام».

• وفى أوائل تسعينيات القرن العشرين، وعندما جرت فى مصر مناظرات حول العلمانية ومعنى الدولة المدنية والدولة الدينية، عاد الأزهر ليؤكد موقفه الثابت من هذه القضية، فنشر مجمع البحوث الإسلامية كتاب: «الإسلام والسياسة: الرد على شبهات العلمانيين»، وقدم الإمام الأكبر الشيخ جاد الحق على جاد الحق شيخ الأزهر يومئذ- لهذا الكتاب بمقدمة مؤرخة فى ٢٩ يونية ١٩٩٢م، جاء فيها: «إن العلمانية مذهب من مذاهب الحضارة الغربية الحديثة والمعاصرة، يدعو إلى عزل الدين عن أن يكون إطارا ضابطا للنشاط الدنيوى للإنسان، فيفصم العلاقة بين الشريعة الإلهية وبين الدولة والسياسة والاجتماع والاقتصاد والسلوك.. أى يعزل الدين عن الدنيا، وذلك باستثناء خصوصيات العقائد والشعائر العبادية.. ولقد نشأت هذه العلمانية فى الغرب إبان نهضته الحديثة- كرد فعل لحكم الكنيسة وتحكمها، فهى حل غربى لمشكلة غربية.. وليس هكذا الحال مع الإسلام والحضارة الإسلامية، فالإسلام منهاج شامل للدين والدنيا، للعقيدة والشريعة والحضارة والأخلاق، للحياة الدنيا وللآخرة.. فالدعوة إلى إبعاد الإسلام- بالعلمانية- عن سياسة الدولة وشئون العمران، هو قطع لإحدى ساقيه، وتعطيل لإحدى رئتيه، وكفران ببعض آيات كتابه، ينتقص من كمال واكتمال الإيمان بهذا الإسلام».

• هكذا كان الموقف الثابت للأزهر الشريف من علاقة الدين بالدولة على امتداد القرنين التاسع عشر والعشرين، ومنذ أن عرفت بلادنا الجدل الفكرى حول هذا الموضوع.

• ولم يكن موقف الأزهر هذا مخالفا لتوجهات الدولة المصرية إبان تلك العقود.. ذلك أن دساتير الدولة المصرية الحديثة قد اجتمعت على إعلان «أن دين الدولة هو الإسلام، وأن مبادئ الشريعة الإسلامية هى المصدر الرئيسى للتشريع» كما اجتمعت على إعلان أن الأمة هى مصدر السلطات.. فاتفقت هذه الدساتير مع الأزهر الشريف على رفض العلمانية والثيوقراطية جميعا.

• وحتى دستور ١٩٥٤م- الذى لم يوضع فى التطبيق، والذى وضعته لجنة رأسها فقيه الشريعة والقانون الدكتور عبدالرزاق السنهوري- فإننا نقرأ فى مضابط لجان وضع هذا الدستور قول الدكتور طه حسين: «إنه من المقطوع به أن الأغلبية لن تقبل أن تخرج عند وضع الدستور على ما أمر به الإسلام وإنه ليس هناك مقتض يسمح لنا بأن نعدل عن نص القرآن. وإنه إذا وجد


طه حسين


السنهورى

نص دينى صريح، فالحكمة والواجب يقتضياننا ألا نعارض النص، وأن نكون من الحكمة ومن الاحتياط بحيث لا نضر الناس فى شعورهم، ولا فى ضمائرهم ولا فى دينهم. وإذا احترمت الدولة الإسلام فلابد أن تحترمه جملة وتفصيلا، ولا يكون الإيمان إيمانا ببعض الكتاب وكفرا ببعضه الآخر».

• هذا هو موقف الأزهر من علاقة الدين بالدولة.. وهو موقف سابق على نشأة الأحزاب والجماعات، ومستقل عن خلافات الأحزاب والجماعات.. وهو ذاته موقف الدولة التى صاغته فى دساتيرها الحديثة، منذ ١٩٢٣م وحتى الآن. وهو الموقف التى عبر عنه كتاب الشيخ محمد الخضر حسين: «ضلالة فصل الدين عن السياسة» الذى أهدته مجلة الأزهر إلى قرائها مع عدد ربيع الأول ١٤٣٥هـ. إنه موقف ثابت، يجب أن يكون حاضرا أمام كل الذين يتحاورون حول هذا الموضوع.

جمادى الأولى ١٤٣٥ هـ
مارس ٢٠١٤ م

الشورى فى معركة البناء «٤»

وظائف الشورى ومقاصدها

أ. د. أحمد الريسوني

٦. إشاعة جو الحرية والمبادرة

الشورى هى أولا وقبل كل شىء حرية فى التفكير وحرية فى التعبير الصادق الأمين. والشورى إذا أفرغت من حرية التفكير والتعبير أصبحت مجرد ملهاة، أو مجرد مناورة على وزن مشاورة.

أى أنها تتخذ شكل المشاورة واسم المشاورة، ولكنها فى النهاية مجرد تضليل ومناورة.

ولذلك فحرية التفكير وحرية التعبير، هى شرط من شروط الصحة فى الشورى، شرط سابق وشرط مرافق. فإذا أردنا الشورى الحقيقية، فلنقل: هى التى تكون الحرية قبلها، والحرية معها. وعلى هذا الأساس فإن الشورى تصبح ترجمة عملية لحرية التفكير والتعبير، وتصبح خادمة لها، ومعززة لممارستها، وضامنة لاستمرارها واشتداد عودها.

وحينما تشيع فى مجتمع ما، أو فى وسط ما، الشورى الحقيقية، شورى الحرية والصدق، فإن نفسية الناس تكون نفسية الراغبين فى بذل المشورة، وبذل النصيحة، والصدق والصراحة فيهما. ويصبح الناس مبادرين إلى ذلك، طلب منهم أو لم يطلب. وحين تنعدم الشورى وأجواء الشورى، أو تمارس الشورى الصورية الزائفة، فإن الناس يعرضون عن بذل مشورتهم ونصحهم، ويزهدون فى ذلك، بينما يتقدم إليه المتملقون، لقضاء مآربهم.

سبق أن أوردت - أول هذا المقال - قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

(البقرة: ٣٠)

وقد اعتبر الشيخ ابن عاشور أن هذا الإخبار من الله تعالى للملائكة، وما تلاه من حوار، اعتبره نوعًا من الاستشارة، على سبيل التعليم والتكريم.

وأنا أجد فى هذه المحاورة بين الله وملائكته درسًا آخر، هو درس حرية التفكير

وحرية التعبير. فالملائكة لم يجدوا مانعًا ولا حرجًا من إبداء استغرابهم وملاحظاتهم التى جاءت فى صيغة تساؤل واستفهام. والله عز وجل لم يعنفهم ولم يوبخهم على «تحفظهم»، ولكنه سبحانه حاورهم، وبين لهم، ومحا شبهتهم، حتى قالوا:

﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾

(البقرة: ٣٢).

وكلنا نعرف قصة المرأة التى جاءت إلى رسول الله ﷺ تحكى وتشتكى فى أمر زوجها الذى حرّمها على نفسه بصيغة الظهار، ولكنها تجاوزت الشكوى إلى مجادلة النبى عليه السلام فيما قاله لها. فما لبث القرآن الكريم أن نزل فى شأنها. لم ينزل القرآن بزجرها وتوبيخها على مجادلتها لرسول الله ﷺ، بل نزل بإنصافها والإقرار لتصرفها:

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾

(المجادلة: ١).

وتجد الصحابة - رجالا ونساء - يقدمون آراءهم وتحفظاتهم واعتراضاتهم، لرسول الله ﷺ، من دون أن يخافوا ولا أن يتلقوا زجرًا ولا لومًا، لا عنيفًا ولا خفيفًا.

وحتى حينما ظهرت بعض التجاوزات من حيث الأدب واللياقة، فإن القرآن الكريم هو الذى نزل ينبه على الأدب اللازم فى مخاطبة رسول الله ﷺ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾

(الحجرات: ٢).

وهذه مجرد آداب تتعلق بطريقة الخطاب، وليست منعًا ولا كبتًا لحرية التعبير التى ظل الصحابة يمارسونها بحضرة النبى الكريم وتجاه بعض تصرفاته وتدابيره حتى آخر أيامه عليه الصلاة والسلام، حين تحفظوا على توليته أسامة بن زيد قيادة الجيش، وهو دون العشرين، فلم يزد رسول الله ﷺ أن بين لهم خطأهم، وأن أسامة جدير بقيادة الجيش، وأن القرار فى محله. قال عليه السلام: «إن تطعنوا فى إمرته، فقد كنتم تطعنون فى إمرة أبيه من قبل، وايم الله إن كان لخليقًا للإمرة، وإن كان لمن أحب الناس إلىّ، وإنّ هذا لمن أحب الناس إلىّ بعده». (١)

وكان ﷺ يأخذ بآرائهم المعارضة إذا أشاروا بها وظهر صوابها ووجاهتها. والأمثلة على هذا كثيرة فى كتب الحديث والسيرة. من ذلك ما جاء فى صحيح مسلم: «لما كان غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة، قالوا يا رسول الله، لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا فأكلنا وادهنا. فقال رسول الله ﷺ: افعلوا.. فجاء عمر فقال يا رسول الله إن فعلت قل الظهر، ولكن ادعهم بفضل أزوادهم، ثم ادع الله لهم عليها بالبركة،

١- انظر الصحيحين، فضائل الصحابة «مناقب زيد بن حارثة».

٢ - صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب من مات على التوحيد دخل الجنة.

لعل الله أن يجعل في ذلك. فقال رسول الله ﷺ: نعم.. قدعا...»(٢).

والمقصد من هذا هو أن الشورى والحرية شيئان متلازمان يعضد أحدهما الآخر، ويتوقف أحدهما على الآخر، وأن ما قد يقع في ثناياهما من أخطاء في الرأي أو الأدب لا يضر، لأن الدواء نفسه يوجد في الحرية والشورى.

٧. تنمية القدرة على التفكير والتدبير

الشورى مدرسة للتربية والتعليم، والتدريب والتأهيل. فإضافة إلى ما تقدم من مقاصدها وفوائدها، فإن الشورى تتيح لجميع المستشيرين والمستشارين فرصا عملية ودروسا تطبيقية لتنمية ملكاتهم الفكرية وخبراتهم الميدانية. فالتشاور بحث ونظر وتعلم وتفهم، واكتساب للتجارب والخبرات.

فالشورى تجعل المنخرط فيها يفكر في أمور وقضايا ربما لم يفكر فيها، أو ما كان ليفكر فيها، لولا الشورى. وربما لو فكر فيها وحده، أو عالجها وحده، لكان ذلك بشكل مختلف وبمستوى دون المستوى التشاوري.

ومن هذا الباب نجد أن النبي ﷺ كان يستشير الصحابة في أمور قد تكون واضحة عنده، ولكنه يستثير بها تفكير الصحابة، وينتقل بهم إلى درجة أعلى من الفهم والتقدير، أو نقول: يشاورهم ليعلمهم ويرقي مداركهم. من ذلك هذا المثال الذي ذكره أبو الوليد الباجي: «روي أنه ﷺ استشار الصحابة في عقوبة الزنى والسرقة. فقالوا: الله ورسوله أعلم. فقال: هن فواحش، وفيهن عقوبة» قال الباجي: «فلولا أنه وإياهم مأمورون بالاجتهاد فيما نزل (٣) مما لا نص فيه، لم يكن للمشاورة في عقوبة من لم ينزل بعقابه نص وجه...»(٤).

وهكذا كلما تكررت الشورى وتراكمت فوائدها المعرفية والفكرية والعلمية لدى الأفراد، وكلما اتسعت وشاعت في صفوف المجتمع ومجالات الحياة، فإنها تعطي في النهاية عددا واسعا من ذوي الاهتمام والفهم للأمور، ومن ذوي الخبرة والمهارة في المعالجة والتدبير للمشاكل والتحديات وسائر متطلبات الحياة.

وإن من تكريم الله للإنسان، أن ترك له مجالات واسعة في دينه، ومجالات أوسع في دنياه، يمكن تدبير شئونها وحل إشكالاتها، من خلال الجهد والاجتهاد البشري. وأرقى صور الاجتهاد البشري، وأرشدها وأهداها سبيلا، هو الاجتهاد الشوري. بل إن الاجتهاد الشوري الميداني هو أفضل طريق لتأهيل العقل البشري وترقيته في مراتب الاجتهاد والتفكير السديد.

وحتى علماؤنا، وكبار علمائنا، فإنهم إذا لم يكتسبوا علم الحياة وعلم الواقع، وعلم النوازل والوقائع، والعلم بالقضايا

٣- أي فيما وقع.
٤- إحكام الفصول في أحكام الأصول، ص٥٧٥.

الحقيقية الميدانية، فإنهم عادة ما يبقون على قدر كبير من السذاجة والغفلة، ومن الضعف الفكري والعلمي أيضا، ويظلون في أمس الحاجة -لكي ينتفعوا وينفعوا بعلمهم المحفوظ- إلى الخوض والمعاينة والمناقشة لقضايا واقعهم ومجتمعهم وزمانهم. والانخراط في الشورى وفي الهيئات الشورية، (٥) هو أفضل المداخل لتحقيق ذلك. وهذا ما ينطبق على سائر الناس، كل حسب موقعه ودرجته ومجاله.

٨. تقوية الاستعداد للتنفيذ والتأييد

القرارات والتكاليف والتدابير التي تنبثق عن تشاور وتراض، وتكون على قدر كبير من التوازن والموضوعية، يتلقاها الناس عادة بالحماس والرغبة في تنفيذها وإنجاحها وتحمل متطلباتها، لأنها تتمتع بالمشروعية والمصداقية، ولأن الناس يحسون أنها منهم وإليهم، لأنها صدرت عن مشورتهم أو مشورة من يمثلونهم وينوبون عنهم. وحتى من لا يكونون مكلفين بتنفيذها، فإنهم ينخرطون في تأييدها والدفاع عنها.

وأما القرارات والتدابير والتكاليف الانفرادية، أو الاستبدادية، فإنها في أحسن الحالات، تتلقى بالفتور واللامبالاة، وقد يصل الناس إلى حد التملص منها أو مقاومتها أو الطعن فيها، سرا أو علانية، مع تنفيذ رديء متلكئ، عند من يضطرون لتنفيذها.

٩. الألفة والوحدة

الشورى -كما سبق- تعطي أعلى درجات المشروعية والمصداقية، للولايات العامة، ولمن يتولونها، ولما يصدر عنها من اجتهادات وقرارات. وهذا ما يحقق عادة درجات عالية من الرضا والتسليم والاطمئنان. وقد قرن الله تعالى بين التشاور والتراضي في قوله:

﴿تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ﴾

(البقرة: ٢٣٣).

قال العلامة ابن عاشور: «فإن التشاور يظهر به الصواب ويحصل به التراضي»(٦) وقد تقدم قول ابن العربي «الشورى ألفة للجماعة».

وهذا المعنى موجود أيضا في آية آل عمران، حيث تمت المقابلة بين انفضاض الناس وانصرافهم عن الرسول لو كان فظا غليظ القلب معهم، وبين ضد ذلك، وهو العفو عنهم والاستغفار لهم ومشاورتهم فالفظاظة والغلظة تفرق الناس وتنفرهم، والعفو والاستغفار والمشاورة تجمعهم وتؤلف بينهم.

وقديما نقل عن بعض علماء السلف تعليلهم لقوله تعالى لنبيه ﷺ

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾

(آل عمران: ١٥٩).

بأنه إنما أمره بذلك «تطييبا لنفوسهم ورفعا من أقدارهم»، وقد رفض الجصاص هذا القول، ورد عليه بقوة. ومما قاله

٥- أقصد الهيئات الشورية بأوسع معانيها، وبكل أشكالها ومستوياتها ومجالاتها، وليس فقط الهيئات السياسية أو الهيئات الرسمية.
٦- التحرير والتنوير ٢/٤٣٨.

فى ذلك: «وغير جائز أن يكون الأمر بالمشاورة على جهة تطييب نفوسهم ورفع أقدارهم ولتقتدى الأمة به فى مثله، لأنه لو كان معلوما عندهم أنهم إذا استفرغوا مجهودهم فى استنباط ما شوورا فيه وصواب الرأى فيما سئلوا عنه، ثم لم يكن ذلك معمولا عليه ولا متلقى منهم بالقبول بوجه، لم يكن فى ذلك تطييب نفوسهم ولا رفع أقدارهم، بل فيه إيحاشهم وإعلامهم بأن آراءهم غير مقبولة ولا معول عليها. فهذا تأويل ساقط لا معنى له». (٧)

وعندى أن تطييب النفوس وتأليفها غرض صحيح وثمرة ثابتة من ثمرات الشورى، لكنه مقصد لا يلغى المقصد الأول والأساس، وهو ظهور الصواب والعمل به، بل هو تابع له وأثر من آثاره.

فإذا كان الناس أمورهم شورى بينهم، وكان ولاة أمورهم يشاورونهم فى شئونهم ويأخذون بعين الاعتبار آراءهم، فهذا من أعظم أسباب الألفة والوحدة والتماسك وبسبب غياب ذلك تدب الفرقة والتفكك والانقسام.. وحتى لو أمكن تحقيق الوحدة أو المحافظة عليها بالقوة والقهر وبأسباب أخرى. فإنها تكون بدون ألفة وبدون تراض، ولا بد أن تئول إلى التفكك والتفرق والانقسام والتمرد، ولو بعد حين.

١٠. تحمل التبعات السيئة

وأعنى بها النتائج والمآلات اللاحقة، التى تنجم عن قرار ما أو تدبير ما، وتكون سيئة أو وخيمة أو ضارة أو مرهقة فى آثارها. وقد تكون هذه المآلات بسبب خطأ فى القرار المتخذ أو التدبير المعتمد، وقد يكون ذلك لأسباب طارئة وخارجة عن القرار، وفوق إرادة أصحابه وتدبيرهم.

وفى جميع الحالات، فإن الناس يتبرءون من هذه النتائج والتبعات ويتهربون من تحملها، إذا كان القرار قد اتخذ بصفة انفرادية وبطريقة استبدادية. ويحملون تبعاته لمن اتخذه وسار عليه. بل تزداد نقمتهم عليه، وتتضاعف الآثار السلبية المنعكسة على معنويات الناس وعلاقتهم بمسئوليهم ممن تسببوا فى اتخاذ القرار ومن نفذوه ومن أيدوه...

أما فى حالة القرار الشورىّ والتدبير الجماعى، فيكون المسئول ومن معه قد فعل ما يجب عليه، وتحرى ما يمكن تحريه، وأشرك معه أولى الأمر وأصحاب الاختصاص. واحتاط لنفسه ولجماعته. وبهذا يحس الناس أنهم ـ بشكل أو بآخر ـ كلهم قد شاركوا فى اتخاذ القرار المتخذ، وكلهم مسئول عنه وعن تبعاته. فلذلك ينخرطون باقتناع وطواعية فى تحمل التبعات واقتسام كلفتها المادية والمعنوية. وفى هذا المعنى يقول الدكتور محمد عبدالقادر أبو فارس: «والشورى توزيع للمسئولية، فلا تقع نتيجتها على كاهل واحد بعينه، بل يتقاسم حلوها ومرها الجميع، فلا يتلاوم الناس ويتدابرون ويتشاجرون إن كانت نتيجة الشورى سلبية لا تسر». (٨)

٧- أحكام القرآن ٢/٤٠ ـ ٤١.
٨- الشورى والاجتهاد الجماعى، ص٣٥.

مدى مشروعية تولى المرأة رئاسة الدولة فى الفقه الإسلامى



أ.د. حلمى عبدالحكيم الفقى



المعارضون لتولى المرأة رئاسة الدولة

ذهب أصحاب هذا الرأى إلى عدم جواز تولى المرأة رئاسة الدولة، واستدلوا على صحة مذهبهم بالقرآن والسنة والإجماع والمعقول.

أولا: من القرآن الكريم:

فآيات كثيرة دلت على عدم جواز تولى المرأة رئاسة الدولة، وعلى حرمة هذا الفعل، ومن هذه الآيات:

١ ـ قوله تعالى:

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ﴾ (النساء: ٣٤).

وجه الدلالة: قال الإمام الطبرى (٢٢٤ ـ ٣١٠هـ، ٨٣٩ ـ ٩٢٣م) فى تفسيره (١): «الرجال أهل قيام على نسائهم فى تأديبهن والأخذ على أيديهن فيما يجب عليهن لله ولأنفسهم بما فضل الله بعضهم على بعض يعنى بما فضل الله به الرجال على أزواجهم من سوقهم إليهن مهورهن، وإنفاقهم عليهن أموالهم، وكفايتهم إياهن مؤنهن، وذلك تفضيل الله تبارك وتعالى إياهم عليهن، ولذلك صاروا قواما عليهن، نافذى الأمر عليهم، فيما جعل الله إليهم من أمورهن» (٢).

فإذا جعل الله عز وجل القوامة للرجل على المرأة فى شئون البيت والأسرة ففى رئاسة الدولة من باب أولى. فيشترط فى رئيس الدولة أن يكون رجلا ذكرا، ولا يصح للمرأة تقلد هذا المنصب الخطير (٣).

(١) انظر تفسير الطبرى، والمسمى جامع البيان فى تأويل القرآن ٨/٢٩٠، ط مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م تحقيق أحمد محمد شاكر.
(٢) وذكر القرطبى فى تفسيره هذا المعنى، انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ٥/١٦٨، ط مكتبة الغزالى دمشق، ومؤسسة مناهل العرفان بيروت.
(٣) انظر قريبا من هذا المعنى الموسوعة الفقهية الكويتية ٤٥/١٤٢، والصادرة عن وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بدولة

٢- قوله تعالى :

﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (البقرة ٢٢٨).

وجه الدلالة: جاء فى جامع البيان فى تأويل القرآن[4]: «معنى الدرجة التى جعل الله ـ عز وجل ـ للرجال على النساء الفضل الذى فضلهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ عليهن فى الميراث والجهاد وما أشبه ذلك».

فإذا كان الإسلام قد فضل الرجال على النساء وجعل للرجال درجة على النساء فى الأمور الصغيرة كالميراث والجهاد فكل هذا وغيره يفيد عدم جواز تولى المرأة رئاسة الدولة فى الفقه الإسلامى من باب أولى وأحرى، والله أعلم.

٣- قوله تعالى :

﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ﴾

(الأحزاب ٣٣)

وجه الدلالة: أن المرأة مأمورة بنص القرآن الكريم أن تلزم بيتها فكيف تستطيع ممارسة المهام الشاقة والصعبة والكبيرة لرئيس الدولة، ففى هذه الآية دليل واضح على عدم جواز تولى المرأة رئاسة الدولة.

٤- قول الله عز وجل:

﴿ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ ﴾

(البقرة ٢٨٢).

وجه الدلالة: إذا كان القرآن الكريم قد جعل شهادة المرأة على النصف من شهادة الرجل فهذا يفيد بالضرورة ومن باب أولى عدم جواز تولى المرأة رئاسة الدولة، والله أعلم.

ثانيا: من السنة النبوية:

فقد جاءت أدلة كثيرة تفيد عدم جواز تولى المرأة رئاسة الدولة ومنها:

١- لم يرد عن النبى ـ ﷺ ـ أنه ولى امرأة ولاية عامة ولا حتى ولاية القضاء، ولو كان ذلك جائزا وحقا للمرأة لفعله النبى ﷺ ولما حرم المرأة حقا من حقوقها.

٢- عن أبى بكرة ـ رضى الله عنه ـ (١١ - ٥٢هـ / ٦١١ - ٦٧٢م) قال لقد نفعنى الله بكلمة سمعتها من رسول الله ﷺ بعدما كدت أن ألحق بأصحاب الجمل فأقاتل معهم، قال لما بلغ رسول الله ﷺ أن أهل فارس قد ملكوا عليهم بنت كسرى قال: (لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة)[5].

=الكويت. الطبعة من ١٤٠٤هـ - ١٤٢٧هـ وموسوعة الفقه الإسلامى ٥/٢٢٣ لمحمد إبراهيم التويجرى، الطبعة الأولى ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م، ط بيت الأفكار الدولية.

(٤) انظر تفسير الطبرى ٤/٥٣٣ مرجع سابق، وانظر تفسير البغوى ١/٣٠٢، والمسمى بمعالم التنزيل فى تفسير القرآن للبغوى، ط دار إحياء التراث العربى، بيروت الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ.

(٥) حديث أبى بكرة أخرجه البخارى فى صحيحه، فى كتاب المغازى، باب كتاب النبى ﷺ إلى كسرى وقيصر حديث رقم (٤٤٢٥) ٨/١٢٦ ط مكتبة الغزالى دمشق، ومؤسسة مناهل العرفان بيروت والنسائى فى سننه فى كتاب آداب القضاة، باب النهى عن

وجه الدلالة:

قال الصنعانى (١٠٩٩ - ١١٨٢هـ = ١٦٨٨ - ١٧٦٨م) فى سبل السلام[6] «وفى الحديث دليل على عدم جواز تولية المرأة شيئا من الأحكام العامة بين المسلمين، وإن كان الشارع قد أثبت لها أنها راعية فى بيت زوجها، وذهب الحنفية إلى جواز توليتها الأحكام إلا فى الحدود، وذهب ابن جرير إلى جواز توليتها مطلقا، والحديث إخبار عن عدم فلاح من ولى أمرهم امرأة، وهم منهيون عن جلب عدم الفلاح لأنفسهم مأمورون باكتساب ما يكون سببا للفلاح».

٣- عن عبدالله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ (١٠ ق هـ - ٧٣هـ = ٦١٣ - ٦٩٢م) أن رسول الله ﷺ قال: (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالأمير راع على الناس وهو مسئول، والرجل راع على أهله وهو مسئول، والمرأة راعية على بيت زوجها وهى مسئولة، والعبد راع على مال سيده وهو مسئول، فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته)[7].

وجه الدلالة:

يبين هذا الحديث أن مسئولية المرأة الأولى هى رعاية بيتها وزوجها وأولادها، ثم قام الدليل على منعها من الولاية العامة ما تقدم من أدلة، وقال الإمام البغوى (٤٣٦ - ٥١٠هـ = ١٠٤٤ - ١١١٧م) فى شرح السنة[8]: «معنى الراعى هنا الحافظ المؤتمن على ما يليه، أمرهم النبى ﷺ بالنصيحة فيما يلونه، وحذرهم الخيانة فيه بإخبارهم أنهم مسئولون عنه، فالرعاية: حفظ الشىء، وحسن التعهد، فقد استوى هؤلاء فى الاسم، ولكن معانيهم مختلفة، فرعاية الإمام ولاية أمور الرعية والحياطة من ورائهم، وإقامة الحدود والأحكام فيهم، ورعاية الرجل أهله بالقيام عليهم بالحق فى النفقة، وحسن العشرة، ورعاية المرأة فى بيت زوجها بحسن التدبير فى أمر بيته والتعهد لخدمه وأضيافه».

ودلالة الحديث ظاهرة على أن الأصل

=استعمال النساء فى الحكم حديث رقم (٥٣٨٨) ٨/٢٢٧ ط مكتبة المطبوعات الإسلامية حلب، تحقيق عبدالفتاح أبو غدة الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م والترمذى فى سننه فى أبواب الفتن، حديث رقم (٢٢٦٢) ٤/٥٢٧ مطبعة مصطفى البابى الحلبى ـ مصر، الطبعة الثانية ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م والحاكم فى المستدرك على الصحيحين، فى كتاب معرفة الصحابة رضى الله عنهم، حديث رقم ٦٠٨، ٣/١٢٨ وقال الذهبى صحيح على شرط البخارى ومسلم، ووافق الترمذى والألبانى، الذهبى والحاكم فيما ذهبا إليه.

(٦) انظر سبل السلام ٤/٢٣٧، دار الكتاب العربى، بيروت، الطبعة الثانية عشرة، ١٤٢٠هـ = ١٩٩٩م.

(٧) أخرجه البخارى فى صحيحه، فى كتاب الجمعة، باب الجمعة فى القرى والمدن، حديث رقم (٨٩٣) انظر فتح البارى ٢/٣٨٠، ومسلم فى صحيحه، فى كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، حديث رقم (١٨٢٩) انظر شرح النووى على مسلم ١٢/٢١٣، وأبو داود فى سننه، فى كتاب الخراج والإمارة والفىء، باب ما يلزم الإمام من حق الرعية، حديث رقم (٢٩٢٨) انظر سنن أبى داود، لأبى داوود سليمان الأزدى، ط المكتبة العصرية صيدا بيروت، تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد، والترمذى فى سننه، فى أبواب الجهاد، باب ما جاء فى الإمام حديث رقم (١٧٠٥) انظر سنن الترمذى ط شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى ـ مصر، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر، ومحمد فؤاد عبدالباقى، وإبراهيم عطوة عوض، ومالك فى الموطأ فى كتاب الجامع، باب ما يكره من الصدقة، حديث رقم (٣٦٢١) ٢/١٨٩، انظر الموطأ للإمام مالك بن أنس، تحقيق بشار عواد معروف ومحمود خليل، الناشر مؤسسة الرسالة ١٤١٢هـ.

(٨) انظر شرح السنة للإمام البغوى ١٠/٦٢ المكتب الإسلامى، بيروت، تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد زهير الشاويش، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

فى عمل المرأة أن يكون داخل البيت لا خارجه وما عداه فيحتاج إلى مبرر.

ويقول ابن حجر (٧٧٣ - ٨٥٢هـ= ١٣٧٢ - ١٤٤٩م) فى شرح هذا الحديث(٩): «قوله المرأة راعية فى بيت زوجها إنما قيد بالبيت لأنها لا تصل إلى ما سواه غالبا إلا بإذن خاص».

وقال الحافظ فى موضع آخر من الفتح(١٠): «ورعاية المرأة تدبير أمر البيت والأولاد والخدم والنصيحة للزوج فى كل ذلك».

فالإسلام قد جعل مهمة المرأة الأولى هى رعاية بيتها وأولادها، والله - عز وجل سائلها يوم القيامة عن هذه المهمة، والولاية العامة ورئاسة الدولة بالذات ستشغل المرأة عما هو مطلوب منها شرعا، وهو رعاية بيتها وأولادها فتكون رئاستها للدولة غير جائزة شرعا.

٤- عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - (١٠ ق هـ - ٧٤هـ= ٦١٣ - ٦٩٣م) قال: «خرج رسول الله ﷺ فى أضحى أو فطر إلى المصلى فمر على النساء فقال: «يا معشر النساء تصدقن فإنى رأيتكن أكثر أهل النار» فقلن: وبم ذلك يا رسول الله؟ قال: «تكثرن اللعن، وتكفرن العشير، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن يا معشر النساء» قلن: وما نقصان عقلنا وديننا يا رسول الله؟ قال: «أليس شهادة المرأة نصف شهادة الرجل» قلن بلى، قال: «فذلك من نقصان عقلها، أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم؟» قلن: بلى، قال: فذلك من نقصان دينها»(١١).

وجه الدلالة: هذا حديث صحيح متفق عليه أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما فهو بذلك فى أعلى درجات الصحة، والحديث يدل دلالة ظاهرة على أن النساء ناقصات عقل ودين، فهل يصح بعد ذلك قول القائل: يجوز للمرأة أن تشغل الولايات الخاصة فضلا عن الولايات العامة، فضلا عن أخطرها وهو منصب رئاسة الدولة، وخلاصة القول: إن هذا الحديث يؤكد على عدم صحة تولى المرأة رئاسة الدولة، وأن هذا الأمر حرام شرعا.

ثالثا: الإجماع:

فلم يعرف خلاف بين العلماء القدامى فى وجوب أن يكون الإمام ذكرا، وأن المرأة لا تصلح للإمامة ولا لرئاسة الدولة، بل ذهبوا أبعد من ذلك فقد ذهب إمام الحرمين الجوينى فى غياث الأمم (١٢) إلى أن المرأة لا يصح لها أن

(٩) انظر فتح البارى ٥/١٨١، ١٨٢ مرجع سابق.

(١٠) المرجع السابق ١٣/١١٣.

(١١) أخرجه البخارى فى صحيحه فى كتاب الحيض، باب ترك الحائض الصوم، حديث رقم (٣٠٤)، انظر فتح البارى ١/٤٠٥، مرجع سابق وأخرجه مسلم فى صحيحه فى كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بنقصان الطاعات، حديث رقم (٨٠) انظر شرح النووى على مسلم ٢/٦٢ مرجع سابق.

(١٢) انظر غياث الأمم فى التياث الظلم للجوينى، ص٨١، ط دار الدعوة - الإسكندرية، الطبعة الثالثة ١٤١١هـ - ١٩٩٠م تحقيق د.مصطفى حلمى.

تدلى بصوتها فى الانتخابات فقال: «فما تعلمه قطعا أن النسوة لا مدخل لهن فى تخير الإمام وعقد الإمامة فإنهن ما روجعن قط، ولو استشير فى هذا الأمر امرأة لكان أحرى النساء وأجدرهن بهذا الأمر فاطمة - رضى الله عنها - (١٨ق هـ - ١١هـ= ٦٠٥ - ٦٣٢م) ثم نسوة رسول الله - ﷺ أمهات المؤمنين، ونحن بابتداء الأذهان نعلم أنه ما كان لهن فى هذا المجال مخاض فى منقرض العصور، ومر الدهور».

ثم يذكر إمام الحرمين بعد ذلك الصفات الواجب توافرها فى الإمام فيقول: (١٣) «ومن الصفات اللازمة المعتبرة: الذكورية، والحرية، والعقل، والبلوغ، ولا حاجة إلى الإطناب فى نصب الدلالات على إثبات هذه الصفات».

وسار غير إمام الحرمين على نفس الدرب فاعتبروا شرط الذكورة فى الإمام شرطا متفقا عليه ولا يحتاج إلى دليل(١٤).

رابعا: المعقول:

فقد استقر فى وجدان البشر عبر تاريخ الحياة على ظهر هذا الكوكب ومنذ فجر التاريخ أن الرجال أفضل من النساء وأنهم الأجدر بشغل المناصب الخطيرة، التى تؤثر أثرا نافذا فى حياة الأمم، وتواريخ البشر، وأن النساء يغلب على سلوكهن وتصرفاتهن العاطفة وليس العقل، وهن لهذا السبب لا يصلحن لشغل منصب رئاسة الدولة، وأبلغ دليل على صحة هذا الكلام واقع البشر فى كل الأمم، وعبر كل العصور، فلم يشغل هذا المنصب إلا الرجال، باستثناء الشاذ القليل الذى لا يقاس عليه، ونظرة إلى تاريخ أمريكا الدولة التى تتصدر موكب الحضارة الإنسانية الهادر منذ وقت ليس بالقليل فلم تصل امرأة واحدة إلى منصب رئيس أمريكا كله ولا حتى منصب نائب الرئيس - بل ولا حتى مرشح لمنصب رئيس أمريكا لأحد الحزبين الكبيرين - الجمهورى والديمقراطى - حتى هيلارى كلينتون التى نافست باراك أوباما لتنال ترشيح الحزب الديمقراطى لم تستطع أن تصل إلى موقع المرشح الرسمى للحزب فى انتخابات الرئاسة الأمريكية، فإذا كان هذا واقع أمريكا التى تتبوأ مكان الصدارة والقيادة فى موكب الحضارة الإنسانية، والقوة الأولى فى عالم اليوم سياسيا واقتصاديا وعسكريا، وما يحدث فى أمريكا هو غالب ما يحدث فى كل أمم الأرض، وفى سائر حضارات الدنيا، وما هذا إلا خير شاهد لما استقر فى ضمير العالم، وفى وجدان وعقل الإنسان أن النساء لا يصلحن لشغل منصب رئاسة الدولة.

وفى هذا المعنى يقول أبو حامد

(١٣) انظر المرجع السابق ص٩٤.

(١٤) انظر تفسير القرطبى ١/٢٧٠، مرجع سابق وشرح السنة للبغوى ١٠/٧٧، مرجع سابق ومغنى المحتاج للشربينى الخطيب ٤/١٦٠، ط دار الفكر، بيروت ١٤١٥هـ = ١٩٩٥م ونهاية المحتاج للرملى ٧/٤٠٩، ط دار الفكر بيروت، ١٤٠٤هـ = ١٩٨٤م ورئاسة الدولة فى الفقه الإسلامى للدكتور محمد رأفت عثمان ص ١٣٠، مرجع سابق، وولاية المرأة فى الفقه الإسلامى ص١٢٤، لحافظ محمد أنور، ط دار بلنسية، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ.

الغزالى (٤٥٠ - ٥٠٥هـ =١٠٥٨ - ١١١١م)(١٥): «فلا تنعقد الإمامة لامرأة وإن اتصفت بجميع خلال الكمال، وصفات الاستقلال، وكيف تترشح امرأة لمنصب الإمامة وليس لها منصب القضاء، ولا منصب الشهادة فى أكثر الحكومات».

وجاء فى مآثر الأنافة(١٦) تعقيبا على حديث (لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة): «والمعنى فى ذلك أن الإمام لا يستغنى عن الاختلاط بالرجال والمشاورة معهم فى الأمور، والمرأة ممنوعة من ذلك، ولأن المرأة ناقصة فى أمر نفسها حتى لا تملك النكاح، فلا تجعل إليها الولاية على غيرها».

مناقشة هذا الرأى: قبل مناقشة هذا الرأى وأدلته بالتفصيل أود أن أنبه على أن فقهاءنا الأجلاء فى هذه النقطة استندوا إلى العرف والواقع أكثر من استنادهم إلى نصوص الشرع وروحه ومقاصده، فجاءت فتواهم بعدم جواز تولى المرأة رئاسة الدولة فى الفقه الإسلامى متأثرة بواقع العصر الذى يعيشونه، وقد حاولت قدر استطاعتى أن أجمع كل الأدلة التى استند إليها القائلون بالمنع، والتى يمكن أن يستندوا إليها حتى أصل فى النهاية إلى الرأى الصحيح فى هذه المسألة، وأستعين المولى - عز وجل - فى مناقشة هذه الأدلة محاولا الوصول إلى الرأى الصواب.

أولا: الأدلة من القرآن الكريم:

١ - قول المولى - عز وجل -

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾

(النساء ٣٤).

هذه الآية تفيد أن المولى - سبحانه وتعالى - جعل القوامة فى شئون الأسرة للزوج على زوجته فقط، ولم يجعل القوامة لكل الرجال على كل النساء، ولم يجعلها لكل رجل على كل امرأة، بل جعل الإسلام القوامة أحيانا للنساء على الرجال، فقد أوجب الشارع الحكيم على المسلم البالغ العاقل الرشيد، طاعة أمه، ودل على ذلك نصوص كثيرة من القرآن الكريم ومن هذه النصوص، قول الله - عز وجل -:

﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾

(الإسراء ٢٣)

ولهذه الآية مرادفات كثيرة فى نصوص الشرع - القرآن والسنة - يعلمها الجميع فلا داعى لتكرارها.

فقول المولى - عز وجل:

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾

(النساء: ٣٤).

(١٥) انظر فضائح الباطنية، لأبي حامد الغزالي، ص١٨٠، ط مؤسسة دار الكتب الثقافية بالكويت، تحقيق عبدالرحمن بدوي.

لا يدل على أن المراد بالقوامة، القوامة العامة، بل هى قوامة خاصة فى شئون الأسرة فقط، فالآية الكريمة ليست فى محل النزاع، والذى يدل على ذلك ثلاثة أمور:

الأمر الأول: سبب نزول الآية:

فقد روى أن سعد بن الربيع (ت ٣هـ = ٦٢٥م) نشزت امرأته فلطمها فأتت النبى - ﷺ - شاكية، فقال لها: (بينكما القصاص) فأنزل الله عز وجل:

﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾

(طه: ١١٤).

فأمسك عليه ﷺ حتى نزل:

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾

فقال - ﷺ - (أردت أمرًا وأراد الله غيره)(١٧) وهذا دليل على أن المراد بالقوامة هى قوامة الزوج على زوجته.

الأمر الثانى: تركيب الآية وسياقها:

فإن فيها إشارة إلى المهر، والنفقات التى يتحملها الأزواج لقوله تعالى فى الآية

﴿وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾

وفيها إشارة إلى ما يجب للزوج على زوجته من طاعة وأمانة، وهو قوله تعالى:

﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾

(النساء: ٣٤).

وفيها إشارة إلى السلطة المخولة للأزواج على زوجاتهم، وهو قوله تعالى:

﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ﴾

(النساء: ٣٤).

فهذا يدل على أن المراد بالقوامة فى الآية الكريمة قوامة الرجال على زوجاتهم وليس توليتهن عليهم فى الولايات العامة كرياسة الدولة، والقضاء وغيرها من الولايات.

الأمر الثالث: صلاحية المرأة للولايات الخاصة:

فالمرأة تصلح وصية على مال اليتيم، وتصلح ناظرة مال الوقف، وتصلح لولاية الحسبة فى السوق كما ولى عمر ابن الخطاب - رضى الله عنه - (٤٠ ق هـ - ٢٣ هـ = ٥٨٤ - ٦٤٤م) ولاية الحسبة لامرأة تدعى الشفاء بنت عبدالله بن شمس (ت نحو ٢٠هـ = ٦٤٠م)، فلأنها قادرة على أن تقوم بأمور هذه الولاية جاز إسنادها إليها، فكذلك يجوز إسناد الولاية العامة إليها(١٨).

يتبع

(١٦) انظر مآثر الأنافة فى معالم الخلافة، للقلقشندى ١/ ١٧ مطبعة حكومة الكويت، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م، تحقيق عبدالستار أحمد فراج.

(١٧) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، في كتاب الديات، باب القصاص من الرجال والنساء، ٥/ ٤١١ حديث رقم (٢٧٤٩٣)، المصنف لابن أبي شيبة، ط مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ تحقيق كمال يوسف الحوت، وذكره الواحدي في أسباب النزول، ص١٠٠، ط مؤسسة الحلبي، القاهرة ١٣٨٨هـ ١٩٦٨م.

(١٨) انظر النظام القضائي في الإسلام، للدكتور محمد رأفت عثمان، ص٦٠، مرجع سابق.

أبعاد جديدة لمقاصد الشريعة «٤»

مقصد حفظ الدين

أ. د. عبدالمجيد النجار

أ. حفظ الدين بتوفير أسبابه

إن من حفظ الدين تيسير أسباب التدين، فلو كان الإنسان عازما على أن يتدين إيمانًا وسلوكًا، ثم هو لا يجد في الدين الذي يريد التدين به ما ييسر له الطريق إلى ذلك، فإن تدينه قد يتعرض إلى التفريط، إذ تتكالب عليه المثبطات، وتنغلق أمامه الطرق دون أن يجد من أحكام الدين نفسه عوامل التيسير والدفع، فيتعرض الدين إذن إلى الضعف شيئا فشيئا، وقد ينتهي إلى التلاشي بمرور الزمن. وقد شهد التاريخ أديانا كثيرة انتهت إلى هذا المصير أو ما يشبهه بذات هذا السبب، إذ لم تكن متوفرة على مناعة ذاتية تضمن الاستمرارية في التدين بها من قبل معتنقيها، فسرعان ما ارتخت صلتهم بها، كأن تكون على سبيل المثال غير قادرة على مواكبة الزمان وأحواله، فتضيق عن مشاغل الناس ومشاكلهم، فيتركونها إذن لتنتهي إلى الضياع.

وقد جاء في الشريعة الإسلامية تحوط لهذا الأمر، فشرع فيها من الأحكام ما مقصده حفظ الدين، وهي تلك الأحكام الكثيرة التي شرعت من أجل المساعدة على التدين، وذلك بتيسير مسالكه، وتوفير أسبابه، والمعونة على ممارسته على الوجه الصحيح بإتقان، وتواصله وتماديه في كل الأحوال، وذلك سواء فيما يتعلق بتدين الفرد أو بتدين المجتمع.

أولا ـ حفظ الدين بالتيسير:

لعل أول ما يتبادر إلى ذهن المستقرئ لأحكام الشريعة من أحكام حفظ الدين تلك الأحكام التي تحمل معاني التيسير ورفع الحرج، فقد ورد في القرآن الكريم والحديث النبوي أوامر كثيرة تأمر بتوخي اليسر في استنباط الأحكام والعمل بها، وتنهى عن التنطع والمغالاة فيها، فقد قال تعالى:

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾

(البقرة: ١٨٥)

وقال ﷺ لأصحابه: «إنما بعثتم ميسرين ولم

تبعثوا معسرين»(١)، وقال في النهي عن الغلو: «إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق»(٢)، وقال في المغالين في الدين: «هلك المتنطعون»(٣) ولكثرة ما تواتر من الأمر بالتيسير والنهي عن الغلو أصبح هذا الأمر وهذا النهي حكمين شرعيين في حكم القطع.

والأمر بالتيسير في الدين والنهي عن الغلو فيه إنما المقصد منهما حفظ الدين نفسه؛ إذ لما يتجه التدين إلى التشدد والمغالاة فإن المتدين سرعان ما تكل نفسه عن متابعة التدين إن كان قد انخرط فيه، بل قد يكون ذلك صادا عنه لمن أراده قبل أن ينخرط فيه لما يرى من مشقته وعسره، وهذا ما أراده ﷺ حينما نهى عن المغالاة فقال: «لا تبغض إلى نفسك عبادة الله، فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى»(٤) وإنما يكون تبغيض العبادة إلى النفس بالغلو الذي لا تطيق النفس التمادي عليه فتبغضه، فيكون الغلو إذن سببا في انقطاع التدين؛ ولذلك جاء النهي عنه حكما شرعيا مقصده حفظ الدين.

إن الأحكام الآمرة بالتيسير في العبادة، والناهية عن التنطع فيها إنما شرعت لأجل أن الناظر في الدين من أجل أن يبحث فيه عن الحق فيعتنقه يجد أنه دين ميسور الاتباع، ليس فيه من المشقة ومن الحرج ما يرهق النفس ولا الجسم، فيدفعه ذلك إذن إلى المضي فيه ليتدين به، كما شرعت لأجل أن من مضى في طريق التدين يجد أنه بيسره ورفع الحرج فيه يكون مقدورا له التمادي فيه فلا ينكص عنه، ويكون الدين إذن محفوظا بهذا التدين ابتداء واستمرارا جراء هذه الأحكام المقتضية لليسر ورفع الحرج، وهذا ما أشار إليه الإمام الشاطبي في قوله: «اعلم أن الحرج مرفوع من المكلف لوجهين: أحدهما الخوف من الانقطاع من الطريق، وبغض العبادة وكراهة التكليف»(٥)، ومعناه أن رفع الحرج من شأنه حفظ الدين بأن يكون مقاما بين الناس في إقبال عليه، وفي غير فرار منه أو نكوص عنه.

ثانيا ـ حفظ الدين بالاجتهاد

أحكام الشريعة أكثرها كلي عام، وليس جزئيا تفصيليا إلا فيما يتعلق بالعبادات وأحوال الأسرة؛ ولذلك فإن نوازل الحياة المستجدة لا يسعها ما هو منصوص عليه من تلك الأحكام. وحينما يرد الحكم الشرعي منصوصا عليه، فإن الدلالة اللغوية على معنى الحكم قد تكون ظنية، فيحتمل النص إذن أكثر من وجه من وجوه المعاني، فكيف للمسلم إذن أن يكون متدينا في شئون حياته كلها كما يقتضيه شمول الدين والحال أنه لا يملك حكما في تلك الشئون كلها، ولا يملك حكما قاطعا فيما لديه فيه حكم منصوص؟

إن ذلك يمكن أن يكون بالاجتهاد، بأن يفرغ المتدين وسعه في النظر فيما هو منصوص عليه بدلالة ظنية، فيعين من بين الاحتمالات ما يغلب على ظنه أنه مراد الشارع، ويستنبط فيما هو غير منصوص عليه أحكاما بطرق معروفة عند أهل العلم يغلب على ظنه أنها هي الدين

(١) أخرجه الترمذي: كتاب أبواب الطهارة، باب ما جاء في البول يصيب الأرض.
(٢) أخرجه أحمد: مسند أنس بن مالك.
(٣) أخرجه مالك: كتاب العلم، باب هلك المتنطعون.
(٤) أخرجه البيهقي في سننه: كتاب الصلاة باب القصد في العبادة.
(٥) الشاطبي - الموافقات: ٢/٤٠١.

المطلوب منه أن يتدين به، وبذلك يمكن أن يكون كل ما يفعله أو يتركه من فعل فردي أو جماعي موجها بحكم من أحكام الشريعة، إما بطريق النص المباشر أو بطريق الاجتهاد، وهذا هو معنى قولهم إن كل فعل إنساني لله فيه حكم بطلب الفعل أو الترك أو الإباحة.

وفي الشريعة الإسلامية جاء الأمر بالاجتهاد حكما واجبا على المسلمين على وجه الكفاية، فأيما نازلة نزلت بالمسلمين ليس فيها حكم مباشر من النصوص، فإن عليهم بحسب طاقتهم أن يجتهدوا فيها ليجدوا الحكم الشرعي المناسب لها، بل إن من الاجتهاد ما هو مطلوب من كل مسلم بعينه كما إذا تعلق الأمر بزيادة في الصلاة من غير جنسها سهوا، فإن المصلي إذا وقعت منه تلك الزيادة فعليه أن يجتهد في تقدير ما إذا كانت يسيرة فتغتفر، أم كثيرة فتبطل الصلاة[٦] ومن أهم الأصول في مشروعية الاجتهاد إقرار النبي ﷺ لمعاذ بن جبل لما قال إنه إذا لم يجد نصا في القرآن ولا في الحديث ليحكم به في نازلة من النوازل: «اجتهد رأيي ولا آلو»[٧]، فقد أقر النبي ﷺ ذلك واستحسنه، فأصبح حكما شرعيا محل إجماع.

إن هذا الاجتهاد كحكم شرعي إنما مقصده الأعلى حفظ الدين بتيسير التدين؛ وذلك لأنه إذا لم يجتهد المسلمون في تحديد الوجه الأرجح من الوجوه المحتملة في الدليل الظني الدلالة، فإنهم ربما وقعوا في العمل بما هو مرجوح من تلك الاحتمالات، بل بما هو موهوم منها، وحينئذ فإنهم سيخطئون الدين الصحيح، وكذلك فإنهم لو لم يجتهدوا فيما لا نص فيه فإنهم سيخضعون قسما كبيرا من حياتهم، بل القسم الأكبر منها لمقتضيات الهوى والأوهام، فلا يحصل التدين الحق، ويكون الدين إذن في كلا الحالين غير محفوظ على معنى أنه غير معمول به في الواقع، والاجتهاد هو أحد السبل الأساسية في حفظ الدين على ذلك المعنى.

ثالثا: حفظ الدين بالتبليغ

المقصود بالتبليغ هو عرض الدين على الناس، وشرحه وبيانه لهم في معتقداته وفي أحكامه الشرعية العملية، وذلك من أجل أن يعرفوا ما فيه من حق وخير فيعتنقوه دينا لهم يتدينون به. وقد يكون هذا التبليغ متمثلا في التبليغ بالتعليم والتربية للناشئة، وقد يكون تبليغا لمن انحرف من المسلمين عن الفهم الصحيح للدين أو عن العمل بمقتضياته في السلوك العملي. وقد يكون تبليغا لغير المسلمين ممن لا علم لهم به في حقيقته، فتبليغ الدين هو إذا عرض للدين على حقيقته من أجل معرفة الحق والخير فيه معرفة إيمانية يتبعها التزام سلوكي.

وتبليغ الدين للناس بمعانيه المختلفة هو حكم شرعي من درجة الوجوب، وهو وجوب قد يكون كفائيا إذا كان قيام البعض به يوفي بالغرض فيه، كأن تنفر جماعة من المسلمين لتؤدي هذا الواجب في مستوياته المختلفة، وقد يكون وجوبا عينيا بحسب الطاقة في الحالات التي لا يتوفر فيها من يقوم بالواجب الكفائي في بعض الأزمان أو في بعض الظروف أو في بعض المواقف. ومن دلائل وجوب هذا الحكم قوله تعالى:

﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾

(يوسف: ١٠٨)

وقوله تعالى:

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ﴾

(آل عمران: ١٠٤)

وقوله ﷺ: «بلغوا عني ولو آية»[٨]

إن هذا الحكم الشرعي الواجب - متمثلا في تبليغ الدين - إنما مقصده الأعلى حفظ الدين؛ وذلك لأن تبليغ الدين لمن لا علم لهم به يؤدي إلى العلم به، وقد يؤدي بالكثيرين منهم إلى الإيمان به، وذلك لأن من مظاهر حفظ الدين انتشاره بين الناس ومن مظاهر ضياعه تقلصه وانكماشه، وكذلك لأن تبليغ الدين على وجه التصحيح لمن هو مؤمن به ولكن أصابه فيه انحراف من شأنه أن يبقى عليه صحيحا كما أراده الله تعالى، فيكون إذن محفوظا بتنقيته من الشوائب التي تطرأ عليه والانحرافات التي قد تطاله، كما يكون محفوظا بانتشاره وظهوره. فتبليغ الدين على نحو ما وصفنا هو إذن أحد المسالك الهامة لحفظ الدين.

رابعا: حفظ الدين بالسلطان

بمقتضى ما يتصف به الإسلام من خاصية الشمول فإن أحكامه تتناول بالبيان كل مناحي الحياة الفردية والاجتماعية. وحينما تكون بعض الأحكام متعلقة بالعلاقات الاجتماعية فإنها تكون في حاجة إلى سلطان يقوم على رعايتها وتنفيذها بحمل الناس عليها، وفض النزاعات الناشئة بينهم وفقها، فكل قانون ينظم الحياة يحتاج إلى قوة سلطانية تسهر على تنفيذه.

ولهذا السبب جاءت الشريعة الإسلامية تتضمن أحكاما توجب على المسلمين إقامة سلطان تنفيذي يتمثل في الدولة التي على رأسها الأمير أو خليفة المسلمين، فإقامة الدولة، ونصب الإمام حكم شرعي من درجة الوجوب، ويتفرع عليه أحكام شرعية أخرى كثيرة تتعلق كلها بما يعين الدولة على القيام بمهامها في إنفاذ الشريعة من نصب للقضاء وللحسبة وغير ذلك من أجهزة الدولة، فما لا يتم الواجب إلا به هو واجب[٩].

والمقصد الشرعي من هذه الأحكام المتعلقة بنصب السلطان إنما هو حفظ الدين، إذ بتنفيذ الأحكام الشرعية في المجتمع حملا للناس عليها، وفصلا للخصومات وفقها، يصير الدين قائما موجها للحياة، ولو تصورنا مجتمعا إسلاميا بدون سلطان تنفيذي لغابت أغلب أحكام الدين عن أن تكون موجهة للعلاقات بين الناس، فيضيع إذن الدين بضياع أحكامه؛ ولذلك قيل في هذا السلطان ممثلا في الإمامة، هي خلافة الرسول في إقامة الدين[١٠]، فمن أهم المسالك لحفظ الدين إذن ما جاء من أحكام شرعية توجب على المسلمين إقامة سلطة ترعى الدين، وتعمل على حفظه بجعله مطبقا في واقع الحياة.

يتبع

(٦) راجع: الشاطبي - الموافقات: ٤/٦٧.
(٧) أخرجه أبو داود: كتاب الأقضية، باب اجتهاد الرأي في القضاء.
(٨) أخرجه البخاري: كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل.
(٩) راجع في الوجوب الشرعي لنصب السلطان: الإيجي والجرجاني - المواقف وشرحه ٢/٤٦٣.
(١٠) نفس المصدر والصفحة.

جمادى الأولى ١٤٣٥ هـ
مارس ٢٠١٤م

مأزق الفقيه والمثقف فى زمن الحداثة



د. إبراهيم البيومى غانم
الأستاذ بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية

الفكرة الأساسية التى أناقشها هنا هى أن تحديات التحديث على النمط الغربى ومفارقات الحداثة بمفهومها الأوروبى التنويرى المنقولة إلى مجتمعاتنا الإسلامية؛ تقتضى هذه التحديات فتح جسور التواصل بين الفقيه والمثقف، وبين الفقه والعلوم الإنسانية والاجتماعية، وإلا فإن خسارة الفقيه لن تقل عن خسارة المثقف، وخسارة المجتمع هى الأفدح بلا جدال.

إن المثقف الحداثى هو ابن «العلوم الاجتماعية والإنسانية» الحديثة. وشرط اكتساب هذا المثقف للحداثة هو إيمانه بالقطيعة مع الثقافة التقليدية الموروثة. وقد تكفلت العلوم الاجتماعية والإنسانية «الحديثة» بإنجاز هذه القطيعة المعرفية فى مجتمعاتنا. فنشأة هذه العلوم فى بلادنا تشير إلى أنها نبتت منفصلة عن العلوم الشرعية «الموروثة» بمفاهيمها، ومنهجيات البحث فى قضاياها، وآليات النظر فى مسائلها، وحتى فى غاياتها ومقاصدها العامة. وقد توصلنا فى بحوث سابقة لنا إلى أن «اللاوظيفية» هى أنسب كلمة لوصف أغلب العلوم الاجتماعية الحديثة فى بلادنا، كما أن «اللا فاعلية» هى أنسب كلمة تصف أغلب العلوم الشرعية الموروثة بما فى ذلك «الفقه» الذى يمثل فى نظرنا المقابل الموضوعى لعلم الاجتماع بمعناه الحديث.

ونتيجة ذلك هى ما نراه من تمزق فى صفوف الجماعة العلمية فى مجتمعاتنا: بين «حامل علم فقهى» دون قدرة على الاجتهاد، و«حامل علم اجتماعى» دون قدرة على التأثير فى الواقع. الأول يقلد السلف، والثانى يقلد الخواجات؛ وكلاهما دون قدرة على المشاركة فى التغيير الإيجابى للواقع الاجتماعى. والحل الذى أقترحه هو وجوب الجمع بين الاثنين ضمن رؤية ذات مرجعية معرفية واحدة، مع القبول باجتهادات متعددة؛ ليس فقط لرأب الصدع بينهما؛ وإنما لتهيئة أرضية صلبة لتكوين جماعة علمية تستثمر منهجيات العلوم الاجتماعية المتطورة فى البحث الفقهى، وتحتكم إلى قيم وثوابت العلوم الشرعية، وساعتها سيكون لدينا علماء بإمكانهم الإسهام بفاعلية فى حل مشكلات المجتمع والتغلب على أزماته وتمكينه من التقدم للأمام بقوة وثبات.

إن التراجع الكبير لتأثير «الفقه والفقيه» فى الزمن المعاصر، وتلاشى دوره فى قيادة التغيير الاجتماعى وتحسين نوعية الحياة للسواد الأعظم من البشر؛ كان من المفترض أن يؤدى إلى ظهور موجة قوية من البحوث المتعمقة لإيجاد معالجة جادة لأزمة الفقه الإسلامى وفقهائه من منظور العلوم الاجتماعية ومنهجياتها. ولكن اللافت أنه لم يحدث شىء من هذا حتى اليوم. بل إن المفاهيم الأساسية فى هذه الإشكالية لا تزال ملتبسة وغير واضحة بما فيه الكفاية.

وفى هذا السياق ثمة أهمية معرفية كبيرة لتحديد مدلول المفهوم الفلسفى «للحداثة» و«التحديث» ولو بإيجاز. فالحداثة هى «رؤية جديدة للعلاقة بين الماضى والحاضر والمجتمع والعصر والثابت والمتحول». هى «رؤية جديدة للعالم»؛ أى أن ميدان عملها الأساسى هو «البنيات العقلية والوجدانية». أما مفهوم «التحديث» فهو عملية اقتباس تقنيات جديدة فى هذا المجال أو ذاك، وهى عملية غير محايدة ثقافيًا؛ كانت هكذا، ولا تزال كذلك. والميدان الأساسى لهذه العملية هو البنيات المادية والمؤسسات والنظم والمرافق الخدمية المختلفة.

وإذا كانت «الثقافة» فى أحد تعريفاتها عبارة عن رؤية عامة، وطريقة نظر للحياة، وحالة فكرية تشمل المجتمع كله؛ (مع بعض التباينات) أو هى إجابة على سؤال مركزى هو «لماذا نعيش؟». إذا كانت الثقافة كذلك، وهى فى رأينا كذلك، فعلى الفقيه ألا يطابقها مع «الحداثة» المرتبطة بتجربة المجتمعات الأوروبية - الغربية وبما أجابت به على ذلك السؤال المركزى «لماذا نعيش». ومن أسف أننا نرى بعض الفقهاء يتمالح بانتمائه للثقافة الحداثية؛ حتى إنه يدعى كذبًا أنه يعرف لغاتها الرئيسية وآدابها. إن سؤال الثقافة ليست له إجابة واحدة هى ما تقدمه «الحداثة» بمرجعيتها التنويرية الأوروبية، والتى لا تنفك عنها عملية التحديث، مهما حرصنا وكررنا التأكيد على أن التحديث يعنى بالجواب على سؤال مركزى هو «كيف نعيش»؟

وبرؤية مقارنة يتضح لنا الفرق بين الحداثة والتحديث والثقافة. فالتصور الأمريكى مثلاً يقزم الحداثة إلى مستوى الصراع بين ثقافة «حديثة» يحملها الأمريكيون ويبشرون العالم بها من جهة، وثقافات تقليدية ومتخلفة تتبناها شعوب الحضارات الأخرى. ومعنى هذا أن التصور الفلسفى الأمريكى يختزل الحداثة إلى الجانب الأداتى التقنى للتواصل بين الجماعات والأفراد. وطبقًا لهذا التصور: أنت تنقل منتجات التقدم وأدواته إذن أنت «حداثى»!. وهذا ما لا نجده فى التصور الفرنسى. فالتصور الفلسفى الفرنسى يرى أن الحداثة هى نقطة افتراضية يتمكن عندها المجتمع من ممارسة تصوره لذاته على أرض الواقع، ويؤكد على السعى لحل مشاكله عن طريق رؤية سياسية أساسها التفكير العقلانى الرشيد. وليست الثقافة فى التصور الفرنسى مجرد مجموعة علاقات

يغيب فيها البعد السياسي للإنسان لتجعله نتاج تجاذبات قوى السوق وآليات الاتصال والهيمنة التكنولوجية التي يركز عليها التصور الأمريكي.

وثمة قاسم مشترك بين مختلف الرؤى الحداثية للثقافة، وهو أنها مبنية على القطيعة مع التصور الغيبي الديني، ومع الثقافة التقليدية التي ينتمي الفقيه إليها ولا يستطيع التنكر لها، وإن كان من حقه نقدها وتعديلها على النحو الذي يكون أقرب إلى تحقيق مقاصد الشريعة وأحكامها.

خطر «الثقافة الحداثية» هو أنها مبنية على تصور يرى الإنسان «أداة» في الحاضر والمستقبل. وتقوم هذه الثقافة أيضًا على أن كل شيء يجب أن يتم تجاوزه، بحجة أن كل تحقق للشيء يجعله يدخل في الماضي الذي ترفضه الحداثة. وهذه الثقافة على هذا النحو تمثل تحديًا بالغ الخطورة على الفقيه المسلم المعاصر الذي لايزال متشبثًا بمناهجه التقليدية في البحث والنظر. إن الثقافة الحداثية هي ثقافة غير ثابتة وغير مستقرة، تريد تحقق الشيء وتجاوزه في نفس الوقت، ولذلك هي سوف تعيد صياغة رؤية المنتمين إليها للزمان والمكان بطريقة أفقية تطورية مما يكرس ثقافة ملاحقة الزمان ومحاولة الهيمنة على «المكان» كله بدون جدوى. ويتجلى هذا المعنى اليوم؛ في تسارع عملية الاستهلاك؛ حيث تغزو المنتجات المادية الاستهلاكية كل مكان في العالم، وفي نفس الوقت تقريبًا. وفي اللحظة نفسها تدخل مواد أخرى إلى السوق في سياق مطرد لا آخر له. إذن؛ الثقافة هي نتاج لفعل الإنسان في الأرض، وهذا النتاج متأت من تصوراته واعتقاداته. أما الحداثة فهي مرحلة معينة ظهرت في مكان معين تعطي تصورًا معينًا لثقافة موجودة. ونتاج هذه الثقافة الحداثية أنها تضع تحديًا أمام الثقافات الأخرى، وعليها أن تجيب عليه عن طريق تكييف ذاتها أو عن طريق الاقتباس، أو التفاعل، أو الرفض، أو غير ذلك من «ردود الأفعال»؛ على نحو ما حصل في بلادنا خلال القرنين الماضيين.

بمعايير المثقف الحداثي في بلادنا، توجد «حداثة واحدة»، ومن ثم «ثقافة واحدة». وهذه هي نقطة الفراق الكبرى بين «المثقف» و«الفقيه»؛ حتى ولو كان هذا الفقيه مستجمعًا لشروط الاجتهاد وقادرًا عليه، وحتى لو كان خبيرًا بشئون قومه ومطلعًا على أحوال زمانه؛ كما قال المالكية قديمًا.

لا ينكر أحد أن للفقه دورًا أساسيًا في تكوين «الثقافة السائدة» في مجتمعاتنا الإسلامية، إلى جانب دوره المركزي في شرح العبادات، وفي تنظيم مجمل المعاملات والعلاقات المدنية والعقوبات الجنائية على المستويين الرسمي والشعبي. للفقه هذه الأدوار سواء كان الفقهاء مدركين لذلك أم غير مدركين. وقد يكون هذا الدور إيجابيًا عندما يسهم في تعزيز قوى المجتمع وشد أزره في مواجهة الأزمات والانطلاق إلى آفاق تحقيق المقاصد العامة للشريعة باتزان وثقة، وقد يكون سلبيًا إذا أدى إلى عكس ذلك. وأحد التحديات الماثلة في الواقع الراهن هو أن الثقافة السائدة بحاجة إلى ما نسميه «التعديل الثقافي». ومعنى التعديل المقصود باختصار هو إزالة

ما لا يلزم من أفكار ومؤسسات وممارسات سلوكية، وإضافة ما يلزم من هذا كله من أجل نهضة الأمة وتخليصها من أغلال التخلف والاستبداد والاستتباع للقوى الأجنبية. وهذا التعديل يتم عبر وسائل متعددة من أهمها «تعديل آليات الاجتهاد» التي درج عليها العقل الاجتهادي الفقهي التقليدي عبر العصور؛ بحيث يصبح «الاجتهاد» في قضايا الواقع وتحدياته، أكثر من «اجترار اجتهادات الماضي» ومشكلاته.

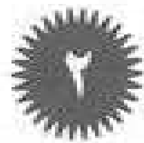
لقد فرق العلماء بين أنواع الاجتهاد وحددوا كل نوع منها بدقة. ومن ذلك أنهم فرقوا بين ما أسموه «الاجتهاد النوعي» وما أسموه «الاجتهاد الفرعي». أما الاجتهاد النوعي فهو الذي يهتم بالكشف عن أدلة الفقه، ويعرضها عرضًا نسقيًا منظمًا لكي تكون أساسًا لبناء الفهم السليم والتقدير المنضبط للأحكام وللمصالح والمفاسد. هو عمل يتعلق بتأصيل أدلة النظر في المطالب الكلية والمصالحة العامة، وهذا هو موضوع «علم أصول الفقه». أما «الاجتهاد الفرعي» فهو يعني باستنباط الأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية بإعمال تلك الأدلة. وهذا هو «موضوع علم الفقه». وإذا اتضح هذا الفرق؛ فإننا نقول إن المطلوب هو أن يكون الاجتهاد النوعي يجب أن يكون أسبق وأولى في ظروفنا الراهنة من الاجتهاد الفرعي، أو من الفقه بمعناه الاصطلاحي.

يرى البعض أن ساحة الاجتهاد النوعي المعاصر هي المجالس التشريعية، (البرلمان مثلا) أو ما شابهها. ويطالب أصحاب هذا الرأي بوجوب أن يكون الاجتهاد النوعي بعيدًا عن آليات أصول الفقه؛ سواء كانت نصية، أو قياسية. وإذا أفلحنا في ذلك. حسب رأيهم. أمكننا القيام بعملية التعديل الثقافي المطلوبة لإنجاز مهمة الحداثة واستيعابها في منظومتنا الفقهية.

ولكن هذا الرأي وما انتهى إليه يعني ـ فيما يعني ـ نقل الاجتهاد في القضايا والمصالح العامة من زمام «الاجتهاد الفقهي» برمته، إلى زمام «جهة مستأمنة على المصلحة العليا» نسميها «البرلمان»، أو «السلطة التشريعية». وهذا الزمام هو عينه زمام «السياسة الشرعية» بتعريفات فقهائنا القدامى والمحدثين. ومن تلك التعريفات مثلًا: «التصرف في عموم مصالح الأمة مما زاد على القضاء والفتيا» كما قال القرافي. وهذا التعريف أخذ به آخرون مثل ابن نجيم، وابن عقيل، والطرابلسي قديمًا، وعبدالوهاب خلاف، وعبدالرحمن تاج، ووهبة الزحيلي وغيرهم حديثًا. وما قدمه هؤلاء في جملتهم عبارة عن تعريفات متعددة المباني، لكنها متوحدة حول معنى أساسي هو تفويض ولي الأمر في تقدير المصلحة بالتشاور مع أركان حكمه إن أراد، أو الانفراد بتقديرها دون الرجوع إلى رأي أحد إن أراد. وهنا مكمن الخطأ والخطر في إسناد «الاجتهاد النوعي» إلى سلطة «ولي الأمر»، أو إلى المجالس النيابية التي يتم تكوينها بالافتئات على إرادة الأمة، بعيدًا عن معايير أصول الفقه ومنهجيته في تقدير المصالح والترجيح فيما بينها.

يتبع

شمائل النبى ﷺ
مفهومها، وأدبياتها، ووظائفها، وقيمتها الحضارية





أ.د. خالد فهمى
كلية الآداب/ جامعة المنوفية

وظائف أحاديث الشمائل النبوية وقيمتها الحضارية

لقد صح واستقر الأمر أن الإيمان بمحمد ﷺ جزء وركن من أركان تأسيس الدخول فى الإسلام، فضلا عما يستلزمه ذلك التأسيس من محبة وتعظيم ومتابعة وتسليم تام بكل ما جاء به من تشريعات، ومن ثم فإن تحليل مادة نصوص شمائل النبى ﷺ تفتح الآفاق أمام عدد كبير من الأدوار التى يمكن أن تستثمرها فيها لكى ينهض بالفرد المسلم والجماعة المسلمة والإنسانية كلها. وفيما يلى محاولة للدلالة على ما يمكن أن تقدمه هذه الأحاديث الشريفة من وظائف من شأنها عند إحسان استثمارها أن تحقق المرجو منها، كما حققته فى حقب تاريخية سابقة:

أولا ـ الوظيفة الإيمانية [الاعتقادية]

لقد سبق واستقاض القول والحكم بأن الإيمان بمحمد ﷺ على ما جاء فى وصفه فى الكتاب العزيز، والسنة الصحيحة ـ مما هو جزء من أحاديث الشمائل ـ ركن فى تأسيس إسلام المرء، والحكم له بالإيمان. وهذه أهم وظائف أحاديث هذا الباب إذ عن طريقها يتأسس الإيمان بعظمة النبى ﷺ، وعلو مكانته، وعصمته، ووضاءته، وصدق لهجته، وأمانته، وشجاعته، وعدله، ووفورة عقله، وصدق بلاغه عن الله تعالى، ورحمته، ورأفته، وعفوه، وصفحه، وحسن سياسته، وحسن سمته، واقتصاده، وحرصه على أمته وعلى الخلق جميعا، وتحصيل ذلك لازم إيمانا واعتقادا، وهو ما تكفلت به نصوص هذه الأحاديث الشريفة، وقد جاء فى التنزيل:

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾

[الأعراف: ١٥٨]

ويقول الله تعالى:

﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

[آل عمران: ١٦٤]

وفى هذا السياق فإنه يلزم الإيمان بما حملته إلينا أحاديث الشمائل مما ثبت فى حقه: مولدا ونسبا وأسماء وأخلاقا وأحوالا، ومن ذلك ما جاء من حديث جبير ابن مطعم أنه قال: قال (شمائل النبى ص ٧ / حديث ١٢) رسول الله ﷺ: (إن لى أسماء، أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر، وأنا الحاشر، الذى يحشر الناس على قدمى، وأنا العاقب، الذى ليس بعده أحد) وقد سماه الله رءوفا رحيما.

ثانيا ـ الوظيفة الدينية [العبادة]

وقد ثبت واستقر أن متابعة النبى ﷺ، شرط فى العبادة، وذلك أن الإجماع منعقد على شرط الاتباع له فيما سنه رب العزة سبحانه، وافترضه على المسلمين من عبادات وأعمال، وقد تضمنت أحاديث شمائله الشريفة عددا كبيرا بحكم تصديها للعناية بأحاديث لأحوال معاشه اليومية، وفيها الكثير من سلوكه مع ربه مما هو عبادة، وسلوكه مع الناس مما هو معاملات، يلزم لمن أتى شيئا منها أن يكون متبعا لما جاء به ﷺ والتزمه، إذ هو المعلم، وهو الصورة المثلى للعبد حال تقواه، فقد جاء الباب الثامن والعشرون من قسم صفاته الخلقية والنفسية جامعا لأحاديث الشمائل المتعلقة بتقواه وعبادته (ص ١٢٥ ـ ١٣٠)

ومن ذلك ما جاء من حديث عائشة (ص ١٢٧ / حديث ٤٦٤) قالت: قام رسول الله ﷺ بآية من القرآن ليلة «وعنها أيضا (ص ١٢٧ / حديث ٤٦٣) قالت: كان رسول الله ﷺ إذا فاتته صلاة الليل من وجع أو غيره صلى من النهار ثنتى عشرة ركعة».

ثالثا ـ الوظيفة الأخلاقية

إن أعظم ما جاء به التصور الإسلامى هو منظومته الأخلاقية العظيمة المتسامحة وأعظم نموذج يمثلها هو النبى ﷺ بحكم الكتاب العزيز الذى يؤكد فى آية محكمة جامعة عنه:

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾

(القلم: ٤)

وواحد من المحاور الأساسية التى تشكل مفهوم أحاديث الشمائل يدور حول أحاديث بيان أخلاقه السامية، فقد كان المثال الكامل التام من البشر، وقد اعتبر الذكر الحكيم محمدا عليه الصلاة والسلام قدوة وأسوة ونموذجا حيا ومنهجا متحركا لمن ينشد المثال الأخلاقى فى أتم صورة بحكم الذكر الحكيم:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ﴾

(الأحزاب: ٢١)

وقد مثلت أحاديث شمائله فى محور الأخلاق مركزا أساسيا فى التصور البنائى

لهذا الباب، وقد صدر كتاب شمائل النبي ﷺ عددا كبيرا من الأحاديث الكاشفة عن أخلاقه السامية في ثلاثين بابا، تكلمت عن حسن خلقه عموما، وعن حسن خلقه تفصيلا، ومما جاء في هذا الباب:

أ - حديث أبي هريرة (ص: ٦١ / حديث ١٧٦): (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق).

ب - حديث عمر، (ص: ٦٤ / حديث ١٨٦): (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبد) في تواضعه.

ج - حديث علي، (ص: ٧٥ / حديث ٢٥١) (كان رسول الله أجود الناس كفا، وأشرحهم صدرا) في كرمه وحلمه وصبره.

رابعا - الوظيفة التربوية

صح أن الشمائل النبوية تتعرض لمادة الأحاديث التي تعرض لأحوال معاشه ﷺ وهي ما يصح معه ترجمتها في برامج التربية، وإدارة الأسرة، وقد ظهرت بتأثير من ذلك وغيره كتابات معاصرة في تتبع أحواله ﷺ في أيامه، وأسرته وبيته، وأصحابه. وقد وردت نصوص كثيرة تكشف عن شأنه في بيته وخدمة أهله، وحمله الأولاد، وتقديره لأزواجه إلخ، مما يلزم المسلمين المعاصرين الأخذ به وترجمته إلى واقع عملي، ومن ذلك:

أ - حديث عائشة (ص: ٢١٢ / حديث ٩٣٥): قالت: «كان بشرا من البشر، يفلي ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه»

ب - حديث ابن عباس (ص: ٢١٢ / حديث ٩٣٦): قال رسول الله ﷺ: (خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي)

ج - حديث عائشة (ص ٢١٢ / حديث ٩٣٨): قالت: «رأيت النبي ﷺ يسترني بردائه، وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون في المسجد، حتى أكون أنا الذي أسأم، فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن الحريصة على اللهو»

خامسا - الوظيفة الاجتماعية

تمثل الوظيفة الاجتماعية دورا مهما يمكن استثمار أحاديث الشمائل النبوية للنهوض به، وهو ما يمكن فحصه وتأمله من خلال فحص أحاديث الشمائل في بابه أحوال معاشه ﷺ، فقد ورد فيها كثير من النصوص تعالج معاملته لأصحابه وللصغار من البنين والبنات، والأرامل، ومناطق الضعف الإنساني وربما صح استثمار هذه النصوص في عدد كبير من القضايا التي تدخل في الصحيح من العمل الاجتماعي، من مثل:

أ - تنظيم المجتمع.

ب - الخدمة الاجتماعية.

ج - رعاية الأشخاص ذوي الإعاقة.

د - أخلاق الرعاية.

ومما ورد في هذا السياق ما جاء من فصول في كتب الشمائل تعالج: كثرة مشاورته لأصحابه، ومسامرته معهم، وتفقده لهم، وعيادته للمرضى، ومن أحاديث هذه الوظيفة:

١ - حديث عائشة في قبوله الهدية وإثابته عليها (ص: ٢٥٤ / حديث ١١٠٨) قالت: «كان رسول الله ﷺ يقبل الهدية ويثيب عليها»

٢ - حديث أبي هريرة في كثرة مشاورته لأصحابه (ص: ٢٥٤ / حديث ١١١٠) قال: «ما رأيت أحدا أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ»

٣ - حديث عمر في مسامرته أصحابه (ص: ٢٥٧ / حديث ١١١٤): قال: «كان رسول الله يسمر مع أبي بكر في الأمر من أمور المسلمين، وأنا معهما»

٤ - حديث زيد بن ثابت (ص: ٢٥٧ / حديث ١١١٥): قال «كنت جار النبي فكان إذا نزل عليه الوحي بعث إليّ فكتبته له، فكنا إذا ذكرنا الدنيا ذكرها معنا، وإذا ذكرنا الآخرة ذكرها معنا، وإذا ذكرنا الطعام ذكره معنا»

سادسا - الوظيفة الحضارية

تتضمن أحاديث الشمائل بمفهومها المستقر أحاديث كثيرة في عدد من الأبواب الحضارية والعمرانية، تغطي مساحات كبيرة من مفهوم التحضر والعمران من مثل:

أ - شأن متاع البيت وأثاثه.

ب - الأطعمة والأغذية.

ج - الطب والدواء والعلاج.

د - العطور والرياض.

هـ - الملابس والثياب.

و - البيئة (النبات والحيوان وما إلى ذلك).

ز - الفنون والجماليات.

ح - آداب الأكل والكلام والتواصل.

هذه الوظيفة من أعظم الوظائف التي تحتاجها اليوم من جانب، ومن أعظم الوظائف المهملة في تراثنا من جانب آخر.

وتأمل أحاديث الشمائل النبوية كاشف عن مادة وفيرة في هذا الإطار واضحة تحتاج إلى التأصيل، والتفصيل، والتنزيل في واقع الناس، وبرامج حياتهم، وقوانين دولهم.

وفيما يلي محاولة للدلالة على عدد من أحاديث هذه الوظيفة موزعة على ما فصلته هنا:

أ - تنوع متاع البيت، ويسره وبساطته وجماله، حديث أبي سعيد الخدري (ص: ٢٥٩ / حديث ١١٢٤) يقول إن «النبي تزوج عائشة رضي الله عنها على متاع بيت قيمته خمسون درهما» ومن حديث عائشة قالت: «كان فراش رسول الله من أدم حشوه من ليف»

ب - تنوع أكله وشربه الماء البارد واللبن، وتركه أكل ما يعافه مما ليس من طعام قومه. وفي هذا نوع رعاية لوظيفة ثقافية مهمة جدا تتعلق بحفظ الهوية الإقليمية، وتمثلاتها الثقافية في الأطعمة وغيرها.

وقد وردت في هذا الباب أحاديث تحتاج إلى فحص علمي بالمعنى التجريبي للكشف عن القيم الغذائية لما كان يحبه النبي مما يتعلق بالتمر، والبطيخ والألبان والقثاء والعسل ولحوم الضأن والدجاج والسمك والدقيق.

ج - تنوع أشكال عنايته بالنظافة الشخصية والحجامة ومداواة الجروح.

د - تنوع استعماله للطيب واستجماره بالكافور.

هـ - توافر النصوص التي تتكلم عن لبسه القطن والصوف والكتان تعيينا.

و- توافر النصوص التي تتكلم عن رفقه بالحيوان وحفاظه على البيئة المائية والنباتية.

ز- توافر النصوص التي تتكلم عن حسن سمته، وجمال ملابسه واتخاذه الستائر المزركشة في بيته في غير اتجاه الصلاة إلخ.

ح- توافر النصوص التي تتكلم عن طريقته في كلامه وفصاحته وتؤدته وفي هيئات أكله وتواصله مع الناس وإقباله عليهم.

ط- توافر النصوص التي تتكلم عن تطويره للمنشآت الحضارية، واستحداثه لعدد وافر منها، وتطوير وظائف الكثير مما كان معروفا (كالمسجد، واتخاذه ميدانا للتدريب والتعليم والسفارات وإدخال التقنية الدفاعية (الخندق) استجابة لرأي سلمان الفارسي. إلخ.

سابعا - الوظيفة اللغوية

كان مما ورد في أحاديث الشمائل وصف طريقة كلامه وفصاحته، وهو ما يفتح الباب واسعا أمام استثمار هذه النصوص في خدمة الوظيفة اللغوية في الجوانب التالية:

١- المعجمية بما حفظته هذه النصوص من ألفاظ لغوية غريبة وصيانتها من الاندثار.

٢- الأدبية بما توافر فيها من نصوص استعملت الوصف تقنية نقلت إلينا كثيرا مما كان شائعا في حياة العرب في هذا الزمان واستعملت السرد في كثير من النصوص التي سردت عددا من الأحداث.

٣- البلاغية، بما توافر في هذه الأحاديث من نماذج سمت كلامه ﷺ وسمت كلام أصحابه الذين تأثروا به.

ثامنا - الوظيفة التاريخية

لقد حفظت لنا أحاديث الشمائل نصوصا تتعلق بأحداث تاريخية، جاءت في أحاديث الشمائل في سياق التدليل على بعض أخلاقه ﷺ ولكنها مثلت روايات تثبت أحداثا تاريخية مختلفة، من مثل حديث الإفك، وحديث ما دار في صلح الحديبية وغيرها من أحداث.

تاسعا - الوظيفة السياسية [ولا سيما التفاوضية]

كان من أحوال معاشه دخوله في مفاوضات كثيرة مع عدد من المشركين تمثل منهجا فريدا يجب تأمله وفحصه، وتنزيله في الواقع المعاصر، ولعل مراجعة خطة المفاوضات التي وقعت في الحديبية تضع منهجا محتاجا إلى الدراسة في هذا الباب، إذ مثلت نمطا فريدا لتمسكه بتأييد السماء، وعدم اعتداده بالشكليات واعتباره لحقائق الأمور، لقد استجاب لوضع (باسمك اللهم) مكان (بسم الله الرحمن الرحيم)، و(محمد بن عبد الله) مكان (رسول الله) لاعتراض المفاوض الآخر، وهذا مجال جديد لم ينتشر بين الدارسين المعاصرين للسيرة النبوية الطاهرة.

إن كل هذه الوظائف وغيرها تؤكد أن السنة النبوية ما تزال مليئة بالكنوز التي يمكن للعالم المعاصر أن يستثمرها وينجح بها، مما يؤكد قيمتها الحضارية.

تأملات في السيرة

بنو قريظة وطبائع اليهود «٣»



لفضيلة الشيخ الطاهر الحامدي

انتهينا في المقال السابق عند قول أبي لُبابة بَعْدَ أنْ رَبطَ نَفْسَهُ في إسطوانة التوبة بمسجد النبي ﷺ وقوله «لا أبْرَحُ مِنْ مكاني حتى أموتَ أو يتوبَ اللهُ عليَّ»، وأنه عاهد الله تعالى ألّا يطأ أرضَ بني قُريظة حتى لا يُرى في بلد خان الله تعالى فيها ورسولَه. وبلغ رسول الله ﷺ ما صَنَعَ أبو لُبابة بنفسه فقال ﷺ «دعوه حتى يُحدث اللهُ فيه ما شاء. لو كان جاءني استغفرت له، فإذ لم يأتني وذهب فدعوه»، وأنزل الله تعالى قوله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

(الأنفال: ٢٧)

ويقال أنها نزلت في أبي لبابة. يقول: فكنتُ في أمر عظيم في حر شديد عدة ليال لا آكلُ فيهنّ ولا أشربُ وقلتُ لا أزال هكذا حتى أفارق الدنيا أو يتوبَ اللهُ عليّ.

يحكي رضي الله عنه عن محنته فيقول: وأذكرُ رؤيا رأيتُها في النوم ونحنُ محاصرون بني قريظة (كأني في حمئة آسنة فلم أخرج منها حتى كدتُ أنْ أموتَ من ريحها ثُمّ رأيتُ نهراً جاريا فأراني اغتسلتُ فيه حتى استنقيتُ وأراني رأيتُ ريحاً طيبة) فقصصتُها على أبي بكر فقال: ستدخلنّ في أمر تغتمّ له ثم يُفرج عنكَ حينئذ. فكنتُ أذكرُ قولَ أبي بكر وأنا مُرتبطٌ في سارية المسجد وأرجو أنْ يُنزلَ اللهُ تعالى توبتي ولم أزل في شدةٍ حتى ما كدتُ أسمعُ الصوتَ من الجهد ورسولُ الله ﷺ ينظر إليَّ. قيل إنَّهُ ارْتبط قريباً من عشرين ليلة وكانتْ تأتيه امرأتُهُ كلَّ صلاة فتحلّه حتى يتوضأ ويُصلي ثم تربطُهُ، وقالوا إنّ ابنتَهُ كانتْ تأتيه وتفعل معه ذلك وظلّ كذلك حتى كادَ يذهبُ سمعُهُ ويذهبُ بصرُهُ ثم أنزل الله توبتَهُ في قوله تعالى:

﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

(التوبة: ١٠٢)

ويروى أنّ توبة أبي لبابة نزلت على رسول الله ﷺ وهو في بيت أم سلمة رضي الله عنها

عقوبة خيانة اليهود

في السحر. تقولُ أمُّ سلمة: فسمعتُ رسولَ الله ﷺ من السحرِ وهو يَضحكُ فقلتُ يا رسولَ الله ممَّ تضحكُ أضحكَ اللهُ سنَّك؟ قال: تِيبَ على أبي لبابة. قلتُ: أفلا أُبشِّرُهُ يا رسولَ الله؟ قال: بلى إن شئتِ. ثمَّ قامتْ على بابِ الحُجرةِ تنظرُ إلى أبي لبابة وتُنادي عليه - قبل أن ينزل الحجاب - فقالت: يا أبا لبابة أبْشِر فقد تابَ اللهُ عليك. فسارَ الناسُ إليه ليطلقوهُ فقال: لا واللهِ حتى يكونَ رسولُ الله ﷺ هو الذي يُطلقني بيده فلمّا مرَّ عليه ﷺ وهو خارجٌ إلى الصلاة أطلقَهُ ثمَّ قال أبو لبابة يا رسولَ الله إنَّ من توبتي أنْ أهْجُرَ دارَ قومي التي أصبتُ فيها الذَّنبَ وأنْ أنخلعَ منْ مالي كُلِّه صدقةً إلى اللهِ وإلى رسوله فقال ﷺ: يجزيكَ الثُّلث يا أبي لبابة.

ولمّا جَهَدَ الحصارُ «بنو قريظة» نزلوا على حكم رسولِ الله ﷺ فأمرَ رسولُ الله ﷺ بأسراهم فكُتِّفوا وجعلَ على كتافِهم محمد بن سَلَمَة ونُحُّوا ناحيةً وأخرجوا النساءَ والذرية منَ الحصونِ فكانوا ناحيةً واستعملَ عليهم عبدَ الله بن سلام وجُمِعتْ أمتعتُهم وما وجدَ في حصونِهم منَ الحَلْقةِ والأثاثِ والثياب ووجدوا فيها أسلحةً كثيرةً وزادًا وتنحى رسولُ الله ﷺ وجلَسَ جانبًا وهُرِعَتْ إليه جموعُ الأوسِ تريدُ أن تَشفعَ فيهم فقالوا يا رسولَ الله حُلفاؤنا دونَ الخزرجِ وقدْ رأيتَ ما صنعْتَ ببني قَينقاعَ بالأمسِ حُلفاءِ ابنِ أُبيِّ وقدْ وهبتَ له ما وهبتَ وقدْ ندمَ حُلفاؤنا على ما كانَ من نقضِهم العهدَ فهَبْهم لنا يا رسولَ الله. ورسولُ اللهِ ﷺ ساكتٌ لا يتكلمُ حتى أكثروا عليه وألحُّوا ثمَّ قالَ ﷺ: أما ترضَونَ أنْ يكونَ الحُكْمُ فيهم إلى رجلٍ منكُم؟ قالوا بلى قال: فذلكَ إلى سعد بن مُعاذ. وقبلَ أنْ أُعلِمُكَ بِحُكْمِ سعد فيهم وما جرى، أرجوكَ أنْ لا تُحمِّلَ رسولَ الله ﷺ تبِعةَ ما جرى بأنْ تتشدَّقَ بما تُرَوِّجُ له مَنْ يدَّعُونَ حُقُوقَ الإنسانِ يتدخَّلونَ بها في شئونِ الآخرين، يجعلونها ذَريعةً ومَطيَّةً شيطانيةً يدمِّرونَ بها أوطانَ الناسِ. وكذلكَ لا تتعجَّلْ بالاعتراضِ بما حَكَمَ به سعد بن معاذ لكن عليكَ أنْ تبسُطَ الأمرَ كُلَّه..

قومٌ مُعاهِدونَ لرسولِ الله ﷺ وهُمْ يَشهدونَ أنَّهُمْ لمْ يروا منْ رسولِ الله إلا صدقًا ووفاءً، ورغمَ ذلكَ نقضوا عهدَهُمْ معَ رسولِ الله ﷺ طمعًا في سرابٍ غيرِ مرجوٍّ ومع هذا فإنَّ موقعَهُم من رسولِ الله ﷺ وجيشِه موقعًا خطرًا لأنهم خلفَ رسولِ الله ﷺ وجيوشُ المشركينَ منَ الأحزابِ أمامَهُ فهو حصارٌ مُحْدِق لو لمْ تُدْرِكْ عنايةُ اللهِ رسولَ الله ﷺ وجيشَ المسلمين لكانت الإبادةُ هي النتيجةَ الحتميةَ لذلك.. إذا أنت تأمَّلتَ هذا فسوفَ تجدُ أنَّ حكمَ سعد بن معاذ فيهم هو بعضُ ما يَستحقُّونَه. لأنَّه حكَمَ رضي الله عنهُ بقتلِ المقاتلين وكلِّ منْ يَحملُ السلاحَ وأرجوكَ مرةً أُخرى قبلَ أنْ تعترضَ على قتلِهم أنْ تتخيَّلَ - مجرد تخيُّل - ماذا سيفعلُ هؤلاءِ لو تُرِكوا؟ هل سَتأْمَنُ شرَّهُم؟ وهل يتركونَ طبائعَ الغدرِ والخيانةِ؟ وماذا لو وَجَدوا أو سَنَحتْ لهم فرصةٌ للفتكِ بالمسلمين؟ أيتركونَها؟ وأعتقدُ والواقعُ يؤكِّدُ ما أعتقدُ أنها طبائعُ اليهودِ ويكفي ما نُشاهدُهُ اليومَ وما نُعانيه منْ أحقادِهم في قلبِ الأمةِ العربيةِ خيرُ شاهدٍ على ما نقول..

في روايةٍ قالها ابنُ عُقبةَ أنَّ رسولَ الله ﷺ لمْ يَختر سعد بن معاذ ولمْ يُرشِّحْهُ بل قال ﷺ للأوس اختاروا من ترضَونَ حُكْمَهُ منْ أصحابي. فاختاروا سعد بن معاذ فرضي بذلك رسولُ الله ﷺ فهم الذين رشَّحوا سعدًا واختاروه. أفنعترض نحن الآنَ أو نرفض حكمَ سعد بعدَ ألف عام بحجَّة حقوق الإنسان المزعومة؟ على أي حال. يروى إن سعدًا بن معاذ كان في المسجد بالمدينة في خيمة كُعَيْبَة بنت سُعيد الأسلميَّة وكانتْ تُداوي الجرحى وتلمُّ الشَّعَث وكان لها خيمةٌ في المسجد وكان رسولُ الله ﷺ جعلَ سعدًا بن معاذ فيها يعودُهُ كلَّما خرجَ فلمَّا اختاروه ورضيَ به رسول الله ﷺ خرجت الأوسُ حتى جاءوه وحملوه على حمارٍ وكانَ رجلًا جسيمًا فخرجوا حولَهُ يقولونَ: يا أبا عمرو إن رسولَ الله ﷺ قد ولَّاكَ أمرَ مواليكَ لتُحسنَ فيهم فأحسنْ فقد رأيتَ ابنَ أُبيٍّ وما صَنَعَ في حُلفائه حتى إذا أكثروا عليه قال: «قد آنَ لسعد أنْ لا تأخذَهُ في الله لومةُ لائم» ثم أقبل سعد إلى رسول الله ﷺ والناسُ حولَ رسول الله ﷺ وهم جلوس فلما دنى سعد بن معاذ من المسجد الذي كان فيه رسول الله ﷺ والذي اعدَّه في بني قريظة أيام حصارهم، قال ﷺ: قوموا إلى سيدكم - وفي رواية خيركم - وعند الإمام أحمد: فأنزلوه وكان رجالٌ من بني عبد الأشْهَل يقولون «قمنا لهُ على أرجلنا صفَّين يُحيِّيه كلُّ رجلٍ حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ».

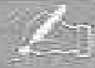
أروي لك هذه القصة حتى أصُدَّ بها ذلك الغُثاءَ الذي كاد يَطغى على حياتنا اليومَ وشوَّهَ أفكارَ شبابنا كثيرًا حيثُ يُنكِرُ كثيرٌ منْ هؤلاء عندما نقوم في تقاليد مصرنا العريقة لكبيرنا أو لأستاذنا يزمجر هؤلاء الصبية في غضب جامح رافضين هذا السلوك ثم يرددون في غلظة ما يروى من قوله ﷺ «لا تقوموا لي كما تقوم الأعاجم» ولست أدري لماذا يأخذون هذا إن صحَّ ويرفضونَ ما رويَ من فعلِ بني عبد الأشْهَل عندما قاموا لسعد صفَّين احترامًا له وهو يمرُّ بينهم وامتثالًا لقول النبي ﷺ «قوموا إلى سيدكم» قاموا صفَّين كأنهم حرسَ شرفٍ وما أكثر ما ملأ حياتنا هذه الأيام من غثاء كريه وتشدد مقيت. يقولونَ لكَ لا تُصافحْ كتابيًا ولا تُهنِّئْهُ بالعيد لكن ارجو أنْ يُبيِّنوا لي كيف أن رسول الله ﷺ لمَّا وفَدَ إليه نصارى أهلِ نَجْرانَ استقبلَهُم في مسجده بالمدينة واستضافهم فيه وصنعَ لهم وليمة، هل تركهم رسول الله دون مصافحة؟ أو انه لم يَمسَّهُم لأنهم نَجَس، كيف مع أنه استضافهم في مسجده؟ ربَّما يُنكرون هذه الواقعة جملة وتفصيلًا لكن ماذا يقولون وقد أحل الله لنا الزواجَ من الكتابية؟ لو أنَّ مصافحة النصراني حرام أو غير جائزة أو مرفوضة لماذا لم يُبيِّنَ القرآن الكريم ذلك مع أنه أباح الزواج بالكتابية؟ فهل أتزوج من كتابية بنت كتابي وأتقدم لخطبتها ولا أصافح أباها الكتابي؟ فلماذا لم ينه القرآن عن المصافحة؟ أليس من المندوب أن أقيم وليمة في العرس؟ وهل إذا جاؤوا لا أصافحهم؟ كيف ذلك بالله عليكم؟ أنا لا أقول إنه تنطع في الدين فقط بل إنه تشويهٌ رديء لسماحة الإسلام وتخريبٌ للوطن. أعاذنا الله من كل ذلك. وقد حَكَمَ سعد بن معاذ رضي الله عنه بقتل مقاتلتهم. فقال له رسول الله ﷺ «لقد حَكَمْتَ فيهم بحكم الله الذي حَكَمَ به من فوق سبع سماوات».

وإلى لقاء آخر إن شاء الله.

على ذكرى الشهداء

مصعب بن عمير





بقلم عميد الأدب العربي أ. د. طه حسين

كان غض الشباب، معتدل الخلق، ناضر الوجه، مشرق الجبين؛ وكان عذب الصوت، حلو الحديث، لا تكاد تقع عليه العين حتى تهواه النفس، ولا يكاد صوته يقع في الأذن حتى يصبو إليه القلب. وكان حسن الزى، معنيًا بثيابه وشكله عناية ظاهرة، لا يكاد يراه الرائى حتى يعلم أن له حظًا من نعمة وفضلًا من يسار، وكان طيب النشر لا يمر بمجلس من مجالس قومه إلا قالوا هذا مصعب بن عمير مقبلًا! يستدلون عليه بما يتقدم بين يديه من عرف يتأرج به الهواء.

كان أبواه يحبانه ويؤثرانه، وكانت أمه خاصة تقف عليه بحبها وحنانها، وتختصه بعنايتها، وتحكمه في ثروتها الواسعة ومالها الكثير.

وكان لهذا كله أحدوثة قريش وموضوع أسمارها، تعجب بجماله البارع وشبابه الرائع وحسن بزته وكثرة ماله، حتى كان النبي ﷺ يتحدث عنه إلى الصحابة، ويعجب منه بما يعجب به الناس، وكان سمح الخلق، رضي النفس، صافي الطبع، مهذب المزاج، فلم يكن يكلف بما يكلف به فتيان قريش من الصيد والقنص، ولم يكن يألف ما كان يألفه كهول قريش وشيوخها من حديث المال والأعمال، وإنما كانت حياة هادئة وادعة، قوامها حسن العشرة وصفو الحديث.

أقبل ذات يوم على المسجد في الضحى، وكان فارغ البال، راضيًا عن نفسه وعن الناس، وعن كل شيء، وكان يتردد في جو مكة نسيم بارد يبعث في الأجسام نشاطًا للحركة، وفي النفوس ميلًا إلى هذا التفكير الذي لا رزانة فيه ولا هدوء، وإنما هو تفكير سريع، أوضح مظاهره الحديث والحوار، وكان قد لقى طائفتين من الرفاق الذين خرجوا يدفعهم هذا النشاط إلى أن يلتمسوا ما ينفقون فيه فضل ما يجدون من قوة في الجسم والعقل، أما إحداهما فكانت تتهيأ للصيد، وأما الأخرى فكانت تسعى إلى حانة من حانات اللهو عند رومى كان يبيع في مكة نبيذ الشام.

دعته إحدى الطائفتين إلى الصيد فنفر منه، ودعته الأخرى إلى الشراب فامتنع عليها، وكان لا يحس من نفسه حاجة إلى هذه اللذة الآثمة التي يجدها أصحاب الصيد في سفك دماء الحيوان البرئ، وكان لا يجد راحة إلى هذا اللهو الذى يذهب فيه عقل العاقل، وحلم الحليم، بين الكئوس والأقداح، وأعرض عن أولئك وهؤلاء، ومضى أمامه إلى المسجد كأنه آثر الاستماع إلى أندية قريش وهم يتحدثون فيما يعرض لهم من الأعمال اليسيرة أو الخطيرة، على أنه لم يكد يبلغ المسجد ويتقدم فيه حتى سمع حوارًا لا يخلو من عنف، فاستبشر ومنى نفسه ساعة قيمة خصبة، وما كان ألذ الحوار يشترك فيه شيوخ قريش إذا جدوا، وكان ألذ الحوار يشتركون فيه شيوخ قريش إذا هزلوا أيضًا.

أقبل الفتى حتى دنا من أحد هذه الأندية فجلس غير بعيد واستمع للقوم، فإذا هم يختصمون في هذا الرجل الذى أحدث في مدينتهم حدثًا ليس منهم إلا كاره له، ساخط عليه، لأنه يغير ما ألفوا من دين، وينكر ما ورثوا من سنة، ويؤلب الفقراء على الأغنياء، ويثير الضعفاء بالأقوياء، ويجمع إليه أخلاطًا من الناس، فيهم الحر البائس، والرقيق البائس، فلا يكاد يتحدث إليهم حتى يزيل ما بينهم من فروق، وإذا هم جميعًا أخوان قد زال ما في صدورهم من غل، وصفا ما بينهم من صلة، وإذا هم يد واحدة لو أذن لها صاحبها، وخلى بينها وبين الحركة لأحدثت في المدينة شرًا عظيمًا، وهذا الرجل يجمع هؤلاء الناس إليه، فيعظهم وعظًا غريبًا لم يسمعوا مثله من كهانهم في مكة، ولم يسمعوا مثله من وعاظ العرب في الأسواق، وهم يستمعون إليه فيسيغون ما يقول وكأنهم يشربونه شربًا، وإذا هم يبتهجون له حينا فتشرق وجوههم بشرًا، وتتوقد عيونهم أملًا، وإذا هم يبتئسون له حينا آخر فتعبس الوجوه وتتقطب الجباه، وتفيض الدموع حارة غزيرة حتى تبتل بها اللحى، ويجشهون بالبكاء، فإذا صدورهم تضطرب لشدة ما يأخذ القلوب فيها من الوجيب، ما أجمل ما يعدهم، ويمنيهم، وما أروع ما ينذرهم ويخوفهم، وما أشد سلطانه على نفوسهم وأبلغ استئثاره بعقولهم، ولئن خلى بين هذا الرجل وبين المستضعفين من قريش وأحلافها ومواليها، ومن يلم بمكة من شذاذ الناس ليثورن بكل شيء، وليغيرن كل شيء، والقوم يختصمون في ذلك خصومة تختلف عنفًا ورفقًا باختلاف أمزجتهم وطبائعهم، فمنهم الثائر الحاد الذى يود لو أطلقت قريش يده فينهض إلى دار ابن أبي الأرقم هذه التي يجمع فيها محمد أصحابه إليه فيهدمها عليهم هدمًا، ولن يشق ذلك عليه إذا نهض معه نفر من فتيان مخزوم، ومنهم الشيخ الوقور الذى يذكر أمس ويفكر في غد ويكره لقريش أن يغير بعضها على بعض، ويبطش بعضها ببعض، ويرى أن قريشًا إنما سادت العرب لأنها أقامت أمرها على الشورى، وجعلت الفصل فيما يعرض لها من الشر لهذه الأندية التي تتألف من الملأ لا لبأس الأفراد والجماعات، ولا لسطوة الرئيس الذى ينفرد بالسلطان وهو ينصح باستصلاح هذا الرجل وتقريب الأمد بينه وبين قريش، ولو تكلفت قريش في ذلك بعض المشقة وشيئًا من المال، والفتى جالس غير بعيد يسمع رفق الرقيق، وعنف العنيف، ويود لو علم من أمر هذا الرجل الذى يختصم القوم فيه أكثر مما يقولون فينهض متثاقلًا ويخرج من المسجد ويسلك طريقه إلى دار ابن أبي الأرقم على الصفا ولو أن الفتى سأل نفسه وهو يقطع الطريق بين المسجد وبين هذه الدار التي استقرت فيها الدعوة الجديدة عن هذه القوة العنيفة التي دفعته مع الضحى، إلى المسجد وصرفته عن رفاقه وهم يدعونه إلى الصيد وصدفت به عن أصحابه وهم يرغبونه في الشراب، وانتهت به إلى نادى قريش فأسمعته ما كان بينهم من خصومة وحوار ثم دفعته في هذا الطريق التي يسلكها الآن إلى حيث يتحدث محمد إلى أصحابه لو أن الفتى سأل نفسه عن هذه القوة الغريبة التي تحكمت فيه واستأثرت به منذ أصبح، لما وجد

مصعب بن عمير

لنفسه جوابا، ولا عرف لهذه القوة أصلا ولاكنها ولكنه لم يفكر في شيء ولم يسأل نفسه عن شيء وإنما يمضي في طريقه حتى يبلغ الدار فيطرق الباب طرقا رفيقا فإذا فتح له دخل فحيا ثم جلس والقوم ينظرون إليه فيعجبون بمنظره الرائع، وزيه الحسن وشكله الجميل وتحيا في نفس كل واحد منهم أمنية خفية ولكنها قوية صادقة، يودون جميعا لو هدى الله هذا الفتى الوسيم الغني إلى الإسلام فأصبح واحدا منهم وشاركهم فيما يستمتعون به من هذه النعمة الغضة الشاملة نعمة الإيمان بالله وبمحمد عبده ورسوله إذن لازادنت جماعة المسلمين، ولاغتاظت قريش، تحيا هذه الأمنية في نفوس القوم جميعا في لحظة قصيرة كأنها خطف البرق، وتثبت في نفوسهم وتقوى وإذا هي شعلة تتوقد بها هذه العيون التي تنظر إلى الفتى في حب ومودة وكأنها تدعو نفسه إلى أن تتصل بنفوسهم ويحس الفتى وقع هذه الأبصار عليه، ونفوذها إلى نفسه، ولكنه صامت لا يقول شيئا ولا يأتي شيئا ثم يتصل حديث النبي مع أصحابه فينذر ويبشر، ويقرأ القرآن وما كاد القوم يسمعون صوت النبي حتى تتحول إليه عن الفتى أبصارهم وقلوبهم وإذا مصعب كأنه لم يدخل عليهم منذ حين أعرضوا عنه ثم نسوه ولكنه هو لا يستطيع أن يعرض عنهم ولا أن يتناساهم فهو يلحظ انصرافهم عنه وإقبالهم على صاحبهم ثم لا يلبث أن ينصرف معهم عن نفسه ويقبل معهم على هذا البشير النذير فيسمع ويعي ثم ينهض فيدنو من النبي ثم يبسط يده ويعلن دخوله في الدين الجديد.

وكتم الفتى إسلامه دهرًا مخافة أن تفتنه قريش، أو تنكره أمه وكان لها محبًا، وعليها شفيقًا وكان حريصًا على ألا يؤذيها، ولعله كان حريصًا أيضا على أن لا تنقطع معونتها له، وبرها به، فقد كان يجد من هذا البر وتلك المعونة ما ينفع نفرًا من أصحابه وإخوانه في الدين ولكن عثمان بن طلحة رآه ذات يوم وهو يصلي، فما أسرع ما سعى به، ودل عليه وما أسرع ما تنكرت قريش للفتى، وما أسرع ما تنكر له أبواه، وما أسرع ما مسه الضر، وثقل عليه احتمال الحياة هنالك أصبح هذا الفتى السعيد كغيره من أصحابه، فقيرا بائسا ولكنه كان كغيره من أصحابه صبورا جلدا يجد في الإسلام عما يلقى عزاء وتسلية حتى إذا اشتد الأمر بالمسلمين وأذن النبي لهم في الهجرة إلى بلاد الحبشة هاجر معهم فأقام ما أقام واحتمل ما احتمل ثم عاد فأقام مع النبي ولزمه وضاقت الأرض بالمسلمين مرة أخرى فكانت الهجرة الثانية إلى بلاد الحبشة فهاجر الفتى مرة أخرى وأقام في تلك البلاد ما أقام، واحتمل في تلك البلاد ما احتمل، وكان صبره عن لزوم النبي لم يكن ميسورًا فآثر احتمال الأذى في نفسه بقرب النبي على الأمن والسلامة بعيدا عنه فعاد إلى مكة سيء الحال قد مسه الضر واشتد به البؤس فرثت ثيابه حتى ما كانت تستر جسمه إلا في مشقة وبعد حيلة واسعة وغلظ جلده وتخدد، وقد كان سبطًا رقيقًا، وأقبل ذات يوم على النبي وأصحابه فلما رآه المسلمون نكسوا رؤوسهم وغضوا أبصارهم رحمة له وحياء من العجز عن معونته وسلم الفتى فرد النبي عليه وأحسن الثناء وهو يقول: لقد رأيت هذا وما بمكة فتى من قريش أنعم عند أبويه نعيمًا منه ثم أخرجه من ذلك الرغبة في الخير في حب الله ورسوله ولزم الفتى مجلس النبي فأطال لزومه، واستمع الفتى للنبي فأحسن الاستماع، وحفظ الفتى عن النبي فأتقن الحفظ وإذا هو من فقهاء الصحابة وأشدهم بالدين علما ثم تكون العقبة الأولى ويكتب

المسلمون من الأنصار في رجل من أصحابه يعلمهم القرآن ويفقههم في الدين فيرسل إليهم النبي مصعبا فيكون أول مبشر بالإسلام كلف نشر الدين خارج مكة ويوفق مصعب فيما تكلف من الأمر فإذا الأنصار يقبلون على الإسلام أفواجا وإذا سماحة خلقه وعذوبة صوته وما يجرى فيه من حلاوة الإيمان وشدة الاقتناع كل ذلك يحببه إلى الناس ويعطفهم عليه ولا يكاد يدنو موسم الحج حتى يشخص مصعب في سبعين من الأنصار هم أهل العقبة الثانية ويبلغ الفتى مكة فلم يفكر في أمه ولا في أهله وإنما مضى قدمًا حتى انتهى إلى النبي فخلا إليه وأطال عنده المقام يعلمه علم المدينة وينبئه بأخبارها والنبي عن ذلك راض وبه مسرور ويطيل المقام عند النبي وتعلم أمه بمقدمه فتبعث إليه من يلومه في هذا الذي تراه عقوقا ولكنه مع ذلك لا يفكر في لقائها حتى يفرغ من أمره عند النبي فإذا زارها بعد ذلك لامته في إبطائه عنها ولامته في دينه واستعانت عليه بدموعها وما أقوى الدموع عونا للأمهات ولكن مصعبا قد صبر للشر كله فليصبر لدموع أمه أيضا، وإذا هو يعظها، ويدعوها إلى الإسلام، فتأبى عليه، وتنذره أن تفتنه عن دينه، فيلقى نذيرًا بنذير وشرًا بشر، ويعلن لئن حاول أحد فتنته ليحرصن على قتل من يعرض له فتدعه أمه وينقطع لنبيه بعد ذلك، فيقيم معه، حتى إذا تهيأ النبي للهجرة تقدم مصعب إلى المدينة فانتظره فيها.

ويحمل مصعب لواء النبي في وقعة بدر فيعود به ظاهرا منصورا ويلقى مصعب في المدينة من الجهد والفقر ما يلقاه غيره من فقراء المسلمين فيحتمل ذلك راضيا به باسما له حتى إذا كانت وقعة أحد تقدم مصعب باللواء بين يدي النبي حتى يجد موقفه من ميدان القتال فيثبت فيه وتشتد صدمة قريش للمسلمين فينكشفون ويتفرقون عن لوائهم ولكن مصعبا قد أثبت قدمه في الأرض فهو لا يزول ولا يميل ويقبل عليه ابن قمئة فارس من فرسان قريش فيضرب يده بالسيف فيقطعها ويسقط اللواء فيأخذه مصعب بيده الأخرى ويحتو عليه ويكر عليه ابن قمئة فيقطع يده الأخرى ولكن قدم مصعب ثابتة وهو لا يزول ولا يميل ومازال اللواء مرفوعا قد ضم عليه مصعب عضديه ويكر ابن قمئة مرة ثالثة فينفذ الرمح في صدر مصعب ويسقط مصعب ويسقط معه اللواء فيتلقاه أخوه أبو الروم ومايزال اللواء مرفوعا حتى يبلغ المدينة.

وقد انجلت قريش منتصرة عن ميدان القتال وثاب المسلمون إلى الشهداء يوارونهم في قبورهم فإذا مصعب قد خر على وجهه ويهم المسلمون بدفنه فلا يجدون له كفنا إنما هو ثوب رث قصير إن أخفى رأسه أظهر رجليه وإن أخفى رجليه أظهر رأسه والنبي ﷺ يرى فيتلو قول الله عز وجل:

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾

(الأحزاب: ٢٣)

ثم يأمر أن يغطى أعلاه بالثوب وأن يلف أسفله برطب الكلأ ثم يقول إن رسول الله يشهد أنكم الشهداء عند الله يوم القيامة ثم يقبل على الناس فيقول: أيها الناس زوروهم وأتوهم وسلموا عليهم، فو الذي نفسي بيده لا يسلم عليهم مسلم إلى يوم القيامة إلا ردوا عليه السلام[(١)].

(١) كوكب الشرق، ١٥ مارس، سنة ١٩٣٣.

محمد رسول الله



للشيخ معوض عوض إبراهيم

قول الله تعالى:

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﴾

(الفتح: ٢٩)

مبتدأ وخبر فى أظهر ما قال العلماء. فالقائل الله أصدق القائلين والمتحدث عنه خاتم المرسلين الذى قال عنه الله عز وجل فى أوائل سورة الفتح:

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾

(الفتح: ٨)

وكفى بالله شهيدا وهو يقول:

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ ﴾

(الفتح: ٢٨)

وصدق الله العظيم:

﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾

(النساء: ٨٧)

﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴾

(النساء: ١٢٢)

محمد رسول الله حقيقة الحقائق ولو نطق الجماد لأقر بهذا الذى لا يرتاب فيه عاقل فكل شىء خلقه الله عز وجل فى الأرض والسماء وما بينهما يسبح بحمد الله الذى يقول:

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾

(الإسراء: ٤٤)

والقرآن الكريم يتحدث عن سليمان عليه السلام وعن النملة التى حذرت أخواتها من الشر الذى قد يصيبها عندما خرج سليمان عليه السلام فى قوله تعالى:

﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾

(النمل: ١٧ - ١٩)

وهو سليمان الذى قال له الهدهد

﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾

(النمل: ٢٢)

أجل فلقد نطق الحصى بين يدى النبى ﷺ

وحن الجذع الذى كان يخطب عليه بعد أن تركه إلى منبر صنع له صلوات الله وسلامه عليه فكان يسمع للجذع حنين وأنين فإذا وضع الرسول يده عليه سكن واطمأن ونبع الماء من بين أصابع النبى ﷺ وشكت له ظبية أخذ بعض الصحابة صغارها وتوسلت للرسول أن يأذن من أخذ صغار الظبية أن يردهما عليها حتى ترضعهما.

وقد كان لأصحاب النبى صلوات الله وسلامه عليه بفضل صحبتهم له ما يرتفع إلى مستوى تكريم الله عز وجل لهم فهذا سَفينة أحد موالى الرسول ﷺ كان مسافرًا بين مكة والمدينة ففوجىء بأسد، وعداوة الأسد للإنسان والحيوان معروفة.. لكن سفينة رضى الله عنه لم يفزع ولم يرع وهو يخاطب ذلك الحيوان الضارى فيقول أنا سفينة مولى رسول الله ﷺ وكان تصرف الأسد معه عجيبًا فإذا به يلقى فروته على قدمى سفينة لينفى عنهما التراب ثم إذا هو بعد ذلك يخرج لسانه يمره على هذين القدمين غاسلاً لهما!!.

محمد رسول الله الذى أضفى الله عز وجل عليه اسمين من أسمائه تبارك وتعالى «الرءوف. الرحيم» والله عز وجل يقول ممتنًا علينا بحبيبه ومصطفاه ومجتباه صلوات الله عليه:

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

(التوبة: ١٢٨)

إنه صلوات الله عليه من أنفسهم ليس بالغريب عنهم ولا هو بالذى يخفى عليهم أحد من آبائه وأمهاته وأعمامه وما عرف بين الناس من وشائج وصلات.

أجل إنه من أنفسهم وهو صلوات الله عليه من أنفسهم وأعظمهم ذاتًا وروحًا ورحمة حتى ببعض مخالفيه. ألسنا نقرأ قوله ﷺ يوم فتح مكة: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»؟!

ومن ينسى رسول الله ﷺ وهو يقول لأحد مواليه: مالى أراك على ما أنت فيه من ضعف؟ فقال يا رسول الله والله لا أشكو علة ولا أشعر بشىء من السقم لكنى أذكر أننى كلما اشتقت إليك فى الدنيا أتيتك حيث تكون وأذكر الآخرة وأنت بمكانك من جنة الله التى أعدها للمتقين وأذكر أننى إن قدر الله فدخلت الجنة يشق على أن أرتفع إلى مستواك فأنت إمام المتقين وسيد خلق الله فى الدنيا وفى الآخرة «إنه ثوبان رضى الله عنه».

محمد رسول الله ما ترك شيئًا يقربنا إلى الله عز وجل إلا أمرنا به ولا شيئًا يبعدنا عن الجنة إلا حذرنا منه ونهانا عنه وكفى بالله شهيدًا وهو تعالى يقول:

﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾

(الأحزاب: ٦)

ألا ليت قومى يعلمون أن محمدًا ﷺ هو الرحمة العامة والأسوة الحسنة والمثل الأعلى للذين يريدون أن يكونوا مع الله عز وجل على هدى وبصيرة فلن يسعد البشرية اليوم إلا ما أسعدها وأخذ بيدها من الشرك إلى التوحيد ومن الكفر إلى الإيمان ومن التفرق والمضى فى الحياة شيعًا وأحزابًا فما يعصمهم من ذلك إلا دين الله وكتابه.

﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾

(الإسراء: ٩)

فتاوى لها تاريخ

حكم الشرع فيمن يساعد اليهود على امتلاك فلسطين ببيع أرضها وغير ذلك[1]



للإمام/ محمد رشيد رضا

السؤال من حضرة صاحب الإمضاء محمد يعقوب الغصين، رئيس اللجنة التنفيذية لمؤتمر الشبان العربي بفلسطين. إلى صاحب المنار. بعد خطاب طويل:

لقد وصلت حالة البلاد الفلسطينية إلى درجة من أسوأ الحالات، وأصبح هذا القطر العربي الإسلامي مهددًا بخطر الاضمحلال والزوال بسبب ما تسرب إلى أيدي أعداء البلاد من الأراضي المقدسة التي تعد بحق هي الحصون التي يجب على كل مسلم أن يدافع عنها إلى آخر نسمة من حياته.

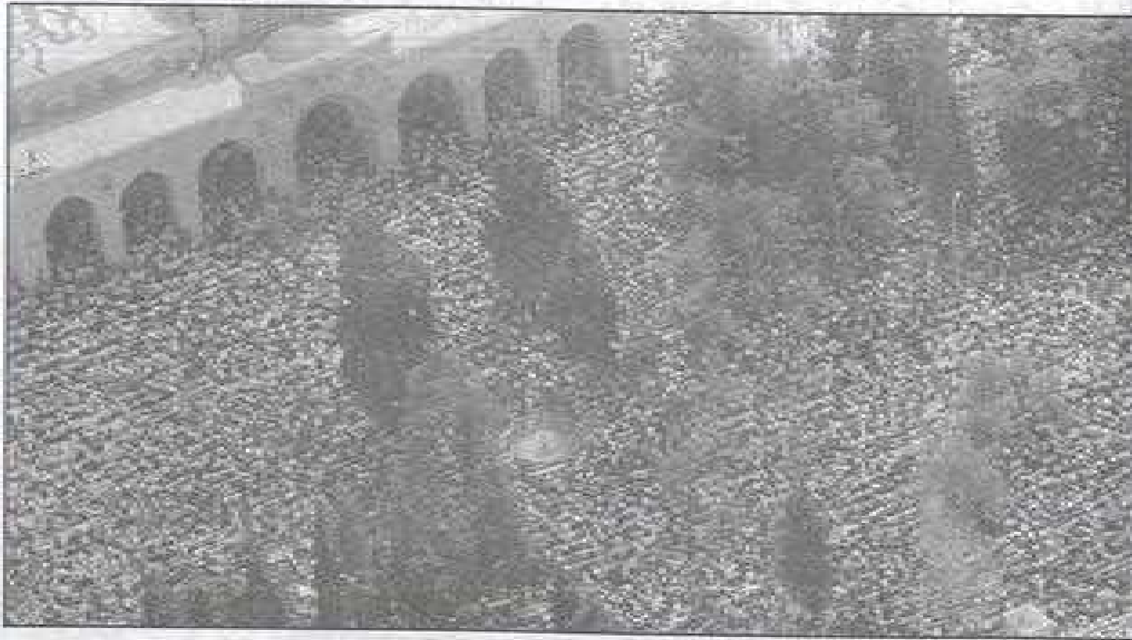
ولقد أعلن اليهود مرارًا أنهم يريدون الاستيلاء على هذه البلاد المقدسة استيلاء أبديًا تامًا، وأن يجعلوها يهودية، كما أن إنكلترا إنكليزية. وقد بدأت نتائج غزوتهم تظهر جلية واضحة، فقد أصبح عدد كبير من المسلمين مشردين بلا مأوى، وهذه مقدمة لتشريد بقية السكان وإجلائهم عن بلادهم كما أنهم استولوا على مرافق البلاد الاقتصادية، ولم يبق للمسلمين غير القليل من أراضيهم التي إن لم يحافظوا عليها، أصبحت فلسطين المقدسة يهودية بالفعل بعد زمن قليل.

إن أعداء البلاد يريدون فتحها والاستيلاء عليها بالمال، ولو أنهم أرادوا افتتاحها حربًا، وقعد أحد أبنائها عن الجهاد، أو قام يساعد الخصوم على امتلاكها لقلنا إنه خارج على دينه وقومه. فما رأيكم فيمن يساعدهم على تمليكهم البلاد، وهذا لا يقل خطورة عمن يقعد عن الجهاد أو يساعد الخصم؟

وهل يجوز لمن يؤمن بالله واليوم الآخر، وبكتاب الله وشريعته ورسوله، أن يبيع أرضه لليهود بعد أن يعلم أنه إن فعل ذلك، مكنهم من مقدسات المسلمين وساعدهم على القضاء على الإسلام، وطرد إخوانه من بلادهم؟ وما حكم أمثال هؤلاء في الإسلام؟

ج- بسم الله الرحمن الرحيم. رب آتني حكمًا وفهمًا وعلمني من لدنك علمًا.

أما بعد، فإن حكم الإسلام في عمل الإنكليز واليهود الصهيونيين في فلسطين حكم قوم من أهل الحرب، أغاروا على وطن من دار الإسلام فاستولوا عليه بالقوة، واستبدوا بأمر الملك فيه. وشرعوا في انتزاع رقبة أرضه من أهله بتدابير منظمة ليسلبوهم الملك (بكسر الميم) كما سلبوهم الملك (بضمها) وحكم من يساعدهم على عملهم هذا (امتلاك الأرض) بأي نوع من أنواع المساعدة، وأية صورة من صورها الرسمية (كالبيع)، وغير الرسمية (كالترغيب) حكم الخائن لأمته وملته، العدو لله ولرسوله وللمؤمنين، الموالي لأعدائهم وخصومهم في مُلكهم وملكهم، لا فرق بينه وبين المجاهد معهم للمسلمين بماله ونفسه، فالذي يبيع أرضه لليهود الصهيونيين في فلسطين والذي يسعى في شراء أرض غيره لهم من سمسار وغيره، كالذي يساعد أي قوم من الأجانب على قومه فيما يحاولون من فتح بلادهم بالسيف والنار، وامتلاك أوطانهم. بل أقول ولا أخاف في الله لومة لائم، ولا إيذاء ظالم، إن هذا



الصلاة في المسجد الأقصى وقت أن كان مزدحما بالمصلين

(١) المنار ج ٣٣ (١٣٩١) ص٢٧٣ ـ ٢٧٥.

حكم الشرع فيمن يساعد اليهود على امتلاك فلسطين

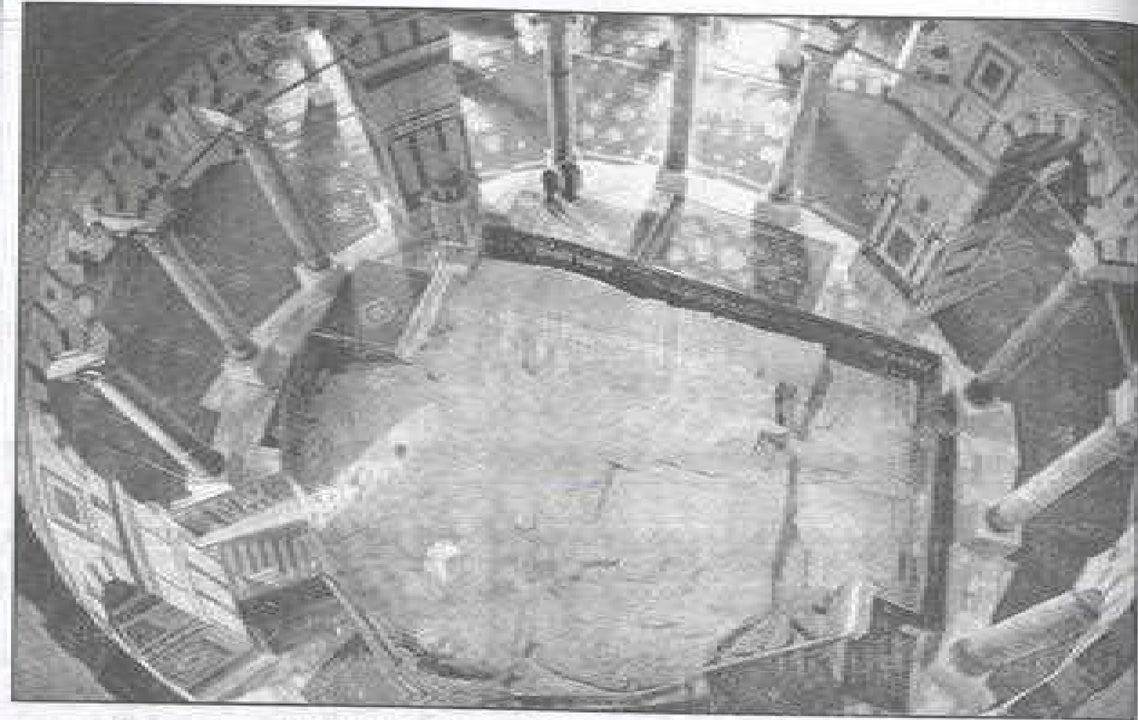
النوع من فتح الأجنبي لدار الإسلام هو شر من كل ما سبقه من أمثاله من الفتوح الحربية السياسية والدينية على اختلاف أسمائها في هذا العصر، لأنه سلب لحق أهل الوطن في ملك بلادهم وحكمها، ولحقهم في ملك أرضها لأجل طردهم منها. ومن المعلوم بالبداهة أنه إذا بقي لنا ملك الأرض، تيسر لنا إعادة مُلك الحكم، وإلا فقدناهما معًا.

هذا وإن فقد فلسطين خطر على بلاد أمتنا المجاورة لهذا الوطن منها، فقد صار من المعلوم بالضرورة لأهل فلسطين والمجاورين لهم، ولكل العارفين بما يجرى فيها، من عزم اليهود على تأسيس الوطن القومي الإسرائيلي واستعادة مُلك سليمان بقوة المال الذي هم أقطاب دولته الاقتصادية، وبقوة الدولة البريطانية الحربية. إن هذا الخطر سيسري إلى شرق الأردن وسورية والحجاز والعراق، بل هو خطر سينتقل من سيناء إلى مصر.

وجملة القول أن الصهيونية البريطانية خطر على الأمة العربية في جميع أوطانها الآسيوية وفي دينها ودنياها، فلا يعقل أن يساعدهم عليه عربي غير خائن لقومه ووطنه، ولا مسلم يؤمن بالله تعالى وبكتابه العزيز وبرسوله محمد خاتم النبيين، صلوات الله عليه وعلى آله وأصحابه. بل يجب على كل مسلم أن يبذل كل ما يستطيع من جهد في مقاومة هذا الفتح، ووجوبه آكد على الأقرب فالأقرب، وأهون أسباب المقاومة وطرقها المقاومة السلبية، وأسهلها الامتناع من بيع أرض الوطن لليهود، فإنه دون كل ما يجب من الجهاد بالمال والنفس الذي يبذلونه هم في سلب بلادنا وملكنا منا.

ومن المقرر في الشرع أنهم إن أخذوها وجب على المسلمين في جملتهم بذل أموالهم وأنفسهم في سبيل استعادتها، فهل يعقل أن يبيح لنا هذا الشرع تمهيد السبيل لامتلاكهم إياها بأخذ شيء من المال منهم وهو معلوم باليقين، لأجل أن يوجب علينا





الصخرة الشريفة التي عرج منها النبي ﷺ إلى السموات العلا

يبذل أضعاف هذا المال مع الأنفس لأجل إعادتها لنا وهو مشكوك فيه، لأنه يتوقف على وحدة الأمة العربية وتجديد قوتها بالطرق العصرية. وأنى يكون ذلك لها وقلب بلادها وشرايين دم الحياة فيها في قبضة غيرها؟ فالذي يبيع أرضه لليهود في فلسطين أو في شرق الأردن يعد جانيًا على الأمة العربية كلها، لا على فلسطين وحدها.

ولا عذر لأحد بالفقر والحاجة إلى المال للنفقة على العيال، فإذا كان الشرع يبيح السؤال المحرم عند الحاجة الشديدة، ويبيح أكل الميتة والدم ولحم الخنزير للاضطرار، وقد يبيح الغصب والسرقة للرغيف الذي يسد الرمق ويقي الجائع من الموت بنية التعويض، فإن هذا الشرع لا يبيح لمسلم بيع بلاده وخيانة وطنه وملته لأجل النفقة على العيال، ولو وصل إلى درجة الاضطرار، إن فرضنا أن الاضطرار إلى القوت الذي يسد الرمق، يصل إلى حيث لا يمكن إزالته إلا بالبيع لليهود وسائر أنواع الخيانة. فالاضطرار الذي يبيح أمثال ما ذكرنا من المحظورات، أمر يعرض للشخص الذي أشرف على الموت من الجوع وهو يزول برغيف واحد مثلا، وله طرق ووسائل كثيرة.

وإنني أعتقد أن الذين باعوا أرضهم، لهم لم يكونوا يعلمون أن بيعها خيانة لله ولرسوله ولدينه وللأمة كلها، كخيانة الحرب مع الأعداء لتمليكهم دار الإسلام وإذلال أهلها، وهذا أشد أنواعها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٧ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

(الأنفال: ٢٧، ٢٨)

﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

استفتاءات القراء

(الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين)

اطلعنا على الطلب المقدم من/ مجلة الأزهر - المتضمن لبعض الأسئلة وهي:

الصلاة في المساجد التي بها أضرحة

ما هو حكم الصلاة في المساجد التي بها أضرحة؟

الصلاة في المساجد التي يوجد بها أضرحة الأولياء والصالحين صحيحة ومشروعة، بل إنها تصل إلى درجة الاستحباب، وذلك بالكتاب، والسنة، وفعل الصحابة، وإجماع الأمة الفعلي.

- فمن القرآن الكريم: قوله تعالي: ﴿فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ (الكهف: ٢١).

وسياق الآية يدل على أن القول الأول هو قول المشركين، وأن القول الثاني هو قول الموحدين، وقد حكى الله تعالى القولين دون إنكار؛ فدل ذلك على إمضاء الشريعة لهما، بل إن سياق قول الموحدين يفيد المدح؛ بدليل المقابلة بينه وبين قول المشركين المحفوف بالتشكيك، بينما جاء قول الموحدين قاطعًا وأن مرادهم ليس مجرد البناء بل المطلوب إنما هو المسجد.

قال الإمام الرازي في تفسير ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾: (نعبد الله فيه، ونستبقي آثار أصحاب الكهف بسبب ذلك المسجد) اهـ.

وقال الشهاب الخفاجي في حاشيته على تفسير البيضاوي: (في هذه دليل على اتخاذ المساجد على قبور الصالحين) اهـ.

- ومن السُّنة: حديث أبي بصير رضي الله عنه، الذي رواه عبدالرزاق عن معمر، وابن إسحاق في (السيرة)، وموسى بن عُقبة في (مغازيه) - وهي أصح المغازي كما يقول الإمام مالك - ثلاثتهم عن الزُّهري، عن عروة بن الزُّبير، عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم رضي الله عنهم: أن أبا جندل بن سهيل بن عمرو دفن أبا بصير رضي الله عنه لما مات وبنى على قبره

يجيب عنها فضيلة الأستاذ الدكتور
شوقي علام
مفتي جمهورية مصر العربية



مسجدًا، (بسيف البحر)، وذلك بمحضر ثلاثمائة من الصحابة. وهذا إسناد صحيح، كله أئمة ثقات، ومثل هذا الفعل لا يخفى على رسول الله ﷺ، ومع ذلك فلم يرد أنه ﷺ أمر بإخراج القبر من المسجد أو نبشه.

كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: (في مسجد الخيف قبر سبعين نبيًا) أخرجه البزار والطبراني في المعجم الكبير، وقال الحافظ ابن حجر في (مختصر زوائد البزار): هو إسناد صحيح.

وقد ثبت في الآثار أن سيدنا إسماعيل عليه السلام وأمه هاجر رضي الله عنها قد دُفنا في الحجر من البيت الحرام، وهذا هو الذي ذكره ثقات المؤرخين واعتمده علماء السِّير: كابن إسحاق في (السيرة)، وابن جرير الطبري في (تاريخه)، والسهيلي في (الروض الأنف)، وابن الجوزي في (المنتظم)، وابن الأثير في (الكامل)، والذهبي في (تاريخ الإسلام)، وابن كثير في (البداية والنهاية)، وغيرهم من مؤرخي الإسلام، وأقر النبي ﷺ ذلك ولم يأمر بنبش هذه القبور وإخراجها من مسجد الخيف أو من المسجد الحرام.

- وأما فعل الصحابة: فقد حكاه الإمام مالك في (الموطأ) بلاغًا صحيحًا عندما ذكر اختلاف الصحابة في مكان دفن النبي ﷺ فقال: فقال ناس: يُدفن عند المنبر، وقال آخرون: يُدفن بالبقيع، فجاء أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما دفن نبي قط إلا في مكانه الذي توفي فيه) فحفر له فيه) اهـ، والمنبر من المسجد قطعًا، ولم ينكر أحد من الصحابة هذا الاقتراح، وإنما عدل عنه أبو بكر تطبيقًا لأمر النبي ﷺ أن يُدفن حيث قبضت روحه الشريف ﷺ، فدُفن في حجرة السيدة عائشة رضي الله عنها المتصلة بالمسجد الذي يصلي فيه المسلمون، وهذا هو نفس وضع المساجد المتصلة بحجرات أضرحة الأولياء والصالحين في زماننا.

وأما دعوى الخصوصية في ذلك للنبي ﷺ فهي غير صحيحة، لأنها دعوى لا دليل عليها، بل هي باطلة قطعًا بدفن سيدنا أبي بكر وسيدنا عمر رضي الله عنهما في هذه الحجرة التي كانت السيدة عائشة رضي الله عنها تعيش فيها وتصلي فيها صلواتها المفروضة والمندوبة؛ فكان ذلك إجماعًا

من الصحابة رضي الله عنهم على جوازه.

ومن إجماع الأمة الفعلي وإقرار علمائها لذلك: صلاة المسلمين سلفًا وخلفًا في مسجد سيدنا رسول الله ﷺ والمساجد التي بها أضرحة من غير نكير، وإقرار العلماء من لدن الفقهاء السبعة بالمدينة المنورة الذين وافقوا على إدخال الحجرة النبوية الشريفة إلى المسجد النبوي سنة ثمان وثمانين للهجرة؛ وذلك بأمر الوليد بن عبدالملك لعامله على المدينة حينئذ عمر بن عبدالعزيز رحمه الله، ولم يعترض منهم إلا سعيد بن المسيب، لا لأنه يرى حرمة الصلاة في المساجد التي بها قبور، بل لأنه كان يريد أن تبقى حجرات النبي ﷺ كما هي يطلع عليها المسلمون حتى يزهدوا في الدنيا ويعلموا كيف كان يعيش نبيهم ﷺ.

وأما حديث عائشة رضي الله عنها في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) فالمساجد: جمع مسجد، والمسجد في اللغة: مصدر ميمي يصلح للدلالة على الزمان والمكان والحدث، ومعنى اتخاذ القبور مساجد: السجود لها على وجه تعظيمها وعبادتها كما يسجد المشركون للأصنام والأوثان - كما فسرته الرواية الصحيحة الأخرى للحديث عند ابن سعد في (الطبقات الكبرى) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا بلفظ: (اللهم لا تجعل قبري وثنًا؛ لعن الله قومًا اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)، فجملة (لعن الله قومًا) بيان لمعنى جعل القبر وثنًا، والمعنى: اللهم لا تجعل قبري وثنًا يسجد له ويعبد كما سجد قوم لقبور أنبيائهم.

قال الإمام البيضاوي: (لما كانت اليهود والنصارى يسجدون لقبور أنبيائهم؛ تعظيمًا لشأنهم، ويجعلونها قبلة، ويتوجهون في الصلاة نحوها، واتخذوها أوثانًا، لعنهم الله ومنع المسلمين عن مثل ذلك ونهاهم عنه، أما من اتخذ مسجدًا بجوار صالح أو صلى في مقبرته وقصد به الاستظهار بروحه ووصول أثر من آثار عبادته إليه - لا التعظيم له والتوجه - فلا حرج عليه؛ ألا ترى أن مدفن إسماعيل في المسجد الحرام ثم الحطيم؛ ثم إن ذلك المسجد أفضل مكان يتحرى المصلي بصلاته، والنهي عن الصلاة في المقابر مختص بالمنبوشة؛ لما فيها من النجاسة.

وبناء على ذلك فإن الصلاة في المساجد التي بها أضرحة الأولياء والصالحين جائزة ومشروعة، بل ومستحبة أيضًا، والقول بتحريمها أو بطلانها قول باطل لا يلتفت إليه ولا يعول عليه.

والله سبحانه وتعالى أعلم

أرض الحبشة مأوى الإسلام:

تحديات الواقع وآفاق المستقبل

أ. عثمان محمد عثمان محمد
محاضر بجامعة أفريقيا العالمية. المركز الإسلامي الأفريقي
الخرطوم - السودان

تحتل الحبشة مكانة خاصة في وجدان المسلمين. ومنشأ ذلك أولًا، أن بلال بن رباح رضي الله عنه مؤذن الرسول هو من الحبشة، فهو الذي عاش رفيقًا في مكة المكرمة، ثم أصبح رفيقًا للنبي ﷺ. ولم يكن من قبيل المصادفة أن وطنه إثيوبيا كان البلد الذي اختاره النبي ﷺ لحماية أصحابه من القمع الذي لاقوه من أهلهم. (Najib، د. ت) ثانيًا: فضل الأحباش وأرض الحبشة المذكور في القرآن الكريم والسنة النبوية، فمما جاء في القرآن الكريم بشأنهم، عن عبدالله بن الزبير قال: نزلت هذه الآية في النجاشي وأصحابه (١)

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾

(المائدة: ٨٣).

(السيوطي، ت٩١١هـ: ١٥٠٥م؛ ص٢٨)

وقد وردت في القرآن بعض الألفاظ بلغة الأحباش، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾

(النساء: ٥١)

قال ابن عباس: الجبت اسم الشيطان بلغة الحبشة (٢). (السيوطي، ت٩١١ هـ، ١٥٠٥م، ص٣٠).

وقد ورد ذكر فضل الأحباش في الأحاديث النبوية. فعن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اتخذوا السودان فإن ثلاثة منهم من سادات أهل الجنة: لقمان الحكيم والنجاشي وبلال المؤذن». قال الطبراني: يعني بالسودان الحبش(٣). (السيوطي، ت٩١١هـ، ١٥٠٥م، ص٢٣). وأبرز صحابة النبي ﷺ من الأحباش سيدنا بلال بن رباح رضي الله عنه مولى سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه. وأم أيمن رضي الله عنها، حاضنة النبي ﷺ ومرضعته ومولاته واسمها بركة. كانت ملك والده فأعتقها. (السيوطي، ت٩١١هـ، ١٥٠٥م، ص ٤٣ - ٤٤).

وقبل ذلك كله فإن الحبشة أرض الهجرة الأولى. والراجح أن الإسلام دخل أرض الحبشة قبل المدينة المنورة. (مكي، ٢٠٠١، ص٢٠٢). أورد ابن هشام في سيرته «فلما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء، وما

(١) أخرجه النسائي وابن جرير وابن المنذر وأبو حاتم وأبو الشيخ وابن حبان وابن مردويه.
(٢) أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم.
(٣) أخرجه ابن حبان في الضعفاء، كتاب المجروحين: ١/١٨٠.

هو فيه من العافية، بمكانه من الله وعمه أبي طالب، وأنه لا يقدر أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، قال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكًا لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه، فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة، مخافة الفتنة، وفرارًا إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة في الإسلام». (ابن هشام، ١٩٩٦، ص٣٤٩) وبلغ عدد المهاجرين إلى الحبشة ثلاثة وثمانين رجلًا. (نفسه، ص٣٥٧).

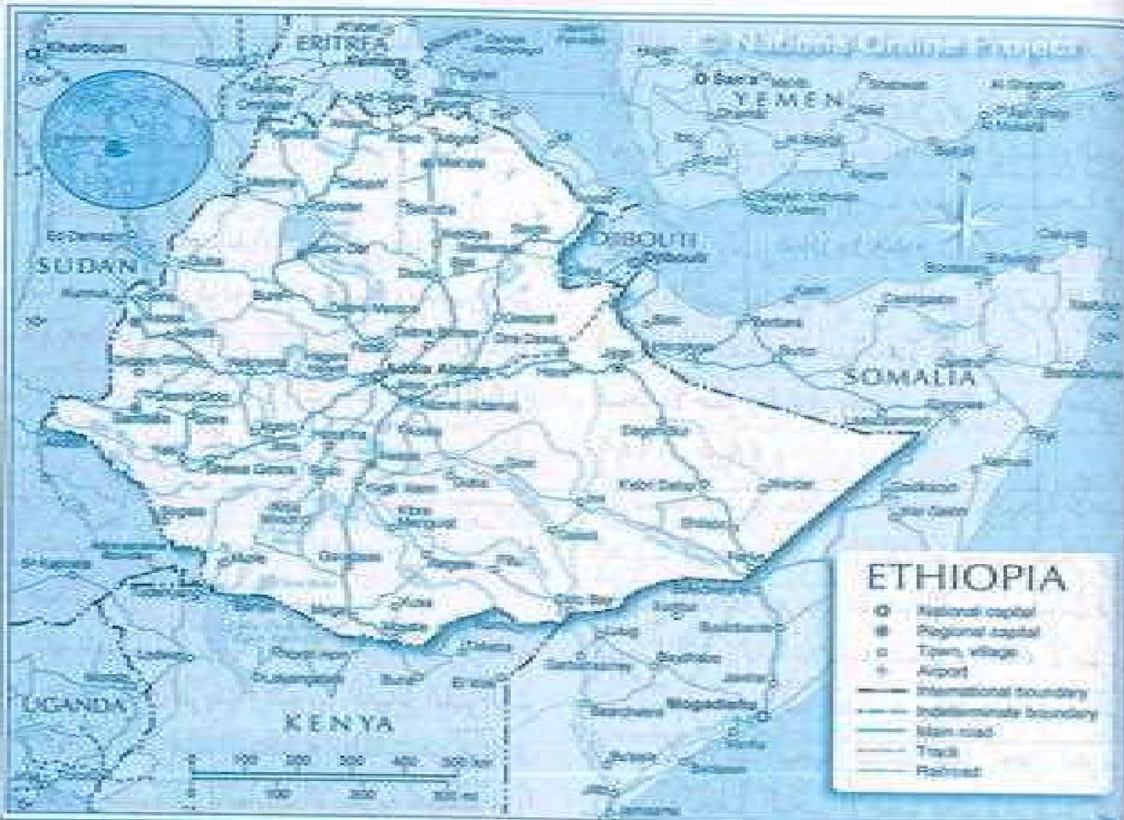
أما أصل الأحباش أو الحبوش، كما ذكر السيوطي فينسب إلى الحاميين، حيث أورد حديث النبي ﷺ: «سام أبو العرب، ويافث أبو الروم، وحام أبو الحبش»(٤). (السيوطي، ت٩١١هـ، ١٥٠٥م، ص١٩). وتحدث السيوطي عن طبيعة بلاد الأحباش»... وتزل بنو حام مجرى الجنوب والدبور، ويقال لتلك الناحية الداروم، وجعل الله فيهم أدمة وبياضًا قليلًا، وأعمر بلادهم وسماءهم، ورفع عنهم الطاعون، وجعل في أرضهم الأثل والأراك والعشر والغاف والنخل، وجرت الشمس والقمر في سمائهم...» (السيوطي، ت٩١١هـ، ١٥٠٥م، ص٢٢).

وقد ارتبطت أرض الحبشة منذ القدم بالجزيرة العربية خصوصًا وبالشرق العربي عمومًا وذلك عبر التجارة مع البحر الأحمر. والارتباط الحضاري بهذه المنطقة يتمثل في الحضارة السامية الوافدة للحبشة من جنوب الجزيرة العربية. وقد قوى ارتباطهم بمنطقة وادي النيل وبيت المقدس عبر الرباط الديني المتمثل في تبعيتها للكنيسة القبطية في مصر والحج إلى بيت المقدس. هذه الصلة الحضارية والدينية ببلاد العرب وما جاورها، ميزت الحبشة عن جوارها الأفريقي الجغرافي. فهي بذلك إفريقية جغرافيا، أما حضاريًا فخارج نطاق القارة. وتجدر الإشارة إلى أن أرض الحبشة لم تخضع للاحتلال الأجنبي طوال تاريخها الممتد لثلاثة آلاف عام باستثناء سنوات الاحتلال الإيطالي في الفترة ما بين ١٩٣٥ ـ ١٩٤١. (العارف، ١٩٧٥، ص٣ ـ ٤).

وفي القرون الأخيرة كان الإسلام قويًا في هذه المنطقة وكان التجار المسلمون يأتون إلى سواحلها. وقد أصبحت المناطق التجارية التي استقروا بها مراكز لنشر الإسلام في المنطقة بأسرها. (Kebreab، ص٧٦) ولا يقتصر هذا الأمر على الحبشة فقط بل يشمل كل مناطق القرن الإفريقي. فبحلول القرن الرابع عشر، كانت هناك سبع سلطنات إسلامية هي: يفعات، دوارو، أربابانى، هدية، شكارة، بالي ودارة. وامتدت حدود هذه السلطنات حتى الجيوب المسيحية في الشمال، غير أنها انهارت بعد استعانة المسيحيين بالقوى الاستعمارية الأوروبية، البرتغاليون بصفة خاصة، وتشكلت بذلك أثيوبيا الحالية في أواخر القرن الثامن عشر. (نجيب، ٢٠٠٤).

عند دراسة أوضاع المسلمين في إثيوبيا، يشير مكي إلى أهمية الفصل بين مجموعتين، الأولى تضم ما يُعرف بمسلمي الهضبة وهم الجبرتي، والوللو والأمهرة، وهؤلاء يشكلون جزءًا من القضية في شقها الجغرافي والتاريخي. أما المجموعة الثانية فتتعلق ببعض القوميات المسلمة وهم الأورومو، الصوماليون وأهل هرر. بالنسبة للمجموعة الأولي، فإن المسألة ترتبط بحقوق المواطنة

(٤) أخرجه الترمذي وحسنه، وابن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك: ١/١٩٩.



والمساواة والحرية الدينية، وذلك باعتبار أنها أقلية مسلمة في مقابل أغلبية مسيحية، بينما تتعلق قضية المجموعة الثانية بمطالب الاستقلال عن الدولة المحتلة (إثيوبيا)(٥) (مكي، ١٩٨٩، ص٣).

نظرًا لاختلاط العناصر السامية والحامية في إريتريا عبر المصاهرة الممتدة لعصور خلت، فمن الصعب إيجاد فواصل عرقية محددة بينهما. وعليه يمكن تقسيم المجموعات السكانية في إريتريا إلى أربع مجموعات (مكي، ١٩٨٩، ص٥):

١ـ سكان الهضبة ويمارسون الزراعة ولغتهم التيجرينيا ويتبعون للكنيسة القبطية.

٢ـ قبائل الرحل وشبه الرحل من البجة والتجري، وينتشرون بين الحدود السودانية والبحر الأحمر، ويمارسون الرعي، ويدينون بالإسلام، ويتحدثون لغة التجرى والتي تكتب بالحرفين العربي والجئزي.

٣ـ قبائل العفار من أصل عربي والتي تنتشر في السهول الساحلية من الجنوب لخليج زولا وحتى الشرق من الهضبة الإريترية، ويمارسون الرعي، ويتحدثون بالإضافة إلى لهجتي الساهو والدنكل ويدينون بالإسلام.

٤ـ القبائل ذات الأصول الزنجية ومنهم باريا، كوناما، بازيا وأغلبهم مسلمون، ويقطنون أقصى الجنوب الغربي لإريتريا.

وبالإضافة لهذه المجموعات الأربع، توجد بعض المجموعات التي عاشت في إريتريا كالجالية الصومالية، السودانية، واليمنية الحضارمة، بجانب الرشايدة، وكلهم يدينون

(٥) كانت إريتريا ضمن هذه المجموعة قبل استقلالها عن إثيوبيا عام ١٩٩٣، وقد حذفت من النص باعتبار أن الكتاب نشر قبل الاستقلال في ١٩٨٩م.

بالإسلام. وهناك أيضًا الجالية الإيطالية والإريتريون المولدون والذين يعيشون في المدن كالعاصمة أسمرا ومصوع وعصب. (مكي، ١٩٨٩، ص٧).

حول طبيعة مسألة الإسلام في إريتريا كفاعل حضاري أكثر من كونه مجرد عقيدة، يشير مكي (١٩٨٩، ص٤٣) إلى أن هذا البعد الحضاري برز منذ انفجار الثورة الإريترية في العام ١٩٥٩م عندما حاول نظام الإمبراطور هيلاسلاسي إيقاف تدريس اللغة العربية، ويؤكد ذلك أيضا تمسك الإريتريين باللغة العربية كلغة رسمية إبان فترة الاحتلال البريطاني والإثيوبي.

لقد شكلت إريتريا محورًا إستراتيجيًا لانتشار الإسلام في شرق أفريقيا وإثيوبيا، فجحافل الفتوحات الإسلامية نحو هذه المنطقة انطلقت من ميناءي عصب ومصوع. فالمدن الإريترية لعبت دورًا حضاريًا لا يقل شأنًا عن دور إستانبول والقاهرة وقرطبة. ومن أبرز المعالم الإسلامية في إريتريا مسجد الخلفاء الراشدين في العاصمة أسمراء، ويعتبر في عداد المساجد الإسلامية الأقدم، إذ شيد في القرن الأول الهجري، وكذلك مسجد الإمام الشافعي في مدينة مصوع والذي يزيد عمره عن عشرة قرون، بالإضافة إلى مساجد أخرى في مدن كرن، أميرمي وخرجيجو وجميعها عامرة بحلق العلم في شتى فروع الدراسات الإسلامية، وبعضها مُلحق به معهد ديني، هذا بجانب الخلاوي المنتشرة في الأرياف والحضر بشكلها التقليدي. ويعتبر الإريتريون مدينة أغوردات أكبر المدن الإسلامية في إريتريا لدرجة أن المسيحيين فيها تطبعوا بأخلاق المسلمين. (مكي، ١٩٨٩، ص٤٤ ـ ٤٦).

لقد ظلت القضية الإريترية وما زالت مرتبطة بالصراع العقدي بين الإسلام والصليبية في المنطقة. وهنا تبرز إمكانية المقارنة بين قيام دولة إسرائيل كنتيجة لانتصار الحلفاء في الحرب العالمية الثانية، وضم إريتريا إلى المستعمرات البريطانية بفضل انتصار الحلفاء أيضًا، والذين بدورهم سلموها لإثيوبيا معقل المسيحية في المنطقة. ومن جانب ثان فإن موقع إريتريا على البحر الأحمر يضعها في قلب الصراع الإستراتيجي في هذه المنطقة. إذ إنها تحتل أطول ساحل على البحر الأحمر والذي يمتد لـ ٣٠٠ كلم. (مكي، ١٩٨٩، ص٤٨).

تمثل إريتريا بعدًا هامًا في الإستراتيجية الأمنية العربية للبحر الأحمر، وذلك لموقعها الجغرافي، وطابع الثقافة العربية في هذا البلد. ولذلك فإن المحاولات لإقامة علاقات ودية مع النظام الإريتري من ناحية، ومحاولة إقصائه من ناحية أخرى، يأتي ضمن هذه الإستراتيجية. فبينما يعمل الجوار العربي لإريتريا لجعل البحر الأحمر بحيرة عربية، فإن المصالح الغربية الإسرائيلية تحول دون ذلك. وهذا ما دفع ببعض القوى الغربية لتعزيز سيطرة النظام الحاكم في إريتريا، بالرغم من المآخذ الغربية عليه فيما يتصل بانتهاكات حقوق الإنسان.

وتبرز الأهمية الإستراتيجية لإريتريا من عاملين أساسيين، الموقع الجغرافي والأهمية السياسية. فإريتريا تمثل ملتقى تاريخيًا لجوارها العربي والإفريقي والمتمثل في الجزيرة العربية، ووادي النيل والهضبة الإثيوبية. وتبعًا لذلك فإن تشكل الإسلام في إريتريا في بعده الحضاري جاء متأثرًا بهذه العوامل الجغرافية والسياسية والاقتصادية كذلك. ويظهر هذا التأثر في واقع الممارسات والأنشطة المختلفة للمجموعات السكانية المسلمة في هذا البلد. فهي تنحدر من مجموعات عرقية مختلفة وتتحدث لغات مختلفة منها السامية، والكوشية، ولغات نيلية صحراوية، وفي المقابل يمارسون أنماطا مختلفة من الإنتاج، ولهم أنماطهم السياسية والاجتماعية والتنظيمية المتنوعة كذلك. كما أن التوزيع الجغرافي للمذاهب الإسلامية في إريتريا يعكس هذا التنوع أيضًا، فالمذهب الشافعي الذي جاء من جهة اليمن عن طريق التجارة خاص بالعفر وبعض الجبرتة في المرتفعات، أما المذهب المالكي فهو مذهب سكان الجزء الغربي من المنخفضات الإريترية، والمذهب الحنفي الذي أدخله العثمانيون فتبعه السمهريون وبعض المجموعات من المتحدثين بالتجري والساهو في المنخفضات الشرقية والمرتفعة الشمالية. وبناء عليه فإن العوامل التاريخية والجغرافية والسياسية والاقتصادية التي ارتبطت بانتشار الإسلام ومؤثراته في إريتريا تفرض اعتماد المنظور الشامل، الذي يتجاوز الحدود الجغرافية لإريتريا الحديثة ليشمل جوارها الإقليمي، وذلك عند دراسة الإسلام فيها. (MIRAN، ٢٠٠٥).

هذا الموقع الإستراتيجي جعل من هذه المنطقة مصدرًا للصراع على مر العصور. إذ يعود تاريخ هذا الصراع إلى عهد مملكة أكسوم، والتي حاولت مرارًا إيجاد منفذ لها على ساحل البحر الأحمر من خلال إخضاع إريتريا. على أن هذه الحملات لم تتوقف إلا حين بسطت الإمبراطورية العثمانية سيطرتها على إريتريا، وذلك عقب استنجاد أمراء من المنطقة بهم لحمايتهم من هجمات البرتغاليين، حيث تمكن العثمانيون من طردهم وبسطوا سلطانهم على طول الساحل الإريتري، وانحسرت بذلك هجمات الإثيوبيين. (عودة، ١٩٨٩م، ص٢٦ ـ ٢٨).

وفي ظل ضعف الإمبراطورية العثمانية استعان الإثيوبيون بالإيطاليين لطرد العثمانيين من الإقليم، حيث تمكن الإيطاليون من السيطرة على الساحل الإريتري وحتى الحدود السودانية في الفترة بين ١٨٨٥هـ ـ ١٨٨٧م. ومن ثم توجهت إلى الداخل الإريتري وأعلنت رسميًا احتلال إريتريا في العام ١٨٩٠م. (عودة، ١٩٨٩م، ص٢٨ ـ ٣٣). استمر الاحتلال الإيطالي لإريتريا حتى العام ١٩٤١م حيث دخلت قوات الحلفاء إريتريا أثناء الحرب العالمية الثانية بعد هزيمة إيطاليا في الشرق الإفريقي، ووضعت إريتريا تحت الوصاية البريطانية على غرار إثيوبيا والصومال. وترك تقرير مصير هذه المستعمرات الإيطالية، بما فيها ليبيا، إلى لجنة مكونة من حكومات الولايات المتحدة، بريطانيا، فرنسا والاتحاد السوفيتي. غير أن اللجنة لم تصل إلى أي قرار بشأنها، ورفعت تقريرًا من ثلاثة مقترحات بخصوص إريتريا إلى الأمم المتحدة:

أولا: الاتحاد الكامل مع إثيوبيا.

ثانيًا: الاتحاد مع إثيوبيا ضمن نظام فيدرالي.

ثالثًا: الاستقلال التام بعد عشر سنوات من الوصاية تحت إشراف الأمم المتحدة.

واستمرت المفاوضات بهذا الشأن بين الأمم المتحدة وإثيوبيا وإريتريا إلى أن أعلن الإمبراطور هيلاسلاسي، من طرف واحد، ضم إريتريا إلى إثيوبيا عام ١٩٦٢م. (عودة، ١٩٨٩م، ص٣٤ ـ ٤١).

يشكل المسلمون في إثيوبيا ٣٣,٩٪ ما يعادل أكثر من ٢٥ مليون نسمة من جملة السكان وفق الإحصاءات الرسمية لآخر تعداد وطني أجري في العام ٢٠٠٧. (Central Statistics Agency of Ethiopia، ٢٠٠٨) ووفقًا لمحمود السيد، كما جاء في الموسوعة الحرة، (الموسوعة الحرة، ٢٠١٠) فإن نسبة المسلمين تتراوح ما بين (٥٥ ـ ٦٥٪) من إجمالي السكان، أي حوالي ٤٨ مليون نسمة من إجمالي السكان ٧٥ مليون نسمة. وينتشرون في معظم المناطق الجغرافية وبين معظم الجماعات العرقية، ويتركز معظمهم في شرق وجنوب شرق وشمال غرب البلاد.

مياه النيل
زيادة الطلب: أسبابه ونتائجه

أ.د. عبدالله نجيب محمد
معهد البحوث والدراسات الأفريقية - ج. القاهرة

كان الطلب على مياه النيل فى الأساس طلبًا مصريًا حيث كانت الكثافة السكانية فى بلدان حوض النيل قليلة، وحاجتهم لموارد النيل المائية قليلة ومواردهم الأخرى وفيرة. وفى القرن العشرين ظهر طلب سودانى لمياه النيل، عبرت عنه اتفاقية مياه النيل لعام ٩٢٣٩١م، ثم اتفاق الانتفاع الكامل بمياه نهر النيل عام ٩٥٩١م بين مصر والسودان.

وبعد ذلك تتابع الطلب على مياه النيل ليشمل كافة بلدان الحوض، وهو طلب اعترفت به اتفاقية ١٩٥٩م فى بعض بنودها. حيث ورد النص التالى: «نظرًا إلى أن البلاد التى تقع على النيل غير الجمهوريتين المتعاقدتين (مصر والسودان) تطالب بنصيب فى مياه النيل، فقد اتفقت الجمهوريتان على أن يبحثا سويًا مطالب هذه البلاد، وأن يتفقا على رأى موحد بشأنها، فإذا أسفر البحث عن إمكان قبول أية كمية من إيراد النهر تخصص لبلد منها أو لآخر، فإن هذا القدر محسوبًا عند أسوان يخصم مناصفة بينهما»[(١)].

١ـ الطلب المصرى:

حجم الطلب المصرى لمياه النيل حسب تقدير الخطة القومية (MASTER PLAN) يساوى ٦٣ مليار متر مكعب عام ٢٠٠٠م.

هذا الرقم يأخذ فى الحسبان زيادات الطلب وترشيده نتيجة لخفض المساحات التى تزرع بالمحاصيل الشرهة للمياه (الأرز- قصب السكر).

وفى ورقة رسمية مصرية قدمت «لمؤتمر النيل عام ٢٠٠٢م»، وردت التقديرات الآتية للطلب المصرى على مياه النيل:

الاستخدام	الحجم بمليارات الأمتار المكعبة
الأغراض المنزلية والخدمات الحضرية	٣
الأغراض الصناعية	٦
الأغراض الزراعية	٥٦
جملة الطلب المصرى[(٢)]	٦٥

(١) اتفاق الانتفاع الكامل بمياه نهر النيل، القسم الخامس أحكام عامة، البند الثانى.
(٢) الورقة الرسمية للمؤتمر السابع للنيل عام ٢٠٠٢م - القاهرة، ١٥ ـ ١٩ مارس ١٩٩٩م.

ومنذ عام ١٩٩٧م اعتمدت سياسة توسع زراعى واستيطانى جديدة، تهدف لزيادة الرقعة المعمورة فى مصر، مما يرتفع بالمساحة المزروعة إلى ١١ مليون فدان، أى بزيادة ٣,٤ مليون فدان، تتمثل فى المشروعات الآتية:

أ ـ مشروع ترعة السلام:

٢٢٠ ألف فدان غرب قناة السويس، ٤٠٠ ألف فدان فى الشريط الساحلى لشبه جزيرة سيناء إلى الشرق من قناة السويس، فيكون المجموع ٦٢٠ ألف فدان.

ب ـ مشروع تنمية جنوب الوادى:

١,٥ مليون فدان على جزءين:

ـ منطقة شرق العوينات، ودرب الأربعين، ومنخفضات الصحراء الغربية فى مراحل: (الخارجة، الداخلة، غرب الموهوب، أبومنقار، الفرافرة، البحرية وسيوه) وهذه الأراضى سوف تروى بالمياه الجوفية.

ـ مشروع توشكى الذى يهدف لزراعة ٥٤٠ ألف فدان، تروى من بحيرة ناصر بعد رفع المياه منها لترعة الشيخ زايد، وسوف تتفرع منها شبكة من الترع.

وبناء على التقديرات الأخيرة فإن مصر سوف تحتاج لكمية إضافية من المياه تبلغ ٧٩مليار متر مكعب لتغطية الحاجات الجديدة للتوسع الزراعى والأغراض المنزلية، بمعنى أن الزيادة المطلوبة فى حصة مصر الحالية (وقدرها ٥٥,٥ مليار متر مكعب) وهو ٢٣,٥ مليار متر مكعب[(٣)].

٢ـ الطلب السودانى:

تزايد الطلب السودانى على مياه النيل



بسبب الحاجة للزراعة المروية، والصناعة والخدمات البلدية، والطاقة الكهرومائية، وكلها مطالب متزايدة عامًا بعد عام.

والتوسع الزراعى فى القطاع المروى فى السودان يخطط لزيادة الرقعة من ٤ ملايين فدان إلى ١٠ ملايين فدان بزيادة ٦ ملايين فدان.

وقدر الدكتور «حسن بكر» والدكتور «إبراهيم سليمان»، قدر كلاهما أن السودان يحتاج لكمية إضافية توازى ١٥ مليار متر

(٣) حروب المياه فى الشرق الأوسط ـ د. حسن بكر، ص٨٨.

مكعب من المياه لزراعة المساحة الإضافية المذكورة[٤] (المستغل الآن ١٦,٥ مليار متر مكعب).

والسودان ينتج الآن ١٧٨ ميجاوات من الطاقة الكهرومائية، وهنالك مشروعات سودانية لزيادة إنتاج الطاقة الكهرومائية تبلغ نحو ٣٠٠٠ ميجاوات، بمعنى زيادة إنتاج الطاقة الكهرومائية الحالية إلى أكثر من عشرة أضعافها، ومن المنتظر أن زيادة مخزون المياه فى الخزانات والسدود السودانية سوف يحتاج لميار متر مكعب من المياه، كما أن خطة السودان لزيادة المساحة المروية إلى ١٠ ملايين فدان، والاحتياجات الأخرى للزراعة والصناعة ومياه الشرب والطاقة، تحتاج نحو ٣٢,٥ مليار متر مكعب. وحسب التقدير الرسمى الحالى يصل إلى ٢٠ مليارًا على أقل تقدير.

٣ ـ الطلب الإثيوبى:

تشق الأراضى الإثيوبية ١٢ نهرًا مشتركًا فى الغالب مع جيرانها، لذلك سميت إثيوبيا «نافورة أفريقيا»، ولكن إثيوبيا لم تستغل هذه المياه للزراعة المروية ولا لإنتاج الطاقة الكهرومائية إلا قليلاً، حيث يبلغ استخدامها للمياه ٦ مليار متر مكعب.

والزراعة فى إثيوبيا تعتمد على الأمطار ماعدا ٣٪ من الرقعة المزروعة مروية، أما نسبة الأراضى المروية للرقعة المزروعة فى إثيوبيا فهى ضعيفة جدًا (٢٪)، لذلك ساد الافتراض أن إثيوبيا غير محتاجة لمياه النيل.

هذه الصورة تغيرت تمامًا فى النصف الثانى من القرن العشرين. إذ إن سكان إثيوبيا تكاثروا بدرجة كبيرة، حيث بلغ عددهم ما يزيد على الستين مليونًا، وقد سبق أن ذكرنا أن الجفاف والاحتطاب قد أتلف الغطاء النباتى فى إثيوبيا، فانحسر من ٤٠٪ من أرض إثيوبيا، إلى ٤٪ وبالتالى زادت الحاجة للطاقة.

وأظهرت الدراسات وجود مساحات واسعة من الأراضى الإثيوبية صالحة للزراعة المروية تبلغ ٣,٥ مليون هكتار، منها ٢,٣ مليون هكتار تقع فى حوض النيل الأزرق، الذى يصلح أيضًا لإنتاج كمية ضخمة من الطاقة الكهرومائية، تقدر بحوالى ٣٨ ألف ميجاوات.

والتقدير الحالى هو أن مشروعات إثيوبيا للزراعة المروية ولإنتاج الطاقة الكهرومائية تحتاج لكمية مياه تبلغ ٧ مليارات من الأمتار المكعبة.

الاتفاقيات الموروثة تلزم إثيوبيا بالامتناع عن إقامة أية مشاريع فى أعلى النيل حتى لا تؤثر بالنقصان على تدفق مياه النيل نحو المصب فى مصر إلا بموافقتها، والاتفاقية المصرية السودانية عام ١٩٥٩م خصصت كامل مياه النهر المقدرة بـ ٨٤ مليار متر مكعب فى أسوان لمصر والسودان، هذا وتطالب إثيوبيا بتغيير هذه الاتفاقيات[٥].

٤ ـ طلب دول منابع النيل الأبيض:

دول منابع النيل الأبيض هى: كينيا، أوغندا، تنزانيا، رواندا، بوروندى الكنغو (زائير).

(٤) حروب المياه فى الشرق الأوسط ـ د. حسن بكر، «أزمة المياه فى العالم العربى» إبراهيم سليمان.
(٥) الصادق المهدى ص٣٥.

رواندا وبوروندى لديهما مشاريع رى وإنتاج طاقة كهرومائية على نهر «كاجيرا» أهم روافد بحيرة فكتوريا. وهذه المشروعات بالإضافة لمشروعات «تنزانيا» تؤدى لنقص فى وارد المياه لبحيرة فكتوريا يبلغ ٣ مليارات متر مكعب من المياه.

أما كافة استخدامات تنزانيا وكينيا وأوغندا ورواندا وبوروندى من مياه النيل فى الثمانينيات فكانت لا تزيد على٠,٨٨ مليار متر مكعب ـ ولكن تقدير المشروعات والخطط المزمعة ترفع الطلب إلى عشرة أضعاف ذلك الرقم ـ أى ٨,٨ مليار متر مكعب.

والخلاصة هى كما يلى:

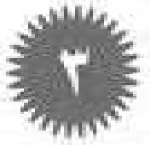
١ ـ دول منابع النيل الأبيض تتطلع لزيادة استهلاكها من المياه للزراعة المروية. ولديها إمكانيات كبيرة لإنتاج الطاقة الكهرومائية (التقدير أن تنتج شلالات الكنغو ٥٠ ألف ميجاوات وشلالات شمال أوغندا وسدود إثيوبيا ٣٨ ألف ميجاوات) ومشروعاتها المزمعة تتطلب مضاعفة ما تستهلكه من مياه النيل عشرة أضعاف ما تستهلكه الآن.

٢ ـ مياه النيل المتاحة حاليًا تبلغ ٨٤ مليار متر مكعب (فى أسوان) يضيع منها ١٠ مليارات متر مكعب نتيجة التبخر تبقى ٧٤ مليار متر مكعب، وهذه موزعة بين مصر والسودان بنسبة ٣ : ١ بموجب اتفاقية ١٩٥٩م الثنائية.

والبيانات التالية تبين الطلب الإضافى لمياه النيل فوق الدفق الحالى:

البلد	كمية المياه (بالمليار متر مكعب)
مصر	١٣,٥
السودان	٢٠
إثيوبيا	٧
دول منابع النيل الأبيض	٨,٨
المجموع	٤٩,٣

بين حروب نابليون وحروب الفتوحات العربية الإسلامية





الأستاذ / منير شفيق
المفكر والباحث الاستراتيجي

الحرب المتحركة :

لعل أبرز ما تميزت به الحرب على نابليون أنها أصبحت حربا متحركة ،وتخلصت من تلك المراسيم التقليدية في اتباع أصول جامدة في المعركة وقيادة الحرب ، ولم يعد احتلال المواقع أو الدفاع عنها هو الشيء الرئيس ، وإنما العمل على سحق الجسم الرئيسي لقوات العدو المتحركة الضاربة . فقد أصبح المبدأ القائد في استراتيجية نابليون هو القضاء على جيش العدو الذي في الميدان . وأخضع احتلال المواقع لخدمة هذا الغرض وليس العكس .

إن نظرة سريعة إلى تاريخ حروب نابليون تكشف تلك الحركة الدائبة التي تميزت بها قواته فهي دائمة الانتقال من مكان إلى مكان سعيا وراء قوات العدو المتحركة ، ولم يثبتها قط في مواقع جامدة بل كان يحركها من نقاط تواجدها إلى نقاط تواجد العدو ولم يكن يتردد في التخلي عن مساحات واسعة من الأرض من أجل تأمين التركيز.

تعليماته لقادته :

١- أبقوا القوات مركزة ولا تفرقوها إلى جيوب صغيرة.

٢- سيروا بأرتال على مسافات متساندة فيما بينكم .

٣- لاحقوا العدو بالسيف وهو يفر .

وكانت مبادئ استراتيجية عملياته :

أ- تركيز القوات ضد الهدف المباشر .

ب - الاقتصاد بالقوات والاحتفاظ بقوات احتياط لمواجهة أي طارئ جديد.

جـ- المرونة والمناورة والسرعة في الحركة وأخذ القرار .

د - تجري كل عمليات الحملة على أساس المحافظة على الهدف .

وإن نظرة سريعة أخرى إلى تاريخ حروب الفتوحات العربية الإسلامية تكشف تلك الحركة الدائبة التي تميزت بها قوات المسلمين - ولا نبالغ إذا قلنا إن الحرب أصبحت على يد العرب حربا متحركة ،لا تتبع تلك

الأصول التقليدية في المعركة وقيادة الحرب ، التي درجت عليه الجيوش الرومانية واليونانية والفارسية من قبلهم أو جيوش الإقطاع الأوروبي وعصر النهضة حتى نابليون من بعدهم.

كان جيش عمرو بن العاص في حملة سوريا قد تغلغل حتى غزة وبئر السبع وراء خطوط البيزنطيين ، بينما تغلغلت قوات يزيد بن أبي سفيان في شرقي الأردن حيث راحت تجوب المنطقة كلها . وكذلك فعلت شمالاً قوات شرحبيل بن حسنة .بينما كانت قوات خالد ابن الوليد والمثنى بن حارثة قد راحت تعمل في جبهة العراق متحدة أحيانا ، وعلى جبهتين أحيانا ، إذ بعد معركة قاضمة أو (قضيمة) زحف خالد إلى شط العرب وقطع نهر الفرات ثم عاد إلى الصحراء بعد أن بدأ الفرس يرتكزون لمواجهته .. واشتبك مع الجيش الكسروي في معركة نهر الدم بعد أن انضمت له قوات بني تميم بقيادة القعقاع بن عمرو .. ومن هناك توجه إلى الحيرة حيث فر حاكمها الفارسي من أمامه إلى المدائن ، فحاصر الحيرة واستسلمت . ولكن خالد بن الوليد تحرك فورا ليقطع النهر ثانية ويحتل مدينة الأنبار بينما تحركت قوات المثنى لاشغال قوات الساسانيين ومنعهم من التحرك ضد زحف جيش خالد الذى شن هجوما كاسحا على مدينة الأنبار التي كانت الأسوار تحوطها من ثلاث جهات ، بينما حفر خندق في الجهة الرابعة . فعلى هذه النقطة ركز خالد هجوم الاقتحام بعد أن نحر الجمال الضعاف وألقاها في الخندق .. ومن هناك تحول إلى عين التمر.

كنا قد ذكرنا كيف تحرك خالد بن الوليد من عين التمر لنجدة قوات اليرموك وكيف انتقلت قوات اليرموك جنوبا إلى الكرك فوادي عربة ثم شمالاً إلى أجنادين لملاقاة جيش هرقل .. ومن هناك عادت القوات إلى هدفها الرئيسي لضرب القوات البيزنطية في اليرموك . وبعد اكتساحها تحول التركيز على مدينة دمشق التي سقطت بيد المسلمين فتوزعت القوات بعد ذلك لتنظيف جيوب المقاومة على جبهة واسعة جدا . فانتقل جيش خالد بن الوليد إلى حمص وحماه وانتقل جيش عمرو بن العاص إلى فلسطين وتوزعت قوات أبي عبيدة بن الجراح ويزيد بن أبي سفيان على المنطقة الواسعة المتوسطة بين جيش خالد وبين جيش عمرو بن العاص

ولكن عندما عاد هرقل وحشد قوات ضخمة لاستعادة ما قد فقد، زحف من شمالي سوريا بجيش يقال إن التاريخ لم يعرف له مثيلا من حيث العدد على أرض سوريا ، فما كان من قوات خالد وأبي عبيدة ويزيد إلا أن تخلت عن كل سوريا بلا قتال وتراجعت لتتركز جنوبي درعا من أجل المحافظة على خطوط مواصلاتها ومن أجل تأمين التركيز ومن ثم الدخول في معركة فاصلة على أرض اليرموك التي حددت كنقطة وقف زحف هرقل. وهكذا عادت حمص وحماه ودمشق إلى هرقل بلا قتال وأخذ مواقعه الحصينة من جديد في سهل درعا لتقع معركة اليرموك الثانية التي لم تقم للبيزنطيين بعدها قائمة

عندما سقطت دمشق بعد معركة اليرموك الأولى قرر الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه تعزيز جبهة العراق فجند جيشا أقام على رأسه أبا عبيد عمرو بن مسعود الثقفي وجعل المثنى ينضم تحت قيادته ، ولكن أبا عبيد ارتكب خطأ عسكريا فادحا في معركة

الجسر فنزلت هزيمة قاسية بجيوش المسلمين إذ تخلى عن خط انسحابه فقطع النهر إلى الضفة الأخرى، وبهذا وضع القوات بلا خط انسحاب كما ضيق عليها أرض المناورة، وعلى الرغم من أن المسلمين قاتلوا قتالا باسلا للغاية واستشهد أبو عبيد إلا أن الكفة مالت ضدهم وأصبحوا بين مهلكين: بين سيوف الفرس من جهة والنهر من جهة ولولا مبادرة المثنى في إعادة تنظيم قوة شنت هجوما مضادا ليكون غطاء ينسحب تحته المسلمون عبر الجسر، لكانت الكارثة كاملة.

ولكن سرعان ما بدأت تعبئة جديدة ونشط المثنى في جمع قوات من القبائل وكان عمر بن الخطاب قد سمح بإعادة تجنيد الذين قاتلوا ضد المسلمين في حروب الردة .. فالتقى المثنى من جديد مع رستم في معركة البويب وأنزل بهم هزيمة ثأرت لمعركة الجسر ، وأصبحت بيد العرب بعدها مناطق شاسعة من سواد العراق ولكن الفرس عادوا فجندوا جيشا جرارًا فما كان من المثنى إلا أن انسحب من سواد العراق وحتى من الحيرة دون قتال وعاد إلى الصحراء، خصوصا وأن جيش رستم الجديد يتطلب أن يواجه بقوات مركزة فطلب من عمر بن الخطاب إرسال تعزيزات ، ولكن جبهة سوريا كانت في تلك الأثناء قد عادت للاشتعال بعد أن جند هرقل جيشه الكبير .. ولهذا ظلت جبهة العراق بيد الفرس إلى أن تم الانتصار في معركة اليرموك الثانية وبدأ التحضير لحملة العراق من جديد ، فتشكل جيش بلغ ثلاثين ألفا بقيادة سعد بن أبي وقاص كما أرسل إلى قوات سوريا أن تبعث جيشا لتعزيز حملة العراق ، وفعلا تحرك القعقاع على رأس ذلك الجيش وكانت معركة القادسية الحاسمة .

إذا تابعنا حملة عمرو بن العاص إلى مصر حيث تحرك على رأس قوة تقل عن أربعة آلاف مقاتل وقد زحفت من غزة فالعريش إلى قناة السويس ، وقد ارتطم بمدينة بابليون التي تشكل مفتاح مصر ، ولكن كان ما لديه من القوات أضعف من تركيز قوات تيودور القائد البيزنطي والمقوقس cyrus حاكم مصر .

فطلب تعزيزات من المدينة المنورة ، ولكنه لم يتوقف فاتجه نحو الفيوم على الجانب الآخر من النيل ، وقد سجل غلوب ذلك عليه خطأ استراتيجيا لأن وصول النجدة إلى بابليون يترك جيشه منفصلا عنها وقد قام بينهما النيل .

ولكن إذا أخذنا بعين الاعتبار كثرة تحرك قوات عمرو بن العاص وسرعتها ومن ثم عدم مقدرة العدو على تحديد اتجاه الحملة، يمكن أن يلغي نقد غلوب له ، خاصة ، وأن تلك التحركات هي التي أنقذت جيش عمرو بن العاص قبل وصول التعزيز من الحجاز، فلو أنه انتظر عند بابليون إلى قدوم التعزيز لأتاح ذلك فرصة لقوات تيودور لتنقض عليه في حين استطاع من خلال استمرار حملته إلى الفيوم أن يحتفظ بالمبادرة ويكشف المنطقة ويقضي على قوات متفرقة هنا وهناك ، والأهم أنه استطاع أن يعود إلى بابليون في الوقت المناسب عند وصول الزبير بن العوام على رأس اثنى عشر ألف جندي ، وتركزت القوات في هليوبوليس قبالة نابليون.

إن هذه الأمثلة تؤكد الصفة المتحركة التي أعطاها العرب للحرب ، بشكل لا يقل عن حركة الحرب في عهد نابليون .

يلاحظ أن المبادئ الأساسية التي حكمت عمليات حروب العرب المسلمين كانت:

القضاء على جيش العدو في الميدان وليس الركض وراء احتلال المواقع ، فقد أدرك قادة العرب أن احتلال دمشق أو القدس لا قيمة له ما دام هنالك جيش للبيزنطيين مقاتل في الميدان ، لذلك كان تركيزهم على ضرب هذا الجيش أولا، لأن إخلاء الميدان له يعني سقوط المواقع كلها بما في ذلك المدن الكبرى مثل دمشق والقدس .

عندما قارن الجنرال غلوب بين المناورة الاستراتيجية التي قام بها خالد بن الوليد عندما قطع صحراء حمد من بئر قرقر باتجاه سبع البيار ثم إلى تدمر فمرج راهط وراء تحصينات البيزنطيين في سهل درعا ، مع المناورة التي قام بها لواء من الجيش البريطاني مع الجيش الأردني في أيار / مايو ١٩٤١م ، متبعا خط عمليات خالد بن الوليد .. حاول إظهار عملية خالد بأنها فاشلة بينما العملية الأخرى كانت ناجحة ، ولكن غلوب نسي أن اتباع مناورة خالد نفسها من قبل الجيش البريطاني بعد أكثر من ثلاثة عشر قرنا دليل على أن المناورة الاستراتيجية التي قام بها خالد وصلت شبه الكمال . أما لماذا سماها فاشلة .. فذلك لأن خالدًا لم يهاجم دمشق وإنما تابع سيره إلى منطقة القتال وقد استدل غلوب من ذلك أن معركته في مرج راهط لم تكن ناجحة. إن هذا الحكم يدل على أن خالد بن الوليد كان أفهم في فن الحرب من غلوب بعد ثلاثة عشر قرنا وذلك للأسباب التالية :

أ - إن المحافظة على الهدف تقضي من خالد أن يتوجه من مرج راهط إلى نقطة التركيز في اليرموك لأن مناورته أساسا كانت تستهدف الالتفاف على البيزنطيين في درعا وليس مهاجمة دمشق .

ب . إن مفتاح سوريا هو سحق القوات البيزنطية المركزة في درعا وليس احتلال مواقع.

ج. إن القوات التي كانت مع خالد لا تستطيع أن تكتسح دمشق فعددها لم يتجاوز التسعة آلاف على أقصى تقدير ، وكانت محاصرة لتلك المدينة بمثل هذه القوات الصغيرة كما يقترح غلوب ، تعني تطويقه وإبادته ،خاصة ، وأن دمشق استعصى احتلالها على المسلمين أكثر من شهرين بعد نجاح معركة اليرموك.

ثم كيف يستطيع أن يؤكد غلوب أن البيزنطيين كانوا سيتخلون عن مواقعهم في درعا إذا هاجم خالد دمشق، وهم ولا شك يعرفون كم تستطيع أن تصمد دمشق في وجه مثل تلك القوة.

ثم تذكرنا أن قوات المسلمين بعد معركة أجنادين لم تتوقف لتحتل القدس أو أية مدينة أخرى وإنما توجهت فورا لمحاصرة قوات البيزنطيين في درعا ، وإذا تذكرنا تخلي خالد وأبي عبيدة عن سوريا أمام جيش هرقل دون دفاع عن المدن من أجل التركيز مرة أخرى جنوبي درعا على اليرموك ، ثم إذا تذكرنا انسحاب المثنى من سواد العراق والحيرة ، ندرك أن العرب فهموا الحرب كما فهمها نابليون بعد أكثر من أحد عشر قرنا ، وكما نظر لها كلاوزيفتز بعد حوالي اثنى عشر قرنا ، سواء أكان من ناحية أهمية سحق الجسم الرئيس من قوات العدو بوصفه العامل الحاسم لتحقيق نصر استراتيجي بما في ذلك سقوط المواقع والاستيلاء عليها ، أم كان من ناحية أهمية الاقتصاد بالقوى والتركيز والملاحقة والسير بأرتال على مسافات متساندة إلى جانب المرونة والمناورة وسرعة التحرك ، وإعطاء الحرب صفة ديناميكية متحركة .

مكتبة مجلة الأزهر

إعداد الأستاذ: محمد شعبان

تسعى «الأزهر» عبر هذا الباب إلى التواصل مع القارئ العزيز من خلال تقديم نبذة عن أحدث الإصدارات الجادة فى شتى مجالات المعرفة، ذلك للمساهمة فى تكوين عقلية واعية وعصرية.



احتلت الظاهرة السلفية خلال السنوات الأخيرة موقع الصدارة بحثا وتنقيبا شرقا وغربا للوقوف على أسسها وتداعياتها واقعيا وفي المستقبل وفي هذا السياق يأتي كتاب "السلفية العالمية .الحركات السلفية المعاصرة في عالم متغير" والصادر عن الشبكة العربية للأبحاث والنشر وحرره رول ميير

الكتاب مجموعة من الأبحاث الرصينة طرحت في مؤتمر "السلفية بوصفها حركة عابرة للقارات" بهولندا وكتبها مجموعة من أهم الباحثين المتخصصين في الحالة السلفية من العرب والأجانب... ناقشت الأبحاث موضوعات جدلية مثل العقيدة السلفية وقضية الولاء والبراء وتشكيلها العلاقة السلفيين بمخالفيهم وعلاقة السلفيين بالسياسة ومدى ارتباطها بمنهجية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... ولم يغفل الكتاب ظاهرة السلفية الجهادية وانتشارها وبروزها وتحالفها مع السلفية التقليدية والتأثير العالمي للحركة السلفية الذي بدأ يتنامى ومدى حضور مسألة الهوية عند السلفيين. وتطرقت الأبحاث للسلفية كتيار ومنهج

يرجع برنارد هيكل في الفصل الأول السلفية إلى أهل الحديث في فترة الخلافة العباسية موضحا أن هذا التيار توفر على دراسة الحديث الشريف بوصفه وسيلة لتنقية الإسلام من بدعيات غير المسلمين... في حين يرصد ستيفان لاكروا المكانة المحورية التي احتلها ناصر الألباني لدى التيارات السلفية المعاصرة



"الشاعر محمد إقبال هو مفخرة من مفاخر الشرق في عصوره الحديثة..... وهو المخطط لنهضة بلاد الإسلام برسم طريق هذه النهضة في اقتران القيم الإسلامية العليا بالعمل"..... بهذه الكلمات تصدرت مقدمة الأديب الراحل توفيق الحكيم كتاب "محمد إقبال... قصائد مختارة ودراسات" الصادر عن مكتبة مدبولي

ورغم صغر حجم الكتاب إلا أنه ضم مجموعة من الدراسات المتميزة عن إقبال فضلا عن ترجمة عشر قصائد منها ٩ ترجمات قام بها الأديب الراحل عبد الرحمن عزام.

في دراسته الماتعة يقول العلامة الراحل د. عبد الودود شلبي: إن إقبال لم يكن في حياته إنسانا عاديا كان روحا تحلق في آفاق سامية. كان قبسا من نور الحقيقة التي أتى بها محمد صلوات الله وسلامه عليه إلى هذه الدنيا... لقد عاش إقبال حياته كلها ساعيا وراء هذه الحقيقة.. حقيقة الإيمان المستعلي على نقائص الدنيا فما أقل الرجال الذين يزرعون في القلوب شجرة المحبة».



يرصد جيروم كيغان في كتابه "الثقافات الثلاث" الصادر عن المركز القومي للترجمة وسلسلة عالم المعرفة الكويتية الاهتمام المتزايد خلال القرن الحادي والعشرين بالعلوم الاجتماعية وما تشتمل عليه مجالات علم الاجتماع والانثروبولوجيا والعلوم السياسية والاقتصادية والنفسية

تعد هذه الدراسة توصيفا للتصورات والأفكار والإنجازات المتعلقة بكل واحدة من هذه الثقافات -العلوم الطبيعية والاجتماعية والإنسانية-... يعد الكتاب تطويرا لمحاضرة سنو ١٩٥٩م الذائعة الصيت والتي كانت بعنوان الثقافتان -أي الطبيعية والإنسانية- لكن تقدم العلوم الاجتماعية جعلها تقف جنبا إلى جنب مع العلوم الطبيعية والإنسانية

يرى جيروم أن المفاهيم الخاصة بكل ثقافة من هذه الثقافات الثلاث ترتبط بشكل استثنائي بطرائق البحث المعمول بها لأن المصدر الذي تستقي منه البراهين والأدلة يساهم في تشكيل المعنى. يفحص الكتاب الإنجازات التي أفرزتها العلوم الاجتماعية والإنسانية ويشكك في الاعتقاد السائد الذي يدعي أن العمليات البيولوجية هي العامل الرئيسي الذي يحدد التغيرات في السلوك البشري



أصدرت مكتبة جزيرة الورد نشر كتاب شرح الفقه الأكبر لأبي حنيفة النعمان للعلامة الملا علي بن سلطان محمد القاري... الكتاب شرح خلاصة عقيدة أهل السنة والجماعة كما يعرضها الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان بدءا من أصول التوحيد وما يصح الاعتقاد به وما لا يصح ثم تطرق لصفات الله تعالى الذاتية والفعلية وختم الكتاب بخبر المعراج وخروج يأجوج ومأجوج وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى عليه السلام وأحوال علامات الساعة الكبرى والصغرى بقوله: وسائر علامات يوم القيامة على ما وردت بها الأخبار الصحيحة حق كائن

ويحتل "الفقه الأكبر لأبي حنيفة النعمان" مكانة خاصة لدى أهل السنة والجماعة رغم اعتراض البعض على نسبته لأبي حنيفة إلا أن الكتاب مشهور عند الحنفية، ومعتمد لدى أكثرهم، وفيه تقرير جيد لبعض الصفات، كالعلو، ولهذا استشهد به ابن قدامة وابن تيمية وابن القيم والذهبي رحمهم الله.



يحكي كتاب «قصة الصراع بين الفلسفة والسلطة» لمؤلفه د. حسن حماد تاريخ صراع الفلسفة مع "السلطة" التي تحاول دائما اعتراض مسيرتها في الكشف عن الحقيقة لتخفيف شقاء الإنسان وبؤسه.

المؤلف يوضح في مقدمة الكتاب أن السلطة ليست قاصرة فقط على الأنظمة الحاكمة أو رجال الدين والكهنوت بل لها أوجه متعددة مثل سلطة العادات والتقاليد وسلطة السائد والمألوف وسلطة الرأي العام والحس العام وسلطة الحشد والدهماء وكذلك سلطة وسائل الدعاية والإعلام والإعلان وسلطة عالم السلع لذلك يبدأ الكتاب باليونان وحتى مدرسة فرانكفورت.. يقول المؤلف «إن الفلسفة عبر تاريخها الطويل استطاعت أن تقدم لنا أفكارا عظيمة تمثل هذا القاطن اليوتوبي الذي يتجاوز حدود الزمان والمكان ويسعى إلى التحرر من مآزق الأيديولوجيا»

طرائف ومواقف

للشيخ عبدالحفيظ محمد عبدالحليم

«على قبر رسول الله ﷺ»

وقف أعرابي على قبر رسول الله ﷺ فقال: قلت فقبلنا، وأمرت فحفظنا، وقلت عن ربك فسمعنا:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾

(الأعراف: ٦٤)

وقد ظلمنا أنفسنا وجئناك فاستغفر لنا
فما بقيت عين إلا سالت.

«فذلك الذي أبكاني»

قال يونس بن محمد المكي:

زرع رجل من أهل الطائف زرعًا؛ فلما بلغ أصابته آفة فاحترق؛ فدخلنا عليه نسليه فبكى؛ وقال: والله ما عليه أبكي ولكني سمعت قول الله ـ تعالى:

﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

(آل عمران: ١١٧)

فأخاف أن أكون من أهل هذه الصفة فذلك الذي أبكاني.

«هي أكثر من أن تحصى»

اجتمع قس بن ساعدة وأكثم بن صيفي فقال أحدهما لصاحبه: كم وجدت في ابن آدم من العيوب؟

قال: هي أكثر من أن تحصى، غير أن به خصلة لو استعملها، سترت سائر عيوبه.

قال: وما هي؟

قال: حفظ اللسان.

«لقد ضاعت في المعصية؟»

لقي القاضي عياض ـ رضي الله عنه ـ شيخًا يستند على عصاه، فقال له: كم بلغت من العمر يا رجل؟

قال الرجل: ستين سنة.

قال القاضي: لك في طاعة الله ستون عامًا؟ توشك أن تصل.

فبكى الرجل قائلاً: لقد ضاعت في المعصية، ولا أدري ماذا يفعل الله بي؟

قال القاضي: ألا أدلك على الخلاص؟

أصلح ما بقي يغفر لك ما مضى.

«لا أحب أن يقتل بي بريء»

دخل الحسين ـ رضي الله عنه ـ على أخيه الحسن في مرض موته، بعد أن تأثر بالسم الذي دس له في الطعام فقال الحسين لأخيه الحسن: من تتهم؟

فقال الحسن: لتقتله؟!

فقال الحسين: نعم.

فقال الحسن: يا أخي إن يكن الذي أظن، فالله أشد بأسًا وأشد تنكيلا، وإن لم يكن هو، فلا أحب أن يقتل بي بريء.

«الفقيه حق الفقيه»

عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال: ألا أنبئكم بالفقيه حق الفقيه:

من لم يقنط الناس من رحمة الله، ولم يرخص لهم في معاصي الله، ولم يؤمنهم مكر الله، ولم يترك القرآن إلى غيره، ولا خير في عبادة ليس فيها تفقه، ولا خير في تفقه ليس فيه تفهم، ولا خير في قراءة ليس فيها تدبير.

«نعيب زماننا»

قال الإمام الشافعي ـ رضي الله عنه:

نعيب زماننا والعيب فينا
وما لزماننا عيب سوانا
ونهجوا الزمان بغير ذنب
ولو نطق الزمان لنا هجانا
وليس الذئب يأكل لحم ذئب
ويأكل بعضنا بعضا عيانا

«وقاك الله شر البضاعة»

دخل الإمام أحمد بن حنبل على الإمام الشافعي في مرض موته، فسأله عن حاله، فقال الإمام الشافعي: والله ما أدري أنفسي إلى النار فأعزيها أم إلى الجنة فأهنئها يا أحمد!!

أحب الصالحين ولست منهم
لعلي أن أنال بهم شفاعة
وأكره من تجارته المعاصي
ولو كنا سواء في البضاعة

فقال له الإمام أحمد:

تحب الصالحين وأنت منهم
ومنكم يرجون الشفاعة
ونبغض من تجارته المعاصي
وقاك الله شر البضاعة

«لست أهلا لها»

دعي أبو حنيفة ـ رضي الله عنه ـ ليكون قاضيًا فقال: لست أهلا لها.

فقيل له: لابد من ذلك.

فقال: قد قلت لست أهلا لها، فإن كنت في ذلك صادقًا عذرتني، وإن كنت كاذبًا فيكذبي هذا قد تحقق أني لست أهلا لها.

«سؤال وجواب»

سأل السلطان عليا بن الحسين النيسابوري: لم لا تجيء إليّ؟

فأجابه: أردت أن تكون خير الملوك إذ تزور العلماء ولا أكون شر العلماء فأزور الملوك.

«حكاية»

حكي أن أعرابية دخلت من البادية فسمعت صراخًا في دار، فقالت: ما هذا؟ فقيل لها مات لهم إنسان.

قالت: ما أراهم إلا من ربهم يستغيثون، وبقضائه يتبرمون، وعن ثوابه يرغبون.

«حقًا»

عليك إذا ضاقت أمورك والتوت
بصبر فإن الضيق مفتاحه الصبر
ولا تشكون إلا إلى الله وحده
فمن عنده تأتي الفوائد والنصر

«دعاء»

اللهم اجعل خير عمري آخره، وخير عملي خواتمه، وخير أيامي يوم ألقاك فيه.

حث الإسلام على الإنفاق

٢

فوزى فاضل الزفزاف
عضو مجمع البحوث الإسلامية

إغواء المال شديد، وسيطرة الرغبة فى اقتنائه قوية، وشهوة حب تملكه واكتنازه جامحة عنيفة، يقول الله تعالى:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾

(آل عمران: ١٤)

وعن أبى هريرة -رضى الله عنه- عن النبى ﷺ قال: «قلب الشيخ شاب على حب اثنتين: طول الحياة وكثرة المال».

لذلك تجد أن الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم وصف الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله تعالى وطاعته بعدة صفات كريمة من صفات الكمال، لأنهم تغلبوا على أنفسهم، وقاوموا شهواتهم فلم يضعفوا أمام سطوة المال وإغرائه، فمرة يصفهم بأنهم هم المتقون، يقول الله تعالى:

﴿الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

(البقرة: ١-٥)

ففى هذه الآيات الكريمة مدح الله سبحانه وتعالى -المتقين الذين انتفعوا بالقرآن الكريم فآمنوا به وصدقوه واهتدوا بهديه- مدحهم الله بعدة صفات حميدة:

• الصفة الأولى: أنهم يصدقون بما غاب عن حواسهم، ويؤمنون به على وجه الجزم واليقين، كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وما فيه من حساب وثواب وعقاب.. إلخ، وقد مدح النبى ﷺ المؤمنين بالغيب فى أحاديث كثيرة متعددة.. منها ما جاء عن خالد بن دريك، عن ابن محيريز قال: قلت لابن جمعة حدِّثنا حديثا سمعته من رسول الله ﷺ، قال: نعم أحدثك حديثًا.

تغذينا مع رسول الله ﷺ ومعنا أبو عبيدة ابن الجراح فقال: يا رسول الله، هل أحد خير منا؟ أسلمنا معك وجاهدنا معك. قال: «نعم، قوم من بعدكم يؤمنون بى ولم يرونى» قال ابن كثير: فقد مدحهم على ذلك وذكر أنهم أعظم أجرًا من هذه الحيثية لا مطلقًا.

• أما الصفة الثانية: التى مدح الله بها المتقين فهى: أنهم يقيمون الصلاة فيؤدونها فى أوقاتها المقدرة لها، مستوفية لواجباتها وسننها وآدابها وخشوعها.

• أما الصفة الثالثة التى مدح الله بها المتقين فهى: أنهم مما رزقهم الله ينفقون. أى: ومما أعطاهم وملكهم الله من مال يتصدقون به فى وجوه الخير على وجه العموم والإطلاق من غير تحديد لجهة لتشمل الفرض والواجب وغيرهما من وجوه الإحسان.. وعبر -سبحانه وتعالى- بصيغة المضارع «ينفقون» للإشعار بأن الإنفاق منهم يتجدد دائمًا بين وقت وآخر.

• أما الصفة الرابعة التى مدح الله بها المتقين فهى: أنهم يؤمنون بالقرآن الكريم وبما أنزل الله من كتب إلهية -سابقة- أنزلها -عظمت قدرته- على الرسل السابقين.

• أما الصفة الخامسة التى مدح الله بها المتقين فهى: أنهم يؤمنون بالآخرة على وجه اليقين والاعتقاد الجازم الذى لا يطرأ عليه شك ولا تحوم حوله شبهة، وما فيها من بعث ونشور وحساب وثواب وعقاب وجنة ونار.. ثم بين الله -سبحانه وتعالى- الثمار التى ترتبت على تقوى هؤلاء المؤمنين الذين اتصفوا بهذه الصفات الحميدة، وهى أنهم ظفروا وفازوا برضوان الله ونعيمه.

وهكذا تبين لنا الآيات الكريمة مكانة الإنفاق ومنزلته عند الله، وأن المنفق له أعلى الدرجات وأسماها عند الله، وأنه ممن ينالون دعاء الملائكة له بالخير والبركة والنماء، فعن أبى هريرة -رضى الله عنه- قال: رسول الله ﷺ: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تلفًا»(١) وعنه -رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من ثديهما إلى تراقيهما.. فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت أو وفرت على جلده حتى تخفى بنانه وتعفو أثره. وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئًا إلا لزقت كل حلقة مكانها فهو يوسعها ولا تتسع»(٢).

ومن الصفات الكريمة التى وصف الله بها عباده الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله وفى أوجه الخير، ويحرصون على طاعته والالتزام بأوامره أنهم هم المؤمنون -على سبيل الحصر- يقول الله تعالى:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾

(الأنفال: ٢، ٣، ٤)

أى: أن المؤمنين الكاملين فى الإيمان، الممتثلين لله فى طاعته، الملتزمين بتنفيذ أوامره، المتمسكين بهدايات الله وإرشاداته..

١. البخارى ومسلم.
٢. البخارى واللفظ له ومسلم.

هـؤلاء المؤمنون يتصفون بعـدة صفات تدل على صفائهم ونقائهم وتسـاميهم عن كل ما يخدش كمالهم من متع الدنيا وشهواتها.

● الصفـة الأولـى: أنهـم المؤمنـون الصادقون الذين إذا ذكـر الله وذكرت صفاته أمامهـم خافـت قلوبهم وفزعت، استعظاما لجلاله وتهيبا من سلطانه، وحذرا من عقابه، ورغبة فى ثوابـه، وذلك لقوة إيمانهم وصفاء نفوسهم، وشـدة مراقبتهـم لله - عز وجل - ووقوفهم عند أمره ونهيه.

● والصفـة الثانيـة مـن صفـات هـؤلاء المؤمنيـن الصادقين: أنهـم إذا قرئت عليهم آيات الله «القرآن» زادتهم إيمانا، أى: زادتهم قوة فى التصديق، وشدة فى الإذعان، ورسوخا فـى اليقين، ونشـاطا فى الأعمـال الصالحة، وسعة فى العلم والمعرفة.

● والصفـة الثالثـة مـن صفـات هـؤلاء المؤمنيـن: أنهـم يعتمدون علـى ربهم الذى خلقهـم بقدرته، ورباهم بنعمـه، ورزقهم من فضله، فيفوضون أمورهـم كلها إليه وحده - جلت قدرته - لا إلى أحد سواه.

ورحـم الله الإمـام ابـن كثير فقـد قال عند تفسيره لهذه الآية ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ أى: أنهـم لا يرجـون سـواه، ولا يقصـدون إلا إيـاه، ولا يلـوذون إلا بجنابـه ولا يطلبون الحوائـج إلا منـه، ولا يرغبـون إلا إليـه، ويعلمـون أنه ما شـاء الله كان وما لم يشـأ لم يكـن، وأنـه المتصرف فى الملك لا شـريك له، ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب.. ولهذا قال سـعيد بن جبير: «التوكل على الله جماع الإيمان».

ومن الواضـح عند ذوى العقول السـليمة أن التوكل على الله لا ينافى الأخذ بالأسباب التى شـرعها - سـبحانه - بل إن الأخذ بالأسباب التى شرعها الله وأمر بها لبلوغ الغايات لدليل علـى قـوة الإيمـان، وعلـى حسـن طاعته - سبحانه - فيما شـرعه وفيما أمر به.. وليس مـن الإيمان ولا من العقل ولا من التوكل على الله أن ينتظـر الإنسـان ثمـارا بـدون غرس أو نجاحـا بدون بـذل جهد أو ثوابـا بدون عمل صالح.. إنمـا المؤمن العاقـل المتوكل على الله هو الذى يباشـر الأسـباب التى شرعها الله لبلوغ الأهداف مباشـرة سـليمة ثم بعد ذلك يترك النتائج لله - سـبحانه وتعالى - يسيرها كيف شاء وحسبما يريد.

● أمـا الصفـة الرابعـة من صفـات هؤلاء المؤمنيـن الصادقين: أنهم يؤدون الصلاة فى مواقيتها مسـتوفية لأركانها وشروطها وسننها وآدابها وخشوعها ووقارها.

وتكرار الصلاة فـى أكثر من آية فى القرآن الكريم على أنها من صفات المؤمنين إشـارة إلـى منزلـة ومكانة وقـدر الصلاة فـى أركان الإسـلام التى بُنى عليها وأنهـا الحد الفاصل بيـن الإسـلام والكفر فعـن جابر بـن عبدالله - رضـى الله عنهمـا - قـال: قـال رسـول الله ﷺ: «بين الرجل وبين الشـرك والكفر ترك الصلاة» (٣)

● والصفـة الخامسـة مـن صفـات هؤلاء المؤمنيـن كاملـى الإيمـان: أنهـم يبذلـون أموالهـم للفقـراء والمحتاجيـن، وفى جميع أوجه الخير التى تعـود بالنفع على المجتمع بسـماحة نفس، وسخاء يد، استجابة لتعاليم دينهم.

فـالله سـبحانه وتعالـى قـد سـبق هـؤلاء المؤمنيـن بخمـس صفـات: الأولـى والثانية والثالثـة منهـا ترجـع إلـى العبـادات القلبية التى تدل على شـدة خشيتهم من ربهم، وقوة تأثرهم بآيـات خالقهـم، واعتمادهم عليه - سـبحانه - وحـده لا على أحد سـواه والصفة الرابعة ترجع إلى العبادات البدنية وهى إقامة الصلاة بإخلاص وخشوع، أما الصفة الخامسة فترجع إلى العبادات المالية وهى إنفاق المال فى سبيل الله.

ولا شك أن هذه الصفات متى تمكنت فى النفس كان صاحبها أهلا لمحبة الله ورضوانه.

وحيـن فرض الله زكاة المـال على الأغنياء لـم يجعلهـا منحـة مـن الأغنيـاء تخضـع لأهوائهـم ورغباتهم إن شـاءوا أخرجوها وإن شـاءوا منعوهـا، بل جعلهـا ركنًا مـن أركان الإسلام الخمسـة، يقول الرسـول عليه الصلاة والسـلام: «بنى الإسـلام على خمس: شهادة ألا إلـه إلا الله وأن محمـدًا رسـول الله، وإقـام الصـلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيـت لمـن اسـتطاع إليـه سـبيلا». وجعل الـزكاة حقـا مفروضا إخراجـه، لا تهاون فيه ولا تقصير ولا تأخير، يقول الله تعالى:

﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾

(البقرة: ٤٣)

ولأهميـة الـزكاة بصفتها ركنـا من أركان الإسـلام، ولأهميـة الآثار الماديـة والمعنوية والاجتماعيـة المترتبة على إخراجها، سـواء بالنسـبة لمن يخرجها أو لمن يستحقها اهتم الإسـلام اهتمامًـا بالغًا بهـا، فقـد ورد الأمر بإخراج الزكاة صراحة «أى بلفظ الزكاة»، أو بالثناء على من يخرجـون الزكاة فى أكثر من ثلاثين آية فى القرآن الكريم، بخلاف الآيات الكثيـرة الأخـرى التـى تتضمن الإشـارة إلى الزكاة والحث على إخراجها..

وقد تضمنت كتب الفقه الإسلامى شروط إخـراج الـزكاة، والنصـاب المقـرر إخراجه فـى جميع أنـواع المـال: من ذهـب وفضة، ومـن أوراق ماليـة، ومـن عـروض التجـارة، ومـن المحاصيل الزراعية، ومـن الأنعام على اختلاف أنواعها.. إلخ.

كمـا حدد القرآن الكريـم مصارف الزكاة فى قوله - تعالى -:

﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

(التوبة: ٦٠)

وصدقة المال ليسـت قاصرة على الزكاة المفروضـة فقط، وهـذا خطأ يقـع فيه كثير من الناس، فالزكاة فرض لا فضل للمسلم فى إخراجهـا لأنها ركن من أركان الإسـلام، غير أن فضـل الله - سـبحانه وتعالـى - على عباده - فهـو الـرءوف الرحيم - يثيـب ويمنح مخرج الزكاة المفروضة ثوابا وحسـنات وأجرا يوم القيامة، يوم لا ينفـع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

---
٣. أبوداود والنسائى.

٤. متفق عليه.

عالمية الإسلام وإنسانيته



د. السيد محمد السيد عبد النبي
الأمين العام المساعد للثقافة الإسلامية
مجمع البحوث الإسلامية

لقد جاء الإسلام ليكون رسالة السماء إلى الأرض فى مختلف مجتمعاتها وظروفها ومراحلها الزمنية، فهو دعوة إلى الناس جميعًا لا يختص بأمة دون أمة ولا زمن دون زمن ولا مجتمع دون مجتمع.

وهو لم يميز فى دعوته إلى طريق الله شعبًا دون شعب آخر، فليس الإسلام قاصرًا على العرب دون سواهم ولكنه بلاغ لجميع البشر ويبدو ذلك واضحًا من خطاب القرآن الكريم للرسول ﷺ، ومن حديثه عن القرآن وهو رسالة الإسلام. قال تعالى:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾

(سبأ: ٢٨)

وقال:

﴿ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾

(النساء: ٧٩)

والآية واضحة الدلالة فى أن الرسول كان لعموم البشر. كما أن القرآن هدى لجميع الناس:

﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

(آل عمران: ١٣٨)

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾

(النساء: ١٠٥)

﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴾

(الإسراء: ١٠٦)

فلا يجوز لأمة أن تنسب الإسلام لنفسها دون الأمم الأخرى، لأن الله أراده بيانًا لجميع الناس وميزانًا للحكم يرجعون إليه فى شئونهم ومعاملاتهم ولعل السبب فى هذه العالمية أن الإسلام ينظر إلى الناس على أنهم يشكلون وحدة إنسانية لا تمايز بين شعوبها وأفرادها فى الأصل أو الطبيعة أو المصير.

فالناس جميعًا ينحدرون من أصل واحد:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾

(النساء: ١)

هذه النفس الواحدة إذا دققنا فيها وحللناها لوجدنا أنها تعود إلى ذكر وأنثى قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ ﴾

(الحجرات: ١٣)

ثم إن هذا الأصل بعد ذلك يعود إلى أب واحد ينتسب إلى التراب، يقول رسول الله ﷺ «أيها الناس إن ربكم واحد. وإن أباكم واحد. كلكم لآدم وآدم من تراب. إن أكرمكم عند الله أتقاكم. وليس لعربى على عجمى. ولا لعجمى على عربى. ولا لأحمر على أبيض. ولا لأبيض على أحمر فضل إلا بالتقوى»... والحديث متفق عليه.

هذا والطبيعة الإنسانية واحدة لا تختلف، لذا فقد شاء الله أن يكون الإنسان من طين وأن ينفخ تعالى فيه من روحه:

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾

(ص: ٧١-٧٢)

وهذه الطبيعة أو الفطرة التى فطر عليها الإنسان واحدة قال تعالى:

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾

(آل عمران: ١٤)

ولديها الاستعداد للخير والشر وللصلاح والفساد قال تعالى:

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾

(الشمس: ٧-١٠)

وهى واحدة كذلك فى الميل إلى الجحود وكفر النعمة وعدم الشكر قال تعالى:

﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾

(البقرة: ٢٤٣).

﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴾

(المائدة: ٤٩)

وواحدة أيضا فى المصير. فلابد أن تلقى كل نفس أجلها حتى تفنى البشرية جمعًا. ثم يكون البعث والسؤال والحساب ثم إلى الجنة أو إلى النار قال تعالى:

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾

(آل عمران: ١٨٥).

ونظرًا لأن الإنسانية واحدة فى أصلها وطبيعتها والمصير الذى ستنتهى إليه، فإنه من الطبيعى أن تكون الرسالة واحدة.. وأن تترتب عليها تكاليف متشابهة: وأن تطالب بعبادة الإله الواحد. ومن أجل ذلك أمرهم الله بعبادة خالق هذا الكون ومدبره قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

(البقرة: ٢١)

فالناس أمة واحدة، وهذا ما يؤكد عليه القرآن الكريم قال تعالى:

﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾

(البقرة: ٢١٣)

وقال:

﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ﴾

(يونس: ١٩)

ولاشك أن الميدان الوحيد الذى يتفاصل فيه الناس يتعلق بالرسالة وقبولها والعمل من

أجلها قال تعالى:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾

(آل عمران: ١١٠)

وهكذا ينفى الإسلام كافة الأسباب التى تعرقل استقبال الناس لرسالة الإسلام أو تسبب وجود التمايز والتفاضل على غير أساس معقول.

ومن أهم أسباب التمايز والتعصب التى لا يرضى عنها الإسلام، التعصب للون أو للطبقة أو للجنس.

١- **فالتعصب للون** ليس له مكان فى العقيدة الإسلامية، لأن الحضارة التى لا يستعلى فيها عرق على عرق ولا لون على لون هى الحضارة التى يسعد بها الإنسان العاقل الكريم وتسعد بها الإنسانية الواعية الكريمة، والحضارة التى يعلو فيها الأبيض ويمتهن الأسود. ويسعد بها ذوو البشرة البيضاء ويشقى بها الملونون هى الحضارة الجاهلية التى ترتد بها الإنسانية إلى الوراء مئات القرون عمياء متكبرة جاهلة حمقاء.

وما أعظم ما وصف به الرسول ﷺ من تعلق بمثل هذه الأوهام بقوله: «إنك امرؤ فيك جاهلية»، وقد قالها الرسول ﷺ لصحابى جليل عير مسلمًا آخر يقول يا ابن السوداء. فجاءت هذه العبارة لتكون حدًا فاصلًا بين العلم والجهل. بين الحضارة الإنسانية والحضارة الجاهلية وليست هذه نظرة أو دعوة مجردة عن التطبيق العملى، ولكن تم تنفيذها على أوسع المستويات، وفى جميع الميادين، ففى المسجد يلتقى الأبيض والأسود فى مصاف العبودية لله جل شأنه والخشوع بين يديه وفى الحج تلتقى العناصر البشرية كلها بيضاء وملونة على صعيد واحد وبثياب واحدة من غير تمييز بين أبيض وأسود. وهذا هو النموذج الذى بلغت به الإنسانية مداها فى الرقى وقد أمر الرسول بلالاً الحبشى أن يؤذن فوق الكعبة يوم الفتح، يعلن كلمة الحق بين الناس، والكعبة أشرف بيت عند العرب فى الجاهلية، وقبلة المؤمنين بعد الإسلام، وقد اختار الرسول بلالاً ذا البشرة السوداء من بين سائر المسلمين وفيهم أشراف قريش. ولقد كان هذا العمل تأكيدًا على كرامة الإنسان ومكانته التى يستحقها لعلمه وأخلاقه وإيمانه لا لبشرته وبياضه.

وهكذا ففى حين كان الناس جميعًا -حتى المتحضرون فى القرن العشرين- يرون السواد منقصة، كانت حضارتنا الإسلامية تحطم هذه الشرور وتسفه هذه الآراء، وهى تعلن إلغاء جميع أنواع التفاضل التى تعود إلى لون البشرة أو اختلاف الدم. ولم يعرف فى التاريخ الإسلامى أن مجتمعًا إسلاميًا كان يقيم مجتمعات مغلقة على البيض لا يساكنهم فيها السود، كما أنه لم يسجل حادثة واحدة اضطهد فيها إنسان لسبب لونه، لأن البياض والسواد فى حضارة الإسلام ليس إلا بياض الأعمال أو سوادها.

ولو نظرنا إلى الحضارة الحديثة التى تعد من أشهر الحضارات التى عرفت بأنها قامت على مبادئ الإخاء والمساواة بين الناس، لوجدنا أنها لازالت تطبق التمييز العنصرى بسبب اللون فى أبشع صوره وأشكاله.

ففى أمريكا كانت المدارس تفرق بين الزنوج والبيض، وكانت القطارات والحافلات العامة والمستشفيات تفرق بين الزنوج والبيض، وفى مجال الزواج كانت معظم الولايات تمنع الزواج المختلط بين الزنوج والبيض.. هذا قليل من كثير من أبناء التمييز بسبب اللون.

٢- التعصب للطبقة:

لو نظرنا إلى تطور النظام الطبقى فى التاريخ، فإننا نجد انفصالاً كاملاً بين الطبقات فى عدد من المجتمعات المعاصرة لظهور الإسلام، واستمر هذا الانفصال الطبقى فى كثير من المجتمعات غير الإسلامية بعد الإسلام، وما يزال هذا النظام سائدًا، عند كثير من الجماعات الإنسانية.

ففى قريش قبل الإسلام وجدت الطبقية حيث فرضت قريش لنفسها مرتبة خاصة وحقوقًا وتقاليد ليست لسائر العرب.

وكان المجتمع الإيرانى مؤسسًا على اعتبار النسب والحرف وكان بين طبقات المجتمع هوة ساحقة لا يقوم عليها جسر ولا تصل بينها صلة.

وأما نظم الطبقات فى الهند فإنه أشد قوة وأعظم فصلاً بين طبقة وطبقة، حتى يمكن القول بأنه لم يعرف له مثيل فى أمة من الأمم، وقد انتهكت كرامة الإنسان فى ظل هذا النظام واستهين بشرفه، وزاد من ظلم هذا النظام أن الهند اعترفت به دينيًا ومدنيًا وخضعت له آلاف السنين ولا تزال ولقد ازدهرت الحضارة البرهمية قبل ميلاد المسيح بثلاث سنوات، ووضع فيها قانون مدنى وسياسى يقسم أهل البلاد بموجبه إلى أربع طبقات متميزة وهى: البراهمة أى طبقة الكهنة ورجال الدين، ورجال الحرب، ورجال الزراعة والتجارة، ورجال الخدمة، وقد منحت طبقة البراهمة فى هذا القانون امتيازات وحقوق ألحقتهم بالآلهة، فهم صفوة الله وملوك الخلق وأفضل الخلائق وسادة الأرض، والبرهمى مغفور ذنبه مهما ارتكب من الموبقات.

أما أوروبا فى العصور الوسطى، فقد كانت تخضع لنظام الطبقات يفصل أفراد الأمة بعضهم عن بعض. ويجعل منها ثلاث طبقات: النبلاء أو الأشراف، ورجال الدين، والشعب، وكانت هذه الطبقات متميزة محددة المعالم يختلف بعضها عن بعض بصورة واضحة يعرفها الإنسان بمجرد النظر إليها. وكان هذا النظام مدعومًا بالقانون.

ولكن ولله الحمد وبكل وضوح أعلن الإسلام المساواة بين الناس فى الأصل والمصير ورسالة الحياة. وقبل كل تمايز يعود إلى الخبرات قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾

(الإسراء: ٥٥).

وقال:

﴿۞ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾

(البقرة: ٢٥٣).

وكذلك الإسلام لا يسوى بين العلماء والجهلاء:

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾

(الزمر: ٩).

وليس من العدل أن يختلف الناس فى الجهد ويتساووا فى الأرزاق:

﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾

(الزخرف: ٣٢).

ولكن هذا التفاضل فى العلم أو الرزق لا يقوم على النسب الموروث ولا على الغصب والسطوة وإنما على العمل، وهو فى نفس الوقت لا يؤدى إلى إيجاد طبقات يستعلى بها البعض على البعض الآخر.

هذا ولله الحمد والشكر لقد حلت الأخوة

الإيمانية التى جمعت أفراد المجتمع وضمت بعضهم إلى بعض قال تعالى:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾

(الحجرات: ١٠).

وأصبح المجتمع بهذه الأخوة وحدة متآلفة عبر عنها النبى ﷺ بقوله: «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» متفق عليه.

٣- التعصب للقوم [القومية أو العنصرية].

حينما جاء الإسلام وجد أن الناس يجتمعون على آصرة النسب أو آصرة الجنس أو يجتمعون على آصرة الأرض، أو يجتمعون على المصالح والمنافع، وكلها عصبيات لا علاقة لها بجوهر الإنسان، إنما هى أعراض طارئة على جوهر الإنسان الكريم. وقال الإسلام كلمته الحاسمة فى هذا الأمر الخطير الذى يحدد علاقات الناس بعضهم ببعض إنه لا تمييز بسبب اللون ولا الجنس ولا النسب ولا الأرض. إن آصرة المجتمع هى العقيدة، لأنها هى أكرم خصائص الروح الإنسانى.

وبهذا أعلن الإسلام ولأول مرة فى تاريخ الإنسانية أن الأمة والدولة وسائر التجمعات الإنسانية لا يجوز أن تقوم إلا على أساس واحد يتناسب مع كرامة الإنسان وما ميزه الله به من قدرة على التفكير والتأمل. فالعقيدة وحدها هى التى تفرق أو توحد بين الناس، أما سائر العوامل الأخرى فلا يقر الإسلام بأنها جديرة أن تكون من أسباب التفرق أو التوحد. لأن البشرية جمعاء من أصل واحد:

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾

(النساء: ١).

وحقيقة الأجناس تعود إلى هذا الأصل:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾

(الحجرات: ١٣).

قال رسول الله ﷺ «كلكم بنو آدم وآدم خلق من التراب ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان». ذكره أبو بكر البزار فى مسنده من حديث حذيفة.

وكذلك يضع الرسول الكريم الأمور فى نصابها فيقول: «يا معشر قريش اشتروا أنفسكم، لا أغنى عنكم من الله شيئًا، ويا بنى عبد مناف لا أغنى عنكم من الله شيئًا، يا عباس بن عبدالمطلب ما أغنى عنك من الله شيئًا، يا فاطمة بنت محمد: سلينى ما شئت من مالى، لا أغنى عنك من الله شيئًا» متفق عليه.

وكذلك يعلن النبى ﷺ أنه ليس من الإسلام فى شىء من دعا إلى عصبية «ليس منا من دعا إلى عصبية»، ولقد أمر النبى بالتخلى عن العصبية وقال «دعوها فإنها منتنة» أخرجه مسلم فى صحيحه.

ويزيد النبى الأمر توضيحًا فيقول «أنا أخو كل تقى ولو كان عبدًا حبشيًا وبرىء من كل شقى ولو كان شريفًا قرشيًا».

ويتبين لنا من جميع ما سبق أن الإسلام أول دين يقيم العلاقات الإنسانية على أساس المبدأ والعقيدة. وبهذا تتضح لنا عالمية الإسلام وإنسانيته.

المؤتمر الأول لوعاظ الأزهر

دور وعاظ الأزهر فى مواجهة العنف والفكر التكفيرى

متابعة الأستاذين:
أبو السعود محمد، رمضان ثابت

تحت رعاية فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر أقام مجمع البحوث الإسلامية المؤتمر الأول لوعاظ الأزهر تحت عنوان: دور وعاظ الأزهر فى مواجهة العنف والفكر التكفيرى، وذلك بقاعة الأزهر للمؤتمرات يوم الإثنين الخامس من ربيع الأول ١٤٣٥هـ الموافق السادس من يناير ٢٠١٤ م.

استهل المؤتمر بكلمة افتتاحية ألقاها صاحب الفضيلة الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية الشيخ محمد زكى رزق بدارى - وسط حضور حاشد من وعاظ الأزهر وأئمة الأوقاف والمسئولين من مصر والعالم الإسلامى- رحب فيها بالسادة الحضور، وقال بعد حمد الله والصلاة والسلام على رسول الله: باسم الأزهر الشريف ومؤسساته؛ وزارة الأوقاف، دار الإفتاء، وباسم علماء الأزهر الشريف ودعاة الخير والفضيلة، ترحب بفضيلة وسماحة الشيخ الكبير مفتى دولة أوكرانيا المسلمة والضيوف الكرام، ونستفتح بالذى هو خير فاللهم اجعل جمعنا هذا جمعًا مرحومًا، ولا تجعل بيننا شقيًا ولا محرومًا، هب لمصرنا الغالية أمر رشد يحقق خيرها وسلامها، وأمنها واستقرارها، واجعلها ربنا كما أردتها ملاذا للخائفين، فقلت وقولك الحق:

﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾

[يوسف: ٩٩].

ثم عرج فضيلته على الوضع المتردى الذى تعانيه أمة الإسلام بسبب مخالفتها أمر الله وشرودها عن منهج الإسلام الوسطى الذى يحمل مشعله الأزهر الشريف، وهو ما حفلت به سجلات التاريخ وتغنت بمشايخه الدنيا وصدق فيهم قول الشاعر:

قم فى فم الدنيا وحى الأزهرا
وانثر على سمع الزمان الجوهرا
واخشع مليا واقض حق أئمة
طلعوا به زهرا وماجوا أبحرا
كانوا أجل من الملوك مهابة
وأعظم سلطانا وأفخم مظهرا

وأشار سيادته إلى أن هناك أصواتا أبت أن يعلو صوت الإصلاح، ورفضت أن تكتحل عيون الناس بأزهر أشم مجيد، على يد أحد أبنائه المخلصين، فقال: أنى لهذه الأصوات

النيل من الأزهر ورموزه، فهي أصوات واهمة، زين لها الشيطان سوء أعمالها فضلت الطريق، لأن الأزهر خلفه جيش جرار، يتسلح بالعلم والإيمان، يؤيد شيخه وإمامه ويدافع عن أزهره ومؤسساته، ويهب أفراده أنفسهم فداء للأزهر وشيخه الجليل.

كما دعا فضيلته رجال الوعظ بالأزهر الشريف إلى أن يكونوا خير ممثلين للأزهر ورسالته ودعوته فقال في شأنهم:

رجال الوعظ إن لكم لماض
من التاريخ وضاء المحيا
بأزهرنا تعلمتم أصولا
وفقها للفروع أتى مليا
رسالتكم أعز الله قومي
رسالة خير مبعوث نبيا
تنير الأفق في حلك الليالي
وتعطي للحياة هديا نديا

وفي ختام كلمته أكد فضيلة الأمين العام لمجمع البحوث على حرص المجمع بكل إداراته على تفعيل دور الأزهر والنهوض برسالته المقدسة تصحيحًا لمسار الفكر الإسلامي، والعمل على تجريده وتخليصه من شوائب الجاهلية الحديثة، ووعد في نهاية كلمته بالعمل على تطوير المجمع وإعادة هيكلته للنهوض برسالته العالمية رسالة الإسلام الوسطي المعتدل التي يمثلها الأزهر الشريف.

ثم تحدث صاحب الفضيلة مفتي الجمهورية الأستاذ الدكتور شوقي علام فقال بعد الترحيب بالسادة العلماء والحضور: أيها الإخوة الحضور السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، الحقيقة أن هذا المؤتمر جاء في وقته، جاء في وقت عصيب تتصارع فيه الأفكار، وأنتم قادة الفكر، ولا علاج للفكر إلا بالفكر، والواقع أن التصنيف إلى مؤمن وغير مؤمن هو تصنيف جاء به القرآن الكريم فلا مشكلة فيه، إنما المشكلة تكمن في تحديد المفاهيم، في تحديد مفهوم الكفر، والمعايير التي يبنى عليها القول بأن فلانًا أضحى كافرًا هذا هو الأساس، وهذا الذي ينبغي أن يعالج أولاً فهناك مصطلحات لابد من تحديدها وتحديد العلاقة بينها منها: الإسلام، الإيمان، الشرك، الفسوق، البدعة، ثم بعد ذلك نخرج بإطار للعلاج.

وعن موقف الأزهر الوسطي قال فضيلته: الأزهر الشريف كمؤسسة راسخة شامخة علمنا وعلم الأجيال كلها أنه ينبغي أن يكون الإطار الذي يخرج به فرد عن الأمة أن يأتي بفعل أو قول يخرج به عن الدين بإجماع واتفاق الفقهاء، أي أن يكون في محل القطعيات، وما عدا ذلك لا يجوز بحال من الأحوال أن يخرج إنسان ما عن دائرة الإيمان، ذلك لأن الأمور المجتهد فيها المختلف حولها هي ميدان فسيح يسع الكل ويسع الجميع فلا بد من معالجة منهجية تقوم على أسس علمية ولا تقوم على مجرد الكلام.

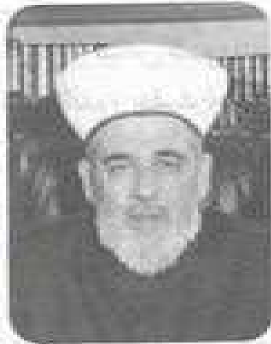
وأكد فضيلته على أن الفكرة تأتي أولاً ثم المفهوم ثم العقيدة، فقد تكون معالجة الفكرة أمرًا هينًا سريعًا، لكن إذا صارت مفهومًا مترسخًا في النفوس أصبح الأمر يحتاج إلى جهد أكبر، والجهد يتضاعف إذا ما صار المفهوم عقيدة وعادة راسخة وهو الجهد الذي يقوم به الأزهر الشريف برجال الوعظ ووزارة الأوقاف بأئمة الأوقاف وهي مسئولية عظيمة.

وأشار فضيلته في ختام كلمته إلى المبادرة التي قدمها في دار الإفتاء لإنشاء مرصد يقوم على جمع الفتاوى التكفيرية والأفكار الشاذة التي تقوض أمن المجتمع، ودراستها دراسة علمية متأنية، ومجابهتها بمنهجية الأزهر الشريف بما يزيلها ويفند أدلتها ويجفف منابعها.

فيما قال فضيلة الشيخ أحمد تميم مفتي أوكرانيا في كلمته بعد حمد الله والصلاة والسلام على رسوله: أيها السادة الحضور جئتكم من أوكرانيا ولي هذه النعمة التي أنعم الله بها عليّ أن أحضر هذا الحفل الكريم، وكلنا أمل أن نحظى بسهم من سهام هذه الدعوة المباركة التي انطلقت من الأزهر الشريف إلى سائر المعمورة، يقول رسولنا- صلى الله عليه وسلم-«من علم علمًا وعلمه وعمل بما علم يدعى في السماء عظيمًا» فإذا كان أهل السماء يسمون هذا الرجل عظيمًا، فكيف بكم أنتم علماء الأزهر الشريف ورثة الأنبياء.

ثم تطرق فضيلته إلى أوضاع المسلمين في بلاده قائلا: نحن في أوكرانيا شريحة من شريحة الأمة الإسلامية من المدرسة الأشعرية الماتريدية، ونحن في شوق وعطش عظيم، لمعرفة المعنى الصحيح لمفهوم الإرهاب، ومفهوم الاعتدال والوسطية لأننا عانينا الكثير بسبب تلك المطبوعات التي تزيف الدين والجهات التي تفتي بما لم ينزل الله -تعالى- من سلطان لدرجة أن منهم من يقول إنه لو حكم الحاكم بقانون وضعي واحد فليس هو فقط الكافر، بل الرعية الذين يعيشون في هذا المكان الذي يحكم فيه بالقانون الوضعي.

وفي ختام كلمته أكد فضيلته على حاجة المسلمين إلى الأزهر بقوله: نحن -ليس فقط في أوكرانيا- نجد أن عامة المسلمين في المعمورة كاليتيم الذي لا كافل له لذلك نرى في وجوهكم وفي صرح الأزهر الشريف الغاية المبتغاة، نتمنى من الله عز وجل أن يزيل هذه الغمة السوداء عن مصر، وأن يعيد الاصطفاف والقوة لهذا البلد الكريم الآمن، وأن يكون دائمًا رافعًا لكلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.


الشيخ أحمد تميم

ثم تحدث فضيلة الأستاذ الدكتور محمد مختار جمعة وزير الأوقاف فقال في كلمته بعد الترحيب بالضيوف: سأوجز الحديث في نقطتين اثنتين:

● الأولى: حقيقة كنا في اجتماع في وزارة الأوقاف مع القطاع الديني، وتناقشنا في شأن الدعوة، وانتهينا إلى كتابة بيان حول الأحداث في مصر وحول الجامع الأزهر وكان مما ورد فيه:

إن ما يحدث في مصر من عنف وتخريب ممنهج إنما هو محاولة لإسقاط الدولة المصرية لمصالح حزبية وشخصية تتلاقى مع مصالح ومخابرات أجنبية.

إن القوة الحقيقية للإسلام تكمن في قوة مصر، وتماسك علمائها، وقوة أزهرها، وهي كما قال الإمام الراحل فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي: هي البلد التي صدرت علم الإسلام حتى إلى البلد الذي نزل فيه الإسلام.

● الثانية: مما لاشك فيه أن الأزهر بفكره الوسطي المستنير صمام الأمان لمصر وأهلها، ونظرًا لرمزيته ومكانته التاريخية، وأنه لم ولن يكون طرفا في المعادلات الحزبية السياسية، وأنه إنما يؤدي واجبًا شرعيًا ووطنيًا، وفي ضوء التنسيق الكامل مع فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الأستاذ الدكتور أحمد الطيب، وطلب سعادة الأستاذ

الدكتور عباس شومان وكيل الأزهر - قررنا على الفور عقد اجتماع بالقطاع الديني، وانتهينا بالإجماع على الموافقة على طلب السيد الأستاذ وكيل الأزهر بنقل تبعية الجامع الأزهر العتيق إلى مشيخة الأزهر الشريف علميًا وإداريًا، وتتولى مشيخة الأزهر كامل النفقات، ويتولى عضو المكتب الفني لشئون الدعوة والإعلام الديني بمكتب فضيلة الإمام سائر الأمور الدعوية والعلمية بالجامع الأزهر. وفي ختام كلمته قال بعض الأبيات الشعرية في مدح الأزهر ورموزه.

وقبل نهاية المؤتمر جاءت كلمة فضيلة الأستاذ الدكتور/ عباس شومان وكيل الأزهر فقال فيها بعد حمد الله والصلاة والسلام على رسوله: "السادة الحضور ... مرحبا بكم في الأزهر الشريف، في الحقيقة أحمل إليكم تحيات فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور/ أحمد الطيب شيخ الأزهر فهو يحييكم فردًا فردًا ويشد على أيديكم، ويتمنى لكم دائمًا التوفيق لإعلاء راية الإسلام ودعوته والذود عنه والتصدى لكل المتطفلين على ساحته.

وأكد فضيلته على ضرورة توقير العلم والعلماء وبخاصة رموز الأزهر ورجاله وضرورة الرجوع إلى أهل الفتوى قائلا: "فهم أهل الفتوى الذين يجلسون أمامكم وترونهم، فلا تؤخذ الفتوى إلا من الأزهر الشريف، أو من دار الإفتاء أو من وزارة الأوقاف لمن تسلح بالأسباب والوسائل التي تمكنه من الإفتاء بنهج الأزهر الوسطى الذى لا يعرف التشدد، ويدين العنف والإرهاب أيا كان فاعله.

وأشار فضيلة وكيل الأزهر في ختام كلمته إلى تأييد الأزهر الشريف لقرارات وزير الأوقاف بما فيها نقل الجامع الأزهر إلى المشيخة، وكذا دعم الأزهر لمبادرة فضيلة المفتى في إنشاء مرصد بدار الإفتاء لدراسة الفتوى وتنقيحها داعيا الله عز وجل لهم بالتوفيق والسداد.

وفي ختام المؤتمر تلا فضيلة الشيخ عبدالعزيز النجار مدير عام شئون المناطق توصيات مؤتمر وعاظ الأزهر وهي:

- أولا: التأكيد على دعم قرارات فضيلة الإمام الأكبر للعمل على حقن الدماء، ولم الشمل، واستقرار المجتمع، وإعلاء المصالح العليا للوطن، وكذا ضرورة تحمل الجميع مسئوليتهم الوطنية، والوقوف بجانب مؤسسات الدولة.
- ثانيا: التأكيد على سماحة الإسلام وبراءته من كل أنواع العنف، والتحذير من كل الفتاوى التكفيرية التى تستبيح الدماء والأعراض والتعدى على الممتلكات، ومواصلة التصدى لها بكل ألوان المقاومة المشروعة.
- ثالثا: التأكيد على ضرورة تفعيل دور المؤسسات الدعوية ودعمها لنشر الفكر الوسطي، والعمل على بث روح التواصل بين العلماء والشباب من خلال عقد الندوات التثقيفية، والاهتمام بمادة التربية الدينية بجميع المراحل التعليمية.
- رابعا: المطالبة بإعادة النظر في تحسين الأوضاع الأدبية والمادية للوعاظ وللأئمة حتى يتفرغوا لأداء مهامهم الشرعية والوطنية، والله ولى التوفيق.

من تراث الهلال:

«الله» في الشعر العربي القديم

الأستاذ عاطف مصطفى

دائمًا ما كانت مجلة الهلال تحرص على استكتاب كبار الكتاب والاستعانة دائمًا بثاقب علمهم وبفكرهم، وخاصة في أعدادها الخاصة التى كانت تصدرها بين الحين والآخر، بل إن رؤساء تحريرها منذ صدورها في عام ١٨٩٢م وحتى الآن يتبعون هذا المنهج.

وفي العدد الخاص بعنوان «الله» والذى صدر في يونيه عام ١٩٧٢م نختار منه مقالًا بديعًا للناقد والشاعر محمد عبدالغنى حسن بعنوان «الله في الشعر العربي القديم».

حيث تناول نماذج للشاعر القديم الذى كان يتجه إلى الله، إذا أظلم ليل أو حزب أمر، أو ضاق عليه الأمر، لعله يجد مخرجًا مما هو فيه، وفرجًا مما هو ملاقيه، حيث عبر الشاعر عن ذلك بقوله:

وإنى لأدعو الله والأمر ضيق
علىّ فما ينفك أن يتفرجا
وكم من فتى ضاقت عليه وجوهه
أصاب لها في دعوة الله مخرجا

يقول الكاتب بداية: لا يختلف الشاعر الإسلامى عن الشاعر الجاهلى في الابتهال واللجوء إلى الله والأنس بحضرته، مع أن الأصنام كانت تعبد في الجاهلية من دون الله، وأن الشرك كان فاشيًا، والكفر كان طاغيًا.

ففي غمرات ذلك الجو الملبد بالإشراك، كانت تلتمع هناك ومضات من نور الإيمان، وضوء التوحيد. فليس طبيعيًا أن ينقطع ما بين الله والناس في فترة من فترات الشرك، وإلا فما بال هؤلاء (الحنفاء) قبيل ولادة محمد عليه الصلاة والسلام - بله بعثته ورسالته - ما بالهم وقد اجتمعت قريش يومًا في عيد لهم عند صنم من أصنامهم كانوا يعظمونه، ويتحرون له، ويعكفون عنده، ويطيفون به، فخلص منهم أربعة نفر نجيا، ثم قال بعضهم لبعض: تصادقوا، وليكتم بعضكم على بعض، قالوا أجل!

وكان هؤلاء النفر الأربعة: ورقة بن نوفل، وعبيد بن جحش وعثمان بن الحويرث، وزيد بن عمرو بن نفيل، فقال بعضهم لبعض: تعلمون والله ما

قومكم على شيء، لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم، ما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر، ولا يضر ولا ينفع؟ يا قوم التمسوا لأنفسكم دينًا، فإنكم والله ما أنتم على شيء.. فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية: دين إبراهيم عليه السلام.

الشاعر والكاهن والخطيب

فأما ورقة بن نوفل - ابن عم السيدة خديجة - فاستحكم في النصرانية، وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى هداه الله إلى الإسلام فأسلم، وأما عثمان بن الحويرث، فقدم على قيصر ملك الروم فتنصر، وأما زيد بن عمرو بن نفيل فوقف فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية، وفارق دين قومه من قريش، فاعتزل الأوثان والأصنام والميتة والدم والذبائح التي تذبح على الأوثان، وقال: أعبد إله إبراهيم. وقد قال فيه النبي عليه الصلاة والسلام: (إنه يبعث يوم القيامة أمة وحدة).

ولم يكن هؤلاء الحنفاء أربعة وحسب، ولم يكونوا في مكة وحدها، بل كانوا في المدينة وفي بقاع أخرى من جزيرة العرب، ولم يكونوا شعراء وحسب، بل كان فيهم الشاعر والكاهن والخطيب، وهدى الله كثيرًا منهم إلى نور الإسلام، وحلاوة الإيمان، كأبي ذر الغفاري، وصيرفة بن أبي أنس الذي كان يكنى بأبي قيس.

معالم في طريق الإيمان

يضيف محمد عبدالغني حسن: وهؤلاء الشعراء الحنفاء في الجاهلية كان يدور اسم (الله) في كثير من شعرهم، ويتكرر في عدد من قصائدهم، حتى لتكاد تعجب من دوران لفظ الجلالة في أشعارهم إلى هذا الحد، وهم في بيئة مفعمة بالشرك، كانما نصبتهم «العناية الإلهية» ليكونوا معالم في طريق الإيمان، ومنائر في سبيل التوحيد.

وكثيرًا ما تلقى اسم «الله» في شعر هؤلاء الجاهليين الحنفاء في معرض الحلف به والقسم به، والحمد له، والثناء عليه، والدعاء بالخير والشر باسمه، ووصفه بأنه يعلم كل خافية، ويدرى كل جانحة، وأنه يحيي ويميت، ويُهلك ويبقي.

ففي معرض الحلف بالله نجد الشاعر عدى بن زيد العبادى يقول مخاطبًا النعمان:

إنني والله فاقبل حلفي
لأبيل كلما صلى جار

ونجد الشاعر زهير بن أبي سلمى يقول في كافيته المشهورة:

تعلمن هالعمر الله ذا قسما
فاقدر بذرعك وانظر أين تنسلك

ونجد الشاعر عبيد بن الأبرص يقول:

فوالله إن مت لما ضرني
وإن عشت ما عشت في واحده

وفي معرض الحمد لله نجد الشاعر امرأ القيس يقول:

أرى إبلي - والحمد لله - أصبحت
ثقالا إذا ما استقبلتها صعودها

وفي معرض الدعاء إلى الله بالخير نجد النابغة الذبياني يقول:

حياك ربي فإنا لا يحل لنا
لهو النساء وأن الدين قد عزما

ونجده يقول في أبيات أخرى:

لا يبعد الله جيرانا تركتهم
مثل المصابيح تجلو ليلة الظلم

ونجد عنترة العبسي يقول:

لا أبعد الله عن عيني غطارفة
إنسًا إذا نزلوا جنا إذا ركبوا

فكرة الألوهية الشاملة للتوحيد

يواصل الكاتب: وإذا تجاوزنا هذه المعاني الجزئية من وجود لفظ الجلالة «الله» في الشعر الجاهلي، إلى المعنى الكلي من وجود الله نفسه، وفكرة الألوهية الشاملة للتوحيد، وجدنا شعراء جاهليين فاضت أشعارهم - التي رويت لنا عنهم - بفكرة الله صاحب الكمالات والآيات البينات، ويتمثل هذا كثيرًا في شعر - أمية ابن أبي الصلت - الذي فكر كثيرًا، وقرأ في كتب الأوائل كثيرًا، فتعبد وتحنث وذكر إبراهيم، ونبذ الأوثان والتمس الدين، وهو صاحب البيت المشهور:

كل دين يوم القيامة عند اللـ
ـه إلا دين الحنيفية - زور

ومن شعره الإلهي قوله:

إله العالمين وكل أرض
ورب الراسيات من الجبال
بناها وابتنى سبعًا شدادًا
بلا عمد يرين ولا رجال
وسواها وزينها بنور
من الشمس المضيئة والهلال

ولأمية بن الصلت قصيدة دالية طويلة تفيض بمصطلحات إسلامية لا نجد مثلها حتى عند حسان بن ثابت - شاعر الدعوة الإسلامية، والمدافع عن الرسول عليه الصلاة والسلام يقول أمية:

فسبحان من لا يعرف الخلق قدره
ومن هو فوق العرش فرد موجد
ومن لم تنازعه الخلائق ملكه
وإن لم تفرده العباد فمفرد

وروى مؤرخ السيرة النبوية: ابن هشام للشاعر أمية بن أبي الصلت شعرًا في توحيد «الله» يقول فيه من قصيدة يائية:

إلى الله أهدى مدحتي وثنائيا
وقولا رصينا لا يني الدهر باقيا
وإني لو سبحت باسمك ربنا
لأكثر إلا ما غفرت خطائيا
فرب العباد ألق سيبا ورحمة
عليّ وبارك في بني وماليا

إظهار آيات الله

لقد لجأ الشاعر الجاهلي في شعره الإلهي إلى إظهار آيات الله وعجائب خلقه وبديع صنعه في الكون، ولم يأل أن يدير النظر في مجال الكون، كأنه يستجيب - قبل نزول القرآن الكريم - إلى قوله تعالى:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾

(سورة النحل: ٤٨)

وقد أطال الشاعر أمية بن أبي الصلت الدوران في هذا المدار، فنرى له قصيدة رائية يقول فيها:

سبحانك اللهم إنك أكبر
من أن يحيط بكنهك المتفكر
حار اللبيب وزاغ عنك المبصر
ورمى فأخطأ سهمه المتدبر
أقصى مدى للعقل فيك تحي

على أن الزمان الذي أبقى لنا من شعر «ابن نفيل»، وأبقى لنا كذلك بعض القليل من شعر «ورقة بن نوفل» وقد كان حنيفا كصاحبه وما أصدقه وهو يقول:

لا تعبدن إلها غير خالقكم
فإن دعوكم فقولوا: بيننا حدد
سبحان ذي العرش سبحانا نعوذ به
وقبل قد سبح الجودي والجمد
مسخر كل ما تحت السماء له
لا ينبغي أن يناوي ملكه أحد
لا شيء مما نرى تبقى بشاشته
يبقى الإله، ويودي المال والولد

ومن الطريف - كما يشير كاتب المقال - أن هؤلاء الشعراء الأحناف في الجاهلية، كانوا يتلاقون في العيان، كما يتلاقون في الفكر الإلهي المشرق، ويظهر أنهم كانوا يتباحثون ويتبادلون الرأي، ويهنئ بعضهم بعضا بما أدركه - على هدى الفطرة - من الوصول إلى الله فقد روى لنا الرواة أن «ورقة بن نوفل» حين التقى مع «ابن نفيل» تباحثا وتناشدا الأشعار التوحيدية، فقال يهنئ صاحبه:

رشدت، وأنعمت ابن عمرو وإنما
تجنبت تنورا من الله حاميا
بدينك ربا ليس رب كمثله
وتركك جنات الطواغي كما هيا
وإدراكك الدين الذي قد طلبته
ولم تك عن توحيد ربك ساهيا

وإذا كان الشعراء الأحناف - أو الحنفاء - في الجاهلية، قد جاشت خواطرهم بالشعر الإلهي المقصود لذاته، والذي كان نتيجة لميولهم واتجاهاتهم الفكرية الخالصة، ودراساتهم وقراءاتهم، فإن ديوان الشعر الجاهلي كله لا يخلو من خطرات إلهية لشاعر هنا وشاعر هناك، وهذه الخطرات تأتي في معارض القول العامة كأنها توكيد لمعاني الألوهية في النفس العربية منذ القديم.. وذكر الكاتب بعض نماذج من بينها ما قاله زهير بن أبي سلمى:

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم
ليخفى، ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر
ليوم الحساب أو يعجل فينقم

وهذا الشاعر عبيد بن الأبرص يقول:

من يسأل الناس يحرموه
وسائل الله لا يخيب
بالله يدرك كل خير
والقول في بعضه تلغيب
والله ليس له شريك
علام ما أخفت القلوب

●●●●

هذه رحلة روحية مع الشعر الإلهي في الجاهلية..

فماذا كان موقف الشعراء بعد أن جاء محمد ﷺ يصدع بأمر ربه وينشر الإسلام ويرسي قواعد الإيمان وقد يكون لنا بإذن الله عودة إلى هذه الرحلة.

الإنسان فى القرآن الكريم

للدكتور / أحمد محمد عرفة

جاء في معجم (الوسيط): «(أنس) به وإليه أنسًا: سكن إليه وذهبت به وحشته.... و(آنس) فلانا إيناسا: لاطفه وأزال وحشته. فهو مؤنس، وأنيس ومؤانس... و(الآنس): المؤنس أو ذو الأنس. والآنسة مؤنث الآنس. والفتاة الطيبة النفس المحبوب قربها وحديثها، يؤنس بها. والفتاة ما لم تتزوج... و(الإنسان): الكائن الحي المفكر. والجمع أناسي...و(الإنسانية): خلاف البهيمية، وجملة الصفات التي تميز الإنسان. أو جملة أفراد النوع البشري التي تصدق عليها هذه الصفات».

ولعل أكثر ما يرد على الخاطر عن كلمة (إنسان) هو أنها تضاد (حيوان)، حيث تكون حيوان بمعنى غير عاقل وغير قادر على الإحساس بالآخر والتعاطف معه، فيكون الإنسان هو الآدمي العاقل المهذب الذي يرعى حقوق الآخرين فلا يصدر منه ما يؤذي أحدا أو يجرح مشاعره.

والجديد الذي نقدمه في هذا المقال هو أن كلمة (إنسان) لم تأت في القرآن الكريم بهذا المعنى، وإنما جاءت فيه بمعنى يكاد أن يكون مضادا لمعناها عندنا.

وردت كلمة (الإنسان) في القرآن الكريم في أكثر من ستين موضعا، ولم يكن الإنسان ممدوحا في أي موضع منها، ولا صاحب صفات حميدة، وإنما كان فيها جميعا آدميا مذموما، سيئ الصفات والطباع.

وأول ما يحسن أن نعرضه من صفات الإنسان في هذا السياق، ما ورد عنه في حالي الشدة والرخاء، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

(يونس: ١٢)

فهو لا يدعو الله إلا حين يمسه الضر. ونجد نفس المعنى في قوله تعالى:

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾

(هود: ٩)

ونجده في الإسراء ١١ و٨٣، والزمر ٨ و٤٩، وفصلت ٤٩ و٥١، والشورى ٤٨. ومن يتصرف معك على هذا النحو لا يلومك أحد إذا قلت في وصفه إنه إنسان لئيم.

وإذا استعرضنا الجمل القرآنية التي تبدأ بـ (إن الإنسان) لوجدنا

﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾

(إبراهيم: ٣٤)

﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ﴾

(الحج: ٦٦)

﴿فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ﴾

(الشورى: ٤٨)

﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾

(الزخرف: ١٥)

﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾

(المعارج: ١٩)

﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ﴾

(العلق: ٦)

﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾

(العاديات: ٦)

﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾

(العصر: ٢)

وهي تجمع الظلم والكفر والهلع والطغيان والكند والخسر. والهلع الإسراع في التغير عند الاختبار بالضراء والسراء. والكنود الكفور للنعمة.

وإذا استعرضنا الجمل القرآنية التي تبدأ بـ(كان الإنسان)، وهي جمل تدل حسب بنيتها على صفات متأصلة في الإنسان، لوجدنا قوله تعالى:

﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا﴾

(الإسراء: ١١)

﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا﴾

(الإسراء: ٦٧)

﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا﴾

(الإسراء: ١٠٠)

وقوله

﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾

(الكهف: ٥٤)

ووفقا لها فإن من الصفات المتأصلة في الإنسان: العجل وهو التسرع المذموم، والكفر، والقتر وهو التضييق، والتوسع الشديد في الجدل. وكلها صفات مذمومة.

ومن أخبار القرآن عن الإنسان ما جاء في قوله:

﴿وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾

(النساء: ٢٨)

ويدل السياق على أن الضعف هنا ضعفه أمام الغريزة الجنسية وقوله:

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ﴾

(القيامة: ٣)

وقوله:

﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾

(القيامة: ٥)

وقوله:

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾

(القيامة: ٣٦)

وقوله:

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾

(الإنسان: ١)

وقوله:

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾

(الانفطار: ٦)

وقوله:

﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ

فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾

(الفجر ١٥، ١٦)

ويفهم من هذه الآيات أن الإنسان ضعيف أمام الغريزة الجنسية، وأنه يحسب أن الله لن يجمع عظامه بعد موته، وأنه يريد الفجور، ويحب أن يترك سدى، وأنه قد جاء عليه وقت لم يكن فيه شيئا مذكورا، وأنه قد غُرر بربه، وأنه يسيء تفسير الإكرام والابتلاء. ولم نسرد الآيات التي تكلمت عن خلقه من طين، وأنه تعالى علّمه ما لم يكن يعلم.

ودعا الله على الإنسان في قوله:

﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾

(عبس: ١٧)

قال الطبري: «في قوله: ﴿مَا أَكْفَرَهُ﴾ وجهان: أحدهما: التعجب من كفره مع إحسان الله إليه، وأياديه عنده. والآخر: ما الذي أكفره، أي: أيّ شيء أكفره»(١)، وهما متقاربان، فالسؤال: ما الذي أكفره، معناه: ما الذي جعله يكفر بالله وقد أنعم الله عليه، وليس له رب غيره؟ ودلالة الكلام على التعجب هنا ليست دلالة أصلية، لأنه في الأصل استفهام، ولكنه استفهام لا يقصد به حقيقة الاستفهام، وإنما يقصد به التعجب، والتعجب هنا ليس تعجبا قياسيا بصيغة (ما أفعله) لأن الفعل (كفر) غير قابل للتفاوت، والتفاوت شرط من شروط التعجب القياسي بـ(ما أفعله، وأفعل به)(٢)، وإذا أريد التعجب من فعل يفقد أحد شروط التعجب القياسي، يؤتى بـ(أشدّ أو أشدِد) قبل مصدر الفعل، وقد جاءت هذه الصيغة مع الكفر في قوله تعالى:

﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

(التوبة: ٩٧)

فقوله عنهم ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ معناه أشد كفرا من كفر كفار المدينة وأشد نفاقا من نفاق منافقيها، فالتعجب في قوله:

﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾

تعجب عن طريق الاستفهام، وهو تعجب من وقوع الكفر من الإنسان، وليس تعجبا من شدة كفره.

وبهذا يمكننا أن نقول إن كلمة ﴿الْإِنسَانُ﴾ في القرآن لا تدل على الآدمي المهذب الحساس كما ترد في كلامنا وفي النسبة إليه في كلمتي (إنساني) و(إنسانية)، وإنما هو الآدمي الذي يطغى عليه الجانب الانفعالي في اتخاذ القرار، فيظلم ويجهل ويعجل بالشر ويفرح بالنعمة وييأس في المضرة ويضعف أمام حاجته الجنسية، ويغره الشيطان، فهذه أهم الصفات التي أوردها القرآن في كلامه عن الإنسان، في خمسة وستين موضعا، هي مواضع ورود كلمة (إنسان) في القرآن الكريم. وبسبب رداءة هذه الصفات حسب ابن عاشور أن القرآن يطلق كلمة الإنسان على الكافر، فقال: «وإطلاق الإنسان على الكافر كثير في القرآن»(٣).

فهل أصيبت كلمة (إنسان) بتطور دلالي؟ أم هذا هو (الإنسان)،

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾

(العصر: ٣)

١) جامع البيان: ٢٤/ ٢٢٢.
٢) انظر: عباس حسن: النحو الوافي: ٣/ ٣٤٩.
٣) التحرير والتنوير: ١٥/ ٤٢.

أيام لها تاريخ

الأزهر.. أول مسجد بالقاهرة

(٢٤ من جمادى الأولى ٣٥٩هـ/ ٤ من إبريل ٩٧٠م)

إعداد. أ/ عبدالله كمال نصير

نشأة المسجد

يعد الجامع الأزهر أول عمل معمارى أقامه الفاطميون فى مصر، وأول مسجد أنشئ فى مدينة القاهرة التى أسسها جوهر الصقلى لتكون عاصمة للدولة الفاطمية، وقد بدأ جوهر فى إنشائه فى (٢٤ من جمادى الأولى ٣٥٩هـ/ ٤ من إبريل ٩٧٠م)، ولما تم بناؤه افتتح للصلاة فى (٧ من رمضان ٣٦١هـ/ ٢٢ من يونيو ٩٧١م).

ويرده المؤرخون أسبابًا مختلفة لإطلاق اسم الأزهر على جامع الفاطميين الأول فى مصر، ولعل أقواها وأقربها إلى الصواب أن لفظة الأزهر مشتقة من الزهراء لقب السيدة فاطمة بنت رسول الله ﷺ، التى كانت الدولة الفاطمية تنتسب إليها، ومن ثَمَّ أطلق على جامع القاهرة اسم الأزهر؛ تيمنًا باسم السيدة فاطمة الزهراء.

بناء الجامع الأزهر

وكان تصميم الأزهر وقت إنشائه يتألف من صحن تحفُّه ثلاثة أروقة، أكبرها رواق القبلة، وعلى الجانبين الرواقان الآخران، وكانت مساحته وقت إنشائه تقترب من نصف مسطحه الحالى، ثم ما لبث أن أضيفت مجموعة من الأبنية شملت أروقة جديدة، ومدارس ومحاريب ومآذن، غيرت من معالمه الأولى، وأصبح معرضًا لفن العمارة الإسلامية منذ بداية العصر الفاطمى.

ولعل أول عمارة أدخلت على الأزهر هى التى قام بها الخليفة الفاطمى الحافظ لدين الله، حيث زاد فى مساحة الأروقة؛ وأقام قبة حافلة بالنقوش الجصّية البارزة لا تزال قائمة حتى اليوم. وفى العصر المملوكى اعتنى السلاطين بالأزهر بعد الإهمال الذى لحقه فى العصر الأيوبى، وكان الأمير "عز الدين أيدمر" أول من اهتم بالأزهر، فقام بتجديد الأجزاء التى تصدعت منه، ورد ما اغتصبه الأهالى من ساحته، وجمع التبرعات التى تعينه على تجديده، فعاد للأزهر رونقه وبهاؤه ودبت فيه الحياة بعد انقطاع، واحتفل الناس بإقامة صلاة الجمعة فيه فى يوم ١٨ من ربيع الأول سنة ٦٦٥هـ/ ١٩ من نوفمبر ١٢٦٦م.

ثم قام الأمير "علاء الدين طيبرس" نقيب الجيوش فى عهد الناصر محمد قلاوون بإنشاء المدرسة الطيبرسية سنة (٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م)، وألحقها بالجامع الأزهر، وقرر بها دروسًا للعلم، وقد عنى هذا الأمير بمدرسته، فجاءت غاية فى الروعة والإبداع المعمارى.

ولم تكد تمضى ثلاثون سنة على هذه العمارة حتى أنشأ الأمير علاء الدين آقبغا سنة (٧٤٠هـ/ ١٣٤٠م) -وهو من أمراء السلطان الناصر محمد بن قلاوون- المدرسة الأقبغاوية، وهى على يسار الداخل من باب المزينين، وأنفق عليها أموالاً طائلة حتى جاءت آية فى الجمال والإبداع، وبخاصة محرابها البديع، وجعل لها منارة رشيقة.

ثم أنشأ الأمير جوهر القنقبائى خازندار السلطان الأشرف برسباى مدرسة ثالثة عُرفت باسم المدرسة الجوهرية، وتقع فى الطرف الشرقى من المسجد، وتشتمل على أربعة إيوانات على الرغم من صغر مساحتها، أكبرها الإيوان الشرقى، وبه محراب دقيق الصنع، وتعلو المدرسة قبة جميلة.

وتوالت التجديدات فى الجامع الأزهر فلم تتوقف العمارة فيه فى عهد المماليك الجراكسة، حيث قام السلطان قايتباى المحمودى سنة (٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م) بهدم الباب الواقع فى الجهة الشمالية الغربية للجامع، وشيده من جديد على ما هو عليه الآن، وأقام على يمينه مئذنة رشيقة من أجمل مآذن القاهرة، ثم قام السلطان قانصوه الغورى ببناء المئذنة ذات الرأسين، وهى أعلى مآذن الأزهر، وهى طراز فريد من المآذن يندر وجوده فى العالم الإسلامى.

غير أن أكبر عمارة أجريت للجامع الأزهر هى ما قام بها "عبد الرحمن بن كتخدا" سنة (١١٦٧هـ/ ١٧٥٣م) وكان مولعًا بالبناء والتشييد، فأضاف إلى رواق القبلة مقصورة جديدة للصلاة يفصل بينها وبين المقصورة الأصلية دعائم من الحجر، وترتفع عنها ثلاث درجات، وبها ثلاثة محاريب وأنشأ مئذنة لا تزال قائمة حتى الآن، وأنشأ من الناحية الشمالية الغربية المطلة حاليًا على ميدان الأزهر بابًا كبيرًا، يتكون من بابين متجاورين، عُرف باسم باب المزينين، كما استحدث بابًا جديدًا يسمى باب الصعايدة، وأنشأ بجواره مئذنة لا تزال قائمة حتى الآن، ويؤدى هذا الباب إلى رواق الصعايدة أشهر أروقة الأزهر.

وفى عهد أسرة محمد على عنى الخديوى عباس حلمى الثانى بالأزهر، فجدد المدرسة الطيبرسية، وأنشأ لها بابًا من الخارج، وأضاف إلى أروقة الأزهر رواقًا جديدًا هو الرواق العباسى نسبة إليه، وهو أحدث الأروقة وأكبرها، وافتتح فى (شوال ١٣١٥هـ/ يناير ١٨٩٧م).

وقد أدخلت الآن تجديدات على الأزهر وتحسينات على عمارته بعد حادث الزلزال الذى أصاب الجامع بأضرار بالغة فى سنة (١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م).

الأزهر جامعة

قام الأزهر بوظيفته التعليمية عقب الانتهاء من بنائه بسنوات قليلة؛ فشهد في (صفر ٣٦٥هـ/ أكتوبر ٩٧٥م) أول درس علمي، حين جلس قاضي القضاة "أبو الحسن علي بن النعمان" وقرأ في وسط حشد من الناس مختصر أبيه في فقه آل البيت، فكانت هذه أول حلقة علمية بالجامع الأزهر، ثم قام الوزير "يعقوب بن كلس" الفاطمي بتعيين جماعة من الفقهاء للتدريس بالأزهر، وجعل لهم رواتب مجزية، وأنشأ لهم دورًا للسكنى بالقرب من المسجد، وبهذا اكتسب الأزهر لأول مرة صفته العلمية باعتباره معهدًا للدراسة المنظمة.

وقد انبرى صلاح الدين الأيوبي، للقضاء على المذهب الشيعي في مصر، مؤيدا لمذهب أهل السنة فأغلق الأزهر لبضعة أشهر، حتى يتمكن من جمع الناس على مذهب أهل السنة والجماعة، فاجتذبت الشيوخ والأساتذة وطلاب العلم، مما أثر في إقبال الطلاب على الأزهر، وأصيبت الحركة العلمية فيه بالشلل، فانزوى بعد أن أهمله الأيوبيون القائمون على الحكم، غير أن تلك الفترة لم تدم كثيرًا، وسرعان ما عاد للأزهر سابق مجده منارة لتدريس الفقه والحديث والسنة النبوية، ثم جاء العصر المملوكي فاسترد الأزهر عافيته تحت قيادة علماء أجلاء، أمثال العز بن عبد السلام، واستعاد مكانته السامقة باعتباره معهدًا علميًا راقيًا، وأصبحت تدرس فيه المذاهب السنية، وانقطعت صلته بما كان يدرس فيه من قبلُ.

ولقى الأزهر عناية فائقة من سلاطين


الظواهري — محمد مصطفى المراغي

المماليك منذ عهد الظاهر بيبرس، وتوالت عليه عمليات التجديد، وإلحاق المدارس به، وظل الجامع الأزهر في العهد العثماني (٩٢٣-١٢١٣هـ/ ١٥١٧-١٧٨٩م) موضع عناية الخلفاء وولاتهم في مصر، فجُدِّد في بنائه، ووسعت مساحته، وأضيفت إليه مبانٍ جديدة، وشهد إقبالاً على الالتحاق به، فازدحم بالعلماء والدارسين، وبحلقات العلم التي لم تقتصر على العلوم الشرعية واللغوية، بل شملت أيضًا علم الهيئة والفلك والرياضيات من حساب وجبر وهندسة.

نظام التعليم بالأزهر

كان الطالب يلتحق بالأزهر بعد أن يتعلم القراءة والكتابة ومبادئ الحساب ويحفظ القرآن الكريم، دون التزام بسن معينة للطالب، ثم يتردد الطالب على حلقات العلماء ويختار منها من يريد من العلماء القائمين على التدريس، وكانوا يدرسون العلوم الشرعية من فقه وحديث وآداب وتوحيد ومنطق وعلم الكلام.

شيخ الأزهر

ولم يعرف الأزهر منصب شيخ الأزهر إلا في العهد العثماني، إذ لم يجر النظام على تعيين شيخ له، تعيينًا رسميًا، وكان المعروف

أن للأزهر ناظرًا يتولى شئونه المالية والإدارية ولا علاقة له بالنواحي العلمية، وهذا المنصب أنشئ في العصر المملوكي، وكان هذا الناظر يرأس الجهاز الإداري للجامع من الموظفين والخدم. ويكاد يجمع المؤرخون على أن أول من تقلد المشيخة في تاريخ الأزهر هو الشيخ "محمد بن عبد الله الخرشي المالكي" المتوفى سنة (١١٠١هـ/ ١٦٩٠م)، ثم توالى شيوخ الجامع الأزهر حتى يومنا هذا.

تطوير الأزهر

وظلت نظم التعليم في الأزهر تجري دون تغيير أو تطوير حتى تولى محمد علي حكم مصر، وعني بالتعليم واتبع سياسات جديدة دفعت الناس إلى الإعراض عن الأزهر، الذي انتزعت أملاكه التي كانت موقوفة عليه، فساءت أحواله، ثم ظهرت دعوات جادة لإصلاح شئونه وتطوير نظمه ومناهجه التعليمية، فصدر أول قانون في سنة (١٢٨٨هـ/ ١٨٧٢) في عهد الخديوي إسماعيل لتنظيم حصول الطلاب على الشهادة العالمية، وحدد المواد التي يُمتحن فيها الطالب بإحدى عشرة مادة دراسية شملت الفقه والأصول والحديث والتفسير والتوحيد والنحو والصرف والمعاني والبيان والبديع والمنطق.

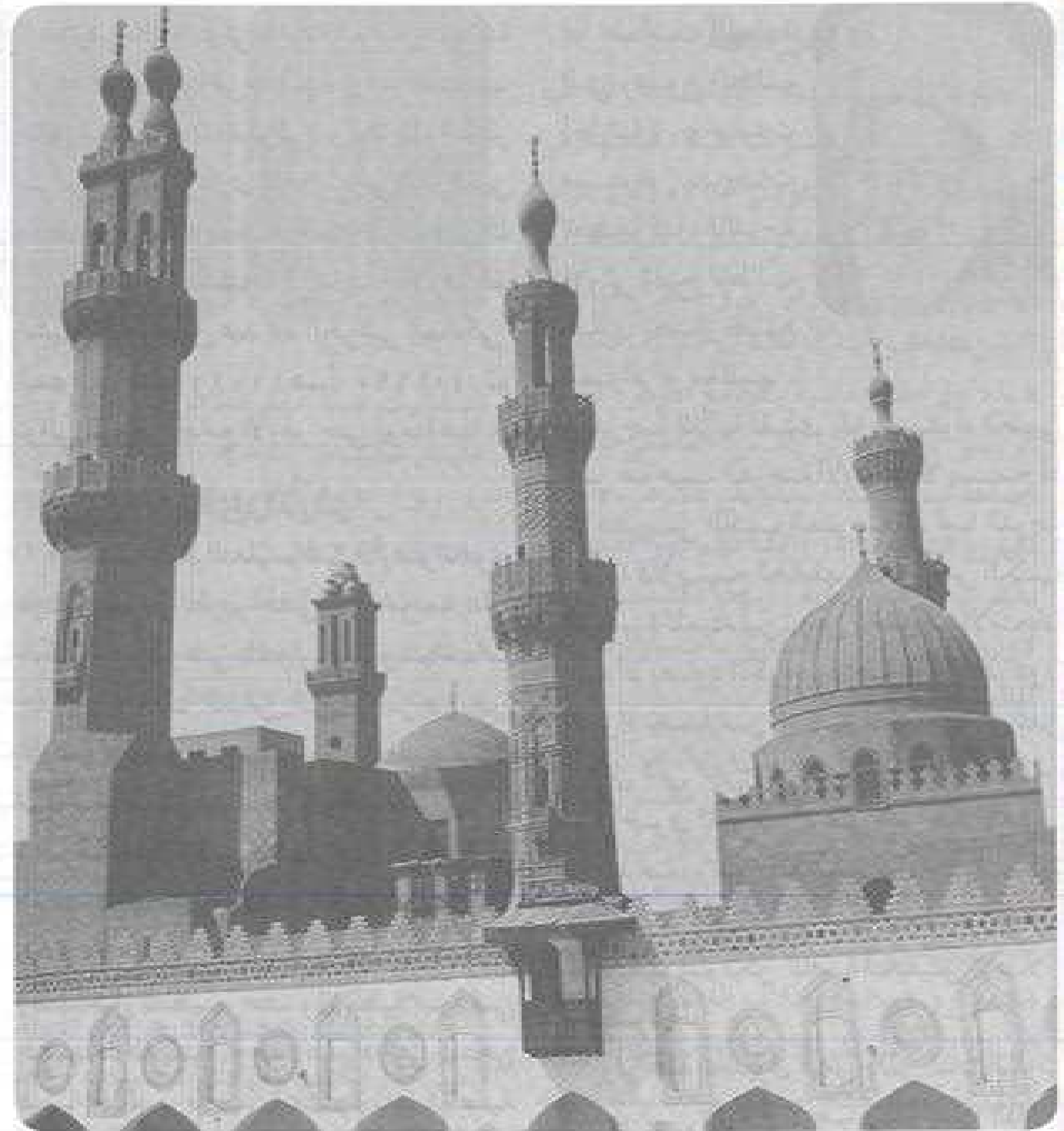
وكانت طريقة الامتحان تقوم على أن يكون الطالب في موضع المدرس، والممتحنون أعضاء اللجنة في وضع الطلبة، فيلقي الطالب درسه، ويقوم الشيوخ بمناقشته بما يلقون عليه من أسئلة في مختلف فروع العلم، وقد يستمر الامتحان لساعات طويلة لا تقطعها اللجنة إلا لتناول طعام أو لأداء الصلاة، حتى


النواوي

إذا اطمأنت اللجنة إلى رسوخ الطالب أجازته، وحددت مستواه بدرجات تعطيها لها، فالدرجة الأولى تمنح للطالب الذي يجتاز جميع المواد أو معظمها، والدرجة الثانية للذي يقل مستواه العلمي عن صاحب الدرجة الأولى، ولا يسمح له إلا بتدريس الكتب المتوسطة، أما الدرجة الثالثة فلا يُسمح لحاملها إلا بتدريس الكتب الصغيرة للمبتدئين، ومن يخفق في الامتحان فله أن يعاود الكرة مرة أخرى أو أكثر دون التزام بعدد من المحاولات، ويحق لمن حصل على الدرجة الثانية أو الثالثة أن يتقدم مرة أخرى للحصول على الدرجة الأعلى. ويعدُّ صدور هذا القانون أول خطوة عملية في تنظيم الحياة الدراسية بالجامع الأزهر، غير أنها لم تكن كافية لتحقيق الإصلاح المنشود.

وفي عهد الخديوي عباس حلمي الثاني صدرت عدة قوانين لإصلاح الأزهر؛ كان أهمها القانون الذي صدر في سنة (١٣١٤هـ/ ١٨٩٦م) في عهد الشيخ "حسونة النواوي"، وكان للشيخ محمد عبده يد طولى في صدور هذا القانون، حيث كان يقود حركة إصلاحية لتطوير الأزهر، وقد حدد القانون سن قبول التلاميذ بخمسة عشر عامًا مع ضرورة إجادة القراءة والكتابة، وحفظ القرآن وحدد أيضًا المقررات التي تُدرس بالأزهر مع إضافة طائفة جديدة من المواد تشمل الأخلاق ومصطلح الحديث والحساب والجبر والعروض

الأزهر.. أول مسجد بالقاهرة



والقافية والتاريخ الإسلامى، والإنشاء ومتن اللغة، ومبادئ الهندسة وتقويم البلدان، وأنشأ هذا القانون شهادة تسمى "الأهلية" يتقدم إليها من قضى بالأزهر ثمانى سنوات، ويحق لحاملها شغل وظائف الإمامة والخطابة بالمساجد، وشهادة أخرى تسمى "العالمية"، ويتقدم إليها من قضى بالأزهر اثنى عشر عامًا على الأقل، ويكون من حق الحاصلين عليها التدريس بالأزهر.

ظهور جماعة (هيئة) كبار العلماء

وفى سنة (١٣٣٩هـ/ ١٩١١م)، صدر القانون رقم ١ لسنة ١٩١١م وذلك فى أثناء المشيخة الثانية للإمام "سليم البشرى"، وبمقتضى هذا القانون أنشئت "هيئة كبار العلماء"، وتتكون من ثلاثين عالمًا من صفوة علماء الأزهر، واشترط فيمن ينتخب عضوًا بهذه الهيئة، ألا تكون سنّه أقل من خمسة

وأربعين عامًا، وأن يكون مضى عليه وهو مدرس بالجامع الأزهر والمعاهد الأخرى عشر سنوات على الأقل، منها أربع على الأقل فى القسم العالى، وأن يكون معروفًا بالورع والتقوى، وليس فى ماضيه ما يشينه، ثم تغير الاسم فى عهد مشيخة المراغى إلى "جماعة كبار العلماء".

ظهور الجامعة الأزهرية

وتضمنت مواد القانون السابقة زيادة مدة الدراسة بالأزهر إلى خمسة عشر عامًا، مقسمة على ثلاث مراحل، لكل منها نظام ومواد خاصة، وتوالت على هذا القانون تعديلات كان آخرها ما ظهر فى سنة (١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م) فى عهد الشيخ "محمد الأحمدى الظواهرى"، وكان خطوة كبيرة نحو استكمال الإصلاح، وجعل هذا القانون الدراسة بالأزهر أربع سنوات للمرحلة الابتدائية، وخمس سنوات للمرحلة الثانوية، وأنشأ ثلاث كليات هى: كلية أصول الدين، وكلية الشريعة، وكلية اللغة العربية.

ثم صدر القانون ١٠٣ فى (١١ من المحرم ١٣٨١هـ/ ٥ من يوليو ١٩٦١م) الذى أصبح الأزهر بمقتضاه جامعة كبرى تشتمل إلى جانب كلياته الثلاثة القديمة كليات مدنية، تضم: كلية المعاملات والإدارة، وكلية الهندسة، وكلية الطب، وكلية الزراعة، وكلية البنات التى جعلت بمنزلة جامعة للبنات تشتمل على أقسام الطب والعلوم والتجارة والدراسات الإسلامية والدراسات العربية، والدراسات الاجتماعية والنفسية.

المؤامرة على الأزهر

ويرى الدكتور محمد المختار المهدى أن المؤامرة على الأزهر كانت ولا تزال من أجل إلغائه، وفى هذا الإطار يشير إلى الاتفاقية التى أبرمت فى عام ١٩٠٦م بين "زويمر وكرومر" والتى تم على إثرها إلغاء الكتاتيب، حيث قال زويمر: إن هناك ثلاث مهمات أساسية له فى مصر:

- الأولى: إلغاء الأوقاف جميعاً وخاصة أوقاف الأزهر.
- ثانياً: إلغاء الكتاتيب.
- ثالثاً: السخرية من علماء الأزهر للنزول بمكانتهم فى نفوس الشعب.

وقد أنشأ كرومر مدارس مدنية وأجنبية للغات كبدائل للكتاتيب، كما أطلقت السخرية بالعلماء فى الأفلام والمسرحيات، ويعبر الدكتور المهدى عن تفاؤله الشديد بالقرارات التى اتخذها فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور أحمد الطيب "شيخ الأزهر الجديد" بعودة تدريس التراث فى الأزهر الشريف، مؤكداً أنه لو عاد الأزهر إلى تلك المناهج، وخفف عن الطلاب العبء الضخم من المواد العلمية، وعادت الكتاتيب مرة أخرى بحيث لا يدخل الأزهر الشريف إلا من كان حافظاً للقرآن الكريم، فإن ذلك سيعيد للأزهر علماءه النابغين كما كان فى وقت سابق، وسينهض الأزهر بالأمة، ويعيد لها أخلاقها وقيمها ومبادئها التى يحملها الإسلام العظيم كما أراد الله تعالى:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾

(آل عمران: ١١٠)

شموس في سماء الأزهر

الأستاذ الدكتور: عبد الفتاح الشيخ



إعداد / أ: سعد فتحي سعد

الأزهر شمعة أضاءت ظلام الليالى الحالكة التي مرت بالأمة الإسلامية ،وأبناؤه في ربوع الأمة الإسلامية كالنجوم، رواد حملوا العلم إلى كل أصقاع العالم .

فالأزهر أقدم جامعة إسلامية عرفها العالم منذ القرن الرابع الهجرى «العاشر الميلادى» خرّج أجيالا من العلماء والنجباء والدعاة، وما زال يمارس دوره التعليمى والفكرى والثقافى حتى الآن وقد تم هذا على يد مجموعة من رجالات الأزهر من بينهم الأستاذ الدكتور (عبد الفتاح الشيخ) الذي كان لبنة في صرح تطوير جامعة الأزهر فقد نقل جامعة الأزهر من حال إلى حال آخر .

ولـد (عبد الفتاح حسيني يوسف الشيخ) فى الثالث من ذى الحجة ١٣٥٣ هـ ،الموافق الثامن من مارس سنة ١٩٣٥م .

وكان مولده بمحافظة الغربية في قرية كتامة الغابة - مركز بسيون (حاليا) طنطا سابقا لأسرة أزهرية أصيلة عُرف أبناؤها بالعلم واتسموا بالمحافظة على الدين . فهو نجل فضيلة المرحوم العالم الجليل الأستاذ الدكتور الحسيني يوسف الشيخ ، الأستاذ بكلية الشريعة والقانون بجامعة الأزهر ومن الطريف أنه ووالده كانا يدرّسان نفس التخصص ، وأمد الله فى عمر الشيخ الحسيني ليظل هو وابنه يدرّسان معاً نفس العلوم. وجده الشيخ يوسف من كبار شيوخ الأزهر فى عهد الشيخ محمد الأحمدي الظواهرى .

التحق بعد أن شب عن الطوق بكتاب القرية لحفظ القرآن الكريم تمهيدا لالتحاقه بالأزهر الشريف بناء على رغبة جده حتى يبقى فى الأسرة من يتوارث التعليم فى الأزهر جيلا بعد جيل .

فالتحق الدكتور - رحمه الله- بمعهد طنطا عام ١٩٤٨ وحصل على الابتدائية ثم التحق بالثانوى الأزهرى وحصل على الثانوية من معهد القاهرة الدينى .

ثم التحق بكلية الشريعة والقانون وتخرج فيها بتقدير جيد جدا مع مرتبة

الشرف ثم عين معيدا فى أول دفعة تعيين معيدين فى جامعة الأزهر بعد تطوير الجامعة فى عهد الدكتور محمد البهى رئيس الجامعة عام ١٩٥٦م ، ثم حصل على الإجازة العالية فى التدريس عام ١٩٦٤ .

وحصل بعد ذلك على دبلومين الأول دبلوم الدرسات العليا فى أصول الفقه فى يناير ١٩٦٥ .

والثانى دبلوم الدراسات العليا فى تاريخ التشريع الإسلامى فى يوليو ١٩٦٦ . ثم حصل على الدكتوراه بمرتبة الشرف ثم عين مدرسا بالكلية .

وفى عهد الدكتور محمد حسن فايد رئيس الجامعة تم إسناد الإشراف له فى تدريس المواد الإسلامية لطلاب الثانوية العامة الذين كانوا يلتحقون بجامعة الأزهر ، حتى جاءت فرصة للإعارة بسبب خلاف تم بينه وبين رئيس الجامعة وقتذاك فكانت الإعارة للسعودية لمدة ٤ سنوات .

ثم أصبح مدرسا لأصول الفقه عام ١٩٧٠- وأستاذا مساعدا عام١٩٧٥- ثم أستاذا عام ١٩٧٩- ثم عمل وكيلا لكلية الشريعة والقانون بطنطا فى عام افتتاحها ١٩٧٩ .

ثم عميدا لكلية الشريعة والقانون بطنطا لمدة خمس سنوات اعتبارا من يوليو ١٩٧٩م .

وفى عهد الدكتور محمد الطيب النجار رئيس الجامعة تم إسناد عمادة الشريعة والقانون بالقاهرة له بجانب شريعة طنطا حتى كان الدكتور الطيب النجار يمازحه قائلا: يا صاحب العمادتين . وهذا اعتبارا من نوفمبر ١٩٨٢ ، ولبث فيها حتى تم تعيينه لرئاسة الجامعة عام١٩٨٧م لمدة ٨ سنوات ، ونقلها من حال إلى حال آخر .

وقد أعير إلى عدة جامعات بالخارج فقد عمل استاذا زائرا بكل من السعودية وقطر وباكستان .

النشاط العلمى :

كان - رحمه الله -عضو مجمع البحوث الإسلامية ورئيسا للجنة الفقه فى مجمع البحوث الإسلامية ، وعضو المجلس الأعلى للأزهر الشريف ، وعضو هيئة كبار العلماء .

عمل أستاذا لمادتى الفقه وأصول الفقه فى المعهد العالى للدراسات الإسلامية بالقاهرة .

شارك فى أكثر من عشرين مؤتمرا علميا فى كل من السعودية والكويت وتونس وليبيا وقطر وماليزيا .

شارك فى وضع مناهج كليات الشريعة بكل من اليمن وغزة وبروناى وماليزيا ، ومناهج القسم الإسلامى بكلية التربية جامعة قابوس بعمان .

أشرف على أكثر من ثلاثين رسالة ماجستير ودكتوراه .

● اشتهر عن الدكتور عبد الفتاح الشيخ حزمه وشدته وصرامته فى فترة إدارته للجامعة فوقف بحزم وجدية وحيادية فى وجه الفكر المغلوط والآراء المتحيزة .فقد اختط الدكتور عبد الفتاح - رحمه

الله – خطاً صارما فى إدارته للجامعة، إذ كان الكثيرون ينتقدون شدته، ويعيبون عليه حدته، لكنه لم يعبأ بهذا الانتقاد، بل كان يرى أن هناك ترديا فى الأوضاع فى الجامعة يحتاج إلى الشدة وإلى إنفاذ القوانين واللوائح على الكافة دون خشية من حاكم أو سلطان، ودون النظر إلى محب أو كاره، فيما يتخذه من قرارات.

وقد اتفق الجميع أن الرجل ترك بصمات واضحة فى إدارة جامعة الأزهر ساعدت على تحقيق ما كان يصبو إليه من رُقى بأحوال الجامعة وفى جعلها تتبوأ مكانتها اللائق بها بين الجامعات الإسلامية من ناحية وبين الجامعات الدولية من ناحية أخرى، كما كان له دوره الفاعل فى نقل رابطة الجامعات الإسلامية من مدينة القرويين إلى مدينة القاهرة.

عاشت الجامعة عصرها الذهبى فى فترة ولايته، فقد اعتاد أن يأتى الجامعة فور أن يستيقظ مبكراً، ويتفقد مرافق الجامعة ومبانيها، ويطمئن بنفسه على حُسن قيام كل بواجباته، ويعلم الجميع أنه لم يكن يؤخر طلباً أو مصلحة لأحد، ولا شك أن نشاطه الإدارى على وجه الخصوص قد أوجد روحا جديدة لدى العاملين بالجامعة، فلم يكن يسمح لأحد أن يتهاون فى أداء عمله أو يقصر فيما عليه من واجبات.

يقول الدكتور جعفر عبد السلام نائب رئيس الجامعة ومدير المركز الاقتصادى الإسلامى بالجامعة فى عهده: عاشرته فترة ليست بالقصيرة كنت قريباً جداً منه فى كل ما كان يتخذه من قرارات وتوصيات، وكان الله أمامه فى كل ما يقوم به من أعمال.

وتقول الدكتورة آمنة نصير عميدة كلية الدراسات الإسلامية بالإسكندرية سابقا، إن الشيخ كان له السبق فى إنشاء كلية الدراسات الإسلامية بالإسكندرية والتى كانت مجرد معسكر صيفى للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، استأجرته الجامعة، وقالت: وبمجرد مخاطبة الدكتور عبد الفتاح تم تشييد المبنى وإعداده ليواكب التطوير فى مختلف المحافظات.

فتاواه

● للشيخ فتاويه المشهورة بالوسطية والاعتدال المنطلقة من علم ثاقب ودراية بأحوال الزمان والمكان. فقد أدلى بدلوه فى الجدل الواقع فى منع النقاب وهل هو عادة أم فريضة إسلامية؟

قال: من الفقهاء من اعتبروا أن النقاب غير واجب إلا أنهم اعتبروه فضيلة من الفضائل أى أن حكم النقاب يدور بين كونه واجبا أو فضيلة، وأن الفضائل لا يجوز منع الإنسان من فعلها بعكس الرذائل التى من الواجب منعها لذلك يصبح من الأولى منع السفور والعرى وليس منع النقاب.

وقال فى حكم صلاة العيد للمرأة فى الخلاء:

صلاة المرأة فى بيتها أفضل من صلاتها فى المسجد فى الأعياد، لكن

صلاتها بالمسجد غير منهى عنها، لكن قد تكون ملابس المرأة ملفتة للنظر ومثيرة للفتنة ومن شأنها صرف المصلين الرجال عن أداء الصلاة، فلابد أن تتوفر شروط معينة إذا خرجت المرأة للصلاة فى المسجد وهى أن تكون ملابسها فضفاضة ومحتشمة وأن تكون فى الصفوف الخلفية وأن يكون هناك ساتر بينها وبين الرجال حتى إذا سجدت فلا يرى الرجل عوراتها، وأنهى السيدات عن الخروج لصلاة العيد فى الخلاء لأن فى سجودهن وركوعهن محل فتنة، كما أنه لايوجد ساتر بينها وبين الرجال فى الصلاة بالإضافة إلى المارة العابرين بالشوارع يرونها تركع وتسجد.

مؤلفاته:

أثرى الراحل رحمه الله المكتبة العربية والإسلامية بالعديد من المؤلفات فى علم أصول الفقه المنطلقة من المدرسة الوسطية فى الإسلام فمنها:

١. تعليل الأحكام وأثره فى الفقه الإسلامى.
٢. دراسات فى أصول الفقه.
٣. دراسة مقارنة قائمة على الاستقصاء للفروع العقائدية والفقهية.
٤. الإجماع مصدر ثالث من مصادر التشريع الإسلامى.
٥. بحوث فى أصول الفقه.
٦. تارخ التشريع الإسلامى.
٧. فقه العبادات.
٨. الماء والصحة فى الإسلام – ترجمته الأمم المتحدة بلغات مختلفة لتوزيعه فى أنحاء العالم.
٩. بحوث فى الفقه الإسلامى.
١٠. الإكراه وأثره فى الأحكام الشرعية.
١١. النظريات العامة فى العقد.

● حرص الشيخ -رحمه الله- فى أسلوبه أن يكون سهلاً واضحاً ويلاحظ هذا بوضوح فى مؤلفاته فهو يلجأ إلى تفسير المصطلحات الغريبة أو الألفاظ الصعبة أو المصطلحات الفقهية التى لا يدركها عامة القراء. أسلوبه دقيق مركز وخال من اللغو أو الزخارف والحشو، وكتابته بسيطة واضحة مفهومة.

وقال الدكتور جعفر عبد السلام الأمين العام لرابطة الجامعات الإسلامية فيه:

لقد أثرى الراحل رحمه الله المكتبة العربية والإسلامية بالعديد من المؤلفات المتفردة فى علم أصول الفقه، ستظل منهلا للأساتذة والباحثين فى الأجيال القادمة.. ولقد كان مصابنا أليما فى هذا البطل المغوار، الذى ما خاف يوما فى الحق لومة لائم، والذى ظل يعمل ويعمل طوال حياته منتهجا نهج العلماء المستنيرين الكبار، ومنطلقا من المدرسة الوسطية فى الإسلام.

وقد وارى جثمانه الثرى إلى جوار ربه الرحيم يوم الأحد ٢ من ذى القعدة ١٤٣٤ هـ – ٨ سبتمبر ٢٠١٣م. عن عمر ناهز ٧٨ عاما، رحم الله الشيخ الجليل رحمة واسعة وتغمده وأسكنه فسيح جناته، ونفعنا الله جميعا بعلمه.

خميلة الشعر



للأستاذ/ محمد عبدالوهاب

يا بلدي يا زهرة الأهرام والمعابد
آمنت من فجر الزمان بالإله الواحد
يا آية الإيمان يا عالية المساجد
أفديك يا حبيبتي من عين كل حاسد
وما أجلَّ المُفتدي وما أقلَّ المُفتدي
وخيرُ ما أشدو به: أني أحبُّ بلدي
(صالح جودت)

منذ سنوات قليلة مضت، ظهرت قنوات تليفزيونية تخصصت في بثّ برامج عن الدين الإسلامي، وهذا أمرٌ لا غُبار عليه، بل أراهُ ضروريًا، ولكن بعض تلك القنوات والبرامج، أخذت نهج التشدُّد والغلو، وأفرطت في عرض آراء شديدة التعصُّب، بغير سماحة ولا هُدي، لأشخاص لا ينتمون للوسطية بالأزهر الشريف، مما أضاع الفائدة المرجوة وساهم في نشر التطرف بين العامة حتي راح بعضُهم يكفِّرُ بعضًا.

إنَّ أقسي ما مُنيت به الأمة الإسلامية، هو تحوّل النقاش والحوار الرزين الهادئ والبنّاء، والواجب توافره في مثل تلك البرامج التليفزيونية، إلي جدل مفرط انحرف عن الجادة، فظهرت النفوس، وتعالت الرءوس، واختفت الحقيقة بين ظلام النفوس وكثرة الرءوس التي لا تعني إلا سيطرة العناد واللجج، ومحبة الإفحام وإثبات الغلبة والمهارة، وإذا جاز أن يظهر المرء براعته في الحجاج والنقاش للبرهنة علي صدق عقيدته ودينه أمام من لا يدين بهذا الدين، فكيف يجوز للمرء إشعار أخيه المسلم الذي يشاركه عقيدته بأنه مغلوب مهزوم مفحم، وهل ينفعه مثل هذا الشعور في تقدمه في حياته؟

إن الإجابة بالنفي قطعًا، فالروح الإسلامية تنزع إلي هداية الحيران وإرشاد الضال وإقالة المتعثّر وبسط جناح الرحمة والإحسان لشد الناس إلي ربّهم، وجذبهم إلي مناط سعادتهم، بل إننا لنري أن الهُدي المُحمّدي- وهو عنوان رحمة الله العامة- أرانا أدبهُ #، وعُمق صدقه وعطفه ورحمته بالناس أملاً في كسبهم إلي بارئهم، فهو يخاطب مخالفي دينه، ومكذبي دعوته خطابًا يستل منهم كل سلاح للعناد، ويقطع عنهم كل عذر عن عدم إجابة الدعوة، وذلك بإشعارهم أنهم والنبي سواءٌ في نشدانهم للحقيقة، وأن أحد الطرفين- ولا شك- مُحقّ، والآخر بلا ريب مبطل، والمُرادُ معرفة أيّ الطرفين علي هُدي وأيهما علي ضلال، إن هذا يتم مع صدق يقينه صلوات الله وسلامه عليه بأنه علي الهُدى وأنَّ الآخرين على ضلال، ومع ذلك يقول فيما يسجله القرآن كنموذج ومثل أعلى يُحتذى في كسب الخصوم أو إسقاط حُجَجهم

﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾

(سبأ: ٢٤)

ولو تأملتَ التقسيم الرائع والدقة المُتناهية في العبارة، تُدرك أبعاد هذه الإشارة المُعجزة.

إنَّ هذه الروح السمحة لا تألف هذا الجو الخانق الذي تثيره أبخرة هؤلاء- من مدّعي العلم- الذين نصَّبوا من أنفسهم رُقباء على العباد، وفاتهم أول درس إسلامي في مسئولية الذات، ولقد استشرى هذا الداء، حتى انقلب المجتمع الإسلامي إلى فئات وفرَق ومذاهب وشيع، يُكفِّرُ بعضُها بعضًا ويلعنُ بعضها بعضًا، هذا وإني لا أرى سببًا وجيهًا يحمل البعض على أن يكوِّنوا لأنفسهم موقفًا مُتحجرًا لا يقبل التعديل أو التطوير، كما لا أرى وجاهة علميّة، ولا تقديرًا لواجبات الأمانة أن يتحكم هؤلاء بأفكارهم وتعصُّبهم على مجتمع بأكمله.

هذا ولعله قد أصبح من المحتمل- بل من الضروري- أن نلقي ضوءًا علي جوانب اللقاء بين الفئات المتضادة فكريا، بدلاً من أن تعمّق الهوّة فيما بينهم، أو نميل إلى الدعة، دون أن يكون لنا دور إيجابي، مهما كان حجمه، في إيجاد مناخ فكرى مشترك يُجمّعُ ولا يُفرّق، لنخرج من ذلك بحصيلة منقاة تُشكل إطارًا فكريا موحّدًا ومُوحِّدًا يسيغه المسلم المُعاصرُ، وهذا يدفعنا إلى التوجُّه للعلماء الأجلاء الراسخين في علوم الدين الإسلامي، كي يُخلصوا التراث الديني من بواعث الفرقة والتشرذم، والعمل على تنقيته مما أُضيف لأصله النقي عبر عصور ظلام مدلهم ليست بالقليلة، من أوشاب وأدران وشوائب، هي ليست في جوهر الدين، ولكنه ابتلي بها كي تعيق ائتلاف القلوب المسلمة، بل وتبعث على تنافرها وتنازعها، الذى قد يصل لدرجة اقتتالها، بينما الدين الإسلامي في جوهره وحقيقته، يبقى دائما هو الداعي إلى السلم والسلام للدنيا بأسرها.

هذا وتستهل قصائد هذا العدد بقصيدة جميلة، رقيقة، يحق لنا أن نطلق عليها عبارة: السهل الممتنع، تتجلى فيها مشاعر إيمانية عميقة، وتشع عبر أبياتها المُعبِّرة نبضات قلب شاعر، لتضيء للإنسان شمعة تؤنسه في ليله المدلهِم، وتعطيه الأمل في بزوغ فجرٍ جديد.

تسبيحة

للشاعر الكبير محمود حسن إسماعيل

على الأرض نورٌ.. وفي الأرض نورٌ
وفي كل قلبٍ شعاعٌ يدورْ
ولحنٌ يُسبّحُ طيَّ الصدورْ
ويستغفر الله من كل ذنبْ
ويدعوك يارب.. أنت المُلبّي
ولبّيْك! أنت الرحيم الغفورْ

إلهي.. تباركتَ ربَّ السماءْ
مع الليل تبعث فجرَ الضياءْ
وتفتحُ لليأسِ بابَ الرجاءْ
وما خابَ من ظللتهُ يداكْ
ولا ضلَّ في خطوه من دعاكْ
فأنتَ السميعُ لهمس الدعاءْ

لك المُلكُ والحمدُ، أنت النصيرُ
وأنت الأمانُ لمن يستجيرُ
وأنت لمن قال: يارَبِّ.. نورٌ
تَرُدُّ السكينةَ للحائرين
وتَسكبُ للروحِ نورَ اليقينْ
وتمحو الأسى من ظلامِ الصدورْ..
إلهي دعوتُكَ! فاقبلْ دُعائي
وناديتُ: يارَبِّ.. فاسمعْ ندائي
ومَنْ غيرُ بابكَ يُحيِي رجائي؟
فامضي إلى النورِ خلفَ الحجابِ
صلاةً تغنّي بقدسِ الضياءِ
بجنبيَّ طيرٌ غريبُ الجناحِ

يُغنّي، وتُصغي إليه جراحي
ويبسطُ كفَّيه عند الصباحِ
إلهي أعنّي، وباركْ صلاتي
وبالعفو طهِّرْ خُطى معصياتي
وبالنورِ يارَبِّ أنعشْ جناحي
إلهي.. ومالي دُعاءٌ سواكا
ولا لي مع الليلِ إلا ضياكا
ولا عونَ للروحِ إلا يداكا
إذا رفرفتْ كنتَ سرَّ الدعاءِ
وإنْ هتفتْ كُنتَ نورَ الرجاءِ
فما لي، ولا مُجيرٌ، عداكا

وهذه قصيدة أخرى تخاطب الذين اختلفوا ما بين مائل إلى القديم، وداع للحداثة، فنرى الشاعر يحاول من خلال أبيات قصيدته أن يقرب بين الفريقين، وأن يضع حلولا يراها قد تزيل الخصام وتعيد الوئام.

الطريق السوى

شعر فضيلة الشيخ عبد الغفّار الدلاش

أين الطريقُ الحقُ للإنصافِ
والناسُ في شَغَبٍ وفي إسفافِ؟
يتعصّبونَ إلى القديمِ بحالهِ
ويُقدّسونَ مآثرَ الأسلافِ!
ويقولُ قائلُهم: على آثارِهم
نمشي، بكلِ الصدقِ والإلحافِ
ويقولُ أصحابُ الجديدِ: فما لنا
إلا ديارُ ثمودَ، والأحقافِ
إنْ كانت الدنيا تظلُ بحالِها
لن نستطيعَ حياةَ عيشِ كفافِ

***

يا معشرَ الأحبابِ لا تتفرّقوا
شيَعًا، ولا تتأثّروا بخلافِ
فالغربُ يسعى أنْ يكونَ مُوحَّدًا
ويُقدّمَ التمهيدَ بالأحلافِ

حتّامَ نستجدي ضرورةَ عيشنا
نسعَى بلا أملٍ، ولا أهدافِ
والآمُ تجمدُ والصراعُ مُحتّمٌ
والناسُ في سبقٍ وفي استكشافِ؟
وإلى متى ترعَى الخلافَ وغيرُنا
يحيَا حياةَ الجدِّ، والإيلافِ؟
والعلمُ كالبحرِ المُحيطِ وكم به
مِنْ لؤلؤٍ حُرٍّ، ومِنْ أصدافِ
تَتكشّفُ الأعماقُ عن آياتها
بالجِدِّ والمسعَى وبالتطوافِ
والقوةُ الكُبرَى تُحقّقُ ذاتَها
بالعدلِ، أو بالظلمِ والإجحافِ
مَن قالَ: إنّ الدينَ يأمرُ آلَهُ
بتحجُّرِ الأذهانِ والأطرافِ؟

الدينُ نورُ اللهِ في أعماقنا
في كلِ روحٍ مُخلصٍ شفّافِ
الدينُ وحيٌ عقيدةٌ وشريعةٌ
خيرٌ على الأسلافِ والأخلافِ
ولَكُم شئونُ حياتكم أنتم بها
أدرى بلا شُحٍّ، ولا إسرافِ!
تتعاونونَ بكلِ إمكاناتكم
مُتكاملين بكُلِ جهدٍ وافِ
ما كانَ وادي النيلِ إلا وحدةً
لم تنفصمْ منها عُرَى الإنصافِ
جَرسُ الكنيسةِ في أذانِ منارةٍ
رمزُ التسامحِ والودادِ الصافي
ولنا مع الأيامِ ودٌّ خالصٌ
ماضٍ مِنَ الأزمانِ والأعرافِ

للجارِ حقٌ لا يقلُّ شأنُهُ
فوقَ المدائنِ أو على الأريافِ
ومن المدارسِ منهلٌ لذوي الحجى
والجامعاتِ بلا مدى، ومشافي
لم يبقَ بعدُ مقالةٌ من كائدٍ
أو مِنْ مُدبِّرِ خطةِ استنزافِ
لا تتركوا الشيطانَ يسعَى بينكم
بالسوءِ والإفسادِ والإرجافِ
ما أطيبَ الودَّ الرفيعَ كأنّهُ
عطرُ الورودِ على أحبِ ضفافِ
فتحصّنوا بالصالحاتِ فما لكُم
إلا حصونُ مودةٍ وعفافِ
أفلا نعي درسَ الحياةِ ونتّقي
أمْ أنّ هذا الدرسَ ليسَ بكافِ

البهاء زهير.. شاعر السهل الممتنع

ولد البهاء زهير في الحجاز سنة ٥٨١ هجرية في وادي نخلة قرب مكة، واسمه أبو الفضل زهير بن محمد بن علي بن يحيى ابن الحسن بن جعفر بن منصور بن عاصم المهلبي الأزدي، وقد نزحت أسرته إلى مصر وهو طفل صغير لم يتم تعليمه، وأقامت في مدينة قوص..

قال من البسيط قافية المتواتر:

دعوا الوشاةَ وما قالوا وما نقلوا
بيني وبينكمُ ما ليسَ ينفصِلُ
لكمْ سرائرُ في قلبي مُخبّأةٌ
لا الكتبُ تنفعني فيها ولا الرُّسُلُ
وأستلذُّ نسيمًا من ديارِكُمُ
كأنَّ أنفاسَه من نشرِكُمْ قُبَلُ
قضيّتي في الهوى واللهِ مُشكلةٌ
ما القولُ، ما الرأيُ، ما التدبيرُ، ما العملُ؟
يزدادُ شعري حُسنًا حينَ أذكرُكُمْ
إنَّ المليحةَ فيها يَحسُنُ الغَزَلُ

يا غائبينَ وفي قلبي أُشاهدُهُمْ
وكُلّما انفصلوا عن ناظري اتّصلوا
قد جدّدَ البعدُ قُربًا في الفؤادِ لهُم
حتّى كأنّهُم يومَ النوى وَصَلوا
أنا الوفيُّ لأحبابي وإنْ غدروا
أنا المُقيمُ على عهدي وإنْ رَحلوا
فالناسُ بالناسِ والدُّنيا مكافأةٌ
والخيرُ يُشكرُ والأخبارُ تنتقلُ
والمرءُ يحتالُ إنْ عزّتْ مطالبُهُ
ورُبّما نفعتْ أربابَها الحِيَلُ

يا مَنْ كلامي له إنْ كان يَسْمعُهُ
يجد كلامًا على ما شاء يشتمِلُ
تَغَزُّلاً تخلبُ الألبابَ رِقَّتُـهُ
مضمونُه حكمةٌ غرَّاءُ أوْ مَثَلُ
إنَّ المليحةَ تُغْنيها ملاحَتُهَا
لا سِيَّمَا وعليها الحَلْيُ والحُلَلُ
دَعِ التَّواني في أمرٍ هَمَمْتَ بِـهِ
فإنَّ صَرْفَ اللَّيالي سابقٌ عَجِلُ
ضَيَّعت عُمْرَكَ فاحزَنْ إنْ فَطِنْتَ لَهُ
فالعمْرُ لا عِوَضٌ عنهُ ولا بَدَلُ
سابقْ زَمَانَكَ خَوفًا مِنْ تَقَلُّبِه
فكَمْ تَقَلَّبتِ الأيَّامُ والدُّوَلُ
واعزم متى شئتَ فالأوقاتُ واحدةٌ
لا الرَّيْثُ يدفعُ مَقْدُورًا ولا العَجَلُ
لا تَرقُبِ النجمَ في أمرٍ تُحاولُـهُ
فاللهُ يفعلُ، لا جَدْيٌ ولا حَمَلُ
الأمرُ أعظَمُ والأفكارُ حائـرةٌ
والشرعُ يَصدُقُ والإنسانُ يَمْتَثِلُ

قال من مجزوء الوافر، قافية المتراكب:

أرى قومًا بُليتُ بِهِم
نَصيبي منهمُ نَصَبي
فمنهم مَنْ يُنافِقُني
فيحلفُ لي ويكذِبُ بي
ويُلزمُني بتصديقِ الـ
ـذي قد قال مَنْ كَذِبِ
وذو عَجَبٍ إذا حدَّثْـ
ـتَ عنهُ جِئتُ بالعَجَبِ
وما يدري بحمدِ اللـ
ـهِ ما شَعبانُ مِنْ رَجَبِ
وما أبصرتُ أحمقَ منـ
ـهُ في عَجَمٍ ولا عَرَبِ
وأحمقَ قد شَجيتُ بِهِ
بلا عقلٍ ولا أدَبِ
فلا ينفكُّ يَتْبَعُني
وإنْ أمعنتُ في الهَرَبِ
كأنِّي قد قتلتُ لـهُ
قتيلاً، وهو في طَلَبي
لأمرٍ ما صَحِبْتُهُمُ
فلا تسألْ عن السَّبَبِ
وَحَسِبْنَ عقلَنا أنَّا
نَصيدُ البازَ بالخَرَبِ(١)
وكُنَّا قد ظَنَنَّا الصُّفْـ
ـرَ عندَ النَّقْدِ كالذهبِ(٢)
فلَمْ تظفرْ بحاجتِنا
وأشفينا على العَطَبِ
رجعْنا مثلَ ما رُحْنا
ولَمْ نَربَحْ سِوى التَّعَبِ

بعضُ حقِّه التعظيمُ

للشاعر/ مصطفى عكرمة

كلُّ ما قلتَ أو فعلتَ عظيمُ — شاءكَ اللهُ منذِرًا وبشيرًا
يا رسولاً بكلِّ روحٍ رحيمُ — جلَّ ما شاءهُ العليمُ الحكيمُ

(١) الباز والبازي: نوعٌ من الصقور يستعمل في الصيد، والخرب: ذكر الحبارى وهو طائر طويل العنق، رمادي اللون، في منقاره طول، ومن شأنه أن يُصاد لا أن يصيد.
(٢) الصفر: النحاس.

كرَّمَ اللهُ يومَ جئتَ البرايا
مثلَهُ الدهرُ لم يكنْ تكريمُ
والسمواتُ رحَّبتْ بكَ، والأرْ
ضُ تَشهَّتْ سنا ثراها النجومُ
كلُّ شيءٍ يُسبِّحُ اللهَ أمسى
لكَ منهُ الصَّلاةُ، والتسليمُ
أوَمَا لاسمكَ المحبَّبِ ذكرٌ
كلَّما يُذكرُ المعزُّ العليمُ
وبنطقِ الشهادتينِ يُرجّي
أنْ ينالَ الغفرانَ عاصٍ أثيمُ
فلأنتَ الذي اصطفاكَ حبيبًا
أنتَ في ذكرِهِ "رؤوفٌ رحيمٌ"
قدرُكَ القدرُ عندَه لا يُداني
وهو قدرٌ على الزمانِ يدومُ
ولدى الحشرِ ما سواكَ شفيعٌ
حينَ يغشى كلَّ الوجوهِ الوجومُ
أنتَ من أكرمِ الجدودِ تنقَّلْـ
ـتَ، فأنتَ المُطَهَّرُ المعصومُ
وتقلَّبتَ في الحياةِ يتيمًا
حسبُ كلِّ الأيتامِ أنتَ اليتيمُ
لمْ تحِدْ عن حميدِ خُلْقكَ آنًا
أوَمَا اللهُ قالَ عنكَ "عظيمٌ"!
لمْ يضِرْ يُتمكَ المُقدَّرُ ضُرٌّ
فبهِ أنتَ راحمٌ مرحومُ
كنتَ طفلاً وما عدَتْكَ خصالٌ
أنتَ فيهنَّ وحدَكَ الموسومُ
قُدْوةً شاءَ أنْ تكونَ على الدهرِ
بنهجٍ صراطُهُ مستقيمُ
قبلَكَ اللهُ كمْ أقامَ نبيًّا
لأناسٍ زمانُهم معلومُ!
وانتهى عهدُهم وجئتَ بشرعٍ
قدَّرَ اللهُ أنَّهُ سيدومُ
صالحًا مُصلِحًا لكلِّ زمانٍ
فهوَ في لوحِ ربِّكَ المرقومُ
شَمِلَ الخلقَ من فؤادِكَ حبٌّ
يستوي فيه، ظاعنٌ ومقيمُ
وتساوى بالعدلِ عندكَ آلٌ
ولهُ ارتاحَ واطمأنَّ الخصومُ
حكمةٌ منهُ قد أتيتَ عظيمًا
حقُّهُ... بعضُ حقِّهِ التعظيمُ
كلُّ شيءٍ يقولُ أنتَ رسولٌ
دلَّ عنهُ أنَّ الرضاعَ فطيمُ
أوَمَا أخصبتْ ديارُ بني سعدٍ
فأمستْ، بالنُّعمياتِ تعومُ!
وجهُكَ السَّمحُ حينَ هلَّ عليها
حسبَ الناسُ أنْ سقتها الغيومُ
كلُّ فقرٍ عبرتَهُ فاضَ ظلاً
وبهِ الخيرُ وافرٌ، وعميمُ
كلُّ خُلْفٍ إذا حكمتَ صلاحٌ
كلُّ وجهٍ إذا التقاكَ وسيمُ
كنتَ قبلَ النبوَّةِ الفردَ صدقًا
قالَها عنكَ منصفٌ ولئيمُ
وبها أنتَ رحمةٌ للبرايا
ما سواها عزُّ الزمانِ يرومُ
وأتتْ معجزاتُ ربِّكَ تترى
طابَ منها لمَنْ هُدوا التسليمُ
ولكَ اللهُ قدْ تخيَّرَ صَحْبًا
من بهم شرعُكَ الحنيفُ يقومُ
لن يرى الدهرُ مثلَهم منْ هُداةٍ
قالَ عنهمْ عيسى، وقالَ الكليمُ
خُشَّعٌ، رُكَّعٌ إذا جنَّ ليلٌ
وتباهى بما أجادوا العلومُ
حملوا رايةَ الجهادِ لفتحٍ
ألغيتْ فيهِ للطغاةِ التخومُ

أينما حلَّ ركبهمْ كانَ نصرٌ
دونه كلُّ ما ادَّعى التنجيمُ
نالَ منه الأنامُ كلَّ نعيم
لمْ يكن مثلهُ قديما نعيمُ

***

يا رسولاً للحقِّ أرسى نظاما
بكَ تنجابُ ما ذكرْتَ الهمومُ
جئتَ بالحُبِّ والتسامح والعد
ل بشيراً فما اشتكى مظلومُ
كلُّ ما كانَ حكمةً لكَ يُنمى
وبه أنتَ للزمانِ الحكيمُ

***

يا رسولَ الأنامِ ماذا تراني
قائلاً فيكَ والكلامُ سقيمٌ!
لمْ يَعُدْ يبعثُ الجهادَ نذيرٌ
رغمَ أنَّ الردى علينا تحومُ
ها همْ الناسُ بعد هديكَ ضلُّوا
وغدا الحقُّ ما يشاءُ الظلومُ
وبكَ اليوم قد رجوتُ إلهي
علَّها تنقضي الليالي الحسومُ
ما سوى شرعكَ الحنيفِ يُرجى
لزمانٍ قد حارَ فيه الحليمُ
شهدَ اللهُ، والمحامدُ تُنبي
أنما نهجُكَ السبيلُ القويمُ
ساعةً لو وعاهُ من ضلَّ عنهُ
ما تشكَّى من حاكمٍ محكومُ
وأولو الحربِ لو هُدوا لتلاقَوْا
كحميمٍ قد غابَ عنهُ حميمُ
فإذا الخصمُ للخصومِ حبيبٌ
وسوى الخيرِ ساعةً لا يرومُ
وإذا الأرضُ بالسَّلامِ جنانٌ
ليسَ فيها من نعمةٍ محرومُ
هكذا اللهُ شاءَ شرعكَ منجىً
يا رسولاً بكلِّ روحٍ رحيمٌ

تألق النصر

للشاعر على الجارم

نظمها بعد انتصار الجيش المصرى العظيم على المحتل الصهيونى - إسرائيل -

تألق النصر فاهتزت عوالينا … واستقبلت موكب البشرى قوافينا
غنى لنا السيف فى الأعناق أغنية … عزت على الأيك إيقاعًا وتلحينا
هزته كف من الفولاذ قبضتها … فى الهول ما عرفت رفقًا ولا لينا
من صخر خوفو لها دون الورى عضل … جرى به دم عدنان شرايينا
نفسى فدى الفارس المصرى إن خطرت … به المواكب أو خاض الميادينا
تلقاه فى السلم ماء رف سلسله … وفى الحروب إذا ما ثار آتونا
يرى الدماء عقيقًا سال جامده … ويحسب النقع فيها مسك دارينا
ما بين عمرو ومينا زانه نسب … فمن كآبائه عزًا فراعينا
سل مصر عنهم سل التاريخ إن به … سرًا من المجد لا ينفك مكنونا
سيوفهم كن للطغيان ماحقة … وعدلهم كان للدنيا موازينا

وجيشهم هزت الدنيا كتائبه … وحكمهم ملأ الآفاق تمدينا
إنا بنى الأسد أمضى مخلبًا ويدًا … لدى الصراع وأحمى الناس عرينا
إذا دعا الحق لبته جحافلنا … وإن سطا الجور ردته مواضينا
عشنا أعزاء ملء الأرض ما لمست … جباهنا تربها إلا مصلينا
لا ينزل النصر إلا فوق رايتنا … ولا تمس الظبا إلا نواصينا
أليس من أحجيات الدهر قبرة … رعناء تزحم فى الوكر الشواهينا
وتائه ما له دار ولا وطن … يسطو على دارنا قسرًا ويقصينا
فيا جبال اقذفى الأحجار من حمم … ويا سماء امطرى مهلا وغسلينا
ويا كواكب آن الرجم فانطلقى … ما أنت إن أنت لم ترم الشياطينا
ويا بحار اجعلى الماء الأجاج دمًا … إذا علت راية يومًا لصهيونا
العهد عندهم خلق ومجحدة … فما رأيناهم إلا مرائينا
قلب العروبة إن تطعنه زعنفة … كنا لها ولأشقاها طواغيتا
وقلعة الشرق إن مست جوانبها … خضنا لها جثث القتلى مجانينا
وأسطر من تواريخ مخلدة … كانت لمجد بنى الفصحى عناوينا
فقبلوا ترب حطين فإن به … دم البطولة من أيام حطينا
أرض بذلنا بها الأرواح غالية … داعين لله فيها أو ملبينا
ومسجد نزل المختار ساحته … نموت فيه ونحيا مستميتينا
أترتضى أن ترى ميراثنا بددًا … وتكتفى بدموع فى مآقينا
بنى العروبة هذا اليوم يومكم … سيروا إلى الموت إن الموت يحيينا
وخلقوا للعلا وللمجد خالدة … تبقى حديث الليالى فى ذرارينا
لقد صدئنا ودون الغمد منفسح … فجردوا حد ماضينا لآتينا
وقربوهم قرابينا محورة … للسيف إن يرض هاتيك القرابينا
ماذا إذا ما فقدنا إرث أمتنا … وما الذى بعده يبقى بأيدينا
ذودوا كما يدفع الضرغام فى غضب … عن العرين أباة شمرينا
يا جيش مصر ولا آلوك تهنئة … حققت ظن الليالى والمنى فينا
وصلت آخر علياتنا بأولها … فما أواخرنا إلا أوالينا
أعدتها وثبة بدرية صرعت … دهاة جيش يهوذا والدهاقينا
شجاعة مزقت أحلام ساستهم … وعلمت مترفيهم كيف يصحونا
تسير من ظفر حلو إلى ظفر … مبارك الفتح والرايات ميمونا
فيك الملائك أجناد مسومة … أعلامها تتهادى حول جيرينا
وفيك من مهجات النيل ناشئة … فيها مطامحنا فيها أمانينا
يمشون للموت فى شوق وفى جذل … لأنهم فى ظلال الله يمشونا
إن شك فى عزمة المصرى مختبل … فبين فتياننا يلقى البراهينا
لا يستطيع خيال وصف جرأتهم … ويعجز الشعر تصويرا وتلوينا
هم رياحين مصر نضرة وشذا … لا أذبل الله هاتيك الرياحينا
صان الإله لجيش الشرق عزته … وصان أبطاله الغر الميامينا

قراءة فى كتاب

يتميز الاقتصاد الإسلامي من غيره من الاقتصاديات الوضعية، بأنه يقوم على أصول ثابتة وردت نصوصها فى الكتاب والسنة، وهذه النصوص تكفل الكرامة الإنسانية والعدالة الاجتماعية، وقد حاول الكثير من المفكرين الإسلاميين ورجال الاقتصاد الكشف عن أصول الاقتصاد الإسلامي والتعبير عنها بلغة اليوم، وكان للأستاذ الدكتور شوقى الفنجرى وكيل مجلس الدولة المصرى الأسبق وأستاذ الاقتصاد الإسلامي محاولة طيبة فى هذا المجال وقد قدم لمجلة الأزهر دراسة فى هذا الصدد تحت عنوان «ذاتية السياسة الاقتصادية الإسلامية وأهمية الاقتصاد الإسلامي»، نشرت هدية لمجلة الأزهر لشهر جمادى الأولى ١٤٢٤ هـ ويخلص فى تلك الدراسة إلى أن مرد المشكلة أنه لا توجد عندنا بكفاية علماء متخصصين فى الاقتصاد الإسلامي، وأن اقتصاديينا الفنيين تعوزهم الدراسة الإسلامية العميقة.

من أجل ذلك كان اختيارنا لهذا الكتاب: «المسلم فى عالم الاقتصاد» للمفكر الكبير مالك بن نبي.

مؤلف الكتاب:

مالك بن نبي، مفكر إسلامي بارز، ولد فى مدينة قسنطينة بالجزائر عام ١٣٢٣هـ: ١٩٠٥م. درس القضاء بالمعهد الإسلامي المختلط، ثم انتقل إلى باريس وهناك أصدر عدة كتب بالفرنسية، ثم لجأ إلى القاهرة عام ١٩٥٦م، فأقام بها، وأصدر فيها عددًا من الكتب، ويعد مالك بن نبى أحد رواد النهضة الفكرية الإسلامية فى القرن العشرين، ويعتبره المفكرون والباحثون امتدادا للعلامة ابن خلدون، كما يعتبر مالك بن نبى ومدرسته من

مالك بن نبي
مشكلات الحضارة
المسلم في عالم الاقتصاد
دار الفكر

بقلم/ أ: عادل خفاجة

أكثر المدارس الفكرية التي كان لها أثر واضح فى تحديد وصنع ملامح الفكر الإسلامي الحديث لمزيد من التفاصيل يمكن للقارئ الرجوع إلى عدد مجلة الأزهر لشهر المحرم ١٤٣٥هـ.

وقد توفى رحمه الله فى ٣١ من أكتوبر ١٩٧٣م بالجزائر.

أسباب تأليف الكتاب:

يرى المؤلف أن هذه الدراسة هي مجرد محاولة تصفية لموضوع الاقتصاد فى الأذهان من الجوانب الإضافية التى تطرأ عليه سواء فى صورة ضرورة فنية تنشأ فى الطريق، أو فى صورة ضرورة سياسية تتسلط عليه لرقابة عمليتى الإنتاج والتوزيع طبقا لمبادئ ومسلمات مذهبية معينة.

ويرى أنه يسعى إلى الحصول على أجر «لفت النظر» إلى ضرورة هذه التصفية، سواء بالنسبة للمفاهيم أو لبعض النظم الاقتصادية، كما أنه يسعى أيضا إلى أن يوفقه الله إلى هذه التصفية، ويؤكد على أنه يجب أن تنزه فقهاءنا عن هذا العتاب، ويقول إنه ليس من اختصاصهم أن يدلوا على الحلول الاقتصادية سواء أكانت مستنبطة من القرآن والسنة أو غير ذلك، وإنما اختصاصهم أن يقولوها فى شأن الحلول التى يقدمها أهل الاختصاص، هل هى تطابق أو لا تطابق الشريعة الإسلامية؟

الكتاب:

صدر الكتاب فى طبعته الثالثة فى عام ١٩٨٧م عن دار الفكر بدمشق- سورية، ويقع فى مائة واثنتى عشرة صفحة من قطع ١٧ سم X ٢٥ سم.

يتكون الكتاب من مقدمة وخاتمة وثلاثة أجزاء تناول فى الجزء الأول الذى جاء تحت عنوان: «عموميات البحث» ثلاثة مباحث هي:
١- صورة العلاقات الاقتصادية الراهنة فى العالم، ٢- الاقتصاد والاقتصادانية، ٣- حدود الاختيار الإسلامي بين المناهج الموجودة.

وجاء الجزء الثانى «صور المشكلات» يتضمن: ١- خريطة توزيع الإمكانات الاقتصادية فى العالم، ٢- حدود التفسير الاقتصادى البحت لتوزيع الإمكانات، ٣- الأسس الحضارية لعالم الاقتصاد.

أما الجزء الثالث والأخير والذى جاء تحت عنوان: «شروط الانطلاق» فقد ضم ست نقاط هي:
١- دور المال فى اختزان العمل.
٢- الاستثمار المالى والاستثمار الاجتماعي.
٣- تحقيق الديناميكا الاقتصادية على أساس مبدئي.
٤- الأساس الأخلاقى لعمليتى الإنتاج والتوزيع.
٥- المعادلة البيولوجية والمعادلة الاجتماعية للفرد فى التجارب الحديثة.
٦- ضرورة الاكتفاء الذاتى والتطور من الاقتصاد الوطنى إلى اقتصاد جهوى لتحقيق الاكتفاء.


مالك بن نبى

صورة العلاقات الاقتصادية الراهنة فى العالم

يشير المؤلف إلى أن النظرية الماركسية التى ترد المشكلة الإنسانية كلها إلى العوامل الاقتصادية تغفل بعض الأشياء الجوهرية فى الظاهرة الاجتماعية أو تغض من شأنها؛ وأن هذه النظرية صادقة فى الحدود التى يمكن أن تفسر فيها الظاهرة الاجتماعية تفسيرًا اقتصاديًا.

كما يشير أيضا إلى أن الاقتصاد فى الغرب صار منذ قرون ركيزة أساسية للحياة الاجتماعية، وقانونًا جوهريًا لتنظيمها، وأن الشرق ظل على عكس من ذلك، فى مرحلة الاقتصاد الطبيعي غير المنظم، حتى إن النظرية الوحيدة التى تناولت تأثير العوامل الاقتصادية فى التاريخ وهى نظرية ابن خلدون قد ظلت ميتة فى الثقافة الإسلامية حتى نهاية القرن الأخير، ويُرجع المؤلف عدم إقبال المجتمع الشرقى على وضع نظرية اقتصادية إلى ما تنطوى عليه نفسيته من «زهد» كمثل أعلى منذ قرون لأن الزهد (كمكون تنطوى عليه نفسية المجتمع الشرقى) والمنفعة (الخاصة بالنظرية الرأسمالية) والحاجة (الخاصة بالنظرية الماركسية) ثلاث حقائق لا يمكن أن تدخل فى إطار اجتماعي واحد.

ويرى المؤلف أن الاستعمار لم يحاول تحقيق هذا التوفيق فى استثماره للبلدان المستعمرة، فقد كان العمل استرقاقا وعبودية يستهدف إثراء المستعمر أكثر من أن يهدف إلى إعاشة المستعمر وبذلك انحطت فكرة «العمل» على

يديه أخلاقيًا واجتماعيًا، ويلقي المؤلف باللائمة على المستعمر الذى نمّى في نفسية الرجل المستعمَر خوف الجوع الذى يظهر في جميع طبقات المجتمع، خلق منه الرجل الجائع دائمًا والرجل الخائف من الجوع دائمًا، ولذلك فإن الكاتب يشير إلى الأثر المحمود الذى نتج عن الإصلاح الزراعي الذى أنجزه عبد الناصر سنة ١٩٥٢م فيشير إلى أن من النتائج المباشرة لهذا المشروع أنه غيّر حالة الفلاح المصري، ذلك الذى كان يعيش في صورة منبوذ مرتبط بالأرض برباط الاسترقاق، فأصبح عاملًا يربطه بالأرض «وعي اقتصادي» بوصفه منتجًا ومستهلكًا.

ويخلص المؤلف إلى أن الاقتصاد الإسلامي لا بد أن يتحاشى تحول المنافسة الاقتصادية إلى وضع انفجاري، وأن مشروع بناء خزان أسوان أوضح أن هذه المنافسة يمكن أن تكون مثمرة خصبة لو فهمتها الدول الكبري. وأنه من الممكن أن تلتحم وحدة الحضارة الإنسانية في الرقعة الإسلامية.

الاقتصاد والاقتصادانية

يستهل المؤلف حديثه هنا بأن المجتمع المسلم وقد أثقله عبء حضارة آفلة، لم يكن بقادر على أن يقتفي آثار حضارة ناشئة أخري، أدت بالعالم الحديث إلى إيجاد مفاهيم جديدة: كساعة العمل والقدرة على الإنتاج، وإلى إيجاد دعالم مادية تفوق التصور - كالبخار والكهرباء والآلة- دخل البشر بها الثورة الصناعية الفنية.

حدود الاختيار الإسلامي بين المناهج

يرى المؤلف أنه إذا تأملنا الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة المشكلات الاقتصادية، نري أنه يضيق على نفسه مجال اجتهاده بمقتضى مسلمات تضمنية يمكن حصرها تقريبًا فيما يلي:

١- أنه يفكر أولا على أساس أن الموجود من المناهج الاقتصادية هو ما يمكن إيجاده.

٢- أن النشاط الاقتصادى لا يمكن من دون تدخل المال، سواء في صورة استثمار تنظيمه وتشرف عليه قطاعات خاصة أو استثمار تهيمن عليه سلطة سياسية، فيما يسمى بالقطاع العام.

صورة المشكلات

فإذا ما انتقلنا إلى الجزء الثاني من الكتاب نتوقف أمام تساؤل المؤلف عن كيفية توزيع الدخل السنوى في العالم، لما له من قيمة اقتصادية بوصفه دلالة على درجة التقدم في بلد ما، ويجيب قائلًا:

«إننا نتناول الإحصائية لمتوسط الدخل التى تصدرها هيئة الأمم كل سنة، ونتلو الأرقام التى تتضمنها، ومن بينها على سبيل المثال الرقمان الخاصان بالولايات المتحدة أى ٣٠٢٠ دولار، وبالكويت أى ٣٤٠٠ دولار [١].

إننى لأرى بمجرد ذكرهما هكذا، دلالة واضحة على أوضاع البلدين سواء من الناحية الاجتماعية أو الاقتصادية، على حد سواء.

إذن علينا: إذا أردنا أن نستفيد في موضوعنا من إحصائية متوسط الدخل السنوى الفردي، علينا أن نتناولها بطريقة أخري.

إنها تتضمن قرابة مائة وخمسين رقمًا، على عدد البلدان المنتظمة في هيئة الأمم المتحدة، فلو رسمنا كل رقم منها على علم صغير ورشقنا كل علم في مكان العاصمة للبلاد التى يخصها الرقم، نكون قد صورنا على الخريطة، على طريقة هيئة أركان الحرب التى تستعمل أعلامًا صغيرة ملونة مرشوقة على طول الجبهة على الخريطة، حتى يتيسر لها متابعة ومراقبة الحركات العسكرية المتقابلة، ونكون بدورنا قد صورنا على الخريطة الصورة التى ستعطينا فكرة عن كيفية توزيع متوسط الدخل الفردى السنوي، في العالم، وربما أوضحت للناس هذا التوزيع.

إننى أترك جانبًا رقم الكويت الذى ذكرناه ٣٤٠٠، لأسباب أشرحها فيما بعد.

فالإحصائية تبتدئ إذن برقم ٣٠٢٠ دولارًا للولايات المتحدة، وتنتهي برقم ٧٠ دولارًا لإندونيسيا.

وعلينا إذن أن نرشق المائة والخمسين علمًا في عواصم العالم، فإذا تمت هذه العملية، فإننا سوف نفاجأ بأمر هو أن الأرقام أو الأعلام، لم تتوزع بطريقة عفوية فوضوية على الخريطة أو على الترتيب الأبجدى بل نجد أنها ترتبت ترتيبًا آخر، فمجموعها يصور لنا توزيعها على الخريطة على شكل قارتين يفصلهما خط عرض ٣٠ درجة تقريبًا، وذلك عند رقم ٥٢٠ دولار أى متوسط الدخل الفردى السنوى الذى يعد عتبة نصعد منها إلى القارة الشمالية، أى إلى البلدان التى لديها إمكان تقديم كل الضمانات الاجتماعية لسكانها، أو ننزل منها إلى قارة الجنوب حيث البلدان التى لا تستطيع في المرحلة الراهنة أن تتكفل الضمانات الاجتماعية لسكانها.

فإذا اعتمدنا هذه الخريطة، فقد يتطرق إلى أذهاننا بعض الحالات الشاذة، توهمنا في طبيعة الظاهرة التى نحاول جلاءها في هذا الفصل، خصوصًا لدى من يهوى تعطيل القاعدة بسبب وجود حالة شذوذ، وما أكثر هؤلاء الهواة في البلاد الإسلامية والعربية على وجه الخصوص!

إننا طرحنا جانبًا متوسط الدخل الفردى السنوى في الكويت، بينما يأتى رقمه، أى ٣٤٠٠ دولار، على رأس الإحصائية التى تناولها تحليلنا في هذا الفصل، لذا يجب الآن أن نقدم بعض التفسير لموقفنا هذا الموقف، فنقول إن متوسط الدخل في الولايات المتحدة ٣٠٢٠ دولارًا لا يخضع لشروط خارجة عن الأرض التى تتمتع به، ولا عن سياستها ولا عن ثقافتها، ولا عن كل الظروف القاسية مثل حرب عالمية كل صلاتها مع الخارج، فإنها لا تفقد بذلك سوى ٥٪ من إمكاناتها الاقتصادية، هذا على تقدير أنها لا تتجنّب مثل هذا الخطر بتعديل تستطيعه بكل سهولة، في عمليتي إنتاجها وتوزيعها.

بينما كل الموارد التى يتكون منها متوسط الدخل الفردى في الكويت هو تحت رحمة يد أو أيد في الخارج تستطيع في كل حين أن تغلق أو تفتح صنابير البترول أكثر أو أقل.

ويؤكد المؤلف على أن التنمية لا تقوم على الإمكان المالي، بل الأهم من ذلك الإرادة الفاعلة فيقول: «يجب أن نلاحظ أن نجاح مشروع كهذا «يقصد: مشروع مارشال» ليس مشروطا فقط بحجم المال الذى سيبذل من طرف الدول التى ستقدمه بقدر ما سيكون مشروطا بتحويله إلى وسيلة عمل بين الأيدى التى تحركها إرادة بقاء، كالتى حركت الشعب الألمانى أيام أتاه مثل هذا المدد من أمريكا، بعد الحرب العالمية الثانية، لم يكن هذا المدد السبب الرئيسى في نهضة ألمانيا، وإنما كان أحد المنشطات لعملها الجبار في تلك التجربة الرائدة المعبرة عن إرادة حضارة، استطاع بفضله الشعب الألمانى استعادة مكانه الذى يفرض وجوده في عالم الاقتصاد بصورة تجعل المراقبين ينعتون هذه التجربة بـ «معجزة»، ويجدر بنا القول: إن هذه التجربة ليست خاصة بـ «الدم الألماني» أى العرق كما كان يعتقه روزنبرج صاحب كتاب «الدم والذهب» في العهد الهتلري، بل هي معجزة تتكرر كلما تحرك النشاط البشري على أساس إرادة حضارية، كما تكررت فعلًا في أقصي البلاد الشرقية، تجربة اليابان الرائعة التى لم تعد هذه الدولة إلى مركزها الدولى قبل الحرب، بل أصبحت تحتل اليوم رتبة «الدولة الاقتصادية الثالثة» في العالم.

فـ المعجزة، إذا لا تتوقف على حقنة مالية، لأن اليابان لم يتلق أى حقنة من نوع «مشروع مارشال» ولا تتوقف أيضا المعجزة على العرق، لأننا ما نعلم أن الشعب اليابانى من عرق آري.

١- أتناول هذه الأرقام من إحصائية سنة ١٩٦٧م لأنها تحت يدي، والإحصائيات التالية قد تغير الأرقام بعض التغيير، دون أن تغير دلالتها العامة.

فالقضية إذًا بالنسبة للعالم الإسلامي ليست قضية إمكان مالي ولكنها قضية تعبئة الطاقات الاجتماعية أى الإنسان والتراب والوقت في مشروع تحركها إرادة حضارية لا تحجم أمام الصعوبات، ولا يأخذها الغرور في شبه تعال على الوسائل البسيطة التي في حوزتنا منذ الآن ولا ينتظر العمل بها حقنة من العملة الصعبة، ولا أى مشروع من نوع مارشال».

الاستثمار المالي والاستثمار الاجتماعي

يتساءل المؤلف في بداية هذا الفصل: هل الولايات المتحدة تستطيع بناء مدينة كبرى مثل نيويورك إذا دمرها زلزال مثلاً؟

ويطلب التريث في الإجابة وبخاصة والجواب يحتمل صورتين فيقول:

١- هل تستطيع الولايات المتحدة القيام بالمشروع الذي نعنيه بمجرد طاقتها المالية؟

٢- أم تستطيع ذلك بفضل وسيلة أخرى؟

يجب للتوضيح أن نصوغ الاحتمال الأول صياغة أخرى تفيدنا أكثر من الناحية العملية.

فنقول: هل تستطيع أمريكا شراء مدينة مثل نيويورك بكل محتوياتها الإسكانية والصناعية والفنية لتعوض بها ما حطمه الزلزال؟

فالسؤال في هذه الصورة يفرض علينا بعض التريث حتى لا نتورط في جواب لا يقره الواقع.

إن واقع الولايات المتحدة بالنسبة للقضية المطروحة هو أن رصيدها لا يتعدى منذ سنة ١٩٦٩م عشرة مليارات دولار من الذهب، أى أن طاقتها المالية المقدرة بما لديها من ذهب لا تفي بمبالغ المشروع ولا تغطيها؛ لأن تثمين مدينة نيويورك مع محتوياتها الاجتماعية سوف يكون فوق هذا الإمكان المالي مقدرا بالذهب، ومن هنا يتبدى لأذهاننا أمران:

إن أمريكا لا تستطيع بإمكانها المالي أن «تشتري» مدينة نيويورك.

بينما تستطيع بإمكانها الاجتماعي بناء أو إعادة بناء مئات المدن مثل نيويورك».

يختتم المؤلف كتابه مبينا أنه حاول فيما قدم تخليص الفكر الإسلامي من بعض العقد التي تستولي على اجتهاده في مجال الاقتصاد فتجمده لأنه يرى في هذا المجال حتمية اختيار لا فرار منه بين أفكار ونظم الرأسمالية والأفكار والنظم الناتجة عن المذهب الماركسي.

هذه الحتمية ليس لها من مسوغ سوى تسليمنا مسبقا بأن ليس هناك مجال للاجتهاد في اكتشاف طريق ثالث، بينما مجرد المراجعة لوظيفة المال في الاقتصاد، بلونيه الرأسمالي والماركسي تكشف عن آفاق جديدة في كيفية تشغيل الطاقات الاجتماعية، آفاق يتأتى الانطلاق منها لاقتصاد يمكن المسلم من مواجهة ظروف التخلف، وضرورات العصر في الحدود المشروعة على سنة الله ورسوله.

ويرى المؤلف أن هذا البحث الذي قدمه ما هو إلا محاولة فك قيود، وضعتها أفكار أجنبية على اجتهادنا، والسير في اتجاه جديد بعض خطوات، حتى يألف فكرنا مواصلة السير بخطوات أخري، وفي تواضع شديد يقول المؤلف: إن ما حملته هذه الصفحات إذا كان غير مُجْدٍ من الناحية التطبيقية، فإنها تعتبر كتمرين للفكر الإسلامي على حرية التصرف أمام معضلات الاقتصاد.

وبعد، فالكتاب يعد بحق إضافة طيبة للمكتبة العربية، ودعوة لحرية الفكر، مهما كانت وجهتها، ودعوة للرجل المسلم إلى خوض المعركة الكبرى في عالم الاقتصاد بصفته رجلاً حراً لا يطأطئ الرأس أمام «عجل الذهب» ولا أمام زخرف القول الماركسي..

وخلاصة القول:

وهو في النهاية دعوة لتحريك الفكر الإسلامي في الاتجاه الصحيح.

بين المجلة والقارئ

للأستاذ / أحمد السيد تقي الدين

فتاوى آخر الزمان

تحت هذا العنوان جاءت رسالة الشيخ/ مصطفى الأزهري - إمام وخطيب مسجد سوق الحمام - السيدة عائشة - القاهرة - قال فيها:

أحسنت دار الإفتاء المصرية إذ قامت بالرد السريع على فتوى خطيب احد المساجد والتي حرض فيها على تطليق الزوج زوجته لو اكتشف انتماء امرأته لفكر سياسي مخالف لفكره، أو أن تفارق الزوجة زوجها لمجرد علمها بانتمائه أو تبنيه لفكر سياسي غير ما هي عليه، ومما أثلج الصدر في بيان دار الإفتاء أنه جاء على نحو واضح وحاسم يعيد للفتوى رصانتها ويربأ بها عن مثيري الفتن ومتبعي الهوى ومطلقي لآرائهم الشخصية العنان دون حساب للكلمة التي هي وظيفتهم المقدسة كخطباء يعتلون المنابر سواء منها المساجد أو شاشات الفضائيات فقد جاء على لسان فضيلة الدكتور مجدي عاشور المستشار الأكاديمي لمفتي الجمهورية وأمين الفتوى بدار الإفتاء عن هذه الفتوى الرعناء ما وصفها بأنها: «تثير البلبلة والجدل والفرقة في المجتمع المصري»، وأن «الآراء التي تصدر عن غير القائمين بالفتوى، تثير بلبلة في المجتمع، وتساعد على إشاعة الفرقة والاختلاف بين أبناء الوطن الواحد، بل بين أفراد الأسرة الواحدة»، إذا «فالفتوى التي تثير البلبلة والجدل والفرقة في المجتمع المصري. كما وصفها أمين الفتوى بدار الإفتاء. هي ما نستطيع أن نطلق عليها من باب واسع بإنها فتوى «إرهابية»؛ حيث إنها تفعل ما يفعله الإرهاب ذاته من تفريق بين الناس، وتكدير للأمن والسلم الاجتماعي، وتهديد للأسرة والتحريض على تشتيتها بما يخالف مقاصد الإسلام السامية والتي تعمل على تضييق شقة الخلاف بين الزوجين حتى لا يصل الأمر إلى «أبغض الحلال» إلا في الضرورة القصوى التي تقتضيها بعض الظروف والتي لا يصلح معها استمرار العشرة بين الزوجين بحث يؤدي هذا الاستمرار إلى منكر أكبر من الطلاق، والقاعدة الفقهية حيث «لا ضرر ولا ضرار في الإسلام»، وإذا كان في تعليق دار الإفتاء على فتوى «الخلايا النائمة» لهذا الخطيب بأن «الآراء التي تصدر عن غير القائمين بالفتوى، تثير بلبلة في المجتمع، وتساعد على إشاعة الفرقة والاختلاف بين أبناء الوطن الواحد، بل بين أفراد الأسرة الواحدة» أقول إذا مرت مثل هذه الفتوى بدون مسائلة مفتيها؛ فلننتظر ما هو أخطر وأشد فتكاً بالمجتمع، فمصر الآن تمر بموجة عاصفة من الفتن التي توشك أن تقتلع القيم التي نشأت عليها الأسرة المصرية مما يوجب على الدعاة إلى الله أن ينأوا بأنفسهم عن «الأجندات السياسية» لتكون كلمتهم خالصة لوجه الله تعالى وليكونوا دائما البلسم الشافي لجراح مجتمعاتهم، بدل أن يصدروا الفتاوى الجارحة أو الآراء المفرقة بين الأحبة، وإذا نظرنا - مثلا - للأسرة في بلاد الغرب (على ما فيها) فقد تجد أنه يستطيع كل واحد من

أفرادها أن يكون له دين خاص، فلو كان أفرادها عشرة لرأيت عشرة أديان في بيت واحد، فكيف لو اختلف الزوجان في رأي سياسي يقبل الخطأ والصواب؟ فهل وصل بنا الحال ونحن في بلد أعرق جامع وجامعة في العالم (الأزهر الشريف).. وكيف نكون ونحن (خطباء الأوقاف) سببا في اتساع الخرق، وتشتيت الشمل.. من أجل كلمة قد لا يلقي صاحبها لها بالاً تحت أضواء الكاميرات.. وأخيراً أذكر نفسي وكل من يتصدر للكلام في الإسلام بحديث النبي صلى الله عليه وسلم: «أجرؤكم على الفتيا، أجرؤكم على النار».. هدانا الله للحق المبين..

شباب حائر وشيوخ تعشق الباطل

تحت هذا العنوان جاءت رسالة الشيخ أحمد على الأمير- وكيل وزارة الأوقاف الأسبق لقنا ـ قرشوط

نحن كدعاة ومرشدين يجب علينا أن نحفظ الناس من شرور أنفسهم، ونكره إليهم البغى والعدوان ونغرس فى نفوسهم التسامح والمحبة والعفو والصفح، ونقف بهم على باب الله حتى لا يحرموا أنفسهم من مرضاته وثوابه.

لذا نقول لهؤلاء الذين يتآمرون على مصر يريدون القضاء على حاضرها ومستقبلها:

لا تنشروا الرذيلة والقبح، لا تفسدوا فى الأرض، لا تدعوا إلى فساد أو إفساد، لا تحرقوا، لا تدمروا، لا تخربوا عامرا، لا تعتدوا على مؤسسة أو مركبة واقرأوا معى قول الله عز وجل

﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾

هذا هو أدب الإسلام إن كنا مسلمين

وهل يرضى عاقل أن تمتلأ الشوارع بالخصومات والسباب والشتائم التى توجه للكبار والصغار بغير وعى وبغير تدبر.. إن المؤمن الكامل ليس بطعان ولا لعان ولا فاحش ولا بذيء هذا هو الإسلام وهل يرضى عاقل بتلك الفوضى الخلاقة التى صدرتها أمريكا للعالم العربى والإسلامى لتقسيمه إلى دويلات صغيرة لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا وتفقد بها هويتها وإسلامها ما يغفل عنه الناس اليوم، إن ما يجرى على الساحة ونراه فى مصر وسوريا والعراق وليبيا وتونس والسودان حرب صليبية جديدة تقوم على الدس والوقيعة والمكر والخداع والفتنة وتمويل الشباب العاطل بالدولارات والسلاح ليشعل حروبا أهلية تأكل الأخضر واليابس يخرب فيها الشباب بيوتهم بأيديهم وعندها يفقد الإسلام حتى أرضه.

فمتى نعقل؟ ومتى نفيق؟ ومتى نتأدب بأدب الإسلام وندرك ما يحاك لنا من شرور فى دهاليز أمريكا والغرب؟ لقد أعجبتنى كلمة مأثورة للإمام الشيخ الغزالى فى كتاباته (أمة ضاعت فضاعت) نعم إنها أمة تستورد حتى أدوات الزينة تستورد حتى المصلية التى تصلى عليها وأمريكا صنعت طائرة بغير طيار تقتل بها وتدمر وتخرب وتصورنا حتى فى بيوتنا فأين نحن؟ إن الواقع مر وأليم.

شغلتنا أمريكا بكلمتين (الديمقراطية والحرية) من أجلهما نتقاتل ونخرب وندمر ونعتدى حتى على تراثنا وقيمنا ويقتل بعضنا البعض، لا بدستور السماء نؤمن ولا بدساتير الأرض نرضى كنت أود أن أرى الاعتصامات والتظاهرات تطالب بإنشاء مصانع لتشغيل الشباب العاطل أو تطالب بتجويد المنتج الصناعى والزراعى لتصديره أو تطالب بإنشاء مصانع حربية من باب:

﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾

حتى لا يتآمر علينا الأعداء ويسيطرون على مقدراتنا (إنهم يقولون سوف نختار لهم الإسلام الذى يناسبنا) وأخيرا أقول لكل شاب لا تحرقى قلبك هؤلاء الذين يريدون العلو فى الدنيا ولو على حساب دينهم فيصيبك ما أصابهم.

إن الإمام الحسن بن على رضى الله عنه، حفيد رسول الله ﷺ تنازل عن الخلافة لمعاوية رضى الله عنه حقنا لدماء المسلمين فهل هؤلاء أفضل؟

عيب المسلمين اليوم أنهم يقولون سمعنا وعصينا!!

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾

رب ارحم ضعفنا ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يرحمنا، واحفظ مصرنا من كل سوء واصرف عنها الفتن وما ظهر منها وما بطن.وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

يؤذينى ابن آدم يسب الدهر

وتحت هذا العنوان جاءت كلمة الأستاذ شعبان عبدالعال إبراهيم ـ المنيا ـ بنى حسن الشروق

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ قال الله عز وجل (يؤذينى ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر بيدى الأمر أقلب الليل والنهار) أخرجه البخارى ومسلم (السب: الشتم أو التقبيح والذم) (الدهر: الوقت والزمن) (يؤذينى) أى ينسب إلىّ ما لا يليق بى (وأنا والدهر): أنا ملك الدهر ومصرفه ومقلبه.

أقسم الله تعالى بالعصر والزمان لعظمته وأهميته فهو ظرف العمل ووعاؤه وهو سبب الربح والخسارة فى الدنيا والآخرة وهو الحياة فما الحياة إلا هذه الدقائق والثوانى التى نعيشها لحظة بلحظة ولهذا امتن الله به على عباده فقال:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾

فمن فاته عمل الليل قضاه بالنهار ومن فاته عمل النهار قضاه بالليل وكان أهل الجاهلية إذا أصابتهم مصيبة أو حرموا غرضا معينا أخذوا يسبون الدهر ويلعنون الزمان فيقول أحدهم قبح الله الدهر الذى شتت حلمنا، ولعن الله الزمان الذى جرى فيه كذا وكذا وما أشبه ذلك من عبارات التقبيح والشتم فجاء هذا الحديث لرد ما يقوله أهل الجاهلية ومن شابههم والسالك مسلكهم فبين أن ابن آدم حين يسب الدهر والزمان فإنما يسب فى الحقيقة الذى فعل هذه الأمور وقدرها حتى وإن أضاف الفعل إلى الدهر فإن الدهر لا فعل له وإنما الفاعل هو رب الدهر المعطى المانع الخافض الرافع المعز المذل، وأما الدهر فليس له من الأمر شيء فمسبتهم للدهر هى مسبة لله عز وجل ولهذا كانت مؤذية للرب جل جلاله وقد ذكر الحديث أن سب الدهر أذية لله جل وعلا ولا يلزم من الأذية الضرر فقد يتأذى الإنسان بسماع القبيح أو مشاهدته أو الرائحة الكريهة مثلا ولكنه لا يتضرر بذلك ولله المثل الأعلى ولهذا أثبت الله الأذية فى القرآن فقال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾

وقال فى الحديث القدسى (يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى) رواه مسلم

وأخيرا

وأخيراً نختتم بكلمة للكاتب الكبير الاستاذ محفوظ الأنصاري نشرها بجريدة الجمهورية الصادرة في ٢٠١٤/٢/٢٠:

ان ما نعيشه اليوم من «فراغ سياسي» ومن غياب كامل للدولة المتكاملة الأطراف.. السياسية.. والتنفيذية.. والتشريعية، الدولة التي تتفاعل وتتوافق وتتضافر جهود سلطاتها من أجل التصدى للمشاكل ومن أجل تطبيق خطط عمل مدروسة ومعتمدة.

هذه الدولة لابد وأن تقوم وتبدأ.. وتستكمل ما تضمنه مخططها المعبر عنه بخارطة الطريق.. وإلا فالخطر داهم.. والأعداء يزحفون ويتسللون وهم في كل يوم يشقون مسارا جديدا ويشتون من القواعد والمنطلقات.

ولذلك على المشير أن يبادر وعلى الفور ويحسم أمره.

ـ فإذا قرر الترشح للرئاسة فعليه الإعلان اليوم وليس غدا وأن ينزل إلى الناس ويتحدث إليهم ويجمعهم.

على المشير إذا قرر ألا يلقي بالا لهؤلاء الذين يتحدثون عن المنافسة وعن الديمقراطية وعن التحذير من «الإجماع الوطني».

كل هذه «الخرافات السياسية» لا يمكن أن تكون المرجعية والأساس عندما تواجه الشعوب خطر «الوجود» أو عدمه.

ومن لا يصدق عليه العودة إلى «ديجول» يوم قام بانقلاب عسكرى عام ١٩٥٨ وأنقذ جيشه من حصاره وأزمته في الثورة الجزائرية.. ثم أسقط النظام السابق وأقام «الجمهورية الخامسة» ومعه وخلفه الشعب الفرنسي كله.. ومعه الجيش الفرنسي كله.. وها هو العالم كله يستشهد بديجول.. وها هم هواة السياسة عندنا يستخدمون تجربته دون أن يقرأوها ودون أن يتعرفوا عليها.


تشارل ديجول

على الشعب المصرى كله أن يجدد بيعته من أجل مصر.. وأن يجتمع حول هدف واحد بل ورجل واحد.. ومن لا يصدق أو يقتنع عليه أن يشرح لنا.. لماذا هذا الإجماع والاقتناع والتآمر والكراهية ضد مصر؟ لماذا كل هذا الحقد على شعب مصر؟

ـ ما هى الأسباب التي زرعت كل هذا الحقد في قلب أوباما؟

ـ وكل هذا الغل في نفس وسلوك أردوغان.

ـ وكل هذا الغباء عند حكام قطر.

ـ وكل هذه الغيرة والحسد عند قادة جنوب افريقيا.

ـ وكل هذه المنافسة المدمرة والشريرة عند بعض حكام اثيوبيا.

ـ وقبل هذا وبعده.. ما يعتمل في قلوب ونفوس وكيان الجماعة وتنظيمها الإرهابي والعميل.. فتقتل وتغتال وتدمر.. دون حياء ودون عودة لدين أو ضمير.

حفظ الله مصر
حفظ الله جيش مصر
خير أجناد الأرض

بين الصحف والمجلات

أ/ محمد جمعة

مصر وموجة الإلحاد

تحت هذا العنوان كتب الاستاذ / إكرام لمعى مقاله المنشور بجريدة الشروق المنشورة بتاريخ: ١٥ / ٢ / ٢٠١٤ م ومما جاء فيه:

مع جو الحرية التي تعيشها مصر اليوم ظهرت الحركة الرافضة للأديان وظهر بعض الشباب على الفضائيات يتحدث عن إلحاده بكل وضوح، وأستطيع القول إنه حتى الآن فشل المتدينون في بلادنا وكذلك المؤسسات الدينية في مواجهة هذه الظاهرة، ففي إحدى الفضائيات كنت ضيفا مع شيخ أزهرى فاضل وكان الحديث حول الإلحاد، وقد انصبت معظم الكلمات عن شباب جاهل بالدين أو مريض نفسيا أو متعال أو إباحي، وهي نفس الأفكار التي جاءت في كتاب صدر هدية مع مجلة الأزهر الصادرة عن مجمع البحوث الإسلامية بعنوان «وهم الإلحاد» تأليف عمرو شريف، وقد أثنى على الكتاب د. محمد عمارة رئيس التحرير واعتبر أن كلامه علمي خالص، لكن عندما تقرأ الكتاب ـ عزيزى القارئ ـ تلاحظ أن المؤلف ينظر إلى الملحدين نظرة دونية فهم مرضى نفسيون وثقافتهم ضحلة، أفكارهم صبيانية وهنا يقوم الداعية بحل المشكلة بينه وبين نفسه ويستريح ضميريا بينما معظم ما قاله من آيات في الكتب المقدسة لا يؤمن الملحد بها أصلا، وإذا كنا جادين فعلا في مواجهة هذه الظاهرة علينا أن نعترف بوجودها. وسوف أسوق ـ لك عزيزى القارئ ـ مثلين في مواجهة الظاهرة واحد من لبنان والآخر من أمريكا اللاتينية الأول لمثقف لبناني يدعى كوستي بندلي قام بتأليف كتاب صدر عام ١٩٦٨ من منشورات النور تحت عنوان «إله الإلحاد المعاصر ماركس ـ سارتر» ركز فيه على الإلحاد الشيوعي والإلحاد الوجودي. في هذا الكتاب قام المؤلف برفض الإله الذى رفضه ماركس فالإله الذى رفضه ماركس من صنع البشر والكنيسة وليس هو الله في حقيقته، وأن الله يقدم وهما للإنسان ينسى من خلاله آلامه هذا في الوقت الذى فيه تعطى الماركسية صبغة الألوهية للمادة والتاريخ فتحولهما إلى صنمين ينقلبان على الإنسان. أما الإلحاد الوجودى فهو يعلن أن وجود الله يلغي وجود الإنسان وحريته، فطالما هناك مرجعية للإنسان فلا وجود له، لكن الواقع يقول إن رجال الدين هم الذين صوروا الله للإنسان كطاغية مستعبد له، فهناك فتوى لكل حركة أو سكنة، والله يحاصر الإنسان في كل لحظة من لحظات حياته لذلك على الإنسان أن يتحرر من الله.. أما النموذج الثاني في مواجهة الإلحاد فهو من أمريكا اللاتينية كاهن كاثوليكي يدعى خوان أرياس كتب كتابا بعنوان «لا أؤمن بهذا الإله» نقله إلى العربية الأب كميل حشيمة اليسوعي وصدر من دار المشرق ـ بيروت وطبعته الأولى كانت عام ١٩٨٦ وسوف أنقل لك بعض من تأملاته في هذا الشأن.

يقول: قابلت يوما في روما البطريرك الراحل مكسيموس الرابع فقال لي:

«إن ما لا يؤمن به الكثيرون من الملحدين هو إله لا أؤمن أنا به»، ومن هنا بدأ خوان آرياس سلسلة من التعبيرات عن «الإله الذي لا يؤمن به»، اختار منها ما يلي:

لن أؤمن أبدا بإله يحتار في الجواب عن المشكلات الخطيرة التي يواجهها الإنسان.

إله يعقم عقل الإنسان.. إله يقبل التنجيم والشعوذة.

إله يؤسس مؤسسة دينية جامدة تدعو إلى الجمود.. إله الكهنة (الأئمة) الذين تزدحم جعبتهم بالأجوبة الجاهزة عن جميع المشكلات.. إله لا يمكن مخاطبته إلا ركوعا ولا يوجد إلا في دار العبادة.

عندما قامت ثورة الإصلاح في أوروبا ضد تعضيد الكنيسة ورجال الدين للخرافة، كانت النتيجة موجة إلحادية اجتاحت أوروبا، ومن رحم هذه الموجة ولد الإصلاح الديني المسيحي على يد من نجوا من موجة الإلحاد. إن الشعوب الناضجة هي التي تتعلم من تجاربها، أما الشعوب الأكثر نضجا فهي التي تتعلم من تجارب الشعوب الأخرى فهل نفعل؟

اعتداء صهيوني سافر على «المسرى العظيم»

تحت هذا العنوان جاء رأى الدستور المنشور بجريدة "الدستور الأردنية" الصادرة بتاريخ ٩/ ٢/ ٢٠١٤م يقول فيه:

إن العمل الشنيع الذي قامت به قوات الاحتلال الإسرائيلي للمصلين في الجامع الأقصى وداخل المسجد المرواني وإغلاق بوابات الجامع الأقصى بالسلاسل والأعمدة الحديدية، ليس جديدا فهو الاعتداء الثاني منذ بدء العام الحالي ولن يكون الأخير، ويعد محاولة مكشوفة لإظهار الغطرسة والقوة الإسرائيلية وكسر إرادة المصلين، ما يستوجب العمل على تعرية الوجه «القبيح» لدولة الاحتلال، التي لا تقيم وزنا للمقدسات الإسلامية والمسيحية، وتمنع حرية العبادة، وتطلق نارها على المصلين، وتواصل حفرياتها التي تهدد بقاء المسجد الأقصى.

إن هذه الاعتداءات انتهاك صارخ للقانون الدولي واتفاقيات جنيف الرابعة والأعراف الدولية ومساس بحرمة المسجد الأقصى وتأتي ضمن مخطط معد مسبقا، تتوالى الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة على تنفيذه بهدف إخفاء أي معالم تدل على إسلامية وعروبة القدس وطمس إرثها الثقافي والحضاري الأصيل ولم يدرك المحتل البغيض بعد مكانة المسجد الأقصى في نفوس المسلمين ومدينة القدس التي ستبقى إسلامية الوجه، عربية الهوية، ولن يسلبها الاحتلال وجهها وهويتها مهما أوغل في الإجرام وتزييف الحقائق.

يتحللون من اليهودية

تحت هذا العنوان جاء مقال الأستاذ صالح النعامي المنشور بمجلة "البيان" الصادرة بتاريخ ٢٠١٤/١/٢٨م يقول:

لم تعد "إسرائيل" قادرة على إخفاء مظاهر فزعها من تحولين مهمين، سيؤثران على مستقبلها ومستقبل المشروع الصهيوني بشكل عام، وهما: تراجع عدد اليهود في العالم، وتحول الكثير منهم عن اليهودية، علاوة على رصد الكثير من المظاهر التي تعكس تحلل غالبية اليهود من أنماط السلوك الديني اليهودي... تؤكد المعطيات الصادرة عن «معهد تخطيط سياسة الشعب اليهودي»، ومقره القدس المحتلة أنه خلال ٢٧ عاماً انخفض عدد اليهود في العالم باستثناء "إسرائيل" بـ ٢,٣ مليون نسمة، حيث يبلغ الآن ٧,٧٦ مليون فقط. وحسب المعطيات التي تضمنها التقرير فإن عدد اليهود الذين يعيشون في العالم وإسرائيل يبلغ ١٣,١ مليون يهودي. وتنوه المعطيات إلى أن عدد اليهود لم يرتفع منذ العام ١٩٧٠م إلا بنصف مليون نسمة. وأشار التقرير إلى أن أكبر انخفاض في عدد اليهود حدث في الدول التي كانت تشكل الاتحاد السوفيتي، حيث يعيش هناك نحو ٤٥٠ ألف يهودي فقط، منهم ٢٢١ ألفاً في روسيا، و ٧٩ ألفا في أوكرانيا. وأشار التقرير إلى حدوث انخفاض كبير في عدد اليهود في أمريكا الجنوبية، حيث انخفض عددهم هناك بنسبة ٢٤٪، حيث تبقى ٣٩٣ ألف يهودي. وأشارت معطيات المعهد إلى انخفاض معدل الخصوبة لدى اليهود يمثل سببًا آخر لانخفاض عدد اليهود. ففي الوقت الذي يبلغ معدل الخصوبة في إسرائيل ٢,٧٥ طفلا للعائلة اليهودية، يصل في الغرب إلى ١,٥ طفلا للعائلة اليهودية، بينما تتدنى النسبة في الدول التي كانت تشكل الاتحاد السوفيتي السابق لتبلغ طفلا واحدًا للعائلة.

ويقول بروفيسور دي لا فرغولا المختص في شئون الديموغرافية اليهودية إنه بالنظر إلى مواضع الاندماج والخصوبة المتدنية، فإن يهود الشتات يوجدون في حالة عجز بين عدد المواليد وعدد الوفيات، مضيفاً أن «الهجرة إلى إسرائيل يمكنها أن تؤثر إيجابا».

من المعروف، أنه حسب الديانة اليهودية، فإن اليهودي هو الذي يولد لأم يهودية، وبالتالي فإن إسرائيل تعتبر أي زواج مختلط بين يهودي وغير يهودي بمثابة خروج عن الديانة اليهودية. من هنا، فقد عبرت "إسرائيل" عن قلقها الشديد من تعاظم ظاهرة الزواج المختلط بين اليهود في الولايات المتحدة ومعتنقي الأديان الأخرى. وحسب دراسات واستطلاعات شاملة أجريت مؤخرًا في أوساط اليهود الأمريكيين تبين أن ٧٠٪ منهم يتزوجون من غير اليهود. وتدلل الدراسات التي أجرتها "الوكالة اليهودية" على ابتعاد اليهود في الولايات المتحدة عن إسرائيل، حيث تعكس هذه النتائج فشل الجهود والإمكانيات التي استثمرتها الوكالة اليهودية في التقريب بين إسرائيل ويهود الشتات وتحديدًا في الولايات المتحدة. وحسب هذه الدراسات، فإن الشباب هم أكثر قطاعات اليهود في الولايات المتحدة ميلاً للابتعاد عن اليهودية وإسرائيل.

د/ عبد الرحمن السميط

تحت عنوان "الشيخ عبد الرحمن السميط.. خادم الفقراء" كتب الأستاذ/ محمد لافي مقالا نشر في موقع "طريق الإسلام" بتاريخ ٦/ ١/ ٢٠١٤م جاء فيه:

فضيلة الشيخ الدكتور عبد الرحمن السميط (١٣٦٦هـ-١٩٤٧م / ١٤٣٤هـ-٢٠١٣م) أبرز أعلام التجديد في مسيرة العمل الخيري المعاصر وأهم رجالاته بعد أن ترك إرثًا كبيرًا وحقق إنجازاتٍ تعجزُ الدول عن تحقيقها. لم يختطفه بريق الحياة بل كان همه الأكبر أن يعيش للعمل التطوعي فكان صاحب همة

بين الصحف والمجلات

عالية وعزيمة صادقة، ونذر نفسه وبذل الغالي والنفيس في سبيل هدفه الذى آمن به، وسخر جهده وطاقته لتحقيقه فاستحق بجدارة لقب داعية القرن والرجل الأمة.

وبدأ السميط رحلته الدعوية من الصغر، وكانت أمنيته أن يعمل بإفريقيا منذ أن كان بالثانوية، وتحقق له هذا الحلم حين قدر له أن يسافر إلى إفريقيا لبناء مسجد لإحدى المحسنات الكويتيات في ملاوي، فرأى ملايين البشر يقتلهم الجوع والفقر والجهل والمرض، ويعيشون على مساعدات البعثات التبشيرية. استمر هو وزوجته في جمهورية ملاوى ثم رحلا إلى أربعين دولة في إفريقيا، وبنيا فيها المساجد والمراكز ودور الأيتام والمستوصفات. ثم قرر أن يهاجر إلى مدغشقر هو وزوجته أم صهيب بشكل نهائي للتفرغ لدعوة قبائل الأنتيمور ومتابعة أنشطة الجمعية التى يترأسها وهى جمعية (العون المباشر في إفريقيا).

وعلى مدى ٢٩ عاما أسلم على يديه وعبر جهوده وجهود فريق العمل الطموح الذى يرافقه أكثر من عشرة ملايين شخص في قارة إفريقيا فقط، وأصبحت جمعية العون المباشر أكبر منظمة عالمية في إفريقيا كلها. أنشأت أكثر من ٨٦٠ منشأة تعليمية يدرس بها نصف مليون طالب إضافة إلى أربع جامعات وعددا كبيرا من الإذاعات والمطبوعات وقامت بحفر وتأسيس أكثر من (٨٦٠٠) بئر. كما أسس الشيخ السميط ٢٤٠٠ مركزا إسلاميا لا تقل تكلفة الواحد منه عن مليون ريال، وكفل أكثر من ٩ آلاف يتيم ووزع ٧ ملايين مصحف باللغات المختلفة وقام بإعداد وتدريب أكثر من (٤٠٠٠) داعية ومعلم.

تعرض السميط في إفريقيا للاغتيال مرات عديدة من قبل الميليشيات المسلحة بسبب حضوره الطاغي في أوساط الفقراء والمحتاجين، كما حاصرته أفعى الكوبرا في موزمبيق، وكينيا، وملاوى غير مرة لكن الله نجاه، إضافة إلى لسع البعوض في تلك القرى وشح الماء وانقطاع الكهرباء. وتعرض في حياته لمحن السجون.

وكان يستنهض الهمم ويشحذ العزائم ويسعى إلى أهل الخير والمحسنين والصالحين من التجار ليجمع المال منهم لينفقه للدعوة في إفريقيا، وإطعام الجائع، وعلاج المريض، وحفر الآبار، وبناء المساجد. ذكر أنه تحدث بعد صلاة الجمعة في مسجد بالكويت وعرض حال مجاعة بأثيوبيا وطلب مليون دينار لدعمهم وحلف بالله لا يخرج من المسجد حتى يجمعها ولو بقي شهرا، وما صلى المغرب في اليوم نفسه حتى اكتمل المبلغ.

وعن زوجته _ أم صهيب _ قال: "لا أتذكر أنها طلبت السفر سياحة في الخارج أو نزهة وكانت متعتها الذهاب لأفريقيا للدعوة، وكانت تستمتع برعاية الأيتام وتتابعهم وهى من اقترح على إنشاء مقبرة للمسلمين الأنتيمور وقالت لعلنا ندفن فيها.. وفي ذات ليلة من ليالي إفريقيا قالت: هل ستجد في الجنة طعم هذه السعادة كما تجده هنا".

وشغل السميط منصب الأمين العام للجنة مسلمي إفريقيا ورئيس مجلس إدارة جمعية العون المباشر، ورئيس تحرير مجلة الكوثر إلى جانب رئاسته أو عضويته في العديد من الجهات الخيرية والأكاديمية، كما حاز الكثير من الجوائز وشهادات التقدير نظير إنجازاته كان من أبرزها: جائزة الملك فيصل لخدمة الإسلام وقيمتها مليون ريال والتى تصدق بها كلها لخدمة الدعوة الإسلامية.

أنبـــاء الأزهـــر

إعداد الأستاذين:
محمود الفشني - عبدالموجود أمين

أمير الكويت فى استقباله للإمام الأكبر: «مصلحة مصر هى مصلحتنا»



استقبل صاحب السمو الشيخ صباح الأحمد الصباح أمير دولة الكويت وصاحب السمو ولي عهده الشيخ نواف الأحمد الصباح فضيلة الإمام الأكبر أ.د. أحمد الطيب شيخ الأزهر والوفد المرافق لفضيلته أ.د. محمد مختار جمعة وزير الأوقاف وفضيلة المفتي أ.د. شوقي علام وأ.د. أحمد معبد عبدالكريم عضو هيئة كبار العلماء والمستشار محمد عبدالسلام المستشار التشريعي والقانوني لشيخ الأزهر.

ولقي الإمام الأكبر ترحيبا كبيرا حيث أشاد صاحب السمو أمير دولة الكويت بوسطية الأزهر وكونه منارة للعلم والعلماء وأن الأزهر يستعيد مكانته التاريخية في ظل قيادة الإمام الأكبر الذى تحمل الكثير في سبيل وطنه.

كما أكد أن مصلحة مصر هي مصلحة الكويت وأن قضية مصر هي قضيتهم، وذلك لمكانة مصر في قلوبهم ودورها الرائد في الأمة العربية.

ومن جانبه أشاد فضيلة الإمام بموقف دولة الكويت الأخوى تجاه جمهورية مصر العربية الأمر الذى يُجسد عمق العلاقات بين الدولتين الشقيقتين بما يصب في مصلحة الأمتين العربية والإسلامية.

وقدم فضيلته شكر وتقدير الأزهر الشريف لموقف دولة الكويت وقاداتها الكرام لدعم مصر ودعم الأزهر الشريف الذى يقع جغرافيا في مصر لكنه ملك للعرب والمسلمين في العالم أجمع

هذا وقد قام فضيلة الأمام الأكبر شيخ الأزهر الشريف الدكتور أحمد الطيب والوفد المرافق بزيارة الى بيت الزكاة وكان فى استقبال فضيلته وزير العدل ووزير الاوقاف والشئون الإسلامية الدكتور نايف محمد العجمى ومدير عام بيت الزكاة إبراهيم أحمد الصالح.

ولهذه المناسبة ألقى وزير العدل وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية كلمة هذا نصها:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الخلق أجمعين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد محمد الطيب شيخ الأزهر فضيلة الدكتور شوقى إبراهيم علام مفتى جمهورية مصر العربية معالى الأخ الفاضل الدكتور محمد مختار جمعة وزير الأوقاف بجمهورية مصر العربية السادة أعضاء الوفد الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

يسعدنى بمناسبة زيارتكم الكريمة لدولة الكويت بدعوة كريمة من حضرة صاحب السمو أمير البلاد الشيخ صباح الأحمد أن ألتقى بفضيلتكم والسادة أعضاء الوفد الكرام فى هذه المؤسسة الخيرية الرائدة فى مجال العمل الخيرى على المستوى المحلى والدولي.

وبهذه المناسبة نتقدم بخالص الشكر والتقدير لحرصكم على زيارة بيت الزكاة للاطلاع على تجربته فى خدمة فريضة الزكاة والعمل الخيرى والإنساني.. وإننى والأخوة العاملين فى بيت الزكاة إذ نعتز كثيرا بهذه الزيارة فنود أن نشيد بالدور الكبير والمتميز الذى يؤديه الأزهر الشريف هذه المؤسسة العريقة تجاه القضايا الإسلامية وإسهاماتها الكبيرة فى بناء الفكر المعاصر.

إن الأزهر الشريف هذا الصرح الشامخ منارة العلم الذى يتميز بالوسطية والاعتدال فى الفكر والثقافة وتفيء إليه جماهير المسلمين وتقتبس من أنواره وعلمه واحتضانه لطلبة العلم من جميع الجنسيات للدراسة بجامعاته ومؤسساته التعليمية والذى يسهم فى تخريج كوكبة من العلماء الأجلاء الذين يحملون مشاعل النور وينشرون كلام الله ودعوة السلام التى أمر بها الرسول ﷺ.

لقد كان إنشاء بيت الزكاة حاجة مجتمعية ومطلبا شعبيا حظى بمباركة الدولة فتم إعلانه بالمرسوم الأميرى الصادر عن أمير الكويت الراحل الشيخ جابر الأحمد الجابر الصباح طيب الله ثراه فى شهر يناير من عام ١٩٨٢ والتى تنهض رسالته على جمع وتنمية موارد الزكاة والخيرات وإنفاقها محليا وخارجيا فى مصارفها الشرعية بأعلى مستوى من الكفاءة والتميز.

كما يقوم بتقديم خدماته للمستحقين بما يتوافق مع الاحتياجات التنموية للمجتمع عبر تبنى أنظمة مالية وإدارية تتوافق مع أحكام الشريعة الإسلامية ومعايير الجودة والحكومية المؤسسية.

وفى ختام كلمتى أكرر اعتزاز بيت الزكاة وكافة العاملين فيه بهذه الزيارة الكريمة ونؤكد لفضيلتكم استعداد البيت لنقل كافة أوجه الدعم والمساندة فى مجال العمل الزكوى والخيرى لما فيه خير لأبناء الأمة الإسلامية جمعاء ونتمنى من الله العلى القدير أن يديم هذا التواصل والتعاون فيما بين جمهورية مصر العربية الشقيقة ودولة الكويت.



ثم ألقى فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الشريف كلمة هذا نصها:

نشكر سمو الأمير وشعب الكويت على حسن الاستقبال والضيافة.. حرصنا فى البداية منذ وجودنا مع أخينا الفاضل الاستاذ إسماعيل الكندرى ممثل بيت الزكاة فى القاهرة على أن نزور المؤسسة الإسلامية العريقة والتى هى فعلا من باب التعاون على البر والتقوى وقد لمست بنفسى أثر هذه المؤسسة بيت الزكاة وأنا لما كنت رئيسا لجامعة الأزهر بل وحينما كنت مفتيا قبل عشر سنوات كنت أدعو الى افتتاح المعاهد والمساجد بربوع مصر من جنوبها إلى شمالها مع شيخنا الراحل طنطاوى هذه المساجد أو المعاهد أو البيانات الدينية التعاونية كان يقوم بها بيت الزكاة فى مصر وأيضا تعرفت على نشاط آخر أشيد به وهو رعاية الطلاب الفقراء المتميزين والوافدين من خارج مصر وأيضا الطلاب المصريين وتبنيهم منذ السنة الأولى إلى أن يحصلوا على الدكتوراة ويعودوا إلى بلادهم، يتولونهم راتبا وسكنا وأكلا وشربا ولبسا وكذلك السفر لبلادهم.

وقفنا طويلا أمام هذا العطاء الإسلامى القوى حرصنا على أن نرى هذه التجربة وفى ذهننا أن ننقل لمعالى وزير الأوقاف أن تنقل هذه التجربة إلى مصر إن شاء الله بالتعاون معكم نأمل عندما ترجع أن نكون قد كونا فكرة كاملة وشاملة وكافية لنبدأ بهذا المشروع فى القاهرة.

كنت لا أعرف بيت الزكاة إلا من خلال أخينا اسماعيل الكندرى وله نشاط ملحوظ فى مصر كلها، يعرفه أهل الصعيد وأهل بحرى والقاهرة وقد لمست مدى هذا الجميل الذى يقدمه هذا البيت لما كنت فى الأزهر سواء كان على مستوى الطلاب أو على مستوى المعاهد التى يقوم بيت الزكاة ببنائها فى مدن وقرى مصر أو كان على مستوى التعاون فى وجودهم.

أشكركم وأؤكد أننا شعرنا أننا بين أهلنا وأنا لا أقول فى بلدنا الثانى ولكن أقول فى بلدنا الأول مكرر، وشكرا لكم وشكرا لكل شعب الكويت المضياف الكريم العربى الأصيل وإن شاء الله هذه الزيارة مفيدة لنا فى الأزهر وفى مصر وفى مقدمة هذه الفائدة التفكير فى نقل تجربة بيت الزكاة الى القاهرة وأكرر شكرى ولكم خالص الشكر والثناء والتقدير والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

مؤتمر تطبيق الدراسات القرآنية، بجاكرتا يشيد بجهود رابطة خريجي الأزهر

أشاد المشاركون في المؤتمر الدولي «تطبيق القيم القرآنية .. نحو الدراسات القرآنية التحويلية» بالعاصمة الإندونيسية جاكرتا، بجهود الرابطة العالمية لخريجي الأزهر في نشر صحيح الدين وترسيخ وسطية الإسلام، مؤكدين على دورها في التواصل بين الأزهر وأبنائه في كل ربوع العالم وإحياء الدور العالمي للأزهر ومنهجيته الوسطية .كما أكدوا على أهمية الأزهر الشريف في الحفاظ على هوية الأمة وتراثها والدفاع عن قيم الإسلام والوقوف في وجه حملات التشكيك والتشويه.

وشاركت الرابطة العالمية لخريجي الأزهر في المؤتمر، ونظمته جامعة «شريف هداية الله الإسلامية» بالتعاون مع فرع الرابطة باندونيسيا، برئاسة د. محمد قريش شهاب - مدير مركز الدراسات القرآنية - رئيس فرع الرابطة بإندونيسيا، حيث شهد افتتاح المؤتمر كلمة د. محمد عبدالفضيل القوصي عضو هيئة كبار العلماء نائب رئيس مجلس إدارة الرابطة، بعنوان «تفسير القرآن الكريم.. بين الحرفية والتأويلية»، ألقاه نيابة عنه د. محمد أبو زيد الأمير عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية رئيس فرع الرابطة بالدقهلية، كما شارك في المؤتمر عدة دول منها «ماليزيا، سنغافورة، استراليا، السعودية، ايران».

من جانبه أكد د. أبو زيد الأمير خلال المؤتمر أن الرابطة تستهدف الوصول إلى الآلاف من خريجي الأزهر في كافة دول العالم، و تعمل جاهدة على توثيق العلاقات معهم ومد يد العون لهم وذلك من خلال الأنشطة والفاعليات التي تقدمها لأعضائها، لنشر رسالة الأزهر العالمية الوسطية البعيدة عن العنف والتطرف.

كما أوضح د. محمد قريش شهاب، مدير المركز ورئيس مجلس إدارة الرابطة فرع إندونيسيا خلال المؤتمر أهمية محاولة تطبيق القيم القرآنية في المجتمعات الإسلامية المختلفة الثقافات، حيث إن هذه القيم هي الأساس الذي تبنى عليه المجتمعات الإنسانية.

وقال إن المؤتمر يرتكز حول مبدأ أساسي، وأن لكل شخص الحق في إبداء رأيه، ولكن احترام الرأي لا يعني قبوله أو العمل به.. مضيفاً أن مركز الدراسات القرانية يحاول دائما أن يتناقش مع الأخرين انطلاقا من المقولة المعروفة: يبقى الود ما يقى العناد.. وهذا تأصيل لمبدأ قبول الأخر.

وأشاد د.محمد زين المجد نائب رئيس مجلس إدارة فرع الرابطة بإندونيسيا بالجهود التي تقوم بها الرابطة العالمية لخريجي الأزهر في دعم أبناء اندونيسيا نحو ترسيخ منهج الوسطية، كما أشاد بالجهود العلمية المبذولة التي يقوم بها مركز الدراسات القرآنية في إندونيسيا حيث تخرج فيه العديد من الطلاب الذين حفظوا القرآن وعرفوا معانيه وانطلقوا إلى كل أنحاء إندونيسيا يعلمون الناس هدايات القرآن، ويأتي دور هذا المركز كمركز إشعاع القرآن يفيض على البشرية بالهداية.

شيخ الأزهر: على الغرب أن يحترم نظرة العرب والمسلمين لمنظومة حقوق الإنسان



استقبل فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر، السيد/ ستافروس لامبرينيديس - مبعوث الاتحاد الأوروبي لحقوق الإنسان والوفد المرافق له.

وقال فضيلة الإمام الأكبر: إن حقوق الإنسان مسألة متشعبة ليست في مصر فحسب، بل في العالم العربي وفي أوروبا أيضا.

وأضاف أنه لا يوجد هناك اتفاق بين الشرق والغرب على مفردات حقوق الإنسان، فهناك أمور كثيرة يعتبرها الغرب من صميم حقوق الإنسان ويراها الشرق العربي المسلم أمراضا معدية ينبغي التخلص منها، والعكس أيضا. وعلى الغرب أن يحترم عقائد العرب والمسلمين، وألا يفرض عليهم النمط والمنظومة الغربية. وهو ما لا يمكن قبوله أبدًا، وبدون حل هذه المشكلة سيبقى الصراع الفكري هو سيد الموقف.

وأضاف الإمام الأكبر: إنه لا يمكننا أن نتفق مع الغرب على الاعتراف بحقوق المثليين - على سبيل المثال -، فكيف يمكن أن نتفق على معايير محددة في تقييم حقوق الإنسان؟!

وهل يحق لنا في الشرق أن نصادر على الأوروبيين سنهم القوانين التي تحرم الكلام عن الهولوكوست؟!

إن مثل هذه المشاكل هي أساس الاختلاف في النظرة لحقوق الإنسان بين الغرب والعالمين العربي والإسلامي.

وأكد فضيلته أن الثورة المصرية ليست ثورة شباب فقط، وإنما هي ثورة شعب بأكمله، فلابد من الاعتماد على حماسة الشباب وحكمة الشيوخ، كما في أوروبا وأمريكا.

كما أوضح فضيلته للوفد أن الأزهر بذل ما في وسعه طيلة الفترة الماضية لجمع الشمل والمصالحة الوطنية الكاملة.

توضيح وتصحيح من «بيت العائلة المصرية»

نُشر في الصفحة الثالثة من صحيفة «المصرى اليوم» خبرا عن اجتماع مجلس أمناء بيت العائلة المصرية.

والخبر يحمل عدة أخطاء، أولها: هو العنوان «شيخ الأزهر والبابا تواضروس يجتمعان لبحث ترميم دور العبادة»، والثاني: عبارة خطة ترميم دور العبادة، والثالث: أن لجنة الشباب قدمت خلال اجتماع المشيخة (قبل ذلك بيومين) مقترحًا بتطوير المناهج الدراسية وحذف ما يحض على الكراهية والتأكيد فى الكتب الدراسية على المواطنة.

وتلك أخطاء فادحة تسيء إلى «بيت العائلة» وتضر برسالته وتشيع البلبلة حول قضايا الوطن ومصالحه، ويهمنا أن نصحح ذلك كما يلي:

أولًا: لم يكن الاجتماع الدورى لمجلس أمناء بيت العائلة المصرية لبحث ترميم دور العبادة، وإن كان أحد أهم نقاط جدول الأعمال كان توضيح ما تم تحصيله من مبالغ وردت للحساب ١١,١١١,١ والذى تأسس تحت رعاية بيت العائلة المصرية استجابة لطلب مجموعة من رجال الأعمال المصريين، الذين طلبوا رعاية بيت العائلة لهذه المهمة، واتفقنا على تحويل المبلغ النهائى إلى الجهة المطلعة بتنفيذ عمليات الترميم وهى وزارة الدفاع، وليس بيت العائلة.

والحقيقة أن الإخوة الصحفيين لم ينتظروا حتى نهاية الاجتماع حتى ينقلوا الأخبار الصحيحة، وقد عُقد مؤتمر صحفي، أعلنا أمامه نتيجة مناقشة هذا الأمر وقلنا إن الرصيد الذى تجمَّع فى الحساب رقم ١١,١١١,١ هو مليون وتسعمائة وواحد وتسعون ألفًا ومائتان وثمانية جنيهات، بالإضافة إلى مبلغ بالدولار يعادل ثمانية آلاف وأربعمائة وأربعين جنيهًا مصريًا (٨٤٤٠)، هذا كل رصيد الحساب المذكور.

ثانيًا: واستنتاجًا من أولًا، لم يناقش بيت العائلة خطة ترميم دور العبادة. فليس هذا من شأنه.

ثالثًا: أما مسألة ضبط الثقافة وتنقية مناهج التعليم من كل ما يمكن أن يحض على الكراهية بين أبناء الوطن الواحد على أى مستوى من المستويات، وضرورة التأكيد على المواطنة فى الكتب الدراسية، فإن هذا ليس شأن لجنة الشباب كما زعم كاتب الخبر، وإنما هى من صميم عمل لجنة التعليم التى تضم عددًا من أفضل خبراء التربية والتعليم من الوزارة ومن مراكز البحث القومية المصرية، واللجنة تعمل منذ فترة طويلة فى هذا الشأن وحين يكتمل هذا الملف -قريبًا إن شاء الله- وتوضع فيه الاقتراحات العلمية الصحيحة سوف يقدم لوزارة التعليم الوطنية لدراسته ووضعه موضع التنفيذ.

ولعل سبب الخلط فى هذا الخبر هو أن السادة الصحفيين قد انصرفوا بمجرد خروج فضيلة الإمام وقداسة البابا، ولم ينتبهوا إلى أن الاجتماع قد استمر وناقش كل جدول الأعمال، فجاءت عباراتهم انطباعية وغير معبِّرة عن حقائق ما نوقش.

وأخيرًا فإن بيت العائلة يكرر رجاءه ومناشدته السادة الإعلاميين والصحفيين من بينهم

ضرورة التثبت والتمحيص قبل إرسال الأخبار على عواهنها، تفاديًا لما يد
بلبلة وغموض، يضران برسالة بيت العائلة المصرية، وغيره من الهيئات الو
فى سبيل بناء مصر عزيزة رائدة كما كانت دائمًا.

الإمام الأكبر: أمن واستقرار مصر يجب أن تقف عنده كل منازع الفرقة والشتات

بحث فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب - شيخ الأزهر و السيد / عمرو موسى -رئيس لجنة الخمسين لصياغة الدستور- الأوضاع التى تمر بها مصر حاليا ومناقشة الخروج من تلك الأزمات بما يحقق الاستقرار والأمن للبلاد.

وأشاد فضيلة الإمام الأكبر بالجهود الوطنية المخلصة التى قام بها رئيس لجنة الخمسين من أجل خروج الدستور المصرى بصورة تليق بمصر وتاريخها العريق، مشيرا إلى أن مصر تمر بمنعطف تاريخي نحو تحقيق أمنها واستقرارها والحفاظ على مكاسب ثورتها، وهذا السقف يجب أن تقف عنده كل منازع الفرقة والشتات، وتتوحد تحته كل اختلافات التنوع والتكامل الذى تنشده لوطننا.

ومن جانبه أكد عمرو موسى أن الأزهر الشريف يمثل لمصر والمصريين قيمة كبرى، مشددا على احترامه وتقديره للأزهر وشيخه ودعمه الكامل لمواقف الأزهر ودوره فى نبذ العنف والإرهاب، وإعلاء قيم الإسلام كمنبر للوسطية شرقًا وغربًا، مؤكدا استمرار التواصل مع فضيلة الإمام الأكبر لتبادل وجهات النظر فى المرحلة المقبلة.

وفى ختام اللقاء قدم فضيلة الإمام الأكبر مصحف الأزهر الشريف هدية للسيد / عمرو موسى تقديرا لدوره الوطنى البارز.

الإمام الأكبر شيخ الأزهر: تشبيه القادة بالرسل لا يصح ولا يجوز

تردَّد فى وسائل الإعلام فى الأيام القليلة الماضية أحاديث لأحد أساتذة الشريعة فيها تشبيه للقادة السياسيين بالأنبياء والرُّسل، والأزهر الشريف يهيب بالمنتسبين إلى العلم والفقه عدم الاسترسال فى هذا المجال الذى يمسُّ نزاهة العلم والعُلماء ويُدخل الأنبياء والرُّسل فى مقارنة لا تصحُّ ولا تجوز؛ فمُقتضى العلم بمقام النبوَّة والرسالة أنْ ننأى بأنبياء الله ورسُله عن أى جدلٍ سياسى هم مُنزَّهون عنه باعتبارهم قادة الإنسانيَّة ورسُل الله إلى العالمين جميعًا.

شيخ الأزهر ينعى شهداء حادث فندق المدينة المنورة

نعى فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب، شيخ الأزهر، شهداء حادث حريق فندق المدينة المنوَّرة الذى وقع السبت ٨ فبراير ٢٠١٤، وتمنى فضيلة الإمام الشفاء للمصابين.

وكانت إمارة منطقة المدينة المنورة أعلنت أن الحريق وقع فى أحد الفنادق الواقعة شرق المنطقة المركزية فى الساعة ٢:٣٣ مساء أسفر عن وفاة ١٢ شخصاً، كما بلغ عدد المصابين نحو ١٣٠، معظمهم حالات اختناق، وذلك وفق الحصيلة الأولية.

الإمام الأكبر يستقبل المدير التنفيذى لمؤسسة إمديست - للتدريب والتعليم



استقبل فضيلة الإمام الأكبر أ.د. أحمد الطيب، شيخ الأزهر الشريف، السفير ثيودور قطوف الرئيس والمدير التنفيذى لمؤسسة إمديست للتدريب والتعليم.

وقد تناول اللقاء سبل التعاون بين المؤسسة والأزهر الشريف، والاستفادة من إمكانيات المؤسسة فى مجال تدريب الكوادر البشرية بالأزهر.

وقال السفير ثيودور: «إن مؤسسة إمديست تثق بالأزهر، وبدوره العالمي، وتتمنى أن توجد حالة من التقارب بين الشعوب، خاصة بين الشعبين الأمريكي والمصري، مقترحًا أن تقدم مؤسسته برامج تدريبية وتعليمية للأزهر، تركز على التواصل الفعال.

ومن جانبه قال فضيلة الإمام: «إن التواصل بين الشعوب والتلاقح الحضارى ضرورة يفرضها الواقع والتاريخ، فلم يعد بمقدور أحد أن يعيش بمعزل عن الآخرين، مطالبًا مؤسسة إمديست بتوفير برامج تدريبية متميزة تركز على الترجمة من الإنجليزية وإليها، لما يمكن أن تحدثه الترجمة من نقل الخبرات».

وأكد فضيلته أن الأزهر يطالب ويشجع على الحوار الحضارى، للتقريب بين الشعوب.

وفي ختام اللقاء شكر السفير ثيودور فضيلة الإمام والأزهر قائلا: «إن الأزهر يمثل لنا وللعالم صوت العقل والحكمة والأخوة الإنسانية».

أنباء العالم الإسلامى



للأستاذ أحمد رضوان

جامعة هارفرد الأمريكية تزين مدخلها بآية من سورة النساء

«جامعة هارفارد» الأمريكية هي أحد أقدم وأعرق جامعات العالم، وأكبر جامعة في العالم؛ من حيث عدد الخريجين والباحثين الذين حصلوا على جوائز «نوبل» وغيرها من الجوائز والأوسمة العلمية الأشهر عالميًا، وأكبر جامعة في العالم؛ من حيث مبلغ الوقف والمساحة والتجهيزات، وإحدى أصعب جامعات العالم في قبول الطلبة.

وضعت «جامعة هارفارد» الآية الكريمة رقم ١٣٥ من سورة النساء على الحائط المقابل للمدخل الرئيس لكلية القانون بالجامعة، وهو حائط مخصص لأهم العبارات التي قيلت عن العدالة عبر الأزمان.. كما وضعت الجامعة شرحًا للآية ومعناها، ولمحة صغيرة عن السورة التي وردت فيها..وجاء في الشرح المرفق بترجمة الآية القرآنية أنه كشف عن هذه الآية في «المدينة المنورة» بعد هجرة الرسول من «مكة» عام ٦٢٢م، وهي تؤكد أهمية الصدق في الشهادة.

الآية من سورة النساء، وكتبت الجامعة عن هذه السورة أنها تتعامل بشكل رئيس مع التزامات ومسئوليات المرأة في المجتمع الإسلامي، وتشرح أيضًا أصول الميراث وقانون الأسرة.

ونص الآية الكريمة:

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾

اكتشاف مقبرة جماعية بأفريقيا الوسطى

كشفت قوات حفظ السلام التابعة للاتحاد الأفريقي النقاب عن مقبرة جماعية في معسكر وسط العاصمة بانغي، حيث اكتشف أحد جنود القوة المقبرة أثناء دوريته، ويتزامن هذا مع الاتهامات التي وجهتها منظمة العفو الدولية لقوات حفظ السلام هناك بالفشل في منع التطهير العرقي ضد المدنيين المسلمين.

وقال مارك نجوما ويحمل رتبة ملازم في القوة «كنت في دوريتي هنا وشممت رائحة ورحت أفكر فيما إذا كانت رائحة حيوان أو شيء من هذا القبيل، لكن الرائحة كانت نفاذة جدًا، شممتها وقلت لنفسي إن حيوانًا صغيرًا لا يمكن أن يصدر رائحة بهذه القوة، وهذا ربما يكون شيئا خطيرًا. أبلغت قادتي الذين أصدروا تعليماتهم لي ببدء البحث، وعندما بدأت البحث وجدتها. أبلغت واستمرت العملية».





وفي حين نقلت رويترز عن شاهد عيان أنه رأى أكثر من ١٢ جثة في المقبرة، قال المدير المحلي للصليب الأحمر باستور أنتوني بوجو إن فريقه أكد وجود مقبرة جماعية في المعسكر، لكن لم يتمكن بعد من تحديد عدد الجثث، وأضاف أن فريقًا من الصليب الأحمر سيعود للموقع فيما بعد.



وتضم قوة الاتحاد الأفريقي في أفريقيا الوسطى حاليًا ٥٤٠٠ عنصر من أصل ٦٠٠٠ كان مقررًا انتشارهم، فيما يتواجد بالبلاد أيضا ١٦٠٠ جندي فرنسي.



ويتزامن اكتشاف المقبرة الجماعية مع الاتهامات التي وجهتها منظمة العفو الدولية لقوات حفظ السلام الدولية في أفريقيا الوسطى، بالفشل في منع التطهير العرقي ضد المدنيين المسلمين.

وقالت المنظمة إن قوات حفظ السلام الدولية لم تتمكن من كسر هيمنة المليشيات المسيحية المعروفة باسم (مكافحة بالاكا)، وتنشر قوات

كافية في المدن لحماية المجتمعات المسلمة المتبقية في البلاد.

وأضافت المنظمة أن فشل القوات الدولية في الانتشار بسرعة حول هذه المناطق لحماية المدنيين سمح للمليشيات بإثبات وجودها فيها؛ مما أدى إلى اندلاع موجة جديدة من العنف تهدد الآن بالانتشار إلى مناطق أخرى في جمهورية أفريقيا الوسطى.

وقالت مستشارة الأزمات في المنظمة (جوان ماريتر) إن الهجمات العنيفة التي تشنها المليشيات في محاولة لتطهير المسلمين عرقيًا أدت إلى نزوحهم من هناك بمعدلات قياسية.

وأضافت أن الوضع يتطلب ردًا فوريًا، وحان الوقت لكي تقوم قوات حفظ السلام الدولية في جمهورية أفريقيا الوسطى بحماية السكان المدنيين، والانتشار في المناطق المهددة، ووقف النزوح القسري ضد المسلمين.



رئيسة أفريقيا الوسطى تعلن الحرب على المليشيات التى تقتل المسلمين

في المقابل، توعدت رئيسة أفريقيا الوسطى سامبا بانزا بشن «الحرب» على مليشيات (أنتي بالاكا) التي تكشف تجاوزاتها ضد المدنيين المسلمين، مما يهدد بتقسيم البلاد.



وقالت بانزا أمام سكان مبايكي (٨٠ كلم إلى جنوب غرب بانغي) أثناء زيارة قامت بها برفقة وزير الدفاع الفرنسي جان إيف لودريان: «ستشن الحرب ضدهم»، في إشارة إلى مليشيات الدفاع الذاتي المسيحية أنتي بالاكا (ضد السواطير)، مضيفة: «إنهم يعتقدون أنني ضعيفة لأنني امرأة، لكن الآن فإن الأنتي بالاكا الذين يريدون القتل سيلاحقون».



وتشهد أفريقيا الوسطى دوامة من العنف الطائفي بعد استيلاء تمرد سيليكا السابق على السلطة في مارس/ آذار ٢٠١٣م بقيادة ميشال دجوتوديا الذي اضطر إلى الاستقالة يوم ١٠ يناير/ كانون الثاني الماضي، بعدما عجز عن احتواء أعمال العنف الطائفي غير المسبوقة بين المسلمين والمسيحيين.



ألمانيا: معلمو بافاريا يطالبون بالتوسع في تدريس الدين

في سابقة هي الأولى من نوعها، تقدم المدارسُ العامة الألمانية دروسًا في تاريخ الإسلام وتعاليمه لطلاب المرحلة الابتدائية، بالتعاون مع معلمين دربتهم الدولة، وباستخدام كتب تم تأليفها خصيصا لتساهم في حسن دمج المسلمين في المجتمع الألماني ومواجهة تزايد نفوذ الفكر الديني المتطرف.

وتقام هذه الصفوف في مدارس مقاطعة هيسة الألمانية، لتأتي جزءًا من إجماع شعبي متزايد، وعلى واجب ألمانيا إنهاء عقود من الإهمال، لتبدأ بالعناية بمواطنيها المسلمين، في سبيل تعزيز التناغم الاجتماعي، والتغلب على شيخوختها الديموغرافية، ودرء التهديدات الأمنية المحتملة والحاجة إلى مثل هذا التناغم في قمتها اليوم، بعدما تناقلت وسائل الإعلام الألمانية مقتل شابين ألمانيين اثنين من هيسة خلال الفصل الدراسي الماضي في سوريا، بعد استجابتهما مع غيرهما، لنداء الجهاد الإسلامي ضد نظام الرئيس السوري بشار الأسد.

هاتان الحالتان دقتا ناقوس الخطر في المجتمع الألماني، تحذيرًا من انقياد الشباب الألماني المسلم وراء المتشددين أولًا، ثم الخوف من عودتهم من سوريا إلى ألمانيا محملين بخبرة كبيرة في القتال والتفجير، اكتسبوها في ساحات الحرب السورية. وهذه ليست حال ألمانيا وحدها، بل حال العديد من الدول الأوروبية، كفرنسا وبريطانيا وأسبانيا والدول الإسكندينافية، التي تواجه تمدد التشدد الإسلامي بين ظهرانيها.

روسيا: افتتاح مصرف إسلامي في العاصمة موسكو

تم افتتاح فرع «مصرف أمل الإسلامي» للاستثمارات والتمويل بالعاصمة الروسية «موسكو»؛ لخدمة سكان «موسكو» من المسلمين وغير المسلمين الذين يريدون استثمار أموالهم وفقًا للشريعة الإسلامية.

وقال المتحدث باسم إدارة الشركة: إنه الآن ولأول مرة في «موسكو» يمكنك فتح حساب أو إيداع أو استثمار الأموال والربح حلال، من خلال المعاملات المصرفية الإسلامية، وتستطيع أن تنشئ حسابًا وإيداعات على المدى التراكمي أو إيداعات الطلب، كما يوجد استثمارات لأصحاب المعاشات والمعاقين بطرق حلال.

وجدير بالذكر أن الإحصاءات تدل على أن العائد على المنتجات الاستثمارية في مصرف «أمل» تتجاوز قيمة الودائع، وأنها فاقت البنوك العادية الربوية.

والجدير بالذكر أن مصرف «أمل» الاستثماري قد أنشئ في «قازان» بجمهورية «تتارستان» الروسية في فبراير ٢٠١١م، ليوفر مجموعة من الخدمات المالية والاستثمارية الأساسية، مع الامتثال الكامل لمتطلبات التشريعات والأنظمة الإسلامية.

ويدير المصرف الاستثماري لجنةٌ من خبراء المال وفقا للشريعة الإسلامية؛ من حيث رصد ومراقبة جميع التعاملات والاستثمارات داخل الموقع، والتأكد من أنها تتوافق مع الشريعة الإسلامية.

If the citizenship and all its rights are known to the West based on the ruins of the religion after the victory of the secularism upon the western church and thus becomes secular citizenship, but Islam is the one which establishes citizenship, and its Sharia is the one which stated its rights and thus guarantees the holiness of these rights , and also so as not to be a favor which can be permitted by a ruler and prohibited by the other. This is typically like what Allah's prophet said:" **whoever transgresses Allah's covenant and disobeys his prophet's charter , he is considered one among the liars".** By this way Islam states in the constitution of Al-Medina that the Islamic Sharia is the thing that guarantees the rights and duties of citizenship in addition to being the reference in any variation. This constitution states that " If there is any fight among the people of this constitution and are afraid of any corruption, it has to return back to Allah and to Allah's prophet Muhammad"

By this way Islam, as a religion, state, and civilization is very creative in achieving the full equality in the rights and duties of citizenship since fourteen centuries.. This was the time in which other countries and civilizations do not confess the presence of others. In Latina, citizens were the freemen and the owners and the nobles from Greece, while other such as the barbarians had no rights at all. However, this was the same in Rome, but Islam was the one which decided, legalized and applied the full equality between people and their honors and money and beliefs and freedoms. That's why; the doors were opened before the different denominations and doctrines so that they contributed in the establishment of the Islamic civilization and making the Islamic history.

Since the prophetic Sunna is the prophetic interpretation to the Quran, also these prophetic covenants which legalized the rights and duties of citizenship are "prophetic saying" which, through application, is converted to "practical Sunna". With this prophetic sunna, there is no place for any contradictory diligence regardless the position of the person who invents this diligence. Islamic history has witnessed different opinions concerning the Non-Muslims in the Islamic societies, and many of these opinions were results to political circumstances and external risks. But still the Islam will be Allah's Book and the Sunna of his prophet (may the blessings and Peace of Allah be upon him) in which we will find the rule of justice in the issue of citizenship and patriotic unity, that is stated by Islam.

religious belief, in addition to the inevitability of acceptance of her parents. Within the era of Allah's prophet, it was stated to Nagran's Christians about this marriage that:"**They never marry someone they do not need, and the parents of the girl can never be forced to accept marriage with the Muslims, and this can never happen except if they accept it kindly, and if they love him and are satisfied with him. If the Christian wife lives with the Muslim, he has to accept her being Christian and to agree to let her follow her models and to apply the features of her religion, and he does not have to prevent her from doing this. Whoever disobeys this and forces her to do something from his religion is considered a disobeyer to Allah's covenant and disobeys his prophet's charter and, to Allah, he is considered from the liars**"

Not only this but the Islamic equality for the non-Muslims when they are in need for building and repairing their churches that to be helped by Muslims maximum; this was stated in the prophetic charter and covenant: "**If they need to repair their places or any of their interests related to their life or their religion or any kind of support or subsidization from the Muslims, they will find the Muslims doing this without considering it a debt against them, but a kind of support to the interest of their religion and a kind of loyalty with the covenant of Allah's prophet to them and a favor from Allah and his prophet upon them**" Even the financial and economical issues such as land tax and other taxes, the Prophet's covenant to Nagran's Christians states that " **We will never be against them and they will never be forced to do something that exceeds their force and energy for the work within the land, and they don't have to be extra charged, besides the owners of the lands are not permitted to assign them work more than others who are like them**"

All the rights of equality in citizenship that is stated by Islam for the non-Muslims in the Islamic state "**They have to take what the Muslims take, and pay also like them. In addition to the protection of themselves, their lives, their money, their honor, and the places of worship and the freedoms**", can be considered the price of the total devotion to the motherland and the full belongingness to the society and the state and the nation. These are the duties that are imposed upon all the citizens whether Muslims or non-Muslims. In the confirmation of these duties, the covenant of Allah's prophet (may the blessings and Peace of Allah be upon

him) states that: " **And to impose upon them some issues that , according to their religion, they have to stick to and to be loyal to whoever takes the covenant with them. Among these is the fact that they don't have to be spy to people who are in fight with the Muslims and they don't have to help them against the Muslims whether with weapons, horses, or fighters , and to protect the secrets of the Muslims**".

Similarly, the covenant of Allah's prophet (may the blessings and Peace of Allah be upon him) to the Christians concerning the religious freedom:" **None of them who embraces Christianity is forced to embrace Islam**(((*And argue not with the people of the Scripture (Jews and Christians), unless it be in (a way) that is better (with good words and in good manner, inviting them to Islamic Monotheism with His Verses), except with such of them as do wrong; and say (to them):'We believe in that which has been revealed to us and which has been revealed to you ; Our Ilah (God) and your Ilah (God) is One (i.e Allah), and to Him we have submitted (as Muslims)'(Surat Al-Ankaboot, Verse 46)*))) and to have pity upon them and to avoid them any misfortune whenever they are within the state".

This full equality regarding freedom and its duties "**they have to take like the Muslims , and to pay like them, and the Muslims also have to pay like them to the extent that they become partners in what they have to take and what they have to pay**". The Islamic state does not stop to the People of the Book (Jewish and Christians) only, but it also includes those who embrace other positive religions such as Magianism and others. Indeed, after the conquest of Persia, the caliph Omar Ibn Al-Khattab offers this issue to the people assembly (assembly of seventy) and said we know how to deal with the Jewish and the Christians. So what about the Magianism? Then Abd Al-Rahman Ibn Ouf answered saying: "I swear that I heard Allah's prophet when he said (Deal with them the way you deal with the people of the Book)".So, the Islamic state throughout its history dealt with the people of the positive religions such as the Magians, the Zoroastrians Buddhists and Hindus the same way they deal with the people of the Book with the same rules and concepts that are stated in the charter of Allah's prophet (may the blessings and Peace of Allah be upon him) to the Non-Muslims in the Islamic state.

The Islamic concept for citizenship...!

By: Dr. Muhammad Imarah

Editor – in – Chief of Al-Azhar Magazine.

Citizenship it is the reaction between man, the citizen and the homeland to which he belongs and in which he lives. It is a relation of reaction as it arranges for both sides their rights and duties. So for the rising of citizenship, the citizen's devotion and belongingness must be totally to his homeland, he must also respect his identity, believe in it, belong to it and support it by all the aspects of its identity such as the consonants to the language, the history, the values and general morals, and the land which represents the container of the identity and the citizens.

The devotion of the citizen to his homeland requires the clearance from the enemies of this homeland. Similarly, as the homeland has these rights upon the citizen, also this citizen has many rights upon his homeland, people, and nation. The most important upon these are the equality in opportunities, and the absence of discrimination in political, social, and economical rights as a result of color, class, and belief, in addition to the achievement of social solidarity that makes the nation and the people one whole.

If the western civilizational development didn't know the citizenship and its rights except after the French revolution because of the discrimination on the base of religion (between Catholics and Protestants), and the base of race (as a result of national wars), and the base of sex (as a result of discrimination against women), and the base of color (in the discrimination against colored people), the full complete citizenship has been connected with Islam and the establishment of the early Islamic state in Al-Medina in the time of Allah's Prophet (may the blessings and Peace of Allah be upon him). Man, from the Islamic point of view is the absolute man, and the divine honor is to all human beings, and the Quranic discourse is mainly directed to general people, and the criterias of differentiation is only according to piety with its open doors before all. The Islamic state has put the philosophy of citizenship in the practice and application, and is legalized by the

charters and the constitutional covenants since the first moment of the establishment of this state in the first year of migration. In the first constitution of this state, the nation is established upon the idea of religious multiplicity, and they have to have support and equality in addition to the righteousness from the people of this agreement. They also have to be with the believers since they are fighters. Jews have to pay their expenses and the Muslims also have to pay their expenses, besides they have to achieve victory against those who fight the people of this agreement, in addition to the fact that they also have to exchange advice and righteousness without any faults. This is the way in which the idea of citizenship has been established through the Islam, and within the Islamic state in which the nation unifies the people of multiple religions, on equal basis for the first time in the history.

When the relations began between the authority of the Islamic state – in the era of Allah's prophet (may the blessings and Peace of Allah be upon him)- and those who embrace Christianity (Nagran's Christians in 10 A.H), the Islamic state decides for them the full and total equality in the rights of citizenship and its duties through the covenants and charters in which the slogan was :" They have all rights typically like the Muslims , and have to all the duties like them ".The covenant that Allah's prophet writes to Nagran's Christians and to all Christians throughout time and place states that "**For Nagran and its relatives, and all those who embrace Christianity all over the earth, they are within the protection and care of Allah and under the protection of Allah's prophet in their money, themselves, their religion , their churches and synagogues, and all what they own, I have also to protect them and their churches and their commerce and their houses of prayers and the places of monks and tourists. Besides, guard their religion and denomination typically like the way I do with myself and my people and all the Muslims. This is because I gave them Allah's covenant and for them like that for the Muslims and also they have to pay like the Muslims. And also the Muslims have to pay like them to the extent that they become partners in what they take and what they pay".**

When Islam permits the marriage of the Muslims with the Devine book people wives whether the Jewish or Christian, this was based on the full respect to her

The References

- Tradition and the Challenges of the Era in the Arab Nation, by Hassan Hanafy, a research written by a group of authors among the researches and discussions of the intellectual seminar, the center of the studies of the Arab Unity, Beirut, 1985 A.C.
- The Interpretation of Al-Manar, by Muhammad Rashid Reda, (1345 A.H.), Dar Al-Ma`refah, Beirut.
- Report on the trip of Al-Azhar envoy to Indonesia from the 17th of January to the 17th of February, 1961, very confidential, a copy written by the typewriter, kept at Prof. Mahdi Shaltut.
- Reality and illusion in the contemporary Arab movement, by Fu'ad Zakariyya, (1431 A.H.), Dar Al-Fikr for the Studies, Publications, and Distribution, Cairo, 1986 A.D.
- Religion and National Culture, by Hassan Hanafy, Madbuli Library, Cairo, 1988 A.D.
- The soul of modernism is the entry to the establishment of the Islamic modernism, by Taha Abdul Rahman, the Arab Culture Center, Morocco, 2006.
- The Islamic Wakefulness in the Balance of Mind, by Fu'ad Zakariyya, (1431 A.H.), Dar Al-Fikr Al-Mu'aser, Cairo, 1987.
- Al-Hayah London Newspaper, dated 6/1/1993 and 10/3/1993.
- Philosophy in the contemporary Arab Nation (researches of the first Arab philosophic conference), the center of the studies of the Arab unity, Beirut, 1987.
- In our contemporary thought, by Hassan Hanafy, Tunisia edition, January, 1981.
- The Islamic Leftist, by Hassan Hanafy, Tunisia edition, 1981.
- The Cultured Arabs and Tradition, the psychological analysis of the group, George Tarabishi, Dar Riyadh Al-Rayyis, London, 1991.
- Collection of Fatwas, Taqi Al-Din Ahmad ibn Taymiyah Al-Harany, (728 A.H.), edition, Dar Al-Wafa, Al-Mansura, edition, 3, 1426 A.H./2005 A.H.

language."[6] However, the professor did not keep silent, he used the words of the language to say what he wants to say about Allah positively and negatively, and I wish that he kept silent.

It seems also that the new philosophy in believing in Allah was behind the perception of the project of tradition and innovation. This perception extended to be no perception, and the meaning of monotheism became void of any content. It is filled and evacuated according to the priorities of the real state of affairs.

The word "Allah" can express tension, strain, existential cry, a state of consciousness, a wish that had hardly be attained, a piece of bread from the point of view of the hungry, love in the conscience of the deprived, or anything else apart from the real concept, which is Allah (Glory be to Him), in the meaning came with the Heavenly religions.

This following text has been mentioned in the project of tradition and innovation: "The word "Allah" expresses a requirement or demand, i.e., it is an existential cry more than a meaning that can be expressed by a linguistic word with a perception from the mind.

What we seek and can not attain is also in the popular feeling is Allah, as the hungry regards Allah as the bread, the slave regard Him as freedom, the oppressed regarded Him as justice, the emotionally deprived person regards Him as love. Also, the suppressed regards Him as satisfaction, and the society which comes out of superstition is knowledge, and in another society which comes out of retardation is progress. If Allah is the One Who sets the basis of our existence and preserve us, He is the goodness, food, will, freedom, power, equipment, and preparation."[7]

It seems that we face in this text a type of ill imagination that can not be driven from the scientific facts and these imaginations are out of the borders of science, and can not be discussed on the basis of proofs, and will remain an expression or reflection of emotions and delusions of the one who said them.

As for the mistake of speaking about the Divine Entity, it is caused in the philosophy of innovation by the fact that the word "Allah" is a word that can bear extensive meanings. Allah is the Legislator in the fundamentals of jurisprudence, the All-Wise in the fundamentals of religion, the First Existent in philosophy, and the One in Sufism.

---

[6] M.N: 87, and see also: Tradition and Innovation, Hassan Hanafy: 127, and the next page.

[7] M.N: 130

what is wanted to be passed to the reader. The following is what is wanted to be introduced:

First: The Divine "Entity" can not be depicted or realized, as it can not be pointed to. Allah is understood without 'what confirms that' as the author expresses. As Allah, according to what is determined in the tradition, is not identified in a certain time or place, thus it should not be a subject for science.

Second: Speaking about the Divine Entity can not be possibly done linguistically, as the human language can not express depictions, realizations, or human meanings.

As for the first matter, the professor pretends to have forgotten – perhaps intentionally – what is determined by logic, as the elements of the subject of science may not exist outside. In spite of this, science relates to it and can be judged. Except for depicting the subject – even if in a certain way – it could not be judged negatively or positively. If logic determines this for the nonexistent, how the professor denied in the name of logic "the Necessity of Existence" as a subject for science?

The professor should undoubtedly know that the concept of the "Necessity of existence" or Allah is a general concept, and what is true is outside our intellect or heritage, and as is known for him, is more general than the material exterior[2]. Allah actually exists and His Existence is verified. This Existence is undoubtedly well-known, and this is the first origin on which tradition depends wholly, and we agree with the professor on the idea that the Sacred Entity is not subject for any type of realization, but the professor does not agree with the Muslims in general formerly or recently in the idea that Allah (Glory be to Him) with His Attributes and Names is a subject for science and faith.

The professor had to explain to us what to do with the Divine speech in the Noble Qur'an:

{So know (O Muhammad peace be upon him) that, Lâ ilâha illallâh (none has the right to be worshipped but Allâh)}

[Muhammad: 19)

Does the Noble Qur'an ask us to know that Allah is the Deity, then the project of tradition and innovation denies this knowledge?!

The professor proceeds to say: "If Divinity can not be depicted or realized, then it can not be referred to that it can be believed in or

[2]Al-Isharat wal Tanbihat, Ibn Al-Tusy: 1/14, verified by our Sheikh Saliman Dunia.

verified through knowledge."[3] It is clear from these texts and other texts which we will not state in detail that the professor mixes intentionally or unintentionally between the Entity, the Names and Attributes and the perception and realization[4], then he mixes between the realization of an issue in the logical issue and its perceived existence. There is no way to mix these matters in our rational tradition, and this indicates the alienation of the professor in the field of tradition.

We will consider a new contradiction, in which he declares the impossibility of speaking about Allah (Glory be to Him), as he says: "If the Divine Entity can not be perceived, realized, or pointed to, that we can not speak about Him or expresses anything about Him. How can a person express something that he can not deal with or he can not find a formula to express? Thus, speaking about the Divine Entity is a mistake in the perception of the linguistic function."[5]

Our comment on this claim does not exceed demanding the professor to apply his rule on himself. If speaking about Allah at the light of this rule is a mistake from the linguistic perception, then his speech about Allah and writing a huge volume in 670 pages entitled "Monotheism is a Real Mistake" is liable to the same standards he set formerly. We ask him to refuse this rule in all the rulings and speech about Allah.

We ask ourselves: How did the professor consider speaking about Allah wrong and he regarded it logical if we do not assume formerly the possibility of rendering Allah a subject for knowledge? Our professor does not find it wrong to accept the objectivity of knowing Allah, as denying the subject resulted from this. He also might refuse what he had previously accepted if the same subject was proved.

It seems that the professor felt this type of objection, and instead of reviewing his judgments in the light of this objection, he pushed the whole issue in a new maze. He concluded that silence is the language that can express Allah: "The language of silence may be the best language to be used to express the Entity of Allah, to flee from the issue of

[3] From creed to the revolution: The theoretical introduction, Hassan Hanafy: 85. We draw the reader's attention to something like the game of the skillful jugglers with regard to the formulation of this text, as the professor handles Entity (which is in Arabic a feminine word) while the words and rulings he used refer to masculine pronoun. This achieves a manifested objective targeted in these lines. Then, he indicated in the draft that the word "entity" may be used to as masculine or feminine such as the word "spirit" (Ruh). He uses the word "Entity" to introduce to the reader the denial of knowing Allah (Glory be to Him). Then he used the masculine pronouns instead of the feminine pronouns to express the issue he wants to handle.

[4] Al-Isharat wal Tanbihat, Ibn Sina, explained by Al-Tusy: 3/7

[5]From Creed to Revolution, by Hassan Hanafy: 87.

Tradition and Innovation:

-10-

"THE LAST ESSAY"

"The Pioneer of: Tradition and Innovation interprets atheism as a concept that belongs to a practical standard and not to a theoretical standard, and atheism as known by the Westerners leads to goodness more than to faith"

By: The Grand Imam Prof-Dr. Ahmad Al-Tayyeb, Al-Azhar Sheikh.

Tradition and Innovation interprets atheism as a concept that belongs to a practical standard and not to a theoretical standard, and atheism as known by the Westerners leads to goodness more than to faith. Atheism managed there to eliminate the legend and unseen in the European thought. This is what is called "goodness" in the concept of tradition and innovation, which we should seek through innovation. There is nothing wrong with atheism as long as it achieves the interests of the real state of life such as liberating the earth, manufacturing, and earning one's living.

One of the sayings of the professor which exceeded all limits and can never be accepted is the justifications of his reversed theory: "Faith is in our heritage does not have the importance of work, as this saying is completely opposite to what is states in our tradition. It is taken for granted in our old tradition that faith is the origin and basis of everything and it is not a controversial matter among the Muslims. As for work, there is well-known controversy in its relation with faith.

Whatever this controversy is, the matter over which there is no controversy is that work has no value if it does not depend on faith. It may have a great value on the level of the material worldly interest, but who said that Islam regard only the material worldly interest, so that atheism which achieves the interests attains this value which the professor associates to heritage?

We may read his explicit text: "Although faith and atheism in the standards of our old tradition and our contemporary life is a practical

and not theoretical standard, it is stated in our old tradition that faith is not important in the way work is important. It is known in our contemporary life is that whoever observes the issues of the time, contributes in the revolutions of the peoples, tries to liberate the land, feeds the hungry is a real believer.

This is the faith of the cultured and revolutionists, and the faith of progress and the peoples' interests. Thus, the European atheism is the real faith, as atheism led to goodness in Europe more than that was caused by faith. Through atheism, the legendary matters and matters of the unseen in the European thought are rejected. Thus, life became better than death and the worldly life better than the Afterlife.

The human being is considered more than acts that bring one closer to Allah. In our contemporary life, we see that the people whom we accuse of disbelief and atheism help us in liberating the land, manufacturing, and feeling reassured for the source of earning one's living."[1]

This is completely refused, as the believer in the tradition is the one who believes in Allah, His angels, Books, Messengers, the Last Day, and destiny. Innovation in this concept is destruction for this whatever the titles invented for it are.

The standards of belief in Islam, as known by the professor, were defined by the Qur'an and the Sunnah, and they are not, fortunately, liable to the standards of the revolutionists, whether they are cultures, workers, farmers, and folks, and the revolutionists have the right to believe in what they want and disbelieve in what they want. However, it is foolish to impose of the people a type of belief that is not known by the people, but they deny it extremely.

Impugning Divinity with the claim that it is not depicted by logic and can not be expressed in language:

Within the framework of the mistaken methodology used by tradition and innovation in breaking the bonds of our tradition, this project's texts present sharp contradictions about the most sacred entity in tradition. I mean here Divinity, when he reveals that the Divine Entity can not be depicted from one side of spoken about from the other side.

From the very beginning, we should not be deceived by the word "Entity" which follows the word "Divine" in the texts of the professor, as all the texts – whether in denial or approval – focus on knowing Allah. As for the word "Entity", it is carefully selected as a cover to introduce

[1] In Our Contemporary Thought, by Hassan Hanafy, p. 70.

deeds by which he supported Islam were great that he generously spent a lot of his money during Tabuk Battle, which was called by Allah (Glory be to Him) the invasion of hardship, as He said:

{Allâh has forgiven the Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him), the Muhâjirûn (Muslim emigrants who left their homes and came to Al-Madinah) and the Ansâr (Muslims of Al-Madinah) who followed him (Muhammad peace be upon him) in the time of distress (Tabûk expedition), after the hearts of a party of them had nearly deviated, but He accepted their repentance. Certainly, He is to them full of Kindness, Most Merciful.}

[Al-Tawbah (Repentance): 117)

The Messenger of Allah called the Muslim people to go out to the place he specified, and ordered the Muslim people to spend money on the army. He urged them to prepare the necessary camels, horses and other riding animals. They brought a great deal of money, and `Uthamn supplied one third of the army with nine hundred and fifty camels and fifty horses.

Ibn Ishaq said: "`Uthman spent generously like no one else. It was said that `Uthman brought one thousand dinars to supply the army of the battle of distress and scattered them on the Messenger's lap (may the blessings and peace of Allah be upon him).

He bought Rumah Well by twenty thousand dirhams from a Jewish man, and he gave it to the Muslims after the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) said: "Whoever provided the Muslims with Rumah Well will be promised of Paradise."

The Prophet's Mosque at the time of the Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him) was built of adobe, its roof was of

palm branches, and its columns of the palm wood. Abu Bakr did not add anything to it, and `Umar ibn Al-Khattab extended it from adobe and its roof was of palm branches, and its columns of the palm wood. `uthman changed it and extended it excessively and had its walls built from engraved stone and silver, its columns from engraved stone, and its roof of teak. Its doors were six as it was during the time of `Umar (may allah be pleased with him).

When the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) went to Al-Hudaibiyyah in the sixth year of Hijirah on his way to Makkah to perform `Umrah and sent `Uthman ibn `Affan to Quraysh and said to him: "Tell them that we have not come for fight, but we have come to perform `Umrah." However, Quraysh detained `Uthman and he delayed in returning to the Muslims. The Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him) was anxious, especially when it was circulated that he was killed. He called to the pledge of allegiance, and those who were with him pledged allegiance to him under the tree not to flee. It was called the pledge of Al-Ridwan.

During his era, the caliphate was extended and Islam spread in its regions and included many countries whose inhabitants do not speak in Arabic. Among the conquests which took place during his era: Marw, Turkey, Armenia, Khurasan, Kerman, Sajistan, Africa, and Cybrus. He established the first Islamic naval fleet, and one of its achievements was the collection of the Noble Qur'an, which was started to be collected during the era of Abu Bakr Al-Seddiq. He collected the Nobel Quran in the language of Quraysh.

After he emergence of many recitations and the spread of different dialects, it was feared that the Qur'an would differ. He ordered to rewrite the Qura'an and produced what was called the Mushaf of `Uthman or Al-Mushaf Al-Imam. He ordered to burn the other Mus-hafs which were written in different dialects.

The third Caliph, `Uthman ibn `Affan, Dhun Nurayne, (may Allah be pleased with him)

By: Dr. Ibrahim Al-Assil

By whom Allah protected the Noble Qur'an.
The Islamic caliphate extended during his era to the largest extent after it owned a great naval fleet.
The citizens of the Islamic chaliphate at that time amounted to two thirds of the inhabitants of the earth.
Allah granted him a huge fortune from his trade.
Among his prominent characteristics are shyness, love of the weak, orphans, poor, and needy. He spent most of his fortune on them and on the development of the caliphate.

* * * * * * * * *

`Uthamn ibn `Affan, the third Guided Caliph (47 B. H. – 35 A.H.) (577-656 A.C).

He was born in Makkah and one of the nobles and well-known people in the pre-Islamic era. He is one of the ten people promised of Paradise and of the earlier people who embraced Islam. It was narrated about his embracing Islam that; as he and Abu Bakr As-Seddiq (may Allah be pleased with him) were close friends, Abu Bakr As-Seddiq (may

Allah be pleased with him) called him one day to embrace Islam saying: "Woe to you `Uthman, I swear by Allah (Glory be to Him) that you are a prudent man, who distinguishes right from wrong; are not the idols which are worshipped by your people mere stone that do not hear, see, harm, or benefit? He said: Yes, they are. Abu Bakr said: This is Muhammad ibn `Abdullah, whom Allah sent with His Message to all His Creatures; may you come to him to listen to him? He said: Yes.

The Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) passed by them as if he had an appointment with them. He addressed `Uthman saying:"O `Uthman, respond to Allah's call to His Paradise, I am the Messenger of Allah to you and to all mankind." `Uthman (may Allah be pleased with him) said: "By Allah, when I heard what he said, I embraced Islam, and I witnessed that there is no God but Allah and that Muhammad is Allah's Slave and Messenger."

`Uthman ibn `Affan is called Dhun Nurayne because he married two of the Messenger's daughters: Ruqayyah and after her death, Um Kulthum.

`Uthman (may Allah be pleased with him) was the first to immigrate to Abyssinia to protect Islam and Muslims from the oppression of the disbelievers of Makkah. The Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) loved, trusted, and honored him due to his shyness, good manners, kindness, and generosity as he spent most of his fortune on supporting Islam, Muslims and development of caliphate.

The Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) gave him the glad tidings of Paradise along with Abu Bakr, `Umar, `Ali, and the rest of the ten people promised Paradise. The Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) informed him that he will attain the rank of martyrdom. Among his

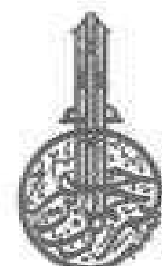
الأزهر

حدث في جمادى الأولى

المصدر: موقع قصة الإسلام

AL-AZHAR MAGAZINE

Jumadal-ola, 1435 A.H



ENGLISH SECTION

March, 2014

In the name of Allah the Beneficent the Merciful

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾

الأعراف/ ٤٣

"Praise be to Allah, Who guided us to this; and in no way could we have been guided, unless Allah has guided us."
(Al-A'raf 43)

Editor: Dr. IBRAHIM Al-ASSIL
Professor at the Faculty of Languages and Translation.
Al-Azhar University.



الأزهر

تقرأون في جمادى الآخرة

الافتتاحية

خطأ التاريخية وخطرُها

أ.د. محمد عمارة

تفسير القرآن

للإمام محمد عبده

معايير الترجيح

بين الأقوال في فقه الأولويات

أ.د. جاسر عودة

علم اجتماع الصلاة

د. أحمد خيري العمري





هدية العدد

حوار الإيمان والإلحاد

لفيف من المفكرين والعلماء

دراسة وتقديم أ.د. محمد عمارة

سعر النسخة
جنيهان

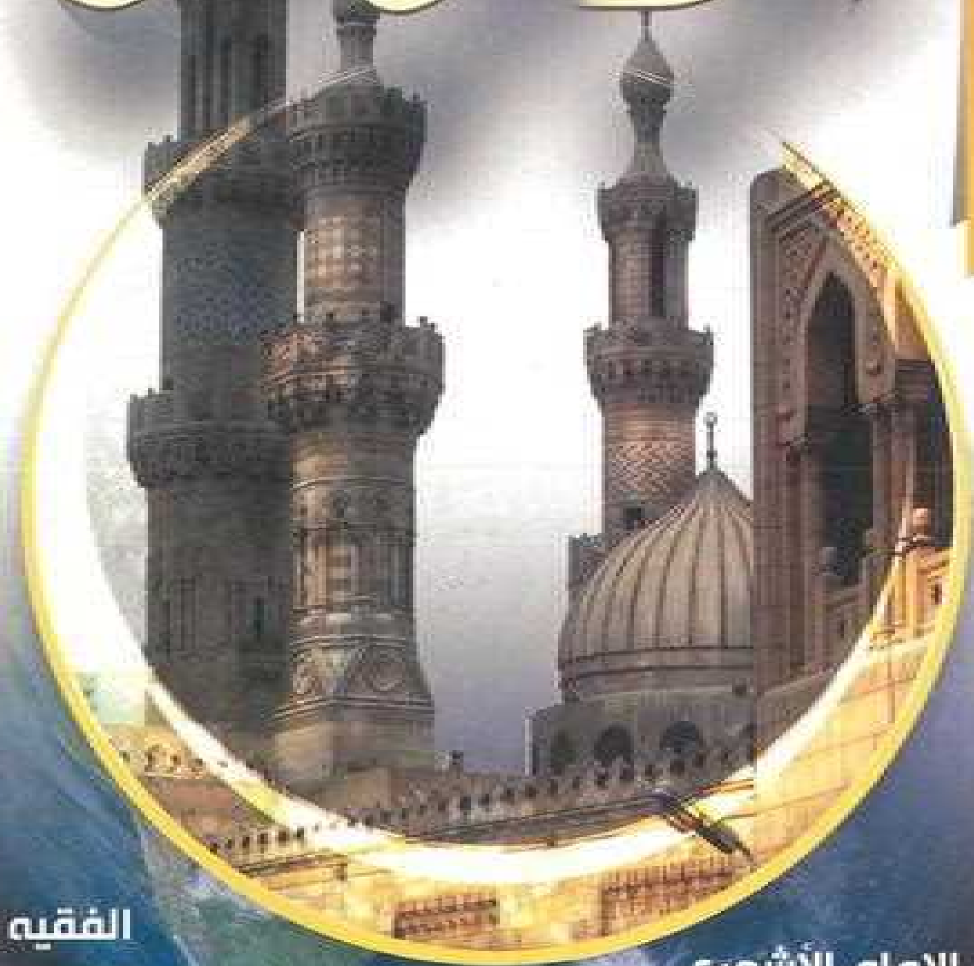
www.AlazharMag.com

الأزهر

جمادى الآخرة

هدية العدد

حوار الإيمان والإلحاد



مأزق الفقيه والمثقف في زمن الحداثة

أ.د. إبراهيم البيومي غانم

نظرات في فكر الإمام الأشعري

أ.د. أحمد الطيب

الافتتاحية — أ.د. محمد عمارة

خطأ التاريخية وخطرها



... توت



أ.د. رجب ... البيومي



د. مصطفى محمود

... شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية جمادى الآخرة ١٤٣٥هـ - أبريل ٢٠١٤م الجزء "٦" السنة "٨٧"





﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾



الأزهر

مجلة شهرية جامعة يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
بالأزهر الشريف في مطلع كل شهر عربي
صدر العدد الأول في المحرم عام ١٣٤٩هـ / ١٩٣١م
وحمل اسم «نور الإسلام»
وترأس تحريرها فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين





الاشتراك السنوي

داخل مصر ٢٤ جنيهاً مصرياً - الدول العربية ٥٠ دولاراً أمريكياً
أوربا وأمريكا ٨٥ دولاراً أمريكياً - اليابان وشرق آسيا ١٢٠ دولاراً أمريكياً
عن طريق قسم الاشتراكات بمؤسسة الأهرام
شارع الجلاء - القاهرة
ت: ٢٥٧٨٦١٠٠ - ٢٨٧٥٦٢٠٠

المراسلات باسم:

مدير التحرير - مجمع البحوث الإسلامية - مدينة نصر
ت: ٢٢٦٣٨٥٩٩

editor@alazharmag.com
readers@alazharmag.com

• الافتتاحية •

خطـــأ التاريخيـــة وخطرُها



لفضيلة الأستاذ الدكتور محمد عمارة
www.dr_emara.com

«التاريخية» Historicism: نزعة تضفي النسبية والزمنية على الحقيقة، وتربطها بتاريخها وزمنها، رافضة أن تكون للحقائق- كل الحقائق- أية عمومية أو ديمومة أو إطلاق أو خلود، مُعمِّمة هذا الحكم على كل ألوان الحقائق، بما فيها الحقائق الدينية- بل وخاصة الحقائق الدينية- بما في ذلك «العقائد» و«القيم» و«الأخلاق». أي أنها تسوى بين حقائق الدين والعلم الإلهي وبين معارف الإنسان، ومن ثم فهي تنكر وجود «ثوابت للهوية»، بل وتُشكك في وجود الهويات من الأساس!

ولقد بدأت هذه النزعة- في فكر التنوير الأوربي الوضعي- عند الفيلسوف الفرنسي «فولتير» Voltaire «١٦٩٤- ١٧٧٨م» والفيلسوف الإيطالي «فيكو» Vico,G. «١٦٦٨- ١٧٤٤م» كجزء من سعي فلسفة التنوير الوضعية إلى نسخ الإطلاق الديني واللاهوتي، وإحلال العقل والعلم والفلسفة محل الدين والكنيسة واللاهوت، أي إحلال النسبي محل المطلق. ولقد نجحت هذه النزعة، عندما سادت في فكر النهضة الأوروبية Renaissance في إحالة الثوابت الدينية النصرانية إلى «الاستيداع»! فغدت هذه الثوابت- بنظر فلسفة التنوير الوضعي- لونا من «أساطير الأولين»!

وإذا كان جوهر هذه النزعة ومقصدها الأساس هو إقامة قطيعة معرفية كبرى- ومن ثم عملية- مع الموروث الديني، وتحرير العقل والمجتمع من حاكمية الدين، فسيان سميت هذه النزعة: «تاريخية» أو «حداثة» أو «علمنة» أو «ليبرالية» فإن النتيجة واحدة، وهي إقامة القطيعة المعرفية الكبرى مع ثوابت الدين، وعزل السماء عن الأرض، وجعل العالم والواقع والعقل والتجربة هي المرجعية الوحيدة للحياة الإنسانية دون الدين، وإحالة الدين إلى «مستودع التاريخ»!

وفي تعريف غربي لهذه النزعة التنويرية الوضعية، يقول الباحث الفرنسي «إميل بولا» عنها وعن القطيعة التي تقيمها مع الدين واللاهوت: «كان المسيحي الناتج (أو المتولّد) عن حركة الإصلاح البروتستاني حريصًا- على المستوى الديني- على عدم تقديم الطاعة إلا لله وكتابه، لا لكهنته ولا لخليفته (أي البابا). وأما الآن- (أي مع التنوير)- فقد تم اجتياز عتبة ثانية: فلم يعد الإنسان يخضع إلا لعقله الذي يستطيع أن يحاكم الأشياء بذاتها.. إن هذه الإيديولوجيا، التي كشفها عصر التنوير للعالم، والتي تضاد المسيحية عن طريق الخروج منها، هي الأم، بمعنى أن كل ما يتفرع عنها يتولد عن تطويراتها وتناقضاتها، دون أن ينقض القطيعة الإبستمولوجية الكبرى التي تفصل بين عصرين من الروح البشرية: عصر الخلافة اللاهوتية للقديس «توما الإكويني» (١٢٢٥- ١٢٧٤م)، وعصر الموسوعة لفلاسفة التنوير. فمنذ الآن فصاعدا راح الأمل بمملكة الله يتزاح لكي يخلي المكان لتقدم عصر العقل وهيمنته.. وهكذا راح نظام النعمة الإلهية ينمحي ويتلاشى أمام نظام الطبيعة، وانتهى عهد التعالي العمودي لكي يحل محله عهد المحسوسية والعلاقات الأفقية والحدية.

لقد أصبح الإنسان وحده مقياسا للإنسان، وأصبح حكم الله، والسلطات الدينية التي تنتسب إليه، خاضعا لحكم الوعي البشري الذي يطلق الحكم الأخير باسم الحرية، هذه الحرية التي تمثل مكسبه الجديد.. غير القابل للنقض أبدا»[1]. فهذا التنوير الوضعي، بكل إفرازاته وتجلياته، ومنها «التاريخية»، قد مثل «القطيعة المعرفية الكبرى» مع الدين، وأحلّ العقل والتجربة محَل الدين واللاهوت.



ولقد وفدت هذه النزعة إلى الشرق الإسلامي ضمن الوافد التغريبي، الذي جاءنا في ركاب الغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة، التي تسلحت- مع المدفع- بفكر عصر التنوير الأوروبي،

(1) هاشم صالح- مجلة «الوحدة»- المغرب- عدد فبراير- مارس سنة ١٩٩٣م ص ٢٠، ٢١- وهو ينقل عن كتاب «إميل بولا» «الحرية العلمنة حرب شطري فرنسا ومبدأ الحداثة»- منشورات سيرف- باريس سنة ١٩٨٧م.

ساعية إلى احتلال العقل المسلم لتأييد وتأبيد احتلال الأرض ونهب الثروات.

ولقد وجدت هذه النزعة لها أنصارا بين المتغربين العرب والمسلمين، الذين سعوا إلى أن تكون نهضتنا المنشودة على غرار النهضة الأوروبية: تحريرًا للعقل والمجتمع من الإسلام، كما تحرر العقل والمجتمع الأوروبي من الكنيسة واللاهوت.

ولقد تجلت في كتابات أنصار هذه النزعة التاريخية- من غلاة الحداثيين والعلمانيين- ووضحت- جلية وسافرة- مقاصد إقامة القطيعة المعرفية الكبرى- والعملية- مع شريعة الإسلام، وفقه معاملاته.. بل حتى مع عقيدته ومنظومة القيم والأخلاق التي جاءت فيه!

وسنكتفي هنا- في التمثيل على هذه النزعة التاريخية- بإيراد النصوص والأفكار التي تُعبر عنها، في مشاريع فكرية ثلاثة، لثلاثة من الحداثيين العلمانيين:

-١-

- أما أولهم [٢]: فيدعو إلى إقامة قطيعة مع القانون الإسلامي، عندما يحاول:

أولًا: اختزال التشريع القانوني الذي جاء به الإسلام، حتى يصبح هذا التشريع القانوني الإسلامي هامشيًا.

فيقول: (إن بالقرآن ستة آلاف آية، وما يتضمن منها أحكاما للشريعة أو «تشريعات»- في العبادات أو في المعاملات- لا يصل إلى سبعمائة آية، منها حوالي مائتي آية فقط هي التي تقرر أحكامًا للأحوال الشخصية والمواريث أو للتعامل المدني والجزائي الجنائي، أي أن الآيات التي تُعد تشريعات «قانونية» للمعاملات هي مجرد جزء من ثلاثين جزءا من آيات القرآن ٢٠٠ / ٦٠٠٠، بعضها منسوخ ولا يعمل به، أي أن الأحكام السارية أقل من واحد على ثلاثين، وعلى وجه التحديد ٨٠ آية، أي ٨٠ / ٦٠٠٠= ١ / ٧٥) [٣].

وثانيًا: الادعاء بأن الشريعة الإسلامية ليست شريعة قانونية- كشريعة موسى عليه السلام- وإنما هي شريعة رحمة- كما أن شريعة عيسى عليه السلام، شريعة محبّة- فليس في الإسلام- إذن- قانون صالح للتطبيق.. وبعبارته: (لقد كانت شريعة موسى هي الحق، فهي تضع الحدود مع الواجبات، وتحدد الجزاء لكل إثم، وشريعة عيسى هي الحب وشريعة محمد هي الرحمة [٤]. فرسالة محمد ليس كرسالة موسى رسالة تشريع، وإنما هي رسالة رحمة ورسالة أخلاق، بحيث يعد التشريع صفة تالية ثانوية غير أساسية. وإن دفع رسالة محمد لتكون رسالة تشريع أصلا وأساسا- مع أنها ليست كذلك- هو اتجاه يجعل من الإسلام صيغة عربية لليهودية، أو اتجاه يفهم الإسلام بمنطق الإسرائيليات) [٥].

ومع شذوذ هذا «الرأي» عن إجماع العلماء والفقهاء- من المسلمين وغير المسلمين- الذين

(٢) هو المستشار محمد سعيد العشماوي.

(٣) محمد سعيد العشماوي- الإسلام السياسي- القاهرة ١٩٨٩م ص ٣٥. معالم الإسلام- القاهرة ١٩٨٩م ص١١٩، ١٦٨، ١٧٠.

(٤) محمد سعيد العشماوي- أصول الشريعة- القاهرة ١٩٧٩. ص ١٧٩، ١٨٠.

(٥) محمد سعيد العشماوي- الإسلام السياسي ص٤٥.

شهدوا بتميز الشريعة الإسلامية- وفقهها القانوني- بالجمع بين «القانون» و«الأخلاق»، بل وتوحيدها بينهما، حتى لقد شهد بذلك كثير من الخبراء في القانون الروماني وفي الشريعة الإسلامية، ومنهم المستشرق الحجة «دافيد سانتيلانا» David de Santillana، ١٨٥٤- ١٩٣١م» الذي قال: «إن معنى الفقه والقانون بالنسبة إلينا وإلى الأسلاف- «الرومان»-: مجموعة من القواعد السائدة التي أقرها الشعب، إما رأسًا أو عن طريق ممثليه، وسلطانه مستمد من الإرادة والإدراك وأخلاق البشر وعاداتهم. إلا أن التفسير الإسلامي للقانون هو خلاف ذلك، فالخضوع للقانون الإسلامي هو واجب اجتماعي وفرض ديني في الوقت نفسه، ومن ينتهك حرمته لا يأثم تجاه النظام الاجتماعي فقط، بل يقترف خطيئة دينية أيضًا. فالنظام القضائي والدين، والقانون والأخلاق هما شكلان لا ثالث لهما لتلك الإرادة التي يستمد منها المجتمع الإسلامي وجوده وتعاليمه، فكل مسألة قانونية إنما هي مسألة ضمير، والصبغة الأخلاقية تسود القانون لتوحّد بين القواعد القانونية والتعاليم الأخلاقية توحيدا تاما، والأخلاق والآداب، في كل مسألة، ترسم حدود القانون» [٦].

وهذا الذي قرره العلامة «سانتيلانا»- من ارتباط «القانون»، في الإسلام، «بالأخلاق»- هو الذي جعل علماء الأصول المسلمين- منذ قرون- يؤكدون على أن كل آيات القرآن الكريم- الذي هو كتاب هداية بالدرجة الأولي- هي آيات تشريع للأحكام أيضًا؛ لأن آياته إما دالة على الأحكام بدلالة المطابقة- وهي التي اشتهرت بأنها «آيات الأحكام»- أو بدلالة الالتزام- وهي سائر آيات القرآن الكريم- وبعبارة الأصوليين: فإن الذين حددوا للأحكام آيات خاصة «إنما قصدوا بذلك الآيات الدالة على الأحكام دلالة أولية بالذات، لا بطريق التضمن والالتزام [٧]. فكأنهم أرادوا ما هو مقصود به الأحكام بدلالة المطابقة، أما بدلالة الالتزام: فغالب القرآن، بل كله، لأنه لا يخلو شيء منه عن حكم يستنبط منه..» [٨].

فكل آيات القرآن هي آيات أحكام.. فيها اتحد «القانون» مع «الأخلاق».

وثالثًا: سعى صاحب هذه الدعاوى إلى نسخ القرآن بكامله- بعد أن سعى إلى اختزال وتهميش آيات التشريع القانوني فيه- وذلك عن طريق الادعاء «بتاريخية ووقتية» الأحكام التي جاءت فيه!! وذلك بدعوى ارتباطها بأسباب نزول الآيات التي جاءت فيها، فهي- عنده- «تاريخية»، طويت صفحتها، وانتهى عصر إعمالها بانتهاء التاريخ الذي نزلت فيه، والذي حدثت فيه أسباب النزول. فليس لهذه الأحكام التشريعية القانونية- عند صاحب هذه الدعوى إلى «التاريخية»- أية عموم أو استمرارية أو خلود أو إطلاق. حتى لقد أعلن- صاحب هذه الدعوى- أن الحكم بما أنزل الله إنما هو خصوصية للنبي ﷺ وحده، ولعصره ومجتمعه فقط! أي أن المنظومة القانونية للشريعة الإسلامية برمتها «تاريخية»، طُويت صفحتها بوفاة الرسول

(٦) سانتيلانا «دافيد القانون والمجتمع في تراث الإسلام» ترجمة جرجيس فتح الله- بيروت ١٩٧٢م. ص ٤٣١، ٤٣٨.

(٧) الزركشي. البحر المحيط/ تحقيق عبدالستار أبوغدة- الكويت. ج٦. ص١٩٩.

(٨) ابن النجار. شرح الكوكب المنير/ تحقيق محمد الزحيلي. نزيه حماد- مكة. جامعة أم القرى ١٩٨٧م. ج٤. ص٤٦٠.

ﷺ حتى ليتحدث عن «اكتمال الوحى» فيسميه «انعدام الوحى»!

وهو- فى هذه الدعوى إلى «تاريخية الشريعة الإسلامية»- يتجاهل ليس فقط القاعدة التى أجمع عليها علماء الأمة بمذاهبهم المختلفة- قاعدة: «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب»، وإنما يتجاهل كذلك أن «أسباب النزول» فى الآيات القرآنية هى «مناسبات للنزول»، وليست «أسبابا» اختصت بها الآيات وأحكامها. وفى هذا الصدد يقول صاحب هذه الدعوى: «إن قبول المؤمنين للتشريع- «على عهد الرسول ﷺ» انبنى أساسا على الإيمان بالله- سلطة التشريع-، وبعد وفاة النبى ﷺ انتهى التنزيل مع انعدام الوحى ووقف الحديث الصحيح، فسكتت بذلك السلطة التشريعية التى آمن بها المؤمنون، والتى كانت الأساس فى قبولهم للتشريع..»[9].

فكأن كلام الله- سلطة التشريع- قد سكت بوفاة الرسول ﷺ وليس اكتمل، ليظل فاعلا مستوجب الطاعة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها!! كما يقول- صاحب هذه الدعوى- عن القواعد الشرعية والقانونية التى جاء بها الإسلام: (إن هذه القواعد قد أصبحت حكما تاريخيا ليست له أية قوة ملزمة أو أى أثر فعّال، وإن أحكام المعاملات ليست دائمة، لكنها أحكام مؤقتة ومحلية، تنطبق فى وقت محدد فى مكان بعينه)[10]. كما يذهب فيقطع «بتاريخية» الآيات التى تطلب الحكم بما أنزل الله، فيقول:

(إن تيار تسييس الدين يستشهد دائما بآيتين من القرآن الكريم:

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾

(النساء: ٦٥)

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾

(النساء: ١٠٥)

وهذا الاستشهاد خطأ وخطر، فهاتان الآيتان من الآيات التى تخاطب النبى ﷺ وحده، وتختص به دون غيره..»[11].

كما يذهب فيقطع «بوقتية وتاريخية» أحكام التشريع التى جاء بها القرآن بدعوى ارتباطها بأسباب النزول- التى هى تاريخية طوى التاريخ صفحتها- فيقول: «فأحكام التشريع فى القرآن ليست مطلقة ولم تكن مجرد تشريع مطلق[12].. يعنى أن كل آية تتعلق بحادثة بذاتها، فهى مخصصة بسبب التنزيل، وليست مطلقة..»[13].

(٩) محمد سعيد العشماوي- معالم الإسلام، ص١١٧، ١١٨. وانظر كذلك ص١٢٠، ١٢١.
(١٠) المصدر السابق. ص١١٩.
(١١) محمد سعيد العشماوي- الإسلام السياسي. ص٣٩.
(١٢) معالم الإسلام. ص١٢٠.
(١٣) الإسلام السياسي. ص٤٤.

ويزعم أن كل آيات القرآن- التشريعية والعقدية والأخلاقية- لها أسباب نزول ارتبطت بها، ومن ثم أصبحت كل آيات القرآن تاريخية تبعًا لتاريخية أسباب نزولها.. فيقول: «إن كل آيات القرآن نزلت على أسباب- أى لأسباب تقتضيها- سواء تضمنت حكمًا شرعيا أم قاعدة أصولية أم نظمًا أخلاقية..»[14].

يزعم ذلك مع أن مصادر أسباب النزول تقول: إن الآيات التى لها أسباب نزول إنما تمثل النزر اليسير جدًا من آيات القرآن الكريم:

فآيات القرآن تبلغ ٦٢٧٦ آية، وما له أسباب نزول من هذه الآيات- عند الإمام السيوطى «٨٤٩- ٩١١هـ/ ١٤٤٥- ١٥٠٥م» الذى تساهل فى قبول الروايات- لا يزيد عن ٨٨٨ آية أى ١٤٪ من آيات القرآن الكريم.

أما عند الواحدى «٤٦٨هـ/ ١٠٧٨م»- الذى دقّق نوعًا فى قبول روايات أسباب النزول- فإن هذه الآيات عنده لا تتجاوز ٤٧٢ آية- أى ٧٫٥٪ من آيات القرآن الكريم[15].

وهذا النزر اليسير من الآيات التى وردت لها أسباب نزول، قطع العلماء- بمن فيهم الذين كتبوا فى أسباب النزول- بأن هذه «الأسباب» هى «مناسبات» للنزول، وليست «أسبابًا» استدعت النزول واختصت بالأحكام الواردة فيه.

فقال الإمام الزركشى «٧٤٥- ٧٩٤هـ/ ١٣٤٤- ١٣٩٢م»: «وقد عرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال: نزلت هذه الآية فى كذا، فإنه يريد بذلك: أنها تتضمن هذا الحُكم، لا أن هذا كان السبب فى نزولها، أى أننا يجب أن نبحث عن حُكم «الوقائع» فى الآية، لا أن نقيد ونربط أحكام الآيات بالوقائع».

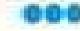
ويُوجز السيوطى خلاصة هذا المنهاج، الذى «عُرف من عادة الصحابة والتابعين»، فى كلمات يقول فيها: «والذى يتحرر فى سبب النزول أنه: ما نزلت الآية أيام وقوعه».

ثم يفصل السيوطى فى بيان منهاج الصحابة والتابعين، القائم على أن العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب، لأن السبب ليس أكثر من الواقعة التى تضمنت الآية حُكمها، واقترن نزول الآية بحدوثها، فيقول: «وقد نزلت آية فى أسباب، واتفقوا- (أى الصحابة والتابعون) على تعديتها إلى غير أسبابها، كنزول آية الظهار فى «سلمة بن صخر»، وآية اللعان فى شأن «هلال بن أمية»، وحد القذف فى رماة عائشة، ثم تعدى إلى غيرهم. ومن الأدلة على اعتبار اللفظ: احتجاج الصحابة وغيرهم. فى وقائع بعموم آيات نزلت فى أسباب خاصة شائعًا ذائعًا بينهم..»[16].

وفى ذلك- أيضا- يقول شيخ الإسلام ابن تيمية «٦٦١- ٧٢٨هـ/ ١٢٦٣- ١٣٢٨م»: «فالذين قالوا- «بأسباب النزول»- لم يقصدوا أن حكم الآية يختصّ بأولئك الأعيان- «الذين نزلت فيهم»- دون غيرهم. فإن هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل على الإطلاق. والناس وإن تنازعوا

(١٤) جوهر الإسلام. ص١٤٨.
(١٥) محمد عمارة. سقوط الغلو العلماني. القاهرة. دار الشروق. ١٩٩٥م. ص٢٥٥- ٢٦١.
(١٦) السيوطي. أسباب النزول. القاهرة. دار التحرير. ١٩٨٢م. ص٥. الإتقان في علوم القرآن. القاهرة. ١٩٣٥م. ج١. ص٣١.

فى اللفظ العام الوارد على سبب، هل يختص بسببه؟ فلم يقل أحد إن عمومات الكتاب والسنة تختص بالشخص المعين، وإنما غاية ما يقال: إنها تختص بنوع ذلك الشخص، فتعم ما يشبهه، ولا يكون العموم فيها بحسب اللفظ. والآية التى لها سبب مُعين، إن كانت أمرا أو نهيًا فهى متناولة لذلك الشخص ولغيره ممن كان بمنزلته، وإن كانت خبرًا بمدح أو ذمّ فهى متناولة لذلك الشخص ولمن كان بمنزلته»(١٧).



بل إن صاحب هذا الادّعاء- ادعاء تاريخية القرآن التشريعي- كما أشرنا، يذهب حتى إلى تاريخية منظومة أصول العقائد والقيم والأخلاق الإسلامية- وليس فقط آيات التشريع القانوني- فيقول: «إن كل آيات القرآن نزلت على الأسباب- أى لأسباب تقتضيها- سواء تضمنت حكمًا شرعيا أم قاعدة أصولية أم نظمًا أخلاقية»(١٨).

فينسخ- بهذه المجازفة العجيبة- كل دين الإسلام!!

بل يذهب إلى أن «الواقع» هو «صانع الشريعة»، وليس «الوحى الإلهى والتنزيل السماوى»، فيقول: «إن الشريعة إنما ارتبطت بالواقع، ودارت فيه، وتناسجت به، تأخذ منه عوائده وأعرافه، وتحكم قواعدها على أسباب منه، وتلاحق أحكامها تطوره»(١٩).

فالواقع هو «المصدر» و«المرجع»، وما عداه- من نبأ السماء- «تاريخى ومؤقت»، طُويت صفحته بوفاة الرسول ﷺ وانتهاء أسباب النزول فى عصر التنزيل!!

هذه هى «تاريخية الإسلام»- عقيدته وشريعته وأخلاقه- فى المذهب العشماوي!

-٢-

أما النموذج الثاني: من نماذج الداعين إلى تاريخية الدين الإسلامى(٢٠) فإنه يركز على القطيعة المعرفية مع الإلهيات وعقائدها، أى مع جوهر الدين وأصوله وثوابته.

فالمهمة المُلحة- عنده- هى القطيعة مع الإلهيات، وإحلال الإنسانيات محلّها، أى «أنسنة» الله والدين، ومن ثم الحضارة.

وفى ذلك يقول: «إن مهمتنا أن تنتقل بحضارتنا من الطور الإلهى القديم إلى طور إنسانى جديد، فبدلاً من أن تكون حضارتنا متمركزة على الله، تكون متمركزة على الإنسان، وتحويل قطبها من علم الله إلى علم الإنسان.. إن تقدم البشرية مرهون بتطورها من الدين إلى الفلسفة، ومن الإيمان إلى العقل، ومن مركزية الله إلى مركزية الإنسان، حتى تصل الإنسانية إلى طور الكمال، وينشأ المجتمع العقلى المستنير»(٢١).

(١٧) ابن تيمية. مجموع الفتاوي- القاهرة. دار الوفاء. ٢٠٠٥م. ج١٣/ ص٣٣٩. السيوطي. الإتقان في علوم القرآن. ج١. ص٣٠.
(١٨) محمد سعيد العشماوي- جوهر الإسلام. ص ١٤٨.
(١٩) محمد سعيد العشماوي- أصول الشريعة. ص ٨٤.
(٢٠) وهو نموذج الدكتور حسن حنفي
(٢١) حسن حنفي. دراسات إسلامية. بيروت. ١٩٨٢م. ص ١٢٨، ٣٠٠.

وكذلك القطيعة مع عقيدة الوحى، وذلك بتأليه العقل وإحلاله محل الوحى: «ذلك أن العقل ليس بحاجة إلى عون، وليس هناك ما يند عن العقل.. وهو قادر على إدراك الحسن والقبح فى الأشياء، كما أن الحس قادر على الإدراك والمشاهدة والتجريب، ويمكن معرفة الأخلاق بالفطرة»(٢٢)، فالوحى لا يعطى الإنسانية شيئا لا تستطيع أن تكتشفه بنفسها من داخلها..»(٢٣).

وكذلك إقامة القطيعة مع عقائد عالم الغيب، عن طريق أنسنتها: «فالصفات السبع- (أى صفات الله)- هى فى حقيقة الأمر صفات إنسانية خالصة، فالإنسان هو العالم، والقادر، والحى، والسميع، والبصير، والمريد، والمتكلم، وهذه الصفات فى الإنسان ومنه على الحقيقة، وفى الله وإليه على المجاز»!!(٢٤).

وذلك وصولا إلى إقامة قطيعة مع جوهر الدين، وهو الاعتقاد بوجود الله. فالمطلوب- عند صاحب هذه الدعوى إلى التاريخية- هو أنسنة الذات الإلهية، وإحلال الإنسان محل الله، لأن الإنسان هو الخالق لله، وليس العكس!!

«.. فالله لفظة نعبر بها عن صرخات الألم وصيحات الفرح، أى أنه تعبير أدبى أكثر منه وصفًا لواقع، وتعبير إنشائى أكثر منه وصفًا خبريًا، إنه لا يعبر عن معنى معين، إنه صرخة وجودية أكثر منه معنى يمكن التعبير عنه بلفظ من اللغة، أو بتصور من العقل، هو رد فعل على حالة نفسية، أو تعبير عن إحساس أكثر منه تعبيرًا عن قصد أو إيصالا لمعنى معين، فكل ما نعتقده ثم نعظمه تعويضا عن فقد يكون فى الحس الشعبى هو الله وكل ما نصبو إليه ولا نستطيع تحقيقه فهو أيضا فى الشهود الجماهيرى هو الله»(٢٥).. والله، باعتباره هو الوجود الواحد، أو المجرد الصورى، أو العلّة الغائية، كل هذه التصورات هى فى حقيقة الأمر مقولات إنسانية تعبر عن أقصى خصائص الإنسان. والإلهيات، فى الحقيقة، وإن بدت نظرية فى الله ذاتا وصفات وأفعالا، هى وصف للإنسان الكامل ذاتا وصفات وأفعالا»(٢٦).. فالإنسان يخلق جزءًا من ذاته ويؤلهه، أى أنه يخلق المؤله على صورته ومثاله، فهو يؤول أحلامه ورغباته، ثم يشخصها ويَعبُدها، فالمعبود دليل على العجز، والمقدس قرينة على عدم القدرة. القادر لا يَعبُد ولا يُقدِّس بل يعمل ويحقق خططه وأهدافه. إن اختيار باقة من الصفات المطلقة، ووضعها معًا فى صورة معبود تشير إلى أن الإنسان إنما يؤله نفسه، بعد أن دفع نفسه إلى حد الإطلاق، فالذات الإلهية هى الذات الإنسانية فى أكمل صورها، وأى دليل يكشف عن إثبات وجود الله إنما يكشف عن وعى مزيف. ولذلك، فإن التفكير فى الله هو اغتراب، بمعنى أن الموقف الطبيعى للإنسان هو التفكير فى المجتمع، وكل حديث آخر فى موضوع يتجاوز المجتمع

(٢٢) حسن حنفي. من العقيدة الى الثورة. القاهرة. ١٩٨٨م. ج٤. ص١٤٨.
(٢٣) سنج. تربية الجنس البشري/ تقديم حسن حنفي- القاهرة. ١٩٧٧م. ص ١٥١.
(٢٤) حسن حنفي. من العقيدة الى الثورة. ج٢. ص٦٠٢، ٦٠٤.
(٢٥) حسن حنفي. التراث والتجديد- القاهرة. ١٩٨٠م. ص ١٢٨، ١٣٠.
(٢٦) حسن حنفي. دراسات إسلامية. ص ٤٠٥، ٣٥٩.

والعالم، يكون تعمية تدل على نقص في الوعي بالواقع، وتصور الله على أنه موجود كامل هو في الحقيقة تعبير عن رغبة، وتحقيق لمطلب، وليس حكمًا على وجود في الخارج. فذات الله هي ذاتنا مدفوعة إلى الحد الأقصى.. ذات الله المطلق هي ذاتنا نحو المطلق، ورغبتنا في تخطي الزمان وتجاوز المكان، ولكنه تخط وتجاوز على نحو خيالي، وتعويض نفسي عن التحقيق الفعلي لهذه المثل في الحياة الإنسانية»!!(٢٧).

هكذا تمت – وتتم – الدعوة إلى أنسنة الذات الإلهية – وصفاتها وأفعالها – ليحل الإنسان محل الله، والطبيعة محل ما وراء الطبيعة، حتى ليدعو، صاحب هذا المشروع الفكري – إلى إلغاء ألفاظ ومصطلحات «الله» و«الرسول» و«الدين» و«الجنة» و«النار» و«الثواب» و«العقاب».. والتخلي عنها «لأنها قطعية، ولأنها تجاوز الحس والمشاهدة، ولأنها تشير إلى مقولات غير إنسانية، فمصطلح «الإنسان الكامل» أكثر تعبيرًا من لفظ الله»!!(٢٨).

وبهذه القطيعة المعرفية الكبرى والحادة مع الله، والدين، والنبوة والرسالة – في هذا المشروع الفكري الحداثي التنويري العلماني – تحل «الطبيعة» محل «الدين»، ويتحول الدين إلى «وعاء فارغ» من مضمونه وحقائقه، وتحال هذه الحقائق الدينية الى «مستودع التاريخ» باعتبارها جزءًا من «أساطير الأولين» التي اخترعها خيال الإنسان المُحبط في ظلال القهر والإحباط.

-٣-

وعلى هذا الدرب سار ثالثهم(٢٩) الذي:

حكم بالتاريخية على كل القرآن الكريم – بكل ما فيه من عقائد وشرائع وقيم وأخلاق، لأن هذا القرآن – حسب قوله – نص بشري، تكون في الواقع ومن الواقع، ومن ثم فهو تاريخي ككل النصوص البشرية التي يكونها الواقع، فتصبح تاريخية بتاريخية هذا الواقع.. وبنص عبارته:

«إن القرآن خطاب تاريخي، لا يتضمن معنى مفارقًا جوهريًا ثابتًا»(٣٠). وليس ثمة عناصر جوهرية ثابتة في النصوص»(٣١). لقد تشكل القرآن من خلال ثقافة شفاهية، والوقائع هي التي أنتجته، ففي مرحلة تشكل النص في الثقافة تكون الثقافة «فاعلا» والنص «منفعلا»(٣٢)، وتكون الثقافة – اللغة – فاعلًا، والنص مفعولا»(٣٣). فالنص، في حقيقته، منتج ثقافي – والمقصود بذلك أنه تشكل في الواقع والثقافة خلال فترة تزيد على العشرين عامًا. والفكر الرجعي، في تيار الثقافة الإسلامية، هو الذي يباعد به عن طبيعته الأصلية بوصفه «نصا» لغويا، ويحوله

(٢٧) حسن حنفي: من العقيدة إلى الثورة. ج٢، ص٦٣٩، ٤٦. ج١ص٨٨، ٨٩.
(٢٨) حسن حنفي: التراث والتجديد ص١٢٤، ١٣٧، ١٣٩، ١٤٤، ١٤٥، ١٥٤.
(٢٩) هو الدكتور نصر حامد أبوزيد.
(٣٠) نصر حامد أبوزيد: مشروع النهضة بين التوفيق والتلفيق «مجلة القاهرة» أكتوبر ١٩٩٢م.
(٣١) نصر حامد أبوزيد: نقد الخطاب الديني. القاهرة ١٩٩٢م ص٨٤.
(٣٢) نصر حامد أبوزيد: مفهوم النص. القاهرة ١٩٩٠م ص٩، ١٠٩، ٢٠٠.
(٣٣) نصر حامد أبوزيد: نقد الخطاب الديني. ص٢٢٦.

إلى شيء له قداسته»(٣٤). إن الواقع هو الأصل، من الواقع تكون النص – «القرآن» – ومن لغته وثقافته صيغت مفاهيمه، ومن خلال حركته بفاعلية البشر تتجدد دلالته. فالواقع أولا، والواقع ثانيًا، والواقع أخيرًا»(٣٥). والواقع الذي تشكل النص من خلاله – يشمل الأبنية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية، ويشمل المتلقي الأول للنص ومبلغه – «الرسول» – كما يشمل المخاطبين بالنص»(٣٦).

والنص القرآني: مجموعة من النصوص، وإذا كان يتشابه في تركيبته تلك مع النص الشعري، كما هو واضح من المعلقات الجاهلية مثلا، فإن الفارق بين القرآن وبين المعلقة من هذه الزاوية المحددة يتمثل في المدى الزمني الذي استغرقه تكون النص القرآني، كما يتمثل في تعدد مستويات السياق المحددة لدلالة كل جزء من أجزائه، وهذه التعددية النصية في بنية النص القرآني تعد في جانب منها نتيجة للسياق الثقافي المنتج للنص، لأنها تمثل عناصر تشابه بين النص ونصوص الثقافة عامة، وبينه وبين النص الشعري بصفة خاصة، فسياق مخاطبة النساء – «في القرآن» – المغاير لسياق مخاطبة الرجال، رغم الجمع بينهما في سياق واحد في كثير من الأحيان، يمثل القرآن فيه تجاوزًا للنصوص الشعرية السائدة، وانحيازًا لنصوص الصعاليك، حيث تمثل الزوجة مخاطبًا في بعض نماذجه»!!(٣٧).

هذه هي رؤية صاحب هذا المشروع الفكري – الحداثي التنويري العلماني – للوحي القرآني، فهو – بنظره – «خطاب تاريخي لا يتضمن معنى مفارقًا جوهريا ثابتًا» أي أن كل ما في القرآن هو «تاريخي» لا ثبات له أو فيه، لأنه «نص بشري تكون في الواقع، فالواقع هو صانع القرآن وفاعله، والقرآن مصنوع للواقع ومنفعل به، فالواقع أولًا، والواقع ثانيًا، والواقع أخيرًا»!!

وكذلك حال النبوة والوحي – عند صاحب هذا المشروع الفكري –، فليس فيهما إعجاز مفارق للواقع، وإنما هي ظاهرة إنسانية، يفسرها «الخيال» و«قوة المخيلة»، على النحو الذي يشبه ما عند «الشعراء» و«العارفين»! وفي ذلك يقول: «إن تفسير النبوة بالاعتماد على مفهوم «الخيال»، معناه أن ذلك الانتقال من عالم البشر إلى عالم الملائكة انتقال يتم من خلال فاعلية «المخيلة» الإنسانية التي تكون في «الأنبياء» – بحكم الاصطفاء والفطرة – أقوى منها عند سواهم من البشر. وإذا كانت فاعلية «الخيال» عند البشر العاديين لا تبدى إلا في حالة النوم وسكون الحواس عن الانشغال بنقل الانطباعات من العالم الخارجي إلى الداخل، فإن «الأنبياء» و«الشعراء» و«العارفين» قادرون دون غيرهم على استخدام فاعلية «المخيلة» في اليقظة والنوم على السواء. وليس معنى هذه التسوية بين هذه المستويات من حيث قدرة «المخيلة» وفاعليتها، فالنبي يأتي على رأس قمة الترتيب، يليه الصوفي العارف ثم يأتي الشاعر في نهاية الترتيب.

(٣٤) نصر حامد أبوزيد: مفهوم النص. ص٢٧، ٢٨، ١٤.
(٣٥) نصر حامد أبوزيد: نقد الخطاب الديني. ص٩٩.
(٣٦) نصر حامد أبوزيد: مفهوم النص. ص٣٠.
(٣٧) نصر حامد أبوزيد: مشروع النهضة بين التوفيق والتلفيق – «مجلة القاهرة» أكتوبر ١٩٩٢م.

والنبوة، فى ظل هذا التصور، لا تكون فوقية مفارقة، ويمكن أن يفهم الانسلاخ أو «الانخلاع»، فى ظل هذا التصور، على أساس أنه تجربة خاصة، أو حالة من حالات الفعالية الخلاقة، وهذا كله يؤكد أن ظاهرة الوحي- القرآن- لم تكن ظاهرة مفارقة للواقع، أو تمثل وثبا عليه وتجاوزا لقوانينه، بل كانت جزءًا من مفاهيم الثقافة ونابعة من مواضعاتها وتصوراتها، فلقد كان محمد- المستقبل الأول للنص- جزءًا من الواقع والمجتمع. كان ابن الواقع ونتاجه»(٣٨).

هكذا أنكر صاحب هذه النزعة التاريخية المادية أن يكون هناك إعجاز أو معجزة مفارقة للواقع فى الوحي والنبوات والرسالات.

وتبعًا لحكم صاحب هذا الاتجاه على كل القرآن الكريم بأنه «خطاب تاريخى.. ونص بشرى» حكم بأن ما جاء فى هذا القرآن من «عقائد» هى- الأخرى- تاريخية، لأنها- برأيه- ثمرة لأساطير الواقع الذى أفرزها، وبعبارته: «فإن العقائد هى تصورات مرتهنة بمستوى الوعى وبتطور مستوى المعرفة فى كل عصر، وإن النصوص الدينية قد اعتمدت فى صياغة عقائدها على كثير من التصورات الأسطورية فى وعى الجماعة التى توجهت إليها النصوص الدينية بالخطاب»! (٣٩).

وكذلك الشريعة- برأى صاحب هذه النزعة التاريخية- ليست وضعًا إلهيا، ولا تنزيلا سماويا، وإنما هى ثمرة للواقع الذى أفرزها وصنعها، ومن ثم فهى مرتبطة بهذا الواقع.

وبعبارته: «.. إن الشريعة صاغت نفسها مع حركة الواقع الإسلامى فى تطوره(٤٠)، وإذا قرأنا نصوص الأحكام من خلال التحليل العميق لبنية النصوص، وفى السياق الاجتماعى المنتج للأحكام والقوانين، فربما قادتنا هذه القراءة إلى إسقاط كثير من تلك الأحكام، بوصفها أحكامًا تاريخية، كانت تصف واقعًا أكثر مما تصنع تشريعًا»(٤١).

ثم ينتهى صاحب هذه النزعة التاريخية إلى الحكم بالتاريخية على كل النصوص الدينية، ونفى القداسة والإطلاق والخلود عنها وعن دلالتها وأحكامها.. فيقول: «إننا نتبنى القول ببشرية النصوص الدينية.. وإذا كانت النصوص الدينية نصوصًا بشرية بحكم انتمائها للغة والثقافة فى فترة تاريخية محددة، هى فترة تشكلها وإنتاجها، فهى بالضرورة نصوص تاريخية»، وهذه التاريخية «تحرك دلالة النصوص، وتنقلها فى الغالب من الحقيقة إلى المجاز..»(٤٢).



ولقد حاول أصحاب هذا الاتجاه، الذى يفرغ الدين من الدين! ويقيم قطيعة معرفية- ومن ثم عملية- كبرى مع «الحقيقة الدينية»، وذلك بتحويل هذه «الحقيقة» إلى «مجاز» يتعدد القراء للنص الدينى!- حاولوا صنع ذلك بلون من «التأويل العبثى»، الذى لا صلة له بالتأويل الصحيح المضبوط بضوابط اللغة وثوابت الاعتقاد، ذلك التأويل الصحيح الذى وضع له القواعد علماء الإسلام من الأصوليين والفلاسفة والمفسرين والفقهاء.

حاول أصحاب هذه النزعة التاريخية بهذا «التأويل العبثى» أن يحولوا حقائق الألوهيات والنبوات والوحي إلى «مجازات» تثير السخرية وتضحك الثكلى! فالله- فى هذا التأويل العبثى- هو: الأرض.. والخبز.. والحرية.. وصرخات الألم.. وصيحات الفرح.. والكفاح المسلح.. والإصلاح الزراعي! وصفات الله هى صفات الإنسان الكامل! والتوحيد هو وحدة البشرية ووحدة التاريخ، والوحى هو البناء المثالى للعالم، والعلمانية هى أساس الوحى، والإلحاد هو التجديد.. والمعنى الأصلى للإيمان»!!!(٤٣) واللوح المحفوظ هو تدوين المعارف والعلوم(٤٤) والنبوة والوحى هما قوة فى «المخيلة» و«الخيال»(٤٥).. إلى آخر هذا العبث التأويلى، أو التأويل العبثى، الذى هو صورة مستعارة من «الهيرمينوطيقا» **Hermeneutics** الغربية، دون زيادة أو نقصان.

ولأن أصحاب هذه النزعة يكثرون الحديث عن الفقيه الفيلسوف أبى الوليد ابن رشد «٥٢٠- ٥٩٥هـ/ ١١٢٦- ١١٩٨م» ويعتبرونه المتفرد بالعقلانية والتفلسف والتأويل فى تاريخ الإسلام، فإننا سنجعل ابن رشد هو الذى يعلم أصحاب هذا التأويل العبثى القواعد العلمية والفلسفية للتأويل الصحيح، وذلك حتى نعرى تأويلهم العبثى من أية علاقة بالعلم والفكر واحترام العقول!

لقد نبه ابن رشد على أن للتأويل العربي- أى فى اللغة العربية- ضوابط حددتها اللغة، فهو لا يجوز إلا فى المواطن التى تتوفر فيها للنص هذه الضوابط اللغوية وذلك عندما قال: «ومعنى التأويل: هو إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية، من غير أن يخل ذلك بعادة لسان العرب فى التجوز، من تسمية الشىء بشبيهه أو بسببه أو لاحقه أو مقارنه، أو غير ذلك من الأشياء التى عددت فى تعريف أصناف الكلام المجازى».

كما نبه ابن رشد على الإجماع الإسلامى على أن التأويل جائز فى بعض نصوص الشرع، فلقد «أجمع المسلمون على أنه لا يجب أن تحمل ألفاظ الشرع كلها على ظاهرها، ولا أن تخرج كلها عن ظاهرها بالتأويل» فما ثبت فيه «الإجماع بطريق يقينى» لم يصح فيه التأويل».

كما نبه ابن رشد على وجود شواهد فى النصوص تعين مواطن التأويل ومواضعه، فكأن «ظاهر الشرع» هو سبيل من سبل التحديد لمواطن «التأويل»؛ لأنه ما من منطوق به فى الشرع، مخالف بظاهره لما أدى إليه البرهان، إلا إذا اعتبر وتصفحت سائر أجزائه، وجد فى ألفاظ الشرع ما يشهد بظاهره لذلك التأويل، أو يقارب أن يشهد».

(٣٨) نصر حامد أبوزيد. مفهوم النص. ص٣٨، ٥٦، ٥٩، ٦٧.
(٣٩) نصر حامد أبوزيد. نقد الخطاب الديني. ص١٩٨.
(٤٠) المصدر السابق. ص٩٩.
(٤١) نصر حامد أبو زيد. إهدار السياق فى تأويلات الخطاب الديني. «مجلة القاهرة» (يناير ١٩٩٣م).
(٤٢) نصر حامد أبوزيد. نقد الخطاب الديني. ص١٩٧، ١٩٨.
(٤٣) حسن حنفي. التراث والتجديد. ص١٢٨، ١٣٠، ١٧٦، ١٧٧، ١١٤، ٦٩، ٦٧.
(٤٤) حسن حنفي. من العقيدة الى الثورة. ج٤ ص١٣٥.
(٤٥) نصر حامد أبوزيد. مفهوم النص. ص٥٦.

وخلص ابن رشد إلى أن المقصد من التأويل، القائم «على قانون التأويل العربى» هو «الجمع بين المعقول والمنقول، وليس إحلال المعقول محل المنقول».

الأمر الذى جعل بالإمكان إيجاز عناصر قانون التأويل- عند ابن رشد- على هذا النحو:

١- التأويل جائز.

٢- فى المواطن التى يقوم فيها البرهان على استحالة الظاهر.

٣- وبشرط تحقق شروط اللغة العربية فى المجاز، الذى تخرج فيه دلالات الألفاظ من حقيقتها إلى مجازها.

٤- وفيما لم يثبت فيه إجماع يقينى على أن المراد هو ظاهر الألفاظ.

٥- وبترشيح دلالات ظواهر بعض النصوص على مواطن التأويل فى بعضها.

٦- ومن أجل الجمع بين المعقول والمنقول، لا المقابلة بينهما، والانحياز لأحدهما، تجاوزا للآخر أو نفيًا له.

٧- على أن يظل التأويل حقا للخاصة، من الراسخين فى العلم، لا يصرح به للعامة، ولا يثبت فى كتب الجمهور حتى ولو كان تأويلًا صحيحا، مستجمعًا لشروط التأويل وضوابطه، وبعبارة ابن رشد: «... فهذا التأويل لا ينبغى أن يصرح به لأهل الجدل، فضلًا عن الجمهور، ومتى صرح بشىء من هذه التأويلات لمن هو من غير أهلها، أفضى ذلك بالمصرح والمصرح إلى الكفر، فلا يجب أن تثبت التأويلات الصحيحة فى الكتب الجمهورية، فضلًا عن الفاسدة، وأما المصرح بهذه التأويلات لغير أهلها فكافر».

٨- أما أخبار عالم الغيب، وكذلك المعجزات، ومبادئ الشريعة، وكل ما لا يستطيع العقل الإنسانى الاستقلال بإدراك كنهه، فلقد أوجب ابن رشد أخذه على ظواهره، دون تأويل، لأن هذه العقائد- عنده- مما تعلم بنفسها، بالطرق الثلاث للتصديق: الخطابية، والجدلية، والبرهانية.

ولذلك- كما يقول- «لم تحتج أن تضرب له أمثالًا، وكان على ظاهره، لا يتطرق إليه تأويل، وهذا النحو من الظاهر إن كان فى الأصول فالمتأول له كافر، مثل من يعتقد أنه لا سعادة أخروية ههنا ولا شقاء، وأنه قصد بهذا القول أن يسلم الناس بعضهم من بعض فى أبدانهم وحواسهم، وأنها حيلة، وأنه لا غاية للإنسان إلا وجوده المحسوس فقط، إن ها هنا ظاهرًا من الشرع لا يجوز تأويله، فإن كان تأويله فى المبادئ فهو كفر، وإن كان فيما بعد المبادئ فهو بدعة».

٩- وحتى الحكماء من الفلاسفة- برأى ابن رشد- لا يجيزون تأويل أخبار الغيب ومبادئ الشريعة والمعجزات، ولا يجوز عندهم التكلم ولا الجدل فى مبادئ الشرائع، وفاعل ذلك عندهم محتاج إلى الأدب الشديد، وذلك أنه لما كانت كل صناعة لها مبادئ، وواجب على الناظر فى تلك الصناعة أن يسلم مبادئها، ولا يتعرض لها بنفى ولا إبطال، كانت الصناعة العملية الشرعية أحرى بذلك، لأن المشى على الفضائل الشرعية هو ضرورى عندهم، ليس فى وجود الإنسان بما هو إنسان، بل وبما هو إنسان عالم، ولذلك يجب على كل إنسان أن يسلم مبادئ الشريعة وأن يقلد فيها، فإن جحدها والمناظرة فيها مبطلان لوجود الإنسان، ولذلك

وجب قتل الزنادقة.

فالذى يجب أن يقال فيها: إن مبادئها أمور إلهية تفوق العقول الإنسانية، فلابد أن يعترف بها مع جهل أسبابها، ولذلك لا تجد أحدًا من القدماء تكلم فى المعجزات، مع انتشارها وظهورها فى العالم، لأنها مبادئ تثبيت الشرائع، والشرائع مبادئ الفضائل. ولا فيما يقال بعد الموت. فإذا نشأ الإنسان على الفضائل الشرعية كان فاضلا بإطلاق، فإن تمادى به الزمان والسعادة إلى أن يكون من العلماء الراسخين فى العلم، فعرض له تأويل فى مبدأ من مبادئها، فيجب عليه ألا يصرح بذلك التأويل، وأن يقول فيه كما قال تعالى:

﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾

(آل عمران: ٧)

هذه حدود الشرائع وحدود العلماء».

١٠- ويرى ابن رشد- فوق ذلك- أن الإفراط فى التأويل، بعد عصر الصدر الأول للأمة، هو المسئول عن أمراض الاضطراب والفرقة والتكفير التى شاعت فانتشرت، «فالصدر الأول إنما صار إلى الفضيلة الكاملة والتقوى باستعمال هذه الأقاويل «التى ثبتت فى الكتاب العزيز» دون تأويلات فيها، ومن كان منهم وقف على تأويل لم يصرح به. وأما من أتى بعدهم، فإنهم لما استعملوا التأويل قل تقواهم، وكثر اختلافهم، وارتفعت محبتهم، وتفرقوا فرقا. فيجب على من أراد أن يرفع هذه البدعة عن الشريعة، أن يعمد إلى الكتاب العزيز، فيلتقط منه الاستدلالات الموجودة فى شىء شىء مما كلفنا اعتقاده، ويجتهد فى نظره إلى ظاهرها ما أمكنه من غير أن يتأول من ذلك شيئًا، إلا إذا كان التأويل ظاهرًا بنفسه، أعنى ظهورًا مشتركًا للجميع. ذلك أنه لما تسلط على التأويل فى هذه الشريعة من لم تتميز له هذه المواضع، ولا تميز له الصنف من الناس الذى يجوز التأويل فى حقهم، اضطرب الأمر فيها، وحدث فيهم فرق متباينة يكفر بعضهم بعضًا، وهذا كله جهل بمقصد الشرع وتعد عليه...»[٤٦].

هكذا وضع ابن رشد قانونًا للتأويل، وشروطًا لجوازه، قصرته على ما وراء العقائد ومبادئ الشريعة وأخبار الغيب والمعجزات، وجعل التأويل فيما وراء ذلك مشروطًا بتوفر الضوابط اللغوية، وبشهادة النصوص المؤولة على أن فيها تأويلًا ظاهرًا بنفسه للجميع.

وهكذا يصبح «التأويل العبثى» لدعاة التاريخية «سخرية وهزلًا»، لا علاقة له بالعلم والعلماء! بل لقد حكم- ابن رشد- حكمه الصارم على الزنادقة الذين أولوا فى مبادئ الشريعة والمعجزات والمغيبات.



(٤٦) ابن رشد: فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال. دراسة وتحقيق محمد عمارة- القاهرة: دار المعارف ١٩٩٩م. ص ٣٢، ٣٤، ٣٥، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٥٨، ٥٩، ٦١، ٦٢، ٦٣، ٦٥. تهافت التهافت- القاهرة ١٩٠٣م ص ١٢٤، ١٢٥. مناهج الأدلة فى عقائد الملة/ دراسة وتحقيق محمود قاسم القاهرة: مطبعة الأنجلو المصرية. د. ت. ص ٥١، ٢٤٩.

تلك هى التاريخية.. التى تنزع القداسة عن النصوص الدينية الإلهية التى تقدست فى كل الشرائع والديانات.

وتنفى العموم والإطلاق والخلود عن أى من الحقائق والمعانى والدلالات والأحكام التى جاءت فى هذه النصوص الدينية.

وتجعل هذه النصوص الدينية- بما فيها الوحى السماوي- بشرية، صنعها الواقع.. فهى «ديالكتيك صاعد» وليست تنزيلا، ولا «ديالكتيك هابط».. فالواقع أولا، والواقع ثانيا، والواقع أخيرًا.

وتجعل العقائد التى جاءت بها هذه النصوص- بما فى ذلك عقائد الألوهية والنبوة والوحى- ثمرة للواقع وأساطيره.

وتجعل الشريعة مصنوعة للواقع.. وليست وضعًا إلهيًا وتنزيلًا سماويا.

لتصل- هذه التاريخية- إلى إحالة الديانات وكتبها وعقائدها وشرائعها ومنظومات قيمها وأخلاقها إلى «مستودع التاريخ»، حاكمة بطى صفحتها مع صفحات التاريخ الذى ظهرت فيه.

ومستعينة على ذلك بلون من «التأويل العبثى»- الذى لا علاقة له بالتأويل الذى حدد قواعده وضوابطه وشروطه الفلاسفة والمفسرون- حتى لنجد- فى هذا التأويل العبثى «مسرحًا للعبث» يدعى أصحابه أن الله هو الأرض.. والخبز.. والحرية.. والكفاح المسلح.. والإصلاح الزراعي!! وأن صفات الكمال والجلال الإلهية، وأسماء الله الحسنى هى صفات الإنسان!! وأن التوحيد هو وحدة التاريخ، وأن الإيمان هو الإلحاد، وأن الإلحاد هو التجديد، وأن النبوة والوحى قوة مخيلة وخيال، كما هو الحال عند الشعراء والكهان والعارفين!!

•••

وإذا كان المبشرون بهذه «التاريخية»- وهم الناقلون لها عن التنوير الوضعى الغربى، بحذافيرها، حذو النعل بالنعل!- إذا كانوا يحتجون بأن هذا التنوير الوضعى الغربى، وهذه «التاريخية»، هى التى جعلت الغرب ينهض ويتقدم ويخرج من عصوره المظلمة، وأنهم إنما يريدون- بهذه المحاكاة- تحقيق النهوض والتقدم لأمتنا.. فإنهم يغفلون ويتغافلون عن الفروق الجوهرية بين إسلامنا وبين لاهوت النصرانية الغربية.. بين تاريخنا الحضارى وبين التاريخ الحضارى للغرب.

لقد عرف الغرب الكهانة الكنسية التى اختزلت الحقيقة والعلم فى الإنجيل، وحرّمت التجريب فى الواقع، لأنه «دنس»- ومملكة المسيح ليست فى هذا العالم الدنس- كما قدست الدولة والمجتمع وثبتتهما عندما حكمت بالحق الإلهى والتفويض السماوي- مستبعدة سلطة الأمة- ومن هنا أدخلت هذه الكهانة الكنسية أوروبا فى عصور الظلمات.. فلم يجد فلاسفة التنوير أمامهم إلا هذه «التاريخية»، التى تنسخ هذا اللاهوت الخرافى لتكسر قيوده وتحطم أغلاله عن رقاب الشعوب والقوميات الأوروبية، تحيله- بالتاريخية- إلى «مستودع التاريخ»!

أما إسلامنا، فهو برىء من الكهانة- بل عدو لها- حتى إنه لا يعرف ولا يعترف بوظيفة «رجل

الدين»!

وتاريخنا الحضارى لم يعرف «حكومة فقهاء»!

والإسلام هو الذى حفز على إبداع العقلانية المؤمنة، النابعة من القرآن الكريم، والمدافعة- بالعقل- عن عقائد الدين.

وهو الذى حفز المسلمين على النظر والتعقل والتفكر والتدبر فى كل أنحاء الخلق والملكوت، بما فى ذلك الواقع، والتجريب فيه، حتى لقد ارتاد المسلمون إبداع المنهج التجريبى فى تاريخ العلم العالمى.

ومن هنا.. فإذا كانت حاكمية اللاهوت الكنسى الأوروبى، قد دفعت أوروبا إلى عصور الجهالة والظلمات، فإن سيادة حاكمية النص الدينى الإسلامى هى التى حفزت المسلمين إلى إحياء المواريث الحضارية القديمة، وإلى تطويرها والإبداع فى الإضافة إليها والبناء عليها، على النحو الذى جعل الحضارة الإسلامية المنارة التى تفردت بإنارة الدنيا لأكثر من عشرة قرون، كانت فيها الأمة الإسلامية «العالم الأول» على ظهر هذه الأرض طوال تلك القرون.

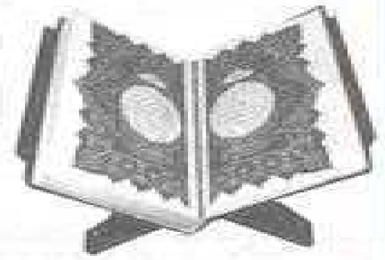
فإسلامنا: نور.. وقرآننا: نور.. ورسولنا: نور.. والحكمة عندنا: نور.. ومن ثم فإن الاستنارة بها هى السبيل إلى التقدم والنهوض.

وليست السبيل هى «التاريخية» الغربية، التى جاءت «حلاً غربيًا» «لمشكلة غربية»- مشكلة اللاهوت الكنسى الظلامي- الذى أدخل أوروبا عصور التراجع والجمود والرجعية والظلمات.

إن تاريخنا الحضارى لم يعرف «المشكلة الأوروبية»، التى استدعت هذه «التاريخية الأوروبية»، وليس من العقل أو الحكمة فى شىء أن «نستورد مشكلة» غريبة عنا «لنستورد» لها هذه «التاريخية» الغريبة عن روح الإسلام.

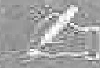
وليس من العقل أو الحكمة أن نحيل إسلامنا، الذى هو الحافز على تقدمنا ونهوضنا وعزتنا، إلى «مستودع التاريخ»!

***



تفسير سورة البقرة





لفضيلة الأستاذ الإمام
محمد عبده

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ
عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ
عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ
الْعَظِيمِ (١٠٥) مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ
اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٠٧) أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ
وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾

(البقرة ١٠٤ - ١٠٨)

إن هذا النهي له صلة وارتباط بشأن اليهود لا محالة، لأن الكلام لا يزال في شئونهم مع النبي ﷺ والمؤمنين ولكن هذا لا يستلزم أن يكون سبب النهي هو كون الكلمة تستعمل للشتم في العبرانية ولا أقول بهذا إلا بنقل صحيح عمن يعرف هذه اللغة وللمفسرين وجوه أخرى في تعليل النهي، فعن مجاهد وغيره أن معنى الكلمة (خلاف)، والمراد لا تخالفوه كما يفعل أهل الكتاب، ولكن اعترض على هذا الوجه بأن ليس له شاهد من اللغة.

والمعروف في اللغة أن ﴿ رَاعِنَا ﴾ من المراعاة، وهي تقتضي المشاركة في الرعاية أي ارعنا نرعك وفي خطاب النبي بذلك من سوء الأدب ما هو ظاهر فالنهي عنه تأديب، كقوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾

(الحجرات: ٢)

كأنه يقول لا تكونوا كهؤلاء الغلاظ القلوب الذين قصصنا عليكم خبرهم أو الذين عرفتم سوء أدبهم مع الأنبياء، بل اجمعوا بين الطاعة والأدب.

.. وها هنا وجه آخر، وهو أنه يقال في اللغة: راعى الحمار الحمر إذا رعى معها، فيجوز أن اليهود كانوا يحرفون الكلمة بصرفها إلى هذا المعنى، فنهى الله المسلمين عن هذه الكلمة وشنع على اليهود بإظهار سوء قصدهم فيها وقد رضوا بصرف اللفظ إلى هذا المعنى وإن كان يتضمن أنهم حمر لأن السباب يسب نفسه كما يسب غيره فهو على حد قول القائل:

اقتلوني ومالكا
واقتلوا مالكا معي

قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا ﴾

نهاهم تعالى عن كلمة كانوا يقولونها، وأمرهم بكلمة خير منها تفيد ما كانوا يريدونه منها فكلمة ﴿ انْظُرْنَا ﴾ تفيد معنى كلمة ﴿ رَاعِنَا ﴾، فإن فيها معنى الإنظار والإمهال.

ويؤيد هذا المعنى قراءة ﴿ أَنْظِرْنَا ﴾ من الإنظار وفيها معنى المراقبة، وهو ما يستفاد من النظر بالعين تقول: نظرت الشيء ونظرت إليه، إذا وجهت إليه بصرك ورأيته.

وتقول نظرته بمعنى انتظرته، ومنه:

﴿ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾

(يس: ٤٩).

أذن الله تعالى لهم بهذه الكلمة ﴿ انْظُرْنَا ﴾، وأمرهم بالسماع للنبي ليعوا عنه ما يقول من الدين وهو أمر يتضمن الطاعة والاستجابة ثم ختم الآية بقوله:

﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

لبيان أن ما صدر عن اليهود من سوء الأدب في خطاب الرسول هو أثر من آثار الكفر الذي يعذبون عليه العذاب الموجع أشد الإيجاع، وللتنبيه على أن التقصير في الأدب معه عليه السلام ذنب مجاور للكفر يوشك أن يجر إليه، فيجب الاحتراس منه بترك الألفاظ الموهمة للمساواة، بل الألفاظ المنافية للأدب.

وإنما كان عدم الإصغاء لما يقول الرسول عليه الصلاة والسلام وخطابه خطاب الأكفاء والنظراء مجاورا للكفر، لأنه يتكلم على الله عز وجل لسعادة من يسمع ويعقل ويأخذ ما يؤمر به بالأدب ويسأل عما لا يفهمه بالأدب، ومن فاتته هذه السعادة فهو الشقي الذي لا يعدل بشقائه شقاء ومعنى هذه المجاورة أن سوء الأدب بنحو ما حكى عن اليهود في سورة النساء هو من الكفر الصريح، ولذلك قال بعده:

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

(النساء: ٤٦)

فالألفاظ التي تحاكي الألفاظ التي توعدوا عليها بهذا الوعيد على أنها كفر إذا صدرت من المؤمن غير محرفة ولا مقصودا بها ما كانوا يقصدون، تسمى مجاورة لألفاظ الكفر لأنها موهمة وخارجة عن حدود الأدب اللائق بالمؤمنين.

وإن لمن جاء بعد الرسول حظا من هذا التأديب، وليس هو خاصا بمن كان في عصره من المؤمنين فهذا كتاب الله الذي

كان يتلوه عليهم وكان يجب الاستماع له والإنصات لأجل تدبره، هو الذى يتلى علينا بعينه لم يذهب منه شىء، وهو كلام الله الذى به كان الرسول رسولًا تجب طاعته والاهتداء بهديه فما هذا الأدب الذى يقابله به الأكثرون؟ إنهم يلغطون فى مجلس القرآن، فلا يستمعون ولا ينصتون.

ومن أنصت فإنما ينصت طربا بالصوت واستلذاذا بتوقيع نغمات القارئ وإنهم ليقولون فى استحسان ذلك واستجادته ما يقولونه فى مجالس الغناء، ويهتزون للتلاوة ويصوتون بأصوات مخصوصة كما يفعلون عند سماع الغناء بلا فرق ولا يلتفتون إلى شىء من معانيه إلا ما يرونه مدعاة لسرورهم فى مثل قصة يوسف عليه السلام، مع الغفلة عما فيها من العبرة وإعلاء شأن الفضيلة ولاسيما العفة والأمانة أليس هذا أقرب إلى الاستهانة بالقرآن منه بالأدب اللائق الذى ترشد إليه هذه الآية الكريمة وأمثالها، وتتوعد على تركه بجعله مجاورا للكفر الذى يسوق صاحبه إلى العذاب الأليم؟!

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾

(المؤمنون: ٦٨، ٦٩)

ثم قال تعالى:

﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾

يقول تعالى للمؤمنين إن هؤلاء الذين علمتم شأنهم مع أنبيائهم حسدة لا يلتفت إلى تكذيبهم ولا يبالى بعداوتهم، ولا يضركم كفرهم وعنادهم، فهم لحسدهم لا يودون أن ينزل عليكم أدنى خير من ربكم والقرآن أعظم الخيرات، لأنه النظام الكامل، والفضل الشامل، والهداية العظمى، والآية الكبرى، جمع به شملكم، ووصل حبلكم، ووحد شعوبكم وقبائلكم، وطهر عقولكم من نزعات الوثنية، وزكى نفوسكم من أدران الجاهلية، وأقامكم على سنن الفطرة، وشرع لكم الحنيفية السمحة، فكيف لا يحرق الحسد عليه أكبادهم، ويخرج أضغانهم عليكم وأحقادهم؟! و﴿مِنْ﴾ الأولى من الصلة كالتى تقدمت وإنما جعلت للاستغراق لأنها تدل على البعضية وزيادة لوقوعها فى خبر النفى فهى هنا بمعنى: أى شىء من الخير، أى فما بالكم بهذا الخير العظيم، أليس هو أولى بأن يكون أكبر مثير لحسدهم، ومغر بعنادهم؟

ثم إن الله تعالى رد عليهم بما بين جهلهم وجهل جميع الحاسدين، فقال:

﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾

أى أن الحاسد لغباوته وفساد طويته يكون ساخطا على الله تعالى ومعترضا عليه أن أنعم على المحسود بما أنعم، ولا يضر الله تعالى سخط الساخطين، ولا يحول مجارى نعمه حسد الحاسدين، فالله يختص برحمته من يشاء من عباده، والله ذو الفضل العظيم.

أسند كلا من هذين الأمرين إلى اسم الذات الأعظم لبيان أنهما حقه لذاته فليس لأحد من عبيده أدنى تأثير فى منحهما ولا فى منعهما.

﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾

(البقرة: ١٠٦ - ١٠٨).

قال أئمة اللغة إن أصل النسخ النقل، سواء كان نقل الشىء بذاته كما يقال: نسخت الشمس الظل: أى نقلته من مكان إلى مكان، أو نقل صورته كما يقال: نسخت الكتاب: إذا نقلت عنه صورة مثل الأولى وورد: نسخت الريح الأثر: أزالته وأصل النسيان: الترك أو هو غايته اللازمة له، ومنه قوله تعالى:

﴿أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾

(طه: ١٢٦)

أى تركتها بترك العمل بها، فجزاؤك أن تترك فى العذاب فاحفظ المعنى اللغوى.

وللمفسرين فى تفسير هذه الآية طريقان:

أحدهما: أنها على حد قوله تعالى:

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾

(النحل: ١٠١)

فالنسخ هنا بمعنى التبديل، أى إذا جعلنا آية بدلًا من آية فإننا نجعل هذا البدل خيرًا من المبدل منه أو مثله على الأقل.

فالآية عند هؤلاء فى نسخ التلاوة وقالوا: إن المراد بالنسيان هو أن يأمر الله تعالى بعدم تلاوة الآية فتنسى بالمرة.. وهذا بمعنى التبديل، فما هى الفائدة فى عطفه عليه بأو؟ وهل هو إلا تكرار يجل كلام الله عنه؟!

وثانيهما: أن المراد نسخ حكم الآية، وهو عام يشمل نسخ الحكم وحده ونسخه مع التلاوة وهذا هو القول المختار للجمهور وقالوا فى توجيهه: إنه لا معنى لنسخ الآية فى ذاتها، ولا حاجة إليه وإنما الأحكام تختلف باختلاف الزمان والمكان والأحوال، فإذا شرع حكم فى وقت لشدة الحاجة إليه، ثم زالت الحاجة فى وقت آخر، فمن الحكمة أن ينسخ الحكم ويبدل بما يوافق الوقت الآخر، فيكون خيرًا من الأول أو مثله فى فائدته من حيث قيام المصلحة به وقالوا: إن المراد بالإنساء إزالة الآية من ذاكرة النبى، ﷺ وقد اختلف فى هذا: أيكون بعد التبليغ أم قبله؟ فقيل بعده كما ورد فى أصحاب بئر معونة، وقيل قبله حتى إن السيوطى روى فى أسباب النزول أن الآية كانت تنزل على النبى -ﷺ- ليلًا فينساها نهارًا فحزن لذلك فنزلت الآية. ولا شك عندى فى أن هذه الرواية مكذوبة، وأن مثل هذا النسيان محال على الأنبياء عليهم السلام، لأنهم معصومون فى التبليغ، والآيات الكريمة ناطقة بذلك، كقوله تعالى:

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾

(القيامة: ١٧)

وقوله:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾

(الحجر: ٩).

وقد قال المحدثون والأصوليون: إن من علامة وضع الحديث مخالفته للدليل القاطع عقليًا كان أو نقليًا، كأصول الاعتقاد، وهذه المسألة منها، فإن هذا النسيان ينافى العصمة المجمع عليها.

وقالوا فى تفسير قوله تعالى بعد ما ذكر:

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

إنه ورد مورد الاستدلال على القدرة على النسخ بالمعنى الذى قالوه، أى أنه لا يستنكر على الله كما زعم اليهود، لأنه مما تناله قدرته. ثم استدل على ذلك بقول:

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

والخطاب فى ﴿تَعْلَمْ﴾ للنبى ﷺ، والمراد به غيره من المؤمنين الذين ربما كانوا يستعظمون من كلام اليهود وغيرهم من المعترضين على النسخ، وضعيف الإيمان يؤثر فى نفسه أن يعاب ما يأخذ به فيخشى عليه من الركون إلى الشبهة أو الحيرة فيها، ففى الكلام تثبيت لمن كان كذلك من الضعفاء ودعم لإيمانهم. وتوجيه الكلام إلى شخص يراد غيره شائع فى كلام العرب والمولدين، ولذلك قال بعض العلماء: نزل القرآن على طريق قولهم: (إياك أعنى واسمعى يا جارة). وإذا كان هذا الملك العظيم لله وحده فلا شك أنه لا يعجزه أن ينسخ حكمًا من الأحكام.

ومن آية إرادة الأمة بالخطاب، الالتفات عن الإفراد إلى الجمع بقوله:

﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

أى أن وليكم وناصركم هو الله تعالى وحده، فلا تبالوا بمن ينكر النسخ أو يعيبكم به. ولا ينبغى أن يستهويكم إنكارهم فيميلكم عن دينكم، فإنه لا قيمة له ولا للمنكرين، إذ ليس فى استطاعتهم أن يضروكم أو ينفعوكم إذا كان الله هو مولاكم وناصركم. وإذا أراد الله بكم سوءًا فلا يملكون أن يدفعوه عنكم.

ثم قال تعالى:

﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ ﴾

وهذا كلام جديد منقطع عما قبله.

وقالوا: إن ﴿ أَمْ ﴾ هنا للاستفهام، لا للإضراب، لأن ﴿ أَمْ ﴾ التى تستعمل بمعنى (بل) يقصد بها الإضراب عن الكلام السابق، ولا يظهر الإضراب هنا.

واستشهدوا لـ: ﴿ أَمْ ﴾ الاستفهامية بقول الشاعر:

فوالله لا أدرى أهند تقولت
أم القول أم كل إلى حبيب؟!

وأنا مع القائلين بأنها للاستفهام.

وبعض المفسرين يقولون: إن ﴿ أَمْ ﴾ هذه منقطعة للإضراب عن عدم علمهم بالسابق إلى الاستفهام عن اقتراحهم، فهى تتضمن الإضراب والاستفهام معًا. وتجد الجلالين يقدران ذلك فى تفسيرهما، وقد قدرا فيه هنا (بل أتريدون).

والحاصل، أن المعنى هنا: أتريدون أن تسألوا رسولكم كما سأل موسى قومه تبرمًا وإعناتًا؟ يحذر المسلمين ما فعل أولئك.

وقد أتبع التحذير بالوعيد، فقال:

﴿ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾

أى إن ترك الآيات الموجودة والإعراض عنها لإعنات النبى ﷺ بسؤال غيرها لتكون بدلاً منها، هو من اختيار الكفر على الإيمان، واستحباب العمى على الهدى.

وبدل وتبدل واستبدل يدل على جعل شئ فى موضع آخر بدلاً منه. والباء تقرن بالمبدل منه لا بالبدل، كما أشرنا إليه فى تفسير:

﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ﴾

(البقرة: ٦١).

هذا تقرير ما جرى عليه المفسرون فى الآيات. وإذا وازنا بين سياق آية:

﴿ مَا نَنْسَخْ ﴾

وآية:

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ ﴾

نجد أن الأولى ختمت بقوله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

والثانية بقوله:

﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ ﴾

ونحن نعلم شدة العناية فى أسلوب القرآن بمراعاة هذه المناسبات. فذكر العلم والتنزيل ودعوى الافتراء فى الآية الثانية يقتضى أن يراد بالآيات فيها آيات الأحكام. وأما ذكر القدرة والتقرير بها فى الآية الأولى فلا يناسب موضوع الأحكام ونسخها، وإنما يناسب هذا ذكر العلم والحكمة. فلو قال: (ألم تعلم أن الله عليم حكيم) لكان لنا أن نقول إنه أراد نسخ آيات الأحكام لما اقتضته الحكمة من انتهاء الزمن أو الحال التى كانت فيها تلك الأحكام موافقة للمصلحة.

وقد تحير العلماء فى فهم الإنساء على الوجه الذى ذكروه، حتى قال بعضهم: إن معنى ﴿ نُنْسِهَا ﴾ نتركها على ما هى عليه من غير نسخ. وأنت ترى أن هذا، وإن صح لغة، لا يلتئم مع تفسيرهم. إذ لا معنى للإتيان بخير منها مع تركها على حالها غير منسوخة. والمعنى الصحيح، الذى يلتئم مع السياق إلى آخره: أن الآية هنا هى ما يؤيد الله تعالى به الأنبياء من الدلائل على نبوتهم، أى:

﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ ﴾

نقيمها دليلاً على نبوة نبى من الأنبياء، أى نزيلها، ونترك تأييد نبى آخر بها، أو ننسها الناس لطول العهد بمن جاء بها، فإننا بما لنا من القدرة الكاملة والتصرف فى الملك نأتى بخير منها فى قوة الإقناع وإثبات النبوة أو مثلها فى ذلك. ومن كان هذا شأنه فى قدرته وسعة ملكه فلا يتقيد بآية مخصوصة يمنحها جميع أنبيائه.

والآية فى أصل اللغة، هى الدليل والحجة والعلامة على صحة الشىء. وسميت جمل القرآن آيات، لأنها بإعجازها حجج على صدق النبى، ودلائل على أنه مؤيد فيها بالوحى من الله عز وجل، من قبيل تسمية

الخاص باسم العام.

ولقد كان من يهود من يشكك في رسالته -عليه السلام- بزعمهم أن النبوة محتكرة لشعب إسرائيل. وقد تقدمت الآيات في تفنيد زعمهم هذا. وقالوا:

﴿لولا أوتي مثل ما أوتي موسى﴾

(القصص: ٤٨)

أي من الآيات؟ فرد الله تعالى عليهم في مواضع، منها قوله عز وجل بعد حكاية قولهم هذا:

﴿أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل﴾

(القصص: ٤٨)

ومنها هذه الآية، والخطاب فيها للمؤمنين الذين كان اليهود يريدون تشكيكهم، كأنه يقول: إن قدرة الله تعالى ليست محدودة ولا مقيدة بنوع مخصوص من الآيات أو بآحاد منها لا تتناول غيرها، وليست الحجة محصورة في الآيات السابقة لا تتعداها، بل الله قادر على أن يأتي بخير من الآيات التي أعطاها موسى وبمثلها، فإنه لا يعجز قدرته شيء، ولا يخرج عن ملكه شيء. كما أن رحمته ليست محصورة في شعب واحد فيخصه بالنبوة، ويحصر فيه هداية الرسالة. كلا إن رحمته وسعت كل شيء. كما أن قدرته تتصرف بكل شيء من ملك السموات والأرض الذي لا يشاركه فيه مشارك، ولا ينازعه فيه منازع، فيكون وليا ونصيرا لمن كفر بنعمه وانحرف عن سننه.

انظر كيف أسفرت البلاغة عن وجهها في هذا المقام، فظهر أن ذكر القدرة وسعة الملك إنما يناسب الآيات بمعنى الدلائل دون معنى الأحكام الشرعية والأقوال الدالة عليها من حيث هي دالة عليها، لا حيث هي دالة على النبوة.

ويزيد هذا سفورا ووضوحا قوله عقبه:

﴿أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل﴾

فقد كان بنو إسرائيل لم يكتفوا بما أعطى موسى من الآيات، وتجرءوا على طلب غيرها:

﴿وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾

(البقرة: ٥٥).

وكذلك كان فرعون وقومه: كلما رأوا آية طلبوا غيرها، حتى رأوا تسع آيات بينات، ولم يؤمنوا. وقوله تعالى:

﴿كما سئل موسى﴾

يشمل كل ذلك.

قد أرشدنا الله تعالى بهذا إلى أن التفنن في طلب الآيات، وعدم الإذعان لما يجيء به النبي منها والاكتفاء به بعد العجز عن معارضته، هو دأب المطبوعين على الكفر الجامدين على المعاندة والمجاحدة، فإنه قال بعد إنكار هذا الطلب:

﴿ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل﴾

ويوضح هذا قوله تعالى في آية أخرى:

﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون﴾

(الإسراء: ٥٩).

والمراد: الآيات المقترحة، بدليل السياق، وهو اتفاق بين المفسرين. ولو

كان الموضوع موضوع طلب استبدال أحكام بأحكام تنسخها، لما كان للتوعد بالكفر وجه وجيه.

وقوله تعالى:

﴿فقد ضل سواء السبيل﴾

معناه أنه أخطأ وسط الجادة، ومال إلى أحد الجانبين. ومتى انحرف السائر في سيره عن الوسط، يخرج عن المنهج، ويبعد عنه كلما أوغل في السير، فيهلك دون الوصول إلى المقصد. والمراد بسواء السبيل: الحق والخير اللذان تكمل الفطرة بالاستقامة على السير في طريقهما. ومن مال عن الحق وقع في الباطل لا محالة:

﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال﴾

(يونس: ٣٢)

هذا هو التفسير الذي تتصل به الآيات، ويلتئم بعضها مع بعض على وجه يتدفق بالبلاغة، وهو الذي يتقبله العقل ويستحليه الذوق، إذ لا يحتاج إلى شيء من التكلف في فهم نظمه ولا في توجيه مفرداته، (كالإنساء) و(القدرة) و(الملك).

وقد اضطر القائلون بأن المراد بالنسخ نسخ الأحكام -مع ما علمت من التكلف- إلى القول بجواز نسيان الوحي، وطفقوا يتلمسون الدلائل على ذلك، حتى أوردوا قوله عز وجل:

﴿واذكر ربك إذا نسيت﴾

(الكهف: ٢٤)

وليس من هذا الموضوع، ولا المخاطب به النبي -عليه الصلاة والسلام- وإنما جاء على طريق الحكاية.

وأما قوله تعالى:

﴿سنقرئك فلا تنسى ۝٦ إلا ما شاء الله إنه﴾

(الأعلى: ٦، ٧)

فهو يؤكد عدم النسيان، لأن الاستثناء بالمشيئة قد استعمل في أسلوب القرآن للدلالة على الثبوت والاستمرار، كما في قوله تعالى:

﴿خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ﴾

(هود: ١٠٨)

أي غير مقطوع. وقوله:

﴿قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله﴾

(الأعراف: ١٨٨).

والنكتة في الاستثناء: بيان أن هذه الأمور الثابتة الدائمة إنما كانت كذلك بمشيئة الله تعالى، لا بطبيعتها في نفسها. ولو شاء الله تعالى أن يغيرها لفعل. وهذا الاعتقاد من مهمات الدين، فلا غرو أن تزاح عنه الأوهام في كل مقام يمكن أن تعرض فيه. فليس امتناع نسيان الوحي طبيعة لازمة للنبي، وإنما هو تأييد ومنحة من الله تعالى، وليس خلود أهل الجنة في الجنة واجبا عقليا أو طبيعيا، وإنما هو بإرادة الله تعالى ومشيئته.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو (أو ننسأها)، أي نؤخرها. ولا يظهر هذا المعنى في مقام نسخ الأحكام كما يظهر في نسخ الآيات والمعجزات المقترحة على الأنبياء، فإن الآية التي تقترح على نبي لأنها كانت لنبي قبله قد تنسخ بآيات جديدة خير منها أو مثلها، وقد تؤخر بالآية الجديدة ثم تعطى في وقت آخر بعد الاقتراح، ولكن تأخير آيات الأحكام ليس له معنى ظاهر.

أقسام السنة عند الدكتور/ محمد عبد الله دراز



٦

النوع الثالث: تحكيم الهوى في تأويل النصوص الشرعية:

اعلم أن منشأ الشبهة في هذا النوع أمران:

● **الأمر الأول: هو أن الناظر في عامة النصوص الشرعية إذا نظر إلى حرفية كل نص منها، معزولًا عن القرائن المحيطة به وعن النصوص الأخرى التي تعين المقصود منه، وأخذ في طرق الوجوه التي يمكن أن يتحملها ذلك النص في اللغة، وجده محتملًا لوجوه متضاربة من المعاني**

فهذا هو أول مداخل الهوى على المبتدع في التأويل، وذلك لأنه متى لم يجد النص قاطعًا في واحد من هذه المحتملات أخذ في اختيار ما يحلو في ذوقه، وبذلك يمكن انقياد الأدلة في يده إلى أي وجه أراده منها.

نقول إن عامة النصوص الشرعية هي على هذا المنوال، وإن الذي يفتح باب الاحتمال في دلالة نص، لا يسهل عليه إغلاق هذا الباب أمام شيء منها، ذلك لأن النصوص واردة بلسان العرب وعلى مناهجهم، وأنت قلما تجد في العربية نصًا يكون بمفرده مؤديًا لمعنى واحد يقطع بأنه هو المقصود الذي لا يحتمل غيره، فإن من عادة العرب أنها تكتفي بظهور المعنى من أمارته وقرائنه المتصلة والمنفصلة، ولا تبالي بعد ذلك بما في جوهر النص من وجوه الاحتمال البعيدة فكذلك يجب أن يسلك الناظر في نصوص الكتاب والسنة بحمل كل نص على المعنى الذي تعطيه مجموعة تلك النصوص والقرائن، وبذلك تنسد أبواب التأويلات البعيدة التي يدخل منها الهوى لإحداث المبتدعات في الدين.

قال الشاطبي في المقدمة الثالثة من كتاب الموافقات: إن الأدلة السمعية لا تفيد القطع بآحادها بل باجتماعها، وذلك أنها إما من الأخبار أو من المتواترات فإن كانت من أخبار الآحاد فعدم إفادتها القطع ظاهر وإن كانت متواترة فإفادتها القطع موقوفة على مقدمات جميعها أو غالبها ظني، والموقوف على الظني لابد أن يكون ظنيًا، فإنها تتوقف على نقل اللغات وآراء النحو، وعدم الاشتراك وعدم المجاز، وعدم النقل الشرعي أو

العادي، وعدم الإضمار وعدم التخصيص للعموم والتقييد للمطلق، وعدم الناسخ وعدم التقديم والتأخير، وعدم المعارض العقلي فإذا أخذنا كل آية على حدتها أو كل حديث على انفراده مع قيام هذه الاحتمالات فيها لم يحصل لنا القطع بحكم شرعي البتة حتى وجوب الصلاة وحرمة قتل النفس، وحجية الاجماع والقياس وخبر الواحد، وغير ذلك، إذ ما من نص ظاهر إلا ويمكن صرفه عن ظاهره، ومن هنا ذهب بعض الأصوليين إلى أن كون الإجماع حجة ظني لا قطعي، إذ لم يجد في آحاد الأدلة بانفرادها القطع.

فخالف بذلك من قبله ومن بعده من الأمة، وعدل آخرون عن الاستدلال على المسائل القطعية بأدلة لفظية إلى الاستدلال عليها بأدلة عقلية أو عرفية.

ولو أنهم نظروا إلى هذه الأدلة السمعية نظرة استقراء وجمع فرأوا ظواهرها متضافرة على معنى واحد لحصل لهم من مجموع تلك الدلالات الظنية دلالة قطعية على المراد منها، لأن للاجتماع ما ليس للافتراق.

ولذلك أفاد التواتر القطع مع أنه مركب من أخبار كل واحد منها لا يفيد إلا ظنًا وهذا الضرب شبيه بالتواتر المعنوي الذي قررناه آنفًا.. فنحن إذا نظرنا في الصلاة لوجدنا أنه جاء فيها:

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾

على وجوه، وجاء مدح المتصفين بإقامتها، وذم التاركين لها، وإجبار المكلفين عليها قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم، وقتال من تركها أو عاند إلى غير ذلك.. علمنا يقينًا وجوبها..

وكذلك النفس إذا نظرنا إلى أنه ورد النهي عن قتلها، وجعل قتلها من كبائر الذنوب، ووجب سد رمق المضطر بكل حلال أو حرام، ووجبت الزكاة والمواساة والقيام على من لا يقدر على إصلاح نفسه ووجب القصاص من القاتل وأقيم الحكام والقضاة والأمراء لذلك، ورتبت الأجناد لقتال من رام قتل النفس إلى غير ذلك، علمنا يقينًا تحريم القتل، وكذلك اتفقت الأمة بل سائر الملل على أن الشريعة وضعت للمحافظة على الضروريات الخمس، وهي الدين والنفس والنسل والمال والعقل ولم يثبت لنا ذلك بدليل معين ولا شهد لنا أصل معين يمتاز بالرجوع إليه، بل علمت ملاءمتها للشريعة بمجموع أدلة لا تنحصر في باب واحد، ولو استندت إلى شيء معين لوجب عادة تعيينه ورجوع أهل الإجماع إليه، وليس كذلك، لأن كل واحد منها بانفراده ظني وإنما يحصل القطع بمجموعة منها تختلف باختلاف أحوال الناقلين وأحوال دلالات المنقولات وأحوال الناظرين في قوة الإدراك أو ضعفه وكثرة البحث أو قلته إلى غير ذلك أ. هـ ملخص كلام الشاطبي في الموافقات».

● **الأمر الثاني: أن النصوص الشرعية قسمان: محكمات ومتشابهات.**

فالمحكمات هي الواضحات أعني الأدلة الظاهرة في المقصود بغير

إشكال، «والمتشابهات» هي المجملات أو المشكلات أعني الأدلة المحتملة للمقصود وغيره، أو الموهمة لخلاف المقصود. فأما المحكمات فهن أم الكتاب أي جمهور أدلته وأما المتشابهات فإنها قليلة في جنب المحكمات فمن كان مطلبه الأول هو اتباع أدلة الشرع محضة فبسط إليها يد الافتقار وألقى إليها الزمام والانقياد، وأخر هواه فجعله تابعًا لها غير متبوع فإنه حين يجد معظم الأدلة واضحة في معنى لا يتردد أن ذلك المعنى هو مقصود الشارع وأن ما شذ عنه يجب رده إليه.. فالمحكمات عنده إذًا هي الأصل الذي ترد (١) إليه المتشابهات.

وهذا هو مقتضى النظر السليم، إذ من حق الواضح أن يحمل عليه المشكل، كما أن من حق الأكثر أن يكون هو الحاكم على الأقل لا العكس.

وأما من غلب عليه الهوى فإنه لما كانت المتشابهات هي أسهل الأدلة انقيادًا لهواه تراه يسارع إلى الأخذ بظاهرها الموهم أو بأحد وجهيها الموافق لغرضه- فإذا تم له ذلك فيها صارت حجة في يده يتذرع بها وإلى تأويل الواضحات فلا يزال بها يصرفها عن ظاهرها حتى تنقاد له أيضًا فينزلها على وفق المتشابهات، زاعمًا أنه آخذ فيها بدليل شرعي على الجملة، وإنما هو منقاد لشهوة أضلته عن الصواب وزينت له سوء عمله فرآه حسنًا.

فالواجب إذا على طالب الحق من معاني النصوص أمران: أحدهما أن يأخذ بما دلت عليه مجتمعة لا متفرقة، الثاني أن يجعل أصله المحكمات منها لا المتشابهات.

النوع الرابع: تحكيم الهوى في الترجيح بين الأدلة المتعارضة أو الأدلة المختلفة بين العلماء.

والفتنة بهذا النوع فاشية في أكثر المتصدين للفتيا قديمًا وحديثًا، وهم في ذلك فريقان «فترى فريقًا منهم» يرجح بالتشيع والعصبية المذهبية، فيتعصب لمذهب إمامه حتى في الزلات ويتمادى من نصرته على العلات وفي ذلك مخالفة للشريعة أولًا، ثم مخالفة لمتبوعه ثانيًا «أما أنه مخالفة للشريعة» فلأنها لم تجعل لأحد من البشر سلطان بإطلاق، بل جعلت الحكم كله لله، وما وجبت طاعة النبي إلا لكونه مخبرًا عن الله، ولا وجب اتباع العالم إلا لكونه مبلغًا لما فهمه عن رسول الله ﷺ. غير أنه لما قامت دلالة المعجزة على عصمة النبي ﷺ في إخباره عن ربه وجبت له الطاعة مطلقًا في أمور الدين لأن من أطاعه فقد أطاع الله- ولا كذلك آحاد العلماء إذ لا دليل على عصمتهم من الخطأ والزلل بل الدليل قائم على وقوع ذلك منهم في بعض الأمور ولذلك لم تكن لهم الطاعة بإطلاق بل وجب عند تنازعهم أن يرد الحكم إلى الله ورسوله ﷺ فمن

(١) وهذا الرد (إما على وجه إجمالي) بأن يؤمن بأن مـا أراده الله منها لا يمكن أن يتناقض مع معنى المحكمات ولكنه لا يتكلف البحث عن تعيين المراد منها بل يكل علمه إلى عالمه مصدقا بأن ما أراده الله منها فهو حق (وإما على وجه تفصيلي) بأن يؤولها تأويلا يتفق مع دلالة المحكمات ولكن من غير قطع بتعيين هذا المعنى المقصد بل مع الإيمان بالحقيقة أيا كانت.

تبين خطؤه منهم حرمت متابعته، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، «وأما أن ذلك مخالفة للأئمة أنفسهم» فلأنه ما من إمام منهم إلا يصرح أو يعرض بأنه لا يجوز اتباعه في أمر ثبت خلافه عن رسول الله ﷺ فاتباعهم في تلك الحال تبديل لهذه الوصية «وترى فريقًا منهم» لا يتقيد في فتواه بمذهب إمامه، ولكنه يدور فيها مع هواه حيث وجده فإذا سألهم سائل ممن يعنيهم أمره عن مسألة له فيها حاجة إلى الرفق والتخفيف أخذوا يبحثون عن أقوال العلماء في تلك المسألة حتى يجدوا القول الموافق للسائل فيفتيه به.. حتى حكى الخطابي عن بعضهم أنه كان يقول: كل مسألة ثبت فيها لأحد العلماء قول بالجواز- شذ عن الجماعة أولًا- فهي جائزة، وهذا خطأ شنيع (٢)، فهو عين تتبع رخص المذاهب الذي أنكره الأئمة وحظروه حظرًا شديدًا، لما يؤدي إليه من الانخلاع عن ربقة التكليف والخروج إلى الإباحة البهيمية.

وإنما الواجب في مسألة اختلاف العلماء كما قال الطبري وغيره أن يبحث عن أدلة مذاهبهم فيأخذ بأرجحها.. هذا إن كان من أهل العلم المتبصرين في فهم مواقع الأدلة المتأهلين للترجيح بينها بالمرجحات المعتبرة في تحقيق المناط ونحوه، وأما إن كان عاميًا صرفًا أو كالعامي فواجبه أن يبحث عن أحوال الأئمة أنفسهم من حيث شهرتهم بالعلم والأمانة والنصيحة لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ فيتبع أعلمهم وأفضلهم... فإن تعارضت الأدلة أمامه أو استوت أحوال الأئمة في علمه أصبحت المسألة عنده من المتشابهات التي لا مخلص له منها إلا بإيثار الترك والاجتناب إذ لا تطمئن النفس إلا بذلك.

ولنقص عليك واقعة تاريخية عن بعض علماء الأندلس، ضربها الشاطبي رحمه الله مثلا سيئًا في هذا الباب وهو باب اتباع الهوى في اختيار ما يفتى به، قال: «كان محمد بن يحيى بن لبابة أخو الشيخ ابن لبابة المشهور قاضيًا وعضوًا في مجلس شورى القضاة بالأندلس «في القرن الرابع الهجري» ثم أخذت عليه أشياء أوجبت سخطته فعزل من أجلها عن القضاء وعن الشورى وأمر بإسقاط عدالته وإلزامه بيته وألا يفتي أحدًا وسجل ذلك عليه القاضي حبيب بن زياد فأقام على ذلك وقتًا».

ثم إن الخليفة الناصر «عبدالرحمن الثالث» (٣) عرضت له حاجة، وهي أنه كان بجوار قصره في قرطبة حبس من أحباس المرضى بعدوة النهر مقابل متنزهه، وكان الناصر يتأذى برؤية المرضى من علاليه فشكا إلى القاضي ابن بقي ضرورته لشراء هذا الحبس،

(٢) اقرأ المسألة الثالثة من كتاب الاجتهاد في الموافقات (ج ٤ - ص ١١٨ - ١٥٥) ففيها فصول ممتعة تشفي النفس في هذا الباب.

(٣) وهو أول من أعلن نفسه خليفة ولقب نفسه أمير المؤمنين من ملوك بني أمية في الأندلس وبلغت الدولة في أيامه وأيام ابنه الحكم مبلغًا عظيمًا من الرقي العلمي والمدني حتى صارت قرطبة تنافس بغداد وكانت خلافة بغداد لا تزال قائمة للعباسيين على ضعف وكان من الفاطميين خلفاء أيضًا في شمال افريقية فكان للمسلمين ثلاثة خلفاء ذوي عواصم مختلفة

فقال له ابن بقي: لا حيلة عندي فيه، وهو أولى أن يحاط بحرمة الحبس، فقال له: تكلم مع الفقهاء فيه وعرفهم رغبتي وما أجزله من أضعاف القيمة فيه فلعلهم أن يجدوا لي في ذلك رخصة. فتكلم ابن بقي معهم فلم يجدوا إليه سبيلا- فغضب الناصر عليهم وأمر الوزراء بالتوجيه فيهم إلى القصر وتوبيخهم فجرت بينهم وبين بعض الوزراء مكالمة، ولم يصل الناصر معهم إلى مقصوده.

ولكن ابن لبابة بلغه هذا الخبر، فرفع إلى الناصر بعض من أصحابه الفقهاء يقول له: إنهم حجروا عليه واسعًا، ولو كان حاضرًا لأفتاه بجواز المعاوضة وناظر أصحابه فيها.. فوقع الأمر بنفس الناصر، وأمر بإعادة محمد بن لبابة إلى الشورى على حالته الأولى، ثم أمر القاضي بإعادة المشورة في المسألة. فاجتمع القاضي والفقهاء وجاء ابن لبابة آخرهم، وعرفهم القاضي ابن بقي بالمسألة التي جمعهم من أجلها وغبطة المعاوضة فقال جميعهم بقولهم الأول من منع تغيير الحبس عن وجهه- وابن لبابة ساكت- فقال له القاضي: ما تقول انت يا أبا عبدالله؟ قال: أما قول إمامنا مالك بن أنس فالذي قاله الفقهاء، وأما أهل العراق فإنهم لا يجيزون الحبس أصلا، وهم علماء أعلام يقتدي بهم أكثر الأمة، وإذ بأمير المؤمنين من الحاجة ما به فما ينبغي أن يرد عنه، وله في السنة فسحة، وأنا أقول بقول أهل العراق وأتقلد ذلك رأيًا. فقال الفقهاء: سبحان الله أتترك قول مالك الذي أفتى به أسلافنا ومضوا عليه واعتقدناه بعدهم وأفتينا به لا نحيد عنهم بوجه. وهو رأي أمير المؤمنين والأئمة آبائه؟ فقال لهم محمد بن يحيى: ناشدتكم الله العظيم ألم تنزل بأحد منكم ملمة بلغت بكم أن أخذتم فيها بغير قول مالك في خاصة أنفسكم، وأرخصتم لأنفسكم في ذلك؟ قالوا: بلى. قال: فأمير المؤمنين أولى بذلك فخذوا به مأخذكم وتعلقوا بقول من يوافقه من العلماء.

فسكتوا، فقال القاضي: أنه إلى أمير المؤمنين فتياي. فكتب القاضي إلى أمير المؤمنين بصورة المجلس، وبقي مع أصحابه بمكانهم إلى أن أتى الجواب بأن يؤخذ له بفتيا محمد بن لبابة، وينفذ ذلك ويعوض المرضى من هذا الحبس بأملاك ثمينة عجيبة[4] وكانت عظيمة القدر جدًا تزيد أضعافًا على الحبس.. ثم جيء بكتاب أمير المؤمنين إلى محمد بن لبابة هذا، بولايته خطة الوثائق ليكون هو المتولي لعقد هذه المعاوضة فهنئ بالولاية وأمضى القاضي الحكم بفتواه وأشهد عليه وانصرفوا... فلم يزل ابن لبابة يتقلد خطة الوثائق والشورى إلى أن مات سنة ٦٣٣هـ.

قال الشاطبي: فشأن مثل هذا لا يحل أصلًا لوجهين: أحدهما «أنه لم يتحقق المذهب الذي حكم به لأن أهل العراق لا يبطلون الإحباس هكذا على الإطلاق ومن حكى عنهم ذلك فإما على غير تثبت وإما

(٤) عبارة الموافقات «بأملاكه بمنية عجب» اسم قرية من قرى الأندلس.

أنه كان قولًا لهم رجعوا عنه فإن مذهبهم يقرب من مذهب مالك حسبما هو مذكور في كتب الحنفية، والثاني أنه إن سلمنا صحته فلا يصح للحاكم أن يرجح في حكمه بأحد قولين بالمحبة أو الإمارة أو قضاء الحاجة، وإنما الترجيح بالوجوه المعتبرة شرعًا، وهذا متفق عليه بين العلماء.

فكل من اعتمد على تقليد قول غير محقق أو رجح بغير معنى معتبر فقد خلع الربقة واستند إلى غير شرع «عافانا الله من ذلك بفضله» ا.هـ[5]..

وإليك واقعة أخرى كان مدخل الهوى فيها أخفى وأدق من هذه ومع ذلك أنكرها الفقهاء: حكى أحمد بن عبد البر أن قاضيًا من قضاة قرطبة كان كثير الاتباع ليحيى بن يحيى لا يعدل عن رأيه إذا اختلف عليه الفقهاء فوقعت قضية تفرد فيها يحيى وخالف جميع أهل الشورى، فأرجأ القاضي القضاء فيها حياءً من جماعتهم، وردافته قضية أخرى كتب بها إلى يحيى فصرف يحيى رسوله وقال له: لا أشير عليه بشيء إذ توقف على القضاء لفلان بما أشرت عليه، فلما انصرف إليه رسوله وعرفه بقوله قلق منه وركب من فوره إلى يحيى وقال له لم أظن أن الأمر وقع منك هذا الموقع، وسوف أقضي له غدًا إن شاء الله فقال له يحيى: وتفعل ذلك صدقًا؟ قال: نعم. قال له: فالآن هيجت غيظي فإني ظننت إذ خالفني أصحابي أنك توقفت مستخيرًا الله متخيرًا في الأقوال، فأما إذ صرت تتبع الهوى وتقضي برضى مخلوق ضعيف فلا خير فيما تجيء به ولا في إن رضيته منك فاستعف من ذلك أستر لك وإلا رفعت في عزلك، فرفع يستعفي فعزل ا.هـ[6].

تم الكلام على الأصلين من أصول البدع، وهما اتباع الرأي والهوى بأنواعهما غير أنه لما كان من بين قواعد العلماء السنة قاعدتان قد تلتبسان بهذين الأصلين، وهما قاعدة المصالح المرسلة، وقاعدة الاستحسان، وجب- قبل الانتقال إلى بقية أصول البدع- أن نقول كلمة نوضح بها منشأ الالتباس بين هذين المسلكين من مسالك أهل السنة، وبين ذينك المسلكين من مسالك أهل البدعة، ثم نقفي ببيان ما يزيل هذا اللبس.

وقد عقد الشاطبي رحمة الله لهذا الغرض بابًا مستقلًا وهو الباب الثامن من كتابه الاعتصام وإليك خلاصته بتصرف غير كثير.

تكميل الكلام على هذين الأصلين البدعيين نبين فيه:

«أ» الفرق بين الأصل وبين قاعدة المصالح المرسلة.

«ب» الفرق بين الأصل الثاني وبين قاعدة الاستحسان.

«أما الإشكال» على قاعدة المصالح المرسلة فبيانه أن الاستدلال بالمصلحة

(٥) بتصرف يسير عن الجزء الثالث من الاعتصام.

(٦) عن الجزء الرابع من الموافقات ص ١٣٦.

أقسام السنة عند الدكتور/ محمد عبدالله دراز

المرسلة [٧] لا معنى له عند القائل به إلا إثبات حكم شرعى من غير نص من الشارع ولا على أصله الذى يلحق هو به، بل بمجرد كونه خيرًا ومصلحة، كما يفهم من تسميته مصلحة مرسلة أى مطلقة عن الدليل.. أليس ذلك إذا هو تحكيم العقل فى التشريع بغير مستند شرعى من نص أو قياس وهو الذى جعلتموه الأصل الأول من أصول البدعة؟ فإن كان الاستدلال بالمصلحة المرسلة حقًا بإطلاق كما روى عن مالك أو حقًا فى بعض المسائل كما ذهب إليه بعض الأئمة [٨] وكلهم من رءوس علماء السنة فقد بطل ما قررتم من قبل، وإن كان مردودًا بإطلاق كما ذهب إليه القاضى وبعض الأصوليين فكيف تفسرون عمل الصحابة والسلف الصالح فى مسألة جمع القرآن وغيرها إلا بكونها بدعًا ولكنها بدع مستحسنة؟

«وأما الإشكال» على قاعدة الاستحسان فبيانه أن الاستحسان كما عرفه بعض الأصوليين هو الحكم بما يستحسنه المجتهد ويميل إليه، وبعضهم عرفه بأنه هو أن ينقدح فى نفس المجتهد دليل تقصر عبارته عنه، ولا شك أنه على كلا التفسيرين يتناول المعنى الذى أنكرتموه وهو الاستحسان الذى لا يستند إلى دليل شرعى، أما على التفسير الثانى فلأنه ما من مبتدع إلا وعنده شبهة دليل تنقدح فى نفسه وإن قصرت عبارته عنها، وأما على التفسير الأول فلأنه لو كان ميل المجتهد إليه لوجود مستند شرعى له من نص أو دلالة لما كانت هناك فائدة فى وضع ترجمة له زائدة على النصوص والأقيسة.. فهو إذا ليس إلا ميل الطباع.. وهو الأصل الثانى من أصول الابتداع فإن كان الاستحسان مع ذلك حجة شرعية كما ذهب إليه الأئمة الثلاثة– أعني من عدا الشافعي– فقد بطل ما قررتم آنفًا، وإن كان مردودًا كما هو مذهب الشافعى إذ روى عنه أنه قال «من استحسن فقد شرع». فماذا يفسر عمل الأمة فى المسائل الاستحسانية؟ مثل جواز الإجارة على دخول الحمام من غير تقدير مدة اللبث فيه ولا تقدير الماء المستعمل ولا تقدير الأجرة، ولا مستند لهذه المسألة إلا أن المشاحة فى مثلها قبيحة فى العادة فاستحسن الناس تركها. مع القطع بأن الإجارة المجهولة ممنوعة اتفاقًا.. وإذ قد تمسكت الأمة بالاستحسان هكذا فى مخالفة الدليل فأولى أن يصح التمسك به حيث لا يوجد دليل مخالف ولا موافق.

«والجواب» أن الإشكال ها هنا ما نشأ إلا من هذه التعريفات المجملة التى أسىء فيها تحديد هاتين القاعدتين. فاسمع تحديدهما على الوجه المعتبر عند القائل بهما.

يتبع

(٧) انظر التعريف بالمصلحة المرسلة وأقوال الفقهاء فى الاحتجاج بها وضوابطها فى الوجيز فى أصول الفقه د/ عبدالكريم زيدان ص ٢٣٦ وما بعدها وأصول الفقه الإسلام د/ وهبة الزحيلي ج٢ ص ٧٥٦ وما بعدها

(٨) فالشافعى ومعظم الحنفية يعتبرون المصلحة إذا كانت قريبة من الأصول الثابتة وإن لم يشهد لها أصل بخصوصها والغزالى يعتبر المصلحة التى تكون من قسم الضروريات لا من قسم التحسينيات، واختلف قوله فى قسم الحاجيات. د/دراز.

نظرات فى فكر الإمام الأشعرى:

أصول نظرية العلم عند الإمام الأشعرى

٤



لفضيلة الإمام الأكبر أ.د. أحمد الطيب
شيخ الأزهر

يضرب الأشعرى مثالا لقياس الغائب على الشاهد بالمتحرك وبالعالم، فلما كان المتحرك والعالم فى الشاهد يلحقهما هذان الوصفان بسبب وجود الحركة فى المتحرك والعلم فى العالم، وجب أن يطرد هذا أيضًا فى كل متحرك وفى كل عالم.

ومما يجب أن نتنبه إليه فى قياس الغائب على الشاهد عند الشيخ، أن الحكم على الغائب بما حكم به على الشاهد ليس حكمًا مبنيًا عل معنى المشاهدة أولا ثم المقايسة ثانيا، فليس الأمر فى هذا القياس هو: أننا لما رأينا أن العالم فى الشاهد هو من قام به علم، حكمنا بأن العالم فى الغائب هو أيضًا من قام به علم، أو أننا لما لم نشاهد فاعلا إلا كان حيًا عالمًا حكمنا بقياس الغائب عليه. نعم، ليست المشاهدة هى علة الحكم بين الأمرين، وليست هى المسوغ المنطقى -عند الشيخ- للانتقال بالحكم إلى المثال الغائب، والدليل على ذلك أن الشيخ نفسه يقول: «ولسنا نقول: إن من غاب عنا حى قادر، قياسًا على أنا لم نشاهد فاعلا إلا حيًا عالمًا قادرًا، ومن قال ذلك كان غالطا، بل نقول: إن العلم بالقديم بأنه حى قادر، بظهور أفعاله الحكَمِيَّة منه» [١]. وهذا النص صريح فى أن مبنى قياس الغائب على الشاهد ليس هو المشاهدة. والعلم بأن الفاعل القديم حى وعالم وقادر ليست علته أن الفاعل فى الشاهد حى وعالم وقادر، وأن ما هنالك مقيس على ما هاهنا، بل العلة فى ذلك هى ظهور الأفعال المحكمة من القديم، ودلالتها الضرورية -عقلا- على حياته وعلمه وقدرته. وإذًا فها هنا فى الغائب حركة استدلال

(١) م. ن. اللوحة ١٤٠/أ، ٢٨٨.

مستقلة تمام الاستقلال، مضمونها طرد العلة في المعلول، وهو - كما عرفنا - حكم عقلي بحت لا يستند إلى مشاهدة ولا إلى قياس تمثيل، وإنما ينطلق رأسًا من مبدأ «العلية»، وسواء قلنا بمعناها العقلي أو بمعناها العادي، فالمهم هنا هو: حكم العقل بطرد العلة، وهو حكم لا ينتقض شاهدًا ولا غائبًا.

هذه هي خطوة أخيرة أو ثانية، في قياس الغائب على الشاهد، تتقدمها خطوة أولى هي: معرفة أن العلة في الشاهد هي سبب الحكم بالوصف، أي: معرفة أن علة وصف الفاعل في الشاهد - مثلا - بالحياة والعلم والقدرة، هي ظهور الأفعال المتقنة المحكمة من الفاعل، لا علة أخرى غيرها؛ لأننا لو جوزنا صدور أفعال متقنة من فاعل لا حياة له ولا علم ولا قدرة، فإننا سنجوز - بالضرورة - صدور الأعراض - كما يقول الأشعري - ممن ليس بعالم ولا حي ولا قادر، بل هذا التجويز أقل استحالة من التجويز الأول [٢].

وإذا فما دام قد ثبت في الشاهد أن الفعل المتقن هو علة الحكم بحياة الفاعل وقدرته وإرادته، وبعبارة أدق: ما دام قد ثبت في الشاهد أن هذا الشيء علة فكيفما كانت هذه العلة شاهدًا أو غائبًا فيجب أن تطرد في معلولها، ويثبت بها الوصف أو الحكم الذي عرفناه لها في الشاهد، وإلا كان عدم قياس الغائب على الشاهد - مع هذه التسوية - نقضًا للعلة وتخصيصًا لها، مع أن الاتفاق قائم بين الجميع على أن الاطراد - بمعنى أنه: كلما وجدت العلة وجد الحكم - هو من خواص العلل العقلية التي لا تفارقها.

وفي ما أعتقد فإن قياس الغائب على الشاهد يعتمد عند الشيخ - في مستوى الشاهد - على تحديد العلة في الوصف أو الحكم، بينما يعتمد - في مستوى الغائب - على طرد العلة وإثبات حكمها هناك، وعلى ذلك يكون الحكم أو «الوصف» في الغائب معلولا لوجود العلة وثبوتها غائبًا، لا قياسًا على ذات الوصف الذي ثبت من قبل في الشاهد.

ونستطيع القول إن قياس الغائب على الشاهد هو أشبه بالمقايسة بين استدلالين من المقايسة بين حكمين: حكم مشاهد وحكم غير مشاهد؛ ذلك أن الاستدلال في الشاهد يعني ثبوت الوصف بموجب العلة، والاستدلال في الغائب يعني - أيضًا - ثبوت الحكم بموجب العلة، ومن هنا كان اشتراك العلة وتماثلها شاهدًا وغائبًا هو قطب الرحى في قياس الغائب على الشاهد، وهو المسوغ الوحيد لتماثل الحكم أو الوصف بين الشاهد والغائب، وبدون تحرير العلة شاهدًا واشتراكها غائبًا فإن قياس الغائب على الشاهد يفقد معناه تمامًا في إفادة العلم عند الشيخ، فلو افترضنا - مثلا - أن شخصًا ما نشأ في بلدة معينة كل من فيها من البشر ذوو لون أسود، فهذا الشخص الذي لم يقدر له أن يرى إنسانًا غير أسود، لا مسوغ له - عقلا - في أن يحكم على كل إنسان غائب بأنه أسود اللون اعتمادًا على مشاهدته، ولو كان الأمر

(٢) م. ن.

كذلك لكان يجب عليه أن يعتبر يده إنسانًا لأنها سوداء اللون كذلك، والشيء نفسه يقال في من لا يعرف إلا الماء العذب فإنه يخطئ في حكمه بأن كل ماء غائب عذب، اعتمادًا على المشاهدة، إذ لا علية بين معنى العذوبة ومعنى الماء، وأيضًا لا علية - في المثال السابق - بين معنى السواد وبين الإنسانية [٣]، ومن هذين المثالين يتضح لنا - في غير لبس - أن قياس الغائب على الشاهد يتأسس على القواعد التالية:

(أ) عدم التعويل على الحكم في الشاهد.

(ب) ضرورة تحرير العلة شاهدًا.

(ج) ضرورة اشتراك العلة غائبًا.

ومن هذا المنطلق تتهاوى طائفة من التشكيكات بناها المجسمة على استدلال الشيخ بالشاهد على الغائب، من هذه التشكيكات: إذا كنا لا نعرف في الشاهد فاعلا إلا جسمًا فيجب طرد ذلك غائبًا، وبحيث يلزم أن يكون القديم جسمًا أيضًا، وهذه - في الحقيقة - شبهة نشأت من الغفلة عن نمط الاستدلال في قياس الغائب على الشاهد، فلو كان أمر الاستدلال في هذا القياس هو المشاهدة ثم المقايسة، لكان من اللازم أن نحكم بأن كل فاعل في الغائب جسم، لكن نمط الاستدلال مرتبط أشد الارتباط وأوثقه بتحرير «العلة» شاهدًا ثم إثباتها غائبًا، ثم طرد الحكم بعد ذلك في الغائب، وإننا لنعرف أن الفاعل - في الشاهد - لا يكون فاعلا لأنه جسم، فليست الجسمية علة في الفعل، إذ ثمة أجسام لا أفعال لها، أو كما يقول الأشعري: «لم يكن الفاعل فاعلا لأنه جسم، ولا كان يعلم جسمًا لظهور الفعل منه، لأنه يكون جسمًا فعل أو لم يفعل» [٤]، فإذًا ليست هناك - على مستوى المشاهدة - علاقة علية بين الجسمية وبين كون الفاعل فاعلا، وعليه، فليست هناك علة في الشاهد أصلا حتى تثبت في الغائب ويطرد حكمها في أن كل فاعل جسم.

ومن هذا المنطلق نفسه - أيضًا - فند الشيخ كل تشكيكات الملحدين والدهريين في مغالطاتهم التي بنوها على قياس الغائب على الشاهد بدون جامع يجمع بين الفرع والأصل، أي: بين الغائب والشاهد، مثل مغالطتهم بقولهم: إنا لا نعرف - على مستوى المشاهدة - شيئًا من الأشياء إلا كان محدثًا، فيجب طرد ذلك الحكم في كل شيء غائب، أو لما كانت المشاهدة لا ترينا إلا جوهرًا أو عرضًا أو جسمًا، فيجب أن يطرد في الغائب هذه الأوصاف نفسها، أو إذا كنا لم نشاهد إنسانًا إلا من نطفة، ولا نطفة إلا من إنسان، فيجب أن يكون كل إنسان كذلك.

وهذه المغالطات إنما نشأت من ذات الغفلة عن حركة الفكر في هذا القياس. ويقف الأشعري من هذه المغالطات ومن أمثالها موقفًا واحدًا ينبه فيه على أن مبنى قياس الغائب على الشاهد ليس هو مجرد التشابه بين هذا وذاك، بل ثمة علة عقلية تحتم إلحاق الفرع بالأصل في الحكم: «إنا إنما نوجب القضاء بالشاهد على الغائب، ونرد الحكم إلى الحكم إذا استوى

(٣) م. ن: اللوحة: ١٤١/أ، ٢٩٠.

(٤) م. ن.

معناهما، واتفقت علتاهما، وكان لأحدهما مثل ما لصاحبه، وإذا لم يكن الشيء شيئًا لأنه جوهر، ولا لأنه عرض، ولا لأنه جسم، ولا لأنه لا يخلو من واحد منهما، لم يوجب القضاء بذلك على الغائب، ولما كان إنما نثبت الشيء شيئًا إذا أثبتناه موجودًا، ثم ننظر بعد ذلك فيما عداه من أوصافه فيحكم له بمثل حكمه، فإن أوجبت الدلالة أن يكون جوهرًا أو عرضًا أو جسمًا، حكمنا له بذلك، وإن اقتضت الدلالة أن يكون بخلاف وصفها أثبتناه شيئًا، وأحلنا وصفه بشيء من ذلك»(٥).

ومثل هذه المغالطات إنما تنشأ - كما قلنا - من القفز على شرط الاستدلال بقياس الغائب على الشاهد، وهو: تحرير العلة شاهدًا ثم اشتراكها غائبًا، أو - بتعبير الأشعري - «استواء العلة» بين الفرع والأصل، والحقيقة أن الاستنباط في كل هذه المغالطات ليس له ما يسوغه شاهدًا ولا غائبًا؛ فليس بين معنى الحدوث أو الجوهرية أو العرضية وبين الشيئية علاقة سبب ومسبب، وليس بين معنى التوالد الدائر بين النطفة والإنسان وبين معنى الإنسانية علاقة علة أو معلول، بل كل ذلك يفتقد افتقادًا كليا ربط المعنى بعلته أولا وقبل الانتقال به إلى الغائب.

وتعبير الشيخ باستواء العلة - في أكثر من موضع - لا يدع مجالا للشك في أن هذا القياس عنده معتمد على ضرورة الجمع بالعلة بين الأصل والفرع، سواء كانت جهة الاستدلال تذهب من العلة إلى المعلول، أو تذهب من المعلول إلى العلة. والطرد والعكس - كما تقدم - لا يصحبان إثبات أحدهما بدون الآخر، ولا نفي أحدهما إلا مع نفي الآخر.

ولا شك أن الاستدلال المبني على ضرورة التلازم بين طرفي العلية هو من أقوى أنواع الاستدلالات وألزمها في الحكم وأشدها يقينًا في تحصيل المعرفة وإدراك العلوم.

وثمة نقطة تتعلق بتقويم قياس الغائب على الشاهد في مدرسة الأشاعرة بعد الأشعري، وهي نقطة يطول القول فيها، إذا أريد له الاستقصاء والاستقراء، فقد تطورت نظرية العلم لدى متأخري الأشاعرة تطورًا كادت تختفي معه كل ملامح فلسفة الشيخ وأفكاره وتنظيراته اختفاء تامًا، غير أننا سنعرض هنا للقدر الذي تسمح به طبيعة هذا البحث المرتبط بتوضيح «نظرية العلم» عند الشيخ.

أما الباقلاني فإنه يقتفي أثر الأشعري في اعتبار قياس الغائب على الشاهد قسمًا من أقسام الاستدلال، والباقلاني لا يفصل القول في هذا القياس مثلما فعل الأشعري، وإنما يلخص فيه القول تلخيصًا ينحصر في أن الحكم أو الصفة التي تجب في الشاهد لعلة ما «يجب معه الحكم على أن كل من وصف بتلك الصفة فإنه مستحق لتلك العلة، وذلك كعلمنا بأن الجسم إنما كان جسمًا لتأليفه، وأن العالم إنما كان عالمًا لوجود علمه، فوجب القضاء بإثبات علم كل من وصف بأنه عالم، وتأليف كل من وصف بأنه جسم أو مجتمع؛ لأن الحكم العقلي المستحق

(٥) م. ن: اللوحة: ١٤٦/ب، ٢٩٨.

لعلة، لا يجوز أن يستحق مع عدمها ولا لوجود شيء يخالفه؛ لأن ذلك يخرجها عن أن تكون علة للحكم»(٦).

وأما إمام الحرمين فإننا نجد له رأيين يكادان يتعارضان تمامًا، فهو في كتابيه: «الإرشاد» و«الشامل»، يستمسك بقياس الغائب على الشاهد كطريق من طرق الاستدلال وكسبيل لتحصيل العلم اليقيني، بل إنه ينص على أن حصول العلم بالصفات الإلهية الأزلية ليس له من طريق إلا قياس الغائب على الشاهد، غير أنه ينبه الأذهان إلى أن هذا القياس سلاح ذو حدين، لأنه إذا اعتمدنا فيه على المشاهدة فقط فإنه يجر إلى الإلحاد والكفر، ومن أجل ذلك يوجب الجويني في هذا القياس ضرورة «الجمع» بين الأصل والفرع، ويبين أن الجمع قد يكون بالعلة أو الشرط أو الحقيقة أو الدليل.

يقول إمام الحرمين: «فاعلم أن إثبات العلم بالصفة الأزلية لا يتلقى إلا من اعتبار الغائب بالشاهد، والتحكم بذلك من غير جمع يجر إلى الدهر والكفر، وكل جهالة تأباها العقول، فإن من قال: يقضي على الغائب بحكم الشاهد من غير جمع، لزمه أن يحكم بكون الباري تعالى جسمًا محدودًا من حيث لم يشاهد فاعلا إلا كذلك، ويلزم منه القضاء بتعاقب الحوادث إلى غير أول من حيث لم يشاهدها إلا متعاقبة، إلى غير ذلك من الجهالات»(٧).

ويقول أيضًا: «... لا سبيل إلى إنكار الاستشهاد بالشاهد على الغائب من كل وجه، ولا سبيل إلى طرده من كل وجه، وإنما يسوغ القول به إذا اجتمع الشاهد والغائب في علة أو شرط أو حقيقة أو دليل»(٨).

وواضح من هذين النصين أن الجويني يقتفي أثر الشيخ ولا يخرج عن مذهبه، بل يكاد يردد فكرته نفسها في اعتبار قياس الغائب على الشاهد من مدارك اليقين، ولكن مع ضرورة تحقق نوع من أنواع الجمع الأربعة بين الأصل والفرع، وكل ما هنالك هو أننا لا نجد عند الأشعري إلا الجمع بالعلة وهو أقوى أنواع الجمع.

غير أننا نجد عند الجويني موقفا آخر يتنكر فيه لقياس الغائب على الشاهد تنكرًا تامًا، بل يرفض فيه أن يكون هذا القياس من دلائل العقول أو مدارك العلوم، وقد كان موقفه هذا، وهو بصدد تقسيم أدلة العقول وامتحانها وتقويمها.

وهنا يقول الجويني: «ثم رتب أئمتنا أدلة العقل ترتيبًا ننقله ثم نبين فساده ونوضح مختارنا، قالوا: أدلة العقول تنقسم أربعة أقسام:

- أحدها: بناء الغائب على الشاهد.
- والثاني: إنتاج المقدمات النتائج.
- والثالث: السبر والتقسيم،
- والرابع: الاستدلال بالمتفق عليه على المختلف فيه.

ثم قالوا: أما بناء الغائب على الشاهد فلا يجوز التحكم به من غير جامع عقلي، ومن التحكم به شبهت المشبهة وعطلت المعطلة

(٦) كتاب التمهيد للباقلاني: ١٢.
(٧) الإرشاد للجويني: ٨٢ - ٨٣.
(٨) الشامل في أصول الدين للجويني: ٢٢٥.

وعميت بصائر الزنادقة.

فأما نحن فلا نرتضي شيئًا من ذلك، فأما بناء الغائب على الشاهد فلا أصل له، فإن التحكم به باطل وفاقًا، والجمع بالعلة لا أصل له؛ إذ لا علة ولا معلول عندنا»(٩).

وإذا فقياس الغائب على الشاهد - في هذا النص - قياس لا يؤدى إلى نتيجة يقينية حتى وإن كان مداره في الاستدلال هو الارتباط بين العلة والمعلول؛ لأن الجمع بالعلة - فيما يرى إمام الحرمين - لا أصل له، وتعليل ذلك أن لا علة عنده - باعتباره أشعريًا - ولا معلول، فليس بين هذين الطرفين ارتباط ضروري، بل هذان الطرفان ليسا - من الأصل علة ولا معلولا.

ولايجد الباحث مفرًا من الشعور بنوع تعارض في كلام الجويني في هذه المسألة، وأن له فيها كلامين متعارضين، وذلك حين وصف هذا القياس بأنه أساس ثبوت العلم بالصفات الأزلية ثم وصفه - بعد ذلك - بأنه قياس باطل لا أصل له، ثم حاول تعليل هذا البطلان بأن قياس الغائب على الشاهد يعتمد - فيما يعتمد - على الجمع بالعلة، ولا علة ولا معلول عند الأشاعرة.

وحقيقة الأمر أن الجويني وإن كان ينكر - مع الأشاعرة - العلة والمعلول بالمعنى الحسي، أي: ينكر تأثير العلل المحسوسة في معلولاتها، فإنه ممن يقول بالعلل العقلية، وممن يشترطون فيها الاطراد والانعكاس، أي ممن يقولون بضرورة التلازم في الوقوع والتلازم في التخلف بين العلة العقلية وبين ما توجبه من أحكام، يقول الجويني: «ومن شرائط العلة العقلية اطرادها وانعكاسها، فيستحيل ثبوت العلة دون ثبوت المعلول، وإذا انتفت العلة استحال ثبوت معلولها دونها»(١٠).

وإذا كان الجويني - في هذا النص - يعترف بالعلة العقلية ويشترط لها الاطراد والانعكاس، فكيف يستقيم مع ذلك القول أن يصف قياس الغائب على الشاهد بأنه قياس باطل لأنه لا علة ولا معلول عنده؟ إن هذا التعارض البادي في موقف إمام الحرمين من هذا القياس أمر لا سبيل إلى تجاوزه أو تأويله، اللهم إلا إذا قلنا إن هذا الموقف قد تبدل بناءً على تبدل موقفه من نظرية الأحوال ورجوعه عن القول بها، وهي نظرية يجمع القائلون بها على القول بالعلل العقلية وعلى وجوب الطرد والعكس فيها.

هذا هو قياس الغائب على الشاهد عند الأشعري، وهو - كما عرفنا - أساس في نظرية العلم عند الشيخ، ودليله الذي يعول عليه في المعقولات وفي اكتساب المعرفة بشكل عام، وليس هذا القياس هو كل ما عند الأشعري من دلائل العقول، وإنما هناك طرق أخرى إلى جوار هذا القياس، منها:

دليل السبر والتقسيم:

وهو «أن يستدل على الشيء بأن ينقسم في العقل إلى أقسام، فتفسد الأقسام كلها إلا واحدًا، فيعلم أن ذلك القسم هو الصحيح»(١١). وهذا الدليل إنما يفيد اليقين

(٩) البرهان في أصول الفقه للجويني: ١/١٢٦ـ ١٣٠.
(١٠) الشامل للجويني: ٦٥٨.
(١١) المجرد لابن فورك (اللوحة: ١٣٩/ب) ٢٨٨.

إذا كانت القسمة فيه حاصرة، أي يكون الاحتمال العقلي منحصرًا ومحددًا بالأقسام المذكورة في الدليل، ولا بد أيضًا في قياس السبر والتقسيم من أن تنحصر الاحتمالات بين النفي والإثبات، فهاهنا - فقط - يلزم من نفي كل الأقسام ما عدا قسمًا واحدًا أن يثبت هذا القسم ويصح، أما إذا لم تنحصر الأقسام بأن كانت منتشرة غير محصورة عقلا، فإن هذا القياس لا يفيد اليقين أبدًا.

ونلاحظ أن تقسيم قياس السبر والتقسيم إلى حاصر وإلى منتشر، إنما هو من تحليلات أئمة الأشاعرة في مرحلة متأخرة، والشيخ لم يتعرض صراحة للحصر والانتشار في حديثه عن هذا القياس، غير أننا لا نشك في أن ما فطن إليه المتأخرون لم يغب عن اعتبار الشيخ وهو بصدد الكلام عن الجدل باعتباره طريقًا من طرق المعرفة، فقد نص الشيخ في هذا المقام على أن السؤال الجدلي إذا كان حاصرًا كان ملزمًا للمجيب بالإجابة، وإن كان غير حاصر فإن المجيب لا يلتزم بالإجابة عنه، وقد مثل الشيخ للسؤال الحاصر بالسؤال الدائر بين الحدوث والقدم بالنسبة للعالم، ومثل للسؤال غير الحاصر بالقيام والقعود بالنسبة للشخص(١٢).

ويرى الجويني أيضًا أن دليل السبر والتقسيم إن كان التقسيم فيه غير حاصر فهو دليل باطل، والأمر على عكس ذلك إن كان التقسيم محصورًا بين نفي وإثبات.

يقول إمام الحرمين: «وأما السبر والتقسيم فمعظم ما يستعمل منه باطل فإنه لا ينحصر في نفي وإثبات .. فأما التقسيم الدائر بين النفي والإثبات فقد ينتهض ركنا في النظر الصحيح»(١٣).

ومن أدلة المعقول أيضًا:

رد المختلف فيه على المتفق عليه، أو الاستدلال بالمتفق عليه على المختلف فيه، والمتفق عليه في هذا الدليل هو الأصل، والمختلف فيه هو الفرع، ومدار الاستدلال هنا هو نقل الحكم من المتفق عليه إلى المختلف فيه، وذلك بإثبات أن الفرع لا يختلف عن الأصل فيجب أن يعطى حكمه(١٤)، وقد مثل له الأشعري بالاستدلال بالابتداء في الخلق على الإعادة بعد الموت، فإذا كانت النشأة الأولى محل اتفاق وإقرار من المنكرين، وكانت من جنس النشأة الأولى، فيجب إذا أن تأخذ حكمها إذ الفرع هنا مثيل للأصل، وحكم الأمثال واحد، فيجب أن يثبت له ما ثبت للأصل.

وقد استنبط الشيخ طريقة الاستدلال في هذا الدليل من القرآن الكريم حين لفت أنظار منكرى البعث وإعادة الأجسام بعد الموت، إلى أن ما ينكرونه ويختلفون حوله يعترفون به ويتفقون عليه في موطن آخر، وهنا يقول الأشعري: «كنحو ما ذكر الله تعالى من التنبيه لمنكرى الإعادة على الاستدلال بالابتداء على الإعادة، لما قال:

﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ ﴾

(يس: ٨١)

(١٢) المجرد لابن فورك (اللوح: ١٤٣/أ) ٢٩٥ـ ٢٩٦.
(١٣) البرهان للجويني: ١/١٣١.
(١٤) المنخول من تعليقات الأصول للإمام الغزالي: ٥٤.

(و) قال:

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾

(الواقعة: ٦٢)

وقال:

﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾

(الروم: ٢٧)

فى كل ذلك ينبههم على الاستدلال بالابتداء على الانتهاء (١٥)، وعلى الإعادة بالابتداء الذى أقروا به واعترفوا بصحته، فأراهم أن ما صلح للابتداء من القدرة فهو يصلح للإعادة» (١٦).

ويقف الجوينى من هذا الدليل موقفه نفسه من كل أدلة الشيخ، فعنده أيضًا أن: «الاستدلال بالمتفق على المختلف لا أصل له، فإن المطلوب فى المعقولات العلم، ولا أثر للخلاف والوفاق فيها» (١٧). وإنا لا نفهم كيف يكون الاتفاق فى الحقائق - وكذا الاختلاف - لا أثر له فى حصول العلم بأحكامها! ويبدو أن نظرية العلم عند إمام الحرمين لأنها تعتمد اعتمادًا كليًا على أن العلوم كلها ضرورية، وأن العلوم إذا حصلت فى الذهن لا يكون فيها علم أبين من علم آخر ولا أوثق منه، وأن طرق العلم تدور كلها على تقاسيم منضبطة ومنحصرة بين النفى والإثبات فقط - فإن هذه النظرية لا تسمح بطرق أخرى للعلم لا تدور على النفى والإثبات.

ومن هنا لا يرتضى إمام الحرمين من أدلة شيخه إلا دليل السبر والتقسيم إذا كان منحصرًا بين نفى وإثبات، إذ هو بهذه الخصيصة ركن فى النظر الصحيح على حد تعبيره.

ويبقى أن نعرف أن من دلائل العقول عند الأشعرى ذلك المنهج المسمى عنده بعلم الجدل أو منهج الجدل، وهو منهج مستقل له أحكامه وقواعده وآدابه، وهذا المنهج طريق من الطرق المؤدية إلى اليقين وإلى معرفة الحق. ولكن بشرط أن تراعى فيه أصوله وآدابه (١٨).

•••

شروط الاستدلال عند الأشعرى:

للنظر أو الاستدلال - فيما يرى الشيخ - شروط عامة يجب أن تتوفر بدقة فى المستدل، وهى فى جملتها تدور حول ضرورة تجرد الناظر المستدل من الميل - سلفًا - إلى مذهب دون مذهب بسبب شهرته، أو سهولته، أو موافقته لهوى النفس، كما تدور هذه الشروط أيضًا حول موضوعية المستدل نفسه فى عملية الاستدلال، وذلك بأن تتكافأ لديه الدعاوى وتتساوى فى القبول وفى الرفض. ويرى الشيخ أن على المستدل أن يبدأ فيعرض على نفسه - أولًا - رصيده من المعارف، ضرورية كانت تلك المعارف أو مكتسبة، ثم يعرض بعد ذلك ما يريد أن يعرفه ويعلمه، فيسبر أغواره ويمتحنه، وهو فى كل ذلك يقايس بين ما يعلمه وما يجهله،

(١٥) الأصل المخطوط: بالانتهاء على الابتداء وهو غير واضح.
(١٦) المجرد، لابن فورك: (اللوحة ١٥٠/أ، ب) ٣٠٨، ٣٠٩.
(١٧) البرهان، للجوينى: ١/١٣١.
(١٨) انظر الفصل الثانى من هذا الكتاب: أسس علم الجدل عند الأشعرى.

بحيث يكون المعلوم عنده ميزانًا وقانونًا يمتحن به المجهول، فإن شهد الأصل للفرع أو المعلوم للمجهول، حكم بصحته، وإلا حكم ببطلانه.

وعند الشيخ أن النظر إذا تم فى هذا الإطار فإنه منتج للعلم وموجب له لا محالة، وسبب ذلك أن طريق النظر يسقط الحوائل والموانع بين الأصل والفرع، وليس على الناظر المتردد بين المعلوم والمجهول إلا إسقاط ما بينهما من شواغل وعوائق لينكشف المجهول انكشافًا لا خفاء معه، غير أن حتمية حصول العلم عن النظر بشروطه ليست حتمية عقلية ضرورية، وليس النظر مولدًا للعلم توليدًا لا محيص عنه، كما هى نظرية المعتزلة فى اكتساب العلم، بل إن ذلك مما تقضى به العادة بحيث يكون حصول العلم عقب النظر حصولًا عاديًا.

وفى ما يرى الشيخ فإن علوم المحققين من المتكلمين ومعارفهم حاصلة لديهم عن طريق تطبيق النظر بشروطه وأسبابه ودواعيه على التفصيل، أما غيرهم من المؤمنين فإن علومهم تحصل لهم من تطبيق قواعد النظر بشكل إجمالى، ويبقى الفريق الثالث الذى يحصل معارفه بعيدًا عن طريق النظر، وهؤلاء إما مقلدون إن أصابوا وجه الحق، وإما جهال إن أخطأوه وتنكبوا طريقه (١٩).

•••

هذه هى نظرية العلم عند الشيخ، يعول فيها على مصادر ثلاثة: الحس والعقل والخبر الصادق، وبعبارة أخرى: يعول فيها على حقائق الحس وحقائق العقل وحقائق الدين. وحقائق الحس وإن كانت ناقصة وجزئية فإن حقائق العقل تكملها وتحققها، غير أن حقائق العقل ليست كل ما هنالك من حقائق ومعارف، وإذا فلا بد من مصدر ثالث يكمل دائرة العلم والحكمة عند الإنسان، هذا المصدر هو «الوحى الإلهى»، وضرورته نابعة من أن العقل لا مأمن له فى مجال الشرع ولا يقين له يعتمد عليه، إذ كل واجب فى دائرة الشرع فإن مصدره وطريق معرفته طريق وحيد هو «الشرع» وليس العقل، ويترتب على ذلك أن تكون جهة الإيجاب فى الأحكام والتكاليف الشرعية هى السمع، وأن الإنسان لا يكلف شيئًا من جهة العقل أبدًا - فيما يرى الشيخ - لأن العقل لا يوجب شيئًا؛ إذ التكاليف الشرعية وأضدادها يستويان عند العقل، وهو لا يدرك ما يترتب على الواجبات والتكاليف من نفع أو ضرر حتى يوجب نوعًا من التكاليف ويحرم نوعًا آخر منها.

ومن كل ما تقدم نستطيع أن نقول: إن نظرية العلم عند الإمام الأشعرى ترتكز على الحس وعلى العقل - بديهة ونظرًا - كما ترتكز بالقدر نفسه على خبر المعصوم، وهى بهذه الأسس الثلاثة: الحس - العقل - الوحى، تشكل أساسًا عميقًا لفلسفة عقلية واقعية مكتملة الأبعاد.

يتبع

(١٩) المجرد، لابن فورك: (اللوحة ١٢٦/ ب) ٢٥١.

الإسلام دين العقل والعلم



للإمام الشيخ محمود شلتوت

لقد كان موقف القرآن فى الحث على التفكير فى ملكوت السموات والأرض برهانًا واضحًا على مكانة العقل والعلم فى نظر الإسلام، إذ العقل آلة التفكير، والعلم ثمرته. وإذن يكون كل ما ورد فى القرآن حثًا على التفكير هو إعلانًا عن فضل العقل، وإيحاء بالعمل على تربيته وتقويته، وهو فى الوقت نفسه إعلان وتسجيل لفضل العلم، وإيحاء بتحصيله، فيقف الإنسان على الحقائق، وتزول عنه غشاوة الجهل، ويحرر من رق الأوهام والخرافات.

وبذلك كان الإسلام دين الفكر، ودين العقل، ودين العلم، وحسبنا أن رسوله لم يقدم حجة على رسالته إلا ما كان طريقها العقل والنظر والتفكير، ولم يشأ له ربه أن يحقق للقوم ما كانوا يطلبون من خوارق حسية تخضع لها أعناقهم:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ۖ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

(العنكبوت: ٥٠، ٥١).

وقد ارتفع القرآن بالعقل، وسجل أن إهماله فى الدنيا سيكون سببًا فى عذاب الآخرة، فقال حكاية لما يجرى على ألسنة الذين ضلوا ولم يستعملوا عقولهم فى معرفة الحق والعمل به:

﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾

(الملك: ١٠)

وكذلك ارتفع بالعلم وجعل أهله فى المرتبة الثالثة بعد الله والملائكة:

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾

(آل عمران: ١٨)

ثم جعلهم وحدهم هم الذين يخشون الله من عباده بما أدركوا من آثار قدرته وعظمته، فقال بعد أن لفت الأنظار إلى نعم الله وآياته:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾

(فاطر: ٢٨).

وكان من مقتضيات أن الإسلام دين العقل، ودين العلم، أنه حذر اتباع الظن، وجعل البرهان والحجة أساس الإيمان:

﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾

(الأنعام: ١٤٨)

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾

(يونس: ٣٦)

﴿وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ۖ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾

(النجم: ٢٨)

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾

(الإسراء: ٣٦)

وقد رفع من شأنه فعبر عنه بالسلطان:

﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾

(غافر: ٣٥)

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۙ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ﴾

(غافر: ٥٦)

وهكذا كان العقل، وكان العلم والبرهان فى نظر القرآن.

القرآن ينعى على التقليد والمقلدين:

ومن هنا كثرت آيات القرآن الواردة فى ذم التقليد وجرى الخلف وراء السلف، دون نظر واستدلال، هؤلاء الذين ورثوا عقائدهم وآراءهم عن آبائهم وأجدادهم، لا لشىء سوى أنهم آباؤهم وأجدادهم. وكأنهم يرون أن السبق الزمنى يخلع على خطة السابقين وآرائهم فى المعتقدات وأفهامهم فى النصوص قداسة الحق وسلطان البرهان، فالتزموها وتقيدوا بها، وسلبوا أنفسهم خاصة الإنسان، خاصة البحث والنظر. وفى هذا الشأن يقول الله تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾

(البقرة: ١٧٠)

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾

(المائدة: ١٠٤).

الجمود مصادم لقانون النمو:

حكى عنهم الجمود على ما كان عليه سلفهم، فهم يرثون أفكارهم وآراءهم كما يرثون عقارهم وأرضهم، وحكى عنهم اكتفاءهم بمعتقداتهم الموروثة، ووقوفهم بأنفسهم عندها دون أن يتجهوا إلى الترقى والتدرج فى العلم والعمل. ولاشك أن كلا الموقفين: الجمود عند الموروث، والاكتفاء به مصادم لما تقضى به طبيعة الكون وطبيعة كل حى من النمو والتوليد. والتناسل الفكرى كالتناسل النباتى والحيوانى والإنسانى، كلاهما شأن لابد منه فى الحياة. ولو وقف التناسل الفكرى لارتطم الإنسان فى حياته بكثرة ما تلد الطبيعيات التى هو منها، وعندئذ يعجز عن تدبير الحياة النامية التى لم يقدر لها النماء إلا خدمة له، وسبيلا لخيره ونفعه، فيتحقق فشله فى القيام بمهمة

الخلافة الأرضية التى اختير لها ووكلت إليه منذ القدم.

الجمود على القديم سلب لإنسانية الإنسان:

وإذا كان الجمود على آراء المتقدمين لمجرد أنهم متقدمون مصادمًا لقانون النمو والتناسل الطبيعى، فهو فى الوقت نفسه سلب لمزية الإنسان فى التمييز بين الحق والباطل، والملائم وغير الملائم، فيفعل ما يفعل دون عقيدة، ويترك ما يترك دون عقيدة، ومثل هذا لا يجد لنفسه حظًا فى أن يفعل أو فى أن يترك وإنما يقاد بالزمام، وزمامه صور الآباء والأجداد، فهى دائمًا تجذبه القهقرى، ولا يجد من نفسه عونًا على التقدم، فيقع فى ضيق من الحياة المتجددة حوله:

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا ﴾

(الأعراف: ٢٨)

ويظل كذلك حتى تنزل به غاشية من صولة الطبيعة النامية، فتذهب به إلى حيث ذهب الغافلون.

ونهاية القول أن الجمود على آراء المتقدمين، وحظهم فى العلم والمعرفة، وأسلوبهم فى البحث والنظر، جناية على الفطرة البشرية، وسلب لمزية العقل التى امتاز بها الإنسان، وإهدار لحجة الله على عباده، وتمسك بما لا وزن له عند الله.

هذا، وقد نشأ المسلمون فى ظل ما قرره الإسلام، ودعا إليه القرآن، فتفكروا وبحثوا وتعقلوا، وطلبوا البرهان، وأنكروا التقليد، فسادوا وسادت بهم الأمم. ثم لأمر ما انقلبوا على رءوسهم، وتعفنت أمعاؤهم، وتولدت فى أدمغتهم حمى التقليد، فجهلوا أنفسهم، وجهلوا الكون، وجهلوا الحياة، وتفرقوا فى دين الله وكانوا شيعًا، فأبطلوا حجة الله على خلقه، وصاروا حجة على دينه وشرعه.

زعموا أن لآبائهم عصمة تمنعهم من النظر فى أقوالهم، وبذلك لبس الدين فيما بينهم أثوابًا مختلفة الألوان، مختلفة النسيج، وراجت عند الجميع البدع والخرافات، وعقدت على دين الله غبارًا كثيفًا، فنفر الناس منه، وأعرضوا عنه، واتهموه بالاضطراب بين حلال وحرام، وصحيح وفاسد، وقوى وضعيف!!! وأخذوا يتأهبون للخلاص، ناقمين على طوائف الذين مواقفهم من موروثاتهم، التى جعلته فى جانب وحياة الناس فى جانب آخر.

ألا فليعلم هؤلاء جميعًا أن صدر الحياة، الذى يتسع كل يوم وكل ساعة، أصبح غير قابل لضغط تضيق به رقعته ويرجع إلى أغلال الموروثات الأولى، فلينظروا فى أى وضع يكونون، وعلى أى منهج يسيرون، حتى يحفظوا الله شرعه، ويقيموا له دعوته.

استخلاف الإنسان فى الأرض:

لم يخلق الإنسان فى هذه الحياة ليعبث أو ليلهو، ولم يخلق ليطغى بقوته وجبروته، ويستبد قويه بضعيفه، وإنما خلق وركب فيه ما ركب من قوى العلم والإدراك وآلات العمل والإنتاج، وسخر له الكون فى أرضه وسمائه، ومائه وهوائه لحكمة سامية تعبر عن جلال الله وجماله، هى أن يكون خليفة فى الأرض، يعمرها ويعمل على إصلاحها، واتساع عمرانها، وإظهار أسرار الله فيها، وإقرار الخير والسعادة فى نواحيها. وبذلك تكون مظهرًا لرحمة الله بعباده، وآية من آيات قدرته وحكمته.

وقد أرشد إلى هذه الحكمة كثير من آيات القرآن، منها قوله تعالى وهو يحدث عن مبدأ خلق الإنسان:

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾

(البقرة: ٣٠-٣٣).

فتجلت للملائكة حكمة استخلاف الإنسان فى الأرض، واعترفوا له بالمكانة التى أعدت له فى هذه الحياة. ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ﴾

(الأنعام: ١٦٥).

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾

(الحديد: ٧)

وقوله:

﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

(ص: ٢٦).

العلم والصحة:

وإذا كانت هذه هى مهمة الإنسان فى الحياة، وهى حكمة خلقه، وحكمة الإنعام عليه بقوى العلم والعمل، وحكمة تسخير الكون وإخضاعه له فى التفكير والتصريف، فإنه لا سبيل إلى قيامه بهذه المهمة وتحقيق تلك الحكم إلا إذا تحصن بالعمل ليعرف الخير من الشر، والنافع من الضار، والمعمر من المخرب، وتحصن كذلك بالصحة ليكمل عقله، ويسلم تدبيره، وتتصل جهوده.

فالمعرفة والصحة عنصران لابد منهما فى قيام الحياة على الوجه الذى يحقق حكمة الخلق فى الخالق. وليس فى الحياة شئ إلا وهو محتاج إليهما، متوقف عليهما، وليس فيما نعلم مقوضًا لأصل السعادة، وقاضيًا على الهناءة، ومفككًا لعرى التعاون، ومضيعًا للعزة والسلطان، مثل الجهل والمرض، فهما يحق أصل البلاء، ونذير الاضمحلال والفناء.

الإسلام يعلن الحرب على الجهل:

ومن هنا عنى الإسلام عناية كاملة بالإرشاد إلى الوسائل التى تطهر المجتمع من الجهل، والتى تطهره من المرض، فهو قد حارب الجهل وتتبعه فى كل وكر من أوكاره، وفى كل لون من ألوانه: حارب جهل الشرك بالتوحيد، وبث فى النفس والآفاق دلائله، ولفت الإنسان إليها، وحثه على النظر والتفكير فيها، ليؤمن

بأن العظمة التي يخضع لها ليست لأحد سواه، فلا تعترضه في طريق الكمال ما ينسجه الإنسان حوله من صور العظمات الزائفة.

حارب جهالة التقليد وأنكر على الإنسان أن يسلم عقله لغيره، وأن يقف في عقائده ومعارفه ووسائل الحياة عند ما خلفه الآباء والأجداد من الأوهام والخرافات.

تعلم القراءة والكتابة:

حارب جهالة الأمية، وأوحى بتعلم القراءة والكتابة، ورفع من شأن التعلم. ولابد هنا من وقفة يسيرة لنرى مبلغ عناية الإسلام بمحو الأمية، والإرشاد إلى وسيلته. وحسبنا في ذلك أن يكون أول نداء إلهي يفتتح به الله باسم «الربوبية»، وحيه إلى نبيه محمد ﷺ، تلكم الآية الكريمة:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾

(العلق: ١- ٥).

يأمر بالقراءة. والقراءة سلم المجد، وطريق العلم والمعرفة، ثم يرشد إلى الاستعانة عليها باسم (الرب) مفيض التربية ووسائلها على جميع الخلق. فيشعر الإنسان بعزة شأنها ورفعة قدرها، وأنها من الشئون العظمى، ذات البال والخطر، ثم يذكر خلقه وتكوينه في هذا المقام ويردفه بنعمة العلم:

﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾

(العلق: ٤، ٥)

وبذلك يسوي بين نعمة الخلق والإيجاد ونعمة العلم، ويكون ذلك إيحاء بأن المخلوق الجاهل لا اعتداد بوجوده في هذه الحياة. وتنويهًا بشأن القلم ومكانته في العلم والمعرفة، يقسم به الله في معرض تبرئة الرسول عليه السلام من أفدح التهم الباطلة التي ألصقها القوم به عليه السلام، وهي تهمة الجنون:

﴿ن ۚ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾

(القلم: ١، ٢).

القلم ليس خاصًا بمعرفة الدين:

وكما يطلب القراءة على الإطلاق دون تقييد بمقروء مخصوص، يطلب العلم والنظر على الإطلاق، دون تقييد بمعلوم مخصوص أو منظور مخصوص:

﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾

(الزمر: ٩)

ويرشدنا هذا الإطلاق إلى أن (العلم) في نظر القرآن ليس خاصًا بعلم الشرائع والأحكام من حلال وحرام، وإنما العلم في نظره هو كل إدراك يفيد الإنسان توفيقًا في القيام بمهمته العظمى التي ألقيت على كاهله منذ قدر خلقه، وجعل خليفة في الأرض، وهي عمارتها، واستخراج كنوزها، وإظهار أسرار الله فيها.

فإدراك ما يصلح به النبات وينمو ويثمر، وما تستنبت به الأرض وتحيا، علم.

وإدراك ما يصلح الحيوان، ويستمر به نسله، وتتصل قوته، علم.

وإدراك الطرق المشروعة التي تحصل الأموال، والتي تنظم بها مواردها ومصارفها، علم.

وإدراك موارد الصناعة على اختلاف أنواعها

وكيفياتها وتوزيعها علم.

وإدراك الأمراض وعللها وكيفية علاجها وطرق الوقاية منها، علم.

وإدراك ما تعرفه الأمم من وسائل الدفاع والهجوم، حفظًا للأوطان، ودفعًا لما يرهبهم، علم.

وقد جاء الإيحاء بهذا كله واضحًا جليًا في القرآن الكريم، وبه كان العلم ـ بمعناه العام الشامل ـ العنصر الأول من عناصر الحياة في نظر الإسلام.

أسلافنا أدركوا قيمة العلم بكل فنونه:

وقد أدرك المسلمون الأولون إيحاء القرآن في كل ذلك، فأدركوا قيمة العلم ومنزلته وضرورته في سعادة الأمم والأفراد: كانوا أمة أمية لا تقرأ ولا تكتب فجدوا في محو أميتهم بكل الوسائل، حتى أطلقوا سراح الأسير إذا هو علم عددا من أبناء المسلمين القراءة والكتابة، وجعلوا تعليم القرآن مهرًا في الزواج، وأطلقوا لأنفسهم سراح النظر في الكائنات، فأدركوا منها ما يسعدهم في الحياة، ويجعلهم أئمة يهدون بأمر الله.

رفعوا بالعلم مكانة الخامل، وكان فيما بينهم نسب الوضيع، وغنى الفقير، وقوة الضعيف. وفي بطون التاريخ والمكتبات الإسلامية والعالمية ـ من المؤلفات والمترجمات في شتى العلوم والفنون والصنائع وجميع فروع العلم والمعرفة ـ ما يشهد لهم بالتركز العلمي، ويشهد لكل جيل بمنهجه في علمه ومعارفه التي وصل إليها بجهوده وتفكيره، دون الوقوف عند ما ترك السابقون، بل نظروا وبحثوا، واختاروا واختبروا وابتكروا، وبذلك اقتعدوا مكانة الأستاذية العامة المطلقة، وكانوا حقا جديرين بأن يكونوا كما وصف الله:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾

(آل عمران: ١١٠)

تسلك إلى الخير طريقه، وتسد دون الشر سبيله.

أملنا في نهضة علمية جديدة:

هذه مكانة العلم في بناء المجتمع كما يقررها القرآن ويوحي بها، وإني أرجو أن يكون الزمان قد هيأ نفسه ليستدير بالمسلمين كهيئته الأولى، وأن يكونوا بما وقعوا فيه من إحن ومحن قد تكاملت في نفوسهم عوامل اليقظة والوعي، وآمنوا بأن عزة أسلافهم وعزة الناس من حولهم كان العلم أول عناصرها وأقواها، وآمنوا بأن الذلة، وتهافت الأمم عليهم والتي نكبوا بها، كان الجهل والتلهي بالشخصيات والنظريات والجدليات والفروض الوهمية والأوهام والخيالات، والعناية بما يكتنه الغيب عن طريق الدجل، كان كل ذلك أول عناصرها وأقواها.

وإني لأحس إحساسًا قويًا بأن النهضة العلمية آخذة ـ بإخلاص القائمين بها، المشرفين عليها، الفاهمين لها ـ طريقها إلى ما يمحو الأمية ويحقق للأمة الخير والسعادة، ويرد آخرها إلى أولها، فننعم بما نعموا، ونسعد بما سعدوا، ونخلع ما نحن فيه من ذل وشقاء، ونكون العزة كما يحب الله:

﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾

(المنافقون: ٨)

الإسلام السياسى



دكتور مصطفى محمود

حينما يصرح الساسة فى الغرب بأنهم لا يعادون الإسلام وأنهم ليسوا ضد الإسلام كدين فإنهم يكونون صادقين بوجه من الوجوه.. إذ لا مانع عندهم أبدًا من أن نصلى ونصوم ونحج ونقضى ليلنا ونهارنا فى التعبد والتسبيح والابتهال والدعاء ونقضى حياتنا فى التوكل ونعتكف ما نشاء فى المساجد ونوحد ربنا ونمجده ونهلل له، فهم لا يعادون الإسلام الطقوسى.. إسلام الشعائر والعبادات.. والزهد.. ولا مانع عندهم فى أن تكون لنا الآخرة كلها فهذا أمر لا يهمهم ولا يفكرون فيه.. بل ربما شجعوا على التعبد والاعتزال وحالفوا مشايخ الطرق الصوفية ودافعوا عنهم.. ولكن خصومتهم وعداءهم هى للإسلام الآخر.

الإسلام الذى ينازعهم السلطة فى توجيه العالم وبنائه على مثاليات وقيم أخرى.

الإسلام الذى ينازعهم الدنيا ويطلب لنفسه موقع قدم فى حركة الحياة.

الإسلام الذى يريد أن يشق شارعًا ثقافيًا آخر ويرسى قيمًا أخرى فى التعامل ونماذج أخرى من الفن والفكر.

الإسلام الذى يريد أن ينهض بالعلم والاختراع والتكنولوجيا ولكن لغايات أخرى غير التسلط والغزو والعدوان والسيطرة.

الإسلام السياسى.. الإسلام الذى يتجاوز الإصلاح الفردى إلى الإصلاح الاجتماعى والإصلاح الحضارى والتغيير الكونى..

النمط الغربى للحياة تحول الآن إلى قلعة مسلحة ترفض أى منافس أو بديل.. قلعة لها جاذبيتها.. ولها مريدوها أحيانًا من المسلمين أنفسهم.

والليبرالية الأمريكية والأوروبية بما فيها من انحلال مباح وحرية فى العلاقات الجنسية، والشذوذ مسموح وعرى متاح ونوادى قمار وأفلام عهر لا تريد نظامًا يحد من تلك الحريات، ولو كان هذا النظام على الجانب الآخر من الأطلنطى.. خاصة إذا كان هذا النظام يشكل حضارة منافسة لها ماضيها وتاريخها.

والصدام هو قدر كل من يحاول أن يخرج بالإسلام من دائرة المسجد ويسعى به خارج التكية الصوفية.

وأحيانًا يبدأ الصدام من باب البيت ومع مسلمين من أهل البيت أنفسهم من ذوى الهويات الغربية.

وآفة هذا العصر أن التقدم العلمى المبهر فى الغرب قد غزا الكل وقهر الكل وحمل ضمن ما حمل الحياة الغربية بانحلالها.. وروج لها ضمن الصفقة التى حملت معها كل مغريات القبول..

فأصبح الكثير منا يفتح عينيه ليجد نفسه وقد تعود على تلك الحياة السهلة بمفاسدها وانحلالها وظن أنها ضرورة لن تقوم بدونها نهضة علمية ولا تقدم تكنولوجى.. وهذا هو

تصور إخواننا العلمانيين.

وهكذا أصبح الإسلام السياسى يحارب فى جبهتين.. فهو يُحارب من أهله ويحارب من الأجنبى فى وقت واحد.

ولن يكون للإسلام السياسى غلبة ولاصوت إلا إذا انهار المعسكر الآخر من داخله بالسوس الذى ينخر فيه.. حينذاك سوف يفيق الكل وسوف يكتشفون أن التكنولوجيا الهائلة كانت مجرد بيت من الدمى واللعب المعدنية والبلاستيكية.. وأن الحضارة الغربية كانت بلا روح وأنها لم تكن تحمل فى داخلها مقومات استمرارها.. وقد رأينا مثالا قريبًا فى روسيا.. حينما سقط الدب الكبير مغمى عليه وهو يحمل على ظهره قنابل ذرية تكفى لنسف الكرة الأرضية عدة مرات.

والدور على بابا نويل الأمريكى الذى يتربع على قصور الجوهر والزخرف وصواريخ الباتريوت.. وانهياره ليس ببعيد.. والسوس بدأ يدب فى أركانه.

ولكن الوارثين لانهيار النظامين لن يكونوا مسلمى هذا الزمان الذين دب فيهم الوهن وانقسموا طوائف وفرقًا يضرب بعضهم بعضًا.

وإنما الوارثون هم مسلمون آخرون يصنعهم الله على عينه ليكلل بهم هامة التاريخ.

وربما لن نراهم ولن تكتحل أعيننا بهم وربما يراهم أولادنا أو أحفادنا.

ولكن حسبنا أن نبنى طوبة ونضع لبنة فى طريقهم الطويل.. قد يقول قائل: وما حاجتنا إلى الإسلام السياسى بالأثمان الباهظة التى سندفعها فيه.. ألا يكفى أننا نصلى ونصوم ونحج ونعبد الله على طريقتنا ونعيش فى حالنا لا يتعرض لنا أحد.

والإجابة واضحة: إننا لسنا متروكين فى حالنا، فالانحلال الغربى يتسلل إلينا من تحت عقب الباب فى الصحيفة والكتاب والمجلة ويأخذ عقول أولادنا من خلال التليفزيون والسينما والفيديو ويراود بناتنا من خلال الموضات والتقاليع والأغانى المكشوفة.. والأعداء من حولنا يخططون لما هو أكثر.. فهم يريدون أن يقاسمونا الأرض وشربة الماء ولقمة الطعام.. ومطاريد اليهود الهاربين من بلاد الجوع يريدون أن يأكلوا على موائدنا.

إن احتلال العقل وإفساد العقيدة مقدمة لاحتلال الأرض وفرض السيطرة.. إنها حلقات يأخذ بعضها برقاب بعض.

وحياة الانحلال توهن العزائم وتبلد القلوب وتربى الضعف.. فتأتى الضربة التالية فلا تجد فى الجسم الاجتماعى مقاومة.. فإذا بنا ذات يوم وقد خسرنا الدين والدنيا، وخسرنا أنفسنا وخسرنا كل شيء.

إن التفريط فى الجدار الأول سيؤدى إلى سقوط الجدار الثانى.. وإيثار السلامة بأن يكتفى الواحد منا بأن يغلق بابه عليه ويلزم سجادة صلاته قد تؤدى إلى نجاته بجلده ولكن سوف يدفع أولاده وبناته ثمن تفريطه.. لأنهم هم الذين سيكتوون بنار المعركة وهم الذين سيواجهون بصدورهم بقية المخطط.

والله أراد بالإسلام أن تكون له راية فى الأرض وليس فقط أن يكون هداية للأفراد فى ذواتهم.. وهو القائل:

﴿ هُوَ الَّذِيَ أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾

(التوبة: ٣٣)

إن هذا الإظهار للإسلام على الدين كله هدف مقصود ومراد من مرادات الله فى الدنيا.

ومن ثم يكون على كل مسلم واجبان يؤديهما.. أولهما أن يصلح نفسه، وثانيهما أن يصلح المناخ الاجتماعى حوله ليهتدى غيره.

الشورى فى معركة البناء (٥)

أعضاء مجالس الشورى: صفاتهم وطريقة اختيارهم

أ. د. أحمد الريسونى

صفات أهل الشورى

والمراد بأهل الشورى الآن، من تجب استشارتهم، ويكونون مؤهلين بصفاتهم وشروطهم، أو معينين بأشخاصهم وأسمائهم. أى الذين يجب أن يستشيرهم المسئولون وولاة الشئون العامة. وأبرز ما يتبادر إلى الذهن فى هذا المقام هو «مجلس الشورى» الذى يكون بجانب رئيس الدولة وحكومته، أى ما يعرف فى تراثنا الإسلامى بأهل الحل والعقد ويدخل فى هذا الباب كل الهيئات الشورية العليا، التى تحتاج إلى مستشارين كبار.

وبغض النظر عن اختلاف الأسماء وتفاوت الصلاحيات لهذه المجالس من بلد لآخر، ومن مجلس لآخر، فقد أصبحت هذه المجالس من المؤسسات الرئيسية القائمة فى معظم دول العالم، وأيضا فى معظم الدول الإسلامية.

وبجانب هذه المجالس الرئيسية العامة، لا تستغنى دولة عن مجالس ومؤسسات شورية تقريرية أخرى، تكون أضيق مجالا وأكثر اختصاصا، وربما تكون أسرع انعقادًا وحسما فى الأمور.

فمن هم هؤلاء (المستشارون الكبار)، الذين يحق لهم أن يكونوا فى مثل هذه المجالس؟ وما هى صفاتهم وشروطهم؟

مما لا شك فيه أن هذه المسألة متروكة للنظر والتقدير وضبط المعايير، بحسب الحالات والظروف، وطبيعة المجالس والاختصاصات المنوطة بها.

غير أن هذا لا ينفى وجود صفات وشروط عامة، لابد من توافرها ومراعاتها فيمن يتولون النظر والتشاور والبت فى القضايا العامة للأمة والمجتمع.

وعلى طريقة الفقهاء فى التدقيق والاستقصاء والتشعيب، ذهب أبو عبدالله بن الأزرق إلى أن المستشار يجب أن يكون متحققا بشروط أوصلها إلى اثنى عشر شرطا:

- أحدها: العقل الكامل بطول التجربة مع الفطنة والذكاء.
- الثانى: الدين والتقوى.
- الثالث: المحبة الحاملة على خلوص النصيحة.. (أى محبة المستشار للمستشير وإخلاصه له).
- الرابع: سلامة الفكر من مكدرات صفوه.
- الخامس: البراءة من الهوى والغرض فى موضوع الاستشارة.
- السادس: الجمع بين العلم والعمل فى موضوع الاستشارة.
- السابع: تساويه مع المستشير فى الطبقة.
- الثامن: كتمان السر.
- التاسع: سلامته من غائلة الحسد.
- العاشر: عدم استلزام تضرره أو تضرر عزيز عنده من النصح المطلوب.
- الحادى عشر: إخباره عن موجب تقصيره عن مطلوب المستشير له.
- الثانى عشر: توسطه بين السعادة وسوء البخت (١).

وإذا كان لهذه النزعة الاستقصائية التفصيلية فائدتها باستحضار كل ما يمكن اعتباره فى المسألة، فإنها قد توقع فى نوع من التكلف والتشديد والتكرار، كما فى بعض الشروط التى ذكرها ابن الأزرق.

فمثلاً، اشتراط تساوى المستشار مع المستشير فى الطبقة. فهذا لا وجه له ولا أساس له البتة. وحسبنا استشارة رسول الله ﷺ للصحابة، عامتهم وخاصتهم. فهل كان الصحابة المستشارون -رضى الله عنهم- من طبقة المستشير ﷺ. بل هم أنفسهم لم يكونوا طبقة واحدة.

فقصور طبقة المستشار عن طبقة المستشير، لا يمنع من أن يكون للأدنى: من العلم والخبرة والدراية والانتباه، فى بعض الأمور، ما ليس للأعلى. وقديمًا قالوا: يوجد فى البئر ما لا يوجد فى النهر، ويوجد فى النهر ما لا يوجد فى البحر. ولذلك فإن سليمان عليه السلام، وهو النبى الكريم والملك العظيم، لم يجد غضاضة فى أن يستمع إلى طائر صغير وهو يقول له:

﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ (النمل: ٢٢).

وأما اشتراط سلامته من غائلة الحسد فمندرج فى الشرط الخامس وهو البراءة من الهوى والغرض.. «وكذلك اشتراط عدم استلزام تضرره أو تضرر عزيز عنده من النصح المطلوب» لا لزوم له، مع حضور الشرط الخامس.

ومن هنا يمكن إرجاع هذه الشروط، وغيرها، إلى أصول جامعة أهمها: العلم، والأمانة، والخبرة.

فالعلم يدخل فيه أولا العلم بالدين، باعتباره الإطار المرجعي للمسلم، فى كل ما

(١) بدائع السلك فى طبائع الملك: ص ٣٠٩ - ٣١٠.

يصدر عنه من فكر ورأى، ومن تقدير وتدبير، ومن ترجيح واختيار. كما يدخل فيه الرصيد العلمى والمعرفى العام. فالمستشار، أو المتشاور، كلما ازداد رصيده العلمى، واتسع أفقه المعرفى، كان ذلك أنفع وأرشد له ولغيره ممن يستشيرونه أو يتشاورون معه.

وقد تقدم فى الحديث - فى الأمر لا يكون فيه نص كتاب ولا سنة - : «اجمعوا له العالمين» وفى صحيح الإمام البخارى «وكان القراء - أى العلماء - أصحاب مشورة عمر، كهولاً كانوا أو شبانًا» (٢).

وأما الأمانة، فيدخل فيها كل ما ذكره ابن الأزرق من الدين والتقوى، وخلوص النصيحة، والبراءة من الهوى والغرض، والسلامة من غائلة الحسد أو مراعاة مصلحة القريب والحبيب، وكتمان السر.

والإنسان إذا فقد الأمانة يمكن أن يضر بعلمه أكثر مما ينفع، ويمكن أن يقدم التدليس والتضليل فى ثوب النصح والنفع، كما فى «نصيحة» إبليس لآدم وزوجه:

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (الأعراف: ٢٠ - ٢٢).

وفى الحديث الذى أخرجه الترمذى وأبو داود وابن ماجة، قال رسول الله ﷺ «المستشار مؤتمن.» (٣).

وأما الخبرة، فأعنى بها المعرفة الميدانية، معرفة الواقع، ومعرفة الوقائع وحقائقها، ومعرفة الناس وأحوالهم، ومعرفة المشاكل وحلولها، ومعرفة الأدواء وأدويتها .. وهذا قريب مما عناه ابن الأزرق فى الشرط الأول، وهو: «العقل الكامل بطول التجربة مع الفطنة والذكاء..».

فالشورى إنما تكون فى الواقع ونوازله ومشاكله ومتطلباته، فهى ليست نقاشا فكريًا أو بحثًا علميًا. ولذلك فالعلم النظرى وحده لا يكفى، ما لم يتنزل على فهم صحيح ودقيق للواقع والوقائع.

فالأصل فى المستشار أن يكون جامعًا بين العلم النظرى والخبرة العملية، وخاصة حينما يتعلق الأمر بالمستشار الفرد.

ولكن بما أن الشرط الأول (العلم) والشرط الثالث (الخبرة) يتداخلان ويتكاملان، فلا بأس إن كان فى المجلس من أصحاب العلم من لهم نقص فى بعض الخبرات، ومن أصحاب الخبرة من لهم نقص فى بعض جوانب العلم، فإن الصنفين يتكاملان، ويأخذ هؤلاء من هؤلاء، وهؤلاء من هؤلاء.

ومن هذا الباب دعا المفكر الإصلاحى خير الدين التونسى إلى ضرورة الاختلاط

(٢) كتاب الاعتصام، باب قول الله تعالى ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾

(٣) سنن أبى داود، باب فى المشورة والحديث صححه الألبانى كما فى مختصر السنن.

والتعاون والتكامل بين أهل العلم وأهل السياسة، إذ لا تستقيم الأمور لأحد الطرفين دون الآخر.

قال رحمه الله: «وأنت إذا أحطت خبرًا بما قررناه علمت، أن مخالطة العلماء لرجال السياسة بقصد التعاضد على المقصد المذكور (أى تحقيق مصالح الأمة)، من أهم الواجبات شرعًا .. وبيان ذلك أن إدارة أحكام الشريعة كما تتوقف على العلم بالنصوص تتوقف على معرفة الأحوال التى تعتبر فى تنزيل تلك النصوص. فالعالم إذا اختار العزلة والبعد عن أرباب السياسية، فقد سد عن نفسه أبواب معرفة الأحوال المشار إليها..» (٤).

فهذه الصفات الثلاث (العلم والأمانة والخبرة)، هى الشروط الأساسية اللازمة لمن يتولون النظر والمشاورة، فى الشئون العامة الدينية والدنيوية، وقد جمعها الإمام البخارى بقوله: «وكانت الأئمة بعد النبى ﷺ يستشيرون الأمناء من أهل العلم..» (٥)، على أساس أن أهل العلم يومئذ، هم أيضًا أهل ممارسة عملية وخبرة ميدانية، وهى الأوصاف المضمنة كذلك فى قول ابن جماعة «وكذلك ينبغى للسلطان مشاورة العلماء، العاملين، الناصحين لله ورسوله والمؤمنين». (٦)

اختيار أهل الشورى

هناك طريقتان رئيسيتان لاختيار أهل الشورى، أو أعضاء مجالس الشورى:

١ـ طريقة التعيين

حيث يقوم الحاكم نفسه - أو من يقوم مقامه من ذوى الرئاسات والولايات العامة - باختيار هؤلاء المستشارين وتعيينهم، وإعطائهم صفة المستشار، أو صفة العضو بمجلس الشورى.

٢ـ طريقة الانتخاب (٧)

وهى أن يقوم عموم الناس، أو جزء منهم، أو فئة منهم، بانتخاب هؤلاء المستشارين، وما على الرئيس إلا أن يتقبلهم ويتعامل معهم.

وضمن كل من هاتين الطريقتين تندرج أنماط وأساليب تفصيلية متعددة للاختيار. كما قد يقع فى بعض الحالات الأخذ بالطريقتين معًا، فيختار عدد من المستشارين وفق الطريقة الأولى، وعدد آخر وفق الطريقة الثانية، وذلك جمعا بين فوائد الطريقتين.

فطريقة الانتخاب الجمهورى (٨) أو العمومى، تسمح بإشراك جمهور الناس فى المفاضلة والاختيار. كما أن المستشارين المنتخبين بهذه الطريقة يكونون نوابا ووكلاء عن عموم الناس الذين انتقوا منهم ومن اختيارهم، ويكونون معبرين عن مجمل آرائهم ومصالحهم.

(٤) أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك، ص ١٧٥، ١٧٦.

(٥) صحيح البخارى، كتاب الاعتصام، باب ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾

(٦) تحرير الأحكام فى تدبير أهل الإسلام، ص ٧٢.

(٧) الانتخاب هنا بمعناه اللغوى فقط بغض النظر عن الصيغ والكيفيات المعبرة عن هذا الانتخاب، وسواء كانت عفوية أو منظمة، عرفية أو قانونية.

(٨) نسبة إلى الجمهور، الذى يتولى الانتخاب والاختيار.

ثـم إن هذا الانتخاب - إذا كان حرًا ونزيهًا - يكون أكثر موضوعية وتوازنًا، وأبعد عن المحاباة والخضوع للاعتبارات الشخصية الذاتية.

وأما طريقة التعيين، فمن فوائدها أنها تأتي ببعض ذوى الكفاءة والأهلية ممن لا يعرفهم، أو لا يقدرهم، عموم الناس.

وإذا كانت طريقة الانتخاب، قد تأتي ببعض المفضولين على حساب من هم أفضل منهم وأولى، لأسباب متعددة، فإن طريقة التعيين، قد تتحول برمتها أو في غالب أمرها، إلى تحكم شخصي، يأتي بمستشارين تحت الطلب، ليس لهم استقلالية في الرأي، وربما تختل أو تنعدم حتى معايير الكفاءة في اختيارهم.

وبالرغم من أن لكل من الطريقتين فوائدها وعيوبها، فمما لا شك فيه أن طريقة الانتخاب الجمهوري، أفضل وأجدى، وآمن وأضمن. ولذلك أرى اعتمادها بالدرجة الأولى، مع إمكانية اعتماد طريقة التعيين بدرجة ثانية ومحدودة.

ومما يرجح طريقة الانتخاب، ويؤكد أصالتها وأولويتها، كونها الطريقة الأكثر اعتمادًا في السيرة النبوية، وفي سيرة الخلفاء الراشدين. ففي هذه الحقبة النموذجية، كان الزعماء والوجهاء والمستشارون والمقدمون، هم الذين يتبثقون ويقدمون في أقوامهم وعشائرهم ومدنهم وقراهم، بشكل طبيعي طوعي، وهم الذين يحظون بالتقدير التلقائي، والتقدير الاختياري لعموم الناس.

فيكون جمهور الناس، هو الذى انتخبهم ورضي بهم. فقد كان النبي ﷺ يتعامل مع الزعماء والوجهاء والنقباء الذين اختارهم أقوامهم وتبوءوا مكانتهم تلك برضاهم بهم وتقديمهم إياهم.

ففي بيعة العقبة الثانية، قال ﷺ للأوس والخزرج: «أخرجوا لي اثنى عشر نقيبًا منكم، يكونون على قومهم. فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيبًا، منهم تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس.».

وفي غزوة حنين، حينما أراد ﷺ أن يمن على قبيلة هوازن، ويرد عليهم سبيهم، دعا أصحابه المقاتلين معه، وعرض عليهم الأمر قائلاً: «أما بعد فإن إخوانكم قد جاءونا تائبين، وإني قد رأيت أن أرد إليهم سبيهم، فمن أحب منكم أن يطيب ذلك فليفعل، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل». فقال الناس: قد طبنا بذلك يارسول الله. فقال رسول الله ﷺ «إنا لا ندرى من أذن منكم في ذلك ممن لم يأذن، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم».

فرجع الناس، فكلمهم عرفاؤهم، ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه أنهم قد طيبوا وأذنوا..»(9).

قال في «الفتح» العرفاء.. جمع عريف، بوزن عظيم، وهو القائم بأمر طائفة من الناس.. وسمي بذلك لكونه يتعرف أمورهم، حتى يعرف بها من فوقه عند الاحتياج.»(10).

وأما «النقيب» فهو «كبير القوم، القائم

(9) صحيح البخاري كتاب الأحكام، باب العرفاء للناس، وكتاب المغازي، باب قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾.
(10) فتح الباري ١٥/٧٤.

بأمورهم التي ينقب عنها وعن مصالحهم فيها.»(11) والذي يعنينا الآن هو أن هؤلاء النقباء والعرفاء، كانوا نتيجة انتخاب اجتماعي تلقائي، ناجم عن مكانتهم وأهليتهم من جهة، وعن رضى الناس بهم من جهة أخرى.

فلم يكن أحد يرسلهم إليهم أو يفرضهم عليهم. بل كانوا هم الذين يخرجونهم منهم.

وجاءت سنة الخلفاء الراشدين وفقًا للسنة النبوية، فكان الخلفاء إذا أرادوا أن يستشيروا في أمر ديني أو دنيوى، جمعوا وجوه الناس ورءوسهم. فكان أبو بكر - فيما أخرجه البغوى عن ميمون بن مهران وأبو عبيد في كتاب القضاء - إذا لم يجد مسألة في الكتاب ولا في السنة «جمع رءوس الناس وخيارهم فاستشارهم. فإن أجمع أمرهم على رأى قضى به. وكان عمر رضي الله عنه يفعل ذلك، فإن أعياه أن يجد في القرآن والسنة، نظر هل كان لأبي بكر فيه قضاء، فإن وجد أبا بكر قضى فيه بقضاء قضى به، وإلا دعا رءوس المسلمين، فإذا اجتمعوا على أمر قضى به»(12).

ومن هذا الباب أيضًا ما نقله صاحب كتاب (نظام الحكومة النبوية) تحت عنوان «اتفاق القوم على من يمثلهم في محفل رسمي، مأتم ديني» وهو أنه «لما قبض رسول الله ﷺ، وأرادوا غسله حضرت الأنصار، فنادت على الباب: الله الله، فإنا أخواله، فليحضره بعضنا: فقيل لهم: اجتمعوا على رجل منكم. فاجتمعوا على أوس بن خولي، فحضر غسل رسول الله ﷺ ودفنه مع أهل بيته.»(13).

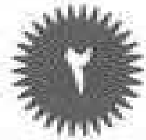
على أن هذا الانتخاب الجمهوري، سواءٌ كان عفويًا تلقائيًا، أو منظمًا كما يقع في الانتخابات اليوم، لا يعني دائما كافة الناس وعامتهم، بل قد يكون مقلصًا وخاصًا، كأن ينتخب العلماء والفقهاء بعضا منهم، وينتخب ذوو الاختصاصات العلمية أو المهنية بعضا منهم.. فكل هذا داخل فيما أعنيه بالانتخاب الجمهوري، أي إن جمهور الناس، أو جمهور فئة أو طائفة هم من يختارون رءوسهم ونقباءهم، والمفوضين باسمهم، لكي يكونوا مستشارين ومقررين في شئونهم وشئون مجتمعهم وأمتهم.

على أن تفضيل هذه الطريقة واعتمادها طريقة أصلية، لا ينبغي أن يكون مانعًا من اعتماد طريقة التعيين، على سبيل الاستدراك وسد النقص. فهذه الطريقة أيضًا يمكن العمل بها وفق حدود وضوابط تحقق فائدتها، دون أن تتحول طريقًا للاستبداد والتحكم.

كما أن طريقة التعيين قد تكون في بعض الحالات هي الطريقة السليمة والمثلى، كما في اختيار خواص المستشارين وأعضاء بعض المجالس - أو اللجان - الاستشارية المتخصصة، في شئون أمنية، أو عسكرية، أو اقتصادية.. أو نحو ذلك من الاختصاصات الصرفة.

(11) ابن عطية، المحرر الوجيز ٤/٣٨٢.
(12) أعلام الموقعين لابن القيم ١/٦٢، وتهذيب تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص٣٨.
(13) الكتاني، عبدالحي، نظام الحكومة النبوية المسمى: التراتيب الإدارية، ٢/١٦٥.

مأزق الفقيه والمثقف فى زمن الحداثة





أ. د. إبراهيم البيومى غانم
الأستاذ بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية

لم يكن باب «السياسة الشرعية» الذى فتحه الفقهاء قديمًا سوى الباب الملكى لما سيعرف بعد ذلك فى تاريخنا الحديث باسم الأحكام العرفية وقوانين الطواريء. وقد أدى هذا إلى تجذير السلطة الاستبدادية وإضفاء «الشرعية» عليها، وحصر اختصاص الاجتهاد الفقهى بمعناه الأصولى فى مسائل العبادات والمعاملات الفردية؛ لا الجماعية التى هى أهم وأولى، والتى يعج بها واقعنا المعاصر، والتى تهم السواد الأعظم من أبناء الأمة.

هناك فريق آخر يدعونا إلى تجديد آليات «الاجتهاد» بإعمال «نظريات الخطاب» المعروفة فى الدراسات اللغوية والأدبية، أو ما بات يعرف حديثًا بعلم «التأويل» أو «الهرمينيوطيقا»، وما يرتبط بها من طرائق التحليل الدلالى واللسانيات.. إلخ. وحجتهم فى ذلك «فعل القدماء» الذين اشترطوا فيمن يتصدى للنص بالتفسير أو الاجتهاد أن يكون عالمًا باللغة؛ بمعنى التفكير اللغوى، ومن ثم يكون منطقيًا - كما يقولون - «أن يشترط فى المعاصرين العلم بالقضايا اللسانية والدلالية الحديثة، وبما يسمى علم التأويل الحديث وفلسفاته المختلفة». لقد أفرط القدماء بالفعل فى استخدام القياس الشكلى، وطغى على عملهم الاجتهادى المنطق الرياضى - الافتراضى وخاصة فى المباحث الأصولية التى تبحروا فيها، ومنها مثلاً مبحث «الاحتياط»، ومبحث «سد الذرائع». وأسهم إفراطهم هذا فى عزلهم عن الواقع ومشكلاته الحياتية. وساعد على انتقال كثير من المعضلات من زمامهم إلى زمام «السياسة الشرعية».

وفى رأينا أن مثل هذه الدعوة مفيدة وإن كانت ليس جديدة. ولكنها تثير كثيرًا من الإشكالات المتعلقة بحدود الإفادة من تلك المعارف، وبخاصة «الهيرمينوطيقا» أو علم تأويل الخطاب. وهل كل ما يوصى به هذا العلم قابل للتطبيق على النص القرآنى والحديث النبوى أم لا؟. ثم ألا يجعلنا هذا الاقتراح نقع مرة أخرى أسرى «الاجتهاد النصى» عندما يطبق المتجهدون المعاصرون الآليات الحديثة فى تحليل الخطاب، وخصوصًا إذا قللنا من الاعتماد على «القياس» الذى يدينه كثيرون من أصحاب هذا التوجه، ويرون أن القدماء قد أفرطوا فى استخدامه، وتسببوا فى تغليب «الشكل» ومباحثه على «المضمون» وقضاياه؟

وإذا سلمنا بضرورة إحداث «تعديل ثقافى» كى يتمكن الفقيه المعاصر من القيام بدوره، ولابد أن نسلم بذلك، فإن أهم عقبات هذا التعديل هو التناقض الحاصل بين دور «المثقف» الحداثى ودور هذا «الفقيه» فى تكوين وعى الإنسان-المواطن فى مجتمعاتنا. وليست مسألتنا هنا مماحكة لغوية بين «الفقيه» والمثقف»، بقدر ماهى فى صميم الموضوع. فـ«المثقف»، والمثقفون فى مجتمعاتنا، فئة تشكلت ملامحها ووظائفها فى سياق عملية التحديث، ومن قبلها عملية «التغريب»، وتشكلت أيضًا تحت وطأة وضغوط «الحداثة» التى لا تنفك عن أى من العمليتين. وعندما ظهر هذا «المثقف» الحديث فى بلادنا لم يجد الساحة خالية أمامه، وإنما وجد فيها «العالم/ الفقيه» مستقرًا فى علم عريق من صنع أسلافه، وليس من السهل زحزحته عن موقعه العلمى أو الشعبى. أما هو، أى المثقف، فقد وجد نفسه يحمل معرفة ورؤى «حداثية» لا جذور لها فى واقع مجتمعه، واكتشف بعد وقت ليس طويلاً أنه عاجز عن التواصل مع أبناء مجتمعه وقطاعاته الشعبية الواسعة، بعكس الفقيه، ومن ثم راح يبحث له عن موقع يتموضع فيه ليمارس مهمته، ولم يجد أآمن من اللواذ بالسلطة أو بمحيطها وحواشيها على أبعد تقدير، وفى أغلب الحالات والأوقات، والشواهد على ذلك تطفح بها بلدان الربيع العربى، وغير بلدان الربيع العربى.

لقد حدث بالفعل أن قبع أغلب المثقفين الحداثيين بالمعنى الدقيق فى مواقع سلطة صنع القرار الثقافى أو التعليمى أو الفني/ الذوقى والجمالى عشرات السنين، ثم كانت عاقبة أعمالهم خسرا، ولم ينجزوا مهمات التحديث بقوة السلطة المعرفية، ولا بسلطة القوة البيروقراطية التى أمسكوا بها. بل إن منهم رموزا كبيرة أعلنت تراجعها عن منطلقاتها «الحداثية»، وقد تابعنا عملية التراجع هذه فى موجتيها بمصر خلال الثلاثينيات مع بعض رموزهم، ومنهم: محمد حسين هيكل، ومنصور فهمى، وإسماعيل مظهر مثلا، وتابعناها خلال الثمانينيات مع رموز آخرين منهم: مصطفى محمود، وطارق البشرى، وعادل حسين، وعبدالوهاب المسيرى وغيرهم. كما تابع صديقنا أحمد داود أوغلو هذه الظاهرة نفسها فى تركيا خلال الثلاثينيات مع نجيب فاضل، وجميل ميريش، وعصمت أوزال، ثم مع سيزائى قراقوش وغيرهم من مثقفى الأتراك الذين تحولوا عن الحداثية إلى الإسلامية.

يلقى البعض المسئولية على الفقيه فى أداء مهمة التعديل الثقافى، ويعفون «المثقف» الحديث منها. وحجتهم فى ذلك هى أن الفقيه هو «المستأمن على ثوابت

المجتمع وهويته. ودون الدخول في متاهات الثوابت والمتغيرات، وما يدخل في «الهوية» وما يخرج عنها، فإن سؤالنا هو: وماذا عن دور السيد «المثقف»؟ أليس من المفترض فيه أن يكون مستأمنا أيضا على ثوابت المجتمع وهويته، وخصوصا إن كان مثقفا «عضويا» بالمعنى الغرامشي؟ أم تجوز له استباحة هذه الثوابت وتلك الهوية وقتما شاء وحيثما شاء؟ وفي حال سلمنا بمسئولية «الفقيه» وحده واستئمانه على عملية التعديل المطلوبة، فإن من المنطقي أن نحمله أيضا مسئولية «نقد ذاته» العلمية والتراثية وتحديثها؟ ولكن: أمن الإنصاف أن نحمل الفقيه المسئولية ونعفي المثقف منها ومن نقد ذاته الثقافية وحداثته الوافدة؟

ثم كيف نمضي في فتح جسور التواصل بين العلوم الشرعية والعلوم الاجتماعية. وفق ما انتهينا إليه - دون أن ننوي في تحميل المسئولية للمشتغل بالعلوم الشرعية، ونرمز له هنا باسم «الفقيه»، والمشتغل بالعلوم الاجتماعية، ونرمز له هنا باسم «المثقف» (مع المسامحة في هذا الاستعمال وذلك لتقريب المعنى)؟

وسؤال آخر: هل يمكن أن تنجح دعوتنا لفتح الجسور تلك دون أن يستوعب الفقيه نتائج العلوم الاجتماعية المختصة ببحوث الرأي العام وقياساته، وبالدراسات الميدانية والإحصائية التي تتعمق في دراسة المشكلات الاجتماعية كما تجرى في الواقع، وليس فقط «علوم» اللسانيات الحديثة والهيرمنيوطيقا؟.. وهل يمكن أن تنجح دعوتنا تلك دون أن ينهض المختصون في العلوم الاجتماعية بتطوير بحوثهم النظرية والميدانية واستيعاب وجهة نظر الفقيه ومعرفة احتياجاته من المعلومات والتحليلات أيضا؟

في مباحث أصول الفقه التي يجترها الفقيه منذ ألف سنة، تراهم يبنون كثيرا من «القواعد الفقهية» الأصولية على أساس التفرقة الدقيقة بين أمور لا يمكن أن نعرفها اليوم إلا بمنهجيات ميدانية غاية في التطور. مثلا: في مباحث «الاحتياط»، و«سد الذريعة وفتحها»، و«درء المفسدة»، أو ما درسوه أحيانا تحت عنوان «انخرام المناسبة بالمفسدة المساوية أو الراجحة»، تجدهم يكثرون الحديث عن تقدير «المصلحة» أو «المفسدة» بطريقة الرياضة العقلية أو بمؤشرات لا يمكن معرفتها إلا بالتقدير الكمي في كثير من الحالات. فالمصلحة عندهم: إما غالبة أو مغلوبة. راجحة أو مرجوحة. قليلة أو كثيرة. قوية أو ضعيفة. يقينية أو مظنونة. غالبة أو نادرة. قريبة أو بعيدة وأبعد.. وغير ذلك من المقادير والأوزان والأبعاد النسبية المنظور إليها في «المآلات» وليس في واقع الحال غالبا، بما يعني أن الفقيه المعاصر يحتاج أن يكون على دراية بعلم المستقبليات كذلك.

وكل احتمال من أي احتمالين ذكرناهما، له احتمال ثالث يقع في وسطهما. ولكل احتمال حكم «نظري» يأتي هو في حكم «البديهة» التي لا يخطئ الوصول إليها تلميذ في المراحل المتوسطة من التعليم. كقولهم مثلا: «كل ذريعة تفضي إلى الممنوع عن يقين أو غلبة ظن، فالواجب سدها» وهل يتناطح

نظريا أو رياضيا في هذا الاكتشاف العبقري قرنان؟ هذا ناهيك عن كثير من الأمثال المتناقلة عبر قرون في كتب الفقه أصولا وفروعا ولا يزال «فقيه» العصر يرددها دون أن يبتسم على الأقل، رغم أنها ترسم مشاهد «فكاهية» أو كوميدية ممتازة، مثل «مسألة حمار ربيعة» الموجودة في موطأ ابن وهب المتوفى سنة ١٩٧هـ/ ٧٩٦م. ولا تزال تتناقلها بحوث ومحاضرات الفقهاء حتى الساعة، أو مثل الشخص الذي لديه ثوبان أحدهما نجس والآخر طاهر ولم يتمكن من التفريق بينهما، قالوا يصلي عريانا، في أحد الترجيحات من باب الاحتياط!

ولكن مالا نجد له جوابا هو: كيف تتم عملية التقدير والترجيح الفعليين بين «اليقين» أو «غلبة الظن»، وبأي معيار حتى يمكن إدراكه وتعيين هذا من ذاك؟ ثم لو عرفنا ذلك، فمن هو يا ترى المنوط به عملية «السد» وبناء حائط الاحتياط، حذرا من الوقوع في المحذور؟؟؟ هذه الأسئلة وغيرها متروكة معلقة في الهواء منذ ألف سنة أو يزيد، دون مجيب واحد. وهنا مفتتح الاقتراح العملي الذي نعيد التأكيد عليه وهو: لابد للفقيه من استيعاب نتائج البحوث الميدانية، والإحصاءات والمسوح الحيوية، وتعداد السكان العام، ونتائج استطلاعات الرأي العام المنتظمة والمعتمدة. إذ لم يعد من الممكن تعيين تلك الموازنات والترجيحات الأصولية على أرض الواقع بالاعتماد فقط على «حس الفقيه»، أو على درايته بـ«العرف»، فحتى «العرف» الذي اعتمده الأصوليون قديما، أضحى له مضمون آخر في ظل الواقع الاجتماعي المعاصر بالغ الحركية والتعقيد.

قديما كانت أدوار الأفراد ومواقعهم في النسق الاجتماعي محددة بحسب مكانتهم التي كانت مرهونة هي الأخرى بالمكانة الاجتماعية وإرث الدم، وعلى هذا الأساس أمكن للمجتهد القديم أن يحدد مقادير الديات والصداق والنفقة وغير ذلك بمعايير «العرف» في زمنه. أما اليوم فمكانة الفرد ودوره باتا مرهونين لعوامل الحراك الاجتماعي مثل المستوى التعليمي، والمهاري، والثقافي، والمهني، وهذه عوامل متحركة، ويبقى العرف معها غامضا. وبالتالي يعسر على الفقيه المعاصر اللجوء إلى آلية العرف في حل كثير من المشكلات التي أوكل حلها للعرف سلفه الفقيه القديم!

وثمة مسألة أخرى وهي: هل بالإمكان أن نعفي من المسئولية المختص بالعلوم الاجتماعية والإنسانية، والمثقف عموما، الذي لديه معطيات المنهجيات الميدانية والإحصائية السائدة في العلوم الاجتماعية؟.. هل يصح ذلك ثم نلقي المسئولية كلها على عاتق الفقيه؟.. أنا لا أعفي الفقيه أبدا، ولكني لا أعفي المثقف، ولا حتى الإنتلجنسي الحديث من هذه المسئولية كذلك. وبداهة لا أسوي بينهما في شخص واحد، إذ لكل منهما مدلوله وما صدقه في الواقع الاجتماعي الحديث والمعاصر لبلادنا. وهذا ما تبين لي بعد النظر والله تعالى أعلى وأعلم.

طرق تدريس الطب عند العرب


بقلم أ. د. مصطفى رجب
كلية التربية - جامعة سوهاج

أورد ابن أبي أصيبعة «ت ٦٦٨ هـ» في مواضع متفرقة من كتابه: «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» * وهو أهم مرجع عربي في تاريخ تعليم الطب عند العرب، طريقتين من طرق تعليم الطب هما:

١- طريقة التلقين: أو التدريس النظري، وكانت الدروس النظرية التي تدرس بهذه الطريقة تشمل التشريح والكيمياء والفسيولوجيا «وظائف الأعضاء» والباثولوجيا «علم الأمراض»، والعقاقير والأدوية.

٢- التدريب العملي: أو الدروس العملية، وكانت تتم في صورة حلقات من المتعلمين تقف حول المريض ويشرح لهم الأستاذ الحالة الصعبة أو النادرة.

إلا أن ابن أبي أصيبعة تعرض لمسألة «التعلم الذاتي» أو «التعلم الفردي»، ولذا يحسن أن نبسط رأيه هنا قبل الخوض في تفصيل طريقتي التدريس اللتين تعرض لهما تأسيسًا على أن التعلم من حيث الشكل - ذاتيًا أو اعتمادًا على معلم - أولى بالتناول قبل تفصيل القول في طريقة التدريس.

وقد تعرض ابن أبي أصيبعة لهذه المسألة بالتفصيل في ترجمته لأبي الحسن علي بن رضوان «١»، فقال: ولم يكن لابن رضوان في صناعة الطب معلم ينتسب إليه، وله كتاب في ذلك يتضمن أن تحصيل الصناعة من الكتب أوفق من المعلمين، وقد رد عليه ابن بطلان هذا الرأي وغيره في كتاب مفرد، وذكر فصلًا في العلل التي لأجلها صار المتعلم من أفواه الرجال أفضل من المتعلم من الصحف إذا كان القول واحدا، وأورد عدة علل:

الأول منها: إن قرب الناطق من الناطق مقرب للفهم، فالفهم من النسيب، وهو المعلم أقرب وأسهل من غير النسيب، وهو الكتاب.

والثانية: إن النفس العلامة علامة بالفعل، والنفس المتعلمة علامة بالقوة العلم فيها يقال له تعلم، والمضافان معًا بالطبع، فالتعليم من المعلم أخص بالمتعلم من الكتب.

* عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة بتحقيق د. نزار رضا، نشر دار الحياة ببيروت د. ت.

١- طبيب مصري ولد بالجيزة من أسرة فقيرة واعتمد على نفسه - ما قال عن نفسه - من سن الرابعة عشرة حتى الثانية والثلاثين، وأتقن الطب حتى صار طبيباً مشهوراً له عشرات المؤلفات. وقد أصيب بلوثة عقلية في آخر حياته، بسبب أنه كان قد تبنى يتيمة خلال أزمة غلاء طاحنة أرهقت مصر سنة ٤٤٥هـ وكانت الشيخوخة قد طحنته فهربت اليتيمة بعد أن سرقت منه ثروة كان يدخرها لشيخوخته مقدارها عشرون ألف دينار من الذهب. ثم توفي رحمه الله سنة ٤٥٣ هـ «عيون الأنباء ص ٥٦١ - ٥٦٧».

والثالثة: إن المتعلم إذا استعجم عليه ما يفهمه المعلم من لفظ نقله إلى لفظ آخر، والكتاب لا ينتقل من لفظ إلى لفظ، فالفهم من المعلم أصلح للمتعلم من الكتاب.

والرابعة: إن العلم موضوعه اللفظ، واللفظ على ثلاثة أضرب:

- قريب من العقل، وهو الذى صاغه العقل مثالاً لما عنده من المعاني.
- ومتوسط: وهو المتلفظ به الصوت، وهو مثال لما صاغه العقل.
- وبعيد: وهو المثبت في الكتب، وهو مثال ما خرج باللفظ.

والخامسة: إن وصول اللفظ الدال على المعنى إلى العقل يكون من جهة حاسة غريبة من اللفظ، وهو البصر؛ لأن الحاسة النسيبة للفظ هي السمع؛ لأنه تصويت، والشيء الواصل من النسيب، وهو اللفظ، أقرب من وصوله الغريب، وهو الكتاب، فالفهم من المعلم باللفظ أسهل من الكتاب بالخط.

والسادسة هكذا: يوجد في الكتاب أشياء تصدر عن العلم قد عدمت في تعليم المعلم، وهي التصحيف العارض من اشتباه الحروف مع عدم اللفظ، والغلط بزوغان البصر وقلة الخبرة بالإعراب، أو عدم وجوده مع الخبرة به، أو فساد الموجود منه.

وواضح مما سبق أن ابن أبي أصيبعة يتبنى ما يمكن أن نطلق عليه: «المبادئ العامة للتدريس» وهي تقترب في معطياتها العامة من بعض مفاهيم علم النفس التعليمي المعاصر، ويمكن تلخيصها فيما يلي:

١- إن المعلم ركن أساسي في عملية التعليم للأسباب التالية:

أ- إنه قد يشرح اللفظ الغامض أو الفكرة الغامضة إذا وردت في الكتاب.

ب- إن المعلم يعالج ما قد يكون في الكتاب من أخطاء علمية أو طباعية.

جـ- إن التفاعل الإنساني بين المعلم والمتعلم يسهل عملية التعليم.

٢- إن الإدراك في حالة التعليم من الكتاب إدراك بصري فقط، أما في حالة التعلم من المعلم فإن أكثر من حاسة تشترك في عملية التعلم؛ مما يجعل الإدراك أسهل وأشمل.

٣- إن لكل علم أسراره ومصطلحاته الفنية الدقيقة، وهذا يجعل الاعتماد على المعلم ضروريًا لضمان التحصيل السليم.

التدريس النظري

إن طريقة التدريس النظري كانت تتم في خطوات تختلف من أستاذ إلى آخر، ولكن النظام العام للطريق الذي يمكن استنتاجه من مجموع ما ذكره ابن أبي أصيبعة في تراجمه لمشاهير الأطباء الكبار مثل الرازي «٢»،

٢- الرازي هو أبو بكر محمد بن زكريا بن يحيى ولد بمدينة الري ثم انتقل إلى بغداد وهو في نحو الثلاثين من عمره، وقد تعمق في دراسة الفلسفة والكيمياء والطب، وعرف عنه حبه للفقراء وسعيه لنشر الثقافة الصحية بين العامة، وعندما طارت شهرته عينه الخليفة المعتمد بالله كبيراً لأطباء بغداد، فظل في هذه الوظيفة نحو أربع سنوات، ثم عاد إلى الري، وقد ترك تراثاً علمياً هائلاً أهمه كتابه «الحاوي» الذي جمع فيه كل ما كان قرأه من علوم السابقين في الطب، ويبدو من حديث ابن أبي أصيبعة عنه أنه كان يعرف السريانية واليونانية، وقد توفي عام ٣٢٠ هـ «ص ٤١٤ - ٤٢٧».

٣- مهذب الدين عبدالرحيم بن علي هو أستاذ ابن أبي أصيبعة، أو أحد أساتذته الذين سجل إعجابه بهم، ولد بدمشق واشتهر بها وكان من كبار الأساتذة في بيمارستان دمشق، وله صلات طيبة بالملوك الأيوبيين المتعاقبين وله عدة مؤلفات ذكرها ابن أبي أصيبعة، توفي سنة ٦٢٨ هـ «ص ٧٢٨ - ٧٣٦».

ومهذب الدين بن علي[٣]، يمكن أن نتصوره على النحو التالي:

- يجلس الطلاب حول الأستاذ في ثلاثة صفوف دائرية الشكل تمثل ثلاثة مستويات تعليمية آخرها في الخلف المستجدون في التعليم، وأوسطهم أولئك الذين قضوا مدة في التعلم في الصفوف الخلفية، وفي المقدمة يجاور الأستاذ أنضج المتعلمين وأكثرهم خبرة وأقدمهم جلوسًا في الحلقة، أو نستطيع القول بأنهم الذين أوشكوا على التخرج وترك هذه الحلقة والانتقال إلى التدريب العملي.
- وليس من السهل استنتاج قدر الوقت الذي كان يقضيه الطالب في هذه المرحلة الدراسية، فابن أبي أصيبعة لم يشر إلى ذلك، ولكن الواضح من أحاديثه في مواضع شتى أن الانتقال من صف إلى صف - داخل الحلقة - لم يكن يتم بإرادة الطلاب، وإنما كان يتم بناء على رأي الأستاذ بعد أن يستوثق من جدارة الطالب وقدرته.
- وكان الطلاب يقرأون في هذه الحلقة الكتب التي يختارها الأستاذ لهم، سواء أكانت من مؤلفاته أم من مؤلفات غيره.
- وقد يترك الأستاذ طلاب الصف الأدنى إليه «المتميزين والأكثر نضجاً» يعتمدون على أنفسهم في القراءة، وينشغل بالشرح لطلاب الصفين التاليين في الوقت نفسه.
- وتكون مهمة الأستاذ في جميع الأحوال مهمة إرشادية بالدرجة الأولى، فهو لا يقرأ كتابًا واحدًا ويشرحه للجميع، كما كان عليه الحال في تدريس الفقه والنحو والأدب، بل إن مهمة الأستاذ هنا كانت مجرد الشرح أو التوضيح عندما يطلب منه الطلاب ذلك.
- وهناك صورة أخرى لمجلس التعليم النظري كانت تتم غالبًا من خلال التعليم الفردي، فيقوم الأستاذ بتعليم كل طالب على حدة من كتاب معين.

فنيات التدريس النظري

إن الأساليب الفنية للتلقين أو التدريس النظري التي يمكن استنتاجها من خلال الترجمات المختلفة في الكتاب تنحصر في الأنماط التالية:

١- القراءة على الأستاذ: حيث يختار الأستاذ للطلبة كتابًا معينًا من المراجع الطبية التي يراها ملائمة لمستواهم أو لمستوى كل منهم، ويأخذ الطالب في القراءة في هذا الكتاب على أستاذه فلا يتوقف إلا عندما يغمض عليه المعنى، أو يتدخل الأستاذ بالشرح عندما يرى ضرورة لذلك ويستمر الوضع على هذه الوتيرة حتى ينتهي الكتاب فينتقل الطالب - أو مجموعة الطلبة - إلى كتاب جديد يمثل مستوى أرقى من السابق.

٢- الإملاء: وهذه الطريقة كانت أكثر شيوعاً في دروس المحدِّثين - بتشديد الدال وكسرها - أي أساتذة علم الحديث النبوي، ولكنها شاعت في تدريس معظم العلوم العربية وقد استخدمها بعض الأطباء الكبار كالرازي وغيره في تزويد طلابهم بخبراتهم الشخصية وملاحظاتهم على المؤلفات التي يدرسونها.

٣- العرض: ومعناه أن يعيد الطالب قراءة ما أملاه عليه أستاذه بصوت مرتفع على أستاذه للتأكد من أنه لم يكتب شيئاً خطأ أو للتأكد من أنه يفهم ما كتبه سماعًا، وهذا النمط من أنماط التفاعل اللفظي بين الأستاذ والتلميذ يدل دلالة واضحة على عناية العلماء العرب بمسألة التعلم الفردي.

٤- الشرح: وهذا النمط هو أكثر فنيات التدريس النظري شيوعاً، ويقوم الأستاذ فيه بالدور الأكبر من خلال تفسير النصوص والعبارات والمعاني الغامضة، أو ضرب الأمثلة على الحالة التي تحتاج إلى توضيح.

ويبدو أن الكتب التي كانت تدرس لطلاب الطب باللغات السريانية والإغريقية كانت وراء غلبة هذا النمط على غيره من الأنماط لحاجة الطلاب المتجددة إلى إتقان اللغات الأجنبية وأسرارها التعبيرية.

المقررات التي كانت تدرس نظرياً

كانت الدروس النظرية تشمل:

أ- الكيمياء والعقاقير:

يقول الرازي: «من لم يكن له إلمام واسع بالكيمياء لا يستطيع أن يكون فيلسوفًا»، ولا يستغرب هنا استعمال كلمة «الفيلسوف»؛ لأن العرب كانوا يرون الطب والفلسفة علومًا تنبع من معين واحد، ويسمونها «علوم الحكمة»، ومن هنا فقد شاع في التراث استخدام كلمة «الحكيم»؛ للدلالة على الفيلسوف أو على الطبيب.

«وقد يراد بالحكيم الناظر في العيون «طبيب العيون خاصة»، لا في الأبدان، لأن هذا - أي الناظر في الأبدان - هو الطبيب»[٤].

ويبدو أن الرازي كان على علم بما تسببه العقاقير من مضاعفات أو آثار جانبية فهو يقول: «إن قدرت أن تعالج بالأغذية فلا تعالج بالأدوية»، وفي كتاب ابن أبي أصيبعة تتناثر نماذج كثيرة لأسماء النباتات التي كان الأطباء يعتمدون عليها في صناعة الأدوية أو في العلاج بها مباشرة.

٢- التشريح:

وعلى الرغم من أن الفكر الديني لم يكن أباح تشريح جسم الإنسان فإن علم التشريح كان أحد العلوم الأساسية الممهدة لدراسة الطب، وكان يدرس نظريًا من «كتاب جالينوس»، بالإضافة إلى تجارب العرب في تشريح الحيوانات وقطعهم شوطًا طويلاً في تأصيل علم تشريح عربي.

٣- علم وظائف الأعضاء «الفسيولوجيا»:

يتضح من استعراض الكتاب أن هذا العلم كان أحد العلوم الضرورية التي تدرس، فقد تكلم كثير من الأطباء عن العصاب، وهو عصب الحس وعصب الحركة خاصة وعن الجلد، كما تناولوا دراسة الحواس، وتحدثوا عن طبقات الأذن، الكبد، القلب، الخصية، العين... إلخ.

٤- علم الأمراض «الباثولوجيا»:

وكانوا يصفونها «بالخيالية» وقد درسوها من خلال كتاب جالينوس، فكانوا يحرصون على تعريف كل مرض ووصف أعراضه، وصفاً دقيقاً، بل الشروع في وصف العلاج، فقد تحدث الرازي عن أعراض بعض أمراض الكبد والكلى، والحصبة، والجدري، بل إنه تجاوز ذلك إلى ما يعرف اليوم باسم «أمراض المجتمع» أو البيئة حين تحدث عن «صحة

٤- محمود الطناحي، الموجز في مراجع التراجم والبلدان والمصنفات وتعريفات العلوم، «القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٨٥»، ص٦٤.

المسافر، وكيفية تفاديه للأوبئة والأمراض المعدية.

٥- علم النبات:

إذا كانت دراسة علم الحيوان على أساس دراسة التشريح، فإن دراسة علوم النبات كانت هي أساس علوم الأدوية، وكان الأطباء العرب - كما يبدو من كلام ابن أبي أصيبعة - يعطون أهمية للنبات فيدرسونه من حيث آثاره الجانبية، وبذلك عرفوا ما سموه بالأدوية المفردة، وهم يقصدون بها ما كان يعالج به من النبات مباشرة دون إضافته إلى غيره، والأدوية المركبة ويقصدون بها تلك التي يتم استخلاصها من خلط عدة عناصر نباتية أو غير نباتية.

وفي ترجمته لابن البيطار (ت ٦٤٦ هـ) الذي يصفه بأنه: «أوحد عصره وعلامة وقته، في معرفة النبات» يذكر ابن أبي أصيبعة أنه خرج معه خارج دمشق لمشاهدة أنواع من النباتات على الطبيعة.

وفي ترجمته لرشيد الدين الصوري (ت ٦٣٩ هـ) يذكر: أنه كان يخرج إلى جبل لبنان، ويأخذ معه مصوراً ليصور له النباتات التي يدرسها في مراحل مختلفة من نموها، وحين وضع كتابا في الأدوية زوده بهذه الصور التي يستدل بها على ما يتوصل إليه من نتائج.

٦- مواد تثقيفية مساعدة:

وأهمها الفقه والنحو ولم يكن كل الأساتذة ملتزمين بتدريسها في مجالس تعليم الطب ولكن ابن أبي أصيبعة أشار إليها في تراجم عدد قليل منهم، ويبدو أنها كانت مرتبطة باهتمامات الأستاذ الدينية أو اللغوية، ولم تكن مقرراً أساسيا من متطلبات المهنة.

التدريس العملي

الواضح من بين ثنايا التراجم المختلفة في الكتاب أن الدروس العملية كانت تتم ميدانياً حول سرر المرضى في المستشفيات، حيث يشرح الأستاذ الحالات التي يقرر تدريسها حالة بعد أخرى، متنقلاً بتلاميذه من سرير إلى سرير، أو يكلف أحد الطلاب بتشخيص حالة من الحالات، ويطلب منه وصف العلاج المناسب للحالة.

مراحل التدريس العملي للطب

١- مرحلة الكشف المبدئي:

يقدم لنا ابن أبي أصيبعة صورة لما كان يحدث في بداية التدريس الميداني، حيث يقف الأستاذ أمام سرير المريض وحوله طلابه ثم تتبع الإجراءات التالية:

أ- سؤال المريض عن اسمه وعمره وبلده.

ب- سؤاله عن الآلام التي يشعر بها وتاريخ شعوره بها.

جـ- سؤاله عن الأعراض التي صاحبت الشعور بالألم مسلسلة.

د- سؤاله عن أفراد عائلته وعما إذا كان أحد منهم قد شعر بالآلام نفسها في أي وقت من الأوقات.

بهذه الخطوات الأربع يكون الطلاب قد كونوا فكرة عن تاريخ الحالة وأثر الوراثة إن كان له صلة بالمريض.

ويقول الرازي عن هذه المرحلة: «ينبغي للطبيب ألا يدع مسألة المريض عن كل ما يمكن أن تتولد عنه علته من داخل ومن خارج، ثم يقضي بالأقوى»[٥].

٢- مرحلة الفحص:

بعد ذلك يقوم الأستاذ بتوجيه طلابه إلى فحص المريض بعد أن يتداول معهم في المعلومات التي حصلوا عليها من المريض عبر الخطوات السابقة، وتنقسم مرحلة الفحص عادة إلى مستويين:

الأول: فحص عام شامل.. يقول عنها الرازي: «ابدأ بدراسة حالات المريض وتأثير المرض عليه، وهل يستطيع السير منفرداً أم مستنداً وعلى أية جهة يستند، ووضع يديه أثناء السير، وهل هما على أعلى البطن أم أسفلها أم على الرأس أم على الصدر، وتكلم معه؛ لمعرفة: هل هو مالك لقواه العقلية أم في حالة خمول، وهل حالته تنذر بالخطر أم لا، بمجرد إلقاء نظرة عامة على المريض.

ويقول الطبيب علي بن رضوان عن هذه المرحلة[٦]: «تعرف العيوب هو أن تنظر إلى هيئة الأعضاء والسحنة والمزاج وملمس البشرة، وتتفقد أفعال الأعضاء الباطنة والظاهرة، مثل أن تنادي به من بعيد، فتختبر بذلك حال سمعه، وأن تختبر بصره بنظر الأشياء البعيدة والقريبة ولسانه بجودة الكلام، وقوته بشيل الثقل والمسك والضبط والمشي وأنحاء ذلك مثل أن تنظر مشيه مقبلا ومدبرا، ويؤمر بالاستلقاء على ظهره ممدود اليدين قد نصب رجليه وصفهما، وتختبر بذلك حال أحشائه.. إلخ.

الثاني: مرحلة الفحص الدقيق: وتعتمد هذه المرحلة على خطوات مترابطة، وأكثر عمقا من التحليل الظاهري الذي تم في المرحلة السابقة مثل:

١- جس نبض المريض.

٢- تحليل المواد الخارجة من جسم المريض كالبول والبراز والصديد والدم.

٣- الفحص الباطني لمعرفة ما قد يكون بداخل الجسم من أصوات لها دلالة على أمراض معينة.

٤- مراقبة ما يطرأ - أو ما طرأ - على الجلد من تغييرات لها دلالاتها المعروفة.

٥- غسيل المعدة واستخراج ما فيها للتعرف على سلامة الهضم والكبد والطحال.

٣- مرحلة وصف العلاج:

تعد مرحلة وصف العلاج هي المرحلة الأخيرة في الدراسة العملية الميدانية، وكانت تتم في صورة الخطوات التالية:

أولاً: يأمر الأستاذ طلابه أن يصف كل منهم ما يراه مناسبا لعلاج الحالة، فإذا أصاب أحدهم أقره، وإذا أخطأ طلب من زملائه أن يصححوا له الخطأ.

ثانيا: ربما تشاور الأستاذ مع كبار الأطباء من المرافقين الذين انتهوا من مرحلة الطلب في وصف العلاج.

ثالثا: يقوم الأستاذ بوصف ما يستقر عليه رأيه من علاج سواء أكان هذا العلاج أدوية مفردة أو مركبة أو يقرر إجراء مزيد من التحاليل، أو يقرر إجراء جراحة.

وخلال ذلك يوضح لطلابه أسباب أخطائهم والأسباب التي بنى عليها قراره النهائي.

٥- ابن أبي أصيبعة، ص ٤٢١.

٦- المرجع نفسه، ص٥٦٥.

القرآن والتوراة والإنجيل والعلم (٥)

تاريخ خلق العالم وتاريخ ظهور الإنسان على الأرض





د. موريس بوكاي

لما كان التقويم اليهودي مؤسسًا بالتوافق مع معطيات العهد القديم، فإنه يحدد هذين التاريخين بدقة: إن الجزء الثاني من عام ١٩٧٥م المسيحي يتفق مع بداية العام ٥٧٣٦ منذ خلق العالم، إذن فالإنسان الذي يجيء خلقه بعد خلق العالم بعدة أيام قديم، نفس القدم الذي يحصيه التقويم اليهودي لخلق العالم.

وهناك ولا شك تصحيح يجب إجراؤه بسبب إحصاءات الزمن، التي كانت تحسب أولا بالسنوات القمرية، على حين يتأسس التقويم الغربي على السنوات الشمسية؛ ولكن هذا التصحيح الذي يبلغ ٣٪ والذي يمكن عمله إذا أردنا أن نكون في منتهى الدقة قليل الأهمية. وحتى لا نعقد الحسابات يحسن أن نمتنع عنها. ما يهم هنا هو حجم الكبر التقريبي ولا يهم إذا كان رقم السنوات بالألف بهامش خطأ يبلغ ٣٠ سنة. ولكي نكون أكثر قربًا من الحقيقة لنقل: إن خلق العالم بحسب هذا التقدير العبري يحدد تقريبا بسبعة وثلاثين قرنا قبل الميلاد.

ماذا يعلمنا العلم الحديث..؟ عسيرة هنا الإجابة عما يتعلق بتكون الكون، وكل ما يمكن ترقيمه هو عصر تكون النظام الشمسي الذي يمكن تحديده زمنيا بتقريب مرض، ويقدر الزمن الذي يفصلنا عن تكون النظام الشمسي بأربع مليارات ونصف من السنوات، وبهذا نقيس الهامش الذي يفصل الواقع الثابت اليوم، عن المعطيات المستخرجة من العهد القديم، إنها تنبع من دراسة دقيقة لنص التوراة، ويعطي سفر التكوين إشارات دقيقة جدًا عن الزمن الذي جرى بين آدم

وإبراهيم، وأما بالنسبة إلى الفترة الممتدة من إبراهيم وحتى العصر المسيحي فإن المعلومات المعطاة غير كافية، ولابد من إكمالها بالاستعانة بمصادر أخرى.

١- من آدم إلى إبراهيم

يقدم سفر التكوين في أثنائه بالإصحاحات ٤، ٥، ١١، ٢١، ٢٥، معطيات غاية في الدقة عن كل أسلاف إبراهيم من صلب مباشر منذ آدم، ولما كان سفر التكوين يعطي مدة حياة كل منهم وعمر الأب عند ميلاد الابن، فإنه يسمح بيسر تحديد تواريخ ميلاد ووفاة كل سلف بالنسبة إلى خلق آدم كما هو مشار إليه في الجدول التالي:

أسلاف إبراهيم	تاريخ الميلاد بعد خلق آدم	مدة العمر	تاريخ الوفاة بعد خلق آدم
١- آدم	٠٠	٩٣٠	٩٣٠
شيت	١٣٠	٩١٢	١٠٤٢
أنوش	٢٣٥	٩٠٥	١١٤٠
قينان	٣٢٥	٩١٠	١٢٣٥
مهللئيل	٣٩٥	٨٩٥	١٢٩٠
يارد	٤٦٠	٩٦٢	١٤٢٢
أخنوخ	٦٢٢	٣٦٥	٩٨٧
متوشالح	٦٨٧	٩٦٩	١٦٥٦
لامك	٨٧٤	٧٧٧	١٦٥١
١- نوح	١٠٥٦	٩٥٠	٢٠٠٦
سام	١٥٥٦	٦٠٠	٢١٥٦
أرفكشاد	١٦٥٨	٤٣٨	٢٠٩٦
شالح	١٦٩٣	٤٣٣	٢١٢٦
عابر	١٧٢٣	٤٦٤	٢١٨٧
فالج	١٧٥٧	٢٣٩	١٩٩٦
راعو	١٧٨٧	٢٣٩	٢٠٢٦
سروج	١٨١٩	٢٣٠	٢٠٤٩
ناحور	١٨٤٩	١٤٨	١٩٩٧
تارح	١٧٨٧	٢٠٥	٢٠٨٣
٢- إبراهيم	١٩٤٨	١٧٥	٢١٢٣

ألف هذا الجدول حسب المعطيات الآتية كلها من النص الكهنوتي لسفر التكوين: وهو النص الوحيد في التوراة الذي يعطي تحديدات من هذا النوع، ومنه يستنتج أن إبراهيم، كما تقول التوراة: قد رأى النور في عام ١٩٤٨ بعد آدم.

٢- من إبراهيم إلى العصر المسيحي

لا تعطي التوراة عن هذه الفترة أية معلومات حسابية من شأنها أن تقود إلى تقويمات دقيقة، كتلك التي يعطيها سفر التكوين عن أسلاف إبراهيم؛ ولكي نقدر الزمن الذي يفصل بين إبراهيم، والمسيح علينا أن نستعين بمصادر أخرى، ويحدد حاليا عصر إبراهيم بحوالي ثمانية عشر قرنا قبل الميلاد وبهامش خطأ صغير. وهذه المعطية المؤلفة من إشارات سفر التكوين عن الفترة الزمنية التي تفصل بين إبرهيم وآدم، تقود إلى تحديد تاريخ هذا الأخير بحوالي ثمانية وثلاثين قرنا قبل المسيح، وهذا التقدير خاطئ بلا أي جدال: وخطؤه يأتي من الغلط الذي تحتويه التوراة عن المدة بين آدم وإبراهيم، التي يعتمد عليها التراث اليهودي دائما لتحديد تقويمه، ونستطيع في عصرنا أن نعارض الحماة التقليديين لحقيقة التوراة باستحالة اتفاق المعطيات الحديثة مع هذه التقديرات الوهمية التي عملها الكهنة اليهود في القرن السادس قبل الميلاد.

لقرون طويلة استخدمت هذه التقديرات كقاعدة لتحديد أحداث العصر القديم بالنسبة للمسيح.

كانت كتب التوراة المنشورة قبل العصر الحديث تقدم للقراء في مقدمة توضيحية قائمة بتواريخ الأحداث التي وقعت منذ خلق العالم وحتى عصر نشر هذه الكتب، وكانت الأرقام تتنوع قليلًا بحسب العصور، على سبيل المثال: تعطي نسخة vulgate clementine (١٦٢١م) مثل هذه الإشارات، واضعة مع ذلك تاريخ إبراهيم بشكل مبكر قليلًا ومحددة الخلق بالقرن الأربعين قبل الميلاد تقريبًا. أما التوراة والتون walton متعددة اللغات، المنشورة في القرن السابع عشر، فهي تعطي القارئ خارج نصوص التوراة في لغات عدة، جداول مماثلة لذلك الذي تحدد هنا بالنسبة لأسلاف إبراهيم.

إن كل التقديرات متفقة فيما عدا اختلافات طفيفة، مع الأرقام المقدمة هنا، وعندما جاء العصر الحديث لم يعد في استطاعة الناشر الاحتفاظ بهذه القوائم الوهمية دون التعارض مع المكتشفات العلمية، التي حددت تاريخ الخلق بعصر سابق بكثير، اكتفى إذن بحذف هذه الجداول والمقدمات، وحاذر الناشرون من إعلام القارئ بخطأ نصوص التوراة هذه، التي اعتمد عليها من قبل لتحرير هذه القوائم التاريخية والتي لم يعد في الإمكان اعتبار أنها تعبر عن الحقيقة. ففضلوا أن يلقوا عليها غلالة من الحياء وأن يجدوا صيغًا ديالكتيكية عالمية، حتى يقبل النص كما كان من قبل دون أي حذف، وهكذا تجد قوائم الأنساب للنص الكهنوتي للتوراة مكان الصدارة دائمًا، على حين أنه لم يعد معقولًا في القرن العشرين حساب الزمن بالاعتماد على مثل هذا الوهم.

أما فيما يخص تاريخ ظهور الإنسان على الأرض، فالمعطيات العلمية الحديثة تسمح بتعريفه بأبعد من حد غير دقيق، فقط نستطيع أن نقتنع بأن الإنسان كان يوجد على الأرض بطاقة ذكائه وعمله الذي تجعله يختلف عن كائنات حية تبدو مقاربة له تشريحيا، في فترة لاحقة على تاريخ يمكن تقديره، ولكن لا أحد يستطيع أن يحدد بشكل دقيق تاريخ ظهوره، ومع ذلك فيمكن أن نؤكد اليوم وجود أطلال لإنسانية مفكرة وعاملة، وبحسب قدمها بوحدات تتكون من عشرات من ألوف السنين.

يعود هذا التاريخ التقريبي على نموذج إنسان ما قبل التاريخ الذي اعتبر أكثر النماذج قربًا للنموذج Neo-anthropiens (إنسان كرومانيون Gro-magnon)، ولا شك أن هناك اكتشافات أخرى لبقايا يبدو أنها إنسانية قد تمت في نقاط عديدة على الأرض، وهي تخص أنماطًا أقل تطورًا paleo-anthropiens ويقدر حجم قدمها بوحدات من مئات ألوف السنين، ولكن هل هم حقًا بشر حقيقيون؟

على أية حال فالمعطيات دقيقة بشكل كاف فيما يخص Neo-anthropien وذلك يسمح بوضعهم أبعد بكثير من العصر الذي يحدده سفر التكوين لأوائل البشر، هناك إذن استحالة اتفاق واضحة بين ما يمكن استنتاجه من المعطيات الحسابية لسفر التكوين الخاصة بظهور الإنسان على الأرض وبين أكثر المعارف تأسسًا في عصرنا.

الطوفان

الإصحاحات (٦، ٧، ٨) من سفر التكوين مكرسة لرواية الطوفان، وبشكل أدق هناك روايتان غير موضوعتين جنبًا إلى جنب، إنما هما تنفصلان في مقاطع متداخلة كل في الآخر وبمنطق ظاهر في تعاقب مختلف الأحداث. الحقيقة أن في هذه الإصحاحات الثلاثة تناقضات صارخة، هنا أيضًا تعلل هذه المتناقضات بوجود مصدرين متميزين بشكل جلي - أي: المصدر اليهوي والمصدر الكهنوتي - وقد رأينا أعلاه أن هذين المصدرين يشكلان تجميعًا متنافرًا. فقد قطع كل نص أصلي إلى فقرات أو عبارات، وهذا مع تعاقب عناصر كل مصدر مع عناصر المصدر الآخر، بحيث إننا ننتقل من مصدر لآخر في الراوية سبع عشرة مرة وذلك خلال مائة سطر تقريبًا من النص.

والرواية في شمولها هي ما يلي:

لما عم فساد البشر قرر الله تدميرهم مع كل المخلوقات الحية الأخرى فحذر نوحًا، وأمره ببناء السفينة التي بها زوجته وأولاده الثلاثة بزوجاتهم الثلاثة وكائنات حية أخرى، ويختلف المصدران بالنسبة للكائنات الحية: فهناك مقطع من الرواية (وهو كهنوتي الأصل) يشير إلى أن نوحًا أخذ زوجًا من كل نوع. ثم يحدد المقطع التالي (وهو من الأصل اليهوي) أن الله قد أمر بأخذ سبعة من كل نوع ذكر وأنثى من الحيوانات المسماة بالطاهرة، وزوجًا واحدًا من الحيوانات المسماة بغير الطاهرة، ولكن بعد ذلك يتحدد أن نوحًا لن يدخل إلى السفينة فعلًا إلا زوجًا من كل نوع من الحيوانات، ويؤكد المتخصصون، مثل «الأب ديفو» أن المعنى به هنا هو: مقطع معدل من الرواية اليهوية.

وهناك فقرة (وهي من الأصل اليهوي) تشير إلى أن عامل الطوفان هو ماء المطر، ولكن هناك فقرة خرى (وهي كهنوتية الأصل) تقدم سبب الطوفان على أنه مزدوج - أي: ماء المطر والينابيع الأرضية - تغطت الأرض حتى قمم الجبال وأعلى منها بالماء، وتدمرت فيها كل الحياة، وبعد سنة خرج نوح من السفينة التي رست على جبل أراراط بعد الانحسار.

ولنضف أيضًا أن للطوفان - حسب هذه النصوص - مدتين مختلفتين: إذ تقول الرواية اليهوية: ٤٠ يومًا فيضانًا، على حين يقول النص الكهنوتي: ١٥٠ يومًا. ولا تحدد الرواية اليهوية تاريخ وقوع هذا الحدث من حياة نوح، ولكن الرواية الكهنوتية تحدده بحين كان عمر نوح ٦٠٠ سنة. وتعطي نفس هذه الرواية إشارات عن موقعه الزمني بالنسبة لآدم وبالنسبة لإبراهيم، وذلك من خلال قائمة الأنساب، وحسب الحسابات المعمولة بعد الرجوع إلى إشارات سفر التكوين، والتي تقول: إن نوحًا قد ولد بعد ١٠٥٦ عامًا من آدم (أنظر جدول أسلاف إبراهيم) فإن الطوفان يكون قد وقع بعد ١٦٥٦ عامًا

من خلق آدم وبالنسبة إلى إبراهيم فيحدد سفر التكوين الطوفان بـ ٢٩٢ سنة قبل ميلاد هذا الأب الأول، ولكن كما يقول سفر التكوين: يخص الطوفان كل الجنس البشرى، وكل الكائنات الحية التى خلقها الله قد أعدمت على الأرض حسب هذه الرواية، إن البشرية - والأمر هكذا - تكون قد أعدت تكوين نفسها ابتداء من أولاد نوح وزوجاتهم بحيث إنه عندما يولد إبراهيم بعد ذلك بثلاثة قرون تقريبًا، فإنه يجد الإنسانية قد أعادت تكوين نفسها فى مجتمعات. كيف يمكن لإعادة البناء هذه أن تتم فى زمن قليل إلى هذا الحد..؟ إن هذه الملاحظة البسيطة تنزع عن النص أية معقولية.

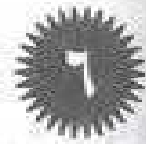
أكثر من ذلك فالمعطيات التاريخية تثبت استحالة اتفاق هذه الرواية مع المعارف الحديثة، والواقع أن عصر إبراهيم يحدد بالسنوات ١٨٠٠ - ١٨٥٠ قبل الميلاد، وذلك هو العصر الذى كانت قد ظهرت من قبله فى نقاط مختلفة من الأرض حضارات انتقلت أطلالها للأجيال التى تلتها: إن المعارف التاريخية الحديثة تسمح بتأكيد هذا.

على سبيل المثال فهذه الفترة - بالنسبة لمصر - هى التى تسبق الدولة الوسطى (٢١٠٠ قبل الميلاد) وهذا بالتقريب هو تاريخ الفترة الوسطى الأولى قبل الأسرة الحادية عشرة. وفى بابل أسرة أور الثالثة. ومن المعروف جيدًا أنه لم يحدث انقطاع فى هذه الحضارات وبالتالى لم يحدث إعدام يخص البشرية برمتها كما تقول التوراة.

وبالتالى فلا يمكن اعتبار أن روايات التوراة الثلاث تصف للإنسان أمورًا تتفق مع الحقيقة، وإذا أردنا أن نكون موضوعيين فلابد أن نقبل أن هذه النصوص التى وصلت إلينا لا تمثل تعبير الحقيقة. هل أنزل الله شيئًا غير الحقيقة..؟ الواقع أنه من غير الممكن تصور فكرة إله يعلم الناس بالاستعانة بأوهام بل بأوهام متناقضة. وطبيعى أن يثير ذلك افتراض وجود تحريف بواسطة البشر - إما فى الأقوال المتوارثة التى انتقلت شفهيًا من جيل لآخر، أو فى النصوص بعد تحديد هذه الأقوال المتوارثة. وعندما نعرف أن مؤلفًا مثل سفر التكوين قد عدل على الأقل مرتين، وهذا على مدى ثلاثة قرون، فكيف ندهش حين نجد فيه أمورًا غير معقولة أو روايات يستحيل أن تتفق مع واقع الأشياء؟ منذ أن سمح تقدم المعارف البشرية إن لم يكن بمعرفة كل شىء، فعلى الأقل بامتلاك معرفة كافية عن بعض الأحداث تسمح بإقامة الحكم على درجة اتفاق الروايات القديمة بهذه المعرفة، أى شىء أكثر منطقية إذن من الاكتفاء بهذا التفسير لأخطاء نصوص التوراة، تلك التى لا تضع إلا الإنسان موضع النقاش..؟ وإنه لمن المؤسف ألا يأخذ بهذا التفسير عامة المعلقين مسيحيين كانوا أو يهودًا، ومع ذلك فالحجج التى يدفعون بها تستحق الالتفات.

يتبع

كلمات ربى وآياته فى القرآن الكريم





أ.د. أحمد فؤاد باشا
الأستاذ بكلية العلوم - جامعة القاهرة

• أثقال [الأرض]:

قال تعالى:

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾

(الزلزلة: ١-٢)

جاء فى التفسير ما يفيد أن أثقال الأرض هو ما فى باطنها من الأموات الأولين والآخرين. ويمكن أن يتسع مدلول كلمة ﴿أَثْقَالَهَا﴾ ليشمل خروج المواد الثقيلة عالية الكثافة من باطن الأرض أو جوفها، وقد أثبتت البحوث العلمية بأن لب الأرض مكون أساسًا من الحديد والنيكل، وحرارته مرتفعة بدليل ما يخرج من البراكين من حمم منصهرة تتراوح حرارتها بين ١٢٠٠م و٢٢٠٠م، حيث تسهم الحرارة الناتجة عن الانحلال الإشعاعى فى باطن الأرض فى ميزان طاقتها. ذلك أن جزءًا من العناصر المشعة الموجودة بكميات صغيرة فى كل الصخور، على الأخص عناصر اليورانيوم والثوريوم والبوتاسيوم، يتحول أثناء عملية الانحلال الإشعاعى إلى طاقة حرارية يمكنها، على امتداد أزمنة جيولوجية تبلغ بلايين السنين، أن ترفع درجة الحرارة كثيرًا فى باطن الأرض، وهذا بدوره يؤدى إلى نشوء تدفق حرارى باتجاه سطح الأرض. فإذا ما كان معدل الحرارة المفقودة خلال السطح أقل من معدل الحرارة المتولدة، نظرًا لرداءة توصيل صخور القشرة الأرضية، فإن درجات الحرارة فى باطن الأرض تواصل ارتفاعها باستمرار محدثة الانصهار وما يترتب عليه من حدوث تيارات الحمل الحرارى.

ويتفق هذا التصور مع ما تدلنا عليه النشاطات البركانية من وجود درجات حرارة عالية على أعماق ضحلة نسبيًا، كما أوضحت دراسات الموجات الزلزالية أن بعض الطبقات الداخلية توجد فى حالة سائلة منصهرة، وأظهرت أبحاث المغناطيسية الأرضية أن المجال المغناطيسى للأرض ينشأ داخل اللب السائل على أكثر الاحتمالات نتيجة الحركة الدورانية للمواقع الموصلة المترتبة على نشاط تيارات الحمل الحرارى. وقد أسهمت

هذه التفسيرات كثيرًا فى تعزيز نظرية الألواح «التكتونية» التى تصف تغيرات السطح الخارجى للأرض نتيجة العمليات الديناميكية التى تحدث تحته.

● أقوات [الأرض]:

أقوات: جمع «قوت»، وهو ما يمسك الرمق «النفس»، ويقوم به البدن من الطعام. قال تعالى:

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾

(فصلت: ١٠)

يحدثنا القرآن الكريم هنا عن تكوين ما تصلح به الأرض من الجبال والأقوات والخير النافع الكثير، وهذا يتناول كل ما أودعه الله - تعالى - فى الأرض من خيرات مازالت تتكشف للإنسان يومًا بعد يوم، ويتناول كل ما تملكه الأرض من كنوز ومواد يمكن استخراجها واستغلالها. ثم يستخدم القرآن الكريم هذا التعبير المعجز العجيب:

﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾

ومعنى «قدر الأقوات»: جعل لها قدرًا محددًا محسوبًا من حيث الكمية والنوع، واستخدم القرآن الكريم لفظ الجمع «أقوات» ليشمل أنواعها التى لا حصر لها، وأنواع المقتاتين التى لا يحيط بعلمها إلا الله عز وجل. فالأرض كما خلقها الله - تعالى - وكونها، محتوية على أقوات مخلوقاتها من إنسان وحيوان ونبات. وهذا يعنى أمرين، أولهما أن الله سبحانه وتعالى أودع فيها القوى التى تنشأ منها الأقوات، وثانيهما أنه خلق أصول أجناس الأقوات وأنواعها على اختلاف المناطق والأوقات والمناخ، وفى هذا إشارة على سبيل الإجمال لمصادر القوت، مع اختلاف الأقاليم والبلدان، وتنوع الخصائص والمنتوجات، مما يدفع إلى السعى والتبادل التجارى.

من ناحية أخرى، إذا كان التعبير القرآنى قد أضاف الأقوات إلى الأرض ﴿أَقْوَاتَهَا﴾، ليتناول كل المخلوقات التى تتغذى، ما علمنا منها وما لم نعلم، حيث إن لكل النباتات أقواتا، وللدواب أقواتا، وللطير أقواتا، وللزواحف أقواتا، وللحشرات أقواتا، وللإنسان أقواتا مما استطاب منها، فإن هذا التعبير المعجز يشير أيضًا إلى أن الأرض هى المقتاتة، وأقواتها هى الجبال والأنهار والأشجار والصخور والمعادن والأشياء التى بها قوام الأرض ومصالحها وصلاحها لاستمرار الحياة عليها إلى ما شاء الله.

والإيمان بحقيقة ما أخبر به القرآن الكريم من أن الله - تعالى - حين خلق الأرض:

﴿وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾

يستتبع بالضرورة الإيمان بأن أى خلل يصيب التوازن بين المخلوقات وأقواتها إنما هو راجع إلى عدوان بشرى على ضوابط السلوك التى وضعها القرآن الكريم للحفاظ على هذا التوازن الذى هو بدوره إحدى سمات الخلق الإلهى والتوازن البيئى فى هذا الكون الذى نعيش فيه، ولهذا جاء النهى عن الإسراف وسوء الاستغلال ونهب الثروات فى مواضع عدة من القرآن الكريم، وكلها من مظاهر الفساد فى الأرض التى

نهى القرآن عنها فى قوله تعالى:

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾

(الأعراف: ٥٦)

● زلزال [الأرض]

الزلزال: تحريك واضطراب شديد ومثله الرج والرجف.

وقد وردت الكلمة بصور مختلفة فى ستة مواضع من القرآن الكريم: (سورة الزلزلة: ١)؛ (سورة البقرة: ٢١٤)؛ (سورة الأحزاب: ١١)؛ (سورة الحج: ١).

والزلازل ظاهرة كونية ورد ذكرها فى عدد من الآيات القرآنية الكريمة ليدل على ما يحصل فى النفوس من الرعب والفزع، وليخبر بما يستقبل الناس من أهوال يوم القيامة وأحوالها. بل إن هناك سورة كاملة فى القرآن الكريم تحمل اسم الزلزلة، هى:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾

(الزلزلة: ١-٨)

ومن أوجه الإعجاز البيانى فى هذه الآيات الكريمة أنها تصف الزلازل بصفات أساسية فى سلوك الظاهرة ذاتها. فالتعبير بالفعل الماضى ﴿زُلْزِلَتِ﴾ فيه تأكيد لحدوث الزلازل فى المستقبل، وابتداء السورة بـ﴿إِذَا﴾ له أثره البيانى فى هذا الحدث الذى يأتى بغتة إمعانًا فى الترهيب.

ومن فضل الله - سبحانه وتعالى - على عباده ورحمته بهم أن يذكرهم بأهوال زلزال يوم القيامة فى قرآن يتلى على أسماعهم ليل نهار، كما أنه يريهم بين الحين والحين، على سبيل العظة والعبرة، قدرًا يسيرًا جدًا من هذه الأهوال فى صورة زلازل عادية صغيرة تقع فجأة فى أماكن متفرقة على سطح الأرض عندما تثور وتهتز لثوان معدودات، فلا يجد العاقل صعوبة بالقياس عليها فى تصور زلزال يوم القيامة الشديد الذى يمزق الكرة الأرضية كلها ويجعلها تلقى كل ما فى باطنها.

وقد حاول الإنسان منذ القدم أن يتعرف على أسباب حدوث الزلازل، وكانت أفكاره عنها فى بادئ الأمر قائمة على الأساطير والخرافات، كأن يعتقد مثلاً أن هناك ثورًا يحمل الأرض على أحد قرنيه وينقلها كلما تعب إلى القرن الآخر، أو يعتقد أن الأموات يحاولون أن يخرجوا إلى سطح الأرض فتهتز من محاولاتهم.

لكن البداية العلمية الحقيقية لتفسير هذه الظاهرة الكونية جاءت على أيدى علماء الحضارة الإسلامية الذين تشبعوا بروح الإسلام كدين حضارى، واستلهموا من تعاليمه كل مقومات البحث العلمى السليم ومنهج التفكير القويم فى مختلف الظواهر الكونية للتعرف على طبيعة سلوكها والاهتداء إلى حكمة وجودها فى ربط الإنسان بخالقه، وربطه أيضًا بعالمه الذى يعيش فيه. فقد ذكر الهمدانى وابن

سينا وإخوان الصفا وغيرهم آراء علمية عن أسباب حدوث الزلازل لا تختلف كثيرًا عما تعرفه اليوم فى علم الزلازل الحديث إلا بقدر ما حدث من تطور فى أجهزة الرصد والقياس. وأصبحت الزلازل تعرف بأنها هزات سريعة خاطفة ومتلاحقة لسطح الأرض الذى نعيش عليه نتيجة وصول طاقة زلزالية إليه من بؤرة تقع على أبعاد ضحلة أو متوسطة أو عميقة تحت سطح الأرض.

وقد أوضحت السجلات الاهتزازية حديثًا أن أغلب الزلازل وأقواها تنشأ عند أعماق ضحلة تبدأ من ٥ كم حتى أقل من ٦٠ كيلومترا تحت سطح الأرض، وعادة ما يعقب وقوع زلزال كبير عدة زلازل خفيفة تسمى «التوابع»، وهى أضعف بكثير من الزلزال الرئيسى، إلا أنها تسبب فى بعض الأحيان مزيدًا من الإتلاف للمنشآت التى تأثرت بالاهتزاز من قبل. وهناك مناطق معينة من العالم تكون أكثر عرضة من غيرها لوقوع الزلازل وتكون ما يعرف باسم الأحزمة الزلزالية، بينما توجد مناطق أخرى مستقرة نسبيًا من بينها قارة أفريقيا كلها فيما عدا وادى الخسف الشرقى وشمال غرب القارة.

وتقدر شدة الهزات الزلزالية فى منطقة ما بأعداد وضعها العالم الأمريكى «ريختر» على مقياس يعرف باسمه ويقضى بأن الزلازل الضعيفة تتراوح درجتها بين ١ و٣ وتحدث بمعدل حوالى مليون زلزال سنويًا، ولكن الإنسان لا يشعر بها عادة، والزلازل المتوسطة تتراوح بين ٤ و٥ والزلازل العنيفة بين ٦ و٧، والزلازل التى يصاحبها دمار شامل لكل المواقع القريبة تزيد درجتها على ٨ واحتمال حدوثها عالميًا ضئيل جدًا، ويبدو أنه لم يقع أى زلزال يزيد مقداره على ٩ ويتم تسجيل الموجات الزلزالية بواسطة جهاز يسمى «السيزموجراف».

والعلم يقف عاجزًا أمام التحديد الدقيق لمكان وزمان حدوث الزلازل سلفًا، وبالرغم من هذا فإن الأمل فى إنقاذ البشرية من أى زلزال مدمر هو الذى يدفع العلماء إلى مواصلة البحث الذى بدأه علماء الحضارة الإسلامية عن أسباب حدوث الزلازل ومحاولة التحكم فى شدتها وتخفيف آثارها المدمرة. ومهما يكن من أمر إنجازات العلم فى هذا المجال، فإن أسباب ظاهرة الزلازل بعيدة عن الإدراك المباشر بواسطة الإنسان، والحكمة من حدوثها لا يدركها إلا أصحاب القلوب المطمئنة المؤمنة الموصولة بالخالق الواحد فى جميع الأحوال وعموم الأوقات، امتثالا لقوله تعالى:

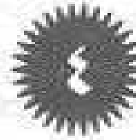
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾

(الحج: ١ - ٢)

يتبع

أبعاد جديدة لمقاصد الشريعة

مقصد حفظ الدين



أ. د. عبدالمجيد النجار

ب- حفظ الدين بدفع العوائق

كما يحفظ الدين بتيسير أسبابه فى أن يأخذ طريقه إلى الوقوع الفعلى كما بينا بعضا منها آنفا، فإنه يحفظ أيضا بدفع العوائق التى قد تعترض سبيل وقوعه إذا ما توفرت له أسباب التيسير، فمن اعتزم التدين وبدأ السعى فيه من أفراد وجماعات قد تعترضه بعض العوائق التى تعرقل تدينه، فتضعف عزمه وتحبط مسعاه، وإذا الدين بسبب ذلك يتعرض للانتكاس بعد الوقوع، أو تحول تلك العوائق دون وقوعه أصلا.

وقد تكون تلك العوائق داخلية تنشأ فى ذات الفرد المسلم أو ذات الجماعة المسلمة، وقد تكون خارجية تتسلط على الجماعة المسلمة من خارجها. وفى سبيل دفع هذه العوائق بنوعيها جاءت فى الشريعة أحكام تعمل على ذلك الدفع، وذلك لتحقيق مقصد حفظ الدين، إذ فى دفع تلك العوائق حفظ للدين بأن يأخذ طريقه إلى الوقوع. ومن المسالك التى جاءت تلك الأحكام تحفظ من خلالها الدين ما يلى:

أولا- حفظ الدين بمدافعة الهوى

إن فى النفس البشرية نوازع طبيعية تنزع بها إلى إشباع الشهوات ومدافعة الضوابط التى تضبطها والحدود التى تحدها، ولو أرسلت تلك النوازع دون ضبط لأصبح الإنسان شبيها بالحيوان فى إشباع غرائزه غاية لوجوده، وفى التدافع بين أفراده ليأكل القوى الضعيف. وإنما جاء الدين ليضبط نوازع الإنسان ارتقاء به عن حضيض الحيوانية إلى أفق الإنسانية؛ ولذلك قال الشاطبى: «المقصد الشرعى من وضع الشريعة إخراج المكلف عن داعية هواه حتى يكون عبدا لله اختيارا، كما هو عبد الله اضطرارا»[1].

وإذا استبد بالإنسان هواه، وغلبته شهواته فإنه سوف يأول إلى انتهاك الضوابط الدينية متمثلة فى أحكام الشريعة، وحينئذ فإن الدين بمعنى التدين سيكون عرضة للتلاشى، وستفقد الحياة تبعا لذلك معناها ومغزاها كما شرحناه سابقا، وسيكون الهوى إذن أحد أهم العوائق الداخلية الناشئة من نفس الإنسان التى تعوق

(١) الشاطبى – الموافقات: ٢/١٦٨.

الدين أن يتحقق في واقع الحياة، وهو مقتضى قوله تعالى:

﴿ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

(ص: ٢٦)

ولحفظ الدين بدفع هذا العائق المتمثل في الهوى جاءت أحكام شرعية كثيرة تأمر بمدافعة الهوى وعصيانه، وتنهى عن طاعته والخضوع لسلطانه، وذلك بصفة مباشرة وغير مباشرة، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾

(الجاثية: ٢٣)

وقوله تعالى:

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾

(محمد: ١٦)

ففي الآيتين نهي شديد عن اتباع الهوى لما يؤدي إليه ذلك من ضلال يجعل الدين غير واقع في الحياة وغير موجه لمجراها. ومن ذلك أيضا قوله تعالى:

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾

(المائدة: ٨)

ففي الآية أمر بمدافعة الهوى متمثلا في الميل الطبيعي الذي تميل به النفس للنكاية في الأعداء، فيفضي ذلك إلى الظلم. وفي القرآن الكريم والحديث الشريف أحكام كثيرة تندرج ضمن هذا النوع.

إن هذه الأحكام التي تجتمع عند وجوب مدافعة الهوى بأنواعه إنما شرعها الله تعالى لإزالة عائق من أعتى العوائق التي تحول دون التدين، إذ أكثر الأسباب التي تحمل على عصيان أوامر الله ونواهيه هي حب الشهوات فروجا وبطونا وأولادا وأموالا وجاها وسلطانا، وإزالة ذلك العائق إنما هو مسلك من مسالك الشرع لحفظ الدين، فحينما تكسر الأهواء بهذه الأحكام، وتتربى النفوس على ذلك فإن الدين يكون أحفظ بما يصير له من الغلبة على الإرادة فتنصاع له بالقبول تصديقا وتطبيقا، وذلك هو أحد معاني حفظ الدين.

ثانيا - حفظ الدين بمدافعة الاستبداد الفكري

إن التدين اختيار مبني على حرية الإرادة، كما هو مبني على حرية التفكير، فالإيمان هو أصلا مبني على حرية الفكر، ولا يعتبر إيمانا معتدا به إلا إذا كان ناشئا عن تفكر يفضي إلى اقتناع، فإذا ما حصل الإيمان على ذلك النحو استتبع كل أحكام الشريعة على شاكلته، وبما أن الدين كله بعقائده وشرائعه لا يناقض أحكام العقل فإن التفكر بالمنهج الصحيح لا يمكن إلا أن يفضي إلى الإيمان والاقتناع بحقية الأحكام الشرعية؛ ولذلك فإن الفكر الحر هو مسلك أساسي من المسالك إلى التدين، إذ هو لا محالة يفضي إليه.

إلا أن الفكر الحر قد تطرأ عليه عوامل تقيد حريته، فإذا هو عند التفكر في الدين من أجل الإيمان أو من أجل السلوك يحيد بفعل تلك العوامل عن الفهم الصحيح، فينصد عن الإيمان أصلا، أو يقع في مفاهيم منحرفة لا تمت إلى الدين الصحيح بصلة. وقد تكون تلك العوامل المقيدة لحرية الفكر متمثلة في إرهاب فكري يوجه أفكار الناس إلى ما يريده الإرهابيون من أفكار، بدل أن يتجه المفكر إلى ما يقتضيه منطق العقل ومنهج النظر، وهو ما كان صنيعا لفرعون حينما قال لمن أراد معرفة الحق بفكر حر:

﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ ﴾

(غافر: ٢٩)

وقد تكون متمثلة في ضغوط العادات والتقاليد والمعتقدات المنحدرة من الآباء والأجداد، فتضرب على العقل حجابا يعوقه عن رؤية الحق الديني، وذلك تحت مقولة:

﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾

(الزخرف: ٢٣)

وقد جاءت في الدين أحكام كثيرة توجب على الإنسان السعي إلى أن يكون حرا في فكره متحررا من القيود الخارجية التي تسلط عليه فتوجهه إلى وجهة الباطل، وتنهاه عن أن يرضى بالقهر الفكري مهما كان نوعه، ومن ذلك ما جاء في القرآن الكريم من توجيه دائب إلى النظر والتفكر والتدبر في تعامل مباشر مع حقائق الكون الموضوعية دون وساطة من موجه آخر يرى الناظر تلك الحقائق ويكون واسطة بينه وبينها، ومن ذلك أيضا ما جاء في القرآن الكريم من نكير على أولئك الذين كبلوا عقولهم بموروثات الآباء والأجداد فعموا عن مشاهدة حقائق الدين، كما جاء في قوله تعالى:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾

(لقمان: ٢١)

وقد جاء في الحديث النبوي نهي عن أن يكون الإنسان إمعة يرتهن في نظره إلى ما يراه الناس فيراه معهم حقا كان أو باطلا، وأمر بأن يكون موطنا نفسه على النظر الحر الموصل للحقيقة وافقت ما يراه الآخرون أو خالفته[٢]، وما إخال قوله ﷺ: «إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران، وإذا حكم فأخطأ فله أجر واحد»[٣] إلا مندرجا ضمن الحث على حرية الفكر، فهذه الحرية حتى وإن أفضت إلى الخطأ فإن خطأها أهون من الأخطاء المترتبة على الاستبداد الفكري.

وليست هذه الأحكام الشرعية الموجبة للنظر الحر، الناهية عن الارتهان للاستبداد الفكري إلا مندرجة ضمن مقصد حفظ الدين؛ وذلك لأن الفكر الحر هو القادر على أن يصل إلى الإيمان ابتداء، وهو القادر على أن يفقه أحكام الشريعة على حقيقتها، وأن يستنبط منها بالاجتهاد ما يكون فيه حل لمستأنفات الأحداث، وأما إذا ما أصبح الفكر مقيدا بموجهات خارجية تعصبا مذهبيا كانت أو ارتهانا لموروثات من العادات والتقاليد الخاطئة، أو خضوعا لقهر فكري، فإنه يصبح قاصرا على أن يفقه الدين وأحكامه الفقه الصحيح، فيكون الدين عرضة إذن للتحريف الذي يؤدي به إلى الضياع؛ ولذلك شرع الله تعالى مدافعة الاستبداد الفكري بأنواعه المختلفة مسلكا من مسالك حفظ الدين.

ثالثا: حفظ الدين بمدافعة التحريف

أحكام الدين ليست كلها منصوصا عليها بحيث تكون بينة بذاتها لكل المتدينين، بل إن ما هو غير منصوص عليه منها أكثر بكثير مما هو منصوص جراء ما يتصف به الدين من

(٢) من ذلك قوله ﷺ: «لا تكونوا إمعة تقولون إن أحسن الناس أحسنا وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا فلا تظلموا». أخرجه الترمذي: كتاب البر والصلة: باب ما جاء في الإحسان.
(٣) أخرجه الترمذي: كتاب الأحكام: باب ما جاء في القاضي.

شمول يكون له به حكم فى كل شؤون الحياة، وكذلك فإن ما هو منصوص عليه ليس نصه بقطعى الدلالة كله، بل إن الظنى منه أكثر من القطعى؛ ولذلك فإن مجال الاجتهاد العقلى فى الدين مجال واسع جدا، إذ هو يشمل ما فيه نص ظنى لتعيين الحكم المراد منه من بين احتمالات متعددة، ويشمل ما لا نص فيه لاستنباط حكم لمستأنفات الأحوال وفق التوجيهات الشرعية العامة.

وبالنظر إلى هذه السعة فى الاجتهاد من أجل تعيين الحكم الشرعى فإن المجال أصبح قابلا لأن تتعدد فيه الاجتهادات، وأصبح قابلا أيضا لأن تكون بعض الأقاويل لابسة لبوس الاجتهاد ولكنها فى حقيقتها تقوم على تأويل قد تفضى إلى أحكام منكرة تحرف الدين عن مقاصده، بل قد تؤول إلى هدمه من أساسه، وقد يكون ذلك عن جهل، وقد يكون عن دسيسة، والتاريخ الفكرى الإسلامى طافح بمثل هذه الحالات (٤) مهما يكن من كون تأثيرها لم يكن بالغا، إذ لم يؤد إلى تحريف ذى بال فى الحقيقة الدينية شأن ما وقع فى أديان أخرى، بل بقى هذا الدين محفوظًا فى صورته العامة، وبقى المتدينون به فى عمومهم على تلك الصورة.

وإذا كانت أحكام الدين تدعو إلى الاجتهاد لتحقيق مقصد حفظه كما بيناه سابقًا، فإن أحكامًا أخرى جاءت تدفع ما يتستر بستار الاجتهاد من تأويل غير مشروع ينتهى إلى تحريف الدين عن حقيقته، وذلك سواء بالزيادة فيه أو النقصان منه أو التغيير فى أحكامه، وسواء أكان ذلك عن جهل أو عن دسيسة مع اختلاف طريقة الدفع بين التعليم والعقاب.

ولعل من أبين تلك الأحكام ما جاء فى قوله تعالى:

﴿ هُوَ الَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ابْتِغَآءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ﴾

(آل عمران: ٧).

فهؤلاء المتبعون للمتشابه ابتغاء تأويله للفتنة هم المحرفون للدين، وسياق الآية يدل على وجوب دفع صنيعهم بالتصدى لمنعهم من هذا التحريف، وهو ما جاء فى الحديث النبوى إذ قال ﷺ فى خصوص المتبعين للمتشابه: «إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم» (٥).

ومن البين أن المتأولين للدين بغير وجه معقول من التأويل سينتهون بتأويلهم إلى صرف الأحكام عن غير المراد الإلهى، وسينتهى الأمر بالتالى إلى ضياع الدين جزئيًا أو كليًا، وقد ضاعت أديان قبل الإسلام بمثل هذه التأويل، فأين اليهودية المنتشرة اليوم بين الناس من الدين الذى أنزله الله تعالى على نبيه موسى؟ وأين المسيحية التى أنزلها موحدة على نبيه عيسى؟ ولذلك فإن من الأحكام التى أوجبها الله تعالى التصدى لهؤلاء المحرفين، إما بالفكر من قبل العلماء، وإما بالردع والعقوبة من قبل ولاة الأمر، وما ذلك كله إلا لتحقيق مقصد حفظ الدين، إذ فى التصدى للتحريف إبقاء للدين على حقيقته، وذلك حفظ له، ولا يتعلق الأمر

(٤) يمكن أن يذكر فى هذا الخصوص بعض الفرق الغالية من الخوارج والروافض وغلاة الصوفية وغيرهم، وبعض الشواذ من المنتسبين إلى الإسلام قديمًا وحديثًا.

(٥) أخرجه مسلم، كتاب العلم، باب النهى عن اتباع متشابه القرآن.

فى هذا المقال بحرية الرأى فى فهم الدين، وهو ما مجاله المعانى المظنونة، وإنما يتعلق بتأويل ما هو قطعى معلوم من الدين بالضرورة ونشره بين الناس.

رابعًا: حفظ الدين بمدافعة الإرجاف

التحريف فى أحكام الدين الذى بيناه آنفا هو تحريف فى التفاصيل من ذات الأحكام، وقد يتخذ ذلك التحريف شكلا آخر يتجه فيه المحرفون إلى الطعن فى الدين بصفة جملية، وفى اختلاق الأكاذيب فى شأنه، كيدا منهم لزعزعة الثقة به، وتشكيك الناس فيه، وصدهم عنه أن يعتنقوه دينا أو يتمسكوا به تدينًا، وقد كان ذلك واقعًا فى عهد النبوة، وسماه القرآن الكريم بالإرجاف فى قوله تعالى:

﴿ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَٰفِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِى الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

(الأحزاب: ٦٠).

ويقع منه اليوم شىء كثير متمثلًا فى الحملات التشويهية للإسلام التى تقوم بها جهات كثيرة فردية وجماعية معادية له من خارج دائرة المسلمين ومن داخلها.

ومن البين أن هذا الإرجاف كما هو مدلوله اللغوى يحدث فى الدين وفى المتدينين ارتباكًا واضطرابًا قد ينتهيان إلى شك الكثير من الناس فى الدين وإلى صدودهم عنه، فينتهى الأمر به إلى الانسحاب من الدين أن يكون موجها للحياة نحو غايتها؛ ولذلك فقط جاء الدين يحمى نفسه من هذا التلاشى بأحكام شرعية تقصد حفظه من هذا المصير، وفى الآية الآنفة الذكر ما يتضمن الحكم بمنع هذا الضرب من التخذيل عن الدين بالأسلوب المناسب الذى يقتضيه الحال، وهو ما يتضمنه التعبير بـ ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾، أى لنسلطنك عليهم، وما جاء فى الآية اللاحقة من قوله تعالى:

﴿ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴾

(الأحزاب ٦١).

ونحسب أن ما جاء فى تعاليم الإسلام من منع للردة ومن حكم مغلظ فى شأنها إنما يندرج ضمن هذا المنع للإرجاف، فالردة عن المعتقد الإسلامى بعد اعتناقه هى من الناحية النظرية مظنة تصرف كيدى، إذ من أقوى الأساليب فى الكيد للمعتقد الإسلامى والتخذيل عنه أن يعتنق الإنسان هذا المعتقد، ثم بعد فترة يتركه ليعود إلى معتقد آخر، فدلالة ذلك أن هذا المعتقد الذى وقع اعتناقه جرب بالتطبيق الفعلى فتبين أنه لا تستقيم به الحياة، وهو نوع خطير من أنواع الإرجاف، ويكون هذا الضرب من الإرجاف أفتك فى الكيد، وأبلغ فى إحداث الأثر السلبى حينما تكون الردة جماعية، إذ من أمضى ما يقاوم به دين من الأديان أن تعتنقه جموع كثيرة من الناس ثم ترتد عنه بصفة جماعية، وتلك طريقة معهودة فى الكيد السياسى تستعمل لتخذيل المنظمات والأحزاب والحكومات، وهى تحدث نفس الأثر أو أشد فى الكيد الاعتقادى.

وعلى الصعيد الواقعى فإن الردة عن الإسلام استعلمت وسيلة كيدية بالغة التأثير، فقد جاء فى تفسير الرازى أن «طائفة من أهل الكتاب قصدوا تشكيك المسلمين، فكانوا يظهرون الإيمان تارة، والكفر أخرى، على ما أخبر الله تعالى عنهم أنهم قالوا لغاية التخذيل:

﴿ ءَامِنُوا بِالَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ

﴿ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾

(آل عمران: ٧٢). (٦)

فهؤلاء إنما كانت ردتهم ردة كيدية للتشكيك في الإسلام وصرف الناس عنه. وفي هذا الباب تندرج الردة الكبرى التي حدثت في عهد أبي بكر، فقد كانت ردة ذات بعد تآمري على الإسلام، ولم تكن مجرد اختيار حر للمعتقد ؛ ومن أجل ذلك قوبلت بما قوبلت به من الحزم في المقاومة.

والعقوبة القاسية التي فرضت في حق الردة لعل من أهم مبرراتها هذا البعد الكيدي من أبعادها. فالردة في نطاق النظام الإسلامي شديدة الإغراء بالكيد، إذ هي حينما تكون كيدية فإنها تكون بالغة التأثير على المجتمع الإسلامي، وذلك باعتبار أن المجتمع الإسلامي أقيمت كل الحياة فيه على أساس ديني، فالكيد بالردة يمكن أن يفضي إلى هدم المجتمع بأكمله ؛ وذلك نظير ما يسمى في قوانين الدولة الحديثة بجريمة الخيانة العظمى التي تغلظ فيها العقوبات بما هي تهديد حقيقي لنظام المجتمع بأكمله.

وأما المجتمعات التي لا تقام فيها الحياة على أساس ديني وإنما الدين فيها شأن فردي، فإن الردة فيها لا تغري بالكيد، إذ تأثيرها لا يكاد يتعدى حدود المرتد في حياته الفردية الخاصة.

ولعل هذا الملحظ هو ما ذهب ببعض الباحثين من المسلمين إلى الميل بحكم الردة نحو أن يكون حكمًا تعزيريًا يترك فيه تحديد العقوبة إلى ولي الأمر بحسب ما يقدر في شأن المرتد من أن ردته كيدية أو غير كيدية ليكون العقاب على حسب ذلك في الشدة، مستدلين بأن النبي ﷺ كان حكمه في أحوال المرتدين مختلفا بالتخفيف والتشديد بين واحد وآخر، ومستدلين أيضًا بذلك الحوار الواسع الذي جرى بين الخليفة أبي بكر وبين الصحابة في شأن قتال المرتدين، فهو حوار اجتهادي لتقدير الحكم في شأن هذه الردة. وبناء على ذلك فإن عقوبة المرتد ليست عقوبة على تغيير المرتد لدينه، وإنما هي عقوبة على ذلك البعد الكيدي التخذيلي في الردة.

إن التصدي لهذا الإرجاف بأنواعه المختلفة بهذه الأحكام الدافعة من شأنه أن يترك الناس يتعاملون مع الدين بصفة مباشرة دون تشويش عليهم من عوامل خارجية، وحينئذ فإنهم سيكتشفون فيه الحق إن لم يكونوا مؤمنين فيؤمنون به نتيجة للنظر الموضوعي فيه، وسيتشبثون به أكثر إن كانوا مؤمنين، وفي كل الحالات سيكون في دفع هذا الإرجاف والتخذيل حفظ للدين، فذلك مسلك من مسالك هذا الحفظ بدفع مانع قوي من موانعه.

خامسًا: حفظ الدين بالجهاد

حينما يتعرض المسلمون لغزو خارجي، فإن هذا الغزو سيكون مآله سيطرة الغزاة على الحياة العامة، وسيوجه تلك الحياة الوجهة التي يرتضيها مناقضة بالضرورة للوجهة الإسلامية، وبما أن الإسلام بحكم خاصية الشمول يوجه النظام الاجتماعي بأكمله، فإن هذا الغزو سيكون معطلاً للشطر الأكبر من الدين، الذي سيبقى في أحسن الحالات منحصرًا في التعبد الفردي، وليس هذا الأمر بمنطبق على الديانات الأخرى، إذ هي في معظمها لا تهتم بالحياة الاجتماعية، وإنما تقتصر على الحياة الروحية للأفراد، فلا يصيب الغزو الخارجي لأهلها من دينهم إلا قليلاً. ومصداق ذلك يتبين في الغزو

(٦) الرازي – التفسير الكبير ٦/٧٩.

الاستعماري للأمة الإسلامية، فقد حطم هذا الغزو أو كاد معظم الأنظمة الثقافية الاجتماعية للأمة كما هو معلوم من آثاره الشاخصة اليوم في واقع المسلمين.

وتناسبا مع هذا الخطر الجسيم الذي يصيب الإسلام والمسلمين جراء الغزو الخارجي متمثلاً في إهدار الدين أن يكون قيما على الحياة الاجتماعية، فقد جاءت في التشريع الإسلامي أحكام تدفع هذا الإهدار للدين، وعلى رأس تلك الأحكام الحكم بوجوب الجهاد لمدافعة الغزاة، فقد جعل الله تعالى الجهاد فرضا كفائيًا على الأمة، فإن لم تف الكفائية به أصبح فرضا عينيًا، وفي ذلك يقول تعالى:

﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ﴾

(التوبة: ٤١).

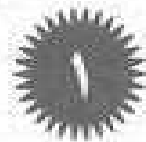
فهذا الأمر بالجهاد هو أمر لكل الأمة، وحدوده من حيث الكفائية والعينية ما تتم به الغاية في الدفع حتى ينتهي الأمر إلى كل فرد بعينه من أفراد الأمة.

وإنما شرع الجهاد لدفع العدو الخارجي الغازي، وذلك من جهة كون هذا العدو إذا ما استولى على المسلمين فإن أول ما يلحقهم به من ضرر هو صرف حياتهم عن أن تكون محكومة بالدين، وذلك هدم للحياة بأكملها، من حيث إن حياة المسلمين إنما تستمد قيمتها من الدين الذي يوجهها نحو غاية الخلافة، فإذا ما سقط منها الدين فكأنما سقطت كلها بقصورها عن أن تتجه نحو غايتها ؛ ولذلك فقد جاءت فريضة الجهاد تحمي هذه الحياة من أن يحبطها عامل الغزو بنزع التوجيه الديني عنها، وفي ذلك دفع عائق من أكبر العوائق التي تحول دون قيام الدين، فالجهاد إذن مقصده الأصلي حفظ الدين بدفع ذلك العائق.

وما كان من جهاد سمي في الماضي بجهاد الطلب لا يخرج عن هذا المعنى الذي كنا نبين ؛ وذلك لأنه جهاد يبتغى منه إيصال الدعوة الإسلامية إلى أقوام ضرب عليهم حصار أن تصل إليهم تلك الدعوة من قبل متسلطين عليهم مستبدين، فهو جهاد لأجل إزاحة ذلك الاستبداد ليسمع الناس هذه الدعوة فإن شاءوا آمنوا بها وإن شاءوا لم يؤمنوا، فإذا ما أمكن تبليغ تلك الدعوة إلى الناس دون مجاهدة أولئك المستبدين كما هو الحال اليوم بانتشار وسائل الإعلام لم يبق لهذا النوع من الجهاد مبرر، إذ لم يبق إليه حاجة في دفع العوائق دون قيام الدين، من حيث إن العوائق يمكن تجاوزها بطرق أخرى هي اليوم طرق الإعلام.

إن هذه المسالك المتعددة لحفظ الدين بدفع العوائق التي تعوق إقامته إنما هي مسالك جاءت في الدين نفسه أحكامًا من أحكامه، وذلك على سبيل الحماية الذاتية، وهي إذا ما انضمت إلى تلك المسالك التي من شأنها إقامة الدين من جهة تيسير أسبابه كما شرحناها، فإنها تصبح ممثلة لجهاز مناعة في الدين، يجعله يقوى على الانتشار ليكون قائدًا للحياة، ويدفع عنه عوامل الانكماش التي تعوقه عن ذلك ؛ ولولا هذا الجهاز المناعي المتمثل في الأحكام الشرعية المتدرجة في تلك المسالك التي عرضناها تيسيرًا ودفعًا ما كان للدين أن يكون محفوظًا، ولذلك فقد كان المقصد الأعلى من مقاصد الدين هو أن يكون ذلك الدين محفوظا بأن يكون قائما موجها للحياة، وهو المعنى الذي قصدناه حينما ترجمنا لهذا الفصل بـ«مقاصد الشريعة في حفظ قيمة الحياة الإنسانية»، وجعلنا حفظ الدين هو المقصد الأعلى ضمن مقصد حفظ الحياة.

التعايش الاجتماعى للمسلمين مع غير المسلمين



أ. د. أحمد عمر هاشم
عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر



لقد أرسى الإسلام أصولا بمقتضاها يتعايش المسلمون مع غير المسلمين فوق أرض واحدة، وتحت سماء واحدة، وفى مجتمع واحد.

وكانت هذه الأصول متمثلة فى البر والعدل حيث قال الله تعالى:

﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

(الممتحنة: ٨ ، ٩)

وجعل الإسلام التعايش الاجتماعى بين المسلمين وغير المسلمين قائمًا على المعاملة الحسنة، فعند الحوار أو الجدال لابد أن يكون الجدال بالتى هى أحسن حتى تظل جسور التواصل والتعاون قائمة فقال الله تعالى:

﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾

(العنكبوت: ٤٦)

ولو كان غير المسلم مشركًا واستجار بالمسلم، فعلى المسلم أن يجيره وأن يبلغه مأمنه، وهنا تتجلى عظمة الإسلام فى إرساء أصول التعايش الاجتماعى الآمن، حيث قال الله سبحانه وتعالى:

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾

(التوبة: ٦)

ومن أوجه التعايش الاجتماعى إباحة زواج المسلمين من نساء أهل الكتاب وإباحة طعامهم وإباحة طعام المسلمين لهم كما قال الله تعالى:

﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

(المائدة: ٥)

ومن أوجه التعايش الاجتماعى ما فعله رسول الله ﷺ حيث عامل أهل خيبر وهم يهود على نصف ما يخرج من أراضيهم، على أن يعملوها بأموالهم وأنفسهم، وهذه شركة فى الزرع والغرس والثمر، وقد ابتاع رسول الله ﷺ طعامًا من يهودى بالمدينة، ورهنه درعه فهذه تجارة مع اليهود ومعاملتهم جائزة.(١)

وها هو ذا عبد الله بن عمرو بن العاص – رضى الله عنهما – ذبحت له شاة فى أهله، فلما جاء قال: «أهديتم لجارنا اليهودى» سمعت النبى ﷺ يقول: «مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»(٢)

ومن نماذج التعايش أيضًا تقدير رسول الله ﷺ للأموات ولو كانوا غير مسلمين ولجنائزهم، عن عبدالرحمن بن أبى يعلى قال: «كان سهيل بن حنيف وقيس بن سعد قاعدين بالقادسية، فمرت عليهما جنازة فقاما، فقيل لهما: إنهما من أهل الأرض، أى من أهل الذمة، فقالا: إن النبى ﷺ مرت به جنازة فقام، فقيل له: إنها جنازة يهودى، فقال: أليست نفسًا؟»(٣)

بل بلغت سماحة التعايش الاجتماعى للمسلمين مع غير المسلمين مبلغًا سمح لوفد نجران بدخول المسجد النبوى وأداء شعائرهم فيه، لما قدم وفد نجران على رسول الله ﷺ، دخلوا عليه مسجده فحانت صلاتهم فقاموا يصلون فى مسجده فأراد الناس منعهم فقال رسول الله ﷺ: «دعوهم فاستقبلوا المشرق وصلوا صلاتهم»(٤)

ولم يقتصر هذا التسامح على حال دون أخرى بل رأينا توجيهات الإسلام تنهى حتى فى الحروب عن الغدر والتمثيل، عن بريدة رضى الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميرًا على جيش أو سرية، أوصاه فى خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرًا، ثم قال: «اغزوا باسم الله فى سبيل الله قاتلوا من كفر بالله اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدة...»(٥)

وقد شهدت الحياة الاجتماعية تعايشًا بين المسلمين وغيرهم وشهدت دفاع المسلمين عنهم وحمايتهم لحقوقهم، لدرجة أن ابن تيمية – رحمه الله – حين تغلب التتار على الشام، وأسروا جماعة من المسلمين وأهل الذمة، ذهب إلى حاكمهم، وكلمه فى إطلاق سراح الأسرى فأطلق أسرى المسلمين ومنع أسرى أهل الذمة، فأبى الرجوع إلا بافتكاك

(١) المحلى لابن حزم، والمغنى لابن قدامة. (٢) رواه البخارى ومسلم (٣) رواه البخارى ومسلم
(٤) رواه ابن إسحاق. (٥) رواه أحمد ومسلم وأبوداود والترمذى.

أسرى أهل الذمة وحصل له ما أراد (٦).

كما حمى الإسلام أموال غير المسلمين، وصانها وجاء في عهد النبي ﷺ لأهل نجران: «ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة رسوله على أموالهم وملتهم وبيعهم وكل ما تحت يديهم من قليل أو كثير».

ومن الوقائع التاريخية التي توضح مراعاة ولاة أمر المسلمين لحقوق غير المسلمين تلك الحادثة التي أخذ فيها الخليفة الأموي الوليد بن عبدالملك كنيسة يوحنا وأدخلها في المسجد الأموي فلما استخلف عمر ابن عبدالعزيز شكا النصارى إليه، فكتب إلى عامله برد ما زاده في المسجد عليهم، لولا أنهم تراضوا مع الوالي على أساس أن يعوضوا بما يرضيهم (٧).

ويؤكد ولاة أمر المسلمين على الوصية بأهل الذمة مهما حدث، فها هو ذا عمر بن الخطاب: رضي الله عنه رغم ما جرى له من أحد من غير المسلمين وهو أبو لؤلؤة المجوسي الذي أصيب بسبب ضربته، فمع هذا كان عمر رضي الله عنه وهو في لحظات حياته الأخيرة يقول: «أوصي الخليفة من بعدي بأهل الذمة خيرًا أن يوفي بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم، وألا يكلفهم فوق طاقتهم» (٨).

وبهذا التوجيه الإسلامي العظيم، وعلى هذا النحو من الدعوة إلى التعايش الاجتماعي للمسلمين مع غير المسلمين أكد الإسلام عبر عصور التاريخ على عالمية دعوته، وسماحة عقيدته.

وهذا التعايش المتسم بالتسامح يستوجب على غير المسلمين أن تكون معاملتهم للمسلمين، وخاصة للأقليات الإسلامية بمثل هذا الأسلوب المتميز المتسامح العادل، حتى يعيش العالم في سلام عالمي وتعايش سلمي، فآدم عليه السلام هو والد الجميع وحواء هي الأم:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾

(الحجرات: ١٣)

الإسلام وموقفه من غير المسلمين واحترام الإسلام لسائر الأديان السماوية

احترم الإسلام جميع الأديان السماوية، وأرسل الله تعالى سيدنا محمدًا ﷺ خاتمًا للأنبياء والمرسلين، مصدقًا لجميع الرسل الذين كانوا قبله، وأنزل الله تعالى على رسوله القرآن الكريم تبيانًا لكل شيء، ومصدقًا لما بين يديه من الكتب ومهيمنًا عليها وحارسًا أمينًا لها.

وكان من عناصر الإيمان: الإيمان بجميع الرسل السابقين وبجميع الكتب السماوية، قال الله تعالى:

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾

(البقرة: ٢٨٥)

بل إن إيمان المؤمن لا يكون صحيحًا إلا إذا آمن بجميع الأنبياء السابقين، وآمن بما أنزله الله تعالى عليهم من الكتب السماوية

(٦) فتاوى ابن تيمية. (٧) فتوح البلدان (١٧١). (٨) رواه البخاري.

الصحيحة. قال الله تعالى:

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾

(البقرة: ١٣٦)

ومادام كل مسلم مأمورًا أن يؤمن بجميع الرسل السابقين وبجميع الكتب السماوية، فلا يكون لديه تعصب، ولا كراهية لدين آخر أو نبي أو رسول، ولا كراهية ولا حقد على أحد من أتباع الأديان الأخرى.

ووضح القرآن الكريم لأتباعه ما قضته الإرادة الإلهية منذ الأزل، من اختلاف الناس في عقائدهم وأجناسهم وألوانهم وذلك لحكمة يعلمها الحكيم الخبير، قال سبحانه:

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾

(هود: ١١٨، ١١٩)

وقال جل شأنه:

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾

(يونس: ٩٩).

ولا يحجر الإسلام على أحد، ولا يكره أحدًا على الدخول في عقيدته، قال الله تعالى:

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾

(البقرة: ٢٥٦)

موقف الإسلام من غير المسلمين

من المعلوم أن الإسلام هو دين السلام، لا يأمر بالحرب إلا في الضرورة القصوى التي تستدعي الدفاع والجهاد في سبيل الله. ومع مشروعية الجهاد في سبيل الله، دفاعًا عن الدين والعقيدة والأرض والعرض، فإن الحرب في الإسلام لها حدود وضوابط، وللمسلمين أخلاقهم التي يتخلقون بها حتى في حربهم مع من يحاربهم من غير المسلمين. فأمر الإسلام بالحفاظ على أموال الغير، وبترك الرهبان في صوامعهم دون التعرض لهم، ونهى الإسلام عن الخيانة والغدر والغلول، كما نهى عن التمثيل بالقتلى وعن قتل الأطفال والنساء والشيوخ وعن حرق النخيل والزروع وقطع الأشجار المثمرة.

وأوصى أبو بكر الصديق - رضي الله عنه- أسامة بن زيد عندما وجهه إلى الشام بالوفاء بالعهد وعدم الغدر أو التمثيل، وعاهد خالد ابن الوليد أهل الحيرة ألا يهدم لهم بيعة ولا كنيسة ولا قصرًا، ولا يمنعهم من أن يدقوا نواقيسهم أو أن يخرجوا صلبانهم في أيام أعيادهم.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه رحيمًا بغير المسلمين من أهل الكتاب، وكان ينصح سعد بن أبي وقاص عندما أرسله في حرب الفرس بأن يكون في حربه بعيدًا عن أهل الذمة، وأوصاه ألا يأخذ منهم شيئًا لأن لهم ذمة وعهدًا، كما أعطى عمر رضي الله عنه أهل إيلياء أمانًا على أموالهم وكنائسهم وصلبانهم وحذر من هدم كنائسهم. وأمر الإسلام بحسن معاملة الأسرى وإطعامهم، قال الله تعالى:

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾

(الإنسان: ٨)

بينما يعامل غير المسلمين أسرى المسلمين معاملة سيئة، وفى أسرى غزوة بدر الكبرى عاملهم النبى ﷺ خير معاملة فوزعهم على الصحابة وأمرهم أن يحسنوا إليهم فكانوا يؤثرونهم على أنفسهم فى الطعام وفى الغذاء، ولما استشار أصحابه فى شأن أسرى بدر، وأشار البعض بقتلهم وأشار الآخرون بالفداء، وافق على الفداء وجعل فداء الذين يكتبون منهم أن يعلم كل واحد منهم عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة، وكان هذا أول إجراء لمحو الأمية.

ولم يقبل الرسول أن يمثل بأحد من أعدائه فى الحروب مهما كان أمره، ولما أشير عليه أن يمثل بسهيل بن عمرو لأنه كان يحرض على حرب المسلمين وعلى قتالهم فأشير عليه أن ينزع ثنيتيه السفليتين حتى لا يستطيع الخطابة بعد ذلك، لم يوافق النبى ﷺ علي ذلك بل رفض قائلًا: «لا أمثل به فيمثل الله بى وإن كنت نبيًا»، وعندما حقق الله تعالى لرسوله ﷺ أمنيته بفتح مكة المكرمة ودخلها فاتحًا منتصرًا ظافرًا قال لقريش: ما تظنون أنى فاعل بكم؟ قالوا: خيرا، أخ كريم وابن أخ كريم. فقال ﷺ: «اذهبوا فأنتم الطلقاء لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لى ولكم»، ومن توجيهات الإسلام للمسلمين فى الحرب:

١ ـ أن يكون القتال فى سبيل الله.

٢ ـ أن يكون القتال لمن يقاتلون المسلمين.

٣ ـ عدم الاعتداء. قال الله تعالى:

﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾

(البقرة: ١٩٠).

فالذين يعتدون على المسلمين ويقاتلونهم أمر المسلمون أن يقاتلوهم، ولكنه قتال عادل بمعنى ألا يمثلوا بأحد وبلا تعذيب حيث قال الله تعالى:

﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَـٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾

(البقرة: ١٩٤).

وهذا فيمن يقاتلون المسلمين.

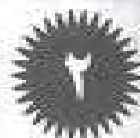
أما الذين لا يقاتلون من غير المسلمين فكان النبى ﷺ ينهى عن قتالهم، عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «انطلقوا باسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله لا تقتلوا شيخًا فانيًا ولا طفلًا صغيرًا ولا امرأة» (٩) وفى حديث آخر «سيروا باسم الله وفى سبيل الله قاتلوا من كفر بالله ولا تمثلوا ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تقتلوا وليدًا» (١٠).

كما كان ينهى ﷺ عن التعرض للرهبان وأصحاب الصوامع وعن التمثيل والغلول، عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث جيوشه قال: «اخرجوا باسم الله، قاتلوا فى سبيل الله من كفر بالله لا تعتدوا ولا تغلوا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع» (١١).

يتبع

(٩) رواه أبوداود. (١٠) رواه ابن ماجة. (١١) رواه ابن ماجة

المصادر الأساسية لميراثنا الثقافى





للعلامة محمد فتح الله كولن

٢.١ السنة

السنة فى الاصطلاح الفقهى هى مجموع أقوال الرسول ﷺ وأفعاله وما أمر بها أو تفضل بالإشارة إليه. ومن مقترب آخر؛ هى أقوال حضرة روح سيد الأنام ﷺ وأفعاله وتصرفاته، التى لم يبين كونها فرضا أو واجبًا، أو التى يجوز تركها أحيانًا.

فالتى هى من قبيل العبادة تسمى «سنن الهدى» والتى هى من جملة عاداته السنية هى «السنن الزوائد». أما الأصوليون، فلهم مقترب آخر، يتعلق بالقول و الفعل و الإقرار؛ فما يثبت بالقول فهو «سنة قولية»، وما يتبين بالفعل فهو «سنة فعلية»، وما سكت عنه من الوقائع التى شهدها فهو «سنة تقريرية». فالسنة بفروعها كافة، المتعلقة بالعمل أو الأخلاق، أو البيانات التى صدرت حول التربية والآداب، أو الدساتير الموضوعة فى اتجاه تزكية النفس وتربية الروح، هى مصدر لا ينفد فى كل المساحات الواسعة، يغشىء عيوننا وقلوبنا.. فما برح إنساننا ينهل من هذا المصدر المبارك ويستمد منه منذ عصور طويلة، حتى إن قلنا إنه أنموذج حى للسنة، فلا نجانب الصواب.

نعم، السنة سواء بفضل سعة مساحتها فى التشريع أوبمرونتها القابلة لتفسيرات متنوعة، لا زالت مصدرًا مباركا لا تجد له نظيرًا فى العطاء، فى أى دين آخر أو أمة أخرى؛ فهى المصدر فى التفسير أو الفقه أو المسائل الاعتقادية أو الأخلاق أو الزهد والتقوى أو الإخلاص.

ونكتفى هنا بما ذكرنا، ونحيل التوسع فى هذا الباب إلى المصنفات المكتوبة أو التى ستكتب عن السنة.

٣.١ الإجماع

للإجماع لغة معان؛ منه: الاتفاق والقصد والعزم والمواءمة. واصطلاحًا هو: اتفاق علماء الإسلام المجتهدين فى العصر الواحد على مسألة دينية معينة والإجماع بهذا المعنى ميزة خاصة بهذه الأمة فالإجماع ليس عملا يقوم به كل أحد من الناس والعوام منهم خاصة، بل هو اتفاق «المتخصصين» القادرين على إثبات وتقييم مسألة معينة بالاستناد إلى الأدلة الأصلية واجتماعهم على رأى واحد فيها. فلا يعد اتفاق العوام على شىء من المسائل إجماعًا، كما لا ينعقد الإجماع فى مسألة تناقض الأدلة الشرعية. كذلك، لا عبرة

للإجماع فيما ورد فيه من الشارع نص، وفيما هو معلوم من الدين بالضرورة. ولا في مواضيع مثل حدوث الكون وعدم أزليته. ويقع خارج شمولية الإجماع قضايا مثل ثبوت حقيقة وجود الله ووحدانيته والنبوة. ولا يتصور الإجماع في الأمور التي يتعلق فهمها ببيان الشارع كأحوال الآخرة وعلامات الساعة وأنواع النعم والعذاب في الأخرى.

ونسوق هنا من الأدلة على حجية الإجماع حديث النبي ﷺ «لا تجتمع أمتي على ضلالة، ويد الله مع الجماعة»(١). وهناك الكثير من الآثار الدالة على أن التأييد الإلهي يتظاهر على الجماعة خاصة.

ولا يعتد في شأن الإجماع بالنظرة المختلفة لبعض الفرق، أو التفسير المختلف للشيعة، أو حصر الظاهرية نفاذه في مرحلة زمنية معينة؛ فإن هذه الخلافات لا ترقى إلى قوة تنقض حجية هذا المصدر المهم للثقافة، ولا تمس أسسه، لكن هذا لا يعني الاستخفاف بهذه المعارضات، وجواب الجمهور عليها. وتفصيل ذلك يضيق عنه هذا المقال، بل يتطلب مجلدات من الكتب، وتم تناولها ومعالجتها مرات عديدة من قبل أهل الاختصاص.. وغاية ما أردنا هنا أن نذكر بأن الإجماع مصدر مهم في ميراثنا الثقافي.

٤. القياس

معنى القياس: مقايسة شيء على شيء آخر وتعليقه على حكم أو تقويم مشترك بينهما.

وفي الاصطلاح هو إجراء حكم مسألة أو عمل على شيء نظير له أو شبيه به. فيقال - في علم أصول الفقه - للأول: «المقيس عليه» أو «الأصل»، وللثاني: «المقيس» أو «الفرع»، ويقال لوجه المشابهة بين الموضوعين أو العلة المشتركة بينهما: «مناط الحكم». والقياس بهذا المعنى مجال واسع ومهم لا تكتشاف الثراء الكامن في الكتاب والسنة، باعتبارهما لا يتحددان بالزمان والمكان، نعم، القياس مصدر وافر يراجع دائما في إطار الكتاب والسنة لسد الحاجة المحتمل ظهورها تبعًا للزمان والمكان.. فلن تنتهي الحلول حيثما كان القياس. فهو باب مفتوح لأهل الخبرة على مصراعيه في كل زمان وأوان.

وقد يكون وجه المشابهة في المسائل المتناسبة والمتشابهة صريحًا يكتشفه ويفهمه من له أدنى ممارسة. فلذلك سماه الأصوليون: «القياس الجلي». وقد يكون وجه المشابهة بين المقيس والمقيس عليه مبهمًا لا يفهم من أول وهلة، ويتطلب تمحيصًا وتدقيقًا، بل قد تبرز مناطات بديلة، فسماه الأصوليون: «القياس الخفي». فالقياس بكلا جناحيه سعة وثراء.

ولا يحتج بالقياس في التشريع الجنائي، لأن الرجوع إليه فيه قد يؤدي إلى إحداث جرائم وعقوبات جديدة. وفي ما عدا مثل هذه الحالات الخاصة هو مصدر معرفي يحتج به ويرجع إليه في كل زمان. وقد اتفق جمهور الفقهاء على حجيته. ونكتفي هنا أيضًا بهذا القدر عن القياس، فليراجع في المصنفات.

٥. الاستحسان

معناه عد الشيء حسنًا، ويستعمل بمعنى الإعجاب بالشيء. وله عند الأصوليين تعاريف عديدة وقد استعمله كثير منهم في موضع القياس الخفي وفي مقابل القياس الجلي. وقد يكون الاستحسان توجهًا إلى دليل أقوى مما

(١) ابن ماجة، الفتن ٨، الترمذي، الفتن ٧، المسند لعبد بن حميد، ص ٣٦٧، الصحيح لابن حبان ١٠/٤٣٨.

يقتضيه القياس في مسألة معينة، أو تخصيصًا للحكم الثابت بالقياس، أو استنادًا إلى دليل أرجح، أو تركًا للقياس - في إطار الضوابط الشرعية العامة - أو تركًا للعسر إلى اليسر بمعنى ترجيح الأيسر على الأعسر في حال جواز الأمرين كليهما. وكثير من الفقهاء - وعلى رأسهم الإمام أبو حنيفة - يقرون حجية الاستحسان والفقهاء الذين يخالفون في حجيته، يعملون به بتحميله على مصادر شرعية أخرى وبعناوين مختلفة لمعنى واحد.. فخلافهم لفظي ولا يكدر صفاء هذا المنهل العذب المورود. ونكتفي بهذا القدر هنا أيضًا، ونحيل تفصيل الموضوع إلى المتخصصين.

٦. المصلحة

المصلحة هي: الواسطة أو الوسيلة للصلاح أو الأمر المفيد والصالح والخير. والمصلحة باعتبارها مصدرًا للاجتهاد وردت في العهود الأولى حيثما ورد القياس والرأي، حتى أقره بعض أئمة المذاهب كمصدر تبعي مستقل من مصادر الأدلة الشرعية. وحيث إن «المصلحة» - وكما يفهم من معناها - مصدر يحقق فائدة العباد ويتحرى خيرهم وصلاحهم، فمقامها مهم في الحياة الدينية. وإن الحق تعالى أنزل الأحكام - في الواقع - لحماية الدين والنفس والمال والعقل والنسل. وبهذا يحتج لـ «المصلحة» في أصول الفقه.

ومع أن «المصلحة» لم ترق إلى مستوى الأدلة الشرعية الأخرى في الأخذ بها كدليل، لكن هناك فقهاء كثيرون وعلى رأسهم السادة المالكية أولوها عناية خاصة. ومع أن الإمام الشافعي لم يركز مباشرة على «المصلحة» كدليل مستقل، لكنه تناولها بطريقة أخرى في إطار القياس، فيكون قد اعتمدها ضمنيًا. أما الفقهاء الأحناف، فيتقبلونها بقبول حسن مع اختلاف في التفسير والتأويل. ورأى الإمام أحمد بن حنبل في هذه المسألة قريب من الإمام الشافعي، كما في كثير من المسائل.

ومع هذا الاختلاف النسبي في النظر إلى دليل «المصلحة»، فالجامع أن المذاهب كلها تقره وتعتبره دليلا تبعيًا - ربما بعناوين وأسماء متعددة - إذا كانت المصلحة مصلحة مقبولة ولم تتعارض مع الأدلة الشرعية الأخرى.

ولا شك في أنه مصدر مهم للثقافة من حيث المعاني التي حملها الشارع عليه والوظائف التي أناطها الفقهاء به. ومع أن هناك حاجة إلى إيضاح مفصل، فالمقام هنا لا يسع ذلك.

٧. التصوف

نحيل تعريف التصوف على الكتب والرسائل المعنية به، ونشير إلى محتواه في إيجاز:

التصوف الذي يمكن أن تسميه من الوجهة النظرية: «الطريقة»، ومن الوجهة العملية: «الدروشة»،(٢) هو مصدر مهم للمعرفة والثقافة في مساحة واسعة تمتد في الحياة الروحية إلى الأخلاق وآداب المعاشرة.

للتصوف تفسيرات متنوعة؛ فمنها أنه الموت باعتبار النفس والأنانية والغرور، والحياة باعتبار القلب والروح.. أو تسليم السالك نفسه لإرادة الحق تعالى كالميت في يد الغاسل، مع وجود الإرادة الجزئية في إطار نسبيتها الخاصة.. أو التحاشي عن مساوئ الأخلاق التي ذمها القرآن الكريم والتحلي بمحاسن الأخلاق.. أو الإحساس بالأقربية الإلهية في وجداننا بعنوان «القربة»، وتخطي

(٢) تصريف من «درويش»، أصلها فارسي بمعنى الطالب للباب، وهو المريد المنتسب إلى الطريقة (المترجم).

«البعد البشرى» الكامن - بمقتضى البشرية - فى قلوبنا وأرواحنا .. أو الاستقامة على خط إرشاد الكتاب والسنة واتباع أوامر «الرب» تعالى فى حياتنا بدلاً عن اتباع الأهواء والنزوات .. أو التوجه التام إلى «مسبب الأسباب» ووضع الأسباب خارج التأثير الفعلى .. أو التجرد - بقدر المستطاع - من الرغبات الجسمانية والبدنية، والتحلى بالصفات الملكية.

فإذا قدمنا المقترب الأخلاقى، فيمكن القول: إن التصرف هو الحفاظ الدائم على طهارة القلب حيال دوافع الشيطان والنفس .. وردع النفس عن ميولها الخاصة وتضييق مجالها بقدر المستطاع .. ومواصلة السير فى طرق الارتقاء نحو «الإنسانية» الحقيقية بالكد الدائم للبقاء فى مستوى «الحياة القلبية والروحية» .. وتكريس الحياة على تحقيق السعادة المادية والمعنوية للآخرين، ومع منتهى الجدية فى المناسبات مع الحق تعالى .. واتباع نهج النبوة فى عدم انتظار الأجر حتى فى أصدق الجهود وأخلصها وفى أعظم الأعمال وأشدها .. والعزم على المسير أبدًا فى ظلال المشكاة المحمدية ﷺ فى مساعى العبودية للحق تعالى .. وإشهار عبودية صافية خالصة لا غرض فيها ولا عوض؛ بالتقيد الشديد فى المناسبات مع الله تعالى بإدراك نوعية المناسبة بين الخالق والمخلوق، والعابد والمعبود، والطالب والمطلوب، والقاصد والمقصود .. والقيام بمنتهى التحمل والصبر الدؤوب حيال المعاصى .. وأداء العبادات والطاعات فى لذة ونشوة كأنها الغاية والهدف من الحياة .. واستقبال البلايا والمصائب بالابتسام مع انشراح الصدر لقهره ولطفه تعالى فى نفس المستوى .. وربط كل أنواع السعى والهمة باستحسان الحق تعالى وليس بتقويمات البشر .. والصبر على تباطؤ الزمن صبر الدجاجة الحضون فالتصوف بالمعانى الآنفة موضع تناوله الأساس هو الكتب والرسائل المؤلفة حول «التلال الزمردية للقلب» .. وهو حوض قريب واسع للعلم والعرفان، مستود بالبيان والبرهان والعرفان، يحتضن الحياة كلها ويغذيها ويثريها .. فليس لمنهل التصوف نظير فى العمق بين «التصورات الروحية» فى الشرق، أو «التيارات الفلسفية» فى الغرب.

٨علم الكلام

الكلام، معناه فى اللغة: القول، والمحادثة، واللغة، والقرآن الكريم، والأوامر والنواهى الإلهية. ومعناه المصطلح عليه هو مجموع المعارف التى يستهدف بها الدفاع عن منظومة المعتقدات الإسلامية بالأدلة العقلية والنقلية، والحفاظ على استقامة فكر المؤمنين، ورد الشبهات والشكوك التى تثار أو يحتمل إثارتها ضد الدين، وحراسة «العقائد الإسلامية الحقة» فى إطار السنة السنية إزاء بعض التيارات الفلسفية الخاطئة.

والكلام - من مقترب آخر - هو مجموع الدساتير والقوانين الحاوية على نظريات علمية ومعرفية، والتى تربط بين أصول الدين وبين الكتاب والسنة وآراء السلف الصالح فى ضوئهما. وقد جمع كثير من العلماء والمفكرين وفلاسفة الإسلام هذه الدساتير الكلامية فى مصنفات كثيرة، وجرى تدريسها فى «المدارس الدينية».

وقد حرص قسم من المفكرين والعلماء على البقاء فى إطار الكتاب والسنة ولم يسوقوا رأيا منهم فى هذه المسائل، فى حين أن البعض الآخر لم ير بأسًا فى مد البيان بالبرهان وإثرائه

بالعرفان، وتوسيعه بالمحصلات الصوفية والفلسفية، بل رأوا أن الاشتغال بها على هذا الوجه خدمة للدين صحيح أن التوسع على هذا النحو قد أدخل إلى النظام الفكرى الإسلامى أفكارًا ضالة من رواسب الميراث القديم، لكن الواقع أيضًا أنه فتح أمام المسلمين آفاقا عظيمة وواسعة.

ولسنا بصدد الجدال حول فوائد علم الكلام أو أضراره، بل غاية ما نريده هنا هو الاكتفاء بالتذكير بأنه مصدر رحب ومعطاء فى ميراث ثقافتنا. ولا نريد أن نخوض فى أمور تفتح الباب لنقاشات جديدة.

٩، ١٠، ١١: العرف، العادة، العمل

العرف: عادة وحال وسلوك تلقاها الناس بالقبول الحسن وحظيت بالتوقير العام ولم تخالف العقل والطبع السليم والدين، وإن لم تكن قانونا. وعرفه الفقهاء الأحناف من وجه آخر: بأنه مجموع الأمور التى يستحسنها العقل والشرع، ولا يستنكرها الفكر السليم.

وهناك فروق بينة بين العادة والعمل وبين العرف؛ فالعرف أو المعروف يطلق على مجموع العادات الحسنة .. والحال أن العادة والعمل قد لا يكونان مستحسنين أحيانا. وقد يظهر ذلك فى أوصاف فارقة تقيد بها العادة أو العمل، مثل «عادة حسنة»، أو «عادة قبيحة»، وأيضا «عمل صالح، أو عمل فاسد» .. ولا تجد أوصافًا مثلها تجرى على العرف .. كذا، العرف، منه ما هو قولى ومن ما هو عملى. أما العادة والعمل فينحصران بالأفعال والأعمال. وكذلك، للعادة والعمل جهة تتعلق «بالعقل العاطل» وتستند إلى التقليد وقبول القديم. وقد ذم القرآن الكريم فى مواضع عديدة هذا الفهم وعاب على الكفار التقليد والاتباع الأعمى. بقولهم:

﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾

(الزخرف: ٢٣).

لكنه مدح العرف وحض عليه باسم «المعروف»، أو وصى به على أقل تقدير ولم نقصد هنا الإشارة إلى العرف والعادة والعمل باعتبار مصدريتها فى التشريع واستناد قسم من الأحكام إليها، بل باعتبار أن العرف مطلقًا، والعادة والعمل مقيدين بشرط عدم المخالفة لروح الدين، مصادر مهمة فى ميراثنا الثقافى.

وكل من هذه الموضوعات واسعة تستوعب رسائل أو بحوثًا طويلة، وهو ما لا تطيقه، ولا يسع له المقام هنا.

وكل قصدنا فى ما كتبناه هنا بإشارات سريعة وإيجاز شديد إلى درجة الاكتفاء بعنوان الموضوع وتعريفه أحيانا، هو التذكير بمصادر ثقافتنا الموروثة والبناء الداخلى لهذه المصادر فى إطار المقالة الضيق. وأردنا هنا - فى الوقت نفسه - أن نذكر بخصوصية ذاتية فينا بالتنبيه على الوحدة العضوية بين المصادر المتنوعة لثقافتنا الموروثة والتى تبدو وكأنها منفصلة عن بعضها البعض. وقد حرصنا أثناء سردنا لهذه المواضيع على عدم الخوض فى فانتازيات، وابتعدنا عن عثرات التصنع وما يشبهه من الأمور، وصرفنا جل قصدنا إلى التركيز على البعد الأبستمولوجى، ومن ثم حاولنا التذكير بالمناسبات بين المجالات المتنوعة لميراثنا الثقافى والفكرى. وبناء على ضرورة التذكير بكل هذه المواضيع، فقد حصرنا مساحة كل موضوع، وأطللنا عليه بنظرة كلية، وتركنا شرح تفاصيله لفراسة المتخصصين. وإنما نربط انصراف التفكير فى المستقبل إلى التفصيل فى هذه المواضيع بما إذا وافى العمر، ونكتفى بالإشارة إلى الأبحر بقطرات.

معايير الترجيح بين الأقوال فى فقه الأولويات

أ.د/ جاسر عودة

الترجيح بين الأقوال المختلفة فى المسائل الفقهية من الحاجات المتكررة للمشتغلين بالفقه الإسلامي، وإذا كانت المقارنة بين الخيارات المختلفة بوجه عام انعكاسًا لترتيب الأولويات ومعايير الأفضلية عند الإنسان، فالاختيار بين الأقوال الفقهية المختلفة لا يخرج عن ذلك المثال. ولكن من نعم الله تعالى على المسلمين أن مراتب الأعمال والأحوال وأفضلية بعضها على بعض ليست متروكة للهوى أو التشهي، ولكن لها نظامًا محكمًا دلت عليه نصوص الذكر الحكيم وسنة سيد المرسلين ﷺ، مما اصطلح على تسميته بفقه الأولويات، ومما ينبغي أن يكون نبراسًا للفقيه ومعيارًا فى اختياراته بين الأقوال المختلفة التى تعرض له فى مسألة ما. وفى هذا البحث مناقشة لمفاهيم أصولية هى فى نظرنا أسس لفقه الأولويات، وتطبيق لهذا الفقه على مسائل اختلفت فيها الأقوال واحتجنا فيها إلى ترجيح قول منهم.

أما اختلاف الأقوال نفسه فليس غريبًا على الفقه الإسلامى بل هو من طبيعته اللازمة التى لا مفر منها. ويعلم أهل هذا العلم أن الشريعة مبناها وأساسها على مجموعة من الثوابت المحكمات التى أجمع عليها العلماء قديمًا وحديثًا. ولكن فيما دون المحكمات فإن المسائل الفقهية التفصيلية يرد فيها دائمًا شكل أو آخر من أشكال الخلاف بين العلماء سواء حول ثبوت أدلتها أو دلالات ألفاظها، مما يؤدى إلى تعدد الأقوال فيها.

والبحث فى معايير الترجيح والاختيار بين الأقوال الفقهية المختلفة ـ وهو موضوع هذا البحث ـ يتعلق فى نظرنا أولاً بالبحث فى أسباب اختلاف تلك الأقوال من الناحية الأصولية المنهجية. وفهم سبب الخلاف ـ أصوليًا ـ يعين على تحديد معايير الترجيح ومنهج الاختيار السديد بين الأقوال. ويحضرنى هنا كلام أبى الوليد بن رشد رحمه الله عن أهمية «فهم أصول الأسباب التى أوجبت خلاف الفقهاء» فى صحة الاجتهاد فى النوازل، فقد كتب يقول عن كتابه «بداية المجتهد ونهاية المقتصد»:

«قصدنا فى هذا الكتاب هو إثبات المسائل المشهورة التى وقع الخلاف فيها بين فقهاء الأمصار مع المسائل المنطوق بها فى الشرع المتفق عليها والمختلف فيها.. فإن معرفة هذين الصنفين من المسائل هى التى تجرى للمجتهد مجرى الأصول فى المسكوت عنها وفى النوازل التى لم يشتهر الخلاف فيها بين فقهاء الأمصار سواء نقل فيها مذهب عن واحد منهم أو لم ينقل ويشبه أن يكون من تدرب فى هذه المسائل وفهم أصول الأسباب التى أوجبت خلاف الفقهاء فيها أن يقول ما يجب فى نازلة من النوازل».(١)

والأسباب المنهجية التى تؤدى إلى خلافات فقهية كثيرة ومتنوعة؛ ولكننا لغرض هذا البحث اخترنا الأسباب الثلاثة التالية، والتى نظنها تغطى ـ منهجيًا ـ أغلب مساحات اختلاف الأقوال فى الفقه الإسلامي:

الحالة الأولى: اختلاف الأقوال فى النوازل المسكوت عنها:

فى هذه الحالة تكون المسألة نازلة نزلت بالمسلمين فى عصرنا لم تعرف فى الأزمنة السابقة وليس فيها نصوص، مما يعتبر «مسكوت عنه» فى الشرع على حد تعبير كثير من أهل العلم، ويقصدون بذلك أنه ليس هناك فيما يعلمون نصوص شرعية تفصيلية توجهت إلى المسألة توجهًا مباشرًا. ولكن هذا لا يعنى الغياب التام للنصوص الشرعية عن الحكم فى المسألة وإنما يعنى الرجوع إلى العموميات والكليات من تلك النصوص.. ويدرس هذا البحث معايير هذا الرجوع فى ضوء فقه الأولويات.

الحالة الثانية: اختلاف الأقوال فى دلالات النص الشرعى المتفق عليه:

فى هذه الحالة يتفق العلماء على ثبوت النص أو النصوص الشرعية المتعلقة بالمسألة، ولكن تختلف مذاهبهم فى تحديد دلالات تلك النصوص على الأحكام. ورغم أن هذا الخلاف يعود إلى اختلاف مشارب النظر العقلى بين المجتهدين، إلا أن لفقه الأولويات اعتبارًا فى معايير اختيار الرأى الراجح ـ سواء كان من داخل المذهب الذى ينتمى إليه الفقيه أو من خارجه.

الحالة الثالثة: اختلاف الأقوال بسبب تعارض الأدلة:

فى هذه الحالة يكون هناك أكثر من نص شرعى فى المسألة وتختلف الأقوال نظرًا لما يسمى بالتعارض بين تلك النصوص، وتختلف المسالك فى ذلك فى باب «حل التعارض». وهذا البحث يتناول تعريف «التعارض» قبل تحديد معايير التعامل معه فى ضوء فقه الأولويات.

ونتناول لاحقًا الحالات المذكورة بشيء من التفصيل مع التمثيل للأثر الفقهى لهذه الأسباب لاختلاف الأقوال على مسائل تطبيقية تتعلق بباب الحج تحديدًا، ونناقش إن شاء الله تعالى مع كل سبب من أسباب الخلاف المذكورة أمثلة تدل على ما وراءها من مسائل تتشابه معها، ونتبنى فى هذه المسائل الأقوال الأكثر توافقًا مع فقه الأولويات، كما سيأتي.

وأما فقه الأولويات نفسه فنركز فى هذا البحث على ثلاثة مفاهيم متعلقة به نعتبرها أسسًا لهذا الفقه ونرى أن لها أثرًا مباشرًا على الترجيح بين الأقوال، كما يظهر ذلك فى الأمثلة المتعددة التى تأتى لاحقًا، وهذه المفاهيم هي: المصلحة،

(١) الوليد بن رشد، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، بيروت، دار الفكر، ب. ت، ج٢، ص٢٩٠.

والتيسير، والتعبد.

المفهوم الأول: المصلحة:

ليس هناك خلاف على أهمية جلب المصلحة ودرء المفسدة في الاجتهاد الفقهي؛ ولكن تعريف المصالح نفسها ـ وما يقابلها من مفاسد ـ لابد له من منهجية أصيلة حتى لا ينحرف بهذين المفهومين من أراد أن يحرف الكلم عن مواضعه ويدخل هواه في الحكم الشرعي باسم جلب المصلحة أو درء المفسدة. فالسؤال الذى نجيب عنه في المبحث التالي هو: كيف نعرف المصلحة تعريفًا منضبطًا شرعًا؟

المفهوم الثاني: التيسير:

مفهوم التيسير من المفاهيم الأساسية للترجيح بين الأقوال خاصة في فقه الحج. ونجيب تاليًا على الأسئلة التالية: ما هي أصول التيسير في شريعة الله تعالى؟ وما هي الضوابط الشرعية التي تحكم الأخذ بهذا المفهوم؟

المفهوم الثالث: التعبد:

وهذا مفهوم آخر مهم في الترجيح بين الأقوال خاصة في فقه الحج، إذ تستند اختيارات العلماء في مسائل كثيرة على اعتبارها «تعبديات» ثابتة، أي مقصودة في ذاتها ولا تدور مع حكمها ولا تتغير لاعتبارات تغير الظروف. فما هي التعبديات؟ وكيف نفرق بينها وبين غيرها من الأحكام القابلة للتغير مع الظروف والأحوال؟

المفهوم الأول: المصلحة:

لابد من ربط تعريف المصلحة بالنصوص الشرعية من كتاب الله وسنة رسوله الكريم ﷺ، حتى لا يكون تعريف ما هو «مصلحة» في مهب الأهواء. والطريقة المثلى لربط المصلحة بثوابت النصوص الشرعية في نظرنا هي ربطها بمقاصد الشريعة الإسلامية، إذ إن مقاصد الشريعة هي معان تواترت في النصوص الشرعية وتعرف عليها العلماء عن طريق الاستقراء، أي استفاضة المعنى الكلي في التفاصيل الجزئية. ومقاصد الشريعة مرتبة ترتيب أولويات عند أهل هذا العلم، مما يعين على بناء فقه الأولويات المنضبط المنشود.

ومقاصد الشريعة والمصالح الشرعية مصطلحان يعبران عن معنى واحد عند كثير من الأصوليين. ولو أننا رجعنا إلى تاريخ مصطلح مقاصد الشريعة نفسه، لوجدنا الإمام الجويني ـ إمام الحرمين وأحد المؤسسين الأوائل لعلم مقاصد الشريعة كما نعرفه اليوم ـ يعبر عن مقاصد الشريعة بلفظ «المصالح العامة»، واستخدم مصطلح «المقاصد» و«المصالح العامة» فيما كتبه في علم الأصول على أنهما مصطلحان مترادفان[٢] ثم جاء تلميذه أبو حامد الغزالي فبنى على كلام الجويني في تصنيف المقاصد وفي الحديث عن مفهوم «الحفظ» لهذه المصالح، ثم جعلها كلها تحت ما يسمى عند الشافعية بالمصالح المرسلة[٣] ثم نجد

(٢) انظر مثلًا: عبدالملك بن عبدالله أبو المعالي الجويني، غياث الأمم في التياث الظلم، تحقيق عبدالعظيم الديب، دولة قطر، وزارة الشئون الدينية، ١٤٠٠هـ، ص٢٥٣.

(٣) أبو حامد الغزالي، المستصفى في علم الأصول، تحرير محمد عبدالسلام عبدالشافي، الطبعة الأولى، بيروت دار الكتب العلمية، ١٤١٣هـ، المجلد الأول، ص١٧٢.

فخر الدين الرازي والآمدي قد اتبعا الغزالي في مصطلحاته وفي ترادف معنى المقصد الشرعي والمصلحة الشرعية عندهما[٤] وعرف نجم الدين الطوفي المصلحة على أنها: «السبب المؤدي إلى مقصود الشارع»[٥] وأما القرافي فقد وضع قاعدة فقال: «قاعدة: لا يعتبر الشرع من المقاصد إلا ما تعلق به غرض صحيح، محصل لمصلحة، أو دارئ لمفسدة».[٦] إذن فسوف نعرف المصلحة في فقه الأولويات بناء على تعريف مقاصد الشريعة.

أما القصد والمقصد لغة فهما مشتقان من الفعل قصد، والقصد هو استقامة الطريق والاعتماد والعدل والتوسط وإتيان الشيء يقال قصده وإليه يقصد يعني الاعتزام والتوجه نحو الشيء، ومن هنا جاء المعنى الاصطلاحي للمقاصد الشرعية أي المعاني التي قصد الشارع إلى تحقيقها من وراء تشريعاته وأحكامه،[٧] والتي قسمها العلماء إلى مستويات ثلاثة حسب أولويتها وأهميتها: عامة وخاصة وجزئية.[٨]

فالمقاصد العامة هي المعاني التي لوحظت في جميع أحوال التشريع أو أنواع كثيرة منها، كمقاصد السماحة والتيسير والعدل ومراعاة الفطرة والمساواة وغيرها.[٩] وتشمل المقاصد العامة في تقسيمات العلماء المصالح الخمسة المعروفة، والتي استهدفتها الشريعة بما يعود على العباد بالخير في دنياهم وأخراهم، وهي حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال،[١٠] والتي شاع عند العلماء تسميتها بالضرورات الخمسة والتي تمثل مرتبة من المصالح لا تقوم الحياة إلا بها، وشاع عندهم كذلك أنها يليها في الأهمية والترتيب مرتبة الحاجيات، وهي المصالح التي يؤدي فقدانها إلى حرج ومشقة دون فوات الحياة نفسها، كالزواج والتجارة وطرق النقل، ويلي ذلك المصالح التي تقع تحت التحسينيات، وهي الشكليات والكماليات التي يمكن للإنسان أن يستغني عنها بسهولة.[١١]

والمقاصد الخاصة هي معان مهمة ولكنها أقل أهمية وأولوية من المصالح العامة، وهي

(٤) أبو بكر المالكي بن العربي، المحصول في أصول الفقه، تحرير حسين علي البدري وسعيد فودة، الطبعة الأولى، عمان، دار البيارق، ١٩٩٩م، المجلد الخامس، ص٢٢٢، والآمدي على أبو الحسن، الإحكام في أصول الأحكام، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٠٤هـ، ص٢٨٦.

(٥) نجم الدين الطوفي، التعيين في شرح الأربعين، بيروت، دار الريان، ١٤١٩هـ، ص٢٣٩.

(٦) شهاب الدين القرافي، الذخيرة، بيروت، دار الغرب، ١٩٩٤م، المجلد الخامس، ص٤٧٨.

(٧) محمد الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، تحقيق ودراسة محمد الميساوي، دار الفجر، كوالا لامبور، ودار النفائس، عمان، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م، ص١٨.

(٨) انظر: نعمان جغيم، طرق الكشف عن مقاصد الشارع، دار النفائس، الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م، ص٢٦-٣٥، وفيه تقسيمات متعددة تبعًا لاعتبارات مختلفة.

(٩) مقاصد الشريعة الإسلامية ـ محمد الطاهر بن عاشور ص١٨٣.

(١٠) راجع: الموافقات في أصول الفقه، أبو إسحاق الشاطبي الغرناطي، تحقيق: عبدالله دراز، محمد عبدالله دراز، عبدالسلام عبدالشافي محمد، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ب ت، الجزء الثالث.

(١١) يوسف العالم، المقاصد العامة للشريعة الإسلامية، أصله رسالة دكتوراة في جامعة الأزهر كلية الشريعة، المعهد العالي للفكر الإسلامي، فيرجينيا، الطبعة الأولى، ١٩٩١م ص٨٠.

المعانى التى لوحظت فى باب واحد فقط من أبواب التشريع المخصوصة، مثل مقصد عدم الإضرار بالمرأة فى باب الأسرة، ومقصد الردع فى باب العقوبات، ومقصد منع الغرر فى باب المعاملات المالية، وهكذا. وقد تكون المقاصد جزئية بمعنى الحكم والأسرار التى راعاها الشارع فى حكم بعينه متعلق بالجزئيات، كمقصد توخي الصدق والضبط فى مسألة عدد الشهود وأوصافهم، أو مقصد رفع المشقة والحرج فى الترخيص بالفطر لمن لا يطيق الصوم، أو مقصد التكافل بين المسلمين فى عدم إمساك لحوم الأضاحى بعد ثلاث، أو مقصد الحفاظ على سلامة الناس فى الأمر بقتل الكلاب العقورة، أو مقصد النظافة فى غسل النجاسات، وهكذا.(١٢)

إذن، فالمقاصد الشرعية قد تصورها العلماء هرمًا منتظمًا من الأهداف على رأسه المقاصد العامة «وبداخلها الضرورات والحاجيات والتحسينيات على الترتيب»، وتتفرع عنها بدورها المقاصد الخاصة والجزئية، وهى بالتالى تمثل نظامًا مستمدًا من النصوص الشرعية ومرجعية لتحديد الأولويات التى يحتاج إليها الفقيه.

ثم إن الإمام أبو حامد الغزالى قد وضع فى ترتيب الضرورات الخمس ترتيبًا اشتهر بعد ذلك وتابعه عليه كثير من الفقهاء، ألا وهو: حفظ الدين ثم النفس ثم العقل ثم النسل ثم المال.(١٣) ثم بنى على ذلك الترتيب منهجًا للترجيح بين الأقوال فى الفقه، فكتب يقول: «عند تعارض مصلحتين ومقصودين.. يجب ترجيح الأقوى»، ومثل لذلك بإباحة شرب الخمر تحت الإكراه وهو متوافق مع تقديم حفظ النفس على حفظ العقل، إلى غير ذلك من الأمثلة.(١٤) والآمدى قد ناقش كذلك بعض الأولويات الفقهية العملية مثل تقديم حفظ الدين على النفس، وتأخير مقصد حفظ المال عما سواه حتى يأتى فى الأولوية الأخيرة من الضرورات فى نظر الشارع(١٥) ومبدأ ترتيب الأولويات بناء على ترتيب المقاصد الشرعية اتفق عليه العلماء وإن اختلفوا فى التفاصيل، كما يظهر بوضوح فى كلام الشاطبي،(١٦) والرازي،(١٧) والقرافي،(١٨) والبيضاوي،(١٩) وابن تيمية،(٢٠) وغيرهم.

كما أضاف بعض العلماء حفظ العروض للضرورات الخمس كابن فرحون والقرافي.(٢١) واعتبر ابن تيمية الضرورات كلها قسمًا من دفع المضار، وقدم عليها فى الأولوية ما سماه: جلب المنافع فى الدين والدنيا، كالوفاء بالعهود وصلة الأرحام وحقوق المسلمين بعضهم على بعض.(٢٢) وهذا الاعتبار للمصالح الاجتماعية العامة وإعطاؤها أولوية فى النظر لم ينفرد به ابن تيمية رحمه الله، بل ذكره كثير من العلماء قديمًا وحديثًا. فقد نوه الشاطبى على أهمية ما سماه «مصالح أهل الأرض»(٢٣) كأصل من الأصول القطعية وإن لم يدخلها فى الضرورات الخمس فى نظريته، ونبه ابن فرحون على أولوية المقاصد «التى شرعت للسياسة» وإن لم يعتبرها فى الضرورات الخمس كذلك.(٢٤) أما الطاهر بن عاشور فأولى المقاصد الاجتماعية اهتمامًا خاصًا، وجعل المقصد العام من التشريع هو أولاً وقبل كل المقاصد العامة الأخرى ما سماه: حفظ نظام الأمة،(٢٥) وطرح مقاصد أساسية أخرى تأتى فيما يلى ذلك من مراتب كالتيسير ومراعاة الفطرة والسماحة والمساواة، وجعل لكل من هذه المقاصد جانبًا خاصًا بالفرد وآخر خاصًا بالأمة، وقدم ما هو متعلق بالأمة كأولوية على ما هو متعلق بالأفراد.(٢٦) وهذه الأولويات المذكورة كلها فى ترتيب مقاصد الشريعة تقع ضمن الأولويات التى نبنى عليها اعتبار المصلحة فى فقه الأولويات فى الترجيح بين الأقوال، كما سيأتي.

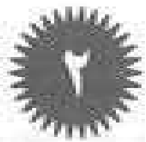
وهناك مجموعة من القواعد الفقهية المكملة لاعتبار المصلحة وأولويات المقاصد المذكورة، إذ إنه قد تتعارض المصالح والمفاسد على نحو مركب يستدعى تقدير حجم المصلحة نفسها أو المفسدة نفسها والمقارنة قبل الحكم. والقواعد الجامعة فى هذا الباب تشمل التالي: درء المفسدة أولى من جلب المصلحة، وتغتفر المفسدة القليلة لجلب مصلحة كبيرة، وتفوت أدنى المصلحتين، وتدرأ أكبر المفسدتين.

***

(١٢) طرق الكشف عن مقاصد الشارع ـ نعمان جغيم ص٢٨-٣٣.
(١٣) محمد بن محمد الغزالي أبو حامد المستصفى، تحقيق محمد عبدالسلام عبدالشافي، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ ج١ ص٢٥٨.
(١٤) نفس المصدر السابق ص٢٦٥.
(١٥) على بن محمد الآمدى أبو الحسن، الأحكام، تحقيق سيد الجميلي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٤هـ ج٣ ص٢٨٨.
(١٦) إبراهيم بن موسى اللخمى الغرناطي المالكي، الموافقات، تحقيق عبدالله دراز، دار المعرفة، بيروت، ب. ت. ج١ ص٣٨، ج٢ ص١٠، ج٣ ص٤٧.
(١٧) محمد بن عمر بن الحسين الرازي، المحصول، تحقيق طه جابر العلواني، جامعة الإمام محمد، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ ج٥ ص٦١٢.
(١٨) شهاب الدين أحمد بن إدريس أبو العباس القرافي، شرح تنقيح الفصول، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٩٩٧م، ص٣٩١.
(١٩) القاضي البيضاوي، منهاج الوصول إلى علم الأصول، مطبعة محمود صبيح، ب. ت، ص٩.
(٢٠) أحمد عبدالحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية فى الفقه، تحقيق عبدالرحمن بن محمد العاصمي النجدي، مكتبة ابن تيمية، الطبعة الثانية، ب. ت. ج٣٢ ص٢٣٤.

(٢١) شرح تنقيح الفصول ـ القرافى ص٣٩١.
(٢٢) كتب ورسائل ابن تيمية فى الفقه ـ ابن تيمية ج٣٢ ص٢٣٥.
(٢٣) الموافقات ـ الشاطبى ج٢ ص١٧٧.
(٢٤) جمال عطية، نحو تفعيل مقاصد الشريعة، عمان، المعهد العالمى للفكر الإسلامي، ٢٠٠١م، ص٩٥.
(٢٥) مقاصد الشريعة ـ محمد الطاهر بن عاشور ص١٨٣.
(٢٦) نفس المصدر السابق ص١٨٩ وما بعدها.

التفكك الأسرى ومخاطره على الأبناء


٢



أ.د/ محمد الشحات الجندى
عضو مجمع البحوث الإسلامية

رابعًا: تغييب نموذج القدوة في علاقات الآباء بالأبناء، ومزاحمة النموذج الغربي:

الأمر المعتاد والمألوف أن يحيا الطفل بين أمه وأبيه في مناخ يسوده الحب ومشاعر الدفء العائلى، وأن يهيء له أسباب الراحة والاطمئنان والأمان، ويكون كل منهما رفيقًا عطوفًا على الصغير، وينشآنه التنشئة الصالحة والقويمة، ويتوافران على سد حاجاته المادية والمعنوية. هذا النموذج فى تكريس الاهتمام بالصغار، يرفعه القرآن والسنة إلى مرتبة القداسة، لعظم تأثيره الإيجابى والبناء على الصغار، وبسببه تبوأ الأم والأب المنزلة الرفيعة التى بلغت حدها الأقصى، لذلك تسامى القرآن فى رفع منزلتهما إلى المرتبة الثانية بعد عبادة الله تعالى:

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴾

(الإسراء: ٢٣ - ٢٤)

فهذا النموذج الرفيع للأبوين، يجعلهما على نموذج القدوة الحسنة، والمثال الحى على أرض الواقع، يعيشه ويعايشه الصغار فى حياتهم مع أبويهم، به يعانق الواقع المثال، ويتحول الخيال إلى حقيقة معاشة يتشربها الأبناء، وتتغلغل فى نفوسهم وتكبر معهم، فيتذكرون عندما يكبرون الإيثار والتضحية الأبوية مما يجعلهم يحيون على عطائها، ويكررون نموذجهم مع أبنائهم، ويلهجون بقول الحق تعالى:

﴿ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾

(الإسراء: ٢٤)

ولأن هذا النموذج يتحقق فى أسمى معانيه عند الأم، التى تتدفق بالحنو والمشاعر الفياضة والرحمة بما يملك عليها نفسها نحو أبنائها، فقد بشرها الرسول ﷺ «بأن الجنة تحت أقدام الأمهات».

ويستمد هذا النموذج دستوره التربوى من القيام على أداء الواجبات الأبوية تجاه الصغير طوال حياته معهما وإلى أن يصل إلى مرحلة الاعتماد على النفس، وهى فترة قد تتجاوز سن البلوغ، وتمتد إلى مرحلة الرشد والأهلية الكاملة.

ويهدف القرآن والسنة من إقرار الدستور التربوى والأخلاقى، إلى تحقيق مهمتين أساسيتين:

١ - حماية الصغير من كل الآفات التى تعرضه للانحراف، وارتياد طريق الشرور والآثام والجريمة. وهى واجب الأبوين فى منهج الوقاية الذى نبه الشرع إليه، وأمر به فى قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾

(التحريم: ٦)

لذلك صار مقررًا فى قواعد الشريعة أن: «درء المفاسد مقدم على جلب المصالح».

وأن التخلية قبل التحلية. الأمر الذى صح معه مقولة: «الوقاية خير من العلاج»، وهو ما يقتضى التعامل مع الصغير بما يحول بينه وبين الانحراف باتخاذ تدابير احترازية تهذيبية تهدف إلى توقى إقدام الصغير على الدخول إلى عالم التشرد أو الانحراف أو الجنوح.

٢ - تقديم أوجه الرعاية والعناية بالأبناء، عن طريق غرس الأخلاق الكريمة فيهم.

وحتى يتيسر القيام بهذا الواجب الأساسى، فإن النقطة المحورية فيه، تتم من خلال نموذج القدوة الحسنة للأم والأب فى كل حال وتصرف وموقف، بما تنعكس آثاره الحميدة على الأبناء.

ويتأتى ذلك بأن يظهر كلاهما بالمظهر الحسن واللائق بهما كمثال طيب يحتذى فيتطلع الصغير إلى بلوغه، وهو ما يتطلب التخلق بالأخلاق الكريمة والصفات الحميدة.

- إن يمتنع الأبوان عن الإتيان بالآفات والأمراض الاجتماعية، فلا يقعان فى الكذب أو يقدمان على اقتراف أى اثم من ألوان الشرور الكثيرة والمتنوعة والتى لا يمكن حصرها مثل القول أو الفعل السيء، أو خيانة الأمانة أو الغيبة أو النميمة أو السرقة أو النفاق أو الغدر أو أكل السحت أو الحرام.. إلخ وبمعنى آخر: الامتناع عن الفحش فى القول أو الفعل.

- تعويد الصغار الأخلاق القويمة والسلوكيات النافعة، وغرس الانتماء للدين والوطن والأمة، وكل ما يقوم شخصيته، وينهض بأعماله وتصرفاته لأهله وبنى مجتمعه، ويجعله نموذجا للفرد صاحب النفع والعطاء فى المجتمع الصالح.

وأهمية تكريس هذه الأخلاقيات والسلوكيات أنه بدونها لن يتحقق المجتمع القوى المتحضر، وهو من سمات الشخصية الإسلامية عند الفرد والجماعة.

ويشكل هذا العنصر الأساسى دعامة راسخة لبناء الصغير، كأحد العناصر فى مكونات شخصية الفتى أو الفتاة وتكوين نمط هذه الشخصية من باب الفريضة الشرعية، لا غنى عنها، لأن الصغير يتشكل وفقًا لها فهو غض غرير يسهل ترويضه عليها، فى مرحلة التنشئة الأولى، وهو مغزى قوله تعالى:

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

(النحل: ٧٨)

وتبعا لذلك يكون غرس هذه السلوكيات في أعماق ضميره وقلبه وعقله من صميم الرسالة التربوية في الإسلام، فهي المحددة لمعالم شخصيته، الموجهة له في سلوكه وتصرفاته على مدى عمره، وإذا أهمل الوالدان ذلك، فقد ارتكبا إثما مبينا واقترفا جناية وخطيئة، على نفس الصغير، ولله در القائل:

وينشأ ناشئ الفتيان منا ... على ما كان عوده أبوه
وما دان الفتى بحجى ولكن ... يعوده التدين أقربوه

ولم يغفل الإسلام أو يتوانى عن تقديم منهج قويم، يعمل الأم والأب على تربية الأبناء وفقًا له.

والمتتبع لنصوص القرآن والسنة: يجد النموذج الذي على هديه يكون تربية وتأديب وتهذيب الصغير.

نذكر منها ما جاء في أسلوب لقمان عليه السلام فيما جاء في قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (لقمان: ١٣)

وهو أساس البناء والعمود الفقرى لتربية الطفل التربية الإيمانية التي تنأى به عن الشرك والإلحاد، وهي خطيئة استشرى دبيبها إلى الفرد في المجتمعات المعاصرة في أشكال وصور شتى، من بينها التشكيك في الإسلام عبر وسائل الإعلام ومواقع شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت).

ويثني الأب بعد غرس الإيمان، تعليمه الصلاة:

﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ (لقمان: ١٧)

ففي الصلاة تطهير وتزكية النفس، وتعليم الصغير النظام والخشية من الله كما أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هما جماع الإسلام في تكريس التصرفات الطيبة والسلوكيات النافعة، وتخليص المجتمع من الشرور والآثام والجريمة.

أما فضيلة الصبر، فإنها سبيل الفلاح والنصر، وبها يبلغ الفرد جلائل الأعمال، ويدفع عن نفسه المكروه والأذى والضرر، ويتحمل الآلام والصعاب.

ويمضي القرآن في بيان المنهج بقوله تعالى:

﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾

(لقمان: ١٨-١٩)

وفيما أشارت إليه النصوص تعليم لأصول التعامل وآداب السلوكيات مع الناس، والتزام للاعتدال في التصرفات، وتوجيه إيجابي وخلاق للحفاظ على نعمة الله على الإنسان في البيئة مع من فيها من الناس وما فيها من عناصر البيئة والأحياء فيها.

ومما حث عليه القرآن في التربية الاستئذان، بقوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (النور: ٥٨)

وفي قوله جل شأنه:

﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (النور: ٥٩)

وتؤكد السنة على ضرورة الإيمان بالله والثقة به والتوكل عليه، والاعتقاد الجازم بأنه النافع والضار وصاحب الأمر والنهي في الكون واعتماد الفرد على عمله وجده واجتهاده، والاعتقاد بذلك طوال حياته.

من ذلك قول الرسول ﷺ: (يا بني إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك. وإذا سألت فاسأل وإذا استعنت فاستعن بالله. واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك)(١).

كما أوجبت السنة: الرفق والرحمة بالصغير، في قول الرسول ﷺ: (ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا)(٢).

فالصغير في حاجة ماسة إلى التعامل معه بالصبر والأناة والرحمة واللين والرفق به.

ومن القواعد المقررة شرعًا: أن الصغر عذر ومرحمة. لذلك لا يجوز مؤاخذته ولا عقابه على جرم ارتكبه في فترة الصبا، أو انعدام التمييز.

ويلاحظ أنه قد شاع وربما تفشى في الآونة الأخيرة، ممارسة أساليب للتربية غربية ودخيلة على بعض ملامح النموذج الإسلامي المشار إليه.

وقد غزت هذه الأخلاقيات الفاسدة، والتصرفات الضالة معظم المجتمعات الإسلامية، بواسطة ضعف إن لم يكن إزاحة نموذج التربية الإسلامية نتيجة وسائل الإعلام وعصر المعلوماتية الذي جعل منظومة القيم الإسلامية تتوارى، وتوشك لا قدر الله أن تختفي ما لم تتكاتف وتتاضفر الجهود على إحيائها، واستنقاذها من براثن العابثين بها والساعين إلى هدمها.

وهذا مرده على القوة الفكرية للغرب وأنصاره، والآلة الإعلامية الجهنمية التي تعمل ليل نهار على غزو الفرد والجماعة الإسلامية بما يناقض نموذجها ويتغلب عليه.

خامسًا: تحول العلاقات الأسرية إلى الصدام والصراع بديلا عن المودة والرحمة والسكينة:

لقد أفرز عصر العولمة ما أسفر عنه من التقارب في المسافات والأفكار والثقافات، والأفراد، والأمم والدول إلى غزو النموذج الغربي في العلاقات الأسرية، بما يسوده من الترويج للعزوبية والحرية في الفكر والسلوك هربًا من تحمل مسئولية إنشاء أسرة، وفتح أبواب الاختلاط بين الرجل والمرأة، بما يترتب عليه من تراجع وعدم الاهتمام بحق الطفل في إثبات نسبه إلى والديه الشرعيين، وإشاعة الفكر المصلحي في علاقة الابن بوالديه، وعدم الاكتراث بالأديان والقيم المعنوية في نطاق العلاقات الأسرية. وإشاعة أساليب الرعاية البديلة عن الأسرة الطبيعية.

ومن الطبيعي في أجواء كهذه، أن يتراجع فكر الأسرة، وأن تنحسر مؤسستها تدريجيًا كنموذج عاشت عليه البشرية طوال مراحل وجودها، ولولاها لما استمرت المسيرة الإنسانية،

(١) سنن الترمذي - كتاب صفة القيامة - حديث رقم ٢٧٠٦.
(٢) سنن الترمذي - كتاب البر والصلة - حديث رقم ٢٠٤٣.

ولانقرضت الحياة والأحياء على ظهر المعمورة.

ولأن الغرب أوجد نموذجه في إضعاف الأسرة، ومكن للتفكك الأسري، وخلق خصومة مفتعلة بين الأسرة والمجتمع، ومد مظلة الحماية والرعاية إلى العلاقات خارج نطاق الأسرة، وجعلها في وضع موازٍ لها، تنافسها بقوة، مما أزاح مؤسسة الأسرة عن المكانة التي ظلت تتربع عليها عبر العصور والأجيال، من حيث إنها كانت أول مؤسسة عرفتها البشرية.

وقد أشار القرآن إلى هذه الحقيقة في قوله تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾

(الأعراف: ١٨٩)

مآزق الأسرة المسلمة في العصر الراهن:

وقد كان لهذا التحول الحاد، أثره المدمر على العلاقة بين الرجل والمرأة وعلى الطفولة التي هجرت قيم الإيمان وقيم الطهارة في المجتمع. وبث فكر الأنانية والعزوبة، وهز أركان العلاقات الأسرية على مستوى الفرد والمجتمع برمته.

وعلى حين نجد هذه الصور من الخلل في الحياة الحديثة في الأسرة المسلمة، أرسى الفقه الإسلامي واجب الآباء في حماية الصغار من أي سوء أو أذى، التي كانت بحق ضمانة وسياجًا يقيه من الإضرار به أو الانحراف بالصغير عن جادة الطريق، وقد سار الفقه على هذا الطريق شوطًا كبيرًا، إلى حد أنه كما يقول ابن القيم(٣): «يوقى الطفل من كل أمر يفزعه من الأصوات الشديدة الشنيعة والمناظر الفظيعة والحركات المزعجة، فإن ذلك ربما أدى إلى فساد قوته العقلية لضعفها، فلا ينتفع بها بعد كبره، فإذا عرض له عارض من ذلك فينبغي المبادرة إلى تلافيه بضده وإيناسه بما ينسيه إياه».

لكن الناظر فيما آلت أوضاع الطفولة في البلدان الإسلامية، يكتشف لأول وهلة ما يتعارض مع هذه الأحكام التي قررها الشرع الإسلامي، فاختفت من على الساحة الإسلامية نموذج التربية للأبناء وطفت على السطح صور عجيبة من أنماط العلاقات الأسرية الخاطئة في العلاقات بين الزوجين أو في العلاقات بين الأبناء والأم، أو الأبناء والأب على عكس وصايا القرآن في المعاشرة بالمعروف، وعلى خلاف ما ورد في أحكام الشريعة.

فبدلاً من سيادة نموذج المودة والرحمة في علاقات الزوجين والأبناء، شاع فكر المواجهة والندية أو التكافؤ في علاقة الزوج بالزوجة، وتربص كل منهما بالآخر، فأصبح كل منهما يحس بكيانه وذاتيته تجاه الآخر، ويبارز كل منهما بأنه متساوٍ في حقوقه إزاء الآخر، خصمًا من رصيد الأسرة، وما ينبغي أن يضحى من أجله للحفاظ عليها ودعم أواصرها، وتراجعت فكرة تقديم مصلحة الأسرة على المصلحة الخاصة لأفرادها.

وأفرز هذا الوضع المعاكس للأسرة ما يسمى بالأسر المحطمة، وهي الأسرة التي حطمها الطلاق أو الشجار المستمر أو الوفاة أو سجن أحد الوالدين أو غيابه لمدة طويلة(٤) أو هجره تاركًا الزوجة والأولاد إلى غير ذلك.

(٣) تحفة المودود بأحكام المولود، ص١٣٨. انظر للباحث: جرائم الأحداث في الشريعة الإسلامية مقارنًا بقانون الأحداث، الطبعة الثانية، ص٦٤.

وبالطبع فإن مثل هذا المناخ يسبب مشكلات وأوجاع طالت الأبناء، أبرزها عدم القدرة على تنشئتهم التنشئة السليمة، والتعرض للفقر، وارتكاب الرذيلة، والإدمان، والتسول والتشرد وغير ذلك من سلسلة الموبقات في عالم الصغار أو الأبناء.

تداعيات التفكك على الأسرة المسلمة:

تواصلت المساعي الغربية الهادفة إلى تغيير سلوكيات الفرد والجماعة فاتجهت إلى صرف فكر المسلم عن بناء البيت الذي يحصنه من الرذيلة، ويبقي على علاقات الطهارة وإغرائه بالحرية، والتغاضي عن الاعتقاد في أن الأسرة هي واحة الأمان النفسي والوجداني ومظهر للعزة والكرامة، وملاذ للفضيلة، وتقوية أواصر المودة والرحمة.

وتبع ذلك أن حاصرت العديد من الأسر المسلمة المشاكل المتعددة، وابتليت بمحن التفسخ والتصدع وعدم الأمان، وشاع فيها الشحناء والبغضاء والكراهية والقسوة، وتصدع كيانها الذي طالما كان مصدر قوة وفخار بصرح الأسرة في المجتمع، حيث دستورها المودة والرحمة:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾

(الروم: ٢١)

وتوارت في المجتمع الإسلامي قيم أصيلة مثل الرضا والقناعة والتسامح والصبر، وكانت الزوجة المسلمة عنوانًا على الإيثار والخوف على الأسرة، تعرف حق الزوج في الواجبات الزوجية، وتضحياتها في سبيل أولادها كما أخبر الحديث الشريف: «ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيرا من زوجة صالحة، إن أمرها أطاعته، وإن نظر إليها سرته، وإن أقسم عليها أبرته، وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله»(٥).

وعلى الجانب الآخر، فقد تخلى الزوج عن واجباته، وتقاعس عن أداء مسئولياته، فوجدت الأم المعيلة فطرحت قيم العفو والتسامح والتضحية بين أفراد الأسرة، فكر التربص والملل باسم العصرنة والحداثة التي كان من أثرها زعزعة الروابط الأسرية، وإهمال تربية النشء على قيم الإسلام، وترك الأبناء فريسة للوحدة والقلق والتوتر وما ينعكس على شخصياتهم وسلوكياتهم، وعقوق الأبناء للآباء.

لقد كان حرص الأسرة المسلمة على صغارها، ومد مظلة الحماية والرعاية عليها غير مسبوق ولا يطاوله نموذج آخر، ووجدنا الأم والأب أحرص الناس على التضحية والفداء والموت في سبيل توفير كل الأسباب المؤدية لذلك، فكانا مثالاً للتقوى حرصًا على توفير الحماية الإلهية للأبناء في المستقبل، وعيا بقوله تعالى:

﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾

(النساء: ٩)

من ناحية أخرى، فقد تسرب فكر العولمة المناهض لوضع الأسرة في الإسلام، إلى المجتمعات المسلمة، وقوض الكثير من الأسر، نتيجة فكر الحرية المدمر، فقد زحف على هذه العلاقات أمراض المدنية المعاصرة في

(٤) شادية التل: دعوة المراجعة من أسباب التفكك الأسري، المكتبة الإسلامية Http://www.islamweb.net/newlibrary/display_umma.php?lang

(٥) رواه ابن ماجه - كتاب النكاح - حديث رقم ١٨٥٧.

إثارة الشقاق والنزاع بين الأزواج وبين الأبناء والآباء، على حق المتابعة وضبط الحرية في المنظومة الأسرية، وعدم التسليم بحق الوالدين في التوجيه والرقابة، وإصدار الأوامر والنواهي للأولاد كضمانة للتربية المسئولة، مما يحق للأبناء المنازعة والوقوف ضد هذا التسلط من الآباء على حرياتهم والتضييق عليهم، حيث جاءت العولمة بتقديس أفكار الحرية واستقلال الشخصية، وعدم الاستجابة لحق الآباء في الرقابة أو التوجيه، ناهيك عن إصدار الأوامر والنواهي.

هذا التنازع البائس منشؤه اختلاف النموذج الإسلامي عن الغربي في مناهج التربية، ومنظومة القيم الحاكمة فيهما، مما فجر نزاعًا بين جيل الآباء والأبناء، وكانت له تداعيات يخشى من تفاقم أثرها في الحاضر المعيش وفي المستقبل بما يعوق مسيرة الدين والوطن والأمة الإسلامية.

الآثار السلبية للعولمة على نموذج الأسرة في الإسلام:

أسفرت الجهود والمساعي الغربية المتواصلة ضد نموذج الأسرة المسلمة والقيم الحاكمة لها في عصر العولمة والمعلوماتية إلى إحداث شرخ نافذ في جدارها، فأصاب بعنف الجانب الفكري والسلوكي والاجتماعي والحضاري، فتحولت هذه القلعة الحصينة عبر التاريخ منذ أن جاء الإسلام إلى بناء هش تعصف به رياح العولمة والغزو الثقافي وتوجهه شطر الأيديولوجية الغربية، بما تنطوي عليه من أفكار وسلوكيات تتعارض مع فكر الإسلام ومع المقومات التي شيدت عليها الأسرة المسلمة.

ومن الملفت للنظر أن الأيديولوجية الغربية تجاه الأسرة، تزري بمكانة الأسرة، كصرح للمجتمع، قام عليه بناؤه، وتهمش وجودها في النظام الاجتماعي، ولا يرى في الأدوار التي تطلع بها قيمة تستأهل الحرص عليها، فالأسرة المسلمة تقوم بمجرد دور عادي للفرد أن يتبناه أو يقاطعه، وليس مؤسسة مجتمعية يلزم القيام بها حفاظًا على تماسك المجتمع وقوته وصلابته.

وبينما تترسخ هذه النظرة في نظام الغرب الاجتماعي، ويقل تدريجيًا الدور المحوري الذي لعبته الأسرة في بناء المجتمعات الإسلامية، على سند من أن الإسلام يؤكد بوضوح على وجود الأسرة وضرورتها في نظام الاجتماع الإنساني، كنظام أصيل يعمل على استمرار الأجيال، وتواصل العمران، بوجه عام، وهو ما جاء في قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾

(النساء: ١)

بالإضافة إلى الوضعية الخاصة للأسرة في المجتمع الإسلامي، فقد أقامها وشيدها كأساس للنظام الاجتماعي، لا يمكن الاستغناء عنه ولا التفريط فيه أو استبداله بصور من العلاقات المشبوهة التي تتأسس على الحرية الشخصية.

فالأسرة في الإسلام هي مؤسسة أصيلة لا يمكن إحلال غيرها محلها، كما دلت عليه نصوص ثابتة في القرآن بقوله تعالى:

﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

(النور: ٣٢)

وفي السنة يقول الرسول ﷺ: (الزواج سنتي فمن رغب عن سنتي فليس مني) الأمر الذي ينبيء عن أنها عبادة وتشريع واجتماع.

علم اجتماع «الصلاة»

د. أحمد خيري العمري

ما إن نتحدث عن الصلاة، أو عن أداء الشعائر بوجه عام، حتى نواجه بنظرة استصغار من بعض الناس، واستهزاء من بعضهم الآخر..

والاستصغار أحيانًا يأتي من أشخاص مسلمين، وملتزمين أيضًا، لكنهم ينتمون لتلك الفئة المثقفة، التي تتحدث عن إسلام خاص بها، إسلام النخب التي اتخذت من البرج العاجي مسكنًا ومستقرًا لها، حيث الإسلام هو حوار عن صراع الحضارات والحداثة واستيعاب الإسلام لها، أو عدم استيعابه لها.. إلخ.

أما الصلاة والأمور الأخرى المماثلة، فهي أمور ثانوية من وجهة نظرهم، وتخص عامة الناس وبسطائهم، حتى كأن ثقافتهم أسقطت عنهم «الفرض»، كما أسقط الشطط والغلو في التصوف «الفرض» عن قدامى غلاة المتصوفة.

وأحيانًا يأتي الاستهزاء من طرف آخر ومختلف تمامًا، ذلك الطرف الذي لا يؤمن بالدين من الأساس، أو الذي يقول: إنه يؤمن بروح الدين، وليس بتفاصيله «مهما كان ذلك يعني!».. ولذلك فهؤلاء سيقولون لنا: إن الصلاة مكانها القلب، وليس أي مكان آخر، وسيؤكد بعض منهم أنهم يناجون الله- عز وجل- طوال الوقت، وأنهم يصلون أكثر من أي شخص آخر، لكنها صلاة «بطريقتهم هم..» إن كانوا يصدقون، فلربما يعدون حديثهم مع أنفسهم حديثًا معه، عز وجل، كل شيء ممكن مع انعدام تعريف واضح لأي شيء عند هؤلاء.. وغير هؤلاء، وفي نفس الفئة المستهزئة نفسها، هناك فئة «ستفترض» أن الهدف من الشعائر هو الأخلاق القويمة العامة، حسن التعامل مع الآخرين، وبما أنهم «يفترضون» أنهم قد حازوا هذه الأخلاق الحسنة، فإنهم يبنون على الارتباط بين الافتراضين: سقوط فرض الصلاة.. أو الشعائر ككل.. ويشبه هذا من يفترض أن الأرض مسطحة، ويبني على افتراضه هنا أنه يمكن له أن يصل إلى نهايتها ليطل على الفراغ المطلق!.

والحق، أن الفئتين، على اختلاف منطلقاتهما، يسكنان معًا في الفراغ المطلق الذي لن يؤدي إلى أي مكان..

فالتصور أن الشعائر بأركانها وهيئاتها مقصودة ليس لذاتها وإنما لمقاصد مرتبطة بـ«السلوك القويم وحسن الخلق» فحسب، ويمكن الحصول على هذه المقاصد دون المرور بالصلاة، هذا التصور مساو بالضبط، في سطحيته وتسطيحه، للتصور أن الشعائر مقصودة لذاتها فقط، دونما وجود أبعاد اجتماعية وثقافية وحضارية لها.. فالفصل بين الأمرين فصل لتوأمين سياميين يمتلك أحدهما دماغًا والآخر قلبًا، سيكون فصلهما

حكمًا بالإعدام عليهما معًا.

«فرسان العقل» مروا.. ولكنهم لم يتركوا أي أثر..

في الوقت نفسه، فإن أولئك المثقفين، الذين يجيدون الكلام والتنظير في القضايا الكبرى في الندوات والقاعات المغلقة، يتجاهلون الدور الحقيقي للشعائر في تطور ومسيرة المجتمعات، بل إنهم يتجاهلون، أن عجزهم عن تضمين الشعائر للمعاني العميقة التي يتحدثون عنها في جلساتهم، هو سبب رئيسي من أسباب اضمحلال دورهم وكونهم محصورين في البرج العالي لا أكثر ولا أقل..

فعبر التاريخ الإسلامي، ظهرت فرق كثيرة مثلت اتجاهات مختلفة، وبعضها «مثل المعتزلة» كانت تعد «نخبة مثقفة» بلغة اليوم، واستطاعت هذه النخبة أن تصل إلى السلطة لفترة ما في العصر العباسي، وفي واحدة من أكثر فترات هذا العصر ازدهارًا وقوة، ولكنها عندما أطيح بها عن السلطة، أزيحت من التاريخ كله، ولم يبق لها اليوم أي أثر في الفكر الإسلامي بامتداداته الشعبية الذي لا يزال يمارس فعاليته.. لقد كانت بعيدة عن جماهير يومها، وظلت كذلك، وكان لابد لهذا البعد عن الناس العاديين، أن ينتهي إلى هذه النهاية..

و«البعد عن الناس» هي عبارة عن وجه آخر للبعد عن الشعائر التي تهم بسطاء الناس ويمارسون تدينهم من خلالها، وقد عجز المعتزلة، في خضم اهتمامهم بالقضايا الكبرى المعقدة و«الافتراضية أحيانًا»، عن التفاعل مع الشعائر الدينية، أو حتى في ضخ معاني عقائدهم في الشعائر، وبذلك ظلت هذه المعاني بعيدة عن الناس حبيسة الكتب والمجلدات على الرفوف وكان ذلك يعني موتها الأكيد..

وعلى العكس من المعتزلة، فقد كانت هناك فرق تمثل الضد من التيار العقلاني بكل المقاييس، فرق كانت عقائدها تمثل الخرافة والانحراف عن كل ما جاء به الاسلام.. ولكن هذه الفرق تمكنت من تضمين «عقائدها» تلك في شعائر «بدعية».. ونزلت بالشعائر إلى الناس وحياتهم اليومية فكانت بمنزلة «حصن» لهذه العقائد عبر القرون على الرغم من خرافية هذه العقائد وسلبيتها وتجاوز الزمن لها..

الشعائر: ثابت في تاريخ متغير

كانت الشعائر، عبر تاريخ الإنسانية، ثابتا في كل المجتمعات البشرية، أقصد هنا بالشعائر، وبغض النظر عن نوعية «المعبود» سواء كان حجرًا أو طوطمًا أو شجرة أو برقا، أو حيوانًا ما، أو فكرة هلامية تضم ذلك كله.. أو المعبود الحق.. الإله الواحد الأحد الفرض الصمد.. على الرغم من اختلاف المعبود الذي توجه إليه الشعائر، إلا أن الشعائر بحد ذاتها، وباختلاف طبيعتها ظلت موجودة، تتغير أشكالها وتتضاد، كما يتغير المعبود، تكون رقصًا حول النار مرة، أو تأملا خاشعًا، أو طقسًا يختلط فيه الفحش بالعبادة، أو غناء رتيبًا أمام شروق الشمس، لكن الشعائر ظلت موجودة في عمق التجربة الإنسانية.. طوال مسيرتها، من أقاصي جبال التبت، إلى مجاهل إفريقية، مرورًا بمراكز الحضارة الكبرى، كانت الشعائر موجودة، ربما كان هناك، في كل وقت وشرذمة مثل هؤلاء، يستصغرون الشعائر، ويستهزئون بها، ويقولون: «المهم هو ما في القلب».. وكانوا ينتهون ويندثرون، وكانت بعض الديانات تتغير وتذبل، ويتبدل شكل المعبود، موضوع العبادة..

لكن الشعائر، ظلت موجودة..

الشعائر التي ظلت قائمة، لم تقتصر يومًا على الدين والتعبد لمعبود ما «أو لمجموعة معبودات» لكنها اشتملت أيضًا على شعائر، أو طقوس، في صميم الممارسات الاجتماعية مثل الزواج والولادة والموت والبلوغ وتنصيب الملك أو شيخ القبيلة والحرب.. وكانت هذه الطقوس- مع طابعها الاجتماعي- لا تخلو أحيانًا من توجه للمعبود، حسب درجة تدين المجتمع.. لكن الأساس في هذه الممارسات الطقوسية- الشعائرية كان اجتماعيًا.

وهذا يعني، أن ممارسة الشعائر ليست مرتبطة بالضرورة بالتدين، وبالحاجة العميقة إلى الدين، أو إلى دين ما، التي لا تشك في وجودها في أعماق النفس الإنسانية..

على هذا الأساس، يمكن تعريف الشعائر والطقوس بوصفها «حركات ضمن نسق معين متكرر ومرتكز حول رمز ما» موجودة دومًا في التجربة البشرية، ترتبط بالدين أحيانًا، وتنفصل عنه في أحيان أخري: لكن هذه الطقوس- أو المراسيم- أو الشعائر، بمعنى أدائها المتكرر المرتبط برمز ما- كانت مصاحبة للإنسان، مادام هذا الإنسان يسكن في مجتمع ما..

الميل إلى الشعائر كتعبير عن هوية المجتمع

ما سر هذا الميل الإنساني إلى تكوين الطقوس والشعائر؟.. ما حقيقة دوافعه وجذوره؟..

لعقود طويلة، كان الباحثون في علم الاجتماع، يركزون على «الوظيفة الاجتماعية» لهذه الطقوس، باعتبارها تلعب دورًا في تماسك المجتمع، وفي إظهار «الهوية المستقلة» لهذا المجتمع ولأفراده الذين يمارسون هذه الطقوس.. ولعله من نافلة القول أن هذا الدور الاجتماعي للطقوس هو أمر لا يمكن إنكاره.. وهو أمر لا داعي لإنكاره، إنه مهم فعلًا، ولأنه لا يمكن لمجتمع أن يستمر دونه..

لكن، العلوم عندما تنفتح بعضها على بعض تتجه نحو آفاق أبعد، ربما لا تلغي الآفاق الأدني، لكنها تتوهج أكثر، بأعماق أبعد، عندما يلقي فهم جديد، على الحكاية القديمة..

وهكذا، فإن فصلًا جديدًا، في قصة الشعائر والطقوس، قد يشرح لنا ما نتوق لفهمه..

المهمة المستحيلة: إلغاء الشعائر

يبدو أن محاولة إلغاء الشعائر من الحياة الإنسانية، سيكون أمرًا أصعب مما تخيله رواد الإلحاد والعلمانية الأوائل، الذين كانوا دعاة لنسف الشعائر بدعوى تتراوح بين «القلب هو المهم» والأمر كله محض «وهم»..

كانوا يراهنون على العقل، في حربهم ضد الشعائر، وضد الدين، منذ أن أعلنوها صريحة قبل قرنين أو ثلاثة، فيما تصوروا أنه سيكون «عصر العقل»..

مرت الشعائر «على الأقل في شكلها المباشر» بفترة انحسار، لكن المحصلة النهائية للأمر أنها زادت، وامتدت.. وتنوعت، وبينما كانوا «هم» يفسرون الأمر أنه مرتبط بإحباطات الحياة المعاصرة وشدة وطأتها.. وأن الشعائر تلعب دورًا مهدئًا وملطفًا، يأتي العلم الحديث، بالذات علم البيولوجيا الحديث، الذي طالما راهنوا

على أنه سيلغي هذه الشعائر، ليقول لنا: إن الشعائر لا يمكن أن تلغى، لأنها ببساطة، موجودة في رءوسنا، نحملها معنا أينما ذهبنا.. بعبارة أخري: إنها في أدمغتنا.. في الدماغ الإنساني!

الطقوس عامل مشترك بين المخلوقات

من زاوية أبعد، ورؤية أكثر شمولية، سنرى أن هذه «الطقوس» بمعناها الأكثر سعة، لا تقتصر على النوع الإنساني فحسب، بل تشمل أغلب المخلوقات، إن لم يكن كلها جميعًا، وما أقصده بالطقوس هنا، لا علاقة له بالمفهوم الديني منها، بل بالمفهوم العام الواسع لها، أي بكونها «حركات، ذات طابع متكرر، وتؤدى بشكل جماعي»..

معظم مخلوقات الله، تؤدى نوعا ما من الطقوس، من النحل، إلى الحيتان، مرورًا بالقردة ومختلف أنواع الطيور، وبعض أنواع الذئاب، والكلاب البرية والشمبانزي، لديها طقوس معقدة جدًا، وتؤدى بشكل جماعي، وتتضمن أصواتًا معينة، وتغيرًا في ملامح الوجه.. بعض العناكب، والسمندل، وأنواع معينة من الذئاب، تقوم بأداء جماعي معقد تصاحبه أصوات معينة، بعض الحيوانات المفترسة تقوم بأداء «طقوس» معينة قبل افتراس الضحية، أو قبل أن تبدأ بالصيد والهجوم..

حتى الحيوانات «المنزلية» لديها طقوس خاصة بها، قد تكون ترحيبية مثل هز الذيل للكلب، أو تقليم الأظافر «على الأثاث» للقطط.. ويلاحظ أن هذه الحيوانات، مهما صارت أليفة، فإنها في موسم «التكاثر» تلبى نداء الطبيعة بالطريقة نفسها التي قامت بها أسلافها قبل قرون، و«المواء الشباطي» الذي تمارسه القطط، قبل تزاوجها، يندرج ضمن الطقوس في تكرار الإيقاعات ووجود الأصوات المصاحبة لها..

وهكذا، فإن كل المخلوقات، لديها هذا الحس «الطقوسي»، وممارستها له، أمر طبيعي جدًا، جزء من غريزتها، ومن فطرتها، لا أحد يعلمها إياه.. ولا تكتسبه من أحد.. إنما هو في داخلها.. وفي شبكتها العصبية تحديدًا، التي تسمي، عند بعضها على الأقل، دماغا!..

وحده الإنسان في أفق أعلى

وحده الإنسان، من دون كل هذه المخلوقات، من السحلية والنملة إلى الحوت.. وحده الإنسان يتميز عن كل المخلوقات، بأنه ينقل شعائره إلى أفق آخر.. إنه يمارس «حركات إيقاعية متكررة ونمطية» كما تفعل هذه المخلوقات، لكن، شيء آخر يمسها و«يمسه».. فيجعل من هذه الحركات النمطية المتكررة شيئًا آخر، وتجعله أيضًا شيئًا آخر.

شيء ما، يدخل تلك الحركات، فيجعلها، أحيانًا، على الأقل، تبعث الضوء..

وتجعله منه، مخلوقًا ضوئيًا..

أحيانًا على الأقل!..

ما فوق الطبيعة

ما يميز هذه الشعائر الإنسانية، عن طقوس الحيوانات والمخلوقات الأخرى.. هو الإيمان بشيء ما، شيء ما فوق الحواس والغرائز، شيء ما فوق المحسوس المادى والمباشر، فوق هذا الواقع بأبعاده الثلاثة الجاثمة على الصدور..

الإيمان بشيء ما، فوق هذا الواقع، «فوق الطبيعة».. ينفخ في هذه الحركات الحياة، ويحولها إلى شعائر.. شعائر تملك «الصلة» بما هو فوق ذلك الواقع.. بما وراء تلك الطبيعة..

سنسميه نحن «الغيب» طبعًا.. وقد يسميه آخرون أشياء أخرى، لا مشكلة كبيرة في ذلك..

لكن السؤال هنا، في الخطوة التي سبقت نفخ ذلك الإيمان بالغيب في الحركات، لتصير شعائر وتصير صلة بما هو فوق..

السؤال هو: كيف استطاع الإنسان، أصلًا، أن يتفرد بهذا؟.. لا أقصد هنا، التفرد بالإيمان به، عز وجل، بل بالإيمان بشكل عام، سواء كان الإيمان بحجر، أو بالقمر، أو بالبرق.. أو بروح شريرة تسكن كهفًا في الغابة المجاورة..

ما الذى امتلكه الإنسان، وميزه عن بقية المخلوقات، على قمة سلم التمايز.. ما الذى جعل الإنسان قادرًا على الإيمان بالغيب، أو بشيء ما وراء هذا الواقع المادي..؟

آدم ودماغه الأعلى

يمتلك الإنسان دماغا هو الأكثر تعقيدًا بين كل الأعضاء الحية وكذلك الأجهزة غير الحية أيضًا.. بل إنه الأعقد - بلا أى منازع - من أى شيء نعرف بوجوده في عالمنا.

يتألف الدماغ من حوالى ١٠٠ مليار خلية عصبية كل واحدة منها ترتبط بـ ١٠ آلاف خلية عصبية أخرى ولكل خلية منها كدريليون - أى مليون مليار (أى واحد وأمامها خمسة عشر صفرًا) - نقطة اشتباك عصبية.

وتفوق الدماغ البشرى على بقية مخلوقات الله، ليس مسألة إحصائية نباهي بها فهذا التفوق الإحصائي استوجب تفوقا وظيفيًا. هناك وظائف عليا صار بإمكان الدماغ البشرى أن يؤديها بينما بقية المخلوقات ذات الأدمغة الأقل شأنًا وتعقيدًا.. لا تستطيع أن تفكر بأداتها لأنها لا تستطيع أن تفكر أصلًا!!

بعبارة أخرى يمتلك الدماغ البشرى في تركيبه الداخلى مشتركات حتى مع الزواحف ولا يزال هذا المشترك قابعًا في رأس كل منا، ولايزال باسمه العلمي يحمل ذلك المشترك مع الزواحف **reptilian** إنه الطبقة الأدنى من طبقات الدماغ (**brain stem**) جذع الدماغ، وهى الطبقة المسئولة عن الأيض، التنفس، والهضم، أما الطبقة التى تليها فهى تسمى الدماغ المتوسط **midbrain** فهى مسئولة عن العواطف بالدرجة الأولى أما الطبقة الثالثة وجزءها الأهم الذى هو **neocortex** القشرة الحديثة - فإنها تختص باللبائن من المخلوقات وهى الأكبر عند الإنسان تحديدًا حيث تشكل حوالى ٧٦٪ من دماغ الإنسان.. وهى التى تمنحه - تحديدًا - ما يمتلكه من ملكات ينفرد بها عن بقية المخلوقات.

مثل: التفكير - المنطق - والقدرة على (التجريد) ومن بين كل هذه فإن الأخيرة بالذات هى التى تخص موضوعنا الشعائر:

القدرة على إنتاج أفكار [مجردة]

القدرة على التجريد أو على الفكر التجريدى هى صفة حصرية بالإنسان لا يوجد أى مخلوق آخر على وجه الأرض مهما درب وأتقن تدريبه له هذه القدرة.. التفكير التجريدي:

والتفكير التجريدى بالتعريف يعتمد على القدرة على تجريد أمر ما من تفاصيله الكثيرة التى قد لا تكون مهمة رغم وجودها المادى المباشر للوصول إلى لب هذا الأمر أو

صفته الأساسية الجوهرية التي ربما لا تمتلك وجودًا ماديًا مباشرًا.

إنه بعبارة أخرى القدرة على الوصول إلى أو التفاعل مع معان معينة ليس لها وجود داخل النطاق المادى بل تقع خارج أسوار هذا النطاق.

فالفيضان مثلًا أو البركان أو العاصفة الشديدة ستنتج أمورًا ذات طابع سلبى، كل المخلوقات التى ستتعرض لهذه الظاهرة ستتأثر حياتها بسلبياتها، لكن الإنسان وحده سيستطيع أن يخترق هذه الظاهرة إلى ما وراءها يتجاوز تفاصيلها «يجردها من تفاصيلها» - ليسميها: شرًا أو يسمى غيرها: «خيرًا».

كل المخلوقات بما فيها الحيوانات يمكن أن تشعر بالسعادة أو بالحزن أو بالرضى أو بالغضب لكن الإنسان وحده يمكنه أن يسمى ذلك أن يطلق الاسم على مجرد شعور أى أن يكون «المسمى» لا يتعلق بحيز مادى أو مكانى بل فى بعد آخر غير منظور.

الإنسان وحده بقابليته على التجريد يمكن له أن يتصور هذا البعد غير المنظور أن يؤمن بوجود بعد كهذا حتى يؤمن به بعدها أو يرفضه ويمكن له أن يتعامل مع «رموز» ليس لها وجود مادى لكنها محملة بمعان خارج هذا الوجود واستعمال هذا الرمز يحمله فورًا إلى هذا البعد الآخر.

هذا التجريد هو ما ميز الإنسان عن كل المخلوقات الأخرى وكان دماغه المميز بالذات دماغه الأعلى «القشرة الحديثة» هو الآلة التى جعلته قادرًا على ذلك.. قادرًا على التجريد وعلى ابتكار الرموز اللغوية التى تحمله وتصله بالمعانى المجردة أى الأسماء.

الإنسان الأول والأسماء: القدرة على التجريد

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾

(البقرة: ٣١-٣٣)

سيكون ظلمًا كبيرًا بحق القرآن الكريم وبحق أبينا آدم وبحق فهمنا للقرآن وبحق أنفسنا وبحق الأدمغة التى نحملها فى رءوسنا بالتحديد أن نشيح بوجوهنا عن هذه الآية عندما نأتى على فهم ما تميز به الإنسان من قابلية للفهم التجريدي.

سيكون ظلمًا أن نفهم أن الأسماء هى محض أسماء لقنها الله - عز وجل - لآدم وانتهى الأمر.

إنما الأمر أكبر بكثير إنما هى قابليته «الأصيلة» التى أودعها الله فيه على اقتحام حجب اللامرئي، المعانى التى لا تسكن الواقع الفيزيائى بل تستقر فى بعد آخر.

«الأسماء» هنا هى قابلية الإنسان على الإمساك بالمعانى ووضعها فى قوالب اللغة وجعل هذه القوالب رموزًا تعنى أكثر بكثير من الأصوات التى تعنيها معان عميقة لكنها (مجردة) خارج نطاق الزمان والمكان الذى سقطت فى أسره الكائنات الأدنى.

الأسماء هنا هى كناية عن قدرة الإنسان على تعامله مع الرموز مع المجرد مع أبعاد ما وراء طبيعية مع البنية الفوقية.

وهذه كلها بمجموعها هى ما ميزت الإنسان وجعلته على قمة السلم.

●●●

ليست هذه القابلية خيرًا محضًا بالضرورة إنما هى آلة ومثل أى آلة يمكن استخدامها باتجاهين.

إنها آلة متطورة حتمًا وأكثر تطورًا من أى لغة أخرى فى رأس أى مخلوق آخر.. أو أى جهاز حاسوب حديث ولكن هذا يجب أن لا يبهرنا ويجعلنا نتصور أن أى نتيجة تصل إليها هذه الآلة هى صحيحة ومطابقة للصحة.

إنها مثل أى حاسوب حديث ومتطور نتائجها تعتمد على «المدخلات» input فإن كانت المدخلات متحيزة أو انتقائية فإن الناتج النهائى لأعظم آلة على الإطلاق لن يكون عظيمًا أبدًا.

لذلك تأتى الآيات الكريمة لمجادلة هذه القابلية الإنسانية الفذة عندما وضعت فى المسار الخطأ.

﴿ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم ﴾

(الأعراف: ٧١)

الانتقال بالطقوس إلى أفق الشعائر

ما علاقة هذا كله بالموضوع الأصلي: الشعائر؟

علاقته أن الإنسان وحده بقابليته التى جعلته على قمة سلم الخليقة يمكنه أن يحول تلك «الغريزة الطقوسية» أى الميل إلى أداء حركات بإيقاع متكرر وجماعى يشترك فيه مع الزواحف والسحالى والقردة والحيتان.. وحده ينفرد أن بإمكانه أن يحول هذه الطقوس والإيقاعات إلى شعائر، وحده يمكنه أن يخرج هذه الطقوس عن إطار الأبعاد الفيزيائية ليحلق بها نحو عالم المجرد نحو غيب لا يمكن التعامل معه بالحواس المادية بل لا يمكن تحسسه إلا بذلك الدماغ الأعلى الذى ينفرد به الإنسان عن المخلوقات بل حتى عن الملائكة.

وحده الإنسان يمكنه أن يضخ الرمز والمعنى فى تلك الإيقاعات فإذا بها تضج حيوية وتفاعلا وإذا بالرمز هو بمنزلة الروح لها.

وحده الإنسان من بين كل المخلوقات يمكنه أن يحول تلك الحركات من مجرد حركات فيزيائية إلى (صلة) تربطها ببعد آخر غير منظور لا تستطيع الزواحف حتى أن تتصور وجوده.

لأنها لا تستطيع أن تتصور!!

●●●

لنرتب الآن الموضوع من جديد

أولًا: تشترك معظم المخلوقات غريزيًا فى أداء حركات إيقاعية نمطية متكررة تؤدى غالبًا بشكل جماعى وتوظف أيضًا لأداء دور اجتماعى بطريقة أو بأخرى.

ثانيًا: يشترك الإنسان معها فى ذلك أيضا حيث لا يخلو مجتمع إنسانى معروف بدائى أو متطور أو (بين-بين) من أداء الشعائر أو الطقوس، وبعض القبائل البدائية فى استرالية تؤدى طقوسًا شديدة التعقيد احتفالًا ببلوغ ذكورها لكن هذه الطقوس تكاد تكون مطابقة لما تفعله بعض أنواع الطيور.

ثالثًا: هذا (المشترك) بين الإنسان وسواه يتحكم به جهاز عصبى ما يختلف باختلاف الكائن ورتبته فى سلم التمايز وهو الدماغ

الأدنى «جذع الدماغ» بالنسبة إلى الإنسان وفصائل أخرى متنوعة وهذه الطبقة يبدو أنها السبب في الميل لخلق الطقوس والشعائر وهذا يعني أن هذه المخلوقات ومن ضمنها الإنسان مبرمجة على صنع (الطقوس) أنها تحوى في داخلها برنامجًا عصبيًا يجعلها تصنع ذلك.

رابعًا: الإنسان ينفرد وحده بأنه يستطيع أن ينقل هذه الإيقاعات الحركية (التي يبرمج على تكوينها) باتجاه أعلى أكثر تجريدًا نحو أفق أكثر رقيًا وتعقيدًا إنه يتعامل من خلالها مع معان مجردة بشكل يجعل هذه الحركات أكثر من مجرد حركات بل كل حركة تصير «رمزًا» يرتبط بالمعنى الفوق ما وراء الطبيعي.

خامسًا: تفرد الإنسان بهذه القابلية يعود أصلًا إلى تفرد دماغه وامتلاكه الطبقة العليا المتفوقة التي تجعله قادرًا على أداء ملكات التفكير والمنطق والفكر التجريدي.

إنه تفرده الذي جعله قادرًا على أن يتعامل مع (تسميات) ويطلق عليها (الأسماء) كناية عن قدرته على وضع المعاني العميقة داخل قوالب لغوية في عملية لعلها الأعقد منذ بدء الخليقة.

•••

البرمجة على الشعائر: الدماغ الخاشع

وهكذا وكما ترون فإننا مبرمجون على أداء (شعائر) ما بطريقة ما نحن والزواحف والحيتان والكلاب البرية.

بفارق أننا وحدنا قادرون على فك شيفرة البرنامج نفسه بطريقة مختلفة بطريقة تنقله وتنقلنا إلى أفق أعلى.

•••

لعل الأمر كله مخيب للآمال.. مخيب لآمال فريق على الأقل فقد تعودنا عندما نتحدث عن الصلاة أن نتحدث عن القلب الخاشع وليس عن الدماغ ولا عن طبقات الدماغ المشتركة مع السحالي والكلاب!!

هناك المزيد من الخيبة إذًا!

•••

بين طبقتي الدماغ اللتين تحدثنا عنهما السفلى المشتركة مع معظم المخلوقات والتي تحوى البرنامج الأساسي لأداء الشعائر والعليا التي ينفرد بها الإنسان والتي تمكنه من فك شيفرة البرنامج نحو أفق أعلى هناك طبقة وسطى إنها الطبقة القلب **midbrain** وهي مركز العواطف في الدماغ بعبارة أخرى عندما تمر بنا تلك القشعريرة في لحظات الصلاة عندما نستحيل ريشًا ملونًا في خضم إعصار من الخشوع عندما نشعر أن الكون كله قد انكمش حتى صرنا مركزه أو أننا تمددنا لنكون الكون كله كل هذا وربما أكثر مركزه تلك الطبقة الوسطى من الدماغ.

القلب منه!!

يا للخيبة سيقولون!!

لا يجب أن تخيب آمالنا إذا فكوننا مبرمجين منذ أن بدأ الخلق على أداء شعائر ما وأن الدماغ كله بطبقاته الثلاثة مشترك في عملية (الصلاة) هو أمر يجب أن يجعل أفواهنا تسقط من الإعجاب والانبهار لا أن تظهر علامات الخيبة والاشمئزاز على وجوهنا.. «لكن الدماغ»؟! سيقولون.

نعم ربما هي صورة لم نألفها في الحديث عن موضوع كهذا

لكن ربما أيضًا هي الصورة الأفضل.. ربما هي الصورة الأكثر وضوحًا

ربما هي الصورة التي تستطيع أن تكون مرآة لنا ولما نريد أن نكون

أو بالأحرى: لما يجب أن نكون

ضلالة الفهم!!
حول رسالة الأزهر



د. السيد محمد السيد عبدالنبي
الأمين العام المساعد للثقافة الإسلامية
بمجمع البحوث الإسلامية

طالعتنا صحيفة الأهرام، يومى الأربعاء، الموافق للخامس، والثاني عشر من فبراير ٢٠١٤م، بمقالين للأستاذ أحمد عبد المعطى حجازي؛ الأول بعنوان (الثورة والثورة المضادة)، والثانى بعنوان (ضلالة الفصل أم ضلالة الخلط). وفي هذين المقالين هاجم الكاتب الأزهر الشريف، ومجلسه، والقائمين عليها، حتى إنه زعم أنها تتبنى ثورة مضادة لثورة الثلاثين من يونيو لعام ٢٠١٣م! وهذه التهم محض افتراء، لا دليل على شيء منها.

إن الأزهر الشريف، المرجعية الإسلامية الرفيعة، بكل مؤسساتها وعلمائها، وعلى رأسهم الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر- يقف بالمرصاد لأى محاولة تشوه صورة الإسلام، ولسنا بحاجة إلى الدفاع عن الأزهر وموقفه، أو موقف أى مؤسسة من مؤسساته، أو وسيلة من وسائل إعلامه، لأن من يقرأ تاريخ الأزهر، بحيدة ونزاهة، يعلم يقينا، أن الأزهر كان ولم يزل، وسوف يظل بإذن الله، يدعو إلى الله على بصيرة، ويقف إلى جانب الضعفاء والمظلومين بغض النظر عن الدين أو العرق أو اللون، ولا يحيد عن منهج الوسطية الذى تبناه، وسار عليه شيوخه وعلماؤه على مدى التاريخ.

أما عن ضلالة فصل الدين عن السياسة، فإن الأخطر منها الضلال في فهم الدين، لأنه لا يقول بفصل الدين عن السياسة إلا من ضل في فهم الدين ذاته، وقد تبنى الكاتب فكرة فصل الدين عن السياسة، متأثرا بما حدث في أوروبا، من استنادهم إلى مقولة (أعط ما لقيصر لقيصر، وما لله لله) وهي مقولة لا تتناسب مع الإسلام، لأنه دين شامل لكل مناحي الحياة، وهو دين يضع قيصر نفسه، على قدم المساواة، مع أفراد رعيته، أمام الله عز وجل؛ فلا تفاضل في الإسلام بين الناس إلا بالتقوى.

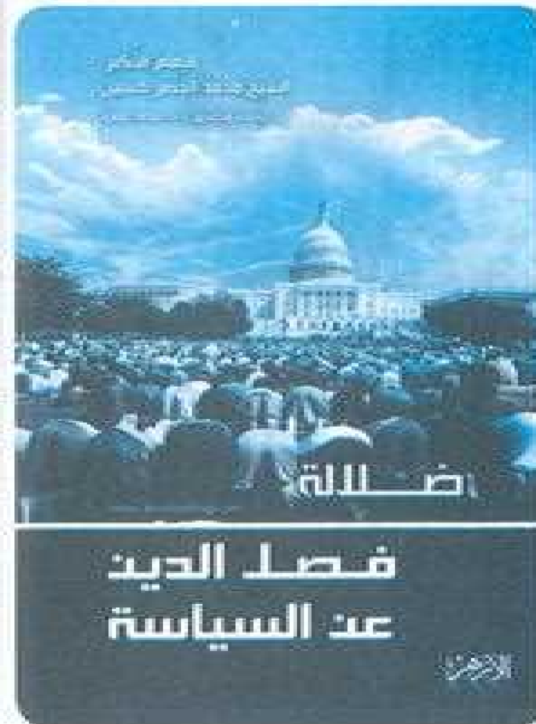
ومن يتدبر سيرة النبى ﷺ يتبين له أن الإسلام دين شامل لا يعرف ولا يعترف بفكرة فصل الدين عن السياسة، فالنبى عليه السلام حين هاجر إلى المدينة المنورة، تولى بنفسه رئاسة الدولة الإسلامية، فجمع بين كونه النبى

الموصول بالسماء عن طريق الوحي ، وكونه الزعيم الذى يؤسس الدولة ويقودها ، فقد آخى بين المهاجرين والأنصار ، وعقد عهدا للمسالمة والدفاع المشترك بين سكان المدينة مع اختلافهم فى الدين ، وأرسل الرسائل إلى الملوك والرؤساء ، ولم تكن دولة المدينة دولة دينية بالمعنى المعروف فى الغرب ، وإنما كانت دولة المواطنة الكاملة .

ومن يتدبر نصوص القرآن وأحاديث الرسول عليه السلام ، يتبين له أن الإسلام ينظم العلاقات بين البشر جميعا ، على مستوى الأفراد والأسر والشعوب والدول ، وأنه ينظم العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية أفضل تنظيم ، وأنه لا مبرر فى ظل الإسلام لأن يدعو أحد إلى فصل الدين عن السياسة ، كما يدعو الكاتب وغيره ممن تأثروا بالغرب ، وغفلوا عن الفوارق بين الإسلام وغيره من الأديان . بل إنهم غفلوا عن مثل هذا الحديث النبوى المشهور ، الذى يردده العلماء والعوام ، من قوله عليه السلام : (الدين المعاملة) وهل يشك عاقل فى أن المعاملة تشمل كل مناحي الحياة ؟ !

وحديث الكاتب عن مقال فضيلة الإمام محمد الخضر حسين ، بعنوان (ضلالة الفصل بين الدين والسياسة) ، وهو الحديث الذى جاء تحت عنوان (ضلالة الفصل أم ضلالة الخلط) ، يشير إلى أنه لم يدرك ما يهدف إليه الإمام فى هذا المقال ، من تأكيد على شمولية الإسلام لشتى مناحي الحياة .

● فالأمر الأول الذى قصده الشيخ محمد الخضر حسين فى هذا المقال ، هو تأكيد ثلاث حقائق ؛ الأولى : عموم الرسالة لكل الناس ، والثانية : اشتمال شريعة الإسلام على ما لا



يتناهي من الوقائع ، والثالثة : أن هذه الشريعة أحكم ما تساس به الأمم .

● والأمر الثاني : أن فى القرآن أحكاما كثيرة لا يمكن إدراجها فى باب التوحيد ولا فى باب العبادات ، منها أحكام عن البيع والربا والرهن والاستدانة ، والإشهاد والنكاح ، وغير ذلك ، وفى السنة الصحيحة أيضا أحكام مفصلة حول المعاملات والجنايات ، وهذا الأمر بشقيه يدل على أن الإسلام دين يتناول قضايا الحياة كلها ، وأنه لا يمكن لنا أن نفصل بين الدين والسياسة .

● والأمر الثالث : أن سير أصحاب النبى ﷺ ، وهم أعلم الناس بمقاصد الشريعة ، تدل على أنهم كانوا يرون للدين سلطانا على كل مناحي الحياة ، حيث إنهم كانوا يأخذون عهدا على الخليفة عند مبايعته أن يعمل بكتاب الله وسنة رسوله .

● والأمر الرابع : أنه ليس فى الإسلام سلطة دينية إلا على معنى أن الأمير أو الحاكم ينفذ أحكام الشريعة المفصلة فى الكتاب والسنة ، ومعنى هذا أن الإسلام لم يترك السلطة مطلقة فى أيدى الأمراء ، وإنما قيدها بالعمل بالشريعة التى لا هدف لها إلا تحقيق مصالح الناس ، لأن الله تعالى غنى عن العالمين ، ولم يشرع لهم إلا ما يجلب مصلحة أو يدفع مضرة .

● والأمر الخامس : أن الأمير المسلم ليس عنده فى الواقع سلطات دينية ودنيوية كما يدعى البعض ، وإنما عنده سلطة واحدة ، هى تدبير شئون الأمة على مقتضى القوانين والنظم التى لا تخالف الشريعة ، وتجريد الحاكم أو الأمير من السلطة الدينية عزل له عن الإمارة فى نظر الشريعة ، ومن لا يكون أميرا فى نظر الشرع الحنيف ، ليس بأمير فى نظر المسلمين .

● والأمر السادس : أن الأمر أكبر من مجرد الخلاف فى مسألة فصل الدين عن السياسة ، لأن مصيبة المسلمين ليست - والكلام بنصه من مقال الإمام - «فى تركهم السياسة مربوطة بالدين كما يزعم البعض ، وإنما هى [في] ذهولهم عن تعاليم دين لم يدع وسيلة من وسائل النجاة ، إلا وصفها ، ولا قاعدة من قواعد العدل إلا رفعها ، وحث عليها ، فلا يكون الإعراض عن الشرع الحنيف إلا تخريبا للدين والسياسة معا .

● والأمر السابع : أن الأمير أو الحاكم فى الإسلام يصل إلى سدة الحكم ببيعة أهل الحل والعقد من العلماء والرؤساء ووجوه الناس ، وهذا هو ما نسميه الآن بـ(الانتخاب) ، حيث يصل الحاكم الذى يرعى حدود الشريعة ، إلى سدة الحكم ، بالانتخاب وليس بالاغتصاب كما يرى الكاتب .

● والأمر الثامن : أنه من حق الشعب أن ينتقد الحاكم ويعترض عليه ، كما حدث مع الخليفتين أبى بكر وعمر ، ومن ذلك أن عمر بن الخطاب اعترض على قتال المرتدين فى عهد أبي بكر ، ولما علم أن أبا بكر ينفذ بهذا القتال أمر الرسول عليه السلام اقتنع به ، ومن ذلك أيضا أن امرأة اعترضت على عمر لما أراد أن يضع حدا للمهور ، وتلت قول الله تعالى :

﴿ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا ﴾

(النساء : ٢٠)

فرجع عمر عن رأيه ، وقال (أصابت امرأة وأخطأ عمر) .

أما ما دعاه الكاتب بضلالة الخلط بين الدين والسياسة ، فإننا نوافقه عليها فى حالة واحدة ، وهى أن يساء تفسير الدين لتبرير أمر سياسى ، أما مع إحسان الفهم فالواجب أن يكون الدين سيدا للسياسة ، لأنه لا يقودها حينئذ إلا إلى الخير ، وهل أرسل الله رسوله عليه السلام ، إلا (رحمة للعالمين) ؟ !

والخلاصة أن الإسلام دين شامل لكل مناحي الحياة ، وأن مقاصد الشريعة هى رعاية مصالح الناس فى الدنيا والآخرة ، وأن الحاكم ليس له من سلطة إلا أن يدبر شئون الأمة على مقتضى الشريعة ، وأن العيب فى تقصير المسلمين وذهولهم عن تعاليم دينهم ، ولو أنهم أحسنوا فهم الشريعة والعمل بها لتغير حالهم إلى الأفضل ، لأنهم لا يخرجون حينئذ عن واحد من اثنين ؛ الأول : أن يوفق الحاكم فى إدارة شئون البلاد وفقا لمقتضى الشريعة ، فتنعم البلاد بالسلم والتقدم والرخاء ، والثانى ألا يدبر الحاكم شئون البلاد وفقا لمقتضى الشريعة ، فيعارضه الشعب ، ويسعى لتقويمه ، وفى الحالتين لا تعرف الشريعة الإسلامية سلطانا للحاكم لأنه الحاكم ، ولا تنقص من قدر مواطن بسبب جنس أو لون أو دين .

قصة العدد

عمر في بيت المقدس



أ. د. محمد رجب البيومي

أخذ راهب مدينة «إيلياء» يتطلع في وجوه أصحاب القافلة التجارية القادمة من مكة، وجعل ينظر في ملامح التجار متفرسا كأنه يبحث عن غريم أخذ ماله، ويود أن يقبض عليه، ومضى غير بعيد، ثم لم يلبث أن قدم مرة أخرى يتطلع في الوجوه.

قال حنظلة بن لؤى: مالك هكذا أيها الرجل، تروح وتغدو دون أن تتكلم، قل، فإذا كانت لك حاجة عملنا على إنجازها لك!

قال الراهب: أنتم من مكة؟ فقالوا: نعم.

قال: وأنا منذ عشرة أعوام أعترض القوافل، لأنظر في وجوه الملأ من قريش، لأني أعلم أن نبيا عربيا أظل زمانه، وسيعلن دعوته في مكة، وأنا أعرف وصفه ووصف أصحابه ممن سيعاونونه على نشر الدين الجديد، لذلك أتطلع في وجوه القريشيين دون ملال، وما رأيت وصفا مطابقًا فيكم لما أعلم من صفات الرسول وصحابته.

ضحك حنظلة وقال: كنا نود أن يكون بيننا النبي الجديد، فإذا لم يكن فبعض صحابته الذين تعرف ملامحهم، دون أن تراهم من قبل.

وقال عربي آخر – وكأنه يتهكم: انتظر ثلاثة أيام فستأتي قافلة ثانية تعبر إيلياء إلى الرملة، وقد يكون بها من تود!

انطلق وجه الراهب «نسطورس» بالبشر، وصاح: قد يأتي الله بالفرج، وأنا من عشر سنوات أنتظر دون يأس!

رحل الراهب إلى كنيسته، وهو يترقب مجيء القافلة في قلق، وقد ألهم أنه سيجد فيها من يطلب؟ وتجسد هذا الوهم في خياله حتى كأنه حقيقة! وفي صبيحة اليوم الثالث خرج إلى قارعة الطريق ينتظر، ولم يطل به الوقت، فقد لمح شخوص القافلة يقدمون فوثب صدره في قلبه، ووقف يتأمل الوجوه كعادته، ثم وقعت عينه على شاب جلد طوال الجسم، أصلع، أشقر، شديد الحمرة، في عارضيه خفة إذ لا يملؤهما الشعر، فتقدم إليه راجيا أن يأذن له ببعض الحديث، وكانت القافلة قد أجهدها السير فألقت بأحمالها على مشارف «إيلياء» لتستريح، فاستراح الشاب مع رفاقه، ولكنه رأى الراهب مصرًا على أن يحادثه على انفراد، وكان في الشاب جرأة واعتداد، فهو لا يخاف أن يهزأ به أحد، أو أن يناله بسوء، فانتحى غير بعيد مع الراهب، ليسأله كما يشاء.

قال الراهب: ما اسمك يا أخا العرب؟ قال الشاب: أنا عمر بن الخطاب من قبيلة عدى

القرشية! فرد الراهب: ما خاب ظني، أنت الأصلع الأشقر الشديد الحمرة ذو العارضين الخفيفين! واسمك عمر؟!

قال ابن الخطاب: وماذا في هذا؟ فحدق إليه الراهب: قائلا: ستسمع مني كلاما عجيبا لا تستطيع أن تصدقه، ولكنه حق، ستفتح هذه البلاد على يدك، وستندحر جيوش الرومان أمام جنودك، ويدخل الناس أفواجا في دينك!

قال عمر: أي بلاد؟ وأي جيوش؟ وأي دين؟ هل سيحارب العرب جيوش الرومان؟ فأجاب الراهب: هو ما أقول، ولي عندك رجاء!

فحدق عمر في وجه الراهب وقال: أي رجاء، أملك أن أحققه، وأنا كما ترى الآن؟!

فقال الراهب: «تكتب لي كتابًا، تعلن فيه أني جار لك، ولا عدوان عليَّ في مالي وأهلي، ولي كنيستي وديني، لا يكرهني عليها أحد».

فقلب عمر كفيه وقال: أجاد أنت فيما تزعم؟

فعاجل الراهب: نعم أنا جاد، فماذا تقول؟

فابتسم عمر، وقال: هات الورق، واكتب ما سمعته، ولن أخسر شيئا!

فقال الراهب: معي الورق والقلم منذ حين بعيد، وأنا أنتظر هذا اليوم.

-٢-

مرت السنون تجري وراء السنين، وانتبهت بلاد الشام على صيحات متفرقة، تعلن زحف جيوش المسلمين تارة عند مؤته، وتارة عند تبوك، حتى وقعت الواقعة الكبرى، واقعة الزحف الأعظم يوم اليرموك بقيادة خالد بن الوليد، ثم تتابعت الوقائع، فسقطت المدن مدينة مدينة حين فر الرومان عن ذعر، ولاحت الخاتمة الفاجعة للأعداء حين جمع هرقل فلول جنوده، وانسحب من أرض الشام جميعها، بعد أن تطلع إليها في أسف، وهو يقول متفجعا.. سلام عليك ياسوريا، سلاما لا لقاء بعده.

وواصل أبو عبيدة وعبدالرحمن بن عوف، ويزيد بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص زحوفهم إلى الأمام، حتى بلغ أبو عبيدة بيت المقدس، وتوقع أمين الأمة أن يجد مقاومة كبيرة في بلد يقدسه النصارى ويحجون إليه كل عام، ولكنه وجد نفرًا من أعيان بيت المقدس، يحملون الرايات البيض، ويتقدمون إليه مسالمين، وهم يقولون: لقينا الظلم الفادح من الرومان، إذ غُصبت الأموال وأُزهقت الأرواح، وتجبر المفسدون في الأرض، وقد سمعنا عن عدالة المسلمين، وأنهم يدعون إلى المساواة والإخاء، حتى مع غير العرب، إذ قالوا في بلاد كسرى، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، فإذا رضينا حكم المسلمين، قلنا بشرط واحد، أن تحضر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ليوقع عقد الصلح، ونحن له مذعنون! ابتسم أبو عبيدة إذ كفى الله المؤمنين القتال، وقال لأصحابه ما ترون؟

قال يزيد بن أبي سفيان: ما أرى القوم إلا مخلصين، وعمر لم يفارق المدينة من قبل، نزولا على حكم الصحابة، إذ قال له علي بن أبي طالب: كيف تتوجه مع الجيش الزاحف، ومن المحتمل أن يصيبك مكروه، فيتفرق أمر المسلمين، عليك أن تبقى هنا، لتجبر الصدع، وتعين الخلف بعد السلف! أما الآن فأمير المؤمنين لا يحضر للقتال، ولكن ليوقع الصلح، ونحن جنده من حوله يأمرنا بما يشاء فيجد الإذعان والطوع، اكتب له أبا عبيدة، ليجيء.

-٣-

خرج عمر من المدينة وليس معه غير مولاه أسلم، واستعد الناس جميعًا في ربوع الشام للقائه، وهم يذكرون دخول هرقل دمشق منذ

عشرة أعوام فى موكب حربى سد وجه الفضاء، وملأ فراغ الأرض، كما يذكرون رحيله إلى بيت المقدس بعد أن هزم الفرس وطردهم عنه. وقد تدفقت المواكب من كل صوب، ورفعت الأعلام فى كل مكان، ودوت الزغاريد من كل نافذة، وهرقل فى مقدمة الركب، على فرسه الملهم، وتحت تاجه الذهبى يرفع رأسه مبتسما، ويشير كفاه بالتحية عن شمال ويمين! ذكر الناس ذلك كله، وتوقعوا أن يكون موكب أمير المؤمنين أعظم وأفخم، وحين علموا أنه قدم إلى «أيلة» هرعوا إليها، فلم يجدوا غير جملين يركبهما عربيان، فصاحوا بهما أين أمير المؤمنين؟ فقال عمر: هو أمامكم فظنوا أن الموكب لم يحضر بعد، وذهبوا إلى الأمام فلم يجدوا شيئا، فرجعوا يسألون: أين أمير المؤمنين؟ فقال عمر عجبا! هو أنا، ألست أمامكم!!

ثم نزل إلى الجابية، ونظر القوم إلى بعيره، فإذا هو جمل أورق، بلا ركاب، وعليه شملة محشوة بالليف، وحين نزل عنه عمر حمل الشملة ووضعها على الأرض ليجلس عليها، وقد أثر العرق فى ثوبه، فدفع به إلى من يغسله، وتطوع بعض الحاضرين فأحضر ثوبا من الصوف لعمر، فقال له: يا أخا الشام! نحن فى الحر، والصوف ثقيل، ولا أرتضى بغير ثوبي! اغسلوه وهاتوه!

نظر عمر فى الوجوه، وسأل أين أبو عبيدة ويزيد بن أبى سفيان وعبد الرحمن بن عوف وعمرو بن العاص؟ فنادى المنادى، وتقدم القادة لتحية أمير المؤمنين، فوجدهم يلبسون على صدورهم دروعا لامعة تبرق كأنها الفضة، فقال لأبى عبيدة! ويلك يا أمين هذه الأمة، تلبس مع أصحابك الدروع محلاة بالفضة!! وهى من مال المسلمين؟ فقال أبو عبيدة، ليست محلاة بالفضة يا عمر، ولكن الشمس تجعلها كذلك فى مرأى العين! وما لبسناها إلا لنتقى السهام ونذرأ وقع السيوف!

وقال.. عمرو: هو ذاك يا أمير المؤمنين، فرد عمر يقول: أما والله لو كانت محلاة بالفضة لعزلتكم جميعًا!

وبينما كان القوم يجيبون عن أسئلة عمر، إذ سمعت ضجة صاخبة، وارتفعت عجاجة فى الجو فخاف المسلمون أن يؤخذوا على غرة، وهرعوا إلى سيوفهم متأهبين، ولكن عمر نظر فلمح الرايات البيضاء تخفق فى الفضاء، فقال على رسلكم: القوم مسالمون، وجاءوا ليأخذوا العهد والميثاق وسترون!

وبعد لحظات، أقبل القوم من بيت المقدس، يتقدمهم القساوسة والرهبان، فسألوا عن أمير المؤمنين، وتعاظمهم أن يكون فى لباسه الخشن، ومظهره المتواضع، فسأل سائل منهم: أهذا خليفة هرقل؟

فصاح أبو عبيدة: هذا عمر صاحب رسول الله ﷺ، وخليفته بعد أبى بكر؟ فأين هو من هرقل؟!

قال السائل: أريد أن أقول أهذا الذى أخذ مكانه فى حكم البلاد؟

فقال عمر: إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين ثم توجه إلى القوم سائلا: ماذا تريدون وقد طلبتم عمر؟ فجاء إليكم من المدينة؟

قال رئيس القوم: «نريد عهدا على الأمان، أمان على الأنفس، وأمان على الأموال، وأمان على الكنائس، وأمان على الصلبان، وألا يكره أحد منا على ترك دينه، وألا يضار أحد منا لمعتقده، وأن يكون لنا ما لكم، وعلينا ما عليكم».

فقال عمر: لم تطلبوا غير الحق، وعلينا عهد الله أن نفى به! اكتبوا عقد الصلح، وليوقعه رؤسائكم وسيوقعه معى أبو عبيدة وابن عوف وابن العاص وابن أبى سفيان، والعهد مسئول عند الله!

فابتهج القوم بما سمعوا، ونهض من كتب الصلح، وقرئ على الناس، فوقع عليه من الجانبين ذوو الشأن ونهض أمير المؤمنين إلى الصلاة. فخف الملأ من حوله راكعين ساجدين.

وقد شاء أمير المؤمنين أن يذهب إلى بيت المقدس، مسرى رسول الله، وموضع القبلة الأولى للمسلمين، فهيأ له يزيد بن أبى سفيان فرسا قويا أخذ زينته فى السرج والرحل واللجام، ونهض عمر فركبه، فراعه أن وجد الفرس يختال عن يمين وشمال، كأنه يستشعر نشوة بمن يركبه، فنزل عمر مسرعًا، ولطم الفرس على وجهه، وقال: لا يا قوم: كاد والله أن يورثنى الخيلاء! وأنا عبدالله وخادم المسلمين! نحوه يا قوم! وهيئوا لى بعيرى، فهو أحرى بى وأرفق!

ماذا ركبت بباب الشام حين رأوا
وبر كبوك على البرذون تقدمه
مشى فهملج مختالا براكبه
فصحت يا قوم كاد الزهو يقتلني
وكاد يعبر إلى دنياكم عمر
ردوا ركابى فلا أبغى به بدلا
أن يلبسوك من الأثواب زاهيها
خيل مطهمة تحلو مراثيها
وفى البراذين ماتزهى بعاليها
وداخلنى حال لست أدريها
ويرتضى بيع باقيه بفانيها
ردوا ثيابى فحسبى اليوم باليها

نظر الناس إلى صنيع عمر، أما العرب من أهل مكة والمدينة فلم يدهشوا فى شىء، وأما أهل الشام ومن حولهم من القساوسة وأسرى الرومان فنظروا مبهورين! وانتهت الرحلة إلى بيت المقدس فاتجه عمر إلى محراب داود فصلى ركعتين خفيفتين، ودوى أذان الفجر فأم الناس، وظل فى محرابه حتى الصباح، وحين خرج يستشرف نور الشمس، وجد ركامًا عاليًا من الزبالة المكدسة تكاد تسد باب المسجد، فحمل بعضه مزيحًا بيده، ونادى فى الناس أن ساعدونى على تنظيف بيت الله، فجعلوا يتسابقون فى اهتمام! ومضت ساعة لم تدع كومة واحدة تبقى، وجاء الماء فرش بالموضع مطهرًا منظفًا، وما متع الضحى حتى ظهرت الساحة، وأشرق المكان!

-٤-

جلس عمر فى أصيل اليوم بساحة المسجد الأقصى يتحدث مع صحابته فى مختلف الشئون فوجد راهبًا قد خط الشيب رأسه ولحيته يتقدم إليه، وهو يقول السلام عليك يا أمير المؤمنين!

فنظر عمر مليا إليه، وقال: كأن لى بك عهدا أيها الرجل؟

فابتسم الراهب وقال: العهد معى يا أمير المؤمنين فاقرأ، وقدم إليه ورقة كان يطويها فى يده، فأخذ الورقة عمر، ودفعها لمن يقرؤها، فتلا القارئ:

«هذا عهد عمر بن الخطاب أعلن فيه أنى جار لك، ولا عدوان عليك فى مالك وأهلك، ولك كنيستك ودينك لا يكرهك عليهم أحد».

فصاح عمر، لا إله إلا الله! لقد صدقت نبوءتك يا شيخ، وعهدك محفوظ مصون، وقد كتبنا لزملائك ما طلبوه، وأنت من بينهم، مع اختصاصك بعهد قديم، لا يبعد على الله شىء.

وتساءل المجتمعون عن القصة، فرواها الراهب، وانتظر الفاروق حتى فرغ من روايته فقال لأصحابه: ألا يجب أن نصلى صلاة الشكر؟ هيا يا قوم!

مصادر شعر المديح النبوي في العربية وقيمتها الحضارية



أ.د. خالد فهمي
كلية الآداب / جامعة المنوفية

(١) مدخل:

لقد كان عجيبا أن يسهم الإسلام في تطوير منظومة الفنون في الحضارة العربية، في وقت سريع، وفي الاتجاهات المتنوعة.

ولعل مراجعة هذا التأثير في الفنون القولية أمرٌ أيسر من غيره، ذلك أن عماد هذا الدين تمثل في الكتاب العزيز، وما خلقه وبثه في الأمة العربية.

وتلمس هذا الأثر في الشعر أيسر من غيره، لما للشعر من منزلة ظاهرة في النفس العربية، هي المنزلة التي تعبر عنها مجموعة كبيرة من القوانين والقواعد والعبارات النقدية من مثل:

أ- إن المؤمن يجاهد بلسانه. (حديث شريف).

ب- إن من الشعر حكمًا أو حكمة. (حديث شريف).

ج- الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أعلم منه. (عمر بن الخطاب).

د- احفظ محاسن الشعر يكثر أدبك، ومن لم يعرف الشعر لم يؤد حقًا ولم يقترف أدبًا. (عمر بن الخطاب).

هـ- الشعر ديوان العرب، والشعر علم العرب. (ابن عباس).

و- اجعلوا الشعر أكبر همكم وأكثر آدابكم. (معاوية بن أبي سفيان).

وقيمة أمثال هذه العبارات ماثلة في نظرة العرب للشعر، وارتباطهم به أخلاقيا، ومعرفيا، واجتماعيا، وغير هذه العبارات كثير جدًا، جمعها الدكتور محمود الربداوي في: (كشاف العبارات النقدية والأدبية في التراث العربي. مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ١٤٢٠هـ = ١٩٩٩م).

ومن هنا فإن تأثير الإسلام في بنية هذا الفن القولي للدرجة التي تحمل على اختراع غرض بعينه غير مسبوق، ظل يتنامى إلى يوم الناس هذا أمر ينبغي تقديره حق قدره، إن تأسيس قصيدة المديح النبوي؛ بما هو غرض متفرد في تاريخ الآداب العالمية مسألة تعلي من الموقف الإيجابي للإسلام تجاه الفنون والآداب بامتياز.

والمديح لفظ تدور دلالته المركزية حول حسن الثناء، وهي الدلالة المستصحبة في التعامل الاصطلاحي معه في الجهاز الاصطلاحي النقدي والأدبي.

ومعنى ذلك أن قصيدة المديح النبوي أو المدحة النبوية ما هي إلا قصيدة أفردت وأغلقت على ذكر محاسن خير الخلق ﷺ، والثناء الحسن له.

والرأي عندي أنها غرض متفرد مستقل؛ أي إنها ليست فرعًا عن قصيدة المديح العربية العريقة، وهذا الرأي مني مدعوم بعدد من المعايير النقدية.

لقد درج النقاد العرب على الحكم بجودة قصيدة المديح المتوجهة للرجال أن تعتمد الثناء بالعقل، والشجاعة، والعفة، والعدل، وتجاوزها مسألة منتقدة غير مقبولة، على ما يقرره مثلًا ابن قتيبة في الشعر والشعراء، والمرزباني في الموشح، وأبو هلال العسكري في الصناعتين، وأحمد مطلوب في معجم مصطلحات النقد العربي القديم.

وإذا كان امتداح الرجل بمحاسنه الجسمية يعد أمرًا غير مقبول، يقول العسكري في الصناعتين (ص: ٩٨): "من عيوب المديح عدول المادح عن الفضائل التي تختص بالنفس من العقل، والفقه، والعدل، والشجاعة، إلى ما يليق بأوصاف الجسم من الحسن، والبهاء، والزينة" فإن المدحة النبوية ترقى بذكر محاسن رسول الله ﷺ جميعًا، وهي إذ تفعل ذلك تترجم تراثًا عريقًا توقف أمامها، ورصدها، وجمعها فيما عرف باسم شمائل النبي ﷺ، فضلًا عن التنوع في بناء هذه القصيدة على امتداد التاريخ الأدبي، من أجل ذلك ولغيره فإن المدحة النبوية تقف منفردة، وتمثل أصلا مستقلا، لها خصائصها التي تميزها من غيرها من قصائد ديوان المديح في تاريخ الشعر العربي، ولا يسع ناقدا أن يعيب في قصيدة المديح النبوي عنايتها بالتغني بالمحاسن الجسدية البهية للنبي ﷺ، بجوار عنايتها بالتغني بفضائله النفيسة.

(٢) ظهور المدحة النبوية:

إن استقراء التاريخ الأدبي في مجال علاقة الشعر بمقام رسول الله ـ ﷺ ـ، يكشف عن مرور قصيدة المديح النبوية بثلاث مراحل أساسية، من وجهة نظرنا يمكن إجمالها فيما يأتي:

أولًا مرحلة الظهور والبدايات

إن المنطق حاكم في القول بأن قصيدة المديح النبوي لابد أن ترتبط في ظهورها بإعلان مبعثه ﷺ.

ويبقى المشكل الذي يحتاج إلى تأمل هو: هل ظهرت قصيدة المديح النبوي في مكة مع بدء البعثة، أم تأخر ظهورها إلى ما بعد الهجرة إلى المدينة المنورة؟.

الظاهر في هذه المرحلة تشعبها على فترتين هما:

أ- مرحلة مختلطة، ظهر فيها امتداح محمد ﷺ مختلطًا بغيره من الأغراض، غير مستقل، ولدعاوى متعلقة بطبيعة التركيبة للمجتمع العربي، هو ما يكشف عنه مثلًا ما ورد في شعر أبي طالب الذي يمدح فيه من وافقه على منع رسول الله صلى الله عليه سلم وحمايته في مكة المكرمة قبل الهجرة، ففيه بعض الأبيات التي تنوه بفضل النبي ﷺ من مثل: (سيرة ابن هشام، بتحقيق محمد محي الدين عبد

الحميد، دار التراث، القاهرة، (١ / ٢٨٢):

إذا اجتمعت يومًا قريش لمفخرة
فعبد مناف سرها وصميمها
وإن فخرت يوما فإن محمدًا
هو المصطفى من سرها وكريمها

ب- مرحلة الاستقلال: وقد ارتبطت هذه المرحلة بالهجرة إلى المدينة المنورة، وبدأ بوصف رحلة الانتقال إليها؛ باعتبارها ارتحالًا من الظلمة إلى النور، وقد اتخذت أشكالًا وتجليات كانت محط دراسة لعدد من الدارسين المعاصرين من أمثال الصديق العزيز الدكتور فتحي عبده الذي استقصى تجلياتها فيما كتبه عن الخروج من نفق الظلمة.

وتعددت أشكال هذا المديح النبوي، وإن ارتبط في مجمله بغايتين أساسيتين هما:

- غاية نفسية مرتبطة بما حصلته النفس في رحلة انتقالها من الكفر إلى الإيمان.

- غاية جهادية، ارتبطت بالذود والدفاع عن مقام رسول الله ﷺ ضد من تناولوه من معسكر الكافرين.

ثانيا مرحلة الاستقرار، الشيوع، والانتشار:

صحيح أن الاستقرار يمكن أن يؤرخ له قصيدة كعب بن زهير التي اشتهرت بالبردة، مثلت مسارًا مهمًا في طريق تطور فن المديح النبوي بما قام حولها من معارضات، وفنون بديعية، وشروح.

ومن الصحيح كذلك أن هذه المرحلة نضجت بعد لحوق النبي ﷺ بربه سبحانه، وظلت تتنامى هذه القصيدة، وتتفرع، وتتنوع، وما تزال، ودخل على الخط معها طوائف كثيرة، واشتبك معها عدد كبير من الوظائف.

وظل أمرها وقفًا على المسلمين على امتداد العصور، وتنوعت الأصوات في داخل هذه المرحلة، وطوّر الصوفية المدحة النبوية لأغراض تتعلق بسلوكهم في الحياة؛ تلبيةً لعدد من ممارساتهم.

وقد ضمت المدحة النبوية في هذه المرحلة المركزية الممتدة التي لا تزال حاضرةً المحاور التالية:

أ- ذكر محاسن النبي ﷺ من جهة نسبه.

ب- ذكر محاسن النبي ﷺ من جهة خلقه وطبائعه.

ج- ذكر محاسن النبي ﷺ من جهة خلقه البدني.

د- ذكر محاسن ما جاء به من شرائع.

هـ- ذكر محاسن ما جاء به من معجزات.

و- ذكر محاسن ما يتحقق للأمة من الارتباط به، والحب له من النصرة والشفاء إلخ.

ثالثا مرحلة تحول المدحة النبوية إلى تناوله باعتباره رمزًا إنسانيا عالميا

وهذه المرحلة فيما يبدو كانت وليدة العصر الحديث، وارتباطها في الأساس بالشعراء غير المسلمين. وربما بدا من أمرها أنها ظهرت بدافعين هما:

أ- الدافع القومي، الذي رأى فيه رمزًا عربيًا قادرًا على تحقيق الترقي للمجتمع العربي، وهو بعض ما يفسر حفاوة المسيحيين العرب بامتداحه.

ب- الدافع الإنساني، الذي رأى فيه رمزًا إنسانيًا متسامحًا مع الوجود.

وقد تنوعت الأصوات في هذه المرحلة، وتلمست في مناسبات كالهجرة أو ذكرى الميلاد النبوي مدخلًا لامتداح النبي ﷺ، إعلاء للقيم القومية العربية، أو إعلاء للقيم الإنسانية في مواجهة صراعات العالم المعاصر.

(٣) مصادر شعر المديح النبوي:

وفي هذا السياق فإن من المهم جدًا تعيين مصادر شعر المديح النبوي الذي ظهر في مراحله المختلفة؛ لأهميته الكبرى أدبيا، ونقديا، ومعرفيا، وإنسانيا.

ويمكننا أن نقرر أن مصادر هذا الشعر تتوزع على نمطين، هما:

• أولًا: نمط عام، لم يقصد إلى جمعه وتنظيمه وفق أي منهج، وإنما أورد من شعر المديح النبوي بما يتوافق مع غرضه، وفي هذا السياق تظهر الأدبيات التالية:

أ- كتب التاريخ العام للأمة الإسلامية بتنوعها المنهجي، فقد امتلأت مصادر التاريخ العام للأمة على عدد بين قصائد المديح النبوي في سياق رصدها للأحداث المواقف المختلفة.

ب- كتب السيرة النبوية، وهي مصادر مهمة جدًا بسبب من عنايتها بما قيل في حقه ﷺ في مكة والمدينة، في سياق الأحداث التي عاشها، وتاريخ التأليف في السيرة متنوع جدًا، وربما وقف ابن طولون الدمشقي الصالحي علامة بارزة في هذا التاريخ.

ج- الكتب التي استقلت بجمع أشعار السيرة، وشرحها، ويبرز في هذا السياق كتاب: الإملاء المختصر في شرح غريب السيرة، لأبي ذر الخشني الأندلسي المتوفى سنة ٥٤٤هـ، الذي يكاد يكون مغلقا على شرح غريب الأشعار التي وردت في السيرة النبوية الشريفة.

د- كتب الأدب، وهي كتب متنوعة، وتتصدر الأنواع الموسوعية التي كان هدفها الجمع والتوسع في جمع النصوص والقصائد.

هـ- كتب طبقات الشعراء والأدباء التي انشغلت بالترجمة للشعراء على امتداد التاريخ الأدبي العربي، وربما انضم إليها طبقات الأعلام والصحابة وغيرهم.

و- دواوين الشعراء الذين عرف عنهم مدح رسول الله ﷺ، من مثل ديوان كعب والبوصيري.

• ثانيًا: المصادر الخاصة: نقصد بها تلك المصنفات التي انشغلت في الأساس بجمع قصائد المديح النبوي، وترتيبها.

وقد ظهر في هذا السياق ثلاثة مصادر أساسية تمثل نقطة صالحة للبدء، وصالحة كذلك للبناء عليها، هي كما يلي:

أ- منح المدح، أو شعراء الصحابة ممن مدح الرسول ﷺ أو رثاه، لابن سيد الناس المتوفى سنة ٧٣٢هـ، وهو من الدواوين المجموعة، جمع فيها ابن سيد الناس قصائد من مدحه ﷺ من الصحابة رضوان الله عليهم، وقد رتبه وفق أسماء الشعراء مرتبين على حروف المعجم، وقد ضم ما يقترب عن مئتي شاعر.

وكان منهجه متمثلًا في الخطوات التالية:

- ذكر اسم الشاعر.

- ذكر طرف من ترجمته مشتملًا على اسمه، ولقبه، وكنيته.

- وذكر مناسبة القصيدة.

- وذكر جزء منها.

- وذكر توقيت إنشائها إن وجد.

- وذكر مصدر المادة العلمية أحيانًا.

ومن أمثلة ذلك ما جاء في سياق الحديث عن خويلد بن خالد (أبي ذؤيب الهذلي) [ص ٩٠ وما بعدها من طبقة، دار الفكر بتحقيق عفت وصال حمزة، دمشق سنة ١٤٠٧ هـ = ١٩٨٧م].

إذ افتتح كلامه بترجمة موجزة له، فقال: "هو خويلد بن خالد، أبو ذؤيب الهذلي الشاعر، كان مسلما على عهد رسول الله ﷺ، ولم يره، ثم يذكر سبب قصيدته، وأنه كانت بعد رؤيا أولت له بلحوق النبي صلى الله عليه سلم بربه، ثم أورد منها:

رأيت الناس في عسلاتهم ... ما بين ملحود له ومضرّح
متبادرين لشرجع بأكفهم ... نص الرقاب لفقد أبيض أروحي
فهناك صرت إلى الهموم ومن يبت ... جار الهموم يبيت غير مروح
كسفت لمصرعه النجوم وبدرها ... وتزعزعت آطام بطن الأبطح

(العسلان = الاهتزاز والاضطراب / والملحود والمضرح = من هيئ له لحده قبره / والشرجع = النعش / والنص = الحركة / والأروحي = الأريحي الكريم / والمروّح = المرتاح / والشروح من تحقيق الكتاب).

ويبين أنه أنشدها عند وفاة رسول الله ﷺ (٩٥): "كله عند أبي عمر، رحمه الله، من كتاب الاستيعاب" في معرفة الأصحاب.

ولقد أتيح لهذا العمل الرائد أن يوصل بغيره لتغطية المساحات الزمنية بعد عصر الصحابة، لأن الدراسة شعر المديح النبوى شأن أرقى مما وصلت إليه.

ب- شعراء النصارى العرب والإسلام، لماجد الحكواتي.

وقد تضمن هذا الديوان الجماعي عددا كبيرا من القصائد لنحو واحدٍ وخمسين شاعرا مسيحيا تفرغ كثير منها لمدح النبي محمد ﷺ.

وقد فطن عبد العزيز سعود البابطين في تقديمه للديوان إلى بعض مما ألجأهم إلى ذلك مما سبق أن ذكرناه هناً من إرادة الحرص على الوحدة الوطنية، ودفع الروح القومية العربية ودعمها.

ويبدو من صانع الديوان أنه رتب القصائد ترتيبا تاريخيا من القديم إلى الحديث، مراعيا فيما يبدو سنوات ميلاد الشعراء، فقد بدأ شبلي شميل المولود سنة ١٨٥٣ م، ثم خليل مطران المولود ١٨٧٢ م، ثم نقولا فياض المولود سنة ١٨٧٣م، ثم إدوارد مرقص المولود سنة ١٨٧٨ م، ثم حسني عبد الملك المولود سنة ١٨٨٤م، ثم محبوب الخوري الشرتوني المولود سنة ١٨٨٥م، ثم حليم دموس المولود سنة ١٨٨٨م.

وقد عني ماجد الحكواتي بتنظيم ديوانه وفق ما يلي:

أ- ذكر اسم الشاعر.

ب- ذكر عنوان القصيدة.

ج- إيراد نص القصيدة كاملة.

د- ترجمة الشاعر ترجمة موجزة في حاشية أول صفحة، متضمنة سنة الميلاد، وسنة الوفاة / وتعلمه / وإقامته / وعمله / وأعماله العامة والشعرية / ومذهبه.

ومن الأمثلة الدالة علي ذلك مما جاء في سياق قصيدة إلياس فرحات وعنوانها: يا رسول الله (ص ٨٧ وما بعدها، طبعة الكويت ٢٠٠٦م): يقول الشاعر: " - ولد في: كفر شيما سنة ١٨٩٣م، توفي في البرازيل سنة ١٩٧٦ م.

- هاجر إلى البرازيل عام ١٩٤٠م.

- من شعراء العصبة الأندلسية.

- من دواوينه: أحلام الراعي / ورباعيات فرحات / وديوان فرحات".

ومن أبيات قصيدته:

غمر الأرض بأنوار النبوة ... كوكب لم تدرك الشمس علوه
لم يكد يلمع حتى أصبحت ... ترقب الدنيا ومن فيها دنوه
بينما الكون ظلام دامس ... فتحت في مكة للنور كوّه
يا رسول الله إنّا أمةً ... زجها التضليل في أعمق هوّه
ذلك الجهل الذي حاربته ... لم يزل يظهر للشّرق عتوه
قل لأتباعك صلوا وادرسوا ... إنما الدين هدى والعلم قوة

ج- محمد في شعر النصارى العرب، لمحمد عبد الشافي القوصي (طبعة مدبولي الصغير سنة ٢٠١١م).

وقد تضمن تاريخا لعدد من هؤلاء الشعراء بلغوا نحو عشرة شعراء.

وهو بهذا يعد مصدرا ثانويا، يفتح الباب للاسترشاد لمن أراد أن يدرس شيئا من عناية غير المسلمين بالنبي ﷺ وبالأحداث التاريخية المرتبطة بسيرته وتوظيفها المعاصر.

وثمة كتاب آخر للدكتور محمود خليل عن مديح النصارى للنبي ﷺ، وكان أخبرني بذلك صديقي الدكتور محمد سالمان رئيس الإدارة المركزية للنشر في الهيئة المصرية العامة للكتاب، ولكنه لم يره.

وقد آثرت التوسع في مصادر شعر المديح النبوى عند غير المسلمين لقلتها من جانب، ودلالتها من جانب آخر.

(٤) وظائف قصيدة المديح وقيمتها

ودراسة هذا المنجز الشعرى الكبير تفتح الباب أمام استخلاص عدد من الوظائف المهمة، يبرز منها:

- أولًا: الوظيفة الدينية الإيمانية؛ إذ كانت قصيدة المديح النبوى وسيلة للإعلان عن فريضة حبه ﷺ، (إذاعة فضله، الإعلان عن الإيمان به رسولا، بما جاء به شرعة ومنهاجا)، ومن أشهر الأبيات الدالة على ذلك المعنى ما جاء في بردة كعب بن زهير: (وهناك نظير لهذه الوظيفة عند الصوفية).

إن الرسول لنور يستضاء به ... مهند من سيوف الله مسلول

- ثانيًا: الوظيفة الأدبية، والجمالية، والفنية، ذلك أن هذه القصائد مهمة جدًا في دراسة الأثر الأدبي والجمالي الذي أحدثته في الأدب العربي، وقد كان من آثار ذلك تحقق عدد من التعديلات في الأصول النقدية لغرض المديح النبوي؛ إذ بدا منطقيا اقتناء الحسن بالجميل من خلق النبي ﷺ، وعقله، وشجاعته، وجسمه.

- ثالثًا: الوظيفة التاريخية، إذ اتجهت من إعادة التاريخ للنبي ﷺ وبيان محاسنه بطريقة شعرية تعين على تمثلها، وحفظها، فضلاً عما تقدم من خدمات جليلة للتاريخ الأدبي العربي.

● رابعًا: الوظيفة التعليمية، وهي مرتبطة بشكل ما بالوظيفة التاريخية.

● خامسًا: الوظيفة الحضارية، فقد كشفت قصائد المديح النبوى عن مجموعة من الأبعاد الحضارية المتمثلة في:

أ- تطوير غرض المديح في الشعرية العربية.

ب- استثمار شخصية النبى الكريم ﷺ رمزًا لتحقيق الوحدة الوطنية، والتقارب بين الشعوب العربية، بسبب من عروبته.

ج- تأثير قصيدة المديح النبوى في تطوير عدد من العلوم العربية، على ما يظهر من تطوير لحق علم البديع، إذ وظفت المدحة النبوية في صناعة النسج البديعي، ومن أقدم من فعل ذلك الصفي الحلي المتوفى سنة ٧٥٠ هـ، في الكافية البديعية، ثم في شرحها: نتائج الألمعية في شرح الكافية البديعية، يقول :(ص ٨٥ من طبعة مؤسسة الرسالة بتحقيق الدكتور رشيد العبيدي، سنة ٢٠٠٠م: فعدلت عن تأليف الكتاب إلى نظم قصيدة تجمع أشتات أنواع البديع، وتطرز بمدح مجده الرفيع ﷺ.

ومن فعل ذلك في تاريخ علم البلاغة عند العرب (كما يقرر العبيدى ص ٤٣ وما بعدها): الحموي ت ٨٣٧م، والحميدى ت٩٩٢م، والعطار ت ٧٩٤م، والموصلى ت٧٨٩م، وابن شداد السعدى ت ٨٠٧م، وشعبان الآثارى ت ٨٢٨م.

● سادسًا: الوظيفة السياسية، وقد تجلت هذه الوظيفة تعيينا في قصائد المديح النبوى التى نظمها الشعراء غير المسلمين؛ إذ رأوا في شخصية النبى ﷺ رمزا عاما راقيا قادرا على تحقيق وحدة العرب وتماسكهم في مواجهة أعدائهم، بالإضافة إلى الدلالة على أن الارتباط به قادر على أن يخلق الوحدة الوطنية بين عنصرى الأمة العربية من المسلمين والمسيحيين، يقول إلياس قنصل في قصيدته: النبى العربي:

إنى ذكرتك يا رسول الله مقابلا
أسراك أسرى الشك والعصيان
ما كان صفحك صفح داهٍ خائف
بل كان صفح القادر المحسان
لم تمثل لك بالفعال لم تلذ
بهداك يوم تحلل القرصان
يا للعروبة هل تفوز بقائد
يدع فتسمع نخبة الفتيان
فيقد أوصال القيود حسامه
ويسيل روح العابث الخوان
ويعيد للوطن العزيز كرامة
كادت أن تكون قسيمة النسيان

إننا أمام منجز شعرى متنوع متصل كاشف عن الإسلام العبقرى الذى أحدثه حب النبى ﷺ، التعلق بشخصه الكريم في التاريخ الفني، والأدبي، والجمالي، والحضارى في الوجود الإنساني، وما يزال البحث العلمى قادرا على اكتشاف مسارات جديدة تكشف عن تأثير إلهامه واستلهامه في التخصصات المختلفة، وستظل سيرته، وذكرى ميلاده الكريم نورا يشع مع مرور الأيام والأزمان ﷺ.

القصة والأمثال في القرآن الكريم

الغرائز البشرية وكيف تتنامى



الأستاذ الدكتور محمد المختار محمد المهدي
عضو هيئة كبار العلماء

في معرض الحديث عن المجالات التى يمكن للعقل البشرى أن يبحث فيها ليستخرج من القصّة القرآنية لمحات ولمسات، قد تكون منطلقًا إلى آفاق الفهم العميق لناموس الكون.. فيرسم للمجتمع مناهج إصلاح، تتواءم وتتّسق مع ما فطر الله عليه البشر، وما جرى به قلم التّاريخ على صفحة الوجود مسطّرًا:

﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾

(الأحزاب: ٦٢)

في هذا المعرض يكمن العمل البنّاء الهادف إلى خير الفرد والجماعة، وتكون الدّراسة الجادّة النّافعة التى تضع أمام الأمة خيوط النور.. ومشاعل الهدى والإصلاح.. لا في اتهام القرآن الكريم الذى

﴿أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾

(هود: ١)..

- بأنه استعمل (الرّمز الأدبى الحديث) الذى يعتمد على تراسل المشاعر، وإيحاءات الأساطير السّائدة في البيئة التى نزلت فيها آيات القرآن الكريم!!

﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾

(الكهف: ٥)،

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾

(النساء: ٨٧).

بعد أن تحدثنا عن تصوير القصّة القرآنية للطبيعة البشرية على ما هي عليه.. ورأينا كيف صوّرت غريزة حبّ البقاء.. وغريزة الجنس، في وضعيهما المتقابلين: حينما تسيطر إحداهما على المشاعر، فيكون السعار الذى يؤدى إلى الدمار والعار، وحينما تخضعها النفس إلى قانون المبادئ والقيم، فيكون التهذيب والسمو الذى يرتفع بالإنسان إلى مدارج الكمال البشرى حتى يتربع به على قمة المثل العالية، في مصاف المعالم الهادية إلى مرقأ الحضارة الإنسانية الراشدة.

غريزة الحنان الأبوى:

وإذا سرنا مع القصة القرآنية تستقرئها عن طبيعة هذا الإنسان التى لن تصلح إلا بما

صلحت بـه حين التزمت منهج الله الخير بالنفوس المحيط بأقطار الأفئدة، فإننا نراها تصور لنا كذلك مدى سيطرة الحنان الأبوى الذى غرسه الله فى الإنسان حتى لا يشعر بالشقاء والإرهاق الذى يناله فى سبيل تربية الأبناء، وحتى لا ينجب الأب ابنه ثم ينساه ويرميه فى متاهة التشرد والضياع.. هـذا الحنان المغروس بيد القدرة، لتلك الحكمة.. جارف وعنيف لدرجة تجعل نبى الله يعقوب عليه السلام يفقد عينيه، حزنًا على فراق ولده العزيز سيدنا يوسف عليه السلام:

﴿ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾

(يوسف: ٨٤).

وتجعل نبى الله نوحًا عليه السلام يقف لينادى ابنه العاق مشفقًا وجلا، والماء يتلاطم مع الجبال:

﴿ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴾

(هود: ٤٢)

لكن الولد كان شقيًا وآثمًا وسار مع الكافرين، فنفذ فيه أمر الله بلا محسوبية ولا محاباة:

﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾

(هود: ٤٣).

ومع أن سيدنا نوحًا عليه السلام قد أُمر من ربه ألا يخاطبه فى شأن الكافرين بقوله:

﴿ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾

(هود: ٣٧)..

فإن المشاعر الأبوية تتحرك عنده ويقف سائلا ربه مستعطفًا:

﴿ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ ﴾

(هود: ٤٥)

وقد وعدتنى بنجاة أهلى.. فيرد عليه ربه بأن الصلة ليست فى النسب منفصلا عن العقيدة:

﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾

(هود: ٤٦).

ميزان الحق لا يحابى:

وهكذا تقرر القصة مبدأ خطيرًا ومُهمًا للدعوة الإسلامية أن (ميزان الحق لا يحابي) وأن الصلة الحقيقية للإنسانية ينبغى ألا تكون إلا على أساس العقيدة والدين.. فهذا الأساس فقط هو الذى يعترف به الإسلام فإذا تجاوزته المشاعر الإنسانية إلى عواطف الأبوة والبنوة والقرابة كان الجهل وكانت العظة من الله لنبيه نوح:

﴿ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾

(هود: ٤٦)

هذا الحنان الجارف حينما يقف أمامه أمر السماء لا يبقى له أثر على السلوك.. فحب الله فوق كل حب، ولو كان حب فلذات الأكباد.. فإنه هو الذى منح الأبناء.. وهو كذلك صاحب الأمر كله بالنسبة للآباء.. هذا سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام قد وضع المشاعر الإنسانية رهن إرادة الله.. إذ تلقى منه الأمر تجاوزه إلى آفاق الاستسلام لهذا الأمر.. لقد أسكن ولده الوحيد وزوجته هناك فى قلب الصحراء، حيث لا ظل ولا ماء، ولا حصانة تحميهما من قسوة الطبيعة الجرداء، سوى هذا الدعاء الضارع:

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾

(إبراهيم: ٣٧)

ومع أن هذا العمل وحده يعتبر من سيدنا إبراهيم مثالا فريدًا فى التضحية وبخاصة وهو شيخ كبير.. فإن الله سبحانه يعرضه لامتحان أصعب من هذا، ليظهر المدى البعيد لصلابة الإيمان عند الأنبياء الأخيار، وليرقى إبراهيم مراقى التسامى النادر، والإخلاص الفريد، لقد أمر من السماء وهو نائم أن يذبح بيده هذا الولد الوحيد العزيز الأثير، وإذا هو فى الصباح تتفاعل فى جوانب نفسه مشاعر الأبوة، وأحاسيس الإيمان والنبوة.. وكما هو الشأن دائمًا مع البررة الأوفياء لحق الربوبية على العبودية، ينتصر داعى الإيمان، ويلبى نداء الله، ويعرض الأمر على ولده المؤمن ذى اليقين الصادق، الذى ارتضع من ألبان الهداية، وتربى فى كنف شيخ الأنبياء والمرسلين.. وإذا الولد سر أبيه.. وإذا الشبل ابن الأسد.. وتتلاقى أشعة الإيمان فى سماء الصفاء والإخلاص، وينادى إسماعيل أباه:

﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾

(الصافات: ١٠٢)

وفعلا يُقدم إبراهيم على التنفيذ:

﴿ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾

(الصافات: ١٠٣)

وهنا وأمام هذا التسامى الفذ والسلوك المذعن لأمر الله من الولد وأبيه.. تتنزل رحمة السماء، فترسل نجدتها فى الوقت المناسب:

﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ۝١٠٤ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝١٠٥ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ۝١٠٦ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾

(الصافات: ١٠٤-١٠٧)

ويخلد اسم إبراهيم على الزمن مثالا للتضحية والفداء والإيمان والوفاء:

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۝١٠٨ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۝١٠٩ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝١١٠ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾

(الصافات: ١٠٨-١١١)

يمثل هذه الإيحاءات الصادقة الواضحة التى تستخلص من النص القرآنى ذاته بلا غموض ولا إشكال.. يتعلم الوالد: كيف يصبر على فقد ولده وهو يجاهد فى سبيل الله، ويتعلم الولد: كيف يبذل نفسه وأعز ما لديه استجابة لأمر الله.. وتتهذب غريزة الحنان.. وغريزة حب البقاء.. فتكونان رهن إشارة التشريع السماوى عن رضا نفس، ورحابة صدر.. وما أحوج الأمة الإسلامية اليوم إلى هذا التهذيب!!

غريزة الشح:

ثم نراها تصور لنا طبيعة الشح التى تنبع من حرص الإنسان على بقائه وبقاء أولاده، واعتقاده أن هذا البقاء يتطلب وسائل مالية تهيئ له ذلك، ومن أجل هذا وذلك كان الإنسان قتورًا.

ترى القصة القرآنية تعالج هذه الغريزة الشموس، بما يشذب جامحها وما يقلم شوكها، فتحلل مواقف الأشحاء تحليلا ساخرًا لاذعًا.. وتصورهم وهم يلهثون جريًا وراء الجمع والتحصيل بما يسمهم بميسم الشقاء المضنى، و(الهستيرية) المزرية.. ففى قصة أصحاب الجنة تبرزهم

وهم يتخافتـون، ويهرولون فـي خفة وطيش وتـزق في الصبـاح المبكـر، مصممين على الحصاد.. حصاد كل الثمر:

﴿ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴾

«القلم: ١٨»

ولا يـؤدون الحق المعلـوم للسـائل والمحـروم. فـإذا هم يفاجئون بـأن الجنة قد صارت كالصريم:

﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾

«القلم: ١٩»

وتصل القصة إلـى القمة من الناحية الفنية حينمـا تعلـن للقـارئ والمستمع مـا حدث للجنـة فـي الليل وهم لا يعلمـون.. ثم تصور عقب ذلك تحركاتهم اللاهثة المجنونة لتترك للقارئ فرصة التمتع بهذه المناظر السـاخرة، إذ هو يعلم ماذا حدث.. ويراهم حينما يصلون إلى جنتهم، تصدمهم الحقيقة الواقعة:

﴿ إِنَّا لَضَالُّونَ ۝٢٦ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾

«القلم: ٢٦، ٢٧»

ليسـت هذه جنتنا، لقـد أخطأنا فـي العنوان، ثـم تظهر لهـم الحقائـق، إنهـا جنتهم فعـلا وقد احترقت:

﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾

«القلم: ٢٧»،

ويتلاومون ويعترفون بأنهم كانوا طاغين، ولا يجـدون منقـذا لهـم من الحرمان سـوى الغنى الرازق الذى لا تنفد خزائنه:

﴿ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴾

«القلم: ٣٢»،

وتنتهـى القصـة بالتزامهـا الهـدف الذى سـيقت مـن أجله وهـو بيـان شـقاء الحريص الشـحيح.. يُسـلب النعمة بعد العطاء.. إذا هو يخل بحق الله وينسى إخوانه في المجتمع:

﴿ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾

«القلم: ٣٣»

وفى قصة قارون الذى أوتى:

﴿ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ ﴾

«القصص: ٧٦»

فاغتـر بمـا أوتى.. ونسـب الفضل لنفسـه ولمواهبـه فيما أوتى.. ونسـى الله، وسـخر من قومـه الناصحين، وخـرج فـى زينتـه متبخترا مختالا.. حتى رفرفت فى حسرة قطاة الفقراء.. واضطربت لمنظره قلوبهم.. وقالوا:

﴿ يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾

«القصص: ٧٩»

وتأتى النتيجة وهى العقاب الصارم لا سلب النعمة فقط ولكن

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ۝٨١ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾

«القصص: ٨١ و٨٢»

وتنتهـى القصـة بهـذا الهـدف العظيم.. وتلك السـنة الكونية التى لا تتخلف

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

«القصص: ٨٣»

تلاعبهم بأحكام الله تعالى ومحاولتهم فتنة الرسول ﷺ عند تقاضيهم أمامه



أ.د. محمد سيد طنطاوي

هذه وسيلة جديدة، من وسائل اليهود الخبيثة لكيد الدعوة الإسلامية استعلموا فيها ماجبلوا عليه من خداع وختل، وذلك أنهم كانوا يتحاكمون إلى الرسول ﷺ فى بعض قضاياهم، مؤملين أن يقضى بينهم بغير ما أنزل الله، فيشيعوا ذلك بين الناس، ويعلنوا عدم صدقه فى نبوته، لأنه لو كان صادقًا لحكم بما أنزل الله.

ولكن الرسول ﷺ حكم بينهم بما أنزل الله، فأحيط خطتهم، وغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين.

وهـذه آيـات كريمة مـن سـورة المائدة ـ الحافلة بقصص بنى إسـرائيل تصور لنا هذا اللون من مسالكهم الخبيثة، فتقول:

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا ۛ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ۚ وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٤١ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ

وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا
وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ
اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٢) وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ
وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ
مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ
(٤٣) إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ
بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا
وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن
كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا
تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا
بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ
اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤) وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ
فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ
وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ
بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ
بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا
أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥) وَقَفَّيْنَا
عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ
يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى
وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى
وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٤٦) وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ
بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ
فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤٧) وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ
الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ
الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم
بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ
مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا
وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن
لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ
مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ
تَخْتَلِفُونَ (٤٨) وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا
تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن
بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ
أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ
لَفَاسِقُونَ (٤٩) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ
مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾

(المائدة: ٤١ - ٥٠)

وردت في سبب نزول هذه الآيات الكريمة أحاديث متعددة منها:

١ ـ ما أخرجه البخارى عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ أن اليهود جاءوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أن رجلا منهم وامرأة قد زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ «ما تجدون فى التوراة فى شأن الرجم؟» فقالوا نفضحهم ويجلدون، فقال عبدالله بن سلام: كذبتم، إن فيها الرجم، فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقالوا صدق ـ يا محمد ـ فيها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما.

قال عبدالله بن عمر: فرأيت الرجل يجنأ على المرأة ـ أى ينحنى عليها ـ يقيها الحجارة (١).

٢ ـ ومنها ما رواه مسلم، فى صحيحه، عن

(١) صحيح البخاري: باب «قل فأتوا بالتوراة» من كتاب «التفسير» جـ٦ ص٤٦.

البراء بن عازب، قال: «مر على الرسول ﷺ يهودى مُحَمَّمًا (٢) مجلودا فدعاهم فقال: «هكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم؟» فقالوا: نعم، فدعا رجلا من علمائهم، فقال: أنشدك بالذى أنزل التوراة على موسى، أهكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم؟ فقال: لا والله، ولولا أنك نشدتنى بهذا لم أخبرك، نجده الرجم ولكنه كثر فى أشرافنا، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، فقلنا تعالوا حتى نجعل شيئًا نقيمه على الشريف والوضيع. فاجتمعنا على التحميم والجلد مكان الرجم، فقال النبى ﷺ: «اللهم إنى أول من أحيا أمرك إذ أماتوه» قال: فأمر به فرجم قال فأنزل الله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ﴾

(المائدة: ٤١)

إلى قوله:

﴿ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ ﴾

(المائدة: ٤١)

أى يقولون: ائتوا محمدًا، فإن أفتاكم بالتحميم والجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا (٣).

٣ ـ وقال الزهرى: سمعت رجلا من مزينة ممن يتبع العلم ويعيه، ونحن عند ابن المسيب، عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: «زنى رجل من اليهود بامرأة، فقال بعضهم لبعض، اذهبوا إلى هذا النبى، فإنه بعث بالتخفيف فإن أفتانا بفتيا دون الرجم قبلناها، واحتججنا بها عند الله قلنا فتيا نبى من أنبيائك قال فأتوا النبى ﷺ وهو جالس فى المسجد فى أصحابه فقالوا: يا أبا القاسم، ما تقول فى رجل وامرأة زنيا؟، فلم يكلمهم كلمة حتى أتى بيت مدراسهم، فقام على الباب، فقال: أنشدكم بالله الذى أنزل التوراة على موسى ما تجدون فى التوراة على من زنى إذا أحصن؟» قالوا: يحمم ويجبه ويجلد ـ والتجبية أن يحمل الزانيان على حمار وتقابل أقفيتهما، ويطاف بهما ـ قال: وسكت شاب منهم، فلما رآه رسول الله ﷺ سكت ألظ به (٤) رسول الله ﷺ النشدة فقال: «اللهم إذ نشدتنا فإنا نجد فى التوراة الرجم» فقال النبى ﷺ «فما أول ما ارتخصتم (٥) أمر الله؟» قال: زنى ذو قرابة من ملك من ملوكنا فأخر عنه الرجم ثم زنى رجل فى أثره من الناس فأراد رجمه فحال قومه دونه، وقالوا: لا يرجم صاحبنا حتى تجئ بصاحبك فترجمه، فاصطلحوا على هذه العقوبة بينهم، فقال النبى ﷺ: «فإنى أحكم بما فى التوراة» فأمر بهما فرجما.

قال الزهرى: فبلغنا أن هذه الآية نزلت فيهم:

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ

(٢) التحميم وضع الحمة أي الفحمة في الوجه، وهو كالتسخيم الذي جاء في الرواية الأخرى من السخام كغراب، وهو الفحم أو سواد القدر، قال في القاموس الحمم كقرد الفحم. وحمم سخم الوجه به.
(٣) صحيح مسلم (كتاب الحدود) جـ٣ ص١٣٢٧ (باب رجم اليهود وأهل الذمة في الزنا).
(٤) ألظ به: أي لزمه وألح عليه في ذلك.
(٥) أي: جعلتموه رخيصة وسهلا.

﴿ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا ﴾

(المائدة: ٤٤)

فكان النبي ﷺ منهم (٦).

٤ - وأخرج الإمام أحمد، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: (إن الله أنزل:

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾

(المائدة: ٤٤)

﴿ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

(المائدة: ٤٥)

﴿ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

(المائدة: ٤٧)

قال ابن عباس: أنزلها الله في الطائفتين من اليهود، وكانت إحداهما قد قهرت الأخرى في الجاهلية، حتى ارتضوا واصطلحوا على أن كل قتيل قتلته العزيزة من الذليلة، فديته خمسون وسقا، وكل قتيل قتلته الذليلة من العزيزة فديته مائة وسق، فكانوا على ذلك، حتى قدم النبي ﷺ فقتلت الذليلة من العزيزة قتيلا، فأرسلت العزيزة إلى الذليلة أن ابعثوا لنا بمائة وسق، فقالت الذليلة: وهل كان في حيين دينهما واحد، ونسبهما واحد، وبلدهما واحد دية بعضهم نصف دية بعض؟ إنما أعطيناكم هذا ضيما منكم، وخوفا، فأما إذ قدم محمد فلا نعطيكم، فكادت الحرب تهيج بينهما، ثم ارتضوا على أن يجعلوا رسول الله ﷺ حكما بينهم، ثم ذكرت العزيزة فقالت: والله ما محمد بمعطيكم منهم، ضعف ما يعطيهم منكم، ولقد صدقوا ما أعطونا هذا إلا ضيما منا، وقهرا لهم، فدسوا إلى محمد من يخبر لكم رأيه، إن أعطاكم ما تريدون حكمتموه، وإن لم يعطكم لا تحكموه؟ فدسوا إلى رسول الله ﷺ ناسا من المنافقين، ليخبروا لهم رأي رسول الله ﷺ، فلما جاءوه أخبر الله رسوله بأمرهم كله وما أرادوا، فأنزل الله تعالى:

﴿ ۞ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا ۛ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ۚ وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٤١) سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٢) وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٣) إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ

(٦) سنن أبي داود «كتاب الحدود» جـ٢ ص٤٦٥ طبعة الحلبي.

بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤) وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥) وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٤٦) وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

(المائدة: ٤١ - ٤٧)

ففيهم والله أنزل، وإياهم عنى الله عز وجل) (٧).

قال الإمام ابن كثير: - بعد أن ساق بعض الأحاديث، التي ذكرناها - فهذه الأحاديث دالة على أن رسول الله ﷺ حكم بموافقة حكم التوراة، وليس هذا من باب الإكرام، لهم بما يعتقدون صحته، لأنهم مأمورون باتباع الشرع المحمدي لا محالة، ولكن هذا بوحي خاص من الله - تعالى - إليه بذلك، وسؤاله إياهم عن ذلك، ليقررهم على ما بأيديهم مما تواطؤوا على كتمانه وجحوده، وعدم العمل به تلك الدهور الطويلة، فلما اعترفوا به مع عملهم على خلافه، ظهر زيغهم وعنادهم وتكذيبهم لما يعتقدون صحته من الكتاب الذي بأيديهم، وعدولهم إلى تحكيم الرسول ﷺ إنما كان عن هوى منهم، وشهوة لموافقة آرائهم، لا لاعتقادهم صحة ما يحكم به، ولهذا قالوا:

﴿ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ ﴾

(المائدة: ٤١)

أي: الجلد والتحميم فاقبلوه:

﴿ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ﴾

(المائدة: ٤١)

أي: من قبوله واتباعه (٨).

هذا، وبمطالعتنا لهذه الأحاديث التي وردت في سبب نزول هذه الآيات، نراها جميعها قد وردت بأسانيد لا مطعن فيها، وفي كتب السنة المعتمدة، وأن الثلاثة الأولى منها، قد نصت على أن الآيات الكريمة، قد نزلت في شأن قضية الزنا التي تحاكم فيها اليهود إلى النبي ﷺ أما الحديث الرابع: فيؤخذ منه أن سبب نزول الآيات كان في قضية دماء، ولا تعارض بين هذه الأحاديث، فقد يكون هذان السببان حصلا في وقت واحد، أو متقارب، فنزلت هذه الآيات فيهما معا، وقد قرر العلماء: أنه لا مانع من تعدد أسباب النزول للآية الواحدة أو الطائفة من الآيات.

يتبع

(٧) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٦٠
(٨) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٥٩

قصص الأنبياء

موسى يختار سبعين رجلا من شيوخ بنى إسرائيل لطلب المغفرة من الله

للعلامة الشيخ عبدالوهاب النجار

لما رأى القوم أنهم قد ظلموا أنفسهم وقارفوا إثما كبيرا بعبادة العجل؛ اختار موسى من القوم سبعين رجلا يذهبون معه إلى الجبل - الذى اعتاد أن يناجى الله فيه - ليقدموا الطاعة لله والندم على ما اقترفوا من إثم، ويتوبوا إلى الله مما جناه عبدة العجل، فذهب بهم إلى الجبل «حورب» وهو جبل الطور فلما كلم الله تعالى موسى وهم شهود يسمعون كلام الله عاودت جماعة منهم جبلة التمرد والعصيان، فلم يؤمنوا أن الله تعالى هو الذى يكلم موسى وأنه أعطاه التوراة وقالوا له: لن نؤمن لك أن الله نبأك وأعطاك الكتاب حتى نرى الله تعالى جهرة بأعيننا، لا يحجبه حجاب ولا يستره ساتر. والظاهر أنهم لم يؤامروا موسى فى هذا الاقتراح من قبل. ولو فعلوا لأرشدهم وأعلمهم علم ما لقى من التجربة القاسية، وهى الصعقة التى نالته على أثر ذلك الاقتراح الذى صدر منه وتجلى الله تعالى للجبل الذى صار دكا من هيبته تعالى. ولا يبعد أن يكون أعلمهم بذلك كما يقول بعض المفسرين، وأنهم لم يقبلوا منه قوله.

على أثر هذا الطلب من القوم أخذتهم الصاعقة وهم ينظر بعضهم إلى بعض، يتهافتون على أديم الأرض ليكون ذلك برهانا فعليا لديهم على أن ما أصابهم حق لا شبهة فيه. ثم بعثهم الله من بعد موتهم بعد التضرع والتذلل من موسى، وطلب العفو عما صدر من سفهائهم والغفران لزلتهم. فغفر الله لهم ذلك وأعادهم إلى الحياة. وكان من طلب موسى المغفرة والرحمة فى الدنيا والآخرة، أن أخبره الله تعالى بأن ذلك راجع لمشيئته. وأخبره الله تعالى بأنه كتب رحمته للمتقين الذين يؤتون الزكاة ويؤمنون بآيات الله ولا يعارضون فيها ولا يتعنتون فى الاقتراح بعد إيمانهم، كما فعل قوم موسى. وهم الذين يتبعون النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا فى التوراة والإنجيل، ومن أوصافه أنه يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، إلى آخر الآيات.

فكأنه تعالى كان يباهى بمحمد وأتباعه أتباع موسى قبل وجود محمد وأمته بأكثر من ألف وخمسمائة سنة، ويوبخهم بأن له عبادا ليسوا على شاكلة قوم موسى يؤمنون بالله وآياته بدون تعنت أو تذمر بعد اتسامهم بالإيمان، ووصفهم بأروع الأخلاق وأجل الصفات.

نبوة محمد موجودة فى التوراة رغم ما اعتورها من التحريف. وها أنذا أسوق تلك المواضع من التوراة تعجيلا للفائدة، ولأنها أيضا من قصة موسى.

ففى الآية العشرين من الإصحاح السابع عشر -تكوين «وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه هانا أباركه وأنمره وأكثره كثيرا جدا».

أما بقية كتب الأنبياء ففيها أخبار كثيرة تنطبق على «محمد» ﷺ والبلد الذى يخرج منه أما هذا الموقف من مواقف موسى فاقرءوا هذه الآيات التى تدل عليه، يقول الله تعالى:

﴿وإذ قلتم يموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصعقة وأنتم تنظرون (٥٥) ثم بعثنكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون﴾

(البقرة: ٥٥، ٥٦)

وقال جل شأنه:

﴿واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقتنا فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإيى أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغفرين (١٥٥) ۞ واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة إنا هدنا إليك قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكوة والذين هم بآيتنا يؤمنون (١٥٦) الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التورىة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينههم عن المنكر ويحل لهم الطيبت ويحرم عليهم الخبئث ويضع عنهم إصرهم والأغلل التى كانت عليهم فالذين ءامنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾

(الأعراف: ١٥٥ - ١٥٧)

وقوله ﴿ثم بعثنكم﴾ دليل على أنهم ماتوا لأن البعث لا يكون إلا عن موت ولا مانع أن يكون فى الكلام مجاز فشبه إفاقتهم من الصعق بالأحياء.

***

تأملات فى السيرة

ملحمة الذبح ونهاية بنى قريظة



لفضيلة الشيخ الطاهر الحامدى

لعلى أكون قد ذكرتُ لك بعض الأسباب التى دفعت سعد بن معاذ رضى الله عنه لأن يحكم على بنى قريظة بقتل المقاتلين وسبى النساء والذرية ولعلك تذكر أن رسول الله ﷺ قال له لقد حكمت بحكم الله فيهم يا سعد من فوق سبع سماوات ولعلك تعلم من طبائع اليهود الغدر والخيانة وأنهم لو ملكوا فرصة لفعلوا بالمسلمين أكثر من ذلك وها هى دولة إسرائيل صنيعةُ الاستعمار الغاشم تفعل وتبرر ما تفعله بالمسلمين والعرب ما هو أشدُّ من الذبح والقتل وأنا أعلمُ أنكَ ربما تعلم أكثر منّى بأساليب الغدر والخيانة والبطش بالعرب والمسلمين داخل إسرائيل وما تقدمه للعالم من تبريرات غير مقبولة.

ولعلى لا أضيف إليك جديداً عندما أحكى لك قصة عمرو بن سُعدى حين دخل فى حصن بنى قريظة فى الليلة التى فتح المسلمون حصنهم فيها قال: يا معشر يهود إنكم حالفتم محمداً على ما حالفتموه عليه فنقضتم عهده الذى كان بينكم وبينه - تأمل كيف أنهم حالفوا رسول الله ﷺ وأنهم هم الذين نقضوا عهدهم مع رسول الله ﷺ باعتراف واحد منهم - فلم أدخل فيه ولم أشرككم فى غدركم فإن أبيتم أن تدخلوا معه فأثبتوا على اليهودية وأعطوا الجزية - تأمل كيف أنه يطلب منهم أن يأمنوا على أنفسهم لو صدقت نواياهم لو أنهم أرادوا النجاة حقاً من مصير الذبح المحتوم - فوالله ما أدرى أيقبلها أم لا. فقالوا - فى كبرياء وحقد متوارث وغرور - لا نُقرُّ للعرب بخراج فى رقابنا يأخذوه.. القتل خير من ذلك. فقال لهم: إنى برىءٌ منكم - وخرج فى تلك الليلة فمر بحرس رسول الله ﷺ وعليهم محمد بن مسلمة فقال محمد ابن سلمة: من هذا؟ قال: عمرو بن سُعدى. فقال محمد بن مَسْلَمَة مُرّ. ثم دعى فقال: اللهم لا تحرمنى إقالة عثرات الكرام. وخلّى سبيله. ويروى أن عمرو بن سعدى خرج حتى أتى مسجد رسول الله ﷺ فبات به حتى أصبح فلمّا أصبح غدا فلم يعرف أين هو حتى الساعة فذُكر شأنهُ لرسول الله ﷺ فقال ذلك رجلٌ نجّاه الله بوفاءه. - ولقد سلكت بنو قريظة كل مسلك للحرب فلمّا لم تفلح كل الأساليب وجهدهم الحصار ولمّا لم يجدوا مناصاً أو خلاصاً فى الحرب طلبوا المفاوضة أو قل بدأوا المراوغة ورغم أنهم طلبوا المفاوضة ورفعوا شعار الصلح إلا أن حقدهم لم يكن خافياً فنزلوا على حكم رسول الله ﷺ الذى طلب منهم أن يختاروا هم الحكم فيهم. فرشحوا سعد بن معاذ رضى الله عنه. ويروى أنهم بَعْدَ أن أمر سعد بن معاذ بقتل مقاتليهم قالوا لكعب بن أسد الذى سبق وأن نصحهم أن يتّبعوا رسول الله ﷺ وما منعهم من تصديقه والإيمان به إلا حقدهم للعرب - فقالوا: يا كعب ما ترى محمداً يصنعُ بنا؟ قال: ما يسوئُكم. ويلكم ألا تعقلون؟ ألا ترون أن الداعى لا ينزع وأنه من ذهب منكم لا يرجع؟ هو والله السيف. قد دعوتُكم إلى غير هذا فأبيتم علىّ. قالوا: ليس هذا بحين عتاب. لو لا أنا كرهنا أن تزرى برأيك ما دخلنا فى نقض العهد الذى كان بيننا وبين محمد. فقال حيى بن أخطب - وأحسبُ أنها كلمة يأس تُنبىءُ عن حقد عاجز -: إتركوا ما ترون من التلاوم فإنه لا يردُّ عنكم شيئاً واصبروا للسيف. - ويروى أن الذين يتولون قتلهم علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه والزبير بن العوام رضى الله عنه. - فجاء سعد بن عبادة والحباب بن المنذر فقالا: يا رسول الله إن الأوس قد كرهت قتل بنى قريظة لحلفهم معهم قال سعد بن معاذ: والله ما كرهه أحدٌ من الأوس فيه خير فمن كرهه منهم فلا أرضاه الله. - فقام أسيد بن الحضير كأنه يدافعُ عن الأوس واقترح على رسول الله ﷺ أن يفرقَ اليهودَ فى دور الأنصار حتى يباشروا قتلهم فيُثبتونَ أنهم لم يكرهوا قتلهم - فقال يا رسول الله لا تُبقيَنّ داراً من دور الأنصار إلا فرقتهم فيها فمن سخط فلا يُرغمُ الله إلا أنفهُ فابعث إلى دارى أول دورهم - ففرقهم رسول الله ﷺ فى دور الأنصار ثم أتى بحيى بن أخطب وهو من أشدِ اليهود كرهاً للإسلام ونبى الإسلام مجموعةٌ يداه إلى عنقه فقال له رسول الله ﷺ: ألم يُمَكِن الله منك يا عدو الله؟ - فاسمع الإجابة لترى ولتعرف مدى حقد هذا الرجل رغمَ موقفه الذى هو فيه فقال رداً على رسول الله ﷺ معترفاً أن الله قد مكنَ منه فقال: بلى والله - ثم أردف يقول فى كلمات يطفح الحقد منها -: والله ما لمت نفسى فى عداوتك ولقد التمست العزَّ فى مكانه فأبى الله إلا أن يمكّنك. ولقد بذلتُ كلّ ما استطيع ولكنّهُ من يَخْذُلِ الله يُخذَل - ثم أقبل على الناس فقال: لا بأس بأمر الله قدرٌ وكتابٌ وملحمة كُتِبَت على بنى إسرائيل. تأمل هذا الحقد فى مقابلة سماحة نبى الإسلام وأنه لم يثأرْ لنفسه قط لكنَّ من حاربَ الله يجب أن يعامل بفعله ولا تأخذُ رسول الله ﷺ فيه لومة لائم. يروى أنّ صحابياً اسمه نباش بن قيس أتى بواحد منهم للقتل فنازع نباشاً فضربه نباش على أنفه فأرعفه - أى سال من أنفه الدم - فقال رسول الله ﷺ رسول الرحمة الذى لا يغضب لنفسه قط قال لنباش يلومه على ما صنع: لِمَ صنعتَ هذا به أما كان فى

ملحمة الذبح ونهاية بني قريظة

السيف كفاية؟. فقال نباش: جابذتني بأن يهرُب. فقال اليهوديّ: كذب والتوراة يا أبا القاسم لو خلاني ما تأخرت عن موطن قتل فيه قومي حتى أكون كأحدهم. فقال رسول الله ﷺ كلمة لا تُنبيء عن حقد وإنما تفيض رحمةً فالذى وقع باليهود حكم الله من فوق سبع سماوات فقال رسول الله ﷺ: أحسنوا أسراهم وقيّلوهم وأسقوهم حتى يبردوا فلا تجمعوا عليهم حرَّ الشمس وحرَّ السلاح، فهل رأيت قائداً على مر التاريخ فيما مضى يفعل ذلك بأسراه؟ بل وأكّد لك أنك لن تجد وهل يمكن أن يقارَنَ فعل أمريكا فى جوانتانامو ومُعسكرات أبو غريب من ذلك أو قريباً من ذلك؟ لو أن أسيراً اشتكى حارسَهُ إلى قائد المعسكر اشتكى أن حارسه أدمى أنفهُ لقال له قائد المعسكر معنّفاً إيّاه مؤنّباً. لماذا لمْ تقطعْ لسانَهُ حتى لا يشكوك؟.

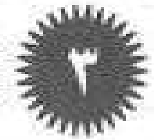
أنا ابن دارة معروفاً بها نسبي
وهل لدارة يا للناس من عار

إسأل نفسك واسأل التاريخ واسأل الحاضر والمستقبل كم قتلوا من أطفال ونساء فى حروب حول العالم؟ كان فتىً يدعى عطية القرظى، يروى ابن إسحاق والإمام أحمد وأبو داوود والترمذى يقول عطية: كنت غلاماً فوجدونى لم أنبت فخلّوا سبيلى - لأنه لم يبلغ الحُلُم - بالله عليك هل تصنع أمريكا وحلفائها ذلك؟ أم أنهم يقتلون الأطفال؟ يقول أسلم الأنصارى رضى الله عنه فيما رواه الطبرانى -: جعلنى رسول الله ﷺ على أسارى قريظة وكنت أنظر إلى الغلام فإن رأيته انبت ضربت عنقه وإن لم أره أنبت جعلته فى غنائم المسلمين!! بالله عليك هل رأيت صبياً قُدّم للقتل فى أى معسكر من معسكرات الحروب وتركوه لأنه صبيٌ لم يبلغ؟ أم إنه يُعذّب حتى يعترف؟ بل إنّ رجلا يهودياً يقال إن اسمُهُ رفاعة بن صموئيل لاذ بامرأة واستجار بها تسمى سلمة بنت قيس بن المنذر - فقالت: يا نبى الله بأبى أنت وأمى هب لى رفاعة فإنه زعم إنه سيصلى ويأكل لحم الجمل. فوهبه لها رسول الله ﷺ وقالوا إنه أسلم بعد ذلك. ولم يقتل منهم النبى ﷺ إلا امرأة واحدة وذلك لا لسبب إنها أسيرة بل يقال إنها كانت تحت رجل يحبها وتحبه فلما اشتد على بنى قريظة الحصار وأيقن إنه مقتول وقالت له إنك لمفارقى فدبّرا معاً حيلة حتى لا تبقى بعده فقال لها أرمى عليهم هذه الرحى فإنّا لم نقتل منهم أحدًا بعد. فدلّت عليهم الرحى من فوق الحصن وكان القومُ يجلسون فى ظل الحصن فلمّا رأوها تفرّقوا لكنّ الرحى أدركت خلّاد بن سويْد فشجّت رأسه فمات. فأمرَ رسول الله ﷺ فقتِلَتْ بخلّاد بن سُويْد.

وقبل أن أختم هذه الحلقة سوف أحكى لك قصة صحابى اسمه ثابت بن قيس مع يهودى اسمه الزبير بن باطا، وكان ذلك فى يوم بُعاث وتلك حرب ضروس كانت بين الأوس والخزرج، لو أنّ ما أحكيه لك خيالٌ فى خيال لقلت إنه خيال جامح وفكرٌ شرود ولمْ تصدّقه لكنّ واقع المسلمين بل قل إن شئت إنه منهج الإسلام وثمرة تعليم النبى ﷺ لأصحابه. فى يوم بُعاث التى كانت بين الأوس والخزرج عطف الزبير بن باطا على ثابت بن قيس وأحسن إليه ولم ينسَ ثابت تلك اليد للزبير وتغيرت المواقف فأصبح الزبير فى موقف أضعف وأسيراً عند ثابت بن قيس فقال فى نبل وأريحية يخاطب الزبير: إن لك عندى يداً وأردتُ أن أجزيَك بها. فقال الزبير: إن الكريم يجزى الكريم وأحوج ما كنت إليك اليوم. فأتى ثابتٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إنه كان للزبير عندى يدٌ خير جزّ ناصيتى يوم بُعاث. فقال: أذكر هذه النعمة عندك وقد أحببت أن أجزيه بها - أى أن الزبير بن باطا منَّ على ثابت بن قيس فى يوم بعاث فأراد ثابت بن قيس أن يرد له هذه اليد. أما كان لثابت أن يقول إن المواقف قد تغيّرت وقد كنّا فى الجاهلية وقد جائنا دينٌ جديد ونبيٌ مرسل آمنا به وصدّقناه فكان من الممكن فى أحسن الأحوال أن يعرضَ على الزبير بن باطا الإسلام حتى يخرجه عن ذل القتل لكنّه ترفّعَ عن هذا ولم تقبل نفسُهُ الكريمة إسلام مُكرَه بل تركه على يهوديته واستشار النبى ﷺ أن يهبه له وكان من الممكن لأى قائد أن يرفضَ هذا الحوار ويقول متذرّعا بأن الأحوال قد تغيّرت وأنّ الدين الجديد والرسالة قد جبّت ما قبلها. لكنّ نبى الإسلام نبى الرحمة نبى السماحة والرشد لمّا قال ثابت بن قيس هبه لى يا رسول الله قال النبى ﷺ بمنتهى الرحمة «هو لك». فما كان من ثابت إلا أن ذهب لصاحبه وبشّره بهذا لكنّ الزبير قال: شيخ كبير لا أهل لى ولا مال بيثرب ما أصنع بالحياة؟ عاد ثابتٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله هب لى ماله وولده - إن أىّ قائد فى أى معركة ولا أقول فى حرب كان من الممكن أن ينهى هذا الحوار بضربة سيف يوجهها إلى الزبير بن باطا لكنّ رسول الإنسانية الذى قال إن امرأة دخلت النار فى هرة حبستها فلا هى أطعمتها ولا تركتها تأكل من خشاش الأرض. وقال: إن امرأة «ساقطة» دخلت الجنة لأنها سقت كلباً كان يلهث. قال لثابت بن قيس فى منتهى السماحة: مالُهُ وأهلُهُ لك. فرجع ثابت إلى الزبير فقال إن رسول الله ﷺ قد أعطانى ولدَكَ وأهلكَ ومالكَ. فقال الزبير: إمّا أنت يا ثابت فقد كافئتنى وقد قضيت الذى كان عليك. ثم أخذ يسألُ عن بنى قريظة وبنى عمرو بن قريظة. قال: قتلوا قال: يا ثابت ما فى العيش خيرٌ بعد هؤلاء ثم قال الزبير: لا حاجة لى بعد ذلك ولكن يا ثابت انظر إلى امرأتى وولدى فإنهم جزعوا من الموت فاطلب إلى صاحبك أن يطلقهم وأن يرد أموالنا - تأمّل مقدار الصلف والغرور ولم يقل أطلب إلى رسول الله ﷺ ومع هذا فقد طلب ثابت من النبى ﷺ أهله وماله وولده فردَّ رسول الله ﷺ أهله وماله ورغم كل هذا فإن اليهوديَّ الحاقد يقولُ: يا ثابت أسألك بالذى عندك إلاّ ألحقتنى بالقوم. فما أنا فاعل حتى ألقى الأحبة؟ فلما بلغ أبا بكر الصديق رضى الله عنه قول الزبير بن باطا «ألقى الأحبة» قال رضى الله عنه: يلقاهم فى نار جهنم خالداً مخلداً. وبهذا تنتهى ملحمة بنو قريظة ونمضى معاً الى رحاب السيرة العطرة.

وإلى لقاء آخر إن شاء الله

حث الإسلام على الإنفاق



فوزى فاضل الزفزاف
عضو مجمع البحوث الإسلامية



أدرك كثير من الصحابة- رضوان الله عليهم بصدق عقيدتهم، وقوة إيمانهم، وصفاء قلوبهم، ونقاء سريرتهم، وحبهم الذى لا حدود له للخير، وزهدهم فى الدنيا.. أدركوا أن المال الذى فى أيديهم هو مال الله استودعه عندهم وفى أيديهم لإنفاقه فيما يرضى الله، وفيما ينفعهم فى الدنيا والآخرة، وأنهم سيحاسبون عليه حسابا عسيرا، ويسألون من أين جمعوه؟ وفيما أنفقوه؟، كما أدركوا قولا وعملا أن الدنيا عرض زائل، وأنهم سيغادرون الدنيا بأكفان تسترهم فقط إلى قبور موحشة، لا حول لهم فيها ولا قوة، ولا صديق لهم فيها ولا خليل.. قبور لا تنقل إليها خزائن حفظ المال، بل إنهم سيتركون أموالهم لورثة يتمتعون بهذه الأموال، وينفقونها فيما يشتهون وفيما يرغبون حلالا كان أو حراما!!

ولقد سجل التاريخ أمثلة رائعة لهؤلاء الصحابة منهم: سيدنا أبوبكر الصديق، وسيدنا عثمان بن عفان، وسيدنا عبدالرحمن بن عوف، وغيرهم كثير- رضوان الله عليهم- تدل على مدى قوة إيمانهم بالله وهوان الدنيا فى نظرهم.

لقد اشتهر سيدنا أبوبكر- رضى الله عنه- بين العرب- قبل الإسلام وبعده- بالعقل الراجح، والفكر الثاقب، والنظر السديد.. كما اشتهر بالنجاح فى التجارة لصدقه وأمانته.. غير أن المال لم يشغل أبا بكر- رضى الله عنه- ولم يستحوذ على فكره، ولم يجعله بؤرة اهتمامه، ولم يجعله الغاية والهدف، بل جعل- رضى الله عنه- المال وسيلة لخدمة الدعوة الإسلامية، وهدفا لنصرة الحق وتحقيق الخير، مهما كلفه ذلك من المال ولو أدى إلى إنفاق كل ما يملك فى سبيل الله.

ولسيدنا أبى بكر- رضى الله عنه- مواقف رائعة فى جميع مجالات الإنفاق تدل على مدى حبه للخير وعلى أن إنفاق المال فى سبيل الله كان طبعه وسجيته، فعندما رأى كفار مكة يؤذون العبيد الأرقاء الذين دخلوا فى الإسلام، ويعذبونهم لدرجة الموت.. سارع بشراء هؤلاء المستضعفين من ماله الخاص، ثم أعتقهم- بعد الشراء- ابتغاء وجه ربه الأعلى، وقد ذكر بعض المؤرخين أن الذين اشتراهم سيدنا أبوبكر- رضى

الله عنه- بماله ثم أعتقهم كانوا سبعة من الذكور والإناث، منهم الصحابى الجليل بلال بن رباح- رضى الله عنه- الذى كان عبدا مملوكا لأمية بن خلف، وبعد أن أعلن بلال إسلامه عذبه أمية عذابا لا يتحمله بشر، فكان يخرجه إذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره فى بطحاء مكة، ثم يأمر بصخرة عظيمة فتوضع عليه، ثم يقول أمية لبلال- رضى الله عنه-: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى.. فكان بلال رضى الله عنه- يقول: أحد أحد، فتوجه سيدنا أبوبكر إلى أمية بن خلف وهو يعذب بلالا واشتراه بخمس أواق من الذهب ثم أعتقه، فقالوا لأبى بكر: لو أبيت شراءه إلا بأوقية واحدة لبعناك إياه!! فيرد عليهم سيدنا أبوبكر برد يفحمهم ويغيظهم قائلا: لو أبيتم إلا أن تبيعوه بمائة أوقية لاشتريته!!

وكانت زنيرة الرومية من الإماء اللاتى أسلمن، فأخذ سيدها يعذبها عذابا شديدا حتى كف بصرها، فقال بعض المشركين: ما أصابها بالعمى إلا اللات والعزى!! فقالت: والله ما هو كذلك، وما يدرى اللات والعزى من يعبدهما، وربى قادر على أن يرد على بصري، فرد الله عليها بصرها، فقال المشركون: هذا من سحر محمد ﷺ وبلغ ذلك أبا بكر فاشتراها وأعتقها.. وكان بعض المشركين يقول: لو كان دين الإسلام حقا ما سبقتنا إليه زنيرة!! فأنزل الله- تعالى- قوله:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾

(الأحقاف: ١١)

وفى أبى بكر الصديق وفى أمثاله الذين بذلوا أموالهم من أجل معاونة الأرقاء وتحرير رقابهم من الظلم والاستعباد- رضى الله عنهم- نزل قوله- تعالى:

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾

(الليل: ١٧- ٢١)

وأبوبكر الصديق- رضى الله عنه- الذى عرفه المجتمع المكي- قبل الهجرة- جوادا سخيا فى الخير، سباقا إلى بذل المال والعطاء فى سبيل الله، ينفق ماله فى خدمة الدعوة الإسلامية، وفى خدمة أصحابه الفقراء، وفى إعتاق العبيد والإماء الأرقاء بعد شرائهم بماله ابتغاء وجه الله تعالى ورضاه... هو نفسه أبوبكر الصديق- رضى الله عنه- الذى عرفه المجتمع المدنى على وجه خاص والمجتمع الإسلامى على وجه عام- بعد الهجرة- كريما سخيا بماله يبذله فى سبيل الله من غير تردد.

أراد الرسول ﷺ بعد وصوله إلى المدينة المنورة، أراد أن يبنى المسجد كى يتجمع المسلمون فيه للعبادة وإقامة الصلاة، وقضاء مصالح المسلمين.. فأرسل إلى جماعة من بنى النجار وقال لهم: ثامنونى بحائطكم هذا- أي: قولوا كم ثمن هذا المكان كى أبنى فيه مسجدا؟ فقالوا: لا والله لا نطلب ثمنه إلا من الله، فأبى ذلك رسول الله ﷺ واشتراه منهم بعشرة دنانير أداها من مال أبى بكر- رضى الله عنه-.

وعندما دعا الرسول عليه الصلاة والسلام أصحابه إلى بذل أموالهم للجهاد في سبيل الله، جاء أبوبكر الصديق - رضى الله عنه - بجميع أمواله، فقال له الرسول عليه الصلاة والسلام: ماذا أبقيت لأهلك يا أبابكر؟ قال: يارسول الله أبقيت لهم الله ورسوله.

هذا هو سيدنا أبوبكر الصديق - رضى الله عنه - الجواد الكريم الذى لم تشغله الدنيا بمالها، ولم تفتنه بمتاعها، بل كان ينفق ماله فى سبيل الله فتاجر مع الله فاستحق أن يبشره النبى ﷺ بالجنة، ففى الصحيحين عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال:

(من أنفق فى سبيل الله نودى من أبواب الجنة يا عبدالله هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة دعى من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دعى من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصيام دعى من باب الريان، ومن كان من أهل الصدقة دعى من باب الصدقة، فقال أبوبكر: يارسول الله هل يدعى أحد من تلك الأبواب كلها؟ قال: نعم وأرجو أن تكون منهم)، وروى الترمذى عن ابن عمر - رضى الله عنهما - أن النبى ﷺ قال لأبى بكر: (أنت صاحبى فى الغار، وأنت صاحبى على الحوض)، وفى الصحيحين عن أبى سعيد الخدري - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: (إن من آمن الناس علىّ فى صحبته وماله أبابكر، ولو كنت متخذا خليلا غير ربى لا تخذت أبا بكر خليلا، ولكن أخوة الإسلام ومودته، لا يبقين فى المسجد باب إلا سد إلا باب أبى بكر).

رضى الله عنك يا سيدنا يا أبابكر، فقد زهدت فى مال الدنيا ومتاعها وزينتها، وحرصت على التمسك بزهدك حتى فى الشىء الوحيد الذى يخرج به الإنسان من الدنيا عند مماته ويلازمه فى قبره - سوى عمله - وهو الكفن، فقد أوصى - رضى الله عنه - قبل وفاته أن يكفنوه فى ثوبين قديمين، ولا يكفنوه فى ثياب جديدة، لأن الإنسان الحى أحوج إلى الثياب من الميت.

ولا أجد فى هذا المقام أفضل وأعظم من الكلمات التى قالها سيدنا على بن أبى طالب - رضى الله عنه - فى رثاء سيدنا أبى بكر من هذه الكلمات التى قالها:

«رحمك الله يا أبا بكر كنت والله أول القوم إسلاما، وأصدقهم إيمانا، وأشدهم يقينا، فجزاك الله عن الإسلام وعن رسول الله ﷺ وعن المسلمين خيرا، لقد صدقت رسول الله ﷺ حين كذبه الناس، وواسيته حين بخلوا، وقمت معه حين قعدوا، كنت والله للإسلام حصنا، وعلى أعدائه عذابا، كنت كالجبل الذى لا تحركه العواصف، ولا تزعزعه القواصف، كنت كما قال رسول الله ﷺ ضعيفا فى بدنك، قويا فى دينك، متواضعا فى نفسك، عظيما عند الله، جليلا فى الأرض، كبيرا عند المؤمنين، لم يكن لأحد عندك مطمع ولا هوى، فالضعيف عندك قوى حتى تأخذ الحق له، والقوى عندك ضعيف حتى تأخذ الحق منه، فلا حرمنا الله أجرك ولا أضلنا بعدك».

يتبع

فتاوى لها تاريخ

وجه المرأة الحرة (١)



الإمام محمد رشيد رضا

من محمد رحيم أفندى الشفى فى «زويله باشى» بسمير «روسيا»:

الفاضل الجليل والعالم النبيل السيد محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار الأغر دمت بالعز والكرامة.. أما بعد فقد كثرت المباحثة والمناظرة فى حق وجه الحرة فى طرفنا، فبعض العلماء قالوا ليس بفرض ستر وجه الحرة، لحديث عائشة، رضى الله عنها، أخرجه أبو داود وابن مردويه والبيهقى أن أسماء بنت أبى بكر دخلت على النبى ﷺ وعليها ثياب رقاق فأعرض عنها وقال: «يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا» وأشار إلى وجهه وكفه.. وبعضهم قالوا: إن ستر وجه الحرة فرض، وإن لم تستره تكون آثمة عند الله، لقول عائشة - رضى الله عنها: إحدى عينيها فحسب لاندفاع الضرورة (كذا) أخذه القهستانى والزاهدى، فالمأمول من سيادتكم أن تبين الحق من الأقوال لرفع النزاع من بين الناس.

ج - حديث عائشة لا تنهض به الحجة، فإنه مرسل وفى إسناده من تكلم فيه، والأصل فى المسألة قوله تعالى:

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾

(النور: ٣١)

فقد روى عن ابن عباس أنه قال: الظاهر منها الكحل والخدان.. وفى رواية عنه: الزينة الظاهرة والوجه وكحل العين وخضاب الكف والخاتم.. وعن سعيد بن جبير والضحاك: الوجه والكف.. وعن عطاء: الكفان والوجه.. وسئل الأوزاعى عن قوله تعالى:

﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾

فقال: الكفين والوجه.. ذكر ذلك كله ابن جرير فى تفسيره، وذكر أقوال من قالوا: إنها الثياب والحلى أو الوجه والثياب، ثم قال: وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب قول من قال عنى بذلك الوجه والكفين يدخل فى ذلك - إذا كان كذلك - الكحل والخاتم والسوار

(١) المنار: ج ١١ (١٩٠٨) ص ٥١٦ – ٥١٩.

والخضاب.. وإنما قلنا ذلك أولى الأقوال فى ذلك بالتأويل لإجماع الجميع على أن على كل مصل أن يستر عورته فى صلاته، وأن للمرأة أن تكشف وجهها وكفيها فى صلاتها، وأن عليها أن تستر ما عدا ذلك من بدنها، إلا ما روى عن النبى ﷺ أنه أباح لها أن تبدى ذراعها إلى قدر النصف.. فإذا كان ذلك من جميعهم إجماعًا كان معلومًا بذلك أن لها أن تبدى من بدنها ما لم يكن عورة كما ذلك للرجال، لأن ما لم يكن عورة فغير حرام إظهاره، وإذا كان لها إظهار ذلك كان معلومًا أنه مما استثناه الله تعالى ذكره بقوله:

﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾

لأن كل ذلك ظاهر منها.. وقوله:

﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾

(النور: ٣١)

يقول تعالى ذكره: وليلقين خمرهن وهو جمع خمار على جيوبهن ليسترن بذلك شعورهن وأعناقهن وقرطهن.. اهـ كلام ابن جرير.

والجيوب جمع جيب وهو فتحة القميص على الصدر، وكانت المرأة تضع الخمار على رأسها وتسدله إلى الوراء فيظهر عنقها وصدرها، فأمرن بأن يجعلن طرفه على الجيب ليستر العنق والصدر.. ولم يؤمرن بوضعه على الوجه، فلو لم يقل إلا ما ظهر منها لكان يصح أن يقال إن كشف الوجه باق على أصل الإباحة، فكيف وقد أمر بستر الجيب ولم يأمر بستر الوجه!

وناهيك بحكاية ابن جرير الإجماع على ذلك وهو ما كان عليه النساء فى عهد السلف فقد كن يأتين المساجد ويغشين الأسواق ويسعفن الجرحى فى مواقع القتال ويخطبن على الرجال ويناقشن الأمراء والحكام.. يفعلن ذلك وأمثاله مكشوفات الوجوه.. ومن جال فى أرض المسلمين فى الأقطار المختلفة يرى أن أكثرهن يخرجن مكشوفات الوجوه ولا يستره منهن إلا بعض نساء المدن، وهى عادة حكمت بها غيرة الرجال عندما دخل المسلمون فى الحضارة وانغمسوا فى الترف الذى يستلزم الفسق والفجور، ولذلك ترى أكثر الفقهاء عللوا وجوب ستر المرأة وجهها عن الرجال بخوف الفتنة، وابتدأ هذا البحث والخلاف فى القرن الثانى.

هل يمكن لمكابر أن يقول إن النساء كن يصلين مكشوفات الوجوه فى مسجد الرسول ﷺ فى حياته ولا يراهن أحد؟ إذا كابر أحد نفسه وقال يحتمل أن الرجال لم يكونوا يرون النساء فى المسجد لأنهن يصلين وراءهم ولم يخش أن يقال له إنهم كانوا يرونهم قبل الصلاة إذ كن ينتظرن الجماعة معهم، وبعدها عند الانصراف كما هو مأثور مشهور - فهل يسفه نفسه ويقول إن الرجال لم يكونوا يرون وجوه النساء وأيديهن فى أثناء أعمال الحج من طواف وسعى ووقوف بعرفة وجولان فى أرض الحرم، ومعلوم لكل من يعرف أحكام الحج فى الإسلام أن كشف المرأة وجهها فى الإحرام واجب، ومن النساء من تحرم بالحج من أول أشهره فتكون أكثر من شهرين محرمة مكشوفة الوجه واليدين أينما كانت وحيثما حلت وهى مع الرجال فى جميع الأعمال.

ومن نظر إلى كلام فقهاء القرون الوسطى الذين رجحوا تحريم النظر إلى الوجه والكفين يجد أنهم لم يأتوا بدليل من الكتاب ولا من السنة ولا من عمل أهل الصدر الأول، وإنما عللوه بخوف الفتنة وسد الذريعة، وقد قالوا بحرمة النظر إلى وجه الأمرد وعللوه بتلك العلة. ومن العجب أن إمام الحرمين من الشافعية اغتر بمنع الحكام النساء من الخروج فى زمنه وظن أن عليه جميع المسلمين.

قال الرملى فى شرح المنهاج (٢) عند تصحيح المتن لحرمة النظر إلى وجه المرأة وكفيها حتى عند الأمن من الفتنة: «والثانى لا يحرم، ونسبه الإمام للجمهور، والشيخان للأكثرين، وقال فى المهمات إنه الصواب. وقال البلقينى: الترجيح بقوة المدرك، والفتوى على ما فى المنهاج، وما نقله الإمام من الاتفاق على منع النساء أى منع الولاة لهن معارض لما حكاه القاضى عياض عن العلماء أنه لا يجب على المرأة ستر وجهها فى طريقها، وإنما ذلك سنة، وعلى الرجال غض البصر عنهن للآية، وحكاه المصنف عنه فى شرح مسلم وأقره عليه. اهـ ما ذكره. ومنه أنه يحرم النظر إلى المرأة المتنقبة التى لا يرى منها غير عينيها ومحاجرها وإلى العجوز والمشوهة.

وفى حاشية المقنع من كتب الحنابلة: «لا يجوز له النظر إلى الأجنبية قصدًا وهو المذهب. وقال القاضى يحرم النظر إلى ما عدا الوجه والكفين لأنه عورة ويباح له النظر إليهما مع الكراهة إذا أمن الفتنة ونظر بغير شهوة وهذا مذهب الشافعى. قال فى الإنصاف: وهذا الذى لا يسع الناس غيره خصوصًا للجيران والأقارب غير المحارم الذى نشأ بينهم». ثم نظر فى هذا بأن فيه تجريئاً للفساق وهو مخالف لمقاصد الشرع فى إصلاح أمر الدنيا والآخرة. وبمثل هذا صرح الحنفية، مع أن الجميع يروون عن أئمتهم أن الوجه والكفين غير عورة، وعن ابن عباس تفسير الآية بذلك.

أقول مسألة الخوف من الفتنة العارضة أو سد ذريعتها لا يصح أن تجعل دليلا لتغيير حكم من أحكام الدين التى كان عليها السلف بحظر أو إباحة تغييرًا مطلقًا، كأن يقال مثلا إن صلاة النساء مع الرجال فى المساجد حرام فى الإسلام، بناء على ما يقولون به من فساد الزمان، ومثله كشف المرأة وجهها. وإنما يصرح بأن حكم الإسلام هو الذى كان عليه السلف اتباعًا للكتاب والسنة، ولكن إذا عرض ما يمنع من العمل به بناء على قاعدة درء المفاسد فإننا نمتنع عنه ما دامت المفسدة متوقعة.

فحاصل الجواب أن كشف المرأة لوجهها هو الأصل الذى كان عليه الناس وأقره الإسلام بل أوجبه فى الإحرام. وادعاء حرمته فى أصل الدين جناية على الدين وتحكم فيه بالرأى أو الهوى، وإثبات للحرج والعسر فيه، وقد نفاهما الله عنه، لأن أكثر المسلمات يشق عليهن ذلك مع الحاجة إلى العمل والسفر، وإن تحمله من نساء الأمصار من تعودنه أو من كفتهن الثروة مزاولة الأعمال. ودعوى خوف الفتنة من كشفهن لوجوههن لا تسلم على إطلاقها، فإننا نعرف من نساء الفلاحين والبدو السافرات من نقطع بأنهن أبعد عن الريبة من نساء المدن المتنقبات، ولكن المرأة التى تعلم أن فى كشف وجهها مفسدة يحرم عليها كشفه بلا شك.

(٢) شمس الدين محمد الرملى: نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، بولاق، ١٢٩٢ هـ.

﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾

استفتاءات القراء

(الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبى بعده سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين)

اطلعنا على الطلب المقدم من/ مجلة الأزهر - المتضمن لبعض الأسئلة وهى:

حكم قراءة القرآن على المتوفى

● ما حكم الاجتماع فى ميعاد وفاة متوفى فى كل سنة لقراءة القرآن كاملًا على روحه ثم القراءة بصفة جماعية جهرية لسورة ورد فى فضلها نصوص خاصة كالفاتحة ويس وتبارك. فهل هذا العمل بدعة أم لا؟

●● الجواب: لا مانع من ذلك شرعًا، وليس هذا العمل بدعة، بشرط ألا يكون فى ذلك إقامة المآتم أو إعادة العزاء أو استجرار الأحزان، وبشرط ألا يكون من مال القصر أو بغرض التباهي والتفاخر.

والله سبحانه وتعالى أعلم

البشعة!!

● ما حكم الشرع فى البشعة؟

●● الجواب: البشعة ليس لها أصل فى الشرع الشريف، وإنما يجب أن تعمل بقول رسول الله ﷺ: «البينة على من ادعى واليمين على من أنكر» رواه البيهقى فى السنن الكبرى والدارقطنى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ـ فهذا الحديث الشريف رسم لنا طريق المطالبة بالحق وإثباته أو نفى الادعاء الباطل، وهذا ما يجب على المسلمين أن يتمسكوا به دون سواه من الطرق السيئة التى لا أصل لها فى الشرع؛ بل وتنافى العقائد الثابتة بخصوصية الله تعالى بعلم الغيب؛ قال تعالى:

﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾

(الأعراف: ١٨٨)

والله سبحانه وتعالى أعلم

مؤخر الصداق

● ما هو الحكم الشرعى فى مؤخر صداق الزوجة وكيفية سداده للزوجة بعد وفاة الزوج؟

●● الجواب: مؤخر الصداق دين فى ذمة الزوج لأقرب الأجلين: الطلاق أو الوفاة، ولا يسقط هذا الدين إلا بالأداء أو الإبراء، فبوفاة الزوج حل أجل الدين مؤخر الصداق، فوجب أن

يجيب عنها فضيلة الأستاذ الدكتور
شوقى علام
مفتى جمهورية مصر العربية



يؤدى إلى الزوجة من تركة زوجها قبل توزيعها، ثم بعد ذلك توزع تركته على ورثته الشرعيين كل حسب نصيبه ومنهم هذه الزوجة. ومما ذكر يعلم الجواب عما جاء بالسؤال.

والله سبحانه وتعالى أعلم

عقد الزواج

● ما الحكم الشرعى فى كتابة عقد الزواج فى المنزل، والإشهار فى المسجد بنفس صيغة العقد مرة ثانية؟

●● الجواب: حقيقة صيغة النكاح إنما هى للإخبار وليست للإنشاء، وإنما احتجنا لنقلها من دائرة الإخبار إلى دائرة الإنشاء حتى يتم العقد وتكون دلالة الكلام هى الواقع فى الخارج دون احتمال الصدق والكذب الذى يكتنف الإخبار، وهو غرض مهم صحيح جعل صيغة الإخبار ملغاة مع أنها هى الأصل ليحل محلها الإنشاء وهو الفرع، فإذا قيلت الصيغة مرة أخرى على جهة الأصل التى وضعت له وهو الإخبار بقرينة الحال فذلك صحيح لغة وجائز شرعًا، كما لو قال ولى الزوجة لزوجها: زوجتك موليتى، فقال له: قبلت؛ يريدان حكاية الماضى ولا يريدان إنشاء عقد جديد؛ فكأن معنى كلام الولى: زوجتك موليتى منذ سنين، ومعنى كلام الزوج: وأنا قبلت حينئذ. ولا مانع من ذلك شرعًا ولا حرج فيه.

ولا يجوز الاعتراض على ذلك بأنه لم يكن من فعل النبى ﷺ؛ لأنه لا يلزم من عدم وروده عدم حصوله، كما أنه إذا سلم عدم الحصول فلا يلزم منه عدم الجواز؛ لأنه استدلال بالترك، والاستدلال بالترك باطل كما هو مقرر فى أصول الفقه.

وبناء على ذلك وفى واقعة السؤال فإن ما جاء فى السؤال من عقد الزواج على نطاق ضيق ثم إعادة التلفظ به من طرفيه على نطاق واسع صحيح وجائز شرعًا.

بيع الذهب بالتقسيط!!

والله سبحانه وتعالى أعلم

● ما حكم الشرع فى بيع الذهب المصوغ بالتقسيط؟

●● الجواب: ورد النهى النبوى عن بيع الذهب بالذهب والفضة بالفضة نسيئة أو متفاضلًا فى عدة أحاديث، منها حديث أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله تعالى عنه ـ وغيره أن رسول الله ﷺ قال: «لا تبيعوا الذهب بالذهب إلا مثلا بمثل، ولا الفضة بالفضة إلا مثلا بمثل، ولا تفضلوا بعضها على بعض، ولا تبيعوا منها

غائبًا بناجز» رواه البخارى، وذلك لعلة النقدية وكونهما أثمانًا (وسيطا للتبادل).

أما الذهب والفضة المصوغان فإنهما خرجا بذلك عن كونهما أثمانًا (وسيطًا للتبادل)، وانتفت عنهما علة النقدية التى توجب فيهما شرط التماثل وشرط الحلول والتقابض ويترتب عليها تحريم التفاضل وتحريم البيع الآجل، فصارا كأى سلعة من السلع التى يجرى فيها اعتبار قيمة الصنعة -وهى هنا «الصياغة»-؛ إذ من المعلوم أن الحكم يدور مع علته وجودًا وعدمًا، وهذا مذهب الحافظ ابن تيمية وتلميذه ابن القيم وغيرهما، وهو منقول عن معاوية رضى الله عنه وأهل الشام، ونقل أيضًا عن الإمام مالك، وذكره ابن قدامه عن الحنابلة حيث جوزوا إعطاء الأجر على الصياغة، وعمل الناس عليه -كما فى «الإنصاف» للمرداوى-، وهذا كله بشرط أن لا تكون الصياغة محرمة كالمشغولات الذهبية التى من شأنها أن لا يلبسها إلا الذكور من غير أن تكون لهم رخصة فيها.

قال ابن القيم فى «إعلام الموقعين»: (الحلية المباحة صارت بالصنعة المباحة من جنس الثياب والسلع لا من جنس الأثمان، ولهذا لم تجب فيها الزكاة، فلا يجرى الربا بينها وبين الأثمان كما لا يجرى بين الأثمان وبين سائر السلع وإن كانت من غير جنسها، فإن هذه بالصناعة قد خرجت عن مقصود الأثمان وأعدت للتجارة، فلا محذور فى بيعها بجنسها).

وبناءً على ما سبق فإنه لا مانع شرعًا من بيع الذهب بالتقسيط.

والله سبحانه وتعالى أعلم

فرم ورق المصاحف القديمة!!

● هل يجوز وضع المصاحف القديمة وكذلك الكتب الدينية القديمة فى آلات تقطيع الأوراق (مفرمة) وإعادة تصنيعها؟

●● الجواب: من المعلوم من الدين بالضرورة عدم جواز إهانة كتاب الله تعالى ولا كلامه ولا أسمائه الحسنى ولا كلام رسوله ﷺ، ولا كتب العلم الشرعى، وفى المقابل فإن تعظيم كل ذلك هو من علامات صحة الإيمان؛ قال تعالى:

﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ﴾

(الحج: ٣٠).

وقال تعالى:

﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾

(الحج: ٣٢).

والمصحف إذا كان صالحًا للقراءة فلا يجوز إتلافه، أما إذا لم يكن كذلك فقد أجاز جماعة من العلماء حرقه إذا كان ذلك لغرض صحيح، وفى معنى الحرق وضع أوراقه فى مفرمة الأوراق التى لا يبقى معها أى أثر للنص المقدس.

وعليه وفى واقعة السؤال فإن إدخال المصاحف والكتب الدينية القديمة فى آلات تقطيع الأوراق من الأفكار الجيدة التى يتم من خلالها الحفاظ عليها من أن تطالها يد الإهانة بشكل غير مقصود، أو بنوع تهاون، ويشترط فى ذلك التعامل معها باحترام قبل أن يتم تمزيقها جيدًا وتمحى الكلمات المقدسة التى فيها، أما بعد ذلك فلا بأس بالتعامل مع الناتج كمادة صناعية خام لصناعات ورقية جديدة تكون فيها خالية عن القداسة والاحترام الواجبين تجاهها قبل التقطيع الكامل.

والله سبحانه وتعالى أعلم

﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾

خبر وليس إنشاء

د/ أحمد محمد عرفة

نعرض فى هذا المقال تفسير آية من كتاب الله، اتخذ منها بعض الملحدين دليلا على أن القرآن ليس من عند الله! ونبين وجه استدلالهم بتفسير الآية على ما ذهبوا إليه، ثم نعود إلى التفسير لتحدد مدى تطابقه مع نص الآية وسياقها، ونقدم لها تفسيرا آخر، نراه أقرب إلى نصها وسياقها، ويُبعد المعنى عن أن يستند إليه الملحدون للطعن فى الكتاب ذاته، وقد كان سبيلنا إلى إنتاج هذا التفسير، أن تختبر ما قاله علماء العربية الأولون عن معنى كلمة وردت فى الآية، كانت هى مستند المفسرين فى تفسيرهم للآية ومستند الملحدين فى طعنهم فى الكتاب، هى كلمة ﴿لَوْلَا﴾، وأن تعين المراد بالغيب فى الآية، وأن نتتبع المواضع التى ورد فيها (الانتظار) فى القرآن الكريم، فى الكلام عن خصوم الأنبياء.

أما الآية فهى قوله تعالى:

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾

(يونس: ٢٠)

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا
يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ
مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا
مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ
عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ
وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن
قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ
عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ
الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا
يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا
عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ
وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾
وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا
وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ
فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ
عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانتَظِرُوا
إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾

(يونس من ١٥ إلى ٢٠)

والآيات تعرض جانبا من أقوال المشركين وأعمالهم حينما كان الرسول يتلو عليهم آيات القرآن ويدعوهم إلى عبادة الله وحده.

ولا شك أن الآية المعنية في قولهم:

﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾

آية حسية، كأن يفجر لهم من الأرض ينبوعا، أو تكون له جنة من نخيل وعنب تتفجر فيها الأنهار، أو يكون له بيت من زخرف، أو يرقى أمامهم في السماء.. إلخ.

ويرى المفسرون أن ﴿لَوْلَا أُنزِلَ﴾ بمعنى (هلَّا أُنزل)، أي إن الآية موضع الدرس تخبر -من وجهة نظرهم- أن المشركين طلبوا من الرسول أن ينزل الله عليه آية حسية يرونها بأعينهم ويلمسونها بأيديهم، وفسروا قوله:

﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾

بـ: قل لهم يا محمد، إن المستقبل كله غيب لا يعلمه إلا الله، فلا علم لي أينزل الله تلك الآية أم لا ينزلها، وفسروا قوله:

﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾

بـ: انتظروا ما يكون بشأن هذا الطلب، وأنه معهم من المنتظرين لا يملك إلا الانتظار، لأن الأمر كله بيد الله. انظر: الطبري: جامع البيان: ١٥ / ٤٨، والسمرقندي: بحر العلوم: ٢ / ١٠٩، والواحدي: الوسيط: ٢ / ٥٤٢، والقرطبي: الجامع لأحكام القرآن: ٨ / ٣٢٣، ورشيد رضا: تفسير المنار: ١١ / ٢٧٠.

وأما استدلال الملحدين بهذا التفسير على أن القرآن ليس من عند الله، فقد قالوا: إن العلي الحكيم لا تتفاوت حجته في القوة والوضوح، وإنما تكون حججه في مواجهة خصومه على درجة واحدة من القوة والوضوح، فلا يقوى تارة ويضعف أخرى، ولا يخدع خصمه وهو يحاوره، والقرآن في هذه الآية- الآية العشرين من سورة يونس- يأمر الرسول أن يقول للمشركين الذين طلبوا منه أن ينزل ربه عليه آية حسية: إنني لا أعلم الغيب، فلا علم لي متى يحقق الله ذلك فينزل عليّ آية حسية، فانتظروا نزولها وأنا معكم من المنتظرين، أو أن يقول لهم: لا أعلم أتنزل تلك الآية أم لا، فانتظروا وأنا معكم من المنتظرين. والقرآن حين دعا الخصوم إلى انتظار الآية كان مخادعا، لأنه أعلن أن الله لن ينزل على محمد آية حسية، وبرر ذلك بأمر وقع قبل عصر محمد نفسه، وذلك في قوله:

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾

(الإسراء: ٥٩)

فهل كان لا يعلم ذلك حين قال لهم:

﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾

(يونس: ٢٠)

أم كان مراوغا ومخادعا، وهل يكون المراوغ والمخادع في الجدال إلا ضعيف الحجة؟ وإذ قد ثبت الضعف في احتجاج القرآن في هذا الموضع، فإنه لا يكون من عند الله...

نجد لمحة عن هذا الاستدلال من الملحدين في تفسير الشيخ رشيد رضا في تفسير الآية موضع الدرس- يونس ٢٠- : «حكى سبحانه عنهم هذا الاقتراح هنا مجملا وأجاب عنه جوابا مجملا؛ لأن كلا منهما قد سبق مفصلا في سور أخرى، وقد جهل هذا كفار الإفرنج وتلاميذهم من ملاحدة مصر، فقالوا في مثله: إن النبي- ﷺ- كان في مكة يفر من مناظرة المشركين» تفسير المنار: ١١ / ٢٧٠، وانصبّ رد الشيخ رشيد على هؤلاء الملاحدة، على ذكر الآيات التي ردت على هذا الطلب، ومنها قوله تعالى:

﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾

(الأنعام: ٨)

وقوله تعالى:

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾

(الرعد: ٧)

وغير ذلك من الآيات. وفي كلام الشيخ رشيد نظر، لأن هؤلاء يسلِّمون بوجود هذه الآيات القرآنية، والأمر الذي استندوا إليه هو تفاوت الحجة قوة ووضوحا، وليس غيابها بالكلية، والأخطر فيما يستدلون به وصفهم القرآن بأنه كان في الآية ٢٠ من سورة يونس مراوغا ومخادعا، لأنه دعا إلى انتظار ما لن يكون، ووفقا له، ليس هذا فحسب، بل إنه أخبر أن الرسول نفسه ينتظر معهم، فكيف يأمر الله رسوله وعامة خصومه إلى انتظار أمر لن يكون!

وحين راجعت كتب التفسير بحثا عما أدفع به هذا الاستدلال، وجدت كثيرا من المفسرين يجعل متعلق الانتظار أمرا آخر غير الآية التي يطلب المشركون نزولها، فمنهم من جعله: «قضاء الله بيننا، بتعجيل عقوبته للمبطل منا، وإظهاره المحقّ عليه» الطبري: جامع البيان: ١٥ / ٤٨، ومنهم من جعله الموت والهلاك: «فانتظروا بي الموت إني معكم من المنتظرين لهلاككم» السمرقندي: بحر العلوم: ٢ / ١٠٩، ومنهم من جعله أمرين لا واحدا، هما الآية والهلاك، فعند أبي حيان (ت ٧٤٥هـ): «فانتظروا نزول ما اقترحتموه إني معكم من المنتظرين بما يفعل الله تعالى بكم لعنادكم وجحدكم الآيات» البحر المحيط: ٦ / ٢٩، ومنهم من جعله حكم الله فيه وفيهم، «فانتظروا حكم الله فيّ وفيكم» ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: ٤ / ٢٥٧. وهذا لا يدفع دعوى الملحدين، بل يمنحهم فرصة ليقولوا: إن المفسرين يحاولون التعمية على الناس، حين يسلِّمون بأن الآية تخبر أن المشركين طلبوا آية حسية، ثم يفسر بعضهم الانتظار في ختامها بأنه انتظار للعاقبة وليس انتظارا لنزول الآية المطلوبة!

وفسر بعضهم الغيب في الآية بأنه الصارف عن إنزال الله آية حسية على محمد عليه السلام، وانتقده أبو السعود (ت ٩٨٢هـ)، فقال: «يأباه ترتيبُ الأمر بالانتظار على اختصاص الغيب به تعالى» إرشاد العقل السليم: ٤ / ١٣٣، لأنه لا يصح أن يترتب الانتظار على اختصاصه تعالى بالغيب، إلا إذا كان القوم قد سلموا بوجود صارف، ثم عينوه من غير دليل عندهم ولا عند غيرهم، فكان من المناسب أن يقال لهم حينئذ (إِنَّمَا الغَيْبُ لله فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ المُنتَظِرِين) ويكون المعنى: انتظروا حتى يخبرنا الله بالصارف. ولكن الآية ليس فيها تصريح ولا تلميح عن الصارف، فكيف يكون الصارف هو المراد بالغيب فيها؟

والآية الكريمة تخلو من صيغة صريحة في الطلب، فليس فيها مثلا: وقالوا يا أيها الرسول ادعُ ربك أن ينزل عليك آية حسية، كي نتأكد أنك مرسل منه فنؤمن بك، وإنما فيها:

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾

فهل قولهم ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ﴾ يدل فعلا على الطلب؟ ولكن الخليل يقول: «كلّ شيء في القرآن فيه ﴿لَوْلَآ﴾ يُفسَّر على (هلَّا) غير التي في [سورة] الصافات:

﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾

(الصافات: ١٤٣)

أي: فلو لم يكن..» العين: ٨ / ٣٥٠ و٣٥١، وذكر سيبويه دلالة ﴿لَوْلَآ﴾ على العرض والتحضيض (انظر: الكتاب: ٣ / ٥١٤ و١١٥)، على الترتيب.

ولم ترد أهم كلمة عن معنى ﴿لَوْلَا﴾ في شيء مما نقلناه أو أشرنا إليه في العين وكتاب سيبويه، وهي كلمة (الشرط)، وكلمة الشرط قليلة الورود في كتب النحاة، لأنهم اهتموا بالحالة الإعرابية وعلامة الإعراب، وعليها صنفوا الأبواب.

وإذا أمعنا النظر في الأمثلة التي أوردها الوسيط لكلمة ﴿لَوْلَا﴾ لوجدنا أنها تدل على الشرط فيها جميعا:

ففي مثال التحضيض مع الفعل المضارع، وهو قوله:

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

(النمل: ٤٦)

تدل ﴿لَوْلَا﴾ على الشرط أيضا، لأن الكلام بمنزلة: لولا تستغفرون الله لكان خيرا لكم من استعجال السيئة قبل الحسنة.

وفي مثال التحضيض مع الفعل الماضي، وهو قوله:

﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾

(المنافقون: ١٠)

تدل ﴿لَوْلَا﴾ على الشرط أيضا، لأن الكلام بمنزلة قوله: فأنفقوا قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني فأصدق وأكن من الصالحين، لكنت لك من الشاكرين. وقوله في الآية التالية:

﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾

(المنافقون: ١١)

ليس ردا على ذلك المؤمن المقصر، وإنما هو رد على تساؤل قد يطرحه السامع والقارئ، وهو: وهل يمكن أن يؤخر الله نفسا، إذا جاء أجلها؟ ولو كانت ردا على ذلك المؤمن المقصر لقال له: (إنني لن أؤخرك إذا جاء أجلك) بالخطاب بدلا من الغيبة.

وفي مثال التوبيخ والتنديم، وهو قوله:

﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾

(النور: ١٣)

تدل ﴿لَوْلَا﴾ على الشرط أيضا، لأن الكلام بمنزلة قوله: لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء لكانوا من الصادقين، أو لكانوا أهلا لأن ينسبوا إلى الصدق، حتى يظهر دليل يبطل شهادة الشهود.

ولسنا ننفي وجود معنى ثانوي في كل آية من هذه الآيات، فقول صالح لقومه:

﴿لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

(النمل: ٤٦)

ينطوي على تلميح لهم بالاستغفار. وقول المؤمن المقصر في الطاعة حين يأتيه الموت:

﴿رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾

(المنافقون: ١٠)

ينطوي على تلميح بالطلب أو الرجاء أن يتركه الله فترة يتصدق فيها ويكون من الصالحين. وفي قوله تعالى للمؤمنين الذين سمعوا الإفك ولم يردوه:

﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾

(النور: ١٣)

ينطوي على تلميح بالتوبيخ والتنديم على تصديقهم الإفك. ولا يجوز أن تطغى هذه المعاني الثانوية على المعنى الأساسي، فلا يصح أن يقال إن ﴿لَوْلَا﴾ تدل على العرض والحض، أو على التنديم والتوبيخ.

وعند النظر في جميع المواضع التي وردت فيها ﴿لَوْلَا﴾ في الكتاب العزيز، يتبين لنا أنها دائما تدل على الشرط دلالة أساسية، يقتضيها نظم الكلام، وتدل بعد ذلك، في بعض المواضع على معان ثانوية، لا تجاوز المعنى الأساسي وإنما تقف خلفه وتعتمد عليه.

وفي ضوء ما سبق فإن قول المشركين:

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾

معناه حسب سياقه: ويقول المشركون في تبرير إعراضهم وتكذيبهم بالرسول: لولا أنزل على محمد آية حسية من ربه يستوي الناس في إدراكها، وبها يتأكد لهم أنه مرسل من ربه، لآمنا به، ولكنه لم ينزل عليه شيء من ذلك، فلا تظنوا أننا حدنا عن الصواب، لقد تصرفنا في أمر محمد بحكمة وموضوعية ونزاهة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾، معناه حسب سياقه: فقل لهم يا محمد، إنما الغيب لله، فالله وحده يعلم، لو أنزل علي آية حسية كما طلبتم، أكنتم تؤمنون بي أم تكفرون بي.

ولم يرد الانتظار في القرآن في الكلام عن خصوم الأنبياء، إلا مرادا به انتظار العذاب، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾

(الأنعام: ١٥٨)

وانظر أيضا الأعراف ٧١، والنحل ٨٥، وبناء عليه فإنه لا يصح تعليق الانتظار في الآية موضع الدرس بغير العذاب الذي أنذر به الرسول كل من أعرض وكذب. فيكون معنى قوله:

﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾

(يونس: ٢٠)

حسب سياقه: وما دمتم مصرين على عدم اتباعي، وترون أنكم على الحق، فإنني أقول لكم: انتظروا العذاب الذي أعده الله لكل من كذب بي، وأنا معكم من المنتظرين لنزول هذا العذاب بكم وبكل من كذبني.

وخلاصة القول:

١- أن ﴿لَوْلَا﴾ في جميع مواضعها في القرآن الكريم، أداة تفيد الشرط، وأنه ينبغي أن نقدر جملة الجواب عند غيابها، والأسلوب الذي ترد فيه ﴿لَوْلَا﴾ أسلوب خبري وليس إنشائيا.

٢- وأنه لا يجوز أن نخلط بين مستويات المعنى، فنقول إن ﴿لَوْلَا﴾ تدل على الطلب أو الحض أو التوبيخ، لمجرد أن العبارة التي تضمنت ﴿لَوْلَا﴾ دلت عن طريق التضمين والتلميح شيئا من هذا في نظم معين وسياق معين.

٣- أن تقنين القواعد في النحو وشرح المفردات والتراكيب عمل عظيم الشأن، ولكن الخطأ في شيء منه يترتب عليه خطأ في فهم كلام الله العلي الحكيم، ويترتب على خطأ المفسرين أن توجد فرصة لأعداء القرآن، كي يطعنوا في الكتاب العزيز.

٤- وأنه يجب علينا مع احترامنا وتقديرنا لجهود علمائنا السابقين ومن لحقهم بإحسان في خدمة الكتاب العزيز، ألا نكتفي بترديد ما قالوه- إكمالا لجهودهم، واتباعا لمنهجهم، وتدبرا لكتاب ربنا، ودفعا للشبهات عنه، وخدمة للغتنا وأمتنا.

والله الهادي إلى سواء السبيل.

خريطة الفكر الإسلامى المعاصر





المستشار طارق البشرى

تناولنا فى مقالات سابقة الحديث عن حركة التجديد الفكرى والفقهى التى بدأت بين المسلمين من منتصف القرن الثامن عشر. وكان من أبرز رجالها على مدى قرن من الزمان، ابن عبدالوهاب فى نجد والشوكانى فى اليمن والدهلوى فى الهند والألوسى فى العراق والسنوسى والجزائرى فى المغرب العربى.

تلك كانت الموجة الأولى للتجديد، وقد جرت بمادة فكرية وفقهية إسلامية صرفة، غير متأثرة بالفكر الغربى. كانت وجهتها تجديد الفكر الإسلامى والنهوض بشعوب الإسلام من الوهدة التى آلت إليها أمورهم، وكان هدفها علاج الأمراض الحضارية التى رانت عليهم بغلبة التقليد عليهم فى الفقه، والتعصب للمذاهب تعصبا يصل إلى حد التقديس، وانتشار البدع فى العبادات.

على أن الحلقات الأخيرة لهذه الموجة التجديدية قد أدركت الغزو الأوروبى لديار العرب والمسلمين وبخاصة غزو فرنسا للجزائر فى ١٨٣٠م وتغلغل النفوذ السياسى والاقتصادى الأوروبى للدولة العثمانية والحروب الروسية ضد تلك الدولة، ثم تطويق العالم العربى الإسلامى من البحار الجنوبية، سواء من جنوب الجزيرة العربية أو من الهند. فصار الخطر الأوروبى بعامة يرد من الغرب منذ وجه السهم الخاطف إلى مصر بالحملة الفرنسية فى ١٧٩٨م، والخطر الإنجليزى يرد من الجنوب عبر المحيط الهندى بواسطة الأسطول الإنجليزى، والخطر الروسى يرد من الشمال. كل ذلك كان يجرى فى نهايات القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر. وكان هذا الهجوم الأوروبى والحصار الأوروبى للعالم العربى والإسلامى هو ما به توقفت مؤقتا تلك الموجة الأولى من الحركة التجديدية.

وما لبث الغزو الأوروبى أن أمسك بمنطقة القلب من هذا العالم الإسلامى، وهى المنطقة التى كانت تقوم على محور استانبول ـ الشام ـ القاهرة ـ وهيمن الغزو على كثير من الأقطار. وتراوح تغلغله من الاحتلال العسكرى إلى الهيمنة السياسية والسيطرة الاقتصادية، إلى النفوذ الفكرى والثقافى وإعادة تشكيل المؤسسات الفكرية والتعليمية والاجتماعية.

وقد سبقت الإشارة إلى ما حدث فى مجال القانون من الزحزحة التدريجية للشريعة الإسلامية وإحلال القوانين الغربية محلها.

وفى ظل هذا الظرف الجديد، اتت الموجة التجديدية الثانية، جاءت فى المناطق المغزوة ذاتها، ومن أبرز رجالها جمال الدين الإفغانى (١٨٣٩ ـ ١٨٨٦م) ومحمد عبده (١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م) ومحمد رشيد رضا (١٨٦٥ ـ ١٩٣٥م) وعبدالحميد بن باديس (١٨٨٩ ـ ١٩٤٠م). وقد أتت هذه الموجة التجديدية الثانية فى ظروف جد مختلفة عن الموجة الأولى، وحملت وظائف جديدة تختلف عن وظائف الموجة الأولى.

فى هذا الظرف الجديد، صار على الحركة الإسلامية فى عمومها أن تواجه أوضاعا متعددة، تستدعى منها مواقف فكرية مختلفة ومتباينة. فهى لم تعد تواجه فقط ما كان يواجهه محمد بن عبدالوهاب من بدع وخرافات، وهى لم تعد تواجه فقط أخطار الاحتلال العسكرى الغربى لأراضى المسلمين، إنما صارت تواجه فضلا عن ذلك كله، موجات من «التبشير» من بعثات التبشير المسيحى الأوروبى، وصارت تواجه أيضا النزعة التغريبية التى شاعت فى المسلك والعادات وأساليب العيش.

لذلك لم يعد من مهمة الحركة الإسلامية فتح باب الاجتهاد فقط، ولكن جدت لها مهمة الدفاع عن الأصول والثوابت التى تميز العقيدة الإسلامية وهوية المسلمين، ودفع هذا فريقا من قادة الفكر الإسلامى إلى الابتعاد عن الموقف التجديدى والانخراط فى موقف الذود عن الأصول والدفاع عن أصل قيام المؤسسات الإسلامية التقليدية فى القضاء والتعليم والفكر وغيرها. وهنا نجد كتابات ومواقف لأمثال الشيوخ حسن العدوى وحسونة النواوى وسليم البشرى ومحمد شاكر ويوسف الدجوى.



حسونة النواوى

وقد أشرنا إلى عدد من القضايا الفكرية، وإلى المشكل الذى ثار بالنسبة لكل منها، من جراء هذا التناقض الذى عرفته البيئة الفكرية والاجتماعية فى بلادنا، بين الأفكار والمؤسسات الاجتماعية الموروثة التى تلقيناها عن عقائدنا وأسلافنا، وبين الأفكار والمؤسسات الوافدة من الغرب.

ونحن نذكر هنا أن هؤلاء الذين تصوروا أن حل مثل هذه المسائل يتعلق باستيراد نماذج الفكر والسلوك من الخارج ومن إطار حضارة أخرى وعقيدة أخرى، لم يستطيعوا بما صنعوا أن يوجدوا الحلول الثابتة المستقرة لهذه المسائل. كما أن هؤلاء الذين تصوروا أن الدفاع عن الموروث يتعلق باستبقائه كما هو وبالنماذج التى انحدرت إلينا من القرون المتأخرة، فإنهم لم يستطيعوا استبقاء القديم بمجرد التمسك به والدفاع عنه.

إن الفكر كشأن أى كائن حى لن تحميه بأن تضعه فى المعازل. وإن السبيل الأمثل للدفاع عن الوجود هو بالتجديد وبالتفاعل مع أوضاع الواقع المعيش. وستقوى الجذور إذا امتدت الفروع وأورقت الأغصان. ومن هنا وجب أن نتكلم فى حصيلة الفكر الإسلامى الحديث.

وهناك تصور خاطئ لفكرة التجديد، وهو أنها تعنى بذل الجهود لإسباغ بردة الإسلام على ما نشاهد ونمارس من أوضاع المعيشة فى حياتنا الراهنة، وبخاصة ما طرأ علينا من أنماط السلوك والنظم الوافدة، حتى وإن كانت تخالف أصلا من

أصول الإسلام. وهذا موقف خاطئ لأنه يحيل الفكر الإسلامي إلى مجرد أنه تبرير وتسويغ للواقع المعيشي ويجعل الإسلام محكومًا بهذا الواقع وليس حاكمًا له.

إن التجديد في الحقيقة يتأتى من وجهة أخرى، أنه يرد من كيفية استجابة الأحكام الشرعية ونظم الإسلام ودعوته للتحديات التى تواجه عقيدة المسلمين وديارهم.

وإن التحديات التى أسفر عنها التاريخ المعاصر بالنسبة لشعوب الإسلام عقيدة وديارًا، تتمثل في السيطرة الأجنبية سواء اتخذت في البداية شكل الغزو والاحتلال والحكم السياسى المباشر، أو اتخذت فيما بعد شكل التبعية السياسية الاقتصادية الفكرية، أى التبعية الحضارية.

والتحدى الآخر يتعلق بحركة التفتيت السياسى التى جرت للجماعة الإسلامية، فتحولت إلى بلدان ودويلات صغيرة.

والتحدى الآخر يتعلق بما ولدته التبعية والوفود الفكرى الغربى ومؤسساته إلى بلداننا من ازدواجية شاعت فى كل النظم والأفكار والعادات والقيم، وما أدى إليه ذلك من صدع فى المجتمعات الإسلامية بين النظم والأفكار الموروثة ومثيلاتها الوافدة من الحضارة الأوروبية. وظهر هذا كانقسام فى المجتمع يصدع قواه ويهدّ من وشائج التماسك فيه وهذا التحدى يكون مشكلة مزدوجة بالنسبة للحركة الإسلامية، إذ عليها أن تقاوم ركود القديم الموروث بحركة تجديد قوية، وعليها فى الوقت نفسه أن تقاوم روح التغريب بالدفاع عن أصول الإسلام والتمسك بها.

ثم بعد ذلك فهناك أوضاع المعيشة المادية التى يتعين أن ينهض بها المجتمع الإسلامى لتحقيق ما يتيسر من النمو المطرد للناس والرخاء لهم.


مالك بن نبي

وقد تكون الفكر الإسلامى الحديث عبر عشرات السنين الماضية، ومن عدد غير محصور من المفكرين والقادة والمصلحين، وتبلورت بعض قضاياه بتجارب عديدة. وهو فكر يتشيد وتتراص لبناته تحت خط النار، كما لو كنت تبنى قلاعك وسط قصف مدافع الخصم عليك ووسط ما يمطرك به من صواعق الصواريخ ونيران القنابل والطائرات. ولا تزال اللبنات تتراص والبناء يشيد ونحن نعرض هنا لمجموعة من الأفكار من خلال مفكريها، وهى تترابط مع بعضها لتتمكن من تكوين بناء فكرى رصين.

إذا أردنا أن نستخدم تعبيرات «مالك بن نبي» المفكر الجزائرى المعروف (١٩٠٥ - ١٩٧٢م)، فإن لواقعنا التاريخى الحاضر جانبين، الاستعمار والقابلية للاستعمار، الاستعمار هو العدوان الآتى إلينا من الخارج، عسكريًا كان أو سياسيًا أو اقتصاديًا أو فكريًا، أى هو أثر الخارج فينا، ذلك الأثر الذى يجرى بغير رضانا وبغير صالحنا والقابلية للاستعمار هى هذا الوضع الذى نكون عليه والذى يمكن من غلبة الغير لنا، هو ما نتصف به من الضعف والتردى والجمود ووهن العزيمة واضطراب القيم والجهل وغير ذلك مما يكون سببا لغلبة الطامعين فينا على أمرنا.

بهذا المعنى نجد أن جمال الدين الافغانى وضع اللبنات الأولى فى فكرنا الإسلامي، الحديث المقاوم «للاستعمار» وأن محمد عبده وضع اللبنات الأولى فى هذا الفكر المقاوم «للقابلية للاستعمار».

إن أبقى ما كتبه جمال الدين هو حياته نفسها وقد اندمجت لديه الحركة السياسية بالحركة الإسلامية، فكانت السياسة لديه تجديدًا للفكر الإسلامى والفكر الإسلامى تجسيدًا للسياسة.

وأهم ما شغل جمال الدين وشغل هو الناس به، هو «وحدة المسلمين» ليمكنهم الوقوف فى وجه ما يتهددهم من أطماع الدول الأوروبية القوية «وعلى رأسها إنجلترا فى ذلك الوقت، التى كانت تحتل الهند والتى احتلت مصر فى ١٨٨٢م. وطالب بتوثيق العرى بين المسلمين وغير المسلمين فى الأوطان الإسلامية. كما دعا إلى نبذ الخصومة بين الشيعة والسنة وذلك ليمكن تأليف السلطتين الإسلاميتين الكبيرتين وقتها، سلطة استامبول وسلطة إيران، وذلك بعد أن ذهبت الدولة الإسلامية فى الهند أدراج الرياح.

وهو يوجه قوة الإسلام والمسلمين للدفاع عن الحوزة الإسلامية وسيادة الشعوب على مقدراتهم وعلى أراضيهم يقول «إن دينهم (دين المسلمين) يرسم عليهم أن لا يدينوا لسلطة من يخالفهم. بل الركن الأعظم لدينهم طرح ولاية الأجنبى عنهم وكشفها عن ديارهم. بل منازعة كل ذى شوكة فى شوكته، هل نسوا وعد الله بأن يرثوا الأرض وهم العباد الصالحون، هل غفلوا عن تكفل الله لهم بإظهار شأنهم على سائر الشعوب ولو كره المجرمون، هل سهوا عن أن الله اشترى منهم لإعلاء كلمته أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة...».


جمال الدين الأفغانى

كان هدفه تحرير الوطن الإسلامى من الاستعمار الغربي، وأن يسترجع المسلمون قوتهم بالتآخى والتكتل. ومن بين شروط استرجاع هذه القوة تحرير الفكر الدينى من قيود التقليد وفتح باب الاجتهاد وترك البدع والتعصب للمذاهب.

وفى الوقت الذى يقوم به بهذا الجهد، فطن إلى ما يقصده الاستعمار الغربى من محاولة القضاء على الشخصية الإسلامية التى مصدرها الإيمان والقرآن والتى تجمع المسلمين على رباط واحد، وفطن إلى محاولة المشايعين للاستعمار إفساد عقيدة المسلم وتشكيكه فيها، رغم أنها حصن المسلم فى المقاومة ودافعه إلى الحركة والنهضة، وأصدر فى ذلك كتابه الهام فى «الرد على الدهريين»، وهو مذهب كان البعض يبدأ يروج له بين مسلمى الهند.

فتكلم فى هذا الرد لا من الزاوية العقيدية والفلسفية فقط، ولكنه تكلم من الجانب الاجتماعى السياسى لهذا المذهب وأثره فى المسلمين تكلم عن ضرورة الدين فى المجتمع وأثر انتشار هذا المذهب فى إضعاف الأمة.

ونحن هنا لا نذكر كل أفكار السيد جمال الدين، ولكننا نكتفى بالتركيز على الجوهر الأساسى الذى يقوم عليه فكره بحسبان أن هذا الفكر يتكامل مع غيره ممن سنذكرهم إن شاء الله بعد ذلك، وهكذا نصنع مع الآخرين.

يتبع

مكتبة مجلة الأزهر

إعداد الأستاذ: محمد شعبان

تسعى «الأزهر» عبر هذا الباب إلى التواصل مع القارئ العزيز من خلال تقديم نبذة عن أحدث الإصدارات الجادة فى شتى مجالات المعرفة، ذلك للمساهمة فى تكوين عقلية واعية وعصرية.



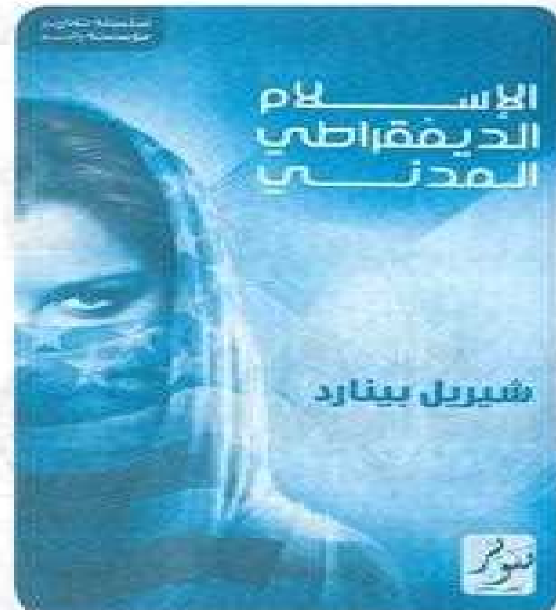
تقدم د. يمنى طريف الخولي في كتابها «النسوية وفلسفة العلم» صورة تقريبية للفكر النسوي المعاصر متتبعة نشأته وأبرز أعلامه، بصرف النظر عن الموقف من التصور النسوي -ذاته- إلا أن القيمة الحقيقية لهذا التيار هو انطلاقه من روح نقدية تكشف أخطاء وخطايا بل وجرائم الفكر التنويري الغربي الحديث... ترى «النسوية» أن الروح التنويرية هي بالأساس نزعة ذكورية تستبعد المرأة وتتمركز حول الرجل الأبيض (الغربي) لا كما يتصور الكثيرون أن التنوير الغربي موقف إنساني محايد... تقول المؤلفة: «هكذا كانت فلسفة العلم النسوية نقدا للتسليم بالفلسفة السائدة للعلم التي تشارك الجريمة التنويرية جريمة اعتبار الرجل الأبيض العقلاني هو المثال الأعلى للمحك والمعيار لقيم التقدم وبالتالي تشارك في جريمة الدمار البيئي الراهن وجريمة إخفاق مشاريع التنمية في العالم الثالث... العلم يستخدم الآن لمناصرة اتجاهات رجعية أو ضارة بالبيئة أو أفعال تعصف بإنسانية الإنسان».



بلغة سهلة وسلسة تقدم «الموسوعة في المصطلحات السياسية والبرلمانية» شرحا مبسطا وميسرا لأهم المفاهيم السياسية والفكرية والبرلمانية والتاريخية والاجتماعية بل و الأدبية في بعض الحالات.

الموسوعة الصادرة عن مكتبة الآداب يسير مؤلفها وفق الترتيب الهجائي للمفاهيم والاصطلاحات مع ذكر المقابل الإنجليزي للمفهوم.

ورغم الجهد الكبير الذي بذله مؤلف الموسوعة إلا أن هناك غيابا للدقة في تعريف بعض المصطلحات أبرزها «الصهيونية» فالمؤلف يوحد بينها وبين «اليهودية» رغم أن الصهيونية حركة قومية علمانية استعمارية بالأساس وتستخدم ديباجات دينية للتغطية على موقفها الحقيقي بدليل انضمام ملحدين للحركة منذ نشأتها وحتى الآن... كذلك يسوي المؤلف بين «الدولة العلمانية» و «الدولة المدنية» رغم اختلاف المفهومين في بعض الحالات كما في تصور أهل السنة والمعتزلة للدولة أو للسلطة حيث تكون الدولة مدنية وليست علمانية



يستهدف تقرير «الإسلام الديمقراطي المدني» الصادر ضمن سلسلة تقارير مؤسسة راند الأمريكية كل الادعاءات التنويرية الغربية التي تدعي تقبل «الآخر» رغم اختلافه معها... الكتاب الصادر عن دار تنوير للنشر والإعلام بترجمة رائعة للدكتور إبراهيم عوض يكشف بجلاء عن موقف مراكز صنع القرار الأمريكي -التي تعد راند في مقدمتها- تجاه التعامل مع الإسلام.

تؤكد شيريل بينارد كاتبة التقرير -المقيمة في قطر- على أهمية دعم الحداثيين والعلمانيين في العالم الإسلامي لأنهم الأقرب إلى الغرب من حيث القيم والسياسات رغم اعترافها بضعف مكانتهم في المجتمع.

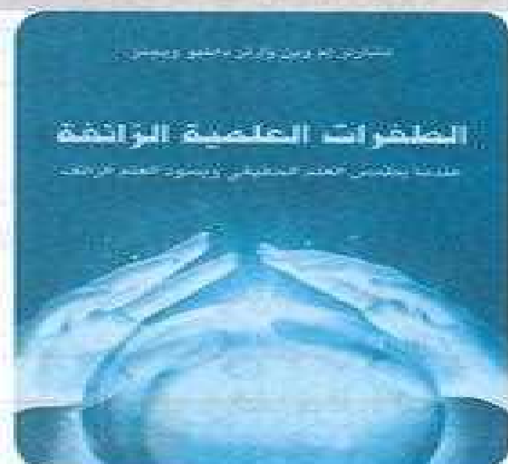
على أن الأمر لم يقف عند هذا الحد بل رأت كاتبة التقرير إمكانية دعم «الأصوليين» لاعتبارات تكتيكية و تقول بصريح العبارة: يجب أن تختار الولايات المتحدة والغرب بعناية شديدة العناصر والاتجاهات والقوى الإسلامية التي ينوون دعمها وتقويتها ويجري تقييم الأهداف والمنظومات القيمية الخاصة بالحلفاء المحتملين ودراسة أرجح العواقب التي قد يسفر عنها دعمهم»



يطرح د. عبد السلام بنعبد العالي في كتابه «حوار مع الفكر الفرنسي» قراءة جد مختلفة للفكر الغربي الحديث والمعاصر عبر مساءلة رموز وأعلام الفكر الفرنسي المعاصر.

يقدم المؤلف قراءة لديكارت و سارتر و جولدمان والتوسير وفوكو و دولوز و دريدا فضلا عن فصل مخصص للتفكيك.

يقول بنعبد العالي في الفصل المخصص عن ديكارت بمناسبة مرور أربعة قرون على وفاته: إن «الذكرى» قد لا تكون فقط مناسبة استرجاع وإحياء وربط صلة، بل قد تكون «مناسبة دفن جديد». لذلك يركز في قراءته على قياس المسافة المعرفية التي تفصل الفكر المعاصر عن ديكارت، ليحددها أساسا في «إبستيمولوجيا لا ديكارتية» ترتبط بما يسم هذا الفكر أساسا من «قلب وخروج وتحجب وارتياب» يفرد بتعدد المنظورات إلى الكائن، وبالرؤية إلى نظام الخطاب، فضلا عن «تقويض الكوجيتو وتفكيك الذات الفاعلة»، مع إعادة الاعتبار للخيال، باعتبار منطقه «لا يقل إحكاما عن منطق العقل التقليدي»



يأخذ كتاب «الطفرات العلمية الزائفة» على عاتقه مهمة هدم التصورات والرؤى الزائفة التي تحاول بعض الكتابات والأعمال الفنية الترويج لها كقيم علمية.

الكتاب مترجم عن الإنجليزية وصادر عن «كلمات عربية» يكشف وهم «التنجيم والأشباح والاحتراق البشري التلقائي والجراحة النفسية والتخاطر والإدراك عن بعد» وغيرها من المفاهيم التي أصبحت تقدم كقيم علمية رغم زيفها

ولتوضيح زيف هذه العلوم، يعطينا المؤلفان -تشارلز إم وين، وآرثر دابليو ويجنر- نظرة عن قرب لماهية العلم الحقيقي، ثم يقومان بمقارنة المنهج العلمي السليم بذلك المتبع في العلوم الزائفة؛ بحيث يترسخ في ذهن القارئ أن القيمة الأساسية للعلم الحقيقي تكمن في كون جميع الأفكار التي تفسر الحقيقة خاضعة للاختبار من خلال التجربة والنقد بواسطة التفكير المنطقي.

من تراث الهلال

عصر القمر.. الإسلام والصعود إلى الكواكب

للأستاذ/ عاطف مصطفى

أطلق الروس فى ٤ أكتوبر سنة ١٩٥٧م قمرًا صناعيًا فى الفضاء وبعد شهر أطلقوا قمرهم الثانى، واهتمت الصحافة والأوساط العلمية والدينية بهذا الحدث الفريد فى بابه.

وأصدرت مجلة الهلال التى كان يرأس تحريرها فى ذلك الوقت إميل زيدان وشكرى زيدان أبناء جرجى زيدان مؤسس الهلال عددًا خاصًا فى ١ يناير ١٩٥٨م ـ ١١ جمادى الآخرة ١٣٧٧هـ بعنوان «عصر القمر»، كانت بعض سطور مقدمة العدد: «عصر القمر أو العصر القمرى، هو عصرنا الجديد الذى أرخ له بعض العلماء يوم ٤ أكتوبر ١٩٥٧م الذى انطلق فيه القمر الروسى الأول، وهو مرحلة جديدة من تاريخ الحضارة الإنسانية، ولا ريب أن هذا العصر القمرى الجديد سيكون له أثره فى تقدم العلوم والفنون، وفى تطور الحياة الأدبية والاجتماعية.

انتظر الناس رد السماء

كان من أبرز كتاب هذا العدد الخاص من الهلال فضيلة الأستاذ أحمد حسن الباقورى وزير الأوقاف آنذاك وكتب مقالًا بعنوان «الإسلام والصعود إلى الكواكب» مشيرًا إلى أن الإسلام يقول القمر الصناعى قوة من قوى العلم».

يبدأ فضيلته مقاله: «أطلق العلماء الروس فى خريف هذا العام قمرين صناعيين، اخترقا فضاء الأرض وخرجا عن جاذبيتها إلى حيث أصبحا فى محيط قوة أخرى يدوران بسلطانها، كما تدور الأقمار السماوية حول الأرض.

ولقد أثار هذا الحادث ـ شأن كل مخترع جديد ـ ثورة فى مجال التفكير الإنسانى فى كل مكان من هذا العالم.

واتجهت أنظار الناس جميعًا إلى السماء يستنبئونها خبر هذين الشهابين المنطلقين إلى السماء، وبات كثير من الناس يتوقع رد السماء على هذه الجرأة التى سولت لسكان الأرض أن يطاولوا السماء ويرمونها بالشهب، إنه لعدوان صارخ ربما لا يمحى الناس منه بالتوبة والاستغفار والندم على هذه الخطيئة التى جدد بها أبناء آدم خطيئة أبيهم التى أخرجته من الجنة. فإلى أى مساق يساق الناس اليوم، وقد لبستهم خطيئة أشد جرمًا وأكبر إثمًا؟!

ويواصل الشيخ الباقورى قائلًا: لا شك أن هذه التصورات قد عاش فيها كثير من الناس، ولا يزالون يعيشون بها، ولن تنقشع عن أفكارهم هذه التصورات ما لم تنتقم السماء أو تجيء إليهم الأنباء بأن قصة القمرين ليست إلا خرافة ضخمة».

أدعياء العلم

ولعل أكثر الناس حظًا من هذه التصورات المريضة عندنا هم أدعياء العلم ممن انتسبوا إليه، وعدوا فى أهله، دون أن يكون لهم فيه نصيب.. فهؤلاء ليسوا من العوام الذين يأخذون دينهم فى غير لجاج ولا جدل، ويتقبلون ظواهر الأمور فى غير شك أو ارتياب، وهم ليسوا أيضًا من العلماء الذين يقولون عن علم، ويصدرون عن فهم.

أدعياء العلم هم هؤلاء الذين يجعلون دائمًا قضايا العلم جرائم فى ساحة الدين.. كل جديد منكر.. وكل مجدد مبتدع وكل عالم ملحد!

إن الفهم الخاطئ للدين هو الذى يصور أن العلم عدو له يريد إجلاءه عن دنيا الناس، وويل للعلم يوم يكون حربًا على الدين، وويل للناس يوم يكون الدين الذى يدينون به حربًا على العلم!

الدين لا يقف فى سبيل العلم

ويؤكد الشيخ الباقورى أن الدين لا يقوم فى النفس مقامًا محمودًا، ولا يحل من القلب محلًا كريمًا حتى يكون العلم هو الذى جلى حقيقته وكشف جوهره، وأن العلم لا يكون علمًا ينفع ونورًا يهدى، إلا إذا أشرق عليه الدين بجلاله، فأنار له مناهج الخير ودله عليها.


الباقورى

فالدين الذى لا يستند إلى علم، دين لا يمسك فيه صاحبه إلا بأوهى الأسباب، لا يثبت لعواصف الحياة، ولا يقف فى وجه الأزمات التى تعرض للنفوس.

والعلم الذى لا يستظل بدين، إنما هو إعصار عنيف يدوم فى كيان صاحبه حتى يعصف به.

لهذا نستطيع أن نقرر فى يقين أن الدين ـ أى دين ـ لا يمكن أن يقف فى سبيل العلم، ولا أن يأخذ السبيل على الملكات الإنسانية أو يحد من نشاطها فى أى وجه من أوجه النشاط العقلى للإنسان.

القرآن دستور الإسلام

والإسلام كدين، خير شاهد على هذه الحقيقة، فالقرآن الكريم ـ وهو دستور هذا الدين ـ لو لم يكن رسالة دين لكان كتاب علم، وموسوعة حكمة، يضم بين دفتيه ألوان المعرفة الرفيعة والثقافة العالية.

إن أول ما يلفت النظر فى هذا المقام أن كتاب الرسالة الإسلامية عنوانه «القرآن والكتاب» فهو قرآن وهو كتاب، وفى هذا إشارة بليغة إلى قدر القراءة والكتابة، وتحريض قوى عليهما، وعلى أن يكون المتدين بهذا الدين قارئًا.. كاتبًا.

ولفظ القرآن والكتاب يتردد فى كثير من الآيات عشرات المرات وليس هذا التكرار إلا لتأكيد هذا المعنى الذى أشرنا إليه وهو التحريض على القراءة والكتابة.

العلم والمعرفة الواسعة

ويواصل فضيلة الشيخ الباقورى قائلًا: وليست القراءة والكتابة التى افتتح بها الوحى رسالة السماء،

والتي نوه القرآن الكريم بهما هما مجرد قراءة وكتابة وإنما هما في شريعة الإسلام سبيل العلم الغزير والمعرفة الواسعة.. العلم الذي لا حدود له والمعرفة التي لا نهاية لها ولهذا نرى مختتم هذا الافتتاح ينتهي بقوله تعالى:

﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾

(العلق: ٥)

والإنسان مهما علم فإن وراء علمه علماء، والمجهول وراء ناظريه أكثر مما يكشف له حيث يقول جل شأنه:

﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾

(الإسراء: ٨٥)

وفي هذا إغراء بالاستزادة من العلم وتحريض على كشف المجهول الذي لا ينتهي أبدا، وبذلك يظل العقل الإنساني متحركًا أبدًا لا يقف عند غاية.

كلما قطع مرحلة أغراه حب الاستطلاع إلى متابعة السير في آفاق جديدة يكشفها، ويعرف معالمها وليس هذا فحسب هو الذي يرضى به الإسلام ويقف عنده في مقام العلم.. إنه لا يقنع بأن تكون غريزة حب الاستطلاع في الإنسان هي الدافع لطلب المزيد من العلم والبحث وراء المجهول، بل إن الإسلام ليغذي هذه الغريزة حتى لتكون من القوة بحيث تصبح عقيدة مستقرة في القلب، وملكة غالية في مجال الفكر.

ويؤكد الشيخ الباقوري على أن الإسلام شدد على أهمية العلم، وهذا العلم هو الذي أوصل هؤلاء للصعود بمركباتهم الفضائية إلى القمر.. يقول: وصاحب الرسالة صلوات الله وسلامه عليه يقول: «طلب العلم فريضة على كل مسلم» (سنن ابن ماجة).

ويجعل منازل العلماء فوق منازل الشهداء، حتى إنه ليجعل المداد الذي يجري على أسلات أقلامهم في مقابل دم الشهداء.. فيقول: «يوزن مداد العلماء يوم القيامة بدم الشهداء» (جامع بيان العلم وفضله لابن عبدالبر ١ / ١٥٠).

فأي شهادة أكرم من هذه الشهادة في حق العلم وأهله؟ وأي تقدير أعظم من هذا التقدير لمجهود العلماء والدارسين؟

أين قادة الفكر الآن من المسلمين؟

إنها لكبيرة في حق الإسلام وجناية عليه أن يقصِّر أهله في أداء هذا الحق، وإقامة المثل الحي له، حيث يتلفت العالم فلا يجد من بينهم أعلم العلماء، وأعظم المخترعين، وقد كان المتوقع منهم -لو استجابوا لدعوة دينهم- أن يكونوا قادة الفكر وأساتذة العلم في كل زمان وفي كل مكان.

يؤكد الشيخ: ونستطيع أن نأخذ الدليل القاطع على هذا حين نقلب تاريخ الإسلام في عصوره الزاهرة يوم كان المسلمون يعيشون في ظل الإحساس بالدين، الذي أمدهم بتلك القوى التي أقاموا بها دولة امتدت أطرافها وشمخ بنيانها بهذا الإحساس المعتز بالدين.

طلبوا العلم من كل وجه وتناولوه من كل أفق، فكان منهم أساتذة العالم في الكيمياء والجغرافيا والاستكشاف والموسيقى وهندسة البناء والفلسفة.

كان منهم جابر بن حيان، وابن بطوطة، والفارابي، وابن سينا، وابن رشد، وعشرات، ومئات غيرهم من كل علم وفي كل فن.

أسباب وراء التخلف!

يقول الشيخ الباقوري في مقاله للهلال في مناسبة انطلاق القمر الروسي الأول في ٤ أكتوبر ١٩٥٧م موضحًا أسباب تخلف المسلمين عن ركب العلم والحضارة: لم يتخلف المسلمون في هذا الميدان إلا حين تمزقت دولتهم وضعف شأنهم فضعف مع هذا إحساسهم بدينهم وانتفاعهم به.. والدين دائمًا بأهله.

إنهم المرآة التي تظهر على صفحتها مبادئه وتعاليمه، فإذا شاهت معالمهم وساءت حالهم، بدا الدين هزيلا باهتا، لا تتعلق به الآمال ولا تتجه إليه النفوس.

والذي جعل العلم والدين أمرين مختلفين عند كثير منا هو هذا الضعف الذي عشنا فيه زمنًا فجعلنا نعزل الدين عن الحياة حرصًا على أن يصاب ديننا بما أصيبت به دنيانا من تدهور وسوء.

إن هذا الشعور هو الذي يجعلنا نخاف على ديننا كل شيء أيًا كان مصدره وأيًا كان مورده.. فما اعتدنا في أيامنا الماضية أن نلقى من الحياة خيرًا.

إن أوروبا التي غلبت بالعلم لم يخلص إلينا منها إلا شر محض وبلاء خالص.. لقد رمتنا بالاستعمار والإذلال، فكيف يدخل في إحساسنا الطمئنان إلى العلم؟ وإذا قبلنا نتائجه المرة مضطرين فهل نقبل أن يكون بين ديننا وبين مثل هذا العلم صلة؟ إن دون ذلك أن تتفطر القلوب وتنشق النفوس.

ولو حسن ظننا بالحياة لما ساء رأينا في العلم ولما ارتاب فينا مرتاب بما يتكشف للعلم من عجائب ومعجزات.

فالمسلم الفاقه لدينه الدارس لكتاب الله يرى في القرآن الكريم من فتوحات العلم ما يبهر العقول ويزري بكل علم وصل إليه الناس في هذا العصر.

فأين سلطان العلم الذي يبلغ بجبروته اليوم شيئًا مما أخبر به القرآن من آيات العلم ومعجزاته فيما سلف من العصور وهناك الكثير من الآيات الدالة على ذلك في ثنايا القرآن الكريم.

الدين لا يسأل عن الفتوحات في ميادين العلم

يختم فضيلة الشيخ أحمد حسن الباقوري مقاله في «الهلال» بقوله: «يجب أن نشير إلى أن ما يذكره القرآن الكريم عن سلطان العلم ليفتح للناس آفاقًا عالية للحياة يستطيع العلم أن يبلغها وأن يحلق فوقها، وما تلك الصور إلا شواهد تثير الخيال، وتغري أصحاب العزائم بالعمل في هذا الميدان والسبق فيه واليوم الذي نبلغ فيه مبلغًا من العلم، نقيم به حياة قوية عزيزة كريمة هو اليوم الذي يلتقي فيه ديننا مع كل ما عرفت أو تعرف البشرية من علم ومعرفة.

ويومئذ نتلفت فلا نجد بيننا من يسأل الدين عن الغزو الإنساني للفضاء بالأقمار الصناعية وغيرها مما يستطيع العلم أن يحققه في مستقبل الأيام.

فالدين لا يسأل عن حركات العقل البشري، وعن فتوحاته في ميادين العلم.. بل إن الدين ليقف موقف المتسائل حين يرى الحياة الإنسانية راكدة والعقول البشرية خامدة. لأن الوظيفة الأولى للدين أن ينبه الناس إلى ما أودع الله فيهم من قوى مادية وروحية وعقلية ليعمروا الأرض وليكونوا عليها خلفاء.

وبعد.. فما أحسب أن الإسلام يقول عن انطلاق الأقمار الصناعية إلا أنها قوة من قوى العلم وسلطان من سلطانه، وأنها فتح جديد من فتوحات العقل الإنساني وثمر طيب من ثمراته.

أما أن نحول هذه القوة إلى مجال التخريب والتدمير فإن ذلك لن يضعف من شأنها، أو ينزل من قدرها فكل قوة أو نعمة في يد الإنسان يمكن أن يحولها إلى مجال الشر فيفسد بها ويدمر!

والدين إنما يحاسب الناس على أعمالهم وما يتجم عنها من نفع أو ضر، لا على ما في طبائع الأشياء من خير أو شر.

فعمل الإنسان هو الذي يتجه بالقوى التي بين يديه إلى أي الأمرين يريد.

إن شرًا فشر.. وإن خيرًا فخير..

طرائف.. ومواقف

للشيخ / عبد الحفيظ محمد عبد الحليم

«هل لذلك من علامة؟»

بينما الصحابة جلوس مع رسول الله ﷺ إذ تلا عليهم قول الله ـ تعالى ـ :

﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾

(الزمر : ٢٢)

ثم قال ﷺ : «إن النور إذا دخل القلب انفسح وانشرح»، فقيل يارسول الله : هل لذلك من علامة يعرف بها؟ فقال ﷺ : «نعم، التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله».

«القضاة ثلاثة»

دعا الخليفة سيدنا عثمان ـ رضي الله عنه ـ عبد الله بن عمر، وطلب إليه أن يشغل منصب القضاء، فاعتذر وألح عليه الخليفة ـ رضوان الله عليه ـ فثابر على اعتذاره؛ وهنا سأله سيدنا عثمان ـ رضي الله عنه ـ أتعصيني؟ فأجاب ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ :

كلا ولكن بلغني أن القضاة ثلاثة:

- قاض يقضي بجهل فهو في النار.
- وقاض يقضي بهوى فهو في النار.
- وقاض يجتهد ويصيب فهو كفاف، لا وزر ولا أجر.

وإني لسائلك بالله أن تعفيني، وأعفاه سيدنا عثمان بعد أن أخذ عليه العهد ألا يخبر بهذا أحدًا، وذلك لعلم سيدنا عثمان بمكانة ابن عمر في أفئدة .. الناس؛ وإنه ليخشى إذا عرف الأتقياء الصالحون عزوفه عن القضاء أن يتابعوه، وينهجوا نهجه، وعندئذ لا يجد الخليفة تقيًا يعمل قاضيا.

«حتى لا تسود الفوضى»

إذا أرادت الرذيلة أن تستحكم فلابد للفضيلة أن تقاوم، وإذا أراد الظلم أن يغرق الناس بطوفانه فلابد للعدل أن يقيم سدا منيعا في وجهه لا يجرفه الفساد فتسود الفوضى، قال ـ تعالى ـ :

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾

(البقرة : ٢٥١).

«ثمن العمر»

أنشد ثعلب ـ رحمه الله:

الجهل بعد الأربعين قبيح
قزع الفؤاد وإن ثناه جموح
وبع السفاهة بالوقار وبالنهى
ثمن لعمرك إن عقلت ربيح
فلقد حدا بك حاديان إلى البلى
ودعاك داع للرحيل فصيح

«نصيحة»

عن أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ أنه قال في خطبة له : «أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية وتؤولونها على خلاف تأويلها:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾

(المائدة : ١٠٥)

وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما من قوم عملوا بالمعاصي وفيهم من يقدر أن ينكر عليهم، فلم يفعل إلا يوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده).

«إيمان سيدنا عمر رضي الله عنه»

قال عبد بني الحسحاس:

عميرة ودع إن تجهزت غازيا
كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا

فقال له سيدنا عمر ـ رضي الله عنه ـ : لو قدمت الإسلام على الشيب لأجزتك.

«دعاء غير مستجاب»

- لما ولي أبو جعفر المنصور الخلافة دخل عليه أزهر السمان الواعظ فرحب به وقربه، وقال له : ما حاجتك يا أزهر؟ قال: داري متهدمة، وعليّ أربعة آلاف درهم!! فأعطاه اثني عشر ألف درهم، وقال: قد قضينا حاجتك، فلا تأتنا طالبا، فأخذها وارتحل.
- فلما كان بعد سنة أتاه، فلما رآه أبو جعفر قال: ما جاء بك يا أزهر؟ قال: جئتك مسلما، قال: قد أمرنا لك باثني عشر ألفا، واذهب فلا تأتنا طالبا ولا مسلما، فأخذها ومضى.
- فلما كان بعد سنة أتاه، فقال له: ما جاء بك يا أزهر. قال: أتيت عائدًا. قال: إنه يقع في خلدي أنك جئت طالبا!! قال ما جئت إلا عائدًا. قال: قد أمرنا لك باثني عشر ألفا، واذهب فلا تأتنا طالبا، ولا مسلما، ولا عائدًا، فأخذها وانصرف.
- فلما مضت السنة أقبل، فقال له: ما جاء بك يا أزهر. قال: دعاء كنت أسمعه منك يا أمير المؤمنين: جئت لأكتبه، فضحك أبو جعفر، وقال: إنه دعاء غير مستجاب، وذلك أني دعوت ربي ألا أراك، فلم يستجب لي، ولم يعطه شيئًا.

«تلوين أفكار العرب»

زعموا أن حرقة بنت النعمان بن المنذر قالت لزياد وقد أنعم عليها: (أطعمتك يد شبعى جاعت، ولا أطعمتك يد جوعى ثم شبعت)

فسر لكليمها زياد، وقال لشاعر: قيد هذا الكلام حتى لا يدرس. فقال الشاعر:

سل الخير أهل الخير قدما ولا تسل
فتى ذاق طعم الخير منذ قريب

«حكمة الله»

يرى الغريب ابتساماتي فيغبطني
وليس يعلم ما في النفس من كيد
سأحسن الظن بالقهار مصطبرا
فإن يوما عليهم غير مبتعد
وحكمة الله أيام يداولها
يوم عليك ويوم أنت في رغد

«بم عوضك الله؟»

- قال بعضهم لبشار بن برد: ما أذهب الله كريمتي مؤمن إلا عوضه خيرًا فبم عوضك؟ قال: بعدم رؤية الثقلاء مثلك.

«لا أدري»

سئل واعظ وهو يخطب عن مسألة.

فقال: لا أدري!!

فقيل له: ليس المنبر موضع جهل!!

فقال: إنما علوت بقدر علمي، ولو علوت بقدر جهلي، لبلغت السماء.

«دعاء»

- اللهم أصلح فساد قلوبنا، وآت نفوسنا تقواها، زكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، لك مماتها ومحياها.

أيام لها تاريخ

حتى لا ننسى.. ٤٥ عاما على حريق المسجد الأقصى

٧ من جمادى الآخرة ١٣٨٩هـ : ٢١ من أغسطس ١٩٦٩م

إعداد: أ/ عبدالله كمال نصير

قديماً كان للأقصى عمر الفاروق ومن ثم تلاه الناصر صلاح الدين فمن له اليوم أيها المسلم!!

إن المستقرء للتاريخ يجد أن الأقصى ساحة اختبار يمتحن الله بها عباده، فكلما بعد العباد عن ربهم سلبهم الله إياه، فها هم بنو إسرائيل لما تنكروا لوعد الله، وعصوا موسى أخرجهم الله منه وسلط عليهم «بختنصر» فأذاقهم الويلات، وكذلك هذه الأمة فبعد أن أعاده «عمر بن الخطاب» {فاتح القدس} إذ به يسلب من بين أيديهم، ويسلط الله عليهم الفرنجة فيقتلون فيهم مقتلة عظيمة حتى بلغ الدم الركب، فهذه سنة الله في كونه فالله لا يحابي أحدا، ومن بعد عودة الأمة على قلب رجل واحد، على يد الكردى «صلاح الدين» تعود لنا القدس، ثم لا نلبث أن تختلف فتعدوا علينا كلاب الأرض تنهشها منا، وهكذا الأيام وتلك سنة الله فى خلقه، فلن تجد لسنة الله تبديلا، فاللهم قيض لهذه الأمة أمر رشد، واجمعها اللهم على قلب رجل واحد، يخافك فينا ونطيعه فيك.

ها هو قرابة نصف القرن يمضى على جريمة من أبشع الجرائم الدولية، التى شهدها العالم وشهدتها مقدسات المسلمين، وها نحن نغط في سبات عميق، تماما مثل ما تقول عنا إسرائيل، وإليك ما قالته رئيسة وزراء كيان العدو المغتصب آنذاك «جولدا مائير» عندما علمت بأمر حريق المسجد الأقصى: «لم أنم ليلتها وأنا أتخيل كيف أن العرب سيدخلون إسرائيل أفواجا أفواجًا من كل حدب وصوب ... لكنى عندما طلع الصباح ولم يحدث شيء أدركت أن بمقدورنا أن نفعل ما نشاء فهذه أمة نائمة.»!!!.

المسجد الأقصى

هو ثانى مسجد بنى على الأرض وقد عاش فى أكنافه معظم الأنبياء والمرسلين، وأسرى منه بخاتم الأنبياء محمد ﷺ، وانبعثت منه معظم الرسالات السماوية.

وقد كان قبلة المسلمين الأولى لما يقرب من سبعة عشر شهرا، وإليه تُشد الرحال، والصلاة فيه بخمسمائة صلاة فى غيره من المساجد إلا



المسجد الحرام والمسجد النبوى.

أسماء المسجد الأقصى

المسجد الاقصى: قال الله تعالى:

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾

{الإسراء: ١}

ومعنى الأقصى أى البعيد، وذلك لبعده عن المسجد الحرام.

الأرض المباركة: قال الله تعالى:

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾

{الأنبياء: ٨١}

فهى أرض الرسالات والأنبياء، التى بارك الله فى أهلها وزرعها وثمارها.

بيت المقدس: عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لما كذبتنى قريش - أى بعد رحلة الإسراء - قمت فى الحجر فجلا الله لى بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه» (متفق عليه). وبيت المقدس معناه فى اللغة البيت المنزَّه أو المطهَّر.

موقع المسجد الأقصى

يقع المسجد الأقصى فى الجزء الجنوبى الشرقى للبلدة القديمة لمدينة القدس والتى تقع تقريبا فى وسط فلسطين. ويقع على هضبة عالية تسمى هضبة (موريا)، ويشترك فى حدوده الشرقية والجنوبية مع الحدود الشرقية والجنوبية لبلدة القدس القديمة.

تعريف بالمسجد الأقصى

المسجد الأقصى المبارك هو اسم لكل ما دار حوله السور الواقع فى أقصى الزاوية الجنوبية الشرقية من مدينة القدس القديمة المسورة بدورها، ويشمل كلا من قبة الصخرة المشرقة



(ذات القبة الذهبية) والموجودة في موقع القلب منه، والجامع القبلي (ذو القبة الرصاصية السوداء أو البرونزية)، والواقع أقصى جنوبه ناحية «القبلة»، فضلا عن نحو ٢٠٠ معلم آخر تقع ضمن حدود الأقصى، ما بين مساجد، ومبان، وقباب، وأسبلة مياه، ومصاطب، وأروقة، ومدارس، وأشجار، ومحاريب، ومنابر، ومآذن، وأبواب، وآبار، ومكتبات، فضلا عن الساحات.

بناء المسجد الأقصى

المسجد الأقصى ثاني مسجد وضع في الأرض، حيث يعتقد أغلب العلماء أن الملائكة أو آدم عليه السلام (أو أحد أبنائه) هو الذي بنى المسجد الأقصى، بعد أن بنى المسجد الحرام بأربعين سنة، ففي صحيح مسلم من حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: «قلت يا رسول الله: أي مسجد وُضِع في الأرض أولا؟ قال: المسجد الحرام، قلت: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى، قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون سنة، وأينما أدركتك الصلاة فصل، فهو مسجد». وبعد الطوفان الذي غمر الأرض في عهد نوح عليه السلام لم يبق لبناء آدم أثر.

ومع الفتح الإسلامي للقدس عام ١٥هـ/ ٦٣٦م، بنى عمر بن الخطاب رضي الله عنه الجامع القبلي، كنواة للمسجد الأقصى.

وفي عهد الدولة الأموية، بنيت قبة الصخرة، كما أعيد بناء الجامع القبلي، واستغرق هذا كله قرابة ٣٠ عاما من ٦٦ هـ/ ٦٨٥م - ٩٦ هـ/ ٧١٥م، ليكتمل بعدها المسجد الأقصى بشكله الحالي.

من فضائل المسجد الأقصى

إنه قبلة معظم الأنبياء قبل خاتمهم محمد ﷺ، والقبلة الأولى للنبي الخاتم ﷺ لمدة ١٤ عاما تقريبا منذ بعثته وحتى الشهر السادس أو السابع عشر للهجرة، روى الإمام أحمد في مسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله يصلي وهو بمكة يصلي نحو بيت المقدس والكعبة بين يديه وبعدما هاجر إلى المدينة صلى إليه ستة عشر شهرا ثم صرف إلى الكعبة».

وهو ثالث المساجد التي لا تشد الرحال إلا إليها، روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلا إِلى ثلاثة

مَسَاجِدَ: الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَسْجِدِ الأَقْصَى»، إلا أنه ليس بحرم، لأنه لا يحرم فيه الصيد، وتلتقط لقطته، بخلاف حرمي مكة والمدينة. وتسميته بالحرم الشريف ليست صحيحة، وإنما الاسم الصحيح هو «المسجد الأقصى المبارك»، وهو الاسم الذي ظل يطلق عليه طوال العهد الإسلامي حتى عصر المماليك.

وهو أرض رباط الطائفة المجاهدة المنصورة، وعقر دار المؤمنين: فعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: لا تزال طائفة من أمتي على الدين ظاهرين، لعدوهم قاهرين، لا يضرهم من خالفهم، إلا ما أصابهم من لأواء، حتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك، قالوا: يا رسول الله وأين هم؟ قال: «ببيت المقدس وأكناف بيت المقدس».



حريق المسجد الأقصى

جاء حريق المسجد الأقصى في إطار سلسلة من الإجراءات التي قام بها الاحتلال الصهيوني منذ عام ١٩٤٨م، بهدف طمس الهوية الحضارية الإسلامية لمدينة القدس، ففي السابعة من صباح الخميس ٢١ أغسطس ١٩٦٩م / الموافق ٨ من جمادى الآخرة ١٣٨٩هـ اقتحم إرهابيون صهاينة ساحات المسجد الأقصى المبارك من أبواب مختلفة، حتى وصلوا إلى المصلى القبلي، وهو المصلى الرئيسي في المسجد المبارك، وأضرموا النار في أكثر من موضع، قرب المنبر والمحراب، وقرب القبة. وفور ارتفاع أدخنة الحريق، قامت سلطات الاحتلال بقطع المياه عن المنطقة، وضربت طوقا حول المسجد الأقصى، وحاولت منع السكان من القيام بإطفائه.

واندلعت النيران بالفعل وكادت تأتي على قبة المسجد لولا استماتة المسلمين والمسيحيين في عمليات الإطفاء التي تمت رغما عن السلطات الصهيونية، حيث اندفعوا عبر الطوق الذي ضربته قوات الاحتلال، يطفئون النار بأوعية المياه التي جلبوها من آباره، وهم يرددون «الله أكبر».

وقد أدى الحريق إلى إحراق أكثر من ثلث مساحة المصلى القبلي الرئيسي في المسجد الأقصى المبارك، إحراق منبر صلاح الدين، واشتعلت النيران في سطح المسجد الجنوبي وسقف ثلاثة أروقة. وتضرر القبة الخشبية الداخلية وزخرفتها الجصية الملونة والمذهبة مع جميع الكتابات والنقوش النباتية والهندسية عليها، إضافة إلى المحراب الرخامي الملون، والجدار الجنوبي. وأحرق السجاد الذي يغطي المصلى الرئيسي في المسجد الأقصى المبارك، وكثير من النقوش والزخارف الأثرية، والآيات القرآنية التي تغطي جدرانه، والتي تعود إلى العهدين الأموي والعباسي.

وادعى الكيان الصهيوني أن الحريق بفعل تماس كهربائي، وبعد أن أثبت المهندسون العرب أنه تم بفعل فاعل، ذكرت أن شابا أستراليا يدعى (دينيس مايكل روهان)، هو المسئول عن الحريق وأنها ستقدمه للمحاكمة، ولم يمض وقت طويل حتى ادعت بأن هذا الشاب معتوه ثم أطلقت سراحه.

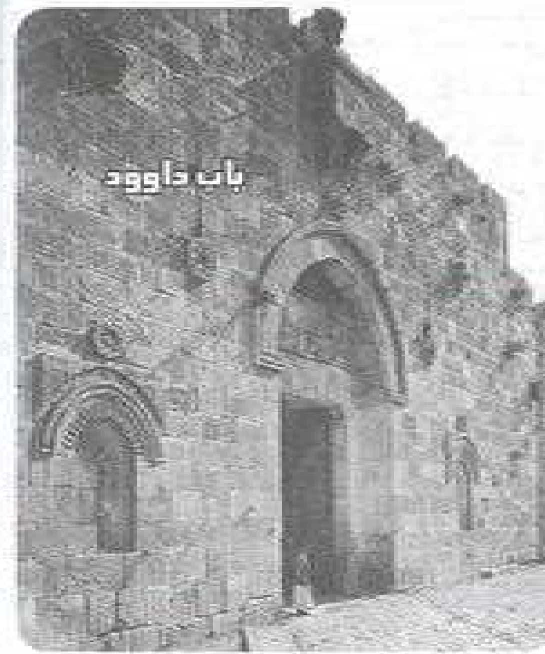
وكان لحريق الأقصى ردود فعل عالمية وإسلامية، فقد عم الغضب الدول العربية والإسلامية، واجتمع قادة هذه الدول في الرباط يوم ٢٥ / ٩ / ١٩٦٩م وقرروا إنشاء منظمة المؤتمر الإسلامي التي ضمت في حينها ثلاثين دولة عربية وإسلامية، وأنشأت صندوق القدس عام ١٩٧٦م، ثم في العام التالي أنشأت لجنة القدس برئاسة العاهل المغربي الراحل الملك الحسن الثاني للمحافظة على مدينة القدس ومقدساتها الإسلامية ضد عمليات التهويد التي تمارسها سلطات الاحتلال الصهيونية.

كما أصدر مجلس الأمن في ١٥ / ٩ / ١٩٦٩م القرار رقم ٢٧١ الذي دعا دولة الاحتلال إلى إلغاء جميع الإجراءات التي من شأنها تغيير وضع القدس.

وضع المسجد الأقصى الحالي

على مدى قرون، يدعي الصهاينة أن المسجد الأقصى المبارك بني في موضع مايسمى بالمعبد / الهيكل اليهودي. ومنذ عام ١٩٦٧م، يعاني المسجد الأقصى المبارك من الاحتلال الصهيوني الذي:

- اعتدى علي حرمة المصلين داخله، واستباح دماءهم في عدة مذابح داخل ساحاته الآمنة.
- أحرق جزءا منه، وحاول تفجيره، وتخريبه غير ذات مرة.
- استولى على أجزاء منه، مثل: باب المغاربة، وحائط البراق الذي حوله إلى حائط مبكى يدنسه اليهود، بينما يمنع المسلمون من الاقتراب منه.
- حاصر أبوابه الأخرى، ومنع المصلين من حرية الوصول إليه والصلاة والرباط فيه، بينما أتاح لليهود دخوله.
- شق الحفريات والأنفاق تحت أساساته، ما أدى إلى تصدع أجزاء منه.
- منع محاولات ترميمه، وإعادة بناء ما تصدع منه.



حتى لا يحرق أقصى آخر

لماذا نذكر بتلك الواقعة؟!.. إنها للحظات بائسة تمر على المرء وهو يتجرع كئوسا مترعة بالأسى والألم، حين يقرأ على صفحات التاريخ أنه تعرض في يوم من الأيام واحد من أسافل الناس على مقدس من مقدسات المسلمين. فأحرقه وساندته في ذلك كيان محتل مغتصب، وما حرك المسلمون حينها ساكن، غير أنهم شجبوا وتنددوا، وعاد كل منهم إلى داره، متناسيا ما حل بالأمة من هزيمة، فنذكر حتى لا يأتي اليوم الذي يتطاول فيه قزم آخر على مقدس من مقدساتنا فنقول ليست قضيتنا بل هي قضية قطرها الواقعة فيه، كما قلنا سابقا هي القضية الفلسطينية، فليس لها إلا أهل فلسطين، وليتنا سكتنا عند هذا الحد، بل نكيل لهم التهم بالتواني والتخاذل عن قدسنا الشريف، وأين نحن ... إلى الله المشتكي ... نسينا أننا المسلمين يجب أن نكون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالحمى والسهر، فلنفق عباد الله، ولنراجع ديننا وعقيدتنا وقرآننا، عل الله أن يرد علينا أقصانا وألا يفجعنا في مقدساتنا، إنه نعم المولى ونعم الوكيل.

خميلة الشعر



للأستاذ/ محمد عبدالوهاب

قَلَّمتُ ظفري تاراتٍ وما جسَدي	إلاّ كذاكَ إذا ما فارقَ الروحا
ومَنْ تأمّلَ أقوالي رأى جُمَلا	يَظَلُّ فيهنَّ سِرُّ الناس مشروحا
قد ادّعيتُم فقُلنا: أين شاهدُكمْ؟	فجاءَ مَنْ باتَ عند اللب مجروحا
إنْ صَحّ تعذيب رمس مَنْ يَحلُ به	فجنّباني ملحودًا ومَطرُوحا
يا نفس يا طائرًا في سِجنِ مالِكِه	لَتُصبحَنَّ بحَمْدِ اللهِ مَسروحا

ابو العلاء المعرى

فن الشعر هو الفن الذى كلما اقتربنا منه ازداد إحساسُنا بالابتعاد عنه، فهو قيمة دائمة التغير، وهو حين يضم بين جانبيه نماذج من أقدم العصور، نراه يربطها بنماذج أخرى حديثة، قد تتباين في شكلها وأسلوبها، ولكنها كلها تجمات فاتنة الجمال، تتلألأ في سمائه، على شكل قصائد شاعرة أو مسرحيات مصوَّرة أو (تراجيديا) معبِّرة إلى غير ذلك من كلمات موحية تتخللها موسيقى ساحرة، تأسر القلب و اللب معا ولهذا الفن الجميل، قدر كبير من الحركة يجعله مستعصيا على محاولات تعريفه أو تحديده في شكل ثابت أو إطار لا يتغير وهو يجلس على عرش كل فنون القول الأدبي ملكا متوّجا، ويمكننا أن نصفه بأنه أمل الإنسانية وضميرها، وهو الحلم العظيم الذى ينطوى كل تحقيق له، على بذرة حلم عظيم جديد، وهو القول المستكشف المغامر، الذى ينزع دوما نحو ارتياد الآفاق المجهولة وعن هذه المعانى الجليلة للشعر وقيمته يقول العقّاد: "الشعر يُعمّقُ الحياة فيجعل الساعةَ من العُمْرِ ساعات، عِشْ ساعةً مفتوحَ النفْس لمؤثّراتِ الكونِ التى يُعرضُ عنها سِواكَ مُمتزجة طويتُك بطويّته الكبيرة تكنْ قد عشْتَ ما فى وسع الإنسان أن يعيش، وملأتَ حقيبتك من أجود صنف من الوقت" ولقد كان العقّاد شاعرًا عظيمًا لأنه كان يفهم الشعرَ وبواعثه، وكان يعرف أنَّ الشاعرَ يُعبّرُ عن نفسه ويُعبّر كذلك عن الحياة وعن الكون، لذا كان شعاره: "الشاعر الذى لا تعرفه بشعره لا يستحق أن يُعرف"

ولقد بحث الدكتور زكى نجيب محمود

هذه الخصيصة فى شعر العقاد ، وعلى أساسها حلل عدة قصائد في مقاله القيم الذى بعنوان : (العقاد الشاعر) الذى استهله قائلا: " البصر الموحى إلى البصيرة ، والحس المحرك لقوة الخيال والمحدود الذى ينتهي إلى اللامحدود – ذلك هو شعرُ العقاد – بل ذلك هو الشعر العظيم كائنا من كان صاحبه" وقال الدكتور زكي نجيب محمود أيضا عن شعر العقاد : " القصيدة عند العقاد بناء من الصوان ، والقلم في يده هو إزميل النحات ، إنه لا يصوغُ قطعة من العجين اللين ، ولا يُقيمُ بناءً من الطين الطرى المطواع ، فلا الفكرة عنده قريبة المنال ولا المادة سهلة التشكيل ، القصيدة عنده هى المسلة القديمة قُدّت من حجر الجرانيت لترسخ فى الأرض وترتفع إلى السماء ، فهاهُنا العُمق والسموق معًا ، إنك لا تلهو بالمسلة ، تُحركُها بين أناملك كما تُحركُ القصبة النحيلة ، بل تقفُ إلى جانبها متنبه الحواس ، مُرهف الأعصاب ، مشدود العضلات ، رافع الرأس فى طموح ، فمن أراد أن يقرأ الشعر وهو ملقى على ظهره فى استرخاء العابث اللاهى ، فليس شعر العقاد شعره ، أمّا من يدخل ديوان الشّعر دخولَهُ معبدًا رفيع العمد متينَ الجُدران ، كل شيء فيه يدعو إلى التمهّل والتأنى والتأمّل ، يظل يخرج فيه من محراب ليدخل محرابا ، وينتقل فيه من تمثال هُنا إلى نقش هناك ، حتى إذا فرغ من تأمل أجزائه جزءًا جزءا ، أدرك في النهاية أنه معبدٌ واحدٌ تتآزرُ تفصيلاتُه وتتعاونُ نُحوتُه ونقوشُه ورموزُه ؛ أقول إن من أراد قراءة القصيدة من الشعر مثل هذه القراءة فديوان العقاد ديوانه"

ولقد تخيرنا لكم اليوم من شعر الأستاذ العقاد أبياتا معبّرة من قصيدة :

مصر الكنانة

أهلاً بنيروز وليد
أهلاً بميلاد سعيد
يومٌ جديدٌ قلتُ بل
عهدٌ على مصر جديد
عهدٌ تصانُ كرامةٌ
فيه ، وتتبعها جهود
لا تستذلُ ولا تُسا
مُ على الهوى سَوْمَ العبيد
وغدًا ستنقشعُ الغيو
مُ فلا بروقَ ولا رعودْ
ما كان غير الصالحينَ لهم قرارٌ في الوجودْ
مصر الكنانة كعبةٌ
قرَتْ على حصنٍ وطيدْ
لا تلبث الأصنام فيـ
ـهاآنَ تُنكسُ أو تبيدْ
كم ذا أراد بها الأذى باغ
وكان لها الحسود
يمضي يُبعدُ ما يُريدُ
والله يفعلُ ما يُريدْ
وتراهُ ضاعَ وظنَّهُ
ألّا يضيع ، ولا يبيدْ
يا مصرُ يا بنت الخلودْ
يا معقلَ المجد التليدْ
أينَ الذين جزوكِ جا
زية الخيانة والكنودْ
منْ كلّ مُنتفخٍ هازلٍ
فى زىّ جبّارٍ عنيدْ
يحكى الأسودَ تجبُّرا
وكذاك عربدة القرودْ
طاغ عليك ومنك لا
منه الصوالجُ والبنودْ
وكأنما في جوفه
نارٌ تلظّى بالوقودْ
أبدًا تُنادى كلّما
أطعمتها : هل من مزيدْ
لا نُصح يُجدى فى هدا
يته ولا عتبٌ يفيدْ
أينَ القرارُ به وأيـ
ـنَ اليومَ موكبُهُ المجيدُ ؟!
ولّى وولّى صحبُهُ لا غائبين ولا شهودْ
من كلِّ مغلوبٍ على
كمدٍ ومنبوذٍ شريدْ
اللهُ أقوى قوّةً
من كُلِّ شيطانٍ مريدْ
كم ذا استعزّ ببأسه
فأذلّهُ البأسُ الشديدْ
بأسُ الجنود العاملـ
ـينَ يقودهم ربُّ الجنودْ
النيلُ أقبلَ من بعيدْ
وكأنه حبلُ الوريدْ
مُتدفّقٌ بين الحدو
د ولا حدود ولا قيود
فيضٌ من السودان مَوْردُهُ وقبلته رشيدْ
مُتجدّدٌ فى كل عا
م عند موعده يعودْ
خوضٌ له من قومه
وردٌ وما أحلى الورودْ
إن لم يَذُد أبناؤه عنه ، فمن عنه يذودْ؟
سُمْرٌ وسُودٌ أين من صبغيهما حُمْرُ الجلودْ
شتّانَ ما هُم فى الأصولِ وفى المهودِ وفى اللحودْ

وإلى مَنْ يتوقون إلى الشعر الرقيق والكلمات الموحية نقدم من ديوان : [الله والنيل والحب] للشاعر الكبير الراحل الأستاذ صالح جودت قصيدة :

أنشودة القاهرة

صلاةٌ على أرضك الطاهرة
سلامٌ على روحك الشاعرة
وحبٌّ مدى الدهر يا قاهرة
سلامٌ على نيلك المؤنس
سلامٌ على الورد والنرجس
إذا انتفض الغدرُ لا تيأسى
وإن عبس الدهرُ لا تعبسى
ستنمو الأماني الجليلة
وتنمو الزهور الجميلة
وتحلو الليالي .. وتصفو المجالي .. ويعلو ابتهالي
وترجع أيامك الزاهره
وتعلو بنودُك يا قاهره
تباركت يا حُلوة الضفتين
بنور الحُسين وأُخت الحسين
تُواليك منْ رحمة الله : عينْ
تُلألئ نورك فى المشرقينْ
ليخفق حول المآذنْ
يُحيى عروس المدائن

ويرعاك حُبّي .. ويَفْديك قلبي .. ويحميك ربّي
وتحرسُك القُدرةُ القادره
ويبقى جمالُك يا قاهره
على شاطئيك مَشَتْ مريمُ
وحجَّ لأرضك مَنْ أحرموا
وصلّى المسيحيُّ والمُسلمُ
وقالوا السلام وما استسلموا
فيا نفحة الأنبياء
ويا حلوة الكبرياء
سلاما سلاما .. وسيرى أماما .. وعيشى دواما

مُباركة حُرةً ظافرة
وحيَّ على النصر يا قاهرة
جلالُك يصنع نور الصباح
وحقُّك يعلو ولا يُستباحْ
فكم من غويٍّ أتى ثُمّ راحْ
وكم من عَتيٍّ طوَتْه الرياحْ
ولا زلت من ألف عامْ
منار الهُدى والسلامْ
وأرض الخصوبة .. ونهر العذوبة .. وحصن العروبة
ومطلع ليلتنا الساهرة
على موعدٍ في رُبى الناصره

وبارك ربّنا مصرا

للشاعر/ مصطفى عكرمة

لنا بالعلم أمجادٌ ... به أجدادُنا ساروا
سنمضي إثرهم قُدُمًا ... نُشَيِّدُ فوق ما شادوا

***

على نفع الورى اجتمعوا ... بكل العلم قد برعوا
لهم أعداؤهم شهدوا ... بما هم فيه قد نفعوا

***

على آثارهم نمضي ... لنصبح سادة الأرض
بما بالعلم نبدعُه ... وفعل جميع ما يُرضي

***

إذا ما يومنا كانا ... كما لم يُرض مسعانا
سنسبق كل من سبقوا ... وخير الناس تلقانا

***

لمصر المجد قد خُلقا ... ومنها للورى انطلقا
بنى أمجادها شعبٌ ... أحب الخَلق قد رُزقا

***

جذور المجد في مصرا ... سَمَتْ أغصانُها قدرا
فحَبا الله تربتها ... وبارك ربُّنا مصرا

وبارك ربُّنا مصرا

بين الصحف والمجلات

إعداد أ/ محمد جمعة

إفريقيا الوسطى.. جرح جديد

تحت هذا العنوان جاء مقال الأستاذ / محمد الفباشى المنشور بمجلة البيان الصادرة بتاريخ: ٢ / ٣ / ٢٠١٤م جاء فيه:

جمهورية إفريقيا الوسطى دولة داخلية بلا أي سواحل، حيث يبعد أقرب ساحل منها نحو ألف كيلو متر، وهو الساحل الشرقي في الكاميرون، وتقع في قلب القارة السمراء كما هو واضح من اسمها، تحدُّها دولة تشاد من الشمال، ودولة السودان من الشمال الشرقي، ودولة جنوب السودان - المنفصلة قريبا عن السودان - من الشرق، ودولتا جمهورية الكونغو الديمقراطية والكونغو من الجنوب، ودولة الكاميرون من الغرب، في مساحة تمتد لنحو ٦٢٢,٩٨٤ كيلو مترا مربعا، فيما يبلغ عدد سكانها نحو خمسة ملايين نسمة موزعين ما بين الملل والطوائف على النحو التالي:

١ - مسلمون: نحو ٣٥ في المائة (ثلث السكان)، ويتركزون في شمال البلاد بالقرب من الحدود مع تشاد، وقد بالغ البعض حتى أوصل نسبتهم من ٥٠ إلى ٦٠ في المائة من إجمالي عدد السكان.

٢ - نصارى: ٥٠ في المائة، نصفهم من البروتستانت والنصف الآخر من الكاثوليك.

٣ - والبقية ديانات وثنية أخرى.

وينتشر الإسلام بين الجماعات المستعربة والبيل والبورورو من البربر، إضافة للجماعات القاطنة في منطقتي الشرق والوسط، فيما يكسب الإسلام كل يوم أنصارا جددا بين الجماعات الوثنية والنصارى.

إلا أنه من الملاحظ أن العديد من الجماعات التنصيرية تنشط داخل البلاد، منها: ويأتي هؤلاء المنصرون غالباً من فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية وإسبانيا وإيطاليا، إلا أن هناك جماعات تنصيرية تتسرّب إلى الداخل من نيجيريا وجمهورية الكونغو ودول إفريقية أخرى، حيث النشاط التنصيري المحموم في عدد من دول الجوار، لا سيما أن الحدود الشرقية للجمهورية متاخمة لحدود دولة جنوب السودان التي انفصلت عن دولة السودان وأقامت لها دولة نصرانية خالصة بدعم غربي واسع.

كانت جمهورية إفريقيا الوسطى مستعمرة قديمة لفرنسا، وفي العام ١٩٥٨م استقلت البلاد عن باريس معلنة قيام الجمهورية، إلا أن حالة الاستغلال الفرنسي للثروات الهائلة التي تتمتع بها إفريقيا الوسطى لم تنته، حيث تعد فرنسا المستثمر الأول في البلاد، وتتمتع بامتيازات فائقة في عدة مجالات صناعية، وقد دخل الإسلام إلى إفريقيا الوسطى في القرن الخامس الهجري، وذلك عن طريق التأثر بالممالك الإسلامية المجاورة لها، وبالنظر إلى حجم المجازر اليومية التي تلحق بالمسلمين وقتل الآلاف منهم حتى الآن، وبالنظر إلى دمويتها وبشاعتها، واستهدافها للمساجد ودور العبادة الإسلامية فقط، وفرار عشرات الآلاف من المسلمين إلى دول الجوار هربا من مجازر الميليشيات النصرانية؛ فإن ذلك يدعو للدهشة والتساؤل: إذا كان الصراع في الأساس على الثروات الطبيعية لإفريقيا الوسطى المتمثلة في الذهب واليورانيوم ومصادر الطاقة والأخشاب، وإذا كان الصراع مجرد

مطامع اقتصادية وحرب ديناصورات المال والأعمال المتمثلة في فرنسا من جانب والصين والولايات المتحدة من الجانب المقابل ؛ إذا كان كل ذلك فما العلاقة بينه وبين استهداف المسلمين ، والمسلمون على وجه الخصوص ؟! لماذا تستهدف المساجد والصراع اقتصادي ؟! لماذا يؤكل المسلمون أمواتا وأحياء - والمسلمون فقط - والصراع اقتصادي ؟!

مصحف توماس جيفرسون ... الإسلام في بدايات الولايات المتحدة

تحت هذا العنوان جاء مقال الأستاذ إميل أمين المنشور بجريدة الحياة الصادرة بتاريخ : ١ / ٣ / ٢٠١٤ م قال فيه :

من بين أهم القضايا التي طرحت نفسها ولا تزال في شكل جدلي كبير ، تلك المتعلقة بالولايات المتحدة الأمريكية وعلاقتها بالإسلام والمسلمين ، فقبل أن ينصرم العام الفائت ، كانت الأكاديمية الأمريكية دينيس سبيلبيرغ أستاذة التاريخ والدراسات الشرق أوسطية في جامعة تكساس ، تخرج علينا بكتابها المثير والذي حمل عنوان «قرآن توماس جيفرسون ... الإسلام والآباء المؤسسون» ... من هو توماس جيفرسون بداية ؟ قبل أن يكون الرجل الرئيس الثالث للولايات المتحدة الأمريكية (١٧٤٣ - ١٨٢٦) هو أحد المفكرين السياسيين في العصر المبكر للجمهورية الأمريكية ، كما أنه واضع القوانين التي تحمي الحريات الدينية في الولايات المتحدة والتي طبقت بدءا من عام ١٧٨٦ لكن ما علاقة الرجل بالإسلام والمسلمين ؟ تحدثنا المؤلفة أنه في عام ١٧٧٦ كتب جيفرسون عن حق الوثنيين والمسلمين واليهود في حرية العبادة ، وبسبب آراء جيفرسون في شأن الحرية الدينية والمساواة السياسية ، كان يُهاجم بصورة متكررة ، وفي أحيان كثيرة كان يُتهم بأنه مسلم ، متى وكيف حصل جيفرسون على نسخته من القرآن الكريم ؟ وفق الكتاب جرى ذلك في عام ١٧٦٥ ، وعندها كان في سن الثانية والعشرين ، وقد اشتراها أثناء دراسته القانون في جامعة ويليامسبيرغ ، ويبدو واضحاً أن المؤلفة بذلت جهداً كبيراً في التأصيل لفهم دور الإسلام في النضال الأمريكي لحماية الحرية الدينية ، و تعترف بأن كثراً من الأمريكيين في هذه المرحلة نظروا إلى الإسلام بعين الريبة ، وصنفوا المسلمين بأنهم خطرين ولا يستحقوا الإدماج في التجربة الأمريكية ، إلا أنها توضح أيضا وجود بعض الآباء المؤسسين من الرواد أمثال جيفرسون وماديسون وجورج واشنطن الذين رفضوا تلك الحجج الإقصائية ، ورأوا أن أميركا يجب أن تكون مفتوحة أمام المواطنين المسلمين ، وأن يتولوا مناصب فيها حتى منصب الرئيس . والثابت من صفحات الكتاب أن الرئيس جيفرسون كان لديه التزام قوي مدى الحياة بالحرية الدينية ، ورفض التسامح مع فكرة أن الغالبية الدينية لها الحق في فرض إرادتها على أي أقلية دينية ، لكنه اختار طريق التسامح مع المختلف عنهم دينياً ، رافضا استخدام السلطة الحكومية لفرض الآراء أو المعتقدات بعكس ما يمليه عليه ضميره . والمؤكد أن جيفرسون كان ملهماً لرؤساء وزعماء كثر غيره ، مثل الرئيس إبراهام لينكولن الذي كان كثير الاقتباس من القرآن الكريم ، لدرجة أن بعضهم اعتبره مسلما ، ولعل أكثر الكتابات الملفتة للنظر عن الإسلام والتي كتبها الآباء المؤسسون هي تلك التي جاءت من بنيامين فرانكلين الفيلسوف والعالم العظيم ، فقد عبر فرانكلين عن احترامه للإسلام وإيمانه العميق بالحرية الدينية عندما كتب عن رغبته رؤية مفتي اسطنبول ليبشر بالإسلام من منبر في فيلادلفيا ، إلا أنه واجه تحدياً من مواطنيه لإقناعهم بأن يكونوا بهذا المقدار نفسه من التسامح ...

ثم يقول الكاتب : المعروف أن النسخة التي كان يمتلكها جيفرسون من القرآن الكريم قد أنقذت النظام السياسي الأميركي من مأزق كبير عام ٢٠٠٦ ، عندما تم انتخاب أول عضو مسلم في الكونغرس الأميركي «كيث أليسون» ، حيث رفض كيث باعتباره مسلماً أن يقسم على الإنجيل ، وأصر على أن يقسم على القرآن ، الأمر الذي أثار جدلا كبيرا في الولايات المتحدة الأميركية ، ما جعل «دينيس براجر» يكتب في عموده «أميركا وليس كيث إليسون» من يقرر على أي كتاب يقسم عضو الكونغرس ، ووصف آخرون ذلك بأنه تهديد للقيم الأميركية ، فكان الحل الأوسط للخروج من هذه الأزمة أن يقسم كيث على نسخة القرآن التي كانت في حيازة توماس جيفرسون .

ثم يضيف الكاتب قائلا : الفكرة التي تحدثت عنها مؤلفة «دينيس سبيلبيرغ» فكرة أميركا التعددية التي تقبل الآخر المختلف دينياً وعرقياً ، والتي كانت عاملاً أكسبها حيوية وتجدداً وقدرة على الإبداع الخلاق من خلال فكرة بوتقة الانصهار ، وهو الأمر المرشح للتآكل والانهيار ، في حال سادت الأحادية الفكرية والدينية ، الأجواء الاجتماعية والسياسية والدينية الأميركية ، فهل تصل رسالة هذا الكتاب إلى عموم الأميركيين ؟

"تغريب" الإسلام

تحت هذا العنوان جاء مقال د/ سعيد إسماعيل المنشور بجريدة المصريون الصادرة بتاريخ : ١١ / ٣ / ٢٠١٤ م جاء فيه:

كثيرة هي الشهادات التي قال بها علماء وفلاسفة يصورون بها حالة المهزوم حضاريا ، وكيف أنه - فيما أكد ابن خلدون - مولع بتقليد الغالب ، وبسبب ظروف كثيرة تحفل بها كتب التاريخ ودراساته ، انتهى الغرب في أواخر العصور الوسطى إلى "حبس" الدين في البيوت والكنائس ، وساعدت طبيعة الدين المسيحي على ذلك حيث المقولة الشهيرة الآمرة بإعطاء ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، حيث شهد التاريخ الأوروبي أحداثا متعددة باعدت بين أصول المسيحية السمحة وبين أحداث قامت على الاستغلال والقهر . لكن ساحة مثل الساحة المصرية شهدت عكس هذا ، حيث كانت جموع الشعب المصري تلوذ بعلماء الأزهر قرونا وراء قرون هربا من قسوة الحكام وظلمهم ، وكذلك انطلقت من بعض علماء الأزهر صيحات التجديد ، فقال الشيخ حسن العطار الذي تولى مشيخة الأزهر إن طريقة حياتنا لابد أن تتغير ونعلم في بلادنا من العلوم ما ليس فيها ، فضلا عن جهود آخرين غيره مثل الطهطاوي وجمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده ، وكذلك ، كان علماء الأزهر هم قادة حركة مقاومة باسلة للاحتلال الفرنسي في أواخر القرن الثامن عشر .. ولما استطاعت قوى البغي الغربي أن تحتل مجمل البلدان الإسلامية ، وفي القلب منها الوطن العربي عامة ، ومصر خاصة ، تم الترويج لما ساد الغرب من علاقة بين الدين والدولة ، تمركزت في كهانة ثيوقراطية ، فتزعم الاستناد إلى حق إلهي في الحكم ، وتحت هذه المظلة جرى نهر الحياة الأوروبية بمياه قهر واستغلال ، مما كان طبيعيا معه أن يلوذ الناس بفصل الدين عن الدولة . ومن هنا كان لشيخ مجدد ، وسطي ، مثل الشيخ محمد عبده أن ينهض ليؤكد أن الإسلام عقيدة وشريعة ، وأن الشريعة لابد لها من سلطة تقيمها وتسهر على تطبيقها ، لكن على شريطة أن يكون الرأي الذي يتم التوصل إليه في التطبيق هو اجتهاد جمع من العلماء ، بصور فهمهم هم ، دون زعم أنهم وحدهم المعبرون عما يريده الله عز وجل . وهكذا أكد الشيخ محمد عبده أن الإسلام دين وشرع ، وبهذا الاعتبار ، وضع حدودا ، ورسم حقوقا ، ولا تكتمل الحكمة من التشريع والأحكام إلا إذا وجدت قوة لإقامة الحدود وتنفيذ أحكام القاضي بالحق وصون نظام الجماعة ، والإسلام لم يدع ما لقيصر لقيصر ، بل كان من شأنه أن يحاسب قيصر على ماله ، ويأخذ على يديه في عمله ، لأن الإسلام إنما هو كمال للشخص ، وهو ألفة في البيت ، ونظام للملك .. والإسلام لم يعرف تلك السلطة الدينية التي عرفتها أوروبا ، والتي يسميها الإفرنج "ثيوكراتيك" ، أي سلطان إلهي ، لأن الحاكم في الإسلام مدني من جميع الوجوه ، ولا يجوز لصحيح النظر أن يخلط سلطان الحاكم عند المسلمين بالثيوقراطية - الأوروبية وسلطانها الإلهي - وتشير مناقشات لجنة دستور ١٩٥٤ ، التي كانت مؤلفة من كوكبة من عظماء الفكر والتشريع إلى قول عملاق مثل طه حسين ، فيما نشرت مجلة الأزهر في عدد جمادى الأولى ١٤٣٥هـ: "إنه من المقطوع به أن الأغلبية لن تقبل أن تخرج عند وضع الدستور على ما أمر به الإسلام ، وأنه ليس هناك مقتضى يسمح لنا بأن تعدل عن نص القرآن ، وأنه إذا وجد نص ديني صريح ، فالحكمة والواجب يقتضيان ألا نعارض النص ، وأن نكون من الحكمة ومن الاحتياط بحيث لا نضر الناس في شعورهم ، ولا في ضمائرهم ، ولا في دينهم ، وإذا احترمت الدولة الإسلام ، فلابد أن تحترمه جملة وتفصيلا ، ولا يكون الإيمان إيمانا ببعض الكتاب وكفرا ببعضه الآخر" . إنه طه حسين الذي تم تصويره وكأنه يقف عند حدود التبشير بالتغريب ، دون النظر بعين الاعتبار إلى ما حدث لكثير من المفكرين من تطورات ومراجعات ، لكن صائدي الهموم ، يحرصون على الاستشهاد بما كان في البدايات فقط ...

المؤتمر العلمى الدولى الثانى لكلية الشريعة والقانون بطنطا:

النظام القانونى لرئيس الدولة بين أحكام السياسة الشرعية والدساتير المقارنة

متابعة: رمضان ثابت - أبو السعود محمد

تحت رعاية فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر، وبالمشاركة بين رابطة الجامعات الإسلامية وكلية الشريعة والقانون بجامعة الأزهر فرع طنطا نظمت الكلية المؤتمر العلمى الدولى الثانى بعنوان (النظام القانونى لرئيس الدولة بين أحكام السياسة الشرعية والدساتير المقارنة)، وذلك بمقر الكلية يومى الثلاثاء والأربعاء ٣ - ٤ جمادى الأولى ١٤٣٥ هـ الموافقين ٤ - ٥ مارس ٢٠١٤ م.

استهلت الجلسة الافتتاحية للمؤتمر بكلمة فضيلة الأستاذ الدكتور سيف رجب قزامل عميد كلية الشريعة والقانون بطنطا، -بعد تلاوة آيات من الذكر الحكيم- وسط حضور حاشد من علماء الأمة الإسلامية والعربية المتخصصين، من مختلف التيارات الفكرية، رحب فيها بالسادة الضيوف، وعبر عن سعادته بعقد المؤتمر فى الكلية حول الشروط الواجب توافرها فى رئيس الدولة وطرق اختياره وسلطاته ومسئولياته وأسباب انتهاء ولايته وفق أحكام السياسة الشرعية والدساتير المقارنة، وأنه يأتى فى مرحلة دقيقة مناسبة لطرحه، كما ثمن دور رابطة الجامعات الإسلامية لمشاركتها فى عقد هذا المؤتمر.

ثم تحدث فضيلة الأستاذ الدكتور إسماعيل شاهين باعتباره ممثلا لمعالى الأمين العام للرابطة ليؤكد خبرة الرابطة فى عقد المؤتمرات والندوات التى تناقش كل ما يهم الساحة فى مجالات السياسة والثقافة والتعليم وليعتذر فى الوقت نفسه من عدم حضور فضيلة الأمين العام للرابطة نظرا لسفره فى رحلة عمل خارج القطر المصرى مبديا آمال معالى الأمين العام فى إنجاح المؤتمر وشكر القائمين على تنظيمه.

وتناولت الجلسة الافتتاحية عدة كلمات مهمة حول موضوع المؤتمر من أبرزها كلمة فضيلة الأستاذ الدكتور أحمد حسنى طه نائب رئيس الجامعة للوجه البحرى، وكلمة فضيلة الأستاذ الدكتور عبد الله الأشعل أستاذ القانون الدولى واختتمت بكلمة فضيلة مفتى الجمهورية الأستاذ الدكتور شوقى علام والتى أكد فيها أن أغلب ما يكون من أحكام بالنسبة لرئيس الدولة جاء من جملة أحكام السياسة الشرعية التى تتغير بتغير الزمان والمكان، فيما لا يخل بأحكام العدل والأحكام العامة التى هى الأساس فى أحكام السياسة الشرعية.

وأوضح فضيلة المفتى أن الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، جمع بين ثلاث وظائف وهى وظيفة التبليغ عن ربه ووظيفة الإمامة ووظيفة القضاء، وأن هذه الوظائف الثلاثة لها حدود فى شخصه فصلها الإمام القرافى فى كتابه الإحكام فى تمييز الفتاوى.

وفى نهاية كلمته أشار مفتى الجمهورية إلى اختلاف أسس اختيار رئيس الجمهورية وفق ظروف المجتمع وتطوره، قائلا: "استمر المسلمون جيلا بعد جيل يختارون من يقودهم بوسائل عديدة اختلفت من عصر إلى عصر ومن زمن إلى زمن، ثم جاءت فى الآونة المعاصرة ما يسمى بدولة المؤسسات التى تحدد اختصاصات القائم على إدارة شئون الأمة تحديدًا دقيقًا فى نصوص قد لا تكون عرضة للتغيير فى وقت قصير ربما تحتاج وقتا كبيرا لتغييرها".

أما عن أبحاث المؤتمر فقد تجاوزت ثلاثين بحثا تم مناقشتها على مدار يومين متتاليين منها ورقة العمل المقدمة من أ.د.رأفت غنيمى الشيخ بعنوان: "اختيار الحاكم فى مصر بطريق الاستخلاف ١٨٠٥ - ١٩٥٢ م"، والتى أرّخ فيها لحكم مصر فى ظل أسرة محمد على باشا خلال قرن ونصف قائلا: "عاشت مصر منذ أوائل القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين فى ظل حكم ما عرف بالأسرة العلوية الوراثية التى بدأت عام ١٨٠٥م بفَرَمَان من السلطان العثمانى بتعيين محمد على باشا واليا على مصر، ثم فرمان سلطانى بجعل الحكم فى مصر وراثيا فى الأسرة المحمدية العلوية للأكبر من أبناء الأسرة، ثم فرمان سلطانى عام ١٨٦٦ م لجعل الحكم فى مصر محصورا فى أبناء الخديوى حتى عام ١٩١٤ م، وعندما فرضت الحماية البريطانية على مصر أصدرت قرارا بتعيين الأمير حسين كامل سلطانا على مصر واختارت بعد وفاته الأمير أحمد فؤاد سلطانا عام ١٩١٧ م ليتحول لقبه إلى ملك مصر بعد استقلال مصر فى أوائل العقد الثالث من القرن العشرين. وفق ما نص عليه دستور ١٩٢٣ م وانتهت الأسرة العلوية بخلع الملك فاروق الأول بن الملك أحمد فؤاد الأول عقب نجاح ثورة الجيش المصرى فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ م وبهذا يتضح أن الاستخلاف فى مصر (أى الحكم الوراثى) استمر قرنا ونصف قرن هى فترة حكم الأسرة المحمدية العلوية.

ومنذ نجاح ثورة الجيش وحتى الوقت الراهن تعددت دساتير مصر واختلف تناولها لطرق اختيار وسلطات رئيس الدولة ومسئولياته بما فى ذلك دوره فى حماية العقائد وهو ما تناوله د. محمود الأمير يوسف الصادق مدرس الفقه بكلية البنات الأزهرية بطيبة الأقصر فى بحثه المعنون بـ (دور رئيس الدولة فى حماية المعتقدات الدينية فى الفقه الإسلامى) والذى قال فيه: (الإجماع قائم على وجوب تعيين إمام أو خليفة للمسلمين (رئيس الدولة)، يقوم على رعاية مصالحهم والمحافظة على شئونهم وحماية حقوقهم، وفى هذا المقام يقول الماوردى رحمه الله: " الإمامة موضوعة لخلافة النبوة فى حراسة الدين وسياسة الدنيا وعقدها لمن يقوم بها فى الأمة واجب بالإجماع"، وبالتأمل فيما قاله الماوردى نرى أن وظيفة الإمام أو الخليفة (رئيس الدولة) تشتمل على أمرين: الأول:

حراسة الدين وحفظه وحمايته من العدوان والانتهاك. الثاني: سياسة الدنيا وتصريف شئون الأمة. فالإمام ملزم بحماية العقيدة الدينية الإسلامية من أي اعتداء خارجي أو داخلي، ويجب عليه أيضا حماية العقيدة الدينية لغير المسلمين.

أولا: تأييد ما جاء في الوثائق الدستورية حول رئيس الدولة وبخاصة نصوص الدستور المصري، وتأكيد اتفاق وجهة النظر القانونية مع أحكام الفقه الإسلامي في نبذ الأخذ بالطرق المطلقة التي تحول دون اختيار المحكومين لحكامهم – تقريرا لمبدأ: "الإمامة لا تورث".

ثانيا: ضرورة تبصير المواطنين واسترعاء انتباه المسئولين بالطريقة المثلى لاختيار رئيس الدولة عن طريق اشتراك جميع أفراد الشعب في اختيار رئيس الدولة اشتراكا مباشرا بطريقة الديمقراطية من وجهة نظر فقهاء القانون، فيما يسبقه مبايعة الأمة ممثلة في أهل الحل والعقد من وجهة نظر بعض فقهاء الشريعة الإسلامية.

ثالثا: ضرورة النص على اشتراط الحالة الصحية الجيدة، والحصول على مؤهل عال لرئيس الجمهورية وكذا وضع حد أقصى للسن اللازمة للترشح والنص على حظر الجمع بين رئاسة الجمهورية ورئاسة حزب بعينه، والتأكيد على أن شروط الترشح هي نفسها شروط قبول الاستمرار في المنصب.

رابعا: ضرورة الاستفادة من التجارب الرائدة والناجحة في مجال تطبيق نظام الزكاة في المنظومة الاقتصادية للبلاد، والتي من شأنها أن تعمل على تحقيق تنمية متوازنة بين الفقراء والأغنياء عن طريق إعادة توزيع الدخول والثروات وذلك من خلال وضع نظام قانوني يكفل جمع وتوزيع الزكاة في مصارفها الشرعية وبيان كيفية مراقبة القائمين عليها.

خامسا: ضرورة الإسراع في إصدار قانون محاكمة رئيس الجمهورية، وخضوع كل تصرفاته لرقابة القضاء. وفي الوقت نفسه رعاية الرئيس للمصلحة العليا للمجتمع بالتدخل لتقييد بعض المباحات لمواجهة النوازل بالقدر الذي تندفع به تلك النوازل لحين زوالها وعودة الحكم إلى أصله من الإباحة.

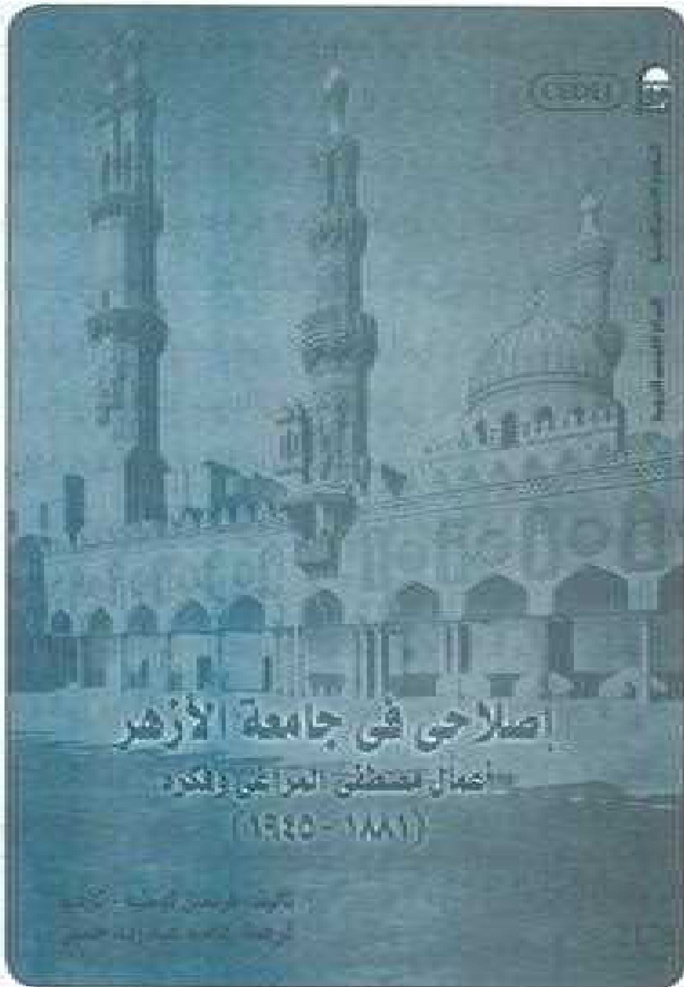
سادسا: ضرورة الاهتمام بالبحوث الفقهية المتعلقة بنظام الحكم، والندوات والمؤتمرات المتعلقة بحقوق وواجبات الحاكم، ومقارنة نصوص الدستور الجديد بأحكام الشريعة الإسلامية؛ ليعلم الحاكم والمحكوم ما له من حقوق وما عليه من واجبات.

تنويه

وقع خطأ في هدية مجلة الأزهر لشهر جمادى الأولى ١٤٣٥ هـ ص ٣١ وصحته :وقد ورد في هذا آيات كثيرة من القرآن الكريم، ومنها قوله تعالى في سورة يونس:

﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ (يونس: ٩٤)

قراءة في كتاب



بقلم/ أ: عادل خفاجة

كان للإمام المراغي دور كبير في الحياة الدينية والفكرية وكان من المصلحين الذين يشار إليهم بالبنان، حيث دعا إلى إصلاح الأزهر واتخذ من دعوته إلى التقريب بين المذاهب سبيلا لإذابة الفوارق بين المسلمين في شتى الديار الإسلامية وهو بحق قامة علمية كبري.

إن تاريخ الشيخ محمد مصطفى المراغي يذخر بالبطولة والحب الجارف للأزهر والتصميم على إصلاحه.

وفي حياة الرجل: أقوال ووثائق وروايات ومؤلفات حفزت الأستاذة فرنسين كوستيه – تاردو إلى القيام بتوثيق كل هذه الأوراق، لتضعها أخيرا في كتاب عن حياته.

من أجل ذلك كان اختيارنا لذلك الكتاب:

إصلاحي في جامعة الأزهر "أعمال مصطفى المراغي وفكره".

مؤلفة الكتاب

هي فرنسين كوستيه – تاردو، الأستاذ بالمعهد الوطني للغات والحضارات الشرقية (بفرنسا) والمتخصصة في الدراسات العربية.

ولقد قامت المؤلفة بعمل الباحث التاريخي والاجتماعي والسياسي على أكمل وجه، حيث لم تدخر جهدا في أن تتيح لقارئها كل ما تمكنت من الوصول إليه من معلومات حول حياة الشيخ المراغي ومؤلفاته، وقد تناولته بالتحليل المنطقي.

الكتاب: هذا الكتاب هو الصورة المنقحة من رسالة الدكتوراه التي قدمتها المؤلفة ونوقشت في مارس من عام ٢٠٠٣ أمام لجنة يرأسها السيد/ "محمود عزب" بالمعهد الوطني للغات والحضارات الشرقية.

يقع الكتاب في أربعمائة وثماني صفحات من قطع ١٧ - ٢٤ سم، وقد صدر في طبعته الأولى عن المركز القومي للترجمة عام ٢٠١٣ م ويتكون من كلمة للمترجم وتصدير ومقدمة وجزءين، يضم الأول أربعة أبواب هي على التوالي:

- ارتباطات سودانية وعودة إلى القاهرة. (١٩١٨ - ١٩٢٨).
- معارك رجل الدولة (١٩٢٨ - ١٩٣٥).
- الإسلام - مصر - الملك (١٩٣٥ - ١٩٤٥).
- جبهات جديدة وصراعات قديمة (١٩٣٩ - ١٩٤٥).

أما الجزء الثاني فيضم بابين هما: الفقيه والقاضي.

معلم الإسلام الصحيح

"الباب الأول": تستهل المؤلفة هذا الباب بالكلام عن (الخلافة العربية) كبديل للخلافة الإسلامية بعد تفكك الإمبراطورية العثمانية، وإلغاء الخلافة لتثبت الدور الفاعل لكل من الإمام المراغي والإنجليز في المشهد المصري إذ تقول:

"دخلت الإمبراطورية العثمانية الحرب إلى جانب ألمانيا في نوفمبر عام ١٩١٤، مع بداية الاشتباكات في الشرق، أطلق السلطان محمد الرابع، وشيخ الإسلام الدعوة إلى الحرب المقدسة، آمرين المؤمنين، سواء كانوا رعايا عثمانيين أم لا، بالكفاح ضد التجمع الظالم الذي يحمل اسم التحالف الثلاثي الذي كانت أسمى غايات غطرسته وغروره القومي هي استعباد الآلاف من المسلمين": وإلى أن يعتبروا أن واجبهم الديني المفروض هو "المشاركة في الجهاد بالنفس والمال".

أزعجت هذه الدعوة الإنجليز بشكل فاعل، ودعتهم إلى البحث عن التحالف مع أمير عربي (وعلى وجه السرعة) يملك القدرة الكافية لإطلاق دعوة مضادة لدعوة الحرب المقدسة. وفكر بعضهم حتى في إقامة خلافة عربية، وبالنسبة للورد كيتشنر، الذي عين حديثا وزيرا للحرب كما بالنسبة للبريطانيين في القاهرة، كان الشريف حسين، أمير مكة مرشحا ممتازا لمنصب الخليفة، لكونه ينحدر من سلالة الرسول وحامي الديار المقدسة فقد كان يتمتع بمكانة سامية في العالم الإسلامي".

ثم تشير على دور الإمام المراغي فتقول: منذ بداية النزاع قام (sir wingate)، الحاكم العام للسودان، بكل ما في وسعه، من أجل أن يقاوم المصريون والسودانيون الدعاية التركية الساعية إلى إثارتهم ضد بريطانيا، وقد اعتمد بشكل خاص على القوى الدينية التقليدية التي يعرف مدى نفوذها على الشعوب وكذلك ولائها لحكومة لندن.

المراغي الذي تُذكر بأنه يشغل منصب قاضي السودان الأكبر منذ ١٩٠٨ يقدم له

كذلك مساعدة ثمينة في مقال تم نشره في التاسع من نوفمبر ١٩١٤ م في (السودان تايمز) حيث يأسف المراغي على أن تصطف تركيا في معسكر ألماني ويدعو المسلمين إلى إبداء الحذر وإلى ألا يزجوا بأنفسهم في أتون المعركة وهو يرى أن تركيا تتبنى سلوكا انتحاريا بتحالفها مع ألمانيا وسعيها إلى جر المسلمين إلى حرب لا تعنيهم في شيء ولم يستعدوا لها أيضا.

من ناحية أخرى كان (wingate) يسعى إلى أخذ رأي بعض رجال الدين فيما يتعلق بتنصيب خليفة عربي وذلك لصالح الشريف حسين، وهكذا سوف يكتب المراغي خلال عام ١٩١٥ م ثلاث رسائل على الأقل وجهها إلى الحاكم العام ليحدد موقفه بشأن مسألة الخلافة ولكي يوضح بشكل خاص أنه يتعين على إنجلترا أن تساعد على إنشاء مملكة عربية مستقلة يكون على رأسها أحد الخلفاء.

"الباب الثاني": وتحت عنوان: [معارك رجل الدولة] تتناول المؤلفة عددا من النقاط نذكر منها:

الأزهر في القرن العشرين، كلمة عن فترة تولي المراغي مشيخة الأزهر للمرة الأولى، وأن هذا التعيين كان محل جدل، المذكرة التي قدمها المراغي إلى الملك يقوم فيها بتحليل الوضع في الأزهر واستعراض الخطوط العريضة لمشروع إصلاح الأزهر والتي جاء فيها: "خلال القرون الأخيرة استسلم علماء الدين إلى الكسل معتقدين أن أحدا لا ينتظر منهم القيام بأي مجهود في مجال التفسير الشخصي مغلقين بذلك أبواب الاجتهاد.

لقد ركن العلماء إلى التقليد وكرسوا أوقاتهم في دراسة كتب لا تمت إلى روح العلم بأي صلة، ابتعد العلماء عن الناس وتجاهلوا الحياة فتجاهلهم الناس لم يظهروا أي اهتمام بطرق التفكير الجديدة أو وسائل البحث العصري، لقد تجاهلوا المعارف التي ابتدعها الإنسان والمعتقدات ووجهات النظر الجديدة ولذلك انفض الناس من حولهم وشعروا تجاههم بالنفور".

ويتابع المراغي قائلا": إنه إذا كانت للعلماء مسئوليات لا يمكنهم التخلي عن القيام بها فإن على الدولة كذلك واجبات نحوهم خاصة واجبها من تحسين تأهيلهم علميا وإعطائهم المكانة الاجتماعية اللائقة وأنه بدون الدعاة الذين يعرفون مشاكل عصرهم ويمكنهم إرشاد المسلمين فإنه يصير من الوهم أن تعتقد أننا سنستطيع أن نتصدى بفاعلية لتدهور وتردي العادات والعلاقات الاجتماعية".

وفي نهاية المذكرة يوضح المراغي الهدف من مطالبته بضم دار العلوم ومدرسة القضاء الشرعي للأزهر حيث يقول: "وهناك حقيقة لا يجب غض النظر عنها

وهى أن وجود دار العلوم ومدرسة القضاء والمدرسة الإعدادية بدار العلوم له أثر ينعكس على ما يرجى من الأزهر والمعاهد الدينية.

فى الحقيقة إذا لم يقم الأزهر بتأهيل قضاة ومحامين ومدرسى لغة عربية للعمل فى مدارس الحكومة فسوف يكون عليه أن يقنع فقط بتأهيل علماء للعمل بالمعاهد الدينية وأئمة للعمل بالمساجد.

إن إبقاء الأوضاع على ما هى عليه، أمر لا يتمناه أحد ولا يؤدى إلا إلى أن يظل التعليم الدينى حكرا على نوعية معينة من الطلاب بلا آفاق مستقبلية كبيرة وربما لن يستطيعوا بمفردهم أن يكونوا مسئولين عن هذه الأمانة التى تمثلها قيم الدين والثقافة الإسلامية، إن تجريد الأزهر من امتيازاته القديمة المتعلقة بتأهيل القضاة والمحامين ومدرسى اللغة العربية قد أثر سلبا على سمعة الأزهر وسمعة المعاهد الدينية لدى الرأى العام فى مصر وفى الخارج أيضا. إن من واجب الحكومة المصرية إذن أن تحافظ على مكانة هذه المؤسسة العريقة وأن ترد إليها اعتبارها لأنها تتيح إقامة علاقات وثيقة بين مصر والأمم الأخري، فضلا عن أن الدولة إذا عرفت كيف تنتفع بهذا الوسيط فسوف يمثل ذلك كسبا معنويا هائلا للشعب المصري".

اما الباب الثالث والذى جاء تحت عنوان: الإسلام - مصر - الملك فقد ضم مناقشات عديدة عن:

دستور ١٩٢٣ - السنوات الأولى للفترة الثانية لتوليه مشيخة الأزهر، إصلاح التعليم، قانون ١٩٣٦، بدايات الخلاف مع الوفد، أزمة وتواترت سياسية دينية بشأن إعادة الخلافة، ظهور المشكلة الفلسطينية - إثارة أخيرة لقضية الخلافة.

وتنهى المؤلفة هذا الباب بما يبدو لها أن الإمام المراغى تنازل عن فكرة الخلافة العالمية؛ لأنه قد أدرك دونما شك أن

العالم الإسلامى لن يعترف أبدًا بفارق خليفة له، وربما لأنه قد افترض أيضا، أن نظام الخلافة لم يعد بإمكانه أن يجد لنفسه مكانًا فى ظل النظام السياسى للدول الأمم؛ لكنه فى المقابل، استمر فى التأكيد على ضرورة الوحدة الإسلامية، وأدى ما أظهره من استخفاف بفكرة الوحدة العربية إلى سخط كل من تمثل لهم العروبة الآن مرجعًا سياسيًا شديد الأهمية.

فى نهاية حقبة الثلاثينيات تلك وعندما أدركت مصر أهمية العلاقات التى تربطها بالبلاد العربية وسعت إلى تدعيمها؛ يقول واقع الأشياء إن المراغى قد اتخذ نقيض هذا التيار الفكرى وصرح إلى الصحافة فى العديد من المناسبات خلال شهرى مايو ويونيو ١٩٣٨، بأن قضية الوحدة العربية لا تشغل باله، وحسبما ورد فى أحد المقالات المنشورة فى (Oriente modern) (الشرق الحديث) بعد عدة أسابيع، يقول الكاتب: إن اتخاذ المراغى

لهذا الموقف قد أدى إلى انتقاده بعنف فى الأوساط الوطنية المصرية، السورية والفلسطينية وأثار الكثير من الجدل فى الصحافة العربية، وإثر ردود الأفعال تلك كتب الشيخ إلى جريدة المصرى - صحيفة الوفد اليومية - لتوضيح وجهة نظره:

" إن مسألة ال وحدة العربية ليست من قضايا الإسلام فى شيء.

ولا يجب أن نخلط بين الأمرين، الإسلام ضد العنصرية ولا يميز

بين العربى وغير العربى لأنه يقوم على فكرة جماعة المسلمين

التى لا تفرق مطلقًا بين الأعراق، يجب أن يعمل العلماء والمسلمون بوجه عام على تحقيق الوحدة الإسلامية دون الالتفات إلى الوحدة العربية.

الباب الرابع: فإذا ما انتقلنا إلى الباب الرابع الذى جاء تحت عنوان: جبهات جديدة وصراعات قديمة (١٩٣٩ - ١٩٤٥)، نجدها تلقى الضوء على الفترة الثانية للمراغى فى مشيخة الأزهر، وتناقش ما أسمته بالتشويش بين الأزهر والسياسة، والنزاعات التى أوجدتها الحرب، وتبدل موقف المراغى تجاه الإنجليز، واختبار القوة بين الوفد والأزهر، ثم خاتمة هذا الجزء الأول من الكتاب الذى اهتدت فيه المؤلفة إلى تحديد أربع فترات مهمة فى حياة الإمام المراغى التى استعرضتها فى الأبواب الأربعة وفى هذه الخاتمة تقرر الكاتبة:

أنه لا يمكن إنكار أن المراغى كان خصمًا عنيدا للسياسة البريطانية أثناء الحرب العالمية الثانية.

لكن هل قادته هذه العداوة إلى إظهار تأييده للإيطاليين والألمان؟ على حد علمي، ليس هناك ما يسمح بالإجابة عن هذا السؤال ومن المعروف فقط أنه قد صرح خلال شهر يونيو وخلال مقابلة مع جريدة (paris-soir) بأنه ليس من مؤيدى الأنظمة الديكتاتورية وأن الإسلام قد جاء بالديمقراطية قبل الثورة الفرنسية بعدة قرون.

بمرور السنوات أصبح المراغى فاعلًا حقيقيًا على ساحة الحياة العامة، وعلى اطلاع بالدسائس السياسية إلى أخطر الأزمات التى تقرر فيها مستقبل مصر، لم يخف عنه شيء بالإضافة إلى طموحاته بشأن الأزهر ومحاولاته لإصلاح التعليم الدينى قد ربطت اسمه بتاريخ الجامعة الإسلامية، لكن المراغى كان أيضا رجل قانون، قاضيا ورجل دين إن المؤلفات التى كتبها فى إطار هذه الوظائف والمواقف التى تبناها تمثل بلا شك الجانب غير المعروف من آثار الرجل، وهو ما يستحق فحصًا دقيقًا، ليس فقط لأنه يرتب فى حد ذاته فائدة حقيقية، بل لأنه من غير الممكن أن تحيط بشخصية بمثل تعقيد شخصية المراغى دون الاهتمام بكل المجالات التى فيها بأفكاره وأعماله.

بين المجلة والقارئ

للأستاذ / أحمد السيد تقى الدين

الهالـوك!!

كعادتهم دائما.. ارتكبت الجماعة الإرهابية جريمة جديدة لن تكون الأخيرة ضد الجيش المصرى.. خيـر أجناد الأرض، الذى يخوض حربًا شرسة ضد جماعة باعت الدين بالدنيا.. وملأت الدنيا صراخا وعويلا وأفسدت فى الأرض:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾

إنهم جماعة (الهالوك).. (هالوك الغاوون).

و(الهالـوك) نبـات زهرى طفيلى يسـميه العوام (شـيطاني) ويتبـع الفصيلة (الجعفيليـة) وهو من النباتات الضارة بالمحاصيل الزراعية، وانتشاره بالأرض الزراعية يؤدى إلى قلة إنتاجية الأرض، وإجهادها، وإفقارها، حيث إنه يتغذى على جذور النباتات بواسـطة جذوره التى تتعمق فى التربة ولديها (ممصات) تمتص الماء والغذاء من النبات فتهلكه تمامًا وتبيده، وإذا أهمل الفلاح فى مقاومته، فإنه يتحول إلى كارثة يتطلب إزالة آثارها وقتًا طويلاً.

ومؤخرًا نبت فى جسـد الأمة المصرية (هالوك) من نوع جديد اسـمه (هالوك الغاوون) نبت شيطانى استشرى خطره فى شوارع مصر ومدنها ومحافظاتها.. شجيرات خبيثة تمتص دماء الشعب المصرى وماء الحياة من أجل أن تحيا هي!!

ولكـن الله قيض خير جنده لمكافحة هذه الآفة المهلكـة ليقتلوا جذورها المهلكة ويطهروا الأرض من آفاتها.. تلك الآفات التى أتت على الأخضر واليابس فى الأرض السـورية.. لتحاول أن تتمدد وتتغول فى الأرض العربية تسـممها وتحرقها وتمحوا وجه الحياة محوًا وتأكل أكباد البشر محققة وعد راعيها إبليس يوم طرده المولى عز وجل من جنته:

﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾

وقال سبحانه:

﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾

واندفع إبليس وجنوده يزرعون فى الأرض «هالوك الغاوون» الذى ترعرع عبر سنوات وسنوات وتكاثر على أرضنا الطيبة وانخدع الفلاحون بالشكل الجميل للنبتة المهلكة فتركوها تنمو وتترعرع، بل وعطف البعض عليها وتعهدها بالرعاية ليسـتيقظ القوم ذات يوم على كارثة.. الأرض لم تثمر لا خضر ولا فاكهة ولا غـذاء.. فقط نمت شـجيرات (هالوك الغـاوون) التى أتت على الأرض الخصبة فـكادت تحيلها بوارًا حتى المسـاجد والمدارس لم تسـلم من (هالوك الغاوين) الشجيرات الخبيثة امتدت تريد أن تمحو كل أثر للحكمـة والموعظة الحسـنة والكلم الطيب.. فخرج عبـاد الله المخلصين ومن خلفهم خير أجناد الأرض الذين لن يكون للشيطان عليهم سـلطان يطردون النبت الرجيم.. الملعون إلى يوم الدين يقتلعون النبتة الشيطانية ويحرثون الأرض ليقتلوا جذورها الخبيثة لتعود للأرض الطيبة إشراقتها بالثمرات اليانعة.

لهـذا يكـره «الهالـوك».. «هالوك الغـاوون» «هالـوك الإرهاب» يكرهـون الجيش المصـرى.. جيش خيـر أجناد الأرض.. لأنه جيش يحمي الحياة.. جيش يحمي شـعبه.. ويحمـي مقدراته.. يزرع الأرض.. وينيرها.. ويُعبدها ويمهدها ويحرسها.. جيش يعمر الأرض لتزدهر بالحياة.. جيش يقاتل أعداء الحياة.. إنه ليس كأى جيش يحمي حدود بلاده.. ولو كان كأى جيش.. ما كان جنده خير أجناد الأرض.

ولهذا فإن الشعب المصرى مدعو اليوم للاحتشاد خلف جيشه دعما وتأييدا له فى الحرب ضد هالوك الجماعة الإرهابية.

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾

رحم الله شهداءنا الأبرار:

- جندي / أحمد رمضان الأمين – مركز أشمون المنوفية
- جندي / عمر عبدالقادر – بنى سويف – مركز سمسطا
- جندي / عبدالرحمن محمود – سوهاج
- جندي / بسام السيد – سوهاج – مركز جرجا
- جندي / محمد السيد – سوهاج – مركز جرجا
- جندي / أحمد عبدالحميد – سوهاج – مركز البلينا – قرية الحويطات

الذيـن اغتالتهـم رصاصات (الغاوين الإرهابيين) فور انتهائهم من أداء صلاة الفجر، ولقى أحدهم ربه وهو ممسك بالمصحف الشريف يتلو القرآن عقب الصلاة:

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

وندعو لجيشنا وشرطتنا بالنصر على (الغاوين)

أحمد تقى الدين



اسلمى يا مصر

اسلمى يا مصر إننى الفدا
ذى يدى إن مدت الدنيا يدا
أبدا لن تستكينى أبدا
إننى أرجو مع اليوم غدا
ومعى قلبى وعزمى للجهاد
ولقلبى أنت بعد الدين دين
لك يا مصر السلامة
وسلاما يا بلادى
إن رمى الدهر سهامه
أتقيها بفؤادى
واسلمى فى كل حين
أنا مصرى بنانى من بنى
هرم الدهر الذى أعيا الفنا
وقفة الأهرام فيما بيننا
لصروف الدهر وقفتى أنا
فى دفاعى وجهادى للبلاد
لا أميل لا أمل لا ألين
لك يا مصر السلامة
وسلاما يا بلادى
إن رمى الدهر سهامه
أتقيها بفؤادى
واسلمى فى كل حين

ويك يا من رام تقييد الفلك
أى نجم فى السما يخضع لك
وطن الحر سمًا لا تمتلك
والفتى الحر بأفقه ملك
لا عدا يا أرض مصر بك عاد
أننا دون حماك أجمعين
لك يا مصر السلامة
وسلاما يا بلادى
إن رمى الدهر سهامه
أتقيها بفؤادى
واسلمى فى كل حين
للعلا أبناء مصر للعلا
وبمصر شرفوا المستقبلا
وفدا لمصرنا الدنيا فلا
نضع الأوطان إلا أولا
جانبى الأيسر قلبه الفؤاد
وبلادى هى لى قلبى اليمين
لك يا مصر السلامة
وسلاما يا بلادى
إن رمى الدهر سهامه
أتقيها بفؤادى
واسلمى فى كل حين



حديث الجنود!

تحت هذا العنوان جاءت رسالة الشيخ/ مصطفى الأزهرى - إمام وخطيب مسجد سوق الحمام - السيدة عائشة - القاهرة - قال فيها :

أشرقت شمس مصر المحروسة على فاجعة من فواجعها المتتابعة فى هذا الوقت العصيب الذى تمر به، فتحت عيونها على خبر مقتل جنود الشرطة العسكرية الستة فى كمين منطقة مسطرد بمدينة شبرا الخيمة، وهؤلاء (المجندون) - كما نسميهم - هم شباب مصرى معظمه ينتمى للريف المصرى الطيب البسيط جاءوا لأداء الخدمة العسكرية وتم توزيعهم - حسب الترتيب العسكرى - ليكونوا فى أحد الأكمنة المرورية على مدخل إحدى المدن التى تعج بالسكان، صلى الجنود صلاة الفجر بعد ليلة حراسة، لم يكن فى حسبانهم أنها آخر ليلة من ليالى شبابهم الدامع، ولم يخطر ببالهم - وليس لهم خصومة مع أحد - أن رصاصات الغدر والعنف البغيض ستحصد أرواحهم وستقطع أحلامهم الشابة فى الساعات الأولى من الصباح لتكون الشمس فى باكورتها شاهدة على الغادرين أمام الله تعالى تصرخ إلى بارئها قائلة يا الله يا لطيف بعباده سل هذه النفوس البريئة: ((بأى ذنب قتلت))، وسل يا خالق النفوس، سل القتلة الذى تلطخت أيديهم فيم قتلتم هؤلاء؟ وإن كان فى قلوبكم ذرة من دين أو إيمان أخبرونا .. قولوا لنا: ما دليلكم؟ وعلى أى شىء من كتاب أو سنة تستندون فى جواز قتل شباب برئ جاء من بلاده ليؤدى خدمته العسكرية ثم يعود بعد ذلك ليبدأ مشوار حياته، لتكون له أسرة وأولاد وربما كان أحدهم هو العائل الوحيد لوالديه أحدهما أو كلاهما، أو صغار تركهم له أبوهم أيتام فكانوا فى رقبته!

كم هى جريمة بشعة ومنكرة أن تمتد يد غادرة ونفس ماكرة إلى برئ لا ذنب له لتزهق روحه، فلقد قدس الإسلام نفوس البشر بأروع آيات التقديس فى قوله عز وجل:

﴿ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾

(المائدة: ٣٢)

فقتل نفس واحدة تمثل فى نظر الإسلام إبادة جماعية للبشر كلهم، كما أن الحفاظ على أرواح الناس وصيانة الدماء هى إحياء للبشر جميعاً، هذا تنزيل العزيز الرحيم، ومرة ثانية وثالثة وألف مرة نصرخ سائلين عن دليل القتلة فى اعتدائهم على نفوس بالناس فى أى كتاب قرأوا وعلى يد أى سفاح تعلموا!! إن أولى قضايا القتل فى عالم البشر نقرؤها فى القرآن الكريم بعيون دامعة وقلوب خاشعة، فلم يكن على الأخ المقتول أى ذنب ليقتله أخوه، ورأينا كيف كانت هناك حالتان بين الاندفاع والامتناع، فبينما يصر القاتل على فعلته بقوله:

﴿ لَأَقْتُلَنَّكَ ﴾ نجد الأخ الطيب يحاول إطفاء شرارة الغل فى نفس أخيه المصر على قتله بقوله كما جاء فى الكتاب العزيز:

﴿ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾

(المائدة: ٢٨)

وأقولها للقتلة الفجرة: اعلموا أنكم لو أفلتم من قاضى الأرض فلن تفلتوا من قاضى السماء الذى يقضى بالحق، وأن رسول الله ﷺ قال:

[أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة فى الدماء].

وعزاؤنا لأهل كل شهيد مات بيد الغادرين أن الشهداء:

﴿ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾

(آل عمران: ١٦٩)



شموس في سماء الأزهر

الأستاذ الدكتور: عبد الله الحسيني هلال

إعداد / أ: سعد فتحي سعد

الأزهر أكبر جامعة إسلامية وأقدم جامعة فى الشرق الأوسط . فمنذ نشأته أصبح حصنا للدين والعروبة، وحاميا للهوية الثقافية العربية والإسلامية، ومدافعا عن قيم الوسطية والاعتدال في الفكر الإسلامي، وناشرا للعلوم الشرعية واللغة العربية، ومتصديا لتيارات التطرف والغلوّ التي تشذ عن صحيح الدين وتنحرف عن جادة الحق ومحجة الصواب، فالأزهر مؤسسة تعليمية ثقافية علمية يقدم زادا معرفيا روحيا للمسلمين في كل مكان، وهو إلى ذلك كله منتدى لأعلام الدعوة وشيوخ العلم وأقطاب اللغة العربية والفكر والثقافة الإسلامية، ومن هؤلاء الأقطاب الأستاذ الدكتور عبد الله الحسيني هلالى :

ولد الحسيني يوم الخميس السابع عشر من رمضان سنة ١٣٦٥ هـ الموافق ١٥ أغسطس ١٩٤٦م بقرية الكرامة بمركز أجا بمحافظة الدقهلية، وحصل على ليسانس من كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر عام ١٩٧١ بتقدير جيد جدا، ثم درجة الماجستير في اللغويات من الكلية عام ١٩٧٣ بتقدير جيد جدا، ثم على الدكتوراه في اللغويات من كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر عام ١٩٧٨ بتقدير مرتبة الشرف الأولى.

تدرج - رحمه الله - في العديد من المناصب الوظيفية الأكاديمية : حيث عين معيدا بقسم اللغويات في كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر بالقاهرة من عام ١٩٧١ ، ثم مدرسا مساعدا بقسم اللغويات عام ١٩٧٣ . ثم مدرسا في القسم من عام ١٩٧٨ ، ثم أستاذا مساعدا بقسم اللغويات من عام ١٩٨٥ ، ثم أستاذا بالقسم عام ١٩٩٠ ، ثم وكيلا لكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر بالقاهرة عام ١٩٩٥ إلى عام ٢٠٠٣ ، ثم عميدا لكلية اللغة العربية بالقاهرة من عام ٢٠٠٤ حتى ٥ أغسطس ٢٠٠٨ ، ثم نائبا لرئيس جامعة الأزهر للدراسات العليا والبحوث عام ٢٠٠٨ . ثم رئيسا لجامعة الأزهر .

كان رحمة الله عليه هادئ الطبع قليل الغضب يتمهل في تفكيره قبل أن يتكلم أو يكتب، يعمل في صمت وهدوء، وعلى الرغم تقلده مناصب ذات أهمية إلا أنه كان يتمتع بقدر كبير من التواضع وإنكار الذات والعمل المتواصل في صمت وهدوء .

مؤلفاته:

أثرى الراحل - رحمه الله - المكتبة العربية والإسلامية بالعديد من المؤلفات في مختلف فروع اللغة العربية وخاصة في تحقيق النصوص التراثية وسيظل هذا النتاج العلمي منهلا للأساتذة والباحثين، ومنها :

١ . شرح الفقيه ابن مالك للإمام أبي إسحاق الشاطبي

٢ . توجيه بعض التراكيب المشكلة لابن هشام الأنصاري - دراسة وتحقيق

٣ . البحث اللغوي .

٤ . الرضاعة الطبيعية من منظور إسلامي .

٥ . تذكير المؤنث بين القياس والسماع دراسة لغوية نحوية .

٦ . تحقيق المخطوطات وقواعده وخطواته .

٧ . دراسة حول الطبيعية من منظور إسلامي .

٨ . شرح الدرة الألفية في علم العربية لابن القواس(دراسة وتحقيق) .

٩ . الفعل المضارع في ضوء أساليب القرآن .

١٠ . دراسة لغوية في سورة (ق) .

١١ . ابن يسعود النحوي، حياته وآراؤه مع دراسة كتابه (المصباح في شرح أبيات الإيضاح) .

١٢ . (أي) في اللغة والقرآن .

١٣ . شرح الشاطبي على ألفية ابن مالك (منحة الحال) - دراسة وتحقيق .

١٤ . المقتصد في النحو - جزآن .

١٥ . المحتسب في التصغير والنسب .

المؤتمرات العلمية :

- شارك - رحمه الله - في العديد من المؤتمرات الإسلامية والعربية فشارك في مؤتمر نظمته كلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض عام ١٩٨٢ ، وقدم بحثا في هذا المؤتمر حول تحقيق المخطوطات .
- وشارك في فعاليات المؤتمر الدولي الأول لخريجي الأزهر الشريف وكان هذا في عام ٢٠٠٦م .
- وكذلك شارك في فعاليات المؤتمر الدولي الثاني لخريجي الأزهر الشريف في القاهرة عام ٢٠٠٧م .
- ثم في عام ٢٠٠٨ شارك في فعاليات المؤتمر الدولي الثالث في (كوالالمبور) لخريجي الأزهر الشريف في ماليزيا .
- وكذلك شارك في المؤتمر الدولي الرابع لخريجي الأزهر الشريف بالقاهرة ٢٠٠٩ .

النشاط العلمي :

كان - غفر الله له - عضوا بهيئة كبار العلماء وعضوا بمجمع البحوث الإسلامية .

وعضوا مشاركا في وضع وثائق المعايير الأكاديمية لمقررات اللغة العربية بجامعة الأزهر والتعليم الأزهري قبل الجامعي .

عضو لجنة التعليم الأزهري بالمجالس القومية المتخصصة .

وعضو مجلس إدارة الرابطة العالمية لخريجي الأزهر الشريف.

عضو لجنة تطوير التعليم بالجامعة .

كما شارك الدكتور الحسيني في عدد من اللجان منها :

مقرر لجنة التعليم الأزهري بالهيئة القومية لضمان جودة التعليم والاعتماد .

كانت سنوات حياته الأخيرة حافلة بشتى الأعمال فقد تقلد رئاسة الجامعة ثم اختيروزيرا للأوقاف وذلك في فترة زمنية قصيرة ؛ وفي غمرة العمل المتصل وافاته المنية في يوم الأربعاء الموافق ٣ من رمضان ١٤٣٤ هـ ١١ يوليو ٢٠١٣م عن عمر ناهز ٦٧عاما، تاركا ذكرى عطرة وسيرة باقية للأجيال .

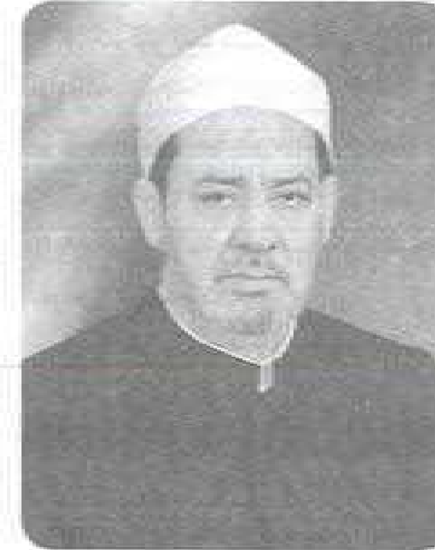
رحم الله الشيخ رحمة واسعة لقاء ما قدم لخدمة الإسلام والمسلمين والأزهر الشريف.

أنبــاء الأزهــر

أ/ محمود الفشني

الأزهر يطلق مبادرة دولية «للتعارف» بين الأمم والشعوب

كلمة الإمام الأكبر في منتدى السلم في المجتمعات المسلمة بالإمارات



في إطار زيارة تاريخية لفضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الأستاذ الدكتور/ أحمد الطيب لدولة الإمارات العربية المتحدة الشقيقة استغرقت يومين التقى خلالها فضيلته بسمو الشيخ محمد بن زايد آل نهيان ولي عهد إمارة أبو ظبي، والشيخ عبدالله بن زايد آل نهيان وزير خارجية دولة الإمارات العربية المتحدة، وألقى فضيلة الإمام الأكبر الكلمة الرئيسية لمنتدى «السلم في المجتمعات المسلمة» وهذا هو نص كلمة فضيلته:

ألقى فضيلة الإمام الأكبر أ.د/ أحمد الطيب، شيخ الأزهر الشريف كلمته أمام «منتدى تعزيز السلم في المجتمعات المسلمة»، حيث قال فضيلته: إن الحديثَ عن السَّلام حديثٌ مُتشعِّبُ النواحي والاتجاهات، ولا يُمكن أنْ تُستقصى جوانبُه في كلمة كهذه محدودة المساحة والزمن، ولا تزال التساؤلاتُ حولَ «السلام» ومعناه، وعلاقته بحُقول المعرفة البشريَّة الأخرى- مفتوحة لم تُحسَم حتى يوم الناس هذا، بل أصبح الآن للسلام علمٌ خاصٌّ به، يُبحَثُ فيه عن السلام وعن الحُروب وأسبابها، وارتباط كلِّ ذلك بالعُلوم الاجتماعيَّة والسياسيَّة والدِّراسات الاستراتيجيَّة والعُلوم العسكريَّة، بل وعلوم الأخلاق.. ولا يزال فلاسفةُ التاريخ ينقسمون حولَ علاقة السلام بالإنسان؛ فمنهم مَن يذهَبُ إلى أنَّ «التاريخَ البشريَّ إنَّما هو تاريخُ بُحيرات دمويَّة»، ومنهم مَن يذهَبُ إلى أنَّ «السلامَ» هو القاعدةُ في حياة البشر، وأنَّ الحربَ أو العُنف استثناءٌ وشُذوذٌ من القاعدة. أما الإسلام فيرى أن «السلام» هو الأصل في العلاقات الدوليَّة، وفي علاقة الناس بعضهم ببعض، وأنَّ الحروبَ ضرورةٌ واستثناءٌ، يضطرُّ إليها المسلمون في حالة واحدة هي الدِّفاعُ عن أنفسهم أو أراضيهم أو عقيدتهم ضدَّ عُدوانٍ مُحقَّق.

وأكَّد فضيلته أنَّ الحَضارات الكُبرى المُعاصرة الآنَ لا تجدُ بأسًا إذا أعوزَتْها أسبابُ الفتن والحُروب أنْ تخترعَ لها عدُوًّا تُديرُ عليه رَحى الحَرب؛ وتنقلُ إليه بُؤَرَ التوتُّر والعُدوان والقتال بعيدًا عن أراضيها وشُعوبها.. وهذا السُّلوكُ الذي تتَّخذه بعضُ الكيانات السياسيَّة المُعاصرة هو- لا شكَّ- دعوةٌ سافرةٌ إلى وأدِ السِّلم والسلام العالميَّين وتشجيع العُدوان، وخُروجٌ على كلِّ الأُطُر الأخلاقيَّة والإنسانيَّة التي تجعل من «السلام» أبسطَ حقٍّ من حُقوق البشر، والمجتمع الإنسانيّ.

وأضاف: وإنِّي وإنْ كُنتُ لا أُعوِّلُ كثيرًا في تفسير مَصائبنا التي تُحدق بنا في الشَّرق على نظريَّة «المُؤامرة» التي تجعَلُ من التآمر الغربيِّ باعثًا رئيسًا لمُشكلاتنا في الأمن والاقتصاد والصحَّة والتعليم- إلا أنَّ المسرحَ الذي تتابعُ على خشبته هذه الأحداثُ البشعةُ هو مسرحٌ عبثيٌّ وفوضويٌّ يُشيرُ بكلِّ قوَّة إلى هذه الأيدي الخفيَّة السوداء التي تُمسكُ بخُيوط اللُّعبة الماكرة وتُحرِّكها من وراء ستار.

وقال فضيلته: إنَّ القائمين على مُؤسَّسة الأُمَم المتحدة والإعلان العالمي لحقوق الإنسان، والذين حدَّدوا- بكلِّ وضوح- في المادَّة الأولى من ميثاق هذه المؤسَّسة: حفظ السَّلام والأمن الدوليَّين ومبدأ المُساواة بين الدول الأعضاء وتحريم استخدام القوَّة، أو مُجرَّد التهديد بها في العلاقات الدوليَّة، والامتناعَ التامَّ عن «التدخُّل في الشُّئون الداخليَّة للدول»- هؤلاء لم يكونوا جادِّين فيما يقولون، وفيما يضعون من مَواثيقَ زعمُوا أنَّها من أجل الإنسان ومن أجل الحفاظ على حقوق الدُّول، وبحيث لا تتميَّز فيها دولةٌ عن دولة، ولا يتفاضَلُ فيها الإنسانُ الغربيُّ عن أخيه الشرقيّ.. ومن ثَمَّ لم يكن غريبًا أنْ نرى منظمةً كمنظمة الأُمَم المتَّحدة عاجزةً عن القيام بأيِّ دور في ردْع كثير من السِّياسات الجائرة والظالمة، ورغم مُرور ستَّة وستين عامًا على مُنظَّمة الأُمَم المتَّحدة التي أُنشئت من أجل مُواجهة تهديدات السَّلام العالميّ، ووَقْف أعمال العُدوان بين الدُّول وفرض الاستقرار والسِّلم في رُبوع الأُمَم والشعوب، إلا أنَّ القُوى الكبرى في العالم لا زالت تمنحُ السَّلامَ للأُمَم وتمنعُه عنها حَسَب مصالحها الشخصيَّة، وحَسَب نظام الهَيْمنة، وحَسَب منهج الظُّلم الذي تُبرِّرُه القاعدةُ اللاأخلاقيَّة عندهم، وهي القاعدةُ التي تُقرِّرُ أنَّ «الغايةَ تُبرِّرُ الوسيلة»، مضيفًا: أنَّ النظامَ الأساسيَّ للأُمَم المتحدة ومَواثيقها ومُؤسَّساتها الكُبرى، لا يَسمحُ بنشر سلام قائم على قيَم العدل والإنصاف ومُراعاة حُقوق الآخرين.

بل إنَّ من أخطَرِ عَوامِل الهدم للسَّلام العالميِّ هو ما يُسمَّى بحقِّ: «الفيتو» أو «النَّقض» والإسراف في استخدامه، والذي يغُلُّ يدي هذه المُنظَّمة عن مُلاحقة المُجرمين وإقرار «السَّلام العادل» في كثير من مَناطق التوتُّر العالميّ، بل ذهب كثيرٌ من المحللين إلى أنَّ الفيتو الأمريكيَّ فيما يتعلَّق بالنِّزاع الصهيونيِّ الفلسطينيِّ هو أهمُّ أسباب الإرهاب الدوليِّ والتشجيع عليه.

وقارن فضيلته بين الميثاق الدُّولي الذي أعلنه نبيُّ الإسلام محمدٌ- ﷺ- في خُطبته في حَجَّة الوَداع، وقرَّر فيه حُقوقَ السلام والعدل والمُساواة بين الناس. وبيَّنَ ميثاق الأُمَم المتحدة في هذا المجال، وكيف أنَّ الميثاقَ النبويَّ حقَّق أهدافَه كاملةً غيرَ منقوصة في نشر السلام العالميّ، بينما أخفق إعلانُ الأمم المتحدة في إنشاء مظلَّة دوليَّة تُنصفُ المظلومين من المُتربِّصين بها من خارج هذه المُنظَّمة، أو حتى من بين أعضائها أنفسهم.

وعلَّل فضيلته ذلك بأنَّ نبيَّ الإسلام- صلوات الله وسلامه عليه- كان صادقًا في دَعواه في نشر السِّلم وتحقيق العَدل والمُساواة بينَ الناس، وأنَّه لم يكُن يعمَلُ من أجل الإنسان العربيِّ أو الإنسان المُسلم دُونَ

غيرهما من سائر الناس، بل كان يُكرر في خطابه هذا نداءه للناس جميعا، بعبارته الشريفة: «ليُبلِّغ الشاهدُ منكم الغائبَ»، بل إنه كثيرًا ما تحدّى - ﷺ - أصحابه بأنَّ مظلّة الأمن والسّلم سوف تنشُر آفاقها على البلاد والعباد في فترة وجيزة: «... والله ليتِمّنّ هذا الأمرُ، حتى يسيرَ الرّاكبُ من صنعاءَ إلى حضرَموتَ لا يخاف إلا اللهَ أو الذئبَ على غنمه، ولكنّكم تستعجلون».

أمّا القائمون على المُنظّمات الدوليّة التي أخذت على عاتقها نشرَ السلام في العالَم فإنّهم لم يكونوا صادقين في دعواهم، بل كانوا يُفرّقون في دخائل أنفسهم بينَ الغرب والشرق، وبين حقّ الإنسان الغربيّ في الأمن والسلم وحقّ غيره من سائر الناس، وإلا فقولوا لنا: لماذا تخلو أوروبا وأمريكا من بُؤر الصّدام والاقتتال، بينما تُصنَعُ صُنعا أسبابُ الصّدام في الشرق وإفريقيا وبلاد المسلمين على وجه الخُصوص؟! إنّنا نعلمُ علمَ اليقين أنّ مصانعَ السلاحِ في الغرب لا تتوقّف عن الدّوران لحظةً واحدة، فإذا كان ممنوعًا أنْ يعمَلَ هذا السلاحُ في الغرب، أو أنْ يتوجّه إلى صُدور الغربيّين، فأين يعمَل إذن هذا السلاحُ؟ ولمَن يتوجّهُ؟ إذا لم يعمَل في الشرق وفي صُدور أبنائه وبناته؟!

وشدَّد فضيلة الإمام: أنّ آفةَ الآفات في فلسفة «السلام» أنْ يَرتبِط بمقاصد السياسات الدوليّة ومزاجها المُتقلّب، وأنْ يتخلّى عن مقاصد الأخلاق وغاياتها الثابتة، وفي هذه الآفة يَكمُن الفرقُ بينَ نظرة الرّسالات الإلهيّة لمفهوم «السّلام»، وضرورته القُصوى كشرطٍ أساسٍ للتقدّم والرّقيّ والرفاهية وبينَ معنى «السلام» في مفهوم الأمزجة البشريّة المُتقلّبة حينًا، والمُتصارعة حينًا، والظالمة حينًا آخر..

واستعرض فضيلته أهميّةَ «السلام» في الإسلام، ليس للإنسان فقط، بل للحيوان والنبات والجماد أيضًا؛ فضرورةُ السلام للإنسان في الإسلام تنبُع من أنّ الإسلامَ يُسوّي بينَ الناس جميعًا في الحُقوق والواجبات، وأوّلُ هذه الحقوق هو حقّ «الاختلاف»، فالله خلقَ الناسَ مُختلفين

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ «هود: ١١٨»

وإذا كان الاختلافُ مشيئةً إلهيّةً في خَلق الناس لا رادّ لها؛ فإنّ العلاقةَ بين المُختلفين- فيما يُقرّرُ الإسلامُ- هي علاقةُ التعارُف والالتقاء والتعاون على البرّ والتقوى.. و«السلام» هو مُقتضى علاقة التعارُف ولازمُها الأوّل.

وأوصى فضيلتُه هذا المنتدى أنْ يتبنّى قاعدةَ «التعارُف» التي وردت في قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ «الحجرات: ١٣»

وأنْ ينشط اليومَ- وليس غدًا- لتعزيز السلم في المُجتمعات العربية والإسلامية، وأنْ يتوسّل لذلك بفتح قنوات اتّصالٍ مُباشر بينَ العُلماء والحُكماء وبين صُنّاع القرار من السياسيّين في الشرق والغرب، وأنْ يدعو إلى ترسيخ قيَم السلام والأمان والأُخوّة والمحبّة عبرَ برامج الحوار، وعبرَ برامجَ تعليميّة لتربية النّشء والأطفال على اختيار المُمارسات السلميّة في الحياة اليوميّة، وأنْ يتحرّك فورًا من أجل دعوةٍ عامّة لعُلماء المسلمين للجُلوس بقلوبٍ صادقة ومُخلصة لا تَشوبُها شوائبُ المصالح والأغراض والانتماءات الصغيرة، التي كانت ولا تزالُ سببًا في تأخُّر أُمّتنا العربيّة والإسلاميّة،



وتفكُّكِها وضَعفها وهَوانها على الناس، وما لم يتّفق العُلماءُ على إقامة السلام العادل بينهم أوّلًا، فلا أملَ في أنْ يَسوسُوا الناسَ بقيَم الحقّ والخير والجمال، كيفَ وفاقدُ الشيء لا يُعطيه، والذي يعجزُ عن قيادة نفسه هو عن قيادة غيره أعجزُ.

وفي نهاية كلمته تقدّم فضيلة الإمام الأكبر بالشكر لدولة الإمارات الشقيقة على أنْ فطنت لخطَر موضوع السّلم والأمن الاجتماعيّين، وحاجة العالم المُلحّة- الآنَ- إلى إحياء مفهوم السلام العادل، وإلى تطبيقه وتنزيله على واقع الناس، الذي عانَى ويُعاني الأمرّين بسبب غياب هذا المفهوم فترةً تزيدُ على نصف قرن.

هيئة كبار العلماء: الأنبياء والرسل لا يجوز شرعا تجسيدهم فى الأعمال الفنية

بمناسبة اللغط الذى يدورُ فى بعض وسائل الإعلام حولَ موقف الأزهر الشريف من عرض الأعمال الفنيّة التى تُجسّدُ الأنبياءَ والمرسلين - عليهم الصلاةُ والسلام - تودُّ هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف أن تتوجّه إلى الأمّة بهذه الحقائق التى تُلخّصُها فى هذه النقاط:

١ - إنَّ الأنبياء والرسل لا يجوز شرعًا تجسيدُهم فى الأعمال الفنيّة؛ لأنَّ الأعمال الفنيّة إنما تسعى لتجسيد الواقع، بينما حياةُ الأنبياء وسيَرُهم فيها من الوحي والإعجاز والصلات بالسماء ما يَستحيلُ تجسيدُه وتمثيلُه؛ ومن ثَمَّ فإنَّ تجسيدَ الأنبياء والرُّسل فيه إساءةٌ مُحقّقة إلى سيرتهم وحياتهم.

٢ - إنّ الأزهر الشريف - بنصِّ الدستور - هو القائم على بيان الرأى الشرعى فيما يتعلّق بالفكر والثقافة والاجتماع والاقتصاد؛ ولذلك فلا بُدَّ للأزهر من القيام بواجبه إزاءَ ما يُثار فى هذه الميادين.

٣ - إنّ الأزهرَ ليس سلطةَ منعٍ ولا مُصادرة، وليس ذلك من صلاحياته ولا اختصاصاته؛ فالأزهر يقومُ بواجبه فى إبداء الرأى الشّرعي؛ وفاءً لرسالته، واستجابةً لتطلّع الأمّة إليه كمرجعيّة أولى للشريعة فى عالم الإسلام.

٤ - إنّ ما تُردّدُه بعضُ الصحف من أنَّ بعض علماء الأزهر نادى بحرق السينما التى تَعرضُ فيلم سيدنا نوح - عليه السلامُ - أمرٌ يَرفضُه الشرعُ الشريف ويَرفضُه الأزهر بكافّة هيئاته العلميّة.

هذا هو موقفُ الأزهر، تؤكّدُ عليه هيئة كبار العلماء؛ بيانًا للحقّ، وحتى لا يَسترسلَ البعضُ فى إثارة اللغط حولَ هذا الموضوع، أو محاولة تشويه رأى الأزهر الشريف والتطاول عليه.

والله من وَراءِ القصد... منه نَستمدُّ العونَ والتوفيق

إدانة الإمام الأكبر للحادث الإرهابي بمسطرد

أدان فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الحادث الإرهابي المؤلم والقبيح الذي وقع صباح يوم السبت ١٥ / ٣ / ٢٠١٤م، واستُشهِد على إثره عددٌ من أبناء الوطن الأبرار من جنود القوّات المسلّحة، مترحمًا على الشهداء، ومُقدِّمًا خالص العزاء لأسرهم، ومطالبًا بتطبيق القانون بكلِّ حسم لمواجهة هذه الأفعال الإرهابية السوداء، والقصاص العاجل من مرتكبيها.

حفاظًا على حياتهم بعد كثرة الاعتداءات عليهم..

الأزهر يفتي بجواز صلاة الخوف لرجال الشرطة والجيش في نقاط الحراسة

هذا وقد أفتى فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر الشريف بجواز صلاة الخوف لرجال الشرطة والجيش وسائر رجال الأمن والحراسات؛ وذلك نظرًا لما يتعرضون له من الاعتداء والغدر في نقاط الحراسة أثناء أداء واجبهم من أناس لا يتقون الله في دينهم ولا وطنهم، فاستهدفوا الراكعين الساجدين ممن يسهرون على أمن الوطن وسلامته.

وأكد الأزهر الشريف في فتواه بجواز صلاة الخوف أو التناوب في أداء الصلاة بحيث يصلي فريق ويحرس الفريق الآخر، وفق ما قرره الفقهاء في ذلك، من منطلق قول الله تعالى:

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾

(النساء: ١٠٢)

الإمام الأكبر يترحم على شهداء الواجب الوطني في يوم الشهيد

أبدى فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر ترحمه على شهداء الواجب الوطني في ذكرى يوم الشهيد الذي يوافق ١٤ مارس من كل عام.

كما ثمن فضيلة الإمام دور الشهيد في الإسلام، وذلك في بيان لفضيلته في ذكرى «يوم الشهيد».

المسلماني: مصر والوطن العربي في أمسّ الحاجة لمنهج الأزهر الوسطي

استقبل فضيلة الإمام الأكبر أ.د أحمد الطيب- شيخ الأزهر- أحمد المسلماني المستشار الإعلامي للسيد رئيس الجمهورية.

ونقل المسلماني دعم مؤسسة الرئاسة الكامل للأزهر الشريف ولشيخه الإمام الأكبر، والذي يحظى باحترام ومحبّة المصريين والمسلمين، ولدور الأزهر العلمي والدعوي والثقافي، مؤكدًا أنّ مصر والوطن العربي الآن في أمسّ الحاجة لمنهج الأزهر الوسطي.

من جانبه قدّم فضيلة الإمام الأكبر للمسلماني جزيلَ الشكر لمؤسسة الرئاسة على دعمها المستمرّ للأزهر الشريف.

وفد ماليزي يزور قطاع المعاهد الأزهرية

استقبل فضيلة الشيخ جعفر عبد الله رئيس قطاع المعاهد الأزهرية معالي الأستاذ الدكتور / محمد راضي إبراهيم- الوزير المفوض لشئون التعليم بسفارة ماليزيا بالقاهرة- والوفد المرافق له؛ وذلك لمناقشة ما أبداه الوفد الماليزي رغبة السفارة الماليزية بالقاهرة بإقامة برنامج اجتماعي ونشاط طلابي بمعهد القراءات الأزهري بشبرا يشارك فيه الطلاب الماليزيون بالمعهد على أن تقدم السفارة الماليزية دعمًا بقيمة ٢٠٠ ألف جنيه للمعهد المذكور؛ وذلك تقديرًا منهم لدوره في تعليم أبناء ماليزيا علوم القرآن الكريم وفنونه المختلفة.

كما ناقش فضيلته مع الوفد ما يتعلق بمشاركة قطاع المعاهد الأزهرية بأعمال امتحانات الشهادة الدينية الماليزية "ستام" والتي بموجبها يلتحق طلاب هذه الشهادة الماليزية بكليات جامعة الأزهر الشريف على أن يجتازوا الامتحان المقرر في اللغة العربية وذلك في ضوء البروتوكول الموقّع بين الأزهر الشريف ودولة ماليزيا.

وكيل الأزهر يتفقد سير الدراسة بمعاهد ٦ أكتوبر والشيخ زايد

قام فضيلة الدكتور / عباس شومان- وكيل الأزهر- بجولة تفقد فيها معاهد مدينة الشيخ زايد و٦ أكتوبر، وأكد وكيل الأزهر خلال مروره على المعاهد أن هناك قرارات قوية سوف تصدر ضد غير الملتزمين وإعفائهم من المسئولية وتحويلهم إلى وظائف بعيدة عن العملية التعليمية.

وشدد وكيل الأزهر خلال مروره على معهدي الهدي والحصري «الخاصة» على ضرورة التزام المعاهد الخاصة بالحضور يوم السبت كيوم عمل رسمي، والقيام بالشرح للطلاب الحاضرين من المناهج المقررة، وتوجيه الإنذارات للطلاب الغائبين، وقرر فضيلته توجيه إنذار للقائمين على معهد الحصري؛ وذلك لقيامهم بضم الفصول غير المتشابهة في فصل واحد.

كما قرر فضيلته إحالة ١٦ مدرسًا بمعهد الشيخ زايد النموذجي «الابتدائي والإعدادي والثانوي» للتحقيق لتغيبهم عن العمل بدون إذن.

كما قرر إحالة شيخ معهد الشيخ زايد النموذجي الابتدائي للتحقيق وكذلك مسئول الشئون الهندسية بمنطقة الجيزة، وتحويل الوكيل الشرعي لمنطقة الجيزة الأزهرية للجنة القيادات للنظر في أمره.

وقال وكيل الأزهر: إن التقارير الواردة بشأن انتظام العملية التعليمية بالمعاهد وكافة المناطق تؤكد انتظام الغالبية العظمى من المعاهد، وتم تكليف رئيس قطاع المعاهد بتوجيه إنذارات شديدة للمعاهد غير الملتزمة، التي لم ترسل السير الذاتية للعاملين بها حتى الآن حتى لا تتعرض لإلغاء الترخيص الممنوح لها من الأزهر.

وشدد أ.د / عباس شومان على ضرورة التزام المعاهد الخاصة بالضوابط التي قررها الأزهر كغيرها من المعاهد العامة، مؤكدًا أنه لا تردد في إلغاء ترخيص أي معهد لا يمتثل للتعليمات حتى لو أدى الأمر إلى الاستغناء عن هذا النوع من المعاهد بالكامل.

أنباء مجمع البحوث الإسلامية

إعداد / أ : عبدالموجود أمين

بيان الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية

حول تجسيد الأنبياء في الأعمال الدرامية وتطاول البعض على الأزهر الشريف



الشيخ محمد زكى رزق

من الأمور التي تدعو للعجب - إن لم يكن الحزن أن يتكاتف الجميع من أجل إثبات مرجعية الأزهر الشريف في دستور مصر، لما عهده الجميع فيه من وسطية واعتدال ثم لما يصدر عن الأزهر الشريف رأي في مسألة تجسيد الأنبياء والرسل وآل البيت والعشرة المبشرين بالجنة في الأعمال الدرامية تجد بعضا من الذين تباكوا على عدم إثبات مرجعية الأزهر الشريف في الدستور السابق ، وحاربوا لإثباتها في الدستور الجديد الحالي يصوبون سهام النقد الهدام والتجريح للأزهر الشريف وعلمائه ، لأنهم أدوا رسالتهم وأدلوا بدلوهم في أمر من الأمور الدينية البحتة ، التي تتعلق بقدسية أنبياء الله ورسله ، ومكانة آل بيت نبينا محمد - ﷺ - (سفينة النجاة كما وصفهم) والعشرة المبشرين بالجنة بصورة قد تنتقص من قدرهم ومكانتهم

ومجمع البحوث الإسلامية إذ يستنكر الهجمة الشرسة التي يتعرض لها علماء الأزهر الشريف ليهيب بوسائل الإعلام المختلفة تحري الموضوعية وأدب الحوار فى الحديث عن الأزهر الشريف وعلمائه حتى لا يكون إعلامنا معول هدم لهذه المؤسسة العريقة ، التى تحمل هموم المسلمين والدعوة الإسلامية منذ أكثر من ألف عام وتعمل على إعلاء المصالح العليا للوطن نحو تحقيق أمنه واستقراره وتقف حائط صد لكل فكر هدام، وثقافة مرفوضة تعمل على بث روح الفتنة بين أبناء الوطن، فالأزهر يعبر عن ضمير الأمة ويحفظ هويتها ، ويعمل على حفظ وعيها ويقوم على أمر وتبليغ وسطية وسماحة هذا الدين الذى يحقق سعادة الدنيا وفلاح الآخرة والله يقول الحق وهو يهدى السبيل.

صدر فى : ١٢ من جمادى الأولى ١٤٣٥ هـ

١٣ من مارس ٢٠١٤ م

الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية

محمد زكى رزق

بيان من لجنة الفتوى بالأزهر الشريف

إلى من يفتي بغير علم

ردًا على ما تردد أخيرًا حول خروج بعض الفتاوى التي تبيح استهداف ضباط الشرطة أو جنودها أو جنود الجيش أو ضباطه أو استهداف أحد أو ترويعه أو الاعتداء بحرق السيارات أو تخريب المؤسسات في الدولة.

تفيد لجنة الفتوى بالأزهر الشريف:

أن من أهم مقاصد الإسلام الحفاظ على النفس الإنسانية من كافة الجوانب؛ الحفاظ على حياتها وعرضها ومالها ودينها وعقلها، وجاءت القاعدة الشرعية التي تقوي ذلك وهي قاعدة «الضرورات الخمس».

ومن أهم هذه الضرورات الحفاظ على الإنسان أيًا كان دينه أو موطنه أو نسبه أو لونه أو رتبته، سواء كان من الخواص أو من العوام. وجاء قوله جل وعلا واضحًا صريحًا في ذلك في قوله تعالى:

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴾

(الإسراء: ٣٣)

وكذلك جاء في قول الله تعالى يعظم حرمة الدماء كي تصان حياة الأبرياء فقال تعالى:

﴿ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾

(المائدة: ٣٢).

وقال ﷺ في الحديث الذي يرويه الترمذي في كتاب الديات عن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال: «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم».

وحذر النبي ﷺ من الاستهانة بالدماء قائلا في الحديث الذي يرويه البخاري في باب القصاص يوم القيامة: حدثنا عمر بن حفص، حدثنا أبي، حدثنا الأعمش، حدثني شقيق، سمعت عبد الله رضي الله عنه: قال النبي ﷺ: «أول ما يقضى بين الناس بالدماء»، وكذلك قوله ﷺ في الحديث الذي يرويه البخاري في كتاب الديات: حدثنا إسحاق بن سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص، عن أبيه، عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «لن يزال المؤمن في فسحة من دينه، ما لم يصب دمًا حرامًا». وكذلك التحذير القاطع في قوله ﷺ في الحديث الذي يرويه البخاري: حدثنا عبد العزيز بن عبد الله، قال: حدثني سليمان بن بلال، عن ثور بن زيد المدني، عن أبي الغيث، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات»، قالوا: يا رسول الله، وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات».

وكما جاء في الترمذي- كتاب الديات: سمعت أبا سعيد الخدري، وأبا هريرة يذكران عن رسول الله ﷺ قال: «لو أن أهل السماء والأرض اشتركوا في دم مؤمن لأكبهم الله في النار».

وكذلك شدد ابن عباس رضي الله عنه في حكم توبة القاتل قائلا:

«ليس للقاتل توبة» من باب التشديد والترهيب والتغليظ لأمر الدماء.

وعلى ذلك فلا يجوز أبدًا أن يتعرض أحد لأحد بالقتل وإلا باء بالإثم الغليظ الوارد في قوله تعالى:

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾

(النساء: ٩٣)

وقوله تعالى في سورة الفرقان تعقيبًا على الشرك بالله والقتل والزنا بقوله:

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩)﴾

(الفرقان: ٦٨، ٦٩)

وأما مسألة القصاص من هذا أو ذاك بحجة أنه قتل فلانًا أبًا أو ابنًا أو أخًا فالمسئولية عن تطبيق الحد وإقامة قواعد العدل هو الإمام أو الحاكم أو القاضي فيحكم بما يتوافر لديه من أدلة الاتهام أو البراءة عملًا بقوله تعالى:

﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾

(النساء: ٥٨)

وهذا ما تواتر عن حكم نبينا ﷺ وخلفائه الراشدين والسلف الصالح. فالإمام كما ورد في كتب العلم هو المنوط بإقامة الحدود وسن القوانين التي تضبط حياة الناس بما يتوافق مع شرع الله. ومنوط به الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فإذا قصر الإمام فيما هو منوط به فهو مسئول عن ذلك أمام الله لحديث رسول الله ﷺ أن عبد الله بن عمر، يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته، الإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسئول عن رعيته» قال:- وحسبت أن قد قال - «والرجل راع في مال أبيه ومسئول عن رعيته، وكلكم راع ومسئول عن رعيته» رواه البخاري.

ولولا الإمام وضبطه للحدود والأحكام لتحولت الحياة إلى غابة يفتك فيها القوي بالضعيف أو يفتك الناس بعضهم ببعض. ومن هنا فلا قوام للمجتمعات والأفراد والدول. وتصبح الفوضى هي الأساس، وهذا لا يقره شرع ولا يرضى به عرف سليم، وهذا ينافي قوله تعالى:

﴿وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٣)

وكذلك ينافي قوله ﷺ في حديث البخاري: حدثني أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه

فوق ثلاثة أيام» علما بأن المحرض على القتل كالقاتل لقوله ﷺ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من أعان على قتل مؤمن ولو بشطر كلمة، لقي الله عز وجل مكتوبًا بين عينيه: آيس من رحمة الله» سنن ابن ماجه.

أما الاعتداء على المؤسسات أو المنشآت فإن هذا من قبيل الاعتداء على المال العام والاعتداء على المال العام أشد حرمة من المال الخاص لأن المال الخاص يجد من يحميه أو يدافع عنه، أما العام فقد لا يجد ذلك إذا غفلت عنه عين الإمام.

والتخريب والفساد المتعمد للمال العام أو الخاص يتنافى مع قواعد الإسلام بل هو من أعمال الفساد والمفسدين وصاحبه هو ألد الخصام كما أخبر القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (٢٠٦)﴾

(البقرة: ٢٠٤- ٢٠٦)

وهذا عمل لا يباركه الله أبدا بل يرتد على صاحبه بالهلاك والبوار قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (يونس: ٨١)

وعليه تهيب لجنة الفتوى بالأزهر الشريف:

أولًا: إلى نبذ مثل هذه الفتاوى وعدم العمل والأخذ بها لأنها ضارة وغير نافعة وقال ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار».

ثانيًا: العمل على نشر المناخ الفكري السليم في المجتمع، فما انتشر فكر سقيم إلا بزوال فكر سليم.

ثالثًا: العمل على لم الشمل وجمع الكلمة وتوحيد الصفوف حتى يصبح المجتمع كله لبنة واحدة يشد بعضه بعضًا قال ﷺ عن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: «إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا» وشبك أصابعه. رواه البخاري.

رابعًا: العمل على تفادي ما يؤدي إلى الصدام والخصام، وتغليب المصلحة العامة على المصلحة الخاصة ونعمل جميعًا تحت مظلة هذه القاعدة التي أبدعها الإمام مالك رضي الله عنه «نتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه». رحم الله الإمام مالكا، وحفظ الله مصرنا، وأدام أمنها وسلمها من شر الماكرين بها لتكون كما وصفها ربنا تبارك وتعالى في محكم آياته:

﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ (يوسف: ٩٩)

هذا والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

أعضاء اللجنة: الشيخ / أحمد حجاج - الشيخ / سليمان الصباد - الشيخ / د/ حسني جاد الرب - الشيخ / عبد الحليم حجازى - أمين اللجنة د/ عيد محمد يوسف

بيان من الأمانة العامة لمجمع البحوث الإسلامية

فى ظل توجيهات فضيلة مولانا الإمام الأكبر شيخ الأزهر حفظه الله بشأن النهوض بالدعوة والعمل على تصحيح مسار الدعاة بالأزهر الشريف وتحت إشراف ومتابعة صاحب الفضيلة وكيل الأزهر تم لقاء الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية بقيادة الدعوة والفتوى بمنطقة وعظ سوهاج لتوجيههم لمتطلبات المرحلة الراهنة والنهوض برسالتهم ومعالجة أوجه القصور حتى يتسنى للدعاة العمل على إبراز دور الأزهر الشريف على الوجه اللائق بمكانته ورسالته، وقد أسفر هذا اللقاء عن الآتى:

أولا: استنكار وإدانة علماء الدعوة والفتوى بالأزهر الشريف للفتوى الصادرة من غير أهلها التى تدعو إلى استباحة دماء وقتل رجال الشرطة الأوفياء ورجال الجيش الشرفاء خير أجناد الأرض ومن هم فى رباط إلى يوم القيامة وهذه الفتوى الجائرة لا تكون إلا من علماء السوء خاصة فى هذه الأوقات العصيبة التى كانوا سببا مباشرا فيها واستباحوا الدماء وهتك الأعراض وتخريب المنشآت والمؤسسات خدمة لأعداء مصرنا الغالية، فلا تصدر مثل هذه الفتاوى إلا من خائن لدينه ووطنه عميل لأعداء أمته، وحسبهم هذا البيان النبوى الكريم «من ساعد على قتل مسلم ولو بشطر كلمة لقى الله يوم القيامة مكتوبا بين عينيه آيس من رحمة الله»، وحسبهم قوله تعالى:

﴿أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾

[المائدة: ٣٢]

وقول النبى الكريم ﷺ: «لزوال الدنيا وما عليها أهون عند الله من أن يراق دم حرام» أو كما قال ﷺ. فعلماء السوء تقرض ألسنتهم بمقاريض من حديد كما شهدهم النبى ﷺ ليلة معراجه الكريم، وعندما سأل عنهم قيل هؤلاء هم خطباء الفتنة، وحسبنا جميعا جيشا وحكومة وشرطة وشعبا أن نكون على قلب رجل واحد تواجه أعداء مصرنا بكل ما نملك من نفس ونفيس حتى يخلصنا الله من الخونة أعداء الدين والوطن ولا نترك أجنادنا وحدهم يواجهون أعداء الأمة بمفردهم فهذه خيانة لا قدر الله إن حدثت ومشاركة فى ارتكاب الإثم، لقوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

[الأنفال: ٢٧]

فمصر أمانة فى أعناقنا جميعا نحن المصريين.

ثانيا: أسفر هذا اللقاء عن التوصيات الآتية:

١) تفعيل دور دعاة الأزهر فى النهوض بالدعوة الإسلامية ونشر صحيح الدين ومواجهة الفكر التكفيرى بكل قوة لوقف مده وتحصين المجتمع من شروره وآثامه وكشف عواره وتفنيد شبهه حتى يكون الناس على بينة من أمر دينهم ودنياهم.

٢) تفعيل التنسيق مع شركاء الدعوة والرسالة فى الأوقاف وضبط الحركة الدعوية وتحديد بعض المساجد الهامة بعواصم المحافظة والمدن والقرى من مساجد الأوقاف لعلماء الوعظ بالأزهر الشريف ليباشروا مهامهم وينالوا شرف الدعوة، وكذلك القيام بعمل لقاءات مشتركة فى هذه المساجد وأن يقوم واعظ الأزهر بإلقاء درسين على الأقل كل شهر فى هذه المساجد.

٣) تفعيل اللقاء الثابت والمشترك بين الأزهر والأوقاف والعمل على إحيائه من جديد وتنشيط الدعوة بمراكز الشباب وأماكن التجمعات والملتقيات وباقى أجهزة الدولة وهيئة الاستعلامات والجمعيات الأهلية والحكومية، والمحافظة على دروس السيدات فى مواعيدها المقررة واختيار العناصر الممتازة علما وخلقا لقوافل القوات المسلحة لنشر صحيح الدين.

٤) إعداد القوافل المتحركة لتجوب القرى والكفور وتوزيع وعاظ الأزهر على المساجد الكبرى خاصة بين صلاتى المغرب والعشاء لتبليغ الدعوة الوسطية السمحة لكل الناس فى أماكن تواجدهم وملتقياتهم.

٥) مشاركة الجماهير فى كل مناسباتهم الاجتماعية والعمل على حل مشاكلهم الأسرية فى إصلاح ذات البين والعمل على إبراز وتحقيق رسالة الأزهر التى بها يتحقق الأمن والأمان والسلام والاستقرار فى ظل توجيهات صاحب الفضيلة الإمام الأكبر حفظه الله الذى يعمل دوما على تحقيق المصالح العليا للوطن والمواطنين وإشراف ومتابعة وكيله الأمين أعانه الله.

هذا وبالله التوفيق.

الأمين العام

محمد زكى رزق بدارى

ندوات مجمع البحوث الإسلامية لتصحيح مفاهيم الدين


الشيخ هانى شمس الدين

فى إطار نشر وسطية الدين الإسلامي والدعوة الإسلامية الصحيحة والبعد عن التطرف والتشدد والغلو في بعض المفاهيم وتصحيحها؛ تقوم الأمانة العامة للدعوة والإعلام الديني بمجمع البحوث الإسلامية بعمل ندوات دينية بمركز تدريب شرطة الكهرباء بالحي السادس يوم الأربعاء أول كل شهر.

- وتم عقد الندوة الأولى في شهر يناير بعنوان «دعوة التقدم والاستقرار في رحاب العام الجديد».
- وتم عقد الندوة الثانية في شهر فبراير ٥/٢/٢٠١٤م وكان عنوانها «وسطية الإسلام وبناء الفكر».
- والندوة الثالثة في شهر مارس ٦/٣/٢٠١٤ وعنوانها «الإسلام يحارب الفكر التكفيري».

وقد مثل الأزهر فى هذه الندوات الشيخ هانى شمس الدين عضو المكتب الفنى بمجمع البحوث الإسلامية وعضو لجنة الفتوى بالأزهر الشريف وقد لاقت هذه الندوات الثلاث نجاحًا كبيرًا وأثنى عليها جميع الحاضرين من قيادات الشرطة وغيرهم من الحاضرين، وقد وجهت وزارة الداخلية خطابات شكر للأزهر تحت قيادة فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الدكتور أحمد الطيب وفضيلة الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية الشيخ محمد زكي رزق.

أنباء العالم الإسلامي



للأستاذ / أحمد رضوان

أفريقيا الوسطى: المسلمون يستعدون للهرب من البلاد

يواصل المسلمون في أفريقيا الوسطى تجمعهم في المسجد الكبير في العاصمة بانغي وفي مناطق أخرى من البلاد؛ وذلك بهدف الترتيب لمغادرة البلاد للنجاة بأرواحهم بعد مقتل الآلاف منهم ونهب ممتلكاتهم على أيدي ميليشيا أنتي بالاكا المسيحية.

ويقول المسلمون المتجمعون: إنهم يخشون على أنفسهم من الاستهداف من قبل المسيحيين، ورغم ذلك فإن مغادرتهم للبلاد محفوفة بالمخاطر وتحتاج إلى تأمين من قبل قوات عسكرية.

كما قُتل أربعة مسلمين على أيدي مليشيا أنتي بالاكا المسيحية في العاصمة بانغي بعد أن قُطع طريق العودة من المطار في العاصمة.

وقال المفوض السامي للأمم المتحدة لشئون اللاجئين أنطونيو غوتيريس: معظم المسلمين طردوا من النصف الغربي لأفريقيا الوسطى نتيجة الصراع هناك، مضيفًا: إن آلاف المدنيين يتعرضون لخطر القتل.

وأشار المسئول الأممي في اجتماع لمجلس الأمن الدولي عن أزمة أفريقيا الوسطى إلى أنه منذ أوائل ديسمبر الماضي عرفت البلاد عملية تطهير من جانب الأغلبية المسيحية لطرد السكان المسلمين في غرب البلاد، وأضاف: إنه حتى العام الماضي كان الصراع الديني غريبًا عن البلاد، لكن تفاقم إراقة الدماء مكن جماعات مسلحة من استغلال الدين ذريعة للعنف.

وكان محمد سعيد إسماعيل - أحد قادة المسلمين والمستشار السابق لرئيس جمهورية أفريقيا الوسطى - قد أكد أن أكثر من ٣٠٠ مسجد في البلاد دُمّرت، وتم ذبح النساء والأطفال وحرق الرجال.

هذا وقد أعرب الرئيس الفرنسي فرنسوا هولاند عن ضرورة إعادة الاستقرار إلى أفريقيا الوسطى لتفادى مخاطر تقسيمها، وحفاظًا على أمن القارة السمراء

وأضاف هولاند: نحن فى حاجة إلى تغطية أوسع لكلّ المناطق (داخل أفريقيا الوسطى)، حيث ينبغى تأمين جميع المدن وخصوصًا غربى البلاد، وألا يقتصر الأمر على العاصمة بانجي فحسب، من أجل التصدى إلى مساعي التقسيم. جاء ذلك خلال مؤتمر صحفى جمع الرئيس الفرنسى برئيسة جنوب أفريقيا كاثرين سامبا بانزا خلال زيارة قام بها هولاند، إلى عاصمة جمهورية أفريقيا الوسطى، بانغي.

وأشار الرئيس الفرنسي خلال المؤتمر إلى أنّ استقرار القارة السمراء مرتبط فى عمقه بعودة الحياة في جمهورية أفريقيا الوسطى إلى نسقها الطبيعي.

وأضاف موجهًا حديثه إلى القوات الفرنسية المنتشرة فى أفريقيا الوسطى أنّ انزلاق البلاد إلى حلقة مفزعة من الفوضى والاقتتال سيجعلها مرتعًا لأى شخص يريد زعزعة استقرار القارة بأسرها.

مقتل آخر مسلم فى مدينة مبايكى بأفريقيا الوسطى

هذا وقد لقى نائب رئيس بلدية مبايكي فى جمهورية أفريقيا الوسطى صالح ديدو مصرعه، وكان قد رفض مغادرة المدينة مع جميع المسلمين تحت ضغط أحداث التطهير العرقى الجارية هناك، وفقا لصحيفة لوموند الفرنسية.

وقبل بضعة أسابيع، وأثناء زيارة الرئيسة كاثرين سامبا بانزا، ووزيرة الدفاع الفرنسى جون إيف لودريان للمدينة، تعهد رئيس بلدية مبايكي، ريمون مونغباندى بأننا سنحاول حماية صالح ديدو، شقيقنا الذى كان عبر عن تصميمه البقاء في المدينة التي رغبت السلطات وفرنسا في أن تكون مثالا للتعايش بين جميع العرقيات وللمصالحة.

وكان صالح ديدو، وهو من أصل تشادي، يعمل نائبا لرئيس البلدية وفى أعمال النقل والتجارة، ورفض مرافقة أقاربه وأصر على البقاء فى أفريقيا الوسطى، رغم تلقيه تهديدات بالتصفية.

وقال صالح ساعتها: ولدت هنا، وأنجبت أولادى هنا، وأنا عضو فى البلدية، ووطني هنا، فلماذا أغادر؟.

ووفقا لمنظمة العفو الدولية التى حققت فى مقتل صالح، فإنّ مجهولين قدموا إلى حى باغيرمي، حيث يقطن صالح ديدو، ليبحثوا عنه.

ولاحقًا فرّ صالح ليحتمى فى مركز أمن، لكن فى الطريق اعترضه رجال ميليشيا وذبحوه.

وبعد الجريمة، قدم جيرانه المسيحيون الحماية لزوجته الحامل وأطفاله الذين جرى نقلهم لاحقا إلى وسط العاصمة بانغى فى انتظار طائرة ستنقلهم خارج البلاد.

الولايات المتحدة: فيلم وثائقي لدعم ارتباط المسلمين بالمساجد

قام المنتج عاطف محمود، والمخرج أحمد عيد بتقديم فيلم وثائقي بعنوان «الغائبون عن المساجد» بهدف بحث المشكلات التي قد تتسبب في انقطاع بعض المسلمين عن التردد على المساجد بأمريكا الشمالية ومعالجة تلك الأسباب، وذلك من خلال اشتراك المسلمين في مناقشة واسعة بالتعاون مع الجمعيات الإسلامية والقائمين على المساجد.

وقد أكد المخرج أن الفيلم يستهدف التغلب على المشكلات وتعميق ربط المسلمين بالمساجد، بما يتضمن انخراطهم في أنشطة المسجد وشفافية الإدارة، علاوة على قضية الاستعانة بالأئمة الذين لديهم خلفية عن طبيعة الحياة في أمريكا الشمالية.

وقد أظهرت دراسة عن المساجد الأمريكية أن المسلمين بنوا ٢٠٠٠ مسجد خلال ٣٠ عامًا، إلا أن نسبة الحضور تبلغ ١٠٪ فقط، وهو ما دفع القائمين على الفيلم لبحث مشكلة إقبال الجيل الثاني

This is the facts of Islam being historical in its beliefs, Shari'a, and ethics.

-2-

Then the second example : Among the examples of those who call for the fact the Islamic religion is historical is that which focuses on the cognitive rupture with the Divinities and its beliefs , or with the essence of religion and its principles and consonants.

So, the urgent task for him is the rupture with divinities, and to let humanities take its place, or "humanizing" god and the religion, and consequently the civilization.

Concerning this he said:" Our task is to take our civilization from the old divine phase to a new humane phase. So, instead of making our civilization centers on god, we can make it centers on human being, and to change its pole from being the science of god to the science of human being.. Indeed, the progress of humanity is attached to its progress and development from religion to philosophy, until the time when humanity reaches its complete phase, and then the reasonable enlightened society is arises."

Moreover, the rupture with the belief of revelation, this can be done the praise of reason and to make it take the place revelation and inspiration:"Reason does not need any help or aid, and nothing can challenge reason.. It is able to recognize what is good and what is bad in everything. Besides, good things can be recognized and can be seen and can go under experiment. Ethics also can be known and recognized by instinct. So, revelation never gives humanity something that it can't discover it by itself. "...

Furthermore, rupture with the beliefs of the world of the Unseen through making it humane :" the seven qualities [or God's qualities], are really pure humane qualities, human being is the one who knows, and is able , and is alive, and the one who listens and sees well, and the one who wants and speaks. And these qualities are in Man and from him really, and in Allah and to Him metaphorically" .

والثالث من المسلمين على المساجد وإيجاد الحلول.

أوكرانيا: مسلمو تتارستان يتبرعون براتب يوم لدعم مسلمي القرم

صرّح مفتي تتارستان كميل حضرة سامي جولن أن العاملين والأئمة وعلماء المسلمين والإدارة الروحية في تتارستان، سوف يتبرعون بيوم من عملهم ورواتبهم دعمًا لمسلمي شبه جزيرة القرم، وأنهم سوف يقيمون صندوقًا لدعم مسلمي القرم.

وصرح المفتي أن مساعدة المسلمين واجبة، ويجب عليهم أن يتعاونوا، وأن يساعد المسلم أخاه المسلم، وأن يقفوا بجانب إخوانهم المسلمين في روسيا وغيرها، وألا يكونوا بمعزل عن باقي المسلمين.

والجدير بالذكر أن مفتي تتارستان قد زار شبه جزيرة القرم لدعمهم والوقوف بجانبهم، ومد يد العون والمساعدة.

بلجيكا: المنتدى الأوروبي للمسلمات يستنكر التمييز ضد المرأة المسلمة

أصدر المنتدى الأوروبي للمسلمات الذي عقد في العاصمة البلجيكية بروكسيل، بيانًا في إطار الاحتفال بفعاليات يوم المرأة العالمي يستنكر فيه ما تتعرض له المسلمات من تمييز على أساس الدين والجنس.

وقد أشار البيان إلى أن المرأة المسلمة تعاني التجاهل أكثر من غيرها، وخاصة فيما يتعلق بحقوقها الدينية مقارنة بغيرها من النساء.

وقد أشار المنتدى إلى أن الوضع الأوروبي المعاصر يمثل أحد عناصر التمييز ضد المرأة المسلمة نتيجة ارتفاع حدة الشعوبية التي تزيد من حدة التمييز، مما يعصف بالمسلمات في دوامة الألم النفسي والبدني والإقصاء من المشاركة الاجتماعية والاقتصادية.

وطالب المنتدى بمنح المسلمات حقوقهن الواجبة لتحقيق الديمقراطية التي يتبناها الغرب، ولتحقيق العدالة الاجتماعية، وهذا علاوة على المطالبة بتحسين أوضاع المسلمات في العالم في ضوء النصوص النبوية التي تمنحهن العديد من الحقوق.

فرنسا: مجلس الشيوخ يدين الأعمال المعادية للإسلام

أدانت باريزة خياري- نائب رئيس مجلس الشيوخ في فرنسا- الأعمال المعادية للإسلام.

وعندما سُئلت خلال برنامج إذاعي عن قضية الكوميدي «ديودونيه»، اعتبرت باريزة أن العبارات المعادية للإسلام يجب أن تُعامل بنفس مستوى المعاداة للعبارات المعادية للسامية.

ماليزيا: حظر لعبة يابانية لتضمنها لفظ الجلالة

قررت الحكومة الماليزية حظر لعبة «أترامان»؛ وذلك لحمل بطل اللعبة اسمًا مشابهًا للفظ الجلالة؛ حيث أكد وزير الداخلية أن هذا من شأنه أن يضر بالربط بين لفظ الجلالة وقدسيته لدى المسلمين واللعبة؛ مما يعرض الأطفال لخطر على معتقداتهم الإسلامية، فضلًا عما قد تتسبب فيه من مشكلات عامة وأخلاقية.

وقد أشار المسئولون إلى أن الحظر يقتصر على الإصدار الماليزي من اللعبة وليس كل الإصدارات؛ حيث أشارت الوزارة إلى أنه من يُضبط ببيع الإصدار المحظور من اللعبة يعرض نفسه للسجن ٣ سنوات.

in so and so, he means that it includes this rule, but does not mean that this was the reason of its descent". This means that we have to search for the rule behind the incidents of the verse, and not to restrict and connect the rule from the verse by the incidents that happened.

Al-Siouty summarizes the essence of this trend that is well-known at the habits of the companions and the followers of the prophet into few words saying:" what is said about the reasons of the descent is: the verse did not descent in the days of the incident. "

Then he explains into details the approach of the companions and the followers that sticks to the fact that is the most important thing in it is the whole meaning of the word and not the specified reason of its descent; this is because the reason of the descent is not more than the incident that the verse includes its rule, and the descent of this verse is totally connected with this incident, then he says:"When the verse descends for certain reason (and the companions and followers agree upon this reason), they agree also that it exceeds this reason. For example, the descend of the verse of 'Al-Thihar' concerning 'Salama Ibn Sakhr', and the verse of 'Al-Liaan"(or insult) concerning 'Hilal Ibn Omayya', and the penalty of defamation concerning those who insults the mother of the faithful 'Ayesha, and then these rules exceed these people to others. Among the evidences that it is very important to consider the word itself is:The companions and others always protest and disagree about certain incidents that are judged by the general meaning of the verse that descend for specific reason, and this was common among them.

Regarding these ideas, Sheikh of Al-Islam 'Ibn Taimeya' (661-728 A.H / 1263-1328 A.D) , also said :" Those who argue about the reasons of descend of the verses did not mean that the rule taken from the verse is specific to the people whom the verse descends concerning their incident, and excluding others. This can never be said by Muslim or a reasonable person at all. Moreover, if people dispute concerning the general meaning of the word that comes for certain incident, does this mean that it is specific for its reason only? . Actually, no one can say that the general rules of the Qur'an and Sunnah are restricted to specific or certain person, but what is always said is that it is specified to this person and all his kind, and is general to all who are like him, and this generality is not only restricted to this word only. Indeed, the verse that has certain reason, if it includes certain command or prohibition, then it must be applied to this person and other people in the same situation. Furthermore, if it is a kind of praise or dispraise, it must also be applied to this person and all others in the same position. "

Besides, the inventor of this approach, 'the approach of the legislative Qur'an being historical', as we refer before, returns back to the fact that the Islamic system of the principles of Beliefs and values and ethics are also historical, and not only the verses of legal legislation. Concerning this he said:" All the verses of the Quran descend as a result of certain reasons or reasons that demand its descend', whether they include legitimate rule, or fundamental principle, or even ethical system. "

Thus, by this wonderful risk, he copies the religion of Islam as a whole!

He then goes beyond this and said that the "reality" in which we live is the " maker of Shari'a", and not only the "Divine revelation and the heavenly inspiration ", and concerning this he said:"Shari'a is totally connected to our reality, and is unified with it, takes from its habits and norms, and its rules somehow depend on the reasons this reality and follow its development. "

So reality is the "Source" and the "Reference", and what is against this among the Divine revelation is considered " historical and temporary" , its page is totally turned by the death of the Prophet (Peace Be Upon Him), and also the end of the reasons of descend at the end of the time in which The Qur'an descended.

so, the authority of legislation' has stopped by the death of the Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him), and has not been completed, so as to still be effective and deserves obedience until the time in which Allah will inherit the earth and all whom will be on it. The one who calls for this approach has said about the legitimate and legal rules by which Islam has come:" These rules have become like a historical judge with no obligatory power or any effective impact, and the rules of dealings are not permanent, but they are temporary and regional, and can be applied only in certain time and certain place". Then he mentions and refers to the history of the verses that call for judging by what comes from Allah saying:" The trend that gets the religion with politics always quote two verses from The Qur'an which are:" But no, by your lord, they can have no Faith, until they make you (O Muhammad (may the blessings and peace of Allah be upon him) judge in all disputes between them, and find in themselves no resistance against your decisions , and accept them with full submission."(Surat Al-Nesaa' Verse 65) and " Surely, We have sent down to you (O Muhammad may the blessings and peace of Allah be upon him) the Book (this Qura'n)in truth that you may judge between men by that which Allah has shown you (i.e has taught you through Divine Revelation)"Surat A-Nesaa' verse 105". This quote is wrong and dangerous because these two verses are certain verses that are directed only to the prophet (Peace Be Upon Him) , and are very special to him and no one else."

He then refers to the time and the history of the legitimate rules that came in the Qur'an assuming that it is totally connected to the reasons of the descent 'of the verses' that is considered history and its page has been totally turned, saying :" Legitimate rules in Quran are not absolute , and it is not only an absolute legislation. This means that every verse is related to certain incident and is specified with the reason of descent, but is not absolute ."

He assumes that all the verse of the Quran, whether that which are related to the legislation or the beliefs or ethics, have their reasons of descent that are connected to it. Thus, all the verses of the Quran become historical, and are related to the history of the reasons of descent. Concerning this he said: "All the verses of the Quran descend as a result of certain reasons 'or reasons that demand its descend', whether they include legitimate rule, or fundamental principle, or even ethical system. "

In spite of the fact that he assumes this, but the sources of descent said that the verses which have reasons of descent only represent very few number among the number of the whole verses of the holy Qur'an:

For example, the total number of the verses of the Qur'an is 6276 verse. Those which have reasons of descent, according to Al-Imam Al-Siouty (849-911 A.H / 1445-1505 A.D) who accepts most of the narrations, do not exceed 888 verse or 14% of the verses of the Quran

Then, according to Al-Wahedy (468A.H /1078 A.D) who is somehow very accurate when he accepts the narrations of the reasons of descent, he assumes that these verses do not exceed 472 verse, or about 7.5% of the whole verses of the Qur'an.

Actually, the scientists and scholars - even those who write about the reasons of descent of the verses- they all agreed that concerning this very few amount of the verses that have reasons of descent, these "reasons" are only "occasions" of descent and not "reasons" require this descent and is specified by the rules that come in it.

For Instance, Al-Imam Al-Zarkashy (745 – 794 A.H / 1344 – 1392 A.D) said:"It was well-known among the habits of the companions of the prophet (may the blessings and peace of Allah) be upon him and those who follow them that if one of them said that this verse descends

confirmed by the people either by themselves or by their representatives."

Their authority is derived from will, perception, and the morals and customs of the people. However, the Islamic exegesis of law is contrary to this, as subjection to the Islamic law is a social and religious obligation at the same time. Whoever violates its sanctity has not committed sin towards the social system only, but commits a sin with regard to religion. The judicial and religious systems on one hand and law and morals on the other hand are two sides of this will from which the Islamic society derives its existence and instructions. Every legal issue is a matter of conscience, and morals dominate law to unite the legal rules with the moral instruction in every issue, and outline the limits of law."[5]

This is what was confirmed by the outstanding orientalist David de Santillana. He said that law is linked to morals in Islam, which let the scholars of the fundamentals of religion assert that ever verse of the Noble Qur'an, which is a book of guidance first of all, are verses of rulings. This is because the verses either denote rulings in a typical way in the manner the verses of rulings became well-known or denote obligation like most of the verses of the Qur'an. In the words of the fundamentalists: "Those who set rulings for certain verses meant the verses which denote rulings in a typical way not implicitly[6]. They wanted what is meant by the rulings in a typical way. As for the implicit way, most of the verses of the Qur'an, rather all of it, contain rulings that can be deduced."[7]

[5] Santillana, David, law and society in the heritage of Islam, translated by Girgis Fat-h-ullah, Beirut, 1972, pp. 431, 438.
[6] Al-Zarkashi, Al-Bahr Al-Muhit, verified by Abdul Sattar Abu Ghudah – Kuwait, part 6, p. 199.
[7] Ibn Al-Najjar, explanation of Al-Kawkab Al-Munir, verified by Muhammad Al-Zahily, Nazih Hammad, Makkah, Umm Al-Qura University, 1987, part 4, p. 460.

All the verses of the Qur'an contain rulings, in which law is united with morals.

Third: The one who mentioned these claims sought to cancel the whole Qur'an after seeking to limit and marginalize the verses of legislations, on the pretext that these verses are linked to the time in which these rulings were sent down. This is by claiming that they are linked to the reasons for the sending down of these verses. He claims that they are historic and dated, and their age ended with the end of the age in which they were sent down. These legal and legislative rulings are not eternal, constant, or general. He also claimed that these rulings concern only the Prophet and his age and society, i.e., the legal system of the Islamic Shari'ah is historic and came to an end with the death of the Messenger (may the blessings and peace of Allah be upon him). He called the completion of the Revelation the end of the Revelation.

In his claim regarding the historicism of the Islamic Shari'ah, he neglects not only the basis which the scholars of the nation agreed unanimously on with their different doctrines: What is important is the generality of the wording not the specialty of the reason. He also neglects that the reasons of the sending down of the verses are called the occasions of the sending down of the verses.

In this regard he said: "The Muslims' acceptance of the legislation at the time of the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) was based on belief in Allah, the Legislator, and after the death of the prophet, the Revelation ceased and the authentic Hadiths ceased. Thus, the legislative authority in which the Muslims believed and was the basis of this legislation stopped."[8]

[8] Muhammad Sa'id Al-'Ashmawi, The Characteristics of Islam, pp. 117-118, see also pp. 120-121.

awareness which is called liberty. This freedom is the new gain, which can never be wasted or destroyed."[1]

This positive enlightenment with its results and consequences including historicism represented major cognitive boycott with religion, and religion and theology were replaced by mind and experience.

* * *

This trend came to the Islamic East among the Westernizing ideas which came with the modern Western colonialism which was equipped – along with the weapons – with the European enlightenment thought. It sought to occupy the Muslim's mind to add to the occupation of lands and plundering of wealth.

This trend had many supporters from among the Arab and Muslim westerners who sought to make our desired renaissance after the pattern of the European renaissance, i.e., to liberate the mind and society from Islam in the way the mind and the European society was liberated from the Church and theology.

The objectives of the major cognitive boycott with the Islamic Shari`ah and jurisprudence was revealed in the writings of the supporters of this historian trend, who are the excessive modernizers and secularists. It even established this cognitive boycott with the Islamic creed and its set of values and morals. We will mention here only the texts and idea which expresses historicism in three intellectual projects for three secular modernists.

[1] Hashim Saleh, Al-Wihda Magazine, Morocco, February issue, March 1993, pp. 20-21, where he quotes from the book of Email Paula [Liberty: The war of the two parties of France and the principle of modernism], Cerf's publications, Paris, 1987 A.C.

-1-

The first[2]: Restricting the legal legislation which is mentioned in Islam so that it becomes marginal.

He says: "The Qur'an contains six thousand verses, and the verses which include rulings or legislations in acts of worship or transactions do not amount to seven hundred verses. They include about two hundred verses that tackle personal status, inheritance, or civil or criminal penal dealings. This means that the verses which are regarded legal legislations for transactions are merely thirty parts from the verses of the Qur'an, i.e., 200/600, some of which are cancelled and can not be applied and the applicable rulings are less than one over thirty, to be more precise, 80 verses, i.e., 80/6000 = 1/75.[3]

Second: Claiming that the Islamic Shari`ah is not a legal Shari`ah like the Shari`ah of Musa, as it is that of mercy. Also, it is not like the Shari`ah of `Isa which is that of love. Islam is not a law that can be applied. He said: "The Shari`ah of Musa is the right one, as it sets the ordained punishments along with the obligations, and determines the punishment of every sin. The Shari`ah of `Isa is that of love, but the Shari`ah of Muhammad is that of mercy[4].

This opinion was criticized by the scholars and jurisprudents – Muslim unanimously – who confirmed the excellence of the Islamic Shari`ah and its legal jurisprudence by combining and reconciling law and morals. Many experts in the Roman law and the Islamic Shai`ah including the expert orientalist, David de Santillana [1845-1931] who said: "As for us and the earlier generation – the Romans, jurisprudence and law are a set of the dominating rules which are

[2] He is the Consultant Muhammad Sa`id Al-`Ashmawy
[3] Muhammad Sa`id Al-`Ashmawi, the Political Islam, Cairo, 1989 A.C., p. 35. The features of Islam, Cairo, 1989 A.C., pp. 119, 168, 170.
[4] Muhammad Sa`id Al-`Ashmawi, The Fundamentals of Shari`ah, Cairo, 1979 A.C., pp: 179-180.

The wrongfulness and danger of Historicism...!

By: Dr. Muhammad 'Imarah
Editor – in – Chief of Al-Azhar Magazine.

Historicism is a trend which adds relativity and time to reality, which links it to its history and time. It refuses the facts – whatever they are general, constant, or eternal - and generalizes this ruling on all the facts including the religious facts that involves the creeds, values, and morals. It equals the religious facts and the divine science to the human knowledge. Therefore, it denies the firmly established facts. It denies the existence of the Divine Entity.

This trend started - in the positive enlightened European thought – with the French Philosopher Voltaire [1694-1778 A.C.] and the Italian Philosopher Vico, G [1668-1744] as a part of the endeavor of the positive enlightenment philosophy to cancel religion and replaces religion, the Church, and theology with mind, science, and philosophy. It replaced absoluteness with relativity. This trend succeeded when it prevailed in the European Renaissance which neglected Christianity. Thus, these firmly established facts became a type of dated legends from the positive enlightenment point of view.

The main essence and objective of this trend is to make cognitive boycott with the religious heritage and to liberate the mind and the society from the dominance of religion. Thus, this trend was called historicism, modernism, secularism, or liberalism, and the result of either of them is the same to the result of the other trends: making major cognitive boycott with the religion's firmly established facts, to separate Divinity from the worldly affairs, and to make the world, real state of affairs, mind, and experience the only reference for the human life apart from religion and to refer religion to history.

In a Western definition of this positive enlightenment trend, the French researcher, Email Paul, said about it and the boycott its establishes with religion and theology: "The Christian who came during the era of the Protestant reformation was keen – at the religious level – to not obey anyone except God and His Book and not even its priests or clergymen."

However, now with the enlightenment, another stride was taken in which the human being did submits only to his mind which can judge things. This ideology which was exposed by the enlightenment age, and which is opposed to Christianity by deviating from it, is like a mother. This means that everything that branches from it stems from its developments and oppositions, without caring for the epistemological boycott that separates two eras: the era of the theological era of the priest Thomas Aquinas [1225-1274] and the era of encyclopedia by the philosophers of the enlightenment.

From now on hope in the kingdom of God started to vanish leaving the place for the progress and dominance of the age of mind. The system of the divine bounty started to vanish before the system of nature. The age of religion ended to be replaced by age of horizontal and marginal relations. The human being solely became a standard for the human being and God's judgment and the religious authorities pertaining to it subjected to the ruling of the human

was distinguished by tangible cultural progress especially in Al-Kufah, the new capital of the caliphate.

`Ali (may Allah be pleased with him) was known among the Muslims for his eloquence, purity of language, and wisdom. He was a symbol of courage and power, and was described with justice and asceticism. He was the most knowledgeable Muslim scholar at his time.

When `Ali was between five and six years old, Makkah passed by straitened circumstances which affected the economic conditions of Makkah and the surrounding areas. Abu Taleb had three sons: `Ali `Uqail, and Ja`far, then the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) and his uncle Al-`Abbas ibn `Abdul Muttaleb offered that everyone of them would take one of his sons to bring him up. The Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) took `Ali and Al-`Abbas took Ja`far. `Ali was brought up in the Messenger's house and he accompanied him (the Messenger) wherever he went.

`Ali embraced Islam while he was young after Prophet Muhammad (may the blessing and peace of Allah be upon him) invited his kinsfolk from Banu Hashim to embrace Islam, putting into effect Allah's saying:

{And warn your kinsfolk O Muhammad (may the blessings and peace of Allah be upon him) of near kindred.}

[Al-Shu`ara' (The Poets): 214]

The Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) gathered his family and kindred to a banquet and invited them to embrace Islam. No one responded to him except `Ali. This Hadith was called the Hadith of the house. This was mentioned by Al-Tabari in his History 2, p. 216.

On the day, on which the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) resolved to immigrate to Yathreb (Al-Madinah Al-Munawwarah), the masters of Quraysh met in Dar Al-Nadwah and agreed to kill him. They thought of taking a strong youth from every tribe and asked them to wait for him in front of his house to kill him by their swords all at once, so that the responsibility for spilling his blood is shared by all the tribes.

Jibril came to the Messenger of Allah, according to Allah's Command, and informed him with their conspiracy. The Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) asked `Ali to sleep in his bed instead of him and to be covered by his green cover, so that the conspirators would think that Muhammad (may the blessings and peace of Allah be upon him) is still sleeping in his bed. This contributed in the success of the Prophet's (may the blessings and peace of Allah be upon him) immigration and aborted the conspiracy.

`Ali immigrated when he was twenty two years old and he accompanied his mother fatimah bint Asad, , Fatimah bint Al-Zubayr, and Fatimah bint Hamzah ibn `Abdul Muttaleb. Thus this caravan was called the caravan of Al-Fawatim.

After few days, `Ali reached Qeba'a where the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) waited for him and accompanied him to his new place of residence. When the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) reached Al-Madinah, he fraternized between Al-Muhajireen and Al-Ansar, and he fraternized himself with `Ali when he came.

`Ali was trusted by the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him), so he was one of the writers of the Holy Qur'an immediately after its sending down, he also used to carry messages to the kings, princes, and rulers.

The period of his caliphate was known for urban and cultural achievements, bedsides the riots, troubles, and battles. The police was organized, specialized centers for public services were established such as Dar Al-Mazhalem. Al-Kufah prospered during his era and schools for jurisprudence, Arabic grammar, and all of the Shari`a and Arabic sciences. The Caliph `Ali ibn Abu Taleb (may Allah be pleased with him) ordered Abu Al-Aswad Al-Du`ali to furnish the letters of the Noble Qur'an with vowel points and also to set the rules of the Arabic grammar. It was said that he was the first to make coins.

`Ali (may Allah be pleased with him) was martyrdom at the hands of Abdul Rahman ibn Moljam while he was standing praying the soubh Prayer at Al-Kufa Mosque.

`Ali ibn Aby Taleb, the Fourth Rightly, guided Caliph...! (may Allah be pleased with him):

By: Dr. Ibrahim Al-Assil

He is the Messenger's (may the blessings and peace of Allah be upon him) cousin and his son-in-law.

He spent his boyhood and youth with the Prophet.

He was eloquent in speech, as his words were like proverbs.

He was an example to be followed in courage.

The Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) used to call on him to do fencing before the fighting of the armies in the aggressive battles launched by the disbelievers against the Muslims when they were few in number.

He faced trials, troubles, and battles which broke out during his caliphate, and which ended with his martyrdom. He faced them with courage, strength, steadfastness, patience, and belief.

* * * *

He is `Ali ibn Abu Taleb Al-Hashimy Al-Qurashi (Rajab 13, 23 B.H. – Ramadan 21, 40 A.H. / March 17, 599 – February 28, 661 A.C.).

He was the first boy to embrace Islam. He immigrated to Al-Madinah Al-Munawwarah three days after the Messenger (may the blessings and peace of Allah be upon him). The Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) ordered him at the night of his immigration to sleep on his bed to make the disbelievers who were surrounding his house that he was still at bed. The Messenger of Allah also ordered him to return the trusts back to their owners who left them with the Messenger because they were confident that he was trustworthy. They called him in the pre-Islamic era the truthful and the trustworthy. The Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) fraternized `Ali with himself when he fraternized the immigrants with Al-Ansar in Al-Madinah Al-Munawwarah. The Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) gave him his daughter in marriage.

He (may Allah be pleased with him) participated in all the battles launched by the disbelievers against the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) and his companions except Tabouk Battle, as the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) ordered him to stay in Al-Madinah Al-Munawwarah to manage the affairs of the remainder of the Muslims in it and to protect it from any external aggression.

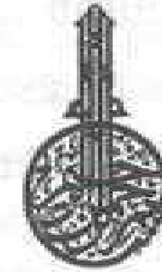
After the martyrdom of Caliph `Uthman ibn `Affan (may Allah be pleased with him), the Muslims did not find any one that fits the caliphate except `Ali ibn Abu Taleb, and they sent some of them to him to ask him to become the caliph. He said to them: "Ask other than me as we are approaching something have various aspects which the hearts and minds do not tolerate." They asked him once more and he hesitated and said the same words.

Then, they said that they did not want anyone other than him to become the caliph. Then, he agreed and they started to pledge allegiance to him. Thereafter, the other people pledged allegiance to him. Then, he delivered a speech to the people, saying after praising and thanking Allah: "O people, Allah sent down a book which guides the people and reveals good and evil. Stick to good and avoid evil. Perform the obligatory acts of worship, so that Allah may admit you to Paradise. Also, the sanctities are not unknown, and the sanctity of Muslims surpasses all the other sanctities. He stressed sincerity and monotheism, and that the Muslim is the one from whose tongue and hands the Muslims are safe except with regard to the truth. It is not permissible to spill the blood of a Muslim except in certain obligatory cases. Fear Allah, O the Slaves of Allah, in his countries and slaves, as you are responsible even for the lands and the animals. Obey Allah and do not disobey Him. If you see something good, follow it, and if you see something evil, abandon it.

{And remember when you were few and were reckoned weak in the land}
[Al-Anfal (The Spoils): 26]

Then, he descended. Allegiance was pledged to him in 35 A.H. – 656 A.C. in Al-Madinah Al-Munawwarah. He ruled for five years and three months and his era

AL-AZHAR MAGAZINE
Jumadal-Akherah, 1435 A.H



ENGLISH SECTION
April, 2014

In the name of Allah the Beneficent the Merciful

﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾
الأعراف/ ٤٣

"Praise be to Allah, Who guided us to this; and in no way could we have been guided, unless Allah has guided us."
(Al-A'raf 43)

Editor: Dr. IBRAHIM Al-ASSIL
Professor at the Faculty of Languages and Translation.
Al-Azhar University.

الأزهر

تقرأون في رجب مضر

الافتتاحية

الأصولية بين الغرب والإسلام

أ.د. محمد عمارة

أبعاد جديدة لمقاصد الشريعة

الشيخ: عبد المجيد النجار

عُمَر الشديد اللين

د. طه حبيشي

مدينة إلورين
منارة إسلامية حديثة في إفريقيا

د. عبدالله نجيب

هدية العدد

الوشيعة في نقض عقائد الشيعة

لشيخ الإسلام موسى جار الله

دراسة وتقديم أ.د. محمد عمارة

سعر النسخة
جنيهان

www.AlazharMag.com

www.AlazharMag.com

الأزهر

أقسام السنة النبوية

أ.د. محمد عبد الله دراز

الافتتاحية

هكذا تحدث الأستاذ الإمام

أ.د. محمد عمارة

"عُمَر" الشديد الليِّن

أ.د. طه حسين

أبعاد جديدة لمقاصد الشريعة

أ.د. عبد المجيد النجار

هدية العدد

القرآن والقتال

للإمام الأكبر الشيخ: محمود شلتوت



... د عبده



أ.د ... أحمد الطيب



أ.د. أحمد فؤاد باشا

... شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية رجب ١٤٣٥هـ - مايو ٢٠١٤م الجزء "٧" السنة "٨٧"

داخل العدد



إلى السادة قراء مجلة الأزهر

تتوافر لدى إدارة مجلة الأزهر بعض الأعداد السابقة، فمن فاته عدد ويرغب في الحصول عليه فيمكنه التوجه لمقر مجلة الأزهر بمجمع البحوث الإسلامية - شارع الطيران - مدينة نصر - الدور الثاني.



﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾



الأزهر

مجلة شهرية جامعة يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
بالأزهر الشريف في مطلع كل شهر عربي
صدر العدد الأول في المحرم عام ١٣٤٩هـ / ١٩٣١م
وحمل اسم «نور الإسلام»
ورأس تحريرها فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين



الاشتراك السنوي
داخل مصر ٢٤ جنيهاً مصرياً - الدول العربية ٥٠ دولاراً أمريكياً
أوربا وأمريكا ٨٥ دولاراً أمريكياً - اليابان وشرق آسيا ١٢٠ دولاراً أمريكياً
عن طريق قسم الاشتراكات بمؤسسة الأهرام
شارع الجلاء - القاهرة
ت: ٢٥٧٨٦١٠٠ - ٢٨٧٥٦٢٠٠

المراسلات باسم
مدير التحرير - مجمع البحوث الإسلامية - مدينة نصر
ت: ٢٢٦٣٨٥٩٩
editor@alazharmag.com
readers@alazharmag.com

• الافتتاحية •

هكذا تحدث الأستاذ الإمام

لفضيلة الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة
www.dr_emara.com

لقد ارتفع صوتي بالدعوة إلى أمرين عظيمين:

- الأول: تحرير الفكر من قيد التقليد.
- والثاني: إصلاح أساليب اللغة العربية في التحرير..

وهناك أمر آخر كنت من دعاته، والناس جميعًا في عمى عنه.. وهو التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب وما للشعب من حق العدالة على الحكومة.

نعم.. كنت ممن دعا الأمة المصرية إلى معرفة حقها على الحاكم، فالحاكم، وإن وجبت طاعته، هو من البشر الذين يخطئون، وتغلبهم شهواتهم، ولا يرده ويوقفه إلا نصح الأمة له بالقول والفعل.

ولا أبرح أدعو إلى عقيدتي في الدين، والإصلاح اللغوى. أما أمر الحكومة والمحكوم فتركته للقدر يقدره، وليد الله بعد ذلك تدبره، لأنني عرفت أنه ثمرة تجنيها الأمم من غراس تغرسه وتقوم على تنميته السنون الطوال، فهذا الغراس هو الذى ينبغي أن يعتنى به الآن، والله المستعان.

محمد عبده

(١)

- كانت الحملة الفرنسية على مصر (١٢١٣هـ ١٧٩٨م) بمثابة الزلزال الذى أحدث صدمة حضارية لدى المصريين.. لقد شابهت صدمة اللص الذى نبه صاحب الدار على الخلل البنيوى القائم فى المنزل الذى يعيش فيه!.

صحيح أن هذه الغزوة لم تكن جديدة فى ممارسة العنف المفرط الذى مارسته سابقتها الصليبية (٤٨٩-٦٩٠هـ ١٠٩٦-١٢٩١م).. فالصليبيون - فى ٤٩٢هـ ١٠٩٩م - قد ذبحوا وأحرقوا وأغرقوا سبعين ألفا من سكان القدس فى أسبوع واحد، وسبحت خيولهم



إلى لجم الخيل فى دماء المسلمين الذين احتموا بمسجد عمر - مسجد قبة الصخرة -.. وكذلك صنع «بونابرت» (١٧٦٩-١٨٢١) الذى قتل من الشعب المصرى نحو ١/٧ من الشعب الذى كان تعداده يومئذ - أقل من ثلاثة ملايين!.. وهى أعلى نسبة من الإبادة مارستها غزوة من الغزوات فى هذا الزمن الوجيز وإذا كان «بونابرت» قد غدر بثلاثة آلاف جندى أسير، فذبحهم - على شاطئ «يافا» - بعد أن أعطى لهم الأمان.. فإن له سلفا هو «ريتشارد قلب الأسد» (١١٥٧-١١٩٩م) الذى مارس ذات الغدر مع ثلاثة آلاف أسير مسلم بعد أن أقسم لهم على عهد الأمان(١).

لكن الحملة الفرنسية - البونابرتية - التى مثلت الامتداد للعنف الصليبى، قد تميزت عن سابقتها تلك بأنها قد جاءت إلى بلادنا بفكر النهضة الأوربية الحديثة، وإنجازات وتقنيات الثورة الصناعية، وفلسفة الحداثة الغربية.. جاءت - مع المدفع - بالمطبعة والصحيفة والبعثة العلمية.. فتميزت بذلك عن حملات الصليبيين الذى وصفهم الأمير العربى «أسامة بن منقذ» (٤٨٨-٥٨٤هـ ١٠٩٥-١١٨٨م) - وهو الذى حاربهم.. وصادقهم.. وخبرهم - فقال: «إنهم بهائم، ليست لديهم سوى فضيلة القتال»!..

وإذا كانت مدافع «بونابرت» قد صدمت خيول المماليك والعثمانيين، فإن الجانب الحضارى والعلمى والثقافى الذى رآه المصريون فى هذه الحملة قد أحدث لديهم الصدمة التى كشفت لهم هول العزلة، وحجم التخلف، وعمق التراجع الحضارى، ومخاطر الجمود الذى ساد عقولهم وبلادهم فى ظل حكم المماليك والعثمانيين.

ولقد كان الشيخ حسن العطار (١١٨٠-١٢٥٠هـ ١٧٦٦-١٨٢٥م) - الذى خالط

---

(١) د. سيجريد هونكه [الله ليس كذلك] ص ٣٤. ترجمة: د. غريب محمد غريب. طبعة دار الشروق ١٩٩٥م. وعبدالرحمن الرافعى [تاريخ الحركة القومية] جـ ٢ ص ٢٩. طبعة القاهرة ١٣٧٨هـ ١٩٥٨م.

علماء الحملة الفرنسية - أول من نبه على هذه الصدمة الحضارية، ودعا إلى تجاوزها بالاجتهاد والتجديد، وبالتفاعل الإيجابى مع الوافد النافع الذى فتحت أمامه الأبواب .. وذلك عندما قال: «إن بلادنا لابد أن تتغير، ويتجدد بها من العلوم والمعارف ما ليس فيها».


محمد على — على مبارك

(٢)

ولقد أوصى الشيخ العطار تلميذه رفاعة رافع الطهطاوى (١٢١٦-١٢٩٠هـ-١٨٠١-١٨٧٣م) - الذى ذهب إلى باريس ١٨٢٦م إماما للبعثة المصرية التى سافرت للدراسة هناك - أوصاه أن يفتح عينه وعقله وقلبه على التقدم الذى حدث فى أوربا، وأن يدون معالم هذه التقدم الذى يساعد على النهوض بمصر وبلاد الشرق الإسلامى .. فدون «الثقافة والفكر» - أى عمران النفس الإنسانية والنظم السياسية - فى كتابه (تخليص الإبريز فى تلخيص باريز) .. ودون المدنية - أى عمران الواقع المادى - فى كتابه (مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية) .. وعاد الطهطاوى إلى مصر ١٨٣١م ليكون قائد كتيبة الفكر وإمام الثقافة والتجديد والتنوير، من خلال «الدولة» دولة مصر الحديثة التى قاد بناءها «محمد على باشا الكبير» (١١٨١-١٢٦٥هـ ١٧٧٠-١٨٤٩م)..

ولقد كان أمير الشعراء «أحمد شوقي» (١٢٨٥-١٣٥١هـ-١٨٦٨-١٩٣٢م) أعمق من وصف مكانة رفاعة الطهطاوى الفكرية والمعرفية - مكانة «الأدب الفكري» للشعب المصرى - وذلك عندما قال عنه - وهو يمدح ابنه -:

يابن الذى أيقظت مصرًا معارفه
أبوك كان لأبناء البلاد أبا

وعلى درب الشيخ الطهطاوى - درب التنوير بواسطة «الدولة» - ومن خلالها - سار عشرات الرجال العظام، الذين كان من أبرزهم «على باشا مبارك» (١٢٣٩-١٣١١هـ-١٨٢٣-١٨٩٣م) أبو التعليم العالى، وأبرز علماء الهندسة والتخطيط فى مصر الحديثة.

(٣)

لكن أوربا الاستعمارية قد اجتمعت - رغم تناقضات دولها وامبراطورياتها - على ضرب المشروع النهضوى الذى بناه محمد على، الذى بنى فيه «دولة» كبرى سعت إلى تجديد شباب الشرق، وإنقاذه من التخلف العثمانى الذى فتح الأبواب أمام الغرب الاستعمارى كى يلتهم ولايات دولة الرجل المريض.

وعندما حاصرت أوربا - مستعينة بالسلطان العثمانى - «دولة» محمد على - بمعاهدتى

لندن ١٨٤٠م و١٨٤١م - انتقلت جذوة التنوير والتجديد من «الدولة» إلى «الأمة» فتبلور تيار التنوير الشعبى الذى قاده جمال الدين الأفغانى (١٢٥٤-١٣١٤هـ-١٨٣٨-١٨٩٧م) .. والذى هندس بناءه الفكرى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (١٢٦٦-١٣٢٣هـ-١٨٤٩-١٩٠٥م) الذى رابط على ثغور تجديد مناهج الفكر، وإحياء ملكات الاجتهاد والتجديد، وإصلاح المؤسسات التى تصنع عقل النخبة والصفوة: - الأزهر .. والمعارف .. والمساجد .. والأوقاف .. والقضاء - لتأخذ الأمة طريقها - بالتدريج - إلى إفراز الدولة الرشيدة، التى تحكم بالشورى، وترعى العدل بين الناس..


رشيد رضا — جمال الدين الأفغانى

وإذا كان الشيخ محمد رشيد رضا (١٢٨٢-١٣٥٤هـ-١٨٦٥-١٩٣٥م) قد حمل فكر الأستاذ الإمام - بواسطة مجلة (المنار) - إلى الشرق الإسلامى على امتداد أربعين عامًا، فتكونت من حول فكره الإصلاحى أكبر مدارس الإصلاح على امتداد أقطار الشرق، حتى أننا نجد الآن - فى أندونيسيا - «الجمعية المحمدية» التى تنهج نهج الأستاذ الإمام، تضم فى عضويتها أكثر من اثنين وثلاثين مليونا من الأعضاء!.. وكذلك الحال مع دعاة الإصلاح والتجديد والاجتهاد فى مصر وغيرها من وطن العروبة وعالم الإسلام.. لقد تكونت من حول فكر الأستاذ ومذهبه فى الإصلاح أعظم مدرسة عرفتها بلادنا فى العصر الحديث .. وظلت سلسلتها الذهبية ممتدة حتى الآن.

(٤)

كان العقل الإسلامى - فى مصر والشرق - يتنازعه تياران:

● أولهما: يكتفى على الموروث، الذى كتب أغلبه فى عصور التراجع الحضارى، والذى خلا من الإبداعات المتوهجة لعصر الازدهار والاجتهاد .. فالأزهر، الذى كان يدرس فى مرحلة من تاريخه الفلسفة والطب والتشريح والموسيقى، قد توقف عند علوم الآليات، دون المقاصد، حتى أنه قد خاصم علوما مثل الجغرافيا والتاريخ!.. وكان شيوخه - الذين مثلوا قيادات الأمة وملاذاتها فى الملمات - يخافون من التجديد حتى لا يضيع هذا الموروث!.

● وثانى هذه التيارات: تيار الوافد الغربى، الذى رفض أصحابه هذا الموروث، وخافوا منازلة شيوخ الأزهر على أرض التجديد، وآثروا استعادة النموذج الغربى - فى جملته - بديلا وسبيلا للتقدم والنهوض.

وهنا .. وأمام هذا الاستقطاب الحاد بين أهل الموروث وأهل الوافد .. جاء الدور الرائد والمميز للإمام محمد عبده فى حركة الإصلاح .. جاء دور التيار الوسطى، الذى ينتقد الموروث، ويختار منه الثوابت والمناهج التى تجعل لهذا الموروث فعالية فى إصلاح

الواقع واستشراف المستقبل .. والذى يميز - أيضًا - فى الوافد بين النافع الملائم، الذى هو «حكمة، تمثل ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها»، وبين الخصوصيات الغربية التى أفرزتها معالم طريق التطور التى عرفت الكهانة الكنسية والدولة الثيوقراطية، وما أحدثته من فلسفات وضعية ومادية وقطيعة معرفية مع الدين..

ولقد عبر الإمام محمد عبده عن هذا الموقف الوسطى، الذى ميز موقفه الفكرى ومنهجه الإصلاحى، عندما قال: «لقد خالفت، فى الدعوة والإصلاح، رأى الفئتين العظيمتين اللتين يتركب منهما جسم الأمة: طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم، وطلاب فنون هذه العصر ومن هو فى ناحيتهم» (٢)

ثم أفاض - فى إبداعاته الفكرية - الحديث عن أن هذه الوسطية هى منهاج الإسلام، وخصيصة أمته .. «فلقد ظهر الإسلام لا روحيا مجردا، ولا جسديا جامدا، بل إنسانيًا وسطا بين ذلك، آخذ من كلا القبيلين بنصيب، فتوافرله من ملاءمة الفطرة البشرية ما لم يتوافر لغيره، ولذلك سمى نفسه دين الفطرة، وعرف له ذلك خصومه اليوم، وعدوه المدرسة الأولى التى يرقى فيها البرابرة على سلم المدنية» (٣)

وفى سبيل تحديد موقع الوسطية الجامعة بين النافع من الموروث والنافع من الوافد، سعى الإمام محمد عبده إلى تحرير مصطلح «السلف» من أسر تيار الجمود والتقليد .. فالسلف الصالح هو المنابع الجوهرية والنقية - البلاغ القرآنى، والبيان النبوى لهذا البلاغ القرآنى - ومناهج النظر فى هذه المنابع قبل ظهور الخلاف، الذى اتسم - فى أحيان كثيرة - بشغب الفرق وتعصب المتكلمين .. لذلك، وجب التمييز بين السلفية فى الدين وثوابته، وبين المستقبلية فى فقه الواقع والمستجدات .. وفى هذا المنهاج المتميز قال الأستاذ الإمام:

«يجب تحرير الفكر من قيد التقليد، وفهم الدين على طريقة سلف هذه الأمة قبل ظهور الخلاف، والرجوع فى كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى .. والنظر إلى العقل باعتباره قوة من أفضل القوى الإنسانية، بل هى أفضلها على الحقيقة».

ومن هذا الموقع المتميز - موقع «السلفية .. العقلانية .. المستقبلية» - انتقد الأستاذ الإمام أولئك الذين يريدون تعميم السلفية لتشمل الدنيا مع الدين، والذين خاصموا - لذلك - مستجدات الواقع وعلوم المستقبل.

- فمدح «إنكارهم للبدع، وتخليصهم الدين مما أضيف إليه وليس منه»
- مع النقد «لوقوفهم عند ظواهر الألفاظ، والتقيد بها، دون التفات إلى ماتقتضيه الأصول التى قام عليها الدين وإليها كانت الدعوة ولأجلها منحت النبوة، فلم يكونوا للعلم أولياء، ولا للمدنية أحباء» (٤)

---

(٢) (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) جـ٣ ص ٣١ دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة طبعة دار الشروق ١٩٩٣م.

(٣) المصدر السابق جـ٣ ص ٢٨٧.

(٤) المصدر السابق جـ٣ ص ٣١٤.

(٥)

وفى «نظرية المعرفة»، اتخذ الأستاذ الإمام الموقف الرافض لغلوى الإفراط والتفريط .. فالفلسفة الوضعية والمادية - التى سادت التنوير الغربى - والتى وفدت إلى بلادنا - قد وقفت - فى مصادر المعرفة - عند عالم الشهادة - دون عالم الغيب - .. ووقفت - فى سبل المعرفة - عند العقل والحواس - بل لقد جعلت العقل حاسة من الحواس - ثم ألهته، عندما جعلته «مطلقا» بدلا من أن يكون «نسبيا» ولذلك رفعت شعار: «لا سلطان على العقل إلا للعقل وحده» .. وبذلك أهملت «النقل» والوجدان» ..

فجاء الإمام محمد عبده ليقدم منهاج الوسطية الإسلامية الجامعة فى نظرية المعرفة .. منهاج «الهدايات الأربع» .. هدايات: العقل .. والنقل .. والتجربة .. والوجدان .. وفى ذلك قال:

«لقد منح الله الإنسان أربع هدايات يتوصل بها إلى سعادته:

- أولاها: هداية الوجدان الطبيعى والإلهام الفطرى..
- والثانية: هداية الحواس والمشاعر..
- والثالثة: هداية العقل، التى هى أعلى من هداية الحس والإلهام..
- والهداية الرابعة: هداية الدين: فقد يغلط العقل فى إدراكه كما تغلط الحواس، وقد يهمل الإنسان استخدام حواسه وعقله فيما فيه سعادته .. فاحتاج الناس إلى هداية ترشدهم فى ظلمات أهوائهم .. وهى هداية الدين» (٥).

فتبلورت بنظرية المعرفة هذه - نظرية الهدايات الأربع - العقلانية المؤمنة .. والتجريب الذى يجعل العلوم الطبيعية سبلا لسعادة الدنيا والآخرة، وذلك عندما يتغيا التجريب فى الطبيعة اكتشاف أسرار الله فى الكون، فيجعل هؤلاء العلماء الأكثر خشية لله - سبحانه وتعالى .. كما اعتمدت هذه النظرية النقل الدينى، الذى يعرف به الإنسان، ما لا يدرك العقل كنهه وجوهره من أنباء الغيب .. مع علوم التزكية للقلوب، حتى تغالب النفس، الجوانب المادية والحيوانية لدى الإنسان.

(٦)

وفى نظرة الأستاذ الإمام إلى النهضة الأوربية الحديثة، والإنجازات العبقرية التى أحدثتها هذه النهضة فى حياة الإنسان الأوربى، أنصف الأستاذ الإمام هذه الحضارة التى اكتشفت الكثير الذى ارتقى بحياة الناس، وخففت آلامهم، ووفرلهم سبل التقدم والرفاه .. لكنه عاب سيادة الطابع المادى فى هذه النهضة الأوربية، وغلبة الطابع الدنيوى، وغيبة الدين، الذى مثل - ويمثل - الفطرة الإنسانية السوية..

فتعليقا على الحوار الفكرى والفلسفى والحضارى الذى دار بين الأستاذ الإمام وبين

---

(٥) المصدر السابق جـ ٤ ص ٤٠، ٤١.

الفيلسوف الإنجليزى الكبير «سبنسر» (١٨٢٠-١٩٠٣م) - والذى بدا فيه «سبنسر» يائسا من مستقبل الحضارة الأوربية - قال الأستاذ الإمام: «هؤلاء الفلاسفة والعلماء الذين اكتشفوا كثيرًا مما يفيد فى راحة الإنسان وتوفير راحته وتعزيز نعمته، قد عجزوا عن أن يكتشفوا طبيعة الإنسان، ويعرضوها على الإنسان حتى يعرفها فيعود إليها!.. هؤلاء الذين صقلوا المعادن حتى كان منها الحديد اللامع المضىء، أفلا يتيسر لهم أن يجعلوا ذلك الصدأ الذى غشى الفطرة الإنسانية، ويصقلوا تلك النفوس، حتى يعود لها لمعانها الروحي؟. لقد حار الفيلسوف «سبنسر» فى حال أوربا، فأظهر عجزه، مع قوة العلم! فأين الدواء؟.. إنه الرجوع إلى الدين، الدين هو الذى كشف الطبيعة الإنسانية، وعرفها إلى أربابها فى كل زمان، لكنهم يعودون فيجهلونها!»(٦)

لقد رأى الأستاذ الإمام أن مأزق النهضة الأوربية الحديثة إنما تمثل فى القطيعة المعرفية التى أقامتها حداثتها مع الموروث الدينى، فكان الطابع المادى لفلسفتها الوضعية التى وقفت عند الجانب المادى للإنسان، دون جانبه الروحى والإلهى، وعند سعادة عالم الشهادة والمعاش متجاهلة الأسئلة الفطرية للإنسان عما وراء هذه الحياة، والتى لا يجيب عنها سوى الإيمان «الديني» ولذلك، وصف المدنية الأوربية بقوله:

«إن هذه المدنية هى مدنية الملك والسلطان (القوة). مدنية الذهب والفضة مدنية الفخفخة والبهرج، مدنية الختل والنفاق، حاكمها الأعلى هو «الجنيه» عند قوم، و«الليرا» عند قوم آخرين، ولا دخل للإنجيل فى شىء من ذلك»(٧)

(٧)

ومع رفض الأستاذ الإمام المرجعية المادية الغربية - التى أخذت تزاحم المرجعية الإسلامية فى بلادنا - وتأكيده على البعد الدينى في حياة الفرد والأمة.. وتعبيره عن هذه الحقيقة بقوله:

«إن الأنفس قد أشربت الانقياد إلى الدين حتى صار طبعا فيها، فكل من طلب إصلاحها من غير طريق الدين فقد بذر بذرًا غير صالح للتربة التى أودعه فيها، فلا ينبت، ويضيع تعبه، ويخفق سعيه.. لأن سبيل الدين لمريد الإصلاح فى المسلمين سبيل لامندوحة عنها.

وإذا كان الدين كافلا بتهذيب الأخلاق، وصلاح الأعمال، وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها، ولأهله من الثقة فيه ما ليس لهم فى غيره، وهو حاضر لديهم، والعناء فى إرجاعهم إليه أخف من إحداث ما لا إلمام لهم به، فلم العدول عنه إلى غيره؟!»(٨)

مع هذا التأكيد على البعد الدينى فى النهضة الحضارية المنشودة، كان الأستاذ الإمام حريصًا كل الحرص على نفى الكهانة عن الفكر الدينى الإسلامى، وعلى نفى الثيوقراطية

(٦) المصدر السابق. جـ ٣ ص ٣١٣.
(٧) المصدر السابق. جـ٣ ص ٣٠٥.
(٨) المصدر السابق. جـ ٣ ص ١٠٩، ٣٣١.

عن الدولة الإسلامية ومؤسساتها.. والتأكيد على وجود نموذج إسلامى متميز.. نموذج «مدني» يقدم «الإسلامية» البعيدة عن الكهانة والبريئة من الثيوقراطية جميعًا.. وبعبارته: «.. فالإسلام لم يعرف تلك السلطة الدينية التى عرفتها أوربا، فليس فى الإسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة..

والأمة هى التى تولى الحاكم، وهى صاحبة الحق فى السيطرة عليه، وهى تخلعه متى رأت ذلك فى مصلحتها فهو حاكم مدنى من جميع الوجوه، ولا يجوز لصحيح النظر أن يخلط الخليفة عند المسلمين بما يسميه الإفرنج «تيوكرتيك» أى سلطان إلهى، فليس للخليفة - بل ولا للقاضى أو المفتى أو شيخ الإسلام - أدنى سلطة على العقائد وتحرير الأحكام، وكل سلطة تناولها واحد من هؤلاء فى سلطة مدنية، قدرها الشرع الإسلامى، فليس فى الإسلام سلطة دينية بوجه من الوجوه، بل إن قلب السلطة الدينية، والإتيان عليها من الأساس، هو أصل من أجل أصول الإسلام»(٩)

وحتى لا تفهم مدنية الإسلام ومدنية دولته ومؤسسات أمته على أنها نفى لإسلامية هذه الدولة ومؤسساتها، نبه الأستاذ الإمام على حقيقة:

«أن الإسلام دين وشرع، فهو قد وضع حدودا، ورسم حقوقا، ولا تكتمل الحكمة من تشريع الأحكام إلا إذا وجدت قوة لإقامة الحدود وتنفيذ حكم القاضى بالحق، وصون نظام الجماعة.. والإسلام لم يدع ما لقيصر لقيصر، بل كان من شأنه أن يحاسب قيصر على ماله، ويأخذ على يده فى عمله، فكان الإسلام: كمالا للشخص، وألفة فى البيت، ونظاما للملك، امتازت به الأمم التى دخلت فيه عن سواها ممن لم تدخل فيه»(١٠)

(٨)

وإذا كان الشيخ رفاعة الطهطاوى قد كان أول من ارتاد ميدان الدعوة إلى تحرير المرأة - بالتعليم والعمل - فإن الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده قد كان أبرز من فصل فى انتصار الإسلام لهذا التحرير، وأصل له من القرآن الكريم وسنة الرسول - ﷺ -... ويكفى - فى هذا المقام - أن نقدم سطورًا، تمثل دستورا لتحرير المرأة، ذكرها الأستاذ الإمام وهو يفسر قول الله - سبحانه وتعالى -:

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

(البقرة: ٢٢٨)

لقد قال: «هذه كلمة جليلة جدا، جمعت على إيجازها، ما لا يؤدى بالتفصيل إلا فى سفر كبير، فهى قاعدة كلية ناطقة بأن المرأة مساوية للرجل فى جميع الحقوق، إلا أمرا واحدا عبر عنه بقوله: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾.

(٩) المصدر السابق. جـ ٣ ص ٢٣٣، ٢٨٨، ٢٨٦، ٢٨٩.
(١٠) المصدر السابق. جـ ٣ ص ٢٨٧، ٢٢٥، ٢٢٦.

إن هذه الجملة تعطى الرجل ميزانا يزن به معاملته لزوجه فى جميع الشئون والأحوال، فإذا هم بمطالبتها بأمر من الأمور يتذكر أنه يجب عليه مثله بإزائه، ولهذا قال ابن عباس - رضى الله عنه - : إننى لأتزين لامرأتى كما تتزين لى، لهذه الآية.

وليس المراد بالمثل المثل بأعيان الأشياء وأشخاصها، وإنما المراد: أن الحقوق بينهما متبادلة، وأنهما أكفاء، فهما متماثلان فى الحقوق والأعمال، كما أنهما متماثلان فى الذات والإحساس والشعور والعقل، أو أن كلا منهما بشر تام له عقل يتفكر فى مصالحه، وقلب يحب ما يلائمه ويسر به ويكره ما لا يلائمه، وينفر منه فليس من العدل أن يتحكم أحد الصنفين بالآخر ويتخذه عبدا يستذله ويستخدمه فى مصالحه، ولا سيما بعد عقد الزوجية والدخول فى الحياة المشتركة التى لا تكون سعيدة إلا باحترام كل من الزوجين الآخر والقيام بحقوقه.

هذه الدرجة التى رفع النساء إليها، لم يرفعهن إليها دين سابق ولا شريعة من الشرائع، بل لم تصل إليها أمة من الأمم السابقة قبل الإسلام ولا بعده.

لقد خاطب الله تعالى النساء بالإيمان والمعرفة والأعمال الصالحات فى العبادات والمعاملات كما خاطب الرجال، وجعل لهن عليهم مثل ما جعله لهم عليهن، وقرن أسماءهن بأسمائهم فى آيات كثيرة، وبايع النبى - ﷺ - المؤمنات كما بايع المؤمنين، وأمرهن بتعلم الكتاب والحكمة كما أمرهم، وأجمعت الأمة على ما مضى به الكتاب والسنة من أنهن مجزيات على أعمالهن فى الدنيا والآخرة..

وأما قوله تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ فهو يوجب على المرأة شيئًا وعلى الرجل أشياء، ذلك أن هذه الدرجة هى درجة الرياسة والقيام على المصالح .. إن الحياة الزوجية حياة اجتماعية ولابد لكل اجتماع من رئيس .. يرجع إلى رأيه فى الخلاف، لئلا يعمل كل ضد الآخر فتنفصم عروة الوحدة الجامعة، ويختل النظام، والرجل أحق بالرياسة لأنه أعلم بالمصلحة، وأقدر على التنفيذ بقوته وماله، ومن ثم فهو مطالب شرعًا بحماية المرأة والنفقة عليها، وكانت هى مطالبة بطاعته فى المعروف.

إن المراد بالقيام - «القوامة» - هنا هو الرياسة التى يتصرف فيها المرؤوس بإرادته واختياره، وليس معناها أن يكون المرؤوس مقهورا مسلوب الإرادة لا يعمل عملا إلا ما يوجهه إليه رئيسه..

أما الرجال الذين يحاولون بظلم النساء أن يكونوا سادة فى بيوتهم، فإنما يلدون عبيدا لغيرهم»! (١١)

(٩)

أما «السياسة» - التى كتب فيها الأستاذ الإمام كثيرًا.. والتى انغمس فيها حينا .. ثم

(١١) المصدر السابق. جـ ٤ ص ٦٠٦ - ٦١١ و جـ ٥ ص ٢٠٠، ٢٠٣.

طلقها ولعنها حينا آخر - فإن جلاء موقفه منها يحتاج إلى كلمات ..

• لقد كان مزاج الرجل منحازًا للمقولة التى تقول: «كما تكونوا يولى عليكم» لذلك كان تركيزه على سياسة «الأمة»، كى تفرز «الدولة» الراشدة .. فالأمة، عنده، قبل الدولة .. والتربية «عنده» قبل السياسة .. وتربية الأمة هى السياسة الحقيقية التى دعا إليها ومارسها طوال حياته.

• لكن الرجل قد انغمس انغماسا شديدًا فى سياسة الدولة، عندما كان تحت سلطان أستاذه جمال الدين الأفغانى - سواء فى مصر أو فى المنفى - لأن الأفغانى كان من أنصار: «لا يصلح فى الشرق: كما تكونوا يولى عليكم، ولكن كما يولى عليكم تكونوا»!.. وسلطان الأفغانى على محمد عبده - وعلى كل المحيطين به - كان طاغيًا .. ولقد وصفه محمد عبده بعبارات حكيمة قال فيها: «فكأنه حقيقة كلية، تجلت لكل ذهن بما يلائمه، أو قوة روحية، قامت لكل نظر بشكل يشاكله»!..

• وأيضًا، انغمس الأستاذ الإمام فى السياسة - سياسة الدولة - بل وفى الثورة - إبان الثورة العرابية (١٨٨١-١٨٨٢) - عندما انتزعت مظاهرة عابدين - فى ٩ سبتمبر ١٨٨١م - من الخديوى توفيق (١٢٦٨-١٣٠٩هـ ١٨٥٢-١٨٩٢م) الدستور والحياة النيابية .. ثم عندما أصبح استقلال مصر مهددا بالإنذار الإنجليزى - الفرنسى للثورة .. والذى انتهى باحتلال الإنجليز لمصر فى سبتمبر ١٨٨٢م..

• وكان الساعد الأيمن للأفغانى فى «الحزب الوطنى الحر» أول الأحزاب السياسية فى الشرق - .. وكذلك فى «جمعية العروة الوثقي» المناهضة للاستعمار فى هذه المواقف، ولهذه الأسباب والملابسات، انخرط الأستاذ الإمام فى السياسة العليا .. سياسة الدولة، بما فيها من حزبيات وصراعات..

لكن مزاجه وتكوينه ومواهبه ظلت دائمًا وأبدًا مع تقديم سياسة الأمة، أى تربيتها - بإصلاح مناهج الفكر فيها، وتجديد مؤسساتها التى تصنع عقل النخبة والصفوة القائدة لها .. ولقد كان - فى ذلك - متأسيًا بالمنهج النبوى فى الإصلاح، وفى أولويات هذا الإصلاح .. ففى المرحلة المكية كان التركيز على إعادة صياغة الإنسان .. وعندما تكون الجيل القرآنى الفريد، وتبلورت الأمة الصالحة، جاءت الدولة والمؤسسات والتشريعات والجيوش والفتوحات ثمرة ناضجة وصالحة لهذا الأساس الذى صنعته التربية..

نعم .. إنه الطريق الأطول فى الإصلاح .. لكنه الأضمن فى بلوغ جوهر الإصلاح .. ولهذه الحقيقة - فى موقف الأستاذ الإمام من ألوان السياسة - كان الرجل يعيب على أصحاب المواهب فى التربية والإصلاح إضاعة أعمارهم فى السياسة الحزبية، وفى التركيز على شئون «الدولة» بدلا من تربية «الأمة» وإصلاحها .. ومن كلماته فى هذا المقام:


مصطفى كامل

«إنى أعجب لجعل نبهاء المسلمين وجرائدهم كل همهم فى السياسة، وإهمالهم أمر التربية، الذى هو كل شىء، وعليه يبنى كل شىء.

إن السيد جمال الدين (الأفغانى) كان صاحب اقتدار عجيب، لو صرفه ووجهه للتعليم والتربية لأفاد الإسلام أكبر فائدة.

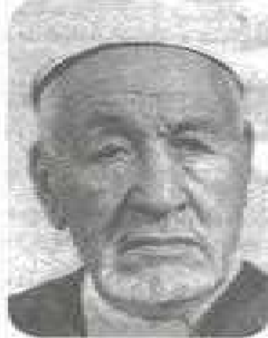
وقد عرضت عليه حين كنا فى «باريس» أن نترك السياسة ونذهب إلى مكان بعيد عن مراقبة الحكومات، ونعلم ونربى من نختار من التلاميذ على مشربنا.. فلا تمضى عشر سنين إلا ويكون عندنا كذا وكذا من التلاميذ الذين يتبعوننا فى ترك أوطانهم والسير فى الأرض لنشر الإصلاح المطلوب، فينتشر أحسن الانتشار، فقال - (السيد جمال الدين): إنما أنت مثبط»!(١٢)

«.. وإنه من سوء حظ المسلمين أن كل من كان فيه استعداد لشئ يشتغل بغيره.. فالسيد جمال الدين رجل عالم، وأعرف الناس بالإسلام وحالة المسلمين، وكان قادرًا على النفع العظيم بالإفادة والتعليم.. ولكنه رأى أن طريق التعليم والتربية بعيد، وأن الإصلاح الأقرب يكون بإصلاح الحاكم أو الحكومة.. فوجه كل عنايته إلى السياسة، فضاع استعداده هذا»(١٣)

«وكذلك الحال مع الأميرة نازلى (مصطفى فاضل) (١٣٣٢هـ-١٩١٤م) نراها مولعة بالسياسة، بينما هى قادرة على تأسيس عمل يفيد فى تهذيب البنات، وإن من حولها من الأميرات ينفق نفقات كبيرة إسرافا وتبذيرًا، ولو أنها حملتهن وأمثالهن من النساء الغنيات على إنشاء مدرسة لتربية البنات وتعليمهن، واستحضرت لهن معلمات من الآستانة أو سورية لكان خير عمل تعمله.. ولطالما ذاكرتها بهذا المعنى، وخطأتها فى الاشتغال بالسياسة.. وكان يسوءها هذا منى..»(١٤)

هكذا كان مذهب الأستاذ الإمام فى السياسة.. وفى الانحياز إلى سياسة الأمة - بالتربية - قبل سياسة الدولة، التى هى ثمرة من ثمرات الأمة، تصلح بصلاحها وتفسد بفسادها.. ولهذا المذهب والمشرب والمزاج كان اختلاف الأستاذ الإمام مع الزعيم الوطنى مصطفى كامل باشا (١٢٩١-١٣٢٦هـ-١٨٧٤-١٩٠٨م).

(١٢) المصدر السابق. جـ ١ ص ٨٠٧.
(١٣) المصدر السابق. جـ ١ ص ٨٠٨، ٨٠٩.
(١٤) المصدر السابق. جـ ١ ص ٨٠٨.


محمد البشير الإبراهيمي

(١٠)

لقد تبوأ الأستاذ الإمام مقام إمامة الإصلاح والاجتهاد والتجديد على امتداد وطن العروبة وعالم الإسلام.. فمن غانة إلى فرغانة، ومن حوض نهر الفولجا إلى جنوبى خط الاستواء كان الناس يستفتونه فى أمور دينهم، وفى إصلاح أحوالهم..

- تتلمذ عليه شيخ الإسلام فى روسيا القيصرية وإبان الثورة البلشفية العلامة موسى جار الله (١١٩٢-١٣٦٨هـ-١٨٧٥-١٩٤٩م).
- وكان المسلمون فى شبه القارة الهندية يستفتونه، ويتابعون - عبر مجلة (المنار) - تفسيره للقرآن الكريم..
- وفى أندونيسيا تكونت «الجمعية المحمدية» التى تسير على منهاجه فى الإصلاح.
- وفى بيروت - أثناء المنفى - جلس فى الجامع العمرى يفسر القرآن الكريم، فهرع إلى حلقة درسه الصفوة والنخبة، بمن فيهم قطاع من المسيحيين!..
- وفى تونس تتلمذ على يديه شيوخ من جامعة الزيتونة، فى مقدمتهم العلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور (١٢٩٦-١٣٩٣هـ-١٨٧٩-١٩٧٣م).
- وفى المغرب العربى، سلكت حركة الإصلاح على نهجه، بقيادة المجدد الشيخ علال الفاسى (١٣٢٦-١٣٩٤هـ-١٩٠٨-١٩٧٤م).
- أما فى الجزائر، التى أرادها الاستعمار الفرنسى مهداً لمدنية روحها الإنجيل، والتى أعلن كرادلة الكاثوليكية الفرنسية تشييع جنازة الإسلام فيها ١٩٣٠م.. فإن محمد عبده كان بمثابة معالم الطريق الذى سلكه أعلام «جمعية العلماء والمسلمين الجزائريين».
- الشيخ عبدالحميد بن باديس (١٣٠٧-١٣٥٩-١٨٨٩-١٩٤٠م) والشيخ محمد البشير الإبراهيمى (١٣٠٦-١٣٨٥هـ-١٨٨٩-١٩٦٥م) الذى كتب عن إمامة محمد عبده لحركة الإصلاح فى العالم الإسلامى، فقال:

«إنه لا نزاع فى أن أول صيحة ارتفعت فى العالم الإسلامى بلزوم الإصلاح الدينى والعلمى - فى الجيل السابق لجيلنا - هى صيحة إمام المصلحين الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده - رضى الله عنه - وأنه أندى الأئمة المصلحين صوتا، وأبعدهم صيتا فى عالم الإصلاح، فلقد جاهر بالحقيقة المرة، وجهر بدعوة المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها إلى الرجوع إلى الدين الصحيح، والتماس هديه من كتاب الله وسنة نبيه، وإلى تمزيق الحجب التى حجبت عنا نورهما وحالت بيننا وبين هديهما، مبينا بصوت يسمع الصم، وبلاغة تستنزل العصم، أن علة العلل فى سقوط المسلمين وتأخرهم وراء الأمم، وانحطاطهم عن تلك المكانة التى كانت لهم فى سالف الزمن هى بعدهم عن ذلك الهدى الروحانى الأعلى، وأنه لا يرجى لهم فلاح فى الدنيا ولا فى الآخرة، ولا صلاح حال يستتبع صلاح المآل، ولا عزة جانب ترد عنهم

عادية الغاصبين من الأجانب، إلا إذا راجعوا بصائرهم، واسترجعوا ذلك الهدى الذى لم يغصبه منهم غاصب، وإنما هجروه عن طوع أشبه بالكره، واختيار أشبه بالاضطرار، فباءوا بالمهانة والصغار، والضعة والخسار.

كانت تلك الصيحة الداوية من فم ذلك المصلح العظيم صاخة لآذان المتربصين بالإسلام، ولآذان المبطلين من تجار الولاية والكرامات وعبدة الأجداث والأنصاب، ولآذان الجامدين من العلماء .. وجموا لها، وملكتهم غشية الذهول علما منهم أن أول آثارها إذا تغلغلت فى النفوس هو قطع الطريق على المتربصين، وهدم سلطان المبطلين الزائف، ومكانتهم الكاذبة، وجاههم الخادع، وجفاف المراعى الخصبة التى كانوا يسيمون فيها شهواتهم ولذاتهم، ونضوب المنابع الروية من المال الذى كانوا يعلّون منها وينهلون..

لقد كان الأستاذ الإمام حجة من حجج الله فى فهم أسرار الشريعة ودقائقها وتطبيقها، وفى البصر بسنن الله فى الأنفس والآفاق، وفى العلم بطبائع الاجتماع البشرى وعوارضه ونقائصه..

ولقد كان تفسير الأستاذ الإمام للقرآن المنهاج المعجزة فى التفسير، المنبئ بظهور إمام المفسرين بلا منازع فهو أبلغ من تكلم فى التفسير بيانًا لهديه، وفهما لأسراره، وتوفيقا بين آيات الله فى القرآن، وبين آياته فى الأكوان، فبوجود هذا الإمام وجد علم التفسير وتم، ولم ينقصه إلا أنه لم يكتبه بقلمه كما بينه بلسانه، ولو فعل لأبقى للمسلمين تفسيرًا لا للقرآن بل لمعجزات القرآن..

وبالجملة، فالرجل فذ من الأفذاذ الذين لا تكونهم الدراسات وإن دقت، ولا تخرجهم المدارس وإن ترقت، وإنما تقذف بهم قدرة الله إلى هذا الوجود .. فيكون وجودهم مظهرًا من مظاهر رحمة الله بعباده وحجة للكمال على النقص، وإصلاحًا شاملاً، وخيرًا عميما .. فرضى الله عن الأستاذ الإمام»(١٥)

•••

تلك ومضات ألقيناها على المشروع الفكرى، والمنهج الإصلاحى للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، وعلى المدرسة الفكرية التى تكونت من حوله، وهى المدرسة التى عمت سائر أقطار عالم الإسلام، والتى لا تزال سلسلتها الذهبية تقود الاجتهاد والتجديد فى بلادنا حتى هذه اللحظات..

رحم الله هذه الإمام العظيم .. ونفعنا بعلمه .. وسيرته .. وبعظمته، التى جسدت سلطة العلم وسلطان العلماء .. الذى علا فوق سلطان الملوك والأمراء..

- لقد قال عنه الخديوى عباس حلمى (١٢٩١-١٣٦٣هـ-١٨٧٤-١٩٤٤م):

«إنه يدخل علىّ كفرعون»!..

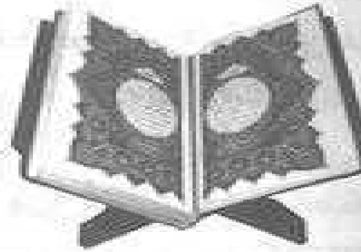
- وداعبه جمال الدين الأفغانى، فقال:

«قل لى: ابن أى ملك من الملوك أنت»؟!..

ومع هذا عاش متبتلا فى محراب العلم وميادين الإصلاح.

---

(١٥) الإمام محمد البشير الإبراهيمى (آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمى) جـ ١ ص ١٧٧، ١٧٨. جمع وتقديم د. أحمد طالب الإبراهيمى. طبعة بيروت ١٩٩٧م.



تفسير سورة البقرة



لفضيلة الأستاذ الإمام
محمد عبده

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٠) ﴾

(البقرة: ١٠٩-١١٠)

بين الله تعالى فى الآية الأولى من هاتين الآيتين أن أهل الكتاب المتعصبين لدينهم من حيث هو جنسية لهم تقوم بها منافع جنسهم، لم يكتفوا بكفرهم بالنبى ﷺ والكيد له ونقض ما عاهدهم عليه حسدا له ولقومه على نعمة النبوة، بل هم يزيدون على ذلك ما قصه تعالى بقوله:

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾

فهو بيان لما يضمرونه وما تكنه صدورهم للمسلمين من الحسد على نعمة الإسلام التى عرفوا أنها الحق وأن وراءها السعادة فى الدارين، ولكنهم شق عليهم أن يتبعوهم فتمنوا أن يحرموا هذه النعمة، ولو لم تكن ضارة به، فكيف إذا كان يعلم أن تلك النعمة إذا تمت وثبتت يكون من أثرها سيادة المحسود عليه وإدخاله تحت سلطانه، كما كان يتوقع علماء يهود فى عصر التنزيل؟! وقد جاء هذا التنبيه تتمة لقوله تعالى قبل آيات:

﴿ مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾

وقد بين الله لنا ما كان من محاولة أهل الكتاب وتحيلهم على تشكيك المسلمين فى دينهم، كقول بعضهم لبعض بأن يؤمنوا أول النهار ويكفروا آخره لعل ضعفاء الإيمان يرجعون عن الإسلام اقتداء بهم، كما سيأتى فى سورة آل عمران. وفى هذه الآية وما بعدها إشارة إلى أن لذلك بعض الأثر فى نفوس بعض المسلمين.

وفائدة هذا التنبيه أو التنبيهات: أن يعلم المسلمون أن ما يبدو من أهل الكتاب أحيانًا من إلقاء الشبه على الإسلام وتشكيك المسلمين فيه إنما هو مكر السوء، يبعث عليه الحسد لا النصح الذى يبعث عليه الاعتقاد. وقال:

﴿ حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾

ليبين أن حسدهم لم يكن عن شبهة دينية أو غيرة على حق يعتقدونه، وإنما هو خبث النفوس وفساد الأخلاق والجمود على الباطل وإن ظهر لصاحبه الحق. ولذلك قفاه بقوله:

﴿ مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾

أى بالآيات التى جاء بها النبى ﷺ وبانطباق ما يحفظون من بشارات كتبهم بنبى آخر الزمان عليه الصلاة والسلام.

ثم أمر الله تعالى المؤمنين بأن يقابلوا هذا الحسد وما ينبعث عنه بما يليق بهم من محاسن الأخلاق، فقال:

﴿ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ ﴾

ولم يقل «فاعفوا واصفحوا عنهم» لإرادة العموم، أى عاملوا جميع الناس بالصفح والعفو، فإن هذا هو اللائق بشأن المؤمنين المتقين:

﴿ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾

(الفرقان: ٦٣)

وفى أمره تعالى لهم بالعفو والصفح، إشارة إلى أن المؤمنين على قلتهم هم أصحاب القدرة والشوكة، لأن الصفح إنما يطلب من القادر على خلافه. كأنه يقول: لا يغرنكم أيها المؤمنون كثرة أهل الكتاب مع باطلهم، فإنكم على قلتكم أقوى منهم بما أنتم عليه من الحق، فعاملوهم معاملة القوى العادل، للقوى الجاهل.

وفى إنزال المؤمنين، على ضعفهم، منزل الأقوياء، ووضع أهل الكتاب على كثرتهم موضع الضعفاء، إيذان بأن أهل الحق هم المؤيدون بالعناية الإلهية، وأن العزة لهم ما ثبتوا على حقهم. ومهما يتصارع الحق والباطل، فإن الحق هو الذى يصرع الباطل، كما قلنا غير مرة، وإنما بقاء الباطل فى غفلة الحق عنه.

ثم قال تعالى:

﴿ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾

فوعدهم بأن سيمدهم بمعونته، ويؤيدهم بنصره. ثم أحالهم بقوله:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

على قدرته النافذة التى لا يشذ عنها شىء فى العالمين تأييدًا للوعد وكشفًا لشبهة من عساه يقول: أنى لهذه الشرذمة القليلة العدد، الضعيفة القوى، أن تنتحل لنفسها وصف الملوك العالمين، وتقف مع الأمم القوية موقف العاقين القادرين؟ فجاء الجواب يقول لمثل هذا المشتبه: إن الذى أوقفها هذا الموقف، ومنحها هذا الوصف، هو القادر على أن يهبها من القوة ما تتضاءل دونه جميع القوى، وهو ما يؤيد به سبحانه من يقوم بالحق ويثبت عليه:

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾

وقد فعل.

ثم بعد الوعد بالنصر، والإرشاد إلى الاعتماد فيه على القدرة، دلهم على بعض وسائل تحققه، وهى: الصلاة التى توثق عروة الإيمان، وتعلى الهمة، وترفع النفس بمناجاة الله العلى الكبير، وتؤلف بين القلوب بالاجتماع لها، والتعارف فى مساجدها. والزكاة التى تصل بين الأغنياء والفقراء فتكون باتصالهم وحدة الأمة حتى تكون كجسم واحد. فقال:

﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾

ولم تذكر إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة فى موضع من الكتاب الحكيم، إلا والمقام يقتضى الذكر لبيان فائدة خاصة لهذا الأمر لا يمكن أن تستفاد من ذكرهما فى موضع آخر.

وقد تقدم أن إقامة الصلاة ليست عبارة عن أدائها مطلقًا، وإنما هى عبارة عن القيام بحقوقها الروحية فى صورتها العملية، وذلك بالتوجه إلى الله تعالى ومناجاته والانقطاع إليه عما عداه وإشعار القلب عظمته وكبرياءه؛ فبهذا الشعور ينمو الإيمان وتقوى الثقة بالله، وتتنزه النفس أن تأتى الفواحش والمنكرات، وتستنير البصيرة فتكون أقوى نفاذًا فى الحق وأشد بعدًا عن الأهواء. فنفوس المصلين جديرة بالنصر لما تعطيها الصلاة من القوة المعنوية ومن الثقة بقدرة الله تعالى. فإذا كان قوله تعالى بعد الوعد بالنصر:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

دليلا أيد به الوعد، فقوله:

﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾

هداية إلى طريق الاقتناع التام بهذا الدليل حتى يكون وجدانا للنفس لا تزلزله الشبهات، ولا تؤثر فيه المشاغبات والمجادلات.

وقد مضت سنة القرآن بقرن الزكاة بالصلاة، لأن الصلاة لإصلاح نفوس الأفراد، والزكاة لإصلاح شئون الاجتماع. ثم إن فيها من معنى العبادة ما فى الصلاة، فإن المال - كما يقولون - شقيق الروح؛ فمن جاد به ابتغاء الله تعالى كان بذله مزيدًا فى إيمانه؛ فهى إصلاح روحى أيضًا.

وبعد أن أمر بالصلاة والزكاة فى سياق كشف شبهة من يشتبه من ضعفاء الإيمان فى نصر الله المؤمنين، وجعل السلطان لهم على الكافرين، وبيان أن إقامة هذين الركنين من وسائل النصر والسلطان فى الدنيا، بين لهم أنها من أسباب السعادة فى الآخرة، فقال:

﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾

ولكن البيان جاء فى صورة عامة، وهذا من الأساليب التى لا نكاد نجد لها فى غير القرآن نظيرًا.

ينتقل من بيان حكم إلى آخر، فيكون الثانى قائمًا بنفسه، وشاملاً للأول بعمومه، وتكون صلة العموم والخصوص هى الرابط فى النظم.

وقوله تعالى: ﴿ تَجِدُوهُ ﴾ هو كقوله:

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴾

وقالوا: إن المراد أنه يرى ويجد جزاءه. ولكن لما كان الجزاء مبنيا على أثر العمل فى نفس العامل وارتقائها به، كان الجزاء بمثابة العمل نفسه، ووصل الوعد بالجزاء على العمل بما يبعث المؤمن على الإحسان فيه، ويدل على تحققه فقال:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

فلا يخفى عليه منه شىء فتخافوا أن ينقصكم من أجوركم شيئًا.

هذه الآيات هى آخر ما أدب الله تعالى به المؤمنين فى هذا المقام على ما يخامر البعض منهم، وما يعن له من الشبه فى مستقبل الإسلام وتأييده تعالى لنبيه وإعزازه لحزبه، وكان أولها قوله عز وجل:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا ﴾

(البقرة: ١٠٤)

وكان منشأ تلك الخواطر، هو ما يرونه فى التنزيل المرة بعد المرة، وما يشاهدونه من عمل النبى ﷺ من الجزم بأن الأسباب مقرونة بمسبباتها، وأن حوادث الكون جارية على سنن مطردة. وما كان هذا الفريق من المؤمنين يعلم قبل إعلام الله تعالى إياهم بأن الإيمان الصحيح الذى يتوكل صاحبه بعد اتخاذ الأسباب والوسائل على القدرة الإلهية والعناية الغيبية، وعمل الصالحات الذى يصلح النفوس، ويؤلف مع الاعتقاد بين القلوب، هما أكبر أسباب القوة، وأقرب وسائل السيادة والسعادة. وقد جاء هذا الإرشاد والتأديب فى سياق الكلام على أهل الكتاب، لأن مكرهم السيىء كان مثارًا لبعض الخواطر فى المسلمين. فالكلام تأديب للمؤمنين ورد على اليهود.

أقسام السنة عند الدكتور/ محمد عبد الله دراز

(أ) المصالح المرسلة

المصالح المرسلة ليس معناها- كما يظن الظان- كل مصلحة يناسب في العقل ربط الحكم بها سواء أورد الشرع باعتبارها أو ورد بإلغائها، أم لم يرد فيه شاهد بقبولها ولا ردها وسواء أكانت في هذا القسم الأخير ملائمة لتصرفات الشارع في الجملة أم كانت غريبة عن مقاصده.

ذلك ما لا يقول به أحد من الأئمة فإنهم كما أجمعوا على اعتبار المصالح التي ورد الشرع بقبولها، كمصلحة حفظ النفس التي بني عليها تشريع القصاص، أجمعوا على إهدار المصالح التي ورد الشرع بإلغائها وإن بدت مناسبتها للعقول كتخصيص الأغنياء بنوع من الزواجر في الكفارات[١] أشد من غيرهم، بل أجمعوا أيضًا على إهدار المصالح المسكوت عنها- أي التي لم يرد نص على وفقها ولا على نقيضها- إذا كانت غريبة عن تصرفات الشارع لم يعهد اعتباره لجنسها، وقد ذكروا لهذا مثالًا فرضيًا، وهو أنا لو قدرنا أن الشارع لما منع القاتل من ميراث قتيله لم يعلل ذلك الحرمان بمعاملته بنقيض مقصودة فهذا المقصد على فرض أنه لم يرد نص به ولا بملائمته يعد غريبًا عن مقاصد الشارع فلا يصح بناء الأحكام عليه بأن يقال بتوريث المطلقة في مرض زوجها معاملة لزوجها بنقيض مقصوده.

وإنما الكلام في مصلحة يعلم بمجموعة أدلة من الشريعة لا بدليل معين أن الشارع اعتبر جنسها كمصلحة حفظ الشريعة التي بنى عليها السلف جمع القرآن مثلًا فهذه هي المصلحة المرسلة التي أخذ بها بعض علماء السنة على ما تقدم تقريره في السؤال وهي وإن كانت مرسلة عن الدليل المعين الخاص فإنها مؤيدة بأكثر من دليل يشهد لها.

وبهذا التقسيم يمكنك أن تعرف الحد الفاصل بين أئمة الهدى وأئمة الضلالة في أعمال الرأي المصلحي في الدين.. فأئمة الهدى لا يعتبرون من المصالح إلا ما كان مقصودًا للشارع قطعًا أو ملائمًا لمقاصده

(١) راجع الأصل الأول.

قطعًا[٢]، ولذلك تجد أكثر تعويلهم على القياس إنما هو في قسم المعاملات من الشريعة وهو القسم الذي تبين إجراء الشارع له على المعاني المناسبة الظاهرة للعقول، بخلاف أئمة الضلالة فإنهم يعتبرون كل مصلحة مناسبة في العقل- ولو كانت مناقضة لمقصود الشارع أو غير ملائمة له. ولذلك أكثر ابتداعهم في قسم العبادات، وهو القسم الذي يعلم باستقراء الشريعة أن النظر القياسي معزول عنه لأنه وضع وضعًا لا تهتدي العقول لتفاصيل علله وأسراره- فلا بد فيه من التفويض للشارع والوقوف عند الحد المنصوص.. اللهم إلا في القليل النادر منه[٣] حيث يظهر معنى مناسب لا فرق فيه بين المنصوص والمسكوت فيقاس عليه تنزيل نوازل جديدة لا يمكن الاقتصار فيها على ما سمع كمسائل السهو والنسيان في أجزاء العبادات. وفرق آخر يتبينه الناظر في المسائل التي أخذ فيها السلف بهذا الضرب من الاستدلال بالمصلحة، والمسائل التي ابتدعها المبتدعون بحجة أنها أمور مصلحية. ذلك أن المصالح التي اعتبرها الأئمة ليس فيها شيء من باب التزيين والتحسين، بل لا تخرج عن قسمي الضروري والحاجي. ثم إن الذي هو من قسم الحاجي ليس فيه زيادة تكليف، بل فيه تخفيف برفع الحرج، والحرج معلوم رفعه من الدين، والذي هو من قسم الضروري ليس فيه إثبات مقصد جديد لم يعلم قصد الشارع إليه، بل هو توسل إلى حفظ مقصد من تلك المقاصد الواجبة في الدين لا يمكن حفظه إلا بتلك الوسيلة، ومعلوم أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، أما المصالح التي يتعلل بها المبتدعة فإنها في الغالب من باب التحسينات كزخرفة المساجد والتثويب بالأذان. ثم هي ليست من باب التخفيف ورفع الحرج بل من باب التشديد بزيادة التكليف، وليست من الوسائل بل هي من المقاصد لأنها زيادة في العبادات.

وإليك نماذج من المصالح التي اعتمدها الصحابة والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم في تشريع الأحكام:-

١- كان القرآن على عهد الرسول ﷺ مكتوبًا مفرقًا في الجريد والألواح وغيرها ولم يكن مجموعًا في مصحف ولا في صحائف. فلما استشهد كثير من حفاظ القرآن في موقعة اليمامة[٤] على عهد الخليفة الأول وخيف أن تأتي الملاحم على بقيتهم أشار عليه عمر[٥] بجمع

(٢) يقول الغزالي: «كل مصلحة لا ترجع إلى حفظ مقصود فهم من الكتاب والسنة والإجماع، وكانت من المصالح الغريبة التي لا تلائم تصرفات الشرع، فهي باطلة مطرحة». (المستصفى ج١/ ١٤٣).

(٣) وهذا متفق عليه بين الأئمة الأربعة وإن اختلفوا في بعض المسائل التي يجري فيها القياس في العبادات. ومالك رحمه الله من أشدهم تحققًا وأقلهم قياسًا فيها، حتى إنه اشترط الماء المطلق في الطهارات، والنية في رفع الأحداث ومنع القراءة بغير العربية في الصلاة، ومنع إخراج القيمة في الكفارات إلى غير ذلك.

(٤) اليمامة معركة ضد المرتدين قتل فيها مسيلمة الكذاب الذي ادعى النبوة في عهد الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه وهي بين نجد والبحرين كالحجاز بين نجد وتهامه.

(٥) عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبدالعزى، أمير المؤمنين، أمه حنتمة المخزومية أخت أبي جهل، أسلم في العام السادس من النبوة وله سبع وعشرون سنة استشهد في أواخر ذي الحجة سنة ٢٣هـ: سير أعلام النبلاء ص ٧٦.

القرآن في صحائف، فأمر أبو بكر زيد بن ثابت[6] فجمعه بعد أن تهيبوا رضي الله عنهم الإقدام على ذلك وقالوا كيف نفعل شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ ثم شرح الله صدورهم لما رأوا فيه الخير وكأنهم رأوا أن النبي ﷺ وإن لم يأمر بهذا الجمع لكنه لم ينه عنه، وإنه قد حدث في عهدهم من دواعي الجمع ما لم يكن من قبل وإنه زال من الموانع ما كان يظن رخصة في هذا التفريق وهو احتمال نزول الوحي بالزيادة في الآية والسورة ما دام النبي بين ظهرانيهم وقد أصبحوا أمام نازلة جديدة يلزم الحكم فيها فاجتهدوا رأيهم فيها على ضوء القواعد الشرعية والمصالح المرعية وكذلك لما كان عهد عثمان[7] رضي الله عنه وبلغه اختلاف اهل الشام وأهل العراق وتنازعهم في القراءة أمر زيدًا مع ثلاثة من قريش أن يجمعوا هذه الصحف في مصحف واحد[8] على حرف واحد لا يحصل من قراءته اختلاف غالبًا. وهكذا كان جمعه أولا توسلا إلى مصلحة شرعية وهي حفظ الشريعة من الضياع ثم كان توحيد حرفه ثانيًا فكان توسلا إلى حفظ الشريعة من الاختلاف وكلاهما من المقاصد الواجبة لرجوعها إلى مقصد ضروري وهو حفظ الدين. وقس على ذلك كتابة العلم والسنة في عصر التابعين. فلو فرضنا أنه كان يمكن حفظ الشريعة حفظا مطردًا بغير كتابة القرآن والسنة لما وجبت كتابتهما كما أننا لو فرضنا أنه تحصل مصلحة الإمامة الكبرى بغير إمام، أو مصلحة حفظ النفوس بغير قصاص على تقدير عدم النص عليه لما وجبت الإمامة ولا القصاص ،كذلك سائر المصالح الضرورية لو تحققت بدون وسائلها لما وجبت تلك الوسائل.

٢- كانت عقوبة شرب الخمر[9] غير محددة على زمن النبي ﷺ بل كان الأمر فيها يجري مجرى الأدب والتعزير بالضرب بالجريد والعصي وغيرها. فلما كان عهد أبي بكر وكثر الشاربون توخى نحو ما كانوا يضربون في عهد النبي ﷺ فجلدهم أربعين ثم كان عمر فجلدهم كذلك حتى إذا رآهم لا ينتهون واستخفوا العقوبة وصاروا أكثر عددا مما كانوا، جمع الصحابة فاستشارهم فأشار عبدالرحمن ابن عوف بأدنى الحدود يعني حد القذف. وكذلك قال عليّ مستندًا إلى أنه إذا شرب سكر، وإذا سكر هذى، وإذا هذى افترى. فاتفقوا على حد الشارب حد القاذف، لأنه ذريعة إليه غالبًا والشريعة كثيرًا ما تقيم الأسباب مقام المسببات،

(6) زيد بن ثابت: هو زيد بن ثابت بن الضحاك الخزرجي أحد كتاب الوحي وأحد الأربعة الذي جمعوا القرآن في صدورهم في حياة الرسول ﷺ - أول مشاهده أحد وقيل الخندق وكان حامل راية بني النجار في تبوك. وأحد أصحاب الفتوى الستة كان أعلم الصحابة بالفرائض اختلف في وفاته وأكثر العلماء على أنها سنة ٤٥هـ. انظر سير أعلام النبلاء ٢/٤٢٦، الاصابة ١/٥٤٣.

(7) عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية أمير المؤمنين، ذا النورين وصاحب الهجرتين وزوج الابنتين (رقية وأم كلثوم) استشهد عام ٣٥ هـ. سير أعلام النبلاء (سير الخلفاء الراشدين) ص ١٤٩ تهذيب الكمال ١٩/٤٤٥.

(8) رواه البخاري عن زيد بن ثابت فضائل القرآن: باب جمع القرآن جـ ١٠ص ٣٨٤.

(9) حد الشارب في عهد النبي ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده الموطأ لمالك بن أنس (دار الأشربة باب/ حد الخمر ج ٢ص ١٤٢ ونيل الأوطار ج ٧ص ٢٤٢.

والمظنة مقام المتنة - كما حرمت الخلوة بالأجنبية لأنها ذريعة إلى المحرم وحرمت القليل الذي لا يسكر لأنه يجر إلى الكثير المسكر إلى غير ذلك من الأحكام فهذا وجه[10] جريان هذه المسألة على قاعدة المصالح المرسلة.

٣- قضى الخلفاء الراشدون بأن الصانع ضامن[11] لما بيده من أمتعة الناس إذا ادعى هلاكها أو ضياعها مع أن الأصل في الصناع الأمانة. ولكنهم وجدوا أن الغالب في ضياع المتاع أو تلفه أن ذلك راجع إلى صنيع العامل أو إهماله لا إلى سبب سماوي، فلو لم يضمنوا لضاعت الأموال وتطرقت الخيانة والإهمال، ثم وجدوا أن الحاجة ماسة إلى الاستصناع فلو لم يستصنعوا لشق ذلك على الخلق ولزم الحرج في الدين فأبقوا الاستصناع على إباحته كما كان في زمن النبي ﷺ وألزموا الضمان للصناع. ذلك مع احتمال إن يصادف صانعًا بريئًا ولكن هذا احتمال نادر يغتفر الضرر فيه ارتكابًا لأخف الضررين وتقديمًا لأعظم المصلحتين فقد عهد من الشريعة أن المصلحة العامة عندها مقدمة على المصلحة الخاصة.

ومن شواهد ذلك أن النبي ﷺ نهى أن يبيع حاضر لباد[12] ونهى أن تتلقى الركبان[13] حتى يهبطوا بالسلع إلى الأسواق إلى غير ذلك.

٤- أجاز بعض الأئمة تعزير[14] المتهم قبل ثبوت جنايته توسلا إلى معرفة الحقيقة عند تعذر إقامة البينات عليها. مع أن الأصل في المتهم البراءة حتى تثبت الجناية، فتعزيره[15] بمجرد الاتهام تعذيب البريء شرعًا، بل ربما كان تعذيبًا للبريء في الواقع. ولكن لما كان الغالب أن التعذيب لا يصادف البريء إذ لا يجوز الإقدام على التعزير إلا بقرائن تورث نوعًا من الظن- وكانت مصلحة استخلاص الأموال من السراق والغصاب لا يمكن تحصيلها عند خفاء البينات إلا

(10) أما أن صنع عمر رضي الله عنه هل يعد حدا لا يجوز النقض عنه ولا الزيادة؟ فجمهور الأئمة: نعم لاجماع الصحابة عليه. ومشهور مذهب الشافعية أن الحد أربعون وأن الزيادة إلى الثمانين تعزير موكل إلى رأي الامام عند وجود مقتض كالذي كان زمن عمر واستدلوا عليه بما رواه مسلم أن عليا رضي الله عنه رجع في خلافته إلى الأربعين وقال للجلاد عندما بلغها امسك جلد رسول الله ﷺ أربعين، وجلد أبوبكر الصديق، وجلد عمر ثمانين، وكل سنة وهذا يعني الأربعين أحب إلي وذهب بعض أهل العلم إلى أنه لا حد في الخمر بأربعين بعينها ولا ثمانين بعينها وانما هو التعزير بضرب غير محدود كما كان وأن ما رآه أبوبكر وعمر إنما هو اجتهاد فيما وكل اليهم من طريقة التعزير بحسب الوقائع العينية وليس تحديدا ملزما ولا اختلفوا فيه. د/ دراز

(11) تضمين الصناع- الاعتصام للشاطبي ج١ ص ٣٥٦/ ص ٣٥٧، السنن الكبرى ج٦ ص ١٢٢- نظرية المصلحة د/ حسين حامد حسان ص ١٣٧ وما بعدها مكتبة المتنبي ط/ ١٩٨١م، كنز العمال ج٣ ص١٩١ وص١٩٢، تاريخ الفقه د/ محمد يوسف موسى ص ٩١ وما بعدها

(12) رواه البخاري عن ابن عباس كتاب البيوع، باب هل يبيع حاضر لباد بغير أجر وهل يعينه ج٥ ص٢٢٥.
ورواه مسلم عن جابر كتاب البيوع، باب تحريم بيع الحاضر لباد ج٥ ص٥.

(13) رواه البخاري عن جرير كتاب البيوع، باب هل يبيع حاضر لباد بغير أجر ج٥ ص٢٢٤.
ورواه مسلم عن أبي هريرة كتاب البيوع، باب تحريم بيع الرجل على بيع أخيه

(14) أجاز مالك تعزيره بالسجن ونص أصحابه على جواز تعزيره بالضرب أيضا د/ دراز.

(15) تعزير المتهم قبل ثبوت الجناية عليه عند تعذر البينة- أصول الفقه الاسلامي ج٢ ص٨١٤ د/ وهبه الزحيلي، المدونة ج٦ ص٩٣، نظرية المصلحة ص ١٦٣.

بهذه الوسيلة اغتفر هذا الضرر الخاص المحتمل في سبيل المصلحة العامة المرجوة كما قيل به في تضمين الصناع.

نعم إقرار المتهم تحت سلطان الإرهاب والإكراه غير معمول به على الصواب ولكنه قد يستمر على الإقرار الأول بعد زوال التعزير عنه وحصول الأمن له فيؤخذ بهذا الإقرار الجديد وقد يعين المتاع المسروق أو المغصوب أو يدل على مكانه فيرد إلى ربه ذلك إلى ما في هذا التأديب من زجر غيره من المجرمين حتى يقل فسادهم.

٥- أجاز الفقهاء أن يفرض الإمام على الرعية من الضرائب ما يحفظ به الأمن بينهم ويسد به الثغور أمام أعدائهم وذلك إذا عجزت موارد بيت المال عن القيام بما يكفي هذه المصالح ولم يكن له مورد منتظر يمكن الاستقراض اعتمادا عليه.

وجعلوا للإمام أن يوزع هذه الضرائب بنسبة الحاصلات وغيرها. وهذا كله وإن كان أخذا لمال المسلم عن غير طيب نفس منه وهو الظاهر شبيه بالجزية، إلا أننا عرفنا من الشرع أنه أوجب المحافظة على أرض الإسلام أن تطأها الكفار ولو أدى ذلك إلى بذل المهج فضلا عن الأموال، وأنه أوجب إطفاء الفتن بين المسلمين ولو بمقاتلة من يبغي عليهم ويخرج على جماعتهم فالضرر اليسير اللاحق بالأغنياء في الأموال أحق أن يضحي به في سبيل هاتين المصلحتين. وأيضًا فإن الشريعة قد جعلت لولي المحجور أن يتصرف في ماله بالمصلحة لحراسة بعضه ببعض. وإمام المسلمين في نظرة لمصالحهم العامة لا يتقاصر عن درجة ذلك لولي، ولا مصلحة المسلمين تتقاصر عن مصلحة ذلك المحجور.

غير أن محل ذلك كله عند تحقق الضرورة إليه على ما وصفنا، وعند تحقق عدالة الإمام في أخذ المال وإنفاقه على الوجه المشروع. وقد نص على هذه المسألة الإمام الغزالي[١٦] وصححها ابن العربي[١٧] في أحكام القرآن.

٦- ذهب جمهور الأئمة إلى أنه لو تعاونت جماعة على قتل واحد ولم يتميز المباشر منهم قتلوا به[١٨] وهو منقول عن عمر رضي الله عنه[١٩]. وقال مالك بقطع الأيدي في اليد الواحدة، وقطع الأيدي النصاب الواحد. ووجه المصلحة الشرعية فيه أنهم لو لم يقتص منهم لاتخذ المجرمون ذلك ذريعة إلى التعاون على القتل والعدوان والسرقة، إذا علموا أنه لا حد فيه وبذلك تهدر الدماء، وتضيع الأموال وتبطل قاعدة القصاص والحدود من أصلها. ولو قيل بقتل واحد منهم أو قطعه لكان ترجيحا بلا مرجح.

(١٦) شفاء العليل للغزالي ص ٢٣٦- ٢٣٧. المستصفى للغزالي ج١ ص ٣٠٣.
(١٧) ابن العربي في تفسير آيات الأحكام ج٣ ص١٢٤٨.
(١٨) انظر مذهب جمهور الفقهاء في قتل الجماعة بالواحد في بداية المجتهد ج ٢ ص ٣٩٩ والمغني لابن قدامه ج ٩ ص ٣٦٦ ومغني المحتاج ج ٤ ص ٢٠. وتفسير القرطبي ج٢ ص ٢٥١، ٢٥٢، أعلام الموقعين ج ٣ ص١٢٦. والمهذب للشيرازي ج٢ ص ١٧٤ وسبل السلام ج ٣ ص ١٢٠٣.
(١٩) رواه البخاري عن ابن عمر، كتاب الديات، باب إذا أصاب قوم من رجل هل يعاقب أو يقتص ج١٥ ص٢٤٨.

٧- وقع إجماع من تقدم على أن الإمامة الكبرى لا تنعقد إلا لمن بلغ درجة الاجتهاد في الشريعة ليكون قائمًا مقام النبي ﷺ في أمر الدين والدنيا. ولكن العلماء فهموا أن الإجماع إنما كان على فرض عدم خلو الزمان عن مجتهد، وأن حال الخلو لم ينص عليها، فأجازوا فيها أن يتولى الإمامة من لم يبلغ رتبة الاجتهاد إذا كان من المعلوم أنه لو لم ينصب الإمام وترك الناس فوضى وقع الفساد والهرج في الأرض وكان الضرر ما هو أعظم من فوات رتبة الاجتهاد.

وكذلك قالوا في تولية المفضول مع وجود الأفضل أنه إذا احتاج المسلمون في خلع الأول إلى إثارة الفتن واضطراب الأمور لم يجز خلعه لما فيه من تفويت المقصود الأهم من الإمامة طلبًا لأمر كمالي. هذا لو تحقق أن الأمور تعود بعد سكون الفتنة إلى نصابها ويتولاها من هو أحق بها[٢٠]. فكيف لو كان للمفضول شوكة ينكل بها بالخارجين عليه ويبقى الأمر في يده.

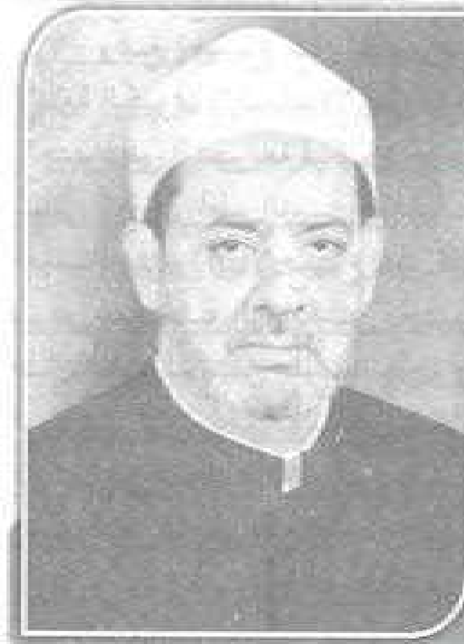
٨- اتفق الأصوليون على أنه لو تترس[٢١] الكفار بجماعة من المسلمين بحيث لو كففنا عنهم لغلب الكفار على ديار الإسلام، ولو رمينا الترس وقتلناهم اندفعت المفسدة عن كافة المسلمين قطعًا وجب رمي المترس بهم، مع كونه يلزم قتل مسلم لا جريمة له، لأن هذه المفسدة الجزئية يترتب عليها مصلحة كلية قطعية.

فهذه كلها وإن كانت نوازل جديدة لم يرد في الكتاب والسنة نص خاص بها، ولم تتقدمها قضية خاصة تشبهها من نوعها فتقاس عليها إلا أنها راجعة إلى جنس قريب من المصالح التي عهد من الشارع مراعاتها وإدارة أحكامه عليها كما تبين.

(٢٠) اختلف العلماء في اشتراط الأفضلية في الإمامة أي هل يجب أن يكون الإمام أفضل أهل زمانه أو يجوز أن يكون المفضول إماما مع وجود الفاضل؛ وتتلخص مواقفهم في مذهبين:
المذهب الأول- يشترط أن يكون الإمام أفضل أهل زمانه. وإليه ذهب طوائف من الأشاعرة وبعض المعتزلة وبعض الخوارج وجميع الرافضة من الشيعة إلا بعض الزيدية بقول البغدادي، قال أبوالحسن الأشعري يجب أن يكون الإمام أفضل أهل زمانه من شروط الإمامة ولا تنعقد الإمامة لأحد مع وجود من هو أفضل منه فإن عقدها قوم للمفضول كان المعقود له من الملوك دون الأئمة (أصول الدين ص٢٩٣- الفرق بين الفرق ص٣٥٢) ونسب إلى النظام والجاحظ، إن الإمامة لا يستحقها إلا الأفضل ولا يجوز صرفها إلى المفضول (الأحكام السلطانية ص٨ وأصول الدين ص٢٩٣).
المذهب الثاني- يرى جواز إمامة المفضول مع وجود الفاضل وأن مدار ذلك راجع إلى مصلحة المسلمين وإلى ذلك ذهب أهل السنة والجماعة وأكثر المعتزلة وأكثر الخوارج ومن الشيعة زيد بن علي والجريرية الغيرية من الزيدية وهو القول الراجح.
(٢١) مسألة التترس أصول الفقه لغير الحنفية د/ عبدالغني عبدالخالق وزملاؤه ص١٠٢ ط/ لجنة البيان العربي سنة ١٣٨٢هـ/ سنة ١٩٦٣م.

نظرات فى فكر الإمام الأشعرى (٥)

أسس علم الجدل عند الأشعرى



لفضيلة الإمام الأكبر أ. د. أحمد الطيب
شيخ الأزهر

نتناول فى هذا الفصل (١) «أسس علم الجدل» عند الإمام أبى الحسن الأشعري، ونود أن نوضح منذ البداية أننا لا نتناول ـ فى هذا الفصل ـ موضوع علم الجدل بوجه عام، ولا نتعرض لتاريخ هذا العلم من حيث النشأة والتطور إلا بالقدر الذى نفيد منه فيما نهدف إليه من بحثنا هذا، كما أننا لن نتعرض لقضاياه المختلفة التى طرحت بصورة مستوعبة ومفصلة فيما بعد الشيخ الأشعرى ـ عند إمام الحرمين الجويني، أو الإمام أبى حامد الغزالي، أو عند فخرالدين الرازي، أو عند ركن الدين العميدى الحنفى (ت. ٦١٥هـ)، أو غيرهم.

وفيما يتعلق بأسس علم الجدل عند الأشعري، فإن بحثنا حول هذا الموضوع سوف يتناول بالتحليل أربع نقاط محددة، هى على الترتيب:

١ ـ مصادر علم الجدل عند الأشعري.

٢ ـ خصائص علم الجدل عنده.

٣ ـ قواعد علم الجدل كما يعرضها الأشعري.

٤ ـ الآداب التى يلتزم بها السائل والمجيب فى طريقة الحوار.

وفيما عدا هذه المسائل الأربع، فإن هذا الفصل لا يعنى بعرضه ولا بمناقشته، اللهم إلا بالقدر الذى يتعلق بموضوع البحث من توضيح أو تمثيل، أو تحديد معنى غامض فى كلام الشيخ.

مصادر علم الجدل عند الأشعرى:

وسوف تعتمد فى فصلنا هذا ـ فى المقام الأول ـ على كتاب «مجرد مقالات الشيخ أبى

(١) نشر هذا الفصل فى مجلة كلية أصول الدين، بجامعة الأزهر بالقاهرة، العدد (٤) سنة ١٩٨٨م، صفحة ٢٤٤.

الحسن الأشعري»، وعلى الفصل المستقل الذى خصصه ابن فورك؛ لبيان آراء الشيخ، وبيان مذهبه فى الجدل بشكل عام(٢).

وتنبع القيمة الحقيقية لهذا الكتاب ـ بوصفه مصدرًا أصيلاً لآراء الشيخ ـ من أن مؤلفه أو ممليه ـ ابن فورك ـ يأخذ فى اعتباره ـ منذ أول سطر فى الكتاب ـ أن مهمته هى تقرير أصول مذهب الشيخ الأشعرى فى هذه المباحث التى ألمعنا إليها، وقد أخذ ابن فورك نفسه بمنهج علمى دقيق.. يتلخص فى نقل نصوص الشيخ فى المسائل التى يوجد له فيها نصوص، أما المسائل التى لا يوجد فيها نص، فإنه قد شرط على نفسه أن يكون كلامه فيها على حسب أصول مذهب الشيخ، بل إنه أخذ على عاتقه أن يميز الآراء المقطوع بها فى مذهب الشيخ من الآراء المختلف فيها، وأن يشير فى مواطن الاختلاف إلى ما هو أولى بمذهبه وأليق به فينبه عليه.

والصيغ التى يستعملها ابن فورك فى تبيين مذهب الشيخ ـ تدل على صدقه فى التزام هذا المنهج الذى طرحه فى السطور الأولى من مقدمة كتابه، ففى بعض المواضع يعبر ابن فورك بصيغة: «وكان يقول....»، أو «قال....»، وفى بعض آخر يعبر بصيغة: «وكان يأبى....»، أو «كان لا يأبى....»، وفى بعض ثالث يعبر بصيغة: «وكان يوجب....» أو «وكان يجيز....»، أو بصيغة: «وكان يفرق....»، أو «وكان لا يفرق....»، إلى عبارات أخرى تدل على نقل نص موثق، أو نقل رأى، أو حكاية خلاف، أو ترجيح قول على آخر.

وهذا الكتاب ـ كما يصرح المؤلف ـ هو بمثابة تصحيح لخطأ أو خلط وقع فيه بعض من تصدى لبيان مذهب الشيخ الأشعرى فى هذه المسائل، وقد أخذ المؤلف على عاتقه أن ينبه فى أثناء كتابه هذا على مواطن الغلط التى وقع فيها هؤلاء ـ وهم يقررون مذهب الشيخ فى هذه الأصول. يقول ابن فورك: «أما بعد، فقد وقفت على ما سألتم.. من شدة حاجتكم إلى الوقوف على أصول مذاهب شيخنا أبى الحسن على بن إسماعيل الأشعرى ـ رضى الله عنه ـ وما يبنى عليه أدلته وحججه على المخالفين، وأن أجمع لكم منها متفرقها فى كتبه ـ ما يوجد منها منصوصًا، وما لا يوجد منصوصًا له، أجبنا فيه على حسب ما يليق بأصوله وقواعده، وأعرفكم مع ذلك ما اختلف قوله فيه فى كتبه، وما قطع به منهما، وما لم يقطع بأحدهما ورأينا أن أحدهما أولى بمذاهبه وأليق بأصوله فنبهنا عليه.. وذكرتم أن بعض الناس قد تصدى لجمع ذلك وخلط فيه، وحكى عنه ما ليس من قوله، وخلط مع ذلك الأبواب، ولم يرتب كلا منها على حدة، ورأينا أن أحد ما يعينكم على درك ذلك، ويجمع لكم الفهم به ـ أن ترتب ذلك على الدقيق والجليل والأصول والفروع»(٣).

والشيخ الأشعرى ـ فى هذا الكتاب ـ لا شك أنه واحد ممن يشار إليهم فى علم الجدل، والمسائل التى ينقلها عنه ابن فورك فى هذا الميدان مسائل دقيقة تبلغ درجة الغموض

(٢) فصل (٦١، ٦٤) من المخطوط، ورقة ١٤٢ ـ ١٥١، ١٥٤ ـ ١٥٨، ٢١٠ ـ ٣٦١.

(٣) المجرد، لابن فورك (اللوحة ١/أ) ٦٠.

الشديد في بعض الأحيان، وبرغم وفرة هذا الكم من أصول مذهب الشيخ في علم الجدل، فإننا لا نعرف ـ على وجه اليقين ـ مدى إسهام الشيخ في هذا المجال، فهل الشيخ مسبوق في مذهبه هذا؟ أو أن هذه القواعد تتحدد على يديه لأول مرة؟ والقول الفصل في هذا الموضوع: لابد له من بحث مقارن بين قواعد هذا العلم عند الشيخ وقواعده عند أسلافه، وهذه نقطة لم نتمكن من بحثها ولا من إبداء رأى حولها؛ وكل الذى نؤكده هنا: أن الشيخ مسبوق بمن تكلم في هذا العلم بوجه عام، أي: إننا لا نستطيع أن نعد الشيخ من الرواد الأوائل الذين قعدوا لهذا العلم قواعده ومسائله، ونحن وإن كنا ـ في بحثنا هذا ـ لم نستطع تحديد نشأة هذا العلم ولا تحديد رواده الأوائل، فإننا ـ مع ذلك ـ نستطيع أن نتثبت من أن مسائل هذا العلم كانت مطروحة للبحث والنقاش قبل الأشعري، وتحت العنوان نفسه، أي: الجدل أو أدب الجدل، ودليلنا على ذلك: ما يقوله الأشعرى نفسه وهو بصدد الحديث عن مؤلفاته: «... وألفنا كتابا نقضنا به على البلخى كتابا ذكر أنه أصلح به غلط ابن الراوندى في الجدل» (٤). وابن الراوندى هذا قد ولد – حسبما تقول المصادر – سنة (٢٠٥هـ)، ومات سنة (٢٤٥هـ) (٥)، ومعنى ذلك: أن علم الجدل كان معروفا قبل وفاة الأشعرى بمئة عام على الأقل.. إن لم يكن معروفا قبل ذلك على أرجح التقديرات، وإذا فالشيخ ليس إلا حلقة من حلقات عديدة سبقته في مجال علم الجدل، لا نعلم – قليلا ولا كثيرا – مدى تأثيرها عليه ومدى تأثره بها، وكل ما نعلمه ونجزم به هو: أن الشيخ كان في عصره إماما من أئمة الجدل، وأنه قد أفرد لهذا العلم مصنفات مستقلة، وأنه ذكر منها – في القائمة التى نقلها عنه ابن عساكر – كتابين، هما: «شرح أدب الجدل»(٦) و«أدب الجدل»(٧)، وأنه قد رد على البلخي في انتقاداته على ابن الراوندي، وأن هذه المصنفات لا نعرف عنها شيئا، وأن ابن فورك – بما حفظه لنا من أصول مذهب الشيخ في هذا المجال – بما حفظه لنا من أصول مذهب الشيخ في هذا المجال – يعد المصدر الوحيد الذى يعتمد عليه في الحديث عن أسس علم الجدل عند الشيخ، لأنه المصدر الوحيد – فيما نعرف – الذى يشتمل على أدق المسائل التى طرحها الشيخ في هذا الباب، مما قد لا نجده أو لا نعرفه له في مؤلفاته الأخرى التى بين أيدينا.

خصائص الجدل عند الأشعرى:

١ – مما يجب إبرازه والاهتمام به – في فلسفة الشيخ في الجدل.. أن نبين – منذ اللحظة الأولى – أن علم الجدل عند الأشعرى هو علم إسلامى شكلا وموضوعا، وأنه لا يمت بصلة ولا بنسب إلى الجدل عند اليونان، ذلك أن الجدل الإسلامي – إن صح مثل هذا التعبير – هو قواعد عقلية بالغة الدقة؛ وضعها المفكرون المسلمون لهدف معين محدد، هو: ضبط

(٤) تبيين كذب المفتري، لابن عساكر: ١٣١، المجرد، لابن فورك، «اللوحة: ١٥١/ب».
(٥) انظر كتاب فضيحة المعتزلة، لابن الراوندي، عبدالأمير الأعسم، «بالإنجليزية».
(٦) تبيين كذب المفتري، لابن عساكر: ١٣٢.
(٧) م. ن: ١٣٤.

طريقة الحوار للوصول إلى اليقين، وهو في هذا الإطار علم إسلامى بحت، بل إن مصطلح «الجدل» ليتخذ – في مسار التاريخ العلمى عند المسلمين – منعطفا عمليا خاصا يبتعد به عن كل ما عرف لهذا المصطلح من دلالات في الفكر الغربى قديمه وحديثه، ويكاد ينحصر وجه الشبه بين الجدل في الفكر الإسلامي، والجدل في الفكر الغربى في نطاق الاسم أو التسمية فحسب، بحيث لا نجد – إذا ما تجاوزنا نطاق التسمية – أية صلات أو وشائج قربى تربط بين المنهجين (٨).

والنقطة الدقيقة الفاصلة بين الجدل عند المسلمين والجدل الأرسطي، تتمثل – أول ما تتمثل – في النتائج التى ينتهى إليها كل منهما، فالجدل عند «أرسطو» وإن كان ضربا من ضروب الاستدلال، إلا أنه يعد طريقا من الدرجة الثانية إذا ما قورن بطريق البرهان مثلا، ولسنا في حاجة إلى أن نكرر هنا ما هو معروف عن المنطق الأرسطى من حيث ترتيبه للأقيسة في سلم الإقناع ودرجاته، ولكن نشير – فقط – إلى أن «البرهان» عند «أرسطو» هو وحده المؤهل لإنتاج المعرفة اليقينية، ضرورة أن القياس البرهانى قياس مركب من مقدمات يقينية وثابتة ثبوتا قطعيا، فإذا ما افتقد القياس هذه الدرجة المحددة من يقينية المقدمات، فإنه لا يسمى برهانا عند أرسطو، وإنما يهوى في سلم اليقين درجة أو درجات حسبما تكون طبيعة المقدمات التى يتألف منها. والجدل عند أرسطو هو قياس صحيح – بمعنى أن خطوات الاستنباط فيه خطوات صحيحة ومأمونة، غير أنه لما كانت المواد التى يتألف منها القياس الجدلي.. ليست من نوع المواد التى يتألف منها القياس البرهاني، فإن القياس الجدلي – في ما يرى أرسطو – لا يمكن أن يبلغ بنا مرتبة اليقين بحال من الأحوال، وهذا أمر طبيعى ما دام المنطق الأرسطى يشترط أن يتألف القياس الجدلى من مقدمات مشهورة؛ أي: مقدمات كل رصيدها من الصدق لا يتعدى كونها متداولة على ألسنة الناس، وبعبارة أخرى: لما كانت مقدمات البرهان تملك معها – ومن داخلها – دلائل صدقها، إذ هى خالية من التناقض، ومستندة إلى حقائق الأشياء، كان البرهان لا شك طريقا موصلا لليقين، ولما كانت مقدمات الجدل تفتقر إلى هذا الرصيد الذاتي – الداخلي – من الصدق واليقين، وكان صدقها – أو قبولها – آتيا من مصدر خارج عن ذات المقدمات، كان القياس الجدلى لا يرقى بنا في سلم درجات اليقين إلا إلى مستوى الظن فقط، إذ المقدمات المحتملة لا تعطى إلا نتائج محتملة كذلك، ولو أننا انتظرنا من القياس الجدلى المركب من مقدمات احتمالية نتائج يقينية، فسوف تفقد هذه النتائج كل مسوغات ولادتها ووجودها عن هذه المقدمات. وما دام الجدل – في كل أحواله – لا ينتج إلا ظنا، فلا جرم أن يستعمل أرسطو هذا النوع من الأقيسة الجدلية في الأمور الخطابية بوجه خاص، وأن يحصر فوائد الجدل في أمور ثلاثة:

١ – الارتياض.

(٨) منطق أرسطو ٣/٦٩١ وما بعدها، وأيضا تاريخ الفلسفة اليونانية، ليوسف كرم: ١٣٠، وأيضا مقدمة كتاب الكافية في الجدل للجويني، للأستاذة فوقية حسين: ٢٦، ٢٧.

٢- الدربة على جدال الخصوم.

٣- النفع في العلوم (٩).

والشيخ الرئيس ابن سينا يتابع أرسطو في هذه التفرقة الشهيرة بين البرهان وبين الجدل: مقدمات ونتائج، فعنده أيضا: «البرهان قائم على التصديق اليقيني، والضرورة في هذا اليقين باطنية تكون عن مجرد العقل، أو عن العقل مستعينا فيه بشيء بعد كسب المبادئ، وهذه الضرورة هي الأولى الواجب قبوله، والجدل يعتمد على المشهورات- وهي مقدمات أحكامها صادرة عن القوة الوهمية لا عن الضرورة العقلية، فهي من خارج العقل، لأنها تؤخذ على سبيل مشترك فيه- إما صواب، وإما خطأ» (١٠).

ولا يخرج ابن رشد عن الخط الأرسطي في هذا الصدد (١١)، بل لا نبالغ لو قلنا: إن كل المناطقة المسلمين- الملتزمين بالمنهج المشائي- لم يخرجوا عن قاعدة أرسطو في تقسيم القياس الى: برهان، وجدل، وخطابة، وشعر، وسفسطة، وأن الجدل قياس مؤلف من المشهورات والمسلمات، وأنه أدنى مرتبة من البرهان، وأنه يفيد الظن ولا يفيد اليقين، وأن الغرض منه إقناع صنف من الناس لا يحتملون المخاطبة بالبراهين.

ويكاد ينقلب الأمر رأسا على عقب- حين نقارن بين «الجدل» بهذه الخصائص التي عرفت له عند أرسطو، وابن سينا، وابن رشد، وأغلب المناطقة المسلمين من جانب، وبين الجدل بخصائصه الجديدة التي اكتسبها عند مفكري المسلمين من أمثال الأشعري من جانب آخر.

فالخاصية الأولى للجدل عند الأشعري: تتمثل في أنه طريق من طرق النظر، وأنه إذا روعيت له شروطه، فإنه يؤدي إلى اكتشاف الحقائق، ويصل بالمتجادلين إلى اليقين. وهكذا يتخالف الجدلان منذ البداية ويتدابران، فإن كان الجدل الأرسطي لا ينتج اليقين، فإن الجدل الإسلامي- بوصفه طريقا من طرق اكتشاف الحقيقة- منتج لليقين ومؤد إليه، بل إنه من أقوى الطرق التي تقود إلى اليقين، إذ الحقيقة التي تنبثق عن نظر مشترك بين اثنين، كل منهما يحاج الآخر ويدافعه ويمانعه- لا شك أقوى من الحقيقة التي يصل إليها الناظر المتأمل المنفرد، ذلك أن الحقيقة المستولدة من رأيين متدافعين- إنما ينكشف أمرها بعد استفراغ الجهد في الإجابة على كل ما يمكن أن يشوش عليها من شبهات واردة أو محتملة، يوردها الطرف الآخر من الطرفين المتناظرين، وهذه ميزة تفتقد بدون شك في النظر من طرف واحد.

ومن أدق الفروق التي تستعلن هنا بين الجدل الأشعري والجدل السينوي: أن الجدل عند الأشعري لا يكون جدلا حقيقيا- إلا إذا كان الوصول إلى الحق هو الهدف الخالص منه عند المتجادلين، والأمر عند ابن سينا على عكس ذلك تماما، إذ «المنازعة» بين المتجادلين هي وحدها الجديرة بمعنى الجدل، بل يحدد ابن سينا معنى الجدل تحديدا صريحا بأنه: «ما يكون على سبيل المنازعة، فإنه إذا لم تكن منازعة لم يحسن أن يقال جدلا» (١٢). ولا ينبغي ان نفهم من المنازعة في نص الشيخ الرئيس، أنها الحوار من أجل الحقيقة، لأنه يقول بعد ذلك بسطر واحد: «على أن المتناظرين إذا لم يكن بينهما معاندة ما، بل كانا يتخاطبان على سبيل قدح زند الفائدة، لم يحسن أن يقال لتناظرهما جدل» (١٣).

هكذا يصبح الهدف من الجدل لدى الشيخين متعاندا كل التعاند، ضرورة تعاند الذهنين في انطلاقهما من نقطتين مختلفتين، فالحقيقة عند الأشعري ابنة البحث، والجدل ينالها بقواعده وشروطه الخاصة.

٢- الخصيصة الثانية للجدل عند الأشعري: انه منهج قرآني، لأنه إذا كان أسلوبا للوصول إلى الحق أو للدفاع عنه، فهو- بهذه الخصيصة- منهج قرآني بكل ما يحمل هذا الوصف من معنى، بل إن الأشعري لا يتردد في تسمية الجدل- بهذا المعنى- «أدبا» أدب الله به نبيه ﷺ في قوله تعالى:

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾

(النحل: ١٢٥)

وعند الأشعري- أن الجدل في القرآن جدلان: جدل حسن، وجدل مذموم، وفيصل التفرقة بينهما هو: معرفة الحق والباطل، أو تبين الخطأ والصواب، سواء كان ذلك بهدف اعتناق الحق أو اجتناب الباطل، وكل جدل بعد ذلك ساقط الفائدة، بل هو مذموم ومنهي عنه، وكان الشيخ يفسر معنى «الحسن» المقترن في بعض الآيات القرآنية بلفظ الجدل- أو ما اشتق منه- بأحد أمرين:

- إما الاسترشاد وطلب معرفة الحق، وهو ما يدخل تحت الأمر بالمعروف.
- وإما قطع العذر على المعاندين، وإقامة الحجة عليهم ببيان زيفهم وإفساد براهينهم، وهو مما يدخل تحت النهي عن المنكر، وقد

(٩) يرى الأستاذ أحمد فؤاد الأهواني أن أرسطو قد أسهب في توضيح الفائدتين الأولى والثانية، وصمت عن بيان الفائدة الثالثة. ولا يتردد الأستاذ الأهواني في اعتبار أرسطو متناقضا مع نفسه، لأنه ينتظر من الجدل نفعا في العلوم، بعد ما قد بين في كتاب البرهان أن تحصيل مبادئ العلوم: إما بالاستقراء وإما ببداهة العقول. فكيف جعل الجدل هنا نافعا في تحصيل العلوم؟! «انظر مقدمة كتاب الجدل من منطق الشفاء لابن سينا للدكتور الأهواني ١٤». وهذا الذي ذهب إليه الأستاذ الأهواني لا شك لازم على أرسطو، ولكن بشرط أن نفهم من النص السابق أن الفائدة الثالثة من فوائد الجدل عند أرسطو هي- على وجه التحديد- تحصيل مبادئ العلوم، فهاهنا فقط يحصل التناقض، لأنه إذا كانت الطرق الموصلة لمبادئ العلوم قد انحصرت عند أرسطو في طريقتين يقينيتين هما الاستقراء وبداهة العقل، فمن التناقض الواضح أن يقول بعد ذلك عن الجدل- الظني النتائج إنه أحد الطرق النافعة في تحصيل مبادئ العلوم.
غير أننا لو فهمنا كلام أرسطو هذا في ضوء نصوص ابن رشد في «تلخيص كتاب الجدل» فقد يستقيم كلام أرسطو ويخلو من التناقض الذي فهمناه منه. إن ابن رشد يرى أن صناعة الجدل- عند أرسطو- تفيد في مبادئ «الصنائع» و«العلوم» بمعنى أنها لا تكون طريقا مباشرا لاكتساب هذه المبادئ، بل بمعنى أن مبادئ العلوم والصناعات قد يعسر تصورها على المبتدئ في التعلم، فهاهنا نستطيع أن نفيد من المقدمات الجدلية المشهورة في تمرين هذا المبتدئ حتى يصير قادرا على اقتناص المبادئ بعد ذلك إما بالاستقراء وإما بفطرة العقل «تلخيص كتاب الجدل لابن رشد ٣٣».
وإذن فالقياس الجدلي هنا ليس وسيلة لتحصيل المبادئ اليقينية حتى يلزم التناقض، وإنما هو مجرد معين على الوصول إلى هذه المقدمات، ولا شك أن الجدل يكسب المجادل دربة ومرانا في هذا الصدد، وهو بهذا الوجه مفيد ونافع في العلوم، ولعل هذا هو ما قصده أرسطو من كلامه في فوائد الجدل.

(١٠) مقدمة د. الأهواني لكتاب الجدل لابن سينا ٢٠.

(١١) فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال. لابن رشد ١٩.

(١٢) الشفاء «الجدل» لابن سينا ١٨.

(١٣) م.ن.

ورد الجدل الحسن في القرآن الكريم في آيتين هما: قوله تعالى:

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾

وقوله تعالى:

﴿ ۞ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾

(العنكبوت: ٤٦)

وما عدا ذلك من المواضع فقد ذكر الجدل - في أغلبها - في معرض الذم والقدح.

وهنا أيضًا فرق من الفروق الدقيقة بين اتجاه الأشعري واتجاه غيره من المتأخرين - حتى من الأشاعرة أنفسهم - في فهم معنى «الجدل» وتفسيره، كما ورد في القرآن الكريم، فالجدل الذي يصفه القرآن الكريم بـ «الحسن» أو «بالتي هي أحسن» هو - فيما يرى الأشعري - هذا المنهج من النظر والبحث المؤدي إلى معرفة الحق وتمييزه عن الباطل، ودعوة القرآن الكريم إلى هذ النوع من الجدل - هي دعوة إلى اكتشاف الحق عبر منهج يقف جنبًا إلى جنب مع الحكمة ومع الموعظة الحسنة، ولا يعني أبدًا - فيما يراه الأشعري - أنه نوع من الاستدلال يحتل مكانة ثانوية في مراتب الحجج والبراهين، بل هو على العكس من ذلك منهج متميز بشيء غير قليل من أدب الحوار وأخلاقياته، وبصورة لا نجدها في مناهج الاستدلال الأخرى، وهذه النظرة المتأصلة إلى المنهج الجدلي - عند الإمام الأشعري - تختفي عند كثير من الأئمة المتأخرين من أمثال الغزالي أو ابن رشد أو الإمام الرازي لتحل محلها نظرة أرسطية خالصة، فالجدل المأمور به في قوله تعالى:

﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾

مفهوم عند هؤلاء الأئمة ضمن نظرية القياس الأرسطية، بل فهم الآية كلها محكوم بهذا الإطار، وانظر إلى الإمام الرازي في تفسيره هذه الآية، تجده يبدأ بحصر الحجة في أقسام ثلاثة:

- حجة قطعية تفيد اليقين، وهي الحكمة.
- ودلائل إقناعية هي الموعظة الحسنة.
- وجدل يفيد إلزام الخصوم وإفحامهم.

ثم بعد ذلك يقسم أهل العلم إلى أقسام يوازي بها أقسام الحجة في الآية الكريمة:

- فهناك أهل العلم الباحثون عن الحقيقة واليقين، وهؤلاء لا يكون الكلام معهم إلا بالحكمة التي هي البرهان المركب من الدلائل القطعية المبرأة عن احتمال النقيض.
- ثم هناك القسم الثاني: وهؤلاء هم أصحاب المشاغبة والمخاصمة، وهم يعرضون عن طلب المعرفة الحقيقية والعلوم اليقينية، والجدل هو الأسلوب المناسب لهؤلاء، لأنه يفيد الإفحام والإلزام.
- أما القسم الثالث: فهو وسط بين القسمين السابقين، وهؤلاء قوم ثبتوا على الفطرة السوية لم يرتقوا إلى القسم الأول، ولم يهبطوا إلى القسم الثاني، واللائق بهؤلاء من أنواع الحجة: الموعظة الحسنة، ثم يقول الرازي بعد ذلك: «ومن لطائف هذه الآية أنه قال:

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾

فقصر الدعوة على ذكر هذين القسمين، لأن الدعوة إن كانت بالدلائل الظنية، فهي الموعظة الحسنة، أما الجدل فليس من باب الدعوة، بل المقصود منه غرض آخر مغاير للدعوة، وهو الإلزام والإفحام، فلهذا السبب لم يقل: ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة والجدل الأحسن، بل قطع الجدل عن باب الدعوة؛ تنبيهًا على أنه لا يحصل الدعوة؛ وإنما الغرض فيه شيء آخر»[١٤].

وهذا النص واضح وضوحًا لا مرية فيه في اعتبار الجدل طريقًا لا يفيد في تحصيل اليقين، ولا في تحصيل حقائق الأمور، فهو ليس بابًا من أبواب الدعوة، وإنما هو طريق يراد منه - فقط - الإلزام والإفحام، وواضح - أيضًا - مدى الربط الوثيق بين نص ابن سينا السابق الذي حدد فيه غاية الجدل، وبين نص الرازي هنا وهو بصدد تفسير الجدل في القرآن الكريم.

وأكبر الظن - إن لم يكن أكبر اليقين - أن هذا الفهم الذي فهمه الرازي من الآية الكريمة - لم يكن ليخطر ببال الرعيل الأول من الصحابة والتابعين، وهم يفسرون هذه الآية أو وهم يتلونها. وأن هذا الذي يحرص عليه الرازي وغيره من أهل المعقول في تفسير هذه الآية - وهو أمر بعيد بل غريب عن الآية الكريمة، والذي يقارن بين فهم الأشعري وفهم الرازي للجدل في هذه الآية، لابد أن يتردد كثيرًا في قبول ما يقول الرازي حول هذا الموضوع؛ ذلك أن نظرية القياس الأرسطية حين تضع البرهان على قمة الاستدلال، فإنها تحتفظ للجدل بالمكانة الثانية مباشرة بعد مكانة البرهان، بينما تحتفظ للخطابة بالمكانة الثالثة بعد ذلك، وانظر إلى مبحث «مواد الأقيسة» في أي مصنف من المصنفات الإسلامية في المنطق الأرسطي، فسوف تجد ترتيب الأقيسة مصممًا - بناء على ما تتمتع به مادة القياس من يقين - على أن يكون البرهان في المقام الأول، ثم تتلوه بعد ذلك سلسلة من الأقيسة المؤلفة من غير اليقينيات، ويأتي الجدل في مقدمتها، لأنه مؤلف من قضايا مشهورة أو مسلمة، ولأنه ملزم ومفحم للخصم، ثم تأتي الخطابة في الدرجة السفلى بعد ذلك من درجات الإقناع؛ لأنها تتألف من قضايا مقبولة أو مظنونة، ولا شك أن درجة اليقين في هذا النوع من القضايا أقل من درجة اليقين في قضايا الجدل ومقدماته، فالقضية المشهورة أو المسلمة - عند جميع الناس، أو عند طائفة منهم والتي يتركب منها القياس الجدلي - أقوى من القضية التي لا تكون إلا ظنًا من الظنون، أو القضية التي تقبلها لأن قائلها رجل من أهل العلم أو أهل الفضل والصلاح.

وإذا فمرتبة الجدل - في المنطق الأرسطي - فوق مرتبة الخطابة، ضرورة أن مقدماته أقوى من مقدماتها، بل إن المنطق الأرسطي يستهجن استخدام الأسلوب الخطابي في مطالب اليقين، بينما لا يستهجن استعمال الأسلوب الجدلي في هذه المطالب، ما دام الهدف منه: إلزام الخصم، أو الارتياض، أو الانتفاع في العلوم، فلو كان المقصود بالجدل الوارد في الآية الكريمة هو الجدل الأرسطي، لكان قد تقدم على الخطابة.

وأمر آخر يكاد يمنع - فيما أعتقد - أن يكون الجدل الأرسطي هو الجدل المأمور به في القرآن الكريم، هذا الأمر هو عنصر

(١٤) تفسير الفخر الرازي: ٢٠/١٤٠.

المخادعة أو التضليل الذي يلحق الجدل الأرسطي بصورة أو بأخرى، فقد مر بنا أن غلبة الخصم وإفحامه وإلزامه هو غاية ما يهدف إليه الجدل، أما أن تكون القضايا المستخدمة في الجدل صادقة في أنفسها فهذا لا يهم في قليل ولا في كثير، والمنطق الأرسطي ينص - في صراحة - على أن الهدف من الجدل هو إفحام الخصم حتى لو كانت القضايا التي استعملها في القياس الجدلي قضايا كاذبة، وهذا أمر منطقي ما دام الجدل قياسًا يمكن أن يتألف من قضايا كل رصيدها من الصدق أن تكون مشهورة لدى الخصم أو مسلمة عنده، وتسليم القضايا شيء، وكونها صادقة في أنفسها شيء آخر، وإذا فلا حرج عليّ - لو كنت مجادلاً - أن أفحم خصمي بقضية كاذبة عندي لأعترف بها، فكل ما هناك هو أن يسلمها الخصم ويعترف بها، فهذا وحده كاف لتحقيق الهدف المقصود من القياس الجدلي، بل إن القضية الواحدة لو استعملت في البرهان مرة، وفي الجدل مرة أخرى - فهي في البرهان مأخوذة على أنها صادقة بذاتها أو بوسط، بينما هي في الجدل مأخوذة على أنها مشهورة فقط، وليست شيئًا آخر وراء ذلك، ولعل هذا ما عناه ابن سينا بقوله: «وليس كل ما أورد في الجدل فهو شيء بعيد عن البرهان، بل كثير من المواد البرهانية هي مذكورة في الجدل، لكنها لم تؤخذ من حيث هي صادقة بوسط أو بلا وسط، بل من حيث هي مشهورة»، ومن هنا قال المناطقة عن الجدل: «إنه حجة منتجة على سبيل ... عزة، و... أن تكون مواده مشهورة أو مسلمة عند الخصم، سواء كانت صادقة أو كاذبة» (١٥).

إن منهجًا يعلق كل قيمته على استغلال ما عند الخصم لإسكاته، غير عابئ بالحقيقة في ذاتها - لا أعتقد أن يأمر القرآن الكريم بالاعتماد عليه في الدعوة إلى سبيل الله وتبليغ الحقائق الكبرى في هذا الكون، بل أكبر الظن عندي: أن هذا النوع من الجدل هو نفسه ما نهى عنه القرآن الكريم، وتفر منه في آيات أخرى بلغت أكثر من عشرين آية تقريبًا (١٦).

٣- والخصيصة الثالثة التي يتميز بها علم الجدل عند الأشعري: هي أن هذا العلم مطبق عنده في ميدان العقيدة، أو في مباحث أصول الدين بشكل واضح، وهذه الخصيصة إنما تتضح بالمقارنة إلى تلميذه إمام الحرمين في كتابه الرائع: «الكافية في الجدل»، والذي يستعرض كتاب الجويني، هذا يجده مطبقًا تطبيقًا كاملاً في مجال الفقه واختلافات الفقهاء، بينما لا يجد الباحث في قواعد الجدل عند الأشعري إلا تطبيقات قد تكون محدودة، لكنها تدور كلها حول مجال أصول الدين، وخصوصًا فيما يتعلق بموضوع «قدم العالم» أو حدوثه..

(١٥) البرهان من كتاب الشفاء، لابن سينا ٨.

(١٦) حاشية العطار على كتاب التذهيب شرح تهذيب المنطق والكلام، للتفتازاني ٤٢٢، تيسير القواعد المنطقية، لمحمد شمس الدين إبراهيم ٢/ ٨٠، وانظر أيضًا المنطق، لمحمد رضا المظفر ٣، ٣٧٤، وما بعدها.

فلسفة الإلزام والالتزام في الإسلام

أ. د. محمد شامة

استقر في ذهن كل ذي عقل وبصيرة أن الصانع خبير بما يصنع، فهو يعلم دقائق أسراره، لأنه هو الذي أنشأه وركبه، ويدرك مدى قدرة الآلة التي صممها، ولذلك يعطي لمن يستعملها بيانًا بأجزائها، وتفصيلًا بكيفية تشغيلها، حتى لا يحملها فوق طاقتها فيفسدها، أو يستعملها في غير ما صممت له فيدمرها. هذه أمور لا يختلف عليها اثنان، ولا ينازع فيها أصحاب الإدراكات السليمة: عقل واع، وفهم سليم، ومنطق مستقيم، ونظرة لا يشوبها ضعف، ولا يعتريها سقم، ولا يتسرب إليها ضلال.

إذا كان الأمر كذلك فيما يتعلق بما يبدعه المخلوق، فأولى أن نسلم تسليمًا جازمًا بأن خالق الكون عليم بأسراره ومكوناته، خبير بتوظيف كل لما خلق له، فلا يضع مخلوقًا في بيئة لا تناسبه، ولا يطلب مما - وممن - خلق ما لا يستطيع إنجازه، فلا يكلفه بما لا يطيق، ولا يفرض عليه ما تعجز قدرته عن القيام به، ومن هنا كانت التعاليم الدينية ووجوب الالتزام بها في حدود طاقة الإنسان، والأوامر الإلهية مناسبة لقدرته واستطاعته، يقول تعالى:

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾

(البقرة: ٢٨٦)

حتى عند التكليف بأمر يستثني من الالتزام به الضعفاء الذين لا يستطيعون تأديته، أو الذين تضطرهم ظروفهم إلى عدم الالتزام به فيعفي المضطر من تناول المحرمات، يقول تعالى:

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

(البقرة: ١٧٣)

وغير ذلك من الآيات التي ترفع الحرج عن المسلم إذا اضطرته ظروفه إلى عدم الالتزام بما نهى الله عنه (١).

فلو تتبعنا التعاليم الإسلامية التي نزل بها الوحي على رسول الله ﷺ ليبلغها للناس كتكليف يجب اتباع ما أمر الله به واجتناب ما نهى عنه لوجدناها مشتملة على هذين العنصرين الأساسيين: لا تكليف إلا على المستطيع، وإعفاء المضطر من الإثم إذا ارتكب محرمًا أو ترك واجبًا دينيًا، بالإضافة إلى أن الفرائض،

(١) اقرأ ذلك في: المائدة، الأنعام، والأعراف، والنحل، والمؤمنون

سواء كانت أمرا أو نهيا لم تفرض إلا لحاجة الإنسان إليها في حياته، ولفائدة تعود عليه فردا أو جماعة. فإذا استعرضنا فريضة الوضوء، نجد أن الله فرضه بقوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾

(المائدة: ٦)

فتعقيبه على بيان هذه الفريضة بقوله:

﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ﴾

يوضح الغاية من الوضوء، وهي الطهارة، أي تخليص البدن من الأوساخ والنجاسات، وتطهيره من الشوائب والأدران التي تتسبب في الأمراض التي تصيب جسم الإنسان. ومما لا شك فيه أن وقاية الأفراد والمجتمعات من الأمراض تبدأ من النظافة، ولهذا تعني المؤسسات الصحية عناية فائقة بالإرشادات الصحية التي تقوم أساسا على تعليم الناس وتعويدهم على استخدام الماء في تنظيف أبدانهم، والمحافظة على تخليص بيئتهم من الأوساخ والقاذورات، كي يحافظوا على صحتهم وسلامة أبدانهم.

قد يتساءل المرء عن علاقة غسل هذه الأعضاء الأربعة التي وردت في الآية السابقة بالحرص على نظافة الجسم كله، وما يتعلق به، وما يحيط به!!!

ولبيان هذا اللبس تشير إلى أن الإسلام لم يقتصر في إلزام المسلم بنظافة هذه الأعضاء الأربعة فقط، بل أمره - فرضا وسنة - بغسل جميع البدن في حالات عدة: عند الجنابة، وقبل الذهاب إلى المسجد في يوم الجمعة وفي العيدين... إلخ، كما أمره بالتزين عند كل مسجد، أي عند كل لقاء مع الناس، يقول تعالى:

﴿۞يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾

(الأعراف: ٣١)

فقد روى عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل النار من كان في قلبه مثقال حبة من إيمان، ولا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر، فقال رجل: يارسول الله! إني ليعجبني أن يكون ثوبي غسيلا، ورأسي دهينا، وشراك نعلي جديدا، وذكر أشياء، حتى ذكر علاقة سوطه، أفمن الكبر ذلك يا رسول الله؟ قال: لا! ذاك الجمال، إن الله جميل يحب الجمال، ولكن الكبر من سفه الحق، وازدرى الناس»[٢].

ومن يقرأ كتب الفقه الإسلامي يجد الكثير من الأوامر والنواهي التي تدور حول المحافظة على النظافة والتخلص من كل الآفات التي تضر بصحة الإنسان، سواء كان ذلك فيما يتعلق باشتراط طهارة الثوب والمكان عند الصلاة، أو وجوب الاستنجاء، أو فرائض الغسل - والوضوء - وسننه العديدة، وغيرها من الأمور التي لو التزم بها المسلمون لصاروا من أكثر شعوب الأرض نظافة، وأشدهم حرصا على حماية الصحة العامة بالتزامهم تعاليم الإسلام فيما يتعلق بالنظافة.

وأذكر أنني كتبت كتابا عن العبادات في الإسلام باللغة الألمانية، وأعطيته لصديق ألماني، يعيش في القاهرة، ليراجعه لغويا، جاءني بعد أيام مندهشا، وقال لي: لو أن إنسانا قرأ تعاليم الإسلام فيما يتعلق بالطهارة، ولم ير المجتمعات الإسلامية لظن أن هذه المجتمعات من أرقى المجتمعات نظافة، لكن الواقع خلاف ذلك.

وهذا ينقلنا إلى بيان فلسفة الإسلام في هذا الجانب، ذلك أن تركيز فروض الوضوء على غسل الأطراف فقط، ليس لأنها أكثر من غيرها تعرضا لما يعلق في الهواء من شوائب وملوثات فحسب، بل لتعويد المسلم أيضا على طهارة كل ما يتصل به، فمن ينظف هذه الأعضاء الأربعة خمس مرات كل يوم، لن يهمل في نظافة غيرها من ملبس، ومكان وبيئة، بمنازلها وشوارعها وطرقاتها، وغير ذلك مما تقع عليه عينه، أو يتصل به اتصالا مباشرا أو غير مباشر، إذ يحافظ على نظافة البيئة، بل إنه لا يصبر على وجود ما يلوثها من قاذورات ونفايات، لأنه تعود على الطهارة، وألف النظافة، وارتاحت نفسه للمناظر الجميلة، ونفرت من كل ما يشوب هذا الجمال من أي قبح ينشأ من جنبات الملوثات ذات الروائح الكريهة.

ومما لا شك فيه أن الإحساس الذي ينبثق من الالتزام بفرائض الوضوء وتعاليم الإسلام فيما يتعلق بالنظافة والطهارة يحمي المجتمع من الأمراض، ويطبعه بطابع حضاري، يساعد على العمل والإنتاج، فتنهض الأمة، وتزدهر الحياة فيها بما يسهم في بناء دولة تتبوأ مكانة سامية بين الأمم.

قد يقال: إذا فهم هذا من غسل الأعضاء التي فرض الله طهارتها للصلاة، فكيف نفهم هذا من التيمم، وهو وضع التراب على الوجه واليدين إلى المرفقين؟

علل الفقهاء فرضية التيمم، بأنه بديل الوضوء عند تعذر استعمال الماء، كأن يكون مفقودا، أو ينتج ضرر لا يمكن تحمله عند استعماله، أو يحول بينه وبين الحصول عليه حائل لا يمكن التغلب عليه، لأن الفرض - وخاصة إذا كان يتعلق بالصلاة - إذا تعذر القيام به فلا بد أن يكون له بديل، أيا كان نوع هذا البديل، حتى لا يسقط الفرض دون تأدية عوض عنه.

وقد قيل أيضا: إنه أمر تعبدي، ولا يسأل عن علة الواجبات التعبدية، مهما كانت هيئتها وأشكالها، وعلى أي وضع كان تنفيذها والالتزام بتأديتها، فقد يكون لها أسرار وفوائد، لم يتمكن الإنسان بوسائله المحدودة من الوقوف عليها ومعرفتها. يردد المعلمون والمتعلمون - وأنا منهم - هذا التفسير للتيمم في المدرجات العلمية وفي الدروس الدينية، ويسجلونه في كتبهم وأبحاثهم، ويجيبون به من يسألهم من غير المسلمين، ويفندون به مطاعن المستشرقين على هذه الفريضة، وإن كان بعضهم - أي بعض المستشرقين - لا يقتنع بهذا التعليل، ويظل على موقفه بأن التيمم لا معنى له، ولا فائدة فيه في مجال النظافة والتطهير. وكنت دائم البحث والتفكير عن صيغة منطقية أشرح بها هذا الفرض لغير المسلمين، فهداني تفكيري إلى أن أطلق في كتابي: «العبادات في الإسلام» باللغة الألمانية على التيمم مصطلح: «الطهارة الرمزية»،

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل، ج١، ص ٣٩٩.

فلسفة الإلزام والالتزام في الإسلام

وظننت أنه اصطلاح يحد من هجوم المشتغلين بالدراسات الإسلامية من غير المسلمين.... إلى أن ساق لى القدر- بتوفيق من الله- حلا شافيا لهذه المشكلة، فقد شاهدت برنامجا حواريا فى التلفزيون مع إحدى الباحثات فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة، وكان موضوع بحثها لنيل درجة الدكتوراة عن عادات وتقاليد البدو الذين يعيشون فى أعماق الصحراء. ذكرت الباحثة أنها عاشت بينهم تسع سنوات، ولم يكن عندهم من الماء إلا ما يكفى للشرب وللطهى فقط، فلما استفسرت منها المذيعة عن كيفية الحياة بدون ماء للاستحمام والنظافة، ردت عليها بأن وسيلة النظافة فى تلك المناطق هى الرمل، فلو أخذت حفنة من الرمل ودلكت بها جسمك لزال كل ما علق به من ذرات الجو وشوائبه، بل إن الجلد يصير ناعمًا براقًا، ونظيفًا نظافة تفوق ما يحدثه الماء فى جسم الإنسان! لا تعليق!!! فالقصة أبلغ دليل على حكمة مشروعية التيمم، وفيها الإجابة على كل ما يوجهه المستشرقون إلى الإسلام من طعن فى هذه الفريضة.

من الظواهر المألوفة فى العلاقات الإنسانية أن القوى يملى إرادته على الضعيف الذى لا يجد مفرا من تنفيذ ما يأمر به صاحب السطوة والسلطان، وقد تكون هذه الأوامر- فى الغالب الأعم- لا معنى لها ولا هدف سوى السيطرة والتحكم، وإشباع هوى النفس التى تميل- غالبا- إلى التسلط على الغير، والتلذذ بآلام الناس وأوجاعهم، ذلك أن الأنانية عند الإنسان تميل إلى حب إصدار الأوامر إلى الغير، وعشق امتثال الآخر لأوامرها بصرف النظر عن سهولة تنفيذ هذه الأوامر، أو عدم إمكانية الالتزام بها، وبعيدا عما يترتب على هذا التنفيذ من نتائج وآثار، فمحور العلاقة تقوم- غالبا- على أساس إشباع الذات عند القوى، والاستمتاع بخضوع الآخر له، والالتزام بأوامره، مهما كانت العقبات والنتائج.

هذا فى الجانب الإنسانى، أما العلاقة بين العابد والمعبود، أو بين الله والإنسان، ففلسفتها تقوم على أساس أن الله عليم بخلقه، مدرك لقدراتهم، لطيف بهم، حنون عليهم، فلا يلزمهم بما لا يقدرون عليه، ولا يكلفهم بما يسبب لهم الآلام والأوجاع، ولا يلزمهم بشىء لمجرد الإلزام، بل تدور كل أوامره ونواهيه حول ماهو مستطاع؛ وفى دائرة الممكن، بالإضافة إلى أن الهدف الأساسى من إلزام الإنسان بالأوامر والنواهى الدينية هو لصالح الإنسان، كفرد، ولسلامة المجتمع الذى يعيش فيه، ولخير الناس كلهم الذين يعيشون معه على هذه الكرة الأرضية، مهما اختلفت أوطانهم وعقائدهم، فلا يعود شىء إليه من جراء إلزام الإنسان بأوامره، ولا يبغى من وراء طاعة الإنسان وامتثاله له إلا مصلحة الإنسان فى حياته فردا كان، أو عضوا فى أسرة، أو مواطنا فى مجتمع، أو مشاركا فى الحياة الإنسانية، ولذلك يجب على المسلم الامتثال لأوامر الله، لأن فى ذلك صلاحه فى الدنيا وفلاحه فى الآخرة، فكما رأينا فائدة الوضوء وآثاره على الصحة بوجه خاص، وفى الحياة بوجه عام، كذلك لو تتبعنا كل الفرائض فسوف نجد فى كل فريضة فوائد جمة، منها ما استطاع عقل الإنسان المحدودة قدرته التوصل إليها ومعرفتها، ومنها ما استأثره بعلمه سبحانه وتعالى، فقد توصل فهمنا إلى معرفة شىء يسير من فوائد الصوم، ألا وهو أنه يهذب النفس، ويصفى القلب، ويرقق المشاعر ويساعد على التحمل عند الحاجة، ويغرس فى قلوب المؤمنين الرحمة والعطف على الفقراء والمحتاجين، إذ عندما يحس المسلم بالجوع فى الصيام يتذكر ألم المحرومين، الذين ليس عندهم ما يقتاتون به، ويتصور تأوهات الأطفال واليتامى الذين يبيتون على الطوى، ويصبحون وليس عندهم ما يسدون به رمقهم، ويسكتون به صياح بطونهم من تقلصات أمعائهم الخاوية، وبطونهم المتأوهة من غياب الطعام عنها فترات تلو فترات، فقد قيل ليوسف عليه السلام: لم تجوع وأنت على خزائن الأرض؟، فقال: أخاف أن أشبع فأنسى الجائع.

هذه إحدى فوائد الصيام، شعور بحال الفقير، وإحساس بألمه، يدفع المسلم إلى مد يد العون له، وإعطائه ما يكفيه، فهو نظام يدفع للتكافل والتعاون، وأسلوب لمحاربة الفقر والعوز، وحماية لأرواح شريحة واسعة فى المجتمع من الهلاك والضياع، وسد متين- إن أحسن الاستفادة منه- يحد من فتك الفقر بالعديد من المعدمين، بالإضافة إلى أنه إجراء يسهم فى توزيع الثروة- إلى حد ما- وإزالة الفوارق بين طبقات المجتمع، وهذا يقودنا إلى بيان هذا واضحا وجليا فى فريضة الزكاة، إذ إنها الأسلوب الأمثل فى توزيع الثروة، بحيث لا تحتكر طبقة بعينها الموارد المالية، وتستأثر بها لنفسها، بينما يحرم الآخرون منها.

يحتل المال مركزًا رئيسيًا فى الحياة البشرية، سواء كان ذلك على مستوى الفرد أم فى حياة المجتمع، إذ يتوقف عليه النشاط الإنسانى فى جميع مجالات الحياة، وبه تدور عجلة تاريخ الأمم، فمن لا ثروة له، فلا تاريخ له، إذ به تقام الحضارات التى يسجلها تاريخ الأمم والشعوب، وعليه تشيد المدنيات التى يفخر أصحابها بتدوينها فى صفحات تاريخهم، وفى الوقت نفسه فهو مصدر لمعظم المآسى التى تصيب الإنسان، ومصدر كثير من الشقاء الذى يعانى منه الأفراد والجماعات، سواء كان ذلك فى مشقة الحصول عليه، أو فى كثرته كثرة تدفع إلى الفساد والطغيان.

فمن يحرم منه، ويعانى فى سبيل الحصول على قسط منه يقيم أوده، ويحفظ عليه حياته، فهو معذب فى حياته، ومن يحصل على قسط وافر عن طريق غير مشروع فقد ظلم نفسه، وذلك بإماتة الروح الإنسانية فى داخله، إذ هو قد سلب الآخرين حقوقهم عن طريق الغش والخداع، وبأسلوب يتنافى مع ما تقتضيه العدالة، وتحتمه الفضيلة على الإنسان، كذلك من ينفقه فى وجوه غير مشروعة، فهو يدمر نفسه، ويعمل على انهيار مجتمعه.

ولهذا ركزت الأديان فى كثير من تعاليمها على تنظيم التعامل مع المال، سواء فى الحصول عليه، أو فى إنفاقه، فجاءت الوصية فى الإسلام بأن يلتزم الإنسان بالأمانة فى التعامل فى مجال المال مع الآخرين، فلا يخدع أحدا، ولا يظلمه، سواء كان بائعا له، أو مشتريا منه، فإن لم يفعل، فسينتظره عقاب أليم فى الآخرة، يقول تعالى:

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

(المطففين: ١- ٥)

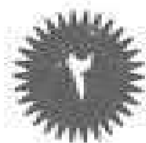
ويقول:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾

(النساء: ٢٩)

يتبع

التعايش الاجتماعي للمسلمين مع غير المسلمين



أ. د. أحمد عمر هاشم
عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر



موقف الإسلام من غير المسلمين في حال السلم

يقف الإسلام من غير المسلمين في حال السلم موقف الأمان، بل إنه لم ينه عن البر بهم ماداموا لم يقاتلوا المسلمين، وإنما ينهى عن البر بالذين قاتلوا المسلمين في دينهم وأخرجوهم من ديارهم وظاهروا على إخراجهم، فقال جل شأنه:

﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

(الممتحنة: ٨، ٩).

وينهى القرآن الكريم عن مجادلة أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن، فقال الله سبحانه:

﴿ ۞ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾

(العنكبوت: ٤٦).

وقال سبحانه:

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾

(آل عمران: ٦٤).

بل أمر الإسلام بالوفاء بالعهد حتى مع المشركين، قال تعالى:

﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾

(التوبة: ٤).

بل لو طلب المشرك من المسلم أن يجيره فعليه أن يجيره، بل ويبلغه مأمنه، كما قال الحق تبارك وتعالى:

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾

(التوبة: ٦).

ومن رعاية الإسلام لحقوق غير المسلمين رعايته لمعابدهم وكنائسهم،

ومن محافظته عليها ما جاء عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما حان وقت الصلاة وهو في كنيسة القيامة فطلب البطريق من عمر أن يصلي بها، وهم أن يفعل ثم اعتذر ووضح أنه يخشى أن يصلي بالكنيسة فيأتي المسلمون بعد ذلك ويأخذونها من النصارى على زعم أنها مسجد لهم، ويقولون: هنا صلى عمر.

ولم تتوقف معاملة المسلمين لغير المسلمين عند حد المحافظة على أموالهم وحقوقهم، بل حرص الإسلام عبر عصوره على القيام بما يحتاجه أهل الكتاب وما يحتاج إليه الفقراء منهم.

إن مثل هذه المعاملة من المسلمين لغير المسلمين تطلع العالم أجمع على أن الإسلام ربى أتباعه على التسامح، وعلى رعاية حقوق الناس، وعلى الرحمة بجميع البشر مهما اختلفت عقائدهم وأجناسهم.

وقد حفظت أجيال المسلمين قيمة هذه الرعاية الإسلامية لحقوق غير المسلمين، لأنهم ما طبقوها إلا استجابة لتعاليم القرآن الكريم، وتوجيهات الرسول العظيم عليه أفضل الصلاة والسلام، وقد طبقها في حياته فوعاها المسلمون جيلا بعد جيل، وطبقها الخلف عن السلف، والأبناء عن الآباء، فها هو ذا عبدالله بن عمر رضي الله عنهما يقول: حدث مجاهد قال: «كنت عند عبدالله بن عمر، وغلام له يسلخ شاة، فقال: يا غلام إذا سلخت فابدأ بجارنا اليهودي، وقال ذلك مرارا، فقال له: كم تقول هذا؟

فقال إن رسول الله لم يزل يوصينا بالجار حتى خشينا أنه سيورثه.

المساواة بين المسلمين وغير المسلمين في القضاء وسائر المعاملات

أقام الإسلام المساواة بين المسلمين وغير المسلمين في القضاء وفي سائر المعاملات، وقد سجل التاريخ نماذج رائدة لهذه المعاملات التي تعتبر قمة ما وصلت إليه المعاملات الإنسانية العادلة في تاريخ البشرية جمعاء.

فعندما شكا رجل من اليهود علي بن أبي طالب للخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال عمر لعلي: قم يا أبا الحسن فاجلس بجوار خصمك.

فقام علي وجلس بجواره، ولكن بدت على وجهه علامة التأثر، فبعد أن انتهى الفصل في القضية قال لعلي: أكرهت يا علي أن نسوي بينك وبين خصمك في مجلس القضاء؟ قال: لا ولكني تألمت، لأنك ناديتني بكنيتي فلم تسو بيننا، ففي الكنية تعظيم، فخشيت أن يظن اليهودي أن العدل ضاع بين المسلمين.

وتتابعت وصايا رسول الله ﷺ بأهل الذمة والمعاهدين حيث قال ﷺ: «من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عاما».(١) وقال ﷺ: «ألا من ظلم معاهدا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة»(٢).

(١) رواه البخاري، ومعنى «لم يرح رائحة الجنة»: لم يشمها.
(٢) رواه البيهقي.

ومما يدل على المساواة بين المسلمين وغيرهم فى القضاء وعلى انتشار الإسلام بسماحته وحسن معاملة المسلمين لغير المسلمين، هذه الواقعة التى حدثت بين الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه، وبين رجل من أهل الكتاب، وذلك عندما فقد الإمام على درعه، ثم وجدها عند هذا الرجل الكتابى، فجاء به إلى القاضى شريح قائلا: إنها درعى ولم أبع ولم أهب فقال القاضى شريح الرجل الكتابى قائلا: ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين؟ فقال الرجل: ما الدرع إلا درعى، وما أمير المؤمنين عندى بكاذب. فالتفت القاضى شريح إلى الإمام على رضى الله عنه يسأله: يا أمير المؤمنين هل من بينة؟ فضحك على وقال: أصاب شريح ما لى بينة، فقضى بالدرع للرجل، وأخذها ومشى وأمير المؤمنين ينظر إليه، إلا أن الرجل لم يخط خطوات حتى عاد يقول: أما أنا فأشهد أن هذه أحكام أنبياء، أمير المؤمنين يدينني إلى قاضيه فيقضى عليه؟ أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، الدرع والله درعك يا أمير المؤمنين، اتبعت الجيش وأنت منطلق إلى صفين فخرجت من بعيرك الأورق فقال الإمام على رضى الله عنه: «أما إذا أسلمت فهى لك».

وهكذا نرى كيف وصلت سماحة الإسلام إلى هذا المدى الذى يقف فيه أمير المؤمنين نفسه أمام القاضى، مع رجل من أهل الكتاب، ومع أن أمير المؤمنين على حق، فإن القاضى طالبه بالبينة، وهذا أمر جعل أمير المؤمنين يضحك لأنه على حق، وليس معه بينة، وواضح أنه المدعى، والبينة على المدعى واليمين على من أنكر، ثم تكون النهاية: أن يحكم القاضى للرجل بالظاهر، حيث لم تظهر البينة، إن هذه المعاملة السمحة، التى لايفرق فيها بين أمير وواحد من الرعية من أهل الكتاب، جعلت الرجل يفكر فى هذا الدين ويتملكه الإعجاب بهذا الدين، الذى يقف فيه أمير المؤمنين أمام قاضيه، ويحكم قاضيه عليه لا له، بظاهر ما أمامه وإن كان ذلك خلاف الواقع، فأنطق الله الرجل أن يقول: أما أنا فأشهد أن هذه أحكام أنبياء.. وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ويعترف ويقر بالحقيقة قائلا: الدرع والله درعك يا أمير المؤمنين، اتبعت الجيش وأنت منطلق إلى صفين فخرجت من بعيرك الأورق، ولكنه وقد اعترف وأحب الإسلام ودخل فيه جعل أمير المؤمنين يتنازل عن الدرع للرجل قائلا: «أما إذا أسلمت فهى لك».

إنها صورة من صور القضاء فى قمة عدالته، حيث يسوى بين هذا الرجل وبين أمير المؤمنين، وصورة سماحة الإسلام فى ذروتها حيث كان الحكم بالظاهر وعلى أمير المؤمنين لا له، إن مثل هذه المعاملة السمحة مع غير المسلمين، هى التى قربت الإسلام إلى الناس، وجعلتهم يدخلون فى دين الله أفواجا.

أما صور التعصب الممقوت التى يساء فيها إلى الإسلام، فإنها لاتدفع الناس إلى الدخول فيه، بل تدفعهم إلى النفور منه.

ومن أجل هذا كان القرآن الكريم يجلى هذه الحقيقة:

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾

(البقرة: ٢٥٦).

وأيضا لا حرج فيه ولامشقة:

﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ ﴾

(الحج: ٧٨)

إنه دعوة إلى اليسر والتسامح لا إلى العسر والغلظة:

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ ﴾

(البقرة: ١٨٥)

سماحة الإسلام مع غير المسلمين

كما راعى الإسلام السماحة والمساواة بين المسلمين وغيرهم فى القضاء، فإنه راعى السماحة فى معاملة المسلمين لغيرهم:

﴿ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴾

(الممتحنة: ٨)

بل قرر الإسلام حماية أهل الذمة والمستأمنين ماداموا فى دار الإسلام، وهذا الحق الذى قرره الإسلام لحمايتهم، يجب أن يعمل به أهل الأديان الأخرى فى معاملة الأقليات الإسلامية حماية لهم وتمكينا لعباداتهم حتى يتم التعاون بين عنصرى الأمة، ولننظر كيف أكد الإسلام على حقوق أهل الكتاب والمعاهدين، قال رسول الله: «ألا من ظلم معاهدا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ شيئا بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة» (٣).

ومن وصايا سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه «أوصيكم بذمة الله، فإنه ذمة نبيكم ورزق عيالكم».

وإرساء لأسس التعاون والتواصل بين عنصرى الأمة أحل الله طعامهم فقال:

﴿ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ ﴾

(المائدة: ٥)

وشرع الزواج بالمرأة الكتابية، ولا رابطة فى الظواهر الاجتماعية أقوى من ذلك، قال تعالى:

﴿ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾

(المائدة: ٥).

وإذا كان التسامح وحسن المعاملة وعدم التعصب أمورا مطلوبة من المسلمين فى معاملتهم مع غير المسلمين، فإنها كذلك مطلوبة من غير المسلمين مع المسلمين، حتى تتم معاملة كل طرف للآخر فى دائرة التعاون والتضامن، فلا يسىء أحدهم إلى الآخر، بل يتعاملون بروح الفريق الواحد فى الوطن الواحد.

وإن سر انتشار الإسلام، واعتناق الناس له، ودخولهم فى دين الله أفواجا، هو منهاجه الربانى، الذى أنزله رب العزة - سبحانه وتعالى - على رسوله ﷺ هذا المنهاج الذى أمر الله - تعالى - فيه بالدعوة بالحكمة، والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتى هى أحسن لأنه منهج دعوة، وليس إكراها ولا تشددا ولا عنفا قال الله تعالى:

﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾

(النحل: ١٢٥)

وما أقر الإسلام العنف ولا التشدد:

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾

(البقرة: ٢٥٦)

وقال سبحانه لموسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون الذى ادعى الألوهية:

﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴾

(طه: ٤٤)

وعندما خافا أن يبطش بهما بين الله تعالى أنه معهما يسمع ويرى ويؤيدهما فى دعوتهما، فالله سبحانه يؤيد كل داع يستجيب لمنهاجه، ويدعو بالقول اللين الذى لا ينفر، فقال تعالى ردا عليهما:

﴿ قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴾

(طه: ٤٦).

(٣) رواه البيهقى.

وقاوم الإسلام العصبية، ودعا إلى التسامح، ففى الحديث: «ليس منا من دعا إلى عصبية»(٤)، ولم يقتصر تسامح الإسلام مع أهل الكتاب فحسب، بل إنه شمل حتى المشركين فدعا الإسلام إلى منحهم الجوار والأمان حين يطلبه أحد المشركين، قال الله تعالى:

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾

(التوبة: ٦)

بل إن الإسلام يعتبر ضرب الإنسان الفاجر أو المعاهد دون ذنب أو بسبب جريمة يتبرأ الرسول من صاحبها فيقول: «ومن خرج على أمتى يضرب برها وفاجرها لا يتحاشى من مؤمنها ولا يفى لعهد ذى عهدها، فلست منه وليس منى»(٥).

وذلك حتى لا يأخذ الناس بعضهم بعضًا بالظن، وحتى لا تكون الحياة فوضى، فالإسلام لا يقر الظلم ولا العدوان، حتى على الفاجر أو من كان معاهدًا، فالفاجر فجوره على نفسه وحسابه على الله، ولسنا مطالبين حياله إلا بالأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، وبمراتب مقاومة المنكر التى أخبر بها الرسول ﷺ حين قال: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»(٦).

وليس لأحد كائنًا من كان أن يعطى نفسه الشرعية والحق فى ضرب الناس، أو إكراههم باسم الإسلام، فإنه بهذا التصرف يسىء إلى الإسلام وإلى سماحته.

عدالة الإسلام

وقد عنى الإسلام برعاية أهل الكتاب، فقرر سيدنا عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- لهم كفالة فى بيت مال المسلمين، فقد روى أنه مر بباب جماعة، فوجد سائلا يسأل -وهو شيخ كبير ضرير- فسأله قائلا: من أى أهل الكتاب أنت؟ فقال: يهودى، فسأله: ما ألجأك إلى ما أرى؟ قال: أسأل الجزية، والحاجة، والسن، فأخذ عمر بيده إلى منزله، وأعطاه، ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال له: انظر هذا وأضرابه، فوالله ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم!!

وما حدث فى تاريخ سلفنا إهانة لأحد من أهل الذمة، بل إن حدث أى تجاوز كان يعالجه الإسلام فى الحال، فعندما شكا إلى عمر أحد الأقباط ابن والى مصر: عمرو بن العاص الذى لطم ابنه عندما غلبه ابن القبطى فى السباق، وقال: أنا ابن الأكرمين، أسرع عمر رضى الله عنه بإحضار والى مصر وابنه إلى مكة فى موسم الحج، وأعطى عمر الدرة لابن القبطى وأمره أن يقتص من ابن الأكرمين، ثم قال لعمرو كلمته المأثورة: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا".

وقد أقام الإسلام العدل بين عنصرى الأمة من المسلمين وغير المسلمين، ومن رسالة سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى قاضى القضاة أبى موسى الأشعرى قال له: «آس بين الناس فى وجهك ومجلسك وقضائك، حتى لا يطمع شريف فى حيفك، ولا ييأس ضعيف من عدلك، فلا يصح التفرقة بين المتخاصمين حتى ولو كان أحدهما غير مسلم.

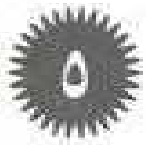
وهكذا نرى كيف عامل سلفنا أهل الكتاب، وكيف أظهروا سماحة هذا الدين الذى لا يقر العصبية، ولا يرضى الظلم حتى لغير المسلمين، بل يدعو إلى التسامح والعدل معهم.

وهذا المنهاج المتسامح للإسلام مع أهل الأديان الأخرى هو سر عظمة الإسلام، وسر ذيوعه وانتشاره فى ربوع المعمورة.

والله ولى التوفيق

(٤) رواه أبوداود. (٥) رواه مسلم. (٦) رواه مسلم.

أبعاد جديدة لمقاصد الشريعة:



مقصد حفظ إنسانية الإنسان

أ.د. عبدالمجيد النجار

نقصد بإنسانية الإنسان ماهيته التى بها كان إنسانا ولم يكن شيئا آخر، فالمقادير الكمية والكيفية التى خلقه الله تعالى عليها شكلت منه كائنا مخالفا لكل ما سواه، وهى مقادير تحمل معنى العموم إذ هى موزعة بين جميع بنى الإنسان، فمعنى الإنسانية إذن يحمل بعدا جماعيا يتجاوز الإنسان الفرد إلى الإنسان النوع، واختلال تلك الماهية باختلال مقاديرها يفضى إلى اضطراب فى حقيقة هذه الإنسانية فى بعدها الفردى وبعدها الجماعى على حد سواء، وبما أن التكليف بالدين بنى على معنى الإنسانية فى هذا الكائن كما سبق بيانه فإن الاختلال فيها يترتب عليه اختلال فى هذا التكليف، واختلال بالتالى فى الغاية من الوجود الإنسانى نفسه.

وبناء على ذلك فكما جاء التشريع الإسلامى يجعل فى أعلى مقاصده حفظ الدين الذى به تتحدد حقيقة الحياة وقيمتها، فقد جاء أيضا يجعل فى أعلى تلك المقاصد حفظ إنسانية الإنسان، إذ هى أساس التكليف بالدين.

وإذا كان النظار فى مقاصد الشريعة جعلوا من حفظ النفس مقصدا شرعيا كليا، فإننا بالرغم من أهميته كما سنشرحه تاليا لا نراه يسد مسد هذا المقصد الذى نحن بصدد شرحه؛ وذلك لأن حفظ النفس كما شرحه المقاصديون ينحو منحى النفس الفردية حفاظا عليها من التلف بأنواعه، وجل الأمثلة التى ضربوها فى شرح هذا المقصد تدل على ذلك، وعلى رأس تلك الأمثلة حفظ النفس بتشريع القصاص.

ومقصد حفظ إنسانية الإنسان الذى نشرحه فى هذا السياق أوسع من حفظ النفس بذلك المعنى، إذ هو يتعلق بحقيقة الإنسانية فى كل فرد من أفراد الإنسان، إذ هذه الحقيقة قد تتعرض للاعتداء لسبب أو آخر من الأسباب، اعتداء يمتد حكما إلى كل ذات إنسانية حتى فى حال الاعتداء على فرد بعينه أو مجموعة أفراد، وقد يمتد فعلا إلى

جماعة الإنسان بما يهدد الجنس البشرى كله بالخلل.

وبالإضافة إلى ما جاءت به الشريعة من أحكام مستفيضة توجه إلى حفظ إنسانية الإنسان كما سنشرحه لاحقا مما يرشح ذلك إلى أن يكون مقصدا مستقلا، فإن مما يدفعنا إلى أن نفرد هذا المقصد الشرعى بعنوان خاص به ما آل إليه الوضع الإنسانى اليوم من اعتداء سافر على إنسانية الإنسان، سواء على مستوى فلسفي ثقافي، أو على مستوى عملي واقعي، فمن الفلسفات العدمية والعبثية التى تهدر الغاية من الوجود الإنسانى من أصله، إلى الوجودية التى تهدر معنى الثبات فى الماهية الإنسانية وتدعى إمكان التغير المستمر فيها، إلى التشريعات التى تلغى الفروق بين الجنسين وتشرع بناء على ذلك للزواج المثلي، إلى الهندسة الوراثية التى تسعى إلى الاستنساخ البشري، فهلا يكون من الواجب إذن أن نبرز الحفاظ على إنسانية الإنسان مقصدا شرعيا أساسيا من مقاصد الشريعة الإسلامية تتوقف عليه حقيقة الحياة الإنسانية ومعناها وقيمتها وغاية وجودها؟

وحفظ إنسانية الإنسان إنما يكون بحفظ مقوماتها التى تشكل حقيقتها. وهذه المقومات هى فى معرض تعددها تجتمع عندما يكون به الإنسان إنسانا فى بعديه المادى والروحى على حد سواء، وهى فى تفصيلها قد تتلخص فى أربع مقومات أساسية هي: الفطرة متمثلة فى عناصر التكوين الإنسانى ماديا ومعنويا، وغائية الحياة التى تشعر الإنسان بحقيقة حياته وقيمة وجوده، والإحساس بالكرامة والعزة الذى بدونه يكون الذل والمهانة والحقارة، والحرية التى تثمر الشعور بالذات وتدفع إلى الفعل. فأيما مقوم من هذه المقومات انهدم فى الكيان الإنسانى يكون قد انهدم بانهدامه جزء من إنسانيته، فإذا ما انهدمت جميعا تلاشى المعنى الحقيقى للإنسانية، وانهدم ما يترتب عليها من تكاليف؛ ولذلك فقد جاءت الشريعة تعمل على حفظ هذه المقومات حفظا لإنسانية الإنسان، وحفظا من وراء ذلك لأن يقوم الإنسان بما كلف به من مهمة الخلافة.

حفظ الفطرة الإنسانية

لقد كان الإمام ابن عاشور سباقا إلى إدراك أن الحفاظ على الفطرة الإنسانية هو من المقاصد العالية للشريعة الإسلامية، وعقد فصلا لبيان ذلك فى كتابه مقاصد الشريعة ترجم له بقوله: «ابتناء المقاصد على وصف الشريعة الأعظم وهو الفطرة، بل قد جعل ذلك الفصل فى فاتحة القسم الذى خصصه لشرح المقاصد الشرعية العامة، واحتفل بمقصد حفظ الفطرة احتفالا كبيرا لم نجده عند غيره من الدارسين، وقال فى بيان أهميته: «إذا أجدنا النظر فى المقصد العام من التشريع الذى سيأتى بحثه نجده لا يعدو أن يساير حفظ الفطرة والحذر من خرقها واختلالها»[١]. ونحدد تاليا المعنى المقصود بالفطرة، ثم المسالك التى منها يمكن أن يتم حفظها استنتاجا من الأحكام الشرعية التى جاءت من أجل تحقيق هذا المقصد العام.

(١) ابن عاشور ـ مقاصد الشريعة: ٢٠٢.

ا ـ الفطرة الإنسانية

فطرة الإنسان هى البنية التى خلق عليها فى بعديها المادى والروحي، فالإنسان خلق على تركيب معين فى جسمه، وعلى بناء فى نفسه يتقوم بمجموع من العواطف والغرائز والأحاسيس، وعلى هيئة فى عقله تحمل استعدادات يدرك بها حقائق الأشياء، وعلى علاقة محددة بين ذينك العنصرين المادى والنفسى تتكون منها وحدة متفاعلة لا يتوفر عليها أى مخلوق آخر، ومجموع كل ذلك هو الفطرة التى خلق عليها الإنسان، والتى على أساسها تم تكليفه بالدين.

وقد شرح ابن عاشور الفطرة بقوله: «الفطرة: الخلقة، أى النظام الذى أوجده الله فى كل مخلوق، ففطرة الإنسان هى ما فطر ـ أى خلق ـ عليه الإنسان ظاهرا وباطنا، أى جسدا وعقلا، فمشى الإنسان برجليه فطرة جسدية، فمحاولة أن يتناول الأشياء برجليه خلاف الفطرة، واستنتاج المسببات من أسبابها والنتائج من مقدماتها فطرة عقلية، فاستنتاج الشيء من غير سببه خلاف الفطرة العقلية»[٢]، وهكذا يبدو أن فطرة الإنسان تشمل البناء التكويني الذى بنى عليه، كما تشمل المطالب التى يطلبها ذلك البناء، فغريزة حب المال هى من فطرة الإنسان، والسعى العملى لتحصيل المال استجابة لتلك الغريزة هو أيضا جزء من تلك الفطرة.

وإذا كانت الفطرة الإنسانية خلقة إلهية أرادها الله تعالى قدرا له ليرتب عليه التكليف، فإن الإنسان بمقتضى إرادته الحرة التى هى جزء من فطرته أيضا قد يعمل على الاعتداء على تلك الفطرة بمحاولة تغييرها، أو بصدها عن ابتغاء مطالبها، أو بتحريف تلك المطالب عن طبيعتها كتحريف مطلب الغريزة الجنسية بالشذوذ الجنسي، أو بإحداث خلل فى التوازن الذى بنيت عليه كالتوازن بين الجسم والروح. وهذا الاعتداء على الفطرة بوجوهه المختلفة ينتهى كله إن قليلا أو كثيرا إلى خلل فى تحمل التكليف الدينى الذى بنيت الفطرة من أجله، وقدرت بحسبه.

وحفظ الفطرة الذى هو كما تبينه فى هذا المقام مقصد شرعى كلي يعنى المحافظة على الخلقة الإنسانية كما قدرها الله تعالي، وذلك من حيث طبيعة تركيبها، أومن حيث التوازن بين مكوناتها، أو من حيث تلبية مطالبها، سواء تعلق ذلك بالبعد المادى فى الفطرة، أو بالبعد الروحي فيها. فالمحافظة على الجسم فى مكوناته المختلفة، وفى أعضائه كما خلق عليها ذكورة أو أنوثة، هو حفظ للفطرة، وتلبية المطالب الجسمية إشباعا للغرائز والشهوات هو من باب حفظ الفطرة، والموازنة فى إشباع تلك المطالب بين مقتضيات الجسم ومقتضيات الروح يدخل ضمن الحفاظ على الفطرة. وقد جاءت الشريعة الإسلامية بأحكام كثيرة تهدف كلها إلى حفظ الفطرة، مما يدل على أن هذا الحفظ هو مقصد شرعي يندرج ضمن مقصد أعلى هو حفظ إنسانية الإنسان.

ب ـ مسالك حفظ الفطرة

تنوعت أحكام الشريعة المتعلقة بحفظ الفطرة الإنسانية وتعددت، ولكنها ترجع

(٢) ابن عاشور ـ مقاصد الشريعة: ١٩٨.

فى معرض تعددها وتنوعها إلى الانتظام فى مسالك محددة تنتهى كلها إلى تحقيق معنى الحفظ ، ولعل من أهم تلك المسالك ما يلي:

أولا ـ حفظ الفطرة من التبديل:

جاءت أحكام شرعية كثيرة تأمر بالحفاظ على فطرة الإنسان على نحو ما خلقت عليه من وضع ، وتمنع أن يطالها التبديل . ولعل من أجمع ما جاء فى ذلك قوله تعالى:

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾

(الروم: ٣٠)

فنفى التبديل لخلق الله أى الفطرة التى فطر الناس عليها هو نفى يحمل معنى النهى كما نبه إليه صاحب التحرير والتنوير فى قوله: «جملة لا تبديل لخلق الله معترضة لإفادة النهى عن تغيير خلق الله فما أودعه الفطرة ، فتكون لا تبديل لخلق الله خبرا مستعملا فى معنى النهى على وجه المبالغة كقوله: لا تقتلوا أنفسكم»(٣).

وقد جاء فى الشريعة النهى عن تغيير خلق الله تعالى المقصود به الفطرة نهيا مطردا ، يتناول أحيانا مبدأ التغيير من أساسه ، ويتناول أحيانا أخرى مفردات التغيير فى الخلقة على وجه التفصيل . ومما جاء عاما فى ذلك إضافة إلى الآية السالفة قوله تعالى:

﴿ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ﴾

(النساء: ١١٩)

فقد جاءت الآية فى ذم المشركين بما يقومون به من أعمال شركية من بينها تغيير خلق الله فى الأنعام ، وإذا كان هذا النهى مشددا فيما يتعلق بالأنعام ، فإنه يكون أكثر شدة فيما يتعلق بالإنسان .

ويدخل فى هذا السياق النهى الشرعى المشدد عن الخصاء للإنسان بصفة خاصة ، ولكل الحيوانات بصفة عامة ، فقد روى عن ابن عمر أنه قال: «نهى رسول الله ﷺ عن إخصاء الخيل والبهائم» وقال: «فيها نماء الخلق»(٤) . وقد اتفق العلماء على تحريم خصاء الإنسان واعتباره إحدى الكبائر ، وهو ما قرره القرطبى فى قوله: «ولم يختلفوا (أى العلماء) أن خصاء بنى آدم لا يحل ولا يجوز ، لأنه مثلة وتغيير لخلق الله تعالى»(٥) ، وإنما كان ذلك لأن فى هذا الصنيع اعتداء على الفطرة التى فطر الإنسان عليها .

ومما جاء من نهى مغلظ عن تغيير الفطرة قوله ﷺ: «لعن الله الواشمات والمستوشمات ، والنامصات والمتنمصات والمتفلجات للحسن ، المغيرات خلق الله»(٦) ، وقد قال القرطبى فى شرح هذا النهى: «وهذه الأمور كلها قد شهدت الأحاديث بلعن فاعلها وأنها من الكبائر ، واختلف فى المعنى الذى نهى لأجلها ، فقيل لأنها من باب التدليس ، وقيل: من باب تغيير خلق الله تعالى كما قال ابن مسعود

(٣) ابن عاشور ـ التحرير والتنوير ٩٣/٢١.
(٤) رواه أحمد: مسند عبدالله بن عمر.
(٥) القرطبى ـ الجامع لأحكام القرآن ٣٩١/٥.
(٦) رواه البخارى: كتاب اللباس ، باب المتفلجات للحسن.

وهو أصح»(٧) ، فهذه الأفعال إنما حرمت بهذا النهى المشدد حفظا للفطرة الإنسانية فى مظهرها الجسمى ليبقى كل ما خلقه الله تعالى على نحو ما خلق عليه .

ومن هذا الباب أيضا ما جاء فى الشريعة من نهى تشبه الرجال بالنساء ، فقد روى عنه ﷺ قوله: «ليس منا من تشبه بالرجال من النساء ، ومن تشبه بالنساء من الرجال»(٨) ، وهذا التشبه المنهى عنه يشير إلى محاولة الانسلاخ من الأنوثة إلى الرجولة ، أو من الرجولة إلى الأنوثة ، ويشمل ذلك التشبه الجسمي ، كما يشمل التشبه النفسى فى العواطف والغرائز ، ولهذا الفعل مظاهر كثيرة فى عصرنا الحاضر انتهت إلى الانسلاخ الكلى من جنس إلى آخر بالعمليات الجراحية ، بل قد وصل إلى محاولة تبديل الخلقة الإنسانية بالاستنساخ البشري ، وهو ما يدخل كله من باب أولى تحت المنع الشرعى حفظا للفطرة الإنسانية .

وإذا كان الاعتداء على الفطرة الإنسانية فى بعدها الجسمى أمرا منهيا عنه على هذا النحو من التغليظ ، فإن النهى عن الاعتداء على الفطرة النفسية هو أشد غلظة ، وذلك لما يترتب عليه من الآثار الأكثر فداحة ، والأشد إخلالا بالمهمة التى خلق الإنسان من أجلها ، إذ هذه المهمة وهى عبادة الله وخلافته فى الأرض تقوم أول ما تقوم على العنصر الروحى للإنسان ، فإذا طمست الفطرة فيه تعطلت المهمة بأكملها .

ومما جاء من نهى عن الاعتداء على الفطرة النفسية بالتغيير أو بالطمس الذى يشبه التغيير ما تـوارد مطردا فى القرآن الكريم من نكير شديد على أولئك الذين خلق الله فطرتهم النفسية على استعداد للنظر فى الآيات الكونية ليخلصوا منها إلى معرفة الحق ، ولكنهم يهدرون ذلك الاستعداد بطمسه بالشهوات الغالية ، أو بالتعالى والتكبر ، أو بالتقليد الأعمى للآباء والأجداد ، فينتهى أمرهم إلى ما يشبه الإلغاء لتلك الفطرة الممكنة من معرفة الحق ، فإذا هو الضلال الذى يكاد يسلخهم من صفتهم الإنسانية ليساويهم بالأنعام التى لم تخلق على تلك الفطرة ، أو ليجعلهم أقل منها درجة ، وأكثر منها ضلالا .

ومن ذلك ما جاء فى قوله تعالى عن المعتدين على الفطرة النفسية:

﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾

(الفرقان: ٤٤)

وقوله تعالى:

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

(الأنفال: ٢٢)

فهؤلاء إنما وقع التشنيع عليهم على هذا النحو لأنهم غيروا فطرتهم التى خلقوا عليها مستعدة للنظر والتأمل ، وكأنما هم بذلك قد غيروا من تلك الفطرة بما جعلهم يشبهون الأنعام والدواب من حيث إنها ليست مخلوقة على هذه الفطرة الاستعدادية الممكنة من

(٧) القرطبى ـ الجامع لأحكام القرآن ٣٩٢/٥.
(٨) أخرجه أحمد: مسند عبدالله بن عمرو بن العاص.

الوصول إلى الحقيقة.

إن هذه الأحكام الشرعية على تعددها واختلاف مناحيها تلتقي كلها عند حكم المنع من الاعتداء على الفطرة الإنسانية جسما وروحا، وذلك بالسعي في تغييرها إما بالإزالة، أو بالاستبدال، أو بالتشويه، أو بالطمس والتغييب، وهو ما يقوم دليلا قاطعا على أن حفظ الفطرة مقصد شرعي كلي، ينتهي إلى المقصد الأعلى وهو حفظ إنسانية الإنسان، إذ الفطرة إحدى المكونات الأساسية لتلك الإنسانية.

ثانيا ـ حفظ الفطرة بالتوازن: من عناصر الفطرة التي خلق عليها الإنسان ما ركبت على تلك الفطرة من توازن بين مكوناتها، فالله تعالى خلق كل شيء فقدره تقديرا، وهو ما ينطبق على فطرة الإنسان، ففي هذه الفطرة يتوازن عنصر المادة مع عنصر الروح، وفيها يتوازن عنصر العقل مع عنصر الأحاسيس والعواطف، وفيها يتوازن البعد الفردي مع البعد الجماعي في ذات النفس، وهكذا فإن هذه الفطرة قائمة على توازن دقيق بين مكونات كثيرة من المتقابلات، ولعل ذلك هو أحد معاني قوله تعالى:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾

(التين: ٤)

فحسن التقويم إنما يظهر أكثر ما يظهر في توازن ما خلق عليه الإنسان من القوى والمركبات المكونة لفطرته، وليس لذلك التوازن نظير في سائر المخلوقات الإلهية الأخرى.

والمتتبع لتصرفات الشريعة الإسلامية في مختلف توجيهاتها وأحكامها يتبين له مدى ما كانت تقرره وتثبته من انبناء فطرة الإنسان على هذا التوازن، ومدى ما كانت تلزم به من وجوب الحفاظ عليه قائما في الفطرة، ومن منع التدخل فيه بما يفضي إلى اختلاله واضطرابه، إذ ذلك من شأنه أن ينتقص من معنى الإنسانية في الإنسان، فيؤدي ذلك الانتقاص إلى أثر سلبي على تحمل أمانة التكليف وهو غاية الحياة.

ومن ذلك على سبيل المثال ما جاء في قوله تعالى:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾

(الشمس: ٧ ـ ١٠)

ففي هذه الآيات تقرير لحقيقة ما خلقت عليه النفس البشرية من قوة اختيار يتوازن فيها اختيار التقوى واختيار الفجور، فلا هي قوة ممحضة للمضي في التقوى، ولا هي ممحضة للمضي في الفجور، وإنما هي قوة يتوازن فيها الاختياران.

وفي الآيات أيضا بعد تقرير هذه الحقيقة في توازن قوة الاختيار أمر ضمني عن طريق المدح والذم بأن وصف بالفلاح من اعترف بهذا التوازن في قوة الاختيار، وانتهى إلى اختيار التقوى، ووصف بالخيبة من تعامى عن الشق المتعلق باختيار التقوى فدساه بمعنى أخفاه، فانتهى به الأمر إلى الفجور بما أخفى من أحد شقي التوازن في القوة الاختيارية للنفس، وانتهى إلى ما انتهى إليه من فجور لاختلال ذلك التوازن بفعل إخفاء أحد شقيه.

وإنما تكون هذه التدسية بتمكين الهوى من أن يحجب سبيل التقوى عن الإرادة الحرة فتغدو بذلك غير حرة، وهو ضرب من الاعتداء على الفطرة.

وقريب من هذا المعنى أيضا قوله تعالى في سياق بيان الفطرة الإنسانية:

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾

(البلد: ٨ ـ ١١)

فالهداية إلى النجدين هي نظير إلهام الفجور والتقوى، والصدود عن اقتحام العقبة هو نظير الخيبة جراء الإخفاء والتدسية كما شرحناه آنفا.

ومن ذلك أيضا ما جاء من تقرير النبي ﷺ قول سلمان الفارسي لأبي الدرداء رضي الله عنهما: «إن لنفسك عليك حقا، ولربك عليك حقا، ولضيفك عليك حقا، وإن لأهلك عليك حقا، فأعط كل ذي حق حقه»[٩]، ففي هذا الحديث إثبات لما ركبت عليه النفس الإنسانية من خطوط متوازنة، فخيط يصلها بالله، وآخر بالذات، وثالث يصلها بالأسرة، ورابع يصلها بالمجتمع مرموزا إليه بالضيف، وهذه الخيوط هي التي تمثل الشبكة النفسية التي تمكن من أن يعيش الإنسان من خلالها متفاعلا مع الحياة، ولكي تكون شبكة ممكنة من الحياة ينبغي أن تكون خيوطها جميعا على قدر من المتانة، فيحفظ بذلك إذن توازنها.

وما جاء في الحديث من أمر بأن يعطى كل ذي حق حقه إنما هو في حقيقته أمر بأن يحفظ التوازن الذي عليه هذه الشبكة النفسية، ذلك التوازن الذي اختل عند أبي الدرداء لما تمتن في تصوره الحبل الذي يصله بالله، وضعفت الحبال التي تصله بذاته وبأهله وبضيفه، فاختل إذن ذلك التوازن الذي بنيت عليه الفطرة الإنسانية في هذا الخصوص، وهو ما كان ملحظا لسلمان رضي الله عنه، فعدل الميل الذي أصاب ذلك التوازن في تصور أخيه أبي الدرداء، وصوب النبي ﷺ ذلك التعديل، مما يفهم منه ومن أحكام وتوجيهات أخرى كثيرة أن حفظ التوازن في بناء الفطرة الإنسانية أمر مرعي في الشريعة، من أجل حفظ تلك الفطرة على ما خلقت عليه.

ثالثا ـ حفظ الفطرة بالإشباع: إن الفطرة الإنسانية كما خلقت على تقدير محدد في ذات مكوناتها، وفي توازنها، فقد خلقت أيضا على أن لتلك المكونات من حيث ذاتها ومن حيث توازنها حاجات مادية تطلب تلبيتها، وأشواقا روحية تسعى إلى إشباعها، وقد ركب ذلك فيها على سبيل الطبع الذي لا يتخلف، غرائز وعواطف وشهوات وتطلعات، تطلب كلها إشباعا جسميا أو روحيا بحسب طبيعتها.

وهذه المطالب إنما هي تشبه أن تكون غذاء للفطرة، به تثبت وتقوى، وبه تقدر على أن تؤدي دورها المطلوب منها، فإذا ما حرمت من ذلك الغذاء، فكبتت مطالبها، أو اختلت المقادير التي يقع بها الإشباع بالإسراف في المقادير أو الشح فيها خلافا لما تقتضيه طبيعتها القائمة على التوازن،

(٩) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب من أقسم على أخيه ليفطر.

أدى ذلك إلى خلل فيها يعطلها عن أداء وظائفها، فإما طمس لبعض قواها، وإما وهن في قواها، وإما اضطراب في توازنها، فإذا ذلك الخلل فيها ينتقص من معنى الإنسانية التي هي أحد عناصره الأساسية، وإذا بذلك ينعكس سلبا على أداء ما كلف الإنسان به من مهمة الخلافة في الأرض غاية لحياته.

ولذلك فإننا لما نتأمل تصرفات الشريعة في أحكامها المتعلقة بهذا الشأن يتبين لنا من جملة تلك التصرفات المطردة أن تلبية مطالب الفطرة، وإشباع حاجاتها مقصد من مقاصدها، وهو مقصد يندرج ضمن حفظ تلك الفطرة حفظا تقوى به على أداء وظيفتها، سواء بحسب ما يكون من سلامتها في ذاتها بسلامة مكوناتها، أو ما يكون من سلامة في توازنها الذي بنيت عليه تلك المكونات. وتبدو تلك التصرفات الشرعية القاصدة إلى تلبية مطالب الفطرة في الإقرار بتلك المطالب أساسا، وفي الأمر بتلبيتها، وفي النهي عن قمعها.

فقد جاء في القرآن الكريم وصف للمطالب الفطرية على أنها مطالب مشروعة، ورفع عنها وخاصة المادية منها ما كان يتوهم في بعض الثقافات والديانات من أنها واقع مرذول، وما بني على ذلك من شرائع تقوم على كبتها. ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى:

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ﴾

(آل عمران: ١٤)

فهذا إقرار لهذه الفطرة فيما تطلبه من إشباع لشهوات الجنس والولد والمال على أن ذلك طبيعة معتبرة في الإنسان وليست نقيصة أو مذمة فيه.

ومن ذلك أيضا ما جاء في القرآن الكريم وفي السنة المطهرة من طلب مطرد لأن يلبي الإنسان مطالبه الجسمية بالطيبات من الرزق كما في قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾

(البقرة: ١٧٢)

وأن يتنعم بأخذ الزينة كما في قوله تعالى:

﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾

(الأعراف: ٣١)

بل إن تلبية مطالب الفطرة تجاوز في الشريعة أن يكون أمرا جائزا ليكون طاعة مأجورا عليها، وذلك كما جاء في قوله ﷺ: «وفي بضع أحدكم صدقة»[١٠] فقد جعل تلبية الشهوة الجنسية في نطاق الزواج صدقة تستحق الأجر، من حيث يظن أنها شهوة مادية لا علاقة لها بالثواب.

وفي مقابل ذلك فقد جاءت الشريعة تنهى عن كبت مطالب الفطرة سواء المادي منها أو الروحي تحت أي زعم من المزاعم. وفي هذا السياق جاء قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾

(المائدة: ٨٧)

فقد نزلت الآية بسبب أن جماعة من

(١٠) أخرجه مسلم، كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الزكاة يصدق.

الصحابة اعتزموا حرمان أنفسهم من جملة من الشهوات التي تطلبها النفس، فجاء هذا النهي عن كبت ما تطلبه الفطرة[١١].

وقد توارد نهي النبي ﷺ عن التبتل والخصاء والرهبنة، وعن كل ما فيه قطع لتلبية الحاجة الفطرية للجسم أو للروح، ومن ذلك ما روي عن سعد بن أبي وقاص من قوله: «رد رسول الله ﷺ على عثمان بن مظعون التبتل، ولو أذن له لاختصينا»[١٢].

ويندرج ضمن ذلك في الجانب الروحي ما روي من نهي نبوي للأقرع بن حابس لما قبل بحضوره ابنه الحسن، فقال له: إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدا، فأجابه بقوله: «من لا يرحم لا يُرحم»[١٣]، فقد أنكر النبي على هذا الرجل كبته لحاجته الروحية التي تقتضيها فطرته متمثلة في حب الولد والتعبير عنه بالحنو والملاطفة والرحمة.

وليس معنى تلبية مطالب الفطرة أن يكون ذلك بإرسال غير محدود، فيرخي العنان لكل شهوة يلبي نداءها بدون قيد، ولكل شوق روحي يشبع بدون حد؛ ذلك لأن هذا التصرف يفضي إلى ما يناقض الفطرة من حيث كان المراد تلبية مطالبها، إذ هو ينتهي إلى جور لبعض مكوناتها على بعض، كأن يجور الجسم بالإغراق في تلبية الشهوات على الروح فيضعفها، أو تجور الروح بالإغراق في إشباع أشواقها على الجسم فترهق قواه، فإذا هو اختلال في ذلك التوازن الذي بنيت عليه الفطرة في أصل تكوينها، وينتهي الأمر إلى اضطراب في تكوين الفطرة جراء ذلك الميل في تلبية حاجتها، وهو نقيض ما أريد من تقويتها بتلبية مطالبها.

ولعلاج ذلك فإن الشريعة كما جاءت تقصد إلى تلبية مطالب الفطرة، فقد جاءت أيضا تقصد إلى أن يكون ذلك وفق إشباع لحاجاتها يحفظ التوازن بين مكوناتها فلا يداخلها اضطراب يعوقها عن أداء مهمتها. وقد اطردت بهذا المعنى الأحكام والتوجيهات الشرعية، ومن ذلك ما روي من أن نفرا من الناس جاءوا يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فكأنهم تقالوها، وعددوا أصنافا من عباداتهم التي تقوم على كبت الشهوات الجسمية، والإغراق في إشباع أشواقهم الروحية بالعبادة، فلما رأى ﷺ ما وقعوا فيه من إخلال بالتوازن في مكونات الفطرة، خاطبهم بعدل ذلك الميل، ويرشدهم إلى ما يحفظ ذلك التوازن فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[١٤].

إن التوازن في تلبية المطالب الفطرية مقصد شرعي يندرج ضمن مقصد حفظ الفطرة نفسها، فكما تحفظ الفطرة من التبديل والتغيير، تحفظ أيضا من الميل في ذات مكوناتها، وتحفظ بتلبية مطالبها ولكن بتوازن في تلك التلبية، فلا يعود الإغراق في بعضها بالكبت والإرهاق على بعض آخر، وكل ذلك يندرج ضمن مقصد أعلى هو حفظ إنسانية الإنسان، إذ أيما خلل يصيب الفطرة في جانب من تلك الجوانب فإن من شأنه أن ينتقص إن قليلا أو كثيرا من معنى الإنسانية في الإنسان، إذ الفطرة هي إحدى المحددات الأساسية لذلك المعنى.

يتبع

(١١) راجع الطبري، جامع البيان: ٥/١٢.
(١٢) أخرجه البخاري، كتاب النكاح، باب ما يكره من التبتل والخصاء.
(١٣) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله.
(١٤) أخرجه البخاري في كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح

قصة مراجعة المرأة لعمر بن الخطاب في تحديد المهور في ميزان النقد

للأستاذ الدكتور/ رضا عبد المجيد المتولي
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في كلية أصول الدين بالمنصورة

قال الإمام البيهقي :أَخْبَرَنَا أَبُو حَازِمٍ الْحَافِظُ ، قال : أَخْبَرَنَا أَبُو الْحَسَنِ : مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ حَمْزَةَ الْهَرَوِيُّ ، قال : حَدَّثَنَا أَحْمَدُ ابْنُ نَجْدَةَ ، قال : حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ ، قال :حَدَّثَنَا هُشَيْمٌ ، قال : حَدَّثَنَا مُجَالِدٌ عَنِ الشَّعْبِيِّ قَالَ : خَطَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ -رضي الله عنه- النَّاسَ فَحَمِدَ اللَّهَ تَعَالَى وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ : أَلاَ لاَ تُغَالُوا فِي صَدَاقِ النِّسَاءِ فَإِنَّهُ لاَ يَبْلُغُنِي عَنْ أَحَدٍ سَاقَ أَكْثَرَ مِنْ شَيْءٍ سَاقَهُ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - أَوْ سِيقَ إِلَيْهِ إِلاَّ جَعَلْتُ فَضْلَ ذَلِكَ فِي بَيْتِ الْمَالِ. ثُمَّ نَزَلَ فَعَرَضَتْ لَهُ امْرَأَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ فَقَالَتْ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَكِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَوْ قَوْلُكَ ؟ قَالَ : بَلْ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى ، فَمَا ذَاكَ ؟ فَقَالَتْ : نَهَيْتَ النَّاسَ آنِفًا أَنْ يُغَالُوا فِي صَدَاقِ النِّسَاءِ وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ فِي كِتَابِهِ :

﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا﴾ (النساء: ٢٠)

فَقَالَ عُمَرُ- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- : كُلُّ أَحَدٍ أَفْقَهُ مِنْ عُمَرَ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاَثًا ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى الْمِنْبَرِ. فَقَالَ لِلنَّاسِ : إِنِّي كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ أَنْ تُغَالُوا فِي صَدَاقِ النِّسَاءِ أَلاَ فَلْيَفْعَلْ رَجُلٌ فِي مَالِهِ مَا بَدَا لَهُ. هَذَا مُنْقَطِعٌ. (١)

أولا : نقد سند هذه القصة:

هذه القصة غير ثابتة عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- ، لأنَّ في سندها علتين :

• الأولى : الانقطاع ، وهي ما نبه عليها البيهقي بقوله تعقيباً على هذه القصة «هذا منقطع» وتفصيل ذلك أنَّ الشعبي لم يدرك عمر بن الخطاب ، إذ «المشهور أنَّ مولده كان لست سنين خلت من خلافة عمر رضى الله عنه» (٢)

• الثانية : ضعف مجالد بن سعيد الهمداني الراوي عن الشعبي ، فقد ضعفه الإمام أحمد بن حنبل ، وابن معين

(١) السنن الكبرى للبيهقي ٢٣٣/٧ ط/ مجلس دائرة المعارف النظامية بحيدر آباد بالهند ط أولى ١٣٤٤ هـ.
(٢) تهذيب التهذيب لابن حجر ٤٨/٣ ط /دار إحياء التراث العربي.

والدارقطني والنسائي وغيرهما (٣) والحافظ ابن حجر في التقريب فقال عنه : «ليس بالقوي وقد تغير في آخر عمره»(٤)

والخلاصة أنَّ هذه الرواية لم تأت بسند صحيح ، بل في رجالها انقطاع وضعف .

ثانيا : نقد متن هذه القصة:

في متن هذه القصة مما يدعو إلى المغالاة في المهور نكارة ، وذلك لما يأتي :

(١) مخالفتها ما صحَّ عن النبيِّ ﷺ في الحث على عدم المغالاة في المهور

ومن الأحاديث الصحيحة التي وردت برفض المغالاة في المهور ما أخرجه الإمام مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ - ﷺ - فَقَالَ : إِنِّي تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً مِنَ الأَنْصَارِ. فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ - ﷺ - : «هَلْ نَظَرْتَ إِلَيْهَا فَإِنَّ فِي عُيُونِ الأَنْصَارِ شَيْئًا ؟» . قَالَ : قَدْ نَظَرْتُ إِلَيْهَا . قَالَ : «عَلَى كَمْ تَزَوَّجْتَهَا» . قَالَ : عَلَى أَرْبَعِ أَوَاقٍ. فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ - ﷺ - : «عَلَى أَرْبَعِ أَوَاقٍ ! كَأَنَّمَا تَنْحِتُونَ الْفِضَّةَ مِنْ عُرْضِ هَذَا الْجَبَلِ ....» (٥) وظاهر من تعليق الرسول ﷺ أنه استكثر المهر .

(أ) مخالفتها ما صحَّ عن النبي ﷺ في أمره بتيسير المهور قولاً وفعلاً . فقد دعا النبي ﷺ في هديه النبوي الكريم إلى التيسير في المهور ، وسلك فيه مسالك متعددة ، منها :

بيان صحة المهر بأدنى درجات القلة من المال:

روي الإمام أبوداود بسنده عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : «مَنْ أَعْطَى فِي صَدَاقِ امْرَأَةٍ مِلْءَ كَفَّيْهِ سَوِيقًا أَوْ تَمْرًا فَقَدِ اسْتَحَلَّ»(٦) أي : لو أن رجلا أعطى امرأة مهراً ملء يديه طعاماً كانت له حلالاً .

(ب) بيان أن البركة في الزواج تتبع القلة في مهره ، وأن ذلك من يُمن المرأة وبركتها .

روى الإمام أحمد بسنده عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : «إِنَّ أَعْظَمَ النِّكَاحِ بَرَكَةً أَيْسَرُهُ مُؤْنَةً»(٧)

وأخرج الحاكم وابن حبان وغيرهما عَنْ عَائِشَةَ ، قَالَتْ : قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مِنْ يُمْنِ الْمَرْأَةِ تَسْهِيلُ أَمْرِهَا ، وَقِلَّةُ صَدَاقِهَا(٨)

(ج) بيان صحة المهر بشيء معنوي، كتعليم شيء من القرآن الكريم، ويدل على ذلك أن النبي - ﷺ - قال للرجل الذي طلب منه أن يزوجه بالواهبة نفسها له - ﷺ - حيث

(٣) المغني في الضعفاء للإمام الذهبي ٥٤٥/٢ ط / دار إحياء التراث الإسلامي بقطر. وكتاب الضعفاء والمتروكين للنسائي ص٩٦ ط/ دار الوعي بحلب.
(٤) تقريب التهذيب لابن حجر ص٥٢٠ ط/دار الرشيد سوريا.
(٥) صحيح الإمام مسلم، كتاب النكاح، باب ندب النظر إلى وجه المرأة. شرح النووي على صحيح مسلم ٢٢٧/٥ ط /دار الحديث.
(٦) سنن الإمام أبي داود ، كتاب النكاح ، باب قلة المهر ٢٤٢/٢ ح رقم ٢١١٠ط /دار الريان.
(٧) مسند الإمام أحمد ٨٢/٦ ،ح رقم ٢٤٦٨٧ ط / مؤسسة قرطبة بمصر . مسند إسحاق بن راهويه ٣٩٤/٢ ط / مكتبة الإيمان بالمدينة المنورة.
(٨) المستدرك على الصحيحين للحاكم ١٩٧/٢ وصحح هذا الحديث ووافقه الذهبي ط / دار الكتب العلمية . وصحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ٤٠٥/٩ ط/ مؤسسة الرسالة.

لم تكن له بها حاجة : هل معك من القرآن شيء؟ قال: نعم كذا وكذا ، لسور يسميها ، فقال له النبي ﷺ : «قد زوجتكها بما معك من القرآن» ففي الحديث المتفق عليه ـ واللفظ للبخاري ـ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: أَتَتْ النَّبِيَّ ﷺ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ: إِنَّهَا قَدْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ ﷺ فَقَالَ: مَا لِي فِي النِّسَاءِ مِنْ حَاجَةٍ ، فَقَالَ رَجُلٌ زَوِّجْنِيهَا قَالَ: أَعْطِهَا ثَوْبًا ، قَالَ: لَا أَجِدُ ، قَالَ: أَعْطِهَا وَلَوْ خَاتَمًا مِنْ حَدِيدٍ فَاعْتَلَّ لَهُ ، فَقَالَ: مَا مَعَكَ مِنْ الْقُرْآنِ؟ قَالَ: كَذَا وَكَذَا ، قَالَ: فَقَدْ زَوَّجْتُكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنْ الْقُرْآنِ. (٩)

(٣) مخالفتها ما صح عن عمر رضي الله عنه في النهي عن المغالاة في المهور. فقد ثبت عن عمر صريحا نهيه عن المغالاة في المهور بالسند الصحيح، أخرج الإمام الترمذي بسنده عَنْ أَبِي الْعَجْفَاءِ السُّلَمِيِّ قَالَ: قَالَ عُمَرُ ابْنُ الْخَطَّابِ: «أَلَا لَا تُغَالُوا صَدُقَةَ النِّسَاءِ ، فَإِنَّهَا لَوْ كَانَتْ مَكْرُمَةً فِي الدُّنْيَا أَوْ تَقْوَى عِنْدَ اللَّهِ لَكَانَ أَوْلَاكُمْ بِهَا نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ ، مَا عَلِمْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَكَحَ شَيْئًا مِنْ نِسَائِهِ وَلَا أَنْكَحَ شَيْئًا مِنْ بَنَاتِهِ عَلَى أَكْثَرَ مِنْ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ أُوقِيَّةً» (١٠) فهذا الحديث الصحيح يدل على نهي عمر عن المغالاة في المهور ، مما يدل على بطلان الرواية الأخرى .

(٤) مخالفتها معنى الآية التي استشهدت بها المرأة .

وذلك أن قوله تعالى :

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ في قضية أخرى غير قضية إنشاء المهور ، فهي نهي لبعض الأزواج عن سلوك غير مرضي ، وهو إرادة الزوج استبدال زوجه بزوجة أخرى مع أخذ مهر الزوجة الأولى للاستعانة به في زواج المرأة الثانية ، فعاب القرآن هذا التصرف المهين ، ونهى الأزواج الذين يريدون استبدال أزواجهن بأخريات أن يأخذوا من مهورهن شيئا ولو بلغ هذا المهر ما بلغ ، حتى ولو كان قنطارا على سبيل الفرض والتقدير . قال بعض المفسرين رحمهم الله تعالى كالإمام ابن عطية وأبي حيان الأندلسي: (لا تفيد الآية جواز المغالاة في المهور، لأن قوله:

﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا﴾

تمثيل جاء على جهة المبالغة في الكثرة ، كأنه قال : وآتيتم هذا القدر العظيم الذي لا يؤتيه أحد ، وهذا شبيه بقوله ﷺ : «من بنى لله مسجدا ولو كمفحص قطاة(١١) بنى الله له بيتا في الجنة» (١٢) وإلا فمن المعلوم أن مفحص القطاة وهو قدر ما تحضن فيه بيضها لا يتصور أن يكون مسجدا، وإنما هو تمثيل للمبالغة في الصغر) (١٣)

وقال الفخر الرازي : (لا دلالة فيها على المغالاة لأن قوله :

﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا﴾

لا يدل على جواز إيتاء القنطار ، ولا يلزم من جعل الشيء شرطا لشيء آخر كون ذلك الشرط في نفسه جائز الوقوع كقوله ﷺ : «مَنْ قُتِلَ لَهُ قَتِيلٌ فَأَهْلُهُ بَيْنَ خِيرَتَيْنِ إِنْ أَحَبُّوا فَلَهُمُ الْعَقْلُ (١٤) وإن أحبوا فلهم القود» (١٥) (١٦)

ورحم الله تعالى الشيخ محمد الغزالي فقد تعرض لنقد هذه القصة ، فقال بإجمال شديد : «ولكن هذه الأحاديث الكثيرة ـ يعني الواردة في الحث على التيسير في المهور ـ طويت طويا وانهزمت أمام رواية جاءت ، أن امرأة جادلت عمر بن الخطاب في زيادة المهور وهزمته مستشهدة بقوله تعالى :

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ ،



الغزالي

وهذه الرواية لم تأت بسند صحيح بل في رجالها انقطاع وضعف (١٧) ، ولو تجاوزنا ذلك ـ وما يجوز تجاوزه ـ فإن موضوع الآية ومعناها ليس محل الاستشهاد ، إذ الآية في شخص يريد تبديل زوجة بأخرى ويريد أن يسترد من الزوجة المتروكة ما أعطاها إياه مهرا فرفض القرآن هذا المسلك الصغير ، وبين أنه ما يجوز أخذ شيء من المرأة المهجورة ولو أمهرها قنطارا ، والعبارة تفيد المبالغة (١٨) ، ولو لم تفدها فالأمر يتصل بقضية أخرى غير إنشاء البيوت ، وإعفاف الرجال والنساء ، وإغلاق أبواب الحرام ، وتفتيح أبواب الحلال ، وحماية الأمة من التسول الجنسي ومقابر الانحراف» (١٩)

هذا وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(٩) الحديث متفق عليه ، أخرجه الإمام البخاري في صحيحه ، كتاب النكاح ، باب تزويج المعسر . فتح الباري ٩/ ٣٤ ح ٥٠٨٧ والإمام مسلم في صحيحه ، كتاب النكاح ، باب الصداق وجواز كونه تعليم قرآن وخاتم حديد . شرح النووي على صحيح مسلم ٥/ ٢٢٨ ح رقم ١٤٢٥ ط/ دار الحديث.

(١٠) سنن الإمام الترمذي : كتاب النكاح : باب ما جاء في مهور النساء ٣/ ٣٦١ ، ح رقم ١١١٧ ، وقال أبو عيسى الترمذي : هذا حديث حسن صحيح ، و ثنتا عشرة أوقية : أربعمائة وثمانون درهما ط/ دار الفكر.

(١١) القطاة بفتح القاف : نوع من الحمام.

(١٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ١/ ٢٤١ ط / مؤسسة قرطبة ، وابن حبان في صحيحه ٤ / ٤٩٠ ط / مؤسسة الرسالة ، والطيالسي في مسنده ٤ / ٣٤٤ ط / دار هجر .

(١٣) يراجع المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية ٣/ ٥٤٧ ط / مؤسسة دار العلوم بالمغرب ، البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ٣ / ٥٧١ ط / دار الفكر .

(١٤) العقل : الدية وأصله أن القاتل كان إذا قتل قتيلاً جمع الدية من الإبل فعقلها بفناء أولياء المقتول أي شدها في عقلها ليسلمها إليهم ويقبضوها منه .

(١٥) مسند الشافعي للإمام محمد بن إدريس الشافعي ١/ ٣٤٣ ط /دار الكتب العلمية .

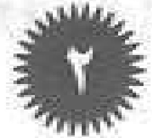
(١٦) تفسير الإمام الرازي ٥ / ١٠٢ وما بعدها ط / دار الغد العربي .

(١٧) سبق بيان ذلك بالتفصيل .

(١٨) سبق بيان ذلك أيضا .

(١٩) مجلة الوعي الإسلامي ، مقال بعنوان (الكتاب والسنة معا) للشيخ محمد الغزالي ، عدد ١٨٥ ، جمادى الأولى ١٤٠٠ هـ ، ص ٤٦ وما بعدها .

خريطة الفكر الإسلامى المعاصر





المستشار طارق البشري

نعرف فى تاريخنا جدلا كان يثور كل حين حول موضوع مقاومة الاستعمار وإجلائه وموضوع الأخذ بأسباب النهوض ومعالجة أسباب الضعف، بأى هذين الموضوعين تبدأ ولأيهما تكون الأولوية فى اهتماماتنا، والقائلون بأولوية الاستعداد لمكافحة الاستعمار يستندون فى ذلك إلى أن وجود الاستعمار يرتب مجموعة من السياسات التى تتخذ لصالح بقائه، فوجوده واستمرار بقائه يضعف فينا أسباب مقاومته ويقضى على إمكانيات النهوض ضده أو النهوض لتحقيق المستقبل المرتجى والقائلون بأولوية بناء القوة الذاتية وإنضاج أسباب النهوض ومعالجة نواحى الضعف، إنما يستندون إلى أن ضعفنا الذاتى هو الذى سبب نجاح الاستعمار ضدنا، ونحن لم نستطع أن نقاوم غزوه لأننا كنا ضعافا، ولأننا ضعاف؛ فلن ننجح فى إخراجه، ولو حدث أن خرج مع بقاء ضعفنا فسيعاود الكرة علينا، أو يعاودها غيره.

والواقع أن هذا الجدل يقوم على خيار خاطئ؛ لأنه يجرى تفرقة بين أمرين كلاهما لازم فهما معا شرط النهوض والتقدم والاستقلال وكلا منهما يقوى الآخر ويتقوى به، وإذا كان وجودهما معا لازما فليس من الصواب أن تطرح سؤالا مفاده أيهما أنفع وأيهما تبدأ وعلينا أن نتعلم النظرة التكاملية التى تنظر إلى العناصر المتنوعة فى تكاملها وليس فى تنافرها.

والخيار الذى يطرح على الناس فى وقت معين، والذى يتعلق بما يبدأون من هذه العناصر، إنما تتحكم فيه ظروف اللحظة التى يطرح فيها السؤال والاختيار الصائب هو الاختيار الذى يتلاءم مع ما تتطلبه اللحظة التاريخية نفسها، ولذلك فنحن فى الحقيقة لا نختار أحد البديلين كما لو كانا سلعتين معروضتين فى أحد المحال التجارية وإنما ننظر فى الممكن فى اللحظة التاريخية المعنية.

وجمال الدين الأفغانى عندما كان يهيئ المسلمين لمقاومة الاستعمار فى كل من مصر وفارس والهند واستانبول، إنما كان

يصنع ذلك فى ظروف تدفق موجات الغزو الاستعمارى على ديارنا فى كل هذه الأقطار، وكان التدفق يجرى بأساليب عديدة، بالضغط السياسى والتوغل الاقتصادى والاقتحام العسكري.. إلخ وفى مثل هذه اللحظات فإن الخيار الوحيد الذى يكون مجديًا هو أن يحتشدوا ويتجمعوا للمقاومة وقد ساهم محمد عبده بقدر فى هذا العمل عندما كان ينشط مع أستاذه السيد جمال الدين.

لا شك أن جهد الرجلين لم يكن متكافئا وكان تركيب كل منهما النفسى والوجدانى والفكرى يتلاءم مع المهمة الأساسية التى قام بها جمال الدين بالنسبة لمقاومة الاستعمار، ومحمد عبده بالنسبة لمقاومة «القابلية للاستعمار» ولكل عصر رجاله كما يقال.

وقد بدأ نشاط محمد عبده «الإصلاحي» بعد تمام احتلال الإنجليز لمصر فى ١٨٨٢م وقضاء مدة حكم النفى ثلاث سنوات خارج مصر ومدة وجوده فى فرنسا ليحرر مع جمال الدين العروة الوثقى. ولما عاد لمصر وجد الاحتلال قد تمكن ولم يكن من بين الخيارات المطروحة في التسعينات من القرن التاسع عشر أن تحتشد القوى لطرد الاحتلال، ولم يكن ثمة خيار وقتها غير العمل الدائم لمقاومة «القابلية للاستعمار».

أهم ما اعتنى به محمد عبده هو ذلك الازدواج الذى حدث فى الحياة الاجتماعية، والذى ظهر أقوى ما ظهر فى مجال القانون وفى مجال التعليم.

ففى مجال القانون ظهرت المحاكم الحديثة التى تطبق القوانين المستمدة من التشريعات الأوروبية، ظهرت إلى جوار المحاكم الشرعية التى تطبق الشريعة الإسلامية، وفى مجال التعليم ظهرت المدارس الحديثة التى تتفق مناهجها مع مناهج التدريس فى المدارس الأوروبية، ظهرت إلى جوار نظام التعليم التقليدى الذى يبدأ بكتاب القرية وينتهى بالمعاهد الدينية والأزهر الشريف وكان كلا النموذجين، الحديث الوافد من الغرب، والقديم الموروث، لا يمت للآخر بعلاقة اتصال، وكان من أهم مجالات النشاط الفكرى للشيخ محمد عبده أن يصل بين هذين الطرفين، سواء فى مجال القانون أو فى مجال التعليم، وكانت دعواه وجهوده الفكرية لتجديد الفكر الإسلامى متصلة بهذين المجالين فى الأساس.



جمال الدين الأفغاني

أما بالنسبة للقانون، فهو يحذر من استيراد القوانين من الخارج، بمقولة أنها أظهرت صلاحيتها فى البلد الآخر الذى طبق فيه. يقول إن البلاد تختلف باختلاف المواقع ويتنوع أحوال التجارة والزراعة، وكذلك تختلف الشعوب فى العادات والأخلاق والمعتقدات وعلى هذا نجد قانون يلائم مصالح قوم ولا يلائم مصالح غيرهم، وإن ما ينفع قوما قد يضر بآخرين، وينبه الدولة عند إصدارها أنها يجب أن تراعى اختلاف الناس باختلاف أحوالهم وطبيعة أراضيهم

ومعتقداتهم وعاداتهم وإن مراعاة هذه الصفات والأحوال هو شرط لإدراك ما يفضي إلى نفع القوم وفوائدهم ويسد عنهم أبواب المفاسد والإضرار ولذلك يقول «لا يسوغ لأسباب الشورى (أي المجالس النيابية أو أي جهات لإصدار القوانين) أن يجاروا غير بلادهم في سن القوانين».

وهو بالنسبة للفكر الإسلامي يطالب بتجديد الفكر والفقه الإسلامي وأول وسائله في ذلك محاربة المذهبية ويذكر في ذلك أن التبعية الجامدة للمذاهب قد أدت إلى ضعف الجماعة، لأنها أدت إلى انقسامها إلى فرق وجماعات شتى. ويذكر أن الخطر الذي يتهدد الجماعة لا يرد من تعدد مذاهب هذه الجماعة في الاعتقاد وفي التفكير، إنما يرد من تحكم المذاهب في التابعين لها وعدم قدرة التابعين للمذهب على نقده فهذا التحكم وهذه العصبية المذهبية هي ما تقيم الفواصل المتبعة بين المذاهب وتابعيها وهي ما يقيم روح العصبية المذهبية وهي ما تقسم الجماعة الواحدة إلى جماعات وطوائف شتى.

وهو يرى أن روح العصبية المذهبية إنما تعالج بالرجوع إلى القرآن الكريم، لأن القرآن كان على الدوام سر نجاح المسلمين وهو ما تقرع صيحته أعمال القلوب ولابد أن يؤخذ القرآن من أقرب وجوهه، على ما ترشد إليه أساليب اللغة العربية، ليستجاب لدعوته، كما استجاب لها رعاة الغنم وساقة الإبل ممن نزل القرآن بلغتهم، والقرآن قريب لطالبه متى كان عارفا باللغة العربية ومذاهب العرب في الكلام وتاريخهم وعوائدهم أيام الوحي».

ويضيف إلى ذلك الدعوة إلى تجديد الفقه الإسلامي الخاص بالمعاملات ويقول إن الحياة تتطور وتتغير وضرورات المجتمع تتطور، ويذكر أنه إذا وقفنا في الفقه عند حد اجتهادات الفقهاء السابقين مع تجدد الحياة الإنسانية وتغيرها، فإن ذلك سيضع المسلمين في الحرج من هذا الابتعاد الحاصل بين فقههم الإسلامي وبين الحياة، وساعتها إما أن تضعف قيمة الإسلام في نفوسهم تحت ضغط الحياة وأحداثها، وإما أن يقفوا عن متابعة سيرهم فينعزلوا، فالاجتهاد هو الوسيلة الحتمية لامتداد الصيغة الإسلامية لأحداث المجتمع الإنساني في الجماعة الإسلامية.

وفي هذا السياق نجد كتابات كثيرة لمحمد عبده ينتقد فيها التقليد ويهاجمه، لأن التقليد عنده يتنافى مع العقل الذي من وظيفته ملاءمة الإنسان مع ظروف حياته، ويتنافى مع سنة الحياة التي تتسم بالتغير والتبدل الدائبين، ويتنافى مع طبيعة المبادئ الإسلامية التي تتصف بالعمومية والقابلية للتطبيق في كل زمان ومكان، وتقتضي هذه القابلية للتطبيق مع اختلاف الزمان والمكان، أن يكون في مقدورنا إعمال أحكامها مع الظروف المتغيرة وهذا ما يحتاج إلى الاجتهاد.

وفي دعوته إلى الاجتهاد والتجديد الفقهي دعا إلى نبذ الكتب التي تتصف بضيق الأفق المذهبي ودعا إلى مطالعة كتابات المجتهدين

من الفقهاء سواء المتقدمين كالزيلعي أو المتأخرين كالشوكاني.. كما عاب على الكتب إطالتها في الشرح بالنسبة للعبادات واختصارها في الإشارة إلى المعاملات رغم أن هذه الأخيرة تحتاج إلى المزيد من البحث وهي الأكثر عرضة للتغير مع تغير الأزمان وكان له وجه اهتمام خاص بنهج البلاغة للإمام علي بن أبي طالب.

وكان له في تفسير القرآن منهج يتلخص في أن القرآن كله يفسر بعضه بعضا فلا تجزأ الآيات لتفسر خارج سياقها، وأن السورة وحدة متماسكة تفسر آياتها في ضوء الموضوع العام أو الموضوعات العامة التي اشتملت عليها السورة. وإلقاء الضوء على معنى النصوص والأحكام من وقائع تاريخ الدعوة الإسلامية، والتوسعة في معاني النصوص بما يشمل ويحكم وقائع الحياة المعيشة فهو مذهب تكاملي في الفهم والشرح والتفسير.

ويرى محمد عبده أن وظيفة القانون حفظ الحال القائم في الجماعة، فهو يحكم الأوضاع القائمة وينظمها، ولكنه لا يغيرها أما تغيير المجتمع إلى ما هو أفضل فيكون عن طريق التربية والتعليم.

فالتربية عند محمد عبده هي من الأسس المهمة للتقدم ولدعم الروح الجماعية بين الأفراد، وتمايز الجماعات وتغالبها لا يكون إلا من جهة العقول والأخلاق، وهذا لا يكمل إلا بالتربية. وأهم وجوه التربية عنده هي التربية الدينية لذلك اهتم بهذا النوع من التعليم إذ يرجع أسباب الخذلان عند المسلمين إلى قصور التعليم الديني إما بإهماله جملة، أو بسوء ممارسته.


محمد عبده

وهو في هذا المجال يتكلم عن العامة وابتعادهم عن أصول التربية الدينية السليمة وتركهم فيها لبعض عقائد «الجبرية» التي تعتبر الإنسان مجبرا في كل ما يأتي من تصرفات وسلوك وأن لا اختيار للإنسان فيما يفعل وهذا منطق يخالف حقيقة التصور الديني للإنسان باعتبار الإنسان مسئولا عما يفعل محاسب عما يرتكب من آثام مثاب عما يؤدي من الفضائل. ولا حساب إلا بمسئولية ولا مسئولية إلا بقدرة على الاختيار وتمكن من الاختيار.

وهو يفرق بين الاعتقاد بالجبر وبين الإيمان بالقضاء والقدر فالجبر يعدم الإرادة الإنسانية تماما، وهذا ما لم يقل به دين ولا ينزل به حكم، وهو ضار بالإنسان، أما القضاء والقدر فهو من الإيمان بالغيب وهو من ظواهر الكون بما لذلك من سلطة على الفكر والإرادة ومما لها من ضوابط حاكمة لأسباب الظواهر الكونية والحياتية والضابطة لإرادة البشر ومع تحرير الإنسان من الجبرية تتحرر إرادته ومع إيمانه بالقضاء والقدر يصبح أكثر جرأة وجسارة لما تتطلع النفس به من قدرة على الثبات واحتمال المكاره ومقارعة الأهوال.

بعد الفكر الإسلامي المقاوم الذي تبلور

على يدى الأفغاني، والفكر الإسلامي المتجدد الذى أورقت فروعه على يدى محمد عبده نجد الفكر الإسلامي على الصعيد الفلسفي الذى بلوره محمد إقبال فى كتابه الشهير «تجديد الفكر الدينى فى الإسلام».

ومحمد إقبال شاعر هندى مسلم كبير وفيلسوف ومفكر سياسى ولد فى ١٨٧٣م وتوفى فى ١٩٣٨م وتعلم ودرس فى معاهد التدريس كافة بدءا من الكتاب الهندى حيث حفظ ما تيسر من القرآن حتى جامعة كمبردج بانجلترا حيث درس الفلسفة والقانون ودرس الإسلام وفهم الهند واستوعب الحضارة الغربية وقام بالتدريس فى جامعة لندن وفى الكلية الشرقية بلاهور الهند. واشتغل بالسياسة ودعا لإنشاء الدولة الإسلامية فى الهند. كان يعيش فى زمن يصعب فيه على من يهتم بشئون جماعته أن يعمل فى مجال واحد، لأن المشاكل يأخذ بعضها برقاب بعض وتتدافع من شتى مجالات الحياة سواء من السياسة أو الفكر أو من غيرها.

و«تجديد الفكر الدينى فى الإسلامي» هو سبع محاضرات ألقاها إقبال فى مدارس وفى جامعة عليكرة وفى إله أباد بالهند فى ١٩٢٨م .. واستهدف إقبال أن يقف ضد تلك الثنائية التى تروج بين المسلمين وهى ثنائية الروح والمادة، وثنائية الدين والدولة، وثنائية القديم الأصلى الموروث والجديد البراق الوافد، وهى ثنائية تضع كل من طرفى أى من هذه المعادلات كما لو كانت بدائل لا تجتمع معا، فإما الروح أو المادة والدين شيء والدولة شيء آخر، والقديم منفصل عن الجديد، والروح خير والمادة شر، وبهذا يسقط المسلم فى وهدة من اللا أدرية بين طرفين لا يستطيع أن يجمع بينهما، أو يظن أن اختياره الروح


محمد إقبال

يقتضى فيه التواكل وترك الدنيا والبعد عن مجالات العمل لتغيير الحياة لما هو أفضل أو يكون اختياره للمادة منفلت الزمام عما تقتضيه الروح من ضوابط.

ويذكر إقبال أن هذه الثنائية ليست من الإسلام كما يفهمه ويقول إن الدين فى الإسلام هو فى أسمى مظاهره ليس عقيدة فحسب أو كهنوتا، أو شعيرة من الشعائر، بل هو وحده القادر على إعداد الإنسان العصرى إعدادا خلقيا يؤهله لتحمل التبعة العظمى التى لابد أن يتمخض عنها تقدم العلم الحديث.. إن السمو إلى مستوى جديد من فهم الإنسان لأهله ومستقبله (من أين جاء وإلى أين المصير) هو وحده الذى يكفل له آخر الأمر الفوز على مجتمع يحركه التنافس الوحشي، وعلى حضارة فقدت وحدتها الروحية، بما انطوت عليه من صراع بين القيم الدينية والقيم السياسية».

ومن ذلك فإن إقبال يربط بين الروح والمادة ويربط بين الدين والدولة ويربط العبادة بالعمل لا على المستوى السلوكى الأخلاقى فقط، ولكن على المستوى الفلسفي، وهو يقول إن الإنسانية اليوم تحتاج تفسيرًا روحيًا

للكون يحل محل التفسير المادى الذى ساد فى حضارة الغرب، كما تحتاج إلى تحرير روح الفرد ووضع مبادئ أساسية توجه تطور المجتمع الإنسانى على أساس روحي، وهو يقول إن أوروبا عرفت المثالية، ولكنها لم تستطيع أن تجعل المثالية عاملا مؤثرا فى الوجود المادى «صدقونى إن أوروبا اليوم هى أكبر عائق فى سبيل الرقى الأخلاقى للإنسان» وهذا على خلاف المسلم لأن الدين عنده مرتبط بواقع حياته وقد استطاع بالدين أن ينهض بالأفراد وأن يبنى مجتمعات.

وآية ارتباط الدين بالواقع لدى إقبال من حيث منهج التفكير، وهو أن الإسلام لا يرفض «التجربة» من حيث أنها تؤهل إلى المعرفة الدينية واليقينية والحال أن منهج العلم التجريبى يقوم فى مجال العلوم الطبيعية، أما فى مجال المعرفة الدينية فلم يؤكد عليه ويسمح به إلا الإسلام يقول تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾

الفرقان: ٤٥-٤٦

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾

الغاشية: ١٧-٢٠

ويستخلص إقبال من ذلك، أن ثمة اتجاهًا تجريبيًا عامًا فى القرآن «مما كون فى أتباعه شعورًا بتقدير الواقع، وجعل منهم آخر الأمر واضعى أساس العلم الحديث» ويستطرد قائلًا: «إنه لأمر عظيم حقًا أن يوقظ القرآن تلك الروح التجريبية فى عصر كان يرفض عالم المرئيات بوصفه قليل الغناء فى بحث الإنسان وراء الخالق». ثم يضيف إلى ذلك أن القرآن ينبئنا بحقيقة التغيرات وأن ثمة تطورًا ونموًا وتبديلًا. وهذا ما لابد من فهمه ليمكن بناء حضارة قوية ولكنه يحدد مجال التغيير والتنوع بأنه يتعلق بالطبيعة دون مجال القيم الأخلاقية، ودون مجال الألوهية بطبيعة الحال.

والإسلام بذلك ـ على خلاف الأديان الأخرى ـ لا يعارض المعرفة التجريبية ولا يخاصمها، وهو خارج عن هذا النزاع الذى جرى بين الفكر المسيحى وبين مناهج العمل التجريبي. وإن كان مجال المعرفة التجريبية بالنسبة للدين وهو مجال المشاهدة وما تقضى من إدراك عقلى فالمسلم لدى إقبال هو إنسان «واقعي» بحكم دينه، وعليه أن يندفع إلى الحركة نحو واقع الحياة، لا أن يبتعد عن واقع الحياة المادية، وأن الرسول عليه الصلاة والسلام يقول: «جعلت لى الأرض مسجدًا وطهورًا».

ويربط إقبال بين الروح والمادة. فيقول إن ما نسميه إنسانًا هو جسم إذا نظرنا إلى نشاطه فى العالم المادى وهو عقل ونفس إذا نظرنا إلى ما يستهدف من مثل عليا. وكذلك الشأن بين الدين والدولة إذ الدولة فى نظر الإسلام هى المحاولة التى تبذل بقصد تحويل المبادئ المثالية للدين إلى قوى مكانية وزمانية.

يتبع

العقاد المؤمن



أ. د. محمد فتحي فرج
كلية العلوم - جامعة المنوفية

"يصلى حق الصلاة من يتوجه إلى الله ولا يشعر بشىء فى صلاته غير حضور الله وحده، وصلاتك فى الجماعة لا تحجب عنك الحضرة الإلهية، فقد تُلَقى فى خلدك أن الجنس البشرى كله يتوجه فى نفس واحد إلى مقام الله. إنها صلاة "الإنسان"، وليست صلاة هذا الإنسان أو ذاك". (عباس العقاد).

لم تكن كتابات الأستاذ عباس محمود العقاد (٢٨ يونيو ١٨٨٩ - ١٢ مارس ١٩٦٤) الإسلامية التى تربو على الثلاثين مؤلفًا، حول الإسلام وفلسفة الأديان والشخصيات الإسلامية العظيمة تأتى عفو الخاطر، ولكنها كانت تنبع من نفس محبة للإسلام عن إيمان عميق بوسطيته، وعقلانيته واعتداله، مع عمق فى الاطلاع والبحث الطويل - بصبر وأناة - فى مصادره الأصلية، ولا غرو أنه كان من المحبين للأستاذ الإمام محمد عبده، والأستاذ محمد فريد وجدى، وغيرهما، ومن المعجبين بآرائهم والمتأثرين بسيرتهم.

يقول أحد الثقاة من تلاميذه وروّاد ندوته: العقاد مؤمن كامل الإيمان، وإنى لأشهد بما خلصتُ إليه بعد حضورى لبعض ندواته أنه يقول بما يؤمن ويؤمن بما يقول، فهو مؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله إيمانًا يملأ عقله وقلبه، وهو يقول فى صراحة إن إيمانه كان وليد الدراسة العميقة والبحث المستفيض، وهو لا يجد حرجًا فى أن يصرح بأن العقيدة الدينية التى انتهى إليها لم تطابق الآراء الدينية التى كان يعتنقها من قبل، وإذا كانت آراؤه فى الأدب والاجتماع والفلسفة لم تتغير منذ بدء تكوينها فى شبابه فإن آراءه الدينية قد تغيرت(١).

ويقول بخصوص النبى ﷺ فى موضع آخر: وأشهد أنى لم أر العقاد يتحدث باحترام وحب وولاء وتقدير كما رأيته يتحدث عن الرسول ﷺ، وكان ينفعل أشد الانفعال وهو يعرض لأقوال متعصبى المستشرقين أو المبشرين عنه عليه السلام، مُفندًا جهلهم وعماهم وضيق أفقهم، ويطيب للعقاد أن يتحدث عن الرسول فيقول: لا شك أن الرسول يمثل الإنسان الكامل فى كل تصرف من تصرفاته، فهو فى داخل بيته وفى خارجه، وفى شئونه الخاصة، وفى الشئون العامة يعطى أروع الأمثلة

(١) محمود صالح عثمان ابن أ. العقاد فى ندواته. دار الفكر الحديث بالقاهرة. ص ١١.

على الخلق العظيم، وقد عودت نفسى - هكذا يقول العقاد - إن سمعت رواية تمسه ﷺ أن أتهم المحدث؛ ذلك لأنى أنزه الرسول عن الخطأ(٢).

من ذكريات العقاد أنه نظم الشعر فى الأغراض الدينية كما نظمه فى المناجزة والدعوة إلى القتال، منذ وقت مبكر من حياته، وكان - كما قال - يسمع الأذان من مؤذن المسجد المقارب لبيته، وهو منشد مشهور بجمال صوته وحسن إلقائه، فكان يشجوه أن يسمع مقدمات الأذان قبل صلاة الجمعة، وكلها من الشعر المنظوم فى التصوف أو مدح النبى ﷺ، وكان مسموحًا للناشئين أن ينشدوا هذه القصائد مع المؤذن أو على انفراد، بل كان إنشادهم مستحبا مفضلا؛ لأنهم أقرب إلى صفاء النفس وطهارة العبادة، فاستأذن العقاد فى إلقاء هذه القصائد مرات، واختار فى بداية الأمر شعرا من دواوين البرعى وأمثاله، ثم تجرأ على نظم قصيدة طويلة يحاكى بها شعر المديح النبوى وأنشدها دون أن يخبر أحدا بأنها من نظمه، ولكنه خاف أن يستكثروها عليه بعد ظهور الحقيقة، فختمها ببيت لا يذكر منه إلا الشطرة الأخيرة، وهى: "عباس من هو بالأشعار مدرارُ" (٣).

كان العقاد رجلا مؤمنا حقا، وكان حريصا - غاية الحرص - فى مراجعة الآيات القرآنية، التى تتخلل كتبه ومقالاته، وكذلك الأحاديث النبوية الشريفة؛ مخافة أن يقع فيها خطأ أو تحريف فى النقل والاستشهاد.

كما شهد له الكثيرون بعمق الإيمان، ومنهم الدكتور إبراهيم بيومى مدكور، حينما تحدث عنه، فى الحفل الذى أقيم بمناسبة الذكرى الأولى لوفاته، فقال: كان العقاد - رحمه الله - مؤمنا عميق الإيمان، فهِمَ الدين فهما حقيقيا، ودافع عنه دفاعا مجيدا، صدق به قلبه، واقتنع به عقله، فى وقت شككت فيه المادية فى كثير من أصول الأديان الثابتة(٤).

أما العقاد نفسُه، فيقول فى فصل ممتع من كتابه "أنا"، الذى صدر بُعَيْد وفاته سنة ١٩٦٤، تحت عنوان "إيمانى": أومن بالله.. أومن بالله وراثة، وشعورا، وبعد تفكير طويل. فأما الوراثة، فإنى قد نشأت بين أبوين شديدين فى الدين، لا يتركان فريضة من الفرائض اليومية، وفتحت عينى على الدنيا وأنا أرى أبى يستيقظ قبل الفجر ليؤدى الصلاة ويبتهل إلى الله بالدعاء ولا يزال على مصلاه إلى ما بعد طلوع الشمس، فلا يتناول طعام الإفطار حتى يفرغ من أداء الفرض والنافلة وتلاوة "الأوراد".

ثم يقول العقاد: ورأيت والدتى فى عنفوان شبابها تؤدى الصلوات الخمس، وتصوم وتطعم المساكين، وقلما ترى النساء مُصليات أو صائمات قبل الأربعين، وندر بين أقاربى من لا يسمى باسم من أسماء النبى وآله، سواء منهم الرجال والنساء، أو من أسماء الأنبياء على العموم، وكان فى بيت أخوالى درس لقراءة الكتب الدينية، أذكر منها مختارات الأحاديث

(٢) المصدر السابق. ص ١٦٨.

(٣) عباس العقاد (١٩٨١م). يسألونك. منشورات المكتبة العصرية. بيروت - صيدا. ص ٣٧.

(٤) د. إبراهيم بيومى مدكور (١٩٨١م). العقاد المؤمن. فصل من كتاب: مع الخالدين. الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية. القاهرة. ص ١٢٦.

النبوية و"إحياء علوم الدين"، فللوراثة شأن فيما عندى من سليقة الاعتقاد.

هذا من ناحية الوراثة، أما فيما يختص بالشعور، فيقول عنه العقاد: أما الإيمان بالشعور فذلك أن مزاج التدين ومزاج الأدب والفن يلتقيان في الحس والتصور والشعور بالغيب، وربما كان "وعى الحياة" شعبة من "وعى الكون" أو من "الوعى الكوني" الذى يتعلق به كل شعور بعظمة العالم وعظمة خالق العالم.. والوعى الحيوى مصدر النفس والوعى الكونى مصدر الدين.

أما الإيمان بالله بعد تفكير طويل فيقول عنه العقاد: خلاصة هذا الإيمان أن تفسير الخليقة بمشيئة الخالق العالم المريد أوضح من كل تفسير يقول به الماديون، وما من مذهب اطلعت عليه من مذاهب الماديين إلا وهو يوقع العقل فى تناقض لا ينتهى إلى توفيق، أو يلجئه إلى زعم لا يقوم عليه دليل، وقد يهون معه تصديق أسخف الخرافات والأساطير فضلاً عن تصديق العقائد الدينية وتصديق الرسل والدعاة.

ثم يقول: فالقول بالتطور فى عالم لا أول له خرافة تُعرضُ عنها العقول؛ لأن ابتداء التطور يحتاج إلى شيء جديد فى العالم، أما حدوث التطور بغير ابتداء تناقض لا يسوغ فى اللسان فضلا عن الفكر أو الخيال، أما القول بالارتقاء الدائم عن طريق المصادفة زعم يهون معه التصديق بالخرافات وخوارق العادات في تركيب الأجسام أو الأحياء.

ويضيف العقاد: والقول بأن المادة تخلق العقل فهو كالقول بأن الحجر يخلق البيت، وأن البيت يخلق الساكن فيه، وأيسر من ذلك عقلا -بل ألزم من ذلك عقلا- أن يقال إن العقل والمادة موجودان، وأن أحدهما بأن يسبق الآخر ويخلقه هو العقل؛ لأن المادة لا تُوجِدُ ما هو أفضل منها، ففاقد الشيء لا يعطيه..

وإذا كان الاعتقاد هو شاغله الأول - كما هو كذلك بالنسبة لمعظم فلاسفة العصر - فقد انتهى فيه العقاد - بعد طول نظر - إلى أن القرن العشرين يشهد عودة إلى الاعتقاد، وأن أسباب الإنكار للعقائد في القرون الماضية قد فقدت قوتها في هذا القرن، وأسباب الإنكار الكبرى منذ القرن السادس عشر أو السابع عشر هى مسألة دوران الأرض، ومسألة القوانين المادية، ومسألة التطور، ومسألة الأديان المقارنة، ومسألة الشر وعلاقتها بالقدرة الإلهية، فهذه المسائل كانت فى نشأتها حجة على بطلان العقائد التى واجهتها، ولكنها صارت فى القرن العشرين إلى موقف غير موقفها فى القرون الماضية. فليس الإنكار الذى يقوم عليها اليوم حاسم الحجة ولا مُوصِدًا لأبواب المناقشة والسؤال، بل تنقلت هذه الأسباب بين مباحث العلم والعقل حتى صلحت للشك فى الإنكار بعد أن كانت فيما مضى غير مصوبة كل قوتها إلى الشك فى الإيمان.

ومن رأيه أيضا أن حقائق الوحى وعقائد الإيمان تستمد يقينها واطمئنانها من عطايا العقل. فالعقيدة هى الثقة بالنفس أو بالكون، وليست هذه الثقة مستمدة من العقل وإنما هى مستمدة من طبيعة تركيب الإنسان، ومن كونه متصلا بهذا الكون الذى هو فيه بِصِلَةِ الوجود والحياة، فهذه الثقة هى أساس العقيدة، وأما الأديان والشعائر وفروض المعرفة الأخرى من حقائق الوجود، فتلك هى الأشكال التى تتمثل بها العقيدة للفكر أو للخيال، وهذه الأشكال هى التى تخضع لنقد العقل ومقاييس التفكير[*]..

ثم يخلص العقاد فى النهاية إلى هذه النتيجة: «ولهذا فأنا أومن بالله وراثة، وأومن بالله شعورا، وأومن بالله بعد تفكير طويل».

هذا فى مجال العقيدة.. أما فى مجال الأخلاق، فقد انتهى العقاد إلى أنه لا باعث إلى الخير أقوى من شعور الإنسان بكماله، ولا وازع عن الشر أقوى من شعور الإنسان بنقصه، فلا أخلاق لمن يُحْسِنُ لأنه يؤجر على الإحسان، أو لمن يسيء لأنه فى أمان.

فساعة من الغبطة ببلوغ الكمال هى غاية ما تصبو إليه النفس من مراتب السعادة، وساعة من تبكيت الضمير على النقص هى غاية ما تنحدر إليه النفس من شقاء.

أما إيمانه فى المعاملات فيتلخص فى أن الطيبة موجودة فى الطبيعة الإنسانية، ولكنك لا تجدها فى كل إنسان، ولا تجدها فى جميع الأوقات.. ولكنك إذا بحثت عن المعين لم تضمن وجوده حين تريده، وإذا وجدته حين أردته لم تضمن أن يوافقك على رأيك ويساعدك على قصدك، فلعله يعين إذا اعتقد وجه الصلاح فى العمل الذى يُدعى إليه، ولعله لا يعتقد اعتقادك فيما ترى من الصلاح، فلا تقنط من طيبة الناس كل القنوط.. ولا تُعوِّل عليها كل التعويل، بل أَحْسِن الظن بالناس كأنهم كلهم خير، واعتمد على نفسك كأنه لا خير فى الناس!

وقديمًا قال العقاد:

أنا لا ألوم ولا أُلام ... حسبى من الناس السلام
أنا إن غنيت عن الأنا ... م فقد غنيت عن الملام
وإذا افتقرت إليهم ... فاللوم من لغو الكلام

أما إيمانه بالأدب فخلاصته أنه رسالة عقل إلى عقول، ووحى خاطر إلى خواطر، ونداء قلب إلى قلوب. وأن الأدب قيمة إنسانية، وليس بقيمة لفظية، فالأديب الذى يقرأه القارئ فلا يعرف شيئا جديدا، ولا يحس بشيء جديد فسكوته خير من كلامه.

والأديب الذى يقصر جهده على التسلية وإزجاء الفراغ خادم جسد وليس بصاحب رسالة، فى عالم العقل والروح، والعلاقة بين الكاتب وقارئه علاقة تعاون واشتراك، لا يغنى فيها الجهد المفرد عن الجهدين المتساندين، فالقارئ الذى يفرد الكاتب بواجب التفهيم، لا يستحق من الكاتب أن يلتفت إليه..

فإيمانه كله فى العقيدة والأخلاق والمعاملة والأدب يوزن بميزان واحد، وهو ميزان المثل الأعلى، أو طلب الكمال؛ لأنه إيمان يغنينا عن طلب الجزاء ويعزينا عن فقدان الحمد والثناء.

ومما يدل على نزعة الإيمان الفطرية لديه، ما أنهى به محاضرة له فى إحدى محطات التليفزيون بإحدى الدول العربية سنة ١٩٦١م -أى قبيل وفاته بثلاثة أعوام- بعنوان "فلسفتى والمبادئ التى اهتديت إليها"، قوله: ونعود كما بدأنا فنقول: إنها عادات ومبادئ، إلا أنها -مهما يكن من نصيب التفكير- لا تخلو من نظام العبادة وصبغة الإيمان. رحم الله العقاد المؤمن، والمفكر، والموقن بوجود إله للكون عظيم.

[*] د. عثمان أمين (١٩٦٧م)، مجلة الهلال، عدد ابريل، ص ٩١.

رجب
١٤٣٥هـ
مايو
٢٠١٤م

الانتصارات البحرية فى صدر الإسلام

لواء. أ. ح. د (متقاعد)
محمد بهاء الدين حنفي

كانت تجارة الشرق بخاصة التوابل مع الهند ذات أهمية بالغة للإمبراطورية الرومانية وكانت السيطرة على الجزيرة العربية والبحر الأحمر ضرورية لتأمين تدفق تلك التجارة كانت السفن التجارية الجالبة للسلع من الشرق يمر بعضها عبر الخليج الفارسى لتصب فى ميناء الأبلة عند إلتقاء نهرى دجلة والفرات بشط العرب ثم تستكمل طريقها بواسطة القوافل شمالا، بينما تستمر معظم تلك السفن فى الإبحار ببحر العرب والمحيط الهندى لتفرغ شحناتها إما فى عدن أو سواحل اليمن، ثم تحملها قوافل الإبل عبر الصحراء إلى ميناء العقبة «أيلة» شمال البحر الأحمر حيث تتفرع منها إلى دمشق شمالا وغزة ومصر غربا وبذلك تصبح السلع متاحة لنقلها عبر البحر الأبيض المتوسط إلى دول الإمبراطورية

وكان التجار يتجنبون البحر الأحمر خشية القراصنة وندرة الموانئ الصالحة وعلى هذا الطريق الذى تسلكه القوافل بالجزيرة العربية، قامت وازدهرت عدة ممالك كسبأ وحمير فى الجنوب العربى والأنباط فى شرق الأردن والغساسنة فى سوريا واللخميين فى الحيرة بالعراق وأصبحت مكة، التى تقع فى منتصف طريق القوافل، مركزا هاما يربط بين الشمال والجنوب بل كانت بعض تلك القوافل تتفرع من مكة إلى الحيرة عبر القطيف ولعب توازن القوى بين الفرس والروم دوره فى نشر النفوذ واقتسام السيطرة على ممالك الجزيرة، ففرض الفرس نفوذهم على اللخميين بينما أصبح الغساسنة موالين الروم، كما أن الحبشة الموالية للروم مدت نفوذها البحرى على الجنوب العربى وباب المندب «الخريطة المرفقة شكل (١)».

وبجانب أهمية تجارة الشرق لكلا الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية، فإن موقعهما الجغرافى كان له أثره فى رسم استراتيجية كل منهما، فاحتلت الإمبراطورية الفارسية موقعا جغرافيا بالغ الاتساع يمتد من الهند شرقا إلى العراق غربا ومن المحيط الهندى وبحر العرب جنوبا إلى بحرى الأورال وقزوين شمالا فكان موقعها يؤمن لها التجارة مع الشرق برا وبحرا فاكتفت ببناء أسطول يسيطر

على ميناء الأُبلة ويتخذ منه قاعدة بينما كان الموقع الجغرافى للإمبراطورية الرومانية البيزنطية يمتد من الحدود الشرقية للبلقان متضمنا تركيا واليونان غربا، بينما فى الجنوب تتوزع ولاياتها حول البحر المتوسط متضمنة الشام وفلسطين ومصر وامتداد الساحل الشمالى لأفريقيا حتى المحيط الأطلسي، وتمتد شمالا حتى القفقاس والبحر الأسود وقد فرض عليها هذا الموقع أن تمد سيطرتها على البحرين الأبيض والأحمر، وأن تحتفظ بأسطول بحرى ضخم قدرت حجم قواته بحوالى ٨٠ ألف مقاتل «الخريطة المرفقة» (شكل رقم ٢).

وفى مقابل هذا الوضع، اقتصر دور العرب فى الجزيرة العربية على تسيير القوافل من الإبل لنقل السلع من الجنوب العربى إلى مراكز توزيعها على سواحل البحر المتوسط ولم يكن لدى العرب أى خبرة فى ركوب البحر اللهم إلا القليل من تجارهم الذين يحملون سلعهم وبخاصة الجلود يبيعونها



فى الحبشة مستخدمين السفن التجارية الحبشية ولعل أول تجربة للمسلمين فى ركوب البحر كانت عندما بعث الرسول ﷺ أول وفد مهاجر إلى النجاشى كان الروم ينظرون إلى العرب البدو القاطنين فى أعماق الصحراء، بعين الزراية والامتهان ويرون



الانتصارات البحرية في صدر الإسلام

فيهم شعبا خاملا فقيرا لا يمثل أى تهديد يرى عليهم ومن باب أولى فإن توقع التهديد البحرى كان بعيدا عن أى تصور ومع ذلك فإن الرسول ﷺ تنبأ بأن المسلمين سوف يغزون الروم بحرا كما سيغزونهم برا. ذكر البخارى أن أم حرام بنت ملحان «قالت: نام النبى ﷺ يوما قريبا منى ثم استيقظ يتبسم قلت: ما أضحكك قال: أناس من أمتى عرضوا علىّ يركبون هذا البحر الأخضر كالملوك على الأسرة قالت: فادع الله أن يجعلنى منهم فدعا لها ثم نام الثانية ففعل مثلها فقالت قولها، فأجابها مثلها فقالت: ادع الله أن يجعلنى منهم فقال: أنت من الأولين». وأخرج البخارى أيضا عن أم حرام «قالت: سمعت رسول ﷺ يقول: أول جيش من أمتى يغزون البحر قد أوجبوا - أى وجبت لهم الجنة -، قالت أم حرام: يا رسول الله أنا فيهم؟ قال: أنت فيهم، ثم قال النبى ﷺ: أول جيش من أمتى يغزون مدينة قيصر - يقصد القسطنطينية - مغفور لهم، فقلت: أنا فيهم يا رسول الله؟ قال: لا، إن ما عرضناه فى بداية المقال يفسر لماذا اقتصرت نبوءته ﷺ على غزو المسلمين للروم بحرا دون الفرس.

بدأ الفتح الإسلامى باندفاع الجيوش الإسلامية من قلب الجزيرة العربية منتشرة على هيئة مروحة، جناحها الشرقى فى اتجاه العراق وفارس، والشمالى فى اتجاه الشام والروم والغربى فى اتجاه مصر مارا بفلسطين، وظلت عمليات الفتح تنتهج أسلوب القتال البرى دون أن تخوض أى معارك بحرية وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لا يأذن للمسلمين فى الغزو بالبحر، وكان له عذره فى ذلك القرار الذى أدت إليه عدة أحداث كانت ذكريات معركة «الجسر» بالعراق تمثل كابوسا لعمر جعلته لا يسمح لجنوده بأن يحول بينهم وبينه الماء فقد تمكن الفرس فى تلك المعركة من حصر المسلمين الذين عبروا النهر إليهم وكبدوهم خسائر فادحة وقتل أميرهم «أبو عبيد بن مسعود» ولم يتمكنوا من الانسحاب إلا بصعوبة خلال الجسر الذى أقامه «المثنى ابن حارثة» ودافع عنه باستماتة ثم وقع الحادث الثانى من عامل عمر على البحرين، يقول الطبرى «كان العلاء بن الحضرمى على البحرين، وكان يبارى سعد بن أبى وقاص، فلما رأى ما أحرزه سعد من الظفر والفتح - يقصد القادسية - رام أن يبلغ مكانته، فندب أهل البحرين إلى فارس، وحملهم فى البحر إليها بغير إذن عمر وكان عمر لا يأذن لأحد فى ركوبه غازيا، يكره التغرير بجنده - وعبرت جنود العلاء إلى فارس فخرجوا فى اصطخر، ولقيهم الفرس، فحالوا بينهم وبين سفنهم، واقتتلوا قتالا شديدا، قتل فيه بعض قواد جيش العلاء وكثير من الفرس ثم رأى المسلمون أن يقصدوا إلى البصرة، ولم يجدوا إلى الرجوع فى البحر سبيلا، إذ غرقت سفنهم، ووجدوا الفرس قد أخذوا عليهم الطرق، فعسكروا وامتنعوا ولما بلغ عمر ما صنع العلاء، كتب إلى «عتبة بن غزوان» أمير البصرة - إن العلاء بن الحضرمى حمل جندا من المسلمين

فأقطعهم أهل فارس وعصانى وأظنه لم يرد الله بذلك، فخشيت عليهم إن لا ينصروا أن يغلبوا وينشبوا - أى يؤسروا - فاندب إليهم الناس، واضممهم إليك من قبل أن أن يجتاحوا» قام عتبة بتنفيذ أمر عمر وأنقذ المسلمين المحاصرين، واشتد غضب عمر على العلاء فعاقبه بأن عزله وأمر عليه سعدا وقد تكون تلك الحادثة سببا فى تردد عمر فى القيام بحملة جديدة لفتح مصر وبعد فتح مصر، ورد فى خطط المقريزى «روى أن عمرو بن العاص لما فتح الإسكندرية هم أن يسكنها، فكتب إلى عمر بن الخطاب يستأذنه فى ذلك، فسأل عمر الرسول: هل يحول بينى وبين المسلمين ماء؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل، فكتب إلى عمرو: إنى لا أحب أن تنزل المسلمين منزلا يحول الماء بينى وبينهم فى شتاء ولا صيف فتحول عمرو من الإسكندرية إلى الفسطاط» والواقع أن مدينة الإسكندرية كانت معرضة دائما لتهديد أسطول الروم المسيطر على البحر المتوسط.

كان عمر قد ولى «معاوية بن أبى سفيان أمر الشام، وقد ألح معاوية عليه فى غزو البحر وكتب إليه كتابا يرغبه فيه، قال: (يا أمير المؤمنين، إن بالشام قرية يسمع أهلها نباح كلاب الروم، وصياح ديوكهم، وهم تلقاء ساحل من سواحل حمص) وكان معاوية يقصد جزيرة قبرص فكتب عمر إلى عمرو بن العاص عامله بمصر «أن صف لى البحر وراكبه» فكتب إليه عمرو قائلا (يا أمير المؤمنين، إن البحر خلق عظيم، يركبه خلق صغير، إن ركن - أى هدأ وسكن - خرق القلوب، وإن تحرك أزاغ العقول، يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة، ليس إلا السماء والماء وإنما هم فيه كدود على عود، إن مال غرق، وإن نجا برق - أى فرح) فلما قرأه عمر كتب إلى معاوية: «لا، والذى بعث محمدا بالحق لا أحمل فيه مسلما أبدا» ذكره الطبرى والعقد الفريد.

تدل تلك الأخبار على أن أمير المؤمنين عمر لم يركب البحر بل ربما لم يشاهد سفينة به لقد اقتصر الفتح على الحرب البرية طوال إدارة الخليفتين أبى بكر وعمر، مما أتاح الفرصة أمام الروم لاستخدام أسطولهم لتهديد سواحل سوريا ومصر فرغم سقوط الشام فى قبضة المسلمين، ظلت مدينة «قيسارية» تقاوم الحصار لمدة طويلة حيث كان يتم تموينها بطريق البحر من الإسكندرية والتى كانت القاعدة البحرية الوحيدة للروم كما تمكن الروم سنة ٦٣٨ م سنة ١٧ هـ من إعادة احتلال مدينة «أنطاكيا» من خلال إنزال قواتهم من البحر، ولذلك كان عمرو بن العاص يرى أن سواحل سوريا وفلسطين لن تكون فى مأمن مادام أسطول الروم يعتمد على قاعدته بالإسكندرية، بل إن الإسكندرية نفسها، بعد أن تم فتحها تعرضت لغزو جديد سنة ٦٤٥م ٢٤ هـ فقد حشد الروم أسطولا ضخما فى سرية تامة لإعادة احتلال الإسكندرية، وكان البحر خاليا من أى سفن عربية وفوجئ أهل المدينة بأسطول مؤلف من ٣٠٠ سفينة يقترب من الميناء وينزل

منه جنود الروم يقودهم «مانويل» ويقتلون حامية المسلمين ويستولون على المدينة. بادر الخليفة عثمان رضى الله عنه بتعيين عمرو بن العاص قائدا للجيش، وتمكن عمرو من هزيمة الروم وقتل قائدهم واسترد الإسكندرية مرة ثانية. لا شك أن هذه الأحداث أقنعت المسلمين بأنه آن الأوان للدخول فى قتال بحرى مباشر مع أسطول الروم أى بالتحول من الدفاع إلى الهجوم ورغم شح المعلومات بالمراجع المتوفرة، فإنها تشير إلى أن معاوية وضع يده على الأسطول السورى الضخم عندما فتح قيسارية، كما أن «عبدالله بن أبى السرح» عامل عثمان على مصر تمكن من جمع أسطول من السفن التى وجدها بموانئ المدن التى تم فتحها بساحل إفريقيا كطرابلس وغيرها. استأذن معاوية الخليفة عثمان فى غزو قبرص، فأذن له بعد تردد وقال له «لا تنتخب الناس ولا تقرع بينهم بل خيرهم فمن اختار الغزو طائعا فاحمله وأعنه» وقيل إنه اشترط عليه أن يحمل معه امرأته.

تكوّن أسطول المسلمين الأول المكلف بغزو قبرص من الأسطول السورى والأسطول الذى جمعه «ابن أبى السرح» وكان بحارة الأسطول من المصريين فاقتصرت مهمتهم على قيادة السفن، بينما كان المقاتلون من العرب. نجح المسلمون فى النزول إلى الجزيرة والاستيلاء عليها ومن الجدير بالذكر أن نبوءة الرسول ﷺ تحققت فقد كانت أم حرام ضمن من نزلوا لكنها ماتت فى الغزوة ويبدو أن أسطول المسلمين نجح فى هزيمة أسطول الروم المدافع عن الجزيرة، وإسرار المقاتلين بحرا. ثم عقد اتفاقا مع أهل الجزيرة يدفعون بموجبه الجزية، وتضمن شروطا استهدفت حرمان أسطول الروم من اتخاذ الجزيرة قاعدة انطلاق للغزو وأن تصبح الجزيرة مركزا استخباريا لجمع المعلومات عن تحركات أسطول الروم لإعطاء إنذار مبكر للمسلمين وبسقوط قبرص سنة ٦٤٩م-سنة ٢٧ / ٢٨هـ فقد الأسطول الرومانى سيطرته على شرق البحر الأبيض وتحقق لمعاوية ما أراده من تأمين سواحل سوريا لكن أسطول الروم ظل يمثل تهديدا على الإسكندرية وهو ما حدث بالفعل ففى سنة ٦٥٢م-٣١هـ قام الروم بدفع أسطول ضخم لغزو المدينة واحتلالها من جديد، لكن المسلمين كانوا على علم مسبق بهذه التحركات واستعد لها «ابن أبى السرح» فجمع أسطولا من المراكب المتواجدة بموانئ مصر وشمال إفريقية والتقى الأسطولان فى البحر ودارت معركة شديدة تماسكت فيها المراكب واستخدمت فيها السيوف وأدرك الروم عجزهم عن الاستمرار فى القتال فانسحبوا عائدين، ولم يحاول أسطول المسلمين مطاردتهم. اكتشف «معاوية» أن أهل قبرص ساعدوا أسطول الروم ودعموه بالمراكب وأنهم بذلك نقضوا الاتفاق المبرم معه فقام بغزوهم من جديد بقوة ضخمة فى حملة تأديبية ووضع حامية من جنود المسلمين الجزيرة، وقد

أوقع هزيمة كبيرة بأسطول الروم فى تلك المعركة فكانت سببا فى تشتت ما تبقى منه وأصبحت السيادة البحرية فى شرق المتوسط بيد المسلمين.

بادر المسلمون، دون تردد، بالدخول فى معركة حاسمة لتدمير أسطول الروم فى عقر داره وهى المعركة البحرية التى سماها العرب «ذات الصواري» والتى دارت بين أسطولى المسلمين والروم تجاه «ليقيا» الواقعة على الساحل الجنوبى لبيزنطة وقد شهد إمبراطور الروم المعركة بنفسه، تقول مراجع التاريخ الإسلامى عنها خرج قسطنطين بن هرقل فى جمع له لم تجمع الروم مثله منذ كان الإسلام، فخرجوا فى خمسمائة مركب أو ستمائة، وخرج المسلمون وعلى أهل الشام معاوية بن أبى سفيان وعلى أهل مصر عبدالله بن أبى سرح على طريق البحر وكانت الريح على المسلمين لما شاهدوا الروم فأرسى المسلمون والروم وسكنت الريح فقال المسلمون الأمان بيننا وبينكم فباتوا ليلتهم والمسلمون يقرءون القرآن ويصلون ويدعون، والروم يضربون بالنواقيس وقربوا من الغد سفنهم، وقرب المسلمون سفنهم فربطوا بعضها مع بعض واقتتلوا بالسيوف والخناجر، وقتل من المسلمين بشر كثير، وقتل من الروم ما لا يحصى وصبر الفريقان صبرا لم يصبروا فى موطن قط مثله، ثم أنزل الله نصره على المسلمين فانهزم قسطنطين جريحا ولم ينج من الروم إلا الشريد، وسار قسطنطين إلى أهل صقلية) وذكرت أن أهل صقلية قتلوه.

لقد تحطم الأسطول الرومانى بعد معركة ضارية واضطرت فلوله إلى الانسحاب، وفقد الروم بذلك سيادتهم على البحر وانتقلت لتكون بيد المسلمين وأصبح الطريق مفتوحا أمامهم لغزو القسطنطينية عاصمة بيزنطة وبالفعل فى ٦٧٠م-٤٩هـ أبحر أسطول المسلمين مخترقا مضايق الدردنيل لينزل جيشا اندفع صوب القسطنطينية ليحاصرها لكن الحصار دام سنوات سبع دون أن ينجحوا فى اقتحام المدينة وفى تلك الاثناء، قام أسطول المسلمين بالاستيلاء على جزيرة رودس سنة ٦٧٢م سنة ٥١هـ لاستخدامها كقاعدة لمهاجمة سفن الروم التجارية وإحكام الحصار على القسطنطينية. كما أغار الأسطول عدة مرات على جزيرتى كريت وصقلية.

أدى انتصار أسطول المسلمين على أسطول الروم إلى نجاح المسلمين فى فرض سيطرتهم الكاملة على تجارة الشرق. الأمر الذى ترتب عليه نمو وازدهار الدولة الإسلامية وبداية انكماش واضمحلال الإمبراطورية البيزنطية ولم تتحق نبوءة الرسول ﷺ بسقوط عاصمة الروم (القسطنطينية)، فى يد المسلمين إلا سنة ١٤٥٣م على يد السلطان محمد الفاتح وقد استخدم المدافع فى تلك المعركة، فكانت أول مرة يستخدم فيها هذا السلاح فى تاريخ الحروب.

بين حروب نابليون وحروب الفتوحات العربية الإسلامية



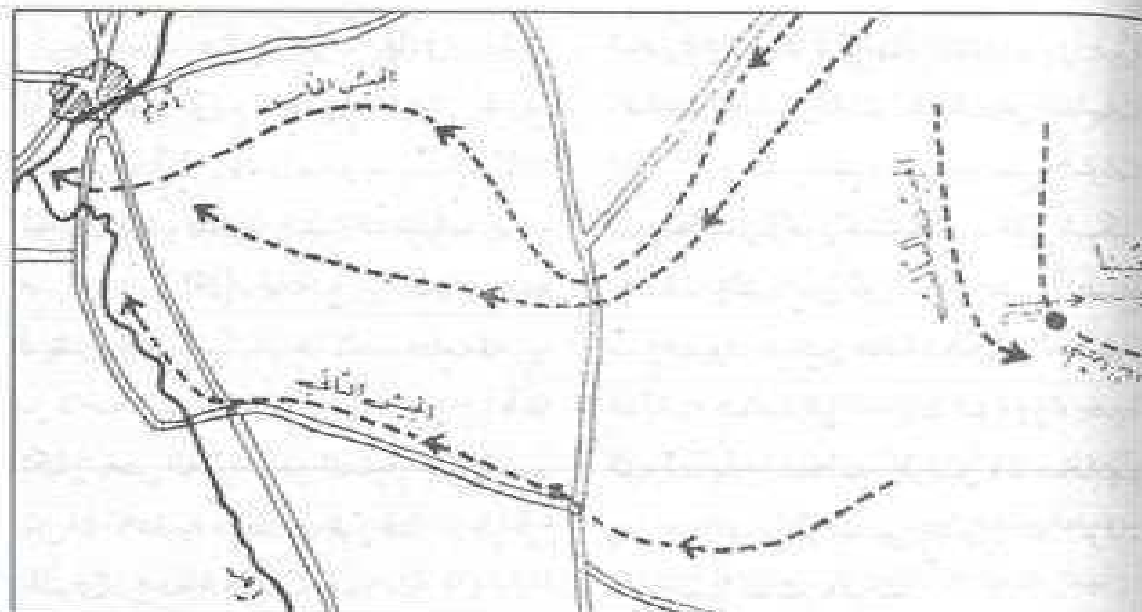
الأستاذ / منير شفيق
الخبير والباحث الاستراتيجي



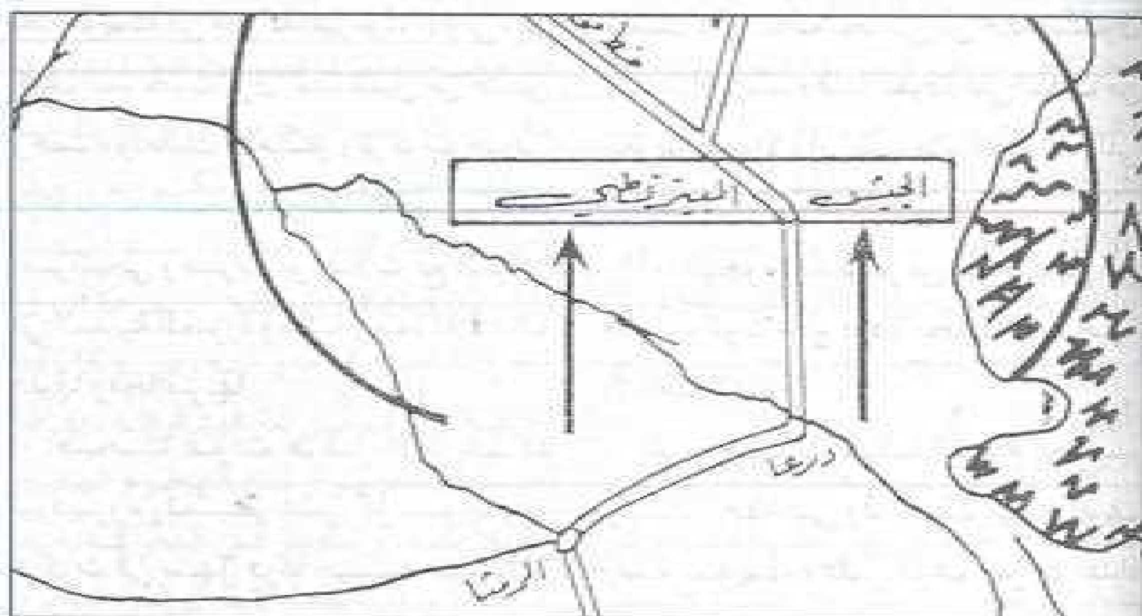
مقارنة تطبيقية

حقا من الصعب أن تجد معركتين حربيتين على بعضهما البعض في كل التفاصيل والظروف. الأمر الذي يوجب على أية مقارنة أن تتناول الجوهر لا التفصيلات الخاصة، ومن هنا فإن المقارنة بين حروب نابليون وحروب الفتوحات العربية الإسلامية الأولى تتناول الجوهر أساسا لكي نرى مدى الشبه بين منهجية العمليات والتكتيك في الحالتين. ولنأخذ معركة أولم ULM التي تعتبر إحدى روائع نابليون الاستراتيجية، وفي المقابل سنأخذ معركة اليرموك الثانية التي تعتبر إحدى روائع القيادة العربية الإسلامية في الفتوحات الأولى.

كان القائد النمساوي ماتش MACH متمركزا على رأس خمسين ألف جندي في منطقة أولم. فوضع نابليون جيوشه بينه وبين فيينا، كما خصص الجيش الأول بقيادة برنادوت للتوجه إلى ميونيخ كاحتياط ضد نجدة الجيش الروسي لماتش ثم يلتف عليه ليحاصره من الجهات الأربع. فحرك الجيش الثاني بقيادة مارمونت MARMONT للتحرك نحو نهر اللر LER جنوبي أولم، بينما يتحرك الجيش الرابع بقيادة سولت SOULT ليطوق أولم من الجنوب أيضا، ويقطع طرق مواصلاتها مع الجنوب. أما الجيش الخامس بقيادة لانس LANNES والجيش السادس بقيادة نيي NEY فيتقدمان غربا على أولم متبعين ضفتي الدانوب. وبهذا يكون التطويق كاملا. وكان قد أرسل الجيش الثالث بقيادة دافوت DAVOUT لتعزيز جيش



(١) نقلت هذه الخريطة عن كتاب جيمس مارشال كورنول «نابليون كقائد عسكري» - باللغة الإنكليزية ص٢٣١.
(٢) الخطوط المتقطعة مع الأسهم تدل على توزيع جيوش نابليون وحركتها
(٣) يلاحظ أن عمليات نابليون أوسع وأشد تعقيدا من الحروب الأوروبية التي سبقتها



(١) نقلت هذه الخريطة عن كتاب غلوب «الفتوحات العربية الكبرى» - باللغة الإنجليزية ص ٢٧٧.
(٢) الأسهم تدل على توزيع وحركة الجيوش العربية الإسلامية

برنادوت- الجيش الأول- باتجاه ميونيخ ليمنع تقدم الجيش الروسي.

عندما أنهى نابليون هذه الخطة وتحركت قواته إلى مواقعها كتب رسالة إلى سولت قال فيها: «لن تكون المسألة هي هزيمة العدو فحسب، وإنما يجب أيضا ألا يفلت منه رجل واحد».

في الواقع كان سقوط أولم محتوما أمام مثل هذا التطويق الرائع، كما كان محتوما ألا يفلت رجل واحد من قوات العدو، ولكن

مشكلة نابليون تركزت بقيادة جيوشه الذين لم يكونوا على مستوى القيادة الاستراتيجية. إن ميورات MURAT الّذى كلف بتنفيذ خطة العمليات أصدر أمرا لنيى NEY أن يقطع إلى جنوب ضفة النهر. وبهذا ترك فراغا لانسحاب العدو من ناحية شمال شرقى الحصن... مما مكن بعض القوات من الفرار على الرغم من أن الأغلبية سقطت بين قتلى وجرحى وأسرى «راجع الخريطة رقم١».

لقد مر كيف جند هرقل جيشا كبيرًا فاق بأعداده كل ما عرفته سوريا من جيوش بعد هزيمته فى معركة اليرموك الأولى. ثم كيف انسحبت فرق المسلمين من حمص وحماة وبعلبك ودمشق وتركزت جنوبى درعا تاركة الصحراء وراءها كخط انسحاب استراتيجى وكطريق مواصلات مع المركز فى المدينة المنورة ومكة ومنعًا للالتفاف عليها ومحاصرتها.

أصبحت قوات هرقل الآن بقيادة ثيوديروس تسيطر على كل سوريا وقد تركزت فى سهل درعا حيث تحصيناتها الدفاعية القديمة. بينما العرب المسلمون قبالتها جنوبا يركزون قواتهم وقد انضمت إليهم قوات عمرو بن العاص وأخذت تتوافد التعزيزات من الجزيرة العربية.

دام هذا الوضع أكثر من أربعة أشهر كان العرب خلالها يستكملون استعداداتهم دون أن يتوقفوا عن شن عمليات مناوشة صغيرة هنا وهناك لإنهاك العدو... وأخيرًا أعدت الخطة وكانت تتألف من عمليات التفاف واسعة تتم من ميسرة قوات البيزنطيين ومن ميمنتهم.. على شكل نصف دائرة من كل اتجاه وبهذا يصبح البيزنطيون ضمن حلقة محكمة الحصار. هذا بالإضافة إلى تحريك قوة وراء جبهة البيزنطيين لتقطع طريق انسحابهم ومواصلاتهم الرئيسى عبر وادى الرقاد عند جسر بنات يعقوب.

لا توجد للأسف تفاصيل حول أسماء القادة الذين كانوا على رأس الفرقة التى قامت بالالتفاف الجانبى من جهة الشرق شمالا أو أسماء قادة الفرقة التى التفت من الغرب شمالا، أو اسم قائد القوات التى أغلقت جسر بنات يعقوب.

أما الهجوم فقد تركز من قبل فرقتين كل منهما ركزت على نقطة محددة فى الجبهة الأمامية للدفاع.

لقد اختيرت لحظة الهجوم الحاسم وتنفيذ الخطة فى وقت هبت فيه عواصف رملية شديدة. وعلى الرغم من أن أعداء العرب حاولوا التركيز على تلك العاصفة ليفسروا بها هزيمة البيزنطيين... إلا أن من الواضح تماما أن دور العواصف الرملية كان مساعدًا وليس حاسمًا أمام مثل ذلك الإعداد الطويل والخطة المحكمة. بل إن اختيار لحظة الهجوم مع هبوب تلك العواصف يعتبر براعة تكتيكية لا جدال

فيها. وهى جزء من قاعدة التوازن بين الحركة التكتيكية والأرض والمناخ المناسب.

تبين بعد انتهاء المعركة أن الذى لعب دورًا حاسمًا فى القضاء على الجيش البيزنطى كله دون أن ينجو رجل واحد، ليس هجوم الصدمة الأمامية المدعومة بالعواصف الرملية، وإنما عملية الطوق الواسعة وقطع طريق الانسحاب.

ليس صعبًا أن يلحظ المرء نقاط التشابه بين استراتيجية عمليات نابليون فى معركة أولم وبين استراتيجية عمليات العرب (١) فى معركة اليرموك الثانية... خاصة من ناحية ضرب طوق من كل الجهات يبلغ عشرات الأميال المربعة.. إلى جانب التركيز على قطع أى منفذ للانسحاب، والإصرار على أخذ قرار استراتيجى ينهى أمر العدو نهائيا- فالأغلبية الساحقة من قوات هرقل انتهت بين قتيل وجريح وأسير.

كان الجوهر فى عمليات نابليون- التكتيك الكبير- وفى تكتيكه للمعركة يتلخص بضرب العدو من الأمام لتثبيت جبهته الأمامية مع عملية التفاف على أحد الجناحين أو كليهما من أجل ضعضعته نهائيا، لذلك فقد تعلم أن يتجنب معارك المواجهة الأمامية الصرف ويركز على الالتفاف على إحدى النقاط الضعيفة. ومن هنا جهد فى دراسة وضع العدو ونقاط قوته وضعفه وموقعه الطوبغرافى، وراح ينظم عملياته الاستراتيجية وتكتيكه فى المعركة من أجل محاصرة العدو وضربه من أضعف نقطة مع تثبيت النقاط القوية الأخرى.

إذا أخذنا معركة أوسترليتز AUSTERLIZ فسوف نجد أن قوات نابليون كانت ٦٥ ألفا مقابل ٥٢ ألفا من الجيش الروسى و ٣٠ ألفا من الجيش النمساوى.

وكان العدو متفوقا أيضا فى موقعه المحصن. ولهذا اعتمدت خطة نابليون على إغرائه ببدء الهجوم ضد مواقع دفاعية محصنة جيدا ثم عندما ارتكب العدو خطأ التخلى عن المرتفع فى الوسط استغل نابليون ذلك فورًا فانقض بسرعة البرق لاحتلاله قاسما العدو شطرين. وكان قد احتفظ بالرغم من قلة عدد قواته، بفرقة احتياط للتعزيز وشن الهجوم المضاد والملاحقة. وانتصر فى المعركة بعد أن حدد بدقة لحظة الانتقال إلى الهجوم المضاد.

لو أخذنا بالمقابل معركة نابليون لوجدنا أن تفوق البيزنطيين على قوات عمرو بن العاص والزبير بن العوام- ١٥ ألفا- كانا

(١) كانت القيادة العامة بيد أبي عبيدة بن الجراح، ولكن أغلب التقديرات أن خالد بن الوليد كان مصمم الخطة العسكرية، أو على الأصح واضع خطوطها العريضة، دون أن ننسى تواجد عمرو بن العاص ويزيد بن أبي سفيان، وغيرهم من القادة – ولا شك أنهم شاركوا أبا عبيدة وخالدا في التخطيط والتنفيذ

ضعفا على الأقل. وكانت متمركزة في بابليون في موقع حصين جدا بينما كانت قوات عمرو والزبير في هيليوبولس، وأخيرا استطاع عمرو إغراء قوات تيودور على الخروج من بابليون لشن الهجوم على القوات في هيليوبولس، وفعلا خرج تيودور باتجاه شمال شرقي بابليون بينما كان عمرو بن العاص قد بعث تحت جنح الليل بلواء استخفى في مكان قرب قلعة القاهرة الآن وبعث بلواء آخر، في الوقت نفسه ليستخفى بمكان قرب الأزبكية الآن.

وعندما تقدمت قوات تيودور خرج عمرو والزبير لملاقاتها واشتبك الطرفان مواجهة دون أن يتحرك كمين الميمنة أو كمين الميسرة.. ولكن عندما حمى وطيس المعركة تحرك اللواء الكامن شرقا والتف على مؤخرة قوات البيزنطيين التي تضعضعت وفوجئت بهذه الحركة غير المتوقعة، ولكنها عادت فتماسكت إذ شقت رأس سهم باتجاه الغرب لتفتح جبهة أمامية ضد القوتين. ولكن ما كاد يستقر حالها الجديد حتى فوجئت باندفاع اللواء الكامن غربا بهجوم زخم على ميسرتها.. وهنا عمت الفوضى في صفوف البيزنطيين ولم يستطع النجاة منهم غير عدد قليل هربوا إلى بابليون. أما القسم الأكبر فسقطوا في المعركة.

كان تكتيك العرب المسلمين، يعتمد أحيانا، على أخذ موقف دفاعي بادئ ذي بدء مصحوبا بأعمال مناوشة وإنهاك إلى أن يروا نقطة ضعف فيحملون عليها بهجوم زخم.. بل إن معركة القادسية تعطي صورا على تكتيك متطور جدا.. إذ كانت نقطة التركيز في اليوم الأول على مهاجمة سلاح الفيلة من خلال تعاون رماة النبل والمشاة- كانت الخيول تخاف الاقتراب من الفيلة.

أما في اليوم الثاني بعد أن اختفى سلاح الفيلة من الميدان كان سعد بن أبي وقاص قد أخفى سلاح الجمال كاحتياط ولم يشركه في اليوم الأول وإنما في اليوم الثاني.. أما في اليوم الثالث فكانت قوات القعقاع قد بدأت تصل من بر الشام بعد أن انتهت من معركة اليرموك الثانية فتحققت مفاجأة أخرى عوضت عن بروز الفيلة للمرة الثانية. وانتهى ذلك اليوم بالقتال الضاري للقضاء على الفيلة.. فوتل سلاح الفيلة في اليوم الأول عن طريق قطع مشدات الهوادج، أما في اليوم الثالث فقد هوجمت الفيلة بالذات. من خلال طعنها بعيونها- ولكن في ليل ذلك اليوم قرر المسلمون تحقيق مفاجأة حاسمة وهي شن الهجوم في الليل. وهنا تحطم جيش رستم نهائيا لتنتقل المعارك بعد ذلك إلى قلب بلاد فارس.

وإذا أخذنا معركة نهاوند فقد استخدم العرب تكتيكا غاية في الجدة والدقة.. فقد كان الساسانيون (٢) متحصنين في موقع غرسوا حوله ما يشبه الأوتاد ورءوس

(٢) الساساني والساسانيون أضيفت إلى الفرس حتى لا يفهم بأنها حرب بين عرب وفرس مع الفتوحات العربية الإسلامية. لأنها كانت حروب إزالة العوائق الكبرى أمام تحرير الإنسان ودعوة الإسلام. فالحرب هنا مثل الحرب مع الروم سواء بسواء.

الرماح الأمر الذي جعل التقدم إليه محالا على الخيل أو على المشاة. فكانت الخطة استدراج العدو إلى خارج الحصن فقسم الجيش إلى جسم رئيس أخفى تماما عن العدو بينما ظهر قسم منه على أساس أنه الجيش كله. فشن هجوما وهميا وبدأ يترنح أمام الدفاع وصعوبة الأرض. فتخيل المدافعون أنه فقد تماسكه ودبت به الفوضى فشدوا عليه لملاحقته وإنهائه فيما راح يفر من أمامهم إلى أن أوصلهم إلى موقع الجسم الرئيسي للجيش الذي قطع عليهم طريق العودة إلى حصنهم وأنهى أمرهم.

الاستطلاع والاستكشاف:

١- ثمة ظاهرة تولدت وتطورت مع حروب الفتوحات العربية الإسلامية الأولى يمكن اعتبارها قطعا كدليل على التشابه في الجوهر بين حروب نابليون وتلك الحروب، وهي تكوين مجموعات الاستطلاع والاستكشاف والتركيز على دراسة تحركات العدو ومواقعه والأرض التي يقف عليها، إذ إن هذه الظاهرة ذات دور حاسم بالنسبة إلى جيش مقسم لفرق ويعتمد على المناورات الاستراتيجية وحرب الحركة، بينما دورها ضئيل جدا يكاد لا يذكر في الحروب التقليدية التي كان يزحف فيها الجيش كله ككتلة واحدة ويلتقي مع عدوه في نقطة يتم اختيارها بالاتفاق في كثير من الأحيان، بل سميت تلك الحروب «المعركة بالاتفاق».

أما الحرب المتحركة التي تعتمد على قوة المناورة الاستراتيجية وتستخدم أسلوب المناوشات إلى جانب قتالها النظامي، فلا مفر لها من تلك الظاهرة. كاد نابليون أن يتعرض في معركة مارينغو MARINGO إلى هزيمة محققة لولا أنه أنقذ الموقف بمبادرة رائعة في آخر لحظة وحول الهزيمة إلى نصر. ولكنه أخذ درسا قاسيا منها وهو ضرورة تنظيم جهاز استطلاع فعال كفؤ، بل إنه خصص بعدها كل سلاح فرسانه الخفيفة، بصورة حثيثة للاستطلاع، تاركا فرسانه الثقيلة للصدام. ولعل الفقرات التالية من رسالة عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى سعد ابن أبي وقاص توضح الأهمية التي أعطيت لهذة الظاهرة في حروب الفتوحات، يقول عمر: «وإذا وطئت أرض العدو فأذن العيون بينك وبينهم، ولا يخف عليك أمرهم، وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه، والغاش عين عليك وليس عينا لك، وليكن منك عند دنوك في أرض العدو أن تكثر الطلائع، وتبث السرايا بينك وبينهم، وتنق للطلائع أهل الرأي والبأس من أصحابك، وتخير لهم سوابق الخيل».

بل إن عمرو بن العاص دخل أحد الحصون في فلسطين مستخفيا على أساس أنه رسول عمرو بن العاص إلى

القائد البيزنطى أرطبون، بقصد استكشافه واستطلاعه بنفسه. وكان قد اشتهر عن نابليون أنه كان يمسح أرض المعركة بنفسه قبل خوضها. وكثيرا ما وبخ قادته أشد توبيخ حين كانوا يعتمدون على الخرائط ويهملون الاستطلاع، أو لا يوافونه بالمعلومات الدقيقة التى تتضمن «أتفه» التفاصيل.

مستوى القيادات

ثمة ظاهرة أخرى مشتركة لا يمكن أن تتولد إلا فى ظل حرب متحركة ذات مناورات استراتيجية وتكتيكية على أعلى مستوى، ولا يمكن أن توجد إلا فى الجيوش التى تقسم على أساس فرق مستقلة تتألف كل واحدة منها من مختلف صنوف الأسلحة ولها قيادتها، وبمقدورها أخذ خط عمليات مستقل، أو شبه مستقل، وخوض معارك مستقلة بنفسها. وتلك الظاهرة هى زيادة الدور الاستراتيجى والتكتيكى الذى يلعبه القادة والكوادر الأدنى من القائد العام.

كتب الجنرال د. باليت D. K. PALIT فى كتابه «أوليات المعرفة العسكرية» THE ESSENTIALS OF MILTARY KNOWLEDGE تحت فصل «قيادة العمليات» يقول: إن فى حروب الأمم القديمة، مثلا، عندما كانت الفلانكسات والليجونات تلتحم فى المعركة لم تترك الإجراءات المطلوب اتخاذها إلى مبادرة القيادات الأدنى، لقد كانت اجراءات مقررة سلفا يجب اتباعها حرفيا بمجرد بدء عملية الاشتباك- حيث يأخذ كل فرد موقعه فى الخط القتالى BATTLE LINE ويتقدم الجميع كتلة واحدة كل باتجاه عدوه المباشر.

«ولكن هذا الوضع تغير مع القذائف بعيدة المدى والأسلحة الحديثة والتنظيمات الجديدة للجيوش واختلاف أنواع الأرض التى يجرى عليها القتال وتنوع الحركات.. لقد أدى كل ذلك إلى ولادة مفاهيم أكثر تعقيدا حول الاستراتيجية والتكتيك، مثلا ضرورة استخدام الاحتياط، والزحف السرى، والمناورات التى تهيئ للمعركة ولهذا أخذت مسئوليات قادة الميدان تزداد أكثر فأكثر».

ثم ينتهى إلى القول: «إن القفزة الكبرى التى أحدثتها الحروب النابليونية إلى أمام- مفهوم التنظيم إلى فرق، والأساليب الحديثة فى المواصلات وكذلك حركات ومناورات كتل منفصلة عن بعضها تتقدم من أجل المعركة- باختصار «للتكتيك الكبير» - هى التى ولدت، وفتحت الطريق، للقيادة اللامركزية فى الميدان. وبهذا أصبحت حتى مراحل التخطيط والتحرك- استراتيجيا وتكتيكيا- ضمن نطاق القيادات الأدنى، وأصبح مصير المعارك يعتمد على مبادراتهم وقراراتهم فى العمليات متعددة المستويات. ولهذا

نشأت الحاجة إلى وضع مجموعة من قواعد العمليات أو المبادئ لهدى قادة الميدان».

حين يراجع المرء حروب الفتوحات الإسلامية يندهش فعلا من عظم الدور الذى كانت تلعبه القيادات الأدنى، والكوادر التى على رأس المجموعات الصغيرة، ومن قيادة العمليات على أساس الاعتماد على المبادرات الاستراتيجية والتكتيكية للقيادات الأدنى، ومن الجمع الخلاق بين المركزية واللامركزية.

ويكفى أن تراجع ذلك العدد الكبير من أسماء القادة العسكريين الذين قدموا روائع استراتيجية وتكتيكية فى فترة تاريخية فى حدود عشر سنوات «٦٣٣-٦٤٤م»- خالد بن الوليد، المثنى بن حارثة، أبو عبيدة بن الجراح، عمرو بن العاص، سعد بن أبى وقاص، يزيد بن أبى سفيان، شرحبيل بن حسنة، والنعمان بن مقرن، القعقاع وغيرهم عشرات- ولا نبالغ إذا قلنا إن هذا الجانب تطور لدى العرب بشكل يفوق عما تطور به فى زمن نابليون، فالذى يراجع مذكرات نابليون وملحوظاته حول قادته وكذلك عمليات أولئك القادة بالذات، يتأكد أن نابليون لم تتوفر له قيادات أدنى على مستوى استراتيجى.

فعلى سبيل المثال إذا أخذنا الجنرال نيى NEY فسنجده قد ارتكب خطأ فادحا فى حملة بولونيا. وقد وبخه نابليون أشد توبيخ على ذلك. بل إن كثيرين من مؤرخى حروب نابليون يؤكدون أن أحد العوامل الحاسمة فى هزيمته فى معركة ووترلو يرجع لتركه القيادة التكتيكية فى المعركة للمارشال نيى NEY. وإذا كان مارشاله ألكسندر بيرثير BERTHIER A ضابطا ممتازا فى الأركان، وتنفيذ خطة معدة له، إلا أنه، على حد تعبير نابليون، لا يصلح كقائد مستقل يقدر الموقف ويبادر، ويمكن أن يقال الشىء نفسه عن سائر قادته الآخرين بالرغم من أنهم يعتبرون ممتازين إذا ما قورنوا بزملائهم فى الجيوش الأخرى فى عهده.

أما حروب الفتوحات الإسلامية الأولى فقد أثبتت أن العرب امتلكوا مجموعة من القادة، فى فترة زمنية واحدة، قادرين على القيادة الاستراتيجية المستقلة فضلا عن القيادة التكتيكية المستقلة.

إن توفر هذه الظاهرة فى حروب الفتوحات تؤكد، بصورة غير مباشرة، ولكن شديدة الدلالة، على أن سمات الفن العسكرى فى حروب العرب المسلمين لا تدخل فى عائلة الحروب القديمة حتى أواخر القرن الثامن عشر، وإنما هى من عائلة الفن العسكرى الذى أرسى نابليون أصوله فى العصر الحديث. بل لها من المزايا، وفيها من الدروس فى الفن العسكرى ما يرتفع بمستوى علم الحرب وفنها.

«يتبع»

نظرة تاريخية على الإسلام في إفريقيا

د/ ياسر أبو الحسن

تقع شبه الجزيرة العربية بالقرب من إفريقيا إذ لا يفصلهما إلا البحر الأحمر والمحيط الهندي، وتعرجات الشاطئ بين إفريقيا وشبه الجزيرة العربية تدل على أنهما كانتا قارة واحدة فيما سبق، وقد ساعد قرب شبه الجزيرة العربية من إفريقيا على تسهيل التواصل السكاني والثقافي والديني بين إفريقيا وجزيرة العرب، وكانت إفريقيا هي الوجهة الأولى للمسلمين الأوائل، حين اضطهدتهم قريش، فقد هاجروا إلى الحبشة قبل أن يهاجروا إلى المدينة المنورة.

وقد مهد التواصل التجاري بين الجزيرة العربية وإفريقيا، للهجرات العربية الإسلامية إليها، فقد أسس العرب محطات تجارية على الساحل الشرقي لإفريقيا، وكانت هذه المحطات نواة للتواجد الإسلامي في إفريقيا، ومن تلك المراكز على الساحل انداح الإسلام إلى العمق الإفريقي، منطلقا من إثيوبيا والصومال والسودان.

وكانت معظم هجرات المسلمين إلى إفريقيا قد انطلقت من اليمن بسبب قربها وسهولة اتصالها بالساحل الشرقي الإفريقي[١]. وقد بدأت هجرة اليمنيين إلى إفريقيا في القرن الثاني قبل الميلاد بعد انهيار سد مأرب، كما تشير بعض المصادر إلى أن (الحبش) يرجعون أصولهم إلى قبيلة (حبيش) وربما كان العكس هو الصحيح. وقد ازدهرت العلاقات العربية الإفريقية قبل الإسلام في ظل الإمبراطورية الرومانية التي كانت تنظر لليمن نظرة خاصة بسبب أهميتها الاستراتيجية[٢].

وقد شهد الساحل الشرقي لإفريقيا بين عامي ٧٧- ٢١٠ م، نشاطا تجاريا مكثفا عبر البحر الإرتري، ربطت شرق إفريقيا والجزيرة العربية ببلاد فارس وآسيا واليونان وروما. ولم تقتصر الهجرات العربية على الساحل الشرقي وحده، فثمة هجرات عربية إلى الشمال الإفريقي إلى مصر وتونس وغيرهما من بلدان الشمال الإفريقي.

١ محمد عمر بشير، العلاقات العربية الإفريقية، معهد الدراسات الإفريقية والآسيوية، جامعة الخرطوم، ١٩٩٤م، ص ٢٧.
٢ محمد عمر بشير، العلاقات العربية الإفريقية، ص ٢٨.

ومن الصلات العربية الإفريقية التي سجلها القرآن معركة الفيل، التي حاول فيها الإكسوميون حكام الحبشة واليمن في تلك الفترة هدمَ الكعبة انتصارا لكنيستهم التي بنوها في اليمن ولم تجد من العرب ما يؤمل لها من التوقير، وكانت تلك المعركة في سنة ٥٧٠ م، ويسميها العرب عام الفيل.

وكان لزيارات الرحالة والعلماء المسلمين أثر في تنشيط التواصل والهجرات إلى العمق الإفريقي، ومن ذلك أن وهب بن منبه زار مملكة غانا في عام ١٣٧هـ، وأن الفزاري زار غانا عام ٢٠٠هـ وسماها أرض الذهب[٣].

وأدى انتشار الإسلام في مصر إلى زيادة الحضور الإسلامي في إفريقيا وتيسير السبيل إلى نشره في وسط إفريقيا وغربها. وقد استعان عبد الرحمن الداخل بالأفارقة في فتح الأندلس[٤]، وفيما بعد كان للأزهر والقيروان والزيتونة والقرويين دور كبير في دعم التواصل والروابط الثقافية الإفريقية العربية.

وكان لقبيلة بني هلال وبني سليم دور كبير في نشر الإسلام في شمال إفريقيا وشمالها الغربي، ومثلت الممالك الإسلامية التي نشأت في المغرب من أدارسة ومرابطين وموحدين، محاضن لنشر الإسلام وتعزيز الصلات العربية الإفريقية، وظهرت مراكز إسلامية في العمق الإفريقي مثل (تمبكتو).

وقد أنشأ العرب والأفارقة طرقا عبر الصحراء الكبرى ربطت إفريقيا بالعالم الخارجي، ومن أشهر طرق القوافل طريق (سلجماسا) المؤدي إلى مناطق إنتاج الذهب في أعالي نهر النيجر، وطريق (غدامس) و(غات) المؤدي إلى مناطق الهوسا الغنية بالمعادن النفيسة، وطريق (طرابلس- فاس- الكوار) المؤدي إلى برنو وبحيرة تشاد، وطريق (سرينيكا - الكفرة - ودّاي)، فقويت الصلات التجارية بين مصر وطرابلس وتمبكتو وتندوف وبرنو وغيرها من الحواضر الإفريقية، ومن أهم السلع التي نقلت عبر هذه الطرق: الذهب والأقمشة والملح والأسلحة والصمغ والعسل.

وفي القرن السابع عشر توغل الإسلام في تنزانيا وكينيا وبوغندا والكونغو وازدهرت مراكز ومجتمعات إسلامية في بوججي وتابورا في تنزانيا، وكتامو وسيفي في كينيا، وفي نهاية القرن التاسع عشر أصبحت زنجبار المركز الإداري والثقافي والتجاري الأول لشرق إفريقيا[٥]. وفي عام ١٨٥٠م اعتنقت (الكباكا) العائلة الحاكمة في بوغندا الدين الإسلامي، وكان هذا دعما لنشر الإسلام[٦].

٣ مجلة الراصد، العدد الرابع، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، ص ٣٤.
٤ محمد عمر بشير، العلاقات العربية الإفريقية، ص ١١.
٥ محمد عمر بشير، العلاقات العربية الإفريقية، ص ٣٠.
٦ محمد عمر بشير، العلاقات العربية الإفريقية

وثمة عوامل ساعدت على انتشار الإسلام في إفريقيا، يمكن أن نرصد منها أربعة، وهي العامل الشخصي، وطبيعة الدين نفسه، وطبيعة الشخصية الإفريقية، والبيئة الثقافية والاجتماعية والسياسية في إفريقيا.

وثمة عقبات في طريق التواصل الإسلامي الإفريقي كان من الصعب التغلب عليها، ومن ذلك أن الغابات الاستوائية والأدغال والأحراش مثلت حاجزا طبيعيا قلل من الصلات بين الشمال الإفريقي الذي توطن فيه الإسلام وانتشر، وبين دول الجنوب، فكان الحضور الإسلامي فيه أقل منه في الشمال والشرق والغرب، فلم تتح الظروف للمسلمين كي ينشطوا في نشر الإسلام في الجنوب الإفريقي[٧].

ولما وصل البرتغاليون إلى جنوب إفريقية، جعلوا المسلمين في الجنوب الإفريقي بل في الساحل الشرقي في موقف دفاع، وبحلول عام ١٥٢٠م، سيطر البرتغاليون على كل السلطنات الإسلامية في الساحل الشرقي، مما حدّ من النفوذ الإسلامي وأثره في داخل الجنوب الإفريقي[٨].

ومن أهم العقبات التي وقفت في طريق الإسلام في إفريقيا، أن المستعمرين دعموا بقوة جهود المبشرين لنشر المسيحية في إفريقيا، خاصة المذهب الكاثوليكي، ونشروا لغاتهم بين الشعوب المستعمرة، فحلت لغة المستعمر محل اللغات المحلية ومنها العربية في بعض البلاد الإفريقية، وأن صنائعهم في تلك البلاد واصلوا من بعدهم عرقلة خطط التعريب، وانضاف إلى هذه العقبات أخيرا فكرة ضالة، تروجها القوى المعادية للإسلام، هي ارتباط الإسلام بالإرهاب الدولي، وقد أضرت هذه الفكرة كثيرا بسمعة الإسلام وحدت من أثر الجهود المبذولة لنشره.

ومجمل القول أن جوار إفريقيا لجزيرة العرب وعراقة الصلات العربية الإفريقية، قد هيأ الظروف لأن تكون إفريقيا المهجر الأول للمسلمين قبل المدينة المنورة، وأن تكون موطنا للإسلام، حتى سميت بالقارة المسلمة، إلا أن مناطق الغابات الاستوائية قد حدت من انتشار الإسلام في جنوب القارة، وأن سيطرة القوى الاستعمارية على القارة الإفريقية ردحا من الزمن، قد حد من نشر الإسلام فيها، ودعم نشر الثقافة الغربية والديانة المسيحية، والآن تتوازى الجهود المبذولة لنشر الإسلام فيها مع الجهود المبذولة في تعريب الشعوب التي تغير لسانها إلى لغة المستعمر، ومع جهود أخرى في نشر الإسلام باللغات الإفريقية المحلية.

---

٧ محمد عمر بشير: العلاقات العربية الإفريقية، ص ١٤.

٨ مجلة الراصد، العدد الرابع، ص ٤٥.

مدينة «إلورين» منارة إسلامية حديثة في إفريقيا

أ. د. عبدالله نجيب محمد
معهد البحوث والدراسات - جامعة القاهرة

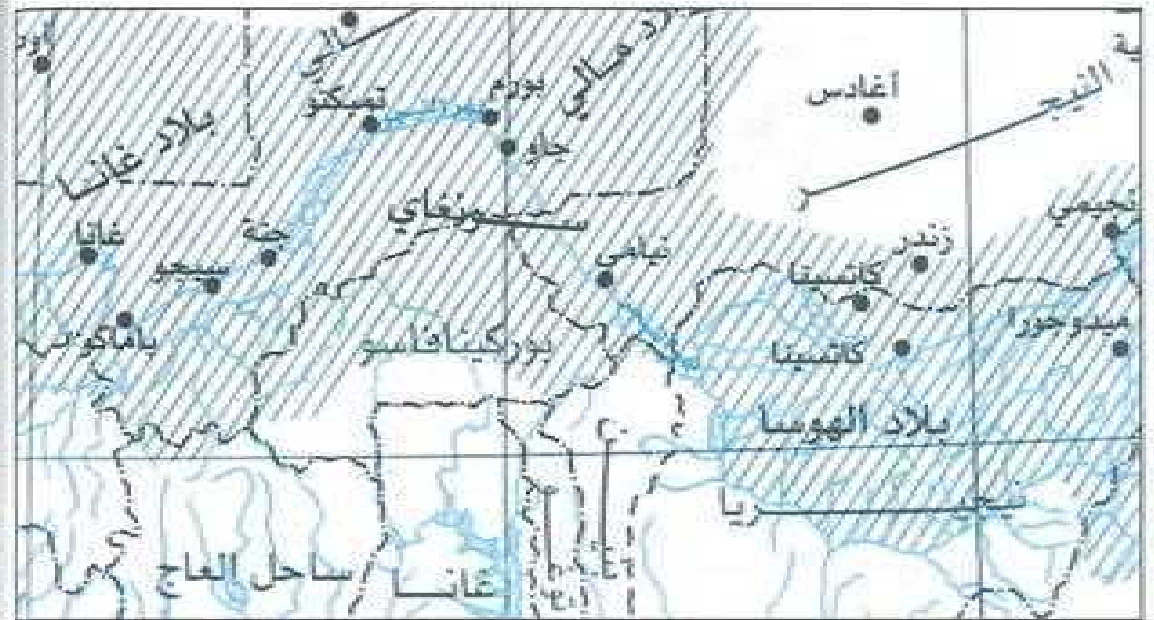
من المعروف أن طريق شبه جزيرة سيناء قد شكل أحد أهم معابر الدعوة الإسلامية إلى شمال القارة الإفريقية، ومن الشمال انتقلت دعوة الإسلام إلى جنوب الصحراء الكبرى، عبر طرفها الغربي الممتد جنوبًا بحذاء شاطئ المحيط الأطلسي حتى نهر النيجر وبلاد غرب إفريقيا.

انتشر الإسلام في غرب إفريقيا قبل أكثر من عشرة قرون، وشكل وضعًا ثقافيًا واجتماعيًا جديدًا للعديد من المجتمعات الإفريقية، التي ساهمت في بناء الحضارة في ربوع الغرب الإفريقي، وعبر القرون أنشئت عدة دول وممالك إفريقية أصيلة، انضوت تحت لوائها مجموعات متعددة من الأفارقة والعرب المهاجرين، وتؤكد المصادر التاريخية أن الإسلام في انتشاره - بعد أن اجتاز الصحراء الكبرى - قد اخترق نطاق الغابات في غرب القارة، كما انتشر على طول الساحل الغربي والشرقي للقارة، ووصل إلى جنوب السودان وهضبة البحيرات الكبرى، وفي مرحلة لاحقة قام المسلمون المهاجرون من شبه القارة الهندية بدور فعال في نشر الإسلام في جنوب القارة.

وجد الإسلام قبولاً وترحيبًا من أبناء القارة، وانتشرت مع الإسلام اللغة العربية.. لغة الدين الجديد، وأصبحت وسيلة التفاهم والتعليم في مناطق إفريقية عديدة، كما أثرت في كثير من اللغات الإفريقية الأصلية، كالسواحيلية والفولانية والمندينكية والهوسا وغيرها.

وصل الإسلام في وقت مبكر إلى غانا القديمة، الواقعة إلى الشمال الغربي من جمهوريتي مالي والسنغال، فقد أسلم ملكها «برمنداني» عام ٥٧٥هـ - ١١٧٩م، وأطلق على نفسه اسم «السلماني»، وكان قد أسلم من قبله ملك التكرور عام ٤٤٠هـ/١٠٤٨م.

انتقل الإسلام إلى مملكة «السونغاي» التي كانت تقع في الشمال الشرقي من جمهورية مالي، وكانت تضم أراض واسعة شملت «مالي» حتى المحيط الأطلنطي، وغانا، وأجزاء من نيجيريا شملت إمارات «الهوسا» وممالك الفولاني، علاوة على



مملكة «كانم».

كانت مدينة «جني» (في مالي حاليًا) عاصمة لهذه الدولة الإسلامية الكبرى، كما كانت مركزًا تجاريًا وعلميًا عظيمًا، وكان إسلام ملكها «كنبرو» عام ٤٦٨هـ-١٠٧٥م عاملاً حاسمًا في اعتناق كثير من سكان المنطقة للإسلام.

ساد الإسلام شمال نيجيريا ووسطها، ثم امتد إلى الجنوب فيذكر أن بعض العرب قد هاجروا إلى واحات «أبروتوات» و«غدامس» و«أغاديس»، وانطلقوا منها عبر الواحات والوديان إلى مناطق شعب الفولاني «يطلقون على أنفسهم الفلبة»(١) واندمج الجميع مع شعب الهوسا، مما أدى إلى انتشار الإسلام واللغة العربية بين السكان على نطاق واسع.

برزت عدة مدن إسلامية في إفريقيا منذ وقت طويل، على رأسها: الفسطاط وطرابلس والقيروان وفاس وتونس في الشمال، ومقديشيو وكلوة وزنجبار ودار السلام في الشرق الإفريقي، وكانم وسنار في مناطق النوبة والسودان الشرقي، وتمبكتو على ضفاف نهر النيجر، كما قامت «كشنة» - التي تقع على طريق القوافل المارة من تمبكتو إلى «برنو» ومصر - قامت بدور فعال في نشر الإسلام والثقافة العربية منذ القرن الرابع عشر.

أما مدينة «إلورن» فهي مدينة إسلامية حديثة قامت كعاصمة لولاية «كوارا» في نيجيريا، وهي تقع على الطريق الغربي من البلاد، ولها حدود طويلة مع جمهورية بنين، ويرجع تأسيسها إلى القرن السابع عشر، حين نزل بها رجل من «اليوروبا» هو «أوجو اسيكوس» واهتم بالمدينة وأهلها، ثم تأسست فيها إمارة إسلامية منذ القرن التاسع عشر، على يد الشيخ «صالح» المعروف بـ«عالم» الذي قام بالدعوة الإسلامية في

١- اختلفت بشأن أصولهم الآراء، فهناك من يرى أنهم جزء من أهالي النوبة في السودان الشرقي، ويرى آخرون أنهم من العرب المهاجرين من الصحراء الكبرى، وهم يرون أنهم من العرب، ويعودون بنسبهم إلى عقبة بن نافع الفهري.

المدينة وما حولها، ثم حكمها الأمير عبدالسلام ابن الشيخ صالح في الفترة من ١٨٣١ - ١٨٤٢م، ودانت له بلاد اليوروبا بأسرها.

كان لموقع مدينة إلورن الجغرافي الفريد دور هام في الاتصال والتواصل بين جنوب نيجيريا وشمالها من جهة، ومن جهة أخرى أصبحت ممرًا للتجار والدعاة في طول البلاد وعرضها.

يشكل «اليوروبا» أغلب سكان هذه المدينة، ويبلغ عدد سكان ولاية «كوارا» نحو ٢ مليون نسمة، جملتهم من المسلمين، ومن أهم قبائلها قبيلة «كيما» التي دانت بالإسلام حوالي عام ١٨٠٤م.

قام الشيخ «بلو» وهو من الفولاني بنشر الإسلام في مدينة «باتيجي» وقام علماء «إلورن» بجهود متواصلة لنشر الإسلام في مدن «أوفا» و«أجشي» و«إيوا» و«جينا» وغيرها.

وكنتيجة لجهود علماء «إلورن» ازدهرت الثقافة العربية الإسلامية في ولاية «كوارا» منذ منتصف القرن العشرين، حيث قاموا بإنشاء العديد من المدارس العربية الإسلامية، التي اتخذت اللغة العربية لغة للتعليم والتأليف، ثم أنشئت كلية لمعلمي اللغة العربية والدراسات الإسلامية في «إلورن» في بداية الثمانينيات ثم أسست كلية للدراسات العربية والشريعة الإسلامية عام ١٩٩٢م، وهي تمنح الدبلوم في اللغة العربية والشريعة الإسلامية، واللغات المحلية، والإعلام وعلوم المكتبات، كما نشأت في المدينة «جماعة أنصار الإسلام» في عام ١٩٤٢م، وتعددت فروعها وإنجازاتها في ربوع إفريقيا الغربية، ومن فروعها «جمعية أنصار الإسلام - الجناح النسائي» وتقوم بالوعظ والإرشاد وانتشرت في جميع بلاد «اليوروبا».


إبراهيم صالح الحسيني

أصبحت «إلورن» لجنوب «نيجيريا» كعبة العلم، وقبلة العلماء، ومنبع الإشعاع الحضاري في كل بلاد «اليوروبا» وأنجبت المدينة على امتداد تاريخها عددًا من عباقرة العلماء وفحول الشعراء، منهم: الشيخ «ابن ينما» والشيخ «أبو بكر بن اكوكورو» والشيخ «سعد كوكيهو كوبيري» والشيخ «محمد الجامع اللبيب» (تاج الأدب) والشيخ «محمد كمال الدين حبيب الله الأدبي» والشيخ آدم عبدالله الألوري(٢) وغيرهم.

يرى علماء «كوارا» أن أهم المشكلات التي تواجه الأجيال الجديدة من المسلمين هي التغريب الاجتماعي والثقافي، ويؤكد الشيخ «إبراهيم صالح الحسيني» رئيس هيئة الإفتاء بنيجيريا الاتحادية أن الأفارقة عمومًا يواجهون استعمارًا جديدًا يتستر بشعار النظام العالمي، ويروج الأعداء أن الإسلام دين التعصب والتطرف.. مع أن الشريعة الإسلامية تتميز بالتسامح والتسامي عن

(٢) الأخيران حائزان على وسام العلوم والفنون من ج. م. العربية

التعصب، وتستنكر كل مظاهر العنصرية، فالإسلام يقدس العدل والإحسان والتسامح ويحترم حقوق الآخرين، ويعترف بحرية الاعتقاد والفكر والنشاط البناء، فهو دين يلتزم في كل شيء بالوسطية الراقية ويرفض التعصب الطائفي بكل أشكاله، ويرى أن التطرف والعنف ظاهرة سياسية اجتماعية لا علاقة لها بالإسلام فهي تناقضه وتفرغه من مضمونه الأساسي وهو السماحة والاعتدال والإنصاف والوسطية، لأنه يقدم دائمًا استعمال العقل والفكر المتوازن، ومقابلة الحجة بالحجة، ويقر الإسلام مبدأ حسن الجوار، بل التعاون بين جميع أتباع كل الأديان السماوية(٣).

يرى كثير من علماء نيجيريا أن المسلمين -قبل كل شيء- في حاجة إلى التعاون والترابط ونبذ العنصرية القبلية والعرقية، كما يرون أن المسلمين يحتاجون إلى نبذ كل مظاهر وظواهر التغريب الاجتماعي والثقافي، وأن عليهم التمسك بثوابت الشريعة الإسلامية في المظهر والمخبر، وهذا ما يجب أن تتعلمه الأجيال الجديدة، وأن يتمسك به الشباب في إفريقيا خاصة، التي تتباين فيها المكونات الاجتماعية والبنى السكانية، نظرًا لتباين ظروفها، والأثر الكبير الذي تركه الاستعمار في تشكيل الحياة في كثير من جوانبها.

يرى هؤلاء العلماء ضرورة التركيز في التعليم على الضوابط الأخلاقية، وأن يقوم الإعلام في كل البلاد الإفريقية بدور فعال في هذا المضمار، وعليه ألا يتجاهل هذه الأمور، بل يجب أن يدعو باستمرار إلى التمسك بالهوية، وأن يعمل ويؤكد ثقة المسلمين بأنفسهم، فالمستقبل للإسلام.

ونحن نرى مع علماء نيجيريا أن المسلمين في هذا العصر يمكن أن يبدءوا مشروعًا حضاريًا يؤسس لانطلاقة جديدة، يستثمرون فيها تراثهم الزاخر بالإبداع الحافل بالتجارب، المؤيد بالرسالة الإلهية الخالدة، التي تشكل قاعدة انطلاق راسخة، بثوابت منهجها المتجدد القادر على تمكينهم من التفاعل مع متغيرات العصر وآمال المستقبل، دون تفريط في ثوابت الشريعة الإسلامية والهوية الإسلامية، التي تعزز وجودهم الفاعل، ومساهمتهم في التطور المادي والمعنوي للحضارة الإنسانية.

يجب على المسلمين ألا يرهنوا إرادتهم لغيرهم، وألا يستسلموا للأهداف الأجنبية وأن يتمسكوا بتراثهم، فالتخلف لا يمكن تغييره إلا بإدراك مسبباته، والواقع لا يتغير إلا بالعمل الدءوب لتصحيح المسار..

ونحن نرى مع علماء نيجيريا أن على الإعلام في بلاد المسلمين دور في غاية الأهمية في استعادة الهوية الإسلامية، والتمسك بالثوابت الإسلامية ونطالب بضرورة إنشاء مركز إعلامي متخصص في إنتاج برامج للتعريف بالإسلام باللغات الوطنية الإفريقية تؤكد على إبراز ثوابت الإسلام ومبادئه، ونرى أيضًا ضرورة إنشاء مركز معلومات يوفر كل ما يحتاجه الراغبون في التعرف على الإسلام من غير المسلمين الأفارقة.

وبالله التوفيق

(٣) في حديث له مع مجلة الدعوة الإسلامية العالمية.

حث الإسلام على الإنفاق (٤)

عثمان بن عفان رجل اشترى الجنة مرتين



فوزي فاضل الزفزاف
عضو مجمع البحوث الإسلامية

وإذا كان سيدنا أبوبكر- رضي الله عنه- قد حاز فضل إنفاق ماله في سبيل الله، وزهده في دنياه، فقد شاركه في ذلك سيدنا عثمان بن عفان- رضي الله عنه- فقد كان نموذجا رائعا للبذل والعطاء، ومثالا يحتذى به في الإنفاق في سبيل الله، وقدوة حسنة في التبرع بالمال في جميع أوجه الخير، يصدق فيه قول الرسول ﷺ:

(إن لله عبادا اختصهم الله بقضاء حوائج الناس حببهم في الخير وحبب الخير إليهم إنهم الآمنون من عذاب الله يوم القيامة).

وكان سيدنا عثمان رضي الله عنه ينظر إلى الآخرة على أنها دار القرار والخلود فيعمل لها، ولا يلتفت إلى الدنيا دار المرور والفناء، فهو زاهد فيها، ويؤمن بأن ما عند الله هو خير وأبقى.

ورغم أن سيدنا عثمان- رضي الله عنه- كان من الصحابة الذين جاءتهم الدنيا راغمة وبارك الله له في ماله، وكان ذا حظ كبير في تجارته، إلا أنه كان زاهدا في الدنيا والمال، يرتدي الملابس الخشنة الرخيصة، وينام على الحصى، ويطعم أولاده الزيت والخل بينما يطعم الناس طعام الإمارة.

وكان سيدنا عثمان- رضي الله عنه- من الذين يتاجرون مع الله تجارة لن تبور، وكان يجعل نصب عينيه قول الله- تعالى:

﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

(البقرة: ٢٧٤)

وليس أدل على ذلك من موقفه من جيش العسرة، فقد خطب النبي ﷺ فحث على التبرع لتجهيز جيش المسلمين في غزوة تبوك، فقال عثمان- رضى الله عنه- : عليَّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها (الحلس: كل ما يوضع عى ظهر الدابة تحت السرج، وأقتابها جمع قتب: أى الرحل).

ثم نزل رسول الله ﷺ مرقاة من المنبر، ثم حث.. فقال عثمان- رضى الله عنه: عليَّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها، فأشار رسول الله ﷺ بيده قائلا: ما على عثمان ما عمل بعد هذا.

وأخرج الدار قطني وابن عساكر عن حذيفة بن اليمان- رضى الله عنه- قال: بعث النبي ﷺ إلى عثمان- رضى الله عنه- يستعينه في جيش العسرة، فبعث إليه عثمان بعشرة آلاف دينار، فصبت بين يديه، فجعل النبي ﷺ يقلبها بين يديه ظهرًا وبطنًا ويدعو له ويقول: (غفر الله لك يا عثمان ما أسررت وما أعلنت وما أخفيت وماهو كائن إلى أن تقوم الساعة، ما يبالي عثمان ما عمل بعد هذا).

ومن أعمال سيدنا عثمان بن عفان- رضى الله عنه- التى سجلها له التاريخ في أعمال البر والإحسان وإنفاق المال لنفع المسلمين قيامه بشراء بئر رومة، فقد أخرج ابن عساكر عن بشر الأسلمي عن أبيه قال: لما قدم المهاجرون المدينة استنكروا الماء، وكانت لرجل من بني غفار عين يقال لها «رومة» وكان يبيع منها القربة بمد، فقال رسول الله ﷺ للغفاري: تبيعها بعين في الجنة؟ فقال الغفاري: ليس لي يارسول الله عين سواها، لا أستطيع ذلك، فبلغ ذلك عثمان- رضى الله عنه- فاشتراها بخمسة وثلاثين ألف درهم، ثم أتى النبي ﷺ فقال: أتجعل لي مثل الذى جعلت له عينا في ا لجنة إن اشتريتها، قال: نعم، قال: قد اشتريتها وجعلتها للمسلمين..

وأخرج الحاكم عن أبي هريرة- رضى الله عنه- قال: اشترى عثمان من رسول الله ﷺ الجنة مرتين: يوم رومة، ويوم جيش العسرة.. وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن الحسن قال: قال رجل لعثمان- رضى الله عنه- : ذهبتم يا أصحاب الأموال بالخير !! تتصدقون، وتعتقون، وتحجون، وتنفقون.. فقال عثمان: وإنكم لتغبطوننا، قال: إنا لنغبطكم، قال: فوالله لدرهم ينفقه أحد من جهد خير من عشرة آلاف غيض من فيض «أى قليل من كثير».

لم يترك سيدنا عثمان بن عفان- رضى الله عنه- بابا من أبواب الخير إلا وولجه، ولا ميدانا من ميادين الإنفاق في سبيل الله إلا واقتحمه، فحينما دعا المصطفى ﷺ إلى توسعة المسجد وقال: من يزد في مسجدنا؟ سارع عثمان رضى الله عنه- واشترى موضع خمس سوار فزاده في المسجد.

ولذلك وجدنا الإمام علي بن أبي طالب- كرم الله وجهه- يقول عن سيدنا عثمان بن عفان- رضى الله عنه- : «كان عثمان أوصلنا للرحم، وكان من الذين آمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين».

رضى الله عنك يا سيدنا عثمان بن عفان، ياذا النورين، ويا صاحب الهجرتين، ويا من استحيت منك الملائكة.. فقد أخرج الطبراني عن ابن عمر- رضى الله عنهما- قال: بينما رسول الله ﷺ جالس، وعائشة- رضى الله عنها - وراءه إذ استأذن أبوبكر- رضى الله عنه- فدخل، ثم استأذن عمر- رضى الله عنه- فدخل، ثم استأذن سعد بن مالك- رضى الله عنه- فدخل، ثم استأذن عثمان بن عفان- رضى الله عنه- فدخل ورسول الله ﷺ يتحدث كاشفا عن ركبته، فقرد ثوبه على ركبته حين استأذن عثمان، وقال لعائشة: استأخري، فتحدثوا ساعة ثم خرجوا، فقالت عائشة: يانبي الله، دخل أبي وأصحابه فلم تصلح ثوبك على ركبتك ولم تؤخرني عنك؟ ودخل عثمان فأصلحت ثوبك وأخرتني !! فقال النبي ﷺ: (ألا أستحى من رجل تستحى منه الملائكة؟ والذى نفسي بيده إن الملائكة لتستحى من عثمان كما تستحى من الله ورسوله، ولو دخل وأنت قريبة منى لم يتحدث ولم يرفع رأسه حتى يخرج).

يا صاحب الخلق الكريم والفضل العظيم، يا من تاجرت مع الله تجارة لن تبور، يا من أنفقت مالك في سبيل الله فنلت حب رسول الله وفزت بدعائه لك بالمغفرة والبشرى بدخول الجنة، يا من جمعت الأمة على قراءة واحدة للقرآن الكريم فأغلقت باب فتنة لا يعلم مداها إلا الله، يا من نلت الشهادة وأنت صائم استجابة لدعوة الرسول ﷺ إليك، فقد أخرج الحاكم عن ابن عمر- رضى الله عنهما- أن عثمان بن عفان- رضى الله عنه- أصبح فحدث فقال: رأيت رسول الله ﷺ في المنام الليلة فقال: يا عثمان أفطر عندنا، فأصبح عثمان صائما، فاستشهد في يومه وكان صائما- رضى الله عنه-.

«للحديث بقية»

❁❁❁

أمام الكعبة



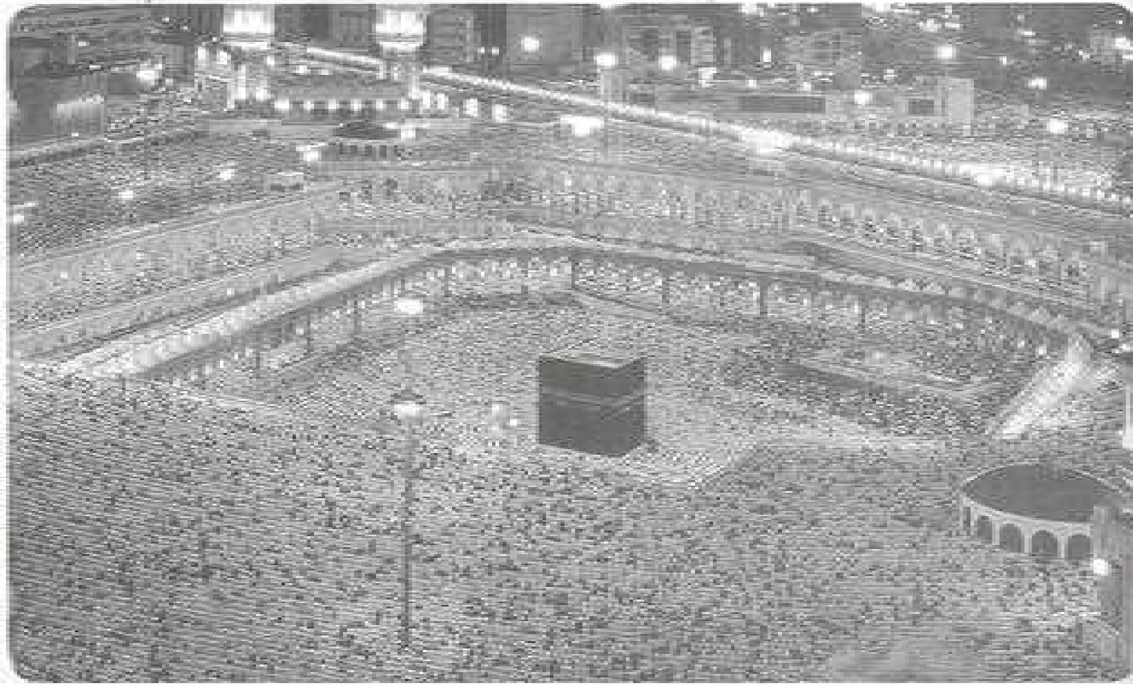


للعلامة محمد أسد

هذه هي الكعبة، موضع شوق ملايين الناس وتوقهم على مدى قرون طويلة. ضحوا تضحيات عظمى في سبيل الوصول إليها؛ في الطريق إليها مات كثيرون؛ ووصل إليها كثيرون ممن يعانون الحرمان وشظف العيش؛ كان هذا المبنى المكعب غايتهم وأسمى أهدافهم، وكان الوصول إليه هو كامل التحقق.

ها هي ذي الكعبة هناك في المنتصف، مكعب مكتمل (ويدل الإسم العربي على الشكل)، مغطى تمامًا بستائر سوداء، يقف كجزيرة هادئة في ساحة الحرم الواسعة، أهدأ من أي شكل عمراني آخر في العالم. أراد أول من بنى الكعبة – أعيد بناؤها منذ عهد إبراهيم عليه السلام عدة مرات على الشكل نفسه – أن يصنع مثلاً لتواضع البشر أمام الله. لقد أدرك من بناها أنه لا يوجد جمال عمراني مهما كان رائعًا، ولا اكتمال في الخطوط، مهما كانت عظمتها، يمكن أن تتناسب مع عظمة الله، لذلك لجأ إلى أبسط مجسم ثلاثي الأبعاد يمكن تخيله – مكعب من الصخر.

لقد زرت مساجد وجوامع ومزارات إسلامية كثيرة رصعتها الأيدي الخلاقة بكل أنواع الفنون والأشكال، ورأيت جوامع شمال إفريقية التي تبدو كقصور رائعة للصلاة مشيدة من الرخام والمرمر الأبيض؛ ورأيت مسجد قبة الصخرة في القدس، قبة عظيمة مكتملة فوق بناء رشيق، إنها حلم من الخفة والثقل من دون تعارض؛ ورأيت الجوامع الرائعة في إستنبول، جامع السليمانية، وجامع «يني فاليد»، وجامع بايزيد، وجوامع برصة، في آسيا الصغرى، وجامع السقافيد في إيران – إنها إيقاع ملوكي من الحجارة والصخور الملونة، والفسيفساء، ومداخل هائلة تعلو الأبواب المفضضة، ومآذن شاهقة مستديرة من المرمر بشرفات من الأزرق التركوازي، وساحات مغطاة بالرخام، ونوافير مياه، وأشجار نادرة عتيقة، عظيمة حتى في قدمها.



ورأيت كل ذلك – إلا أنني لم أشعر برهبة أمام أي منها كما أشعر بها أمام الكعبة.

لقد اقترب بانيها تمامًا من التعبير عن مفاهيمه الدينية، في البساطة المطلقة للمكعب، في التخلي عن كل ادعاء بشرى للجمال الفني، لقد فكر: «مهما كان قدر الجمال الشكلي الذي يمكن للإنسان أن يصنعه بعقله ويده، فسيكون من قصور الخيال أن يظن أنه يتناسب مع عظمة الله؛ ولذلك، فإن أبسط شكل يمكن أن يدركه العقل البشري هو أعظم شكل يتناسب مع عظمة الله». ويبدو أن المنطق نفسه هو الذي وجه مصمم بساطة الأهرام المصرية – على الأقل وجد الذهن البشري متنفسًا لخياله في الأبعاد الهائلة التي بنى عليها الأهرام. أما هنا، في الكعبة، فيتحدث الشكل عن التخلي البشري عن كل ادعاء، ويتحدث عن التسليم لله؛ ولا يوجد مثيل ولا شبيه للبساطة العظيمة لبناء الكعبة على وجه الأرض كلها.



لا يوجد إلا مدخل واحد للكعبة، وهو باب مغطى بطبقة رقيقة من الفضة في الجانب الشمالي الشرقي، على ارتفاع سبع أقدام عن سطح الأرض، ولا يمكن الوصول إليه إلا باستعمال سلم يوضع أمام باب الكعبة بضعة أيام من كل عام.

والكعبة من الداخل، وهي مغلقة عادة (رأيتها من الداخل بعد ذلك في مناسبات أخرى)، بسيطة جدًا، أرضها من الرخام عليها بضعة بسط، ومصابيح من البرونز والفضة تتدلى من دعامات السقف الخشبية، وداخل الكعبة، لا يحمل في الحقيقة أي معنى في ذاته، فقداسة الكعبة تخص المبنى بأكمله كقبلة لكل العالم الإسلامي، في اتجاه

هذا الرمز إلى وحدانية الله، يتوجه مئات الملايين من المسلمين نحوها فى الصلوات الخمس كل يوم.

يوجد فى الركن الشرقى من مبنى الكعبة حجر أسود من دون ستائر، ويحيط به إطار فضى عريض، وأحدث تقبيل المسلمين له على مدى أجيال متتالية وقرون طويلة من الزمن، تجويفًا بالحجر، وكان تقبيل المسلمين له سببًا فى سوء فهم كبير من غير المسلمين، فقد أشاعوا أنه جزء من صنم قد وضعه محمد ﷺ تصالحًا مع مشركى مكة المكرمة، وذلك مجاف تمامًا للحقيقة.

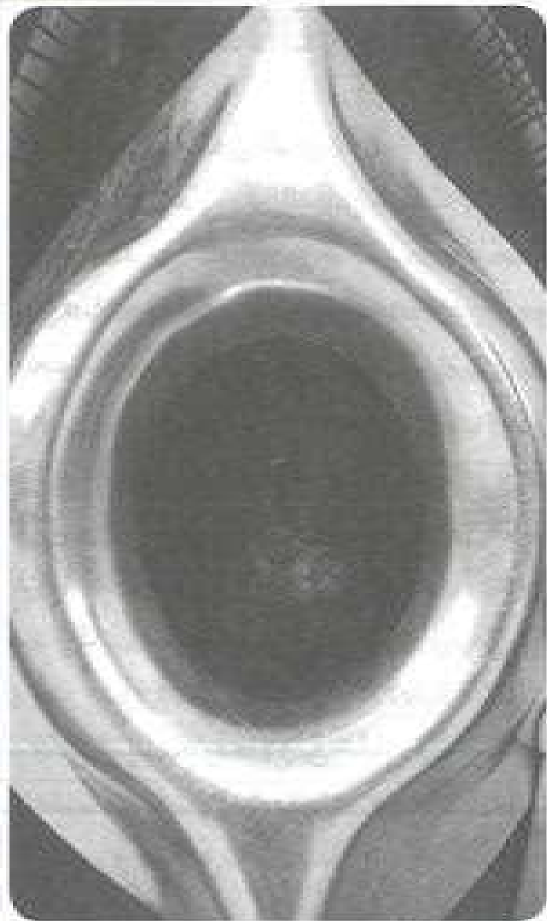
فالكعبة موضع تبجيل لا موضع عبادة، أى أنها لا تعبد، وكذلك الحجر الأسود موضع تبجيل لأنه كل ما تبقى من البيت الذى أسسه إبراهيم -عليه السلام-، ولأن شفتى محمد ﷺ قبلته (١) فى حجة الوداع قبل موته، فإن الحجاج يفعلون ذلك اقتداء به، كان الرسول ﷺ واعيًا أن أجيال المسلمين من بعده ستقتدى به فى أفعاله وأعماله، وكان يعلم أنه بتقبيله الحجر ستلتقى شفاه أجيال المسلمين من بعده فى وضع تقبيله الحجر فى احتضان رمزي، أقوى من الزمن، وأقوى من الموت، لكل أمته فى حجها. والحجاج عندما يقبلون الحجر الأسود، كأنما يحتضنون الرسول ﷺ ويحتضنون جميع المسلمين الذى جاؤوا هنا من قبلهم والمسلمين الذى سيأتون هنا من بعدهم.

لا ينكر أى مسلم أن الكعبة موجودة منذ عصور طويلة قبل محمد ﷺ ويكمن مغزاها فى تلك الحقيقة، والنبى ﷺ لم يدع أنه أوجد دينًا جديدًا على العكس، قال: إن الاستسلام لله، والتسليم لمشيئته - الإسلام - كان طبقًا لما يذكر القرآن الكريم، فطرة الإنسان التى خلق عليها منذ فجر الوعى الإنسانى؛ وأن ذلك هو ما دعا إليه إبراهيم، وموسى، وعيسى عليهم السلام من قبله بأن رسالة القرآن الكريم ليست إلا خاتمة الرسالات من الله. كذلك لا ينكر أى مسلم أن ساحة الحرم المقدس كانت مملوءة بالأصنام والرموز الوثنية قبل أن يحطمها محمد ﷺ تمامًا، كما حطم موسى عليه السلام العجل الذهبى الذى صنعه قومه فى بر سيناء، لقد كان البشر يعبدون الله فى موضع بيته الذى أقامه إبراهيم عليه السلام قبل عصور من ظهور الأصنام فى ساحته. لم يفعل محمد ﷺ إلا أن استعاد البيت الذى أقامه إبراهيم عليه السلام للغرض الأصلى الذى شيد من أجله.



وقفت أتأمل البيت الذى أقامه إبراهيم عليه السلام، وأتدبر عظمته من دون قدرة على التفكير (الأفكار والانعكاسات تأتى إلى المرء بعدها بزمن طويل)، من نواة فرح داخلى انبثقت بهجة وازدادت

١- إشارة إلى الحديث الشريف: رأيت رسول الله ﷺ يستلمه ويقبله. وحديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: لولا أنى رأيت رسول الله قبلك ما قبلتك. رواه البخارى فى كتاب الحج، باب تقبيل الحجر ج٢/١٦٢، ومسلم ج٢/٩٢٥ رقم ١٥٠٠.



وعلت مثل الصوت الشجي.

كان بلاط الرخام يغطى الأرض فى دوائر حول الكعبة تعكس ضوء الشمس، يسير عليها بشر كثيرون، رجال ونساء، يدورون حول بيت الله. كان من بينهم من يبكون، وآخرون يدعون الله جهرة فى الصلاة، وغيرهم ممن لم يجد كلاما ولا دمعًا، راح يطوف ورأسه منكس إلى الأرض.

من شعائر الحج أن تطوف سبع مرات حول الكعبة، لا لتظهر تبجيلك للكعبة، ولكن لتذكير المسلمين بأساسيات الحياة. فالكعبة رمز لوحدانية الله، وطواف المسلمين حولها رمز لأنشطة الحياة، يتضمن أن عبادة الله لا تكون بالفكر والمشاعر وحدهما - وكل ما يمكن تسميته «الحياة الداخلية» - بل بالفعل البدنى والجسدي، أى بالمسعى والفعل، وبذلك يكون الوجود الإلهى محور الوعى الذهنى والفعل البدني.

طفت أنا أيضًا ببطء، وأصبحت جزءًا من التدفق الدائر حول الكعبة. يظهر ويختفى رجل أو امرأة بالقرب مني؛ صور منفصلة تظهر أمام بصرى وتختفي، رجل أسود عملاق بملابس الإحرام، وسبحة خشبية ضخمة يلفها حول معصمه، ظهر ثم اختفى بين الزحام، ورجل مالاوى عجوز، حاذانى فترة يحرك يديه كأنه فى حيرة، ثم اختفى. عينان خضراوان تحت حواجب شعثاء - إلى من تنتمي؟ ضاعت فى الزحام. ضمن زحام الناس أمام الحجر الأسود، كانت هناك امرأة هندية شابة، ومن الواضح أنها عليلة، على وجهها الرقيق الدقيق توق واشتياق، واضح وضوح قاع الماء الشفاف، كفاها مرفوعتان فى ضراعة باتجاه الكعبة، أصابعها ترتجف كأنها فى صلاة صامتة.

طفت، وطفت، مرت الدقائق لا أعرف لها عددًا، اختفى ما كان بقلبى من مرار ومشاغل، أصبحت جزءًا من تيار يدور - آه! هل كان ذلك هو معنى ما نفعله؛ أن نعى أن المرء جزء يدور فى فلك؟ هل يصبح إدراك ذلك نهاية كل حيرة؟ ذابت الدقائق، وتوقف الزمن، وكأن الكعبة مركز الكون.

من عيون التراث

التعريف بالمؤلف:

هو «أبو علي بدر الدين محمد بن علي ابن محمد بن عبدالله بن الحسن بن محمد ابن صلاح بن إبراهيم بن محمد العفيف بن محمد بن رزق الشوكاني» نسبة إلى شوكان، وهي قرية من قرى السحامية، إحدى قبائل خولان، بينها وبين صنعاء دون مسافة يوم، ولد يوم الإثنين الثامن والعشرين من شهر ذي الحجة سنة (١١٧٣هـ) في بلدة هجرة شوكان. نشأ بصنعاء اليمن، وتربى في بيت علم وفضل، فنشأ نشأة دينية طاهرة، تلقى فيها معارفه الأولى على والده وأهل العلم والفضل في بلدته، فحفظ القرآن الكريم وجوده، ثم حفظ كتاب الأزهار، للإمام المهدي في فقه الزيدية، ومختصر الفرائض للعصيفري، والملحة للحريري، والكافية والشافية لابن الحاجب، وقرأ التهذيب للعلامة التفتازاني، والتلخيص في علوم البلاغة للقزويني، والغاية لابن الإمام، وكان كثير الاشتغال بمطالعة كتب التاريخ، والأدب، ومما ساعد الإمام الشوكاني على طلب العلم والنبوغ المبكر وجوده وتربيته في بيت علم وفضل، فإن والده، كان من العلماء المبرزين في ذلك العصر، كما أن أكثر هذه القرية كانوا كذلك من أهل العلم والفضل.

- صفاته الخُلُقية والخَلْقية:

كان متوسط الطول، كبير الرأس، عريض الجبهة، بادي الصحة، موفور العافية.

إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق
من علم الأصول
(المجلد الأول)
تأليف: الإمام الحافظ محمد بن علي الشوكاني
(١١٧٣هـ-١٢٥٠هـ)
تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل الشافعي
بيروت: دار الكتب العلمية (١٩٩٩م).

- أما صفاته الحميدة فكثيرة، حتى ألف في مناقبه وفضائله الكثيرون من تلاميذه، منهم: السيد العلامة إبراهيم بن عبدالله الحوثي، والعلامة محمد بن محمد الديلمي، والقاضي العلامة محمد ابن حسن الشجني الذماري، ألف في ذلك كتابًا سماه «التقصار في جيد زمن علامة الأقاليم والأمصار». وكانت حياته بسيطة متقشفة، يعيش على الكفاف الذي وفره له والده، فلما تولى القضاء، وأجزل له الأجر تنعم في مأكله ومشربه وملبسه ومركبه، وأضفى على تلاميذه وشيوخه مما وسع الله عليه به. وكان الشوكاني بارًا بشيوخه وتلاميذه، فتح أمامهم أبواب العمل في الدولة، ودافع عنهم، وتشفع لهم عند الأئمة في كل أمر وقعوا فيه.

مذهبه الفقهي: تفقه الشوكاني في أول حياته على مذهب الإمام «زيد بن علي بن الحسين» وبرع فيه،

وفاق أهل زمانه، حتى خلع ربقة التقليد، وتحلى بمنصب الاجتهاد، فألف كتابه «السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار»، فلم يقيد نفسه بمذهب الزيدية، بل صحح ما أداه إليه اجتهاده بالأدلة، وزيف ما لم يقم عليه دليل، فثار عليه أهل مذهبه من الزيدية المتعصبون لمذهبهم في الأصول والفروع.

شيوخ الشوكاني: والده، أحمد بن محمد الحرازي، وعبدالرحمن بن قاسم المداني، وعبدالقادر بن أحمد شرف الدين، وعبدالله بن إسماعيل النهمي، وعلي بن إبراهيم بن علي عامر الشهيد، وهادي بن حسين القارني، ويحيى بن محمد الحوثي، والحسن بن إسماعيل المغربي، وصديق على المزجاجي العلامة الحنفي.

مؤلفاته: إبطال دعوى الإجماع على مطلق السماع، وإتحاف الأكابر بإسناد الدفات، وأدب الطلب ومنتهى الأرب، وإرشاد الثقاة إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوات، وأسلاك الجوهر في نظم مجدد القرن الثالث عشر، والإعلام بالمشايخ الأعلام والتلامذة الكرام - معجم شيوخه وتلامذته، والإيضاح لمعنى التوبة والإصلاح، وبحث في الاستدلال على ثبوت كرامات الأولياء، والتحف في مذاهب السلف.. إلخ.

عرض الكتاب:

يقع الكتاب في مجلدين، المجلد الأول يقع في (٥٤١) صفحة من القطع المتوسط، ورتبه على مقدمة، وسبعة مقاصد، وخاتمة.

أما المقدمة فهي مشتملة على فصول أربعة:

- **الفصل الأول: في تعريف أصول الفقه وموضوعه، وفائدته، واستمداده:**

تعريف الأصول: العلم بالأحكام الشرعية، عن أدلته التفصيلية بالاستدلال وهو ما يشير إلى مفهوم (الاستدلال Reasoning) (ص٢٧)، فأصول الفقه ما يختص بالفقه، من حيث كونه مبنيا عليه، ومستندًا إليه. وقيل: هو العلم بالقواعد. وقيل: هو نفس القواعد الموصلة إلى استنباط الأحكام.. إلخ. وقيل: هو طرق الفقه على وجه الإجمال وكيفية الاستدلال بها، وما يتبع الكيفية وفيه: ذكر الأدلة التفصيلية تصريح باللازم المفهوم ضمنًا، لأن المراد استنباط الأحكام تفصيلا، وهو لا يكون إلا عن أدلته تفصيلا ويزاد عليه على وجه التحقيق لإخراج علم الخلاف، والجدل، فإنهما وإن اشتملا على القواعد الموصلة إلى مسائل الفقه، لكن لا على وجه التحقيق، بل الغرض منها إلزام الخصم وهو ما يشير إلى مفهوم (الاستنباط Deduction) (ص٢٩).

والعلم ينقسم إلى ضروري ونظري. فالضروري ما لا يحتاج في تحصيله إلى نظر. والنظري: ما يحتاج إليه. والنظر: هو الفكر المطلوب به علم أو ظن. وقيل: هو ملاحظة المعقول لتحصيل المجهول.

وكل واحد من الضرورى والنظرى ينقسم إلى قسمين: تصور وتصديق، والكلام فيهما مبسوط فى علم المنطق. والدليل ما يمكن التوصل بصحيح النظر فيه إلى مطلوب خبرى. وقيل: هو ترتيب أمور معلومة للتأدى إلى مجهول. والأمارة: هى التى يمكن ان يتوصل بصحيح النظر فيها إلى الظن. والظن تجويز راجح. والوهم تجويز مرجوح. والشك تردد الذهن بين طرفين. فالظن فيه حكم لحصول الراجحية، ولا يقدح فيه احتماله للنقيض المرجوح. والوهم لا حكم فيه، لاستحالة الحكم بالنقيضين، لأن النقيض الذى هو متعلق الظن قد حكم به، فلما حكم بنقيضه المرجوح، وهو متعلق بالوهم، لزم الحكم بهما جميعًا. والشك لا حكم فيه بواحد من الطرفين، لتساوى الوقوع واللاوقوع فى نظر العقل.

موضوع أصول الفقه: موضوع علم أصول الفقه هو الدليل السمعى الكلى فقط، من حيث إنه يوصل العلم بأحواله إلى قدرة إثبات الأحكام لأفعال المكلفين، أخذًا من شخصياته. والمراد بالأحوال ما يرجع إلى الإثبات، وهو ذاتى للدليل والأول أولى. وأما فائدة هذا العلم فهى العلم بأحكام الله سبحانه أو الظن بها.

وأما استمداده فمن ثلاثة أشياء:

١ ـ علم الكلام، لتوقف الأدلة الشرعية على معرفة البارئ جل جلاله وصدق المبلغ، وهما مبينان فيه.

٢ ـ اللغة العربية، لأن فهم الكتاب والسنة، والاستدلال بهما متوقفان عليها، إذ هما عربيان.

٣ ـ الأحكام الشرعية من حيث تصورها، لأن المقصود إثباتها أو نفيها، كقولنا: الأمر للوجوب، والنهى للتحريم، والصلاة واجبة، والربا حرام.

ـ الفصل الثانى: فى الأحكام:

وفيه أربعة أبحاث هى: فى الحكم، وفى الحاكم، وفى المحكوم به، وفى المحكوم عليه.

البحث الأول: فى الحكم:

الحكم هو الخطاب المتعلق بأفعال المكلفين بالاقتضاء أو التخيير أو الوضع، فيتناول اقتضاء الوجود، واقتضاء العدم، إما مع الجزم، أو مع جواز الترك، فيدخل فى هذا: الواجب، والمحظور، والمندوب، والمكروه، وأما التخيير فهو الإباحة.

● فالواجب: ما يمدح فاعله، ويذم تاركه، على بعض الوجوه فلا يرد النقض بالواجب المخير، وبالواجب على الكفاية، فإنه لا يذم فى الأول، إذا تركه مع الآخر، ولا يذم فى الثانى إلا اذا لم يقم به غيره. وينقسم إلى معين، ومخير، ومضيق، وموسع، وعلى الأعيان وعلى الكفاية. ويرادفه الفرض عند الجمهور.

● والمحظور: ما يذم فاعله ويمدح تاركه، ويقال له: المحرم، والمعصية، والذنب، والمزجور عنه، والمتوعد عليه، والقبيح.

● والمندوب: ما يمدح فاعله، ولا يذم تاركه، ويقال له: مرغب فيه، ومستحب، ونفل، وتطوع، وإحسان.

● والمكروه: ما يمدح تاركه، ولا يذم فاعله.

● والمباح: ما لا يمدح على فعله، ولا على تركه.

البحث الثانى: فى الحاكم:

اتفق الأشعرية والمعتزلة على أن العقل يدرك الحسن والقبح فى شيئين:

● الأول: ملاءمة الغرض للطبع ومنافرته له، فالموافق حسن عند العقل، والمنافى قبيح عنده.

● الثانى: صفات الكمال والنقص، فصفات الكمال حسنة عند العقل، وصفات النقص قبيحة عنده.

البحث الثالث: فى المحكوم به:

هو فعل المكلف، فمتعلق الإيجاب يسمى واجبًا، ومتعلق الندب يسمى مندوبًا، ومتعلق الإباحة يسمى مباحًا، ومتعلق الكراهة يسمى مكروهًا، ومتعلق التحريم يسمى حرامًا. وفيه مسائل ثلاث:

● المسألة الأولى: أن شرط الفعل الذى وقع التكليف به، أن يكون ممكنًا، فلا يجوز التكليف بالمستحيل، عند الجمهور، وهو الحق، وسواء كان مستحيلا بالنظر إلى ذاته، أو بالنظر إلى امتناع تعلق قدرة المكلف به.

أقوال العلماء فى المتنازع فيه:

للعلماء فى المحال المتنازع فيه أقوال ثلاثة:

القول الأول: التكليف بالمحال جائز عقلا وغير واقع سمعًا، وهو المختار لجمهور الأشاعرة ومنهم البيضاوى على التحقيق.

القول الثانى: التكليف بالمحال جائز عقلا وواقعاً، وقد نسب الأسنوى هذا القول إلى الإمام «الرازي».

القول الثالث: التكليف بالمحال ممتنع عقلا وبالضرورة غير واقع شرعًا، لأنه لا يقع إلا ما كان جائزًا عقلا، وهو رأى المعتزلة ومختار الشافعى وابن الحاجب.

ـ **الأدلة:** استدل أصحاب القول الأول على الجواز العقلى بأنه لا يترتب على فرض وقوعه محال فإن غاية ما يلزم التكليف به أنه يكون مجردًا عن الفائدة، وليس ذلك محالا، لأن أفعال الله ـ تعالى ـ لا تعلل بالأغراض واستدل الأشاعرة على عدم الوقوع بدليلين:

أحدهما: الاستقراء والتتبع للتكاليف الشرعية فإنه بالبحث تبين أن الله ـ تعالى ـ لم يكلف عباده إلا بما هو مقدور لهم.

وثانيهما: قوله تعالى:

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾

(البقرة: ٢٨٦)

يدل على أن التكليف بما ليس فى الوسع والطاقة غير واقع.

واستدل أصحاب القول الثانى على الجواز العقلى بما استدل به أصحاب القول الأول.

واستدل أصحاب القول الثالث على أن التكليف بالمحال ممتنع عقلا بما يأتى:

١ ـ المحال لا يتصور العقل وجوده وكل ما لا يتصور العقل وجوده لا يجوز عقلا التكليف به، فالمحال لا يجوز عقلا التكليف به.

٢ ـ المحال لا يمكن وجوده فى الخارج وكل ما لا يمكن وجوده فى الخارج لا يجوز

عقلًا التكليف به فالمحال لا يجوز عقلًا التكليف به.

● المسألة الثانية: أن حصول الشرط الشرعي ليس شرطًا في التكليف، عند أكثر الشافعية، والعراقيين من الحنفية.

● المسألة الثالثة: أن التكليف بالفعل - والمراد به أثر القدرة الذي هو الأكوان، لا التأثير الذي هو أحد الأعراض النسبية - ثابت قبل حدوثه اتفاقًا، وينقطع بعده اتفاقًا، ولا اعتبار بخلاف من خالف في الطرفين.

البحث الرابع: في المحكوم عليه وهو المكلف:

تقرر أن المجنون غير مكلف، وكذلك الصبي الذي لم يميز؛ لأنهما لا يفهمان خطاب التكليف، على الوجه المعتبر، كذلك رفع التكليف قبل البلوغ.

- الفصل الثالث: في المبادئ اللغوية

البحث الأول: عن ماهية الكلام:

وهو ما يقال بالاشتراك على المعنى القائم بالنفس، وعلى الأصوات المقطعة المسموعة؛ فالأصوات كيفية للنفس، وهي الكلام المنتظم من الحروف المسموعة المتميزة المتواضع عليها.

والانتظام هو التأليف للأصوات المتوالية على السمع وخرج بقوله الحروف الحروف الواحد؛ لأن أقل الكلام حرفان، وبالمسموعة الحروف المكتوبة، وبالمتميزة، أصوات ما عدا صوت الإنسان، وبالمتواضع عليها، المهملات، وقد خصص النحاة الكلام بما تضمن كلمتين بالإسناد، وذهب كثير من أهل الأصول إلى أن الكلمة الواحدة تسمى كلامًا.

البحث الثاني: عن الواضع:

اختلف في ذلك على أقوال:

١- أن الواضع هو الله سبحانه وتعالى وإليه ذهب الأشعري وأتباعه، وابن فورك.

٢- أن الواضع هم البشر، وإليه ذهب أبو هاشم ومن تابعه من المعتزلة.

٣- أن ابتداء اللغة وقع بالاصطلاح والباقي توقيف، وبه قال الأستاذ أبو إسحاق.

٤- أن ابتداء اللغة وقع بالتعليم من الله سبحانه وتعالى والباقي بالاصطلاح.

٥- أن نفس الألفاظ دلت على معانيها بذاتها، وبه قال عباد بن سليمان الصيمري.

٦- أنه يجوز كل واحد من هذه الأقوال، من غير جزم بأحدها، وبه قال الجمهور.

البحث الثالث: عن الموضوع:

الموضوعات اللغوية هي كل لفظ وضع لمعنى فيخرج ما ليس بلفظ من الدلائل الموضوعة، وما ليس بموضوع من المحرفات، والمهملات، ويدخل في اللفظ المفردات، والمركبات الستة، وهي: الإسنادي، والوصفي، والإضافي، والعادي، والمزجي، والصوتي.

ومعنى الوضع يتناول أمرين أعم وأخص، فالأعم تعيين اللفظ بإزاء معنى، والأخص تعيين اللفظ للدلالة على معنى.

البحث الرابع عن الموضوع له:

قال الجويني، والرازي، وغيرهما: إن اللفظ موضوع للصورة الذهنية، سواء كانت موجودة في الذهن والخارج، أو

في الذهن فقط وقيل هو موضوع للوجود الخارجي وبه قال أبو إسحاق وقيل: هو موضوع للأعم، من الذهني والخارجي ورجحه الأصفهاني وقيل: إن اللفظ في الأشخاص، أي الأعلام الشخصية، موضوع للوجود الخارجي ولا ينافي كونه للوجود الخارجي وجوب استحضار الصورة الذهنية؛ فالصورة الذهنية آلة لملاحظة الوجود الخارجي، لا أنها هي الموضوع لها، وهو ما يشير إلى مفهوم «الصورة الذهنية cognitive image»، «ص٩١».

وأما فيما عدا الأعلام الشخصية فاللفظ موضوع لفرد غير معين.

البحث الخامس: عن الطريق التي يعرف بها الوضع:

لما كان الكتاب والسنة واردين بلغة العرب، وكان العلم بهما متوقفًا على العلم بها، كان العلم بها من أهم الواجبات.

ولابد في ذلك من معرفة الطريقة التي نقلت هذه اللغة العربية بها إلينا؛ إذ لا مجال للعقل في ذلك؛ لأنها أمور وضعية، والأمور الوضعية لا يستقل العقل بإدراكها فلا تكون الطريق إليها إلا نقلية.

الفصل الرابع: في تقسيم اللفظ إلى مفرد ومركب:

اعلم أن اللفظ إن قصد بجزء منه الدلالة على جزء معناه، فهو مركب، وإلا فهو مفرد والمفرد: إما واحد أو متعدد، وكذلك معناه، فهذه أربعة أقسام:

١- الواحد للواحد، إن لم يشترك في مفهومه كثيرون، لا محققًا ولا مقدرًا، فمعرفته لتعينه إما مطلقًا، أي وضعًا واستعمالًا، فعلم شخصي، وجزئي شخصي، وجزئي حقيقي، إن كان فردًا، أو مضافًا بوضعه الأصلي.

٢- اللفظ المتعدد للمعنى المتعدد، ويسمى المتباين سواء تفاصلت أفراده كالإنسان والفرس أو تواصلت كالسيف، والصارم.

٣- اللفظ الواحد للمعنى المتعدد فإن وضع لكل، فمشترك، وإلا فإن اشتهر في الثاني، فمنقول ينسب إلى ناقله، وإلا فحقيقة ومجاز.

٤- اللفظ المتعدد للمعنى الواحد، ويسمى المترادف.

وكل من الأربعة ينقسم إلى مشتق، وغير مشتق، وإلى صفة وغير صفة وهو ما يشير إلى مفهوم «التصنيف classification»، «ص١٠١».

المقصد الأول: في الكتاب العزيز:

وفيه أربعة فصول هي:

- الفصل الأول: فيما يتعلق بتعريفه:

هو كلام الله العربي الثابت في اللوح المحفوظ للإنزال.

- الفصل الثاني: في حكم ما نقل آحادًا:

قد صح أن النبي ﷺ أخبرنا بأن القرآن أنزل على سبعة أحرف، وصح عنه ﷺ أنه قال: «أقرأني جبريل على حرف، فلم أزل استزيده حتى أقرأني على سبعة أحرف»، والمراد بالأحرف السبعة: لغات العرب، فإنها بلغت إلى سبع لغات اختلفت في قليل من الألفاظ، واتفقت في غالبها، فما وافق لغة من هذه اللغات، فقد وافق المعنى العربي والإعرابي.

- الفصل الثالث: في المحكم والمتشابه من القرآن:

المحكم ما له دلالة واضحة، والمتشابه ما له دلالة غير واضحة، فيدخل في المتشابه المجمل والمشترك وقيل في المحكم: هو متضح المعنى، وفي المتشابه هو غير المتضح المعنى، وهو كالأول ويندرج في المتشابه ما تقدم والفرق بينهما أنه جعل في التعريف الأول الاتضاح وعدمه للدلالة، وفي الثاني لنفس المعنى.

- الفصل الرابع: في المعرّب هل هو موجود في القرآن أم لا؟

والمراد به ما كان موضوعًا لمعنى عند غير العرب ثم استعملته العرب في ذلك المعنى، كإسماعيل، وإبراهيم، وإسحاق، ويعقوب.

المقصد الثاني: في السنة: وتناول فيه عدة أبحاث منها: في معنى السنة لغة وشرعًا، وفي استقلال السنة بالتشريع، وفي عظمة الأنبياء وفي أفعاله ﷺ وفي تعارض الأفعال وفي تعارض القول والفعل، وفي التقرير، وفي همّه، وإشارته، وتركه ﷺ.

المقصد الثالث: الإجماع: وتناول فيه عدة أبحاث منها: في مسماه لغة واصطلاحًا، وفي إمكان الإجماع في نفسه، وفي كون الإجماع حجة قطعية أو ظنية، وما ينعقد به الاجماع من كتاب أو سنة أو قياس؛ فالإجماع عن غير مستند بأن يكون عن عاطفة، أو إلهام وتوفيق من الله - تعالى - لهم بوجه الصواب، غير جائز عند جمهور العلماء، وتناول أيضًا بحث اعتبار المجتهد المبتدع في الإجماع، واعتبار التابعي المجتهد المدرك لعصر الصحابة في الاجتهاد، وفي حجية إجماع الصحابة، وأهل المدينة، وعدم اعتبار من سيوجد في الإجماع، وفي الإجماع السكوتي... إلخ.

المقصد الرابع: في الأوامر والنواهي والعموم والخصوص:

وفرق القرافي بين الأعم والعام، بأن الأعم إنما يستعمل في المعنى، والعام في اللفظ، فإذا قيل: هذا أعم تبادر الذهن للمعنى وإذا قيل: هذا عام تبادر الذهن للفظ، وهو ما يشير إلى تعريف «المفهوم concept» (ص٣٩٢)، والإطلاق والتقييد والإجمال والتبيين.

والظاهر والمؤول والمنطوق والمفهوم والناسخ والمنسوخ، وتناول مسائل كثيرة منها: التخصيص بالشرط وأقسامه، والتخصيص بالصفة، وبالغاية، وبالبدل، وبالحال، وبالظرف والجار والمجرور، وبالتمييز، بالمفعول له والمفعول معه، وبالعقل، وبالحس وبالكتاب العزيز، وبالسنة المطهرة والتخصيص لهما، وتخصيص الكتاب بالسنة المتواترة، وتخصيص الكتاب والسنة المتواترة بفعل النبي ﷺ وبتقريره.

ورد في هذا الكتاب الإشارة إلى المفاهيم النفسية الآتية:

- الاستدلال Reasoning
- الاستنباط Deduction
- التصنيف Classification
- الصورة الذهنية Cognitive Image
- المفهوم Concept

القائم بالعرض:

د. أشرف محمد علي شلبي

القرآن والتوراة والإنجيل والعلم (٦)



د. موريس بوكاي

مواقف الكتاب المسيحيين تجاه الأخطاء العلمية في نصوص العهد القديم ودراستها النقدية

يثير الدهشة حقًا تنوع ردود الأفعال لدى المعلقين المسيحيين إزاء هذا الكم المتراكم من الأخطاء والمناقضات والأمور غير المعقولة، بعضهم يقبل بعض الأخطاء ولا يتردد في مواجهة المسائل الشائكة فيما يكتب، والبعض الآخر يصرف النظر برشاقة عن دعاوى غير مقبولة ويتقيد بالدفاع كلمة فكلمة عن النص، ويحاول الإقناع عن طريق تصريحات مديحية مستعينًا في ذلك بحجج كثيرة غير متوقعة في غالب الأحيان، يأمل بذلك أن يضفي غلالة من النسيان على ما يرفضه المنطق.

إن (الأب ديفو) في مقدمة ترجمته لسفر التكوين، يقبل وجود هذه الانتقادات، بل يفيض حتى في البحث عن وجاهتها؛ ولكن إعادة بناء أحداث الماضي عديم الأهمية في رأيه، ويقول في ملاحظاته: (إنه إذا كانت التوراة قد استأنفت ذكريات سيل واحد مخرب - أو أكثر من واحد - وقع بوادي دجلة والفرات، وإنه إذا كان التراث قد ضخم أبعاد كارثة عالمية، فإن ذلك لا يهم، (إنما جوهر المسألة هو أن الكاتب الديني قد حمل هذه الذكرى بتعاليم أزلية عن عدل ورحمة الله، وعن خبث الإنسان والخلاص الممنوح للعادل).

بهذا يبرر لتحول أسطورة شعبية إلى حدث إلهي المستوى - ليعرض بعد ذلك على إيمان البشر - ويتم هذا ابتداء من اللحظة التي يستخدم فيها كاتب ما الأسطورة باعتبارها تصويرًا لدرس ديني، إن هذا الموقف المديحي يبرر كل تعسفات البشر فيما يختص بالأمور الإلهية، ويغطي تعديلات البشر لتأليف نصوص التوراة، إن كل تعديل يصبح مشروعًا طالما كان هناك مرمى ديني، بهذا الشكل تبرر تعديلات كتّاب القرن السادس (الكهنوتيين) ذوي الاهتمامات التشريعية التي أدت إلى تلك الروايات الوهمية التي نعرفها.

لقد رأى عدد كبير من المعلقين المسيحيين أنه من اللياقة أن يشرحوا الأخطاء والأمور غير المعقولة وتناقضات روايات التوراة، وذلك بتقديم الاعتذار الذي يقول: إن كُتاب التوراة كانوا معذورين في تقديم تصريحات ترتبط بعوامل اجتماعية لثقافة أو لعقلية مختلفتين،

وذلك ما أدى إلى تعريف (الأنواع الأدبية الخاصة، إن إدخال هذا التعبير فى جدلية المعلقين الدقيقة تغطى عندئذ كل المصاعب، إن شرح أى تناقض بين نصين يكمن عندئذ فى الفرق بين طريقة كل كاتب فى التعبير وفى (طريقته الأدبية الخاصة)، ولا شك أن الحجة ليست مقبولة لدى الكل، فهى تفتقد فعلاً الجدية، برغم ذلك فهى لم تقع بعد تمامًا فى غياهب النسيان فى عصرنا، وسنرى بالنسبة للعهد الجديد، كيف يحاول البعض اعتسافًا شرح متناقضات صارخة فى الأناجيل.

وهناك طريقة أخرى فى إقناع الناس بما يرفضه المنطق إذا ما طبق على النص موضوع النزاع، وهى إحاطة النص المقصود باعتبارات مديحية، وبذلك ينحرف انتباه القارئ عن المشكلة الأساسية الخاصة بحقيقة الرواية ليتجه نحو مشاكل أخرى.

إن تأملات الكاردينال دانيلو **Danielou** عن الطوفان التى ظهرت فى مجلة (الله الحى **Dieuvivant**) تحت عنوان: (الطوفان والتعميد والحكم) تنتمى إلى هذه الطريقة فى التعبير، يقول: (رأى التقليدُ الكنسى الأقدم فى لاهوتية الطوفان صورة للمسيح وللكنيسة)، إنه (حدث ذو دلالة عظيمة) و(حكم يقع على الأمة البشرية برمتها)، ويستشهد الكاردينال (باورجين **Oriegene**) الذى يذكر فى مواعظه عن حزقيال (**Homelies sur Fzechiel**) غرق العالم برمته وإنقاذ السفينة له (وهو يذكر بعد ذلك قيمة الرقم ٨) الذى يعبر عن عدد الأشخاص الذين أنقذتهم السفينة: (نوح وزوجته وأولاده الثلاثة وزوجاتهم الثلاث)، وهو يأخذ على عاتقه ما كتب (جوستين) فى كتابه (الحوار **Dialouge**) (لقد وهبوا رمز اليوم الثامن الذى ظهر مسيحنا مبعوثًا من بين الموتى) وكتب أيضًا: (أن نوحًا هو الوليد الأول لخلق جديد، إنه صورة للمسيح الذى حقق ما يمثله نوح) (كذا)، ويتابع المقارنة بين نوح من جانب، الذى أنقذه خشب السفينة والماء الذى يجعلها تطفو ومن جانب آخر ماء التعميد) (ماء الطوفان الذى منه تولد بشرية جديدة) وخشب الصليب، وهو يؤكد على قيمة هذه الرمزية ويختتم بالتأكيد على (الثراء الروحى والعقدى لسر الطوفان) (كذا).

هذه التقريبات المديحية تدعو إلى كلام كثير، وعلينا أن نذكر مرة أخرى أنها تعلق على حدث يستحيل الدفاع عن صحته على المستوى العالمى وفى العصر الذى تقع فيه التوراة، فمع تعليق كتعليق (الكاردينال دانيلو) نعود وراء إلى القرون الوسطى، حيث كان النص يقبل كما هو وحيث لم يكن هناك مكان لأى بحث غير تقليدى.

ومع ذلك فإن ما يبعث على التشجيع أن نلاحظ أن الفترة السابقة على عصر الظلام المفروض شهدت مفكرين اتخذوا مواقف منطقية، مثل (القديس أوغسطين) الذى ينحو فى التفكير بطريقة تسبق عصره بشكل فريد.

ولا شك أن عصر آباء الكنيسة قد عرف مشاكل خاصة بنقد النصوص، حيث إن (القديس أوغسطين) يتحدث عن واحدة منها فى خطابه رقم ٨٢ - الفقرة التالية هى أكثر فقرات الخطاب تميزًا:

(إن مؤلفات الكتب المقدسة، هذه التى تعرف بالقانونية هى فقط التى تعلمت أن

أعطيها انتباهًا واحترامًا، كاعتقادى الحازم بأنه ليس هناك أحد من كتابها قد أخطأ، فعندما ألتقى فى هذه الكتب بدعوى تبدو مناقضة للحقيقة، فإننى عندئذ لا أشك فى أن نص (نسختى) لا يحتوى على خطأ أو أن المترجم لم يترجم النص الأصلى بشكل صحيح أو أن مقدرتى على الفهم تتسم بالضعف).

لم يكن معقولاً إذن بالنسبة (للقديس أوغسطين) أن نصًا مقدسًا قد يحتوى على غلط، كان (القديس أوغسطين) يعرف بمنتهى الوضوح عقيدة (العصمة من الخطأ **Inerrance**) فأمام فقرة تبدو مناقضة للحقيقة كان يواجه البحث عن علة، ولا يستبعد فرض رجوع هذا الخطأ إلى سبب إنسانى، وهذا موقف مؤمن يتمتع بحماسة نقدية وفى عصر (القديس أوغسطين) لم تكن هناك إمكانيات لمقابلة نص التوراة بالعلم، إن رؤية رحبة مماثلة لرؤيته تسمح- ولا شك- بتسطيح كثير من المصاعب التى تثار اليوم عند مقابلة بعض نصوص التوراة بالمعارف العلمية.

وعلى العكس من ذلك يجتهد المتخصصون فى عصرنا فى الدفاع عن نص التوراة أمام أى اتهام بالغلط، ويعطينا (الأب ديفو) فى مقدمته لسفر التكوين الأسباب التى تدعو إلى هذا الدفاع عن النص بأى ثمن حتى وإن كان واضحًا أنه غير مقبول تاريخيًا أو علميًا، إنه يطلب إلينا ألا ننظر إلى التاريخ فى التوراة (حسب قواعد النوع التاريخى الذى يمارسه المحدثون). وكان هناك أكثر من طريقة فى كتابة التاريخ.

إن التاريخ عندما يحكى بشكل غير صحيح يصبح رواية تاريخية وهذا ما يقبله الكل، لكن التاريخ هنا لا يخضع للقواعد المتعارف عليها والتى تنبع من مفاهيمنا، إن المعلق على التوراة يرفض أى فحص قد تقوم به علوم الجيولوجيا والإحاثة والمعطيات الخاصة بما قبل التاريخ على روايات التوراة، (إن التوراة، كما يقول (الأب ديفو): (لا تنتمى إلى أى من هذه الدراسات العلمية، وإذا أردنا أن تقابلها بمعطيات هذه العلوم، فإننا لن ننتهى إلا إلى تعارض غير حقيقى أو إلى توافق مصطنع)، ويجب أن نلاحظ أن هذه التأملات قد دفع بها المؤلف إزاء ما لا يتفق مطلقًا مع المعطيات العلمية فى سفر التكوين وخاصة الأحد عشر إصحاحًا الأولى منه؛ ولكن إذا كانت هناك بعض الروايات قد أمكن التحقق منها اليوم، وعلى وجه خاص بعض الأحداث التى وقعت فى عصر الآباء الأولين، فإن الكاتب لا يفتقد إلى الاستشهاد بالمعارف الحديثة لمساندة الحقيقة فى التوراة. يقول «الأب ديفو»(١): إن الشكوك التى غيمت على هذه الروايات يجب أن تخلى المكان أمام الشهادة المؤيدة التى يأتى بها التاريخ أو علم الآثار الشرقيين، بمعنى آخر: إذا كان العلم مفيدًا فى توكيد رواية التوراة فلا بأس، أما إذا دحضها فإن الرجوع إليه غير معقول.

وللتوفيق بين ما لا يقبل التوفيق - أى للتوفيق بين نظرية الحقيقة فى التوراة والطابع غير الصحيح لبعض الوقائع الواردة فى روايات العهد القديم - اجتهد علماء اللاهوت المعاصرون فى مراجعة المفاهيم الكلاسيكية

(١) مدخل إلى سفر التكوين

للحقيقة ؛ ولكن من إطار هذا الكتاب إذا ما قدمنا عرضًا تفصيليا للاعتبارات الدقيقة التى تفيض فى دراستها مؤلفات تعالج الحقيقة فى التوراة، كدراسة «ا. لورتز O. Loretz» (١٩٧٢م) وعنوانها: «ما هى حقيقة التوراة؟»(٢). وعلينا أن نكتفى بالإشارة إلى هذا الحكم الخاص بالعلم. ويلاحظ المؤلف أن المجمع المسكونى للفاتيكان الثانى: «قد حذر من إعطاء أى قواعد للتمييز بين الخطأ والحقيقة فى التوراة، وهناك اعتبارات أساسية تشير إلى الاستحالة هذه، حيث إن الكنيسة لا تستطيع أن تتخذ قرارًا بصحة أو زيف المناهج العلمية، بحيث تستطيع أن تحل مبدئيًا وبشكل عام مشكلة حقيقة الكتاب المقدس».

وواضح أن الكنيسة لا تستطيع أن تصدر حكمًا عن قيمة «منهج» علمى ما كأداة للوصول إلى المعرفة. والمقصود هنا شىء آخر تمامًا. فليس المقصود هو الجدل فى النظريات وإنما مناقشة أمور ثابتة فعلاً. أيحتاج المرء فى عصرنا لأن يكون حبرًا عظيمًا ؛ ليعرف أن العالم لم يخلق وأن الإنسان لم يظهر على الأرض منذ ٣٧ أو ٣٨ قرنًا، وأن هذا التقرير المستنبط من الأنساب فى التوراة يمكن التأكيد بغلطه دون المخاطرة بالوقوع فى الخطأ..؟ إن الكاتب المذكور هنا لا يستطيع تجاهل هذا. وإن دعاواه عن العلم لا تهدف إلا إلى تحريف المشكلة، حتى لا يعالجها كما كان يجب أن يعالجها.

إن التذكير بكل هذه المواقف التى اتخذها الكتاب المسيحيون أمام الأخطاء العلمية فى نص التوراة، توضح جيدًا الضيق الذى تجره، وتوضح استحالة تعريف موقف منطقى آخر غير ذلك الذى يعترف بالأصل الإنسانى لهذه الأخطاء، وباستحالة قبولها كجزء من تنزيل إلهى.

إن هذا الضيق الذى يسود الأوساط المسيحية والذى يمس التنزيل، قد ظهرت ترجمة له فى المجمع المسكونى للفاتيكان الثانى (١٩٦٢-١٩٦٥م) حيث لم يلزم أقل من خمس صيغ حتى يتفق الجميع على النص النهائى بعد ثلاث سنوات من المناقشات، وحتى «ينتهى هذا الوضع الأليم الذى هدد بتوريط المجمع» على حد تعبير الأسقف «فيبر Weber»، فى مقدمته للوثيقة المسكونية الرابعة عند التنزيل.

وهناك جملتان من هذه الوثيقة الخاصة بالعهد القديم (الفصل الرابع، ص٥٣) تشيران إلى شوائب وبطلان بعض النصوص وبشكل لا يسمح بأية معارضة، تقول: «بالنظر إلى الوضع الإنسانى السابق على الخلاص الذى وضعه المسيح، تسمح أسفار العهد القديم للكل بمعرفة من هو الله ومن هو الإنسان، بما لا يقل عن معرفة الطريقة التى يتصرف بها الله فى عدله ورحمته مع الإنسان غير أن هذه الكتب تحتوى على شوائب وشيئ من البطلان، مع ذلك ففيها شهادة عن تعليم إلهي».

ليس هناك إذن أحسن من كلمتى «الشهادة والبطلان» اللتين تنطبقان على بعض النصوص التى تسمح بالنقد بل بأن تُهجر ؛ ومبدأ كهذا مقبول بشكل واضح.

إن هذا النص جزء من تصريح شامل صُوِّت

(٢) نفس المصدر ص٤٣.

عليه نهائيًا بأغلبية ٢٣٤٤ صوتًا ضد ٦ أصوات. لا يبدو أن هذا التصريح قد اكتسب هذه الأغلبية الساحقة الصورية، فالواقع أننا نجد فى تعليقات الوثيقة الرسمية، التى وقعها الأسقف فيبر جملة تصحح بشكل واضح الدعوى ببطلان بعض النصوص، التى يحتوى عليها الإعلان الرسمى للمجمع، تقول: «لا شك أن بعض أسفار التوراة اليهودية تحتوى على مرمى وقتى وبها شىء غير كامل».

إن «البطلان» وذلك هو تعبير الإعلان الرسمى، لا يرادف «المرمى الوقتي» وهو تعبير المعلِّق ؛ وعندما يضيف المعلق بشكل غريب صفة «اليهودية» فإنه يوحى بأن النص المسكونى قد استطاع أن ينتقد فقط النسخة العبرية، على حين أن ليس الأمر هكذا مطلقًا، وأن العهد القديم هو الذى كان - فى هذا المجمع - موضوع الحكم الخاص بشوائب وبطلان بعض أجزاء منه.

خاتمة

لا يجب النظر إلى كتب التوراة بزخرفتها مدعين ميزات تريد أن تتميز بها، وإنما بأن ندرس موضوعيًا ما هى عليه، وذلك لا يتضمن فقط معرفة بالنصوص بل يتضمن أيضًا معرفة بتاريخ النصوص. إن معرفة تاريخ النصوص تسمح فى الواقع بتكوين فكرة عن الظروف التى قادت إلى التعديلات النصية عبر القرون، وإلى التكون البطيء لمجموعها كما نملكه اليوم بأجزاء متعددة محذوفة وأخرى مضافة.

إن هذه المعلومات تجعل معقولاً تماما بوجود روايات مختلفة فى العهد القديم عن موضوع واحد، وأخطاء تاريخية وأمور متناقضة وأخرى غير معقولة أو يستحيل أن تتفق مع المعطيات العلمية الثابتة. إن استحالة الاتفاق مع المعطيات العلمية أمر طبيعى تمامًا فى كل المؤلفات الإنسانية القديمة. وكيف لا نجد مثل هذه التعارضات فى كتب كتبت فى ظروف كتلك التى تكوَّن فيها نص التوراة..؟

إن رجلاً يتمتع بإدراك سليم مثل «القديس أوغسطين»، قد استطاع - حتى قبل أن تثار مسائل المشكلات العلمية نفسها فى عصر لم يكن ممكنًا الحكم فيه على أمور غير معقولة أو متناقضة - استطاع أن يطرح مبدأ استحالة أن يكون أصل الدعوة المناقضة للحقيقة إلهيًا، فالقديس أوغسطين كان يعتبر أن الله لا يمكن أن يعلِّم البشر بما لا يتفق مع الحقيقة، وكان على استعداد لأن يستبعد من أى نص مقدس ما كان يمكن أن يبدو له واجب الحذف لهذه الدوافع.

وفيما بعد - فى عصر أدرك فيه المفكرون استحالة اتفاق بعض فقرات التوراة مع المعارف الحديثة - فإنهم يرفضون اتباع موقف «القديس أوغسطين»، عندئذ شهدنا مولد الأدب الذى يهدف إلى تبرير الاحتفاظ - برغم أنف كل شىء - بنصوص لم يعد لها مكان فى التوراة.

إن المجمع المسكونى للفاتيكان الثانى (١٩٦٢-١٩٦٥م) قد خفف بشدة من هذا التصلب، وذلك بإدخال تحفظ على «أسفار العهد القديم»، التى «تحتوى على الشوائب وشىء من البطلان».

ترى هل يبقى هذا التحفظ مجرد تعبير عن نية طيبة، أو سيتبعه تغير فى الموقف إزاء ما لم يعد القرن العشرين يقبله، فى نصوص كانت تهدف أن تكون مجرد «شهادات عن تعليم إلهى حقيقي» وذلك خارج أى تعديل بشرى.

القصة والأمثال فى القرآن الكريم

عاقبة الغرور



الأستاذ الدكتور/ محمد المختار محمد المهدى
عضو هيئة كبار العلماء

ونستمر فى السير على أشعة القصة القرآنية.. فى هذا الليل المدلهم.. وفى تلك الظلمات الداكنة التى خلفها بُعدُنا عن هدى القرآن الكريم.. وانصياعنا لتيارات التقليد والافتتان بالثقافات الهدامة.. والمذاهب البشرية الضالة.. علنا نقتبس من هذا السنا ما ينير لنا الدرب.. وما يعيد لنا الطريق إلى المستقبل المنشود الذى تظلله تعاليم السماء!

إن من الناس من ضاق فكره، وعطن ذهنه، وكلت همته عن تسلق القمم الشاهقة التى يتلقى منها هداية الله.. فاقتعد على قارعة الطريق، ووجه فمه إلى السماء، ينفخ فى نور الشمس ليطفئه.. ويتكتل مع من هو على شاكلته فى ظلام النفس وضيق الأفق.. وتقف الكتلة معًا تجادل للجدل.. وتعاند للعناد، وتلتمس المغالطات لتوهم نفسها بأن لديها من العقل والمنطق بقية!!

لقد تنقصت الأقوام على مدى العصور رسلهم بأنهم فقراء مرة.. وبأنهم لا يتبعهم إلا الأرذلون أخرى.. بأنهم يمشون فى الأسواق تارة.. وبأن لهم أزواجا وذرية تارة أخرى.. لقد حسبوا العظمة فى الغنى والجاه وقوة الأتباع، وادعوا أن الرسل ينبغى أن يكونوا من الملائكة الذين لا يأكلون ولا يتزوجون، مع أنه لا يتأتى أن يكونوا كذلك:

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ «الأنعام: ٩»

ومع أن الرسل جميعا كانوا يصرحون بأنهم بشر:

﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ «إبراهيم: ١١»

ولقد أثبتت الوقائع والأحداث أن المصلحين الذين يسيرون على نهج الرسل يواجهون كذلك بمثل هذه الاتهامات التى لا أصل تعتمد عليه.. ولا أساس تستند إليه.. لقد اتهم المخلصون منهم بأنهم يعملون لنيل أغراض دنيوية، وأمجاد شخصية.. وأن ذلك الذى يدعون إليه سينالهم به فضل ما هم أهل له وما أقرب هذا الاتهام من ذاك الذى ألصقه قوم نوح به قائلين:

﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ «هود: ٢٧»

وما قالته ثمود لنبيهم صالح:

﴿أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ «القمر: ٢٥»

وما قالته قريش عن سيدنا محمد ﷺ

﴿أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا﴾ «ص: ٨»

هكذا يعربون عما يحكم تصرفاتهم إزاء الرسل والمصلحين! إنه الحقد والضغينة والتشوف إلى الرياسة والسلطة التى لم تخطر قط على أذهان أولئك الأنبياء العظماء، وحينما تقف بهم عجلة المنطق والمناقشة يلجئون إلى القوة تحمى باطلهم، ويسترون بها الخجل من الفشل فى مجال العقل والإقناع.. لقد كان هذا دأب الطغاة البغاة من سحيق الزمن.. الذين اختاروا لأنفسهم أن يمثلوا القتام أمام النور، والعراقيل أمام زحف الهدى والرشاد.

لقد قال قوم نوح له وقد مكث يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عاما:

﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ «الشعراء: ١١٦»

وقال قوم إبراهيم له بعد أن أحرجهم أمام الأصنام التى لا تضر ولا تنفع ولا تدفع عن نفسها ما يصيبها من تحطيم:

﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ «الأنبياء: ٦٨»

وقال قوم شعيب له:

﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ «هود: ٩١»

وقال فرعون لموسى بعد أن بهت من مناقشته العقلية:

﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ «الشعراء: ٢٩»

وقال للسحرة الذين آمنوا بالمعجزة:

﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ «طه: ٧١»

تحليل النفسيات:

هذه فئة من الناس تعرض لها القصة القرآنية تحلل نفسياتها ومواقفها وتفضح أساليبها، وتضع بذلك أمام المصلحين مشعلا يكشف لهم طريقهم المغروس بالأشواك.. المزروع بالعقبات.. من هؤلاء الأوغاد المعوقين.. وهى حين تفعل ذلك لا تُيئس المصلحين من هداية الناس، ولا تضعف همتهم وعزيمتهم عن السير فى الطريق.. إذ إنها تتعرض كذلك للفئة الأخرى التى تمثل الفطرة النقية الصافية التى تستجيب للحق حين يعرض عليها.. وتتفانى فى نصرته حينما تخالط بشاشته أعماقها.. وتفديه بكل ما تملك من نفس ونفيس إذا ما اقتنعت به، واتضحت أمامها معالمه.. وإن تكن هذه الفئة قلة من الناس.. إلا أنها بعمق إيمانها تثبت وتصمد أمام المحن والصعاب حتى تشق طريق الحق، وتنشر النور فى الآفاق.

إن الخير والشر كما يكمنان فى داخل النفس يظهران على مسرح الواقع مجسمين فى فئتين متقابلتين.. متصارعين إلى الأبد.. ومن هنا تشير القصة كذلك إلى عنصر الخير الذى يعترف بالحق حين يتضح ويتبناه حتى ينتصر مهما واجهه من عنت ومشقات، إن السحرة الذين رأوا فى براهين موسى ومعجزاته سمة التصديق الإلهى لم يلبثوا أن أعلنوا عن إيمانهم غير مكترثين بفرعون وبطشه، ولا هيابين من تهديده ووعيده معلنين:

﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا

﴿ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾

(طه: ٧٢، ٧٣)

فكانت عاقبتهم المشرقة الوضيئة ثمنًا لهذا التفاني والإيمان:

﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (الشعراء: ٦٥ - ٦٨)

وتظل القصة تصور طبيعة هذا الإنسان بدقة لا يصل إليها إلا من خلق فأبدع:

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾

(الملك: ١٤)

إن هذا الإنسان حين يملك شيئًا من وسائل القوة والسيطرة وحين يستعلى بما عنده من غنى وثروة على الآخرين، إذا هو يطغى ويتكبر.. وينسى من أعطاه تلك الوسائل.. بل ينسى أنها منحة وفتنة.. وأنه وهي معرضان في أى لحظة للفناء.. وأنه في الإمكان ومن المحتمل أن تنتقل هذه الوسائل في لمحة عين إلى الآخرين.

لقد ضرب القرآن في قصصه أمثلة للغرور بالملك.. والمركز.. أو بالقوة والفتوة.. أو بالثروة والغنى..

عاقبة الغرور بالسلطة:

فالذى يغتر بالسلطة.. وينسى ربه.. وينسى شعبه.. ويمارس فيه الاستبداد والطغيان بل يحاول أن يجعل من نفسه إلها.. فقد ذكرت لنا القصة مثالا له بفرعون موسى الذى قال:

﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ﴾ (الزخرف: ٥١)

بل قال:

﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴾ (النازعات: ٢٤)

وقال:

﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ﴾ (القصص: ٣٨)

وسخر شعبه لخدمته وعبادته، واستذل شعبا آخر متلذذا بالسيطرة عليه.. وذبحه ذبح الخراف:

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (القصص: ٤)

بيد أن القصة تشير إلى أن هذا الطغيان لابد له من آخر مهما امتد عمره، ومهما أملى له المولى.. فلقد منّ الله على هؤلاء المستضعفين من فرعون ومكن لهم في الأرض، وأراه منهم الويل والعذاب:

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ (القصص: ٥، ٦)

والغرور بالقوة:

والذى يغتر بالقوة والصحة قد مثلت له القصة بقوم عاد:

﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾

(الفجر: ٧، ٨)

أولئك الذين سرت في أجسادهم رعدة القوة حتى صاحوا:

﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾

(فصلت: ١٥)

أولئك الذين كانوا يبنون بكل ريع آية يعبثون، ويتخذون مصانع لعلهم يخلدون، وإذا بطشوا بطشوا جبارين.. فماذا كانت نتيجة هؤلاء الجبابرة العتاة؟

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ (الحاقة: ٦، ٧)

والغرور بالثروة:

أما الذى يغتر بما أوتى من المال والكنوز والفراديس فتصوره قصة قارون التى سبقت الإشارة إليها.. وكانت نتيجته أن خسف الله به وبداره الأرض.. وتصوره كذلك قصة صاحب الجنتين الذى كان يدخل جنته مزهوا مغرورًا بما فيها قائلا لصاحبه:

﴿ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾

(الكهف: ٣٤)

مستبعدا فناءها بقوله:

﴿ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ﴾

(الكهف: ٣٥)

وكانت نتيجته أن أصبح:

﴿ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾

(الكهف: ٤٢)

هذه فئة المغرورين المزهوين بما أوتوا.. الناسين لأنفسهم الفضل فيما أوتوا.

السلوك الأمثل:

لكن الحياة لا تخلو من أمثلة عليا تتسامى عن هذا الغرور، وتحلق في آفاق العظمة والسمو الإنسانى يؤتى أحدهم من الملك والسلطان ما لن يأتى الدهر بمثله إلى الأبد إذ سخر الله له:

﴿ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴾ (ص: ٣٦، ٣٧)

وتحشر له جنوده من الإنس والجن والطير.. وتعمل الجن بين يديه بإذن ربه:

﴿ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ﴾ (سبأ: ١٣)

ويعلم منطق الطير.. ويؤتى من كل شيء!! إن هذا الملك النبى العظيم سيدنا سليمان.. حينما يسمع حديث النملة.. يتجه بقلبه إلى السماء:

﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ (النمل: ١٩)

وحين يأمر بالقوة الخارقة أن تعمل عملها في نقل قصر بلقيس ثم يراه مستقرا عنده في لمح البصر يقول:

﴿ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾

(النمل: ٤٠)

وهذا ذو القرنين يؤتى من كل شيء سببًا فاتبع سببًا.. ويبلغ ملكه من مطلع الشمس إلى مغربها.. ويبنى سد يأجوج ومأجوج بطريقة هندسية علمية رائعة.. لم تترك لهم فرصة أن يظهروه أو ينقبوه.. وبعد أن ينتهى من هذا العمل العظيم يقول:

﴿ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ (الكهف: ٩٨)

هكذا بلا إحصاء أو إحاطة.. إنها الأمثلة فحسب، فالقرآن كله يضرب على الوتر الحساس لهذا الإنسان الذى لا يعلم تلافيف عقله.. ولا تفاصيل فطرته ونفسه إلا من أنزل هذا القرآن.. وخلق هذا الإنسان.. إن ذهنه يموج بغرائز ودوافع تدعو إلى الخير والشر.. فحينًا ينتصر، وأحيانًا ينهار.. ومن رحمة الله أن جعل أمامه من جنسه أمثلة عصمها من الشر.. ومحضها للخير، حتى تكون أسوة وقدوة تعينه على مقاومة تيار الشر والفساد.

يتبع

تلاعبهم بأحكام الله تعالى ومحاولتهم فتنة الرسول ﷺ عند تقاضيهم أمامه (٢)



أ.د. محمد سيد طنطاوي

قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ﴾

(المائدة: ٤١)

افتتحت الآية الكريمة بنداء من الله – تعالى – لنبيه ﷺ بعنوان: الرسالة للتشريف والتكريم، وللإشعار بما يوجب عدم حزنه، لأنه رسول عليه البلاغ، وما دام قد بلغ الرسالة، وأدى الأمانة؛ فعليه بعد ذلك أن يهتم لما يقع من مسارعة بعض الناس إلى الكفر.

والنهي عن الحزن وهو أمر طبيعي لا اختيار للإنسان فيه، مراد به النهي عن لوازمه، كالإكثار من محاولة تجديد شأن المصائب، وتعظيم وقعها، وبذلك يتجدد الألم؛ وتعز السلوى.

والمعنى: لا تهتم – أيها الرسول – بهؤلاء المنافقين، الذين يقعون فى الكفر بسرعة ورغبة، ويبادرون إلى إظهاره متى لاحت لهم أى فرصة؛ فإنى ناصرك عليهم؛ وكافيك شرهم.

ثم كشفت الآية الكريمة بعد ذلك عن حقيقة حالهم فقال تعالى:

﴿ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ﴾

(المائدة: ٤١)

أى: لا يهمك أيها الرسول شأن الذين يسارعون فى الكفر

«من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم»

بأن أظهروا الإسلام بألسنتهم، ولكن قلوبهم خالية منه، وهؤلاء هم المنافقون.

ثم ذم القرآن الكريم اليهود لكذبهم وتلاعبهم بأحكام دينهم، فقال تعالى:

﴿ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ﴾

(المائدة: ٤١)

أى: ومن اليهود – يا محمد – قوم سماعون باغتباط وسرور للكذب، الذى يفترى عليك زورا وبهتانا من أحبارهم، وهم مبالغون فى السماع لقوم آخرين:

﴿ لَمْ يَأْتُوكَ ﴾

أى: لم يحضروا مجلسك، وتجافوا عنه، إفراطا منهم فى عدواتك وكراهيتك؛ وعلى هذا التفسير تكون اللام للتقوية.

ويجوز أن تكون اللام للتعليل؛ ويكون المعنى:

ومن اليهود – يا محمد – قوم سماعون لكلامك؛ لا لينتفعوا به، ولكن لأجل أن يكذبوا عليك، عن طريق التحريف لما سمعوا، وهم – أيضا – سماعون لكلامك لينقلوه إلى قوم آخرين منهم، لم يحضروا مجلسك، فهم فى مجلسك عيون عليك لغيرهم، من وجهائهم ليبلغوهم ما سمعوا منك محرفا.

قال صاحب المنار: «فهؤلاء يبلغون رؤساءهم وسائر أعداء الإسلام كل ما يقفون عليه؛ لأجل أن يكون ما يفترونه من الكذب مقبولا، لأنه مبنى على مسائل واقعة يزيدون فى روايتها، وينقصون ويحرفون منها ما يحرفون، ومن يكذب عليك، وهو لا يعرف من أمرك شيئا لا يستطيع أن يجعل كذبه مرجو القبول كمن يعرف؛ بل يظهر كذبه لأول وهلة، ولهذا نرى الذين يفترون الكذب على الإسلام فى هذا الزمان يقرءون بعض كتب المسلمين ليبنوا أكاذيبهم على مسائل معروفة، يحرفون الكلم فيها عن موضعه؛ كالذى افتروه فى قصة زينب بنت جحش، وزيد بن حارثة وفى غيرها من الأخبار(١).

ثم ذكر القرآن الكريم صفة أخرى من صفاتهم الذميمة، وحكى طرفا من الشر الذى تواصوا به، وتواضعوا عليه، فقال تعالى:

﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ﴾

(المائدة: ٤١)

أى: أن هؤلاء اليهود – يا محمد – بجانب أنهم سماعون للكذب، فهم – أيضا:

﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ﴾

أى: يميلونه ويزيلونه عن مواضعه، التى وضعه الله – تعالى – فيها، بأن يتأولوه على غير تأويله، أو يبدلوه بالزيادة عليه، أو النقص منه، كما حصل منهم فى قصة اليهوديين اللذين زنيا، فقد تركوا حكم التوراة وهو الرجم، الذى يجدونه مكتوبا فيها، وقد أمروا بتنفيذه، واستعاضوا عنه، من عند أنفسهم – حكما آخر: هو الجلد، والتحميم وعملهم هذا أكبر دليل على عتوهم، وفجورهم، وجرأتهم على الله – تعالى:

(١) تفسير المنار جـ٦ ص ٣٨٩

﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾

أى: يقول هؤلاء المحرفون لكلام الله من بعد مواضعه لمن أرسلوهم إلى الرسول ﷺ ليقضى بينهم:

﴿وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾

أى: إن أفتاكم - محمد - ﷺ بهذا الحرف المغير عن مواضعه - وهو الجلد والتحميم، بدل الرجم - فاقبلوا حكمه واعملوا به، فهو الحق:

﴿وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾

أى: وإن أفتاكم بخلاف ما تواضعنا عليه - وهو الرجم بدل الجلد والتحميم - فاحذروا قبول حكمه، وإياكم وإياه فهو الباطل والضلال.

ثم بعد أن كشف القرآن الكريم عن جانب من فضائحهم، أخذ فى تسلية الرسول ﷺ فقال تعالى:

﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

(المائدة: ٤١)

أى: ومن يرد الله - يا محمد - ﴿فِتْنَتَهُ﴾ أى: اختباره فى دينه، فيظهر الاختبار كفره وضلاله، فلن تملك له أيها الرسول شيئا من الهداية أو الرشد، فلا تهتم لمسارعتهم فى الكفر، ولا تطمع فى جذبهم إلى طريق الهداية، فإنك لا تملك لأحد نفعا، وإنما عليك البلاغ، وعلينا الحساب.

ثم أصدر القرآن الكريم حكمه العادل على أولئك اليهود، الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا، فقال تعالى:

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾

أى: أولئك اليهود، وأمثالهم من المنافقين، الذين مردوا على الضلالة، لم تتعلق إرادة الله بتطهير قلوبهم من الكفر والجحود:

﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾

بهتك أستارهم، وظهور كذبهم، وهوان شأنهم:

﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

وهو الخلود فى النار بسبب انحرافهم عن الصراط المستقيم.

ثم بين - سبحانه - أن هؤلاء اليهود بجانب كثرة سماعهم للكذب، فهم - أيضا - أكالون للمال الحرام فقال تعالى:

﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾

(المائدة: ٤٢)

السحت: هو كل ما خبث كسبه، وقبح مصدره، كالتعامل بالربا، وأخذ الرشوة، سمى سحتا من سحته إذا استأصله، لأنه مسحوت البركة، أى: مقطوعها، ومن المعروف أن اليهود أرغب الناس فى المال الحرام، وأحرصهم عليه.

وقد فسر بعض العلماء السحت هنا: بالرشوة فى الحكم، لحديث ابن عمر - رضى الله عنهما - قال: «قال رسول الله ﷺ: كل لحم نبت من سحت فالنار أولى به» قيل يا رسول الله «وما السحت؟» قال «الرشوة فى الحكم»[٢].

والمعنى: أن هؤلاء اليهود فوق كونهم سماعون للكذب، الذى هو رأس كل رذيلة، فإنهم كذلك آكلون للمال الحرام، بجميع صوره وألوانه، فترتب على ذلك أن فسدت أمورهم الدينية والدنيوية.

ثم خاطب الله - تعالى - رسوله ﷺ بقوله:

﴿فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾

أى: فإن جاءك اليهود متحاكمين إليك، فى قضاياهم فأنت مخير، بين أن تحكم فيهم، لأنهم اتخذوك حكما، مع كونهم لم يؤمنوا بك، وبين أن تتركهم وتهملهم، لأنهم لا يقصدون بتحاكمهم إليك الوصول إلى الحق، بل يقصدون أن تحكم بينهم بما يوافق أهواءهم وشهواتهم.

ثم قال تعالى:

﴿وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا﴾

(المائدة: ٤٢)

أى: وإن اخترت عدم الحكم، وترك النظر فيما احتكموا فيه إليك فعادوك، وقصدوا مضرتك، وإيذاءك، فلن يستطيعوا ذلك لأن الله حافظك، وناصرك عليهم.

ثم قال تعالى:

﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾

(المائدة: ٤٢)

أى: وإن اخترت الحكم والنظر - يا محمد - فى قضاياهم، فليكن حكمك بالعدل، الذى أمرت به، ولا تستمع لرغباتهم وشهواتهم، إن الله يحب العادلين فى حكمهم بين الناس، القاضين بينهم بما أمر الله - تعالى - وبما جاء به الإسلام من أحكام.

عن عبدالله بن عمرو بن ا لعاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المقسطين عند الله - تعالى - على منابر من نور، على يمين الرحمن - وكلتا يديه يمين - الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا»[٣].

هذا، وللعلماء أقوال مبسوطة فى كتب الفقه فى: هل الإمام مخير فى الحكم بين أهل الذمة إذا تحاكموا إليه، أو أن هذا التخيير قد نسخ وأصبح لزاما عليه أن يحكم بينهم؟

قال الشيخ القاسمى فى الجواب عن هذا السؤال: وقد استدل بالآية من قال: إن الإمام مخير فى الحكم بين أهل الذمة، أو الإعراض عنهم، وعن بعض السلف: «إن التخيير المذكور نسخ بقوله تعالى:

﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾

والتحقيق: أنها محكمة، والتخيير باق، وقد روى ذلك عن الحسن، والشعبى والنخعى والزهرى وبه قال أحمد، لأنه لا منافاة بين الآيتين، فإن قوله تعالى:

﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾

فيه التخيير، وقوله تعالى:

﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾

فيه كيفية الحكم إذا حكم بينهم[٤].

وقال فضيلة الشيخ حسنين مخلوف:

(٢) تفسير الألوسى جـ٦ ص ١٢٥
(٣) أخرجه مسلم فى «كتاب الإمارة» جـ٣ ص ١٤٥٨ طبعة الحلبى تحقيق فؤاد عبدالباقى
(٤) تفسير القاسمى جـ٥ ص ١٩٩٢

قوله تعالى:

﴿ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ ﴾

خير الرسول ﷺ إذا ترافع إليه أهل الكتاب بين الحكم بينهم، والإعراض عنهم، ثم نسخ التخيير بقوله تعالى:

﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾

وقيل: إن التخيير ثابت بهذه الآية، وقوله تعالى:

﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾

بيان لكيفية الحكم عند اختياره له، وأنه لا يحكم إلا بأحكام الإسلام، وأما إذا تحاكم مسلم وذمي فإنه يجب الحكم بينهما بأحكام الإسلام اتفاقا [٥].

ثم أنكر القرآن الكريم عليهم مسالكهم الخبيثة، وعجب من حالهم؛ لأنهم يحكمون من لا يؤمنون به، مع أن الحكم منصوص عليه في التوراة، التي بين أيديهم فقال تعالى:

﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾

(المائدة: ٤٣)

أي: أن أمر هؤلاء اليهود – يا محمد – لمن أعجب العجب؛ لأنهم يحكمونك في قضاياهم، مع أنهم لم يتبعوا شريعتك، ومع أن كتابهم التوراة قد ذكر حكم الله صريحا واضحا، فيما يحكمونك فيه، والحق: أن مسلكهم هذا ليدل على أنهم ليسوا مؤمنين بكتابهم إيمانا صحيحا؛ لأنهم لو كانوا مؤمنين به حقا لما رغبوا عنه إلى غيره، وليسوا مؤمنين – أيضا – بحكمك الذي وافق حكم التوراة، لأنهم بعد أن سمعوه، أعرضوا عنه، لمخالفته لأهوائهم، ولذلك فقد صدق فيهم قوله تعالى:

﴿ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾

أي: وما أولئك اليهود الموصوفون بما ذكر بالمؤمنين لا بكتابهم؛ لأنهم أعرضوا عنه، ولابك يا محمد؛ لأن حكمك وافق الحق، ولكنه لم يوافق أهواءهم.

قال الإمام الرازي: الآية الكريمة أظهرت قبائحهم؛ لئلا يغتر بهم مغتر، أنهم أهل كتاب، ومن المحافظين على أمر الله، وبيان ذلك من وجوه:

- أحدها: عدولهم عن حكم كتابهم.
- ثانيها: رجوعهم إلى حكم من كانوا يعتقدون فيه أنه مبطل
- ثالثها: إعراضهم عن حكمه ﷺ بعد أن حكموه، وبذلك ظهر جهلهم وعنادهم [٦].

وبعد أن ذكر – سبحانه – عجيب حال اليهود، لتركهم حكم الله، وهم يعلمون. عقَّبه بتفخيم شأن التوراة، التي أنزلها على موسى – عليه السلام – فقال تعالى:

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ﴾

(المائدة: ٤٤)

(٥) تفسير صفوة البيان ص١٦٣ لفضيلة الشيخ حسنين مخلوف.
(٦) تفسير الفخر الرازي ج١٠ ص٢٣٦ طبعة عبدالرحمن محمد

والمعنى: إنا أنزلنا التوراة فيها هدى للناس إلى الحق، وإرشاد لهم إلى الصراط المستقيم وضياء يبين لهم ما التبس عليهم من الأحكام، يحكم بهذه التوراة بين اليهود أنبياؤهم، الذين أسلموا وجوههم لله، وأخلصوا له العبادة، وبعثوا فيهم منذ عهد موسى إلى عهد عيسى -عليهما السلام- ويحكم بها -أيضا- بين اليهود ﴿ وَالرَّبَّانِيُّونَ ﴾ وهم: عبادهم وزهادهم ﴿ وَالْأَحْبَارُ ﴾ وهم: علماؤهم وفقهاؤهم السالكون طريق أنبيائهم:

﴿ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ﴾

أي: كان النبيون الربانيون والأحبار يحكمون بكتاب الله بين اليهود، بسبب تكليف الله إياهم بحفظه وإظهاره والعمل به وصيانته من التغيير والتبديل وكان هؤلاء جميعًا شهداء على الكتاب بأنه حق وصدق وبأنه من عند الله -تعالى-.

ويجوز أن يكون الضمير في ﴿ اسْتُحْفِظُوا ﴾ للربانيين والأحبار ويكون الاستحفاظ من الأنبياء فيصير المعنى هكذا: وكذلك الربانيون والأحبار كانوا يحكمون بالتوراة بين اليهود بسبب أمر أنبيائهم إياهم بأن يحفظوا كتاب الله من التغيير والتبديل وبسبب كونهم عليه شهداء.

وعلى كلا المعنيين فالجملة الكريمة تفيد أن أنبياء بني إسرائيل وعبادهم الصالحين وعلماءهم المخلصين كانوا لا يقضون بينهم إلا بالحق الذي أنزل الله -تعالى- في كتابه وأن هؤلاء اليهود الذين تركوا حكم التوراة وجاءوا يحتكمون أمام رسول الله ﷺ ليقضي بينهم بغير ما أنزل الله ليسوا على شيء من الحق وليسوا بمقتدين بمن يجب الاقتداء بهم من أنبيائهم وربانييهم وأحبارهم ولذلك حق عليهم قوله تعالى:

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

(المائدة: ٤١)

ثم أمرهم الله -تعالى- أن يجعلوا خوفهم منه وحده، وألا يبيعوا دينهم بدنياهم فقال تعالى:

﴿ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾

(المائدة: ٤٤)

والمعنى: اقتدوا يا معشر اليهود المعاصرين للنبي، بأنبيائكم وربانييكم وأحباركم في الانقياد لحكم الله -تعالى- الذي أنزله في كتابه وإياكم أن تحرفوا كتابي أو تغيروا أحكامي بسبب خوفكم من الناس بل اجعلوا خشيتكم مني وحدي فأنا الذي بيدي نفع العباد وضرهم وإياكم -أيضا- أن تتركوا العمل بها وتأخذوا لأنفسكم بدلا منها:

﴿ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾

من عرض الحياة الدنيا كالرشوة، وابتغاء الجاه، والحرص على أرضاء الناس، فإن هذه الأمور -مهما عظمت- فهي قليلة مسترذلة، بالنسبة لما عند الله -تعالى- من خير عميم، لمن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى.

ثم بين -سبحانه- حال من يفعل فعل

اليهود فيحكم بغير شريعة الله، فقال تعالى:

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾

(المائدة: ٤٤)

أى: كل من رغب عن الحكم بما أنزل الله، وقضى بغيره من الأحكام فأولئك هم الكافرون لأنهم كتموا الحق الذى كان من الواجب عليهم كشفه وتبيينه وأظهروا غيره وقضوا به.

هذا والذى عليه المحققون من العلماء أن هذه الجملة عامة فى اليهود وفى غيرهم فكل من حكم بغير ما أنزل الله عن جحود وتعمد وإصرار كان من الكافرين.

قال الشيخ القاسمى فى تفسيره ما أخرجه مسلم عن البراء من أن قوله تعالى:

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾

الثلاث الآيات فى الكفار كلها وكذا ما أخرجه أبوداود عن ابن عباس أنها فى اليهود خاصة - قريظة والنضير - كل ذلك لا ينافى تناولها لغيرهم لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وكلمة ﴿ وَمَن ﴾ وقعت فى معرض الشرط فتكون للعموم.

ثم قال: وكفر الحاكم بغير ما أنزل الله مقيد بقيد الاستهانة بما أنزل الله وبالجحود له وهذا هو المأثور عن عكرمة وابن عباس.

روى الحاكم وابن أبى حاتم عن عبدالرزاق عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن من لم يحكم بما أنزل الله هو به كفر وليس بكفر ينقل عن الملة كمن كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ونحو هذا روى عن عطاء قال: «هو كفر دون كفر وظلم دون ظلم وفسق دون فسق».

ونقل فى (اللباب) عن ابن مسعود والحسن والنخعى: «أن هذه الآيات الثلاث عامة فى اليهود وفى هذه الأمة فكل من ارتشى وبدل الحكم فحكم بغير حكم الله فقد كفر وظلم وفسق. وإليه ذهب السدى، لأنه ظاهر الخطاب، ثم قال: وقيل: هذا فيمن علم نص حكم الله ثم رده عيانًا عمدًا وحكم بغيره وأما من خفى عليه النص أو أخطأ فى التأويل فلا يدخل فى هذا الوعيد».

وقال إسماعيل القاضى فى (أحكام القرآن) ظاهر الآيات يدل على أن من فعل مثل ما فعل اليهود واخترع حكمًا يخالف به حكم الله وجعله دينا يعمل به فقد لزمه مثل ما لزمهم من الوعيد المذكور حاكمًا كان أو غيره[٧] بتصرف يسير.

وقال الشيخ حسنين مخلوف:

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾

اختلف المفسرون فيمن نزلت فيهم هذه الآية والآيتان بعدها فقيل فى اليهود، والثالثة فى النصارى والكفر إذ تسب إلى المؤمنين حمل على التشديد والتغليظ لا على الكفر الذى ينقل عن الملة والكافر إذا وصف بالفسق والظلم أريد منهما العتو والتمرد فى الكفر وعن ابن عباس من لم يحكم بما أنزل الله جاحدًا به فهو كافر ومن أقر به فهو ظالم فاسق[٨].

يتبع

(٧) تفسير القاسمى جـ ٥ ص ١٩٩٩

(٨) تفسير (صفوة البيان) ص ١٩٥ للشيخ حسنين مخلوف.

فتاوى الحاخامات

د. منصور عبدالوهاب

عنوان الفتوى: أخلاق اليهودية

فتوى من: الحاخام شموئيل الياهو

●● سؤال: ما الفارق بين إحراق النساء، وبين قتل طفل صغير أكل القليل من اللحم وشرب القليل من الخمر؟

●● ما الفارق بين حرب المسلمين من أجل بلادهم وحرب تنظيمى إيتسل ولحى فى الماضى؟

جواب: سؤالك القصير ينقسم إلى سؤالين أساسيين:

أ- يتمثل الفارق الأساسى بين الأمرين فيمن سنقتله؟ فوضع العالم كله فى سلة كبيرة واحدة والقول بأن: «القتل هو القتل، وما الفارق إلخ، هو نظرة مسيحية نمطية: تقول: «حرام أن تضرب حتى الشرير» و«أدر له خدك الأيسر».. وما شابه ذلك من القول بأننا فى منتهى الضآلة والضعف، ومن نحن حتى نصدر أحكامًا؟ وأن العالم ملىء بالخطايا، وما إلى ذلك من تلك الهراءات. ولذلك ليس من حق المضروب أن يحكم على من ضربه بل يدير له خده الأيسر.

أما نحن فنقول: «إن جاء ليقتلك فاسبقه واقتله»، وإذا كان الطفل المسكين ذو العينين الزرقاوين الذى يرقد ضاحكا فى مهده سوف يكبر ليصبح هتلر - فالشريعة اليهودية تأمر بقتله حيث ورد فيها: وحطم رأس أكثر الأفاعى صلاحًا.

كذلك إذا كان من الواضح لك أن الطفل الذى يأكل ويشرب، سوف يكبر ليكون لصًا ينهب الناس ويقتل منهم العشرات أو المئات، أو إنسانًا واحدًا. فاقض عليه الآن!!

صحيح أن هذا غير موجود فى الواقع «والابن العاق ليس له وجود» إلا أن المبدأ قائم.

ب - الفارق بين حرب المسلمين من أجل بلادهم وبين حرب تنظيمى لحى وإيتسل فى الماضى، يتمثل أساسا فى مسألة ملكية هذه الأرض. إذا دخل لص إلى منزل وضربه صاحبه وألقى به من النافذة، سنقول له «أحسنت»، ولكن إذا دخل لص إلى منزل وفعل ذلك فى صاحبه سنقول عنه إنه «قاتل» هأنت ترى أن نفس التصرف يعتبر مرة إيجابيًا ومرة أخرى سلبيًا. فالفارق ليس فى التصرف نفسه، وإنما فى مدى أخلاقيته.

لقد كانت أرض إسرائيل ملكا لنا وستظل كلها لنا. ولحسن حظنا أن المسلمين أيضا يعرفون ذلك[!!!].. لهذا ففى نهاية الأمر كلما أسرعنا باستيعاب حقيقة أن هذه الأرض ملك لنا، سيتضح لهم أنه ليس هناك ما يمكن الحديث عنه فى هذا الشأن وسيهربون من هنا مثلما هرب فى عام ١٩٤٨م خمسون ألف عربى من صفد.

وسيكون ذلك أفضل، ليس لك فحسب بل لهم أيضًا.

هل تعرف كم فلسطينيًا شنقوا على أعمدة الإنارة فى أنحاء السلطة الفلسطينية منذ اتفاقيات أوسلو اللعينة؟

كم من التعساء جاءوا إلى العالم لأننا لم ندرك أن كلمة الرب أقوى من كلمة كلينتون وبوش وعرفات.

عليكم بقليل من الرحمة!!

قصص الأنبياء

العبد الصالح صاحب موسى

للعلامة: عبدالوهاب النجار

حدثنا الحميدى حدثنا سفيان حدثنا عمرو بن دينار قال: أخبرنى سعيد بن جبير أنه قال لابن عباس أن نوحًا البكالى يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى صاحب بنى إسرائيل؛ فقال ابن عباس كذب عدو الله.. حدثنى ابن كعب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول «إن موسى قام خطيبًا فى بنى إسرائيل فسئل أى الناس أعلم؟ فقال: أنا، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه فأوحى الله إليه: أن لى عبدًا بمجمع البحرين هو أعلم منك.. قال موسى يارب فكيف لى به؟ قال تأخذ معك حوتًا فتجعله فى مكتل فحيثما فقدت الحوت فهو ثم.. فأخذ حوتًا فى مكتل ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون ـ حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رءوسهما فناما، واضطرب الحوت فى المكتل فخرج منه فسقط فى البحر فاتخذ سبيله فى البحر سربًا، وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطلق.. فلما استيقظ نسى صاحبه أن يخبره بالحوت فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا.. قال ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذى أمر الله به.. فقال له فتاه:

﴿ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴾

«الكهف: ٦٣»

قال فكان للحوت سربا ولموسى ولفتاه عجبا.. فقال موسى:

﴿ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾

«الكهف: ٦٤»

قال رجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مسجى ثوبا فسلم عليه موسى، فقال الخضر: وأنى بأرضك السلام.. قال: أنا موسى، قال: موسى بنى إسرائيل؟ قال: نعم أتيتك لتعلمنى

ما علمت رشدا.. قال:

﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾

«الكهف: ٦٧»

يا موسى إنى على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه! فقال موسى: ستجدنى إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا..

﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾

«الكهف: ٧٠»

فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرت سفينة فكلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوه بغير نول، فلما ركبا فى السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد خلع لوحا من السفينة بالقدوم:

﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴾

«الكهف: ٧١-٧٣»

قال: وقال رسول الله ﷺ وكانت الأولى من موسى نسيانا.. قال: وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر فى البحر نقرة فقال له الخضر: ما علمى وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر.. ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذ بصر الخضر بغلام يلعب مع الغلمان فأخذ الخضر رأسه بيده فاقتلعه، فقال له موسى:

﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾

«الكهف: ٧٤-٧٥»

قال: وهذه أشد من الأولى:

﴿ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾

«الكهف: ٧٦-٧٨»

فقال رسول الله ﷺ: «وددنا أن كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما».

قال سعيد بن جبير: فكان ابن عباس يقرأ: «وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا» وكان يقرأ (وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين).

ما اسم العبد الصالح

وأما العبد الصالح فقد اختلف العلماء فى اسمه وهل هو نبى أو رسول أو ولى؟

واختلفوا فى زمنه وهل هو حى إلى اليوم أو ميت؟

أما اسمه فقالوا: أنه «الخضر» وقيل «بليا بن ملكان» وقيل «إليسع» وقيل «إلياس» وقيل «ملك من الملائكة» وقيل اسمه «عامر» وقيل «أحمد» واختلفوا فى اسم أبيه فقيل أنه «ابن آدم» لصلبه وقيل أنه «ابن فرعون» وقيل «ابن العيص» وقيل «ابن كليان» والجمهور على أنه «بليا بن ملكان» وأن «الخضر» لقب له وعلى أنه نبى وقال غير الجمهور: أنه رسول: وقال آخرون: أنه ولى وعليه الكثير.

واختلف هل هو حى اليوم أو ميت؟ فذهب جمع إلى أنه ليس بنبى وأنكر البخارى أن يكون حيا. وفى صحيح مسلم: أن رسول الله ﷺ قال قبل موته: «ما من نفس منفوسة يأتى عليها مائة سنة وهى حية» وسئل غير البخارى من الأئمة فتلا قوله تعالى:

﴿وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ﴾

«الأنبياء: ٣٤»

وسئل شيخ الإسلام ابن تيمية عنه فقال: لو كان الخضر حيا لوجب عليه أن يأتى إلى النبى ﷺ ويجاهد بين يديه ويتعلم منه وسئل إبراهيم الحربى عن بقائه فقال: من أحال على غائب لم ينتصف منه، وما ألقى هذا بين الناس إلا الشيطان ونقل فى البحر عن شرف الدين أبى عبدالله محمد بن أبى الفضل المرسي: القول بموته ونقله ابن الجوزى عن على بن موسى الرضا رضى الله تعالى عنهما ا هـ من الألوسي.

ويقول بعض أهل التفسير: أنه و«الأسكندر المقدوني» ابنا خالة، وكان وزيره وهو قول جاهل، لأن الأسكندر كان بعد موسى بأكثر من ألف سنة! فكيف يكون ابن خالته معاصرا لموسى رسول الله؟

القرآن الكريم لم يرد فيه هذا الاسم ولولا وجوده فى حديث البخارى ما صدقت بوجود صاحب هذا الاسم! ولكان «هيان بن بيان» واتى أكتفى بما قدمته من ذكر الآيات الكريمة ومن شاء فليقرأ سورة الكهف فهى فيها.

***

كلمات ربى وآياته فى القرآن الكريم





أ. د. أحمد فؤاد باشا
الأستاذ بكلية العلوم - جامعة القاهرة

صدع ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾

وردت كلمة «الأرض» فى القرآن الكريم فى مواضع عديدة لتدل على الكوكب الأرضى بمجمله، كما فى قوله تعالى:

﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ﴾

(الذاريات: ٢٠)

أو تدل على ذلك الغلاف الصخرى من القشرة الأرضية التى نعيش عليها، كما فى قوله تعالى:

﴿وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ﴾

(الذاريات: ٤٨)

أو تدل على خاصية مميزة فى الأرض تستحق التأمل والتفكر لأهميتها فى حياة الإنسان، وباعتبارها من دلائل القدرة الإلهية على الخلق والإبداع، كما فى قوله تعالى:

﴿وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ﴾

(الطارق: ١٢)

و«الصدع» فى اللغة العربية يعنى الشق، وكمصطلح علمى **Fault** يطلق على أى كسر فى الأرض تتحرك على مستواه من الجانبين كتل الصخور، وهو ينشأ من تصدع «أى تكسر أو تشقق» الصخور بقوة الضغط أو الشد.

ويرى العلماء المفسرون أن آية ﴿وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ﴾ توضح صفة هامة لقشرة الأرض وطبيعتها التى يتوقف عليها كثير من التغيرات التى تطرأ على سطحها، وهى قابليتها للتشقق والتصدع. ويقسم الحق - تبارك وتعالى - بهذه الصفة للأرض لبيان أهميتها والحث على معرفة حكمتها.

فهم الأولون من هذا الوصف القرآنى للأرض بأنها ﴿ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ﴾ معنى انصداعها «أى انشقاقها» بعد ارتوائها بالمطر ليخرج منها مختلف صور النبات وما تحمله تلك النباتات من خيرات وثمار لولاها لم تستقم الحياة على الأرض. كما أن الأرض أيضًا ذات الصدوع التى ساعدت على وجود منافذ فى القشرة الأرضية لخروج المياه الجوفية والغاز الطبيعى والبترول إلى سطحها كذلك تعتبر الشقوق «أو الصدوع الأخرى» فى وجه الأرض الرقيق وسيلة من وسائل تهوية التربة وتجديد خصوبتها.

ويلقى علم الجيولوجيا الحديث بعض الضوء على أسرار القسم الإلهى بالأرض ذات الصدع، فيكتشف العلماء فى أواخر الستينيات من القرن العشرين أن الغلاف الصخرى للقشرة الأرضية ممزق بشبكة من الصدوع الطولية والعرضية الممتدة لمئات الآلاف من الكيلومترات،

تقسمه إلى ١٢ «اثنى عشر» لوحًا كبيرًا وعدد من الألواح أو الصفائح Plates الصغيرة، وأن تلك الصدوع تنتشر أكثر ما تنتشر في قيعان البحار والمحيطات، وأنها توجد أيضًا في القارات بنسبة أقل، ويزيد عمقها على ١٠٠ كيلومتر «وهو متوسط سمك الغلاف الصخرى للأرض».

وقد ثبت بالملاحظة المباشرة وغير المباشرة أن تلك الكتل الصخرية الضخمة، التي تعرف باسم «ألواح الغلاف الصخري»، تطفو فوق نطاق من الصخور شبه المنصهرة يسمى «نطاق الوهن (الضعف) الأرضي»، وتتميز مادته بكثافة أعلى من كثافة الألواح الكائنة فوقها، وبحالة واضحة من المرونة واللدونة تجعل الألواح تنزلق فوقها بسهولة ويسر نتيجة لدوران الأرض حول محورها أمام الشمس. ويصبح سطح الأرض في هذه الحالة بالنسبة للإنسان أشبه بالفراش المريح أو المهاد الممتد اللذين هيأهما الله - تعالى - لتسهيل الحياة، وامتن بهما على عباده في قوله تعالى:

﴿ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴾

(الذاريات: ٤٨)

كذلك أثبتت أبحاث العلماء أن مراكز كل من الهزات الزلزالية والفورانات البركانية تحتشد حول الصدوع الفاصلة بين ألواح الغلاف الصخرى للأرض، حيث يحدث اللقاء بين هذه الألواح «الصفائح» على امتداد حوافها أو أطرافها، أو يحدث التباعد عن بعضها البعض، أو يحدث أن يتحرك أحد الألواح بمحاذاة الآخر جنبًا إلى جنب بدون تقابل أو تباعد. وفي ضوء هذه الحركات يمكن الربط بين السلوك الداخلي للأرض وبين كل العمليات الأساسية التي تشاهد على سطحها وتغير منه بصورة مستمرة.

مثال ذلك ما أثبته العلماء عند خطوط التباعد بين ألواح القشرة الأرضية، حيث تتسع قيعان البحار والمحيطات، وتندفع الصهارة الأرضية من نطاق الوهن «الضعف» الأرضي لتملأ الحيز الناشئ عن تباعد تلك الألواح، مكونة شريحة من صخور بازلتية جديدة تضاف لقاع المحيط الذي يواصل عملية الاتساع، ثم تنشق هذه الشريحة البازلتية في منتصفها من جديد بفعل عملية التصدع المستمرة في قشرة الأرض، ويندفع نصفاها متباعدين عن بعضهما البعض ليمتلئ الحيز الناشئ بينهما بصهارة بازلتية جديدة، تيبس لتتصدع في وسطها من جديد، وتتكرر العملية بمعدلات بطيئة ولكنها تؤدى في النهاية إلى استمرار اتساع قيعان البحار والمحيطات لأقصى مدى ممكن، ثم تتوقف عملية الاتساع وتعود البحار والمحيطات إلى الانغلاق بعملية معاكسة حتى تتلاشى تمامًا من فوق سطح الكرة الأرضية. وكذلك تعمل صدوع الأرض على إثراء الغلاف الصخرى بمختلف العناصر والمركبات على هيئة العديد من المعادن والركازات التي تندفع من الحمم البركانية الصاعدة إلى سطح الأرض عبر تلك الصدوع التي لولاها ما استقامت حياة الأحياء.

فتبارك الحكيم العليم الذي خلق الأرض ذات الصدع وجعل من صدوعها مقومًا أساسيا من مقومات الحياة واستمرارها على سطحها.

﴿ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾

يقال: عمر الأرض: بنى عليها وأهلها.

واستعمره في المكان: جعله يعمره.

والعمارة: نقيض الخراب، وهي البنيان.

والعمران: ما يعمر به البلد ويحسن حاله بواسطة الفلاحة والصناعة والتجارة وكثرة الأهالي ونجح الأعمال والتمدن.

والإعمار: مرتبط بالعمران وترقية الحياة على الأرض. يقال: أعمر الأرض إعمارًا، أى أصلحها لتعميرها «الوسيط».

وقد وردت الصيغة الفعلية «استعمركم» في قوله تعالى:

﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾

(هود: ٦١)

أى طلب منكم إصلاحها، وبناءها، وتهيئتها للاستعمال، وزراعتها، واستنباط مائها، وباختصار: جعلكم عمارها وسكانها إلى أن يستكمل الله جل وعلا حكمته من خلقكم وخلقها.. ولهذا فإن الإنسان مطالب بمواصلة التنمية الشاملة المستدامة للحياة على الأرض، ومداومة الإصلاح والارتقاء الحضارى حتى تبلغ الأوج من كمال زخرفها وكمال زينتها وحسنها.

قال تعالى:

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ ﴾

(يونس: ٢٤)

ولعل معنى زخرف الأرض هنا هو حسنها وزينتها، وذلك على وجه التمثيل بالعروس إذا أخذت الثياب الفاخرة من كل لون فاكتست وتزينت بأنواع الحلي.

وإلى جانب كلمة ﴿ وَاسْتَعْمَرَكُمْ ﴾ التي وردت في آية هود، جاء في القرآن الكريم أربع كلمات من الثلاثي المجرد تدور حول نفس المعنى، وهو البناء والإصلاح، وتكون معها مجموعة دلالية واحدة، وهي:

- **عمر:**

﴿ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا ﴾

(الروم: ٩)

- **يعمر:**

﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾

(التوبة: ١٨)

- **معمور:**

﴿ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴾

(الطور: ٤-٥)

- **عمارة:**

﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾

(التوبة: ١٩)

وقد قرأت آية سورة التوبة (١٧) كذلك بضم حرف المضارعة «إِنَّمَا يُعْمِرُ»، فتكون من الفعل «أعمر» «مزيد الثلاثي بالهمزة» ومعناه: أعان على عمارة الشيء.

وفي اللسان: أعمر المنزل: جعله آهلا، وأعمره المكان: جعله يعمره.

وفريضة «الإعمار الحضارى» بهذا المعنى القرآني مرتبطة بأداء أمانة الاستخلاف التي حملها الله - تعالى - للإنسان بعد أن أعده وأهله لما أراده له من مكان كريم خليفة له في أرضه.

قال تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾

(البقرة: ٣٠)

وقال سبحانه:

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ ﴾

(الأنعام: ١٦٥)

«يتبع»

هل حقاً أغلق الإمام ابن الصلاح باب الاجتهاد في تصحيح الأحاديث وتضعيفها؟

د. يحيى رضا جاد

في بحثنا المنشور في مجلة الأزهر قبل شهور قليلة بعنوان «هل يجوز للمعاصرين الاجتهاد في الجرح والتعديل؟»، بينا بالحجة والدليل وجوب اجتهاد المعاصرين في الجرح والتعديل «ومن ثم: في التصحيح والتضعيف»، وناقشنا ما قيل، وما يمكن أن يقال، بخصوص ادعاء وجوب غلق هذا الباب «دون أن نذكر أسماء وأرباب اتجاه الغلق. فكما هو عهدنا دوما في نقاشاتنا العلمية، فالمهم عندنا مناقشة هذا الاتجاه وأدلته، لا شخوص من قال به».

وبعد هذا البحث المركز المشار إليه، يبقى التطرق إلى مسألة شهيرة، تتمة للموضوع، هي القول الشهير بسد الإمام ابن الصلاح لباب الاجتهاد في التصحيح والتضعيف والتجريح والتعديل في وجه المتأخرين «وهو قول مشهور تسبه إليه قطاع ضخم من علماء الحديث قديما وحديثا».. فهل قال بهذا ابن الصلاح حقا؟ وهل يمكن أن يفهم هذا من قوله؟ أم هو خطأ شاع عنه؟

● وعليه، نأتي «أولا» بنصوص ابن الصلاح في المسألة:

١- يقول ابن الصلاح (١):

والنوع الأول من أنواع علوم الحديث: معرفة الصحيح من الحديث «...» فوائد مهمة:

- إحداها: الصحيح يتنوع إلى متفق عليه ومختلف فيه «...» ثم إن درجات الصحيح تتفاوت في القوة.

- والثانية: إذا وجدنا فيما يروى «وفي نسخ أخرى: نروي» من أجزاء الحديث وغيرها حديثا صحيح الإسناد، ولم نجده في أحد الصحيحين، ولا منصوصا على صحته في شيء من مصنفات أئمة الحديث المعتمدة المشهورة، فإنا لا نتجاسر على جزم الحكم بصحته، فقد تعذر في هذه الأعصار الاستقلال بإدراك الصحيح بمجرد اعتبار الأسانيد، لأنه

١. وهذا هو النص اليتيم التي قام عليه هذا الرأي الشهير المذكور، وحتى دون أن يكلف أصحابه أنفسهم مراجعة بقية نصوص ابن الصلاح، ليفهم بعضها في ضوء بعض!

ما من إسناد من ذلك إلا وتجد من اعتمد في روايته على ما ذكر في كتابه، عريا عما يشترط في الصحيح من الحفظ والضبط والإتقان، فآل الأمر في معرفة الصحيح والحسن «أي من هذه الأجزاء المشار إليها وغيرها» إلى الاعتماد على ما نص عليه أئمة الحديث في تصانيفهم المعتمدة المشهورة التي يؤمن فيها -لشهرتها- من التغيير والتحريف، وصار معظم المقصود بما يتداول من الأسانيد خارجا عن ذلك، إبقاء لسلسلة الإسناد التي خصت بها هذه الأمة زادها الله شرفا»(٢).

٢- ويقول أيضا:

«أعرض الناس في هذه الأعصار المتأخرة عن اعتبار مجموع ما بينا من الشروط في رواة الحديث ومشايخه، فلم يتقيدوا بها في روايتهم، لتعذر الوفاء بذلك على نحو ما تقدم وكان عليه من تقدم.

ووجه ذلك ما قدمنا في أول كتابنا هذا {وهو ما ذكرناه في النص السابق}: من كون المقصود آل آخرا إلى المحافظة على خصيصة هذه الأمة في الأسانيد والمحاذرة من انقطاع سلسلتها، فليعتبر من الشروط المذكورة ما يليق بهذا الغرض على تجرده، وليكتفي:

- في أهلية الشيخ: بكونه مسلما بالغا عاقلا غير متظاهر بالفسق والسخف.

- وفي ضبطه: لوجود سماعه مثبتا بخط غير متهم.

- وبروايته: من أصل موافق لأصل شيخه.

وقد سبق إلى نحو ما ذكرناه الحافظ الفقيه أبوبكر البيهقي رحمه الله، فإنه ذكر -في ما روينا عنه- توسع من توسع في السماع من بعض محدثي زمانه الذين لا يحفظون حديثهم، ولا يحسنون قراءته من كتبهم، ولا يعرفون ما يقرأ عليهم بعد أن تكون القراءة عليهم من أصل سماعهم، ووجه ذلك بأن الأحاديث التي قد صحت أو وقفت بين الصحة والسقم قد دونت وكتبت في الجوامع التي جمعها أئمة الحديث، ولا يجوز أن يذهب شيء منها على جميعهم وإن جاز أن يذهب على بعضهم، لضمان صاحب الشريعة حفظها. قال {أي البيهقي}:

- فمن جاء اليوم بحديث لا يوجد عند جميعهم: لم يقبل منه.

- ومن جاء بحديث معروف عندهم: فالذي يرويه «أي الشخص الذي يرويه» لا ينفرد بروايته، والحجة قائمة بحديث برواية غيره، والقصد من روايته والسماع منه: أن يصير الحديث مسلسلا بحدثنا وأخبرنا، وتبقى هذه الكرامة التي خصت بها هذه الأمة شرفا لنبينا المصطفى ﷺ والله أعلم»(٣).

قلت «يحيى»: وهذا الذي ذكره ابن الصلاح «ت ٦٤٣هـ»، ونقل قول البيهقي «ت٤٥٨هـ» فيه أيضا، ذكره

٢. مقدمة ابن الصلاح، (ص ١٥،١٢، ١٨، ١٩) ط دار الكتب العلمية، بيروت.
٣. مقدمة ابن الصلاح، (ص٩٣ ـ ٩٤)

الخطيب البغدادى (ت٤٦٣هـ) كذلك، حيث قال:

وقد استفرغت طائفة من أهل زماننا وسعها فى كتب الأحاديث والمثابرة على جمعها: من غير أن يسلكوا مسلك المتقدمين وينظروا نظر السلف الماضين: فى حال الراوى والمروى، وتمييز سبيل المرذول والمرضى... ويقطعون أوقاتهم بالسير فى البلاد طلبا لما علا من الإسناد، لا يريدون شيئا سواه، ولا يبتغون إلا إياه، يحملون عمن لا تثبت عدالته، ويأخذون ممن لا تجوز أمانته، ويروون عمن لا يعرفون صحة حديثه، ولا يتيقن ثبوت مسموعه، ويحتجون بمن لا يحسن قراءة صحيفته، ولا يقوم بشىء من شرائط الرواية، ولا يفرق بين السماع والإجازة، ولا يميز بين المسند والمرسل والمقطوع والمتصل، ولا يحفظ اسم شيخه الذى حدثه حتى يستثبته من غيره.... ويرون ذلك جائزا، والعمل بروايته واجبًا، إذا كان السماع ثابتًا والإسناد متقدمًا عاليًا.... وذلك منه غاية الجهل، ونهاية التقصير عن مرتبة الفضل.... أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها، واختلفت عليهم الأسانيد فلم يضبطوها، فجانبوا ما استثقلوا، وعادوا ما جهلوا» (٤).

٣- ويقول ابن الصلاح أيضا:

«وهذه جملة تدرك تفاصيلها بالمباشرة والبحث.... وإذا انفرد الراوى بشىء: نظر فيه، فإن كان ما ينفرد به مخالفًا لما رواه من هو أولى منه بالحفظ لذلك وأضبط، كان ما انفرد به شاذًا مردودًا، فإن لم تكن فيه مخالفة لما رواه غيره وإنما هو أمر رواه هو ولم يروه غيره، لينظر فى هذا الراوى المنفرد: فإن كان عدلا حافظًا موثوقًا بإتقانه وضبطه قبل ما انفرد به.... فإذا ما كان المنفرد به غير بعيد من درجة الحافظ الضابط المقبول تفرده، استحسنا حديثه ذلك، ولم نحطه إلى قبيل الحديث الضعيف.... رددنا ما انفرد به.... معرفة علل الحديث من أجل علوم الحديث وأدقها وأشرفها، وإنما يضطلع بذلك أهل الحفظ والخبرة والفهم الثاقب، وهى عبارة عن أسباب خفية غامضة قادحة فيه، فالحديث المعلل هو الحديث الذى اطلع فيه على علة تقدح فى صحته مع أن ظاهره السلامة منها، ويتطرق ذلك إلى الإسناد الذى رجاله ثقات، الجامع شروط الصحة من حيث الظاهر، ويستعان على إدراكها بتفرد الراوى، وبمخالفة غيره له، مع قرائن تنضم إلى ذلك تنبه العارف بهذا الشأن على إرسال فى الموصول، أو وقف فى المرفوع، أو دخول حديث فى حديث، أو وهم واهم بغير ذلك، بحيث يغلب على ظنه ذلك فيحكم به، أو يتردد فيتوقف فيه، وكل ذلك مانع من الحكم بصحة ما وجد ذلك فيه» (٥).

● ثم نقوم «ثانيا» بتحليل هذه النصوص الصلاحية التى تنطق بذاتها، ودون حاجة حتى لتحليل منا لها يرد ما نسب - فى ظننا - خطأ إلى ابن الصلاح واشتهر عنه، فنقول:

- بالنسبة للنص الصلاحى الأول:

من البين الواضح أن ابن الصلاح:

أ- يقصد مصنفات خاصة: «أجزاء الحديث وغيرها»، وهى ما يسمى عند المحدثين المتأخرين بـ«الأجزاء» و«المشيخات» و«المعاجم»، وحال أسانيد أكثرها سيأتى بيانه توا.

فليس يقصد ابن الصلاح أحاديث أو رجال الكتب الستة أو التسعة أو غيرها من دواوين السنة الكبرى المشهورة المتقدمة.

ب- ويقصد زمنا محددا: «فى هذه الأعصار»، وكثير منها ذات أسانيد عالية يتعذر تصحيحها أو تحسينها بناء على ظواهر أحوال أسانيدها «لما سيأتى».

فليس يقصد ابن الصلاح زمان وعصر الرواية المتقدم، وإنما زمان المتأخرين وعصورهم.

ج- ويقصد كيفية معينة: «بمجرد اعتبار الأسانيد»، إذ الاشتغال بدراسة وتصحيح أو تثبيت هذه الأسانيد متعذر ممتنع، للأسباب التى فصلها ابن الصلاح والبيهقى والخطيب البغدادى فيما نقلنا نصوصهم فيه قبل قليل، وكلها أسباب تعود إلى مستجدات طرأت على المحدثين - تحملا وأداء - بعد تدوين دواوين السنة الكبرى وانقضاء عصر الرواية، أى مستجدات تمنع من الاطلاع على علل هذه الروايات والرواة، لعدم الاهتمام بهذا الجانب، ولا تحريه من قبل رجال هذه الأعصار، فى مقابل شهوة الرواية لمجرد الرواية. ولهذا «إذا وجد إنسان فى جزء من الأجزاء حديثا بسند واحد ظاهره الصحة، لاتصاله وثقة رجاله (ظاهريا) لم يمكن الحكم بالصحة لذاته، لاحتمال أن يكون له علة خفية لم يطلع عليها، لتعذر العلم بالعلل فى هذه الأزمان» (٦).

فليس يقصد ابن الصلاح دراسة أسانيد ومتون عصر الرواية المتقدم، وإنما أسانيد ومتون ما دون بعد عصر الرواية، حيث لا يتحقق «الحفظ والضبط والإتقان» ومن ثم يكثر، ولا يؤمن، «التغيير والتحريف».

فليس كلام ابن الصلاح مطلقا إذًا، أى ليس عامًا على مطلق الظروف والأعصار والكتب والرواة، وإنما هو خاص بظرف وعصر معين، وكتب معينة، ورواة معينين وأما خلاف هذه المعينات من كتب ومحدثى عصر الرواية وتدوين كتب السنة الكبرى والجامعة، فقد خضع لفحص وضوابط كثيرة، تمكننا من التعامل معها ودراسة أسانيدها ومتونها وأحوال رجالها تحملًا وأداء.. إلخ، بخلاف أسانيد المتأخرين ورواياتهم وكتبهم تلك، فإنها لا تخلو

٤. الكفاية فى علم الرواية، الخطيب البغدادى، (ص١٨ ـ ١٩) ط ١٩٨٥م، دار الكتاب العربى ـ بيروت.
٥. مقدمة ابن الصلاح، (ص٣٥، ٦٣، ٧١).
٦. التنقيح لمسألة التصحيح، جلال الدين السيوطى، مخطوط فى المكتبة الظاهرية بدمشق، مجموع رقم (٥٨٩٦/عام) نقلا عن: منهج النقد فى علوم الحديث، د. نور الدين عتر، (ص ٢٨٢، ٢٨٣) ط ٢، ١٩٧٩م، دار الفكر ـ دمشق.

من قوادح (بل هي أقرب للأباطيل والموضوعات، أو بالأقل: الشواذ والغرائب والمنكرات)، نتيجة تساهلهم (في) تطبيق قواعد الجرح والتعديل على هؤلاء الرواة (وفي) مدى توافر شروط تحمل الحديث وأدائه فيهم(٧).

فليس المقصود بهذه الأسانيد النازلة - أو حتى العالية منها - ومتونها المذكورة في تلك الكتب (كتب الأجزاء والمشيخات والمعاجم) إثبات الحديث المروى أو تصحيحه، وإنما إبقاء سلسلة الإسناد والرواية لا غير(٨).

د - ويقصد الورع والاحتياط لا التحريم والمنع وغلق الباب تهائيا: «فإنا لا تتجاسر على جزم الحكم بصحته».

- وبالنسبة للنص الصلاحي الثاني:

فهو نص صريح من ابن الصلاح يستبين به - لكل مرتاب متلجلج أو متشكك متردد - مقصد ابن الصلاح من النص الأول. مما يعزز رأينا ورؤيتنا وتحليلنا الذي أبديناه.

- بالنسبة للنص الثالث:

فهو مجموعة نصوص أخرى صريحة لابن الصلاح، يشير فيها صراحة إلى إمكانية تصحيح وتضعيف الأحاديث وتعديل وتجريح الرواة، من طرف العلماء المتأخرين، فليس باب الاجتهاد في التصحيح والتضعيف، أوفي الجرح والتعديل، مغلقا في وجوههم كما أشيع عن ابن الصلاح!(٩).

وبهذه «المعالجة المنهجية» غير المسبوقة (فيما نعلم): حاولنا أن نصحح خطأ انتشر وشاع وعم، وأن نبدد وهما غيم على كثير من الآفاق.

والله تعالى أعلى وأعلم

***

٧. وإذا أضفت إلى هذا وذاك أن هذه الأحاديث - طرقا و/أو متونا - التي تأخرت روايتها كل هذه القرون، لو كانت ثابتة عن رجال إسنادها المتقدمين، لبادر إلى روايتها حفاظ ذلك العصر والوقت وأصحاب هؤلاء المتقدمين (أي لتمت رواية هذه الأحاديث منذ زمن) ولأخرجها أصحاب الحديث في كتبهم. ولكن لما لم يحدث شيء من ذلك كان - على أقل تقدير - قرينة - في غاية القوة - على وهم من رواه عن هؤلاء المتقدمين. وأنها طرق أو متون لا أصول لها إلا في خيال من رواها.

أقول: إذا أضفت هذا إلى ما سبق تبين لك صحة ما ذكره ابن الصلاح والبيهقي والخطيب البغدادي والسيوطي وغيرهم.

٨. ولا يخفى أن هذا أحد أعراض «مرض الشكلانية» الذي يضرب بأطنابه في كثير من جنبات تراثنا ومناهجنا وحركتنا في الفكر والحياة.

٩. ويمكن بالإضافة إلى ما سبق، أن يتتبع المرء ما أصدره ابن الصلاح من أحكام على الأحاديث، تصحيحا وتضعيفا (سواء في فتاويه، أو فيما نقله عنه ابن الملقن في البدر المنير في جزأيه الثاني والثالث خاصة أو في غير ذلك). إذ بهذا التتبع سيتضح للمرء أن ابن الصلاح قد مارس بنفسه ما ادعى أنه لا يجوز ممارسته (أي إنه قد مارس التصحيح والتضعيف الذي نسب الكثيرون إليه - خطأ - أنه لا يجيزه من المتأخرين الذين هو واحد منهم)

فتاوى لها تاريخ

زيارة المسلم لغير المسلمين (١)



للشيخ العلامة / رشيد رضا

ح. ح في الجبل الأسود: معلوم عند جنابكم أننا تحت تصرف حكومة نصرانية، وأن النصارى يزوروننا يوم عيدنا للتهنئة بالعيد ويطلبون منا مثل هذه الزيارة في أعيادهم. فهل نحن معذورون إذا زرناهم أم لا؟

ج - ثبت في الحديث الصحيح عند أحمد والبخاري وغيرهما أن النبي ﷺ عاد غلامًا يهوديًا كان يخدمه قبل مرضه وقد استكبر الغلام وأبوه الفقير هذه العناية ودعا النبي الغلام إلى الإسلام فقال له أبوه: أطع أبا القاسم. فأسلم والحديث يدل على مشروعية الابتداء بالزيارة.

قال الماوردي: عيادة الذمي جائزة. والقربة موقوفة على نوع حرمة تقترن بها من جوار أو قرابة: أي إن العيادة في المرض ومثلها الزيارة جائزة، ولكنها لا تكون عبادة يتقرب بها إلى الله إلا إذا اقترن بها شيء مما هو مطلوب في الشرع كحرمة الجوار والقرابة، وحسبك أن تكون الزيارة في العيد وغيره مباحة. على أن القواعد الإسلامية ترشدنا إلى أن حسن النية في الأعمال المباحة تلحقها بالعبادات.

هذا وأنت تعرف الفرق بين الذمي الداخل في حكمنا وبين من نحن داخلون في حكمهم. فإذا صح لنا أن نجامل من نحكمهم عملاً بمكارم الأخلاق التي هي أساس ديننا أفلا يصح لنا أن نجامل من يحكموننا من غيرنا ونحن أحوج إلى مجاملتهم لأجل مصالحنا، كما إننا نرى أنفسنا أحق منهم بمكارم الأخلاق؟

وكأني بمتعصب يقول: قال ابن بطال «إنما تشرع عيادة المشرك إذا رجي أن يجيب إلى الإسلام». وأقول أولاً: أن كلامه في العيادة المشروعة أي المطلوبة شرعًا ونحن نتكلم في العادات المباحة. وثانيًا إن الحديث السابق لا يدل على الاشتراط. وقد أورد الحافظ ابن حجر كلامه في شرح البخاري ثم قال: «والذي يظهر أن ذلك يختلف باختلاف المقاصد، فقد يقع بعيادته مصلحة أخرى». وظاهر أن مصالح أهل الوطن الواحد مرتبطة بمجاسنة أهله بعضهم بعضًا، وأن الذي يسيء معاملة الناس يمقته الناس فتفوته جميع المصالح، لاسيما إذا كان ضعيفًا وهم أقوياء. وإذا أسند سوء المعاملة إلى الدين يكون ذلك أكبر مطعن في الدين. فلك أيها السائل ولغيرك من المسلمين أن تزوروا النصارى في أعيادهم وتعاملوهم بمكارم الأخلاق أحسن مما يعاملونكم، ولا تعدوا هذا من باب الضرورة فإنه مطلوب لذاته، مع حسن النية واتقاء مشاركتهم في المحرمات كشرب الخمر مثلاً والله أعلم وأحكم.

(١) المنار ج ٦ (١٩٠٣-١٩٠٤) ص ٦٢.

(٢) المنار ج ٧ (١٩٠٤-١٩٠٥) ص ٧٢.

﴿ فَسْئَلُوٓا أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

استفتاءات القراء

(الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبى بعده سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين)

اطلعنا على الطلب المقدم من/ مجلة الأزهر - المتضمن لبعض الأسئلة وهى:

حقوق المطلقة

● ما هى حقوق المطلقة قبل الدخول؟

●● الجواب: قال الله تعالى:

﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوٓا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُا ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

(البقرة: ٢٣٧).

ولذلك فالمطلقة قبل الدخول يتنصف لها مهرها: مقدمه ومؤخره، ومن المقدم الواجب تنصيفه الشبكة؛ لأنها جزء من المهر؛ حيث جرى العرف على أن الناس يتفقون عليها فى الزواج، وهذا يخرجها عن دائرة الهدايا ويلحقها بالمهر، وقد جرى اعتبار العرف فى التشريع الإسلامي؛ لقوله تعالى:

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ ﴾

(الأعراف: ١٩٩).

وقد جاء فى الأثر على ابن مسعود -رضى الله تعالى عنه-: «ما رأى المسلمون حسنًا فهو عند الله حسن، وما رأوه سيئا فهو عند الله سيئ»، أخرجه أحمد والطيالسى فى مسنديهما.

وكذلك تتنصف قائمتها وعفشها الذى أحضره الزوج إن كان أحضر ذلك على أنه من المهر، أما ما أحضرته هى فهو خالص مالها وحقها، فتأخذه كاملًا موفورًا.

وعليه فإن للمطلقة كامل ما اشترته هى أو أهلها، وعلى المطلق لها نصف مؤخرها، ونصف الشبكة، ونصف القائمة إن كان متفقًا على أنها من المهر.

هذا إذا لم يكن الزوجان قد تراضيا على خلاف ذلك، فإن فعلا ذلك فلا مانع شرعًا من إنفاذ ما تراضيا عليه، إلا أنه يحرم على الزوج شرعًا أن يعضل المرأة -أى يسيء معاملتها أو يتركها معلقة- حتى يجبرها على التنازل عن حقوقها.

والله سبحانه وتعالى أعلم

مال الزكاة

● هل يجوز صرف مال الزكاة فى مشروع خيرى ذى نفع عام وهو عبارة عن مستوصف خيرى ومسجد ومعهد لتحفيظ القرآن وإعداد الدعاة؟

●● الجواب: الأصل أن الزكاة لا تكون إلا للأصناف الثمانية الذين نص الله تعالى عليهم فى كتابه الكريم بقوله سبحانه:

﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

(التوبة: ٦٠).

أى إنها لبناء الإنسان قبل البنيان؛ واشترط العلماء فيها التمليك إلا حيث يعسر ذلك، كما فى مصرف ﴿ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾، وكلمة ﴿ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ تشمل القيام بشئون الدعوة من تبليغ الدين للمسلمين ولغير المسلمين، فهذه هى حقيقة الجهاد، سواء أكان ذلك بالسنان أم باللسان؛ فالدعوة باللسان هى الأصل فى العلاقة بين المسلمين وغيرهم تفاهمًا وحوارًا بين الناس كما قال تعالى:

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾

(النحل: ١٢٥).

والسنان يكون فى وقت الصدام المسلح لدفع العدوان أو رفع الطغيان كما أمرنا ربنا فى قوله تعالى:

﴿ وَقَٰتِلُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا ﴾

(البقرة: ١٩٠).

وكلاهما يجوز دفع الزكاة للقيام به؛ لدخوله تحت مفهوم الجهاد فى سبيل الله.

فالجهاد غير مقصور على حالة الحرب، بل إنه مفهوم روحى يتعلق بعلاقة الإنسان بربه؛ قال تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

(العنكبوت: ٦٩).

وقال تعالى:

يجيب عنها فضيلة الأستاذ الدكتور

شوقى علام

مفتى جمهورية مصر العربية



﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾

(الحج: ٧٧، ٧٨).

وأخرج البيهقى فى «الزهد الكبير»، والخطيب فى «تاريخ بغداد» عن جابر رضى الله عنه قال: قدم النبى ﷺ من غزاة له. فقال لهم رسول الله ﷺ: «قدمتم خير مقدم، وقدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر». قالوا: وما الجهاد الأكبر يارسول الله؟ قال: «مجاهدة العبد هواه».

وبناء على ذلك فإنه يجوز صرف الزكاة لدور تحفيظ القرآن والمؤسسات التعليمية وكل ما من شأنه نشر العلم النافع والدعوة إلى الله تعالى.

وأما ما يتعلق بإنشاء المستوصف الخيرى والمسجد فلا يكون من الزكاة؛ فإن الأصل فى الزكاة - كما سبق بيانه - أنها لبناء الإنسان قبل البنيان، ولذلك اشترط العلماء أن يتم تمليكها لمستحقيها؛ فكفاية الفقراء والمحتاجين من الملبس والمأكل والمسكن والمعيشة والتعليم والعلاج، وسائر أمور حياتهم هى التى يجب أن تكون محط الاهتمام فى المقام الأول؛ تحقيقًا لحكمة الزكاة الأساسية التى أشار إليها النبى ﷺ بقوله: «تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم».

والذى تنصح به دار الإفتاء المصرية الناس فى هذا الصدد أن يبادروا إلى التبرع لبناء وتطوير المستشفيات والمستوصفات فى مجتمعاتهم وأن لا يقتصر هذا على زكواتهم، وأن ينشأ لذلك صناديق ثلاثة:

- **الصندوق الأول:** يكون للوقف، فيوقف فيه الناس أموالهم ويجعلون ريعها وثمرتها لصالح هذه المستشفى أو المستوصف وعلاج المترددين عليها أبد الدهر.
- **والصندوق الثانى:** يكون للصدقات، ويتصدق منه على البناء والتأسيس والصيانة وإظهار هذا المبنى بصورة لائقة بالمسلمين إنشائيًا ومعماريًا وفنيًا.
- **والصندوق الثالث:** يكون للزكاة؛ يصرف منه على الآلات وعلى الأدوية وعلى مصاريف العلاج والإقامة والأكل والشرب المتعلقة بالمرضى؛ سواء أكان ذلك بصورة مباشرة أم غير مباشرة؛ كمرتبات الموظفين وأجور الأطباء ومصاريف العمليات الجراحية والأشعات ونحو ذلك.

وبناءً على ذلك وفى واقعة السؤال: فإنه يجوز صرف الزكاة لدور تحفيظ القرآن والمؤسسات التعليمية وكل ما من شأنه نشر العلم النافع والدعوة إلى الله تعالى، وأما ما يتعلق ببناء المستوصف الخيرى والمسجد فلا يكون من الزكاة.

والله سبحانه وتعالى أعلم

صلح الحُديبية (١)



لفضيلة الشيخ/ الطاهر الحامدى

تجليات ربانية وإلهامات محمدية

لا يمكن لأى دارس للتاريخ أن يفهم وقائع وأحداث «صُلح الحُدَيبية» - فهمًا صحيحًا - دَوافعه وأسبابه نتائجه ونهاياته. لا يمكن أن يُفْهَم الحدث الجليل (صلح الحديبية) إلا فى ضوء العنوان سالف الذكر. إشراقاته وفيوضاته. وقد تصل إلى بعض الأسباب والنتائج بإعمال قواعد الدراسة التاريخية فى ضوء الوثائق والمرويّات. لكنّكَ لنْ يهدأ عقلُكَ ويستريح قلبُك لكلِ ما يُروى أو لبعضه إلا فى ضوء الإلهام الربّانى والنور المحمدى إذ كيفَ يقبلُ الدارس أنْ يُمنعَ مُعْتَمِرٌ مُسالم عن البيت راضيًا وهو غير مُعْتَد ولا مُحارب وهو بهذا يرضى بشروط صلح مُجْحِفة حتى إنّ سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يرى أنّ هذا تنازلًا. بل دنية مجحفة لا يمكن أن يقبلها. ثم يذهب إلى سيدنا أبى بكر يصرخ قائلًا: ألسنا على الحق يا أبا بكر إن متنا أو حيينا؟ قال أبو بكر: بلى فقال عمر: فعلام نرضى الدّنيّة فى ديننا؟ قال: يا عمر الزمْ غرْزَكَ إنّهُ رسولُ الله ولن يُضَيِّعَهُ.

فاستشاط عمر غضبًا ثم ذهب إلى رسول الله ﷺ. فقال: يا سول الله ألسنا على الحق إن متنا أو حيينا؟ قال رسول الله ﷺ: بلى. فقال عمر: فعلام نرضى الدنية فى ديننا؟ فقال له رسول الله ﷺ: يا عمر أنا رسول الله ﷺ ولن يُضَيِّعَنى.

إذا أضفت لهذا أنّ صحيفة المصالحة كانت أشدّ إجحافًا وغطرسةً. ويرفُضُ أصحابُ النبىّ صلى الله عليه وسلم صورًا مُهينةً مُجحفةً والعجيب أنّ النبى ﷺ يقبلُ صورًا وعبارات فيها غطرسة وغرور يرفضها كاتب الصحيفة إلا أنّ النبى ﷺ يقول له اكتب. فمثلًا تبدأ الصحيفة بقول النبى ﷺ: هذا ما عاهد عليه رسول الله. فقال سهيل بن عمرو: لو نعلم أنك رسول الله ﷺ ما حاربناك. فقال رسول الله ﷺ: لعلى بن أبى طالب - كرّمَ الله وجههَ - كاتب الصحيفة: امحُ واكتب «هذا ما عاهدَ عليه محمد بن عبد الله» فكان على بن أبى طالب يأبى ويرفض فقال له ﷺ: «ستُسامُ مثلها وتقبل» فامتثل علىّ وكتب ما أمر به

صلح الحديبية (١)

رسول الله ﷺ وليس غريبًا أن يُسامَ عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه في خلافته بعد انتقال النبي - ﷺ - وهو رابع الخلفاء لمّا كان في معاهدة مع من نازعوه الخلافة وكان في صلح بينه وبينهم فكتب «هذا ما عاهد عليه أمير المؤمنين» فقالوا له لو تعلم أنك أمير المؤمنين ما قاتلناك. فمحاها بيده وتذكّر قول الرسول ﷺ ((ستسام مثلها وتقبل)) - إن أي مؤرخ يمكن أن يرى بصيصًا من أملٍ أو خير يرجى من هذه الاتّفاقية والعجيب أنه يعد هذا الاستسلام الظاهري، والذي لا يمكنُ أن تؤدّي هذه المقدمات إلى نصر مُؤمّل أو نجاة تحقن الدماء بل إنك لو تأملتَ عنوان المقال (تجلّيات ربانية وإلهامات مُحمّدية) لعرفْتَ ولأيقنت أن مسبب الأسباب سبحانه وتعالى هو الذي يصيّرُ الأمور ومما زادَ الأمرَ صُعُوبةً على كثير ممن في الجيش أنّ رسول الله ﷺ أرى في منامه أنه طاف بالبيت وتسامعَ الصحابة - رضوان الله عليهم - بالرؤيا وهم يعلمون أن رؤيا الأنبياء حق فذهبوا قاصدين البيتَ ولمّا مُنعوا استاء الصحابة. كيف أن الرسول ﷺ يرى رؤيا لا تتحقق ويُردّونَ عن البيت بعد أن أحرموا وساقوا الهدى وممّا زادَ الطينَ بلّة والأمرَ سوءًا أنهم عادوا باتفاقية مجحفة في شروطها حتى إنهم هرعوا إلى سيدنا أبي بكر يسألونه مستنكرين رجوعَهم دون أن يدخلوا مكة ويطوفوا بالبيت ويَصِلوا إلى البيت ويُتمّوا عُمرتهم كيف ذلك مع رؤيا رسول الله ﷺ فيجيبهم أبو بكر إجابة الواثق العالم البصير بقوله. هل أخبرَكُم أنه سيدخل البيت هذا العام؟ أم أنه قال ستدخلنّ المسجد الحرام ولم يقل هذا العام؟ فاطمئنت قلوبُهم بعض الشيء لكنّ القلقَ والتبرّم لم يزايلا عقولَهم وقلوبَهم. أيُّها القارىء الكريم لماذا تستبقُ الأحداث؟ وتحكي عن المعاهدة وشروطِها وكتابة الصحيفة وما جرى فيها؟ لماذا لا تأتي الأمرَ من أوّله وتلجُ الدارَ من بابها؟ - أراد النبيُّ ﷺ أنْ يطوف بالبيت ويذهب إلى مكة مُعتمرًا. خرج ﷺ مُحرمًا. واستنفرَ من حوله من الأعراب وكذلك الأنصار والمهاجرين ولم يكن إحرامه ﷺ في تصوُّرنا إلا أنّه يُعْلِمُ الناسَ جميعًا أنّه خرج قاصدًا البيت ولم يخرج محاربًا. لكن ما معنى توقيت خروجه ﷺ؟ إن خروجه ﷺ كان بعدَ إجلاء بني النضير ونصره على بني قريظة وكذلك نصره المؤزّر في موقعة الأحزاب على قريش ومن حالفها. فأحسَبُ أنّ خروجَه كان شكرًا لله على هذا النصر. ألا ترى أننا مندوبون إلى شكر الله بعدَ قضاء أيّ حاجة لنا بالسجود له سبحانه على التوفيق ولذلك نُدبتْ سجدة الشكر وفي بعض المذاهب الأخرى - ركعتي شكر - فإننا نشكر الله سبحانه وتعالى على توفيقه لعمل الطاعات فكذلك فيما أرى أن النبي - ﷺ - ذهب قاصدًا البيت معتمرًا شكرًا لله على ما أفاء عليه من نصر. يروى أن النبي ﷺ دخل بيته وخرج لابسًا ثوبين وخرج راكبًا راحلته القصواء من عند بابه وخرج بأم سلمة وأم عمار وأم منيع وأم عامر الأشهلية وخرج بمن معه من المهاجرين والأنصار لا يشُكّون في دخول مكة لرؤيا رسول الله ﷺ وخرجوا ليس معهم سلاح. حتى نزلَ ذا الحُليفة. فصلى الظهرَ ثم دعى بالإبل ثم أشعَرَ (ميّز) منها عدة وَهُنّ متوجهات إلى القبلة ثم أمرَ ناجية بن جُندُب فأشعَرَ ما بقي ثم صلى رسول الله ﷺ ركعتين وركبَ راحلته من باب المسجد فلمّا استقبلَ القبلة أحرمَ بالعمرة. ليأمن الناسُ حربَه وليعلمَ الناس أنه خرج زائرًا البيت ومُعظمًا له ولبّى ﷺ ولفظُ تلبيته ((لبيك اللهم لبيك. لبيك لا شريك لك لبيك. إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك)) وأحرمَ كثيرٌ من أصحابه تبعًا لإحرامه وبعضهم لم يحرم إلا من الجُحفة ومرّ وهو في طريقه بقبائل من الأعراب فتشاغلوا عنه ﷺ. ويروى أنهم قالوا فيما بينهم يريد محمدٌ أن يغزو بنا قومًا مستعدين في السلاح والكراع ثم قالوا كأنهم ساخرين «وأصحابُ محمد أكلةُ جزور» يعني أنهم لا يفلحون إلا في الطعام - إنهم لنْ يرجعوا من سفرهم هذا. ويروى أنه لقيَ جماعة من الأعراب فعرض عليهم الإسلام فأبوا. وأهدوا إليه لبنًا فقال ﷺ (لا نقبل هدية مشرك) فابتاعه المسلمون منهم كما ابتاعوا منهم لحم ضب فسأل المُحرمون رسول الله ﷺ عنه فقال: حلال. تأكلونه إلا ما صدتُم أو صِيد لكم - يعني أن المُحرم لا يجوز له أن يصطاد ولا يأكل لحم صيد ولا لحم شيء صيد له إنما إذا صيد لغيره يأكله ولا شيء فيه - ويروى أن ناجية بن جندب عطب له بعير فجاء الى رسول الله ﷺ فقال: انحرْهُ ولا تأكل منه أنت ولا أحد من أهل رفقتك وخل بين الناس وبينه. وفي حادثة طريفة وقعت في الطريق وهم في سيرهم إلى مكة عن أبي قتادة رضي الله عنه يقول: كنت يومًا جالسًا مع رجال من أصحاب النبي ﷺ والقوم مُحرمون وأنا غير مُحرم عام الحُديبية فأبصروا حمارًا وحشيًا وأنا مشغول اخصف نعلي فلم يأتوني وأحبوا لو أني أبصرتُه فنظرتُ فإذا حمار وحشي فقمت إلى فرسي فأسرجتُه ثم ركبتُ وتسيت السوط والرمح فقلت لهم ناولوني السوط والرمح فقالوا والله لا نعينك عليه. فغضبتُ فنزلتُ فأخذتُهما ثم ركبتُ فشددتُ على الحمار فعقرتُه ثم جئتُ به فوقعوا فيه يأكلون ثم إنهم شكّوا في أكلهم إياه وهم حُرُم. فرحنا إلى رسول الله فسألناه عن ذلك فقال لهم هل منكم أحدٌ أمرَهُ أن يحمل عليه أو أشار إليه؟ قالوا: لا. فقال: كلوا. إنّما هي طُعْمَةٌ اطعمكموها الله. هو حلال. هل معكم منه شيء؟. يقول أبو قتادة: فناولته العضد فأكله وهو مُحرم. والذي نتعلمه من الفقه من هذه القصة وما قبلها أنّ المُحرم لا يجوزُ لَهُ أن يصيدَ من الحيوانات البريّة وهو مُحرم ولا يجوزُ أنْ يُحرّضَ أو يُعينَ ولو بالإشارة أحدًا على الصيد. نفْهَمُ هذا من قصة أبي قتادة حيث أنّه كان مشغولًا ولَمْ يرَ الحمار الوحشيّ ولَمْ يطلبوا منه أن يقومَ بالصيد لهم لكنّهم تصايحوا فلفت انتباهه هذا الصياح فرأى هو الحمار الوحشيّ فهبّ إليه وأسرجَ فرَسَهُ وركبَهُ. لكنّه نسي سوطه ورمحَه وهما أدوات تُعينه على الصيد فطلب منهم أن يناولوه السوط والرمح فأبوا أن يعينوه لأنهم لا يجوز لهم أن يصطادوا أو يُعينوا أحدًا على الصيد. وغضبَ هو لذلك لكنّه ترجّل وأخذ سوطه ورمحه واصطاد وهم لمْ يصطادوا ولمْ يُعينوا على الصيد ولو بالإشارة أو مناولة أدوات الصيد ولذلك جاز لهم أن يأكلوا من الصيد لكنّهم بعد أن أكلوا شكّوا في أكلهم. فراحوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه فقال لهم رسول الله ﷺ: «هل منكم أحدٌ أمرَهُ أن يحمل على الحمار الوحشيّ أو أشار إليه؟ قالوا لا. فقال لهم كلوا».

والله أعلم.

وإلى لقاء آخر إن شاء الله.

تجديد فقه المياه: من التراث إلى الواقع



أ.د. إبراهيم البيومي غانم
المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية

فاتحة

أملي أن تفتح مقالتي هذه باب الاجتهاد والتجديد في فقه المياه، وأن تساعد في فتح قنوات هذا الفقه لتجري فيه مياه جديدة تسهم في حل مشكلات الواقع وتعقيداته، وتضيف اجتهادات مبتكرة إلى أصالة «فقه المياه» الموروث بعراقته. نحن في حاجة لا يختلف عليها اثنان إلى أن يتجدد النظر الفقهي في مستجدات مشكلات المياه وقضاياها العويصة التي باتت تأثيراتها السلبية تضرب قطاعات واسعة من أبناء المجتمع، فضلا عن أنها باتت تهدد حياتهم، وتنذر بنشوب حروب طاحنة حول مصادر المياه. وفي نظري أنه لم يعد مقبولا ولا معقولا أن لا تهتم المجامع الفقهية بقضايا الصراعات حول مياه الأنهار ومنها مثلا سرقة العدو الصهيوني للمياه العربية وحرمان أصحابها منها. ليس مقبولا ولا معقولا ألا تلقي تلك المجامع بالاً لمشروعات تصنيع المياه «الصحية» وبيعها بواسطة شركات أجنبية ودولية عملاقة تحقق أرباحا طائلة من بيع المياه التي تستخرجها من تحت أقدامنا!، ناهيك عن أن هذا نشاط بات يؤثر بضراوة على الحق الأصيل لكل الناس في الحصول على المياه الصالحة للاستخدام الآدمي على قدم المساواة، وليس مقبولا ولا معقولاً أن تتغافل تلك المجامع عن الأضرار البيئية التي يسببها تلوث المياه حينًا، وموجات الجفاف أو التصحر التي تصيب مناطق بأكملها وتقضي على مظاهر الحياة فيها أحيانًا. وليس مقبولًا ولا معقولًا أيضا أن يديم فقهاؤنا المعاصرون الصمت. ومجامعهم كذلك تصمت، عن سوء توزيع المياه بين قطاعات الاقتصاد الوطني: القطاع الزراعي، والقطاع الصناعي، وقطاع الخدمات والسياحة.. إلخ. آن الأوان أن يمتد فقه المياه إلى خارج «حوض العبادات»، وأن يغطي تلك القضايا التي تمثل مصالح كبرى للبشر فمدار أحكام الشريعة على تحقيق مصالح الخلق مادية كانت أو معنوية، دنيوية وأخروية.

إن الماء من أعظم النعم التي أسبغها الله سبحانه وتعالى على خلقه، ومنّ

بها عليهم من فضله وقد احتفت جميع الأديان السماوية بالماء، حتى رفعته إلى درجة القداسة في بعض الأزمنة، وفي بعض الأمكنة، ولبعض الاستخدامات وتتفق كل الديانات السماوية كذلك على أن الحياة بكل نواعها: البشرية، والحيوانية، والنباتية خرجت من الماء، وتؤكد على أنه أصل من أصول عمران الأرض. وتحفل مصادر تراثنا الفقهي بكثير التوجيهات والمبادئ والقواعد التي تدعو إلى حسن التعامل مع الماء باعتباره نعمة إلهية، وتحض على تقديرها حق قدرها، وتحذر من تعريضها للفساد، أو للهدر، أو للتلوث. وتبشر هذه التوجيهات والأحكام أيضا الذين يحسنون استخدام الماء بالحياة الطيبة في الدنيا، وبالثواب الجزيل والأجر العظيم يوم الحساب، وتتوعد الذين يسيئون استخدامه بالعقاب وسوء المصير، إذ إن العدوان على الماء هو عدوان على الحياة ذاتها، والعدوان على الحياة أمر غير مشروع، ويدخل في عداد الجرائم والآثام.

في القرآن الكريم ورد الكلام عن الماء ومعانيه وأنواعه وأوعيته ومجاريه واستخداماته المتعددة في خمسمائة آية، فمثلًا، وردت كلمة «ماء» وردت ثلاثا وستين مرة، وكلمة «نهر» و«أنهار» وردتا اثنتين وخمسين مرة، وكذلك وردت كلمات مثل «العيون» و«الينابيع» و«المطر» و«البرد» و«الغيوم» و«الرياح» عشرات المرات في القرآن الكريم، إلى جانب مئات الأحاديث النبوية الشريفة التي اشتملت على توجيهات قيمة في كيفية التعامل مع المياه والمحافظة عليها وترشيد استخدامها والإفادة منها.

ولعل أوضح الدلائل على القيمة الكبيرة للماء في الإسلام أن الله تعالى ذكر في كتابه الكريم أن الماء من نعيم الجنة، وأن الحرمان منه نوع من العذاب، قال تعالى:

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾

(الأعراف: ٥٠)

وكل ما نزل من ماء من السماء فهو ماء مبارك قال تعالى:

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾

(ق: ٩)

وهو أصل كل حياة تدب على الأرض، وهو مدعاة للتفكير والتأمل في كيفية الاستفادة مما ينبته من مزروعات وثمار مختلفة المذاق والشكل والرائحة، قال تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾

(النحل: ١٠-١١).

ومن أعظم ما قررته الشريعة الإسلامية أنها جعلت ملكية الماء عامة، وكذلك حقوق الانتفاع به لكل الناس دون تمييز

بينهم. وحرمت الشريعة أيضا احتكار الماء، ونهت عن إفساده، ومنعت بيعه، وذلك عملًا بقول الرسول ﷺ: «الناس شركاء فى ثلاث: الماء، والكلأ، والنار» وعملًا بهذا الهدى النبوى صنف الفقهاء «مرفق المياه» ضمن المرافق العامة التى يجب أن تنهض بها الدولة من حيث حمايتها وتوفيرها وتنقيتها وتوزيعها توزيعًا عادلًا، على أن يشاركها فى القيام بهذه المهمات أبناء المجتمع، وبخاصة الموسرين منهم، إما بدعم الميزانية المخصصة لهذا المرفق، أو بالمشاركة مباشرة فى توفير الماء وفق نظام «الأسبلة»، أو «الصهاريج»، أو «القنوات»، أو «الآبار» الموقوفة لوجه الله تعالى لتيسير الحصول عليه للذين يحتاجونه حيثما كانوا.

وتحفل مصادر الفقه الإسلامى مرة أخرى بكثير من التفاصيل المتعلقة بتنظيم المياه، وتطهيرها والتطهر بها، وترتيب إجراءات سقى النبات، والحيوان، والطير، ناهيك عن الإنسان وأصول المشاركة فى منابع المياه، وكيفية حل المنازعات التى قد تنشأ بسبب الخلاف حول أحقية استعمال تلك المصادر.

انظر مثلا الكتاب الذى عنونه البخارى فى صحيحه (الجزء الثانى) باسم «كتاب الشرب والمساقاة باب فى الشرب وقول الله تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾

وقوله جل ذكره:

﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٧٠)﴾

قال: الأجاج المر. المزن: السحاب باب فى الشرب ومن رأى صدقة الماء وهبته ووصيته جائزة مقسوما كان أو غير مقسوم وقال عثمان قال النبى ﷺ من يشترى بئر رومة فيكون دلوه فيها كدلاء المسلمين فاشتراها عثمان رضى الله عنه ثم يورد أحاديث الماء وأفعال الرسول وتصرفات الصحابة فى هذا الموضوع الحيوى.

وانظر مثلا ثانيا «كتاب الشرب فى الجزء السادس من «بدائع الصنائع للكاساني» حيث يفتتح الكلام فيه بتقسيم المياه إلى أربعة أنواع:

الأول: الماء الذى يكون فى الأوانى والظروف.

الثانى: الماء الذى يكون فى الآبار والحياض والعيون.

الثالث: ماء الأنهار الصغار التى تكون لأقوام مخصوصين.

الرابع: ماء الأنهار العظام كجيحون وسيحون ودجلة والفرات ونحوها. أما بيان حكم كل نوع منها على القسمة.

أما الأول فهو مملوك لصاحبه لا حق لأحد فيه، لأن الماء وإن كان مباحا فى الأصل لكن المباح يملك بالاستيلاء إذا لم يكن مملوكا لغيره كما إذا استولى على الحطب والحشيش والصيد فيجوز بيعه كما يجوز بيع هذه الأشياء. ثم يبحر صاحب البدائع فى أعماق مشكلات المياه ويطرح لها حلولًا أصيلة وعملية ونافعة فى آن واحد،

وكلما توغلت معه شعرت أنك تقرأ لعالم كبير ابن حضارة عظيمة، وليس فقط لفقيه اجتمعت عنده أقوال السابقين وقام برصها جنبًا إلى جنب بلا رابط بينها ولا حياة فيها كما نلحظ فى أغلب كتب الفقه أيامنا.

وانظر مثلا ثالثا فى «كتاب الشرب» فى المبسوط للسرخسى بالجزء ٢٣، الذى يفتتحه بقوله: «اعلم بأن الشرب هو نصيب من الماء للأراضى كانت أو لغيرها قال الله تعالى:

﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾

(الشعراء: ١٥٥)

وقال تعالى:

﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾

(القمر: ٢٨)

وقسمة الماء بين الشركاء جائزة. ثم يستطرد فى تفصيل أحكام المياه ومشكلاتها فى عصره بما يشعرك أنك بالفعل تقرأ كتابا فى علم «الحضارة والعمران» وليس فقط فى أحكام فرعية تخص استعمالات المياه وكيفيات التصرف فيها.

وكلما تأملنا فى تفاصيل الاجتهادات الفقهية الخاصة بالماء تجد أن الفقهاء كانوا يراعون ما نسميه بلغتنا المعاصرة مبدأ «الاستدامة» فى كل تصرف من التصرفات التى تجرى على استعمال الماء. وثمة توافق بين أغلبية الفقهاء على أن أول حقوق استعمال المياه هو «حق الشفة»، ويقصد به حق بنى آدم والدواب فى شرب الماء لدفع العطش، وحفظ الحياة، وكذلك الحق فى استخدامه للطبخ، أو التطهر والوضوء، أو غسل الثياب ونحوها. والحق الثانى هو «حق الشرب»، ويقصد به «النوبة من الماء لسقى الأرض والزرع» وإعمار الأرض، وهذه الاستعمالات وغيرها لا يمكن الوفاء بها لكل بنى آدم إلا إذا روعى فيها مبدأ الاستدامة، إما بالمحافظة على موارد المياه، أو باستحداث الجديد منها.

وهكذا تجد أنه بفضل التوجيهات الواردة فى القرآن العظيم، وفى أحاديث النبى الكريم، حظى الماء باهتمام بالغ من العلماء والفقهاء فى اجتهاداتهم، والمفتين فى فتاويهم، والقضاة فى أحكامهم، وعامة الناس وخاصتهم فى تصرفاتهم واستعمالهم للماء فى مختلف مناحى حياتهم.

إن «الإرث» الفقهى العريق فى حضارتنا العربية الإسلامية فيه معين لا ينضب من التوجيهات، والمبادئ، والأخلاقيات، وقواعد التصرف فى الماء، وأصول المحافظة عليه، ونحن فى أمس الحاجة إلى معرفة هذا التراث الثرى، والوعى به، لنؤدى شكر نعمة الماء الذى هو سر الحياة، وكنزها الذى لا وجود لها، ولا للبشرية دونه.

«يتبع»

اللسان المنتمي!

قراءة في الملامح الأسلوبية للدكتور / عبد الحليم عويس



أ. د. خالد فهمي
كلية الآداب / جامعة المنوفية /مصر

لا يضيع العرف بين الله و الناس!

عندما هاتفني أخي الكبير الدكتور محمود خليل مدير إذاعة القرآن الكريم بشأن الكتابة عن الدكتور / عبد الحليم عويس رحمه الله تعالى، تذكرت شيئا عجيبا جرى من نحو عشرين عاما ،إذ رأيت الدكتور عبد الحليم عويس رحمه الله و قد جاء زائرا لأستاذي الدكتور / رمضان عبد التواب (المتوفى سنة ٢٠٠١م) رحمه الله تعالى يطلب إليه أن يكتب عن لغة الشيخ محمد الغزالي رحمه الله تعالى ضمن كتاب تكريمي عنه بمناسبة بلوغه سن السبعين في ذلك الوقت ، وهو ما كان و أثمر مجموعة من البحوث ظهرت في كتاب(الشيخ محمد الغزالي : صور من حياة مجاهد عظيم و دراسة لجوانب من فكره ، دار الصحوة ، بالقاهرة سنة ١٤١٣هـ=١٩٩٣م) و قد تضمن مقالة أستاذي الدكتور رمضان عبد التواب عنه ، و عنوانها(لغة الإمام الشيخ محمد الغزالي في مؤلفاته : نظرة تحليلية ص ٤٨-ص ٥٦)

تذكرت ذلك فعرفت بعضا من علامات إخلاص الرجل ، وهو يمضي إلى ربه تعالى ، و جاء اليوم الذي يكافئه الله تعالى على الوفاء وفاء ، و على العمل بمثله ، ليحق القول الذي يقرر﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾، ليحق قول القائل : لا يضيع العرف بين الله و الناس! وفاء يكافأ بوفاء ، و سبحان الذي جل في علاه

لغة الدكتور عبد الحليم عويس في مؤلفاته القضية حية!

إن لغة أي كاتب أو مفكر هي مجموع ما يشكل مادة فكره من جهة الأسلوب ، والصياغة ، بمعنى أنها جماع أسلوبه الذي يتكون من اللفظة ، مرورا بالجملة و العبارة و الفقرة انتهاء إلى النص الموسع في صورة مقال أو بحث أو كتاب .

و من ثم فإن فحص لغة عبد الحليم عويس في مؤلفاته المتنوعة يستلزم الوقوف أمام مستوى المعجم و مستوى التراكيب ومستوى التصوير .

و فيما يلي محاولة لرصد محددات شخصية أسلوب الراحل الكريم من خلال فحص لغته على هذه المستويات

معجم الدكتور عبد الحليم عويس في مؤلفاته

يقصد بمعجم الكاتب هنا مجموع الكلمات التي يستعملها الكاتب ، و لاسيما ما يمكن أن يسمى بالكلمات المفاتيح ، أو الكلمات التي تمثل حضورا نوعيا و متميزا و فارقا و فحص معجم الدكتور عبد الحليم عويس ينظر بعين الرعاية إلى الألفاظ اللغوية العامة و الألفاظ اللغوية الاصطلاحية و لاسيما التي تنتمي إلى مجال التاريخ الإسلامي ، التخصص الدقيق للكاتب الراحل رحمه الله تعالى.

و فيما يلي رصد للكلمات الأكثر دورانا وشيوعا في كتابات الدكتور عبد الحليم عويس مرتبة ترتيبا ألفبائيا هجائيا وفق جذورها:

-(أ م م)

كانت مفردة (أمة) في صورها المختلفة ذات شيوع و تكرار ظاهر في العينة المختارة من كتب الدكتور عبد الحليم عويس ؛ مما يعكس وعيا كبيرا بقضيتها المحورية ، ووعيا كبيرا بخطرها بما هي مرتكز محوري للوجود الإنساني و الحضاري معا.

ومن أمثلة ذلك في كتابه : المسلمون في معركة البقاء سنة ١٩٧٩م ص ١٢٧): «ويجرنا هذا إلى كلمة عن شخصية الأمة ، فهل أية أمة في التاريخ يمكن أن تعيش و تبقى على أساس تذبذب الشخصية عن طريق التقليد أو التبعية ... أم أن الآية أمة من الأمم، ركائز ثابتة » و يقول(ص ١٢٩) «إن شخصية أمة من الأمم ليست شيئا اصطناعيا ثانويا بل هي شجرة تضرب بجذورها في أعماق تلك الأمة ، وإن عظمة أمة من الأمم ليست في المظاهر العابرة » و يقول في كتابه (أوراق ذابلة من حضارتنا دراسة في سقوط ثلاثية دولة إسلامية ط٣ سنة ١٩٨٩م ص ٥ من الإهداء (»: لا أزال أؤمن بأن ثمة دورا كبيرا ينتظر الأمة المسلمة ، و لا أزال أؤمن بأن حركة التاريخ التي هي من سنن الله سوف توقف الأمة أمام قدرها المحتوم ؛ لتؤدي واجبها نحو البشرية التائهة فإلى الذين يساعدون التاريخ كي تقف الأمة في مكانها الصحيح » و يقول (ص ١٤) »: و لسوف تبقى هذه الأمة » و يقول في كتابه (الإسلام كما أؤمن به سنة ١٩٩١م ص ١٠٤) »: إن تجربة التاريخ و قوانين الحضارة توجبان على كل أمة أن تحدد لها مسارا منسجما مع جذورها ... و لم يعرف أن أمة قد سارت دون معالم ثم وصلت إلى شيء » و يقول في كتابه (فقه التاريخ في ضوء أزمة المسلمين الحضارية سنة ١٩٩٣م ص٥) »: والأمة التي لا تحسن الفقه بتاريخها ...هي أمة فاقدة للحس التاريخي ... إن تباين الأمم لم يأت عبثا و إنما جاءت لتصنع كل هذه الأمم بتباينها و تعدد أنماطها رحلة البشرية في التاريخ » ويقول في كتابه(تفسير التاريخ علم إسلامي سنة ١٩٩٨م ص ٧) «لماذا تسقط الأمم؟ » و يقول في كتابه (الشباب المسلم بين تجربة الماضي و آفاق المستقبل سنة ٢٠٠١م ص١٣٢) : هذا هو الطريق (نشر الدعوة بسلاح الخلق العذب والشمائل

الكريمة) الذى سيمكننا من عمل انقلاب عميق الجذور ... كبير النفع فى حق هذه الأمة ... و أقول إن هذه الأمة لا يصلح آخرها إلا بما صلح به أولها».

و يقول فى كتابه (تجربة الأندلس : أسباب السقوط دروس و عبر سنة ٢٠٠٥م ص ٩) : «و قد شغلت و لله الحمد و المنة بموضوع سقوط الدول الإسلامية ... وقدمت فيه بعض المحاولات خطابا لمجموع الأمة » و يقول فى كتابه (المسلمون من التبعية إلى القيادة الفكرية سنة ٢٠٠٦م ص ٦) «و على أعضاء هذه الأمة تقع المسئولية»

ومن هذه الأمثلة يتضح لنا محورية قضية (الأمة) فى فكر الراحل الكريم الدكتور عبد الحليم عويس رحمه الله

-(ب ق ى)

كما مثل حضور مشتقا الجذر (ب ق ى) و لاسيما لفظة (البقاء) نسبة تكرار و استعمال كبيرين فى سياقات ترعى الأمة المسلمة و جموع المسلمين و حضارتهم على امتداد صفحات مؤلفات الدكتور عبد الحليم عويس لدرجة حضوره فى عنوانات بعض كتبه من مثل عنوان كتابه (المسلمون فى معركة البقاء)

ومن أمثلة استعمال مشتقات هذه الجذر ما ورد فى هذا الكتاب المذكور (ص ١٤): «لسوف تبقى هذه الأمة» و يقول فى كتابه (فقه التاريخ فى ضوء أزمة المسلمين الحضارية ص ٦) : «إن فقه التاريخ ضرورة لكل أمة تريد أن يبقى لها دور متميز فى» ويقول فى كتابه(تجربة الأندلس) «و ستبقى طائفة من أهل الحق ظاهرة».

و هذه الأمثلة تشير إلى الإيمان المتفائل الذى تمتع به فكر الراحل حول مسألة بقاء الأمة الإسلامية ، و دعوته إلى بقاء ثوابتها ، و محددات استمرارها فى أداء مهمتها فى الوجود الإنسانى.

-(ب ن ى)

تكررت لفظة البناء فى عنوانات عدد من فصول « كتب عبد الحليم عويس ، بما يعكس وعيه بقيمة البناء المادى و المعنوى فى نهضة المسلمين فى مثل : الإسلام كما أومن به ص ٤٧ ؛ و فقه التاريخ ص ٨٥ ؛ و الشباب المسلم ص ٣٩ ؛ و الجوانب الروحية ص ١٠٧ »

- (ت ب ع)

كانت النسبة التكرارية للفظة التبعية عالية لدرجة ظاهرة تسترعى الانتباه ، و كانت سياقات ظهورها تؤكد خطرها على قضية استغراق المسلمين ، و بقائهم ، واستمرارهم فى الحياة ، و استمرارهم فى أداء ما عليهم من مسئوليات

ومن أمثلة ظهورها فى كتابات عبد الحليم عويس : ظهورها فى عنوان كتابه (المسلمون من التبعية و الفتنة إلى القيادة و التمكين ، سنة ٢٠٠٦م) وهو ما يرقى بقيمة استعمالها و يدل دلالة كبيرة على محورية قيمتها فيما آل إليه وضع المسلمين فى التاريخ المعاصر

و يقول كذلك (ص٢٧) : « إن إعجاب الطهطاوى بنمط التطور و التحضر الأوربى لم يحمل شبهة دعوة إلى أن يتبع الشرق والغرب فإنه ميز بين العلاقات الحضارية وبين ... التبعية » و يقول كذلك (٣٨)فى سياق خصائص الذات الإسلامية الإيجابية

أنها هى : «القادرة على الإبداع الحضارى والمؤهلة لمحاورة الحضارات وليس الذوبان فيها و التبعية لها ».

و يرتبط بهذه اللفظة / المفتاح فى كتابات عبد الحليم عويس لفظان مفتاحان آخران لهما حضورهما الظاهر ، وهما (التغريب / و الغزو)

-(ج م ع)

كان تواتر ظهور مشتقا الجذر (ج م ع) و لاسيما فى تجلياتها فى المفردتين: (الجامع / الجامعة) ذا دلالة خاصة فى المشكل الذى شغل فكر عبد الحليم عويس سعيا نحو نهضة العالم الإسلامى من أزمته وكبوته . ذلك أنه يلخص فكرته فى النهضة فى محورى العودة إلى الإسلام فى نقائه الأول(الجامع) و الاستعانة بالعلم متمثلا فى (الجامعة).

و لا يخفى كذلك ما يمكن أن يقف وراء هذه المفردة تعيينا من معنى الاجتماع و الوحدة يقول فى كتابه (الإسلام كما أومن به ص ٧)«رأيت من واقع تجربتى أن الإسلام تحول حتى فى الجامعات الإسلامية ...إلى نظرية ...أما روحه فليست موجودة فى منهاج الجامعات » .

و يحمل هذا النص تقديرا خاصا للجامعات كما يلوح من الصياغة . «و انظر ص ٨ و اتسع حضور مشتقات هذا الجذر لتظهر نسب تكرارية عالية ترعى الجمعيات العاملة للإسلام فى العصر الحديث ، وترعى خير المجتمع الإسلامى

و قد وصل به الأمر إلى استعمال جديد هو الجماعة المعنوية و المادية » يقول فى كتابه (رجل القرآن و صناعة الإنسان سنة ٢٠٠٩م ص ١٩٨) «الجماعة المعنوية و المادية ضرورة للتقدم » و يقول (ص ٢٠٢) : « إن الاتحاد المحمدى الذى أعرفه ...هو الدائرة المرتبطة بسلسلة نورانية ممتدة ...و المنتسبون إليه هم : جميع المؤمنين... ومجال اجتماعاته و نواديه : هى الجوامع ...فجمعية مثل هذه رئيسها هو فخر العالمين سيدنا الرسول محمد ﷺ ».

-(ج هـ د)

تكررت مشتقات هذا الجذر و لاسيما فى صورة (الاجتهاد) و (الجهاد) بما هما طريقان لاستعادة نهضة الأمة و قد جاء استعمالها فى مثل «لقد أفادنا الأعداء ... وغالبا ما كان لتدخلهم فضل إعلان الجهاد»

-(ح ر ر)

و تمثل لفظة (الحرية) بما تحمله من دلالة واضحة محورا مهما يعكس قدرا من اهتمامات الراحل الكريم و رؤيته أن من شروط النهضة ماثل فى التخلص من عوائق الحرية ، ذلك أنه لا توجد أمة تعانى من الاستبداد تعرف طريق القوة و الانتصار .

ومن أمثلة استعمال هذه اللفظة ما جاء فى كتابه (إنسانيات الإسلام ص ١١٩): «لكن الإسلام ...وضع مشروعا .... و بدأ فورا بالارتفاع بالعبيد إلى مستوى الأحرار » و يقول فى عنوان أحد فصول الكتاب (ص ١١٩) :«الحرية الإنسانية بين حضارتنا و حضارتهم».

و يقول فى كتابه (رجل القرآن و صناعة الإنسان) ص ١٧٦ ، ١٧٧) : «إن هذه الحرية البهيمية فى المفهوم الأوربى من أهم الفواصل

الفارقة بين الإسلام و حضارته من جهة أوروبا المنسلخة من النصرانية و حضارتها ، ويقول : «إن صدى الحرية و العدالة ينفخ ... فيبعث الحياة».

و مفردة الحرية نموذج عن قيم الإسلام الكبرى التي حرص عبد الحليم عويس على التوافر عليها و بيان أن التمسك بها و التربية عليها من آكد شروط العودة إلى النهضة من جديد و لاسيما عندما يدرس صورة العالم الإسلامي و قضية الحرية في كتابه (المسلمون في معركة البقاء ص ٥٩)

-(ح ض ر)

تمثل مشتقات هذه الكلمة مع كلمات الإسلام و التاريخ و السقوط أعلى الكلمات في نسب التكرار و الحضور، ذلك أن الحضارة هي واحدة من أكبر المشاغل التي شغلت فكر الرجل في كتاباته على محاور مختلفة ترعى ما يلي :

أولا- بيان مزايا الحضارة الإسلامية.

ثانيا - بيان عوار الحضارة الغربية.

ثالثا- بيان الطريق المؤدية إلى استعادة الدور الحضاري للمسلمين.

و سنقف أمام تواتر ظهور هذه المفردة في عنوانات كتب عبد الحليم عويس ، وعنوانات فصولها ، وظهورها في هذين النوعين من العنوانات أكثر دلالة من تواتر ظهوره في ثنايا الكتب المختلفة ، لما للعنوان من درجة تركيز و تكثيف و توكيد لا تخفى، ومن أمثلة ظهورها وصفا في عنوانات بعض كتبه (فقه التاريخ في ضوء أزمة المسلمين الحضارية)

ومن أمثلة ظهورها في عنوانات الفصول ما جاء في كتابه (الإسلام كما أومن به ص ٦٣) العصر القرآني : حضارة كاملة جديدة و في كتابه (فقه التاريخ في ضوء أزمة المسلمين الحضارية) استعملت في العناوين التالية : (موقف الفكر الإسلامي المعاصر من الحضارة ص ٦٥) و (الطريق لإقامة حضارة إسلامية معاصرة ص ٩٢) و (الثقافة الإسلامية و الانتماء الحضاري ص ١٢٦) ومن استعمالها في كتابه(تفسير التاريخ علم إسلامي) (تفسير التاريخ في الحضارة الإسلامية ص ٩١) و (الظاهرة الحضارية في القرآن و السنة ص ١٣٩) وكذلك في ص ١٦٧ ؛ و ص١٧٩ ؛ وص٢٢٥ و في كتابه (لعقل المسلم في مرحلة الصراع الفكري) : ص ٨٧ ؛ و ص ٩٣ ؛ و ص ٩٩ ؛ و ص ١٩٦ و في كتابه(الشباب المسلم بين تجربة الماضي و آفاق المستقبل) : ص ٤٥ ؛ و في كتابه (تجربة الأندلس) : ص ١٦٩ و في كتابه (إنسانيات الإسلام) : ص ٦٣ ؛ وص ٩١ ؛ وص ١١١ وص ١١٩ ؛ وص ١٤٧ ؛ وص ١٥٥ ؛ وص ١٦٣ ؛ وص ١٦٧ و في كتابه (المسلمون من التبعية و الفتنة إلى القيادة و التمكين) ص ١٥٥ ؛ و ص ١٦٦ ؛ وص ١٧٣ ؛ ص ١٧٧ و في كتابه (رجل القرآن وصناعة الإنسان) : ص ٢٧ ؛ ص ٤٩ ؛ و ص ٢٠٧ وتواتر ظهور هذه المفردة المركزية في عنوانات فصول كتبه دليل حاسم على المنزلة الكبرى التي تحتلها منظومة مشاغله الفكرية مراجعة وتأسيسا و نقدا و مقارنة تمهيدا لاستعادة الوهج المعروف للحضارة المنبثقة من التصور القرآني و الإسلامي

«يتبع»

الفاروق.. الشديد اللين



الدكتور / طه حسين
عميد الأدب العربي

من أيسر الأمور على المثال البارع أن يصنع لعُمر بن الخطاب- رضي الله عنه- تمثالا يجمع بين الصدق والروعة ، وبين الدقة التي تُرضي الحق والجمال الذي يُرضي الخَيال ، فقد حَفِظَ التاريخُ لعُمر صورة دقيقة صادقة لا تتعرض للشك ولا للخلاف ، بحيث يراها الناس جميعًا إذا قرءوا تاريخه فلا يختلفون فيها ، ولا يفترقون في الإعجاب بها والإعظام لها مهما تَختلف أمزجتهم وطبائعهم ، ومهما تختلف آراؤهم ومفاهيمهم ، ومهما تختلف طرائقهم في التفكير والحكم والشعور.

وهذه الصورة الدَقيقة الصَادقة الرَائعة التي حفظها التاريخ لعمر لا تُمثِل شخصه المادي وحده ، وإنما تُمثِل شخصَهُ المادي والمعنوي أيضًا ، وتُمثِل شخصه المعنوي من جميع نواحيه : تمثل قلبه ، وتمثل عقله ، وتمثل إرادته ، وتمثل حسّه أيضًا . وهي صادقة في هذا كله لا يتطرق إليها الشَكُ ؛ لأنها أوضح وأظهر من أن يتطرق إليها الشك أو تختلف فيها الآراء.

وما أعرف أنَ تاريخ الخلفاء والملوك المسلمين قد صَدَق في تصوير شخصية من شخصيات الخلفاء والملوك كما صدق في تصوير شخصية عمر بن الخطاب.

والغريبُ أنَ هذه الشَخصية لم تكن سهلة ولا يسيرة في نفسها ، وإنّما كانت عسيرة مُعقَدة كما سترى بعد قليل ، ولكنَها كانت قوية جدًا ، قوية إلى الحدّ الذي يعجز معه التاريخ عن مُقاومتها ؛ فيضطر إلى أن يقبلها كما هي ، لا يستطيع أن يزيد فيها أو ينقص منها ، وإنّما يتلقاها كاملةً وينقلها إلى الأجيال كاملة ، وتمضي القُرون في إثر القرون ، وهي كما هي لا يستطيع الزّمان أنْ يَمَسَها بزيادة أو نقص.

ولو أنَ مثالًا بارعًا قرأ ما حفظ التاريخ من صورة عُمر ، ثم أراد أنْ يُظْهِر ذلك بوسائله الفنية ، وأنْ يَصْنع هذا التِمثال لعُمر ، لجمع بين خصلتين غريبتين ، فكان ناقلًا لا مُبتكرًا ، وكان في الوقت نفسه رَائعًا مُعجِبًا ؛ يبهر العُقول ، ويخلب الألباب ، ويملأ الأبصار والقلوب.

ولكنّ عمر كان ثاني خُلفاء المُسلمين ، فمكانته الدينية ومنزلته من النبي ، ومقامه من الإسلام نفسه ، كل ذلك يرفعه عن أن يكون

موضوعًا لصناعة المصوِّر أو المثّال.

فلنجتهد في أن تستعين بصناعة الكلام على تصويره للشباب المُحدثين، فعُمر فيما نعتقد أعظم شخصية يُمكن أن تُعرض على الشباب؛ لأنهم يجدون فيه خير ما تُحبّ أن يجدوا من المثل التي تتمنى أن يطيلوا النظر إليها، والتفكير فيها، والتأثر لها، لعلهم يرقَوْن إليها شيئًا.

وأول ما يهمنا من أمر عمر أنه كان مُلتقى لطائفة من الخصال المُتناقضة التي ينكر بعضُها بعضًا أشد الإنكار، ويدفع بعضها بعضًا أشد الدفع، ولكنّ الله قد لاءم بينها وألّف بين مقاديرها تأليفًا غريبًا؛ حتى التقت فلم تتنافر ولم تتدابر، ولم يفسد بعضها أثر بعض. وإنما ائتلفت أحسن ائتلاف وانسجمت أروع انسجام، كما تأتلف الأصوات المُتنافرة، وكما تنسجم الأنغام المُتباعدة في القطعة الموسيقية الرائعة، حتى أصبح شخصُ عمر آية خالدة من آيات الموسيقى يتغنى بها تاريخ المُسلمين، وسيتغنى بها ما بقي الإسلام وما بقي للإسلام تاريخ.

وأغرب من هذا كله أن بعض هذه الخصال لم يُستأنف في شخص عمر، وإنما وُجدت في أسرته ورهطه الأدنين مُفرقًا قبل أن يُوجد عمر.

وقد نشأ هذا الفتى القرشي فأدرك شيئًا من هذه الخصال، فقد كان أبوه الخطاب بن نفيل رجلًا غليظًا فظًا إن امتاز بشيء من قومه، فإنّما يمتاز بالشدة والعنف، والمُحافظة على القديم الموروث، والنشاط الغريب في حماية هذا القديم الموروث والذود عنه. وكان ابن عمه زيد بن عمرو بن نفيل رجلًا رقيقًا ليّنًا، مرهف الحسّ، ذكي القلب، نقي الطبع، مُستعدًا للإيمان الصادق، مُبغضًا للقديم، شديد النشاط للتجديد. شك في وثنية قومه ثم جحدها، والتمس دينًا صفوًا وملّة نقية، وجعل يُنكر على قريش ما كانت فيه. فكانت قريش تسمع منه وتُعرض عنه ولا تحفل بما كان يقول، ولكنّ الخطاب بن نفيل ثبت له ثم قاومه، ثم جدّ في فتنته حتى أشقاه، ثم حبسه في مكة، ثم أغرى به الشباب حتى اضطره إلى أن يستخفي وأن يحتال في الفرار من مكة؛ ليلتمس ما كان يُحبّ من دين عند اليهود والنصارى. وقد فرّ زيد بدينه الجديد أو باستعداده للدين الجديد، وجعل يلتمس ما يُحبّ عند اليهود مرة، وعند النصارى مرة، حتى استيأس من أولئك وهؤلاء؛ فعاد إلى مكة، ولكنه قُتل غيلة في بعض الطريق.

وقد ورث عمر هاتين الخصلتين عن أسرته، فكان شديدًا ورقيقًا في وقت واحد، وكان غاليًا في الشدة، غاليًا في الرقة أيضًا، وكان إسلامه مظهرًا لهاتين الخصلتين المتناقضتين. خرج ذات يوم، وكان فتى قد نيف على العشرين مُلتزمًا أن يشتد في غيظ المُسلمين والكيد لهم والإيقاع بهم، يبحث عن أول فرصة تتيح له البطش بهؤلاء المُجددين، فلقي رجلًا من المُسلمين وأخذ معه في حديث حول الإسلام يريد أن ينتهي من هذا الحديث إلى الشدة والبطش، فينبئه هذا الرجل أن الإسلام قد غزا أسرته واستقر فيها، وأنّ أخته قد أسلمت كما أسلم زوجها، فينقض عمر على أخته، وقد أزمع البطش بها وبزوجها، فإذا بلغ الدار سمع قراءة، فإذا طرق الباب فزع مَن في الدار واستخفى مُقرئ الأسرة، ودخل عمر على أخته فسألها، فلم تُخف عليه شيئًا، فيبطش بها

وبزوجها ويثبتان له ويظهرانه على الصحيفة التي كانا يقرآن فيها، فلا يكاد يتلو آيات من القرآن حتى تذهب شدته وبأسه، ويستحيل إلى لين وعطف ورحمة وإشفاق.

ويسأل عن مكان النبي؛ فإذا دُلّ على هذا المكان ذهب إلى حيث كان النبي وأصحابه يجتمعون، فإذا أحس أصحابُ النبي مقدمَه أنكروه وأشفقوا منه، إلا رجلًا واحدًا هو حمزة ابن عبد المطلب لم يكن أقل منه شدة وبأسًا فقد انتظره ثابتًا له، وتلقاه بمثل ما كان قد أقبل به فيما ظنّ المسلمون من الشدة والبأس، ولكنّ النبي يلقاه لقاء شديدًا رفيقًا، فما هي إلا أن يُسلم عُمر ويُكبّر المسلمون، ويعلموا أن الله قد أعز دينه بأحب الرجلين إليه: عمر بن الخطاب، وعمرو بن هشام بن أبي جهل. كما كان النبي يسأله في كل يوم.

ومنذ ذلك اليوم، استطاع المُسلمون أن يجهروا بصلاتهم وكانوا يُخفونها، وأن يتخذوا ناديهم في المسجد، وكانوا لا يظهرون فيه إلا فرادى.

هذه الشدة البالغة والرقة الرائعة تُصوّران عمر طول حياته. تصوّرانه صاحبًا للنبي، ومُشيرًا لأبي بكر، وإمامًا للمسلمين، تصوّرانه حين أراد النبي أن يُمضي صلح الحديبية فأنكر عمر هذا الصلح، وقال للنبي: كيف نرضى الدنية في ديننا؟! وتصوّرانه حين رأى الجدّ من الله ورسوله في هذا الصلح؛ فأذعن له راضيًا مُؤمنًا أصدق الرضا وأخلص الإيمان. تصوّرانه حين أعلن أنّ رسول الله قد مات؛ فأنكر ذلك أشد الإنكار وأنذر المعلنين بالسيف، فلما سمع قول الله عز وجل:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾

(آل عمران: ١٤٤)

أذعن لقضاء الله راضيًا به مُؤمنًا له أصدق الرضا وأخلص الإيمان. تُصوّرانه حين جد في حزم أمر المسلمين، وأخذ البيعة لأبي بكر باسطًا يده للبيعة قبل أن تتم الشورى، حتى إذا استقرت الأمور واطمأنت القلوب واجتمعت الكلمة عرف من نفسه هذه الشدة، وقال في بيعة أبي بكر: كانت فتنة وقى الله المسلمين شرّها.

تصوّرانه في كل ما تقرأ من مواقفه حينما كان يجد الجد، ويحتاج الأمرُ إلى الحزم والعزم، ثم بعد أن تستقر الأمورُ وتهدأ العاصفة، وقد اختصر التاريخ هذه الصور الغريبة الرائعة فيما تحدّث به من أنّ عُمر كان أشدّ الناس غضبًا إذا غضب، وكان إذا ثار لم يثبت له أحد ولم يثبت له شيء، فإذا ذُكر الله أو تُلي القرآن رَق حتى أصبح الرّقة نفسها.

واختصر التاريخ هذه الصورة الرائعة أيضًا حين روى ما كان من أمره لما اجتمع الناس إليه في الموسم؛ فسأل عن سيرة العمال في الأمصار، فقام إليه أحد المسلمين، وزعم له أن عامله قد ضربه، فأبى عمر إلا أن يقتص هذا الرجل من الوالي بمحضر من المُسلمين، وجعل الولاة يُصوّرون له أثر ذلك في إضعاف السلطان وإطماع الرّعية في الولاة فلا يحفل بشيء من ذلك؛ لأنّ رسول الله قد اقتص من نفسه حتى اضطر العمال إلى أن يرضوا هذا الرجل ويشتروا منه حقه بالدنانير، ولولا ذلك لرأت جماعة المسلمين رجلًا من الرّعية يُعمل

سوطه في جسم والٍ من ولاة الأمصار.

كان عمرُ شديدًا حتى خشي الله في الشدة، وكان لينًا حتى خشي الله في اللين، وكان يصطنع في الناس شدَّته ولينَه جميعًا، فأمّا مع نفسه وأهله فلم يصطنع قط إلا الشدة، ولم يعرف اللينُ قط إلى قلبه سبيلًا، وكان عمر حريصًا على مال المسلمين أشد الحرص، يُحاسب العُمّال والولاة حسابًا أيسر ما يُقال فيه أنه كانَ عسيرًا، لا يختار واليًا لعمل من الأعمال حتى يُحصي ماله قبل الولاية، ثم يتتبعه بعد ذلك ليرى كيف زاد ماله، وما مصدرُ هذه الزيادة، وما الصلة بينها وبين ما كان له من عطاء. ثم لا يتحرج أن يُقاسم الوالي ماله بعد عزله، فيترك له النِّصف ويَرُدُّ النصف إلى المسلمين.

وكان كريمًا في مال المسلمين إلى أقصى حدود الكرم، لا تكاد تجتمع إليه الأموال التي كانت تأتيه من الأمصار والأقاليم حتى يُشيعها في المسلمين على طريقة رائعة حقًا؛ لا يترك رجلًا ولا امرأة ولا صبيًا ولا صبية في أسرة تليه أو تبعد عنه إلا قسم له من هذا المال حظه، وأدى إليه حقه، وأدى إليه الفضل بعد الحق. ثم كان لا يأمن على ذلك أحدًا، وإنّما يليه بنفسه، ويتتبع أمور الناس لا ليعرفها، ولكنْ ليعرف أيشكو الناسُ منه شيئًا، أينكرُ الناس منه شيئًا، فقد كان لا يأمن نفسه على تحقيق العدل، كما كان لا يأمن الناس على تحقيق هذا العدل.

وقد أجدب المُسلمون في بلاد العرب سنة، فاقرأ أخبارَ عمر في هذه السنة؛ فستقرأ أروع ما حفظ الأدب والتاريخ في أي أمة من الأمم، وفي أي جيل من الأجيال، وفي أي عصر من العصور، من تصوير الرِّفق بالرَّعية والنُّصح لها، والإشفاق عليها والشدة على الأقوياء والرَّحمة للضُّعفاء.

أخذ عماله في الأقاليم بأنْ يُرسلوا إليه الطعام والكسوة للناس، ووجّه رُسُله في أطراف الجزيرة وأنحائها، يُقَسِّمون الطعام وينحرون الجُزُر ويكسون الناس، وقام هو على ذلك في المدينة وما حولها، وأبى أنْ يُطعَم في بيته إذا اجتمع المسلمون للطعام العام.

قلّ السمنُ وقلّ اللحم، فحرّم على نفسه السمن واللحم وفرض على نفسه الخبز والزيت حتى يخصب المسلمون. وكانت حرارة الزيت تؤذيه، فتقدم إلى مولاه أن يطبخه له ليكسر من حرارته، فلم يُغن ذلك شيئًا. وجعل بطنه يقرقر، فيقول له: «قرقر ما شئت فلن تُطْعَم إلا الزيت حتى يخصب المسلمون».

وكان عمر أجرأ الناس على الناس، حتى خافه الأقوياء وأشفقوا من لقائه، ووسط إليه كبارُ الصحابة من يسأله الرِّفقة للناس؛ لأنهم يهابونه ويشفقون أنْ يعرضوا عليه حاجاتهم، ثم كان في الوقت نفسه أشد الناس خوفًا من الضعفاء والعاجزين والمحرومين. يستطيعُ أهونُ الناس شأنًا وأيسرُهم أمرًا أنْ يَجترئَ عليه، ويَلْقَاهُ بما يكره من الحديث، فيسمع ثم يعتذر، ثم يستعبر ثم يستغفر.

وأروع ما تلْقاه في شخصية عمر من الخصال، هذه الفكرة التي كوّنها لنفسه عن الخلافة منذ ولي الخلافة إلى أن مات، وقد صورها هو تصويرًا رائعًا بإيجازه ودقته وصراحته العنيفة حين خطب الناس لأول مرة بعد البيعة، فقال: «أيها الناس، إنكم قد ابتُليتم بي وابتُليتُ بكم».

فالخلافة عند عمر امتحان للخليفة وللرعية معًا، كلاهما مُمْتَحَنٌ بصاحبه، وكلاهما خليق أن يحتمل المحنة ثابتًا لها صابرًا عليها، وأنْ يخلص منها وينفذ من مُشكلاتها صحيحًا بريئًا، لم يَكْلَم في نفسه ولا في خُلقه ولا في دينه، ولا في شيء من هذه الملكات الكثيرة المُعقّدة التي تُكوّن ضمير الرّجل الكريم.

وإذا كان الخليفة مُمْتَحنًا دائمًا مُبتلى برعيته؛ فمن الحق عليه لنفسه وللناس، ومن الحق عليه لله الذي يلي أمره وأمر الناس، أن يُحاسب نفسه دائمًا عن عظيم الأمر وهينه، وألا يأتي أمرًا صغيرًا أو كبيرًا إلا وهو عالمٌ بما يأتي، وبما يحمله على أن يأتي هذا الأمر أو ذلك، إلا وهو مقدر أنه سيُسأل عما أتى ومهيّئ الجواب على هذا السؤال حين يُلقى إليه، سيُسأل عما أتى في اليوم الآخر حين يسأله الله عن الجليل والضئيل من أعماله، وقد يُسأل عما أتى في كل لحظة ومن كل إنسان، فإنّه حين نَهَض بالأمر قد عرض نفسه لهذا السؤال؛ لأنّه احتمل أمانة يشترك في حسابه عنها الناس جميعًا، وينفرد بحسابه عنها آخر الأمر ربُّه الذي جعل إليه أمور الناس على أن يؤدي إليه حساب ما فعل وما ترك.

وما أعرف أن خليفة من خلفاء المسلمين أو ملكًا من ملوكهم، مُنح ما مُنِحَه عمر من هذا الضمير الحساس إلى أقصى ما يستطيع الضمير أن يحس. ظهر ذلك من أمره للناس جميعًا ظهورًا قويًا مُقنعًا حتى شبهوه بالميزان الدقيق الذي لا يمكن أن ينحرف أو يجور؛ وما أعرف خليفة من خُلفاء المُسلمين أو ملكًا من ملوكهم، تمثّل حساب الله له في جميع لحظاته يقظان ونائمًا، عاملًا ومُستريحًا، مُقبلًا على عظائم الأمور أو على الهين منها كما فعل عمر.

يدخل على بنته حفصة أم المؤمنين، فتُقدّم إليه خبزًا ومَرَقًا قد جعلت فيه الزيت، فينصرف عنه، ويقول: «إدامان في إناء واحد؟! لا والله لا أذوقهما». ويدخل على رجل من المسلمين فيستسقيه، فيقدم إليه الرجل شرابًا، فيسأل: ما هو؟ فإذا عرف أنه عسل انصرف عنه، وقال: لا والله، ليُحاسبني الله عليه؟! ويدفع إلى أحد الفُرْس قميصًا له، ويتعجله في ذلك؛ فيقدم إليه الفارسي قميصين قد صنعهما، فيسأله: أليس فيهما من مال الذمة شيء؟ فيجيب الفارسي: لا، إلا الخيط. فينهره عمر ويقول: اغرُبْ واردد إليّ قميصي. ويرد عليه الفارسي قميصه لم يجفّ بعد.

فهو يرى الله إذا أصبح ويراه إذا أمسى، ويتمثل نفسه قائمًا بين يديه يؤدي إليه الحساب عما فعل وما قال.

وله في ذلك أعاجيب كلها رائعة، وكثيرٌ منها يدفع إلى البكاء دفعًا. جهز عيرًا إلى الشام؛ فقد كان يتجر ليعيش، واحتاج إلى ثلاثة آلاف درهم، فأرسل إلى عبد الرحمن ابن عوف ليقرضه هذا المقدار، فقال عبد الرحمن للرسول: ليقترضها من بيت المال. فلما لقي عمر عبد الرحمن بعد ذلك سأله: أأنت قلت هذا؟ قال: نعم. قال عمر: فإني إن اقترضت هذه الدراهم من بيت المال، ثم أدركني الموت، قال المُسلمون: ضعوها عن أمير المؤمنين واتركوها لأهل أمير المؤمنين، وسألني الله عنها يوم القيامة، ولكني إن اقترضتها من شحيح مثلك ثم أدركني الموتُ؛ لم يضعها عني ولم يتركها لأهلي حتى تُؤدّى

إليه.

ولما طُعن وأفاق من غشيته الأولى كان أول شيء عناه وأهمه أن يعرف أكان طاعنه رجلًا من المسلمين؟ فلمّا عرف أن طاعنه كان غلام المُغيرة بن شعبة رَضِيَ واطمأنّتْ نفسُه؛ لأنه علم أن قاتله لا يستطيع أن يُحاسبه أمام الله عن سيئة قدّمها إليه أو شر جناه عليه.

ومن هنا، لم يكن عمر شديدًا على الناس بما كان يلقاهم به من الحزم فحسب، وإنما كان شديدًا عليهم بما كان يتشدد على نفسه.

وكان كثير من المسلمين يرون من إمامهم هذا العيش الخشن الغليظ، فيستحون أنْ يُلينوا لأنفسهم من العيش أو يُظهروا ذلك، ورُبّما وسطوا إليه ابنته حَفْصَة أمّ المُؤمنين لتسأله أنْ يَرْفُق بنفسه، وأنْ يُبيح لها شيئًا ولو قليلًا من طيبات الحياة، فأجابها: «لقد نصحتِ لقومك وغششت أباك»!

وكذلك كان ضميره مرهف الحس، شديد المُراقبة، يسأله عن كل شيء قبل أن يسأله الناس، وقبل أن يسأله الله. وكذلك أدى امتحانه مُدّة خلافته، ولكنّ الشيء الذي ليس فيه شك هو أنّ رعيته لم تؤدِّ الامتحان كما أداه، ولم تثبت للمحْنة كما ثبت.

ومُراقبة الضمير لا تُتاح للناس جميعًا، وإنما تُتاحُ لأخيارهم والمُمتازين منهم، وهي على النحو الذي عرفه عُمر لا تكاد تُتاح إلا للرجل الفذ بين حين وحين، أو قُل بين القرون الطويلة والقرون الطويلة.

ولما امتحن المسلمون من أهل جزيرة العرب بالجدْب واشتدت عليهم السنة ظهرت مُراقبة الضمير في حياة عمر وفي أقواله وأفعاله جميعًا؛ فكان يقول للناس: إن الله قد ابتلاكم بي وابتلاني بكم؛ فما أدري أهي خطيئة مني، أم خطيئة منكم، أم هي خطيئة عمّتنا فعمنا من أجلها العذاب؟!

وقد صلى بالنّاس صلاة الاستسقاء؛ فكانت صلاته استغفارًا كلها، حتى ظنّ الناسُ أنه لن يسأل الله شيئًا إلا المَغفرة، ولكنه في آخر الصّلاة سأل اللهَ أن يسقي الناس.

وعمر أول الخلفاء تشددًا في تعرف أحوال الناس، كما قدّمتُ، ليتعرف ما يُمكن أن يكون قد قدّم إليهم من شرّ أو جَنى عليهم من مكروه. كانَ إذا أقبل الليلُ صلى فأطال الصلاة، ثم خرج مُستخفيًا يتحسس أخبار الناس ويستمع أحاديثهم. وقد نفعه ذلك فأصلح من أمور الناس شيئًا كثيرًا.

كان قد فرض العطاء للرجال والنساء والفتيان والفتيات وللصبيان بعد أنْ يُفطَموا، فلما كان في بعض لياليه سَمعَ صبيًا يبكي بكاء شديدًا، فسألَ أمّه عن مَصْدر هذا البكاء فأجابته، وهي لا تعرفه جوابًا لم يُقنعه، وعاد الصبي إلى البكاء، فعاد عمر إلى السؤال. وتكرر ذلك من الصبي ومن عمر حتى ضاقت المرأة بهذا السائل المُلح، فقالت له: «لقد أثقلتَ عليّ منذ الليلة، أمَا تعلم أنّ ابن الخطاب لا يُعطي الصبية إلا بعد الفطام؟! فأنا أتعجلُ فطام هذا الصبي لينال عطاءه من بيت المال». فانصرف عمر عن المرأة مَحزُونًا كئيبًا، وهو يقول: «ويل عمر، كم قتل من أبناء المسلمين!، ثم أمر المنادين فنادوا في الناس: «أتموا رضاع أبنائكم؛ فإنّ لهم عطاءهم منذ يُولدون».

ولم يعرف عمر نُظُم الحكم الديمقراطي كما ألفه اليونان والرومان في بعض عهودهم،

ولكنّ ضميره الحساس وغريزته المُستقيمة وقلبه الذكي وحرصه على العدل وخوفه من الجور، كل ذلك دعاه إلى شيء ليس بعيدًا عن النظام الديمقراطي. ولعل عمر لو عاش لأحدث للمسلمين نظامًا ديمقراطيًا عربيًا.

كان يستشير من حوله من أصحاب النبي وسادة الناس في كل ما يعرض له من المشكلات، ولكنه كان شديد الحرص على أن يحج بالناس في كل عام، ويشهد الموسم الذي يجتمع فيه أهل الأمصار، ويأمر العمال أن يوافوه على رأس من يليهم. فإذا كان الموسم وحضرت هذه الوفود سمع من العُمّال في الرّعية، وسمع من الرّعية في العُمّال، وأقرّ العدل والنصفة بين أولئك وهؤلاء.

فكان موسم الحج عند عمر موسمًا سياسيًا يستعرض فيه أمور الأقاليم بمشهد من الحاكمين والمحكومين. ومن يدري لو أنّ الله مدّ له في الحياة إلامَ كان يصيرُ أمرُ هذا الاجتماع السياسي المنظّم؟!

وخصلة أخرى من خصال عمر؛ هي: بُغضه للتكلف، وازدراؤه للمتكلفين. يتأخر شيئًا عن الصلاة، فإذا خرج جلس على المنبر واعتذر إلى الناس قائلًا: لقد أخرني قميصي. غُسل له قميصه؛ فانتظر أنْ يَجف ثم خرج للنّاس بعد أن تمّ له ما أراد. وقُرئ أمامه قول الله عز وجل:

(عبس: ٣١)

فقال قائل: وما الأبُّ؟ قال عمر: هذا هو التكلف، وما يضرك ألا تعرف الأبّ؟!

ولو أني ذهبت أعدّ خصال عمر الرّائعة وخلاله الممتازة لخشيت أنْ أستغرق هذا السّفر من أسفار «الهلال» دون أن أرضى من ذلك حاجتي وحاجة القُرّاء، ولكنك توافقني فيما أظنّ على أن ما عرضت عليك من صورته كاف كل الكفاية لإثبات ما زعمته في أول هذا الفصْل من أنّ من أيسر الأشياء أن يُصنع لعمر تمثال دقيق رائع دون أن يحتاج المثّال إلى أن يستعين بالخيال.

وقد حفظ التاريخ الصورة المادية لعمر كما حفظ الصورة المعنوية، فقد كان عمر طويلًا يفوق الناس كلهم طولًا، وكان ضخمًا بدينًا، وكان إذا مشى أسرع في مشيته، وكان أبيض اللون إلا في عام الجدب؛ فقد اقتصر على أكل الزيت حتى أفسد عليه معدته فاسودّ شيئًا. وأكبرُ الظن أنّ الذين وصفوه بالسواد لم يروه إلا في ذلك العام.

وخصلة أخرى أختم بها هذا الفصل؛ لأنّ عُمر قد ختم بها حياته وهي الرّقة والأدب والحياء والإكبار لحرمات البيوت. كان عمرُ شديد الحرص على أن يُدفن مع صاحبيه إذا مات، فلمّا طُعن وأحسّ الموت دعا ابنه عبد الله، وقال له: «اذهب إلى عائشة أمّ المؤمنين، وقل لها: إن عمر بن الخطاب يقرأ عليك السلام، ولا تقل: أمير المؤمنين؛ فإني لستُ للمؤمنين أميرًا، ويستأذنك في أنْ يُدفن مع صاحبيه». فذهب عبدُ الله، فقال ذلك لعائشة، وعاد إلى أبيه بإذنها، فقال لابنه: «إذا متُّ احملوني على سرير، فإذا وصلتم إلى بيت عائشة فلا تدخلوا حتى تستأذنوا». وقد حُمل سرير عمر، حتى إذا بلغوا بيت عائشة قالوا: إنّ عمر بن الخطاب يستأذن عائشة أم المؤمنين، ولم يُدخلوا السرير حتى أذنت عائشة. وهنالك دُفن عمر بن الخطاب مع صاحبيه محمد رسول الله، وأبي بكر أول خلفاء المسلمين.

مكتبة مجلة الأزهر

إعداد الأستاذ: محمد شعبان

تسعى «الأزهر» عبر هذا الباب إلى التواصل مع القارئ العزيز من خلال تقديم نبذة عن أحدث الإصدارات الجادة فى شتى مجالات المعرفة، ذلك للمساهمة فى تكوين عقلية واعية وعصرية.



يؤكد «شارل سان برو» في كتابه «حركة الإصلاح في التراث الإسلامي» أن «السلفية تعلق بمستقبل الماضي ولا تتعلق بالتقليد بطريقة خانعة بل تسطى الدروس والثقافة اللتين تضمنان استمرارية وتطور الأمة الإسلامية... إذ تعكس السلفية واقعا إصلاحيا قديما يدعو إلى العلم والتفكير بدلا من الممارسة العمياء والروتين». الكتاب المترجم عن المركز القومى للترجمة يشدد مؤلفه -مدير مرصد الدراسات الجغرافية السياسية بباريس- على أن الإسلام فى جوهره دين العقل والإصلاح الدائم وليس دين الجمود واصفا التفسيرات التى تتجاهل هذه الحقيقة بالسطحية المبنية على الجهل.

إلا أن المؤلف يؤكد على العلاقة الوثيقة بين السلفية والتقدم موضحا أن السلفية تعبير عن الإسلام بفهمه الصحيح... ورغم دفاع المؤلف عن السلفية خاصة لدى مدرسة «أهل الحديث الحنبلية» إلا أنه يشير إلى رفاعة الطهطاوى وجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ورشيد رضا وابن باديس وآخرين كممثلين للتيار السلفى الإصلاحى.

كما يرفض المؤلف اعتبار حسن البنا والإخوان والحركات الإسلامية المعاصرة امتدادا لهذه المدرسة الإصلاحية قائلا: «جماعة الإخوان المسلمين لم يأتوا بجديد على المستوى الدينى والمذهبى ولا يتسم فكرهم بالثراء أو الأصالة ويتمسكون بالمبادئ المقبولة عادة»... كما يهاجم سيد قطب واصفا إياه بالمعتزلى مرة وبالشيعى تارة أخرى تأكيدا على خروجه عن الفكر السنى.



يسد كتاب «الكتابة العلمية» لمؤلفه د. شريف قنديل فراغا فى المكتبة العلمية العربية حيث يقدم المؤلف باختصار وتبسيط خطوات كتابة دراسة علمية أكاديمية أو عامة ورغم أهمية مثل الأمر إلا أن المكتبة العربية لا يوجد بها مثل هذا النوع من الكتب... الكتاب لا يقف فقط عند فنية الكتابة العلمية بل يقدم نبذة عن مبادئ التفكير العلمى وطرق وكيفية تحصيل وتجميع المادة العلمية بطريقة مشوقة يقول المؤلف:

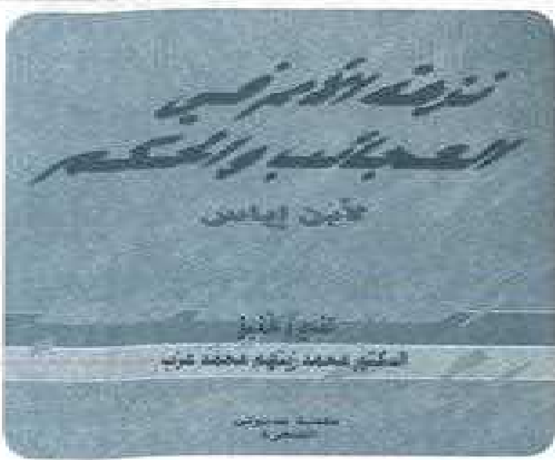
«إن القواعد الصماء لا تنتج أسلوبا علميا جيدا فحسن التعبير يعتمد فى جانب منه على التذوق والإدراك وتقييم الموقف.. لكن معرفة قواعد الكتابة العلمية شرط لازم للكتابة الجيدة فهى تصقل الموهبة وتساعد بشكل كبير على تحسين الكتابة العلمية لقد قال فرنسيس بيكون: إن الأعرج الذى يسير فى الطريق الصحيح يسبق المتعجل الذى يحيد عنه».



أعادت مكتبة الآداب نشر كتابي «تحرير المرأة» لقاسم أمين و«تربية المرأة والحجاب» لرائد الاقتصاد المصرى طلعت حرب الذى يرد على كتاب قاسم أمين... تم ضم الكتابين ليصيرا كتابا واحدا، كل مؤلف منهم فى وضع معاكس للآخر.. نقطة انطلاق طلعت حرب فى الرد على «تحرير المرأة» هو تأكيده على أن رفع الحجاب والاختلاط اللذين دعا إليهما قاسم أمين هما «أمنية لأوربا من قديم الزمان لغاية فى النفس يدركها كل من وقف على مقاصد أوربا بالعالم الإسلامى».. على أن قاسم أمين فى كتابه يؤكد: «لو أن فى الشريعة الإسلامية نصوصا تقضى بالحجاب على ما هو معروف الآن عند بعض المسلمين -يقصد النقاب والبرقع- لوجب علىّ اجتناب البحث فيه ولما كتبت حرفا يخالف تلك النصوص مهما كانت مضرة فى ظاهر الأمر لأن الأوامر الإلهية يجب الإذعان لها بدون بحث ولا مناقشة»... ثمة أمران هامان فى نقاش حرب وأمين.. الأول: تمتع طلعت حرب بأسلوب راقٍ ومهذب فى الرد على قاسم أمين رغم رفضه لموقفه إلا أنه أكد على رفضه لتكفيره أو تكفير من يؤيده... الأمر الثانى: اطلاع قاسم أمين على أمهات الكتب التراثية عموما والفقهية على الأخص مما أعطى لموقفه سند علمى.



بتصدير تقرير مجمع البحوث الإسلامية كتاب «الحرية الدينية فى الإسلام» لمؤلفه العلامة الراحل الشيخ عبد المتعال الصعيدى... الكتاب بطبعته الثانية منشور ضمن إصدارات مكتبة الأسرة بتقرير المجمع الصادر عام ٢٠٠٠م، كان سجالا بين المؤلف والشيخ عيسى منون عضو لجنة كبار العلماء وشيخ كليتى الشريعة والأصول بجامعة الأزهر حول حد الردة - كما يوضح د. محمد رجب البيومى فى مقدمة الكتاب... ويسرد البيومى قصة الكتاب قائلا: «ألف المؤلف الكتاب لينتهى إلى أن المرتد لا يقتل وهو رأى جديد لما علم وتقرر وقد استند إلى أدلة رآها ترجح وجهة نظره. لم نشر الكتاب فى الطبعة الأولى فأحدث انتباها غير عادى وتصدى لنقده عالم كبير من علماء الأزهر هو الأستاذ عيسى منون بمجلة الأزهر فى عددين متواليين، ومضى «وقد شاء الأستاذ عبد المتعال الصعيدى أن يرد على ما قاله معارضه فأصدر الطبعة الثانية التى بأيدينا الآن».



بتحقيق د. محمد زينهم محمد عزب نشرت مكتبة مدبولى كتاب «نزهة الأمم فى العجائب والحكم» لمؤلفه المؤرخ العربى والإسلامى الشهير ابن إياس... يتناول الكتاب حياة مصر منذ بداية الخلق وحتى نهاية القرن العاشر الهجرى سواء من الناحية التاريخية أو الأثرية أو الجغرافية أو الفلكية ويعتبر الكتاب موسوعة علمية متكاملة... يقول ابن إياس فى مقدمته: «لما طالعت كتب تواريخ الأمم الخالية ورأيت ما فيها من العجائب المتوالية استخرت الله أن أجمع كتابا لطيفا أذكر فيه من أغرب ما سمعته وأعجب ما رأيته قاصدا فيه الاختصار لكى لا يطول فى التأليف مجموعه وفى المثل السائر أقصر الكلام مطبوعه وقد ذكرت فيه عجائب مصر وأعمالها وما صنعت الحكماء فيها من الطلسمات المحكمة والبرابى والأهرام وغير ذلك».

أيام لها تاريخ



وسكت الأذان

إعداد: أ/ سعد فتحي سعد

في ١٦ من رجب ١٣٥٣هـ الموافق ٢١ من فبراير ١٩٢٥م أسكت الأذان ومنع أداء الصلاة بجامع «آيا صوفيا» في تركيا، وكان هذا من أشد الإهانات والطعنات التي وجهت للمسلمين بعد سقوط الخلافة، فقد أصدر (مصطفى كمال أتاتورك) قرارا في ذلك الوقت بتعطيل الصلاة، ومحو ما فيه من آيات قرآنية وأحاديث، والكشف عما ستره المسلمون من الصور النصرانية والصلبان، وبتحويل هذا الجامع إلى متحف، ففقد الجامع طابعه الديني الذي استمر عليه لمدة تزيد على أربعة قرون، وكانت هذه خطوة ضمن خطة علمانية شاملة لإزالة كل أثر للإسلام في تركيا مركز الخلافة العثمانية.

وكان شاعر النيل حافظ إبراهيم ـ رحمه الله ـ ممن عبر عن هذه الحادثة الشديدة، فكتب قصيدة مؤثرة تنضح بالعاطفة الصادقة، والغيرة المخلصة على هذا المعلم الإسلامي. يقول فيها:

أيا صوفيا حان التفرق فاذكري
عهود كرام.. فيك صلّوا وسلموا
إذا عُدت يوما للصليب وأهله
وحلّى نواحيك المسيح ومريم
ودُقّت نواقيسٌ وقام مزمّر
من الروم في محرابه يترنّم
فلا تنكري عهد المآذن إنه
على الله من عهد النواقيس أكرم
وكيف يذل المسلمون وبينهم
كتابك يُتلى كل يوم ويُكرمُ!
نبيّك محزونٌ وبيتك مطرقٌ
حياء وأنصار الحقيقة نُوَّمُ
عصينا وخالفنا فعاقبت عادلا
وحكمت فينا اليوم من ليس يرحم!.

تاريخ «آيا صوفيا»:

مرت آيا صوفيا بثلاث حقب زمانية: بداية من لحظة إنشائها ككنيسة، وتهدمها واحتراقها أكثر من مرة، مرورا بالحقبة التي تم فيها تحويلها لمسجد والإضافات التي لحقت به، وانتهاء بوضعها الحالي كمتحف شاهد على التاريخ.

مرحلة الكنيسة:

ترجع قصة الكنيسة إلى عهد الإمبراطور البيزانطي قسطنطين؛ ولكن هذه الكنيسة دُمرت وأحرقت بسبب الزلازل، فقام ببنائها

الأمبراطور ثيودوسيوس الثاني عام ٥١٥ م، ولكنها دُمّرت مرة أخرى في إحدى الثورات عام ٥٣٢ م، فقرر الأمبراطور جوستنيان - في القرن السادس بناءها للمرة الثالثة، فأمر مهندسه المعماري ببناء صرح معماري تاريخي، فجُلبت مواد البناء من الحجارة والأعمدة الرخامية من مصر وبعلبك وأثينا وروما، وأنفق على البناء الملايين من الفرنكات الذهبية، واستخدم أكثر من عشرة آلاف عامل في البناء طوال خمس سنوات..

وقد تمّ الانتهاء من بناء الكنيسة وافتتاحها عام ٥٣٧ م. وهذا البناء الفريد مازال قائما إلى يومنا هذا، وهو مبني على الطراز البازيليكي، ويتميز بوجود قبة من أكبر قباب العالم، يبلغ طول قطرها ٣٢ مترا، وترتفع عن الأرض بعلو ٥٥ مترا، وهي محمولة على أربعة عقود نصف دائرية، ترتكز أطرافها على أربعة أكتاف مربعة، ويحف بها نصف قبة من جهتين متقابلتين، ناهيك عن ألواح الرخام بأنواعه وألوانه البديعة، التي تغطي الجدران، وكذلك النقوش والرسومات والفسيفساء.

وظلت كنيسة لمدة ٩١٦ عاما إلى أن فتحت القسطنطينية على يد محمد الفاتح وجيشه (فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش).

مرحلة المسجد:

عندما دخل السلطان محمد الفاتح القسطنطينية أمر بتحويل كنيسة آيا صوفيا إلى مسجد للمسلمين. ذكر بعض المؤرخين أن محمد الفاتح اشتراها من ماله الخاص من بين أملاك الروم، وأوقفها مسجدا جامعا للمسلمين. ويُقال أيضا إن السلطان الفاتح توجه إلى الكنيسة ودخلها مترجلا عن فرسه، وأمن القساوسة والرهبان وعاملهم معاملة حسنة، وصلى فيها صلاة الشكر لله تعالى على هذا الفتح العظيم، ولما حان موعد الصلاة أمر السلطان برفع الأذان فيها، وصلى ومن معه من القادة والجند صلاة العصر، ثم أمر بتحويلها الى مسجد حتى تُقام بها أول جمعة بعد يوم الفتح، معتمدا على فتوى شرعية تقول: يجوز تحويل الكنيسة الى المسجد لأن البلد فتحت عنوة والعنوة لها حكمها في الشريعة الإسلامية، وهذه الفتوى قال بها الشيخ (آق شمس الدين)، وهو أول من ألقى خطبة الجمعة في مسجد آياصوفيا.

ومن مظاهر هذا التحويل، إزالة الصليب من أعلى القبة ووضع هلال بدلا منه، وبناء مئذنة في أحد أركان البناء، ووضع منبر خشبي بصحن الكنيسة. كما قام العمال بإزالة الصلبان والتماثيل داخل الكنيسة، وطمسوا الصور والنقوش الفسيفسائية بطبقة من الجير والجبس، وبعض الرسوم تركت لأنها لاتخالف الشريعة الإسلامية، ثم نقشوا على هذه الطبقة آيات من القرآن الكريم.

ومع مرور الوقت بنى محمد الفاتح مئذنة ثانية في الطرف الجنوبي الشرقي للمسجد، كما بُنيت المئذنة الشمالية الشرقية في زمن السلطان بايزيد الثاني، أمّا المئذنة الغربية فقد أنشأها المعماري سنان باشا بتعليمات من السلطان سليم الثاني، بحيث أصبح للجامع أربع مآذن. أما دكّة المُبلغ الرخامية الواقعة في داخل صحن المسجد فقد أنشأها السلطان مراد الثالث، والميضة الواقعة في مدخل المسجد بنيت في عام ١٧٤٠ م.

كما بُنيت مدرسة للصبيان في عام ١٧٤٢ م في زمن السلطان محمود الأول. كما تقع مجموعة من مقابر السلاطين الأتراك في فناء المسجد، أمثال سليم الثاني وأحمد الثالث ومراد الثالث، والسلطان مراد الثالث هو الذي زاد في المسجد الدعائم العظيمة حفاظاً على جدرانه المتداعية بسبب الزلازل، كما أقام حوله المدارس والمدافن والمآذن العظيمة، أما الكتابات الموجودة في بطن القبة فقام بها الخطاط قاضي العسكر مصطفى عزت أفندي، أمّا الشمعدانان الكبيران الموجودان على طرفي المحراب فقد جلبهما السلطان سليمان الأول. وفي عهد السلطان محمود الأول أنشئت مكتبة آياصوفيا سنة ١٧٤٠ م، وتُعدّ من أهم مكتبات أسطنبول. وفي زمن السلطان سليم الثاني أضيف فناء خارجي للجامع أطلق عليه اسم (الحريم) كما تمّ تحويل قسم التعميد وقت أن كان المسجد كنيسة - إلى مقبرة للسلطانين مصطفى الأول، و إبراهيم الأول.

كما أضاف الفن الإسلامي إلى مسجد آيا صوفيا المحراب والمنبر والدكة والشرفة المغطاة بالقفص الذهبي، وتقع على يسار المحراب، وتسمى (هنكار محفلي)، أي المكان الذي يصلي فيه السلطان يوم الجمعة، وله مدخل من وراء الجامع. وقد عُلق في صدر المكان في الأركان الأربعة فوق الأكتاف ست لوحات مستديرة كُتب على الأولى منها لفظ الجلالة (الله) وعلى الثانية اسم النبي (محمد ﷺ)، ثم كتبت على اللوحات الأربع الأخرى أسماء الخلفاء الراشدين: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي.

وهذه اللوحات من عمل الخطاط (تكنجي زاده إبراهيم أفندي).

ويُعتبر القسم البرونزي الموجود في الجهة الجنوبية من المكتبة تحفة فنية رائعة، فجدران هذا القسم مغطاة ببلاط ثمين يعود صنعه إلى القرن الرابع عشر الميلادي.

مرحلة المتحف:

آيا صوفيا أغرب متحف في العالم حيث إن هذا البناء له طابعين مختلفين دينياً وتاريخياً، حيث إنه كنيسة ومسجد في آن واحد، ومع هذا الاختلاف أصبح متحفا للمسلمين والنصارى ورمزا ونموذجا لتقارب الأديان.

ظلت آيا صوفيا مسجداً منذ عام ١٤٥٣ م إلى عام ١٩٣٥ م، أي ما يقرب من ٤٨١ عاما، ففي عام ١٩٢٣ عقدت تركيا معاهدة (لوزان)، وقبلت بشروط الصلح المعروفة بشروط كرزون الأربعة، وهي: قطع كل صلة لتركيا بالإسلام، وإلغاء الخلافة الإسلامية إلغاء تاماً، وإخراج الخليفة وأنصار الخلافة والإسلام من البلاد ومصادرة أموال الخليفة، واتخاذ دستور مدني بدلاً من الدستور العثماني. وقام بتطبيق هذه الشروط مصطفى كمال أتاتورك، فمنع الخليفة من الخروج إلى الصلاة، وخفض مخصصاته إلى النصف ثم نفاه، ثم ألغى الخلافة الإسلامية، وألغى وزارة الأوقاف، وأغلق أغلب المساجد، ولم يسمح بغير مسجد واحد في كل دائرة من الأرض يبلغ محيطها ٥٠٠ متر. كما ألغى منصب شيخ الإسلام والمفتي، وأحل القوانين الغربية محل الشريعة الإسلامية، وغير حروف الكتابة التركية من العربية إلى اللاتينية، وأصدر قراراً بقراءة القرآن بالتركية لا بالعربية. فلم يسلم



مسجد آيا صوفيا من هذا التغول.

كانت لافتة مكتوب عليها (مغلق للتصليحات) كانت هذه اللافتة المصوغ الأول لغلق المسجد إلى ماشاءالله. وبعد هذه الخدعة شرعت الحكومة التركية في تنفيذ ما قررته واعتزمته، وهو تحويل مسجد آياصوفيا إلى متحف للفن البيزنطي والفن الإسلامي بدلاً من أن يكون مسجداً، وهكذا أسكت الأذان من هذا الجامع بعد ما استمر فيه ٤٨١ سنة أي منذ افتتاح المسلمين لهذه العاصمة يوم ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣ م.

بعد هذا صدر قرار من حكومة تركيا يقضي بوقف الصلاة بالجامع، ونزع سجاجيده ولوحاته الكتابية العربية ومنبره، وتحويله إلى متحف سياحي منذ عام ١٩٣٤ م.

عملية تحويل المسجد إلى متحف، قام بها البروفسور (توماس هوتمور) بالمعهد البيزنطي في بوسطون بأمريكا، عندما قام بإزالة طبقة الملاط لإظهار اللوحات والصور الفسيفسائية المسيحية، وأول عمله كان في الأيوان الداخلي وكشف فيه عن اثني عشر صليباً، وهي صلبان بارزة وملونة بلون أحمر وملبسة بالذهب، وبعضها ملبس بياقوت أزرق أو بالزمرد، وكلها دقيقة الصنع، ويرجع عهدها إلى القرن السادس الميلادي.

وفي العام التالي، اتفقت الحكومة التركية مع لجنة الآثار على إظهار ما بآيا صوفيا من الصور الدينية القديمة. وقامت اللجنة برفع الأبسطة التي كان المسجد مفروشاً بها وقد أنزلت اللوحات المستديرة الست، ولم يتمكنوا من إخراجها من الأبواب؛ لأن قطر كل منها يبلغ ثمانية أمتار، فأعيدت إلى مكانها مرة أخرى، ومازالت موجودة حتى يومنا هذا.

وقد تحركت جهود حثيثة لإعادة الصلاة في هذا الجامع واستمرت هذه الجهود حتى تم رفع الأذان في جامع آيا صوفيا لأول مرة بعد مرور ٧٨ سنة على تحويله إلى متحف، وذلك يوم ٢٩ مايو ٢٠١٢ م في ذكرى فتح القسطنطينية على يد محمد الفاتح.

المؤتمر العام الثالث والعشرون للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية:

خطورة الفكر التكفيرى والفتوى بدون علم على المصالح الوطنية والعلاقات الدولية

متابعة: رمضان ثابت - أبو السعود محمد

بحضور فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور/ أحمد الطيب - شيخ الأزهر، عقد المجلس الأعلى للشئون الإسلامية مؤتمره العام الثالث والعشرين بعنوان: «خطورة الفكر التكفيري والفتوى بدون علم على المصالح الوطنية والعلاقات الدولية»، وذلك برئاسة الأستاذ الدكتور محمد مختار جمعة وزير الأوقاف يومي ٢٤ - ٢٥ جمادى الأولى ١٤٣٥ هـ الموافقين ٢٥ - ٢٦ مارس ٢٠١٤ م بفندق كونراد.

استهلت الجلسة الافتتاحية الأولى بمشاركة سعادة رئيس مجلس الوزراء وحضور قداسة البابا وكوكبة من السادة أصحاب المعالي والفضيلة ورؤساء الوفود من مختلف أنحاء العالم بكلمة رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية الأستاذ الدكتور/ محمد مختار جمعة وزير الأوقاف -بعد تلاوة آيات من الذكر الحكيم- ليرحب بالسادة الضيوف ويعرّف برسالة المؤتمر بقوله: «إلى كل محبي السلام في العالم نبعث بهذه الرسالة الرافضة لكل ألوان التشدد والتطرف، رسالة السماحة والوسطية التي يحمل لواءها بقوة أزهرنا الشريف، وتنطلق من حضارتنا المصرية الضاربة بسماحتها في أعماق التاريخ»، ويحذّر من خطورة إطلاق التكفير دون دليل قاطع، وخطورة الفتوى بغير علم ... ويختم كلمته بقوله: «وإننا إذ نقيم هذا المؤتمر نؤمّل أن يقدم حلولا جذرية وإسهامًا جادًا في القضاء على الفكر التكفيري، وفوضى الفتاوى التي تضر بالمصالح الوطنية والعلاقات الدولية، وأن نخرج برؤية وخطة واضحة المعالم لنبذ كل ألوان العنف والتشدد، ترفض الإرهاب والتكفير، وتؤسس لاعتماد صوت الحكمة والعقل والسماحة والتيسير منهجًا للدعوة والفتوى.

والله من وراء القصد وهو حسبنا ونعم الوكيل».

وفيما يلي نص كلمة فضيلة الإمام الأكبر / الأستاذ الدكتور أحمد الطيب - شيخ الأزهر:

«بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه.

معالي السيد المهندس / إبراهيم محلب - رئيس مجلس الوزراء، نائبًا عن السيد الرئيس المستشار/ عدلي منصور - رئيس الجمهورية حفظه الله ورعاه.

السادة أصحاب المعالي والفضيلة.

قداسة البابا / تواضروس الثاني - بابا الكنيسة الأرثوذكسية وبطريرك الكرازة المرقسية.

الحفل الكريم!

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته...

وبعد:

فأهلًا بكم جميعاً ومرحبًا في بلدكم الثاني: مصر الكنانة، وأرجو لكم جميعًا التوفيقَ من الله تعالى في هذا المُؤتمر الذي تتحدثون فيه عن أخطر قضايا أمّتنا العربيّة والإسلاميّة في عصرنا الحاضر.. تلكم هي قضيّة فوْضى تكفير المسلمين، وفوْضى الفتوى بحل قتلهم وقتالهم. وهي محنة كُبرى تُعاني منها بعضُ مُجتمعاتنا عناءً شديدًا، وكُنّا نظنُّ أنَّ هؤلاء المكفرين قد استعادوا وعيَهم وفهمهم لدينهم فهمًا صحيحًا، وتخلّصوا من هذه الآفة ومن توابعها المُدمّرة منذ تسعينيات القرن الماضي في مصرَ وغيرها من البلدان والأقطار، غير أنّنا فوجئنا بهذه الآفة تطل - أخيرا - على بلادنا بوجهها القبيح وتقضُّ مضاجعَ شُعوب عربيّة وإسلامية بأكملها في آسيا وإفريقيا على السّواء؛ تقتُل وتُدمّرُ وتُفجّرُ وتغتال الآمنين الغافلين البُرآء، وتُحوّلُ حياةَ الناس إلى جحيم لا يُطاق..

ومن المُؤلم غايةَ الألم أنْ ترتكَب هذه الجرائمُ باسم الإسلام وباسم شريعته السّمحاء، وتنفّذ عملياتها المدمرة مع صَيْحات التّهليل والتّكبير ودعوى الجهاد والاستشهاد في سبيل الله. الأمرُ الذي استغلّه الإعلامُ الغربيّ أسوأ استغلالٍ في تشويه صُورة الإسلام، وتقديمه للعالم بحسبانه دينًا همَجيًا مُتعطّشًا لسفك الدّماء وقتل الأبرياء ويحثّ على العُنف والكراهية والأحقاد بين صُفوف أبنائه وأتباعه.

وظاهرةُ تكفير المُخالفين هذه - وما يترتّبُ عليها من استباحة الدّماء - ليست بالجديدة على المُجتمعات الإسلاميّة، وفقهُها فقهًا ليس فقهًا جديدًا على المسلمين، فكلُّنا درسنا تاريخَ فرقة الخَوارج، وظُهورَها المُبكّر في صَدر الدولة الإسلاميّة، وكيف أنّها انحرَفتْ إلى هذه الكارثة نتيجة انحراف سابق في تصوُّرها العَقديّ والفقهيّ، وأعني هنا فهمَها الخاطئ للعلاقة بين مفهوم الإيمان بالله -تعالى- كأصل، والأعمال كفرع، وكيف ضلّت حين تشبّثت ببعض الظواهر وأدارت ظهرَها لظواهر أخرى تُعارضُها وتدعو إلى النقيض مما فهموه وتشبّثوا به من بعض النُّصوص القرآنية.

ونحن لا نستطيعُ بطبيعة الحال أنْ نعرض

في كلمة كهذه تفاصيل هذا الموضوع نشأةً وأسبابًا، وتطوّرًا وعقيدةً، وفقهًا ومضمونًا، ولكن قد يكون من المناسب الحديثُ في إيجاز عن عودة قضية التكفير، والبحث عن السبب الأعمق الذي مكّن من عودتها، واستئنافها لنشاطها المدمِّر.

وإنا لنعلم من تاريخ قضية «التكفير» أنّ مُجتمعاتنا في مصرَ وفي العالم العربيّ والإسلامي لم تكن تعرف ظهورَ جماعة تؤمن باستحلال تكفير المجتمع وجاهليته وتقول بوجوب المفاصلة الشعورية مع أفراده -قبل عام ٦٧ من القرن الماضي - كما تعلم - وأنّ جماعة التكفير الحديثة وُلدتْ في السجون والمُعتقلات بسبب من سياسة العُنف والتنكيل التي عُومل بها الشبابُ المنتمي إلى الحركات الإسلاميّة، وأنّه حين طُلب منهم في ذلكم الوقت إعلانُ تأييد الحاكم سارعَ معظمهم إلى كتابة ورقة تأييد. بينما رفضت قلّةٌ منهم هذا العرض، وعَدوا موقفَ زُملائهم هذا تخاذُلًا في الدِّين، وتمسّكوا برفضهم هذا الإعلان، وثبتوا في موقفهم، وما لبثوا أن انعزلوا في صلاتهم عن إخوانهم، وأعلنُوا كفرَهم لأنّهم أيّدوا حاكمًا كافرًا، كما أعلنوا أنّ المجتمعَ بكلّ أفراده كافر بسبب موالاته لحاكم كافر، ولا فائدة من صلاة أفراد هذا المُجتمع ولا صيامهم، ونادَوا بأنّ الخُروج من الكفر إنّما يكون بالانضمام إلى جماعتهم ومُبايعة إمامهم»[1].

هذه الحادثةُ ربّما تُمثّلُ أوّلَ ظُهور لجماعة التكفير في سنة ١٩٦٧ م بعدَ اندثار فرقة الخوارج والفرق الباطنيّة الأخرى التي أصبحت في ذمّة التاريخ.. وهكذا عادت ظاهرة التكفير الجديدة على أيدي شباب لم يكن يملك من المؤهلات العلمية والثقافية لمعرفة الإسلام إلا الحماسَ وردودَ الأفعال الطائشة الحادّة، وانتقامَ العاجز المُستضعَف من الجلّاد المُستبدّ. فكان التكفيرُ هو الصّيغةُ المُثلى والأسرعُ للتعبير عن واقعهم المرير.

ومن هنا لم تكن أحكامُهم أو تصوّراتُهم نابعة من فقه سديد أو فكر رشيد، وإنما جاءت انعكاسًا لواقع حافل بالقهر والضّغوط؛ مما جعَل بعضَ المُدافعين عن هذه الحركة يُصوّرُ التكفيرَ في برنامجهم الحركي على أنّه في الحقيقة «فكر أزمة» وليس منهجًا في الحركة الإسلاميّة رغم جُنوح البعض إليه[2].

هذا، ويذهب آخرون إلى أنّ نشأةَ التكفيرِ في العصر الحديث لم تكن على أيدي هؤلاء الشباب الذين أعلنُوا تكفيرَ الحاكم والمُجتمع في سُجونهم في أواسط الستينيات من القرن الماضي، وإنّما نشأ التكفيرُ عام: ١٩٦٨ م في السجون - أيضًا - على أيدي جماعة أخرى سمّت نفسها جماعة المسلمين، ثم عُرفت فيما بعدُ باسم: «جماعة التكفير والهجرة»، وتأثّرت بها جماعاتٌ إسلاميّةٌ أخرى بعد ذلك.

وأيًّا كان سببُ نشأة التكفيريين، فإنّ الذي لا شكّ فيه هو أنّ السجون وما دار فيها من انتهاكات في ذلك الوقت قد دفعت هؤلاء الشباب دفعًا إلى اعتقادات فاسدة وتصوُّرات شاذّة، والذي يُراجع المؤلفات التي كتبَت في رهق مصادرة الحريات قديمًا وحديثًا، يعثر فيها على كنز من الآراء والأفكار التي لو قُدِّر لها أن تُكتَبَ في جوّ الحرية لتغيّرت شكلًا ومضمونًا.

غير أنّ السجون ليست هي السببَ الأوحدَ في عودة التكفير في عصرنا هذا، فثمّة - إلى جوارها فيما أحسبُ - سببٌ آخر أعمقُ في التشجيع على التكفير والإغراء به واستسهالِ الخطب في شأنه، وهو هذا التُّراث الطويل المُتراكم الذي يُمكن أن نُطلقَ عليه تراث الغلوّ والتشدد في الفكر الإسلامي، هذا التراث الذي يُعبّر منذ نشأته عن انحرافٍ واضح عن عَقائد الأمّة وجماهيرها؛ وهو في كل الأحوال تراث ينتسب بصورةٍ أو بأخرى إلى تراثِ الخوارج الذين حذّر منهم النبيّ ، ورفضَتهم جماهيرُ الأمّة الإسلاميّة قديمًا وحديثًا.

ومن اعتقادي أن محورَ الخلاف بين عقيدة التكفيريين وعقيدة سائر أئمة المسلمين يكمُن فيما يُسمّى في مبحث الإيمان والإسلام عند عُلماء العقيدة بعلاقة العمَلِ بجوهرِ الإيمان وحقيقته.

واسمَحُوا لي -أيها السّادةُ العُلماءُ الأفاضلُ- أن أكرّرَ على مَسامعكم كلامًا إن يكن ليس بالجديد عليكم، فإنّه كثيرًا ما يغيب عن طائفة من الدارسين والراصدين والمُحلّلين لهذه القضيّة، ثم هو ما يقتضيه المقام الآن.

من المعلوم - أيها الإخوة - أنّ مذهبَ أهل السُّنّة والجماعة في حقيقة الإيمان أنّه التصديقُ القلبيُّ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، إلى آخر ما ورد من الأحاديث الصحيحة التي تفسّرُ مفهومَ الإيمان بالاعتقاد القلبي الجازم، وقد عرفه النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم في صحيحه بقوله: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ولقائه ورسله وتؤمن بالبعث»، أمّا الأعمال من صلاة وصيام وحجّ وزكاة، ومن فعل الواجبات وتركَ المُحرّمات؛ فإنّها بمقتضى التعريف النبوي لا تدخل في حقيقة الإيمان، أي: ليست جزءًا مقومًا لماهيته بل هي شرطُ كمالٍ؛ ولها شأن خطير في زيادة الإيمان ونقصه، فهي تصعَدُ بالإيمان إلى أعلى درجاته، كما تهبطُ به أيضًا إلى أدنى درجاته، ومقتضى ذلك أنّ زوالَ الأعمال لا يُزيل الإيمانَ من أصله، بل يبقى المؤمنُ مؤمنًا حتى وإنْ قصّر في الطاعات، أو اقترفَ المعاصي والسيّئات، ولا يصحّ أنْ يُطلَق عليه لفظُ الكفر بحالٍ من الأحوال ما دام مُحتفظًا بالاعتقاد القلبيّ الذي هو حقيقةُ الإيمان ومَعناه.

هذه النُّقطةُ تحديدًا هي فيصلُ ما بين عقيدة أهل السنة والجماعة من الأشاعرة والماتريدية وأهل الحديث، وبين غيرهم ممن يَجعلُون الأعمالَ داخلةً في حقيقة الإيمان، ويُقرّرون أنّ من ارتكب كبيرةً فقد زال إيمانُه، وأصبح كافرًا خارجًا عن الملّة؛ وهنا يفتح الباب على مصراعيه لسفك الدماء وسلب الأموال.

وهذه النُّقطةُ أيضًا هي فيصل التفرقة بين عقيدة الجمهور، وبين فرقة المُعتزلة الذين يقولون بأنّ مرتكب الكبيرة ليس مؤمنًا وليس كافرًا، وإنّما هو في منزلةٍ بين المنزلتَين، ويُسمّونه الفاسقَ، في كلامٍ طويلٍ

١- سالم علي البهنساوي: الحكم وقضية التكفير ٢٤، ٢٥. دار الأنصار. القاهرة ١٩٧٧ م / ١٣٩٧ هـ.

٢- سيد قطب والتكفير: أزمة أفكار أم مشكلة قراء. إعداد وتحرير د. معتز الخطيب ص: ٤٤. مدبولي. القاهرة ٢٠٠٩ م.

رفضه عُلماءُ أهل السُّنَّة.

والذي يَهُمُّني بيانُه الآنَ هو أنَّ بعضًا من أصحاب المذاهب الآنَ تكوَّن لديه تراث يتشدَّد في مفهوم الإيمان ويَستميت من خلال التَّدريس والكتابات والمُؤلَّفات والقنوات الفضائية في أنْ يَغرس في عُقول الشَّباب أنَّ المذهبَ الصحيح هو المذهبُ الذي يَجعَلُ الإيمان مزيجًا من الاعتقاد والعمل، وأنَّ الاعتقادَ أو التصديق القلبيَّ وحدَه لا يكفي في تحقُّق معنى الإيمان.

وليتَ أصحاب هذه المَذاهب المتشدِّدة توقَّفوا عند طَرْح مذهبهم بحسبانه رأيًا من الآراء، أو مذهبًا من المَذاهب؛ إذن لهانَ الخَطْبُ وسَهُلَ الأمرُ؛ ولكنَّهم راحوا يُروِّجون مذهبَهم هذا على أنَّه الحقّ الذي لا حَقَّ سواه، وأنَّ المذهبَ الأشعريَّ مذهبٌ ضالٌ ومُنحرفٌ ولا يُعبِّرُ عن حقيقة الإسلام في هذا الموضوع، يقولون هذا برغم أنَّ أكثر من ٩٠٪ من جَماهير المسلمين شرقًا وغربًا أشاعرةٌ يُؤمنون بأنَّ الإيمانَ هو التصديقُ القلبيُّ، وأنَّ الأعمالَ تَزيدُ وتَنقُص من الإيمان، ولكنَّها لا تُزيله ولا تَنقُضُه من أصله.

ونحن إذ ندعو الآنَ، وفي كلمتنا هذه، إلى عودة الوعي بمذهب الأشاعرة والماتريدية وأهل الحديث في هذه القضية؛ فإننا ندعو إلى مذهب درجت عليه جماهير الأمة الإسلامية على امتداد تاريخها الطويل وهو المذهب الذي يُضيِّق دائرة التكفير، بحيث لا يقع فيها إلا مَن يجترئ على الكفر الحقيقي وذلك بجحد ركن من أركان الإيمان أو جحد ما عُلِم من الدِّين بالضرورة.

هذا المذهب الذي تُقرِّرُ قاعدته الذهبية: أنَّه لا يُخرجُك من الإيمان إلَّا جَحدُ ما أدخَلَك فيه -مذهبٌ تعضُدُه آياتُ القُرآن الكريم، وتَشهَدُ له بانفكاك حقيقة الإيمان عن حقيقة العمل فقد عطَفَ القرآنُ الكريمُ العمل على الإيمان عطفَ مُغايرةٍ في قوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾

في مواضعَ عدَّة.

كما أثبتَ في آياتٍ كثيرةٍ بقاءَ الإيمان في قلب المسلم مع اقترافه المعاصي والذنوب:

﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾

[الحجرات: ٩]

ومَعلومٌ أنَّ القتلَ من أكبر الكبائر، ومع ذلك سَمَّى اللهُ القاتلينَ من الجانبَيْن مُؤمنين.

وأيضًا:

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ۝ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾

[الأنفال: ٥ – ٦]

فقد وصَف اللهُ أصحابَ النبيِّ - بصفات هي من الكبائر، وهي كراهيةُ الجهاد معه – ومُجادلتهم إيَّاه، رغم تبيُّن الحقِّ في أذهانهم، ومع ذلك سمَّاهم القُرآن:

﴿فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

ومن هذه الشَّواهد القُرآنيَّة قوله تعالى:

﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾

[النحل: ١٠٦]

ومنها:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾

[الصف: ٢ – ٣]

ومنها:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾

[التوبة / ٣٨]

إلى شَواهدَ أخرى كثيرة تُخاطِب مُرتكبي المعاصي والذنوب بـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وتَصِفُهم بالإيمان؛ ممَّا يقطعُ بيقين أنَّ مرتكب الكبيرة مؤمنٌ ولا يَجوزُ تكفيرُه، اللهمَّ إلَّا إذا ارتكَب كبيرةَ الشِّرك وأنكر ما عُلِم من الدِّين بالضرورة، فهذا هو الكافرُ لجحوده وإنكاره.

هذا المذهب الأشعريُّ – وهو مذهب الجمهور – هو الذي يُعبِّرُ عن رَجاء الناس ورَجاء العُصاة والمؤمنين في عَفو الله ومغفرته ورحمته، وهو الذي يَعكِسُ يُسرَ هذا الدِّين وحُنُوَّه على أتباعه ورأفتَه بهم... على أنَّ الذي يقرأ مقدمة كتاب إمامنا أبي الحسن الأشعريِّ -رضي الله عنه- المعنون بـ: مقالات الإسلاميين يَعجَبُ للسَّماحة الإسلاميَّة المُدهشة التي تتبدَّى بين جَنبات هذا الإمام الجليل، وذلك حينَ يجمع المقالات والمذاهب والاختلافات التي حدَثَتْ بين المسلمين ويحشدها تحت خَيمة الإسلام ويُسمِّيها: مقالات الإسلاميين واختلافات المُصلِّين، استمع إليه في مقدمته وهو يقول: «اختلف الناسُ بعدَ نبيِّهم – في أشياءَ كثيرة، ضلَّل فيها بعضُهم بعضًا، وبَرِئَ بعضُهم من بعض، فصاروا فِرَقًا مُتباينين، وأحزابًا مُشتَّتين، إلا أنَّ الإسلامَ يَجمَعُهم ويَشتَمِلُ عليهم»[٣]. وهذا نصٌّ جدير بأن يضعَه كل عالم نصب عينيه وهو ينظر إلى ما أصاب المسلمين اليوم من فرقة واختلاف.

هذا المذهبُ أسهَمَ بقُوَّة في حَقن دماء المُسلمين وصيانة أموالهم وأعراضهم، التي حرَّمها النبيُّ – في قواطعَ صريحة بقوله: «كلُّ المسلم على المسلم حرامٌ: دمُه ومالُه وعِرضُه»... «أيُّها الناسُ، إنَّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرامٌ عليكم كحُرمة يَومكم هذا»[٤]، وهو نفسه المذهبُ ذو النَّظرة المُتوازنة للإنسان الخَطَّاء بطبعه، كما نبَّه إليه النبيُّ – في قوله: «كلُّ ابن آدمَ خطَّاءٌ، وخيرُ الخطَّائينَ التَّوَّابون»[٥].

وتَعلَمون أيُّها العُلَماءُ الأفاضلُ من النظر في مذهب الأشاعرة أنَّ قضيَّة التكفير لا يَملِكُها أحدٌ، ولا هيئة ولا جماعة ولا تنظيم، وإنما هي تسمية شرعية بحتة، ولها من الضوابط وتوفُّر الشروط وانتفاء الموانع ما يحصرها في أضيق الدوائر والحدود التي تدرأ بالشبهات، ثم هي منوطة بالقضاء وبأولي الأمر، ولا يُسارِع إليها إلا الجهلةُ من الناس كما يقول حُجَّةُ الإسلام الإمامُ الغزاليُّ، الذي يُقرِّرُ: «إنَّ الخطأ في ترْك كفر ألف كافر أهوَنُ من الخطأ في سَفك محجمة من دم

٣- الإمام الأشعري: مقالات الإسلاميين ... ص ١- ٢.

٤- حديث متفق عليه أخرجه البخاري (٦٧) ومسلم (١٦٧٩) في عدة مواضع من صحيحيهما عن أبي بكرة وغيره.

٥- رواه الترمذي (٢٤٩٩) وابن ماجه (٤٢٥١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

مُسلم»(٦).

كَمَا يَذهَبُ الإمامُ محمد عبده إلى أنّ البُعدَ عن التَّكفير أصلٌ من أصول الأحكام في الإسلام، ويقرر أنه: «إذا صدر قولٌ من قائلٍ يحتمل الكفرَ من مائة وجه، ويحتمل الإيمانَ من وجهٍ واحد، حُمِل على الإيمان، ولا يجوز حملُه على الكفر»(٧).

أيها السادة!

إنّنا هنا – عَلِم الله – لا نرمي إلى إذكاء خلافٍ بين العُلماء، ومعاذ الله أن يكون الأزهرُ مؤسسةَ فرقةٍ بين المسلمين؛ فقد عاش أكثرَ من ألف عام – وسيظل – يُدرّس المذاهبَ الفقهيةَ على اختلافها، والمسائلَ الكلاميَّةَ على افتراقها، والعلومَ الإسلاميَّةَ بمختلف أذواقها ومشاربها، لكن الأزهر قد وجد ضالته – منذ القدم – في مذهبِ أهلِ السُّنَّة والجماعة واتخذه طوقَ نجاةٍ للمسلمين كلما عضّتهم نوائبُ التشرذم وآفاتُ التعصبِ المقيت لمذهبٍ يراه أصحابُه هو الإسلامَ الذي لا إسلامَ غيره.. وسبيلُ الأزهر اليوم هو سبيلُه بالأمس: السعيُ الحثيثُ لجمع كلمة المسلمين ووقوفهم صفًا واحدًا في مهبّ العواصف والتيارات.

أيها السادةُ الأفاضل!

إنّ الأزهر الشريف الذي يرفعُ رايةَ «جمع الكلمة» بين المسلمين، والذي لا يُفرّقُ بين مذهبٍ ومذهبٍ في مقاومة موجات الإلحاد والتغريب والإفساد الأخلاقي، لا يدّخر جهدًا في مقاومة الانحراف التكفيري الطارئ، والمرفوض من جماهير الأمة الإسلامية قديمًا وحديثًا، وليس أمامنا – أيها الإخوة – من أجل تحقيق هذا الهدف، إلا مواصلةُ السعي – بصدقٍ – لجمع علماء المسلمين على كلمةٍ واحدة، لمواجهة الأخطار التي تهدد الجميع ولتحقيق مصالح الأمة ودرء المفاسد عنها، وبدون هذا الالتقاء فإنّ النتائج لن تكون على النحو الذي نرجوه لأمتنا وتقتضيه مصلحتُها في هذه الظروف التي يمرّ بها العالمُ الآن.

أيها الحفلُ الكريم!

إنني منذ اليوم الأول الذي تحمّلتُ فيه المسؤوليةَ في الأزهر الشريف أعلنتُ أنّ وحدة الأمة من مقاصد الشريعة الكلية، وأنّ اجتماع كلمة علمائها في القضايا الحاسمة وفي مقدمتها –قضية التكفير– هو السبيلُ الأوحد للحفاظ على أمتنا الداخلي، ووجودنا في العالم، بل الحفاظ على السلام العالمي كلّه، وإنه لمما يثير التساؤلَ أنّ مبادرتي الملحّة والمتكررة من أجل وحدة الأمة، والتفاهم بين مذاهبها والتفاعل مع علمائها لم تجد بعدُ آذانًا صاغية بالقدر الذي يبعث الأملَ في قدرة هذه الأمة على مواجهة تحدياتها. هذا الأمل الذي أسأل الله العلي القدير أن يحققه على أيديكم بإخلاص عملكم وصدق نواياكم الطيبة.

٦- الاقتصاد في الاعتقاد للإمام الغزالي الصفحة ١٥٧ دار الكتب العلمية بيروت لبنان الطبعة الأولى ١٩٨٣.

٧- الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده، تحقيق د. محمد عمارة ٣ : ٣٠٢، دار الشروق ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م.



إنّ أمتنا – أيها الإخوة – وكما يقرر ديننا الحنيف هي خيرُ الأمم، وإنّ مكانها اللائق بها هو مقدمة الصفوف، وإنّ الأزهر الشريف الذي يفتح أبوابه أمام الجميع مرحبًا ومقدرًا أحوال المكان وظرفية الزمان ومحترمًا اختلافات العلماء – ليجدد دعوته إلى الأمة حكامًا ومحكومين إلى تبني المنهج الوسطي، في الفهم والاعتقاد والعمل، والذي دعا إليه القرآنُ والسُّنَّة، حفاظًا على حاضر الأمة ومستقبلها، وامتثالًا لقول الله تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾

[البقرة: ١٤٣].

وشكرًا لحسن استماعكم...

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛؛؛

كان هذا في الجلسة الافتتاحية الأولى للمؤتمر، وقد اختتمت بكلمة السيد المهندس/ إبراهيم محلب رئيس مجلس الوزراء الذي أكد فيها ثقة مصر في قدرة الأزهر الشريف على الوقوف ضد دعاوى التشدد ودحر الفكر التكفيري، وأنها ستظل آمنة، وأنها خط الدفاع الأول والدرع الحصينة للأمة العربية والإسلامية في مواجهة الفكر التكفيري، معربا عن أمله في قدرة العلماء المشاركين على التكاتف والوقوف صفا واحدا في مواجهة دعاوى الفكر التكفيري والخروج بخطوات عملية لدعم قيم التسامح والعيش المشترك والعودة إلى مبادئ الإسلام السمحة. أما عن الجلسة الافتتاحية الثانية، ومحاور المؤتمر الخمسة، وفعالياته، وأبحاثه، وجلسته الختامية وتوصياته، فهي موضوع الجزء الثاني الذي نعرضه في العدد القادم بإذن الله.

حرمة الدماء



فضيلة الشيخ محمد زكي رزق بداري
الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية

فى يوم الحج الأكبر أعلن النبى ﷺ تحريم إراقة الدماء فعن أبى بكرة، عن النبى ﷺ أنه قال: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهرًا، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب شهر مضر الذى بين جمادى وشعبان»، ثم قال: «أى شهر هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليس ذا الحجة؟» قلنا: بلى، قال: «فأى بلد هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليس البلدة؟»، قلنا: بلى، قال: «فأى يوم هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليس يوم النحر؟» قلنا: بلى يا رسول الله، قال: «فإن دماءكم وأموالكم - قال محمد: وأحسبه قال: وأعراضكم - حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا، فى بلدكم هذا، فى شهركم هذا، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، فلا ترجعن بعدى كفارًا - أو ضلالًا - يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا ليبلغ الشاهد الغائب، فلعل بعض من يبلغه يكون أوعى له من بعض من سمع»، ثم قال «ألا هل بلغت؟»[1].

وقد بين سبحانه أن من قتل نفسا بغير نفس فكأنما قتل الناس جميعًا؛ قال تعالى:

﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾

(المائدة: ٣٢).

لأنه اعتداء على حق الله، الله يبنى هذه البنية، ويرزقها، وينشئها فى أحسن تقويم، ثم يأتى من يهدمها، لو أنك بنيت بيتًا، وجاء أكبر إنسان واعتدى عليه وهدمه؛ لاشتطت غضبًا، ولو استطعت قتله فلربما قتلته؛ لأنه هدم بيتًا بنيته أنت، فكيف بمن يقتل نفسًا خلقها الله فى أحسن تقويم؟.

ولهذا كان من عدل الإسلام القصاص، فالعين بالعين، والسن بالسن، والجروح قصاص، ففى الإسلام مساواة الجميع فى

---

[1] صحيح مسلم (١٦٧٩).

الدية، فلا يزيد إنسان على إنسان مثله بدرهم واحد؛ لأن الكل سواسية عند الله، قال الله:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾

(الحجرات: ١٣).

فالمفاضلة دينية.

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾

ولقد كانوا فى الجاهلية يستبيحون القتل والسلب، فأبطل النبى ﷺ كل ذلك وحرمه، وعصمت دماء المسلمين بالإسلام، وهنا قال فى هذا الحديث: (لا يحل)، أى: لأى إنسان - كان من كان - أن يستبيح قطرة دم مسلم، ولا أن يستبيح عرض مسلم، ولا أن يستبيح جزءًا من مال مسلم.

فاسألوا أهل الذكر:

إن فقه التغيير له ضوابط وشروط، إن غاب هذا الفقه ربما نقع فى الكبيرة التى تلى الشرك بالله، ألا وهى قتل النفس التى حرم الله عز وجل.

فالدماء لها حرمة، وفى مثل هذه المسائل الكبيرة والنوازل الخطيرة يجب أن تراجع الربانيين من العلماء قبل أن نخطو على الطريق خطوة خطيرة، فالدماء لها حرمة، والله خلق الإنسان وكرمه غاية التكريم، نفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وأنزل وبعث له النبيين والمرسلين ليدلوه على الحق، وأنزل مع الأنبياء والمرسلين الكتب، ووضع الله له شريعة محكمة تضمن له السعادة فى الدنيا والآخرة؛ تلك الشريعة التى تضمن حقوق الإنسان، وفى مقدمة هذه الحقوق حق الحياة، ولا يجوز البتة لأى أحد أن يسلب هذا الحق أو يستبيح حماه؛ لأن الله وحده هو واهب الحياة، وليس من حق أى أحد أن يسلب هذه الحياة إلا خالقها جل وعلا، أو فى حدود الشريعة التى شرعها ليسعد بها الخلق فى الدنيا والآخرة:

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾

(الملك: ١٤).

وبعلمه قال تعالى:

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

(الأنعام: ١٥١).

فالقتل كبيرة تأتى بعد الشرك بالله، قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾

(الفرقان: ٦٨-٧٠).

وتدبر معنى هذا الوعيد فى سورة النساء فى قوله تعالى:

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾

(النساء: ٩٣).

وفى صحيح البخارى من حديث ابن عمر أنه ﷺ قال: (لا يزال المؤمن فى فسحة من دينه ما لم يصب دمًا حرامًا)[2].

---

[2] صحيح البخارى (٦٤٦٩).

وفي الحديث الصحيح الذي رواه أحمد وأبو داود والترمذي من حديث معاوية رضي الله عنه أنه ﷺ قال: (كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا من مات مشركًا أو قتل مؤمنًا متعمدًا) [٣] وفي سنن النسائي بسند صحيح من حديث بريدة أنه ﷺ قال: (قتل المؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا). [٤]

وفي سنن النسائي بسند حسن من حديث ابن عباس أنه - ﷺ - قال: يجيء المقتول يوم القيامة تشخب أوداجه دمًا - أي: تشخب عروق رقبته دمًا - يدفع القاتل ليوقفه بين يدي الله وهو يقول: أي رب! سل هذا - أي: سل هذا القاتل - فيم قتلني؟!)، فالدماء لها حرمة عظيمة.

ورغم ذلك نرى الدماء لا حرمة لها عند كثير من الناس، ففي كل يوم يقتل العشرات بل المئات بل الآلاف! وهذا من علامات الساعة كما قال ﷺ: (بين يدي الساعة يكثر الهرج، قالوا: وما الهرج يا رسول الله؟! قال: القتل القتل)، وفي لفظ: (لا يدري القاتل فيم قتل، ولا يدري المقتول فيم قتل).

أما الحالات التي يحل فيها دم المسلم:

هذه الحالات حددها المصطفى فقال - والحديث رواه البخاري ومسلم من حديث ابن مسعود - قال: (لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارقة للجماعة) [٥]، وإليك تفصيلها:

الحالة الأولى: الثيب الزاني

الثيب: هو المحصن الذي رزقه الله بزوجة في الحلال الطيب، فترك زوجته في الحلال، وراح يرتع في مستنقع الرذيلة الآثم العفن، فدنس العرض وانتهك الشرف، فهذا يقتل رجمًا حتى الموت، وقد يستصعب الإنسان منا هذا الحكم، ولكنه سيقول يقتل ثم يقتل ثم يقتل إن مست كرامته أو انتهك عرضه أو دنس شرفه.

الحالة الثانية: القصاص [النفس بالنفس]: والقصاص يقوم به ولي أمر المسلمين، أو من ينوب عنه، إذ أن الأمر ليس متروكًا للأفراد حتى يتحول المجتمع إلى فوضى، القصاص فيه حياة المجتمع، فإن القاتل إن علم أنه سيقتل سيفكر ألف مرة قبل أن يتطاول على النفس التي خلقها رب الأرض والسماء، لذا تجد أن حياة المجتمع في القصاص، أليس الله هو القائل:

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

(البقرة: ١٧٩).

فلو وقفنا على حجم القضايا التي عرضت على المحاكم في العام الماضي لانخلعت القلوب، فإن عدد القضايا أمام المحاكم زاد على ثلاثين مليون من القضايا، وهذا عدد ضخم ما يقرب من نصف هذا الشعب ترى لماذا؟! لأن الحدود ضاعت، لأن الظالم أو القاتل يستطيع بماله أو بسلطانه أن يخرج من جريمته النكراء، والأمم لا تضيع إلا بهذه المجاملات الباطلة.

وقد قال النبي ﷺ لأسامة يوم أن تقدم ليشفع في امرأة مخزومية شريفة سرقت (والله لو فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها؛ إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف

(٣) المستدرك على الصحيحين للحاكم (٨٠٣١).

(٤) سنن النسائي (٣٩٨٨). (٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده حديث رقم ٢-١٤٠٢/٢-١٢٩.

أقاموا عليه الحد) [٦].

ومن بين الأحكام التي يجب أن تشدد عليها في هذا الصدد تحريم الأخذ بالثأر، لأن الدولة أي دولة هي الملزمة بالحفاظ على النظام العام وحماية الأرواح للمواطنين، وهي الملزمة أيضًا بإقامة عقوبة القصاص على القاتل العمد، فلا يجوز الأخذ بالثأر.

الحالة الثالثة: المرتد، لقوله، (والتارك لدينه المفارق للجماعة)، هذه هي الحالات التي يجوز لولي الأمر المسلم أن يقتل فيها فقط.

حكم قتل رجال الأمن وغيرهم من الآمنين: حوادث منكرة كثيرة في هذه الأيام، وهي الاعتداء على رجال الأمن، وهم يؤدون عملهم في حفظ الأمن، ولا شك أن هذا العمل منكر ومحرم بأدلة شرعية مشهورة ومعروفة، ومن الذي قتل غدرًا وظلما؟ إنهم عدد من رجال الأمن الذين يبذلون الغالي والنفيس لحفظ الأرواح والأموال ويسعون جاهدين لمكافحة الجريمة واستتباب الأمن، أهكذا يعاملون؟ وهكذا يشكرون؟ إننا بالرجوع لما جاء في الكتاب والسنة من آيات وأحاديث تجد أن هذا العمل من كبائر الذنوب وقد توعد الله تعالى مرتكبه بعقوبات عظيمة منها:

أولاً: قال الله تعالى:

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾

(النساء: ٩٣).

فتأمل هذه العقوبات التي ذكرها الله جل جلاله (خلود في جهنم - وغضب الجبار عليه - ولعنه له - والعذاب العظيم) إن هذه العقوبات لا تكاد تجدها مجتمعة في ذنب واحد فكيف وقد توعد الله تعالى من قتل مؤمنًا متعمدًا بها لذا ذهب ابن عباس - رضي الله عنه - إلى أن القاتل عمدًا لا توبة له فعن سالم بن أبي الجعد قال: سئل ابن عباس عن قاتل مؤمن متعمدًا؟ قال:

﴿فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾

قيل له: أرأيت له إن تاب وآمن وعمل صالحًا ثم اهتدى؟ قال ابن عباس: أنى له الهدى، قال رسول الله ﷺ (ثكلته أمه قاتل مؤمن متعمدا يجيء يوم القيامة حاملا رأسه بإحدى يديه يلزم صاحبه باليد الأخرى تشخب أوداجه في قبل عرش الرحمن جل وعز يقول سل هذا فيم قتلني) [٧] والذي نفسي بيده لقد نزلت وما نسخها من آية حتى قبض نبيكم ﷺ وما أنزل بعدها من برهان. [٨]

ثانيا: قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾

(الفرقان: ٦٨ - ٦٩).

ثالثًا: أن قتل المسلم من الموبقات والمهلكات عن أبي هريرة - رضي الله

(٦) سنن ابن ماجة - باب الشفاعة في الحدود ٢/٨٥١.

(٧) المنتخب ١/٢٢٧. (٨) رواه أحمد ١/٢٤٠ والنسائي (٣٩٩٩).

عنه - عن النبي - ﷺ قال: (اجتنبوا السبع الموبقات) قالوا: يارسول الله وما هن؟ قال (الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات). (٩)

رابعًا: أن من قتل نفسًا بغير حق فكأنما قتل الناس جميعًا، قال تعالى:

﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ (المائدة: ٣٢).

خامسًا: زوال الدنيا عند الله تعالى أهون من قتل المسلم:

عن عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ قال (لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مسلم).

فتصور أخي الكريم زوال الدنيا كلها أهون وأيسر من قتل مسلم واحد ألا تدرك معى عظم هذا الذنب.

بل جاء في رواية البراء بن عازب - رضي الله عنه - (لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق، ولو أن أهل سماواته وأهل أرضه اشتركوا في دم مؤمن لأدخلهم الله النار). (١١)

سادسًا: لعظم هذا الذنب فإنه أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة فيما يتعلق بحقوق العباد. فعن عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: (أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء). (١٢)

سابعًا: أنه لا يقدم على هذا العمل من وقر الإيمان في قلبه:

عن عبدالله بن عمر - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال (من حمل علينا السلاح فليس منا)، (١٣) فهذا الوعيد لمن حمل السلاح فكيف بمن باشر القتل.

ثامنًا: أن من وقع في ذلك فقد ضيق على نفسه رحمة الله تعالى: عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ (لا يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دمًا حرامًا). (١٤)

تاسعًا: أن حرمة المسلم أعظم عند الله من حرمة الكعبة: عباد الله لا يخفى على أحد من المسلمين حرمة الكعبة المشرفة أتدرى أن حرمة دم المسلم عند الله أعظم من حرمتها فلو رأينا رجلا يهم بهدم الكعبة لقامت قيامتنا غيرة على بيت الله الحرام فكيف ونحن نرى من يقتل أبناء المسلمين فقد نظر ابن عمر - رضي الله عنه - يومًا إلى الكعبة فقال: (ما أعظمك وأعظم حرمتك والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك). (١٥)

عاشرًا: أن الكافر في أرض المعركة إذا نطق بالشهادة حرم قتله مع أن ظاهره إنما نطق بها خوفا من القتل: عن أسامة بن زيد - رضي الله عنه - قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحرقة، فصبحنا القوم فهزمناهم، ولحقت

(٩) رواه البخاري (٢٦١٥) ومسلم (٨٩).
(١٠) رواه النسائي (٣٩٨٧). (١١) صحيح الترغيب والترهيب ٦٢٩/١. (١٢) رواه البخاري (٦٤٧١) ومسلم (١٦٧٨).
(١٣) رواه البخاري (٦٨٤٠). (١٤) رواه البخاري (٦٤٦٩). (١٥) رواه الترمذي (٢٠٣٢) وحسنه.

أنا ورجل من الأنصار رجلاً منهم، فلما غشيناه قال: لا إله إلا الله، فكف الأنصاري فطعنته برمحي حتى قتلته، فلما قدمنا بلغ النبي ﷺ؛ فقال (يا أسامة أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله)، قلت: كان متعوذًا، فما زال يكررها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم. (١٦) وفي لفظ لمسلم فقال رسول الله ﷺ (أقال لا إله إلا الله وقتلته)؟ قال: قلت يا رسول الله إنما قالها خوفا من السلاح. قال: (أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا) قال النووي - رحمه الله تعالى - «فيه دليل للقاعدة المعروفة في الفقه والأصول أن الأحكام يعمل فيها بالظواهر والله يتولى السرائر». (١٧)

ومن خلال ما سبق يتبين تحريم قتل النفس المعصومة بغير حق. ومن الأنفس المعصومة في الإسلام أنفس المعاهدين وأهل الذمة والمستأمنين، فعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «من قتل معاهدًا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عامًا». (١٨)

ومن أدخله ولي الأمر المسلم بعقد أمان وعهد فإن نفسه وماله معصوم لا يجوز التعرض له، ومن قتله فإنه كما قال النبي ﷺ: «لم يرح رائحة الجنة»، وهذا وعيد شديد لمن تعرض للمعاهدين، ومعلوم أن أهل الإسلام ذمتهم واحدة. يقول النبي ﷺ: «المؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم». (١٩)

ولما أجارت أم هانئ - رضي الله عنها - رجلا مشركا عام الفتح، وأراد علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - أن يقتله ذهبت للنبي ﷺ فأخبرته فقال ﷺ: «قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ». (٢٠)

والمقصود أن من دخل بعقد أمان أو بعهد من ولي الأمر لمصلحة رآها فلا يجوز التعرض له ولا الاعتداء لا على نفسه ولا ماله.

وللأسف الشديد فإن الشيطان لا يزال بالعبد حتى يوقعه في المهالك: إما بالغلو في الدين، وإما بالجفاء عنه ومحاربته والعياذ بالله.

والشيطان لا يبالي بأيهما ظفر من العبد؛ لأن كلا طريقي الغلو والجفاء من سبل الشيطان التي توقع صاحبها في غضب الرحمن وعذابه.

وما قام به من نفذوا هذه العمليات التفجيرية الانتحارية من قتل أنفسهم بتفجيرها فهو داخل في عموم قول النبي ﷺ: «من قتل نفسه بشيء في الدنيا عذب به يوم القيامة». (٢١)

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ: «من قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يتوجأ بها في بطنه في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا. ومن شرب سمًا فقتل نفسه فهو يتحساه في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا. ومن تردى من جبل فقتل نفسه يتردى في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا» (٢٢)

وهو في البخاري بنحوه.

ثم ليعلم الجميع أن الأمة الإسلامية اليوم تعاني من تسلط الأعداء عليها من كل جانب وهم يفرحون بالذرائع التي تسهل لهم التسلط على أهل الإسلام وإذلالهم واستغلال خيراتهم. فمن أعانهم في مقصدهم وفتح على المسلمين وبلاد

(١٦) رواه البخاري (٤٠٢١) ومسلم (٩٦). (١٧) شرح مسلم ١٠٢/٢. (١٨) أخرجه البخاري.
(١٩) أخرجه الإمام أحمد حديث رقم ٩٥٩ - ٢٢/٢. (٢٠) أخرجه البخاري ومسلم.
(٢١) أخرجه أبو عوانة في مستخرجه من حديث ثابت بن الضحاك رضي الله عنه.
(٢٢) أخرجه البخاري ومسلم.

الإسلام تغرًا لهم فقد أعان على انتقاص المسلمين والتسلط على بلادهم، وهذا من أعظم الجرم.

وإن الإرهاب الذى يتمثل فى التفجير العشوائى، وسفك الدماء البريئة، وتخريب المنشآت، وإتلاف الأموال المعصومة، وإخافة الناس، والسعى فى الأرض بالفساد أمر لا يقره شرع ولا عقل سليم.

والسعى فى الأرض بالفساد والعدوان على الناس من أقبح الصفات وأعظم المحرمات فى الإسلام قال تعالى:

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾

(الأعراف: ٣٣).

وقال تعالى فى ذلك:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ۝ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾

(البقرة: ٢٠٤ - ٢٠٦).

وقال تعالى:

﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

(المائدة: ٣٣).

وحتى فى الحروب مع الأعداء لم يبح الإسلام قتل من لم يقاتل أو يعين المحاربين فى قتال من نساء المحاربين وأطفالهم ومن الشيوخ المتعبدين فى صوامعهم، قال الرسول ﷺ «لا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا»، وقال ﷺ: «لا تقتلوا شيخًا فانيًا، ولا طفلاً صغيرا ولا امرأة..» قال ﷺ فى حديث آخر «ولا تغلوا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع»(٢٣).

وكان مما يوصى به أبو بكر أول خلفاء الرسول ﷺ قادته: (لا تقتلوا امرأة، ولا صبيًا، ولا كبيرًا هرمًا، ولا تقطعوا شجرًا مثمرًا، ولا تخربن عامرًا، ولا تعقرن شاة ولا بعيرًا إلا لمأكله ولا تغرقن نخلاً ولا تحرقه).

هذى هى أحكام الإسلام فى منع قتل النفس مسلمة كانت أو معاهدة، وفى منع قتل من لم يقاتل المسلمين وإن كان من قوم يحاربون المسلمين، وفى منع الفساد فى الأرض، وإتلاف الأموال والزروع والثمار، فنسبة الأفعال المخالفة لهذه الأحكام إلى الإسلام جهل وظلم، وإن وقع مع بعض المنتسبين إلى الإسلام شىء من ذلك، فإنه يبوء بإثمه والإسلام من ذلك برىء.

ونسأل الله تعالى أن يصلح أحوال المسلمين، إنه على ما يشاء قدير، وصلى اللهم على النبى المختار وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(٢٣) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده حديث رقم ٢٧٢٨، ٣/٢٩٨.

بين الصحف والمجلات

إعداد أ/ محمد جمعة

مسلمو القرم بين البطش الروسي والنفاق الغربي

تحت هذا العنوان جاء مقال الدكتور/ عامر الهوشان المنشور بموقع المسلم بتاريخ: ٢٠١٤/٣/١م يقول:

يبدو أن العصر الذي نعيش فيه هو عصر تصفية الحسابات وتقاسم المصالح بين القوى العالمية الكبرى على حساب المسلمين، حذر الرئيس الأمريكي باراك أوباما روسيا من مغبة أي تدخل عسكري في أوكرانيا، بينما الجنود الروس يعيثون فسادًا هناك، ويعتدون على الأقلية المسلمة بشبه جزيرة القرم بشكل خاص فعليًا وواقعيًا. ومن خلال نفس عبارات النفاق الغربي المعتادة عبّر أوباما عن عميق قلقه إزاء التحركات التي تقوم بها القوات المسلحة الروسية في شبه جزيرة القرم، محذرًا روسيا من أن أي انتهاك لسيادة أوكرانيا سيكون له ثمن.

وقد أكدت شبكة «أوكرانيا برس» حدوث اعتداءات على ممتلكات تعود لمسلمي تتار القرم في منطقة «فنتان»، وهناك أنباء عن إصابة مسلمين بإصابات بالغة في منطقة «سفتسكايا»، فضلًا عن قيام الروس بكتابة شعارات تحريضية ضد تتار القرم، كما كشف السكان المسلمون هناك، دون أن يقوم الغرب بأي تحرك إزاء عودة الاضطهاد الروسي لمسلمي القرم. ومن خلال تسارع الأحداث التي تجري في أوكرانيا ومثيلاتها في العالم كأفريقيا الوسطى وغيرها، يتبين للمتابع أن أمريكا والغرب على استعداد لإعطاء الضوء الأخضر لروسيا وغيرها بقتل المسلمين واضطهادهم في كل مكان في العالم دون أية مواجهة أو اعتراض، اللهم إلا ما تستلزمه الشكليات الدبلوماسية التي لا بد منها «النفاق السياسي»، من مثل عبارات «القلق- التنديد- الاستهجان». وبالإضافة لكل ما سبق نشرت صفحة وزارة الخارجية الروسية على مواقع التواصل الاجتماعي «الفيس بوك» أن القنصلية الروسية في سيمفروبل بدأت بإعطاء جوازات سفر روسية للأوكران في القرم، وأن الأولوية كانت لمقاتلي القوات الخاصة لمكافحة الشغب «البركوت»، والتي أعلن البرلمان الأوكراني عن حلها قبل أيام. ومع كل هذا لم تعد التهديدات الأمريكية والأوربية لروسيا

إزاء هذا التدخل حيز التلويح بعدم حضورها قمة الدول الصناعية الثماني الكبرى المقرر عقده بعد ٣ أشهر في منتجع سوتشي الروسي، مما يشير إلى وجود توافق بينهما على مسألة اضطهاد مسلمي القرم، وربما تهجيرهم أيضًا من بلادهم بعد قرن ونصف القرن من تهجير أجدادهم من نفس المكان على يد الروس، وعدم الاكتراث بحقوقهم المدنية والسياسية في تلك البلاد. إن مخاوف مسلمي القرم من عودة سيطرة الدب الروسي على بلدهم مشروعة ومحتملة، خاصة مع تزايد النفاق الأمريكي والغربي الواضح مع قضايا المسلمين.

العَلمانية والعِلمانية

تحت هذا العنوان جاء مقال د/ محمد عبد المطلب المنشور بجريدة الأهرام الصادرة بتاريخ: ٢٠١٤/٤/١٢م يقول فيه:

تداول المجتمع المصري والعربي هذين المصطلحين بكثير من الخلط والاضطراب، عن عمد حينًا، وبغير عمد حينًا آخر.

(العَلمانية)- بفتح العين-: نسبةٌ إلى (العالَم)، و(العِلمانية)- بكسر العين-: نسبة (للعلم)، وهذا التشابه الصياغي ربما كان أحد أسباب هذا الخلط، بينما الصحيح أن هذا التشابه لا صلة له بالتشابه الدلالي، ذلك أن (العَلمانية)- بالفتح- تعني: أن العالَم هو المرجعية الدلالية للمصطلح، فهو البداية والنهاية، وهو ما يقود منطقيًا إلى غياب فكرة (الخلق الإلهي)، فالعلمانية تسعى إلى: (دنيا بلا دين)، (عقل غير متدين)، فلا سلطة للدين على الكائن الحي وغير الحي بحال من الأحوال.

وحجة أصحاب هذا التفسير التي قدموها لتوثيق عَلمانيتهم: أن الإنسان كائن متغير بطبعه داخليًا وخارجيًا، ويلاحقه هذا التغير داخليًا في حضارته وثقافته وتفكيره وعواطفه، وخارجيًا: في سلوكه العام والخاص، وفي مفردات الواقع التي تحيط به، وهو ما يتنافى مع الدين بكل ثباته وجموده، ومحاولة قهر الإنسان لسلطة الدين تقوده إلى الدمار والفناء.

أما المصطلح الآخر وهو (العِلمانية) بالكسر، فنسبة (للعلم)، وليس هناك من يرفضه أو يتحفظ عليه، إلا إذا كان بدائيًا لا صلة له بالحضارة والمدنية؛ إذ إن العلم صاحب السيادة في كل أنساق الحياة، لكن لا يعني ذلك أنني عندما أريد (شرب الماء) أن أستدعي بحوث الكيمياء والأحياء قبل الشرب، فهذه البحوث والدراسات محلها معامل البحث العلمي التي تخدم المجتمع، وتقدم له ما يساعده في حياته العلمية والعملية.

إذن المقصود بحضور العلم: (حضور المنهج العلمي) في الممارسة النظرية والحياتية، على معنى ربط الأسباب بالمسببات، والعلل بالمعلول، واستخلاص النتائج من المقدمات الصحيحة، ولا يكاد يغيب هذا المنهج إلا في الأمور الفطرية التي فطر الله الإنسان عليها، مثل عوارض الحب والكره، وعوارض الكرم والبخل، وهذا الذي نقوله يتوافق مع ما قاله (العَلمانيون) عن أن الإنسان كائن متغير، لكن هذا التغير يكون في العرض لا الجوهر، أما الفطرة فهي

ثابتة بقدرتها على إدراك التشابه والتخالف، والممكن والمحال، والضار والنافع، وكل منصف يدرك أن الدين أعطى الإنسانَ مساحةً واسعةً من حرية الرأي والفكر الذي ينظم به حياته.

من البدهي أن الدين- أي دين- يقوم على ثلاثية أساسية: (العقيدة- العبادة- المعاملات)؛ أما العقيدة والعبادة فهما علاقة بين العبد والمعبود، ولا دخل لأحد فيهما، وقانونهما حددته الآية الكريمة:

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ (البقرة: ٢٥٦)

لكن المؤسف أن بعض المثقفين سعوا إلى تأويل الآية تأويلًا فاسدًا هو: (من شاء أن يطعن في الدين ويهينه، فهو حر في ذلك)، أما (المعاملات) فهي مجال الاجتهاد طلبًا للمصلحة الجزئية والكلية اعتمادًا على حديث الرسول ﷺ: «أنتم أعلم بشئون دنياكم»، وفي هذا السياق يمارس الإنسان اجتهاده في حرية لا يحدها إلا: (حرية الآخر)؛ لأن الحرية في هذا المجال تكون عدوانًا لا يقبله العَلمانيون والعِلمانيون بفتح العين وكسرها.

عن طائفية إيران من جديد

تحت هذا العنوان جاء مقال د/ عبد العزيز التويجري المنشور بصحيفة الحياة الصادرة بتاريخ ٢٠١٤/٤/١٠م يقول:

التصريحات الأخيرة لبعض كبار المسئولين الإيرانيين حول أهداف إيران في المنطقة، تؤكد من جديد طائفية هذا النظام، فقد صرح اللواء حسن فيروزآبادي، رئيس هيئة الأركان العامة للقوات المسلحة الإيرانية، أن دعم إيران للنظام في سورية هو لمحاربة أعداء إيران البعيدين. ولا ندري من هم هؤلاء الأعداء، فالعبارة عامة وتحتمل كل التأويلات. كما صرح «آية الله محمود نبويان» عضو لجنة الأمن القومي في مجلس الشورى الإيراني، أن إيران دربت ١٥٠ ألف مقاتل سوري وأرسلت ٥٠ ألف مقاتل من حزب الله اللبناني للقتال بجانب النظام السوري، وزودت الحزب بأكثر من ٨٠ ألف صاروخ. هذا بالطبع إلى جانب الميليشيات العراقية وغيرها من القوى المقاتلة مع النظام السوري، التي لم يصرح بها نبويان.

أما اللواء إسماعيل قاءاني، نائب القائد العام لفيلق القدس، فقد صرّح بأن الانتصار المتوقع في سورية هو تمهيد للفتح المبين الذي ينتظر إيران، ولا يمكن لإيران التوقف عند سورية، فهدفها يتمثل دائمًا في قيادة العالم الإسلامي. فأي فتح هذا؟! هل هو فتح القدس؟ أم فتح المنطقة أمام طائفية النظام الإيراني وحلفائه؟!

إن هذه التصريحات المتغطرسة والمشحونة بالحقد والتطرف هي غيض من فيض؛ ولذلك فإن من الضروري أن تدعو منظمة التعاون الإسلامي إلى اجتماع عاجل على مستوى المسئولين السياسيين وعلى مستوى العلماء أيضًا، لبحث هذا الموضوع الخطير، واتخاذ الموقف الحازم تجاهه.

نحن اليوم إزاء تطور خطير ينبغي مواجهته بأقصى حد من الجدية والحزم والحسم والشعور بالمسئولية إزاء حاضر الأمة ومستقبلها.

طرائف.. ومواقف

للشيخ عبدالحفيظ محمد عبدالحليم

من كلام الصحابة رضوان الله عليهم

سئل عبدالله بن عباس - رضى الله عنهما - عن الخائفين من الله من هم؟ وما هي صفتهم؟ فقال: هم الذين صدقوا الله في مخافة وعيده فقلوبهم بالخوف قريحة، وأعينهم على أنفسهم باكية، ودموعهم على خدودهم جارية، يقولون: كيف نفرح والموت من ورائنا والقبور من أمامنا، والقيامة موعدنا وعلى جهنم طريقنا، وبين يدى ربنا موقفنا.

«من تلبيس إبليس»

اعتاد رجل أن يعتذر عن ارتكاب المعاصي؛ بأن رحمة الله وسعت كل شيء، فاعترضه الحسن البصرى - رضى الله عنه - وقال له: هذا من تلبيس إبليس عليك، إنما الرحمة للمتقين ألم تقرأ قول الله تعالى:

﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾

«الأعراف - ١٥٦»

«الشكوى لغير الله»

قال الأحنف بن قيس: شكوت إلى عمي وجعاً في بطني فنهرني ثم قال: يا ابن أخي لا تشك إلى أحد ما نزل بك؛ فإنما الناس رجلان: صديق تسوؤه، أو عدو تسره.

يا بن أخي: إحدى عيني هاتين ما أبصرت بها سهلا ولا جبلا من أربعين سنة، وما أطلعت على ذلك امرأتي أو أحدًا من أهلي «إنما أشكو بثي وحزني إلى الله».

«يستغفر الله من الحمد لله»

قال السرى السقطى: منذ ثلاثين عاماً وأنا في الاستغفار من قولي مرة: «الحمد لله» قيل له: وكيف ذلك؟ قال: وقع ببغداد حريق فاستقبلني أحد الناس قائلاً: نجا حانوتك. فقلت: «الحمد لله»، وأنا نادم من ذلك الوقت على ما قلت، حيث أردت لنفسي الخير دون الناس.

«كم...»

كم فاقة مستورة بمروءة
وضرورة قد غطيت بتجمل
وكم ابتسام تحته قلب شجي
قد خامرته لوعة ما تنجلي

لو سود الهم الملابس لم تجد
بيض الثياب على امرئ في محفل

«الشافعي»

«قالوا...»

- كل وعاء يضيق بما جعل فيه إلا وعاء العلم فإنه يتسع.
- من كساه الحياء ثوبه، لم ير الناس عيبه.
- مرارة الدنيا حلاوة الآخرة، وحلاوة الدنيا مرارة الآخرة.
- الحدة ضرب من الجنون لأن صاحبها يندم، فإن لم يندم فجنونه مستحكم.
- اتقوا ظنون المؤمنين، فإن الله جعل الحق على ألسنتهم.
- أقل ما يلزمكم لله، أن لا تستعينوا بنعمه على معاصيه.
- الثناء بأكثر من الاستحقاق تملق، والتقصير عن الاستحقاق عيّ أو حسد.

«عظة شعرية»

مر عابد براهب في صومعة، فقال له: عظني، قال: أعظك وعليكم نزل القرآن ونبيكم محمد قريب العهد بكم؟ قال العابد: نعم، قال: فاتعظ ببيت من شعر شاعركم أبي العتاهية:

تجرد من الدنيا فإنك إنما
وقعت إلى الدنيا وأنت مجرد

«الأخلاء ثلاثة»

قال أحد الحكماء: للمرء ثلاثة أخلاء: خليل يقول له: أنا معك حيًا وميتًا، وهو: «عمله».

وخليل يقول له: أنا معك حتى تموت، وهو: «ماله».

وخليل يقول له: أنا معك حتى باب قبرك وهو: «ولده».

«حقًا»

دع الأقدار تفعل ما تشاء
وطب نفسا إذا حكم القضاء
ولا تجزع لحادثة الليالي
فما لحوادث الدنيا بقاء
وكن رجلا على الأهوال جلدًا
وشيمتك السماحة والوفاء

«أصدق ما قاله شاعر»

أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل
وكل نعيم لا محالة زائل

وقد أخذ المعنى من قول الله - تعالى -:

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾

«القصص: ٨٨»

«نصيحة»

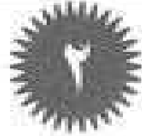
قال القرطبي: من أكثر من ذكر الموت أكرم بثلاثة أشياء: تعجيل التوبة، وقناعة النفس، والنشاط في العبادة.

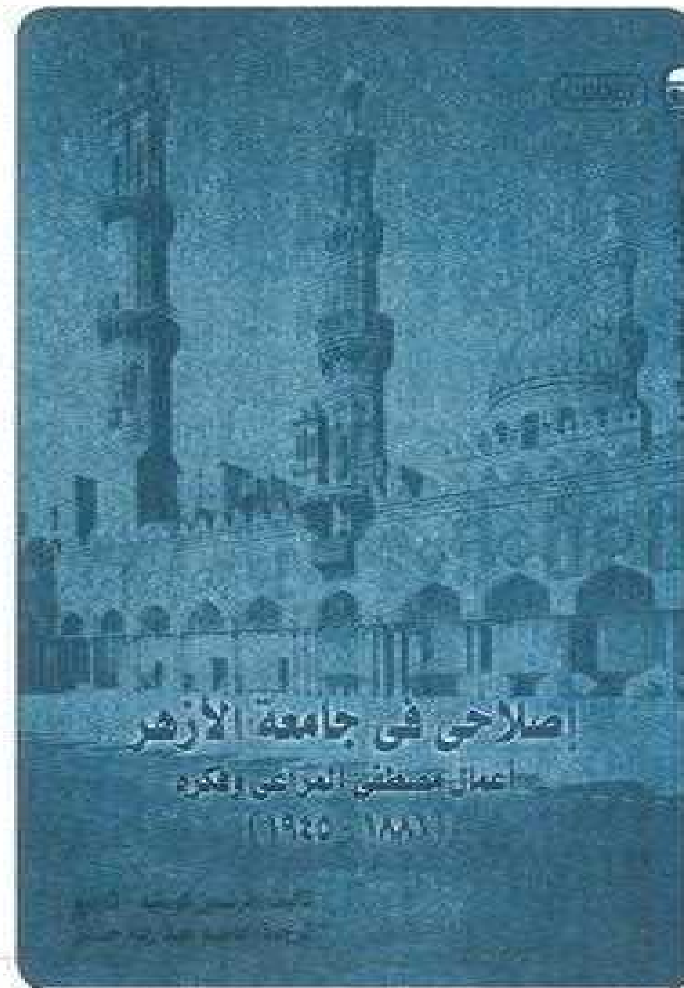
ومن نسي ذكر الموت: عوقب بثلاثة أشياء: تسويف التوبة، وترك الرضا بالكفاف، والتكاسل في العبادة.

«دعاء»

«اللهم لا ترزقني رزقا يطغيني، ولا تبتليني بفقر يضنيني، وأعطني في الآخرة حظًا وافرًا، وفي الدنيا معاشًا واسعًا».

قراءة فى كتاب





بقلم/ أ: عادل خفاجة

فى هذا الجزء الثانى من الكتاب تقدم السيدة فرتسين كوستيه- تارديو الأعمال الفكرية للمراغى المرتبطة بدوره ـ باعتباره رجل دين ـ ارتباطًا وثيقًا.. فتناولت فى الباب الأول من هذا الجزء الذى جاء تحت عنوان: «الفقيه والقاضى» عددًا من القضايا نذكر منها: تعديلات قانون الأحوال الشخصية، ثم حقوق المرأة، ثم قانونى عام ١٩٢٠، ١٩٢٩.

أما الباب الثانى الذى جاء تحت عنوان: «معلم الإسلام الصحيح» فكان مما تناولته قضية ترجمة القرآن الكريم، والدروس الدينية للمراغى، ثم أصول تفسير المراغى، ثم إشارة للأعمال المنشورة فى مجلة الأزهر.

الفقيه والقاضى

تناولت المؤلفة فى هذا الباب المبادرات الأولى فى السودان، فأوضحت أنه بعد القضاء على الدولة المهدية واستعادة السودان، شرعت السلطة الأنجلو مصرية فى إعادة تنظيم الجهاز القضائى الإسلامى، وتم الاعتراف بالشريعة الإسلامية فى السودان كتشريع مستقل وليس بوصفها مجموعة من القوانين العرفية من ضمن قوانين أخرى، وذلك فى إطار طمأنة المسلمين واتقاء ظهور الحركات المتطرفة بالعمل على توطيد الإسلام الوسطى.

ثم تشير المؤلفة إلى أن العلاقات الوثيقة التى كانت موجودة بين مصر والسودان، وحقيقة أن كبير القضاة كان مصريًا حتى الاستقلال (١٩٥٦)، تفسر حالة التوازى التى يمكن ملاحظتها بين الإصلاحات القانونية التى تم تنفيذها فى كل من البلدين، وغالبًا ما تم اقتراح هذه الإصلاحات وحتى تطبيقها فى مصر قبل

أن يتم تبنيها فى السودان، بنفس الصورة بالفعل، أو مع بعض التعديلات صغرت أم كبرت.

وتستطرد المؤلفة قائلة: إلا أن هناك حالات تقدم فيها السودان على مصر فى إصدار قوانين لم تطبق فى مصر إلا بعدها بعدة سنوات.. وفى تفسير هذه الملاحظة الأخيرة تقول يجب أن نقول أولاً وقبل كل شىء إن الإصلاحات لم تثر إلا القليل من الاعتراضات والمناقشات فى السودان، من ناحية لأنها جرت بناء على مجرد نشرة قانونية لم يبلغ الناس بها، ومن جهة أخرى، فإن تفضيل الآخذ بأحكام المالكية عن الآخذ بأحكام الحنفية قد حاز بسهولة على رضا أهل السودان، ويلفت (Anderson) النظر كذلك إلى أن كبار القضاة فى السودان تم اختيارهم من بين أبرز رجال القضاء فى مصر، ويمكن أن نضيف إلى ذلك أن مصر، خلال الفترة القلقة للحرب العالمية الأولى وثورة عام ١٩١٩، لم تكن تستطيع أن تضع الإصلاح القضائى الشرعى فى المقام الأول من اهتمامها.

وتسرد المؤلفة عددًا من النشرات القانونية التى صاغها المراغى لينتهى إلى القول أن أصل المبادئ الأساسية التى أقيمت عليها نشرة ١٩١٥ القانونية، وبفضل هذا التشريع الجديد، سبق السودان مصر فى تبنى هذه الإصلاحات التى لم تدخل مصر إلا فى عام ١٩٢٠ وفى عام ١٩٢٩ ودائمًا بمبادرة من المراغى.

وتحت عنوان «اقتفاء أثر محمد عبده» تقول المؤلفة:

إن مبدأ المصلحة يقود المراغى إلى أن يختار من كل المذاهب الشرعية، وكذلك من مذهب الظاهرية، الآراء التى يبدو له أنها تحمل إلى المسائل التى يعالجها أوفق الحلول. إنه لا يتردد أيضًا، عندما يجد ذلك ضروريًا، فى أن يوفق من بينها، أقوالاً أصدرها فى سياقات تاريخية وفقهية معينة علماء ينتمون إلى مدارس مذهبية وإلى فترات زمنية مختلفة. ولقد شجع كثير من المفكرين المعاصرين من أمثال محمود شاكر، محمد عبده وقاسم أمين وغيرهم، هذه الطريقة «والتى تترجم أحيانًا بـ«التأويل الانتقائى».

اعتقد المراغى أن الوقت لم يعد وقت التعصب المذهبى، وإنه من الواجب توحيد أو على الأقل التقريب بين المذاهب الفقهية بهدف أن تستطيع كل منها الاستفادة من ثراء الأخريات.. هذه المهمة ليست مستحيلة لأن المدارس الفقهية كلها تتفق حول المبادئ الأساسية وتختلف فقط حول الأحكام الشرعية التى تستنبطها من هذه المبادئ، وفى العديد من المرات يقول المراغى إن بعض الأحكام المذهبية قد وضعت فى القرون الماضية من أجل تدعيم أفكار سياسية معينة، وأنها قد أدت بذلك إلى ظهور تعصب دينى اقترن بالتعصب

السياسى.. هذه النظريات السياسية اختفت بعد ذلك لكن الآراء المذهبية التى كانت تدعمها لاتزال قائمة مثيرة لأحقاد ولانقسامات فى قلب الأمة ولخصومات عبثية.

وتختتم المؤلفة هذا الباب بقولها: لعب المراغى إذن دورًا مهمًا فى تطوير القانون المصرى والسودانى فى مجال الأحوال الشخصية وعلى نحو أخص، فيما يتعلق بمسائل الزواج والطلاق.. إن الاهتمام بالحد من ظاهرة تعدد الزوجات وبإصدار قوانين حول الطلاق تغلب مصلحة النساء، الاستناد الدائم إلى مبدأ المصلحة والسمو به عمليًا إلى مرتبة مصادر القانون، اللجوء إلى التلفيق باعتباره وسيلة لتوفيق الشريعة مع ضرورات العصر، هذه هى كما يبدو لى - الأفكار - القوى الرئيسية التى وجهت المراغى فى عمله باعتباره فقيهًا وقاضيًا.. وكما لاحظنا فى العديد من المرات فى هذا الباب، إنها هى نفس الأفكار التى دافع عنها محمد عبده وتلاميذه.

وتتناول المؤلفة قضية ترجمة القرآن بكثير من البسط والتوضيح فتستهل كلامها حول هذه القضية بعدة تساؤلات: هل يمكن ترجمة القرآن؟ هل من الجائز استعمال الترجمة فى الصلاة؟

ومن خلال البحث الذى قدمه الإمام المراغى بعنوان: «بحث فى ترجمة القرآن الكريم وأحكامه» استشفت الباحثة أن الإمام المراغى كان شاغله الأول إظهار أن من الممكن ترجمة بعض آيات القرآن حرفيًا.. وأنه قد استعان بكتاب «الموافقات فى أصول الأحكام» لأبى إسحاق الشاطبى حيث يقول فيه:

إن كلمات وتعبيرات اللغة العربية يمكن أن ينظر إليها من جانبين: أن لها من ناحية معنى أول أو معنى مطلق «معانى مطلقة» وله ما يعادله فى كل اللغات، وبالتالى يمكن ترجمته بلا صعوبة، ومن ناحية أخرى، معنى ثانٍ أو معنى مساعد «معانٍ خادمة»، مرتبط برهافة البيان ولا يمكن لأى اصطلاح تعبيرى فى لغة أخرى أن يعبر عنه بصورة تستوفى المعنى.. وبالتالى فليس من الممكن ترجمة اللغة العربية إلا عندما تكون الكلمات مستخدمة فى معناها الأول، خاصة عندما يتعلق الأمر بالقرآن الكريم.. ومن ناحية أخرى فقد قبل المسلمون بالإجماع بأن من الجائز تفسير معنى القرآن وأصبح هذا الاتفاق حجة لإقرار شرعية ترجمة النص المقدس.

وتستطرد المؤلفة قائلة: بتقديم هذا البحث لم يسع المراغى إلى التقليل من صعوبات الترجمة، فقد أشار فى العديد من المرات إلى إمكانية أن يخطئ من يقوم بترجمة القرآن مثله مثل من يحاول تفسيره، وأنه لا يمكن اتهام لا هذا ولا ذاك بارتكاب أخطاء. فى الواقع، ليس هناك فرق بين المترجم والمفسر، إن اقتصر الأمر على تقديم معنى الآية، فالأول يستخدم كلمات أجنبية، ويستخدم الثانى كلمات عربية. بالإضافة إلى ذلك، لا تستطيع لغة أى قوم، ولا حتى اللغة العربية، أن تستوعب التعقيد الدلالى اللفظى لبعض المصطلحات أو التعبيرات فى لغة أجنبية أخرى عندما تظلل معانيها شبكة كاملة من المدلولات الرمزية المرتبطة بإطارها الثقافى، على كل حال، إن لم تعط الترجمة نتائج مرضية، فيمكن دائمًا أن نلجأ إلى النص العربى الذى يظل المرجع بالنسبة للشعوب العربية والأمم الأجنبية التى ترغب فى التعرف على القرآن.

يرد المراغى على الذين يعتقدون أنه من غير الممكن ترجمة القرآن بسبب طبيعة الإعجاز فيه، بأن الإعجاز فى كتاب الله لا يتعلق سوى بأسلوبه «نظمه» وبالتالى فإنه من الجائز ترجمة المعنى. وبرغم أن هذه الترجمة لا يمكن أن تشهد بإعجاز النص العربى، فإنها لا تستطيع أن تشكو منه.

ثم تقول: مع اعترافه بأن أى ترجمة لا يمكنها أن تعكس جمال النص العربى، تجد أن المراغى يركز على حقيقة أن جمال المعنى هو الأهم فى الصلاة، بل بلغ الأمر به إلى حد أن قال: إن تلاوة النصوص القرآنية بلغة أخرى هى فرض واجب بالنسبة لمن لا يعرفون اللغة العربية.. وأضاف بعد عدة صفحات أن أبا حنيفة قد قال فعلاً إن أى ترجمة ليست قرآنًا، فيما عدا فى حالة الصلاة، لأن الجوهر حينها هو ورع من يؤدى الصلاة، وليس الإعجاز. إضافة إلى ذلك، يعتقد المراغى أنه لا يمكن تأييد النظرية القائلة بأن القرآن بعد أن يترجم ينقطع عن كونه من كلام الله. إذا كانت الترجمة ليست هى القرآن، فإنها تحمل معنى كلام الله، وبالتالى فإن المقصود منها ليست من كلام البشر «معانى كلام الله ليست كلام الناس». كيف يمكن أن يظن أن معنى القرآن المعبر عنه فى لغة أخرى لا يصبح إلا كلام البشر، لمجرد أنه قد اتخذ مظهرًا آخر؟ ومعنى القول إن الشىء الوحيد الذى يهم هو الصيغة العربية للكتاب المقدس.

وتؤكد المؤلفة أن المراغى لم يهدف إلى وضع مؤلف جديد بكتابة هذا البحث عن ترجمة القرآن بل تجزم بأن هدفه كان استشراف الوضع فى مجمله حول مسألة دقيقة ومحل جدل، مستندًا إلى شهادة فقهاء كانوا، وفق تعبيره الشخصى، قد حددوا منذ اثنى عشر قرنًا مضت ما هو مشروع وما هو ممنوع، ويجتهد المراغى فى إظهار أنه من الممكن ومن المشروع، وفقا لشروط خاصة أن يترجم القرآن وأن تستخدم الترجمة فى الصلاة. إلا أن ما يهمه على وجه الخصوص هو إقناع قرائه بأن هذه التراجم ضرورية جدًا، لأن التجربة قد أثبتت أنها قد حملت بعض العلماء غير المسلمين إلى اعتناق الإسلام.. وأضاف أن كثيرًا من غير هؤلاء العلماء، من دون الوصول إلى حد الدخول فى الإسلام، قد عدلوا من مواقفهم

تجاه الدين الإسلامي وتجاه رسوله، لقد عرفوا عظمة هذا الدين وقاموا بدراسته بكل الجدية التي يستحقها. أما بالنسبة للمسلمين من غير الناطقين بالعربية، فهل من المعقول أن تأمل أن يتعلموا العربية جميعهم؟ بالتأكيد، إن هذا حلم يداعب كل المسلمين، لكن في انتظار أن يتحقق - إن كان هذا ممكنًا - أليس من الأفضل أن يمتلك الذين لا يتحدثون العربية تراجم أمينة سوف تتيح لهم أن يتفهموا وأن يتأملوا كل تعاليم القرآن، وألا يقتصروا على تلاوة الفاتحة في الصلاة؟ أليس من المستحب كذلك أن تستطيع الأمم المسيحية معرفة القرآن وأن تكتشف فيه أحكام ومبادئ الإسلام؟

ويترك المراغي القراء مع هذه الأسئلة - التي أنهى بها بحثه - ليتركهم في تأمل دائم وبحث عن إجاباتها.

وحين ترى المؤلفة أن المراغي كان شديد القسوة ترى أنه كان موضوعيًا ولم يجاوز حدود الواقع حين قال: «منذ زمن طويل يتكلم المسلمون كثيرًا ولكنهم لا يعملون إلا القليل.. إننا نستنفد قوانا في مجادلات عقيمة حول كل صنوف الموضوعات، مهمة أو غير مهمة، وتنسى ما يمثل جوهر الدين ذاته. فضلاً عن أن الأمة الإسلامية منقسمة، كل جماعة تدافع عن آرائها بشراسة ولا تراعي سوى مصالحها الخاصة، سواء كانت مصالح شخصية، وطنية، عرقية، أو مذهبية.. كل هذا يتعارض مع تعاليم القرآن والرسول التي تدعو إلى وحدة المسلمين وتضامنهم.. لتدارك هذا الوضع المفجع، كان المراغي يتمنى أن يجتمع المثقفون ورجال الدين، في كل البلاد الإسلامية لدراسة كل الآفات التي تعاني منها الجماعات المسلمة في مجال الدين، الحياة الاجتماعية، الأخلاق والحكم. المسائل التي يجب تناولها هي التالية: العودة إلى القرآن وإلى السنة، تكييف التعليم الديني وغير الديني مع احتياجات المجتمع، الدفاع عن العقيدة والحث على مراعاة أحكام الإسلام، تنظيم جماعات المسلمين والروابط التي يجب أن تجمع بينها، المساعدة التي يجب تقديمها إلى الفقراء، وإلى الضعفاء والأيتام، وحماية مقومات المجتمع».

وبعد.. فقد قدمت الأستاذة فرنسين كوستيه - تارديو أعمال مصطفى المراغي وفكره على أكمل وجه، فقدمت حياة الشيخ ومؤلفاته بشكل حيادي وألقت الضوء على دوره في الإصلاح والتجديد وبخاصة إصلاح القضاء والأزهر.. ولقد استطاعت من خلال هذا الكتاب أن تحدد ملامح الإمام المراغي وتقدمه كشخصية عظيمة في مصر الحديثة، لأن اسمه قد ارتبط بالإصلاحات في الأزهر والتشريع الإسلامي.

ثم أما بعد.. فلقد أضاف الأستاذ: عاصم عبدربه حسين بترجمته لهذا الكتاب عملاً جادًا للمكتبة العربية.

أسوان ما أشبه الليلة بالبارحة!



لفضيلة الشيخ/ معوض عوض إبراهيم

أسوان التي جئتها واعظا بالأزهر، عام ١٣٦٠هـ/ ١٩٤٢م، وقد جئتها في شهر من شهور الصيف، ونزلت من القطار، فدلوني على فندق عبده خليل الذي كان الفندق الوحيد الذي يؤمه أوساط الناس، فقد كان إلى قريب منه فندق كتاركت، الذي يقوم معظمه على الماء مواجها لجنوب حديقة النباتات التي كانت يومئذ تسمى حديقة السلدار وقد تناولت غذائي في الفندق ثم استرحت بعض الوقت ونزلت مغربا إلى مسجد الحارث في وسط المدينة، ووجدت إمامه رجلا فاضلا أبى إلا أن أقضي معه الليلة حتى أصبحت، وقد تعرفت بالأستاذ عبد الرحمن نجى الإبيارى الكاتب الأول للمحكمة الشرعية يومئذ، ونزلت معه ومع زميل من زملائنا من كلية اللغة العربية، وقضينا عاما في ذلك المنزل الذي يجاور بيت الأستاذ عباس محمود العقاد، والعقاد رحمه الله كان مقيما بالقاهرة لكنه كان يأتي حينا بعد حين إلى أسوان في زيارة لأمه وأخته وأخيه أحمد العقاد، وكان الأستاذ العقاد من أبر - من عرفت - بالأم والأخوة، لكني لم ألتق به في أسوان، وكنت لقيته أول مرة في عام ١٩٣٣م وكان لقائي له وفاء مني بنذر نذرته أن أزور العقاد والشيخ محمد رفعت، وكان له يومئذ عندي وعند الكثير شيء من التقدير والإكبار وجل الله الذي يغير ولا يتغير. ولما قابلت الأستاذ العقاد وكان في مكتبه في جريدة حزب أحمد ماهر والنقراشي في شارع الساحة القائم بين دار الأهرام القديمة ومحل عمر أفندي في شارع عبد العزيز، ودخلت على العقاد وسلمت عليه ووقفت أمامه وكنت طالبا حديث العهد بكلية أصول الدين في القاهرة وكان جالسا يبدو أطول مني وأنا واقف،

وعرفته بنفسي فتذكر وقال لي: أذكر أني نشرت لك في جريدة الجهاد التي كان يملكها الأستاذ محمد توفيق دياب الذي كان يكتب تحت اسم الجريدة بيتا من الشعر لأمير الشعراء أحمد شوقي هو:

قف دون رأيك في الحياة مجاهدا
إن الحياة عقيدة وجهاد

وكان الأستاذ العقاد مع عطائه السياسي يولي البحوث الأدبية بعض عنايته، وكان في الورقة التي قدمتها إليه شيء من شعري قلت فيه:

عباس يا معقد الآمال في بلد
نشأت فيه لتروى غلة الصادي

فالتفت إلي وقال لي لقد نشرت لك قصيدة في جريدة الجهاد سنة ١٩٣٣م قلت نعم، وكان عنوانها "استعذاب العذاب" وزادني الأستاذ العقاد يومئذ حرصا على كلية أصول الدين لأنها تربي العقل وتضاعف من سلامة الإدراك، ولهذا بيان قد يوافيك في البحث الطويل الذي يراودني تقديمه للناس تحت عنوان (بين ثغور الإسلام).

كانت أسوان في هذه الأيام مع جفاف جوها وشدة حرها مثلا في السكينة والهدوء والتفاهم بين الأفراد والجماعات في شتى مرافقها، ولكنها وهي على تلك الحال حدث فيها خلافان أولهما: بين تجار الأقمشة من مسلمين وغير مسلمين، فلما وصل أمر خلافهما إلى مدير مديرية أسوان قال لهم: أنا سأوكل أمركم إلى الواعظ فلان والقسيس فلان في اجتماع يكون في فندق كتاركت، فقال الأخوة المسيحيون: نحن نكتفي بفلان الواعظ، واشترطت أن يحضر المؤتمر رجل الدين المسيحي، وجمع الله الأرواح على الأرواح وانجلت الغاشية وعاد الجميع إلى السوق كلهم يرجو رزق الرزاق سبحانه.

وموقف آخر بين قبيلتين في بلدة «بنبان» غرب النيل، فأمر المدير أن أذهب ومأمور الشرطة أحمد كامل إلى أهل القرية وقد اصطفوا صفين، أفراد كل صف يحمل بندقيته، فلما وصلنا إلى هذين الصفين مخترقين الطريق إلى حيث يجلس كبار القرية، شاء الله تعالى أن أتكلم في الجميع داعيًا إلى وحدة الصف والتعاون على البر والتقوى وعمل ما تكون به «بنبان» واحة سلام ووئام وتعاون صادق على كل ما يُسعِدُ ويهدي للتي هي أقوم، وكان توفيق الله عز وجل كبيرا في هذا اللقاء الذي تكون فيه البلدة كعين وأختها وككفٍّ ومعصم ولازالت هذه الوثيقة بين أوراقي إلى اليوم.

وذلك الذي حدث مؤخرا في أسوان ومن أجله ذهب فضيلة الأستاذ الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر ومعه مجموعة من العلماء ليكونوا رُسل سلام ومصابيح تُبدد سُجُف الظلم والظلام، نسأل الله الكريم أن يجمع بهم الشمل ويُحقق الأمل في هذا الجانب من جوانب مصر كنانة الله في أرضه حتى يعود لمصر أمنها واستقرارها وتناجيها على البر

والتقوى.

وإنها لمناسبة أذكر فيها أيامي في أسوان من أعلى الخزان إلى كوم أمبو وأذكر أنني في وقفة مع بعض الزملاء على ظهر الخزان تابع نظري الماء يتدفق من الخزان شمالا إلى دمياط مارًا بقريتي القريبة من منتهى مصب النيل وقلت يومئذ والزملاء يسمعون:

يا روعة الفن في خزان أسوان
أصنعةُ الجن ذا أم صُنع إنسان

واستلهمتني أسوان التي قلت في أهلها:

وأسوان تُجزى العاملين جزاءهمْ
وتعرف من يبني ومن يُؤثر الهدما
توافي على صنع الجميل سراتها
وضاعفها الخزان من عزمه عزما



وفي أسوان كتبت لابن قريتي أحمد العسيلي وكان مدرسا في إسنا:

أسوان مفخرة البلاد فما بها
شيء يُعاب من الجمال الطائل
أنا إن وَصفتُ لك الطبيعة إنما
يعيا البيان فما يفي بالحاصل
نسماتها مما تُحدث رقةً
والشمس في أمشير تلهبُ كاهلي



أسوان بلد الرجال

ومن هؤلاء الرجال عرفت اللواء محمد صالح حرب باشا، وهميمي بيه الجبلاوي وعبد الغفور أبو زيد والد الوزيرة حكمت أبو زيد والشيخ إسماعيل بَرْسي شيخ محلة الكارور الجاثمة في الحضن الغربي لبناء الخزان الذي وقف بعد إنشاء المعهد الديني يتحدث إلى الناس بأن ذلك المعهد ثمرة دعوات واعظ أسوان الذي انتقل إلى الفيوم منذ ثمانية عشر عاما.

ولقد تحدثت بشيء من ذلك إلى الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب وكان يومئذ مشرفا على أزهر أسوان في اللقاء الأول مع فضيلته في مكتب عميد كلية أصول الدين يومئذ الدكتور عبد المعطي بيومي. وطلب الشيخ الطيب أن أكتب إليه ترجمة مختصرة عني في أيام أسوان وفيها شيء من الشعر الذي أسلفته عن البلد الطيب، وأن يصحب ذلك صورة شخصية لشخصي الضعيف، وأن أدعها عند الدكتور بيومي حتى يأخذها في عودته إلى أسوان ليعلقها في غرفة الأساتذة في مبنى الأزهر في أسوان.

يا هؤلاء جميعا ومن لا أحصي من شيبة وشباب كنديم عبد الغني وشقيقه وخاله الذي كان بعد هذا التاريخ عضو مجلس الأمة عن أسوان. ويا من هم وراء هؤلاء، مزيدا من التفاهم والتسامح والحرص على الوحدة الوطنية والوحدة الدينية.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت: ٦٩)



خميلة الشعر



للأستاذ/ محمد عبدالوهاب

من قال: إنَّ الشّعرَ قد هجَرَ الخميلةَ؟
هذى قصائدُهُ الجميلةَ..
و بصوته الممزوجِ بالأوتارِ.. والأطيارِ..
يأخذنا..
لنحيا (ألف ليلةْ)

الشعرُ همسٌ كالخرير.. وكالهديرْ
الشعر ثورة عاشقٍ للشمسِ
يحملها سراجًا.. للضميرْ
كم كان يومضُ في ظلامِ المستحيلِ كماسةٍ
وقعَت علي حجرِ الضريرْ!
شَوْكٌ طريقُهُ بيتما
نُسِجَت حُروفُهُ مِن حريرْ!

الشعر يمقت فكرة القضبانِ.. والسجانْ..
يرفضُ أنْ يُكمّمَ
أو يُسَخَّرَ.. كالعبيدْ
الغَثُّ يفنَى بينما..
صوتُ المشاعرِ لا يَبيدْ

الشعرُ يأبَى أنْ يكونَ بضاعةً.. تُشترَى
بأسواقِ النخاسَةْ

الشعر بين القول يمتلك الرئاسةْ
الشعرُ يبتكرُ السياسةَ!

يا شعرُ كم غنيْتَ مِنْ فَرَح.. ومن شجَنِ ظهورْ
أنشدتَ ما شئتَ انتشاءً.. واشْتهاءً للزهورْ
ورَسَمْتَ فى وَجْهِ الطبيعةِ شامةً.. تحوى الدهورْ
زيّنتَ معصمَها بأسْورَةٍ.. بها سِرُّ البُحورْ
وزرَعتَ فى أيامِها.. أملاً.. ونورْ
كم كُنتَ تأبَى أنْ يموتَ القومُ.. فى وهم البُخُورْ
أو أنْ يعيشوا.. تحت أجداث القبورْ
فصعدتَ صهوة حُلمنا المجدول من وهم التعاويذ القديمة
والموَشَّى من تهاويل الخرافةْ
وانطلقت إلى السَّماءْ
كالنجم يرفل فى الضياء
ثم انتقلت بنا لدنياك الرشيدةْ
أيقظتنا.. وحملتنا.. لآمالٍ جديدةْ
كي يستبين لنا الطريقْ
فهل نُفيقْ؟!

محمد عبد الوهاب

من ضمن ما قيل فى تعليل أسباب عبادة العرب للأصنام قبل الإسلام، إن الناس كانوا يقصدون الكعبة لأداء صلواتهم، على مذهب سيدنا إبراهيم عليه السلام، وحدث أنّ رجلا من البادية كان يرعى الإبل فى واد بعيد عن الكعبة، فرأى يوما ما، أن يؤدى صلاته فى مكان رعيه، مكتفيا بإحضار حجر من أحجار الكعبة كرمز لها، والتوجه فى صلاته إليه، وتعاقبت الأيام والرجل يضع الحجر أمامه أثناء تأديته للصلاة، فصارت تلك عادة أولاده وأحفاده من بعده، حتى وصل الأمر إلى أنهم اتخذوا الحجر إله لهم من دون الله، ظنا منهم أن الحجر هو المقصود بالعبادة، أو أنه واسطة بينهم وبين الله وتبعهم الناس تدريجيا حتى عمت عبادة الأوثان الجزيرة العربية كلها.

لو أنّ واحدا من أبناء الرجل سأل أباه ولو مرة واحدة، لماذا يصلّى باتجاه الحجر؟ ولماذا لايحدد اتجاه القبلة في مكان رعيه ويصلى باتجاهها، لما تفشّت عبادة الأصنام، ولما استقرت الجاهلية في جزيرة العرب قرونا عدة، إلى أنّ بعث الله سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم، بمنهج إلهي يصحح أوضاع حياتهم ويضع فى رءوسهم فكرا قويما، بعد أن برهن لهم بالأدلة العقلية، فساد ما كانوا يعتقدونه من قبل من عبادتهم للأوثان أو النجوم أو الملائكة أو النيران إلى غير ذلك، وكذلك قتلهم مواليدهم الإناث وعدوانهم على بعضهم البعض، فكان الناس يُتخطفون ويباعون عبيدا وسبايا، ظلما وقهرا، ولم يكن الأمر سهلا ولا هيّنا، بل كان عسيرا وشاقا علي الرسول الكريم محمد، ولكنه - صلى الله عليه وسلم - كان مؤيدا بالحق والنور الذى هدى به أمة العرب، وغيرها من الأمم التى نهجت نهجها، فصارت بالإسلام أرحم وأهدى الأمم ليس بالسيف، أو بالقهر والعدوان وإنما بالمحبة والأخلاق الكريمة، وبالفكر المستنير والهدى المبين للدين الإسلامى السمح، لذا وجب على كل منا أن يستفسر من أهل العلم بالدين الإسلامى الصحيح - عمّا يغمض عليه من أمور ولا يركن إلى عدم المبالاة، يجب أن تتحول من السلبية، التى تتساوى مع الموات، إلى الإيجابية الخلاّقة، التى لا تتأتّى إلاّ ببناء سليم للعقل، كى نتمكن من استعمال الهبة الإلهية العظمى، ألا وهى الفكر المبدع البنّاء، الذى هو فى حقيقته جوهر الحياة، استعمالا فعالا يسهم فى نهضة ورخاء المجتمع والعالم أجمع.

ولأن دور الإنسان على هذه الأرض، هو الدور الأكبر والأهم على الإطلاق، خلافا لبقية الكائنات الأخرى، من حيوانات ونباتات وجمادات، إلى غير ذلك، مع أن لها هى الأخرى أهمية كبرى ولكنها كلها أرى أنها خُلقت كى تُسخّر له، وعملَ على خدمته، فهو إما أن يستخدمها فى الخير أو للمنفعة والعمران، وإما أن يستخدمها فى إفساد الأرض وسفك الدماء ونشر الخراب.

فالإنسان وحده - دون غيره من المخلوقات الأخرى - يمتلك عناصر الإرادة والقدرة على الفعل الواعى والابتكار، وكذلك القدرة على التمييز والاختيار بين بدائل متعددة، نعم هناك كائنات أخرى يدهشنا إبداعها كالنحل مثلا، حين تبنى بيوتها بهندسة رائعة، وتكوّن مجتمعات فيها انتظام واضح، ولكنها تفعل

ذلك بأسلوب واحد لا يتغير، فهي تبدو مُسيّرة فيما تقوم به وليست مُخيّرة، بعكس الإنسان، فهو المخلوق الوحيد على كوكب الأرض، الذي يملك حرية الإرادة والقدرة على الاختيار والإبداع.

لست أعني بطبيعة الحال قبول أي فكر، يدعوى أنه جديد، ولكن أرى ضرورة وجود قاعدة فكرية ثقافية متزنة لدى كل إنسان يتمكن المرء من خلالها من فحص المواد الفكرية الجديدة، مع ضرورة المراجعة المستمرة والدائبة، لما تحويه تلك القاعدة في خزائنها من قيم أو أفكار، قادرة على التمييز والمفاضلة بما يدعم خير الحاضر، و يؤثر إيجابا على المستقبل، ومن ثم يتمكن من فحص ما يَرِدُ عليه من فكر، دون الالتزام بأية مواقف مسبقة سواء أكانت مؤيدة أو رافضة، ودون التسرع في إصدار أحكام تجردت من التروي وإنعام النظر، مع التأكيد على ضرورة احترام آراء الغير أو مذاهبهم، سواء أكانت فكرية أو عقائدية مهما كانت، وبخاصة تلك الأفكار التي تحمل معان مغايرة للمألوف، أو فيها شطط وانحراف عمّا تعودت عقولنا عليه، بشرط ألا تؤذي الغير، أو تسعى لهدم المجتمعات الإنسانية أو استعبادها والتحكم في مصائرها.

أصغى الشاعر لهمس الضياء على قبر الإمام على رضي الله عنه في زورة للنجف الأشرف بالعراق ظهيرة يوم ٢٢ فبراير ١٩٦٥ فردد هذه الترنيمة.. وألقاها في مهرجان الشعر بالكوفة في مساء ذلك اليوم.

ترنيمة

للشاعر الكبير محمود حسن اسماعيل

ونادى مُنادٍ للضياء فكبّرتْ
جفوني وصلّت للنداء خواطري
وذوّبتُ قلبي في رحيق من السنا
و عطّرتُ من فجر الخلود قيثاري
وأحرقتُ في أوتارها كلّ ما زكتْ
به لصلاة الروح نارُ المباخر
تسابيحَ مَنْ صلّي إوأشواقَ مَنْ دعا
وذوّب في كفّيه دمعَ السرائر !
غرفتُ عبيرَ الطهر مِنْ كل ساجد
ومن كُلّ أوّابٍ، ومن كل ذاكر
ومن كل طيرٍ مَرّ بالخُلد تائهٌ
وأصغى لهمس الحُور بين المَخاطر
ومَنْ كلّ فجرٍ كلّمَ الله قلبُهُ
بآياتِ نورٍ من يد الله غامر
ومن كل تبرٍ للهُدى من مُرتّل
بمُصحفِهِ رنّتْ صلاةُ المَشاعر
ومن صلواتٍ للنخيل رأيتُها
تُرنّمُ للأضواء قُدسَ الشعائر
تُهلّلُ بالإصغاء تائبةَ الضُحى
كمُستغفرٍ لله ساجي النواظر
وفي وجهها صُوفيّةٌ لو تكلّمتْ
لكانتْ حديثَ الطُهر في كلّ خاطرِ
حشدْتُ عبيرَ المُتقينَ وطهرَهم
وأشعلتُهُ زادَ الضحى بمجامري

وبدّلْتُ نايي مِنْ غناءٍ مُرنّم
لأنغامِ نورٍ خاشعاتِ المزاهرِ
لأشدوَ أرضًا كرّمَ الله وجهَها
بوجهٍ على تاريخها النَّضْرِ عاطرِ
وشعّتْ خُطا الدُّنيا بنور (مُحمّد)
ومن نوره هلّتْ جميعُ المَنائر
فيا كوفةَ الأمجاد حيّتْكِ وحدةٌ
على فجرها التفّتْ جميعُ الأواصر
وعادت إليه الشمسُ يسطعُ نورُها
كما كان في تلك العصورِ الزواهرِ

***

إلى الكلمة

الشاعرة جليلة رضا

إنطلقي مِنْ جوفِ الظُّلمةْ
يا جسدَ الفكرةِ.. يا كلمةْ
هيّا هزّي.. هزّي قلمي
وانتفضي في ثورةِ ألمي
يا إصبعَ عملاقٍ يفردْ
أجنحةَ الفنِّ المُهزومةْ
قولي شيئا.. شيئا يصعدْ
يتوثّبُ.. يعلو للقمّةْ
يا جسدَ الفكرة يا كلمة
أيتها الكلمة كم يحمل
معناكِ شقاءً وسعادةْ
فشطوطُكِ أرضٌ وسماءٌ
وحروفُكِ: كفرٌ وعبادةْ
وإذا استعصيْتِ على شفتي
لنْ يبلغَ فنّي أمجادهْ
فانطلقي أيتها الكلمةْ
انطلقي عزمًا وإرادةْ
وخُذي عُمري أجرَ نشيدْ
عُذريٍّ أشهدُ ميلادهْ
كم صورٍ أثرتْ في ذهني
نقلتْها الشفتان فقيرةْ
ولحونٍ غرّدَها قلبي
فانسابتْ بكماءَ ضريرةْ
وحروبٍ في داخلِ نفسي
خرجتْ للعالمِ مقهورةْ
فانطلقي أيتها الكلمةْ
وانبعثي أصلًا، لا صورةْ
وخُذي عُمري أجرَ نشيدْ
عُذريٍّ.. أحسنُ تعبيرةْ

كم ليلٍ تنتابُ الذكرى
صورًا وحقائقَ وظنونا
فتغوصُ الكلمةُ في حلقي
كمحيطٍ يبتلعُ سفينا
ويموجُ فراغٌ في قلبي
كالمسجد دونَ مصلّينا
وعلى بابِ الكلمةِ أصرخ
انطلقي شوقًا وحنينا
وخُذي عُمري أجرَ نشيدْ
يتلوهُ العالَمُ مفتونا
أيتها الكلمةُ صوغيني
فنًّا يرتفعُ بدُنياهْ
صوغي من إيماني مَرسًى للهائم في بحر أساهْ
لمّي أعماقي المحطومةْ
وردًا أتنفّسُ بشذاهْ
فالألمُ هو الفنُّ الخالدْ
هاتيه.. فكم أتمنّاهْ

وخذي عمري أجر نشيد
قدسي باركه الله
الكلمة تبدو غانية
تعبث بعقول البشرية
هي قزم تحت الألسنة
قد حمل الكرة الأرضية
هي سر أبي الهول الصامت
ومبادئ (سقراط) الحية
هي عند الأحرار رسول
ينطق بمعاني الحرية

وهذه قصيدة لفيلسوف وشاعر، نرى فيها الحكمة حين توضع كالأحجار الكريمة على مصوغات وحلي من الذهب الخالص، وكالفلسفة الإنسانية السامية حين تشع بأنوارها على أنغام البحور الشعرية، لتظهر لنا في شكل قصيدة عصماء تلهم العقل والقلب معًا.

سَرَيْنا

لأبي العلاء المعري

سرينا.. وطالنا هاجع
وعند الصباح حمدنا السُّرى
بنو آدم يطلبون الثراء.. عند الثريا، وعند الثرى
فتى زارع.. وفتى دارع
كلا الرجلين غدا.. فامترى
فهذا بعين وزاي يروح
وذاك يزوب.. بضاد ورا
وعامل قوت ذرا حبة
وخدن ركاز ضحا.. فاذري
وكورك فوق طويل المطا
وسرجك فوق شديد القرا
وتجري ذفار بها جدها
بمثل الظلام، إذا ماجري
كأن بصاق الدبى، فوقها
إذا وقدت في الأنوف البرا
وذلك من حر أنفاسها
يضاعفه حر يوم جري
تلوم على أم دفر أخاك
وراءك إن هوي قد وري
عهدتك تشبه سيد الضراء
ولست مشابة ليث الشرى
تدب، فإن وجدت خلسة
فيا للسليك.. أو الشنفرى
هو الشر قدعم في العالمين
أهل الوهود، وأهل الذرا
ليفين في صمته ناسك
إذا افتن فيمايقول الوري
فكلوا صبوحية الشرب أو(م) ليلي.. ومكة أم القرى
وقالوا بدا المشترى في الظلام
فيا ليت شعري ماذا اشتري؟
وترجو الرباح، وأين الرباح
وتعتك في نفسك الخيرا
عذيري من مارد فاجر
تقرأ، والمخزيات افترى
فهون عليك لقاء المنون
وقل، حين تطرق: أطرق كرا
وناد، إذا أوعدتك: اعترى
فصبرًا على الحكم لما اعتري
ونفسي ترجى كإحدى النفوس
وتذرى النوائب سكن الذرا
وكم نزل الفيل عن منبر
فعاد إلى عنصر في الثرى

وأخرج، عن ملكه، عاريا
وخلف مملكة بالعرا
إذا الضيف جاءك، فابسم له وقرب إليه رشيك القري
ولا تحقر المزدرى في العيون فكم نفع الهين المزدري
ولا تحمل البزل تلك الوسوق
إلا بأزرارها والعرا
أجل! خزرتني وثاية
سواها التي مشت الخيزري
فإن سراء الليالي رمى
أوان شبيبتنا، فانبري
ونومي موت قريب النشور وموتي نوم، طويل الكري
تزمل خالقنا، إننا
ضربنا لنشرب ذاك الضرا
سواء علي، إذا ما هلكت من شاد مكرمتي، أو زري
فأودى فلان بسقم أضر
وأودى فلان بغرق ضرا
أبالنبل أدرك أم بالرما
ح، بين أسنتها والشرا؟
فهل قام، من جدث، ميت
فيخبر عن مسمع أو مري؟
ولو هب صدقه معشر
وقال أناس طغى وافتري
ولم يقر، في الحوض، راعي السوا
م إلا لبورده ما قري
أقر، وما قرأ تاقر
بمعتصم من قضاء فرا
أحن إلي أمل فاتني
وما للشبوب وعيش الفرا
متى قرقر الهاتف العكرمي
هيج صبا إلى قرقري
وقد يفسد الفكر في حالة
فيوهمك الذر قطر الثرا
سقاك المنى، فتمنيتها
وصاغ لك الطيف حتى انبري
فلا تدن من جاهل آهل
لو انتزعت خمسة مادري
أبى سيفه قتل أعدائه
وساف وليدته، أو هرا
وتختلف الإنس في شأنها
وأبعد بمن باع ممن شري
مغنية أعطيت مزغبا
فغنت، ونائحة تكتري
وهار ليخرج ماء القليب
وراق ليجني ثولا أري
فإن نال شهدا، فأيسر به
على أنه، بسقوط، حري
تزول كما زال أجدادنا
ويبقى الزمان على ما نري
نهار يضيء، وليل يجيء
ونجم يغور، ونجم يسري

اللهم هيئ لمصرنا الخير واجمع قلوبنا على حبها وصونها وزرع الخير في أرضها واكفها شر الظالمين والمفسدين.



ندوة تطور العلوم الفقهية

الفقه الإسلامي: المشترك الإنساني والمصالح

٦ - ٩ جمادى الآخرة ١٤٣٥هـ الموافق ٦ - ٩ إبريل ٢٠١٤

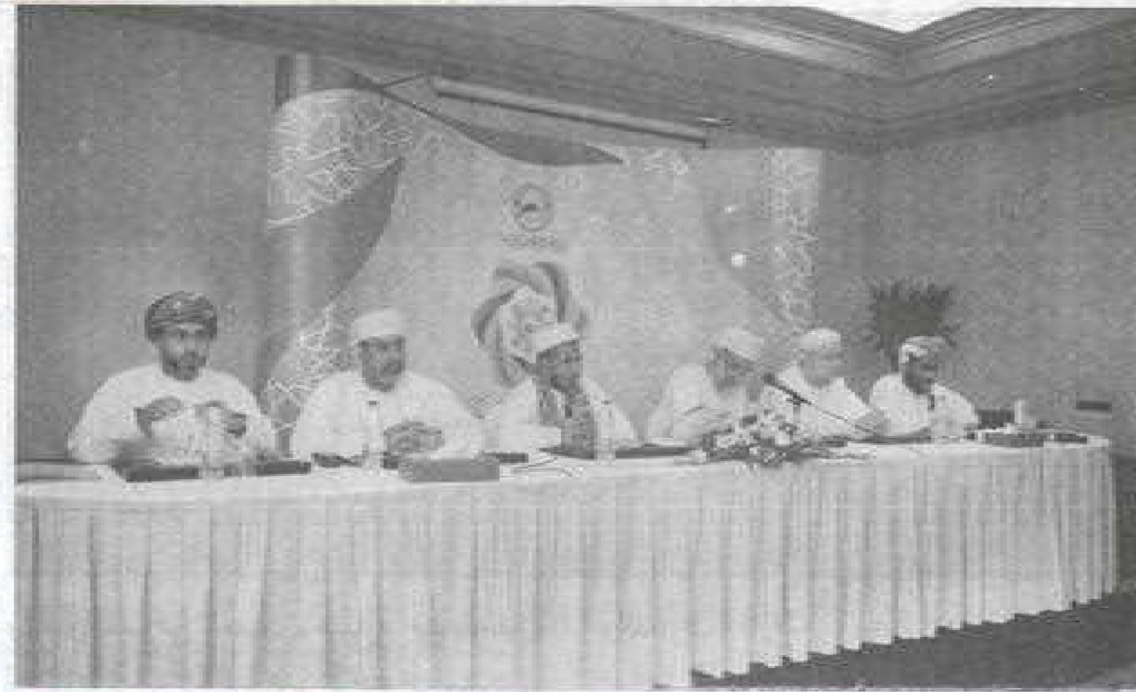
حظيت بدعوة كريمة من وزارة الأوقاف والشئون الدينية بسلطنة عمان للمشاركة في ابراز فعاليات ندوة تطور العلوم الفقهية في دورتها الثالثة عشرة، والتي أقيمت هذا العام تحت عنوان «الفقه الإسلامي: المشترك الإنساني والمصالح»، وهي ندوة سنوية توجه الدعوة للمشاركة في فعالياتها إلى كوكبة من أبرز علماء الأمة الإسلامية ليدلي كل منهم بدلوه، وهو أسلوب متميز في التواصل الحضاري والانفتاح على أفكار ورؤي علماء الأمة الإسلامية على اختلاف اتجاهاتهم الثقافية والمذهبية.



متابعة / أحمد السيد تقي الدين

وعلي مدي أربعة أيام تتابعت جلسات الندوة التي أقيمت برعاية صاحب المعالي يحيى بن محفوظ المنذرى رئيس مجلس الدولة، وبلغت ستة عشر جلسة ناقشت خلالها قرابة الستين بحثا توزعت على ثمانية محاور:

- المصطلحات والمفاهيم والتأصيل الفقهي.
- المساواة أصولا وفقها.
- فقه العدل في الإسلام.
- فقه حقوق الإنسان في الإسلام
- حقوق الإنسان في المواثيق الدولية والفقه الإسلامي.
- فقه المشترك الإنساني عند فقهاء الإسلام.
- السياسة الشرعية وفقه المشترك الإنساني.
- الفقه الإسلامي وتراث الفقه العالمي.



استشراف وآفاق

وفى حفل الختام ألقى الدكتور سالم الخروصى - مستشار وزير الأوقاف والشئون الدينية للوعظ والإرشاد بسلطنة عمان - ما تمخضت عنه الندوة من الآفاق والاستشرافات الآتية:

١ . نعنى بالمشترك الإنسانى القيم الإنسانية الموجودة فى جوهر كل الأديان والحضارات والمدارس الفكرية، والتى تلبى حاجات الإنسان الفطرية من حيث هو إنسان، مثل إقامة العدل وإنصاف المظلوم وتحقيق حرية الإنسان وكرامته والحفاظ على النفس وتأمين حاجاتها المختلفة إلى غير ذلك من القيم المشتركة الحاضرة فى كل الديانات والحضارات والثقافات.

٢ . يرى المسلمون العالم - من خلال شريعتهم - ميدانا للإنجاز الإيجابى يتحقق من خلاله المبدأ القرآني:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ (الحجرات ١٣)

ففقه المشترك الإنسانى العام هو فى جوهره دفاع عن الوحدة الإنسانية فى إطار التنوع المشروع والمحمود، وليس فى إطار الخلاف المذموم، فهو مصدر خصوبة وثراء، وليس داعية تنازع وخصام.

إن الرؤية الموتورة للإسلام والمسلمين والتى تنشرها دوائر عالمية تعنى ترسيخ التنازع وليس تقبل الاختلاف أو توظيفه فى التكامل البشرى ماديا ومعنويا، وهو يعنى صراع الحضارات لا تفاعل الحضارات، إننا نرى العالم من خلال الأخوة العالمية والتنوع المحمود. ولذا تدعو الناس إلى كلمة سواء، فخير الإنسانية المشترك هو هدفنا العام، والتعاون على البر والتقوى هو من مقاصد تشريعنا وأوامر ديننا، فلا بد من تفعيل دور المشترك الإنسانى فى حل الخلافات



والصراعات في العالم، باعتباره أحد الحلول لعلاقات جديدة قائمة على الاحترام المتبادل، والحوار بين الثقافات المختلفة، وتفعيل قيم العدل والمساواة والتضامن، للوصول إلى رؤية مشتركة للمخاطر والتحديات التي تواجه الشعوب.

٣. لقد تم في الندوة بحث (فقه المشتركات الإنسانية) عند علماء الإسلام عموما في ضوء الرؤية الاجتهادية لكل منهم وفقا للظروف الزمانية والمكانية التي عاشوها، ولذا فلا بد من مراعاة ذلك عند مناقشة آرائهم وفتاويهم ونصوصهم الفقهية في هذا الموضوع، والنظر في التراث الفقهي في ضوء تأثيرات الزمان والمكان، وإعادة قراءة المصطلحات الشرعية المتعلقة بالمشترك الإنساني وتعميق فهمها في التعامل مع الآخر وفق تصوير القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، من أجل تقديمها في قالب إيماني وسلوكي، مع التعريف بهذه الحقوق القرآنية، باعتبارها منهج هداية يرعى مصالح البشر ويقودهم إلى التآلف والتعارف.

٤. تعزيز الجوانب المشتركة لدى علماء المسلمين من المذاهب الفقهية المختلفة، من أجل إزالة الحواجز الفكرية والعمل على تلاقي الأفكار وتبادل الخبرات للخروج بأعمال فقهية تجمع المسائل المتفق عليها في المشتركات الإنسانية.

٥. إن قيم الحرية والمساواة والرحمة والعدل والتعارف والكرامة والخير العام حاضرة في القرآن الكريم ووقائع السيرة النبوية الشريفة، ولذلك لا بد من العودة إليهما لاستلهام حقوق الإنسان المشتركة، وقد كانت صحيفة المدينة المنورة أول دستور يعترف بحقوق المواطنة لجميع سكان الدولة يضمن لهم حقوقا متساوية، مقابل أدائهم لواجباتهم ومشاركتهم في الدفاع عنها، وجاءت خطبة الوداع لنبي الإسلام عليه الصلاة والسلام إعلانا عاما لحقوق الإنسان، وارتباطها بالدعوة الإسلامية وتكليف المسلمين بتبليغها باعتبارها قضيتهم الكبرى.

٦. جاءت وثائق حقوق الإنسان في الإسلام في العصر الحديث - كإعلان القاهرة - لتأكيد إسهام المسلمين في الجهود البشرية المتعلقة بذلك، وتصحيح نظرة الإسلام لهذه القضية، ودفع الشبهات التي أحاطت به وبأحكامه، ونظرا للمستجدات المتسارعة في العالم، فلا بد من المسارعة لعمل ميثاق جديد لحقوق الإنسان استكمالا لميثاق القاهرة، مسايرا للصور التطورات التي تشهدها الساحة الإنسانية اليوم، من أجل تفعيل جوامع المشتركات الإنسانية في جميع مناحي الحياة، مع اقتراح حضور المنظمات الإسلامية في ذلك مثل منظمة التعاون الإسلامي والمنظمة الإسلامية للثقافة والعلوم (إيسكو).

٧. عُني العمانيون بجوانب حقوق الإنسان تنظيرا وتطبيقا، منذ أن شرفوا بتلقي رسالة النبي ﷺ إليهم ثم تعاقب الدول التي نشأت ورعت الدين والحقوق من دولة آل الجلندى إلى اليعاربة والبوسعيديين، وكلها تمثل أهمية تاريخية وسياسية لا بد من دراستها. وأما التنظير فمن خلال ما ألفوه من كتب على مختلف العصور؛ ومن هنا توصي الندوة بتعميم رسالة عمان في التسامح إلى العالم أجمع من خلال المؤسسات التي تعنى بهذا الجانب، ودعمها لتحقيق رسالتها.

٨. عني علماء المذهب الإباضي بمبادئ الفقه الإنساني من خلال مؤلفاتهم واجتهاداتهم الفقهية، ومن خلال عهود بعض الأئمة إلى عمالهم كعهد الإمامين الصلت بن مالك الخروصي والإمام سعيد بن عبدالله الرحيلي، تستقى منها أحكام النزاعات



د.سالم الخروصي

المسلحة وأخلاقيات المحاربين وآدابهم الشرعية مما يدفعنا إلى ضرورة التنقيب عن هذا التراث العظيم، وإخراج مكنونه إلى واقع المجتمع.

٩. ترسيخ مبادئ حقوق الإنسان مهما كان لونه وفكره وعرقه وقوميته ودينه في المجتمع، من خلال تأكيد الشريعة الإسلامية الحفاظ على الكليات الخمس - وهي حق الدين والنفس والعقل والعرض والمال - لإحياء معالم القيم والأخلاق، وإضافة ذلك كمادة في المناهج التعليمية في المدارس والجامعات يتربى عليها الشباب، والتعريف بذلك في البرامج الإعلامية والتربوية عبر القنوات المرئية والمسموعة والمقروءة، حتى تصبح ثقافة عامة يعنى بها الجميع. ومن أهم هذه الحقوق التي ينبغي ترسيخها في المناهج التعليمية للطالب أدب الاختلاف وقبول الآخر، سواء كان طالبا للعلوم الشرعية، أم غيرها من العلوم النظرية أو التطبيقية، وتدريبه على ذلك حتى يصير هذا الأدب خلقا راسخ المعاني والسلوك.

١٠. مواجهة تيارات الخصوصية والانعزال والتوتر والتفرقة، سواء فى علاقات المسلمين فيما بينهم أو علاقاتهم بالعالم، وذلك بنشر قيم القرآن الداعية للحرية والكرامة والتعارف والمسالمة والخير العام.

١١. الدعوة لوحدة المسلمين وتعاونهم وتضامنهم بمقتضى قوله تعالى:

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ (الحجرات: ١٠)

فالتعاون والتضامن تكليف وواجب، كما أنه مصلحة وإفادة.

١٢. لقد كان موضوع الندوة الثانية عشرة رؤية العالم وفقه العيش، وموضوع الندوة فى العام الحالى (المشترك الإنسانى والمصالح) وهذا توجه واعد فى تجاوز العقبات، وفتح الآفاق، واستشراف المستقبل. ولذا فنحن ندعو لمتابعة السير فى هذا التوجه الذى يخدم الدين والأمة ويسدد الخطى، ويضع علماء المسلمين ودولهم على طريق التوحد والنهوض والتقدم. والعلاقة السليمة بالعصر والعالم:

﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾ (الرعد: ١٧).

وختاما فإن هذه الدورة الثالثة عشر من دورات ندوة الفقه العمانى، تثبت باستمرارها وتجدد أطروحاتها وضخامة أعداد العلماء المشاركين فيها أن لهذه الأمة ميراث متجدد صالح لكل زمان ومكان مما يدعو للأمل والتفاؤل على مستقبل هذه الأمة.

عمان.. الموقع والتاريخ

وهذا يجعل لزاما علينا قبل الولوج في محاور جلسات المؤتمر والأبحاث التي تمت مناقشتها والتى سيتولى الزميل محمد محمود حسن عرضها فى الشهر القادم بإذن الله، ألا نغفل الحديث عن عمان أو سلطنة عمان تلك الدولة التي تمتلك موقعًا استراتيجيًا بالغ الأهمية مما مكنها من أن تلعب دورًا حضاريًا نشطًا تفاعل منذ القدم مع كل مراكز الحضارة في العالم، إذ تطل أراضيها على بحر العرب وبحر عمان والخليج العربي، كما أنها تتحكم بمضيق هرمز والذي يعتبر من أكثر المواقع الحيوية أهمية في المنطقة حيث يربط بحر عمان بالخليج العربي وهو بوابة دخول السفن القادمة من المحيط الهندي، وبحر العرب.

ولم يكن نشاط الإنسان العماني في العصور التاريخية القديمة قاصرًا على التعدين والتجارة والملاحة، وإنما كان له أيضًا نشاطه في مجال الزراعة، ذلك أن الدول القوية في التاريخ القديم أو الحديث تجد مبررات قوتها دائما في اقتصاد متنوع مزدهر، تشكل الزراعة، وبخاصة في اقتصاديات العالم القديم أبرز أركانه.

من هذه الأرضية الحضارية انطلقت مسيرة النهضة العمانية الحديثة في ٢٣ يوليو ١٩٧٠، وهي تتمتع بالمقومات الضرورية لبناء حاضر مزدهر يربط بين



الماضي العريق والمستقبل المشرق. وفي مقدمة هذه المقومات القيادة التاريخية الواعية، والشعب العماني الذي صنع حضارته بيده، والموقع ذو الأهمية الحيوية، في تفاعل عميق بين إرادة الإنسان، قيادة وشعبًا، وأهمية المكان، وبما يجعل العطاء الحضاري العماني متواصلاً ومتجددًا في الحاضر، كما كان في الماضي وكما سيكون في المستقبل.

أسماء عمان:

عرفت عمان في المراحل التاريخية المختلفة بأكثر من اسم ومن أبرز أسمائها (مجان) و(مزون) و(عمان) حيث يرتبط كل منها ببعد حضاري وتاريخي محدد. فاسم (مجان) ارتبط بما اشتهرت به من صناعة السفن وصهر النحاس حسب لغة السومريين حيث كانت تربطهم بعمان صلات تجارية وبحرية عديدة، وكان السومريون يطلقون عليها في لوحاتهم

(أرض مجان) . أم اسم (مزون) فإنه ارتبط بوفرة الموارد المائية في عمان في فترات تاريخية سابقة وذلك بالقياس إلى البلدان العربية المجاورة لها . وكلمة (مزون) مشتقة من كلمة (المزن) وهي السحاب والماء الغزير المتدفق. ولعل هذا يفسر قيام وازدهار الزراعة في عمان منذ القدم وما صاحبها من استقرار وحضارة أيضا .

وبالنسبة لاسم (عمان) فإنه يرتبط بهجرة القبائل العربية من مكان يطلق عليه عمان في اليمن، كما قيل إنها سميت بعمان نسبة إلى عمان بن إبراهيم الخليل عليه السلام، وقيل كذلك إنها سميت بهذا الاسم نسبة إلى عمان بن سبأ بن يفثان بن إبراهيم، وكانت عمان في القديم موطنا للقبائل العربية التي قدمت إليها وسكن بعضها السهول واشتغل بالزراعة والصيد، واستقر البعض الآخر في المناطق الداخلية والصحراوية واشتغل بالرعي وتربية الماشية.

المساهمة في نشر الإسلام:

أجمعت الروايات علي أن عمان من أوائل البلدان التي اعتنقت الدين الإسلامي طواعية في عهد الرسول ﷺ، وكان مازن بن غضوبة أول من رحل إلي المدينة المنورة من أهل عمان، وقد وفد على رسول الله ﷺ وقال له: «يا بن المباركين الطيبين قد هدى الله قومًا من عمان، ومنّ عليهم بدينك وقد أخصبت وكثرت الأرباح فيه والصيد»، فقال ﷺ: «ديني دين الإسلام وسيزيد الله أهل عمان خصبًا وصيدًا، فطوبي لمن آمن بي ورآني، وطوبى لمن آمن بي ولم يرني، ولم ير من رآني، وسيزيد الله أهل عمان إسلاما».

وبعث عليه الصلاة والسلام عمرو بن العاص إلي (جيفر وعبد ابني الجلندي ابن المستكبر) - ملكي عمان آنذاك - يدعوهما إلي الإسلام فاستجابت عمان بقيادة ابني الجلندي. وأصبحت منذ ذلك التاريخ واحدة من القلاع الحصينة للإسلام، وساعدت على انتشاره في كثير من المناطق خاصة في شرق ووسط أفريقيا.

وتعد خطبة أبي بكر الصديق في الوفد العماني برئاسة عبد بن الجلندي الذي قدم إلى المدينة بعد وفاة الرسول الكريم، وثيقة هامة فى حسن أخلاق العمانيين وكرم وفادتهم، وفى حسن إسلامهم وفي ثباتهم على الإسلام بعد أن أسلموا.

فقد شكرهم أبوبكر الصديق، وقام الخطباء بالثناء عليهم فقالوا: كفاكم معاشر الأزد قول رسول الله ﷺ وثناؤه عليكم، أما عمرو بن العاص فلم يدع شيئا من المدح والثناء إلا قاله في أهل عمان.

وقد ساهمت عمان بدور بارز في الدعوة الإسلامية وشاركت في الفتوحات الإسلامية العظيمة برًا وبحرًا خاصة في العراق وفارس وبلاد السند، وعدد من البلدان الأخرى.

كما حمل العمانيون الإسلام معهم إلي شرق أفريقيا والصين والموانيء الأفريقية والآسيوية التي تعاملوا معها، ومن المعروف أن الإسلام والقيم الإسلامية تعد رابطا قويا بين العمانيين يحافظون عليه ويتمسكون به ويلتفون حوله.

تلك لمحة سريعة عن تاريخ سلطنة عمان حوت الكثير من القصور لضيق المساحة نكتفى بها على أن نعاود الحديث فى العدد القادم عن وقائع جلسات الندوة ومحاورها.

أنبـــاء الأزهـــر

إعداد الأستاذ / محمود الفشني

الإمام الأكبر للرئيس الفلسطيني: موقف الأزهر ثابت من قضية القدس

أكد فضيلة الإمام الأكبر أ.د/ أحمد الطيب، شيخ الأزهر، أن موقف الأزهر ومصر ثابت تجاه القضية الفلسطينية والدفاع عنها بالغالي والنفيس على أرض الواقع وفى المحافل الدولية.

جاء ذلك خلال استقباله الرئيس الفلسطيني محمود عباس والوفد المرافق له، واستعرض الجانبان خلال اللقاء القضايا المحلية والدولية محل الاهتمام المشترك، حيث تطابقت وجهتا النظر بين الأزهر الشريف ودولة فلسطين.

وناشد شيخ الأزهر كافة الفصائل والقوى الفلسطينية أن يكونوا على قلب رجل واحد لمواجهة التحديات والمخاطر التى تواجه الفلسطينيين والقدس الشريف.

وجدد شيخ الأزهر دعوته للباحثين بتبنى قضية فلسطين فى أبحاثهم، وكذلك المساندة الإعلامية القوية لخدمة القضية ونشر الوعى والثقافة حول دولة فلسطين وبيت المقدس.

ومن جانبه دعا الرئيس الفلسطيني إلى تعزيز موقف الأزهر فى العديد من الدول لنشر الثقافة الإسلامية الوسطية، على اعتبار أن له موقفا مؤثرا فى جميع أنحاء العالم.

وأضاف أنه بحث مع شيخ الأزهر العديد من القضايا الخاصة بالشعب الفلسطيني على رأسها قضية المصالحة الفلسطينية وما يجرى فى القدس الشريف من المشاريع الاستيطانية التى تقوم بها سلطات الكيان الصهيوني فى سبيل تهويد المدينة، مؤكدًا اهتمام فضيلة الإمام بالشأن الفلسطيني بصفة عامة من جميع النواحي الاقتصادية والاجتماعية، وتأكيده على عروبة ومكانة القدس لدى جميع المسلمين.

الإمام الأكبر يؤكد على عمق الروابط بين الأزهر وسلطنة عُمان

استقبل فضيلة الإمام الأكبر أ.د/ أحمد الطيب، شيخ الأزهر، صاحب المعالى السيد/ يوسف بن علوى بن عبد الله، وزير الشئون الخارجية بسلطنة عُمان، والوفد المرافق له، وذلك بمقر مشيخة الأزهر بالقاهرة.

وقد أكد وزيرُ الشئون الخارجية بسلطنة عُمان تقديرَه البالغ للأزهر الشريف، والدور الذى يقوم به فى ترسيخ مبادئ الوسطية فى الإسلام ونشرها فى العالم العربى والإسلامى، مشيدًا بالدور المهم الذى يقوم به الإمام الأكبر فى الفترة الراهنة التى تمر بها أمتنا العربية والإسلامية.

ومن جانبه أعرب الإمامُ الأكبر عن شكره لسلطنة عُمان قيادة وشعبا لمواقفها الداعمة لمصر، وقال: نحن في الأزهر نُقدّرُ دورَ سلطنة عُمان وقياداتها في خدمة الأمة العربية والإسلامية. وأكد الإمامُ الأكبر أهمية الروابط العميقة الضاربة في جذور التاريخ بين الأزهر الشريف وسلطنة عُمان التي تعد نموذجا يُحتذى به في علاقات الأشقاء.

الإمام الأكبر: الغرب مصمم على تشويه صورة الإسلام والمسلمين

استقبل فضيلة الإمام الأكبر أ.د: أحمد الطيب، شيخ الأزهر ـ السيد/ جبران باسيل، وزير الخارجية اللبناني، الذي أكد أن الأزهر يقوم بدوره التنويري الذي يحافظ على حقيقة الإسلام الوسطي، وعلى التعددية الفكرية الأصيلة بلا إفراط ولا تفريط، وهذا المنهج نحن بحاجة ماسة إليه في لبنان.



وأضاف إننا بحاجة إلى مصر، وصعودُها وعودتُها إلى الدور الريادي، فهو أمرٌ مطلوبٌ عربيًا وعالميًا.

وقال فضيلة الإمام الأكبر: إن لبنان في قلوبنا، ونتطلع إلى اليوم الذي يعود فيه هذا البلد المعطاء إلى دوره الذي عرفناه في الماضي لما يمتلكه من مخزون ثقافي.

وأضاف فضيلة الإمام الأكبر: إن هناك تصميمًا من الغرب على تشويه الإسلام والمسلمين، وأنا أحمدُ للمسلمين أنهم يفرّقون دائماً بين الدين في جوهره وبين أتباع الأديان، ففي الحروب الصليبية مثلا فرقنا بين المسيحيين المسالمين وبين تجار الحروب باسم الأديان، ولهذا فإن تلك الحروب أطلق عليها مؤرخونا اسم حروب الفرنجة، وتسميتها بالحروب الصليبية هي تسمية غربية خالصة، وكذلك حرب الصرب والكروات ضد المسلمين لم ينسبها المسلمون إلى الكاثوليكية ولا إلى الأرثوذكسية.

وهكذا كان الإنصاف هو الصفة الغالبة على توصيف كل الحروب التي ترتكب باسم الأديان وللأسف تجد غير المسلمين يستغلون كل راية متطرفة فينسبونها إلى الإسلام والمسلمين.

الإمام الأكبر شيخ الأزهر يلتقي مع أهالي أسوان

قام فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر والوفد المرافق لفضيلته بزيارة إلى محافظة أسوان تم فيها عدّة لقاءات وديّة مع ممثلي القبائل في أسوان.

تأتي زيارة الإمام الأكبر والوفد رفيع المستوى الذي رافقه إلى أسوان في إطار حرص الأزهر على حفظ الأرواح ووقف نزيف الدماء وإعادة الأمن والاستقرار بين أبناء أسوان، وتسوية الخلاف الذي نشب بين «النوبيين» و«الهلايل»، لإعادة الاستقرار والهدوء إلى أسوان.

وضم وفد الأزهر كلاً من: أ.د/ عباس شومان، وكيل الأزهر الشريف، وأ.د/ محمد مختار جمعة، وزير الأوقاف، والمستشار/ محمد عبدالسلام، المستشار الدستوري والقانوني لشيخ الأزهر، وكان في استقبالهم من كبار المسئولين في أسوان المحافظ، ومدير الأمن وعدد من مشايخ القبائل، وعلماء أزهريون وعدد من أهالي المحافظة.

الإمام الأكبر: يتلقى دعوة من رئيسة البرازيل
لإلقاء كلمة عن السلام في افتتاحية كأس العالم

استقبل فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور/ أحمد الطيب، شيخ الأزهر السيد/ ماركو برنداو، سفير جمهورية البرازيل بالقاهرة، وذلك بمقر مكتبه بمشيخة الأزهر الشريف.



وقد تسلّم الإمام الأكبر دعوة كريمة من السيدة/ ديلما روسيف، رئيسة جمهورية البرازيل؛ لإلقاء كلمة عن السلام، وضرورة نبذ التعصب والعنف في العالم، خلال افتتاحية كأس العالم التي ستقام في البرازيل في يوليو المقبل.

وخلال اللقاء أكد فضيلة الإمام الأكبر أنّ الأزهر الشريف مؤسسة علمية تُعنى بتوضيح حقائق الدين الإسلامي التي تدعو إلى التمسك بالقيم الدينية، وبالفضائل والتسامح وقبول الآخر. وحثّ الإمام الأكبر المسلمين البرازيليين والجاليات الإسلامية في البرازيل على الاندماج الواعي في المجتمع البرازيلي مع الحفاظ على الهوية الإسلامية؛ ليكونوا إضافة للمجتمع البرازيلي.

ومن جانبه، أعرب السفير البرازيلي عن سعادته بلقاء فضيلة الإمام الأكبر في زيارته الأولى للأزهر الشريف، وتقديره للدور الوطني الذي يقوم به الأزهر الشريف دعماً للسلام والاستقرار في العالم.

وأطلع السفير البرازيلي فضيلته على مدى الحرية التي يعيشها المواطنون المسلمون في البرازيل، وانتشار المساجد والجمعيات الإسلامية. كما قدّر السفير اندماجهم في المجتمع البرازيلي.

الإمام الأكبر يستقبل السفير المصري بالسودان

استقبل اليوم فضيلةُ الإمام الأكبر أ.د: أحمد الطيب، شيخ الأزهر ـ السيد السفير/ أسامة شلتوت، سفير مصر الجديد بجمهورية السودان الشقيقة.

وتم التباحث حول العلاقات الثقافية والدينية والتعليمية بين الأزهر الشريف وجمهورية السودان

ووجّه الإمام الأكبر بأن يقوم السفير بدراسة الأحوال الثقافية والدينية والتعليمية وموافاتنا باحتياجات السودان في هذه المجالات.

وقد تفضّل السيد السفير : أسامة شلتوت ، بتوضيح الأوضاع الحالية من النواحي الثقافية والدينية والتعليمية في السودان للإمام الأكبر ، خاصةً وأنه عمل في السابق بجمهورية السودان.

د / محمود هاشم نائبا لرئيس جامعة الأزهر للوجه البحري

بناء على ترشيح الإمام الأكبر - شيخ الأزهر - اعتمد رئيس مجلس الوزراء قرارًا بتعيين الأستاذ الدكتور/ محمد محمود أحمد هاشم ، نائبًا لرئيس جامعة الأزهر للوجه البحري لمدة أربع سنوات.

نتائج الدورة التدريبية الثانية لوعاظ الأزهر

قامت اللجنة العليا للدعوة الإسلامية بالأزهر الشريف بإجراء امتحان للسادة الوعاظ المصريين المتدربين بالدورة رقم (٢) المطورة والتي بدأت من ٢ / ٣ / ٢٠١٤ حتى ٣ / ٤ / ٢٠١٤ م، وقد نشر بيان بأسماء الناجحين ودرجاتهم على بوابة الأزهر الإلكترونية.

الجدير بالذكر أنها المرة الأولى التي تعقد فيها اللجنة العليا للدعوة الإسلامية امتحانًا للوعاظ عقب انتهاء الدورة التدريبية وبأداء متميز ، هذا ويُعطى الوعاظ شهادة يُعمل بها في نظام الترقي والابتعاث للخارج.

وقد تلقى المتدربون محاضرات في العقيدة، الفرق والمذاهب، والقضايا الفكرية المعاصرة، وعلم المواريث، وأعمال الفتوى نظريًا وعمليًا بلجنة الفتوى بالأزهر وكذا التنمية البشرية والاقتصاد الإسلامي، وسوف يعقد في الدورات القادمة - إن شاء الله -تدريبًا عمليًا على الحاسب الآلي والكمبيوتر والاستخدام الفعال لمواقع الإنترنت.

صرح بذلك د/ سعيد عامر، الأمين العام للجنة العليا للدعوة الإسلامية بمشيخة الأزهر الشريف.

أنباء مجمع البحوث الإسلامية

إعداد / أ : عبدالموجود أمين

الدعوة إلى نبذ العنف


أ.د أحمد الطيب

بناء على توجيهات فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الشريف وتحت رعايته، توجه وفد رفيع المستوى مكون من الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية فضيلة الشيخ محمد زكي، وفضيلة أ.د/ محمد أبو زيد الأمير وفضيلة، أ.د/ محيي الدين عفيفي، مستشاري فضيلة الإمام الأكبر، إلى محافظة أسوان، وذلك لأداء صلاة الجمعة هناك والعمل على معالجة آثار الفتنة والقضاء عليها والالتقاء بطرفي النزاع وبالمسئولين ولجان الصلح هناك ، وعواقل العائلات العربية ، لنزع فتيل الفتنة بين الطرفين ، جمعًا للشمل ووحدة الصف، وحفاظًا على أمن المواطنين، وتحقيقًا للسلام الاجتماعي، ونبذ عوامل الفرقة؛ تمهيدًا للقاء فضيلة الإمام الأكبر وفضيلة وزير الأوقاف، تضميدًا للجراح وجمعًا للكلمة وإعلاء للمصلحة العامة، نحو تحقيق أمن المجتمع واستقراره، لمباركة الصلح بإذن الله تعالى، الذي انتهى إليه الطرفان.

وقد سبق أن وجه فضيلة الإمام الأكبر كل دعاة الأزهر ووعاظه بالانتشار عند أماكن الصراع وحوله، والالتقاء بالقيادات الشعبية والسياسية، والدعوة إلى نبذ العنف، والعمل على وجه السرعة على وقف نزيف الدم للأسرة الواحدة، والدعوة إلى مكارم الأخلاق، والمسارعة إلى العفو والصفح وكظم الغيظ وضبط النفس والتأكيد على حرمة الدم.

مؤتمر وسطية الأزهر في مواجهة التحديات الراهنة

تحت رعاية محافظ بورسعيد السيد سامح قنديل وفضيلة الدكتور عباس شومان وفضيلة الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية الشيخ محمد زكي؛ عقد مؤتمر وسطية الأزهر في مواجهة التحديات الراهنة حيث ألقى فضيلة الشيخ محمد زكي أمين عام مجمع البحوث الإسلامية كلمة تحدث فيها عن دور الأزهر في مواجهة التحديات الراهنة التي تواجهها مصر وعن الفتاوى التي انطلقت من بعض مدعي الفتوى بغير علم، التي تبيح الدم وسفك الدماء والهبوط بمصر إلى حافة الهاوية والهلاك.

وأشار فضيلته إلى دور علماء ووعاظ الأزهر في نشر وسطية الإسلام في تلك الفترة العصيبة التي تمر بها مصر. وأشاد بالتعاون بين الأزهر ووزارة الأوقاف المصرية في نشر صحيح الدين الإسلامي وتصحيح المفاهيم الخاطئة.



وذكر فضيلته إلى تلك الكوكبة من العلماء في المؤتمر التى تحمل مشاعل النور والهدى إلى الناس، كما ذكر فضيلته أن غيرهم يدعون إلى هدى فى نفوسهم، ويدعون إلى الطائفية والمصلحة الذاتية.

ثم وجه حديثه للمتشددين والمتعصبين وأنصاف العلماء وذكرهم بسماحة الإسلام ورقى الدعوة وعالميتها وأنها لم تنتشر بالسيف ولا بالحروب، بل بالموعظة والكلمة الحسنة.

وأن من يحاول الآن هدم سماحة الإسلام وتشويه صورته إنما ينحتون فى الصخر بأظافرهم.

كما أشار فضيلته إلى أن الدعوة الإسلامية بعيدة كل البعد عن التكفير وسفك الدماء والتفجيرات التى تحدث الآن وإرهاب الآمنين. وضرب أمثلة كثيرة من حياة الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين - رضوان الله عليهم أجمعين.

وتساءل فضيلته: ألم يسمع هؤلاء الذين يفسدون فى الأرض الآن ويدَّعون الإيمان والتمسح فى الإسلام- قول الله عز وجل:

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾

(المائدة: ٣٢)

هل من يقوم الآن بقتل الجنود وغيرهم من الآمنين بغير ذنب لم يسمعوا تلك الآية الكريمة؟ وغيرهم ممن هم على شاكلتهم ويعززونهم ويشجعونهم سواء بالقول أو بالفتوى التى تجيز لهم ذلك.

إن هؤلاء هم دعاة الفتنة وخطباء الفرقة الذين رآهم الرسول صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء تقرض ألسنتهم بمقاريض من حديد.

وفى نهاية المؤتمر قام فضيلة الأمين العام والشيخ إبراهيم لطفى رئيس قطاع الوعظ بمحافظة دمياط بتوزيع شهادات التميز على بعض الدعاة المتميزين، تشجيعا وحثاً على بذل مزيد من الجهد والعمل على نشر رسالته الهادية.

وبعد ذلك قام فضيلة الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية بالسفر إلى محافظة دمياط ومعه مجموعة من علماء الأزهر وإلقاء دروس فى أكثر من مسجد ومنهم مسجد (الرحمة) ومسجد (التوحيد)

ومسجد (٣٣) برأس البر.

الأمين العام والوفد المرافق فى مؤتمر إقليم كردستان العراق

شارك الأزهر بوفد رفيع المستوى فى المؤتمر الذى عقد فى إقليم كردستان بالعراق فى الفترة من ١ وحتى ٣ / ٤ / ٢٠١٤م برئاسة فضيلة الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية فضيلة الشيخ محمد زكى، والأستاذ الدكتور عبد الحى عزب عبد العال أستاذ ورئيس قسم أصول الفقه بكلية الشريعة والقانون- القاهرة.

وقد كانت مشاركة فعالة من الأزهر الشريف، حيث أثنى الجميع على تلك المشاركة.

وقدم فضيلة الشيخ محمد زكى بحثا بعنوان «أهمية السلم الاجتماعى للأمة والحاجة إليه».

وقدم الأستاذ الدكتور محمد صلاح الهدهد -بحثا بعنوان «السلم والسلام -الإسلام فى التقارب والتعارف بين الشعوب والمجتمعات».

وبعد ذلك زار وفد الأزهر المعهد الدينى الأزهرى، وقد كانت لهذه الزيارة الأثر الكبير فى نفوس الطلاب وأولياء الأمور، حيث لمس الجميع الحب الكبير للأزهر وعلمائه، وقد كان مطلبهم الأول هو زيادة أعداد المنح المقررة لخريجى هذا المعهد للالتحاق بجامعة الأزهر الشريف.

ثم تم اختيار مجموعة من المشاركين فى المؤتمر لزيارة فخامة رئيس الإقليم، وقد كان على رأس المشاركين فى تلك الزيارة فضيلة الأمين العام محمد زكى، والدكتور عبد الحى عزب، والشيخ تاج الدين، مفتى أستراليا.

اختيار الوعاظ

عقد بمقر مركز المؤتمرات المسابقة العامة لوعاظ الأزهر لاختيار ٢٠ واعظا بالأزهر الشريف، يحملون سمات العلم وخصائص المعرفة حافظين لكتاب الله عز وجل. وقد تم الاختيار بمعرفة لجنة كبيرة من السادة أساتذة الجامعة، ووكلاء وزارة الأوقاف، وقطاع المعاهد الأزهرية، والأمانة العامة لمجمع البحوث الإسلامية، تحت رعاية وتوجيه فضيلة أ.د/ عباس شومان وكيل الأزهر الشريف حفظه الله، وصاحب الفضيلة وزير الأوقاف أ.د/ محمد جمعة.

تواصل الأزهر بالمجتمع المدنى

بناء على تكليف من الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية، قامت الأمانة العامة للدعوة والإعلام الدينى بتكليف فضيلة الشيخ/ هانى شمس الدين عضو المكتب الفنى بحضور الندوة التى أقامتها وزارة التضامن الاجتماعى بيوم اليتيم بمقر مؤسسة التثقيف الفكرى بالمرج، وحضور ندوة مركز تدريب شرطة الكهرباء والتى كانت تحت عنوان «الأمة الإسلامية وتاريخها الحضارى».

وذلك لتواصل الأزهر مع المجتمع ونشر وسطية الدين الإسلامى والعمل على إظهار دور الأزهر فى حمل مشعل النور والهداية.

أنباء العالم الإسلامي



للأستاذ أحمد رضوان

وزارة التعليم التشيكية توافق على فصول التعريف بالإسلام

وافقت وزارة التعليم التشيكية على المشروع الجديد الذي تقدم به مجموعة من الطلاب المسلمين، والذي بموجبه يُسمح بعقد فصول دراسية وحلقات نقاشية للتعريف بالإسلام والنبي محمد - صلى الله عليه وسلم - بين الطلاب، وكيفية الحياة التي يحياها المسلمون المقيمون بالبلاد الأوروبية.

وأشار القائمون على المشروع إلى أن الفكرة جاءت علاجًا لقصور المناهج التعليمية في التعريف بالإسلام بشكل كاف، ولذلك تقرر تقديم معلومات كافية للطلاب عن الإسلام وعقيدته وعبادته، والقرآن الكريم والنبي - صلى الله عليه وسلم - إلى جانب بيان حقيقة الحجاب والنقاب، وبراءة الإسلام من الافتراءات التي تثار حوله.

مباحثات زعيم تتار القرم ومنظمة المؤتمر الإسلامي لبحث حل سلمي للأزمة

التقى يوم الخميس الموافق ١٠ / ٤ / ٢٠١٤م زعيم تتار القرم «مصطفى جميلوف» مع الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي «إياد بن أمين مدني» في مقر المنظمة في «جدة».

وقد أرسل مجلس شورى المسلمين في القرم رسالة إلى رئيس المؤتمر الإسلامي لاستخدام نفوذه في إيجاد حل سلمي للأزمة الأوكرانية. وبدوره أعرب رئيس المؤتمر الإسلامي عن قلقه تجاه ما يحدث لمسلمي القرم على شبه جزيرة القرم.

وقد أصدرت منظمة المؤتمر الإسلامي بيانًا في ٢٥ مارس الماضي تحث فيه جميع الأطراف

على الحفاظ على حقوق مسلمي القرم وحمايتهم، والحفاظ على تراثهم الديني وممتلكاتهم، وعدم تهجيرهم من أراضيهم مرة أخرى.

وأعربت أيضًا عن أملها في أن تسود لغة الحوار والعلاقات الحسنة بين الجيران.

بارزاني: الدولة الكردية المستقلة قادمة لا محالة

قال مسعود برزاني رئيس إقليم كردستان بالعراق إن الدولة الكردية المستقلة قادمة لا محالة معتبرًا أن إعلان الاستقلال هو حق طبيعي للأكراد. وقال «بارزاني» - خلال لقائه على قناة «سكاي نيوز العربية» الإخبارية يوم السبت الموافق ١٢ / ٤ / ٢٠١٤م -: «لا أحد يستطيع أن يمنعنا من إعلان الاستقلال لأنه حقنا الطبيعي، لكننا نريد أن يتم كل شيء عبر الحوار، ونحن لا نريد أن ندخل في صراعات دموية مع أي جهة، لكن مسألة الاستقلال هي حق للشعب الكردي ولا ينبغي التعامل معها على أنها تهمة تلاحقنا».

وتابع قائلاً: «إن وحدة العراق أضحت أمرًا افتراضيًا، فالدولة العراقية فقدت السيطرة على مختلف المحافظات، والحكومة المركزية ليس لها سلطة على أغلب مناطق العراق».

وقال بارزاني: «إن الأمر يتجاوز الحدود العراقية، فالتطورات التي تشهدها المنطقة جاءت لتصحح اتفاقات دولية وإقليمية ولتجاوز أخطاء جسيمة في رسم حدود البلدان والأقاليم، منذ خطة سايكس بيكو». ومن جهته، قال عدنان السراج عضو ائتلاف دولة القانون بالعراق: «إن تصريحات رئيس إقليم كردستان العراق مسعود بارزاني ليست إلا أماني».

وأضاف في لقائه على قناة «سكاي نيوز العربية»: لن تجد هذه النزعات صدى إقليميًا أو دوليًا، وإنما هي مجرد أمنيات لن تتحقق إلا بالدماء، فالدولة الكردية المزمع إنشاؤها تخالف الدستور العراقي جملة وتفصيلاً.

بريطانيا: ٨٥٠ مسلما يخدمون كضباط في الجيش البريطاني

كشف تقرير لوزارة الخارجية البريطانية عن أن أكثر من ٨٥٠ مسلمًا يخدمون كضباط وجنود في القوات البريطانية، يعمل منهم (أكثر من ٨٠٪) في الجيش، بينما يخدم البقية في البحرية الملكية أو سلاح الجو الملكي. وقال التقرير الذي حصلت وكالة الأنباء الألمانية (د.ب.أ) على صورة منه: «إن عدد المسلمين الذين يخدمون في الجيش البريطاني والبحرية الملكية وسلاح الجو الملكي، ارتفع بنسبة ٤٠ بالمائة منذ عام ٢٠٠٧م، وفق إحصاءات وزارة الدفاع البريطانية». ونقل التقرير عن السفير البريطاني لدى المملكة العربية السعودية، جون جينكينز، أن «المجتمع البريطاني متعدد ويحتضن جميع الأديان، مشيرًا إلى وجود نحو ثلاثة ملايين مسلم يعيشون ويعملون في بريطانيا في مختلف المجالات».

وأضاف: «مع تزايد عدد الضباط والجنود المسلمين في الجيش البريطاني، تم تشكيل جمعية إسلامية لتمثيل مصالحهم، وتم تعيين إمام مسجد لهم». وأشار إلى أنه في شهر رمضان يمكن للأفراد الصيام باستثناء عندما يتم إرسالهم أو إعدادهم للمشاركة في عمليات، وكذلك

يحصلون على عطلة في عيدي الفطر والأضحى، فضلًا عن أن الطعام المقدم حلال ويتوافق مع الشريعة الإسلامية، ويتم تقديم وجبات إفطار وسحور خلال شهر رمضان.

وذكر التقرير أن «المسلمين الذي يخدمون في الجيش البريطاني، قادرون على أداء الصلوات الخمس يوميًا والصيام، والتماس الدعم من رجال الدين المسلمين، وتم توفير غرف لهم لأداء الصلاة، إحداها أتيحت مؤخرًا على سفينة حربية تابعة للبحرية البريطانية». ولفت إلى أن القوات المسلحة البريطانية شاركت العام الماضي في مسابقة الأمير سلطان الدولية السابعة لحفظ القرآن للعسكريين بصفتها أول بلد غير إسلامي مشارك في هذه المسابقة في السعودية.

وقال أول إمام للمسلمين في الجيش البريطاني عاصم حافظ، إن «المجتمع البريطاني أصبح أكثر تسامحًا، وأن المسلمين، رجالًا ونساء، أصبحوا أكثر قدرة على الاندماج وخدمة بلادهم». وقال حافظ: «لا شك لدي في أن المسلمين البريطانيين يمكن أن يكونوا جنودًا صالحين، ولا أرى أي تناقض بين أن يكون المرء مسلمًا واختياره للدفاع عن بريطانيا». وأوضح التقرير أن الإمام عاصم حافظ يشغل منصب مستشار الشئون الإسلامية في وزارة الدفاع البريطانية.

بريطانيا: اقتراب افتتاح المركز الإسلامي في ميلتون كينز

أوشكت أعمال إنشاء المركز الإسلامي الأول بقرية «ميلتون كينز» بمدينة «باكينجهامشير» البريطانية على الانتهاء، وذلك وفقا لتصريحات «محمد عجيلي»، مدير الجمعية الإسلامية بـ«ميلتون كينز»، الذي تولى تمويل المشروع وسيقوم على إدارته.

ويأتي إنشاء المركز بعد أعوام من انتقال الجمعية الإسلامية عبر العديد من المواقع.

وقد أكد المسئول عن المشروع سعادته بالمساحة الواسعة التي تم البناء عليها، بما يوفر مساحة لمسجد النساء، واستمرار تعاونه مع المجتمع، من خلال أعمال بنك الطعام ونشاطات «مدرسة الزيتون»، التي تعلم نحو ٦٠ طالبا اللغة العربية.

هولندا: دراسة تؤكد ازدياد معتنقي الإسلام في المجتمع الهولندي

إن اختيار المرء للإسلام كعقيدة في المجتمع الهولندي ليس اختيارًا عاديا، خاصة والإسلام يتعرض للهجوم بين حين وآخر، ولكن على الرغم من ذلك فإن أعداد الهولنديين الذين يدخلون في الإسلام في ازدياد ولله الحمد. وذكرت الباحثة «فانيسا فرون ناجم» في بحث لها عن المتحولين إلى الإسلام في «أمستردام»، أنها قابلت ٤٧ امرأة، وثبت أن الحكم المسبق بأن الهولنديات يدخلن الإسلام من أجل الزواج برجال مسلمين حكم خاطئ ولا أساس له من الصحة، ومن بين تلك النساء ٢١ فتاة لم تتزوج، ويدخل المئات الإسلام سنويا، ويقدر عددهم الآن حوالي ١٥ ألف. وترى أولئك المهتديات أنهن بحاجة إلى تقديم الإسلام لهن باللغة الهولندية، لذلك نراهن يبحثن عن التواصل والذهاب معًا لحضور المحاضرات وورش العمل باللغة الهولندية. وتبين من البحث أن الآباء يعانين من دخول بناتهن الإسلام، وخاصة من ارتدائهن للحجاب، وذلك بسبب السمعة السلبية للحجاب في «هولندا».

from the Islamic thought and denying theocracy from the Islamic state ad its establishments. He was also keen to firmly establish the fact that there is a remarkable Islamic model: an urban model which provides Islamic ideas complexly detached from the priesthood and theocracy. He said:

"Islam did not know the religious authority which was known by Europe as Islam has no religious authority other than the authority of the good advice."

The nation assigns the ruler and has the right to dominate it and it can depose him if it sees that is of its interest. He is a civil ruler from all aspects and can not be considered as theocratic as the foreigner do. The caliph, judge, Mufti, of sheikh of Islam can not be considered so. Every authority assigned to any of them is a civil authority assessed by the Islamic Shariah. Islam does not have a religious authority. Rather, turning the authority to the Islamic Sharī`ah is one of the fundamentals of Islam."[7]

Not to understand that the civility of Islam, its nation, and establishments as denying the Islamic aspect from its establishments and the state, the Imam drew the attention to the following fact:

"Islam is a religion and Sharī`ah, as it sets rules and determines rights, and the wisdom behind legislating rulings does not become perfect except after having the authority to implement the ordained punishments and to carry out the judge's verdict with the truth and to protect the community. Islam does not leave what concerns Ceaser to Ceaser, but it holds Ceaser to account. The nations which embraced Islam excelled by it over the nations which did not embrace it.

[7] Ibid, part 3, pp. 233.

(6)

When the Imam looked at the modern European renaissance and the enormous achievements which were caused by this renaissance in the European's life, he treated fairly the civilization which discovered many things that enhanced the human life, relieved the pains of human beings, and provided them with the means of progress and prosperity. However, he criticized the dominance of the materialistic aspect on this European renaissance and the worldly aspect and the absence of religion which represented the sound human nature.

Commenting on the intellectual, philosophical, and cultural dialogue which took place between the Imam and the great English philosopher Spenser [1820-1903] in which Spenser lost heart in the future of the European civilization, the Imam said:

"Those philosophers and scholars discovered many things which benefited in achieving convenience in the human life and enhancing his grace. They could not discover the human nature and to show it to the human being to go back to it. They refined all the minerals until they made iron very shinning. Can not they refine the human innate nature in Europe so that they regain their spiritual shine? Philosopher Spenser was perplexed concerning the conditions of Europe and his inability became clear with the power of science. Therefore, what is the remedy? It is going back to religion, as it discovered human nature and made it known to its followers at every time and place. However, they ignore it once more."[4]

The Imam held the view that the dilemma of modern European renaissance represents cognitive separation from the religious heritage. The materialistic aspect of the positive philosophy which

[4] Ibid. part 3. p. 513.

was limited to the materialistic side of the human being without its spiritual side neglected the innate questions of the human being about the unseen, which can not be answered except through belief in religion. Imam Muhammad `Abdu described the European urbanism saying:

"This urbanism is that of kingdom and authority (Power), the urbanism of gold and silver, luxury, and hypocrisy. The people's supreme ruler is the pound or lira, and the Bible has nothing to do wit all of this."[5]

(7)

The Imam refused the western materials in the West which started to congest with the Islamic reference in our countries and confirmed the religious dimension in the life of the individual and the nation. He expressed this fact saying:

"The souls are accustomed to tend to religion until it became an inborn character. Everyone who asked for reforming it away from religion is as if sew seeds in an invalid soil. Thus, it does not plant and his efforts go in vain, because religion is essential for whoever seeks reforming the Muslims' circumstances.

If religion is sufficient for reforming the morals and deeds and directing the souls to seek happiness and the people have confidence in it more than anything else, and efforts exerted in rendering the people to religion is easier than to search for something they do not know, then why do they seek anything other than religion?"[6]

With this confirmation to the religious dimension in the desired cultural renaissance, the Imam was entirely keen to deny priesthood

[5] Ibid. part 3, p. 205.
[6] Ibid. part 3, p. 205.

and its opponents witness this. It is the first step by which the barbarians become refined."[3]

To determine the beneficial mediation from the heritage and the western knowledge, Imam Muhammad `Abdu strived to liberate the expression "Salaf" from the trend of stagnation and imitation. The righteous predecessors are the source of essence, notification of the Qur'an and the Sunnah, and the trend of considering these sources before the emergence of controversy which full of riots and fanaticism. Thus, we should differentiate between Salafism in religion and firmly established facts and the future trend in the jurisprudence of the real state of affairs and its new developments. In this regard, the Imam said:

"We should liberate the intellect from imitation and understand the religion in the manner of the Salafs of this nation before the emergence of controversy and the return to gain knowledge from its first sources and considering intellect as a power which is better than human powers. Rather, it is the best."

From this remarkable status: Salafism must be applied on the religion not on the real state of life.

(5)

In the theory of knowledge, Imam Muhammad `Abdu adopted a position which was opposing immoderation and negligence.

Materialist and positive philosophy which dominated in the western enlightenment and which came to our country stopped at the seen without regarding the unseen. It stopped at the intellect and senses as means of knowledge. Then, it deified them and made them absolute

[3] Ibid, part 3, p. 287.

rather than being relative. It raised the slogan "intellect is dominated only by intellect" and it neglected religious texts and conscience.

Imam Muhammad `Abdu introduced the comprehensive Islamic mediation in the theory of knowledge. This is the trend of the four sources of guidance: intellect, religious texts, experiment, and conscience.

Allah granted the human being four sources of guidance by which he can attain happiness:

First: The guidance of the natural conscience or innate inspiration.

Second: the guidance of the senses and feelings.

Third: The guidance of the intellect, which is more superior than the guidance of the senses and inspiration.

The fourth guidance: The guidance of religion, as the intellect may err like the other senses. The human being may neglect using his senses and mind in matters which include his happiness. Thus, people need guidance to bring them out of darkness: the guidance of religion.

The believing materialism crystallized with this theory of knowledge and experimentation which made the natural sciences a means of happiness in the worldly life and the hereafter. This occurs when experimentation is harnessed in discovering Allah's secrets in the universe. The scholars then become the people who fear Allah (Glory be to Him) most. This theory depended on religious texts, through which the human being recognizes what his mind can not grasp on its own and also the unseen. This is in addition to the sciences which purify the hearts, so that the soul can overcome the material and bestial sides.

Ministry of knowledges, Mosques, endowments, jurisdiction so that the nation proceeds to build a wise state which rules by consultation and justice.

Sheikh Muhammad Rashid Reda [1282-1354 A.H. / 1968-1935 A.D.] adopted the intellect of the Imam through Al-Manar Magazine to the Islamic East throughout forty years. This resulted in the establishment of the schools of reformation in the East countries to the extent that we find in Indonesia the Muhammadany Association which follows the pattern of the Imam and thirty two million members joined it. Likewise, callers for reformation, innovation, and Ijtihad "Diligence" in Egypt and elsewhere followed the same pattern. They adopted the Imam's thought and approach with regard to reformation which is the greatest school known by our country in the modern era, and the effect of this great school remained so far until now.

(4)

The Islamic intellect in Egypt and the East was preoccupied with two trends:

The first was preoccupied with the heritage which was void of creativity for the age of prosperity and Ijtihad. Al-Azhar taught at this stage of history philosophy, medicine, anatomy, and music. It was not interested in the intentions, although it was detached from sciences such as geography and history. Its leaders who represented the leaderships of the nation feared innovation, not to lose the heritage.

The second: The trend of the coming western sciences whose followers rejected tradition. They feared fighting competing with the

Sheikhs of Al-Azhar in respect of innovation, and preferred to adopt the western model as a way of progress and renaissance.

In front of this difference between the followers of heritage trend and those of the western trend, Imam Muhammad `Abdu played a distinctive role in reformation. Then there came the medial trend which criticized the heritage and chose its firmly established facts and curricula which make this heritage effective in reforming the real state of affairs and the future. This trend also took from the coming culture the beneficial ideas. They are considered to be the wisdom which is sought by the believer who – whenever he find it – he becomes most entitled to it. This trend differentiates between theses ideas and the western peculiarities which were derived from the progress known by the priests and the theoretical state as well as the material positive philosophies which were isolated from religion.

Imam Muhammad `Abdu expressed this medial positive which distinguished his intellectual position and reforming trend, saying:

"I contradicted in my call to reformation the opinion of the two great groups who form the nation: The scholars concerned with religion and their followers and the students of arts in this era and their followers."[2]

Then, he spoke in detail in his intellectual creations about this mediation which is the methodology of Islam and the peculiarity of the nation.

"Islam is not absolutely spiritual or physical, but intermediate and humane, as it takes shares from each side. It suits the human nature,

[2] Complete works of Imam Muhammad `Abdu, part 2, p. 310, studied and verified by Dr. Muhammad `Imarah, Dar Al-Sharq edition, 1993 A.D.

If the canons of Napoleon beat the Ottomans and Mamelukes' horses, the cultural and scientific sides which were seen by the Egyptians in this expedition shocked them in a manner that revealed the extent of their isolation, retardation, and the dangers of stagnation and urban stagnation which dominated their country and minds at the eras of the Ottomans and Mamelukes.

Hassan Al-Attar [1180-1250 A.H. / 1766-1825 A.D. who was in contact with the scientists of the French expedition was the first one who directed attention to this cultural shock. He called to surpass it by innovation and positive interaction with the positive side of the expedition. He said: "Our country should change and its sciences and knowledge should be renewed."

(2)

Sheikh Al-Attar advised his student Sheikh Rifa`ah Al-Tahtawy [1216-1290 A.H. / 1801-1873 A.D.] who travelled to Paris in 1826 and was the Imam of the Egyptian expedition which travelled to Paris. He advised him to open his heart and mind to see the progress which occurred in Europe and to write down the aspects of this progress which will contribute to the flourishing of Egypt and the countries of the Islamic East. He wrote about the culture and thought, i.e., the urbanization of the human soul and the political systems in his book "Talkhis Al-Ibriz fi takhlis Paris". He also wrote about urbanization, i.e., the material real state of affairs in his book "Manahig Al-Albab Al-Masriyah fi Mababig Al-Aadab Al-`Asriyyah". Al-Tahtawi returned to Egypt 1831 to be the leader of the contingent thought and the imam of culture, innovation, and enlightenment through the "state", the state of modern Egypt which was established by Muhammad `Ali Pasha Al-Kabir [1181-1265 A.H. / 1770-1849 A.C.]

The Prince of Poets, Ahmad Shawqi [1285-1351 A.H / 1868-1932 A.D.] said while describing the intellectual status of Rifa`ah Al-Tahtawi when he praised his son:

O you son of the person who his knowledges awakened the knowledge of Egypt

Your father was the father of the citizens of this nation

The route of enlightenment of Rifa`ah Al-Tahtawi was trodden by tens of great men, most notably of them was `Ali Pasha Mubarak [1239-1311 A.H. / 1823-1893 A.D.] who was the father of the higher education and the most eminent engineering and planning scholar in modern Egypt.

(3)

In spite of the contradictions of the imperialist Europe by them, its countries gathered to destroy the developmental project of Muhammad `Ali by which he attempted to establish a state which endeavored to renew the youth of the East and to save it from retardation which gave the opportunity to the imperialist west to devour the countries of this sick dynasty.

When Europe besieged the state built by Muhammad `Ali seeking the help of the Ottoman Sultan by the two London treaties in 1840 and 1841, innovation and enlightenment moved from the country to the nation, as the folk trend was led by Jamal Al-Din Al-Afghany [1254-1314 A.H./1838-1897 A.D.] The intellectual structure of this trend was set by the imam (leader) Sheikh Muhammad `Abdo [1266-1323 A.H./1849-1905 A.D.] who insisted on this innovation and revival of the talents of Ijtihad and innovation and reformation of the establishments which makes the intellect of the elite: Al-Azhar,

In this way the Imam spoke…!

By: Dr. Muhammad `Imarah

Editor-in-chief of Al-Azhar Magazine.

I called loudly for two important matters:

First: Liberating thought from imitation.

Second: Rectifying the Arabic styles in editing.

There is another thing, for which I called and all the people do not pay heed to: The government's right to be obeyed by the people and the people's right to be treated fairly by the government. I called the Egyptian nation to know its right on the ruler. Although he should be obeyed, he is a human being who may err or be overcome by his desires, and nothing can stop him but giving his advice in words or in deed.

I call for my creed with regard to religion and also lingual reform. As for the government, I have left it to destiny and Allah Who can arrange its affairs. I have known that it is a fruit that is harvested by the nation after years of planting. This plantation should be given care and Allah is the One sought for help.

Muhammad `Abdu.

(1)

The French Expedition to Egypt [1213 A.H. – 1798 A.C.] was like an earthquake which resulted in a cultural shock to the Egyptians. It was like the thief who warned the owner of the house to the problem from which his house suffers.

It is true that this invasion was not new with regard to the violence practiced by the crusades [489-690 A.H./1096-1291 A.D.] The crusaders in 492 A.H./1099 A.D. slaughtered, burned and drowned seventy thousand persons of the inhabitants of Jerusalem in one week, and their horses swam in the Muslims' blood who sought protection in Masjid `Umar (Qubat Al-Sakhra mosque). Also Napoleon [1769-1821 A.D) killed more than 300,000 Egyptians, i.e. 1/7 of its total population at that time which was less than three millions. It was the greatest ration reached by any invasion in this limited time.

Napoleon betrayed and killed three thousand prisoners whom he killed at the coast of Yafa after they surrendered to him according to his promise to them, but he breached his promises. Richard Lion-heart did the same before him with three thousand prisoners after he swore not to harm them.[1]

The French Expedition which represented extension to the Crusade violence, it was different from the crusades in the way that it brought to our countries the thought of the modern European and the achievements of the industrial revolution and the philosophy of the western modernism. The canon came with culture along with the press, newspaper and scientific mission. In this way, it was different from the crusaders which were described by the Arab Prince Usamah ibn Monqiz 488-584 A.H. / 1095-1188 A.C. as beasts who do nothing but fighting.

[1] Dr. Sijrid Honkah, Allah is not Like That, p. 34, translated by Dr. Gharib Muhamad Gharib, Dar Al-Shuruq edition, 1995 and Abdul Rahman Al-Rafi`y, the History of the National Movement, part 2, p. 29, Cairo edition, 1378 A.H. – 1958 A.D.

from them offsprings who worship Allah Alone without any partner. Jibril answered: "True are the words of Allah who called you the most kind and merciful person."

Due to the sufferings faced by the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him), the Night Journey and Ascension to heavens occurred as already mentioned to relieve the pains and sufferings of the Messenger, so that he remains steadfast. He saw during them many signs of Allah, the matter that increased his belief that his Da`wah would succeed and he will gain victory over the enemies.

The Night Journey took place on earth from the Holy Mosque in Makkah to Al-Aqasa Mosque in Palestine. As for the Ascension to heaven, it started from Al-Aqsa Mosque to the heavens. Allah (Glory be to Him) subjugated for His Prophet Al-Buraq which he along with angel Jibril rode from Makkah to Jerusalem, which held him and Jibril to Al-Aqsa Mosque, where they were received by the prophets and messengers. Jibril took the Messenger's hand to lead the messengers in Prayer. Then, the Messenger (may the blessings and peace of Allah be upon him) rode with Jibril to heavens. In this regard, Allah (Glory be to Him) says:

{The sight (of Prophet Muhammad peace be upon him) turned not aside (right or left), nor it transgressed beyond the limit (ordained for it). Indeed, he (Muhammad peace be upon him) did see of the Greatest Signs of his Lord (Allâh).}

[Al-Najm (The Star): 17-18]

When the disbelievers knew about the trip of the Messenger Muhammad (may the blessings and peace of Allah be upon him) said about his journey from the Holy Mosque in Makkah to Jerusalem in the Levant and his return in part of night at the time when their camels used to take two months, they found a chance to deny his saying and belie his message. Some of them hastened to sayydona "our master" Abu Bakr Al-Siddiq and told him: "Have you heard what your friend said? (They meant the Messenger

He claims that he went from Makkah to Jerusalem and then returned to Makkah at the same night. Abu Bakr replied confidently: "If he said that. I am sure that he said really the truth. I believe him in more amazing matters, that I believe him in news and verses coming to him from heaven. How can't I believe him in a journey that occurred on earth?"

Allah willed to support his messengers with miracles, as we mentioned before and to bring about through them supernatural events which dazzle the hearts and minds.

The miracle as defined by the scholars is a supernatural event which Allah reveals at the hands of a prophet to let the people believe him. It occurs in a way that other people can not do it. The miracle which happened to the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) to be a decisive evidence on the fact that he was sent as a messenger by Allah (Glory be to Him).

Allah willed that the miracles which happened to the former prophets were physical that can be perceived by the senses such as Mosa's stick which turned to a snake and when `Isa (may the peace of Allah be upon him) revived the dead. Then, all their miracles were limited to a certain time. As for the message of the seal of the prophets and messengers, it is for all people and they continue until the day of judgment. Allah (Glory be to Him) said:

{And we have not sent you (O Muhammad peace be upon him) except as a giver of glad tidings and a warner to all mankind, but most of men know not.}

[Suraht Saba'a, Ayah: 28], also, Allah (the most high) said in the holy Qur'an:

{O mankind! Verily, I am sent to you all as the Messenger of Allah?}

[Al-A`raf (The Heights): 158]

The honorable Messenger (may the blessings and peace of Allah be upon him) said: "All the Prophets were given signs and miracles to support them, and what I was given is a general message. So I hope that I have the majority of followers."

The Night Journey and Ascension to the higher Heavens...!

By: Dr. Ibrahim Al-Assil

The death of the Mother of the Believers, Khadijah (may Allah be pleased with her) affected deeply the Messenger of Allah, Muhammad (may the blessings and peace of Allah be upon him) and his sorrow increased after the death of his uncle in the same year.

The two miracles of the Night Journey and Ascension to heavens were intended to relieve the sorrow of the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him). The miracle of the Noble Qur'an is an intellectual, moral, and permanent miracle. Allah willed to associate it with a physical miracle. This is because the message of the former messengers was not general, but was limited to a certain time, place, and people. As for the message of Muhammad, the seal of messengers and prophets, it is general and concerns all the people in every time and place.

People differ in understanding matters and in persuasion, as some of them do not get persuaded except by physical and seen matters, and others may have sublime intellect and can be persuaded by the unseen matters. Thus, the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) had two types of miracles, so that his message may be accepted by all people whatever different their perception. except the stubborn people. Allah (Glory be to Him) says about them:

{They said [to Mûsâ (Moses)]: "Whatever Ayât (proofs, evidences, verses, lessons, signs, revelations, etc.) you may bring to us, to work therewith your sorcery on us, we shall never believe in you."}

[Al-A`raf (The Heights): 131]

The scholar Al-Baihaqy (may Allah be pleased with him) narrated from Al-Imam Al-Shafi`y (may Allah be pleased with him) that Allah gave the Prophet Muhammad a greater miracle than any other Prophet. It was said

that Prophet `Isa was given the miracle of reviving the dead. Al-Shafi`y said that the trunk's longing for Prophet Muhammad is greater than this miracle because the trunk is not a living thing, as the dead had some time life.

It was narrated through an authentic (Isnad) "consolidation" that the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) was delivering speeches in Al-Madinah mosque and was leaning on a trunk. When the number of the Muslims increased, the companions said that we should make a (minbar) pulpit for the Prophet. When the Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him) left the trunk and ascended the pulpit, the trunk made a sound which is similar to the sad sound of a mother who lost her child. When the Messenger of Allah moved towards the trunk and took it in his arms, the trunk calmed down.

It is known that the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) went to Taif, thinking that they would respond to him more than the people of Makkah. However, they were more feebleminded and stubborn than the disbelievers of Makkah. They did not only refused Da`wah "the message", but they urged their boys and silly people to throw stones at him so that his honorable feet bled and he was forced to enter to a garden to seek protection. He (may the blessings and peace of Allah be upon him) sat to take rest and supplicated to his Lord the following supplication: "O Lord, I complain to You my weakness, lack of tricks, despicableness, O the Most Merciful of those who show mercy. You are the Lord of the weak and you are my Lord. To whom do you entrust my affairs? To a person who frowns at me or to an enemy to whom you entrusted my affairs. If you are not angry with me, then I do not care."

Jibril came to him accompanied with the angel of the mountains as messengers from Allah. They greeted him and the angel of the mountains told him: "O Muhammad, Allah sent me to put your order into force. If you want me to move the two makkan mountains to destroy them, I will do that. At this point, the Messenger of Allah forgot all his sufferings and said to the angel of the mountains: "No, do not do that; I hope that Allah bring about

AL-AZHAR MAGAZINE

Rajab, 1435 A.H



ENGLISH SECTION

May, 2014

In the name of Allah the Beneficent the Merciful

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾

الأعراف/ ٤٣

"Praise be to Allah, Who guided us to this; and in no way could we have been guided, unless Allah has guided us."
(Al-A'raf 43)

Editor: Dr. IBRAHIM Al-ASSIL
Professor at the Faculty of Languages and Translation.
Al-Azhar University.

الأزهر

تقرأون في شعبان

الافتتاحية

الفارق بين البدعة والإبداع

أ. د. محمد عمارة

القرآن والتوراة والإنجيل والعلم

د. موريس بوكاي

قصص الأنبياء

للشيخ عبد الوهاب النجار

خريطة الفكر الإسلامي المعاصر

للمستشار طارق البشري

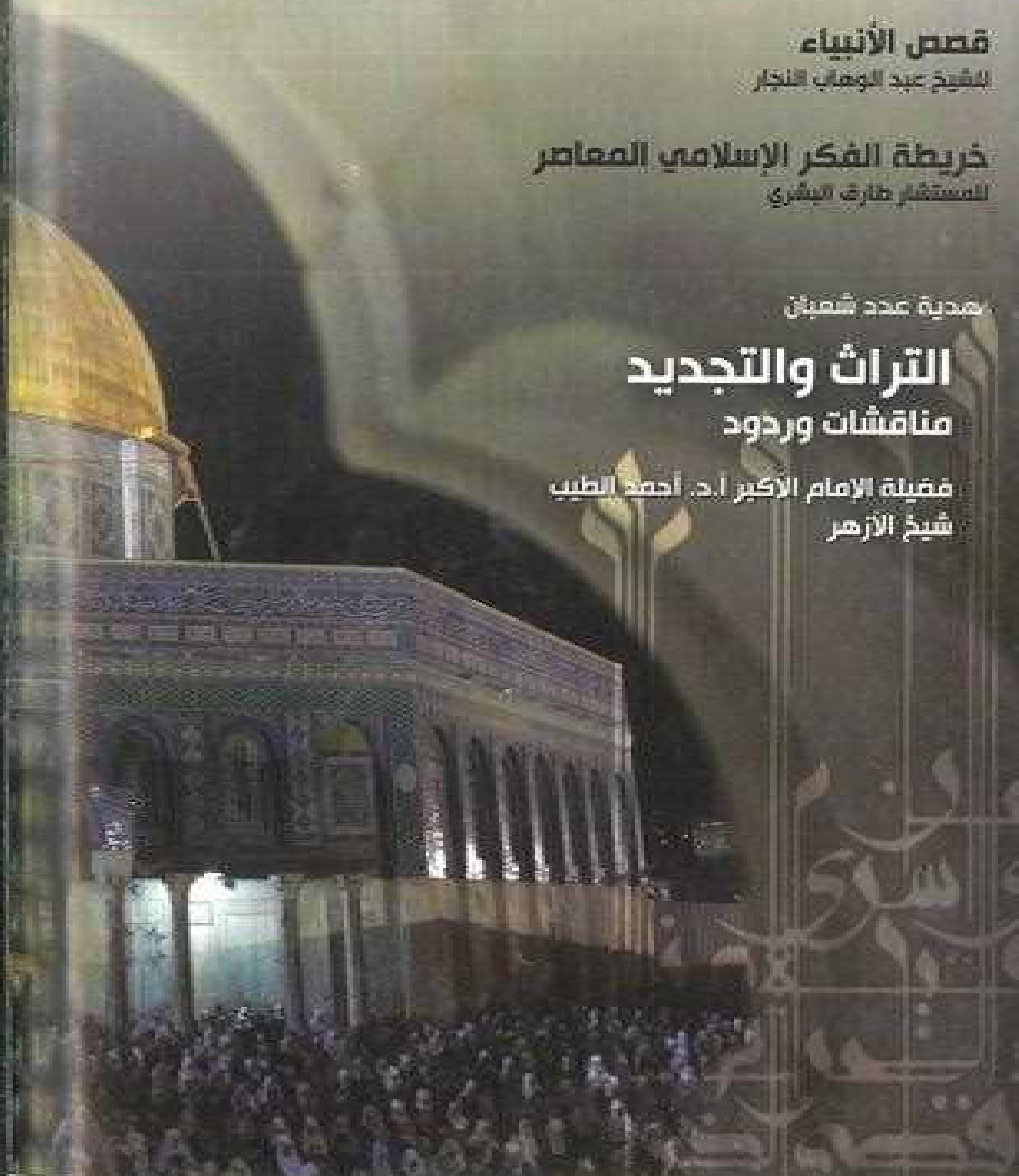
هدية عدد شعبان

التراث والتجديد

مناقشات وردود

فضيلة الإمام الأكبر أ.د. أحمد الطيب

شيخ الأزهر



www.AlazharMag.com

الأزهر

مجلة إسلامية شهرية
يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
شعبان ١٤٣٥ هـ - يونيو ٢٠١٤ م
الجزء "٨" السنة "٨٧"


أ.د. محمد عبدالله دراز


الإمام محمد رشيد رضا


أ.د. طه حسين

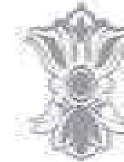
الافتتاحية
الفارق بين البدعة والإبداع
أ.د. محمد عمارة

فلسفة
الإلزام والالتزام فى الإسلام
أ.د. محمد شامة

نظرات
فى فكر الإمام الأشعرى
أ.د. أحمد الطيب

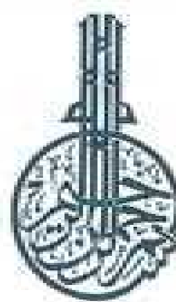
شعبان

هدية العدد
التراث والتجديد
مناقشات وردود



إلى السادة قراء مجلة الأزهر

تتوافر لدى إدارة مجلة الأزهر بعض الأعداد السابقة، فمن فاته عدد ويرغب في الحصول عليه فيمكنه التوجه لمقر مجلة الأزهر بمجمع البحوث الإسلامية - شارع الطيران - مدينة نصر - الدور الثاني.



﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ ﴾



الأزهر

مجلة شهرية جامعة يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
بالأزهر الشريف في مطلع كل شهر عربي
صدر العدد الأول في المحرم عام ١٣٤٩هـ / ١٩٣١م
وحمل اسم « نور الإسلام »
ورأس تحريرها فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين



الاشتراك السنوي

داخل مصر ٢٤ جنيهاً مصرياً - الدول العربية ٥٠ دولاراً أمريكياً
أوربا وأمريكا ٨٥ دولاراً أمريكياً - اليابان وشرق آسيا ١٢٠ دولاراً أمريكياً
عن طريق قسم الاشتراكات بمؤسسة الأهرام
شارع الجلاء - القاهرة
ت: ٢٥٧٨٦١٠٠ - ٢٨٧٥٦٢٠٠

المراسلات باسم:

مدير التحرير - مجمع البحوث الإسلامية - مدينة نصر
ت: ٢٢٦٣٨٥٩٩

editor@alazharmag.com
readers@alazharmag.com

الافتتاحية

الفارق بين البدعة والإبداع



لفضيلة الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة
www.dr_emara.com

من المواقف الفكرية المحتاجة إلى جلاء، موقف الإسلام من الإبداع، ذلك أن بعض الناس- حُسن ظن بالإسلام أو إساءة ظن به- قد انطلقوا جميعا إلى الاتفاق على موقف خاطئ من رأى الإسلام فى الإبداع، ومن عجب أن اتفاق هؤلاء البعض المتعصبين للإسلام والمتعصبين ضده فى هذا الموقف الخاطئ، قد حدث انطلاقا من تفسيرهم لحديث رسول الله ﷺ، الذى يقول فيه «إن أصدق الحديث كتاب الله، وإن أفضل الهدى هدى محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة فى النار»(*).

فانطلاقا من هذا الحديث ظن البعض تحريم الإسلام لكل إبداع، ولجميع المحدثات والمستجدات، دونما تمييز بين إبداع يخالف ويناقض الكتاب والسنة، وهى البدعة فى ثوابت الدين، التى تخالف ما يجب فيه «الاتباع»، ويحرم فيه «الابتداع»- وبين الإبداع المحمود فى الفكر الإنسانى والصناعات العمرانية، بل وفى الفضائل الدينية التى لا تقع فى حيز المخالفة لأصدق الحديث- كتاب الله- ولأفضل الهدي- سنة رسول الله ﷺ- بل ودون وعى بأن اشتمال الكتاب والسنة على «أفضل» الحديث والهدي، لا يعنى نفى «الفضل» عن جميع ما لم يرد فيهما.

ولأن هذه القضية واحدة من القضايا الكبرى- والمشكلة- فى العقل المسلم المعاصر زاد الجدل حولها، واشتد الاستقطاب بسببها- فإنها فى حاجة إلى جلاء، تبدأ خطواته من الأصول والجذور.

إن «الإبداع» كما يعرفه علماء مصطلحات القرآن- هو: «إنشاء صنعة جديدة، بلا احتذاء واقتداء» وهو ذات التعريف الذى نجده فى معاجم العربية، «فبدع الشيء يبدعه بدعا وابتدعه: أنشأه وبدأه، واخترعه لا على مثال».

فالإبداع هو إنشاء الجديد، واختراع غير المسبوق، وصناعة ما لا مثال له، سواء أكان ذلك فى صناعة الفكر أم فى الصناعات العملية للأشياء.

لكن علماء الاصطلاحات فى حضارتنا يميزون فى هذا الإبداع بين «البدعة فى الدين» الذى اكتمل فى البلاغ القرآنى وفى البيان النبوى لهذا البلاغ- وبين الإبداع والاختراع فى «الفكر الإنساني» الذى لم يقل أحد بإغلاق أبواب الإبداع فيه، لأنه الفكر- ثمرة للوجود الدائم أبدا، والمتغير دائما! «والفكر صناعة إنسانية، يأتى ثمرة «للتفكر»، بينما «الدين» وحى إلهي، وليس ثمرة «للتفكر»، حتى إنه لا يسمى على الحقيقة- «فكرا»؟!

إنه «علم إلهي»، وليس «فكرا إنسانيا»، وفارق بين «العلم الإلهي»، الذى هو سبب لوجود الموجودات، وبين «الفكر الإنساني»، الذى هو مسبب عن هذه الموجودات، ومتغير ومتطور بتغيرها وتطورها!

يميز علماء المصطلحات الفنية واللغوية- بين «الإبداع الفكري» وبين «البدعة فى الدين»، عندما يعرفون هذه البدعة بأنها «الحدث، وما ابتدع فى الدين بعد الإكمال».

وإذا كان «التجديد» سنة من سنن الاجتماع الديني، فى النسق الفكرى الإسلامي، دائمة الفعل، عبر الزمان والمكان، لا تبديل لها ولا تحويل، يقرر ذلك لها وفيها، رسول الله ﷺ، عندما يقول فيما رواه أبو داود «يبعث الله لهذه الأمة، على رأس كل مائة سنة، من يجدد لها أمر دينها».. فإن «التجديد» لا يمكن إلا أن يكون ثمرة للإبداع، ومثمرا لمقادير، قلت أو كثرت، من «الإبداع».

وإذا كان «الاجتهاد» فريضة إسلامية، يتوقف عليها بقاء أصول الشريعة دائمة العطاء والإثمار، بما يواكب المتغيرات والمستجدات والمحدثات، عبر الزمان والمكان.. فهذا «الاجتهاد»- الذى يختلف فيه إمام عن إمام.. ومذهب عن مذهب.. وعصر عن عصر- لا بد أن يكون ثمرة لإبداع، وحاملا لقدر من «الإبداع»!

فالتمييز بين «الإبداع فى الفكر والصناعة» أى فى «العمران» وعلومه- الشرعية منها

(*) رواه مسلم والنسائى وأبو داود والدارمى وابن ماجه والإمام أحمد

والمدنيـة- وبيـن «البدعة في الديـن»- أي في ثوابته التي اكتملت بختـم الوحي والنبوة- موقف واضح، لا غموض فيه ولا خلاف عليه بين علماء الإسلام.

بل إن أئمة المسلمين وفقهاءهم- من كل المذاهب الإسلامية- قد ميزوا في «البدعة الدينية»، بين تلك التي «خالفت» الكتاب والسـنة، فهي «بدعة الضلالة» التي نهى عن إحداثها رسـول الله ﷺ ، فـي الديـن.. وبين «بدعة الهـدى»، التي لا تخالف ما جاء به الكتاب والسـنة، وإن لم يأت بها قرآن أو حديث.. وفيها تدخل الفضائل والخيرات وأصناف المعروف التي يبدعها ويبتدعها الإنسـان، فتتحقق بها مقاصد دينية، رغم أنها لم ينص عليها البلاغ القرآني، ولا السـنة النبوية، تحديدا.. فهي إبداع يحقق «المقاصد الدينية» وليس «اتباعًا» لشعيرة حددتها الشريعة الدينية..

وفـي هذا التمييـز بين «البدعة الضالـة» و«البدعة المحمودة» يقول الإمام الشـافعي [١٥٠-٢٠٤هـ/ ٧٦٧- ٨٢٠م]: «البدعة: ما أحدث وخالف كتابًا أو سنةً أو إجماعا أو أثرا، فهو البدعة الضالة. وما أُحدث من الخير ولم يخالف شيئا من ذلك فهو البدعة المحمودة».

فالبدعـة التـي هي ضلالة وفـي النار ليسـت الإبداع الجديد الـذى لم يرد به وحـي ولم تنطق بـه سـنة.. وإنما هـي المخالفة لما جاء في الكتاب والسـنة.. فالوحي الإلهي والسـنة النبوية لم تحصـر- نصا وتفصيلا- كل ما هو محمود، ومن ثـم فأبواب الإبداع والابتداع للأمور المحمودة كانت وسـتظل مفتوحة أبـدا.. والمنهي عنه من «البدع» هو المخالف لمبادئ الشـريعة وأحكام الدين.

ولم يكن الإمام الشافعي- ولا غيره من أئمة الإسـلام- مبتدعًا لهذا التمييز- في البدعة الدينية- بيـن «البدعـة الضالة» و«البدعـة المحمودة».. وإنما كان هـذا التمييز منهاجـا متعارفا عليه في اجتهادات الصحابة واسـتجابة الخلفاء الراشـدين للمقاصد المشـروعة بأعمال صالحة لا تخالف النصوص والأحكام، وإن لم ترد في هذه النصوص والأحكام..

ومـما روى الأئمـة في هذا المقام «بدعة» عمر بن الخطاب رضـي الله عنه، التي ابتدعها عندما جمـع النـاس على «قيام» رمضان، وذلك بأداء صـلاة التراويح جماعة وبانتظام.. وهو ما لم يفعله رسـول الله ﷺ ، إذ كان يصليهـا أحيانا ويتركها أحيانا، ثم هو ﷺ لـم يجمع الناس لها.. فجاء عمر رضي الله عنه فجعلها شعيرة دائمة في ليالي رمضان، وجمع الناس عليها وفيها.. بل وسماها بدعة، فقال: «نعمت البدعة هذه»!- رواه البخاري ومالك في الموطأ-.

روى الأئمـة ذلـك واسـتشـهدوا به على وجـود «بدعة هدى محمـودة» مغايـرة لـ«بدعة الضلالة المذمومـة»، وعلـى ضرورة التمييز بيـن «البدعة- والإبداع»، حتى في الأمـور الدينية.. ووجدنا عز الدين بن الأثير [٥٥٥- ٦٣٠هـ/ ١١٦٠- ١٢٣٣م]- وهو يتحدث عن «البدعة»- يقول: «البدعة بدعتان: بدعة هدى وبدعة ضلالة. فما كان في خلاف ما أمر الله به ورسـوله ﷺ فهو في حيز الذم والإنـكار، ومـا كان واقعا تحت عموم مـا ندب الله إليه وحض عليه أو رسـوله فهو في حيز المدح. ومـا لم يكـن له مثال موجود- [وهـو الإبداع والاختراع على غير مثال سـابق]- كنـوع من الجود والسـخاء، وفعل المعروف، فهو من الأفعال المحمودة، ولا يجوز أن يكون ذلك في خلاف ما ورد

الشـرع به، لأن النبي- ﷺ -قد جعل له في ذلك ثوابا، فقال: «من سـن سـنة حسـنة كان له أجرها وأجر من عمل بها» وقال في ضده: «ومن سـن سـنة سـيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها»[1]. وذلك إذا كان في خلاف ما أمر الله به ورسوله».

ويمضـي ابـن الأثير، فيدعـم هذا الرأي بما روى عـن عمر بن الخطاب، فيقـول: «ومن هذا النوع قول عمر -رضي الله عنه -«نعمة البدعة هذه» لما كانت من أفعال الخير، وداخلة في حيز المدح سـماها بدعة ومدحها، لأن النبي- ﷺ -لم يسـنها لهم وإنما صلاها ليالي ثم تركها ولم يحافـظ عليهـا، ولا جمع الناس لها، ولا كانت في زمـن أبي بكر، وإنما عمر -رضي الله عنهما- جمع الناس عليها وندبهم إليها، فبهذا سماها بدعة... فيحمل حديث «كل محدثة بدعة» على ما خالف أصول الشريعة ولم يوافق السنة».

وتأسيـسـا علـى هذا المنهـاج، في الفقه الـذى يميز -في البدعـة الدينية- بيـن «الضلالة.. المذمومـة» التي تخالف الدين الثابت.. وبين «بدعـة الهدى المحمودة» التي لم تأت بها أحكام الديـن.. لكنهـا لا تخالـف تلك الأحكام، فهي إبـداع وابتداع فيما لايخالف كتابا ولا سـنة.. تأسيـسـا على هذا المنهاج في الفقه والنظر أجرى العلماء الأحكام الخمسـة- الوجوب، والحرمة والندب، والكراهة، والإباحة- كل على إبداع وابتداع.

فواجب إبداع وابتداع العلوم التي لاتقوم فرائض الدين وواجبات خلافة الإنسـان لله في عمران الأرض إلا بإبداعها وابتداعها.. شرعية كانت أو مدنية تلك العلوم.

ومحرم ابتداع المحرمات المخالفة لأوامر الشرع ونواهيه.

ومندوب ومستحب إبداع ما يلزم لمندوبات ومستحبات الدين والدنيا.

ومكروه إبداع وابتداع ما يؤدي إلى المكروه دينيا ودنيويا.

ومباح إبداع وابتداع كل ما يدخل في المباحات من أمور الدين، والدنيا[2].

وإذا كان الإبـداع حتـى في الإطار الديني، مفتوحة أمامه الأبـواب فيما لايخالف مبادئ الدين وأحكام الشريعة.. فمن باب أولى يكون الحال مع الإبداع في سياسات الدنيا وشئون العمران.

ويلفـت النظـر، ويسـتدعي التأمـل، أن ذلك لم يكن موطـن خلاف بين فقهاء الإسـلام أو في مذاهب الإسـلاميين.. فحتى علماء «مدرسـة الأثـر» الذين تحرج الكثيرون منهم في اسـتخدام «الرأي» و«القياس» و«التأويل» وأشـباهها من سـبل النظر والبحث والاستنباط، وأيناهم يفتحون البـاب للإبداع في السياسـات، بل ويجعلون السياسـات التي يبدعها العقل الإنسـاني جزءا من السياسـة الشـرعية، حتى وإن لم يرد لها ذكر في الكتاب أو السـنة، طالما أنها لا تخالف ما جاء فيهـا من نصوص ومبادئ وأحكام.. فحثوا على الإبداع «الموافق للشـرع» ولم يكتفوا بما نطق به الشرع».

(١) رواه مسلم والنسائي والإمام أحمد.

(٢) انظر في ذلك الراغب الأصفهاني «المفردات في غريب القرآن» - مادة «بدع» طبعة القاهرة سنة ١٩٩١م والتهانوي «كشاف اصطلاحات الفنون» طبعة الهند ١٨٩١م وابن منظور «لسان العرب» طبعة دار المعارف - القاهرة.

ولقد حدثت مناظرة بين الإمام السلفي أبو الوفاء علي بن عقيل محمد بن عقيل البغدادي (٤٣١-٥١٣هـ - ١٠٤٠ - ١١١٩م) وبين أحد فقهاء الشافعية، قال فيها ابن عقيل كلاما نفيسا، عن «شرعية» الإبداع الإنساني في السياسة، طالما لم يخالف الدين، حتى وإن لم يأت به الوحي ولم ينطق به رسول..

قال ابن عقيل - في بيان المعنى الحق لقول الفقيه الشافعي: لاسياسة إلا ما وافق الشرع» :

«السياسة: ما كان من الأفعال بحيث يكون الناس معه أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد، وإن لم يشرعه الرسول ولا نزل به وحي. فإن أردت بقولك: «لا سياسة إلا ما وافق الشرع» أي: لم يخالف ما نطق به الشرع، فصحيح، وإن أردت: ما نطق به الشرع، فغلط وتغليط للصحابة، فقد جرى من الخلفاء الراشدين.. ما كان رأيا اعتمدوا فيه على المصلحة» مما لم ينطق به الشرع.

ولقد عقب ابن القيم على أهمية هذه القضية وخطورة الآثار المترتبة على الخلاف فيها.. فقال:

«وهذا موضع مزلة أقدام، ومضلة أفهام، وهو مقام ضنك في معترك صعب، فرط فيه طائفة فعطلوا الحدود، وضيعوا الحقوق، وجرءوا أهل الفجور على الفساد، وجعلوا الشريعة قاصرة لا تقوم بمصالح العباد، وسدوا على أنفسهم طرقا صحيحة من الطرق التي يعرف بها المحق من المبطل، وعطلوها مع علمهم وعلم الناس بها أنها أدلة حق، ظنا منهم منافاتها لقواعد الشرع. والذي أوجب لهم ذلك نوع تقصير في معرفة حقيقة الشريعة، والتطبيق بن الواقع وبينها.. إن الله قد أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط، وهو العدل الذي قامت به السموات والأرض، فإذا ظهرت أمارات الحق، وقامت أدلة العدل، وأسفر صبحه بأي طريق كان، فثم شرع الله ودينه ورضاه وأمره، والله تعالى لم يحصر طرق العدل وأدلته وأماراته في نوع واحد وأبطل غيره من الطرق التي هي أقوى منه وأدل وأظهر، بل بين بما شرعه من الطرق أن مقصوده: إقامة الحق والعدل وقيام الناس بالقسط، فأي طريق استخرج بها الحق ومعرفة العدل وجب الحكم بموجبها ومقتضاها. والطرق أسباب ووسائل لا تراد لذواتها، وإنما المراد غايتها، التي هي المقاصد. ولكن نبه بما شرعه من الطرق على أسبابها وأمثالها، ولن تجد طريقًا من الطرق المثبتة للحق إلا وهي شرعة وسبيل للدلالة عليها. وهل يظن بالشريعة الكاملة خلاف ذلك؟!.

إننا لا نقول: إن السياسة العادلة مخالفة للشريعة الكاملة، بل هي جزء من أجزائها وباب من أبوابها، وتسميتها سياسة أمر اصطلاحي، وإلا فإذا كانت عادلة فهي من الشرع.. فالسياسة نوعان: سياسة ظالمة، فالشريعة تحرمها، وسياسة عادلة، تخرج الحق من الظالم الفاجر، فهي من الشريعة، علمها من علمها، وجهلها من جهلها.. وهذا من أهم الأصول وأنفعها»[٣]:

فالإبداع الإسلامي في السياسات، ليس فقط مطلوبا، وإنما هو إذا تحقق به العدل والقسط جزء من الشريعة الكاملة، وباب من أبوابها، حتى وإن لم ينزل به الوحي أو ينطق به الرسول ﷺ..

* * *

(٣) ابن القيم [أعلام الموقعين] جـ٤ ص٣٧٢، ٣٧٣، ٣٧٥. طبعة بيروت سنة١٩٧٣م. و[الطرق الحكمية في السياسة الشرعية] ص١٧، ١٦، ٥. تحقيق د.جميل غازي. طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧م.

ذلك هو الموقف الإسلامي من «الإبداع.. والابتداع»..

فمن الأفعال الإنسانية ما هو محاكاة وتقليد واتباع..

ومنها ما هو إبداع وتجديد.. أي إنشاء واختراع لا على مثال سابق..

وإذا كان هذا الإبداع مخالفا لما أمر به الله، سبحانه وتعالى، أو رسوله ﷺ، فتلك هي «بدعة الضلالة.. المذمومة» إسلاميًا..

أما إن كان الإبداع واقعا تحت عموم ما ندب الله إليه، ودعا إليه الرسول، فهو في حيز الممدوح.. وكذلك إذا كان الإبداع فيما لا يخالف أمر الله ورسوله، فهو محمود، حتى وإن لم ينزل به وحي ولم يرد فيه حديث.

وإذا كانت عمارة الأرض هي المقاصد العظمى من وراء استخلاف الله للإنسان، فإن الإبداع الإنساني في سائر ميادين العمران البشري داخل في السبل والآليات التي لا بد منها لتحقيق مقاصد هذا الاستخلاف.. شريطة أن لا يخالف هذا الإبداع دينًا ثابتًا في البلاغ القرآني أو في البيان النبوي لهذا البلاغ.

* * *

ولأن المسلمين قد أجمعوا على جواز وصف الإنسان بـ«العلم والعالم» مع أنها من صفات الله سبحانه وتعالى، الذي ليس كمثله شيء، لا في الذات ولا في الصفات.. وذلك وعيًا منهم باختلاف المضامين والمفاهيم في الصفة، عندما يوصف بها الله، عنها عندما يوصف بها الإنسان فعلم الله كلي ومحيط وسبب في وجود الموجودات.. بينما علم الإنسان جزئي ونسبي ومعلول ومُسَبَّب عن الموجودات-.

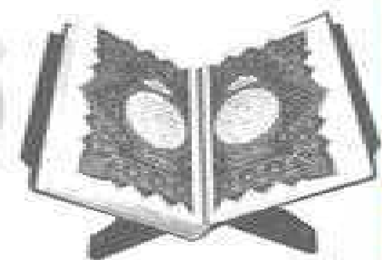
لأن المسلمين صنعوا ذلك، دون تحرج، رأينا علماءنا يميزون بين الإبداع الإلهي والله ﴿بَدِيعُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١٧]

وبين الإبداع الإنساني، قائلين: «إن الإبداع إذا استعمل في الله تعالى فهو إيجاد الشيء بغير آلة ولا مادة ولا زمان ولا مكان. وليس ذلك إلا لله»[٤].. بينما الإبداع الإنساني له آلياته ومواده، وهو داخل في الزمان والمكان..

وهكذا تميز منهاج النظر الإسلامي، في هذا المبحث بالجرءة والدقة، عندما لم يقف عند حدود المصطلحات، وإنما عين الفروق في مضامين المصطلحات ومفاهيمها، فحافظ على أرقى مستويات التنزيه والتجريد في صفات الذات الإلهية، في نفس الوقت الذي فتح فيه أمام الإنسان المسلم أوسع الأبواب للإبداع والابتداع فيما لا يخالف ما جاء به البلاغ القرآني والبيان النبوي من أحكام الإسلام.

❁❁❁

(٤) المفردات في غريب القرآن مادة «بدع».



تفسير سورة البقرة



لفضيلة الأستاذ الإمام
محمد عبده

﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا
بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١١١) بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ
أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢) وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ
وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ
قَوْلِهِمْ ۚ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١١٣) ﴾

(البقرة: ١١١-١١٣)

هذا بيان لحالين أخريين من أحوال أهل الكتاب في غرورهم بدينهم، ما كان المسلمون قبل نزول الآيات يعرفونهما.

أما الأولى، فما بينه تعالى بقوله:

﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ﴾

(البقرة: ١١١)

وهو عطف على قوله:

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾

(البقرة: ١٠٩)

أي قالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا، وقالت النصارى كذلك في أنفسهم، وهو اختصار بديع غير مخل. وهذه عقيدة الفريقين إلى اليوم، ولا ينافي انسحاب حكمها على الآخرين أن نفرًا من الأولين قالوا ذلك بين يدي النبي ﷺ كما يروى.

وقد بين لنا تعالى أن هذا القول لا حجة له في كتبه المنزلة، فقال:

﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾

والأماني جمع أمنية وهي ما يتمناه المرء ولا يدركه. وهذا القول ناطق بأمنية واحدة، ولكنها تتضمن أماني متعددة هي لوازم لها، كنجاتهم من العذاب، وكوقوع أعدائهم فيه وحرماتهم من النعيم.

ولهذا، ذكر الأماني بالجمع ولم يقل تلك أمنيتهم.

ثم طالبهم تعالى بالبرهان على دعواهم، فقرر لنا قاعدة لا توجد في غير القرآن من الكتب السماوية، وهي أنه لا يقبل من أحد قول لا دليل عليه، ولا يحكم لأحد بدعوى ينتحلها بغير برهان يؤيدها. ذلك أن الأمم التي خوطبت بالكتب السالفة، لم تكن مستعدة لاستقلال الفكر ومعرفة الأمور بأدلتها وبراهينها، ولذلك اكتفى منهم بتقليد الأنبياء فيما يبلغونهم وإن لم يعرفوا برهانه. فهم مكلفون أن يفعلوا ما يؤمرون، سواء عرفوا لماذا أمروا أم لم يعرفوا.

ولكن القرآن يخاطب من أنزل عليه بمثل قوله:

﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾

(يوسف: ١٠٨)

وقد فسروا البصيرة بالحجة الواضحة. ويستدل على قدرة الله وإرادته وعلمه وحكمته ووحدانيته بالآيات الكونية، وهي كثيرة جدًا في القرآن، وبالأدلة النظرية والعقلية كقوله:

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾

(الأنبياء: ٢٢)

وغير ذلك ويستدل على الأحكام بما يترتب عليها من نفي المضرات والإفضاء إلى المنافع.

علم القرآن أهله أن يطالبوا الناس بالحجة، لأنه أقامهم على سواء المحجة، وجدير بصاحب اليقين أن يطالب خصمه به ويدعوه إليه. وعلى هذا، درج سلف هذه الأمة الصالح، قالوا بالدليل، وطالبوا بالدليل، ونهوا عن الأخذ بشيء من غير دليل. ثم جاء الخلف الصالح، فحكم بالتقليد، وأمر بالتقليد، ونهى عن الاستدلال على غير صحة التقليد، حتى كأن الإسلام خرج عن حده، أو انقلب إلى ضده. وصار الذين يعلمون أن الإسلام امتاز عن سائر الأديان بإبطال التقليد، وبالمطالبة بالبرهان والدليل، وعلم الناس استقلال الفكر، مع المشاورة في الأمر، يطالبون المسلمين بالرجوع إلى الدليل، ويعيبون عليهم الأخذ بقال وقيل. وياليته كان الأخذ بقال الله، وقيل فيما يروى عن رسول الله، ولكنه الأخذ بقال فلان وقيل عن علان:

﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾

(النجم: ٢٣).

قال تعالى ردًا عليهم: ﴿ بَلَىٰ ﴾ وهي كلمة تذكر في الجواب لإثبات نفي سابق، فهي مبطلة لقولهم: ﴿ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ ﴾ إلخ، أي بلى إنه يدخلها من لم يكن هودا ولا نصارى، لأن رحمة الله ليست خاصة بشعب دون شعب، وإنما هي مبذولة لكل من يطلبها ويعمل لها عملها، وهو ما بينه سبحانه وتعالى بقوله:

﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ ﴾

(البقرة: ١١٢)

إسلام الوجه لله، هو التوجه إليه وحده وتخصيصه بالعبادة دون سواه، كما أشار إلى ذلك في قوله:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

(الفاتحة: ٥).

وغيرها من الآيات.

وقد عبر هنا عن إسلام القلب وصحة القصد إلى الشيء بإسلام الوجه، كما عبر عنه بتوجيه الوجه في قوله تعالى حكاية إبراهيم:

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾

(الأنعام: ٧٩).

لأن قاصد الشيء يقبل عليه بوجهه لا يوليه دبره. فلما كان توجيه الوجه إلى شيء له جهة تابعًا لقصده واشتغال القلب به، عبر عنه به، وجعل التوجه بالوجه إلى جهة مخصوصة، «وهي القبلة» بأمر الله، مذكرًا بإقبال القلب على الله الذي لا تحدده الجهات. فالإنسان يتضرع ويسجد لله تعالى بوجهه، وعلى الوجه يظهر أثر الخشوع.

وظاهر أن المراد من إسلام الوجه لله: توحيده بالعبادة والإخلاص له في العمل، بأن لا يجعل العبد بينه وبينه وسطاء يقربونه إليه زلفى، فإنه أقرب إليه من حبل الوريد. ومن هنا يفهم معنى الإسلام الذي يكون به المرء مسلمًا.

ذكر التوحيد والإيمان الخالص، ولم يحمل عليه الوعد بالأجر عند الله تعالى واستحقاق الكرامة في دار المقامة إلا بعد أن قيده بإحسان العمل، فقال:

﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ﴾

(البقرة: ١١٢).

وتلك سنة القرآن تقرن الإيمان بعمل الصالحات، كقوله:

﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٢٣) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾

(النساء: ١٢٣ - ١٢٤).

وهذا في معنى الآيات التي تفسرها نفي أماني المسلمين، كما نفى أماني أهل الكتاب، وجعل أمر سعادة الآخرة منوطًا بالإيمان، والعمل الصالح معًا، وكقوله:

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾

(الأنبياء: ٩٤).

ثم بعد أن أثبت للمسلم وجهه إلى الله والمحسن في عمله الأجر عند الله، نفى عنه الخوف الذي يرهق الكافرين والمسيئين في هذه الدنيا وفي تلك الدار الآخرة، والحزن الذي يصيبهم، فقال:

﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

(البقرة: ١١٢).

ولا شك في أن المخاوف والأحزان تساور الذين لبسوا إيمانهم بظلم الوثنية، وأساءوا أعمالهم بالإعراض عن الهداية الدينية.

ترى أصحاب النزغات الوثنية في خوف دائم مما لا يخيف، لأنهم يعتقدون بثبوت السلطة الغيبية القاهرة لكل ما يظهر لهم منه عمل لا يهتدون إلى سببه ولا يعرفون تأويله. يستخذون للدجالين والمشعوذين من حوادث الطبيعة الغريبة. إذا لاح لهم نجم مذنب تخيلوا أنه منذر يهددهم بالهلاك. وإذا أصابتهم مصيبة بما كسبت أيديهم من الفساد توهموا أنها من تصرف بعض العباد. وتراهم في جزع وهلع من حدوث الحوادث، ونزول الكوارث، لا يصبرون في البأساء والضراء، ولا ينفقون في الرخاء والسراء:

﴿۞ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣)﴾

(المعارج: ١٩، ٢٣).

هذه حال من فقد التوجيه الخالص، وحرم من العمل الصالح في هذه الحياة الدنيا.

﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾

(فصلت: ١٦).

وإنما كان صاحب النزغات الوثنية في خوف مما يستقبله، وحزن مما ينزل به، لأن ما اخترعه له وهمه من السلطة الغيبية لغير الله التي يحكمها في نفسه، ويجعلها حجابًا بينه وبين ربه، لا يمكنه أن يعتمد في الشدائد عليها، ولا يجد عندها غناء إذا هو لجأ إليها، وما هو من سلطتها على يقين، وإنما هو من الظانين أو الواهمين.

وإما ذو التوحيد الخالص، فهو يعلم أنه لا فاعل إلا الله تعالى، وأنه من رحمته قد هدى الإنسان إلى السنن الحكيمة التي يجري عليها في أفعاله. فإذا أصابه ما يكره بحث في سببه واجتهد في تلافيه من السنة التي سنها الله تعالى لذلك، فإن كان أمرًا لا مرد له سلم أمره فيه إلى الفاعل الحكيم، فلا يحار ولا يضطرب لأن سنده قوي عزيز، والقوة التي يلجأ إليها كبيرة لا يعجزها شيء. فإذا نزل به سبب الحزن أو عرض له مقتضى الخوف، لا يكون أثرهما إلا كما يطيف الخاطر بالبال، ولا يلبث أن يعرض له الزوال:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾

(الرعد: ٢٨).

فكأنه تعالى يقول لأهل الكتاب: لا تغرنكم الأماني، ولا يخدعنكم الانتساب الباطل إلى الأنبياء، فهذه هي طريق الجنة: أسلموا وجوهكم لله تسلموا، واعملوا الصالحات تؤجروا، وقد أفرد الضمير في قوله:

﴿فَلَهُ أَجْرُهُ﴾ مراعاة للفظ ﴿مَنْ﴾، وجمعه في قوله: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ إلخ مراعاة لمعناها:

بعد أن ذكر تزكية كل فريق من أهل

الكتاب نفسه وحكمه بحرمان غيره من رحمة الله كيفما كانت حاله، ذكر طعن كل فريق منهما بالآخر خاصة فقال:

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾

(البقرة: ١١٣)

من الدين حقيقى يعتد به. فالشىء فى اللغة هو الموجود المتحقق، والاعتقادات الخيالية التى لا تنطبق على موجود فى الخارج لا تسمى شيئًا. فكفروا بعيسى وهم يتلون التوراة التى تبشر به وتذكر من العلامات ما ينطبق عليه. ولا تزال اليهود إلى اليوم تدعى أن المسيح المبشر به فى التوراة لما يأت، وتنتظر ظهوره وإعادته الملك إلى شعب إسرائيل.

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾

(البقرة: ١١٣)

من الدين حقيقى يعتد به لإنكارهم المسيح المتمم لشريعتهم.

يقول كل فريق منهم ما يقول:

﴿وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾

أى يتلو كل منهم كتابه.

فكتاب الأولين (التوراة) يبشر برسول منهم ظهر ولم يؤمنوا به، فهم مخالفون لكتابهم. وكتاب الآخرين (الإنجيل) يقول بلسان المسيح إنه جاء متممًا لناموس موسى لا ناقضًا له، وهم قد نقضوه، فدينهم واحد، ترك بعضهم أوله وبعضهم أخره؛ فلم يؤمن به كله أحد منهم، والكتاب الذى يقرءون حجة عليهم.

ثم قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾، أى نحو ذلك السخف والجزاف ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ من مشركى العرب وغيرهم من أهل الملل ﴿مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾. تعصب كل لملته التى جعلها جنسية، وزعم أنها هى المنجية لكل من وسم بها، ورضى باسمها ولقبها. والحق وراء جميع المزاعم لا يتقيد بأسماء ولا ألقاب، وإنما هو إيمان خالص وعمل صالح. ولو اهتدى الناس إلى هذا لما تفرقوا فى الدين واختلفوا فى أصوله، ولكنهم تعصبوا وتحزبوا لأهوائهم، فتفرقوا واختلفوا فى آرائهم:

﴿ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

(البقرة: ١١٣)

فإنه هو العليم بما عليه كل فريق من حق وباطل. ولم يبين لنا تعالى هنا بماذا يحكم. وقال بعض المفسرين إنه يكذبهم جميعًا ثم يلقيهم فى النار، ولكن الذى يدل عليه القرآن أنه يحق الحق ويجعل أهله فى النعيم، ويبطل الباطل ويلقى بأهله فى الجحيم.

هذا هو معنى الآية. ويروى فى سبب نزولها أن يهود المدينة تماروا مع وفد نصارى نجران عند النبى ﷺ، فقال كل فريق منهم ما قال فى إنكار حقيقة دين الآخر.

ولكن فهم الآية لا يتوقف على هذه

الرواية. فالآية تحكى لنا اعتقاد كل طائفة بالأخرى، سواء قال ذلك من ذكر أو لم يقله.

على أن ما يروى فى أسباب النزول من مثل ذلك، هو من تاريخ الآيات وما فيها من الوقائع. وما روى فى أسباب النزول عندنا غير كاف فى ذلك، فلابد لنا من البحث والاطلاع على تاريخ الملل والأمم التى تكلم عنها القرآن، لأجل أن نفهمه تمام الفهم ونعرف ما يحكيه عنهم من العقائد والشئون والأعمال: هل كان عامًا فيهم، أو كان فى طائفة منهم وأسند إلى الأمة، لما نبهنا عليه مرارًا من إرادة تكافلها ومؤاخذة الجميع بما يصدر عن بعض الأفراد لأنهم كلفوا إزالة المنكر والتناهى عنه؟

والعبرة فى الآية أن أهل الكتاب فى تضليل بعضهم بعضًا واعتقاد كل واحد فى الآخر أنه ليس على شىء حقيقى من أمر الدين، مع أن كتاب اليهود أصل لكتاب النصارى، وكتاب النصارى متمم لكتاب اليهود. قد صاروا إلى حال من التهافت واتباع الأهواء لا يعتد معها بقول أحد منهم فى نفسه ولا فى غيره. فطعنهم فى النبى ﷺ وإعراضهم عن الإيمان به، لا ينهض حجة على كونهم علموا أنه مخالف للحق، بل لا يصلح شبهة على ذلك، لأنهم أهل أهواء، وتعصب للمذاهب المبتدعة والآراء. فإذا كانت اليهود كفرت بعيسى وأنكرته وهو منهم وهم ينتظرونه لإعادة مجدهم وتجديد عزهم، وإذا كانت النصارى قد رفضت التوراة وكفرت أهلها وهى حجتهم على دينهم، فكيف يعتد بكفر هؤلاء وهؤلاء بمحمد ﷺ، وهو من شعب غير شعبهم، وقد جاء بشريعة ناسخة لشرائعهم، وهم لا يفهمون من الدين إلا أنه جنسية دنيوية لهم؟

وفى الآية إرشاد إلى بطلان التقليد، مؤيد لما فى الآية التى تطالب المدعى بالبرهان، وإلى النعى على المقلدين المتعصبين لآرائهم، المتبعين لأهوائهم، وإلى التحرى فى الحكم على الشىء، يعتقد الحاكم بطلانه لأنه مخالف لما يعتقده. فلا ينبغى للعاقل أن يحكم على شىء إلا بعد البحث والتحرى، ومعرفة مكان الخطا والتنزيل بينه وبين ما عساه يكون معه صوابًا. ألم تر أن سياق الآيات ناطق بإنكار حكم كل من الفريقين على الآخر من غير بينة ولا برهان، ولا فصل ولا فرقان؟ مع أن كل واحد منهم على شىء من الحق وشىء من الباطل، لأن أصل دينه حق ثم طرأت عليه نزعات الوثنية والبدع وعرض له التحريف والتأويل، فتجريده من كل حق لم يكن إلا تعصبًا للتقاليد من غير بينة ولا تمحيص، وأنى للمقلدين بذلك؟ وانظر كيف ألحق التقليد أهل الكتاب الذين كانوا على علم بالدين الإلهى بالمشركين الذين لا يعلمون منه شيئًا. هذا ما فعله التقليد بهم وبمن بعدهم لأنه عدو للعلم فى كل زمان وكل مكان.

أقسام السنة عند الدكتور محمد عبد الله دراز



(ب) الاستحسان

وأما الاستحسان الفقهي[1] فليس معناه ما يبدو من التعريف الأول، أنه الحكم بما يستحسنه المجتهد، ويميل إليه بهواه، لأن الأمة متفقة قبل ظهور المخالفين على امتناع حكم المجتهد في شرع الله تعالى بشهوته من غير دليل شرعي- وليس معناه أيضا ما قد يلوح من التعريف الثاني أنه شيء ينقدح في نفس المجتهد، وتضيق عبارته عنه، لكونه مترددا فيه، بين كونه دليلا شرعيا محققا، وبين كونه توهما باطلا. فذلك لا خلاف في امتناع التمسك به.

وإنما هو نوع من الاستدلال الشرعي الصحيح، وضابطه- كما يؤخذ من التعريفات المحررة التي عرّفها به المالكية والحنفية- أن يكون هناك دليل عام من قاعدة أو قياس مطرد، ثم يوجد أمامه في بعض المواضع، معارض قوي من قاعدة أخرى أو قياس آخر، أو مصلحة مرسلة عند القائل بها، فيعدل عن حكم الدليل الأول في ذلك الموضع، ويعطي حكما استثنائيا آخر، استحسانا أو عملا بأحسن الدليلين وأقواهما في الموضع، وإن كان المتروك راجحا في نفسه، ولكن الأخذ به في ذلك الموضع يؤدي إلى مبالغة في الحكم، وغلو فيه. مثال ذلك أن الدليل العام دلّ على حرمة الاطلاع على العورات، ولكن حالة الاحتياج إلى التداوي، لو اتبع فيها الدليل العام، لأدى إلى مفاسد وأضرار، تنافي مقاصد الشارع، فأبيح فيها الاطلاع على العورات استثناء وترخصا.

والشافعي رحمه الله وإن اشتهر عنه إنكار الاستحسان، فإنما أنكره بمعناه البدعي، وهو استحسان الطبع والهوى، من غير دليل، فلا يسعه أن ينكر هذا المعنى الشرعي، وهو تخصيص أحد الدليلين الشرعيين بدليل آخر[2]، فإن ذلك هو شأن الأدلة الشرعية، يقيد بعضها بعضا، كما أنه لا يسعه أن ينكر التعبير عن هذا الترجيح بلفظ الاستحسان، لأنه وارد في الكتاب والسنة[3]، كما تقدم. بل جاء عن الشافعي نفسه أنه قال في السارق إذا أخرج يده اليسرى بدل اليمنى فقطعت اليسرى: القياس أن تقطع يمناه، والاستحسان ألا تقطع، فتراه قد أخذ به لفظا ومعنى. ومن هنا قال المحققون، إنه لا يوجد معنى للاستحسان، يصلح أن يكون محلا للخلاف بين الأئمة، فما أنكره الشافعي، لا يسع أحدٌ قبوله، وما قبله الأئمة الثلاثة لا يسع الشافعي إنكاره، وإن خالف غيره في اعتبار بعض الأدلة المعارضة، فهذا ليس اختلافا في أصل القاعدة، بل في تطبيقها.

وإليك أشياء من الطرائق الاستحسانية المعمول بها عند الأئمة:

فمنها ترك تطبيق أدلة التحريم على الجزئيات التافهة التي في حكم العدم؛ لأن خطرها يؤدي إلى الحرج والمشقة. فقاعدة الربا مثلا تحرم مطلق الزيادة بين البدلين من الذهب أو الفضة، وتوجب أن يكونا مثلا بمثل، سواء بسواء. ومع ذلك أجاز العلماء تفاوت الوزن اليسير في المراطلة الكثيرة. وكذلك قاعدة الغرر في البيوع والإيجارات تحرم الجهالة في أحد العوضين. ومع ذلك استحسنت الأمة إباحة دخول الحمّام من غير تقدير الأجرة، ولا تحديد قدر الماء المستعمل، ومدة اللبث. أما الأجرة فلأن العرف قدرها فلا حاجة إلى تقديرها، وأما قدر الماء ومدة اللبث فالشرع إنما نهى عن الغرر لما فيه من فتح باب المنازعات ولا منازعة في الأمور اليسيرة[4]، فلو حرم الغرر اليسير كان تضييقا لأبواب المعاملات وفتحا لباب المنازعات، فيما لا منازعة فيه. وهذا إبطال للمقصود الأصلي في تحريم الغرر، وهو رفع المشاحة بين الناس.

ومنها ترك مقتضى القياس الظاهر، لوجود فارق خفي، كما في سؤر سباع الطير، فظاهر القياس عند الحنفية نجاسته؛ لأنه محرّم اللحم كسباع البهائم،

(١) انظر تعريف الأحناف للاستحسان في كشف الأسرار عن أصول البزدوي لعبد العزيز البخاري، ج ٤ ص ٣، حيث عرّفه الكرخي بأنه «العدول في مسألة عن مثل ما حكم به في نظائرها إلى خلافه لوجه هو أقوى». وعرفه المالكية بتعريفات قريبة من تعريف الأحناف، منها تعريف ابن العربي له بقوله (الاستحسان عندنا وعند الحنفية هو العمل بأقوى الدليلين).

(٢) يقول د/ محمود عثمان يمكن أن تحمل قول الشافعي «من استحسن فقد شرّع» على المعنى المتفق على رده بمعنى ميل الإنسان إلى ما يحبه ويهواه لأنه يكون قولا في الدين بالهوى والتشهي، وهو متفق على منعه» سد الذرائع ص ٢٥٩ وانظر نظرية المصلحة د/ حسين حامد حسان ص ٥٩٨، السياسة الشرعية والفقه الإسلامي / عبد الرحمن تاج ص ١٣١ ط/ ١٣٧٣هـ / ١٩٥٣م.

(٣) أما من الكتاب فقوله تعالى عن التوراة ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ سورة الأعراف الآية ١٤٥، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ سورة الزمر الآية ١٨، وأما من السنة فقول ابن مسعود رضي الله عنه «ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن» المستدرك ك/ معرفة الصحابة ج ٣ ص ٧٨.

(٤) ولذلك أجاز مالك أن يستأجر الأجير بطعامه، وإن كان لا ينضبط مقدار أكله لخفة خطبه، وأجاز أن يؤجل الثمن إلى الحصاد وإن كان اليوم بعينه لا ينضبط، ولم يجز أن يقدر الثمن بدرهم أو ما يقاربه، لأن المشاحة في الثمن أكثر منها في الأجل، وقد ثبت في السنة أن النبي أمر بشراء الإبل إلى خروج المصدق أي الساعي، مع أنه لا يعرف يوم خروجه بعينه.

لكنهم حكموا بطهارته استحسانا، لأن الطير يشرب بمنقاره، وهو طاهر بخلاف البهائم، فإن سؤرها يخالط لعابها، وهو نجس لمجاورة لحمها المحرَّم.

ومنها كفّ أثر الدليل الراجح المقتضي لتحريم الفعل أو فساده، ومعاملة هذا الفعل المحرم إذا وقع ونزل معاملة المأذون فيه، مراعاةً لقول آخر بجوازه بناء على دليل يراه المحرِّم ضعيفا، ولكنه لا يقطع بخطئه فصار وقوع الفعل على وفقه عذرا للفاعل وشبهة توجب اعتباره وهذا هو ما يسمى مراعاة خلاف العلماء، وهو كثير في مذهب مالك، ومن أمثلته مسألة النكاح المختلف في فساده، فإنهم يعاملونه معاملة الصحيح عند الفسخ أو الموت، فيجعلون فسخه طلاقا، ويوجبون الميراث فيه إذا وقع الموت قبل الفسخ. ومسألة الوضوء بماء يسير حلت فيه نجاسة لم تغيره، إذا صلى به فإنه يعيد في الوقت ولا يعيد أبدا مراعاة لقول من يقول إنه طاهر مطهر. ومسألة ذات الوليين يزوجها كل منهما بغير علم صاحبه، ويدخل بها الزوج الثاني غيرَ عالم بتقدم عقد غيره، فإنها تكون للثاني مع أن عقده باطل، إذا لوحظ أنه تزوج ذات زوج. ولكنه روعي ما عنده من الشبهة بالعقد الصحيح المستوفي للشروط في الظاهر وقضى بذلك عمر ومعاوية والحسن رضي الله عنهم. وقد ثبت في السنة أن النبي ﷺ، قال في المرأة تتزوج بغير إذن وليها: «إن نكاحها باطل باطل»[٥]. ثم قال «فإن دخل بها فلها المهر بما أصاب منها» فلم يعتبره زنى مع تأكيده لبطلانه، بل أوجب فيه المهر كالصحيح.

وجملة القول أن الاستحسان هو النظر في لوازم الأدلة وتتبع مآلاتها، أي أقصاها. فلو أدت في بعض الجزئيات إلى عكس المصلحة التي قصدها الشارع، حُجز الدليل عنها، واستثنيت تحصيلا للمصلحة المقصودة في الشرع. ومن هنا جاء عن مالك أنه قال[٥]: «إن المغرق في القياس يكاد يفارق السنة، وقال: تسعة أعشار العلم استحسان»[٦]، وهذه القاعدة الاستحسانية ما إن لم ينص عليها الشرع بدليل معين، إلا أنها كقاعدة المصالح المرسلة، تلائم تصرفاته، ومأخوذ معناها من موارد الأدلة التفصيلية في كثير من أبواب الشريعة، فيكون كلٌّ منهما أصلا شرعيا يبنى عليه استنباط الأحكام.

يتبع

(٥) رواه أبو داود عن عائشة في كتاب النكاح، باب في الولي، ج ٢، ص ٥٥٦، صحيح أبي داود ٢٠٨٣، ورواه الترمذي عن عائشة في كتاب النكاح، باب ما جاء في لا نكاح إلا بولي، ج ١، ص ٣١٨، صحيح سنن الترمذي ١١٦٤.
(٥) قال مالك: «المغرق في القياس يكاد يفارق السنة»، الموافقات ج٤ ص١١٨.
(٦) الموافقات، ج ٤، ص ١١٨، والاعتصام، ج ٢، ص ١٣٨، الأحكام لابن حزم، ج ٦، ص ١٦.

معنى الجدل والنظر والمناظرة



لفضيلة الإمام الأكبر أ. د. أحمد الطيب
شيخ الأزهر

المعنى اللغوى للجدل مأخوذ من قول العرب:» جدلت الحبل « إذا فتلته وأحكمت فتله، ومنه أيضًا قولهم: درع مجدولة، وحبل جديل، أي: مجدول والمناظر - على هذا المعنى من الجدل - كأنه يحكم طريقته، أو يلوى صاحبه عن قوله ليصرفه إلى قول آخر، أو هو مأخوذ من قولهم: «جدلته» بمعنى ضربته على الجدالة - وهى الأرض - وعلى هذا المعنى فالمجادلة هى شيء أو معنى يشبه المصارعة - فى أن كلا من المتناظرين يصارع صاحبه ويغلبه فى الكلام[١].

ويفرق الأشعرى بين الجدل وبين مطلق النظر، وتتأسس تفرقته هذه على نظريته فى مدارك العلوم[٢] أو طرق المعرفة، وهى تتلخص فى أن العلوم كلها إنما تدرك بطريق من طرق ثلاث:

- طريق الحس.
- طريق الخبر.
- طريق النظر.

فأما «الحس» فإنه يعتمد على ما تؤديه إليه وتمونه به الحواس الخمس.

(١) انظر: مادة «جدل» من المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: لمحمد فؤاد عبد الباقي.
أما التعريف الاصطلاحي للجدل: فقد نقل إمام الحرمين فيه عبارات شتى منها: أنه «دفع الخصم بحجة أو شبهة» ومنها: أنه «تحقيق الحق وترميق الباطل» ومنها: أنه «نظر مشترك بين اثنين»
غير أنه قد نقض كل هذه التعاريف وارتضى تعريفا واحدا، قال عنه: «والصحيح أن يقال: لإظهار المتنازعين مقتضى نظرتهما على التدافع والتنافي بالعبارة أو ما يقوم مقامها من الإشارة والدلالة»، الكافية فى الجدل: ٢٠ - ٢١.
(٢) انظر الفصل الأول من هذا البحث.

وأما الخبر فإنه يكون طريقًا للعلم إذا كان خبرًا متواترًا، والخبر المتواتر - عنده - يفيد العلم الضروري الذي لا مرية فيه .

وأما النظر فهو هذا الضرب من الفكر والتأمل والاعتبار والمقايسة (٣) والنظر بهذا المعنى أي : باعتباره أحد مدارك العلوم - واجب شرعًا على كل فرد، بل هو أول الواجبات وأصل العبادات ؛ لأنه الطريق المؤدي إلى معرفة الله تعالى .

وحين يطلق النظر فإنه ينصرف إلى هذا المعنى ، لكن قد يطلق النظر ويراد به الجدل والنظر بهذا الإطلاق - أي بمعنى الجدل - قد يكون واجبًا وقد يكون ممنوعًا ، فيكون واجبًا إذا كان الغرض منه تبيين الحق أو الرد على الطاعنين على الحق ، وهو الجدل الحسن الذي أمر الله به في كتابه الكريم، ويكون ممنوعًا إذا كان الهدف منه أمرًا وراء ذلك .

والجدل والمناظرة يتفقان - فيما يرى الشيخ - في أنهما نظر وبهذا الاعتبار كل مجادل فهو مناظر ما دام يستعمل فكره وينظر ويتأمل ، غير أنهما يفترقان من حيث إن الجدل لا يكون إلا بين اثنين بخلاف النظر الذي قد يصح أن يكون من طرف واحد يتأمل ويقيس ويستدل (٤) .

السؤال الجدلي وإجابته : وإذا كان الجدل لا يكون إلا بين اثنين ، فإن أحد الخصمين يسمى «سائلا» والآخر يسمى «مجيبا» والسؤال والجواب هما محور عملية الجدل، بل القواعد المطروحة في هذا العلم - إنما هي لضبط السؤال والجواب وتحديدهما تحديدًا دقيقا لا يتطرق إليهما - معه - أي احتمال من احتمالات الخطأ ، وذلك حتى تتكشف المجادلة عن نتائج يقينية .

والسؤال هو الاستخبار ، أي طلب الخبر، سواء كان ذلك عن طريق استعلام السائل واستفهامه عن معنى الشيء ، أو كان عن طريق تقرير المجيب بأمر يرتب عليه السائل كلامًا بعد ذلك ففي كلتا الحالتين يعد السؤال استخبارا والاستخبار هو خاصية السؤال الجدلي - كما يقول الشيخ - وليس خاصية للسؤال بإطلاق عام ، لأن من السؤال ما يسميه أهل اللغة سؤالًا ، لكنه لا يتضمن استخبارا لا استعلاما ولا تقريرا وذلك مثل سؤال العبد ربه الرحمة والمغفرة ، فإنه سؤال عند أهل اللغة ، غير أنه لما لم يكن استخبارًا فإنه لا يسمى « سؤالًا جدليًا» إذ الاستخبار - أو طلب الخبر - هو العنصر المقوم لماهية السؤال في فن الجدل (٥) .

مراتب السؤال الجدلي أربع :

المرتبة الأولى :

السؤال عن المذهب : وذلك بأن يبدأ السائل حواره مع الطرف الآخر (المجيب) بالاستعلام عن رأيه واعتقاده في المشكلة

٣) المجرد لابن فورك : اللوحة (٥م أ) ١٧
٤) لا فرق - فيما يرى الجويني - بين المناظرة والجدال والمجادلة والجدل في عرف العلماء بالأصول والفروع الكافية : ١٩ . والمتأخرون يفرقون بين المناظرة والمجادلة ، والمكابرة باعتبار الغاية ، فغاية المناظرة : إظهار الصواب ، وغاية المجادلة إلزام الخصم دون إظهار الصواب وغاية المكابرة : المخاصمة لا إلزام الخصم ولا إظهار الصواب . انظر : الرسالة الرشيدية شرح الجونفوري على رسالة الجرجاني في آداب البحث والمناظرة : ١٤ - ١٨ .
٥) المجرد - لابن فورك : (اللوحة : ١٤٣ /ب) ٢٩٥ .

موضوع البحث ، والصيغة التي يلتزم السائل بإطارها العام هي : «ما تقول في كذا ؟» أو : «ماقولك في كذا؟» .

المرتبة الثانية :

المطالبة بالدلالة على المذهب : فإذا كشف المجيب عن اعتقاده ومذهبه ، يبادر السائل بعد ذلك مباشرة بطلب الاستدلال على مذهبه ، فلو عرف السائل - مثلًا - أن اعتقاد المجيب ومذهبه هو القول بحدوث العالم فإن عليه أن يطالبه بالدلالة على حدوث العالم .

ولا بأس على السائل - في ما يرى الأشعري - إن كان يعرف مذهب صاحبه سلفًا قبل الحوار، أن يبدأ مناظرته معه بالمطالبة بالدلالة على المذهب ، لكن الشيخ كان يرى أن من الأحوط للسائل أن يبدأ بالسؤال عن المذهب حتى لو كان على علم سابق بمذهب خصمه ؛ لأن المذاهب النظرية المبنية على الاجتهاد في النظر ، يمكن تركها والرجوع عنها إلى غيرها ، فلكي يقطع السائل على المجيب طريق المراوغة والانتقال إلى مذهب آخر ، عليه أن يبدأه بالسؤال عن المذهب ، حتى إذا ما قرره على المجيب لم يستطع بعد ذلك أن يعدل عنه إلى غيره، اللهم إلا إذا سلم للسائل مقالته، وهذا يعني عجزه وإنهاء المناظرة مع صاحبه.

المرتبة الثالثة :

المطالبة بوجه الدلالة : وبعبارة أخرى: المطالبة بتصحيح الدليل أو البرهان - ذلك أن المجيب قد يستدل على مذهبه بدليل فاسد لا ينتج مذهبه أو لا يؤدي إليه ؛ ولذلك اقتضت قواعد الجدل أن يكون السائل متيقظًا لهذا الموضع الذي يمكن أن تزل فيه قدمه ، ومن هنا وجب على السائل أن يطالب المجيب بوجه الدلالة، أي : بتصحيح دليله الذي يطرحه بين يدي دعواه ، ولكن هل هذه المرتبة لازمة للسائل ، سواء كان استدلال الخصم صحيحا أو فاسدًا ؟ بعبارة أخرى: هل يلتزم السائل بمرتبة تصحيح الدليل في حالة فساد الدليل فقط ، أو أن عليه أن يطالب بوجه الدلالة على كل حال ؟ إن عبارات الشيخ وإن تكن غير محددة في هذا المقام - إلا أننا نرجح أن مذهبه في ذلك هو: أن المطالبة بوجه الدلالة - إنما تلزم السائل حين يغلب على قلبه أن صاحبه يستدل بنوع من الأدلة يمكن الاستدلال معه بغيره (٦) ، ويؤيد ذلك قول إمام الحرمين في هذا الموضع : «وإذا كان (السائل) يعلم أن دليله (المجيب) في ذلك المذهب أمر معلوم لا يتعداه ، كان له الطعن ابتداء في دلالته» (٧) .

وإذا فالسائل إذا كان مطمئنا إلى أن دليل خصمه مساو لمذهبه ، فلا بأس على السائل أن يتخطى المرحلة الثالثة التي هي :المطالبة بوجه الدلالة إلى المرحلة التي تليها وهي الطعن على الدليل.

المرتبة الرابعة:

وهي مرحلة الطعن على الدليل، ويسمونها مرحلة «الإلزام»، وفيها يعارض السائل دليل المسئول بما يناقضه أو يمانعه، فإذا ما تم له

(٦) من اللوحة ١٤٣/ب) ٢٩٥، (اللوحة ١٤٤/أ) ٢٩٦.
(٧) الكافية في علم الجدل للجويني : ٨٠ .

ذلك تمت له الغلبة على خصمه؛ لأن إبطال العلة -في علم الجدل- معناه إبطال المذهب.

وهذه المرحلة -مرحلة الإلزام- لا تكون إلا بعد المرحلة السابقة تلك التي يعرف فيها السائل وجه الدلالة عند المسئول، وإذا فلا يمكن للسائل أن يلزم خصمه بما يعارض دليله قبل مرحلة وجه الدلالة، وهنا يثور خلاف بين علماء الجدل في تحديد «المرتبة» التي تتجه عليها معارضة السائل: فهل تتجه معارضة السائل على وجه الدلالة فقط، أو أن المعارضة يمكن أن تتجه على المذهب رأسا؟ والقائلون بالشق الأول من التساؤل -ومنهم الأشعري- يشترطون ضرورة تأخر مرتبة الإلزام على مرتبة وجه الدلالة. أما القائلون بالشق الثاني من التساؤل: فإنهم لا يشترطون هذا الشرط، إذ يصح عندهم أن يعترض السائل ابتداء على مذهب المسئول ويلزمه بنقيضه، والأشعري صريح في أن المعارضة لا يصح أن تتجه على المذهب.

وقد عرض إمام الحرمين لهذا الخلاف الذي انحاز فيه لرأي شيخه بقوله: «والإلزام -بالمقابلة وغيرها- بعد المعرفة بوجه الدلالة، إلا على قول من جوز الإلزام على المذهب... والأولى ألا يقبل الإلزام على المذهب، فإنه يخرج بالكلام بينهما عن طريقة الجدل ويختلط حتى لا يتبين تحقيق المقصود لهما... واعلم أن الإلزام على الدلالة هو مؤاخذة المستدل بطردها، ويكون ذلك بعد المطالبة بوجه الدلالة؛ لأنك لا تؤاخذه بطردها إلا وقد سلمت له ما ادعاه دلالة»(٨).

أقسام السؤال:

والسؤال قسمان: سؤال حجر، وسؤال تفويض. وسؤال الحجر هو: السؤال الذي يحجر على المجيب أن يخرج في إجابته عن صيغة السؤال، أي إن صيغة السؤال تفرض على المجيب اتجاها معينا من الإجابة، وذلك مثل أن يقول السائل: «العالم قديم أم حادث؟».

أما سؤال التفويض فهو سؤال يفوض أمر الإجابة فيه إلى المجيب، مثل أن يقول السائل: «ما تقول في كذا؟». والفرق بين هذين النوعين من السؤال: أن الإجابة في النوع الأول جزء من السؤال، فكيفما قال المجيب، قديم أو حادث، فإن إجابته لا بد أن تكون جزءا من السؤال الذي وجه إليه، أما النوع الثاني: فإن الإجابة فيه لا تكون جزءا من السؤال.

ويبين الأشعري أن سؤال الحجر -إنما يكون ملزما للمجيب إذا كان السؤال حاصرا، أي إذا كان مرددا بين أمرين لا يجتمعان في شيء واحد ولا يخلوان عنه، مثل: الحدوث والقدم بالنسبة للعالم، أو الحركة والسكون بالنسبة للجسم، فمثل هذا السؤال يلزم المسئول أن يجيب عنه باختيار أحد الأمرين المحصورين. أما لو كان سؤال الحجر غير حاصر فإنه لا يلزم المسئول أن يجيب عنه، وقد مثل له الأشعري بقوله: «كسؤال القائل عمن ليس بقائم ولا قاعد، فيقول: أقائم فلان أم قاعد؟ فلا يكون جوابه إلا أن يقول: ليس بقائم ولا قاعد، فإذا ما سأل عن أمرين

(٨) م.ن: ٧٩.

لا بد من أحدهما، فإن المسئول يجيبه بأحدهما»(٩). وهكذا، لا يلتزم المجيب بالسؤال غير الحاصر؛ لأن القسمة العقلية إذا كانت غير حاصرة، كان احتمال الأقسام الأخرى -التي لم تنحصر في السؤال- واردا، وكان احتمال خروج الإجابة عن السؤال برمته واردا أيضا، فالسؤال عن فلان بأنه قائم أو قاعد لا تلزم الإجابة عنه بتعيين أحد القسمين؛ إذ من المحتمل أن يكون راكعا مثلا... أما السؤال الحاصر فإنه لا بد من الإجابة عليه بتعيين أحد القسمين أو الأقسام الواردة في السؤال.

وقد يكون السؤال عن مسألة تحتمل وجوها عديدة، وموقف المجيب إزاء هذا السؤال -هو مطالبة السائل بأن يبين له هذه الوجوه، ولا يصح للمجيب أن يقول للسائل: سؤالك هذا محتمل لوجوه، فاسأل سؤالا لا يحتمل إلا وجها واحدا، كما لا يصح للسائل أن يمنع المجيب من طلبه بيان وجوه السؤال ولو تبرع المجيب ببيان هذه الوجوه، وذكر من بينها ما يقصده السائل من هذه الوجوه كان على السائل أن يقول له:

«هذا الوجه أردته وقصدته فاقصده بالجواب»(١٠).

والسؤال المحتمل سؤال خاطئ، ولا تلزم الإجابة عليه إلا أن يتعين المراد منه، وسواء كان الاحتمال في السؤال مما يراه المجيب، أو يراه السائل، أو يراه كل منهما، يقول الجويني: «ومتى سأل سؤالا مطلقا ينقسم عند المسئول والسائل أو عند أحدهما، يكون مخطئا حتى يعين»(١١).

والأولى -في ما يراه الأشعري- أن يكون السؤال حاصرا لما يسأل عنه السائل؛ لأن ذلك يوصد الباب أمام مماتعة المجيب، ولأن السؤال المحتمل ينقلب معه السائل مجيبا والمجيب سائلا، إذ في حالة السؤال المحتمل يصح للمجيب أن يسأل السائل عن الوجه المراد من السؤال، كما يجب على السائل أن يجيبه عما طلبه.

الجواب:

وإذا كان السؤال استخبارا، فإن الجواب إخبار عما تعلق به السؤال، وبناء على ذلك يكون كل جواب إخبار، وهذا القول لا ينعكس، فلا يقال كل إخبار جواب، لأن المجيب قد يتبرع بكلام من عنده مما يسمى إخبارا ولا يسمى جوابا.

والأولى في الجواب أن يكون مطابقا للسؤال لا زائدا عليه ولا ناقصا عنه، ولا مانع عند الأشعري- أن يجيء الجواب زائدا على السؤال، وهذا النوع من الجواب يأتي في المرتبة الثانية بعد الجواب المطابق للسؤال تمام المطابقة، أما الجواب الناقص عن السؤال فلا يعد جوابا على الإطلاق.

وللمجيب -كما قلنا سابقا- إن وجه بسؤال محتمل أن يقسم الأمر على السائل بأن يقول له: «إن أردت كذا فالجواب كذا، وإن أردت كذا فالجواب كذا، أو يقول له:

(٩) المجرد، لابن فورك (اللوحة: ١٤٤/أ) ٢٩٦.
(١٠) م.ن: (اللوحة: ١٤٩/ب) ٣٠٧.
(١١) الكافية، للجويني: ٨١.

سؤالك محتمل فاحصره في أى الأمرين أردت، وبين الغرض منهما ليقع الجواب عنه على حسبه»[١٢].

والجواب ينقسم بانقسام السؤال؛ لأنه قد يكون إخبارا عن ماهية المذهب، أو إخبار عن الدلالة، أو عن وجه الدلالة، أو عن إجراء العلة. فكل سؤال من هذه الأسئلة يتطلب من المجيب جوابا خاصا يعبر فيه عما يذهب إليه ويراه إزاء كل سؤال منها.

ولو سئل المجيب عن الفرق بين أمرين وأجاب بفساد أحدهما صحة الآخر، فلا بد أن تكون إجابته جامعة بين وجهي البطلان والصحة، ولا يصح له أن يقصر إجابته على بيان وجه البطلان فقط، أو بيان وجه الصحة فقط، وإلا كان الجواب ناقصا عن السؤال؛ لأن السؤال لم يقتصر على طلب بيان أمر واحد، بل تعلق السؤال بفرق يقتضى بيان الأمرين جميعا.

ومن الأصول التى يجب إحكام معرفتها فى باب «الجواب»: أن السائل حين يسأل المجيب، فإنما يلزمه بالسؤال طالما لا يرجع عليه المجيب بسؤال يلزمه به من جنس السؤال الذى أورده عليه السائل، فلو تمكن المجيب أن يُلزم السائل بمثل سؤاله، فإنّ ما طرحه السائل فى مناظرته يسقط عن المجيب، بل كل سؤال يعود على صاحبه يسقُط عن المجيب؛ لأنه يكون كمن يسأل نفسه ويلتزم بما ينفيه، ومثال ذلك: أن يقول أحد الخصمين للآخر: «أثبت حجة العقل بالعقل أم بغيره؟ فله أن يقول أو نفيتها بحجة العقل أم بغيرها»[١٣]، فالنافى هنا ساقط الكلام على كل حال، ولا يلزم صاحبه أن يجيب عليه، ذلك أنه حين يُثبت دعواه وهى هنا: نفى العقل بالعقل - فإن هذا الإثبات مُتطلّب نفى الحجة العقلية، ونفى الحجة العقلية مُستلزم - لا محالة - هدم هذه القاعدة ذاتها، فكأنه حين يثبت دعواه ينقضها وينفيها فى الوقت ذاته، فيكون هذا المجيب قد رجع على السائل بسؤال مجانس وإن كان غير لازم له، وكذلك لو كان يرجع عليهما جميعًا ويلزمهما بالسوية، فليس لأحدهما أن يرجع على صاحبه لينقُض به قوله، بل يكون كل منهما «بائنًا من صاحبه»، ومثال ذلك: أن يقول أحد الخصمين للآخر: إنك كنت تعتقد صحة هذا المذهب ثم بان لك خطؤه فتحولت عنه لغيره، فما يدريك لعلك تمثل الآن نفس الدور، فلقد يكون مذهبك الجديد خاطئًا - كذلك - ويلزمك أن تتحول عنه فلصاحبه الآخر أن يرد عليه نفس سؤاله، ويقول له: إن ما تقوله عنى يصح أن يقال عنك، وما تقوله لى يجوز أن يظهر لك فساده ويلزمك أن تتحول عنه أيضًا، فإن أجاب أحدهما بأن ذلك غير جائز، كان للآخر أن يجيب بمثله أيضًا، وإن أجاب أحدهما بأن ذلك جائز إلا أنه آمن من الوقوع فى ذلك الخطأ كان لصاحبه أن يزعم نفس هذا الزعم[١٤].

«يتبع»

(١٢) المجرد، لابن فورك: (اللوحة: ١٤٨/أ) ٢٩٦.
(١٣) م ن: (اللوحة: ١٥٠/أ) ٣٠٨.
(١٤) م ن.

مقصد حفظ إنسانية الإنسان

أ. د. عبدالمجيد النجار

٢. حفظ الكرامة الإنسانية

خلق الإنسان مكرما، وقد قرر القرآن الكريم ذلك فى قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾

(الإسراء: ٧٠)

وتكريم الإنسان معناه: «جعله كريما، أى نفيسا غير مبذول ولا ذليل»[١]. ومن الكرامة الإنسانية ما يجده الإنسان فى نفسه من وعى بذاته وعيا يتضمن الإيمان بقيمته، والإحساس بعزته، واستشعارا للاستعلاء على ما يحيط به من مكونات الطبيعة، والنظر إليها على أنها مسخرة من أجله.

إن هذه المعانى الحاصلة فى النفس الإنسانية بالفطرة متأتية من التركيب الإنسانى المادى والمعنوى ليست حاصلة فى أى مخلوق من المخلوقات الكونية الأخرى، وهى بذلك تشكل أحد العناصر الأساسية المكونة لمعنى الإنسانية فى الإنسان، والفارقة بين حقيقته وحقيقة سائر الحيوانات بله النباتات والجمادات، وهى بالتالى أحد العناصر الأساسية التى على أساسها ابتلى الإنسان بالتكليف، فتتوقف عليه إذن إلى حد كبير أداء ذلك التكليف كما هو مطلوب.

فالإنسان إذا كان يشعر فى نفسه بالمهانة جراء ما يعامل به من تحقير وإذلال وانتهاك للكرامة، فإنه يكون مكسور الإرادة، فلا يستطيع أن ينتج شيئا فضلا عن أن يكون فى مقام الريادة والابتكار، وإذا فإن المهمة التعميرية التى هو مطالب بأدائها سوف يكون غير قادر على إنجازها، أو غير قادر على إنجازها على الوجه المطلوب. وفى مقابل ذلك فإن الإنسان القادر على الإنجاز فى الفكر والعمل هو الذى يكون محفوظ الكرامة، قوى النفس عزيزا، فهذه الصفات تشيع فى النفس قوة إرادة، وهمة عالية، وهو

(١) ابن عاشور - التحرير والتنوير: ١٥/١٦٥.

ما يدفع بالإنسان إلى الانطلاق بآمال كبيرة، وعزيمة ماضية ليفكر وينجز ويفعل، فيؤدى المهمة التى بها كلف.

ولهذا المعنى جاءت فى الدين أحكام كثيرة تلتقى كلها عند مقصد حفظ كرامة الإنسان للحفاظ على معنى الإنسانية فيه، أمرا بكل ما من شأنه أن يشعر بالعزة والقوة النفسية والاستعلاء، ومنعا لكل ما من شأنه أن يشعر بالمذلة والهوان والوهن، سواء كان ذلك متمثلا فى تصرفات فعلية، أو كان متمثلا فى تصرفات قولية. فأيما فعل أو قول يشعر بالكرامة والعزة فهو مطلوب فى الشرع، وأيما فعل أو قول يشعر بالمذلة والهوان فهو ممنوع، وفى ذلك كله حفظ للكرامة، فكما يتلف الجسم بالجراح والقطع، فكذلك تنتقص الإنسانية فى نفس الإنسان بتصرفات التحقير والإهانة والاستنقاص قولا وفعلا؛ ذلك لأن الذات بتلك التصرفات تصاب بجراح قد تكون غائرة، فتؤثر فى الإرادات والعزائم، فتنكمش النفس، وتتقلص ملكاتها، وتلتف على ذاتها تجتر جراحها، فلا تستطيع جراء ذلك أن تثمر شيئا، فإذا ما حفظت كرامتها بالعزة انطلقت فى الإنجاز.

ولعل الأحكام الشرعية الحافظة للكرامة تبتدئ بذلك الإلغاء لكل سبب من أسباب التفاضل المتعلقة بالخلقة الذى تنتج عنه مقاييس تتدنى ببعض الناس إلى أوضاع من الدونية والمهانة، وتنوط تلك الأسباب بما يحصله الإنسان نفسه من التقوى، وهو مقتضى قوله ﷺ: «لا فضل لعربى على أعجمى، ولا لأعجمى على عربى إلا بالتقوى»(٢). فليس فى الشرع إذن من موروث خلقى يمكن أن يستخدمه الناس ذريعة للحط من قيمة الوارث، أو يمكن أن يجعلوه سبب دونية ومهانة يورث فى نفسه الشعور بالمذلة، فتنكسر إرادته، وتتحطم شخصيته المعنوية. لقد جاءت الشريعة سادة هذا الباب بصرامة، حفظا لكرامة الإنسان أن ينالها الوهن بمقتضى الموروث الخلقى، وأوكلت أسباب الرفعة والتنقل إلى الكسب الإنسانى، فتحا للباب من أجل اكتساب القوة النفسية بكسب الدرجات العليا فى سلم التفاضل بين بنى الإنسان، فتحا تتكافأ فيه الفرص بين جميع الأفراد.

ثم تتالت التشريعات التى تهدف كلها إلى حفظ الكرامة الإنسانية، ففرضت كفالة الإنسان باعتباره إنسانا من قبل محيطه الاجتماعى الأقرب فالأقرب ابتداء بالأسرة وانتهاء إلى الدولة لتوفير حد الكفاية له، حيلولة دون الوقوع فى مذلة الفاقة ومهانة السؤال. وحرمت الغيبة والنميمة والهمز واللمز لما فيها من جرح للنفوس يهد من قواها كما تهد الجروح فى الأعضاء من قوة الجسم، وانتهى ذلك إلى ما شرع من تحريم مغلظ للقذف بصفة عامة والقذف بالزنى بصفة خاصة، فقد ورد فيه حد بالجلد وسقوط الشهادة كما

(٢) أخرجه أحمد: حديث رجل من أصحاب النبى رقم ٢٢٩٧٨.

(٣) راجع: أبوزهرة ـ العقوبة: ٦٩، ٨٠ وما بعدها.

هو معلوم(٣)، وإنما شرع هذا الحكم فيما نرى حفظا لكرامة النفس؛ لأن القذف بهذه الجريمة يحدث فى نفس المقذوف أثرا بالغا قد يصل إلى تدميرها، وذلك بالنظر إلى ما هو مستقر فى المجتمعات بصفة عامة وفى المجتمع الإسلامى بصفة خاصة من فظاعتها، فمن اتهم بها يصيبه بسبب ذلك كسر نفسى بليغ. فحفظت الشريعة كرامة النفوس بهذا الحكم(٤).

وقد ذهب التشريع الإسلامى بحفظ كرامة الذات الإنسانية من حيث كونها ذاتا إنسانية إلى آفاق بعيدة، إذ هى تجاوزت حدود العداوة والصداقة، وأحوال الحرب والسلم، واختلاف الشعوب والأمم لتنتهى إلى حدود الذات الإنسانية مجردة من كل الاعتبارات، فأيما ذات اندرجت ضمن الإنسانية فإن الشريعة جاءت بإيجاب أن تحفظ كرامتها، ومنعت كل ما يستنقص منها؛ ولذلك فقد حرمت المثلة بالأعداء، وأوجبت احترام جثث الموتى. وقد اطردت الأحكام بذلك اطرادا يورث للناظر فى الشريعة يقينا بأن حفظ الكرامة الإنسانية مقصد قطعى من مقاصد الشريعة الإسلامية.

٣ ـ حفظ غائية الحياة

من أهم ما يتقوم به معنى الإنسانية فى الإنسان، وما يتميز به عن غيره من المخلوقات معنى غائية الحياة، وهو ذلك المعنى الذى يجده الإنسان فى نفسه بحسب الفطرة من أن لحياته غاية، ولوجوده معنى مستقبلى يتجاوز به لحظته الراهنة إلى أمد مقبل، وهذا المعنى لا تخلو منه نفس بشرية، مهما يكن المدى الذى تمتد إليه غاية الحياة فى النفوس طولا وقصرا فى الزمن، وقوة وضعفا فى المعنى، ولعل من شواهد ذلك أننا لا نجد إنسانا إلا وهو يدخر من يومه لغده، ومن حاضره لمستقبله. مهما اختلفت أنواع المدخرات فى طبائعها وأحجامها ومناهجها وآمادها.

إن هذه الغائية للحياة فى وجدان الإنسان تعد عنصرا من عناصر إنسانيته، إذ هى من خواصه باعتباره إنسانا يفارق بها سائر الحيوانات التى لا تعيش إلا للحظتها، وإذا ما ادخر بعضاً منها طعاما لمستقبله فإنما ذلك ليتمكن مما ادخر من العيش، لا ليحقق غاية خلال ذلك العيش؛ ولذلك فإنه إذا ما انهدمت تلك الغائية فى النفس البشرية، وفقد الإنسان أى غاية لحياته أدى ذلك إلى انهيار الحياة بأكملها، إذ يفقد بذلك معنى إنسانيته، وهو أحد تفسيرات انتحار المنتحرين، فالأكثر من هؤلاء إنما يقدم على ما أقدم عليه لأنه يجد حياته قد فقدت معناها بفقدان غايتها المرجوة منها.

ولهذا المعنى فقد جاءت كثير من التوجيهات الدينية والأحكام الشرعية تجعل من حفظ غائية الحياة مقصدا لها، وتلتقى كلها على اختلافها بين أحكام عقدية

(٤) راجع فى حفظ النفس بالكرامة: محمد عبدالله دراز ـ دراسات إسلامية فى العلاقات الاجتماعية: ٣٣ وما بعدها، وعلال الفاسى ـ مقاصد الشريعة ومكارمها: ٢٢٥.

وأحكام شرعية عملية على تحقيق هذا المقصد الشرعي من خلال تلك الأحكام، وذلك حفظا لمعنى إنسانية الإنسان التي غائية الحياة أحد عناصرها الأساسية.

ولعل أول ما يبدو من تلك الأحكام المبتغى بها مقصد حفظ غائية الحياة ما جاء في القرآن الكريم من تقرير عقدي لكون الإنسان ما خلق إلا لغاية، وأن معنى حياته مرتبط بتلك الغاية، إيمانا بها، وسعيا في تحقيقها، وأنه لو نزعت منه غائية الحياة لنقصت إنسانيته ليصل إلى ما يقارب مرتبة سائر الحيوانات، وهذا ما يبينه قوله تعالى:

> ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾
> (القيامة: ٣٦)

وقوله تعالى:

> ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا ﴾
> (المؤمنون: ١١٥)

فهذا تنبيه إلى أن الإنسان لم يخلق مهملا على سبيل العبثية بدون أن تكون له في الحياة غاية، وإنما خلق لتكون لحياته غاية يتمثلها في نفسه، ويعمل على تحقيقها في واقعه.

وقد جاء في القرآن الكريم بيان واف مفصل للغاية التي خلق من أجلها الإنسان، والتي ينبغي أن يتمثلها في نفسه إيمانا، ويسعى فيها عملا، تمهيدا بذلك لأحكام أخرى مطردة تعمل بصفة مباشرة على تحقيق ما تحفظ به تلك الغاية في تصور الإنسان وعمله، فقد جاء في القرآن الكريم أن الله تعالى خلق الإنسان لغاية، هي أن يكون خليفة له في الأرض، وذلك ما جاء بقوله تعالى:

> ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾
> (البقرة: ٣٠)

ومعنى هذه الخلافة في الأرض هو أن يكون الإنسان مطبقا لأوامر الله ونواهيه فيها، وهو ما يبينه قوله تعالى:

> ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾
> (الذاريات: ٥٦)

وتلك الغاية من خلق الإنسان تقتضي أن تكون أيضا غاية لحياته على المعنى الذي شرحناه آنفا، فتتوجه جميع مناشط الحياة في وجهة تحقيق الخلافة وفق منهج العبادة، فتكون غاية الحياة الإنسانية هي إذن تحقيق الخلافة في الأرض بالاستجابة لأوامره ونواهيه، وهو مقتضى قوله تعالى:

> ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾
> (الأنعام: ١٦٢)

ومضمون الخلافة في الأرض يشتمل على عنصرين أساسيين: أولهما ترقية الذات الإنسانية متمثلة في الإنسان الفرد بتزكيته في نفسه وفكره وجسمه، وأعلى ما يكون ذلك بتقوية صلته بربه الذي خلقه، ومتمثلة أيضا في الإنسان الجماعة بتزكية الهيئة الجماعية بالتراحم والتعاون والتكافل والتحابب والوئام، فإذا الإنسان فردا وجماعة يرتقي في سلم الإنسانية إلى أعلى الدرجات كادحا إلى ربه كدحا يقترب به منه، ويبتعد به عن سائر المخلوقات التي ليست محل

تكليف. وثانيهما التعمير في الأرض علما بقوانينها، واستثمارا لخيراتها، وارتفاقا لمقدراتها في غير سرف ولا عبث ولا إخلال بنظامها الموزون.

وإذ قد حدد الله تعالى للإنسان الغاية من وجوده، وجعل هذه الغائية عنصرا من عناصر إنسانيته، فإنه قد شرع له من الدين ما يحفظ تلك الغائية أن تكون قائمة في تصوره، وأن يكون تحقيقها هدفا في سلوكه، وشرع له منع كل ما عسى أن يطال تلك الغائية بالهدم لتحل محلها المعاني المناقضة لها من يأس وقنوط وتبرم بالحياة وشعور بعبثيتها وفقدان لقيمتها جراء ما فقدت من غايتها، وقد جاءت في ذلك أحكام شرعية كثيرة تجتمع كلها عند أن تحفظ هذه الغائية قائمة في النفس.

ومن ذلك على سبيل المثال ما جاء من نهي مغلظ على القنوط من رحمة الله واليأس منها، كما في قوله تعالى:

> ﴿ ۞ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾
> (الزمر: ٥٣)

فاليأس من رحمة الله معناه أن يشعر اليائس بأن حياته لم يبق لها من غاية، إذ لا يمكن أن يتم فيها تدارك لما مضى، ولا أمل فيما هو آت منها، وهذا الوضع من فقدان الغائية في الحياة نهى الله تعالى أن ينتهي إليه الذين أسرفوا في الذنوب بله من هم دونهم في ذلك من الناس.

ومن ذلك أيضا ما جاء في قوله تعالى:

> ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾
> (البقرة: ١٩٥)

فبعض المفسرين فسروا التهلكة المنهي عنها باليأس من رحمة الله يأسا يفضي إلى التمادي في الذنوب[٥]، وفسرها آخرون بأنها مطلق إتلاف النفس بدون أن يجتنى منه مقصود[٦]، والمعنيان يتمم أحدهما الآخر، فإتلاف النفس دون رجاء غرض مقصود إنما هو ناشيء في الأغلب الأعم عن اليأس من الحياة، يأسا ينشأ عن الاعتقاد بأن هذه الحياة قد استنفدت أغراضها ولم يبق فيها من غاية يرتجى تحقيقها، وهذا هو ما جاء فيه هذا النهي الوارد في الآية نهيا جازما.

ويعضد هذا الجزم في حرمة الإلقاء بالنفس إلى التهلكة ما جاء في الشريعة من تحريم مطلق لأن يقتل الإنسان نفسه انتحارا، وهو ما جاء في قوله ﷺ: «من قتل نفسه بحديدة عذب بها في نار جهنم»[٧].

وقتل النفس إنما هو تعبير عن فقدان قاتل نفسه للغاية من الحياة، فالحكم بتحريمه هذا التحريم المشدد إنما هو حفظا لغائية الحياة مقصدا من مقاصد الشريعة مندرجا ضمن مقصد كلي هو مقصد حفظ إنسانية الإنسان، إذ هذه الغائية هي إحدى مكونات تلك الإنسانية، فإهدارها ينهدم به جزء منها.

يتبع

---

(٥) راجع الطبري - جامع البيان: ٢/٢٧٧.
(٦) راجع ابن عاشور - التحرير والتنوير ٢/٢١٤.
(٧) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز: باب ما جاء في قاتل النفس.

دور الوقف فى نهضة الأمة



أ. د. أحمد عمر هاشم
عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر

إن الناظر إلى جهود سلف هذه الأمة فى المحافظة على نهوضها وعلى تقدمها، وفى حمايتها من عاديات الزمن، يرى أنهم كانوا يتسابقون على صنائع المعروف اقتداء برسولهم (عليه أفضل الصلاة وأتم السلام).

حيث كان يصل الرحم ويحمل الكل ويكسب المعدوم ويقرى الضيف ويعين على نوائب الزمن، كما جاء فى الحديث الصحيح فى الموقف الأول الذى صافح الوحى الإلهى فيه قلبه الشريف بأول آية فى كتاب الله تعالى:

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾

(القلم: ١-٥)

وعندما عاد إلى السيدة خديجة (رضى الله عنها) وأخبرها الخبر قائلا: زملونى، زملونى لقد خشيت على نفسى، فأجابته السيدة خديجة (رضى الله عنها) من أول وهلة قائلة: كلا والله لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق».

ولطالما حث رسول الله ﷺ المسلمين على صنائع المعروف ومن أهمها: «الوقف» سواء كان وقفا لعقار من الأرض أو الحديقة مثلا أو نحو ذلك من الزروع التى ينتفع الناس بها كما فى قوله ﷺ:

ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة[1].

وفى رواية للحديث: إلا كان له به صدقة إلى يوم القيامة.

وكان سلف هذه الأمة يسألون رسولهم صلوات الله وسلامه عليه عن أفضل الطاعات وأعظم القربات التى يتقربون بها إلى الله سبحانه وتعالى، وكان رسول الله ﷺ يجيب كل سائل بما يليق بالحال والزمان والمكان.

(١) رواه مسلم.

وكان يحثهم على التعاون فيما بينهم ويقول:

«مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى».

وقد أمر القرآن الكريم بالتعاون على البر والتقوى حيث قال الله تعالى:

﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾

(المائدة: ٢)

ومن أهم مجالات التعاون «الوقف» الذى كان يحرص المسلمون عليه، فيقفون كثيرا من أموالهم وعقاراتهم على الفقراء والمساكين، والمرضى والمحتاجين، ويقفون الأوقاف على المساجد وطلاب العلم وأهل القرآن، إلى غير ذلك من وجوه الوقف التى تنتفع بها المجتمعات والأفراد.

وكان الوقف يمثل مصدرا هاما من مصادر المجتمع فى إعانة المرضى والمحتاجين، وفى حل كثير من مشكلات المجتمع.

إلا أن الملاحظ فى هذه العصور الأخيرة أن الوقف قل عن ذى قبل، وتراجع بشكل غريب، مع أن المجتمعات الآن فى أمس الحاجة إليه أكثر من أى وقت مضى، خاصة بعد أن تكاثرت البشرية، وتكاثرت معها المشكلات والأمراض والجهل والأمية والفقر والغلاء والبطالة، وأطلت مشكلات الفقر والجهل والمرض وغير ذلك بشكل ملحوظ يستوجب علينا أن ندعو إلى تنشيط الوقف وأن ننادى أصحاب الأموال ورجال الأعمال إلى بذل أقصى ما فى الوسع للنهوض بالوقف والإقبال عليه وتنمية موارده، وتطوير آلياته واستخداماته، ليصبح أمانا لكل قطاعات الحياة.

والوقف شعيرة من شعائر الإسلام تنهض بالتكافل الاجتماعى ومساعدة المحتاجين، وبذل المال الذى جعلنا الله تعالى خلفاء عليه حيث قال سبحانه:

﴿ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾

(الحديد: ٧)

فنحن خلفاء على المال، استخلفنا الله عليه لصرفه فى الوجوه المشروعة ونؤتى المحتاجين منه، لأنه مال الله آتانا إياه كما قال الله تعالى:

﴿ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾

(النور: ٣٣).

وقد أوقف رسول الله ﷺ الأرض التى عنده قبل وفاته، وأمر سيدنا عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) فى أرضه بخيبر أن يحبسها أى يوقفها عندما سأله عمر عن ذلك.

ونرى خالد بن الوليد احتبس أسلحته وأدراعه وأعتاده فى سبيل الله، ولقد عرفت أمة الإسلام الوقف من تعاليم دينها ورأت فيه تطبيقا عمليا للتكافل الاجتماعى والتعاون على البر والتقوى.

والوقف: هو حبس العين على ملك الواقف والتصدق بمنفعتها، وعند الشافعية والحنابلة يعرفون الوقف: بأنه حبس الأصل وتسبيل المنافع.

ولأهمية الوقف فى الإسلام عرفت الأمة عبر عصورها منزلته حتى إنها أطلقت اسمه على المؤسسة الدينية بل أطلقت باسمه

اسـم وزارات فـي كثيـر مـن بلاد الإسـلام وهـي: وزارات الأوقـاف، ليكـون الحرص البالـغ على تنفيذ مال الوقـف وعلى إدارته على أكمل وجه.

والوقـف داخل في عمـوم الأمر بالتعاون على البر والتقوى فقد قال الله تعالى:

﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

(المائدة: ٢).

وفـي قول رسـول الله ﷺ عن أبي هريرة (رضـي الله عنـه) أن رسـول الله ﷺ قـال: إذا مات الإنسـان انقطـع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علـم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له[٢].

وأيضـا حديـث ابـن عمـر (رضـي الله عنهمـا) قـال: أصـاب عمر بخيبـر أرضا، فأتى النبي ﷺ فقال: أصبت أرضا لم أصب مـالا قط أنفـس منها فما تأمرنـي به؟ فقال ﷺ: إن شـئت حبسـت أصلهـا وتصدقت بها، فتصدق بها عمر».

ولقـد سـارع الصحابـة إلـى الوقف كما صنع خالد ابـن الوليد حيـث أوقف أدراعه واعتاده في سبيل الله، والأعتاد: هي ما يعده الرجل من المركوب والسلاح وآلة الجهاد.

وعـن أبي هريـرة (رضـي الله عنه) قال: «بعـث رسـول الله ﷺ عمر علـى الصدقة، قيـل: منع ابن جميـل، وخالد بـن الوليد، والعباس عم رسـول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: مـا ينقم ابن جميـل إلا أنه كان فقيرا فأغنـاه الله، وأما خالد فإنكم تظلمون خالدا، قد احتبس أدرعه وأعتاده في سبيل الله، وأما العباس فهي عليّ ومثلها معها»[٣].

قال النـووي رحمه الله: وفيـه دليل على صحة وقف المنقول وبه قالت الأمة بأسرها إلا أبا حنيفة وبعض الكوفيين.

ومـمـا يدل على وقف المنقول والحيوان كالفـرس والجمل ونحو ذلك ما روى عن أم معقل جاءت إلي النبي ﷺ فقالت:

«يارسـول الله: إن أبا معقل جعل ناضحه في سبيل الله وإني أريد الحج أفأركبه؟ فقال رسول الله ﷺ: اركبيه، فإن الحج والعمرة في سبيل الله».

وللوقـف دوره فـي نهضة الأمـة، حيث يعمـل على تنميـة مشـروعات الخير التي تدعم رسالة العلم والتعليم وتصون الفقراء والمحتاجين، وترعـى المرضى والمعاقين وتنشئ مؤسسات الخير وصنائع المعروف، وتواجه مشكلات الجهل والفقر والمرض، ومـن أجل ذلك فإننـا نناشـد أهـل الخير ورجـال الأعمـال ألا يهملـوا مشـروعات الوقف فحسـبهم أن الذى يقفونه هو صدقة يجـرى ثوابها لهـم إلى يـوم القيامة ،ويظل ثوابها دائما لصاحبها ولا ينقطع بعد موته.

وحين يكـون الوقف على هيئة خيرية أو مشـروع فيه إغاثـة للمحتاجين فإنه يضمن اسـتمرار الخير والمنفعـة للمحتاجين ولا يقتصر الوقف علـى عقار أو أرض، بل إنما يشـمل جوانب أخرى كثيرة يصل الخير من

(٢) رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي.
(٣) رواه البخاري ومسلم

خلالها للمحتاجين، ولكل من ينتفع به في نفسه أو لغيره.

مجالات الوقف

من مجـالات الوقـف: الصدقـة الجارية كأن يبنـي دارا لإيواء أبناء السـبيل أو يبني مسـجدا، أو يجعـل قطعـة مـن الأراضـي الزراعيـة يصرف مـن عائدها علـى الفقراء والمسـاكين أو طلاب العلم وأبناء السـبيل أو نحو ذلك من وجوه.

ومن هذه المجـالات: العلم الذى ينتفع به، ومـن ترك مصحفـا يرثه مـن بعده فقد قال رسـول الله ﷺ: «إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسـناته بعد موته: علما نشـره أو ولـدا صالحـا تركـه أو مصحفـا ورثه أو مسـجدا بناه أو بيتا لابن السـبيل بناه أو نهرا أجراه أو صدقـة أخرجها من ماله في صحته وحياته تلحقه من بعد موته»[٤].

ومـن مجـالات الوقف حفـر بئـر للماء يسـتفيد منه الناس عن عثمان رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ قال: «مـن حفر بئر رومة فله الجنة، قال: فحفرتها.»[٥]

وفي رواية أخـرى: أن البئر كانت لرجل مـن بني غفار يقال له: رومـة، وكانت يبيع منهـا القربة بمد فقـال النبي ﷺ: «تبيعها بعين في الجنة؟ فقال: يا رسول ليس لي ولا لعيالي غيرها، فبلغ ذلك عثمان فاشـتراها بخمسـة وثلاثين ألف درهم، ثـم أتى النبي ﷺ فقـال: أتجعل لـي ما جعلـت له؟ قال نعم. قال: قد جعلتها للمسـلمين.»[٦]

ومن مجـالات الوقـف: وقـف الحدائق والأراضي الزراعيـة المثمرة التي ينتفع بها المحتاجون.

عن أنـس رضـي الله عنه قـال: «كان أبو طلحـة أكثـر أنصـارى بالمدينة مـالا وكان أحـب مالـه إليه بيرحـاء وكانت مسـتقبلة المسـجد وكان رسـول الله ﷺ يدخلهـا ويشـرب من ماء فيها طيب فلما نزلت هذه الآية الكريمة:

﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾

(آل عمران: ٩٢)

فقـام أبو طلحة إلى رسـول الله ﷺ فقال إن الله تعالى يقول في كتابه:

﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾

(آل عمران: ٩٢)

وإن أحب أموالي إليّ بيرحاء وإنها صدقة لله أرجـو برهـا وذخرهـا عنـد الله فضعهـا يـا رسـول الله حيـث شـئت، فقال رسـول الله ﷺ: بـخ بـخ ذلك مال رابـح ذلك مال رابح، وقد سمعتُ ما قلت فيها وإني أرى أن تجعلها في الأقربين، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه»[٧]

وهذه الأرض التي وقفها أبو طلحة كانت بسـتانا من نخل، وكانت بجوار المسـجد النبوي.

ومعنى كلمـة «بخ» الإعجاب والسـرور بالعمـل، ويسـتنبطُ مـن هـذا الحديث أن

(٤) رواه ابن ماجه.
(٥) رواه البخاري، والترمذي، والنسائي.
(٦) رواه البغوي.
(٧) رواه البخاري، ومسلم، والترمذي.

الرسول ﷺ وجه أبا طلحة أن يجعلها في الأقربين، فجعلها وقفا على أقاربه وهذا دليل على مشروعية الوقف الأهلى وواضح أن أبا طلحة تبرع بذلك وهو صحيح وفى صحته وليس في مرض الموت فيؤخذ من هذا جواز التصدق من الحى في غير مرض الموت بأكثر من ثلث المال، لأن رسول الله ﷺ لم يسأل أبا طلحة عن قدر ما تصدق به، وأما بالنسبة لسعد بن أبى وقاص فقال له: «الثلث والثلث كثير» لأنه كان في مرض موته، وهذا ما ذهب إليه أيضا الإمام الشوكانى رحمه الله.

ومن مجالات الوقف: وقف بعض الحيوانات مثل الخيول، عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من احتبس فرسا في سبيل الله إيمانا واحتسابا فإن شبعه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة حسنات»[8]

وذلك لأنه أوقفه في طاعة الله تعالى وفى سبيل الله للجهاد.

ومن مجالات الوقف أيضا: وقف الأدراع ونحوها من السلاح الذى يستخدمه المجاهدون في سبيل الله لحديث: «أما خالد فقد احتبس أدراعه وأعتاده في سبيل الله» رواه مسلم.

ومن مجالات الوقف: الوقف لبناء المساجد والمدارس والمستشفيات، ودور الإيواء للمحتاجين.

ومن مجالات الوقف المكتبات ووقف الكتب العلمية النافعة لطلاب العلم والدارسين والباحثين والذين يريدون الاطلاع والمعرفة.

ومن الوقف: ما يكون لتوزيع الملابس والكسوة على المحتاجين إلى ذلك من الفقراء والمساكين واليتامى والأرامل.

ومن الوقف ما يكون من أجل نشر الدعوة الإسلامية والإنفاق على ما تحتاجه الدعوة من وسائل وآليات ووسائل المواصلات ونحو ذلك.

والوقف على ملاجئ الأيتام لرعايتهم والصرف عليهم وإعاشتهم وتعليمهم وتربيتهم وعلاجهم ونحو ذلك.

والوقف على مدارس تحفيظ القرآن الكريم وعلى مدارس العلم ومعاهده وجامعاته.

إلى غير ذلك من المجالات التى يمكن أن يوجه الناس أموالهم إليها ويقومون بالوقف على مشروعات أخرى خيرية ونافعة يجد فيها العاطل عملا يقوم به ويجد فيها الجائع الطعام الذى يأكله، ويجد فيها ابن السبيل ومن لا مأوى له المكان الذى يأوى إليه، ويجد فيها المريض الفقير المستشفى الذى يعالج فيه وهكذا.

الوقف وأثره في نهضة الأمة وحضارتها

إن الوقف يعمل على نهضة الأمة وحضارتها ويجعل كل أفرادها يعملون فلا تكون بينهم طاقات عاطلة لأن مشروعات الوقف النافعة تدير دولاب الحياة وتجعل عملا لمن لا عمل له، وتيسر المأوى لمن لا مأوى له، وإن الذى يقوم بعمل الخير والوقف هو الذى ينتفع حقا بماله في دنياه وأخراه ويجد ثواب ذلك يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

فإن الذى يقدمه الإنسان ويوقفه للمحتاجين هو النافع له يوم الدين أما المال الذى يدخره ولا ينفقه فإنه لا ينفعه ولا يكون معه في آخراه، عن أنس رضى الله عنه- عن رسول الله ﷺ قال: «يتبع الميت ثلاث: أهله وماله وعمله فيرجع اثنان ويبقى واحد يرجع أهله وماله ويبقى عمله»[9]

لأن الذى يقره إنا هو لورثته من بعده، وأما ما ينفقه أو يجعله وقفا على مشروعات الخير فإنه باق لأنه عند الله سبحانه وتعالى كما قال جل شأنه:

﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾

(النحل: ٩٦)

ويتجلى أثر الوقف في نهضة الأمة وحضارتها بإقامة المشروعات العمرانية والاستثمارية وإنشاء صروح العمل والإنتاج، ومد يد العون للمحتاجين والنهوض بالأمة قدما للأمام، فمما لا شك فيه أن الوقف يتنافس الناس فيه حبا في الخير وابتغاء وجه الله تعالى، ورجاء المثوبة والأجر دنيا وأخرى.

ومن أجل ذلك يدرك العقلاء أن الحكمة كل الحكمة هى في أن تتكاتف الجهود وتتضافر القوى.. وكم من أصحاب أموال ورجال أعمال يمكنهم أن يتعاونوا في قيام مشروعات حضارية وقلاع صناعية تنفع المجتمع والأمة وتقوم برعاية حاجات الناس.

وإذا كانت موازنة بعض الدول أو بعض المؤسسات لا تكفى لقيام مشروعات النهضة الحضارية، فإن الوقف يمكن أن يفى بهذه المتطلبات ويحقق ما تصبوا إليه الأمة من نهضة وحضارة، من أجل ذلك كان أول من أسهم بالوقف هو الرسول ﷺ ليعطى القدوة الحسنة بنفسه في هذا المضمار، عن عمر بن الحارث رضى الله عنه- قال: «ما ترك رسول الله ﷺ عند موته درهما ولا دينارا ولا أمة ولا عبدا ولا شيئا إلا بغلته البيضاء التى كان يركبها وسلاحه وأرضا جعلها لابن السبيل صدقة»[10]

وهكذا أعطى رسول الله ﷺ القدوة من نفسه لأهمية الوقف حتى تظل الأمة محافظة عليه، اقتداء به كما قال الله تعالى:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾

(الأحزاب: ٢١)

وإننى أدعو أمتنا الإسلامية في كل مكان إلى إحياء نظام الوقف وأدعو أيضا وسائل الإعلام إلى التوعية به وبيان أهميته في هذه المرحلة لتعزيز موقف الأمة في مشروعاتها وفى مسيرتها لمواجهة سائر التحديات، ولقيام النهضة الحضارية التى تحتاج إليها الأمة ولتقويتها ولإعداد القوة لمواجهة كل التحديات، كما أمر الله تعالى حيث قال:

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾

(الأنفال: ٦٠)

(٨) رواه أحمد، والبخاري.

(٩) رواه البخاري، ومسلم.

(١٠) رواه البخاري.

فلسفة الإلزام والالتزام في الإسلام

٢

أ. د. محمد شامة

لكي لا يتركز المال في أيدي طبقة محدودة في المجتمع، فرض الله عدة صور من شأنها تفتيت الثروة، وإعادة توزيعها على أكبر عدد ممكن، ليعتدل ميزان الثروة في المجتمع، فلا يميل إلى ناحية دون أخرى، وليحصل كل على نصيب يساعده على مواجهة مطالب الحياة، كما أن في هذا التوزيع إرضاء للمحرومين، وإطفاء لنار الحقد لدى المحتاجين، وفي ذلك استقرار للحياة الاجتماعية، وأمن وأمان لمن حرم من المال، ونزع لفتيل ما يسمونه «ثورة الجياع».

ويقوم توزيع الثروة في الإسلام على النقاط الرئيسية التالية:

- الميراث:

ففي قوله تعالى:

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١) وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾

(النساء: ١١- ١٢)

ففي هاتين الآيتين والآية رقم ١٧٦ من نفس السورة وكثير من الأحاديث النبوية تفتيت للثروة بتوزيعها على عدة أفراد بعد أن كانت مركزة في يد فرد واحد.

- الزكاة: فقد ورد الأمر بإخراجها ووصف المؤمنين بأنهم هم الذين يؤدونها في القرآن الكريم في أكثر من ثلاثين آية. وليست الزكاة فضلا يتفضل به الغني على الفقير، بل هي حق للفقير في مال الغني، يقول تعالى:

﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾

(المعارج: ٢٤- ٢٥)

فهي واجبة يؤديها الغني للدولة لتقوم بتوزيعها على الفقراء والمحتاجين، فإن امتنع عن أدائها، فإن الحاكم مطالب بإلزامه بأدائها، حتى لو اقتضى الأمر استخدام القوة في ذلك، فما فعله أبو بكر الصديق مع الممتنعين عن أدائها سُنَّة ينبغي الاقتداء به فيها، بل هو واجب على الدولة الالتزام به تطبيقا لقول أبي بكر الصديق رضي الله عنه: «والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونها لرسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه»[١].

حددت الأصناف التي تجب فيها الزكاة بأربع مجموعات:

المجموعة الأولى: الذهب والفضة «أو المال المدخر»، وتجب فيه الزكاة إذا بلغ النصاب، وهو بالمقادير الحديثة ما يعادل ٨٥ جراما في الذهب، ومائتي جرام في الفضة، واتفق الفقهاء على أنه لا تجب الزكاة في غيرهما من المعادن كالماس والزبرجد وما شابههما. غير أني أرى أنه قياسا على الذهب والفضة تجب الزكاة في المعادن النفيسة الأخرى إذا بلغ ما يملكه المسلم منها ما يعادل نصاب الذهب أو الفضة، وذلك طبقا لما يفهم من قوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾

فهذه المعادن أموال، للفقراء والمساكين حق فيها، يجب على مالكها إعطاؤه لهم، وإلا حق عليه العذاب الذي ورد في الآية ٣٥ من سورة التوبة على رأي كثير من المفسرين.

المجموعة الثانية: الزروع، كالحنطة، والشعير، والتمر، وهذه هي الأصناف التي حددها الفقهاء في مجال إخراج الزكاة من هذه المجموعة. وأرى أن هذا التحديد أملته ظروف بيئية، حيث لم يكن هناك أصناف من الزروع غيرها، أما في العصر الحديث فقد استحدثت أنواع أعلى قيمة، وأكثر ربحا من هذه الأصناف، كالفواكه بأنواعها المتعددة، وخضراوات عدة، استحدثت ويربح منها الزراع أضعاف ما يربحون من الحنطة والشعير والتمر، فمن غير المعقول ألا يفرض فيه نصيب للفقراء والمساكين، فهذا إجحاف في حق طبقة عريضة في المجتمع، تحتاج إلى ما

(١) صحيح البخاري ج٦، رقم ٦٨٥٥.

يساعدها على مواجهة الحرمان والعوز، وعليه فتجب الزكاة أيضا فى كل أنواع الزروع، إذا بلغ إنتاجها ما يعادل - ماديا - نصاب الحنطة.

المجموعة الثالثة: البهائم كالأبقار والأغنام والإبل، واقتصر الفقهاء على هذه الأنواع الثلاثة، لأن الثروة الحيوانية فى العصور القديمة كانت مركزة فى هذه الأصناف، أما الآن، فقد ظهرت استثمارات فى أنواع أخرى تدر من الربح ما يفوق أضعاف ما يكسبه المرء من الأصناف الثلاثة السابقة، ولذا تجب الزكاة فى هذه الأنواع الجديدة التى ظهرت على ساحة الاستثمار كالدواجن والبط وغيرهما، إذا كان ما يملكه المرء من نصاب يعادل قيمة نصاب أى نوع من الأنواع التى حددها الفقهاء فى العصور القديمة كأصناف تجب فيها الزكاة.

ومما تجدر الإشارة إليه أن الخيل ليس فيها زكاة - بنص الأحاديث الواردة فى ذلك - لأنها كانت تستخدم فى الحرب، فأعفى صاحبها من الزكاة فيها تشجيعا للناس على تربيتها وتنميتها لتقوية الجيوش الإسلامية، أما فى العصر الحديث فلم يعد لها دور يذكر فى المعارك الحربية، ولذا تجب فيها الزكاة، إذا بلغت قيمة ما يملكه المسلم منها ما يعادل قيمة النصاب فى أى نوع من الأنواع الثلاثة التى حددها الفقهاء، وهى: الأبقار، والإبل، والأغنام.

المجموعة الرابعة:

الكفارة: فقد فرض الله إخراج جزء من المال للفقراء تكفيرا عن خطأ وقع فيه المسلم، والكفارات متعددة ومتنوعة نظرا لتعدد الأخطاء وتنوعها، مثل: كفارة اليمين، وكفارة الظهار، وكفارة الإفطار عمدا فى رمضان، وغيرها من الكفارات التى تسهم إلى حد ما فى توزيع الثروة، وسد حاجة الفقراء والمساكين فى المجتمع.

الصدقة: ورد الأمر بالصدقة والحث عليها فى آيات عدة من القرآن الكريم، منها قوله تعالى:

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾

(التوبة: ١٠٣)

أى تطهرهم من الآثام والأدران، وتزكيهم بالصدقة التى تنقى النفس من الشح والطمع وعبودية المال، وتغرس فى المتصدق الميل إلى العطف على المحتاجين، والبر بهم، وتنمى فى نفوس الفقراء حب الأغنياء واستعدادهم للدفاع عن أموالهم، لأن لهم فيه نصيب، فيسود التعاطف والتآلف بين طبقات المجتمع. ولا تكون هذه الفوائد فى الصدقة إلا إذا أخرجها المتصدق، وهو صحيح يغالب غواية الشيطان له بالحرص على المال، وتحذيره له من الفقر والعوز، فقد روى أن رجلا جاء إلى النبى ﷺ فقال: (يا رسول الله! أى الصدقة أعظم أجرا؟ قال: أن تتصدق وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم، قلت: لفلان كذا، ولفلان كذا، وقد كان

لفلان)(٢) بل إن الله تعالى سوى الأمر بالصدقة بالأمر بالمعروف، والإصلاح بين الناس، مبينا أن لا فائدة من الدعاء والتقرب إلى الله بالمناجاة إلا اذا كان ذلك مقرونا بالأمر بالصدقة والمعروف، والإصلاح بين الناس، أى لا يكون هناك فائدة من الدعاء إلا إذا كان ذلك مقرونا بعمل شيء يكون فيه فائدة للمجتمع كالتواصى بإخراج صدقة، أو الأمر بالمعروف، أو السعى للإصلاح بين أفراد المجتمع، يقول تعالى:

﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾

(النساء: ١١٤)

فقد سوى الله بين الأمر بالصدقة، والأمر بالمعروف، والإصلاح بين الناس، لأن الثلاثة دعائم للمجتمع الصالح المتماسك البنيان، المتآلف الطبقات، الذى يشيع الحب والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بين أفراده ومؤسساته المختلفة، فلا غل، ولا حقد، ولا حسد، لأن الكل يحصل على ما يحتاج إليه فى حياته، ويشعر بأن له مما فى أيدى الأغنياء نصيب يحصل عليه، دون امتهان أو احتقار، فإن تقاعس من بيده المال، ولم يؤد للفقير حقه، كان هناك من يأمره بذلك، لأن الأمر بالمعروف واجب دينى، كما أن الإصلاح بين الطبقات مفروض أيضا.

الإنفاق فى سبيل الله:

يقول الله تعالى:

﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾

(البقرة: ١٩٥)

فعموم لفظ الآية يفيد أن المؤمن مأمور من الله بأن يخرج جزءا من ماله فى سبيل الله: فى تجهيز الجيوش التى تدافع عن المجتمع الإسلامى، وفى بناء المساجد، وفى رعاية الأيتام، وفى تأهيل الأحداث، وفى تشييد الطرق، وغيرها من المجالات التى يجب دعمها بالمال - والجهد - لكى تؤدى وظيفتها فى المجتمع. ومما لا شك فيه أن المجتمعات التى ترعى شعوبها المؤسسات الخيرية، وتدعم الهيئات التى ترعى مصالح الناس، وتهيء لهم الخدمات اللازمة للحياة، ويتساند أفرادها فى تعمير الأرض، والمحافظة على البيئة، وتنميتها زراعيا، وصناعيا، وحراسة إنجازاتها فى جميع المجالات، هى مجتمعات متماسكة البنيان، لا يتطرق الضعف إليها فى أى جانب من جوانب حياتها، لأن هناك من يقوم على حراستها، ودعمها بالجهد والمال، وهذا هو مفهوم هذه الآية: الإنفاق - مالا وجهدا - فى سبيل الله، ويشمل جميع مجالات الحياة حتى لا ينهار المجتمع، فيهلك أفراده.

يتبع

(٢) صحيح البخارى ج٢، رقم ١٣٥٣.

مساهمة الزوجة فى الأعباء المالية وقضية الثروة المشتركة



أ. د/ محمد الشحات الجندى
عضو مجمع البحوث الإسلامية

مستجدات فى مسألة النفقة ومشاركة المرأة فى أعباء الحياة الزوجية

طرأت متغيرات جديدة على نظام الأسرة المسلمة بوجه عام، والأسرة المصرية بوجه خاص، مردها إلى حدوث مستجدات اجتماعية واقتصادية فرضت نفسها على نظام العائلة، وأخصها تلك التطورات المتعلقة بالحالة الاجتماعية والاقتصادية للمرأة، وارتيادها لمجالات ظلت محرومة منها لقرون وأجيال بسبب تقاليد فاسدة وجهالات متراكمة وقفت سدًا منيعا بين المرأة وبين حصولها على حقوق أصلية لها تنبع من نصوص ثابتة فى القرآن الكريم والسنة المطهرة.

ولا أدل على ذلك من حرمان المرأة من الحصول على حقها فى اكتساب المعرفة وتحصيل العلوم، والاشتغال بالعمل المناسب لها، القادرة على أدائه، فقد أراد لها البعض تجريدها من توظيف الملكات العقلية والذهنية لديها، وأن تكون رهينة المحبسين: البيت والجهل، بأفهام خاطئة وتأويلات سقيمة ومرامى خبيثة، كى لا تكون على وعى بحقوقها جاهلة بدورها، فيسهل قيادها، والاستيلاء على مقدراتها، وتسببت هذه التقاليد الظالمة فى تعطيل حق أصيل يشكل المحور الرئيسى فى تعظيم الملكات الشخصية، وهو التعليم وتفسير نصوص محكمة على هوى هؤلاء النفر الذين التفوا والتفتوا عن نصوص مبينة وسوابق رائدة اكتسبتها المرأة فى العصر الإسلامى الأول.

وآية ذلك أنه كان للمرأة المسلمة فى عصر التأسيس النبوى جولات علمية واجتهادات ذهنية خلاقة، أصلتها آيات وأحاديث غابت عن البعض أو غيبوها تحقيقا لمرادهم فى قصرها على الرجال دون النساء.

من ذلك قوله تعالى:

﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

(المجادلة: ١١)

فالدلالة فى الآية عامة لكل مؤمن ذكرا كان أم أنثى لا يجوز تطبيقها على الرجال وحدهم، وحصرها فى نطاق الذكورة، دون أن يكون للأنوثة منها نصيب.

فالمرأة بحسب الإيمان إنما تكون مؤمنة ومتعلمة لا فرق فى ذلك بين الرجال والنساء، على حسب ما لديه من ملكات وقدرات ترتفع به إلى مصاف العلماء العاملين، فهو فضل الله يؤتيه من يشاء لا انحياز فيه لنوع على نوع.

وفى قول الرسول ﷺ «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[1].

ولفظة المسلم تشمل الذكر والأنثى بحسب أساليب اللغة العربية، فضلا عن أنه المقصود الحقيقى من الخطاب النبوى، الدال عليه التكليف الشرعى بتحصيل العلم، واكتساب المعارف، فهو جلى للأفهام البصيرة والقرائح المستنيرة.

يشهد عليه إسهام المرأة فى مسيرة الإيمان والعلم فى العصر النبوى، وما بعده مثل السيدة عائشة وحفصة، وأم سلمة، بجانب العديد من النساء ممن نزل فى شأنهم آيات قرآنية، ورويت عنهم أحاديث نبوية، كما ورد فى مستهل سورة المجادلة السيدة خولة زوجة أوس بن الصامت، والسيدة جميلة بنت قيس التى طلبت الخلع من زوجها والتى برهنت على حق المرأة فى إنهاء الحياة الزوجية، والخنساء التى قدمت النموذج الرائد فى التضحية بأولادها فى الجهاد، والمرأة التى راجعت أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فى شأن المغالاة فى المهور، وغيرهن ممن كن على بصيرة بنهج الإيمان والعلم الشرعى.

وقد جمعت الكثير من النساء بين العلم والعمل ولم تكن مسيرة الإسلام حكرًا على الرجال دون النساء، بل اشتملت على مشاركة النوعين، وقويت بإسهام كل من الرجل والمرأة، وفقا لمعيار الجدارة والاستحقاق.

الزوجة والمشاركة فى الأعباء المنزلية

لا ينكر أحد دور المرأة المسلمة فى العصر الإسلامى الأول وأن هناك مناشط حياتية متعددة حصلت عليها المرأة نتيجة للمكتسبات الحديثة بعد استرداد المرأة لأحقيتها فى طلب العلم، واكتساب العمل، مما أتاح لها فرصة المشاركة فى ميادين العمل وأنشطة الحياة المختلفة، حيث تتمتع بذمة مالية مستقلة، ولديها المال الخاص الناتج عن ثمرة عملها

[1] - حديث ٢٢٦ المقدمة - سنن ابن ماجة

تحقيقا لقوله عز وجل :

﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ﴾

(النساء : ٣٢)

وتحولت المرأة المسلمة إلى قوة عاملة في المجتمع وأصبحت جزءًا فاعلا ومشاركة مع الرجل في ميادين العمل والعطاء وأثبتت الكثيرات منهن جدارة وكفاءة في القيام بأعمال غير تقليدية ، وغير قاصرة على بنات جنسها .

وترتيبا على اقتحام المرأة لدولاب العمل فقد أصبح للمرأة مشاركة في مجالات العمل المختلفة مما أوجد دخلا ثابتا ومستمرًا لها ، وطرأ واقع جديد ، هو المساهمة في أعباء الأسرة المالية مع الزوج والأولاد ، كمظهر لتعاون رضائي بينها وبين الزوج على مواجهة التزامات متنامية للأسرة ، وضغوط الغلاء ، والتوسع في متطلبات الحياة وارتفاع مستوى المعيشة لدى الأسرة العاملة ، مما نشأ عنه وجود اتفاقيات وتفاهمات بينهما صريحة أو ضمنية تشارك بموجبها الزوجة بجزء من دخلها وكسبها بشكل دائم ومتجدد ، وربما التعاون مع أسرتها ، على شراء أصول عقارية أو منقولة قد تكون نواة لتكوين ثروة مشتركة تجعل حصة الزوجة فيها قائمة ومؤثرة ، وإن كانت مسجلة باسم الزوج ومملوكة له وحده أمام الناس.

وقد يتحاز لهذا الوضع المستحدث بالنسبة للمرأة ، أن الإسلام لا يمنع أن تقوم بعمل تصلح له ، وتقدر على أدائه ولو كان خارج المنزل ، طالما تحفظ عرضها ولا تخل فيه بشرفها ، والتزمت فيه بحياء المرأة المسلمة وتصونها ، وحافظت على بيتها وأسرتها .

فقد ذهب الفقه(٢) : إلى أن طبيعة عقد الزواج ليس عقد عمل من جانب الزوجة للزوج أو عقد استخدام (خدمة) بالنسبة لها ، فإن على الزوج أن يكفيها مؤنة ذلك ، لكن هذه الحقيقة المؤكدة على طبيعة عقد الزواج وأنه عقد اجتماعي إنساني ، لا ينفي جواز أن تقوم المرأة بخدمة بيتها وأسرتها متبرعة ، بل أن هذا هو الأفضل .

هذا المتغير الحديث في تشابك المعاملات المالية بين الزوج والزوجة ، أفرزته أوضاع المرأة العاملة في المجتمع الإسلامي ، شكل نمطا جديدًا ، في العلاقات الزوجية ، وقد يجعل ثروة الأسرة المسلمة ليست خاصة بالزوج وحده ، وإنما يعتبر شكلا من أشكال الثروة المشتركة للزوج والزوجة نتيجة تغير دور المرأة ومن ثم أصبحنا أمام أمر واقع هو مشاركة الزوجة العاملة في نفقات الأسرة .

يضاف إلى ذلك أن النفقة المستحقة للزوجة تكون في مقابل احتباسها في بيت الزوجية ، ومن أجله ، فهذا سبب التزامه بالوفاء بالنفقة لها ؛ تطبيقا للقاعدة الشرعية : « كل من حبس لمصلحة غيره ومنفعته فنفقته واجبة على من كان حبسه لمصلحته ومنفعته » .

ومفهوم القاعدة أن الزوجة إذا خرجت إلى العمل ، ولم تستقر في منزل الزوجية ، فإنها تكون زوجة عاملة انتقصت من حق الزوج في الاحتباس الكامل ، مما قد يبرر مشاركتها في أعباء الحياة الزوجية جزاء على انتقاص حق الزوج ، وتعويضا عن غيابها عن منزل الزوجية .

وضع الزوجة المستقرة في منزل الزوجية في خدمة الزوج والأولاد

إذا كان التطور الذي نشأ حول دور المرأة العاملة ، قد تحول إلى وضع دائم يحميه القانون ويضفي عليه طابع الدوام والاستقرار ، وصار حقيقة ملموسة في بناء الأسرة المسلمة ، وعنوانا على مشهد مشاركة الزوجة المسلمة في مجمل الأعباء المالية الأسرية ، فإن وضع الزوجة غير العاملة أو ربة البيت كما نسميها وهي محبوسة لمصلحة الزوج والقائمة في منزل الزوجية يختلف من حيث المشاركة المالية والدور الذي تلعبه في تكوين ثروة الأسرة .

ومنشأ الاختلاف أن الزوجة ربة البيت ، لا تساهم بمبالغ مالية في أعباء الأسرة ، ولا تقدم حصة مالية للزوج أو للأولاد ، بسبب أنها لا تعمل ، فهي زوجة مستقرة في المنزل وملازمة له .

ومن هنا يثار التساؤل عن تقييم الدور الذي تقوم به هذه الزوجة داخل منزل الزوجية ، فهي تقوم على خدمة الزوج والأولاد ، وتوفر لهم الراحة والأمان والاستقرار وتبذل الجهد اللازم لحفظ البيت والأسرة وتغني الزوج عن جلب خادم أو خادمة تعمل في منزل الزوجية .

قد ينازع البعض في تقييم هذا الدور للزوجة ربة البيت ، على أساس أن هذا هو الوضع الطبيعي للزوجة فهي ملازمة لبيتها قائمة على العناية بزوجها وأولادها تقوم بذلك برضا وطيب نفس بمقتضى عقد الزواج والأمومة ، فإن رباط الزوجية والأمومة تنصهر فيه العلاقة بين الزوجين وبينها وبين فلذات الأكباد ، فالأصل في العلاقة التكامل ومعاونة كل منهما للآخر ، فهو من مقتضيات السكن والمودة القائمة بينهما ، وتتأكد هذه العلاقة بين الزوجة والأم وبين أولادها بعد الإنجاب ، واستقرار العلاقة الأسرية ، وتعميق الشعور بالمسئولية عن الأسرة .

يؤيد هذا الرأي ، وضع الزوجة في العصر الإسلامي فقد كانت السيدة عائشة تخدم النبي ﷺ وكانت السيدة فاطمة الزهراء تطحن بالرحى ، وهي زوجة لعلي بن أبي طالب ، وشكت إلى الرسول ﷺ مشقة العمل فلم يأت لها بخادم ، وإنما دعا لها .

كما كانت السيدة أسماء بنت أبي بكر تشارك زوجها الزبير بن العوام العمل ويروى عنها أنها قالت تزوجني الزبير وماله في الأرض من مال ولا مملوك ولا

٢ - الأم للشافعي جـ٥ ، ص ٧٨ ، المغني لابن قدامة جـ٧ ص ٢١ .

شـيء غير فرسـه وناضحه ، فكنت أعلف فرسـه وأكفيه مؤنته وأسوسه وأدق النوى لناضحـه وأعلفه ، واسـتقى المـاء وأخرز غربه وأعجن[٣] .

ولم تأخذ مقابل ذلك أجرًا ، ولم يتقرر لهـا مالا حتى يقال إنهـا يمكن أن يكون قد تنازلت عنه وفى المقابل يقول البعض إن الزوجة غير ملزمة شرعا بخدمة الزوج والعمل فى منزل الزوجية ، فدورها قاصر علـى الحفـاظ على مالـه وملاحظته ،وأن تكـون أمينة على نفسـه ومالـه ... وأن أعمـال البيـت ومتطلبات الخدمـة فيه ، جزء مـن النفقة ويندرج ضمن عناصرها ، ويلـزم الزوج توفير خـادم لها يؤدى هذه الأعمال .

وبموجب ذلك ، فإن الزوجة ربة البيت إذا أدت هذه الأعمال ، فإنه يحق لها طلب أجر لقاء الخدمة والعمل فى المنزل .

وقد يسـوقون دليلا على استحقاق هذا الأجر قوله تعالى :

﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ﴾

(الطلاق : ٧)

فالآيـة بعمومهـا تخـول للزوجة طلب خـادم للبيـت متـى كان الزوج موسـرًا ، أو كان ممـن يخـدم مثلها كمـا يقول أبو يوسف صاحب أبي حنيفة .

ولأن الشـرع جعل للزوجـة أجرًا عندما تقـوم الأم بحضانـة طفلهـا أو رضيعهـا ، لقوله تعالى:

﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾

(الطلاق : ٦)

فقياسًا على ذلك ، فإنها تستحق الأجر حال خدمة زوجها ، وأداء أعمال فى منزل الزوجيـة ، إذ الأجـر مقابـل العمل ، ومن ثـم يقدر الزوج لها أجرًا يتناسـب وأعمال الخدمة التى تقوم بها .

وقد نتـج عن ذلك تغير بعض المفاهيم بشـأن انفراد الرجـل بالنفقة علـى المرأة والأولاد ، وصـار مألوفـا ومعروفـا غير منكور أن تشارك المرأة بنصيب فى تأثيث بيـت الزوجية بـدءًا بتجهيز هـذا المنزل وعـن طريق تقديم بعض المـال فى النفقة بمفهومهـا الشـامل مـن مـأكل وملبـس ومسكن وتعليم وعلاج .

وسـاعد انخـراط المـرأة فـى العمـل اكتسـابها المال ووجوده فى ملكيتها وفى حوزتها ، مـن كدها وسـعيها تدخر جزءًا منه ، وقد تسـاهم به فى تكوين ثروة الأسرة التى أصبحت تتكون من مال الزوج ، ومن مال الزوجة .

وهو الأمـر الذى يبـرز قضية مـا يطلق عليـه الثـروة المشـتركة بيـن الزوجين ، بسبب أن الثروة والمال لم يأت من كسب الزوج وحده ، وإنما بالمشاركة بين الزوج والزوجة ، وفقا لنظـام يوازن بين الحقوق والواجبات ويحمى المـرأة بعد الانفصال من المعاناة والمهانة والاحتياج .

يتبع

٣- إحياء علوم الدين للغزالي ، جـ ٤ ص ٧٥١ .

من عيون التراث

عرض الكتاب:

يقع الكتاب فى مجلدين ، المجلد الثانى يقع فى ٤٤٥ ، صفحة من القطع المتوسط ، وتناول فيه ما تبقى من المقصد الرابع ؛ حيث تناول فيه:

●● البـاب الخامس فى المطلـق والمقيد ، وفيه أربعة مباحث :

● المبحـث الأول : فـى حدهمـا : أوضـح فيه أن المقيـد هو مـا يقابل المطلـق ، على اختـلاف هذه الحـدود المذكورة فـى المطلق ، فيقـال فيه : هو ما دل لا على شـائع فى جنسـه ، فتدخل فيـه المعارف والعمومـات كلها ، أو يقال في حده : هو ما دل على الماهيـة بقيد مـن قيودها ، أو ما كان لـه دلالة على شيء من القيود .

● المبحـث الثانـي : فـى حمـل المطلـق على المقيـد : اعلم أن الخطـاب إذا ورد مطلقًا – لا مقيد لـه – حمل علـى إطلاقه ، وإن ورد مقيـدًا حمل على تقييده ، وإن ورد مطلقاً فى موضع ومقيدًا فى موضع آخر ، فذلك على أقسام:

١ – أن يختلفـا فى السـبب والحكم ، فلا يحمل أحدهمـا على الآخـر بالاتفاق ، كما حـكاه القاضى أبو بكـر الباقلانى ، وإمام الحرميـن الجوينى ، وابن برهان ، والآمدى .

٢ – أن يتفقـا فـى السـبب والحكـم ، فيحمـل أحدهمـا على الآخر ، كما لو قال : إن ظاهرت فأعتق رقبة .

٣ – أن يختلفا فى السـبب دون الحكم ، كإطلاق الرقبـة فى كفـارة الظهـار ، وتقييدهـا بالايمان فى كفـارة القتـل ، فالحكم واحد وهو وجـوب الإعتاق فـى الظهـار والقتل مع كـون الظهار والقتل سـببين مختلفين .

إرشاد الفحول
إلى تحقيق الحق
من علم الأصول
(المجلد الثاني)
تأليف: الإمام الحافظ محمد بن علي الشوكاني
(١١٧٣هـ - ١٢٥٠هـ)
تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل الشافعي
بيروت: دار الكتب العلمية (١٩٩٩م)

٤ـ أن يختلفا فى الحكم نحو : اكس يتيمًا ، أطعم يتيمًا .

● المبحـث الثالث : فى شـروط حمـل المطلق على المقيد : له شروط سبعة :

١ـ أن يكـون المقيد من باب الصفات ، مع ثبات الذوات فى الموضعين ، فأما فى إثبات أصل الحكم من زيادة أو عدد فلا يحمل أحدهما على الآخر وهذا كإيجـاب غسـل الأعضـاء الأربعة فى الوضـوء مع الاقتصار على عضوين فى التيمم .

٢ـ أن لا يكون للمطلق إلا أصل واحد كاشـتراط العدالـة فى الشـهود على الرجعـة والوصية وإطلاق الشـهادة فى البيوع وغيرها ، فهى شـرط فى الجمع وكذا تقييد ميراث الزوجين بقوله تعالى :

﴿ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ﴾

(النساء: ١٢)

٣ـ أن يكـون فـى بـاب الأوامر والإثبـات أما فى جانب النفى والنهى فلا .

٤ـ أن لا يكون في جانب الإباحة.

٥ـ أن لا يمكن الجمع بينهما إلا في الحمل، فإن أمكن بغير أعمالهما فإنه أولى من تعطيل ما دل عليه أحدهما.

٦ـ أن لا يكون المقيد ذكر معه قدر زائد يمكن أن يكون القيد لأجل ذلك القدر الزائد فلا يحمل المطلق على المقيد هاهنا.

٧ـ أن لا يقوم دليل يمنع من التقييد فإن قام دليل على ذلك فلا تقييد.

• المبحث الرابع: في جريان ما ذكر في تخصيص العام في تقييد المطلق: قضاء رمضان الوارد مطلقًا في قوله سبحانه:

﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾

(البقرة: ١٨٤)

وصوم التمتع الوارد مقيدًا بالتفريق في قوله تعالى:

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾

(البقرة: ١٩٦)

وصوم كفارة الظهار الوارد مقيدًا بالتتابع في قوله تعالى:

﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾

(المجادلة: ٤)

قال: فمن زعم إن المطلق يتقيد بالمقيد لفظًا، ترك المطلق هاهنا على إطلاقه، لأنه ليس تقييده بأحدهما أولى من تقييده بالآخر، ومن حمل المطلق على المقيد لقياس حمله هاهنا ما كان القياس عليه أولى.

•• الباب السادس: في المجمل والمبين:

وتناوله في ستة فصول:

فالمجمل في اللغة المبهم من أجمل الأمر إذا أبهم وقيل: هو المجموع من أجمل الحساب إذا جمع وجعل جملة واحدة وفي الاصطلاح ما له دلالة على أحد معنيين لا مزية لأحدهما على الآخر بالنسبة إليه كذلك قال الآمدي وفي المحصول للرازي هو «. أفاد شيئًا من جملة أشياء، وهو متعين في نفسه، واللفظ لا يعينه.

تعريف المبين:

• فهو في اللغة المظهر من بان إذا ظهر يقال: بين فلان كذا إذا أظهره وأوضح معناه.

• وفي الاصطلاح هو ما افتقر إلى البيان، والبيان مشتق من البين وهو الفراق لأنه يوضح الشيء ويزيل إشكاله قال: «أبوبكر الرازي»: سمي بيانًا لانفصاله عما يلتبس من المعاني. وهو ما يشير إلى أهمية تحديد (التعريف الإجرائي للمفهوم Definition Operational) (ص١٨).

ثم تناول وقوع الإجمال في الكتاب والسنة وأقسام المجمل وفيما لا إجمال فيه ومراتب البيان للأحكام وهي خمسة كالتالي:

١ـ بيان التأكيد وهو النص الجلي الذى لا يتطرق إليه تأويل.

٢ـ النص الذى ينفرد بإدراكه العلماء كالواو وإلى في آية الوضوء فإن هذين الحرفين مقتضيان لمعان معلومة عند أهل اللسان.

٣ـ نصوص السنة الواردة بيانًا لمشكل في القرآن كالنص على ما يخرج عند الحصاد.

٤ـ نصوص السنة المبتدأة مما ليس في القرآن نص عليها لا بالإجمال ولا بالتبيين.

٥ـ بيان الإشارة وهو القياس المستنبط من الكتاب والسنة مثل الألفاظ التي استنبطت منها المعاني وقيس على غيرها وهو ما يشير إلى مفهوم (القياس المنطقي syllogism) (ص٣٥)

•• الباب السابع: في الظاهر والمؤول:

وفيه ثلاثة فصول:

فالظاهر في اللغة هو الواضح وقال: «الغزالي» هو المتردد بين أمرين وهو في أحدهما أظهر. وقيل: هو ما دل على معنى مع قبوله لإفادة غيره إفادة مرجوة فاندرج تحته مادل على المجاز الراجح.

وقيل: هو في الاصطلاح ما دل دلالة ظنية إما بالوضع كالأسد للسبع المفترس أو بالعرف كالغائط للخارج المستقذر.

والتأويل مشتق من آل إذا رجع تقول: آل الأمر إلى كذا أى رجع إليه ومآل الأمر مرجعه.

وتناول أيضًا ما يدخله التأويل وهو قسمان: أحدهما أغلب الفروع، والثاني: الأصول كالعقائد وأصول الديانات وصفات الباري ـ عز وجل ـ وشروط التأويل وهي:

١ـ أن يكون موافقًا لوضع اللغة أو عرف الاستعمال أو عادة صاحب الشرع وكل تأويل خرج عن هذا فليس بصحيح.

٢ـ أن يقوم الدليل على أن المراد بذلك اللفظ هو المعنى الذى حمل عليه إذا كان لا يستعمل كثيرًا فيه.

٣ـ إذا كان التأويل بالقياس فلا بد أن يكون جليًا لا خفيًا.

•• الباب الثامن من المقصد الرابع: في المنطوق والمفهوم:

وفيه أربع مسائل:

فالمنطوق: مادل عليه اللفظ في محل النطق أي يكون حكمًا للمذكور وحالًا من أحواله.

والمفهوم: ما دل عليه اللفظ لا في محل النطق أي يكون حكمًا لغير المذكور، وحالًا من أحواله.

والحاصل: أن الألفاظ قوالب للمعاني المستفادة منها، فتارة تستفاد منها من جهة النطق تصريحًا وتارة من جهته تلويحًا فالأول: المنطوق، والثاني: المفهوم. والمنطوق ينقسم إلى:

١ـ ما لا يحتمل التأويل وهو النص وينقسم إلى:

أـ صريح إن دل عليه اللفظ بالمطابقة أو التضمن.

ب ـ وغير صريح إن دل عليه بالالتزام وينقسم إلى دلالة اقتضاء وإيماء وإشارة. فدلالة الاقتضاء هي إذا توقف الصدق أو الصحة العقلية أو الشرعية عليه مع كون ذلك مقصودًا للمتكلم.

ودلالة الإيماء أن يقترن اللفظ بحكم لو لم يكن للتعليل لكان بعيدًا.

ودلالة الإشارة حيث لا يكون مقصودًا للمتكلم.

٢ـ ما يحتمله وهو الظاهر.

أقسام المفهوم: المفهوم ينقسم إلى مفهوم موافقة، ومفهوم مخالفة.

فمفهوم الموافقة: حيث يكون المسكوت عنه موافقًا للملفوظ به فإن كان أولى بالحكم من المنطوق به يسمى «فحوى الخطاب»، وإن كان مساويًا له يسمى «لحن الخطاب».

وحكى «الماوردي والروياني» في الفرق بين «فحوى الخطاب» و«لحن الخطاب» وجهين:

١ـ أن «الفحوي» ما نبه عليه اللفظ، و«اللحن» ما لاح في أثناء اللفظ.

٢ـ أن «الفحوي» ما دل على ما هو أقوى منه، و«اللحن» ما دل على مثله. وهو ما يشير إلى مفهوم (المقارنة Comparison) (ص٥٧)

مفهوم المخالفة: وهو حيث يكون المسكوت عنه مخالفًا للمذكور في الحكم، إثباتًا ونفيًا، فيثبت للمسكوت عنه نقيض حكم المنطوق به ويسمى دليل الخطاب لأن دليله من جنس الخطاب أو لأن الخطاب دال عليه.

وتناول أنواع مفهوم المخالفة وهي:

مفهوم الصفة والعلة والشرط والعدد والغاية واللقب والحصر والحال والزمان والمكان.

●● الباب التاسع من المقصد الرابع في النسخ:

وفيه سبع عشرة مسألة منها: في حده وفي جواز النسخ عقلًا ووقوعه سمعًا والحكمة من النسخ وشروطه وفي جواز النسخ بعد اعتقاد المنسوخ والعمل به وفي جواز نسخ الأخبار وفي نسخ التلاوة دون الحكم والعكس ونسخهما معًا، وفي وجوه نسخ القرآن والسنة وفي نسخ القرآن بالسنة المتواترة.. إلخ.

المقصد الخامس: القياس وما يتصل به من الاستدلال المشتمل على التلازم والاستصحاب وشرع من قبلنا والاستحسان والمصالح المرسلة ثم ما له اتصال بالاستدلال.

وفيه فصول سبعة:

في تعريفه: القياس في اللغة تقدير شيء على مثال شيء آخر وتسويته به ولذلك سمي المكيال مقياسًا وما يقدر به النعال مقياسًا، ويقال: فلان لا يقاس بفلان، أي لا يساويه. وقيل: إدراج خصوص في عموم وإلحاق المسكوت عنه بالمنطوق به واستنباط الخفي من الجلي.

قال الأستاذ «أبو إسحاق»: اختلف أصحابنا فيما وضع له اسم القياس على قولين:

١- أنه استدلال المجتهد وفكرة المستنبط.

٢- أنه المعنى الذي يدل على الحكم في أصل الشيء وفرعه.

ثم تناول حجية القياس وأركانه وفي الكلام على مسالك العلة وفيما لا يجري فيه القياس والاعتراضات أي ما يعترض به المعترض على كلام المستدل.

ثم تناول الاستدلال وتعريفه لغة: استفعال من طلب الدليل والطريق المرشد إلى المطلوب.

وأما في اصطلاح الفقهاء: فإنه يطلق تارة بمعنى ذكر الدليل وسواء كان الدليل نصًا أو إجماعًا أو قياسًا أو غيره، وهو ما يشير إلى مفهوم (الاستدلال Reasoning) (ص٢٥١) ثم تناول فوائد متعلقة بالاستدلال.

● المقصد السادس من مقاصد هذا الكتاب: في الاجتهاد والتقليد:

وفيه فصلان في الاجتهاد وفي التقليد وما يتعلق به من أحكام المفتي والمستفتي وتناول في الفصل الأول تسع مسائل منها في حد الاجتهاد وهو في اللغة مأخوذ من الجهد وهو المشقة والطاقة فيختص بما فيه مشقة ليخرج عنه ما لا مشقة فيه. قال في المحصول وهو في اللغة عبارة عن استفراغ الوسع في أي فعل كان.

وأما في عرف الفقهاء فهو استفراغ الوسع في النظر فيما لا يلحقه فيه لوم مع استفراغ الوسع فيه وهذا سبيل مسائل الفروع ولذلك تسمى هذه المسائل مسائل الاجتهاد والناظر فيها مجتهدًا وليس هكذا حال الأصول.

ويخرج بطريق الاستنباط الأحكام من النصوص ظاهرًا، أو حفظ المسائل أو استعلامها من المفتي أو الكشف عنها في كتب العلم وهو ما يشير إلى مفهوم (الاستنباط Deduction) (ص٢٩٢)

المجتهد هو الفقيه المستفرغ لوسعه لتحصيل ظن بحكم شرعي ولابد أن يكون بالغًا عاقلًا قد ثبتت له ملكة يقتدر بها على استخراج الأحكام من مآخذها.

شروط المجتهد:

١- أن يكون عالمًا بمواقف الآيات القرآنية المتعلقة بالأحكام ليتمكن من الرجوع إليها عند الحاجة ولا يشترط أن يكون حافظًا وقد حصر الإمام «الرازي» تلك الآيات في خمسمائة آية.

٢- أن يكون عارفًا بالأحاديث النبوية المتعلقة بالأحكام بمعنى أن يكون متمكنًا من الرجوع إليها عند الاستنباط ولا يشترط حفظها كما لا يشترط معرفة جميع الأحاديث.

٣- أن يكون متمكنًا من المسائل المجمع عليها حتى لا يفتي بخلاف ما أجمع عليه، ويكفيه غلبة الظن بأن هذه المسألة مستحدثة وليس لأهل العصور السابقة كلام فيها.

٤- أن يعرف القياس وشرائطه المعتبرة فيه لأن القياس تبنى عليه أحكام كثيرة.

٥- أن يكون عارفًا بكيفية النظر فيكون عارفًا بشرائط الحدود والبراهين وكيفية ترتيب المقدمات فيها واستنتاج المطلوب منها ليأمن من الخطأ عند النظر.

٦- أن يكون عارفًا باللغة العربية من نحو وتصريف لأن استنباط الأحكام من الكتاب والسنة متوقف على ذلك باعتبار أنهما عربيان.

٧- أن يعرف الناسخ والمنسوخ حتى لا يحكم بالمنسوخ ويترك الناسخ.

٨- أن يكون عالمًا بحال الرواة من تعديل وتجريح حتى يعرف مقبول الرواية ومن لا تقبل روايته ويكفيه في ذلك الاعتماد على تعديل الأئمة السابقين كالبخاري ومسلم لأن البحث عن حال الرواة مع طول الزمن بيننا وبينهم متعذر.

● المقصد السابع من مقاصد هذا الكتاب: في التعادل والترجيح.

وفيه ثلاثة مباحث:

تناول المبحث الأول الكلام في معنييهما وفي العمل بالترجيح وفي شروطه فالتعادل هو التساوي وفي الشرع استواء الأمارتين.

وأما الترجيح فهو إثبات الفضل في أحد جانبي المتقابلين، أو جعل الشيء راجحًا ويقال مجازًا: لاعتقاد الرجحان وله شروط منها:

١- التساوي في الثبوت، فلا تعارض بين الكتاب وخبر الواحد إلا من حيث الدلالة.

٢- التساوي في القوة فلا تعارض بين المتواتر والآحاد بل يقدم المتواتر بالاتفاق كما نقله إمام الحرمين.

٣- اتفاقهما في الحكم مع اتحاد الوقت والمحل والجهة.

وتناول المبحث الثاني مذاهب العلماء في تعارض الأدلة النقلية.

ثم تناول في المبحث الثالث وجوه الترجيح بين المتعارضين لا في نفس الأمر بل في الظاهر.

الخلاصة:

ورد في هذا الكتاب الإشارة إلى المفاهيم النفسية الآتية:

- التعريف الإجرائي Operational Definition
- القياس المنطقي Syllogism
- المقارنة Comparison
- الاستدلال Reasoning
- الاستنباط Deduction

القائم بالعرض
د. محمد علي شلبي

إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً



فوزي فاضل الزفزاف
عضو مجمع البحوث الإسلامية

عمر الإنسان محدد بزمن، وأجله موقوت بلحظة لا يعلمها إلا الله تعالى زمانًا ومكانًا:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾

(لقمان: ٣٤)

فإذا حلت لحظة الأجل فلا رجعة فيها، ولا ينفع في طلب تأخيرها رجاء ولا دعاء ولا شفاعة:

﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾

(النحل: ٦١)

ولذلك حث الإسلام على الإسراع والمبادرة بالأعمال الصالحات، وعلى سنامها إنفاق المال في سبيل الله، يقول الله تعالى:

﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (١٠) وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

(المنافقون: ١٠-١١)

فقد طلب الله سبحانه وتعالى -بصيغة الأمر- في هذه الآية الكريمة من الإنسان أن يبادر بإنفاق المال في وجوه الخير والطاعات على وجه عام فيشمل الزكاة المفروضة، والصدقات المستحبة، وغير ذلك من وجوه البر والخير.

وبيّن سبحانه أن هذا المال المطلوب إنفاقه هو أصلاً من عطاء الله ورزقه ملكه للإنسان ...، وحذر سبحانه من تأخير إنفاق المال إلى وقت يصير فيه الإنسان عاجزًا عن الإنفاق عندما يحين أجله وتنزل عليه أمارات الموت وعلاماته، وعندئذ يطلب الإنسان من الله تأخير الوفاة إلى وقت قريب من الزمان كي يتدارك ما فاته من تقصير في الطاعات وكي يتصدق بالكثير من ماله، ويكون من عباد الله الصالحين، فتكون الإجابة القاطعة الحاسمة أنه لا تأخير في الأجل متى انتهى لا من قريب ولا من بعيد:

﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ﴾

والله مطلع إطلاعا تاما كاملاً على الأعمال الظاهرة منها والباطنة، وسيجازي عليها بما تستحق من ثواب أو عقاب ...

ورسول الله ﷺ يدعونا ويحثنا على الإسراع في إنفاق المال في الطاعات، ويرشدنا عليه الصلاة والسلام إلى أفضل الأوقات التي ينفق فيها الإنسان المال، والتي يجني فيها أعظم الأجر والإثابة والجزاء من الله متى فعل ذلك وهو وقت تمتع الإنسان بالصحة والعافية، وزيادة أمله في طول الحياة، وفي جمع المزيد من المال خشية الفقر، وفي تحقيق رغبته ليكون من الأغنياء، ويحذرنا في الوقت نفسه من التأخير والتأجيل والإهمال والتسويف في الإنفاق إلى وقت يصير فيه الإنسان عاجزا عن الإنفاق، وهو وقت حلول الأجل ومعاناة سكرات الموت، لأن الإنسان في تلك الساعة صار لا حول له ولا قوة، لا يملك ماله فقد صار المال ملكا للورثة فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أي الصدقة أعظم أجرًا؟ قال: «أن تصدق وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر، وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان»[1].

والمال الذي يكثر صاحبه من الإنفاق منه في الطاعات يكثر ويزداد نماء، فالله غني يعطي المنفقين المحسنين، ويخلف عليهم من نعمه، ويزيدهم من فضله، فهو وحده الذي يبسط الرزق ويوسعه لمن يشاء من عباده، وهو جل شأنه الذي يقتر الرزق ويضيقه علي من يشاء من عباده، والأمر في كلتا الحالتين مرده إلى الله تعالى وحده على حسب ما تقتضيه حكمته ومشيئته في خلقه ... وأن ما ينفقه المؤمن من ماله في سبيل الله وفي أوجه طاعته يخلفه الله ويعوضه له بما هو خير منه، فهو جلت قدرته خير رازق لعباده، وقد جرت سنته في خلقه أن يزيد الأسخياء من فضله، يقول تعالى:

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾

(سبأ: ٣٩)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى قال لي: أنفق أنفق عليك»، وإذا كان الدين الإسلامي قد حث على الإنفاق في سبيل الله، وأمر المسلمين أن يبادروا بالإنفاق وهم في صحتهم وعافيتهم، وأن يقاوموا الرغبة الملحة في النفس البشرية في حب جمع المال وتملكه واكتنازه، وأن يخرجوا أموالهم عن طيب خاطر بنفس راضية وقلب منشرح، ورغبة صادقة خالصة في إنفاق هذا المال ابتغاء وجه الله تعالى... إذا كان الدين الإسلامي قد حض على ذلك فإن الله قد وجه المسلمين إلى ضرورة مراعاة أن تكون نفقتهم التي ينفقونها في سبيل الله من أطيب أموالهم وأجودها وأنفسها وأحبها إلى نفوسهم التي اكتسبوها عن طريق حلال مشروع، يقول الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ

(١) البخاري واللفظ له ومسلم

﴿أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾

(البقرة: ٢٦٧)

كما أن الآية صريحة أيضا في النهي عن الصدقة والإنفاق من المال الخبيث، فإن الله طيب لا يقبل إلا طيبا، قال تعالى:

﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾

(آل عمران: ٩٢)

وقد أكد الله سبحانه وتعالى في الآية الكريمة على هذا النهي في قوله جل شأنه: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ أي ولا تقصدوا وتتعمدوا عند إنفاق المال اختيار الرديء منه نوعا ومصدرا فتغمضوا النظر عنه وتتساهلوا في إخراجه، في حين أنكم لا ترضون ولا تقبلون أن تأخذوا هذا المال الرديء الخبيث إن أعطي لكم هبة أو شراء أو عن أي طريق آخر إلا أن تتساهلوا في قبوله وتغضوا الطرف عن رداءته، وإذا كان هذا هو حالكم في عدم قبول ما هو رديء وخبيث، فكيف تقدمونه لغيركم؟

ورسولنا ﷺ يحذرنا من إخراج الصدقات ومن الإنفاق في سبيل الله من المال الخبيث الرديء الذي يجمع من حرام، ويخبرنا عليه الصلاة والسلام أن هذا المال غير مقبول عند الله، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا أديت زكاة مالك فقد قضيت ما عليك، ومن جمع مالا حراما ثم تصدق به لم يكن له فيه أجر وكان إصره عليه»[٢] أي ذنبه، وروي أن رسول الله ﷺ قال: «من اكتسب مالا من مأثم فوصل به رحمه، أو تصدق به، أو أنفقه في سبيل الله جمع ذلك كله جميعا فقذف به في جهنم»[٣].

ومن آداب الإسلام وسمو تعاليمه ورقي توجيهاته وإرشاداته حرصه على أن يحافظ على مشاعر الإنسان وأحاسيسه، وعلى أن تراعي إنسانيته عند التعامل معه في العبادات والمعاملات، فلا تخدش كرامته، ولا يشعر بالذلة والمهانة والانكسار إذا كان في موقف السائل الطالب للصدقة، ويده هي اليد السفلى الآخذة، وليست هي اليد العليا المعطية..

ويظهر ذلك واضحا جليًا في تفضيل الإسلام إخفاء الصدقات... وفي مدح الذين ينفقون أموالهم في السر والخفاء والثناء عليهم، يقول تعالى:

﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ ۗ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

(البقرة: ٢٧٠، ٢٧١)

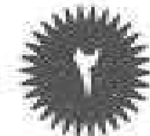
النفقة: هي العطاء العاجل -غير المؤجل- في أي باب من أبواب الخير

أما النذر: فهو ما يلزم الإنسان به نفسه من فعل قربة من القربات، أو إعطاء صدقة من الصدقات إن تحقق له رجاء يأمل في وقوعه ويكون خيرا له ولأهله أو لصالح المسلمين.

والمعنى: وما أنفقتم أيها المؤمنون من نفقة عاجلة، قليلة أم كثيرة، أو التزمتم بقربة أو نفقة في المستقبل، وعاهدتم الله تعالى على تنفيذها والوفاء بها، فإنه جل شأنه يعلم كل شيء، ويعلم ما صاحب نياتكم من إخلاص، أو رياء، ويعلم مصدر ما أنفقتموه أهو من الحلال أم من الحرام، ومن جيد أموالكم أم من رديئها، وسيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته وهذه الآية الكريمة قد أفادت وعدا ووعيدا، وعدا للذين يراقبون الله في أعمالهم ويوقنون بأن الله لا يخفى عليه خافية من شئون خلقه فيطيعون الله ويسارعون إلى إدراك العمل الصالح، وإلى فعل الخيرات بإخلاص ... ووعيدًا للخارجين على طاعة الله، التاركين ما أمرهم به، ويندرج في هؤلاء الذين يتصدقون بالخبيث والرديء من أموالهم، والذين ينفقون أموالهم فيما حرم الله، والذين لم يوفوا بنذورهم التي عاهدوا الله على الوفاء بها. ثم بين الله سبحانه وتعالى أن الصدقات تكون مرجوة القبول إن شاء الله، عند الله إذا أداها المسلم علانية وتكون خالية من النفاق والرياء والأذى، ويكون القصد من إظهارها دعوة أهل الخير إلى الاقتداء بهذا الفعل الحسن، أما إذا أدى المسلم الصدقة في الخفاء دون أن يراها أو يعلم بها أحد من الناس فهذا أفضل، وقد أثنى الله على فاعلها بهذه الكيفية، وأشار إلى أن إخراج الصدقة بهذا الوصف خير لفاعلها لأن المتصدق بإخفاء الصدقة وتقديمها للفقير سرا يكون قد ابتعد عن الرياء والنفاق وستر حال الفقير المحتاج، وحافظ على مشاعره وأحاسيسه ولم يخدش كرامته ولم يشعره بالذلة والانكسار والضعف أمام الناس وقد حثت الآية الكريمة وحضت على صدقة السر في قوله تعالى: ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ﴾ أي أن الله جل شأنه يستر السيئات التي يرتكبها الشخص ويخفيها ولا يظهرها عند إثابته إياه على فعل الحسن، لأن ما فعله من حسنات مسح ما فعله من سيئات ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ ورسول الله ﷺ يبين لنا فضل صدقة السر وعظيم ثوابها وجزائها، أنه عليه الصلاة والسلام عد من يفعل ذلك من الذين ينالون رحمة الله يوم الشدة ويستحقون أمن الله يوم الكرب ويدخلون ضمن من يشملهم الله بفضله يوم لا فضل إلا فضله، فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ تعالى فِي ظِلِّه، يَوْمَ لا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي المَسَاجِد، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دعته امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فقال: إِنِّي أَخَافُ اللهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بصدقة، فأخفاها حَتَّى لا تَعْلَمَ شِمَالُهُ ما أنفقت يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ»[٤].

(٢) صحيح ابن حبان.
(٣) المراسيل لأبي داود.
(٤) متفق عليه.

تجديد فقه المياه: من التراث إلى الواقع





د. إبراهيم البيومي غانم

فقه الماء في العبادات

إن «باب الطهارة» هو من أكثر أبواب فقه العبادات تفصيلًا وبيانًا لأحكام استعمال المياه من أجل «التطهر»، والنظافة البدنية/ الحسية أثناء أداء بعض العبادات وخاصة الصلاة، والحج، وتلاوة القرآن الكريم. ولعل ظروف الحياة الاقتصادية والاجتماعية والبيئية في كثير من المناطق في المجتمعات الإسلامية في العصور السابقة هي التي دفعت أغلبية الفقهاء للإسهاب في بيان أحكام المياه المتعلقة بأداء العبادات، تحريًا للدقة في توفير شروط صحة العبادة، باعتبار أن «الطهور شطر الإيمان» كما قال الرسول ﷺ.

أما اليوم فقد زالت أغلبية الظروف التي أوجبت ذلك الإسهاب، وأضحى من اليسير التحقق من طهارة الماء لدى الأغلبية الساحقة من الناس، حيث تكفلت الدولة بهذه المهمة عبر مؤسسات متخصصة في شئون المياه وكيفيات معالجتها وتقديمها وفق شروط الصحة والسلامة العامة. عليه فإن ما يهم الجمهور العام من فقه المياه في العبادات هو المبادئ الأساسية الواجب الالتزام بها في هذا الشأن، ومجملها هو الآتي:

١- إن أغلب الماء الذي يستعمله الناس في المدن والأرياف طاهر في ذاته مطهر لغيره.

٢- وجوب التزام مبدأ الاقتصاد وعدم الإسراف في استعمال الماء لغرض الوضوء، أو أداء العبادات والالتزامات الدينية عامة. وإذا كان الإسراف في الماء منهيًا عنه في الوضوء، فإن النهي عنه أشد وأقوى في الاستعمالات الأخرى باعتبار أن الإسراف من عوامل الخلل في منظومة التوازن البيئي، وإهدار مواردها.

٣- إن ثمة عدة أنواع من المياه يجوز استخدامها من أجل التطهر لأداء العبادات (ماء المطر- ماء البحر- الماء المتجمع من ذوبان الثلج والبرد- ماء النهر- ماء البئر- ماء العين).

٤- الاستعاضة بالتيمم في حال تعذر وجود الماء، أو كان شحيحًا لا يكفي إلا لشرب الإنسان أو الحيوان (التيمم هو: ضرب اليدين على تراب الأرض مرتين ونفضهما ثم تمريرهما على الوجه واليدين مرة واحدة).

٥- لا يخرج الماء عن صلاحية استخدامه للطهارة من أجل العبادة إلا إذا خالطه ما غير لونه، أو طعمه، أو رائحته.

٦- صحة الأبدان مقدمة على صحة الأديان في استخدام المياه.

٢. فقه المياه في المعاملات المدنية

بدأت النواة الأولى لفقه المياه في مجال المعاملات المدنية على عهد الرسول ﷺ، وذلك عندما حث أصحابه للمبادرة بعمل خيري للنفع العام هو «وقف بئر رومة» بالمدينة المنورة في السنة الأولى لهجرته إليها. فقد روى عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أن النبي ﷺ قدم المدينة وليس بها ماء يستعذب غير بئر رومة، وكانت لرجل من بني غفارة، وكان يبيع منها القربة بمد[١]، فقال «تبيعنيها بعين في الجنة؟ فقال: يا رسول الله ليس لي ولا لعيالي غيرها، فبلغ ذلك عثمان فاشتراها بخمسة وثلاثين ألف درهم، ثم أتى النبي ﷺ فقال: أتجعل لي ما جعلت له؟ فقال: نعم، وفي رواية أخرى قال ﷺ: «من يشترى بئر رومة فيجعل فيها دلوه مع دلاء المسلمين بخير له منها في الجنة؟ فاشتريتها. أي عثمان- من صلب مالي»[٢]. كان الدرس من تلك المبادرة واضحًا وهو أن «الماء» يجب أن يكون متاحًا بلا تكلفة للناس أجمعين، فإن تعذر ذلك، وكان لابد من نفقات لتوفيره، فإن مبادرات أهل الخير بوقفه، أو بالوقف عليه بهدف توفيره مجانًا، هو من أعظم القربات عند الله تعالى.

ومع تطور الحالة الحضارية في المجتمعات الإسلامية، زاد ارتباط الماء بالعمران المدني، مثلما يحدث في التجارب الحضارية الكبرى. وأدرك مؤسسو المدن والأمصار الإسلامية أهمية الماء كشريان للحياة المدنية المستقرة. وكان توجيه النبي ﷺ بوقف بئر رومة نموذجًا استلهمه المسلمون في مختلف بقاع الأرض، وعلى مر العصور. وسجلت كتب الحكمة السياسية الماء على رأس قائمة تضم ستة شروط ضرورية لعمارة المدن هي: سعة المياه المستعذبة، وإمكان الميرة المستمدة، واعتدال المكان الموافق لصحة الهواء والتربة، والقرب مما تدعو الحاجة إليه من المراعي والأحطاب، وتحصين المنازل من الأعداء والأخطار، وأن يحيط بالمدينة سواد (أرض زراعية خصبة) تعين أهلها بمواردها[٣].

ورافق «الفقه» تلك التطورات في علاقة

١- «المد» نوع من المكاييل، وكان يساوي في فجر الإسلام - وخاصة في المدينة - ربع صاع، وعند أبي حنيفة يتسع المد لرطلين بغداديين. والمد يساوي الآن ٨١٢,٥ جرام قمح، أي أنه يساوي ١,٠٥ لتر تقريبا.

٢- محمد بن علي الشوكاني، السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار، تحقيق محمود إبراهيم زايد، ومحمود أمين النواوي (القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٤٠٥هـ) ج٣/٣١٣. الحديث رواه النسائي والترمذي، وأخرجه البخاري تعليقا.

٣- الماوردي، تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك وسياسة الملك، تحقيق رضوان السيد (بيروت، ١٩٨٩) ص٢١٩.

الماء بالحياة المدنية والحالة الحضارية في المجتمعات الإسلامية، بل إن التاريخ المعرفي للفقه الإسلامي يوضح لنا أن اجتهادات كثير من أعلام الفقهاء في شأن «الماء» عمومًا، قد سبقت تلك التطورات المدنية والحضارية، وكانت سببًا من أسبابها، وذريعة أدت إلى تغذيتها بالقوة المعنوية، وبالحجج الشرعية، الأمر الذي جعلها تحظى بقبول اجتماعي واسع.

بين الفقهاء أن للماء من حيث إمكانية تملكه حالتان.

- الأولى: أن يكون مملوكًا ملكية عامة، وخاصة في جميع مصادره السطحية (الأنهار والبحار والبحيرات وفروعها). وأكدوا على أن الملكية العامة للماء هي الأصل، لقول رسول الله ﷺ: «الناس شركاء في ثلاثة: الماء، والكلأ، والنار»، والشركة العامة تقتضي الإباحة.
- الثانية: أن يكون الماء ملكية خاصة، وذلك بحيازته، ويكون مصدر الحق في التصرف فيه كملكية خاصة هو ما بذله حائزه فيه من عمل وجهد، وما يقتضيه ذلك من نفقات لجلبه أو استخراجه، أو تخزينه، أو تنقيته، ونقله، وتوزيعه، وصيانة مستلزماته وأدواته.. إلخ. وفي العصور السابقة، كانت أكثر مصادر المياه قابلية للتملك ملكية خاصة بهذا المعنى هي المصادر الجوفية، ولا تزال المياه الجوفية حتى وقتنا الحاضر هي أهم أنواع المياه القابلة للتملك ملكية خاصة، والتصرف فيها كسلعة تخضع لقوانين السوق، أما بقية أنواع المياه فلا تزال ضمن دائرة الملكية العامة، مع فرض تسعيرة جبرية على استخدامها في المنازل والمنشآت الخاصة والعامة، بهدف تغطية بعض نفقات توفيرها وتوصيلها للمستفيدين منها.

بيّن الفقهاء أيضًا أنه بثبوت ملكية الماء أو مصدر من مصادره. السطحية أو الجوفية. فإن يعتبر: إما حقًا من حقوق الملكية الأصلية العينية في بعض الحالات، وذلك عند حيازته ولو من مصدر عام للماء كنهر جار أو سيل سار، أو عند حيازة مصدر من مصادره الجوفية مثل بئر معين أو عين عذبة. وإما يصبح حقًا من حقوق الارتفاق، أو مادة لحق من حقوق الارتفاق [٤].

وسواء كان الماء ملكًا عينيًا، أو كان حقًا من حقوق الارتفاق، فقد اعتبره الفقهاء مالا، وأجازوا وقفه للانتفاع به وتخصيصه للمنفعة العامة. وأيًا كانت نوعية ملكية المياه (ملكية عينية أصلية، أو ملكية انتفاع عيني كحق من حقوق الارتفاق)، فقد نظر الفقهاء إليه على أن له ثمنًا في أغلب الأحوال، وأنه يعتبر سلعة اقتصادية داخلة في التداول السوقي

٤ ـ حق الملك هو الحق العيني الكامل، وجميع الحقوق الأصلية الأخرى متفرعة عنه، فالملك التام هو ملك الرقبة ومنفعتها معًا، ويتفرع عنه ملك الرقبة وحدها وملك المنفعة وحدها وحقوق الارتفاق، وأسباب ملك المنفعة ثلاثة العقد والوصية والوقف، أما حقوق الارتفاق فتسمى الحقوق المجردة، ويعرف حق الارتفاق بأنه «حق مقرر على عقار لمنفعة عقار لشخص آخر». ومن أشهر حقوق الارتفاق الشرب والمسيل والمرور والتعلي والجوار، والمزيد من التفاصيل انظر: عبدالرزاق السنهوري، مصادر الحق في الفقه الإسلامي، دراسة مقارنة بالفقه الغربي (القاهرة، معهد الدراسات العربية العالمية، ط٢، ١٩٥٨) ج١/٢٦ ـ ٣٠.

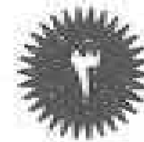
وليست خارجة عنه. وبما أن له ثمنًا مقدرًا بتكلفة توفيره، أو بأكثر قليلا أو أقل قليلا من تلك التكلفة، فلا بد من طرف يدفع هذا الثمن مقابل الحصول عليه. وقد ألقى الفقهاء على الدولة المسئولية الأولى في توفير المياه والتكفل بجميع نفقاتها، أو بأغلبها، حتى تكون متاحة لمواطنيها بالقدر المناسب لاحتياجاتهم، وبالنوعية الصحية التي تحقق مصالحهم، وتحافظ على بيئتهم وصحتهم العامة. وقد يكون دافع تكلفة الماء هو المستهلك (الهيئات والأفراد) وذلك في حالات مخصوصة ونادرة، أو قد يكون دافع التكلفة طرفًا وسيطًا يوفر الماء مجانًا لمن يحتاجه، وهذا الطرف الوسيط لم يكن في التجربة التاريخية الإسلامية سوى الوقف، إلى جانب بعض أعمال الصدقات والتبرعات التي خصصها الواهبون لتقديم المياه لذوي الحاجة إليها سواء كانوا آدميين، أو ذوات أرواح من الدواب والبهائم، والطيور، أو نباتات ومزروعات.

والحاصل أن فقه المعاملات في المياه قد استقر على مبدأ أساسي هو أن «حق الانتفاع من الماء أوسع من حق ملكيته». ويلخص هذا المبدأ الرؤية الإسلامية التي استنبطها الفقهاء بشأن تنظيم وإدارة واستغلال المياه وتوزيعها بعدالة، باعتبارها مرفقًا حيويًا، ومصدرًا للنماء والتقدم. وعلى أساس هذا المبدأ يتعين استئناف الاجتهاد في فقه المياه في الواقع المعاصر، ويجب أن يشمر المجتهدون عن سواعد الجد كي يتناولوا قضايا من قبيل: حكم بناء السدود على مجاري الأنهار الدولية، وحكم بيع المياه مقابل النفط في بعض الحالات، وكيفية حل النزاعات المسلحة التي قد تنشب حول مصادر المياه.. إلخ.

«يتبع»



خريطة الفكر الإسلامى المعاصر





المستشار طارق البشرى

تكلمنا حتى الآن عن جوانب تعتبر ذات ثبات نسبى فى الفكر الإسلامى المعاصر، فهى وإن كانت تراكمت عبر مرحلة ممتدة نسبيا، وإن كان شارك فى إرسائها عدد من كبار المفكرين فى المجال الإسلامي، إلا أن وجه ثباتها النسبى إنها تستجيب للاحتياجات الكلية ذات العمق وذات الغلبة على المرحلة التاريخية التى نحياها والتى تشكل السمات الغالبة لها وهناك وجوه أخرى وجوانب للفكر الإسلامى المعاصر لا يتسع المقام للتحصيل فى شأنها إنما حددنا الوجوه الأربعة الأكثر أهمية وهى الوجه المقاوم للتبعية الأجنبية الحاصلة؛ والوجه المجدد المقاوم للجمود، والوجه الذى يربط العقيدة بالحياة على المستوى الفلسفى والوجودانى الروحي، والوجه الذى يربط شمول العقيدة بالحياة العملية فى صورها التطبيقية والتنظيمية، أى شمول العقيدة من حيث هو حركة وتنظيم ومؤسسة.

وتنتقل الآن إلى جانبين أكثر ثانوية وأقل ثباتا في الفكر الإسلامى المعاصر المعنى أنها وجوه تتضمن استجابات مرحلية متغيرة لحالات طارئة، أو لضغوط حادة أو لأوضاع غير عادية صادفت المسلمين فى بعض الأقطار.

فهناك خاصة يتخذها الفكر الإسلامى المعاصر أو بعض روافده فى الحالات التى يلقى فيها حصرا وتضييقا شديدين أو فى فترات الهجوم الشامل عليه هنا يحدث رد فعل يتنوع على ضربين، ويتوقف وجود أى من النوعين على طبيعة الخلفية البشرية التى يعمل فيها، فإن كان الإسلام يشكل فى هذه الخلفية عاملا عريضا وعميقا وحيا، كانت الاستجابة داعية للعنف شديدة الحدة على الحصر والتضييق الحادث، وإن كان الإسلام مهدد الوجود فى هذه الخلفية كانت الاستجابة بعيدة عن الوديان العتيقة بعيدة عن السياسة متبعة سبيل الانتشار بالتسرب العقيدى الهادىء.

فى الحالة الأولي، حالة الحدة والعنف، تجد الفكر يعمل على تحديد الفواصل الحادة بينه وبين غيره، كما لو أنه يحفر خندقا أو يبنى قلعة عالية الأبراج.

وفى الحالة الثانية، حالة الانتشار بالتسرب العقيدى الهادىء تجد الفكر الإسلامى يبتعد عن مناطق الاحتكاك المباشر مع الخصوم ويتحاشى المواجهة ويبتعد عن خطوط التقدم الأساسية التى يتخذها الخصم، ويتراجع هو عن الخطوط المتقدمة ويبتعد عن السياسة وجوانب الإسلام الخاصة بنظم الحياة والشرائع، ويولى أعظم جهده للجانب العقيدى الإيمانى والتعبدى وغاية جهده أن يحفظ العقيدة والعبادات وأقصى أمنيته فى هذه الظروف أن يوصى الناس بضبط سلوكهم الفردى على وفق وصايا الدين ومن هؤلاء يرد سعيد النورسى وجماعة التبليغ.

لقد كان أبو الأعلى المودودى (١٩٠٣ - ١٩٧٩م) أميرًا للجماعة الإسلامية التى تشأت فى ١٩٤٠، ثم صارت جماعتين إحداهما فى باكستان والأخرى فى الهند، وذلك عندما قسمت الهند إلى هاتين الدولتين فى ١٩٤٧م وظل يحرر الصحف الإسلامية ويؤلف الكتب منذ كان فى الثانية والعشرين من عمره حتى مات.

لقد قامت دولة باكستان انفصالا عن الهند، على أساس أنها دولة للمسلمين بالهند ومع ذلك لم تطبق باكستان القانون الإسلامى ولا النظام الإسلامي، وأن حزب الرابطة الإسلامية الذى دعا لفصل مسلمى الهند وإنشاء الدولة، والذى حكم باكستان بعد ذلك اتبع فى ممارسته الحكم النهج العلمانى ومن هنا اتخذت دعوة المودودى طابعها الحاد وقد ركز على شرح مبادىء الإسلام وقيمه الأساسية وخاصة فى القضايا التى احتدم فيها النزاع بين قيم الإسلام ومبادئه وبين الأفكار الغربية وتميزت معالجاته لهذه القضايا بشىء من الحدة وشن حملات قوية على العقائد الغربية المعاصرة.

والفكرة الأساسية التى نرى الإشارة إليها هنا هى دعوته لإرساء مبدأ الحاكمية لله سبحانه وحده، وأن تكون الحاكمية لله وحده فى جميع مجالات الحياة البشرية، وأن عقيدة الإسلام لا تتحقق بمجرد القيام بالعبادات، لأن طاعة الله فى شئون الحياة كافة هى المطلوبة، والصلاة لا تؤدى وظيفتها إذا لم تنه المصلى عن الفواحش فالتشريع لا ينفصل عن الإيمان، والشريعة لا تنفصل عن ذكر الله وفروض الإسلام لا تكمل إلا بإقامة النظام الإسلامى كاملا.

وعلى الطرف الآخر من الفكر الإسلامى تجد جماعة التبليغ التى أنشأها فى الهند محمد إلياس إسماعيل الكاندهلوى المولود فى سنة ١٩٠٢م كان الوقت وقتا شاعت فيه حالات الردة عن الإسلام إلى الوثنية بسبب تأثير

المخالطات الوثنية وهو وقت طغيان الحضارة الغربية ومنهجها العلماني الذى شاع تحت حراسة الاستعمار الأوروبى والمسلمون هنا أقلية بشرية وليسوا قوة بشرية غالبة كشأن الحالة فى مصر أو باكستان فهى دعوة تقوم فى الهند حيث المسلمون أقلية ضعيفة محاصرة تقريبا من فرص التعلم وحيث يقوم شعور بالصغار والوهن.

قامت الحركة متصلة اتصالا وثيقا بتلك الظروف والأوضاع، وكان لقادتها وجه اقتداء ببعض الطرق الصوفية وأمت أساليبها مع الإمكانيات المتاحة فى الواقع، لتنجز المطالب المطروحة فى الواقع أيضا، فهى حركة تقوم فى جماعة فقيرة وبسيطة فاتخذت من الأساليب ما يلائم ذلك والفقراء قليلو المال كثيرو الوقت، أى أن ما لديهم من جهد أكثر مما لديهم من المال لذلك طلبت الحركة من أعضائها أن يتبرعوا لها بفائض جهدهم وليس بالمال وكان مقرها بمسجد قديم فى جنود دلهي، ولكنها بدأت خطواتها الأولى فى جنوب الهند، واستطاعت فى جنوب الهند أن تعيد ناسا للإسلام دفعتهم إلى عمارة الأرض وتحسين أعمالهم وحرفهم مع أداء الفرائض الإسلامية ثم انتشرت فى الهند وباكستان ثم انتشرت فى جزيرة العرب وفى مصر وغيرها من البلاد العربية، وبداعية يخصص للدعوة أياما محدودة فى كل شهر وفى كل سنة، ويحمل زاده القليل ويحيا وسط الناس يدعوهم لله ويعايشهم ويجعل نفسه قدوة لهم وهم يقومون بالوعظ والتعليم بالمساجد والحض على القيام بالفروض من صلاة وصوم وغيرها وترك المعاصى وليس لدعاتها مذهب محدد، فهم من المذهب السائدة فى كل منطقة، وهم حنابلة سلفيون فى جزيرة العرب وأحناف أشاعرة فى الهند، وهم من كل طريقة صوفية.

وبالنسبة للسياسة فالداعى مأمور بتجنب الخوض فى السياسة قولا وفعلا، وهو لا يشارك فى حزب ولا انتخاب لأن السياسة تثير الفرقة فيما يرون وهو يرفض النظم الحديثة لأنه يرى أن لا حاجة له بها، وأساليب الحضارة الحديثة ستخدم فى إطار ما هو ضرورى لقضاء الحوائج، ثم لا احتياج لها، ونظرياتها يحتاجها من كانت الدنيا جنته أما المسلم فيتعين أن تكون جنته لا فى هذه الحياة الدنيا.

ومن هذه المنطقة من الفكر الإسلامى المعاصر، تجد حركة بديع الزمان سعيد النورسى «١٨٧٣ - ١٩٦٠م» ونشاطه فى تركيا كان هو كبير الحركة الإسلامية وكبير الدعاة فى تركيا بعد أن تولى حكمها كمال أتاتورك وألغى منها الخلافة الإسلامية واستخدم كل وسائل الحدة والبطش للفصل التام بين تركيا وبين ماضيها الإسلامى وللإقصاء التام للإسلام عن كل جوانب الحياة المعيشية هناك فألغى ما كان باقيا من الشرائع الإسلامية وألغى الهيئات الدينية فى الدعوة أو التعليم أو الإفتاء، وألزم الناس بالنظم والشرائع الغربية، وألزمهم بأساليب العيش الغربية فى الملبس وغيره، واستبدل بالحروف العربية الحروف اللاتينية فى كتابة اللغة التركية وأبعد عن هذه اللغة ما كان دخلها من ألفاظ عربية.

فى ظل هذه الظروف قامت حركة سعيد النورسى طالب بتطبيق أصول الشريعة ومبادئ الإسلام فنفى سنة ١٩٢٦م إلى جنوب غرب الأناضول ثمانى سنوات وبدأ يحرر ما عرف باسم «رسائل النور» التى كان يتكلم فيها عن أركان العقيدة الإسلامية وكان هدفه الأكبر هو أن يتمسك المسلمون بإسلامهم ويعودون إليه وفق تعاليم القرآن والسنة ويؤكد ضرورة الإيمان الصحيح ويدعو للوسطية والاعتدال والتسامح.

وغلبت على اهتمامه الجوانب الإيمانية، أكثر من نظم الدولة الإسلامية والأوضاع الاجتماعية، وكان قليل الاهتمام بالسياسة قائلا «ليس هذا هو الوقت لخدمة القضية السياسية».

ويمكن القول بأنه فى الفترة من ١٩٣٣م كانت حركة النورسى من أهم الحركات الإسلامية التى نشطت للحفاظ على العقيدة الإسلامية فى مواجهة خطة اكتساح الإسلام فى تركيا لا من شئون الحكم فقط ولكن من كل أوضاع حياة الناس ومن جوانبه التعبدية أيضا وتمكن الأتراك بهذه الجهود التى قام بها النورسى وغيره من إعداد مئات الآلاف من التلاميذ الداعين للحفاظ على العقيدة الإسلامية، رغم ضعف المفهوم السياسى لهذه الحركة وابتعادها عن الإشارة لأية أهداف سياسية مباشرة.

وإذا كان النورسى فى ظروف أيسر سنة ١٩٥٠م قد قام بعمل سياسى وهو تأييد عدنان مندريس فى الانتخابات لأنه كان يدعو إلى التخفيف من غلواء النظام التركى فى معاداته للإسلام فقد بقى الكثير من أتباع النورسى يبتعدون عن العمل السياسي.

هكذا نلمح فى حركة جماعات التبليغ وحركة جماعات النورسي، نوعا من الدفاع عن الخط الأخير عن الإسلام خط المحافظة على أصل بقاء العقيدة الإسلامية لدى الفرد ولدى الناس والدفاع عن المقومات الأساسية لهذه العقيدة وذلك فى الظروف التى كانت تتهدد بها المسلمين موجات من الانتزاع عن دينهم أو تعمل على خلع أسس العقيدة من العقول.

وهكذا كان الظرف التاريخي وأوضاع التحدى التي تقوم أمام الإسلام هى ما تولد أسلوب المواجهة للدفاع عن الإسلام بوصفه كيانا حيا وهى التى تحدد وسائل الدفاع وألوانه.

الحمد لله رب العالمين

﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

شعبان ١٤٣٥هـ
يونيو ٢٠١٤م

استفتاءات القراء

(الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين)

اطلعنا على الطلب المقدم من/ مجلة الأزهر - المتضمن لبعض الأسئلة وهي:

يجوز إخراج الزكاة للمرضى

• هل يجوز شرعًا إخراج الزكاة للمرضى الذين يعانون من الفشل الكلوي؟

•• الجواب: نعم يجوز ذلك لمرضى المسلمين الذين ليس عندهم من الأموال ما يكفي لعلاجهم.

والله سبحانه وتعالى أعلم

الحقوق الفكرية

• صدرت من دار الإفتاء المصرية فتوى بعنوان انتحال الحقوق الفكرية أو التعدي عليها محرم شرعًا؛ وإنا أحتاج هذه الفتوى لأننا نمتلك مصنفًا دينيًا عن مورثنا وأخشى من ضياع حق الملكية الفكرية؛ لذلك ألتمس من فضيلتكم التكرم بإصدار فتوى بهذا الصدد.

•• الجواب: جاء الإسلام بحفظ المال، وجعل ذلك من المقاصد الكلية الخمسة التي قام الشرع الشريف عليها، (وهي حفظ النفس والدين والعرض والعقل والمال)، وحقوق الملكية الفكرية والأدبية والفنية وبراءات الاختراع والأسماء والعلامات والتراخيص التجارية (والتي اصطلح على تسميتها بالحقوق الذهنية) هي من الحقوق الثابتة لأصحابها شرعًا وعرفًا، سواء أقلنا إنها من قبيل الأموال كما هو مقتضى قول الجمهور في كون المنفعة مالاً متقومًا، أم قلنا إنها من قبيل المنافع التي تعد أموالاً بورود العقد عليها مراعاة للمصلحة العامة كما هو رأي المتقدمين من الحنفية، وحاصل قول جمهور الفقهاء في ضابط (المال) أنه: ما له قيمة بين الناس بسبب إمكان الانتفاع به ولزم متلفه الضمان، ووافقهم على ذلك متأخرو الحنفية.

والمال في اللغة؛ كما قال علامة ابن منظور المصري في «لسان العرب»: (كل ما ملكته من جميع الأشياء) اهـ، وظاهر

يجيب عنها فضيلة الأستاذ الدكتور
شوقي علام
مفتي جمهورية مصر العربية



هذا أنه يشمل ما كان أعيانًا أو منافع أو حقوقًا.

قال العلامة ابن عابدين من الحنفية في حاشيته «رد المحتار»: (المراد بالمال ما يميل إليه الطبع ويمكن ادخاره لوقت الحاجة، والمالية تثبت بتمول الناس كافة أو بعضهم، والتقوم يثبت بها بإباحة الانتفاع به شرعًا) اهـ.

وقال القاضي عبدالوهاب البغدادي المالكي: (هو ما يتمول في العادة ويجوز أخذ العوض عنه) اهـ.

وقال القاضي ابن العربي المالكي: (هو ما تمتد إليه الأطماع، ويصلح عادة وشرعًا للانتفاع به) اهـ.

ويذكر الإمام العز بن عبدالسلام في كتابه «قواعد الأحكام» أن المنافع هي المقصود الأظهر من جميع الأموال.

وقال الإمام الشاطبي في «الموافقات»: (ما يقع عليه الملك، ويستبد به المالك عن غيره إذا أخذه من وجهه) اهـ.

وعرف الإمام الزركشي من الشافعية المال بأنه: (ما كان منتفعًا به، أي مستعدًا لأن ينتفع به) اهـ.

وقال المحقق الجلال المحلي الشافعي في شرحه على «المنهاج» للإمام النووي: (الثاني) من شروط المبيع (النفع) فما لا نفع فيه ليس بمال، فلا يقابل به) اهـ.

وقال الإمام السيوطي في «الأشباه والنظائر»: (خاتمة في ضبط المال والمتمول: أما المال فقال الشافعي رضي الله عنه: (لا يقع اسم (مال) إلا على ما له قيمة يباع بها، وتلزم متلفه، وإن قلت، وما لا يطرحه الناس مثل الفلس وما أشبه ذلك) اهـ.

وما نقله عن الإمام الشافعي موجود في «الأم»، وعبارة المطبوع منه: (ولا يقع اسم (علق) إلا على شيء مما يتمول وإن قل، ولا يقع اسم (مال) ولا (علق) إلا على ما له قيمة يتبايع بها ويكون إذا استهلكها مستهلك أدى قيمتها وإن قلت، وما لا يطرحه الناس من أموالهم مثل الفلس وما يشبه ذلك) اهـ.

وقال العلامة شرف الدين المقدسي الحنبلي في «الإقناع»: (هو ما فيه منفعة مباحة لغير حاجة أو ضرورة) اهـ.

وقال العلامة البهوتي الحنبلي في «شرح

منتهى الإرادات»: (المال ما يباح نفعه مطلقًا، أى فى كل الأحوال، أو يباح اقتناؤه بلا حاجة) اهـ.

يقول الشيخ على الخفيف فى كتابه «الملكية» (١ / ١٣ الهامش): (ومن الفقهاء من صرح بأن «المالية» ليست إلا صفة للأشياء، بناء على تمول الناس، واتخاذهم إياها مالًا ومحلًا لتعاملهم، وذلك لا يكون إلا إذا دعتهم حاجتهم إلى ذلك، فمالت إليه طباعهم، وكان فى الإمكان التسلط عليه، والاستئثار به، ومنعه من الناس، وليس يلزم لذلك أن يكون مادة تدخر لوقت الحاجة، بل يكفى أن يكون الحصول عليها ميسورًا عند الحاجة إليها غير متعذر، وذلك متحقق فى المنافع، فإذا ما تحقق ذلك فيها عدت من الأموال، بناءً على عرف الناس وتعاملهم) اهـ.

ولما كان الإنتاج الفكرى ومثله العلامة التجارية مما يقطع بمنفعته بحيث يحصل به الاختصاص الحاجز ويجرى فيه التقويم والتداول عرفًا ويتخذ محلًا للتعامل والمعاوضة بين الناس بسبب ظهور آلات الطباعة ووسائل النشر وتطور العصر ويثبت فيه حق المطالبة القضائية فى العرف القانونى ولا معارض لذلك فى الشرع فإن هذا يجعل لمثل هذه الحقوق حكم المالية فى تملك أصحابها لها واختصاصهم بها اختصاصًا يحجز غيرهم عن الانتفاع بها بدون إذنهم.

كما جاء فى الشرع بتحرى الأمانة فى إسناد الأقوال والجهود ونسبتها إلى أصحابها؛ فحرم انتحال الشخص قولًا أو جهدًا أو إنتاجًا لغيره على أنه هو الذى قاله، أو إسناده إلى غير من صدر منه تضييعًا لحق قائله، وجعل هذا من الكذب الذى يستحق عليه صاحبه العقاب، ومن جهة أخرى فقد احترم الإسلام حق الأسبقية وجعل للسابق ما ليس للمسبوق؛ فعن أسمر بن مضرس رضى الله عنه قال: أتيت النبى ﷺ فبايعته، فقال: «من سبق إلى ما لم يسبقه إليه مسلم فهو له» رواه أبو داود وغيره بإسناد حسن كما قال الحافظ ابن حجر فى «الإصابة».

كما أن الجهود المضنية والأموال التى قد يبذلها أصحاب الإنتاج الفكرى فى التوصل إلى أبحاثهم وطباعة كتبهم تجعل من التعدى عليها أكلًا لحقوقهم وتضييعًا لجهدهم بالباطل وإلحاقًا الضرر بهم، والله تعالى يقول:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾

(النساء: ٢٩).

ويقول سبحانه:

﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٨) ﴾

(البقرة: ١٨٨).

قال الإمام القرطبى فى «تفسيره» عند هذه الآية: (الخطاب بهذه الآية يتضمن جميع أمة محمد ﷺ، والمعنى: لا يأكل بعضكم مال بعض بغير حق. فيدخل فى هذا: القمار والخداع والغصوب وجحد الحقوق، وما لا تطيب به نفس مالكه، أو حرمته الشريعة وإن طابت به نفس مالكه، كمهر البغى وحلوان الكاهن وأثمان الخمور والخنازير وغير ذلك) اهـ.

وعلى ذلك: فحقوق التأليف والنشر ملك لأصحابها، يجرى فيها ما يجرى فى الملك الذى هو حق خالص يختص به صاحبه: من جواز انتفاعه بها على أى وجه من الوجوه المشروعة، من جواز معاوضتها بالمال إذا انتفى التدليس والغرر، ومن تحريم الانتفاع بها على الوجه الذى يتضرر به أصحابها بغير إذنهم، ومن حرمة الاعتداء عليها بإتلافها أو إتلاف منفعتها أو تزويرها أو انتحالها زورًا وكذبًا، وبذلك صدرت قرارات المجامع الفقهية الإسلامية؛ فجاء فى القرار رقم ٤٣ (٥ / ٥) لمجمع الفقه الإسلامى المنبثق عن منظمة المؤتمر الإسلامى، فى مؤتمره الخامس بالكويت من ١-٦ جمادى الأولى ١٤٠٩ هـ ما يأتى:

(... ثالثًا: حقوق التأليف والاختراع أو الابتكار مصونة شرعًا، ولأصحابها حق التصرف فيها، ولا يجوز الاعتداء عليها. والله أعلم) اهـ.

وبناءً على ذلك: فإن انتحال الحقوق الفكرية أو التعدية عليها دون إذن أصحابها أمر محرم شرعًا؛ لأنه تضييع لحقوق الناس وأكل لأموالهم بالباطل.

والله سبحانه وتعالى أعلم

الابن بالرضاع

● ما هى حدود الابن بالرضاع؟ وما هى حقوقه؟

●● الجواب: الرضاع تثبت به المحرمية الثابتة بالنسب، قال ﷺ: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب» (أخرجه البخارى (٢ / ٣٩٥)، ط٣ دار ابن كثير، اليمامة، بيروت سنة ١٤٠٧هـ)، وذلك إذا تحققت فيه الشروط التى تجعله محرمًا؛ وهى أن يكون الرضاع فى الحولين، أن يكون عدد الرضعات خمسًا متفرقات.

وتحريم الرضاع يتعلق بالمرضعة وزوجها (وهو ما يعبر عنه الفقهاء بالفحل الذى له اللبن) والطفل الرضيع، فهم الأصول فى الباب ثم تنتشر الحرمة منهم إلى غيرهم، فتصير المرضعة أمه، وتنتشر الحرمة منها إلى آبائها من النسب والرضاع، فهم أجداد الرضيع، فإن كان الرضيع أنثى حرم عليهم نكاحها، كما تنتشر الحرمة منها إلى أمهاتها من النسب والرضاع، فهن جدات للرضيع فيحرم عليه نكاحهن إن كان ذكرًا، وتنتشر الحرمة أيضًا منها إلى أولادها من النسب والرضاع، فهم إخوته وأخواته، وتنتشر كذلك منها إلى إخوتها وأخواتها من النسب والرضاع فهم أخواله وخالاته، ويكون أولاد أولادها أولاد إخوة وأولاد أخوات للرضيع، ولا تثبت الحرمة بين الرضيع وأولاد إخوة المرضعة وأولاد أخواتها؛ لأنهم أولاد أخواله وخالاته.

وأما زوج المرضعة فيصير أبًا للرضيع، وكذلك تنتشر الحرمه منه إلى آبائه وأمهاته فهم أجداد الرضيع وجداته، وإلى أولاده فهم إخوة الرضيع وأخواته، وإلى إخوته وأخواته فهم أعمام الرضيع وعماته.

وأما المرتضع فتنتشر الحرمة منه إلى أولاده من الرضاع أو النسب فهم أحفاد

المرضعة أو الفحل، ولا تنتشر إلى آبائه وأمهاته وأخواته، فيجوز لأبيه وأخيه أن ينكحا المرضعة وبناتها. (مغني المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج (٥ / ١٣٦).

ولا تنقطع نسبة اللبن (أي: المحرمية) عن زوج المرضعة حتى ولو مات عن هذه المرضعة أو طلقها، ما دامت الرضاعة قد تمت حال قيام الزوجية بينهما أو بعد قيامها ثم انقطاعها بطلاق أو وفاة، ما لم يحدث ما يحال اللبن عليه -من زوج آخر، أو بوسيلة ما-. (أسنى المطالب (٣ / ٤١٨)، ط دار الكتاب الإسلامي)

ويترتب على الرضاع المحرم تحريم الزواج -على التفصيل المتقدم-، كما تثبت به المحرمية المجوزة للنظر والخلوة في السفر والحضر وعدم نقض الطهارة باللمس -على الخلاف المعروف-، أما سائر أحكام النسب -كالميراث والنفقة والولاية على المال أو النفس ومنع أداء الزكاة إليه- فلا يتعلق بالرضاع؛ لأن النسب أقوى منه فلا يقاس عليه في جميع أحكامه، وإنما يشبه به في ما نص عليه فيه. (المغني لابن قدامة (٨ / ١٣٧)، ط دار إحياء التراث العربي).

والله سبحانه وتعالى أعلم

الغارمون

• هل يجوز صرف الزكاة لمن عليهم أحكام بالسجن من جراء عدم قدرتهم على سداد ديونهم أو الغرامات المقررة عليهم قانونًا؟

•• الجواب: سهم الغارمين من مصارف الزكاة المنصوص عليها في الآية رقم ٦٠ من سورة التوبة، وهي قوله سبحانه وتعالى:

﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

(التوبة: ٦٠)

ومعنى الغارمين كما يقول الإمام القرطبي في «تفسيره» (٨ / ١٨٣): (هم الذين ركبهم الدين ولا وفاء عندهم به، ولا خلاف فيه.. ويعطى منها من له مال وعليه دين محيط به ما يقضي به دينه، فإن لم يكن له مال وعليه دين فهو فقير وغارم؛ فيعطى بالوصفين، روى مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: أصيب رجل في عهد رسول الله ﷺ في ثمار ابتاعها فكثر دينه، فقال رسول الله ﷺ: «تصدقوا عليه»، فتصدق الناس عليه فلم يبلغ ذلك وفاء دينه، فقال رسول الله ﷺ لغرمائه: «خذوا ما وجدتم وليس لكم إلا ذلك».. وروى عنه عليه السلام أنه قال: «إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: لذي فقر مدقع، أو لذي غرم مفظع، أو لذي دم موجع»... وقال أبو حنيفة: «الغارم: من عليه دين يسجن فيه») اهـ. وهذا محل اتفاق بين العلماء؛ لا نعلم فيه خلافًا.

وبناءً على ذلك وفي واقعة السؤال: فإنه يجوز إخراج الزكاة للمسجونين في ديونهم.

والله سبحانه وتعالى أعلم.

فتاوى لها تاريخ

التحكيم بين الزوجين في الشقاق [1]



الشيخ رشيد رضا

• السؤال من الشيخ محمد نجيب التونتاري المدرس بالمدرسة التونتارية (روسيا):

أعرض على حضرتكم مسألة كثرت البلوى بها في ديارنا، مستفتيا من شريف علمكم مترقبا البيان الوافي بالمقصود في أحد أعداد المنار، ليعم نفعه ويكثر أجره وهي: هل يوجد طريق شرعي من الكتاب والسنة للتفريق بين الزوجين عند طلب الزوجة له وامتناع الزوج عنه، مع وقوع الشقاق بينهما؟ وإني راجعت كتب الحنفية الموجودة في أيدينا، فوجدت أن قول إمامنا أبي حنيفة -رضي الله عنه- عدم التفريق، وقول الإمام محمد رضي الله عنه: التفريق إذا وجد في الزوج عيب غير محتمل، وتقع الفرقة بمجرد اختيار الزوجة كما ذكره في كتاب الآثار، وأما الإمام مالك وأحمد والشافعي في أحد قوليه -رضي الله عنه- فمذهبهم التفريق بسبب عيب الزوج، إذا كانت الزوجة تطلبه كما هو المنقول في كتبنا، فاتفاق الأئمة سوى الإمام أبي حنيفة يقوي القول بالتفريق فيكون العمل به أولى وأحوط. ثم إني بعد ما نظرت في قوله تعالى:

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا ﴾

(النساء: ٣٥)

ظهر لي بإعانة التفاسير أنه عند وقوع الشقاق (الشقاق هو الخلاف والعداوة على ما ذكروه) بين الزوجين ينصب القاضي الحكمين العدلين ويوليهما أمر الجمع والتفريق كما هو المروي عن علي- رضي الله عنه- فهذان الحكمان بعدما يطلعان على أحوال الزوجين يجتهدان في الإصلاح بينهما بإعادتهما إلى المعاشرة بالمعروف إن أمكن، فإن كان النشوز من طرف الزوج، فحكم الزوج يفرق الزوجة نيابة عنه على سبيل التطليق، وإن كان النشوز من طرف

(١) المنار، ط ٥، ١٩٠٥ ص ١٠٠ إلى ص ١٠٣

الزوجة فحكم الزوجة يفرقها على سبيل الخلع. فكلا الأمرين أي الجمع بالمعروف أو التفريق بالمعروف ينبغي أن يكون مرادًا من الإصلاح المذكور في الآية، وأما الإبقاء على حال الشقاق فليس هو من الإصلاح في شيء بل هو داخل في ضمن قوله تعالى:

﴿فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾

(النساء: ١٢٩)

ومناف لقوله تعالى:

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾

(النساء: ١٩)

وقوله:

﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا﴾

(البقرة: ٢٣١)

والحاصل أن الإصلاح إنما هو لدفع الشقاق، ولا يتصور ذلك إلا بأحد الأمرين أي بالجمع بالمعروف أو التفريق بالمعروف، ففي الآية دلالة على كلا الأمرين أي على ثبوت حق الجمع والتفريق للحكمين لتضمن معنى الإصلاح ذلك. هذا ما ظهر لي من تأمل الآية الكريمة ولا أدري أصواب أم خطأ، والمأمول من الأستاذ إيضاح هذه المسألة وتطبيقها على الكتاب والسنة خدمة للدين والملة حتى يظهر الصواب في هذه المسألة ولكم الأجر والمنة.

●● الجواب:

إن الآية الكريمة صريحة في وجوب التحكيم بين الزوجين إن خيف شقاق بينهما لأنه يجب أن يكونا شقيقين لا متشاقين ينضوي كل منهما إلى شق (جانب) غير الشق الذي فيه الآخر. ولا يجيز الإسلام للمسلمين أن يدعوهمـ يستبد أقواهما بأضعفهما، والخطاب في الآية للحكام في قول وللمؤمنين في قول، والقرآن يخاطب المؤمنين عامة في الأمور العامة لأنهم المسيطرون على الحكام أو لأن الحكم شورى بينهم، فإذا قصر أميرهم في تنفيذ الشرع ألزموه به أو عزلوه وولو غيره، فالقولان متلازمان. ويجب على كل من الزوجين قبول ما يحكم به الحكمان فمن أبى الخضوع ألزمه الحاكم المؤيد بجماعة المسلمين بقبول تنفيذ الشرع.

وقد أخرج الشافعي في الأم والبيهقي في السنن وغيرهما عن عبيدة السلماني قال: جاء رجل وامرأة إلى عليٍّ كرم الله تعالى وجهه ومع كل واحد منهما فئام من الناس فأمرهم أن يبعثوا حكمًا من أهله وحكمًا من أهلها، ثم قال للحكمين: تدريان ما عليكما؟ عليكما إن رأيتما أن تجمعا أن تجمعا، وإن رأيتما أن تفرقا أن تفرقا. قالت المرأة: رضيت بكتاب الله تعالى بما عليَّ فيه ولي، وقال الرجل: أما الفرقة فلا. فقال عليٌّ - رضي الله عنه -: «كذبت والله حتى تقر بمثل الذي أقرت به». وأخرج ابن جرير عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال في هذه الآية: هذا في الرجل والمرأة إذا تفاسد الذي بينهما، أمر الله تعالى أن يبعثوا رجلا صالحا من أهل الرجل ورجلا مثله من أهل المرأة فينظران أيهما المسيء فإن كان الرجل هو المسيء حجبوا عنه امرأته وقسروه على النفقة، وإن كانت المرأة هي المسيئة قسروها على زوجها ومنعوها النفقة، فإن اجتمع أمرهما على أن يفرقا أو يجمعا فأمرهما جائز، فإن رأيا أن يجمعا فرضي أحد الزوجين وكره ذلك الآخر، ثم مات أحدهما فإن الذي رضي يرث الذي كره ولا يرث الكاره الراضي، وليس في قول ابن عباس - رضي الله عنه - شيء لا يفهم من الآية إلا مسألة الإرث بعد التفريق؛ ويقول الأصوليون والمحدثون في ذلك إنه شيء لا مجال للرأي فيه فله حكم المرفوع إلى النبي - ﷺ -.

وما قاله بعض الحنفية من أن نفوذ حكمهما يتوقف على رضا الزوجين بالتحكيم أخذًا من قول عليٍّ للرجل: «كذبت...» إلخ غير وجيه؛ لأن معناه الإلزام بالإقرار وبكونه لا يصدق في اتباع حتى يخضع له، وهذا لا ينافي إلزامه به كرها إن لم يرض طوعا.

قال في فتح البيان في مقاصد القرآن عند تفسير:

﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا﴾

(النساء: ٣٥)

أي على الحكمين أن يسعيا في إصلاح ذات البين جهدهما، فإن قدرا على ذلك عملا عليه، وإن أعياهما إصلاح حالها ورأيا التفريق بينهما جاز لهما ذلك من دون أمر من الحاكم في البلد ولا توكيل بالفرقة من الزوجين، وبه قال مالك والأوزاعي وإسحق، وهو مروي عن عثمان وعليٍّ وابن عباس والشعبي والنخعي والشافعي، وحكاه ابن كثير عن الجمهور: قالوا لأن الله تعالى قال:

﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾

(النساء: ٣٥)

وهذا نص من الله سبحانه أنهما قاضيان لا وكيلان ولا شاهدان. وقال الكوفيون وعطاء وابن زيد والحكم وهو أحد قولي الشافعي: إن التفريق هو إلى الإمام أو الحاكم في البلد لا إليهما ما لم يوكلهما الزوجان أو يأمرهما الإمام أو الحاكم لأنهما رسولان شاهدان فليس إليهما التفريق: ويرشد إلى هذا قوله:

﴿إِنْ يُرِيدَا﴾

(النساء: ٣٥)

أي الحكمان:

﴿إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾

(النساء: ٣٥)

لاقتصاره على ذكر الإصلاح دون التفريق. اهـ.

وأنت ترى أن القول الأول هو المتبادر، ويزيده قوة أنه مروي عن أعلم الصحابة، ولم يرو أن غيرهم منهم خالفهم فيه. وأما الاكتفاء في الآية بذكر الإصلاح فلأنه هو المطلوب الذي ينبغي الحرص عليه وعدم المصير إلى غيره إلا للضرورة والتفريق يؤخذ من المفهوم، ولولا ذلك لم يقل به الصحابة والتابعون على أن الساعي في الإصلاح لا حكم له فيسمى حَكَمًا. وقد كان المسلمون في الصدر الأول يعملون بهذه الآية على أحد الوجهين في تفسيرها، وقد تركوها في هذه الأزمنة التي انفصمت فيها عروة الدين ونسخ الحكام المستبدون أكثر أحكام الكتاب المبين، وأهمل الناس العناية بأمر إخوانهم المسلمين ومن قدر على إحياء هذه السنة كان له أجر المصلحين.

لفظ «شهر» ودلالته فى الاستعمال القرآنى

أ. د. مصطفى رجب

من آيات الإعجاز القرآنى المبهرة أن لفظ «شهر» بالتعريف والتذكير، ورد فى الكتاب العزيز اثنتى عشرة مرة، وهذا العدد هو نفسه عدد شهور السنة!!

و«الشهر» جزء من اثنى عشر جزءًا من تقسيم السنة قال تعالى:

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾

«التوبة: ٣٦»

والشهر يبتدئ من ظهور الهلال إلى المحاق ثم ظهور الهلال مرة أخرى، وهو فى لغة العرب مشتق من الشهرة لأن الهلال يظهر لهم فيشهرونه ليراه الناس فيثبت الشهر عندهم.

وكان العرب يفتتحون شهور العام بالمحرم، لأن نهاية العام عندهم هى انقضاء الحج ومدة الرجوع إلى آفاقهم.

ولما هاجر ﷺ من مكة إلى المدينة وظهر الإسلام وعلت كلمة الله تعالى اتخذت هجرته مبدءًا لتاريخها وسميت كل سنة باسم الحادثة التى وقعت فيها.

وتدرج ذلك إلى سنة سبع عشرة من الهجرة فى زمن عمر فكان اسم السنة الأولى سنة الإذن بالرحيل من مكة إلى المدينة والثانية سنة الأمر أى بالقتال إلى آخره.

وقال أصحاب التواريخ إن العرب فى الجاهلية كانت تستعمل شهور الآلهة وتقصد مكة للحج وكان حجهم وقت عاشر الحجة كما رسمه سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام لكن لما كان لا يقع فى فصل واحد من فصول السنة بل يختلف موقعه منها بسبب تفاضل ما بين السنة الشمسية والقمرية ووقوع أيام الحج فى الصيف تارة وفى الشتاء أخرى وكذا فى الفصلين الآخرين أرادوا أن يقع حجهم فى زمان واحد لا يتغير وهو وقت إدراك الفواكه والغلال واعتدال الزمن فى الحر والبرد ليسهل عليهم السفر ويتجروا بما معهم من البضائع والأرزاق مع قضاء مناسكهم.

فشكوا ذلك إلى أميرهم وخطيبهم فقام فى الموسم عند إقبال العرب من كل مكان فخطب ثم قال أنا أنشأت لكم فى هذه السنة

شهرا أزيده فتكون السنة ثلاثة عشر شهرًا وكذلك أفعل فى كل ثلاث سنين أو أقل حسبما يقتضيه حساب وضعته ليأتى حجكم وقت إدراك الفواكه والغلال فتقصدون بما معكم منها.

فوافقت العرب على ذلك ومضت إلى سبيلها فنسأ المحرم وجعله كبيسا وأخره إلى صفر وصفر إلى ربيع الأول وهكذا فوقع الحج فى السنة الثانية فى عاشر المحرم وهو ذو الحجة عندهم وبعد انقضاء سنتين أو ثلاثة وانتهاء نوبة الكبيس أى الشهر الذى كان يقع فيه الحج وانتقاله إلى الشهر الذى بعده قام فيهم خطيبًا وتكلم بما أراد ثم قال: إنا جعلنا الشهر الفلانى من السنة الفلانية الداخلة للشهر الذى بعده ولهذا فسر النسىء بالتأخير كما فسر بالزيادة.

وكانوا يديرون النسىء على جميع شهور السنة بالنوبة حتى يكون لهم مثلا فى سنة محرمان وفى أخرى صفران ومثل هذا بقية الشهور فإذا آلت النوبة إلى الشهر المحرم قام لهم خطيبا فينبئهم أن هذه السنة قد تكرر فيها اسم الشهر الحرام فيحرم عليهم واحدا منهما بحسب رأيه على مقتضى مصلحتهم.

فلما انتهت النوبة فى أيام النبى ﷺ إلى ذى الحجة وتم دور النسىء على جميع الشهور حج ﷺ فى تلك السنة حجة الوداع وهى السنة العاشرة من الهجرة لموافقة الحج فيها عاشر ذى الحجة.

وبعض القبائل العربية كانت تقسم السنة إلى أربعة فصول، كل فصل له ثلاثة أشهر، وهى الربيع وشهوره رجب وشعبان ورمضان، والصيف وشهوره شوال وذو القعدة وذو الحجة، والخريف وشهوره محرم وصفر والربيع الأول، والشتاء وشهوره شهر ربيع الثانى على أن الأول والثانى وصفان لشهر لا لربيع وجمادى الأولى وجمادى الثانية.

والشهر من حيث دلالته اللغوية: أصله من الشهر، والمشاهرة: المعاملة شهرا بشهر والمشهر: الذى أتى عليه شهر وأشهرت المرأة: دخلت فى شهر ولادها وأشهرنا: أقمنا شهرا كما فى المحيط والشهرة: ظهور الأمر فى شنعة حتى يشتهره الناس ويشهرونه، فهو مشهور ومشتهر وشهير وشهر فلان سيفه: انتضاه «المحيط فى اللغة - ج١ / ص٢٨٧».

وقال ابن منظور: والشهر العدد المعروف من الأيام سمى بذلك لأنه يشهر بالقمر وفيه علامة ابتدائه وانتهائه وقال الزجاج سمى الشهر شهرا لشهرته وبيانه وقال أبو العباس: إنما سمى شهرا لشهرته وذلك أن الناس يشهرون دخوله وخروجه «لسان العرب - ٤ / ٤٣١» فالدلالة اللغوية للفظ «الشهر» تدور - كما قالت المعاجم - حول معنى الشهرة والذيوع والبيان، وهى معان ما تزال متداولة فى العربية المعاصرة، غير أن العربية المعاصرة لم تعد تقف بدلالة لفظ «الشهرة» عند الأمور السيئة، والتشنيع بصاحبها، وإنما توسعت لتصبح الشهرة فيها شاملة لكل ما هو معروف ظاهر.

قال ابن عاشور: وأسماء الشهور كلها أعلام لها عدا شهر ربيع الأول وشهر ربيع الثانى فلذلك وجب ذكر لفظ الشهر معهما ثم وصفه بالأول والثانى، لأن معناه الشهر الأول من فصل الربيع أعنى الأول، فالأول

والثاني صفتان لشهر، أما الأشهر الأخرى فيجوز فيها ذكر لفظ الشهر بالإضافة من إضافة اسم النوع إلى واحده مثل شجر الأراك ومدينة بغداد، وبهذا يشعر كلام سيبويه والمحققين فمن قال: إنه لا يقال رمضان إلا بإضافة شهر إليه بناء على أن رمضان مصدر، حتى تكلف لمنعه من الصرف بأنه صار بإضافة شهر إليه علما فمنع جزء العلم من الصرف «التحرير والتنوير - ج٢ / ص١٤٤».

ولما كانت أشهر العرب قمرية وكانت السنة القمرية أقل من أيام السنة الشمسية التي تجيء بها الفصول تنقص أحد عشر يوما وكسرا، وراموا أن يكون الحج في وقت الفراغ من الزروع والثمار ووقت السلامة من البرد وشدة الحر جعلوا للأشهر كبسا بزيادة شهر في السنة بعد ثلاث سنين وهو المعبر عنه بالنسيء.

الشهور غير العربية

ويقول المؤرخون إن دقلطيانوس - أحد ملوك الروم المعروفين بالقياصرة - ملك في منتصف سنة خمس وتسعين وخمسمائة من سني الإسكندر، وكان من غير بيت الملك، فلما ملك تجبر وامتد ملكه إلى مدائن الأكاسرة، ومدينة بابل، فاستخلف ابنه على مملكة روما، واتخذ مقر ملكه مدينة أنطاكية، وجعل لنفسه بلاد الشام ومصر إلى أقصى المغرب، فلما كان في السنة التاسعة عشرة من ملكه، وقيل: الثانية عشرة ثار عليه أهل مصر، والإسكندرية، فبعث إليهم وقتل منهم خلقا كثيرا، وأوقع بالنصارى فاستباح دماءهم وغلق كنائسهم، وحمل الناس على عبادة الأصنام، وبالغ في الإسراف في قتل النصارى، وأقام ملكا إحدى وعشرين سنة، وهلك بعد علل وأمراض، فكانت أيامه شنعة، قتل فيها من أصناف الأمم، وهدم من بيوت العبادات ما لا يدخل تحت حصر، وكانت واقعته بالنصارى هي أشنع شدائدهم، وأطولها لأنها دامت عليهم مدة عشر سنين لا يفتر يومًا واحدًا يحرق فيها كنائسهم، ويعذب رجالهم، ويطلب من استتر منهم أو هرب ليقتل، يريد بذلك قطع أثر النصارى، وإبطال دين النصرانية من الأرض، فلهذا أخذوا ابتداء ملك دقلطيانوس تاريخًا، وجعلوا شهور السنة القبطية التي عشر شهرًا كل شهر منها عدده ثلاثون يومًا سواء، فإذا تمت الأشهر الاثنا عشر أتبعوها بخمسة أيام زيادة على عدد أيامها، وسموا هذه الخمسة الأيام «أبو عمنا»، وتعرف اليوم: بأيام النسيء، فيكون الحال في النسيء على ذلك ثلاث سنين متواليات. فإذا كان في السنة الرابعة جعلوا النسيء ستة أيام، فتكون سنوهم ثلاث سنين متواليات كل سنة ثلاثمائة وخمسة وستون يوما والرابعة يصير عددها ثلاثمائة وستة وستين يومًا، ويرجع حكم سنتهم إلى حكم سنة اليونانيين بأن تصير سنتهم الوسطى ثلاثمائة وخمسة وستين يومًا وربع يوم إلا أن الكبس يختلف، فإذا كان كبس القبط في سنة كانت كبس اليونانيين في السنة الداخلية.

وأسماء شهور القبط هي: توت، بابه، هاتور، كهيك، طوبه، أمشير، برمهات، برمودة، بشنس، بؤونة، أبيب، مسرى، فهذه اثنا عشر شهرًا كل شهر منها عدده

ثلاثون يومًا، وإذا كانت عدة شهر مسرى، وهو الشهر الثاني عشر زادوا أيام النسيء بعد ذلك، وعملوا النوروز أول يوم من شهر توت فصارت ثلاثمائة وخمسة وستين يومًا وربعًا بالتقريب المعمول عليه وهي المدة التي تقطع الشمس فيها الفلك مرة واحدة، ونقصت الهلالية. فصارت ثلاثمائة وأربعة وخمسين يومًا، وهي المدة التي يجامع القمر فيها الشمس اثنتي عشرة مرة، واحتيج إذا اتساق هذا الفضل إلى استعمال النقل الذي يطابق إحدى السنتين بالأخرى إذا افترقت، ويداني بينهما إذا تفاوتتا، وما زالت الأمم السالفة تكبس زيادات السنين على افتنان من طرقها ومذاهبها، وفي كتاب الله عز وجل شهادة بذلك إذ يقول في قصة أهل الكهف:

﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾

«الكهف: ٢٥»

فكانت هذه الزيادة بأن الفضل في السنين المذكورة على تقريب التقريب.

أما الفرس: فإنهم أجروا معاملاتهم على السنة المعتدلة التي شهورها اثنا عشر شهرًا، وأيامها ثلاثمائة وستون يومًا، ولقبوا الشهور باثني عشر لقبًا، وسموا أيام الشهر منها بثلاثين اسمًا، وأفردوا الخمسة الأيام الزائدة، وسموها المسترقة، وكبسوا الربع في كل مائة وعشرين سنة شهرًا، فلما انقرض ملكهم بطل في كبس هذا الربع تدبيرهم.

وأما الروم: فكانوا أتقن منهم حكمة، لأنهم رتبوا شهور السنة على أرصاد حدودها، وأنواء عرفوها، وفضوا الخمسة الأيام على الشهور، وساقوها على الدهور، وكبسوا الربع في كل أربع سنين يومًا، ورسموا أن يكون إلى شباط مضافًا، فقربوا ما بعده غيرهم، وسهلوا على الناس أن يقتفوا أثرهم.

وأما تاريخ العرب: فإنه لم يزل في الجاهلية والإسلام يعمل بشهور الأهلة، وعدة شهور السنة عندهم: اثنا عشر شهرًا، إلا أنهم اختلفوا في أسمائها، فكانت العرب العاربة تسميها: ناتق، ونقيل، وطليق، واسخ، أنخ، وحلك، وكسح، وزاهر، ونوط، وحرف، وبغش، فناتق هو: المحرم، ونقيل هو: صفر، وهكذا ما بعده على سرد الشهور.

وكانت ثمود تسميها: موجب، وموجر، ومورد، وملزم، ومصد، وهوبر، وهوبل، وموها، وديمر، ودابر، وحيقل، ومسبل، فموجب هو: المحرم، وموجر: صفر، إلا أنهم كانوا يبدأون بالشهور من ديمر، وهو شهر رمضان، فيكون أول شهور السنة عندهم، ثم كانت العرب تسميها بأسماء أخرى هي: مؤتمر، وناجر، وخوان، وصوان، وحنتم، وزبا، والأصم، وعادل، ونافق، ووعل، وهواع، وبرك، ومعنى المؤتمر: أنه يأتمر بكل شيء مما تأتي به السنة من أقضيتها، وناجر: من النجر، وهو شدة الحر، وخوان: فعال من الخيانة، وصوان، بكسر الصاد وضمها: فعال من الصيانة والزبا: الداهية العظيمة المتكاثفة سمي بذلك لكثرة القتال فيه، ومنهم من يقول: بعد صوان الزبا، وبعد الزبا بائدة، وبعد بائدة الأصم، ثم واغل، وباطل، وعادل، ورنه، وبرك، فالبائد من القتال إذ كان فيه يبيد كثير من الناس، وجرت المثل بذلك فقيل العجب كل العجب بين جمادى ورجب، وكانوا يستعجلون فيه ويتوخون

بلوغ الثار والغارات قبل رجب فإنه شهر حرام، ويقولون له الأصم لأنهم كانوا يكفون فيه عن القتال، فلا يسمع فيه صوت السلاح، والواغل الداخل على قوم يشربون ولم يدعوه، وذلك لأنه تهجم على شهر رمضان، وكان يكثر في شهر رمضان شربهم الخمر لأن الذي يتلوه في شهور الحج، وباطل هو مكيال الخمر سمي به لإفراطهم فيه في الشرب، وكثرة استعمالهم لذلك المكيال، وأما العادل فهو من العدل لأنه من أشهر الحج، وكانوا يشتغلون فيه عن الباطل، وأما الزبا فلأن الأنعام كانت تزب فيه لقرب النحر، وأما برك فهو لبروك الإبل إذا حضرت المنحر.

وقد روى: أنهم كانوا يسمون المحرم: مؤتم، وصفر: ناجر، وربيع الأول: نصار، وربيع الآخر: خوان، وجمادى الأول: حمتن، وجمادى الآخرة: الرنة، ورجب: الأصم وهو شهر مضر، وكانت العرب تصومه في الجاهلية، وكانت تمتار فيه، وتمير أهلها، وكان يأمن بعضهم بعضًا فيه، ويخرجون إلى الأسفار، ولا يخافون، وشعبان: عادل، ورمضان: نانق، وشوال: واغل، وذو القعدة: هواع، وذو الحجة: برك، ويقال فيه أيضًا: أبروك، وكانوا يسمونه الميمون، ثم سمت العرب أشهرها بالمحرم، وصفر، وربيع الأول، وربيع الآخر، وجمادى الأولى، وجمادى الآخرة، ورجب، وشعبان، ورمضان، وشوال، وذى القعدة، وذى الحجة، واشتقوا أسماءها من أمور اتفق وقوعها عند تسميتها، فالمحرم كانوا يحرمون فيه القتال، وصفر كانت تصفر فيه بيوتهم لخروجهم إلى الغزو، وشهرا ربيع كانا زمن الربيع، وشهرا جمادى كانا يجمد فيهما الماء لشدة البرد، ورجب الوسط، وشعبان يشعب فيه القتال، ورمضان من الرمضاء لأنه كان يأتى فيه القيظ، وشوال تشيل فيه الإبل أذنابها، وذو القعدة لقعودهم في دورهم، وذو الحجة لأنه شهر الحج، وأنت إذا تأملت اشتقاق أسماء شهور الجاهلية أولاً، ثم اشتقاقها ثانيًا تبين لك أن بين التسميتين زمانًا طويلاً، فإن صفر في أحدهما هو: صميم الحروب، وفي الآخر رمضان، ولا يمكن ذلك في وقت واحد أو وقتين متقاربين.

مواضع اللفظ في القرآن الكريم

والمواضع الاثنا عشر التي ورد فيها لفظ شهر أو الشهر مفردا في القرآن الكريم هي:

١، ٢ قوله تعالى:

﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون﴾

«البقرة: ١٨٥».

٣، ٤ وقوله تعالى:

﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين﴾

«البقرة: ١٩٤».

٥- وقوله تعالى:

﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾

«البقرة: ٢١٧».

٦- ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدي ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا وإذا حللتم فاصطادوا ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾

«المائدة: ٢».

٧- ﴿جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض وأن الله بكل شيء عليم﴾

«المائدة: ٩٧».

٨- ﴿إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين﴾

«التوبة: ٣٦».

٩، ١٠- ﴿ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير﴾

«سبأ: ١٢».

١١- ﴿ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين﴾

«الأحقاف: ١٥».

١٢- ﴿ليلة القدر خير من ألف شهر﴾

«القدر: ٣».

ويرى ابن عاشور أن المقصود من تقسيم السنة إلى اثنى عشر شهرا إنما هو لإقامة نظام التوقيت للأمة على الوجه الحق الصالح لجميع البشر، والمناسب لما وضع الله عليه نظام العالم الأرضي، وما يتصل به من نظام العوالم السماوية، بوجه محكم لا مدخل

لتحكمات الناس فيه، وليوضح تعيين الأشهر الحرم من قوله:

﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ ﴾

«التوبة: ٥»

بعدما عقب ذلك من التفاصيل فى أحكام الأمن والحرب مع فرق الكفار من المشركين وغيرهم.

وفى ضبط الأشهر الحرم - على النحو الذى ورد فى الآية - إبطال لما أدخله المشركون فيها من النسىء الذى أفسد أوقاتها، وأفضى إلى اختلاطها، وأزال حرمة ما له حرمة منها، وأكسب حرمة لما لا حرمة له منها.

وإن ضبط التوقيت من أصول إقامة نظام الأمة ودفع الفوضى عن أحوالها.

وافتتاح الكلام بحرف التوكيد للاهتمام بمضمونه لتوجه أسماع الناس وألبابهم إلى وعيه والمراد بالشهور: الشهور القمرية بقرينة المقام، لأنها المعروفة عند العرب وعند أغلب الأمم، وهى أقدم أشهر التوقيت فى البشر وأضبطها لأن اختلاف أحوال القمر مساعد على اتخاذ تلك الأحوال مواقيت للمواعيد والآجال، وتاريخ الحوادث الماضية، بمجرد المشاهدة فإن القمر كرة تابعة لنظام الأرض قال تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ ولأن الاستناد إلى الأحوال السماوية أضبط وأبعد عن الخطأ، لأنها لا تتناولها أيدى الناس بالتغيير والتبديل، وما حدثت الأشهر الشمسية وسنتها إلا بعد ظهور علم الفلك والميقات، فانتفع الناس بنظام سير الشمس فى ضبط الفصول الأربعة، وجعلوها حسابًا لتوقيت الأعمال التى لا يصلح لها إلا بعض الفصول مثل الحرث والحصاد وأحوال الماشية وقد كان الحساب الشمسى معروفًا عند القبط والكلدانيين، وجاءت التوراة بتعيين الأوقات القمرية للأشهر، وتعيين الشمسية للأعياد، ومعلوم أن الأعياد فى الدرجة الثانية من أحوال البشر لأنها راجعة إلى التحسين، فأما ضبط الأشهر فيرجع إلى الحاجى. فألهم الله البشر، فيما ألهمهم من تأسيس أصول حضارتهم، أن اتخذوا نظامًا لتوقيت أعمالهم المحتاجة للتوقيت، وأن جعلوه مستندًا إلى مشاهدات بينة واضحة لسائر الناس، لا تحتجب عنهم إلا قليلًا فى قليل، ثم لا تلبث أن تلوح لهم واضحة باهرة، وألهمهم أن اهتدوا إلى ظواهر مما خلق الله له نظامًا مطردًا، وذلك كواكب السماء ومنازله، كما قال فى بيان حكمة ذلك:

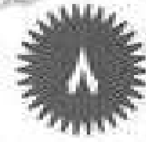
﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾

«يونس: ٥»

وإن جعلوا توقيتهم اليومى مستندًا إلى ظهور نور الشمس ومغيبه عنهم، لأنهم وجدوه على نظام لا يتغير، ولاشتراك الناس فى مشاهدة ذلك، وبذلك تنظم اليوم والليلة، وجعلوا توقيتهم الشهرى بابتداء ظهور أول أجزاء القمر وهو المسمى هلالا إلى انتهاء محاقه فإذا عاد إلى مثل الظهور الأول فذلك ابتداء شهر آخر، وجعلوا مراتب أعداد أجزاء المدة المسماة بالشهر مرتبة بتزايد ضوء النصف المضىء من القمر كل ليلة، وبإعانة منازل ظهور القمر كل ليلة حذو شكل من النجوم سموه بالمنازل.

وقد ورد لفظ «شهر» فى المواضع الاثنى عشر السابق ذكرها على ظاهر معناه اللغوى.

كلمات ربى وآياته فى القرآن الكريم



أ.د. أحمد فؤاد باشا
الأستاذ بكلية العلوم - جامعة القاهرة



﴿ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ ﴾

قال تعالى فى سورة الكهف:

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾

(الكهف: ٩)

وردت هذه الآية الكريمة من سورة أهل الكهف التى تحكى قصة الفتية الذين فروا بدينهم لما اشتد الكفر فى قومهم وساد البطش والعصيان فى ملكهم، فأماتهم الله - سبحانه وتعالى - فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعًا. وقد وردت قصة أهل الكهف فى القرآن الكريم ردًا على بعض المشركين الذين سألوا الرسول ﷺ عنها للتأكد من نبوته، و ذكرت كتب التفسير فى معنى قوله تعالى:

﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾

أى ألقينا عليهم النوم فى الغار سنين عديدة، أو ضربنا على آذانهم حجابًا يمنعهم من سماع الأصوات، والحركات، أو سددنا آذانهم بالنوم الغالب عن سماع الأصوات والمفعول محذوف، أى ضربنا على آذانهم الحجاب تشبيهًا للإنامة الثقيلة المانعة من وصول الأصوات إلى الآذان بضرب الحجاب عليها.

وكل هذه الاجتهادات فى التفسير مقبولة عقلًا فى كنف الإيمان الصادق بقدرة الله - سبحانه وتعالى - الذى يقول للشىء كن فيكون.

لكن العلم الحديث، بما وصل إليه من خبرة متقدمة، يستطيع أن يقرب معنى هذه المعجزة الإلهية التى حدثت لأهل الكهف بحيث يستطيع العقل البشرى تصورها فى ضوء ما تكونت لديه من خبرات فى عالم الواقع، تمامًا مثلما أصبح العقل مهيأ فى العصر الحديث لتخيل معجزتى الإسراء والمعراج، اللتين حدثتا للرسول محمد ﷺ وذلك فى ضوء ما نشاهده فى عصرنا من قدرة الإنسان على مغادرة الأرض وارتياد أجواز الفضاء الخارجى بالأجهزة والمعدات، وصولًا إلى الكواكب والمجرات البعيدة، فإذا كان الإنسان بقدراته المحدودة للغاية قد

استطاع القيام بهذا الإنجاز، فكيف إذا كان الإعجاز من قبل الله ذى القدرة المطلقة .

من هنا يأتى اهتمامنا بعرض ما توصل إليه العلم الحديث عسى أن يقرب للأفهام بعض المعجزات الإلهية الخارقة للعادة التى تعوّد الإنسان عليها ، ذلك أن العلم الحديث قد توصل إلى طريقة معروفة لحفظ الأعضاء الآدمية حتى يتم زراعتها ، وتتم غالبًا عن طريق التبريد ، أو بواسطة بعض العقاقير أو بتفريغ الهواء المحيط ، أو بطريقة التجفيف عن طريق التبريد السريع للعضو مع القيام بعملية تفريغ الهواء لسحب الماء من العضو فى صورة مجمدة ،ولقد أصبح اليوم لحفظ الأعضاء الآدمية ضرورة كبيرة فى جميع عمليات نقل الأعضاء ، ونقل الأعضاء من شخص متوفى حديثًا هو المصدر الوحيد لبعض الأعضاء مثل القلب والكبد ،وفى حالة الأعضاء التى يمكن نقلها من إنسان حى ، مثل الكلية ، فإنه قد يكون من الضرورى حفظ العضو لفترة حتى يتم إجراء الفحوصات اللازمة وتحضير المريض للعملية .

وبناء على ذلك يمكن القول بلغة العلم الحديث أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أوقف وظيفة آذان أهل الكهف عن السمع فسيولوجيا وذلك ضمن توقف بقية الأعضاء عن أداء وظيفتها وقتيًا ،فتوقفت العين عن الإبصار برغم كونها مفتوحة ، وتوقفت الأعضاء عن النمو فلم تزدد الأظافر والشعر طولًا ،وتوقفت العضلات عن الحركة ،فتولى الله سبحانه وتعالى تقليبهم جهة اليمين وجهة الشمال حتى لا تأكل الأرض من أجسادهم التى كانت فى حالة توقف تام لعمليات البناء والهدم Metabolic inhibition بالطريقة المعروفة حاليًا فى حفظ الأعضاء الآدمية حتى يتم زراعتها .

ولو أن أهل الكهف كانوا نيامًا فقط لاحتاجوا إلى الماء والغذاء ولأيقظتهم الحاجة إلى التبول بعد بضع ساعات ، لكن الله سبحانه وتعالى أوقف بقدرته جميع الوظائف الحيوية وأبقى الأجسام فى صورة حية على نحو أشبه بما يتم فى عصرنا عند حفظ الأعضاء ،مثل حفظ الدم والقرنية والكلى والكبد والقلب وغيرها لحين زراعتها فى أشخاص آخرين .

وربما يدعم هذا التفسير ما نراه اليوم من عودة الحياة لأشخاص دفنوا تحت الجليد لعدة أيام ثم عادت إليهم الحياة بعد تدفئتهم خاصة لصغار السن .

﴿ رُقُودٌ ﴾

وكلمة رقود فى قوله تعالى :

﴿ وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ ﴾

(الكهف : ١٨)

لا تعنى بالضرورة كونهم نائمين كما جاء فى كثير من كتب التفسير ، فقد عبر القرآن عن الموت بالرقود فى قوله تعالى :

﴿ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴾

(يس : ٥٢)

ويبدو أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ حفظ أهل الكهف بالأسباب المعروفة للبشر وقد كان فى مقدرته حفظهم دون أن يقلبهم ذات اليمين وذات الشمال ،ولكن هذه إشارة إلى استمرار الأسباب وربطها بمسبباتها ،فمن المعروف أن النائم يتقلب تلقائيًا من نفسه وفى قوله تعالى : ﴿ وَنُقَلِّبُهُمۡ ﴾ إشارة إلى عدم قدرتهم على الحركة من أنفسهم وإشارة أيضا إلى أن ذلك من الأسباب المهمة لحفظهم ، وتجعل الناظر إليهم يظنهم أيقاظًا .

وفى تعليل ذلك ينقل القرطبى عن ابن عباس قوله : « لئلا تأكل الأرض لحومهم» . وهذا هو ما يعبر عنه بلغة الطب الحديث بقروح الفراش ، ومن يلجئهم العجز والمرض إلى طول ملازمة الفراش ، يحرص من يقومون على رعايتهم على تقليبهم وتغيير أوضاعهم . ومن الملاحظ أيضًا أن التقلب يكثر فى أواخر مرحلة النوم الثقيل وهذا كله نقوله إذا جاز لنا أن نقارن بين نوم البشر المعتاد وذلك النوم المخصوص ،الرقود الذى هيأه الله سبحانه وتعالى لأصحاب الكهف .

وحفظ الروح والجسد فى أهل الكهف آية إلهية تختلف عن بعث الجسد بعد الممات والتحلل كما ورد فى قصة عُزير عليه السلام الذى أماته الله مائة عام ثم بعثه :

﴿ أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ ﴾

(البقرة : ٢٥٩)

وأراه الله تعالى آية البعث بعينيه :

﴿ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾

(البقرة: ٢٥٩)

وإذا كان فى قصة أهل الكهف دليل على البعث ففيها أيضًا دليل على قدرته جل شأنه على حماية أوليائه من أى مكروه .

﴿ ٱلۡإِصۡلَٰحَ ﴾

أصلح الشىء : أزال فساده وأصلح فى عمله أو أمره : أتى بما هو صالح نافع .

واستصلح الشىء : أصلحه أو طلب إصلاحه .

وقد وردت الكلمة فى القرآن الكريم ٧ مرات ، منها قوله تعالى :

﴿ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ ﴾

(هود : ٨٨)

وقوله سبحانه :

﴿ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ ﴾

(الأعراف : ٨٥)

﴿هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا﴾

والطريق إلى إصلاح أحوال الناس، أفرادًا ومجتمعات، هو ما أوصى به الخالق العليم، هدى إليه الرسول الأمين. يقول الله تعالى فى كتابه الكريم:

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾

(الأنعام: ١٥٣)

جاء فى كتب التفسير أن الله - جل وعلا - أمر المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والتفرقة، وأخبرهم أنه إنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات فى دين الله، أمرهم ألا يحيدوا عن النهج الذى رسمه لهم؛ لأنه هو الطريق المستقيم الموصل إلى سعادة الدارين. فعليهم أن يتبعوه ولا يتبعوا الطرق الباطلة التى نهاهم عنها حتى لا يتفرقوا شيعًا وأحزابًا ويبعدوا عن صراط الله السوى، أمرهم الله أمرًا مؤكدًا بذلك ليتجنبوا مخالفته.

قال الإمام أحمد بن حنبل عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه قال: خط رسول الله صلى الله عليه وسلم - خطا بيده، ثم قال: «هذا سبيل الله مستقيمًا» وخط عن يمينه وشماله ثم قال: هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه، ثم قرأ:

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾

(الانعام ١٥٣)

(رواه أحمد والحاكم والنسائى).

وعن النواس بن سمعان عن رسول الله ﷺ قال: «ضرب الله مثلا صراط مستقيما وعن جنبتى الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس هلم ادخلوا الصراط المستقيم جميعًا، ولا تفرقوا وداع يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئًا من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحه، فإنك إن فتحته تلجه فالصراط الإسلام، والسوران حدود الله والأبواب المفتحة محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله والداعى من فوق الصراط واعظ الله فى قلب كل مسلم (رواه أحمد والترمذى والنسائى) وقوله تعالى:

﴿فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾

(الانعام ١٥٣)

إنما وحد سبيله لأن الحق واحد ولهذا جمع السبل لتفرقها وتشعبها كما قال تعالى:

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾

(البقرة: ٢٥٧)

(راجع مختصر تفسير ابن كثير)

فالحمد لله الذى أنزل القرآن الكريم مصدقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه وجعله للناس شرعة ومنهاجًا واعتبر العدول عن منهجه عدولا عن الحق ووقوعًا فى الهوى والضلال وحذر الرسول ﷺ والسائرين على طريق الاقتداء والتأسى، من الفتنة التى يكون بها العدول عن بعض ما أنزل الله، قال تعالى:

﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾

(المائدة: ٤٩)

ذلك أن العدول عن بعض المنهج عدول عن الكل، كما أن التعديل فى بعض جوانب المنهج، هو عدول فى حقيقة الأمر، وسقوط فى علل التدين التى وقعت بها الأمم الماضية من الإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعضه الآخر وما لحق بها بسبب ذلك من الخزى والسقوط فى الدنيا والعذاب الأليم فى الآخرة، قال تعالى:

﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِ﴾

(البقرة: ٨٥)

إن حاجة الأمة إلى «الإصلاح» اليوم لاستعادة أمجادها أشد من أى وقت مضى، بعد أن استحكمت الأزمة، واختلت النسب واشتدت الفتن، واهتزت الصور، وتقطعت الرؤية الإسلامية إلى رؤى وتصورات متباينة، شاع بسببها مناخ التضليل والضلال ويقول الحكماء، كما جاء فى الأثر: إن هذه الأمة لن يصلح حالها إلا بما صلح به أولها متمثلًا فى المنهج الإلهى (الصراط المستقيم) والبيان النبوى، فبهما يقوى المسلم على حمل أمانة الاستخلاف، وإعلاء صرح العمران، وإدامة البحث والنظر فى ظروف وشروط مجتمع القدوة الأولى، مجتمع خير القرون، للإفادة منها فى التخطيط لنهوض حضارى مدروس، يعيد للأمة مكانتها الرائدة فى صفوف المتقدمين.

إن اتباع الصراط المستقيم والهدى النبوى الحكيم، ابتدا من مرحلة ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ كمدخل وسبيل إلى التغيير، وانتهاء بمرحلة الكمال والاكتمال التى يشير إليها قوله تعالى:

﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾

(المائدة: ٣)

هو السبيل الوحيد لتمكين أمة الإسلام فى الأرض .... الذى مثله الرسول المعلم بخط مستقيم واضح، ودعا لأتباعه على بصيرة، ومثل للمناهج الأخرى من على يمينه وشماله، بخطوط متعرجة، يقف على رأس كل منها شيطان رجيم يغرى باتباعها.

القصة والأمثال فى القرآن الكريم (٦)

مناهج الإصلاح.. كيف تبدأ؟!



الأستاذ الدكتور محمد المختار محمد المهدى
عضو هيئة كبار العلماء

يجانب هذا التصوير الحى الدقيق.. لطبيعة الإنسان كما خلقت وكما ينبغى لها أن تكون، تبرز فى القصص القرآنى أغراض ولمحات أخرى تشير ولو بطريق غير مباشرة إلى تفصيلات ومناهج تصلح للحياة.. وتصلح بها الحياة.

جاءت الرسل الهداة، وجاءت أخبارهم فى كتاب الله، وسرت كلماتهم المضيئة عبر الليل البهيم.. يتلمسها من أوتى البصيرة النفاذة، والذهن المتفتح المؤمن، والاستعداد الخاص لتقليد الصفوة الممتازة من الرجال.. وما تقليد هؤلاء بالأمر اليسير.

لقد أعطتنا القصة القرآنية تخطيطا دقيقًا محكمًا لمنهج متكامل، فى ميدان الدعوة إلى الله.. تبرز معالمه، وتبدو ركائزه، فيما وضعه الرسل أمامهم من هدف، وما اتخذوا إليه من وسائل، وما بدءوا به من نصائح، وما ركزوا عليه من أسس وقواعد.

الإيمان بالله وحده كان المحور الرئيسى الذى تدور عليه دعوتهم، والمنطلق الأهم الذى تنبثق منه المناهج الاجتماعية والاقتصادية والثقافية.. والأساس الذى ينبنى عليه سلوك الناس فى الحياة، واتباعهم لما جاء من عند الله، كانت تصفية للعقيدة من كل شائبة وتحريرها من كل قيد، وبعث الحرارة والحيوية فى أوصالها.. كان كل ذلك لديهم أول خطوة فى طريق الإصلاح الشامل.. ومن هنا كانت كل دعواتهم إلى أقوامهم أن يجتمعوا على أساس من العقيدة، بالرغم من أن ذلك كان الطريق الأصعب أمامه... إذ كانت عقائد أقوامهم الفاسدة هى أعز ما يستمسكون به، ويدافعون عنه، ويفتدونه بكل ما يملكونه.. ومع ذلك لم يحيدوا عنه قيد شعرة، ولم يستبدلوا به طريقا سواه، يتبين ذلك من إصرار هؤلاء الرسل الكرام على أن يبدءوا دعوتهم إلى أقوامهم بهذا الكلام المتماثل وفى سرد متتابع.. وها نحن نسمع نوحا من وراء الغيب يقول لقومه:

﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٥) أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾

(هود: ٢٥، ٢٦).

ثم نسمع هودا عليه السلام يقول:

﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾

(هود: ٥٠)..

ونسمع صالحا عليه السلام يقول:

﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾

(هود: ٦١)..

ونسمع شعيبا عليه السلام يقول:

﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾

(هود: ٨٤)..

وفى مواضع أخرى نسمع سيدنا إبراهيم عليه السلام:

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

(الصافات: ٨٥ - ٨٧)..

ونسمع يوسف عليه السلام وهو فى السجن يقول لصاحبيه:

﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٣٨) يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

(يوسف: ٣٧ - ٤٠).

ونسمع موسى عليه السلام يناقش فرعون ويدعوه إلى رب العالمين وحده حتى يقول له فرعون:

﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾

(الشعراء: ٢٩).

ونسمع المسيح عليه السلام يقول:

﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾

(آل عمران: ٥١).

ونسمع خاتم الرسل والأنبياء محمد ﷺ يعلنها بمثل ما دعا به إخوته قائلا:

﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾

(الأنعام: ١٦٢، ١٦٣).

هكذا.. عبر مسيرة الرسل.. كما حكتها القصة القرآنية نراهم يركزون دعوتهم على الإيمان بالله، وطرح كل تعظيم لما سواه، حتى يتسنى بعد ذلك أن يتلقوا توجيهاتهم عن هذا الإله الواحد، فلا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله، ينصاعون لتشريعاتهم، أو يشركونها مع تعاليم الله، ومن هنا كان هذا الجهد المضنى من الرسل والأنبياء فى سبيل تعميق عقيدة

التوحيد، وإنها لإشارة من هؤلاء الرواد أن يبدأ المصلحون مناهجهم بإصلاح العقيدة، وتعميق جذورها، وهناك لن يجدوا صعوبات في تحقيق الإصلاح المنشود في جميع الميادين الأخرى.. ذلك أن أي مجال إصلاحي بعد ذلك سيتبثق عن العقيدة في يسر وسهولة.. وسترتبط القلوب على مائدة الأخوة في الله.. وهي أقوى رابطة تجتمع عليها أمة من الأمم.. ولن تغني عن هذه الرابطة للأمة المسلمة روابط الجنس واللغة والمصلحة مجتمعة، ولن يغني عن تشريع الإسلام لها تشريع آخر مهما كان له بريق خادع، إذ لا يملك أهم مقوماته، وهو الشعور النفسي بالحاجة إليه، لصدوره عن العليم الخبير، الذي يعلم النتائج والغايات ولا يعلمها أحد سواه:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾

(ق: ٣٧)

وسائل الرسل

ونتساءل الآن عن الوسائل التي اتخذها هؤلاء الرسل في طريق الوصول إلى غاياتهم المنشودة.

١- ولأول وهلة تبدو للباحث تلك المناقشة المنطقية المحرجة التي اتخذها إبراهيم الخليل في جميع مراحل دعوته.. يبدأ النقاش مع عباد الصنم، من أبيه وقومه:

﴿مَا تَعْبُدُونَ ۝٧٠ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ۝٧١ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۝٧٢ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ۝٧٣ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ۝٧٤ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ۝٧٦ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ۝٧٧ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾

(الشعراء: ٧٠-٨١)

هكذا بأبسط الأسئلة وبأبسط الأجوبة. أسئلة منتزعة من الواقع الماثل: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾؟ ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ﴾؟ هل ﴿يَنفَعُونَكُمْ﴾؟ وأجوبة تتصل بالحياة الواقعة كذلك: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ وحين ركبوا رءوسهم فلم يستجيبوا لهذا النقاش الهادئ.. عمد إلى تكسير هذه الأصنام، وأبقى الصنم الأكبر.. وفوجئ قومه بمعبوداتهم محطمة.. لم تستطع الدفاع عن نفسها!! ويتذكرون هذا الفتى الذي كان يناقشهم في أمرها ويحاكمونه:

﴿أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ۝٦٢ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾

(الأنبياء: ٦٢، ٦٣)

وإنه لإحراج منقطع النظير حين يلوي أعناقهم إلى الصنم الأكبر على أنه الجاني، وإلى الحجارة المتناثرة ليسألوها من هشمها؟! ويستمر في التبكيت والسخرية من هذه العقول:

﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۝٦٦ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

(الأنبياء: ٦٦، ٦٧)

هذه طريقته في تحطيم الوثنية والدعوة إلى الله النافع الضار الخالق الشافي الرازق.. ثم نرى له منهجا آخر مع عباد النجوم والكواكب يتأسس على أنه من البديهي أن الإله الذي يدبر هذا الكون لابد أن يكون موجودًا باستمرار يقظا على الدوام حتى لا يحدث خلل في سير الكائنات.. هذه قضية من السهل أن يؤمن بها الجميع.. فليتنزل إبراهيم مع هؤلاء العباد، وليقف معهم أمام نجم سطع حين جن عليه الليل.. وليقل معهم ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾.. ولكن فليبق وليدم حتى يرعى شئون الخلق، وإلا فمن يتولى أمرهم حين يغيب؟ وأين يغيب؟

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ۝٧٦ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ۝٧٧ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٧٨ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

(الأنعام: ٧٦-٧٩)

وله موقف ثالث مع عباد البشر، مع النمرود المعبود، وشعبه المأفون.. يقول:

﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾

(البقرة: ٢٥٨)

بمعنى أنه يمنح الروح ويسلبها ممن يشاء.. ويتجاهل الغر المفتون، ويحول المفاهيم المعجزة إلى معان ساذجة فيقول:

﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾

(البقرة: ٢٥٨)

أنا أحكم على اثنين بالإعدام فأعفو عن أحدهما وأقتل الآخر.. وأمام هذه المغالطة لا يقف إبراهيم يناقشه فيترك له فرصة لتضليل الحاضرين.. ولكن ليسلم له بهذا الزعم الكاذب حتى يفحمه ويبهته.. وليوجه إليه صفعة أخرى لا يستطيع معها التلاعب والتجاهل:

﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

(البقرة: ٢٥٨)

٢- الوسيلة الثانية التي كان يستعملها الأنبياء والرسل الكرام في دعوتهم إلى الله: أن يلفتوا أنظار أقوامهم إلى ما حدث للأمم السابقة، ليستخرجوا العبرة من أحداث التاريخ ويكيفوا أوضاعهم مع الناموس الذي لا يتخلف، ذلك الناموس الذي قضى بالدمار والهلاك على من حاد عن طريق الله من السابقين، وهو على استعداد لأن يحكم على اللاحقين إن هم ساروا في طريق السابقين نلمس ذلك بطريق غير مباشر في تذكير سيدنا هود لقومه بأنهم خلائف قوم نوح وهم يعرفون ما جرى لقوم نوح من طوفان مدمر فيقول:

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾

(الأعراف: ٦٩)

وفي تذكير سيدنا صالح لقومه بأنهم خلفاء لقوم عاد وهم يعرفون جيدًا ما حدث لعاد فيقول:

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ

﴿وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا﴾

(الأعراف: ٧٤)

ويتبين ذلك واضحًا في كلمات سيدنا شعيب لقومه.. تلك الكلمات التي اشتملت على التهديد الصريح والإنذار البليغ حيث يقول:

﴿ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد﴾

(هود: ٨٩)

٣- الوسيلة الثالثة: الترغيب في الدعوة عن طريق التلويح بما يعقب السير على هداها من سعادة دنيوية قبل النعيم الأخروي.. ضرورة أنهم يسيرون مع مدبر الكون، وباسط الرزق

﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾

(الأعراف: ٩٦)

نسمع التلويح بهذا الخير الوفير على لسان سيدنا نوح وهو يقول لقومه:

﴿استغفروا ربكم إنه كان غفارا (١٠) يرسل السماء عليكم مدرارا (١١) ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا﴾

(نوح: ١٠-١٢)

وعلى لسان سيدنا هود وهو يقول:

﴿ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين﴾

(هود: ٥٢)

وعلى لسان سيدنا محمد ﷺ وهو يقول:

﴿وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله﴾

(هود: ٣)

وبذلك يتضح جمع الرسل بين الوعد والوعيد.. بين الترغيب والترهيب.. ذلك أن هناك نفوسًا لا تستجيب للخير اعتمادًا على الثواب الآجل، أو خوفًا من العقاب المنتظر يوم القيامة، ولكنها تتطلع إلى الثواب العاجل، ولا تخاف إلا من الجزاء المنتظر.

٤- الوسيلة الرابعة: ضرورة الاستمرار وعدم الفتور أو الانقطاع عن مواصلة الدعوة مهما كان صلف المدعوين، وإعراضهم وانصرافهم.. مع الصبر على المكاره، والأذى والعنت والاضطهاد.. فإن تكرار الدعوة على الأسماع مما يزيل بعض الحجب الكثيفة التي ترين على القلوب فتحول دون تعقلها لما يقال، وهناك ساعات يستجيب فيها المرء إلى صوت الضمير وهو يبعد عن نفسه شبح العناد والجحود.. من هنا كان سيدنا نوح لا يفتر عن دعوة قومه صباح مساء، حتى كان كما خاطب ربه:

﴿رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا (٥) فلم يزدهم دعائي إلا فرارا (٦) وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا (٧) ثم إني دعوتهم جهارا (٨) ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا﴾

(نوح: ٥-٩)

فإذا ما علمنا أن سيدنا نوحًا -عليه السلام-

استمر في دعوته تلك

﴿ألف سنة إلا خمسين عاما﴾

(العنكبوت: ١٤)

تبين لنا إلى أي مدى صبر وصابر هذا النبي الكريم حتى استحق أن يكون من بين أولي العزم من الرسل.. وهكذا كان كل الأنبياء الكرام صلوات الله وسلامه عليهم حتى جاء خاتمهم محمد ﷺ لنجده يجتهد ويستمر ويهتم بهداية قومه حتى يطلب منه ربه أن يخفف عن نفسه من شدة اهتمامه فيقول:

﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا﴾

(الكهف: ٦)

﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون﴾

(فاطر: ٨)

٥- الوسيلة الخامسة: استعمال اللين والحكمة، وعدم مقابلة العنف بالعنف:

﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾

(النحل: ١٢٥)

﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم (٣٤) وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾

(فصلت: ٣٤، ٣٥)

هذا نوح -عليه السلام- يقول له قومه:

﴿إنا لنراك في ضلال مبين﴾

(الأعراف: ٦٠)

فلا يزيد على أن يقول:

﴿يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين (٦١) أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾

(الأعراف: ٦١، ٦٢)

وهذا هود -عليه السلام- يقول له قومه:

﴿إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين﴾

(الأعراف: ٦٦)

فلا يزيد كذلك على أن يقول:

﴿قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين (٦٧) أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين﴾

(الأعراف: ٦٧، ٦٨)

وهذا إبراهيم -عليه السلام- ينصح أباه بمنتهى الرقة واللين قائلًا:

﴿يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا (٤٥) قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا﴾

(مريم: ٤٥، ٤٦)

فلا يزيد إبراهيم على أن يخرج من بيت أبيه وهو يقول:

﴿سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا (٤٧) وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا﴾

(مريم: ٤٧، ٤٨)

٦- الوسيلة السادسة: أن يحرص الداعية على تنفيذ كل ما يدعو إليه.. وأن يكون قدوة عملية.. ومبادئ متحركة حتى لا يخالف عمله قوله فيكون مثار شبهة لتدليس وتدجيل، أو حب لسيطرة، أو طلب لرياسة وشهرة.. من هنا أعلنها سيدنا شعيب صريحة مدوية في صلب دعوته قائلا:

﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾

(هود: ٨٨)

ومن هنا كذلك مثل الله أحبار بني إسرائيل حين حُمِّلوا التوراة فلم يحملوها:

﴿ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾

(الجمعة: ٥)

ووبخهم على إعراضهم عن البر وهم يأمرون به الناس مبينا أن ذلك لا يصدر عن عقلاء فقال:

﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

(البقرة: ٤٤)

وعاتب المؤمنين حين يقولون ما لا يفعلون فقال:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾

(الصف: ٢، ٣)

٧- الوسيلة السابعة: عدم التكسب بالدعوة، والتجرد لها من كل الأغراض الدنيوية الهابطة، فلا منصب يهدف إليه، ولا مال يغريه، ولا جاه يستهويه، فهيهات أن يستجيب إنسان لمن يأخذ منه أجرًا على النصيحة.. وهيهات أن يؤثر إرشاد من يمد يديه إلى مدعويه ليتلقى منهم الأجر والثمن!! من هنا حرص كل الأنبياء والرسل على إبراز هذه الحقيقة لأقوامهم على أنها دافع لهم أن يتبعوهم وأن ينتفعوا بدعوتهم.. فهذا نوح - عليه السلام - يقول:

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

(هود: ٥١)

وهذا صالح - عليه السلام - يقول:

﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

(الشعراء: ١٤٥)

وهذا لوط - عليه السلام - يقول:

﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

(الشعراء: ١٦٤)

وهكذا بألفاظ تكاد تكون متحدة، حتى جاء خاتمهم محمد ﷺ فيعلنها كذلك قائلًا:

﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾

(ص: ٨٦)

﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾

(سبأ: ٤٧)

(يتبع)

بنو إسرائيل في الكتاب والسنة

تلاعبهم بأحكام الله تعالى ومحاولتهم فتنة الرسول ﷺ عند تقاضيهم أمامه





أ.د. محمد سيد طنطاوي

كرر القرآن الكريم توبيخ اليهود وتأنيبهم لتركهم الحكم بما هو منصوص في كتبهم فقال تعالى:

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا ﴾

(المائدة: ٤٥)

أي: فرضنا على اليهود في التوراة التي أنزلها الله على موسى - عليه السلام -

﴿ أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ﴾ (المائدة: ٤٥)

مقتولة بها إذا قتلتها بغير حق ﴿ وَالْأُذُنَ ﴾ مقطوعة ﴿ بِالْأُذُنِ ﴾ ﴿ وَالسِّنَّ ﴾ مقطوعة ﴿ بِالسِّنِّ ﴾ ﴿ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾ أي: ذات قصاص بأن يقتص فيها إذا أمكن كاليد والرجل ونحو ذلك وإلا فما لا يمكن القصاص فيه - ككسر عظم وجرح لحم مما لا يمكن الوقوف على نهايته - ففيه حكومة عدل.

﴿ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ﴾

(المائدة: ٤٥)

أي: فمن عفا من أصحاب الحق عن قصاص وتصدق به على الجاني فذلك كفارة لذنوبه والضمير في ﴿ لَهُ ﴾ يعود إلى المتصدق.

﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

(المائدة ٤٥)

أي: أن كل من أعرض عن حكم الله المقتضي للعدل والمساواة وحكم بغيره فهو من الظالمين لأنه لم يتبع قاعدة العدل والمساواة.

وبعد أن بين - سبحانه - أمر التوراة والإنجيل وما أودعه فيهما من الهدى والنور

أخذ - سبحانه - في بيان أمر القرآن الكريم فقال تعالى:

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾

(المائدة: ٤٨)

أى: كما أنزلنا التوراة على موسى والإنجيل على عيسى - عليهما السلام - أنزلنا عليك - يا محمد - الكتاب وهو القرآن الكريم

﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أى: بالصدق الذى لا ريب فيه أنه من عند الله - تعالى - وهذا القرآن الذى أنزلناه عليك - يا محمد:

﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ ﴾

أى مؤيدًا وموافقًا للكتب السابقة عليه فى أصول الدين وجوهر الشريعة.

﴿ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾

أى: رقيبًا على ما سبقه من الكتب السماوية المحفوظ من التغيير وأمينًا وحاكمًا عليها لأنه هو الذى يشهد لها بالصحة ويقرر أصول شرائعها.

قال ابن جريج: «القرآن أمين على الكتب المتقدمة قبله فما وافقه منها فهو حق وما خالفه منها فهو باطل».

وقال ابن جرير: «وأصل الهيمنة: الحفظ والارتقاب يقال: إذا رقب الرجل الشيء وحفظه وشهده: قد هيمن فلان عليه، فهو يهيمن هيمنة وهو عليه مهيمن»[1].

وقال ابن كثير: «جعل الله هذا الكتاب العظيم الذى أنزله آخر الكتب وخاتمها أشملها وأعظمها وأكملها لأنه - سبحانه - جمع فيه محاسن ما قبله من الكتب وزاد فيه من الكمالات ما ليس فى غيره فلهذا جعله شاهدا وأمينًا وحاكمًا عليها كلها وتكفل - سبحانه - بحفظه بنفسه فقال:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾

(الحجر: ٩)[2]

ثم أمر الله - تعالى - نبيه ﷺ أن يحكم بين اليهود بما أنزل الله وألا يسير وراء أهوائهم فقال تعالى:

﴿ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴾

(المائدة: ٤٨)

أى: ليكن حكمك - يا محمد - بين هؤلاء اليهود المخادعين إذا ترافعوا إليك فى قضاياهم موافقًا لما بين الله لك ولا تنحرف عن الحق متبعًا أهواءهم. قال تعالى:

﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾

(المائدة: ٤٨)

الشرعة: الشريعة، وهى: الطريق الظاهر الموصل إلى الماء والمراد بها: الدين وسمى الدين شريعة تشبيها بشريعة الماء من حيث إن كلا سبب الحياة، والمنهاج: الطريق الواضح فى الدين من نهج الأمر ينهج إذا وضح والعطف باعتبار جمع الأوصاف.

والمعنى: لكل أمة من الأمم الحاضرة والماضية وضعنا شريعة ومنهاجًا خاصين بها فالأمة التى وجدت منذ مبعث موسى إلى مبعث عيسى - عليهما السلام - شريعتها ومنهاجها التوراة والأمة التى وجدت منذ مبعث عيسى إلى مبعث محمد - عليهما السلام - شريعتها ومنهاجها الإنجيل. وأما هذه الأمة الإسلامية، فشريعتها ومنهاجها القرآن، لأنه اشتمل على ما جاء فى الكتب السابقة عليه، من أصول الدين وكلياته التى لا تختلف باختلاف الأزمنة وزاد عليها ما يناسب العصر الذى نزل فيه والعصور التى تلت ذلك إلى يوم القيامة.

وأهل الكتاب إنما أمروا بأن يتحاكموا إلى كتبهم قبل نسخها بالقرآن الكريم أما بعد نزوله ومجيء النبى ﷺ خاتمًا للرسالات السماوية فمن الواجب عليهم أن يدخلوا فى الإسلام متبعين شريعته التى نسخت ما قبلها من شرائع وأن يصدقوا الرسول ﷺ فى كل ما جاء به من ربه وليس لأحد بعد بعثته ﷺ إيمان مقبول إلا بالإيمان به وتصديقه واتباعه فى جميع أقواله وأفعاله.

قال أبو السعود: قوله تعالى:

﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾

كلام مستأنف جيء به لحمل أهل الكتابين من معاصريه ﷺ على الانقياد لحكمه بما أنزل عليه من القرآن الكريم ببيان أنه هو الذى كلفوا العمل به دون غيره من الكتابين: وإنما الذين كلفوا العمل بهما من مضى قبل نسخهما من الأمم السابقة[3] ا. هـ.

وقال الإمام ابن كثير: (هذا إخبار عن الأمم المختلفة الأديان باعتبار ما بعث الله به رسله الكرام من الشرائع المختلفة فى الأحكام المتفقة فى التوحيد كما ثبت فى (صحيح البخاري) عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «نحن معاشر الأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد» يعنى بذلك: التوحيد الذى بعث الله به كل رسول أرسله وضمنه كل كتاب أنزله، كما قال تعالى:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾

(الأنبياء: ٢٥)

وأما الشرائع فمختلفة فى الأوامر والنواهى، فقد يكون الشيء فى هذه الشريعة حرامًا، ثم يحل فى الشريعة الأخرى - كما قال تعالى فى شأن عيسى - عليه السلام -:

﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾

(آل عمران: ٥٠)

- وبالعكس - قد يكون الشيء حلالًا فى هذه الشريعة، ثم يحرم فى شريعة أخرى، وخفيفا فيزاد فى الشدة فى هذه دون هذه، وذلك لما له تعالى فى ذلك من الحكمة البالغة، والحجة الدامغة[4].

(١) تفسير ابن جرير جـ ٦ ص ٢٦٦.
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٦٥.
(٣) تفسير أبو السعود جـ ٢ ص ٣٤.
(٤) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٦٦.

ثم قال تعالى:

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ﴾

(المائدة: ٤٨)

أى: لـو أراد الله ـ تعالـى ـ أن يجعـل الأمم جميعـا أمـة واحـدة، تديـن لشـريعة واحدة فـى جميـع العصور لفعل، لأنه ـ سـبحانه ـ لا يعجزه شـىء، ولكنه ـ تعالـى ـ خبير يعلم ما للأمم والأزمان من خصائـص وطبائع، ويعلم ما يناسـب كل أمة من أحكام وشرائع، يسـتقيم به أمرها، وتقتضيه مصلحتها، فأنزل شـرائع شـتى، تتفق جميعها فى الأصـول، ويختلف بعـض أحكامها فى الفـروع، باختلاف الأمم والأزمـان، ومـن الطبيعـى أن ينسـخ بعضها بعضا فى بعـض الأحكام، واقتضت حكمته ـ سـبحانه ـ كذلك، أن يختتم شـرائعه بشـريعة عامـة كاملة محكمة، كفيلـة بمصالح الناس فى جميـع الأزمنة والأمكنة، وهذه الشـريعة هى شريعة الإسـلام، التى أتى بها محمد عليه الصلاة والسـلام.

ثـم كرر الخالـق ـ عـز وجل ـ الأمـر لنبيه محمد ﷺ بأن يحكم بينهم بحكمه، وحذره من مكرهم وكيدهم، فقال تعالى:

﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴾

(المائدة: ٤٩)

عـن ابـن عباس ـ رضـى الله عنهمـا ـ قال: وقال كعب بن أسـد، وابن صلوبـا، وعبد الله بن صوريا، وشـاس بن قيـس بعضهم لبعض: اذهبـوا بنا إلـى محمد لعلنا نفتنـه عن دينه، فأتوه فقالوا: يا محمد إنك قد عرفت أنا أحبار يهود، وأشرافهم وسـاداتهم، وإنا إن اتبعناك اتبعنا يهـود، ولم يخالفونـا، وإن بيننا وبين قومنـا خصومـة، فنحاكمهم إليـك، فتقضى لنا عليهـم، ونؤمن لك ونصدقك، فأبى ذلك رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى فيهم:

﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ ﴾

إلى قوله:

﴿ يُوقِنُونَ ﴾ (المائدة: ٤٩ ـ ٥٠)(٥).

وقوله تعالى:

﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾

عطف على (الكتاب) فى قوله تعالى قبل هذه الآية:

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾

(المائدة: ٤٨)

أى: أنزلنا إليك الكتاب ـ يا محمد ـ وأنزلنا إليك الحكم بما فيه، فاحكم بينهم بما أنزل الله إليك، ولا تتبع أهواء هؤلاء اليهود، الذين اتخذوا دينهم هزوا ولعبا:

﴿ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾

أى: واحذر فتنتهم لك، وصرفهم إياك عن بعض مـا أنزلناه إليـك، ولـو كان أقل قليل بتصويـر الباطل بصـورة الحـق، أو بالكذب علـى التوراة بإنـكار أحكامها، وحملك على الحكم الذى يناسب شهواتهم:

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ﴾

(المائدة: ٤٩)

أى: فـإن أعرض هؤلاء اليهود عن حكمك ـ يـا محمـد ـ وتركـوا العمـل بـه، لمخالفته لأهوائهـم، فاعلم أن ذلك كائن عن قدرة الله، وحكمته فيهم، إذ يريد ـ سـبحانه ـ أن يعجل لهم العقوبة فى الدنيا، بسـبب بعض ذنوبهم، التـى ارتكبوها فـى حياتهم، ولقـد نفذ الله ـ تعالـى ـ وعيده فى اليهـود، فقد طرد بعضهم مـن المدينة، وقتـل بعضهم جزاء فسـقهم، وغدرهم، وفجورهم.

قال صاحب الكشـاف: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾ عن الحكم بما أنزل الله إليك، وأرادوا غيره ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ﴾ يعنـى بذنب المتولى عـن حكم الله وإرادة خلافـه، فوضع ببعض ذنوبهـم موضع ذلك، وأراد أن لهـم ذنوبـا جمة كثيـرة العدد، وأن هـذا الذنب مـع عظمه بعضهـا وواحد منها، وهذا الإبهام لتعظيم المتولى، واسـتـرافهم فى ارتكابه(٦).

ثم قال تعالى:

﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴾

(المائدة: ٤٩)

أى: لمتمردون فى الكفر، مصرون عليه، خارجون عن الطريق المسـتقيم، الذى رسمه الله لعباده، وفـى تذييل الآية الكريمة بذلك، تسلية للرسول ﷺ على عدم إذعانهم للحق.

ثـم وبخهم الله ـ تعالـى ـ على ما كان منهم من تركهم الحق إلى الباطل، فقال تعالى:

﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾

(المائدة: ٥٠)

أى: أينصرفـون عـن قبـول حكمـك بما أنـزل الله، ويعرضـون عنـه، فيبغـون حكـم الجاهليـة، مع أن عندهم كتاب الله، الذى فيه بيـان حقيقة الحكم، الذى حكمت به فيهم؟ والمـراد بالجاهلية: إما الملة الجاهلية، التى هى متابعـة الهوى، والمداهنـة فى الأحكام، فيكـون تعبيرا لليهود بأنهـم مع كونهم أهل كتاب وعلم، يبغون حكم الملة الجاهلية.

وأما أن يكون المـراد بها: أهل الجاهلية، وحكمهـم الـذى كان يقـوم علـى المفاضلة بين النـاس، وعدم الأخذ بشـرعة المسـاواة، فيكـون توبيخـا لليهود ـ أيضـا ـ لاقتدائهم بأهل الجاهلية.

ثـم أنكر ـ سـبحانه ـ أن يكون أحد حكمه أحسـن من حكم الله ـ سبحانه ـ أو مساويا له، فقال تعالى:

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾

(المائدة: ٥٠)

أى: لا أحـد أحسـن حكما مـن حكم الله ـ تعالى ـ لقوم يؤمنون بدينه، ويذعنون لشرعه، ويقرون بربوبيته، ويتبعون أنبياءه ورسله.

هذا، وقد شـدد الإمام ابـن كثير النكير

(٥) أسباب النزول للنيسابورى ص١١٣.

(٦) تفسير الكشاف ج١ ص٤١٩.

على الذين يرغبون عن حكم الله، إلى أحكام من عند البشر، ووصف من يفعل ذلك بالكفر، وأفتى بوجوب مقاتلته حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله، فقال -رحمه الله-: «ينكر الله تعالى في هذه الآية على من خرج عن حكمه المحكم -المشتمل على كل خير، الناهي عن كل شر- وعدل عنه إلى سواه، من الآراء والأهواء، والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند، من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات، مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية، المأخوذة عن (جنكزخان) الذي وضع لهم (الياسق)، وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى، من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه، فصارت في بنيه شرعا متبعا، يقدمونه على الحكم بكتاب الله، وسنة رسوله ﷺ فمن فعل ذلك منهم فهو كافر، يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله، فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير قال الله تعالى:

﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾

أي: يبتغون ويريدون، وعن حكم الله يعدلون:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾

أي: ومن أعدل من الله في حكمه، لمن عقل عن الله شرعه، وآمن به وأيقن، وعلم أن الله -تعالى- أحكم الحاكمين، وأرحم بخلقه من الوالدة بولدها؛ فإنه -تعالى- وهو العالم بكل شيء، القادر على كل شيء، العادل في كل شيء روى الطبراني، عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «أبغض الناس إلى الله -عز وجل- من يبتغي في الإسلام سنة الجاهلية، ومن طلب دم أمرئ بغير حق ليريقه»[٧].

وإلى هنا تكون الآيات الكريمة قد كشفت -باستفاضة- عن مسلك من أخطر المسالك الخبيثة، التي اتبعها اليهود، لكيد الإسلام والمسلمين، إذ حاولوا فتنة الرسول ﷺ وجره إلى حظيرتهم، ليحكم بينهم، بغير ما أنزل الله، وليوافقهم في أهوائهم وشهواتهم، وقد كررت الآيات الكريمة توبيخهم، وتأنيبهم، لتلاعبهم بدينهم، وانحرافهم عن طريق الحق، واستيلاء المطامع والرذائل عليهم، وإعراضهم عن الحكم بما أنزل الله.. كما كررت الآيات الكريمة -أيضا- تحذير النبي ﷺ والمسلمين من خداعهم، ومكرهم، وشرورهم، وأرشدتهم إلى ما فيه صلاحهم وسعادتهم في دينهم ودنياهم.

(٧) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٦٧

فتاوى الحاخامات

د. منصور عبدالوهاب

عنوان الفتوى: الأغيار واليهود يوم السبت - فتوى من الحاخام بنيامين بمبرجر

سؤال: هل يجوز أن ينير أحد الأغيار المصباح يوم السبت من أجل يهودي، ويكون معروفا أنه يفعل ذلك من أجله في حالة انقطاع التيار الكهربي بالمنزل، أو ما شابه ذلك؟ وهل يفضل أن نلمح لأحد الأغيار حتى يوقد المصباح أو يفضل ألا نقول أي شيء باعتباره جارًا لك يفهم الأمر بنفسه؟ وهل يجوز في الفنادق التي يعمل فيها أغيار أن يضيئوا المصباح من أجلنا يوم السبت أو أن يفتحوا لنا الأبواب التي تعمل بالكهرباء أو أجهزة التكييف وما شابه ذلك؟

جواب: هناك تحريمان لعمل الأغيار يوم السبت، حيث يحرم أن تطلب من أحدهم القيام بعمل يوم السبت من أجل يهودي حتى لو كان اليهودي لا يستفيد بهذا العمل. كما يحرم أن يستفيد اليهودي بعمل قام به الأغيار من أجله يوم السبت، حتى لو لم يطلب اليهودي منه القيام بذلك. أما التلميح للأغيار للقيام بعمل ولكن ليس بصيغة الأمر، كأن نقول: «من الصعب عليّ أن أقرأ لعدم وجود إضاءة كافية في الغرفة» لا يعتبر ذلك بمثابة قول موجه إليه وهو مباح، ولكن فقط في حالة ما إذا كانت هناك صعوبة في القراءة، أي عندما تكون الإضاءة ضعيفة، وما شابه ذلك.

ونخلص من ذلك كله، بأنه لا يجوز الاستفادة من الإضاءة التي أوقدها غير اليهودي يوم السبت، وإذا كان هناك انقطاع للتيار الكهربائي في المنزل ولا توجد إضاءة على الإطلاق لا يجوز حتى أن نلمح له بذلك. وفي حالة عدم قدرة اليهودي على تناول الطعام بسبب الظلام، وكذلك عدم قدرته -بسبب ذلك- على دراسة التوراة أو التمتع بمباهج يوم السبت، فيجوز إحضار أحد الأغيار لمنزله ليعرض عليه اليهودي شيئًا ما ليأكله، وعندما يوافق يقول له: «ولكن لا يمكنني إحضار هذا الشيء بسبب الظلام» فيقوم غير اليهودي بإيقاد النور له. وإذا رأى اليهودي بعد ذلك أن هذا الشخص يريد أن يطفيء النور فيجوز أن يطلب منه ألا يطفئه ووفقًا لما ذكرناه سلفًا فلا يجوز أن يقوم أحد الأغيار بعمل لأجل اليهودي حتى لو كان ذلك في فندق وإذا كان في الفندق عدد كبير من الأغيار، ويقوم عامل الفندق بخدمتهم جميعًا أو في حالة ما إذا ثبت أن غير اليهودي يقوم بهذا العمل لأجل نفسه أو لأجل آخر من الأغيار، فإنه يجوز لليهودي أن يستفيد من ذلك. وإذا أضاء أحد الأغيار نور سلم المنزل فيجوز لليهودي أن يصعد الدرج مادام كان يستطيع الصعود حتى في الظلام. وبالنسبة للباب الكهربي، على اليهودي الانتظار حتى يصل أحد الأغيار ويفتح الباب له.

كتاب التفاسير «شولحان عاروخ» فصل «أوروح حاييم» ٢٧٦ / ١٤ وكتاب «مشنا بروراً» ٣٠٧ / ٧٦ بشأن الحفاظ على تعاليم السبت حسب الشريعة الفصل الثلاثين وخاصة البنود ١، ٤، ٧ ومن ٣٦ حتى ٣٨، ٥١، ٥٤ وفي الملحوظة ١٣٤، وكذلك في مختارات الحاخام يوسف باب السبت ١ / ٣٧٦ البنود من ١ إلى ٥.

قصص الأنبياء

تذكير الله تعالى لبني إسرائيل بنعمه عليهم

للعلامة: عبد الوهاب النجار

إن الناظر إلى أحوال بنى إسرائيل والقارئ للقرآن ولكتب أنبيائهم يجد الله تعالى قد دللهم وأعطاهم حكم الصبى على أهله فأتاهم بالعجائب وفعل بالأمم الظالمة لهم الأفاعيل، واحتمل صلفهم وطغيانهم ولم يترك وسيلة من وسائل استرضائهم إلا فعلها، وهم لا يزيدون إلا عنادا ومخالفة عن أمره.

والظاهر أن الأمم ـ التى طردها الله أمام بنى إسرائيل وأورثهم أرضهم وديارهم ـ كانوا غاية فى الرداءة والعصيان والكفر، حتى إن بنى إسرائيل الذين نعرف حالهم كانوا مختارين من الله عليهم وقد رأيت فى الكتاب المقدس أن موسى ـ على ما أذكر ـ قال لبنى إسرائيل: لا تظنوا أن الله تعالى سيأتى بكم إلى الأرض المقدسة بسبب قداستكم وطهارتكم وأنكم أفضل الناس فى طاعته! كلا فإنه إنما يطرد الأمم أمامكم لرداءتهم ورجسهم العظيمين.

وقد ذكر الله تعالى بني إسرائيل بما صنعه لهم من الإحسان، وبالآيات التي صنعها في سبيل إطلاقهم من أسر فرعون وقومه ما نورده في هذه الآيات:

سورة البقرة:

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (٤٧) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٤٨) وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٤٩) وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٠) وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٥١) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٢) وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (٥٣) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ

إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٤) وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦) وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

ومنها أيضا:

﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٦٠) وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٦١) ﴾

(البقرة: ٦٠ - ٦١)

سورة الأعراف:

﴿ وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾

(الأعراف: ١٤١)

سورة إبراهيم:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٦) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧) وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (٨) ﴾

(إبراهيم: ٦ - ٨)

موت هارون ثم موسى

أما هارون فقد أمر موسى أن يذهب هو وهارون إلى جبل «هور» فذهبا وهناك مات هارون ودفنه موسى، وعاد إلى بني إسرائيل وأخبرهم بموت هارون، ويقول مفسرو القرآن: إن بني إسرائيل قد شغبوا على موسى واتهموه بقتل هارون إلى أن أراهم الله هارون على سرير بين السماء والأرض ليس به أثر للقتل. وأما موسى فقد أمره الله أن يذهب إلى جبل «نبو» وأن ينظر إلى الأرض المقدسة ولا يدخلها، وهناك مات موسى ودفن على الفسجة وهي الكثيب الأحمر.

موقف لبني إسرائيل بعد موسى

بعد وفاة موسى قام بأمر بني إسرائيل «يوشع بن نون» من سبط يوسف ومعه بنو إسرائيل وعبروا إلى الأرض التي وعدوا بها،

وكان أول بلد ملكوه مدينة «أريحا» وقد أمرهم الله أن يدخلوا باب المدينة حين يدخلونها سجداً أي خاشعين متذللين لله تعالى وأن يقولوا «حطة» ولكن القوم عاودتهم سجية مخالفة أمر الله تعالى، فقالوا قولاً غير الذى أمرهم بأن يقولوه، ودخلوا وهم على هيئة غير التي أمروا بها، فغضب الله عليهم وأنزل عليهم العذاب.

ومعنى «حطة» حط عنا خطيئتنا أو أمرنا حطة. وليس من البعيد أن يكون هذا اللفظ عبريًا ومعناه خطيئة لأن لفظ أخطأ بالعبرية «حطا» بحاء مهملة فطاء تقول «إني حطاتي» أى أنا أخطأت و«أتا حطاتا» أى أنت أخطأت.

ولكن يلزم عليه أن القرآن فيه لفظ غير عربي. وقد جوز بعض العلماء ذلك ومنعه آخرون. ولا مانع من أن يكون هذا اللفظ دخل في العربية وصار منها.

ويقول البيضاوي: إن المدينة هى بيت المقدس أى «أورشليم» أو «أريحا». ولعل القول بأنها «أورشليم» الذى دعا أهلها لأن يسموا أحد أبوابها «باب حطة» والقرآن لم يبين المدينة والتوراة لم تذكر المسألة أصلا.

اقرأوا هذه الآيات:

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾

(البقرة: ٥٨-٥٩)

وقوله تعالى:

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾

(الأعراف: ١٦١-١٦٢)

***

القرآن والتوراة والإنجيل والعلم



موريس بوكاي

كثيرون من قراء الأناجيل يشعرون بالحرج بل بالحيرة، عندما يتأملون فى معنى بعض الروايات أو عندما يقارنون روايات مختلفة لحدث واحد مروى فى كثير من الأناجيل. تلك هى الملاحظة التى يقدمها «الأب روجى فى كتابه: «مقدمة إلى الإنجيل» إن التجربة الثرية التى اكتسبها هذا الكاتب، حيث إنه كان لسنوات طويلة مكلفا بالرد فى جريدة أسبوعية كاثوليكية على قراء الأناجيل الذين تحيرهم النصوص، هذه التجربة قد سمحت له أن يدرك مدى أهمية الاضطراب الذى يشعر به قراء الأناجيل. ويلاحظ أن طلبات الشرح التى يبعث بها محدثوه الذين ينتمون إلى أوساط اجتماعية وثقافية شديدة التنوع تنصب على نصوص يراها القراء: «مبهمة غير مفهومة بل حتى متناقضة وعبثية أو فاضحة». إذن ليس هناك شك فى أن قراء النصوص الكاملة للأناجيل قادرة على إثارة اضطراب عميق لدى المسيحيين».

وهذه ملاحظة قريبة العهد: فقد نشر كتاب «الأب روجي» عام ١٩٧٣م، وفى عصور ليست بعيدة تماما كانت أغلبية المسيحيين لا تعرف من الأناجيل إلا مقاطع مختارة، تقرأ عند القداس أو المواعظ.

وإذا وضعنا حالة البروتستانت جانبا فإنه لم تكن قراءة الأناجيل فى كليتها أمرا سائدا فيما عدا بعض المناسبات.

إن كتب التعليم الدينى لم تكن تحتوى إلا على مقاطع مختارة من الأناجيل، ولم يكن هناك تداول للنص بأكمله.

وفى أثناء دراساتى الثانوية بإحدى المدارس الكاثوليكية وقعت يدى على مؤلفات لـ «فيرجيل وأفلاطون»؛ ولكن لم يحدث أبدا أن وقعت يدى على العهد الجديد، ومع ذلك فالنص اليونانى للعهد الجديد كان يمكن أن يكون مفيدا. وبعد ذلك بفترة طويلة أدركت لم لم يعطنا

مدرسـونا واجبـات ترجمـة مـن الكتب المقدسة المسيحية؟

كان يمكـن أن تقودنا هذه الكتب إلى أن نطرح على أساتذتنا أسئلة، الردّ عليها محرج.

هـذه المكتشـفات التي ينتهي إليها امرؤٌ ذو روح نقدية عند قـراءة الأناجيل بأكملها، قد قادت الكنيسـة إلى التدخل لمساعدة القراء للتغلب على حيراتهم.

«كثيـر مـن المسـيحيين يحتاجـون إلى تعلـم قراءة الأناجيـل» على حد قول الأب «روجي»، وسـواء اختلـف المرء أو اتفق مع التفاسير التي تعطى، فإن جدارة الكاتب كبيرة حقا في مواجهة المشاكل الحرجة.

ولكـن مما يؤسـف لـه أن الأمـر ليس كذلـك دائمـا فيمـا يختص بكثيـر من الكتابات الخاصة بالتنزيل المسيحيّ.

ففـي منشـورات التـوراة الموجهـة للانتشـار الواسـع، نجد أن الملاحظات الأولية تعرض في غالب الأحيان مجموعة من الاعتبارات تنحو إلى إقناع القارئ بأن الأناجيـل لا تطـرح بتاتا مشـاكل تتعلق بشخصية كتاب مختلف الأسفار وبصحة النصـوص وبالطابـع الحقيقـي لهـذه الروايـات. وعلـى حين توجـد كثير من المجاهيل بالنسـبة لكتـاب لم تتأكد من هويتهم، فإننا نجد كثيرا من التحديات فـي هذا النوع من الملاحظات التي كثيرا مـا تقدم ما ليس إلا مجـرد فرض على أنه فرض يقيني، مؤكدة أن هذا المبشـر أو ذلك كان شـاهدا عيانا لأحداث محددة، علـى حيـن تدعـى دراسـات متخصصـة عكس ذلك.

إن المسـئولين يقللـون بشـكل مبالغ فيـه الفتـرة الزمنيـة الواقعـة بيـن نهاية رسـالة المسـيح وبين ظهـور النصوص. يريـدون إيهام الناس بوجود صيغة واحدة اعتمـدت على تراث شـفهي، على حين أثبـت المتخصصون أن هذه النصوص قد أصابتها تعديلات كثيرة، ويتحدثون هنا وهنـاك عن بعض مصاعب في التفسـير، ولكنهم يغضون النظـر عن المتناقضات البينـة التـى تقفز إلـى عينى مـن يتأمل. يلاحـظ القـارئ فـى المعاجـم الصغيرة الملحقـة بالمقدمات المطمئنة أن الأمور غير المعقولة أو المتناقضات أو الأخطاء الصارخـة كثيـرًا مـا تتجنـب أو تخنق بحجـج مديحية بارعة، وإنـه لمما يروع القـارئ هذا الحـال من الأمـور التي تبين بجلاء طابع الخـداع لهذه التعليقات. إن الاعتبارات المدروسـة هنا ستدهش- ولا شـك- القراء الذين لم يحيطوا علمًا بعد بهذه المشـكلات، ولذا وقبـل أن ندخل فـي صميـم الموضـوع، آمـل أن أوضـح غرضي مـن الآن، وذلك بمثـال يبدو لي أنه يبرهن تمامًا على ما نقول.

لا «متـى» ولا «يوحنـا» يتحدثـان عن صعود المسـيح أمـا «لوقا» فإنـه يحدده بيوم القيامة في إنجيله وبعد أربعين يومًا في «أعمال الرسـل» التي يقال إنه كاتبها أما فيمـا يخص «مرقس» فإنه يشـير إليه (دون تحديد تاريخـه) وذلك في خاتمة تعتبـر حاليًـا غيـر صحيحـة وعلى ذلك فليس للصعـود أى قاعـدة كتابية متينة، برغـم ذلك فإن المعلقين يتعرضون لهذه المسـألة المهمة باستخفاف لا يصدق.

إن أ.تريكـو لا يكـرس مقـالًا عـن الصعـود فـى المعاجـم الصغيـرة للعهد الجديـد مـن الكتـاب المقـدس طبعـة كرامبون **crampon** وهو كتاب واسع الانتشـار أمـا طبعـة الأناجيـل الأربعـة المترافقة **Synopse des Quatres Evangiles** التى قام بها الأبوان «بينوا وبوامـار» الأسـتاذان بمدرسـة الكتـاب المقـدس فإنهـا تعلمنا في الجـزء الثاني منهـا (ص٤٥١، ٤٥٢) إن التناقض عند «لوقـا» بيـن إنجيلـه و«أعمال الرسـل» يرجع إلـى حيلة أدبية وليفهـم من يفهم ...!.

أمـا الأب روجـى فإنه على مـا يبدو لم يخضـع لإغـراء مثـل هـذه الحجـة ومع ذلك فأقل ما يمكـن أن يقال عن التعليل الـذى يعطينـا إيـاه هـو أنـه فريـد يقول الأب «روجـي» فـى كتابـه «مقدمـة إلـى الإنجيـل» طبعـة ١٩٧٣م (ص ١٨٧): «إن المشـكلة هنـا، كمـا فـى كثيـر من المشـاكل المشـابهة، لا تبدو غير قابلة للحـل إلا إذا أخذ المـرء بحرفية دعاوى الكتاب المقدس وتنسـى دلالتها الدينية.

ليس المقصود هو حل واقع الأمور برمزية مائعة، وإنما المقصود هو البحث عن النية الدينيـة لدى هـؤلاء الذين يكتشـفون لنا الأسرار بتقديم أمور محسوسة وعلامات خاصة بالجذور المادية لعقلنا».

كيـف تكتفي بمثل هذا التفسـير؟ إن الصيغ المديحيـة من هذا النوع لا يمكن أن تصلح إلا للمؤمنين بلا قيد ولا شرط.

إن أهميـة عبـارة «الأب روجي» تكمن أيضًـا فـي اعترافه بوجود حـالات كثيرة مشـابهة لمسـألة الصعود فـي الأناجيل وإذن فيجـب التعـرض للمشـكلة بشـكل شـامل ومـن جذورهـا وبمنتهى الموضوعيـة، يبدو أنه مـن الحكمة إذن البحث عن توضيحات في دراسة الظروف التي كتبت الأناجيل في ظلها وفي دراسة المناخ الديني الذي كان سـائدًا في ذلك العصـر. إن توضيـح التعديـلات التـي وقعـت علـى الصيـغ الأولى التـي تمت بالاعتماد على التراث الشفهي وتوضيح التعريفـات التـي حدثت للنصـوص إلي أن وصلـت إلينـا، كل ذلك من شـأنه أن يخفف من الشـعور بالدهشة أمام عبارات مبهمة غيـر مفهومة ومتناقضة لا يدركها العقل، بـل قد تذهب في بعـض الأحيان إلـى حـد العبـث واسـتحالة أن تتفق مع الوقائع التـي أثبتها اليوم التقدم العلمي. مثل هذه الملاحظات تدل على مسـاهمة الإنسـان في عملية تحرير النصوص وعلى التعديل الذى أصابها بعد ذلك.

والأمر الواقع الآن هو أنه منذ عشرات من السنوات حدث اهتمام بدراسة الكتب المقدسة بروح بحث موضوعى، وفى كتاب ظهر منذ عهد قريب، بعنوان: «الإيمان بالقيامة وبعث الإيمان» يعطى الأب كانينجسر الأستاذ بالمعهد الكاثوليكى بباريس لمحةً عن هذا التغير العميق، يقول: يكاد شعب المؤمنين ألا يعرف بهذه الثورة التى حدثت فى مناهج تفسير التوراة منذ عصر بى الثانى ١٩٣٩ - ١٩٥٨م إن الثورة التى يتحدث عنها المؤلف قريبة من عهدنا إذن، وقد بدأت امتداداتها تصل إلى تعليم المؤمنين، يقوم بهذا على الأقل بعض المتخصصين الذين يحركهم روح التجديد، ويقول المؤلف أيضا: «إن هذه الثورة فى مناهج التفسير تفتح الطريق بشكل يقل أو يكثر لانقلاب فى أرسخ رؤى تقليد الوعظ والإرشاد الكنسيين».

ويحذر الأب كانينجسر من أنه لم يعد واجبا الأخذ بحرفية الأحداث الواردة عن المسيح فى الأناجيل فهى كتابات «ظرفية» أو خصامية يذكر كتابها أقوال جماعة كل منهم عن المسيح وفيما يختص بقيامة المسيح وذلك هو موضوع كتابه يشير الأب كانينجسر إلى استحالة أن يعطى أى كاتب من كتاب الأناجيل لنفسه صفة الشاهد العيان وهو بذلك يدع للفهم الضمنى أن بقية حياة المسيح العامة. يبدو أن ينظر إليها بنفس الشكل، حيث إنه ليس هناك أى حوارى - باستثناء «يهوذا الأسخريوطي» قد انفصل عن السيد منذ اللحظة التى تبعه فيها حتى آخر أعماله على هذه الأرض.

ها نحن أولاء إذن بعيدون تماما عن المواقف التقليدية التى كان يؤكدها بالتبجيل مجمع الفاتيكان الثانى، والتى تستأنفها الكتب الحديثة الموجهة لعامة المؤمنين؛ ولكن الحقيقة تخرج إلى النور شيئا فشيئا.

وليس من السهل إدراكها، فثقيل حقا وزن التقاليد الموروثة التى دُوفع عنها بشراسة وإذا أردنا أن نتحرر من هذا الثقل فيجب الأخذ بالمشكلة من القاعدة - أى: ندرس أولا الظروف التى سادت ميلاد المسيحية -.

يتبع

ooo

قصة العدد

فارس غرناطة



د. رجب البيومي

جلس الشيخ الوقور جاسم الغرناطي يهدئ من ابنته، وقد تساقطتْ دموعها، وبُحّ صوتها، فما تستطيع أن تتكلم إلا بصعوبة بالغةٍ، وهو يعلم ما تكنه من حزن دفين على خطيبها الشاب العربي الباسل موسى بن أبي الغسان زين شباب غرناطة، وقائد الكتائب المحتشدة للدفاع عنها في وجه القوة الإسبانية الكاسحة، وهي تذكر حديثه الشجي الأليم في آخر لقاء، حيث صمم على أن يتساقط لحمه تحت شفرات السيوف قبل أن يقتحم فرنجي واحد سور غرناطة وهي تعرفه ذا عزم صارم، إذا قال فعل، وحين جاء الخبر بأن المدينة قد سلمت أبوابها تحت وطأة الهجوم، وأن فرس موسى قد وُجد وحده على شاطئ نهر شنيل أيقنت أن الفارس قد ترك جواده إلى حيث لا يعود، ولم تجد غير والدها الشيخ جاسم تذري دموعها بين يديه، وهو حائر لا يدري ما يصنع!

كان الشيخ جاسم يعرف أن موسى قد أصبح خبرا من الأخبار، بعد أن كان ملء السمع والبصر فى غرناطة جميعها. وبعد أن قاد الكتائب الفدائية فى ظلمات الليل، ليختطف النائمين حول الأسوار من الأعداء، ثم ليدعهم طعمة للسيوف، وقد حذره الشيخ جاسم عاقبة ما يتعرض له من خطر ماحق، فقال فى تصميم: لقد ضاعت غرناطة يا والدى ولن أتحمل رؤيتها ضائعةً صريعة تحت قدم الأسبان، وأنا أتعرض إلى الموت فى شوق لأنجو من ألم الحياة، ولكن بعد أن أصرع من أقدر عليه من أعداء غرناطة، وكلما تكاثر عدد هؤلاء شعرت أن دمى لم يضع هدرا، إذ كافحت وجالدت فوق ما أقدر، كان الشيخ جاسم يعلم أن موسى قد أصبح خبرا من الأخبار، ولكنه شاء أن يهدئ ابنته الجازعة. بعض الآمال لتفيء إلى صوابها بعض الشىء، فتطلّع إليها فى ألم، وهو يقول كمن يستعطف ويتوسل:

بنيتى، أنا أكثر دراية بأمر موسى، إنه

فــارس غرناطــة

لا شك مختبئ في ناحية مجهولة مع فريق من أصدقائه البسلاء ليعد العدة لغارات ليلية تؤرق العدوّ، وإذا كانت، غرناطةً قد أسلمت أبوابها للعدو الغاصب، فما كان في مقدرته أن يقف أمام الجموع الزاحفة بآلاتها الحاصدة، ولكن في مقدرته أن يدبر الخطة للمكيدة المباغتة، وقد كان يتركنا قرابة عام ثم يرجع دون أن تسأله أين غاب، ولكننا نعلم أنه يهيئ الخطط لنصر حربي، ولجمع ما يقدر عليه من الذخيرة، ولولا جهاده الباسل لسقطت غرناطة من شهور! إنه يا بنيتي هناك في مخبئه الحربي ولا يأس من لقائه! بهذا تحدثني نفسي!

تطلعت الفتاة إلى وجه والدها وهي بين المصدقة والمكذبة، ثم قالت في لوعة مريرة، وبعد تفكير طال مداه:

أبتاه، كان كلامك ذا موقع أكيد من نفسي، لو كان موسى لم يترك جواده الأشهب على شاطئ نهر شنيل، إذ كيف يستطيع الانتقال من حصن إلى حصن ومن مخبأ إلى مخبأ دون أن يكون مستعينا بفرسه الأصيل، إنني في حياتي لم أره بعيدا عن فرسه، وحين كان يزورنا، كان يستمتع بسماع صهيله عن قرب، ويقول لنا في ابتسام: يخيل إليّ أنه يناديني، وحين كنت أداعبه فأقول، وهل تحبه إلى هذا الحد؟ أجده يقول: وهل تغارين منه وهو أداة النجاة لمثلي! إن وجود الفرس على الشاطئ لدليل على أن صاحبه قد رحل إلى غير عود! ولا إخال رحيله كان أمرا سهلا، فلا بد أنه قاتل جمعا كثيفا من الأعداء ولا بد أن الكثرة الكاثرة قد احتاطت به فأكلته السيوف حتى لم تبق منه شيئًا، وإخاله أشفق على فرسه في الملحمة الأخيرة فتركه ينجو، وتقدم وحده إلى الاستشهاد!

فأطرق الشيخ برأسه، وقال: ستبدي الأيام ما تجهل، ولكن لا بد من الصبر يا بنيتي، فأنا لا أقوى على رؤيتك هكذا باكية صارخة! وكلامك عنه محتمل الوقوع، وكلامي أيضًا محتمل، ولسنا نملك وجه الترجيح فصبرا حتى ينجلي الظلام!

خرجت الفتاة من مجلس أبيها، وبين أضالعها من جمرات الحسرة ما لا طاقة لها به، وقد خلا الشيخ إلى نفسه ليمضي في حديث صامت، إذ يرى بينه وبين نفسه أن موسى قد ترك الحياة بعد جهاد مرير، ثم تذكر موقفه الأخير مع أبي عبد الله بن الأحمر ملك غرناطة، حين جاءه رسول الأسبان يملي عليه الشروط، فخاف أبو عبد الله أن يكون صاحب الكلمة الأولى في مجلس الشورى، إذ ربما هاجت نفس موسى فقذفه بالقول القارص، فتوجه إلى الشيخ جاسم يسأله رأيه فيما يحمل الرسول من شروط للصلح المرتقب، فقال جاسم، وماذا أملك؛ الرأي رأي موسى، فهو قائد الكتائب، ويعرف قوة جيشه، وقوة خصمه ومعه عقله الراجح، وتفكيره الدقيق.

وهنا وقف موسى ليصيح بأبي عبد الله الأحمر، لقد هانت غرناطة حين سمحتم لعدوها أن يرسل صغيره حاملا تهديده الغاشم في بنود ظالمة لا يقرها إلا كل ضعيف جبان!

فقال الملك: أنت يا موسى باسل شجاع، ولك دورك الذي أقدره حق قدره، ويقدره معي كل من يسكن هذه المدينة الحزينة، ولكن الظروف تقهر الأسد أحيانا على النكوص.

وهنا صاح موسى في وجه الملك: أي ظروف هذه يا ملك غرناطة، وأنت الذي حالفت عدوك على عمك وجعلته يطأ البلاد بخيله ورجله ليجلسك على عرش يهتز من تحتك، وما فعل ذلك هذا العدو اللدود استجابة لمروءة أو مراعاة لصداقته كما تخيلت، ولكنه رأى الفرصة سانحة، حين ينقسم بيتُ ابن الأحمر فريقين وحين يحارب ابن الأخ عمه، ويكيد له طمعا في ملك تحيط به الزلازل، وتستبد به العواصف، أفرحت أيها الملك بهزيمة عمك، ولم تعرف أنها الخطوة الأولى لهزيمة المسلمين جميعا وأولهم أنت!

لم ينطق الملك بغير التأسف الحار، وقال في لهجة الضارع، لقد أخطأت يا موسى حين ظننت أن ملك الإسبان سيرعى عهده معي، فلا تعنف بي هكذا!

فابتسم موسى ابتسام السخرية وقال: وهل رعى ملك الإسبان عهده مع صاحب (مالقة) أو أنه غدر به ورماه في سجن مظلم لقيَ به أسوء المصير؟ وهل رعى ملك الإسبان عهده مع صاحب (إشبيلية) أو أنه بعث بمن قيده وسحبه إلى مقره، فقابله باستخفاف هازئ، وأسلمه إلى سجنه الرهيب! ألا تعرف أنت مصير صاحبي مالقة وإشبيلية حين تقدمت إلى عدوك لتخذل عمك، ولتعجل الحكم، وكان سيصل إليك بعد رحيله لو اصطبرت! لقد سمعت كلام النساء أيها الملك! وتركت آراء القضاة والفقهاء والعلماء! فلماذا تجمعهم الآن، وقد خذلتهم من قبل! ألديك جواب؟

ثم التفت موسى إلى الجمع الحزين في مجلس الشورى وصاح:

يأتي رسول الأعداء، ويجلس بيننا في غطرسة باطشة متشفية، ويقدم شروط ملكه! طالبًا خمسمائة رهينة لديه من شباب غرناطة، ويكونون تحت يده في عاصمة ملكه، فإذا بدرت بادرة ثورة، أعمل فيهم السيف، وتقبلون هذا بارتياح! قل أيها الملك! قل يا أبا عبد الله! قل يا ابن الأحمر!!.

وهنا قال أبو عبد الله في شبه بكاء، ذلك أهون يا موسى من أن يقتحم الأعداء منازلنا، فيقتلون الشيوخ والأطفال ويهدمون القصور والمتاجر ويسوقون النساء سبايا تباع في الأسواق!.

وهنا انفجر موسى صارخًا! أتحسب أن هذا لن يكون إذا احتل العدو المدينة! إن كل جندي أسباني يحلم باختطاف غرناطية جميلة، وما تشجعوا إلا حين مناهم مليكهم بكثرة السبايا، والذين يخطفون الحسان، لن يتركوا بالمنزل حرمة لشيخ، ولا شفقة على رضيع! الأسبان هم الأسبان لا يرعون عهدًا ولا ذمة أيها الملك!!.

تململ سفير الأسبان من مجابهة موسى، فآثر أن يستأذن، ولكن الملك توسل إليه أن يبقى، ليستمع آراء المحتكين من الشيوخ، فخرج موسى غاضبًا ناقمًا!! كل هذه الخواطر دارت في نفس الشيخ جاسم بعد خروج ابنته وحاول النوم لينجو من شجونه

فـــارس غرناطـــة

القاتلة فلم يستطع، وما زال يتململ على فراشه ذات اليمين وذات الشمال، حتى ارتفع صوت الفجر، فنهض ليؤدى الصلاة بالمسجد، فلم يجده كعهده آهلًا عامرًا، حيث خاف الناس على أنفسهم، إذ أذيع أن العدو قد اقتحم الحصون، ودمعت عينا الرجل حين نظر إلى من خلفه من المصلين فلم يجد غير عشرة رجال، كلهم شيوخ فانون. وقد عرف فى وجوههم أبلغ معانى اليأس، فاتجه إلى الصلاة فى أسى أليم..

انتهت الصلاة، وقام الشيخ جاسم متثاقلًا إلى داره، فسمع من يدعوه باسمه، فإذا هو رضوان بن حمد والد البطل نعيم ابن رضوان صديق موسى ورفيق جهاده، فانتظر حتى دنا منه، وقال له فى رفق، مالك تسرع هكذا يا جاسم أما لديك أنباء عن موسى وعن ولدى نعيم!

فتطلع جاسم إليه فى إشفاق، وقال له: وأنت أيضًا لا تعرف شيئًا عن ولدك الشجاع، تعال معى يا رضوان، فقد أجد فى حديثك ما يريح؟ قال رضوان: وإلى أين تذهب؟ لعل المسجد أحنى علينا من أى مكان سواه، لنطمئن به قليلًا، ونحن فى حرم الله!.

رجع الشيخان إلى المحراب، وابتدأ رضوان بن حمد يقول:

سأموت مستريحًا يا جاسم، لأن ابنى قام عنى بأعنف ضروب الجهاد، لقد شجعه موسى على الإقدام على الموت منذ ترأسا فرق الهجوم على الأقوات!.

قال جاسم فى شبه أسف، لم يحدثنى موسى بشىء عن هذه الفرق يا أخى! كما لم يحدث خطيبته فتاتى، وهى الآن تجهل من أمره كل شىء!.

فعض رضوان على شفتيه، وقال: لقد أدركت أن موسى قد خلق للاستشهاد منذ سمعت صوته الغاضب فى مجلس أبى عبد الله، كما لمحت شرار الغضب يندفع من عين ولدى نعيم، وحين همّ موسى بالانسحاب، سار ولدى خلفه، وطالت غيبته مدى يومين، وأنا قلق لا أدرى كيف أستقر، فلما عاد إلينا فى حندس الليل، قمت فاعتنقته وقبلته بين عينيه، وقلت له فى حنو: لا سبيل عليك يا ولدى، فأنت مصدر فخرى، بل أنت شفيعى لدى الله حين يقوم الناس لرب العالمين، ولكن أحب أن أعلم اتجاهك فى كفاحك مباركًا إياه، فعلى أى شىء تعزم؟ ومعك الله، ولك منى خالص الدعوات.

فقال نعيم: إن موسى بن أبى الغسان، قد جمعنا نحن شباب غرناطة، وأمرنا أن نيأس من كل اتفاق يعقده أبو عبد الله مع فرديناند ملك النصارى، وقد جعل منى قائد السور الذى يحيط بالمدينة، ومن محمد بن زائدة قائدًا للغارات الخاصة بمهاجمة النصارى خلف السور، وبدأ بالهجوم أول ليلة ليرينا طريقة الاندفاع والارتداد، وجعلنا نستتر بغصون الشجر فى حندس الليل، فإذا اقتربت سرية من سرايا النصارى داهمناها جميعًا فى أسرع من لمح البرق، وقد انزعج الأعداء لهذا الهجوم المباغت، دون أن يقف جيش أمام جيش ورأوا فيه عملية استئصال بطيئة، وقد وُفقنا كثيرًا فيما نصنع، ولكن كثرة العدو، وامتلاء الساحة بمدافعه وقذائفه تجعل مقاومتنا ذات أمد محدود، وموسى يعلم ذلك، ولكنه يفضّل أن نموت بعدما نحصد الآلاف من رؤوس العدو، وبذلك تكون غرناطة قد كلفت عدوها أفدح الأثمان. ثم أخذ ولدى يدىّ فقبلهما وطلب أن أدعو للمسلمين بالنصر، فقلت على أن تعود إلينا كل ليلة إذا استطعت لنطمئن عليك، وعلى أبطالنا المجاهدين!.

قال جاسم: وهل عاد نعيم بعد هذا اللقاء! فأطرق رضوان برأسه إلى الأرض وقال فى لوعة: عاد ابن أبى الغسان بما توجه بالفخار والعزة، وقال إنه سيلحق به، فعلمت أن الاستشهاد الباسل سبيلهما إلى جنة الله!.

انتفض الشيخ جاسم انتفاضة المأخوذ، وصاح بصاحبه متوسلًا: بربك أخبرنى بكل ما تحدث به عن موسى فلست أملك الصبر ساعة عن معرفة عقباه!.

قال رضوان: حدثنى نعيم - وتوالت الأنباء بعده بما أكد حديثه - فقال إن موسى كان يتدرع بالحديد فلا يترك غير ثقبين لعينيه، ومعه سيفه الباتر، فأخذ يترصد سرايا العدو حين تمر على ضفاف نهر شنيل وهو مستخف فى ظلال الشجر المتكاثف، فإذا وجد سرية أقل من عشرين هاجمها كالموت فجعل يحصد بسيفه عن يمين وشمال، وهم لهول المفاجأة لا يملكون غير طعنه بالسيوف أو الرماح فى مواقع لا تبلغ شيئًا من جسمه لأن الحديد الثقيل يكسوه من كل مكان، وكم قدّ من رؤوس، وطعن من صدور، وقد تكرر ذلك منه، فعرف القوم مخبأه وهجم عليه أكثر من خمسين جنديًا فى حمية غاضبة تنشد الثأر، فقاوم مقاومة باسلة أسقطت على الأرض أكثر من عشرين مهاجمًا، فلما تغلبت عليه بالكثرة، هرول سريعًا إلى نهر شنيل ورمى بنفسه دون أن يركع لعدو مستبد، لقد كانت بطولته فى معركته الأخيرة تتويجًا لبطولات تعرفها، ولكنها فاقت ما نسمع عنه من بطولات الشجعان، هكذا، قال ولدى، ثم عجّل بالذهاب، وما رأيته منذ سار!.

قال جاسم: إذا كان قد انقطع هذا الأمد، فذلك ما يريب! فعجّل رضوان هاتفًا: أتقول ما يريب؟ ليس فى المسألة ريب، بل يقين، لقد آلى على نفسه أن يحذو حذو موسى بن أبى الغسان، وإذا انقطعت أخباره فقد أوفى نذره، وصدق الله وعده، ولحق بصاحبه فى أنضر فردوس!.

هنا قال الشيخ جاسم: هنيئًا لهما يا رضوان! إن مقامها عند الله ليخفف عندى كل هم، ولكن ماذا سأقول لكريمتى، حين تبتدرنى بالسؤال عن موسى؟ وهى فى أحرج حالات الانتظار؟

فأطال رضوان النظر إلى صاحبه وقال فى هدوء: لا تقل شيئًا، فكل خاف سيُعلم بعد حين، ولأن تعلم من سواك خير من أن تقذفها بأصعب الأنباء! ماذا تصنع يا جاسم، وليس لنا من الأمر شىء، إذ الأمر كله بيد الله!.

ثم نهض الشيخان إلى منزليهما، وفى كل صدر شجى يتوقد، وفى كل عين عبرة تسيل!.

تضامن (*)



لعميد الأدب العربي
الأستاذ الدكتور طه حسين

لم يكن عمر بن الخطاب رحمه الله، يقدّر حين صدر بالمسلمين من الحج سنة ثماني عشرة للهجرة، أنه يستقبل بالمسلمين من أهل بلاد العرب، ومن أهل الحجاز ونجد وتهامة خاصة، عاما أسود قاتما يُمتحن المسلمون به في أنفسهم وأموالهم وأخلاقهم، وفيما أتيح لهم من الصبر على الشدائد والثبات للمكروه والنفوذ من الخطوب، وفيما أتيح لهم كذلك من هذا الشعور الكريم الممتاز الذي يجعل الإنسان إنسانا، ويرقى به إلى المنزلة العليا من منازل الكرامة، وهو شعور التعاطف والتآلف والتضامن الاجتماعي الذي يلقي في روع كل فرد مهما تكن منزلته، أنه عضو من جماعة يسعد بسعادتها، ويشقى بشقائها، ويأخذ بحظه مما يصيبها من النعماء والبأساء، وما ينوبها من السراء والضراء.

لم يكن عمر رحمه الله يقدر أن الغيب قد أضمر له وللمسلمين من أهل بلاد العرب هذه المحنة القاسية، يمحص بها قلوبهم، ويصفي بها نفوسهم، ويعلمهم بها أن الحياة ليست نعيما متصلا، ولا رضاء مقيما، ولا خصبا يتجدد كلما تجددت الفصول، وإنما هي مزاج من النعيم والبؤس، ومن اللذة والألم، ومن السعادة والشقاء، وأن سبيل المؤمن الذي مَسّ الإيمان قلبه حقا، هو ألا يطغى إذا استغنى، ولا يبطر إذا نعم، ولا ييأس إذا امتحن بالبؤس والشقاء، وألا يؤثر نفسه بالخير إن أتيح له الخير من دون الناس، وألا يترك نظراءه نهبا للنوازل حين تنزل، وللخطوب حين تلم، وإنما يعطي الناس مما عنده حتى يشاركوه في نعمائه، ويأخذ من الناس بعض ما عندهم حتى يشاركهم في بأسائهم. فالله لم ينشر ضوء الشمس ليستمتع به فريق من الناس دون فريق، والله لم يرسل النسيم لتتنفسه طائفة من الناس دون طائفة، والله لم يجر الأنهار ولم يفجر الينابيع لتشرب منها جماعات من الناس، وتظمأ إليها جماعات أخرى، والله لم يخرج النبات من الأرض، ليشبع منه قوم ويجوع قوم آخرون!

وإنما أسبغ الله نعمته ليستمتع بها

الناس جميعا، تتفاوت حظوظهم من هذا الاستمتاع، ولكن لا ينبغي أن يفرض الحرمان على أحد منهم، مهما يكن شخصه ومهما تكن طبقته، ومهما تكن منزلته بين مواطنيه.

لم يكن عمر رحمه الله يقدر حين صدر من الموسم في ذلك العام أن الله سيرسل إلى المسلمين عاماً جديدا، يمتحنهم فيه بالجوع والظمأ والعري امتحانا لم يعرفوا مثله منذ عهد بعيد أشد البعد، وكيف كان عمر يستطيع أن يقدر ذلك وأمور الدولة الناشئة تجري على خير ما كان المسلمون يحبون من العدل والسعة وبعد الصوت، وانتشار الفتح وكثرة الفيء وغزارة الرخاء، ولكن العام الجديد يقبل، وإذا السماء تبخل بمائها حتى تحترق الأرض ظمأ إلى هذا الماء، وحتى تسوّد كأنها الرماد، وحتى يضطر المسلمون إلى أن يسموا هذا العام عام الرمادة، بخلت السماء بالماء، وجادت الشمس بالحر، وعجزت الأرض عن أن تخرج للناس ما يأكلون وما يطعمون به ما كانوا يسومون من الثاغية والراغية، وينظر عمر بعد أن استقر في المدينة، فإذا الأزمة تسعى متمهلة مستأنية ولكنها مسترتقة من نفسها، ملحة في سعيها، وإذا أهل البادية قد أجدبوا واشتد عليهم الجدب، فلم يفكروا إلا أن يهرعوا إلى خليفتهم، يلتمسون عنده ما يطعمهم من جوع، ويسقيهم من ظمأ، ويكسوهم من عري، وما له لا يفعل ذلك وهو قد أخذ أبناءهم وآباءهم وإخوانهم، وكاسبيهم، وعائليهم، فرمى بهم تلك الثغور، ودفع بهم إلى حروب يعرفون أولها ولا يعرفون آخرها، وما لهم لا يهرعون إليه وهم كانوا يشعرون بحبه، وعطفه عليهم، وبره يسعى إلى أقصاهم كما يسعى إلى أدناهم، لا يقصر عن السعي إليهم ساعة من ليل أو ساعة من نهار، ثم ينظر عمر فإذا جزيرة العرب كلها ترسل إليه من بقي فيها من الشيوخ والنساء والأطفال والعاجزين الذين لا يقدرون على شيء، والقادرين الذين لا يجدون شيئا يقدرون عليه...

هنالك ينهض عمر للقاء هذه الأزمة العنيفة الجائحة نهوض الرجل الذي يعرف الحق كما لم يعرفه أحد بعده، ويحمل العبء كما لم يحمله أحد بعده، ويواجه الخطب مصمما على أن ينفذ منه أو يموت من دونه، مهما تكن الظروف، حتى أصبح عام الرمادة ذلك كنزا من كنوز المسلمين لا ينفد ولا يدركه الفناء، يجد المسلمون فيه من العبرة والموعظة الحسنة والقدوة الصالحة، ما لا يمتنع عليه قلب له حظ من رفق ولين، إلا أن يكون من تلك القلوب التي وصفها الله عز وجل، بأنها قست فهي كالحجارة أو أشد قسوة، وقد بدأ عمر رحمه الله بنفسه في مقاومة هذا الخطب، فأبى إلا أن يكون رجلا من المسلمين: يشقى كما يشقون، ويجوع كما يجوعون، ويظمأ كما يظمأون، ويشتد على نفسه وعلى أهله بمقدار ما تشتد الأزمة على أشد الناس فقرا وبؤسا؛ ذلك لأنه يؤمن بأن من الحق عليه لنفسه ولله وللناس أن يفعل ذلك، ثم يفعله لأنه مؤمن بأن من الحق عليه أن يعلم الناس كيف يكون التضامن والتعاون والتعاطف، حين تنزل المحن وتلم الخطوب، فيأبى إلا أن يعيش

كما يعيش أفقر الناس.

رأى المسلمين لا يجدون السمن إلا في مشقة وجهد، فحرم على نفسه السمن حتى تجده عامة الناس.. وفرض على نفسه الزيت والخبز الجاف، فلما تقل عليه الزيت ظن أنه إن طبخ له فقد يكون أخف على معدته احتمالا، فأمر أن يطبخ له الزيت، وأكله مطبوخا فكان أوجع له، وأعسر هضما، حتى تغير لونه واسودّ وجهه، وكان شديد البياض، ثم جعل يطعم الناس على الموائد العامة، ويجلس معهم إلى هذه الموائد، يأكل مما يأكون منه، ثم أمر المنادين أن ينادوا في الناس، من شاء أن يقبل على هذه الموائد فيأكل منها فليفعل، ومن شاء أن يقبل على هذا الطعام فيأخذ منه حاجته وحاجة أهله ليأكل معهم فليفعل، وكان يشرف بنفسه على إعداد الطعام، وربما علَّم الطباخين كيف يطبخون، ولكن الأزمة تشتد وتشتد، وأهل البادية يهرعون إلى المدينة، وكثير منهم لا يستطيعون أن ينتقلوا من أماكنهم، قد هلك الزرع، وجف الضرع، ونفقت الماشية، وأصبح من الحق على الخليفة أن يدرك هؤلاء الناس، في مواطنهم، ويحمل إليهم أرزاقهم، ما داموا عاجزين عن السعي إلى هذه الأرزاق، هنالك يكتب عمر إلى عماله في الأقاليم، يأمرهم بأن يرسلوا إليه الأمداد، واقرأ هذا الكتاب القصير الرائع الذي كتبه إلى عامله على مصر عمرو بن العاص، رحمه الله، وانظر إلى ما في هذا الكتاب القصير الرائع من عنف عنيف، ملؤه الرحمة الرحيمة، والرفق الذي ليس بعده رفق: «بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر، أمير المؤمنين، إلى عمرو بن العاص. سلام عليك أما بعد، أفتراني هالكا ومن قبلي، وتعيش أنت ومن قبلك؟ فياغوثاه يا غوثاه.... يا غوثاه» فلم يكد عمرو بن العاص رحمه الله يقرأ هذا الكتاب الذي يزجره فيه أمير المؤمنين أشد الزجر، حتى كتب إليه: «بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله عمر أمير المؤمنين، من عمرو بن العاص. سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد أتاك الغوث فلبث لبث! لأبعثن إليك بعير، أولها عندك، وآخرها عندي»...

ثم نهض عمرو في إرسال هذا الغوث برا وبحرا، وكتب عمر إلى عماله الآخرين في الشام والعراق، فكلهم صنع صنيع عامل مصر، ثم أرسل عمر إلى حدود بلاد العرب مما يلي الشام والعراق ومصر، وأمرهم أن يتلقوا هذه المعونات، فيميلوا بها إلى أهل البادية، في أماكنهم وأحيائهم، ليطعموهم، ويكسوهم ويسقوهم، وعزم على رسله هؤلاء، ألا يضعفوا ولا يلينوا ولا يفرقوا ما في أيديهم من الطعام دون أن يتبيَّنوا أنه صائر إلى بطون الجائعين، لا إلى خزائن المختزنين، وأشد من هذا روعه، وأعظم من هذا إثارة للعبرة، أن عمر رحمه الله، كان يقول: «نطعم ما وجدنا أن تطعم، فإن أعوزنا جعلنا مع أهل كل بيت ممن يجد عدتهم ممن لا يجد إلى أن يأتي الله بالحيا»

ومعنى ذلك أنه رحمه الله قد فتح بيت المال على مصراعيه وأزمع أن يرزق الناس منه حتى إذا لم يجد فيه شيئا كلف كل أسرة غنية، أن تطعم مثل عددها من الفقراء

يأخذهم بذلك بسلطان القانون والدين، حتى يأتي الله بالفرج.

وما قصصت عليك هذا كله إلا لأرفه عليك بروائع التاريخ، أو لأطرفك بهذه النوادر البارعة من سيرة أمير المؤمنين، عمر بن الخطاب، فلسنا في وقت ترفيه ولا أطراف ولا ترويح، وإنما نحن نحيا في أيام سود، ليست أقل نكرا ولعلها أن تكون أشد نكرا من عام الرمادة ذاك!!

فقد كان المسلمون في أيام عمر، وفي ذلك العام، يجدون الجوع والظمأ والعري، فأما المصريون في هذا العام، فإنهم يجدون الموت ويجدون المرض، ويجدون بعد الموت والمرض ما كان يجد العرب في عام الرمادة من الجوع والظمأ والعري، ومن حق المصريين الذين صب عليهم الوباء، أن يدفع عنهم هذا الوباء، وأن ترد عنهم آثاره، فلا يكون منهم من يشكو الجوع والظمأ والعري، وهذا الحق واجب على الدولة، ما وجدت في خزائنها من المال ما يمكنها من ذلك، لا ينبغي أن تفكر في شيء حتى تفرغ من هذه المحنة، فإن لم تسعفها خزائنها فمن الحق عليها أن تسلك الطريق التي أراد عمر أن يسلكها، وأن تفرض على القادرين رعاية العاجزين حتى يأتي الله بالفرج.

يجب أن تعلم الدولة، ويجب أن يعلم الموسرون، أن التصدق بالمال خير في أوقات الرخاء والدعة واللين، فإذا اشتدت الشدة وأزمت الأزمة وألم الوباء، فالتصدق واجب يفرضه العدل، فإن لم ينهض به الأفراد من تلقاء أنفسهم، وجب على الدولة أن تأخذهم به أخذا، يجب على الدولة أن تعلم أن الله قد أمر أئمة المسلمين في أوقات الرخاء والدعة أن يأخذوا من الأغنياء ويردوا على الفقراء، حتى لا يبقى بين الناس جائع أو محروم، فإذا جد الجد، وألمت الكارثة، فحرام على الموسرين أن يطعموا وأن يشربوا وأن يكتسوا، حتى يطعم الجائعون ويشرب الظامئون ويكتسي العارون من المعسرين، وعلى الدولة أن تقوم على هذا كله بسلطان القانون، فإن لم تفعل فهي آثمة أشنع الإثم في ذات الله، وفي ذات الوطن، وفي ذات المواطنين.

هذه دروس ألقاها عمر بن الخطاب على الحاكمين والمحكومين في التضامن الاجتماعي الذي لا يقوم على الاشتراكية، ولا على الشيوعية وإنما يقوم على قول الله عز وجل:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

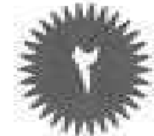
النحل: ٩٠.

فهل نطمع في أن تسمع الدولة وفي أن يسمع الموسرون، وهل نطمع في أن تتذكر الدولة ويتذكر الموسرون، وهل نطمع في أن تعفي وتعفى الكرامة الإنسانية، من طلبات الصدقات في الصحف إلى قوم يؤثرون الأموال على الوطن وعلى المواطنين؟

إن من الحق على الدولة أن تعلم البخلاء كيف يكون الكرم والجود بسلطان القانون إذا لم يصدر عن يقظة الضمائر وحياة النفوس.

اللسان المنتمى!

قراءة فى الملامح الأسلوبية للدكتور / عبد الحليم عويس



أ.د. خالد فهمى
كلية الآداب / جامعة المنوفية / مصر



-(خ ل ف)

يدور فى فلك هـذا الجذر ثلاث مفردات على وجه التعيين يمثل تواترها فى كتابات عبد الحليم عويس أهمية بالغة الخطر ، هذه المفردات هى : الخلافة بما هى حلم يعكس وحدة المسلمين ، و رمز من رموز مجدهم وتفوقهم الحضارى و السياسى ، و الخلاف ، بما هو طريق مفض إلى الضعف و السقوط ، والتخلف بما هى ناتج منطقى للسقوط .

ومن يطالع عنوانات فصول كتبه يلحظ تكرار ظهور هذه المفردات كما يلى :

فى كتابه (أوراق ذابلة من حضارتنا : دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية) (ص٥٥) : سقوط خلافات و دول شرقية ؛ و (ص ٩١) : البويهيون الذين سطوا على الخلافة يسقطون ، و(ص١٧٧) : سقوط آخر خلافة إسلامية و (ص ٨ فى كتابه :أسطورة إحراق طارق بن زياد للسفن :دراسة تاريخية نقدية) : خلافة قرطبة .

ومن نماذج استعمال لفظة التخلف ما يلى : جاء فى كتابه (العقل المسلم فى مرحلة الصراع الفكرى) (ص١٨٧) النورسى ورؤيته لأسباب التخلف.

و من نماذج استعمال لفظ الخلاف ما يلى : فى كتابه (سقوط ثلاثين دولة ص٣١) : «ولقد استفحل الخلاف ... بين هؤلاء الملوك» .

و يدور فى فلك هذه المفردة مجموعة من مفردات حقلها الدلالى من مثل : التناحر ، والصراع ، و التنازع .

-(د م ى)

تكرر ظهور لفظ الدم موصوفا بالإسلامى بنسبة بالغة الكثرة فى سياقات متنوعة موزعة على الوصف و التحليل و الرثاء والإشفاق ، بما يعكس خطرها فى تقدير قيمة الإنسان المسلم الذى هو مراد عبد الحليم من الاستعمال المتنوع لهذه المفردة ، و استعمال هذه الكلمة بديلا عن الإنسان المسلم مقصود من وراء ما تحمله من شحنات وجدانية إيجابية دافعة على التعاطف مع قضية الوجود الإنسانى الإسلامى ، ومدى العسف و الظلم الذى يعانيه .

يقول فى كتابه (المسلمون فى معركة البقاء ص ١١) : الدم الإسلامى أرخص الدماء فى الأرض ؛ و ص١٣ ؛ وص١٤ ؛ وص١٥ ؛ وص ١٧ ؛ وص ١٨ و غير ذلك كثير .

و يتعانق مع هذه المفردة كلمات أخرى تدخل معها فى علاقات ترادف تام من مثل : الضحايا .

-(ر ب ى)

تمثل كلمة التربية محورا مهما من المحاور التى اعتمدها عبد الحليم عويس فى كتاباته طريقا لنهضة المسلمين ، و استعادة حضارتهم ، حتى دعا إلى تأسيس علم خالص لمنجز التربية وفق منظومة الأخلاق الإسلامية ، نوع فى تسميته باسم : علم الفتوى و علم السلوك الإسلامى .

ومن أمثلة ظهورها فى عدد من عنوانات فصول بعض كتبه ما يلى :فصل : تقريب التربية فى العالم الإسلامى فى كتابه : (المسلمون فى معركة البقاء ص١٠٥) وفصل : التربية عقل الحضارة فى كتابه (فقه التاريخ فى ضوء أزمة المسلمين الحضارية ص ١٤٠) وفصل : الأخلاق : فطرة و تربية ، وفصل :أثر التربية الأخلاقية فى بناء الفرد فى كتابه : الجوانب الروحية والعقلية والأخلاقية فى الإسلام ص ٨١ ؛وص ١٠٧ على الولاء) و يتعانق معها مفردة مهمة جدا لا تقل عنها أهمية هى : الأخلاق .

-(س ق ط)

تأتى هذه المفردة لتكون من أعلى مفردات معجم عبد الحليم عويس تكرارا على الإطلاق بجوانب مفردة الإسلام ، وهو ما يعكس عنايته البالغة بقضية سقوط الأمة ، وتراجعها ، و أسبابه وتاريخه ، وعوامل التغلب عليه ماديا ومعنويا .


د. عبدالحليم عويس

و يكفى فى هذا السياق تأمل ورودها فى عناوين كتبه ، و عناوين فصول كتبه من مثل : ما ورد فى عنوان كتابه (أوراق ذابلة من حضارتنا : دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية) حيث تكرر ظهورها فى ثمان وعشرين مرة !

و قد تنوع تصريفها حيث ذكرت فعلا ومصدرا ، و ظهرت الكلمة كذلك فى عنوان كتابه (تجربة الأندلس : أسباب السقوط دروس و عبر) حيث تكرر ظهور الكلمة خمس مرات فى عنوانات الفصول كما ظهرت الكلمة و تصريفاتها فى عنوانات عدد من فصول كتابه (أسطورة إحراق طارق بن زياد للسفن :دراسة تاريخية نقدية) فى مثل : ص ٤٢ (ركن من الفردوس يسقط) و ص ٤٦ (سقوط غرناطة)

و يدور فى فلك هذه المفردة ذات النسبة التكرارية العالية كلمات من مثل : الضعف ،والفساد الداخلى ،و نحو ذلك من تواتر ألفاظ من مثل : المرض و الأمراض والجاهليات والصراع والانفصال والفوضى .

-(س ل م)

تمثل كلمة الإسلام و مشتقاتها نسبة عالية جدا تجعلها أعلى الكلمات فى نسبة تواترها ، وهو أمر منطقى فى تفسيره ، بما

هو مشغلة المفكر الإسلامي عموما، ويكفي في هذا السياق فحص عنوانات كتب الراحل الكريم، و عنوانات فصولها لندرك الحضور الطاغي لهذه المفردة مما يعكس أن العمل لها كان هو الغاية الأساسية وراء كل كتاباته التاريخية، و الدعوية و الفكرية جميعا.

و يتعانق مع هذه المفردة المحورية مفردات أخرى تدخل معها في علاقات ترادف تام أو شبه تام أو اشتمال من مثل: الإيمان، و القرآن و الشريعة و الوحي و غير ذلك.

و يكفي في هذا السياق رصد عنوانات الكتب بما تحويه من استثمار لهذه المفردة (المسلمون في معركة البقاء) حيث تكرر استعمال مشتقات الإسلام ثماني مرات في عنوانات الفصول من أصل ثلاثة عشر عنوانا، و (دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية) و(الإسلام كما أومن به) و قد ظهرت مفردة الإسلام ثماني مرات من أصل أحد عشر عنوانا، و الثلاثة العناوين الأخرى ظهر فيها (القرآن) مرتين، والوحي مرة واحدة و(تفسير التاريخ علم إسلامي) و (فقه التاريخ في ضوء أزمة المسلمين الحضارية) و(العقل المسلم في مرحلة الصراع الفكري) و(الشباب المسلم بين تجربة الماضي وآفاق المستقبل) و(إنسانيات الإسلام) و(المسلمون من التبعية و الفتنة إلى القيادة والتمكين) و(الجوانب الروحية و العقلية والأخلاقية في الإسلام).

وتأمل هذا التواتر البديع دال على سكون الفكرة الإسلامية في ضمير الراحل الكريم.

– (ص رع): (ينظر الجذر السابق):
(س ق ط) في الإشارة إلى الصراع.

– (ض ع ف): (ينظر الجذر السابق):
(س ق ط) في الإشارة إلى الضعف.

– (غ ز و)

تكررت هذه الكلمة بشكل كبير جدا في عنوانات كثير من فصول كتبه متعانقة مع مفردات أخرى من حقلها من مثل: معركة و استعمار، و كان الوصف الغالب الشائع المستعمل معها متمثلا في مفردة (الفكري) في إشارة صريحة إلى خطر التغريب الفكري.

ومن هنا فإن مفردة التغريب بدورها تكررت بنسب عالية جدا هي الأخرى.

– (ف س د) (ينظر الجذر السابق):
(س ق ط) في الإشارة إلى الفساد

– (ف ص ل) (ينظر الجذر السابق):
(س ق ط) في الإشارة إلى الانفصال

– (ف و ض) (ينظر الجذر السابق):
(س ق ط) في الإشارة إلى الفوضى.

– (ق و د)

تكررت مشتقات هذا الجذر ولاسيما مفردة القيادة، و إنما بدورها في التمكين للحضارة الإسلامية إن سارت على نهج القيادة الراشدة، و قد ظهرت في عنوانات بعض كتبه من مثل (المسلمون من التبعية والفتنة إلى القيادة و التمكين)

– (م ض ى) ينظر جذر (ورخ)

– (م ك ن)

تكررت مفردة التمكين بنسبة عالية في محيط من أمثال لها يدخل معها في علاقات ترادف من مثل: الانتصار، و النهضة، والصحوة؛ حتى أنها ظهرت في عنوانات بعض كتبه و فصوله من مثل (المسلمون من التبعية و الفتنة إلى القيادة و التمكين)

– (ن م ى)

تكررت مفردة التنمية مرادفة للبقاء في عدد من عنوانات فصول كتبه.

– (هـ و ى)

تكررت مفردة الهوية بنسب عالية متعانقة مع بعض المفردات من مثل الانتماء و هي فيما وردت ترد مرادفة للإسلام، وثقافته وعقيدته و سلوكه و أخلاقه.

– (و ح د)

تكررت مشتقات هذا الجذر و تجلياتها في صورتي (التوحيد) و (الوحدة) ومن أمثلة استعمالها في عنوانات فصول كتبه ما جاء في عنوان فصول كتابه (المسلمون من التبعية ...) ص ١٨٥: خطوات عملية في الطريق لوحدة الأمة الإسلامية، وص ٢٠١ فقه القرآن من وسائل الوحدة الثقافية، و ص ٢٠٨ و تحجيم مشكلات الماضي الفكرية طريق للتوحد الثقافي المعاصر، ومما ورد في عنوان بعض فصول كتابه :(رجل القرآن...) ص ١١٠: توحيد المنهج والغاية بعد توحيد القبلة.

– (و رخ)

تعد كلمة التاريخ ثاني أعلى الكلمات دورانا بعد كلمة الإسلام، وهو الأمر الذي ينبغي فهمه في إطار أن عراقة الفكرة الإسلامية و نهضتها و مجدها، و مقاومة أسباب سقوطها غاية عظمى طريق تحصيلها كامن في فحص التاريخ و الماضي و تفسيره و استنطاق عبره و دروسه.

ومن النادر أن يخلو عنوان كتاب من كتبه الكثيرة من ظهور هذه المفردة المحورية، ومن أمثلة ذلك: تفسير التاريخ علم إسلامي، و فقه التاريخ في ضوء أزمة المسلمين الحضارية، و الشباب المسلم بين تجربة الماضي و آفاق المستقبل، وتجربة الأندلس: أسباب السقوط، دروس وعبر. و أسطورة إحراق طارق بن زياد للسفن: دراسة تاريخية نقدية.

ملاحظات على معجم عبد الحليم عويس

لقد أثمر فحص معجم عبد الحليم عويس كما ظهرت في النماذج السابقة مجموعة من الملاحظ المنبئة عن منهجه الفكري في تحليل أزمة المسلمين الحضارية المعاصرة يمكن إجمالها فيما يلي:

أولا– الوعي بأن تميز الأمة الإسلامية كامن في وعيها بشمول الفكرة الإسلامية والاستمساك بهذا الشمول ماديا و معنويا، وروحيا و عقليا و أخلاقيا و اجتماعيا.

ثانيا– الوعي بأن السقوط له أسباب كثيرة، و أنه نتاج الضعف و التناحر والفساد الداخلي، و الخلل في فهم طبيعة الفكرة الإسلامية التي لا تعرف العنصرية.

ثالثا– الإيمان الجازم بحتمية السير في طريق التربية، ومقاومة علامات التغريب، والغزو الفكري، والاستعمار المادي والمعنوي معا، و أن ذلك كله مقدمة لا غنى عنها للنهضة والتمكين.

رابعا– الوعي بأن النهضة طريق طويلة لا يمكن تحصيلها من دون تحصيل الوحدة

الثقافية ، و المادية معا ، و أن مقدمات السقوط كامن في ضياع الوحدة الثقافية والجغرافية و البشرية معا .

خامسا- الدخول إلى التاريخ بما هو البعد الحاضر الذى لا يغيب و القادر على هداية الحاضر و ضبط حركته ، واستنتاج قوانين التعامل معه ، إيمانا بأن الأمة الإسلامية أمة ممتدة لا تغيب ، وإن ضعفت .

سادسا- الإيمان بأن محددات الهوية أساس للبناء والتنمية ، ونهضة المسلمين .

سابعا- جاء استعمال عبد الحليم عويس للمفردات / المفاتيح صحيحا سليما وفق معايير الصحة اللغوية أو السلامة و الفصاحة ، صحيح أن عددا منها ألفاظ محدثة لكنها موافقة لقواعد توليد الكلمات في العربية تطويرا دلاليا أو اشتقاقا تسمح به أنظمة الاشتقاق ، أو تعريبا .

٢/٢ تراكيب الدكتور عبد الحليم عويس

تمثل الجملة الحامل الأول لفكر أي مفكر إلى جماعة المتلقين ، و بقدر الانشغال بفكرة ما ، و صدق الاقتناع بها ، ووضوحها في عقل صاحبها ، و الحرص على إيصالها إلى الآخرين ، وحملهم على الإيمان بها ، والتعاطف معها يكون تأثيرها على خصائص التراكيب ، أو الجمل ، من حيث نمطها ، وتكوينها ، وطولها أو قصرها ، و تعقدها من عدمه .

وفي هذا المطلب من هذه المقالة محاولة لرصد طبيعة التراكيب اللغوية ، و ما يؤثره الدكتور عبد الحليم عويس في بنائها وتكوينها .

١/٢/٢ إيثار الجملة الاسمية

إن فحص التراكيب على مستوى عناوين فصول كتب الدكتور عبد الحليم عويس يعكس إيثارا واضحا للتراكيب الإسمية الطويلة في أنماط متنوعة من مثل :

أ- نمط (١) مبتدأ + صفة) + خبر مفرد معرف بالإضافة ، في مثل عنوان فصل : الدم الإسلامي أرخص الدماء على الأرض .

ب- نمط (٢) مبتدأ (+صفة) + خبر جملة فعلية ، من مثل : إفريقيا المسلمة تستغيث ومن مثل : الروتاري الصهيوني ينتشر في مصر .

ج- نمط (٣) مبتدأ معرف بالإضافة +خبر جملة فعلية ، من مثل : شخصية مصر تباع في المزاد .

و إيثار الجملة الإسمية بأنماطها المختلفة قديم في كتابات الراحل الكريم رحمه الله تظهر أمثلته في بدايات مؤلفاته التي تعود إلى عام سبعة وستين وتسعمئة وألف يقول في بعض عنوانات فصول كتابه (سقوط ثلاثين دولة إسلامية) :

- ركن من الفردوس يسقط .
- دولة الفتوحات تسقط .
- الإخشيديون ...يسقطون .
- البويهيون .... يسقطون .
- المماليك ....يسقطون .
- الموحدون يسقطون .

وهي كما ترى مكونة من (مبتدأ+ خبره جملة فعلية فعلها مضارع)

و يقول كذلك في بعض عناوين مثل كتابه (الإسلام كما أومن به) الإسلام كل لا يتجزأ / و العصر القرآني حضارة

كاملة جديدة و من أشكال استعمال الجملة الإسمية في عناوين كتابه (تفسير التاريخ علم إسلامي) : ابن خلدون عصر جديد في تفسير التاريخ ، ومن أمثلتها في عناوين كتابه (فقه التاريخ) : التربية عقل الحضارة ، القضية الأساسية معرفة البداية ، لمن حق القيادة ؟ ومن أمثلة استعمالها في كتابه (تجربة الأندلس) : للسقوط أسباب كثيرة ومنها في كتابه (إنسانيات الإسلام) : الإسلام يحمي الأقليات / اليهود ينعمون بالتسامح في ظل الحضارة الإسلامية / الشعوب لا تدفع الثمن / حروبنا إنسانية / الإسلام دين علم و رسالة تحضر / المرأة الثابتة على الإيمان تقود قبيلتها للإسلام ومن أمثلة ورودها في كتابه المسلمون من التبعية و الفتنة إلى القيادة و التمكين) : تحجيم مشكلات الماضي الفكرية طريق للتوحد الثقافي المعاصر / فقه القرآن من وسائل الوحدة الثقافية .

و هناك نوع آخر من الجملة الإسمية يشيع كذلك في كتبه المختلفة عماده يدور حول الصورة النمطية التالية :

مبتدأ محذوف + خبر ، ومن أمثلة ذلك في كتابه (المسلمون في معركة البقاء) :

- معركة التصفية الجسدية .
- فتنة اليسار الإسلامي .

و في كتابه (سقوط ثلاثين دولة إسلامية) :

- من قصص سقوطنا في أوروبا .
- آخر خطواتنا في أوروبا .
- قصة الفردوس المفقود .

و كل هذه الجمل الإسمية مبتدؤها محذوف تقديره (هذه) ، وهو حذف سوغ له وقوع هذه العبارات عنوانات ، كما أنه من اليسير تقدير ركن الجملة المحذوف ، ومن ذلك في كتابه (الإسلام كما أومن به) :

- ميزان الإسلام .
- فوضى الفهم للإسلام .
- مصادر الإسلام .

و فحص هذه الأنماط المنتشرة من الإسناد الإسمي تعكس مجموعة من الدلالات الظاهرة ، يمكن إجمال عدد منها فيما يلي :

أولا- لما كانت كتابات الراحل الكريم مهمومة بحقائق التاريخ ، وثوابت الأمة رصدا ، وتحليلا ، ومناقشة ، و استنطاقا للدرس والعبرة كان منطقيا إيثار نوع الإسناد الاسمي ؛ لأنه غالبا ما يعبر عن الحقائق المستمرة الدائمة بحكم خلو الجملة الإسمية عادة من العناصر اللغوية الدالة على الزمن .

ثانيا- يلاحظ على التراكيب الإسمية في كتابات الدكتور عبد الحليم عويس استعمال مقيدات لغوية بجذر أركان الجملة الإسمية سعيا إلى تحقيق أكبر قدر ممكن من الوضوح ، و سعيا وراء تحقيق إرادة التفهيم ؛ تيسيرا للقضايا المفهومية التي تحملها تراكيب العناوين ،وهو ما انعكس في العلامات التالية :

غلبة استعمال المبتدأ معرفة بالإضافة أو موصوفا ، و عدم الاكتفاء باستعماله معرفة بال التي للتعريف .

ب- غلبة استعمال الخبر محوطا بأشكال متنوعة مما يحقق رفع الغموض و الإبهام بمكملات من نوع أشباه الجمل و غيرها .

٢/٢/ب إيثار طول التراكيب

فـي معالجات البلاغيين للإطناب الذى هو زيادة فى الكلام لفائدة مرجوة إشارة إلى أنـه يكون طلبا لنوع فائدة تعود على المعنى بالتوكيد ،أو الإيضـاح أو تدليلا على أهمية المعنـى الـذى يحرص صاحب الكلام على بسطه و شرحه و الزيادة فيه .

و الزيـادة فـى الكلام لفائـدة تتحقـق بإجـراءات و تقنيـات كثيـرة مرصـودة فى كتـب البلاغيين العرب من مثـل : الإطناب بالاعتراض ، و الإطناب بالتكرار، والإطناب بالتذييـل و غير ذلك من التقنيـات الخالقة لتطويل الكلام و الزيادة فيه .

و فحـص تراكيـب عبد الحليـم عويس يلمـح إيثاره الظاهـر لتطويـل التراكيـب ،والإطنـاب فيهـا بالطـرق الكثيـرة ، فمن أمثلة الجمل الطويلة فى كتابه (المسـلمون فـى معركة البقاء)(ص١٤) «وحفروا للدم الإسـلامى مئـات القنـوات ، و اسـتوردوا للجسـد المسـلم أبشـع وسـائل التعذيـب ، و للعقـل المسـلم أسـوأ أسـاليب القهـر ، و للنفـس المسـلمة أردأ أنـواع الحـروب النفسـية » ففى هذه العبارة إطناب مرده إلى التفصيل بعد الإجمال ؛ ذلك أن النص أشار إلـى ما يتعرض لـه الدم الإسـلامى ، ثم أخذ فـى تفصيل ما يتعرض له كل جزء من أجزاء الإنسـان المسـلم من أنواع الأذى والعذاب بما يناسبه.

ومـن أمثلة تطويـل التراكيـب بالإجراء نفسـه ما كتبه فى كتابه (الإسلام كما أومن به) (ص ٥٨) «و قد نظم العلماء أنفسـهم فرقا كفرق الجيش ، كل فرقة تغزو الجهل أو الفوضى فى ناحيتها حتى تخضعها لنظامها ؛ ففرقـة اللغـة ، و فرقـة الحديـث ، و فرقـة النحـو ، و فرقة الكلام و فرقـة الرياضيات ، و هكـذا ، ففى هذا التركيـب اتضح المعنى بقوله : « كل فرقة تغزو الجهل » و لكنه زيادة فـى الوضوح جنح إلـى تفصيل هذا الإجمال بعـد أنواع الفـرق التـى هيت لتعليـم الأمة ومحو جهلها .

و تقنيـات تطويل الـكلام و الإطناب فيه اسـتعمال الجمـل الاعتراضيـة ، لأغـراض دلالية تسـعى نحو ضبط المعانـى المرادة ، أو بـث نـوع مـن المعنى مـن مثل التحذير أو التفـاؤل ونحـو ذلـك من الـدلالات التى قد يحـرص عليها الكاتب عرضا فى سـياق تناوله لقضية من القضايا .

ومـن أمثلـة تطويـل الـكلام باستعمال الاعتـراض ما ورد فى كتابه (فقه التاريخ فى ضوء أزمة المسلمين الحضارية) :ص١٨٣ : «أمـا الذى يريد التمزيق و اغتصاب حقوق إخوانه و شـركائه فى صناعة هذه الحضارة ، فهـذا فى حقيقته عدو مبين لهذه الخصائص العظيمة المتكاملة التى صنعها كل مسـلم ؛ عربيـا كان أو مولـى ، تركيـا أو بربريـا أو فارسـيا ، فكلهم سـاهم فيها باسم الإسلام ، و كلهـم أرادها إسـلامية ، و يجـب أن تبقى - وسـوف تبقى بإذن الله - إسلامية إلى يوم القيامة ، ففى هذه العبارة إطناب تحقق بعدة تقنيات هى :

أ- التفصيل بعد الإجمال فى مثل : عربيا كان أو مولى ، ثم فسر المولى بذكر أنواع له من مثل : «تركيا أو بربريا أو فارسيا».

ب- التكـرار فـى مثـل : كلهـم سـاهم فيها باسـم الإسـلام ، ثم قال و كلهم أرادها إسلامية .

ج-الاعتـراض ، وهـو مـا جـاء و تحقـق بجملة «وسوف تبقى بإذن الله» وهو اعتراض سـعى إلـى تحقيـق طمأنـة القارئ و الربط علـى قلبـه ، وإشـاعة روح التفـاؤل الباعث علـى العمل ، كما أنه يعكـس الأمنيات التى يحملها الكاتب بين ضلوعه ، و يتحرك إلى نقلها إلى قارئيه .

و مـن أمثلـة الاعتراض مـا ورد فى كتابه (العقل المسلم فى مرحلة الصراع الفكرى) ص ١٦ : «بل إن أى مستشرق - مهما حاول أن يكـون عالمـا - لا يسـتطيع أن يتنـاول أحـد موضوعاته بـدون أن يضع فـى اعتباره الحدود الفكريـة و العملية المفروضة عليه » ففـى هـذا التركيـب اسـتثمار للاعتراض لتحقيق معنى الاسـتغراق خدمة للقضية التى يتناولها ، وتحقيقا مصدقا للعموم المسـتفاد من اسـتعمال لفظة (أى) ، و هذا الاعتراض حقق فائدة نفى احتمال الكلام للاسـتثناء أو عدم الاستغراق .

ومن ذلك أيضا ما ورد فى الكتاب نفسـه (ص١٦) : « ومـع بدايـة القـرن الخامـس عشـر - كما هو معـروف - و بعيد قليل من هـذا التاريـخ لـم يعـد الاستشـراق - الذى صاحب الظاهـرة الاسـتعمارية - قادرا على الاحتفـاظ بغموض دوره ،فبـدأ يظهر تورطه فـى العمـل الاسـتعمارى» فكمـا نـرى أن الكاتـب رحمه الله أطال فـى تراكيب الكلام عن طريق إجراءين ظاهرين هما :

أ-الاعتراض الـذى يظهر فى تعبير (كما هو معروف) و هذه العبارة و إن حققت نوع إطنـاب و إطالة للـكلام ، لكنهـا حققت أو سـعت إلى تحقيق القبول لما يحمله الكلام من مفاهيم ، وسعت إلى حمل القارئين على تصديق المعانى التى وردت فى الجملة لأنها ردتهم إلى أنفسهم و إلى مخزون معلوماتهم ، و هذه طريق رائعة لكسـب عقول القارئين ، و ضمهم إلى صف القضية المطروحة .

ب- إطالة الكلام باسـتثمار بعض التوابع النحويـة ، و لاسـيما النعت ، وهـو ما ظهر فى قوله : « لم يعد الاستشراق الذى صاحب الظاهـرة الاسـتعمارية » و قولـه : « فبدأ يظهر تورطه فى العمل الاسـتعمارى » فهذه الكلمات الثلاثـة وقعت فى التراكيب نعوتا وفق تحليل المستوى النحوى مما حقق قدرا من الطـول لفائدة بيان لزوم هذه النعوت فى أصحابها الموصوفين بها .

و قـد تنوع اسـتعمال الاعتـراض لفوائد كثيـرة متنوعـة ، كان أظهرها فى أسـاليب عبد الحليم عويس ما يلى:

أ- طلـب الدقة الأسـلوبية خدمة للغرض المفهومـى الـذى يحمله الـكلام ، من مثل طلب الاسـتغراق ، أو التعييـن و التحديد ، ومن مثـل الاعتراض طلبا لتعييـن المقصود فى الكلام قوله فى كتابه (الشباب المسلم) ص ٧٢ : «و إنهـم اليـوم- الشـباب- الذين يرفضـون الأفـكار العلمانية التـى يطرحها سماسـرة الفكـر الرأسـمالى و الليبرالـى والصليبـى » فهـذا التركيـب معطوف على التركيب السـابق عليه ؛ و لأن النص السابق عليه طال بعض الشئ حـرص الدكتور عبد الحليـم عويس علـى ذكر (الشـباب) طلبا لتعيين من يقصدهم بحديثه.

ب- طلب تحقيق معنى إسلامي إيماني أو أخلاقي من مثل : الاحتراز المحقق لمعنى اعتقادى ، أو طلب الدعاء لبعض الذين رحلوا من علماء الأمة وقادتها ، و أهل المنزلة فيها.

ج- طلب اتحاد القارئين بمفاهيم ما يقرءونه في الكلام ، حملا لهم على تصديقه و الاقتناع به.

د- استعمال الاعتراض وسيلة من وسائل التدليل ، و الدعم الدلالي للمفاهيم التي يحملها الكلام.

و هذه النقطة الأخيرة يتنوع ظهورها في الكلام ، و لكن أظهر أنواعها يتمثل في الاعتراض بذكر معلومات تاريخية ، للتدليل على القضية موضع المناقشة ، ومن ذلك قوله في كتابه (تجربة الأندلس ص ١١٦) : «والدرس كله منذ فتح إسبانيا على يد المسلمين بربرا وعربا سنة ٩٣هـ (٧١٠م) وحتى سقوط غرناطة آخر المعاقل الإسلامية سنة ٨٩٧هـ (١٤٩٢م) لم يدرس وفق سنن الله الكونية و الاجتماعية في قيام الأمم وسقوطها ، بل حوله العرب- بخاصة- و المسلمون - بعامة- إلى صفحة للمجد والازدهار يتغنون بأمجادها في كتب التاريخ المدرسي التي يغلب عليها الابتسار والتلفيق» ففي هذا النص توظيف للاعتراض ثلاث مرات هي (منذ فتح ....) و (بخاصة) و (بعامة) جاء في المرتين الأخيرتين محققا للبسط و الدقة العلمية ، ووضعا للقضايا في نصابها ، إحقاقا للحق ، و ضبطا للمفاهيم وتدقيقا للمعلومات . وجاء في المرة الأولى لغرض التدليل باستعمار الاعتراض الذى جاء في صورة استقراء تاريخي للذهول عن حقيقة ثابتة على امتداد تاريخ الدولة الأندلسية الإسلامية ، وهو تدليل يعكس وعيا بحركة التاريخ ، وهو اعتراض حقق كلية القضية ، واستغراقها في الوقت نفسه.

و كتابات الدكتور عبد الحليم عويس في هذا الفحص العابر السريع يقف بنا أمام عدد من العلامات و الخصائص المهمة من مثل :

أولا- الحرص على الوضوح و البيان ، وهو ما تمثل في الميل نحو تطويل التراكيب بإجراءات أسلوبية معروفة في أعمال النحاة والبلاغيين العرب .

ثانيا- الحرص على الدقة و الضبط العلمي ، وهو بعض ما ظهر من استثمار الاعتراض ، بما هو أسلوب نحوى بلاغي.

ثالثا- الحرص على تأكيد الحقائق والسنن الثابتة الدائمة ، وهو ما يفسر ميل الراحل رحمه الله تعالى إلى إيثار الجمل الاسمية .

رابعا- الحرص على التعليل بطرق مختلفة ، أظهرها التعليل الأسلوبي باستعمال : الحقائق التاريخية المعللة لما يستنبطه ، والتعليل بالتوثيق و توظيف النقول من العلماء و المؤرخين و الشعراء إلخ .

و هذا الطريق حقق نوعا مهما من تماسك بنية الكلام في كتابات عبد الحليم عويس على مستوى المعاني والدلالات ، وهو ما يسمى بالحبك .

يتبع

النملة الواعظة



الشيخ معوض عوض إبراهيم

القرآن الكريم كتاب الله عز وجل الخاتم لكل ما أوحي سبحانه إلى البشرية من كتب، أنزله الله تعالى كتابا خاتما لكلامه. وكما أنه ليس وراء الرسول رسول فإنه ليس وراء الكتاب الذي أوحي إليه كتاب. إنه كتاب الأزل والأبد، كتاب الدين والدنيا؛ يقول عنه منزله سبحانه:

﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾

(الأنعام: ٣٨)

والنبي ﷺ يقول: «فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم».

وكما تحدث عن الأرض ذات الطول والعرض وفيها الأنهار والبحار وفيها الحواضر والمدن والقرى والبوادي والديار؛ يقول فيه الله تعالى:

﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ ﴾

(الرعد: ٤)

وقد خلق الله السموات سبعا وبسط الشمس والقمر والنجوم والكواكب والشهب ورسم لها منهجها في الليل والنهار والشهور والسنين:

﴿ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾

(الرعد: ٢)

وأسكن ملائكته تلك السماوات وهي تتردد بيننا وبين الله عز وجل وجعل جبريل أمين وحيه إلى أنبيائه ورسله وكانوا مع ذلك لكل مهمته ، فميكائيل موكل بالأرزاق ، وعزرائيل موكل بالأرواح في الإنس والجن والحيوان ، وإسرافيل ممسك بالصور الذي ينفخ فيه فيموت كل حي:

﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾

(الزمر: ٦٨)

ولقد عرفنا في الكتاب الخاتم ما علم الله

عز وجل أبا البشر آدم، وفضله بذلك على ملائكته، وأسجدهم به لمن قال الله فيه:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾

(البقرة: ٣٠)

وانكشف الستار عن أبي الجن إبليس الذي كان أول من عصى الله عز وجل وأبى السجود لآدم استكبارا وتعاليا على الله الذي ينبغي أن يطاع فلا يعصى وقد خلقه الله سبحانه من نار وخلق آدم من تراب (من طين) وفيهما اللطف واللين وفي إبليس النار ذات الأجيج والإوار.

علم الله عز وجل آدم الأسماء كلها، وعلم إبراهيم وموسى وعيسى، وعلم داود وسليمان ما يشمله قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾

(النمل ١٥-١٦)

وأجاب الله عز وجل لسليمان رجاءه أن يؤتيه الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعده

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾

(النمل: ١٧)

يقول صاحب تفسير كتاب «التحرير والتنوير» سماحة الأستاذ الإمام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور التونسي في المجلد الثامن ص ٢٤٠:

[وقوله ﴿مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ﴾ بيان للجنود فهي ثلاثة أصناف، صنف الجن وهو لتوجيه القوى الخفية والتأثير في الأمور الروحية، وصنف الإنس وهو جنود تنفيذ أوامره ومحاربه العدو وحراسة المملكة، وصنف الطير وهو من تمام الجند لتوجيه الأخبار وتلقيها وتوجيه الرسائل إلى قواده وأمرائه. واقتصر على الجن والطير لغرابة كونهما من الجنود فلذلك لم يذكر الخيل وهي من الجيش].

ونراننا أمام قوله تعالى:

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾

(النمل: ١٨-١٩)

وقد آن أن ترى النملة الواعظة التي انتهزت المناسبة التي توجه فيها النصح لجموع النمل بأسلوب جامع لـ«يا» التي خصصت ما عناه لفظ «أي» وأمرت بقولها ﴿ادْخُلُوا﴾ ثم عينت المدخل الذي تصان فيه من المكاره والأخطار وحذرتهم من أن يقتلهم سليمان وجنوده الذين اعتذرت عنهم بقولها ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وليس وراء ما قالت شيئا يثير التبسم الذي صار إليه سليمان عليه السلام وهو قوله تعالى:

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾

(النمل: ١٩)

وفي كتاب الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي المجلد السابع ص١٧١ يقول: [قال أبو إسحاق الثعلبي: ورأيت في بعض الكتب أن سليمان قال لها: لم حذرت النمل؟ أخفت ظلمي؟ أما علمت أني نبي عدل؟ فلم قلت ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾؟ فقالت النملة: أما سمعت قولي ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ مع أني لم أرد حطم النفوس وإنما أردت حطم القلوب خشيت أن يتمنين مثل ما أعطيت أو يفتتن بالدنيا ويشتغلن بالنظر إلى ملكك عن التسبيح والذكر].

وليت الدعاة إلى الله يفرغون الوسع ويشحذون الذهن فيما يقولون حتى يصيبوا الحكمة التي ينبغي أن يتحروها وينطلقوا منها إلى ما يريدون من الخير للغير أمرا بمعروف ونهيا عن منكر وجلاء للحق الذي لا تصلح الحياة بدونه.

ومن حق سليمان عليه السلام علينا أن نقف وقفة تأمل في قول الله تعالى:

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾

وأين من هذا العمل النبوي تندر بعض رجال الإعلام وسخرية من ينتسبون إلى القلم الذي أقسم الله بآثاره في إحقاق الحق وإبطال الباطل فقال تعالى:

﴿ن ۚ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾

(القلم: ١)

وقال:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾

(العلق: ١)

حتى قال تعالى:

﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾

(العلق ٣-٥)

وتبسم سليمان يعلمنا أن ضحك الأنبياء لا يجاوز التبسم الذي لا يزيد على أن تبدو النواجذ في الإنسان الذي أعجبه ما يعجب ويطرب، وما أكثر الأحاديث الصحاح التي تعلي من قدر التبسم وتزري بالقهقهة. وفي الأثر الصحيح: «كثرة الضحك تميت القلب» فكيف به إذا استحال قهقهة وحركة هي بالرقص أشبه.

ومن ذكر الله تعالى ذكره ومن شكره سبحانه وجد من ربه المزيد من الخير:

﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾

(إبراهيم: ٧)

﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾

(النساء: ٤٠)

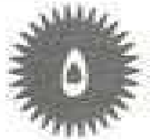
ولقاؤنا موصول مع النملة التي قدرت الموقف وأعدت للأمور ما يناسبها ويناسب جنسها من الشقوق التي تخفى عن أنظارنا وتستبين لذلك الكائن الضعيف بذاته والقوي بما أمده الله به من قوى وطاقات.

وجل الله:

﴿الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾

(طه: ٥٠)

بين حروب نابليون وحروب الفتوحات العربية الإسلامية



الأستاذ / منير شفيق
الخبير والباحث الاستراتيجي



إذا كان العرب المسلمون في مرحلة الفتوحات الأولى على هذا المستوى الراقي من الفن العسكري أفلا يحق لنا أن نستنتج أن تفوقهم على أعدائهم في الفن العسكري كان أحد العوامل الحاسمة في تحقيق الانتصارات الباهرة عليهم، لقد واجهوا في كل معاركهم الأولى أعداء متفوقين من حيث العدد والعدة والسلاح.

ولهذا عمد أغلب المؤرخين على تفسير تلك الانتصارات من خلال إبراز جوانب الشجاعة والتفوق المعنوي لدى القوات العربية الإسلامية.

ولكن من السهل الإثبات أن هذه الجوانب وحدها لا يمكن أن تغطي جوانب تفوق أولئك الأعداء خصوصًا، إذا أخذنا بعين الاعتبار أن أولئك الأعداء لم يكونوا أرانب جبناء، بل أبدوا في كثير من الأحيان ضروبًا من الشجاعة والثبات والمعنويات العالية والإصرار على القتال.

فمثلًا لقد قاتل الفرس قتالًا مريرًا في معركة الجسر وفي البويب وفي القادسية. فإذا أخذنا معركة القادسية التي دامت ثلاثة أيام وليلة طاحنة نموذجًا، لوجدنا في أيامها الثلاثة الأولى أن المسلمين قدموا ألفين وخمسمائة شهيد. أما في الليلة الأخيرة التي دار فيها قتال شرس جدًا فقد استشهد فيها من المسلمين ستة آلاف، هذا عدا الجرحى، كما سقط فيها من الفرس أضعاف ذلك العدد. فهل تدل هذه الوقائع على أن الأعداء كانوا جبناء أو أن النقص المعنوي كان هو الشيء الحاسم في هزيمتهم؟ وكذلك كان الحال بالنسبة إلى البيزنطيين في معارك أجنادين واليرموك (الأولى) وبابليون. وقد اختلف حالهم نسبيًا في معركة اليرموك الثانية. ثم كيف يمكن إبراز شجاعة العرب المسلمين وقوة

معنوياتهم إذا كان أعداؤهم جبناء. إن الشجاعة لا تظهر إلا أمام الشجاعة، ومن يقاتل جبانًا لا يحق له أن يتغنى بشجاعته.

ولكن من ناحية أخرى، فقد كان الوضع العام في الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية قد دخل مرحلة الانحطاط الذي يصيب الدول في أواخر مراحلها: فالجندي الرومي أو الفارسي الذي حارب في اليرموك والقادسية، وكذلك القائد والضابط ومجموع الوضع كله ليسوا مثل من كانوا في المراحل الأولى من صعود الإمبراطوريتين. فالإمبراطوريات والدول والأنظمة التي تنهار بعد أن تصيبها الشيخوخة. والشيخوخة لها مظاهر عدة تضرب في عناصر القوة، فضلا عن العتاد التسلح. هذا من شروط انتصار القوى الناهضة الأقل عددا وتطورًا.

لعل مراجعة ما قاله العرب الأوائل عن الفرس والروم تظهر أنهم لم يستهينوا بشجاعة خصومهم أو يطعنوا بها، فقد وصف عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه الروم بأنهم «حد حديد وركن شديد»، وكان المثنى بن حارثة في رسالته إلى سعد بن أبي وقاص شديد الحذر من الفرس. أما خالد بن الوليد فقد وصف أولئك الأعداء بقوله: «إنما أرى أقوامًا لا علم لهم بالحرب»، ويقصد كفاءة القيادة بالدرجة الأولى.

إن عبارة خالد بن الوليد تلك تؤكد موضوعيتنا بما لا يدع مجالا للشك. فخالد قائد عسكري من الطراز الأول عبر التاريخ كله، وقد دلل بتلك العبارة على التفوق في مضمار الفن العسكري وتخلف خصومهم في هذا المضمار. الأمر الذي فتح هوة واسعة بين الطرفين أوسع من الهوة التي كانت في هذا المضمار بين نابليون وخصومه.

بينما ظل خصوم العرب يقاتلون بكتل جامدة ووفق أصول محددة- بالرغم من أنهم كانوا حسني التدريب متفوقين بالأسلحة والعتاد- راح العرب يقاتلون بفرق متحركة ومناورات إستراتيجية وتكتيكية، يجمعون جمعا خلاقا بين المرونة في تقسيم القوات والتحرك والقيادة وبين التركيز المطلوب في المعركة. ويجمعون جمعا خلاقا بين القتال في الكراديس والصفوف وبين المناوشة والالتفاف على الأجنحة والتركيز على نقاط الضعف.

ومن هنا يمكن القول بأن التفوق في الفن العسكري قد لعب دورًا حاسمًا في تحقيق انتصارات العرب المسلمين على أعدائهم في الفتوحات الأولى، كما أن التفوق في الفن العسكري قد لعب دورا حاسما في تحقيق انتصارات نابليون الأولى على أعدائه حتى عام ١٨١٠م.

ولكن هل يعني هذا أن العرب المسلمين لم يكونوا متفوقين من الناحية المعنوية؟ طبعا إن الدور الذي لعبته الناحية المعنوية في حروب الفتوحات لا يمكن أن ينكر أو يقلل من قيمته، ولكن الرأي هنا يستهدف عدم رؤية المسألة من جانب واحد فقط، كما يستهدف إبراز العامل الحاسم الآخر وهو جانب التفوق في الفن العسكري جنبا إلى جنب مع العامل المعنوي، دون أن ننسى أهمية عوامل أخرى في الوضع المدني والسياسي والاجتماعي في كل من

الجبهات المتقابلة.

وأخيرا حول هذه النقطة لا بد لنا من أن نكرر ما سبق وأبرزناه في مطلع هذا الفصل في ما يتعلق بأهمية الدور الذي لعبه العامل المعنوي- نتاج الثورة الاجتماعية والعقدية والفكرية والأخلاقية التي أحدثها الإسلام- على الفن العسكري نفسه من الناحيتين الاستراتيجية والتكتيكية. ولا بد من أن نكرر أن ذلك الفن العسكري ما كان له أن يتجلى بأروع صورة لولا توفر الناحية المعنوية تلك، أو على الأصح لولا ثورة الإسلام التي وحدت أمة وألفت بينها ونهضت بها لتحمل رسالة إلى العالمين(١). ولكن هذا كله يجب ألا يطمس بأي شكل من الأشكال ذلك الدور الحاسم الذي لعبه تفوق العرب من مضمار الفن العسكري.

في الواقع يمكن أن يقال الشيء نفسه، مع الفارق، بالنسبة إلى العلاقة بين الثورة الفرنسية والفن العسكري النابليوني رغم أن نابليون عاد فخان الثورة الفرنسية بالتحول إلى ديكتاتور فرد مطلق وكان ذلك عاملا من عوامل سقوطه. فحروب نابليون حملت رسالة الثورة الفرنسية إلى أوروبا من جهة، كما كانت ذات طابع قومي من جهة أخرى.

إن الأسباب التي أدت إلى تلك القفزة النوعية التي أحدثها نابليون في الفن العسكري تتلخص باندلاع الثورة الفرنسية التي أطلقت القوى الاجتماعية الجديدة من عقالها وحطمت الإقطاعية والملكية. فانطلقت البرجوازية الناشئة والجماهير الواسعة لتدافع أولا عن الثورة ضد الغزو الرجعي المضاد(٢)، ثم لتدفع الثورة وهي تحمل مشروعا للتغيير والنهضة، إلى خارج الحدود الفرنسية ثانيا. مما كرس، لأول مرة، في أوروبا التجنيد الجماهيري الواسع وأصبح لدى فرنسا جيش جماهيري كبير، وخلفه احتياط لا ينضب في مقابل جيوش أوروبا الصغيرة المحترفة عالية التدريب والنظام.

لقد أدى تشكيل الجيش الجماهيري الواسع وانطلاق القوى الاجتماعية النامية الناهضة في المجتمع للإفادة من التطور التقني والعلمي مصحوبا بحماسة ثورية عالية، إلى جانب تطور الطرق والمواصلات والأسلحة، إلى خلق الأرضية لدخول الاستراتيجية والتكتيك العسكريين في مرحلة جديدة راقية هي أرقى ما وصله الفن العسكري حتى ذلك الحين في أوروبا. وذلك بإعطاء الحرب صفة متحركة ذات مناورات استراتيجية ومتابعة الحرب حتى نهايتها الحاسمة.

ولكن إذا كان الفن العسكري العربي الإسلامي قد أحدث مثل تلك الثورة في مجال الحرب وأعطى الحرب تلك السمات نفسها تقريبا، فكيف يمكن أن يفسر

(١) يجب الحذر من إدراج الفتوحات العربية الإسلامية في إطار الفتوحات الإمبراطورية أو القومية؛ لأنها كانت ذات هدف رسالي ويمكن التدليل على ذلك في النظام الذي ساوى بين المركز والبلدان المفتتحة، بما في ذلك انتقال عواصم الخلافة، ودور شعوب تلك البلدان في قيادة الدولة والجيوش، كما في مجالات العلم والثقافة والفن.

(٢) رجعي قياسا بالثورة الفرنسية البرجوازية من جهة وبالنظام الإقطاعي الأوروبي من جهة أخرى.

ذلك؟

إن مختلف أنواع فن الحرب ليست من صنع العسكريين العباقرة بصورة تجريدية، وإنما هي نتاج ظروف مادية وتقنية وتاريخية سابقة ونهضة معنوية حيث يجد القادة العسكريون أنفسهم فيها، وتتجلى عبقريتهم في اكتشاف أنسب أنواع الفن العسكري في ما يتفق وتلك الظروف المعطاة. فلو وجد نابليون في زمن الإسكندر لكان الإسكندر ولم يكن نابليون، وكذلك لو وجد الإسكندر في مكان نابليون ولم يكن الإسكندر. طبعا ليس حرفيا وإنما في الجوهر. ومن هنا، فما هي تلك الظروف التي توفرت في الوضع العربي في فجر الإسلام وأدت إلى تطور الفن العسكري إلى مستوى شبيه بقرينته في زمن نابليون؟

إن ثورة الإسلام أطلقت القوى الاجتماعية النامية ودفعت الثورة إلى خارج حدود الجزيرة العربية تحمل رسالة. وكرست لأول مرة التجنيد الجماهيري التطوعي الواسع وأصبح لدى العرب جيش كبير وراءه احتياط لا ينضب، مصحوبا بحماسة ثورية عالية. وإلى هنا تتشابه هذه الظروف مع نظيرتها في الثورة الفرنسية بالرغم من اختلاف نوعية القوى الاجتماعية النامية والأيديولوجية والأهداف. ولكن خلافا للثورة الفرنسية لم يكن هنالك تطور في الأسلحة والمقذوفات، ولم يكن هنالك تطور تقني وعلمي وآخر في الطرق والمواصلات ووسائط النقل. هذه التطورات التي شكلت الأرضية لولادة الفن العسكري النابليوني، والتي لولاها لما تحولت الحرب على يد نابليون إلى حرب متحركة. وهنا مصدر العقدة في تفسير سبب بروز تلك السمات نفسها تقريبا في الفن العسكري العربي.

الجواب يكمن في البحث في ظروف أخرى فريدة توفرت في الجزيرة العربية، ويمكن تلخيصها:

(أ) إن الحياة القبلية التي اعتمدت على الغزو وكثرة التنقل والترحال أعطت المجتمع سمات متحركة، سحبت كذلك على فنه العسكري، وإن كان بدائيا في تلك المرحلة قبل الإسلام. ولكنه فن تميز بالسرعة والحركة وأولوية سلاح الفرسان، وعدم التقيد بالموقع أو بأصول نظامية جامدة في القتال.

(ب) عرفت الجزيرة العربية قبل الإسلام عدة حضارات مثل ممالك سبأ وحمير والبتراء والغساسنة واللخميين، ولا شك في أن هذه التجارب ولدت تراكمات من الخبرات العسكرية.

(ج) كان العرب على اتصال وثيق بالروم والفرس والأحباش، وكثيرا ما قاتلت قبائل منهم في جيوش تلك الدول أو ضدها، وهذا بدوره جعل العرب على علم بكل التطورات العسكرية التي عرفتها تلك الدول.

(د) خاض العرب اللخميون في جبهة العراق قبل الإسلام صراعا طويل الأجل ضد الإمبراطورية الفارسية، واستطاعوا أن ينتصروا عليهم عسكريا في معركة ذي قار، ولكن لما كان عرب العراق وعرب الجزيرة العربية المحاذون لهم قوة ضئيلة بالمقارنة بجبروت قوات الإمبراطورية

شعبان ١٤٣٥هـ
يونيو ٢٠١٤م

الساسانية، فقد اعتمدوا على أسلوب القتال الغواري ضدها- وهو شكل بدائي من الحرب المتحركة... وقد ثبت لهم بالتجربة نجاح هذا الشكل من القتال ضد مثل تلك القوى الكبيرة المنظمة. وكان العرب المسيحيون الغساسنة (٣) قد خاضوا تجربة مماثلة ضد دولة البيزنطيين.

ولما جاء الإسلام وأطلق قوى المجتمع العربي النامية ووحّدها وألهبها بالحماسة للجهاد، وجد القادة العرب المسلمون بين أيديهم تقاليد عسكرية في القتال وثروة من التجارب العسكرية ضد الإمبراطوريتين، فكان من المنطقي مع توفر الجيش النظامي أن يطوروا تلك التقاليد ويفيدوا من تلك التجارب وأن يدفعوا إلى الأمام الصفة المتحركة في المجتمع القبلي العربي، ويستثمروها في التعبئة العامة وفي حركة الجيش وعملياته، خصوصًا، وأن تلك الصفة يمكن تنفيذها على مستوى الجيش دون حاجة إلى نظام نقل متطور أو دعم لوجستيقي معقد. فقد كان العرب فرسانًا متقشفين خفيفي الأحمال بسبب ظروف حياتهم القبلية والصحراوية.

كان كل ما تقدم يشكل الظروف الموضوعية لولادة وتطور فن الحرب المتحركة في الوضع العربي آنذاك.

عندما اجتمع أبو بكر بقادة المسلمين (أهل الحل والعقد) ليشاورهم في أمر حملة الشام نصحه عبد الرحمن بن عوف قائلا: «يا خليفة رسول الله، إنها الروم وبنو الأصفر حد حديد وركن شديد، والله ما أرى أن نقحم الخيل عليهم إقحامًا، ولكن تبعث الخيل فتغير من أداني أرضهم ثم تبعثها فتغير ثم ترجع إليك، ثم تبعثها فترجع إليك، فإذا فعلوا ذلك مرارا أضرّ بعدوهم، وغنموا من أدنى أرضهم فقووا بذلك على قتالهم، ثم تبعث بأقاصي ربيعة ومضر فتجمعهم إليك جمعا، فإن شئت بعد ذلك غزوتهم بنفسك، وإن شئت بعثت على غزوهم غيرك».

وبالمناسبة، إذا كان عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه وهو التاجر يمتلك هذا الفهم الاستراتيجي والتكتيكي في توجيه إدارة الحرب وقيادتها استراتيجيًا وتكتيكيًا. وهو ما كان ماوتسي تونغ ليذهل لو سمع به. فهذا يعني أن قادة المسلمين كانوا على قدر من المعرفة العسكرية استثنائية لا تجد لها مثيلا حتى في الثورات الحديثة.

إن هذه الاستراتيجية شبيهة باستراتيجية المثنى بن حارثة التي تلخصت في:

(١) عدم مقاتلة الفرس إذا اجتمع ملؤهم وأمرهم.

(٢) عدم اقتحام عقر دارهم.

(٣) مقاتلتهم على حدود أرضهم على أدنى حجر من أرض العرب وأدنى مدر من أرض العجم، أو بكلمات أخرى إبقاء الصحراء العربية القاعدة الآمنة وخط المواصلات والانسحاب- إذا اقتضى الأمر- مع قتال مناوشة على الأطراف ووراء الخطوط.

وكان عمر بن الخطاب برسالته إلى سعد بن أبي وقاص قد شدد عليه بالإكثار من الطلائع والعيون وبثّ السرايا بينه وبين

(٣) أضيفت العرب المسيحيون إلى الغساسنة هنا لمن لا يعرف من هم الغساسنة

العدو، ثم يقول له: «فإذا عاينت العدو فاضمم إليك أقاصيك وطلائعك وسراياك واجمع مكيدتك وقوتك ولا تعاجلهم بالمناجزة، ما لم يستكرهك قتال، حتى تبصر عورة عدوك ومقاتله، وتعرف الأرض كمعرفة أهلها فتصنع بعدوك كصنعه بك، ثم أذك أحراسك على عسكرك وتيقظ من البيات جهدك».

إن هذه الأمثلة قليل من كثير، تدل على مستوى عال من التفكير العسكري الاستراتيجي والتكتيكي جاء نتيجة تجارب ماضية كثيرة ونتيجة معرفة وعلم بأخبار الأمم والحروب، فضلا عن طبيعة ظروف الحياة العربية؛ مما شكل أرضية بنت عليها ثورة الإسلام وحروب الفتوحات الأولى. وقد دفعت خطى إلى الأمام من خلال تجربة التطبيق العملي في الظروف الجديدة، حتى يكرس فن الحروب المتحركة على مستوى راق فعلا.

يبدو أيضًا أن طبيعة القتال في الجزيرة العربية قبل الإسلام، وعدم وجود الجيش المحترف، جعلا الثقافة العسكرية وإدراك فن الحرب على مستوى تكتيكي واستراتيجي، ظاهرة عامة لا تقتصر على خالد بن الوليد وعمرو بن العاص والمثنى، وإنما معرفة مملوكة من قبل غالبية القادة والرجال البارزين. وهذا يفسر سبب ارتفاع مستوى القيادات العسكرية العليا والدنيا وكثرتها.

وأخيرًا لا بد من التأكيد على ضرورة أخذ هذه المقارنة بين حروب نابليون وحروب الفتوحات العربية الإسلامية بروحها وجوهرها؛ لئلا نغفل عن أن نأخذ بعين الاعتبار اختلاف الظروف زمانًا ومكانًا وطبيعة في الحالتين. ولئلا يفهم من هذه الدراسة أنها تبخس مما أحدثه نابليون من تطوير في فن الحرب، أو تبالغ، بصورة غير علمية، بما أحدثه العرب المسلمون من تطوير في هذا الفن.

ولهذا علينا أن نتذكر، مرة أخرى، أن حروب نابليون جرت ضمن إطار الأسلحة النارية وتطوير المدفعية خصوصًا، إلى جانب تطور التقنية والعلوم ووسائط النقل وتطور القوى الإنتاجية، مما دفع فن العمليات- التكتيك الكبير- وفن تكتيك المعركة على يده خطوات جبارة إلى أمام بالقياس إلى فن الحرب الذي ساد قبل عهده. وإن هذه الحقيقة هي التي تعطي قيمة متزايدة لما وصله العرب المسلمون من مستوى متطور في فن الحرب بالرغم من أن حروبهم جرت ضمن إطار السلاح الأبيض والسهام، وضمن مستوى أدنى من التطور التقني والعلمي ووسائط النقل والقوى الإنتاجية.

ولكنها كانت تقوم على أساس الحرب المتحركة بكل معنى الكلمة، ولهذا لا بد من أن توضع في مرتبة أرقى مما تقدمها وجاء بعدها من حروب حتى نابليون، ولا بد من وضعها في إطار تاريخي يجعلها سباقة على نابليون فيما أحدثه من تطوير على فن الحرب دون أن يقلل من قيمة ما أحدثه نابليون من تطوير ضمن إطار الأسلحة النارية والتقنية المتقدمة.

يتبع

القيادة العليا لمنظومة القيادة والسيطرة فى الإسلام

لواء أ.ح. د. [illegible] محمد بهاء الدين حنفي

تعرف القيادة والسيطرة: بأنها ضمان القيادة المستمرة على القوات وتنظيم أعمالها القتالية مع التركيز على تعاونها المستمر وتوحيد جهودها بتحقيق الهدف المحدد. فهى بذلك من العوامل الحاسمة فى إحراز النصر فى الحرب. لم يختلف هذا المفهوم عبر التاريخ، وإنما اختلفت أساليب تحقيقه. فعندما كان تسليح القوات مجرد السيوف والنبال كان فى مقدور القائد أن يسيطر وحده على القوات. وبتطور التسليح واتساع مسرح العمليات فى الحرب الحديثة، أصبح من المستحيل على القائد ممارسة السيطرة دون جهاز يعاونه فتم تكوين هيئات قيادة فى تجمعات سميت بمراكز القيادة والسيطرة فى منظومة تبدأ من القمة أى مستوى القيادة العليا الممثلة فى رئيس الدولة نزولا إلى القيادات الأدنى. ومع ذلك ظل القائد هو المنبع الوحيد للسيطرة فهو صاحب اتخاذ القرار.

لـم يكـن مفهـوم القيـادة والسـيطرة ومنظومتها غائبا عن المدرسـة العسـكرية الإسـلامية وإن سـميت بالإمـارة واعتبرت ضـرورة ملزمـة أكدتهـا الأدلـة الشـرعية كحديـث النبـى ﷺ : «إذا خـرج ثلاثة فى سـفر فليؤمروا أحدهم» (رواه أبو داود عن أبى سـعيد) . كما حذرت مـن يتصدى لها بمـدى خطـورة أعبائهـا ، قـال ﷺ : «إنها أمانـة ، وإنها يوم القيامة خـزى وندامة ، إلا مـن أخذها بحقهـا ، وأدى الذى عليه فيها» (رواه مسلم) . وبذلك اتسع مفهوم الإمارة ليشمل المجالين المدنى والعسكرى دون فصـل بينهما ، فكان النبـى ﷺ هو رئيس الدولـة وهو القائـد الأعلى للقـوات . ومع بداية الفتح الإسلامى ، كان الخليفة يمارس دوره كقائـد أعلـى يتبعـه قائد لـكل جبهة قتال «الشـام وفارس» يسـيطر على أكثر من جيش فى جبهته ، ثم قائد لكل جيش «أمير ١٠ آلاف» ، ثم قائد لكل لواء «أمير ألف» ، ثم نقباء «أمير مائـة» ، لينتهى الأمر إلى العرفاء «قائد العشـرة» ، ومن خلال هـذه المنظومة المتكاملـة كان الخليفـة يمارس سـيطرته وكانـت فـى حدود السـلطات المقـررة له كقائد أعلى .

كان مـن أبـرز العوامـل التـى حـددت سلطات القائد الأعلى فى الدولة الإسلامية :

١ - إن السـلطة تقدر بقدر المسـئولية . ولمـا كان رئيـس الدولـة باعتبـاره القائـد الأعلى هو المسـئول الأول عن أمن وسلامة الدولـة ، فكان لابد وأن يمتلك السـلطات الكافيـة لتحمل تلك المسـئولية فهو يدير كل شئون الدولة بما فيها الشأن العسكرى .

٢ - يجـب أن يمتلـك رئيـس الدولـة باعتبـاره القائـد الأعلـى للقـوات ، القدرة والكفـاءة التى تمكنـه مـن حمل أعباء تلك القيـادة . ولا يعنى ذلك أنه مطالب بالإلمام بالجوانـب التقنيـة التفصيليـة المتعلقـة بالشـأن العسـكرى علـى المسـتويات التكتيكيـة والصغرى ، وإنمـا عليه امتلاك القـدرة على التخطيط للعمليـات وإدارتها علـى المسـتوى الاسـتراتيجى مسـتعينا بمستشاريه فى هيئة القيادة .

٣ - تخضـع ممارسـة القائـد الأعلى لسـلطاته للقواعد الكليـة التى يقوم عليها نظام الحكم فى الإسـلام ومن أهمها الالتزام بالشـورى فـى إدارة شـئون الدولـة ومنهـا الشأن العسـكرى وذلك اتباعا لقوله تعالى :

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى الْأَمْرِ﴾

«آل عمران : ١٥٩»

وعن أبى هريرة قال : «ما رأيت أحدا قط كان أكثر مشـاورة لأصحابه من رسـول الله ﷺ» أخرجه أحمد والشافعى .

٤ - لا يكتمـل نجاح القائـد الأعلى فى ممارسة سلطاته إلا بطاعة مرءوسيه وولائهم باعتباره صاحـب الولاية العامة فطاعته حق شرعى استمده من مبايعة المسلمين له . إن ترابط وتماسـك سلسـلة القيادة لا يتحقق بغير الانضباط والطاعة والولاء لأن كل من تولى أمر القيادة بها مسـئول عن مرءوسيه وهـو فى نفـس الوقت مسـئول أمـام قائده الأعلـى . قال ﷺ : «مـن أطاعنى فقد أطاع الله ، ومـن عصانى فقد عصى الله ، ومن يطع الأمير فقد أطاعنـى ، ومن يعص الأمير فقد عصانـى» وقال : «السـمع والطاعـة حق ما لـم يأمر بمعصية فلا سـمع ولا طاعة» رواه البخارى عن أبى هريرة . فلا تشترى الطاعة والولاء بالمال .

ويمكـن القول بأن أهم سـلطات القائد الأعلى فى الدولة الإسلامية كانت :

أولا: اتخـاذ قـرار الحـرب وقيـادة القوات المقاتلة:

فـى إطار الالتـزام بالشـورى ، كان النبى ﷺ يتخذ قرار الحرب ويرسـل السـرايا ، وفى ظروف معينة عندما تكون المهمة ذات وزن كبيـر ، كان يقود بنفسـه القوات وهى ما سـميت بالغزوات وكانت آخرها «غزوة تبوك» التى شنت لوقف تهديد الروم لحدود الدولـة . وبوفاة النبى ﷺ وارتداد القبائل ، أصـر «أبوبكـر» اتباعا منه لأمر الرسـول ، على قتالهم رغم اعتراض الصحابة حتى أنه تقلد سيفه وخرج وحده فلم يجد الصحابة بدا مـن اتباعه وقاد «الصديق» بنفسـه أول قوة لقتـال المرتدين فـى «ذى القصة» ، ثم أصـر علـى الخـروج مـع جيـش «خالد بن

الوليد» بعد أن ولاه أمر الحرب، غير أن «عمر وعليًا» أقنعاه بالعودة إلى المدينة ليتولى منها القيادة العليا.

ولقد اتخذ «أبوبكر» قراره بفتح العراق بعد أن استمع إلى تقرير كامل من «المثنى بن حارثة الشيبانى» وأرجح أنه شاور الصحابة فى الأمر، بينما اتخذ قراره بفتح جبهة الشام بعد أن عقد مجلسا للحرب حضره كبار الصحابة لتدارس الأمر. وعندما تولى «عمر» الخلافة سار على نفس الدرب، فعقد مجلسا للحرب تم من خلاله اتخاذ القرار بفتح جبهة القتال فى فارس، لكنه اتخذ قراره بفتح مصر منفردا بعد مشاورة بعض الصحابة.

لقد أصر كل من الخليفتين «الصديق وعمر» على تولى قيادة القوات المحاربة بنفسيهما بل وخرجا إلى مناطق حشد القوات ولم يثنهما عن عزمهما سوى نصيحة الصحابة لهما بأن بقاءهما بالمدينة لإدارة شئون الدولة وتولى القيادة العليا للحرب منها هو الأوفق والأولى.

ثانيا: التعبئة العامة وحشد القوات:

يعتبر الإعداد الدائم للقوى البشرية والمادية واجبا شرعيا ملزما لرئيس الدولة، قال تعالى:

﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾

«الأنفال: ٦٠»

كان نظام التطوع هو المتبع فى صدر الإسلام، واعتمد أسلوب التعبئة على الإعلان عنه فى المسجد كما فعل النبى ﷺ وتبعه فى ذلك الصحابة، ثم ببعث الرسل والكتب بعد أن انتشر الإسلام. كانت الكتب التى ترسل إلى القبائل والعشائر لإعلان التعبئة العامة تناسب كل موقف. فبينما كان كتاب «الصديق» المرسل لحشد المسلمين لفتح العراق كتابا مطولا حوى العديد من آيات الجهاد فى سبيل الله وأحاديث الرسول التى تحرض على القتال، نجد أن كتاب أمير المؤمنين «عمر» لحشد الناس على عجل لخوض معركة «القادسية» كان غاية فى القصر والإجمال حيث قال: «لا تدعوا أحدا له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأى إلا انتخبتموه، ثم وجهتموه إلىّ، والعجل العجل». وكانت استجابة المسلمين للدعوة إلى التعبئة مبعثها رغبتهم فى الجهاد إيمانا منهم وطاعة لله ولرسوله.

ويعد حشد جيش المسلمين لفتح «مكة» مثالا رائعا على أسلوب التعبئة، فقد خطط النبى ﷺ للأمر فبدأ التحرك بجيشه من المدينة صوب مكة وكلما تقدم فى مسيره، انضمت إليه سائر القبائل حتى بلغ تعداد الجيش ١٠ آلاف فكان أكبر جيش شهدته الجزيرة العربية حتى ذلك الحين وبانتشار الإسلام تطور الأمر وبلغ ذروة الكفاءة حيث بلغت عدة الجيش الذى قاده النبى بنفسه إلى تبوك ٣٥ ألفا.

ولقد انتهج الخليفتان «أبوبكر وعمر» خطة موفقة لتدبير القوات اللازمة لتعويض الخسائر أثناء معارك الفتح، بل إن بعض هذه القوات كان يتم تدريبها قبل دفعها إلى ساحة المعركة.

ثالثا: تعيين القيادات العسكرية «الأمراء»:

لقد خضع تعيين الأمراء لعدة اعتبارات من أهمها:

١- لا تسند الإمارة لمن طلبها، فقد رفض النبى ﷺ طلب «أبى ذر الغفارى» للولاية، ولم تسند الإمارة «للمثنى بن حارثة الشيبانى» حين طلبها من «الصديق»

٢- القوة والأمانة هما معيار الاختيار، أى الكفاءة العسكرية ثم التقوى والصلاح أى خشية الله وترك خشية الناس واجتماع الركنين فى الناس قليل حتى إن «عمر» كان يقول: «اللهم إنى أشكو إليك جلد الفاجر وعجز الثقة». فكان يختار الأصلح بحسب نوع الإمارة فيقدم لإمارة الحرب الرجل الشجاع القوى الخبير بفنون القتال.

٣- يمتلك القائد الأعلى السلطة المطلقة فى إسناد الإمارة لمن يراه الأحق بها إما منفردا أو بعد مشاورة الصحابة. كما أن تلك السلطة تخوله عزل من أمره. وفى جميع الأحوال يجب عليه أن يمتلك المهارة والسبل التى تمكنه من معرفة الأصلح من الرجال لتولى القيادة.

كان النبى ﷺ يعين بنفسه قادة السرايا والبعوث وكان أحيانا يعين من يتولى بعدهم الإمارة إن أصابهم مكروه كما حدث فى غزوة «مؤتة» وكان ﷺ يستعمل «خالد بن الوليد» على الحرب مع أنه كان أحيانا يبرأ مما فعله خالد. وعندما تولى «الصديق» الخلافة أصر على إنفاذ جيش «أسامة بن زيد»، رغم اعتراض الصحابة، لأن النبى ﷺ هو من عينه وحدد له مهمته قبل وفاته وبذلك سن «الصديق» سنة حسنة التزم بها كل من تولى الأمر من بعده. ولولا تمسكه بقراره هذا لطمعت القبائل فى المسلمين وأغرت الروم بالانقضاض على الدولة وهى فى أشد ظروفها حرجا. ولقد اختار «الصديق» قادة اللواءات المكلفة بخوض حروب الردة بنفسه، وولى عليهم «خالد بن الوليد» اتباعا لما فعله الرسول، ولم يستجب إلى «عمر» عندما ألح على عزل «خالد». ورغم اعتراض «عمر»، عين «الصديق» «خالد بن سعيد» أميرا على لواء «تيماء» وكلفه بشغل الروم لحين استكمال حشد القوات المكلفة بفتح الشام وقد ندم «الصديق» فيما بعد على عدم أخذه بنصيحة «عمر» وقال: إنه أعرف منه بالرجال كما أن «الصديق» عين بنفسه أمراء اللواءات الأربعة التى دفعها لجبهة الشام وولى «أبا عبيدة بن الجراح» قائدا عاما عليهم. سار أمير المؤمنين «عمر» على نفس الدرب، فبينما قام منفردا بتعيين «عمرو بن العاص» لقيادة جيش فتح مصر، فإن اختيار «سعد بن أبى وقاص» لقيادة الجيش المكلف بخوض معركة «القادسية» تم من خلال مجلس للحرب شارك فيه كبار الصحابة. كما أن «عمر» كلف «سعدا» بتعيين نائب له على الجيش فكانت المرة الأولى فى هذا المجال.

رابعا: عزل واستبدال القيادات العسكرية:

كانت أسباب عزل القادة موضوعية بحتة. فهى إما من أجل تولية الأصلح أو خشية فتنة الناس لذياع شهرة القائد.

كان السبب الأول هو البارز فى سلوك «الصديق» أى تولية الأصلح. فلم تكن الدنيا قد أقبلت بعد على المسلمين ولم تكن شهرة القادة قد ذاعت للدرجة تهدد بفتنة الناس. لقد تمسك «الصديق» بأمر النبى ﷺ بقوله: «من ولى من أمر المسلمين شيئا، فولى رجلا وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه، فقد خان الله ورسوله» رواه عمر. كان «المثنى بن حارثة الشيبانى» قائدا ذا كفاءة وهمة وخبرة ومع ذلك لم يستجب «الصديق» له عندما طلب أن يوليه أمر فتح العراق وولى «خالد بن الوليد» أميرا عليه. فكان ذلك مثالا على تولية الأصلح. وعندما أصبح دعم المسلمين بالشام أمرا ملحا، أمر «الصديق» خالدا، بالمناورة بنصف جيشه من العراق إلى الشام وكلفه بتولى القيادة بدلا من «أبى عبيدة» وأرسل كتابا إلى «أبى عبيدة قال فيه: «إنى لم أبعثه عليك أن لا تكون عندى خيرا منه ولكننى ظننت أن له فطنة فى الحرب ليست لك».

وقام «الصديق» بعزل «خالد بن سعيد» من إمارته للواء تيماء بعد أن خالف أمره وورط المسلمين فى قتال متهور عرضهم للهزيمة.

كانت الغنائم والأموال قد تدفقت وذاعت شهرة بعض القادة عندما تولى «عمر» الخلافة، وأدرك بفطنته أن تلك الأمور هى أخطر ما يهدد صلابة الجيش وتماسكه ويضعف العقيدة القتالية لدى الرجال، فبادر إلى معالجتها دون تردد أو هوادة من خلال:

١- قام «عمر» فور توليه الخلافة بعزل «خالد بن الوليد» وعين بدله «أبا عبيدة بن الجراح» وأرسل كتابا فى الأمصار قال فيه: «إنى لم أعزل خالدًا عن سخطة أو خيانة، ولكن الناس فتنوا به فخفت أن يوكلوا إليه ويُبتلوا به، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع» كما عين «أبا عبيد بن عمرو» قائدا لجبهة العراق بدل «المثنى بن حارثة» لنفس السبب.

وقد اتبع «عمر» أسلوبا جديدا هو أن يقوم القائد المعزول بالعمل تحت رئاسة القائد الجديد وهو أمر يشق على الكثير من الرجال تقبله ومع ذلك قبله القائدان العظيمان «خالد والمثنى» وقاتلا بإخلاص تحت إمرة القادة الجدد الأمر الذى جعل المؤرخ «ل. أ. سيديو» فى كتابه «تاريخ العرب العام» يعلق عليه بقوله: «فإذا أضفت إنكار الذات هذا وحب النظام هذا إلى ذلك النبل العظيم قضيت العجب من أمر العرب».

٢- كان اقتسام أموال بعض القادة هو الأسلوب الذى اتبعه «عمر» حفاظا منه على المصلحة العامة للمسلمين لأن اكتساب الولاة والقادة مالا بغير حق يتيح المجال لانتشار الفساد.

فمثلا، أرسل «عمر» إلى واليه بمصر «عمرو بن العاص» كتابا قال فيه: «إنه قد فشت لك فاشية من متاع ورقيق وآنية وحيوان لم تكن لك حين وليت مصر»، وعندما رد عليه «عمرو» محاولا تبرير ذلك، كتب إليه «عمر» «إنى قد خبرت من عمال السوء ما كفى، وكتابك إلىّ كتاب من أقلقه الأخذ بالحق، وقد سؤت بك ظنا، وقد وجهت إليك محمد بن مسلمة ليقاسمك مالك، فأطلعه طلعه وأخرج إليه ما يطالبك به، واعفه من الغلظة عليك فإنه قد برح الخفاء». هكذا كان «عمر» أول من سن قانون من أين لك هذا؟

٣- خشى «عمر» من تسرب الترف إلى الجند فعمد إلى منع اختلاطهم بالأهالى فى البلاد المفتوحة حفاظا على عقيدتهم القتالية وصلابتهم. فكون مراكز تجمع «ثكنات» لحشد قوات المسلمين فى أماكن متوسطة بعيدة عن المناطق المأهولة بالسكان وبحيث يستطيع جيشه العمل من تلك المراكز بسرعة فى جميع الاتجاهات.

خامسا: التخطيط للعمليات الحربية وإدارتها:

لا يقتصر التخطيط للحرب على المستوى الاستراتيجى على الشأن العسكرى وحده بل يمتد ليشمل كل شئون الدولة من توفير التمويل للتسليح وحشد القوى البشرية وتدريبها وإعداد النواحى الإدارية لتموين القوات بل وأيضا «الحشد الإيمانى» للدولة. أما الشأن العسكرى فيتضمن دراسة طبيعة الأرض فى مسرح العمليات وأوضاع قوات العدو ونواياه، ثم موقف قواته وإمكانياتها وأفضل أسلوب لاستخدامها فى المعركة المتوقعة وبخاصة تحديد اتجاه مجهودها الرئيسى وأفضل تشكيل قتال للقوات، وأخيرا الخروج بالقرار الصحيح وإصدار التعليمات ومتابعة تنفيذها. إنه بلا شك باب واسع لا يسمح المجال هنا لشرح كيف تناوله المسلمون، لذلك نكتفى بعرض لمحات موجزة تحدد الإطار العام له.

لم يكن النبى ﷺ يكتفى بتعيين قادة السرايا والبعوث، وإنما كان يحدد لهم مهامهم وأسلوب تنفيذها. وقد جرت كل الغزوات فى إطار رؤية شاملة تضمنت أربعة مراحل:

- بدأت بخوض حرب دفاعية لصد العدو للمحافظة على نواة الدولة الناشئة، فتم دفع سرايا للاستطلاع وجمع المعلومات مع الدخول فى معارك دفاعية (منها بدر، أحد، الخندق).
- ثم تلتها المرحلة الثانية بالقيام بهجمات محدودة انتهت بعقد صلح الحديبية وذلك من أجل إنشاء نطاق آمن حول مركز الدولة.
- وبالنجاح فى إفقاد العدو لقوته الدافعة ثم بخرقه لمعاهدة الصلح جاءت المرحلة الثالثة وهى شن هجوم كاسح على مركز ثقل العدو لإخضاعه (فتح مكة بدون قتال، إخضاع قبائل اليهود المتبقية).
- وأخيرا كانت المرحلة الرابعة هى دفع القوات لتأمين حدود الدولة من التهديد الخارجى وبخاصة الروم (غزوات مؤته، تبوك، إعداد جيش «أسامة بن زيد»).

سار «الصديق» على نهج الرسول ﷺ، وابتكر وطور فكان تشكيله للقوات المكلفة بحرب الردة من ١١ لواء يعملون مستقلين ثم يتجمعون تحت قيادة «خالد بن الوليد» عند خوضهم لمعركة فاصلة، ثم يكررون الأمر مرات. هو البذرة الأولى لبناء مفهوم «الحرب المتحركة» التى

تمكن من المناورة بالقوات في المواجهات الواسعة لمسرح العمليات مع بداية الفتح، وهو أسلوب لم يعرفه الفرس والروم وكان سببًا في انتصار المسلمين عليهم. وكان «الصديق» ملمًا بشكل كامل بموقف القبائل المرتدة وحدد «لخالد» أين يوجه مجهوده الرئيسي للقتال ونصحه بألا يتحرك بقواته في غير تعبئة كاملة حتى لا يؤخذ على غرة. وقد استفاد «الصديق» من دروس حرب الردة عندما قام بدفع أربعة ألوية لفتح الشام وزعها بحنكة على أهم الاتجاهات التعبوية في مسرح العمليات بحيث تتمكن من انتهاج أسلوب «الحرب المتحركة».

عندما تولى «عمر» الخلافة، كانت جبهة الشام نشطة بينما لم يكن الموقف قد تطور بعد على جبهة فارس. وتظهر الدراسة المتأنية لتعليمات العمليات التي أصدرها «عمر» إلى «أبي عبيدة» في جبهة الشام مدى دراية الخليفة ومعرفته الكاملة لطبيعة الأرض بمسرح العمليات ونكاد نجزم بأنه استخدم ما نعرفه اليوم «بتختة الرمل» لهذا الغرض. كما كان ملمًا بموقف العدو (الروم) قبل أن يضع خطته، فقرر أن يكون المجهود الرئيسي للقوات هو الاستيلاء على «دمشق» لأنها كما قال «حصن الشام» وسقوطها يفقد الروم اتزانهم. ولحماية القوة الرئيسية المكلفة بفتح دمشق، أمر بدفع قوات خفيفة الحركة (مفارز قتال) في ثلاث جهات لسد المنافذ المتوقع أن يدفع العدو منها قوات جديدة لدعم قواته في دمشق. وهكذا، غطت الخطة مسرح العمليات بأكمله، شاملة الاتجاهات التعبوية في شمال الشام، وجنوبه إلى فلسطين، وقلبه بالأردن، بل إنه وضع في خطته عدة احتمالات لإدارة القتال وحدد أنسب قرار لكل منها، ثم أصدر تعليمات عمليات حددت مهام القوات وأسلوب تنفيذها.

لم يختلف الأمر عندما قرر «عمر» فتح جبهة فارس. لقد أرسل إلى قائد الجيش، بالجبهة «سعد بن أبي وقاص» كتابًا قال فيه: (إنه قد منعني من بعض ما أردت الكتابة به، قلة علمي بما هجمتم عليه، والذي استقر عليه أمر عدوكم، فصف لنا منازل المسلمين، والبلد الذي بينكم وبين «المدائن» صفة كأني أنظر إليها، واجعلني من أمركم على الجلية، وخف الله وارجه)، وقد رد «سعد» بكتاب فيه وصف رائع غاية في الدقة والبلاغة. كما كانت تعليمات الخليفة لتنظيم مسير القوات من المدينة إلى العراق مع توقع دخولها في معارك تصادمية، غاية في الروعة والدقة لدرجة تدهش الخبراء العسكريين المعاصرين. كما بينت المكاتبات المتبادلة بين «عمر» و«سعد» أثناء القتال بالقادسية، مدى كفاءة الخليفة في إدارة العمليات. كانت متابعة الخليفة لإدارة الحرب وتطورات القتال تتم بشكل رائع ومستمر من خلال نظام المواصلات الذي اعتمد على البريد والرسل (ضباط الاتصال) فكان يتلقى تقارير يومية من القادة الميدانيين ويصدر بناء عليها تعليماته لهم. وكما كان الحزم

صفة بارزة في قيادة «عمر» لقواته، فإن المرونة كانت إحدى سمات تلك القيادة وبرزت بشكل جلي عندما اتخذ القادة الميدانيون بالشام قرارهم بالانسحاب من المناطق التي فتحوها لإعادة حشد قواتهم لخوض المعركة الفاصلة، وأرسلوا إلى «عمر» مندوبيهم لشرح حقيقة الموقف. ورغم أن قرارهم كان مخالفًا لرأي «عمر» فإنه وافق عليه بل ودعمه بالقوات لإدراكه أنهم أدرى منه بالموقف على الأرض واتخاذهم القرار دون الرجوع إليه لضيق الوقت. بذلك وضع «عمر» مبدأ هامًا هو عدم فرض القيادة السياسية رأيها في ظروف معينة على ما يراه القائد الميداني أنه الأصوب. ومن المبادئ التي رسخها «عمر» نصيحته للقادة الميدانيين بضرورة تحقيق المبادأة في القتال لهزيمة العدو معنويًا قبل هزيمته ماديًا، متبعًا في ذلك ما ورد بالحديث الشريف: «نصرت بالرعب مسيرة شهر» (رواه البخاري ومسلم) وقد ظهر أثر تطبيق هذا المبدأ بشكل جلي فيما انتهجه «عمرو بن العاص» عند فتحه لمصر. ولاشك أنه يأتي على قمة ما أنجزه «عمر» أنه تمكن من إدارة عمليات القتال على جبهتي الفرس والروم في وقت واحد كان النصر ثمرته.

سادسًا: سلطات أخرى:

يتمتع القائد الأعلى في الدولة الإسلامية بسلطات عديدة لا يتسع المجال لشرح تفاصيلها لكنها بشكل عام تتضمن إبرام المعاهدات والاتفاقيات والمواثيق المتعلقة بالحرب، وأسلوب معاملة الأسرى وإدارة البلدان المفتوحة وتنظيم النواحي المالية المتعلقة بالجزية والخراج وتوزيع الغنائم، كذا تنظيم وإدارة ديوان الجيش ... إلخ.

خاتمة:

إن ما قام به النبي ﷺ وخلفاؤه الراشدون، باعتبار كل منهم كان القائد الأعلى للقوات، هو النبع الذي ارتوت منه المدرسة العسكرية الإسلامية وميزها عن غيرها من المدارس العسكرية في الجوهر والمضمون. فكان من أبرز سماتها أن العقيدة القتالية والعقيدة الإسلامية يجمعهما نسيج واحد في ترابط قوي يتعدى بكثير مفهوم التوجيه المعنوي.

وإن مبادئ وقوانين الحرب تخضع للأحكام والقواعد الكلية التي قررتها الشريعة الإسلامية والتي حددت أسباب الحرب وهدفها وأسلوب إعلانها وإدارتها وما يترتب عليها من آثار. أما أساليب وتكتيكات القتال وما تعلق بالشأن العسكري من تسليح وتنظيم وتدريب فهي من شئون الدنيا التي تخضع للاجتهاد الذي تحكمه الإمكانيات المادية والقدرات البشرية وبما لا يخالف أحكام الشريعة. كما انفرد مضمون «فن قيادة الرجال» الذي صاغته المدرسة الإسلامية بمنهج متميز عن غيرها.

إن ممارسة القائد الأعلى لمنظومة القيادة والسيطرة في الدولة الإسلامية لدوره كاملاً بكفاءة واقتدار هو ركن ركين لتحقيق أمن وسلامة الدولة.

تأملات فى السيرة

صلح الحديبية (٢)



لفضيلة الشيخ الطاهر الحامدي

تجليات ربانية وإلهامات محمدية

قلنا فى المقال السابق: إن المؤرخ لا يستطيع أن يفهم أحداث «صلح الحديبية» فى ضوء المرويات لوقائع التاريخ فإن قواعد الدراسة التاريخية تعجز عن فهم المقدمات والنتائج لأن جُلّ ما حدث أو كله لا يخضع لأسباب أو مسببات عادية إنما هى فى جملتها خوارق للعادات ومعجزات يسرها الله لنبيه ﷺ وهى تنطق فى فحواها بأن رسول الله - ﷺ - وأن الإسلام لم ينتشر بالسيف، وفى ذلك إبطال لزعم المستشرقين وتضليل المؤرخين ودحض حجتهم ولا بد كى نفهم الحقيقة بأن نقارن ما حدث فى غزواته النبوية ﷺ عامة وفى صلح الحديبية خاصة ونقارن ذلك بما يفعله اليوم عتاة المستعمرين فى العالم وتسلطهم على مقدرات الشعوب وسلبهم أبسط حقوقهم ولا يتورعون فى ذلك عن القتل والتدمير بل إنهم يبررون القتل والتدمير بحجج واهية هى أقرب إلى الكذب الصراح منها إلى التبرير ولك أن تنظر وتتأمل عربدة أمريكا - ومن يمشون فى ركبها - فى عالم اليوم بمعايير مختلفة وموازين مجحفة ظالمة فإنها تنظر إلى كل عمل ليس بميزان واحد ولا بعين واحدة إنما تُقَيِّمه تبعًا لمصالحها ومنافعها فى الحدث وما تجنيه من نفع مادى، وتبرير وبسط سلطاتها على العالم وهى تزعم أنها تنشد الديمقراطية وأنها راعية الحرية فى العالم، فأى حرية تلك التى جنتها بلاد ما يسمى بالربيع العربى؟ وأى ديمقراطية إن كانت تلك الدماء التى تسيل والأرواح التى تُزهَق هى نتائج الحرية والديمقراطية؟ إن كل ما يحدث فى مصر بفعل أمريكا وتحت رعايتها فهى التى تحرك الأذناب تبعًا لمصالحها ووفقًا لمخططاتها وأهدافها فهى التى تهدف من وراء التخريب والتدمير الذى تمارسه فى البلاد العربية لتفتيتها حتى تجعل إسرائيل هى أقوى دولة فى الشرق الأوسط بعد أن تتمزق البلاد حولها إلى دويلات ضعيفة تبعًا لما أشاعته منذ سنوات «من سياسة الفوضى الخلاقة» فلو أنك قارنت بإحصاء علمى وعملى دقيق كم عدد الذين استشهدوا من المسلمين وعدد ما قتل من أعدائهم وجمعت الجميع طوال غزوات النبى ﷺ كلها لما وصلت أعدادهم جميعًا إلى نصف أعداد من قتل فى الجمهورية السورية ورغم ذلك فإن الملاعين فى أمريكا وأذنابها فى أوروبا والعالم لا يتورعون عن وصف ما يجرى إلا بأنه سعىٌ شريف إلى ترسيخ الديمقراطية.

وبعد، فقد تقول أيها القارئ الكريم إنا تركنا موضوع السيرة وجنحنا إلى سياسة معاصرة نكدة لكنى أقول لك إنا لا نقرأ تاريخًا كقصة! إنما نأخذ التاريخ عبرة وسُلّمًا نمتطى به جواد الصحوة واليقظة إلى مستقبل ننشده نفهم من خلاله أحقاد وألاعيب ذئاب العالم الذين يزعمون أنهم حماة الحرية!!! كلا وألف كلا فها هُوَ التاريخ ينضح بنفس الخداع والكذب الذى يروجون له يريدون أن يسيطروا على العالم من خلاله على أنا نقول لهم إنا لكم ولأفعالكم بالمرصاد ولن نؤمن لكم فقد نبأنا الله من أخباركم وأذكرُ حادثةً وقعت فى أواخر القرن الماضى تنضحُ بحقد هذه الدولة التى هى عكارة المجتمع الأوروبى وحثالة الناس ونحن نعلم والتاريخُ يعلمُ أن أمريكا فى نشأتها الأولى كانت مأوى لكل مجرمى أوروبا حيث كانت أوروبا ترسل إلى هذا المنفى كل المجرمين المحكوم عليهم بالسجن تلقى بهم فى هذا المستنقع الآسن وهذه الأجيال كلها فى أمريكا هم أحفاد هؤلاء المطاريد المساجين. وأعود للحادثة التى وقعت فى أواخر القرن الماضى التى تنبئ عن مدى حقد هذه الدولة ونحن نعلم أنّ مصر كانت تعانى وما تزال من أزمة فى إنتاج القمح وأنا لا أريد أن أخوض فى أسبابها الآن حيث أن المجال لا يتّسع لهذا على أنّ من أهم أسبابها أمريكا نفسها وعلى أى حال ففى أبّان هذه الأزمة ونظرًا لاحتياج مصر إلى القمح أرسلت أمريكا إلى مصر سفنًا محمّلة بأطنان من القمح لكنّه - يا للعار - ردىء مخلوط بحبات الذرة والحشرات وبذرة القطن وهذه بيت القصيد فإن أمريكا البلد الزراعية تحقدُ على مصر أنّ الله حباها بقطن طويل التيلة لا يُنتج إلا فى مصر ولا تنتجه إلا مصر هبةً من الله تعالى لكن أمريكا لم يرضها ذلك فهى لا تريد لمصر أن تكفى نفسها قمحًا ولا أن تنفرد بإنتاج قطن عالمى دونها فدبّرت هذا المكر الخسيس ولما رفضت مصر هذه الحمولة المخلوطة حيث أنّ قرارًا وزاريًا مصريًا سابقًا برفض أى شحنة قمح فاسد وخاطبت مصر أمريكا فى هذا الشأن وأرادت أن تردَّ الحمولة فإذا ببركان الغل الأسود ينفجر فى وجه السلطات المصرية مهددًا مستغلًا حاجة مصر من القمح رافضًا ردَّ هذه الصفقة

صلح الحديبية (٢)

قائلًا: إنْ رفضتم هذه الحمولة فلن يصلكم قمح من أمريكا!!!. وتحت ضغط الحاجة وقوة الخصم أذعنت مصرُ وقبلت الحمولة لكنَّها سترًا لماء الوجه أشاع الإعلام المضلل بأن مصر سوف تبني صوامع حديثة في جنوب الصعيد وانشأت صوامع في ميناء سفاجة وأرسلت مهندسين زراعيين من الحجر الزراعي إلى ميناء سفاجة واستعانت بصوامع ذات كفاءة لغربلة هذا القمح الفاسد وحظرت تصريفه في المحافظات التي تزرع القطن ونجى الله مصر من تدمير محصول القطن الذي تنفردُ به.

فهل ترى أملًا في تعامل هؤلاء الناس؟ إن التاريخ يئنُّ من مكر هؤلاء ويُحذِّرنا من دهائهم وخبثهم فهل نسمعُ ونستجيبُ لتحذيرات التاريخ؟ أيها القارىء الكريم أرى أنك شغوف بأن نعود بعد هذه الزفرات الحارة وأن نرجع إلى صلح الحديبية وما تمَّ فيه.

إنَّ أهم سمة في صلح الحديبية بل وفي غزوات النبي ﷺ كلها أنه ﷺ كان داعيًا إلى الله بإذنه وأنَّه سراجٌ منير. فهل رأيتَ على مرِّ التاريخ أو تتوقع بأن ترى جيشًا يترك أمور الحرب من الكرِّ والفر ويعلِّمُ جنوده وجيشه ما يباح وما لا يباحُ فعلُه للمحرم؟ يروى الإمام أحمد والشيخان عن كعب بن عجرة قال: كنَّا مع رسول الله ﷺ بالحديبية ونحن مُحْرِمُونَ وكانت لي وفرة - أي شعرٌ كثيف - فجَعلت الهوام تساقطُ على وجهي فمرَّ بي رسول الله ﷺ فقال: أيؤذيك هوام رأسك؟ قلت: نعم. قال: ما كنت أرى أن الجهد بلغ بك هذا؟. أرأيت إلى هذا النبي المعلم الرحيم كيف يتفقد جنوده يسيرُ بينهم يتعهَّدهم في مودة فائقة؟ يقول كعب: فأمرني أن أحلق رأسي وأنزل الله تعالى قوله:

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾

(البقرة: ١٩٦)

فقال ﷺ: صُمْ ثلاثة أيام أو تصدَّق بفرق - أي زاد - بين ستة مساكين أو أنسك ما تيسَّرَ لك.

فلمَّا بلغ رسول الله ﷺ الجُحْفَة أمرَ بشجرة فسوَّى المسلمون ما تحتها فخطب الناس فقال: إنَّي كائنٌ لكم فرَطًا وقد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا أبدا كتاب الله وسنة نبيِّه. تأمل مدى رحمته ﷺ بأمته وهو يسبقهم إلى مكان الماء ويُهيِّء لهم المكان ويَعدُّ لهم الدلاء؟؟؟. ولمَّا توجَّهَ رسول الله ﷺ (عام الحديبية) يريد مكة قدِمَ عليه بشر بن سفيان العتكي، فقال له النبي ﷺ: يا بشر هل عندك علمٌ بأهل مكة علموا بمسيري؟ فقال بشر لرسول الله ﷺ: إني لأطوف بالبيتِ في ليلة وقريشٌ في أنديتها إذ صرخ صارخٌ في أعلى جبل أبي قبيس بصوتٍ أسمعَ أهلَ مكة بشعر يخبرُ فيه بخروجك إليهم فارتجت مكةُ واجتمع المشركون وتعاقدوا على ألَّا تدخل عليهم مكة في عامهم هذا. فقال رسول الله ﷺ: هذا الهاتف «سلقع» شيطان الأصنام يوشك أن يقتله الله تعالى إن شاء الله عز وجل فبينما أهل مكة كذلك إذ سمعوا من أعلى الجبل صوتًا يقول:

شاهت وجوه رجالٍ حالفوا صنمًا
وخاب سعيهم ما قصَّر الهممَا
إني قتلتُ عدوَّ الله «سلقعة»
شيطان أوثانكم سحقًا لمن ظلمَا
وقد أتاكم رسول الله في نفرٍ
وكلهم محرم لا يسفكون دمَا

وراعَ المشركون خروج رسول الله ﷺ واجتمعوا وتشاوروا وقالوا: أيريد محمدٌ أن يدخلها علينا في جنوده معتمرًا فتسمعُ العرب أنه قد دخل علينا عنوة وبيننا وبينه من الحرب ما بيننا؟ والله لا كان هذا أبدًا ومنَّا عينٌ تطرِّف. ثم قدَّموا خالدَ بن الوليد في مائة فارس واستنفروا من أطاعهم من الأحابيش وانضمَّت ثقيف معهم وخرجوا إلى موضع خارج مكة يقال له «بَلْدَح» ونصبوا بها الخيام ومعهم النساء والصبيان وعسكروا هناك واجمعوا على منع رسول الله ﷺ من دخول مكة ومحاربته وأرسلوا عيونهم على الجبال يُعلمونهم بتحرك رسول الله ﷺ بغدير الأشطاط وراء عُسفان، فقال: يا رسول الله هذه قريش سمعت بمسيرك فخرجوا ومعهم العُوذُ المَطافيل قد لبسوا جلود النمور وقد نزلوا بذي طُوىً يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبدًا، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدَّمها إلى كُراع الغَميم. فقال رسول الله ﷺ: «ياوَيْحَ قريش لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلَّوا بيني وبين سائر العرب؟ فإنْ هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا وإن أظهرني الله تعالى عليهم دخلوا في الإسلام وافرين وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة فما تظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهدهم على الذي بعثني الله تعالى به حتى يظهره الله تعالى أو تنفردَ هذه السالفة».

⁂

مكتبة مجلة الأزهر

إعداد الأستاذ: محمد شعبان

تسعى "مجلة الأزهر" عبر هذا الباب إلى التواصل مع القارئ العزيز من خلال تقديم نبذة عن أحدث الإصدارات الجادة في شتى مجالات المعرفة، ذلك للمساهمة في تكوين عقلية واعية وعصرية.



أعادت مكتبة مدبولي نشر "الرسالة الحميدية في حقيقة الديانة الإسلامية وحقيقة الشريعة المحمدية" لمؤلفها العلامة الأزهري الراحل الشيخ حسين الجسر الطرابلسي "١٨٤٥م-١٩٠٩م" بتقديم وتحقيق خالد زيادة... والرسالة من أخطر وأهم وأعمق الكتب الإسلامية التي كتبت في العصر الحديث للرد على الملحدين والطبيعيين ومؤيدي الداروينية.

قام الجسر في هذه الرسالة بأمرين جوهريين.. أولهما: التصدي للفلسفات الغربية الوافدة دفاعاً عن الإسلام وصوناً للعقيدة من الشبهات التي حاولت هذه الفلسفات إلصاقها بالإسلام... الأمر الثاني: دلل الجسر علمياً على أن العقائد التي انطوى عليها التوحيد الإسلامي هي أمور جائزة عقلاً... كما رد الجسر على النظريات الحديثة من وجهة نظر إسلامية، من خلال تأسيس موقف إسلامي معاصر أو علم توحيد جديد... وعن سبب تسميتها بالحميدية يقول صاحب الرسالة: "نسبة إلى اسم الخليفة عبد الحميد - رحمه الله تعالى - حيث إن الحامي للدين الإسلامي والمؤيد لشعائره والمحافظ على أوامره هو حضرة مولانا أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين حامي حمى الإسلام"... تجدر الإشارة إلى أن جمال الدين الأفغاني فور مطالعته الرسالة وصف مؤلفها بـ"شعري هذا الزمان".



يقدم معجم الاشتقاق المؤصل لألفاظ القرآن الكريم تفسيراً للمفردات القرآنية موثقاً مؤصلاً.. يشتمل المعجم الصادر في ٤ مجلدات على ٢١٤٥ صفحة عن مكتبة الآداب على ما يلي: أولاً: بيان المعنى المحوري العام لكل من التراكيب والمواد اللغوية القرآنية وفصولها المعجمية، حيث تعرض لنحو ٢٣٠٠ تركيب منها نحو ١٧٠٠ هي التراكيب التي بنيت منها ألفاظ القرآن الكريم.

ثانياً: تفسير كل من ألفاظ القرآن الكريم في سياقاتها القرآنية تفسيراً موثقاً من معاجم اللغة وتفاسير القرآن الكريم المشهورة.

ثالثاً: بيان اشتقاق كل من ألفاظ تلك التراكيب: قرآنية أو لغوية غير قرآنية.

رابعاً: بيان المعنى المشترك بين معاني تراكيب: (مواد) كل فصل معجمي في هذا المعجم، وقد جاءت في ٣٦٧ فصلاً معجمياً.

خامساً: بيان المعنى اللغوي لكل من الأصوات والحروف الأبجدية، التي تتكون منها كل التراكيب في هذا المعجم مطبقة في المعنى المحوري لكل تركيب، وقد بلغت ٣٩٧ تحليلاً صوتياً.



يرفض عالم الاجتماع البولندي زيجمونت باومان في كتابه «الحداثة والهولوكوست» الأسطورة ذائعة الصيت التي ترى في الحداثة الغربية تقدماً خلاقاً وانتقالاً من الهمجية إلى الإنسانية.. حيث يرى باومان، في كتابه سالف الذكر والذي صدر مؤخراً عن دار مدارات للأبحاث والنشر بترجمة رصينة للدكتور حجاج أبو جبر والدكتورة دينا رمضان، الحداثة مشروع لا إنساني ولا أخلاقي... بل يرى باومان أن "الهولوكوست" متوافق تماماً مع فكر الحداثة الغربية وعقلانيتها... ويستخدم عالم الاجتماع الألماني صورة مجازية تصف نزعة الإبادة لدى فلسفة الأنوار الغربية وهي صورة "البستاني" الذي يقوم بإزالة "النباتات" التي لا تتوافق مع النظام السائد... حيث يصبح المجتمع هو "البستان" والدولة القومية هي "البستاني" الذي يقضي على جميع الخصوصيات القومية والثقافية التي لا تتوافق مع الرؤية الحداثية.

نقود العالم
متى ظهرت؟ ومتى اختفت؟
السيد محمد الملط

يقارن كتاب «نقود العالم.. متى ظهرت؟ ومتى اختفت؟» للسيد محمد الملط بين النظام الاقتصادي الإسلامي مقارناً بالنظم الاقتصادية الوضعية... الحر، الرأسمالي والاشتراكي.

يرى المؤلف أن: "التوحيد هو أساس المشروعية الإسلامية التي تهدف إلى تحقيق العدل، من المتعذر أن تجمع بين الحتمية الإسلامية؛ والحتميات الوضعية الاشتراكية والرأسمالية، وهذا الاختلاف يؤدي إلى اختلافات في التطبيق في النظم الثلاثة، فمثلاً إذا نظرنا إلى نظام الملكية، لوجدنا أن الاشتراكية تحرمها لأنها حصيلة تراكم فائض قيمة العمل؛ ولذلك فهي توجب إلغاء الملكية الخاصة بشتى طرق الإلغاء، وأما النظام الرأسمالي فهو يقدس الملكية ويقرر لها حقوقاً مطلقة؛ وأما النظام الإسلامي فهو يجعل الملكية وظيفة اجتماعية فهو يعترف بالملكية الخاصة ولكنه لا يجعلها حقاً مطلقاً يتصرف صاحبها كيفما يحلو له"، وقام المؤلف بدراسة بحثية تاريخية دارت حول نقود العالم متى ظهرت ومتى اختفت.



يكشف الأديب والمفكر الراحل عباس محمود العقاد في كتابه "اللغة الشاعرة" عن البناء الشعري للغة العربية ليس فقط عروضياً بل يتسع ذلك في حروفها ومفرداتها وفي الإعراب والمجاز ولغة التعبير.

كما يصف العقاد في الكتاب الذي أعادت هيئة قصور الثقافة نشره مؤخراً، التشكك في الشعر العربي بالخطأ الاستشراقي رغم أن المعروف أن طه حسين صاحب هذه الدعوى، لكن العقاد حسم الأمر بإرجاع القول لأهله دون التوقف عند نقل طه حسين للمسألة معتبراً أن من ينحي هذا المنحى "يجهل روح اللغة ومعاني الكلمات".

إعلان الإسكندرية حول حقوق المرأة فى الإسلام

تدارس المشاركون فى مؤتمر «قضايا المرأة: نحو اجتهاد إسلامى معاصر» الذى نظمته مكتبة الإسكندرية بالتعاون مع عدد من مؤسسات العمل الأهلى فى الفترة من ١٠-١١ مارس ٢٠١٤؛ أهمية إصدار إعلان، ينبع من الأرضية المعرفية والثقافية، يؤكد على الحقوق المشروعة للنساء، ويلبى تطلعاتهن نحو العدالة والمساواة، ويقر بعقائدهن وتنوع ثقافتهن.

ويستند هذا الإعلان على مبادئ الشريعة الإسلامية السامية وبعض اجتهاداتها الأصلية، وهو ثمرة مشتركة لتلك النقاشات التى دارت فى رحاب الأزهر الشريف خلال عامى ٢٠١٢ و٢٠١٣، وضمت عدداً من الرموز النسائية المصرية، وممثلى الجمعيات الأهلية المعنية بحقوق النساء، والجلسات الثرية التى شهدها مؤتمر قضايا المرأة، والتعليقات الضافية التى أضافها عدد من كبار علماء الشريعة فى العالم الإسلامى.

ويضم هذا الإعلان المبادئ الأساسية والقواسم المشتركة للحقوق السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية على نحو يلائم المجتمعات الإسلامية على اختلافها، ويسمح لها بأن تتعامل مع قضايا النساء وفقًا لثقافتها وأوضاعها السياسية والاقتصادية المختلفة.

و هذا الاعلان قابل للتطوير عبر حوار ممتد يدعم مساحة الاجتهاد الاسلامى حول حقوق النساء.

المنطلقات

١ . الرفض التام لتسييس القضايا المجتمعية، أو استغلال قضايا المرأة فى الصراع السياسى بين القوى المجتمعية المختلفة؛ لذا يدعو الإعلان إلى ضرورة الانطلاق فى معالجة قضايا المرأة من الاحتياجات الحقيقية للشعوب والمجتمعات، والمعارف العلمية والدينية الموثقة والدراسات الميدانية الاجتماعية .

٢ . التأكيد على قيم الوسطية المعتدلة المميزة للثقافة الإسلامية والثقافة الأسرية المنبثقة منها، البعيدة عن التشدد والانغلاق.

٣ . الإيمان بأن المساواة فى النفس والروح والكرامة والمكانة الإنسانية، والشراكة فى المسئولية عن الكون وإعماره؛ مفاهيم جوهرية فى علاقة الرجل والمرأة فى الإسلام.

٤ . الحرص على أن تكون التشريعات

الخاصة بالمرأة ذات طبيعة اجتماعية توافقية تراحمية لا صراعية، من أجل حماية حقوق أفراد المجتمع كافة؛ وفى مقدمتهم أفراد الأسرة دون تمييز، على أن تراعى مصلحة الطفل، فهو صاحب أولوية فى وضع تلك التشريعات.

٥ . الاتجاه إلى مشاركة المرأة فى المجالات العامة، ومساواتها فى الكرامة والقدرات الإنسانية، وعدم اختزالها فى الوظائف الجسدية والأسرية وحدها.

حقوق المرأة ومسئولياتها

أولا: قيمة المرأة الإنسانية والاجتماعية

يتأسس وضع المرأة فى الإسلام على المساواة مع الرجل، سواء فى مكانتها الإنسانية أم من حيث عضويتها فى الأمة والمجتمع.

العلاقة بين المرأة والرجل تقوم على المسئولية المشتركة، ومعيار التفاضل والأفضلية فيها كلمة الحق والعدل؛ مصداقا لقوله تعالى:

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

[التوبة: ٧١].

إن مبدأى المساواة والمسئولية المشتركة- كأساس لفهم العلاقة بين الجنسين وتأسيسها فى الأمة- قد قررتهما آيات واضحة، ولا يجوز التحيف على هذين المبدأين ولا تحجيمهما.

إن العلاقة بين المرأة والرجل فى الإسلام هى علاقة اقتران وشراكة لا مجال إلى فصمها، وليس أدل على ذلك من اصطلاح القرآن الكريم على وصف النوعين بمصطلح ثابت لم يحد عنه هو «الزوجان»؛ فهى زوجٌ وهو أيضاً زوج، وهو اصطلاح يقر التنوع، لكنه يؤسس لعلاقة التكافؤ والتوازن فى الوقت نفسه، فهو تنوع غير قابل للانفصام أو التنافر أو السيطرة، بل أساسه الارتباط والتعاون؛ لذا ينبغى ألا يكون سبيلاً لحرمان الطفل ذكرًا أو أنثى من الفرص المتساوية فى التنشئة.

وإذا كانت المساواة فى النفس والروح والكرامة الإنسانية، والمشاركة فى المسئولية عن الكون وإعماره، مفاهيم جوهرية لعلاقة الرجل والمرأة فى الإسلام، فإن مفهوم القوامة يؤكد على المسئولية الحكيمة، ويعنى «الالتزام المالى نحو الأسرة»، وأن يأخذ الزوج على عاتقه توفير حاجات الزوجة والأسرة المادية والمعنوية، بصورة تكفل لها توفير حاجتها وتشعرها بالطمأنينة والسكن، بما يحقق المسئولية المشتركة بين الرجل والمرأة، ولا تعنى القوامة فى الإسلام سلطة الرجل- سواء كان زوجاً أو أباً- فى التصرف المطلق والهيمنة على الزوجة والأبناء.

للمرأة الحق فى الحياة والكرامة والاختيار والمعاملة العادلة، ولها- بل عليها أيضاً- كإنسان أن تحسن توظيف ما منحها الله من قدرات إنسانية مادية ومعنوية هى مسئولة عنها وعما فعلت بها يوم القيامة. وعلى الدولة بوصفها تجسيداً لإرادة الأمة تيسير ذلك وتوفيره للنساء والرجال على السواء.

المرأة المسلمة فاعل مؤسس فى «العقد الاجتماعى» الذى تأسست بموجبه الأمة

الإسلامية من خلال ما يعرف ببيعة النساء، التي حدثت في صدر الدعوة الإسلامية التي تم تعميمها، فصارت أساساً للبيعة العامة بين الرسول (ﷺ) وسائر المسلمين؛ مصداقاً لقوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

[سورة الممتحنة: آية ١٢]

وأخيراً فإن للمرأة حقوقاً سياسية واقتصادية مساوية للرجل باعتبار أن تطور المجالات والوظائف والأنظمة والأدوار السياسية والاقتصادية في المجتمعات المعاصرة يقع أغلبه في دائرة المصلحة المرسلة التي لم يشهد لها الشرع بالاعتبار أو الإلغاء. وما قد يختلف عليه منها فسبيله الاجتهاد من علماء الأمة تفسيراً وتأويلاً واستنباطاً. وهذه عملية تاريخية وثقافية مستمرة. للمرأة الحق في المشاركة فيها متى توافرت لها الكفاية والمقدرة.

ثانيا: الشخصية القانونية للمرأة

تتمتع المرأة بالأهلية الكاملة، ولها ذمتها المالية المستقلة، ومسئوليتها القانونية، وحق التصرف الكامل المستقل فيما تملك.

للمرأة حق شرعي غير منازع في الميراث. وعلى الدولة ضمان حصول المرأة على حقها. وعلى أهل العلم وحكماء الأمة وقيادات الرأي العام بذل الجهد لوضع حد للأعراف والتقاليد الظالمة التي تعطل إعمال النصوص الشرعية لميراث المرأة الذي وصفه الله تعالى بكونه ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ ووضع الضمانات القانونية لحمايته.

إن الجدل المثار حول نصيب المرأة في الإرث ومحاولة الاستدلال به على ضعف مكانة المرأة في الإسلام هو جدل مفتعل من المعارضين والمؤيدين على السواء؛ وذلك لأمرين: أولهما: أنه لا يجوز استنباط تعميمات تتعلق بشخصية المرأة ومكانتها من أحكام جزئية كالميراث بعد أن حسم الشارع سبحانه وتعالى قضية مساواة المرأة ومكانتها بالنصوص الواضحة الأخرى التي لا جدال حولها. وثانيهما: أن حكمة التشريع لا تبنى على الحقوق وحدها بل على منظومة الحقوق والالتزامات جميعاً، وعليه فإن منظومة تقوم على نصيب مضاعف للرجل في بعض حالات الميراث؛ إنما هي قسمة مقرونة بفرضية الإنفاق الكامل على الأسرة والأقربين المعوزين. ويقابل ذلك نصيب أقل للمرأة معفى من أية مسئولية للإنفاق. وهذا كله تجسيد لقيمتي المساواة والعدالة؛ إذ إن المساواة لا تعني بالضرورة التشابه والتماثل في الدقائق والتفاصيل بل في التوازن بين الحقوق والالتزامات، كما هو معروف في المبادئ القانونية.

ومن المعلوم أنه مما استقر في الفقه الإسلامي أن الأنثى ترث مثل الذكر، أو أكثر منه، أو ترث ولا يرث في أكثر من ثلاثين حالة من حالات الميراث، بينما ترث الأنثى على النصف من الذكر في أربع حالات فقط.

المرأة من أهل الشهادات، أما تفاصيل الأحكام المتعلقة بها فإن من القصور أن يقال إنها دائماً على النصف من الرجل، والقول بأن شهادتها نصف شهادة الرجل تعسّف في التأويل والاستدلال من الكتاب؛ خاصة أن هناك اجتهادات معتبرة تميز بين الشهادة والإشهاد، فالشهادة بينة تثبت بشهادة رجل واحد أو امرأة واحدة أو رجلين أو امرأتين أو رجل وامرأة، بينما الاستشهاد هو رخصة لصاحب الدين إذا أراد أن يستوثق لدينه أعلى درجات الاستيثاق.

كما أن الحكمة والأصل في الشهادات عامة هو التعدد لضمان النزاهة وعدم التواطؤ أو الانحياز أو الضلال - أي النسيان - المفسد للشهادات. وعلى هذا فإن الشهادة في حالات الجنايات، واجب على الأفراد أكثر من كونها حقّاً من الحقوق، وقد يلجأ القاضي إلى شهادة المرأة أو الطفل في أمور تتعلق بالأسرة.

ثالثا: المرأة والأسرة

الأسرة هي أساس المجتمع ووحدته الأولى. وهي كيان تعاقدي ومادي ومعنوي، وينبغي على الدولة والمجتمع اتخاذ كل الإجراءات والتيسيرات التي تدعم هذا الكيان وتصون حقوق كل أفراده.

فالأسرة كيان تعاقدي لكونها علاقة إرادية تنشأ بالاتفاق، وللرجل والمرأة في ذلك كله الإرادة في إنشاء الأسرة وإنهائها، فتتم حسب ما يقرره الشرع في محكم آياته، وحسب ما تنص عليه شروط العقد، وأساسه الأول هو التراضي والقبول المتبادل، ومسألة التوثيق إنما هي لحماية الطرفين والتوثيق، وهو حفظ لحقوق الطرفين وحماية للمرأة على وجه الخصوص.

تقوم الأسرة على المشاركة والشورى والعدل والمودة والرحمة. وقد كتب الله تعالى على الرجل الإنفاق على الأسرة فريضة عليه؛ نظراً لقيام المرأة بدورها الطبيعي في الإنجاب ورعاية الأبناء.. فالإنفاق حق للمرأة والطفل، وهو واجب على الرجل. ولا يعني ذلك حبس كيان المرأة والرجل في تلك الأدوار فقط؛ لأن لكل منهما أدوارًا أخرى متعددة.

والأسرة «أيضاً» كيان معنوي عظّمه الله سبحانه وتعالى حين وصف الرابطة بين الزوجين بكونها ﴿مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾؛ ومن ثم فإن الحفاظ على كيان الأسرة هو من المهام الجسيمة التي يتعين على الزوجين والأهل والمجتمع وعلماء الدين والثقافة والإعلام وكافة مؤسسات المجتمع والدولة تأكيده والحرص عليه.

لا تزال تشريعات الأسرة المستندة إلى مرجعية إسلامية تحتاج إلى مزيد من الجهد لاستيعاب المفاهيم والقيم الإسلامية الصحيحة للأسرة، والتي أصبحت الظروف ملحة لتأكيدها - من جديد - من خلال التشريعات ووسائل التربية والتوجيه. وأهم تلك المفاهيم المودة والرحمة كأساس لقيام الأسرة واستمرارها.

شرع الله تعالى الطلاق وأنواع الفراق الأخرى سُبلاً لإنهاء العلاقة الزوجية عند استحالة العشرة بين الزوجين على القاعدة الشرعية:

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾

[الآية ٢٢٩ البقرة]

ويقوم الأمر على أساس الاتفاق والتفاهم بين الطرفين لإنهاء العلاقة الزوجية. ولا يجوز تعسف الرجال في استخدام الحق في الطلاق،

ولا سبيل للافتئات على حقوق المرأة المقررة شرعاً، كما يجب تقنين التحكيم في حل المشكلات الزوجية، و الأخذ بالاجتهادات الفقهية التي تحد من فوضى الطلاق.

إن رعاية الأبناء ماديًا ومعنويًا هي أولى مسئوليات الأسر؛ وهي حق وواجب على الأبوين والمجتمع بأسره. وواجب مشترك بين الأبوين لا يجوز التنازل عنه أو التفريط فيه، ويتم تنظيم هذا الحق قانونًا وفق قواعد الشرع، وعلى رأسها إيثار مصلحة الطفل قبل أي اعتبار آخر.

إن تأكيد البعد الأخلاقي والمعنوي وإبرازه في تكوين الأسرة، من خلال التشريعات والثقافة معًا، كفيل بتقريب المجتمع أكثر فأكثر إلى مقاصد الشريعة؛ حيث أحاط الله سبحانه وتعالى هذه المعاني والأبعاد المعنوية بسياج مشدد من الحفظ بوصفه لها سبحانه وتعالى- غير مرة- في كتابه بأنها حدود الله.

التأكيد على الأهمية الاجتماعية للأمومة، وتكاملية الأبوة والأمومة في تنشئة الأطفال ورعاية الأسرة، وأن دور المرأة في الإنجاب ينبغي ألا يكون سببًا في التمييز الاجتماعي، وأن تنشئة الطفل بشكل متوازن تتطلب تقاسم المسئولية بين الأم والأب.

رابعاً: المرأة والتعليم

التعليم حق من حقوق المرأة أكدته النصوص الإسلامية وكرسته الممارسة عبر العصور، ومن ثَمَّ لا مجال للزعم بأن الإسلام يفرض على المرأة مجالات تعليمية معينة بحجة أنها تلائم طبيعتها الأنثوية ومهمتها الأمومية، أو أنه يحظر التحاقها ببعض الكليات المتخصصة، فهذه كلها أعراف وعادات محلية لا علاقة لها بالإسلام.

يجب أن تسعى الدولة والمجتمع لتوفير ودعم فرص المرأة في التعليم دون تمييز، وهذا الحق يمنع الأسرة من التمييز بين الولد والبنت في تلقي التعليم اللازم؛ للارتقاء بهما ماديًا ومعنويًا.

للجهات الإسلامية المختصة دور مهم في بيان الموقف الإسلامي الصحيح من تعليم المرأة ومقاومة الأعراف والتقاليد المقيدة لحق المرأة في التعليم؛ ومن جهة ثانية فإن عليها مسئولية كبرى في درء الفجوة القائمة بين الرجال والنساء في مجالات العلوم الشرعية وخاصة علمي الفقه والتفسير، عبر تبني مشروعات معرفية لإعداد المرأة المفسرة والمرأة الفقيهة.

خامساً: المرأة والعمل

إن الواقع المعاصر في متطلباته الاقتصادية- ونتيجة للتعليم- قد فرض على النساء العمل؛ حيث إنه نهج شريف لتحصيل الرزق، لا يرفضه الدين بما يتناسب مع ظروف الزوجين وأبنائهما طالما اقترن بالحفاظ على الفروض والآداب الإسلامية.

إن عمل المرأة بهذا المعنى يرتب على الدولة والمجتمع مجموعة من الالتزامات:

- أولها أن يقوم على قاعدة تكافؤ الفرص والعدالة، وبخاصة المحتاجة والفقيرة والمعيلة؛ إعمالاً لمبدأ الرعاية والتيسير لا مجرد المساواة فحسب حفظاً للأسر من الانهيار؛ ولذلك ينبغي تيسير قواعد العمل بالنسبة للنساء العاملات، وتحقيق التوافق الأسري على التعاون والتضافر في حمل الأعباء المادية وغير المادية كرعاية الأبناء والآباء.
- وثانيها أنه يجب على الدولة نحو المرأة والطفل- كما هو الحال بالنسبة للرجل عند تعذر سبل العيش والبطالة أو العجز عن توفير حدود الكفاية في التعليم والمعيشة الكريمة والسكن- واجب متساو وضروري يتأسس على حقوق المواطنة لا الإغاثة.

سادساً: المرأة والأمن الشخصي

يتبنى الإسلام رؤية متكاملة بالنسبة لجسد الإنسان (وشتى جوارحه) باعتباره أمانة ومسئولية أمام الله عز وجل، وقد كان ولايزال- للأسف الشديد- الاستغلال والعدوان بكل صوره، ومنه التحرش وسائر صور الاعتداء الجنسي خاصة على المرأة- أحد المآسي والآفات الإنسانية الكبرى على مدى التاريخ. وإذا كان تحمل مسئولية حفظ الجسد الإنساني من الفواحش هو مسئولية الفرد، فإنها على الجانب المقابل مسئولية الجماعة أيضاً وبخاصة في الظروف المستجدة بل هي من الضرورات الشرعية: (حفظ النفس والدين والعرض والعقل والمال) خاصة إذا ما اقترن العدوان على الحدود باستخدام القوة أو أية ظروف خاصة مشددة. وهي كذلك وظيفة من الوظائف الأساسية للدولة (الحفاظ على الحرمات الإنسانية).

إن موضوع زي المرأة في الإسلام أمرٌ حسمته الشريعة، وجرى عليه جمهور فقهاء المسلمين وعلمائهم، وفحواه أن الاحتشام في الزي وستر العورات مطلوبٌ شرعيٌّ.

إن على الدولة أن تقوم بدورها المهم من خلال التشريعات القانونية مدعومة بالمنظومة الثقافية؛ وعليها تجريم كل أشكال الانتهاك الجنسي والجسدي للمرأة؛ بدءًا من التحرش القولي والمادي ومرورًا بالاغتصاب وانتهاء بتجارة الأعراض والأطفال بكل أشكالها. كما أن عليها إيجاد الوسائل اللازمة لذلك، وضمان تحققها على أرض الواقع.

وعلى الرجال أن يدركوا أن الله تعالى لم يخلق الأرض لهم وحدهم، بل لبني الإنسان بشقيهم معاً. فمن حق المرأة أن تأمن على نفسها في حلها وترحالها. فهذا هو حقها الإنساني والديني والوطني.

سابعاً: المرأة والعمل العام

للمرأة الحق في تولي الوظائف العامة متى اكتسبت المؤهلات التي تقتضيها تلك الوظائف، وعلى الدولة أن تحافظ على تكافؤ الفرص إزاء المرأة والرجل، ومن المعلوم أن النساء المؤهَلات قد تولين في صدر الإسلام وظائف عامة في التعليم وفي الأسواق وفي العلاج وغيرها.

هذا وللمرأة الحق في العمل التطوعي الخدمي والعمل العام حسبما تهيّؤه لها ظروفها الخاصة وإمكاناتها ومواهبها وحوافزها الشخصية؛ فإن العمل التطوعي والخدمة العامة هما في الوقت ذاته حقٌ وواجب الإنسان رجلاً كان أو امرأة من فضل ماله وعلمه وجهده؛ وهو فرض كفاية على المجتمع كله.

وأخيرا فإن المرأة صاحبة حق أصيل في الجماعة الوطنية ولها حق- وواجب- النصيحة والشورى والقيام بالقسط، وهي محملة بالأمانة مستخلفة كالرجل سواء بسواء، وهو ما يفرض عليها المشاركة في العمل العام ناخبة ومنتخبة، لإيصال ما تراه صحيحًا من آراء وحقوق ومصالح عامة إلى القائمين على صنع القرار في الجماعة الوطنية التي تتشكل على أسس من التعاون والتوافق بين مختلف مكوناتها.

طرائف .. ومواقف

للشيخ / عبدالحفيظ محمد عبدالحليم

«أي المال خير»

كان فقراء المهاجرين يسيرون مع سيدنا عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- ، فقال المهاجرون: لو نعلم أي المال خير؟! فقال سيدنا عمر -رضي الله عنه-: إن شئتم سألت لكم رسول الله -ﷺ-، فلما سأل عمر النبي -ﷺ- أجابه النبي -ﷺ-، وقال: «ليتخذ أحدكم لسانا ذاكرًا، وقلبا شاكرًا، وزوجة مؤمنة».

«من وصايا لقمان الحكيم»

إن كنت في الصلاة فاحفظ قلبك، وإن كنت في الطعام فاحفظ حلقك، وإن كنت في بيت الغير فاحفظ عينيك، وإن كنت بين الناس فاحفظ لسانك، واذكر اثنين، وانس اثنين أما اللذان تذكرهما: فالله، والموت، وأما اللذان تنساهما: فإحسانك في حق الغير، وإساءة الغير في حقك.

«من تواضع لله رفعه»

كان الإمام الرفاعي يؤم مجلسه جمع عظيم من الناس، وأصلح الله بأنفاسه خلقا كثيرًا، فجاء واحد من مريديه، وقال له: يا إمام بم نلت ما أنت فيه من المنزلة؟! فقال: نظرت إلى السبل المؤدية إلى الله -تعالى-، فوجدتها مزدحمة إلا بابا واحدًا وجدته خاليًا، فسلكت منه، هو باب الانكسار والتواضع.

ولله در القائل:

تواضع تكن كالنجم لاح لناظر
على صفحات الماء وهو رفيع
ولا تكن كالدخان يعلو بنفسه
على طبقات الجو وهو وضيع

«الرضا بما قسمه الله»

قال بعض الحكماء:

وجدت أطول الناس غمًا الحسود، وأهناهم عيشا القنوع، وأصبرهم على الأذى الحريص إذا طمع، وأخفضهم عيشا أرفضهم للدنيا، وأعظمهم ندامة العالم المفرط وفي ذلك قيل:

أرقه ببال فتى أمسى على ثقة
أن الذي قسم الأرزاق يرزقه
فالعرض منه مصون لايدنسه
والوجه منه جديد ليس يخلقه
إن القناعة من يحلل بساحتها
لم يلق في دهره شيئًا يؤرقه

«إذا سرقت شيئًا فات به»

خادم للمأمون كان يسرق طاساته التي يشرب فيها، فقال له المأمون: إذا سرقت شيئًا فات به، فأشتريه منك. فقال له الخادم: اشتر مني هذه وأشار إلى التي بين يديه، فقال: بكم؟ قال بدينارين، قال: على شرط أنك لا تسرقها، قال: نعم، فأعطاه دينارين، فلم يعد الخادم يسرق بعدها شيئًا لما رأى من حلمه.

«يطلق خمس نسوة في يوم واحد»

قال الأصمعي للرشيد: يا أمير المؤمنين بلغني أن رجلا طلق خمس نسوة في يوم واحد، فقال الرشيد: وكيف ذلك، ولا يجوز للرجل الزواج بأكثر من أربع؟

قال الأصمعي: كان هذا الرجل متزوجا بأربع، فدخل عليهن فوجدهن متنازعات يتعاركن، وكان سريع الغضب، فقال إلى متى هذا النزاع، ونظر إلى امرأة منهن، وقال: ما أظن إلا أنك المتسببة في هذا، اذهبي فأنت طالق، فقالت له صاحبتها: لم طلقتها، ولو أدبتها بغير هذا لكان أصلح فقال: وأنت أيضا طالق، فقالت الثالثة: قبحك الله يارجل، فو الله لقد كانتا إليك محسنتين، فقال لها: وأنت أيتها المعددة أياديهما طالق، فقالت الرابعة: ضاق صدرك إلا أن تؤدب نساءك بالطلاق؟ فقال لها: وأنت طالق أيضا، وكانت له جارة تسمع ما جرى منه فأشرفت عليه، وقالت له: والله ما شهدت العرب عليك بالضعف ولا على قومك إلا لما بلوه منكم ووجدوه فيكم أبيت إلا أن تطلق نساءك في ساعة واحدة؟ فقال لها: وأنت أيتها المرأة المتكلمة فيما لا يعنيك طالق إن أجازني بعلك!! وسمعه زوجها فأجابه صائحا، لقد أجزتك.

فعجب الرشيد من ذلك!!

«نصيحة»

حبس عبدالملك بن مروان العطاء عن الناس فدخل عليه أعرابي، وقال له: يا أبا الوليد، بلغني أن عندك مالا، فإن كان لله فاقسمه على عباده، وإن يكن لك فتفضل به عليهم، وإن يكن لهم فادفع إليهم أموالهم، وإن يكن بينك وبينهم فقد أسأت شركتهم ثم ولى.

فقال عبدالملك: اطلبوا الرجل فطلبوه فلم يقدر عليه، فأمر للناس بعطياتهم.

«حقا»

حكم المنية في البرية جار
ما هذه الدنيا بدار قرار
جبلت على كدر وأنت تريدها
صفوا من الأقذار والأكدار
فاقضوا مآربكم عجالا إنما
أعماركم سفر من الأسفار

«كيف أصبحت؟»

قال حكيم لآخر: يا أخي كيف أصبحت؟

قال: أصبحت وبنا من نعم الله مالا نحصيه مع كثير ما نعصيه؟ فما ندري أيهما نشكر، أجميل ما ينشر، أو قبيح ما يستر.

«حقيقة»

قيل لعبد الله بن الحسن -رضي الله عنه-: إن فلانًا غيرته الولاية!!

فقال: من ولي ولاية يراها أكبر منه تغير لها، ومن ولي ولاية يرى نفسه أكبر منها لم يتغير لها.

«دعاء»

إلهي لا شريك لك فيؤتى، ولا وزير لك فيرشى، إن أطعتك فبفضلك ولك الحمد وإن عصيتك فبجهلي ولك الحجة علي، فبإثبات حجتك علي وانقطاع حجتي لديك إلا غفرت لي..

أيام لها تاريخ

تحويل القبلة

إعداد أ/ عبدالله كمال نصر

﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾

(البقرة:١٤٤)

يظلُّ تحويلُ القِبلة حدثًا فارقًا في تاريخ الدَّعوة الإسلاميَّة، ومسيرة بناء الدولة المسلِمة كذلك، ولقد كان الرسول ﷺ وسلم متشوِّقًا لتحويل القِبلة من المسجد الأقصى إلى بيت أبيه إبراهيم -عليه السلام- في مكَّة، وهكذا بعدَ ستة عشر، أو سبعة عشر شهرًا من الهجرة يتم تحويل القِبلة؛ أي: بعد ثلاث سنوات ونصف تقريبًا من فَرْض الصلاة في الإسراء والمعراج.

ظلَّ المسلمون هذه السنوات الثلاث يصلُّون إلى بيت المقدس -الذي كان قبلة اليهود- ولعلَّ الله عز وجل قدَّر ذلك لاختبار المؤمنين في صدق إيمانهم، وكشف زيف اليهود، كما ستجري الأحداث بعد ذلك فهم قوم حسد.

فعن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ قال: «إن اليهود لا يحسدوننا على شيء كما يحسدوننا على يوم الجمعة التى هدانا الله إليها وضلوا عنها، وعلى القبلة التى هدانا الله إليها وضلوا عنها، وعلى قولنا خلف الإمام: آمين».(١)

صلَّى المسلمون إلى بيت المقدس طاعةً لأمر ربِّهم، أمَّا اليهودُ فقد رأوا في ذلك محاولةً من النبي ﷺ للتقرُّب منهم، والحصول على الشرعيَّة له، وهكذا سوَّل الشيطان لهم، فاستبشروا، وقالوا: اتبع قبلتنا، وعمَّا قريب يتَّبع ملتنا.

مسجد قباء ذي القبلتين

يقع هذا المسجد على ربوة من الحرة الغربية (حرة الوبرة) بناه بنو سواد بن غنم بن كعب في عهد رسول الله ﷺ في العام الثاني للهجرة النبوية المباركة وكانت مواد البناء آنذاك هي اللبن والسعف وجذوع النخيل، ولهذا المسجد أهمية خاصة في

(١) مسند الإمام أحمد طبعة الرسالة

التاريخ الإسلامي، وفيه نزل قول الله تبارك وتعالى:

﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾

(التوبة:١٠٨)

وكان النبي يذهب كل سبت إلى مسجد قباء ماشيا أو راكبا ويصلى فيه ركعتين.

ولقد قال عنه النبي ﷺ: «صلاة في مسجد قباء تعدل عمرة»(٢)

وقال عنه كذلك «من تطهر في بيته ثم أتى مسجد قباء فصلى فيه صلاة كان له كأجر عمرة»(٣)

وفيه نزل الوحي على رسول الله ﷺ بالتحول إلى قبلة الكعبة المشرفة بعد أن كانت القبلة هي بيت المقدس، كان ذلك يوم ١٥ شعبان من العام الثاني للهجرة الموافق ١١ شباط / فبراير ٦٤٢م وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزور أم بشر من بني سلمة معزيا فصنعت له طعاما وعند صلاة الظهر نهض رسول الله ﷺ يصلي وبعد أن أتم ركعتين نزل عليه الوحي بالتحول إلى الكعبة المشرفة في الآية الكريمة:

﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾

(البقرة: ١٤٤)

دروس وعبر من تحويل القبلة

١- تحويل القبلة إعجاز وتميز للأمة المسلمة:

أمر الله نبيه في مكة بالتوجه في الصلاة نحو بيت المقدس، قبلة الأنبياء السابقين؛ وذلك لوحدة الرسالات السابقة، في مصدرها وهدفها وغايتها، واستمر الحال هكذا ستة عشر شهرًا، إلى ما بعد الهجرة، ثم تكلم اليهود في ذلك فقالوا: «ما بال محمد يتبع قبلتنا ولا يتبع ملتنا». فنزلت الآيات القرآنية؛ لتبين حقيقة الموضوع، وبتعلم الناس منها دروسًا تربوية مهمة، قال تعالى:

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾

(البقرة: ١٤٢)

هذه الآية القرآنية من إعجاز القرآن الكريم، حيث تحدثت عن المقولة قبل وقوعها، ولم يستطع اليهود أن يكذبوا القرآن، فقالوا ما قالوا.. وكانت اختبارًا لليهود فرسبوا، وكانت اختبارًا للصحابة فنجحوا، قال تعالى:

﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ﴾

(البقرة: ١٤٣)

وتتعلم عدم المبالاة بالخصوم، ما دام الإنسان على صواب وعلى الحق المبين، فلم يلتفت النبي ﷺ والصحابة لما قاله اليهود؛

(٢) رواه الترمذي بسند صحيح

(٣) رواه ابن ماجه بسند صحيح

لأن الذي أمر بالتوجه إلى كلتا القبلتين إنما هو الله سبحانه وتعالى، وهذا يزيد المسلم ثقة في هذا الدين وتعاليمه؛ فالهداية من الله وحده، قال تعالى:

﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

«البقرة: ١٤٢»

وتتعلم الخصوصية والتميز، وهو ما كان يسعى إليه النبي ﷺ ويدعو الله تعالى لأجل الحصول عليه؛ فعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: «كان أول حكم نُسخ بالقرآن التوجه إلى بيت المقدس؛ وذلك أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة، وكان أكثر أهلها اليهود، أمره الله عز وجل أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود، فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهرًا، فكان رسول الله ﷺ يحب قبلة إبراهيم عليه السلام، فكان يدعو وينظر إلى السماء، فأنزل الله تبارك وتعالى:

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ (٤)

فالخصوصية والتميز ضروريان للأمة المسلمة، في التصور والاعتقاد، وفي القبلة والعبادة، وفي شخصية المسلم، وفي كل شيء في حياة المسلمين.

٢- التجرد الكامل فى السمع والطاعة:

المسلم الصادق يتبع تعاليم دينه، دون جدل أو اعتراض، وأما المنافق فيحاول اختلاق المشكلات، ويكثر من السؤال، لا بقصد الفهم، وإنما بقصد التشكيك والجدل.

لقد اعترض اليهود على تحويل القبلة، وشككوا في صلاة المسلمين السابقة، خاصة مَن مات قبل تحويل القبلة، فأنزل الله قوله:

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

«البقرة: ١٤٣»

إن التجرد يجعل المسلم مستسلمًا لله في كل شئون حياته، يقبل أحكامه بالسمع والطاعة والحب والاستسلام.

كذلك أيضًا يتجرد المسلم في الطواف حول بيت الله الحرام، فهو لا يُقدِّس البناء لذاته، ولا يقدس حجرًا، لا يسمع ولا يعقل، وإنما يعبد ويعظِّم صاحب البناء ورب البيت.

٣- مكانة النبى عند ربه سبحانه وتعالى:

كانت الرغبة في تحويل القبلة تشغل عقل النبي وتفكيره، لكنه لم يُصرِّح بها في دعائه، ولم يُحرِّك بها لسانه، وقد استجاب الله له، وحقق له أمنيته، وهذا يدل على مكانة النبي ومنزلته عند الله، فمن منزلة العبد عند ربه أن يحقق الله له مقصده، دون أن يتلفظ به.

٤- أفضلية الأمة المحمدية:

لقد شهد الله للأمة بالوسطية في قوله تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾

«البقرة: ١٤٣»

والوسطية تعني الأفضلية والخيرية والرفعة؛ فالأمة وسط في كل شيء، في العقيدة والشريعة والأخلاق والمعاملات، وهذا واضح جدًا لكل مَن درس تعاليم الدين الإسلامي بالتفصيل.

ومن وسطيتها أنها جمعت بين القبلتين، فلم يتحقق ذلك لأمة من الأمم السابقة، بل إن النبي وهو في مكة كان يجعل الكعبة وبيت المقدس معًا في اتجاه وجهه، فجمع بين القبلتين معًا، ومنفردين.

وتتبلور الخيرية أيضًا في الشهادة على الأمم السابقة، فخيرية الأمة أنها في مقام الشهادة والتعليم والتربية للآخرين، قال تعالى:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾

«آل عمران: ١١٠»

٥- صدق التوجه هو المقصود

فالبر الحقيقي هو بر العقيدة وبر الخلق وبر السلوك، ولهذا ردَّ على اليهود الذين يقفون عند الرسوم والشكليات بقوله:

﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾

«البقرة: ١٧٧»

٦- حكم خبر الواحد:

وفيها دليل على جواز القطع بخبر الواحد، وذلك أن استقبال بيت المقدس كان مقطوعا به من الشريعة عندهم، ثم إن أهل قباء لما أتاهم الآتي وأخبرهم أن القبلة قد حولت إلى المسجد الحرام قبلوا قوله واستداروا نحو الكعبة.

و قبول خبر الواحد مجمع عليه من السلف معلوم بالتواتر من عادة النبي صلى الله عليه وسلم في توجيهه ولاته ورسله آحادا للآفاق، ليعلموا الناس دينهم فيبلغوهم سنة رسولهم ﷺ من الأوامر والنواهي.

٧- وفيها دليل على أن من لم يبلغه الناسخ أنه متعبد بالحكم الأول:

وفي هذا دليل على أن الناسخ لا يلزم حكمه إلا بعد العلم به، وإن تقدم نزوله وإبلاغه؛ لأنهم لم يؤمروا بإعادة العصر والمغرب والعشاء.

القدس قبلة وأرض إسلامية

وتزامنا مع ذكرى النكبة الفلسطينية التي حدثت في {٦ رجب ١٣٦٧هـ -١٥ مايو عام ١٩٤٨م} وذكرى تحويل القبلة لا يسعنا إلا أن نذكر المسلمين بأحقيتهم في المسجد الأقصى ومن ثم أرضه فلسطين فهما ملك أبناء الدين الخاتم دين الإسلام وفي هذا الصدد يقول المفكر الإسلامي الدكتور

(٤) الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما في شرح البخاري لابن بطال.

محمد عمارة، عضو هيئة كبار علماء الأزهر: إن القدس في الدين الإسلامي عقيدة من عقائد الإسلام لأن الرباط الذي صنعه الله سبحانه وتعالي -وليس البشر- بين الحرم المكي الشريف وبين الحرم القدسي الشريف هو عقيدة من عقائد الإسلام:

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾

(الإسراء: ١)

هذه العقيدة وهذا الرباط بين القبلة الخاتمة وبين قبلة النبوات والرسالات. كيف تكون عقيدة؟ لأن هذا الرباط هو رمز لوحدة الدين، دين الله الواحد من آدم إلي محمد ﷺ، إذن هذه عقيدة وحدة الدين ولهذا فالمسلمون انطلاقا من وحدة الدين يؤمنون بكل النبوات والرسالات ويصلون ويسلمون علي كل أنبياء الله والمرسلين.

أيضا القدس رمز في العقيدة الإسلامية لمعجزة الإسراء والمعراج، نحن نعلم أن رسول الله ﷺ أوقع التحدي بالإعجاز القرآني دون غيره؛ لكن هذا الإعجاز القرآني قد تضمن معجزة الإسراء والمعراج -الإسراء من الحرم المكي الشريف، إلى الحرم القدسي الشريف والمعراج من الحرم القدسي الشريف- إذن القدس في العقيدة الإسلامية تمثل عقيدة دينية وليست مجرد أرض يمكن أن تغني عنها أرض أخري، لأن لها هذا البعد الديني الذي تمثل وتجسد في الفكر الإسلامي وفي الواقع الإسلامي وفي التاريخ الإسلامي وفي الحضارة الإسلامية على مر التاريخ منذ نزل القرآن منذ الإسراء والمعراج إلى يومنا هذا وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

هذا وقد كان لحادثة تحويل القبلة أبعاد كثيرة: منها السياسي، ومنها العسكري، ومنها الديني، ومنها التاريخي.

فبُعدها السياسي أنها جعلت الجزيرة العربية محور الأحداث، وأثبتت مرجعية القدس الشريف وملكيته للمسلمين، وبعدها التاريخي أنها ربطت هذا العالم بالإرث العربي لإبراهيم -عليه السلام-، وبعدها العسكري أنها مهدت لفتح مكة، وبعدها الديني أنها ربطت القلوب بالحنيفية، وميزت الأمة الإسلامية عن غيرها.. ومن ثم كان تحويل القبلة نعمة من نعم الله علينا، كما قال الله تعالى:

﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

(البقرة: ١٥٠)

ندوة: «الإدارة الاستراتيجية»

متابعة: أبو السعود محمد

تحت رعاية فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور/ أحمد الطيب ـ شيخ الأزهر عقدت الإدارة العامة للتنظيم والإدارة ندوة بعنوان: «الإدارة الاستراتيجية»، وذلك بقاعة الأزهر للمؤتمرات يوم الخميس التاسع عشر من جمادى الأولى سنة ١٤٣٥ هـ الموافق ٢٠ / ٣ / ٢٠١٤ م.

استهلت الندوة وسط حضور حاشد لرموز العمل الإداري والمسئولين يتقدمهم الأستاذ الدكتور عصام شرف رئيس مجلس الوزراء الأسبق والأستاذ الدكتور/ أحمد حسني نائب رئيس جامعة الأزهر الشريف، وفضيلة الشيخ/ جمعة عبد البديع وكيل معاهد الأزهر، وقد حاضر في الندوة الأستاذ الدكتور/ هاني الحفناوي أستاذ الإدارة بالجامعة البريطانية، وتمثلت المحاور الأساسية للندوة في شقين:

- الأول استعرض الوضع الحالي في المؤسسات المصرية.
- والثاني حدّد سبل تصحيح مسار هذه المؤسسات وذلك على النحو التالي:

أولا: الوضع الحالي في المؤسسات المصرية:

- تبلغ نسبة إنتاجية مؤسساتنا ١ / ٢٠ من إنتاجية المؤسسات العالمية.

- تستخدم مؤسساتنا نسبة تتراوح من ٢٠ : ٣٠ ٪ من حجم أصولها، وهذا يفسر ضعف الإنتاجية، وارتفاع الأسعار، وانخفاض الجودة، وهدر الطاقات.

- لا يوجد لدينا مقياس للمخزون السلعي، بينما يقاس المخزون السلعي في الدول الجادة بالساعات.

- لدينا (٨) مليارات دولار مجمدة طوال العام، منها (٤) مليارات في صورة واردات بالموانئ لم يفرج عنها، و (٤) مليارات أخرى في صورة سلع بمخازن الشركات.

- الاستخدام الأمثل للموارد يسهم في زيادة إنتاجية مؤسساتنا بنسبة تتراوح بين ٤٠ ، ١٠٠ ٪، وأيضا يخفض النفقات، ويقلل الواردات، ويحقق التوازن في ميزاننا التجاري.

ثانيا: خطوات تصحيح المسار لهذه المؤسسات:

- الوقوف على حجم مواردنا المادية والبشرية المتاحة.

- تشكيل لجنة تكون مهمتها: صياغة رؤية للمؤسسة، ووضع مؤشرات الأداء، وتقديم تغذية راجعة مستمرة لتصحيح مسارها.

ندوة «الإدارة الاستراتيجية»

- تصاغ رؤية طموحة للمؤسسة في ضوء مواردها، ويمكن تنفيذها في مدة من ٥ : ١٠ سنوات.

- ضرورة إشراك العاملين في تخطيط وتنفيذ استراتيجية العمل.

- الاهتمام بتنفيذ المشروعات التي تحقق رؤية المؤسسة، ووقف ما دون ذلك.

- تصحيح قرارات المؤسسة بشكل سنوي، وربع سنوي من خلال مراجعة أدائها ومستوى نجاحها.

- تغيير الجمود الإداري من خلال: نشر الوعي، واستدعاء قصص النجاح المماثلة، وتثبيت التغيير بالتعزيز الإيجابي وربط المكافآت بالأداء.

أما وقائع الندوة فقد استهلت بآيات من الذكر الحكيم أعقبها كلمة ترحيبية ألقاها فضيلة السيد الدكتور إسماعيل الحداد مدير عام التنظيم والإدارة حيث رحب فيها بالسادة بالحضور، ثم تلتها كلمة الأستاذ الدكتور أحمد حسني نائب رئيس جامعة الأزهر، ورحب بالحضور أيضا وخص بالذكر الأستاذ الدكتور عصام شرف رئيس مجلس الوزراء الأسبق، ثم تحدث عن موضوع الندوة فقال: «إن جميع مؤسسات الدولة لا بد أن تتوفر فيها إدارة استراتيجية لما لها من أهمية في عصرنا الحالي».

ثم بدأ الخبير الاستراتيجي الأستاذ الدكتور/ هاني الحفناوي ـــ أستاذ الإدارة بالجامعة البريطانية في الحديث عن الإدارة الاستراتيجية قائلا: «الإدارة الاستراتيجية هي موضوع الساعة؛ لما لها من أهمية فائقة، وتتمثل أهميتها في أن الدولة بها خزائن الأرض ولا نعرف كيف تدار هذه الخزائن؛ فالدولة بها طاقة بشرية كبيرة، وأماكن كثيرة من خلالها يمكن استخراج الخزائن المهدرة، ولا تستخرج هذه الخزائن إلا بالتخطيط الصحيح وتوحيد الصف المتمثل في الطاقة البشرية، بمعنى أنه يجب علينا أن نعرف هدفنا ويتجه الكل لتحقيق هذا الهدف، فعندما يكون لدينا هدف ونعمل على تحقيقه ستتوحد جهودنا واتجاهاتنا لتحقيق هذا الهدف، وعندما تتوحد الجهود سيكون تحقيق الهدف سهلا ميسورا، أما عندما يسير كل واحد في الاتجاه الذي يظن أنه سيحقق له مصلحته ستكون المحصلة صفرا؛ لأن هذا يدفع في اتجاه وثان يدفع في اتجاه معاكس، وذلك يدفع في اتجاه آخر ... إلخ وبالتالي ستكون المحصلة صفرا».

ثم ضرب مثلا بالطائرة؛ إذ يجب على من يقود الطائرة أن يحدد اتجاهه قبل عملية الإقلاع، وكل من يركبون الطائرة عندهم نفس الرغبة في الوصول إلى المكان الذي يريده القائد، فالكل وجهتهم واحدة، لا يوجد راكب لا يعرف اتجاهه ولا يعرف ماذا يريد، وقائد الطائرة أمامه مجموعة من العدادات التي تعطيه المؤشرات التي تيسر له عملية القيادة وأخذ الاحتياطات اللازمة للوصول بالركاب والطائرة للمكان المرغوب، هذه المؤشرات قد تضطر القائد أن يهبط في مكان ما في منتصف الطريق للتزود بالوقود مثلا، وهذه المؤشرات قد تجعله يسرع في مكان ما ويبطئ في مكان آخر، والذي تعنيه أن قائد الطائرة يستدل بالمؤشرات التي أمامه للتعامل بالمرونة اللازمة مع الطائرة والركاب لكي يصلوا جميعا إلى ما يريدون.

ثم تحدث عن تجربة البرازيل الذي تولى قيادتها لولا دي سلفا وانتقل بها خلال عشر سنوات من الدولة رقم ٤٠ على مستوى العالم إلى الدولة رقم ١٠، وكذا نموذج اليابان مقارنا بأمريكا، موضحا أن أمريكا متأخرة عن اليابان بسبب عدم استخدام الإدارة الاستراتيجية ٣٧ عاما، فاليابان تستخدم الإدارة الاستراتيجية منذ عام ١٩٥١م، أما أمريكا فبدأت تستخدمها عام ١٩٨٨م. ثم ذكر أن من أدوات الإدارة الاستراتيجية: (الإنتاج - الجودة - التكلفة - الأمان) وأن هناك مشكلة في الهيكلة؛ ففي مصر مثلا توجد ٣٢ وزارة، أما أمريكا فيوجد بها ١٧ وزارة، واليابان بها ١٤ وزارة، فلو كانت توجد رؤية موحدة لكل الوزارات والهيئات (الاصطفاف) الكل يعمل على تحقيقها لما احتجنا لكل هذه الوزارات. ومن ضمن الأشياء السلبية التي تطبق عندنا في الإدارة أن مؤشرات الأداء هي التي تضعها الحكومة، وهي التي تراقب على نفسها، والوضع المثالي أن تكون هناك هيئة رقابية خارج المؤسسة أو الهيئة لكي تضمن التنفيذ المتمثل في (الإنتاج - الجودة - التكلفة - الأمان).

ومن أهم الموضوعات التي تندرج تحت الإدارة الاستراتيجية موضوع «القيم»، فلكي يتم تغيير قيمة ما يجب أن أديرها، ولكي أديرها أرصدها أولا ثم أقيسها ثم أعمل على تحسينها، وهذا يطلق عليه «التخطيط»، وهو أيضا من أهم الموضوعات التي تندرج تحت الإدارة الاستراتيجية، وطرح سؤالا وهو: كيف أختار القيمة التي أريد أن أديرها؟ فدائما ما أختار القيم التي يجب تغييرها؛ لأن اختيار قيم لا تحتاج إلى تغيير نوع من العبث. وفي تطبيق الإدارة الاستراتيجية يتم تحديد ما هو المطلوب من كل فرد على حدة، وما هو المطلوب من الكل، وبناء عليه يتم الدفع في اتجاه واحد، ويتم ذلك في أسرع وقت. وتحدث عن مراحل إدارة التغيير، بدءا من رفض الاعتراف بالخطأ (المرض)، مرورا بضرورة الاعتراف به، وصولا إلى خطوات العلاج.

ثم تحدث عن الحوكمة أو الإدارة الاستراتيجية (Governance) و تتمثل عناصرها في:

١- الشفافية: أمام الشعب للحكومة والعاملين بالمؤسسات والشركات والهيئات

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾

[التوبة: ١٠٥]

٢- تقييم المسئولين: من رئيس الجمهورية والوزراء والمحافظين لأقل مسئول.

٣- سرعة الاستجابة: ولها علاقة عكسية مع نطاق التحكم ومستويات الإدارة

٤- الفعالية والكفاءة: كمثال الاتجاه الصحيح (فاعلية) ثم زيادة السرعة (كفاءة).

٥- الإنصاف والشمولية: الجميع لديهم فرص متساوية للعمل والحقوق والواجبات.

٦- تطبيق القانون: على الجميع دون استثناء (العدل أساس الملك).

٧- المشاركة: من جميع المواطنين رجالا ونساء في تطوير مصر.

٨- الاتفاق مع الأغلبية: بعد التشاور واتخاذ القرار لتنفيذ التغيير (فائز/ فائز)

ثم تحدث عن مواصفات القيادة، ولخصها في النقاط التالية:

١- تحتاج القيادة لرؤية محددة لقياس الفجوة بين الحالي والمأمول وكيفية غلقها.

٢- يجب على القائد تسوية الصفوف والاصطفاف (اذهبوا فأنتم الطلقاء). تجربة مانديلا.

٣- التركيز على أهم المشروعات (أعلى عائد وأسهل وأسرع تنفيذ وأكبر عمالة).

٤- تكوين الخريطة الاستراتيجية لتحديد القيم الدافعة والقيم التي يجب إدارتها وقياسها

واستخدامها لتحقيق الاصطفاف (البحث العلمي والتعليم والثقافة).

٥- التخلص من الجهل والفقر والمرض (ثالوث التخلف)، وتحقيق مبدأ العدل أساس الملك، مع إدارة موارد الدولة والحوكمة وتنفيذ المكتسبات السريعة.

٦- يجب على القائد إشراك الجميع - المؤيدين والمعارضين - في الإيمان بهذه الرؤية (الشورى) وتحفيزهم لتحقيقها.

٧- تنفيذ المكتسبات السريعة من تحسين إدارة أصولنا الحالية ورفع الحد الأدنى.

٨- يكون قدوة في المشاركة لتحقيق الرؤية والأهداف الاستراتيجية والاستثمار.

٩- تكوين الفريق وتقييم المسئولين (مؤشرات الأداء) والشفافية وإدارة التغيير

١٠- المتابعة المنتظمة (كل ربع سنة) بشفافية للأداء والمشروعات على أساس مؤشرات الأداء. وفي نهاية محاضرته أجاب على أسئلة الحضور وشكر الجميع.

واختتمت الندوة بكلمة فضيلة الشيخ جمعة عبد البديع وكيل معاهد الأزهر -الذي حضر نيابة عن شيخ الأزهر- ليقول بعد الترحيب بالحضور: «إنني لا أحاضر في مجال الإدارة، ولكنني أعقب على كلمة الدكتور هاني الحفناوي بأن ما قاله مخيف للغاية، ويحتاج إلى ورش عمل كثيرة، ويحتاج إلى التطبيق على أرض الواقع، وقال إن الإسلام به نظرية اقتصادية متكاملة تغنينا عن النظريات الغربية، وإذا كانت الدعوات قديما وحديثا تعاني من هذه العناصر النفعية التي تدخل فيها كالطفيليات التي تتسلق فوق الأشجار القوية، حتى تنافسها علوا ومكانة مع أنها تتسلل إليها خفية، ولا تستطيع أن تجاهر بأغراضها الدنيئة .. فكيف بهؤلاء الذين لا يدخلونها إلا بشروط تتعلق بمصالحهم الذاتية؟... من هنا كان الرسل صلوات الله وسلامه عليهم يرفضون بإصرار، وبتوجيه من رب العزة سبحانه أن يستجيبوا لرغبات هذه العناصر في إبعاد الفقراء والجنود العاملين المغمورين في المجتمع .. ولقد أبرزت القصة القرآنية موقف هذه الطبقة النفعية، ومطالبها المتكررة، وطبيعتها المستعلية التي لا تريد أن تجلس مع من تصفهم بالأرذلين الضعفاء .. ومنذ انبثاق فجر النبوة وهؤلاء الملأ المتجبرون .. يخاطبون نوحا عليه السلام ويعيرونه بأن أتباعه فقراء، كما في قوله تعالى:

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ﴾

[هود: ٢٧]

وكانت إجابة نوح مسكتة لهم وحازمة كما في قوله تعالى:

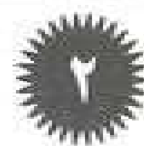
﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَـٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾

[هود: ٢٩ - ٣١]

وهذا هو المنهج الواجب اتباعه كي تؤتي الإدارة الاستراتيجية ثمارها، ويعم النفع على الجميع بمختلف طبقاتهم ... والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

المؤتمر العام الثالث والعشرون للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية:

خطورة الفكر التكفيري والفتوى بدون علم على المصالح الوطنية والعلاقات الدولية



متابعة: رمضان ثابت

استعرضنا في عدد شهر رجب الماضي وقائع الجلسة الافتتاحية الأولى للمؤتمر العام الثالث والعشرين للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية الذي عُقد بحضور فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور أحمد الطيب- شيخ الأزهر، تحت عنوان: «خطورة الفكر التكفيري والفتوى بدون علم على المصالح الوطنية والعلاقات الدولية» على مدار يومي ٢٤ - ٢٥ جمادى الأولى ١٤٣٥ هـ الموافقين ٢٥ - ٢٦ مارس ٢٠١٤ م بفندق كونراد، ونستأنف في هذا العدد عرض باقي فعاليات المؤتمر وتوصياته.

استهلت الجلسة الافتتاحية الثانية بكلمة معالي الشيخ بو عبد الله غلام الله وزير الشئون الدينية والأوقاف الجزائري كرئيس للجلسة، ليرحب بالسادة الحضور ويشيد بموضوع المؤتمر ويؤكد على أهميته. ثم تحدث فضيلة الأستاذ الدكتور جعفر عبد السلام أمين عام رابطة الجامعات الإسلامية عن العلاقة بين التطرف والإرهاب والتكفير وهو ما سطّره عنوانا لبحثه «العلاقة بين التطرف والإرهاب والتكفير»، والذي أرّخ فيه لظاهرة الإرهاب الذي روّع بسببه المجتمع خلال نصف قرن خلا منذ عقد السبعينيات مرورا بأحداث الحادي عشر من سبتمبر وحتى وقتنا الراهن، موضحا فيه العلاقة بين هذه المصطلحات وموقف الإسلام منها.

كما تحدث أ.د/ مصطفى محمد عرجاوى عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات - جامعة الأزهر بالقليوبية عن الأسباب المؤدية لظاهرة التكفير قديمًا وحديثًا كالافتقار إلى التفكير في القواعد والمقاصد الشرعية، والتعصب والتقليد الأعمى للجماعة أو الطائفة أو المذهب، وترك الشباب بلا رعاية في بيئة غير سوية، والفقر والبطالة والنزاع المسلح - قديما- حول أحقية الخلافة وظهور العصبية القبلية، وضعف التواصل الفكري بين العلماء وطلبة العلم .... والسخرية من العلماء والاستهانة بهم وهو ما شخّصه سيادته - في حوالي ٤٢

صفحة من القطع الكبير – في بحثه المعنون: «الأسباب المؤدية لظاهرة التكفير» ليمهد بذلك للمحور الأول للمؤتمر الذي تم مناقشته في الجلسة التالية حول التكفير وخطورة إطلاقه بغير حق.

أما المحور الثاني فدار حول ضوابط الفتوى وخطورة إطلاقها بغير علم، وفي كلمته ذكر أ.د/ عبد الله النجار عميد كلية الدراسات العليا بجامعة الأزهر أن الفقه بدأ مع نزول الوحي على سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – للإجابة على تساؤلات المستفتين كما في قوله تعالى: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ ﴾ ثم ورثها الصحابة والتابعون وتابعو التابعين إلى يومنا هذا، وقد استقرت هذه الأحكام ويعلمها المشتغلون بالفقه... ومن شروط وضوابط الإفتاء: أن يكون المفتي مدركا لفقه المقاصد، وفقه الأولويات، وفقه الواقع. ومن خصائص الشريعة الإسلامية العموم والشمول والتجريد واليسر ورفع الحرج.

كما تحدث أ.د/ محمد نبيل غنايم – أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية دار العلوم جامعة القاهرة، في بحثه المعنون: «وسطية الإسلام مفهومها ومظاهرها» عن مفهوم الوسطية في الإسلام ومظاهرها فبين أن الوسطية مصدر من الوسط وهو العدل.. وأن الإسلام كله وسطية وعدل، وما كان فيه من أمر إلا وتميز بالوسطية لأنها جمعت كل الفضائل مستشهدا بقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾. كما أكد أن مظاهر الوسطية تكون في العقيدة والعبادات والمعاملات وفي الأخلاق، واختتم حديثه بدور الأزهر في حماية الوسطية ومما قاله: «إن الأزهر هو المرجع العالمي لكل مسلمي العالم، يجمع ولا يفرق، يحفظ ولا يبدد، يبني ولا يهدم».

هذا وقد تتابعت كلمات المشاركين في المؤتمر، وتعددت أبحاثهم ومشاركاتهم حول باقي محاور المؤتمر المتمثلة في: محور السماحة والتيسير في مواجهة التشدد والتكفير، ومحور الفتوى والتخصص، ومحور الفتوى والثقافة. وفيما يلي نص البيان الختامي للمؤتمر وأبرز التوصيات:

«بسم الله الرحمن الرحيم ... اجتمعت لجنة التوصيات المشكلة من:

١- معالي أ.د/ محمد مختار جمعة وزير الأوقاف المصري رئيسا.

٢- معالي الوزير/ خالد بن علي بن عبد الله آل خليفة وزير الأوقاف البحريني عضوا.

٣- معالي الوزير/ الفاتح تاج السر وزير الأوقاف السوداني عضوا.

٤- معالي الوزير/ هايل داود وزير الأوقاف الأردني عضوا.

٥- معالي الوزير/ محمود الهباش وزير الأوقاف الفلسطيني عضوا.

٦- فضيلة أ.د/ عباس شومان وكيل الأزهر الشريف عضوا.

٧- فضيلة أ.د/ أحمد علي عجيبة أمين عام المجلس الأعلى للشئون الإسلامية عضوا.

٨- سماحة الشيخ الدكتور/ بشار شريف نائب مفتي اليونان عضوا.

٩- السيد القاضي/ محمد محمود عبد السلام المستشار القانوني والدستوري لفضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر مقررا.

وعلى مدى يومين كاملين وتحت رعاية فخامة رئيس الجمهورية المستشار/ عدلي منصور، وحضور كل من: دولة رئيس الوزراء المهندس/ إبراهيم محلب، وفضيلة الإمام الأكبر أ.د/ أحمد الطيب شيخ الأزهر الشريف، والبابا تواضروس الثاني بابا الكنيسة الأرثوذكسية وبطريرك الكرازة المرقسية، ومعالي وزير الأوقاف أ.د/ محمد مختار جمعة، وجمع عظيم من السادة الوزراء والمفتين والعلماء المشاركين في المؤتمر من نحو أربعمائة شخصية علمية، منهم نحو مائة شخصية من ضيوف المؤتمر من نحو أربعين دولة عربية وإسلامية جرى العمل المتواصل بين هؤلاء العلماء من أجل دراسة هادئة ورصينة لقضيتين من أهم وأخطر القضايا التي يعاني منها العالم العربي والإسلامي، وهما: قضية التكفير، وفوضى الإفتاء.

وقد توافق الحضور على عدد من التوصيات يرونها هامة وعاجلة، منها ما يتعلق بالعالمين: العربي والإسلامي، ومنها ما يخص جمهورية مصر العربية، وهي ما يلي:

أولا: يوصي المؤتمر العالمين العربي والإسلامي بما يلي:

١- التنسيق بين وزارات الأوقاف ومؤسسات الإفتاء والمجامع العلمية والفقهية في القضايا الكبرى التي تهم الأمة على مستوى العالم الإسلامي، والالتزام بالوسطية والضوابط الشرعية بعيدا عن أي مؤثرات أخرى.

٢- مخاطبة مؤسسات الإعلام المقروء والمسموع والمرئي، ووسائل التواصل الاجتماعي وغيرها؛ بإيجاد مساحة مناسبة لنشر الفكر الوسطي بعيدا عن كل مظاهر الغلو والتشدد.

٣- فتح الأبواب للفكر الوسطي السليم بما يسد الأبواب أمام تيارات الفكر التكفيري، وتنبيه المجتمعات الإسلامية على أن التكفير حكم شرعي مرده إلى الله ورسوله، ولا يجوز الحكم به إلا بكفر صراح يرفع الرأي به أهل العلم والاختصاص من المجامع العلمية والفقهية المتخصصة إلى القضاء العادل للحكم البات فيه، وليس من حق الأفراد أو الجماعات الافتئات في ذلك.

٤- تأصيل وتجديد الفهم الشرعي الصحيح للمصطلحات الشائعة في المجتمع الإسلامي؛ مثل: الجهاد، الحسبة، والولاء والبراء، ودار الحرب، ودار الإسلام، وطبيعة العلاقة بينهما، والحكم بما أنزل الله، بما يتناسب مع معطيات العصر ومستجداته، وفي ضوء الثوابت الراسخة، وتصحيح المفاهيم الخاطئة فيما يتعلق بها؛ حتى لا تحدث بلبلة في المجتمع.

٥- ضرورة فتح أبواب الحوار والتواصل بين العلماء والشباب، مع التأكيد على بناء جسور الثقة بينهما من خلال العلماء باعتبارهم القدوة والشباب باعتبارهم عدة المستقبل.

٦- ضرورة الاستفادة من التقنيات الحديثة ووسائل الاتصال المختلفة للرد على الفتاوى والاستفسارات من المواطنين، على

أن يقوم بذلك العلماء المتخصصون في هذا الشأن، إذ إن أهل الباطل لا يعملون إلا في غياب أهل الحق، فإذا فرط أصحاب الحق في حقهم تمسك أصحاب الباطل بباطلهم.

٧- تبني مبادرة فضيلة الإمام الأكبر أ.د/ أحمد الطيب، شيخ الأزهر الشريف، التي أطلقها في مؤتمر تعزيز السلم في المجتمعات المسلمة بأبي ظبي حول ضرورة إحياء التعارف بين أبناء الوطن وأبناء الأمة وبين الإنسانية كلها؛ باعتباره مبدأ قرآنيا دعا إليه القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾

[الحجرات: ١٣]

وهذا المبدأ يطرح نظرية إنسانية سلمية بديلا عن صراع الحضارات، ونهاية التاريخ، وسقوط الحضارات، وغير ذلك من الثنائيات التي تضر بحياة الإنسان المعاصر وأمنه واستقراره، في ضوء الاحترام المتبادل بين الأمم والشعوب.

٨- العمل المشترك على محو الأمية الدينية والفكرية لجميع أبناء العالم الإسلامي في سبيل تحصين شبابنا من أن تتخطفهم أفكار الجماعات المتطرفة أو المتشددة أو الغالية في دين الله أو الملحدة أو المضللة، فإذا أردنا أن نقضي على التشدد من جذوره لا بد أن نقضي على التسيب من جذوره.

٩- التوصية بوضع المساجد في جميع الدول العربية والإسلامية تحت إشراف وزارات الأوقاف وما في حكمها حتى لا تتخطفها أيدي العابثين.

١٠- التوصية بالتعجيل بانطلاق القناة الفضائية المتخصصة للأزهر الشريف، باعتبارها رافدا فكريا عالميا يعبر عما يحمله الإسلام للعالم من سلام وحرية وترابط بين بني البشر، والعمل على إشراك العلماء المتخصصين، الملتزمين بالمنهج الوسطي الذي يتبناه الأزهر الشريف وإعداد كوادر مؤهلة للرد على الشبهات والافتراءات التي ترد على المسلمين كل يوم، وإظهار الوجه السمح لهذا الدين القويم، على أن تكون نواة لعدة قنوات متخصصة تنطلق بإشراف الأزهر الشريف.

١٢- حفظ الأنفس من مقاصد الإسلام الكبرى، فلا يحل الاعتداء عليها أو استباحتها، فقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق محض فساد وإفساد في الأرض، يقول الحق سبحانه:

﴿أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾

[المائدة: ٣٢].

١٣- التأكيد على سماحة الإسلام وحضارته التي تستوعب بني البشر جميعا مسلمين وغير مسلمين من منطلق قول الحق سبحانه وتعالى لنبينا صلى الله عليه وسلم:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾

[الأنبياء: ١٠٧]

ثانيا: يوصي المؤتمر فيما يتعلق بجمهورية مصر العربية بمبادرة يتبناها الأزهر الشريف، تكون مهمتها العمل على إعادة دور العلماء المتخصصين في القيادة الفكرية للأمة وتحرير العقول من كل ألوان الزيغ والضلال والانحراف.

١- تفعيل النصوص الدستورية التي أكدت أن الأزهر هو المرجعية في الشئون الإسلامية، والمسئول عن الدعوة الإسلامية في مصر.

٢- توجيه المؤسسات العامة في الدول إلى أهمية ما يصدر عن هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف من مواقف واجتهادات؛ باعتبارها صمام الأمان في مواجهة فوضى الإفتاء والآراء الشاذة.

٣- العمل على جعل التعريف بحقائق الإسلام ومقاصده ووسطيته مقررا جامعيا يجنب الطلاب محاذير التكفير ويبعدهم عن مؤثرات الأفكار المتطرفة.

٤- على الأزهر الشريف جامعا وجامعة، ووزارة الأوقاف عقد ندوات علمية للتعريف بدور العلماء والفقهاء المتخصصين، وباجتهاداتهم الفقهية، ومواقفهم الريادية في حياة الأمة.

٥- العمل على الاستفادة من العلوم الإنسانية في كليات تخريج الأئمة والخطباء والمفتين؛ حتى يكونوا على بصيرة ووعي بأحكام دينهم وواقع مجتمعهم وما يدور حولهم في العالم الخارجي.

٦- التعاون بين وزارات: الأوقاف والتربية والتعليم، والتعليم العالي، والشباب والرياضة، والثقافة، من أجل تهيئة الكوادر القادرة على الوصول برسالة الإسلام في سماحته ووسطيته إلى أبناء الوطن جميعا.

٧- يوصي المؤتمر أن يتبنى المجلس الأعلى للشئون الإسلامية سلسلة من الندوات وورش العمل بالتعاون مع الوزارات سالفة الذكر، تستوعب جغرافيا الوطن كله، ويشارك فيها العلماء في كل التخصصات؛ لامتصاص ما قد يقع فيه الشباب من أفكار زائفة، ورؤى زائغة، ومن بين هذه الندوات ما يتعلق بالتكفير ومخاطره، وتشجيع الانتماء الوطني.

٨- إقامة جسور التعاون مع اتحاد الجامعات العربية للتوافق على هذه الأهداف، والعمل على رعايتها في مناهج التعليم حسب ظروف كل دولة.

٩- دعوة وسائل الإعلام بكل قطاعاتها سواء الإعلام الرسمي أم الخاص، إلى التوازن في عرض الأفكار والتعامل مع الآراء، والالتزام بمهنية العمل الإعلامي حرصا على مصالح الوطن العليا، وسدا لأبواب الغلو والتكفير، والدعوة إلى ميثاق شرف إعلامي يتبناه الإعلاميون أنفسهم من أجل إعلام أكثر حيدة ومهنية، وحرصا على مصالح البلاد.

١٠- إيجاد قنوات للتعاون مع الأجهزة المماثلة في جامعة الدول العربية، ومنظمة المؤتمر الإسلامي؛ لأن قضية التكفير قضية العالم الإسلامي كله، وانعكاساتها السلبية تؤثر على صورة الإسلام والعالم الإسلامي.

١١- يفوض المجتمعون وزير الأوقاف المصري أ.د/ محمد مختار جمعة في تشكيل لجنة من أعضاء المجلس الأعلى للشئون الإسلامية الأساسيين والاستشاريين من مصر وخارجها برئاسته لمتابعة تنفيذ هذه التوصيات، على أن تجتمع هذه اللجنة مرتين في كل عام وكلما اقتضت الضرورة.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

رئيس اللجنة

أ.د/ محمد مختار جمعة

وزير الأوقاف المصري

من تراث الهلال

الشورى.. ديمقراطية الإسلام

للأستاذ/ عاطف مصطفى

من المقالات التى ازدانت بها مجلة الهلال فى عام ١٩٨٥م مقالة للدكتور محمد عمارة بعنوان «الشورى ديمقراطية الإسلام».

يقول الكاتب الكبير فى مقاله الأول الذى نشر فى أول مارس ١٩٨٥ ـــ ٩ جمادى الآخرة ١٤٠٥هـ: «فى الحضارة الغربية، ورث أبناؤها عن أسلافهم اليونان، تراثًا واضحًا وغنيًا فى «الديمقراطية».. ولقد أغنوا هذا التراث وطوروه، وأضافوا إليه الجديد، وخاصة فى ميدان «النظم» التى تقترب بـ «فلسفة» الديمقراطية و«غاياتها» من «الممارسة والتطبيق».

ولقد غدا الخروج على فلسفة الديمقراطية وتطبيقاتها موضع الإدانة والإنكار والاستنكار فى تلك الحضارة، سواء أكان هذا الخروج فى ميدان الفكر، أو مجال الممارسة والتطبيق، الأمر الذى جعل «الديمقراطية» قسمة من قسمات الحضارة الغربية، على اختلاف تياراتها.. فلليبراليين مفهومهم وتطبيقهم للديمقراطية الليبرالية، وللاشتراكيين مفهومهم وتطبيقهم للاشتراكية الديمقراطية.. وللشيوعيين مفهومهم وتطبيقهم لديمقراطية الحزب الواحد والطبقة القائدة: البروليتاريا.

فالخلافات والتنويعات يحكمها إطار، وهذا الإطار هو مصدر «المشروعية» للفكر والتطبيق!

هذا عن الحضارة الغربية.. فماذا عن حضارتنا العربية الإسلامية؟!

الإجماع للشورى

يقول الدكتور محمد عمارة: لقد كاد الإجماع أن ينعقد على أن «الشورى» هى الفلسفة الإسلامية للحكم فى الدولة الإسلامية، وللمجتمع الإسلامي، وللأسرة المسلمة أى «السلطة الإسلامية» أيًا كان ميدان هذه «السلطة» دولة أو مجتمعًا أو أسرة.

لكن الإجماع يكاد أن ينعقد أيضًا على أنه بمقدار الحظ الوافر والغنى لمنابعنا الفكرية، ولأصول مواريثنا الحضارية فى هذه «الشورى»، كان الفقر والجدب الذى أصاب «تاريخنا» و«تطبيقاتنا» فى هذا الميدان.

ففى المنابع الفكرية ـــ كما سنرى ـــ تجد «الشورى» هى الفلسفة المقدسة للحكم والسلوك اجتماعيًا كان أو أسريًا، بل وفرديًا.

وفى التاريخ نجد الفردية والاستبداد يحرمان الواقع التاريخي والإنسان الذى عاشه من ثمرات هذه الفلسفة المقدسة، بل ويصيبان الفكر الذى عبر عن هذا الواقع التاريخي، بالفقر الشديد إذا ما كان البحث فى فلسفة الحكم وضوابط السلطة والسلطان.

والشورى فى تراث هذه الأمة فلسفة دينية مقدسة، وليست مجرد ميراث فكرى ـــ كما هو حال الغرب ـ عن «جاهلية اليونان الوثنيين».

ولهذه القضية أهميتها.. لا فى نقد

الممارسات التاريخية وحسب، بل وفى التفكير للحاضر والمستقبل.

فإذا كان هذا هو مقام الشورى وطبيعتها، فى منابعنا الفكرية، فإن هذا المقام يجب أن يعلو أكثر فأكثر فى فكرنا المعاصر، الذى يجب أن يوضع فى الممارسة والتطبيق.. وهنا يكون التطبيق الخلاق للمنهج العلمى فى استلهام التراث والإفادة منه فى مواجهة التحديات، منهج العودة للمنابع النقية، نستلهم خير ما فيها، وتطوير هذا الخير وتحديثه كى يلائم مستحدثات الأمور، والجديد الذى طرحته وتطرحه الحياة، والتجاوز ـ بعد الاستيعاب والنقد ـ لانحرافات التاريخ عن هذا النهج الذى استقر ـ كثوابت ـ فى منابع الأسلاف العظام.

أكثر من موروث

ويواصل الدكتور محمد عمارة قائلاً: إننا فيما يتعلق بالشورى أمام أكثر من موروث: فلدينا ذلك الميراث الغنى ـ الذى سنعرض لطرف منه ـ والذى جعل الشورى: «الفلسفة المقدسة» للحكم والحياة والسلوك وهو ميراث قد عرف طريقه إلى التطبيق فى الفترات الزاهرة من تاريخنا.

ولدينا ذلك «الميراث التاريخي» الذى استبدل الفردية والاستبداد بالشورى.. فسادت فيه مقولات «الشرعية لمن غلب»، والإمامة ـ فى السياسة والصلاة ـ لمن تغلب.

وما على الرعية إلا أن تشكر الحاكم إذا عدل، وتصبر عليه إن هو جار وظلم»!

لدينا المنابع الفكرية الغنية بالحديث عن الشورى، كمنهج للسلوك وفلسفة فى الحكم، ولدينا الفكر التاريخي الشديد الفقر فى الاهتمام بأمر هذه الشوري، حتى لقد وجدنا ابن منظور صاحب موسوعة «لسان العرب» يعكس مناخ عصره، عصر المماليك فيفرد لمادة الشورى ـ «شور» ـ فى موسوعته هذه مائتى سطر واثنين وثلاثين سطرًا، لا تظفر منهم الشورى كمنهج للسلوك ـ ولا تقول للحكم بأكثر من أسطر ثلاثة!!

فإذا كنا جادين حقًا فى البحث عن «هوية» الأمة وذاتيتها الحضارية المتميزة.. وإذا كنا جادين حقًا فى تحرير إنساننا المعاصر من القيود التى تشل فعالياته، وتعجزه عن مواجهة التحديات الفتاكة المفروضة على حاضره ومستقبله، فعلينا أن نتجاوز «بؤس التاريخ» بعد استيعابه ونقده ـ لنستلهم المنابع النقية والغنية، فنطورها ونحددها، ونجعل منها الإطار الذى نبدع فيه، والفلسفة التى تهتدى بها مؤسساتنا المعاصرة، والمقاصد والمثل والغايات، التى نناضل من أجل وضعها فى الممارسة والتطبيق.

وبهذا المنهج، ولهذه الغاية نبحث عن الشورى فى موروثنا الإسلامي.

الشورى فى القرآن

يقول كاتبنا الكبير د. محمد عمارة: لم يقف الإسلام من «الشورى» عند حد اعتبارها «حقًا» من حقوق الإنسان، وإنما ذهب فيها ـــ كما هى عادته مع ما اعتبر فى الحضارات الأخرى مجرد «حقوق» ـ ذهب فيها إلى الحد الذى جعلها فريضة شرعية واجبة على كافة الأمة، حكامًا ومحكومين فى الدولة، وفى المجتمع، وفى الأسرة، وفى كل مناحى السلوك الإنساني.

فهو يتحدث عنها كفريضة واجبة على رسول الله ﷺ، فى شئون الحكم والسياسة والعمران الدنيوي، لأنه فى هذا الميدان كان مجتهدًا غير معصوم، فما بالنا بالحاكم إذا لم يكن نبيًا ولا رسولا، يستدركه الوحى بالترشيد، إذا هو اجتهد فلم يصب مواطن الحق والصواب!

يتحدث القرآن الكريم عن الشورى كفريضة شرعية واجبة، حتى على الرسول فيقول الله سبحانه مخاطبًا رسوله:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾

(آل عمران: ١٥٩)

وهذا الحسم وهذا الوضوح، اللذين تألقت بهما الشورى - كفريضة شرعية واجبة - في قرآننا الكريم، ووحي الله لرسوله، وفي كتاب العرب الأول.. قد وعاه جيدًا أسلافنا العظام، الذين كتبوا في تفسير هذه الآية يقولون: «إن الشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام، ومن لا يستشر أهل العلم والدين فعزله واجب وهذا مما لا خلاف فيه».

لكن مظالم التفرد والفردية والاستبداد، التي جنحت بعيدًا عن هذه الفلسفة للحكم، قد أثمرت عصورها المظلمة وتطبيقاتها الظالمة فكرًا هزيلاً، حاول أصحابه تزوير نسبه إلى الإسلام، ليضفوا عليه شرعية الدين ومشروعيته، فزعموا أن الشورى غير ملزمة للحاكم، فعليه أن يستشير، ثم بعد ذلك يمضي ما رآه، حتى لو خالف الأمة جمعاء!

ولقد تجاهل هذا النفر من فقهاء الملوك والأمراء والسلاطين، ما عناه ويعنيه قول الرسول ﷺ: «إن أمتي لا تجتمع على ضلالة».

ما يعنيه هذا الحديث من «عصمة الأمة» التي يتجسد اجتهادها ويتمثل في الصفوة الجامعة لقدرات المشورة وإمكانات الاجتهاد.. فرأيناهم يرجحون كفة «الفرد الحاكم» على كفة «المشيرين».

ولقد حاول هذا النفر من فقهاء السلاطين تزوير نسب هذا الفكر الشائه إلى الإسلام، فقالوا إن هذا هو ما يعنيه قول الله سبحانه في هذه الآية ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾.. فإذا استشار الحاكم كان قد أدى ما عليه، وله بعد ذلك أن يعزم، أي يقرر ما يشاء، ونسوا أن هذا العزم - «القرار» هو في سياق الآية ثمرة الشورى.

فالشورى إذا جردت من ثمرتها، وهو القرار - العزم - كانت عقيمًا، بل كانت مسرحية عبثية، يجب أن يتنزه عنها الفكر الذي يعرض لآيات الله سبحانه وتعالى بالنظر والتفسير.

ونحن نقرأ في «صحيح البخاري» هذا التفسير الدقيق لهذه الآية.. نقرأ فيه أن المراد هو تحديد «أن المشاورة قبل العزم والتبين».. أي أنها هي المقدمات التي تفضي إلى القرار، وتحدد طبيعة هذا «العزم والتبين» والمثل الذي ضربه البخاري لهذه القضية - وهو «سبب النزول» في هذه الآية - أي ملابسات الوحي ومذكرة تفسيره - هو أن الرسول ﷺ، قد استشار أصحابه في مكان لقاء المشركين «يوم أحد» وكان رأي الرسول - مع قلة من الصحابة - البقاء في المدينة والاستفادة بموقعها وتحصيناتها في قتال المشركين الغزاة لكن الأغلبية رأت الخروج لملاقاة الأعداء عند «أحد»، فنزل الرسول على رأي الأغلبية، وألهمته رحمة الله أن يلين لهذه الأغلبية، كي لا يكون فظًا غليظ القلب، ينفرد برأيه ويستبد به، فيفضي ذلك إلى انفضاضهم من حوله، فاتخذ قرار الخروج كثمرة لمشورة الأغلبية ودخل منزله فلبس «لامته» - عدة الحرب والقتال - وخرج مع أصحابه وقد استعدوا ونفروا جميعًا للخروج، لكن نفرًا من الذين أشاروا على الرسول بالخروج، ظنوا أن مشورتهم بخلاف ما كان يرى الرسول، ربما تكون قد ساءت، فعرضوا عليه التراجع والبقاء بالمدينة، فرفض ﷺ التراجع في القرار، الذي جاء ثمرة للمشورة، والذي كان قد وضع في التطبيق بالاستعداد للقتال والتحرك بالخروج للقاء المشركين..

لكن نفرًا من علماء السوء - غفر الله لهم - قد ذهبوا يلوون عنق الحقيقة القرآنية، فجعلوا من الشورى «مسرحية عبثية»، يقيمها الحاكم الفرد استكمالاً «لشكل إسلامي» يخضع به قلوب العامة ويستأنس به قواهم، ثم يمضي فيما قرر لنفسه دون اعتبار لثمرة الشورى والمشيرين!.. وذلك هو الفارق الجوهري والكيفي بين «منابع تراثنا» وبين «صورته التاريخية الشوهاء».. ثم إن هذه الشورى التي جعلها القرآن «فريضة واجبة».. كفلسفة للحكم، وسياسة الرعية وتنظيم علاقات الحاكم بالمحكوم.. نراه قد جعلها فلسفة سياسة ذلك المجتمع المصغر، الذي يمثل اللبنة الأولى في بناء الأمة والرعية.. مجتمع «الأسرة».. فالشورى هي سبيل سياسة الأسرة في شريعة الإسلام.. فالتراضي في الأسرة والوفاق لابد وأن يكون مؤسسا على التشاور، كما أن رضى الرعية في الدولة لابد أن يكون رضاء واعيا، أي مؤسسا على التشاور، وليس على الاستسلام والإذعان!.

يقول الله سبحانه في معرض التشريع لمشكلات الأسرة، والسبيل إلى التراضي بين الأطراف حولها:

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

(البقرة: ٢٣٣)

وإذا كان القرآن الكريم قد جعل للشورى هذا العموم في المجتمع المؤمن فهي فلسفة سياسة الأسرة الصغيرة، وفلسفة سياسة الرعية والدولة، فلا غرابة أن رأيناه قد جعل منها واحدة من الصفات التي يتميز بها المؤمنون:

﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾

(الشورى: ٣٦-٣٩)

فهذه الآيات وهي تعدد صفات المؤمنين.. تجعل من بين هذه الصفات أن يكون ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ وليس حكرا لفرد أو فئة تستبد به وتنفرد من دون الناس!

معنى جليل ذا دلالة

يواصل الدكتور محمد عمارة: وإذا كان هذا هو صريح المعنى القرآني في المواطن التي ورد فيها مصطلح «الشورى» بلفظه في آيات الذكر الحكيم، فإن هناك معنى جليلا، ذا دلالة، نلتقي به في كتاب الله، يزكي هذا المعنى الذي ينحو إليه القرآن الكريم.. معنى: وجوب أن تكون سياسة الأمة الإسلامية شورى، وحكمها شورى، وكل أمرها شورى فالقرآن الكريم قد تحدث عن ﴿أُولِي الْأَمْرِ﴾ في موطنين اثنين في سورة النساء.. طلب في أحدهما من الرعية طاعتهم، بعد طاعة الله، وطاعة الرسول، وشرع في الثاني لضرورة الرجوع إليهم، كجهة اختصاص، في حسم الأمور، وتقرير أيها هو مصدر الأمن؟ وأيها هو مصدر الخوف؟؟

فقال في الآية الأولى مخاطبا الرعية:

﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾

(النساء: ٥٩)

وقال في الثانية ناعيا على البعض سلوكهم غير الرشيد، عندما يسارعون في اللغط وتناول الأمور دون علم، بدلا من ردها إلى أهل الذكر من «أولي الأمر»:

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾

(النساء: ٨٣)

والملحظان اللذان نلفت إليهما الفكر والنظر في هاتين الآيتين الكريمتين هما:

الأولى: أن القرآن الكريم لم يتحدث عن ﴿أُولِي الْأَمْرِ﴾ بصيغة الجمع، وفي ذلك تزكية للجماعية والقيادة الشورية، وعدول عن سبيل

الشورى.. ديمقراطية الإسلام

التفرد والانفراد بأمر المسلمين.

والثاني: أن القرآن قد اشترط لطاعة ﴿أُولِي الْأَمْرِ﴾ ولاختصاصهم بما اختصهم به.. أن يكونوا من الأمة، بمعنى أن يكونوا موضع اختيارها ومصدرا لثقتها، وأهلا لقيادة حياتها.

وفي هذه الدلالات القرآنية، تأكيد على وجوب.. اشتراك الرعية بالشورى في اختيار ﴿أُولِي الْأَمْرِ﴾.. وإلا لما جاز وصفهم بأنهم من هذه الرعية، فليس منا من هو مفروض علينا بالغلبة والقهر، والاستبداد.. وتأكيد على وجوب أن تكون سياسة الرعية من قبل حكامها بالشورى، لأن وجود مقاليد الأمور بيد الجماعة، لا يستقيم بغير اعتماد الشورى سبيلا لإنضاج رأي هذه الجماعة ﴿أُولِي الْأَمْرِ﴾ ووصولها إلى مرحلة القرار الصالح للتنفيذ.

ذلك هو مكان «الشورى» الإسلامية في القرآن الكريم: فريضة شرعية واجبة، شرعها الله سبحانه لتكون فلسفة السياسة الإسلامية سواء أكان الأمر في نطاق الأسرة أو المجتمع، أو الدولة التي تسوس الرعية بشريعة الإسلام.. فريضة شرعية واجبة، وليست مجرد «حق» من حقوق الإسلام.

السبيل إلى صنع القرار

يواصل العالم الجليل مقاله الشيق والمهم بقوله: بل لقد ذهب القرآن الكريم في سبيل التزكية لهذا السبيل في الفكر والسياسة - سبيل الشورى - إلى أن ضرب لنا الأمثال على أن هذا السبيل قديم قد اهتدت إليه - إن بالفطرة السليمة، أو باستلهام رسالات سماوية سابقة - أمم وشعوب - فبلغت به الارتقاء في أساليب التفكير وصنع القرار.

ففي مصر القديمة سلك ﴿الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ سبيل التشاور والائتمار وهم يبحثون الموقف من موسى عليه السلام.. ومن المعجزة التي أدهشتهم بها..

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١١٠) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾

(الأعراف: ١٠٩-١١٢)

ولقد واعدوا موسى على اللقاء في يوم عيدهم - يوم الزينة - ليتم التحدي على مشهد من الناس:

﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾

(الشعراء: ٣٨-٤٠)

كذلك كان هذا هو نهج الحكم والسياسة، والسبيل في صنع القرار في مملكة سبأ كما حكى القرآن الكريم على عهد ملكتها بلقيس:

﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾

(النمل: ٢٩-٣٢)

هكذا تحدث القرآن الكريم عن الشورى.. فهي فريضة شرعية واجبة لسياسة المجتمع والدولة، ولابد لها من الجماعة والجماعية، دون الفردية والاستبداد بصنع القرار، وهي إسلامية بمقدار هذا المقام الجديد الذي وضعها فيه الإسلام: مقام الفريضة الواجبة، الذي فاق ويفوق مقام «الحق» الذي يجوز لصاحبه التنازل عنه، وإلا فإنها ميراث إنساني، وتراث للإنسانية الراشدة، منذ أن عرفت الإنسانية سبيل الرشاد في السياسة والسلوك وصنع القرار.

خميلة الشعر



للأستاذ محمد عبدالوهاب

يالله ماذا وراء الغيب تنتظرْ
يا مصرُ طال الأسى حتّام نشتجرْ
كنت المنارة للدنيا ، باجمعها
وكنت قبلة من للنور يفتقرْ
كنوز معرفة الأحقاب قاطبةً
فخرُ التحضر في التاريخ مُعتبرْ
والغرب يرقد في كهف الجهالة ما
يستطيع ينهض او يرقى ويبتكرْ
حتى اكبَّ على أسفار نهضتنا
يعبُّ منها ، وتمنا والحجى سهرْ
يا كم بنينا على الأمواج أخيلة
لم تستقم .. ومياه البحر تنحسرْ

يا كم ظمئنا وصوت الموج يخطفنا
لم يروِنا .. وسرابُ الوهم ينهمرْ
ولتلعب الصدفة العمياء لعبتها
في عمرنا سفها .. لم تنفع العبرْ
واليوم صار خلافُ الدين مهزلةً
إن التناحر لا يُبقي .. ولا يذرْ
فهل نفيءُ إلى آفاق تبصرةٍ
يا مصرُ نعلو بها للخير ننتصرْ
إنّ السلام تحيّتنا ومنهجُنا
هذا خطابٌ لمن يرقى له نظرُ

لأنني كاتب مصري مسلم، أرى أنه من مقتضيات أمانة مهنتي، أن أحاول إشعال شمعة على الدرب، علها تبين لأصحاب الرأي وللعلماء، وأيضا لكافة المسلمين في جميع أنحاء العالم، معالم الطريق، فما أشق وما أقسى أن يتحدث المسلم ذو الوعي عما آل إليه حال عامة المسلمين من الوقوع في التيهاء والتخبط، فلا قدوة تحتذى، ولا حاد يدل، فهم شيع متناحرة، وجماعات متنافرة، نعم هم لايجتمعون إلا على كتاب الله المحفوظ بعنايته، لكنهم وللأسف لايفهمون ما حوته دفتاه من الحكم البالغة والأحكام المرشدة وبلواهم الكبرى هي ادعاء عامتهم العلم وتصدرهم للفتوى بجهالة، وانحياز علمائهم للظلال وميلهم للدعة وعدم الاكتراث مع أن الأمر جد جليل والمصيبة مفجعة.

محمد عبدالوهاب

هل من مُعين

للشاعر الكبير / ابراهيم عبد القادر المازني

هل من مُعين على نجوى ووسواس
أو من سبيل إلى تبريد أنفاسي
اكرُّ طرفي في الماضي فيسمو لي
وأنثني وأمامي جد عباس
ليس الذي فات أياما أعددها
لكنه العمر وا لهفي وياباسي
والدهر لا فلتات السعد يرجعها
ولا يجدد ما يبلى من الناس
لو كان في مقبل من مدبر عوضٌ
لم أودع الندم للأيام أطراسي

قضى لي الدهر بلوى في تصرفه
لا برء منها وعافني غير ذي باس
قد كنت أمرح في روض مطارفه
مطرزٌ طرفيها بالورد والآس
أرضي مفضضة ريا مذهبة
وفي سمائي نجوم هن إيناسي
إن شئت غنتني الأطيار ساجعة
أو شئت كانت ثغور الورد أكواسي
أو شئت في ظل أغصان مهدلة
تحنو على بالوان واجناس

ملأت عيني حسناً لا مخالـة
لكن مرامقة ملآي بإحساسي
فالآن قد ذهب العيش الرقيق وما
بدلت منه سوى جدب وإيـاس
وأصبح الورد يخفي حر وجنته
عن العيون ويبدي شوكه القاسي
عهد تصرم لم أظفر بمآربتي
منه ولا أورقت أعواد أغراسي
ما للحمام يغنيني على فنن
غض التثني منير النور مياس
والروض كيف اكتسى بالوشي محتفلا
وراح فيه وقلبي واجد آس
دنيا تغيض من بشري وتبسم لي
كالعضب مؤتلقاً يهوى إلى الراس
هيهات ما تحفل الدنيا بملتهف
ولا تبالي بإسعاد وإتعاس
لن يخلع الروض أبراد الحيا جزعا
ويكتسي دارس الأفواف للناس
أو يعبس النور من شجو يهضمني
أو يخرس الطير بلبالي ووسواسي
أن يسلب الدهر ما أولاه من هبة
فشيمة الدهر أعراء الفتى الكاسي
أو يشعب الصبر أكباداً فيذهلها
عن ذكرنا ففؤادي ليس بالناسي
وكيف أنساهم والقلب يتبعهم
على جديد لبانات وأدراس

أمام بيت الله

للشاعر الكبير / بدر شاكر السيّاب

منطرحاً أمام بابك الكبيرْ
أصرخ في الظلام .. أستجيرْ
يا راعي النمال في الرمال
وسامع الحصاة في قرارة الغديرْ
أصيح كالرعود في مغاور الجبال
كآهة الهجيرْ
لا أبتغي من الحياة غير ما لديّ :
الهوى من الغلال يزحم الظلام في مداه ،
وحقلي الحصيد نام في ضحاهْ
نفضتُ من ترابه يديّ
لنبات في الغداةْ
سوايَ زارعون أو سوايَ حاصدونْ !
لنثر القبور والسنابل السنونْ !
أريد أن أعيش في سلامْ
كشمعة تذوب في الظلامْ
بدمعة أموت وابتسامْ
تعبتُ من توقّد الهجيرْ
أصارع العباب فيه والضميرْ
ومن ليالٍ مع التخيل ، والسراح ، والظنونْ
أتابع الزوارق
في ظلمة البحار والفيافي
وفي متاهة الشكوك والجنونْ
تعبتُ من صراعي الكبيرْ
أشق قلبي أطعم الفقيرْ
أضيء كوخه بشمعة العيونْ
أكساه بالبيارق القديمةْ
تنتُّ من رائحة الهزيمةْ
تعبتُ من ربيعي الأخيرْ
أراه في الأقاح والورودْ
أراه في كل ربيع يعبر الحدودْ
تعبتُ من تصنّع الحياةْ
أعيش بالأمس ، وأدعو أمسي الغدا
كأنني ممثلٌ من عالم الردى
تعطاده الأقدارُ من دجاةْ
وتوقد الشموع في مسرحه الكبيرْ
يضحك للفجر وملء قلبه الهجيرْ
تعبتُ كالطفل إذا أتعبه بكاءْ !
أود أن أنام في حماكْ
أود أن أراكْ .. ومن يراكْ ؟
أصغي إلى سدّتك الكبيرةْ
في موكب الخطاة والمعذّبينْ
صارخة أصواتنا الكسيرةْ
خناجراً تمزّق الهواء بالأنينْ !
وجوهنا اليبابْ

كأنها ما يرسم الأطفال في التراب
لم تعرف الجمال والوسامةْ
تقضّت الطفولة ، انطفأ منا الشباب
وذاب كالغـــــــمامةْ
نحن نهيم في حدائق الوجوه ، آه
من عالم يرى زنابق الماء على المياهْ
ولا يرى المحار في القرارْ
واللؤلؤ الفريد في المحارْ

إملأ الأرض يا محمدُ نورًا

للشاعر الكبير / أحمد محرّم

إملإ الأرض يا محمدُ نورا
واغمر الناس حكمة والدهورا
حجبتك الغيوب سرًّا تجلى
يكشف الحُجْبَ كلها والستورا
عبَّ سيل الفساد في كل وادٍ
فتدفق عليه حتى يغورا
جنت ترمي عُبابه بعُباب
راح يطوي سُيوله والبحورا
ينقذ العالم الغريق ويحمي
أمم الأرض أن تذوق الثبورا
أنت معنى الوجود بل أنت سرّ
جهل الناس قبله الأكسيرا
أنت أنشأت للنفوس حياة
غيرت كل كائن تغييرا
أنجب الدهر في ضلالك عصرا
تابه الذكر في العصور شهيرا
كيف تجزي جميل صنعك دنيا
كنت بعثا لها وكنت نشورا
ولدتك الكواكب الزهر فجرا
هاشمي السنا وصبحا منيرا
يصدع الغيهب المجلل بالرو
ي الملقى ويكشف الديجورا
أنكر الناس ربهم وتولوا
يحسبون الحياة إفكا وزورا
أين من شرعة الحياة أناسٌ
جعلوا البغي شرعة والفجورا
تلك أربابهم أتملك أن تن
فع مثقال ذرة أو تضيرا
ما لدى اللات أو مناة أو العز
زى غناء لمن يقيس الأمورا
جاء دين الهدى وهبَّ رسول الـ
ـله يحمي لواءه المنشورا
بالرسول الهادي وبالصفوة الأم
جاد يقضون حقه الموفورا
سل أبا جهلها وقوما دعاهم
فاستجابوا جهالة وغرورا
أولعوا بالأذى فالقوا رسول الـ
ـله جلدا على البلاء صبورا
كلما أحدثوا الذنوب كبارا
وجدوه لكل ذنب غفورا
ما به نقمة فيغضب يرضي
ها ويرضيه ناعما مسرورا
إنه الله لا سواه ودين
ملك النفس واسترق الشعورا
يجد الناس والمقادير فيه
ويرى ما عداه شيئا يسيرا
ما زكا سابق من الرسل إلا
هو أزكى نفسا وأصفى ضميرا
جاءه عمه يقول أترضى
أن يقيموك سيدا أو أميرا
ويصبوا عليك من صفوة الما
ل حيا ماطرا وعيشا غزيرا
قال يا عم ما بعثت لدنيا
أبتغيها وما خلقت حصورا
لو أتوني بالنيرين لأعرض
ت أريهم مطالبي والشقورا
إن يثيروا بما علمت فإني
لأدع الهوى وأعصي المشيرا
دون هذا دمي يراق ونفسي
تطعم الحتف رائقا محذورا
رام بالطائف المقام فأعيا
فانثنى يطلب الأمان حسيرا

ظل مستخفيا بغار حراء
يعبد الله عابدا مستجيرا
يسمر القوم في الضلال ويمسي
للذي أطلع النجوم سميرا
واكفا ساجدا يسبح مولا
ه ويزجي التهليل والتكبيرا
تهتف الكائنات باخذها الصو
ت تحيي مكانه المهجورا
رب طال الخفاء والدين جهر
رب فاجعل مدى الخفاء قصيرا
ماجت الأرض حوله وتجلى الل
له ينهى بركانها أن يفورا
أوذي الدين في الشعاب وردت
بعد سعد غدوه مدحورا
رقمت في الكتاب أول سطر
وأتم الدم المراق السطورا
أدبر القوم محنقين فلولا الل
له كادت رحى الوغى أن تدورا
أزمع الضيف أن يلزم سواه
منزلا كان صالحا مبرورا
حله الوحي روضة شاع فيها
رونقا ساطعا وفاح عبيرا
ودعا الأرقم استجب تلك داري
تسع الدين مخرجا محصورا
وافها واجمع المصلين فيها
عصبة إن أردت أو جمهورا
وأتى ابن الخطاب يؤمن بالـ
ـله ويختار دينه المأثورا
قال كلا لن يعبد الله سرا
ويرى نور دينه مستورا
أخرجوا في حمى الكتاب أسودا
واطلعوا في سنا النبي بدورا
ذلكم بيتكم فصلوا وطوفوا
لا تخافن مشركا أو كفورا
أجمعوا أمرهم وقالوا هو القت
ل يميط الأذى ويشفي الصدورا
كذبوا ما دم الهزبر أماني
ي مهاذير يكثرون الهديرا
لا وربي فإنما طلب الكهف
فار نسلا وحاولوا محظورا

إن نفس الرسول أمنع جارا
من طواغيتهم وأقوى مجيرا
ما لهم هل رمى النبي ترابا
أم عمى في عيونهم مذرورا
خيبة تترك الجوانح حرى
يا لها حسرة تشب وتورى
ألنت تحيته فهاجر يقضي الـ
ـحق لا خائفا ولا مذعورا
قال ما في البلاد أكرم من مكـ
ـة أرضا ولا أحب عشيرا
فاشكني يا هموم نفسي إلى الـ
ـله أمضي قضاءه المقدورا
إنني قد نذرت لله نفسي
والتقي الوفي يقضي النذورا
رب آتيتنا هداك وأنزلـ
ـت علينا كتابك المسطورا
فلك الحمد وافرا مستمرا
ولك الفضل باقيا مذكورا
إذ يقول النبي لا تضرب الشيـ
ـخ وإن سبني ودعه قريرا
إنما نلت بالسعادة منه
والدا مدبرا وشيخا ضريرا
في رجال من صحبه زعموا الإخـ
ـراء نصحا واستحسنوا التغريرا
آثروا الله والرسول ففازوا
وارتضوها تجارة لن تبورا
ما حديث لأم معبد تشتـ
ـفيه ظمأى النفوس عذبا نميرا
سائل الشاة كيف درت وكانت
كزة الضرع لا ترجى الدرورا
بركات السمح المؤمل يقري
أمم الأرض زائرا أو مزورا
مظهر الحق للنبوة سبحا
نك ربا فرد الجلال قديرا
يا حياة النفوس جئت قباء
جيئة الروح تبعث المقبورا
ارفع المسجد المبارك واصنع
للبرايا صنيعك المشكورا
غرس الله دوحة الدين قدما
وقضاها أرومة وجذورا

ندوة تطور العلوم الفقهية

الفقه الإسلامي: المشترك الإنساني والمصالح



إعداد الأستاذ/ محمد جمعة

استكمالاً لما تناولته مجلة «الأزهر» فى عددها السابق عن وقائع ندوة «تطور العلوم الفقهية.. الفقه الإسلامى: المشترك الإنسانى والمصالح» فى نسختها الثالثة عشر والتى عقدت بعاصمة سلطنة عُمان «مسقط» برعاية صاحب المعالى الدكتور يحيى بن محفوظ المنذرى رئيس مجلس الدولة، وبمشاركة العديد من كبار علماء ومفكرى الأمة الإسلامية فى الفترة من ٦ - ٩ من جمادى الآخرة ١٤٣٥هـ/ الموافق ٦ - ٩ من أبريل ٢٠١٤.

ونعرض هذا الشهر عدداً من أبحاث وأوراق العمل المقدمة للندوة والتى بلغت ثمانية وستين ورقة وتمت مناقشتها عبر محاور الندوة الثمانية على مدى ستة عشر جلسة وفيما يلى توجز لبعض الأبحاث:

المحور الأول: المصطلحات والمفاهيم والتأصيل الفقهى

جاءت ورقة الدكتور وهبة الزحيلى ـ تحمل عنوان «قيمة الخير العام والمصالح الإنسانية فى القرآن وإدراكات الفقهاء» مقسمة قيمة الخير إلى خاص وعام ، فالخاص لا تتدخل فيه الشرائع و القوانين بخلاف العام الذى يميز شريعتنا و يعبر عن خلودها فالمقاصد العامة فى الشريعة قائمة على محض الخير العام و كذلك المقاصد المنبثقة عنها مثل الحرية والسلام والعدل والمساواة.

وقد احتوى هذا البحث على أطياف أو أمثلة لتحقيق مدلول الخير العام للأمة ورعاية المصالح الإنسانية؛ التى روعيت فى جميع الملل ، وشرع حفظها وصونها فى مختلف الأحوال ، أو فى ضوء المقاصد العامة للقرآن الكريم وهى خمسة: مقصد الحرية ، ومقصد السلام العالمى والمحلى ، ومقصد المساواة (وحدة الأصل البشرى) ، ومقصد العدل ، ومقصد الإصلاح ، ودرء المفاسد.

وكل هذه المقاصد مظهر واضح لدعوة الإسلام إلى تفعيل فضيلة الرحمة التى هى جوهر شريعة الإسلام

المحور الثانى: المساواة أصولاً وفقهاً

ومن الأبحاث التى نوقشت فى هذا المحور بحث : «فكرة المساواة بين القانون الدولى الإقليمى والنظرية الإسلامية» للأستاذ الدكتور / سعيد محمد الدقاق ـ رئيس قسم وأستاذ القانون الدولى بجامعة الإسكندرية وأحد المختصين بالفقه المقارن ـ وقد خلص البحث إلى أن الإسلام

سبق إلى العديد من الحقوق التى تضمنتها المواثيق الإقليمية ، وأن نظرته إلى مبدأ المساواة ارتبطت دائما بفكرة العدل ، وفكرة المساواة فى نهاية الأمر تمثل إطاراً ينتظم الحقوق الموضوعية وتمثل منهاجا ينبغى أن يأخذ المجتمع المعنى والقائمين على أمره أنفسهم به مع اقتران هذا المنهج بفكرة العدل التى توازن بين الحقوق الفردية والحقوق الجماعية وتعطى للتكافل المؤدى إلى التقريب بين الأفراد والطبقات معناها الواقعى ، وعلى ذلك فليتنافس المتنافسون .

المحور الثالث : فقه العدل فى الإسلام

جاء بحث معالى أ.د / نور الدين الخادمى - وزير الشئون الدينية بجمهورية تونس - «العدل وفقه التكاليف فى الإسلام» - بين فيه أقسام العدل : كالعدل مع النفس ومع الأسرة ومع الشعب ومع الإنسانية ، ويظهر منها التدرج المنطقى العقلى الواقعى ، كما أنه بين أن العدل مؤطر من حيث النصوص الشرعية بل هو أمر إلهى ... و ينقسم البحث إلى مبحثين :المبحث الأول تحديد مفردات العنوان : يتركب عنوان الموضوع من المفردات التالية: العدل، وفقه ، والتكاليف ، والإسلام. وهى المفردات الأربع التى لا يفهم مضمون البحث إلى بفهمها فى حال انفرادها وتركيبها . المبحث الثانى : تأطير فقه التكاليف للعدل :والمراد من هذا التأطير هو إرجاع العدل إلى نصوصه وأحكامه ، وإلى قواعده وأصوله ومقاصده ، وإلى مبدأ الاجتهاد والنظر والتنزيل والتفعيل.

المحور الرابع : فقه حقوق الإنسان فى الإسلام

وقد تقدم أ.د / عبد الحميد مدكور - أستاذ الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم وعضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة - ببحث حمل عنوان « حقوق الإنسان ومقاصد الشريعة الإسلامية » يتناول البحث إشارة موجزة - فى أوله - إلى ما ظهر فى



د. وهبة الزحيلى — أ.د. سعيد محمد الدقاق

الفكر الإنسانى الغربى السياسى منه والقانونى، من عناية بحقوق الإنسان، وما صدر من وثائق فى هذا الشأن وفى مقدمتها ما صدر خلال الثورة الفرنسية ١٧٨٩م، من حديث عن الحرية والعدالة والمؤاخاة، ثم ما أصدرته الأمم المتحدة من إعلان عالمى لحقوق الإنسان فى ديسمبر ١٩٤٨م .

ثم ينتقل البحث - بعد ذلك - إلى الحديث عن الحقوق التى قررها الإسلام للإنسان المسلم وللإنسان على وجه العموم

وينتهى البحث بالإشارة إلى بعض الأمور المهمة، ومنها:

- أن ما شرعه الإسلام من حقوق الإنسان لم يكن مُثُلاً معلقة فى الفضاء، بل إن الحياة الإسلامية شهدت تطبيق هذه الحقوق.
- أن حصر مقاصد الشريعة فى الضرورات الخمس، وفى الحاجيات والتحسينيات التى ظهرت فى كلام الفقهاء والأصوليين بل وبعض الصوفية والفلاسفة الإسلاميين - هو حصر لا يقصد به إغلاق باب الاجتهاد فى تحديد هذه المقاصد إنما هو اجتهاد فى تحديد أهم المقاصد التى تراءت لهؤلاء العلماء من نظرهم فى الشريعة الإسلامية وأحكامها وآدابها.

المحور الخامس : حقوق الإنسان فى المواثيق الدولية والفقه الإسلامى

وفى هذا المحور عرض أ.د / حميد لحمر- رئيس وحدة الدراسات الإسلامية بكلية الآداب. جامعة سيدى محمد بن عبدالله الفاسى بالمملكة

المغربية - بحثه « حقوق الإنسان فى الإعلانين: العالمى ١٩٤٨م والإسلامى ١٩٩٠م والموازنة بينهما والخصوصيات» وقد قسم البحث إلى : أربعة أقسام رئيسية هى :



أ.د. عبدالحميد مدكور

فى القسم الأول بعد تقديم مختصر عن مصطلح الحق فى اللغة والاصطلاح الشرعى فى مبحثين اثنين ، وختم بالحديث عن أصناف الحقوق الثلاثة: فالجيل الأول من الحقوق فى اصطلاح الحقوقيين و هى تتعلق بالحقوق المدنية و السياسية

ثم الجيل الثانى من الحقوق، و هى تتعلق بالحقوق الاقتصادية و الاجتماعية

ثم الجيل الثالث من الحقوق ،و هى الحقوق البيئية و الثقافية و التنموية

و فى القسم الثانى : تناول فيه مصدر حقوق الإنسان فى الإسلام و الإعلان الإسلامى، وقد اشتمل هذا القسم على مبحثين : الأول حول التأصيل لحقوق الإنسان فى الإسلام ، اعتمد فيه الربط بخطبة حجة الوداع ، و اعتبرها ميثاقا مبكرا لحقوق الإنسان، و بعده استعرض النصوص القانونية التى صاغتها منظمة المؤتمر الإسلامى مصدرة بديباجتها الرائعة و الغنية بالمعانى الحقوقية السامية

أما القسم الثالث و هو محور وثيقة حقوق الإنسان فى الإعلان العالمى

تحدث فيه عن الأسباب و الدوافع التى كانت وراء ظهورها ، و الجذور التاريخية لظهور صحوة حقوق الإنسان و الاجتماعات التى عقدت فى شأنها عالميًا من سنة ١٢١٥ عند ظهور أول وثيقة بإنجلترا إلى أن انتهت باجتماع ١٩٤٨م بالأمم المتحدة و صدور الإعلان العالمى .و المحاور الأساسية التى تضمنها الإعلان ، ثم استعرض جميع نصوص الإعلان العالمى.

و فى القسم الرابع عقد موازنة و مقارنة بين الإعلانين . و ختم البحث بنتائج واقتراحات.

المحور السادس : فقه المشترك الإنسانى عند فقهاء الإسلام

تحت عنوان « فقه المشترك الإنسانى عند المالكية: القرافي والشاطبي نموذجًا» جاء بحث أ.د / عبدالرحمن إبراهيم زيد الكيلانى - أستاذ الفقه وأصوله - كلية الشريعة - الجامعة الأردنية.

وخلاصة البحث : أن القرافي والشاطبي وإن لم يتناولا موضوع المشترك الإنسانى على وجه الخصوص ، فإن العطاء المقاصدى الذى قدماه يمكن أن يؤسس للعديد من القيم الإنسانية المشتركة التى تنبنى عنها علاقات التعاون بين الشعوب وتحقق الخير الإنسانى العام، وتحافظ على مقاصد الشريعة الإسلامية فى تحقيق مصالح الإنسان الكلية . وأنه لا بد من استثمار هذا العطاء والبناء عليه والإفادة منه فى إقامة جسور التواصل مع الآخر ، بما يحقق النفع الإنسانى العام ويعزز من معانى التعاون البناء بين الشعوب ، ما دام لا يتعارض مع مقررات الشريعة وأحكامها ونصوصها وقواعدها.

المحور السابع : السياسة الشرعية وفقه المشترك الإنسانى

ومن الأبحاث التى توقفت فى هذا المحور بحث : «الضمان الاجتماعى وأنظمته فى السياسة الشرعية » لأستاذ الدكتور / محمد قاسم المنسى - أستاذ الشريعة بكلية دار العلوم ، جامعة القاهرة.

ويهدف هذا البحث إلى التأكيد على حرص الإسلام على تحقيق الضمان الاجتماعى لجميع البشر ، كأثر من آثار عالمية الدعوة وعمومية الرسالة التى سعت إلى النهوض بالحياة الإنسانية،

وتحقيق أرقى مستوى العيش لكل الناس، وذلك بثلاثة وسائل:

الأولى: تفعيل الطاقات والموارد والقدرات الذاتية للأفراد لكي ينهض كل فرد قادر على القيام بأمر نفسه ومن يعول، من خلال التكليف الشرعي بالعمل والسعي في الأرض لطلب الرزق وابتغاء الخير واكتساب الطيب من المال.

الثانية: الأنظمة التشريعية التي تصب في مصلحة تحقيق الضمان الاجتماعي كنظام المؤاخاة، والنفقة على الأقارب، وتوزيع الميراث والزكاة والوقف والوصية والنذور والكفارات وكفالة اليتيم، ورعاية الجيران.

الثالثة: تكليف الدولة بتحقيق الضمان الاجتماعي لجميع رعاياها.

المحور الثامن: الفقه الإسلامي وتراث الفقه العالمي

وقد تقدم أ.د/ جعفر عبد السلام - أستاذ القانون الدولي والأمين العام لرابطة الجامعات الإسلامية.

بورقة بحثية تحمل عنوان: «الفقه الإسلامي وأكاديمية الفقه الدولي في لاهاي».

أوضح البحث بعض الحقائق المعروفة عن التشريع الإسلامي، وأن الفقه الإسلامي والتفسير والمعاني التي تعطى لأحكامه الشرعية عملية إنسانية، ليست مقدسة مثل النصوص الشرعية وبالتالي كان الخلاف بين الفقهاء مقبولا.

كما بين أن لكل تشريع إسلامي - خاصة في المعاملات - حكمة يقوم عليها، وأن كل هذه الأحكام تجمع بينها حكمًا أساسية هي العدالة، المصلحة، الأخلاق.

ولقد أوضح الباحث أوجه التلاقي بين مدرسة لاهاي للقانون الدولي والفقه الإسلامي حيث استعانت هذه المدرسة بشكل أو بآخر بالفقه الإسلامي ودعت الكثير من رجال الفقه الإسلامي للمحاضرة فيها عن القانون الدولي الإسلامي وعن التشابه بين القانون الدولي والفقه الإسلامي في مختلف القضايا الدولية.

■ وختاماً فإن ندوة تطور العلوم الفقهية أصبحت على مدار ثلاث عشرة سنة .. مجمعاً فقهياً لعلماء ومفكري الأمة، يحثوا فيما فيه صلاح البلاد والعباد، بارك الله مسعاهم لاجتماع الأمة، ولملمت شعثها.

وجزى اللهم القائمين على هذه الندوة المباركة خيرا لما يبذلونه من جهد لإخراجها في أبهى حللها.



جانب من السادة الحضور

كلمة الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية في مؤتمر

«الإبداع وقيم المجتمع المصري»

المنعقد بمحافظة كفر الشيخ يوم الأربعاء بتاريخ ٢٠١٤/٥/٢٢م



فضيلة الشيخ محمد زكي رزق بداري
الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين.....وبعد

فإنه لا يخفى ما يطرح على الساحة الفنية من معطيات لا تتفق مع قيم المجتمع المصري، تجسد فيها اغتيال واضح لقيم المجتمع، وذبح للأخلاق، واعتداء على حرمات الله، وتصوير الرزيلة على أنها حل لمشكلات المجتمع، وتقديم الخلاعة والمجون على أنها ثقافة هذا المجتمع، وغير ذلك كثير ....، وكل ذلك باسم الإبداع!!!!

لذا كان لزاما علينا أن نعقد هذا المؤتمر في هذه الآونة لنبين للناس المفهوم الصحيح للإبداع، الإبداع الذى يوافق قيم مجتمعنا بعيدا عن الخلاعة، والعرى، وكشف العورات، وارتكاب المحرمات، وإتيان الفواحش، وذلك عملا بقول الله تبارك وتعالى:

﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾

والإبداع يعنى الابتكار والاختراع النافع للناس في جميع مجالات الحياة، وتفجير طاقات المجتمع، والبحث عن آيات الله من منطلق قوله تعالى:

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾

لتحقيق مراد الله من استخلافهم عبادة وإعمارًا للكون.

لقد جاء الإسلام يفتح آفاقا بعيدة للإبداع، وتحدث القرآن الكريم عن الإبداع الصناعى في قوله تعالى:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾

فالإبداع يقتضى أن نتعرف على الحديد،

ومعادنه، وأفرانه، واستخداماته، لتصنع منه بارجة في اليم، وقاذفة في السماء، وقاطرة على الأرض، ألم يقل الله مخبرا عن داوود:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ (١٠) أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

وعن ذي القرنين:

﴿فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾

وتحدث القرآن عن الإبداع في الثروة المعدنية فقال:

﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾

وتحدث القرآن عن الإبداع الكوني وربطه بمعرفة الله - سبحانه وتعالى فقال:

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

وتحدث القرآن عن الإبداع التربوي فقال:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ (١٢) وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ (١٤) وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ (١٧) وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾

وتحدث القرآن عن الإبداع القصصي فقال تعالى:

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾

ولم يقف القرآن الكريم عند تفاصيل المراودة، وإنما وقف عند القيمة التربوية المتمثلة في الفرار المعنوي والفرار الحسي حيث قال:

﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾

وقال:

﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾

فهل يفهم صناع الفن، ومدعي الإبداع في بلدنا هذه المعاني الراقية، والقيم الرفيعة، والمثل العليا، ويتخذوا ذلك الأدب الرفيع بديلا عن العهر والفجور والخلاعة والعري؟!

إننا نقرر بكل يقين أن ما يعرض على الساحة الفنية لايمت إلى الإبداع بصلة إلا النزر اليسير، وإنما هو اغتيال لقيم هذا المجتمع، وقتل لثقافتنا العربية والإسلامية التي تحرم الزنا، بل أبعد من ذلك تحرم الطرق الموصلة إليه، قال رب العالمين:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾

كما أن ثقافتنا الإسلامية تأبى المتاجرة بجسد المرأة، وتجعل لها ثيابا خاصة، وترسم حولها سياجا من العفة والطهارة، فقال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾

ومن المعروف بداهة أن الفن والأدب عموما يعبر عن ثقافة المجتمع الذي يخاطب بهذا الفن، وهنا نطرح سؤالا: هل من ثقافة مجتمعنا معاقرة الزنا؟ هل من ثقافة مجتمعنا المتاجرة بالأعراض؟ هل من ثقافة مجتمعنا أن تدرب الأطفال على الزنا؟ هل من ثقافة مجتمعنا أن تجمع الأموال عن طريق تعرية أجساد النساء؟ وهل من المنطق والعقل أن تقصر الإبداع في أجساد عارية، وقينات ماجنة، ونساء عاهرة، وشباب مائع؟!!!!! بالطبع لا وألف لا.

ونحن إذ نقرر ذلك لا نقيد الحريات، ولا نحجر على الإبداع - إن كان هناك إبداع أصلا - ولكننا نقوم بواجبنا في الحفاظ على هوية شعبنا، وثقافة أمتنا، وقيم مجتمعنا، ومحافظين على سلامة سفينتنا التي يمكن أن تخترق باسم الحرية، فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «مَثَلُ القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا، ونجوا جميعا».

وعملا بقوله تعالى:

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾

فإنه لجدير بنا نحن معشر الوعاظ أن نذكر مجتمعنا وهو يحاول ونحن معه أن نبني حضارة شامخة نستعيد بها أمجاد الماضي، ونستشرف بها آفاق المستقبل، أن سبب دمار الحضارات السابقة، وهلاك أصحابها هو عدم اكتراثهم بالأخلاق، والقيم، والمثل التي شرعها رب العالمين لهم، والقرآن الكريم خير شاهد على ذلك، قال تعالى:

﴿وَٱلْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ (٣) وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى

«الإبداع وقيم المجتمع المصري»

حِجْرٍ (٥) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾

وتذكر من يصدر لمجتمعنا الرزيلة والفاحشة بعد أن ذكر بآيات الله بأن الله قال في شأن بني إسرائيل:

﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾

وقال في شأن فرعون وقومه :

﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾

ونهيب بإخواننا الوعاظ أن يكونوا حراسا للعقيدة، محافظين على هُوية المجتمع وثقافته، زائدين عن قيمه ومثله وأخلاقه حتى إذا ما نزل العقاب تحقق فيهم قول الله عز وجل:

﴿أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾

ونهيب بمجتمعنا أن يأخذ على أيدى المترفين أصحاب رؤس الأموال الذين يبددون عفافه ،ويقتلون قيمه حتى لا يتحقق فينا قول الله عز وجل :

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْ عِنْدِهِ، ثُمَّ لَتَدْعُنَّهُ فَلَا يَسْتَجِيبُ لَكُمْ».

وقال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ، فَيَقُولُ: يَا هَذَا، اتَّقِ اللهَ وَدَعْ مَا تَصْنَعُ، فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَكَ، ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْغَدِ، فَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ»، ثُمَّ قَالَ:

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (٨٠) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾

ثُمَّ قَالَ: «كَلَّا وَاللهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدَيِ الظَّالِمِ، وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا، وَلَتَقْصُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْرًا».

هذا وسيظل الشلال هادرا والتيار جارفا وسيظل الأزهر برجاله ودعاته سدا منيعاً أمام دعوات التحلل والعهر والفساد الأخلاقي ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم..... وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

قراءة في كتاب

في التنوير الإسلامي
٣٥
هل المسلمون أمة واحدة
تأليف
د / محمد عمارة

بقلم / أ: عادل خفاجة

تتوق نفس كل مسلم إلى رؤية الأمة الإسلامية أمة واحدة ، تتصف بالقوة ، أمة تأخذ بالمنهج الإسلامي المتمثل في قول الحق تبارك وتعالى :

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾.

وإذا كان التشرذم صفة سائدة اليوم لأمتنا الإسلامية فلا شك أننا نتساءل عن السبب ، ونبحث عن الحل... من أجل ذلك كان اختيارنا لكتاب: «هل المسلمون أمة واحدة»؟

مؤلف الكتاب :

هو المفكر الكبير الأستاذ الدكتور محمد عمارة مصطفى عمارة ، عضو هيئة كبار العلماء ورئيس تحرير مجلة الأزهر .

ولد بريف مصر مركز قلين- كفر الشيخ ، حفظ القرآن وجوده وهو في كتاب القرية. بدأت تتفتح وتنمو اهتماماته الوطنية والعربية وهو صغير. وكان أول مقال له بعنوان (جهاد عن فلسطين) نشرته صحيفة (مصر الفتاة) . درس الدكتوراه في العلوم الإسلامية تخصص فلسفة إسلامية- كلية دار العلوم- جامعة القاهرة ١٩٧٥ . والماجستير في العلوم الإسلامية تخصص فلسفة إسلامية- كلية دار العلوم-جامعة القاهرة ١٩٧٠م والليسانس في اللغة العربية والعلوم الإسلامية-كلية دار العلوم-جامعة القاهرة ١٩٦٥م.

حصل على العديد من الجوائز والأوسمة والشهادات التقديرية والدروع، منها «جائزة جمعية أصدقاء الكتاب ، بلبنان سنة ١٩٧٢م»، وجائزة الدولة التشجيعية بمصر سنة ١٩٧٦ ، ووسام التيار الفكري الإسلامي القائد المؤسس سنة ١٩٩٨م.

الإنتاج العلمي :

حقق لأبرز أعلام اليقظة الفكرية الإسلامية الحديثة ، فأخرج لنا الأعمال الكاملة لكل من : رفاعة الطهطاوي ، وجمال الدين الأفغاني ، وعبد الرحمن الكواكبي ، وعلي مبارك ، ومحمد عبده ، وقاسم أمين ، وألف الكتب والدراسات عن أعلام التجديد الإسلامي مثل :الدكتور عبد الرزاق السنهوري باشا ، والشيخ محمد الغزالي ، ورشيد رضا ، وخير الدين التونسي ، وأبو الأعلى المودودي ، وسيد قطب ، وحسن البنا ، ومن أعلام الصحابة :عمر بن الخطاب- علي بن أبي طالب ، ومن أعلام التراث : غيلان الدمشقي ،

والحسن البصرى.

أسهم في العديد من الدوريات الفكرية المتخصصة، وشارك في العديد من الندوات والمؤتمرات العلمية، ونال عضوية عدد من المؤسسات الفكرية والبحثية منها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، والمعهد العالى للفكر الإسلامي. بلغت كتبه وأبحاثه أكثر من (٣٠٠) مؤلف نذكر منها على سبيل المثال:

عمر بن عبد العزيز - معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام - القدس الشريف رمز الصراع وبوابة الانتصار - الصحوة الإسلامية في عيون غربية - الغرب والإسلام - أبو حيان التوحيدى - ابن رشد بين الغرب والإسلام - عندما دخلت مصر في دين الله - .تجديد الدنيا بتجديد الدين - الغناء والموسيقى حلال أم حرام -أزمة العقل العربى - تهافت العلمانية - قارعة سبتمبر.

الكتاب:

يقع الكتاب في أربعين صفحة وقد صدر عن دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع في يونيو سنة ١٩٩٩ ضمن سلسلة «في التنوير الإسلامي».

يتناول المؤلف في هذا البحث أربع نقاط هي: مفهوم الأمة في لغتنا القومية، مفهوم الأمة في أصول العربية، مفهوم الأمة في دولة الإسلام، مفهوم الأمة في حضارة الإسلام.

مفهوم الأمة في لغتنا القومية

فأما عن مفهوم الأمة في لغتنا القومية فإن المؤلف كانت له جولة في المعاجم بصفة عامة فوجد في الموسوعات والمعاجم ذات التوجه الفكرى المادى أن العوامل المادية تتصدر الشروط والسمات التى تؤهل الجماعة البشرية لتكوين أمة. كما وجد أن بعضهم يصل إلى حد الخلط بين «الأمة» و «الدولة» ومن جملة هذه التعاريف يسوق لنا المؤلف هذا التعريف الذى يرى أن الأمة: «جملة الأفراد الذين يكونون وحدة سياسية، وتجمع بينهم وحدة الوطن والتراث والمشاعر من الآلام والآمال».

ويرى المؤلف أن في ذلك خلطا بين مفهوم الأمة ومفهوم الدولة وأن هذا الخلط بين «الأمة» و «الدولة» هو ثمرة من ثمار التأثير الغربى في مادة ومضمون هذه المعاجم والقواميس «العربية»، وأن ذلك إنما يخدم الأهداف الغربية من وراء إشاعة هذه المضامين في هذه التعريفات.

كما يرى المؤلف أن شيوع هذا المفهوم - الذى يطابق بين «الأمة» و«الدولة» - في قواميس الأمم التى مزقها القهر الاستعمارى الغربى، أو المصالح الإقليمية الضيقة لبعض العشائر والفئات والطبقات، يسهم ولا شك في تشكيك هذه الأمم بوحدتها، فيفقدها الاتجاه الموحد نحو استكمال وحدتها كأمة.

ثم يقدم المؤلف التعريف الذى يرتضيه ويراه بريئا من آفة الخلط بين المفهومين فيعرف «الأمة» - قانونا - بأنها «جماعة من الناس تجمعهم عناصر مشتركة، كوحدة الأصل واللغة والعقيدة والتراث الفكري، مما يجعلهم وحدة حضارية واحدة، ويخلق عندهم شعورا بالانتماء إلى تلك الوحدة وتعلقا بها». والأمة حقيقة اجتماعية وحضارية خلافا للدولة التى تعتبر وحدة سياسية وقانونية. ونلاحظ أن الأمة الواحدة قد تكون موزعة بين عدة دول، كما كان الشأن بالنسبة للأمة العربية، كما أن الدولة قد تضم عناصر من أمم مختلفة، كما كان الشأن بالنسبة للإمبراطورية العثمانية قديما وسويسرا حديثا.

ويصرح المؤلف أنه ساق تلك التعريفات الحديثة ليظهر افتراقها مع النهج العربى الإسلامي في تعريف الأمة ذلك النهج الذى ابتعد عن الضبط والتحديد، ووقف في هذا التعريف عند حدود «الجماعة» فاعتبر الجماعة - أية جماعة - التى يربطها رابط ويجمعها جامع - أيا كان الرابط والجامع - «أمة» متميزة عن غيرها من الأمم ... ذلك أن وراء هذا النهج العربى الإسلامي دلالات فكرية تنم عن خصوصيات حضارية للأمة العربية الإسلامية جديرة بالبلورة والتحديد عندما نبحث عن المفهوم المتميز لمصطلح «الأمة» في حضارتنا العربية الإسلامية.

مفهوم الأمة في الأصول العربية

وفي بحثه لتأصيل مفهوم الأمة لدى الأصول العربية يسوق المؤلف تعريف الراغب الأصفهاني لمعنى الأمة من كتابه «المفردات في غريب القرآن» إذ يقول: إنها «كل جماعة يجمعهم أمر ما: إما دين واحد، أو مكان واحد، سواء أكان ذلك تسخيرا أم اختيارا. وجمعها: أمم.

ويشير الكاتب الكبير إلى حديث رسول الله الذى يحدد العدد الأدنى للجماعة حتى يطلق عليها لفظ الأمة ذلك الحديث القائل:

«ما مِنْ مَيِّتٍ يُصَلِّي عليه أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ مِنَ المُسْلِمِينَ، يَبْلُغونَ أن يَكونُوا مائةً، فيَشْفَعُونَ لَهُ، إلا شُفِّعُوا فيه»

كما يشير المؤلف إلى أن لفظ الأمة لا يقف عند حد البشر بل يتعداه إلى المخلوقات الأخرى مستشهدا بقوله تعالى:

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ﴾

[الأنعام: ٣٨]

ويخلص المؤلف بعد سرد العديد من الآيات القرآنية التى ورد بها هذا اللفظ إلى أن الأمة هى الجماعة إذ يقول: فهى - إذن - الجماعة ... أية جماعة يربطها أى رباط جامع هى «أمة» دونما ضبط أو تحديد لروابط بعينها، أو لعدد محدد من هذه الروابط الجامعة.. ذلك هو المضمون الذى اجتمعت عليه أصول العربية، وساد في حضارتنا الإسلامية، ثم يستطرد متسائلا:

هل لهذه «المرونة» التى رفضت التحديد والتقييد، والتى تركت الباب مفتوحا للروابط المضافة إلى الجماعة، وكذلك لحدود الجماعة ذاتها.. هل لهذا النهج المتميز وهذه الخصوصية العربية الإسلامية دلالة حضارية في ميدان التمايز الحضارى والخصوصيات القومية يمكن رصدها عندما تكون المقارنة بين الأمم والحضارات؟ وهل في ذلك ما يلقى ضوءا على أمر ذى بال في مفهوم «الأمة» بحضارتنا العربية الإسلامية؟

وقبل أن يجيب المؤلف عن هذا السؤال يشير إلى ملابسات الصياغة والتحديد لمضمون مصطلح «الأمة» في الحضارة الغربية.... وأن ملابسات صياغة مضمون هذا المصطلح في حضارتنا العربية الإسلامية مغاير تمام المغايرة لتلك الملابسات الغربية، بل وعلى النقيض منها.. فلقد تميز عندنا هذا المفهوم والمضمون..

مفهوم الأمة في دولة الإسلام

ثم يتناول مفهوم الأمة في دولة الإسلام:

فيرصد الاختلاف التام بين الحضارتين فيجد أن الحضارة الغربية شاع وساد فيها مصطلح الأمة في المرحلة التاريخية التى تبلورت فيها قوميات تلك الحضارة، عندما نشأت على أنقاض الرابطة اللاهوتية المسيحية الجامعة.. فكان الاستقلال، وكان الانسلاخ هو طابع هذه المرحلة.. ثم كان الصراع الذى تولد من تناقضات المصالح الرأسمالية عاملا هاما في تأجيج العصبيات القومية بين أمم وشعوب تلك الحضارة، فكان البحث - في إطار الفكر القومى الغربى - عن الفواصل وعوامل التمايز بين الأمم والقوميات سمة من سمات ذلك الفكر في ذلك التاريخ، فرأينا - لذلك - الضبط والتحديد للسمات والشروط الجامعة المانعة في تعريف

الأمة ، إذكاء لروح التميز والخصوصية القومية ، وإبرازا « للمغايرة » وشحنا للوجدان القومي ، كي يدفع كل أمة من أمم تلك الحضارة إلى الصراع والغلبة في حلبة التنافس - السلمي والمسلح - على المصالح والثروات والأقاليم ، داخل أوروبا أولا ، وخارجها بعد ذلك ، طلبا لمصادر الغنى والثراء ، وبحثا عن الأيدى العاملة الرخيصة ، وتحقيقا للهيمنة الحضارية والاحتواء الاستعمارى .

تلك كانت ملابسات الصياغة والتحديد لمضمون مصطلح « الأمة » فى الحضارة الغربية .

وعلى النقيض يجد أن هذا الطور العربى الإسلامى لم يكن طور انسلاخ عن رباط أشمل ولا استقلالا عن كيان أكبر ، ولا بحثا عن العوامل المميزة والفواصل والحواجز ، وإنما كان على العكس من ذلك ، طور جمع وتأليف للفكر الحى المتوقد الذى جاء به الإسلام مع الموازيث الفكرية والحضارية التى وجدها العرب والمسلمون فى البلاد التى دخلت فى عالم الإسلام .

لذلك لم يكن هم هذه الحضارة - ومن ثم لغتها - البحث عن ما يميز ويحدد ويفصل ، طلبا للاستقلال القومى ، وإنما كان همها هو البحث عن عوامل التأليف لأمة أكبر وجماعة أشمل وحضارة أوسع ، ولذلك وقفت هذه الحضارة - ولغتها - بمضمون ومفهوم الأمة عند مضمون الرباط الجامع للجماعة ، أيا كان هذا الرباط ، وذلك حتى يظل الباب مفتوحا للتأليف والاستيعاب ، وحتى تمتد مساحة تأثير « النواة الإسلامية » فتشمل دائرة حضارتها كل الجماعات التى تدخل دائرة حضارة الإسلام حتى ولو لم يدخل فى دين الإسلام ، ولقد دعم من هذا التوجه : عالمية الرسالة الإسلامية ، وأممية العقيدة فى الدين الإسلامى ، وأيضا كونها الرسالة الخاتمة ، التى جاءت لتستوعب ميراث الماضى - بالإحياء والتجديد - ولتصوغ منه - بمعايير الإسلام - حضارة مستقبلية ، ذات نزوع عالمى ، لاتنكر التمايزات بين الجماعات البشرية ، ولا تحاربها ، ولكنها تهذب شذوذها لتوظف التعددية القومية فى بلورة وإنماء وتطوير حضارة ذات نزوع عالمي ، لهذا كان وقوف هذه الأمة عند الحد الأدنى من الروابط فى مفهوم الأمة ومضمونها ، طلبا للحركة ونزوعا للامتداد ، وتوجها للتأليف ، ورفضا لعصبية الانغلاق وتعصب الاستعلاء .

ويوضح المؤلف أن شرف العرب فى الإسلام ، الذى تمثل فى اصطفائهم كجماعة -أمة - لحمل رسالته إلى العالمين ، يزامل عالمية الدعوة ولايحتكرها ، إنه الاتساق مع المفهوم العربى الإسلامى المتميز لمصطلح الأمة ونطاقها الذى لا تعرف آفاقه الحدود .

ثم شرع المؤلف فى بسط موضوع الدولة ومفهوم الحضارة فيها إذ يقول :

وفى « الدولة » كانت البداية « عربية » - بالمعيار القومى العربى - ثم انداحت دائرة الدولة وبنية تكوينها لتستشرف « العالمية » التى صنعت ثوبها من نسيج سداه « العروبة الحضارية » ولحمته « الإسلام الحضاري » ... صانعة ذلك المزيج الحضارى الجديد والفريد .

يوضح المؤلف أن دستور دولة المدينة عدَّد وحصر القبائل التى آمنت وأسلمت - من المهاجرين والأنصار - ومن لحق بهم وجاهد معهم ، ذكر أنهم أمة الدين « أمة واحدة من دون الناس » بعد ذلك شرع فعدد القطاعات المتهودة من قبائل المدينة من قبائل المدينة العربية ، اى اليهود العرب الأميون - لا العبرانيون - وجعل لهؤلاء العرب المتهودين - مع بطانتهم ومواليهم - كامل حقوق وواجبات المواطنة فى دولة المدينة ، ومقررا أنهم أمة مع المؤمنين ، فالأمة هنا - الجماعة - ومنذ هذا التاريخ المبكر لم تقف عند « أمة الدين » ، وإنما تجاوزتها دون أن تسقطها ، لقد انداحت الدائرة دون أن تهمل المركز أو تتخلى عنه .... فالاستشراف للآفاق الأوسع والأبعد دائم ، لأنها أمة الاستيعاب والإضافة ، وليست أمة الانسلاخ والحدود والتعصب و العدوان على الأغيار .

ويؤكد المؤلف على حرص الإسلام على نبذ كل ما من شأنه بث الفرقة بين الناس ومنها التفاخر بالعرق واللغة والجنس وظهرت بعض آثاره أيام النبى فغضب النبى ﷺ لذلك وأرسى للعروبة مفهوما حضاريا غير ما كان سائدا فى الجاهلية نفهمه من حديثه الشريف فقد حدث مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ ، عَنِ الزُّهْرِيِّ ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، قَالَ : جَاءَ قَيْسُ بْنُ مُطَاطِيَةَ إِلَي حَلْقَةٍ فِيهَا ، سَلْمَانُ وَصُهَيْبٌ الرُّومِيُّ وَبِلَالٌ الْحَبَشِيُّ ، فَقَالَ : هَذَا الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ قَدْ قَامُوا بِنُصْرَةِ هَذَا الرَّجُلِ ، فَمَا بَالُ هَذَا ؟ فَقَامَ إِلَيْهِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ فَأَخَذَ بِتَلَابِيبِهِ ، ثُمَّ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ بِمَقَالَتِهِ ، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ قَائِمًا يَجُرُّ رِدَاءَهُ حَتَّى دَخَلَ الْمَسْجِدَ ، ثُمَّ نُودِيَ أَنَّ الصَّلَاةَ جَامِعَةٌ ، فَقَالَ : « أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ الرَّبَّ رَبٌّ وَاحِدٌ وَالْأَبَ أَبٌ وَاحِدٌ ، وَلَيْسَتِ الْعَرَبِيَّةُ بِأَحَدِكُمْ مِنْ أَبٍ وَلَا أُمٍّ وَإِنَّمَا هِيَ لِسَانٌ ، فَمَنْ تَكَلَّمَ بِالْعَرَبِيَّةِ فَهُوَ عَرَبِيٌّ » .

يقول المؤلف : فمنذ ذلك التاريخ ووفقا لهذا المعيار الحضارى والثقافى للعروبة اتسعت دائرة الأمة والجماعة العربية لتضم - وعلى قدم المساواة - كل الذين تعربوا بالفكر والحضارة والانتماء والولاء ، مع الذين انحدروا من أصلاب عربية صريحة .

مفهوم الأمة فى حضارة الإسلام

يرى المؤلف أن الأمة الإسلامية وهى تحقق امتدادها وتبلور حضارتها وازنت بين الخاص والعام ، فكما انجزت وحدة القبائل دون إلغاء للقبيلة ، وجدناها تقيم بواسطة « التعارف » - الذى هو التفاعل الطوعى - رباطا جامعا بين « القبائل » و « الشعوب » حتى لقد احتضن محيطها الجامع « الجزر القومية » فجمعها جميعا بخيوط الحضارة الإسلامية ، دون أن ينكر عليها التمايز البرىء من العصبية العرقية وضيق الأفق الجنسى ، فعرف مفهوم الأمة فى فكرنا الحضارى ، وفى تجربتنا التاريخية وميراثنا الاجتماعى الدوائر التى تبدأ من « الفرد » إلى « الأسرة » أو « القبيلة » أو « العشيرة » إلى الشعب ، إلى الأمة ، - بالمعنى القومى - إلى الجامعة الإسلامية ، مع السعى الحثيث إلى تعميق الرباط الجامع ، وإلى مد أفق جديد ، بل لقد مدت الدائرة الإسلامية مع الدائرة الإنسانية الخيوط والعلائق والأسباب .

يؤكد المؤلف على رفض الإسلام لمعايير العرقية والقبلية التى كانت السائدة فى تحديد « العروبة » ومفهومها قبل الإسلام .

ويستشهد بما قاله الرسول ﷺ عنها : « دعوها إنها منتنة » وأنه ﷺ مضى يُعلم أصحابه أن حب الإنسان لقومه مطلوب ، لكن العصبية الظالمة هى المرفوضة وعندما سأله الصحابى واثلة بن الأسقع : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمِنَ الْعَصَبِيَّةِ أَنْ يُحِبَّ الرَّجُلُ قَوْمَهُ ؟ قَالَ : « لَا ، وَلَكِنْ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ أَنْ يُعِينَ الرَّجُلُ قَوْمَهُ عَلَى الظُّلْمِ » .

وبعد

فقد أماط المؤلف اللثام عن مفهوم غفل عنه الكثير ألا وهو مفهوم الأمة فى الإسلام حيث بحث عن حكمة المرونة فى مصطلح الأمة وصلته بموقف النهج العربى الإسلامى ومسيرته فى بلورة حضارة الأمة ، بدءا من نواة الدين وأمة الدين والقومية بالمعنى الحضارى ، لا العرقي ، وأخيرا الحضارة ، وأمة الحضارة التى تحتضن القوميات ، والتى لم تقف بالسمات الحضارية عند ما هو دينى ولم تقف بفكر الأمة عند علوم الوحى والشريعة وإنما تجاوزتها - وهى مصاحبة لها - إلى علوم الحضارة وفنونها التى أبدعت فيها إبداعا غنيا وعبقريا وراقيا .

بين المجلة والقارئ

للأستاذ/ أحمد السيد تقي الدين

تحيا مصر

بعد وصول «قطز» لسُدة الحكم فى مصر وظهور خطر التتار ووصول أخبار قطائعهم إلى مصر التى كانت قد انهكتها الصراعات الداخلية أمر قطز بجمع الأموال من الرعية لتجهيز الجيش والاستعداد للحرب، ولكن سلطان العلماء آنذاك الشيخ الجليل: العز بن عبدالسلام - وكان وقتئذ من أقرب المقربين لـ«قطز» - وقف فى وجهه ورفض أن يتم جمع أى أموال من الرعية إلا بعد أن يُخرج الأمراء والأعيان وكبار التجار أموالهم التى اكتنزوها ويصيروا فى مستوى عامة الشعب، عندها يصبح للسلطان سيف الدين قطز الحق فى أن يفرض على الرعية ما يشاء من أجل تجهيز الجيوش للاستعداد لمواجهة خطر التتار، إذ لا يجوز أن يدفع الفقراء وحدهم ضريبة الدفاع عن البلاد.

لقد جنى الأثرياء القناطير المقنطرة من الأموال، وعلى قدر استفادتهم مما أخرجته لهم أرض مصر من الخيرات لابد وأن يكونوا أول المتصدرين لنجدة البلاد من الأخطار المحيطة بها.

هكذا كان منطق العز بن عبدالسلام.

وهكذا يجب أن يكون المنطق اليوم.

يجب أن يقف أثرياء مصر فى مقدمة الصفوف من أجل إعادة إعمار مصر، وعلى قدر ما منحتهم هذه الأرض من خير ينبغى أن يكون عطاؤهم.

ليس من المنطقى أبدًا أن يُطالب عامة الشعب المصرى بالاستمرار فى التحمل وشد الحزام، وهناك أقوام يسكنون القصور الفارهة ويقتنون سيارات تتجاوز قيمتها المليون جنيه.

لقد تحمل المصريون الكثير مما تنوء بحمله الجبال، وهم على استعداد لمواصلة التحمل شريطة أن يشعر الجميع بأن هناك عدالة حقيقية فى توزيع الأحمال، فإذا ما فرضنا جنيهًا واحدًا على الفقير ينبغى أن يقابله ١٠٠٠ على الغنى الثرى، الذى يجب أن يكون مشاركًا حقيقيًا فى إعادة بناء البلاد وتنميتها، على الأقل حتى يحافظ هذا الثرى على مصدر ثرائه وهو تراب هذا البلد المعطاء لأن هذا المصدر إن افتقر ونضب فسيكون هذا الثرى أول الغارمين الخاسرين.

فمن أجل أن تحيا مصر، يجب أن يصطف كل شعب مصر من أجل إعادة بنائها وتنميتها.

من أجل أن تحيا مصر يجب أن يشعر عامة الشعب بأن الأغنياء والأثرياء يحترمون الفقير ويؤدون حقه فى أموالهم إذ لولا جهد وعمل وشقاء عامة هذا الشعب وفقرائه ما كان الأثرياء ليكونوا أثرياء.

عاشت مصر
وعاشت كل يد تبنى من اجل مصر
عاش خير أجناد الارض
وعاشت كل يد تدافع عن أمن مصر

أحمد تقى الدين

الله تعالى... والبديل

تحت هذا العنوان جاءت رسالة الشيخ/ مصطفى الأزهرى - إمام وخطيب مسجد سوق الحمام - السيدة عائشة - القاهرة - قال فيها:

هل صدمك هذا العنوان؟

هل اقشعر بدنك؟ ارتجف قلبك؟ هل انتابتك حالة من الخوف والاستغفار؟

هل خفت أن تزلزل الأرض زلزالها - أو تخرج الأرض أثقالها؟

هل أحسست - كمؤمن - بمرارة وشؤم وسوء كلمة «البديل»؟!

إذن فتعالوا نحاكم أنفسنا - نحن المؤمنين - لما عنونت به مقالى هذا، ولنسأل أنفسنا ونحن مقبلون على أيام الله تعالى فى شهرى شعبان ورمضان حيث نكون إلى الله أقرب، هل وجهنا وجوهنا - حقًا - فى كل أمر من أمور الدين والدنيا إلى فاطر السموات والأرض حنفاء لله غير مشركين به! هل إذا قال لنا رسولنا الكريم ﷺ: (تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينا، تعس عبد الدنيا، تعس عبد القطيفة، تعس عبد الخميصة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش).. أقول: هل فينا مسلم ألهته دنياه وأغرته شهواته حتى نسى ربه ووقع فى غرام الدنيا إلى درجة العبودية؟

هل إذا تعارض حكم الله - سبحانه - مع مصلحتى الشخصية أو مع أمر خالف هواى.. أى الحكمين يرضينى؟ حكم الله العليم الخبير أو حكم نفسى وما أهوى؟

.. قال الأطباء للمدخنين «التدخين ضار جدا بالصحة» أو «التدخين يؤدى للوفاة» فما فتئ المدخنون يدخنون بشراهة، حتى إذا قيل لهم «التدخين حرام شرعا».. فهل سينتهون؟

هل أختار لحياتى أسلوب الرشوة والتزوير والتدليس و المحسوبية والفهلوة إن كان فيه مكسب على حساب الحلال ويقظة الضمير وحضور القلب والخوف من لقاء الله تعالى؟ فمع أى الفريقين سأكون؟

هل سأطلق للسانى العنان يخوض فى أعراض الناس ويحمل من أوزار السب واللعن وفحش القول ما يحمل. أم سأحفظ لسانى عن قولة الرفث والفسوق والعصيان والجدل بالباطل ليبقى اللسان رطبا بذكر الله عز وجل؟ فأى البدائل سأختار؟!

هل سأفتح عينى على عورات الناس أتتبعها حيث كانت؟ أم سأكون ممن استجاب لربه حين ناداه فقال:

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾

(النور ٣٠)

هل إذا بلغنى الله رمضان سيرى - سبحانه - منى ما يرضيه تعالى، أم سيمر الشهر دون أن تغفر ذنوبنا أو تستر عيوبنا.. فلا فقير رحمنا ولا شيء لدينا قدمنا!

إنه سؤال مزلزل يجب أن نحمله فوق رؤوسنا ونمشى به فى الناس، وقد جاءت به سورة الكهف الآية (٥٠): بل يجب علينا جميعا أن نصرخ به فى أنفسنا مواجهة صريحة ابتغاء وجه ربنا الأعلى.. قال تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾

حقا: يا مولانا العظيم..

﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾

نحو العبور الثانى

تحت هذا العنوان جاءت رسالة الشيخ/ سليمان عبدالحميد عبدالله الفقى- وكيل أول منطقة البحيرة الأزهرية سابقًا

عبور الجيش المصرى لقناة السويس فى العاشر من رمضان السادس من أكتوبر له ذكرياته الأصيلة وآثاره العظيمة فى نفوس المسلمين فلقد كنا قبل العبور يخيم علينا اليأس والإحباط، وتنشط إعلام العدو يثبط الهمم ويعلن للعالم أجمع بأن إسرائيل قوة ضاربة وجيشها لا يقهر وأن خط بارليف لا يصل إليه أحد. وركنت إسرائيل إلى قوتها الظاهرية. وفى لحظات العبور تجلت إرادة الله وقدرته وتوكل القواد والجنود على الله ورفعوا شعار الله أكبر تحوطهم عناية الله وأمدهم الله بجند من عنده فقاموا الكبارى فى لحظات لعبور القناة فحملت الدبابات الثقيلة فى حراسة نسور الجو وعبروا القناة فتهاوت حصون الأعداء وتحطم خط بارليف والقرى المحصنة والجدر المقامة.

واليوم نحن فى حاجة إلى وقفة مع النفس لكى نكف عما نحن فيه من تقاتل وتناحر ونستعد للعبور الثانى، العبور نحو التنمية من أجل مستقبل أفضل لأمتنا ولأبنائنا وهذا لا يتحقق إلا بالاصطفاف على قلب رجل واحد، وأن نقمع أطماع أنفسنا فى سبيل حياة أمتنا عملا بقول المولى عز وجل:

﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾

(آل عمران: ١٠٣)

جامعة الأزهر الإسلامية

تحت هذا العنوان جاءت رسالة الأستاذ/ علي محمد علي حليمة ـ مدير عام سابق بوزارة التربية والتعليم كانت هذا الرسالة:

لقد أراد المولي عز وجل أن تكون مصر هي قلعة الإسلام وحاميته، وهاهو الأزهر الشريف يقف شامخا علي أرض الكنانة مدافعا عن الإسلام.

والإسلام هو رسالة الله «سبحانه وتعالي» إلي أهل الأرض منذ أن أرسل الله الرسل والأنبياء لهداية وإرشاد وتعليم الناس وإخراجهم من ظلمات الشرك إلي عبادة الله وحده هو الخالق لهذا الكون والمتصرف فيه والحاكم والمتحكم في كل شئونه.

فلما وصل العقل البشري إلي كمال نضجه وكمال وعيه وحسن بصيرته أرسل الله «سبحانه وتعالي» سيدنا محمد (ﷺ) بخاتم رسالة وختم به الأنبياء والرسل حيث اشتملت رسالة الإسلام علي جميع ما يصلح شئون الناس وتصحح لهم عقائدهم ويهديهم إلي الصراط المستقيم.

وقد أوجب الإسلام علي كل مسلم ومسلمة القيام بهذا الواجب لا فرق في ذلك بين حاكم أو محكوم ولا بين موظف وغير موظف ولا بين شعب وآخر من الشعوب الإسلامية.. وقد كان نصيب مصر من القيام بهذا الواجب كبير وعظيم وقد حباها الله واختصها بالقيام بهذا الدور الإسلامي وعندما أراد الله وقضي بإنشاء الجامع الأزهر الشريف للقيام بهذه الأمانة قام بها ويقوم بها حتي الآن خير قيام.

فرسالة الأزهر رسالة إسلامية عالمية، يرسل الدعاة إلي جميع أنحاء العالم.. ليشرحوا قيم ومبادئ وأخلاق الإسلام وسماحته وليصححوا مفهوم الإسلام وحقيقته للعالم. وكذلك يأتي الوافدون من جميع أنحاء العالم إلي الأزهر الشريف ليتعلموا قيم وأخلاق الإسلام ومبادئه الصحيحة.

لذا أرجو الآتي:

١- تصحيح كلمة «جامعة الأزهر» إلي جامعة الأزهر الإسلامية العالمية.. لأن هذا هو المناسب لرسالة الأزهر الشريف في أداء رسالته العالمية.

٢- لا يلتحق بكلية الدعوة إلا من يجيد إحدي اللغات الأجنبية «تحدثا وكتابة» حتي يكونوا رسل الأزهر إلي الخارج وحماة للدعوة، وخاصة من الوافدين وان تظل أسماؤهم مقيدة في جامعة الأزهر الإسلامية العالمية حتي يكونوا علي اتصال بهم في نشر الإسلام وحماية الدعوة الإسلامية وعاملين على نشرها.

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا ﴾

د/ أحمد محمد عرفة

نبين فى هذا المقال معنى كلمة (شريعة) فى اللغة وقت نزول القرآن، ومعناها فى الاصطلاح عند الفقهاء. ونبين فيه معنى ﴿أَنۡ﴾ فى قوله: ﴿ ۞شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ ﴾ وفى نظائرها فى القرآن الكريم، حيث تكون ﴿أَنۡ﴾ متبوعة بفعل أمر، فى صدر جملة لها تعلق بما سبقها، على مثال الآية موضع الدرس.

قال أحمد بن فارس (ت ٣٩٥هـ): الشين والراء والعين أصل واحد، وهو شيء يُفتح فى امتداد يكون فيه. ومن ذلك الشريعة، وهى مورد الشاربة الماء(١). واشتُق من ذلك الشِّرعة فى الدين، والشريعة. قال الله تعالى:

﴿ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ ﴾

وقال سبحانه:

﴿ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ ﴾

ومن الباب: أشرعتُ الرمح نحوه إشراعا. وربما قالوا فى هذا شرَعتُ. والإبل الشُّروع: التى شرعت [أى وردت الماء] ورَوِيَتْ. ويقال أشرعتَ طريقا، إذا أنفذته وفتحته، وشَرعتَ أيضا. وحيتانٌ شُرَّع: تخفض رءوسها تشرب [!]، وشرعت الإبل، إذا أمكنتها من الشريعة. هذا هو الأصل. ثم حُمل عليه كل شيء يُمدُّ فى رِفْعة وغير رفعة. من ذلك الشَّرَع، وهى الأوتار، واحدتها شرعة، والشراع جمع الجمع.... ومن ذلك شراع السفينة، [و] هو [قماش سميك] ممدود فى علوّ. وشُبّه بذلك عُنقُ البعير فقيل شرع البعير عنقه. وقد مدّ شراعه إذا رفع عُنقه. وقيل فى التفسير فى قوله تعالى:

﴿ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا ﴾

إنها الرافعة رءوسَها. ومنه قولهم: رُمح شُراعيّ، أى طويل، فى قول الهُذلي.....[و] شرعت الإهاب(٢)، إذا شققت ما بين رجليه»(٣).

ورأى أنها تدور حول أصل واحد، هو البدء بأمر تمهيدا للتمادى فيه. فمن ذلك شرع يفعل كذا، وشَرَع الرمحَ نحوه مدّه تجاهه، وشرع البعيرُ عنقه مده ليدنو من شيء يريد أن يتناوله، وشِراعُ السفينة قلعها الذى يُمدّ ليجمع قوة الريح، وشريعة الماء الموضع المجاور له، يكون رطبا وفيه ماء، والشِّرْع الوتر فى الآلات الوترية، لأنه ينتج صوتا فيه امتداد، وشرَع الله كذا: دعا الناس إليه، فأصبح مأتيا بعد أن كانوا لا يفعلونه:

﴿ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا ﴾

داعية إياهم إلى اصطيادها، شبيها فى قربها من مكان الصيد وظهورها للصيادين، بمن

(١) مورد الماء: الموضع الرطب بجوار الماء.
(٣) مقاييس اللغة: (ش ر ع): ٣/٢٦٢ - ٢٦٣.
(٢) المراد بالإهاب: جلد الحيوان بعد سلخه.

يدعوهم إلى الصيد.

قال الطبري (ت ٣١٠هـ): «كلُّ ما شرعت فيه من شيء فهو شريعة، ومن ذلك قيل لشريعة الماء شريعة، لأنه يُشرَع منها إلى الماء، ومنه سميت شرائع الإسلام شرائع، لشروع أهله فيه»(٤) والشريعة التي جعل الله عليها محمدا عليه السلام، سبيل مبتدأة في هداية الناس إلى ربهم، ولم تسمَّ شريعة الإسلام شريعة لشروع أهل الإسلام فيها، كما يرى الطبري، وإنما سميت شريعة لأن الله دعا الناس إليها، فأصبح المأمور به مأتيا منهم بعد ترك، وأصبح المنهي عنه متروكا منهم بعد فعل.

وما أحسن قول المبرد (ت ٢٨٥هـ): «الشريعة ابتداء الطريقة، والطريقة المنهاج المستمر»(٥).

وفي التعريفات للجرجاني (ت ٨١٦ هـ): «الشريعة هي الطريق في الدين»(٦) وينقصه تقييد الطريق بكونه (مبتدأ).

هذا عن معنى كلمة (شريعة) في اللغة، وأما عن معناها في اصطلاح الفقهاء، وهو المعنى السائد لها الآن، فيمكن أن يتضح لنا من قول الشيخ محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م): المشهور في عُرف فقهائنا وعامتنا أن الدين والشرع أو الشريعة بمعنى واحد، ولكن مع ذلك ترى استعمال: علم الشرع، وعلم الشريعة وكتب الشريعة ألصق بالفقه وكتبه منها بعلم العقائد والأخلاق وعلمائها وكتبها، وتجدُ الفقهاء يقولون: يجوز هذا ديانة لا قضاء، ونحو ذلك. وتحرير القول أن الشريعة اسم للأحكام العملية(٧).

واستعمال كلمة شريعة في الكلام عن الأمور الفقهية وحدها، تطور دلالي بتضييق المعنى، لأن كلمة (شريعة) في القرآن تشمل العقيدة والمعاملات والأخلاق، لأنها اسم لكل ما دعانا الله إليه من فعل وترك. وقد نزل قوله:

﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾

وقوله:

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ ﴾

في مكة لأن سورة الشورى مكية بإجماع من أكثر المفسرين على حد تعبير ابن عطية(٨)، والقضية الأساسية في السور المكية هي دعوة الناس إلى عبادة الله وحده، فلا يجوز قصر الشريعة على (المعاملات) وحدها.

وبهذا يكون قد بقي لنا من مقاصد هذا المقال، أن نبين معنى ﴿ أَنْ ﴾ في قوله تعالى:

﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾

والذي يتردد في كتب التفسير أن قوله:

﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾

تفسير لقوله:

﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ ﴾

انظر: الأخفش (٢١٥هـ): معاني القرآن: ٢/ ٥١٠، والطبري: جامع البيان: ٢١/ ٥١٢، والخازن (ت ٧٤١هـ): لباب التأويل: ٤/ ٩٥، والخطيب (١٣٩٠هـ): التفسير القرآني للقرآن: ١٣/ ٢٧، ووفقا لهذا الرأي يكون المعنى: شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا.... إلخ. أي أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه، وتكون ﴿ أَنْ ﴾ هي أن التفسيرية. وفي هذا الرأي نظر.

(٤) جامع البيان: ١٠/ ٣٠٤.
(٥) الرازي: التفسير الكبير: ٢٢/ ٢٧٣.
(٦) الجرجاني: التعريفات: ١٢٧.
(٧) تفسير المنار: ٦/ ٣٤٣.
(٨) انظر: المحرر الوجيز: ٥/ ٢٥.

ولنقرأ الآية قبل أن نناقش هذا الرأي، تقول الآية:

﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾

والذي شرعه الله لنا من الدين مذكورٌ في قوله:

﴿ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ﴾

وجاء مفعولا للفعل ﴿ شَرَعَ ﴾، ولا يصح أن نقول إن ما شرعه الله من الدين هو:

﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾

لأن قوله:

﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾

كلام عن ﴿ الدِّينَ ﴾ بكل ما شرع الله فيه.

وبناء عليه لا يمكن أن تكون ﴿ أَنْ ﴾ في الآية هي أن التفسيرية، ولا تكون جملة

﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾

تفسيرا لقوله ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ ﴾

وما حددت به مفعول ﴿ شَرَعَ ﴾ في الآية قريب مما رواه الطبري عن قتادة من أنه فسرها بالحلال والحرام(٩)، ومطابق لقول ابن سعدي (ت ١٩٥٧م): «هو ما تضمنه هذا الكتاب الكريم، ودعا إليه من التوحيد والأعمال [وعلى رأسها العبادات] والأخلاق والآداب»(١٠).

ولكي أحدد معنى ﴿ أَنْ ﴾ في الآية، تتبعت القرآن من أوله إلى آخره، باحثا عن نظائر لهذه الجملة، وهي تتكون من ﴿ أَنْ ﴾، بعدها فعل أمر، وقبل هذه الجملة كلام لها به تعلق، فوجدت الآيات التالية، ولئلا أعيدها مع تحديد معنى ﴿ أَنْ ﴾، سوف أذكر معنى ﴿ أَنْ ﴾ بعد كل آية منها:

١- قوله:

﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾

والمعنى: (ويقول لهم) أنذروا..

٢- قوله:

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾

والمعنى: والمعنى: (وقال لهم) اعبدوا الله...

٣- قوله:

﴿ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾

والمعنى: (فقال لهم) اعبدوا الله...

٤- قوله:

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

والمعنى: (فقال له): ائت القوم الظالمين.

٥- قوله:

﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾

والمعنى: (فقولا له) أرسل معنا بني إسرائيل.

(٩) جامع البيان: ٢١/ ٥١٣.
(١٠) تفسير ابن سعدي: ٦/ ٧٥٤.

٦- قوله : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾

والمعنى : (فقال لهم) اعبدوا الله.

٧- قوله : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾

والمعنى : (وقلنا له) اشكر لله.

٨- قوله : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾

والمعنى : (وقلنا له) اشكر لي ولوالديك.

٩- قوله: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

والمعنى : (وقلنا له) اعمل دروعا سابغات.

١٠- قوله : ﴿ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴾

والمعنى : (فقالوا) امشوا واصبروا على آلهتكم.

١١- قوله : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (١٧) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾

والمعنى : (فقال لفرعون وملئه) أدوا إليّ عباد الله.

١٢- قوله : ﴿ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (٢١) أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴾

والمعنى : (فقالوا لبعضهم) اغدوا على حرثكم.

١٣- قوله : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾

والمعنى : (فقال) اعبدوا الله واتقوه.

فـ(أنْ) في هذه المواضع جميعا، ليست أداة لتفسير ما سبق، وإنما هي رابط بين الجملتين، ومعناها (فقال) أو نحوها، حسب سياق الكلام، ولذلك أقترح أن نسميها (أن القولية). وبناء عليه لا تكون (أنْ) في:

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾

تفسيرية، وإنما تكون قولية، ومعناها (وقلنا لكم) أقيموا الدين.

وخلاصة القول أن ﴿ شَرَعَ ﴾ تعني بدأ أمرا ليتمادى فيه، وليس بدأه ليكف عنه، أو بدأه بصرف النظر عما يكون بعد البدء. وأنّ (شرع الله لنا كذا)، تعني: دعانا أن نفعله، وشرع لنا ألا نفعل كذا، تعني: دعانا ألا نفعله. وأن قصْر دلالة كلمة (شريعة) على أمور المعاملات، أو العبادات والمعاملات تطور دلالي ناشئ بعد عصر النزول، لأنها في عصر النزول كانت تدل على كل ما دعانا الله إليه عملا أو تركا، من أمور العقائد أو العبادات أو المعاملات أو الأخلاق.

وأنّ ﴿ أَنْ ﴾ في قوله:

﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾

هي أنْ القولية وليست تفسيرية، وهي في الآية موضع الدرس بمعنى (وقلنا لكم).

تجليات الوفاء في حياة الرسول ﷺ

أ.د. السيد محمد الديب

الوفاء خُلق إسلامي فريد ذكره القرآن الكريم ، وطبّقه الرسول ﷺ في أفعاله الخالدة، وتجسّد في سلوكيات الكثيرين من أصحابه، الذين رأوا أن الإسلام نقلة حضارية في تاريخ البشر، يستلزم أن تنعكس سلوكياته على الناس جميعاً ؛ لأن الحياة أخذ وعطاء، فالمسلم قليل بنفسه كثير بإخوانه في الأفراح والأتراح، وسائر تصاريف الحياة.

١- تعدد معاني الوفاء

إن الوفاء من الأخلاق الإسلامية التي ينبغي الحرص عليها والتمسك بها في كل زمان ومكان؛ لأن متغيرات الحياة وخصائص البشر تلزم أن يتعامل الإنسان مع غيره من الناس ، وهذا ما يتجلى في عبادات وأخلاق إسلامية كثيرة؛ مثل الزكاة والصدقة والتعاون على الخير والقرض الحسن، وأن التفعيل لهذه الأخلاق بصورة إيجابية يعطي لوناً وطعماً مختلفاً للحياة.

وخُلق الوفاء يدل على الإكمال والإتمام ، ويعني ملازمة طريق المواساة ، وعدم التخلي عن الآخر، وهو ضد الغدر ، وأنه من الأخلاق الشريفة العالية التي تسمو بها النفوس إلى درجة عالية من الشفافية والصدق والإخلاص.

وللوفاء أحوال كثيرة مثل الوفاء بالعهد، وبالوعد ، وبالنذر ، ويكون - أي الوفاء - من إنسان إلى آخر: قدم الثاني للأول معروفاً وبِرّاً فيكون الرد صلة ومودة ، وإقراراً بالواجب، وفاءً وإحساناً .

والوفاء الذي نعنيه هو الحفاظ على حق الآخر، وصيانة اعتباره ومراعاة غيبته ، وعدم خيانته ، كما يتجلى الوفاء أحياناً في العطف على من كان صديقاً وفياً ، ثم تعثرت قدماه في دروب الحياة ، أو لحقه هم أو عجز أو دين أو مرض، أو اغتراب يجعله بعيداً عن بعض لوازم الحياة ، فإذا وصل الحال إلى ذلك وجب أن يكون التصرف الإيماني والسلوك الإيجابي من الراغب في الوفاء بهذه الحقوق نهوضاً بما يجب فعله في ظل هذه المتغيرات، التي لحقت بذلك الإنسان ، ويكون هذا التجاوب الحميم هو الوفاء الإيجابي المتميز الذي ينبغي فعله ؛ لمقاومة أحداث الزمن وعواصف الحياة فالوفاء الذي نعنيه وسبق التنبيه له هو الخلق الذي ربما يتوارى عن سلوكيات كثير من الناس، ولا يتحركون إلا بقوة دفع قد تنبع منهم أو من غيرهم .

وكان الشيخ محمد الغزالي -رحمه الله- يذكر وفاء الأخ لأخيه، ولعله قد توسع في إطلاق الأخوة فلم يقصرها على الأخ من النسب، وإنما امتد بها إلى الأخوة في الإنسانية، وذكر أن وفاء الأخ لأخيه هو الثبات على حبه حتى الموت ، وبعد الموت مع أولاده وأصدقائه .

ونوّه القرآن الكريم بفضيلة الوفاء وجعلها صفة لأنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام فقال في شأن إبراهيم:

﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾

«النجم :٣٧»

وقد جعل القرآن الكريم الوفاء صفة المؤمنين الأبرار قال تعالى:

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴾

«الرعد: ١٩-٢٠»

وتلك هى بعض دلالات الوفاء بين الناس فضلاً عن الوفاءات الأخرى التى سبق بيانها .

٢- نماذج من وفاء الرسول ﷺ مع الآخرين :

لقد تجلى الوفاء فى شخصية الرسول ﷺ فى حياته ، خاصة فى زمن القوة والقدرة على الإعطاء والمنح للآخرين، بما يتيح حفظ الود وصيانة المعروف ، ورد الجميل على أفضل ما يكون الرد .

وقد ولد ﷺ يتيما إذ مات أبوه وكان جنيناً عمره شهران فى بطن أمه ، ثم توفيت والدته بعد أن بلغ ست سنوات ، فتعاظم اليتم فى كيانه ، وتحركت به مسيرة الحياة إلى أن بلغ خمسة وعشرين عاماً فتزوج خديجة بنت خويلد وكان قليل المال، وكان صادقاً وفياً فتاجر فى مال زوجته وحافظ عليه ، وعلى صورتها فى المجتمع ، وصانت له كيانه طوال حياتهما الزوجية ، وكانت أول من آمن به من البشر وواسته بالمال دون طغيان على عزته وكرامته، وأنجبت منه البنين والبنات ، ثم لحقت بالرفيق الأعلى فى العام الذى مات فيه أبو طالب عم الرسول ﷺ وسمى ذلك العام بعام الحزن ، وبقى الرسول على مودتها معترفاً بجميلها ، فيذكرها بالخير ، ويثنى عليها بما هى أهله .

وذكر الرواة موقفاً كان يتحدث فيه عنها بعد وفاتها ، وإذ بالسيدة عائشة رضى الله عنها تغضب لأنوثتها كما تفعل كثير من النساء ، فتقول للرسول ﷺ وهى تقصد السيدة خديجة : «هل كانت إلا عجوزاً أبدلك الله خيراً منها ؟ » فقال: « والله ما أبدلنى الله خيراً من خديجة ، آمنت بى حيث كفر الناس، وصدقتنى إذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس ... ورزقنى الله منها الولد دون غيرها من النساء »(١) .

وقدم الرسول ﷺ أعظم شهادة تقدير ووفاء لمن عاشت معه قبل الإسلام وبعده، وقد كانت تكبره بسنوات عديدة ، لكنه لم يجعل لهذا الفرق أى تأثير فى نفسه ووجدانه .

لقد كان الرسول ﷺ أكثر الأوفياء عطفاً ووفاء على بعض النساء المغيبات تحت الثرى ، أو من فقدت زوجها أو عجزت عن كسب ، فكان سباقاً إلى حفظ الود ومراعاة سابق الجميل بما يعطى القدوة والمثل الطيب لسائر المسلمين .

لقد ولد ﷺ فقيراً وكان فى احتياج إلى مرضعة من خارج ديار قومه ، كما هو الشأن فى أبناء القرى والمدن، حتى يحيا فى رضاعته بالصحراء حسب السلوك الحادث قبل الإسلام، وجاءت إليه حليمة السعدية فى جمع من النساء المرضعات ، وقبلت به رضيعاً مع ابن لها وأخذته إلى ديار قومها فعاش مع أبنائها ، إلى أن استكمل رضاعته فى بادية بنى سعد، وعاد إلى أهله فى مكة ، وسارت سفينة الحياة بشأن حليمة ، وتغير الوضع الاجتماعى بالرسول ، فجاءت إليه بعد زواجه فى مكة ، واستعانت به على هموم الحياة، وكلم السيدة خديجة فى أمرها فمنحتها بعيراً وأربعين شاه؛ تقديراً للعلاقة الحميمة بين الرسول ومرضعته .

ثم وفدت إليه مرضعته حليمة مرة أخرى ﷺ بعد غزوة حُنين وكان الرسول ﷺ بالجعرانة يقسم لحماً فأقبلت إليه فلما دنت منه بسط لها رداءه فجلست عليه ، وقال الحاضرون هذه أُمه التى أرضعته ، وقد وصلها الرسول ﷺ وأعطاها ما يعينها على متطلبات الحياة .

أما وفاء الرسول ﷺ مع حاضنته (أم أيمن) فقد تجلى فى مواقف عديدة بحق هذه المرأة التى ورثها الرسول ﷺ من أبيه ، وبقيت معه إلى أن أعتقها حين تزوج خديجة رضى الله عنها وكانت بركة والتى تكنى بأم أيمن قد تزوجت عبيد الحبشى وأنجبت ابنها الذى كنيت به، وكانت من النساء المجاهدات ، وهاجرت من مكة إلى المدينة سائرة على قدميها وشهدت خيبر مع الرسول ﷺ وكان يقدرها ويحنو عليها ويحبها حبا شديداً ؛ لحضانتها له وعطفها عليه فى طفولته ، ولما مات زوجها أراد الرسول ﷺ أن يزوجها فقال ﷺ «من أراد أن يتزوج امرأة من أهل الجنة فليتزوج أم أيمن» وهذه شهادة لها بالجنة فتزوجها زيد بن حارثه ،وذكر المؤرخون أن النبى ﷺ كان يداعبها ويضاحكها فقالت له يوماً (احملنى) يعنى أنها تطلب منه دابة تركبها: فقال ﷺ : «أحملك على ولد الناقة » .

فقالت : يا رسول الله ، إنه لا يطيقنى ولا أريده» فقال ﷺ « لا أحملك إلا على ولد الناقة» يعنى أنه كان يمازحها ، وكان رسول الله ﷺ يمزح ولا يقول إلا حقاً (٢) ، وقد أفهم الرسول ﷺ أم أيمن سر الممازحة ، وذلك أن الإبل كلها ولد الناقة فالجمل صغيراً أو كبيراً ابن الناقة.

أما الوفاء بين الرسول وأبى بكر الصديق فيتجلى فى مواقف كثيرة منها ما كان بين الرسول وصاحبه عند الهجرة، وفى المبيت بالغار ، وفى السفر إلى المدينة ليلاً ونهاراً، وتوثقت العلاقة بينهما فى حياتهما معاً بالمدينة ، وزواج الرسول ﷺ من عائشة بنت أبى بكر ، وقد تقدم أبو بكر بكثير من الخير والتصديق للرسول ﷺ دون انتظار لعوض أو رد من أى نوع لعطاءات الصديق رضى الله عنه .

ولم يغب كل ذلك عن ذاكرة الرسول فأشاد بالصديق فى مواقف عديدة يعلن فيها ﷺ عن خلق الوفاء ، الذى ينبغى أن يشمل العلاقات بين الناس وقال فى شأن أبى بكر : «ما أحد أعظم عندى يداً من أبى بكر ، واسانى بنفسه وماله وأنكحنى ابنته» (٣) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « ما نفعنى مال قط ما نفعنى مال أبى بكر، فبكى أبو بكر وقال : « ما أنا ومالى إلا لك » (٤) .

كان الوفاء فى حياة الرسول ﷺ خلقاً إسلامياً متجسداً فى علاقاته بأصحابه من الرجال والنساء لكى يقتدى به المسلمون ، وينتقل بالأقوال المرسلة إلى حيز الأفعال الإيجابية المؤثرة فى بناء المجتمع الإسلامى وتذكر يوم أن جاء نصر الله والفتح المبين ودخل الناس فى دين الله أفواجاً ، وتحطمت الأصنام من حول الكعبة ، وانتظر القرشيون فى حيرة عما تسفر عنه الأحداث ، ثم أخذهم العجب ، وهم يستمعون إليه فى كلمته المشهورة التى ما زال صداها يرن فى أذن الماضى والحاضر ، قال: « يا معشر قريش ما ترون أنى فاعل بكم ، قالوا: خيراً أخ كريم وابن أخ كريم. قال: « فإنى أقول لكم ما قال يوسف لإخوته لا تثريب عليكم اليوم اذهبوا فأنتم الطلقاء».

ما أحرى المسلمين أن يحسنوا الاقتداء برسول الله ﷺ وأن يحرصوا على تفعيل خلق الوفاء بينهم بالتراحم والذكر الحسن ، والكلمة الهادفة ، وإسداء المعروف ونشر المحبة ، وعدم الكراهية والعمل بكتاب الله وبسنة رسوله ﷺ والانتقال بالوفاء من نطاق المنظومة الأخلاقية بين الأفراد؛ لتشمل سائر العلاقات بين الجماعات التى تدين بأخلاقيات الإسلام ، إذ يجب عليها - فى سائر الأحوال - أن تلتزم بخلق الوفاء بالوعد وبالعهد وبالنذر، وبكل ما يحقق الهدوء والمحبة والعمل بالقرآن الكريم وسنة رسول الله ﷺ .

والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل .

(١) رواه أحمد والطبرانى .

(٢) رياض الصالحين ص١٥٤ .

(٣) أخرجه أحمد وأبو حاتم وابن ماجة .

(٤) يراجع الطبقات لابن سعد . وكتاب حياة الصحابيات لـ د/ حمزة النشرتى وآخرين ص١٣٠ .

أنبـــاء الأزهـــر

إعداد الأستاذ/ محمود الفشني

كلمة الإمام الأكبر في مؤتمر الحضارات في خدمة الإنسانية

شهدت العاصمة البحرينية «المنامة» انعقاد مؤتمر «الحضارات في خدمة الإنسانية في الفترة من ٥-٧ مايو ٢٠١٤ حيث ألقى فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر كلمة قال فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه وسلم.

صاحب السمو الملكي الأمير/ سلمان بن حمد آل خليفة - ولي العهد حفظه الله

السادة أصحاب السمو والمعالي والفضيلة والسعادة

الحفل الكريم!

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وبعد:

فلعلكم تتفقون معي في أن تناول قضايا كبرى كقضيّة حوار الحضارات في كلمة افتتاحيّة موجزة، هو مُهِمَّة صعبة ومُعقّدة للغاية، لأنّ موضوعات هذه القضايا دائمًا ما تكونُ أعمّ وأوسع من مصاديقها الجزئيّة المُندرجة تحتها، وبحيث لا تنجو أيّة محاولة من هذا القبيل من الوقوع في عيب الإيجاز المُخل الذي لا يكاد يقول شيئًا مفيدًا.. من هنا أستسمِحُ حضراتكم في أن ألقي على مسامعكم كلمتي هذه من خلال رؤية عامّة، وصورة كليّة، لما تختزنه ذاكرتي المُرهقة، عن موضوع حوار الحضارات أو تعارُف الحضارات كما نصّ عليه القرآن الكريم وطبّقته حضارة المسلمين على مدى قرون متطاولة.

إنّ من الحقائق التي أثبتها التاريخُ والواقعُ أنّ الإسلام جاء بحضارة إنسانيّة سامية، نزلت إلى الواقع، وخاضت تجربة تاريخيّة طويلة، أثبتت أنّ الإسلام دينٌ عالميٌّ، يفتح أبوابه على مصاريعها لكلّ عناصر الحقّ والخير والجمال، مهما اختلفت مصادرُها ومهما تناءت مواطنُها، وأنّ حضارته كانت حضارة مفتوحة على العالم، وقد تعاملت مع الأديان والحضارات التي تثاقفت معها بكثير من الاحترام والتفاعُل والتواصُل، وأنّها كما تأثرت بحضارات الآخرين أثّرت فيها، ورفدتها بزادٍ علميٍّ وحضاريٍّ ما كانت لتحصُل عليه لولا حضارةُ المسلمين».

وإذن فحضارةُ المسلمين هي حضارةُ تعارُف أي: حضارةٌ تمدُّ يدها للحضارات الأخرى، تُفيدُها وتستفيدُ منها في علاقة جدليّة تتراوحُ بين التأثير والتأثر، خاصّة «التعارُف» هذه مكّنت حضارة المسلمين من أنْ تطرح نفسها خارج حُدودها الجغرافيّة كحضارة ثريّة مُتعدّدة في ثقافاتها ومُتنوّعة في مصادرها ومرجعيّاتها، ولا عجبَ في ذلك فقد كان الإسلامُ - فيما يقولُ المستشرق برنارد لويس: «أوّل من سعى إلى العالميّة؛ بثقافته المتنوعة والمتعددة، ولا تقارن به الحضارات القديمة للبحر المتوسّط أو أوروبا أو الشرق الأوسط أو الهند والصين؛ لأنّ هذه الحضارات لا تعدو أنْ تكون حضارات محليّة وإقليميّة

إذا ما قُورنت بحضارة الإسلام، وسبب ذلك أنّ المسلمين لم يجدوا حرجًا في أنْ يأخُذوا من غيرهم ما ناسَب عقيدتهم وتُراثهم العلميّ والأدبيّ، وقد كان المسلمون مُنصفين لأصحاب هذه الحضارات إلى أبعد الحُدود، حتى وإنْ خالفوهم الرأي وعارضوهم فيه، وقد بلغ من إنصاف المسلمين أنّهم كانوا يَقبلون الحقّ من غيرهم ويتشكّرونهم عليه، ويتحفّظون على ما يُخالف الحقّ ويعذرونهم فيه، يقول الفيلسوف المسلم ابن رشد مُحدّدًا منهجَ المسلمين في الأخذ والرفض من ثقافة اليونان وغيرهم: «يجبُ علينا أنْ ننظر في الذي قالوه وما أثبتوه في كُتُبهم؛ فما كان منها مُوافقًا للحقّ قَبلناه منهم، وسُررنا به، وشكرْناهم عليه، وما كان منها غير مُوافقٍ للحقّ نبّهنا عليه وحذّرنا منه، وعذرْناهم».

أيّها السادةُ الفُضلاء!

هذا الذي ألمحنا إليه من خصائص الحضارة الإسلاميّة وفضلها على العالم ليس من قَبيل التغنّي بأمجاد طواها الزمنُ وأصبحت في ذمّة التاريخ، بل هو من قبيل التأكيد على أنّنا مُؤهّلون لاستلهام رُوح حضارتنا اليوم، وقادرون على إعادة إنتاج حضارة «التعارُف» مرّة أخرى، بل أرى أنّ هذا الدور الآن هو دورُنا نحن العرب والمسلمين، فقد أصبح العالم كلّه - كما تعلمُون - على سطح بركان عنيف، يُهدّد بالانفجار والهلاك، كما آلت الحضارةُ الغربيّةُ إلى حالة من الأنانيّة المُفرطة لم تر فيها غيرَ نفسها وقوّتها وسيطرتها على العالم، وتمخضت فلسفتُها عن نظريّات هي في حقيقتها نظريّاتٌ سياسيّةٌ، أطلقها أصحابُها لتبرير النّزعة الاستعلائيّة ضد حضارات الشرق، وسواء تحدثنا هنا عن نظريّة «صراع الحضارات» أو نظرية «نهاية التاريخ» وهما أحدثُ ما أخرجته جعبة الغربيّين في هذا المعترك - فإنّنا نتحدّثُ عن نظريّتين استعماريّتين بامتياز؛ إذ هما لا تختلفان عن نظريّة رسالة الرجُل الأبيض ونظرية تفوّق الجنس الآري في القرنين الماضيَيْن، اللهم إلا في التحليل والتعليل لسيادة الغربيين على من عداهم من باقي الأمم والحضارات.

ولا شكّ أنّ التعالي والاستعلاء من جانب الغرب قد أضاعا على العالم فرصًا كبرى للتلاقُح والتثاقف بين حضارة الغرب وحضارات الشرق، والتي هي أعرق من حضارة الغرب، وأكثرُ منها عقلانية وواقعية، وكان بإمكان حضارة الشرق - لو تخلّى الغربُ عن سياسة الاستعلاء - أن تنقذ العالم من حروب القرن الماضي، وما خلّفته من كوارثَ وخراب ودمار، بل ومن الحُروب التي تتربّص به اليوم من جديد.

هذا التعاوُن أو التعارُف بين الحضارات، والذي أضاعه الغربُ، وكان مصدر أسى وندم عند عقلاء الغربيين وحُكمائهم - تنبّه إليه شيوخُ الأزهر في أربعينيات القرن الماضي حيث نادى الشيخ المراغي شيخ الأزهر - في ذالكم الوقت - بالزمالة العالمية بين الأمم كافّة في كلمته أمام المؤتمر العالمي للأديان الذي انعقد في لندن سنة ١٩٣٦م، ثم جاء بعده - بعشر سنين - الشيخ محمد عرفة الذي كتب في مجلة الأزهر في عامها العاشر: ١٩٤٦م مقالًا نادى فيه: «بضرورة التعاون بين الإسلام والغرب»، وقد دفعه لكتابة هذا النداء ما انتهت إليه الحربُ العالمية الثانيةُ آنذاك من اختراع القنبلة الذرّيّة والأسلحة الفتّاكة، وقد حذّر من فناء العالم كله، إذا استعمل المحاربون هذه المُخترعات الفتّاكة، «وإذن فلا مفرّ - فيما يقول الشيخ - من التقريب بين الشّعوب ومن إزالة أسباب الخلاف والبغضاء، ومن أن تصبح الأرضُ كلّها مدينة واحدة، وأن يكون سُكّانها جميعًا كأهل مدينة واحدة».

ويُعوّل الشيخ كثيرًا في دعوته للتعاون مع الغرب على ما في الإسلام من دعوة صريحة للتعاون البشريّ ولنشر السّلام؛ وإن كان يلتمسُ العُذرَ للغربيّين لجهلهم مبادئَ الإسلام التي ربّما خفيت عليهم؛ ممّا حملهم على التنكر للإسلام وعدم الثقة بالمسلمين.

ولم ينسَ الشيخ أنْ يُوجّه اللومَ أيضًا للمسلمين؛ لأنّهم يجهلون الغرب ويُسيئون الظّنّ به عن جهل، ويقرر أنّ سوء الظن المُتبادَل بين الطرفَيْن هو علّةُ العلل في اختلال العلاقة واضطرابها بين الإسلام والغرب.

ثم يقول الشيخ: «يجبُ أنْ يَفهمَ الغربُ الإسلامَ، وأنْ يَفهمَ الإسلامُ مَدنيَّةَ الغربِ، وأنهما إذا تفاهما زالَ ما بينهما من سُوءِ ظنٍّ، وأمكن أن يَعيشا معًا مُتعاونين يُؤدِّي كلٌّ منهما نَصيبَه من خدمةِ الإنسانية... كما يجبُ على العلماءِ المسلمين أنْ يُبيِّنوا مدنيَّةَ الغربِ على حقيقتها ليَحُلَّ التعارُفُ محلَّ التناكُر، ويَحُلَّ السلامُ محلَّ الخِصام». ولعلكم تتَّفقون معي -أيُّها المفكرون والعلماء الأجلاء- في أنَّ مسألةَ علاقتنا بالغرب الآنَ لا تحتاجُ إلى علاجٍ أكثر ممَّا قدَّمه هذا الشيخُ الجليل، منذُ ما يَقرُب من سبعينَ عامًا مضت، وأنَّه لم يَعُدْ هناك من حلٍّ إلَّا التعارُف الذي عبَّر عنه الشيخُ بالتعاون، وأنَّ هذا التعاون يقتضي بذلَ الجُهود من الطرفَيْن، اللذَيْن أصبح كلٌّ منهما يجهل الآخر، ويبادله العداوة والبغضاء.

ولكن دعوني أصارِحكم القولَ بأنَّنا نتطلَّع إلى حوارٍ داخلي يجمع بيننا ويوحِّد أهدافنا ومقاصدنا العليا، قبل حوارنا مع الغربِ الذي لم يَعُدْ يفهم لغةً غير لغة الاتحاد والكيانات المتَّحدة، وها هو الغربُ قد اتَّحد وليس في يدَيْه كتابٌ مقدَّسٌ يتلوه ليلَ نهارَ كالقرآن الكريم الذي يدعونا -نحن العرب والمسلمين- صباحَ مساءَ إلى الوَحدة، ويحذِّرنا من التنازُع والتفرُّق والاختلاف:

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ بل إنَّ الغربَ الذي اتَّحد وزاده اتحادُه قوَّةً وبأسًا، لا يمتلكُ من أسباب الوحدة ودَواعيها مثلَ ما يمتلك العربُ والمسلمون، فالغربُ دُوَلٌ شتَّى في لُغاتهم وأجناسهم، ومذاهبهم، وأديانهم وثقافاتهم، ونحن العربَ والمسلمين لنا لغةٌ واحدة، ودينٌ واحدٌ، ومصحفٌ واحدٌ، ونبيٌّ واحد، ومع ذلك يقع بيننا العنفُ والبغضاءُ، على اختلافات مذهبيَّة، يتَّسع لها دينُنا الحنيف، وتجدُ لها مكانًا في شريعته السمحة الغرَّاء.

أيها السادة الفضلاء!

إنَّني إذ أشكر لمملكة البحرين مبادرتها الحكيمة الواعدة التي تُمليها الظروف والملابسات التي يمرُّ بها عالَمُنا المعاصر، وخاصة العالَمين العربي والإسلامي، لعقد هذا المؤتمر الهام- أقترحُ أن تستمرَّ مملكة البحرين في رعايتها لهذا الحوار وهذا التعارُف بين الحضارات، على مستويَيْن:

مستوًى للحوار والتعارُف بين أتباع المذاهب الإسلاميَّة، نتفق فيه على ما بيننا من قواسمَ مشتركة، وهي كثيرةٌ بحمد الله، ومشجعةٌ على السَّير قُدمًا في طريق الوَحدة الوطنيَّة والإسلاميَّة، كما نتفقُ فيه أيضًا على أن يَعذُرَ بعضُنا بعضًا فيما نختلفُ فيه، وأنْ يحترم أهل كل مذهب خلافيات المذهب الآخر، وألَّا يتَّخذ أيُّ طرف من الأطراف من هذه الخلافيَّات مادةً يبعثُ بها الفتنةَ بين أبناء الوطن الواحد، أو ينشُر بها الكراهية بين أتباع الدِّين الواحد، وأنْ تَقطع الطريقَ -نهائيًا- على الألاعيب السياسيَّة التي تعبثُ بالدِّين وتتَّخذ منه لباسًا خادعًا وزائفًا، لتحقيق مآربَ دنيويَّةٍ وأغراضٍ ليست من الإسلام في شيء.

والأزهرُ الشريفُ على استعدادٍ تامٍّ للإسهام في استكمالِ ما بدأته مملكةُ البحرين من حوارٍ بين عُلماء المذاهب الإسلاميَّة.

أمَّا المستوى الثاني: فهو مستوى التعارُف والحوار بين أبناء الأديان السماويَّة، وأتباع الحضارات المختلفة، وما هذا المؤتمرُ الذي نُشارك فيه الآنَ إلَّا لَبِنةٌ مباركةٌ في إقامة علاقات إنسانية سوية، تُحقِّقُ قِيَم الأخوة والعدل والمساواة والسِّلم الاجتماعيِّ بين أبناء الحضارات المختلفة.

وأخيرًا أرجو ألَّا أكون قد أطلت على حضراتكم، وشكرًا لحسن استماعكم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛

الإمام الأكبر: الأزهر على استعداد لاستقبال طلاب من بروناي للدراسة بالكليات العلمية

استقبل فضيلة الإمام الأكبر أ. د. أحمد الطيب، شيخ الأزهر الشريف، ظهر يوم الثلاثاء ١٣ / ٥ / ٢٠١٤م، السيد/ داتو عبد العزيز حاج يوسف، السكرتير الدائم بوزارة الشئون الدينية، والسيد/ داتو محمد مهدي، سفير سلطنة بروناي بالقاهرة.

وقد أعرب سكرتير الشؤون الدينية عن شكر حكومته العميق للأزهر الشريف، وتقديره للإمام الأكبر على ما يُقدِّمه من رعاية للطلاب الدارسين بالأزهر، وعددهم مائتا طالب، مؤكدًا اعتزاز سلطان بروناي وشعبها بتعليم أبنائهم بالأزهر الشريف، رمز الوسطية والاعتدال الذي تميَّز به عبر تاريخه.

كما أعرب السيد/ عبد العزيز حاج يوسف، عن حاجتهم إلى علماء لتدريس القراءات القرآنية، ودعاة من الأزهر الشريف للدعوة في شهر رمضان المبارك.

وقد أشاد فضيلة الإمام الأكبر بعُمق العلاقات التاريخية بين الأزهر الشريف والمؤسسات الدينية والثقافية في بروناي.

وأكد فضيلته سعادته بطلاب بروناي الدارسين بالأزهر الشريف، واستعداد الأزهر لاستقبال طلاب من بروناي للدراسة بالكليات العلمية، كالطب والصيدلة والهندسة، ورحب فضيلته بطلبات الوفد ووعد بتلبيتها.

الإمام الأكبر يحيل طلب تشكيل لجنة الضوابط والقيم إلى هيئة كبار العلماء

أحال فضيلة الإمام الأكبر أ. د/ أحمد الطيب شيخ الأزهر الطلب الذي تقدم به الأستاذ الدكتور/ محمد مختار جمعة -وزير الأوقاف- بشأن تشكيل لجنة الضوابط والقيم بالأزهر الشريف إلى هيئة كبار العلماء لدراسته.

وفيما يلي نص خطاب وزير الأوقاف:

بسم الله الرحمن الرحيم

أستاذنا الكريم/ فضيلة الإمام الأكبر أ. د/ أحمد الطيب شيخ الأزهر .. حفظه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ وبعد:

فحفاظًا على الفكر الإسلامي الصحيح الذي يحمل لواءه أزهرنا الشريف، بعيدًا عن المزايدات السياسية، والمتاجرة بالدين، وحرصًا على عدم تسرب أفكار متشددة أو متطرفة أو شاذة إلى ساحة الدعوة أو التعليم الأزهري الجامعي أو قبل الجامعي أقترح أن تتكرموا بالنظر في تشكيل لجنة الضوابط والقيم من هيئة كبار العلماء ومجمع البحوث للنظر فيما يصدر من فتاوى مثيرة للجدل، أو للفتن، أو أي توجه نحو الأفكار المتطرفة أو الشاذة التي لا تتفق مع صحيح الفكر الإسلامي، سواء أكانت هذه الفتاوى والأفكار صادرة من غير المتخصصين، أم صادرة عن بعض المتخصصين المنتمين اسمًا أو شكلًا للمؤسسة الأزهرية، مع بعدهم عن الروح الأصيلة لها، وذلك حفاظًا على الثوابت الشرعية والأمن الفكري للمجتمع، ودفعًا لكل ما يمكن أن يثير الفتن والجدل والانقسام بين أبناء المجتمع.

وإذا كانت بعض المؤسسات تطهر نفسها بنفسها، وتمتلك سحب رخصة المخالفين لقواعد وضوابط العمل بها، أو إيقاف المخالف عن مزاولة المهنة إيقافًا مؤقتًا أو مطلقًا، وفق ما ارتكبه من مخالفات، ووفق جسامة المخالفة وإضرارها بالمجتمع أو ببعض أفراده، كما أن بعض المؤسسات تستطيع إحالة المخالفين لضوابط ونظم العمل بها إلى التقاعد أو المعاش أو العمل الإداري، فأولى بالمؤسسة المنوط بها الحفاظ على الأمن الفكري للمجتمع أن تطهر نفسها بنفسها، وأن تضع من الضوابط ما يحول بين ضعاف النفوس

من القلة المنتسبة إليها وبين المتاجرة بالدين، أو العبث بعقول البسطاء والعامة، أو إشاعة روح التشدُّد والتطرف، أو تبني ما يؤدي إلى ذلك، أو إثارة الفتنة والشقاق من خلال تبني أو نشر أفكار شاذة تضر بأمن المجتمع وسلامته، أو نسيجه الاجتماعي أو الوطني، الذي ينبغي أن نسعى جميعًا للحفاظ عليه.

أ. د/ محمد مختار جمعة – وزير الأوقاف

الإمام الأكبر: دعم الأزهر الشريف للطلاب التايلانديين بما يؤهلهم لنشر الإسلام

استقبل فضيلة الإمام الأكبر أ. د. أحمد الطيب، شيخ الأزهر الشريف، يوم الأثنين ١٢ / ٥ / ٢٠١٤ وفداً تايلانديًا من المركز الإداري للمقاطعات الجنوبية الحدودية التي يقطنها أغلبية مسلمة، برئاسة السيد / تشاتورون تشيسايتج، وزير التعليم في مملكة تايلاند.

وقد قدَّم وزير التعليم شكر حكومته العميق للأزهر الشريف وشيخه على ما يُقدِّمه من رعاية لأبناء تايلاند الدارسين بالأزهر، وكذلك تقديمه المنح الدراسية السنوية التي يُقدِّمها الأزهر للطلاب التايلانديين.

وأبدى الوزير رغبته في زيادة المنح الدراسية المقدمة لطلاب تايلاند للدراسة بالأزهر الشريف، وبخاصة الدراسة بالكليات العلمية كالطب والصيدلة والهندسة ....

وطالب الوفد التايلاندي مساعدة الأزهر الشريف في بناء مركز لتعليم اللغة العربية للطلاب المسلمين في تايلاند.

وقد أكد فضيلة الإمام الأكبر دعم الأزهر الشريف للطلاب التايلانديين، بما يعود بالنفع عليهم وعلى مستقبلهم العلمي والمعرفي، وبما يؤهلهم لنشر الإسلام بمفهومه الوسطي وإرساء تعاليمه السمحة، ورفع لواء التسامح والاعتدال بين شعوبهم؛ ليبرزوا عظمة الإسلام وسمو رسالته التي تميَّز بها عبر التاريخ.

وفي نهاية اللقاء وجَّه وزير التعليم التايلاندي الدعوة لفضيلة الإمام الأكبر لزيارة تايلاند، خاصة الإقليم الجنوبي، وقد وعده فضيلة الإمام الأكبر بتلبية الدعوة حين تسمح الظروف بذلك.

الأزهر يستنكر المذابح التي يتعرض لها المواطنون المسلمون في ولاية أسام الهندية

يستنكر الأزهر الشريف بشدة المذابح التي يتعرض لها المواطنون المسلمون في ولاية أسام الهندية، والتي أودت بحياة العشرات، من بينهم أطفال ونساء.

ويعرب عن قلقه البالغ إزاء ما أوردته تقارير صحفية عن هروب المئات من المسلمين الهنود من ديارهم جراء أعمال العنف. والأزهر الشريف إذ يستنكر تلك الأعمال الإجرامية الوحشية في حق مدنيين أبرياء، يطالب السلطات الهندية بضبط مرتكبيها وتقديمهم إلى العدالة، ويدعو منظمة التعاون الإسلامي ومنظمات حقوق الإنسان إلى التصدي لعمليات الإبادة التي تحدث بحق المواطنين المسلمين، وضرورة حث الحكومة على التدخل السريع؛ لإيجاد حل جذري لمشاكل المواطنين المسلمين في البلاد حتى لا تتكرر مثل هذه الأعمال التي تخالف القيم الدينية والأعراف الدولية.

الإمام الأكبر يعزي الشعب التركي الشقيق في مصابه

تلقَّى الإمام الأكبر أ. د: أحمد الطيب، شيخ الأزهر الشريف، بكل أسى وإيمان بقضاء الله وقدره خبر مصرع عمال منجم الفحم في تركيا، ويُعرب عن خالص تعازيه وصادق مواساته للشعب التركي الشقيق، وأسر الضحايا، داعياً الله أن يتغمَّدهم بواسع رحمته ومغفرته، وأن يَمُنَّ على المصابين بسرعة الشفاء والعافية.

أنباء مجمع البحوث الإسلامية

إعداد / أ: عبدالموجود أمين

زيارة وفد المجلس القومي للسكان إلى مجمع البحوث الإسلامية

فى إطار التعاون المثمر بين الأزهر الشريف وجميع مؤسسات الدولة حضر إلى مجمع البحوث الإسلامية وفد المجلس القومي للسكان برئاسة أ. د / هالة يوسف مقرر المجلس القومي للسكان. لتقديم الشكر على ما يقوم به المجمع لنشر وسطية الإسلام ونشر المنهج الأزهرى المستقيم ومحاربة الفكر التكفيرى والأفكار الهدامة التى تضر بمصلحة البلاد والعباد وقد بدأ اللقاء بالتعارف بين الحاضرين من الأزهر والمجلس القومي للسكان بكلمة ترحيب من فضيلة الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية.

قدمت الدكتورة هالة يوسف الشكر للأمين العام على ما يقوم به الأزهر من صد للفكر التكفيرى وتعريف الناس بالفكر الوسطي وقدمت شكرا خاصا للأمين العام على فتوى الأزهر حول قضية الزواج المبكر.

ثم تحدث الأمين العام عن منهج الأزهر الشريف فى الدعوة إلى الله وأنه منهج الإسلام الصحيح وأن مصر حباها الله وحماها بشعبها وجيشها وأزهرها وبكل يد مخلصة تعمل من أجل هذا البلد الطيب، وأضاف فضيلته بأن مجمع البحوث الإسلامية ضخت فيه دماء جديدة تعمل فى منظومة تكاملية بناء على توجيهات السيد صاحب الفضيلة وكيل الأزهر وبرعاية مولانا فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الذى تصدى بكل قوة وحزم لدعاة الفتنة ممن يتخذون من الدين ذريعة لسفك الدماء.

وأضاف فضيلة الأمين العام: لا وصاية على المسلمين فى دينهم وسيقف الأزهر بشيخه الأكبر ورجاله وعلمائه ومؤسساته فى وجه كل من أراد بمصر السوء.

وفى النهاية تقدم وفد المجلس القومي للسكان بالشكر للأزهر الشريف فى شخص الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية متمنين دوام التواصل البناء بين الأزهر والمجلس القومي للسكان.

إدارة جديدة بمجمع البحوث الإسلامية

إدارة لرصد ومتابعة ما يدور حول الشأن الإسلامى محليًا وعالميًا

صرح فضيلة الشيخ / محمد زكي رزق بدارى الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية، أنه بناءً على توجيهات فضيلة الأستاذ الدكتور / عباس شومان وكيل الأزهر، وبرعاية كريمة من صاحب الفضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر تم إنشاء إدارة جديدة بمجمع البحوث الإسلامية تكون مهمتها رصد ومتابعة ما يدور حول الشأن الإسلامى محليًا وعالميًا، وتفنيد الشبهات والرد على المواقع الإلكترونية التى تبث الفكر المتطرف والفتاوى الشاذة، وتصحيح مسار الفكر الإسلامى والإنساني، وكل العاملين بهذه الإدارة على قدر كبير من العلم والفقه.

مسابقة مبعوثي الأزهر الشريف في شهر رمضان لجميع العالم

شكل الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية يوم الاثنين ٢٨ / ٤ / ٢٠١٤م، بناءً على توجيهات فضيلة الأستاذ الدكتور/ عباس شومان وكيل الأزهر، وبرعاية كريمة من صاحب الفضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر لجنة لاختيار أكفأ الوعاظ للقيام بإحياء شهر رمضان المعظم في جميع أنحاء العالم، وضمت اللجنة كل من: أ.د/ محيي الدين عفيفي عميد كلية الدراسات الإسلامية، والدكتور/ عيد محمد يوسف- أمين لجنة الفتوى، والدكتور/ سيد عبدالنبي، الأمين المساعد للثقافة، والدكتور/ حسن إبراهيم يحيي، عضو المكتب الفني، وفضيلة الشيخ/ سيد عبدالمجيد، وكيل لجنة المصحف، وفضيلة الشيخ/ أحمد عبدالعظيم- مدير شئون القرآن الكريم، وفضيلة الشيخ/ عبدالعزيز النجار- مدير عام شئون المناطق، وسوف يعلن عن نتيجة هذه المسابقة قريبًا.

القوافل الدعوية لمجمع البحوث الإسلامية

صرح فضيلة الشيخ/ محمد جمال بدراوى مدير الإدارة العامة للدعوة، بناء على توجيهات فضيلة الشيخ/ محمد زكي رزق بدارى- الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية- تم توجيه أربع قوافل دعوية إلى محافظات: السويس- الإسماعيلية، بور سعيد- مرسى مطروح، كما تم توجيه أكثر من ٣٠ واعظا لأداء خطبة الجمعة بمحافظة السويس، وذلك حرصًا من الأزهر الشريف على نشر الوعي الديني بين أبناء الشعب المصري، وبث روح المواطنة، ونبذ العنف، ومحاربة الفكر التكفيري وتجفيف منابعه، ونشر الفكر الإسلامي الوسطي المستنير.

زيارة وفد وزارة الشئون الدينية بسلطنة بروناى لمجمع البحوث الإسلامية

التقى يوم الثلاثاء الموافق ١٣ / ٥ / ٢٠١٤م فضيلة الشيخ/ محمد زكي الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية وفدًا من سلطنة بروناى برئاسة سعادة/ داتو حاج عبدالعزيز- السكرتير الدائم لوزارة الشئون الدينية.

وتناول الحوار سبل التعاون المشترك بين الأزهر الشريف وسلطنة بروناى، حيث أعرب الوفد عن سعادته بزيارة مصر بصفة عامة والأزهر الشريف بصفة خاصة، مؤكدًا على الدور الريادى الذى يقوم به الأزهر الشريف فى نشر الفكر الإسلامى الوسطى فى شتى بقاع المعمورة، وأن الأزهر الشريف قبلة العلم الشرعى الوسطى المستنير.

من جانبه رحب فضيلة الشيخ/ محمد زكي بالوفد، وأكد على عمق الروابط بين مصر وسلطنة بروناى، ووعد فضيلته بعرض مطالب الوفد على فضيلة الأستاذ الدكتور/ عباس شومان- وكيل الأزهر تمهيدًا لعرضها على فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور/ أحمد الطيب شيخ الأزهر.

فتوى لجنة الفتوى بالأزهر الشريف

فتوى رقم [١٩٣] بتاريخ ٢٤ / ٣ / ٢٠١٤

● ورد إلى لجنة الفتوى السؤال الآتي من المجلس القومي للسكان بالقاهرة بتاريخ ١٨ / ٣ / ٢٠١٤م للاستفسار عن الرأى الشرعى فيما يخص الزواج المبكر وهل هناك تحديد لسن الزواج فى الإسلام؟ وهل تحديد سن الزواج من أولى الأمر مخالف للدين؟ وهل عقود الزواج المدنية وإخطار ولى الأمر جزء من الإشهار أو ركن من أركان الزواج؟ وهل هناك آيات قرآنية أو نصوص نبوية تخص موضوع الزواج المبكر؟

●● الإجابة: الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد

فتفيد اللجنة: أولا: مكانة الزواج فى الإسلام:

للزواج فى الإسلام مكانة مهمة حيث إنه:

١- سنة من سنن الأنبياء والمرسلين قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾

(الرعد: ٣٨)

٢- إنه آية امتنان من الله على عباده قال تعالى:

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(الروم: ٢١)

٣- جعله الله تعالى طريقا إلى الغنى قال تعالى:

﴿ وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

(النور: ٣٢)

٤- وقد مدح الله تعالى أولياءه بسؤالهم الذرية الصالحة فى الدعاء قال تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾

(الفرقان: ٧٤)

ولقد وردت أحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ ترغبنا فى الزواج والدعوة إليه ومنها على سبيل المثال لا الحصر الحديث الصحيح الذى يرويه الحاكم فى المستدرك عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ قال- : «من رزقه الله امرأة صالحة، فقد أعانه على شطر دينه، فليتق الله فى الشطر الثاني».

ثانيا: الزواج قد تعتريه الأحكام الخمسة فى الإسلام:

١- قد يكون واجبا، لمن تتوق إليه نفسه ويخشى الوقوع فى العنت.

٢- قد يكون مندوبا، إذا كان الإنسان مستطيعا للزواج ولا يخشى الوقوع فى الحرام.

٣- قد يكون حراما، إذا تحقق من ظلم الزوجة والإساءة إليها.

٤- قد يكون مكروها، وذلك فى حق من يظن الإساءة والظلم إلى زوجته.

٥- قد يكون مباحا، لمن له رغبة ولا يخاف العنت ويطلبه لمجرد قضاء الوطر.

وإذا كانت هذه الأحكام فى مجملها تشير إلى الرجل، ولكنها أيضا تشير إلى المرأة إذا تقدم لها من يتزوجها فتنطبق عليها الأحكام الخمسة التى مرت وإنما قدم الرجال هنا لأمرين:

الأول: أن الرجل خاطب والمرأة مخطوبة فالخطوة الأولى من الرجل والثانية من المرأة.

الثاني: تغليبا للرجال على النساء فى المخاطبة والتطبيق كما هو غالب خطاب القرآن والسنة.

ثالثا: أما عن واقعة السؤال وعن الزواج المبكر وتحديد سن الزواج من ولى الأمر وهل يخطر بالزواج ولى الأمر أم لا؟ إلى آخر ما ورد بالسؤال.

تفيد اللجنة: أولا لم يرد نص فى الكتاب الكريم أو السنة المطهرة يضع سنا محددا للزواج لا فى الصغر

ولا في الكبر . وكذلك لم يرد نص يطلب تزويج الصغير أو الصغيرة على سبيل الوجوب أو الندب، أو يطلب ترك هذا التزويج على سبيل التحريم أو على سبيل الكراهة، بل كل ما ورد من نصوص في مسألة الصغير أو الصغيرة فهو على سبيل الإباحة . وتركت الشريعة الإسلامية الأمر في ذلك لما تقتضيه مصالح الناس؛ لأن حياة ومصالح أهل الريف والبدو تقتضي أشياء لا تقتضيها مصالح أهل الحضر والمدن، فجاءت الشريعة الإسلامية مرنة في ذلك لتناسب حياة الناس ومصالحهم في كل الأماكن والأزمان .

وما أرسل الله الرسل إلا لضبط الإيقاع السلوكي للبشر من خلال الأوامر للبشر من خلال الأوامر والنواهي، أما المباحات فقد أصبح الإنسان حرا في التنقل بينها ما لم تتعارض مع النصوص فإذا تعارضت مع نص حرمت قال تعالى:

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

(الأعراف: ٣٢).

أما إذا لم تصطدم بنص فلا حرج فيها قال تعالى:

﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾

(آل عمران: ٩٣)

وإذا اعتبرنا أن زواج الصغير أو الصغيرة من المباحات إلا أنه لا بد وأن ينضبط بعدة ضوابط حتى لا يقع الإنسان في الضرر من الزواج في الصغر، أو يقع الإنسان في العنت إذا تأخر زواجه مع حاجته إليه، ومن هذه الضوابط:

١- البلوغ: ويتحقق لدى المرأة بإنزال المني يقظة أو مناما وإنبات العانة والحيض بالنسبة للمرأة والقدرة على الباءة الجسدية والمالية بالنسبة للرجل.

٢- ألا يترتب على زواج الصغير أو الصغيرة ضرر لهما أو لأحدهما سواء كان الضرر جسديًا لعدم النضج الجسمي، أو معنويًا لعدم النضج العقلي فالحديث يقول: «لا ضرر ولا ضرار» والقاعدة الشرعية تقول: «الضرر يزال»

٣- أن يكون الزواج من كفء، وألا تكون هناك عداوة بين الصغيرة ومن يتزوجها وأن يكون الزواج بمهر المثل.

٤- وفوق كل هذا أن يراعى نضج الفتى والفتاة في تحمل تبعات الزواج وما يتعلق به من كافة النواحي الجسدية والعقلية مع مراعاة اختلاف الظروف والبيئات وأثرها في العلاقات الطبيعية بين المرأة والرجل.

وبناء على ذلك نفيد أن التبكير الشديد بالزواج فيه إرهاق للفتى وكذلك فيه إفساد لإيقاع البنت في الحياة الزوجية وفي هذا ضرر كبير على مستقبل الحياة الزوجية بل وهدم مبكر لصحة الطرفين حيث لم يكتمل نموهما العقلي والعاطفي، وكذلك التحديد الذي يؤدي إلى التأخير عن الزواج مع توافر الظروف ونضج الأطراف وكثرة الإغراءات قد يؤدي إلى الانحراف. وكلا الأمرين ممنوع في الإسلام وهذا ما ينقلنا إلى النقطة الأخرى من السؤال وهي تدخل ولي الأمر في ذلك بالتقييد أو الإطلاق.

أولا: من المسلم به شرعا أن البنت أو الولد متى أمكنهما القيام بتبعات الزواج من حيث كونهما بلغا وتاقا وأصبحا مؤهلين جسديا وعقليا وفكريا للقيام بهذا الأمر تزوجا ولو كانا صغيرين.

ثانيا: إذا تدخل ولي الأمر لتقييد السن فلا بد وأن يكون مرتهنا بمجموعة من الضوابط الشرعية منها:

١- الالتزام بالقاعدة الشرعية: وهي أن تصرف ولي الأمر على الرعية منوط بالمصلحة الحقيقية العامة لا المصلحة المتوهمة الخاصة بمعنى: «أن يعم النفع عموم المسلمين».

٢- أن تكون الحالة الملجئة إلى التقييد حقيقية لا مفتعلة، مثلما وقع في عهد الإمام الجليل «العز بن عبد السلام» عندما طلب منه الأمراء زيادة ضرائب العامة فامتنع حتى يخرج الأغنياء ما زاد عندهم عن الفقراء.

٣- ألا يكون هناك طريق آخر أو مخرج يمكن به تحقيق المصلحة من غير تقييد المباح، وألا يكون التقييد ستارا لولي الأمر ليشرع ما يشاء.

٤- استشارة العلماء المخلصين من ذوي الخبرة في التخصص من قبل ولي الأمر في تحديد سن الزواج.

٥- مراعاة المناخ والبيئة الطبيعية التي يعيش فيها من هو مقبل على الزواج حتى لا يخرج الرعية عن أمر الحاكم.

٦- انتشار معاهد تأهيلية متخصصة تؤهل الجنسين للزواج كما كانت تفعل أمهات المؤمنين والصحابيات الكرام مع بناتهن.

٧- أن يحتسب ولي الأمر والقائمون على ذلك الأمر بكل مفرداته لله تعالى، وعلى ذلك يكون تدخل ولي الأمر هنا ليس للتقييد ولا للتحديد وإنما للتأهيل، ويمكن أن يسمى ذلك تقيد تأهيلي لا تحديدي حتى تخرج للمجتمع لبنات سوية تصبح داعمة للمجتمع نحو الإصلاح.

أما بالنسبة عن إخبار ولي الأمر بالزواج وعقوده المدنية وهل هي جزء من الإشهار أو ركن من الزواج تفيد اللجنة: بأن هذا الأمر لا يعد من الإشهار ولا من أركان الزواج بل هو توثيق للزواج فقط من الناحية القانونية، وإثبات له نظرا لكثرة إنكار الحقوق والادعاءات في هذا العصر وكذلك انخرام المروءات عند كثير ممن لا يتقون الله، فجاءت هذه العقود ضبطا لسلوكيات الناس وحفظا للحقوق في أمر الزواج وصيانة للفروج من الادعاءات.

ولكن لا يستهان بهذا الأمر فإذا كان الزواج غير الموثق وقد توافرت فيه كل الشروط والأركان إلا أنه لم يوثق فهو صحيح، ولكن لا ننصح به ولا نقول به لأنه يضيع حقوق الأزواج، وقد تعارفت الناس على التوثيق في هذا العصر، والعرف المحترم جزء من الشرع والقاعدة تقول: «المعروف عرفا كالمشروط شرطا» وهذا ما يجب الوفاء به فالحديث يقول إن رسول الله ﷺ قال: «الصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا حرم حلالا أو أحل حراما والمسلمون على شروطهم إلا شرطا حرم حلالا أو أحل حراما».

أما بالنسبة للسؤال عن النصوص الواردة في الزواج المبكر نقول: نعم هناك نصوص وردت في الزواج المبكر من السنة الفعلية لرسول الله ﷺ من زواجه من السيدة عائشة رضي الله عنها وهي بنت تسع سنين، وتزويج النبي ﷺ ابنته فاطمة رضي الله عنها وهي بنت عشر سنين.

وتلك نصوص قد لا يقاس عليها الآن وما تقدم في الزواج المبكر أولى في الأخذ به نظرا لاختلاف البيئات والأعراف الآن عن زمن الرسول- ﷺ - طالما أن الأمر من قبيل المباحات هذا والله اعلم.

أعضاء اللجنة

الشيخ / احمد حجاج- الشيخ/ سليمان الصياد - الشيخ/ د / حسني جاد الرب - الشيخ/ عبد الحليم حجازي - أمين اللجنة د/ عيد محمد يوسف.

أنباء العالم الإسلامي



للأستاذ / أحمد رضوان

أفريقيا الوسطى: صور الأقمار الصناعية تظهر الدمار الذي لحق بالأحياء المسلمة

أظهرت صور الأقمار الصناعية أحياء المسلمين التي تم تدميرها في (إفريقيا الوسطى)؛ حيث يتعرض المسلمون منذ عدة أشهر لعمليات قتل وذبح وحرق من قبل الميليشيات المسيحية؛ مما دفعهم إلى ترك قراهم. وخلال هذه الهجرة القسرية تم نهب وتدمير المنازل والمساجد والمحلات، وقد عرضت صور الأقمار الصناعية صورة مظلمة لمدى الدمار التي تعرّضت له تلك الأحياء منذ يناير الماضي.

ومن جانبها فقد حددت منظمة (هيومن رايتس واتش) بقايا أكثر من ٤٠٠٠ منزل ومحل ومسجد تم تدميرها خلال العديد من الهجمات المنظمة من قبل الميليشيات المسيحية، وقالت المنظمة: إن معظم الأبنية المدمرة في أحياء إسلامية. وبالرغم من مساعدة قوات حفظ السلام والقوات التشادية لقرابة ١٢٠ ألف مسلم على النزوح خلال الأربعة أشهر الماضية، إلا أن هذه القوات غير قادرة على حماية الأحياء الإسلامية من الهجمات والنهب، وتدمير آلاف المنازل والشركات والمساجد.

ميانمار: البوذيون يطالبون بجيش لمواجهة الروهنجيا

طالب البوذيون في (ميانمار) خلال مؤتمر يجمع ممثلي ولاية أراكان- طالبوا الحكومة بإنشاء جيش لمواجهة مسلمي الروهنجيا في ولاية (أراكان) بهدف حماية السكان البوذيين من الجالية الإسلامية المضطهدة، وفي ظل هذا الاضطهاد للمسلمين نجد صمتًا دوليًا ومحليًا، ولا يوجد إلا بعض الإدانات على استحياء من جانب بعض المنظمات غير الحكومية.

يذكر أن الجيش والشرطة كانوا موجودين في أماكن النزاع من قبلُ، وهم متواطئون في عمليات التطهير العرقي ضد المسلمين، حضر هذا المؤتمر مدير مكتب الرئيس.

أوكرانيا: ابتزاز مسلمي القرم للحصول على الجنسية الروسية

صرح زعيم تتار القرم (مصطفى جميلوف) لراديو (صدى موسكو) بأن السلطات الروسية تحاول شق الصف الوطني بين (تتار القرم). وذكر (جميلوف) أن العديد من تتار القرم يتعرضون للابتزاز والتهديد بالطرد من عملهم في حالة عدم اعترافهم بالسلطات الحالية، وأن العديد من تتار القرم يترددون في طلب الحصول على الجنسية الروسية. وصرح أيضًا أنه بنص القانون الأوكراني في حالة عدم وجود نص كتابي بأن المواطن لا يريد الجنسية الأوكرانية ويريد الحصول على الجنسية الروسية بينة الأوكرانية، ففي هذه الحالة وبعد انتهاء الأزمة يمكنه العودة مرة أخرى للجنسية الأوكرانية وترك الروسية. وصرح أيضًا بأنه يجب على الجميع التكاتف وعدم الخضوع لمثل هذا الابتزاز، ويوجد القليل ممن تركوا جنسيتهم بسبب مصالح شخصية، وقد أرسلت (روسيا) العديد من المبعوثين الإسلاميين من جميع أنحاء روسيا مثل تتارستان وبشكيريا والشيشان لحثهم على تغيير جنسيتهم إلى الروسية ولكن بدون جدوى.

سريلانكا: البرلمانيون المسلمون يطالبون الرئاسة بوقف اعتداءات البوذيين

اجتمع البرلمانيون المسلمون في (سريلانكا) مؤخرًا لتوحيد مطالبتهم للرئيس (ماهيندا راجاباكسا) بالتدخل الفوري والتصدي للجماعات البوذية المتطرفة التي لا تزال تمارس الاعتداءات والمضايقات ضد المسلمين وممتلكاتهم. وقد تقدم ١٨ عضوًا مسلمًا للرئاسة بخطاب يطالب بالانتباه للتهديدات التي تقوم بها عدة منظمات بوذية ضد المسلمين، التي تطال مساجدهم ومحلاتهم ومنازلهم، وخاصة ممن تمت إعادة توطينهم بعد الصراع مع (نمور التاميل). وردًا على اتهام المجتمع الإسلامي بالحصول على أموال من الخارج، أكد البرلمانيون أنه نتيجة للإهمال الحكومي المحلي وفاقة المسلمين، يعيش المسلمون في (سريلانكا) على تبرعات المحسنين من إخوانهم المسلمين حول العالم.

وجدير بالذكر أن الجماعات البوذية زعمت أن المسلمين يعملون على السيطرة على الثروات وتغيير ديموغرافية البلاد الدينية، وأنهم يتعمدون زيادة النسل للوصول إلى ذلك.

الولايات المتحدة: القضاء يدعم حرية ممارسة الشعائر الإسلامية بتكساس

أصدر القاضي (كينيث هويت) حكمًا يلزم حكومة ولاية (تكساس) الأمريكية بتمكين المسلمين من نزلاء الإصلاحيات بممارسة شعائرهم الدينية بحرية، وتوفيق أوضاعهم، وذلك في القضية التي بدأت عام ١٩٦٩م ثم صدر حكم بها عام ١٩٧٧م، ثم تجدد بحثها عام ٢٠١٢م. وأكد القاضي أن القانون التوجيهي الإداري ينتهك حقوق المسلمين بحرمانهم من التجمع للصلاة وغيرها من الاجتماعات الدينية، مؤكدًا محاباة المسئولين للنصارى بتوفير المرشدين الدينيين، ومنحهم مزيدًا من الوقت للممارسات الدينية، في حين يفتقر المسلمون للوقت، إضافة إلى قلة المرشدين الدينيين الذين يساعدونهم في متطلباتهم الدينية.

الفلبين: مسلمو ميندناو ينظمون فعاليات سلمية لتطبيق بانجسامورو

في جنوب (الفلبين) تم تنظيم العديد من الفعاليات السلمية المختلفة في مناطق كثيرة من جزيرة (ميندناو)- ثاني أكبر جزر (الفلبين)، والتي يشكل المسلمون الغالبية العظمى من سكانها- وذلك مطالبة بتقنين مشروع قانون (بانجسامورو) على الفور.

قامت مؤسسة (تحالف ميندناو السلمي) بتنظيم هذه الفعاليات والمسيرات المؤيدة للقانون بمشاركة عدد كبير من منظمات المجتمع المدني.

وطالب رئيس المؤسسة (عبدالمنان جاياق) اللجان العليا للبرلمان الفلبيني بسرعة تفعيل هذا القانون، مؤكدًا رغبته في عدم إخفاق المباحثات.

بمقتضى هذا القانون تكون جزيرة (الميندناو) ذات الحكم الذاتي مستقلة سياسيًا تابعةً للمسلمين، وأطلق عليها اسم (بانجسامورو) لتضم مناطق أكثر من ذي قبلُ.

بريطانيا: انخفاض حاد لدعم الحكومة للمدارس الإسلامية

أكدت بعض الإحصائيات التي أعلنتها شبكة «ميرور» البريطانية أن الحكومة بـ«المملكة المتحدة» يوجد بها ٠,١٪ من المدارس الإسلامية، مقارنة بالمدارس النصرانية الميثودية، كما أن ٣٣٪ من المدارس الحكومية مدارس نصرانية. وأكدت الشبكة أن المدارس البريطانية تعكس انتمائها للتعليم المتأثر بالنصرانية.

وأشارت الأرقام إلى أنه يوجد ١٢ مدرسة إسلامية حكومية فقط، بنسبة ٠,٠٦٪، وهذا علاوة على التحقيق مع بعض المدارس في «برمنجهام» لزيادة محتويات خارج المنهج، واستضافة دعاة أصوليين، وتبني الفصل بين الجنسين.

الصين: مسلمو الإيجور يعيشون كالغرباء في بلادهم

حذَّر العديد من الحقوقيين من النتائج السلبية الخطيرة للقمع الصيني على الثقافة واللغة الإيجورية، فضلاً عن الأنشطة الدينية الإسلامية المحظورة؛ مما قد يؤدي لمزيد من التوتر بين طوائف المنطقة الغنية بالمعادن.

ويؤكد مسلمو الإيجور أنهم يعيشون كالغرباء والأقليات في منطقة كانوا يشكلون غالبيتها، وبالرغم من استقلال إقليم «تشانغ يانغ» ذاتيًا عام ١٩٩٥، فإنه ما يزال يتعرض لقمع أمني متواصل على يد القوات الصينية للبطش بكل ما هو إسلامي، وهذا إضافة إلى تمييز مواطني عرقية «الهان» في المستحقات الاجتماعية والتعليمية وفُرص العمل، فضلاً عن تهجيرهم لمزاحمة المسلمين في أراضيهم؛ مما جعل المسلمين أقلية.

الهند: عشرات المصابين في اعتداءات الهندوس على المسلمين

أدت المصادمات التي وقعت في أعقاب اعتداء الهندوس على مجموعة من المسلمين إلى اندلاع حالة من العنف الطائفي الذي أوقع عشرات المصابين، وذلك خلال محاولة بناء سور حول بئر خارج أحد المساجد في مدينة «ميروت» الواقعة في ولاية «أوتار براديش».

وعقب وقوع الاشتباكات الأولى امتدت الاعتداءات للمناطق المجاورة، وشملت قيام الهندوس بحرق بعض الدراجات النارية للمسلمين، ورد المسلمون على الاعتداءات، وحدث إطلاق نار أصاب عددًا من الضحايا من بينهم حالات حرجة.

بروناي: اعتراضات أمريكية على تطبيق الشريعة الإسلامية والحدود

أعرب عدد من السياسيين الأمريكيين عن اعتراضهم على تطبيق سلطنة «بروناي» للشريعة الإسلامية والحدود، وفرض عقوبات على الأعمال المحرمة وفقًا للأحكام الشرعية.

فقد طالب عمدة «بيفرلي هيلز»، وعدد من ممثلي «هوليود» الحكومة في «بروناي» بالتراجع عن التطبيق الذي بدأ في الأول من مايو الماضي.

وقد تردد صدى الاعتراضات في المطالبة بمقاطعة الأعمال التجارية التي من بينها مجموعة من الفنادق الشهيرة، ومطالبة الحكومة الأمريكية باتخاذ خطوات لوقف تطبيق الحدود والعقوبات الشرعية.

mechanisms which achieve the purposes of this succession, on the condition that this creativeness does not contradict what is firmly established in the Qur'an or the Hadiths.

* * *

As the Muslims unanimously agree on describing the human being with knowledge or the knower, although it is one of Allah's Attributes, although nothing is like Allah, either with regard to Self or Attributes. This is because they realize the difference of contents and concepts with regard to the attributes when Allah is described and when the human being is described. Allah's Knowledge is comprehensive and the reason for everything which exists, while the human knowledge is partial, relative, and caused by the existing matters.

As the Muslim did that without embarrassment, we see our scholars differentiate between the divine creativeness and the human creativeness. When Allah is concerned with creativeness Who is "the Originator of Heaven and earth"5 and the human creativeness. They said: "If creativeness is used with Allah, it means creating something without a machine, material, time, and place. No one can do this but Allah.6 The human creativeness has its mechanisms and materials inside time and place.

In this way, the Islamic approach in this regard is distinguished with bravery and exactitude, as it is not limited to terminology, but it determined differences in the contents of terms and concepts. He maintained the highest levels of glory and innovation in the Divine Attributes at the same time when the gates of innovation and creativeness are opened to the human being in a way that does not contradict to the rulings stated by Qur'an and the Sunnah.

[5] Al-Baqarah: 117.
[6] Al-Mufradat fi Gharib Al-Qur'an, the word Bada`a.

Ibn `Uqail said to reveal the true meaning of the Shafi`i jurisprudent: "No politics in things that contradict with Shar`a:

"Politics is the deeds which are more likely to rectify the people's affairs and to shun corruption and evil, even if this is not in the Book of Allah or said by the Messenger of Allah. If you mean by 'there is no politics in matters that contradict with Shar`' what does not contradict with Shar`a, then what you say in true and correct. However, if you mean what is stated in the Shar'a only, then this is wrong and contrary to the Companions' approach, as the Rightly-Guided Caliphs said opinions which are based on the benefit, even if this was not stated in the Shar'a.

Ibn Al-Qayyim [691 A.H.-751 A.H. / 1292 A.D.-1530 A.D. commented on the importance of this issue and the gravity of the effects which depend on controversy in this matters. He said:

"This is an issue which is liable to misunderstanding which was neglected by some people, the matter which led to the loss of rights and encouraged the dissolute people to more corruption. They said that Shari`ah is restricted and can not achieve the Slaves' benefits and interests and blocked correct means of distinguishing rightful from the wrongful. They neglected them although they know that they are truthful proofs and they think that they contradict to the rules of Shari`ah. This led to negligence with regard to the knowledge of the reality of Shari`ah. Allah sent His Messengers and Books to rule with justice, according to which the heavens and the earth were created. Allah did not restrict the ways and proofs of justice in one type and abrogated other proofs which are stronger. However, He clarified through the legislated ways that the purpose is the establishment of the Truth and justice and ruling the people with justice. Any way which includes Truth and knowledge of justice should be implemented. Ways are methods which are intended in themselves, but the purpose behind them is what is intended. You will not

find a way which proves the truth except that it is legislated and a way to signify it. Is Shari`ah thought to be different from that?

We do not say that the just politics contradicts the Shari`ah, but it is a part and a chapter on it. Calling it politics is a matter of terminology. If it just, it is legislated. There are two kinds of politics: unjust politics which is prohibited by Shari`ah and just politics which brings about the right from the dissolute. It is linked to Shari`ah with regard to its knowing or ignoring it. It is also one of the most important and useful fundamentals.4

The Islamic creativeness in policies is not only required, but it achieves justice, it becomes part of Shari`ah, even if it was not sent by the Revelation or said by the Messenger (may the blessings and peace of Allah be upon him).

* * *

This is the Islamic attitude towards innovation and Bid`ah.

Some of the humans' deeds are regarded imitation, but other things are regarded creativeness and innovation, which means that they are not imitated. If this creativeness contradicts to the Commands of Allah or those of His Messenger (may Allah's peace and blessings be upon him). This is considered Islamically dispraised Bid`ah.

However, if creativeness is part of the matters which are made commendable by Allah and called for by the Messenger of Allah, then it is praised. If creativeness does not contradict with Allah's Command and that of His Messenger, then it is praised, even if it was not sent down by the Revelation and was not stated in a Hadith.

If the construction of the earth is the major purpose behind making the human being Allah's successor on earth, then the human creativeness in all of the fields of human construction is included among the ways and

[4] Ibn Al-Qayyim, I`lam Al-Mawq`eeyn, part 4, pp. 372, 373, 375, Beirut edition, 1973; Wise Ways in the Legal Politics, pp. 17-19, and 5, verified by Dr. Jamil Ghazy, Cairo edition, 1977.

He said regarding the contrary meaning: "Whoever innovates something which involves evil will be considered sinner for it and will bear the sin committed by whoever follows it."[2] This is the case if this new thing opposes the Commands of Allah and the Prophet.

Ibn Al-Athir continues introducing his point of view, supporting his view with what was narrated on the authority of `Umar ibn Al-Khattab. He said: "Concerning this type of praised innovation is `Umar ibn Al-Khattab's saying: "This is a good innovation." It was called Bid`ah and he praised it, because the Prophet (peace be upon him) did not do, but he prayed it some nights and left it other nights. He did not gather the people to pray it congregation. Abu Bakr (may Allah be pleased with him) did not pray it, however, `Umar ibn Al-Khattab (may Allah be pleased with him) ordered the people to pray it in congregation. Thus it was a praised Bid`ah, and the Hadith reading: "Every innovation is a Bid`ah," applies to the matters which contradict to the fundamentals of Shari`ah and does not agree with the Sunnah.

On these grounds, the Fiqh differentiates with regard to the religious Bid`ah between the dispraised delusion which contradicts to the firmly established faith and the praised Bid`ah which is not stated in the religious rulings, however, they do not contradict with the Book of Allah and the Sunnah. They are rulings which include creativeness which does not contradict with the Shari`ah. On the basis of this approach in Fiqh, the scholars divided the jurisprudential rulings into five rulings: Obligatory, prohibited, desirable, undesirable, and permissible. Every piece of work is subject to these ruling.

The sciences which establish the obligations of the religion and those of the succession of the human being in earth should be invented, whether these sciences are relevant to Shari`ah or worldly. However, prohibited

[2] Related by Muslim, Al-Nasa'y, and Imam Ahmad

matters should not be invented or practiced because they contradict with the Shari`ah. It is also desirable and commendable to what is desirable for religion and the worldly life. What is reprehensible as an innovation is that which leads to a religiously and worldly reprehensible matter. In addition, every permissible innovation is every matter which is involved in the permissible matters religiously and worldly. 3

Creativeness even in the religious framework is opened with regard to matters that do not contradict with Shari`ah and religious principles. Thus, creativeness concerning politics and worldly matters are subject to the same ruling.

He draws the attention to the fact that this matter was not controversial among the jurisprudents or in the Islamists' doctrines. Even the scholars of Al-Athar school whose followers were not interested in the use of opinion, analogy, interpretation, and other ways of deduction and research, we see them opening the way to creativeness in politics. They also regard the policies which are created by the human being part of the legal policies, even if it is not mentioned in the Book of Allah or the Sunnah, as long as they do not contradict with their texts, principles, and rulings. They encouraged creativeness which complies with the Shar` and did not restrict themselves to the texts of Shari`ah.

An analogy occurred between the Salafist Imam, Abu Al-Wafa' Ali ibn `Uqil Muhammad ibn `Uqil Al-Baghdadi [431-513 A.H. – 1040-1119 .D.] and one of the Shaf`I jurisprudents. Ibn `Uqail said precious sayings about the legality of the human creativeness in politics, as long as it does not involve any contradiction with the religion, even if it was not sent down by the Revelation or said by the Messenger of Allah.

[3] See in this regard Al-Raghib Al-Asfahany, Al-Mufradat fi Gharib Al-Qur'an, the word 'Bada`", Cairo edition, 1991; Iktishaf Istilahat Al-Funun, India edition, 1891; Ibn Manzhur, Lissan Al-Arab, Dar Al-Ma`aref edition, Cairo.

developments through time and place, this Ijtihad differs from one Imam to another and from a school of jurisprudence to another. It should be a fruit of creativeness and carries creativeness.

Differentiation between creativeness in intellect and industry, i.e., construction along with the Shar`y (legal) and urban sciences, and innovation in religion (i.e., with regard to its firmly-established facts after being completed by Allah and the Prophecy is a clear stance in which there is no ambiguity or controversy between the scholars of Islam.

Rather, the Muslim Imams and jurisprudents in all the Islamic schools of jurisprudence differentiated between the religious Bid`ah which contradicts the Book of Allah and the Sunnah – which is the Bid`ah of delusion – that contradicts with the Qur'an and the Sunnah, and the innovation which does not contradict with the Qur'an and the Sunnah although it is not stated in them. It includes all the types of goodness which are created by the human being and achieve the religious purposes. This is although the Qur'an and the Sunnah does not include them. It is creativeness which achieves the religious purposes and is not a type of following a certain religious ritual.

With regard to the deluding innovation and the appreciated innovation, Imam Al-Shaf`y (150 A.H. – 204 A.H. / 767 A.D. – 820 A.D.): said "Bid`ah is the innovation in religion which contradicts with the Book of Allah, the Sunnah, a consensus opinion of the scholars, or an Athar (narrations from the Companions). However, the good innovation which does not contradict with any of the previous things, it is considered to be a good Bid`ah."

The Bid`ah, which is delusion that will lead to Hell-fire, is not the creativeness which is not inspired by the Revelation and is not stated as a Sunnah. However, it contradicts with the Book of Allah and the Sunnah, as they did not limit in text and detail all that. Thus, all the doors of good

innovation are open and will be so forever. Nevertheless, what is prohibited is the Bid`ahs which contradict with the religious principles and rulings.

Al-Shafi`y as well as other Imams of Islam did not innovate this difference between the deluding Bid`ah and the good innovation. This difference was well-known in the Ijtihads of the Companions and the Rightly-Guided Caliphs' response to the legal purposes which do not contradict with the texts of the Qur'an and the Sunnah, although they are not stated in them.

Some of the Imams narrated the innovation of `Umar ibn Al-Khattab (may Allah be pleased with him), as he gathered the people to offer the Tarawih Prayer in Ramadan in congregation and regularly. This was not done by the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him), who prayed it sometimes and left it other times, and also he did not gather the people to pray it in congregation. However, `Umar ibn Al-Khattab made it a permanent ritual at the nights of Ramadan, and called it "Bid`ah" as he said: "What a good Bid`ah." (Related by Al-Bukhari and Malik in Al-Muwatta').

The Imams narrated that and stated that there is a good Bid`ah which differs from the condemned Bid`ah. `Iz Al-Din ibn Al-Athir [555 A.H.-630 A.H. / 1160 A.D. – 1233 A.D.] tackled this Bid`ah saying: "There are two Bid`ahs: The Bid`ah which leads to guidance and the Bid`ah which leads to delusion. What contradicts with Allah's Commands and the Prophet's Sunnah is condemned and dispraised while other things which are made preferable by Allah and His Messenger are praised. This praised Bid`ah should not be an imitation of anything which preceded it. This is a kind of praised generosity which should not contradict with Shari`ah, and the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) said that it will be rewarded. He said: "Whoever invented something which involves good will be rewarded for it and for whoever follows it."

Difference between Bid`ah and Ibda'a (heresy and creativity).

By: Dr. Muhammad `Imarah

Editor-in-chief of Al-Azhar Magazine.

One of the situations which need clarifications is the Islamic attitude towards creativeness, because some people – either out of thinking good or bad of Islam – agree on a wrong attitude concerning the Islamic opinion of creativeness. It is really strange that some of those who adopt a fanatic attitude either for or against Islam agree on a wrong attitude, which is derived from their explanation of the Prophet's Hadith: "The most truthful sayings is the Book of Allah, the best guidance is that of Muhammad, and the evilest matter is the innovated matters. Every Bid`ah is delusion, and every delusion will be in fire." (Related by Muslim)[1].

Due to this Hadith, some people think that Islam prohibits creativeness and all new matters without any differentiation between creativeness which contradicts with the Book of Allah and the Sunnah, which is regarded as a Bid`ah (innovation in religion), and the good creativeness in the human thought and the constructional industries and the religious virtues which do not contradict with the Hadiths of the most truthful of people. The fact that the Book of Allah and the Sunnah include the best sayings and guidance does not negate that this is virtue in things other than the Book of Allah and the Sunnah.

[1] Related by Muslim, Al-Nasa'y, Abu Dawud, Al-Darim, Ibn Majah, and Imam Ahmad.

As this issue is considered to be one of the major issues in the Muslim's mind, there is serious debate concerning it, because it needs clarification. Its steps start from the origins and roots. Creativeness, as known by the scholars of the Qur'anic terms, is the creation of anything new without imitation. This is the same definition which is found in the Arabic dictionaries.

Creativeness is the creation of any unprecedented thing, whether in thought or practical matters. However, the scholars of terminology in our civilization differentiate in this creativeness between innovation in religion which is completed by the Qur'an and the Hadiths, and creativeness in the human intellect which does not tell anyone to shut the doors of creativeness, as it is the fruit of existence which is ever changing. Intellect is considered to be a human industry which is the fruit of thinking, while religion came through Divine Revelation and not thinking. In fact, it cannot be called intellect, as it is Divine Knowledge and not human thinking. The difference between the Divine Knowledge which is the reason for the existence of everything on earth and the human thought which resulted from the Divine Knowledge changes with its change.

The scholars of the technical and lingual terms differentiate between the intellectual thinking and Bid`ah in religion. They define this Bid`ah as which is innovated in religion after its completion.

This innovation is one of the characteristics of the religious gathering in the Islamic thinking which is permanent through the time and the place. The Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) narrated on the authority of Abu Dawud: "Allah sends for this nation every hundred years someone who revives it religion." Innovation is, in fact, the fruit of this creativeness.

If Ijtihad is an Islamic obligation on which the survival of the fundamentals of Shari`ah depend, as it keeps pace with the new

Ibn Rajab said: "It was not proved that the Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him) or his Companions offered special optional night Prayer during the night of the middle of Sha`ban."

Sheikh Muhammad Rashid Reda (may Allah be merciful to him) said: "Allah (Glory be to Him) did not legislate for the believers in His Book nor did the Prophet command the Muslims to perform special acts of worship during the night of the middle of Sha`ban."

The utmost matter which was stated concerning offering Salah during this night is diligence of some of the followers of the Companions in acts of worship.

It is prevailing among the people that the night of the middle of Sha`ban is the night in which the decree of the whole year is predestined. However, this is wrong because this happens during the night of Al-Qadr. Allah (Glory be to Him) says:

{'Hâ-Mîm.[These letters are one of the miracles of the Qur'ân, and none but Allâh (Alone) knows their meanings]. By the manifest Book (this Qur'ân) that makes things clear. 'We sent it (this Qur'ân) down on a blessed night [(i.e. the night of Al-Qadr) in the month of Ramadân — the ninth month of the Islâmic calendar]. Verily, We are ever warning [mankind that Our Torment will reach those who disbelieve in Our Oneness of Lordship and in Our Oneness of worship]. 'Therein (that night) is decreed every matter of ordainments. As a Command (or this Qur'an or the Decree of every matter) from Us. Verily, We are ever sending (the Messengers), (As) a Mercy from your Lord. Verily, He is the All-Hearer, the All-Knower."

[Al-Dukhan (The Smoke): 1-6)

{You [true believers in Islâmic Monotheism, and real followers of Prophet Muhammad peace be upon him and his Sunnah] are the best of peoples ever raised up for mankind; you enjoin Al-Ma'rûf (i.e. Islâmic Monotheism and all that Islâm has ordained) and forbid Al-Munkar (polytheism, disbelief and all that Islâm has forbidden), and you believe in Allâh. And had the people of the Scripture (Jews and Christians) believed, it would have been better for them; among them are some who have faith, but most of them are Al-Fâsiqûn (disobedient to Allâh and rebellious against Allâh's Command).} (Al-Imran (The household of Imran : 110)

It is also a medium in place, time, creed, thinking, and organization. This is to fulfill Allah's Saying:

{Thus We have made you [true Muslims - real believers of Islâmic Monotheism, true followers of Prophet Muhammad peace be upon him and his Sunnah (legal ways)], a just (and the best) nation, that you be witnesses over mankind and the Messenger (Muhammad peace be upon him) be a witness over you.}

[Al-Baqarah (The Cow): 143]

There is controversy regarding specifying special fasting or optional night prayer for the night of the middle of Sha`ban. As for the Hadith narrated on the authority of `Ali (may Allah be pleased with him) which is related by Ibn Majah and reads: "When the night of the Middle of Sha`ban comes, offer optional night prayer during its night and fast on its day," Ibn Rajab said that it is a weak Hadith. Sheikh Rashid Reda said that it is Mawdu` (fabricated), and Al-Albani supported his view and said that this ruling can not be legally proved.

doing acts of worship. The Muslim should love for his Muslim brother that which he loves for himself and hates for the believers that which he hates for himself. He should also rejoice for what rejoices his Muslim brother and feels pain for any harm that befalls him.

Whatever the extent of the grudge of a person, it will not harm anyone but himself. However, whatever the envy of the envious affects people, it will kill him slowly.

The Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) directed us to spread goodness among people, as he said: "Those who are most beloved to me are the people who have the best morals who are kind and loved by people. The people whom I hate most are those who spread malicious gossip, sow dissension among people who are on good terms, and those who excuse others."

In Sha`ban in the second year after Higira, a unique event took place in the history of Islam: the turning of the Qibla from Jerusalem to the Ka`ba. The Messenger of Allah immigrated from Makkah to Al-Madinah and his heart was attached to Makkah, as he was born and brought up in it. Thus, after he left it, he said: "By Allah, I leave you and I know that you are the most beloved place for Allah. But for your inhabitants who forced me to go out of you, I would not have left you."

The Hijira was not easy for the people who immigrated, as Makkah was in their hearts and longed for it while they were in Al-Madinah. `Aishah, the Mother of the Believers, (may Allah be pleased with her) said: "But for the Hijira, I would have lived in Makkah, as the closest place to Heaven is Makkah, and I have never felt tranquil in a place as I did in Makkah and I have never seen the moon in a place better than in Makkah."

This longing for Makkah caused the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) to look at the sky and hope that Allah would direct him to the Qiblah which he loved: the Ka`bah. He faced Jerusalem during his former prayers to affirm the tolerance of Islam and that it respects the rituals of other religions.

However, the Ka`bah is the house of the Father of Prophets, Ibahim, (may the peace of Allah be upon him) and Jerusalem is the Qibla of the brother prophets. The Messenger of Allah used to look at the sky without saying frankly what he wants, as he was polite with Allah. This is because he knows that Allah knows what is in his heart. Allah responded to him in a blessed night, the night of the middle of Sha`ban, and Allah's saying was sent down:

{Verily, We have seen the turning of your (Muhammad's peace be upon him) face towards the heaven. Surely, We shall turn you to a Qiblah (prayer direction) that shall please you, so turn your face in the direction of Al-Masjid-Al-Harâm (the sanctuary at Makkah). And wheresoever you Muslim people are, turn your faces (in prayer) in that direction. Certainly, the people who were given the Scripture (i.e. Jews and the Christians) know well that, that (your turning towards the direction of the Ka'bah at Makkah in prayers) is the truth from their Lord. And Allâh is not unaware of what they do.}

[Al-Baqarah (The Cow): 144)

Allah willed to prepare for this nation in a special way in order to be dependent in its Qibla and in all the affairs of its life and the Islamic nation which Allah (Glory be to Him) distinguished it by making it the blest nation that was the best nation raised up for mankind. Allah (Glory be to Him) said:

Sha`ban Month...!

By: Dr. Ibrahim Al-Assil

Sha`ban has come, and it is called this name because it contains a lot of goodness. Thus, the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) used to celebrate this month in the manner he used to celebrate Rajab. He used to supplicate to Allah when he saw the crescent of Rajab saying: "O Allah, bless Rajab for us, bless Sha`ban for us, and allow us to reach Ramadan."

The believers rejoice for these days as they are full of light and goodness. These days are days of religious festivals which are like oases in the deserts of our life. They give us a sense of tranquility and comfort.

Sha`ban prepares us for Ramadan. Thus, the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) used to fast a lot in it seeking more reward from Allah. It was narrated on the authority of Usamah ibn Zayd (may Allah be pleased with him and his father) said: "I said: 'O Messenger of Allah, I have not seen you fasting in any month as you do in Sha`ban.' He said: 'This month is neglected by people, while it is between Rajab and Ramadan. The Slave's deeds are raised to the Lord of the Worlds in it, and I love that my deeds are raised while I am fasting.'"

The true believer seeks these blessed days to increase his acts of worship and strengthen his link with his Lord, as it was stated in a Qudsi Hadith: "I am with My Slave as long as he mentions Me and remembers Me. The one with whom Allah is, will not be weak and he

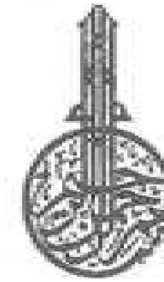
will be dignified and honorable without being humiliated, victorious without defeat, happy without any sorrow."

When the middle of Sha`ban comes, there is a blessed night in which Allah gathered all goodness without limit. The Messenger of Allah used to perform during this night more acts of worship. It was narrated on the authority of `Aishah the mother of the faithfuls (may Allah be pleased with her) that she said: "The Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) prayed and elongated his prostration until I thought that he died. When I saw that, I stood up until he moved his thumb and I heard him saying: 'I seek refuge in Your Pardon from Your Punishment, I seek refuge in Your Pleasure from Your Wrath, and I seek refuge in You from You. I do not enumerate praise for You, as it is as You Praised Yourself.' When the Messenger of Allah raised his head from prostration and finished his Prayer, he said: 'O `Aishah, have you thought that the Prophet did not give you your due right?' She said: 'No, by Allah, O Messenger of Allah, I thought that you died due to your long prostration.' He said: 'Do you know which night is this?' I said: 'Allah and His Messenger know.' He said: 'This is the night of the middle of Sha`ban; Allah (Glory be to Him) witnesses His Slaves during the night of the Middle of Sha`ban and forgives those who seek His forgiveness, shows mercy to those who seek His mercy, and delays the malicious people..'"

Allah's mercy encompasses everything; however, it is for the one who has pure heart, which sincerely worships Allah, the Lord of the worlds. As for the heart which is full of grudge, and hates the society, hate the successful people who endeavor to make their living with their effort, and hope that people lose the graces they have, Allah's Mercy is not for them, even if they spend the night of the middle of Sha`ban in

AL-AZHAR MAGAZINE

Sha'ban, 1435 A.H



ENGLISH SECTION

June, 2014

In the name of Allah the Beneficent the Merciful

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾

الأعراف/ ٤٣

"Praise be to Allah, Who guided us to this; and in no way could we have been guided, unless Allah has guided us."
(Al-A'raf 43)

Editor: Dr. IBRAHIM Al-ASSIL
Professor at the Faculty of Languages and Translation.
Al-Azhar University.



الأزهر

ثمن النسخة: جنيهان

المتن ٧٠ جم - الغلاف ١٨٠ جم كوشيه

www.AlazharMag.com

الأزهر

مجلة إسلامية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
رمضان ١٤٣٥هـ - يوليو ٢٠١٤م - الجزء "٩" السنة "٨٧"

رمضان المعظم

هدية العدد
دراسات عن القرآن الكريم
الإمام الشيخ: محمود شلتوت، الشيخ: أمين الخولي

الافتتاحية
الميلاد القرآني للأمة والحضارة
أ.د. محمد عمارة

رمضان
تحقيق الطمأنينة
د. محمد فتحي فرج

وعلى الذين يطيقونه
د. أحمد محمد عرفة

في استقبال
شهر رمضان
للشيخ معوض عوض ابراهيم

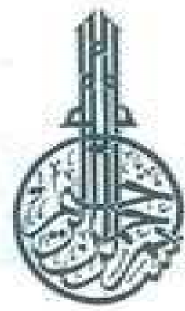
الشيخ محمود شلتوت

أ.د. أحمد الطيب

أ.د. أحمد الريسوني

داخل العدد





﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾



الأزهر

مجلة شهرية جامعة يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
بالأزهر الشريف في مطلع كل شهر عربي
صدر العدد الأول في المحرم عام ١٣٤٩هـ / ١٩٣١م
وحمل اسم «نور الإسلام»
ورأس تحريرها فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين



رئيس التحرير
أ. د. محمد عمارة

مدير عام المجلة
عادل رفاعي خفاجة

مدير التحرير
أحمد السيد تقي الدين

سكرتير التحرير
محمود القشني

الإخراج الفني: أحمد القطب

الاشتراك السنوي

داخل مصر ٢٤ جنيهاً مصرياً - الدول العربية ٥٠ دولاراً أمريكياً
أوربا وأمريكا ٨٠ دولاراً أمريكياً - اليابان وشرق آسيا ١٢٠ دولاراً أمريكياً
عن طريق قسم الاشتراكات بمؤسسة الأهرام
شارع الجلاء - القاهرة
ت: ٢٥٧٨٦١٠٠ - ٢٨٧٥٦٦٠٠

المراسلات باسم:

مدير التحرير - مجمع البحوث الإسلامية - مدينة نصر
ت: ٢٢٦٣٨٥٩٩

editor@alazharmag.com
readers@alazharmag.com

الافتتاحية

الميلاد القرآنى للأمة والحضارة



لفضيلة الأستاذ الدكتور محمد عمارة
www.dr_emara.com

هذه الأمة الإسلامية خرجت من بين دفتى كتاب، فمن «رحم» القرآن الكريم وُلدت هذه الأمة، عندما صنعت سوره وآياته، وصاغت وصبغت «الجوامع الخمسة» التى بلورتها، ووحدتها، وجعلتها أمةً متميزة من دون الناس.

فمن القرآن الكريم كان «جامع العقيدة» الواحدة والموحدة للأمة:

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾

(البقرة: ٢٨٥)

وفى القرآن الكريم جاء «جامع الشريعة» الواحدة، الجامعة للأمة فى الأصول والمبادئ والقواعد والقيم، وفلسفة التشريع وروح القانون، والحاكمة لاختلاف وتنوع مذاهبها فى الفروع والجزئيات والمتغيرات:

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(الجاثية: ١٨)

وفى آيات القرآن الكريم، جاء الحديث عن «وحدة الأمة»، فريضة جامعة لتنوعها فى الشعوب والقبائل والألوان واللغات:

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾

(الأنبياء: ٩٢)

وفى القرآن الكريم شاعت القيم الثوابت، التى صبغت «حضارة الأمة» - المدنية - بصبغة دين الإسلام، فاصطبغ «النسبي» بـ «المطلق» لأول مرة فى تاريخ الحضارات:

﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾ (البقرة: ١٣٨)

﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾

(المائدة: ٤٨)

ولهذه الجوامع الأربعة فى العقيدة والشريعة والأمة والحضارة، توحدت «دار الإسلام»، فعرف الوطن الإسلامى «الأممية» الجامعة للأقاليم والولايات والأقطار، التى تتمايز فى إطار وحدة دار الإسلام، فهى «المحيط» الجامع الذى يحتضن «جزر» الشعوب والقبائل والأجناس واللغات والقوميات، جعلا إلهيا، وإرادة ربانية، عبرت عنها آيات القرآن الكريم.

عيد الميلاد

ولأن هذا القرآن الكريم قد بدأ نزوله في شهر رمضان، الشهر الذى كان يتحنث - يتعبد - فيه محمد بن عبد الله ﷺ، قبل البعثة فى غار حراء، مستخلصا نفسه استخلاصا كاملا من وثنية الجاهلية، وجاهلية وثنيتها، وباحثا عن الدين الحق، ومتخذا لذلك بقايا الحنيفية من ملة إبراهيم الخليل عليه السلام سبيلا.

ولأن لحظة انبثاق النور القرآنى قد كانت فى ليلة القدر، إحدى الليالى الوتر فى العشر الأواخر من شهر رمضان، سنة ١٣ ق.هـ، سنة ٦١٠م، فلقد غدت هذه الليلة ليلة ميلاد النور القرآني، خيرا من ألف شهر:

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾

(القدر من ١ - ٥)

فلقد غدا هذا الشهر الذى شرُف بهذه الليلة، وبلحظة انبثاق النور القرآنى فيها، غدا ميقات واحدة من الفرائض الإسلامية - فريضة الصوم - رابع الأركان الخمسة للإسلام، فإقامة

هذا الركن وأداء هذه الفريضة الإسلامية، في هذا الشهر العظيم، هو الاحتفال الإسلامي بنزول القرآن الكريم، عيد ميلاد أمة الإسلام، ولحظة التأسيس للدين القيم.

ومع أن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا، منها أربعة حرم، هي رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم:

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾

(التوبة: ٣٦)

ومع أن شهر رمضان ليس من هذه الأشهر الحرم فلقد فاق في الفضل هذه الأشهر الفضيلة، وذلك بسبب نزول القرآن فيه، فالأشهر الحرم هدنة سلام، لا يجوز فيها القتال، وموسم تجارات لتنمية زينة الحياة الدنيا، بينما رمضان قد غدا عيد ميلاد الوحي الخالد، والظرف الزماني لانبثاق نبأ السماء العظيم -القرآن الكريم- الذي ولدت من بين دفتيه الرسالة الخاتمة الخالدة، لخير أمة أخرجت للناس - رسالة الدين والدنيا، والدنيا والآخرة - للأمة الوارثة لجميع مواريث النبوات والرسالات والمؤتمنة على دين الله الواحد في مرحلة اكتماله بشريعة محمد ﷺ.

ولهذه الحكمة وإعرابا عن هذا التكريم، لهذا الشهر المعظم -شهر رمضان- كان انفراده واختصاصه بالذكر دون الشهور الأخرى في القرآن الكريم، فلم يذكر من أسماء الشهور في القرآن اسم سواه.

ولم يكن اختصاص رمضان بالذكر في القرآن الكريم، لأنه ميقات فريضة الصيام. فالحج - وهو كالصوم واحد من أركان الإسلام- أشهر معلومات، هي شوال وذو القعدة وذو الحجة:

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾

(البقرة: ١٩٧)

ومع ذلك لم يذكر اسم أي منها في القرآن الكريم، رغم أن فيها شهرين من الأشهر الحرم.

وكذلك كان الحال مع شهر ربيع الأول، الذي حدثت فيه الهجرة النبوية، من مكة إلى المدينة، فتم فيه إنقاذ الدعوة من الحصار والتأسيس للدولة والفتح في الدين، ومع ذلك لم يذكر هذا الشهر في القرآن كما لم يجعله الإسلام ميقات الصيام، كما كان الحال في الشريعة الموسوية عندما كان الصوم احتفاء بنجاة موسى عليه السلام من فرعون.

هكذا لا يترك القرآن الكريم الإجابة عن سؤال الباحث عن حكمة هذا التوقيت، وذلك الاختصاص لمجرد الاجتهاد والاستنتاج، فآياته البينات قد تحدثت عن «لحظة الميلاد» للأمة

الإسلامية الخاتمة، تلك التي تجسدت في لحظة «الظهور للدين» الذي ميز هذه الأمة، وجعل من شريعتها الطور الرسالي الخاتم لرسالات الدين الإلهي الواحد، والكمال والاستكمال لمكارم الأخلاق.

ولقد كانت بداية هذه اللحظة هي نزول «الروح الأمين»، على «الصادق الأمين»، بأولى آيات القرآن الكريم، لحظة «مطلع الفجر»، في ليلة من الليالي الوتر، في العشر الأواخر من رمضان، في غار حراء.

في هذه اللحظة التي أضاءت فيها الأرض بنداء السماء:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾

(العلق: ١ - ٥)

بدأ نزول القرآن في ليلة القدر، وهي لحظة «مطلع الفجر»، الذي هو مولد النهار، وفيها نزل الكتاب، الذي ولدت منه الأمة، عندما خرجت عقيدتها وشريعتها وحضارتها ووحدتها في الأمة والدار، من بين دفتي هذا الكتاب الكريم.

ولأن هذا «الميلاد» كان في شهر رمضان، فلقد كان تكريمه وصومه، دون غيره من الشهور، الاحتفال الإسلامي بهذا العيد، لهذا الميلاد.

ولأن هذا الميلاد كان ميلاد الوحي المؤسس للأمة، فلقد شاء الله أن تكون فريضة الاحتفال به - فريضة الصوم- هي مدرسة بناء الإرادة الإسلامية، المجددة أبدا لفتوة الأمة، كي تستعيد دائما عافية الميلاد الجديد، وصحة الاجتهاد والتجديد، الكاشف عن فعالية كتاب التأسيس، فقال سبحانه وتعالى وهو يشرع لهذه الفريضة:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

(البقرة: ١٨٥)

وهكذا نجد أنفسنا أمام الحكمة التي جعلت صيامنا في رمضان وليس في شهر من الأشهر الحرم، وليس أيضا في ذكرى نجاة الإسلام ورسوله وأمته، بالهجرة من الحصار والاقتلاع، أمام الحكمة التي جعلت صيامنا إحياء لذكرى نزول القرآن، الذي مثل «الرحم» الذي ولدت منه هذه الأمة، عندما خرجت مقوماتها وثوابتها والروح السارية في حضارتها والصبغة المميزة لعمرانها، عندما خرج كل ذلك من بين دفتي القرآن الكريم، ومن سور وآيات هذا النبأ العظيم.

كيف يكون الاحتفال؟

وإذا كان احتفال الناس أفرادا وأسرا وشعوبا وأمما بالأعياد والمناسبات لا بد وأن تصطبغ مظاهره وتعكس وقائعه معاني ودلالات الحدث الذي به يحتفلون، ولذكراه يحيون، إن كان انتصارا عسكريا، فإن مظاهر القوة ومعالمها تطبع وقائع الاحتفال.

وإن كان استقلالا عن الاستعمار، أو تحريرا للثروات أو استرجاعا للأرض.. إلخ، صبغت معاني الذكرى احتفالات الذين يتذكرون ويحتفلون، فإن احتفال المسلمين عندما يصومون شهر رمضان، بذكرى «اللحظة» التي بدأ فيها نزول القرآن على قلب رسول الإسلام ﷺ مطلوب منه، من هذا الاحتفال أن يصطبغ بصبغة ذلك الحدث العظيم، نزول القرآن، الذي كان «الرحم» الذي ولدت منه المقومات التي صنعت أمة الإسلام، ومثلت الروح السارية والضامنة لتواصلها الحضاري على مرّ الدهور.

إن تأمل هذه المعاني، وتدبر هذه الحقائق، سيضع يدنا على حجم «الخلل والقصور» اللذين أصابا ويصيبان «معاني ومعالم» احتفالنا في رمضان بذكرى نعمة نزول النبأ العظيم.

ليس فقط في تحول شهر الصوم إلى شهر للكسل وتدني الإنتاج بينما هو في حقيقته «مدرسة تربية الإرادة» على الفتوة التي تجعل منه التجديد للطاقات والملكات والقدرات التي تعين الأمة على قهر المخاطر والتحديات، وتنمية معالم الابتكار والإبداع.

وليس فقط لوقوف الأكثرين عند الطرب لسماع القرآن، واكتفاء الكثيرين بمجرد تلاوته، بينما لا يتدبره إلا الأقلون، فلا طرب السماع ولا مجرد التلاوة، بل ولا حتى الوقوف عند التدبر للمعاني بكاف في الاحتفال الذي يحيي المعنى الحقيقي لهذا العيد الذي ولدت فيه أمة الإسلام.

لقد غدت أمانينا في التعامل مع القرآن الكريم أن نكثر من حافظيه.. ننفق في ذلك الأموال وتعقد له الاحتفالات وتوزع الجوائز على الحفاظ، ورغم ما في ذلك من خير كثير يربطنا بلغة القرآن، ويقوّم ألسنتنا بأسلوبه المعجز، وبيانه الأخاذ، إلا أن الوقوف عند الحفظ لم يكن هو المقصد من وراء الوحي بهذا النبأ العظيم، حتى إن المرء ليدهش من فرط ما وصلنا إليه، عندما تعلم أن جيل الصحابة الفريد، الذي شهد الوحي، وغيّر به وجه الدنيا، ومجرى التاريخ، لم يكن فيه من حفاظ القرآن، إلا عدد قليل. لقد كانوا فقهاء للقرآن، لا مجرد حفاظ له، وكانوا عاملين به، ومجسدين لمقاصده، لا مجرد مرتلين لآياته.

فعبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول: كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات، لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن. أما عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، فهو القائل تعبيرا عن نوع علاقة الصحابة بالقرآن، ونبوءة بالحال الذي صرنا إليه نحن: كان الفاضل من أصحاب رسول الله ﷺ، في صدر هذه الأمة، لا يحفظ من القرآن، إلا السورة أو نحوها، ورزقوا العمل بالقرآن، وإن آخر هذه الأمة يقرءون القرآن منهم الصبي والأعمى، ولا يرزقون العمل به [1].

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ط دار الكتب المصرية، ج ١، ص ٤٠.

ففي عصر الازدهار الذي غيّر فيه الجيل الفريد من الصحابة، وجه الدنيا ومجرى التاريخ بالقرآن، كانت الغلبة لفهم القرآن، وفقه مقاصده والعمل به، وليس للحفظ والتكرار، بينما ارتبط عصر تراجعنا الحضاري بغلبة منهاج الحفظ، وكثرة أعداد الحفاظ، والمفاخرة بكثرة المحفوظات، وما زلنا مع شديد الأسف، نقف من القرآن عند الحفظ والتكرار، والاحتفال بالحفظ والحافظين، رغم أن المعاجم والتقنيات الحديثة قد فاقت في الحفظ ملكات الحفاظ.

إن نزول القرآن الكريم إنما مثّل لحظة الميلاد لأمة الإسلام، لأنه مثّل النور الذي خرجت إليه الأمة، من ظلمات الجاهلية، ومثّل الهدى الذي نعمت به بعد حيرة الضلالات، وفي كلمة وحيدة جامعة، فلقد مثّل القرآن الكريم ينبوع الإحياء الإسلامي، الصالح دائما وأبدا لطي صفحات الجمود والتقليد والموات، بما يقدم من سبل للاجتهاد والتجديد والإبداع.

فالإحياء في كل ميادين العمران عمران النفس الإنسانية بما يهذبها ويرتقي بملكاتها، وعمران الواقع المادي، بما يحسّنه ويجمله، من ألوان المدنية، هذا الإحياء الإسلامي، هو أخص المصطلحات المعبرة عن رسالة هذا «الينبوع» الذي نصوم رمضان احتفالا بذكرى لحظة نزوله على قلب رسولنا محمد بن عبد الله ﷺ. وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾

(الأنفال: ٢٤)

فنحن إذ نصوم رمضان إنما نحتفل بذكرى اللحظة القدسية التي بدأ فيها نزول النبأ العظيم، ذلك الينبوع الإلهي الذي مثّل «الرحم» الذي ولدت منه الأمة الخاتمة، ومن بين دفتيه خرجت المقومات الثوابت للرسالة العالمية الخاتمة في العقيدة والشريعة والقيم التي ميزت الحضارة بالروح الخالدة، رغم تطورها عبر الزمان والمكان، كما وحدت الأمة مع التنوع في القبائل والشعوب والأقوام، وكذلك وحدت دار الإسلام مع التمايز في خصوصيات الأقاليم والأوطان.

وإذا كانت مصداقية «رسالة» أي احتفال بذكرى لحظة الميلاد هي في مدى النجاح الذي يحققه الاحتفال في حضور المعنى والمغزى، إلى واقع الذين يحتفلون، فهل ننجح في رمضان، في استعادة روح «الإحياء» الإسلامي الذي مثله القرآن العظيم عندما أخرج هذه الأمة من الظلمات إلى النور؟

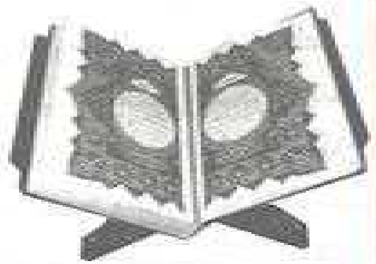
لنحاول ولنجتهد، فلكل مجتهد نصيب.

لقد منّ الله سبحانه وتعالى علينا، بحفظ هذا الذكر الحكيم:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾

(الحجر: ٩)

لكنه افترض علينا إقامة هذا الدين، لنجدد بإقامته الأمانة التي حملناها عندما سعدنا بنعمة التدين بهذا الدين العظيم.



تفسير سورة البقرة





لفضيلة الأستاذ الإمام
محمد عبده

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ۚ أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١٤) وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (١١٥) وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (١١٦) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾

(البقرة:١١٤-١١٧)

الكلام في أهل الكتاب عامة ومن على شاكلتهم. فقوله تعالى:

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ۚ أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

(البقرة:١١٤)

فيه وجوه:

(أحدها): أنه يشير إلى حادثة وقعت بعد المسيح بسبعين سنة، وهي دخول «تيطس» الروماني بيت المقدس وتخريبها حتى صارت المدينة تلا من التراب، وهدمه هيكل سليمان -عليه السلام- حتى لم يبق منه إلا بعض الجذر المدعثرة، وإحراقه ما كان عند اليهود من نسخ التوراة، وكان المسيح -عليه السلام- قد أوعد اليهود بذلك. وقال بعض المفسرين إن أتباع المسيح هم الذين هيجوا الرومانيين وأغروهم بهذا العمل.

ولا أدرى هل يصح هذا الخبر أم لا، فإن قائليه لم يأتوا عليه بأدلة ولا بنقول تاريخية، ولكنني أعلم أن المسيحيين، على قتلهم وتشتتهم واستخفائهم من اضطهاد اليهود، كانوا قد وصلوا إلى «رومية»، وكانوا يودون الإيقاع باليهود الذين اطروهم إلى الخروج من بلادهم، انتقاما وتحقيقا لوعيد المسيح، وأن الرومانيين وإن كانوا وثنيين يرون أن

اليهود ليسوا على شيء - لم تكن حروبهم دينية، وإنما كانوا يحاربون اليهود وغيرهم لشغبهم وفتنهم أو للطمع في بلادهم، وذلك لا يقتضي بهدم المعبد وإحراق كتب الدين. فهذه قرائن ترجح أنه كان للمسيحيين يد في إغارة «تيطس»، ولكن لا يجزم به إلا إذا وجد نقل تاريخي صحيح يؤيد الخبر.

ومن الغريب، أن ابن جرير الطبرى قال في تفسيره: إن الآية في اتحاد المسيحيين مع «بختنصر» البابلي على تخريب بيت المقدس، مع أن حادثة بختنصر كانت قبل وجود المسيح والمسيحية بست مئة وثلاث وثلاثين سنة!! ولو لم يكن مؤرخا من أكبر المؤرخين، لالتمس له العذر بحمل قوله على حادثة «أدرينال» الروماني الذى جاء بعد المسيح بمئة وثلاثين سنة، وبنى مدينة على أطلال أورشليم، وزينها، وجعل فيها الحمامات، وبنى هيكلا للمشترى على أطلال هيكل سليمان، وحرم على اليهود دخول هذه المدينة وجعل جزاء من يدخلها القتل، فلذلك كان اليهود يسمونه «بختنصر الثاني» لشدة ما قاسوا من ظلمه واضطهاده. ولكن هذا لا يصح أن يكون عذرا للمؤرخ.

(الثاني): ذهب بعض المفسرين إلى أن قوله تعالى:

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾

نزل فى منع مشركى العرب النبى وأصحابه من دخول مكة فى قصة عمرة الحديبية، وقالوا إن حادثة الرومانيين كانت قد طال عليها الأمد فلا مناسبة لإرادتها بالآية. واعترض على هذا القول بأن مشركى العرب ما سعوا فى خراب الكعبة، بل كانوا عمروها فى الجاهلية وكانوا يعظمونها ويرونها مناط عزهم ومحل شرفهم وفخرهم.. ويصح أن تكون الآية فى الأمرين على التوزيع: فالذين منعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه هم مشركوا مكة، والذين سعوا فى خرابها هم مشركوا الرومانيين. ويكون قرن ما عمل المشركون من منع البيت الحرام أن يذكر فيها اسم الله بزيارة النبى وأصحابه بما عمل من قبلهم من مشركى الرومانيين من التخريب، ومن قبيل الإشارة إلى تساوى الفعلين فى القبح.

(الثالث): إن الكلام فى أهل الكتاب، وأن الآية ليست منبئة بأمر وقع، ولكن بأمر سيقع، وهو ما كان بعد ذلك من إغارة الصليبيين على بيت المقدس وغيره من بلاد المسلمين، وصدهم إياهم عن المسجد الأقصي، وتخريبهم كثيرا من المساجد.

(الرابع): وهو مبني أيضا على أن الآية منبئة عن أمر سيقع أن المراد بها حادثة القرامطة الذين هدموا الكعبة ومنعوا المسلمين منها وهدموا كثيرا من المساجد: كأنه بعد أن ذكر حال أهل الكتاب في طعن اليهود منهم بالنصارى وقولهم فيهم إنهم ليسوا على شيء من الدين وطعن النصارى في اليهود كذلك، وبعد قوله في المشركين الذين لا يعلمون الكتاب إنهم قالوا مثل قولهم، لم يبق إلا ما سيقع للمسلمين، وفي المسلمين، فأنبأ الله تعالى بهذه الحادثة من الإخبار بالغيب، فوقعت. وكانت حادثتهم من أكبر الأحداث في تاريخ المسلمين،

فإنهم استولوا على جزء كبير من ممالك الإسلام، وهدموا المساجد، وعاثوا فى الأرض فسادا، ولم يكن فى أيام الحروب الصليبية على طولها من الصد عن ذكر الله وعن الصلاة مثلما كان على عهد القرامطة. فالآيات على هذا مبينة لأحوال جميع الملل.

وسواء كانت الآية فى حادثة واقعة أو منتظرة، أم كانت وعيدًا للذين لا يحترمون المعابد على الإطلاق، هى على كل حال ناطقة بوجوب احترام كل معبد يذكر فيه اسم الله تعالى بالصلاة والتسبيح وبتحريم السعى فى خراب المعابد، وبالحكم على الذين يصدون الناس عنها ويسعون فى خرابها - أى هدمها أو تعطيل شعائرها ومنع عبادة الله فيها - بكونهم أظلم الناس، كما يستفاد من استفهام الإنكار، لأن المنع من ذكر الله تعالى وإبطال شعائر المعابد التى تذكر به وتشعر القلوب عظمته، انتهاك لحرمة الدين يفضى إلى نسيان الناس الرقيب المهيمن عليهم، فيمسون كالهمل، وتفشو فيهم المنكرات والفواحش، وانتهاك الحرمات، وهضم الحقوق، وسفك الدماء.

وعبادة الله تعالى بذكره والصلاة له تنهى بطبيعتها عن الفحشاء والمنكر. ولا ينافى ذلك ما عساه يطرأ على العبادة أو يوجد فى المساجد من الأشياء المبتدعة التى لم يأمر بها الكتاب. فمن علم بهذه البدع عليه أن ينكرها ويسعى فى إزالتها، ولا يجوز له السعى فى إزالة المعابد من الأرض لما فى ذلك من الفساد الذى أشرنا إليه.

وهذا هو السر فى حكم الشريعة الإسلامية باحترام كنائس أهل الكتاب وبيعهم وصوامعهم وعبادهم، واحترام معابد الذين لهم شبه كتاب أيضا كالمجوس، أما الصابئون فهم من أهل الكتاب. وأما الوثنيون الخلص الذين اتخذوا من دون الله أولياء، ويبنون المساجد لذكر غيره والتقرب إلى سواه، فهؤلاء لم يتعرض لذكرهم، ولم يتوعد من يمنعهم من سخفهم.

ثم قال تعالى فى شأن المعتدين على المساجد:

﴿أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾

أى فكيف يدخلونها مفسدين ومخربين، ولا ينبغى للعاقل أن يقدم على أمر إلا بعد النظر فيه والعلم بدرجة نفعه أو ضره؟! وما كانت عبادة الله تعالى إلا نافعة، وما كان تركها إلا ضارا. وما عساه يوجد فى عبادات الأمم من الخرافات الضارة، فإنما المكروه منه ما فيه مما يبعد عن عبادة الله تعالى ويوقع فى إشراك غيره فيها. على أن العبادة الممزوجة بنزعات الوثنية أهون من التعطيل القاضى بالجحود المطلق، ولذلك توعد الله تعالى أولئك المعتدين الظالمين بقوله:

﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

فأما خزى الدنيا، فهو ما يعقبه الظلم من فساد العمران، المفضى إلى الذل والهوان. وناهيك بظلم يحل القيود، ويهدم الحدود، ويغرى الناس بالفواحش والمنكرات، ويسهل عليهم سبل الشرور والموبقات، وهو ظلم إبطال العبادة من المساجد، والسعى فى خراب المعابد. إذا وقع هذا

الظلم كان الحاكم الظالم مخذولاً فى حكمه، والفاتح الظالم غير أمين فى فتحه. وإذا أردت تطبيق ذلك على من نسب إليهم هذا الظلم، فانظر ماذا حل بالرومانيين، وماذا كانت عاقبة العرب المشركين، وبماذا انتهى عدوان الصليبيين، وكيف انقرض حزب القرامطة المجرمين.

وأما عذاب الآخرة فالله أعلم به ونحن بوعده ووعيده مؤمنين.

ثم قال تعالى:

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾

ذهب المفسر (الجلال) إلى أن المراد بالمشرق والمغرب الأرض كلها لأنهما ناحيتاها، وقال فى قوله:

﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾

أى أى مكان تستقبلونه فى صلاتكم، فهناك وجه القبلة التى أمر الله بأن يتوجه إليها. ووجه هذا الرأى أن من شأن العابد أن يستقبل وجه المعبود، ولما كان سبحانه منزها عن المادة والجهة واستقباله بهذا المعنى مستحيلا، شرع للناس مكانا مخصوصا يستقبلونه فى عبادتهم إياه، وجعل استقبال ذلك المكان كاستقبال وجهه تعالى. وهذه الآية متصلة بما قبلها، وهو قوله تعالى:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾

وأكثر المفسرين على خلاف ما قال (الجلال) فى تفسير المشرق والمغرب: قالوا إن المراد بهما الجهتان المعلومتان لكل أحد، ولذلك خصهما بالذكر. فهو كقوله تعالى:

﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾

«الرحمن: ١٧».

وهو يستلزم ما قاله (الجلال). فإن المراد على كل حال: أية جهة استقبلت وتوجهت إليها فى صلاتك فأنت متوجه إلى الله تعالى، لأن كل الجهات له.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ﴾

لا يتحدد ولا يحصر، فيصح أن يتوجه إليه فى كل مكان، ﴿عَلِيمٌ﴾ بالمتوجه إليه أينما كان، أى فاعبد الله حيثما كنت، وتوجه إليه أينما حللت، ولا تتقيد بالأمكنة فإن معبودك غير مقيد.

ووجه المناسبة والاتصال بين هذه الآية وما قبلها ظاهر على هذا التفسير. فإن فيها إبطال ما كان عليه أهل الملل السابقة من اعتقاد أن العبادة لله تعالى لا يصح أن تكون إلا فى الهيكل والمعبد المخصوص. وفى إبطال هذا إزالة ما عساه يتوهم من وعيد من منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، من أنه وعيد على إبطال العبادة فى المواضع المخصوصة، لأنه إبطال لها بالمرة، إذ لا تصح إلا فى تلك المواضع. فهذه الآية تنفى ذلك التوهم من حيث تثبت لنا قاعدة من أهم قواعد الاعتقاد، وهى أن الله تعالى لا تحدده الجهات، ولا تحصره الأمكنة، ولا يتقرب إليه بالبقاع والمعابد، ولا تنحصر عبادته فى الهياكل والمساجد. وإنما ذلك الوعيد لانتهاك حرمات الله، وإبطال نوع من أنواع عبادته، وهو العبادة الاجتماعية التى يجتمع لها الناس فى أشرف المعابد على خير الأعمال التى تطهر نفوسهم وتهذب أخلاقهم.

وهذا الضرب من البيان مما امتاز به القرآن الكريم على سائر الكلام . فإنك لترى فيه فنوناً من الاستدراك والاحتراس قد جاءت في خلال القصص وسياق الأحكام، تقرأ الآية في حكم من الأحكام ، أو عظة من المواعظ ، أو واقعة تاريخية فيها عبرة من العبر ، فتراها مستقلة بالبيان ، ولكنها باتصالها بما قبلها قد أزالت وهما ، أو تممت حكما . وكان ينبغي لأهل العربية أن يقتبسوا هذه الضروب من البيان ، ويتوسعوا بها في أساليب الكلام ، فإن القرآن قد أطلق لهم اللغة من عقالها ، وعلمهم من الأساليب الرفيعة ما كانت تستحليه أذواقهم ، وتنفعل له قلوبهم ، وتهتز له نفوسهم ، وتتحرك به أريحيتهم ، ولكنهم لم يوفقوا لاقتباس هذه الأساليب الجديدة ، على أن ملكتهم في حسن البيان ، قد ارتقت بعد نزول القرآن.

وسنعطي هذا الموضوع حقه من البيان في موضع تكون مناسبته أقوى من هذه المناسبة.

ثم عاد الكتاب إلى النسق السابق في تعداد مخازي أهل الكتاب والمشركين ، بعد ما ذكر من وعيد منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ما ذكر وبين أن يعبد في كل مكان ، فقال جل وعز :

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾

فهذا عطف على قوله تعالى :

﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾

«البقرة ١١١»

وقوله :

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾

«البقرة ١١٣»

ويصح أن ينسب هذا إلى اليهود والنصارى والذين لا يعلمون جميعا ، وإلى فرقة واحدة منهم.

ووجه العموم ، أن الله تعالى أخبرنا في مواضع من كتابه بأن اليهود قالت عزير ابن الله : وأن النصارى قالت : المسيح ابن الله : وأن المشركين قالوا : إن الملائكة بنات الله . ولا فرق في الأحكام التي تسند إلى الأمم بين كونها صدرت من جميع أفراد الأمة ، أو صدرت من بعضهم ، فإن مثل هذا الإسناد مبنيّ بتكافل الأمم ، كما تقدم غير مرة . وقد نقل أن كلمة : عزير ابن الله : قالها بعض اليهود لا كلهم . وكذلك اعتقاد كون الملائكة بنات الله لم يكن عامًا في مشركي العرب ، وإنما عرف عن بعضهم.

ثم رد على مدعي اتخاذ الولد بقوله :

﴿سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾

نزه تعالى نفسه بكلمة ﴿سُبْحَانَهُ﴾ التي تفيد التنزيه ، مع التعجب مما ينافيه ، كأن الذي يعرفه تعالى لا ينبغي أن يصدر عنه مثل هذا القول الذي يشعر بأن له تعالى جنسًا يماثله . فإن قائل ذلك لا يكون على علم بالله تعالى ، وإنما يكون زاعمًا فيه المزاعم وظانًا فيه الظنون . أي : تنزيهًا له أن يكون له ولد كما زعم هؤلاء الجاهلون الظانون بالله غير الحق . فإنه لا جنس له ، فيكون له ولد منه.

وهذا الولد الذي نسبوه إليه تعالى ، لا بد أن يكون من العالم العلوي وهو السماء ، أو

من العالم السفلي وهو الأرض ، ولا يصلح شيء منهما أن يكون مجانسا له عز وجل ، لأن جميع ما في السماوات والأرض ملك له قانت لعزته وجلاله ، أي خاضع لقهره مسخر لمشيئته . فإذا كانوا سواء في كونهم مسخرين له بفطرتهم ، منقادين لإرادته بطبيعتهم واستعدادهم ، فلا معنى حينئذ لتخصيص واحد منهم بالانتساب إليه وجعله ولدًا مجانسًا له :

﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾

(مريم : ٩٣).

نعم ، إن له سبحانه أن يختص من شاء بما شاء ، كما اختص الأنبياء بالوحي ، ولكن هذا التخصص لا يرتقي بالمخلوق إلى مرتبة الخالق ، ولا يعرج بالموجود الممكن إلى درجة الوجود الواجب ، وإنما يودع سبحانه في فطرة من شاء ما يؤهله لما شاء منه :

﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾

(طه : ٥٠).

وليست شبهة الذين اتخذوا بعض البشر آلهة بأمثل من شبهة الذين اتخذوا بعض الكواكب آلهة ، إذ التفاوت بين الشمس والقمر أظهر مثلًا من التفاوت بين المسيح وبين سائر الناس الذين عبدوه وقالوا هو ابن الله أو هو الله.

وقد غلّب في الملكية ما لا يعقل ، فقال :

﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾

لأن المراد بتسخيرها له التسخير الطبيعي الذي لا يشترط فيه الاختيار ، لا التسخير الشرعي المعبر عنه بالتكليف الذي يفعله الكاسب باختياره . ويستوي في التسخير الطبيعي العاقل وغيره ، ولكنه في غير العاقل أظهر.

ولما ذكر القنوت له تعالى ، جمعه بضمير العاقل فغلّب فيه العقلاء ، لأن من شأن القنوت أن يكون من العاقل الذي يشعر بموجبه ويفعله باختياره ، وإن كان لغير العاقل قنوت يليق به.

وجملة القول ، أن الآية ناطقة بأن ما في السموات والأرض ملك لله تعالى ومسخر لإرادته ومشيئته ، لا فرق بين العاقل وغيره ، فقد حكم على الجميع بالملكية وبالقنوت الذي يراد به التسخير وقبول تعلق الإرادة والقدرة . ولكنه عند ذكر الملك عبر عنه بالكلمة التي تستعمل غالبًا في غير العاقل ، وهي كلمة ﴿مَا﴾ ، لأن المعهود في ذوق اللغة وعرف أهلها أن الملك يتعلق بما لا يعقل ، وعند ذكر القنوت عبر عنه بضمير العقلاء ، لأنه من أعمالهم ومما يعهد منهم ويسند إليهم لغة وعرفًا ، وهذا كما ترى من أدق التعبير وألطفه ، وأعلى البيان وأشرفه.

ثم زاد هذين الحكمين بيانًا وتأكيدًا ، فقال :

﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

قال المفسرون إن البديع بمعنى البدع ، فهو مشتق من الرباعي (أبدع) . واستشهدوا ببيت من كلام عمرو بن معديكرب ، جاء فيه (سميع) بمعنى مسمع.

وقالوا قد تعاقب فعيل ومفعل في حروف كثيرة ، كحكيم ومحكم وقعيد ومقعد وسخين ومسخن . وقالوا إن الإبداع هو إيجاد الشيء بصورة مخترعة على غير

مثال سبق، وهو لا يقتضي سبق المادة.

وأما الخلق فمعناه التقدير، وهو يقتضي شيئًا موجودًا يقع فيه التقدير. وإذا كان هو المبدع للسموات والأرض والمخترع لهما والموجد لجميع ما فيهما، فكيف يصح أن ينسب إليه شيء منهما على أنه جنس له؟! تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

وكان الأصمعي ينكر فعيلًا بمعنى مفعل، لأن القياس يناوؤه من الثلاثي؛ ويقول إن بديعًا صفة مشبهة بمعنى لا نظير له، وبديع السموات معناه البديعة سمواته. وفي هذا ترك للقياس الذي قضى في الصفة المشبهة التي تضاف إلى الفاعل أن تكون متضمنة ضميرًا يعود على الموصوف.

والحق أن تحكيم القياس فيما ثبت من كلام العرب تحكيم جائر. فما كان للدخيل في القوم أن يعمد إلى طائفة من كلامهم فيضع لها قانونًا يبطل به كلامًا آخر ثبت عنهم ويعده خارجًا عن لغتهم بعد ثبوت نطقهم به. فإذا كان كل واحد من الوجهين صحيح المعنى، حكمنا بصحة كل منهما، والأول أظهر، وشواهده المسموعة أكثر.

وأما قوله:

﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾

فمعناه أنه إذا أراد إيجاد أمر وإحداثه فإنما يأمره أن يكون موجودًا. فكن ويكون من كان التامة. وقد ذهب جمهور العلماء إلى أن هذا ضرب من التمثيل، أي أن تعلق إرادته تعالى بإيجاد الشيء يعقبه وجوده، كأمر يصدر فيعقبه الامتثال. فليس بعد الإرادة إلا حصول المراد. وقال بعضهم بل هو قول حقيقي.

وقد وقع هذا الخلاف من أهل السنة وغيرهم. وعجيب وقوعه منهم. فإن عندهم مذهبين في المتشابهات التي يستحيل حملها على ظاهرها، وهما مذهب السلف في التفويض، ومذهب الخلف في التأويل. وظاهر أن هذا من المتشابه. والقاعدة في تأويل مثله معروفة ومتفق عليها، وهي إرجاع النقلي إلى العقلي لأنه الأصل. وههنا يقولون إن الأمر بمعنى تعلق الإرادة وأن معنى (يكون) يوجد.

ذلك شأنه تعالى في الإيجاد والتكوين، وهو أغمض أسرار الألوهية. فمن عرف حقيقته فقد عرف حقيقة المبدع الأول، وذلك ما لا مطمع فيه. وقد عبر عن هذا السر بهذا التعبير الذي يقربه من الفهم، بما لا يتشعب فيه الوهم. ولا يوجد في الكلام تعبير آخر أليق به من هذا التعبير. يقول للشيء: (كن) فيكون. فالتوالد محال في جانبه تعالى، لأن ما يعهد في حدوث بعض الأشياء وتولدها من بعض فهو لا يعدو طريقتين: الاستعداد القهري الذي لا مجال للاختيار فيه، كحدوث الحرارة من النور وتولد العفونة من الماء يتحد بغيره، والسعي الاختياري كتولد الناس بالازدواج الذي يساقون إليه مع اختياره والقصد إليه. وإذا كان كل واحد من الأمرين محالًا على الله تعالى، وكان تعالى هو المبدع لجميع الكائنات، وهي بأسرها ملكه مسخرة لإرادته، فلا معنى لإضافة الولد إليه. سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

أقسام السنة عند الدكتور/ محمد عبد الله دراز



الأصل الثالث علم الرسوخ في علم العربية

ولا تعني بالرسوخ الإحاطة التامة بلغة العرب وحفظ مفرداتها وجمع غريبها؛ فذلك ليس من شرائط الاجتهاد في الشريعة قطعا، ثم هو بعد تحققه ليس كافيا في تحصيل هذه الأهلية قطعا.

أما إنه ليس شرطا في أهلية الاجتهاد فلأن أئمة اللغة كالخليل (١) وسيبويه (٢) والكسائي (٣) والفراء (٤) وغيرهم، كان ذهب عنهم كثير من غريب اللغات، ومختلف اللهجات، حتى يسألوا عنها أهلها، بل العرب أنفسهم كان قد يخفى عليهم شيء من ذلك. روي عن ابن عباس، أنه قال كنت لا أدري ما: ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ حتى جاءني أعربيان يختصمان في بئر فقال أحدهما أنا فطرتها. وعن عمر أنه سأل على المنبر عن قوله تعالى:

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ (النحل: ٤٧)

فأخبره رجل من هذيل أن التخويف عندهم هو النقص. وعن أبي بكر أن النبي ﷺ، جاءه رجل فقال يا رسول الله: أيدالك الرجل امرأته؟ (٥) قال: «نعم، إذا كان ملفجا» (٦) فقال أبو بكر: يا

(١) الخليل بن أحمد هو الخليل بن أحمد بن عمرو الفراهيدي. اختلف في جهة مولده، فقيل بالبصرة، وقيل عمان، وتوفي بالبصرة سنة ١٧٥هـ وقيل ١٧٠هـ. ألف الخليل معجم العين، ووضع علم العروض. انظر الأعلام للزركلي ج ٣، ص ٣١٤، وسير أعلام النبلاء ج ٧، ص ٣١٤.

(٢) سيبويه: أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الفارسي، طلب الفقه والحديث مدة، ثم أقبل على العربية، فبرع وساد أهل العصر، وألف كتابه الكبير (الكتاب) عاش اثنين وثلاثين سنة، وقيل نحو الأربعين، ومات سنة ١٨٠هـ. انظر سير أعلام النبلاء ج ٨، ص ٣٥١، ترجمة ٩٧.

(٣) الكسائي: أبو الحسن علي بن حمزة بن عبد الله الكوفي، له قراءة سبعية، جلس إلى الخليل، وكان ذا منزلة عند الرشيد، وأدب ولده الأمين، مات بالري سنة ١٨٩هـ عن سبعين سنة. سير أعلام النبلاء ج ٩، ص ١٣١.

(٤) الفراء: أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الأسدي، مولاهم الكوفي صاحب الكسائي كان أمير المؤمنين في النحو، وكل له المأمون ولديه يلقنهما النحو. من مؤلفاته (معاني القرآن) توفي سنة ٢٠٧هـ وله ثلاث وستون سنة. سير أعلام النبلاء ج ١٠، ص ١١٩، وما بعدها.

(٥) انظر لسان العرب، مادة بلك. د/ ٢٩٢.

(٦) يقال ألفج بالبناء للفاعل أي أفلس، فهو ملفج بالبناء للمفعول على غير قياس. د/ دراز.

رسول الله ما قلت؟ وما قال؟ فقال ﷺ: «قال أيماطل الرجل امرأته؟ فقلت: نعم إذا كان فقيرا. فقال أبو بكر: ما رأيت أفصح منك يا رسول الله. قال الشافعي رحمه الله في رسالته (٧) الموضوعة في أصول الفقه: لسان العرب أوسع الألسنة مذهبا وأكثرها ألفاظا. قال: ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي، ولكنه لا يذهب منه شيء على عامتها حتى لا يكون موجودا فيها من لا يعرفه. قال: والعلم به عند العرب، كالعلم بالسنة عند أهل الفقه، لا نعلم رجلا جمع السنن، فلم يذهب منها عليه شيء. فإذا جُمع علم عامة أهل العلم بها أتى على السنن، وإذا فرق علم كل واحد منهم ذهب عليه الشيء منها، ثم كان ما ذهب عليه منها موجودا عند غيره. اهـ.

وأما أن حفظ متن اللغة ليس كافيا في تحصيل رتبة الاجتهاد فلأن استنباط الأحكام من النصوص كان يتوقف على معرفة مفردات اللغة وتصريفها واشتقاقها كما يتوقف على معرفة طرائق العرب في تركيب هذه المفردات، ومعرفة أساليبها في محاوراتها ومخاطباتها، وأنها - كما قال الشافعي - قد تتكلم بالعام تريد به الخاص، أو تريد به العام في وجه، والخاص في وجه، وقد تتكلم بالظاهر تريد به غير ظاهره، تستغني فيه باللمحة والإشارة عن صريح اللفظ، وتبين بأول كلامها عن آخره، وبآخره عن أوله، إلى غير ذلك من التصرفات التي يعرفها من زاول كلامها.

فالقرآن والسنة بما هما عربيان، لا يمكن فهمهما إلا على هذا المنهج العربي. مثال ذلك أن الله تعالى يقول:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا﴾

(الكهف: ٧٧)

فهذا من العام المراد به الخاص، لأنهما لم يستطعما جميع أهل القرية، وكذلك قوله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ﴾

(آل عمران: ١٧٣)

فالمراد بالناس في كل منهما الخصوص: أما الناس في الموضع الأول فهم نعيم بن مسعود الأشجعي في أربعة نفر، وأما الناس في الموضع الثاني فالمراد بهم المشركون دون غيرهم، لأن المجموع لهم وهم المؤمنون - ناس أيضا وقد خرجوا. ويقول الله تعالى:

﴿مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾

(التوبة: ١٢٠)

فهذا من العام الذي يراد به العام في وجه والخاص في وجه، فتحريم التخلف عن رسول الله ﷺ، خاص بمن أطاق الخروج من الرجال، وتحريم الرغبة بأنفسهم عن نفسه، عام في من أطاق

(٧) الرسالة للشافعي. تقريب التراث. ص ٦٤ ط الأهرام.

ومن لم يطق. ويقول الله تعالى:

﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ﴾

(الحج: ٤٥)

فهذا من الظاهر الذي يراد به غير ظاهره، إذ إن ظاهره إهلاك القرية وتدمير بنيانها، ولكن قوله ﴿ظَالِمَةٞ﴾ دلّ على أن المراد أهلها. وكذلك قوله:

﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ﴾

(الأعراف: ١٦٣)

فالمراد أهل القرية بدلالة قوله:

﴿إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ﴾

(الأعراف: ١٦٣)

إلى غير ذلك. ولا شك أن حاجة المستنبط إلى معرفة هذه المناهج والأساليب أشد من حاجته إلى معرفة تلك الأوضاع المفردة، فإن الحكم الذي يريد استنباطه إنما هو مقصود التركيب ومرمى الأسلوب، وما الأوضاع الإفرادية إلا وسيلة إليه ومقدمة من مقدماته. ولذلك قد يباح له الرجوع إلى غيره في معنى بعض المفردات، ولا يباح له بحال أن يكون مقلدا لغيره في معرفة مقاصد التراكيب، وإلا لكان مقلدا في عين ما هو مجتهد فيه. وهذا تناقض بيّن.

على أنه إذا كانت معاجم اللغة قد كفتنا اليوم مهمة المعاني الإفرادية فلن تكفينا هذه المعاجم ولا كتب القواعد كلها في معرفة الأغراض التركيبية لأسلوب أسلوب.

فالواجب إذن على من أراد استنباط شيء من نصوص الكتاب والسنة، أن يكون قد زاول نفسه أساليب العرب، حتى رسخت فيه ملكة الفهم المستقل لمناص كلامها، وحتى صار فهمه لكلام العرب ككلام نفسه، ثم لا يكون حسن ظنه بنفسه في ذلك كثيرا، حتى يشهد له علماء العربية بهذه الأهلية.

فمن اعتمد على فهمه في الشريعة مستقلا قبل أن يستكمل هذه المرتبة، فقد تكلف ما لا يحسنه، وانتحل ما ليس من نحلته، ودخل عليه الخطأ من حيث يظن الإصابة، وكان غير معذور في خطئه ذلك، بل كانت موافقته للصواب إن وافقه غير محمودة (٨)، لأن من لم يستكمل شرائط الاستنباط حرُم عليه الاستنباط، كما أن العاميّ الذي لا يحسن النظر في الأدلة يحرم عليه الترجيح بين آراء العلماء.

ومن هذا الباب دخلت أنواع من البدع في أصول الشريعة وفروعها.. فمن أمثلة ذلك في الفروع أن بعضهم أخذ من قوله تعالى:

﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾

(النساء: ٣)

أنه يجوز للرجل تسع من الحلائل؛ لأن أربعا إلى ثلاث إلى اثنتين تسع.

(٨) قاله الإمام الشافعي في رسالة الأصول د/ دراز

وهو جهل بمعنى فُعال ومَفْعل في لسان العرب (٩).

وبعضهم قال إن المحرم من الخنزير لحمه لا شحمه؛ لأن الله إنما حرم لحم الخنزير. ولم يدر أن العرب تطلق اللحم على الشحم وإن كانت لا تطلق الشحم على اللحم. وزعم آخر أن يمين الإيلاء (١٠) لا تنعقد إلا بلفظ الجلالة ظنا أن الإيلاء مشتق من اسم الله.

ومن أمثلة ذلك في الأصول أن الظاهرية المجسمة (١١) جعلوا لله وجها وجنبا وعينا ويدا.. إلخ، لورود هذه الأسماء في القرآن. ولو علموا أن العرب تقول: فعلت هذا لوجه فلان، أي لفلان، وتقول هذا الأمر يصغر في جنب هذا الأمر، أي بالإضافة إليه، لما قالوا الذي قالوه.

ومن ذلك زعم بعض الجهلاء أن مذهب الدهرية ثابت في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم وهو قوله ﷺ: «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر» (١٢)، وما درى أن المعنى أنكم إذا سببتم الدهر عند نزول المصائب بكم فقد سببتم الفاعل الحقيقي، وهو الله، لأنه هو الذي أصابكم لا الدهر.

فإذا انضم إلى الجهل باللغة قصد تحريف الكلم عن مواضعه كانت البدعة أوغل في مفارقة الدين، ومن هذا النوع بدعة الباطنية (١٣) الزنادقة الذين أوّلوا نصوص الكتاب كلها، فجعلوها رموزا لمعان لا تعرفها العرب ألبتة، وانحلوا بذلك من عقدة التكاليف، نظرا وعملا والعياذ بالله.

هذا وقد عرفت أن ترك السنة لا يستدعي فعل بدعة، إلا أن تترك السنة على اعتقاد أن خير الدين في تركها، فيكون من قبل السنة، ومثل ذلك من يترك الصلاة في جماعة بدعوى أن صلاته في حال انفراد أجمع للقلب وأدعى للخشوع.

أما من ترك السنة لغرض دنيوي فلا يسمى لمجرد تركه السنة مبتدعا كما اعتاد الناس ترك تشميت (١٤) الرؤساء، مهابة لهم، ولو حمدوا الله تعالى بعد العطاس، فقد عطس المأمون (١٥) مرة في حضور جماعة، فلم يشمته أحد، فقال لهم: لماذا لم تشمتوني؟ فقالوا: هبناك. فقال: لا خير في مهابة تحرمني رحمة الله.

وإنما كانت يشوّه وجه الدين، في مجالس الرؤساء، استنكاف بعضهم من الرد على من يشمتونهم، وما كان لهم أن يستنكفوا.

وإذا كانت البدعة تشوه وجه الدين الحنيف في نظر من يجهلون حقائقه، فضلا عن ما تجره من المفاسد العظيمة، أو المآثم الكبيرة، فمن الواجب على أهل العلم الديني أن يحاربوها، بما استطاعوا من قوة وحجة بالغة، وعلى القوة الحاكمة أن تشد أزرهم.

وكثير من البدع لا تقتلع عروقها وتطمس آثارها، إلا بتعاضد القوتين العلمية الدينية والتنفيذية، على إماتتها. قال عز الدين بن عبد السلام في رسالة (١٦) أنكر فيها بدعة صلاة الرغائب: لما صح عند السلطان الملك الكامل رحمه الله أنها من البدع المفتراة على سيدنا رسول الله ﷺ، نهى الناس عنها، فطوبى لمن تولى شيئا من أمور المسلمين فأعان على إماتة البدع وإحياء السنن.

وبعد، هذا ما أفاض الله به عليّ وأنعم، راجيا منه أن ينتفع بها من استمع إليها وعمل بما جاء فيها.

وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب. وصلى الله على سيدنا محمد النبي العربي خاتم المرسلين، وعلى آله وصحبه وسلم، تسليما كثيرا.

وبعد، فهذا آخر ما كتب الشيخ عن أصول الابتداع ويبقى الأصل الرابع، وهو الجهل بمقاصد الشريعة، وقد ذكره الإمام الشاطبي في حديثه عن أصول الابتداع. وهي عنده أربعة:

١- الجهل بأدوات الفهم.
٢- الجهل بالمقاصد.
٣- تحسين الظن بالعقل.
٤- اتباع الهوى.

وفي الصفحات القادمة نقل واف لحديث الإمام الشاطبي عن أصل: الجهل بمقاصد الشريعة.

يتبع

---

(٩) يقول الكمال بن الهمام في الفتح: «اتفق الأئمة الأربعة وجمهور المسلمين على أنه لا يجوز الجمع بين أكثر من أربع زوجات. وأجاز الروافض تسعا من الحرائر، وأجاز الخوارج ثماني عشرة. ولكن بالرجوع إلى كتب الشيعة والإباضية من الخوارج لم أجدهم يقولون بذلك، فقد جاء في الروض النضير ج ٤ ص ٤٨، من كتب الشيعة الزيدية: «وما أعلم أحدا من أصناف الشيعة جوّز التزوج بأكثر من أربع». لكن كتب التفسير تشير إلى وجود من قال بذلك الرأي، دون أن تعين أسماءهم. وهو رأي عجيب غريب لا يستقيم مع قواعد اللغة.

(١٠) يمين الإيلاء لا تنعقد إلا (باسم الله).

(١١) المجسمة هم قوم من الجهال، زعموا أن الله تعالى جسمٌ حقيقة، وقال بعضهم إنه مركب من لحم ودم، وقال بعضهم إنه نور يتلألأ كالسبيكة البيضاء وطوله سبعة أشبار من شبر نفسه، ومنهم من يقول إنه على صورة إنسان، فقيل شاب أمرد جعد أي شديد الجعودة، وقيل هو شيخ أشمط الرأس واللحية. تعالى الله عن قول المبطلين. انظر: شرح المواقف. ص ٤١ و٤٢.

(١٢) الحديث أخرجه مسلم، ك/ الألفاظ من الأدب، باب النهي عن سب الدهر، حديث رقم ٥٨٢٧.

(١٣) الباطنية قوم تستروا بالإسلام ومالوا إلى الرفض، وعقائدهم وأعمالهم تباين الإسلام بالمرة، فمحصول قولهم تعطيل الصانع وإبطال النبوة والعبادات وإنكار البعث، ولكنهم لا يظهرون هذا في أول أمرهم، بل يزعمون أن الله حق وأن محمدا رسول الله والدين صحيح، لكنهم يقولون لذلك سر غير ظاهر. تلبيس إبليس. ص ١٠٢، ط مكتبة الدعوة. سنة ١٣٦٨هـ. وقد ظهرت الباطنية أولا في زمان المأمون وانتشرت في زمان المعتصم. الفرق بين الفرق. ص ١٧١.

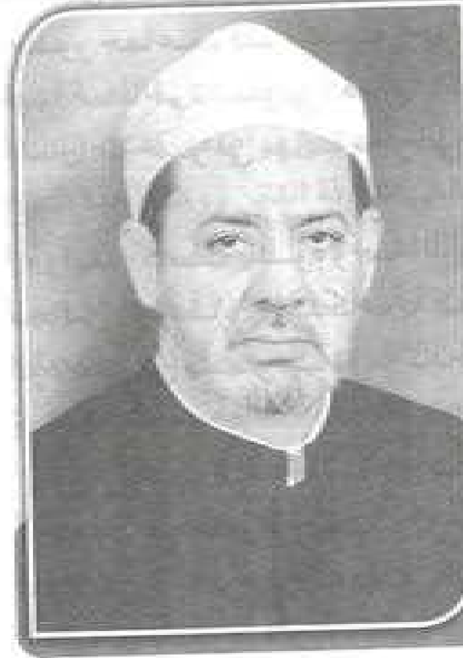
(١٤) تشميت العاطس الدعاء له.

(١٥) المأمون هو الخليفة العباسي أبو العباس عبد الله بن هارون الرشيد. ولد سنة ١٧٠هـ، قرأ العلم والفلسفة والأدب، اهتم بالترجمة ونصر المعتزلة وفتن الناس بالقول بخلق القرآن. توفي سنة ٢١٨هـ. سير أعلام النبلاء. ١٠/ ٢٨٢، فوات الوفيات. ٢/ ٢٣٥، شذرات الذهب. ٢/ ٢٣٩.

(١٦) أورد هذه القصة ابن السبكي في طبقات الشافعية. ج ٤ ص ١٠٥.

نظرات فى فكر الإمام الأشعرى (٧)

إجراء العلة أو تصحيحها



لفضيلة الإمام الأكبر أ. د. أحمد الطيب
شيخ الأزهر

إجراء العلة أو تصحيحُها مرحلة تبدأ بعد أن يعرف السائل معرفة تامة مقالة المجيب، ودليله ،ووجه الدلالة - أى : الكشف عن الضرورة المنطقية بين وجه الدلالة الذى هو العلة فى الحكم ، وبين المقالة أو المذهب الذى يتقلده الخصم ،والقاعدة الجدلية هنا : هى أن على السائل أن يسلك - بعد تثبته من الخطوات السابقة - أحد طريقين : طريق إجراء العلة ، أو طريق تصحيح العلة .

ومعنى إجراء العلة : إثبات أن العلة التى ذكرها المجيب لا يترتب عليها هذا الحكم ، أو هو ما يعبر عنه : «بمؤاخذة المستدل بطرد العلة» وذلك بأن يطرد المستدل علة المجيب فى موطن آخر تتخلف فيه دعوى المجيب .

ومعنى تصحيح العلة : مناقشة السائل للمجيب حول علته التى استند إليها وهو يقرر دعواه ، وبعبارة موجزة : على السائل أن يبين فساد العلة بطريق مباشر أو بطريق غير مباشر ، وإلا كان مسلمًا للخصم .

وقد ضرب الأشعرى مثلًا لإجراء العلة ولتصحيحها من خلال مناظرتين قصيرتين ، تدور إحداهما حول قدم العالم أو حدوثه بين سائل موحد ، ومجيب ملحد ، وتدور أخراهما بين الشخصيتين نفسيهما حول التناهى أو اللاتناهى فى الأجسام .

أما المناظرة الأولى : فقد اختار فيها الملحد مذهب «قدم العالم» ،وكان دليله على هذا المذهب : « المشاهدة الحسية» ، ووجه الدلالة عنده : أنه لم ير جسمًا ينشأ من عدم محض ، بل إنه يرى الأجسام ينشأ بعضها عن بعض ،ويرى المادة كلها يتولد بعضها عن بعض ، وإذا كان الأمر كذلك ، فإن القول بوجود جسم حدث فى الأزل بعد أن لم يكن ... قول باطل فى مذهبه .

إن السائل هنا مخالف للمجيب فى مقالته ، ومخالف له فى علته التى أوجبت عنده هذه المقالة ،وقواعد الجدل تقضى على السائل (الموحد) أن يأخذ المجيب : إما بإجراء العلة ، وإما بتصحيحها ، وكلا الطريقين مؤد إلى نقض مقالة الملحد من أساسها .

فإذا أخذه السائل بإجراء العلة ، فعليه أن يقول للملحد : إذا كنت تقول : إن العالم قديم لأنك لم تشاهد جسمًا حدث بعد أن لم يكن ، فيجب أن تقول : إن العالم ليس قديمًا ؛ لأنك أيضًا لم تشاهد جسمًا قديمًا موجودًا منذ الأزل ، بل إنَّ استبعاد مشاهدة جسم قديم لم يزل موجودًا - أشد من استبعاد مشاهدة جسم حدث بعد أن لم يكن ، إذا كانت المشاهدة هى وحدها العلة الكافية وراء هذين الاستبعادين .

ونلاحظ أن السائل فى هذه الخطوة قد أخذ علة الملحد فى إثبات مذهبه - وهى هنا عدم مشاهدة حدوث الأجسام وأجراها فى موطن آخر تخلف فيه مذهب المجيب ، أى إن السائل قد رتب على عدم المشاهدة وهو عين ما اعتل به الملحد القول بعدم القدم ؛ إذ المشاهدة لا يمكن لها أن تُنبئنا عن جسم قديم موجود منذ الأزل ، وما دام الأمر أمر مشاهدة فقط ، وما دامت المشاهدة لم تثبت قدم الأجسام ، فعلى المجيب إذا أن يطرد عين هذا الحكم ، ويلتزم القول بعدم القدم ، وعدم القدم لا شك نقيض مذهبه ومدعاه .

أما إذا أخذه السائل بتصحيح العلة ، فعليه أن يقول للملحد : إنك شاهدت الأجسام التى رأيتها ، فوجدتها لا تحدث بعد عدم كما - زعمت - فلنسلم لك ذلك ، لكن لم تزعم أن الأجسام التى لم ترها لا يثبت لها حكم مخالف لما رأيت ؟ بل لم تزعم أن الاستدلال محصور فى مشاهدة الأجسام ومقصور عليها ؟! ولم تأبى أن يكون نقيض ما تدعيه ثابتًا بطريق العقل ، وهو طريق لا يتصوره الوهم ولا يقع عليه الحس ؟!

ونلاحظ أن السائل فى هذه المرة لا يلجأ إلى مدِّ العلة وطردها وإجرائها خارج مقالة الخصم ، بل يلجأ إلى طريقة معاكسة تمامًا للطريقة الأولى ، يوجه فيها كل محاولاته لإثبات أن العلة قاصرة وبالتالى هى غير صحيحة ؛ لأنها وإن أعطت حُكمًا على بعض الأفراد - وهى الأفراد المشاهدة - فإن هذا الحكم يفقد أى مسوغ لتعميمه وسحبه على الأفراد الغائبة ، وكأن المجيب هنا يستعمل العلة استعمالًا خاطئًا ؛ حيث يعممها دون مسوغ يستند إليه فى هذا التعميم ، ولذلك كان موقف السائل منه موقف التصحيح لهذا الوضع الخطأ [١] .

١ - المجرد ، لابن فورك اللوحة : ١٤٤ (ب) ٢٩٧ .

والمناظرة الثانية التي تدور حول تناهي الأجسام أو لا تناهيها يطبق فيها الشيخ أيضًا قاعدة «إجراء العلة وتصحيحها من قبل السائل» ، وهنا ننقل هذه المناظرة كما رواها ابن فورك عن الشيخ ؛ لنتبعها بعد ذلك بشيء من التحليل نتعرف منه على مؤاخذة السائل للمجيب بما تقتضيه القاعدة السابقة :

« لو سأل موحد ملحدًا ، فقال : ما قولك في الأجسام : أمتناهية هي أم غير متناهية ؟ فقال له الملحد : ليست الأجسام متناهية . فقال له الموحد : ولِمَ زعمت ذلك ؟

فقال الملحد : لأني لم أشاهد جسمًا إلا وبعده جسمٌ ، فقضيت بذلك على ما غاب من الأجسام أنها لا غاية لها ولا نهاية .

فللموحد أن يقول له : ولم زعمت أنك إذا لم تشاهد جسمًا إلا وبعده جسم أوجب ذلك أنه لا نهاية للأجسام ؟

فإن قال له الملحد : لأن المعقول هو ما شاهدته ، ولا يجوز الخروج عن المعقول فحكمت بما شاهدت على ما غاب عني أنه لا نهاية له .

فللمُوحد أن يقول له : فلم زعمت أنك إذا لم تشاهد [٢] جسمًا إلا وبعده جسمٌ ، فلا معقول إلا ما شاهدته ، ولا معلوم إلا ما أحسسته ، وأن المعقول في ما غاب كالمعقول في ما شوهد ؟

وكان للموحد أن يقول له أيضًا : ينبغي أن يستحيل أيضًا وجود أجسام في الغائب لا نهاية لها ولا حدًّا ؛ لأن ذلك خلاف الشاهد وإذا كانت علة الملحد في إحالة وجود أجسام لا أجسام بعدها : أن ذلك خلاف الشاهد ،فيجب أن يحيل أيضًا وجود أجسام لا آخر لها ؛ لأن ذلك خلاف الشاهد» [٣] .

ومما ينبغي الالتفات إليه في هذا النص : إن المسوغات التي استند إليها الملحد في وجه الدلالة هي : مشاهدة الأجسام الحاضرة أمام الحس ، وانحصار الاستدلال في هذه المشاهدة ، ثم طرد حكم الأجسام المشاهدة في الأجسام الغائبة وأن مناقشة الموحد كانت تنصب على تصحيح العلة في بداية المناظرة ومن هنا أنكر على الملحد أن يقيم علاقة حتمية بين مشاهدة الأجسام متتابعة كعلة ، وبين لا نهائية الأجسام كدعوى ، وإذا كان الملحد قد ربط ربطًا بين أجسام يراها أمام عينيه متتابعة ومتتالية ، وبين

٢- لاحظ محاولة الأشعري تصحيح وضع ، المسألة بعد أن كانت منقلبة رأسًا على عقب عند الملحد ، فالقضية قضية ميتافيزيقية أولاً وأخيرًا وهي تخضع فقط للبرهان العقلي لا للمشاهدة ولا للتجربة الحسية ، وانظر كيف حصر الملحد استدلالاته فيما يشاهده فقط ، وكيف حكم بدليل تجريبي حسي على محض قضية ميتافيزيقية غيبية ، وهذه مغالطة منهجية نجدها في شغب الماديين على القضايا الغيبية على اختلاف أزمنتهم وأمكنتهم ، وكثيرًا ما لا يتفطن الطرف الآخر في الحوار لهذه المغالطة ، وينزلق إلى حوار قضايا العلم التجريبي في محاولة لجره إلى المعسكر الإلهي أو المعسكر المادي ، مع أن قضايا العلم بطبيعتها قضايا محايدة ، وهي وإن كانت لا تثبت قضية غيبية إثباتًا مباشرًا فإنها بالتالي لا تنفيها وليس في طبيعة القانون العلمي بمحدوديته وانحصاره في حدود المحسوس المشاهد ما يؤهله للحكم على قضايا ما ورائية لا نفيًا ولا إثباتًا انظر في هذا الموضوع فلسفتنا لمحمد باقر الصدر : ١٨٣ ـ ١٨٧ .

٣- المجرد ، لابن فورك (اللوحة : ١٤٥ / أ) ٢٩٧ .

أجسام أخرى ضاربة في بطون الأزمان والآباد ، وحكم بأن الطائفة الثانية يجب أن ينسحب عليها حكم الطائفة الأولى (اللا تناهي) فإن الموحد لا يرى أية ضرورة عقلية تقضي باستنباط هذه من تلك ، وقد كانت المسوغات التي استند إليها الموحد ، هي أن تتابع الأجسام في الشاهد لا يسوغ الحكم بلا نهائية الأجسام مطلقًا ، وأن حصر العلم في الاستدلال بالأجسام المشاهدة تحكم محض ، فلم لا تكون الأجسام متناهية ، ويكون الحكم عليها بالتناهي مستدلاً من علة غير منحصرة في مشاهدة الأجسام المتتابعة ؟! ثم ما يدريني أن حكم الأجسام الغائبة مماثل لحكم الأجسام في الشاهد ؟!

أما القسم الثاني من المناظرة : فقد طالب السائل فيه بإجراء العلة ذلك أن الملحد إذا كان قد قرر استحالة وجود أجسام متناهية في الغائب لأن ذلك عكس ما يطالعنا به الشاهد فإن عليه أن يعترف من منطلق علته نفسه باستحالة وجود أجسام لا متناهية في الغائب ؛ لأن الشاهد يطالعنا بخلاف ذلك .

وينبغي أن نعرف أن طريق إجراء العلة لا ينحصر في هاتين المؤاخذتين اللتين ألمعنا إليهما ، بل للموحد أن يطالب الملحد بمطالبات أخرى وهو بصدد إجراء العلة أيضًا ، فله أن يقول في دعوى قدم العالم مثلاً :

إذا كانت علتك أيها الملحد في قولك بقدم الأجسام أن المشاهدة لا تريك أجسامًا محدثة ، فأنت أيضًا لم تكن موجودًا في الأزل ، ولم تشاهد أجسامًا قديمة ، وعلتي في الاحتجاج هي علتك نفسها ، وهي هنا توجب ألا تكون الأجسام قديمة ،فالتزم بالقول بحدوث الأجسام .

وللموحد أن يقول في دعوى لا تناهي الأجسام : إن علة الملحد في قوله بلا تناهي الأجسام هي أن المشاهدة دلت على أن كل جسم بعده جسم ، فما المقصود بالعلاقة المعبر عنها بالبعدية بين الجسمين ؟ هل المقصود أن الجسم يوجب وجود جسم بعده ؟ فإن قال الملحد نعم قيل له ولم قلت ذلك ؟ فإن ادعى أنه علم ذلك مشاهدة ، فإن للموحد أن يعارضه بعلمه مشاهدة أيضًا بأن الجسم لا يكون جسمًا بسبب وجود جسم بعده ، وأن الجسم لا يوجب وجود جسم بعده مشاهدة وحسًا ، بل المشاهدة تدل على خلاف ذلك ، إذ إننا نشاهد إنسانًا لا يعقب وراءه إنسانًا آخر وطائرًا لا يولد بعده طائر منه ، » وليس قول من قال : إن الجسم كان جسمًا لوجود جسم بعده بأولى ممن قال : كان جسمًا موجودًا لمجامعته لغيره من الأجسام ، أو لمفارقة غيره منها وهذا فاسد ؛ لأنه ليس من جسم يجامعه جسم إلا وقد يجوز أن يفارقه ، كما أنه ليس من جسم يفارقه جسم إلا وجائز أن يجامعه» [٤] .

وهكذا كل علة فاسدة يبنى عليها

٤- من (اللوحة : ١٤٥ / ب) ٢٩٩ .

المناظر مذهبه ،فإن طريق إجراء العلة أو تصحيحها ينتهي به إما إلى التناقض مع مذهبه ، وإما إلى قصور العلة ذاتها ، أي : عدم طردها وعكسها ، وهو كما ستعرف من قوادح العلة العقلية التي تفسد العلة وما ينبني عليها من المقالة والمذهب .

المنازعة في العلة:

هناك مقام آخر من مقامات السائل ، هو مقام المنازعة في العلة ، و ذلك بالبحث أو التساؤل عن العلة بأسلوب يوقع الخصم في حرج منطقي لا يدري معه أيتمسك بالعلة فيناقض نفسه أم يضرب عنها صفحًا فينهدم برهانه ، ولنعتبر ذلك في العلة التي يتمسك بها الملحد ، وهي : اعتبار الشاهد المحسوس العلة الأولى والأخيرة للحكم على الأجسام بأنها غير متناهية . إن للموحد في هذا المقام أن يقول للملحد : أنت تحكم بأن الأجسام لا متناهية ، وعلة دعواك : أن الحكم بأن الأجسام متناهية خلاف الشاهد فأنت إذا ترى أن المشاهدة والحس هما المنبعان الوحيدان للعلم ، وأنه لا يعلم شيء إلا عن طريق الحس والمشاهدة هذه قاعدتك فهل أنت ملتزم بها؟

فإن قال الملحد : لا ألتزم بهذه القاعدة ، فقد انهدّت مقالته ، وانتقض برهانه ؛ لأن التمسك بالمحسوس مصدرًا وحيدًا للعلم بلا نهائية الأجسام، هو كل ما في جعبة الملحد من براهين .

وإن قال الملحد : نعم أن ملتزم بهذه القاعدة .

قال له الموحد قاعدتك هذه وهي : «لا يعلم شيء إلا بالحس والمشاهدة» هل جاءك العلم بها من الحس والمشاهدة أيضًا ، أو من مصدر آخر غيرهما ؟

فإن قال الملحد : علمتها من الحس والمشاهدة ، كان مدعيًا على إحساسات الناس ومشاهداتهم ما ليس فيها ، فليس في الحس ولا في المشاهدة علم من هذا القبيل.

وإن قال علمتها من غير الحس والمشاهدة ؛ انتقض برهانه ، وناقض قوله الذي بنى عليه مقالته في أول المناظرة ، إذ معنى ذلك : أن ثمة مصدرًا للعلم خارج نطاق الحس وخارج نطاق المشاهدة ، ويكون العلم بتناهي الأجسام الغائبة مما ينتمي إلى هذا المصدر من العلم .

يتبع

القرآن يتحدث عن المرأة



الشيخ/ محمود شلتوت

يظن كثير من الناس أن خطل الرأي، وفساد التدبير، وضعف التفكير من الخلال التي خلقت عليها المرأة، وأنها لا تستطيع - بمقتضى الخلق والتكوين - أن تكون غير ذلك، ومن هنا تراهم يصدفون عنها في مواضع الرأي، ولايعبأون بمشورتها، ولا يعتدون بأفكارها، بل ترى طائفة منهم أو طوائف، إذا وجدوا ناشئا هزيل الخلق غير كامل الرشد قالوا عنه: تربية امرأة! وإذا سمعوا برأي فاسد، أو فكرة منحرفة قالوا: رأي امرأة.

الطبيعة واحدة:

وهو موقف دفعهم إليه ما تخيلوه من أن الأنوثة يتبعها ضعف البدن والعقل، وأن الذكورة هي موطن القوة والسداد. والحقيقة أن الطبيعة البشرية في الرجل والمرأة تكاد تكون على حد سواء، وأن الله قد وهب النساء كما وهب الرجال، ومنح كل من الرجل والمرأة المواهب التي تكفي في تحمل المسئوليات، والتي تؤهل كلا من العنصرين للقيام بالتصرفات الإنسانية العامة والخاصة.

ومن هنا جاءت أحكام الشريعة الإسلامية تضعهما في إطار واحد، فهذا يبيع ويشتري، ويزوج ويتزوج، ويجني ويعاقب، ويدعي ويشهد، وتلك تبيع وتشتري، وتزوج وتتزوج، وتجني وتعاقب، وتدعي وتشهد.ولو تتبعنا حالتي الرجل والمرأة لوجدناهما في خضم هذا الحياة كمؤسسي شركة أو مصنع، وزعت أعماله المتعددة في نواحيه المختلفة، والتي لا قوام له إلا بها عليهما معا، كل يقوم بنصيبه في هذه الشركة، ولكل منهما فيما يقوم به علم وحكمة، وتدبير ونظر.

الوضع التاريخي للمرأة:

وإذا كان القرآن قد رسم الخطوط العامة التي يشترك الرجل والمرأة بالسير فيها، وتجلى منها أن وضع المرأة على وجه عام هو من نوع وضع الرجل، وأن كلا من الوضعين يكونان الوضع العام للحياة في أعمالها مقتضياتها ومسئولياتها وتبعاتها، فإن القرآن سار بهما في التحدث عنهما

بإبراز المصلحين والمصلحات، وإبراز المفسدين والمفسدات على هذا النحو الذي يشتركان فيه، والذي يدل دلالة واضحة على أنهما من قديم الزمان قوتان تعملان وتوجهان وتكتسبان، وأنهما قد يكتسبان الخير والصلاح، وقد يكتسبان الشر والفساد، وأن التاريخ وأقلامه التي لا تنسى تسجل للمصلحين صلاحهم، وللمصلحات صلاحهن، وتسجيل على المفسدين إفسادهم، وعلى المفسدات إفسادهن، وبذلك تطابق الوضع التشريعي القرآني للرجل والمرأة مع الوضع التاريخي القرآني لهما.

ففي التاريخ الذي قصه القرآن الكريم عن الأولين، الذي حفظناه عن عهد الرسالة المحمدية، أبرز الأمثلة التي يتبين بها أن وضع المرأة التاريخي كوضع الرجل التاريخي: عند الرجل ثقة بالله، وسلامة في الرأي، وحسن في التدبير، ودقة في النظر، وقوة في الفراسة، وقدرة على استجلاء الحقائق الغامضة، وتصريف الشئون على أساس متين، وعند المرأة من كل ذلك ما يحفظ لها مكانتها، بل وفضلها إزاء أخيها الرجل.

اصطفاء واصطفاء:

أنبأنا القرآن أن الله اصطفى من النساء كما اصطفى من الرجال:

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ ﴾

(آل عمران: ٣٣، ٣٤).

﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾

(آل عمران: ٤٢، ٤٣).

﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾

(الأحزاب: ٣٥).

امرأة عمران وابنتها مريم:

وأنبأنا القرآن أن الله تقبل المرأة فيما يتصل بشئون العبادة، والقيام بخدمة أماكنها المقدسة، كما يتقبل الرجل، وقص علينا في ذلك ما كان من شأن امرأة عمران:

﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾

(آل عمران: ٣٥-٣٧)

كان المعروف أن الذي يقوم بخدمة الأماكن المقدسة هو الذكر دون الأنثى، وفي ظل هذا العرف المنحرف تحسرت امرأة عمران حينما وضعت حملها المنذور أنثى، وظنت بمقتضى السائد في العرف إذ ذاك أنه قد فاتها الوفاء بالنذرها، فأبطل الله عليها هذ الظن، وأنبأها أنه في المهمة التي لأجلها نذرت ما في بطنها يتقبل الأنثى كما يتقبل الرجل، بل قال هنا بعض المفسرين، إن قوله تعالى:

﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ﴾

من كلام الله، ومعناه: أن رجلا من الرجال لايصل في هذه المهمة إلى مرتبة هذه الأنثى التي اصطفاها لأمر أراده بعد، والقصد تخطئة امرأة عمران في تحسرها على أنها وضعت أنثى، وفي ظنها أن الرجل هو المقبول دون الأنثى، وقد أبدت الإيمان واللجوء إلى الله واضحة فيما قالت حينما عوزت ابنتها بالله من الشيطان الرجيم، وحينما امتد نظرها إلى الأفق البعيد، فلم تكتف بتعويذ ابنتها حتى عوزت معها ذريتها:

﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾

(آل عمران: ٣٦)

مريم توجه زكريا إلى دعاء ربه:

وأنبأنا القرآن أن زكريا وهو نبي مرسل قد كفل مريم:

﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

(آل عمران- ٣٧)

احتلت مريم من قلب زكريا مكانا عليا، هيأه لها عقلها ورشدها، وسداد إجابتها، وحسن عبادتها، وكمال ثقتها بالله، وأوحى إليه قولها - في شأن الرزق الذي ما كان يعرف مصدره - إن عطاء الله لعبده لايتقيد بسنة معروفة، ولايتوقف على سبب معين، ولا حالة معينة فهو يعطي إن شاء، ويمنع إن شاء، فدفعه ما رأى منها وما سمع إلى الالتجاء إليه سبحانه فيما يهمه في أن يكون له ذرية طيبة، على ما به من كبر وشيخوخة، وما بامرأته من عقم وعقر:

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨) فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (٣٩) قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾

(آل عمران: ٣٨-٤٠)

وبذلك كان يحيى عليه السلام أثرا لدعوة زكريا التي وجهته مريم إليها، وأوحت بها إليه.

وبمريم هذه ابتدأ العالم مرحلة جديدة من المراحل الإلهية، وكان مظهرها البارز، ولسانها الناطق، وربانها الطاهر، «عيسى كلمة الله» عيسى ابن مريم وحدها، قد

اختصت به الأنثى، ليس للرجل فيه نصيب:

﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝٣١ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾

(مريم: ٣٠-٣٢).

المرأة في عهد موسى:

وإذا كان عهد عيسى يذكر بمريم وأمها، ويذكرنا بزكريا ويحيى، وما كان للجميع من سمو ومكانة، وقيادة روحية، سجلها القرآن الكريم الكتاب الخالد فإن عهد موسى يذكرنا بعدة نساء كان لهن أثر وتدبير، ورأى وفراسة، وقوة وإيمان، خلال تجمعت فيهن، وحفظن بها موسى قائد العهد الذي اصطفاه الله برسالته وكلامه، وقد سجل القرآن شأنهن في هذه المرحلة: وكانت أول امرأة منهن أم موسى، يوحي الله إليها:

﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾

(القصص: ٧)

وما الظن بامرأة تلقي ولدها في اليم؟ إنها المؤمنة أم موسى؛ يوحي الله إليها، ويرسم لها خطة النجاة لولدها، وهي فيما يري الناس خطة الهلاك ولكنها الواثقة بأن الذي يوحي إليها هو الله، فتطمئن وتتلقى وعده وبشراه، وهي المرأة.

وكانت المرأة الثانية في حياة موسى هي أخته، التي وكلت إليها أمه متابعته في السير، ومعرفة اتجاهه، والعمل على إنقاذه: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ تتبعي أثره:

﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١١ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ۝١٢ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾

(القصص ١١: ١٣).

امرأة وابنتها يديران خطة كيد لطاغية جبار، فتنقذان فريسته من مخالبه، ويرده طائعا إلى أمه على هذا النحو من الإعزاز والتكريم للوليد وأم الوليد، وتلك هي المرأة!!

كانت المرأة الثالثة في حياة موسى هي امرأة الطاغية نفسه «امرأة فرعون» تنقذه من يده، وقد هم بقتله، وتستغل عقمها وحرماتها من الولد وتملك على فرعون قلبه وعاطفته:

﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾

(القصص: ٩).

فأخذه من ناحية العاطفة، وتفتح أمامه أبواب الأمل، وما أقوى العاطفة والأمل، سلاحين مؤثرين في القلوب القاسية وتلك هي المرأة!!

وكانت المرأة الرابعة هي ابنة شعيب، تلقته مع أختها وهو شريد طريد عند الماء:

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ۝٢٣ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾

(القصص ٢٣، ٢٤)

سقى لهما فذهبتا إلى أبيهما، وكان من فراسة إحداهما في موسى، ما جعلها تعرف فيه مواطن العظمة، وقوة الشخصية، وخلق الأمانة. والأمانة من الصفات الباطنة التي لابد في إدراكها من عشرة طويلة، وتجارب متكررة ولا يكفي في إدراكها اجتماع واحد، ولا نظرة واحدة. وبنت شعيب هذه لم تر موسى قط إلا حينما سقى لهما، وهذا القدر من الرؤية ليس من شأنه أن يمكن من معرفة أسرار النفوس ودخائلها، ولكنها ابنة شعيب، وقد أوتيت من قوة الفراسة ما أدركت به أمانته وقوته، فوصلت بينه وبين أبيها، وتعانق بهذا الوصل فرعان نبويان، وفي ظل هذا التعانق، نودي موسى:

﴿مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾

(القصص: ٣٠).

وبذلك تمت سلسلة من التدبير الإلهي، تمهيدا لرسالة السماء في القضاء على البغي والطغيان، وكانت معظم حلقات السلسلة من صنع المرأة..

امرأة فرعون:

وإذا كان القرآن قد سجل للمرأة الثالثة في السلسلة - وهي امرأة فرعون - عظيم موقفها في إنقاذ موسى من يد زوجها وقد همّ بقتله، فإنه قد سجل لها وراء فضلها في ذلك فضلا في قوةإيمانها بربها ،وشدة بغضها لزوجها، كانت به في نظر الحكمة الإلهية المثل الأعلى للمؤمنين، يرسم لهم للتأسي والتوجيه:

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾

(التحريم: ١١)

امرأة تحت ملك، له قوته وجبروته، ويقول:

﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾

ويأبى دعوة التوحيد، ويعمل على التنكيل بكل من خالف إرادته. امرأة تحت هذا الملك القوى العنيد تستطيع أن تحتفظ بعقيدتها، ولا تأخذها عنها فتنة الرهبة أو الرغبة، وتتجه من أعماق قلبها إلى ربها أن يخلصها منه، ومن عمله وأن يخلصها من القوم الظالمين. فأية نفس عالية في ثياب هذه المرأة الكريمة؟ وإذا كان مثلها في النساء قليلا فإن مثلها في الرجال كذلك قليل.

هذا هو الوضع التاريخي القرآني للمرأة، قد حفظ لها مواهبها وجهادها وأثرها في الحياة.

القصة والأمثال فى القرآن الكريم (٧)

من وسـائل الدعـوة



الأستاذ الدكتور محمد النجار محمد السيد
عضو هيئة كبار العلماء

نواصل المسيرة الفاحصة الباحثة في حياة الرواد المرسلين، نستلهم من تاريخهم عبرة، ونستزيد من إرشادهم يقظة، ونستضيء بالمدلولات الواضحة من أقوالهم وتصرفاتهم، في رسم المناهج الناجحة المتساوقة مع سنن الكون التي لا تتخلف، محطمين بذلك أكاذيب المغرضين، مقدمين الدليل المسكت على ما قررناه أن هناك إشارات ولمحات في القصة القرآنية تدرك في نطاق المعاني الواردة للألفاظ العربية، دون تمحل ولا تحريف، وأن القصص القرآني منتزع من الواقع التاريخي الحقيقي، ملتزم بالصدق المعجز بعيد عن الرمز الحديث الذي يعتمد علي إيحاءات الأساطير السائدة معبرًا بها عن معنى يكتمه، أو رأي يخاف مغبته، كما يصمه بذلك عشاق الشهرة على حساب الدين.

ولقد بدأنا نستعرض بعض المناهج المتكاملة التي كان يسير عليها رسل الله السابقون، والتي تتفق تماما مع الشريعة الإسلامية، والتي يمكن تطبيقها في حياتنا الواقعية، لو حسن القصد وخلصت النية، وأردنا العودة إلى رحاب الهداية السماوية.

وسائل منهج الدعوة

ولقد بقي من منهج الدعوة إلى الله بعض الوسائل والمعالم التي ساعدت على نجاح هذا المنهج القويم، منها:

● أن جميع الرسل كانوا يرسلون أشعة الهداية لجميع من أرسلوا إليه، لا يبخلون بها على أحد، ولا يقصرونها على فئة، ولا يثيرون بها أحقادا طبقية، ولا يستجيبون فيها لنعرات التطرف التي تريد أن تستأثر بالدعوة، وتحولها عن مسارها العام، وطبيعتها الإصلاحية الشاملة لكل طوائف الأمة، ولم يتركوا أية فرصة لظهور التميز القائم على المقاييس المادية الهابطة، ولم يستهينوا بأية طاقة مؤمنة تريد أن تغترف من هذا النور، وتسهم في نشره بقدر الإمكان، ولم يقبلوا إيمانا مشروطا بالمكاسب والامتيازات .. ذلك أن الإيمان السطحي النفعي لا يلبث أن يحطم صاحبه قوائم الدعوة إذا ما تطلبت منه أدنى تضحية.

وإذا كانت الدعوات قديما وحديثا تعاني من هذه العناصر النفعية التي تدخل فيها كالطفيليات التي تتسلق فوق الأشجار القوية، حتى تنافسها علوا ومكانة مع أنها تتسلل إليها خفية، ولا تستطيع أن تجاهر بأغراضها الدنيئة .. فكيف بهؤلاء الذين لا يدخلونها إلا بشروط تتعلق بمصالحهم الذاتية؟

إن معظم أسباب الفشل والتفرق في الحركات الإصلاحية العظيمة، تتمثل في أن هذه الحركات لا تستطيع أن ترفض هذه العناصر المخربة التي تأتيها بقلوب مدخولة، ونفوس مريضة، فتعمل لمصالحها على حساب المبادئ، وبعبارة أخرى أن أتباع أي دعوة يتكونون من فريقين: فريق حامل لواء الدعوة، وفريق محمول على الدعوة .. وحسب تملك كل منهما زمام أمرها تتبين مرحلة تقدمها وامتدادها وصلاحيتها من فترة الانحراف بها، وفتور الدعوة إليها، وتوقف حركة المد فيها.

من هنا كان الرسل صلوات الله وسلامه عليهم يرفضون بإصرار، وبتوجيه من رب العزة سبحانه أن يستجيبوا لرغبات هذه العناصر في إبعاد الفقراء والجنود العاملين المغمورين في المجتمع .. ولقد أبرزت القصة القرآنية موقف هذه الطبقة النفعية، ومطالبها المتكررة، وطبيعتها المستعلية التي لا تريد أن تجلس مع من تصفهم بالأرذلين الضعفاء .. ومنذ انبثاق فجر النبوة وهؤلاء الملأ المتجبرون .. يخاطبون نوحا عليه السلام ويعيرونه بأن أتباعه فقراء، وبأنهم لا يملكون من أسباب الفضل والقوة المادية ما يجعلهم يجلسون بجوارهم إخوة متساويين، وبأنه لو أراد انضمامهم إليه فعليه أن يطرد هؤلاء من مجالسه:

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾

[هود: ٢٧]

وكانت إجابة نوح لهم مسكتة وجازمة:

﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ إِنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا ۖ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾

[هود: ٢٩ - ٣١]

ولقد أدرك سيدنا نوح ومن جاء بعده أن هذه الخدعة التي تتمثل في إبعاد هؤلاء أنها مؤامرة لإبعاد دعوته عن القوة

الحقيقية والانتشار الواسع .. ذلك أن هؤلاء النفر الأقوياء إذا انصرفوا عنه فإنه سيجد في جماهير الشعب ما يقوي عضده، وينشر دعوته .. أما إذا كان العكس فإنه سيفقد الجماهير والملأ على السواء ..

محاولة إقصاء الضعفاء قديمة جديدة:

وكأن هؤلاء الملأ قد تواصلوا منذ القدم على تكرار المحاولة .. ذلك أننا كما نراها بهذا الوضوح مع أبي البشرية الثاني سيدنا نوح عليه السلام .. نراها بنفس العنف أو أشد مع خاتم الرسل والأنبياء سيدنا محمد ﷺ .. يأتي الملأ من قريش إليه طالبين أن يجعل لهم يوما وللضعاف والعبيد يوما آخر .. وينزل إليه أمر السماء إليه يوصيه:

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾

[الكهف: ٢٨]

وهكذا الإيمان بصرف النظر عن الغنى والجاه هو الأساس الذي به تنتشر الدعوات، ويقوى عودها وصرف الاهتمامات إلى تقوية الصف المؤمن خير من بعثرتها على المتغطرسين الضالين .. فعلى أي مصلح أن يوجه دعوته إلى الجميع، وليس عليه أن يهدي الجميع، ولكن الله يهدي من يشاء.

• إن التذكير بنعم الله سبحانه على خلقه، وبخاصة ما كان متصلا منها اتصالا مباشرا بالمجتمع، وما له أهمية خاصة في حياتهم .. مدعاة إلى الرجوع إلى الله أي أنه إذا كان الأثر يدل على المؤثر .. فإن النعمة تشير إلى المنعم .. بل إنها لتجذب المرء بلطف وعاطفة نحو من أسدى إليه تلك الأيادي العظيمة.

من هنا نرى سيدنا نوح عليه السلام يلفت أنظار قومه وبصائرهم إلى جميع جوانب الكون المرئي ابتداء من الإنسان، وما تطؤه قدماه من الأرض، حتى السماوات السبع وما فيهن من شمس وقمر:

﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (٢٠)﴾

[نوح: ١٣ - ٢٠]

ونرى هودا عليه السلام يذكر قومه بما أنعم الله عليهم من مال وقوة وبنين فيقول:

﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾

[الشعراء: ١٣٢ - ١٣٤]

ونرى موسى عليه السلام يذكر قومه بما من الله عليهم من نجاتهم من بطش

فرعون، وانتصارهم عليه بوسائل لا يملكها بشر:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾

[إبراهيم: ٦]

ونرى القرآن الكريم يذكر الأمة المحمدية بتآلفها واتحادها بعد تفرقها الشنيع، وتدابرها القطيع فيقول:

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

[آل عمران: ١٠٣]

ويذكرها بنصر الله لها في بدر:

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

[آل عمران: ١٢٣]

ويذكرها بما كان من قلتها وضعفها، وكيف بدل الله ذلك إلى كثرة وقوة فيقول:

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

[الأنفال: ٢٦]

ويذكرها بتدخل القدر في إنقاذ الرسول وأتباعه من غدر اليهود ومؤامرتهم فيقول:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾

[المائدة: ١١]

ويذكرها بتأييد الله وتسخير قوى الكون لخدمتهم في غزوة الأحزاب بعد أن بلغت بها أرواحهم الحناجر فيقول:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾

[الأحزاب: ٩]

الصبر والثبات:

• على الداعي إلى الله أن يوطن نفسه على تحمل المضايقات والتحديات، وأن يعلم أن الله قد جعل لكل نبي عدوا من المجرمين، وأن أي صاحب دعوة ناجحة لا بد أن يناله في سبيلها الأذى والاضطهاد، ممن وقفوا أنفسهم على مناوأة الحركات الإصلاحية في كل زمان ومكان:

أ- ومن هذه المضايقات السخرية

والاستهزاء.

﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾

[الأنعام: ١٠]

ولقد سخر قوم نوح منه وهو يصنع الفلك:

﴿ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾

[هود: ٣٨، ٣٩]

وسخر قوم شعيب منه ومن صلاته ودعوته فقالوا له:

﴿ يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾

[هود: ٨٧]

ب- ومنها الاتهام بحب الرياسة والتفضل والزعامة، كما حدث لسيدنا نوح عليه السلام:

﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾

[المؤمنون: ٢٤]

وكما حدث لسيدنا محمد ﷺ حيث قالوا:

﴿ أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴾

[ص: ٨]

وكما حدث لسيدنا صالح:

﴿ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٢٤) أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا ﴾

[القمر: ٢٤، ٢٥]

وكما حدث لجميع الأنبياء والرسل إذ كانوا يقابلون بهذا التساؤل المكرر:

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾

[التغابن: ٦]

ج- ومنها الاتهام بالجنون أو الكذب أو السحر أو الدجل .. قال نوح عنه:

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ ﴾

[المؤمنون: ٢٥]

وقالوا عن هود:

﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾

[هود: ٥٤]

وقالوا عن موسى:

﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾

[طه: ٧١]

وقالوا عن محمد:

﴿ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾

[الذاريات: ٥٢، ٥٣]

د- ومنها التشهير بأن ما يقوله الداعية جديد مناف لما كان عليه السلف والأجداد، ومن حق هؤلاء أن نحافظ على ما كانوا عليه مهما كان، هذا نوح عليه السلام يقال له:

﴿ مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾

[المؤمنون: ٢٤]

وهذا سيدنا محمد يقال له:

﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴾

[ص: ٧]

هـ- ومنها عنادهم الذي يدعوهم إلى طلب المستحيل ليلفتوا أنظار الناس إلى دروب غير جادة ليصرفوا فيها طاقاتهم الفكرية، وليشككوهم فيما جاء به الداعية من مبادئ وتعاليم .. لقد طلبوا مثلا من سيدنا موسى أن يريهم الله:

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾

[البقرة: ٥٥]

وطلبوا من سيدنا محمد أن يكون معه ملك أو يكون له كنز، فقالوا:

﴿ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (٧) أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾

[الفرقان: ٧، ٨]

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾

[الإسراء: ٩٠ - ٩٣]

التضحية والفداء:

● وأكثر من هذا وذاك يجب أن يوطن نفسه على التضحية بالنفس إذا احتاج الأمر، فالشهادة في سبيل الله أسمى ما يتمناه المؤمن في الحياة، لقد قتل اليهود كثيرا من النبيين وتوعدهم الله على ذلك:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

[آل عمران: ٢١]

لكن الذي ينبغي مراعاته أن يتخير الداعية المواطن التي تستحق التضحية بحيث لا تذهب حياته بلا أثر في الحياة، فذلك من الحكمة التي يجب أن يتصف بها الدعاة إلى الله.

○○○

رمضان ١٤٣٥هـ
يوليو ٢٠١٤م

قصص الأنبياء

ثناء الله تعالى على موسى وهارون

للعلامة: عبد الوهاب النجار

علمنا من قصة موسى وهارون ما كابداه في معالجة شئون بني إسرائيل وسياستهما لذلك الشعب المشاغب. وأن هارون مات في جبل (هور)، وأن موسى مات ودفن في جبل (نبو)، بعد أن أشرف على أرض الموعد، وقد أثنى الله تعالى ثناء طيبا، على موسى وهارون، لما كابدا من عنت قومهما، وشدة مراسهم، مع ما كانا عليه من الإيمان المحض والإخلاص.

اقرءوا الآيات الآتية:

سورة مريم:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥١) وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (٥٢) وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾

(الآيات من ٥١ إلى ٥٣)

سورة الصافات:

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ (١١٤) وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (١١٥) وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (١١٦) وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ (١١٧) وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (١١٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ (١١٩) سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ (١٢٠) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٢١) إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾

(الآيات من ١١٤ إلى ١٢٢)

سورة غافر:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ (٥٣) هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾

(الآيتان ٥٣ - ٥٤)

العظات التي تستفاد من قصة موسى

١- إن الابتلاء الذي يصاب به الإنسان في الدنيا ينبغي أن يقابل بالرضا؛ فقد يكون الخير العظيم في هذا الابتلاء. فهذا موسى قد خرج خائفا من آل فرعون، متبعا نصيحة ذلك الرجل الذي جاءه من أقصى المدينة ناصحا له بالابتعاد عن مصر، لأن الملأ يأتمرون به، فهاجر من مصر، وكان الخير كله في هجرته؛ فقد وجد أهلا بأهل وجيرانا بجيران، واصطفاه ربه على الناس برسالاته

وبكلامه، وجعله واسطة لإنقاذ قومه من فرعون وآله.

٢- إن المتوكل على الله المعتمد عليه تعالى في أموره يقيض الله تعالى من ينقذه ويهيئ له من أمره يسرا؛ كما قيض ذلك الرجل لموسى، فكان سببا لنجاته أولا، وكان في هذه النجاة أن يخصه الله بوحيه.

٣- إن الشخص المستمسك بالحق لا يبالي بمن يخالفه وإن كان عظيما، فهذا موسى قال له فرعون:

﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا﴾

(الإسراء ١٠١)

فقال له موسى في غير مبالاة به ولا اكتراث لما هو فيه من أبهة الملك وعز السلطان:

﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾

(الإسراء ١٠٢)

أي هالكا بعد أن حاسنه موسى كل المحاسنة، وتلطف به كل التلطف، فلما لم يفد أخشن له القول.

٤- إن الحق لا يعدم نصيرا، ذلك موسى جاء إلى فرعون لينزله عن عرش الربوبية، ويدعوه إلى عبادة الله، فاعتزم قتله، واستأمر قومه، فقام رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه، ينافح عن موسى ويدافع عنه، ويحذر فرعون وآله بطش الله، ضاربا الأمثال بالأمم الخالية، غير مبال بمخالفة فرعون.

٥- إن لذة الإيمان إذا تذوقها الإنسان ملكت عليه مشاعره، واستهان في سبيلها بكل عقاب، لذلك آمن السحرة بموسى وإلهه، غير مبالين بفرعون وما أعد لهم من عذاب.

٦- إن الصبر على البلوى حميد العاقبة، فهؤلاء بنو إسرائيل ابتلوا فصبروا على الإهانة والذل والتسخير وتقتيل الأبناء واستحياء النساء، إلى أن أعقبهم الله الحسنى كما قال:

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾

(الأعراف ١٣٧)

٧- إن موسى كان حليما على بني إسرائيل رءوفا بهم؛ فإن الله قد غضب عليهم بسبب عبادة العجل، وهددهم بالإبادة، وكذلك الشيوخ الذين ذهبوا لتقديم توبة الشعب، طلبوا رؤية الله تعالى، جهلا وعنتا، فأخذتهم الصيحة، فأخذ موسى يتضرع إلى الله ويقول:

﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥) ۞ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾

(الأعراف ١٥٥ و١٥٦)

استطراد

بمناسبة هذه الآية الكريمة، عرض لي أن أسائل نفسي سؤالين وهما:

١- إن التواريخ قد دلت على أن اليهود

قد احتلوا جهات من الحجاز: كتيماء ووادي القرى وفدك خيبر ومدينة يثرب، واتخذوا تلك الأمكنة مقاما، وجعلوها دار قرارهم، وأثاروها وعمروها وبنوا فيها المصانع والآطام العظيمة والحصون المنيعة، واستقر من قبائلهم هناك: بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة، فما الذي أزعجهم عن فلسطين، تلك الأرض التي إذا تكلموا عنها، قالوا إنها تفيض لبنا وعسلا؟

٢ – ولِمَ كان اتجاههم إلى تلكم الأرض القليلة الريف وأرض الله واسعة أمامهم؟ فهذه مصر متاخمة لأرضهم، والشام من شمالهم، والعراق مهاجرهم الأول. فلم اتجه هؤلاء الناس إلى تلك الناحية؟

• أما السؤال الأول فجوابه فيما أعتقد أن بني إسرائيل إنما أزعجهم من فلسطين التي كانوا يحبونها حبا جما، إغارة (طيطس) الروماني على بلادهم وإيقاعه بهم، وتخريبه بيتهم المقدس، وهيكلهم الذي كانوا يفاخرون به كل الأمم، ويباهون بضخامة بنيانه، وما فيه من آنية الذهب والفضة، وذلك سنة ٧١م.

• وأما جواب الاستفهام الثاني: فإن بني إسرائيل قد وُعدوا بنبي يقوم من بين إخوتهم، وهم العرب الإسماعيليون، وأنه سيكون ظهوره وإعلان أمره في مدينة يثرب. فلما ضاقت أنفسهم مما أنزله بهم الرومان، رجوا أن يأتيهم الفرج، ويعود لهم العز، بمظاهرة هذا النبي الذي وصف لهم في كتب الأنبياء، فجاءوا إلى مكان ظهوره، انتظارا لمقدمه، وعلى الطريق بين البلد الذي يظهر منه وبين فلسطين.

جاء في إشعياء: «غنوا للرب أغنية جديدة، تسبيحة من أقصى الأرض. أيها المنحدرون في البحر وملؤه، والجزائر وسكانها: لترفع البرية ومدنها صوتها. الديار التي سكنتها قيدار، لتترنم سالع من رءوس الجبال، ليهتفوا، ليعطوا الرب مجدا، ويخبروا بتسبيحه في الجزائر. الرب كالجبار يخرج كرجل حرب، يُنهض غيرته، يهتف ويصرخ ويقوى على أعدائه» أهـ.

فسالع التي يدعوها إشعياء للابتهاج ليست سوى «جبل سلع»، إذ الوادي الذي به المدينة المنورة يكتنفه جبلان: أحدهما شرقي وهو جبل «أحد»، وثانيهما غربي وهو جبل «سلع».

والأغنية الجديدة إنما هي الدين الجديد الذي يعلن توحيد الله وإفراده بالعبادة، ويكون حربا على الأصنام التي تعبد من دون الله تعالى، كما في قول إشعياء ص ٤٢: «قد ارتدوا إلى الوراء، يخزى خزيا المتكلمون على المنحوتات، القائلون للمسبوكات: أنتن آلهتنا».

لم يأت نبي بعد إشعياء كان حربا على الأصنام وعبادتها، وأعلن ثورته عليها، حتى أبادها من بلاده سوى محمد ﷺ، لهذا السبب جاء اليهود إلى «يثرب» بلصق «سلع» التي دعاها إشعياء إلى الابتهاج بشريعة الله الجديدة، والنبي القائم بها.

وقد يكون قد هجس لبعض اليهود أن يكون منهم النبي الذي يقوم من سالع، وتبتهج به، فنزلوا في تلك الديار، رجاء أن يُبعث ذلك النبي منهم، وتكون لبقيتهم العزة به.

فتاوى الحاخامات

د. منصور عبدالوهاب

٦– عنوان الفتوى: لماذا لا يتهود الأغيار؟

مصدر الفتوى: WWW.moriya.org.il، ديسمبر ٢٠٠٥

فتوى من: الحاخام أرز حاييم تاوب

سؤال: أردت أن أطرح سؤالا يؤرقني في الفترة الأخيرة: يقول سليمان في صلاته: «وكذلك الأجنبي الذي ليس من شعبك إسرائيل هو وجاء من أرض بعيدة من أجل اسمك. لأنهم يسمعون باسمك العظيم وبيدك القوية وذراعك الممدودة. فمتى جاء وصلى في هذا البيت. فإذا كان الأغيار يسمعون اسم الرب ويأتون من أجل الصلاة له فهذا دليل على أنهم يؤمنون به، وإذا كان الأمر كذلك فلماذا لا يتهودون؟ هل في المستقبل – عندما يعرف الجميع الرب بمشيئة منه – سيظلون أغيارا؟ (هناك عدة أمثلة أخرى على ذلك في العهد القديم، ولكن هذه هو أبرز مثال، حسب رأيي المتواضع).

جواب: عندما خلق الرب تبارك اسمه العالم، جعل لكل مخلوق دوره في الحياة. فهناك جماد له دوره، وهناك نباتات دورها أن تنمو، وهناك حيوانات دورها أن تعيش لمجرد العيش وهناك بشر. وبين البشر هناك يهود، وهناك بقية البشر. ويتميز اليهود بأنهم خُلقوا لكي يكونوا مصدر نور للعالم يقود ويرشد العالم إلى طريق الرب. والأغيار الذين يتهودون بسبب حبهم للرب، ورغبة منهم في التقرب إليه يتم قبولهم بين الشعب اليهودي، حيث إن أرواحهم – حسبما يبدو! – كانت تنتمي إليه منذ البداية. ولكن هذا لا يعني أن جميع الأغيار في العالم من المفترض أن يتهودوا، فكل له دوره – ودور الأغيار هو أن يقيموا وصايا أبناء نوح السبعة، وبذلك يعبدون الرب. أما دور اليهود فهو أن يقيموا كل الوصايا الدينية التوراتية الـ٦١٣، وهذه هي مهمتهم. ولذلك، فإنه في المستقبل، سيكون هناك من الأغيار من يعبدون الرب ليس كاليهود وإنما على النحو الذي أمروا به.

ودورنا اليوم هو أن نحاول التأثير على الأغيار لاتباع نهج التوراة والحفاظ على الوصايا الملزمين بها. وعسانا نرى بأعيننا قريبا تحقق نبوءات الخلاص وأن يُنزل الرب رحمته بصهيون [فلسطين].

* * *

بنو إسرائيل في القرآن والسنة

تحالفهم مع المنافقين ضد المسلمين



أ.د. محمد سيد طنطاوي

من أساليب اليهود في محاربة الدعوة الإسلامية مظاهرتهم لكل مناوئ لها بصفة عامة ومحالفتهم للمنافقين في سبيل القضاء عليها بصفة خاصة.

وفي سورة المائدة يقول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ۚ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾

(المائدة: ٥١، ٥٢)

روى ابن جرير عن عطية بن سعد قال: جاء عبادة بن الصامت من بني الحارث بن الخزرج إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله إن لي موالي من يهود، كثير عددهم، وإني أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود، وأتولى الله ورسوله، فقال عبد الله بن أبي: إني رجل أخاف الدوائر، ولا أبرأ من ولاية موالي، فقال رسول الله ﷺ لعبد الله بن أبي: «يا أبا الحباب، ما بخلت به من ولاية يهود على عبادة بن الصامت فهو إليك دونه»، قال: قد قبلت، فأنزل الله عز وجل:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ۚ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾[1]

(المائدة: ٥١، ٥٢)

(١) تفسير ابن جرير الطبري ج٦ ص٢٧٥. وقد اكتفينا بهذه الرواية في سبب النزول وهناك روايات أخرى في سبب النزول كلها تدور حول معنى واحد وهو النهي عن موالاة أعداء الله والكشف عن تحالف جبهتي اليهود والمنافقين ضد المسلمين

تفسير الآيتين الكريمتين

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾

ابتدئت هاتان الآيتان بنداء عام للمؤمنين، ينهاهم الله عز وجل فيه عن الاستنصار بأهل الكتاب والركون إليهم والثقة بمودتهم والتحالف معهم بعد أن ثبت أنهم جميعا قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر، وهذا النهي عن موالاة اليهود والنصارى، سببه حنقهم الشديد على الإسلام، وعداؤهم الظاهر والخفي للمسلمين، ولو زال هذا السبب لما وجد النهي؛ لأن القرآن الكريم يأمر أتباعه أن يحسنوا إلى أهل الكتاب، ما دام لم يصدر منهم ما يؤذي المسلمين.

قال تعالى في سورة الممتحنة:

﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾

(الممتحنة: ٨، ٩)

فهاتان الآيتان صريحتان في كون النهي عن الولاية سببه: العداوة، وكونهم حربا على المسلمين، وليس من أجل المخالفة في الدين.

ثم أشار سبحانه بعد ذلك إلى علة النهي عن موالاتهم؛ تأكيدا لاجتناب المنهي عنه، فقال تعالى:

﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾

أي: يوالي بعضهم بعضا؛ لاتحادهم في الدين، وإجماعهم على معاداة المسلمين، فهم وإن اختلفوا فيما بينهم، لكنهم متفقون على الكيد لدعوة الإسلام.

ثم أصدر القرآن الكريم حكمه على من يخالف النهي فيتولاهم فقال:

﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾

أي: ومن ينصرهم ويستنصر بهم مع عداوتهم للمؤمنين يكن من جملتهم وحكمه حكمهم، وإن زعم أنه مخالف لهم في الدين.

قال ابن جرير: «فإن من تولاهم ونصرهم على المؤمنين، فهو من أهل دينهم وملتهم، فإنه لا يتولى متول أحدا إلا وهو به وبدينه راض. وإذا رضي دينه، فقد عادى من خالفه وسخطه، وصار حكمه حكمه»[2].

وقال صاحب الكشاف: «هذا تغليظ من الله، وتشديد في وجوب مجانبة المخالف في الدين واعتزاله»[3].

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

أي: إن من يظاهر أعداء الله، وينصرهم ويستنصر بهم؛ فالله عز وجل لا يوفقه إلى الطريق المستقيم؛ لأنه صار ظالما بوضعه الولاية في غير موضعها الحق، ومن كان هذا شأنه فهو بعيد عن الهدى والرشاد.

وبعد هذا النهي الشديد عن موالاة أعداء

(٢) تفسير ابن جرير ج٦ ص٢٧٧.
(٣) تفسير الكشاف ج١ ص٤١٩.

الله، صور القرآن الكريم حالة من حالات المنافقين بيّن فيها كيفية توليهم أعداء الله وأشعر بسببه، وما يئول إليه أمرهم، فقال تعالى:

﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ ﴾

أي فترى يا محمد المنافقين الذين ضعف إيمانهم فلم يصل إلى رتبة التصديق واليقين، يسارعون في مناصرة اليهود وتأييدهم، مسارعة الداخل في الشيء الثابت عليه الراغب فيما يزيده تمكنا ورسوخا دون أن يعيروا تعاليم الإسلام، التي يتظاهرون بها أدنى اهتمام.

والتعبير بقوله تعالى:

﴿ فِى قُلُوبِهِم ﴾

تعبير قوي رائع، وصفوا به كثيرا في القرآن الكريم؛ لأنه لما كانت قوة القلب تضرب مثلا للثبات والتماسك والقوة النفسية، كان ضعف القلب الذي عبر عنه بالمرض، يضرب مثلا للخور، والتردد والتزلزل وانهيار النفس، وهذه طبيعة المنافق في كل زمان ومكان، لا يمكن أن يكون صريحا واضحا منحازا إلى ناحية معينة، فهو يتردد بين الناحيتين، ويلتمس الحظوة في الجانبين، ولا يهمه إلا أن يطمئن على نفسه، في يومه وغده.

وقد كشف القرآن الكريم عن الذريعة التي تذرع بها المنافقون لموالاتهم اليهود فقال تعالى:

﴿ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ﴾

أي: يقولون معتذرين عن ارتمائهم في أحضانهم: نخاف أن تنزل بنا مصيبة مما يدور به الزمان، كأن تمسنا أزمة، أو ضائقة أو أن يكون النصر في النهاية لهم، فنحن تحالفهم؛ لنتقي شرهم، ولننال عونهم عند الملمات والأزمات.

فرد الله على المنافقين معاذيرهم الباطلة وبشر المؤمنين بالظفر، وبحصول ما يرجون فقال تعالى:

﴿ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴾

أي: فلعل الله عز وجل بفضله وصدق وعده أن يأتي بالقضاء الفصل، وهو نصره للمؤمنين على أعدائهم أو بأمر من عنده بقطع دابر اليهود، فيصير المنافقون نادمين على بغضهم للمؤمنين ومناصرتهم لليهود وشكهم في أن تكون العاقبة لأتباع النبي ﷺ الصادقين. ولقد صدق الله وعده فأذل اليهود، وأورث المؤمنين أرضهم وديارهم وأموالهم وفضح المنافقين وأخزاهم:

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾

(الحج: ٤٠)

هذا، وقد اشتملت الآيتان على ضروب من توكيد النهي عن موالاة أعداء الله تعالى بأساليب متعددة، منها: النهي الصريح في قوله تعالى:

﴿ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ﴾

ومنها: بيان علة النهي في قوله تعالى:

﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾

ومنها التصريح بأن من يواليهم فهو منهم، وذلك في قوله تعالى:

﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾

ومنها: تسجيل الظلم على من يواليهم، في قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

ومنها: الإخبار بأن موالاتهم من طبيعة الذين في قلوبهم مرض وزيغ؛ خوفا من أن تدور الدائرة عليهم، ومنها: قطع أطماع المنافقين في النصر وسوق البشارة للمؤمنين بالفتح في قوله تعالى:

﴿ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ ﴾

والرجاء من الله تعالى لا بد أن يحصل؛ لأنه صادر من عزيز كريم، لا يخلف وعده.

وهكذا نرى أن الآيتين الكريمتين قد بينتا بأسلوب صريح أن طائفة اليهود والمنافقين كانتا تكونان جبهة متحدة في عدائها للدعوة الإسلامية.

أما في سورة الحشر فيقول الله تعالى:

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾

(الحشر: ١١، ١٢)

من المتفق عليه بين المفسرين أن سورة الحشر قد نزل معظمها في شأن بني النضير فقد ذكرت ما أصابهم من هزيمة على يد المؤمنين بسبب جرمهم، وهاتان الآيتان تصوران مظهرا من مظاهر التناصر بين اليهود والمنافقين، وإن كان هذا التناصر لم يتم بصورة فعلية.

فقد أخرج ابن جرير وابن إسحق أن المسلمين لما حاصروا بني النضير أرسل عبد الله بن أبي ومن معه من المنافقين إليهم من يقول لهم: اثبتوا وتمنعوا، فإنا لن نسلمكم، إن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أخرجتم خرجنا معكم، فتربص اليهود ذلك من نصرهم، ولكن المنافقين لم يفعلوا فأنزل الله هاتين الآيتين.(٤)

وقوله تعالى:

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ﴾

معناه: لقد علمت أيها السامع علم اليقين حال أولئك المنافقين، الذين قالوا لإخوانهم في الكفر والضلال - وهم اليهود - عندما ضيق المسلمون عليهم الخناق بسبب خياناتهم، قالوا لهم:

﴿ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ ﴾

أي: لئن أخرجتم من دياركم ومنازلكم لنخرجن معكم ولا نطيع أحدا سألنا خذلانكم، وترك نصركم، وإن قاتلكم المسلمون فنحن معكم، نناصركم ونعينكم عليهم. فلا تهتموا أيها اليهود، بل اجتهدوا في قتالهم، ولا تهنوا في الدفاع عن دياركم وأموالكم.

ولكن الله عز وجل الخبير بحقيقتهم رد عليهم زعمهم هذا بقوله:

﴿ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾

(٤) سيرة ابن هشام ج٣ ص٢٢١

أي: هو شهيد على كذبهم في مواعيدهم التي منّوا بها اليهود، فإنه لما اشتد الحصار على بني النضير انتظروا من المنافقين العون لهم بناء على وعودهم، ولكن لم يجبهم مجيب، وأدركوا أن هذه الوعود كاذبة وخادعة.

وبعد أن بيَّن القرآن كذبهم على سبيل الإجمال فصَّله بعد ذلك؛ ليزيد في تعجيب المخاطب من حالهم، وليبين له مبلغ جبنهم، فقال تعالى:

﴿ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ ﴾

أي: لئن أخرج المسلمون بني النضير من ديارهم، لا يخرج معهم المنافقون، الذين وعدوهم بذلك، ولئن قاتلهم المسلمون لا ينصرونهم، ولئن نصرهم المنافقون على سبيل الفرض والتقدير، ليولن الأدبار، منهزمين مخذولين عنهم، ثم لا يكون النصر بعد ذلك إلا للمؤمنين.

أما بعد، فنستطيع أن نقول: بعد أن سقنا بعض الآيات التي تثبت تحالف اليهود مع المنافقين لكيد المسلمين- أن اليهود هم الذين ساعدوا على إيجاد طائفة المنافقين وتقويتها في المدينة بما بثوا فيهم من الشكوك، وبما أثاروه حول الإسلام من شبهات وأباطيل، وأن المنافقين ما قويت شوكتهم إلا بمساعدة اليهود إياهم، وليس أدل على ذلك من أنه بمجرد أن ضعفت قوة اليهود بعد تنكيل المسلمين بهم رأينا المنافقين أيضا يخفت صوتهم وتنهار دولتهم، كما وصفتهم الآية الكريمة بقولها:

﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾

(التوبة: ٥٧)

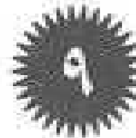
ولقد بلغت المودة بين اليهود والمنافقين في المدينة مبلغا كبيرا بدليل أن عبد الله بن أبي زعيم المنافقين لما حضرته الوفاة أحاط اليهود بسريره، وأخذوا يبكون وينتحبون، فغضب لذلك أحد أبناء (عبد الله بن أبي) وأراد أن يطردهم، فمنعه أبوه وقال له: دعهم فإن قربهم مني يشفي صدري، فقال له اليهود: يا عبد الله، نود أن نفديك بدمائنا وأموالنا، ولما مات أرادوا أن يقوموا بدفنه، فمنعوا من ذلك، وبعد دفنه أخذ اليهود ينثرون التراب على رءوسهم من شدة الحزن والألم لوفاة زعيم المنافقين عبد الله بن أبي.

ثم نستطيع أن نقول بعد ذلك في نهاية هذا البحث الموجز: إن وجود اليهود في المدينة من الأسباب القوية التي علّمت بعض أهلها من العرب خُلق النفاق، وذلك لأن العربي صريح بطبعه، وحركة النفاق ما ظهرت في العهد المكي؛ لأن القرشيين كانوا صرحاء في حربهم للإسلام والمسلمين.

فلما تمت الهجرة وانتصر المسلمون في بدر بدأ بعض اليهود- وتبعهم بعض العرب- يتظاهرون بالإسلام، ويبطنون الخوف، وقد ساق ابن هشام أسماء عدد كبير من اليهود الذين أسلموا نفاقا، وذكر من بينهم زيد بن اللصيت، وسعد بن حنيف، ورافع بن حريملة.. وغيرهم[٥].

(٥) سيرة ابن هشام ج٢ ص١٧٤.

كلمات ربى وآياته فى القرآن الكريم



أ. د. أحمد فؤاد باشا
الأستاذ بكلية العلوم - جامعة القاهرة



﴿ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴾

الضحك: انبساط الوجه وبدوُّ الأسنان من السرور. ومن أجل ذلك سميت مقدمات الأسنان (الضواحك). والضحك: اسم جنس تحته نوعان: التبسم والقهقهة. وقد ذكر الضحك بصور اشتقاقية مختلفة في القرآن الكريم عشر مرات، لا تخرج في جملتها عن المعاني اللغوية المذكورة. والبكاء: إسالة الدمع من الحزن، وقد يكون مصحوبًا بصوت وعويل.

وقد تكرر ورود البكاء في القرآن الكريم بصيغ مختلفة سبع مرات. والله - سبحانه وتعالى - هو الذي قضى أسباب الضحك والبكاء. قال تعالى:

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴾

(سورة النجم: ٤٣).

تدلنا هذه الآية الكريمة من سورة النجم على الإعجاز الإلهي في خلق الضحك والبكاء، حيث يستطيع العقل الإنساني الذي منحه الله - سبحانه وتعالى - للإنسان أن يحس بما يُضحك أو يُبكي. ومن ثم فإن الإنسان يتميز عن سائر المخلوقات بأنه المخلوق الوحيد الذي يستطيع أن يضحك أو يبكي. فهو يضحك إذا سمع أو رأى ما يبعثه على الضحك، قال تعالى:

﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا ﴾

(سورة النمل: ١٩)

أو إذا أحس بسعادة غامرة:

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾

(سورة عبس: ٣٨-٣٩)

وأحيانًا يكون الضحك من قبيل السخرية والاستهزاء:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴾

(سورة المطففين: ٢٩)

وأما عن البكاء، فالإنسان يمكن أن يكون بكاؤه خوفًا وخشية وخشوعًا، قال تعالى:

﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴾

(سورة مريم: ٥٨)

وقال تعالى:

﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴾

(سورة الإسراء: ١٠٩).

وقد يكون البكاء من الألم أو الندم:

﴿ وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾

(سورة التوبة: ٨٢).

والبكاء هو أول ما يواجه الطفل به حياته عند ولادته، حيث تكون رئتاه مغلقتين أثناء وجوده في بطن أمه، لأن الدورة الدموية في جسمه تمر خلال فتحة بالقلب تسمى الفتحة البيضاوية إلى رئة الأم مباشرة دون أن تمر برئة الطفل، ولا يبدأ استعمال الرئتين إلا عندما يبكي الطفل فور ولادته، فيعمل البكاء على إغلاق الفتحة البيضاوية بقلبه ويفتح القفص الصدري فيتجه الدم إلى رئتيه اللتين تكونان قد تفتحتا نتيجة لهذا البكاء ليدخل إليها الهواء وتبدأ عملية التنفس الطبيعية.

ويرى العلماء أن ما يصيب الإنسان من حزن وبلاء يسبب وصول إشارات كهربائية شديدة إلى المخ الذي يرسلها بدوره عن طريق الأعصاب إلى أي عضو من أعضاء الجسم المختلفة فتؤثر في وظيفته بدرجات متفاوتة. فإذا وصلت تلك الإشارات إلى القلب مثلاً فإنها تحدث خللاً في ضرباته، وقد تؤدي أحيانًا إلى موت مفاجئ، وإذا وصلت إلى الكبد فإنها تُربك عملية التمثيل الغذائي وقد تؤدي إلى مرض السكر، وإذا وصلت إلى المعدة فإنها تسبب الآلام والتقلصات، وتؤدي إلى زيادة الحموضة، وربما تسبب الإصابة بقرحة المعدة، وإذا وصلت إلى المرارة فإنها تحدث تقلصات بالقناة المرارية وتُحد من قدرتها على إفراز عصارتها، مما يؤدي إلى ترسيب الأملاح وتكون الحصوات بالحويصلة المرارية. أما إذا وصلت الإشارات الكهربية الناشئة عن الإحساس بالألم والحزن إلى الأمعاء، فإنها تسبب الانتفاخ وتحدث ارتباكا في عملية الهضم، وقد يحدث أن تصل هذه الإشارات إلى الأطراف فيحدث الإحساس بالتنميل والضعف والإصابة بأمراض عصبية نفسية.

وتمر مثل هذه الإشارات الكهربائية المفاجئة بقناة عصبية فيتم امتصاصها والحد من وصولها إلى أجزاء الجسم. وقد لوحظ أن الإحساس بالرضا والتحلي بالصبر والإيمان وأداء الصلاة عند الشدائد يقوي هذه القناة وينشط وظيفتها فتمنع جميع الإشارات من الوصول إلى الجسم وتقيه من أضرارها. وإذا كانت الصدمة عنيفة والحزن شديدًا، فإن المخ يوجه الإشارات الزائدة عن قدرة قناة «الهيبوثالاماس» إلى أجهزة وأعضاء بالجسم يكون زيادة نشاطها وعملها غير ضار، مثل الغدة الدمعية، فيذرف الدمع الذي يغسل العين، أو مثل: عضلات القفص الصدري التي تتحرك - سواء في الضحك أو البكاء - فيزيد ذلك من عمل الرئتين، مما يفيد في تنقية الدم من ثاني أكسيد الكربون. وقد تفيد الإشارات في تحريك بعض عضلات الوجه، وهذا مطلوب بين آن وآخر.

ولكل هذا فإن البكاء والضحك نعمتان تفيدان في تصريف تلك الإشارات الضارة الزائدة عن قدرة قناة «الهيبوثالاماس» وتحويلها إلى أعضاء أخرى يكون زيادة عملها مفيدًا للجسم. ولابد لكل إنسان، مهما زاد إيمانه وقوي تحمله، من أن يبكي أحيانًا عند الملمات والشدائد لتصريف الزائد من الإشارات الكهربائية المفاجئة الواردة إلى المخ، وقد تؤخذ بعض أنواع الأدوية المهدئة لتحد من وصول هذه الإشارات الضارة إلى أعضاء الجسم، ولكن تأثير هذه العقاقير يزول بمجرد انتهاء مفعولها، والإنسان المؤمن ليس بحاجة إلى مثل هذه العقاقير والمهدئات ما دام صابرًا على الشدائد وراضيًا بقضاء الله وقدره.

﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا ﴾

يبدو أن ابتسام سيدنا سليمان عليه السلام كان من باب التبسُّم الذي فيه أقل الضحك وأحسنه، وجاء لفظ ﴿ ضَاحِكًا ﴾ حالاً مبيّنا معنى السرور والرضا في الابتسام، الذي قد يكون في مواقف أخرى منبئًا عن سخرية أو احتقار أو تعجب أو عتاب، أو غير ذلك.

﴿ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ ﴾

ويؤدي الحزن الشديد أحيانًا إلى العمى، حيث تتعكر قرنية العين وتصبح غيمية بيضاء نتيجة تغيرات في أوعيتها الشعرية لأسباب كثيرة من أهمها الانفعالات العصبية النفسية، ولقد أشار القرآن الكريم إلى ما أصاب سيدنا يعقوب نتيجة الحزن على ولده يوسف عندما أخبره أبناؤه بأن يوسف قد أكله الذئب، فقال تعالى:

﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾

(سورة يوسف: ٨٤).

﴿ إِعْصَارٌ ﴾

الإعصار في اللغة: ريح تهب بشدة وتثير الغبار، وترتفع إلى السماء كالعمود. الجمع: أعاصير. قال تعالى:

﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾

(سورة البقرة: ٢٦٦)

وجاء في تفسير هذه الآية الكريمة أنها ضربت مثلا بعمل رجل غني أحسن العمل أولا بطاعة الله، ثم استسلم بعد ذلك للشيطان وعمل بالمعاصي، فبدّل الحسنات بالسيئات، وأبطل بعمله الثاني ما أسلفه فيما تقدم من الصالح، واحتاج إلى شيء من الأول في أضيق الأحوال فلم يحصل منه على شيء. ذلك أن من يكفر بنعمة الله لا يكون له خير فيستعتب، مثله مثل ذلك الغني الذي أصاب بستانه إعصار فيه نار فاحترق ولم يكن عنده قوة ولا بقية من عمر لكي يغرس مثله من جديد. نعوذ بالله من ذلك.

ويلقي العلم الحديث بعض الضوء على هذا الوصف القرآني الدقيق لنوع من الأعاصير المحرقة التي لم تكن معروفة لأهل الجزيرة العربية وقت نزول القرآن الكريم، حيث أمكن للعلماء أن يميزوا حديثًا بين نوعين رئيسيين من الأعاصير:

أما النوع الأول فيسمى «الأعاصير الاستوائية»، وهي التي تتولد عادة في الأجزاء الغربية من المحيطات الساخنة قرب خط الاستواء، أو داخل مناطق نشاط الرياح التجارية، حيث تسير معها من الشرق إلى الغرب، وأهم مناطقها جزر الهند الغربية وخليج المكسيك وبحر الصين وبحر العرب وجزائر الفلبين واليابان والمحيط الهندي وشرق جزيرة مدغشقر والمحيط الهادي وشمال شرقي استراليا والبحر الكاريبي والساحل الجنوبي

الشرقي لأمريكا . وقد لوحظ أن هذا النوع من الأعاصير يحتاج إلى مصدر دائم يزوده بالهواء الرطب الصاعد من بحار دافئة ، ولذا فإنه يستمر في عنفوانه إلى أن يصل إلى اليابسة ويتحول إلى منخفضات جوية صغيرة لا تلبث أن تتلاشى سريعًا . وأهم ما يميز هذا النوع من الأعاصير الاستوائية أن رياحها العاتية تدور بسرعات هائلة تصل إلى ٢٤٠ كيلومتراً في الساعة حول منطقة هادئة في المركز لا يزيد قطرها على نحو ٣٥ كيلو متراً تسمى «عين الإعصار» . ويمكن للإعصار الاستوائي أن يدوم لعدة أيام ويتحرك متقدمًا بمعدل يبلغ ٢٠ كيلومترًا في الساعة ، مثيرًا عواصف رملية أو ترابية مدمرة ، فضلاً عما يسببه من طوفانات محلية وأمواج هائلة تغرق الأرض ومن عليها ، خاصة عندما يدنو من الشواطئ المنخفضة . وقد حدثنا القرآن الكريم عن مثل تلك الآثار المدمرة لرياح شديدة البرودة والعصوف أصابت قوم عاد سبع ليالٍ وثمانية أيام متتابعة فأهلكتهم:

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾

(سورة الحاقة ٦ ، ٧).

وأما النوع الثاني من الأعاصير فيسمى «الأعاصير الدوامية» ، وتشتهر بقدرتها الفائقة على التدمير لشدة هبوط الضغط الجوي فيها ولسرعة دوران الرياح حولها ، بسرعة تصل أحيانًا إلى ٥٠٠ كيلومتر في الساعة . وعادة ما تكون هذه الأعاصير الشديدة صغيرة الحجم لا يزيد قطرها على نصف كيلومتر ، وكثيرًا ما يصاحبها حدوث عواصف رعدية ، وتظهر على شكل قمع طويل (أو مخروط) يتدلى من السماء والسحاب إلى أسفل نحو الأرض ، وقد يحدث في جداره تفريغ كهربي مستمر يزيد من خطورته ويجعله يبدو كأنما يشتعل نارًا ، ويعرف هذا النوع من الأعاصير الدوامية ، أو القمعية ، باسم «التورنادو» ، وأهم مناطقه غرب أمريكا الشمالية والوسطى وبعض المناطق التي تهب الرياح فيها من البحر على السواحل الغربية للقارات ، ويستغرق دوامه في أي مكان قبل تحركه إلى مكان آخر نحو الساعة فقط ، يحدث خلالها تدميرًا شديدًا لكل ما يصادفه على الأرض ، ويصحبه أحيانًا سقوط أمطار غزيرة وحدوث برق ورعد شديدين .

وهذا النوع من الأعاصير الدوامية نادرًا ما يحدث في الأراضي المطلة على الخليج العربي وخليج عمان .

وهكذا جاء وصف القرآن لهذه الأعاصير المحرقة بنارها ضربًا من الإعجاز الدال على أن الرسول محمد - ﷺ - لم ير في حياته مثل هذه الظاهرة حتى يصفها هذا الوصف الدقيق ، وأن ما بلغه عن ربه :

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾

(سورة النجم : ٤ ، ٥).

وهناك أعاصير تهبّ على المناطق ذات المناخ المعتدل من الكرة الأرضية ، وهي أقل عنفًا بكثير من النوعين السابقين ، وتمر أحيانًا دون أن يشعر بها الناس ، ويكثر حدوثها بصفة خاصة في فصل الشتاء . وإلى هذه الأعاصير يرجع الفضل في سقوط الأمطار في البلاد العربية .

[انظر : البرق والرعد - الرياح]

حُجِّيَّةُ السُّنَّةِ النبوية ورد ما أثير حولها من شبهات



أ . د . أحمد عمر هاشم
عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر

السنة النبوية المطهرة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام هي الأصل الثاني من أصول الإسلام ، أجمع الأئمة على أنها المصدر الثاني للإسلام بعد القرآن الكريم فيجب اتباعها وتحرم مخالفتها فأوجب الله تعالى طاعة رسوله (ﷺ) حيث قال سبحانه :

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾

(آل عمران : ٣٢).

وقد جعل الله تعالى التولي عن طاعة الله وطاعة رسوله كفرا في هذه الآية لأن من أركان الإيمان الإيمان بالله ، الإيمان بالرسول ﷺ وبأن كل ما أتى به حق وصدق .

ووضح الله تعالى أن الرسول ﷺ هو الذى يبين للناس ما نزل إليهم فقال سبحانه :

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(النحل : ٤٤).

ولهذا أوجب الله تعالى طاعته واتباع سنته فى حياته وبعد وفاته باتباع سنته المشرقة ، ووجه الرسول ﷺ أمته إلى التمسك بكتاب الله وسنته سيرا على هديهما فقال : « تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنتي » رواه الحاكم .

وقد قيض الله لحفظ الحديث رجالا أمناء وحفاظا أجلاء فى كل جيل منذ العهد النبوى إلى أن تقوم الساعة ، ومع النهى عن الكتابة فى أول الأمر وعن التدوين العام والرسمى للسنة النبوية مخافة اختلاطها بالقرآن ، ولتوفر الهمم على حفظه مع هذا فقد أذن ﷺ لبعض الصحابة بكتابة الحديث فى العهد النبوى وبين يديه بصورة خاصة وغير رسمية ، فالسنة لم تبق مهملة طيلة القرن الأول إلى عهد عمر بن العزيز ، وإنما كانت تكتب فى عهد الرسول ﷺ وعهد الصحابة وحفظت فى الصحف والمجاميع بجانب حفظها فى الصدور فكانت توجد بعض الصحف التى شاركت الصدور فى حفظ السنة ، ومن بين هذه الصحف صحيفة عبد الله بن

عمرو بن العاص التي تسمى بالصادقة، لأنه كتبها عن رسول الله ﷺ مباشرة، يقول عبد الله بن عمرو بن العاص لمجاهد: «هذه الصادقة فيها ما سمعته من رسول ﷺ وليس بيني وبينه أحد».

وكان لجابر بن عبد الله الأنصاري صحيفة، ولأنس بن مالك صحيفة، ولسعد بن عبادة الأنصاري، وسمرة بن جندب، وصحيفة همام بن المنبه عن أبي هريرة إلى غير ذلك من الصحابة ومدوناتهم في الحديث وقد شاع في بعض المثقفين أن السنة لم تكتب إلا في القرن الثاني، لعدم معرفتهم بما كتب في العهد النبوي، وكما قال الأستاذ أبو الحسن الندوي وغيره من المحققين: «وإذا اجتمعت هذه الصحف والمجاميع وما احتوت عليه من الأحاديث كونت العدد الأكبر من الأحاديث التي جمعت في الجوامع والمسانيد والسنن في القرن الثالث».

وفي هذا أبلغ ردّ على الذين يحاولون النيل من الحديث النبوي وإثارة الشبه حوله بأنه بقي قرنا من الزمان لم يدون وما نقل إلا شفاها وهذه حقيقة وجب أن نوضحها للأمة حتى لا تنطلي على الناس تلك الشبهات التي يثيرها البعض.

ومن الأمور الهامة أيضا التي وجب أن نبينها أن البعض يزعم أنه لايقبل من الأحاديث إلا ما كان متواترا.

مع العلم بأن الحديث مادام قد ثبتت صحته، واستوفى شروط القبول فإن الأخذ به واجب، هذا إلى جانب أن العلماء احتاطوا في قبول خبر الواحد.

واشترطوا الشروط الكافية، ووضعوا لراويه الصفات اللازمة من العدالة والضبط والثقة في الدين، والثقة في الرواية.

قال الخطيب البغدادي: «وعلى العمل بخبر الواحد كان كافة التابعين ومن بعدهم من الفقهاء الخالفين في سائر أمصار المسلمين إلى وقتنا هذا ولم يبلغنا عن أحد منهم إنكار لذلك ولا اعتراض عليه» انظر الكفاية للخطيب البغدادي.

الرد على من ينكر الاحتجاج بخبر الواحد:

من الحديث ما هو: متواتر، ومنه ما هو: آحاد، فأما الحديث المتواتر: فقد عرّفه العلماء بأنه: «هو ما نقله من يحصل العلم بصدقهم ضرورة، بأن يكونوا جماعة لا يمكن تواطؤهم على الكذب عن مثلهم من أول الإسناد إلى آخره».

ولذا: كان مفيداً للعلم الضروري، وهو الذي يضطر إليه الإنسان، بحيث لا يمكنه دفعه، ويجب العمل به من غير بحث عن رجاله، ولا يشترط فيه عدد معين في الأصح.

وأما حديث الآحاد: فهو الخبر الذي لم تبلغ نقلته في الكثرة مبلغ الخبر المتواتر، سواء كان المخبر واحداً أو اثنين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة، إلى غير ذلك من الأعداد التي تشعر بأن الخبر دخل بها في حيز المتواتر.

وقيل في تعريفه: هو ما لم يوجد فيه شروط المتواتر، سواء كان الراوي له واحداً أو أكثر.. والتعريفان يتفقان في أن خبر الواحد لا تجتمع فيه شروط المتواتر، فهما متقاربان.

وقد اتفق جمهور المسلمين -من الصحابة والتابعين وغيرهم- على وجوب العمل بخبر الواحد، وأنه حجة، ويفيد الظن، ومنع من وجوب العمل به بعض الطوائف: كالروافض والقدرية.. وبعض المتكلمين.

والدليل على وجوب العمل بخبر الواحد ما يأتي:

● أولاً: قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾

(الحجرات: ٦).

والنبأ: هو الخبر، وهو نكرة في سياق الشرط فيعم كل خبر، ويدخل فيه الخبر الذي يتعلق بالرسول ﷺ قبل غيره، لأهميته، وقد أوجب الله تعالى التثبت فيه لوجود الفسق، فإذا انتفى هذا السبب بأن كان المخبر ثقة عدلاً قُبل الخبر من غير تثبت ولا توقف.

● ثانياً: ورد في السنة الشريفة، ما يدل على قبول خبر الواحد، من ذلك ما روي عن سفيان بن عيينة عن عبدالملك بن عمير، عن عبدالرحمن بن عبدالله بن مسعود، عن أبيه: أن النبي ﷺ قال: «نضّر الله عبداً سمع مقالتي ووعاها وأداها فرب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله، والنصيحة للمسلمين ولزوم جماعتهم، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم».

وفي هذا الحديث يدعو الرسول ﷺ لاستماع مقالته وأدائها، ويدعو بالنضرة للقائم بذلك. فيقول: «نضر الله عبداً..» وفي رواية (امرءاً) وكل واحدة من الكلمتين بمعنى الواحد، والرسول ﷺ لا يأمر أن يؤدى عنه إلا الذي تقوم به الحجة، فدل ذلك على وجوب العمل بخبر الآحاد.

وقد تواتر عن الرسول ﷺ أنه كان يبعث بكتبه ورسله، ويلزم المسلمين العمل بالآحاد منها.

● ثالثاً: إجماع الصحابة المستفاد من الوقائع الكثيرة التي كانت تحدث وتواتر عنهم في العمل بخبر الواحد، وكثيراً ما يكون لهم رأي في أمر من الأمور، فإذا جاء خبر عن رسول الله ﷺ أخذوا به وتركوا آراءهم، كما كانوا يرجعون إلى بيت النبوة في بعض ما يحتاجون إليه، فيسألون أمهات المؤمنين، رغبة منهم في الوقوف على حكم النبي ﷺ في مثل هذه الأمور. وعلى هذا المنهج سار التابعون من بعدهم.

ومما يشهد للعمل بخبر الواحد: أن الصحابة كانوا يكتفون به فيما ينزل من أحكام الدين، ولا يطلبون خبراً آخر.

من ذلك: ما روى عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال: بينما الناس بقباء في صلاة الصبح إذ جاءهم آت فقال: إن النبي ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن، وقد أمر أن يستقبل القبلة فاستقبلوها، وكانت وجوههم إلى الشام، فاستداروا إلى الكعبة.

فقد أخبرهم بتحويل القبلة واحد صادق، فلو لم يكن خبر الواحد جائزاً لما تحولوا إلى الكعبة بخبره.

مع هذا الوضوح لحجية السنة بالتواتر منها والآحاد، ومع ثبوت كتابتها في العهد النبوي باختصاص بعض الصحابة استثناء من النهي العام ومع كل هذا، زعم البعض أن السنة كان منهيا عن كتابتها طيلة القرن الأول وهذا غير صحيح؛ لأن المنهي عنه هو التدوين الرسمي العام، أما كتابة الحديث فقد أذن الرسول ﷺ لبعض الصحابة بكتابتها مثل عبد الله بن عمرو بن العاص وأنس وجابر وغيرهم وقد جمعوا في صحفهم ما يوازي ما دون في القرن الثالث من الأحاديث الصحيحة غير المكررة، فلم تبق السنة مهملة طيلة القرن الأول، ونحن حين نجزم بصحة الحديث الذي استوفى شروط الصحة فهذا ما عليه إجماع الأمة، فجميع الأحكام الفقهية والعبادات ثبتت تفصيلاتها بالأحاديث الصحيحة وأن لم تكن متواترة، ولكن للأسف ظن البعض أن الحديث لا يؤخذ به إلا إذا تواتر، وهذا خطأ بل تأخذ بالمتواتر وبالآحاد ما دام صحيحا خاصا ما رواه البخاري ومسلم وأهل الصحاح والسنن.

وبهذا المناسبة أبشر محبي الحديث النبوي الشريف بأننا في جامعة الأزهر قمنا والحمد لله بتدوين أكبر موسوعة علمية، تضم الأحاديث النبوية الصحيحة من أمهات كتب السنة، متبعين المنهج العلمي في النقد والتدوين وبيان الدرجة والمعنى.

وندعو الله تعالى أن يوفق أمتنا إلى صحيح دينها إنه نعم المولى ونعم النصير، وبالله التوفيق.

رمضان ١٤٣٥ هـ
يوليو ٢٠١٤ م

أبعاد جديدة لمقاصد الشريعة (٧)

مقصد حفظ إنسانية الإنسان

أ. د. عبدالمجيد النجار

٤. حفظ الحرية الإنسانية

من أهم العناصر المكونة لإنسانية الإنسان حرية الإرادة، فكل الموجودات الكونية خلقت مسوقة إلى مصائرها على سبيل الحتم، إلا الإنسان فقد خلق بإرادة حرة يختار بها مصيره، وهو معنى قوله تعالى:

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾

(الأحزاب: ٧٢)

فهذه الأمانة التي حملها الإنسان دون كل الموجودات إنما حملها بناء على إرادته الحرة التي كان بها إنسانا، فهي إذن عنصر أساسي من إنسانيته.

وحينما تنتهك حرية الإنسان، بأن تلغى بأي وجه من وجوه الإلغاء، فإن ذلك يعتبر استنقاصا من إنسانيته، ويعتبر بالتالي هدرا لقدرته على أداء مهمته التي من أجلها خلق خلافة في الأرض وتعميرا فيها.

إنه ليس من شك في أن من أعظم أسباب القوة النفسية الحرية، ومن أعظم أسباب ضعف النفوس الاستبداد عليها، وحرية الإنسان تعني أن يكون متصرفا في نفسه بمحض اختياره، سواء فيما يتعلق بتفكيره أو بأقواله أو بأفعاله، فيتجه في كل ذلك بحسب ما تمليه عليه إرادته الذاتية[١] والاستبداد يعني أن تتسلط عليه عوامل خارجية تقيد مشيئته في الفكر أو في القول أو في العمل، فيتجه في كل ذلك أو في بعضه بحسب ما تمليه تلك العوامل عكس إرادته، فإذا هو يقول أو يفعل ما لا يريد، ولا يقول ولا يفعل ما يريد.

وحينما تطرأ على النفس عوامل الاستبداد، فإنها تفقد قدرتها على الانطلاق فيما تريد لتبدع في الفكر أو في القول والعمل، وتنكمش على ذاتها مترقبة أوامر وتوجيهات المستبد عليها ليرسم لها الطريق ويسوقها فيه، فإذا هي تذهب فيه كما هو مرسوم، وهذا الوضع النفسي يعوق الإنسان عن أن يقوم بما هو مطلوب منه من تعمير، إذ التعمير لا يكون إلا بالمبادرة والابتكار والانطلاق في التجارب الحرة التي تعدل مسارها ذاتيا وتحقق تقدما إلى الأمام، وأما الارتهان النفسي لإرادة خارجية فإنه لا يثمر من ذلك شيئا، وهو أحد مقتضيات قوله تعالى:

(١) عرف ابن عاشور الحرية بقوله: «تمكن الشخص من التصرف في نفسه وشئونه كما يشاء دون معارض (ابن عاشور، مقاصد الشريعة: ٣٠٩).

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾

(النحل: ٧٥)

فهذا الذي ضرب به المثل عاجزا لا يقدر على فعل شيء إنما سبب عجزه هذه العبودية التي سلبته حريته، فصار بذلك ضعيف النفس عاجزا عن الفعل.

وفي سبيل حفظ حرية الإنسان من الاستبداد والتسلط جاءت الشريعة بأحكام كثيرة تلتقي في معرض تعددها وتنوعها عند الإلزام بتوفير الحرية للإنسان، ومنع أي ضرب من ضروب التسلط عليها والإهدار لها، وقد بلغت هذه الأحكام من الاستفاضة بحيث أصبحت تفيد على وجه القطع أن حفظ الحرية مقصد شرعي من المقاصد العامة، وهو مقصد يندرج ضمن مقصد أعلى منه هو مقصد حفظ إنسانية الإنسان، باعتبار أن الحرية من أعظم مكوناتها. وقد كان الإمام ابن عاشور سباقا حينما عقد فصلا في كتابه عن مقاصد الشريعة بين فيه أن حفظ حرية الإنسان مقصد أصلي من مقاصد الشريعة، وقال فيه: «إن استواء أفراد الأمة في تصرفهم في أنفسهم مقصد أصلي من مقاصد الشريعة، وذلك هو المراد بالحرية»[٢].

ولعل جامع الأحكام الشرعية التي وضعت لتحقيق مقصد حفظ الحرية هي تلك الأحكام المتعلقة بالرق، فهي أحكام تنتهي في جملتها إلى التضييق في مداخله وأسبابه حتى حرم على الإنسان أن يتنازل عن حريته في ذاته ليصبح بمحض إرادته رقيقا، والتوسيع في مخارجه حتى جعل فك الرقبة عبادة يتقرب بها إلى الله تعالى، والمقصد من كل ذلك الوصول إلى وضع ينتهي فيه استعباد الإنسان للإنسان، وذلك تحرير أبدي للنفس الإنسانية من عبودية لم تخل منها حضارة من الحضارات القديمة قبل الإسلام. وإنما شرعت هذه الأحكام حفظا لإنسانية الإنسان أن تكون مكتملة بحفظ الحرية ومنع العبودية[٣].

وتتفرع على هذه الأحكام بتحرير الإنسان من الرق وأحكام أخرى كثيرة تلتقي عند ذات المقصد الذي هو حفظ الحرية، ومنها الحكم بحرية المعتقد كما في قوله تعالى:

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾

(البقرة: ٢٥٦)

وحرية التفكير وحرية القول للصدع بنتائج ذلك التفكير كما في قوله تعالى:

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

(آل عمران: ١٠٤)

وحرية العمل، وحرية التنقل، والحرية الشخصية في المآكل والملبس والمنزل وما إلى ذلك من سائر ما يندرج تحت مسمى الحرية، فقد جاءت التشريعات المختلفة ملزمة بحفظها، وإن يكن وفق ضوابط لا تئول معها إلى الفوضى التي قد تؤدي إلى انخرام النظام الاجتماعي فتئول إلى عكس المقصود منها[٤].

وقد استكملت الشريعة هذه الأحكام المشرعة للحرية بأحكام أخرى تحرم الاعتداء

(٢) نفس المصدر والصفحة.

(٣) راجع في ذلك: علال الفاسي، مقاصد الشريعة ومكارمها: ٢٤٢، وابن عاشور، مقاصد الشريعة: ٣١٠ وما بعدها.

(٤) راجع ذات المرجعين في ذات الموقع.

عليها، وتضع العقوبات الصارمة على ذلك الاعتداء، ناهيك في ذلك أن امرأة دخلت النار في هرة اعتدت على حريتها في التنقل بالحبس حتى ماتت(٥). ومن ذلك ما جاء في الشريعة من تحريم للاعتداء على الحريات الشخصية بانتهاك حرمة البيوت والدخول إليها بدون إذن، والتلصص للاطلاع على العورات، فكل ذلك يعاقب عليه بالتعزير، ويسقط المسئولية على من دفعه بجرح أو بقتل إذا كان لا يمكن دفعه إلا بذلك(٦)، وكذلك الأمر في كل اعتداء على الحرية فإن عليه عقوبة بالتعزير.

وحينما يكون تقييد الحرية عقوبة مشروعة يقتضيها العدل قصاصا أو دفعا للعدوان بمثله فإن الشريعة قد نظمته بأحكام منضبطة حذر أن ينتهي الأمر إلى الإسراف فيه؛ ولذلك فقد عهدت الشريعة بتقييد الحرية عقابا إلى المجتمع ممثلا في السلطان ولم توكله إلى الأفراد، ومن ذلك أن عقوبة الحبس على سبيل المثال لا يمكن أن ينفذها إلا ولي الأمر دون الأفراد، فإذا ما قام الفرد بتنفيذها اعتبر ذلك ظلما استحق عليه التعزير كما استحق ابن عمرو بن العاص التعزير من عمر بن الخطاب لما اعتدى بنفسه بالإهانة على حرية من اعتدى عليه خطأ بوطء ثوبه، فقد كان عليه أن يشتكي إلى السلطان ليباشر تنفيذ تلك العقوبة، وهذا ما يفسر قولة عمر الشهيرة في هذا المقام: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا»(٧)، فهذا التعنيف منه لابن عمرو إنما هو بسبب اعتدائه على حرية خصمه انتصارا لنفسه بنفسه، معاملا إياه معاملة العبيد والحال أنه حر محفوظ الحرية، فلا يجوز الاعتداء على حريته إلا عقابا يوقعه السلطان كي لا يقع إسراف كما وقع.

فذلك كله إنما هو تشريع لحفظ الحرية(٨).

إن هذه التشريعات المتعددة المختلفة إنما شرعت لتحقيق الحرية تأسيسا لها ودفعا للاعتداء عليها، وإنما حظيت الحرية بمثل هذه التشريعات التي تثبت على وجه القطع أن حفظ الحرية مقصد أساسي من مقاصد الشريعة؛ لأن الإنسان إذا لم تحقق حريته فإنه يفقد أهم مقوم من مقومات حقيقة الإنسانية فيه وهي الحرية التي ميز بها عن سائر المخلوقات، وتفقد بذلك حياته الشطر الأكبر من معناها، وإذا به قد تعطلت ملكاته عن الانطلاق من أجل الفعل المنتج، وأصبح الإنسان بحكم ذلك التسلط لا يقدر على شيء كما جاء في التعبير القرآني، فانتهى الأمر إذن إلى أن الشريعة جاءت تعمل على حفظ الحرية مقصدا شرعيا ينتهي إلى حفظ إنسانية الإنسان مقصدا أعلى، كما ينتهي إليه حفظ الفطرة، وحفظ الكرامة، وحفظ غائية الحياة، إذ هذه كلها تمثل العناصر الأساسية لمعنى تلك الإنسانية في الإنسان. وإذا حفظت إنسانية الإنسان، وانضم ذلك إلى حفظ دينه، فإن الأمر ينتهي إلى حفظ الحياة الإنسانية بأكملها أن تكون لها القيمة التي أرادها لها الله تعالى، إذ قيمة الحياة تنحصر من منظور إسلامي فيما تتقوم به من دين ومن إنسانية.

---

(٥) جاء في الحديث قوله ﷺ: «دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض». أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب خمس من الدواب الفواسق.

(٦) راجع تفاصيل الأحكام في ذلك في: أبوزهرة ـ العقوبة: ٣٣٧، ٣٤٤.

(٧) راجع القصة بمجملها في: منتخب كنز العمال للمتقي الهندي (فصل فضائل الفاروق).

(٨) راجع شرح هذا الملمح الدقيق العميق في: ابن عاشور ـ مقاصد الشريعة: ٣١٦.

من عيون التراث

الأشباه والنظائر

ابن نجيم الحنفي زين الدين بن ابراهيم

التعريف بالمؤلف:

هو زين الدين بن إبراهيم بن محمد الشهير بابن نجيم الحنفي. وُلد بالقاهرة سنة (٩٢٦هـ) وأخذ عن علمائها. فتفقه بالشيخ قاسم بن قطلوبغا ،والبرهان الكرخي ،والأمين بن عبد العال الحنفي، وشرف الدين البلقيني، وشيخ الإسلام أحمد بن يونس الشهير بابن الشلبي ،وأبي الفيض السلمي ،ونور الدين الديلمي المالكي. أجازه الكثيرُ من علماء عصره بالإفتاء والتدريس. وكان الفقه الحنفي أعظم اهتماماته العلمية درسًا وإفتاءً وتأليفًا. أخذ عنه العلم والفقه كثيرون ،من بينهم الشيخ محمد العلمي ،وأخوه الشيخ عمر بن إبراهيم المعروف أيضا بابن نجيم. وتُوفي عام (٩٧٠ هـ). ودُفن بجوار السيدة سكينة بنت الإمام الحسين بن علي – رضي الله عنهم– وترك رصيدًا كبيرًا من الكتب والرسائل.

عرض الكتاب:

يعتمد العرض على النسخة التي قام بتحقيقها محمد مطيع الحافظ ،وتقع في (٥٤٢) صفحة من القطع المتوسط. ويضم الكتاب سبعة أبواب ،تتناول كلاً من:

١– القواعد.
٢– الفوائد.
٣–الجمع والفرق.
٤ – الألغاز.
٥– الحيل.
٦– الفروق.
٧– الحكايات والمراسلات.

الباب الأول: ويندرج تحته كلُّ من القواعد الكلية ،وقواعد كلية يتخرج عليها ما لا ينحصر من الصور الجزئية (ص١٤ – ١٩٠)، وهي أصول الفقه التي يرتقي بها الفقيه إلى درجة الاجتهاد في الفتوى.

أما القواعد الكلية فتشمل ست قواعد (ص١٤ – ١١٤) هي:

(١) لا ثواب إلا بالنية (ص١٤).

(٢) الأمور بمقاصدها، والقصد اتصاف الشيء بالحل والحرمة باعتبار ما قُصد له (ص٢٢)

والقاعدتان السابقتان يشملهما الكلام على النية، وفيها عشرة مباحث:

حقيقة النية. ما شرعت النية لأجله. تعيين المنوي وعدمه. الإخلاص في النية.

محل النية . وقت النية . شروط النية . الجمع بين عبادتين بنية واحدة . التعرض لصفة المنوي من الفريضة والنافلة والأداء والقضاء . عدم اشتراط استمرار النية ، وحكمها في كل ركن .

(٣) اليقين لا يزول بالشك (ص٦٠) ، ويتعلق بها سبع قواعد :

الأصل بقاء ما كان على ما كان . الأصل براءة الذمة . من شك هل فعل أم لا ؟ فالأصل عدمه . الأصل العدم . الأصل إضافة الحادث إلى أقرب أوقاته . الأصل في الأبضاع التحريم . هل الأصل في الأشياء الإباحة أو الحظر أو التوقيف ؟

(٤) المشقة تجلب التيسير ، وأسباب التخفيف سبعة (ص٨٤ – ٩٠) :

السفر . المرض . الإكراه . النسيان . الجهل . النقص . العسر وعموم البلوى .

والمشاق على قسمين (ص٩٠، ٩١) :

- مشقة لا تنفك عنها العبادة غالبًا (ص٩٠) : كمشقة البرد في الوضوء والغسل ، ومشقة الصوم في شدة الحر وطول النهار ، ومشقة السفر للحج والجهاد وغيرهما ، ومشقة ألم الحد ورجم الزناة وقتل الجناة وقتال البغاة .
- مشقة تنفك عنها العبادة غالبًا ، وهي مراتب أو مستويات (ص٩١) :

الأولى : مشقة عظيمة فادحة ؛ كمشقة الخوف على النفوس والأطراف ومنافع الأعضاء .

الثانية : مشقة خفية ؛ كأدنى وجع في أصبع أو أدنى صداع في الرأس أو سوء مزاج خفيف .

الثالثة : مشقة متوسطة بين هاتين ؛ كمريض في رمضان يخاف من الصوم زيادة المرض أو بطء البرء .

وتخفيفات الشرع على سبعة أنواع (ص٩٢) :

الأول : تخفيف إسقاط ؛ كإسقاط العبادات عند وجود أعذارها .

الثاني : تخفيف تنقيص ؛ كالقصر في السفر .

الثالث : تخفيف إبدال ؛ كإبدال الوضوء والغسل بالتيمم .

الرابع : تخفيف تقديم ؛ كالجمع بعرفات .

الخامس : تخفيف تأخير ؛ كالجمع بمزدلفة .

السادس : تخفيف ترخيص ؛ كشرب الخمر للغصة .

السابع : تخفيف تغيير ؛ كتغيير نظم الصلاة للخوف .

(٥) الضرر يزال (ص٩٤) ، ويتعلق بها أربع قواعد :

١- الضرورات تبيح المحظورات .
٢- الضرر لا يُزال بالضرر .
٣- ما أبيح للضرورة يتقدر بقدرها .
٤- ما جاز لعذر بطل بزواله .

(٦) العادة محكمة (ص١٠١) ، ويدخل تحتها بيان الرجوع إلى العرف والعادة (ص١٠١) في العديد من المسائل الفقهية ، حتى صارت أصلا ؛ فالحقيقة تترك بدلالة الاستعمال والعادة .

والعادة ما استقر في النفوس من الأمور المتكررة المقبولة عند الطباع السليمة .

وأنواعها (ص١٠١) ثلاثة :

العرفية العامة ؛ كوضع القدم . العرفية الخاصة ؛ كاصطلاح كل طائفة مخصوصة كالرفع للنحاة . العرفية الشرعية ؛ كالصلاة والزكاة والحج .. إلخ .

وإذا تعارض العرف مع الشرع قدّم عرف الاستعمال ، خصوصا في الأيمان ، إلا في مسائل يقدم فيها الشرع على العرف (منها : لو حلف لا يصلي أو لا يصوم أو لا ينكح فلانة ... إلخ) . وكذلك ، فالأيمان مبنية على العرف لا على الحقائق اللغوية .

فالعادة –إذن– تثبت بالتكرار والغلبة .

وتنزل المطردة منها منزلة الشرط (فالمعروف عرفا كالمشروط شرعا) ، ولا عبرة بالعرف الطارئ .

أما القواعد الكلية التي يتخرج عليها ما لا ينحصر من الصور الجزئية (ص١١٥ – ١٩٠) فتشمل تسع عشرة قاعدة ، هي :

(١) الاجتهاد لا يُنقض بالاجتهاد (ص١١٥) .

(٢) إذا اجتمع الحلال والحرام ، غلب الحرام (ص١٢١) .

(٣) الإيثار في القرب (ص١٣٢) .

(٤) التابع تابع (ص١٣٣) ، ويدخل تحتها قواعد منها :

١- أنه لا يُفرد بحكم .
٢- التابع يسقط بسقوط المتبوع (ص١٣٤) .
٣- التابع لا يتقدم على المتبوع .
٤- يغتفر في التابع ما لا يغتفر في غيره .

(٥) تصرف الإمام على الرعية منوط بالمصلحة (ص١٣٧) .

(٦) الحدود تدرأ بالشبهات (ص١٤٢) .

(٧) الحر لا يدخل تحت اليد (ص١٤٦) ، فلا يضمن بالغصب ولو صبيا .

(٨) إذا اجتمع أمران من جنس واحد ولم يختلف مقصودهما دخل أحدهما في الآخر غالبا (ص١٤٧) .

(٩) إعمال الكلام أولى من إهماله متى أمكن وإلا أهمل (ص١٥٠) ، فإذا كانت الحقيقة متعذرة يصار إلى المجاز (والمهجور شرعا أو عرفا كالمتعذر) ، وإن تعذرت الحقيقة والمجاز أو كان اللفظ مشتركا بلا مرجح أهمل لعدم الإمكان .

(١٠) الخراج بالضمان (ص١٧٥) .

(١١) السؤال معاد في الجواب (ص١٧٧) .

(١٢) لا ينسب إلى ساكت قول (ص١٧٨) .

(١٣) الفرض أفضل من النفل إلا في مسائل (ص١٨٢) .

(١٤) ما حرم أخذه حرم إعطاؤه (ص١٨٣) .

(١٥) من استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه (ص١٨٤) .

(١٦) الولاية الخاصة أقوى من الولاية العامة (ص١٨٦) .

(١٧) لا عبرة بالظن البين خطؤه (ص١٨٨) .

(١٨) ذكر بعض ما لا يتجزأ كذكر كله (ص١٨٩) .

(١٩) إذا اجتمع المباشر والمتسبب أضيف الحكم إلى المباشر (ص١٩٠).

• ويتناول الباب الثاني الفوائد من الأشباه والنظائر (ص١٩١ – ٣٥٨). أحصى منها ابن نجيم خمسمائة في مؤلف له عن النوع الثاني من الأشباه والنظائر. وقد رتبها هنا في أبواب مع إضافة بعض الضوابط والاستثناءات على طريقة كتب الفقه المشهورة، حتى يسهل الرجوع إليها، فشملت:

١- الطهارة. ٢- الصلاة. ٣- الزكاة. ٤- الصوم. ٥- الحج. ٦- النكاح. ٧- الطلاق. ٨- العتاق وتوابعه. ٩- الأيمان. ١٠- الجنايات. ١١- السير. ١٢- الحدود والتعزير. ١٣- الشركة. ١٤- البيوع. ١٥- الكفالة. ١٦- الفرائض. ١٧- الوكالة. ١٨- الإقرار. ١٩- الصلح. ٢٠- المضاربة. ٢١- الهبة. ٢٢- المداينات. ٢٣- الإجارات. ٢٤- الرهن. ٢٥- الحجر. ٢٦- المأذون. ٢٧- الشفعة. ٢٨- القسمة. ٢٩- الإكراه. ٣٠- الغصب. ٣١- الوصايا. ٣٢- الحظر والإباحة. ٣٣- اللقطة والآبق والمفقود. ٣٤- القضاء والشهادات والدعاوى. ٣٥- الأمانات من الوديعة والعارية وغيرهما. ٣٦- الصيد والذبائح والأضحية.

والفرق بين الضابط والقاعدة (ص١٩٢) أن القاعدة تجمع فروعا من أبواب شتى، أما الضابط فهو الأصل الذي يجمعها من باب واحد.

• وتناول الباب الثالث فن الجمع والفرق من الأشباه والنظائر (ص٣٥٩ – ٤٦٥). وفي أوله تنبيه على أحكام يكثر دورها ويقبح بالفقيه جهلها، منها:

١- أحكام الناسي والجاهل والمكره: حد النسيان (ص٣٦٠) في التحرير عدم تذكر الشيء وقت الحاجة إليه، وهو يرادف السهو. أما الجهل (ص ٣٦١) فحقيقته عدم العلم عما من شأنه العلم.

٢- أحكام الصبيان والعبيد والسكارى والعمي. والصبي (ص ٣٦٤) لغة: جنين ما دام في بطن أمه، فإذا انفصل فصبي إلى البلوغ، فغلام إلى تسع عشرة، فشاب إلى أربع وثلاثين، فكهل إلى إحدى وخمسين، فشيخ إلى آخر عمره، غلام إلى البلوغ وبعده شابٌ، وفتى إلى الثلاثين، فكهل إلى الخمسين، فشيخ.

٣- أحكام الحمل.

٤- الأحكام الأربعة (الاقتصار والاستناد والتبيين والانقلاب).

٥- أحكام النقود (ما يتعين وما لا يتعين، وبيان جريان أحدهما مكان الآخر، وبيان حكم الساقط هل يعود أم لا؟ وما فرع على ذلك، وبيان أن النائب يملك ما لا يملكه الأصيل، وبيان ما يقبل إسقاطه من الحقوق وما لا يقبل).

٦- بيان أن الزيوف كالجياد في بعض دون بعض.

٧- أحكام النائم والمجنون والمعتوه (ص٣٨٢) [ضعيف العقل].

٨- بيان ما يعتبر فيه المعنى دون اللفظ وعكسه.

٩- أحكام الأنثى، والجن، والذمي، والمحارم.

١٠- أحكام غيبوبة الحشفة.

١١- أحكام العقود والفسوخ.

١٢- القول في الملك، وفي الدَّين وأحكامه، وفي ثمن المثل، وأجرة المثل، ومهر المثل.

١٣- القول في الشرط والتعليق.

١٤- القول في السفر.

١٥- القول في أحكام المسجد.

١٦- القول في الحرم.

١٧- القول في يوم الجمعة.

١٨- أحكام الخنثى.

١٩- أحكام الكتابة.

٢٠- أحكام الإشارة.

هذا ما تناوله الباب في فن الجمع، أما ما يتعلق بفن الفرق فتناول عددًا كبيرًا، كالفرق بين الوضوء والغسل، ومسح الخف وغسل الرِّجل.. إلخ.

وفي آخره خاتمة اشتملت على عدد من الفوائد، من أهمها:

١- فائدة في أقسام العلوم، وما يعد منها فرض عين (ص٤٥٠) [ما يحتاج إليه المرء لدينه]. وفرض كفاية (ص٤٥٠) [ما زاد عليه لنفع غيره]. ومندوباً (ص٤٥٠) [التبحر في الفقه وعلم القلب]. وحراماً (ص٤٥٠) [الشعوذة والتنجيم والرمل وعلم الطبيعيين والسحر]، ومكروهًا، (ص٤٥١) [أشعار المولدين من الغزل والبطالة]. ومباحاً (ص٤٥١) [أشعار المولدين التي لا سخف فيها].

٢- فائدة عن الإمام البخاري في سبيل المحدِّث إلى الكمال في العلم (٤٥١، ٤٥٢). إذ لا يصير الرجل محدثًا كاملا إلا أن يكتسب أربعًا مع أربع، كأربع مع أربع، في أربع عند أربع، بأربع على أربع، عن أربع لأربع، وهذه الرباعيات لا تتم إلا بأربع مع أربع، فإذا تمت له كلها هانت عليه أربع وابتلي بأربع، فإذا صبر أكرمه الله تعالى في الدنيا بأربع وأثابه في الآخرة بأربع.

أما الأولى، فأخبار الرسول ﷺ وشرائعه، وأخبار الصحابة ومقاديرهم، والتابعين وأحوالهم، وسائر العلماء وتواريخهم.

مع أربع: أسماء رجالهم وكناهم وأمكنتهم وأزمنتهم.

كأربع: التحميد مع الخطب، والدعاء مع الترسل، والتسمية مع السورة، والتكبير مع الصلوات.

مع أربع: المسندات، والمرسلات، والموقوفات، والمقطوعات.

في أربع: في صغره في إدراكه، في شبابه، في كهولته.

عند أربع: عند شغله عند فراغه عند فقره عند غناه.

بأربع: بالجبال بالبحار بالبراري بالبلدان.

على أربع: على الحجارة على الأخزاف على الجلود على الأكتاف إلى الوقت الذي يمكن نقلها إلى الأوراق.

عن أربع: عمن هو فوقه ودونه ومثله وعن كتاب أبيه إذا علم أنه خطه.

لأربع: لوجه الله- تعالى- ورضاه، وللعمل به إن وافق كتاب الله تعالى، ولنشره بين طالبيه، ولإحياء ذكره بعد موته.

ثم لا تتم له هذه الأشياء إلا بأربع من

كسبه، معرفة الكتابة، واللغة، والصرف، والنحو.

مع أربع من عطاء الله: الصحة والقدرة والحرص والحفظ.

فإذا تمت له هذه الأشياء هانت عليه أربع: الأهل والولد والمال والوطن.

وابتلي بأربع: بشماتة الأعداء وملامة الأصدقاء، وطعن الجهال، وحسد العلماء.

فإذا صبر أكرمه الله تعالى في الدنيا بأربع: بعز القناعة، وهيبة النفس، ولذة العلم، وحياة الأبد.

وأثابه في الآخرة بأربع: بالشفاعة لمن أراد من إخوانه، وبظل العرش، والشرب من الكوثر، وجوار النبيين في أعلى عليين.

٣- فائدة في اعتقاد الإنسان في مذهبه ومذهب غيره. ففيما يتعلق بمذهب (ص٤٥٢) المرء ومذهب مخالفيه، فيجب الاعتقاد بأن مذهبه صواب يحتمل الخطأ، وأن مذهب مخالفيه خطأ يحتمل الصواب. أما ما يتعلق بمعتقده (ص٤٥٢) ومعتقد خصومه، فيجب الاعتقاد بأن الحق ما هو عليه والباطل ما عليه خصومه.

٤- فائدة العلوم الثلاثة (ص٤٥٣): علم نضج وما احترق (كعلم النحو، وعلم الأصول)، وعلم لا نضج ولا احترق (كعلم البيان، والتفسير)، وعلم نضج واحترق (كعلم الفقه، والحديث).

• وتناول الباب الرابع فن الألغاز أو المعضلات (ص٤٦٦- ٤٧٦).

وفي الصحاح ألغز في كلامه إذا عمي مراده، والاسم: اللغز والجمع الألغاز. وأصل اللغز جحر اليربوع بين القاصعاء والنافقاء يحفر مستقيما إلى أسفل ثم يعدل عن يمينه وشماله عروضا يعترضها فيخفى مكانه بتلك الألغاز. وقد أسفرت مطالعة مصنفات من سبقوا ابن نجيم من الفقهاء والعمد عن اشتمالها على كثير من هذه الألغاز. فانتخب ابن نجيم من هذه الألغاز أحسن ما أورده منها بعض الفقهاء الأحناف، تاركا منها ما فرع على قول ضعيف.

غطت هذه الألغاز الطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والنكاح والطلاق والعتاق والأيمان والحدود والسير والمفقود والوقف والبيع والكفالة والقضاء والشهادات والإقرار والصلح والمضاربة والهبة والإجارة والوديعة والعارية والمكاتب والمأذون والغصب والشفعة والقسمة والأضحية والكراهية والجنايات والفرائض.

• وتناول الباب الخامس الحيل (ص٤٧٧- ٤٨٨) ويُقصد بالحيل الحذق في تدبير الأمور، وهي تقليب الفكر حتى يهتدي إلى المقصود، وأصلها الواو، واحتال: طلب الحيلة. يذكر ابن نجيم أن المشايخ قد اختلفوا في التعبير عن ذلك، فاختار كثير منهم التعبير بكتاب الحيل، واختار آخرون كتاب المخارج، وعند البعض هو الهرب من الحرام.

وفي هذا أورد (٢٥) فصلا: أولها الصلاة، يليه الصوم ثم الزكاة، فالفدية، ثم الحج يليه النكاح ثم الطلاق، فالخلع، فالأيمان، فالعتاق، فالوقف والصدقة، فالشركة، فالبيع والشراء، فالهبة، فالاستبراء، فالمداينات، فالإجارات، فمنع الدعوى، فالوكالة، فالشفعة، فالصلح، فالكفالة، فالرهن، وأخيرا الوصايا.

• وتناول الباب السادس الفروق (ص٤٨٩- ٥١١) مختصرة عن فروق الإمام الكرابيسي المسمى بتلقيح المحبوبي، فذكر فيها شيئا من كل باب. والحق بهذا المختصر تتمة للفروق، قيل لأنها لأخي المؤلف زاد فيها - على ما ذكرنا من قبل من أبواب-: كتاب الوديعة، وكتاب الشرب والأشربة، وكتاب المزارعة، وكتاب الآداب.

وتناول الباب السابع والأخير فن الحكايات والمراسلات (ص٥١٢- ٥٢٢)، الموجزة عن مطالعات المؤلف لأواخر كتب الفتاوى، ومناقب الكردي، وطبقات عبد القادر مقتصرا غالبا على ما اشتمل منها على أحكام. وذيّل هذا الباب بوصية الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان لأبي يوسف - رحمهما الله تعالى - وفيها فائدة عظيمة لطلاب العلم.

الخلاصة:

ورد في هذا الكتاب الإشارة إلى المفاهيم النفسية الآتية:

النية intention.

اليقين certainty.

الشك Doubt.

أسباب تخفيف المشقة Stress Relif.

المشقة stress.

مستويات المشقة Levels of stress.

العرف custom.

العادةHabit

الضابط controller

القاعدة Rule

النسيان Forgetting

الجهل Uncertainty

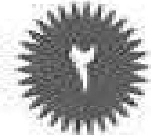
الصبى Child

المعتقد Belief

القائم بالعرض

د. فؤاد أبو المكارم

مساهمة الزوجة فى الأعباء المالية وقضية الثروة المشتركة



أ. د/ محمد الشحات الجندى
عضو مجمع البحوث الإسلامية



مفهوم الثروة المشتركة

يتحدد مفهوم هذه الثروة فى الأموال النقدية والعقارية التى يكتسبها الزوجان، أثناء فترة سريان العلاقة الزوجية الممتدة عبر السنين ويثور التساؤل عن مصير هذه الأموال هل تقسم بينهما أم يختص بها الرجل وحده، ذلك أن طبيعة العلاقة الزوجية تربط كل من الزوجين ببعضها البعض، وتجعل كل منهما يساند ويعاون الآخر رفيقه على درب الحياة، ويعملان معًا من أجل صالح الأسرة، يبذلان الجهد ويكدان ويسعيان لتحصيل المال وتوفير حياة أفضل لهما ولأولادهما .

مما ينتج عن هذا السعى والعمل أموال نقدية وعقارية حصيلة جهدهما تزيد عن حاجتهما ، ويتكون منها ثروة تضم المال الذى جمعه كل منهما أثناء سريان العلاقة الزوجية .

وتبرز عناصر الثروة المشتركة فى بعض المحددات منها :

- إن المال الذى تتكون منه الثروة المشتركة ، ساهم فيه الزوج والزوجة بالجهد والعمل خلال فترة استمرار الحياة الزوجية .
- إن هذا المال قد تحصل واكتسب من جانبهما عبر سنوات أو عقود امتدت فيها الحياة الزوجية وتشكلت منهما أسرة متعاونة ومتكافلة بين طرفيها الرجل والمرأة.
- إن مال الثروة المشتركة ، مقصور على المبالغ المالية والعقارات التى اكتسبت أثناء سريان علاقة الزواج فلا يشمل الأموال التى حصل عليها أى من الزوجين خارج نطاق الزواج ، مثل المال الموروث أو الموهوب أو الموصى به وما على شاكلته .
- إن تقسيم هذا المال المشترك يكون لكلا الزوجين ، فيأخذ منه الرجل والمرأة لأنهما أصحاب هذه الثروة التى تحصلت أثناء الحياة الزوجية وبسببها .
- أن يقع الانفصال الذى به تنتهى الحياة الزوجية حال حياة كل منهما ، وهما على قيد الحياة ، بالطلاق بغير رضاها ولا بسبب من جهتها وربما يرى البعض تعميم تطبيق توزيع المال المشترك فى كل صور التفريق بين الزوجين ، وهو أمر محل جدل وتطرح فيه السبب أو العلة فى تشريع نظام الثروة المشتركة والهدف المقصود من ورائه ، وربما بحث أساس المشروعية فيه .

وقد أخذت المدونة المغربية للأحوال الشخصية بالثروة المشتركة كوسيلة تنظيمية لتقسيم هذه الثروة بينهما وجعلت مصدره الاتفاق والتراضى بين الزوجين فيما نصت عليه فى المادة ٤٩ .

إن كلا الزوجين ذمة مالية مستقلة عن الآخر ويجوز لهما فى إطار تدبير الأموال التى ستكسب أثناء انعقاد الزواج الاتفاق على استثمارها وإعادة توزيعها

وفى حالة عدم الاتفاق يتم الاحتكام إلى القواعد العامة مع وضع عمل الزوجين وما قدم كل منهما من مجهودات وما تعرض له من أعباء فى رحلة لتنمية أموال الأسرة كمعيار لاقتسام الأموال فى حالة الخصومة .

والنص يؤسس على توزيع الثروة المشتركة بناء على تمتع كل من الزوجين بذمة مالية مستقلة عن الآخر، وحقه الخاص فى المال الذى اكتسبه .

الرأى الفقهى فى مسألة الثروة المشتركة

قضية الثروة المشتركة من القضايا التى أخذت بها بعض النظم الغربية، بناء على الشراكة بين المرأة والرجل فى مجالات العمل المختلفة ، والتى جعلت المرأة ترتاد معظم - إن لم يكن كل ميادين العمل البدنية والذهنية ، والتى تجمع بين العمل الذهنى والبدنى، حتى أصبحت المنظومة المجتمعية فى الدول الغربية تقوم على هذا الأساس، مما أسفر عن أن يكون الزوج والزوجة مشتركان فى تجميع ثروة الأسرة فما يكون للأسرة من أموال منقولة أو عقارية هو حصيلة كدهما وعملهما معًا .

وحيث تختلف المنظومة المجتمعية فى مصر والبلدان الإسلامية عن تلك الموجودة فى الدول الغربية فإن مسألة الثروة المشتركة ، لم يكن لها وجود فى البيئة الإسلامية ؛ لأن فلسفة وأحكام عقد الزواج وبناء الأسرة تختلف فى الشريعة عن القوانين الغربية مما يجعلها فكرة وافدة قادمة من الغرب ، وملائمة لطبيعة المنظومة القانونية والاجتماعية فيه ومشاركة كل من الرجل والمرأة فى عقد الزواج ماليا واجتماعيا .

هذا الوضع قد ينظر إليه البعض بأنه يلقى بظلال من الشك حول قبول الفكرة والأخذ بها وفقًا للنظام ومسئولية الرجل المالية فى نطاق الأحكام الشرعية للأسرة الإسلامية ، وأخص هذه المقاصد تكوين الأسرة على المودة والرحمة وتوطيد العلاقة الإنسانية وترسيخ التماسك الأسرى بين الأطراف جميعا الزوج والزوجة والأولاد والعائلة والأقارب ، مما يجعل فكرة الثروة المشتركة غير مقبولة وفقًا لوجهة النظر هذه بناء على بعض المؤيدات منها:

• أن العلاقة الزوجية رباط إنسانى وليس صفقة تجارية ولم تكن الزوجة سلعة أو مالاً ، وإنما هى شريكة حياة للرجل ، وقسيمة أفراحه وأحزانه ، وآية تكامل على العلاقة بينهما :

﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾

(البقرة : ١٨٧)

وعلى هدى ذلك يكون إدراج الثروة المشتركة ضمن بنود عقد الزواج أو فى وثيقة الأسرة حكما لا دليل عليه ولا سند له من النصوص وقضايا الزواج وفرق الزواج .

• أن الثروة المشتركة قد تؤثر سلبًا على الميراث حيث يقسم المال بينهما ويذهب الطرفان إلى وجهة أخرى بعد الانفصال ويكونان أسرة جديدة و من ثم يقطع الطريق على الورثة ، وهو فريضة شرعية يحصل فيها الوارث على نصيب محدد شرعًا .

ولا يجوز أن يتم الاتفاق على أمر من شأنه التحايل على قواعد وأحكام الميراث الذى يعد جزءًا من حدود الله .

• غموض وصعوبة المعيار الذى يتم وفقًا له تقسيم الثروة وما إذا كان مناصفة أم يكون بنسبة الثلثين للرجل والثلث للمرأة أم غير ذلك ، مما يفتح الباب أمام المنازعة بسبب الجهالة ، والشريعة جاءت لقطع باب المنازعة وإزالة الغموض وعدم التحديد وسد باب الجور أو الظلم ، بحسب القاعدة الشرعية : « لا ضرر ولا ضرار» .

• أن توزيع مال الثروة المشتركة ، يخل بالآثار المالية المترتبة على انتهاء العلاقة الزوجية ، مثل نفقة العدة والمتعة و مؤخر الصداق فضلاً عن أجر الحضانة وأجر الرضاع ، حيث يلتزم بها الرجل شرعًا ، بجانب أنه يعطى امرأته جزءًا من ثروته .

وإذا قيل بأن المطلقة يجب أن تحصل على هذه الحقوق الثابتة لها شرعا ، فإن فى حصولها على تلك الأموال على حساب الرجل ، يشكل ازدواجية فى تحصيل المال ، بناء على سبب واحد وهو الانفصال وإنهاء الرابطة الزوجية.

• تطبيق الثروة المشتركة عند انفصال الزوجين ، يتجافى مبدأ التيسير الذى تطلب الشريعة إعماله فى عقود الزواج ويؤدى إلى فرض قيود جديدة ، تحد من الإقبال على الزواج ، وعزوف الشباب عن اللجوء إلى الزواج ويفتح المجال أمام أبواب أخرى للانحراف وهو ما تأباه الشريعة ؛ لقيام نظامها على الزواج الشرعى ، وتحريم العلاقات خارج نطاق الزواج ، وهو أمر محسوم شرعا .

الرأى المؤيد للثروة المشتركة

يذهب أصحاب هذا الرأى إلى سوق الحجج الداعمة لوجهة نظرهم على النحو الآتى :

• يقوم توزيع الثروة المشتركة على مبدأ حصول الشخص على عائد ما يكسبه من جهد وعمل فيما يدل عليه نص قوله تعالى:

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴾

(النجم : ٣٩-٤٠)

وقوله عز وجل :

﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾

(الأنعام : ١٣٢)

والمال المقسم بين الزوجين من ثمرة عمل الزوجين وناتج عن جهدهما وسعيهما .

• تقسيم المال المكون للثروة المشتركة بين الزوجين يقوم على العدالة وحفظ الحقوق ، فإن لكل شخص أن يستوفى أجر عمله ، وفقا لقاعدة : الأجر مقابل العمل فبقدر الجهد والعمل يحصل الشخص على الأجر العادل ، وهو ما يجب أن يتأسس توزيع مال الثروة المشتركة عليه دون افتئات على أحد ولا محاباة للمرأة على الرجل، أو للرجل على المرأة .

• لا يوجد نص فى القرآن أو السنة يدل على حرمة الثروة المشتركة ، أو منع تقسيم المال بين أصحابه ، وحيث إن مال الثروة المشتركة ناتج عن العمل الذى قام به كل من الزوج والزوجة ، فيجب أن يجنى كل واحد منهما ثمرة عمله ؛ لأنه حكم الشرع والقاعدة الحاكمة للعمل والسعى ، وأصل من أصول الاقتصاد وكسب المال .

• إن طبيعة العلاقة الزوجية تقوم على التكافل والتراحم بين الطرفين فى أمور المعاش وهو ما تفتقر إليه حالة الانفصال حيث تكون المرأة مطلقة وقد تكون كبيرة السن لا عائل لها مما يعرضها للمهانة والضياع وتأبى روح الشريعة أن تترك المرأة فى هذه الحالة ضحية للتسول بسبب الطلاق بكلمة من الزوج على غير رضاها مما يتنافى مع التراحم بين الطرفين .

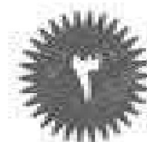
وربما يكون من الواقع ملاحظة التطور والمستجدات التى أفرزتها الأوضاع المستحدثة والتى جعلت المرأة تشارك فى النفقة الزوجية بشكل من الأشكال، بحكم عملها ومساهمتها فى تحمل بعض الأعباء المالية لصالح الأولاد أو المشاركة فى أعباء المعيشة ، يجعل من تنظيم مسألة المال المشترك بينهما جدير بالنظر وإعادة التقييم بسبب أن الرجل يلتزم بالنفقة كلها حتى مع يسار المرأة بل لو كانت مليونيرة تحوز الثروة الكبيرة ، بمقتضى قوله تعالى:

﴿ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾

(النساء : ٣٤)

لكن يظل وضع الضوابط الكفيلة بإيجاد تنظيم عادل يكفل عدم الإضرار أو الجور من تقنين المال المشترك تتأسس على العدالة والتراحم فى ذات الوقت .

تجديد فقه المياه: من التراث إلى الواقع





د. إبراهيم البيومي غانم

٣ – الماء وفنون العمارة الإسلامية

مع تطور المدنية الإسلامية ظهر الماء كأحد العناصر الجمالية في العمارة الإسلامية، فإضافة إلى كونه وسيلة تطهير، أضحى أيضا وسيلة لإبراز الجمال، وترقية الذوق الإنساني من خلال المنشآت والمباني العامة والخاصة، وكثر استخدام المياه في العمارة الإسلامية (المدنية، والدينية والعسكرية) حتى تبلور فن قائم بذاته هو فن العمارة المائية، التي ازدهرت في الحواضر العربية والإسلامية، وبخاصة في الأندلس في قصورها الحالمة.

أدرك المعماريون في الحضارة الإسلامية أن تأمل الماء في الطبيعة أو بين أسوار بيت ما يستدعي في نفس المرء الشعور بوجود الله واهب هذه النعمة، وإضافة إلى خرير الماء الذي يبعث السكينة في النفس والشعور بالأمان، فإن الماء ينقل الطبيعة الحية والمتحركة إلى داخل البيئات المعمارية المغلقة ليحولها إلى حدائق غناء، ويساهم الماء في إبراز الجمال الزخرفي بطبيعته الشفافة التي لا تحول دون رؤية قطع الفسيفساء المتعددة الألوان الموجودة في قاع النوافير وأحواض الزينة، كما أن الماء يتشكل حسب البيئة التي يوجد فيها، فهو تارة شلال جارف، وتارة أخرى يرتفع بقوة نحو السماء ليعود فيسقط بدورة متكافئة وفي كثير من الأحيان يكون سطحا أملس ورقراقا لا يقطع هدوءه سوى تحرك موجاته المحتشدة بفعل الريح أو سقوط ماء فوار.

إن الجنة التي تجري من تحتها الأنهار التي يتحدث عنها القرآن الكريم هي أسمى وعد بالسعادة والخلود، وقد حاول المعماريون في الحضارة الإسلامية استلهام هذه الجنة وأنهارها في القصور والمنشآت الفخمة، وبلغ الأمر في الاهتمام بالماء باعتباره عنصرا جماليا في العمارة مبلغا أسطوريا كما يحكي الرواة، ففي قصر المأمون حاكم طليطلة كانت توجد مقصورة بقبة كانت مصممة

بحيث يساق الماء إلى أعلى قبتها بواسطة عملية هندسية ميكانيكية، ثم يسقط من أعلى القبة على جوانبها ليحزمها فتصبح المقصورة داخل حلة من المطر الدائم، كان المأمون يجلس بداخلها من دون أن تمسه قطرة ماء واحدة.

أما قصر السرور المعروف بقصر الجعفرية، فكانت به برك وفوارات وقنوات ماء تنعكس فيها صورة الأروقة مما كان يضاعف من أعدادها، ويزيد في عظمتها وروعتها، ويؤكد كل هذا النموذج الحي الباقي كاملا للقصور العربية وهو قصر الحمراء بغرناطة.

٤ – محكمة المياه

دفع الحرص على «عدالة توزيع المياه» إلى إنشاء ما عرف في التاريخ الإسلامي باسم «محكمة المياه» مهمتها النظر في المنازعات التي تنشب بسبب المياه بين المستفيدين منها، وكان أول ظهور لهذه المحكمة في مدينة بلنسية بالأندلس في عهد عبد الرحمن الناصر سنة ٣١٨هـ، ولا تزال آثارها باقية، ويجرى العمل بالمبادئ التي نظمت عليها إلى اليوم، وتنص لوائح المحكمة أنها على الوكيل (القاضي) التوجه إلى المحكمة كل يوم خميس من الساعة العاشرة إلى الساعة الحادية عشرة صباحا، لكي يستمع مع باقي القضاة إلى مظالم السقاة، ويحضر هذا الاجتماع الحراس الموكول إليهم حراسة السواقي، وتنتخب هيئة محكمة المياه من بين القضاة (الرئيس ونائب الرئيس والأعضاء) بالتصويت، وتدور مناقشاتها علنا، وإضافة إلى اختصاص المحكمة في الفصل في المنازعات المائية، تختص أيضا بتحصيل الغرامات، والإشراف على تنفيذ ما يصدر عنها من أحكام.

وتحفل سجلات المحاكم الشرعية في مختلف البلدان العربية والإسلامية بكثير من أقضية المياه، والتي تنم عن خبرة واسعة في هذا المجال، من المهم جدا أن يوفر الباحثون لدراستها والإفادة منها في استنباط حلول لمشكلات المياه في عصرنا الراهن، وما تتضمنه تلك المصادر وغيرها من مصادر فقه المياه يتعين أن يلقى اهتماما من المجتهدين والمجامع الفقهية وهي تتصدى لظاهرة سوء توزيع المياه بين قطاعات الاقتصاد الوطني (زراعة. صناعة. إسكان. سياحة وترفيه. استصلاح أراض جديدة ... إلخ)

٥ – اقتصاديات الماء

يكشف السجل التاريخي لعلاقة نظام الأوقاف بالمياه ومصادرها عن مادة بالغة الثراء لإجراء بحوث متعمقة ومبتكرة في «اقتصاديات الماء» وكونه «سلعة عامة».

وتفيد المعلومات، التي اطلعنا عليها أن اقتصاديات مياه الأوقاف يمكن البناء عليها ونحن بصدد الدعوة لتجديد فقه المياه لمواجهة تحديات الواقع الراهن في كثير من مجتمعاتنا، فقد تباينت بتباين الغرض من الوقف ذاته، واختلفت طرق حسابها باختلاف نمط علاقة المياه بالوقف، كما تفيدنا المعلومات

بأنه ليس صحيحا الانطباع السائد بأن الأوقاف المائية كانت تعمل، أو يجب أن تعمل خارج نظام السوق وقواعده الاقتصادية التي تقوم على أساس العرض والطلب وتحديد سعر للخدمة أو السلعة في ضوء تفاعلات قوى العرض والطلب، وتتضمن ميزانيات بعض وزارات الأوقاف مبالغ تشير إلى إيرادات بيع مياه الأوقاف، كما أن وثائق الأوقاف المحفوظة بأرشيف وزارات الأوقاف العربية ودوائرها الإدارية تحتوي على معلومات غزيرة تفيد بأن مياه الأوقاف كانت مدرجة باستمرار ضمن بنود ميزانية الأوقاف (١)، الصغيرة منها والمتوسطة والكبيرة، وتلك التي كانت تدار إدارة أهلية خاصة، أو تدار إدارة حكومية عامة.

ومن الحقائق المهمة التي تؤكدها وثائق الأوقاف أنه في جميع الأحوال كانت هناك جهة معينة تتحمل تكاليف توفير المياه، وذلك على النحو الآتي:

أ – إذا كان الموقوف عبارة عن مصدر مائي (بئر أو عين مثلا) والهدف منه هو الإنفاق من ريعه على أعمال ومؤسسات ومنافع أخرى، فإن مياه الوقف في هذه الحالة تخضع بالكامل لنظام السوق، ويكون لها سعر مساو للمياه المعروضة في السوق للبيع والشراء سواء بسواء.

والقاعدة العامة الواجب تطبيقها في المعاملات الوقفية هي أنه لا يجوز تأجير أعيان الوقف أو تقديم منتجاته بأقل من سعر المثل، أو بأقل من سعر السوق، وإنه يفتى دوما بما فيه مصلحة الوقف، والأنفع لجهته والأدر لخيره، وإنه يجب الاحتياط له حتى لا تغتاله النفوس النهمة (٢)، وإلا وقع الإخلال بشروط الواقف، وهذا غير جائز لا شرعا ولا قانونا.

ب – إذا كان الموقوف عبارة عن مصدر مائي وهدف الواقف هو توفير المياه للآدمي، أو للحيوان أو لري الأرض دون مقابل، فإن المياه الموقوفة لا تخضع لأسعار السوق، بل تقدم مجانا حسب شرط الواقف، ويتكفل الوقف ذاته بتحمل نفقات تقديمها على الوجه الذي أراده منشئ الوقف.

ومن الأمثلة على ذلك ما يظهر من ملفات محاسبة وقف عمر مكرم، نقيب الأشراف في مصر وزعيم المقاومة الشعبية ضد الحملة الفرنسية على مصر أواخر القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر، إذ اشترط تخصيص ثمانية أرادب قمح لإحضار قواديس للساقية وكيزان للسبيل وأباريق للشرب، وأربعة أرادب أخرى لرجل يملأ السبيلين بمدينة أسيوط (٣)، وكل ذلك من حاصل ريع

١) انظر مثلا حالة أوقاف لبنان: محمد حسن الرواس، الحياة الاقتصادية في صيدا العثمانية، ١٨٤٠ – ١٨٨٨م (رسالة ماجستير غير منشورة – كلية الآداب والعلوم الإنسانية / قسم التاريخ ١٩٩٧م) ص٢٠ – ٩٤.

٢) محمد أبو زهرة، الحكر، مجلة القانون والاقتصاد، العددان الخامس والسادس – السنة العاشرة، ١٣٥٩/ ١٩٤٠م، ص٩٩.

٣) حجة وقف السيد عمر مكرم (سجلات وزارة الأوقاف المصرية – رقم ١٨٨/ ٣)

أوقاف السيد عمر مكرم نفسه.

ج – المياه اللازمة لري الأراضي الزراعية الموقوفة، وهذه المياه يتحمل الوقف الزراعي تكلفتها، وتستنزل هذه التكلفة من ريع الأرض وفقا للأسعار أو الرسوم المطبقة على الأراضي الأخرى غير الموقوفة، وكذلك تتحمل تكلفة مياه المباني السكنية الحرفية والصناعية الموقوفة، ومن الأمثلة على ذلك أن أحمد باشا المنشاوي من كبار الملاك ومن كبار منشئي الأوقاف في مصر أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، قد وقف ١٢ وابور مياه قوة الواحد منها تتراوح بين ٨ و ١٠ حصان بالإضافة إلى طلمبة ٨ بوصة (٤)، وذلك لتوفير المياه اللازمة لري الأراضي التي وقفها في وجوه متعددة من المنافع والخيرات العامة.

د – المياه التي تلزم لمؤسسات الأوقاف (مدارس، ومساجد ... إلخ) يجري احتساب ثمنها باعتباره جزءا من مصروفات هذه المؤسسات، وتتكفل بدفعها موارد الوقف التي تمول تلك المؤسسات، وانطبق ذلك على بعض أسبلة المياه التي كانت ملحقة بمؤسسات وقفية أخرى (٥)، أو كانت مستقلة عنها ولكنها تقدم خدماتها المائية للمترددين عليها.

في ضوء ما سبق يمكن القول إن خبرة نظام الوقف المائي تكشف عن انقطاع الوقف الذي لا تخلو منه دولة عربية هو طرف في توفير بعض مصادر المياه، أو توفير خدمة المياه ذاتها وفق نظام السوق، وأن هذا القطاع طرف في إدارة جانب من الموارد المائية اللازمة للاستعمال الآدمي والحيواني والزراعي والمدني، وخاصة تلك الموارد المستمدة من مصادر جوفية، أو من مصادر سطحية، كما أن قطاع الأوقاف طرف في تقديم المياه وفق منطق الاقتصاد الاجتماعي، خارج نطاق السوق أحيانا وطبقا له أحيانا أخرى.



٤) حجة وقف المرحوم أحمد باشا المنشاوي الجديد الصادرة بتاريخ ٢٢/ ١/ ١٩٠٣م أمام محكمة مديرية الغربية الشرعية (القاهرة: مطبعة وزارة الأوقاف المصرية، ١٩٤٥م)

٥) انظر على سبيل المثال حالة أسبلة بيت المقدس في فلسطين في العصر العثماني: مروان عبد الحافظ أبو الربيع، أوقاف بيت المقدس وأثرها في التنمية الاقتصادية (بحث غير منشور ١٩٩٩م) ص ٨٤ ـ ٨٦.

من عناصر التطور السياسي في الإسلام



المستشار طارق البشرى

تشير إن شاء الله إلى كيف برزت المسألة السياسية في الفكر الإسلامي، على أيدي المفكرين والفقهاء، وكيف تناولها هؤلاء المفكرون، من حيث قيام الحكومة وماهيتها ومن حيث العناصر التي تقوم عليها الدولة في الإسلام وقد آثرت في هذا الموضوع أن أعرضه بطريقة مختلفة فأعرض لبعض العناصر من طريق عرض تاريخ الفقه الخاص بها وكيف ينسج الفقه أفكاره من مصادرها التشريعية الإسلامية الأساسية.

ونحن عندما نبحث عن الفكر السياسي لدى المسلمين وكيف تبلور في علم للسياسة يتصل بالقيم الإسلامية العليا، إنما نجده في تلك المجادلات الفكرية التي كانت تجري بالمشافهة إبان العهد الأموي وهي جرت قبل عصر التدوين العلمي المنظم الذي عرف في العصر العباسي. وهي مجادلات أثبت المدونون بعض ما انتقل إليهم بالرواية منها، ويمكن جمعها مما كانت تنادي به الفرق السياسية أو تتبادله من حجج فكرية، سواء في المؤلفات الفكرية أو في الخطب والأشعار.

ونحن نجد هذا الموضوع يعبر عنه أولا بموضوع «الإمامة»، ومن أوائل من كتبوا في هذا المجال علي بن إسماعيل التمار الذي كان مولى فارسيا لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وكذلك هشام بن الحكم. وكان هؤلاء الكتاب السابقون يسوقون الحجج والبراهين على مناهج علماء الكلام، بمعنى أن النظر العلمي في موضوع الإمامة كان يتخذ مجاله تقريبا ضمن وجوه النشاط الفلسفي. وقد تحددت مصطلحاته وموضوعاته البحثية وأسانيده بالجدل الفكري العلمي الأول الذي طرحته بعض المذاهب الإسلامية. ومن هؤلاء من سبق ذكرهم ومنهم أيضا اليمان بن رباب وعبد الله بن يزيد، ومنهم كذلك واصل بن عطاء وأبو بكر الأصم.

أما أهل السنة في ذلك الوقت المبكر فقد كانوا يصرفون كل جهدهم في استنباط الأحكام من كتاب الله وسنة الرسول في مجالات العبادات والمعاملات، مما ابنى منه هذا البناء الشامخ

للفقه الإسلامي. وكان هؤلاء الفقهاء يتحاشون علم الكلام وقضاياه لما تثير من خلافات بين جماعة المسلمين. كما كانت لديهم شواغل هامة تتعلق بجمع الأحاديث النبوية وتحقيقها ووضع مناهج البحث والتحقيق في هذا المجال. لذلك فقد تأخر ظهور نظريات أهل السنة في موضوعات الحكم والساسة عن نظريات غيرهم من الشيعة والخوارج والمعتزلة.

وهنا نجد الدور الذي قام به محمد بن إدريس الشافعي. والإمام الشافعي وضع علم أصول الفقه الذي حدد مصادر التشريع الإسلامي ورتبها من حيث الأهمية بحسبانها تبدأ بالقرآن والسنة، ثم أورد «الإجماع» كمصدر للتشريع الإسلامي يستمد قيمته من القرآن والسنة ويعتمد في حجيته عليهما. وأول الإجماع عند الشافعي إجماع الصحابة ثم يرد إجماع المجتهدين في أي عصر بعدهم.

بهذا المصدر «الإجماع» انفتح باب الفقه الإسلامي لموضوع «الإمامة» والفكر السياسي؛ لأن موضوع الإمامة عند أهل السنة يعتمد على هذا المصدر في الأساس. ومن هذا الوقت عظم اهتمام أهل السنة بالبحث الفكري العلمي المتعلق بالحكم والسياسة، وصار هذا البحث من فروع علم الفقه ومن موضوعاته وفصوله بعد أن كان من فصول «علم الكلام» أي أنه صار مبحثا قانونيا بعد أن كان مبحثا فلسفيا.

بهذا أوجد الإمام الشافعي الأساس الفقهي الذي تقوم عليه بحوث الحكم والسياسة في الإسلام، فلم تعد محض استدلال عقلي واستنباط فلسفي كما جرت على أيدي المعتزلة، ولم يعد مجرد بحث وراء الأحاديث والاستناد إلى بعضها بغير تحقيق، إنما صارت البحوث تستمد سندها من واقع حياة الأمة الإسلامية، وخاصة في عهد الخلفاء الراشدين، ونظر الفقهاء إلى هذا العهد كنموذج ومثال، تستخرج الأحكام مما جرى به العمل فيه، فالإجماع فتح الطريق لاعتماد ما يمكن أن يسمى بالسوابق العملية والسوابق التشريعية كمصدر للأحكام الدستورية.

ومن جهة أخرى فإن ارتباط علم السياسة والحكم بعلم الفقه فقد كفل له قدرا من الاستقلال لأن علم الفقه نشأ ونما في شبه استقلال عن الحكومات. وإن في وقائع أئمة المذاهب وتاريخهم ما يثبت ما كانوا يتحلون به من الأصالة وروح الاستقلال؛ لذلك فلم يكن من أهدافه أن يؤيد نظاما سياسيا معينا أو حاكما معينا. وإذا كانت سطوة بعض الحكام في العصور المتأخرة قد عاقت العلماء من متابعة بحوث السياسة والحكم، فإن هذه السطوة لم تستطع أن تتغلغل في الأسس النظرية ولا في مناهج البحث فيه، فعزف العلماء عن تلك المتابعة، ولكنهم لم يترددوا في توليد النظريات التبريرية، وبقي لهذا العلم تطلعه النظري للعهد المثالي للخلفاء الراشدين. وحققت الأحاديث الشريفة التحقيق العلمي الخالص الرصين ووضعت المناهج العلمية لضبط الصحيح من الأحاديث وإبعاد الأحاديث الموضوعة.

يستخدم لفظ «الإمامة» ولفظ «الخلافة» ولفظ «الإمارة» مع فروق دقيقة بينها لا مجال لشرحها هنا. وقد كثرت التعريفات للإمامة ولكننا نختار منها التعريف الذي قال به الماوردي وهو أنها «خلافة عن النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا»، فالإمامة هنا وظيفة تؤدي تحقيقا لأهداف معينة أجملها الماوردي في «حراسة الدين وسياسة الدنيا».

وهنا نجد ابن خلدون يميز بين ثلاثة أنواع من الحكم باعتبار الوظيفة التي تقصد إليها الحكومة:

- أول هذه الأنواع ما أسماه «الملك الطبيعي» وهو حمل الناس على مقتضى الغرض والشهوة، أي أنه يسعى للاستبداد وتحقيق مصالح فردية.
- وثاني هذه الأنواع هو حمل العامة على مقتضى النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار - فهو حكم أقرب لما نسميه اليوم بالحكم العلماني وهو يعتمد على غلبة الدولة وقوتها المادية.
- وثالث هذه الأنواع الملك الشرعي «وهو حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها.. فهي خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به».

من ذلك يتبين أن أسس الحكومة الشرعية تتمثل في نوع الشرعية التي تهيمن على الجماعة، وهي الشرعية التي يناط بالحكومة حراستها في سياسة المجتمع والصدور عنها في أنشطتها، أي أن تكون الشريعة الإسلامية هي قانونها الأول، وهي في ذلك تستند إلى المصادر الشرعية الأولية وهي القرآن والسنة. والمصادر التالية مثل الإجماع الذي يعبر عن الإرادة العامة للأمة الإسلامية في ظل القرآن والسنة، والقياس وغيره من أدوات الاستنباط العقلي.

لم يختلف المسلمون في وجوب تطبيق الشريعة الإسلامية وأن تكون الشريعة هي المهيمنة على نظام حياتهم وأنشطتهم، ولكن انحصر خلافهم حول موضوع «الخلافة أو الإمامة» أهي واجبة دينا أم أن إقامتها تدخل في دائرة المباحات والجوازات من الأمور.

الغالبية الغالبة قالت بالوجوب، ومنهم كل أهل السنة، وكل أهل الشيعة بفهم خاص لديهم حول الإمامة ومعنى الوجوب، وكل المرجئة، وغالب المعتزلة وغالب الخوارج عدوا الخلافة من فروض الكفاية لا من فروض العين، وفرض الكفاية لا يتعلق بالفرد وحده ولكنه يتعلق بالأمة كلها؛ إذ تأثم إذا لم يتحقق الغرض المفروض. واستند هؤلاء في وجوبها إلى ما انعقد عليه إجماع الصحابة بعد وفاة الرسول ﷺ من وجوب إمام يخلف النبي، وهم إن اختلفوا في الشخص أو صفاته فلم يختلفوا في أصل نصب الخليفة، كما استندوا إلى ما يحيق بأمة الإسلام من ضرر إن لم تقم الحكومة التي تحرس دينهم وتسوسهم.

أما القائلون بجواز إقامة الإمام وأنه أمر إن كان جائزا فهو غير واجب، أي أنه ليس حتميا، فقد استند هؤلاء- وهم بعض المعتزلة والخوارج- إلى أن الواجب هو إمضاء أحكام الشرع، فإذا أمكن إمضاؤها دون حكومة، لم تجب الحكومة. وهذا الرأي رأي ضعيف، وقد دفع القائلين به إلى قوله ما كانوا يخشونه من فساد الحكم باسم الدين، وذلك على نحو ما فسر ابن خلدون موقفهم. وهؤلاء القائلون بالجواز أصروا على تنفيذ حكم الشريعة دون أن يبينوا كيف تقوم بغير عصبة الملك وشوكته وكيف يقوم القانون بغير سلطة. ويظهر من ذلك أن لا خلاف بين الفريقين حول وجوب تطبيق القانون الإسلامي.

وقد ظهر في السنين الأخيرة من ينكر قيام الإمامة أو الخلافة أصلا، وهؤلاء جعلوا الإسلام عقيدة فردية تقوم بين المرء وربه دون أن يكون لها شأن في الحياة ونظامها وهي تقتصر على العبادات. وهذا القول لم يقل به أحد من السابقين لا من أوجبوا الخلافة ولا من قالوا بجوازها؛ لأنهم كلهم يوجبون تطبيق الشريعة وأن تكون مصدر

الشرعية في المجتمع، كما أن هؤلاء المنكرين يقولون إن القرآن لم يحمل مبادئ للسياسة والحكم، وهذا قول غير صحيح؛ لأن القرآن وأحاديث النبي عليه الصلاة والسلام تضمنت الكثير من مبادئ الشورى والعدل والوحدة والأخوة والتضامن والجهاد في سبيل الله والدفاع وولاية الأمر، وهم يقولون إن الرسالة قد انتهت بموت النبي، والحقيقة أن النبي ﷺ كان واسطة لتبليغ الرسالة، وبموته انتهى التبليغ من حيث هو إبلاغ وإنباء، أما المرسل أو المنبأ أو المبلغ به، أي موضوع التبليغ فهو باق لا ينتهي.

تقوم فكرة الحكم في الإسلام في الأساس على مبدأ الاختيار والاتفاق وعلى قاعدة رضاء الجماعة، وعلى هذا جرى غالب الفقهاء في بحوثهم. ولكن هناك من يقول بأن أساس الفكرة هو التعيين والنص على من يتولى الإمامة، إلا أن الأمر يكاد يكون قد آل الآن إلى التقاء عملي حول فكرة الاختيار.

وتقوم الفكرة على أساس أن الحكم اتفاق بين طرفين: أولهما الأمة التي هي صاحبة الرئاسة العامة، وثانيهما من تختاره للحكم أو ترضاه. وقد عبر عنها الفقهاء أحيانا بأنها عقد، قائلين «عقد الإمامة». والإمامة أو الخلافة تقوم بحسبانها نيابة عن المسلمين على ما عبر عنه الماوردي في الأحكام السلطانية. وتقوم فكرة النيابة هنا على أساس من فكرة الفرض الكفائي. فالفروض- كما تعلم- نوعان: فرض عيني، وهو الفرض الذي يتعلق بكل فرد من أفراد المسلمين يثاب إن أداه ويأثم إن لم يؤده، وذلك كالصلاة والصوم وغيرها. وفرض كفاية أو فرض كفائي وهو فرض تنشغل به ذمة جماعة المسلمين جميعا، وإن لم يؤد على هذه الصورة أثم المسلمون جميعا. وذلك كواجب للدفاع عن الوطن أو القيام بوظيفة القضاء أو إنقاذ غريق يستغيث بنفر من الناس، فإن أداه البعض كاملا برئت ذمة المسلمين جميعا.

وإقامة الحكومة فرض كفاية أو واجب كفائي كما ذكرنا، يقوم به البعض وتبرأ ذمة الجميع حسب كمال أداء الوظيفة، ولا يقوم به الجميع وإلا انشغلت الأمة بعمل واحد دون ما يتطلب منها من شتى أنواع الأعمال. لذلك تقوم فكرة «الإنابة» هنا باعتبار أن من يكمل إنجاز العمل أو الوظيفة المطلوبة إنما ينوب عن الجماعة كلها. ففكرة التمثيل قائمة من هذا الطريق لدى فقهاء المسلمين.

والاختيار يجري ممن يسميهم الفقهاء «أهل الحل والعقد» وهم من أسماهم الماوردي «أهل الاختيار»، وليس لتكوين هؤلاء شكل تنظيمي محدد أشار إليه الفقهاء أو حددوه. إنما شرطوا فيه فقط العدالة والعلم والحكمة، وشرط البعض لأهل الحل والعقد أن يكونوا «من العلماء والرؤساء ووجوه الناس». والبعض اكتفى من هؤلاء بمن يتيسر جمعهم، والبعض أوجب أن يقع الاختيار من جمهور أهل الحل والعقد. والبعض نظر إلى اختيار أهل الحل والعقد بحسبانه ترشيحا للإمام المختار، ثم تجري بعد ذلك البيعة عليه من الناس. وللإمام الغزالي رأي هام يقرره كمبدأ؛ إذ يقول إنه عند الاختلاف يجب الترجيح بالكثرة؛ لأن الكثرة عنده في الأتباع والأشياع أقوى مسلك من مسالك الترجيح. وقد نقل عنه السيد رشيد رضا أيضا أن الإمام يكون ممن انعقدت له البيعة من الأكثر. مبدأ الترجيح بالأكثرية هنا هو ذاته مبدأ الأغلبية الذي تقوم به التنظيمات الحديثة، سواء في الاختيار أو في الترجيح بين الآراء لاختيار أحدها.

الدعائم الأساسية لقيام نظام الحكم في الإسلام حسبما يستظهرها الفقهاء والمفكرون تتعلق بمبدأ الشورى والخضوع للشرعية الإسلامية المنزلة بالكتاب والسنة ومسئولية الحاكم عن أعماله.

١- ومبدأ الشورى في تقرير أمور المجتمع هو ما به تتحقق إرادة الجماعة وتضمن وحدة الأمة.

والشورى هي الأصل العام الذي تقوم عليه نظم الجماعات، فأية جماعة تسهم في اتخاذ القرار الذي يتعلق بها أو يصدر في شأن من شئونها. على أن ثمة ضوابط وصور لاستخدام الشورى.

فالشورى تدور في إطار ما لا نص فيه من أمور الجماعة. أما ما فيه نص قرآن أو سنة، فليس لفرد ولا لجماعة ولا للأمة كلها مجتمعة إلا التسليم بما تنزّل إليهم. ويقتصر دور الشورى في هذه الأحوال في تفهم دلالة النص واستخلاص المعاني منه بما يصدق على الحالات القائمة ويحكم الواقع الفعلي بشرع الله. فالشورى تقريرية في المباحثات تفسيرية فيما فيه نص.

والشورى جاءت الإشارة بها عامة في القرآن الكريم وترك للبشر في كل زمان ومكان إدراك النظم والأساليب العملية والتطبيقية التي يتحقق بها هذا المبدأ. ومنهج القرآن فيما نعلم أنه يورد الأحكام مجملة فيما يحتمل التغيير من الأمور، ويورد الأحكام مفصلة فيما لا يتغير منها. وأساليب التنظيم للمؤسسات والجماعات مما تختلف باختلاف أحوال البلدان ومما يتغير بتغير أحوال العمران عبر الزمان.

والشورى تكون ملزمة فيما يستوجب الالتزام برأي الجماعة أو ممثليها ونوابها، ويمكن تقديم أنماط منها استشارية بجوار هذا النمط الإلزامي، وذلك في شأن الأمور التي تحتاج إلى مدارسة من أهل التخصصات المختلفة في كل مجال. فالشورى ملزمة واستشارية في ذات الوقت حسب مجال أعمالها في كل من مجالات النشاط الاجتماعي.

٢- ومبدأ مسئولية الحاكم يرد من الإقرار بأنه يحمل تبعة ما يصنع أمام الله وأمام الناس، فهو مسئول في إطار الشرعية العامة المهيمنة على الجماعة كلها، والتي توجب العدل في الحكم وتحض على الأخوة والتضامن والتعاون وتوجب الدفاع عن الديار والأوطان، وهو في هذه الهيمنة مسئول أما هيئات الشورى والهيئات الاجتماعية المختلفة وفقا للأسس والأوضاع التي ترسمها الجماعة لإدارة أمورها العامة في كل زمان ومكان.

٣- ومبدأ سيادة التشريع الإسلامي يرد بحسبان ما يتعين أن يكفل لأحكام الشريعة من هيمنة عامة على أوضاع المجتمع أن ما يميز حكومة الإسلام عن غيرها من الحكومات هو هذا الالتزام بالشريعة الإسلامية كمصدر للشرعية وأساس للاحتكام في المجتمع كله، فحكومة الإسلام ليست حكومة من رجال الدين، وليس في الإسلام مؤسسة دينية تشكل واسطة بين الأرض والسماء، وإنما هي الحكومة التي تخضع للشريعة الإسلامية كشرعية عليا وعامة تحدد ضوابط السلوك الاجتماعي وتستمد منها شرعية النظم الاجتماعية.

ومن الجلي أن سيادة التشريع الإسلامي تعني سيادة التشريع المستمد من الأصول العامة للإسلام وهو التشريع الذي يستجيب في الوقت نفسه لحاجات البيئة والعصر، مراعيا للأعراف والعادات دافعا للضرر جالبا للنفع للإسلام وجماعة الإسلام ديارا وأوطانا.

الشورى في معركة البناء (٥)

إلزامية الشورى ومسألة الأغلبية

أ.د. أحمد الريسوني

الشورى المعلمة والشورى الملزمة

لقد جرى في عصرنا هذا نقاش واسع حول ما إن كانت الشورى ملزمة أو معلمة، بمعنى أن الأمير- أو أي مترئس- إذا تشاور مع أهل الشورى عنده، هل تكون مشورتهم وآراؤهم ملزمة له، ويتعين عليه الأخذ بها، أم أنها معلمة لا ملزمة، بحيث يستوضح منهم ويستنير بآرائهم، ثم يختار ويقرر ما بدا له، مما يوافق آراءهم أو يخالفها.

وإذا كان عامة العلماء المتقدمين- من الفقهاء والمفسرين وغيرهم- يُستفاد من كلامهم أن الأمير إذا استشار مع أهل شوراه، فإنه يأخذ من ذلك بما يراه صوابًا، وما يبدو له راجحًا، وبما هو في نظره حق أو أقرب إلى الحق. فالمرجع في النهاية. هو رأيه وتقديره وهذا هو معنى «الشورى المعلمة».

وأما المعاصرون، من علماء ومفكرين، فيميل أكثرهم- وبشكل متزايد- إلى ضرورة التزام الأمير المستشير بما اتفق عليه مستشاروه، كلهم، أو أكثرهم. وهذه هي «الشورى الملزمة».

ومنهم من فصّل وفرّق، فجعل الشورى ملزمة في حالات وغير ملزمة في حالات أخرى. وهذا ما ذهب إليه الدكتور قحطان الدوري، حيث يرى أن الاختلاف إذا وقع بين الإمام وهيئة الشورى في مسألة اجتهادية لا نص فيها «فالترجيح للإمام وحده إذا كان مجتهدًا، سواءٌ وافق رأي الأغلبية أم خالفه. وعليه فحق تشريع القوانين- فيما لا نص فيه- وتعديلها وإلغاؤها بيد الإمام المجتهد.

وأما إذا كان الإمام غير مجتهد، أو كان الإمام مجتهدًا، ولم يرَ رأيًا، وأوكل تقرير الأمر إلى مجلس الشورى، واختلف أعضاء المجلس فيه، أخذ برأي الأغلبية»[1].

(١) الشورى بين النظرية والتطبيق، ص٣٢٣.

والحق أن العلماء المتقدمين – من مفسرين وفقهاء وغيرهم – لم يناقشوا هذه المسألة نقاشًا حقيقيًا، ولم يستعرضوا أدلة على الإلزام أو الإعلام، إلا ما يتعلق بالشورى النبوية، حيث يذكر بعضهم أنه ﷺ كان في غنى أصلًا عن المشاورة وعن آراء المشاورين، فكيف يكون مُلزَمًا بآرائهم؟!.

غير أننا إذا تجاوزنا هؤلاء المتقدمين، إلى من هم أقدم منهم وأسبق، أي إلى السيرة النبوية، وسُنة الخلفاء الراشدين وعموم الصحابة، فسنجد التوجه واضحًا إلى الالتزام بمقتضى الشورى والأخذ بما اتفق عليه المستشارون، أو ذهب إليه أكثرهم.

وبما أن مسألة إلزامية الشورى تتداخل – حتى تكاد تتطابق – مع مسألة الأغلبية، فإني سأعرض الأدلة المشتركة بينهما، عند التطرق – قريبًا – إلى مسألة الأغلبية.

وأكتفي الآن ببعض الآثار الدالة على التوجه المبدئي القاضي بالأخذ بنتيجة الشورى، ممثلة في الرأي المتفق عليه، أو الرأي الغالب، عند المستشارين.

من ذلك الحديث الذي تقدم، في الأمر ينزل ليس فيه كتاب ولا سُنة، قال: (... اجعلوه شورى بينكم ولا تقضوا فيه برأي واحد) [٢].

فالتوجيه واضح إلى اتباع الرأي الجماعي، وتحاشي اتباع الرأي الفردي. فهو – عليه السلام – لم يقل: تتشاورون فيه، ثم يقضي فيه أميركم، بل نهى عن التفرد بالأمر.

وكذلك قوله لأبي بكر وعمر: (لو اجتمعتما في مشورة ما خالفتكما) [٣].

فإذا كان القائل هو رسول الله ﷺ، ويقول هذا لاثنين من تلاميذه وأتباعه، فكيف بمن يستشير جماعة، وهم في الغالب من أنداده وطبقته؟!.

«وأخرج أبو داود في (المراسيل) من رواية عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حسين، أن رجلًا قال: يا رسول الله، ما الحزم؟ قال: أن تشاور ذا لب – وفي رواية: ذا رأي – ثم تطيعه» [٤].

وإذا كان هذا هو اللازم – أو اللائق – لمن يستشير شخصًا واحدًا ذا رأي، فإن مَن يستشير جماعة من خيرة علماء الأمة وذوي الرأي فيها، أولى له ذلك وألزم.

وهذا ما تدل عليه مشورات الخلفاء الراشدين، وخاصة أبا بكر وعمر. وقد تقدم بعض من ذلك. ومنه أيضًا قولة أبي بكر لعمرو بن العاص حين أرسل

(٢) جامع بيان العلم لابن عبد البر ٢/٣٣.
(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٤/٢٢٧، وانظر فتح الباري ١٥/٢٨٤.
(٤) فتح الباري ١٥/٩٩.

إليه خالد بن الوليد: (شاورهم ولا تخالفهم) [٥].

وروي عن عمر بن عبد العزيز – الخليفة الراشد – أنه لما ولي إمارة المدينة دعا عشرة من فقهائها... وقال لهم: «إني إنما دعوتكم لأمر تؤجرون عليه، وتكونون فيه أعوانًا على الحق. ما أريد أن أقطع أمرًا إلا برأيكم، أو برأي من حضر منكم» [٦].

وأما ما ذهب إليه الدكتور الدوري من أن الإمام إذا كان مجتهدًا فإنه يتبع رأيه واجتهاده ولو خالف هيئته الشورية، وأنه ينفرد بالتشريع فيما لا نص فيه، فربما بناه على ما يقوله الأصوليون من أن المجتهد لا يقلد غيره من المجتهدين، بل يتبع ما يؤديه إليه اجتهاده. وهذا إنما يكون في الاجتهاد العلمي المحض، الذي يمارسه أي عالم في تخصصه، ولا يكون له صفة الإلزام لعموم الناس. فمن حق كل صاحب رأي أوصله إليه نظره واجتهاده أن يأخذ به لنفسه أو يفتي به غيره، وله أن يدافع عنه ويتمسك به. فمن شاء اتبعه فيه ومن شاء اتبع غيره.

وأما ما نحن فيه فهو الرأي الذي يصبح تشريعًا عامًا نافذًا على الناس، وكذلك الرأي المتعلق بتدبير شؤون الناس ومصالحهم، ويكون لازمًا لهم كذلك، بحكم الحاكم وسلطانه.

فهنا لا ترد مسألة تقليد المجتهد لغيره أو عدم تقليده، وحتى إذ أردنا تطبيقها هنا، فنقول: الإمام المجتهد له أن يتمسك لنفسه برأيه، المخالف لرأي مستشاريه، وله أن يعتقد صوابه أو رجحانه، وله أن يستمر في بيانه والدفاع العلمي عنه. وهو بهذا يكون غير مقلد لغيره، فردًا أو جماعة. لكن الرأي المتبنى والمعتمد لينفذ على الأمة وعلى الجماعة، فهذا – من الناحية العملية – له شأن آخر، هو ما نحن بصدد بيانه وتفصيله.

يتبع

(٥) الفلعة جي، محمد رواس، موسوعة فقه أبي بكر الصديق، ص١٥٦.
(٦) تاريخ الأمم والملوك للطبري ٢/٦١.

﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

استفتاءات القراء

(الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين)

اطلعنا على الطلب المقدم من/ مجلة الأزهر - المتضمن لبعض الأسئلة وهي:

إثبات دخول شهر رمضان

س: ما هي طرق إثبات دخول شهر رمضان الكريم؟

الجواب: يثبت دخول شهر رمضان كغيره من الأشهر العربية القمرية برؤية الهلال، ويُستطلع بغروب شمس يوم التاسع والعشرين من شهر شعبان، فإذا تمت رؤية الهلال فقد بدأ شهر رمضان،

وإذا لم تتم رؤيته فيجب إكمال شهر شعبان ثلاثين يوما؛ لقوله ﷺ: «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته، فإن غُبي عليكم عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين»[1]، وبهذه الطريقة أيضا يثبت دخول شهر شوال.

والاعتماد على الرؤية البصرية هو الأصل شرعا، مع الاستئناس بالحساب الفلكي؛ إذ المختار للفتوى أن الحساب الفلكي ينفي ولا يُثبت، فيؤخذ به في نفي إمكانية طلوع الهلال ولا عبرة بدعوى الرؤية على خلافه، ولا يعتمد عليه في الإثبات، حيث يؤخذ في إثبات طلوع الهلال بالرؤية البصرية عندما لا يمنعه الحساب الفلكي. فإذا نفى الحساب إمكان الرؤية فإنه لا تُقبل شهادة الشهود على رؤيته بحال؛ لأن الواقع الذي أثبته العلم الفلكي القطعي يُكذّبهم.

وفي هذا جمع بين الأخذ بالرؤية البصرية وبين الأخذ بالعلوم الصحيحة سواء التجريبية أو العقلية وكلاهما أمرنا الشرع بالعمل به، وهو ما اتفقت عليه قرارت المجامع الفقهية الإسلامية.

السن الشرعية لوجوب الصوم

س: متى يكون فرضا على الفتى أن يصوم؟ وما هي السن الشرعية لوجوب صوم الفتى والفتاة؟

الجواب: الصيام ركن من أركان الإسلام

[1] أخرجه البخاري (٢/٦٧٤) ومسلم (٢/٧٦٢)



يجيب عنها فضيلة الأستاذ الدكتور
شوقي علام
مفتي جمهورية مصر العربية

الخمس لقوله صلى الله عليه وسلم: «بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والحج وصوم رمضان» رواه البخاري. والمسلم مخاطب ومكلف من وقت بلوغه أن يلتزم بهذه الأركان التي منها صيام شهر رمضان ويكون البلوغ للفتى بالاحتلام وللفتاة بظهور الحيض، فإن لم يظهر ذلك منهما فببلوغ خمس عشرة سنة قمرية لكليهما.

الأكل قبل الغروب وبعد الفجر

س: ما حكم من أفطر قبل غروب الشمس ظانا غروبها؟

الجواب: يبطل صومه؛ لأنه لا عبرة بالظن البين خطؤه، وعليه بالإمساك بقيّة اليوم والقضاء.

س: ما حكم من أكل أو شرب بعد طلوع الفجر دون أن يعلم بطلوعه؟.

الجواب: لا يصح صيامه وعليه القضاء وإمساك بقية اليوم؛ لحرمة الشهر الكريم.

التبرد بالماء أثناء الصوم

س: ما حكم التبرد بالماء أثناء الصوم؟.

الجواب: تبرُّد الصائم بالماء- بأن يغتسل أو يصب على بدنه الماء اتقاءً للحر أو العطش - جائز شرعا ولا يفسد الصوم، لما روت السيدة عائشة - رضي الله عنها- أن النبي ﷺ «كان يدركه الفجر جُنُبا في رمضان، من غير حُلْم فيغتسل ويصوم»[2]. وذكر البخاري عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - أنه قال: «إن لي أبْزَنا أتقحم فيه وأنا صائم»[3]. والأبزن هو حوض الاستحمام. وعلى الصائم أن يحرص على عدم دخول الماء إلى جوفه من الفم أو الأنف، فإذا حصل دخول جزء من الماء في الجسم بواسطة المسام فإنه لاتأثير له؛ لأن المُفَطِر إنما هو الداخل من المنافذ المفتوحة حسا للجوف.

استخدام العطور في نهار رمضان

س: ما حكم استخدام العطور في نهار رمضان للتطيب؟.

[2] متفق عليه البخاري (٢/٦٨١)، ومسلم (٢/٧٧٩)

[3] صحيح البخاري (٢/٦٨١)

الجواب: العطر في نهار رمضان لا يفسد الصيام.

المبالغة مكروهة

س: ما حكم المضمضة والاستنشاق أثناء الصوم؟.

الجواب: يجوز للصائم المضمضة والاستنشاق، ويكره المبالغة فيهما.

﴿ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾

س: هل يُرخّص الفطر لمن يداوم على السفر نظرا لطبيعة عمله؟.

الجواب: رخص الله سبحانه وتعالى للصائم المسافر أن يفطر متى كانت مسافة سفره لا تقل عن مرحلتين وتُقدَّران بنحو ثلاثة وثمانين كيلو مترا ونصف الكيلو متر، بشرط أن لا يكون سفره هذا بغرض المعصية، وأناط الشرع رخصة الفطر بتحقق علة السفر فيه من دون نظر إلى ما يصاحب السفر عادة من المشقة؛ فصَلح السفر أن يكون علة لأنه وصف ظاهر منضبط يصلح لتعليق الحكم به، والحكم يدور مع علته وجودا وعدما، فإذا وُجد السفر وُجدت الرخصة، وإذا انتفى انتفت، أما المشقة فهي حكمة غير منضبطة، لأنها مختلفة باختلاف الناس، فلا يصلح إناطة الحكم بها، ولذلك لم يترتب هذا الحكم عليها، ولم ينضبط بها وجودا وعدما، قال تعالى:

﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾

(البقرة: ١٨٥)

فمتى تحقق وصف السفر في الصائم، ولم يكن إنشاؤه بغرض المعصية، جاز له الفطر؛ سواء اشتمل سفره على مشقة أم لا، وسواء أتكرر سفرُه هذا أم لا، حتى لو كانت مهنته تقتضي سفره المستمر فإن هذا لا يرفع عنه الرخصة الشرعية، وبيّن الله سبحانه مع ذلك أن الصوم خير له وأفضل، مع وجود المرخّص في الفطر، بقوله تعالى:

﴿ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾

(البقرة: ١٨٤)

والصوم خير له من الفطر في هذه الحالة، وأكثر ثوابا، ما دام لا يشق عليه، لأن الصوم في غير رمضان لا يساوي الصوم في رمضان، ولا يدانيه، وذلك لمن قدر عليه، فإذا ظن المسافر الضرر كُره له الصوم، وإن خاف الهلاك وجب الفطر.

الصيام في الطائرة

س: جئنا من مصر على الطائرة المصرية إلى كندا، وأفتى لنا أحد العلماء بالصوم مع أن الطائرة سوف تحلق لمدة إحدى عشرة ساعة تقريبا، وركبنا من الساعة الواحدة ظهرا، وأفطرنا على توقيت مصر، ولكن المشكلة أننا أفطرنا والشمس ما زالت ساطعة، ولم تغرب إلا في آخر الرحلة، أي بعد إحدى عشرة ساعة، وقد وعدتُ أحد أفراد طاقم الطائرة أن أرد عليه من خلال فتواكم، فما رأيكم؟

الجواب: الصائم يفطر في الجو عندما تغيب الشمس عنده، وفي النقطة التي هو فيها، ولا يفطر بتوقيت بلده، أو البلد التي يمر عليها، بل عند غروب الشمس بكامل قرصها في عينه هو. فإذا شق عليه ذلك، فليفطر للمشقة الزائدة المركبة في السفر، وليس لانتهاء اليوم. فلو أفطر حينئذ فإنه يكون عليه أن يقضي يوما مكان ما أفطر، وما يقوله قادة الطائرات من الإفطار على ميقات البلد الأصلي أو البلد الحالي، من دون مراعاة غياب الشمس أمامهم غير صحيح شرعا. وهناك حالة تغيب فيها الشمس ثم تخرج مرة أخرى، من جهة المغرب لسرعة الطائرة، وهنا يفطر الصائم ولا يلتفت لردها وعودتها.

من صام ولا يصلي

س: ما الحكم فيمن صام رمضان ولكنه لا يصلي؛ هل ذلك يفسد صيامه ولا ينال عليه أجرا؟

الجواب: لا يجوز لمسلم تركُ الصلاة، وقد اشتد وعيد الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم لمن تركها وفرط في شأنها، حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم: (العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر) أخرجه الإمام أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجة وصححه الترمذي وابن حبان والحاكم، ومعنى (فقد كفر) في هذا الحديث الشريف وغيره من الأحاديث التي في معناه: أي أتى فعلا كبيرا وشابه الكفار في عدم صلاتهم، فإن الكبائر من شعب الكفر كما أن الطاعات من شعب الإيمان، لا أنه قد خرج بذلك من ملة الإسلام، عياذا بالله تعالى، فإن تارك الصلاة لا يكفر حتى يجحدها ويكذب بها، ولكنه مع ذلك مرتكب لكبيرة من كبائر الذنوب.

والمسلم مأمور بأداء كل عبادة شرعها الله تعالى من الصلاة والصيام والزكاة والحج وغيرها مما افترض الله عليه، إن كان من أهل وجوبه، وعليه أن يلتزم بها جميعا، كما قال الله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾

(البقرة: ٢٠٨)

وجاء في تفسيرها: أي التزموا بكل شرائع الإسلام وعباداته، ولا يجوز له أن يتخير بينها، ويؤدي بعضا ويترك بعضا فيقع بذلك في قوله تعالى:

﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾

(البقرة: ٨٥).

وكل عبادة من هذه العبادات المفروضة لها أركانها وشروطها الخاصة بها، ولا تعلُّق لهذه الأركان والشروط بأداء العبادات الأخرى، فإن أداها المسلم على الوجه الصحيح مع تركه لغيرها من العبادات فقد أجزأه ذلك وبرئت ذمته من جهتها، ولكنه يأثم لتركه أداء العبادات الأخرى، فمن صام وهو لا يصلي فصومه صحيح غير فاسد؛ لأنه لا يُشترط لصحة الصوم إقامة الصلاة، ولكنه آثم شرعا من جهة تركه للصلاة ومرتكب بذلك لكبيرة من كبائر الذنوب، ويجب عليه أن يبادر بالتوبة إلى الله تعالى.

أما مسألة الأجر فموكولة إلى الله تعالى، غير أن الصائم المصلّي أرجى ثوابا وأجرا وقبولا ممن لا يصلي.

تفسير قوله ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ﴾

د/ أحمد عرفة

نبين في هذا المقال تفسير جملة قرآنية تنشئ حكما من أحكام الصيام، اختلف العلماء في تفسيرها اختلافا عظيما، وأفرد بعضهم كتبا في تفسيرها، وهي الجملة المذكورة في عنوان المقال، وهاهي في سياقها في الذكر الحكيم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

(البقرة: ١٨٣ و١٨٤)

فمن هم الذين عناهم الله في قوله:

﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ﴾

هل هم عامة المخاطبين بالصيام؟ وهل تأذن الآية لهم بالفطر وهم يطيقون الصيام في مقابل فدية؟ أم عنى بهم المرضى والمسافرين خاصة؟ وهل تسقط الفدية عنهم القضاء؟

إنه لا مبرر لقوله تعالى:

﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾

إلا إذا كان بعض المخاطبين على الأقل قد فهم- أو خيف أن يفهم- أن الفطر خير له، ولا مبرر لأن يفهم ذلك بعض المخاطبين، إلا ما سبق هذه الجملة من قوله:

﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾

أي إن قوله:

﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾

خطابٌ لمن قال لهم:

﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾

والمخاطبون بقوله:

﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

ليسوا عامة المخاطبين بالصيام، وإنما هم المرضى والمسافرون الذين يمكنهم الصيام مع المرض أو السفر، ويدل على ذلك ثلاثة أمور:

- الأمر الأول: أن قوله:

﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾

لم يرد بعد مخاطبة عامة من أمروا بالصيام، وإنما ورد بعد الإذن للمرضى والمسافرين، بأن يصوموا أياما أخر، بدل الأيام التي لم يصوموها من شهر رمضان، بسبب مرضهم أو سفرهم، فالنص يقول:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

البقرة من ١٨٣ إلى ١٨٥.

فلا يكون المراد بالهاء في قوله:

﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾

إلا المرضى والمسافرين. ولو أنه أراد بها عامة المخاطبين بالصيام، لجاء قوله:

﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾

بعد ذكر عامة المخاطبين بالصيام، في أول الآية، ولكان النص على النحو التالي:

يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون، أياما معدودات، وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين... إلخ.

فلا يزيد النص كلمة ولا ينقص كلمة، ويبقى مجموع كلماته إحدى وتسعين كلمة، ولا يقع فيه تغيير في ترتيب كلمات أي جملة، ولا يقع فيه إلا تغيير واحد، بتعديل مكان جملة:

﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

فتعقب العبارة التي أخبر الله فيها عامة المخاطبين، أنه كتب عليهم الصيام في أيام معدودات كما كتبه على الذين من قبلهم.

وتلك الأيام المعدودات أيامٌ معينة، لأن غير المعين لا يمكن عدُّه، وهي أيام معينة لأنه قال عن المريض والمسافر:

﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾

قبل أن يقول:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾

أما قوله:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾

فبيان لتلك الأيام المعدودات، وبيان لعلة تعيينها بشهر رمضان، إذ أخبر أنه الشهر الذي:

﴿أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ

﴿وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ﴾

● الأمر الثاني: أن قوله

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ﴾

إنما يحسن ذكره بعد كلام عمن لا يُطيق الصيام، فيكون الكلام تفريعا عمن لا يُطيق، ولما كان قوله:

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ﴾

قد ورد بعد الكلام عن المرضى والمسافرين الذين قيل لهم:

﴿فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ﴾

فلا بد أنه يقصد أن علة توجيه المريض والمسافر إلى صيام أيام أخر، هي عدم طاقتهم على الصيام بسبب مرضهم أو سفرهم، وأن قوله:

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ﴾

بمثابة التنبيه للمرضى والمسافرين بأن الله وجههم إلى صيام أيام أخر بسبب عدم طاقتهم على الصيام في تلك الأيام، وأن من يفطر منهم مع طاقته على الصيام مع المشقة المعتادة، أو المشقة التي يمكنه احتمالها دون أن تفضي به إلى الحرج، فإنه آثم، وعليه أن يقدم فدية عن كل يوم من أيام رمضان التي لم يصمها، على الرغم من أنه سوف يصوم أياما أخر. أي إن الفدية بسبب إساءة استخدام الرخصة.

● الأمر الثالث: أن (تطوّع) في قوله:

﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾

ليس معناها فعل من البر ما هو غير ملزم به، وإنما معناها بذل الجهد ليكون مطيعا، فهذا هو معنى الكلمة من جهة معنى الطاعة، ومن جهة الوزن الذي صيغت عليه وهو (تفعّل)، فكما أن تعلّم تعني بذل الجهد ليكون عالما، وتكسّب بذل الجهد ليكون كاسبا، وتقدّم بذل الجهد ليكون متقدما، فكذلك (تطوّع) تعني بذل الجهد ليكون مطيعا. قال ابن عاشور: «والتطوّع: السعي في أن يكون طائعا غيرَ مكره، أي طاع طوعا من تلقاء نفسه». ولما كانت الطاعة تعني الإتيان بما أمر به الآمر، فإن المتطوّع في الكلام عن الصيام هو من أدى الصيام الذي أمر الله به. وهذا يعني أن المخاطب بقوله:

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾

ليسوا هم العاجزين عن الصيام بسبب السفر أو المرض، وإنما هم المرضى والمسافرون الذين يستطيعون الصيام مع مرضهم أو سفرهم. وقد ورد هذا الرأي في تعيين مَن عناهم الله بقوله:

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾

في تفسير البيضاوي (ت ٦٨٥هـ)، حيث قال في تفسير عبارة:

﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾

«أيها ..... أو المرخصون في الإفطار من المرضى والمسافرين»(١) وورد في تفسير النسفي (ت ٧٠١هـ)، حيث قال في تفسير نفس الجملة: «وقيل وأن تصوموا في السفر والمرض خيرٌ لكم»(٢)، وورد نفس الرأي بعبارة البيضاوي في تفسير أبي السعود (ت ٩٨٢هـ)(٣)، وأورده الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ)، بلفظ مختلف، حيث قال: «وقيل معناه: وأن تصوموا في السفر والمرض غير الشاق»(٤)، ومن قبل هؤلاء أورده الجصاص (ت ٣٧٠هـ) بعبارة ملتبسة، حيث قال: «وجائز أن يكون قوله:

﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾

عائدا إلى المسافرين أيضا، مع عوده إلى المقيمين المخيّرين بين الصوم والإطعام»(٥). وقال ابن عاشور: «الظاهر رجوعها لقوله:

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ﴾(٦).

والشائع في كتب التفسير أن قوله:

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ﴾

خطاب لعامة المخاطبين بالصيام، وأنه منسوخ بقوله:

﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾(٧)،

يُروى ذلك عن عدد من الصحابة والتابعين(٨). وقد أدى إلى شيوعه أمران: الأول منهما الأخذُ بروايات تفيد أن الترخيص بأداء الفدية بدلا من الصيام- كان حكما عاما في أول الإسلام، والأمر الثاني استسلامُ كثير من العلماء لدعوى النسخ، إذ يَخلُون بها إشكال التعارض الذي يتصورونه بين نصين في القرآن.

وقد أدى شيوع هذا الرأي إلى اختلاف أنظار المفسرين وغيرهم عن وجوب الربط بين قوله:

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ﴾

وبين ما سبقه وهو قوله:

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ﴾

حتى إنك تجد الرازي يقول: «ولا يلزم من اتصاله بقوله وعلى الذين يطيقونه أن يكون حكمه مختصا بهم لأن اللفظ عام ولا منافاة في رجوعه إلى الكل فوجب الحكم بذلك»(٩). فكيف يقول: «لا يلزم من اتصاله بقوله:

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ﴾

أن يكون حكمه مختصا بهم»، وقد كان ينبغي أن يقول (الأولى أن يكون حكمه مختصا بهم لأنه ورد متصلا بهم، أي بالمسافرين والمرضى)، وكيف يقول: «ولا منافاة في رجوعه إلى الكل، فوجب الحكم بذلك»، وهو يعلم أنه لا يجوز استنتاج (الوجوب)

١) تفسير البيضاوي: ١/ ٤٦٣.

٢) تفسير النسفي: ١/ ١٣٣.
٣) تفسير أبي السعود: ١/ ١٩٩.
٤) فتح القدير: ١/ ١٨٠.
٥) أحكام القرآن: ١/ ٢٤٣.
٦) التحرير والتنوير: ٢/ ١٦٨.
٧) انظر الطبري: جامع البيان: ٢/ ١٨٩ و١٩٠، والسمعاني: تفسير السمعاني: ١/ ١٨١، وابن عطية: المحرر الوجيز: ١/ ٢٥٣، وأبو حيان: البحر المحيط: ٢/ ٤٢، والقاسمي: محاسن التأويل: ٢/ ٦٠.
٨) انظر الطبري: جامع البيان: ٢/ ١٨٠ إلى ١٨٣.
٩) التفسير الكبير: ٥/ ٧٠.

من (عدم المنافاة)؛ لأن عدم المنافاة يعني الجواز ولا يعني الوجوب. ولو أنه ربط بين موضع الجملة من النص، وبين ذكر الإطاقة وما سبقها من ذكر المرضى والمسافرين، لقال إنها متعلقة بالمرضى والمسافرين دون غيرهم. رحم الله الرازي وعامة من خدموا الكتاب العزيز، فإن كل ابن آدم خطاء، وقد كنت أنا إلى سنين خلت، أرى أن قوله:

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ ﴾

متعلق بعامة المخاطبين بالصيام، ولكنني كنت أجعله نصا باقيا غير منسوخ.

وفي القول بالنسخ خلاف قديم، ويزدادُ عدد القائلين بأنه لا نسخ في أحكام القرآن، وفي دراسة نال بها درجة الدكتوراه، لخص مصطفى بوهندي ما انتهى إليه في مسألة وقوع النسخ في أحكام القرآن الكريم، في قوله: «إن الأدلة السمعية التي أوردها القائلون بالنسخ أدلةٌ متهافتة، متأثرةٌ بخلافات اليهود والمسيحيين، ويقودُها الهاجس الفقهي، وهو ما أدى إلى تحريف معاني أكثر هذه الأدلة وتحويلها من معناها العام المنسجم مع سياقه الوارد فيه، إلى سياقٍ خاص مرتبط بالمشاكل الفقهية التي تؤرّق هؤلاء العلماء، ومُوَجّه بركام هائل من المأثورات والمقولات لا يَسمحُ [لهم] بسبب كثرتها وما اكتسبته من هالة التوقير والتقديس - بالنقد والمراجعة والتمحيص. أما الأدلةُ العقلية أو ما يسمونه بالجواز العقلي، فلا يبقى لها أيُّ معنًى، إذا سقطت هذه الأدلة النقلية، لأن إثبات الأحكام ونفيها، لا يكون إلا عن طريق الوحي، بل إن العقل لا يقبل أن يكون في كتاب الله الذي تكفّل بحفظه ما يُدّعى من هذه الأضرب من النسخ»(١٠). والذي لا شك فيه أن من ينفي وجود اختلافٍ في كلام الله، أقربُ إلى تنزيه كلام الله ممن ينسب إليه الاختلاف، بل جعلَ الله عدم وجود اختلافٍ في القرآن دليلا على كونه من عند الله فقال تعالى:

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾

(النساء: ٨٢)

وذهب الشيخ عبد الحميد بخيت(١١)، إلى أن قوله:

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ ﴾

كلام عن عامة المخاطبين بالصيام، وأنه باقٍ غيرُ منسوخ، فقال في مقال يفسر هذه الجملة الكريمة: «وأما الذين يُطيقونه بمشقة وإرهاق قد يعوقهم عن أداء بعض ما يجب عليهم، نحو أنفسهم أو عيالهم أو دُوَلِهم أو الإنسانية بوجه عام، فإن لهم أن يفطروا جهارا نهارا، وعلى القادرين منهم أن يتصدقوا عن كل يوم يفطرونه، بإطعام مسكين أو قيمته، تلك شريعة الإسلام في رمضان، لا تثريب على مَن يُفطر بعذر، ولا يعترضُ صائم على مُفطر»(١٢). وكان على الشيخ بخيت أن يعبّر عما فهمه من هذه العبارة واضعا في اعتباره ما سبقها وما تلاها مما يؤكد أن الصيام فريضة لا تسقط بسبب المرض أو السفر؛ أعني بما سبقها قولَه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾

فهو يدل على أن الصيام فريضة، وأنها لا تسقط بالمرض ولا بالسفر، ولذلك أمر المسافر والمريض أن يصوم أياما أخر بعدد الأيام التي لم يصمها بسبب المرض أو السفر، وأعني بما تلاها قوله:

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

فهو يدل على أن الله أمرنا أن نصوم شهر رمضان؛ لأنه الشهر الذي نزل فيه القرآن لهداية الناس، وصيامه تعبير عن شكر الله وإكبار شأنه، وأن هذا الصيام ينبغي أن يشمل الشهر كله، وأن المرض والسفر لا يسقطانه ولا يسقطان جزءا منه، وإنما يجب على المسافر والمريض أن يصوم بعده أياما بعدد الأيام التي لم يصمها بسبب المرض أو السفر. نعم، كان عليه أن يضع هاتين العبارتين في اعتباره، ولكنه لم يفعل، بل إنه لم يلحظ أن تكملة العبارة التي يفسرها بجواز الفطر والفدية بلا تثريب تقول:

﴿ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

ولو أنه لحظ هذه التكملة وحدها لقال: من الأفضل للمسلم أن يبذل الجهد، وأن يتحمل المشقة، من أجل أن يأتي بالطاعة التي أمره الله بها. ولكن أين هذا من قوله: (وأما الذين يطيقونه بمشقة وإرهاق قد يعوقهم عن أداء بعض ما يجب عليهم... فإن لهم أن يفطروا... تلك شريعة الإسلام في رمضان)؟ وأين هذه التكملة من قوله في نفس المقال (ومن هنا رخّص الله في الإفطار لمن يؤذيهم الصومُ ولو قليلا من الأذى)؟!

لقد رفض الشيخ بخيت فكرة النسخ، وهذا حقه، وأبى أن يفسر الطاقة بعدم الطاقة وهذا حقه، ولكنه فسّر العبارة دون أن يُدخل في اعتباره تكملتها وما سبقها وما تلاها. وقد وُوجه الرجلُ بغضب وعنف شديدين، أطاحا بأهليته للفهم، وبوظيفته أستاذا بكلية أزهرية(١٣)، ولم يكتب أحدٌ ممن ردّ عليه، ما يرشده إلى نقاط الخطأ، ولعلنا نأخذ من هذا عبرة، أن الغيرة على الدين لا تكون بالغضب والعنف، إلا في ساحة القتال من أجل الدين، وأما في ساحة الفكر فلا مجال إلا للفكر.

وذهب آخرون إلى أن قوله:

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ ﴾

حكمٌ خاص بمن لا يُطيقُ الصيامَ من مسنّ مريض أو امرأة حامل أو مرضع، وأنه باق ولم ينسخ، يُروَى ذلك عن عدد من الصحابة

(١٠) مصطفى بوهندي: التأثير المسيحي في تفسير القرآن: ٨٥ و٨٦.
(١١) كان أستاذا بكلية أصول الدين بجامعة الأزهر.
(١٢) جريدة الأخبار: عدد ٩/ ٥/ ١٩٥٥م.
(١٣) إلى أن ألغت محكمة القضاء الإداري قرار وقفه عن التدريس وقرار نقله إلى وظيفة كاتب بمعهد دمنهور الابتدائي.

والتابعين(١٤). وليس في السياق ما يشهد لهذا القول، فلا ذكر في النص لشيء يدل أو يشير إلى أنه يتكلم عمن لا يُطيق الصيام، بل إنه لا مجال لهذا الفهم أبدا، لأنه لم يقل (وعلى الذين لا يُطيقونه)، وإنما قال:

﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾

بل إنه أتبعه بما يدل على أنه كان يتكلم عمن لا يصوم والأولى به أن يصوم، إذ أتبعه بقوله:

﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

أي إنه يرغبهم في الصيام، ولو كان الكلام عمن لا يُطيق، لاكتفى بذكر الفدية، أو أخبرهم أنه لا فدية عليهم، لأن فقدان القدرة مُسقط للتكليف.

وذهب الشيخ عبد المتعال الصعيدي إلى أن قوله (وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ)، كلامٌ عمن يُطيق الصيام وهو غير مريض ولا مسافر، وأنه غير منسوخ، وأن معناه أن من يفطر من غير مرض ولا سفر، عليه القضاءُ بدلا من الصوم، والفديةُ بدلا من الإثم(١٥). وفي كلامه نظر؛ لأن العبارة لم ترد في الكلام عن عموم المخاطبين بالصيام، وإنما وردت في الكلام عن المرضى والمسافرين كما بينتُه آنفا. ومن جهة أخرى فإن من أفطر من غير مرض ولا سفر، فإنه إما أن يفعل ذلك علنا فلا يكون إلا مستهترا بأحكام الله، وإما أن يفعله سرا ويظهر في صورة الصائم، فيكون منافقا، وكلاهما لا يَحْسُن أن يؤمر بقضاء ولا كفارة، وإنما يؤمر بأن يتفكر في سلوكه وفي نعم الله عليه وفي صلته بربه الذي يتوجه إليه بالدعاء طالبا معونته، والذي سوف يحاسبه في اليوم الآخر على كل ما كان منه من عمل. إن هذا إن أمر بالصيام أو بالقضاء أو بالكفارة فإنه يكون أمرا في غير محله. وإنما الذي ينبغي أن يؤمر به هو أن يفعل ما يعينه على الخروج من حالة الفسق التي وصل إليها، إلى حالة الإيمان التي ابتعد عنها، بينما القول بأن الفدية في قوله:

﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾

مخاطَبٌ بها من أساء استخدام الرخصة، فأفطر متذرعا بمرض أو سفر لم يكن يمنعه من الصيام، قولٌ منطقي تماما، إذ هو خطاب لمؤمن جنح عن الطريق ولم يشعر به إلا الله، فاتخذ من السفر أو المرض ذريعة إلى الفطر، وكان الخيرُ له أن يصوم، والله يخاطبه بهذا النص، يستنهض به عزمه ويوقظ به ضميره، فيطلب منه أن يقدّم فدية عن كل يوم أفطره بغير عذر صحيح، مع قضاء تلك الأيام.

ومما يؤسف له أنه قد نُقل عن بعض السلف أنهم كانوا يفطرون لأدنى ما يوصف بأنه مرض أو سفر؛ من ذلك ما رواه الطبري من أن طريف بن تمام العُطاردي(١٦)، «دخل على محمد بن سيرين في [نهار] رمضان وهو يأكل، فلم يسأله، فلما فرغ قال: إنه وُجعتْ إصبعي هذه(١٧)، [فأفطرتُ](١٨)، وعن البخاري قال: اعتللتُ بنيسابورَ علةً خفيفة، وذلك في شهر رمضان،

١٤) انظر الطبري: جامع البيان: ٢/ ١٨٤ إلى ١٨٩.
١٥) انظر اجتهاد جديد في آية (وعلى الذين يطيقونه) ٢٧.
١٦) هو طريف بن شهاب. انظر السمعاني: الأنساب: ٤/ ٢٠٨.
١٧) في الوسيط: (الإصبع والأُصْبُع أحد أطراف الكف) مادة (ص ب ع).
١٨) جامع البيان: ٢/ ٢٠٤.

شهر رمضان، فعادني إسحاقُ بن راهويه، في نفر من أصحابه، فقال لي: أفطرتَ يا أبا عبد الله؟ فقلت: نعم، فقال: يعني تعجّلتَ في قبول الرخصة! فقلتُ: أخبرنا عبدان عن ابن المبارك، عن ابن جُريج قال: قلت لعطاء: من أي المرض أفطر؟ قال: من أي مرض كان، كما قال الله عز وجل:

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾(١٩). وفيه غفلة عن قوله

﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾

كما بيّناه، ولعل هذه الأخبار وأمثالها قد أغرت الشيخ عبد الحميد بخيت بأن يقول ما قاله.

وإن من أحسن ما يروى في هذا السياق ما روي عن أنس بن مالك، قال: «كُنَّا نُسَافِرُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمْ يَعِبِ الصَّائِمُ عَلَى الْمُفْطِرِ وَلَا الْمُفْطِرُ عَلَى الصَّائِمِ»(٢٠)، فعلى الرغم من اتحاد سبب الفطر وهو السفر، فإن الناس منهم من صام ومنهم من أفطر، ولم يعب بعضهم بعضا، لأن السفر رغم أنه سفر واحد، إلا أن تأثيره متفاوت من واحد إلى غيره. وينبغي أن يكون شأن المرض كذلك.

فالواجب ألا يعيب صائم وهو مسافر أو مريض، على مَن أفطر ممن يشاركه السفر أو المرض، لأن الأثر متفاوت، وما يحتمله واحد بمشقة معتادة لا يحتمله الآخر، والله الذي يقول لكل مسافر ومريض:

﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾

﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

مطّلع على حال كل أحد، وسوف يحاسب الكل في يوم الحساب.

وخلاصة القول أن قوله:

﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ﴾

كلام عن صيام شهر رمضان، وليس في السياق كلام عن صيام فُرض قبل أن يفرض صيام رمضان، وليس فيه شيء منسوخ، وأن (يطيقونه) بمعنى يطيقونه، وليست بمعنى (لا يطيقونه)، وأن الكلام في قوله:

﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾

كلامٌ عن المرضى والمسافرين المخاطبين بالصيام، وليس كلاما عن عامة المخاطبين بالصيام، ولا هو كلام عن الشيخ الفاني والحامل والمرضعة، وأن معنى الجملة الكريمة وما تلاها: وعلى الذين يطيقون الصيام وهم مرضى أو مسافرون، أن يُقدموا فدية إذا أفطروا، وأنهم إذا تحملوا الجهد لطاعة الأمر بالصيام، فإن الله شاكر لهم صيامهم عليم بحرصهم على الطاعة، وأن الصيام خير لهم، وأن تلك الفدية ليست بديلا عن الصيام وإنما هي فداء لسوء استغلال الرخصة، فعليهم القضاءُ في مقابل الفطر، والفدية في مقابل سوء استغلال الرخصة.

هذا، والله الهادي إلى سواء السبيل.

١٩) ابن حجر: مقدمة فتح الباري: ٤٨٧.
٢٠) البخاري: صحيح البخاري الرواية رقم ١٩٤٧، ومسلم: صحيح مسلم الرواية رقم ١١١٨.

رمضان شهر الإسلام



الشيخ معوض عوض إبراهيم

رمضان شهر الإسلام في ليلة من لياليه وكانت ليلة القدر كما عرفت بعد أن كان محمد بن عبدالله يرى من قومه إعراضا عن الله خالق كل شيء ورب كل شيء ومالك كل شيء إلى عبادة أصنام نحتوها بأيديهم وأوثان لاتضر ولا تنفع وليس لها من أمر نفسها ولا من أمر غيرها شيء إلى عبادة الحيوان والكواكب وما سوى ذلك مما عرفنا وما لم نعرف.

رمضان شهر الفريضة التي أوحى الله فيها آيات خمسا لم تتكرر في القرآن كله بينما ترى توحيد الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج بيت الله مذكورة مرات ومرات في القرآن والآيات الخمس التي بدأها الله تعالى بقوله:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾

(البقرة:١٨٣)

إلى قوله تعالى:

﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾

(البقرة:١٨٧)

ففي أولى هذه الآيات نداء الله عز وجل للمؤمنين.

والمؤمنون هم خاصة الله من خلقه وخيرته من عباده يقول فيهم ابن عمر رضي الله عنهما: «اذا سمعت الله عز وجل ينادي ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فارعها سمعك فإنه خير تؤمر به أو شر تنهى عنه»، وتتبع ذلك النداء الكريم في كتاب الله عز وجل حتى تعرف حقيقة ما أمرنا به وما نهينا عنه سائلين الله أن يرفعنا إلى مستوى مراد الله عز وجل من ترك ما نهينا عنه وأخذ ما أمرنا به. ولقد كتب الله عز وجل وأوجب أن نصوم ذلك الشهر الذي ذكر أول ما ذكر بأنه أيام معدودات، حددها تبارك وتعالى بعد ذلك بقوله:

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴾

(البقرة:١٨٥)

وفي الآية الأولى من تلكم الآيات يبين الله عز وجل الغاية من الصيام التي حددها قوله تعالى بقوله: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ فتقوى الله عز وجل غاية الغايات وأعظم مراداته تبارك وتعالى من عباده بعامة ومن الأمة الوارثة التي فرض الله عز وجل عليها الصوم كما فرضه على الأمم من قبلها على نحو يتفق مع جلال هذه الفريضة في الدين الخاتم.

ورمضان أوله رحمه وأوسطه مغفرة وآخره عتق من النار. وأي عطاء يرجوه المسلم وراء ذلك العطاء. ولقد حدد الله عز وجل الصيام في أيام معدودات أكرمنا بأن جمعها في شهر شرفه ربنا فسماه وبين أنه نزل فيه أول ما نزل من القرآن الكريم كلاما هو وحي الله في ليلة قال الله عز وجل فيها:

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾

(القدر:١)

وهي ليلة القدر من كرامتها وعظمتها فهي خير من ألف شهر فيها ما فيها من عبادة الله عز وجل وفيها تتنزل ملائكة الله عز وجل بالمغفرة والرضوان. ورحم الله ذلك الإمام الذي قرأ أول سورة البقرة:

﴿ الم ۝ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾

(البقرة:١، ٢)

ثم تابع القراءة إلى أن قرأ قول الله تعالى:

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ ﴾

(البقرة:١٨٥)

فقال: من لم يهتد بالقرآن فليس من الناس. أنت بتركك الطعام والشراب والشهوات المشروعة في غير نهار الصوم وصونك لسانك عن منكر القول ولغو الحديث تكون أهل قول الله عز وجل في الحديث القدسي: «كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به»، والقوم وراء حدود الإسلام في بلاد الشرق والغرب يأخذون صوم رمضان مستشفى لعلاج مستعصي الأدواء والعلل وأراني مع كتاب (رحلة الإيمان في جسم الإنسان) لمؤلفه د/ حامد أحمد حامد ص٢٩٩ فإنما آخذ من قوله: «فإن الصيام يفيد مرضى البدانة - خناق الصدر- هبوط القلب الاحتقاني - ارتفاع ضغط الدم- الداء السكري المصاحب للسمنة - ارتفاع الشحوميات بالدم- أمراض الكليتين المصحوب باستسقاء البطن وتورم القدمين».

ومن الجدير بالذكر أن الصيام يعود بمنفعة عظيمة لجهاز المناعة حيث وجد أن الصيام ينشط عمل خلايا المناعة وأصبح الصيام وسيلة علاج ناجحة جدا لما يصاحب الصيام من راحة نفسية تكبح الشهوات وتقوي الإرادة وتفيد الثقة بالنفس. وخاصة أن الصيام يصاحبه نقص في إفرازات الغدة الكظرية ونشاط الجهاز العصبي السمبثاوي. وهكذا يتبين لنا رحمة الله سبحانه وتعالى، فعندما كلفنا بالصيام هيأ لأجسامنا التكيف الفسيولوجي والبيولوجي الذي مكننا من ذلك، فاللهم بارك لنا في رمضان وتقبل صيامنا إنك رب كل ذلك والقادر عليه وأنت حسبنا ونعم الوكيل.

من تراث الهلال

ليلة القدر..
مطلع حق.. وعدل.. وحرية.. ومساواة

للأستاذ/ عاطف مصطفى

«ليلة القدر لم تكن ولن تكون بابا يفتح في السماء أو نورا يملأ فضاء البيت.. وإنما هي مطلع حق وعدل وكرامة وإخاء»

حينما يقبل شهر رمضان، تبدأ القرائح في البحث، وتشحذ العقول بالتحضير لأفكار جديدة، ودراسات متعمقة حول شهر الله، لينعم الصائم بقراءتها، والاستزادة بما تتضمنه من كل جديد في دنيا الثقافة والمعرفة، هو مقبل على شهر المكرمات والمحبة والتراحم والبعد عن الأنانية.

ولو تصفحنا مجلة الهلال على مدار صدورها، لوجدنا كل رئيس تحرير له فكره الخاص، وله رؤيته في الاستعانة بكبار الكتاب، واختار الموضوعات التي تتناسب ومكانة الهلال بين قرائها، وذلك من خلال طرح أفكار حول الصوم وعظمة الشهر الفضيل.

ففي عدد الهلال الصادر [أول إبريل ١٩٥٨م الموافق ١٢ رمضان ١٣٧٧هـ] جاءت افتتاحية الهلال بعنوان «رمضان» وجاء في بدايتها «شرعت جميع الأديان الصيام، لأنه يسمو بالروح إلى عالم اللطف والصفاء، ويجمع النفوس على العمل لله، ويحفزها على توحيد الجهود في سبيل الله، وفي سبيل الخير العام، فيتعاون الغني مع الفقير، ويحنو الكبير على الصغير، ويقف القوي إلى جانب الضعيف.. الكل يقوم بواجبه نحو المجتمع وسعادته، فالتعاون والاتحاد هما طريق القوة وتحقيق الأهداف والآمال.

ولا يكون التعاون إلا إذا تغلب الإنسان على أطماعه، وانتصر على أنانيته وضحى بأغراضه الذاتية في سبيل الغرض الأسمى، وهو صلاح المجتمع ورفاهيته ورقيه.

ولذلك كان الصيام هو الوسيلة الكبرى منذ القدم لتأديب النفس، وتهذيب الخلق، وصفاء القلب، وسمو الروح، ومتى سمت الروح، تحطمت الأنانية، وزال الطمع، وتعارفت النفوس وتحابت القلوب، وتعاونت الجهود، وتحقق الخير للجميع.

ونختار مقالا عنوانه «ليلة القدر.. مطلع حق وعدل وحرية ومساواة» لفضيلة الأستاذ أحمد حسن الباقوري وزير الأوقاف في ذلك الوقت، يقول فضيلته في البداية: «يتطلع المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها إلى ليلة القدر، والاحتفال بها، والحرص عليها، والتعرض لما يحتشد فيها من خير كثير وثواب كبير.

وعلى أن ليلة القدر خير عريق في الخير، لا يشك في هذا مسلم ولا ينبغي لمسلم أن يشك فيه.

ترى الناس يختلف تصورهم لها، وتتباين قدورهم على إدراك سر العناية بها والاهتمام بشأنها.

فمن الناس من يتجه في تصورها اتجاها ماديا مجسما، يستلفت النظر، ويسترعي الانتباه، وربما أبعد هؤلاء في الخيال فزعموها بابا يفتح، أو نورا يتوهج، هاتفا بالمؤمن أن يدعو الله ما شاء من خير معجل الثمار، فلا يلبث أن يرى الخير معجلا داني القطوف.

ليس علينا إلا أن نسمع ونطيع

ومن الناس من يتجه في تصورها اتجاها لا تحصره حدود مرسومة، ولا تبرز به فكرة واضحة، ولا ينشأ عنه اقتناع مسلم، وهو لهذا لا يستطيع أن يقنع بها أولئك الذين يحبون أن يقتنعوا من كل شيء، بمعنى ثابت يهتف بالحجة أن تغلب، وبالنطق أن يسود.

وإني أكره لنفسي علم الله- أن أقيم منها رقيبا على الناس فيما يعتقدون وما لا يعتقدون، وإني أعلم أن الدين أساسه الإيمان بالله ورسوله ﷺ، وما يتصل بذلك من الغيوب المحجبة والشئون المستورة، وليس علينا إلا أن نذعن لما أخبر به عن الله تعالى كتاب حكيم، أوضح به النبي صلوات الله عليه حديث كريم.

وليلة القدر من الشئون الدينية التي صح بها النص صحة لا تدع في المؤمن ريبا في نفس، أو جرحا في صدر، وإن كان لم يرد معها ذلك السر الذي دعى المسلمون إلى تكريمها من أجله تكريما تستجلب به معونة الله، ويرجى معه جميل عفوه، وعظيم ثوابه في الدنيا، حيث الحاجة إلى عونه بادية، والافتقار إلى رضوانه شديد، وفي الآخرة حيث الخوف من غضبه مفزع ،والرجاء في رحمته عظيم.


الباقوري

من الناس إذن من يفتح ذراعيه لليلة القدر، فيقوم ليلها، ويصوم نهارها، امتثالا لأمر الله فيها، وخضوعا لتوجيهه إليها كائنا ما كان سرها ،وبالغة ما بلغت حكمتها.

لا يمد نظره إلى أبعد من هذا الامتثال، ولا يبالي إلا أن يعبد الله كما أمر الله المسلمين أن يعبدوه.

ومنهم من يصورها مع هذا تصوير انتفاع عاجل، وتجارة رائجة، وسماء تفتح أبوابها، وأنوار تشع أضواءها، ومطالب تستجاب إذا صادفت ذلك النور المشرق، أو وافقت ذلك الباب المفتوح مهما يكن الشأن فيها خطيرا، والأمر فيها عظيما.

مبدأ الرحمة الله الشاملة

يواصل فضيلة الشيخ الباقوري: ومعذرة أن أنظر إلى ليلة القدر من جهة نظر أخرى، وأن أصورها تصورا آخر، يوافق المنطق الذي لا أجد مناصا من موافقته، ويماشي التفكير الذي لا أجد مناصا من الخضوع له والاستقامة عليه.

إن ليلة القدر لم تكن ولن تكون بابا يفتح في

السماء، أو نورا يملأ فضاء البيت، وإنما هي مبدأ لرحمة الله الشاملة التي استنقذت الإنسانية كلها من ربقة الطغيان، وأخذت بيد الحيارى إلى مسالك واضحة المعالم شريفة الغايات، يستشعرون فيها برد الطمأنينة، وراحة السكينة، والناس مذ بلغوا رشدهم، يتخذون لهم أياما مقدسات في حياتهم، يفصلون بها بين ماض أليم وحاضر مطمئن، وبين ما كانوا عليه من ذل وصغار، وصاروا إليه من مجد وفخار، ثم ينظرون فيها إلى المحن الماضية، فيزدادون فرارا منها، وإلى المنح الباقية فيزدادون ضنا بها، وإقبالا عليها.

وبعض الناس يتخذ من هذه الأيام مواسم عبادة، يستديم فيها نعمة الله عليه بعبادته حق عبادته، وشكره حق شكره، وبعضهم يتخذ في هذه الأيام مواسم تنطلق فيها متعة الجسد، وتستعر نار الشهوات والأثرات.

والمسلمون أمروا أن يتخذوا من ليلة القدر موسما يخلصون فيه لله أنفسهم، ويقدمون له شكرانهم على أن أخرج أمتهم من الظلمات إلى النور، ومن الباطل إلى الحق، ومن الذلة إلى العزة، ومن الوثنية التي يستعبد فيها البشر البشر، إلى الوحدانية التي لا تكون العبودية فيها إلا لله رب العالمين.

إن للشرق وللغرب أعيادا يتلقاها أهل الفكر والنظر منهم بالترحيب بمقدمها، والاحتفال لأهلالها، والتهيؤ لالتماس العبرة بها والاتعاظ منها، ويتلقاها سواد تلك الشعوب باللهو الممتع والفرح والرقص والنشوة الطروب، وأولئك وهؤلاء يحتفلون بأيام محدودة المعنى، أو عنصرية الغاية، مقصورة الخير على جانب ضيق من جوانب الأمة، يتصل فيها بغريزة حب الاستعباد وحب الاستغلال.

فأما ليلة القدر فإنما يحتفل بها المسلمون من حيث كانت مطلع حق وعدل وحرية وكرامة وإخاء ومساواة، كما كانت مطلع تشريعات إنسانية رفيعة يتساوى فيها الناس، ولا يفضل بعضهم على بعض إلا على قدر ما يؤدون للمجتمع من خير نافع وصالح مفيد.

ليلة القدر ليلة شريفة كريمة لأن فيها نزل القرآن

وعن فضل ليلة القدر يقول فضيلة الشيخ أحمد حسن الباقوري... كانت ليلة القدر مبدأ نزول القرآن كما يقول الله سبحانه:

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾

(القدر: ١)

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾

(الدخان: ٣)

والقرآن رحمة الله للناس وعدله فيهم، ونصحه لهم، وتوجيهه إياهم، والأزمنة تسعد وتشقى كما يسعد الناس ويشقون، وتشرف وتتضع، كما يشرف الناس ويتضعون، فاليوم الذي يكون طرفا لمكروه يصيب، أو نازلة تقع، يوم شقي بغيض، واليوم الذي يكون طرفا لخير يأتي، أو بشارة تسر، يوم سعيد حبيب، وبهذا المقياس تكون ليلة القدر، ليلة شريفة كريمة سعيدة، لأن فيها نزل القرآن الذي رفع من خسيسة الإنسان، وأسبغ عليها السعادة بعد الشقاء، والكرامة بعد المهانة والامتهان.

كان الناس يتفاضلون فيما بينهم باللون والجنس، وكل ما لا حيلة لهم في جلبه أو رده، وما أكثر ما شقيت الإنسانية بهذا اللون من التفاضل، فهذا الأسود بفعل البيئة التي عاش فيها، ونبت منها، ما ذنبه أن يحقره الناس، وربما كانت نفسه تنطوي على فضائل، لا يوجد لها ظل في أنفس الذين يحتقرونه ويرفضون أن يسووا بينه وبينهم في الحقوق والواجبات، ومن أجل ذلك كان من رحمة الله أن يجيء القرآن ليضع مقاييس جديدة يتفاضل عليها الناس فيما بينهم.

وتتلخص هذه المقاييس في وجود الضمير اليقظ الواعي، الذي يراقب الله في صلته بنفسه، وفي صلته بالناس من حوله.

وذلك قول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾

(الحجرات: ١٣)

وليس أكرمكم عند الله أبيضكم وجها، أو أجملكم شكلا!!

وكل الناس يظلمون أنفسهم ويحقرون إنسانيتهم ويرضون بأن يستضعفوا ويستذلوا طلبا للسلامة الرخيصة، إبقاء على العيش الذليل.

وأخطر شيء على بناء المجتمع أولئك الضعاف المستسلمون، فإنهم باستسلامهم هذا، يفتحون الطريق أمام استبداد الطغاة المستبدين، ولا صلاح لمجتمع يتردد طرفاه بين المهانة والذل، وبين الاستبداد والطغيان.

ولهذا جاء القرآن يستنفر الضعاف وأشباههم إلى الاعتزاز بإنسانيتهم، والتسامي بقيمهم.

وشدد في ذلك أبلغ تشديد، فذلك حيث يقول:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾

(النساء: ٩٧)

وهكذا كل المبادئ الرفيعة التي جاء بها القرآن، ودعا الناس إليها، أو حملهم عليها، وانتفعت الإنسانية منها انتفاعا عظيما، كل ذلك كان مشرقه ليلة القدر، وكان مبدأ وجوده ليلة القدر، وكان البشير به ليلة القدر.

ومن هنا كانت هذه الليلة فصلا بين عهدين، وكانت أول الزمن الذي اعتز فيه الناس بعد طول ذل، واجتمعوا بعد طول فرقة، وتعارفوا بعد شديد تناكر، وخرجوا من الظلمات إلى النور.. ومن الموت إلى الحياة.

قيامها سترا للعيوب وغفرانا للذنوب

يختم فضيلة الشيخ الباقوري مقاله عن ليلة القدر بالهلال بقوله: ولعل ذلك هو السر في أمر المسلمين أن يحيوا هذه الليلة شكرا لله على آلائه، وحمدا لله على نعمائه، واستدامة لتلك الذكرى الكريمة في النفوس.. وتجديدا لها في الصدور.

فإن إحياء الأيام ذات المناسبات الطيبة، إحياء لنفس هذه المناسبات الطيبة.

وتكريم الليالي ذات الذكريات الجميلة، تكريم لنفس الذكريات الجميلة.

والخير إن شاء الله من ذلك كله مرتقب لا يأس منه، وواقع لا شك فيه.

وربما كان من أجل هذه المعاني الشريفة في ليلة القدر جعل قيامها سترا للعيوب، وغفرانا للذنوب.

فقال رسول الله ﷺ: «من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه».

رمضان فرصتنا لتحقيق الطمأنينة والأمن والأمان

د. محمد فتحي فرج

رمضان شهر الصيام ، وشهر القرآن ، ينشط فيه المرء للعبادة ، ويُكثِرُ فيه من الذكر والدعاء في كل حين وآن ، ابتغاء مرضاة الرحمن ، والله تعالى يقول في قرآنه الكريم:

﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾

«الرعد : ٢٨»

أما نعمة الأمن ، فهي من أجلّ النِّعم التي أنعم الله بها على الإنسان ، ولهذا فقد مَنَّ الله تعالى بها على عباده المؤمنين الطائعين ، وذكَّرهم بها ليزدادوا إيمانا وشكرا وعبادة لله تعالى ، حينما قال:

﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾

«قريش : ٤»

فالأمن نعمة منحها الله لعباده المؤمنين الذين اختصوه بالعبادة الخالصة النقية من كل شرك ، مِصداقا لقوله تعالى:

﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾

«الأنعام : ٨٢»

شهر الخيرات والبركات:

وقد كان رمضان شهر خير وبركة على نبي الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام ، حيث أكرمه الله تعالى وشرفه بالنبوة ونزول الوحي عليه في هذا الشهر المُعظم ، كما مَنَّ الله تعالى عليه وعلى المؤمنين به بالنصر المبين على المشركين فيه ، وقد أكرم الله تعالى رسوله وأكرم أمته كلها بفرضية صيامه ، وفرضية زكاة الفطر توسِعَة على فقراء المسلمين ، وطُهرة لعباده الصائمين ، كما أن فيه ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر ، من قامها إيمانا واحتسابا غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه ، وتلك منحٌ عظيمة اختصها الله تعالى أمة حبيبه محمد ﷺ . ولهذا فإن النبي عليه الصلاة والسلام وأمته ، يحملان

لشهر رمضان من الذكريات العطرة والتقدير العظيم ، ما لا يُنسى على مرِّ الزمان.

تحنثه - ﷺ - في رمضان:

وصف الطبري في تاريخه ، بالجزء الثاني ، تحنث الرسول ﷺ ، في غار حراء في شهر رمضان فقال: «كان الرسول ﷺ يجاور في حراء من كل سنة شهرا .. والتحنث التعبُّد . فكان رسول الله ﷺ يجاور في ذلك الشهر من كل سنة يطعم من جاء من المساكين ، فإذا قضى رسول الله ﷺ جواره من شهره ذلك ، كانت الكعبة أول ما يبدأ به إذا انصرف من جواره قبل أن يدخل بيته ، فيطوف بها سبعا أو ما شاء الله من ذلك ، ثم يرجع إلى بيته ، حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله عز وجل فيه ما أراد من كرامته من السنة التي بعثه فيها ، وذلك في شهر رمضان..».

ونفهم من هذا أن رسولنا الأمين كان يخلو بنفسه في غار حراء في رمضان من كل عام ، ومعه القليل من الزاد ، فقد كان من طبعه القناعة والزهد ، فيقضي هذا الوقت في التفكر والتأمل والعبادة في الكون وخالقه ، بعيدا عن شواغل الحياة ومنغصاتها ، نائيا بنفسه عن ترف قريش ورذائلها الجاهلية ، مبتعدا عن ضلالاتها التي جعلتها تنغمس في عبادة الأوثان ، وتبتعد عن عبادة الواحد الرحمن.

نزول الوحي في رمضان:

وحينما بلغ محمد ﷺ الأربعين من عمره ، وهو سنُّ تمام النضج وكمال الرجولة ، وفي شهر رمضان ، وفي غار حراء ، كان أول نزول الوحي على قلبه ﷺ ، وبهذا بدأ شروق الإسلام ليبدِّد ظلام الجاهلية.

وقد ذكر الطبري أن من المؤرخين من يحدِّد هذا اليوم باليوم الثامن والعشرين من رمضان ، ومنهم من يحدده باليوم الرابع والعشرين ، ومنهم من يؤكد أنه نزل لسبع عشرة خلت من شهر رمضان ، متخذين من ما نزل من قول الحق تبارك وتعالى قرينة ، حيث قال: ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ﴾ وهو وصف لقاء الرسول ﷺ بالمشركين في بدر ، فقد كانت في صبيحة سبع عشرة من رمضان ، وقد وافق هذا شهر يناير من سنة ٦١١ ميلادية . وقد حدد الطبري أن أول نزول القرآن كان في يوم الإثنين مستشهدا في هذا بحديث رسول الله ﷺ حينما سُئِل عن صوم يوم الإثنين فقال ﷺ : « ذلك يوم وُلدتُ فيه ، ويوم بُعثتُ ، أو «أُنزل عليَّ فيه » .

ولندع ابن هشام يحدثنا عن هذا اليوم الخالد على الزمان ، حيث يقول : « حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله تعالى به فيه ما أراد من كرامته ، من السنة التي بعثه الله تعالى فيها ، وذلك الشهر شهر رمضان ، خرج رسول الله ﷺ إلى حراء كما كان يخرج لجواره ومعه أهله ، حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالته ، ورحم العباد بها ، جاءه جبريل عليه السلام بأمر الله تعالى».

ويستكمل ابن هشام في «سيرته» ، لينقل لنا مشهدا عظيما في ذلك اليوم وصَف فيه النبي ﷺ كيفية نزول الوحي عليه ﷺ ، فيقول : « فجاءني جبريل ، وأنا نائم ، بنمط (وعاء) من ديباج فيه كتاب ، فقال : اقرأ .

قلت : ما أقرأ . فغتني به (أى حبس نفسى به) حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلني ، فقال : اقرأ . قلت : ما أقرأ ؟ فغتني به حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلني ، فقال : اقرأ . فقلت ماذا أقرأ ؟ ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لى بمثل ما صنع بى . فقال :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾

فقرأتها ، ثم انتهى فانصرف عنى ، وهببت من نومى ، فكأنما كتبت فى قلبى كتابا ، فخرجت حتى إذا كنت فى وسط الجبل سمعت صوتا من السماء يقول : «يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل . فرفعت رأسى إلى السماء أنظر ، فإذا جبريل فى صورة رجل صاف قدميه فى أفق السماء يقول : يا محمد ، أنت رسول الله وأنا جبريل . فوقفت أنظر إليه فما أتقدم وما أتأخر ، وجعلتُ أصرف وجهى عنه فى آفاق السماء ، فلا أنظر فى ناحية منها إلا رأيته كذلك ، فمازلت واقفا ما أتقدم وما أرجع ورائى حتى بعثت خديجة رُسلها فى طلبى ، فبلغوا أعلى مكة ورجعوا إليها وأنا واقف فى مكانى ذلك ، ثم انصرف عنى» .

ثم حدث ما حدث بعد ذلك بإخبار زوجه السيدة خديجة رضى الله عنها ، وطمأنتها له ﷺ ، وذهابها إلى ابن عمها ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصى ، الذى طمأنهما وبشرها بأن هذا يعنى أن محمدا ﷺ هو نبى هذه الأمة ، فقولى له «فليثبت» .

وقد احتج ابن هشام بأن ابتداء نزول الوحى ، الذى استمر طيلة ثلاث وعشرين سنة ، كان فى شهر رمضان من قول الله عز وجل : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾

وقد نوه ابن هشام بما بذله النبى ﷺ من جهود مشكورة فى سبيل تبليغ ما نزل عليه من الوحى المبارك ، حيث قال : «ثم تتام الوحى إلى رسول الله ﷺ ، وهو مؤمن بالله مصدق بما جاءه منه ، قد قبله بقبوله ، وتحمل منه ما حمله على رضا العباد وسخطهم ، والنبوة أثقال ومؤنة ، لا يحملها ولا يستطيع النهوض بها إلا أهل القوة والعزم من الرسل بعون الله تعالى وتوفيقه ، لما يلقوْنَ من الناس ، وما يُرَدُّ عليهم مما جاءوا به عن الله سبحانه وتعالى . فمضى رسول الله ﷺ على أمر الله ، على ما يلقى من قومه من الخلاف والأذى» .

رمضان شهر القرآن:

شهر رمضان هو شهر القرآن بكل معنى من المعانى ، بل إن بعض الفقهاء قد ربط بين فرضية الصيام ونزول القرآن فيه ، فقد ذكر الإمام فخر الدين الرازى - فى تفسيره الكبير - أنه فى شهر رمضان نزلت هداية الله تعالى من السماء إلى الأرض ، فناسب ذلك أن يفرض فيه الصوم ؛ ذلك أن الصوم ، بما فيه من إمساك عن شهوتى البطن والفرج ، فيه علو من الأرض إلى السماء ، بالتجرد الروحى الذى كان فى الصوم . ولقد قال النبى ﷺ فى هذا الشهر ، الذى هو احتفال بذكرى البعث المحمدى : «إن الله تبارك وتعالى فرض عليكم صيام رمضان ، وسننت لكم قيامه ، فمن صامه وقامه احتسابا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه» . رواه - عن عبد الرحمن بن عوف - النسائى واللفظ له ، وأحمد فى مسنده ، وابن ماجه .

أى أن اختصاص شهر رمضان بالصوم - كما ذكر أيضا صاحب زهرة التفاسير - لأنه نزل فيه القرآن ، فيه تذكير بمبدأ الوحى ، واحتفال بأكبر خير نزل فى الأرض ، وهو بعث النبى ﷺ ، فإنه نور الأرض وإشراقها ، والاحتفال به احتفال بنعمة الهداية ، ونعمة الخروج من الظلمات إلى النور ، ونعمة إرسال نبى الرحمة ، فقد قال تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾

«الأنبياء : ١٠٧»

وقد كان جبريل عليه السلام يلقى النبى ﷺ فى كل ليلة من لياليه ليدارسه القرآن ، وكان النبى عرفانا بهذه النعمة الكبرى وحمدا لله عليها يكون فى ذلك الوقت أجود بالخير من الريح المرسلة ، طبقا لما جاء بالحديث الشريف : الذى رواه البخارى فى صحيحه عن ابن عباس رضى الله عنهما : قال «كان رسول الله ﷺ أجود الناس ، وكان أجود ما يكون فى رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان جبريل يلقاه فى كل ليلة فيدارسه القرآن فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة» .

ولهذا فقد حثَّ رسول الله ﷺ المسلمين على قراءة القرآن الكريم فى أحاديث كثيرة ، فهو دستورهم ومنهج حياتهم ، وفيه كل ما يُصلح شأنهم ويُعلى قدرهم فى الدنيا وفى الآخرة ، ولهذا وردت الأحاديث التى تحض على تعهده بالقراءة والمدارسة لاسيما فى رمضان ، حيث قرن النبى ﷺ الصيام بتلاوة القرآن الكريم فقال فيما رواه أحمد والحاكم : «الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة ، يقول الصيام : أىْ رب منعتُه الطعام والشهوة فشفعنى فيه . ويقول القرآن : منعتُه النوم بالليل فشفعنى فيه . قال : فيشفعان» .

وقد روى أبو أمامة رضى الله عنه أنه سمع النبى ﷺ يقول : «اقرءوا القرآن فإنه يأتى يوم القيامة شفيعا لأصحابه» . كما روى ابن مسعود رضى الله عنه أنه سمع النبى ﷺ يقول : «من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها . لا أقول الم حرف ، ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف» . كما روى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال : «يُقال لصاحب القرآن اقرأ وارتقِ ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا ، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها» .

الأمر بالعلم فى رمضان:

رأينا فيما تقدم أن أول ما نزل من القرآن الكريم فى رمضان كان قوله تعالى :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾

«العلق : ١-٥»

واللافت للنظر هنا أن هذا الأمر الذى جاء بهذا الشكل المباشر والواضح لسيد

الأنبياء وخاتم المرسلين، من لدن حكيم خبير، يعلم أن محمداً ﷺ أمي لا يقرأ ولا يكتب، ليَحملَ دلالة ذات مغزى، فالعلم الحقيقي هو طريق لمعرفة الله عز وجل، حينما تكون منطلقات هذا العلم في إطار الإيمان بالربوبية؛ ومن ثمَّ في كنفها وتحت رعايتها، فكان هذا توجيها منه سبحانه ليَذكرَ اسمَه سبحانه في كل أمر ذي خطر، والمعنى أن يُعرض هذا الأمر على الضوابط والمقاييس الربانية ولا يخرج عنها، والله تعالى يريد الخير لعباده فمنه يأتي الخير المطلق، كما ينهى عن الشرور والآثام وكل ما من شأنه يضر بالإنسان.

«اقرأ» منهج حياة:

ويقرر الشيخ النوراني د. عبد الحليم محمود أن: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾، أول ما نزل من القرآن الكريم، ليست فقط مجرد آية من آيات القرآن الكريم، ولكنها منهج حياة، وشعار واضح للأمة المسلمة. و﴿اقْرَأْ﴾، هذه المادة الأولى في الدستور الإسلامي غنية بالمعاني، ثرية بالتوجيهات، ومعانيها وتوجيهاتها ليست آتية من ألفاظها فحسب وإنما هي آتية من الجو العام الذي تشير إليه أو الذي توحي به. فهي تبتدئ أولا بكلمة ﴿اقْرَأْ﴾. إنها تأمر بالقراءة التي هي ألزم وسائل العلم والمعرفة وأهمها، ويتسم الإسلام لأول لحظة زمنية من حياته ومن أول كلمة في كتابه بسمة العلم. وتتوالى بعد ذلك الآيات موضحة ومؤكدة هذه السمة جاعلة منها طابعا وشعارا.

وإذا كانت الآيات الأولى التي نزلت من القرآن في الليلة المباركة قد أمرت بالقراءة مرتين، وذكرت مادة العلم ثلاث مرات، وذكرت القلم، فإن الآيات التي نزلت بعد «فترة» الوحي (في حديث: كيف كان بدء الوحي، وَرَدت جملة «وفتَر الوحي»)، بدأت بحرف من حروف الهجاء: «ن» وتضمنت أول قسم أقسم به الله سبحانه في القرآن وكان هذا القسم بالقلم:

﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾

«القلم: ١»

ثم تتوالى الآيات القرآنية في فضل العلم، وفي الحث على التعلم وفي تمجيد العلماء. وقد أمر رسول الله ﷺ أن يلجأ إلى الله متضرعا أن يزيده علما:

﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾

«طه: من الآية ١١٤»

وهذا الدعاء من أروع الأمثلة في التربية؛ ذلك أنه صادر من الإنسان الكامل يُبيِّن للأمة أن الإنسان، مهما بلغت منزلته ينقصه الازدياد من العلم، وتصور زعيم أمة تُكبِرُه وتُجله يعلن في صراحة لا لبس فيها أنه مازال - ولن يزال - بحاجة إلى الزيادة في العلم: إنه يدفع الأمة بذلك - الأمة التي تقدسه - على السير على منواله فترجو أن يزيدها الله علما.

رمضان شهر عبادة وعمل

أ.د/ محمد شامة

لكل أمة أيام سطرت أحداثها في سجل التاريخ بأحرف من نور، يضيء طريقها، ويحدد مسارات نجاحها، ويحث أفرادها على البذل والعطاء لبناء مجد الأمة، ويحفزهم على العمل الجاد والمستمر لتشييد حضارتها، وتنشيط رقيها، وبعث نهضتها، كي تتبوأ مكانًا ساميًا بين الأمم المتقدمة، وتثبت جدارتها في ميادين الإنجاز والإبداع، حتى يفخر أبناؤها بما وصلوا إليه في ساحات العلوم والمعارف، وما ذاك إلا لأن بينها وبين تلك الأحداث وشائج تشعل الإحساس بالفخر في النفوس، وتؤجج مشاعر العزة والكرامة في الأرواح، وتضفي على القلوب راحة واطمئنانًا وسكينة وافتخارًا.

فإذا كانت هذه الأحداث تتعلق بالعقيدة، اكتسبت قدسية وجلالاً، واحتلت المكان الأسمى في نفوس المؤمنين إجلالاً واحترامًا، وتقدمت على ما سواها في الاحتفاء بها، والاحتفال بذكراها، لأن مكانها في القلوب، وعرشها في الأفئدة، فهي متغلغلة في الأعصاب، ومسيطرة على مراكز الإحساس والوجدان، وتزداد أهميتها لدى المؤمنين، إذا ارتبطت بأسمى وأرفع مقومات الدين، وذكرت المعتنقين له بتعاليم دينهم، وأوامر ربهم، ولفتت أنظارهم إلى منبع العقيدة، وتفاصيل واجباتهم نحو معبودهم ونحو مجتمعهم.

فقدوم رمضان يذكر المسلمين بأهم حدث في تاريخ عقيدتهم، ألا وهو: نزول القرآن الكريم فيه، يقول الله تعالى:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

«البقرة: ١٨٥»

هدى للناس، لأنه فصل بين الحق والباطل، وفرق بين الهدى والضلال، ومحا ظلام الكفر بنور الإيمان، وأعلنها صريحة واضحة ومدوية في جميع أركان

الكرة الأرضية:

﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾

«الإسراء: ٨١»

فرمضان شهر القرآن، كتاب هداية البشر جمعاء، من تمسك به صلح حاله في الدنيا وأجزل له العطاء في الآخرة، من التزم بتعاليمه حفظه الله من شرور الحياة الدنيوية ونكباتها، ووقاه في الآخرة من عذاب النار ولهيبها.

هو شهر الصيام والقيام، من صامه إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن أدى قيامه خشوعًا وخضوعًا لله، لا رياءً ولا تظاهرًا، ولا امتثالاً لعادة اعتادها، أو سنة اجتماعية التزم بها، أثابه الله ثوابًا حسنًا، ومنحه رحمته وغفرانه، وذلك هو الجزاء الأوفي، والعطاء الأمثل الذى لا يدانيه أى عطاء دنيوي، مهما بلغت قيمته، وزادت مفرداته.

يحتفل المسلمون في جميع بقاع الأرض بشهر رمضان بصيغ مختلفة، وأساليب متعددة، فمنهم من يتخذ ليله لهوًا ولعبًا في الطرقات والملاهي وأماكن التجمعات كالمقاهي والكافتيريات، ويمضي نهاره نائمًا، أو متناومًا ومتكاسلاً عن العمل. فإذا طولب بإنجاز عمله أجاب بأنه صائم، أى لا ينبغي أن يطلب منه تأدية أى عمل، فهو محصن بالصيام ضد أى التزام بواجب، ومبرأ من كل لوم على كسله وتخاذله عن العمل. وهذا أسلوب لا يليق بجلال الشهر العظيم، ولا يتفق مع ما يرمي إليه من تصفية النفوس، وتجلية الأفئدة، واستقامة السلوك، والحرص على تأدية الواجبات الدينية، والدنيوية أيضًا.

وليست هذه دعوة إلى تحريم اللهو البرئ، الذى لا يستغرق كل الوقت، أو لا يؤدى إلى الإهمال في العمل والإنتاج في مجالات الحياة المختلفة. فمن أراد أن يستمتع بملذات الحياة، فله ذلك بشرط ألا يقترف إثمًا، أو يؤثر -تمتعه هذا- سلبًا على الواجب المكلف به في العمل، أو يؤدى إلى إهمال شئون الحياة الخاصة والالتزامات الاجتماعية. فالإسلام لا يحرم الاستمتاع بملذات الحياة، يقول الله تعالى:

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَـٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

«الأعراف: ٣٢»

فهذا استفهام إنكاري، ينكر تحريم الاستمتاع بالزينة التي خلقها الله لعباده، وينفي منع تناول الطيبات من الرزق. فعلى المسلم أن ينظم وقته بحيث يحظى بالاستمتاع بما في هذه الحياة بالدرجة التي لا تؤثر على نظام حياته: صحة، وعملاً، ورحمة بأهله وذويه، وعطفًا على من يعيشون معه من مواطنيه.

ومن الناس من يستعد للاحتفال بشهر رمضان بإنتاج المسلسلات والبرامج المتنوعة، فيحشدون كل طاقات عناصر الإنتاج قبل حلول الشهر الكريم بأشهر عديدة، ويواصلون العمل ليل نهار، حتى يلحق المنتج بركب العرض والتسويق، وكأن هذا الشهر أصبح سوقًا للمنتجات الدرامية، لينشغل الناس بمشاهدتها مع برامج أخرى متنوعة لا تعرض إلا في هذا الشهر الذى أصبح ظاهرة فنية، وليس شهرًا للصيام والعبادة، فنرى الناس يعسكرون أمام شاشات التليفزيون حتى مطلع الفجر، ثم يذهبون إلى أعمالهم في اليوم التالي وهم متعبون، لا يستطيعون تأدية عمل، ولا يقدرون على إنجاز شيء مما يكلفون به، فتتعطل المصالح، ويقل الإنتاج، حتى شاع بين الناس -وخاصة في أذهان وتصورات غير المسلمين- أنه شهر الكسل وإهمال الأعمال، إذ تتوقف فيه -أو على أقل تقدير تتباطأ- وتيرة العمل وأحيانًا تتوقف تمامًا انتظارًا لانقضاء شهر الصيام.

هل يتفق هذا مع ما تهدف إليه فريضة الصيام؟ ألا يتعارض هذا مع ما أنزل في هذا الشهر الكريم من آيات قرآنية تدعو إلى العمل والإنتاج؟

إن الاحتفاء بشهر رمضان يتطلب تنفيذ ما أنزل الله فيه من آيات القرآن الكريم التي تحث على العمل، وتدعو إلى الاجتهاد في الحياة الدنيا. فمن فرط في ذلك بدعوى الصيام، فهو آثم بعصيانه أوامر الله التي أنزلها في هذا الشهر الكريم، وهو مذنب بإلصاقه تهمة كمل الإنسان وتراخيه إلى هذا الشهر الفضيل، حتى صوره الجاهلون بأنه شهر تتوقف فيه الحياة، اللهم إلا من اللهو بالليل، وقضاء النهار نائمًا أو متكاسلاً في أماكن العمل، ويظن أنه بذلك قد أدى فرض الصيام. والحقيقة خلاف ذلك، فمن يرد أن يصوم كما أمره الله، فليوازن بين أدائه الصيام وعمله وبين استمتاعه بطيبات الحياة الدنيا.

يدعي فريق من المسلمين أنه الوحيد الذى يحتفي بشهر رمضان على الوجه الصحيح، وهو -لا غيره- الذى يلتزم بتعاليم الإسلام، ويؤدى الفروض التي كلف الله عباده بها، إذ يقضي نهاره صائمًا مسبحًا، يتلو القرآن الكريم، وليله قائمًا متبتلاً، فلسانه لا يفتر عن ذكر الله ليلاً ونهارًا، فهو يقوم الليل ويصوم النهار، لا يشغله عن ذكر الله أى عرض من أعراض الدنيا، ولا يبعده عن تلاوة القرآن الكريم شاغل من شواغل الحياة.

هؤلاء الناس يعتقدون أنهم بهذا قد أدوا واجبهم نحو الله على أتم وجه، ونفذوا ما أمرهم الله به دون تقصير، فهم يعتبرون أنفسهم بذلك أنهم هم المسلمون الملتزمون بأوامر الله، المجتنبون نواهيه. ونسي هؤلاء ما روى أن الصحابة ذكروا لرسول الله ﷺ رجلاً يصوم النهار ويقوم الليل، معتقدين أنه أفضل مسلم يؤدى ما عليه من واجبات إزاء ربه، فسألهم رسول الله ﷺ عمن يطعمه، فقالوا له: أخوه، فقال رسول الله ﷺ: «أخوه خير منه».

كما جاء في سنن الدارمي عن الحسن قال: سُئل رسول الله ﷺ عن رجلين كانا في بني إسرائيل، أحدهما كان عالمًا

يصلي المكتوبة، ثم يجلس فيعلم الناس الخير، والآخر يصوم النهار ويقوم الليل. أيهما أفضل؟، فقال رسول الله ﷺ: «فضل هذا العالم الذي يصلي المكتوبة، ثم يجلس فيعلم الناس الخير على العابد الذي يصوم النهار ويقوم الليل كفضلي على أدناكم رجلاً»، وجاء في سنن البيهقي الكبرى عن صفوان بن سليم قال: قال رسول الله ﷺ: «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، وكالذي يصوم النهار ويقوم الليل». فهذا يدل على أن العبادة لا تقتصر على أداء الفروض الدينية، بل تشمل أيضًا العمل الدنيوي، والإنتاج في جميع مجالات الحياة، لأننا لو تصورنا -جدلاً- أن جميع المسلمين التزموا المساجد مصلين مسبحين ذاكرين، فمن يطعمهم؟ ومن يقوم بشئونهم الدنيوية التي تساعدهم على العبادة؟ أيستغنون عما يقيم أودهم ويعيشون بدون طعام أو شراب؟ لا شك أن قواهم ستخور، فلا يستطيعون القيام بواجباتهم الدينية!!! أم يمدون أيديهم إلى غير المسلمين الذين ينتجون الطعام والشراب يستجدون منهم ما يساعدهم على أداء فرائضهم الدينية؟!! إنهم لن يعطوهم قلمًا واحدًا أو ذرة من طعام حتى يحملونهم على ترك إسلامهم ويتبعوا دين من يتصدق عليهم!! يقول الله تعالى:

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾

(البقرة: ١٢٠)

فاعتقاد هذا الفريق بأنهم خير المسلمين؛ لأنهم يصومون النهار ويقومون الليل اعتقاد خاطئ، واعتناقهم بأن هذا الأسلوب يرضي الله ورسوله عنه ليس صحيحًا، وتظاهرهم بأن هذا يتفق وتعاليم الإسلام بعيد كل البعد عن الدين وأوامره، فهو صورة غير صحيحة عن الإسلام وتصور يخالف مفهوم الإسلام ويتناقض مع ما تهدف إليه العبادات في الشريعة الإسلامية.

تعلن حالة الطوارئ في أجهزة الدولة المنوطة بتوفير الغذاء، استعدادًا لشهر رمضان، فيبذل كل المسئولين جهودهم لتخزين أكبر كمية من الطعام والشراب، لأن الاستهلاك في هذا الشهر يفوق استهلاك الشهور الأخرى بأضعاف مضاعفة، فتراهم يحرصون على توفير ألوان من الطعام وأصناف من الشراب يقبل الناس عليها في شهر رمضان، وكذلك الحال بين الأفراد والأسر، فترى رب كل أسرة يضرب أخماسًا في أسداس لتوفير المال اللازم لشراء مستلزمات شهر الصيام من أطعمة بكل أنواعها من البقولات والبروتينات، وبخاصة الحلويات بأنواعها المتعددة وأشكالها المختلفة. ومن يرصد كمية الغذاء المستهلكة في هذا الشهر يجد أنها تفوق مثيلاتها في الشهور الأخرى بأرقام قياسية، ومن يراقب الناس وهم يلهثون في الأسواق وراء أنواع الطعام والشراب المختلفة، يظن أن هذا الشهر هو شهر الطعام والشراب وليس شهر

الصيام. وهذا وضع ينافي مفهوم الصيام في الإسلام؛ لأن الهدف من هذا الصيام هو راحة المعدة من عملها الدءوب والمستمر طوال العام، فهو استجمام للجهاز الهضمي، وراحة لكل أجهزة التمثيل الغذائي في الجسم، فضلاً عن كونه عبادة تذكر الإنسان بما أفاض الله عليه من نعم الحياة الدنيا، فبحرمانه من الطعام والشراب طول النهار يتذكر قيمة ما أنعم الله عليه به من طيبات الدنيا، وبالإضافة إلى هذا يتذكر المحرومين من هذه النعم، فيعطف عليهم، ويعطيهم مما أفاء الله به عليهم، ليسد ألم جوعهم، ويسكن ثورة الحرمان عندهم، فقد قيل ليوسف عليه السلام: «لم تجوع وأنت على خزائن الأرض؟، فقال: أخاف أن أشبع فأنسى الجائع». فالصيام على وجهه الصحيح له فوائد عدة: صحية، ونفسية، واقتصادية، واجتماعية. هذا إذا اعتدل الإنسان في طعامه بعد الإفطار، ولم يسرف في تناوله، امتثالا لقوله تعالى:

﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾

(الأعراف: ٣١)

ولقول رسول الله ﷺ: «ما ملأ آدمي وعاء شرًا من بطنه، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه».[١]

لكن الملاحظ أن كثيرًا من المسلمين يضربون بذلك عرض الحائط، وينسون أهداف الصيام، فبمجرد أن يضرب مدفع الإفطار ينقضون على الطعام والشراب انقضاضًا، ولا يرتدون عنه إلا لفترات قصيرة يعودون بعدها إلى تناول المشروبات والمكسرات وما شابهها حتى طلوع الفجر، مع عدم نسيان كمية أخرى من الطعام في السحور.

أهذا هو مفهوم الإسلام من الصيام؟

•• إن هذا النوع من الاحتفاء بشهر رمضان مخالف لتعاليم الإسلام، ومناقض للأهداف التي أرادها الله من فرض الصيام.

إذا كانت هذه الأنواع وصور السلوكيات التي يباشرها معظم المسلمين في شهر رمضان مخالفة لتعاليم الإسلام، ولا تتفق مع ما أراده الله من فروض الصيام والعبادة، ولا تلتقي مع أهداف ما سنه رسوله من تسبيح، وتحميد، وذكر، وقراءة قرآن.

• فما هو الأسلوب الصحيح الذي يجب أن يلتزمه المسلم في هذا الشهر الكريم، ليحقق الهدف المرجو من هذه العبادة؟

•• يجب أن نعرف أولاً أن عبادة الله لا تقتصر على تأدية الفروض من صلاة وصيام وزكاة وحج، بل تشمل أيضًا السعي على الرزق بما يتضمنه من عمل جاد في جميع مجالات الحياة الدنيا،

١- سنن الترمذي

سواء كان ذلك العمل جسمانيًا أو ذهنيًا، فالمسلم مطالب بتعمير الدنيا، يقول الله تعالى:

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود: ٦١)

أى طلب منكم إعمارها، ويتطلب هذا الطلب بذل الجهد فى مجال التنمية بجميع جوانبها العلمية: من بحث، وابتكار، واختراع، وغيرها مما يمكن الإنسان من تسخير ما فى الأرض، ظاهرها وباطنها، وكذلك ما حولها من فضاء ممتلئ عناصر وطاقات تخدم الإنسان فى حياته. ومن هنا يجب على المسلم أن يقسم نشاطه بين فروض العبادات، وواجبات العمل فى مجالات البحث والابتكار، واستكشاف ما حوله، والإبداع فى مختلف جوانب الكون، فكرًا، وتطويرًا، وتنظيرًا، وتطبيقًا، وبذل كل طاقاته فى تطوير حياته بالجهد والعمل تحسينًا لما حوله، وتنقيبًا عن المدفون تحت أقدامه.

● كيف يوازن المسلم بين كل هذا وبين تأديته العبادات المفروضة عليه، وخاصة فى شهر رمضان، مع تلبية ما يحتاجه الجسم من ترويح وتنعيم، فضلاً عما يطلب منه إزاء أهله وعشيرته، وما يلزمه من واجبات اجتماعية، وأعمال تطوعية تجاه من يحتاج إلى مساعدة من الفقراء والمساكين؟

●● يستطيع المسلم أن يقوم بكل هذا بسهولة ويسر، لو نظم وقته، واستغل كل دقيقة فيما خصصت له، ففى اليوم أربع وعشرون ساعة، فلو قسم المرء هذا الزمن على النحو التالى استطاع تأدية هذا كله بسلاسة ويسر: سبع ساعات للنوم، وست ساعات للعمل، وست ساعات للعبادة، وأربع ساعات للترويح عن النفس «مشاهدة مسلسلات، وبرامج متنوعة، وسمر،... و... و... إلخ»، ففى هذا البرنامج:

- راحة كافية حصل عليها من الوقت المحدد للنوم.
- وتأدية العمل الدنيوي، أى السعى على الرزق، أو تأدية ما عليه من واجبات فى مجالات بناء نهضة الأمة، مثل البحث العلمى والإسهام فى مجالات الإبداع والابتكار.. و... إلخ.
- وسوف يكون له وقت كاف للصلاة، وقراءة القرآن، والتسبيح، والذكر.. إلخ.
- كما أنه لم يحرم من الترويح عن النفس بكل أنواعه ما دام ملتزمًا بعدم اقتراف ما حرمه الله.

كيف يستطيع المرء أن يعمل بجد ونشاط ست ساعات وهو صائم، فنحن نرى أن المسلمين فى نهار رمضان يتكاسلون فى العمل، بل أحيانًا يتوقفون تمامًا عنه، بحجة عدم الاستطاعة على العمل وهم جائعون وعطشى. وشاعت هذه الظاهرة حتى صدق الناس- وخاصة غير المسلمين- أن دولاب الإنتاج يتباطأ فى شهر رمضان، وأحيانًا يتوقف تماما، ويرحل كثير من الأنشطة إلى ما بعد رمضان.

هذه ظاهرة لا نستطيع إنكارها، فنحن نراها ونشاهدها فى كل المجتمعات الإسلامية، لكن كان هذا نتيجة تطبيقنا لنظام حياة لا يتفق مع طبيعة شريعتنا، ولا يتناسب مع أوقات عبادتنا، ذلك أنه لو عدلنا نظام حياتنا، لتصبح وتيرته متفقة مع أوقات تأدية فرائضنا، لاستطعنا أن نعمل فى فترة الصيام بسهولة ويسر، فإذا بدأنا عملنا بعد صلاة الفجر مباشرة، حيث لا يحس المرء بجوع ولا عطش، استطعنا أن نؤدى عملنا ست ساعات متواصلة، دون أن يؤثر الصيام على جهدنا ونشاطنا، ثم تقسم بقية الأربع وعشرين ساعة على الأنشطة الأخرى: عبادة، ونوم، وترويح، كل فى وقته المناسب. فالمسألة لا تعدو العناية بتنظيم الوقت، وتسكين كل عنصر فى الوقت المناسب له، بحيث يؤدى على الوجه الأكمل.

لم يفرض الله العبادات دون هدف، عرف الإنسان جانبًا منه، وغابت عنه جوانب أخرى، ولذلك يجب على المسلم أن يخضع لأوامر الله، وينفذها، سواء عرف أهدافها أم لم يعرف، فالله خلقه، ويعرف كل ما يعود عليه بالفائدة، كما أنه يدرك قدرة الإنسان، فلم يكلفه فوق طاقته، يقول تعالى:

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج: ٧٨)

ويقول:

﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ (المائدة: ٦)

ومن هنا فلم يفرض الله الصيام تعنتًا ولا تعجيزًا للإنسان، كما أنه راعى أن يتمكن الصائم من القيام بجميع أنشطته الدنيوية وهو صائم. فإذا ظهر عجز امرئ عن هذا، فلا يكون راجعًا إلى ذات الصيام، وإنما يتعلق بعدم تنظيم الإنسان وقته، وعدم قيامه بكل عمل من أعماله فى زمنه المناسب، ولهذا يجب على المسلم أن يراعى التنظيم والترتيب فى أدائه عمله، سواء كان دينيًا أم دنيويًا، فيسكن كل فى زمانه ومكانه، وإلا اضطرب أداؤه، وعجز عن القيام بالفروض والواجبات، وعند ذلك لا ينبغى أن ينسب ذلك الاضطراب والعجز إلى الصيام، بل إلى خلط الأوراق بعضها ببعض، وعدم إدراك التناسق بين أداء العمل ووقته.

فليلتزم المسلمون بأداء الفرائض كما أمر الله بها، وليقوموا بأعمالهم وأنشطتهم فى الوقت الذى لا يؤثر الصيام سلبًا عليها، وعندئذ يرسمون الصور الصحيحة لتعاليم الإسلام، حتى لا يفهمه غير المسلمين بأنه يدعو إلى الاستغراق فى الروحانيات، وترك العمل الدنيوي، مبتعدين بذلك عن الإسهام فى بناء الحضارة الإنسانية.

ooo

حديث الشعراء عن الطعام والشراب في رمضان

الدكتور / السيد محمد الديب
Sayed.Addeeb@hotmail.com

اعتنى الشعراء بشهر رمضان لاعتبارات كثيرة، فصيامه ركن من أركان الإسلام، ومجيئة مرة كل عام، ولم تقتصر تلك العناية على عصر دون آخر، إذ اشتمل الفرح به كل الأزمان، فتحدثوا عن استقباله، مرحبين بقدومه، ومستبشرين بخيراته، وشارحين مناقبه وأفضاله، ومعرفيين بغزواته وانتصارته، وإذا ما أوشك على الرحيل فلا يتأخرون عن توديعه، والتغنى بلياليه وأيامه، وذلك بالشعر المتميز فى ألفاظة ومعانيه عاطفته وموسيقاه، مما يجعل للقريض الرمضانى مذاقاً متميزاً، فيبقى حياً نابضاً فى الذاكرة يتغنى به الناس عند قدومه فى كل عام .

إن ظاهر المعنى فى الصوم أنه امتناع عن الطعام والشراب وبعض الأشياء الأخرى لمعان شريفة تتجلى بها أسباب التشريع الإلهى لهذه الفريضة السامية .

وقد وضع الإسلام آدابا ومعايير للطعام والشراب، بدءاً من صاحبه الذى أنفق عليه وطهره وجهزه، وصولاً إلى آكله وشاربه، وارتبط ذلك كثيراً بعنايات الناس وتفننهم بذلك فى شهر رمضان، حيث يميل الكثيرون فيه للحديث عن مكونات الإفطار والسحور أكلاً وشرباً، حلوا ومالحا وليس الشعر ببعيد عما يدور على ألسنة الناس فى كثير من الازمان والبلدان .

وقد أبدع كثير من الشعراء فى قصائدهم ومقطوعاتهم عن مكانة هذه الفريضة، لكنهم فى جانب أخر - انتقلوا إلى الشهر الرمضانى من باب المفاكهة والمداعبة والتسلية وتزجيه أوقات الفراغ فى الليل والنهار، أو للسخرية من البخلاء بالدعوة إلى الإنفاق والبذخ، والكرم والسخاء، وبالغ بعض المُجّان فى التعبير عن ضيقهم وتبرمهم من الجوع والعطش، وضجرهم من هذا التأديب المشروع، فعبروا عن اشتياقهم، لبعض المحرمات كالخمر والحشيش فى أزمنة محددة، وعن رغائبهم إلى الطعام فى نهار الصوم .

وتعتقد أن هذه الأشعار من المداعبات المتفلتة، والمفاكهة المبالغ فيها، إذ لا يمكن أن يصل الأمر إلى هذا الحد، ولسوف يتضح ذلك فى سطور تالية، كما أن ديوان الشعر العربى عامر بالشعر الرمضانى، وجاء بعضه فيما نحن بصدده وهو شعر الطعام والشراب .

حديث الشعر القديم :-

ذكر بعض مؤرخى الأدب وناقديه أن عددا من الشعراء فى عصر الدولة الفاطمية كانوا يدعون أصدقاءهم إلى ولائم يضمنونها ألوناً من الطعام والشراب ويزينونها بالورود والرياحين، ويصاحبها بعض المغنين بالشدو والموسيقى، وذلك قبل حلول شهر رمضان

ومن هؤلاء الشاعر الفاطمى المعروف محمد بن أبى الجرع، الذى أورد الدكتور حسن إبراهيم قصيدة له، تحتوى كل هذه المعانى وتزيد عليها، وبدأها الشاعر بتنبيه صديق له إلى قرب انتهاء شهر شعبان، دون أن يستفيدوا فيه بلهو وسرور، وعليه أن يستجيب - مسرعاً للدعوة بما تحمله من لذة واستمتاع، قال :

شعبان قد صار نضوا
ولم تُفِدْ فيه لهوا[1]
وليس ذلك منا
جهلاً، ولا كان سهوا
فبالمودة إلا
بكرت للقصف عدْوا[2]
حتى نقوم فترفوا
ما خرق الدهر رفوا[3]

ذلك أن الشاعر أعد للقاء جدْياً ثميناً يشوى، وقد شبع من ثدى أمه، وستنزع أحشاؤه وسيحشى بطنه بالبقول، وستكون القهوة (الكرْمية) متميزة، تزيل الهم والكدر بمجرد صب الماء عليها، ولن يكون بين المدعوين سافل دنيء يعكر صفو اللقاء، قال :

من بعد تقديم جدي
سمين ظل يشوى
له ثلاثون يوما
يحبو إلى الضرْع حبوا
لما انتزعت حشاه
عوضته البقل حشوا
وقهوة بنت كرْم
صفت من الذم صفوا
ما شعشعت قط إلا
سطت على سطوا
جنبتها كل وغْد
يمحو المحاسن محوا

وظهر ثم ذكر بعض المرغبات فى قبول الدعوة، ومنها : الشادى الذى يغنى فيطرب، أو يروى القصص والعجائب، التى تجعل الرجل يتخلى عن وقارة من روعة ما يسمع . ويصور هيئة المائدة، وما يحيط بها من ورود ورياحين، وذلك مما يرغب فى الحضور، ولأنه سوف يطويه الردى عما قريب، قال :

وشادن ذى دلال
يشدو فيلهيك شدوا
إما غناءً وإما
عجائباً عنه تُروى
حتى تظل بما فيه

١ - نضوا : ضعيفاً هزيلا
٢- القصف : اللهو . والعدو : الجري
٣- ترفو : تصلح . من قولك رفوت الثوب أي أصلحته

من وقارك خلوا
فما اعتذارك في أن
تشفى زمانك صحوا
وأنت بعد قليل
بالصوم والله تطوى[٤]

وقد كثر شعر الأطعمة والأشربة في عصور الأيوبيين والمماليك والعثمانيين، حتى بدا بعض الشعراء، وكأنهم أحيوا شهر الصوم، لما فيه من أكلات مرتبطة بأيامه ولياليه، خاصة بعض الأطعمة مثل الكنافة والقطايف فالشاعر أبو الحسين الجزار يتصور الكنافة أنثى امتنعت عليه، مدعية أن القطايف قد استولت على قلبه أو معدته، قال :

ومالي أرى وجه الكنافة مغضبا ولولا رضاها لم أرد رمضانها
عجبت لها من رقة كيف أظهرت عليّ جفا قد صدّ عني جفانها
ترى اتهمتني بالقطايف فاغتدتْ تصد اعتقادا أن قلبي خانها
وقد قاطعتني ما سمعتُ كلامها لأن لساني لم يخالط لسانها[٥]

فالشاعر يتغزل في الكنافة، وتمتنع عليه بصد جفانها عنه، وتغار من القطائف المنافسة لها، فانتقل بذلك من الجد إلى الهذل، في شعر رمضاني لطيف.

وكان البوصيري كثير العيال قليل الرزق، كثير الشكوى، وامرأته تطالبه بزيادة النفقات وهو يضج من ذلك، وإنه يشتاق إلى الكنافة فلا يصبر على فراقها في رمضان، فينتقل في شعره إلى القاضي عماد الدين بن أبي من المطالبة بالكنافة إلى ذمه بالشح والبخل قال :

ما أكلنا في ذا الصيام كنافةْ آه وابعدها علينا مسافةْ
قال قوم إن العماد كريم قلت هذا عندي حديث خرافة
انا ضيف له وقد مت جوعاً ليت شعري لِمْ لا تعد الضيافة[٦]

وقد اشتكى البوصيري في بعض شعره من سوء أحواله الاجتماعية، التي انعكست على أطفاله الصغار، فصاموا مع الناس، ولكنهم صاروا لمن أبصرهم عبرة، ثم يجيء العيد إليهم، وليس عنده قمح ولا خبز ولا فُطرة .

حديث الشعراء المحدثين :

استحوذ شهر رمضان على أذهان كثير من الكتاب والمفكرين، وسعد به الشعراء والفنانون، ورصد مظاهره الرحالة والمستشرقون وأصبح الاحتفال به محل الاهتمام عند الأغنياء والفقراء، والمتعلمين والجهلاء، حتى وسائل الإعلام المسموعة والمرئية تعد العدة، لعرض أحدث ما لديها من أغان وأناشيد، وتمثيليات وأفلام، وندوات ومحاضرات، وينشد الشعراء أحدث ما أبدعوه من قصائد ومقطوعات، وتكثر الأطعمة والأشربة، التي ارتبط الناس بها، واشتاقوا إليها.

وتنوعت أحاديث الشعر عن هذا الشهر فمنهم من يهش لاستقباله، ويرحب بلياليه وأيامه وينصرف فيه عن الملذات الحسية، إلى العبادة الروحية، وقد وصف الشاعر أحمد شوقي الصوم وصفاً ينم عن ورع وتقوى، وخضوع وخشوع لله رب العالمين، داعياً العالمين إلى تجنب آفات اللسان، وينتقل بالشعر إلى اللهو الماجن، والعبث الذميم، ولا أراه إلا مقلداً لبعض الخلفاء المشهورين، مثل الفرزدق وأبي نواس وغيرهما، فلا يعقل أن يجاهر بمعاقرته للخمر، وضجره من الصوم في شعر يرفعه إلى الخديوي عباس، لمدحه وتهنئته بعيد الفطر قال :

رمضان ولّى هاتها ياساقي
مشتاقة تسعى إلى مشتاق
ما كان أكثرة على آلافها
وأقله في طاعة الخلاق[٧]
الله غفار الذنوب جميعها
واليوم منْ العيد بالإطلاق
ضحكت إليّ من السرور ولم تزل
بنت الكروم كريمة الأعراق[٨]

ثم ذكر في أبيات تالية أنه يحتسي الخمر، ليدفع بها همومه وأحزانه، وحتى يخرج بشربها من عالم لا يحوي إلا النفاق، فلذا بكي إشفاقاً على وطنه في عيد الفطر .

وكثرت أشعار المحدثين عن الطعام والشراب في رمضان، وهي في أكثرها تعبر عن أرواح فكهة، ومداعبات مضحكة، ومناوشات محببة، تخرج الشعر من أخيلته، وصورة المستعارة إلى قرب معانية، وسهولة مأخذه، وخفة وزنه، فهذان شاعران اغتربا عن ديارهما، وأقاما بعيدا عن أسرتيهما، وتحولا إلى حالة مضحكة تشبة الاستجداء لعزومة رمضانية معتادة، ويمثلان حالة خاصة حيث يشتركان في صياغة القصيدة، وتنسب إليهما معاً، دون أن ينفرد واحد بها دون الآخر، وهما الشاعران صابر عبد الدايم وحسين علي محمد، أما القصيدة فعنوانها (عزومة في الآخرة)، وقدما إضاءة لها جاء فيها : «كان لنا صديق، ذو لفظ رقيق، يقول دائماً : يا حبيبي !! ويلحنها بلكنة عجماء ويحسب أن حديثة يحاكي الورقاء !! فلما جاء شهر الصيام، ابتعد عن الأنام، مؤثراً وحدته الأليفة، ونائياً عنه بلهجته اللطيفة، فكانت هذه القصيدة الطريفة» وقالا في أولها :

إلام عزومة طالت إلاما
أتعزمنا إذن يوم القياما
رقيم يميل وجهك يا حبيبي
وقبلاً كنت تهدينا السلاما
تقول الشعر في الكرم المصفي
وتطعمنا على الباب الكلاما
لسانُكم الكريم يذوب لطفاً
وأنت تفيض نبلاً واحتراما
فعجلْ بالطعام فدتك نفسي
ولا تُبد العداوة والخصاما
محال «أن نفرط في طعام
أطلت وعوده عاما فعاما
وذا الشهر الكريم يدوم وصلا
ويبقى الوصل ما دقنا الحماما
فهل ستجود بالوعد المرجّي
متى نلقاه أم نلقى الحماما[٩]

وتحدثا في قصيدة أخرى عن أكلة رمضانية فاخرة حضرها أحدهما دون الأخر، وذكرا في الأبيات الأولى أن أحدهما يحب نوعا من

٤ - تاريخ الدولة الفاطمية . دكتور حسن إبراهيم حسن صـ ٦٤٠ طبع النهضة المصرية ١٩٨٤م
٥- وحي الرسالة لأحمد حسن الزيات جزء ٤ صـ ٣٦٠
٦- ديوان البوصيري صـ١٧٤ . طبع الحلبي

٧- آلافها جمع ألف وهو الذي يحب الشيء ويأنس به.
٨- ديوان شوقي ط صـ٤٨٧ دار نهضة مصر
٩ - الحمام : الموت .

الطعام ويحب الثاني نوعاً آخر، وأوردا في باقي القصيده أطعمة وأشربة متعددة، يشتاق الصائمون إليها في رمضان، قالا :

دعـــانـي إلـــى أكـــلـة فـاخـرةْ
وأخـشـى تـؤدى إلـى الآخـرةْ
وإن الـصـيـام يـحـب الـحـمـام
مـوائـده أبـداً عـامـرةْ
ولـكـن صـديـقـي يـحـب الـسـمـين
وهـذى لـنـا صـفـقـة خـاسـرةْ
فـإن الـدهـون تـغـطـي الـصـحـون
وتـعـيـى الـبـطـون مـع الـذاكـرةْ

وتبدو الروح المصرية في هذه الأبيات، وما تحمله من دعابة وسخرية، هذه التي تروق للراغب في شغل النهار بالمفاكهة والمسامرة.

وينظر بعض الشعراء إلى أطعمة وأشربة محددة، وليس ذلك بدرجة متساوية بينها، فيأتي حديث القدماء عن التفاح أكثر من أي فاكهة أخرى، وقد راجعت مقالة مطولة لأحمد أمين بعنوان « التفاح في الأدب العربي قال فيها : « لفت نظري وأنا أقرأ كتاب «الأغاني» الدور الهام الذي لعبه «التفاح» في المدينة العربية، وخاصة في العراق فتفننوا فيه كل تفنن، وأعجبوا به أيما إعجاب، وتغزلوا فيه غزلهم في المعشوق، ولم يجاره في ذلك أي ثمر وأي زهر، حتى لو قلنا إن التفاح كان معبود الغزليين لم تبعد»[١٠].

فالتفاح فاكهة متعددة الاغراض كالهداية عند المحبين، والطعام عند الأثرياء، والجمال عند العشاق، والاستشفاء عند المرضى والأطباء.

وأورد الشعراء أطعمة وأشربة أخرى منها ما ارتبط بشهر رمضان مثل البلح والتمر والماء والفول هذا الأخير الذي قال عنه هاشم رفاعي :

الـفـقـرُ يـمـلأ بـالـمـذلـة كـاسي
إنـي سـأشـهـر فـي الـورى إفـلاسـي
لا الجيب يعمر بالنقود ولا يدى
فـيـهـا فـلـوس زى كـل الـنـاس
أصبحت باطي والنجوم ولا أرى
أحداً يخفف كربتي وبواسي[١١]
الـفـول أكـلـي مـا حـيـيـت وإنـنـي
متحرق شوقاً إلـى القلقاس[١٢]

فالشعر سهل الألفاظ، يعبر عن بؤس قائله، واقتصار طعامه على الفول، وعجزه عن أكل طعام رخيص آخر وهو القلقاس.

ومن شعر الصاحبين صابر والحسين في الثناء على زميل لهما عزمهما على وجبة إفطار رمضانية، فمدحاه بقصيدة طويلة، ذكرا فيها أنواعاً من الأطعمة والأشربة قالا :

آبـا عصام ذاك يوم خالد أتخاف بعد اليوم أن يتكررا[١٣]
شهر الصيام مع الكنافة شائق والفضل فضلك في المآثر سطرا.
فمتى نرى التفاح بين ربوعكم والجوز واللوز الذى قد قشرا
والفستق المقشور وهو غرامنا يا أيها الميمون يا فخر الورى[١٤]

إلى غير ذلك من الأبيات السهلة ذات

١٠ – فيض الخاطر جزء ٦ ص ٤٠

١١– باطي والنجم : مثل يضرب للافلاس .

١٢– ديوان هاشم الرفاعي ص٤٨٩

١٣– ابو عصام : كنية الزميل ، ويشير الصاحبان إلى عزومة سابقة .

١٤–أثبتنا عبارة يا أيها الميمون بدلاً من « يا أيها الدكتور »

المعاني الخفيفة، التي تعبر عن روح فكهة ومداعبة لطيفة.

وتحدث بعض الشعراء عن ضرورة الإقلال من الطعام في شهر الصيام فقال الشاعر العراقي الشهير (معروف الرصافي) :

ولـو أنـي اسـتـطـعـت صـيـام دهـري
لـصـمـتُ فـكـان ديـدنـيَ الـصـيـام
ولـكـن لا أصـوم صـيـام قـوم
تـكـاثـر فـي فـطـورهـم الـطـعـام
فـإن وضـح الـنـهـار طـووا جـيـاعـاً
وقـد نـهـمـوا إذا اخـتـلـط الـظـلام[١٥]

ودعا الشاعر السوداني أحمد على طه إلى الاعتدال في الطعام والشراب عند الإفطار وبدأ ذلك في قوله :

دعـوا الإسـراف فـي أكـل الـفـطـور
ولا تـحـشـوا بـبـهـتـان وزور[١٦]

وذلك غيض من فيض مما قاله الشعراء قديماً وحديثاً من طعام وشراب في إفطار رمضان وسحوره، وأكثره في المداعبة والمزاح والتسلية، وأقله في الجد والالتزام، وذلك مقبول في المقصدين.

ختام القول :

١– إن الشعر الرمضاني الذى جاء بعضه في المفاكهة والتسلية يدور حول الأطعمة والأشربة، وأكثره مقطوعات وقصائد لا تطول فيها أنفاس الشعراء، إلا إذا كان الطعام بوصاية أخرى فعند ذلك يطول القصيد، وذلك مما تحقق في مطولة أحمد شوقي التى هنأ فيها الخديوى عباس بحلول عيد الفطر وانقضاء شهر الصيام.

٢- لا يندرج هذا الشعر فيما أسماه أحمد أمين (أدب المعدة)، وهو الذى يقوله الشاعر نفاقاً لمدح شخص، أو هجاء خصم، والذى تتزحزح فيه العاطفة من الصدق إلى الكذب ومن العمق إلى السطحية والخواء، أما الشعر الرمضاني الذى عرضنا لنماذج له فلا تخضع العاطفة فيه إلى المعايير الفاصلة أو المتأصلة، التى يقاس بها عمق التجربة وصدقها وهو شعر ساخر يدعو إلى المزاح، ويبعث على الضحك، وذلك بهدف التسلية وجمع الرفقاء، ولا يحتكم فيه لمعيار الصدق والكذب.

٣– إن شعر المداعبة والمفاكهة كثير في الأدب العربي ويتجسد غالباً في مجالس الملوك والوزراء والأمراء، وقد يختلط بعضه بالأسئلة والأجوبة ويعبر عن أحوال من الفراغ أو الكبت والضيق والمعاناة، أو عند حدوث النكبات والملمات، ويختلط بالمدح والفخر والهجاء والوصف، ولعل أسلم الألوان من هذا القريض هو شعر الأطعمة والأشربة الذى لا يثير الحزازات، ولا يحرك الضغائن، كما أن أكثره صفحات تطوى بعد قراءتها ولا يعتد به كأدب هادف إلا إذا وجه إلى أمور أخرى مع الاستعانة بالرمز أو الإشارة الغامضة أو التورية الخادعة، وعند ذلك يتحول الهزل إلى جد، والهزار إلى هجاء والضحك إلى مجون، وهذا مما لا يليق بشهر الصيام والقيام وقراءة القرآن.

١٥– ديوان الرصافي ص ١٥٢– طبع الهيئة العامة لقصور الثقافة عام ٢٠٠٤م

١٦– ويكيبيديا

التأهيل لاستقبال شهر رمضان الكريم



محمد زكي رزق بداري
الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية

الحمدلله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي الأمين، وعلى آله، أصحابه وأزواجه، ومن اقتدى بهديه إلى يوم الدين، وبعد:

فإن شهررمضان ببركاته وهباته حريٌ بكل مسلم أن يستقبله بفعل الطاعات واجتناب المعاصي، وأن يُقبل على ربه سبحانه بالتوبة النصوح، وأن يرد المظالم إلى أهلها، وأن يبرئ نفسه من ذنب ومعصية، وينتهز هذه الفرصة العظيمة، فيجتهد في العبادة حتى يألفها مدى عمره وطول أجله.

شهر رمضان شهر الصيام والقيام وتلاوة القرآن وشهر العتق من النيران، وشهر الغفران، شهر الصدقات والإحسان، الشهر الذي تقال فيه العثرات وتجاب فيه الدعوات، وتُرفع فيه الدرجات وتزداد فيه الحسنات وتغفر فيه السيئات.

شهر رمضان شهر يجود الله فيه سبحانه على عباده بأنواع العبادات والكرامات، ويُجزل الله سبحانه فيه لأوليائه العطايا، ويعفو فيه عن الزلات، قال - ﷺ - : «أتاكم رمضان، شهر بركة، يغشاكم الله فيه، فينزل الرحمة، ويحط الخطايا، ويستجيب فيه الدعاء، ينظر إلى تنافسكم فيه، ويباهي بكم ملائكته، فأروا الله من أنفسكم خيراً، فإن الشقي من حرم فيه رحمة الله» [أخرجه الطبراني ورواته ثقات].

شهر هيأه الله - عز وجل - لعباده ليعينهم على طاعته، فغل فيه مردة الشياطين، وغلق أبواب النيران، وفتح أبواب الجنان، وضاعف الأجر على الطاعات، وفرح فيه عباده بفرحتين الأولى عند فطرهم، والثانية عند لقاء ربهم، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : «أعطيت أمتي خمس خصال في رمضان لم تعطها أمة قبلهم: خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، وتستغفر لهم الملائكة حتى يفطروا، ويزين الله عز وجل كل يوم جنته ثم يقول: يوشك عبادي الصالحون أن يلقوا عنهم المؤنة ويصيروا إليك، وتصفد فيه مردة الشياطين، فلا يخلصون فيه إلى ما كانوا يخلصون إليه في غيره، ويغفر لهم في آخر ليلة، قيل يا رسول الله: أهي ليلة القدر؟ قال: لا ولكن العامل إنما يوفى أجره إذا قضى عمله» [رواه أحمد].

وجعل الله فيه الفضل والخير الكثير، ودعا عباده ليشهدوا هذا الفضل فقال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

(البقرة،١٨٣)

وفيه نزل القرآن، نزل دستور هذه الأمة، وكلمة الله الخاتمة، قال تعالى:

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾

(البقرة، ١٨٥)

وربط الله فيه بين الصيام وبين استجابة الدعوات فقال تعالى:

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾

(البقرة، ١٨٦)

وفيه ليلة خير من ألف شهر، ليلة القدر، قال تعالى:

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ (٥) ﴾

شهر تتوحد فيه مشاعر الأمة الإسلامية، وشعائرها، وشعاراتها، فالكل صائم، والكل مصل، والكل يلهج بالدعاء عساه يفوز بعتق من النار، أو رحمة، أو مغفرة لذنوبه.

وإذا كان ذلك كذلك، وحتى تكون أمة الإسلام مؤهلاً لهذا الفضل، أهلاً لأن تفوز بالفيوضات والتجليات، والأسرار لابد أن تكون عند هذا المستوى من الهدف الذي حدده الصوم ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾.

واختار هذه الكلمة الجامعة المانعة لتكون شعارًا للإسلام كله، ببركتها يسمو الإنسان فيصفو قلبه، وتزكوا نفسه، وتخشع جوارحه بها، يفرج الله الكرب، وييسر الأمر، ويحقق النصر، ويوسع الرزق، قال تعالى:

﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾

(الطلاق، ٢-٣)

وبها تتحقق الولاية، قال تعالى:

﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾

[يونس: ٦٢، ٦٣]

وبها يدخل عباده الجنة، قال تعالى:

﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾

(مريم، ٦٣)

وبها يمنح الإنسان الكرم، قال تعالى:

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾

(الحجرات، ١٣)

فطوبى لعبدحفظ فيه حدود الله، وتلا آياته، وأنفق مما رزقه الله ،قال تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ (٢٩) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾

(فاطر، ٢٩- ٣٠)

فالمسلمون يصومون في رمضان استجابة

وطاعة الله - عز وجل - فيمتنعون عن الحرام وعن الحلال معًا حتى يكون بالليل أهلاً للتجليات والفيوضات والأسرار، ويكون في النهار نموذجًا في الأخلاق، قال - ﷺ -: «الصيام جنة فإذا كان يوم صوم أحدكم، فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابه أحد أو قاتله فليقل إني صائم» [رواه البخاري].

قلوب طهرها الصوم فلا مكان فيها لغل أو حقد أو ضغينة أو حسد، قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾

(الحشر: ١٠)

وقد نهانا النبي ﷺ عما يوغر الصدور ويبعث على الفرقة والشحناء؛ ففي الصحيحين من حديث أنس بن مالك -رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: «لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانًا، ولا يحلُّ لمُسْلِم أنْ يَهْجُرَ أخاهُ فوقَ ثلاثِ ليالٍ».

فمن لم يكن من هذا الصنف الراقي فلا سهم له في الإسلام. فما بالنا اليوم يقتل المسلم أخاه المسلم، والعجب العجاب أن الصوم يوحدنا والأهواء تفرقنا، نمتنع سويًا، ونفطر سويًا في توقيت رباني واحد، قال تعالى:

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾

(البقرة: ١٨٧)

ومن أدركه رمضان فلم يُغفر له فقد رغم أنفه وأبعده الله، بذلك دعا عليه جبريل عليه السلام، وأمَّن على تلك الدعوة نبينا ﷺ، فعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ جاء فصعد المنبر فقال: «آمين». ثم قال «آمين». ثم قال «آمين»، قال: «أتاني جبريل فقال: من ذكرت عنده فلم يصل عليك، فدخل النار فأبعده الله، فقلت: آمين، ومن أدرك أحد والديه فدخل النار فأبعده الله، فقلت: آمين، ومن أدرك رمضان فلم يغفر له فأبعده الله، فقلت: آمين» [أخرجه الحافظ، حديث ٦] فما ظنك بدعوة من أفضل ملائكة الله، يؤمّن عليها خير خلق الله.

فيجب على المسلمين استثمار هذا الشهر في تقوية إيمانهم، وتقوية صلتهم بالله - عز وجل -، والانتصار على النفس الذي يؤهل للانتصار على الأعداء، فالذي ينتصر على نفسه جدير بأن ينتصر على عدوه، والذي لا يغير واقعه ليس أهلاً لأن يغير واقع غيره.

وحسبنا معاشر المسلمين أن الصيام يؤهلنا لأن نكون قريبين من الله - عز وجل - يحقق آمالنا ويصرف آلامنا، ويجيب دعواتنا: ويفرج كربنا، ويصرف همنا فهو سبحانه القائل في محكم كتابه:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

فنسأل الله عز وجل أن يبلغنا رمضان، وأن يوفقنا لعبادته، وأن يحقق آمالنا بتوحيد صفنا، وأن يطهر قلوبنا من كل ما علق بها، وأن يرزقنا الجنة، ويباعدنا عن النار، إنه سميع قريب مجيب الدعوات، وصل الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المسلم في شهر رمضان



فضيلة الشيخ/ السيد محمد السيد عبدالنبي
الأمين المساعد للثقافة بمجمع البحوث الإسلامية

شهر رمضان نفحة سماوية، وهبة علوية من الله عز وجل، للمؤمنين الطائعين، تهب عليهم نسماته فيكون للأرواح ربيعا، تقترب به من الملأ الأعلى، فينتشر الصفاء في جنباتها انتشار الضوء في السماء الصافية. وهو على صعيد الجسد فرصة لراحته وتصفيته وتنقيته من الشوائب التي شابته، طيلة عام مضى استعدادا لعام آت، وهو بهذه المثابة أحسن وسيلة لشحن الروح والجسد في وقت معا.

إن رمضان مناسبة طيبة للتواصل والتراحم والتزاور بين المسلمين، وفرصة عظيمة لعمل الخير، والإكثار من صنائع المعروف، وإحيائه بقراءة القرآن الكريم وتدبر معانيه، ومداومة الذكر، وإقامة الصلاة في المسجد والمكث فيه، ما استطاع المسلم إلى ذلك سبيلا، ومن ثم تتضاعف أهمية شهر رمضان بأجوائه الروحية، ونسماته العلوية، ليتخذ الإنسان المسلم منه فرصة عظيمة للمحاولة الصادقة لأن يعود إلى نفسه، ويثوب إلى رشده، وإلى دينه وقيمه العليا، فيعود إليه صفاؤه النفسي والروحي.

وقد أكد العلم الحديث على أهمية الطعام في تكوين جسم الإنسان منذ ولادته، لما له من وظائف بنائية وفسيولوجية وحيوية، لا يمكن الاستغناء عنها بحال، وهذه الأهمية تزداد بتقدم العمر، إلى أن يصل المطاف بالإنسان إلى مرحلة الشيخوخة، حيث يحتاج إلى أنماط ومقادير معينة من الغذاء، مما حدا بالباحثين والمتخصصين في علوم التغذية إلى الاهتمام بالغذاء من الناحية النوعية والكمية، ومن حيث ملاءمته لمختلف الأعمار والأعمال، والظروف الفسيولوجية كالحمل والرضاع، ومختلف الأمراض والأحوال الصحية والبيئية. ومن ثم أمرنا الحق جل وعلا أن نتناول الغذاء من غير إسراف، فقال:

﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾

(المائدة: ٨٨)

والإنسان قد يستهويه الطعام اللذيذ، والشراب بألوانه وطعومه المختلفة، فيسرف في تناول هذا وذاك، ولا يبالي ما لبدنه عليه من حق، وليس كل طعام شهي صحي، ومن ذلك أن الوجبات السريعة (التيك أواي) تتركز بها النشويات والدهون والبروتينات،

ولكنها وجبات غير صحية، لأنها لا تحتوي على خضراوات، والخضراوات صيدلية غنية بالفيتامينات والأملاح المعدنية.

وإذا ما اعتاد الإنسان على هذه الوجبات السريعة، فإنه يصاب ببعض الأمراض والانحرافات في صحته وسلامته الجسمية، التي تؤثر بالتالي على صحته النفسية، وصفائه الروحي.... ومن ثم كان صيام شهر رمضان وقفة حكيمة، فرضها الله تعالى، لرأب الصدع الذي أحدثه الإنسان بنفسه طوال العام. ولذا قال الحق جل وعلا:

﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

(البقرة ١٨٤)

وأما من الناحية الكمية، فإن الإسراف في الطعام له أضرار وخيمة، بل ينجم عنه أمراض خطيرة، كمرض السمنة وارتفاع ضغط الدم وأمراض تصلب الشرايين والقلب، والبول السكري، والنقرس، والتهابات الجهاز الهضمي، إلى غير ذلك من الأمراض التي ترتبط بالإفراط في تناول الطعام، ومن ثم كانت توجيهات الحكماء منذ القدم وإلى الآن، هي الاعتدال في تناول الطعام، والتوجيه بالصيام لفترات طويلة، وإن المسلم يحقق ذلك حين يصوم شهر رمضان. فيأتي عليه آخر هذا الشهر، وقد استراحت أعضاؤه، وخف بدنه، وصفت روحه. فكأنه كان بالصيام يداوي نفسه، من غير أن يتناول دواء.

نعم، فهو يتناول الطعام مرتين فقط وليس ثلاثا، ويتناول طعامه باعتدال دون إفراط، وهذه إحدى ثمرات اتباع المنهج الإلهي، الذي ينبغي أن يلتزم به في رمضان وفي غير رمضان. قال تعالى:

﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾

الأعراف: ٣١

وهي حكمة قديمة وردت في قول مأثور ينسبه البعض خطأ إلى النبي عليه السلام (نحن قوم لا نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع) قال الألباني عنه في الضعيفة: لا أصل له[١].

فهل هذا شأننا في رمضان؟

لا يمكن لنا بحال من الأحوال، إلا أن نعترف بأننا نأكل في رمضان أكثر مما نأكل في غيره، وأننا بدلا من الاعتدال في الأكل والشرب، قد اعتدنا الإسراف فيهما، وفي السهر. فبدلا من أن نقتصد في الأكل والشرب، وننظم مواعيد النوم واليقظة، ترانا نسرف في الأكل والشرب، ونسرف في السهر. وليس من شك في أن الإسراف في الأكل والشرب سبب للإسراف في السهر، وثلاثتهم يهلكون البدن.

إنه لإسراف أي إسراف أن يتحول رمضان إلى شهر للأكل، فيصبح رمضان عندنا شهر كل طعام لذيذ، وكل شراب منعش، شهر المقليات والمحمرات، والطواجن والمسبكات، شهر الفطائر والكنافة والحلويات، شهر العصائر والمنقوعات والشايات والمرطبات، إنه لم يعد شهر الصيام والقيام، وإنما أصبح شهر السحور والفطور والمسلسلات. وينتج عن هذا أمور سلبية عديدة، نرصد منها:

مشاكل صحية: تتمثل في التخمة وعسر الهضم وزيادة الوزن، وزيادة في الكولسترول

[١] الضعيفة ٢/ ١٦٥٤

الضار وضغط الدم وسكر البول، والأرق، وغير ذلك من المؤشرات المرضية.

مشاكل اقتصادية: تتمثل في إرهاق الأسر بالمطالب المالية التي تبلغ ضعفا أو أضعافا في رمضان، عما تنفقه الأسر في أي شهر غيره، هذا على مستوى الأسر، أما على مستوى الدولة، فإن البلاد تستورد في رمضان من السلع التموينية أضعاف ما تستورده في غير رمضان، بل إن ما يتم إنفاقه في استيراد بعض السلع الرمضانية كاف لإغناء آلاف الأسر الفقيرة، ولتوفير آلاف من فرص العمل النافعة المنتجة. ولا يقتصر الأثر السيئ لعاداتنا في رمضان على ما سبق، وإنما يتعداه إلى تدني في معدلات الإنتاج والإنجاز، حتى إن البعض يعتبر شهر رمضان شهر إجازة، رغم الحضور والانصراف.

مشاكل اجتماعية: تتمثل في ضعف التواصل الاجتماعي، بسبب الكسل والنوم نهارا، والانشغال بالأكل والشرب والمسلسلات ليلا، فتكتفي كثير من الأسر بالدعوة إلى الإفطار، وبمكالمة عبر الهاتف، عن التزاور الذي يدعم الروابط، ويحقق التواصل، ويتيح الفرصة للسؤال عن الأهل والتشاور، والتعاون على البر والتقوى.

ولو عدنا إلى تعاليم الإسلام والتزمنا بها، لتخلصنا من كل هذه المشاكل، وحققنا الثمرة التي من أجلها شرع الصيام، قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

(البقرة: ١٨٣)

فليس الغرض من الصيام أن نجوع، ولا أن نسهر إلى الفجر، ولا أن نغير مواعيد الأكل والشرب، ولا أن نكافئ أنفسنا على هذا بالإسراف أو التفنن أو التوسع في الأكل والشرب، وإنما الغرض من فريضة الصيام أن نتقي الله تعالى.

ولسائل أن يسأل: نسلم بأن الغرض من الصيام هو التقوى، لأن هذا هو الذي أعلنه القرآن في قوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، ولكن كيف يكون الصيام وسيلة لتحقيق التقوى، ولماذا علل فرض الصيام بالتقوى، على الرغم من أن التقوى ثمرة كل عبادة وكل عمل صالح يبتغي الإنسان به وجه الله؟

ونقول في الإجابة: إن الصيام مدرسة للتدريب على تقوية الإرادة، فليس شيء يشتهيه الإنسان أكثر من الأكل والشرب والجنس، فإذا امتنع الإنسان عن أكل الطعام الحلال، وعن تناول المشروب الحلال، وعن مس الزوجة الحلال، من الفجر إلى غروب الشمس، طاعة لله تعالى، كان ذلك انتصارا لقوة إرادته، إذ تنازعه نفسه إلى أمر قد اعتاده، ولا غناء له عنه، وهو أمر حلال، ولكنه يقول لنفسه: لن آكل إلا بعد المغرب، ولن أشرب إلا بعد المغرب، ولن أمس زوجتي في النهار، لأن الله قد أمرني بهذا، ومن يمتنع عن المباحات رعاية لأمر الله، لا يقع في حرام، وهل يقع في حرام خبيث- وكل حرام خبيث- من يمتنع عن الحلال الطيب طاعة لله؟!

وفي هذا الجواب يكمن السر في تعليل فرضية الصيام بالتقوى، رغم أن التقوى ثمرة كل عبادة وكل عمل صالح، لأن الصيام وحده يتميز على كل فريضة أخرى وكل عمل صالح، بأنه امتناع عن مباح مألوف مشتهى، فكأن الامتناع عنه تدريبا للإرادة على أن تكون قوية، تأبى بإصرار أن تفعل شيئا حرمه الله.

هذا والله الهادي إلى سواء السبيل.

الاعتداء في الدعاء

للأستاذ الدكتور رضا عبد المجيد المتولي إبراهيم
أستاذ التفسير بكلية أصول الدين بالمنصورة

الدعاءُ معناه في اللغة : النّداء وطلب الإقبال، تقول :دعوتُ فلاناً : ناديتُه وطلبتُ إقباله . وفي الشرع :الابتهال إلى الله تعالى بالسؤال والرغبة فيما عنده من الخير، والتضرع إليه في تحقيق المطلوب وإدراك المأمول .[١] والاعتداء معناه : مجاوزة الحق [٢]. ومعنى «الاعتداء في الدعاء»: مجاوزة الحق في دعاء الله تعالى وندائه والابتهال إليه .

هذا ونرى بعض الناس يعتدون في الدعاء، فمنهم مَن يرفع صوته كأنه يدعو بعيداً غائباً، ومنهم من يسجع في الدعاء، ومنهم من يسأل الله أشياء لا تصلح له، ومنهم من يفصِّل في الدعاء تفصيلاً مملاً، ومنهم مَن لا يجزم في الدعاء فيقول : اللهم اعطني أو ارزقني إن شئت ... إلخ مما يأتي تفصيله .

وهذا مما لا يحبه الله تعالى ويرضاه؛ فقد أخبر عز وجل في كتابه الكريم أنه لا يحب المعتدين عامةً، وخاصة في الدعاء، إذ هو المناسب لسياق الآية الكريمة، فقال عز شأنه :

﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾

(الأعراف: ٥٥)

والمعتدي : هو مجاوز الحد ومرتكب الحظر [٣] أي : المحظور المحرم .

ومعنى :

﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾

لا يحب المجاوزين الحد في كل الأمور؛ إذ اسم الفاعل المحلى بـ(أل) من صيغ العموم. ويدخل في المعتدين هنا دخولاً أوّلياً : المعتدون في الدعاء مراعاة للسياق[٤]، والمراد من نفي حب الله للمعتدين : ترك الإنعام عليهم ومجازاتهم والإحسان إليهم .

ويمكننا أن نشير إلى أهم صور الاعتداء في الدعاء فيما يلي :

أولاً : الالتفات إلى غير الله تعالى في الدعاء، واللجا إلى وجه غير وجهه الكريم:

فذلك عدوان على الله تعالى، وما له من حق على العباد في الولاء له والطلب منه[٥] قال تعالى :

﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ ﴾

(الأعراف: ٢٩)

ثانيا : المبالغة في رفع الصوت بالدعاء، والجهر الكثير والصياح.[٦]

قال عز شأنه :

﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾

﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ ﴾ هذا أمر بالدعاء وتعبد به، ثم قرن تعالى بالأمر بالدعاء صفات تحسن معه، وهي: الخشوع والاستكانة والسر؛ فالتضرع معناه: الخشوع والاستكانة، والخفية : الخفاء والسر، والمراد بقوله ﴿ وَخُفْيَةً ﴾ سراً في النفس ليبعد عن الرياء، وقد أثنى الله على نبيه زكريا عليه السلام إذ قال مخبراً عنه :

﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾

(مريم: ٣)

والشريعة مقررة أن السر فيما لم يفترض من أعمال البر أعظم أجراً من الجهر، قال سيد التابعين الإمام الحسن بن أبي الحسن البصري: لقد أدركنا أقواماً ما كان على الأرض عمل يقدرون أن يكون سراً فيكون جهراً أبداً، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء فلا يسمع لهم صوت، وإن هو إلا الهمس بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله تعالى يقول : ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾، وذكر عبداً صالحاً رضي فعله فقال :

﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾ [٧]

ومما يدل على أن المبالغة بالجهر ورفع الصوت بالدعاء من الاعتداء فيه، ما رُوِي عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ رضي الله عَنْهُ قَالَ: لَمَّا غَزَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَيْبَرَ، أَوْ قَالَ: لَمَّا تَوَجَّهَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، أَشْرَفَ النَّاسُ عَلَى وَادٍ فَرَفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ بِالتَّكْبِيرِ: اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ إِنَّكُمْ لاَ تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلاَ غَائِبًا، إِنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا، وَهُوَ مَعَكُمْ»[٨].

ثالثا: كون العبد يسأل الله مسائل لا تصلح له [٩]

كأن يدعو أن تكون له منزلة نبي، أو يدعو في محال أو يدعو طالبا

(١) المصباح المنير للفيومي مادة (دعا) ص ١٩٤ط /دار الكتب العلمية . كتاب الدعاء للدكتور / محمد سيد طنطاوي ٦/٩ هدية مجلة الأزهر عدد ذي القعدة ١٤١٨هـ.
(٢) المفردات للراغب الأصفهاني مادة (عدا) ص٥٥٤ ط /دار القلم دمشق .
(٣) المحرر الوجيز لابن عطية ٥/٥٣١ ط / المطبعة المحمدية بالمغرب .
(٤) المرجع السابق .
(٥) التفسير القرآني للقرآن للأستاذ / عبد الكريم الخطيب ٤ /٤١٦ ط / دار الفكر .
(٦) تفسير الشيخ السعدي صـ ٢٩٥ ط / مؤسسة الرسالة . المحرر الوجيز لابن عطية ٥/٥٣١
(٧) المحرر الوجيز لابن عطية ٥/٥٣٠
(٨) حديث متفق عليه . انظر الجمع بين الصحيحين للإمام محمد بن فتوح الحميدي ١ /٣١٢ ح رقم ٤٦٨ ط / دار ابن حزم .
(٩) تفسير الشيخ السعدي صـ ٢٩٥

معصية ،ونحو هذا من الشطط .[١٠]

رابعا :الدعاء بما ليس في الكتاب والسنة:

وذلك مثل من يتخير ألفاظا مُقفرة ،وكلمات مُسجعة قد وجدها في كراريس لا أصل لها ولا مُعول عليها ، فيجعلها شعاره ويترك ما دعا به رسوله عليه الصلاة والسلام ، وكل هذا يمنع من استجابة الدعاء .[١١]

خامسا: تعجّل الإجابة:

عَنْ أبي هُرَيْرَةَ أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ : «يُسْتَجابُ لأحدِكُمْ ما لَمْ يَعْجَلْ، يَقُولُ : دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لي»[١٢].

وفي رواية أخرى : عَنْ أبي هُرَيْرَةَ أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ : «يُسْتَجابُ لأحدِكُمْ ما لَمْ يَعْجَلْ» ، قِيلَ : وَكَيْفَ يَعْجَلُ يا رَسُولَ اللهِ ، قالَ : «يَقُولُ : قَدْ دَعَوْتُ اللهَ فَلَمْ يَسْتَجِبْ اللهُ لي»[١٣].

ودل الحديث المذكور على أن مطلق قوله تعالى :

﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (البقرة: ١٨٦)

مقيد بأمرين : العجلة وعدم قول « قَدْ دَعَوْتُ اللهَ فَلَمْ يَسْتَجِبْ اللهُ لي» .[١٤]

سادسا : تعليق الدعاء على المشيئة وعدم العزم به:

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ : قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : «إذا دَعا أحَدُكُمْ فَلْيَعْزِمِ المَسْألَةَ ، وَلا يَقُولَنَّ : اللَّهُمَّ إنْ شِئْتَ فَأعْطِني ، فَإنَّهُ لا مُسْتَكْرِهَ لَهُ»[١٥].

وعَنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ : «لا يَقُولَنَّ أحَدُكُمْ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لي إنْ شِئْتَ ، اللَّهُمَّ ارْحَمْني إنْ شِئْتَ ، لِيَعْزِمِ المَسْألَةَ ، فَإنَّهُ لا مُسْتَكْرِهَ لَهُ» [١٦].

والمراد بالمسألة : الدعاء، ويشمل معنى «الأمر بالعزم في الدعاء» : الجد فيه ، وأن يجزم بوقوع مطلوبه ولا يعلق ذلك بمشيئة الله تعالى – وإن كان المؤمن مأمورا في جميع ما يريد فعله أن يعلقه بمشيئة الله تعالى – ، وأن يحسن الظن بالله في الإجابة ؛ لأنه يدعو كريما ، وأن يجتهد ويلح في الدعاء كدعاء البائس الفقير .[١٧]

والمراد بقوله « فإنه لا مستكره له»: أن الذى يحتاج إلى التعليق بالمشيئة ما إذا كان المطلوب منه يتأتى إكراهه على الشيء ، فيخفف الأمر عليه ، ويعلم بأنه لا يطلب منه ذلك الشيء إلا برضاه ، وأما الله سبحانه وتعالى فهو منزهٌ عن ذلك ، فليس للتعليق فائدة [١٨]

وفي رواية عن أبي هُرَيْرَةَ أنَّ رَسُولَ اللهِ – ﷺ – قالَ «إذا دَعا أحَدُكُمْ فَلا يَقُلِ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لي إنْ شِئْتَ وَلَكِنْ لِيَعْزِمِ المَسْألَةَ وَلْيُعَظِّمِ الرَّغْبَةَ فَإنَّ اللهَ لا يَتَعاظَمُهُ شَيْءٌ أعْطاهُ» .[١٩]

ومن أجل ذلك حمل الإمام ابن عبد البر النهي الوارد في هذا الحديث على التحريم ؛ فقال : «لا يجوز لأحد أن يقول : اللهم أعطني إن شئت وغير ذلك من أمور الدين والدنيا ؛ لأنه كلام مستحيل لا وجه له لأنه لا يفعل إلا ما شاء» [٢٠]

سابعا: تكلف السجع في الدعاء:

السجع هو : موالاة الكلام على روي واحد ، وقيل :الكلام المُقفى من غير مراعاة وزن ،ويقال : سجع الرجل :إذا نطق بكلام له فواصل .[٢١]

ومما يدل على كراهية تكلف السجع في الدعاء ما روي عن عكرمة أن ابن عباس رضي الله عنهما أوصاه بأمور منها : « فَانْظُرِ السَّجْعَ مِنَ الدُّعاءِ فاجْتَنِبْهُ ، فَإنِّي عَهِدْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَأصْحابَهُ لا يَفْعَلُونَ إلَّا ذَلِكَ الاجْتِنابَ»[٢٢].

ومعنى (فَانْظُرِ السَّجْعَ مِنَ الدُّعاءِ فاجْتَنِبْهُ) :لا تقصد إليه ولا تشغل فكرك به ، لما فيه من التكلف المانع من الخشوع المطلوب في الدعاء . ومعنى (فَإنِّي عَهِدْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَأصْحابَهُ لا يَفْعَلُونَ إلَّا ذَلِكَ) :أي ترك السجع .وروي عنه عليه السلام أنه نهى عن السجع في الكلام والدعاء، وإنما كره الرسول (السجع في الدعاء لأنه لا يلائم الضراعة والذلة ، ويشبه كلام الكهنة وسجعهم فيما يتكهنون، [٢٣]. ولا يعترض على ذلك بما وقع من السجع في الأحاديث الصحيحة ، لأن ذلك كان يصدر من غير قصد إليه ، ولأجل هذا يجيء في غاية الانسجام ، كقوله ﷺ في الجهاد (اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الكِتابِ ،وَمُجْرِيَ السَّحابِ ،وَهازِمَ الأحْزابِ) [٢٤] وكقوله ﷺ «لا إلَهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ صَدَقَ وَعْدَهُ وَنَصَرَ عَبْدَهُ وَهَزَمَ الأحْزابَ وَحْدَهُ»[٢٥]

(١٠) المحرر الوجيز لابن عطية ٥/٥٣١

(١١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٤٨/٩ ط /مؤسسة الرسالة .

(١٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الدعوات ، باب يستجاب للعبد ما لم يعجل . فتح الباري بشرح صحيح البخاري ١١ / ١٤٠ ، ح رقم ٦٣٤٠ ط / دار طيبة .

(١٣) أخرجه ابن ماجة في سننه ، كتاب الدعاء ، باب يستجاب لأحدكم ما لم يعجل ٢ / ١٢٦٦ ، ح رقم ٣٨٥٣ ط / دار الريان للتراث .

(١٤) فتح الباري لابن حجر ١٤ / ٣٥٠

(١٥) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الدعوات ، باب ليعزم المسألة فإنه لا مكره له . فتح الباري ١١ / ١٣٩ ، ح رقم ٦٣٣٨ ، والجمع بين الصحيحين للحميدي ٢ / ٤٩٤ ح رقم ١٩٢٨.

(١٦) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الدعوات ، باب ليعزم المسألة فإنه لا مكره له . فتح الباري ١١ / ١٣٩ ، ح رقم ٦٣٣٩ ، والجمع بين الصحيحين للحميدي ٣ / ٢١٣ ح رقم ٢٤٦٢.

(١٧) فتح الباري ١٤ /٣٤٧ وما بعدها بتصرف .

(١٨) المرجع السابق .

(١٩) متفق عليه . انظر الجمع بين الصحيحين للحميدي . المتفق عليه من مسند أبي هريرة الدوسي ٣ /٢١٣ ح رقم ٢٤٦٢

(٢٠) فتح الباري لابن حجر ١٤ / ٣٤٨

(٢١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ١٤/٣٤٦ط / دار طيبة . تهذيب اللغة للأزهري مادة (سجع) ٣٣٩/١ ط /الدار المصرية للتأليف والترجمة .

(٢٢) أخرجه البخاري . كتاب الدعوات ، باب ما يكره من السجع في الدعاء . فتح الباري ١١ / ١٣٨ ، ح رقم ٦٣٣٧ .

(٢٣) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ١١ / ١٣٩ بتصرف . وتهذيب اللغة للأزهري ١/٣٣٩

(٢٤) جزء من حديث أخرجه الإمام البخاري في صحيحه . كتاب الجهاد . باب كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا لم يقاتل أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس . فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٢٢٢/٧ ح رقم ٢٩٦٦ ط / دار طيبة

(٢٥) جزء من حديث أخرجه الإمام أبو داود في سننه . كتاب الديات . باب في الخطأ شبه العمد ٤/٤٥٤٧ ط/ دار الريان

وكقوله: «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، وقلب لا يخشع، ودعاء لا يسمع، ونفس لا تشبع، ثم يقول اللهم إني أعوذ بك من هؤلاء الأربع»(٢٦) وكلها صحيحة. قال الإمام أبو حامد الغزالي - يرحمه الله تعالى -: «المكروه من السجع هو المتكلف، لأنه لا يلائم الضراعة والذلة، وإلا ففي الأدعية المأثورة عن رسول الله ﷺ كلمات متوازنة، لكنها غير متكلفة»(٢٧).

ثامناً: التفصيل في الدعاء وترك الأدعية المأثورة الجامعة:

قال الإمام الغزالي: والأولى أن لا يجاوز الداعي الدعوات المأثورة فإنه قد يعتدي في دعائه، فيسأل ما لا تقتضيه مصلحته، فما كل أحد يحسن الدعاء(٢٨).

ومما يدل على أن التفصيل في الدعاء مع ترك الأدعية الجامعة من الاعتداء في دعاء ما روي عن عَبْدَ اللهِ بْنَ مُغَفَّلٍ أنه سَمِعَ ابْنَهُ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْقَصْرَ الأَبْيَضَ عَنْ يَمِينِ الْجَنَّةِ، إِذَا دَخَلْتُهَا، فَقَالَ: أَيْ بُنَيَّ! سَلِ اللهَ الْجَنَّةَ وَعُذْ بِهِ مِنَ النَّارِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «سَيَكُونُ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الدُّعَاءِ»(٢٩).

وفي القرآن الكريم كثير من الأدعية الجامعة مثل قوله:

﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (البقرة: ٢٠١)

﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الأعراف: ٢٣)

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٧)

ومثل إخبار الله عن دعاء التابعين رضي الله عنهم:

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (الحشر: ١٠)

إلى غير ذلك. ويقال: إن العلماء لا يزيدون في الدعاء على سبع كلمات فما دونها، ويشهد له آخر سورة البقرة، فإن الله تعالى لم يخبر في موضع من أدعية عباده أكثر من ذلك(٣٠) قال تعالى في خاتمة سورة البقرة:

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا

(٢٦) أخرجه الإمام النسائي في سننه، كتاب الاستعاذة، باب الاستعاذة من الشقاق والنفاق وسوء الأخلاق ٨/٦٥٧ ح رقم ٥٤٨٥ ط/ دار المعرفة.
(٢٧) إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي ١/٥٥٣ بتصرف ط/ دار الشعب.
(٢٨) إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي ١/٥٥٢.
(٢٩) سنن ابن ماجه، كتاب الدعاء، باب كراهية الاعتداء في الدعاء ٢/١٢٧١، ح رقم ٣٨٦٤ ط/دار الفكر.
(٣٠) إحياء علوم الدين ١/٥٥٢.

مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: ٢٨٦)

عَنْ أَنَسٍ قَالَ: كَانَ أَكْثَرُ دُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ: «اللَّهُمَّ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ»(٣١).

تاسعاً: الدعاء بما لا يعرف تأويله:

سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً يقول في دعائه: اللهم اجعلني من الأقلين، فقال له: ما هذا الدعاء يا هذا؟ فقال: سمعت الله عز وجل يقول:

﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ (سبأ: ١٣)

وقال عز من قائل:

﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (هود: ٤٠)

وقال سبحانه:

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ (ص: ٢٤)

فقال له عمر: عليك من الدعاء بما يُعرف تأويله(٣٢).

عاشراً: الامتناع من دعاء الله تعالى للشعور بالتقصير:

قال الإمام سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى: «لا يمنعنَّ أحداً الدعاء ما يعلم في نفسه - يعني من التقصير - فإنَّ الله قد أجاب دعاء شر خلقه وهو إبليس حين قال:

﴿أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (الأعراف: ١٤)

الحادي عشر: دعاء المرء على نفسه بالموت لضرٍّ نزل به

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدٌ مِنكُمُ الْمَوْتَ لِضُرٍّ نَزَلَ بِهِ، فَإِنْ كَانَ لا بُدَّ مُتَمَنِّيًا لِلْمَوْتِ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي»(٣٣).

وعَنْ قَيْسٍ قَالَ: «أَتَيْتُ خَبَّابًا، وَقَدِ اكْتَوَى سَبْعًا في بطنه، فسمعته يقول: لَوْلا أَنَّ النبي ﷺ نَهَانَا أَنْ نَدْعُوَ بِالْمَوْتِ لَدَعَوْتُ بِهِ»(٣٤).

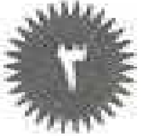
وقانا الله من الاعتداء في الدعاء، وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم.

***

(٣١) حديث متفق عليه. انظر اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الدعاء باللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ٢/٣٦٨، ح ١٧٢٣ ط/ دار القلم.
(٣٢) الذخائر والأعلاق في آداب النفوس ومكارم الأخلاق لأبي الحسن الاشبيلي ص ٥٢٤.
(٣٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان. كتاب الذكر والدعاء، باب كراهة تمني الموت لضر نزل به ٢/٣٦٥، ح رقم ١٧١٢.
(٣٤) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان. كتاب الذكر والدعاء، باب كراهة تمني الموت لضر نزل به ٢/٣٦٦، ح رقم ١٧١٨.

اللسان المنتمى!

قراءة فى الملامح الأسلوبية للدكتور / عبد الحليم عويس



أ. د. خالد فهمى
كلية الآداب / جامعة المنوفية /مصر



٣/٢ التصوير فى كتابات عبد الحليم عويس: أشكاله ووظائفه

للدرس التاريخي وظائف مهمة تهدي الناس، وتعين الأمم على الحركة في المستقبل، والتصوير القرآني للتاريخ بوجهه ليكون: عبرة حاكمة، وموجهة و هادية، ودليلا في اليد لضبط التخطيط للمستقبل على هدى من حركة الماضي.

و التاريخ بهذا نوع من العلوم العربية وفق التصنيف المتداول للعلوم عند العرب، والكتابة التاريخية يندرج أسلوبها تحت ما يسمى بالأسلوب العلمي المتأدب، أي الذي يعتمد تقديم المعرفة التاريخية بأسلوب أدبي يتكئ على اللغة المجازية والتصويرية.

ومن المهم ابتداء أن نقرر أن التصوير عادة يحقق مجموعة من الوظائف بالغة الأهمية وبالغة الخطر معا من دون النظر إلى طبيعته النمطية أو التقليدية أو الابتكارية، أو الرمزية.

و فيما يلي محاولة لفحص التصوير في كتابات الدكتور عبد الحليم عويس من خلال رصد أشكاله أو أنواعه، ووظائفه وغاياته.

ومن أمثلة الصور التقليدية النمطية تصوير الدولة الإسلامية الأندلسية في صورة عضو بدني بلغ تملك المرض منه إلى حد ضرورة بتره و التخلص منه، يقول في كتابه (سقوط ثلاثين دولة إسلامية) (ص٩): «لقد سقطت الأندلس، كعضو اجتمعت فيه كل عناصر السقوط، وكان لابد من بتره، فحقت عليه كلمة الله» و تصوير الكيان الأندلسي في صورة إنسان حتى تسرب إليه المرض، و تملك من بعض أعضائه حتى سقط، أو اضطر إلى بتره.

ومن أمثلة الصورة النمطية التقليدية كذلك تصوير الحضارة الإسلامية في صورة سراج ينير الطريق أمام السالكين في دروبه، فيقول في كتابه (تفسير التاريخ علم إسلامي)(ص ٢٦١): «ومن خلال الرماد المتناثر، و المتمثل في أوضاع جاهلية كثيرة و صور كاسحة من التحلل، يمكن في إطار هذه الحضارة أن تشتعل الفكرة الإسلامية التي هي (زيت) الحضارة الإسلامية، وتتمكن من إشعال (فتيل) الحضارة

الإسلامية المنطفئة في الإنسان المسلم. إن (زيت) الحضارة الإسلامية لا زال موجودا وإن المصباح لم يذبل. و هذه الصورة الممتدة الكاملة مصنوعة من العنصر العام الذي هو السراج أو المصباح و مكوناته الثلاثة الجزئية التي تهبه صورته الكلية العامة وهي:

أ- جسم المصباح المتصور من اسمه.

ب- الفتيل الذي يستقي من الزيت، فيشتعل، ليضيء.

ج- الزيت، أو الوقود الذي هو مادة الاشتعال الخالق للإضاءة، وهو أهم العناصر الموجدة لحقيقة المصباح. وهو الأمر الذي يظهر من تصوير الفكر الإسلامي باستعارة الزيت له، بما هي الأصل المضيء في المصباح الذي هو الحضارة الإسلامية.

ومن خلال هذه الأمثلة التصويرية المبثوثة في كل كتابات الدكتور عبد الحليم عويس يتضح لنا مجموعة من الوظائف و الغايات من وراء توظيف الصورة، و إن جاءت في الغالب نمطية تقليدية، مألوفة في البيئة الثقافية المعاصرة، لكنها مع الحكم بتقليديتها ونمطيتها لم تفقد حيويتها، و قدرتها على أداء الغرض منها، أخذت من روح الرجل وعاطفته وصدقيته فحققت الوظائف المستهدفة من توظيفها. و قد كانت الوظائف التالية هي أهم ما تجلى من وراء استثمار التصوير:

أولا- الوظيفة العقلية [الإقناعية]:

ذلك أن الكاتب رحمه الله استهدف بهذه الصورة المختلقة مخاطبة عقول القارئين، وخلق الإقناع بالأفكار الكامنة وراء هذه الصور الفنية.

ثانيا- الوظيفة الوجدانية [التأثيرية]:

ذلك أن هدف الدراسة التاريخية في التصور الإسلامي هو سوق العبرة والعظة و استلهام المنفعة كانت للصورة وظائف وجدانية عاطفية تستهدف التأثير في أنفس الجماهير، طلبا للتعاطف مع القضايا الفكرية المتسترة وراء هذه الصور.

ثالثا- الوظيفة البيانية [الإيضاحية]:

ذلك أن التصوير ربما يخلقه من نقل السمات و الخصائص المعنوية والدلالية من المشبه، في سياق استثمار التشبيهات، و نقل السمات و الخصائص المعنوية و الدلالية من المستعار منه إلى المستعار له في سياق استثمار التصوير الاستعاري، ومن المتعارف عليه أن للتصوير دورا ظاهرا في تحقيق الوضوح و البيان، وشرح المراد.

رابعا- الوظيفة المعرفية:

ذلك أن الاتجاهات الحديثة في دراسة الصورة عموما، و الاستعارة خصوصا تقرر أنها منتجة للمعرفة، و ليست فقط مجرد وسائل إيضاحية ذلك أن العلاقة الحميمية بين عناصر الصورة، و التفاعل بين أركانها المتنوعة يخلق نوعا من المعرفة، وهو ما يمكن تأمله من خلال تأكيد المعارف التالية التي أنتجها فحص التصوير في كتابات عبد الحليم عويس:

أ- النظر إلى الدول بما هي أشبه شيء بحياة الإنسان، حياة وموتا، و صحة ومرضا، وقوة وضعفا، وغنى وفقرا، وتقلبا في الأحوال جميعا، حتى استقر النظر إلى التاريخ الإسلامي في ضوء كونه يتحرك حركة لولبية!

ب- النظر إلى تأثير العوامل المختلفة في حياة الدول، وأن هناك عوامل ثوابت هي بمثابة قوانين كونية و اجتماعية تعمل عملها بدون محاباة أو تفضيل لعنصر بشري على غيره.

ج- النظر إلى أمراض الأمة في ضوء قوانين الطب ؛ ذلك أنه بحسب قوة المسبب الخارجي للمرض (الفيروس) مع حالة الجسم ، و درجة مناعته يكون قياس درجة المرض ، و قياس زمن الشفاء منه .

خامسا- الوظيفة التدليلية [التعليلية]:

ذلك أن كثيرا من الصور يقوم بوظيفة الحبك ، أو خلق نظام تدليلي ، تعليلي ، بطرح الأسباب ، و المسوغات ، سعيا نحو إقامة الحجة و الدليل على القضية المطروحة في التراكيب المختلفة .

سادسا - الوظيفة الجمالية [الإمتاعية الفنية]:

ذلك أن التصوير في الكتابة التاريخية في كتابات عبد الحليم عويس حقق ثلاثة أمور جزئية شكلت عمود ما يسمى بالوظيفة الفنية أو الجمالية أو الإمتاعية هي :

أ- التخفيف من جفاف المادة العلمية المتمثلة في أحداث التاريخ ، و تواريخه وصراعاته ، وتراكمها ، عن طريق عرضها في صور حية تخفف من ذلك الجفاف .

ب- استحضار الماضي ، وإعادة إحيائه ، ذلك أن الماضي يفقد الحدث توهجه ، وفعله التأثيري في النفس ، مما يحتاج معه إلى استثمار التصوير في سبيل إعادة التفاعل النفسي معه .

ج- بيان مجال العبرة ، والعظة ، والدرس المستفاد المستلهم ، بما هي وظائف نفسية في الأساس تحتاج إلى صياغات تصويرية معينة على تحقيق هذه الغايات النفسية .

٢/٤ تفاعل النصوص وأثرها في كتابات عبد الحليم عويس : مقال في التناص

لجأ الدكتور عبد الحليم إلى الاقتباس مما سبقه من النصوص ، لأغراض مختلفة ، و استثمار النصوص القديمة ، يصنع نوعا من التفاعل الخالق لعدد من الدلالات هي الحامل أو الباعث على التناص معها ، أو الاقتباس منها .

و قد تنوعت النصوص الداعمة المنقولة من قبل عبد الحليم عويس للأغراض المختلفة ، وتوزعت هذه النصوص على الأنواع التالية :

أ- آيات من القرآن الكريم .

ب- أحاديث نبوية شريفة .

ج- أبيات من أشعار العرب .

د- نصوص ونقول من المؤرخين ، والمفكرين .

هـ- توظيف شخصيات ، ولاسيما التاريخية و الدينية .

و- توظيف أماكن .

و قد اتخذ الاقتباس ، أو التناص شكلين أساسيين هما :

أ- إعادة توظيف النص ، باستثمار روحه و مفرداته في صياغات جديدة يقوم عليها الراحل الكريم .

ب- استعمال النصوص كما هي من دون إعادة صياغتها .

و فيما يلي محاولة لفحص طريقة الرجل في التعامل مع النصوص القديمة تحقيقا لعدد من الأغراض والوظائف والفوائد .

ومن أمثلة النمط الأول من الاقتباس المتمثل في استثمار روح بعض النصوص القديمة عن طريق إعادة توظيف كلمة مركزية أو أكثر من النص القديم خلقا لقدر من الرمزية المعبرة ، يقول في كتابه (المسلمون و معركة البقاء) (ص٦) : « وهذه الدراسة حصاد عامين ، تقلبت فيهما من بلد إلى بلد . . . و راقبت عن طريق اللقاءات المباشرة ، و التقارير الوثيقة أحوال هذا العالم الإسلامي الذي يبدو الآن ، وفي دورة أخرى من التاريخ ، وكأنه عاد ليكون « قصعة » يقتسمه فيها وواضح أن الكلمة المركزية الكاشفة عن الاقتباس و التناص هي : كلمة (قصعة) وهي محور حديث شريف ذائع في الناس ، يصور حالة الأمة المسلمة ساعة تقع فريسة الوهن ، و التعلق بالحياة المريضة ، يقول ﷺ . كتاب الملاحم ، باب في تداعي الأمم على الإسلام [فيما أخرجه أبو داواد في سننه / ٤ / ١٠٨ حديث رقم ٤٢٩٧] عن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ : « يوشك الأمم أن تداعى عليكم ، كما تداعى الأكلة إلى قصعتها » فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ ؟ قال : « بل أنتم كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن » فقال قائل : يا رسول الله : وما الوهن ؟ قال : حب الدنيا و كراهية الموت » وظاهر أن القصعة تحولت إلى رمز كاشف عن حالة الوهن و التراجع الذي أصاب الأمة في العصر الحديث .

و الطريقة الغالبة على اقتباسات الدكتور عبد الحليم عويس هي الطريقة الثانية التي تعتمد نصوصا متنوعة بصورتها النصية الكاملة من دون إعادة استثمارها ، أو صياغتها ، ولكن استعمالها بما هي ضفيرة بصورتها لغرض دلالي من الأغراض .

ومن أمثلة ذلك قوله في كتابه (الإسلام كما أومن به) (ص ٢٤) : « وكثيرا ما يعمد القرآن إلى ترك النافذة مفتوحة أمام التطور البشري فعندما يعدد وسائل المواصلات يقول :

﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

(النحل : ٨)

فهذا الاقتباس الكريم جاء بنص كامل من الذكر الحكيم لغاية بيانية إيضاحية للفكرة الموجودة في الكلام الذي يطرحه الراحل الكريم رحمه الله .

و قد يأتي الاقتباس لغرض أو وظيفة تدليلية تدعم وجهة النظر التي يطرحها الدكتور عبد الحليم عويس في كتاباته المتنوعة ، وهي وظيفة توكيدية خالقة للاقتناع ؛ وحاملة على الإيمان بالفكرة من قبل من يقرءونها ، يقول مثلا في كتابه (تفسير التاريخ علم إسلامي) : (ص ٢٩٨) : « إن استعراض الصور التي يبدو منها أن ما بين الإنسان و الإنسان (صراع) بكل حدته وعنفه ، ليست في حقيقتها صورا تنبع من جانب أصيل في الفطرة الإنسانية ، وإنما هي بذور ألقاها الشيطان . . . كما أن الآيات الواردة في سورة الفرقان على إيجازها تؤكد هذا المعنى أيضا :

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ۗ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا ﴾

(الفرقان : ٢٧ - ٢٩)

فالرجل رحمه الله كان على وعي ظاهر وهو يقتبس الآيات الكريمة بأنها داعمة ومؤكدة للحقيقة التي يريد أن يقرها ، ويصل بها إلى ذهن القارئين ، والمتمثلة في أن الصراع الإنساني ليس أمرا فطريا ، وإنما هو من صناعة

الشيطان، وهو يصل إلى هذا عن طريق استثمار النص الكريم ليدعم و يؤكد، و يدلل على رأيه.

وفحص نصوص الاقتباس المختلفة مقصود من وراء توظيفها عدد من الوظائف يمكن إجمالها فيما يلي :

اولا- الوظيفة المعرفية: أى أن النصوص المقتبسة المنقولة عن السابقين تستهدف صناعة المعرفة، و إنتاج العلم، و التعليل للآراء، وتفسيرها

ثانيا - الوظيفة الإقناعية: أى أن النصوص المقتبسة تسعى لحمل المقول على الاقتناع بالقضايا التى يعبر عنها الكلام، وهو ما يعنى توظيف النصوص للتدليل على القضايا الفكرية، و دعمها، وتوكيدها .

ثالثا- الوظيفة الوجدانية العاطفية التأثيرية: أى أن النصوص المقتبسة تستهدف التأثير النفسى و الانفعالى، والوجدانى فى جماهير القارئين، تحقيقا لتعاطفهم مع الآراء المطروحة .

رابعا- الوظيفة الفنية الجمالية: وهو ما يحققه تعيينا اقتباس النصوص الشعرية ولاسيما إذا ما حللنا بنية هذه الأشعار فى تغذيتها للذائقة النفسية بما تتضمنه من موسيقية، وفى تغذيتها للمخيلة بما تتضمنه من صور وخيالات .

وهذه الوظائف الأربعة مرصودة للاقتباس، مرصودة للاستشهاد المرجعى أو النصوص المنقولة؛ ذلك أن التوثيق فى البحوث العلمية يستهدف هذه الوظائف جميعا، ولاسيما الوظيفتين المعرفية والإقناعية التدليلية

(خاتمة)

سبق فى هذه الصفحات القليلة التوقف أمام لغة الدكتور عبد الحليم عويس سعيا لتعيين ملامح كلية عامة لأسلوب الرجل رحمه الله تعالى.

و قد ظهر من خلال هذا الرصد مجموعة من النتائج الكلية يمكن إجمالها فيما يلى :

- أولا- حرص الراحل الكريم على نهضة الأمة المسلمة، و استعادة قوتها فى ظل نفخ الروح فيها باستعادة الفهم الأصيل لعصبها الأصيل المتمثل فى الفكرة الإسلامية .
- ثانيا- آثر الراحل الكريم نوعا معينا من المعجم موزع على حقول دلالية نوعية محددة تتركز على حقول الإسلام والإيمان، و النهضة و الترقى، و السقوط و التشتت و الضعف، و الفساد الداخلى و التناحر إلخ
- ثالثا- آثر الراحل الكريم التراكيب الاسمية، أو الجمل الاسمية لغرضين ظاهرين هما :تأكيد الحقائق المعبرة عنها، و تأكيد ديمومتها الزمنية .
- رابعا- اتسمت تراكيب عبد الحليم عويس فى مؤلفاته بالطول، الذى تحقق بتقنيات مختلفة لأغراض كثيرة ظاهرة .
- خامسا- اتسع نطاق توظيف التصوير فى كتابات الراحل الكريم، ومع أنها جاءت فى الغالب صورا نمطية تقليدية، لكنها لم تكن صورا ميتة، ولا مبتذلة، بل جاءت حيوية فاعلة، محققة و خالقة لعدد وافر من الوظائف
- سادسا- اتسع نطاق الاقتباس، أو التناص مع النصوص القديمة المتنوعة قرآنا كريما، وحديثا شريفا، ونصوصا نثرية متنوعة، وأشعارا، لأغراض ووظائف معرفية و عقلية ووجدانية وتوثيقية ونحوها.

رحم الله العالم الجليل الراحل الدكتور عبد الحليم عويس، ونفع بعلمه و رزقه أجر كل من تعلم و يتعلم منه .

من تاريخ الشعر الصوفى



أ.د: محمود عزب
أستاذ الحضارة الإسلامية
بالمعهد الوطني للغات والحضارات الشرقية

تمهيد:

تلك دراسة تدخل في إطار بحث تقني للشعر الصوفي في مرحلة دقيقة وخاصة من مراحل تطوره، الشعر الصوفي الفصيح، وليس الشعر الشعبي، شعر الحب الإلهي نحاول رصده في تربعه على القمة العليا مع ابن الفارض وابن العربي، ثم نرافق تزحزحه عن هذه القمة سائرا إلى مرحلة جديدة مؤذنة بالهبوط. أما مرحلة الاستواء على القمة فقد اخترنا لها ابن الفارض سلطان العاشقين، في تائيته الكبرى، وأما بداية التوقف قبل بداية الهبوط أو خلاله فقد اخترنا لها تائية محمد وفا. الأولى تقع في ٧٦٠ بيتا والأخرى في ألف واثنين. كلتاهما تائيتان، أي على قافية التاء المكسورة كسرة طويلة، أي تنتهي بياء، وكلتاهما كتبتا على بحر الطويل:

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن
فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن

وكلتاهما منشورتان ضمن ديوان يجمع عشرين تائية صوفية، ولكن هذا الديوان الذي جمعه وأعده الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي الحسيني الشاذلي الدرقاوي ملئ بالأخطاء وبالخلط في تواريخ وفيات أصحاب القصائد، فهو يبدأ بالغزالي وتائية منسوبة إليه ويضع أمام اسمه ٤٥٠-٥٥ هـ؟ ثم تجده يعود تحت اسم الغزالي في مطلع القصيدة فيحدد تاريخا عجيبا ٤٥٠- ٥٥٥ هـ / ١٠٥٨- ١١٦٠م.

والصحيح أن الغزالي ولد سنة ٤٥٠ هـ/ ١٠٥٩م، بمدينة طوس بخراسان ومات سنة ٥٠٥هـ/ ١١١١م، في المدينة نفسها. ونحن على ثقة أنه جمع القصائد ونشرها كيفما اتفق ولم يحققها، أما تائية ابن الفارض فإن ترتيب أبياتها في هذا الديوان الجامع يختلف عنه في ديوان ابن الفارض بتقديم مهدي ناصر الدين، كما أن في هذا الديون الجامع بيتا لا يرد في ديوان الفارض وهو:

فما عالم إلا بفضلي عالم
ولا ناطق في الكون إلا بمدحتي

وعلى أية حال فنحن بعد المقارنة بين الكتابين نفضل دراسة نسخة ديوان ابن الفارض على ديوان تائيات الصوفية.

وإذا كانت نسخة ديوان التائيات لاتحمل إلا نصوص التائيات دون أي تعليق أو إشارات من أي نوع، وإذا كانت نسخة ديوان ابن الفارض

تحمل في حواشيها شروحا مباشرة لمفردات وعبارات، لكننا لم نرجع إليهما إلا فيما يخص النص المباشر، أي تائية ابن الفارض وتائية وفا فحسب، لأننا نركز بالدرجة الأولى على رؤية الجانب التقني اللغوي والشعري ودورهما في خدمة المضمون والرقي به لاستكناه مظاهر التطور أو التغير في هذه الجوانب من خلال المقارنة.

أما فيما يخص تائية وفا الألفية فقد اعتمدنا نسخة: المورد الأصفى - إخراج محمد إبراهيم محمد سالم بعد إطلاعنا على النص في نسخة ديوان التائيات والذي لا يورد إلا ٣٥٢ بيتا فقط، كما أن جامع التائيات العشرين يبدو بعيدا عن مجالي اللغة والنحو والصرف شأنه شأن شارح ديوان وفا، ولذا فإن النسختين مليئتان بالأخطاء النحوية والصرفية والعروضية، بزيادة حروف أو نقصانها مما يصيب الأبيات بكسر لقواعد النحو والصرف والعروض.

ويبدو أن نقص كفاءة أكثر من يهتمون بهذا الشعر الصوفي في تلك المجالات أو سهوهم أو تسرعهم في الجمع والنقل يتسبب في هذه المشاكل. ويبدو أن أكثر الدراسات الحديثة لهذا الضرب من الشعر أو للشعر عموما مازالت واضحة النقص والقصور في هذا الجانب.

وقبل أن ننهي هذا التمهيد الذي نراه ضروريا، يهمنا أن نشير إلى أن حديثنا عن الشعر العربي عموما، وعن هاتين التائيتين، ومرورنا بالمعارضات خصوصا قبل الإشارة إلى معارضة وفا لابن الفارض، يعتمد بدرجة كبيرة على حفظنا عن ظهر قلب أغلب قصائد العربيه دون رجوع إلى الدواوين مباشرة.

كما نشير كذلك إلى أن هذا البحث يعتبر استمرارا واستكمالا لبحث سبق نشره بعنوان: «الحب والخمر من الشعر الدنيوي إلى الشعر الصوفي» من منشورات دار هلا للنشر والتوزيع بالقاهرة سنة ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٥م.

ومازلنا نأمل الاستمرار في البحث والقراءة التحليلية للشعر الصوفي في مختلف مراحله التاريخية وتطوراته التقنية.

الإشكالية:

ولد «الشعر الصوفي» يافعا قويا، فقد انبثق من أحضان شعر قوي حقا هو «شعر الحب العذري» الذي نما وازدهر في العصر الأموي (٤١هـ / ٦٦١م إلى ١٢٦هـ / ٧٤٤م).

ونحن نعني بعبارة: نما وازدهر، الجانب التقني في اللغة والتركيب والرقة والدقة والرمز والصورة الشعرية والعروض والقوافي.. وبالتالي قوة المحتوى وسلاسة المعنى وفخامته.

وقد فصلنا في البحث المشار إليه عن «الحب والخمر من الشعر الدنيوي إلى الشعر الصوفي» أن نتائج القرآن وثماره الأدبية والشعرية لم تظهر فور نزوله وهذا أمر طبيعي منتظر إذ كان لابد من الانتظار حتى يتفاعل مع الثقافة العربية ويتغلغل هذا التفاعل في نفس العرب والمستعربين ويدخل إلى أعماقهم بتراكيبه وصوره ورمزيته وخياله وإيماءاته وإشاراته وتلميحاته.. حتى يظهر شعر مجنون ليلى، وكثير عزة، وجميل بثينة.. وانظر إلى هذا الأخير إذ يقول:

وإني لأرضى من بثينة بالذي
لو أبصره الواشي لقرت بلابله
بلا.. وبألا أستطيع وبالمنى
وبالأمل المرجو قد خاب آمله

وإلى قول آخر:

وإني لَتَعْرُوني لِذِكْراكِ هِزَّةٌ
كما انتفض العصفورُ بَلَّله القَطْر
تكاد يدي تندى إذا ما لمستها
وينبت في أطرافها الورق النضر

ومن الواضح الجلي أن الحب ومفهومه قد تطورا ودقا وارتقيا من لدن شعر الجاهلية وصدر الإسلام، والذي لم يهذب سريعا شعر الحب، وانظر إلى صور كعب بن زهير في «بانت سعاد» ثم انظر إلى صور عمر بن أبي ربيعة في بدايات العصر الأموي فهو يبدأ درجات ويمثل انتقالا وتحولا إلى شيء من الرقة والسلاسة وإن غلبت عليه روح المغامرة والبحث عن اللذة القريبة، فهو عندما يقول:

فلمّا أجزنا ساحة الحيّ قُلنَ لي
أما تتّقي الأعداء والليل مقمرُ
وقلنَ أهذا دأبكَ الدهرَ سادرا
أما تستحي أو ترعوي أو تفكر

يذكرنا بقول امرئ القيس:

فلمّا أجزنا ساحة الحيّ وانتحى
بنا بطنُ خبْتٍ ذي حقافٍ عقنقل
هصرت بفودي رأسها فتمايلت
علي هضيم الكشح ريّا المخلخل

وكان لابد من الانتظار، حتى نغوص في قلب العصر الأموي لنرى رقة وسموا في العواطف ونبلا في السلوك بالحب، فنعاصر قيسا مجنون ليلى العامرية، ونشاهد كثير عزة، ونسمع جميل بثينة، فيبدأ عهد جديد بالحب عند العرب والمسلمين.

من هنا يبدأ الترقي بالمشاعر والإحساس والوجدان، ومن هنا يبدأ شعر الغزل العفيف، ومن هنا سوف تفتح أبواب تؤدي إلى دروب شعر الحب الصوفي، الحب الإلهي أعلى درجات الحب. فالحب الإنساني وشعره هو أصل الحب الصوفي الإلهي وشعره. ونقصد أثناء كل ذلك الرقي باللغة والتعبير والتقنيات الشعرية الرقيقة الرامزة المشيرة الملمحة. فالحب الإنساني شرط أساسي للحب الصوفي كما يقول علم النفس وكما ستؤكد سير المتصوفين ولذا اتفقت لغة هذا ولغة ذاك أو هي توشك تتفق حتى تقترب من التوحد.

وسوف يتفجر هذا الشعر منذ ولادته وعند قصائد رابعة العدوية (ت ١٣٥هـ / ٧٥٢م) حتى يصل إلى قمته الإبداعية والجمالية والتقنية مع عمر بن الفارض سلطان العاشقين (ت٦٣٢هـ / ١٢٣٤) ثم مع الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي (ت٦٣٦هـ / ١٢٤٠) ثم كما قلنا في الحب الخمر... إن عالم شعر الحب والخمر الصوفيين يصعد إلى قمته الفنية والشعرية واللغوية مع سلطان العاشقين والشيخ الأكبر، ثم يبدأ بعدهما في الانحدار والضعف كما سنرى وتلك سنة التطور الأزلية الأبدية التي لا محيد عنها ولا مناص.

تبوقى البدور النقص وهي أهلة
ويدركها النقصان وهي كوامل

فهيا نتابع مع مسيرة الشعر، شعر الحب الصوفي إبان تطور نوعي كبير وتغير أو هبوط في مستوى تقنياته ولغته وصوره.

نزعم أن الشعر الصوفي قد وصل إلى قمة تألقه التقني مع اثنين من أكبر رموزه وهما ابن الفارض وابن عربي.. وقد توفيا والعصر الأيوبي يوشك أن ينتهي تماما ليقوم على أنقاضه عصر سياسي وثقافي جديد هو العصر المملوكي.

ونحن لا نستطيع القول بأن الفكر والأدب

والعلوم والفنون توجد كلها فجأة مع بدايات عصر سياسي جديد، كما أنها قد لا تنتهي وتسقط كلها مرة واحدة مع نهاية عصر منصرم، ولذا فإن تقسيم عصور الأدب والفن والعلم حسب تقسيم العصور السياسية وانحطاط الدول وقيام الدول أمر غير دقيق علميا، ولكننا نستخدمه بشكل مجازي تقريبي.

وسوف نستعير هنا مقولة كارلو نالينو في كتاب تاريخ الآداب العربية ص٦٤:

«وقصارى القول أن قسمة تاريخ الآداب أقساما محصورة محدودة إنما هي وسيلة لتسهيل بيان سير الآداب في مدارج الترقي أو رجوعها القهقري، فالحدود المعينة لكل عصر هي كالأعلام التي كان أهل البدو ينصبونها في البراري والقفار ليهتدي بها ابن السبيل ولا يضل في تلك الأراضي المستوية الجرداء والرمال المتساوية والكثبان المتشابهة المتوالية».

وكان الانحطاط في العلم والأدب والشعر والفن قد بدأ رويدا في نهايات العصر العباسي .. وخلال العصر الأيوبي والمملوكي.. ونقصد به الانحطاط في الجانب التقني واللغوي والصور الشعرية، ولكن ذلك لا يمنع ظهور ومضات متفردة لبقايا عصر القوة والازدهار بل هي أمثلة اكتمال واقتدار فني في الشعر الصوفي كبير، ويهمنا هنا مثالان متفردان هما شعر ابن الفارض وشعر ابن العربي.

ويصدق على هذين وغيرهما إن وجد ما قيل في مثل هذا الشأن من أنه، كما ورد عن ابن خلدون، ص ٢٥٦ ط بيروت ١٨٧٩م:

«ربما يحدث ذلك عند آخر الدولة قوة توهم أن الهرم قد ارتفع عنها، ويومض ذبالها إيماضة الخمود كما يقع في الذبال المشتعل، فإنه عند مقاربة انطفائه يومض إيماضة توهم أنها اشتعال وهي انطفاء».

ونزعم إذا أن الشعر العربي عموما، وأن الشعر الصوفي على وجه الخصوص قد دخل مرحلة ضعف وانحطاط في العصر المملوكي وحتى لا نبقى في العموميات النظريات، سوف نحصر موضوع تحليلنا النقدي التطبيقي في دراسة محددة وهي قراءة مقارنة لقصيدتين ملحميتين من الشعر الصوفي نظنهما من أطول الملاحم في هذا الشعر على الإطلاق وهما التائيتان الكبريان:

- أولاهما هي التائية الكبرى لابن الفارض من العصر الأيوبي.
- وأخراهما لاحقة عليها وهي التائية الكبرى لمحمد وفا من العصر المملوكي.

وسوف نحصر الدراسة كما أشرنا آنفا في جوانب محددة مثل الجانب التقني الشعري، كالعروض والقافية والصورة الشعرية، ثم البديع على وجه الخصوص من جناس وطباق، ثم اللهب بتزاحم المشتقات ذات الأصل الواحد وتجاورها إلى درجة الإلغاز أحيانا عند ابن الفارض وغالبا إلى درجة الإسراف عند وفا ثم النواحي الصرفية والنحوية وعلاقة ذلك بالمضمون ثم الوقوف خصوصا عند التضمين من القرآن أو السنة أو شعر سابق أو أدب شعبي نلمحه عند ابن الفارض خصوصا مثل الإشارة إلى «خيال الظل» وتوظيفه في سياق صوفي وتضمين أسماء الأعلام من التراث القديم، ورصد ذلك كله في خدمة المضمون وفي إيضاحه.

يتبع

حث الإسلام على الإخلاص [١]



فضيلة الشيخ فوزي فاضل الزفزاف
عضو مجمع البحوث الإسلامية

يستقبل المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها في هذه الأيام المباركة شهر رمضان الكريم، شهر البر والإحسان، شهر الخير والبركات، شهر الإكثار من الطاعات والتزود بالحسنات.

ولكن هل كلُّ مَن صام رمضان – صومًا حسيًا – بالإمساك عن الطعام والشراب في نهاره نال خيره، وحظي بثوابه، وخرج منه مغفورًا له؟؟! أم هو من الذين يصدق فيهم: رُبَّ صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش!!

ورسول الله ﷺ يرشدنا إلى أن الصيام حسي ومعنوي، وهما متلازمان لا يفترقان؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس الصيام من الأكل والشرب، إنما الصيام من اللغو والرفث، فإن سابك أحد أو جهل عليك فقل: إني صائم إني صائم»(١). هذا الحديث النبوي يرشدنا فيه الرسول عليه الصلاة والسلام إلى أن الصوم الحسي لا اعتبار له، ولا جزاء عليه ما لم يصاحبه الصوم المعنوي، وهو الإمساك عن ردىء الكلام وفحشه وبذيئه، والامتناع عما يفعله الجهال من الانفعال والصياح، والسفه وبذاءة اللسان، وعن إيذاء الناس والاعتداء على حقوق الآخرين.

ويصوِّر لنا رسولُ الله ﷺ أبلغ تصوير في حديثه الشريف العاقبة السيئة المخزية لمن يفقد الصوم المعنوي؛ فعن عُبَيد مولى رسول الله ﷺ: أن امرأتين صامتا، وأن رجلًا قال: يا رسول الله إن ههنا امرأتين قد صامتا، وأنهما قد كادتا أن تموتا من العطش، فأعرض عنه، أو سكت، ثم عاد، وأراه قال: بالهاجرة، قال: يا نبي الله إنهما والله قد ماتتا، أو كادتا أن تموتا؟ قال عليه الصلاة والسلام: «ادْعُهما» ثم قال: فجاءتا، قال: فجيء بقدح، فقال لإحداهما: «قيئي»؛ فقاءت قيحًا ودمًا وصديدًا ولحمًا حتى ملأت نصف القدح، ثم قال للأخرى: «قيئي» فقاءت من قيح ودم وصديد ولحم عبيط وغيره حتى ملأت القدح، ثم قال: «إن هاتين صامتا عما أحل الله لهما، وأفطرتا على ما حرّم الله عليهما، جلست إحداهما إلى الأخرى فجعلتا تأكلان من لحوم الناس»(٢).

١) ابن ماجه وابن حبان والحاكم.
٢) أحمد وأبو داود والبيهقي.

فهاتان المرأتان اللتان صامتا الصوم الحسّيّ، وضعفتا من شدة الجوع والعطش، فقدتا الصوم المعنوي، فجلستا تتحدثان بذكر سير الناس وذمهم، وأرخيا العنان في الغيبة والنميمة وتعداد مساوئ غيرهما. فصامتا عن الطعام والشراب، وأفطرتا على هتك أعراض الناس وذمّهم وتعداد عيوبهم، فكان ذلك هو عاقبتهما وجزاء صيامهما!!

إن الجمع بين الصيام الحسّي والمعنوي لا يتحقق ولا يتم للصائم إلا بالإخلاص، فمقاصد الناس في أهدافهم وغاياتهم من أقوالهم وأفعالهم تختلف.. والإسلام يرقب بعناية واهتمام ما يقارن أقوال وأعمال وأفعال الناس من نيات، وما يلابسها من عواطف وانفعالات، وما يدفعها من بواعث ونزعات تسوق المرء إلى قول هذا القول أو إلى فعل هذا العمل، وتدفعه إما إلى: إجادته وحثه على بذل الجهد في صنعه، وإغرائه بتحمل التعب في تنفيذه... وإما إلى جعله غير مهتم بجودته، وغير مكترث بكمال صنعه، غير باذل جهده في إنجازه... وذلك يرجع إلى وجود الإخلاص أو فقده عند القول أو العمل... فالإخلاص هو الأساس في قبول الأقوال والأعمال عند الله، وهو الأساس في قبول الدعاء واستجابته، فالعمل الصادر عن الإنسان - أيًا كان - إذا قصد به صاحبه وجه الله، وظهرت الشواهد على ذلك، فإنه يُعد عملًا مُخلصًا، لأنه خالص من الشرك والرياء والمراءاة والشهرة والتزلف إلى الرؤساء والحكام ومن بيدهم الجاه والسلطان... لأن العمل الإنساني قد يشوبه شيء ما من ذلك، فإذا صفا عن شوْبه، وخلص منه سُمي خالصًا. فالإخلاص ينافي الشرك والرياء والغش والخداع، والاحتيال والكذب والنفاق. ولذا قد نجد بين الإخلاص وبين الصدق قرابة معنى، قال الجرجاني: الفرق بين الإخلاص والصدق: أن الصدق أصل وهو الأول، والإخلاص فرع وهو تابع، وفرق آخر: أن الإخلاص لا يكون إلا بعد الدخول في العمل، أما الصدق فيكون بالنيّة قبل الدخول فيه، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[٣].

وكذلك يمتد الإخلاص إلى معنى الصراحة، ويلتقي بمفهوم الوضوح والأمانة والصفاء.

وإذا كانت كل المعاني السابقة التي تنافي الإخلاص من رياء وغش وخداع واحتيال وكذب ونفاق تمتد إلى الشرك بمعنى ما.. فإن من الشرك ما هو خفي وما هو جلي، وكذا الإخلاص يرد على قلب المسلم ويكون ذلك في المقصود والنية؛ ولذا يأتي الفعل على قدر النية، إما مُخلصًا أو غير مُخلص، فمن كان قصده من عمله الرياء فهو غير مُخلص، ومن كان غرضه التقرب إلى الله تعالى فهو مخلص، إلا أن العادة جرت بتخصيص الإخلاص على قصد التقرب إلى الله تعالى وتخليصه من جميع ما يشوبه ويكدره.

إن الإخلاص في العبادة يحقق الطمأنينة لقلب الإنسان، ويجعله يشعر بالسعادة والراحة وهدوء البال، وهو الذي يفرج شدائد الإنسان في الدنيا، ويهون عليه المصائب

٣) البخاري، الفتح ١، ومسلم.

والابتلاء والاختبار، وهو الأساس في قبول الدعاء واستجابة الله له...

عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار فدخلوه، فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم باب الغار، فقالوا إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم. فقال رجل منهم: اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق - لا أقدم في الشرب - قبلهما أهلا ولا مالا. فنأى بي في طلب شيء قوما فلم أرح - أرجع - عليهما حتى ناما، فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين، فكرهت أن أغبق قبلهما أهلا أو مالا، فلبثت - والقدح في يدي - أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر، فاستيقظا فشربا غبوقهما. اللَّهُمَّ إنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ، فَانْفَرَجَتْ شَيْئًا لَا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: وَقَالَ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ كَانَتْ لِي بِنْتُ عَمٍّ، كَانَتْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَأَرَدْتُهَا عَنْ نَفْسِهَا، فَامْتَنَعَتْ مِنِّي حَتَّى أَلَمَّتْ بِهَا سَنَةٌ مِنَ السِّنِينَ، فَجَاءَتْنِي، فَأَعْطَيْتُهَا عِشْرِينَ وَمِائَةَ دِينَارٍ عَلَى أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِهَا، فَفَعَلَتْ حَتَّى إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهَا، قَالَتْ: لَا أُحِلُّ لَكَ أَنْ تَفُضَّ الْخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ، فَتَحَرَّجْتُ مِنَ الْوُقُوعِ عَلَيْهَا، فَانْصَرَفْتُ عَنْهَا وَهِيَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَتَرَكْتُ الذَّهَبَ الَّذِي أَعْطَيْتُهَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ، فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ غَيْرَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ مِنْهَا، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: وَقَالَ الثَّالِثُ: اللَّهُمَّ إِنِّي اسْتَأْجَرْتُ أُجَرَاءَ، فَأَعْطَيْتُهُمْ أَجْرَهُمْ غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ تَرَكَ الَّذِي لَهُ وَذَهَبَ، فَثَمَّرْتُ أَجْرَهُ حَتَّى كَثُرَتْ مِنْهُ الْأَمْوَالُ، فَجَاءَنِي بَعْدَ حِينٍ فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ أَدِّ إِلَيَّ أَجْرِي، فَقُلْتُ لَهُ: كُلُّ مَا تَرَى مِنْ أَجْرِكَ مِنَ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَالرَّقِيقِ، فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ لَا تَسْتَهْزِئْ بِي، فَقُلْتُ: إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ، فَأَخَذَهُ كُلَّهُ، فَاسْتَاقَهُ، فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئًا، اللَّهُمَّ فَإِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ، فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ، فَخَرَجُوا يَمْشُونَ»[٤].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما قال عبد لا إله إلا الله قط مخلصا، إلا فتحت له أبواب السماء حتى تفضي إلى العرش ما اجتنب الكبائر»[٥].

عن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - قال: كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يتهجد قال: «اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت الحق ووعدك حق، وقولك حق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والساعة حق، والنبيون حق، ومحمد حق، اللهم لك أسلمت وعليك توكلت، وبك آمنت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم، وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت - أو - لا إله غيرك»[٦].

لقد كانت حياة الرسول ﷺ كلها إخلاص، فقد جاء في القرآن الكريم على لسانه ﷺ:

﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي﴾

(الزمر: ١٤)

٤) البخاري، الفتح، واللفظ له، ومسلم.
٥) الترمذي ٣٥٩٠.
٦) البخاري الفتح واللفظ له، ومسلم.

ظاهرة التطرف والغلو فى الدين

أ.د/ ربيع خليفة عبد الصادق
أستاذ العقيدة والفلسفة ووكيل كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالشرقية - جامعة الأزهر الشريف

التطرف فى اللغة معناه الوقوف، أو الجلوس فى الطرف، وأصل الكلمة فى الحسيات، ثم انتقل إلى المعنويات، كالتطرف فى الدين، أو الفكر أو السلوك، وبهذا المعنى فإنه بعيد عن الوسط، وبالتالى أكثر تعرضا للخطر والهلاك، وأبعد ما يكون عن الحماية والأمان، وهو يعنى الغلو والتشدد والتنطع .

وعلى الرغم من أن ديننا الحنيف، بمصادره المتعددة، يحذر من التطرف، وينفر أشد النفور من الغلو والتشدد، ويدعو إلى الوسطية فى كل شىء، فى الاعتقاد والتعبد والسلوك والأخلاق وفى التشريع، إلا أن انتشار ظاهرة التطرف والغلو وتفشى التعصب للرأى، واشتد فيها الجدل والخلاف، كل ذلك يدعونا إلى الانتباه، ويدعونا إلى دراسة الظاهرة، والوقوف على أصل هذا الداء، وتشخيصه تشخيصا صحيحا، وهذا أمر جدير بالاهتمام والرعاية، كما يجب أن تتضافر الجهود لإيجاد الحلول المناسبة لعلاج هذه الظاهرة .

أسباب انتشار ظاهرة التطرف الدينى

إن الأسباب كثيرة ومتعددة، منها ما يخص المجتمع والمحيط الإجتماعى، ومنها ما يخص الشخص ذاته، ومنها : غياب الوعى الدينى والفهم العميق للنصوص الشرعية، وتلقى الفتوى من غير المتخصصين، والملتزمين سلوكا وقولا . أدى إلى الخلط والفوضى فى المفاهيم، وبالتالى انعدام الوسط الثقافى الدينى السليم فى المجتمع، كل ذلك أدى إلى خلق وسط بديل للشباب، يشبعون فيه أهواءهم ونزواتهم .

فراغ الوسط الثقافى من الأكفاء :

عادة ما ينقاد الناس إلى الواعظ الكفء الملتزم ؛ لأنهم يرون فيه صورتهم التى يحلمون بها، فيلتفون حوله وينصرفون عن الوعاظ الآخرين، لعدم ثقتهم بهم، لذلك فإن اعتلاء المنابر، والتصدى لحلقات الدرس من غير أهل الاختصاص، حيث تحدث قطيعة بين المتحدث والمستمعين، فيلجئون إلى بدائل أخرى، تشبع نهمهم مثل الأشرطة الدينية والثقافية، غير الخاضعة للرقابة والتمحيص، فيتهافتون عليها بشكل مثير، ويتداولونها فيما بينهم، وهكذا تنشأ ثقافة بين هذه الأجيال، غير مسيطر عليها، فيجنحون إلى الإنحراف، ويصعب العلاج .

ضعف الإعلام الجماهيرى فى مواجهة هذه الظاهرة :

من بديهيات الأشياء أن الفكرة لا تقارعها إلا فكرة، حيث إن مصدر هذا التطرف هو الفكر، ولهذا لا يمكن التصدى له إلا بالفكر، ولا تقارع الشبهة إلا بالحجة، ومن الخطأ مقاومته بالشدة والبطش من البداية، بل من الواجب مخاطبة العقول أولا، ولما كان الإعلام الجماهيرى، بوسائله المتنوعة خير أداة لخوض مثل هذه المعارك، فإن ضعفه فى تناول هذه الموضوعات ومعالجتها، جعل المجتمع يفقد أقوى أسلحته فى مواجهة التطرف .

الجرأة من غير أهل الاختصاص على معالجة الموضوعات الدينية : إن ضعف البصيرة بحقيقة الدين، وقلة الفهم للفقه الإسلامى من غير أهل الاختصاص، وعدم التعمق فى فهم أسراره، والوصول إلى فهم مقاصده وعدم الإلمام بأسرار اللغة. كل ذلك يقودنا إلى معارك جانبية بعيدة كل البعد، عن قضايانا الكبرى التى تنطق بكينونة الأمة وهويتها ومصيرها . فترى منهم من يقيم الدنيا، ويقعدها من أجل حلق اللحية، أو الأخذ منها، أو إسبال الثياب، أو تحريك الإصبع فى التشهد، أو اقتناء الصور الفوتوغرافية، أو نحو ذلك من المسائل التى طال فيها الجدل، وكثر فيها القيل والقال، هذا فى الوقت الذى تزحف فيه العلمانية، وينتشر فيه الإلحاد والتبشير، وتتعرض الأقطار الإسلامية للغزو الفكرى والثقافى، الأمر الذى يدعونا إلى الاهتمام، وتوحيد الجهود للتصدى لهذا الغزو، والهيمنة الإستعمارية .

ما يخص الشباب فى ذاتهم : إن التدين فى الإنسان غريزة، تحتاج إلى إشباع، شأنها شأن الغرائز الأخرى، وعدم إشباعها يؤدى إلى قلق واضطراب نفسى، التطرف يمكن تفسيره بأنه نزوة تحتاج إلى إشباع، قد تكون عابرة تنتهى بعد أقل إشباع، وقد تستبد بصاحبها وتتمكن منه فلا تنتهى إلا بإشباع متواصل، وهذه النزوة تنجم غالبا عن أحد أمرين :

- فراغ روحى يحيط بالمرء .
- بطالة وعدم وجود سبل للرزق وكسب العيش .

وهذان سيؤديان فى نهاية المطاف، إلى أحد شيئين : إما إفراط فى التدين لإثبات الذات، وإظهارها بأنها متميزة ومحط أنظار الآخرين، فيحقق ذلك فى نفس صاحبها، شيئا من الرضى والإطمئنان، وإما التفريط الذى يؤدى إلى الكفر والإلحاد، فلا تبقى للقيم والفضائل مكانة فى نفوس هؤلاء، وقد يلجأ إلى الهروب من الواقع، واللجوء إلى تعاطى المسكرات والمخدرات، والنتيجة النهائية شاب مدمن محطم لا خير فيه .

موقف الإسلام من التطرف

الإسلام ينفر أشد النفور من الغلو، ويحذر منه، يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾

[المائدة : ٧٧]

وفى السنة النبوية لأكثر مما يحصى . روى أبو يعلى فى مسنده عن أنس بن مالك : أن رسول الله ﷺ كان يقول : "لا تشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم، فإن قوما شددوا على أنفسهم، فشدد عليهم فتلك بقاياهم فى الصوامع والديارات رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم [١]" . من أجل ذلك قاوم النبى ﷺ كل اتجاه، ينزع إلى الغلو فى التدين والفكر، على من بالغ من أصحابه فى التعبد والتقشف، مبالغة تخرجه عن الاعتدال الذى جاء به الإسلام .

١) سنن أبى داود ج ٤ ص ٢٧٦ .

منهج الإسلام

منهج الإسلام هو الوسطية في كل شيء، وهذه الوسطية هي التي سماها الله الصراط المستقيم، وهو منهج متميز من طرق أصحاب الديانات والفلسفات الأخرى، ومن المغضوب عليهم ومن الضالين، وهي إحدى الخصائص العامة للإسلام، التي ميز الله بها أمة الإسلام عن غيرها، يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾

[البقرة: ١٤٣]

فهي أمة العدل، والاعتدال التي تشهد في الدنيا، والآخرة عن كل انحراف يمينا أو شمالا عن خط الوسط المستقيم.

مظاهر التطرف

من مظاهر التطرف التعصب للرأي، وعدم الاعتراف بالرأي الآخر، وهو التعصب للرأي تعصبا لا يعترف معه للآخرين بوجود، وكذلك جمود الشخص على فهمه جمودا، لا يسمح له برؤية واضحة لمصالح الخلق، ولا مقاصد الشرع، ولا ظروف العصر، ولا يفتح نافذة للحوار؛ ليقارن ما عنده بما عند الآخرين، ثم يختار ما هو أرجح ميزانا.

- إلزام عامة الناس بما لم يلزمهم الله:

وهو إلزام التشدد دائما مع قيام موجبات التيسير، مع إلزام الآخرين به، وإن أعنتهم وأحرجهم، وترك ما هو أرفق لهم، وما يرفع الحرج عنهم في ضوء مقاصد الشريعة وأحكامها.

- التشدد في غير محله: ويكون في غير مكانه وزمانه، كأن يكون في غير ديار الإسلام، أو في قوم حديثي العهد بالإسلام، أو حديثي العهد بالتوبة.

- الغلظة والخشونة في التعامل مع الآخرين، والفظاظة في الدعوة: فالله يأمرنا أن ندعو بالحكمة والموعظة الحسنة، يقول الحق:

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾

[النحل: ١٢٥]

ولم يذكر القرآن الغلظة والشدة إلا في موضعين اثنين، الأول: عند مواجهة الأعداء حيث يتطلب الموقف الصلابة والقوة، وعزل مشاعر اللين، حتى تضع الحرب أوزارها، وفي هذا يقول الحق تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾

[التوبة: ١٢٣]

والثاني: في تنفيذ العقوبات الشرعية على مستحقيها، يقول الحق تعالى:

﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾

[النور: ٢]

وروى الإمام مسلم عن عائشة رضي الله عنها، أن النبي ﷺ قال: "إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه" ولم يذكر الإسلام الغلظة والشدة إلا عند مواجهة الأعداء، وفي تنفيذ العقوبات الشرعية على مستحقيها (٢).

- سوء الظن بالناس: الأصل في المتطرف هو الاتهام، والأصل في الاتهام الإدانة، خلاف ما تقرره الشرائع والقوانين: أن المتهم بريء حتى تثبت إدانته ومن خالف هؤلاء في رأي أو سلوك، تبعا لوجهة نظر عنده، اتهم في دينه بالمعصية، أو الابتداع أو احتقار السنة، أو ما شاء له من سوء الظن.

٢) مسلم – باب فضل الرفق رقم ٤٦٩٨.

- السقوط في هاوية التكفير: ويبلغ هذا التطرف غايته حين يسقط عصمة الآخرين، ويستبيح دماءهم وأموالهم، ولا يرى لهم حرمة ولا ذمة.

عيوب التطرف

- إنه منفر، لا تحتمله طبيعة البشر العادية، ولا تصبر عليه، ولو صبر عليه قليل منهم، لم يصبر عليه جمهورهم، والشرائع السماوية جاءت لتخاطب كل الناس.

- إنه قصير العمر، والاستمرار عليه غير متيسر، والإنسان بطبيعته ملول، وطاقته محدودة، فإن صبر يوما على كل التشدد والتعسير، فسرعان ما يكل، وقد يأخذ طريقا آخر، وينتقل من الإفراط إلى التفريط.

- إن الغلو في الدين لا يخلو من جور على حقوق أخرى، يجب أن تؤدى أو تراعى، وما أصدق ما قاله أحد الحكماء: ما رأيت إسرافا إلا وبجانبه حق مضاع.

العلاج

التعامل مع ظاهرة الغلو والتطرف تعاملا عقلانيا، ومعنى ذلك أن ننظر إليها نظرة واقعية، باعتبارها ظاهرة موجودة، ولابد من التعامل معها، حتى يتم احتواؤها، وبالعقل وحده يمكن الاهتداء إلى العلل الحقيقية الكامنة، وراءها، وعدم الانسياق وراء أحكام آنية، تنجم عادة من موقف عاطفي متشدد، ولا تصدر عن دراسة متأنية مستبصرة.

ملء الفراغ الروحي، وذلك من خلال:

- عقد المحاضرات الدينية والتثقيفية على مدار السنة.
- إعداد الخطباء الأكفاء.
- استغلال المناسبات الدينية كشهر رمضان مثلا لعقد الندوات والدروس الدينية.
- استكتاب علماء أجلاء لمعالجة موضوعات مهمة مثل: التعصب الديني، التعصب المذهبي، أسباب الاختلاف بين الفقهاء، الخلاف المشروع وغير المشروع، المعنى القرآني للدين والتدين، محاربة البدع والخرافات، معنى العقيدة الصحيحة.
- الإكثار من تأسيس المنارات العلمية.
- توظيف الإعلام بأجهزته المختلفة ووسائله لخلق وعي ديني سليم.
- تشجيع الكتاب الإسلامي.
- القضاء على البطالة وإيجاد فرص العمل.
- تشجيع الرياضة ودعم الأندية.
- إقامة المعسكرات الصيفية للتثقيف والترويح.
- دعم الهيئة العامة للأوقاف.
- تمكين القدوة والأسوة الحسنة من مواقع العمل والمسؤولية ومجتمعنا في أمس الحاجة إلى القدوة، في المسلك والمهارة في الأداء، والناس تريد رؤية أفعال تطبق، لا أقوال.

وختاما:

فإن معالجة هذه الوقائع بالعقل لهي خير سبيل لاستئصال شأفة كل تطرف أو انحراف، وهؤلاء الذين يمكن أن ينعتوا بالتطرف الديني، مع التأكيد على أنهم حالات فردية، هم أناس يحتاجون إلى رعايتنا واهتمامنا، كالمريض الذي يحرص أهله وذووه عليه، ويبحثون له عن الدواء الناجع لإسعافه، ويخففون آلامه، ولا يفكرون في نبذه، وترك علاجه، وحسبنا أن الله سبحانه وتعالى يخاطب نبيه قائلا:

﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾

[آل عمران: ١٥٩]

وبعد ذلك تقول الحكمة: الكي آخر الدواء.

تأملات فى السيرة

صلح الحديبية (٣)

لفضيلة الشيخ/ الطاهر الحامدى

سمعت قريش بخروج النبى ﷺ إلى مكة فقدموا خالد بن الوليد فى مائتى فارس لينظر خبر رسول الله ﷺ وأجمعوا على منعه من دخول مكة ومحاربته فجمع النبى ﷺ أصحابه لمشاورتهم فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: «أما بعدُ فيا معشر المسلمين أشيروا علىّ؟ أترونَ أن نميل إلى ذرارى هؤلاء الذين أعانوهم فنصيبهم فإن قعدوا قعدوا موتورين محزونين أم ترونَ أنْ نؤمَّ البيت فمن صدَّنا عنه قاتلناه؟» فقال أبو بكر رضى الله عنه: يا رسول الله إنما جئنا معتمرين ولم نجيء لقتال أحد، وأرى أن تمضى بوجهنا فمن صدَّنا عن البيت قاتلناه. ووافقه على ذلك أسيد بن الحضير وروى ابن أبى شيبة عن هشام بن عروة عن المقداد بن الأسود رضى الله عنه أنه قال لرسول الله ﷺ بعد كلام أبى بكر: إنا والله يا رسول الله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لنبيها:

﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾

(المائدة: ٢٤)

ولكن نقول اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون. هذا والثابت أنّ المقداد بن الأسود قالها يوم غزوة بدر ويُحتمل أنها تكررت فى أكثر من موقعة. والله أعلم.

فقال رسول الله ﷺ: «سيروا على اسم الله»، وحان وقتُ صلاة الظهر فاستقبل رسول الله ﷺ القبلة وصفّ الناسَ خلفه ودنا خالد بن الوليد فى خيله حتى نظر إلى رسول الله ﷺ وأصحابه فصف خيله فيما بين رسول الله ﷺ وبين القبلة فأمر رسول الله ﷺ عبّاد بن بشر رضى الله عنه فتقدّمَ فى خيله وقام بإزائه ثم ركع النبى ﷺ ركعة وسجد ثم سلّم فقاموا على ما كانوا عليه من التعبئة. ويبدو أن النبى (ﷺ) سلّم من ركعة أو بعد ركعة لمّا رأى العدو أمامه حيث لم تكن شرعت صلاة الخوف بعد. وقال العلماء إن المصلى إذا رأى خطراً محدقاً به أو بغيره أو بماله أو بمالٍ محترم له أو لغيره جاز قطع الصلاة بأن يسلم ليحافظ على ماله أو مال غيره وكذلك نفسه أو نفس غيره

وقال خالد بن الوليد: «قد كانوا على غرة لو حملنا عليهم أصبنا منهم» ولكن تأتى صلاة أخرى هى أحبُ إليهم من أنفسهم وأبنائهم فنزل جبريل على رسول الله ﷺ بين الظهر والعصر ببيان صلاة الخوف بقوله تعالى:

﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾

(النساء: ١٠٢)

فحانت صلاة العصر فصلى رسول الله ﷺ صلاة الخوف بأصحابه.

وفى رواية لأهل السير أن قريشاً أرسلت خالد بن الوليد طليعة لها على رسول الله ﷺ حتى تمنع رسول الله ﷺ فلا يدخل عليهم مكة ولم يكن يعلم به أحد من المسلمين لكن رسول الله ﷺ قال لهم حين مسيره إلى الحديبية: «تيمنوا» وفى رواية: «اسلكوا ذات اليمين بين زهور الحمض» - اسم موضع من الطريق يخرج على ثنية طريق المرار - «فإنّ خالد بن الوليد بالغميم فى خيل لقريش طليعة عليكم». حيث إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كره أن يلتقى بجيش خالد لأنه لا يريد حرباً ثم قال: «أيكم يعرف ثنية الحنظل؟» فقال بُريدة بن الحصيب أنا يا رسول الله عالم بها فقال له رسول الله ﷺ: «اسلك أمامنا» فأخذ بهم بريدة فى طريق وعر فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم وغبار جيش خالد يعلوهم فانطلق بركض نذيراً لقريش فسلك بريدة بهم طريقاً وعراً وسار حتى كأنه لم يعرفها قط قال: والله إنى كنت أسلكها فى الجمعة مراراً فنزل وتناوب المسيرَ بهم غيرُ واحد من الصحابة حتى نظر رسول الله ﷺ فقال: «هذه ثنية ذات الحنظل» فقال عمر: نعم يا رسول الله ثم قال عمر من شدة هول الموقف: والله لتهممنى نفسى وحدها فى ذلك الموقف - يعنى أنه مهتم بأمر نفسه فقط من شدة هول وصعوبة الطريق وضيقها - حيث كانت الثنية تضيق كشراك النعل ثم اتسعت لى حين برزت فكانت فجاجاً لاجبة حتى لقد كان الناس فى تلك الليلة يسيرون جميعاً من سعتها يتحدثون وأضاءت حتى كأنّا فى قمر.

وروى ابن إسحاق أنّ المسلمين لما خرجوا من الأرض الصعبة وأفضوا إلى الأرض السهلة قال رسول الله ﷺ: «قولوا نستغفرُ الله ونتوبُ إليه» فقالوا ذلك فقال ﷺ: «والله إنّها للحطة التى عُرضت على بنى إسرائيل فلم يقولوها» قال أبو سعيد: ثم قال رسول الله ﷺ يستحثُ أصحابه ويُبشّرهم: «لا يَجوزُ» - أى لا يَعْبُرُ - «هذه

صلح الحديبية (٣)

الثنية الليلة أحد إلا غُفِرَ له، فلما هبطنا نزلنا فقال أحد الصحابة : يا رسول الله تخشى أن ترى قريش نيراننا . فقال ﷺ : ـ يؤمن أصحابه وأنهم محفوظون بحفظ الله ـ فقال يطمئنهم : «لن يروكم» ثم إنَّ خالداً لم يشعر بهم إلا وقد نزلوا بذلك المحل فانطلق نذيراً لقريش . يقول الصحابي : فلمّا أصبحنا صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح ثم قال : «والذى نفسي بيده لقد غفر للركب أجمعين إلا رويكباً على جمل أحمر عليه رحال قوم ليس منهم» يقول جابر قال رسول الله ﷺ : «كلكم مغفور له إلا صاحب الجمل الأحمر» قال أبو سعيد : فطلب فى المعسكر فإذا هو عند سعيد بن زيد بن عمرو فقيل لسعيد إنّ رسول الله ﷺ قال كذا وكذا فقال له أبو سعيد : ويحك اذهب إلى رسول الله ﷺ يستغفر لك .

يروى أنّ الرجل أبى وذهب يطلب بعيراً له قد ضل فبينما هو فى الجبال إذ زلقت به نعله فتردّى فمات فما علم به حتى أكلته السباع ثم قال رسول الله ﷺ : «سيأتيكم أهل اليمن كأنهم قطع السحاب هم خير أهل الأرض» ولمّا دَنَا رسول الله ﷺ من الحديبية وسار براحلته القصواء فما هى إلا خطوات فبركت به راحلته فقال الناس للناقة «حل حل» صيغة تُزجرُ بها الناقة فأبتْ أن تنبعث . فقال المسلمون خلأت القصواء فقال رسول الله ﷺ :

«ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل» أى أنّ الله سبحانه وتعالى كما منع الفيل وأصحابه عن دخول مكة كذلك هو الذى منع ناقة النبى ﷺ عن دخول مكة لحكمة يعلمها سبحانه ثم قال رسول الله ﷺ : «والذى نفس محمد بيده لا يسألوننى اليوم خطة فيها تعظيم لحرمات الله تعالى إلا أعطيتهم إياها» كأنّى بالنبى ﷺ أدرك حكمة الله تعالى فى منع ناقته من المسير فقال لأصحابه ذلك، فلمّا أخبرهم بالحكمة من بروك القصواء وتحقق المعنى المقصود وفهِمَ أصحابُهُ ما أراد الله من ذلك ثُم زجرها رسول الله ﷺ فقامت فولّىَ راجعاً ويروى أنه عدل عنهم حتى نزل أقصى الحديبية على ماء قليل ولم يلبث الصحابة أن نزحوا الماء فاشتكى الناس إلى رسول الله ﷺ قلة الماء وفى لفظ العطش فانتزع سهماً من كنانته فأمرَ به فغرز فى الماء فجاشت البئر حتى إنّ الناس يغترفون منها بآنيتهم وهم على شفير البئر .

فأنت ترى أيها الأخ المسلم أنّ صلح الحديبية كما قلت لك ليست حرباً عادية ولا غزوة تستطيع أن تتبين مراميها ولا أن تفسر وقائعها إلا كما قلت لك هى تجليات ربّانية وإلهامات محمّديّة فكيف تفسر مسير رسول الله ﷺ إلى الحديبية؟ وكيف تجنّب لقاء خالد بن الوليد كراهة الحرب لا خوفاً منه؟ وكيف أنّ خالداً لم يرَ جيش رسول الله ﷺ ؟ وكيف أنّ المسلمين لمّا خرجوا من أرض صعبة إلى أرض سهلة قال لهم رسول الله ﷺ قولوا نستغفر الله ونتوب إليه؟ فما

هذا فى رأيك والقتال ؟ فبالله عليك هل انتصر المسلمون بالدعاء والاستغفار أم انتصروا بالسيف ؟فلماذا يرجف المستشرقون بذلك ؟ فتأمل بشرى رسول الله ﷺ لأصحابه «كلكم مغفور له إلا صاحب الجمل الأحمر» فما لمغفرة الله للجيش وموقعها عند المستشرقين ؟ وماذا فعل صاحب الجمل الأحمر حتى يُستثنى من هذه المغفرة ؟ وتأمل كيف أن القصواء ناقة رسول الله ﷺ بركت فى أرض الحديبية وأبتْ أن تتحرك ؟ وكيف فسّر النبى ﷺ ذلك ؟ فأعلن وقال والله ما يسألوننى اليوم خطة فيها تعظيم لحرمات الله إلا أعطيتهم إياها ؟ فهل فى ذلك عدوان أم سلام ؟ قارن ذلك بهرولة وزير خارجية أمريكا ووزير دفاعها وهما يهرولان إلى الشرق الأوسط يوزعان تهديداً يقلق المنطقة بأسرها ويزرع الفتن ولا يرى للسلام سبيلاً لكنه تهديد مغلف بعبارات خبيثة ماكرة قال فيما أذكر ـ إن لم تخنى الذاكرة ـ :إنّ أمريكا على استعداد أن تبنى مظلة تحمى بها أمن الخليج . قل لى بربك ما هى مظلة أمريكا التى تحمى بها أمن الخليج غيرَ الدمار الذى حمت به العراق والحماية التى زعم حلف الناتو ودمّر بها ليبيا وقطّعها أشلاء تحاول أن تلَمْلِمَ أشلاءها من هذا التدخُّل البغيض ؟ أحسَبُ أنّ الشيطان لمّا رفض السجود لآدم وأوعَدَهُ الله بالعذاب المهين قال كما أخبر الله تعالى :

﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

(الإسراء:٦٢)

﴿ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾

(الأعراف:١٧)

أحسَبُ أنّ الشيطان كان أكثر صراحة ووضوحاً من دهاء ومكر أصحاب الحماية المزعومة !!!

سلّمنا الله من دهاء حفدة الشياطين،
وإلى لقاء آخر إن شاء الله
والله أعلم

❁❁❁

طرائف... ومواقف

فضيلة الشيخ عبد الحفيظ محمد عبد الحليم

«كلمات إذا قلتهن نمت»

عن خالد بن الوليد -رضي الله عنه- أنه أصابه الأرق، فقال رسول الله ﷺ: «ألا أعلمك كلمات إذا قلتهن نمت؟» قال: «اللهم رب السماوات السبع وما أظلت، ورب الأرضين وما أقلت، ورب الشياطين وما أضلت، وكن لي جارًا من شر خلقك أجمعين أن يفرط عليّ أحد منهم أو أن يطغى.

«عز جارك، وتبارك اسمك» فقالهن فنام. (رواه الطبراني في الأوسط وابن شيبة في مصنفه).

«علامات حسن الخلق»

..جمع بعضهم علامات حسن الخلق فقال: هو أن يكون كثير الحياء، قليل الأذى، كثير الصلاح صدوق اللسان، قليل الكلام، كثير العمل، قليل الزلل، قليل الفضول، برًا، وصولاً، وقورًا صبورًا، شكورًا، رضيًا حليمًا، رفيقًا عفيفًا، شفيقًا، لا لعانًا ولا سبابًا ولا نمامًا ولا مغتابًا، ولا عجولاً ولا حقودًا، ولا بخيلاً، ولا حسودًا، بشاشًا هشاشًا، يحب في الله، ويبغض في الله، ويرضى في الله ويغضب في الله فهذا هو حسن الخلق.

ويروى أنه قيل لسيدنا عيسى -عليه السلام- من أدبك؟ قال: ما أدبني أحد رأيت جهل الجاهل شيئًا فاجتنبته.

«يوم عيد وخبز خشن»

دخل بعض الصحابة على الإمام علي- كرم الله وجهه- في يوم عيد، فوجدوه يأكل خبزًا فيه خشونة، فاعترضوا عليه قائلين: «يا أمير المؤمنين يوم عيد وخبز خشن» فقال لهم: اليوم عيد لمن؟!! اليوم عيد لمن؟! اليوم عيد لمن قبل بالأمس صيامه، وقيامه، عيد لمن غفر ذنبه، وشكر سعيه، اليوم لنا عيد، وغدا لنا عيد، وكل يوم لا نعصي الله فيه فهو لنا عيد»

«عاقبه على قدر ذنبه»

كتب عمر بن عبد العزيز -رضي الله عنه- إلى عامل من عماله: أن لا تعاقب عند غضبك، وإذا غضبت على رجل فاحبسه، فإذا سكن غضبك فأخرجه فعاقبه على قدر ذنبه، ولا تجاوز به خمسة عشر سوطًا.

«ولم أحقد على أحد»

لما عفوت ولم أحقد على أحد
أرحت نفسي من هم العداوات
إني أحيي عدوي عند رؤيته
لأدفع الشر عني بالتحيات
وأظهر البشر للإنسان أبغضه
كما إن قد حشى قلبي محبات
الناس داء وداء الناس قربهم
وفي اعتزالهم قطع المودات
فجامل الناس وأجمل ما استطعت وكن
أصم، أبكم، أعمى ذا تقيات
(الشافعي)

«أطيب الطيب»

قال أبو الأسود لابنته: إياك والغيرة فإنها مفتاح الطلاق، وعليك بالزينة؛ وأزين الزينة الكحل، وعليك بالطيب؛ وأطيب الطيب إسباغ الوضوء.

وكوني كما قلتُ لأمك في بعض الأحايين:

خُذي العفو مني تستديمي مودتي
ولا تنطقي في ثورتي حين أغضب فإني
وجدتُ الحب في الصدر والأذى
إذا اجتمعا لم يلبث الحب يذهب.

«فارق الحياة بلا دين ولا دُنيا»

خرج الشاعرُ الأعشى من «نجد» إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يمتدحه بقصيدة ويُسلم، فعرض له أبو سفيان فأعطاه مائة ناقة على أن يترك سفره ويعود إلى دياره، فأخذ الإبل وعاد وركب أحدها فهوجلت به فسقط على رأسه فاندقت عنقه، وفارق الحياة؛ بلا دين ولا دُنيا، أما قصيدته التي هيأها ليقولها بين يدي رسول الله ﷺ فهي بديعة الحُسن؛ يقول فيها:

شباب وشيب وافتقار وثروة
فلله هذا الدهر كيف ترددا
إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى
ولاقيت بعد الموت من قد تزودا
ندمت على أن لا تكون كمثله
وأنك لم ترصد لما كان أرصدا

«حِكَم»

اصبر لكل مصيبة وتجلد
واعلم بأن المرء غير مخلد
وإذا ذكرت محمدًا ومصابه
فاذكر مصابك بالنبي محمد

«الرشيد وحميد»

غضب الرشيدُ على حميد الطوسي، فدعا له بالنطع والسيف فبكى، فقال له: ما يبكيك؟ قال: والله يا أمير المؤمنين ما أفزع من الموت لأنه لا بد منه، وإنما بكيت أسفًا على خروجي من الدنيا وأمير المؤمنين ساخط علي، فضحك وعفا عنه.

«أبو العلاء المعري والغلام»

قيل إن غلامًا لقي أبا العلاء المعري، فقال: من أنت يا شيخ؟ قال: فلان، قال: أنت القائل في شعرك:

فإني وإن كنت الأخير زمانه
لآت بما لم تستطعه الأوائل

قال: نعم، قال: يا عماه إن الأوائل قد رتبوا ثمانية وعشرين حرفًا للهجاء، فهل لك أن تزيد عليها حرفًا، قال: فدهش المعري من ذلك، وقال: إن هذا الغلام لا يعيش لشدة حذقه، وتوقد فؤاده.

«فراسة»

طاف سائلٌ مكفوف البصر بشوارع «أصبهان» يسأل الناس على حسب عادته، فأعطاه رجلٌ رغيفًا، فدعا له السائل، وقال له: ردَّ الله غربتك؛ فقال له المتصدق: وكيف عرفت أنني غريب وأنت أعمى؟ فقال الرجل: لأني أسأل الناس في هذه المدينة منذ ثلاثين سنة، ما أعطاني أحد رغيفًا صحيحًا.

«دعاء»

يا رب ما قيمة ذنوب عبادك في جانب عفوك وغفرانك، يا واهبًا لكل ضمير نورًا، إذا لم تمنحنا نورك فأين نجد النور.

يا خالق الكون والزمان والمكان، ما أعمى بصيرة من لم يدرك أنك معه أينما كان وإلا فأين المكان الذي ليس فيه أمرك وقهرك.. وأين الزمان الذي ليس فيه حمدك وشكرك.

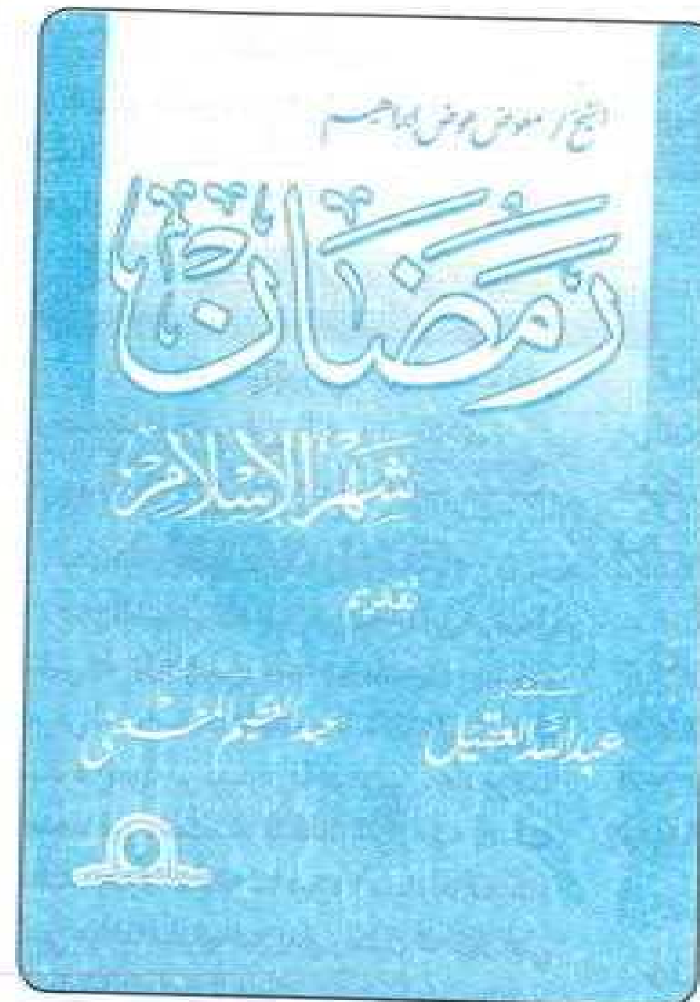
قراءة في كتاب

هـا قـد أظلنـا شَـهْرٌ عَظِيمٌ شَـهْرٌ مُبَارَكٌ شَهْرٌ أَوَّلُهُ رَحْمَةٌ وَأَوْسَطُهُ مَغْفِرَةٌ وَآخِرُهُ عِتْقٌ مِنَ النَّارِ

وصفه الرسـول الكريم بأنه شَهْرُ الصَّبْرِ.

وكان النبـي ﷺ إذا دخل العشر الأواخر من رمضان شد مئزره، وأحيا ليلـه، وأيقـظ أهله، ذلك لأنه شـهر الخير وفيه ليلة خير من ألف شـهر، من حُرم خيرها فقد حرم، وهو شـهر الجود والإحسـان؛ ولـذا كان- ﷺ -كما ثبـت في الصحيـح- أجـود ما يكـون في شـهر رمضـان. ولعلنا نتسـاءل: كيف نستقبل هذا الضيف الكريـم وكيـف نسـتغل هـذه الأيام المباركات حتي نكون من الفائزين؟

من أجل ذلـك كان اختيارنا لهذا الكتاب «رمضان شهر الإسلام» الذي يضم عددا من الخطب التي يسعي صاحبها إلي حث النـاس علي تلقف هـذه الفرصة العظيمة والأيـام المباركة لتنفيذ توجيهات رسـول الله ليفوزوا فوزا عظيما.



بقلم/ أ: عادل خفاجة

مؤلف الكتاب:

مؤلف الكتاب هو أسـتاذنا الشـيخ معوض عـوض إبراهيم، مـن مواليد عـام ١٣٣٢ هـ / ١٩١٢ م بالدقهلية مصـر، تخـرج فـي كلية أصـول الدين سـنة ١٩٣٩ م، وفي الدراسـات العليا في الدعـوة عام ١٩٤١ م، وعمل واعظا بالأزهـر بمصـر، ثـم مبعوثـا للأزهـر للوعظ والتدريس في بيروت لبنان بين عامي ١٩٥٦ م ١٩٦٢ م، ثم زار اليمن لعدة شهور، عاد بعدها فأتنـا المعهد الديني في بورسعيد عام ١٩٦٤ م، وعمـل بالوعـظ والتدريـس فـي العقبة من ١٩٦٥ م : ١٩٦٩ م، ثم عمل مفتشـا ومراقبا للوعـظ في القـوات المسـلحة، ومحاضرا في الدراسات العليا قسم الحديث في كلية أصول الدين حتي عام ١٩٧٣ م، ثم عمل مدرسـا في كلية الشريعة بالرياض عام ١٩٧٣ م، ثم باحثا علميا في رئاسـة البحوث العلمية والإفتاء إلي عـام ١٩٧٦ م، حيـث عمل بعد ذلك مدرسـا فـي كليتـي أصـول الديـن والحديث النبوي بالجامعـة الإسـلامية بالمدينة المنـورة، ومن عام ١٩٧٩ م إلي ١٩٨٧م عمل رئيسـا لقسم الدعوة في وزارة الأوقاف والشـئون الإسـلامية في الكويت، وزار الكليات الإسلامية في بلاد: كراتشـي، وبيشـاور، ولاهور، وإسلام أباد في باكستان، وزار البحرين مرات، وكذلك اليمن وقطـر وسـوريا وكتب للعديد مـن المجلات، مثل: مجلة نور الإسلام، والسياسة الأسبوعية، ومنبر الإسـلام، ولواء الإسـلام، وله مجموعة من المؤلفات، منها:

فلسطين وكيف نستردها عربيا؟

إنسانية العبادات الإسلامية.

ملامح من هذا الدين.

الإسلام وطرق هديه.

الإسلام والأسرة.

قبس من الإسلام.

ركائـز المجتمـع المسـلم فـي سـورة الحجرات.

مـع الإمـام البخـاري فـي كتـاب العلم من صحيحه.

نفحات من القرآن.

الرسالة والرسول في شعر أبي طالب.

مشاهد الوجود وشواهد التوحيد.

عنصر الهداية في القرآن الكريم.

الأولاد ودائع الله عندنا.

ذلك الدين القيم.

رمضان شهر الإسلام.

أما المؤلفات التي تحت الطبع، فمنها:

التقوي والمتقون في ضوء القرآن والسنة.

من أدب النبوة.

فلسطين وفقه النصر والتمكين.

الصوم في ضوء القرآن الكريم.

رجال ونساء في مجال القدوة.

من رحيق الإيمان «ديوان شعر».

جوانب من دعوات المرسلين.

دراسات في اللغة والأدب.

خطب الشيخ معوض عوض إبراهيم.

الكتاب:

يقع الكتاب فـي مائة وأربع وأربعين صفحة مـن قياس ١٧ X ٢٤ سـم وقد صـدرت الطبعة الأولي منه سنة ١٤٣٢ هجرية ٢٠١١ م

ويتكـون الكتـاب مـن سـتة فصـول هي: ياباغـي الخير أقبل، في حكمة الصوم، رمضان شـهر الإسلام، الصوم والجهاد، وداع رمضان، في موكب الشـعر. وقد حظي الكتاب بتقديم كل من الأسـتاذ الدكتور عبد العظيم المطعني الأستاذ بجامعة الأزهر والمستشـار عبد الله العقيـل الذي أشـار إلي أن الصيـام جاء ليؤكد الإرادة القويـة التي يتغيـر بها نظامه ونسـقه في هذه الحياة، ليظل قادرا في كل سـاعة علي الصيام وحفظ الجوارح.... وأن رمضان بمنزلة دورة تدريبيـة يمد المسـلم بالزاد الذي يكفيه طـوال العام، وهـو فرصـة لترسـيخ الصفات الطيبـة والأخلاق الحميدة، وتجعل المسـلم يدرك قيمة الوقت، ويسـعي لاستغلاله، وحسن اسـتثماره، فهو رأس ماله، وفرصته السـانحة لرفع منزلته في الدنيا والآخرة.

أما الأستاذ الدكتور عبد العظيم المطعني صاحـب التقديـم الثاني فقد وجه الشـكر إلي كل من فضيلة الداعية المفكر الشـيخ معوض عـوض إبراهيـم صاحب هذا الكتـاب وفضيلة الداعيـة الوفي الشـيخ أحمـد مصطفي فضلية -رحمـة الله عليه - الذي كان يعمل في صمت ويبحـث عن فكـر الدعـاة العمالقـة، يجمعه ويحققه وينسـقه، ويقدمه ثمارا دانية القطاف فيمـلأ الخواء الفكري عند الشـباب المتوثب

للمعرفة المستنيرة.

ثم يصف صاحب الكتاب بأنه قناص ماهر يغوص إلي الأعماق ويستخرج لنا الدرر النفيسة، ويجلو عنها ما علاها ليخرجها في ثوب قشيب.

ويصف حديثه عن شهر رمضان بأنه لا يقف عند القشور؛ لأنه لا يلهيه البريق عن اللب وإنما يبحث عن المعاني الرائعة وراء الجمل والمفردات مبرزا خبيئاتها التي تختفي مثيلاتها عن غيره من الكتاب.

أما مقدمة الكتاب التي خطها الشيخ الوقور أحمد مصطفي فضلية الذي جمع هذا الكتاب من أقوال الشيخ معوض فيوضح أن الكتاب عبارة عن باقة من مقالات كتبت، ومحاضرات ألقاها الشيخ الجليل علي طول مسيرته المباركة في ساحة الدعوة، ويوضح للقارئ أن التكرار الذي يلاحظه في مطلع كل رمضان إنما هو تلبية لحاجة العقل والقلب والوجدان وأن هذا التكرار في بعض المعاني هو تكرار يفيد القارئ ويعمق المعني ويرسخ القيم والمضمون.

يا باغي الخير أقبل

تحت هذاالعنوان كتب الشيخ:

«في ليلة مباركة من شهر رمضان سماها الله ليلة القدر كان محمد- ﷺ- فيها قد ضاق ذرعا بالجاهلية الجهلاء التي سيطرت علي الحياة في شتي منازل أهلها عربا وعجما فكان يهجر مكة مرة بعد مرة ويدع زوجه وبناته مرة بعد مرة، لينفرد عن دنيا قومه في دار حراء يتعبد لربه عز وجل الليالي ذوات العدد ثم يعود إلي أهله فيأنس بزوجه وبناته ويأتنس به، حتي تزوده خديجة- أوفي زوج- بما يحتاج إليه في غار حراء وهكذا نجد المؤلف قد وجد في هذا الموقف فرصة طيبة للحديث عن دور الزوجة وهو ما تلمسه في كلامه في موضع آخر حين يصف حال خديجة عند عودة النبي بعد أن ضمه الملك وهو يرجف فؤاده ويقول لها: «زملوني زملوني»

فنجد المؤلف يصف حال هذه الزوجة الوفية البارة بقوله: فكانت أسرع من رجع الصدى في إعداد المكان ورد كل الشواغل عنه.

ومرة أخري يلقي المؤلف الضوء علي دور الزوجة فيقول: ونام النبي -ﷺ- ما شاء الله له أن ينام واستيقظ يقص عليها خبر ما جري ثم يقول لها: «لقد خشيت علي نفسي» فإذا هي بكل الحنو والإشفاق وانطلاقا مما عرفته عن محمد وحديث الناس عنه أنه أصدق وأبر وأتقى لله عزوجل من كل من سواه تقول له: «كلا والله ما يخزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الدهر» وهي كلمات ألهمتها السيدة البارة التقية خديجة وكل جملة منها تؤلف أصفارا كبارا

ومن لطائف ما ذكر الشيخ في هذا الفصل قوله: ولما قرأ بعض الأئمة الآيات من سورة البقرة وانتهي من قراءتها إلي قوله:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾

(البقرة: ١٨٥)

فنادي الناس فقال: أيها الناس من لم يهتد بالقرآن فليس من الناس، أيكون من الناس الذين خلق الله لهم ما في الأرض جميعا وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة ثم هم ينسون ما في رمضان من نفحات وتجليات وبركات وهدايات ترتفع بهم عن كدر الطين في ذواتهم إلي مستوي

﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾

(الحجر: ٢٩)

ويا ويح من أظله رمضان ثم مضي عنه دون أن يغفر الله له.

إن المؤلف ليتمتع بحس عال في عرضه أحاديث رسول الله -ﷺ- فكثيرا ما سمعنا أحاديث رسول الله- ﷺ- عن رمضان والخير العميم الذي يغمر العباد فيه وكلما أقبل رمضان سمعنا من العديد من الدعاة حديث النبي يا باغي الخير أقبل.. ولكن صفاء الروح التي يتمتع بها أستاذنا ومعلمنا الكبير جعلته يقول: وطوبي لمن أرهف سمعه لرمضان والملك ينادي في لياليه يا باغي الخير أقبل ويا باغي الشر أقصر فأي دعوة تلك التي ينشدها المؤلف من المؤمنين لكي يرهفوا سمعهم ليسمعوا كلام الملائكة؟.

رمضان خير كله

في هذا الفصل من الكتاب يستوقفنا أسلوب المؤلف، وجودة صياغته للأفكار التي يلقيها حيث يقول: «إن رمضان خير كله، وما فرض الله عز وجل صيام أيامه وقيام لياليه إلا بعد أن اطمأنت النفوس بشهادة الإخلاص وكلمة التوحيد واليقين في الله وبعد أن فرضت الصلاة علي الرسول وأمته ليلة الإسراء والمعراج، ووصلت تلك العبادة القلوب بالقلوب بأكثر مما تحاذت المناكب، وتأهل المسلمون به بعد أن محصتهم الشدائد، وجعلتهم كأنهم على قلب رجل واحد، فهاجروا من مكة إلى المدينة، ووجدوا فيها أهلا بأهل وإخوانا بإخوان

﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

(الحشر: ٩).

وفي موضع آخر نجده يقول: «ألا ليتنا نصوم رمضان فيجدد منا الإيمان، ويصلنا بالقرآن، ويجعلنا والإخوة في الله كعين وأختها، وككف ومعصم، فيلقي الله عز وجل بذلك في صدور عدونا المهابة منا، وينصرنا على من كاد لنا ومكر بنا

﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾

(الحج ٤٠: ٤١).

إن أول النصر أن ننتصر علي أنفسنا فنميت الشهوات ونتنافس في الطاعات ونتعاون علي البر والتقوي ونذكر الله الذي يذكر من يذكره ويزيده من خيره من يحمده ويشكره ويتولي الصالحين».

رمضان نعمة إلهية

وتطل علينا بلاغة المؤلف مرة أخرى حين يقول: «إن لله عز وجل في أيام حياتنا ولياليها نفحات ينبغي أن يعرفها العقلاء، ويتعرضوا لها سراعا غير وانين في خيرها وبرها، وألا تذهلهم عنها فتن الحياة ولا مضلات الأهواء، فالأيام تمضي بنا ركضا إلي آجال لا نعدوها،

والفرص إن لم تنتهز تصير غُصصا يضيق بها أهلوها، وهيهات أن تواتي الفرص كلما أردناها حتي نتدارك فيها ما فات، وهي وإن تكررت قد يقعد بالإنسان فيها عن الخير ما ألف من إثم، واعتاد من فجور أو ما يلم بالأحياء من عجز أو قصور، وكما أمرنا الله تعالي في كتابه أن نستبق الخيرات، وأن نقدم لأنفسنا، تتواتر وصايا النبي - ﷺ - بأن نغتنم اليوم قبل الغد، والشباب قبل الهرم، والصحة قبل السقم والغنى قبل الفقر، والحياة قبل الموت، وهو صلوات الله عليه يقول: « إن لربكم في أيام دهركم نفحات فتعرضوا لنفحات ربكم، فإن من أصابته نفحة من تلك النفحات سعد سعادة لا يشقي بعدها أبدا» رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

ثم يشير المؤلف إلي ثمرة الصوم ولكن في شئ من التفصيل حيث يقول: «إن مراد الله من فريضة الصوم شئ أكبر من مجرد الجوع والعطش إنه جلت حكمته، يريد أن تربي هذه العبادة الخاصة في الصائمين الإرادة التي لا تقهر والعزيمة التي لا تخور، والإحساس بحوائج الناس، والمبادرة إلي قضائها وتيسيرها الإمكان، وليس للإنسان من دون ذلك حظ من الكرامة الإنسانية».

رمضان عودة الحياة

والشيخ يحرص علي تزيين حديثه بأقوال الحكماء ومنها ما ساقه بعد حديثه عن أهمية الصيام في علاج التخمة وقسوة القلب والأنانية التي لا يري معها أقوام إلا أنفسهم، ناسين قول رسول الله ﷺ: ما آمن بي من بات شبعان وجاره إلي جواره جائع وهو يعلم. إذ يقول: « ولعل مما يطرف الأنفس أن القاضي يحيي بن أكثم، وهو من هو علما وحكمة في تاريخ الإسلام، قال له رجل: أصلح الله القاضي، كم آكل؟

فقال: فوق الجوع ودون الشبع.

قال: فكم أضحك؟ فقال حتي يسفر وجهك ولا يعلو صوتك.

فقال فكم أبكي؟ قال: لا تمل البكاء من خشية الله تعالي.

قال فكم أخفي عملي؟ قال ما استطعت.

قال فكم أظهر منه؟ قال ما يقتدي بك في الخير ويؤمن عليك قول الناس.

فقال الرجل: سبحان الله! .. قول قاض وعمل صالح.

لقد اختار المؤلف طرفته بعناية فساق لنا ذلك الحديث الذي نعجب منه... ونتساءل أيضا، نعجب لمن بحضرة القاضي فيسأله كم يضحك؟

ويتسع صدر القاضي للسؤال، ويجيب فإذا بالسائل يسأل: كم يبكي؟! إلي آخر ما ذهب إليه من تساؤلات. ويعقب المؤلف قائلا: إنها سمات نلمحها بين الأخلاق التي يثمرها الصوم فانظر أين أنت من ذلك؟! فالمؤلف يريد من الصائم أن يرفقه صومه إلي مصاف هؤلاء الرجال ومنهم ذلك القاضي.

ونجد أنفسنا أمام أسئلة تدل علي علم السائل فالإجابة عن إخفاء العمل جاءت واضحة لا تستدعي سؤالا آخر غير أن سؤالا آخر قد جاء حين قال السائل: وكم أظهر؟ بما يدل على أنه يعلم قول الحق تبارك وتعالي:

﴿ قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾

(إبراهيم: ٣١)

وأن عمل الخير منه ما يجب إخفاؤه ومنه ما يجب إظهاره. ومما يؤكد ذلك قول الرجل: « سبحان الله! قول قاض وعمل صالح.

والمؤلف يعلم أن الكلمة الحكمة ضالة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحق بها، لذلك حين تجد الكثير من الناس يقف عند قول الحجاج بن يوسف الثقفي: «إني لأري رؤوسا قد أينعت وقد حان قطافها». تجد المؤلف يأخذ عنه قوله: «إن امرأ أتت عليه ساعة من عمره لم يذكر فيها ربه، ولم يستغفر من ذنبه، أو يفكر في معاده لجدير أن تطول حسراته يوم القيامة» وفيات الأعيان لابن خلكان».

ويبحث المؤلف عن حكمة الصوم فيعقد الفصل الثاني من هذا الكتاب تحت عنوان: «في حكمة الصوم» ويري أن أول حكم الصيام إنما في صلة الرحم، فيشير إلي ذلك تحت عنوان «الأسرة وصلة الرحم» فيقول: «إن في شهر رمضان تبرز ظاهرة فريدة لا تتكرر كثيرا في غير هذا الشهر.

ويؤكد الشيخ الجليل على أن حاجة الأسرة ماسة إلي ذلك التجمع حول مائدة الإفطار لتتشابك العناصر وتقوى الأواصر ويجد الأبناء توجيه الآباء، ويتعلموا منهم آداب الخطاب وأسلوب التعامل... وهو ما استقاه من فعل النبي ﷺ - حيث كان ينتهز كل فرصة ليعهد إلى الصغار بما يصلح به يومهم وغدهم، فقد رأى طفلا علي مائدته من أبناء صحابته تطيش في الصفحة يده، فناداه بكل حنو ورفق صلوات الله عليه وسلامه: « يا غلام، سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك». فيقول الشيخ متعه الله بالصحة والعافية: « يا ليها من نصيحة وددنا أن نقدمها لأولادنا، وأن ننسج علي منوالها ونحن نبصرهم بالجليل واليسير من الأمور ليأخذوا بأحسنها، والنفوس متقبلة، والعود غض في المدرسة الأولي التي هي الأساس لكل ما وراءها.

ويجيء الفصل الثالث تحت عنوان: «رمضان شهر الإسلام» وقد أشار فيه المؤلف إلي أن النبي محمد كان يبحث عن الطريق إلي الله... كيف يعبد المعبود بحق؟ حتي كانت ليلة تفضل العمر، وترجح في الميزان الدنيا بأسرها. إنها ليلة القدر... إنها ليلة الإسلام... إنها ليلة السلام. هكذا يري المؤلف ليلة القدر وهكذا يري رمضان لذلك.

يقول: « ما أجل التقوى وهي مراد الله من كل ما افترض على عباده حين يبدأ الله بها ويختم تلكم الآيات «لعلكم تتقون» و«لعلهم يتقون» بعد أن جعلها ثمرة التكاليف والعبادات كلها.

وبعد

فقد استطاع المؤلف أن يوضح الحكمة من الصيام وأن يشرح العلاقة القوية بين هذا الشهر الكريم وذلك الكتاب الكريم، واستطاع أن يهمس برفق مناديا المسلمين إلى العمل الصالح داعيا إياهم إلى نبذ الكسل، مناديا إياهم إنه شهر رمضان العبادة وليس شهر الطعام والجلوس أمام الشاشات لمتابعة مسلسلات.

إن الشيخ معوض استطاع بجدارة أن يلفت انتباه المؤمنين بأن شهر رمضان له سمات خاصة يجب أن تثمر في نفوسهم كل الخير، وأن هذه السمات يحرص أعداء الدين على طمسها، ليبعدوا المسلمين عن هذا المعين الروحي الصافي.

مكتبة مجلة الأزهر

إعداد الأستاذ: محمد شعبان

تسعى «الأزهر» عبر هذا الباب إلى التواصل مع القارئ العزيز من خلال تقديم نبذة عن أحدث الإصدارات الجادة فى شتى مجالات المعرفة، ذلك للمساهمة فى تكوين عقلية واعية وعصرية.



يؤكد المفكر العربي البارز دكتور فهمي جدعان على رفضه الكامل لأطروحة علي عبد الرازق التي ترى الإسلام مجرد طقس روحي لا علاقة له بالواقع ويشدد جدعان على أن الغاية من تأسيس الرسول لمجتمع إسلامي هي أن تكون الأمة الإسلامية مثالاً يحتذى في الخير والعدل والرحمة والتقوى و الإحسان والمساواة.

على أن جدعان يعود ليؤكد في كتابه «تحرير الإسلام» الصادر أخيراً عن الشبكة العربية للأبحاث والنشر، رفضه لأن تكون الغائية الرسالية للنبوة تكمن بعد قيام البنيان المجتمعي في الفضاء الجغرافي لأمة الإسلام في تمثل دين الإسلام بما هو مُلك... أي أن المؤلف يرفض تصوير الإسلام كحزب سياسي أو كيان «سلطوي»... مشدداً على أن غاية الإسلام هي العدل وسعادة البشر... الكتاب يضم مجموعة دراسات متميزة يسائل المؤلف خلالها تيارات الإسلام السياسي كاشفاً عن سقوطها في فخ اختزال الإسلام في الفعل السياسي.



يضع د. اليماني الفخراني مدرس العقيدة والفلسفة بجامعة الأزهر الجانب الكلامي في فكر العلامة محمد رشيد رضا أبرز تلامذة الإمام محمد عبده. «الجانب الإلهي في فكر محمد رشيد رضا.. عرض ونقد» عنوان رسالة الدكتوراة التي قدمها المؤلف لكلية أصول الدين بجامعة الأزهر و أصدرت مكتبة مدبولي نشرها أخيراً.. الرسالة كانت بإشراف د. محيي الدين الصافي ود. جمال الدين شلبي رئيس قسم العقيدة والفلسفة بالكلية... رغم بعض الملاحظات الهامشية على مادة الكتاب إلا أن المؤلف عرض بشكل علمي وواضح موقف رشيد رضا من الموضوعات الكلامية القديمة والحديثة متتبعا نصوص الرجل ومقالاته.

نقرأ في الكتاب عن موقف رشيد رضا من الصوفية والسلفية والوهابية والشيعة والفلسفة وعلم الكلام والمتكلمين... كما يطالع القارئ موقف رشيد رضا من إيمان المقلد، أحكام العقل: الواجب والمستحيل والممكن وأدلة وجود الله وموقفه من الصفات السلبية وصفات المعاني والصفات الخبرية والوحدانية والتثليث والجبر والاختيار والتحسين والتقبيح وتعليل أفعال الله والصلاح والأصلح ورؤية الله... الخلاصة إن الكتاب يعد بمثابة نص في علم كلامي كتبه رشيد رضا وعقب عليه المؤلف.



يقترح بروس مازليش المؤرخ، أستاذ التاريخ في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا بأمريكا مصطلح الكياسة «civility» بديلاً لمصطلح الحضارة لما للأخير من حمولة أيديولوجية استعمارية غربية غير بريئة.

ويؤكد المؤلف في كتابه «الحضارة ومضامينها» المترجم في سلسلة عالم المعرفة على ضرورة درء الخلافات الموجودة بين أفراد العالم واحترام خصوصية كل حضارة إنسانية، غربية، عربية إسلامية، آسيوية، وعدم المساس بقدراتها الثقافية والاجتماعية والدينية يكشف المؤلف عن جذور العنصرية الغربية تجاه الحضارات الأخرى قائلاً: «لما كان الغرب يرى نفسه في مرآة الآخر تمكن من التفكير ملياً في نفسه وفي هويته وكان تفكيراً حميداً على العموم ومع ذلك وفي غضون عدة عقود حدث تشويه لما كان يرى في المرآة واتخذ الآخر مظهر عرق وضيع، بدلاً بكونه نصف متحضر وعليه أن يخضع لسيطرة حضارة متفوقة أي الحضارة الأوربية»... المؤلف يضع الحضارات العربية والإسلامية والشرقية على قدم المساواة مع الحضارة الغربية تأكيداً منه على رفضه الهيمنة الغربية لمعاني التحضر.

السيد ولد أباه
الدين والسياسة والأخلاق
مباحث فلسفية في السياقين الإسلامي والغربي

يقدم المفكر الموريتاني السيد ولد أباه مجموعة من الدراسات التي تندرج في سياق فلسفة الدين ويشير المؤلف إلى أن الكتاب جاء لسد ثغرة نادرة الدراسات العربية في مجال فلسفة الدين موضحاً أن أبحاث الكتاب تتحرك على جبهتين هما: الجبهة التراثية الإسلامية والجبهة الغربية الحديثة والمعاصرة.

من الدراسات المثيرة في الكتاب المعنونة «المشروع الكلامي لأبي الحسن الأشعري قراءة فلسفية راهنة» حيث يرفض المؤلف الرؤى التي ترى الفكر الأشعري عقبة في وجه تأسيس نهضة عربية وإسلامية كما عند حسن حنفي ومحمد أركون مستعرضاً مختلف جوانب الفكر الأشعري التي يمكن بناء منظومة فلسفية راهنة.. من أبرز تلك المزايا التي يراها في المنظومة الأشعرية تأسيس الأشعري العقيدة الدنيا المشتركة بين أطياف الأمة الأمر الذي حال دون تحول الأشعرية إلى منظومة تشبه اللاهوت الكاثوليكي ومن ثم رفض فكرة التكفير... كذلك يشير المؤلف إلى رفض الأشعرية مفهوم الدولة الدينية كما لدى الشيعة وهي مسألة بالغة الأهمية في السياق العربي الراهن.



يقدم د. محمد حسن حسن جبل أستاذ أصول اللغة بجامعة الأزهر معالجة شاملة وشافية لقضية نزول القرآن على سبعة أحرف حيث يعد كتاب «القضية القرآنية الكبرى... حديث نزول القرآن على سبعة أحرف» الصادر مؤخراً عن مكتبة الآداب من الكتب النادرة التي تعرض تفصيلاً للموضوع.

يقول المؤلف في مقدمة الكتاب: «لقد كان وراء إخراج هذا الكتاب أمران: أولهما الحرص على حسم الرأي في المراد بالأحرف السبعة رعاية لحق القرآن وحق المسلمين.. و ثانيهما دفع معايرة الآخرين لنا بالعجز عن تفسير الحديث الشريف».

الكتاب رغم صغر حجمه ـ ١٩٢ صفحة من القطع المتوسط ـ فقد جاء بمثابة موسوعة مصغرة لم تترك شاردة ولا واردة في الموضوع إلا وأشار إليها فالمؤلف جمع كل الأقوال التراثية المتعلقة بمعنى الحديث ثم قدم معالجة تحليلية فضلاً عن معالجة بالمأثور.

محمد فريد وجدى : فريد عصره غير مدافع !



بقلم: أ. د. حلمى محمد القاعود

في مطالع القرن العشرين ، بدأ التفاعل مع الثقافة الغربية يأخذ مسارا واضحا لدى النخب الثقافية المصرية ، وصل ببعضهم إلى رفض الثقافة الإسلامية رفضا تاما ، وأغرق بعضهم في رفضه إلى درجة الخروج من الملة ، وكان إسماعيل أحمد أدهم (١٣٢٩ - ١٣٥٩ هـ = ١٩١١ - ١٩٤٠ م) الذى مات منتحرا نموذجا للمثقف المصرى الذى فقد الدنيا والآخرة . لقد ألف كتابا بعنوان (لماذا أنا ملحد ؟) ونشره على الناس وقد حشاه بما يزعمه الطبيعيون من لغط حول المادة ، وبطلان السبب الأول ، والصدفة والاحتمال الفرضى ونحو ذلك ، وظن أنه قد ألزم مخالفيه الحجة وجاء بأنصع دليل، وقد تصدى له العلامة محمد فريد وجدى وكتب : لماذا أنا مسلم ؟ وهو بحث علمي مركز نشره بالمجلد الثامن من مجلة الأزهر فند فيه المقولات التى طرحها أدهم تفنيدا علميا موضوعيا هادئا ، ونسف كل ما أتى به من ادعاءات .

وينقل محمد رجب البيومى عن الأستاذ صديق شيبوب - رحمه الله - وكان صديقا لأدهم ، أنه ذكر له أن الدكتور أدهم جاءه ذات يوم ومعه مجلة الأزهر وهو يقول : « لقد أدهشني الأستاذ وجدى بمسلكه النقدى وأدبه الحوارى ، حتى أوقعني فى حيرة بينى وبين نفسي !، لقد التمس لى العذر حين بحث عن أسباب الإلحاد فى تربيتى العائلية ، بين أم مسيحية وأختين تكذبان الإنجيل ثم كرّ على أدلتى بأسلحة لا تعرف المهاترة ! فأنا حائر ما ذا أقول فيه ؟

(انظر : محمد رجب البيومى ، النهضة الإسلامية فى سير أعلامها المعاصرين ، دار القلم ، دمشق - الدار الشامية ، بيروت ، ١٤١٥هـ= ١٩٩٥م / ١ / ١٠٥ وما بعدها) .

هذا الكلام يبين أن قوة الحجة لدى محمد فريد وجدى كانت حاسمة فى الرد على أدهم وأمثاله من الماديين الذين تفرغ الرجل فى

كثير من كتاباته للرد عليهم ونسف ادعاءاتهم بالحكمة والأسلوب العف ، والحوار الهادئ.

ولا أدرى ماذا كان سيفعل الرجل لو عاش فى زماننا ورأى أن هؤلاء الماديين صارت لهم أحزاب وتجمعات ، ويجاهرون بعداوتهم للإسلام، ولا يتيحون لأحد فرصة الرد عليهم بعد أن ملكوا معظم المنابر ، بل إنهم لا يتركون لعلماء الإسلام ودعاته والمشتغلين بالفكر الإسلامي حق مناقشتهم وتفنيد ادعاءاتهم ، فهم يلاحقونهم باتهام سخيف وهو التكفير مع أنهم هم الذين يسلبون علماء الدين ومفكريه حق الإيمان ويصفونهم بالمتأسلمين ؟

ترى هل كان منهج محمد فريد وجدى سيتغير ؟ لا أعلم، ولكن المؤكد أنه كان سيرد بقوة الحجة العلمية والبرهان والدليل، وفي أى منبر ولو كان هامشيا أو محدود التأثير ، فقد وهب الرجل حياته للدفاع عن الإسلام انطلاقا من إيمانه أن الإسلام صالح لكل زمان ومكان ، وقد أهله لذلك تربيته ونشأته وتكوينه العلمي والثقافي .

***

ولد محمد فريد وجدى فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر على اختلاف فى تعيين سنة مولده ما بين (١٢٩٢هـ أو ١٢٩٥هـ= ١٨٧٥م أو ١٨٧٨م) ، وإلى التاريخ الأول ذهب الزركلى فى كتابه «الأعلام» بينما يرجح الدكتور طه الحاجرى التاريخ الآخر ، ويذكر أنور الجندى أنه تلقى خطابا خاصا من المهندس محمد توفيق أحمد صاحب «البريد الإسلامى» أنه سمع منه شخصيا أنه ولد عام ١٨٦٩م (أنور الجندى ، محمد فريد وجدى رائد التوفيق بين العلم والدين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٤م، هامش ص ٨٤) .

وكان مولده بالإسكندرية لأسرة من أصل تركي اتسمت بالمحافظة وكان والده الذى وصل إلى وظيفة وكيل محافظة ، مهتما بالعلم ولديه مكتبة ضخمة فى داره تضم العديد من الكتب فى سائر مجالات المعرفة.

تلقى وجدى تعليمه بالمرحلة الابتدائية بالإسكندرية حيث تنقل بين ثلاث مدارس خاصة هى «مدرسة إسماعيل حقي» و«مدرسة حمزة قبطان» و«مدرسة مسيو فاليو» ، وحينما انتقل والده للعمل بالقاهرة عام ١٣٠٩هـ = ١٨٩٢م، تابع وجدى دراسته حتى وصل إلى ما يعادل المرحلة الثانوية بالمدرسة التوفيقية بالقاهرة لكنه - لاختلاف طبيعة الدراسة فيها عما درسه بالأسكندرية - طلب من والده أن يترك المدرسة وأن ينصرف لتحصيل الدراسة بنفسه فوافق والده ، خاصة بعد أن انتقل إلى دمياط وكيلا للمحافظة ، وأحضر له بعض المدرسين ليأخذ حصصا فى اللغة الإنجليزية ، وهنا انقطعت صلة وجدى بالدراسة النظامية مفضلا القراءة والاطلاع بعد أن قطع شوطا لا بأس به فى دراسة اللغة الفرنسية . وقد دهش والده لما يسمعه منه ، ولكن عطفه عليه حمله على أن يصغى لوجهة نظره ، فقال الابن : إنه الآن يجيد الفرنسية على نحو يسمح له بقراءة كتبها المختلفة ، كما أنه يتقن دروس اللغة العربية بحيث تنشر الجرائد ما يرسله إليها ، وأفهمه أنه أستاذ كبير لجودة ما يكتب ! ورسالته فى الحياة هى خدمة دينه ، والدفاع عن هذا الهجوم الكاسح

الذى يقرأ أهواله فى الكتب الفرنسية التى يطالعها ، وقد أخذ للأمر عدته ، فهو يقرأ صباح مساء دون عائق ، وتتفتح أمامه أبواب من القول يجد نشاطا فى نفسه لولوجها .

ترك الأب واسع الأفق ابنه على هواه ولم يقم الدنيا ويقعدها بسبب رغبة الابن الغربية ، فقد أنس فى ولده كفاءة تدل على نبوغ مرتقب ، وقدرة على المناقشة والفهم ، وكان يستشعر حرجا من هذه القدرة حين كان يأتى علماء المعهد الدينى بدمياط إلى ندوة أبيه الأسبوعية لطرح القضايا والموضوعات التى كان الابن يتدخل للمشاركة فى مناقشتها ، مما كان يسبب حرجا للوالد ، فأمره أن يحضر مستمعا فقط .

كان الشاب محمد فريد وجدى ذا شكوك فى بعض المسائل الدينية وكان يحاول أن يجد إجابة فى مجلس أبيه الذى يحضره العلماء والأساتذة ، ولكن أباه صدّه ، فاعتمد على الله وقرأ وقرأ وقرأ حتى اهتدى إلى اليقين بعون الله . يقول :

« .. أهم حادث وقع لى منذ كنت ناشئا ، وكان له أكبر الأثر فيما اتجهت إليه ، هو حادث الشك فى العقيدة الذى أدى بى إلى الشك فى كل شيء من العلوم الدينية وغيرها .

فقد كنت فى سن السادسة عشرة طالبا فى المدرسة التجهيزية ، وكان أبى مصطفى بك موظفا فى الحكومة المصرية ،وحدث وقتئذ أن اختير وكيلا لمحافظة دمياط ، فكان لا بد من انتقالى مع عائلتى إلى هذه المدينة التى اشتهر أهلها بدماثة الأخلاق والتفقه فى الدين .

وما زلنا مع أبى فى هذه البلدة ، حتى أخذ كبار أهلها وعلماؤها يفدون عليه للترحيب به ، فكان يجتمع فى دارنا عدد كبير منهم ، وكانت تدور أثناء المجلس عدة مناقشات دينية ، وجدت فيها مجالا للبحث والتفكير ، غير أنى كنت إذا ناقشت أحد العلماء فى مسألة تتعلق بالكون أو الخالق أسرع إلى قفل باب المناقشة ، وأمرنى ألا أخوض فى المسائل الدينية ، أو أبدى فيها رأيا ، فكنت أمتعض من ذلك ، وأرى فيه حجرا على العقل بلا مسوغ ، وأخذت أبحث عن السبب الذى أدى بهم إلى هذا الجمود ، وقلت فى نفسى : لا بد أن يكون ما يدرسونه من الكتب عقيما ، ومن هنا تزلزلت عقيدتى ، وشرع الشك يتسرب إلى نفسى ، حتى صرت لا أرتاح إلى رأى واحد يتضمنه كتاب ، ولا أقتصر على فكرة معينة يجتهد بعض العلماء فى إثباتها بما أوتى من قوة الحجة ، وسطوع البرهان ، وجعلت أتناول بالقراءة والدرس جميع الكتب الدينية والكونية والاجتماعية ، وسائر ما يتعلق منها بعلم النفس ، وأكببت على ذلك عدة سنين ، فاكتسبت علما غزيرا ، واتسع أمامى نطاق الحقيقة ، وجال نظرى فى الكائنات جولات أفادتنى فيما أتناوله من البحث والدرس ، حتى صرت لا أقنع بفكرة دون أن أعنى بتمحيصها ودرسها ، معتمدا فى ذلك على تجاربى الذهنية التى مرت بى طول السنين » .

ويرتب وجدى على ذلك القول :

« وقد أفادنى هذا الشك استقلالا فى الفكر ، واعتمادا على النفس ، ورغبة فى استيعاب ما يقع بيدى من الكتب – على اختلاف أنواعها – بصبر وجلد ، حتى زال الشك عنى ، وارتاحت نفسى .

كما أفادنى ذلك دقة فى البحث ، وعناية بما أتناوله بالتمحيص دون أن أجد فى ذلك مللا » (مجلة الهلال ، نوفمبر ١٩٢٩م) .

كان لهذا الحادث أكبر الأثر فى فكره حيث ، قذف به إلى مجال التأليف دفاعا عن الإسلام والتعريف به ، وبيان قيمه وفضائله وتشريعاته . لقد أصدر المؤلّف تلو الآخر مبتدئا بكتاب ألفه وهو لم يتعد السادسة عشرة وأسماه «الفلسفة الحقة فى بدائع الأكوان» ، قدمه لكل من يمر بمثل تجربته التى تعرض لها مستدلا من القرآن والسنة وبأقوال علماء الطبيعة والكيمياء على وجود الله وعجائب صنعه . وقد راج الكتاب ونفدت نسخه فى وقت قريب .

واصل بعدها وجدى نتاجه الفكرى مرتئيا أن الغرب يروج لحملات الهجوم والتشويه على الإسلام فحاول مخاطبة الغرب وتوضيح ما وقعوا فيه من أخطاء خاصة بحقيقة الإسلام فكتب بالفرنسية كتاب «الإسلام والمدنية» .

ولم يطل مقام وجدى بدمياط ؛ إذ ما لبث أن انتقل إلى السويس بعد أن انتقل والده لوظيفة وكيل المحافظة بها وأقام بها ست سنوات عاد بعدها للقاهرة .

وتتسم هذه المرحلة بوضوح الفكرة ، وعذوبة الأسلوب ،والقدرة على الأداء فى مجال الدراسات الروحية والدينية والإسلامية على نحو عصرى ، يختلف اختلافا واضحا عما كان عليه أسلوب الكتاب فى اللغة العربية فى هذه المجالات . ولقد أفاد من طريقة الشيخ محمد عبده ومنهجه فى فهم الإسلام ، وزاد أنه استطاع أن يستشهد بما يقف عليه من كتابات الغربيين لما يذهب إليه من وجود الخالق ، وفضل العرب والمسلمين على الحضارة الحديثة . وفى نهاية هذه المرحلة أخذ نفسه بعملين موسوعيين كانا علامة على طريقه فيما بعد ؛ ذلك هو كتابه «كنز العلوم واللغة» الذى أصدره عام ١٩٠٥م وحشد فيه فنونا من عصارات الآداب والعلوم والفنون والفلسفات التى تضمنتها الموسوعات ، وأفاد من إعداده الموسوعات العربية القديمة ودائرة معارف «لاروس» ، ثم كتابه «صفوة العرفان فى تفسير القرآن» ، وهو تفسير مختصر للقرآن يشرح على كل صفحة منه كلماته ومعانيه فى إيجاز ويسر (انظر : أنور الجندى ، محمد فريد وجدى رائد التوفيق بين العلم والدين ، ص ٥) .

لقد ظل محمد فريد وجدى طوال ستين عاما يؤلف الكتب الكثيرة والمقالات المنهمرة كالسيل ؛ تنطق بأنه كان يعيش فى مجتمعه بعين بصيرة ، وعقل متيقظ ، فما جدت مسألة من شئون الدين والعلم والاجتماع فى عصره إلا تطلعت الأنظار إلى قلم وجدى ، كى ترى منطقه المؤيد بالبرهان ، ومخالفه أشد حرصا على قراءته من موافقه ، لأنه يتيح له من الآراء ما لم يكن حاضرا لديه ، أو ما يراه موضع خلاف ومن ثم كثر مناقشو الأستاذ فى عصره من علماء الدين ، ورجال السياسة ، ورءوس علم الاجتماع ، فكيف تكون الكتابة الإسلامية حاجزا دون الامتداد إلى أوسع الآفاق ، وهذه مؤلفاته شاهدة بهذا المدى الفسيح؟! (انظر : محمد رجب البيومى ، محمد فريد وجدى الكاتب الإسلامى والمفكر الموسوعى ، دار القلم ، دمشق ، ١٤٢٤هـ = ٢٠٠٣م ، ص ٢٣- ٢٩) .

لم يتوقف محمد فريد وجدى ولم يفتر

من أجل رسالة الوعي واليقظة ، وبناء الفكر العربي الإسلامي المعاصر ، على أساس العلم والعقل ، ومقاومة الجمود من ناحية ، ومقاومة المادية من ناحية أخرى ، ورد هذا الفكر إلى مقوماته الأساسية التي تمتزج فيها الروح والمادة والعقل والقلب والدنيا والآخرة .

وكما نرى فالرجل منح حياته للعلم والمعرفة والكتابة والتأليف ، لذا لم يستمر في وظيفة ذات راتب ثابت ، لأن الوظيفة تقتطع منه وقتا هو في حاجة إلى استثماره علميا ، وقد قيل إنه قضى عامين في وظيفتين غير مناسبتين لطموحه ، فآثر الاستقالة ، لا للأجر الزهيد ، ولكن حرصا على وقته وعلمه ، خاصة بعد أن بدأت الصحف الكبرى مثل المؤيد والأهرام تنشر مقالاته ، وصار له اسم علمي وهو شاب في مطلع الشباب .

لقد كان التأليف والصحافة هما مجال عمله وعلمه ، أو الوظيفة غير الرسمية التي عين نفسه فيها إشباعا لرغبته في البحث والمعرفة والدفاع عن الدين الحنيف ، لذا اتجه إلى إنشاء الصحف وتحريرها مع تواضع عائدها ، وتعرضها أحيانا لخسائر كبيرة لأسباب سياسية وغيرها ، ولكنها كانت مجاله الحيوي حيث يكتب وينشر ويعبر عن نفسه وطموحه ، ولعل فترة رئاسته لتحرير مجلة الأزهر التي اختتم بها حياته واستمرت قرابة عشرين عاما كانت أكثر استقرارا من الناحية المادية ، وإن كان الرجل في كل الأحوال من الزاهدين . وقد اهتم بآثاره عدد من الكتاب الأجانب منهم الكونت دي طرازي في كتابه « تاريخ الصحافة العربية» وتشارلز آدمز في كتابه «الإسلام والتجديد في مصر» ...


محمد فريد وجدى

ومن الكتب والدراسات التي تناولته:

١ .صباح إبراهيم بيومي سليمان، محمد فريد وجدى مفكرا إسلاميا، رسالة ماجستير، قسم اللغة العربية بآداب الإسكندرية، ٢٠٠٠م.

٢ . محمد طه الحاجري، محمد فريد وجدى حياته وآثاره، محاضرات ألقيت على طلبة معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة، ١٩٧٠م.

٣ . محمد رجب البيومي، محمد فريد وجدى الكاتب الإسلامي والمفكر الموسوعي، ط ١ ، دار القلم، دمشق ، ١٤٢٤هـ= ٢٠٠٣م.

٤ . عباس محمود العقاد، رجال عرفتهم ، ط٣ ، نهضة مصر ، القاهرة، ٢٠١٠م .

٥ . خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ١٤٠٦ هـ= ١٩٨٦م.

٦ . عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ.

٧ . الصيد أبو ديب ، الكاتب الإسلامي الكبير محمد فريد وجدى (١٨٧٨-١٩٥٤م) وآثاره الفكرية، المدنية والإسلام نموذجا، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، العدد ٢١ ، ٢٠٠٤م.

٨ - أنور الجندى ، محمد فريد وجدى رائد التوفيق بين العلم والدين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ،١٩٧٤م.

الاتصال اللغوى وبنيان الأمة (السودان نموذجا)

د. محمود قلندر

ليست اللغة مجموعة من الرموز، وإنما هي كنز الخبرة للمجتمع اللغوي، إنها وعاء يتضمن طريقة الناس في النظر إلى العالم، وينضح بقيمهم وآمالهم وآلامهم. والذين يستهينون باللغة ويعتبرونها مجرد وسيلة لنقل الأفكار من المتكلم إلى السامع، ومن الكاتب إلى القارئ- مخطئون في تصورهم. إن اللغة تشبه بصمة الـ: «دى إن إيه»، الذي يحمل ملايين الملايين من الجينات التي تحدد صفات الكائن الحي.... ولكن اللغة تحمل صفات المجتمع الذي تنتسب إليه.... إن الإنسان كائن لغوي، وإن من أعظم نعم الله على الإنسان أن علمه البيان:

﴿الرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾

الرحمن من ١ - ٤.

وفي هذا السياق نلقي الضوء على ما قامت به الإدارة البريطانية في جنوب السودان، مما هيأ لانفصال الجنوب عن الشمال.

فقد التزمت إدارة الاحتلال البريطاني في جنوب السودان سياسة تهدف إلى تقليص الاتصال اللغوى بين الشمال والجنوب، كي تضعف إمكانات التفاهم بينهما، ويشعر المواطن في الجنوب أنه لا ينتمي إلى الأمة التي ينتمي إليها مواطن الشمال، فيتحقق الانفصال الثقافي بين الجنوب والشمال، ويكون نواة للانفصال السياسي.

فالأمة أو الجماعة ليست مجموعة من الأفراد، وإنما هي تجمع من الأفراد الذين تجمع فيما بينهم مصلحة أو مصالح مشتركة، تدفعهم للاتصال والتعاون فيما بينهم، ومن ثم العمل على تحقيق تلك المصالح المشتركة. ويتكون المجتمع الإنساني وفق معطيات علم الاجتماع، من عدة جماعات متجانسة ومتقاربة في الموقع والغاية، تمارس الاتصال والتفاهم عبر وسيط لغوى مشترك.

وتلتزم الجماعة من خلال الاتصال والتفاهم بالأدوار والمهام الموكلة لكل فرد من قبل السلطة في المجتمع، ولا نعني بالسلطة الحكومة أو الشرطة أو شيخ قبيلة...إلخ، وإنما نعني بها قوة المشترك الثقافي بين أفراد الجماعة، فذلك المشترك هو الذي يحدد لكل فرد ما الذي يجوز أن يفعله وما الذي لا يجوز له أن يفعله.

ولا يقلل من قوة هذا التصور أن المجتمع في أي دولة يتكون من جماعات

أو مجموعات عديدة؛ لأن المجتمع في هذا الجانب مثل عنقود تتشابك وتتلاحم فيه عناقيد أصغر، ولكنها رغم ذلك تكون متماسكة داخل العنقود الكبير.

ويعرِّف علماء الاجتماع التماسك الاجتماعي بأنه حالة التلاصق الأقصى والتفاهم الأعمق بين أفراد الجماعة الإنسانية، ويردُّون عمق هذا التماسك إلى عنصرين أساسيين متداخلين ومتلازمين؛ الأول هو الالتزام والتمسك بالقيم الاجتماعية الداعمة لقوة الجماعة، والثاني هو قوة التأثير التي تشع من الجماعة وتدعو الأفراد إلى تقديم المصلحة العامة، والتشبث بقيم الجماعة. ولا بقاء للجماعة إلا بتلازم هذين العنصرين.

واللغة هي ذلك الوسيط الذي يحقق الاتصال والتفاهم بين أفراد الجماعة، وينقل قيم الجماعة إلى الأفراد، وبها أيضا يتمكن الأفراد من دعم تلك القيم ومن تعديلها إذا لزم الأمر، لكي تكون دائما جديرة بالاحترام والتمسك وتحقيق التماسك بين الجماعة.

وإذا عرَّفنا الثقافة بأنها هي الوسائل والأساليب والأدوات ومناهج السلوك التي تميز كل مجتمع عن غيره من المجتمعات، فإن الثقافة ترتبط أشد ارتباط بالاتصال، وعلى رأسه الاتصال اللغوي؛ لأنه أعم اتصال وأعمق اتصال بين أفراد الجماعة الواحدة.

والمجتمعات ذات التماسك الاجتماعي العالي، مجتمعات لها ثقافتها الخاصة التي تميزها، وهي مجتمعات يعتد أفرادها بتلك الثقافة ويتشبث بها، وعادة ما تكون مجتمعات قبلية، فترى القبيلة تبذل النفس والنفيس دفاعا عن أفرادها وقادتها وعاداتها وتقاليدها ودينها ولغتها وأرضها.

وكان دور المستعمر - وهنا نتكلم عن المستعمر الإنجليزي في السودان - أن يعزل الشمال الذي تسيطر فيه اللغة العربية والدين الإسلامي، عن الجنوب الذي به لغات محلية وأديان محلية، فمنع انتقال مواطن الشمال إلى الجنوب إلا بتصريح خاص وكأنه ينتقل من دولة إلى أخرى، وضيّق على اللغة العربية في الجنوب، وزعم أنه يستوعب اللغات المحلية ويحميها، ولكنه جعل لغته هي اللغة الرسمية، وأبعد عددا من القبائل المسلمة عن الجنوب، وأعان الإرساليات التبشيرية على نشر المسيحية في الجنوب.

وسعى المستعمر إلى تحطيم وتحقير وتهميش رموز الثقافة الوطنية من لغة وفن وفولكلور وأدب وتاريخ وجغرافيا، حتى أسماء الجبال والبحار سعى لتغييرها، كي تشعر الجماعات المحلية بضعف الثقافة المحلية وهشاشتها، فتتخذ من ثقافة المستعمر ثقافة لها، فتنعزل عن غيرها من الجماعات المحلية، وتحتمي بالمستعمر، فتتفرق الجماعات المحلية، ويسهل على المستعمر أن يتحكم في تشكيل الثقافة وينهب الثروات الوطنية.

فهبط المستعمر على جنوب السودان بذراعين؛ ذراع بأس وقوة دكت قواعد النظام الاجتماعي القبلي بالحديد والنار لتخضع الجماعات السكانية لسطوة الإدارة الجديدة، وذراع إبداع تعيد صياغة المجتمع على أساس توسيع المسافات بين الجنوب

والشمال وإثارة الشكوك وإيغار الصدور وتكريس النفور.

وكان المستعمر دائما يسمي الأشياء بغير أسمائها، فسياسة تحطيم البنى المجتمعية وتفتيت قبائل الجنوب وثقافات الجنوب، تمت تحت عنوان (سياسة التهدئة) بزعم أن الإنجليز يريدون الهدوء ومنع المشاحنات بين القبائل ومنع الغارات الحدودية ولكن الغرض الحقيقي هو استهداف قبائل الجنوب لتدمير بنيتها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، فتلاحقت الحملات العسكرية على الجنوب من ١٩١٠ إلى عام ١٩٣٠، وفيها قتل المستعمر الآلاف من الجنوبيين، واعتدى على الرموز الدينية والروحية، وحطم آلهة الدينكا، وأجلى قبائل النوير عن بحيرتهم المقدسة، واغتال عددا من زعماء القبائل، وصادر قطعان الأبقار، ونهب مخازن الطعام، وحرق القرى. فهذا ما عملته ذراع القوة والبأس.

وتحت عنوان (العمل الخيري) و(التنوير) وخصوصية الجنوب وخطة النهوض بالجنوب نشر المستعمر الإرساليات التبشيرية، التي نشرت لغة المستعمر وديانته، وبثت الفرقة بين الجنوب والشمال. وعقدت إدارة الاحتلال مؤتمرا عن التعليم في الجنوب سنة ١٩٢٢م، شارك فيه مندوبون من الكونغو وأوغندا والإرساليات التبشيرية، ولم يشارك فيه شمال السودان. وكان تمسيح الجنوب قد بدأ مبكرا في ١٩٠٢م، بعد عامين فقط من وصول الجيش إلى أحراش الجنوب.

وكان من وسائل في بث الفرقة بين الجنوب والشمال، أن يبرز المحتل العناصر العربية والإسلامية في الجنود والضباط الذين يهجمون على قبائل الجنوب، في حين أنهم ضُلِّلوا بمعلومات خاطئة، وأنهم كانوا ينفذون أوامر المستعمر.

وإذ نظرنا إلى قائمة الحملات العسكرية على قبائل الجنوب بعد حملات الإخضاع والاحتلال، وجدنا أنها تبدأ من ١٩٠٤ وتتواصل حتى سنة ١٩٢٥م، كل سنة أو اثنتين حملة على إحدى القبائل، منها على سبيل المثال حملة ١٩١٤م على قبائل النوير، واعتقال زعيم الدينكا ونفيه سنة ١٩٢١م.

وإذا نظرنا إلى قائمة إجراءات إعادة الصياغة وجدنا أنها تبدأ من نفس السنة التي بدأت فيها الحملات العسكرية، ولكنها تتابع إلى سنة ١٩٣٥، كل سنة أو اثنتين إجراء ثقافيا، منها على سبيل المثال إقرار استخدام اللغة الإنجليزية في المعاملات الرسمية والتخاطب العام في ١٩١٠م، ووضع التعليم في أيدي الجمعيات التبشيرية في ١٩٢٥م، وتهجير قبائل التماس بين الشمال والجنوب في ١٩٣٠م، وإبعاد الضباط الشماليين من العمل في الجنوب في ١٩٣٤م، ومنع عرض وبيع الأزياء العربية في ١٩٣٦م.

لقد انفصل الجنوب عن الشمال وكان أمرا مقضيا بعد أن تحققت أسبابه. فهل نأخذ العبرة في سائر البلدان، فنحرص على لغتنا وثقافتنا، كي لا ينجح مستعمر العصر الجديد، في تقسيمنا من وراء الحدود، ونهب خيرات بلادنا، وتجويع أبنائنا، وتفتيت جماعتنا الوطنية، إلى جماعتين أو جماعات متشاكسة، إن لم تكن متقاتلة؟



أيام لها تاريخ

معركة النخوة.. عمُّورِيَة

إعداد: أ/ سعد فتحي سعد

في شهر رمضان المبارك في سنة ٢٢٣هـ افتتح المعتصم بن الرشيد حصون «عمُّورِيَة» في ٢٥٠ ألفاً من جنوده.

سبب فتح عمورية:

كان ملك الروم (توفيل بن ميخائيل) قد نقض العهد الذى بينه وبين المسلمين، وخرج بجيش قوامه مائة ألف جندي إلى ثغور المسلمين، فأوقع فيهم خسائر فادحة، وتوجه إلى مدينة زبطرة فقتل الرجال وسبى النساء والأطفال، ثم أغار على ملطية وفعل بها ما فعله بزبطرة، وزاد في غيه فسمل أعين الرجال وقطع آذانهم وجدع أنوفهم، ثم عاد قبل أن تصل نجدات المسلمين، وكان من بين السبي امرأة هاشمية فصاحت: «وامعتصماه» فبلغ حالها المعتصم وهو في العراق.. فقال: لبيك، لبيك. ونهض من ساعته وأعلن النفير العام.

موقع عمورية:

كانت مدينة في فريجيا في آسيا الصغرى تأسست في الفترة الهلينية، وازدهرت فى عهد الإمبراطورية البيزنطية، وهي الآن تقع بالقرب من قرية حصار كوي

في محافظة (أفيون قرة) بتركيا.

بداية القصة:

تبدأ هذه القصة يوم أرسل «بابك الخرمي» أحد عتاة «الفرس» الخارجين على الإسلام والمسلمين كتابا إلى «تيوفيل» ملك «الروم» يقول فيه: لقد قاومت المسلمين عشرين عاما، وقضيت على خمسين ومائتي ألف من خيرة جنودهم، وهزمت سبعة من كبار قوادهم، واستنفدت الآلاف المؤلفة من كريم أموالهم، وحلت دونهم ودون أن يطأوا شعاب منطقتي الواقعة في أعالي بلاد «فارس».

وإن المعتصم العباسي أراد أن يثأر لنفسه، ولأخيه المأمون من قبله. فبعث لحربي سائر عسكره، وأنفذ إلى قتالي خاصة رجاله حتى كان في جملة من جندهم خياطه الذي يخيط ثيابه، وطباخه الذي يطهو طعامه.

فإن شئت أن تثأر لدينك وقومك من المسلمين وخليفتهم فاهتبل هذه الفرصة التي لا تعوض، وحذار أن تفلت منك فتندم.

استيقن «تيوفيل» من صحة ما أخبره به «بابك الخرمي»، وعرف أن خليفة المسلمين قد عزم على أن يقضي على حركة «بابك» مهما كان الثمن غاليا.

فلم يشأ «تيوفيل» أن يفوت هذه الفرصة على نفسه وعلى قومه، وعزم على أن يثأر من خلفاء المسلمين الذي قسروهم أكثر من مرة على دفع الجزية عن يد وهم صاغرون...

فأعد «تيوفيل» للأمر عدته، واتخذ له أهبته، وتوجه إلى مدينة «زبطرة» مسقط رأس المعتصم بمائة وسبعين ألفا من جنوده، ونزل على المدينة المنكوبة نزول المنون...

فهدم حصونها، واستباح أرضها، وأسر المدافعين عنها، وسبى نساءها وذراريها.

ولم يشف ذلك كله غيظ صدره حتى مثل بأسراه شر مثلة؛ فسمل عيونهم، وجدع أنوفهم، وصلم آذانهم، وطاف بهم في أنحاء بلاده.

وبينما كانت حركة «الخرميين» قد لفظت أنفاسها الأخيرة تحت وطأة جيوش المعتصم الجرارة، وكان «بابك» قد وقع أسيرا في أيدي جنود المسلمين البواسل..

وكان الخليفة المعتصم يخرج للقاء جيشه الظافر، ويخلع على قائده المنتصر وشاحين من الجوهر، ويصله هو وأفراد عسكره بعشرين ألف ألف درهم.

وبينما كانت الأفراح تبلغ ذروتها في سائر بلاد المسلمين، وكان الجند يطوفون عليها برأس «بابك الخرمي» وردت على المعتصم أخبار نكبة «زبطرة».

ونقل إليه أن امرأة مسلمة من العفيفات المحصنات قد وقعت في يد أحد «الروم»، فلما همّ بسبيها نادت:

وامعتصماه... وامعتصماه...

فهز النداء نخوته، وأثار رجولته...

وهب عن سريره وهو يقول: لبيك... لبيك...

لقد نهض المعتصم لتوه، ولبس لأمته، وتقلد سلاحه، وحمل حقيبة ووضع فيها زاده، وركب حصانه، وصاح بالنفير وهو على أبواب قصره...

وأقسم ألا يعود إليه إلا شهيدا محمولا

على الأعناق، أو ظافرا منتقما للمدينة الغالية المنكوبة، والمرأة المسلمة المغصوبة.

ثم غادر قصر الخلافة لساعته، وأقام عشر ليال في «دار العامة» في «بغداد» ليعد العدة، ويرسم الخطة، ويعبئ الجيش...

ولما تجهز جهازا لم يسبق لخليفة من خلفاء المسلمين أن تجهز مثله، أحضر قاضي «بغداد» عبد الرحمن بن إسحاق، وأحضر معه ثلاثمائة رجل من أهل العدالة؛ فأشهدهم على وصيته، وقسمة تركته... فجعل ثلث ماله لله... والباقي لأزواجه وأولاده ومواليه... ولم يأخذ من ثروته كلها سوى ثمن كفنه...

نهدَ المعتصم إلى لقاء عدو الله وعدوه بجيش لجب؛ فيه -كما يقول المؤرخون- ثمانون ألف جواد أبلق، وثمانون ألف جواد أدهم وما شاء الله من المنجنيقات والعدد وآلة الحرب، وذلك بالإضافة إلى ما يحتاجه الجند من حياض الأدم، والزوايا والقرب، وجعل وجهته «عمورية».

ذلك لأنها كانت روح النصرانية، والطريق المؤدية إلى «القسطنطينية»، والمدينة التي رامها الفاتحون منذ عهد قديم إلى يوم المعتصم، فعزت عليهم، وردتهم مقهورين.

وما ذلك إلا لأنها كانت ذات حصون مشيدة، وبروج ممردة، وهي إلى ذلك مدينة الأسرة الحاكمة، ومسقط رأس «تيوفيل» إمبراطور الروم.

أرسل المعتصم فرقة كبيرة من جيشه اللجب إلى «أنقرة» لتنازل «تيوفيل»، وتشغله عنه، واتجه بباقي عسكره نحو «عمورية».

ولما اقترب من المدينة العظيمة قسم عسكره إلى ثلاثة جيوش، وجعل لكل منها قائده الذي يقوده، وخص كل جيش بيوم يقاتل فيه على التناوب.

ولما وصل الجيش الأول دار حول «عمورية» دورتين ثم أخذ موقعه عند أسوارها.

ثم تلاه الجيش الثاني فدار حولها دورة واحتل مركزه المحدد له... ثم تلاهما الجيش الثالث واستقر في المكان المقدور له.

وفي الأسبوع الأول من شهر رمضان المبارك سنة مائتين وثلاث وعشرين للهجرة كانت المنجنيقات قد نصبت حول أسوار «عمورية» من كل جانب.

وكانت جيوش المسلمين الثلاثة تحيط بالمدينة الحصينة إحاطة كاملة.

ولقد قاتل الجيش الأول في نوبته فأبلى في قتاله أعظم البلاء، ثم تلاه الجيش الثاني في نوبته؛ فزاد على الجيش الأول وأربى عليه... ثم تلاهما الجيش الثالث، وكان بقيادة المعتصم نفسه.

فأظهر من ضروب الشجاعة، وصنوف البراعة، ما كاد ينسي الناس فضل الجيشين السابقين.

ولقد استمر القتال على هذا المنوال بضعة أيام، غير أن أسوار المدينة الممردة صمدت أمام ضربات منجنيقات المسلمين، ولم تتأثر بها تأثرا يذكر.

غير أن ذلك لم يفت في عضد المعتصم وجيشه، ولم يكدرهم لثقتهم بالنصر، وإنما كدرهم أمر آخر رواه أبو بكر الصولي فقال:

حدث يعقوب بن جعفر بن سليمان قال: غزوت مع المعتصم يوم «عمورية».

فكان رجل من «الروم» يقوم كل يوم على سور من أسوار المدينة، ويسب النبي صلوات الله وسلامه عليه بالعربية أقذع الشتم، ويذكر اسمه ونسبه؛ فاشتد ذلك على المسلمين وأثار مشاعرهم، وجعلوا يقذفونه بالسهام، فلا يصيبونه...

وكنت أرمي رميا جيدا، فبينما كان الرجل يفعل فعلته الشنعاء تلك اعتمدته بسهم، فأصبت نحره، فهوى من فوق السور، فكبر المسلمون وهللوا، وسر المعتصم وقال: علي بالرجل الذي رماه.

فمثلت بين يديه.. فرحب بي أجمل الترحيب وأثنى على أجزل الثناء، ثم قال: ممن أنت؟

فانتسبت له... [وكنت من بني هاشم].

فقال: الحمد لله الذي جعل ثواب هذا السهم لرجل من أهل بيتي... ثم التفت إلي، وقال: يعني ثوابك من هذا السهم. فقلت: ليس الثواب مما يباع يا أمير المؤمنين.

فقال: إني أرغبك... وعرض عليَّ مائة ألف درهم.

فقلت: ما أبيع ثوابي... فما زال يزيدها حتى بلغ بها خمسمائة ألف درهم. فقلت: لا أبيع ثوابي بالدنيا وما فيها.. ولكن قد وهبت لك نصف ثواب هذا السهم...

والله يشهد عليَّ بذلك.

فسر المعتصم أعظم السرور، وقال: جزاك الله خيرًا...

وانصرف عني إلى قتال عدو الله وعدوه.

استمرت منجنيقات المسلمين تضرب المدينة عشرة أيام متواليات علّها تحدث فيها ثغرة فلم تفلح.

وهنا أسعف القدر المعتصم برجل من أبناء المسلمين كان «الروم» قد أسروه منذ بضع سنوات، فتنصر، وأقام في «عمورية»...

فما إن رأى الجيش الإسلامي يرفع الآذان في أرجاء السماء وسمع التهليل والتكبير حتى حنت نفسه إلى دين الله، واستيقظ في صدره الإيمان بالله.. فتسلل من المدينة الحصينة ولجأ إلى جيوش المسلمين، وأعلن الشهادتين، وكشف للمعتصم عن سر كبير...

لقد أخبر المعتصم بأن موضعا من سور المدينة كان قد تهدم بسبب سيل عرم اجتاحه، فكتب «تيوفيل» إلى عامله على «عمورية» ليعيد بناءه، فتوانى العامل في ذلك...

فما إن علم بقدومكم حتى سارع إلى بناء ظاهر السور بالحجارة، وموه باطنه تمويها..

ثم دل المعتصم على موضعه.

فوجه الخليفة المنجنيقات إلى ذلك الموضع.

وطفق يقذفه بها قذفا متتابعا متواليا حتى تصدع السور، وانفتحت منه فرجة..

عند ذلك اقبل جند المسلمين على الثغرة المفتوحة إقبال العطاش على المورد العذب في اليوم القائظ...

وتزاحموا بالمناكب على لقاء عدو الله وعدوهم في داخل المدينة.

ودارت بين القلة القليلة التي استطاعت النفوذ إلى «عمورية» وبين الكثرة الكثيرة من «الروم» معارك ضارية، كان لا يسمع فيها



غير صليل السيوف، وهمهمة المتقاتلين، ورنات الرماح، وأنات المطعونين.

لم تغب شمس يوم السابع عشر من شهر رمضان سنة مائتين وثلاث وعشرين للهجرة إلا وكانت المدينة العريقة العتيدة قد فتحت أمام جيوش المسلمين المنتصرة..

وشوهد المعتصم بن الرشيد يدخل مدينة «عمورية» على صهوة جواده الأصهب.

وقد نكس رأسه خضوعا لله وشكرا على نعمائه.

لقد غنم المسلمون في يوم «عمورية» هذا... غنائم لا يحصيها عدّ ولا يقدر لها ثمن، وأسروا فيه سبعين ألفا من أهلها، وأخرجوا الغنائم والأسرى إلى ظاهر المدينة.

ثم أمر المعتصم «بعمورية»: فدكت أسوارها، وهدمت بنيانها، وأزيلت معالمها، وأضرمت فيها النيران أياما طويلة حتى تركتها قاعا صفصفا كأن لم تغن بالأمس.

عاد الخليفة الظافر إلى «بغداد» قاعدة ملكه، وقد سبقته البشائر بالفتح الكبير...

فخرج الناس عن بكرة أبيهم، يستقبلونه بالتهليل، ويحيونه بالتكبير، وينثرون على موكبه الريحان والأوراد...

وتلقاه الشعراء بالمدائح، وأنشد أبو تمام بين يديه بائيته الباقية على وجه الدهر التي مطلعها:

السيف أصدق أنباء من الكتب
في حده الحد بين الجد واللعب

وخاطبه فيها قائلا:

خليفة الله جازى الله سعيك عن
جرثومة[أصل] الدين، والإسلام، والحسب
بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها
تنال إلا على جسر من التعب
إن كان بين صروف الدهر من رحم
موصولة أو ذمام غير منقضب
فبين أيامك اللاتي نصرت بها
وبين أيام بدر أقرب النسب

المؤتمر السنوي التاسع والسبعون لمجمع اللغة العربية

قضايا اللغة العربية المعاصرة

متابعة الأساتذة: أبو السعود محمد - رمضان ثابت

عقد مجمع اللغة العربية بالقاهرة مؤتمره السنوى التاسع والسبعين تحت عنوان (قضايا اللغة العربية المعاصرة) على مدى أسبوعين، ناقش خلالهما العديد من قضايا اللغة ومنها: المصطلح اللغوى والثقافى والعلمى بين المشرق والمغرب العربي، ولغة العصر والتراث اللغوي... تواصل أم انقطاع؟ وتعريب العلوم... ضرورة لغوية أم حاجة قومية؟ واللغة فى الدراما التليفزيونية ولغة الحوار فى الأجناس الأدبية المعاصرة، ولغة الإعلان الصحافى وطرق الارتقاء بها، اللغة العربية فى مدارس اللغات، واقع الترجمة من العربية وإليها، مشكلات اللغة العربية الآن وقضاياها.

وقد شارك فى أعمال المؤتمر مع أعضاء المجمع من داخل مصر وخارجها الأعضاء المراسلون العرب والأجانب وخبراء المجمع المصريون، وأعلام اللغة والأدب فى اللغة والأدب والفنون من مصر والوطن العربي.

وشهد حفل الافتتاح كلمة رئيس المجلس فضيلة الأستاذ الدكتور/ حسن الشافعي وأشار فى كلمته إلى أن العربية لسان شريف يشرف كل من اتصل به بسبب أو انتمى إليه بنسب إنه لسان القرآن ومعدن البيان واليوم وقد اهتزت فى عقول الشبيبة العربية وضمائرها هذه المعانى والخلال فلا عجب فإن من جهل شيئا عاداه، والمسئول عن ذلك كله نحن أهل الجيل الحاضر، فقد أسأنا تقديم لغتنا إلى الجيل الجديد، بل أسلمناهم إلى غيرنا ممن حببوا إليهم لغات أخرى غير لغتنا. غير أن الأمل كما يرى الدكتور الشافعى يتجلى فى عدة منظمات تربو على الخمس تقوم فى عواصم عربية لخدمة اللغة ودراسة شئونها وعسى أن يكون ذلك فاتحة لمرحلة جديدة ترفع عنا حالة الإهمال والاستمرار فيه.

ويضيف د. الشافعي: إن ما يُوجه إلى مجمع القاهرة من انتقادات ومآخذ، أهمها ضعف التواصل بين المجمع القاهرى والجماهير العربية بوجه عام،

وضعف تواصله مع الهيئات ذات الصلة في الجامعات وفي المجتمع المدني، بل ضعف تواصله مع جمهور المثقفين بالقاهرة. الآن نعمل على تطوير مجلة المجمع لتحمل الأخبار وتنقل الأحداث التي تجرى في محيط المجمع إلى الدوائر المعنية، إلى جانب الموقع الإلكتروني الذي يحمل إلى العالم الرصيد الغنى الذي يمثل جهود المجمعيين، هذا إلى جانب المعاجم اللغوية العامة، والمعاجم الفنية المتخصصة، ويعمل المجمع للحصول على موقع في الفضاء الثقافي الحقيقي في قلب القاهرة لنتواصل مع جمهور العاصمة المثقف من خلال موسم ثقافي سنوي يضع قضايا العربية وهموم الفكر العربي في مكانها الصحيح من مجرى الأحداث في حياتنا الفكرية، يشارك فيه مع المفكرين المصريين الإخوة العرب وعشاق اللغة العربية، لنقل الربيع العربي من عالم السياسة إلى عالم الفكر والوجدان. ويوضح د. الشافعي أن المجمع اقترب من استكمال نصاب العضوية الكامل، وعسى أن ننجح فيما حاولناه طوال السنوات العشر الماضية من انتخاب أول امرأة عربية تتحقق لها عضوية المجمع الموقر. أما الشباب فالواقع أننا لا نمانع من مزاملتهم ولكن النضج المنشود في المجالين اللغوي والتخصص يجعل ذلك بين الشباب نادر الحدوث. ثم أشار إلى أن المشكلات المزمنة المتزايدة الخطر على اللغة




د. حسن الشافعي — فاروق شوشة

العربية وبخاصة في التعليم والإعلام ـ لم تعد تحتمل التناول التقليدي.

وجاءت كلمة الأمين العام للمجمع الأستاذ فاروق شوشة مشيرا إلى أن المشهد يتمخض عن فورة حمية وحماسة، وتتشقق الأرض العربية، في بقاع شتى من الوطن العربي عن انتفاضات وعي ومسئولية ترفع جميعها لافتة واحدة وشعارا واحدا هو النهوض باللغة العربية، وفي مجمع اللغة العربية حين يرتفع صوته اليوم بضرورة إنشاء مركزين أحدهما لتعريب العلوم وثانيهما لتطوير تعليم اللغة العربية.

ولقد شارك في المؤتمر أ. د. حمد بن عبد العزيز الكوارى وزير الثقافة في دولة قطر وكان الموضوع الذى تحدث فيه حول تحديات اللغة العربية وخصوصا في دول الخليج، كما شارك الأستاذ عبد الهادى التازى عميد أعضاء مجمع اللغة العربية بالقاهرة وكان الموضوع الذى شارك به هو قضية كتابة الأعداد العربية، وترتيب حروف الأبجدية، وأيضا شارك الأستاذ الدكتور/ عبد العزيز بن عثمان التويجري، المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - إيسيسكو - وكانت مشاركته ببحث عن العاميات والفساد اللغوي، وأيضا شارك الأستاذ الدكتور محمد عبد الرحيم كافود - من دولة قطر - عن قضية التعريب.

وفيما يلي أبرز توصيات المؤتمر

- أولا - يوصي المؤتمر بضرورة اعتماد سياسة لغوية ملزمة، من شأنها التخطيط لتعريب العلوم والطب في المدارس والجامعات وإصدار القرار السياسي الملزم في هذا الشأن.
- ثانيا - يؤكد المؤتمر ضرورة التنسيق في النظام التعليمي العربي، والإعلام العربي، وفي معالجة الرموز العلمية وبين جمعيات حماية اللغة العربية.
- ثالثا - كما يؤكد ضرورة العمل على توحيد الجهود التي تقوم بها المجامع اللغوية والاتحادات العلمية والمنظمات العربية والمترجمون والباحثون والأكاديميون والإعلاميون حتى لا تتعدد مناهج التعريب وتتعدد بالتالي مصادر المصطلح ووجهاته بين لجوء إلى المصطلح التراثي ولجوء إلى الاشتقاق ولجوء إلى النحت، بالإضافة إلى بطء الاستجابة للمصطلحات الجديدة أمام التدفق المعرفي في العصر الذى نعيشه، في مختلف ميادين المعرفة.
- رابعا - يرى المؤتمر ضرورة أن تحرص وسائل الإعلام العربية على استخدام اللغة العربية الصحيحة، والاهتمام بنقاء هذه اللغة وسلامتها، بوصفها اللغة الشديدة التأثير والجاذبية بالنسبة لجمهور المستمعين والمشاهدين، وأن تمتد مساحة استخدامها عبر العديد من البرامج المتنوعة والمواد الدرامية وبرامج الحوار والمناقشات بالإضافة إلى المادة الإخبارية والسياسية. فبها تسهم وسائل الإعلام من إذاعات وتليفزيونات وفضائيات في إيجاد بيئة سمعية فصيحة إذا ما أحسن استثمارها وتوظيفها. ويوصي المجمع بالنص على ذلك في مواثيق الإعلام المقترحة.
- خامسا - ضرورة التصدّى لظاهرة الازدواجية اللغوية في المجتمعات العربية بالعمل على التقريب بين المستويات الفصيحة للغة ومستويات اللهجات، وهو أمر يحقق القضاء على ظاهرة الأمية في المجتمعات العربية، والاهتمام بتطوير التعليم وجعله في مستوى احتياجات العصر ومطالبه، وتحقيق التنسيق في المنظومة التربوية بحيث تصبح العربية الفصيحة هي المستعملة في الكتب والمراجع وفي العملية التعليمية شرحًا ومناقشة وأنشطة وفعاليات.
- سادسا - ضرورة العمل على استعمال اللغة الوطنية (اللغة العربية) في جميع مراحل التعليم ومختلف تخصصاته وتدريس جميع المقررات في الكليات الجامعية باللغة العربية. والاهتمام في الوقت نفسه بإتقان اللغات الأجنبية - إلى جانب إتقان العربية - دعمًا لمسيرة التعريب، والإفادة من تجارب الدول

العربية وإنجازاتها فى مجالات التدريس والتأليف العلمى بالعربية. والإفادة من «الترجمة الإلكترونية» فى ترجمة المراجع الأساسية والمجلات العلمية، وهذا ما فعلته جميع البلدان التى حققت التنمية البشرية والتقدم الرفيع.

• سابعا- بحث التنسيق بين المجامع اللغوية وغيرها من الهيئات المعنية مثل اليونسكو العربى بالمصطلحات العلمية. والدعوة إلى عقد مؤتمر قادم تشارك فيه المجامع اللغوية العربية وعلماء العربية المختصون لتنسيق العمل فى مجال وضع المصطلحات - وبخاصة مصطلحات العلوم بين المشرق العربى والمغرب العربي، والعمل على توحيد هذه المصطلحات. ويوصى المؤتمر بأن يكون مؤتمر الدورة الحادية والثمانين مخصصًا لبحث التنسيق بين المجامع اللغوية فى مجال المصطلحات العلمية وتنسيق إنتاجها، والعمل على توحيدها وكيفية تسويقها وتعميمها، وربطها بحركة الترجمة، وتعريب تدريس العلوم.

• ثامنا- ضرورة العمل على زيادة نسبة المحتوى الرَّقْمى بالعربية على مواقع الشبكة الدولية (الإنترنت) وهو أمر يتطلب جهودًا كبيرة على المستوى اللغوي، وعلى مستوى تقنية المعلومات وعلى مستوى دراسات المستفيدين، حتى يصبح تعامل الجامعات والوزارات والمجامع والهيئات فى الدول العربية باللغة العربية، ويتحقق تكامل المعلومات فى كل المواقع لتكون متاحة باللغة العربية أمام الباحث العربي، ويصبح للعربية مكانتها على الشبكة الدولية فى كل مكان من العالم، وهو أحد تحديات المستقبل من أجل أن تكون العربية من بين اللغات العالمية الكبرى فى نقل المعلومات عبر التقنيات المتقدمة. والعمل على تطوير المواقع الإلكترونية للمجامع العربية.

• تاسعا- الدعوة إلى أن تهتم وزارات التعليم العربية بوضع منهجية وظيفية جديدة- فى إعداد المعلمين وتأهيلهم وتدريبهم - تركز على كيفية استخدام الفصحى الميسرة، وعلى الجوانب التطبيقية العملية فى تعلمها وابتكار أساليب جديدة تؤدى إلى سهولة تعليم نحوها وصرفها وتوحيد إملائها وكتابتها، والعمل على كل ما من شأنه خدمة اللغة العربية وتطويرها من خلال سياسة الغمر اللغوى فى المدرسة، بحيث تصبح اللغة الصحيحة حية ومستخدمة فى مجالات الأنشطة المدرسية المتعددة طوال اليوم المدرسي للدراسة.

• عاشرا- أهمية النظر إلى قضية التعريب بوصفها قضية حيوية ومصيرية للغة العربية وللمجتمعات العربية، من أجل تحقيق تنمية شاملة، وبخاصة فى المجال البشري، لأن هناك علاقة وثيقة بين التعريب والنظام التربوى والتنمية البشرية، والنظر إلى التعريب بوصفه وسيلة أساسية لتحقيق مجتمع المعرفة

الذى هو شرط لتحقق التنمية الإنسانية العربية، بالقيام على نشر المعرفة وتوزيعها وتقاسمها وتبادلها ونقلها بيسر وسهولة من فرد إلى آخر ومن مؤسسة إلى أخرى وتمثلها وإنتاجها وتوليدها والإبداع فيها وتوظيفها فى جميع مجالات النشاط الإنساني، وبخاصة فى المجال الإدارى والمالى والاقتصادي.

• حادى عشر- يوصى المؤتمر بالعمل على إكمال مشروع الترجمة الإليكترونية لجميع مصطلحات العلوم والمؤلفات الفلسفية والعلمية وذلك لانتشار الحضارة العربية الإسلامية بين شعوب أخرى ولتمكين الباحثين من ترجمة جميع المصادر والمراجع العلمية فى تعليم العلوم، وتعريبها، بالإضافة إلى ترجمة المجلات العلمية تمهيدًا لأن يصبح تعليم العلوم باللغة العربية أمرًا ميسورًا بالنسبة للأستاذ الجامعى وللطالب المتعلم فى الوقت نفسه، والتوسع فى إصدار معاجم العلوم الحديثة، والإفادة مما أنجز منها فى مجالات الهندسة الوراثية والتكنولوجيا الحيوية والإلكترونيات وعلوم البيئة والاتصالات وعلوم الفضاء، مع الاستعانة بما تم إنجازه وإقراره من قبل.

• ثانى عشر- يؤكد المؤتمر موافقته -من حيث المبدأ- على المضى فى خطوات إنجاز الشهادة الدولية فى اللغة العربية، وهو إذ يحيي جهد لجنة اللغة العربية فى التعليم، وما تقدمت به إلى المؤتمر فى هذا المجال، يوصى بأن يحال الأمر إلى اتحاد المجامع اللغوية العربية - بوصفه مشروعًا عربيًا يهم الوطن العربى كله لاتخاذ الخطوات العملية، الكفيلة بإنجازه على وجه السرعة.

• ثالث عشر- يؤكد المؤتمر موافقته على ما جاء فى لجنة اللغة العربية فى التعليم - الخاص بالنهوض بتعليم اللغة العربية - من ضرورة إنشاء مراكز بحثية تربط بين جهود المجمع من ناحية وجهود كلية التربية فى جامعة عين شمس من ناحية أخري، كما يؤكد المؤتمر تمسكه بمطلبه السابق الذى يتمثل فى ضرورة إقامة مركز لتعريب العلوم يكون تابعًا للمجلس الأعلى للجامعات كى يقوم بوظيفته فى تنمية حركة التعريب ومتابعتها علميًا.

• رابع عشر- النظر فى إمكانية تخصيص لجنة للتعريب ضمن لجان المجمع العاملة للتنسيق والتنفيذ فى ترجمة المصادر والمراجع العملية للسنة الأولى الجامعية أولا، بمعونة علماء المجمع الأجلاء، ويتم التمويل من خلال المركز القومى للترجمة بمصر، المؤسسة المعنية بذلك، والتى تحرص على الترجمة العلمية حاليًا.

• خامس عشر- العمل على التحول التدريجى من اللغات الأوربية المستخدمة فى مجال الإدارة المالية والاقتصادية إلى العربية.

بين الصحف والمجلات

إعداد: أ/ محمد جمعة

كلمة الإمام الأكبر فى المونديال

لقيت كلمة فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر إلى العالم فى مونديال البرازيل اهتمامًا واسعة فى مختلف وسائل الإعلام وفيما يلى نص الكلمة :



أيها الجمع العظيم

أحييكم جميعًا فى هذا الملتقى التاريخى الجامع، بتحية الإسلام وهي : السلام عليكم،

ورسالتى إلى كل المحتفلين بهذا الحدث العالمى هى نفس الرسالة التى حملها الإسلام إلى الناس جميعًا منذ خمسة عشر قرنًا من الزمان، مهما اختلف بهم الزمان أو المكان، وفى هذه الرسالة يقرّر الإسلام أن الناس كلهم سواسيةٌ كأسنان المشط، لا يتميز إنسان على إنسان إلا بالعمل الصالح الذى يعود بالنفع على الفرد والمجتمع، والناس جميعًا أبناء أب واحد وأم واحدة، «كلهم لآدم وآدم من تراب»، والناس إما أخٌ لك فى الدين أو نظيرٌ لك فى الإنسانية، ومن هنا حرّم الإسلام الظلم بين الناس، ونهاهم أن يظلم بعضهم بعضا .. سواء وقع الظلم بين الأفراد أو بين الدول.

هذا وحضارة الإسلام هى حضارة تعارف وتواصل، تمدّ يدها للحضارات الأخرى، وتتبادل معها المنافع والمصالح، وقد كان الإسلام أول من سعى إلى العالمية بتنوع ثقافاته وتعددها.

والأزهر الشريف الذى يمثل المرجعية الدينية لمليار ونصف المليار من المسلمين، يناديكم بضرورة نشر السلام والمحبة والعدل بين الناس جميعًا فى الشرق والغرب، وذلك بأن يفهم الغرب حضارة الإسلام على حقيقتها، وأن يفهم المسلمون مدنية الغرب على حقيقتها أيضا، وأن الشرق والغرب إذا تفاهما زال ما بينهما من سوء ظن وحلّ السلام محل الخصام.

أيها الناس !

اجعلوا من هذا الحدث الرياضى العالمى مناسبة لنشر روح السلام والمساواة بين الناس، وبث مشاعر المحبة والأخوة، والقضاء على نوازع الظلم والشر والتمييز بين البشر، وفرصة لمساعدة الضعفاء والفقراء والمرضى والمحرومين، وهذه هى القيم التى تحتاجها مجتمعاتنا الآن، وتزكيها الروح الرياضية، ولن يجدها الناس إلا فى هدى الرسالات الإلهية والأديان السماوية.

وكما بدأت كلمتى لكم بتحية السلام أختتمها بالسلام والرحمة والبركة فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الاستيطان يعيق الوحدة الفلسطينية!

تحت هذا العنوان جاء مقال الكاتب "كلوفيس مقصود" المنشور بجريدة سفير الصادرة بتاريخ : ٢٠١٤/٦/١٣م يقول فيه :

إنّ ردة الفعل الإسرائيلية على المصالحة الفلسطينية ،والتى هدّدت بزيادة المستوطنات، هى محاولة لعرقلة خطة الحكومة التوافقية الجديدة الهادفة إلى إرساء نفسها كدولة موحدة فى ظل الاحتلال.

إنّ اللهجة الحادة التى ردّت بها الحكومة الإسرائيلية، وبالتحديد رئيس الوزراء، على تشكيل حكومة الوحدة الوطنية الفلسطينية الجديدة، هى إشارة إلى أنّ إسرائيل ترى «استفزازًا» لها فى كل محاولة جدية يقوم بها الفلسطينيون من أجل تأكيد حقوقهم. وفى ردة فعل درامية، قال وزير الإسكان «يورى أريبل» للإذاعة الإسرائيلية عندما يتم البصق فى وجه إسرائيل، لا بد لها أن تفعل شيئًا حيال الأمر.

إنّ أى خطوة متوقعة وطبيعية لتوحيد الشعب الفلسطيني وتسوية خلافاته الداخلية تعتبر إهانة لمخطط إسرائيل وأهدافها.

لقد أدرك كل من «فتح» و«حماس» أنّ اتحادهما ضرورى للوصول إلى دولة فلسطينية مستقلة. لكن يبدو أنّ الانقسام داخل الأمة الفلسطينية سلاح فى يد إسرائيل للاستمرار فى ضم الأراضى تدريجيًا والتوسع الاستيطاني. الجدير بالذكر أن الاتحاد الأوربى قد صرح عن استعداده للعمل مع الحكومة الفلسطينية الجديدة وكذلك فعلت وزارة الخارجية الأمريكية. ولا بد للمجتمع الدولى من أن يعترف بأنّ المصالحة التى جرت بين قطاع غزة والضفة الغربية قد وضعت حدا لانشقاق دام سبع سنوات ألحق فى خلالها الضرر بالسلطات الحاكمة المنفصلة. وقالت حنان عشراوي، عضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية: «إنّ حكومة الوفاق الوطني... قد لقيت ترحيبًا عالميًا، باستثناء إسرائيل فى تشويهها السافر للحقائق من أجل القضاء على فرص السلام».

وإذ أصبح الآن للوحدة الوطنية الفلسطينية حكومة تمثل شعب فلسطين، عليها القيام بخطوات عاجلة لتعلن أنها «حكومة دولة فلسطين فى ظل الاحتلال». سيضع ذلك حدًا لأى التباس، ويوضح الوضع القانونى بأنّ إسرائيل هى قوة احتلال وبأنّ الأراضى الفلسطينية محتلة

وإنّ إتمام ذلك سيعطي المجتمع الدولي، والأمم المتحدة، ومجلس الأمن، سلطة اتخاذ التدابير اللازمة للتعامل مع انتهاكات القانون الدولي وإصدار قرارات تسهّل المفاوضات التي طال انتظارها حول حل الدولتين. وبتعبير آخر، تقوم المرحلة المقبلة على إنشاء دولتين، مع بقاء فلسطين تحت الاحتلال، ما يسمح بتطبيق اتفاقية جنيف الرابعة.

مهّدت حكومة الوحدة الوطنية الطريق أمام حل الدولتين الذى فشلت فى تحقيقه جميع «عمليات السلام» منذ «اتفاقية أوسلو» وقبلها.

التحرش قضية أخلاقية

تحت هذا العنوان جاء مقال الأستاذ / "فاروق جويدة" المنشور بجريدة الأهرام الصادرة بتاريخ ٢٠١٤/٦/١٤م جاء فيه :

أفاق المصريون على كارثة اسمها التحرش .. وتعرضت المرأة المصرية إلى اعتداءات صارخة طوال الفترة الماضية .. كان أخطر هذه الاعتداءات فى حشود المتظاهرين التى امتلأت بهم الميادين والشوارع.

حيث كان من السهل أن يتسلل الشباب الضائع ويرتكب جريمته والحقيقة أن هناك أسبابًا أخرى لهذه الظاهرة الخطيرة وهى تراجع مستوى السلوك والأخلاق .. فى حياة المصريين تناقض شديد بين إيمان شكلى لم يصل إلى الجوهر وسلوك همجى لم يعتادوا عليه .. إن عمليات التحرش فى الشارع المصرى ظاهرة جديدة تماما وفى زمان مضى كان الشخص الذى يرتكب هذه الجريمة يتعرض للضرب والإهانة من عشرات الأشخاص حوله فلا يفكر فى هذه الجريمة مرة أخرى .. هناك جانب أهم وأخطر فى هذه القضية وهى ملايين الشباب العاطل الذى يدور فى الشوارع بلا عمل ولا أمل ولا حلم ...

أن قضية التحرش لا تنفصل أبدًا عن جموع الشباب الذين يحتشدون فى الشوارع بلا عمل .. ولا يمكن أن تنكر أيضا تراجع الجانب الثقافى فى حياة المصريين؛ لأن الثقافة تهذب السلوك وترتقى بالوجدان وأمام الفضائيات نسيت قضايا الأخلاق، ومسئولية الإعلام الحقيقية وسادت لغة الراقصات وبرامج التفاهات والخلط بين الفن والإسفاف ..

إننا حين نناقش قضية التحرش والاعتداء على بناتنا فى الشوارع وتمزيق ثيابهن يجب أن نبحث عن الأسباب حتى لا ندور فى حلقة مفرغة .. البطالة ثم البطالة ثم الفضائيات والفن الهابط .. ثم تراجع مستوى الأخلاق.

السيستانى، أوباما والدعشنة: الفاشية المقدسة

تحت هذا العنوان جاء [رأى القدس] المنشور بجريدة القدس العربى الصادرة بتاريخ ٢٠١٤/٦/١٣م جاء فيه :

قال ممثل المرجع الشيعى الأعلى آية الله العظمى السيد على السيستانى فى خطبة الجمعة فى كربلاء «على المواطنين التطوع لتحقيق هذا الغرض المقدس». وأعلن أن: (من يضحى

منكم فى سبيل الدفاع عن بلده وأهله وأعراضه فإنه يكون شهيدا) أما مسئولوا داعش فيلحون على قواتهم أن يسرعوا باقتحام بغداد لتعود «عاصمة للخلافة» التى يزمعون إعلانها.

إنها «الحرب الطائفية التاريخية غير المقدسة» تنبعث مجددا من رماد الحقد والانتقام، وهذه طبولها تدق فى أركان العراق، معلنة الاستعداد لاستكمال حلقاتها الدموية، فيما تتلاشى معالم الدولة والوطن، لمصلحة التنظيمات والميليشيات والفتاوى والمرجعيات، أيا كانت أسماؤها.

إنها حرب «الفاشية المقدسة» التى ترتفع راياتها بينما تهوى المنطقة بأسرها نحو «الدعشنة» بمعناها الفاشى الأعمق: تقديس العدمية وسحق الآخر واستحلال كل شىء وأى شىء باسم السماء.

إن تصريح السيد السيستانى يصلح أن يكون نعيا للعراق كما عرفناه، ودليلا قائما بذاته على انهيار ما تبقى من نظام أو دولة فيه. ويا له من انهيار.

أما باراك أوباما ،فماذا يمكن أن يقول وهو يرى الجيش الذى أنفقت الولايات المتحدة عليه نحو خمسة وعشرين مليار دولار (بالإضافة إلى نحو أربعين مليارا من بغداد) يتهاوى كبيت العنكبوت.

إن الولايات المتحدة تبقى الفاعل الأصلى فى هذه الجريمة التاريخية المستمرة فى العراق.

وبالرغم من هذا يبدو أن أوباما الذى لوح بتدخل عسكرى لم يقدر خطورة داعش إلا عندما توسعت غزواتها بالقرب من منابع النفط فى العراق، أما أين كان الرئيس الأمريكى عندما كانت داعش تقتل وتصلب وتحرق الآمنين فى سوريا، فربما كان نائما، حسب تصريح أحد قيادات الكونغرس.

لقد وصل الغرب إلى قناعة هذه المرة، بأن العراق يغرق فى مستنقع حرب أهلية طائفية، لا يريد أحد أن يتورط فيها. والمتأمل للموقف الأمريكى يدرك أنه يشترط على المالكى التراجع عن نهجه الطائفى فى الحكم، كـ«مكون سياسى» ضرورى ضمن أى إجراءات أو مساعدات عسكرية «قد يحصل» عليها.

إن التدخل الأمريكى غير المشروط وغير المدعوم بحل سياسى، سيفسر على أنه دعم للطائفية، وبالتالى قد يفضل أوباما فى النهاية أن يترك العراق والمنطقة بأكملها إلى مصيرها الداعشى.

فيا لها من حرب، ويا له من مصير.



(الجنيزات) شهادة يهودية بعدل المسلمين وتسامحهم

د. محمد حسن عبد الخالق

من الآيات التي تنطق بأن القرآن كلام الله، أنك لا تجد فيه أثرا يدل على تعصب لقوم ضد قوم، ولا لعرق ضد عرق، ولا لجنس ضد جنس، ولا لطبقة ضد طبقة، ولا للغة ضد لغة، ولا لعصر ضد عصر، ولا لدين ضد دين، فتراه يخاطب الناس باعتبارهم أبناء آدم، وباعتبارهم عباد الله، يدعوهم إلى الإيمان بالله الواحد الأحد، والإيمان بالبعث والحساب، ويدعوهم إلى التعارف والتعاون، وإلى الأخوة والمساواة، ويفرض عليهم شعائر واحدة، وتكاليف واحدة، ويؤكد أنه لا فضل لإنسان على آخر إلا بالتقوى، والتقوى أن تعمل ما يبعدك عن غضب الله وعذابه، ولا تجد فيه آية تدعو إلى كراهية الآخر، لأنه (آخر)، وتجد الله فيه ربا للعالمين، وليس ربا لقوم من الأقوام، وتجده يعلن في صراحة أنه لن يحاسب الناس في الآخرة على (جنسيات) أديانهم، وإنما سوف يحاسبهم حسابا فرديا، لا يوزن فيه شيء إلا الإيمان والعمل الصالح، قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة: ٦٢)

من أجل ذلك تعايش المسلمون وتعارفوا وتعاونوا مع غيرهم من أهل الأديان الأخرى، فيما تقوم به حياة الناس وتعمر به البلاد، من الحرف والأعمال والعلوم والفنون، ولم يتخذوا من إهانة الغير أو السخرية به أو العدوان عليه أو السعي للقضاء عليه وسيلة للقرب من الله، كيف وهم يقرءون قول الله:

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (الأعراف: ٥٦)

وفي هذا السياق نتكلم عن (الجنيزات)، وجنيزاه معبد ابن عزرا في منطقة الفسطاط بالقاهرة.

والجنيزاه كلمة عبرية تعود إلى الفعل (جنز) بمعنى جمع أو خبأ، وهي مصطلح يهودي يقصد به ما جُمع من الكتب والوثائق والأوراق، في غرفة خاصة في المعبد أو المقبرة، صيانة له عن الإهانة، وتمهيدا لتكريمه بالدفن، وفق طقوس دفن الأموات، في الشريعة اليهودية، بما في ذلك التلاوات الدينية، ووضع شاهد على القبر، يشير إلى هوية المدفون.

ولا تبعد كلمة (الجنازة) العربية عن (الجنيزاه) العبرية، فالجنازة في العربية تدل على محمل بدن الميت، من وقت موته إلى أن يتم دفنه، أو الناس الذين يرافقونه إلى مكان دفنه.

ولأن دفن تلك الأوراق في اليهودية، لا يقصد به مجرد إبعادها عن التعامل غير اللائق، كأن تطأها قدم، أو تكون شيئا من الأشياء التي تتعرض للامتهان، وإنما يقصد به أيضا إبعادها عن البلى، فإنه إذا مضت قرون على دفن أكوام من تلك الوثائق القديمة، ثم تهيأ لباحث في التاريخ أن يطلع على تلك الوثائق، فإنه يكون قد وقع على كنز من المعلومات عن القرون الغابرة، ومن هنا كان للجنيزاه قيمة علمية، لأنها تكشف الكثير عن حياة الناس وعلاقاتهم، وحين تكون الجنيزاه في بلد غالبيته مسلمون، فإنها تكشف عن طبيعة العلاقات بين المسلمين واليهود.

لماذا يدفن اليهود تلك الوثائق؟

ربما تبادر إلى الذهن أن اليهود يدفنون تلك الوثائق، لأنها عبارة عن نصوص دينية، كما نفعل نحن المسلمين، حين نصون أوراق المصاحف الممزقة، عن التعامل المهين، فنجمعها ونقوم بحرقها، أو لأنها فتاوى دينية تتعلق بأمور متنوعة، ولكنها تحتوي مقتبسات من النصوص الدينية. ولكن اليهود لا يدفنون تلك الأوراق لهذا السبب ولا ذاك، فاليهود لا يدفنون تلك الأوراق لأن فيها نصوصا دينية، وإنما يدفنونها لأن بها كتابة عبرية، فالمكتوب في تلك الوثائق يشمل موضوعات لا حصر لها، من عقود بيع وشراء ووقف واستبدال وشعر ونثر، ونصوص إثبات الملكية، وعقود زواج وطلاق ورهن وصلح، ومناقشات ودعاوى لأي أمر من الأمور، دينيا أو اقتصاديا أو اجتماعيا... إلخ.

وسبب ذلك أن اليهود في العصور الوسطى كانوا يعتقدون بقداسة اللغة العبرية، لأنها في نظرهم (لغة الله)، وبناء على تلك القداسة المتصورة للغة العبرية، كانوا يحرّمون تقطيع أو امتهان أي ورقة مكتوبة بالعبرية، أو تتضمن كتابة عبرية، بصرف النظر عن مضمونها، فاللغة ذاتها مقدسة، وحروف كتابتها مقدسة. ولذلك كانوا يجمعون الأوراق التي لم يعد للناس حاجة إلى حفظها، بسبب يرجع إلى ما هو مكتوب فيها، ثم يضعونها في غرفة خاصة في المعبد أو المقبرة، تسمى غرفة الجنيزاه، تمهيدا لتكريمها بدفن لائق يحفظها من البلى.

مرّ في كلامنا عن سبب دفن تلك الأوراق تركيب (اليهود في العصور الوسطى)، وهو تركيب ينبغي ألا تغفل عنه، لأن اليهود قد توقفوا في العصر الحديث عن دفن الأوراق، لأن انتشار التعليم والطباعة، وظهور الصحافة، جعل من المستحيل على اليهود أن يجمعوا تلك الأوراق ويدفنوها، ومن المؤكد أنهم اليوم يكتفون بما يفعله المسلمون من حرق الأوراق الممزقة التي تتضمن نصوصا دينية صرفة.

وينبغي أن نتخذ من هذا الموقف عبرة، وهي أن الواقع غلاب، وأن الفقهاء مهما تشددوا وتمكنوا من فرض وجهة نظرهم على الناس، فإن الواقع حين يستحيل تجاوزه يطيح بكل فتوى تعانده، فتصبح ذكرى من الماضي.

مكانة جنيزاه القاهرة:

على الرغم من أنه قد وجدت جنيزات كثيرة في أنحاء مختلفة من العالم، إلا أن أكثرها أهمية هي المشهورة بجنيزاه القاهرة، ويقصد

بها إحدى جنيزات القاهرة، وهي جنيزاه معبد ابن عزرا بالفسطاط؛ وذلك لوفرة محتوياتها، وسلامتها من التلف، لأن الظروف البيئية قد ساعدت على بقائها سالمة، إذ إن غرفة الجنيزاه تلك، قد صُممت دون أبواب ولا نوافذ، ولم يكن بها إلا فتحة من السقف ترمى منها الأوراق.

اكتشاف جنيزاه القاهرة

يعود تاريخ اكتشاف جنيزاه القاهرة إلى الرحالة اليهودي سيمون فون جلورن، الذي زار معبد ابن عزرا سنة ١٧٥٢م، وكتب عنها في يومياته، وفي القرن التاسع عشر حصل اليهودي الروسي إبراهام فير كوفيتش (١٧٨٦- ١٨٧٤م) على بضعة آلاف من وثائقها، وحملها معه، وأودعت في المكتبة العامة، في سان بطرس برج، (لينينغراد حاليا)، واطلع على نفس الجنيزا مرتين، العالم البريطاني اليهودي الكان ادلر، كانت الثانية منهما في ١٨٩٦م، وفي المرة الثانية أخذ عدة آلاف من الوثائق، استقرت في مكتبة السمنار اليهودي في مدينة نيويورك في مجموعة تحمل اسمه.

وفي العام نفسه قصد الجنيزاه سالمون شختر أستاذ العلوم اليهودية في جامعة كمبردج البريطانية، بمعاونة مالية من صديقه تشالز تايلور، وحمل معه رسائل توصية من زعماء الطائفة اليهودية في بريطانيا، وتمكن من الحصول على ١٤٠ ألف وثيقة- وهي أكبر وأهم مجموعة جنيزاه في العالم- استقرت في مكتبة جامعة كمبردج تحت اسم تايلور- شختر.

شهادة الجنيزاه على عدل المسلمين وتسامحهم:

إن هذه الوثائق التي كتبت بأيدي اليهود وباللغة العبرية، أو العبرية والعربية- تشهد بما كان يتمتع به اليهود في مصر من عدل وتسامح.

ويمكن للجنيزات أن تعوض قصورا في المصادر والمراجع التاريخية الإسلامية، لأن معظم المصادر والمراجع التاريخية الإسلامية قد أولت اهتماما كبيرا بالأحداث السياسية والعسكرية والدينية، ولم تعط اهتماما ذا بال بالنواحي الاجتماعية.

لماذا لا ندرس الجنيزاه؟!

ينبغي أن تسعى أقسام اللغة العبرية والتاريخ في مصر إلى توفير صور من وثائق جنيزاه القاهرة والبساتين، وتوجه طلاب الدراسات العليا، إلى دراستها ومقارنة أحوال اليهود في (مصر الإسلامية)، بأحوال الفلسطينيين اليوم في (الدولة اليهودية) في يافا وحيفا والضفة والقطاع وغيرها من البلدان الفلسطينية، وأن يوحي شيء من هذه الدراسات مستقبلا لكتّاب السيناريو، فنشاهد فيلما أو مسلسلا عن أسرة يهودية عاشت سعيدة في القاهرة، في القرن الثامن عشر أو التاسع عشر، ثم أذاق أحفادُها الهوان للمسلمين في فلسطين، في القرن العشرين أو الحادي والعشرين؟ بدلا من رديء الأفلام والمسلسلات التي تشوّه مجتمعنا وتاريخنا وشريعتنا؟

ويمكن لهذه الجنيزات أيضا أن تلقي ضوءا على تأثير البيئة الإسلامية في اليهود، وعلى الجدل الديني الإسلامي اليهودي، وعلى أمور من المشترك المعاشي بين اليهود والمسلمين، وأمور أخرى من خصوصيات كل فريق.

ترنيمة الأمل

الاستاذ / مجدى بشر

«هيلن كلر» العمياء الصماء معجزة التربية التى بهرت العالم، وتخطت الصعاب، وتعلمت فبلغت فى العلم منزلة رفيعة؛ إذ حصلت على الدكتوراه، وألفت ونشرت العديد من الكتب، التى تهتف بكل إنسان معاق أو غير معاق أن اقتحم العوائق واستثمر ما منحك البارى من نعم لا تعد ولا تحصى، وكن مثلا يحتذى فى الكفاح والجهاد فى أسمى معانيه وأرقى غاياته وأعلى أهدافه.

هذه العبقرية الفريدة من نوعها، والأثيرة فى بابها، لست هنا لأسرد قصتها، وأعدد إنجازاتها، وأشيد بصلابة إرادتها وعزيمتها الفولاذية، فقصتها قد قرأتها الغالبية العظمى منا طوعا، واختيارا ودرستها جبرا وفرضا، فى منهج اللغة الإنكليزية فى الصف الأول الثانوى فى موضوع عنوانه انتصار على المأساة.

لكن جل تركيزى هنا سيكون على التنويه والتعريف بدور المعلم فى حياتها، وما كان لمعلمتها من تأثير يبلغ حد الأسطورة، التى تستلهمها الأجيال ماضيها وتاليها، اعترافا بفضل العلم وتوقيرا لدور المعلم، الذى خلده أمير الشعراء حين قال:

قف للمعلم وفه التبجيلا
كاد المعلم أن يكون رسولا
أرأيت أعظم أو أجل من الذى
يبنى وينشئ أنفسا وعقولا

وليس القصد مطلقا سردا تفصيليا لأحداث حياة قد يمر بها البعض، فلا يجتنى منها إلا اليأس والقنوط؛ ولكن المبتغى هو إيصال رسالة مفادها أن الأمل يولد من رحم الألم، وأن المعاناة مخاض الإنجاز والإبداع، وأن أقدار الله كما علمنا أئمتنا ومشايخنا لا تأتى إلا بالخير، ولا تنطوى إلا على البر، وهو أمر يجدر بكل من يعيش عصر العلم ذا الإيقاع اللاهث والرتم السريع أن يلتفت إليه ويتعلمه ويقتبس أنقى ما فيه، وهو الصبر الذى هو مفتاح كل باب يطرقه السعداء.

والحكاية تبدأ باسم المعلمة «جوانا مانسى فيلد سوليفان» والمعروفة فى

ترنيمة الأمل

أوساط الناس باسم «آن سوليفان نيسي» التى ولدت فى ولاية «ماساشوسيتس» بأمريكا فى الرابع عشر من إبريل سنة ١٨٦٦م، وإن قلنا أن حياتها الباكرة كانت صعبة لاندرجنا تحت لواء من يبسط الأمور ولا يضعها فى إطارها الحقيقى المفزع. فقد كانت أمها واهية البنية تعانى من السل الذى عجل بوفاتها سنة ١٨٧٤م، والطفلة فى سن الثامنة فقد عانت إذن من اليتم.

ولم تكد تفيق من هذه الصدمة حتى عاجلها القدر بضربة أشد وطأة، إذ أن أباها الغارق فى السكر يهجر الأسرة والبنت لم تكد تبلغ العاشرة من عمرها الثرى، وكانت نتيجة ذلك أنها وأخاها يودعان فى دار للرعاية فى نفس الولاية، وبعد إقامتهما بوقت قصير تتلقى المسكينة الضربة التالية إذ إن أخاها المريض يموت تاركا الصغيرة لا لتغرق فى بحر الحزن والأسى بفقد الأم والأب والأخ فحسب، لكن لتعانى أشد المعاناة من الفشل الذريع لعمليتين جراحيتين أجريتا فى عينيها، فهل يصيبها ذلك بالإحباط؟ حاشا وكلا. ففى سنة ١٨٨٠م تلتحق الفتاة بمدرسة بركنز للمكفوفين.

وحتى تنطلق مواهبها وتتفتح براعم مهارات أودعها البارى فيها إذ تعلمت فيما تعلمت الأحرف المجسمة العادية، التى يقرأها المكفوفون بأناملهم الذهبية، وذلك لتستطيع التواصل مع صديقتها التى كانت أعجوبة الدنيا وأحدوثة العالم فى قدرة الله تعالى الغالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

وقد أسعدها حظها أن تكون معلمة لتلك الفتاة المتوقدة الذكاء، الألمعية الطبع، ولما بلغت «آن» العشرين وحصلت على شهادتها الجامعية، تتيسر الأمور قليلا حيث يتحسن بصرها تحسنا كبيرا إثر عدة عمليات جراحية ناجحة، وفى الثالث من مارس ١٨٨٧م تصل «آن» إلى ولاية «ألاباما» لتعلم «هيلن» التى كانت آن إذن فى السادسة من عمرها وتناغمت حياة التلميذة والمعلمة وقد واجهت «آن» فى البداية صعوبات شديدة فى التعامل مع «هيلن» مما كاد يصيبها بالإخفاق فى مهمتها الحساسة، وكان الإحباط متوقعا من كلا الطرفين، لكن نجاح «هيلن» فى التعرف على أن لكل شىء فى الحياة اسما خاصا، وأول تلك الأشياء مضخة الماء التى فى بيتها، هذا الأمر فتح لكليهما عالما فسيح الأرجاء مترامى الأطراف من العلم والمعرفة، ومن ثم ازدهر نجاحهما كفريق موفق مسدد فى كثير من خطواته.

وتتواصل صحبة العطاء والإبداع بين هاتين العبقريتين وكيف أن إحداهما كتب لها المجد والخلود إذ أحدثت

فى حياة رفيقة كفاحها انقلابا هائلا، أخرجها من ظلمات الجهالة والعجز المرير المقيت، إلى نور العلم والتفوق والتميز والتفرد.

وبدأت «آن» مهمتها الشاقة لكن ما خفف من ذلك وجعله سهلا ميسرا إن كان لنا أن نقول ذلك هو إدراك المعلمة أن تلميذتها تستطيع استيعاب الكثير والكثير، وأن تجاوب المتلقى وإيجابيته الفذة عامل لا يستهان به حيث التحقت «آن» بذات المعهد.

أمر هام جدا لا يفوتنا الإشارة إليه هو موافقة والدى «هيلن» التامة غير المشروطة على ما تقوم به «آن» مع ابنتهما طالما ذلك كان فى مصلحتها وفى سنة ١٨٨٨م صارت «هيلن» بمعهد بركنز للمكفوفين فصحبتها «آن» فى تعليمها إلى درجة تفوقت معها «هيلن» تفوقا مذهلا، باستخدام لغة الإشارة اليدوية، مما حقق لكليهما شهرة طبقت الآفاق الأمر الذى جعل التبرعات والأعمال الخيرية تنهال على تلك المؤسسة العلمية، وقد تمكنت «هيلن» -بفضل اصطحاب «آن» لها فيما كانت تكلف به من واجبات وأعمال تطبيقية ومحاضرات- من الحصول على شهادتها الجامعية، حيث تخرجت فى كلية «ريد كليف» فى العام المتمم للقرن التاسع عشر، والتقت المعلمة ونحن بصدد التركيز على التعريف بها، وبما اجتازت من ظروف بالناقد الأدبى لجامعة «هارفرد» واسمه «جون ألبرت نيسى» الذى ساعد «هيلن» فى نشر سيرتها الذاتية وتطورت العلاقة بين «آن» وجون فأزهرت حبا توج بالزواج فى سنة ١٩٠٥م. واستمر حتى بداية الحرب العالمية الأولى.

وفى سنة ١٩٢٤م عملت «آن» و«هيلن» فى المؤسسة الأمريكية للمكفوفين، عملتا بدأب ومثابرة، مستشارتين ومدافعتين منافحتين عنيدتين عن مصالح تلك الفئة، ومن أهمها تدبير موارد مالية لتلك الطائفة المجحوف بحقوقها أشد الإجحاف.

وبعد فقد كانت تلك نبذة بسيطة عن تلميذة غير عادية ومعلمة فذة استطاعت ببصرها وسمو خلقها أن تجعل التاريخ ينظر إليها بل إليهما بعين العناية والإكبار والتوقير.



خميلة الشعر



للأستاذ / محمد عبدالوهاب

هالة الحُسْنِ فى جبين العام ...
تتجلّى إشراقة للأنام
بهلالٍ تغارُ منه البدورُ ...
جاءت البُشرى بأيام الصيام
واحةُ الخيرِ للنفوس تجلّتْ ...
بائتناسٍ .. فى صفوة الأيام
بين عبد .. وبين ربٍّ عليم ...
بالحنايا .. يجود بالإنعام
آنَ أنْ تهدأَ الجوارحُ حينًا ...
بابتعادٍ عن نزوةٍ أو طعام
آنَ للروح أنْ تفيءَ لأفقٍ ...
مُتسامٍ ..أكرِمْ به من تسام
يُصلحُ الصومُ- باستقامة قصد -
كلَّ نفسٍ ترومُ برَّ السلام
كلّ برّ .. لكم يُضاعف حتى ...
يبلغَ الغرسُ سُدّةَ الإعظام
يومَ حشرِ الأنام يدركُ سعدًا ...
كلُّ مَنْ تابَ بالحُسنِ ختام
أسألُ اللهَ للكنانة بُعْدًا ...
عنْ شقاقٍ أوجفوةٍ وانقسام
كى تعودَ الأمجادُ للشعب ذُخرا ...
بارتقاءٍ ونهضةٍ والتحام

[محمد عبد الوهاب]

ooo

يأتى رمضانُ هذا العام ونحن على أبواب عهد جديد ، نسأل الله عز وجل أن يجعله عهدًا سعيدًا مجيدًا ، كلّه خيرٌ وبركة وحرية وكرامة للشعب المصرى البطل ، الذى صبر كثيرًا على ما يكره ، وأن يعوضه عما أصابه من محن وشرور ، وأن يلهم أولى الأمر الرشاد والسداد ، وأن يعملوا على رفعة شأن الوطن والمواطن ، وأن يعملوا على تأكيد مبادئ الحرية والكرامة والعدالة ، بلا تمييز لأى فئة مهما كانت ، ولكن تعم المساواة والعدل للجميع ، فالكل مصريون ، وأن ينهج الوطن نهج العلم الحديث ، وأن يعلى من قيمة العلماء والأدباء ، فلن يكون هناك إبداع فى أى حقل من حقول الحياة بدون عنصر هو الأهم على الإطلاق ، ألا وهو عنصر الحرية ، علينا بالانفتاح على الدنيا بأسرها ، نأخذ ونعطى الخبرات والمعلومات فى كل المجالات التى من شأنها رفع المستوى العلمى والتقنى ، فلن يوصل الانغلاق إلا إلى التخلف والانحدار ، نسأل الله لمصرنا الحبيبة العزة والمجد ولشعبها الطيب الرخاء والتقدم فى كل مجالات الحياة .

هذا وتفخر خميلةُ الشعرِ والأدبِ ، فى العدد الوضيء من (مجلة الأزهر) الغرّاء والخاص بشهر رمضان المُعظّم - أعاده الله على الإنسانية كلها بالخير والبركات وبالأمن والسلام - بتقديم باقة رائعة لأصوات شاعرة متعددة ، وهى وإن تنوعت ألوانُها ، وتمايزت روائحها الطيبة ، إلا أنها جميعا تتوحّدُ فى نقائها وسموّها وأيضا تفردها ،

مصر

الشاعر الكبير / على محمود طه



هوًى لكَ فيه كُلُّ رَدًى يُحَبُّ
فَدَيْتُكَ ! هل وراءَ الموتِ حُبُّ ؟
فديتُكَ مصرُ ، كُلُّ فتًى مشوقٌ
إليكَ ، وكُلُّ شيخٍ فيكَ صَبُّ
ويَحلُمُ بالفدى طفلٌ فطيمٌ
وكُلُّ رضيعةٍ فى المَهْدِ تَحبو
أراكِ وأينما وَلَّيْتُ وجهى
أرى مُهجًا لوجهكَ تشرئبُّ
إذا زامتكَ عاديةٌ وشَقّتْ
فضاءَكَ غيلةٌ ورماكَ خَطْبُ
دَعَتْ بالنهرِ فهو لَظًى ووَقْدٌ
وبالنسماتِ فهى حَصًى وحَصْبُ
وبالشجرِ المنوّرِ فهو غِلٌّ
وكُلُّ غُصونِهِ ظُفُرٌ وخِلْبُ
حقائقُ عن يدِ الإيمانِ ترمى
صواعقَ وَمْضُها رَجْمٌ وشُهْبُ
صنائعُ كالغانياتِ يَشْدو
بها شرقٌ ، ويُلقى السمعَ غربُ
ويَبعثُ فى الحياةِ على صداها
فراعنُ أو جوارِيُونَ عُرْبُ
لقد بُعِثَتْ من الأحقابِ مصرُ
أجلْ بُعثتْ ، وهبَّ اليومَ شعبُ
أَأَرْحامٌ مُقطّعةٌ ، وأرضٌ
تَعادى فوقَها أهلٌ وصَحْبُ
وأسواقٌ تُباعُ بها وتُشرى
ضمائرُ هُنَّ للأهواءِ نَهْبُ
يَطوفُ بها النفاقُ وفى يديه
صحائفُ أُفعمتْ زورًا وكِذْبُ
يكادُ الليلُ أنْ يَنسى دُجاهُ
إذا نُشِرتْ ويأخذُ منهُ رُعْبُ
تعالوا يا بنى قومى تعالوا
إلى حقٍّ وحَسْبُ الشعبِ حَسْبُ
هو الدستورُ منهُ جنى قطفنا
ونهرُ حياتنا ملآنُ عذبُ
إذا ما الأكثريةُ فيه فازتْ
تحرّكتِ الدسائسُ وهى إلبُ
عجائبُ لم تقعْ إلا بمصر
وأحداثٌ لهُنَّ يطيشُ لُبُّ
تعالوا يا بنى قومى إليهِ
فما فى حُكمهِ قسرٌ و غصبُ
تحرّرتِ الشعوبُ فكُلُّ شعبٍ
طليقٌ والمجالُ اليومَ رحبُ
أنلعبُ والزمانُ يقولُ جِدّوا
ونرقدُ والحياةُ تصيحُ هُبّوا
فما تُثنى خُطى شعبٍ طموحٍ
زعازعُ فى ظلامِ الليلِ تُكبُّ

« إلى الذين دميت جباههم من السجود، وعميت قلوبهم عن الإنسان »



بين الله والإنسان

الشاعر الكبير / محمود حسن إسماعيل

إن كنتَ لا تعرفُ سرَّ دمعة يترقَّبها الفقيرْ
يسقي بها خريفه العطشان في لهاثه المريرْ
فيزرعُ الوهمَ على جفونه بستانه النضيرْ
.. ثمارُهُ دانيةُ القطافْ
.. ظلالُهُ وارفةُ الضفافْ
لكنَّها لاشيءَ .. حين ينحني، ويبسطُ اليمينْ
حزينةً، مسكينةً، مقهورةَ الدُّعاءِ والأنينْ
تقولُ من حسرتها : ربَّاهُ !
يا مُسرعًا في خطوه لله :
خفقةُ قلبٍ تُنقذُ الحياهْ
وتخدعُ المحرومَ عن أساهْ
إن كنتَ لا تُبصرُ هذا السرَّ في خشوعك القريرْ
فأيُّ شيءٍ نحوهُ سبابةٌ كذابةٌ تشيرْ؟!
إنْ كنتَ لا تسمعُ سرَّ آهةٍ على فم اليتيمْ
تسمعُها ! ! لكنَّها تَمزَّقُ من رنائك الرَّخيمْ
أنشودةً منْ وترٍ غابتْ عليه رعشةُ النسيمْ
يعزفُها تلفَّتٌ شجينْ
منْ نظرةٍ شلَّتْ على الجبينْ
يغتالُها المَلالُ، والحيرةُ، والتوجُّعُ الدفينْ
ويشتكي إباؤها الشقيُّ منْ سُخرية العيونْ
يصيحُ منْ أغلاله : ربَّاهُ ! !
يا مُسرعًا في خطوه لله ..
خفقةُ قلبٍ تُنقذُ الحياهْ ،
قبلَ اتجاهِ الخَطْوِ للصلاهْ ..
إنْ كنتَ لا تسمعُ هذا السرَّ في بكائه الأليمْ
فأيُّ ربٍّ نحوهُ اتجهتَ في سجودك العظيمْ
إنْ كنتَ لا تدري بأنَّ الله لمْ يظلَّلكَ في نعمتهْ
إلَّا لتمتدَّ بها للبائس المحروم منْ لقمتهْ

لكلِّ كفٍّ شلَّها البغيُ لتنساب إلى نظرته
وتقتدي بوجهه الرحيقْ
يلتقُّ منهُ زيفكَ العريقْ
ويتركُ الإحساسَ بالإنسانِ في إيمانها الحزينْ
متاهةً صمَّاءَ .. رنَّ فوقها أفجعُ الشَّنينْ
يصيحُ منْ أساهُ : يا ربَّاهُ !
يا ساجدًا بوجهه لله ..
يا مُغرقَ الوجوه في تقاهْ !
وسابحًا بالزُّورِ في هُداهْ !
إنْ كنتَ لمْ تدرِ ضياءَ الله فيما شعَّ منْ رحمتهْ
فكيفَ يا زُورَ التُّقى كفَّنتَ هذا السرَّ في سجدته ! !

تخليدا لذكرى النصر العزيز الذى حازه جيش مصر العظيم، فى العاشر من رمضان الذى وافق السادس من اكتوبر ١٩٧٣م، والذى تم فيه مفاجأة العدو وتدمير خط [بارليف] المنيع، وعبور قناة السويس فى ست ساعات، نقدم قصيدة :

العاشر من رمضان

شعر فضيلة الشيخ / عبد الغفار الدلاش

يبهرُ الوجودَ جلالةُ الإصباحِ
ومواكبِ الأمجادِ والأفراحِ
يومٌ يتيهُ على الزمانِ مفاخرًا
متوشِّحًا بالمجدِ خيرَ وشاحِ
فى يوم (غفرانٍ) لأمةِ (أحمد)
- نصرٌ - وللباغين ضربُ صفاحِ
ليدكَّ (بارليف) المنيعَ بقوةٍ
طبُّ الجراحِ بمبضعِ الجرَّاحِ
فإذا مسيلمةُ اليمامةِ هاربٌ
متنكرًا يعدو بمرطِ (سجاح)
وإذا (بمائيرَ) العجوزِ بمأتمٍ
ومناحةٍ كبرى وسوءِ صباحِ
دارتْ على (سيناءَ) معركةُ الوغى
فوقَ السهولِ وفى رُبى و بطاحِ
تتفجرُ الأهوالُ فوقَ رمالها
بمعاركٍ كمعاركِ الأشباحِ
وكتائبُ الإيمانِ تهتفُ كلُّها
(الله اكبرُ) فوقَ كلِّ سلاحِ
(يومُ العبورِ) على الزمانِ مخلَّدٌ
عبرَ الدهورِ، سناهُ فى الألواحِ
تتدارسُ الأجيالُ فيه دروسَه
ويفيضُ بالآلاءِ للشرَّاحِ
وكأنما (حطينُ) عادتْ ثانيا
ليشاهدَ التاريخُ جندَ (صلاح)
وأحيطَ بالأعداءِ فى ساحِ الوغى
من ذعرهم فى مأتمٍ ونُواحِ !
(غشَّاف يا جوري) أتى متسللًا
بجنوده أملًا بيوم نجاحِ
صرخوا لأمريكا لتنقذَ جمعَهم
مما تأكَّد من عميقِ جراحِ

أينَ النِّـزاعُ كما زعمتُم في الورَى
والأمـرُ لا يحتـاجُ للإيضـاح
يا (أنور السادات) كيف حصرتَهم
وحشرتَهم (ببحيرةِ التمساح)
ورفعتَ صوتَكَ بالسلامِ مقررًا
أنَّ السلامَ شريعةُ (الفتّاح)
قد يحرزُ الباغونَ نصرًا كاذبًا
في عُـدَّةٍ تبغي وحشدِ سـلاح
شتّانَ بين بـزوغِ فجرٍ كـاذبٍ
في الأفقِ مِنْ فجرِ الـورَى الوضّاح
حتّى إذا وثَـبَ المُريدُ لحَقّـه
كانَ المُظفّرَ والقضاءَ الماحـي
ويظلُّ وادي النيلِ حصنًا آمنًا
للديـنِ والدُّنيـا وكلِّ فـلاح
بوركْـتَ يا شهرَ الصيامِ مُعظَّمًا
للبِـرِّ والإحسـانِ والإصلاح
تُعلي صروحَ السِّلْمِ في دنيا الورَى
وتُعيدُ صَفْوَ النفـسِ والأرواح

وعلى درب ذكرى انتصار رمضان المجيد، يتغنّى الشاعر، بقصيدة :

صَومٌ وانتصار

شعر الأستاذ / عبد الحفيظ صقر

أقبِلْ ففي كلِّ القلـوبِ تَشَـوُّقٌ
وبِهَا لِفَيْضِكَ لهفةٌ وتَعلُّـقُ
رمضانُ يا شهرَ الهدايةِ والتُّقى
أرواحُنـا ظمأى إليكَ تَشَـوَّقُ
أقبِلْ لتملأَ بالصفـاءِ نفوسَنـا
ويفيءَ للجنّاتِ فيكَ المُرهَـقُ
ما أحوجَ الإنسانُ أطبقَ ليلُـهُ
ليضيئَهُ منكَ الشعاعُ المُشرِقُ
تسمو بأرواحٍ وتوقِـظُ أنفُسًـا
قد لفَّهَا ليلُ الضلالِ المُطْبِقُ
أقبِلْ وذَكِّـرْنـا بأمجـادٍ لنـا
عَبْرَ الدهورِ ضياؤُها يتألَّـقُ
شهرٌ به الرحمنُ أنزلَ وحيَـهُ
يَهْدي الرَّشادَ إلى الأنامِ ويُغْدِقُ
يَزْهُو بليلةِ قَدْرِه، فلقد سَمَتْ
عن ألفِ شهرٍ .. خيرُها مُتدفِّـقُ
رمضانُ طَهِّرْ بالصِّيامِ نفوسَنـا
ليعُمَّنـا هذا الضِّياءُ المُشْـرِقُ
فعَسَـى نعودُ إلى تعاليمِ الهُـدَى
حتّى نرى نَصرَ السمـاءِ يُحَقَّـقُ

يا رمضان

للشاعر: مصطفى عكرمة

أطللْتَ بالإحسانِ يا رمضانُ   يا من وجودُكَ كلُّه إحسانُ
جدّدتَ إذ أطللتَ كلَّ عزيمةٍ   ومحوتَ ما فعلتْ بنا الأضغانُ
فتقاربَ الأهلونَ بعدَ تباعدٍ   والأبعدونَ تعاونوا وأعانوا
واستسهلوا ما كانَ صعبًا، وانتهت   من عيشنا بقدومِكَ الأحزانُ
والجودُ بعدَ البخلِ أصبحَ دأبَنا   وغدا عطاءً بينَنا الحرمانُ

وقلوبُنا رقّت، ولانت، وارتقت   وهي التي ازدحمت بها الأشجانُ
لانت وكانت قد خلت من رحمةٍ   فكأنها من قسوةٍ صوّانُ
واليومَ عادَ لكلِّ نفسٍ أنسُها   وأزيلَ منها الكِبرُ والطغيانُ
فلأنتَ روحُ الأمنياتِ لروحنا   ولأنتَ فيها الرَّوْحُ والريحانُ
ولأنتَ يا رمضانُ واحةُ عمرِنا   ولأنتَ من خوفِ الذنوبِ أمانُ
أبوابُ جناتِ النعيمِ تفتّحت   للصائمين ... وصُفِّدَ الشيطانُ
أحوالُنا نحوَ الكمالِ تبدّلت   بكَ واستفاقَ ليحكمَ الوجدانُ
فإذا المودّةُ والبشاشةُ والرضا   والجودُ والإيثارُ والتحنانُ
وإذا السماحةُ والمروءةُ والهدى   والمؤمنونَ بظلِّها إخوانُ
يتسابقونَ إلى إطاعةِ ربِّهم   وعلى نوالِ رضاهُ هم أعوانُ
علّمتَهم أنَّ الحياةَ تسامحٌ   يسمو به عن نفسِه الإنسانُ
وجمعتَ أشتاتَ القلوبِ على التقى   فاستبشرت خيرًا بكَ الأكوانُ
فلأنتَ في كلِّ النفوسِ أمانُ   ولأنتَ في كلِّ القلوبِ حنانُ
بكَ كم أفاضَ اللهُ من بركاتِه   وامتدَّ منه لأمتي سلطانُ!
وتنزّلَ القرآنُ فيكَ يمدحُها   لمّا تولّى أمرَها القرآنُ

*   *   *   *   *   *

شهرُ التراحمِ أنتَ يا رمضانُ   ولأمتي أنتَ الهدى والشانُ
كم نالَ فيكَ المؤمنونَ أمانيًا   ولكم أذلّوا من بغى وأهانوا
أرأيتَ (بدرًا) والزمانُ لسانُه   عن عزّةِ النصرِ المبينِ لسانُ!
وحصونُ خيبرَ في ليالي صومِنا   فُتِحَتْ وتمَّ لنا بها الإذعانُ
ثبتوا لصومِكَ وهو أكرمُ شاهدٍ   أنْ ليسَ بينَ الصائمينَ جبانُ
قويت أنفسُهم بصومِكَ فاعتلت   راياتُهم .. وتقهقرَ العدوانُ
وأتمَّ ربُّكَ للصيامِ وجندِه   نصرًا به تتفاخرُ الأزمانُ
و(بعينِ جالوتَ) وفي (حطينَنا)   يبقى لبأسِ الصائمينَ بيانُ
وبمصرَ والجولانِ في رمضانِنا   ما علَّمَ الطغيانَ ما رمضانُ!
ما كانَ شهرُ الصومِ إلا رحمةً   فالصومُ للنصرِ العزيزِ ضمانُ
أطللتَ بالإحسانِ يا رمضانُ   يا من صيامُكَ كلُّه إحسانُ
خيرَ الشهورِ غدوتَ يا شهرَ الهدى   لمّا اصطفاكَ بحبِّه الرحمنُ
طهّرتَ من درنِ الحياةِ نفوسَنا   يا ليتَ بعدَكَ لا تُرى إدرانُ

يا ليت شهر الصوم يبقى عمرنا   ويدوم منا الشكر والعرفان
ويظل شرع الله يحكم عيشنا   فيزول منه البغي والطغيان
ويعود للأقصى الحبيب صفاؤه   وتنال نصرا تلكم الفتيان
من أيقظوا الدنيا على نقر الحصى   فكأن كل حصية بركان
إن لم تكن أودت بغاصب حقها   لكنها مادت به الأركان
لا بد من يوم ينالون المنى   ولكم يخبئ موعدا رمضان !
فالله واعد ناصريه بنصره   والنصر ما يأتي به الرحمن

*   *   *

سبحان من جعل الصيام بشرعنا   ركنا عليه ينهض البنيان
إن الذي ترتاح فيه نفوسنا   تلقاه أنى يلتقي الإيمان

*   *   *

أطللت بالإحسان يا رمضان   فإذا الليالي كلهن حسان
اليوم أنت تراحم وهداية   وغدا فأنت الفوز والغفران
أطللت والدنيا إليك مشوقة   فانزل قلوبا كلها تحنان
طال اشتياق المؤمنين فمرحبًا   بقدومك الميمون يا رمضان

هذا ويسعدنا أن نقدم فى الخميلة مساجلة شعرية جميلة جرت بين الأستاذ عباس محمود العقاد، والأستاذ محمود غنيم، حينما زار الأخير [أسوان] فى رحلة عمل، فنشط لزيارة الأستاذ العقاد فى منزله، وقد استهل الأستاذ محمود غنيم بقوله :

أسوانُ والعقّادُ فيها كعبةٌ   سَمَحَ الزمانُ، فكنتُ مِنْ حُجّاجِهَا
قد كنتُ أبصرُها برأسٍ حاسرٍ   واليوم قد أبصرتُها فى تاجِهَا
قولوا لرُوّادِ الكواكبِ إنّنى   زُرتُ النجومَ الزُّهْرَ فى أبراجِهَا
العقّادُ يا عبّاسُ أنتَ سِرَاجُهَا   وأنتَ شُعاعٌ مِنْ وميضِ سِرَاجِهَا

وقد ردّ عليه الأستاذ العقّادُ بقوله :

أسوانُ فى دينِ السَّمَاحَةِ كعبةٌ   بحُدَاتِهَا والغُرِّ مِنْ حُجّاجِهَا
أَقْبِلْ إليها يا غُنَيْمُ وزِدْ بِمَا   حَيّيْتَهَا بُرجًا إلى أبراجِهَا
والشِّعرُ مِنْ وَحيِ الغُنَيْمِ غنيمةٌ   أغنى الغُشَاةَ مُزَوَّدٌ مِنْ حاجِهَا
أنتَ الوميضُ مِنَ السِّراجِ إذا ارتقتْ   ومَقَاتُهُ العُليا إلى محرابِهَا

وهذه قصيدة قصيرة ولكنها تحفة فنية رائعة، يكرِّم بها الشاعر شاعرا كبيرًا وأديبا شامخا هو الأستاذ عباس محمود العقّاد :


العقاد   كامل الشناوى

فى تكريم العقّاد

للشاعر المتفرّد الكبير/ كامل الشناوى

أسوانُ فى دينِ السَّمَاحَةِ كعبةٌ   بحُدَاتِهَا والغُرِّ مِنْ حُجّاجِهَا
أَقْبِلْ إليها يا غُنَيْمُ وزِدْ بِمَا   حَيّيْتَهَا بُرجًا إلى أبراجِهَا
والشِّعرُ مِنْ وَحيِ الغُنَيْمِ غنيمةٌ   أغنى الغُشَاةَ مُزَوَّدٌ مِنْ حاجِهَا
أنتَ الوميضُ مِنَ السِّراجِ إذا ارتقتْ   ومَقَاتُهُ العُليا إلى محرابِهَا
يا منهلَ الشِّعرِ يُروينا ويُظمئُنا   إليه ... فاعجبْ لراوٍ منهُ ظمآنِ
إنّا نُكرِّمُ فيكَ المَجْدَ مُنتزِعًا   من قبضةِ الدَّهرِ .. لا مِنْ كفِّ إنسانِ
والعبقرى الذى دانت لطاعتِهِ   أسمى المعانى .. وماهمّت بعصيانِ
تقلّبتْ حولَكَ الأيامُ .. واضطربتْ   وأنتَ أنتَ الرَّفيعُ القَدْرِ والشَّانِ
عبّاسُ جاشتْ بصدرى اليومَ ألحانى   يا مَنْ إليه ومنه فيضُ ألحانى
وكُلّما هَمَّ شعرى أنْ يطيرَ بِهَا   إلى سَمَائِكَ ... أعيتهُ وأعيانى
وما كَبَا الشِّعرُ عَنْ عجزٍ ألَمَّ بهِ   لكنّهُ الخُلْدُ .. فيه ضلَّ شيطانى

***

وهذا لقاء مع شاعرة كبيرة، كانت لها صولات وجولات فى ندوات عدة وبخاصة [ندوة العروبة] و يُمكننا أن نصفها بأنها بحق شاعرة، طبعا وتمكُّنا وصياغة وخيالا خصبا، واخترنا لها اليوم قصيدة رقيقة بعنوان :

الإرادة

للشاعرة الكبيرة / جليلة رضا

عليَ قطفةٍ مِنْ تُرابٍ خصيبٍ ببستانِ بيتى تُرِفُّ شُجَيْرةْ
أمامي، ورائـي، ومن كُلِّ رُكْنٍ، أراهَا تُحَدِّقُ في كُلِّ حُجْرةْ
تَميلُ على شُرفتي باندفاعٍ، وفى نَزَقٍ كالغُلامِ المُراهِقْ
وبالغَيْنِ - عَيْنِ تُجيدُ البَراءَةَ - تتبعُ خطوى هُنا وتُلاحِقْ
هُنالكَ فجرٌ على رأسِهَا، وَهَمْسٌ بأعماقِهَا أبـدِىّ
ومَمْلكَةٌ تحتَ أقدامِهَا .. وسجَّادَةٌ مِنْ شَذا مَخْمَلِىّ
وحُرِّيَّـةٌ فى انطلاقِ الفضاءِ .. فى غناءِ الطيورْ
وقُدسيَّةٌ في سكونِ المساءِ .. ورعشاتُ حُبٍّ، وأحلامُ نورْ
تُفكِّرُ .. ؟ وَىْ ! قد تُفكِّرُ حينًا .. وقد تتألَّمُ مثلَ البَشَرْ
وفى عبثٍ قد تمُدُّ الذراعَ، تُداعبُ أُنثَى .. وتُغوِى النَّظَرْ
تُحِسُّ .. أَجَلْ .. قد تُحِسُّ الحياةَ وتُحرقُها الشمسُ فى القاهرةْ
وتَعشَقُ، حينَ تُحِبُّ، المياهَ، وتَهْوَى يَنابيعَهَا الطاهِرَةْ
وكَم ذا عشقتُ شذاها الرقيقَ وأوراقَ أغصانِهَا الوارِفَةْ
ولكنَّنى كم أسائلُ نفسى : لماذا تَظَلُّ هُنَا واقِفَةْ .. ؟
وقارنْتُ بيني وبين الشجَرْ .. وبينَ الوقوفِ وبينَ المَسيرْ
وأحسستُ زَهْوًا لأنى بَشَرٌ .. وأنّى أسيرُ .. وأنّى أسيرْ

اللهم احفظ مصر

بين المجلة والقارئ

للأستاذ / أحمد السيد تقي الدين

واحدة في الجنة
وثنتين وسبعين في النار

قال رسول الله ﷺ :

«بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء»

بدأ الإسلام غريبا حتى نهض به رسول الله ﷺ وصحابته الكرام البررة رضوان الله عليهم أجمعين ثم ساد الدنيا.

وها هي ملامح غربته الثانية تتضح على يد قوم صدق فيهم قول رسول الله ﷺ : «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة فواحدة في الجنة وسبعين في النار، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة فواحدة في الجنة وإحدى وسبعين في النار، والذي نفسي بيده لتفترقن أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، واحدة في الجنة وثنتين وسبعين في النار». قيل يا رسول الله من هم؟ قال: «الجماعة»

- الجماعة هنا هي جماعة المسلمين..
- وجماعة المسلمين هم غالب الأمة التي لا تجتمع على ضلالة كما قال سيدنا محمد ﷺ واليوم صارت عندنا فرق شتى:

إخوان مسلمين- داعش- جيش النصرة- جند الله- طالبان- القاعدة- القاديانية- البهائية- الشيعة- الدروز- النصيرية.... وغيرهم كثير

- ولكن ماذا عن من لا ينتمي لهؤلاء وأولئك؟!
- من منهم في الجنة.. ومن منهم في النار؟!
- آمنت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا ورسولا.
- آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

عاشت مصر حرة آمنة

عاش جيش مصر

عاشت شرطة مصر

عاش خير اجناد الارض

أحمد تقي الدين

للصوم دروس وآداب

أحمد عبدالمحسن علي محمد ـ مدرسة الأورمان الثانوية النموذجية بنين إدارة الدقي ـ الجيزة

● إذا رأيت هلال شهر رمضان أو هلال غيره فقل كما قال رسول الله ﷺ: «اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان والسلامة والإسلام، ربي وربك الله، هلال رشد وخير».

● استقبل شهر رمضان بنية أن تصوم لله إيمانًا واحتسابًا وتزود فيه بصالح الأعمال، فمن أدركه رمضان فلم يُغفر له فقد خاب وخسر قال سيدنا محمد ﷺ: «إذا كان أول ليلة من شهر رمضان، صُفدت الشياطين، وغُلقت أبواب النار وفتحت أبواب الجنة، وينادي مناد: يا باغي الخير أقبل، ويا باغي الشر أقصر».

● وليكن منهجك في الصوم، التخلي عن الرذائل، والتحلي بالوقار والحلم، واجتناب الفاحش من القول، وإذا صدرت من غير إساءة لك، فقابل السيئة بالحسنة وادفع بالتي هي أحسن، والتزم خُلق الصائم، وردد ما أمرك النبي الكريم به في هذا الموقف: «فإن شاتمه أحد أو قاتله، فليقل: إني صائم.. إني صائم».

● وأقبل علي تلاوة القرآن في هذا الشهر الفضيل في ليله ونهاره فهو شهر القرآن، قال تعالي:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾

(البقرة: ١٨٥)

فقد كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل ـ عليه السلام ـ وكان جبريل يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، والصيام والقرآن يشفعان للمؤمن يوم القيامة، يقول الصيام: أي رب منعته الطعام والشهوات بالنهار فشفعني فيه، ويقول القرآن: منعته النوم بالليل فشفعني فيه ـ فيشفعان».

● لا تجعل شهر رمضان شهر فتور وكسل فهو شهر صبر وجلد يتسلح فيه المؤمن بقوة الإرادة فينشط إلي العمل، وينطلق في ميادين الكفاح يملؤها بالجد المثمر، والسعي البناء.

● قدم لغيرك ما استطعت من الخير في شهر رمضان، فإن الثواب يضاعف فيه بإطعام الجائع، وتجنب الكذب والغيبة والنميمة والسخرية بالناس وتتبع عوراتهم واحرص علي أن تكون جوارحك كلها في مأمن من الرذائل التي تضر الفرد، وتدمر المجتمع، قال ﷺ: «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه».

● تناول إفطارك عقب غروب الشمس وقبل صلاة المغرب علي تمرات وتر أو علي أي شراب حلو، فإن لم يتيسر لك ذلك فعلي الماء، وذلك لتكسر حدة الجوع، وحتي تقبل علي صلاة المغرب غير مُعجل، وتطفئ حرارة العطش قال النبي ﷺ: «لايزال الناس بخير، ما عجلوا الفطر».

● عند الإفطار، توجه إلي الله بالدعاء لنفسك وللمسلمين فهي في هذه اللحظة دعوة مقبولة إن شاء الله، قال النبي الكريم ﷺ: «إن للصائم عند فطره دعوة لا ترد»، وثبت أنه ﷺ كان يقول: «ذهب الظمأ، وابتلت العروق، وثبت الأجر إن شاء الله تعالي».

● تناول سحورك قريبًا من الفجر، ففي ذلك عون علي النشاط في النهار، وتحمل مشاق الصوم، قال رسول الله ﷺ: «تسحروا فإن في السحور بركة».

● وتجنب الإفراط في الأكل والشرب، فإن من حكم الصوم التخفيف عن المعدة واعلم أن كثيرًا من الأمراض والعلل ينشأ من اكتظاظ المعدة بما لا تطيق هضمه.. وقد أمرنا الله تبارك وتعالي بترك الإسراف في الأكل والشرب، قال تعالي:

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾

(الأعراف: ٣١)

وعن ﷺ قال: «ما ملأ ابن آدم وعاء شرًا من بطنه».

رفقًا بدين الرفق

وتحت هذا العنوان جاءت كلمة الأستاذ محمد عباس محمد عرابي:

الدين الإسلامي دين الرحمة والرفق والتيسير، وحسن المعاملة، دين شامل منهاجه واضح أبان ما يجب علي الإنسان في تعامله مع ربه ونفسه وغيره سواء من المسلمين وغير المسلمين تعامل قائم علي القول الحسن، وهو دين العدل والمساواة ودين الاعتدال والوسطية لا يكره أحد علي الدخول فيه

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾

(الكافرون: ٦)

وبالرغم من ذلك فإن أناس من أهل المدينة والحضارة تحت شعار الحرية!! آلو علي أنفسهم إلا إلحاق التشويه والإيذاء بالإسلام فهذا يرسم رسوم مسيئة للنبي ﷺ ويتهمه بالإرهاب!! وذاك يخرج فيلما سينمائيا يسّب فيه الصحابة وأمهات المؤمنين وآخرون يصدرون قرار بمنع ارتداء غطاء الرأس «الحجاب» وآخرون يحظرون بناء المآذن وخامس وسادس...!!

ولهؤلاء جميعا نقول رفقا بدين الرفق، فالإسلام أمر بحسن معاملتكم والرفق بكم وعدم إيذائكم أو ظلمكم، فهل جزاء هذا أن تكال له الاتهامات والإيذاءات تحت شعار حرية الرأي؟ وهل حرية الرأي تعني الطعن في الآخر المسالم الداعي إلي الأمن والأمان والسلام؟ فيا عقلاء المدنية والحضارة والحرية: أكرر رفقا بدين الرفق فأنتم لم تروا منه إلا كل رفق وسلم وحسن معاملة فلم نر أو نسمع أبدا أن الإسلام طعن في نبي أو قومه. فهو دين يحث علي التعاون علي البر والتقوي ويطارد الإثم والعدوان، دين مبادئ سامية وتعاليم نبيلة لا يعرف إيذاء الآخر أو اتهامه، بعيد كل البعد عن الافتراءات والطعون لا يعرف الترويع أو التخويف، تعاليمه ناصعة لا تشويه ولا تحريف فيها ولا تحريض فيها علي المخالف في الرأي، أو الذي لم يؤمن؛ فحرية العقيدة مكفولة للجميع لكن بعيدًا عن الطعن وسب الآخرين أو التقليل من شأنهم فماذا يفعل أهل حرية الرأي بعد ذلك؟!! مع دين شعاره

﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾

(البقرة:٨٣)

القناعة والطمع

تحت هذا العنوان جاءت رسالة الشيخ علاء الدين شيخون عبدالعال إمام مسجد الشبان المسلمين بسوهاج:

١ـ الطمع المحمود هو الطمع في فضل الله والطمع المذموم هو الطمع في أموال الناس وممتلكاتهم بغير حق.

٢ـ علامات الطماع:

١ـ التملق للمطموع فيه.

٢ـ الخيبة والحرمان.

٣ـ ذهاب ماء وجهه.

٤ـ الذل الواسع.

٥ـ الشك في القدر.

٦ـ لا يشبع أبدا.

٧ـ قلبه خاوي.

٨ـ صاحب نقص ودناءة.

٩ـ صاحب وهم.

١٠ـ دائمًا متطلع بكل قلبه إلى ما في أيدي الناس.

١١ـ سريع الوقوع في الخطر كالطائر طمعه في الحبة توقعه في شكة الصياد.

٣ـ الطمع يهلك الحرث والنسل

«قال الحسن البصري أساس الدين الورع وهلاك الدين الطمع».

٤ـ قال أحد الصالحين:

«السلامة في الدين ترك الطمع في المخلوقين».

٥ـ الطمع يكثر الهم

قال إبراهيم بن أدهم «إذا كثر الطمع كثر الغم والجزع وإذا قل الطمع كثر الصدق والورع».

٦ـ «الطمع يضيع المنزلة عند الله والناس».

قال العلماء: «الطمع يجعل الفقر حاضرا والحرص ظاهرا ويكون لذهاب المنزلة متمرًا».

ص١١٦ الأمد الأقصى

٧ـ الطمع من صفات المختالين:

«المختال فيه طبائع أربع:

١ـ الطمع

٢ـ الإغراء

٣ـ التخويف

٤ـ الإيذاء

ص١٩٩ الأمد الأقصى

٨ـ قال البلغاء (القناعة عز المعسر والصدقة حرز الموسر)

٩ـ كل واحد مقتنع بوطنه

قال عبدالله بن الزبير (لو قنع الناس بأرزاقهم قناعتهم بأوطانهم ما اشتكي عبد الرزق)

ص٣٨٨ رسائل الجاحظ

١٠ـ القناعة

قال سيدي علي زين العابدين بن الحسين (من قنع بما قسم الله له فهو من أغنى الناس)

ص١٧٧ الزهاد مائة.

١١ـ الطمع قال سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه (الطمع رق مؤبد)

١٢ـ القناعة نعيم قال سيدنا علي رضي الله عنه:

(كفى بالقناعة ملكًا وبحسن الخلق نعيمًا)

١٣ـ الناس لا يثقون في الطماع:

(أسوأ الناس حالا من لا يثق بأحد لسوء ظنه بهم وهم لا يثقون فيه لسوء طمعه)

١٤ـ قال الحكماء

(القناعة مال لا ينفد) (اطلب الغني في القناعة)

١٥ـ قال سيدنا علي بن أبي طالب

(ما الخمر صرفًا بأذهب لعقول الرجال من الطمع)

ص ٨١ المستطرف

١٦ـ قال الحكماء

العبيد ثلاثة:

١ـ عبدرق

٢ـ عبد شهوة

٣ـ عبد طمع

ص٨١ المستطرف

١٧ـ (الطمع والحرص والحسد طبع في ابن آدم فالعاقل يخفيها والجاهل يبديها)

١٨ـ قال أشعب

(ما رأيت رجلين يتساران في جنازة إلا قدرت أن الميت أوصي لي من ماله) ص٨٢ المستطرف.

هذا والله أعلم

أنباء الأزهر

إعداد الأستاذ/ محمود الفقي

الإمام الأكبر: مستعدون للإسهام في طرح رؤية شاملة تسهم في علاج آلام الأمة وهمومها

استقبل فضيلةُ الإمام الأكبر أ.د/ أحمد الطيب، شيخ الأزهر الشريف، السيد/ مبارك الخرينج، نائب رئيس مجلس الأمة الكويتي.

وقد تطرّق حديثُ نائب رئيس مجلس الأمة الكويتي، مع فضيلة الإمام الأكبر للأحداث الملتهبة بالمنطقة العربية، وتبادلا وجهات النظر حول الحلول المناسبة لاحتوائها؛ حتى لا تتفاقم الأوضاع بها، مما يؤثر على حياة المواطن العربي ومعيشته.

وأكد فضيلة الإمام الأكبر استعداد الأزهر الشريف للإسهام في طرح رؤية شاملة، تسهم في علاج آلام الأمة وهمومها، دون تهميش لطائفة على حساب طائفة أخرى.

الإمام الأكبر لروبرت ولتر: الأزهر مؤسسة وطنية، يُعْنَى بهموم الشعب المصري والأمة العربية والإسلامية

استقبل الإمامُ الأكبر أ.د/ أحمد الطيب، شيخ الأزهر الشريف، السيد/ روبرت ولتر، النائب بمجلس العموم البريطاني، وذلك بمكتبه في مشيخة الأزهر بالقاهرة.

وقد رحّب فضيلة الإمام الأكبر بالضيف، وأجابه عن استفساراته عن دور الأزهر في مصر والعالم الإسلامي، مؤكدًا فضيلته أن الأزهر الشريف مؤسسة وطنية إسلامية، يُعْنَى بهموم الشعب المصري والأمة العربية والإسلامية، ويعمل على الحفاظ على الوحدة الوطنية في كل العالم العربي والإسلامي، ويحثُّ على بذل الجهود لإقرار العدالة والمساواة في العالم كله.

وكيل الأزهر: نمتلك رؤية واضحة على المستوى الداخلي والخارجي

استقبل فضيلة أ.د/ عباس شومان، وكيل الأزهر الشريف، القاضي الشيخ/ عبد اللطيف فايز دريان، رئيس المحكمة الشرعية السُّنية العليا بدولة لبنان الشقيقة.

وقد أكد الشيخ/ عبد اللطيف على دور مصر الوطني في دعم قضايا العرب والمسلمين في العالم كله، وتطلعه إلى دور الأزهر الوطني والقومي والإسلامي في نشر ثقافة التسامح

والتعايش والتحاور مع الآخر، وصولًا إلى الشراكة الإنسانية، مشيدًا بانفتاح الأزهر الشريف على جميع الحضارات والثقافات الأخرى.

ومن جانبه رحب فضيلة وكيل الأزهر الشريف بالضيف، مؤكدًا أن الأزهر الشريف يمتلك رؤية واضحة على المستوى الداخلي والخارجي، وموضحًا دور بيت العائلة المصري وقدرته على إيجاد حلول للمشكلات التي تصادف المواطن المصري أيًا كانت عقيدته، وحرْص الأزهر على خدمة قضايا المسلمين دون أن يصطدم أو يتدخل في شئون البلاد التي ينتشر فيها، وتركيزه على مساعدة الدول العربية والإسلامية في نشر سماحة الإسلام.

وأضاف فضيلته أن الأزهر لا ينتمي إلى تيار معين، بل هو يحتوي الجميع، ولا يفرض رأيه على الآخرين.

وكيل الأزهر: تميُّز العلاقات التي تجمع مصر والبحرين

استقبل فضيلة أ.د/ عباس شومان، وكيل الأزهر الشريف، السيد/ أيوب بن رشدان، القاضي بمملكة البحرين الشقيقة.

وخلال اللقاء، أكد فضيلة وكيل الأزهر الشريف على تميز العلاقات والروابط التي تجمع مصر والبحرين، واستعداد الأزهر الشريف للتعاون في المجالات العلمية والثقافية.

ومن جانبه أعرب الضيف عن تقديره لفضيلة الإمام الأكبر وللدور البارز الذي يقوم به على الصعيدين العربي والإسلامي، مؤكدًا ريادة الأزهر الشريف في نشر الفكر الوسطي في العالم الإسلامي.

الإمام الأكبر: مستعدون للتعاون مع «مركز الإمارات للدراسات» بما يخدم الجانبين

استقبل فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور أحمد الطيب - شيخ الأزهر الشريف - الدكتور/ جمال سند السويدي، مدير مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية.

وقد أعرب الدكتور/ جمال السويدي، عن سعادته بلقاء فضيلة الإمام الأكبر، وأطلعه على الأنشطة التي يقوم بها، والإنجازات العلمية التي حققها المركز، إضافة إلى فعالياته خلال الأعوام الماضية، والعمل الدؤوب الذي يبذله المركز في متابعة التطورات المحلية والإقليمية والدولية وتحليلها ودراستها على أساس علمي ومنهجي بنَّاء، يعين على اتخاذ القرار الصائب.

كما أطلع فضيلة الإمام الأكبر على خطة المركز لعقد مؤتمر الثقافة العربية، الذي يجمع المثقفين العرب، وتستضيفه أبو ظبي في نهاية العام.

وقد رحَّب فضيلة الإمام الأكبر بزيارة السويدي لمشيخة الأزهر الشريف، وأكد فضيلته على عُمق الروابط بين مصر والإمارات، واستعداد الأزهر الشريف للتعاون والتنسيق مع مركز الإمارات فيما يخدم البلدين.

وفي ختام اللقاء قدَّم الضيف درع مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية هدية تذكارية لفضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر.

بحضور شيخ الأزهر.. «مركز الشيخ زايد» لتعليم العربية يحتفل بتخريج الدفعة الرابعة

قام مركز الشيخ زايد لتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها بتنظيم حفل تخرج وتكريم الدفعة الرابعة بالمركز، بحضور ورعاية فضيلة الإمام الأكبر د. أحمد الطيب شيخ الأزهر.

حضر الحفل د. عباس شومان وكيل الأزهر، د. أسامة العبد رئيس جامعة الأزهر ونوابه، ومستشارا الإمام الأكبر، ود. محمد عبد الفضيل القوصي وأسامة ياسين نائبا مجلس إدارة الرابطة العالمية لخريجي الأزهر، ومدير المركز «الشيخ زايد» د. محمود فرج، د. محمود الناقة المشرف الأكاديمي للمركز، د. رحاب الزناتي نائب مدير المركز، عمداء الكليات المختلفة، وكذلك نخبة كبيرة من علماء ومشايخ الأزهر الشريف، فضلًا عن لفيف من الشخصيات العامة، وسفراء الدول المعنية بالطلاب الدارسين بالمركز.

قال د. محمد عبد الفضيل: إن هذه الاحتفالات تأتي تحفيزًا وتشجيعًا لأبنائنا الطلبة والطالبات الدارسين بالمركز البالغ عددهم ١٥٦٠ طالبًا، وتكريمهم على مجهودهم المبذول خلال الدراسة بالمستويات المختلفة بالمركز، فضلًا عن أنها تعتبر بمثابة عرض لمهارات الطلاب اللغوية والتواصلية من خلال العروض المسرحية والأدبية التي يلقونها باللغة العربية الفصحى لقياس مدى استفادتهم من الدراسة بالمركز وتحصيلهم لأهم قواعد اللغة وتطبيقها عمليًا، وقد كرم فضيلة الإمام الأكبر الطلاب المتميزين ومنحهم جوائز مادية وشهادات تقدير.

جدير بالذكر أن هذه الاحتفالية هي الرابعة لطلاب المركز منذ إنشائه تحت إشراف ومتابعة الرابطة العالمية لخريجي الأزهر، بحضور ورعاية فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر.

الإمام الأكبر يُوجه بصرف إعانة عاجلة لأسرة الطالب المتوفَّى بلجنة دسوق

وجَّهَ فضيلة الإمام الأكبر أ.د/ أحمد الطيب، شيخ الأزهر الشريف، بصرف إعانة عاجلة لأسرة الطالب المتوفَّى بلجنة معهد دسوق.

وكانت إدارة الامتحانات بقطاع المعاهد الأزهرية أعلنت أن الطالب الذي توفي بلجنة دسوق قد توفي وفاة طبيعية، وأن الوفاة حدثت بين الفترتين.

وكلف فضيلة أ.د/ عباس شومان، وكيل الأزهر الشريف، وفدًا من الأزهر الشريف بمرافقة أهالي المتوفَّى، وتقديم واجب العزاء لهم، ومواساتهم في مصابهم.

رئيس الشيشان يشيد بدور الأزهر في تعزيز السلم المجتمعي

استقبل فضيلة الأستاذ الدكتور/ عباس شومان وكيل الأزهر الشريف كلا من الأستاذ الدكتور/ آدم شهيدوف، مستشار رئيس جمهورية الشيشان للشئون الدينية، والدكتور/ رمضان أهل الدين، مدرس بالجامعة الإسلامية الروسية.

ونقل شهيدوف اعتزاز السيد رئيس الشيشان بدور الأزهر الشريف في تعزيز السلم المجتمعي، وأنهم يُعدُّون لعقد مؤتمر مُوسَّع يُبرز القيمة العُليا للتصوف والقيم الروحية

الإسلامية ودورها في السلم المجتمعي، وكلهم أملٌ في أن يقوم فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الشريف بزيارة رسميَّة لدولة الشيشان وإلقاء الكلمة الافتتاحية للمؤتمر.

من جانبه رحَّب فضيلة وكيل الأزهر بالضيوف الكرام، وثمَّن فضيلته دور شباب الشيشان في بناء بلدهم ونهضته.

وأثنى فضيلته على الدور الذي لن ينساه التاريخ لوالد رئيس الشيشان السيد / أحمد قاديروف في إرساء قواعد الأمن والاستقرار في جمهورية الشيشان التي كانت قد مزَّقتها الحرب لعدَّة سنوات، وطلب من مستشار رئيس الشيشان نقل تحيات وتقدير الإمام الأكبر شيخ الأزهر للسيد/ رمضان قديروف رئيس دولة الشيشان، وخالص دعائه له بالتوفيق والسداد.

الدعوة الإسلامية تقيم حفل ختام دورة الأئمة الوافدين

أقامت الأمانة العليا للدعوة الإسلامية حفل ختام فعاليات الدورة (٩٨) للأئمة الوافدين، والدفعة الثالثة والرابعة للوعاظ المصريين، تحت رعاية أ.د عباس شومان -وكيل الأزهر- وذلك بحضور جمع كبير من القادة والمسئولين على رأسهم وزير الأوقاف ومفتي جمهورية مصر العربية وفضيلة الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية. وقد عقد الحفل بمدينة البعوث الإسلامية.

الإمام الأكبر: «الإلحاد» هو الانحراف عن الحقِّ إلى الباطل

دار حديثُ فضيلة الإمام الأكبر أ.د/ أحمد الطيب، شيخ الأزهر الشريف، في لقائه الأسبوعي على القناة الأولى والفضائية المصرية عن ظاهرة الإلحاد الدخيلة على المجتمع المصري والعربي.

وبدأ فضيلته بتعريفه قائلاً: إن الإلحادَ هو الانحرافُ عن الحقِّ إلى الباطل، وعن الهُدَى إلى الضلال، وعن الاستقامة إلى الاعوجاج، وعن الأديان إلى الشرك والكفر والمادية والقول بالصدفة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾

وقال: إن الإلحاد تقليدٌ لموضات غربية، وكثيرٌ من الشباب أصبح لا يتورع عن إعلان إلحاده، وبعضهم يتباهى به، وفي اعترافهم بهذا الهوس إدانةٌ لهم، ودليلٌ على جهلهم بالمعنى الحقيقي لكلمة الإلحاد.

وحذَّر فضيلتُه الشبابَ من أن تنطلي عليهم مثل هذه الظواهر الوافدة على أمتنا، مؤكدًا أنَّ الإلحاد ظاهرةٌ قديمةٌ أُلبِسَتْ ثوب التفكير العميق والفلسفة والمنهج العلمي، وقد أخذ في الغرب شكلاً مُمَنهجًا ومُنظَّمًا، مضيفًا أنه ظاهرة يُنفَقُ عليها من بعض الجهات، وأصبحت عملية منظَّمةً لتفتيت عضد الأمة الإسلامية.

وأوضح أنَّ الملحدين لا يعترفون بدين ولا بوجود الله، وليسوا على قدر من الثقافة والعلم والدين والفكر، وإنما هم سطحيُّون في أفكارهم نظرًا لدراساتهم التطبيقية المادية، مشدِّدًا على أن الإلحاد مرضٌ يحتاجُ إلى مُعالجة من خلال الحوار مع الشَّباب المثقف.

أنباء مجمع البحوث الإسلامية

إعداد / أ: عبدالموجود أمين

الإبداع وقيم المجتمع المصري

تحت هذا العنوان عقد مجمع البحوث الإسلامية مؤتمره في مدينة كفر الشيخ تحت إشراف محافظ كفر الشيخ، وفضيلة وكيل الأزهر أ. د/ عباس شومان

في بداية فعاليات تحدث فضيلة الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية فضيلة الشيخ/ محمد زكي بداري عن الإبداع وقيم المجتمع المصري فقال: «إن الدين الإسلامي لا يضع قيودًا على فكر وعقل الإنسان المسلم، بل يخاطب العقل مباشرة وحرره من جميع القيود التي وضعها الإنسان على نفسه مع وضع بعض الضوابط التي تكون أساسية بما لا يتنافى مع صحيح الدين الإسلامي وعادات وقيم المجتمع، لقد حرَّر العقل ولكن لم يجعله طليقًا يفعل ما يشاء كما يشاء أو يعمل كما يريد».

وذكر فضيلته أن الإبداع سنة من سنن الكون في الأرض قد أودعها الخالق في الإنسان حتى تعمر الأرض وتزدهر فيأخذ منه ما يتناسب مع قيمه ومبادئه لرفعة الإنسان وإعلاء شأنه وليس الدنو والهبوط به إلى هاوية الغرائز والشهوات، فالإبداع في شتى المجالات التي تعلو بالإنسان والإنسانية هو إبداع محمود ومطلوب، أما الإبداع الذي يهوي بالإنسانية إلى هاوية الرذيلة ويطلق غرائزه إلى ما لا نهاية فهو مذموم غير مقبول، فلو كان العقل فقط هو السبيل إلى معرفة الله والبعد عن كل موبقات لما كان هناك داع لإرسال الرسل أو الأنبياء ولكن مع تحرير العقل في العقيدة الإسلامية وإطلاق الإبداع وضع الله في كتابه العزيز الذى أنزله على نبيه ضوابط لتحد من نزوات ورغبات الإنسان التى ربما تذهب به إلى ما لا يحمد عقباه.

فالإبداع الفكري مطلب للإنسانية بما لا يتنافى مع العقيدة الإسلامية والقيم الموجودة في المجتمعات.

فالإبداع المحمود هو الذي يبني ولا يهدم، هو الذي ينشر الخير والفضيلة ولا ينشر الرذيلة والفجور.

كما ذكر فضيلته أنه ليس معنى الإبداع هو نشر الأفكار واستيراد عادات وتقاليد غربية على المجتمع المسلم ونشر أفلام ومسلسلات تهدم المجتمع وتحطم مبادئه وعاداته فأي إبداع هو الذي يصور المرأة المسلمة وهي شبه عارية؟

وأي إبداع هذا الذي يصور نبيا أو رسولا من الرسل على شاشات العرض أو في الفضائيات؟

إن الإبداع هو نتاج فكر إنساني منذ نشأته على الأرض ليرتقي بالإنسان إلى أعلى الدرجات الإنسانية.

وفي نهاية كلمته أكد فضيلة الأمين العام أن الإسلام لا يحارب الإبداع الفني أو الفكري طالما لا يهدم القيم الإنسانية بل يشجعه ويساعده على التقدم وتاريخ الدولة الإسلامية مليء بالإبداعات التي ساعدت على التقدم والرقي الإنساني في شتى المجالات.

ثم تحدث الشيخ عبد الله عكاشة الأمين العام المساعد للدعوة والوعظ وقال:

منذ أن بدأ الإنسان المسلم في تأسيس دولة الإسلام وقد بدأ الإبداع يأخذ طريقه في شتى فروع المعرفة عند المسلمين فمنهم من أبدع في الفقه والتفسير والحديث وغيرها من العلوم الدينية بل لقد بدأ الإنسان المسلم فى لملمة شتات الممالك والدول الماضية وبدأ التاريخ لها وأبدع فى هذا الفن الجميل وترك لنا تراثا من علم التاريخ للممالك والدول التى لولا المسلمون ما عرف عنها الإنسان فى العصر الحديث شيئا.

وذكر فضيلته أيضا: لقد أبدع المسلمون في شتى العلوم الكونية وبرع منهم العلماء بفضل عدم تقييد الإسلام للعقل البشري وتقدمت الإنسانية بفضله وازدهرت فكان للمبدعين صولات وجولات فى تلك العلوم التى سطرها التاريخ بأحرف من ذهب وعلى تلك الموروثات الإبداعية لعلماء المسلمين كانت اللبنات الأولى من الحضارة الحديثة فى وقت كان مجرد التفكير أو المحاولة من بعض علماء الغرب إثبات نظرية علمية تعد من كبائر الذنوب والهرطقة والسحر، فكان على الجانب الآخر من الكرة الأرضية في الشرق مجموعة من العلماء يطلق لهم الدين الإسلامي العنان للإبحار في الإبداع لخير الإنسانية والبشرية في وقت كان مجرد الحديث عن الفلسفة وغيرها من العلوم كفرا وإلحادا.

إن الإبداع هو نتاج فكر إنساني لخدمة البشرية لا لهدم ونشر الفساد.

المفهوم الإسلامي للإبداع:

ثم تحدث فضيلة الأمين العام المساعد للثقافة الدكتور سيد عبد النبي عن الإبداع فقال: إن أصدق الكلام كلام رسول الله ﷺ حيث يقول: «إن أصدق الحديث كتاب الله وإن أفضل الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار». رواه مسلم وأبو داود وابن ماجة.

وانطلاقا من هذا الحديث ظن البعض تحريم الإسلام لكل إبداع ولجميع المحدثات والمستجدات دونما تمييز بين إبداع مخالف ومناقض لكتاب الله وسنة رسوله وبين الإبداع المحمود.

وعرف فضيلته الإبداع قائلا: «إن الإبداع هو: إنشاء الجديد واختراع غير المسبوق وصناعة ما لا مثال له سواء أكان ذلك في صناعة الفكر أم في الصناعات للأشياء، موضحا أن الإبداع الفكري صناعة إنسانية متجددة بينما الدين وحي إلهي ثابت.

وقال فضيلته: إن التجديد سنة من سنن الاجتماع الديني في النسق الفكري الإسلامي حيث قال رسول الله ﷺ: «يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها» فإن التجديد

لا يمكن إلا أن يكون ثمرة للإبداع ومثمرا لمقادير قلّت أو كثرت من الإبداع. وعلماء المسلمين وفقهاؤهم من كل المذاهب قد فرّقوا بين (بدعة الضلالة) التي نهى عنها الرسول وبدعة الهدى التي لا تخالف ما قد أشار إليه الرسول في أحاديثه الكثيرة وذكر فضيلته أن البدعة المحمودة التي ابتدعها الخليفة الثاني عمر بن الخطاب في قيام رمضان.

وقال فضيلته: إذا كانت عمارة الأرض هي المقاصد العظمى من وراء استخلاف الله للإنسان فإن الإبداع الإنساني في سائر ميادين العمران البشري هو الأصل في السبل والآليات التي لا بد منها لتحقيق مقاصد هذا الاستخلاف شريطة أن لا يخالف هذا الإبداع دينا ثابتا في البلاغ القرآني أو في البيان النبوي لهذا الإبداع.

فقد فتح المجال أمام تجديد الفكر من أغلال القيود وأطلق سلطان العقل من كل ما يقيده بما لا يتنافى مع الشريعة الإسلامية متمثلة في الكتاب والسنة لبناء مجتمع الإسلام المتحضّر الذي ينفتح على جميع الحضارات السابقة دون قيد، يأخذ منها ما يناسبه ويترك ما يتنافى مع تعاليم الدين والعادات والتقاليد التي غرزها الرسول في أصحابه وتابعيه.

توصيات مؤتمر الإبداع وقيم المجتمع المصرى

ثم قرأ فضيلة الشيخ عبد العزيز النجار المدير العام لمناطق الوعظ توصيات المؤتمر:

- تفعيل دور مجمع البحوث الإسلامية، وذلك بعرض جميع الأعمال الفنية عليه قبل عرضها على الجمهور.
- تفعيل دور الأجهزة الرقابية ومنحها سلطة منع ما لا يتفق مع قيم مجتمعنا المصري.
- أن يكون الرئيس حاميا لأخلاق المجتمع، ذابًا عن قيمه، محافظا على أعرافه وتقاليده.
- أن يقوم الوعاظ بدورهم في تبصير الجمهور بعواقب ارتكاب المحرمات حتى لا يلحق بنا ما لحق بالأمم السابقة عندما استهزأت بحدود الله عزوجل.
- أن يكون مجتمعنا وقافا عند حدود الله عز وجل وأن يقاطع مثل هذه الأعمال الرخيصة حال عرضها عليه.
- أن تقوم وزارة التربية والتعليم بدورها في تحصين أطفالنا وشبابنا ضد الرذيلة والفاحشة حتى نبني جيلا قادرا على العطاء والبذل والتضحية.
- أن تقوم مراكز الشباب بدورها في تثقيف شبابنا الثقافة الإسلامية اللازمة حتى يعرفوا الفرق بين الإبداع وارتكاب المحرمات وإتيان الفواحش.
- أن تقوم أجهزة الإعلام بدورها في تسليط الضوء على مثل هذا الأعمال الرخيصة ومناقشتها مناقشة جادة حتى يقلع أصحابها عن تكرارها مرة أخرى.
- أن تقوم كل مؤسسات الدولة بدورها الرئيس في حماية الأخلاق، والعفة والطهارة، ونبذ كل ما لا يتفق مع أخلاق المجتمع المصري.
- أن تقوم الأجهزة التشريعية بسن قانون صارم يمنع عرض مثل هذه الأعمال الرخيصة، وأن توقع على أصحابها أقصى عقوبة مالية، بحيث لا يتربح أصحابها من المتاجرة بالأعراض وكشف

العورات.

- تخاطب المبدعين أنفسهم أن يبدعوا من وازع ضميرهم، وكريم أخلاقهم، وأن يتبذروا عن أنفسهم تهم حب الفواحش والرذائل، ونشر الانحلال الأخلاقي في المجتمع المتدين، وفي بيوتهم، وبين أولادهم.
- تناشد وزاة الاتصالات المصرية، ووزارة الثقافة المصرية بغلق جميع المواقع الإباحية المنتشرة على الشبكة العنكبوتية- الإنترنت – التي تبث الانحلال الأخلاقي وتفتح الباب للرذائل والفواحش.
- على الجميع أن يعرف أنه يعيش في بلد مسلم ترتفع فيه مآذن الأزهر عالية خفاقة، وعليه يجب احترام قيم هذا المجتمع ومُثُله.
- تدعو المجتمع المصري إلى توجيه طاقاته إلى الإبدع الصناعي والتكنولوجي والزراعي الذي يحقق التقدم والازدهار بدلا من الخلاعة والمجون والعري، فالخلاعة والمجون لا تنتج بارجة في اليم ولا قاذفة في السماء ولا تحقق أمنا اجتماعيا ولا اقتصاديا ولا توفر قوة عسكرية تحمي الحدود وتقف على الثغور بل تهدم أخلاقا وتؤسس قبحا.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

التغني بالقرآن الكريم بصحبة الآلات الموسيقية محرم شرعًا

أكد مجمع البحوث الإسلامية أن التغني بالقرآن الكريم بصحبة الآلات الموسيقية محرم شرعًا، ردًا على ما تم تداوله في بعض الصحف والمواقع الإلكترونية من قيام فرقة أوبرا بإندونيسيا بالتغنى بالقرآن بصحبة الآلات الموسيقية.

وأوضح المجمع :قائلا: إن القرآن العظيم هو كتاب الله الدال عليه لمن أراد معرفته، ونوره المبين الذي أشرقت له الظلمات، والسبب الواصل بينه وبين عباده إذا انقطعت الأسباب، وأمر النبي – صلى الله عليه وسلم – بترتيله قائلا: ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾ وأثنى على الذين يتلونه حق تلاوته قائلاً: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ﴾ أي: يقرءونه قراءة حقة، مصحوبة بضبط لفظه، وتدبر معانيه.

وأضاف: المسلمون مأمورون أن يقرأوا القرآن على الوجه المشروع، كما كان يقرؤه السلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، فإنَّ القراءة سنَّةٌ يأخذها الآخرُ عن الأول.

والسلفُ كانوا يُحسِّنون القرآن بأصواتهم من غير أن يتكلفوا أوزانَ الغناء، مثل ما كان أبو موسى الأشعري يفعلُ، فقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «لقد أُوتِيَ هذا مزمارًا من مزامير آل داود». وقال لأبي موسى الأشعري: «مررتُ بك البارحة وأنت تقرأ، فجعلتُ أستمعُ لقراءتك»، فقال: لو علمتُ أنك تسمعُ لحبَّرتُهُ لك تحبيرًا. أي لحسَّنْتُه لك تحسينًا، ولم يُنكر عليه النبي عليه الصلاة والسلام ذلك، فدل على أن تحبير الصوت وتحسين الصوت والعناية بالقراءة أمر مطلوب ليخشع القارئ والمستمع ويستفيد هذا وهذا.

وجاء في السنة الصحيحة الحث على التغني بالقرآن، بمعنى تحسين الصوت به، وليس معناه

أن يأتي به كالغناء، وإنما المعنى تحسين الصوت بالتلاوة، وفي ذلك أحاديث عن النبي ﷺ، منها: ما رواه البخاري و مسلم عن أبي هريرة –رضي الله عنه– أن النبي ﷺ قال: «ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن»، ومنها ما رواه مسلم عن أبي هريرة –رضي الله عنه– أن النبي ﷺ قال: «ما أذِنَ الله لشيءٍ ما أذِنَ لنبيٍّ حَسَنِ الصَّوْتِ يَتَغَنَّى بالقُرآن، يَجْهَرُ به»، ولكن لا يتجاوز بالتغني بالقرآن حتى يصير كألحان الأغاني؛ لأن القرآن لم ينزل ليطرب به الناس أو يتغنوا به، وإنما أمر الله المسلمين بفهم معانيه وتدبر ما فيه من عظات وآداب بكل أحكامه.

وعلى ذلك فإن تكلف القراءة على ألحان الغناء محرم شرعًا؛ لأنَّ ذلك فيه تشبيه القرآن بالغناء، ولأن ذلك يُورِثُ أن يبقى قلبُ القارئ مصروفًا إلى وزن اللفظ بميزان الغناء، لا يتدبَّرُه ولا يعقله، وأن يبقى المستمعون يُصغُون إليه لأجل الصوت الملحَّن، كما يُصْغَى إلى الغناء، لا لأجل استماع القرآن وفهمه وتدبُّره والانتفاع به.

افتتاح قاعة بانوراما ذاكرة الأزهر الشريف وبدء التشغيل التجريبي للمشروع

افتتح فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الأستاذ الدكتور أحمد الطيب ،يوم الاثنين الموافق ٢ / ٦ / ٢٠١٤م قاعة بانوراما تراث ذاكرة الأزهر الشريف، مطلقا إشارة البدء في التشغيل التجريبي للمشروع.

وتتم هذه الجهود في إطار بروتوكول التعاون الذي وُقِّع في ٢٠١١م بين الأزهر الشريف ووزارة الاتصالات وتكنولوجيا المعلومات لإعداد مشروع «ذاكرة الأزهر الشريف» والذي يهدف إلى التعريف بدور الأزهر الشريف عبر تاريخه الذي يمتد أكثر من ألف عام، ويقوم بتنفيذ هذا المشروع كل من مكتبة الأزهر الشريف، ومركز توثيق التراث الحضاري والطبيعي؛ أحد مراكز مكتبة الإسكندرية تحت مظلة وزارة الاتصالات وتكنولوجيا المعلومات.

وشمل المشروع عدة محاور من أهمها:

محور توثيق تاريخ الأزهر من خلال مواقفه المشرفة، ومحور توثيق السير الذاتية لشيوخ الأزهر ومؤلفاتهم وإنجازاتهم عبر السنين، ومحور توثيق التراث المعماري للجامع الأزهر والمعاهد الدينية العريقة، ومحور توثيق الذاكرة الصحفية لكل ما نُشر عن الأزهر، ويتم نشر هذه المعلومات باللغات الثلاثة العربية والإنجليزية والفرنسية من خلال:

موقع ذاكرة الأزهر الشريف على الإنترنت،

بانوراما تراث ذاكرة الأزهر بمكتبة الأزهر.

مجموعة من المطبوعات أهمها كتاب«مختارات من ذاكرة الأزهر الشريف».

وصرح فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر.، أن هذا المشروع القومي يطمح إلى استدعاء عظمة الأزهر الشريف إلى ذهن المسلمين والعالم أجمع، وإبراز دوره في نشر الوسطية، واحتواء الخلافات بين المذاهب الإسلامية، والحفاظ على الهوية الإسلامية في مختلف بقاع العالم وعلى مر العصور.

سفير جمهورية مالي يزور مجمع البحوث الإسلامية

التقى يوم الاثنين ٩-٦-٢٠١٤م فضيلة الشيخ / محمد زكي - الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية وسعادة السفير / موسى دياكيتي -سفير مالي في مصر، والملحق الثقافي سعادة / فاطمة كلوبالي.

وتناول اللقاء سبل تعزيز العلاقات بين الأزهر الشريف وجمهورية مالي، من جانبه أعرب معالي السفير عن حب وتقدير الشعب المالي لمصر بصفة عامة والأزهر الشريف بصفة خاصة.

وأوضح فضيلة الشيخ / محمد زكي أن جمهورية مالي بها (١٤) مبعوثًا من الأزهر الشريف يعملون في مجال الدعوة الإسلامية وتدريس العلوم الشرعية والعربية. كما أخبر فضيلته أن الأزهر الشريف به (٢٦٢) طالبًا من جمهورية مالي يدرسون في مراحل التعليم المختلفة بدءًا من المرحلة الابتدائية وحتى مرحلة الدراسات العليا. كما تمنى معالي السفير من الأزهر الشريف النظر في زيادة عدد المبعوثين الأزهريين إلى جمهورية مالي لنشر صحيح الدين الإسلامي وبث الفكر الوسطي المستنير، وإحياء ليالي شهر رمضان الكريم، وزيادة عدد الطلاب الوافدين من مالي للالتحاق بالأزهر الشريف.

واختتم اللقاء بالدعاء لمصر بالتقدم والرقي، والتوفيق والسداد لرئيسها الجديد سيادة المشير / عبد الفتاح السيسي، ولفضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور / أحمد الطيب -شيخ الأزهر، ولشعب مصر العظيم.

قافلة أزهرية تفتتح مركزًا إسلاميًا بالشرقية

برعاية كريمة من فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور أحمد الطيب - شيخ الأزهر، وبإشراف وتوجيهات فضيلة الأستاذ الدكتور / عباس شومان - وكيل الأزهر، توجهت قافلة أزهرية لافتتاح الجامع الكبير بقرية كفر عياد، مركز بلبيس، محافظة الشرقية، برئاسة فضيلة الشيخ / محمد زكي - أمين عام مجمع البحوث الإسلامية، وعضوية كل من فضيلة الدكتور / سعيد عامر أمين اللجنة العليا للدعوة بالأزهر الشريف، وفضيلة الشيخ عبد العزيز النجار مدير عام شئون المناطق بالمجمع، وفضيلة الشيخ / جمال بدراوي مدير إدارة الدعوة بالمجمع، وفضيلة الشيخ / جمال عبد السميع عضو المكتب الفني للدعوة والإعلام الديني، وفضيلة الدكتور هاني عودة عضو المكتب الفني للدعوة والإعلام الديني، الشيخ / أحمد فؤاد عضو المكتب الفني للدعوة والإعلام الديني.

وألقى فضيلة الشيخ / محمد زكي خطبة الجمعة، والتي دعا فيها المجتمع المصري إلى المحافظة على حضارته والتمسك بهويته، والوقوف صفًا واحدًا، ونبذ العنف، وحذّر فضيلته من العار الذي يلحق مجتمعنا المصري إذا أريقت الدماء، وهتكت الأعراض، وحرقت المؤسسات. كما دعا فضيلته إلى التمسك بالوحدة وحذر من الفرقة والنزاع الذي يسمح لأعدائنا في الداخل والخارج ليتربصوا بنا، ودعا المجتمع إلى الاطمئنان، فربنا قال في قرآنه وهو أصدق القائلين: ﴿ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ وإن مصر ستظل أمنًا وأمانًا للخائفين وملاذًا للطالبين إن شاء الله رب العالمين، كما أوضح فضيلته بعض الدروس المستفادة من حادثة تحويل القبلة، ودعا إلى تطهير القلوب مما علق بها من الأحقاد والأحقاد والعداوة والبغضاء، حتى يستديم علينا العطاء ونحن على أبواب شهر العطاء والكرم شهر رمضان الكريم بلغنا الله إياه.

التحرش حالة سياسية الفرض منها تشويه المجتمع المصري

صرح الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية فضيلة الشيخ / محمد زكي بأن ظاهرة التحرش ظاهرة غريبة على مجتمعنا المصري المعروف بأخلاقه وقيمه، وأرجع فضيلته وجود هذه الظاهرة إلى عدة أسباب، أهمها:

١- الفوضى التي عمت البلاد في الآونة الأخيرة، وانعكس ذلك على كل الأوضاع والسلوكيات مما ترتب عليه ظهور هذه الظاهرة القبيحة.

٢- قصور الخطاب الديني المعتدل عن معالجة قضايا الشباب والاهتمام بتقويم أخلاقه وسلوكياته وتوجيهه الوجهة الأخلاقية الإسلامية الصحيحة، حيث انقضت الفترة الماضية، وكثير من الدعاة مشغول بالأمور السياسية غير عابئ باحتواء الشباب والتواصل معهم، والكثير منهم ليسوا من دعاة الأزهر فكان خطابه سياسيا موجهًا يحمل فكرًا متطرفًا لازلنا نعاني من آثاره المدمرة، والعيب يرجع لمن مكنهم، وتركهم بعد ظهور آثارهم السيئة.

٣- ما يصدر عن وسائل الإعلام من أفلام فيها استهانة واضحة بحدود الله تعالى، وقيم المجتمع، فضلاً عما تحمله هذه الأفلام من مخاطبة صريحة لجسد المرأة، وإثارة الغرائز، وارتكاب الفواحش بشكل صريح يخدش الحياء، ويغتال المروءة عند الشباب، وتسويق ذلك على أنه فن أو إبداع، وأنه محاكاة لواقع المجتمع المصري، وتصويرهم للمجتمع على أنه مجتمع ماجن، وغير ذلك من الادعاءات الكاذبة، كان ذلك كله مسوغًا لما ارتكبه الشباب من تحرش واعتداء على النساء في الأماكن العامة.

٤- غياب دور الأسرة في تنشئة وتربية أولادها على القيم الإسلامية الرفيعة التي تعلم النشء قيمة الحفاظ على المرأة في الشارع، واعتبارها جزءا من العرض كالأم، والأخت، والابنة، والزوجة، فما لا يرضاه لهؤلاء النسوة اللاتي يمثلن جزءًا من عرض الإنسان فعليه ألا يرضاه لأي امرأة أخرى، وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا المعنى عندما سأله أحد الشباب أن يرخص له في الزنا، فقال النبي ﷺ أترضاه لأمك، أترضاه لأختك، أترضاه لعمتك، أترضاه لخالتك، فقام الشاب من أمام النبي ﷺ وأبغض شيء إليه هذا الفعل، فلما غابت هذه التربية عن شبابنا نتج عنه ما نسمع ونرى الآن.

ويرى فضيلته أن علاج هذه الظاهرة يقتضي الخطوات التالية:

أولاً: احتواء هذا الشباب والوصول إليه في كل مكان في الجامعات، والأندية، ومراكز الشباب، والمدارس، والمعاهد، حتى في الطرق العامة، وهذا ما يعمل عليه مجمع البحوث الإسلامية منذ أكثر من ستة أشهر بخطط محكمة من خلال الأمانة المساعدة للدعوة والإعلام الديني، بهدف التواصل مع الشباب وتصحيح مفاهيمهم ومناقشة قضاياهم، وإيجاد حلول إسلامية لها.

ثانيًا: عقد المؤتمرات الشبابية، والندوات التثقيفية، وإحياء روح الثقافة الإسلامية في مواجهة ثقافة الخلاعة والعرى، والمجون المنتشرة على الفضائيات، والمنافية لقيم هذا المجتمع والمناقضة لثقافته الإسلامية.

ثالثًا: عودة الخطاب الديني الوسطي الذي تكون أولى اهتماماته مناقشة قضايا الشباب، و الحفاظ على قيمه وأخلاقه.

رابعًا: استنهاض جميع مؤسسات الدولة للقيام بواجبها تجاه هذه الظاهرة الخطيرة كل فيما يخصه عملا بقول النبي ﷺ كلكم «راع وكلكم مسئول عن رعيته».

خامسًا: تقديم نماذج شبابية لشبابنا اليوم من التاريخ الإسلامي تستطيع من خلالها استنهاض همه، وشحذ عزيمته، ليشمر عن سواعد الجد لبناء بلده بدل أن يشمر عن سواعد يتحرش بها بالنساء، فمجتمعنا في حاجة لسواعد هذا الشباب للبناء، والتشييد، والزراعة، والصناعة، والدفاع عن العرض والأرض. تلك قيم يجب غرسها في نفوس شبابنا. وتاريخنا الإسلامي مليء بالنماذج الشبابية القادرة على تقويم سلوكيات شبابنا اليوم من أمثال قائد الجيش صاحب الثماني عشرة سنة أسامة بن زيد، ومن أمثال المفسر والقاضي سيدنا عبدالله بن عباس الذي رباه النبي ﷺ على قوله: «يا غلام إني أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت فسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لن ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك لن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام، وجفت الصحف». وتكون تلك النماذج بديلا إن صح التعبير عن النماذج التي صاغها الإعلام وألبسها ثوب البطولة لمجرد أنها رقصت، أو غنت، أو لامست أجساد النساء العارية، أو تعاطت المخدرات، أو لعبت كرة القدم!!!!

وبالنسبة لظاهرة التحرش التي أثارت غضب المجتمع فهي حالة سياسية الغرض منها تشويه صورة المجتمع المصري، وإظهاره بمظهر مشين لحساب أجندات خارجية تريد النيل من استقرار هذا البلد، وأمنه، وسلامته.

ونهيب بشعبنا الأبي التقي أن يتصدى لهذه الظاهرة بكل ما أوتي من قوة، حفاظا على عرضه، وضمانا لسلامة مجتمعه، وألا يقف موقفا سلبيا من هذه الظاهرة التي تفتك بالمجتمع، فالسلبية تعني المشاركة الفعلية في هذه الجريمة، وهذا ما لا يليق بمجتمعنا المصري المتدين.

وجدير أن نذكر كل مؤسسات الدولة بأن ما حدث من كوارث في المجتمع سببه تهميش دور الأزهر الشريف، وحجبه عن وسائل الإعلام في الوقت الذي أتيحت كل وسائل الإعلام لغير المتخصصين فضلوا وأضلوا، حتى وصل الأمر إلى سفك الدماء، وهتك الأعراض، وفتاوى ما أنزل الله بها من سلطان، وإذا كان الأمر بهذه الصورة فعلى جميع مؤسسات الدولة الوقوف بجانب الأزهر، وتوفير كل متاح لينهض برسالته ودعوته، ويحافظ على هُوية الشعب، وثقافته، وقيمه، وأخلاقه، في ظل قيادته الحكيمة.

والله نسأل أن يحفظ مصر، وأن يحقق أمنها واستقرارها، وأن يجعلها سخاء رخاء وسائر بلاد المسلمين، فهو ولي ذلك والقادر عليه، هذا وبالله التوفيق وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الأمين العام لمجمع البحوث الاسلامية

محمد زكى رزق بدارى



للأستاذ / أحمد رضوان

تحريض إسرائيلي ضد المسلمين في أوروبا

تحاول الحكومة الإسرائيلية استغلال الهجوم الذي استهدف قبل أيام المتحف اليهودي في بروكسل وأسفر عن مقتل أربعة أشخاص، من أجل شن حملة شعواء ضد ما تسميه الموجة الجديدة للعداء للسامية التي تجتاح في رأيها دول الاتحاد الأوروبي والتي تتهم إسرائيل الجاليات الإسلامية وأحزاب اليمين القومي المتشدد بأنهم وراءها.

وفي هذا الإطار برزت مجموعة من المقالات في الصحف الإسرائيلية شددت على تصاعد جرائم الكراهية والعداء للسامية في دول مثل فرنسا وبلجيكا وغيرها من دول الاتحاد، متهمة حكومات الدول الأوروبية بالمسئولية عن ذلك من خلال سياساتها الرسمية الانتقادية للمستوطنات اليهودية وللاحتلال الإسرائيلي للضفة الغربية. كما تتهم إسرائيل أوروبا بأنها من خلال تبنيها حملة مقاطعة المستوطنات اليهودية شجعت على تصاعد العداء للسامية وسط الجمهور الأوروبي.

تجيء هذه الحملة الإسرائيلية على دول الاتحاد الأوروبي على خلفية القرار الذي اتخذه الاتحاد قبل مدة من الزمن بوقف تقديم المساعدات المالية وحظر التعاون التجاري مع أي مؤسسة إسرائيلية تعمل في المستوطنات اليهودية في الضفة الغربية أو لها علاقة بها، وكذلك ضد سياسة الاتحاد الأوروبي المؤيدة لحل الدولتين والمتعاطفة إجمالا مع الموقف الفلسطيني.

فلسطين: الاحتلال يصدر قانونا يسمح لليهود بالصلاة في الأقصى

أعلن وزير الشئون الدينية بدولة الاحتلال الصهيوني أن الحكومة بصدد إصدار قانون يقنن أداء اليهود لصلواتهم داخل «المسجد الأقصى» وهو ما يطلقون عليه زعما «جبل الهيكل».

وقد أعلن ذلك الحاخام «إيلي بن داهان» - نائب الوزير - مشيرًا إلى أن من يصرح له سيستطيع الذهاب والصلاة، وأن الوزارة تُعد قانونًا يسمح لأي يهودي يريد الصعود والصلاة هناك. وقد جاءت تلك التصريحات في إطار مؤتمر «العودة لجبل الهيكل»، الذي ركز على منح اليهود بشكل قانوني إمكانية الصلاة في الأقصى. وقد شدَّد الحضور على ضرورة منع المضايقات التي يتعرض لها اليهود يوميًا، في حين زعم نائب رئيس الكنيست أن «المسجد الأقصى» خاص باليهود، ويجب أن يستمر تابعًا لهم، محذرًا من تركه للمسلمين.

الولايات المتحدة: الإسلام ثاني أوسع الأديان انتشارا في ٢٠ ولاية

أظهرت بيانات حديثة صدرت عن السلطات الأمريكية للإحصاء السكاني - أن الإسلام بات يشكل ثاني أوسع الأديان انتشارًا في ٢٠ ولاية أمريكية، وخاصة في الغرب الأوسط والجنوب.

وقد كشفت البيانات أن ٧٥٪ من الأمريكيين يصفون هُويتهم بالنصرانية، التي تأتي كأول الأديان انتشارًا في العالم.

وجدير بالذكر أن المسلمين يشكلون نحو ٨ ملايين مواطن؛ ما بين أمريكي أصلي ومهاجر، ولاجئ من «العراق» و«أفغانستان»، و«البوسنة»، و«الصومال».

أوكرانيا: مجلس شورى المسلمين لن يشارك في البرلمان

قرر مجلس شورى المسلمين في «القرم» المتنازع عليها ما بين «أوكرانيا» و«روسيا» في ١٢ يونيو الجاري عدم المشاركة في البرلمان الحالي، وصرَّح بذلك «رفعت شوباروف»، زعيم تتار القرم ورئيس مجلس شورى المسلمين.

وقال شوباروف»: إنه يوجد العديد من الأسباب التي لا يستطيع المجلس بسببها الانضمام إلى البرلمان، ومن أهم الأسباب سرعة انتخاب البرلمان الجديد، وكثير من الأعضاء لا يعرفون كيفية العمل مع النظام الحالي؛ مما يثير الشكوك».

وقال أيضًا: إن النظام الجديد يحرم «تتار القرم» من المشاركة بشكل كبير داخل البرلمان، وكان في السابق يُسمح لمسلمي القرم بالاشتراك بنسبة ٢٠٪ من البرلمان، أما الآن فقد انخفض الاشتراك.

وأضاف: إن المجلس الحالي لا يسعى إلى ضمان حقوق مسلمي القرم، وأيضًا مجلس شورى المسلمين يعرب عن قلقه لحالات اختفاء المسلمين في القرم، فضلا عن حالات الاعتقال والقتل دون اهتمام من السلطات؛ لذلك قرر مجلس شورى المسلمين عدم الاشتراك حتى تتحقق مطالبهم، وسوف يرسل بيانًا بذلك لجميع مناطق القرم.

والجدير بالذكر أن البرلمان الحالي سوف تجرى انتخاباته في ١٤ سبتمبر ٢٠١٤م.

وأعرب مفتي «روسيا» عن أسفه لحظر السلطات الروسية ٣٠٠ كتاب من الكتب الإسلامية، وأكد أن السلطات التي منعت هذه الكتب لم تخطر الإدارة الروحية بهذه القوانين، وأن جميع المفتين في «روسيا» منزعجون من تلك الخطوات، ويجتمعون لإيجاد الحلول للإفراج عن تلك الكتب. وأكد أن تلك الكتب لا تمثل خطرًا كما تظن السلطات الروسية.

كوسوفو: انتخاب أول مسلمة محجبة عضوا بالبرلمان

حصلت «الابيونيت ديمي مورتيزي» على الأصوات المناسبة، لتصبح أول مسلمة محجبة تشغل مقعدًا بالبرلمان في جمهورية «كوسوفو»، وذلك بدعم كبير حصلت عليه من أصوات النساء؛ حيث حصلت على ٦٠٠٠ صوت على الرغم من أن ٥٠٠٠ صوت تكفي للحصول على المقعد.

وتأتي هذه المفاجأة ردًا على تشديد رئيس الوزراء «هاشم تاتشي» الذي وعد بمنع الحجاب بالمدارس، وهو ما أثار «أجاتي» زعيم حزب العدالة، الذي أكد أنه لن يكون هناك من يستطيع حرمان المسلمات المحجبات من التعليم.

كينيا: انتقاد العمليات الأمنية ضد الدعاة والعلماء المسلمين

خرج مئات الشباب المسلمين بقرية «مانديرا» الواقعة على الحدود الصومالية إلى الطرقات، معربين عن غضبهم لقيام الشرطة وقوات الدفاع باغتيال اثنين من الدعاة، وهو ما اعتبره العديد من المسلمين الذين أثنوا عليهما أنه يأتي في إطار القتل غير المبرر ودون الأحكام القضائية.

وقد أشار المسلمون الغاضبون إلى أنه بالرغم من ادعاء الأمن أن القتيلين مسئولان عن التخطيط لأعمال عنف، فإن تهمتهما الوحيدة «نشر الدعوة الإسلامية»، وذلك تعتبره الحكومة خطرًا عليها وعلى النصارى بالدولة؛ حيث أعرب المسلمون عن مخاوفهم من استهداف المزيد من الدعاة والعلماء، ومن الاعتقالات العشوائية تجاه المعربين عن غضبهم.

فرنسا: محاكمة ناشط من جماعة كتلة الهوية لإساءته للإسلام

حُكم على أحد نشطاء جماعة كتلة الهوية للجبهة الوطنية في «فرنسا» بالسجن ٣ شهور مع دفع غرامة قدرها ألف يورو، وذلك بتهمة إلحاق الضرر والتحريض على التمييز العنصري؛ حيث قام - فابريس ٤٤ عام - بكتابة عبارات معادية للإسلام، من بينها: «الإسلام خارج البلاد»، على المباني العامة والمحلات التجارية الخاصة بالمسلمين.

وتم التعرف على الجاني من حليقي الرؤوس من قبل الشرطة؛ حيث استخدم طلاء لملصقات خاصة بموقع «كتلة الهوية»، المعروفة بمحاربتها لأسلمة «فرنسا».

ولم يندم المتهم على أفعاله أمام المحكمة الجنائية في «أورليانز»، وقال رافعًا رأسه: الإسلام ديانة خطيرة وسببت لبلادنا ولعالمنا ضررًا بالغًا.

فضلاً عن ذلك، يجب معاقبة المضايقات التي يعاني منها المسلمون؛ ففي السنوات الأخيرة يستمتع المتطرفون المعادون للإسلام بتدنيس المساجد والمقابر الإسلامية، كما يجب حل الجماعات التي تعادي الإسلام من أجل تجنب التوترات المجتمعية كما في «إنجلترا».

ميانمار: معاناة ضحايا العنف الطائفي مازالت مستمرة

حذرت المفوضية العليا للاجئين في الأمم المتحدة، من أن الآلاف من المسلمين الروهنجيا، الذين ما زالوا يفرون من ولاية «أراكان» في «بورما» بعد عامين من اندلاع أحداث العنف الطائفي هناك، يواجهون مزيدًا من الإساءات والاستغلال.

وقد أدت موجات العنف الدامية بين البوذيين والمسلمين في «الراخين» في ٢٠١٢م، إلى مقتل نحو ٢٠٠ ألف شخص وتشريد نحو ١٤٠ ألفًا آخرين معظمهم من الروهنجيا.

وصرح «أدريان إدواردز» - المتحدث باسم المفوضية في جنيف - أنه بعد عامين من اندلاع العنف بين الطائفتين في ولاية «الراخين» في «بورما»، ما يزال الآلاف يغادرون تلك الولاية باستعمال القوارب من «خليج البنغال».

وتعتبر الأمم المتحدة الروهنجيا واحدة من أكثر الأقليات المضطهدة في العالم التي عانت بسبب عقيدة أبنائها.

حيث عانى الكثير من النازحين من نقص الرعاية الصحية والمساعدات، بعد الهجمات التي طالت منظمات الإغاثة الدولية من قبل متطرفين بوذيين في وقت سابق من هذا العام.

الهند: رفض تدخل رئيس الجمهورية في مدارس المسلمين الدينية

علّق المفتي «أبو القاسم نعماني» رئيس جامعة دار العلوم بـ«ديوبند» - أكبر وأقدم جامعة إسلامية أهلية في شبه القارة الهندية - على بيان رئيس جمهورية الهند «براناب موخرجي»، الذي أعلن فيه - خلال جلسة مشتركة لمجلسي النواب - عن خطة الدولة لتطوير المدارس الإسلامية، والإجراءات التي تتخذها الدولة لتطوير تلك المدارس.

وقال «نعماني»: إن ما نشرته صحيفة «راشتريا سهارا» بشأن تلك الخطة التي وضعتها الدولة لتطوير بضعة مدارس، حديث يشوبه الإبهام والغموض، خاصة وأن دستور «الهند» يقر بالفعل حرية تدريس الدين في المدارس الإسلامية الخاصة، وتساءل المفتي «أبو القاسم نعماني»: ماذا عن المدارس الحكومية التي لا تدرس مادة الدين؟ ثم طالب الحكومة بتوضيح نوعية المدارس التي ستخضع لخطتها التطويرية.

وفي رده على أحد الأسئلة بشأن حديث رئيس الجمهورية عن عزمه منح المسلمين فرصًا عادلة للتقدم والنهوض، قال المفتي: إن الأيام القادمة هي التي ستحكم على صدق هذه النوايا.

آيسلندا: المجتمع يدعم المسلمين في التصدي لممارسات اليمين المتطرف

طالب العديد من غير المسلمين بالمجتمع الآيسلندي الانضمام للجمعية الإسلامية بـ«آيسلندا» للمشاركة في المسيرة السلمية التي ينظمها المسلمون اعتراضًا على ممارسات اليمين المتطرف المناهضة للإسلام والمسلمين.

وتأتي هذه المسيرة ردًا على دعوات اليمين - ممثلاً في حزب التقدم ومناصريه - الذي يطالب بمنع بناء أول مسجد بـ«آيسلندا».

وجدير بالذكر أن الجمعية الإسلامية تفتح باب العضوية لكل المواطنين، شريطة الموافقة والاتساق مع أهدافها وغاياتها.

book was revealed. This is the divine spring which represented the womb from which the last nation was born. The firmly established facts are derived from it, as it includes the creed, Shari`ah, and values which distinguished this civilization with the eternal spirit in spite of its development throughout the ages. It unified the nation in spite of the diversity of tribes, peoples, and nations. It unified the Islamic world in spite of the peculiarities of regions and nations.

If the truthfulness of any message, i.e., the celebration of the moment of birth is the extent of success achieved by the celebration in the attendance of meaning at the reality of those who celebrate it, then will we succeed in Ramadan in restoring the spirit of the Islamic revivification, which is represented by the Noble Qur›an when it brought the nation from darkness to light?

Allah (Glory be to Him) bestowed on us the preservation of the Qur›an. Allah (Glory be to Him) said:

{Verily, We, it is We Who have sent down the Dhikr (i.e. the Qur'ân) and surely, We will guard it (from corruption).}

[Al-Hijr: 9]

Allah obliged us to establish this religion to renew the trust which we held when we were happy with the grace of embracing this religion.

of the Qur'an, which acted like the womb from which the elements of the Islamic nation formed. It also represented the eternal spirit which ensures its cultural continuity throughout ages. Contemplation of these meanings and facts will clarify to us the size of the disorder or shortage which afflicted us and the meanings of the aspects of the celebration of Ramadan, the month in which we commemorate the revelation of this great event.

This celebration should not be by turning Ramadan to a month of laziness and decrease in production, because, in fact, Ramadan brings up the will in order to innovate the energies and skills which help the nation to encounter the dangers and challenges and to develop creativity and inventiveness.

This celebration should not be by only listening to the Holy Qur'an or mere recitation without contemplating the meanings. They should contemplate the meanings of the Qur'an by celebration which revives the real meaning of the feast in which Islamic nation was born.

Our hopes with regard to the Qur'an became increasing the number of its memorizers, as we spend much money in this regard, hold celebrations, and distribute prizes to its memorizers. Although this includes much goodness, as it links us with the language of the Qur'an and rectifies our language and tongues, memorization of the Qur'an is not the mere intention of this revelation.

It surprises us to find that the generation of the Prophet's Companions who witnessed the revelation which changed the course of history did not include many memorizers of the Qur'an. However, they had great knowledge of the Qur'an and did not memorize it. They applied it and embodied its intentions, and did not only recite its verses.

It was narrated on the authority of `Abdullah ibn Mas`oud (may Allah be pleased with him) said: "Every one of us used not to leave ten verses without contemplating their meanings." `Abdullah ibn `Umar (may Allah be pleased with him and his father) said about the type of the relation between the Companions and Qur'an and prophecy: "The virtuous person of the Prophet's Companions at the early nation did not memorize except a surah or something like this, but they were blessed with acting according

to the Qur`an. The last people including the boy and the blind of this nation recite the Qur'an but are not blessed with reciting it."[1]

During the era of prosperity, in which the unique generation of the Prophet's Companions changed the course of life and history by the Qur'an, the majority of people understood the Qur'an and its objectives and acted according to it, did not drive their attention to its memorization. However, during the era of cultural retardation, the majority of people memorize the Qur'an and the number of its memorizers increased and they boast of their memorization of the Qur'an. Unfortunately, we are still limited to its memorization and celebration of the memorizers. This is in spite of the large number of lexicons and modern techniques which surpassed the memorizers' skills.

The descent of the Qur'an represented the moment of the birth of the Islamic nation, the light to which the nation went out, and the guidance with which it was blessed. In one inclusive word, the Noble Qur'an represented the spring of the Islamic Renaissance which is eventually valid for getting rid of stagnation and imitation in a manner that presents ways of Ijtihad, innovation, and inventiveness.

This revivification in all fields of construction is the construction of the human self which upgrades and refines its skills and the construction of reality which refines it. This revivification is one of the most special terms which express the message of this spring and we fast Ramadan to celebrate the moment of its revelation to our Messenger Muhammad (may the blessings and peace of Allah be upon him). Allah (Glory be to Him) says:

{‹O you who believe! Answer Allâh (by obeying Him) and (His) Messenger when he (peace be upon him) calls you to that which will give you life, and know that Allâh comes in between a person and his heart (i.e. He prevents an evil person to decide anything). And verily, to Him you shall (all) be gathered.}

[Al-Anfal (The Spoils): 24]

We fast in Ramadan to celebrate this sacred moment in which this great

---

1 Al-Qurtuby, Al-Jami' for the Quranic Rulings, part 1, p. 40, the Egyptian Books House edition.

Ihrâm), then he should not have sexual relations (with his wife), nor commit sin, nor dispute unjustly during the Hajj. And whatever good you do, (be sure) Allâh knows it. And take a provision (with you) for the journey, but the best provision is At-Taqwa (piety, righteousness). So fear Me, O men of understanding!}

[Al-Baqarah (The Cow): 197]

No one of the inviolable months is mentioned in the Qur'an. Also, Rabi` Al-Awwal is not mentioned in the Qur`an although it witnessed the prophetic Hijra from Makkah to Al-Madinah. It is the month in which the Da`wah was saved, the state was established, and conquests started. In spite of this, this month is not mentioned in the Noble Qur'an. It is not also a month in which an obligation is performed like the Mosaic law, as its followers performed fasting to celebrate the rescue of Mosa from Fir`awn.

The Noble Qur'an did not leave the answer of the Researcher's question about this time, and it is left for deduction and Ijtihad. The clear verses tackled the birth of the Islamic nation which was embodied in the emergence of the religion which distinguished this nation and made its Shari`ah last message of the only religion and the perfection of the morals. The beginning was the moment of the descent of Jibril on the Truthful and Honest person and the revelation of the first verses of the Qur'an at the beginning of dawn at one of the odd night at the last ten days of Ramadan in Hira' Cave.

At this moment, the earth was enlightened by the call of heaven.

{Read! In the Name of your Lord Who has created (all that exists). He has created man from a clot (a piece of thick congealed blood). Read! And your Lord is the Most Generous. Who has taught (the writing) by the pen. He has taught man that which he knew not.}

[Al-`Alaq (The Clot): 1-5]

The revelation of the Qur'an was at the Night of Decree at the time of dawn. The birth of the day and the descent of the Book of Allah was the time when its creed, Shari`ah, civilization, and unity came from this honorable Book. As this birth was in Ramadan, it was honored by fasting it, which is the Islamic celebration of this birth.

As this birth is the birth of the Revelation which establishes the nation, Allah willed that the obligation celebrating it – fasting – is the school of the construction of the Islamic vivid will in order to restore the well-being of this new birth, Ijtihad, and Allah (Glory be to Him) says while legislating this obligation:

{The month of Ramadan in which was revealed the Qur'ân, a guidance for mankind and clear proofs for the guidance and the criterion (between right and wrong). So whoever of you sights (the crescent on the first night of) the month (of Ramadan i.e. is present at his home), he must observe Saum (fast) that month, and whoever is ill or on a journey, the same number [of days which one did not observe Saum (fast) must be made up] from other days. Allâh intends for you ease, and He does not want to make things difficult for you. (He wants that you) must complete the same number (of days), and that you must magnify Allâh [i.e. to say Takbîr (Allâhu Akbar; Allâh is the Most Great)] for having guided you so that you may be grateful to Him.}

[Al-Baqarah (The Cow): 185]

In this way, we find the wisdom behind fasting in Ramadan and not in any other inviolable month. Fasting is not also in the month in which Islam and its messenger were saved by immigration from besiege and plucking out. We fast this month to commemorate the descent of the Qur'an which represents the womb which gave birth to this nation and which brought about the firmly established facts of this nation.

How to celebrate?

When the people, including individuals, families, peoples, and nations, celebrate feasts and occasions, their celebration should reflect its aspects and the significances of the event they celebrate. If this is a military victory, the aspects of power are reflected on this celebration.

If it is dependence from the occupation, liberation of wealth, or restoration of land, these meanings are reflected on their celebrations. When the Muslims fast Ramadan to celebrate the moment when the Qur'an descended to the Messenger of Allah, their celebration should reflect the event, the revelation

obligation which gathers the peoples, tribes, colors, and languages.

{Indeed this is your nation, is one nation, and I am your Lord, so worship Me.}

[Al-Anbiya' (The Prophets)" 92]

The Noble Qur'an includes the firmly established values which gave the civilization of the nation the Islamic hue. The relative matter is colored by absoluteness for the first time in the history of civilizations.

{Our Sibghah (religion) is] the Sibghah (Religion) of Allâh (Islâm) and which Sibghah (religion) can be better than Allâh religion? And we are His worshippers.

[Al-Baqarah (The Cow): 138]

{To each among you, We have prescribed a law and a clear way.}

[Al-Ma'idah (The Table): 48]

The creed, Shari`ah, nation, and civilization caused the Islamic nation to be unified under the banner of Islam. It gathers the peoples, tribes, races, languages, and nations in a manner which was described in the Noble Qur'an.

The Birthday

As the Noble Qur'an started to be revealed in Ramadan, in which Muhammad ibn `Abdullah (may the blessings and peace of Allah be upon him) worshipped Allah before his mission in Hira' Cave. He discarded polytheism altogether and was searching for the true religion, which he derived from the religion of Ibrahim (may the peace of Allah be upon him). As the night in which the light of the Noble Qur'an was revealed – the Night of Decree which occurs in the odd nights of the last ten days of Ramadan in 13 B.H, 610 A.D., this night became better than thousand months:

{Verily, We have sent it (this Qur'ân) down in the night of Al-Qadr (Decree). 'And what will make you know what the night of Al-Qadr (Decree) is? The night of Al-Qadr (Decree) is better than a thousand months (i.e. worshipping Allâh in that night is better than worshipping Him a thousand months,. Therein descend the angels and the Rûh [Jibrîl (Gabriel)] by Allâh's Permission with all Decrees. '(All that night), there is Peace (and Goodness

from Allâh to His believing slaves) until the appearance of dawn.}

[Al-Qadr (The Night of Decree): 1-5]

The month which witnessed the honor of this night and the moment of the emergence of the Qur'anic light became the time of an Islamic obligation – the obligation of fasting. It is the month in which we celebrate the revelation of the Qur'an, the birthday of the Islamic nation, and the moment of the establishment of the sound religion.

The number of the months is twelve, and they include four inviolable months (Rajab, Dhul Qa`idah, Dhul-Hijjah, and Al-Muharram).

{Verily, the number of months with Allâh is twelve months (in a year), so was it ordained by Allâh on the Day when He created the heavens and the earth; of them four are Sacred.):}

[Tawbah (Repentance): 36]

Although Ramadan is not one of the inviolable months, it surpasses these months in virtue and excellence due to the revelation of the Noble Qur'an in it. These inviolable months are the months of truce and it is not permissible to fight during them. They are the season of trade to develop the decoration of the worldly life.

Ramadan witnessed the Revelation of the Noble Qur'an which carried the message of religion and the worldly life – the worldly life and the hereafter – for the nation which inherits all the messages of the prophets and believes in Allah's religion, the Shari`ah of Muhammad (may the blessings and peace of Allah be upon him).

For this wisdom and the honor of this great month – Ramadan – it is distinguished with the revelation of the Noble Qur'an. No month is mentioned in the Noble Qur'an except this month.

The mentioning of Ramadan in the Noble Qur'an is not because it is the time for the obligation of fast because Hajj is one of the pillars of Islam and one of the inviolable months.

{The Hajj (pilgrimage) is (in) the well-known (lunar year) months (i.e. the twelfth month, and the first ten days of the twelfth month of the Islâmic calendar,. So whosoever intends to perform Hajj therein (by assuming

Whoever does this will obtain goodness in this worldly life and the hereafter in a manner which surpasses his expectations. This includes being saved from evils, feeling safe and secure. If Allah tests his faith with an affliction, he observes patience, and he thanks Allah if He bestows a grace on him.

One of the virtues gained by the pious person is that he finds goodness in the people's hearts wherever he goes. He lives with them in tranquility, love without any grudge, and sincerity without hypocrisy.

It is clear that Allah (Glory be to Him) doubles the rewards for the pious. It is of Allah's Mercy that when some people suffer from an affliction, Allah opens a way out for the pious without being afflicted. The people become in straitened conditions and he lives in happiness, people may be sad, and he is happy, they may be afflicted, and he is safe from this affliction. One of Allah's rewards for the pious person is that Allah brings to him an easy provision which he does not expect or hope for. This is a grace which can not be described or evaluated. Provision is the main concern for peoples and the reason for their endeavor day and night.

Allah mentioned about bestowing mercy on the pious person, Allah (Glory be to Him) said:

{And whosoever fears Allâh and keeps his duty to Him, He will make a way for him to get out (from every difficulty).And He will provide him from (sources) he never could imagine. }

[Al-Talaq (Divorce): 2, 3)

This means that Allah gives him a way out from afflictions, facilitates for him provision, in a manner that which makes the pious attain provision without suffering or hardship. Allah (Glory be to Him) says:

{And whosoever fears Allâh, Allah will make his matter easy for him. That is the Command of Allâh, which He has sent down to you.}

[Al-Talaq (Divorce): 4-5]

Allah (Glory be to Him) said:

{And if the people of the towns had believed and had the Taqwâ (piety), certainly, We should have opened for them blessings from the heaven and the earth, but they denied (the Messengers). So We took them (with punishment) for what they used to earn (polytheism and crimes).(Al-Araf (the battlements: 96).

The Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him0 said: "A person may be deprived from provision due to a sin which afflicts him." [Relate by Ibn Hibban, Al-Hakim, Al-Nasae'y, Ibn Majah, and Ahmad ibn Thawban (may Allah be pleased with them).

The revelation of the Qur'an for the nation and the civilization...!

By: Dr. Muhammad `Imarah

Editor-in-chief of Al-Azhar Magazine.

The Islamic civilization was formed by the Qur'an, as it crystallized this nation. And its Surahs and verses formulated "Al-Jawami` Al-Khamsah" (The five principles) which made the Islamic nation a remarkable one.

The Qur'an includes the creed which unifies the nation.

{The Messenger Muhammad (may the blessings and the peace of Allah be upon him) believes in what has been sent down to him from his Lord, and so do the believers, each one believes in Allâh, His Angels, His Books, and His Messengers. (They say), "We make no distinction between one another of His Messengers" - and they say, "We hear, and we obey. (We seek) Your Forgiveness, our Lord, and to You is the return (of all).}

[Al-Baqarah (The Cow): 285]

The Noble Qur'an includes the Shari`ah which includes the fundamentals, principles, rules, the philosophy of legislation, and the spirit of law, which control whatever difference may exist among its doctrines in its branches and variables.

{Then We have put you (O Muhammad (may the blessings and the peace of Allah be upon him) on a (plain) way of (Our) commandment [like the one which We commanded Our Messengers before you (i.e. legal ways and laws of the Islâmic Monotheism)]. So follow you that (Islâmic Monotheism and its laws), and follow not the desires of those who know not.}

[Al-Jathiyah (The Kneeling): 18]

The verses of the Noble Qur'an tackle the unity of the nation which is an

Ramadan Month...!

"The month of Ramadan (is the month) wherein the Qur'an was sent down: a guidance to mankind, and clear evidences of the guidance and the criterion; so whosoever of you is present at the month, then he should fast it" (Al-Baqarah - The cow : 185)

By: Dr. Ibrahim Al-Assil

There is no blessing which is bestowed on the Muslims is better than this month which covered us with its blessings.

{The month of Ramadan in which the Qur'ân was revealed, a guidance for mankind and clear proofs for the guidance and the criterion (between right and wrong). }
[Al-Baqarah (The Cow): 185]
If the people wait for the seasons of help and benefits, prepare themselves to these seasons, and seek glad tidings from them as these seasons rejoice them, the Muslims wait for this month joyfully, receive it with welcome, open their hearts and souls for it, and regard it as the season of the remedy of the soul, body, and circumstances in the present and the future.

Their love for it reached the extent that they loved the months that precede it. Thus, they glorify Sha`ban as it carries the glad tidings of Ramadan. It was narrated of the Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him) that he was asked about which fasting is the best. He said: "Sha`ban because it glorifies Ramadan."

It was narrated on the authority of Aaesha the Mother of the Believers (may Allah be pleased with her: that the most beloved month to the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) was Sha`ban and he used to link it to Ramadan.

Ramadan deserves this glorification which caused the Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him) to fast Sha`ban in preparation for Ramadan. This is because Ramadan is the month of broad mercy, comprehensive contentment, and great reward. It was stated in a Hadith: "The one who draws closer to Allah by a good deed is like the one who performs an obligation, in it is like the one who performs seventy obligations in other months."

Fasting is one of the five pillars of Islam and the gate for sincerity and purity. It is also the only ritual which Allah honored by attributing it to Him and its reward surpasses the law of rewarding. The Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him) said that Allah said: "Every good deed is rewarded ten times of its like, up to seven hundred times, except fasting which is for Me, and I give reward for it."

In another narration: "Every deed of person is for himself, except fasting which is for Me, and I give rewards for it."

Every act of worship is witnessed by people, while fasting is something between the person and his Lord. The fasting believer prefers hunger to eating, and thirst to drinking, only because he knows that Allah (Glory be to Him) sees him. This is the interpretation of Allah's Saying on the Prophet's tongue: "Fasting is for Me, and I give reward for it."

If striving in the Cause of Allah is the peak of Islam, the soul's strife is the natural entry for this kind of strife. The better strife is the strife against one's soul and managing to control it."

Fasting in general is a way of a defeat for Satan, as Satan whispers to the human being through his desires, including the desire for food and drink. Fasting suppresses the desire for food, and this explains the Prophet's (may the blessings and peace of Allah be upon him) saying: "When Ramadan comes, the gates of paradise are opened, the gates of Hellfire are closed, the devils are chained, and a caller says every night, "O whoever seeks goodness, come, and o whoever seeks evil, go back." The human being has a soul and a body, and fasting strengthens the person's spirit.

If body strength is necessary for striving in this world, strengthening the soul is necessary for reforming the world and maintaining the society so, spirits become pure by fasting.

{O you who believe! As-Saum (the fast) is prescribed for you as it was prescribed for those before you, that you may become Al-Muttaqûn (the pious).} (The Cow: 183)

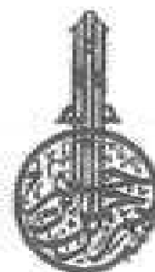
Fasting may be difficult and tiring, but this difficulty refines the morals, strengthens the resolution and will, and through it the heart becomes merciful. In addition, the fasting person attains the virtue of patience by fasting.

The reward for fasting is great, which includes Allah's Contentment. It was said to Al-Ahnaf ibn Qays: "You are an old Sheikh (man obeys) and fasting will exhaust you." He said: "I prepare it for a long journey and observing patience in obeying Allah is easier than observing patience of His torment." The believer should hasten to perform fasting and seek in it the brightness of the soul, strengthening of spirit, health of body, and sublimity of ambitions."

The person achieves the fasting piety about which the Fourth Caliph Rashid (may Allah be pleased with him) said: "It is fear of Allah, the Great, acting according to the Qur'an, be satisfied with little things, and be prepared for death."

Whoever fears Allah has made for himself protection from Allah's Wrath and Punishment. As such, the real Muslim obeys Allah's Commands and abandons Allah's prohibitions.

AL-AZHAR MAGAZINE
Ramadan, 1435 A.H



ENGLISH SECTION
July, 2014

In the name of Allah the Beneficent the Merciful

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾

الأعراف/ ٤٣

"Praise be to Allah, Who guided us to this; and in no way could we have been guided, unless Allah has guided us."
(Al-A'raf 43)

Editor: Dr. IBRAHIM AL-ASSIL
Professor at the Faculty of Languages and Translation.
Al-Azhar University.



www.AlazharMag.com

في عدد
شوال

الافتتاحية

مستقبلنا: تضامن وتكامل؟ أم تشرذم وتفتيت؟
أ.د. محمد عمارة

عناوين مقترحة للماجستير والدكتوراة

قصة العدد: حديث صريح
أ.د. محمد رجب البيومي

عن الإسلام والعروبة
المستشار طارق البشرى

هدية عدد شوال

هوامش على أزمة الفكر الإسلامى المعاصر
أ.د. محمود حمدى زقزوق

الأزهر

ثمن النسخة: جنيهان
المتن ٧٠ جم - الغلاف ١٨٠ جم كوشيه

مستقبلنا : تضامن وتكامل؟ أم تشرذم وتفتيت؟

أ. د. محمد عمارة

الأزهر

مجلة إسلامية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
شوال ١٤٣٥هـ - أغسطس ٢٠١٤م - الجزء ١٠ - السنة ٨٧

نظرات في فكر الإمام الأشعري

أ. د. أحمد الطيب

عيد الفطر

من تاريخ الشعر الصوفى

أ.د. محمود عزب

كلمات ربى وآياته فى القرآن الكريم

أ. د. أحمد فؤاد باشا

د. محمد رجب البيومي



أ.د. محمد عبد الله دراز



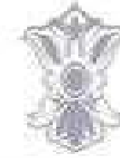
أ.د. إبراهيم البيومي غانم

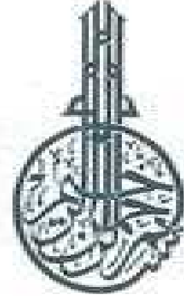


هدية العيد

هوامش على أزمة الفكر الإسلامى المعاصر

أ. د. محمود حمدي زقزوق





﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾



الأزهر

مجلة شهرية جامعة يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
بالأزهر الشريف في مطلع كل شهر عربي
صدر العدد الأول في المحرم عام ١٣٤٩هـ / ١٩٣١م
وحمل اسم «نور الإسلام»
ورأس تحريرها فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين



الاشتراك السنوي

داخل مصر ٢٤ جنيهاً مصرياً - الدول العربية ٥٠ دولاراً أمريكياً
أوربا وأمريكا ٨٥ دولاراً أمريكياً - اليابان وشرق آسيا ١٢٠ دولاراً أمريكياً
عن طريق قسم الاشتراكات بمؤسسة الأهرام
شارع الجلاء - القاهرة
ت: ٢٥٧٨٦١٠٠ - ٢٨٧٥٦٢٠٠

المراسلات باسم:

مدير التحرير - مكتبة الأزهر - بمقر مشيخة الأزهر
ت: ٢٥٨٨٨٥٤ - داخلي ١٠٩

editor@alazharmag.com
readers@alazharmag.com

الافتتاحية

مستقبلنا: تضامن وتكامل؟ أم تشرذم وتفتيت؟!



لفضيلة الأستاذ الدكتور محمد عمارة
www.dr_emara.com

عندما كان «بونابرت» (١٧٦٩ - ١٨٢١م) في طريقه من «مرسيليا» إلى «الأسكندرية» على رأس الحملة الفرنسية على مصر (١٢١٣هـ-١٧٩٨م) أعلن أنه سيجند عشرين ألفا من أبناء الأقليات، ليكونوا دعامات لبناء إمبراطوريته الاستعمارية في الشرق التي أراد لها أن تعيد صورة إمبراطورية الإسكندر الأكبر (٣٥٦ - ٣٢٣ ق.م) وأن تحقق أحلام الملك الصليبي الفرنسي القديس لويس التاسع (١٢١٤ - ١٢٧٠م).

ولأن الشرق الذي توجهت إليه أحلام بونابرت الاستعمارية كانت شعوبه تعيش في ظلال رابطة «الجامعة الإسلامية» التي تجمع دياناته ومذاهبه ولغاته وقومياته وأعراقه، فلقد بدأت الحملة الفرنسية مخططا استعماريا جديدا يرمي إلى تفتيت هذا الشرق على أسس دينية ومذهبية وقومية، لتسهيل ابتلاع ولاياته وأقاليمه، ولشل مقاومة شعوبه بجعل بأسها بينها شديد في الصراعات الداخلية بدلا من توحدها في مقاومة الاستعمار.

ولقد بدأت الحملة الفرنسية تنفيذ هذا المخطط، وذلك بالعمل على جبهتي المسيحيين واليهود.

فاجتذبت الحملة الفرنسية قطاعات من الأقباط المصريين، قادهم المعلم يعقوب حنا (١٧٤٥ - ١٨٠١م) الذي سماه الجبرتي (١١٦٧ - ١٢٣٧ هـ ١٧٥٦-١٨٢٥م): «يعقوب اللعين» فكون المعلم يعقوب هذا «فيلقا»، ضم نحو ألفين من الشباب تزيوا بزي الحملة الفرنسية، وحاربوا مع الجيش الفرنسي ضد المصريين، تحت قيادة القائد الفرنسي «ديزيه».

كما اجتذبت هذه الحملة فيلقا ثانيا من النصارى الأروام، قاده «برطلمين يتّي الرومي» الذي اشتهر لدى العامة بـ«فرط الرمان».

ولقد تدرج المعلم يعقوب في مراتب الجيش الفرنسي، فمنحه الجنرال «كليبر» (١٧٥٣ - ١٨٠٠م) - قائد الحملة بعد بونابرت - رتبة «كولونيل» وأنعم عليه الجنرال «مينو» (١٧٥٠ - ١٨١٠م) برتبة «جنرال» في مارس ١٨٠١م.

وكما يقول الجبرتي: فإن كليبر قد عهد إلى المعلم يعقوب «بأن يفعل بالمسلمين ما يشاء!.. حتى تطاولت النصارى من القبط ونصارى الشوام على المسلمين بالسب والضرب، ونالوا منهم أغراضهم، وأظهروا حقدهم، ولم يبقوا للصلح مكانا، وصرحوا بانقضاء ملة المسلمين وأيام الموحدين»!.

«ولقد احتفلوا بانتصارات بونابرت على أهل «غزة» (١٢١٣هـ ١٧٩٩م).. وكما يقول الجبرتي: «فإنهم أظهروا الفرح والسرور في الأسواق والدور، وأولموا في بيوتهم الولايم، وغيروا الملابس والعمايم، وتجمعوا للهو والخلاعة، وزادوا في الشناعة»!![1]

ومما له دلالة في هذا المسعى استخدام بونابرت - لأول مرة - مصطلح «الأمة القبطية» في مراسلاته مع الأقباط الذين تعاونوا معه.[2]

فبدأت - منذ ذلك التاريخ - بواكير الاستخدام الاستعماري للفتنة الطائفية سبيلا لتمزيق النسيج الوطني والحضاري لشعوب الشرق لتحقيق أهداف الاستعمار.

وحتى بعد هزيمة الحملة الفرنسية، ورحيل المعلم يعقوب مع جنودها، طلب في وصيته من إنجلترا «أن تحل محل فرنسا في عزل مصر عن محيطها الإسلامي، وعن تاريخها وهويتها العربية الإسلامية، وإلحاقها بالهيمنة الإنجليزية».[3]

وبعد وفاة المعلم يعقوب ذهب رفقاؤه إلى باريس - بقيادة «نمر أفندي» معلنين الولاء

---

(١) الجبرتي «عجائب الآثار في التراجم والأخبار» ج٤ ص ٤، ١٤٨، ١٤٩، ١٣٤، ١٣٦، طبعة القاهرة ١٩٦٥م.
(٢) عادل جندي «المخططات الخطرة» صحيفة وطني في ٢/٢/٢٠٠٦م.
(٣) د. أحمد حسين الصاوي «المعلم يعقوب بين الحقيقة والأسطورة» ص ١٢٣-١٢٥ طبعة القاهرة ١٩٨٦م.


محمد علي باشا

لبونابرت ومتعهدين أن «يضعوا لمصر التشريعات التي ترضى عنها فرنسا».[٤]

وعلى الجبهة اليهودية رمى بونابرت الخيوط للأقليات اليهودية، فأصدر إبان حصاره لمدينة «عكا» (١٢١٣هـ ١٧٩٩م) نداءه الشهير إلى يهود العالم، طالبا منهم معاونته في بناء إمبراطوريته الاستعمارية، مقابل العمل على إعادة ما أسماه «إرثهم الشرعي» في فلسطين.[٥]

وعندما صعد نجم الإمبراطورية البريطانية في الشرق - بعد هزيمة فرنسا - أمسك الإنجليز بهذه الخيوط والشباك التي صنعها بونابرت؛ فرأينا إنجلترا تسعى لمواجهة المشروع التوحيدي لأقطار الشرق الذي بناه محمد علي باشا الكبير (١١٨٤ -١٢٦٥هـ ١٧٧٠ - ١٨٤٩م) والذي أراد به تجديد شباب الشرق، وإنقاذه من التخلف والضعف العثماني، ومن التفتيت الاستعماري .. فاحتلت عدن ١٨٣٨م وأنشأت أول قنصلية لها بالقدس - في العام نفسه - .. وطلب وزير خارجيتها «اللورد بالمرستون» (١٧٨٤ - ١٨٦٥م) من سفيره بالآستانه «بونسنبي» في ١١/ ٨/ ١٨٤٠م أن يطلب من السلطان العثماني السماح بالهجرة اليهودية إلى فلسطين، ليكونوا حجر عثرة أمام أهداف المشروع التوحيدي الذي كانت تقوده مصر بزعامة محمد علي باشا.[٦]

وعبر عقود القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين - وهي ذروة المد الاستعماري على بلاد الشرق - نجحت الجيوش الاستعمارية في فرض الاحتلال - ومن ثم التجزئة والتفتيت - على الكثير من ولايات الجامعة الإسلامية، فاحتلت فرنسا الجزائر ١٨٣٠م، وتونس ١٨٨١م، والمغرب ١٩١٢م، وسوريا ولبنان ١٩٢٠م .. واحتلت إنجلترا مصر ١٨٨٢م، والسودان ١٨٩٩م، وفلسطين ١٩١٧م، والعراق ١٩١٧-١٩١٨م .. واحتلت إيطاليا ليبيا ١٩١٢م.

وجاءت اتفاقية «سيكس بيكو» في مايو ١٩١٦م لترسم خرائط هذه التجزئة الاستعمارية لشعوب الشرق وولاياته التي عاشت قرونا طويلة في إطار رابطة «الجامعة الإسلامية»...

***

وبالموازاة مع ما صنعته الجيوش الاستعمارية كانت مدارس الإرساليات التي بدأت الدول الغربية إقامتها في المشرق العربي تفعل فعلها لتخريج كتائب فكرية من أبناء الأقليات تسعى لإحلال ثقافة التجزئة والتفتيت محل ثقافة الجامعة الإسلامية.

ففي الجزائر وإبان احتفال الفرنسيين ١٩٣٠م بمرور قرن على احتلالهم تلك البلاد، أعلن قادتهم السياسيون والدينيون «أن عهد الهلال في الجزائر قد غبر، وأن عهد الصليب

(٤) المصدر السابق ص ١٢٩، ١٣٠.

(٥) محمد حسنين هيكل «المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل» الكتاب الأول ص ٢٣١ -٢٣٢ طبعة القاهرة ١٩٩٦م.

(٦) جورج كيرك «موجز تاريخ الشرق الأوسط» ترجمة عمر الأسكندري - طبعة القاهرة - مشروع الألف كتاب.

قد بدأ وسيستمر إلى الأبد، وأن أرض الجزائر ستكون مهد الدولة المسيحية تضاء أرجاؤها بنور مدنية منبع وحيها الإنجيل .. وأنهم إنما يحتفلون لا بمرور قرن على وجودهم في الجزائر وإنما بتشييع جنازة الإسلام في تلك البلاد».[٧]

وفي لبنان كتب القناصل الفرنسيون إلى وزارة الخارجية في باريس يقولون عن دعم فرنسا العلمانية لمدارس الإرساليات الكاثوليكية: «إن هذه المدارس تسعى للسيطرة على الشعب وخلق جيش ماروني يتفانى في خدمة فرنسا .. ولجعل البربرية العربية - (كذا) - تنحني لا إراديا أما الحضارة المسيحية الفرنسية».[٨]

وفي مصر سعت أوربا رغم ما بين دولها الاستعمارية من تناقضات إلى إجبار مصر إلى العودة إلى حدودها الإقليمية وفك الرباط الوحدوي الذي جمعها مع المشرق العربي والسودان والصومال وشواطئ اليمن .. وإلى فرض القيود على قدراتها العسكرية وإدخالها - ثانية - في «القفص العثماني» مع ترك الحرية لها في «المالية» كي تستدين من الغرب، وفي التشريع كي يتسلل إليها القانون الأجنبي - قانون نابليون - فتنفك روابطها مع التشريعات الإسلامية الموحدة لشعوب الشرق في القانون .. كما بدأ التبشير في مصر بالعامية والعلمانية والدرونية من قبل خريجي مدارس الإرساليات!.

ولقد انتهى هذا المخطط بعد إسقاط الخلافة العثمانية وتحطيم الرمز الموحد والإطار الجامع، إلى أن أصبح الشرق الإسلامي كيانات مشدودة بحبال التبعية للمركز الحضاري الغربي، والهيمنة الاستعمارية، وفكرة التغريب التي تساند جيوش الاحتلال.

***

ومع قيام الكيان الصهيوني على أرض فلسطين ١٩٤٨م بدأت مرحلة جديدة من السعي الاستعماري الغربي المدفوع بالنفوذ الصهيوني، إلى مزيد من التفتيت والتشرذم لأقطار الشرق - تفتيت المفتت .. وتجزئة المجزأ - لتحويل الشرق إلى «فسيفساء ورقية» على أسس دينية ومذهبية وعرقية «إثنية» يكون بأسها بينها شديد؛ وذلك حتى يتحقق الضمان لأمن إسرائيل.

وفي هذا التخطيط لهذه المرحلة الجديدة نشر المستشرق الصهيوني «برنارد لويس» في مجلة Executive Intelligence Project التي تصدر عن البنتاجون - وزارة الدفاع الأمريكية - مخططا يقترح فيه إعادة تفتيت العالم الإسلامي، فيضاف إليه أكثر من ثلاثين كيان سياسي، بدعوى حل مشكلة الأقليات الدينية والمذهبية والثقافية .. ومن هذه الكيانات:

١- دولة بلوشستان - المقتطعة من باكستان وإيران.

(٧) محمود قاسم «الإمام عبد الحميد بن باديس الإمام الروحي لحرب التحرير الجزائرية» ص ١١، ٢٢ طبعة دار المعارف - القاهرة.

(٨) من مراسلات القناصل انظر: محمد السماك «الأقليات بين العروبة والإسلام» ص ٣٧ طبعة بيروت ١٩٩٠م.

٢- دولة بشتونستان - المقتطعة من باكستان وأفغانستان.

٣- دولة كردستان - المقتطعة من العراق وإيران وتركيا وسوريا.

* وتحويل إيران إلى أربع دويلات هي:

٤- دويلة إيرانستان.

٥- دويلة أذربيجان.

٦- دويلة تركمانستان

٧- دويلة عربستان.

* وتقسيم العراق إلى دويلتين:

٨- إحداهما شيعية حول البصرة.

٩- والثانية سنية حول بغداد.

* تقسيم الأردن إلى دويلتين:

١٠- إحداهما للبدو.

١١- والثانية للفلسطينيين.

* وتقسيم سوريا إلى خمس دويلات:

١٢- دويلة مسيحية.

١٣- ودويلة شيعية.

١٤- ودويلة سنية.

١٥- ودويلة درزية.

١٦- ودويلة علوية.

* وتقسيم لبنان إلى كانتونات:

١٧- إحداهما للموارنة والمسيحيين الآخرين.

١٨- وثانيهما للسنة.

١٩- وثالثهما للشيعة.

٢٠- ورابعهما للدروز.

* وتقسيم مصر إلى دويلتين:

٢١- إحداهما سنية.

٢٢- والثانية قبطية.

* وتقسيم السودان إلى دويلتين:

٢٣- دولة زنجية في الجنوب.

٢٤- وأخرى عربية في الشمال.

* وتقسيم المغرب العربي بين:

٢٥- البربر.

٢٦- والعرب.

* وتقسيم موريتانيا بين:

٢٧- العرب.

٢٨- والزنوج والمولدين.

* وضم الضفة الغربية إلى إسرائيل.

* وإعادة تقسيم السعودية إلى الكيانات التي كانت قائمة قبل وحدتها ١٩٣٢م.

وتحدث هذا المخطط الإمبريالي الصهيوني عن أن شغل هذه الكيانات الفسيفسائية بمشكلات الحدود والمياه والنفط والزواج والوراثة ... إلخ .. سيجعلها جميعا أضعف من إسرائيل لمدة نصف قرن على الأقل!.

***

وبعد سنوات من نشر هذا المخطط التفتيتي بدأت إسرائيل وضعه في الممارسة والتطبيق، بادئة العمل على الجبهة المارونية، وكتب رئيس دولتها «ديفيد بن جوريون» (١٨٨٦-١٩٧٣م) إلى رئيس وزرائه «موشى شاريت» (١٨٩٤-١٩٦٥م) يقول له: «إن خلق دولة مسيحية - في لبنان - هو أمر طبيعي له جذوره التاريخية وستلقى هذه الدولة دعما واسعا في العالم المسيحي الكاثوليكي والبروتستانتي».

ولقد تبنت مخطط التفتيت هذا المنظمة الصهيونية العالمية.. فنشرت مجلتها (الاتجاهات Kivunim) الوثيقة التي أطلقت عليها «استراتيجية إسرائيل في الثمانينيات» وذلك في عدد ١٣ فبراير ١٩٨٣م.. وفي هذه الاستراتيجية تحدثت المنظمة الصهيونية عن أن العالم العربي - الذي قسمته اتفاقية «سيكس بيكو» إلى ١٩ دولة يجب المضي لتقسيمه من جديد.. ووفق عبارات هذه الاستراتيجية: «فإن مصر المفككة والمنقسمة إلى عناصر سلطوية كبيرة لا تشكل أي تهديد لإسرائيل، وإنما ضمانة للأمن والسلام لوقت طويل».

وإن تزايد المواجهة بين المسلمين والأقباط، وإنشاء دولة قبطية في صعيد مصر، وإنشاء دويلات أخرى إقليمية ضعيفة هو مفتاح التطور التاريخي، وهذا في متناولنا الآن.

وإن دولا مثل ليبيا والسودان والدول الأبعد منهما لن تبقى على صورتها الحالية بل ستقتفي أثر مصر في انهيارها وتفتيتها، فمتى تفتت مصر تفتت الباقون.

وإن تفتيت سوريا والعراق لاحقا إلى مناطق إثنية دينية هو هدف في الدرجة الأولى بالنسبة لإسرائيل في الجبهة الشرقية في المدى البعيد.. وسوف تتفتت سوريا وفق التركيب الإثني والطائفي إلى عدة دول - دولة علوية شيعية على الساحل، ودولة سنية في منطقة حلب، ودولة سنية أخرى في منطقة دمشق، معادية للدولة الشمالية، ودولة للدروز - .. وسيكون ذلك ضمانة الأمن والسلام في المنطقة بأسرها في المدى الطويل..

وإن العراق الغني بالنفط، هو المرشح المضمون لتحقيق أهداف إسرائيل، فتفتيت العراق

هو أكثر أهمية من تفتيت سوريا، إذ هو أقوى من سوريا، وقوته تشكل في المدى القصير خطرا على إسرائيل أكثر من أي خطر آخر .. وفي العراق ستقوم ثلاث دول أو أكثر حول المدن العراقية الرئيسية البصرة، بغداد، الموصل.

وأن شبه الجزيرة العربية هو مرشح طبيعي للانهيار.

وأن الأردن هدف استراتيجي آت في المدى القصير.

ذلك أنه في العصر النووي، لا يمكن ضمان بقاء إسرائيل إلا بمثل هذا التفكيك ويجب من الآن فصاعدا بعثرة السكان، وهذا دافع استراتيجي فإذا لم يحدث فليس باستطاعتنا البقاء مهما كانت الحدود ..»(٩).

هكذا تحدثت المنظمة الصهيونية العالمية عن مخطط التفتيت هذا في «استراتيجية إسرائيل في الثمانينيات».

ولقد نجحت إسرائيل عمليا في اختراق قطاعات من الأقليات التي راهنت وتراهن على استخدامها في مخطط التفتيت هذا، ففي ٢٠ مايو ١٩٩٢م عقدت ندوة بإسرائيل دعا إليها مركز «بارايلان» للأبحاث الاستراتيجية التابع لجامعة «بارايلان الإسرائيلية» شاركت فيها وزارة الخارجية الإسرائيلية بواسطة «مركز الأبحاث السياسية» التابع لها .. وأسهم منها باحثون من «مركز ديان» التابع لجامعة تل أبيب .. وذلك تحت عنوان: «الموقف الإسرائيلي من الجماعات الإثنية والطائفية في منطقة الشرق الأوسط» .. وطموحاتها وتطلعاتها الاستقلالية في ضوء ما حققه أكراد العراق بعد الحظر الأمريكي المفروض على حكومة بغداد فيما يتعلق بأكراد الشمال وشيعة الجنوب.

ولقد ناقشت هذه الندوة أحد عشر بحثا عكست عناوينها هذا الطور من المخطط الصهيوني الإمبريالي لتفتيت الشرق .. ومن هذه العناوين:

١- «تأييد إسرائيل للنزعات الانفصالية للجماعات العرقية، والإثنية، والاعتبارات الكامنة وراءه».

٢- «حرب الخليج .. هل أنهت تقسيم لبنان؟».

٣- «دعم إسرائيل للحركة الكردية قبل وبعد حرب الخليج»(١٠).

٤- «ثورة الشيعة في جنوب العراق أثناء حرب الخليج».

٥- «سوريا: هل ستبقى موحدة في ظل انتعاش الاتجاهات الانفصالية في المنطقة والعالم».

٦- «إسرائيل ونضال جنوب السودان من أجل الاستقلال والحرية».

٧- «الاستقطاب بين المسلمين والأقباط في مصر».

(٩) «الأقليات بين العروبة والإسلام» ص ١٤٠ - ١٤٤.

(١٠) كان الملا مصطفى البرزاني (١٣٢١ - ١٣٩٩هـ، ١٩٠٣ - ١٩٧٩م) قد زار إسرائيل سرا في ستينيات القرن العشرين - وكان الدكتور محمود عثمان هو الذي يقوم بالترجمة بينه وبين الصهاينة. ومنذ ذلك التاريخ بدأ التنسيق بين إسرائيل والحركة الانفصالية الكردية.

٨- «إسرائيل ونضال البربر في شمال إفريقيا».

٩- «الشيعة في أقطار الخليج (السعودية، البحرين، الكويت، الإمارات، قطر) هل يثورون كما ثارت شيعة لبنان؟ .. الموقف الإسرائيلي والإيراني».

١٠- «إسرائيل ودول الجوار في إفريقيا: إثيوبيا - تشاد - السنغال».

١١- «العلاقات بين إسرائيل ودول الجوار المحيطة بالعالم العربي (تركيا - إيران - إثيوبيا)».

وفي هذه الأبحاث والمداولات - التي شارك فيها نفر من أبناء هذه الأقليات - كشف النقاب عن صفحات قديمة في مخطط التفتيت لدول الشرق تمت فيها «اتصالات» و«محاولات» صهيونية مع أفراد الطوائف والملل والأقوام العرب والمسلمين سبقت قيام إسرائيل ١٩٤٨م من الثلاثينيات والأربعينيات!.

وفي توصيات هذه الندوة - ومن خلال أبحاثها - تم التأكيد على أن مخطط التفتيت هذا هو جزء من «المصالح العليا .. والقضايا المهمة في المجال الاستراتيجي لإسرائيل» وعن «تبني الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة سياسة تقوم على دعم الأقليات غير العربية (العرقية) والعربية (الطائفية) في الشرق الأوسط، وتأييد طموحاتها ورغباتها في تقرير المصير وإقامة كيانات مستقلة وذلك انطلاقا من الحلف الطبيعي القائم بين إسرائيل وهذه الأقليات .. فهذه الأقليات - كما نصت التوصيات - شريكة في المصير ولا بد أن تقف مع إسرائيل في مواجهة ضغط الإسلام والقومية العربية.»(١١)

لقد تراوحت الاستراتيجية الصهيونية إزاء ملفات الأقليات في الشرق ما بين استخدامها في تفتيت كيانات الدول، وما بين هز الاستقرار في مجمعات تلك الدول «ومنذ عقد الخمسينيات في كتب «موشي شاريت» في «مذكراته» يقول: «إن إسرائيل إنما تستهدف:

أولا: تثبيت وتقوية الميول الانعزالية للأقليات في العالم العربي.

وثانيا: إذكاء النار في مشاعر الأقليات المسيحية في المنطقة - وتوجيهها نحو المطالبة بالاستقلال والتحرر من الاضطهاد الإسلامي!! فمجرد تحريك الأقليات هو عمل إيجابي لما قد ينتج عنه من آثار تدميرية على المجتمع المستقر»(١٢).

هكذا تم التخطيط لتحريك الأقليات لهز استقرار المجتمعات المستقرة، ولإعادة تفتيت الكيانات القطرية - التي سبق تفتيتها - من المغرب وحتى الهند، ومن الصومال وحتى تركيا - كما جاء في هذا التخطيط - الذي بدأه بونابرت .. وتابعته الإمبريالية الغربية والعنصرية الصهيونية منذ بونابرت وحتى هذه اللحظات.

(١١) «ندوة الموقف الإسرائيلي من الجماعات الإثنية والطائفية في العالم العربي» ص٦ ترجمة الدار العربية للدراسات والنشر - طبعة القاهرة ١٩٩٢م. وانظر كتابنا «الغرب والإسلام: تاريخ من الغزو والتزييف وغواية الأقليات» ص ١٣١- ١٤٣ طبعة مكتبة وهبة. القاهرة ٢٠١١م.

(١٢) الأقليات بين العروبة والإسلام.

المقاومة الإسلامية لمخطط التفتيت

وإذا كان هذا هو المخطط المعلن لتفتيت الشرق منذ بداية الغزوة الاستعمارية الحديثة لدوله وأقطاره، وإذا كانت هذه بعض وقائع ووثائق هذا التخطيط، فإن الوعي الإسلامي قد كان حاضرا في مواجهته، ومواكبا للمراحل التي مر بها، وساعيا إلى إيقاظ الأمة لتواجهه - بالتضامن والتكامل والاتحاد.

ولأن الشريعة الإسلامية وفقه معاملاتها كانت - على مر تاريخنا الحضاري - عامل توحيد للأمة، وعقلها القانوني، ومؤسساتها التشريعية، ولأن مخطط التفتيت قد اتخذ من علمنة القانون في البلاد التي خضعت للاستعمار عامل إلحاق لها بالمركزية الغربية، ومن ثم غربها عن التشريع الإسلامي الموحد لهويتها، رأينا الاستعمار يجعل علمنة القانون في البلاد التي خضعت للاستعمار عامل إلحاق لها بالمركزية الغربية، ومن ثم تغريبها عن التشريع الإسلامي الموحد لهويتها، رأينا الاستعمار يجعل علمنة القانون وأوربته حقا من حقوق الغزو والقهر العسكري .. فالقانوني الفرنسي «جورج سوردون» يعلن في المغرب ١٩٢٨م: «أن الأسلحة الفرنسية هي التي فتحت البلاد العربية، وهذا يخولنا اختيار التشريع الذي يجب تطبيقه في هذه البلاد ولذلك يجب دمج العرف البربري في القانون الفرنسي، بدلا من أن نراه مندمجا في القانون الإسلامي».

وتضع السلطة الاستعمارية في الرباط هذا المخطط في التطبيق «لأن إبعاد الشرع الإسلامي من جميع بلاد البربر بشكل نهائي ومطلق يحقق أكبر مصلحة لفرنسا»!.

وكذلك الحال مع اللغة العربية - لغة القرآن الكريم - التي مثلت رباطا توحيديا لكل قوميات الجامعة الإسلامية، عاشت في ظلال وحدتها اللغات واللهجات القومية المختلفة .. فجاء الاستعمار ليقطع روابط هذه الوحدة اللغوية، وليدعو إلى كتابة البربرية بحروف فرنسية «للفصل بين الإسلام والاستعراب .. وفصل الدين عن القانون المدني، وحصره في الاعتقاد وحده» - على حد تعبير الكاتب الفرنسي «فيكور بيكيه» - في كتابه «العنصر البربري» ١٩٢٥م. مع أن الذين نشروا الإسلام وشريعته وحفظوا القرآن ولغته - بالمغرب العربي - هم الأمازيغ.!

وأما عوامل التفتيت القانونية واللغوية هذه، رأينا مقاومة عبدالله النديم (١٢٦١ - ١٣١٣هـ ١٨٤٥ - ١٨٩٦م) لاستخدام العاميات بدلا من الفصحى، ورده على هذه الدعاوى بمقال عنوانه: «التفريط في اللغة إضاعة للذات» وتصديه كذلك لعلمنة القانون في مصر والجزائر وتونس.[13]

كذلك كان موقف رفاعة الطهطاوي (١٢١٦ - ١٢٩٠هـ ١٨٠١ - ١٨٧٣م) الرافض لتسلل القانون الفرنسي إلى مصر، على عهد الخديوي سعيد (١٢٣٧ - ١٢٧٩هـ ١٨٢٢ - ١٨٦٣م) عبر محكمة «مجلس التجار» في المنازعات بين التجار المصريين والأجانب

(١٣) مجلة «الأستاذ» ص ٥١٤، ٥١٥ في ٢٩ جمادى الثانية ١٣١٠هـ _ ١٧ يناير ١٨٩٣م


الطهطاوي

١٨٥٥م .. فلقد استنكر الطهطاوي ذلك، لافتا الأنظار إلى وفاء الشريعة الإسلامية وفقه معاملاتها بالاحتياجات القانونية .. وقال: «إن بحر الشريعة الغراء على تفرع مشارعه، لم يغادر من أمهات المسائل صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وأحياها بالسقي والري، ولم تخرج الأحكام السياسية عن المذاهب الشرعية؛ لأنها أصل، وجميع مذاهب السياسات عنها بمنزلة الفرع .. ولو انتظمت المعاملات الفقهية وجرى عليها العمل لما أخلت بالحقوق .. ومن أمعن النظر في كتب الفقه الإسلامي ظهر له أنها لا تخلو من تنظيم الوسائل النافعة من المنافع العمومية، حيث بوبوا للمعاملات الشرعية أبوابا مستوعبة للأحكام التجارية، كالشركة والمضاربة، والقرض والمخابرة، والعارية والصلح وغير ذلك».[14]

ذلك أن القانون الأجنبي، كما مثل عامل تفتيت للعقل القانوني للأمة، قد مثل في ذات الوقت - اغتصابا استعماريا للسيادة الوطنية .. وبتعبير القاضي الهولندي في المحاكم المختلطة «فان بملن **Von Bemmelen**»: «فإنه وليد الاغتصاب الواقع من الأقوياء على حقوق الضعفاء»[15]

وعندما فرض الاستعمار الانجليزي عموم بلوى القانون الأجنبي على القضاء الأهلي المصري ١٨٨٣م «اتخذت المقاومة الوطنية الإسلامية شكل تقديم «البديل الإسلامي» لهذا القانون، فقام محمد قدري باشا (١٢٣٧ - ١٣٠٦هـ ١٨٢١ - ١٨٨٨م) - تلميذ الطهطاوي - بتقنين أربعة من كتب الفقه الحنفي، بديلا فقهيا مقننا، ليقيم الدليل على وفاء الفقه الإسلامي بحاجات القضاء العصري في بلادنا».[16]

وفي مواجهة التشرذم القطري، والتناقضات المفتعلة بين حكام الدول الإسلامية - التي فتحت الثغرات لتنفيذ المخطط التفتيتي لعالم الإسلام - كتب جمال الدين الأفغاني (١٢٥٤ - ١٣١٤هـ ١٨٣٨ - ١٨٩٧م) في مجلة «العروة الوثقى» عن أن وحدة عالم الإسلام - التي هي فريضة دينية وضرورة حاتية - لمواجهة الاستعمار، يمكن أن تتم في صورة تكامل وتضامن من بين أقطار الشرق، مع مراعاة الكيانات القطرية والقومية»

أي أنها يمكن أن تأخذ شكل الاتحاد وليس الدولة المركزية .. فقال: «من أدرنة في «تركيا» إلى بيشاور «في الهند» توجد دول إسلامية متصلة الأراضي متحدة العقيدة يجمعهم القرآن .. وهم ممتازون بين أجيال الناس بالشجاعة والبسالة، أليس لهم أن يتفقوا على الذب والإقدام كما اتفق عليه سائر الأمم؟. ولو اتفقوا فليس ذلك ببدع منهم، فالاتفاق من أصول دينهم هل أصاب الخدر مشاعرهم فلا يحسون بحاجات بعضهم البعض؟!. أليس لكل واحد

(١٤) الطهطاوي «الأعمال الكاملة» ج١ ص ٣٦٩، ٣٧٠، ٥٤٤ دراسة وتحقيق د.محمد عمارة. طبعة بيروت ١٩٧٣م.
(١٥) عبدالرحمن الرافعي «عصر إسماعيل» ج٢ ص٢٤٣، ٢٤٧. طبعة القاهرة ١٩٤٨م.
(١٦) إليان سيركس «معجم المطبوعات العربية والمعربة» طبعة القاهرة ١٩٢٨م.

أن ينظر إلى أخيه بما حكم الله في قوله:

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾

(الحجرات: ١٠)

فيقيمون بالوحدة سدا يحول عنهم السيول المتدفقة عنهم من جميع الجوانب؟!.

لا ألتمس بقولي هذا أن يكون مالك الأمر في الجميع شخصا واحدا، فإن هذا ربما كان عسيرا، ولكني أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن، ووجهة وحدتهم الدين، وكل ذي ملك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع، فإن حياته بحياته وبقاءه ببقائه. ألا إن هذا بعد كونه أساسا لدينهم، تقضي به الضرورة، وتحكم به الحاجة في هذه الأوقات»(١٧)



عبدالحميد الثاني



الأفغاني

ثم قدم الأفغاني إلى السلطان عبد الحميد الثاني (١٢٥٨ - ١٣٣٦هـ ١٨٤٢ - ١٩١٨م) مشروعا لتحويل الخلافة العثمانية إلى دولة لا مركزية، تتكون من عشر خديويات، لتتخلص من أغلال المركزية القاتلة للهمم، الموهنة للعزائم، ولصون كيانها من مطامع الغرب الموجهة نحو عموم الشرق ولتكون مركز جذب لسائر أقطار الشرق الإسلامي، ينقذها من الاستعمار، ويعيد الشرق للشرقيين»(١٨)

وعلى درب مواجهة التفتيت الذي يحل الوطنيات والقطريات محل الجامعة الإسلامية، أصدر الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (١٢٦٦ - ١٣٢٣هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥م) فتواه الشهيرة التي تجعل الإسلام جنسية لكل الذين يعيشون في بلاد الإسلام، وتضع نظام الجنسيات الذي جاءنا من الدول القومية الأوربية مع العصبية الجاهلية التي محاها الإسلام.. وفي هذه الفتوى قال: «من المعلوم أن الشريعة الإسلامية قامت على أصل واحد وهو وجوب الانقياد لها على كل مسلم، في أي محل حل وإلى أي بلد ارتحل، فإذا نزل ببلد إسلامي جرت عليه أحكام الشريعة الإسلامية في ذلك البلد، وصار له من الحق ما لأهله، وعليه من الحق ما عليهم لا يميزه عنهم مميز، ولا أثر لاختلاف البلاد في اختلاف الأحكام.

نعم، قد يكون الحكم في بعض البلاد حنفيا وفي بعضها مالكيا مثلا، ولكن هذا لا أثر له في الحق للشخص أو عليه، فمتى قضى له أو عليه فله ما قضي له به، وعليه أداء ما قضي به عليه، على أي مذهب كان، متى كان القاضي مولى من طرف الحاكم العام، إذ حكم الحاكم يرفع الخلاف.

ولا ذكر لاختلاف الأوطان في الشريعة الإسلامية إلا فيما يتعلق بأحكام العبادات، من قصر الصلاة للمسافر وجواز الفطر في رمضان، وقد يتبع ذلك شيء في اختصاص المحاكم،

(١٧) الأفغاني «الأعمال الكاملة» ج٢ ص٢٨، ٢٩ دراسة وتحقيق د.محمد عمارة طبعة بيروت ١٩٨١م.

(١٨) المصدر السابق ج٢ ص١٧، ١٨.

من حيث تعيين الجهات التي يكون لقاضيها الحق في أن يحكم في الدعوى التي ترفع إليه من شخص على آخر، هل هي محل المدعي؟ أو محل المدعى عليه؟ غير أن شيئا من ذلك لا يغير من حق للمدعي أو المدعى عليه، فالشريعة واحدة والحقوق واحدة، يستوي فيها الجميع في أي مكان كانوا من البلاد الإسلامية، فوطن المسلم من البلاد الإسلامية هو المحل الذي ينوي الإقامة فيه ويتخذ فيه طريقة كسبه لعيشه، ويقر فيه أهله، إن كان له أهل، ولا ينظر إلى مولده، ولا إلى البلد الذي نشأ فيه، ولا يلتفت إلى عادات أهل بلده الأول، ولا إلى ما يتعارفون عليه في الأحكام والمعاملات، وإنما بلده ووطنه الذي يجري عليه عرفه وينفذ فيه حكمه هو البلد الذي انتقل إليه واستقر فيه، فهو رعية الحاكم الذي يقيم تحت ولايته، دون سواه من سائر الحكام، وله من حقوق رعية ذلك الحاكم وعليه ما عليهم، لا يميزه عنهم شيء، لا خاص ولا عام.

أما الجنسية فليست معروفة عند المسلمين، ولا لها أحكام تجري عليهم، لا في خاصتهم ولا عامتهم، وإنما الجنسية عند الأمم الأوربية تشبه ما كان يسمى عند العرب عصبية.. ولقد جاء الإسلام فألغى تلك العصبية، ومحا آثارها، وسوى بين الناس في الحقوق، فلم يبق للنسب ولا لما يتصل به أثر في الحقوق ولا في الأحكام، فالجنسية لا أثر لها عند المسلمين قاطبة، فقد قال ﷺ: «إن الله أذهب عيبة الجاهلية (عظمتها) وفخرها بالآباء، إنما هو: مؤمن تقي وفاجر شقي، الناس كلهم بنو آدم، وآدم من تراب»، وروى كذلك عنه «ليس منا من دعا إلى عصبية».

وبالجملة، فالاختلاف في الأصناف البشرية، كالعربي، والهندي، والرومي، والشامي، والمصري، والتونسي، والمراكشي، مما لا دخل له في اختلاف الأحكام والمعاملات بوجه من الوجوه. ومن كان مصريًا وسكن في بلاد المغرب وأقام بها جرت عليه أحكام بلاد المغرب، ولا ينظر إلى أصله المصري بوجه من الوجوه.

هذا ما تقضي به الشريعة الإسلامية، على اختلاف مذاهبها، لا جنسية في الإسلام، ولا امتياز في الحقوق بين مسلم ومسلم، والبلد الذي يقيم فيه المسلم من بلاد المسلمين هو بلده، ولأحكامه عليه السلطان دون أحكام غيره»(١٩).

وبعد أن نجح الاستعمار في إسقاط الخلافة الإسلامية سنة ١٩٢٤م، وحطم الوعاء والرمز التاريخي لوحدة الأمة وتكامل دار الإسلام، وقامت حملة فكرية ظالمة لتشويه صورة الخلافة الإسلامية، واتهامها بالاستبداد والثيوقراطية.. حتى لقد جاء عنها في كتاب (الإسلام وأصول الحكم) للشيخ علي عبد الرازق [١٣٠٥ - ١٣٨٦هـ ١٨٨٧ - ١٩٦٦م] - الصادر سنة ١٩٢٥م: «إن الخليفة - عند المسلمين - ولايته عامة مطلقة.. وهو يقوم في منصبه مقام الرسول ﷺ.. وينزل من أمته منزلة الرسول من المؤمنين.. فولايته كولاية الله تعالى، وولاية رسوله.. بل لقد رفعه المسلمون فوق صف البشر، ووضعوه غير بعيد من مقام العزة

(١٩) «الأعمال الكاملة - للإمام محمد عبده» ج٣ ص٥٠٥ - ٥٠٨ دراسة وتحقيق د. محمد عمارة طبعة القاهرة ١٩٩٣م.


علي عبدالرازق

الإلهيـة .. ولـم ترتكز الخلافـة - حتى في عهدها الراشـد - إلا على أساس القوة الرهبية»[٢٠]

فـي مواجهـة هذا الافتـراء علـى الخلافة الإسـلامية، والتشـويه لصورتهـا، قـدم الدكتـور عبـد الرازق السـنهوري باشـا [١٣١٣ - ١٣٩١هـ ١٨٩٥ - ١٩٧١م] - وهـو فقيـه الشـريعة والقانـون - أطروحته عن إحياء الخلافة الإسـلامية، على النحـو الذي تراعي فيه المسـتجدات الوطنية والقومية والقطرية، فتأخذ شـكل «عصبة أمم شرقية»، مع تحقيقها المقاصد الأساسية للخلافة -، وهي:

١- وحدة الأمة الإسلامية.

٢- وتطبيق الشريعة الإسلامية.

٣- وتكامل أقطار دار الإسلام.

وفي هذه الأطروحة نفى السنهوري باشا تهمة الكهانة والثيوقراطية عن الخلافة الإسلامية، لا لأن الخليفة ليسـت له سلطة روحية شبيهة بما تنسبه النصارى للبابا في روما، فهو لا يملك شيئًا من دون الله، ولا يحرم من الجنة، وليست له شفاعة يستغفر بها للمذنبين، بل هو عبد من عباد الله لا يملك لنفسـه ضرًا ولا نفعًا، ولي أمور المسـلمين في حـدود معينة.. وعلى الخليفـة أن يطبق أحكام الشـريعة الغراء، مراعيًـا ظروف الزمان والمكان، وأن يطلب من المجتهديـن أن تجتمـع كلمتهم على ما فيه مصلحـة الأمة، ولو خالف ذلـك كل المذاهب المدونة في الكتب، لأن إجماع المجتهدين مصدر من مصادر التشريع».

«وبـدلا مـن الحكومة المركزية، التـي أصبحت إقامتها مسـتحيلة، أن تتقارب حكومات الإسلام المختلفة، وأن تتفاهم بحيث يتكون منها هيئة واحدة شبيهة (بعصبة أمم إسلامية) تكون على رأس الحكومات، وتكون هي هيئة الخلافة، ولاسيما إذا ألحق بهذه الهيئة مجلس مستقل عنها يكون قاصرًا على النظر في الشئون الدينية للمسلمين»[٢١].

ولقد أشـار السـنهوري إلـى ضرورة التمهيـد للوصول إلى إقامة هذه السـلطة الإسـلامية الاتحاديـة والجامعـة، التمهيـد لها بعـدة نهضات في التشـريع .. واللغـة .. والاقتصاد .. والمعـارف والعلـوم.. «إذ يجب التفكير فـي ربط الأمم الشـرقية بروابـط اقتصادية ولغوية وقانونية قبل التفكير في ربطها بروابط سياسـية، فإن هذه تأتي تالية لتلك.. ولتطبيق ذلك عمليًا يمكن البدء بالنهضات الآتية:

١ - نهضة تتناول الشريعة الإسلامية وجعلها مطابقة لروح العصر، وهذه النهضة تنتشر في كل الدول الشرقية.

(٢٠) علي عبد الرازق «الإسلام وأصول الحكم» ص ٣ - ٨، ٢٥. طبعة القاهرة ١٩٢٥م.

(٢١) إسلاميات السنهوري باشا جـ ١ ص ٣٦٥، ٣٦٦ دراسـة وتحقيق: د/ محمد عمارة طبعة دار السلام القاهرة سنة ١٤٣١هـ سنة ٢٠١٠م


السنهوري

٢ - نهضة تتناول اللغة العربية، وإدخال ما يجب إدخاله عليها من التعديلات، وتوحيد اللهجات المختلفة بقدر الإمكان.

٣ - نهضة اقتصادية واتحاد جمركي أو ما يشبه ذلك.

٤ - نهضـة لإحيـاء العلـوم والمعـارف الشـرقية، وبخاصـة الإسلامية»[٢٢].

وعلى درب السـنهوري باشـا سـار مفكرون تحدثوا عـن الخلافة الإسلامية باعتبارها «رمز الوحدة الإسلامية، ومظهر الارتباط بين أمم الإسلام، وأنها شعيرة إسلامية يجب على المسلمين التفكير في أمرها، والاهتمام بشأنها».

مؤكديـن على ضرورة إنجاز المراحل الممهدة لإقامة هذه الخلافة - كما صنع السـنهوري باشا - فقالوا: «إن إعادة الخلافة يحتاج إلى كثير من التمهيدات التي لابد منها، وإن الخطوة المباشرة لإعادة الخلافة - لابد أن تسبقها خطوات:

١. لابد من تعاون تام، ثقافي واجتماعي واقتصادي، بين الشعوب الإسلامية كلها.

٢. يلي ذلك تكوين الأحلاف والمعاهدات، وعقد المجامع والمؤتمرات بين هذه البلاد.

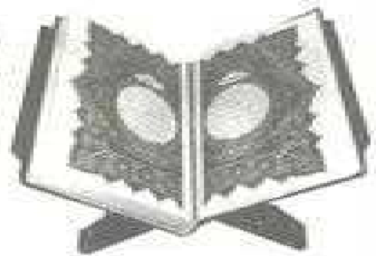
٣. يلي ذلك تكوين عصبة أمم إسلامية.

٤. حتى إذا استوثق ذلك للمسـلمين كان عنه الإجماع على الإمام الذي هو واسطة العقد ومجمع الشمل ومهوى الأفئدة.

لقد كتب السـنهوري باشـا هذا الذي كتبه عن إحياء الخلافة الإسلامية لتكون عصبة أمم شرقية ثم تلاه كتاب كثيرون سـاروا في نفس الاتجاه، قبل عقود كثيرة من تفكير الأحزاب المسيحية في ألمانيا وإيطاليا وفرنسا بزعامة «كونراد أدويناور» [١٨٧٦-١٩٦٧م] و«دي جاسبري» [١٨٨١-١٩٥٤م] وربير شومان [١٨٨٦-١٩٦٣م] في إقامة السوق الأوربية المشـتركة التي مهدت لإقامة الاتحاد الأوربي بينما لا تزال شعوب الشرق ترزح تحت وطأة مخطط التشـرذم والتفتيت وتحلم بإنجاز المشـروع الوحدوي في وطـن العروبة أولًا ثم في النطاق الإسلامي، لتملك سـيادتها على وطنها ومقدراتها ولتسـتثمر ثرواتها في رفاهية شعوبها.. ولتحقق بشريعتها استقلال هويتها القانونية والحضارية عن الغزو الغربي الذي اغتصب سيادتها في الفقه والتشريع والقضاء.

***

(٢٢) المصدر السابق جـ ١ ص ٢٧٨، ٢٧٩.



تفسير سورة البقرة



لفضيلة الأستاذ الإمام
محمد عبده

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

(البقرة: ١١٨ - ١٢٠)

الكلام لا يزال في القرآن، وما كان من أمر الناس في الإيمان به وعدم الإيمان... ذكر في الآيات المتقدمة آنفا من شأن أهل الكتاب ما تبين به أن عدم إيمانهم بالنبي وما جاء به غيرُ قادح فيه، ولا ينهض شبهةً عليه، وأن مطاعنهم فيه متهافتة منقوضة بطعنهم في أنفسهم، وتخبطهم في أمر كتبهم. ثم انتقل إلى ذكر شبهة مشركي العرب وبيّن أنهم جروا فيها على الأصل المعهود من أمثالهم المشركين الذين سبقوهم بالضلالة، فقال:

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

أي الجاهلون بالكتاب والشرائع من مشركي العرب. وقال (الجلال) إن المراد بالذين لا يعلمون كفار مكة خاصة. ولا دليل على التخصيص، ويرجح العموم كون الآية مدنية.

﴿ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ ﴾ كما كلّم هذا الرسول مع أنه بشر مثلنا، ﴿ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ﴾ من الآيات التي اقترحناها. يعنون ما حكاه الله تعالى عنهم بمثل قوله:

﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴾

(الإسراء: ٩٠)

﴿ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾

أي مثل هذا القول قال الكفار الذين أرسل الله إليهم الرسل من قبلهم في معناه، وهو أنهم أنكروا على الرسل الاختصاص بالوحي من دونهم، واقترحوا عليهم الآيات تعنتا وعنادا.

﴿ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ لأن الطغيان قد ساوى

بينهم حتى كأنهم تواصوا بما يقولون، كما قال في سورة الذاريات:

﴿ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾

(الذاريات: ٥٣)

ويشبه هذا ما ورد من أن الكفر ملة واحدة، وذلك أن الحق واحد ومخالفته هي الباطل أو الضلال وهو واحد، وإن تعددت طرقه واختلفت وجوهه. وآثار الشيء الواحد الكلي تتشابه فيمن تصدر عنهم وإن اختلفت الجزئيات. والتشابه هنا إنما هو في مكابرة الحق واستبعاد كون واحد من البشر رسولا يوحى إليه واقتراح الآيات تعنتا وعنادا.

ومثال الاختلاف في الجزئيات طلب قوم موسى رؤية الله جهرة، وطلب قوم محمد أن يرقى في السماء أمامهم فيأتي بكتاب يقرءونه. والطلب الذي مصدره العناد والتعنت لا تفيد إجابته؛ لأن صاحبه لا يقصد به معرفة الحق، ولذلك قال تعالى:

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾

(الأنعام: ٧)

والدليل المعقول على هذا: أنه ما من نبي إلا وقد جاء بآية أو آيات كونية أو عقلية، وكانوا مع ذلك يصفونهم بالسحر، ثم يقترحون عليهم الآيات. ولذلك قال تعالى بعد حكاية شبهة هؤلاء الجاهلين:

﴿ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾

أي أننا لم ندعك يا محمد بغير آية، بل بينا الآيات على يديك بيانا لا يدع للريب طريقا إلى نفس من يعقلها.

وقد قال ﴿ بَيَّنَّا الْآيَاتِ ﴾ ولم يقل (أعطيناك الآية)، للتفرقة والفصل بين آيات القرآن التي هي من علم الله وكلامه، يظهر بها الحق بطريق معقول بيّن لا يشتبه فيه الفهم، ولا يحار فيه الذهن، وبيّن الآيات الكونية التي هي من صنعه، يستخذي لها العقل ويخضع لها، لشعوره بأنها من قوة فوق قوته.

وللناس فيما يرونه فوق ما يعقلون طريقان معهودان: منهم من يسنده إلى القوة الغيبية العليا، سواء كان له سبب خفي في الواقع أم لا، ومنهم من يسنده إلى الأسباب الخفية التي يسمونها السحر، وإن كان فوق قدرة البشر. ولذلك، ضلت الأمم في آيات الأنبياء السابقين، وليس لأحد أن يضل في آيات القرآن لأنها بينة معقولة، ولذلك قال:

﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾

(البقرة: ٢)

نعم إن الآيات العلمية لا يعقلها إلا أهل الاستعداد للعلم واليقين. ولذلك، قال:

﴿ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾. والذين يوقنون هم الذين خلصت نفوسهم من كل رأي وتقليد، وتوجهوا إلى طلب الحق في الأمور الاعتقادية، وأخذوا على أنفسهم العهد أن يطلبوه بدليله وبرهانه. فهم إذا قام عندهم البرهان، اعتقدوا وأيقنوا إيقانا، وإنما يتوقع اليقين من مثلهم، لا من قوم يعتقدون الشيء أولا بلا دليل ولا برهان، ثم يلتمسون له الدليل، لأن مقلديهم قالوا بوجوب معرفة الدليل؛ فإذا أصابوه موافقا لما اعتقدوا رضوا به وإن كان ظنيا، وإذا نهض لهم مخالفا لتقاليدهم رفضوه وتعللوا بالتعلات المنتحلة، وهؤلاء هم الجماهير من الناس الذين وُصفوا في الأثر بأنهم أتباع كل ناعق.

والعبرة في خطاب الشرع بأهل اليقين الذين

صفت نفوسهم، ومحصت أفكارهم، فسلموا من علة العناد والمكابرة، لا المانعين لشعاع الحق أن ينفذ إلى القول، ولحرارته أن تخترق الصدور إلى القلوب. هؤلاء هم أنصار الحق، لأنهم بيقينهم لا يستطيعون المروق منه، ولا السكوت عن الانتصار له. ألم تر أن كبار الصحابة كانوا يراجعون النبي - عليه الصلاة والسلام - فيما لم يظهر لهم دليله، لأنهم طبعوا على معرفة الحق بالدليل؟! هؤلاء هم الناس الذين تنزل الشرائع لأجلهم، ولولا استعدادهم لها ما شرعت أو لما نجحت، وأما سائر الناس فتبع لهم وعيال عليهم.

ثم قال تعالى ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ أي بالشيء الثابت المتحقق، الذي لا يضل من يأخذ به، ولا تعبث به رياح الأباطيل والأوهام، بل يكون الآخذ به سعيدا بالطمأنينة واليقين. والحق في هذا المقام يشمل العلوم الاعتقادية وغيرها. فهو يقول: إنا أرسلناك بالعقائد الحقة المطابقة للواقع، والشرائع الصحيحة الموصلة إلى سعادة الدنيا والآخرة، ﴿بَشِيرًا﴾ لمن يتبع الحق بالسعادتين، ﴿وَنَذِيرًا﴾ لمن لا يأخذ به بشقاء الدنيا وخزي الآخرة.

﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾

أي فلا يضرك تكذيب المكذبين الذين يساقون بجحودهم إلى الجحيم، لأنك لم تبعث ملزما لهم ولا جبارا عليهم؛ فيعد عدم إيمانهم تقصيرا منك تسأل عنه. بل بعثت معلما وهاديا بالبيان والدعوة وحسن الأسوة، لا هاديا بالفعل ولا ملزما بالقوة:

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾

(البقرة: ٢٧٢)

وفي الآية تسلية للنبي - عليه الصلاة والسلام - لئلا يضيق صدره، كما تدل على ذلك آيات أخرى.

وفي الآية من العبرة أن الأنبياء بعثوا معلمين لا مسيطرين، ولا متصرفين في الأنفس ولا مكرهين. فإذا جاهدوا، فإنما يجاهدون دفاعا عن الحق لا إكراها عليه. وفيها أن الله تعالى لا يطالب الناس بأن يأخذوا عنهم إلا العلم الذي يهديهم إلى معرفة حقوق الله وحقوق العباد.

وفي قراءة نافع ويعقوب (ولا تسأل عن أصحاب الجحيم) بالنهي، أي لا تسأل عما سيلاقون من الانتقام فإنه عظيم، فمثل هذا النهي مستعمل في التهويل لا في حقيقته، وهو استعمال معروف بين الناس حتى اليوم.

وزعم بعض المفسرين أن النهي على حقيقته، وأنه خاص بنهي النبي ﷺ عن السؤال عن أبويه، ورووا في ذلك أنه سأل جبريل عن قبريهما، فدله عليهما، فزارهما ودعا لهما، وتمنى لو يعرف حالهما في الآخرة، وقال: (ليت شعري ما فعل أبواي؟!) فنزلت الآية في ذلك. والحديث، قال الحافظ العراقي إنه لم يقف عليه، وقال السيوطي لم يرد في ذلك إلا أثر معضل ضعيف الإسناد. وقد فشا هذا القول، ولولا ذلك لم نذكره. وإنما نريد بذكره التنبيه على أن الباطل صار يفشو في المسلمين بضعف العلم، والصحيح يهجر وينسى. ولا شك أن مقام النبي عليه الصلاة والسلام في معرفة أسرار الدين، وحكم الله في الأولين والآخرين، ينافي صدور مثل هذا السؤال عنه، كما أن أسلوب القرآن يأبى أن يكون هو المراد منه.

ثم قال عز وجل:

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾

فعاد إلى ذكر أهل الكتاب، على ما عهدنا في أساليب القرآن من ضروب الانتقال بالمناسبات الدقيقة. فالقرآن لم يأت على طريقة المنشئين والمؤلفين الذين يخصون كل طائفة من الكلام بموضوع معين ويسمونها فصلا أو بابا، ولكن للقرآن أغراضا يبرزها بصور مختلفة؛ فكلما لاحت المناسبة لذكر شيء منها أو الاحتجاج عليه أو الدفاع عنه، جاء به يجذب إليه الأذهان، ويسارق به خطرات القلوب، مع مراعاة التناسق، وحفظ الأسلوب البليغ. لهذا يتكرر فيه المعنى الواحد بعبارات متعددة، ويتجلى الروح الواحد في أشكال متنوعة. فلم يذكر ههنا المشركين إلا لما بينهم وبين أهل الكتاب من التناسب والتقارب في المجاحدة والمعاندة، فكان ذكرهم من متممات الحجة على أهل الكتاب من حيث أدى غرضا مقصودا في ذاته. ولما كان ذكرهم في عرض الكلام كالجملة الاعتراضية، كان الرجوع إلى سرد شئون أهل الكتاب مع النبي عليه السلام رجوعا إلى أصل الموضوع.

إن من شأن الإنسان أن يتألم من القبيح أشد التألم إذا وقع ممن لا يُتوقع منه. فكان النبي عليه الصلاة والسلام يرجو أن يبادر أهل الكتاب إلى الإيمان به، وألا يرى منهم المكابرة والمجاحدة والعناد. ولهذا، كبر عليه أن رأى من إعراض اليهود والنصارى عن إجابة دعوته، وإسرافهم في مجاحدته، أشد مما رأى من مشركي العرب الذين جاء لمحو دينهم من الأرض، مع موافقته لأهل الكتاب في أصل دينهم ومقصده من توحيد الله تعالى، والإخلاص له، وتقويم عوج الفطرة الإنسانية الذي طرأ عليها بسبب التقاليد، وترقية المعارف الدينية إلى أعلى ما استعد له الإنسان من الارتقاء العقلي والأدبي. ولذلك كان يخاطبهم بمثل قوله تعالى:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾

آل عمران: ٦٤

الآية، وغيرها من الآيات.

ولقد كان من الصعب، لولا إعلام الله تعالى، أن تعرف درجة فتك التقليد بعقول أهل الكتاب وإفساد الأهواء لقلوبهم. لذلك، سلّى الله تعالى نبيه عما كان يجده من عنادهم وإيذائهم بآيات كثيرة عرّفه فيها حقيقة حالهم، منها هذه الآية الناطقة بأن كلا من اليهود والنصارى على اتحادهم في أصل الدين قد تعصب لتقاليده واتخذ الدين جنسية لا يرضيه من أحد شيء إلا الدخول فيها وقبول لقبها. فقوله تعالى:

﴿حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ مراد به ما هم عليه من التقاليد والأهواء التي غيروا بها وجه الدين الواحد، حتى صار بعضهم يحكم بكفر بعض، كما تقدم في الآيات السابقة.

ثم أمره تعالى في مقابلة ذلك بقوله:

﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ﴾

أي اجهر بقول الحق، وهو أن الهدى الصحيح هو هدى الله الذي أنزل على أنبيائه دون ما أضافه إليه اليهود والنصارى بآرائهم وأهوائهم، ففرقوا دينهم، وكانوا شيعا، كل شيعة تكفر الأخرى وتقول إنها ليست على شيء، أي فإن أرادت استرضاءهم، فلن يرضوا عنك إلا أن تتبع أهواءهم:

﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم﴾

التي أضافوها على كتبهم، وجعلوها أصولا

وفروعـا لدينهـم، ﴿بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ اليقيـن، وبالوحي الإلهي المبيـن، الذي ما كان منهـم مـن تحويل القـول عـن معنـاه بالتأويل، وتحريفهم الكلم عن مواضعه، ونسـيانهم حظا مما ذكروا به:

﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾

أي فإنك لـن تنجح، ولـن تصل إلـى حقك بمجاراتهـم على باطلهم، لأن الله لا ينصرك على ذلـك، إذ لا يرضيه أن يكـون اتباع الهوى طريقا إلى الهـدى، والضال لا يرضيـه إلا موافقته على ضلالـه، ومجاراته على فسـاده. وإذا لم يكن الله هو يتولـى شئونك وينصرك بمعونتـه، فمن ذا الذي ينصرك ويتولاك من بعده؟!

من تدبـر هذا الإنذار الشـديد الموجه من الله تعالـى إلى نبـي الرحمـة، المؤيد منـه بالكرامة والعصمـة، علـم أن المراد به الوعيد والتشـديد علـى الأمة، علـى حد (إيـاكِ أعني واسـمعي يا جـارة). فإن الله تعالـى يخاطب النـاس كافة في شـخص النبي ﷺ، كما جرى عـرف التخاطب مـع الرؤسـاء والزعمـاء. فقـد يقال لذلـك: إذا فعلتَ هذا كانت عاقبته كذا، والمراد: إذا فعلته دولتك أو أمتك. وقد تقدم غير مرة إسـناد عمل بعض الأفراد إلى الأمة كلها. ولكن قوله:

﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾

(البقرة ١٢٠)

وهـو يعلـم جل شـأنه أنـه لا يتبـع أهواءهم فـي حال مـن الأحـوال، وقـد عصمه مـن الزيغ والضلال، وإنما جاء على هذا الأسـلوب ليرشد من يأتي بعده ممن يتبع سنته ويأخذ بهديه.

فهو يرشدنا بهذا التهديد العظيم إلى الصدع بالحـق والانتصار له وعدم المبـالاة بمن يخالفه مهمـا قوي حزبهم، واشـتد أمرهم. وإنه لتهديد ترتعد منه فرائص الذين يخشون ربهم، ولا سيما إذا آنسوا من أنفسهم ضعفا في الحق، كأن تركوا الجهر بـه أو الدفاع عنـه خوفا من إنـكار العامة عليهم، ولغط الناس بهم.

فمـن عرف الحـق، وعـرف أن الله تعالى وليّ أهله وناصرهم، لا يخاف في تأييده لومة لائم. ولا يغترنّ أحدٌ بمن يسـميهم الناس علماء وعارفين في سكوتهم عن الحق، ومجاراتهم لأهل الباطل، فإنهم ليسوا على شـيء من العلم الحقيقي. وإن هي إلا كلمات يتلقفونهـا، وعاداتٌ يتقلدونها، لا حجة للأحياء فيها، سـوى قولهم إن الميتين درجوا عليها!

وليـس هذا هو العلم الذي جاء به النبي ﷺ، وإنما هو شـيء كان يلقب بالعلـم عند الضالين من أهـل الكتاب والمشـركين كذلك. وقد نفى عنه كونه علما على الحقيقة بمثل قوله:

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾

(الأنعام: ١١٦ ويونـس: ٦٦، والنجم: ٢٣ و٢٨)

وبقوله:

﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾

(البقرة ٧٨)

فمن أخـذ بقول القائلين، واتبع ما وجد عليه السـابقين بدون بيّنـة يعرف بها وجـه الحق من ذلك- وكتاب الله بين يديه لا ينظر فيه ولا يرجع إليـه- فقد اتبـع الهوى بعد الذي جـاء من العلم إلى النبي ﷺ، وباء بالخزي في الدنيا وبالنكال فـي الآخـرة، ولم يكن ولن يكون لـه من الله ولي ولا نصير. اللهم أعنـا على الجهر بالحق بعد ما عرفنـاه، واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا.

أقسام السنة عند الدكتور محمد عبد الله دراز



الأصل الرابع الجهل بمقاصد الشريعة(1)

إن الله تعالى أنزل الشريعة على رسوله ﷺ فيهـا تبيان كل شـيء يحتاج إليـه الخلق، في تكاليفهـم التي أمـروا بهـا، وتعبداتهم التي طوقوها في أعناقهم، ولم يمت رسول الله ﷺ حتى كمـل الدين؛ بشـهادة الله تعالى بذلك، حيث قال تعالى:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾

[المائدة: ٣]

فـكل من زعم أنـه بقي من الدين شـيء لم يكمل بعد، فقد كذب بقوله:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾

فـلا يقال: قد وجدنا من النـوازل والوقائع المتجددة ما لم يكن في الكتاب ولا في السنة نص عليـه ولا عمـوم ينتظمه، وإلا فمسـائل الجد فـي الفرائـض والحـرام فـي الطـلاق، ومسـألة الساقط على جريح محفوف بجرحى ... وسـائر المسـائل الاجتهادية التي لا نص فيها من كتاب ولا سنة فأين الكمال فيها؟

فيقال في الجواب:

أولا: إن قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾

إن اعتبـرت فيـه الجزئيـات من المسـائل والنـوازل، فهـو كمـا أوردتم، ولكـن المراد كلياتهـا، فلـم يبق للدين قاعـدة يحتاج إليها فـي الضروريات والحاجيـات أو التكميليات إلا وقد بينت غاية البيان.

نعـم، يبقـى تنزيـل الجزئيـات على تلك الكليات موكولا إلى نظر المجتهد. فإن قاعدة الاجتهاد أيضا ثابتة في الكتاب والسـنة؛ فلا بـد من إعمالها، ولا يسـع تركهـا، وإذا ثبت في الشريعة أشـعرت بأن ثَمّ مجال للاجتهاد، ولا يوجـد ذلـك إلا فيمـا لا نـص فيـه، ولـو كان المـراد بالآية الكمال، بحسـب تحصيل الجزئيات بالفعـل؛ فالجزئيات لا نهاية لها، فلا تنحصر بمرسوم.

وقـد نص العلماء على هـذا المعنى، فإنما المـراد الكمال بحسـب مـا يحتـاج إليه من

(1) نقلنا هذا الأصل وبعض تحقيقه من كتاب «الاعتصام» المجلد الثالث من ص ٢٧٥ : ٣٩٦ للإمام العلامة المحقق أبي إسحاق إبراهيم بن موسـى بن محمد اللخمي الشاطبي المتوفى سنة ٧٩٠ هـ تحقيق الشيخ أبي عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، طبعة مكتبة التوحيد -المنامة- البحرين الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ- ٢٠٠٠ م.

القواعد الكلية التي يجري عليها ما لا نهاية له من النوازل.

ثم نقول ثانيا: إن النظر في كمالها بحسب خصوص الجزئيات يؤدي إلى الإشكال والالتباس، وإلا فهو الذي أدى إلى إيراد هذا السؤال، إذ لو نظر السائل إلى الحالة التي وضعت عليها الشريعة، وهي حالة الكلية، لم يورد سؤاله لأنها موضوعة على الأبدية، وإن وضعت الدنيا على الزوال والنهاية، وأما الجزئية فموضوعة على النهاية المؤدية إلى الحصر في التفصيل، وإذ ذاك قد يتوهم أنها لم تكمل، فيكون خلافا لقوله تعالى:

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾

وقوله تعالى:

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾

[النحل: ٨٩]

ولا شك أن كلام الله هو الصادق، وما خالفه فهو المخالف، فظاهر إذ ذاك أن الآية على عمومها وإطلاقها صحيحة، وأن النوازل التي لا عهد بها لا تؤثر في صحة لهذا الكمال، لأنها إما محتاج إليها، وإما غير محتاج إليها، فإن كانت محتاجا إليها، فهي مسائل الاجتهاد الجارية على الأصول الشرعية، فأحكامها قد تقدمت، ولم يبق إلا نظر المجتهد إلى أي دليل يستند خاصة، وإما غير مستند إليها، فهي البدع المحدثات، إذ لو كانت محتاجا إليها لما سكت عنها الشرع، لكنها مسكوت عنها بالفرض، ولا دليل عليها فيه كما تقدم، فليست بمحتاج إليها، فعلى كل تقدير قد كمل الدين، والحمد لله.

ومن الدليل على أن هذا المعنى هو الذي فهمه الصحابة رضي الله عنهم، أنهم لم يسمع عنهم قط إيراد ذلك السؤال، ولا قال أحد منهم: لم لم ينص على حكم الجد مع الإخوة، وعلى حكم من قال لزوجته: أنت عليّ حرام، وأشباه ذلك مما لم يجدوا فيه عن الشارع نصا، بل قالوا فيها، وحكموا بالاجتهاد واعتبروا فيها بمعان شرعية ترجع في التحصيل إلى الكتاب والسنة، وإن لم يكن ذلك بالنص، فإنه بالمعنى، فقد ظهر إذن وجه كمال الدين على أتم الوجوه.

ثم ننتقل منه إلى معنى آخر، وهو أن الله سبحانه وتعالى أنزل القرآن مبرءا عن الاختلاف والتضاد، ليحصل فيه كمال التدبر والاعتبار، فقال سبحانه وتعالى:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾

[النساء: ٨٢]

فدل معنى الآية على أنه بريء عن الاختلاف، فهو يصدق بعضه بعضا، ويعضد بعضه بعضا، من جهة اللفظ ومن جهة المعنى.

فأما جهة اللفظ؛ فإن الفصاحة فيه متوازنة مطردة، بخلاف كلام المخلوق، فإنك تراه إلى الاختلاف ما هو، فيأتي بالفصل من الكلام الجزل الفصيح، فلا يكاد يختمه إلا وقد عرض له في أثنائه ما يغض عليه من منصب فصاحته، وهكذا تجد القصيدة الواحدة، منها ما يكون على نسق الفصاحة اللائقة، ومنها ما لا يكون كذلك.

-وأما جهة المعنى، فإن معاني القرآن على كثرتها أو على تكرارها بحسب مقتضيات الأحوال على حفظ وبلوغ غاية في إيصالها إلى غايتها، من غير إخلال بشيء منها، ولا تضاد ولا تعارض على وجه لا سبيل إلى البشر أن يدانوه، ولذلك لما سمعه أهل البلاغة الأولى والفصاحة الأصيلة -وهم العرب- لم يعارضوه، ولم يغيروا في وجه إعجازه بشيء مما نفى الله تعالى عنه، وهم أحرص ما كانوا على الاعتراض فيه والغض من جانبه، ثم لما أسلموا وعاينوا معانيه وتفكروا في غرائبه، لم يزدهم البحث إلا بصيرة في أنه لا اختلاف فيه ولا تعارض والذي نقل من ذلك يسير، توقفوا فيه توقف المسترشد، حتى يرشدوا إلى وجه الصواب، أو توقف المتثبت في الطريق.

وقد صح أن سهل بن حنيف قال يوم صفين وحكم الحكمين: «يا أيها الناس – اتهموا رأيكم، فلقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ يوم أبي جندل[٢] ولو نستطيع أن نرد على رسول الله ﷺ، لرددناه، وأيم الله، ما وضعنا سيوفنا عن عواتقنا منذ أسلمنا لأمر يفظعنا إلا أسهلن بنا إلى أمر نعرفه ....»[٣] الحديث.

فوجه الشاهد منه أمران:

قوله: «اتهموا الرأي»، فإن معارضة الظواهر في غالب الأمر رأي غير مبني على أصل يرجع إليه.

وقوله في الحديث -وهو النكتة في الباب-: «والله ما وضعنا سيوفنا ...» إلى آخره، فإن معناه أن كل ما ورد عليهم في شرع الله مما يصادم الرأي، فإنه حق يتبين على التدريج، حتى يظهر فساد ذلك الرأي، وأنه كان شبهة عرضت وإشكالا ينبغي أن لا يلتفت إليه، بل يتهم أولا، ويعتمد على ما جاء في الشرع، فإنه إن لم يتبين اليوم يتبين غدا، ولو فرض أنه لا يتبين أبدا، فلا حرج، فإنه متمسك بالعروة الوثقى.

وفي «الصحيح» عن عمر رضي الله عنه، قال: سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ، فاستمعت لقراءته، فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله ﷺ، فكدت أساوره في الصلاة، فصبرت حتى سلم، فلببته بردائه، فقلت: من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ..؟ فقال: أقرأنيها رسول الله ﷺ، فقلت: كذبت، فإن رسول الله ﷺ قد أقرأنيها على غير ما قرأت. فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ، فقلت: إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها. فقال رسول الله ﷺ: «أرسله، اقرأ يا هشام». فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ، فقال رسول الله ﷺ: «كذلك أنزلت». ثم قال: «اقرأ يا عمر». فقرأت القراءة التي أقرأني، فقال رسول الله ﷺ: «كذلك أنزلت. إن هذا القرآن أنزل على سبعة

(٢) يعني يوم الحديبية يوم أبي جندل، إذ لم يقع في ذلك اليوم أشد على المسلمين من قصة أبي جندل ابن سهيل بن عمرو، إذ جاء يرسف في قيوده فارا من مشركي قريش، ورده النبي عليه الصلاة والسلام إلى أبيه سهيل وفاء بما شرطوه في عقد الصلح: من أن يرد من يأتيه منهم وإن كان على دين الإسلام.

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب الجزية والموادعة، باب مثله ٦/ ٢٨١، رقم ٣١٨١، وكتاب المغازي، باب غزوة الحديبية ٧/ ٤٥٧، رقم ٤١٩٨، وكتاب التفسير، باب ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ ٨/ ٥٨٧، رقم ٤٨٤٤، وكتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب ما يذكر من ذم الرأي وتكلف القياس ١٣/ ٢٨٢ / رقم ٧٣٠٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية ٣/ ١٤١١ – ١٤١٢ / رقم ١٧٨٥، وأحمد (٣/ ٤٨٥)، والحميدي (٤٠٤) في «مسنديهما»، والبيهقي (٩/ ٢٢٢).

أحرف، فاقرءوا بما تيسر منه»(٤).

وهذه المسألة إنما هي إشكال وقع لبعض الصحابة رضي الله عنهم في نقل الشرع بين لهم جوابه النبي ﷺ، ولم يكن ذلك دليلا على أن فيه اختلافا، فإن الاختلاف بين المكلفين في بعض معانيه أو مسائله لا يستلزم أن يكون فيه نفسه اختلاف، فقد اختلفت الأمم في النبوات ولم يكن ذلك دليلا على وقوع الاختلاف في نفس النبوات، واختلفت في مسائل كثيرة من علوم التوحيد ولم يكن اختلافهم دليلا على وقوع الاختلاف فيما اختلفوا فيه؛ فكذلك ما نحن فيه، وإذا ثبت هذا، صح منه أن القرآن في نفسه لا اختلاف فيه.

ثم نبني على هذا معنى آخر، وهو أنه لما تبين تنزهه عن الاختلاف صح أن يكون حكما بين جميع المختلفين، لأنه إنما يقرر معنى هو الحق، والحق لا يختلف في نفسه، فكل اختلاف صدر من مكلف، فالقرآن هو المهيمن عليه.

قال الله تعالى:

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾

[المائدة: ٤٨]

وأعم من هذا قوله تعالى:

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ﴾

[البقرة: ٢١٣]

ثم قال:

﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾

[البقرة: ٢١٣]

قال الله تعالى:

﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾

[النساء: ٥٩]

فهذه الآي وما أشبهها صريحة في الرد إلى كتاب الله تعالى وإلى سنة نبيه ﷺ، لأن السنة بيان الكتاب، وهو دليل على أن الحق فيه واضح، وأن البيان فيه شاف، لا شيء بعده يقوم مقامه.

وهكذا فعل الصحابة رضي الله عنهم؛ لأنهم كانوا إذا اختلفوا في المسألة ردوها إلى الكتاب والسنة، وقضاياهم شاهدة بهذا المعنى، لا يجهلها من زاول الفقه، فلا فائدة في جلبها إلى هذا الموضع لشهرتها، فهو إذن مما كان عليه الصحابة.

فإذا تقرر هذا، فعلى الناظر في الشريعة بحسب هذه المقدمة أمران:

أحدهما: أن ينظر إليها بعين الكمال لا بعين النقصان، ويعتبرها اعتبارا كليا في العبادات والعادات، ولا يخرج عنها البتة، لأن الخروج عنها تيه وضلال ورمي في عماية، كيف وقد ثبت كمالها وتمامها؟! فالزائد والناقص في جهتها هو المبتدع بإطلاق، والمنحرف عن الجادة إلى بنيات الطرق.

والثاني: أن يوقن بأنه لا تضاد بين آيات القرآن ولا بين الأخبار النبوية ولا بين أحدهما مع الآخر، بل الجميع جار على مهيع واحد، ومنتظم إلى معنى واحد، فإذا أداه بادي الرأي إلى ظاهر اختلاف، فواجب عليه أن يعتقد انتفاء الاختلاف؛ لأن الله تعالى قد شهد له أن لا اختلاف فيه، فليقف وقوف المضطر السائل عن وجه الجمع، أو المسلم من غير اعتراض إن كان الموضع مما يتعلق به حكم عملي، فإن تعلق به حكم عملي التمس المخرج حتى يقف على الحق اليقين، أو يبقى باحثا إلى الموت، فلا عليه من ذلك، فإذا اتضح له المغزى، وتبينت له الواضحة، فلا بد له من أن يجعلها حاكمة في كل ما يعرض له في النظر فيها، ويضعها نصب عينيه في كل مطلب ديني، كما فعل من تقدمنا ممن أثنى الله ورسوله عليهم.

فأما الأمر الأول، فهو الذي أغفله المبتدعون، فدخل عليهم بسبب ذلك الاستدراك على الشرع، وإليه مآل كل من كان يكذب على النبي ﷺ، فيقال له في ذلك، ويحذر ما في الكذب عليه من الوعيد، فيقول: لم أكذب عليه، وإنما كذبت له!

وحكي عن محمد بن سعيد المعروف بالأردني، أنه قال: إذا كان الكلام حسنا لم أر بأسا أن أجعل له إسنادا(٥) فلذلك كان يحدث بالموضوعات، وقد قتل في الزندقة وصلب، وقد تقدم لهذا القسم أمثلة كثيرة.

وأما الأمر الثاني: فإن قوما أغفلوه أيضا، ولم يمعنوا النظر حتى اختلف عليهم الفهم في القرآن والسنة، فأحالوا بالاختلاف عليهما تحسينا للظن بالنظر الأول، وهذا هو الذي عاب رسول الله ﷺ من حال الخوارج، حيث قال: «يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم»، فوصفهم بعدم الفهم للقرآن، وعند ذلك خرجوا على أهل الإسلام، إذ قالوا: لا حكم إلا لله، وقد حكم الرجال في دين الله! حتى بين لهم حبر القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما معنى قوله تعالى:

﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾

[يوسف: ٤٠]

على وجه أذعن بسببه منهم ألفان -أو من رجع منهم إلى الحق- وتمادى الباقون على ما كانوا عليه، اعتمادا -والله أعلم- على قول من قال منهم: لا تناظروه ولا تخاصموه، فإنه من الذين قال الله فيهم:

﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾

[الزخرف: ٥٨].

فتأملوا رحمكم الله كيف كان فهمهم في القرآن، ثم لم يزل هذا الإشكال يعتري أقواما حتى اختلفت عليهم الآيات والأحاديث، وتدافعت على أفهامهم، فتبجحوا به قبل إمعان النظر.

---

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الخصومات، باب كلام الخصوم بعضهم في بعض، ٥/ ٧٣ / رقم ٢٤١٩، وكتاب فضائل القرآن، باب أنزل القرآن على سبعة أحرف، ٩/ ٢٣/ ٤٩٩٢، وباب من لم ير بأسا أن يقول سورة البقرة وسورة كذا وكذا، ٩/ ٨٧/ رقم ٥٠٤١، وكتاب استتابة المرتدين، باب ما جاء في المتأولين، ١٢/ ٣٠٣ / رقم ٦٩٣٦، وكتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾، ١٣/ ٥٢٠ / رقم ٧٥٥٠، ومسلم في صحيحه كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب بيان أن القرآن على سبعة أحرف وبيان معناه، ١/ ٥٦٠ / رقم ٨١٨، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٥) انظره في: «تاريخ الدوري» (٢/ ٥١٨)، و«الضعفاء» (٣٢٠) للبخاري، و«الضعفاء» (٤/ ٧٠) للعقيلي، و«المجروحين» (٢/ ٢٥٦، ط حمدي)، و«الميزان» (٣/ ٥٦٤)، و«تهذيب الكمال» (٢٥/ ٢٦٤).

نظرات فى فكر الإمام الأشعرى (٧)



المعارضة

لفضيلة الإمام الأكبر أ.د. أحمد الطيب
شيخ الأزهر

والمعارضة أساس آخر من أسس علم الجدل يلتزم فيه السائل بمعارضة دليل الخصم بدليل يساويه ويناقضه، أو كما يقول الجوينى: المعارضة هى: « فى اللغة من المُمانعة وفى عرف الفقهاء: ممانعة الخصم بدعوى المساواة، أو مساواة الخصم فى دعوى الدلالة». (١)

والمعارضة ليست محل اتفاق بين علماء الجدل. فقد حكى الأشعرى - فى اختصار شديد - أن قومًا يثبتونها وقومًا ينفونها، ثم قال: « وهى عندنا صحيحة داخلة فى حكم السؤال والجواب » (٢).

وعند الأشعرى أن المعارضة تتعلق بالعلة وترد عليها، أى: ترد على وجه الدلالة فى دليل الخصم، ويؤخذ من كلام الأشعرى أيضًا: أن المعارضة تتعلق بما يذكره الخصم فى دليله من أصل يقيس عليه، وفرع يثبت له حكم الأصل، وعلة تجمع بينهما فى الحكم، وهذا هو ما يفهم من قوله: « إن المعارضة إنما تصح من أحد وجهين: إما أن يكون فى أحد الشيئين علة تجمع بينهما من أجلها، فيكون أحدهما محكومًا له بحكم الآخر، وإن اختلفا فى الجنس بجمع العلة بينهما، أو أن يكونا من جنس واحد فيقاس أحدهما بالآخر؛ لكون أحدهما من جنس صاحبه، وكان يقول: إنَّ ما

(١) الكافية للجوينى ٦٩.
(٢) المجرد لابن فورك: (اللوحة: ١٤٦/ب) ٣٠٠، ٣٠٨.

عدا ذلك من المعارضات باطل، وليس بصحيح عندنا» (٣).

والفرق بين المعارضة وبين النقض، هو: أن السائل إما أن يبطل دليل المعلل الذى هو المجيب، وإما أن يسلمه، فإذا أبطل السائل دليل المعلل بأى نوع من أنواع النقض، كان ذلك نقضًا للدليل، أما لو سلم السائل دليل صاحبه ثم عارضه بدليل آخر يثبت نقيض المدعى أو نقيض مدلول المعلل، فذلك هو ما يسمى « المعارضة ». ويفرق بينهما دائمًا بأن النقض أو المناقضة قدح فى الدليل، بينما المعارضة قدح فى المدلول من غير تعرض للدليل، وذلك بإثبات خلاف هذا المدلول (٤).

والمعارضة عند الشيخ نوعٌ من السؤال؛ لأنها تستبطن فى داخلها استخبارًا أو ضربًا من الاستخبار، وكأن السائل وهو يعارض يستخبر أو يستعلم، أو كأن المعارضة سؤال يعقب دعوى الخصم ويرد عليها، فكل معارضة سؤال، وليس كل سؤال معارضة.

والمعارضة وجوه عدة ذكر الشيخ منها وجوها ثلاثة:

- الوجه الأول: أن يعارض السائل خصمه بشىء لا يقول به السائل ولا يقول به الخصم، وهذا النوع من المعارضة فاسد؛ لأنه لا يفيد السائل ولا يفسد به مذهب الخصم، اللهم إلا إذا كان من قبيل الاسترشاد فلا يندرج تحت مفهوم الجدل.
- الوجه الثانى: مثل أن يقول معتزلى لسنى: إذا كنت تزعم أن الله تعالى يخلق فعل العبد ويعذبه عليه، فلم لا يجوز أن يضطر الله تعالى عبده إلى فعل ويُلجئه إليه، ثم يعذبه عليه، وهذا النوع من المعارضة صحيح؛ لأن كلا من المعتزلى والسنى لا يقول بذلك، وإلا لكان كل منهما يطعن على مذهبه.
- الوجه الثالث: مثل أن يقول المجيب: إذا جاز كذا، جاز كذا، فيقول له السائل: فلم لا يجوز كذا، وهذه المعارضة صحيحة كذلك؛ لأن كلا من السائل والمجيب يثبت صحة أحد الأمرين أو فساده بصحة الآخر أو فساده، غير أن على المجيب أن يذكر العلة التى من أجلها ألحق أحد الأمرين بالآخر، وليس على السائل أن يذكر العلة فى معارضته للمجيب؛ والسبب فى ذلك: أن المجيب بانٍ ومؤسس، وأن السائل ناقض وهادم (٥).

ومن أقوى أنواع المعارضة معارضة العلة بالعلة؛ لأنها تقسم الأمر على المجيب وتحصره بين أحد أمرين: فإما أن ينقض علته، وإما أن يخالف مذهبه، وذلك مثل أن يقول موحد لمجسم: إنك

(٣) م ن: ٣٠٠.
(٤) شرح التلويح على التوضيح، للتفتازاني ٢/١٨١، مشكاة الأنوار فى أصول المنار، لابن نجيم الحنفى ٣/٤٤.
(٥) المجرد، لابن فورك (اللوحة ١٤٧/أ) ٣٠٩.

تقول: إن الله تعالى جسم؛ لأنك لم تعقل فاعلا إلا وهو جسم، فهلا قلت: إن الله تعالى مؤلف من أجزاء؛ لأنك أيضًا لم تعقل فاعلا إلا وهو مؤلف من أجزاء؟! فإن أجرى المجيب علته وطردها والتزم حُكمها، فإنه يهدم التوحيد، وذلك نقض لمذهبه؛ لأن المجسم لا يقول بأن الله تعالى مؤلف من أجزاء، ضرورة استلزام التأليف لمؤلف، وإن فرّق بين الأمرين فإنه ينقض علته (٦).

أما معارضة الدعوى بالدعوى - فإنها من المعارضات الفاسدة، بل هي لا تستحق - عند الشيخ - أن يجاب عنها، وذلك مثل أن يقول سني لمعتزلي: إذا كنت تقول إن أفعال العباد غير مخلوقة لهم، فأنا أقول إنها مخلوقة لهم، وإذا جاز قولك جاز قولي (٧).

وعلى السائل والمجيب في مرتبة المعارضة: أن يحفظ كل منهما ما يرد عليه من سؤال أو جواب، فعلى المجيب أن يحفظ إلزام السائل وما يقسمه عليه في إجابته. وعلى السائل أن يستيقظ لجواب المجيب، ويجب على كل منهما أن يراعي في دقة كلام صاحبه بحيث لو غير أحدهما لفظًا أو عبارة أو كرر معنى، فإن على الآخر أن يضبط ذلك عليه، بل ويقول له: لقد ذكرت ذلك من قبل أو كررته، لكن لا يكتفي السائل لو قال له المجيب: قد مضى الجواب عن سؤالك حتى يقرره أو يوضحه، ويبدو أن هذا استثناء من القاعدة السابقة في اعتبار التكرار عيبًا من عيوب المناظرة، ولعل السبب في ذلك ما ذكره الشيخ من أن قول المجيب للسائل: قد مضى الجواب عن سؤالك - مما يوقع السائل في الإيهام والبلبلة (٨).

العلة عند الأشعري:

والعلة - عند الشيخ - هي: «المعنى الذي يتعلق به الحكم الموجب عنه» (٩).

ونفهم من هذا التعريف أن الشيخ لا يضيف إلى العلة دور التأثير أو الإيجاب في الحكم، ولعله من أجل ذلك عبّر بـ«الموجب عنه» ولم يعبر بـ«الموجب به»، ومن المعروف أن الأشاعرة في مبحث العلة فريقان: القائلون بالأحوال: وهؤلاء يضيفون للعلل دور الإيجاب، أو يعتبرون العلة معنى موجبًا للحكم، وهذا أمر لازم لهم؛ لأن نظرية الأحوال هي نظرية «المعاني» الموجبة لأحكامها، ومن هذا المنطلق عرّف الجويني العلة بأنها: «الجالبة للحكم، أو المؤثرة في الحكم، أو الموجبة للحكم».

ونفاة الأحوال هؤلاء لا يضيفون للعلة أي دور لا بالتأثير ولا بالإيجاب، وهم يعرفون «العلة» بأنها معنى يصح أن يقال معه: ثبتت العلة فثبت المعلول،

(٦) من: (اللوحة ١٤٧/أ) ٣٠٢ - (اللوحة ١٤٧/ب) ٣٠٣.
(٧) انظر فيما سبق من هذا الفصل.
(٨) من: (اللوحة ١٤٨/أ) ٣٠٤.
(٩) الكافية للجويني: ٦١.

ولا شيء أكثر من ذلك، فالعلة عندهم لا تؤثر ولا توجب، وإنما هي معنى يتعلق به حكم وجب عن هذا المعنى بموجب خارجي، وتعريف الشيخ للعلة يسلك هذا المسلك.

من هذا المنطلق أطلق الشيخ لفظ «العلة» على المعاني القائمة بالأجسام، مثل الأعراض القائمة بالجواهر، كما أطلق على أحكامها الموجبة عنها لفظ «معلولات»، ويقال «علة» أيضًا لما يقوم به المعتل والمستنبط من اعتلال واستنباط، وقد تضاف العلة إلى المستنبط، فيقول: «علتي في هذه المسألة كذا»، ثم قد تطلق العلة ويراد بها: الإخبار عن معنى يقوم بالشيء، وهذا الإطلاق الأخير هو المقصود في المناظرة والجدل (١٠).

والاطراد والانعكاس علامة العلة الصحيحة. ومعنى الطرد: استلزام العلة للمعلول، أي: كلما وجدت العلة وجد المعلول، أما الانعكاس فمعناه: تخلف المعلول مع تخلف العلة، أي: كلما انتفت العلة انتفى حكمها، أو أن عدم العلة مستلزم عدم حكمها (١١).

والطرد والعكس شرطان في صحة العلة العقلية فقط، أما العلة الشرعية فيشترط فيها الطرد - على خلاف بين الأصوليين - ولا يشترط فيها الانعكاس، وذلك لأن العلة في الشرعيات أمارة أو علامة على الحكم، ولا يلزم من انتفاء علامة الشيء انتفاء الشيء نفسه، أما العلة العقلية: فإنها لما كانت توجب حكمًا لا يصح أن يتخلف معها أو يجب بغيرها، اشترط فيها علماء المعقول أن تكون مطردة ومنعكسة، وهنا ينقل ابن فورك عن الشيخ أنه: «كان يقول: إن العلة العقلية موجبة للحكم لا يصح تبدل الحكم عليها، وأن الشرعية أمارات وعلامات، وليست بعلل على الحقيقة إلا على معنى أنها دلالات، ولذلك لا يشترط فيها العكس، وإن اشترط فيها الطرد والجريان» (١٢).

ومثال العلة المطردة المنعكسة: الحركة في المتحرك، فالحركة علة عقلية للمتحرك في كونه متحركًا، وهي مطردة، أي: كلما وجدت الحركة في الجسم، وجب أن يكون الجسم متحركًا بها، ومنعكسة بمعنى ألا يكون هناك متحرك إلا بحركة.

والطرد والعكس لا يكتفى بمجرّدهما - كعلامة - لتحقيق العلة العقلية، بل لابد أن تكون العلاقة واضحة بين العلة وبين ما ترتب عليها من حكم، وبعبارة أوضح: إضافة إلى الطرد والعكس، لابد من وضوح كون العلة مؤثرة في الحكم، أو موجبة للحكم. والسبب في ذلك: أن

(١٠) المجرد لابن فورك (اللوحة: ١٤٨/أ) ٣٠٤.
(١١) شرح المواقف للشريف الجرجاني: ٤/١٩٢.
(١٢) المجرد لابن فورك (اللوحة: ١٤٨/ب) ٣٠٥.

الطـرد والعكس قد يتحققـان ولا يتحقق معنـى العليـة . ويمثـل الأشـعرى لذلـك بقـول القائل :«لا متحرك إلا مـا علمه الله متحـركًا، ولا مـا علمـه الله متحـركًا إلا مـا هو كذلـك»(١٣) . فهـذا القول مطرد ومنعكس، مـع أن العلم في الحالين ليس علة في حركة المتحرك ،والقاعدة فى ذلك -عنـد علمـاء المعقول -هـى : أن كل علة مطردة منعكسة، وليس كل مطرد منعكس علـة ؛لأن الاطـراد والانعكاس شـرط فى العلة العقلية، ولا يلزم من وجود الشـرط وجود المشروط، كما هو معلوم(١٤).

ومـن أحكام العلة -فـى علة الجدل -أن السـائل لو طالب المجيب بإجرائها، فإن هـذا يقتضـى اعتراف السـائل بقبول علة المجيـب، وهذا يقتضـى ألا ينازعه فيها، فالمطالبة بإجراء العلة تقتضى عدم النزاع فيهـا ؛ ذلـك أن المنازعة فى العلة إفسـاد لهـا، وتمتنع يصبح إجراؤها أمرًا غير ذى معنى ؛لأنه إجراء لأمر فاسد، أما المطالبة بإجـراء العلـة : فإنـه يعنـى تسـليم العلة بصـورة أو بأخرى، ثـم طردها بعد ذلك فى موطن آخر يتخلف فيه مدلول المدعى، والسـائل الذى يلجأ إلى إجراء العلة إنما يلجأ إليه ؛ لأنه قـد يعجز عن المنازعة فى العلة بطريق مباشر، أو لأنه يجهل الوجوه التى تفسـد العلة ، أو قد يكون مسـتطيعًا لـكل ذلك، غير أنه يريد أن يلزم الخصم بعلته قولًا لا يقول به، أو يهدف من إجراء العلـة إلى بيان فسـاد اعتماد خصمه على الشاهد المحسوس.

ويفـرق الشـيخ بيـن العلة وبيـن دفع الإلـزام -بـأن العلـة يجب فيهـا الجرى والطرد، أما دفع الإلـزام فلا يجب فيه أى مـن هذيـن الأمرين، فلو وجه سـؤال على قائـل بمذهـب الجوهـر الفـرد، فحواه : كيف تقول : إن الأجسام مركبة من جواهر فردة لا طول لها ولا عرض ؟ ألا يعنى ذلك أنـك تجمع ما لاطول لـه إلى ما لا طول له ليكونا جسـمًا طويلًا ؟ ! وهل يعقل ذلك ؟ فلصاحـب هـذا المذهـب أن يدفـع إلزام السـائل بقوله : ليس قولى هذا بمستبعد، فإنـك أيها السـائل ! تجمع مـا لا يدل من الـكلام (الحـروف) إلـى مـا لا يـدل من الكلام لينتج عنهما كلام دال، وتجمع ما ليـس بمربع (= خط) إلـى ما ليس بمربع لينتج عنهما مربع. وقواعد الجدل تقضى بعـدم المطالبـة بإجـراء دفـع الإلـزام أو طرده، فليس لسائل أن يعود على صاحب المذهب ويقول له : إذا كان ذلك كذلك، فيلزمـك أن تجيز «جمع مـا لا لون له إلى ما لا لون له ليكون منهما ملون»(١٥) ؛لأن لصاحـب المذهـب أن يقـول للسـائل حينئـذ :إن هـذا الذى ذكرته لـك لم يكن عندى علة ولا أصـلا حتى تطالبنى بطرده وجريانه ،بـل هو إلزام دفعـت به إلزامك ؛ لتعلـم أن الـذى اسـتنكرته مـن كلامـى ومذهبى ليس بمستنكر.

وذكر العلة فى المعارضة قد يكون أنفع فـى بعـض المواطـن دون البعـض الآخر، ومـن المواضع التى يستحسـن فيها ذكر العلة :موضـع يريـد فيـه السـائل أن يلزم خصمـه بقـول يقول به السـائل ولا يقول بـه الخصم ،غيـر أن الخصـم يذهب إلى قول مشابه له، فهنا يحسن من السائل أن يذكر له العلة المشتركة بين قوله والقول المشـابه له عند الخصم ،وذكـر العلة هنا ملزم للمجيب فى تسليمه بقول السـائل.

أما الموضع الذى يسـتوى فيه أن تذكر العلة أو لا تذكر ،فمثـل أن يكون للخصم قـول خاطـئ فـي اعتقـاد السـائل ،فإذا أراد السـائل أن يدفـع خصمـه عـن هـذا القول ،فعليه أن يعارضه بمثل قوله ،وسواء علـى السـائل هنـا أن يذكـر العلـة أو لا يذكرها ؛لأن الغرض عند السـائل محصور فـى زحزحـة المجيـب عـن قولـه وذلك بمعارضتـه بقـول مماثـل لـه، وهـذا أمر منطقـى لأن الموضـع الأول موضع إثبات يحتـاج إلـى دليل ،وذكـر العلـة يفيد فى ذلك ،أما الموضع الثانى :فهو موضع إنكار من السـائل على المجيب فى قوله ،فالعلة هنا يستوى ذكرها وعدم ذكرها.

ولا يصـح للخصـم إذا خالـف خصمه الآخر فى علته ووافقه على مقالته أن يحتج عليه ؛ ذلك أن كلا من المتناظرين مخالف للآخر فى أصل المقالة والمذهب حتى ولو أقر بهـا ظاهرًا، فمعنى الجدل أو حقيقة الاحتجـاج -لا يمكـن أن يتحقق إذا اتفق الطرفـان على المذهب نفسـه، والخلاف فـى العلـة وحدهـا لا يتحصل معـه معنى الجدل ولا يصح بـه الاحتجاج ، فالاتفاق على المذهـب والاختلاف فى العلة لايبرر الاحتجاج ولا المعارضة (١٦).

وثمة مسـائل أخرى متفرقة من مسـائل الجـدل -عنـد الشـيخ -وهـى أشـبه بـأن تكـون قواعد عامة لا تتعلق بمرحلة معينة مـن مراحل الجدل كمرحلـة المعارضة أو مرحلة التعليل مثلًا، غير أنها قواعد لازمة للسـائل والمجيب فى إجراء المناظرة ،ومن هذه القواعد :

١-[انتقـال المجيب مـن الفرع إلى الأصل]:

إذا بنـى المجيـب كلامه علـى أصل ما مـن أصوله ،ثم قـال للسـائل : لا يمكننى الاستدلال على ما تسألنى إلا بعد الرد إلى هذا الأصل ،فإما أن تسـلم لى هذا الأصل، وإما ان تطالبنى بالدلالة عليه ؛لأبنى عليه كلامى بعد ذلك. فماذا يجب على السـائل هنا ؟ السـائل هنا مخير بين أمرين :

- فإمـا أن يسـلم لـه أصلـه ؛ ليريـه أنه مـع تسـليمه أصـل المجيب، قـادر على الاستمرار فى مناظرته ومعارضته وإلزامه.

- وإما أن ينازعه فى أصله، وهنا يطالبه بالدلالـة عليـه. غيـر أن المجيـب لو بدأ فـى بيـان أصلـه والاسـتدلال عليـه -فلا يصح للسـائل أن يقول له : لم أسألك عن ذلك ، وإنما أسـألك عن شىء غيره، ولو استمر السـائل فـى معاملـة المجيب على هـذا النحو فهو -بمصطلـح علم الجدل -ظالم للمجيب.

ولكـن هل يعـد الانتقـال من مناقشـة

(١٣) ورق اللوحة : ١٤٨/أ/٣٠٤.
(١٤) الشامل فى أصول الدين للجوينى : ٦٦٠.
(١٥) المجرد لابن فورك اللوحة : ١٥٠/ب/٣٠٩.
(١٦) ورق اللوحة ١٤٩/ب/٣٠٧.

السؤال إلى مناقشة الأصل انقطاعًا للمناظرة؟ يجيب الأشعري: بأن انتقال المجيب إلى الأصل وإلى الاستدلال عليه في هذا المثال - لا يعد انتقالًا مذمومًا يوجب الانقطاع أو يخرج به على حكم الجدل والنظر، والانتقال الذي يقطع المناظرة هو الانتقال إلى مسألة خارجة لا تتعلق بالأصل الذي بدأ به المجيب مما يعد خروجًا عن الموضوع، فالانتقال - كما يقول الشيخ - محمود تستدعيه ضرورة الحوار وضرورة ترابطه، ومذموم يخرج بالمتناظرين عن محل المناظرة ويقطع حكم الجدل، وقاعدة الشيخ في ذلك: «أن كل ما تعلق ذكره بنصرة ما ابتدأ به أولًا - سائلًا أو مجيبًا - فتلك استقامة على حكم النظر واستمرار على رسم الجدل»(١٧).

وعند الشيخ: أن انتقال إبراهيم - عليه السلام - مع نمروذ من إحياء الموتى إلى الإتيان بالشمس من المغرب - انتقال محمود في الجدل؛ لأن إبراهيم - عليه السلام - حين انتقل في مناظرته لنمروذ من موضوع إحياء الموتى إلى موضوع الإتيان بالشمس من المغرب؛ فلأن النمروذ كان عاجزًا عن فهم ما أراده إبراهيم - عليه السلام - مما دفعه إلى أن ينتقل به إلى موضوع آخر قطع عليه فيه حجته، فهذا الانتقال غير مذموم سواء فعله السائل أو المجيب؛ لأنه رجوع عما يشكل على السائل أو المجيب - بسبب تبلده وغفلته إلى ما يسهل إدراكه، ويتضح معناه، ويكون مفهومًا لدى الطرفين(١٨).

٢- [كل دليل دل على صحة حكم دل على فساد ضده]:

إن كل دليل يدل على صحة حكم، فهو يدل في الوقت ذاته على فساد ضد هذا الحكم، والعكس صحيح كذلك، أي: إذا دل على فساد حكم، فإنه يدل على صحة ضده، ويفسر الأشعري «الضدية» بأنها: «الأمران اللذان لا يصح أن يجتمعا في صحة أو فساد». أي: لا يكونان صحيحين معًا ولا فاسدين معًا. ومعنى التضاد في كلام الأشعري: مراد به «التناقض» بالمعنى المنطقي، وهو: «الأمران اللذان لا يجتمعان معًا ولا يرتفعان معًا». ومن البديهي: أن الدليل لو أثبت أحدهما، فإنه - وبنفس القوة - ينفي الآخر(١٩).

٣- [الدلالة على المنكر وعلى المثبت]:

إن كلام المدعي المثبت والمنكر النافي - تلزمه البينة على ما يقول، وذلك لأن المثبت يعتقد أن مذهبه حق ومذهب خصمه باطل، والشيء نفسه يدعيه المنكر الذي يقف على الطرف الآخر من المناظرة، وحقيقة الأمر: أن كلا من المتناظرين يقدم بين يديه دعوى معينة، وسواء كانت هذه الدعوى إثباتًا أو نفيًا، فإنها تحتاج إلى استدلال، ومن هنا كان على المثبت أن يستدل، وكان على المنكر أن يستدل أيضًا، ويعلل الأشعري ذلك، بأنه لولا هذا الاعتبار لكان لكل من المتناظرين أن يهرب من الاستدلال ويلقي بتبعته على خصمه وذلك بأن يسوق دعواه في صورة سالبة، فللقائل بقدم العالم - مثلًا - أن يقول: إنه ليس حادثًا، وهذا إنكار ولا تلزمني الحجة، والشيء نفسه يمكن أن يقوله القائل بالحدوث فها هنا تتساقط الحجج، وتفقد المناظرة كل قيمتها، ولولا هذا الاعتبار - أيضًا - لكان للماديين الملحدين أن يهربوا من الاستدلال على إنكارهم للقضايا الميتافزيقية، ويلزموا الإلهيين بمؤنة الإثبات، مع أن المادي الملحد حين ينكر إنكارًا قاطعًا وجود الإله مثلًا، فإن إنكاره هذا يشتمل - ضمنًا - على دعوى مثبتة، هي أنه أحاط بهذا الوجود، ولم يجد هذا السبب المجرد من الماديات، وهذه الإحاطة لا بد لها من دليل، فالدليل على المثبت والمنكر على السواء(٢٠).

٤- [متى يعارض الخصم خصمه بمذهب باطل]:

للخصم أن يعارض خصمه بمذهب باطل عنده إذا كان يريد أن يدفعه عن مذهب باطل في نظر المعارض، أمّا لو كان يريد أن يدعو خصمه ليقول بقول صحيح عند المعارض، فإنه لا يصح له أن يعارض خصمه إلا بما يعتقده حقًا من مقالة أو رأي، وهذا أيضًا من باب الإنكار والإثبات، فالموقف الأول موقف سلبي، الهدف منه صرف الخصم عن مذهب باطل فلا حرج على صاحبه لو عارضه بمذهب باطل عنده أيضًا(٢١).

أما الموقف الثاني: فهو موقف إيجابي يطلب السائل فيه من خصمه أن يتقلد رأيًا أو يقول بقول معين، ومثل هذا الموقف لابد له من مسوغات حقيقية تدعو إليه، والمعارضة بمذهب باطل لا تكون مسوغا لإثبات عقيدة أو إثبات مقالة أو رأي، وهذا - فيما أعتقد - من أدق الفروق الفاصلة بين الجدل الأرسطي والجدل عند الأشعري.

٥- [الافتراق والاختلاف]:

يؤثر الافتراق والاختلاف إذا وردا على موضع الجمع، فقد يجمع بين شيئين يتفقان في حكم ويختلفان في حكم آخر، ويتحقق الطعن من السائل إذا راى أن هذين الشيئين يفترقان في الموضع الذي جمعهما فيه المجيب(٢٢).

(يتبع)

(١٧) م.ن: اللوحة١٤٩/أ) ٣٠٦.
(١٨) م.ن.
(١٩) م.ن: (اللوحة١٤٩/ب) ٣٠٧.
(٢٠) وانظر أيضًا فلسفتنا لمحمد باقر الصدر: ١٨٤.
(٢١) المجرد،لابن فورك (اللوحة ١٥٠/أ) ٣٠٧.
(٢٢) م.ن: (اللوحة ١٤٨/ ب) ٣٠٨.

الحق لا يضاد الحق

الدين والفلسفة فى فكر فلاسفة المسلمين



أ. د. محمود حمدى زقزوق
عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف

تمهيد:

من المقولات القديمة الشائعة: «الفلسفة بنت الدين وأم العلوم».. والذى يتأمل مسيرة الفكر الإنسانى منذ فجر التاريخ يتضح له ـ على وجه العموم ـ مدى صدق هذه المقولة.. فالدين «مطلق دين» أسبق من كل الفلسفات ومن كل العلوم.. وقد انبثقت الفلسفة فى البداية من التأمل فى قضايا الدين.. وفى حضن الفلسفة نشأت العلوم المختلفة نظرية وعملية، وأدى ذلك على مدى العصور إلى بناء الحضارات واكتساب المزيد من المعارف فى مختلف مجالات العلوم والفنون.

وقد كانت هذه المراحل ـ ولاتزال ـ متداخلة مع بعضها، فلم تلغ أى منها ما قبلها أو تؤدى إلى الاستغناء عنها.. فالدين كان ولايزال وسيظل إلى آخر الزمان من الحاجات الفطرية للإنسان التى لا يمكن التخلى عنها فى أى مرحلة من مراحل التاريخ.. والفلسفة تعد أيضًا من الحاجات العقلية التى لا تنفصل عن طبيعة العقل الإنسانى المتطلع دومًا إلى البحث عما وراء هذا الكون المنظور(١).. أما العلم بجميع فروعه المختلفة وتطوراته المتلاحقة ونجاحاته الباهرة فقد أصبح ضرورة من ضرورات الحياة الإنسانية، وجزءًا لا يتجزأ من مسيرة الحضارة البشرية.. فالتكامل قائم بين هذه المراحل، ولا يتصور أن تكون هناك قطيعة بين مرحلة وأخرى.. ولكن هذا التطور فى تاريخ البشرية لم يكن بطبيعة الحال عامًا ولا شاملا، ولم يكن يسير على وتيرة واحدة فى مختلف بقاع الأرض.. فهناك ظروف وملابسات وأسباب عديدة جعلت هذا التطور يسير سيرًا حثيثًا فى بعض

١ـ لقد عبر عن ذلك الفيلسوف الألمانى الشهير (إيمانويل كانت) فى بداية كتابه (نقد العقل الخالص) بقوله: «إن للعقل الإنسانى قدرًا خاصًا فى ضرب من ضروب معارفه، من حيث إنه مثقل بمسائل لا يستطيع أن يتفاداها، لأنها معطاة له فى طبيعة العقل ذاته، ولكنه لا يستطيع أيضًا أن يجيب عنها لأنها تتجاوز كل قدرات العقل الإنسانى» راجع كتابنا: دراسات فى الفلسفة الحديثة ص ٢٠٨ ـ دار الفكر العربى ـ ١٩٩٣م.

البقاع، ويسير ببطء شديد فى بقاع أخرى.. وهذا أمر يلحظه المرء حتى فى عصرنا الحاضر.

وليس من غرضنا هنا أن نخوض فى هذا الموضوع الذى يخرج عن نطاق هذا المقال.. ولكننا سنشير فقط بإيجاز شديد إلى الحالة الفكرية لدى العرب قبل ظهور الإسلام، وإلى التطورات التى طرأت على هذه المنطقة من العالم بعد ظهور الإسلام.. وسيكون التركيز بطبيعة الحال على التطورات الفلسفية.

الحالة الفكرية لدى العرب قبل الإسلام:

لقد كان العرب قبل الإسلام يدينون ـ فى الأعم الأغلب ـ بديانات وثنية، ولم يكونوا على علم بالفلسفة بالمعنى الدقيق، وإنما كانت لهم نظرات فلسفية متناثرة فيما خلفوه لنا من نثر وشعر، ولكنها كانت ـ كما يقول الشهرستانى ـ «من فلتات الطبع وخطرات الفكر»(٢) ولم تكن نتيجة تأملات عقلية فلسفية منظمة.. وفى ذلك يقول أيضًا صاحب «طبقات الأمم» القاضى أبو القاسم صاعد بن أحمد: «وأما علم الفلسفة فلم يمنحهم الله عز وجل شيئًا منه ولا هيأ طباعهم للعناية به»(٣).

ويمكن القول بأن ما خلفوه لنا من تراث فكرى لم يكن يتعدى طور الفطرة، فلم يكن لديهم اهتمام بالتعليل أو محاربة التقليد والخرافات أو البحث عن العلاقة بين المقدمات والنتائج فيما كان منتشرًا لديهم من آراء وأقاصيص(٤).

دور الإسلام فى تطوير الفكر الفلسفى:

وبعد أن جاء الإسلام وأشرق نوره فى بلاد العرب بعث فيهم حياة جديدة، ونقلهم إلى أفق فسيح من العلم والمعرفة، وأصبحوا دعاة هداية وسلام، وأقاموا صرح دولة عظمى تمتد من أقصى الصين شرقًا إلى أقصى الأندلس غربًا، وأنشأوا حضارة زاهرة كانت من أطول الحضارات عمرًا فى التاريخ.

والفلسفة ـ كما هو معروف ـ تعتمد على العقل.. واتجاه مفكرى المسلمين منذ البواكير الأولى للحضارة الإسلامية إلى الاشتغال بالفلسفة كان منطلقًا من حقيقة ثابتة تتمثل فى تأكيد الإسلام على الدور الفاعل والمؤثر للعقل الإنسانى فى حياة الأفراد والجماعات.. فقد كان اهتمام الإسلام بالعقل ودوره واضحًا منذ بداية الوحى الإلهى على محمد ﷺ الذى ركز فى الآيات الخمس الأولى على مفاتيح العلم، ولا علم بدون عقل يفهم ويعى ويدرك.

ومن أجل ذلك لم يقتصر الأمر على التنبيه إلى مفاتيح العلم، وإنما اهتم الإسلام اهتمامًا كبيرًا بتمهيد الطريق أمام العقل الإنسانى وإزالة كل العقبات من طريقه حتى يستطيع أن يقوم بدوره كاملا فى الحياة.. ومن الأمور المهمة التى اتخذها الإسلام فى هذا الصدد نشير بصفة خاصة إلى الأمور الأربعة التالية:

• أولاً: رفض الإسلام التبعية الفكرية

٢ـ الملل والنحل للشهرستانى جـ ٢ ص ٦٠ ـ دار المعرفة بيروت ١٩٨٢م.
٣ـ تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية للشيخ مصطفى عبدالرازق ص ٣١ وما بعدها ـ مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٦م.
٤ـ تاريخ الفلسفة العربية للدكتور جميل صليبا ص ١٦،١٥ ـ دار الكتاب اللبنانى ١٩٧٣م.

والتقليد الأعمى فى شتى صوره وأشكاله، إذ يعد التقليد بمثابة إلغاء للعقل وقضاء على شخصية الفرد، وكبت لقدراته وامتهان لكرامته.. والإشارات الواردة فى القرآن الكريم والسنة النبوية فى هذا الصدد كثيرة ومتنوعة.

- ثانيًا: القضاء على الدجل والشعوذة والاعتقادات فى الخرافات والأوهام وإبطال الكهانة وتفسير الأحداث بغير أسبابها الحقيقية.. وقد ظهر ذلك بوضوح عندما أشار بعض الصحابة إلى تفسير كسوف الشمس عقب وفاة إبراهيم ابن النبى عليه الصلاة والسلام بأنه مشاركة للنبى فى الحزن على وفاة فلذة كبده.. وقد واجه النبى الكريم ذلك بحسم قاطع قائلا: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يكسفان ولا يخسفان لموت أحد ولا لحياة أحد».

- ثالثًا: تركيز الإسلام على المسئولية الفردية التى تقوم على أساس حرية الفرد واطمئنانه إلى حقوقه فى الأمن على نفسه وعقله ودينه وماله وعرضه.

- رابعًا: تحرير المؤمن من الخوف من أى سلطة دينية أو دنيوية، والارتفاع به إلى مرتبة العزة التى كتبها الله لنفسه ولرسوله وللمؤمنين فى قوله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾

(المنافقون: ٨)

وبهذا أطلق الإسلام سلطان العقل من كل ما كان يقيده، وخلصه من كل تقليد كان يستعبده.. وبهذا تم للإنسان بمقتضى دينه - كما يقول الشيخ محمد عبده أيضًا - أمران عظيمان طالما حرم منهما وهما استقلال الإرادة واستقلال الرأى والفكر(٥).

وقد كان لهذا الموقف الأساسى للإسلام من العقل أثره العظيم فى صياغة العقلية الإسلامية والحضارة الإسلامية.

جهود مفكرى المسلمين:

وفى هذه الأجواء الخصبة ازدهرت العلوم والمعارف على اختلاف أنواعها، وأسهم المسلمون فى الجهود الفلسفية، فنقلوا فلسفة اليونان وتفلسفوا، وأصبحت لهم فلسفة تحمل طابعهم وتميزهم عن غيرهم.

وعلى الرغم من احتفاء الفلاسفة المسلمين بالفلسفة اليونانية وتأثرهم بها فإنهم لم ينسوا قط عقيدتهم التوحيدية، ولم يتخلوا عن شيء من ثوابتها، بل حافظوا عليها، وحاولوا التوفيق بينها وبين الفلسفة اليونانية، ورفضوا ما لا يتفق مع الأصول الإسلامية.

وقد وضع الفيلسوف ابن رشد قاعدة عامة فى هذا الصدد لا ترفض شيئًا لمجرد الرفض أو لأنه صادر عن الآخر المختلف معنا عقديًا، ولا تقبل أيضًا شيئًا إلا بعد فحص وتدقيق. فبعد أن يؤكد ابن رشد أن الشرع قد أوجب النظر بالعقل فى الموجودات واعتبارها يقول: «يجب علينا إن ألفينا لمن تقدمنا من الأمم السالفة نظرًا فى الموجودات واعتبارًا لها بحسب ما اقتضته شرائط البرهان أن ننظر فى الذى قالوه من ذلك وما أثبتوه فى كتبهم، فما كان منها موافقًا للحق قبلناه

٥. رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده ص ١٣٣ - دار إحياء العلوم، بيروت ١٩٧٩ م.
راجع أيضا كتابنا: مقدمة فى الفلسفة الإسلامية ص ٣٣ - ٣٥ دار الفكر العربى ٢٠٠٣ م.

منهم وسررنا به وشكرناهم عليه، وما كان منها غير موافق للحق نبهنا عليه وحذرنا منه وعذرناهم»(٦).

وقد ازدانت الحضارة الإسلامية بأعلام من ألمع المفكرين فى المجال الفلسفى من أمثال الكندى والفارابى وابن سينا والغزالى فى المشرق العربي، وابن باجة وابن طفيل وابن رشد فى المغرب العربى والأندلس.

وإذا كان المسلمون قد نقلوا الفلسفة اليونانية إلى العربية فإنهم قد برهنوا على قدرتهم على هضمها والإضافة إليها، ونقد ما فيها من قصور، مدركين فى الوقت نفسه أن الفكر الفلسفى فكر متطور وليس فكرًا جامدًا.. فالبناء الفلسفى بناء تشترك فيه الأجيال، ويضيف إليه كل جيل شيئًا جديدًا يمهد به السبيل لمن يجيء بعده.. فالكلمة الأخيرة فى الفلسفة لم يقلها جيل بعينه، وإلا أصيب الفكر بالجمود وحكم عليه بالعقم الأبدي.. وفى هذا الصدد يقول أبو بكر الرازي: «اعلم أن كل متأخر من الفلاسفة إذا صرف همته إلى النظر فى الفلسفة وواظب على ذلك واجتهد فيه، وبحث عن الذى اختلفوا فيه لدقته وصعوبته علم علم من تقدمه منهم، وحفظه، واستدرك بفطنته وكثرة بحثه ونظره أشياء أخري، لأنه مهر بعلم من تقدمه، وفطن لفوائد أخرى واستفضلها، إذ كان البحث والنظر والاجتهاد يوجب الزيادة والفضل»(٧).

ولاشك فى أن تأكيد الإسلام على عقيدة التوحيد وختم النبوة وتوقف الوحي السماوى بعد وفاة الرسول ﷺ، كانت كلها مؤشرات تعطى للعقل الإنسانى الدافع للاعتماد على نفسه فى كل ما لم يرد فيه نص ديني، ومن هنا كان مبدأ الاجتهاد، الذى يعنى الاعتماد على العقل فى استنباط الأحكام الشرعية، ولكن يجوز أن يفهم الاجتهاد على أنه قاصر فقط على استنباط الأحكام الشرعية، بل يمتد ليشمل كل مجالات الحياة.. ومن هنا اعتبر المفكر الإسلامى المعروف محمد إقبال أن الاجتهاد يعد مبدأ الحركة فى بناء الإسلام(٨).

ومن المبادئ الإسلامية التى كان لها دورها الواضح فى الحركة الفلسفية فى الإسلام مبدأ «الوسطية».. فالإسلام إذ يبتعد بتعاليمه السمحة ومبادئه السامية عن أى شكل من أشكال التطرف فى الفكر أو فى السلوك فإنه يهدف إلى إحداث التوازن فى حياة الفرد والمجتمع.. وقد ضرب النبى ﷺ المثل الأعلى والنموذج الأمثل فى هذا الصدد، وذلك فى حديثه المشهور حين رد على الذين يشددون على أنفسهم فى عباداتهم أو فى سلوكهم قائلاً: «والله إنى لأتقاكم لله وأخشاكم له، ولكنى أصلى وأرقد وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء.. وهذه سنتى فمن رغب عن سنتى فليس منى»(٩).

ولم تكن هذه الوسطية قاصرة على مجال

٦. فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال لابن رشد ص ١٤ ،١٧ (ضمن كتاب: فلسفة ابن رشد) دار الآفاق الجديدة - بيروت ١٩٨٢ م.
٧. أنظر: مناهج العلماء المسلمين فى البحث العلمي للدكتور فرانتز روزنتال ص ١٨٥ - ترجمة أنيس فريحة - دار الثقافة بيروت ١٩٨٠ م.
٨. تجديد التفكير الديني فى الإسلام للدكتور محمد إقبال - ترجمة عباس محمود ص ١٤٤، ١٧٠ القاهرة ١٩٦٨ م.
٩. أنظر نص هذا الحديث فى صحيح البخاري مرويا عن أنس بن مالك (كتاب النكاح)

الأخلاق باعتبار الفضيلة وسطًا بين رذيلتين، أو إحداث التوازن بين مطالب الجسم ومطالب الروح، وإنما تمتد إلى مجالات أخرى عديدة في الحياة الإسلامية، بل تمتد لتشمل العلاقة بين الدين والفلسفة أو بتعبير ابن رشد «بين الشريعة والحكمة»، وهذا ما سنفصل القول فيه في السطور التالية:

الدين والفلسفة في فكر فلاسفة المسلمين:

يحرص الإسلام أشد الحرص على ألا يكون هناك نزاع أو تناقض بين العقل والدين، فكلاهما من مصدر واحد، قد خلقهما الله لهداية الإنسان وإرشاده في دينه ودنياه، وكلاهما أثر من آثار الكامل وهو الله، وآثار الكامل لا يناقض بعضها بعضا.

ومن هنا فإنه لا يجوز من وجهة النظر الإسلامية وضع المسألة على أساس أن هناك خصومة بين الدين والعقل، وأن الإنسان في موقف الاختيار بينهما، فهما عنصران جوهريان يتلازمان ولا يتناقضان، والإنسان في حاجة إليهما معا، والدين الصحيح لا يمنع العقل البشرى من التفلسف ومن حقه في الفهم والتفكير في ملكوت السموات والأرض، وإنما يدفعه إلى ذلك دفعا، ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر قوله تعالى:

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوْمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(سورة الجاثية: ١٣).

ولكن ذلك لم يمنع أعداء الفلسفة - وهم في الأعم الأغلب من أعداء التفكير العقلي - من افتعال خصومة بين الدين والفلسفة[١٠].

إن الإسلام يعتبر العقل مناط إنسانية الإنسان وجوهرها، فإذا عطل بالجهل والغفلة والعمى مسخت بشرية الإنسان وهبط بذلك إلى مرتبة أدنى من مرتبة الحيوان وفي ذلك يقول القرآن الكريم عن هؤلاء الذين يعطلون ما وهبهم الله لهم من أدوات الإدراك الحسية والعقلية بأنهم أناس قد تنازلوا عن إنسانيتهم وارتضوا لأنفسهم أن يكونوا في مرتبة أدنى من مرتبة الحيوان وصدق الله إذ يقول:

﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾

(الأعراف: ١٧٩)

وقد كان لفكرة الوسطية وروح الاعتدال التي تنطوي عليها تعاليم الإسلام أثرها العظيم في سريان هذه الروح وانتشار هذه الفكرة في الحضارة الإسلامية بصفة عامة، وفي الثقافة الفلسفية بصفة خاصة ولهذا رأينا الفلاسفة المسلمين يتجهون في فلسفتهم إلى تأكيد التوافق بين الدين والفلسفة، وبيان توافق المصدرين:

- مصدر الدين وهو الوحي.
- مصدر الفلسفة وهو العقل - في المعرفة والوصول إلى الحقيقة وقد اتخذ ذلك لديهم صورا عديدة.

فقد ذهب الكندي - وهو أول فيلسوف مسلم (ت ٢٥٢هـ) - إلى تحديد معنى الفلسفة بأنها «علم الأشياء بحقائقها بقدر الطاقة الإنسانية»، واعتبر الفلسفة الأولى - التي هي علم الحق الأول الذي هو علة كل حق - أشرف أنواع الفلسفة وأعلاها مرتبة وأرجع هذا الشرف إلى أن شرف العلم من شرف موضوعه، وأن العلم بالعلة أعلى درجة من العلم بالمعلول، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن العلم بالعلة سبيل إلى العلم التام بالمعلول[١١].

أما الفارابي (ت ٣٣٩هـ) الذي يلقب بالمعلم الثاني فقد كان يرى أن الفلسفة على الحقيقة هي القسم الإلهي، ويؤكد في مواضع كثيرة أن «الحكمة - ويعني بها الفلسفة - هي معرفة الوجود الحق» وأن الغاية التي يقصد إليها في تعلم الفلسفة هي معرفة الخالق تعالى كما كان يرى أيضا أن الفلسفة الصحيحة لا تتناقض مع الدين الصحيح، فإن بدا هناك بعض النفور أو التناقض بين الطرفين، فما ذلك إلا لأن النظام الفلسفي الذي تناقض مع الدين يعتبر نظاما واهيا لم تكتمل فيه البراهين المؤدية إلى اليقين فالحقيقة واحدة لدى الفارابي، ولكن الطرق إليها متعددة[١٢].

فإذا انتقلنا إلى ابن سينا (الشيخ الرئيس ت٤٢٨هـ) نجد أنه يذهب إلى القول بأنه لا يوجد في أقسام الحكمة (أي الفلسفة) ما يخالف الدين ويتعارض معه، ويرجع ابن سينا ضلال أدعياء الفلسفة عن منهاج الشرع إلى قصور في تفكيرهم أو عجز في أفهامهم وفي ذلك يقول: «لقد ظهر أنه ليس شيء منها (أي من الفلسفة) ما يشتمل على ما يخالف الشرع، فإن الذين يدعونها ثم يزيغون عن منهاج الشرع إنما يضلون من تلقاء أنفسهم ومن عجزهم وتقصيرهم لا أن الصناعة نفسها «أي الفلسفة» توجيه، فإنها بريئة منهم»[١٣].

أما ابن رشد (ت ٥٩٥هـ) فقد تناول بالمقارنة العامة الخطوط الأساسية لكل من الدين والفلسفة رغم اختلاف منهجيهما، وبين في كتابه «فصل المقال» اتفاق الدين والفلسفة قائلا:

«فإنا - معشر المسلمين - نعلم على القطع أنه لا يؤدي النظر البرهاني إلى مخالفة ما ورد به الشرع، فإن الحق لا يضاد الحق، بل يوافقه ويشهد له»[١٤] ويقول أيضا: «الحكمة صاحبة الشريعة والأخت الرضيعة.. وهما المصطحبتان بالطبع المتحابتان بالجوهر والغريزة»[١٥].

ويتحدث ابن رشد عن الأقاويل الشرعية في القرآن الكريم وما تشتمل عليه من خصائص تدل على إعجازها فيقول:

«إن الأقاويل الشرعية المصرح بها في الكتاب العزيز للجميع لها ثلاث خواص دلت على الإعجاز: إحداها: أنه لا يوجد أتم إقناعا وتصديقا للجميع منها، والثانية: أنها تقبل النصرة بطبعها إلى أن تنتهي إلى حد لا يقف

١٠. يراجع في ذلك: قصة النزاع بين الدين والفلسفة للدكتور توفيق الطويل ص ١٠٥ وما بعدها مكتبة مصر ط ثانية

١١. د. محمد عبدالهادي أبوريدة: الكندي وفلسفته ص ٤٤ - دار الفكر العربي ١٩٥٠م.
١٢. تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٧٨، وتأملات في الفكر الإسلامي ص ٣٠٤ وما بعدها
١٣. تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص٦١
١٤. فصل المقال ص ١٩
١٥. المرجع السابق ص ٣٨

على التأويل فيها - إن كانت مما فيه تأويل - إلا أهل البرهان، والثالثة: أنها تتضمن التنبيه لأهل الحق على التأويل الحق.»([16]).

وهذه النصوص تبين لنا بما لا يدع مجالا للشك أن ما اتهم به ابن رشد من القول بالحقيقة المزدوجة بمعنى أن ما هو حق من الناحية الفلسفية قد يكون باطلا من الناحية الدينية وأن التناقض بين العقيدة والمعرفة أمر لا يمكن تفاديه - اتهام باطل لا أساس له من الصحة – روجت له الرشدية اللاتينية في أوروبا في العصور الوسطي، واتخذت من ابن رشد كبش فداء في حربها مع الكنيسة آنذاك. ولايزال البعض في أوروبا وفي عالمنا العربي حتى يومنا هذا يتبنى هذا الرأى الباطل. فقد كان من الواضح منذ البواكير الأولى للفكر الإسلامي أن الدين والفلسفة - التي تقوم على العقل الصحيح - يتعانقان ويتجاوران في عقول فلاسفة الإسلام. وقد كان المنطق الأساسي لديهم هو ما يمكن أن يطلق عليه وحدة الحقيقة في الإسلام.»([17]).

أما الإمام الغزالي (ت ٥٠٥ هـ) الذي اتهم خطأ بأنه عدو الفلسفة وأنه تسبب في انهيارها في العالم الإسلامي منذ أن ألف كتابه (تهافت الفلاسفة) - فقد كان حريصًا كل الحرص على ضرورة الحفاظ على وحدة العقل والدين (وإن كان لم يذكر الفلسفة في هذا الصدد باللفظ. فالفلسفة تعتمد أساسا على العقل - كما هو معلوم -) فالإنسان - كما يقول - لا يستطيع أن يستغني عن الدين أو العقل. وفي ذلك يقول: «اعلم أن العقل لن يهتدي إلا بالشرع، والشرع لم يتبين إلا بالعقل، فالعقل كالأساس والشرع كالبناء ولن يغني أساس ما لم يكن بناء ولن يثبت بناء ما لم يكن أساس.. فالشرع عقل من خارج، والعقل شرع من داخل، وهما متعاضدان بل متحدان»([18]).

ولم يتراجع الغزالي عن موقفه هذا بعد أن تحول إلى التصوف، بل إنه يعيب على بعض المتصوفة الذين يرفضون العقل والمعقول ظنا منهم أن العقل هو مجرد المنطق والجدل، ويقول موضحا خطأ هذا الزعم:

«فاعلم أن السبب فيه (أي في إنكار العقل) أن الناس نقلوا اسم العقل والمعقول إلى المجادلة والمناظرة بالمناقضات والإلزامات وهو صنعة الكلام. فأما نور البصيرة الباطنة التي بها يعرف الله تعالى ويعرف صدق رسله فكيف يتصور ذمه؟. وإن ذم فما الذي بعده يحمد؟ فإن كان المحمود هو الشرع فبم علم صحة الشرع؟ فإن علم بالعقل المذموم الذي لا يوثق به فيكون الشرع أيضا مذموما. ولا يلتفت إلى من يقول: إنه يدرك بعين اليقين ونور الإيمان لا بالعقل، فإنا نريد بالعقل ما نريده بعين اليقين ونور الإيمان، وهي الصفة الباطنة التي تميز بها الآدمي عن البهائم حتى أدرك بها حقائق الأمور. وأكثر هذه التخبيطات إنما ثارت من جهل أقوام طلبوا

١٦. المرجع السابق ص ٣٧، ٣٨.

١٧. انظر كتابنا مقدمة في الفلسفة الإسلامية ص١١٦ وما بعدها - دار الفكر العربي - ٢٠٠٣م.

١٨. معارج القدس في مدارج معرفة النفس للغزالي ص ٤٦ - المكتبة التجارية الكبرى.

الحقائق من الألفاظ.»([19]).

وقد تجنب الغزالي في مسألة العلاقة بين الدين والعقل المبالغات المحتملة في هذا الصدد، وهي مغالاة المتكلمين والفلاسفة. فالمتكلمون أخضعوا العقل للدين، وغلاة الفلاسفة على العكس من ذلك أخضعوا الدين للعقل. وكلا الطريقين يؤديان إلى التناقض. ولكن الحقيقة هي أنهما (أي الدين والعقل) كما يقول الغزالي - متعاضدان بل متحدان، يتفقان في أقوالهما ويقر كل منهما الآخر، ولا يعزله بأي حال من الأحوال. ولهذا أيضا يرى الغزالي أنه لا يمكن أن يكون هناك تناقض بين العلوم الدينية والعقلية. فإذا اعتقد أحد أن الربط بينهما غير ممكن فإن ذلك يكون راجعا إلى عمى في البصيرة - كما يقول الغزالي: «وظن من يظن أن العلوم العقلية مناقضة للعلوم الشرعية وأن الجمع بينهما غير ممكن، ظن صادر عن عمى في عين البصيرة نعوذ بالله منه، بل هذا القائل ربما يناقض عنده بعض العلوم الشرعية لبعض فيعجز عن الجمع بينهما فيظن أنه تناقض في الدين فيتحير به، فينسل من الدين انسلال الشعرة من العجين»([20]).

وهكذا نرى أن فكر الغزالي يمثل وحدة متماسكة ويسيطر في كل مؤلفاته موضوع واحد هو الإنسان. وقد خلق كل من العقل والدين لإرشاد الإنسان وصلاحه وإنقاذه، وواجب الإنسان يحتم عليه أن يتمسك بهما معا، وإلا كان جاهلًا أو مغرورًا - كما يقول الغزالي: «فالداعي إلى محض التقليد (في الأمور الدينية) مع عزل العقل بالكلية جاهل، والمكتفي بمجرد العقل عن أنوار القرآن والسنة مغرور»([21])

خاتمة

لعله قد اتضح من خلال ما عرضناه بإيجاز شديد في الصفحات السابقة مدى حرص فلاسفة المسلمين على التمسك بثوابت الدين من ناحية، وعدم التخلي عن مقررات العقل من ناحية أخرى. فالتناسق قائم بينهما في الإسلام على نحو فريد لا نظير له في العقائد والمذاهب الفكرية الأخرى. وتعاليم الإسلام تتسع لكل الاجتهادات طالما كانت في إطار الدائرة الرحبة من صحيح المنقول وصريح المعقول. وليس هناك خوف على الإسلام ومبادئه من أي تيارات فكرية أو عقدية أيا كان مصدرها طالما فهم المسلمون دينهم على نحو سليم بعيدًا عن أي أغراض أو نوايا جانبية تريد أن تنحرف به يمينا أو يسارًا بما يتعارض مع وسطيته وسماحته.

وفي هذا المقام نود أن نؤكد ما أشار إليه الشيخ محمد عبده في قوله: «لقد اشتهر بين المسلمين وعرف من قواعد أحكام دينهم أنه إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه، ويحتمل الإيمان من وجه واحد، حمل على الإيمان ولا يجوز حمله على الكفر»([22]) وقد روي مثل ذلك أيضًا عن الإمام مالك - رضي الله عنه.

١٩. إحياء علوم الدين جـ ١ ص ٩٤.

٢٠. إحياء علوم الدين ٣/١٧.

٢١. إحياء علوم الدين ٣/١٦ - راجع كتابنا مقدمة في الفلسفة الإسلامية ص ١٠٣ - ١٠٩.

٢٢. الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية للشيخ محمد عبده ص ٥٣ - دار المنار بمصر ١٣٧٣هـ.

حقوق الإنسان في الإسلام من منظور معاصر



الدكتور محمد الشحات الجندي
عضو مجمع البحوث الإسلامية

من يقلب صفحات تاريخ حقوق الإنسان عبر المسيرة البشرية يهوله كم المآسي والفظائع التي ارتكبت في حق العديد من الأفراد والشعوب، فسجل هذه الحقوق حافل بالمعاناة والقمع ويشوبه العديد من المظالم والافتئات على هذه الحقوق بسبب ممارسات الأنظمة المستبدة التي هيمنت على شئون الحكم ومقاليد السلطة، نتيجة عدم الوعي أو المطالبة بهذه الحقوق، فقد كانت البشرية عبر عصور ممتدة غائبة أو مغيبة عن ثقافة حقوق الإنسان؛ بسبب ضعف أو جهل الأفراد والجماعات بمفهوم ومضمون حقوق الإنسان الذي ظل سائدا لدى الشعوب على امتداد مسيرة الأمم والعالم خلال قرون وأجيال عديدة كان فيها سجل حقوق الإنسان مثالا يتشح بالسواد لكثرة الانتهاكات والعدوان على هذه الحقوق.

وكانت الومضات المشرقة في الأزمان المتطاولة تأتي من خلال النبوة ورسالات السماء ومصلحين ومفكرين ساروا على الدروب مما مكن البشرية في عصور استثنائية أن تعرف أن لها حقوقا تجاه الحكام وأن البشر يتمتعون باستحقاقات الكرامة والعدالة والحرية وهي أسس الشخصية الإنسانية التي أبدعها الخالق سبحانه وتعالى، وحملتها تلك الرسالات السماوية، الأمر الذي أيقظ الأفراد والشعوب وغرس بذور الإصلاح والأمل في حاضر ومستقبل أفضل تعبر به البشرية هذا الموقف البائس لتشرق على العالم في تلك الحقب الاستثنائية آمالا كبارا حمل فيها الأنبياء والرسل مهمة تكريس هذه الحقوق باعتبارها أمورا فطرية وحقوقا طبيعية وجزءا لا يتجزأ من رسالاتهم التي بعثوا بها من أجل الهداية وحفظ مقومات الكيان البشري بما يحمي الشخصية الإنسانية روحيا واجتماعيا، وجاء الإسلام متوجا لهذه الحقوق له نصيب وافر في إرساء منظومة جامعة تحمي كيان الإنسان وتصون وجوده ضد أي اعتداء عليه من أي فرد أو جماعة أو سلطة وتحرره في مواجهة كل مخلوق باعتبار عبوديته لله وحده.

غير أن التحدي الأعظم الذي يتخذه خصوم الإسلام بشأن هذه الحقوق ويبرهن عليه المشهد الراهن في العالم الإسلامي هو الحالة المزرية التي يوجد عليها ويعامل بها الإنسان في المجتمعات الإسلامية بعد فترة الازدهار الإسلامي والعصر الذهبي إبان تطبيق المنظومة الإسلامية الشاملة، وترجمة المبادئ إلى حقائق معيشة وسلوكيات رشيدة يتعامل بها الناس، وليس مجرد الحديث النظري والفكري المسطور في النصوص الشرعية، التي يجدها المتابع والراصد لحال الإنسان في عالم المسلمين المعاصر في وادٍ والنصوص في وادٍ آخر، الأمر الذي يجافي الأوضاع التي يعيشها المسلم في هذا الزمان؛ مما مهد الطريق وسهل المهمة وأعطى ذريعة لأعداء الإسلام في التشكيك فيما جاء به الإسلام من حقوق وحريات قبل أن يقدم غير المسلمين أطروحاتهم ونظرياتهم حول حقوق الإنسان في الفكر الحديث، وهو ما يبرر توجيه سهام النقد ويضع النظم السياسية في العالم الإسلامي والنخبة في قفص الاتهام حول إحياء وبعث مبادئ وممارسات حقوق الإنسان وجعلها حقيقة معيشة في واقع المسلمين، بدلا من حصر الجهود في بيان النظرية والمبدأ حول هذه الحقوق دون أن تجد لها صدى في حياة الفرد والشعوب المسلمة في عالم اليوم، ومهما كان الأمر فإنه يبقى على الباحثين دوما أن يبرزوا فكر حقوق الإنسان في الإسلام بما يكشف عن إسهام الإسلام في هذا الجانب الرئيسي في الإسلام.

ويتجلى المنظور الإسلامي الأولى لإرساء وبعث هذه الحقوق في الاعتراف بخلافة الإنسان عن الله سبحانه وتعالى وقدرته على إعمار الأرض وتحقيق الحضارة وفي تحميله المسئولية دون سواه من الكائنات وفي تفضيل الإنسان على سائر المخلوقات وجعله سيد الكون وتسخير كل شيء له على نحو يحرر اختياره ويقرر مصيره ومستقبله، ويحظر تسلط أي قوة عليه أو مصادرة حقوقه وعدم خضوعه إلا لخالقه سبحانه وتعالى بموجب عبودية الإنسان لله وحريته تجاه أي قوى أو سلطة وهو الأساس المكين الذي يشكل محور ارتكاز حقوق الإنسان في الإسلام.

وإلى جانب رسالات السماء كان لجهود نفر من المفكرين والمصلحين دور ملحوظ في التبشير والمطالبة بتطبيق حقوق الإنسان كما يظهر في الإسهام الغربي الحديث في صناعة منظومة حقوق الإنسان على يد فلاسفة ومفكرين أمثال جون لوك، ومونتسكيو، وروسو، وغيرهم من المفكرين الذين كان لجهودهم أثر فاعل وملموس في العصر الحديث الذي يمكن نعته بأنه عصر حقوق الإنسان، والذي بلغ ذروته فيما أصدرته الأمم المتحدة في ١٢ ديسمبر سنة ١٩٤٨م من: الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي شكل نقلة نوعية في تقرير وتطوير مفاهيم حقوق الفرد والمجتمع في مواجهة تعسف السلطة ومظالم الحكام.

لكن لا يزال الجدل دائرًا بين خصوم الإسلام وأنصار حقوق الإنسان وتشكيكهم في إسهام الإسلام الحضاري في الاعتراف بهذه الحقوق، ولعل منشأ الإشكالية يبرز في غياب حقوق الإنسان في الواقع المعيش للعالم

الإسلامي الحديث، ووجود هذه الحقوق وتناميها في الواقع الغربي المعاصر، لكن لا أحد يتبنى الموضوعية بمقدوره أن ينكر ما جاء به الإسلام في بناء هذه الحقوق في العصور الوسطى من خلال ما قدمته الشريعة الإسلامية في الاعتراف بحق الإنسان في الحياة والكرامة والتفكير والحرية والمساواة والشورى، والتمكين في ممارسة هذه الحقوق عن اقتناع حتى حرية اختيار الدين تجاه الخالق سبحانه وفي تحرير الإنسان ورفضه الظلم والهوان وفي مقاومة الحكام المستبدين في نصوص ناصعة نسوق منها:

قوله تعالى:

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾

(البقرة: ٢٥٦)

وقوله تعالى:

﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾

(الكافرون: ٦)

وفيما جاء في الحديث القدسي: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا»[(١)] وقوله تعالى:

﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾

(آل عمران: ١٩١)

وقوله عز وجل:

﴿۞ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾

(الإسراء: ٧٠)

وقول الرسول ﷺ: «الناس سواسية كأسنان المشط»[(٢)].

ومقولة عمر بن الخطاب: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا».

وهو معنى أن الإنسان وُلد حرًا، ولكنه بسبب بعض الممارسات الظالمة مكبل بالأغلال.

وفي الفكر الحديث ما صاغ به جان جاك روسو في كتابه: (نظرية العقد الاجتماعي) التي تقرر حقوقا سياسية ومدنية بين الشعب والحاكم وتبرز حقوق المحكومين تجاه الحاكم.

بزوغ ثقافة حقوق الإنسان:

راج مصطلح حقوق الإنسان، وشاع على الألسنة وفي الأدبيات المعاصرة إلى الحد الذي أصبح معه عملة رائجة ومعلما للعلاقات بين الشعوب والحكام، وابتزازًا من بعض القوى العالمية وحتى صار يستخدمها كل مسئول وصاحب مصلحة حسب وجهته، ولكل وجهة هو موليها، ومنشأ ذلك الرواج والابتزاز أنه مصطلح أثير لدى المواطن والمجتمع والشعب، طالما تاقت إليه البشرية وناضلت من أجله على المستوى المحلي والدولي، بحسبانه مطلبا عزيز المنال، كافحت البشرية كثيرا في سبيل بلوغه والوصول إليه عبر قرون متطاولة من الآلام والآمال تضرب بجذورها في أعماق التاريخ، إلى حد بذل تضحيات جسام بحثا عن مستقبل أفضل للبشرية، إيمانا بقضية المصير الذي يتعلق بالوجود الإنساني وبكرامة الفرد والشعب، وبحقه في الحياة والحرية والكرامة تلك الحقوق اللصيقة بإنسانية الإنسان، وحماية كيانه ومقوماته

(١) حديث ١ بدء الوحي- صحيح البخاري.
(٢) حديث الإيمان- صحيح البخاري، حديث ٤١٦٦- الفتن- ابن ماجه.

البشرية التي فضله الله بها على سائر الأجناس والأنواع والكائنات لعظم المسئولية الملقاة على عاتقه في إعمار الكون وانتظام الحياة لتحقيق المقاصد الحضارية التي من أجلها خلق الله تعالى الإنسان والكون.

وقد خطت البشرية في عصرنا الراهن خطوات متقدمة على هذا الطريق، استجابة لنداءات المفكرين والرواد، وانصياعا لمطالب الأمم والشعوب في صياغة حياة أفضل وآفاق أرحب، ولا غرو أن تترجم هذه المطالبات والنداءات نحو هذا الهدف، وأن يجتمع القادة والمفكرون حول حتمية بلورة حقوق الإنسان، والاعتراف بها كحقوق عالمية وقواسم مشتركة تجتمع حولها الشعوب وتدافع عنها؛ ليتمتع بها الفرد والجماعة على السواء بلا تمييز بينهم بسبب الدين أو الجنس أو اللون أو اللغة، وأن يعمم هذا المفهوم على المستوى المحلي والصعيد العالمي، لكن ما كان يجدر بالقوى العالمية أن تتجاهل مبادئ وقيم حقوق الإنسان في الإسلام والأديان.

مفهوم حقوق الإنسان:

إن كلمة حقوق الإنسان كلمة عامة الإطلاق، وهي تعني الحقوق الثابتة لكل فرد بصفته الإنسانية، فهذه الفطرة الكامنة فيه التي تشكل كيانه، وتجسد ذاته البشرية تكسبه حقوقا فطرية- طبيعية- لا انفصال له عنها، ولا مجال لحرمانه منها؛ لكونها جزءا من آدميته، ونبعًا من قدس روحه، فهي لصيقة به متغلغلة في أعماقه، مترسخة في كيانه المادي والمعنوي مالكة عليه حياته.

وانطلاقًا من هذه القيمة الرفيعة لحقوق الإنسان وذيوع المصطلح في الأوساط الشعبية والرسمية وفي الخطاب المدني والأكاديمي والسياسي والدولي في ظل اختلاف الرؤى، وتباين المنحى الذي يتجه إليه الخطأ، وتنوع مفهوم حقوق الإنسان، وتعامل معه البعض على أساس هذا الشيوع والذيوع، فهو من الوضوح والظهور بما لا يجوز إنكاره أو تجاهله، وهو ما ترجمه الميثاق العالمي بما ورد في الديباجة: إن شعوب الأمم المتحدة تؤكد إيمانها بالحقوق الأساسية وبكرامة الفرد وقدره، وبما للرجال والنساء من حقوق متساوية.

وقد شاع إطلاق حقوق الإنسان على ما ينبغي الاعتراف به للأفراد من حقوق وحريات تجعلها الطبيعة الإنسانية الحد الواجب أن يتمتع به كل فرد، وتفرضها فرضا لازما ضمانا لحرية الأفراد من تحكم الدولة واستبدادها.

وبمعنى آخر، فهي الحقوق التابعة من إنسانية الإنسان[(٣)]. أو هي بمنظور آخر: امتيازات خاضعة لضوابط يحوزها الشخص، سواء في علاقاته مع أشخاص آخرين أو مع السلطة[(٤)].

وينازع البعض الآخر في إطلاق مصطلح الحقوق بالمعنى الدقيق على حقوق الإنسان بمقولة إنها تفقد مقومات الحقوق بالمعنى الدقيق؛ لأنه مفهوم يعم الكافة دون أن يختص بها البعض منهم على سبيل الاستئثار والانفراد فتسميتها حقوقا ليست- إذن- إلا من باب التجوز في التعبير، على أنهم نبهوا

(٣) د. محمد طلعت الغنيمي، قانون السلام في الإسلام- منشأة المعارف، ص٣٧٤.
(٤) موسوعة حقوق الإنسان الصادرة بمناسبة الذكرى الخمسين للإعلان العالمي لحقوق الإنسان، ص٢.

إلى أن هذه الحريات- أو الرخص العامة- تشبه الحقوق القانونية في أنها تعطي للأفراد سلطة معينة يسبغ عليها القانون حمايته ويصونها من أي اعتداء يقع عليها(٥).

ولعل منشأ هذه المنازعة راجع إلى أن شراح القانون الوضعي في تعريفهم للحق، أقاموه على عناصر لا تتحقق في طائفة حقوق الإنسان.

فمن تعريفات الحق أنه: تلك الرابطة القانونية التي بمقتضاها يخول القانون شخصا من الأشخاص على سبيل الانفراد والاستئثار بالتسلط على شيء أو اقتضاء حق معين من شخص آخر.

وقد يعرف الحق بأنه: قدرة أو سلطة إرادية يخولها القانون شخصًا معينًا يرسم حدودها، أو هو- أي الحق-: مصلحة يحميها القانون. وربما كان لهذه المنازعة وجاهتها، إذا علمنا أن حقوق الإنسان لا تخول صاحبها مكنة الانفراد والاستئثار ولا تقتضي التسلط على شيء أو اقتضاء أداء معين من شخص آخر، لكنها تكفل للفرد التمتع بحقوق تجاه السلطة العامة وإزاء أفراد المجتمع، دون أن تميزه عن سواه من أفراد أو تخصه بها، وغاية ما تفرضه من قيد على الدولة يتمثل في حماية حقه في ممارسة هذه الحقوق والحريات وعدم إهداره لها.

ولا يختلف تعريف الحق عند فقهاء الشريعة كثيرا عنه عند فقهاء القانون، ذلك أن الحق عندهم هو: مصلحة ثابتة للفرد أو المجتمع أو لكليهما معًا، أو هو مصلحة مستحقة شرعًا، أو هو اختصاص بمصلحة ومنفعة(٦).

ويقول آخر: فإن الحق كل ما هو ثابت ثبوتا شرعيا أي بحكم الشارع وإقراره، وكان له بسبب ذلك الحق في حمايته(٧).

فيشمل الحق بذلك الحقوق بالمعنى الدقيق، والمكنات الراقية لاستعمال حرية من الحريات العامة، أو الإباحة التي يسمح بها الشرع في شأن حرية من الحريات العامة، وأهم سمة للحق بمعناه الشامل أن الشرع يسبغ عليه حمايته، ويمد مظلته على صاحبه.

ونتبه هنا إلى أن الناظر الفاحص إلى حقوق الإنسان، يجد أن ما روج له الغرب بحسبان أنه مصطلح غربي، لم يستعمله الفقهاء المسلمون بذاته. وإنما وجدناهم يناقشون فكرة الحق بمفهوم متنوع، على أنه حق الله، وهو حق الجماعة، أو حق العبد وهو حق الفرد، أو حق مشترك بين حق الله وحق العبد، وينبغي أن يكون معلوما أن حقوق الإنسان ترتاد أفق الحق الأخير، فهو حق ذو طبيعة مزدوجة، حيث يتعلق به النفع العام للجماعة والنفع الخاص للفرد، لا فرق في ذلك بين أن نقول: إن حق الله- الجماعة- غالب، أو حق للعبد- الفرد- راجح، ودون الخوض في جدل حول هذه الطبيعة لحقوق الإنسان، فيمكن القول بأن ولوج حقوق الإنسان هذه المنطقة،

(٥) راجع حسن كيرة، أصول القوانين- ١٩٥٨، ص١٣٢.

(٦) في هذا الصدد نجد القرافي يقابل بين الحق وبين الرخصة فيتساءل: من يملك يعد مالكا أو لا؟ وهل يعد من انعقد له سبب المطالبة بالملك يعد مالكا أو لا. الفروق ج٣ القاهرة ٣٣.

(٧) علي الخفيف، الحق والذمة ١٩٤٥، ص٤٣ وما بعدها.

يضفي قيمة أكبر عليها، وينطوي على فاعلية أكثر، وإلزام أدق؛ لكونها تتمتع بخاصيتي الحقين، وتحوز النفعين للفرد والجماعة.

وهذا النظر في بيان المنطقة التي تدور في فلكها حقوق الإنسان، يؤكد على الطبيعة العبادية التي تضفي أكبر قدر من القوة الملزمة لحقوق الإنسان في الإسلام؛ لأن النظام القانوني في الشريعة يتأسس على الوحدة لا الثنائية، فلا يوجد نظام بعينه في النظام المحلي أو الداخلي، وآخر في النطاق الخارجي أو الدولي، وإنما هو نظام قانوني واحد يتمتع بخاصية الإلزام يطبق في المجال الإقليمي والدولي، ويجب على الجميع فردا كان أم سلطة الخضوع له، والالتزام بمقرراته، ويستوي في ذلك حق الله أو حق العبد، الحق المشترك؛ لأن هذه القواعد وتلك الحقوق مستمدة من الشريعة إما نصا أو اجتهادا وأن كليهما مصدر شرعي معتبر.

ورغم سطوع هذه الحقيقة حول مكانة حقوق الإنسان في الإسلام، إلا أننا وجدنا أن واضعي الإعلان العالمي لحقوق الإنسان قد أسقطوا إسهام الشريعة في هذا المجال، بل إنهم غيبوا المبادئ الإسلامية، وتحاشوا الإشارة إليها أو الاعتماد عليها، مع أن الشريعة- باعترافهم- أحد الأنظمة القانونية الرئيسية في العالم جنبا إلى جنب مع النظم القانونية اللاتينية والأنجلوأمريكية، والجرمانية والشيوعية(٨).

وهم بذلك قد اختزلوا القانون الدولي في الفقه اللاتيني والأنجلوأمريكي وحرموا العالم من إسهام الشريعة الإسلامية في قضية محورية تتعلق بكيان الإنسان، فكان أن وصم الإعلان بمثالب عدم الفاعلية، ونقص القوة الملزمة، والاستعانة بالمبادئ الإلزامية والأخلاقية التي انطوت عليها القواعد الإسلامية، وبذلك فقد تجاهلت النظرية الغربية ممارسات رائدة في هذا المجال، وأهملت التجربة الإسلامية في تطبيق هذه الحقوق والحريات في العصر الأول بدلا من التطبيق الحديث المتمثل في الطريقة التحكمية، وبمعايير ازدواجية **double Standard** نفعية، وبنظرة مادية متعصبة منحازة للجنس الأوربي على حساب الجنس العربي والأجناس الأخرى التي تنتمي إليها شعوب الجنوب أو العالم الثالث.

الإنسان في المنظومة الإسلامية:

جاء الإسلام بمنظومته العقائدية والتشريعية والأخلاقية والحضارية من أجل الإنسان بغرض تنظيم حياته وإصلاح أحواله في الدنيا والدين، إيمانا بأن في صلاحه صلاحا للدنيا والدين، وفي اعوجاجه اختلالًا لنظام الاجتماع وفساد الكون وتخريب العمران؛ لذلك ارتكزت أركان المنظومة الإسلامية على الفرد، تتوخى بناء شخصيته وإقامة صرحه على نسق متوازن ومتكامل، بغرض تحقيق مصلحته واستقامة حياته، وهو ما يبدو في الخطاب القرآني الذي جاءت مفردات الإنسان والناس في العديد من النصوص حتى أفردت سورة كاملة في

(٨) اعتبر مؤتمر القانون المقارن المنعقد في لاهاي بهولندا سنة ١٩٣٧م أن الشريعة الإسلامية مصدر من مصادر التشريع العام وأنها حية قابلة للتطور، وأنها شرع قائم بذاته ليس مأخوذا عن غيره. تاريخ التشريع الإسلامي، السايس والسبكي والبربري ص٣٥٢، ٣٥٤.

القرآن الكريم باسم الإنسان، وهو ما يؤكد على حقيقة أن هذا الإنسان أو هؤلاء الناس موضع تقدير، وبرهان اعتبار، وحيثية اهتمام على المعاملة الطيبة الجديرة بأن تتعامل بها السلطات مع الشخصية الإنسانية بما يعني تقرير حقوق لصالحه مقرونة بواجبات يلتزم بها من أجل أخيه الإنسان وانتظام المجتمع وهو ما يضمن استمرار المسيرة الإنسانية بما يحقق نفع الجميع ويرتقي بالحياة في عالم أرحب وأجواء من الكرامة أوسع.

ونقطة البداية في هذه المنظومة تتحصل في تميز الإنسان واستحقاقه لمقام العبودية والخلافة عن الله عز وجل، ولا غرو فهو خليفة الله في الكون بقوله تعالى:

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾

(البقرة: ٣٠)

والخلافة نيابة عن الله عز وجل، ودلالة ذلك أن الإنسان هو السيد المطاع من المخلوقات الأخرى على هذه الأرض، فكل ما عليها من كائنات حية أو غير حية مسخرٌ له ينتفع بها، وينمي بها حياته، ويسد بها احتياجاته، فهو بنيان الله والصرح الذي خلقه على مثاله، وفي الحديث: «الآدمي بنيان الرب، ملعون من هدمه»(٩). وهو الذي حباه الله بأعظم نعمة هي نعمة العقل أداة التفكير والحرية والإبداع بقوله تعالى:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

(الروم: ٢٤)

وحمله بأعظم مسئولية في هذا الوجود بقوله تعالى:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾

(الأحزاب: ٧٢)

وبهذه الخصوصية الفريدة فضّل الإنسان على المخلوقات الأخرى، وهو قطب الرحى ومركز الكون الذي يتصلح به الوجود الكوني وتستقيم أحواله، وتعمر أرجاؤه، إذا ما استقام على الجادة ولزم طريق الصواب فإذا تنكر لموجبات هذه الخلافة فسد الوجود، واختل نظامه، وخرب العمران؛ لذلك فإن الإسلام أرشده إلى الطريق القويم وحذره من الانحراف عن الطريق الصحيح:

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾

(الإنسان: ٣)

ومن حيث إن الإنسان قد اصطفاه الله من بين خلقه وحمله رسالة عبادة الله تعالى وإعمار هذا الكون وإصلاح نظامه فإنه أمده بكل المقومات التي شيد عليها شخصيته الإنسانية التي تجعله على قدر مسئولية الرسالة التي كلف بها، وأهّل لتشييد الحضارة اللائقة بالخلافة الإلهية وبأن يقوم بالواجبات الملقاة على عاتقه في كل عصر ومصر.

وكان منهج الإسلام وخطته التي رسمها أن يخول الإنسان مجموعة من المكنات والصلاحيات التي ترتفع به إلى المكانة الحقيقية به بما لا تطاوله إليها الكائنات الأخرى من خلال مقومات تتعدد جوانبها، نجتزئ منها لأغراض الدراسة تلك المتعلقة بحقوق الإنسان.

(٩) الحديث -٣٠- الإيمان- صحيح البخاري

التطرف الفكري وأثره في تنامي ظاهرة العنف وصدام الحضارات



أ.د. أحمد عمر هاشم
عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر

التطرف الفكري انحراف وميل عن القصد، وبُعد عن الوسطية والاعتدال. والتطرف الفكري هو أخطر أنواع الانحراف، كما أن الانحراف بطرفيه - من الإفراط والتفريط - في الرأي والعقيدة له خطره على صاحبه وعلى حياة المجتمع الذي يعيش فيه، من أجل ذلك نهى الإسلام عن المغالاة، وعن التطرف والتعصب للرأي منعًا للأهواء والفتن.

ووراء التطرف الفكري تعصب مذهبي، أو عنصري أو سياسي مما دفع المتطرفين أن يستبيحوا لأنفسهم فهم النصوص الدينية حسب أهوائهم لتأييد اتجاهاتهم.

بل إن التطرف دفع معتنقيه إلى أن افترقوا على بعضهم بسبب تعصبهم، وأشدهم خطرًا ما كان متصلاً بالدين إلى درجة تكفير بعضهم بعضًا، وهذا يشبه إلى حد كبير ما كان عليه المشركون الذين قال الله تعالى فيهم:

﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾

[الروم: ٣١ - ٣٢].

وقد وقع في مستنقع التطرف الفكري كثيرٌ من الشباب الذين ضللهم البعض من دعاة التطرف باسم الدين، فراحوا يستبيحون لأنفسهم بعض الظواهر، مثل ظاهرة التكفير والهجرة والعدوان على الأنفس والأموال والأعراض وظواهر التخريب والدمار إلى غير ذلك من الأمور التي يندى لها الجبين.

ولو أن نفوس هؤلاء كانت عامرة بالفكر الإسلامي الصحيح لأدركت أن الإسلام دين الرحمة والوسطية والاعتدال لا

يبيح العدوان على نفس حرمها الله، ولما استحلت لنفسها ما حرم الله تعالى.

أثر الفكر المتطرف في تنامي ظاهرة العنف:

وللفكر المتطرف أثره في تنامي ظاهرة العنف، لأن أصحاب هذا الفكر أغلقوا على أنفسهم منافذ المعرفة وتمسكوا بما أُملي عليهم من الأفكار، وظنوا – ظلمًا وجهلاً – أنهم وحدهم على الحق وأن جميع من ليس على فكرهم على الباطل بل وصل الأمر إلى تكفير الغير وإلى استباحة دمائهم.

وإن الإسلام يبرأ ممن يحملون السلاح على الأمة، فقد قال رسول الله ﷺ: «من حمل علينا السلاح فليس منا»(١).

بل إن القرآن الكريم يحكم على القاتل المُستحل الذي يبرر له شيطانه العدوان على الغير يحكم عليه بجهنم خالدًا فيها؛ قال تعالى:

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾

[النساء: ٩٣].

ولحرمة النفس أكد الرسول ﷺ على أن قتال المسلم خروج عن الدين وكفر بالله فقال: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»(٢)، وقال في حجة الوداع: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا»(٣).

نبذ الإسلام للإرهاب

لقد دعانا الإسلام إلى الإيمان بجميع الرسل دون تعصب فقال تعالى:

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾

[البقرة: ٢٨٥]

وجاءت عبادة الإسلام سمحة لا حرج فيها:

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾

[الحج: ٧٨]

وجاءت تتسم باليسر:

﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾

[البقرة: ١٨٥]

وتتسم معاملته بالسماحة «رحم الله عبدًا سمحًا إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى».

وليست هذه السماحة والرحمة في حال دون حال، بل إنها كما تكون في وقت اليسر والسلم تكون وقت الشدائد، بل حتى في وقت الحروب حين ينازل المسلمون أعداءهم ويردون عن أنفسهم عدوانهم، فيأمرنا ديننا ألا نقتل شيخًا كبيرًا ولا عجوزًا، ولا طفلاً ولا طفلة، ولا امرأة، ولا نحرق زرعًا، وألا نهدم بيتًا أو بناء.

هذه تعاليم الإسلام حتى في وقت نزال العدو، فما بالك به في وقت السلم، إنه يعد

(١) رواه أحمد والبخاري ومسلم.
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه البخاري ومسلم.

العدوان على النفس الإنسانية خروجًا عن حظيرة الإسلام:

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾

[النساء: ٩٣]

كما يعد الإسلام العدوان على نفس واحدة بأنه عدوان على البشرية جمعاء لا على نفس واحدة؛ قال تعالى:

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾

[المائدة: ٣٢]

فيعد العدوان على النفس الواحدة عدوانًا على البشرية جمعاء؛ لأن الاستهتار بحرمة النفس الإنسانية في موطن، يغري بالاستهتار بها في مواطن أخرى، ولأن العدوان عليها في شخص، يغري بالعدوان عليها في أشخاص آخرين، بل في دولة برمتها:

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ﴾

[المائدة: ٣٢].

ويصور لنا سيدنا المصطفى ﷺ حرمة النفس الإنسانية وعظمتها ومكانتها حين يطوف بالكعبة المشرفة، وللكعبة حرمتها ومكانتها، فيقول وهو يلقي عليها نظراته الحانية: «ما أعظمك وما أعظم حرمتك، وما أطيبك وما أطيب ريحك، والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك دمه وماله وعرضه».

ويصون الإسلام حرمة النفس من أن يعتدي عليها حتى بمجرد التهديد والتخويف والترويع دون قتل، يحرم ذلك حيث جاء في الحديث: «من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه حتى ينتهي، وإن كان أخاه لأبيه وأمه».

بل إن الإسلام يحرم الإرهاب حتى ولو كان بالنظرة التي يخيف الإنسان بها أخاه الإنسان فيقول ﷺ: «من نظر إلى أخيه نظرة يخيفه بها أخافه الله يوم القيامة»(٤).

ولا يقتصر أمر حرمة النفس الإنسانية وأمر صيانة الإنسان لها على هذا النحو فحسب، بل إنه يصون حرمة النفس ولو كانت غير مسلمة، ولو كانت غير تابعة لدين الإسلام.

يقول سيدنا رسول الله ﷺ: «من آذى ذميًا فأنا خصمه»، وهو من له ذمة وأمان وعهد لا يصح أن تعتدي عليه، ولا على أحد لم يحاربنا ولم ينازلنا في المعركة:

﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾

[الممتحنة: ٨].

(٤) رواه البخاري.

بل وضح الرسول ﷺ أنه بريء ممن اعتدى على حرمة نفس من غير المسلمين من أهل الأمان والعهد الذين لا يحاربوننا؛ يقول: «ألا من ظلم معاهدًا أو انتقصه أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة».

صلوات الله وسلامه عليك يا سيدي يا رسول الله، يا من جئتنا بالحنيفية السمحة التي حافظت بها على حرمة كل نفس إنسانية؛ لأن القرآن الكريم هو الذي قال:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾

[الحجرات: ١٣]

إنه نادى الناس جميعًا، نادى المؤمنين وغير المؤمنين وكرم بني آدم:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾

[الإسراء: ٧٠]

بكل عقائدهم وبكل هوياتهم وأوطانهم، إنه صان حرمة النفس الإنسانية أن يعتدى عليها أو أن تظلم، بل إن سيدنا رسول الله ﷺ ضرب أروع المثل في سماحة الإسلام حتى مع أعدائه الذين نازعوه وناصبوه العداء، فحين أسروا ثمامة - وهو سيد بني حنيفة - عرض عليه الإسلام وكان يرفض ويقول: «إن تقتل تقتل ذا دم، أو تنعم تنعم على شاكر، أو تسأل مالاً تعط.. فيتركه ويعرض عليه في اليوم الثاني وفي اليوم الثالث الإسلام فيرفض، حتى إذا ما رآه لا حاجة له في أن يدخل الإسلام عفا عنه، وقال: أطلقوا سراحه، فأطلقوا سراحه وعفا عنه رسول الله ﷺ ولم يكرهه على الدخول في الإسلام:

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾

[البقرة: ٢٥٦].

ولكن انظروا إلى نتيجة هذه السماحة وروح الرحمة لما عفا عنه وأطلق سراحه، وهو سيد قومه الذين ناصبوا المسلمين العداء بالأمس.. راجع الرجل نفسه وقال: أهذه أخلاق بشر عاديين؟! كنت عدوهم، وكنا نحاربهم بالأمس وأخذوني وأسروني، ومع هذا لم يكرهوني على دينهم ولم يقتلوني، وعرضوا عليَّ دينهم ورفضته، ومع هذا يعاملونني بهذه السماحة! والله ما هي بأخلاق بشر أبدًا، وإنه للدين الحق، والرسول الحق.. واغتسل الرجل وجاء والماء يقطر من أعضائه ليقولها صريحة مدوية: اعلم يا محمد ما كان من وجه أبغض من وجهك، وأصبح أحب الوجوه إليَّ، وما كان من بلد أبغض إلى من بلدك واصبح أحب البلاد إليّ، وما كان من دين أبغض إليَّ من دينك وأصبح أحب الأديان إليّ، فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله.

بهذا الأسلوب والمنهج دخل الناس في دين الله أفواجًا؛ لأن الإسلام صان حرمة النفس الإنسانية، وصان حرمة المسلم، وصان حرمة غير المسلم، أفدين هذه أخلاقه وتعاليمه يوصف بأنه دين إرهاب ودين تشدد ودين دموي؟!

﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾

[الكهف: ٥].

ليس الإسلام بدين إرهاب بل إن الإسلام

ضد الإرهاب، وإن الإسلام يقاوم الإرهاب، وإن المسلمين قاطبة لا يرضون الإرهاب في أي وطن كان، في مصر أو في أي بلد أجنبي، لا يرضي المسلمون الإرهاب بحال من الأحوال، إنهم يدينونه في كل موقع وفي كل مكان، ولا يقبلونه بحال من الأحوال.

لكن يجب على المجتمع الدولي أن يفرق بين ظواهر العدوان والإرهاب التي تمثل عدوانًا ظالمًا على النفس الإنسانية وعلى الأموال وعلى الأعراض، وبين قوم يجاهدون ويدافعون عن أنفسهم وعرضهم وأرضهم ومقدساتهم، فإخواننا في القدس الشريف يدافعون عن أرضهم بين شعب اجتث من جذوره واقتلع من أرضه، وأصبحوا لاجئين، ويزرع في أرضهم مستوطنات غريبة، أفمن كافح هذا الشعب ليأخذ حقوقه وليأخذ حقه على الأرض وعلى ظهر هذه الحياة أفمن كافح من أجل أن يدفع الظلم والعدوان، يسمى هذا إرهابًا؟! لا.. يجب أن نفرق بين هذا الذي يدافع عن أرضه وعرضه، وبين المعتدي الذي يظلم الآمنين ويروع المدنيين، ويضرب كل مصالح الناس أيًا كان هؤلاء الناس..

وإننا ونحن نعادي الإرهاب يجب أن نوضح حقيقة يجب ألا تغيب عن الأذهان، أن المجاهدين في كل الأقليات الإسلامية وفي فلسطين ليسوا إرهابيين، لأنهم يدافعون عن دينهم وأرضهم التي أخرجوا منها بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله..

العجوز الشمطاء التي تتداعى تحت أسقف، والرجل الكبير الذي ترك موطنه، والطفل الذي يضرب عيانًا في وضح النهار، وهو لم يحمل سلاحًا - هؤلاء جميعًا يستصرخون الضمير الديني في كل قلب على ظهر الأرض.

العجوز الشمطاء تاهت خطاها
لم تجد منهمُ قلوبا رقاقا
رفعت كفها النحيلة تبكي
تسأل الله ربها الخلاقا
يا إلهي أكان يرضيك هذا
أن نذوق العذاب والإرهاقا
إن هذا الدم البريء سيحكي
كيف من غير مأثم أن يراقا

إننا نرفض الإرهاب ونعلن مقاومته في كل أوكاره وفي كل مكان، وننادي المجتمع الدولي أن يستجيب لدعوة المجتمع الإسلامي الذي أخلص لقضية هذه الأم وقضايا الإنسانية جمعاء في أوروبا وغيرها، وننادي بمؤتمر تقام فيه معاهدة من أجل حقن الدماء ومن أجل مقاومة الإرهاب، ومن أجل تصفية جيوبه في كل مكان، وليس من أجل ضرب دولة من جراء فئة قليلة اعتدت وظلمت، وهذا هو عين العدل والصواب، ألا نأخذ بجريرة أفراد قلة، دولة برمتها أو دولاً، بل يجب على الأمة برمتها وعلى النظام الدولي أن يكون على وعي بهذا، وأن يكون مدركًا أن ديننا الإسلام لا يمكن أن يقبل الإرهاب أبدًا، ونحن نعلن براءتنا من الإرهاب وجهادنا ضد الإرهاب، ونحاوره في أكبر الندوات واللقاءات من أجل تصفية جيوبه حتى يصفو مناخ مصر منه.

وندعو الله أن يصفي العالم من الإرهاب بكل أشكاله إنه سميع قريب.

أبعاد جديدة لمقاصد الشريعة

مقصد حفظ النفس

أ.د. عبد المجيد النجار

يقصد بالنفس في هذا المقام مجمل الكينونة الإنسانية بعناصرها المختلفة، وهو أحد المعاني اللغوية للنفس، فقد جاء في لسان العرب أن من معاني النفس جملة الشيء وحقيقته، كما جاء فيه أيضا أن النفس يعبر بها عن الإنسان جميعه كقولهم: عندي ثلاثة أنفس[1]، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾ (الزمر: ٥٦)

أي أن يقول إنسان، فيكون المقصود بالنفس الإنسانية فيما يأتي من البيان جملة الإنسان وحقيقته، وليس المعنى المتجه إلى الدلالة على الروح وهو أحد المعاني اللغوية للنفس.

وكينونة الذات الإنسانية هي مثل كينونة سائر الذات تتراوح في أوضاعها بين الضعف الذي قد ينتهي بها إلى الفناء وبين القوة التي قد تنتهي بها إلى الكمال، وكمال كل ذات هو بلوغها أقصى طاقتها في أداء المهمة التي من أجلها خلقت. والذات الإنسانية إنما خُلقت لأجل أن تقوم بأداء مهمة الخلافة على نحو ما شرحناه سابقا، فيكون كمالها هو بلوغها أقصى ما يمكن أن تصل إليه من طاقة في أداء تلك المهمة، ويكون ضعفها هو التدني عن ذلك إلى الدرجة التي تصل فيها إلى العجز الكامل وهي درجة الفناء أو ما يشبه الفناء.

وبما أن الإنسان جسم وروح، وتكليفه بمهمة الخلافة إنما هو تكليف بحسب هذا التكوين المزدوج، فإن اعتبار القوة في ذاته والضعف فيها يشمل العنصرين معا، فكما يكون الجسم قابلا للترقي في سلم القوة بالغذاء والرياضة والهواء العليل، وقابلا للتدني في ذلك السلم ضعفا بأضداد ذلك، وبالأمراض وتلف الأعضاء، تكون الروح كذلك لأسباب أخرى سنفصل بعضها لاحقا تقوى بها أو تضعف؛ ويكون مجمل قوة الذات الإنسانية وضعفها هو حصيلة

١- راجع: ابن منظور- لسان العرب- مادة / نفس.

القوة والضعف في عنصري تلك الذات جميعا.

وحفظ النفس مقصدا من مقاصد الشريعة يتعلق بمجمل الكينونة الإنسانية بعناصرها المختلفة. ومعنى هذا الحفظ هو توفير أسباب القوة للذات الإنسانية، ودفع أسباب الضعف عنها، بحيث تكون على أمثل ما يمكن من وضع لتقوم بأداء مهمتها؛ ولذلك فقد جاءت أحكام شرعية كثيرة غايتها حفظ النفس على هذا المعنى، وهي أحكام بلغت من الكثرة والتنوع مبلغا يفيد اليقين بأن حفظ النفس هو كلية من كليات الشريعة، ومقصد عام من مقاصد الدين، ولعل جماع هذه الأحكام هو ما جاء في قوله تعالى:

﴿ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ (البقرة: ١٩٥)

وذلك ما أشار إليه ابن عاشور في قوله: وقوع فعل «تلقوا» في سياق النهي يقتضي عموم كل إلقاء باليد للتهلكة، أي كل تسبب في الهلاك عن عمد، فيكون منهيا عنه محرما ما لم يوجد مقتض لإزالة ذلك التحريم[2] ولما كان مدلول النفس في هذا المقام هو حقيقة الذات الإنسانية، وحقيقة هذه الذات تشتمل على عنصر مادي هو الجسم، وعنصر معنوي هو الروح، فإن حفظ النفس الذي جاء مقصدا شرعيا من شأنه أن يكون متجها إليهما معاً. فحفظ النفس إنما هو كما أشرنا إليه من أجل كفاءة الأداء لمهمة الخلافة، وهذا الأداء لا يكون بالجسم وحده أو بالروح وحدها، وإنما يكون بكينونة الذات الإنسانية المكونة منهما، فحفظ النفس يكون إذن بحفظ مادي وبحفظ معنوي، وقد جاءت أحكام الشريعة التي مقصدها حفظ النفس موزعة بين هذين النوعين من الحفظ، ولذلك فإننا سنبين تاليا مسالك حفظ النفس ماديا، ومسالك حفظها معنويا:

١- الحفظ المادي للنفس

جسم الإنسان مهما يكن من كونه ملابسا للروح إلا أنه تجري عليه القوانين التي تجري على سائر المادة الكونية، ومن تلك القوانين ما يتعلق بأسباب البقاء والنماء والقوة، ومنها ما يتعلق بأسباب الضعف والوهن والفناء. والحفظ المادي للنفس بما أن الجسم عنصر من عناصرها سيكون لا محالة مستجيبا لتلك القوانين التي أرادها الله تعالى سنة للأجسام الكونية بصفة عامة، والأجسام الحية منها بصفة خاصة؛ ولذلك فقد جاءت الشريعة الإسلامية تأمر بكل ما فيه للإنسان بقاء ونماء وقوة، وتنهى عن كل ما هو خلاف ذلك مما فيه وهن أو تهلكة، فكان توفير أسباب البقاء والنماء والحيلولة دون أسباب الوهن والفناء مسلكين أساسيين من مسالك الحفظ المادي للنفس.

أ- حفظ النفس بأسباب البقاء والقوة:

لعل أول ما شرعه الله تعالى من أسباب البقاء للنفس الإنسانية هو تلك التشريعات

٢- ابن عاشور- التحرير والتنوير- ٢/ ٢١٥.

المتعلقة باستمرارية وجود النوع الإنساني باستمرارية نسله، ويندرج في ذلك الأحكام المتعلقة بالزواج من حيث الحث عليه أصلا، ومن حيث تراتيبه من بدايته إلى نهايته، فالزواج هو أمر مطلوب في الشريعة على وجه الوجوب بالنسبة لبعض الأفراد، وعلى سبيل الوجوب بالنسبة لعموم الأمة، حتى إنه لو تواطأ الناس على تعطيل الزواج من أجل عدم الإنجاب لكان ذلك إثما كبيرا للأمة كلها، وذلك من حيث ما يؤول إليه من انقطاع النوع، ومما جاء في ذلك قوله ﷺ: «من استطاع منكم الباءة فليتزوج»[٣]، وقوله: «تناكحوا تكثروا فإنني مباه بكم الأمم يوم القيامة»[٤] فهذا الأمر بالزواج والحث عليه إنما على رأس مقاصده بقاء النوع الإنساني واستمرار وجوده، وتكاد تكون كل الأحكام المتعلقة بالزواج تحمل هذه المقصد بصفة مباشرة أو غير مباشرة.

فإذا ما وجد الإنسان وفق هذه الأحكام فإن أحكاما أخرى شرعت لتتعهده بالرعاية والحفظ من قبل الأسرة ما دام غير قادر على رعاية نفسه، وتلك هي الأحكام المتعلقة بالطفولة في جميع مراحلها من رضاع وحضانة وتربية وغيرها مما هو معروف في أبواب الفقه. فإذا ما تجاوز الإنسان مرحلة الطفولة ولكنه كان عاجزا عن توفير أسباب الحياة لنفسه جاءت أحكام أخرى كثيرة توجب حفظ نفسه على المجتمع الذي يعيش فيه، فإذا ما أصابه وهن أو انتهى إلى هلاك أثم المجتمع الذي هو فيه إثما كبيرا، وهو ما عناه النبي ﷺ بقوله: «أيما أهل عرصة (أي حي) أصبح فيهم امرؤ جائعا فقد برئت منهم ذمة الله»[٥]، فحفظ النفس إذا بأسباب البقاء والنماء مكفول بأحكام الشريعة لكل إنسان باعتباره إنسانا في جميع أوضاعه وكل مراحل حياته.

وإذا كان حفظ النفس بأسباب البقاء والقوة مكفولا بواجب مترتب على الإنسانية كلها إزاء كل نفس بشرية، فإنه قبل ذلك هو واجب مترتب على كل نفس في حق ذاتها، وقد جاءت أحكام شرعية كثيرة تؤكد ذلك الواجب، فمن الواجبات الشرعية على كل إنسان في حق نفسه أن يتعاطى من المآكل والمشرب والملبس والمسكن ما يحفظ وجوده على الوجه الذي يكون به قويا لأداء مهامه في الحياة، وكل تقصير في ذلك يؤدي إلى خلل في ذلك الأداء يبوء صاحبه بإثمه. وليس للإنسان في ميزان الإسلام أن يعذب نفسه بقطع أو بجرح أو بتجويع أو بغير ذلك، وليس له أن يضع حدا لحياته بالقتل كما هو عند كثير من الفلسفات، بل تلك في شريعة الإسلام جريمة من أكبر الكبائر.

ويلحق بأسباب القوة التي تندرج ضمن حفظ النفس الممارسة الرياضية التي بها يكون تنشيط الجسم، والحفاظ على لياقته وحيويته ليقدر على أداء مهمته المطلوبة منه، عملا لتعمير الأرض وتحصيل الرزق،

٣- أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب قول النبي من استطاع منكم الباءة.
٤- أخرجه عبد الرزاق في مصنفه: كتاب النكاح، باب وجوب النكاح.
٥- أخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب البيوع، باب البيوع.

أو جهادا في سبيل الله، أو سعيا في منافع الخلق، فقد جاء في الحديث النبوي: «علموا أبناءكم السباحة والرمي»[٦] كما جاء فيه طلب الترويح عن النفس من أجل دفع السآمة والكسل وتنشيط الجسم، وهو ما ذكره - ﷺ - لحنظلة حينما شكا إليه ما يقترفه من الترفيه عن النفس بعد الجد، إذ قال: «يا حنظلة ساعة وساعة»[٧] أي بعد ساعة الجد ينبغي أن تكون لك ساعة للترفيه عن النفس تجديدا للنشاط، فذلك كله تحسب أنه مندرج ضمن حفظ النفس بحفظ أسباب قوتها التي بها يكون عطاؤها في أداء مهمتها.

ب- حفظ النفس بدفع العوادي

كما شرع الدين لحفظ النفس بأسباب البقاء والقوة شرع لحفظها أيضا بدفع كل الأسباب التي تؤدي إلى النيل منها بالوهن والضعف بله بالانتهاك والهلاك. والأحكام الشرعية التي شرعت في ذلك بلغت من الكثرة والتنوع ما يفيد على وجه القطع أن للنفس البشرية باعتبار كونها بشرية حرمة لا تدانيها حرمة لأي مخلوق من المخلوقات، فكان إذن حفظها حفظا ماديا برد العدوان عليها مهما كان نوعه مقصدا من المقاصد العامة للشريعة.

وعلى رأس المسالك الشرعية التي بها يكون حفظ النفس تلك الأحكام التي تدفع العدوان عليها بالقتل والجراح، فقد شرع في دفع ذلك القصاص عقابا للمعتدي يماثل نوع الاعتداء، ابتداء من أخف الجراح إلى الاعتداء بالقتل، واعتبرت الشريعة أن قتل النفس البشرية الواحدة هو رمز لقتل الناس جميعا، تفظيعا لهذه الجريمة، وهو مقتضى قوله تعالى:

﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾

(المائدة: ٣٢)

كما اعتبرت أن عقوبة القصاص هي الكفيلة بأن تحفظ حياة النفوس، وهو مقتضى قوله:

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾

(البقرة: ١٧٩)

فمنع الاعتداء على حرمة الجسم البشري بأي نوع من أنواعه وأي مستوى من مستوياته جاء في الشريعة مسلكا لحفظ النفس بما شرع فيه من أحكام مغلظة.

ومن تلك المسالك لحفظ النفس منع الأسباب التي تلحق بها الضرر من الأشربة والأطعمة، فأيما طعام أو شراب يلحق الأذى بالجسم الإنساني فإن الشريعة جاءت بتحريمه، وهو مقتضى قوله تعالى:

﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾

(الأعراف: ١٥٧)

والخبائث هي: كل ما فيه للإنسان ضرر مثل الخمر والميتة والخنزير وما شابهها مما يثبت أنه يلحق الضرر بالصحة

٦- أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب في حقوق الأولاد.
٧- أخرجه مسلم: كتاب التوبة، باب فضل دوام الذكر.

الجسمية أو النفسية، وقد جاءت الشريعة الإسلامية تحرم هذه الخبائث مسلكا من المسالك التي بها يكون حفظ النفس.

ومن تلك المسالك أيضا دفع الأمراض التي تصيب الإنسان فتوهن قوته، وتعطله عن أداء مهمته، وذلك ما جاء في قوله ﷺ: «تداووا فإن الله تعالى لم يضع داء إلا وضع له دواء»[٨] فالتوقي من الداء كما توقى عمر بن الخطاب من طاعون عمواس بالشام، وكذلك طلب العلاج إذا ما أصاب الإنسان داء، هي من مطلوبات الشريعة توسلا بها لحفظ النفس مقصدا شرعيا، وكل ما يندرج في ذلك من الأحكام إنما هو مسلك من مسالك حفظ النفس. ومن الغريب أن نجد في تراثنا الإسلامي رأيا في هذا الموضوع يذهب أصحابه إلى تفضيل الرفض لتعاطي الدواء صبرا على المرض الذي يكون فيه الأجر، فذلك فيما نحسب انحراف عن مقصد حفظ النفس الذي جاءت الشريعة تطّرد أحكامها فيه[٩].

وفي سبيل حفظ النفس أجازت الشريعة الإسلامية الترخيص لاقتراف بعض المحرمات المغلظة، وذلك مثل أكل الميتة وشرب الخمر لمن غلب على ظنه أن حياته تتوقف عليهما، كمن أصابه جوع وليس عنده إلا ميتة، ومن غص بلقمة ولم يجد مسوغا إلا الخمر. كما أجازت الشريعة في سبيل ذلك الترخص في بعض العبادات الأساسية، مثل الترخيص في التيمم لمن يخاف المرض أو زيادته باستعمال الماء، والترخيص في الفطر لمن أجهده الصوم بما يؤثر على صحته. بل قد منعت الشريعة أن يأتي الإنسان من العبادات ما يكون له الأثر السلبي على صحة الجسم مثل سرد الصوم أو مواصلة القيام وما أشبه ذلك، وهو ما قاله النبي الكريم حينما تناهي إلى علمه أن بعض أصحابه يفعله معللا نهيه بقوله: «إن لنفسك عليك حقا»[١٠] وحق النفس في هذا المقام هو أن لا تكون العبادة مؤثرة على صحة الجسم.

إن كل هذه الأحكام الشرعية وغيرها كثير مطرد إنما وضعها الشارع لتحقيق مقصد حفظ النفس حفظا ماديا، وذلك بالحفاظ على صحة الجسم وفاعليته، والعمل على تقويته وتنشيطه والرفع من كفاءة أدائه، وذلك سواء بتوفير أسباب النماء والقوة والنشاط، أو بدفع أسباب الوهن والتلف والهلاك، وكل ذلك يجمعه قوله تعالى:

﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾

(البقرة:١٩٥)

وكل تقصير في توفير الأسباب ودفع العوادي إنما هو ضرب من الإلقاء بالنفس إلى التهلكة الذي نهى الله تعالى عنه نهي الوجوب حفظا للنفس، وأين من هذا التشريع ما تعتبره بعض المذاهب والأديان من أن اضطهاد الجسم البشري وإنهاكه وتعريضه للعذاب هو الأعلى في سلم العبادات؟.

٨- أخرجه أبو داود كتاب الطب باب في الرجل يتداوى.
٩- راجع في ذلك الغزالي- إحياء علوم الدين:٤/٢٤٦ وما بعدها.
١٠- أخرجه الترمذي: كتاب الزهد.

وهو ما كان له تأثير على بعض المسلمين فآثروا المرض على الصحة، والضعف على القوة، مخالفة صريحة لمقاصد الشريعة في الحفظ المادي للنفس البشرية كما تدل عليه أحكام كثيرة مطردة.

٢- الحفظ المعنوي للنفس:

إن النفس التي نحن بصدد البحث في حفظها هي كما أشرنا إليه سابقا تتكون من جسم وروح، وكما للجسم أسباب يكون بها ضعفه ووهنه وهلاكه، وأسباب تكون بها نقائض ذلك فإن للروح أيضا أسبابا بها تقوى وأخرى بها تضعف، وكما أن لضعف الأجسام ووهنها أثره في قصورها عن أداء الإنسان لمهمة التعمير فجاءت الشريعة تحفظه بأسباب القوة التي فصّلنا بعضا منها آنفا، فإن لضعف الأرواح أثره في القصور عن أداء تلك المهمة، وهو ما اقتضى أن تأتي الشريعة أيضا بأحكام تقصد إلى حفظ الأرواح بأسباب تقويها، وهي أسباب تختلف عن الأسباب التي تحفظ النفوس من الناحية المادية لاختلاف الطبيعة بين العنصرين، فالجسم أسباب حفظه مادية، والروح أسباب حفظها معنوية.

كيف يمكن لإنسان هدّ روحه الحزن أو الخوف أو الشعور بالمهانة أو بالاستعباد أن يكون قادرا على أن ينطلق في الأرض يعمرها باكتشاف آفاقها، والوقوف على سننها وقوانينها، وتسخير مقدراتها ومواردها؟ إنه كما لا يكون قادرا على ذلك إذا كان عليل الجسم فإنه لا يكون قادرا عليه إذا كان عليل الروح بمثل تلك الأسباب؛ ولذلك فقد منّ الله تعالى على قريش بأن حفظهم في أجسامهم من الجوع كما حفظهم في أرواحهم من الخوف، فاستطاعوا بهذا الحفظ المزدوج للنفس ماديا ومعنويا أن يضربوا في الأرض برحلة الشتاء والصيف، وهو ضرب من التعمير الذي لا يتم إلا بحفظ النفس حفظا ماديا ومعنويا.

وحينما فصّل علماء المقاصد القول في حفظ النفس مقصدا من المقاصد الضرورية للشريعة الإسلامية لم نجدهم أعطوا هذا الحفظ الروحي للنفس حقه من البيان، فالمقاصديون القدامى يكادون يقتصرون في بيان حفظ النفس على أحكام القصاص وما شابهها للتمثيل لأحكام حفظ النفس، اقتصارا منهم على حفظ العنصر المادي، وعلى ذلك تدور أمثلته في أغلبها، وحينما تقع الإشارة أحيانا في بعض المؤلفات إلى الحفظ المعنوي للنفس فإن هذا الحفظ يعتبر من الحاجيات وليس من الضروريات. وقد بدأ عند بعض الباحثين المحدثين الاهتمام بالجانب المعنوي لحفظ النفس مقصدا ضروريا من مقاصد الشريعة[١١]، وهو منحى يجدر تأصيله والمضي فيه بما هو أوسع ليصير الحفظ المعنوي كالحفظ المادي مقصوداً من المقاصد الضرورية، وهو ما نبينه فيما يلي مما يكون به حفظ معنوي للنفس:

١١- راجع: جمال الدين عطية- نحو تفعيل مقاصد الشريعة:١٤٣.

أ- حفظ النفس بالتزكية:

الإنسان مشارك للحيوان في الحيوانية، إلا أنه يتميز بالنفس الناطقة، على أساس ذلك التميز ترتب التكليف، وبناء على ذلك فإن القيام بأعباء التكليف وهو ذاته أداء مهمة الخلافة سوف يكون متوقفا على مقدار الرفعة التي يحصلها الإنسان فيما يتعلق بالنفس الناطقة، فعلى قدر الرفعة في تلك النفس يكون حسن الأداء، والعكس صحيح، فيكون حفظ النفس مشتملا من بين ما يشتمل على ترقية الذات الناطقة في الإنسان في سلم الكمال الإنساني، إذ ليس حفظ النفس كما أشرنا إليه سابقا إلا تيسير الأسباب التي بها يقوى الإنسان على أداء مهمته.

وترقية النفس هو المعنى الذي عبر عنه القرآن الكريم بالتزكية في قوله تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾

(الأعلى: ١٤)

وقوله تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾

(الشمس: ٩)

فالذي زكى نفسه هو الذي «اختار لها ما به كمالها ودفع الرذائل عنها»[١٢]، وذلك هو الذي أفلح، أي نجح في تحصيل المطلوب، والمطلوب من الإنسان هو أن يقوم بأداء المهمة التي من أجلها خلق، وينتهي المعنى إذن بحسب هذا البيان القرآني إلى أن تزكية النفس هي إحدى السبل المعنوية إلى تقويتها لتقدر على أداء المهمة التي كلف الإنسان بأدائها، وهو المعبر عنه بالفلاح، وذلك ضرب من الحفظ للنفس جاءت الشريعة تجعله مقصدا من مقاصدها الضرورية.

ب- حفظ النفس بالأمن النفسي

حينما يداخل الخوف النفس الإنسانية لسبب أو آخر من الأسباب فإن هذا الخوف يصبح عاملا كبيرا من عوامل اضطرابها، حتى ليكاد يشل جميع قواها عن أداء مهامها، فلا مدارك التفكير تبقى على كفاءتها، ولا إرادة الفعل تبقى على مضائها، ولا المزاج النفسي يبقى على توازنه، بل كل ذلك يصيبه ارتباك يفضي إلى هبوط حاد في القدرة على أداء الإنسان للمهام المطلوب منه أداؤها.

ولا تكون النفس سوية قوية إلا إذا نعمت بالطمأنينة والأمن، إذ حينئذ تسترسل قواها لتمتد امتدادها الطبيعي دون أن يعطلها عامل الخوف بما يشوش عليها سيرها، فإذا هي تنطلق مطمئنة في أداء وظائفها تفكيرا وإرادة وقدرة على التنفيذ؛ ولذلك فإن القرآن الكريم يقترن فيه الخوف غالبا بحال الاضطراب والوهن النفسي كما في قوله تعالى:

﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾

(الأحزاب: ١٩)

كما يقترن فيه الأمن بحال القوة وحسن الأداء كما في قوله تعالى:

﴿أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾

(قريش: ٤)

١٢- ابن عاشور- التحرير والتنوير: ٣٠/٣٧١.

إذ لما كانت قريش آمنة استطاعت أن تنجز رحلة الشتاء والصيف، وهو ضرب من الإنجاز تعميرا في الأرض.

وبناء على ذلك فقد جاءت الشريعة تحكم بما يوفر للنفوس الأمن ويدفع عنها الخوف، قصدا في ذلك إلى حفظها بما يتيسر لها من أسباب القوة متمثلة في الأمن، وما يدفع عنها أسباب الوهن متمثلا في الخوف، وقد جاءت أحكاما كثيرة تهدف إلى تحقيق هذا المقصد، مقصد حفظ النفس حفظا معنويا، وذلك سواء فيما يتعلق بالنفس في حال الأفراد، أو فيما يتعلق بالنفس في حال الجماعة، وكل ذلك إنما هو لغاية أن تكون النفوس قوية بالأمن، قادرة على أداء مهامها بكفاءة.

والأمن النفسي الذي جاءت الشريعة تحكم به لغاية حفظ النفس هو الأمن الشامل الذي يقطع الأسباب المتنوعة للخوف الذي من شأنه أن يشتتها ويشل قواها، فهذا الخوف قد يكون خوفا على الذات أن ينالها الأذى المادي أو المعنوي، أو خوفا على الأهل أن يطالهم الاعتداء، أو خوفا على المال أن يتعرض للتلف، وكل ذلك جاء في الشريعة من الأحكام ما يدفعه ويحمي النفوس منه، وما قوله ﷺ: «كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه»[١٣] إلا مندرجا ضمن هذه الأحكام الدافعة للخوف، الباسطة لأمن النفوس، إذ هذه الحرمة تشيع في النفس الطمأنينة لما تكون به من رادع لاقتراف هذه الأسباب المخيفة، وقد ورد في الحديث النهي المغلظ عن أن يروّع المؤمن بأي نوع من الترويع.[١٤]

ولعل أجمع الأحكام التي مقصدها حفظ النفس بحفظ الأمن هو الحكم بعقاب غليظ لقطّاع الطرق والمحاربين المتآمرين على أمن الناس المروّعين لهم في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، وهو ما جاء في قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾

(المائدة: ٣٣)

فالتغليظ في عقوبة هذه الجريمة إنما أحد أسبابه الأساسية ترويع الآمنين الضاربين في الأرض المعمرين فيها بقطع الطرق عليهم، فهذا الترويع من شأنه إذا ما فشا في المجتمع أن يقمع النفوس عن أن تنطلق في الأرض للتعمير فيها، فتنكمش على ذاتها بسبب الخوف، ويفوت عليها أداء مهامها بذلك السبب ففي سبيل دفع هذا الخوف، وإشاعة الأمن في النفوس لتنطلق في العمل، جاء التشريع بهذه العقوبة الشديدة في سياق مقصد حفظ النفس حفظا معنويا بالأمن[١٥]

١٣- أخرجه مسلم، كتاب البر، باب تحريم ظلم المسلم.

١٤- قال صلى الله عليه وسلم: « من روّع مؤمنا لم يؤمن الله روعته يوم القيامة»، رواه البيهقي في شعب الإيمان، باب رقم ٦٧.

١٥- راجع في هذه العقوبة وأسبابها أبو زهرة- العقوبة: ٦٧، ١٠٤ وما بعدها.

فلسفة الإلزام والالتزام فى الإسلام

الأخيرة

أ. د. محمد شامة

لا يقتصر مفهوم الإنفاق فى الإسلام على الزكاة والصدقة والإحسان، بل يندرج تحت مفهوم الإنفاق أيضا: استثمار المال وعدم كنزه، لأن كنز المال يضعف النشاط الاقتصادى، بل يصيب الاستثمار بالشلل، ولو كنز كلٌ ماله لانهار المجتمع، لأن المال يمثل عصب الحياة، وذلك بحركته فى تمويل المشروعات الصناعية والتجارية وغيرهما من فروع الاستثمار، بل إنه يعتبر قلبه النابض بالحياة، حيث يضخ الدم فى شرايين المجتمع بالإنتاج الذى يوفر فرص العمل كى يعيش الناس. فالمال، وإن كانت ملكيته خاصة، إلا أن منفعته عامة، فلا ينبغى لمالكه أن يشل حركته فى المجتمع، بل يجب عليه دفعه فى دولاب الاقتصاد المتحرك فى التجارة والزراعة والصناعة وغيرها من الأنشطة الاقتصادية، فإن لم يفعل ذلك، فحبسه فى خزائنه، فسوف يعاقبه الله عقابا أليما، حتى وإن أخرج زكاته، لأن حق المجتمع فى المال أن ينتفع به فى مجال الاستثمار، يقول الله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾

(التوبة: ٣٤-٣٥)

الإسلام دين ودنيا، عبادة وعمل، تنظيم للحياة للاستمتاع بمحاسنها وللوقاية من شرورها وآثامها، وليس المفهوم من هذا التنظيم أن يشرح كل دقائقها، ويبين تفصيلاتها وأجزائها، وإلا كان خاصا بزمن معين، ولمجتمع بذاته، لأن حياة المجتمعات تتفق فى المبادئ العامة، وتختلف فى التفصيلات والفروع، كل حسب بيئته، وطبقا لمقتضيات عصره، فالعصور مختلفة، والبيئات متفاوتة، وطبيعة عناصر الحياة متطورة ومتجددة، فلو حدد الإسلام الجزئيات وبين الفروع لكان ذلك منافيا لفلسفة الحياة، ومناقضا لمتطلباتها المختلفة، وآفاقها المتنوعة، ولصار ذلك حجرا على العقول من أن

تمارس قدراتها فى شرح المبادئ العامة التى صاغها الإسلام فى القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة، ومن أمثلة ذلك ما جاء فى آيتى التوبة ٣٤، ٣٥، ذلك أن المفسرين القدامى فسروهما على وجهين:

● الأول: أن المقصود بالكنز هو عدم زكاة المال، مستدلين على ذلك بالنصوص التالية: خاطب الإسلام جميع الناس على اختلاف قدراتهم العقلية، وتنوع أفكارهم الاجتماعية، فكان صالحا للخلق أجمعين على هذه الأرض، مهما اختلفت ثقافاتهم، وتنوعت نظم حياتهم، وتباينت عاداتهم وتقاليدهم، لأنه من العليم القدير، العليم بقدرات خلقه الفكرية، القدير على صياغة الوحى بأسلوب يفهمه كل إنسان على وجه البسيطة، فجاءت آيات القرآن الكريم على نحو صالح لكل الثقافات والبيئات، فيفهمها ويفسرها، ويستنتج منها أحكاما تلائم عصره، وتتوافق مع متطلبات بيئته، وذلك هو قمة الإعجاز، الذى انفرد به القرآن الكريم، فقد فسر علماء العصر الإسلامى الأول آيتى التوبة ٣٤، ٣٥ على نحو يلائم عصرهم، فذهبوا إلى أن المقصود بالكنز، هو المال الذى لم تؤد زكاته أو المال الزائد عن حاجة مالكه.

أما علماء العصر الحديث فلهم رأى آخر، ألا وهو: أن الضمير فى ﴿يُنْفِقُونَهَا﴾، عائد على جملة الذهب والفضة فى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾، التى يملكها الإنسان، إذا لا يجوز عود الضمير على بعض الذهب والفضة، وهو الجزء المستحق للفقراء كـ«زكاة»، ولم يرد فى الكتاب والسنة ما يوجب على المسلم أن ينفق كل ماله، بل الذى ورد عكس ذلك، فقد روى عن سعد بن مالك عن أبيه قال: «عادنى النبى ﷺ عام حجة الوداع من مرض أشرفت منه على الموت، فقلت: يا رسول الله! بلغ بى من الوجع ما ترى، وأنا ذو مال، ولا يرثنى إلا ابنة واحدة، أفأتصدق بثلثى مالى؟ قال: لا! قال: فأتصدق بشطره؟ قال: لا! قال: الثلث يا سعد، والثلث كثير، إنك ان تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس......»[١].

كذلك لا يتناسب العقاب الذى ورد فى الآية:

﴿ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ﴾

(التوبة: ٣٥)

مع الإثم الذى يرتكبه من لم يؤد زكاة ماله، فلم يرد ذلك صريحا فى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، ولا فيما استنتجه علماء الفقه الإسلامى منهما من أحكام، وعليه فالعقاب الوارد فى الآية لابد أن يكون عقابا على إثم يفوق إثم من لم يؤد زكاة ماله، بل إنه لابد أن يكون إثما عظيما يتعدى أثره أسرة أو مجموعة صغيرة من الناس يحتاجون إلى ما يسدون به رمقهم، إثم يترتب عليه انهيار المجتمع، وموت الحياة فيه كلية، هذا هو

(١) صحيح البخارى ج٣، رقم ٢٢٧٣

الإثم الذى يستحق من يرتكبه هذا العقاب الأليم، وهو ما يفهم من الآية، عندما فسر العلماء فى العصر الحديث كلمة ﴿يُنفِقُونَهَا﴾ بـ«يستثمرونها»، إذ حجب المال عن الاستثمار بكنزه، أى بوضعه فى الخزائن دون تركه يعمل فى الحركة الاقتصادية، يشل حركة المجتمع، ويوقف قلبه النابض، إذ لو تصورنا - على سبيل المثال - أن كل من يملك مالا وضعه فى خزائنه، لمات الناس جوعا، بمن فيهم من يملك المال، لأنه - وهم أيضا - لن يجدوا ما يأكلونه، إذ لا تكون هناك تجارة، ولا زراعة، ولا صناعة، ولا أى عمل من أى نوع كان، لأن حياة هذا كله هو المال. ولما كان هذا هو وضع المال وأثره فى حياة الأمة، كان جزاء من يمنعه من تأدية هذه الوظيفة، أن تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم، لأن ذنبهم لم يقتصر على حرمان واحد أو اثنين مما يحتاجه فى حياته، بل هو حرمان أمة بأسرها، بل هو سبب فى موتها وهلاكها كلية.

وعليه فيجب على المسلم وجوبا عينيا أن يستثمر المال فى التنمية، أو يوكل غيره - كالبنوك مثلا - إن كان لا يقدر على ذلك، فلا يمنع الأمة من الانتفاع بهذا المال، وهذا هو معنى المبدأ العام فى الفقه الإسلامى «المال ملكيته خاصة، ومنفعته عامة»، أى إنه ملك خاص لصاحبه، ولكن الأمة كلها تنتفع به، فالعامل - أيا كان عمله - ينتفع به، لأنه هيأ له عملا يعيش منه، والزارع ينتفع به، لأنه أتاح له الأرض الذى يفلحها، والتاجر يجد ما يسد به حاجته وما يلزم أسرته من التجارة فى المنتج: زراعة وصناعة وغيرها من مناحى الإنتاج فى المجتمع، بل إن التقدم العلمى الذى تعود نتائجه بالرخاء وتيسير مناحى الحياة كلها، يقوم على استثمار المال فى البحوث العلمية التى تعمل على اكتشاف ما فى ظواهر الكون من عناصر لتسهيل حركة الحياة.

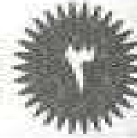
ولكى ينتفع المسلمون بمالهم يجب استثماره فى الأقطار الإسلامية، فلا يجوز وضعه فى بنوك أجنبية، أو استثماره فى بلد غير إسلامى إلا إذا كان فى ذلك جانب من جوانب منفعة تعود على المسلمين، لأن الاستثمار فى بلاد غير إسلامية هو حرمان للمسلمين من حقهم فى الانتفاع بمواردهم الاقتصادية، فبلاد المسلمين فى حاجة ملحة إلى كل درهم، للتنمية الاقتصادية، فنسبة البطالة فى العالم الإسلامى مرتفعة جدا، ومستوى المعيشة منخفض جدا ووسيلة علاج ذلك هو المزيد من الاستثمارات، فإذا استثمر أصحاب الأموال أموالهم فى بلاد غير إسلامية، استفحلت مشكلة البطالة فى الأقطار الإسلامية، وتدهورت مستويات المعيشة، مما يؤدى إلى ضعف المسلمين وانهيار حياتهم، فلا يستطيعون رد غاز، ولا يقوون على حماية بلادهم من الطامعين، بل إنهم لن يكونوا فى وسعهم حماية عقيدتهم، وعند ذلك يكون العقاب الذى تحدثت عنه الآية ٣٥ من سورة التوبة:

﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾

تجديد فقه المياه



د. إبراهيم البيومي غانم



٦- علم المياه في التراث الإسلامي

ظهرت مؤلفات خاصة بتقنيات المياه في وقت مبكر من التاريخ الإسلامي، وتناول العلماء جوانب مثيرة ومفيدة في هذا المجال، سرعان ما شكلت علما قائما بذاته، ولا تزال مؤلفاتهم شاهدة على ما وصلوا إليه من ابتكارات ذات أهمية تطبيقية في التعامل مع الماء إلى اليوم.

علم الريافة:

يوضح تاريخ علم المياه أن العلماء بدءوا البحث والتأليف فيه أواخر القرن الثاني الهجري. وكان أكثرها فائدة ما ألفوه في «استنباط المياه الخفية» وهو ما عرف فيما بعد باسم «علم الريافة» أي كيفية استخراج المياه الجوفية وتنمية الموارد المائية بتعبيراتنا المعاصرة. وقد عرفه «طاش كبرى زاده» بأنه: «علم يتعرف منه كيفية استخراج المياه الكامنة وإظهارها، ومنفعته إحياء الأرضين وإفلاحها». وصنفه ضمن فروع هندسة الري.

كان أول كتاب في «علم الريافة» بعنوان «علل المياه وكيفية استخراجها وإنباطها في الأرضين المجهولة» ألفه أبو بكر أحمد بن علي المعروف بـ«ابن وحشية»، الذي امتدت حياته من أواخر المائة الثانية إلى بداية المائة الثالثة الهجرية. ويبدو أن الزمن أضاع كتابه، فوصلنا خبره، ولم يصلنا نصه.

هندسة المياه:

وفي منتصف القرن الثالث الهجري كتب «أبو يوسف يعقوب بن اسحق الكندي» (ت ٢٦٠هـ) شرحا على كتاب «في قود المياه»، أي جرها «لفيلون البيزنطي». ذكره أبو عمر أحمد بن محمد بن حجاج الإشبيلي في كتاب «المقنع في الفلاحة»، ونقل إلى كتابه فصلا منه (فيما يعرف به قرب الماء من بعده وحلوه من مره) وقال في صفته: «هو أحسن كتاب ألف في هذا الشأن، ولا بد لمن أراد قود ماء من موضع بعيد إلى مدينة أو قرية أو نحوهما، من تصفح

هذا الكتاب، لما فيه من المنافع وقرب المآخذ. ونجد أيضا في رسالة الكندي «في العلة الفاعلة للمد والجزر» اكتشافه للدورة الهيدرولوجية، فيذكر عناصرها المعروفة في الوقت الحاضر تقريبا وهي: التبخر. ويذكر أنه يتم بتأثير الشمس. يليه التكاثف، الذي ينعقد سحابا، ثم الهطل، ويصير مطرا أو ثلجا أو بردا. ثم الجريان أو الانتقال: عائدا إلى الأرض سائلا إلى البحار. ويشير بشكل واضح إلى دورية هذه الحوادث التي تشكل الدورة الهيدرولوجية بقوله: دائما بهذا الدور أبدا ما بقي العالم، ثم يشير إلى حقيقتين تتعلقان بالمياه الجوفية:

- أولا: أن المطر والثلج يشكلان المصدر الأساسي للمياه الجوفية.
- ثانيا: وجود أجواف وخزانات في باطن الأرض تحتوي على المياه الجوفية.

ومن بين أهم الكتب أيضا كتاب «أصول قسمة الأرضين» الذي ألفه في القرن الخامس الهجري أبو العباس أحمد بن محمد بن بكر الفرسطائي النفوسي، وهو من علماء تونس. وقد احتوى كتابه على أول قانون مكتوب بشأن المياه في إفريقيا في زمنه، وجاء ذلك في الجزء الخامس من كتابه - في تسعة أبواب - بحث فيها بتعمق موضوعات: ملكية ماء المطر والتصرف فيه، وعمارة الأرض بماء المطر، والاشتراك وقسمة الماء والأرض، وصرف الماء من الأودية، والمساقي (عمارتها، وإصلاحها) وعمارة الأرض على المساقي، والتصرف في المساقي وتغيير خصائصها، والمصارف (إحداثها وإصلاحها وتغيير خصائصها) والمقاسم (آلات لقسمة المياه) والجسور (إحداثها، وإصلاحها، وعمارتها وتغيير خصائصها) والآبار والمواجل (خزانات للمياه عرفت بهذا الاسم في تونس).

وتكشف لنا كتب التراث أيضًا عن أن المؤلفات الكبرى فى الزراعة والنبات قد اهتم مؤلفوها بالمياه ،وبحثوا فيها بحثًا دقيقًا، ومن ذلك على سبيل المثال: كتاب المقنع فى الفلاحة للإشبيلي ،وكتاب الفلاحة لابن البصال، والفلاحة النبطية لابن وحشية، بطرق إنباط المياه الجوفية وهندستها. وكتاب الأمكنة والمياه والجبال عرف فيه بشكل مختصر بأشهر الآبار والعيون للزمخشرى (ت ٥٣٨هـ)وكتاب البيرونى «الآثار الباقية عن القرون الخالية» الذى قدم فيه بيانًا علميًا عن المياه الجوفية. وكتاب الخراج لأبى يوسف، الذى ذكر فيه أصول القواعد التى تتعلق بالمياه والتى يمكن أن نعدها قوانين شرعية تحدد العلاقة بين الماء والأرض والإنسان ،منها على سبيل المثال، أن تنفيذ أى منشأة مائية فى ملكية خاصة يجب أن يكون بإذن من صاحب الأرض. وكتاب «صورة الأرض» لابن حوقل، الذى تحدث فيه عن بعض المشاريع المائية. وقدم القزوينى فى كتابه «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات» وصفًا للمياه الجوفية.

٧. المياه والصحة العامة

ويبدو أن القرن الخامس الهجري قد شهد نهضة كبرى فى علم المياه مع اطراد ازدهار الحضارة الإسلامية، فإلى جانب كتاب «أصول قسمة الأرضين» السابق ذكره نجد كتاب «إنباط المياه الخفية» لأبى بكر محمد بن الحسن الكرجى، الذى امتدت حياته بين القرنين الرابع والخامس الهجرى، وتوفى سنة ٤٠٩هـ. وكتابه كما يقولون «موسوعة فنية في دراسة المياه الجوفية واستثمارها»، والمياه الخفية هى المياه الجوفية بالمصطلح العصرى. وقد وثق الكرجى فى هذا الكتاب خبرة هندسية / مائية طورتها الذاكرة العلمية والعملية للحضارة الإسلامية فى مجال الاستفادة من المياه الجوفية. لذلك كله، فإن الكتاب لفت انتباه المستشرقين ،فترجموه إلى الألمانية، والفرنسية، والإنجليزية.

ومما يلفت النظر بشدة إلى كتاب الكرجي أنه تحدث فيه عن صفات الماء الصالح للشرب، وقد حددها في: أن لا يثقل الماء على المعدة، وأن ينفذ نفاذا سريعا، وأن يقبل البرد والحر بسرعة.

والماء الذي لا تتحقق فيه الشروط السابقة هو ماء (رديء وبيء) بحسب تعبير الكرجي، والكلمتان لهما مدلولان محددان تماما. فرديء تعني عدم إمكانية شربه، أما وبيء فتعني أنه ناشر للأوبئة.

والوباء هو المرض القابل للانتشار، ولا يخفى ما للمياه الملوثة من قدرة على نشر الأوبئة.

ويتحدث الكرجي كذلك عن الماء العذب الذي يسميه الرقيق أو الخفيف، باعتباره الماء الصالح للشرب، والماء الثقيل أو الثخين أو الكريه، باعتباره الماء الملوث الذي لا يصلح للشرب. ويوصي بفحص الماء بالنظر والشم والتذوق. فالماء الصالح للشرب ليس له طعم ولا لون ولا رائحة ويقبل الحرارة والبرودة.

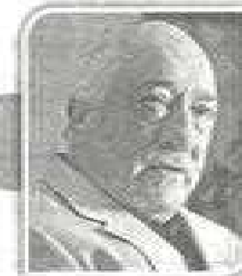
وللدمنهوري (المصري) أبو العباس أحمد بن عبد المنعم (ت ١١٨٢هـ) كتاب متميز بعنوان «عين الحياة في علم استنباط المياه» ألفه بناء على طلب فقيه تونسي اسمه يوسف بن محمد الزغواني. وأوضح الدمنهوري في كتابه «المواضع التي فيها ماء، والتي ماؤها قريب، والتي ماؤها بعيد، وما يستدل به على ذلك من أمارات ذكرها» وشرح أيضا كيفية حفر الآبار ووسائل معالجة مياهها.

واستمر علماء المسلمين يضيفون إلى علوم المياه إلى مشارف العصر الحديث، وكان من أواخر ما ألفوه رسالة خطها الشيخ محمد حسين العطار الدمشقي (١٢٤٣ - ١١٧٧هـ ١٨٢٧ - ١٧٦٤م) تحت عنوان علم المياه الجارية في مدينة دمشق، أو رسالة في علم المياه. وفيها شرح الشيخ العطار طرق حساب توزيع مياه نهر بردى على كل حارة وزقاق وبيت في دمشق وغوطتها، وهي تروي كل إنسان وحيوان ونبات على مدار العام، وقد خلص إلى أن العلم وحده ودقة الحساب توصل الحياة (المياه) إلى كل بيت بعدالة وأمانة.

(يتبع)

الرد على شبهات العصر:

الحاجة إلى الدين



العلامة فتح الله كولن

سؤال: يقال: إن الإنسان عندما لم يستطع إيضاح وتفسير بعض الظواهر الطبيعية اخترع فكرة الدين. فهل تقدم المدنية يزيل الحاجة إلى الدين؟

الجواب :يدعي أعداء الدين بأن المفاهيم الدينية اخترعت من قبل الإنسان نتيجة لشعوره بالعجز أو إظهارا لامتنانه. وخلاصة ما يذكرونه هي:

هناك حوادث تقع في الكون لا تعرف ماهيتها ولا نستطيع تفسيرها بالقوانين الفيزيائية والكيميائية. فلكي يحل الإنسان هذه المعضلة أسند هذه الحوادث- كما فعل في الماضي أيضا- إلى خالق. كذلك أضاف الإنسان قدسية إلى بعض الحيوانات المفيدة له، ثم تطور هذا فأسبغ عليها صفة الألوهية. وكون نهر «الجانج» مقدسا لدى الهنود ونهر «النيل» مقدسا لدى المصريين القدماء، وإضفاء القدسية على البقرة في الهند... إلخ، يرجع كله إلى ارتباطه بمنفعة الإنسان. ولم يكن موقف الإنسان تجاه الخوف يختلف عن هذا، فخوفه الكبير أو رعبه من بعض الأشياء، ساقه إلى تقديسها لكي يصل إلى الأمان منها. وفي بعض الأديان إلهين، إله للخير، وإله للشر، أي قسم الحب والخوف بين هذين الإلهين وفكرة الجنة والنار تنبع من هذا الأساس. والدين في الأصل - بزعمهم- تسرية وسلوان برجوازي، وهو شيء مخترع من قبل رجال الدين، وأفيون للشعوب وللجماهير التي يقوم بتخديرهم... إلى آخر هذه الادعاءات والمزاعم. فهل الدين كما يقول هؤلاء شيء مخترع فيما بعد لشرح الأمور الغامضة أو ليكون ملجأ وتسرية وسلوانا؟ كلا، على الإطلاق! فـ «الدين» كلمة عربية، تدل على عدة معان منها الجزاء والطريق. وقد وجدت هذه المفاهيم في تعريف الدين، فهو طريق وصراط، وفيه طاعة الله تعالى وفيه أيضا المكافأة لمن أطاع والعقاب لمن عصى.

أما التعريف الشرعي له فهو: وضع إلهي سائق لذوي العقول باختيارهم المحمود إلى الخير بالذات»(١). يخاطب الدين أصحاب العقول، وهكذا يكون الإنسان قد قام بأعمال الطاعة بإرادته. فالدين يعطي الإرادة حقها ولا يشلها. والطريق الذي يوجه إليه الدين هو طريق للخير المطلق، وليس الخير الذي يراه هذا أو ذاك، بل للخير الحقيقي نفسه.

يقوم الدين بهذا التوجيه من ناحية العقيدة أولا، فقد يستطيع الإنسان بعقله التوصل إلى وجود خالق لهذا الكون. ولكن الإيمان على النحو الصحيح وبالمستوى اليقيني يأتي بعد أن يستمع إلى صوت النبوة الهادر وهو ينعكس على وجدانه الذي خُلق مستعدا ومتهيئا للاستجابة إلى هذا الصوت الذاكر لله. ثم إن النبي عندما يأتي، يأتي مجهزا بالأدلة التي تثبت أنه مرسل من عند الله تعالى. فإذا كان هذا النبي مرسلا بكتاب معجز يستمر إعجازه إلى يوم القيامة إلى جانب العديد من المعجزات المؤيدة له، فهل يبقى بعد ذلك مجال للشك أو الشبهة؟. إن الإنسان يتمكن آنذاك أن يعرف كيف يؤمن بالآخرة وبالقدر والأمور الأخرى التي يجب الإيمان بها، كما يقوم النبي بشرح وإيضاح ما غمض من هذه الأمور.

وتقوم العبادة بحفظ هذا الإيمان نضرا في القلوب، لا يذبل ولا يتفسخ ولا تصيبه الشيخوخة والبلى. فالإيمان بلا عبادة يفقد نوره ورونقه وشوقه وعشقه، فلا يبقى للشخص منه سوى الفخر بعظمائه السابقين المدفونين تحت طبقات التراب. فتراه يذكر دائما مناقبهم وأنهم كانوا علماء صالحين وشيوخا عظماء. لا شك أن ذكرهم بالخير شيء حسن، ولا سيما في هذه الأيام التي كثر فيها توجيه الشتائم إلى الأجداد، إلا أن هذا لايكفي ولا يضمن للإيمان الاستمرار والدوام.

والصلوات الخمس الذي نسعى فيها للمثول بين يدي الله تعالى تجدد إيماننا، كما تجدد عهدنا الذي عقدناه مع الله وتقويه، ولكن بشرط أن نستشعر آيات القرآن عند تلاوتها والتسابيح عند قراءتها في كل ركن من أركان الصلاة. وإذا تسربت الإلفة إليها وأدت إلى ذبولها وأفقدتها روحها، فإن هذه الصلاة لن تعني سوى إسقاط للفرض فقط، دون أن تحصل من ورائها على الفيوضات المرتقبة. لذا ترى أحد الروحانيين العظماء عندما يصل ذات مرة في سجوده إلى حال يستشعر فيها حلاوة الصلاة يقول: «ليتني أستطيع أن أصلي صلاة مثل تلك الصلاة مرة أخرى» ويضيف بعدها: «لقد كانت صلوات الصحابة كلها مثل تلك الصلاة، فقد كان كل ركن من أركانها يحمل إليهم رسالة جديدة من الله تعالى. أما الإلفة فلم تكن تجد لها مكانا في صلاتهم، كما كانت عباداتهم الأخرى تتم في نفس الحالة الروحية الرفيعة. لذلك يجب على من يحج البيت أو يؤدي الزكاة أو يصوم أو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر أن ينهل من هذه العبادات قوة معنوية دافعة ومحركة ومقوية لإيمانه. الجانب الآخر من الدين متوجه نحو المعاملات.

(١) التعاريف للمناوي، ص٣٤٩

فيجب أن تنظم فعاليات المؤمن الاقتصادية حسب مرضاة الله تعالى، أي لابد أن يكون القرآن والسنة المقياس في تحديد مبادئ التجارة وأسسها. وهذا من شأنه أن يكون قوة دافعة للإيمان، لأن الالتزام بهذه المبادئ يتم بقهر النفس ورغباتها والاستسلام لإرادة الله تعالى وأوامره. لنفرض أن مؤمنا يريد بيع بضاعة ما، فعليه بيان العيب إن وجد في بضاعته، ولكن يعرف أنه إذا ذكر العيب فسيقل ربحه أو سيخسر، وعلى الرغم من ذلك سيحس بانشراح في قلبه لأنه أطاع الله تعالى. وعندما يقف بين يدي ربه في الصلاة سيكون انشراحه القلبي هذا عاملا إيجابيا في حصوله على فيض معنوي من الصلاة، وهكذا يتجدد إيمانه ويزيد نضرة. هذه هي الوسائل التي توصلنا إلى مرضاته تعالى. وقد أمرنا الله سبحانه وتعالى بابتغاء الوسيلة إليه، وأكد النبي ﷺ أهميتها في قصة الثلاثة الذين حبسوا في المغارة وذكروا أعمالهم الصالحة متوسلين بها لنجاتهم منها. فكان أحدهم برا بوالديه، والآخر عفيفا في موقف حرج للغاية، والثالث مراعيا للحق أشد رعاية. وقد تضرعوا إلى الله أن يقبل أعمالهم الصالحة هذه وسيلة لنجاتهم. فأنجاهم الله فعلا وتدحرجت الصخرة الضخمة التي سدت باب المغارة فخرجوا سالمين[٢]. ومن الأهمية بمكان أن يتشبه المسلم بأخلاق الرسول ﷺ قدر طاقته، ويتتبع سلوكه وتصرفاته في كل شيء، في مأكله ومشربه وقيامه وقعوده ومنامه وعبوديته.

وإذا كان الله تعالى قد حرم الربا، فيجب علينا الابتعاد عنه والهروب منه حتى ولو أعطونا بكل قرش ألفا، والقيام بالتصرف نفسه حيال جميع الآثام صغيرها وكبيرها لأنها ستعود إلينا يوم القيامة كشعلة نار متقدة.

ما نستخلصه من كل هذا هو أن الدين كلٌ كامل لا يقبل التجزؤ والانقسام، أو بعبارة أخرى إن ما يقبل الانقسام والتجزؤ لا يعد دينا.

فالدين يشبه شجرة باسقة، العقائد جذورها، والعبادات وما يتعلق بها أغصانها، والمعاملات أزهارها، والعقوبات حارسها، والأوراد والأذكار هي العناصر التي تغذي هذه الشجرة من تحت ومن فوق.

والدين بوجهه الكامل هذا موضوع من الله تعالى ومبلغ من قبل النبي ﷺ.

كان من المفروض أن يتوجه وجدان كل إنسان إلى ربه ليتلقى منه روح الدين بشكل مباشر ودون وساطة. ولكن بما أن أرواح الجميع لا يمكن أن تصل إلى مرتبة الصفاء المطلوبة فقد اصطفى الله سبحانه وتعالى من بين عباده أنبياء:

﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾

(الحج: ٧٥).

والله سبحانه وتعالى يجعل مهمة الرسالة إلى من يشاء من عباده من الملائكة أو من الناس. وقد اصطفى من بين الملائكة — الذين لا يعلم عددهم إلا الله، منهم من هو راكع أو ساجد أو قائم منذ أن خلقهم الله — ؛ جبريل الأمين عليه السلام ليبلغ رسالته إلى رسولنا ﷺ وطوال ٢٣ سنة قام جبريل عليه السلام بمهمة نقل الوحي إلى الرسول ﷺ، وكان النبي ﷺ يصغي إليه بكل لطائفه مع احترام بالغ. وقد تأسست بينه وبين جبريل عليه السلام طوال هذه السنوات صلة وثيقة بحيث إن جبريل عليه السلام عندما زاره لآخر مرة بكى الرسول ﷺ.

أجل؛ كان الله تعالى يختارهؤلاء لأداء رسالته.

وقد اصطفى الله الأنبياء الآخرين بنفس الصيغة ومن أفضل الناس وأكثرهم استعدادا لأداء الرسالة فقد كانت معادن الجميع من الذهب الخالص. وكما كان الرسول ﷺ «مصطفى» بهذا الشكل كان الصحابة الذين تتلمذوا عليه من المصطفَيْن الأخيار. وهكذا وبواسطة هذه السلسلة الذهبية انتقل الدين إلينا. وكما تعرض نبينا ﷺ لمختلف أنواع الأذى في سبيل تبليغ الدين، تعرض الأنبياء الآخرون أيضا إلى صنوف شتى من العذاب والأذى واضطروا إلى مجابهة جميع الصعوبات، ولم يفعلوا ذلك في سبيل الحصول على أي من أعراض الدنيا، بل لو قام الرسول ﷺ بالتخلي عن دعوته لأصبح من الأغنياء ولوصل إلى كل ما يشتهيه الإنسان من نعم هذه الدنيا.. لتزوج من أجمل النساء ولأصبح من زعماء مكة.

ولكن ما قيمة كل هذه الأمورأمام النبوة؟.

لقد عُرج به إلى السموات وتناثرت النجوم كالحصى تحت قدميه وهو في طريقه إلى ربه. وبعد أن شاهد هناك من صور الجمال ما لم يشاهده أحد من قبل ولن يشاهده من بعد، رجع إلى أمته ليرفعها ويسمو بها. فأي إنسان يفارق تلك الأماكن بعد أن شاهد الجمال كل الجمال وذاق القرب كل القرب؟ ولكنه رجع.. إلى أين؟ إلى دنيا كانوا يفرشون فيها على طريقه الأشواك ويرمونه بالقاذورات ويقذفونه بالحجارة حتى تدمى قدماه الشريفتان... وإلى مدينة كان يواجهه فيها الاستهزاء اللاذع والإهانة المريرة. إذًا لم تكن المصلحة الشخصية أو الخوف وراء تجشمه كل أنواع العناء في سبيل دعوته وتبليغ رسالته إن إنسانا لم تستطع مناظر الجنة أسر قلبه ففضّل الرجوع إلى أمته لا يمكن أن يكون رجل منفعة أو مصلحة.

إن الله عز وجل غني عن كل شيء، وليس في حاجة إلى عبادتنا، ولكننا نحن بحاجة إلى أن نعبده. ولكي يعيش الإنسان الذي اختاره خليفة له في الأرض من بين جميع المخلوقات الأخرى حياة متوازنة، فقد أمره بالعيش بالأسلوب الذي خطه القرآن الكريم. وبعبارة أخرى فإنه تفضّل علينا وأهدى إلينا منهجا معينا اسمه الدين بسبب عجزنا عن إدارة أنفسنا إدارة صحيحة، ولكي لانتزلق إلى دروب منحرفة وخاطئة. فأمرنا أن ننظم أنفسنا ونبنيها حسب تعاليمه ومقاييسه حتى نتمكن من تشغيل جميع المواهب المكنونة في أنفسنا للسمو إلى الأعالي.

أجل؛ نحن بحاجة إلى الدين. ولو تمكن الإنسان من معرفة حاجاته الحقيقية ووعي أنه ما خلق إلا مرشحا للسعادة الأبدية، ولو استطاع استخدام جميع لطائفه وقابلياته وتنميتها لدعا

---

[٢] انظر البخاري: البيوع ٩٨؛ مسلم الذكر ١٠٠؛ أبو داود البيوع ٢٩.

الله هـذا الدعاء ولـو بكلمات مختلفـة: «يارب أرسـل لنا نظاما من عندك لكي تدير به أنفسنـا وتحفظها من الزلل ومن سلوك الطرق الخاطئة، وأنقذنا من التيه بين الطرق المتعرجة والملتوية التي لا تؤدي إلى أي هدف».

لقد سـار حتـى كبـار الفلاسـفة وعقلاؤهم سـيرا مترنحا ومتعثرا ولم يتمكنوا من الوصول إلى الحقيقة قط، بينما العامي فينا الذي مشى متتبعـا آثار أقدام الرسـول ﷺ لـم يخط خطوة واحـدة فـي الفـراغ، بل عـاش فـي كل مرحلة من مراحل حياته إنسـانا يعرف نفسـه ويراعي حقـوق الآخرين، لأنـه يتطلع إلـى مرضاة الله، ويقتدي برسـول الله ﷺ الذي هو المثل الأعلى له، ومن ثم يستغل كل لحظة من رأسمال عمره كبذرة أنبتت سبع سنابل.

لـم يكـن الديـن مخترعـا من قبـل عقل الإنسان استجابة لمطالبه.

أمـا المظهـر الضـروري للديـن الـذي يبدأ كذلـك فنابـع مـن كونـه نظامـا فطريـا يلائم طبيعـة الإنسـان، وكونه شـعورا مغروسـا في فطرة الإنسـان منـذ البداية فقد خلق الإنسـان بطبيعـة محتاجـة إلـى تعاليم الديـن، فبفضل الديـن فقط يدرك الإنسـان الحقيقـة والصواب في العقيـدة والمعاملات، وبفضـل الدين فقط يصبـح أهـلا للجنـة حيث ينصهر فـي بوتقته وينضج شـيئا فشـيئا حتى يصل في النهاية إلى هيئة تمكن الرسول ﷺ من معرفته وأخذه بيده وضمه إلى أمته تحت لواء الحمد يوم القيامة.

قال رسـول الله ﷺ: «ما من أمتي من أحد إلا وأنـا أعرفه يـوم القيامـة». قالوا: وكيف تعرفهـم يا رسـول الله فـي كثـرة الخلائق؟ قال: أرأيت لو دخلـت صيرة فيها خيل دهم بُهم وفيها فـرس أغر محجل أما كنت تعرفه منها؟»، قالوا: بلى قال: «فـإن أمتي يومئذ غر من السجود محجلون من الوضوء»[٣].

نحن بحاجة إلـى أن نُعرف هكذا، ونحن المحتاجـون إلـى الديـن وإلى نفحاتـه التي تهب الحياة.

لقـد جاء الدين بأسـس إيجابيـة تحتضن الحيـاة بأكملهـا. والنظرة التي تـرى الدين شـيئا قاصرا نظرة ضيقـة. والذين يحاولون إقصـاء الدين من الحياة ووضعـه على الرف سـيدركون يوما ما الجريمـة التاريخية التي يهمـون باقترافها، وسـيندمون على فعلتهم هـذه. إن هـذا الخطـأ يرتكب فـي كثير من البلدان شـرقا وغربا، غير أن الدين هو روح الحياة ولن يستطيع أحد إنكار ذلك.

للديـن أصـول وفـروع، أما الأصـول فلا يمكـن مسـها بأي تغيير علـى الإطلاق. وما من فرق بين ديننا والدين الذي كان عليه آدم عليه السـلام في الأصول، إذ إن أسـس العقيدة واحدة في جميـع الأديان السـماوية.

ولعـدم وجود نص فإننـي أحذر من إصدار حكم قاطع، ولكن يمكـن القول بأن أصول الديـن هي نفسـها بالنسـبة للملائكة أيضا أي أن جميـع الملائكة يؤمنون بما نؤمن به، يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالقدر والبعـث بعـد الموت. أما الفـرق ففي درجة الإيمان ومرتبته.

والأمر نفسـه ينطبق علـى العبادات كذلك. فما من تشريع سماوي صحيح أتى دون أن يلزم أبناءه بالعبادة. وقد تختلف هيئة أدائها حسـب الشعوب والعهود، لأن الله عز وجل قد حدد لكل أمة عبادة ملائمة لطبيعتهـا وظروفها وزمانها. أجـل، قـد يختلف الشـكل، ولكـن المضمون ووجود العبادة أصل ثابت لا يتغير أبدا.

ولنتناول عقيدة الآخرة على سبيل المثال، فإننا نجدها في جميع الأديان السـماوية. فهي مـن الضروريـات التي تحدث عنهـا كل نبي لأمتـه تفصيلا أو إجمالا. ولـولا هذه العقيدة التـي تحث الإنسـان على الخيـر وتنهاه عن الشـر لزالت الميزة التي تميـز الدين عن أي نظـام اقتصـادي أو اجتماعي بشـري فالدين يبنـي الكثيـر مـن أحكامـه وتعاليمـه علـى الإيمان بالبعث بعد الموت.

لـو لم يكن هنـاك إيمان بالآخـرة لما كانت هناك فائـدة للعبادات ولا لـلأذى الذي يتعرض له الإنسـان في سـبيل الديـن والتضحيات التي يقدمهـا، ولا لأي عقيدة أو إيمـان؛ ولخلع عن نفسـه الكثيـر من الفضائـل التي يتحلـى بها. فالإيمـان بالآخرة هو الذي يحثنـا على الالتزام بالفضائل، لأننا نؤمن بأننا إن عملنا مثقال ذرة خيرا أو شرا فسـنراه هناك.

ثم إننا ننتظر بفارغ الصبر اللحظة التي سنرى فيهـا جمال ربنا سـبحانه وتعالى، هـذه الرؤية التي لا تعادلهـا حتى حياة الجنة كلها. وبفضل الوصول إلى هذه الهبة الكبرى وبالشـوق الذي يشتعل في نفوسـنا تنصقل أرواحنا وتـتوق لسـلوك الطريق القويم المؤدي إلـى هذا اللقاء دون انحراف.

يقوم الأنبياء بأمر من الله تعالى بنسـخ بعض الأحكام الفرعيـة من الشـرائع السـابقة ورفع أحكامهـا، وقد جرت سـنة الله على هذا النحو، وهـذا مرتبط بنسـبة تقدم الوعي لدى الإنسـان ونضوجه. فالبشـرية كانت تعيش دور الطفولة في عهد آدم عليه السـلام بينما شـبه النبي ﷺ نفسـه بشـمس وقت العصـر، أي إن البشـرية وصلـت فـي عهده إلـى دور النضـج والكمال، وبـدأت تميـز الحق مـن الباطل تمييـزا جيدا، ومن ثم تمسـكت بالحق الـذي جاء بعد الباطل تمسـكا قويا.

جاءت فـروع الديـن مناسـبة وملائمة لهذه المرحلـة، والله تعالـى هـو واضع هـذه الفروع بحكمته الواسعة. ترى مئات المصالح والحكم في أشـكال العبادات لهذا الدين، أي إن شـكل العبادة فيه مناسـب لجماعة ناضجة واعية. أما الأديان الأخرى فقد تعرضت للتحريف والتبديل وفقـدت هويتها الأولى. وحتى لو حافظت على هويتهـا لما كانت ملائمـة للعهد الحالي. ذلك لأن الله تعالى حـدد الدين الذي يرضى عنه وهو الإسلام.

وخلاصـة القـول، لم يكن الديـن قط نتيجة لخوف الإنسـان من الآفات الطبيعية كالسـيول والصواعق، كما لم يكن كذلك نظاما اجتماعيا أو اقتصاديا لا يهدف إلا إلى حل مشـاكل الإنسان الاجتماعيـة والاقتصادية ليوصله إلى السـعادة والرفـاه، ولـم يكـن إفرازا للطبيعـة البشـرية كما ادعى «رينان» و «روسـو» بـل هو مجموعة قوانيـن إلهيـة تكفلـت بسـعادة الإنسـان فـي الدارين. إن سـعادتنا وراحـة بالنا مرتبطتان به، وبه يمكن دوام ارتباطنا بالقوانين، وبوسـاطته يمكـن الوصول إلى الجنة والنظر إلى جمال الله تعالى. ومهما ترقت الحضارة فإنها تعجز حتى عن تحقيق السـعادة الدنيوية للإنسان، فكيف تستطيع إذا أن تحل محل الدين؟!!

٣ مسند الإمام أحمد، ٤/١٨٩.

عناوين مقترحة للماجستير والدكتوراه:

إلى طلاب الدراسات العليا

لخدمة طلاب الدراسات العليا.. ولتوجيه هذه الدراسات- في الماجستير والدكتوراه- نحو القضايا التى تملأ الفراغات الفكرية فى واقعنا العلمى .. والتى تواجه التحديات المفروضة على العقل المسلم ..نبادر بتقديم عناوين مقترحة للماجستير والدكتوراه- لجامعة الأزهر وغيرها من الجامعات-

آملين أن يبادر أعضاء هيئة كبار العلماء ومجمع البحوث الإسلامية بموافاة مجلة الأزهر بما يقترحون من موضوعات.. خدمة لطلاب الدراسات العليا.. وترشيدا لهذه الدراسات.. وعلى الله قصد السبيل.

دكتور/ محمد عمارة

١ - التراتيب الإدارية لدولة النبوة بالمدينة المنورة.

٢- حديث الآحاد بين العلم واليقين.

٣- فقه الواقع وفقه الأحكام في ميزان ترتيب الأولويات.

٤- نشأة فن الخطط.. ودوره في فقه الواقع التاريخي والحضاري.

٥- تاريخ الوقف.. ودوره في تعظيم الأمة وبناء الحضارة.

٦- الانفتاح الإسلامي على تراث الهند.. البيروني نموذجًا.

٧- مكتبة الاسكندرية القديمة.. ومن الذي أحرقها؟

٨- الموقف القبطي من الفتح الإسلامي لمصر.

٩- وفاء النيل وعلاقته بالمجاعات وتعداد السكان من الفتح الإسلامي إلى عصر محمد علي.

١٠- تنظيمات الحرف والتجارة ودورها التاريخي في مقاومة المظالم والغزوات.

١١- دور التصوف في الانتصار للفقراء والمحرومين.

١٢- دور الوقف في تحقيق العدالة الاجتماعية.

١٣- علماء الأزهر ودورهم في الانتفاضات الشعبية والثورات الوطنية.

١٤- دور الأزهر في الثورات العربية.

١٥- دور الأزهر في ثورة سنة ١٩١٩م.

١٦- موقف دولة محمد على من الأزهر والأوقاف.

١٧- معركة كتاب تحرير المرأة لقاسم أمين.

١٨- معركة كتاب الإسلام وأصول الحكم لعلى عبد الرازق.

١٩- معركة كتاب في الشعر الجاهلى لطه حسين.

٢٠- معركة كتاب من هنا نبدأ لخالد محمد خالد.

٢١- الشريعة الإسلامية والعلمانية الغربية.

٢٢- رؤية الدكتور عبد الرزاق السنهوري لتجديد الخلافة الإسلامية.

٢٣- فلسفة الاستخلاف الإسلامية في الثروات والأموال.

٢٤- فلسفة العمران في تراث ابن خلدون.

٢٥- الفكر العرفاني في التشيع والتصوف.

٢٦- العلاقة بين الزيدية والاعتزال.

٢٧- مجلة المنار والدعوة الإصلاحية الحديثة.

٢٨- المعارك الفكرية في مجلة الأزهر.

٢٩- خطر النزعة التاريخية على ثوابت الإسلام.

٣٠- تقنين الشريعة الإسلامية في مجلة الأحكام العدلية.

٣١- محمد قدري باشا وجهوده في تقنين الشريعة الإسلامية.

٣٢- تقنين الشريعة الإسلامية في مجلس الشعب المصري.

٣٣- منظومة القيم الإسلامية في الدساتير المصرية ١٩٢٣-٢٠١٤م.

٣٤- التأريخ لتدوين السنة النبوية.

٣٥- البعثات العلمية المصرية في القرن التاسع عشر.

٣٦- الطهطاوي ومدرسة الألسن وحركة الترجمة.

٣٧- الموقف الشيعي من الصحابة.

٣٨- جمع القرآن وتدوينه في صدر الإسلام.

٣٩- الإسلام والتنوع الديني للأمة.

٤٠- التمايز القومي في الرؤية الإسلامية.

٤١- دعوات إحلال العاميات محل الفصحى في العصر الحديث.

٤٢- الأرقام العربية بين المشارقة والمغاربة.

٤٣- أسباب انتشار الإسلام بين الحقائق والافتراءات.

٤٤- ظاهرة الإسلاموفوبيا في الغرب المعاصر.

٤٥- السيطرة الشيعية في القرن الرابع الهجري - الأسباب والثمرات.

٤٦- دور الإحياء السني في انتصارات صلاح الدين الأيوبي.

٤٧- جهاد نور الدين الشهيد ضد الكيانات الصليبية.

٤٨- التجديد الإسلامي في شبه القارة الهندية.

٤٩- الموقف الإسلامي من الوطن والوطنية والمواطنة.

٥٠- دور المسيحية الصهيونية الغربية في الاستعمار الصهيوني لفلسطين.

٥١- المكانة الدينية والحضارية للقدس في تاريخ الإسلام.

٥٢- فلسطين بين الغزوة الصليبية والغزوة الصهيونية.

٥٣- نقد المنطق اليوناني في مذاهب الإسلاميين.

٥٤- مفهوم الحرية في مذاهب الإسلاميين.

٥٥- حديث افتراق الأمة: الرواية والدراية والصدق التاريخي.
٥٦- الفتوى والإفتاء في مصر الحديثة.
٥٧- رؤية الطهطاوي للحضارة الغربية.
٥٨- دار التقريب ومجلتها: الدوافع والملابسات والثمرات.
٥٩- مفهوم السلفية ..وتيارات السلفيين.
٦٠- الرؤية السلفية للتصوف والصوفية.
٦١- جمعية العلماء الجزائريين وإعادة الجزائر للعروبة والإسلام.
٦٢- علال الفاسي والإحياء الإسلامي في المغرب العربي.
٦٣- البلاغة في تفسير التحرير والتنوير للشيخ ابن عاشور.
٦٤- الشيخ محمود شاكر وجهوده في إحياء التراث.
٦٥- الشيخ محمد الغزالي وجهوده في خدمة السنة والسيرة.
٦٦- المصطلحات الإسلامية في كتاب الفروق للقرافي.
٦٧- السنة التشريعية وغير التشريعية في فكر الأصوليين.
٦٨- مميزات [الكشاف] للزمخشري بين كتب التفسير.
٦٩- ماذا بقي من الاعتزال في الفكر الإسلامي الحديث؟.
٧٠- القس «زويمر» وجهوده في التنصير.
٧١- مؤتمر كولورادو سنة ١٩٧٨م والمخطط الغربي لتنصير المسلمين.
٧٢- التحول إلى الكتابة في الإسلاميات في ثلاثينات القرن العشرين: هيكل- العقاد- طه حسين- توفيق الحكيم.
٧٣- الموقف الأوروبي من مشروع محمد علي الكبير.
٧٤- هوية النهضة بين مصطفى كامل وأحمد لطفي السيد.
٧٥- ثورة ١٩١٩م بين الإسلامية والعلمانية.
٧٦- التوجهات الفكرية الكبرى للشيخ عبد المتعال الصعيدي.
٧٧- تاريخ التنصير الغربي في مصر الحديثة.
٧٨- الجهود الاستعمارية لعلمنة القانون في بلاد المغرب العربي.
٧٩- الفروق والأشباه والنظائر بين التجديد الإسلامي والحداثة الغربية.
٨٠- النزعات المادية في فكرنا الفلسفي الحديث.
٨١- نزعات الزندقة والإلحاد في العصر العباسي.
٨٢- بين معتزلة البصرة ومعتزلة بغداد: الثوابت والمتغيرات.
٨٣- الأشعرية من التأسيس إلى التجديد.
٨٤- السلفية من التأسيس إلى التجديد.
٨٥- العقلانية الإسلامية بين القرآن واليونان.
٨٦- علاقة الحكمة بالشريعة في مذاهب الإسلاميين.
٨٧- مذاهب الإسلاميين في التأويل - دراسة مقارنة مع المذاهب الغربية.
٨٨- الإمام الشوكاني مجددا.
٨٩- الإمام ابن الوزير مجددا.
٩٠- الشيخ حسن العطار مجددًا.

٩١- جمال الدين الأفغاني مجددا.
٩٢- الإمام محمد عبده مجددا.
٩٣- مدرسة القضاء الشرعي ودورها في تجديد الفكر الإسلامي.
٩٤- دار العلوم ودورها في تجديد الفكر الإسلامي.
٩٥- الشيخ مصطفى الرازق مجددا.
٩٦- جهود خدمة السنة النبوية في شبه القارة الهندية.
٩٧- مقاصد الشريعة من الشاطبي حتى العصر الحديث.
٩٨- حقيقة النسخ في مذاهب الإسلاميين.
٩٩- منهاج محمد عبده في تفسير القرآن الكريم.
١٠٠- دعوات الإصلاح للدولة العثمانية في العصر الحديث.
١٠١- الشعوبية الفارسية في تاريخنا الفكري والسياسي.
١٠٢- فلسفة العربية في كتاب الخصائص لابن جني.
١٠٣- الفلسفة السياسية في رسائل إخوان الصفا.
١٠٤- النزعات المادية في المذاهب الباطنية.
١٠٥- نقد الغزالي لفضائح الباطنية.
١٠٦- التهافت بين الغزالي وابن رشد.
١٠٧- محاولات المسلمين أسلمة الفلسفة اليونانية.
١٠٨- مشاركات الصوفية في الجهاد ضد الصليبيين.
١٠٩- دور الأزهر في مقاومة الحملة الفرنسية.
١١٠- دور الحركة السنوسية في الإحياء الإسلامي بإفريقيا.
١١١- دور البارودي في الإحياء الشعري بعصرنا الحديث.
١١٢- تكامل الوطنية والعروبة والإسلام في شعر شوقي.
١١٣- السخرة في حفر قناة السويس.
١١٤- إسهام عبد الله النديم في الإحياء الإسلامي.
١١٥- محمد أسد .. وتفسيره للقرآن الكريم.
١١٦- الجمعية المحمدية- بأندونيسيا- جهودها في خدمة الإسلام.
١١٧- نظام الحسبة في التاريخ الإسلامي.
١١٨- الاستعمار الاستيطاني الغربي في عالم الإسلام.
١١٩- الفتوى والإفتاء في تراث الشيخ محمد بخيت المطيعي.
١٢٠- الإصلاح والتجديد في فتاوى الشيخ محمد رشيد رضا.
١٢١- دور التصوف في نشر الإسلام بإفريقيا.
١٢٢- الفكر الديني في لزوميات المعري.
١٢٣- بين المعري ودانتي- في رسالة الغفران والكوميديا الإلهية.
١٢٤- د. موريس بوكاي وكتابه التوراة والإنجيل والقرآن والعلم.
١٢٥- الإيمان والإلحاد في فكر د. مصطفى محمود.
١٢٦- إدوارد سعيد والاستشراق.

١٢٧- الجامعة الإسلامية في صحافة الحزب الوطني - حزب مصطفى كامل.

١٢٨- الغزو الفكري في مجلة المقتطف ١٨٧٥-١٩٥٢.

١٢٩- صحيفة المقطم والاستعمار الإنجليزي.

١٣٠- مدارس الإرساليات الغربية والغزو الفكري للشرق في العصر الحديث.

١٣١- صحيفة الوقائع المصرية من الطهطاوي إلى محمد عبده.

١٣٢- الثورة العربية في مرآة السياسة والأدب.

١٣٣- الهوية الحضارية لمصر في صحيفة [الجريدة].

١٣٤- ثورة ١٩١٩ في مرآة السياسة والأدب.

١٣٥- التحرير الإسلامي للمرأة.

١٣٦- التوجه الإسلامي لسعد زغلول: مذكراته - أقضيته- كتاباته- خطبه.

١٣٧- الموقف الشيعي من القرآن الكريم.

١٣٨- مكانة الأنبياء بين القرآن الكريم والعهد القديم.

١٣٩- دور الأمازيغ في نشر الإسلام والعربية بالغرب العربي الكبير.

١٤٠- شبلي شميل والدرونية في ضوء الإسلام.

١٤١- فلسفة ابن رشد بين فرح أنطون ومحمد عبده.

١٤٢- معالم العدالة الاجتماعية في كتب الأموال والخراج.

١٤٣- الأب د. جورج قنواتي وإسهاماته في الفكر الإسلامي.

١٤٤- د. علي سامي النشار والإحياء الإسلامي المعاصر.

١٤٥- المعارك الفكرية للشيخ محمد الخضر حسين.

١٤٦- جمال الدين الأفغاني والإحياء الفلسفي الحديث.

١٤٧- المعارك الفكرية للإمام محمد عبده

١٤٨- مقام العقل عند الحارث المحاسبي.

١٤٩- مقام العقل عند حجة الإسلام الغزالي.

١٥٠- مقام العقل عند شيخ الإسلام ابن تيمية.

١٥١- فن الموسوعات في العصر المملوكي.

١٥٢- محمد فريد وجدي مجددا.

١٥٣- التجديد الديني والأدبي في مجلة الرسالة.

١٥٤- الفكر النهضوي في مجلة روضة المدارس.

١٥٥- علي مبارك وجهوده في التعليم الحديث.

١٥٦- مصطفى كامل باشا والمسألة الشرقية.

١٥٧- محمد فريد: كاتبا ومجاهدا.

١٥٨- الشيخ علي الغاياتي: إسلامياته ووطنياته.

١٥٩- الشيخ محمود أبو العيون ثائرا ومصلحا.

١٦٠- الثورات والهبات الشعبية في

مصر الإسلامية.

١٦١- النفري وشرح الحكم العطائية.

١٦٢- ولاية الفقيه الشيعية وطبيعة السلطة في الدولة الإسلامية.

١٦٣- دعاوى الاستغناء بالقرآن عن السنة: تاريخها والموقف منها.

١٦٤- السهروردي المقتول وفلسفة الإشراق.

١٦٥- فلسفة اختلاف الفقهاء في [بداية المجتهد] لابن رشد.

١٦٦- التوفيق بين الحكمة والشريعة في مذاهب الإسلاميين.

١٦٧- أثر الفلسفة الإسلامية في موسى ابن ميمون.

١٦٨- تأثيرات الغزالي وابن رشد في توما الإكويني.

١٦٩- فلسفة التنوع والتعدد في كتب المقالات والملل والنحل.

١٧٠- الموقف الظاهري من القياس.

١٧١- الشيخ عبد العزيز جاويش مجددا ومجاهدا.

١٧٢- نظرية الإمامة بين القاضي عبد الجبار والشريف المرتضي.

١٧٣- إعجاز القرآن في كتاب [المغني] للقاضي عبد الجبار.

١٧٤- معركة كتاب [مستقبل الثقافة في مصر] لطه حسين.

١٧٥- مؤلفات السياسة الشرعية في فكرنا الإسلامي الحديث.

١٧٦- المقريزي وتاريخ المجاعات في مصر.

١٧٧- محمد علي وتأسيس مصر الحديثة.

١٧٨- علاقة العروبة بالإسلام في الفكر السياسي الحديث.

١٧٩- العقل والنقل في فكر الشيخ مصطفى صبري.

١٨٠- عبد الرحمن بدوي ودفاعه عن القرآن والرسول ﷺ ضد المستشرقين.

١٨١- الشيخ شلتوت فقيها ومفتيا.

١٨٢- الاتجاهات الفكرية في مجلة الفتح.

١٨٣- الاتجاهات الفكرية في مجلة القضاء الشرعي.

١٨٤- الاتجاهات الفكرية في صحيفة دار العلوم.

١٨٥- عبد الرحمن الكواكبي مجددا.

١٨٦- التطور الفكري لإسماعيل مظهر.

١٨٧- الاتجاهات الفكرية في مجلة السفور.

١٨٨- فجر الحياة النيابية والدستورية في مصر الحديثة.

١٨٩- الاتجاهات الفكرية في مجلة الهلال.

١٩٠- جورجي زيدان وتاريخ الآداب العربية.

١٩١- الدين والدنيا في مجلة مدارس الأحد.

١٩٢- الدين والدنيا في مجلة الكرازة.

١٩٣- الأديرة القبطية في مصر الإسلامية.

١٩٤- الصحافة الصوفية في مصر المعاصرة.

١٩٥- الأب جوميه - الدومينيكاني-

وتفسير المنار.

١٩٦- د. أحمد الكاتب وتطور الفكر السياسي للشيعة والوهابية والأشعرية.

١٩٧- الحملات الصليبية على العالم الإسلامي- المقاصد والثمرات.

١٩٨- الحروب الدينية الأوربية في العصور الوسطى.

١٩٩- الإسلام في قصة الحضارة لويل ديورانت.

٢٠٠- محاكم التفتيش لدى النصرانية الأوربية في العصور الوسطى.

٢٠١- العلاقات اليهودية الإسلامية في التاريخ الأندلسي.

٢٠٢- القصص التمثيلي في أدب المقامات.

٢٠٣- يعقوب صنوع والفن التمثيلي الحديث.

٢٠٤- الجوانب العقدية والتشريعية في القصص القرآني.

٢٠٥- السنن الحاكمة لسير التاريخ في الحضارة الإسلامية.

٢٠٦- الأصالة والتجديد والحداثة في فكر د. طه عبد الرحمن.

٢٠٧- القضايا الكلامية في فكر الإمام محمد عبده.

٢٠٨- الأصالة والتجديد في فكر البشير الإبراهيمي.

٢٠٩- الأصالة والتجديد عند الإمام ابن باديس.

٢١٠- مسامرات على مبارك والفن الروائي الحديث.

٢١١- كسب الأشعري في كتابات المتكلمين.

٢١٢- ولاية الفقيه الشيعية والدولة الثيوقراطية الكنسية.

٢١٣- مكانة الإسلام في الفكر القومي لحزب البعث.

٢١٤- الصراعات الصفوية العثمانية وتأثيراتها على الفتوحات العثمانية في أوروبا.

٢١٥-جهود التنصير الغربي في إفريقيا.

٢١٦- جهود المجلس الأعلى للشئون الإسلامية في الدعوة الإسلامية بإفريقيا.

٢١٧- مشروع النهضة في فكر مالك بن نبي.

٢١٨-المؤسسات الشيعية العاملة في إفريقيا.

٢١٩- دور الأقليات الدينية في إدارة الدولة الفاطمية.

٢٢٠- عمر بن عبد العزيز: ضمير الأمة وخامس الراشدين.

٢٢١- اسقاط الخلافة ١٩٢٤م وصداه في العالم الإسلامي.

٢٢٢- التأثيرات الإسلامية في النهضة الأوربية الحديثة.

٢٢٣- مجلة الكاتب المصري.

٢٢٤- معاهدة سيكس بيكو وتأثيراتها على الوحدة الإسلامية.

٢٢٥- المصطلحات الصوفية في الفتوحات المكية لابن عربي.

محمد فريد وجدي فريد عصره غير مدافع!





بقلم: أ. د. حلمي محمد القاعود

-٢-

كان محمد فريد وجدي نمطا متميزا في مجال الكتابة ، فهو كاتب مسترسل ، يملك القدرة على تطويع الكلمة وصياغة العبارة ، ويتابع الأحداث ويفسر مجرياتها ويعلل نتائجها ، فقد كان غزير الاطلاع حسن التصوير كما يقول تلميذه محمد رجب البيومي ، دافق الأسلوب على نهج أدبي لا يغفل عمق المعنى وسلامة المنطق ، كما أن له رسالة في الحياة عرفها منذ نشأته الأولى ، وظلت تلازمه حتى مختتم حياته ، وهي في كل يوم تزيد سطوعا وترسخ ثباتا وهي : أن الإسلام صالح لقيادة الإنسانية وعلى الكاتب أن يسعى إلى تحقيق ذلك بما ينشر من مؤلفات ، ويلقي من محاضرات ، ويكتب من مقالات !

وقد رأى وجدي أن الصحافة أكثر حضورا بين الجمهور من الكتاب والمحاضرة ، فاتجه إليها كاتبا وأديبا ، ويمكن القول إن علاقة محمد فريد وجدي بالصحافة كانت ذات شقين الأول : علاقة الكاتب الحر الذي يكتب في الصحيفة التي تنشر آراءه وأفكاره ، والآخر امتهان الصحافة وتحرير الصحف التي يملكها أو يديرها ليتمكن من نشر كل ما يكتبه ، فقد كانت الصحف التي ينشر فيها كتاباته ترى عدم نشر بعض ما يكتبه من مقالات أو دراسات علمية مطولة ، ومن ثم رأى أن تكون لديه صحيفة يملكها وينشر فيها ما يريد ، وفي الحالين فقد أنتج تراثا ضخما من الكتابات التي جمع بعضها في كتب في أثناء حياته أو بعد رحيله .

من ناحية الكتابة الحرة فقد كتب في مجلة المجلات العربية ١٩٠٦ ، والمقتطف ١٩١٩ ، والأهرام من ١٩٣٠ إلى ١٩٤٦ ، والهلال ١٩٢٩ إلى ١٩٤١ وكل شيء ١٩٣٠ إلى ١٩٣٥ والمعرفة ١٩٣١ إلى ١٩٣٢ والأخبار ١٩٢٤ والرابطة العربية ١٩٣٦ إلى ١٩٣٨ والبلاغ ١٩٣١ والرسالة ١٩٤٥ والبريد الإسلامي ١٩٤١ - ١٩٥١ .

ويلاحظ أنه كان يستمر في الكتابة في بعض هذه الصحف والمجلات في معظم أعدادها ،

وبعضها الآخر كان ينشر له موضوعًا واحدًا أو اثنين لا أكثر .

أما الصحف التي أنشأها أوحررها ، فقد شملت :

● أولا : الحياة ، وقد صدرت عام ١٨٩٩ إلى ١٩٠٠ثم توقفت وعادت للصدور من ١٩٠٦ إلى ١٩٠٧ وتوقفت مرة أخرى وعادت للصدور من ١٩١٤ إلى ١٩١٥ . وكان غرضه من إصدارها تثبيت أصول الدين في عقول أبنائه بنتائج العلم العصري وإقامة الأدلة العمرانية والفلسفية على أن هذا الدين هو منتهى ما يصل إليه الإنسان من حقيقة الدين وما تدفعه إليه الفطرة.

● ثانيا : الدستور، وقد صدرت في ١٦ نوفمبر ١٩٠٧ عقب توقف الحياة في إصدارها الثاني واستمرت حتى ١٩١٠ ، وقد أعيدت مرة أخرى مجلة أسبوعية عام ١٩٢٢ ، واستمرت مجلة حتى عام ١٩٣٣ . وكان يحرر صفحات الأدب والفكر والاجتماع بالإضافة لكتابته بحوثًا خاصة بالفكر الإسلامي.

ولم يتخل وجدي عن المنهج العلمي الدقيق في مقالاته ؛ لذا كان يصدر أبحاثه في حلقات. كما كان يجهر بالنقد للأحزاب ولم يستثن الحزب الوطني الذي ينتمي إليه من النقد كلما حاد في مواقفه عن أهدافه، ما جعل الوطنيين يضربون عن شراء الدستور ويحاربون توزيعها، فاضطر لإيقاف إصدارها ورفض كل محاولات المعونات المغرضة التي انهالت عليه لتمويل الجريدة مقابل أن يتكلم بلسان من لا يرتاح لهم.

● ثالثا : الوجديات ، وقد صدرت لفترة قصيرة من عام ١٩٢١ إلى عام ١٩٢٢ . وظهر فيها نبوغه الأدبي، واعتمد في تحريرها أسلوب المقامة في أغراض فلسفية؛ وهي عبارة عن مقالات خيالية لتصوير مثل عليا للحياة الفاضلة من منظور اجتماعي ينظر في أدواء الأمم ويعالجها . وتعد هذه الوجديات طليعة القصة الفلسفية.

● رابعا : مجلة نور الإسلام (الأزهر فيما بعد) ،وقد تولى رئاسة تحريرها لفترة طويلة بدأت من١٣٥٢هـ= ١١من سبتمبر ١٩٣٣م حتى فبراير ١٩٥٢م وهي مدة تقرب من عشرين عامًا حافلة بكتاباته العميقة التي ظهرت في كل الأعداد التي تولاها عدا عدد واحد هو شهر ربيع الأول = ديسمبر ١٩٥١ . وقد عهد إليه الإمام المراغي شيخ الأزهر آنذاك برئاسة تحريرها لما لمسه فيه من غزارة العلم والتعمق في فهم الدين، وقد تم تغيير اسمها من «نور الإسلام» إلى «الأزهر» بعد عام ونصف من العمل فيها ، وشهدت الأزهر نقلة كبيرة وبعد أن كان دورها مقصورا على التفسير والحديث وإحياء السنة والدعوة إلى الفضائل؛ خاضت في قضايا أوسع وردت على الشبهات العلمية والفلسفية المزعزعة للعقائد، وما يثار في الكتب الأجنبية حول الإسلام والمسلمين، ويقول فريد وجدي «باشرت مهمتي فيها فأنست من الرأي العام والصحافة ارتياحا تشطني على المضي قدما فيما عهد إليّ واطردت زيادة المجلة حتى بلغت ١٤ ألفا». وقد تعددت أبواب المجلة تحت رئاسته ، وكان يقوم بتحرير أربع مقالات في العدد الواحد بنفسه، وفي عهده انتقلت الأزهر نقلة هائلة فأخذت تزاحم المجلات الأخرى مثل : المقتطف والهلال والرسالة لدى كبار المثقفين الذين كانوا يعدونها فيما مضى خاصة بطائفة المعممين، فاختصها أساتذة الجامعات بدراساتهم المنهجية مع لفيف من رجال القضاء والطب والتربية والاجتماع.

ولكنها مع ذلك لم تسلم من نقد الفئة التي لا تعرف الانفتاح العلمي، فكان وجدي يرحب بنشر هذه الانتقادات في المجلة ويقوم بالرد عليها ردا علميا .

وظهرت بعض الملامح الإنسانية لدى وجدي إبان فترة رئاسته لتحرير الأزهر، فقد كان يقوم بتشجيع الطلاب الناشئين ونشر قصصهم وأشعارهم كما كان يقف على الجديد من الكتب ويعرض له – مهما كان كاتبها مغمورا – فيقدمه للقراء وكأنه من كبار الكتاب. وظل وجدي يؤدي مهمته في «الأزهر» حتى قبل وفاته بعامين. وقد أعفى نفسه من العمل بمحض إرادته بسبب حاجته إلى الراحة .

(راجع تفصيلا أكثر : محمد رجب البيومي، محمد فريد وجدي الكاتب الإسلامي والمفكر الموسوعي ،دار القلم ، دمشق ، ١٤٢٤هـ=٢٠٠٣ م ، ص ٤٥- ٩٣ ، وأنور الجندي ، محمد فريد وجدي رائد التوفيق بين العلم والدين ، ص ٨٤- ٨٨) .

-٣-

مع تعدد مؤلفات محمد فريد وجدي وإنتاجه الفكري في عدة مجالات فإن أعظم إنجاز قدمه للفكر قد تمثل في تأليفه دائرة معارف القرن العشرين.

فقد كان لإجادته الفرنسية واطلاعه على معارف وعلوم العصر من دوائر المعارف العالمية مادة كبرى لتحصيله المعرفي، فكتب «كنز العلوم واللغة» عام ١٣٢٣هـ= ١٩٠٥م وكان نواة لمصنفه الضخم فيما بعد، ثم خرجت دائرة المعارف في عشر مجلدات وتحوي تسعة آلاف صفحة قضى في كتابتها ما بين عامي ١٣٢٨ / ١٣٣٦هـ= ١٩١٠ / ١٩١٨م، وهي دائرة معارف عامة تحتوي على فصيح اللغة وخلاصات العلوم العقلية والنقلية والطبيعية والتاريخية والعمرانية إضافة لتراجم مشاهير العلماء وكثير من الفوائد الطبية والعلاجية والوسائل الحيوية التي يحتاج إليها الإنسان في سائر أحواله المعيشية.

لقد جاء عمله في هذه الموسوعة نتيجة لتعطيل الدستور ، فقد انصرف إلى أفقه الأصيل في قوة وهو التأليف ، وأتيحت له فرصة توسيع المجال في البحث والدرس .

وما يكاد الدستور يتوقف حتى بدأ إعلاناته في الصحف ، وهذا هو نص الإعلان الذي ظهر في المؤيد واللواء في أغسطس ١٩١٠م عن دائرة المعارف «المقتبسة من سبع دوائر معارف أفرنكية ، ومن مجموعة ثمينة من كتب عربية وفرنسية ، تصدر على هيئة أجزاء شهرية ، الجزء في ثمانين صفحة ، والاشتراك ٦٠ قرشا عن كل مجلد سنوي ، ويقبل الثمن مقسطا على اثني عشر شهرا ، كل شهر خمسة قروش طوابع بوستة».

لقد اشترى لها خصيصا مطبعة سماها باسمها «مطبعة دائرة المعارف» وبلغ عدد صفحاتها ٨٤١٦ صفحة في عشرة مجلدات وقدم لها واصفا إياها :

«قاموس عام مطول للغة العربية والعلوم العقلية والكونية بجميع أصولها وفروعها

والنحو والصرف والبلاغة والمسائل الدينية وتاريخ الفرق والمذاهب والتفسير والحديث والأصول والتاريخ العام والخاص، وتراجم مشهوري الشرق والغرب والجغرافيا الطبيعية والسياسية والكيمياء والفلك والفلسفة والعلوم الاجتماعية والاقتصادية والروحية والطب والعلاج وقانون الصحة والفوائد المنزلية وخصائص العقاقير والإحصاءات وسائر ما يهم الإنسان في جميع المطالب».

وقد انفرد وحده بتأليف هذه الموسوعة التي لا يستطيع أن يقوم بها العشرات بمثل هذه الدقة، ودفعه لذلك أن وجد الميدان خاليا فاقتحمه بمفرده، وتلقف الجمهور الموسوعة بإقبال نادر حيث نفدت طبعتها الأولى سريعًا وأعيدت الطبعة الثانية.

ولم يكن وجدي جامعًا للمعارف فحسب بل كان يقدم رأيه الخاص في كثير من المسائل، فهو ناقد وموجه وشارح، ومع ما بذله وجدي من جهود جبارة في إنجاز هذه الموسوعة فلم يجد صدى لعمله العظيم في الدوائر العلمية والثقافية الرسمية، مما دفع داود بركات رئيس تحرير الأهرام آنئذ أن يكتب في افتتاحية الجريدة يوم ٣ من إبريل عن دائرة المعارف وصاحبها ويهاجم المسئولين للغبن الذي لحق بصاحب هذا العمل الضخم الذي عمل وحده منفردًا وعمل جادًا وعمل ساهرًا، عمل لا لينال أعلى صدره نيشان؛ ولا تدفع له رتبة، ولا ليقام له حفل تكريم، وأشار بركات إلى أن هذا العمل يمثل تضحية في وقت كسدت فيه سوق الأدب والعلم. وقارن بينه وبين طوائف لا تستحق الاهتمام بل هي طوائف فاسدة ينصب عليها المال والاهتمام بينما أهل العلم والأدب لا ينالون شيئًا، ودعا بركات إلى إنصاف وجدي وتسجيل عمله، مشيرا إلى أن الأهرام يسجل على صدره جلال العمل الذي أتمه، ونفع هذا العمل وفائدته الكبرى وقال: لقد عمل لنفسه ولأمته عملا لاشك بأنه كبير وجليل.

وفي كل الأحوال فإن محمد فريد وجدي لم يكن طامعا في تقدير جيله، ولم يكن متطلعا إلى الجزاء المادي أو الأدبي الذي يتوقع لهذا العمل؛ إنما كان يرجو به «بناء أمة وإنشاء جيل» (أنور الجندي، محمد فريد وجدي رائد التوفيق بين العلم والدين، ص ٦١-٦٦).

ويشير أنور الجندي إلى أن بطرس البستاني عجز عن إتمام دائرة معارفه مع المساعدة السخية التي قدمتها له الحكومة المصرية بشراء ألف نسخة من الدائرة، وعجز خلفاؤه كذلك فلم يتم هو أكثر من ستة أجزاء، وأعد خلفاؤه ثلاثة أجزاء أخر حتى عام ١٩٠٠ ووقفوا عند حرف «عين» (السابق، ص ٦٧).

وقد ذكر توفيق حبيب (الصحفي العجوز) أن مصر تفخر بهمة فريد وجدي الذي عمل بمفرده في وضع دائرة معارف القرن العشرين، وأنها تمتاز على دائرة البستاني بتوخيها شرح بعض المسائل الدينية. فكلمة «الله» مثلا مبسوطة في نحو عشرين صفحة، وكلمة «بيع» مشروحة شرحا فقهيا إسلاميا مسهبا، وكلمة مكتبة دوّن فيها الكاتب خلاصة طيبة عن المكتبات العامة في مصر.. إلخ (السابق، ص ٦٧ وما بعدها).

٭٭٭

وتعد محاولة تفسير القرآن من بين أبرز إنجازات فريد وجدي حيث أراد من خلالها أن يعطي الألفاظ العربية حقها من البيان مع بيان أسباب النزول وجعله في شكل المصاحف العادية، فاستكتبه باليد على ورق نباتي وطبعه تحت اسم «صفوة العرفان في تفسير القرآن»، وجعل تفسير كل صفحة في ذيلها ليسهل الرجوع إلى معنى أي لفظ. وهذا الأسلوب الذي ابتكره وجدي صار سنة لكتب التفسير التي طبعت من بعد كالجلالين والبيضاوي وما ألفه المحدثون من بعده.

ولم تقتصر عناية وجدي بالتفسير على المصحف المفسر بل كتب مجموعة من المقالات التفسيرية ألحقها بمقدمة تفسيره، كما اهتم بتفسير الآيات التي استشهد بها في جميع مؤلفاته وذلك لاستناده عليها في مناقشة قضايا الإسلام المختلفة.

يقول فريد وجدي في مقدمته موضحا سبب تأليفه: «فإني حوالي سنة ١٣٢٣هـ حاولت أن أقرأ القرآن قراءة تدبير وفهم كما أمر به ﷺ، فأعوزني أن أجد من التفاسير ما تبغي أمنيتي من أقرب الطرق وأسهلها. فإن المطولات لا يتسع لتلاوتها وقت أمثالي من المشتغلين بفروع كثيرة من العلم، والمختصرات قصد بها حلول المسائل الفنية من التفسير، وكان مرادي تفسير يعطي الألفاظ العربية حقها من البيان ويعرض للمعنى بعبارة خالية من المسائل الفنية، مع بيان أسباب نزول الآيات ليتجلى للقارئ المعنى بكل جلاله.

فأخذت أضع تفسيره لنفسي وشرعت أكتبه على هامش مصحف لأتخذه عمدة في تلاواتي للكلام الكريم.

وقبل أن أتمه أدركت أن هذا العمل طلبة كل تال للقرآن العظيم، فرأيت أن أتم ذلك التفسير وأطبعه ليعم انتشاره، ففعلت، وهو هذا الكتاب الذي أقدمه للقراء راجيًا أن أكون بهذا العمل سببًا في نشر معنى كتاب الله بين ناس لم يكونوا يبلغونه في حياتهم، إما لأن أعمالهم لا تمكنهم من الاطلاع على التفاسير، وإما لأن مادتهم العلمية لا تسمح لهم بإدراك أغراض المؤلفات السابقة.

ثم إني رأيت- تتميما للفائدة- أن أجعله على شكل المصاحف العادية؛ فجعلت تفسير كل صفحة في هامشها، ليسهل الرجوع إلى معنى أي لفظ أو آية في حال التلاوة، والحمد لله أولًا وآخراً.

وإني لأرجو من وراء هذا أن يعم انتشاره، فيشيع بهذه الوسيلة العلم بمعاني الكتاب العزيز، وتتحرك في النفوس عوامل الرغبة في العمل بها، لاسترداد مجد هذه الأمة المضاع، بمثولنا وسط الأمم الراقية، نعمل كما تعمل لرفع منار الإنسانية، وتشييد صروح العمران والمدنية».

ومع اهتمام الأستاذ وجدي باللغة والمفردات وشرحها شرحا وافيا دون أن يتعرض للنحو ومسائله الدقيقة؛ فإنه قد استخلص هذا التفسير من الآراء المجمع عليها لدى أئمة المفسرين، وأقطاب أهل السنة، فلم يخرج به عن سنتهم قيد شعرة ليوافق مذهبًا من المذاهب أو يؤيد رأيًا من الآراء الفردية، ولو اضطره الكلام في بعض الآيات أن يورد رأيًا لأحد من غير أهل السنة، فإنه ينبه إليه وإلى ظروف قائله حتى يكون القارئ على بينة من أمره.

ويلاحظ أنه قلل كثيرًا من ذكر الأحاديث النبوية في تفسيره لمعاني الآيات، وغالب ما

يذكره من الروايات هو من أسباب النزول، ولا يعزوها إلى مصادرها. وهو يوجز في تفسيره لآيات الأحكام، ويكتفي بذكر معنى الآية في عبارة ميسرة، ويبتعد عن خلاف الفقهاء ومذاهب العلماء في الآية، مكتفيا بالآراء المتفق عليها .

كما يلاحظ أنه لم يشر إلى القراءات حرصا على الإيجاز وتوفير الوقت على المشتغلين بفروع العلم العصرية، وأيضا لم يذكر الإسرائيليات بصفة عامة، وإن أشار إلى بعضها باختصار.

وللأسف فقد اندفع بعض العلماء لمهاجمة هذا التفسير؛ لأنه يشرح قضايا العلم الحديث وتفسيرها في ضوء ما يعرف من حقائق الإسلام، فالشيخ محمد الجهني - رحمه الله - وهو تقي ورع كما يصفه محمد رجب البيومي شن حملة على الأستاذ وجدي في كتابه (العمل المبرور في ردع أهل الغرور)، ولكن الشيخ الجهني مع أنه مخلص غيور كما يقول البيومي؛ فإن أفقه العلمي لا يتسع لقراءة ما يسطره الكاتب الكبير محمد فريد وجدي، فمضى يرميه بما لم يكن منه، ولعل الذين يصفون تفسيره بالقصور، يعرفون أن الرجل قد فسر بعض الآيات بإسهاب حين اقتضت الحال تفسيرها في (دائرة المعارف) فأتي بما يشرح الصدر تعمقا واستقصاء (انظر: محمد رجب البيومي، محمد فريد وجدي الكاتب الإسلامي والمفكر الموسوعي، ص ١٣٤).

وقد لقي هذا التفسير عناية كبيرة في فترة الستينيات من القرن العشرين فقد طبع عشرات الطبعات، وقامت دار الشعب بطبعه في أجزاء متوالية عدة مرات حتى بلغ المطبوع منه ما يقرب من مائة ألف نسخة .

كما أن عددًا من فضلاء العلماء قاموا بمحاكاة المصحف المفسر، فكتبوا التفسير الموجز، ومنهم الشيخ حسنين محمد مخلوف والشيخ عبد الجليل عيسى وابن الخطيب وغيرهم، وكان الأستاذ وجدي رائدًا لهم في هذا الميدان (السابق، ص١٤٠).

***

قضى وجدي قرابة نصف عمره منافحًا للمادية والماديين فكان يسارع بشراء ما يصدر باللغة الفرنسية من الكتب التي تروج للنظرية الداروينية ليقوم بتفنيدها والرد عليها، فكتب «على أطلال المذهب المادي» في أربعة أجزاء محاولا هدم كل ما قاله «المطورون» كاشفًا حقيقة الصلة بين العلم والدين وموضحًا المرامي الباعثة على نهوض البحوث الروحية في وجوه الشكوك المتلاحقة وباذلا جهده في إثبات العالم الروحي ليس فقط ليعتقد الناس ببقاء الروح بل ليدعوهم لصلاح أمرهم في الدنيا.

لقد تناول الأستاذ وجدى النظريات المادية التي أفرزها الفكر الغربي الحديث وناقشها مناقشة علمية موضوعية تدحضها وتكشف قصورها وعدم تناسبها مع الفطرة الإنسانية، ولعلنا لو توقفنا قليلا عند رؤيته للشيوعية مثلا وهي في أوج ازدهارها وانتصارها وتمددها في أرجاء العالم على أطلال الاستعمار الغربي، ثم توقعه في الوقت نفسه هزيمتها وانكسارها، لاكتشفنا عمق فكره، وسلامة منهجه، وصواب رؤيته، وهو ما يوجزه في عبارة دالة وردت في بحث له بمجلة الأزهر يقول فيها :

« هذا التورط الشنيع الذي تتكلفه الشيوعية، وتحتفظ به في سيل عارم من دماء البشر في سبيل اجتثاث الدين من قلوبهم لا يعقل أن يدوم».

ويشير الأستاذ وجدى في بحثه إلى أن حياة الشعوب تقوم على سنة ثابتة من التطور التدريجي، ولم تغن النظم الخيالية والمدن الفاضلة مثل جمهورية أفلاطون أو سياسة أرسطو شيئًا، والمذهب الشيوعي يقوم على ثلاثة أصول: محو الملكية الفردية والحقوق الوراثية ومشاعية الأرض، وإلغاء وعرس الأموال الفردية لحساب الحكومة، واستئصال شأفة الدين من المجتمع بوصفه ألد أعداء الشيوعية. ويتوقف عند كل أصل في تفصيل مسهب، ويتألق عند الأصل الثالث الخاص بالدين، فيتهكم بمن يقولون: إن كل مجتمع طبقي يتولد فيه الدين تحت تأثير النير الاقتصادي، إذ إن الدين غريزة توجد في النفوس قبل أن يعرف أهلها نظام الطبقات، فكيف يتولد من هذا النظام ؟! والدين لا يستمد سلطانه من جوع الجماعات، ولا من وقوعهم تحت براثن القادة الظالمين، بل يستمده من أشرف عواطف النفس، وأكرم غرائز العقل، وقد ثبت بالمشاهدة أن الإنسان إذا كانت قواه مستوعبة في طلب القوت، ضعف سلطان الدين عليه، ولم يجد وقتا للنظر في نفسه ومصيرها، ولا للفكر وآدابه، وكثيرًا ما أداه شظف العيش إلى الكفر الصريح، وما ارتكبت الجرائم إلا حين خفت صوت الدين في النفوس.

ويدفع الأستاذ وجدي الافتراء على الدين ونسبة العادات البالية إليه وإحياته النزعات الرجعية، ويشير إلى دور الإسلام في إنقاذ العرب والعالم من الجهالة وظلماتها لأنه باعث ارتقاء لاهبوط.


خالد محمد خالد

وينبه إلى نقطة مهمة وهي وجود بعض العامة الجهلاء الذين يدينون بالخرافات العتيقة، ويحافظون على ضلالات الأولين، وهو ما يعمل المصلحون على علاجه بوسائل تلائم الطبيعة البشرية من طريق ترقية المدارك، ورفع مستوى العقليات، مع عدم العدوان على العاطفة الدينية (مجلة الأزهر، المجلد الحادي عشر، ١٣٥٩هـ= ١٩٤٠م، ص ١٨ وما بعدها).

وينبه الدكتور محمد رجب البيومي إلى أن الأستاذ وجدى تصدى لما كتبه الأستاذ خالد محمد خالد في كتابه الشهير (من هنا نبدأ) بسلسلة من المقالات الهادفة نشرها تباعا في مجلة الأزهر تحت عنوان (ليس من هنا نبدأ) فند فيها أراجيف الكتاب بسيف لا يكل وبخاصة فيما ادعاه من التسلط الديني على النفوس المسلمة، وما ذكره عن الاشتراكية المتطرفة أو الشيوعية بوصفها حلا لمشكلات الحياة. وكان لمناقشة الأستاذ وجدي لكتاب خالد أثرها في إزال الغشاوة عن عينيه، واعترافه الجريء فيما بعد بخطئه حيث أصدر كتابا بعنوان (الإسلام دين ودولة) سلم فيه بكل ما قال ناقدوه، لأنه كان ينشد الحق وقد أخطأ سبيله، ثم هداه الله إليه، فكان من الفائزين برحمة الله (انظر: مجلة الأزهر، مجلد ٢٢، شعبان ١٣٧٠هـ، محمد فريد وجدى الكاتب الإسلامي والمفكر الموسوعي، ص ٢٦٦- ٢٦٧).

انتعاشة الروح!

مفاتيح التعامل مع التراث العربي الإسلامي

محاولة تأصيلية



أ.د. خالد فهمي
كلية الآداب / جامعة المنوفية / مصر

الحمد لله القائل في الكتاب العزيز:

﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ [سورة الكهف: ١٠٩].

وبعد:

فلم يكن هذا المُفتتح مقصودًا به الوقوف عند حدود التأسي بواحد من أخلاق المؤلفين في الحضارة العربية الإسلامية؛ بتأثير من الروح التي بثها في أوصالها الذكر الحكيم فقط.

وإنما المقصود منه بجوار ما سبق أن يكون مدخلًا لبيان السياق المعرفي لهذه المحاولة التأصيلية في سعيها للكشف عما يُسمى باسم مفاتيح التعامل مع التراث العربي الإسلامي؛ ذلك أن قولًا من أقوال أهل التفسير في توجيه البحر «أنه العلم بالقرآن» كما قال مجاهد، رضي الله عنه، على ما أخرجه الماوردي في النكت والعيون (٢/ ٥٧٥).

وهو ما هداني إلى أن أقرر أن التراث العربي الإسلامي متمدد جدًا، بسبب من كونه في الحقيقة حاشية موسعة على الكتاب العزيز، تخطب وده، وترجو رضاه!

جاء هذا البحث استجابة لدعوة كريمة من أخوَي الكريمين الأستاذ/ إسلام مصطفى والأستاذ/ تامر الجبالي المشرفين على مركز (تراث) بالقاهرة، لإلقاء محاضرتين في الدورة العلمية التي كان عنوانها: (مدخل إلى التراث العربي الإسلامي: المقدمات) على امتداد يومين هما: الجمعة والسبت من شهر رجب

المحرم ١٤٣٥هـ الموافق ١٦ و١٧ من مايو ٢٠١٤م، وكان مما جاء في خطاب الدعوة والتكليف: «غني عن البيان أن التراث المكتوب؛ لأي أمة هو ذاكرتها الفكرية (أي الخارجية) والمقصود بتلك الذاكرة: مجموع الأفكار التي نشأت في تلك الأمة، وكيف نشأت؟ وفي أي سياق تاريخي تمت، وتطورت...؟ وأي نوع من الأفكار هي؟ وما المناهج والأساليب التي اعتمد عليها العالِمُ المسلم في توليد هذه الأفكار؟ وما طبيعة التنوع المعرفي الذي امتازت به تلك الأفكار؟». ثم أردفت الدعوة فكلفتني بالقيام بعبء «عرض التنوع المعرفي للتراث العربي، ومحاولة استنباط مفاتيح للتعامل مع هذا التراث المتنوع الممتد»!

وقد جاءت الدعوة أو التكليف واعية بالفراغ المروع الذي تشهده مكتبة الأدبيات المعاصرة في ميدان التعامل مع التراث، وهو ما تجلى في إحسان تعبيرها عن مطلوبها بقولها: استنباط!

وقد كان لزامًا عليّ بشكل منهجي أن أستعرض المقاربات المعاصرة لمفهوم التراث، ليكون هذا الاستعراض والتحليل بوابة الولوج إلى عالم استنباط مفاتيح التعامل مع التراث العربي الإسلامي تكشف عن طريقة عمل العقل في استنباطها، وتفسر - إلى حد ما - ما سوف يعلق بها من تنوع وتراتب.

لقد كانت جدة الموضوع، وخطورة القضية داعيين إلى طول المكث، والتأني، والتواضع معًا.

وهو ما عبرت عنه في عنوان البحث الجانبي عندما قلت: إنها محاولة تأصيلية، تحتاج إلى أن يردفها المختصون، والمهتمون بشئون التراث العربي الإسلامي بالفحص والاختبار من جانب، وتقديم النصح لصاحبها.

إنني على يقين أنني أشبه الجراح الذي أسند إليه مهمة إنقاذ حياة نفر جليل من الخلق؛ ولذلك فالمهمة شاقة جدًا؛ لأن نتائجها المرجوة خطيرة جدًا ربما غيّرت بعضًا من مسارات عدد من الباحثين والمحققين والمثقفين معًا.

إنني أكتب هذه المحاولة بعد إذ حاضرت بها نفرًا من كرام الدارسين، وبعد إذ رأيت تأثيرها في بعض منهم، ورأيت عنف مواجهتها، ومناقشة طرحها؛ بسبب ما تتبناه من رؤى، وتطرحه من تفريعات، وحسبي أنني حاولت بها تحقيق انتعاشة روح رأيت نفسي مسئولًا عن انتعاشتها.

فإلى اللذين فتحا لي باب القول في هذه القضية الخطيرة، وهما إسلام مصطفى وتامر الجبالي، وإلى أكثر من جادت في أمر ما تطرحه، واقتنعت بما جاء فيها، فغيرت من مساراتها البحثية تلميذتي الأستاذة هالة القاضي أهديهم هذه المحاولة التأصيلية.

والحمد لله الذي أعان، وأسأل القبول.

[١] مدخل: في الطريق إلى شجرة النور!

لم يزل يمثل التراث العربي الإسلامي، وسيظل هو الخطوة الأولى التي لا بد

منها في الطريق إلى إحياء هذه الأمة؛ بتقدير طبيعتها التي تأسست بسبب من الإيمان بالتصور الجديد الذي جاء به الإسلام للوجود والحياة، وبسبب من أن هذا التراث تفجرت ينابيعه بسبب من إرادة خدمة الكتاب الأعظم لهذا الدين العظيم، حتى صح ما يقال إن الحضارة العربية الإسلامية هي حضارة استوعبت كل جنبات الوجود الإنساني في تعالقاته السماوية والأرضية، المادية والروحية معًا. وبسبب من أنّ تجليات هذا التراث صدرت ساعة ما صدرت حاملة خصائص الدين، ومصطبغة بطوابعه، ومسقيّة بمائه.

من أجل ذلك كله فإن الانشغال بالبحث عن مفاتيح التعامل مع التراث العربي الإسلامي يمثل نقطة محورية لكل المتعاملين معه، أيًا ما كانت المقاربة التي يلتزمها في فهمه لمفهوم التراث.

لقد سبق مني في مقالة مطولة نسبيًا أنْ وقفتُ أمام مقاربتين أساسيتين لمفهوم التراث هما (انظر: في تحقيق النصوص ونقد الكتب، دار الكتب المصرية، القاهرة، ٢٠١٣م، ص١٥):

- أولًا- مقاربة مفهوم التراث الذي هو المنجز المكتوب الذي خلفه لنا الآباء والأجداد من علماء الأمة، وهو المفهوم الذي يدور حوله علم تحقيق النصوص بالمعنى المهني، وهي المقاربة التي افتتح التبشير بها وخدمها تأصيليًا الراحل الكريم عبد السلام هارون، المتوفى ١٩٨٨م ومعه أو قريبًا منه الراحل الكريم عبد الرحمن المعلمي المتوفى ١٣٨٦هـ= ١٩٦٦م، ونظمها، وأتم مساراتها التطبيقية الراحل الكريم رمضان عبد التواب المتوفى ٢٠٠١م. (انظر: التراث العربي، ١٩٧٨م ص١٤، ورسائل المعلمي ٢٣ / ١١٤، ومناهج تحقيق النصوص، ص٨).
- ثانيًا- مقاربة مفهوم التراث بما هو أوسع من المغزى الفكري المكتوب، الذي يتسع ليضم المكتوب والنظم والمدركات، وهي المقاربة التي استنبتها في التربة المعاصرة الراحل الكريم حامد ربيع المتوفى ١٩٨٩م في مقدمة نشرته لكتاب ابن أبي الربيع: سلوك المالك إلى تدبير الممالك (انظره: ١ / ١٨).

لقد التقت هاتان المقاربتان واتفقتا على مجموعة محددات مركزية هي:

- أولًا- وجوب الإيمان بالتراث.
- ثانيًا- وجوب إحياء التراث.

واختلفتا في الوجهة والغاية. فتوقفت المقاربة الأولى عند حدود التطبيقات الإيمانية بالتراث العربي الإسلامي عند ما يلي:

- أولًا- تحقيق نصوصه، بكل ما يحيط بهذا التطبيق من تنظير ووسائل مساعدة.
- ثانيًا- نقد النشرات المحققة.
- ثالثًا- الدفاع عنه.
- رابعًا- تخريج أجيال جديدة من المحققين.

وتجاوزت المقاربة الثانية إلى آفاق أرحب وأوسع مدى من أختها، لتقرير أن

وظائف الإحياء للتراث متنوعة تستوعب ما عُنيت به المقاربة الأولى، وتتجاوز إلى غيره مما هو معدود في الحقيقة الوظيفة الأم لكل عمليات العناية بالتراث والإيمان به وهي:

وظيفة فهم الذات؛ واستعادة الإنسان العربي المسلم لهويته، في إطار من نسق يلزم استعادته أيضًا.

لقد كانت هاتان المقاربتان اللتان صدرتا عن إيمان بالتراث، وشعور غامر بضرورة استنقاذ الإنسان العربي المسلم من بين التيه الذي بُني فوقه في التاريخ الحديث والمعاصر- باعثتين على ضرورة البحث عن مفاتيح التعامل مع هذا التراث العريق الممتد؛ لكي نصل إلى شجرة النور!

إن شجرة النور هذه هي التراث العربي الإسلامي الممتد بنصوصه وفروعه وأوراقه وثمراته!

[٢] هل ثمة شرعية للعنوان؟

إن واحدة من أهم ما ميز الثقافة العربية الإسلامية هي ارتكازها على مبدأ التيسير، واستبطانها تذليل العقبات في طريق الحياة. وهو المدخل الفكري الذي يسوّغ البحث في مفاتيح التعامل مع التراث العربي الإسلامي بما هو سعي نحو تهيئة المناخ بصورة عملية من أجل فهم التراث والإيمان به، وخدمته بالإحياء، وتفعيله في فهم الذات واكتشافها واستثماره من أجل استعادة الذات الفردية والجماعية للأمة بعد زمان من الخبط في بيت التيه المعاصر.

وقديمًا تنبه المجتمع المعرفي العربي الإسلامي إلى نوع من المفاتيح في بعض المجالات المعرفية، وهو تجلى عنوانًا لكثير من الأدبيات في ميادين متنوعة، من مثل:

أ- مفاتيح العلوم، للخوارزمي الكاتب المتوفى ٣٨٧هـ.

ب- مقاليد العلوم، المنسوب للسيوطي المتوفى ٩١١هـ (وانظر قائمة طويلة بما حمل لفظة المفاتيح في عنوانه في كتاب: كشف الظنون، لحاجي خليفة، ٢ / ١٧٥٥، طبعة دار الفكر (مصورة)، القاهرة ١٩٨٢م).

وهذان الكتابان تعيينًا يدخلان بنا إلى المقصود هنا من أقرب طريق، لأنهما صنعا في الحقيقة ليكونا أداة دالة للدخول إلى عوالم العلوم المختلفة في هذه الحضارة العريقة.

ومن ثَمّ فإن استعمال لفظة المفاتيح في باب البحث عن آلات التعامل مع التراث العربي الإسلامي يمتلك الشرعية اللغوية والدلالية والتاريخية الاستعمالية معًا، وهو ما يمنح مستعمليه ومستقبليه معًا نوعًا من اطمئنان حقيقي عند الاطلاع عليه، وتداوله في أروقة البحث التراثي.

وهذا الاستعمال وإن كان كافيًا في سياق البحث عن شرعية استعمال المفاتيح بمعناها المادي في باب التعامل مع التراث، يستند إلى دليل ظاهر في دعم شرعية استعماله، وهو وروده في الذكر الحكيم مرتين هما:

- الأولى:

﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ ﴾

[سورة الأنعام : ٥٩].

والثانية:

﴿ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ ﴾

[سورة النور : ٦١].

إن هذين الموضعين يفتحان الباب أمام مجموعة كبيرة من المعاني الكامنة في الخلف من استعمال المفردة (مفاتح) تنطق بامتلاك الخزائن المكتنزة، وتنطق كذلك بتوافر الخير العميم المستوعب الشامل.

وهو ما قصد إليه القاصدون عند إطلاق استعمال مفاتيح على أدوات التعامل مع التراث؛ إذ رأوا في هذا التراث كنوزًا متراكبة، مودعة في خزائن؛ هي أوعيتها المادية، ولا سبيل إلى استثمار الكنز بغير كشاف، واستخراج، وفحص، وتقييم، وتثمين. وهي جميعًا عمليات تالية لما بعد استعمال المفاتيح.

والمفاتيح، جمع: مفتاح، وهو اسم آلة مشتق، على وزن قياسي، وهو يدور حول معان ودلالات مركزية صالحة ومرادة جميعًا هنا، وهي:

أ- المفتاح: آلة الفتح.

ب- المفتاح: آلة الحركة.

ج- المفتاح: آلة التهيئة.

د- المفتاح: آلة التوصيل.

هـ- المفتاح: آلة الإضاءة.

و- المفتاح: آلة التشغيل.

وهذه المعاني جميعًا وغيرها مما يدور في فلكها صالحة ومرادة في سياقنا. وثمة معانٍ أخرى هامشية يمكن التقاطها من سياقات استعمالها في اللغة؛ من مثل:

أ- المفتاح: آلة للتحكم والحسم. (من فتح بمعنى حكم).

ب- المفتاح: وسيلة رزق.

إن هذه المعالجة تقصد إلى فحص مجموعة من الأدوات والآلات، المادية والمعنوية مما تتخذها وسائل إلى التعامل مع مادة التراث العربي الإسلامي. وهو الأمر الذي يعتني منذ زمان بعيد حرص هذه الحضارة على إتاحة المعرفة، وبذلها للناس جميعًا، وهو المعنى الظاهر من العناية البالغة بثقافة التباحث حول المفاتيح!

[٣] أنواع مجموعات المفاتيح اللازمة للتعامل مع التراث العربي الإسلامي:

إن تراثنا بهذا التنوع المعرفي، وبهذا الامتداد في الزمان والمكان، وبهذا الكم يفرض نظريًا الدخول على عالمه مجموعة من المفاتيح والأدوات اللازمة للتعامل معه. إن تأمل شكلًا من أشكال مستويات حضور المفاتيح في الكتاب العزيز ربما تسهم في تفهم مسألة كيف يكون الدخول إلى عالم ما من العوالم مستلزم مجموعات من المفاتيح لا مفتاحًا واحدًا، ولا مجموعة واحدة؛ يقول تعالى:

﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ ﴾

[سورة القصص: ٧٦]

وقد فسرت المفاتح في الآية الكريمة في واحد من تفاسيرها بمفاتيح خزائنه [انظر: النكت والعيون، للماوردي، تحقيق خضر محمد خضر، دار الصفوة، ووزارة الأوقاف الكويتية، القاهرة، والكويت، ١٤١٣هـ= ١٩٩٣م] (٣/ ٢٦٨). ويقول ابن عطية الأندلسي (المتوفى ٥٤٦هـ) في تفسير الآية الكريمة (١١/ ٣٣٠ من المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد الله ابن إبراهيم الأنصاري والسيد عبد السيد إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، مصورة عن طبعة الدوحة ١٣٩٨هـ= ١٩٧٧م): «والمفاتيح: ظاهرها أنها التي يفتح بها. وهذا الذي قرره ابن عطية الأندلسي سبق ورواه الطبري (المتوفى ٣١٠هـ) في جامع البيان عن تأويل آي القرآن، (تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي ومركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية، بدار هجر، القاهرة، ١٤٢٢هـ= ٢٠٠١؛ ١٨/ ٣١٢) عن خيثمة ومجاهد قالا: «كانت مفاتح كنوز قارون من جلود، كل مفتاح مثل الإصبع، كل مفتاح على خزانة على حدة».

إن كثرة مفاتح كنوز قارون دالة نصًا وعقلًا على كثرة ثرواته وهو ما يفسر استلزامها كثرة المفاتيح. والاستنتاج حامل على أن نقرر أن تمدد التراث العربي الإسلامي وثرائه مستلزم كثرة مجموعات المفاتيح؛ من أجل الدخول إلى عوالمه والتعامل معه.

وقد سعيتُ إلى محاولة، لعلها الأولى فيما أعلم، أن أجتهد في جمعها، وتنظيمها، وترتيبها. وقد كان الحاكم في عمليات جمعها وتنظيمها وترتيبها ما يلي:

- أولًا- الإيمان بوحدة هذا التراث العربي الإسلامي.
- ثانيًا- الإيمان بتنوعه، وتوزعه على ما به إقامة البدن وتزكية الروح، وعمران الوجود، وإرشاده إلى الله تعالى.
- ثالثًا- امتداده في عمق الزمان.
- رابعًا- امتداده على الخريطة الشاسعة للعالم العربي الإسلامي.
- خامسًا- تنوع وظائفه.
- سادسًا- تنوع مقاصده.
- سابعًا- تنوع مجالات خدمته، وتنوع مسارات إحيائه؛ تحقيقًا ونشرًا، ودراسة وفحصًا، واستلهامًا وتفعيلًا، واستدعاءً وتنزيلًا.

وقد أنتجتْ هذه المحاولة التي ما تزال من وجهة نظري، مجرد اقتراح مبدئي، أسوقه سوقًا أوليًا، مؤمنًا بأن خطر القضية التي يشتبك معها، وبتغياها تفرض التواضع في الطرح، والبعد عن الحسم في العرض والفحص.

تقسيم المفاتيح ثلاثة أقسام، لا يمكن أن تثمر الثمرة المرجوة منها إلا باستحضارها جميعًا، والتحرك بها جميعًا، وتشغيلها جميعًا، وهي كما يلي:

(٣/ ١) مجموعة المفاتيح الإدراكية: (مفاتيح الوعي).

(٣/ ٢) مجموعة المفاتيح المعرفية.

(٣/ ٣) مجموعة المفاتيح الإجرائية (الأدوات).

(يتبع)

قصة العدد

حديث صريح



أ.د. محمد رجب البيومي

جلس الوليد بن المغيرة في منزله ذات صباح، وفي وجهه علائم الكدر، وكأن هما لاذعا يملك عليه أقطار نفسه وكان إذا حزبه أمر من أمور الحياة أرسل إلى ابن أخيه (عمرو بن هشام) المعروف بأبي جهل يدعوه به فيكشف له عن ذات نفسه، ويسمع منه ما يراه في أمره، إذ كانا متفقين، قام الاتفاق في سياستهما نحو الدين الجديد، ورغبتهما في سيادة بني مخزوم، تلك السيادة التي يريان بني هاشم قد استأثرت بها منذ سيادة عبد المطلب، وها هو ذا محمد نجل عبد الله بن عبد المطلب، يأتي بالرسالة، لا ليرأس مكة وحدها، بل ليجعل بني هاشم سادة الأرض! هكذا كان يفكر الرجل وابن أخيه، ومن ثم قد استدعاه ليشاركه الرأي فيما جد من الأحداث، وقد سارع أبو جهل بتلبية الدعوة، وهرع إلى عمه فسلم عليه، وأخذ ينصت إلى ما يقول:

ابتسم الوليد بن المغيرة في مرارة ثم سأل أبا جهل: أعلمت ما كان من أمر النجاشي ملك الحبشة حين رد رسلنا مهزومين مدحورين، مع أنهم حملوا من الأموال وصحائف الذهب والفضة، ما فرقوه على الرهبان والبطارقة وأعيان الدولة ليكونوا معهم في أمر المهاجرين!

فقال أبو جهل: كنت أزعم أن مثل عمرو بن العاص في دهائه وحنكته يستطيع أن يقنع النجاشي بمطلبه، فهو خراج مدلاج يأتي الأمور من أبوابها، ولكن الموقف كان أكبر منه!

فنظر الوليد إلى صاحبه متعجبا، وقال: أيكون جعفر بن أبي طالب، أقوى حيلة، وأعظم تأثيرا من عمرو بن العاص حتى يفحمه فلا يستطيع أن يرد عليه؟

قال أبو جهل: إن عمرا قد أوصى الرهبان بعد أن قدم إليهم الرشى، أن يجعلوا الملك يبرم الأمر، دون أن يستمع إلى قول المهاجرين، لأنه يعرف أن الملك نصراني يكره الوثنية، وأن

المسلمين موحدون، فإذا استمع إليهم فقد يتأثر بما يقولون! وقد قام الرهبان برسالتهم، ولكن النجاشي قد رفض اقتراحهم، وأعلن أنه لا يتخذ قرارا حتى يسمع هؤلاء! فأخطر عمرا إلى أن يبدأ الحديث قبل المهاجرين، فقال إنهم من سفهاء القوم، فارقوا دين آبائهم، ولم يدخلوا في النصرانية، وهي دين الملك. بل جاءوا بدين جديد لا يعرفه أحد من قبل. فلما انتهى عمرو من كلمته، تطلع الملك إلى جعفر بن أبي طالب، وكان هو المتحدث بلسان القوم! فقال على البديهة:

« أيها الملك! كنا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القويّ منا الضعيف، حتى بعث الله إلينا رسولا نعرف صدقه وعدله، فدعانا إلى توحيد الله، وألا نشرك به شيئا، ونخلع ما نعبده من الأصنام، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، والكفّ عن المحارم والدماء، وأمرنا بالصلاة والصيام فآمنا به وصدقناه، وحرّمنا ما حرم علينا، وحللنا ما أحله، فتعدّى علينا قومنا، وفتنونا لنرجع إلى عبادة الأصنام، فخرجنا من ديارنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورجونا ألا نظلم لديك!

قال الوليد: تقول إن جعفر بن أبي طالب لا يغلب عمرا؟ إنه هاشمي وهو ابن عبد المطلب وابن عم محمد، وقد دحر منطقه عمرا بأقوى سلاح! فماذا كان رد الملك عليه؟!

قال أبو جهل: قال النجاشي يسأل جعفر: هل معك شيء مما جاء في كتابكم؟ فقال جعفر: معي كل ما جاء به، وسأتلو منه قول الله عن السيدة مريم أم المسيح:

﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾

[مريم ٢٧-٣٣]

فابتهج النجاشي بما سمع، وقال بعد أن أجهش بالبكاء، هذا والذي جاء به عيسى يخرج من مشكاة واحدة، فوالله لا أسلمكم إليهم أبدا.

انقطع الحديث بين الاثنين وقتا غير طويل، ثم بدأه الوليد قائلا: يا عمرو، إن تأثير القرآن في النفوس لا يغلب، وهو إذا يتلى على الأسماع فمثله كمثل البرق يضيء الظلمات، وها هو ذا النجاشي، يبهت مأخوذا بتأثيره النفاذ.

فرد أبو جهل مستنكرا، أنت تقول ذلك يا عم، فماذا يقول سواك! أخشى أن ينتقل قولك إلى بعض الناس فيتناقلونه، وتكون أنت داعية القرآن!

فعض الوليد على شفته، وقال: لم أقل

ذلك فرحا به، ومشيدا بتصديقه، ولكني أنقل عن نفسي صادقا حين أسمعني محمد بعض آياته، فقد جذبني جذبا لا حيلة لي فيه!

قال أبو جهل دهشا: ومتى كان ذلك يا عم؟!

فقال الوليد: لقد تحدثت عن ذلك مرارا، ولكنك تنسى أو تتعمد النسيان! لقد ذهبت مع عتبة بن ربيعة، ونفر من سادة قريش نسأله في رفق أن يرجع إلى صوابه، ويترك مهاجمة الأصنام، وعرضنا عليه أن تجمع له من المال ما يرضيه، وإن شاء ملكا ملكناه علينا، فاستمع إلينا في انتباه، وكان رده أن قرأ علينا مما نزل عليه:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٨) ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ
لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ
وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩)
وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ
فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ
(١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ
لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا
طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي
يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا
السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ
تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ
أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣)
إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ
خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا
لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾

[فصلت: ٨ - ١٤]

عند هذا المقطع وضعتُ يدي على فم محمد وسألته أن يكفّ عن التلاوة فما عدتُ أستطيعُ أن أتحمل مثل هذا القول النافذ، وأنا من يومها أحاول أن أتجنب قرآن محمد، لما له من شدة التأثير، وإني لأعذرُ النجاشي في مسلكه، فهو إنسان! وقد كان شعور عتبة بن ربيعة مثل شعوري تمامًا، فإنه أفحم ولم ينطق بحرف وخرجنا حائرين!

ثم طرق الباب طارق، فسأل الوليد: مَن القادم؟ فقيل إنه عثمان بن مظعون! وقد أسلم منيبًا وهاجر إلى الحبشة ثم رجع بعد حين، وقابله الوليد فاحتمى بظلّه، وأعلن أنه في جواره، فلا يتعرض له أحدٌ، فما الذي أتى به الآن؟ سؤالٌ دار في نفس الوليد، وأيقن أنه سيجد إجابته الساعة، حين يحضر عثمان إليه وأدرك أبو جهل ما في نفس عمّه فقال:

أظن يا عماه أنه جاء إليك شاكرًا صنيعك به إذ أجرته، ولولاك للاقى من الإيذاء ما يلقاه هؤلاء الصابئون، وما كنتُ أود أن تُجيره ليجد عُقبى ما اقترف!! ثم حضر عثمان، فتطلّع في وجه أبي جهل قبل أن يسلّم على الوليد، فرحّب به الوليد قائلاً: أظنك الآن في مأمن يا عثمان.

ففوجئ الوليد بقوله: جئت يا سيد بني مخزوم لأردّ عليك جوارك، فلم يطمئن لي بال، وأنا أشعر أني في حماية أحدٍ غير الله!

فصاح أبو جهل، وهذا ما كنتُ أريده، وستأخذ حقّك من العقاب!

فابتسم عثمان ابتسامة الساخر، وقال: أنت تفتخر بتعذيب الضعاف الأيامى، والأرقاء الذين نالوتَهم بعقابك، ولكنك تستخذي أمام الرجال، وتصبح فأرًا رعديدًا ولن يفتخر بتعذيب الأرقاء والأيامى إلا شخص ضعيف.

فبهت أبو جهل بما سمع، واستطرد عثمان يقول في شجاعة:

قابلك أسد الله حمزة بن عبد المطلب، وضربك بالرمح، وشجّ رأسك، وخشيت عاقبة النزال، فتقهقرت وقلت للملأ من بني مخزوم دعوه، فقد آذيت ابن أخيه! والحق أنّ سطوة حمزة قد أفزعتك، ولئن دار قتالٌ بين بني مخزوم وبني هاشم ستكون أنت أول صريع بيد حمزة، وقد حسبتَ لذلك ألف حساب فابتسم الوليد متكلفًا ثم قال لعثمان! ثم ماذا؟

قال: لقد خاف أبو جهل بأس عمر، حين أعلن إسلامه، ودنا ليصلي لله في المسجد على رؤوس الأشهاد وكان ابن أخيك قد حذّر أي مسلم أن يصلي في بيت الله ورصد من أعوانه من يقوم بالزجر والتأديب، فلما رأى صولة عمر ارتعد، وقال: دعوه، دعوه، فما يُطاق!

فقال أبو جهل مستخذيًا: أهذا ما لديك! هل عندك مثالٌ ثالث غير حمزة وعمر بن الخطاب!

فقال عثمان: عندي مثال الأراشي الذي أكلت ماله، ومنعته حقه، وأقبل على الملأ يبحث عمن يشفع لديك.

فقال أحد المتهكمين: هو محمد بن عبد الله! قالها ساخرًا، ولكن الأراشي قد صدق القول، وبحث عن رسول الله ﷺ وطلب منه أن يسترد الحق منك، فأسرع إلى منزلك، وقال لك بلهجة الآمر الناهي رد لهذا الرجل حقه، فأسرعت بالرد، ولم تنتظر دقيقة واحدة!

فتبسم الوليد، وقال لابن أخيه ما الذي جعلك تتخاذل يا عمرو؟

فأطرق إلى الأرض، وقال: تخيلت حين رأيت محمدًا ﷺ أن فحلاً هائجًا من الإبل، يمد عنقه إليّ، ولو تأخرت قليلاً لابتلعني! أنا والله معذور معذور!

وأراد الوليد أن ينتقل بالحديث من موضوع إلى آخر، بعد أن رأى الاكفهرار الشاحب في وجه ابن أخيه فسأل عثمان متكلفًا:

ولكن ما دافعك إلى التبرؤ من حمايتي، وقد ارتضيتها من قبل! فقال عثمان:

لماذا لا آخذ نصيبي من العذاب في سبيل الله، أيأخذ بلال وعمار وخباب وسمية وصهيب وأبو فكيهة ولبينه والنهدية وأم عيسى من المسلمين نصيبهم من العذاب، فينالوا رضوان الله، ولا أتحمل ما يتحملون!

فقال الوليد: ولماذا لم تذكر أبا بكر وليس من المستضعفين.

فرد عثمان قائلاً: لقد ذكرتني، إن أبا بكر أكرمه الله وجزاه عن دينه وعن نبيه خير الجزاء هو الذي دفعني إلى أن أقتدي به فأعلن خلاصي من جوارك حين

فعل ذلك مع ابن الدُّغنة سيد الأحابيش، وقد أجاره حين اشتد به الإيذاء، ففكر ثم فكر، وشكر ابن الدغنة على مسعاه، ثم استعفاه! وهي حالةٌ أولى سبقت حالتي! ولو كان لأبي بكر الرقيق الشفيق بأس حمزة أو عمر ما تجرأ على سبه وإيذائه أحد الذين يحرضهم ابن أخيك، وسيكون له يوم!

فزع أبو جهل فزعًا مخيفًا حين سمع قول عثمان، سيكون له يوم، ثم تساءل في انكسار: من أخبرك بيَوْمي؟

في ثقة: أخبرنا الصادق الأمين!

رانَ على المجلس سكونٌ، وأحسَّ عثمان أنه أدى رسالة حين استعفى من جوار الوليد، فعجّل بالانصراف وبقي الوليد مع ابن أخيه صامتين، وكأن قفلا قد سدَّ فمويهما أمدًا غير قصير!

ثم قال الوليد متكلفًا الابتسام: أراك جزعت قليلاً من حديث ابن مظعون.

فتأوه عمرو تأويهةً حارة، وقال: أجلْ يا عم قد جزعت، لأني مع عدائي الشديد لمحمد، وبُغضي إياه أعنف ما يكون البغض، أعرف في أعماقي أنه صادق، وتلك هي بلواي؛ لأن اعترافي بصدقه هو الذي يجعلني أكنّ له من الحسد وأقولها لك وحدك، ما لا طاقة لي به! وقد حاولتُ أن أبرأ منه فلم أستطع ولن أستطيع!

حسدتُ محمدًا ﷺ حين رأيتُ قريشًا تدعوه في شبابه الباكر بالأمين ولا تصف بذلك الوصفَ أحدًا سواه.

وحسدتُ محمدًا حين تزوَّج من خديجة بنت خويلد بعد أن ألحت هي في طلبه، وقدمتْ إليه مالها عن رضا وسماح ففاز بما لم يفزْ به سواه.

وحسدتُ محمدًا ﷺ حين جعل ورقة بن نوفل يذيع في الناس أنه النبي المنتظر، وإن الوحي سينزل عليه من السماء وهذا ما كان.

وحسدتُ محمدًا ﷺ حين أجمعت قريشٌ يوم بناء الكعبة على تقديمه لحمل الحجر الأسود بيده، ووضعه في مكانه فكان له فخر الدنيا وسعادة الحياة!

وحسدتُ محمدًا ﷺ لأني أعرف عن يقين أن جهادي ضده ضائع في الريح، وأنه مؤيد بنصر من السماء ولكني مع ذلك أمعن في الكيد له لأقصى ما أطيق! وسأستمر ولن أحيد!

ثم سقطت عبرة من عينه لم يدر الوليد كيف يفسرها أهي عبرة الندم أمْ عبرة الحسد المبيد.

وطرق الباب آخرون، فاستأذن عمرو في الخروج، إلى حيث لا يعلم أين يسير!

ooo

الأشباه والنظائر

عرض د. أشرف محمد علي شلبي

تأليف: السيوطي، الإمام جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (٩٤٨-١١٩هـ)

دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع

عرض الكتاب:

يقع الكتاب في (٣١١) صفحة من القطع الكبير.

اعلم أن فن الأشباه والنظائر فن عظيم، به يطلع المرء على حقائق الفقه، ومداركه، ومآخذه، وأسراره، ويتميز في فهمه واستحضاره، ويقتدر على الإلحاق والتخريج، ومعرفة أحكام المسائل التي ليست بمسطورة، والحوادث والوقائع التي لا تنقضي على مر الزمان.

ورتب المؤلف هذا الكتاب على كتب سبعة:

- الكتاب الأول: في شرح القواعد الخمس التي ذكر الأصحاب أن جميع مسائل الفقه ترجع إليها.
- الكتاب الثاني: في قواعد كلية يتخرج عليها ما لا ينحصر من الصور الجزئية، وهي أربعون قاعدة.
- الكتاب الثالث: في القواعد المختلف فيها ولا يطلق الترجيح، لظهور دليل أحد القولين في بعضها، ومقابله في بعض. وهي عشرون قاعدة.
- الكتاب الرابع: في أحكام يكثر ورودها ويقبح بالفقيه جهلها كأحكام الناسي، والجاهل، والمكره، والنائم، والمجنون، والمغمى عليه، والسكران، والصبي، والعبد...إلخ.
- الكتاب الخامس: في نظائر الأبواب، أعني التي هي من باب واحد، مرتبة على أبواب الفقه، والمخاطب بهذا الباب والذي يليه المبتدئون.
- الكتاب السادس: فيما افترقت فيه الأبواب المتشابهة.
- الكتاب السابع: في نظائر شتى.

وكل كتاب من هذه الكتب السبعة لو أفرد بالتصنيف لكان كتابا كاملا، بل كل ترجمة من تراجمه يصلح أن يكون مؤلفا حافلا.

الكتاب الأول: في شرح القواعد التي ذكر الأصحاب أن جميع مسائل الفقه ترجع إليها.

والقواعد هي:

القاعدة الأولى: الأمور بمقاصدها: وفيها مباحث:

- المبحث الأول: الأصل في هذه القاعدة قوله ﷺ: (إنما الأعمال بالنيات) وهذا حديث صحيح مشهور أخرجه الأئمة الستة وغيرهم.
- المبحث الثاني: فيما يرجع إلى هذه القاعدة من أبواب الفقه، اعلم أنه قد تواتر

النقل عن الأئمة في تعظيم قدر حديث النية. قال أبو عبيدة: (ليس في أخبار النبي ﷺ، شيء أجمع وأغنى وأكثر فائدة منه) واتفق الشافعي وأحمد بن حنبل وابن المهدي وابن المديني وأبو داود والدارقطني وغيرهم، على أنه ثلث العلم، ومنهم من قال: ربعه. ووجّه البيهقي كونه ثلث العلم، بأن كسب العبد يقع بقلبه ولسانه وجوارحه، فالنية أحد أقسامها الثلاثة وأرجحها؛ لأنها قد تكون عبادة مستقلة وغيرها محتاج إليها، ومن ثم ورد أن (نية المؤمن خير من عمله).

وكلام الإمام أحمد يدل على أنه أراد بكونه ثلث العلم، أنه أحد القواعد الثلاث التي ترد إليها جميع الأحكام عنده، فإنه قال (أصول الإسلام على ثلاثة أحاديث: حديث إنما الأعمال بالنيات، وحديث من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ، وحديث الحلال بيّن والحرام بيّن)

● المبحث الثالث: فيما شرعت النية لأجله: المقصود الأهم منها تمييز العبادات من العادات، وتمييز رتب العبادات بعضها من بعض، فالوضوء والغسل يتردد بين التنظيف والتبرد والعبادة. والإمساك عن المفطرات قد يكون للحمية والتداوي ولعدم الحاجة إليه. والجلوس في المسجد قد يكون للاستراحة. ودفع المال للغير قد يكون هبة أو لغرض دنيوي وقد يكون قربة كالزكاة والصدقة والكفارة. والذبح قد يكون بقصد الأكل وقد يكون للتقرب بإراقة الدماء. فشرعت النية لتمييز القرب من غيرها، وكل من الوضوء والغسل والصلاة والصوم ونحوها قد يكون فرضا ونذرا ونفلا. والتيمم قد يكون عن الحدث أو الجنابة وصورته واحدة، فشرعت النية لتمييز العبادات بعضها من بعض، وهو ما يشير إلى مفهوم (نية / مقصد السلوك Intention) ص ٩.

● **المبحث الرابع: في وقت النية:**

الأصل أن وقتها أول العبادات ونحوها.

● المبحث الخامس: في محل النية: محلها القلب. قال البيضاوي (النية عبارة عن انبعاث القلب نحو ما يراه موافقا من جلب نفع أو دفع ضر حالا أو مآلا. والشرع خصصه بالإرادة المتوجهة نحو الفعل لابتغاء رضا الله - تعالى - وامتثال حكمه، وهو ما يشير إلى مفهوم (الدافع Motive) ص ٢٢

● المبحث السادس: في شروط النية، وهي:

١- الإسلام: ومن ثم لم تصح العبادات من الكافر، وقيل: يصح غسله دون وضوئه وتيممه، وقيل: يصح الوضوء أيضا. وقيل: يصح التيمم أيضا. ومحل الخلاف في الأصلي، أما المرتد فلا يصح منه غسل ولا غيره.

٢- التمييز: فلا تصح عبادة صبي لا يميز ولا عبادة مجنون.

٣- العلم بالمنوي: قال البغوي وغيره: فمن جهل فرضية الوضوء أو الصلاة لم يصح منه فعلها، وكذا لو علم أن بعض الصلاة فرض ولم يعلم بالفرضية التي شرع فيها، وإن علم بالفرضية وجه الأركان فإن اعتقد الكل سنة أو البعض فرضا أو البعض سنة، ولم يميزها - لم تصح قطعا، أو الكل فرضا، فوجهان:

أصحهما الصحة: لأنه ليس فيه أكثر من أنه أدى سنة باعتقاد الفرض، وذلك لا يؤثر. قال الغزالي (العامي الذي لا يميز الفرائض من السنن تصح عبادته، بشرط أن لا يقصد النفل بما هو فرض، فإن قصده لم يعتد به، وإن غفل عن التفصيل، فإن الجملة كافية.

٤- أن لا يأتي بمناف: فلو ارتد في أثناء الصلاة أو الصوم أو الحج أو أداء الزكاة، لم يجب عليه الإعادة وأما الأجر فإن لم يعد إلى الإسلام فلا يحصل له، لأن الردة تحبط العمل، وإن عاد - فظاهر النص أنها تحبط أيضا. وهو ما يشير إلى مفهوم (ضبط النية Intention Control) ص ٢٨

● المبحث السابع: تناول فيه أمورا متفرقة اختلف فيها الأصحاب: هل النية ركن في العبادات أو شرط؟ فاختار الأكثرون أنها ركن؛ لأنها داخل العبادات، وذلك شأن الأركان، والشرط ما يتقدم عليها ويجب استمراره فيها. واختار القاضي أبو الطيب وابن الصباغ أنها شرط وإلا لافتقرت إلى نية أخرى تندرج فيها، كما في أجزاء العبادات، فوجب أن تكون شرطا خارجا عنها، والأولون انفصلوا عن ذلك بلزوم التسلسل، واختلف كلام الغزالي في ذلك، فعدّها في الصوم ركنا، وقال في الصلاة: هي بالشروط أشبه.

●● القاعدة الثانية: اليقين لا يُزال بالشك:

ودليلها قوله ﷺ: (إذا وجد أحدكم في بطنه شيئا فأشكل عليه أخَرَجَ منه شيء أم لا فلا يخرجن من المسجد حتى يسمع صوتا أو يجد ريحا) رواه مسلم من حديث أبي هريرة، وأصله في الصحيحين. وعرض بعض المسائل في ذلك.

●● القاعدة الثالثة: المشقة تجلب التيسير:

الأصل في هذه القاعدة قوله تعالى:

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾

البقرة: ١٨٥

وقوله تعالى:

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾

(الحج ٧٨)

وقوله ﷺ (بُعثتُ بالحنيفية السمحة) أخرجه أحمد في مسنده.

وأوضح أن أسباب التخفيف في العبادات وغيرها سبعة، وهي:

- الأول: السفر: قال النووي: ورُخَصُه ثمانية، منها ما يختص بالطويل قطعا وهو القصر والفطر والمسح أكثر من يوم وليلة، ومنها ما لا يختص به قطعا، وهو ترك الجُمع وأكل الميتة، ومنها ما فيه خلاف، والأصح اختصاصه به، وهو الجمع، ومنها ما فيه خلاف، والأصح عدم اختصاصه، وهو النفل على الدابة، وإسقاط الفرض بالتيمم.

- الثاني: المرض رُخَصُه كثيرة: التيمم عند مشقة استعمال الماء، وعدم الكراهة في الاستعانة بمن يصب عليه، أو يغسل أعضاءه، والقعود في صلاة الفرض وخطبة الجمعة، والاضطجاع في الصلاة، والإيماء، والجمع بين الصلاتين.

- الثالث: الإكراه.

- الرابع: النسيان.

- الخامس: الجهل، وفيه مباحث.

- السادس: العسر وعموم البلوى، كالصلاة مع النجاسة المعفو عنها، كدم القروح والدمامل والبراغيث والقيح والصديد.

- السابع: النقص، فإنه نوع من المشقة إذ النفوس مجبولة على حب الكمال، وهو ما يشير إلى مفهوم (المشقة / الضغط Stress) ص ٥٧، فناسب التخفف في التكليفات، فمن ذلك عدم تكليف الصبي والمجنون، وعدم

تكليف النساء بكثير مما يجب على الرجال، كالجماعة والجمعة والجهاد والجزية وتحمل العقل وغير ذلك، وإباحة لبس الحرير وحلي الذهب وعدم تكليف الأرقاء مما على الأحرار.

●● القاعدة الرابعة: الضرر يزال:

أصلها قوله ﷺ (لا ضرر ولا ضرار) أخرجه مالك في الموطأ. ونظيرها قاعدة (درء المفاسد أولى من جلب المصالح)، فإذا تعارضت مفسدة ومصلحة قُدِّم دفع المفسدة غالبا، لأن اعتناء الشارع بالمنهيات أشد من اعتنائه بالمأمورات؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ (إذا أمرتُكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه).

●● القاعدة الخامسة: الحاجة تنزل منزلة الضرورة عامة كانت أو خاصة:

فالإجارة والجعالة والحوالة ونحوها قد جُوِّزت على خلاف القياس، لما في الأولى من ورود العقد على منافع معدومة، وفي الثانية من الجهالة، وفي الثالثة من بيع الدين بالدين، لعموم الحاجة إلى ذلك، والحاجة إذا عمت كانت الضرورة، وهو ما يشير إلى مفهوم (الحاجات Needs) ص ٦٢

●● القاعدة السادسة: العادة محكَّمة:

اعلم أن اعتبار العادة والعرف راجع إليه في الفقه مسائل لا تعد كثيرة؛ فمن ذلك: سن الحيض والبلوغ والإنزال وأقل الحيض والنفاس والطهر وغالبها وأكثرها، وضابط القلة والكثرة في الضبط، والأفعال المنافية للصلاة، والنجاسات المعفو عن قليلها، وطول الزمان وقصره في موالاة الوضوء في وجه، والبناء على الصلاة في الجُمع والخطبة وبين الإيجاب والقبول والسلام ورده والتأخير المانع من الرد بالعيب، وفي الشرب وسقي الدواب من الجداول والأنهار. ص ٧١.

الكتاب الثاني: في قواعد كلية يتخرج عليها ما لا ينحصر من الصور الجزئية:

●● القاعدة الأولى: الاجتهاد لا يُنقض بالاجتهاد.

●● القاعدة الثانية: إذا اجتمع الحلال والحرام غلب الحرام.

●● القاعدة الثالثة: الإيثار بالقُرب مكروه وفي غيرها محبوب:

قال الشيخ عز الدين: لا إيثار في القُربات فلا إيثار بماء الطهارة ولا بستر العورة ولا بالصف الأول؛ لأن الغرض بالعبادات التعظيم والإجلال، فمن آثر به فقد ترك إجلال الإله وتعظيمه، وقال الإمام: لو دخل الوقت ومعه ماء يتوضأ به فوهبه لغيره ليتوضأ به لم يجز، لا أعرف فيه خلافا؛ لأن الإيثار إنما يكون فيما يتعلق بالنفوس لا فيما يتعلق بالقُرب والعبادات. وهو ما يشير إلى مفهوم (الإيثار Altruism) ص٨١.

●● القاعدة الرابعة: التابع تابع:

يدخل في هذه العبارة قواعد:

- الأولى: أنه لا يفرد بالحكم؛ لأنه إنما جعل تبعا.
- الثانية: التابع يسقط بسقوط المتبوع.
- الثالثة: التابع لا يتقدم على المتبوع.
- الرابعة: يُغتفر في التوابع ما لا يغتفر في غيرها، وقريب منها يغتفر في الشيء ضمنا ما لا يغتفر فيه قصدا، وربما يقال: يغتفر في الثواني ما لا يغتفر في الأوائل.

●● القاعدة الخامسة: تصرُّف الإمام على الرعية منوط بالمصلحة:

هذه القاعدة نص عليها الشافعي وقال: منزلة الإمام من الرعية منزلة الولي من اليتيم.

●● القاعدة السادسة: الحدود تسقط بالشبهات:

قال ﷺ: (ادرءوا الحدود بالشبهات).

●● القاعدة السابعة: الحر لا يدخل تحت اليد:

ولهذا لو حبس حرًّا ولم يمنعه الطعام فمات حتف أنفه بانهدام حائط ونحوه لم يَضْمَنه ولو كان عبدا ضمنه ولا يضمن منافعه ما دام في حبسه إذا لم يستوفها، وتُضمن منافع العبد، ولو وطئ حرةً بشبهة فأحبلها وماتت بالولادة لم تجب ديتها في الأصح، ولو كانت أمة وجبت القيمة، ولو طاوعته الحرة على الزنى فلا مهر لها بالإجماع، ولو طاوعته أمة فلها المهر في رأي؛ لأن الحق للسيد فلا يؤثر إسقاطها وإن كان الأصح خلافه.

●● القاعدة الثامنة: الحريم له حكم ما هو حريم له:

الأصل في ذلك قوله ﷺ: (الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه) متفق عليه.

قال الزركشي: الحريم يدخل في الواجب والحرام والمكروه، وكل محرم له حريم يحيط به، والحريم هو المحيط الحرام كالفخذين، فإنهما حريم للعورة الكبرى، وحريم الواجب ما لا يتم الواجب إلا به، ومن ثم وجب غسل جزء من الرقبة والرأس مع الوجه ليتحقق غسله، وغسل جزء من العضد والساق مع الذراع، وستر جزء من السرة والركبة مع العورة، وجزء من الوجه مع الرأس للمرأة، ويحرم الاستمتاع بما بين السرة والركبة مع العورة في الحيض لحرمة الفرج.

●● القاعدة التاسعة: إذا اجتمع أمران من جنس واحد ولم يختلف مقصودهما دخل أحدهما في الآخر:

ومن ذلك إذا اجتمع حدث وجنابة كفى الغسلُ على المذهب.

●● القاعدة العاشرة: إعمال الكلام أولى من إهماله.

●● القاعدة الحادية عشرة: الخراج بالضمان.

هو حديث صحيح أخرجه الشافعي وأحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن حبان، من حديث عائشة وفي بعض طرقه ذكر السبب وهو أن رجلا ابتاع عبدا فأقام عنده ما شاء الله أن يقيم، ثم وجد به عيبا فخاصمه إلى النبي ﷺ، فرده عليه، فقال الرجل: يا رسول الله قد استعمل غلامي، فقال: (الخراج بالضمان). قال أبو عبيدة: الخراج في هذا الحديث غلة العبد يشتريه الرجل فيستعمله زمانا، ثم يعثر منه على عيب دلّسه البائع فيرده ويأخذ جميع الثمن ويفوز بغلته كلها؛ لأنه كان في ضمانه.

●● القاعدة الثانية عشرة: الخروج من الخلاف مستحب:

●● القاعدة الثالثة عشرة: الدفع أقوى من الرفع.

●● القاعدة الرابعة عشرة: الرُّخص لا تناط بالمعاصي.

ومن ثم لا يستبيح العاصي بسفره شيئا من رخص السفر في القصر والجمع والفطر،

والمسح ثلاثًا، والتنفل على الراحلة، وترك الجمعة، وأكل الميتة، وكذا التيمم.

القاعدة الخامسة عشرة: الرُّخص لا تناط بالشك.

●● القاعدة السادسة عشرة: الرضى بالشيء رضى بما يتولد منه.

●● القاعدة السابعة عشرة: السؤال معاد في الجواب:

فلو قيل له على وجه الاستخبار: أطلَّقت زوجتك؟ وقال: نعم، كان إقرارا به يؤخذ به في الظاهر ولو كان كاذبًا.

●● القاعدة الثامنة عشرة: لا ينسب إلى ساكت قول.

●● القاعدة التاسعة عشرة: ما كان أكثر فعلًا كان أكثر منه فضلًا:

أصله قوله ﷺ: (أجرك على قدر نصبك). رواه مسلم.

ثم تناول باقي الأربعين قاعدة منها: المتعدي أفضل من القاصر، والفرض أفضل من النفل، والفضيلة المتعلقة بنفس العبادة أولى من المتعلقة بمكانها، والواجب لا يترك إلا لواجب، وما أوجب أعظم الأمرين بخصوصه لا يوجب دونهما بعمومه، وما ثبت بالشرع مقدم على ما وجب بالشرط؛ ولهذا لا يصح نذر الواجب. ما حرم استعماله حرم اتخاذه، وما حرم أخذه حرم إعطاؤه، كالربا ومهر البغي وحلوان الكاهن والرشوة، المشغول لا يشغل؛ ولهذا لو رهن رهنًا بدين ثم رهنه بآخر لم يجز في الجديد، ومن نظائره لا يجوز الإحرام بالعمرة للعاكف بمنى لاشتغاله بالرمي والمبيت، ومنها لا يجوز إيراد عقدين على عين في محل واحد، والاشتغال بغير المقصود إعراض.

الكتاب الثالث: في القواعد المختلف فيها لا يطلق الترجيح لاختلافه في الفروع:

وهي عشرون قاعدة، منها:

الجمعة ظهر مقصورة أو صلاة على حالها، والصلاة خلف المحدث المجهول الحال، والنذر هل يُسلَك به مسلك الواجب، وهل العبرة بصيغ العقود أو بمعانيها خلاف والترجيح مختلف، والحوالة هل بيع أو استيفاء، خلاف، والإبراء هل هو إسقاط أو تمليك، قولان، والترجيح مختلف، والإقالة هل هي فسخ أو بيع، والصداق المعين في يد الزوج قبل القبض مضمونٌ ضمان عقد أو ضمان يد، والطلاق الرجعي هل يقطع النكاح أو لا، والظهار هل المغلب فيه مشابهة الطلاق أو مشابهة اليمين، وفرض الكفاية هل يتعين بالشروع أم لا، وهل العبرة بالحال أو بالمآل، وإذا بطل الخصوص هل يبقى العموم، والحمل هل يعطى حكم المعلوم أو المجهول، والقادر على اليقين هل له الاجتهاد والأخذ بالظن.

الكتاب الرابع: في أحكام يكثر ورودها ويقبح بالفقيه جهلها:

القول في أحكام الناسي والجاهل والمكره، قال رسول الله ﷺ: (إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استُكرهوا عليه) حديث حسن أخرجه ابن ماجه وابن حبان في صحيحه والحاكم.

- من يقبل منه دعوى جهل ومن لا يقبل:

كان من جهل تحريم شيء مما يشترك فيه غالب الناس لم يُقبل إلا ان يكون قريب عهد بالإسلام أو نشأ ببادية بعيدة عن العلماء، ويخفى فيها مثل ذلك كتحريم الزنى والقتل والسرقة والخمر والكلام في الصلاة والأكل

في الصوم، والقتل بالشهادة إذا رجعا وقالا: تعمدنا ولم تعلم أنه يقتل بشهادتنا، ووطء المغصوبة والمرهونة بدون إذن الراهن.

- القول في أحكام الصبي:

قال في كفاية المتحفظ: الولد ما دام في بطن أمه فهو جنين، فإذا ولدته يسمى صبيا فإذا فطم سمي غلاما على سبع سنين، ثم يصير يافعا إلى عشر، ثم يصير حزورا إلى خمسة عشر، وهو ما يشير إلى أهمية دراسة مراحل الارتقاء Development Stage في علم النفس الارتقائي. ص١٤٢.

- القول في أحكام الأنثى:

تُخالف الذكر في أحكام: لا يجزئ في بولها النضح ولا الحجر إن كانت بنتا، والسنة في عانتها النتف، ولا يجب ختانها في وجه، ويجب عليها غسل باطن لحيتها ويُسن حلقها، وتمنع من حلق رأسها، ولبنها طاهر، وتزيد أسباب البلوغ بالحيض والحمل.

ثم تناول القول في أحكام الجان، والقول في أحكام المحارم، وسرد صرائح الأبواب وكناياتها، وتناول تقسيم المضمونات، وأيضا الكلام في مهر المثل، والقول في الاستثناء، والقول في الأداء والقضاء والإعادة والتعجيل، وتناول أحكام يوم الجمعة.

الكتاب الخامس: في نظائر الأبواب:

ذكر المسائل التي لا يتنجس منها الماء القليل، وتناول باب السواك، وأسباب الحدث، وباب الاستنجاء، والوضوء، ومسح الخف، والغسل والتيمم، وباب النجاسات وتقسيمها، وباب الحيض، والصلاة وتارك الصلاة والأذان واستقبال القبلة، وصفة الصلاة، وسجود السهو، وصلاة النفل، والجماعة، وتناول باب الإمامة، وصلاة المسافر والجمعة والعيد والاستسقاء والجنازة، كما تناول أيضا باب الزكاة والصيام والحج والصيد والأطعمة والبيع وما يُجبَر فيه المالك على بيع ملكه وفيه فروع، وباب البيع والشروط في البيع أربعة أقسام، ثم تناول باب السلم والقرض والرهن والحجْر والصلح والحوالة والضمانة والإبراء والشركة والوكالة والإقرار والإعارة والوديعة والغصب والإجارة والهبة والوصايا ومحرمات النكاح والصداق، كما أشار إلى باب الطلاق والإيلاء والظهار واللعان والعدة والرضاع والنفقات والحضانة والقصاص والديات والردة والتعزير والجهاد... إلخ.

الكتاب السادس: في أبواب متشابهة وما افترقت فيها.

الكتاب السابع: في نظائر شتى:

وذكر فيها الصور التي يقوم فيها مضي الزمان مقام الفعل، والمسائل التي يُفتى فيها على القديم وهي بضع عشرة، والمسائل التي لا يعذر فيها بالجهل، وقد نظم بعضها.

الخلاصة:

ورد في هذا الكتب الإشارة إلى المفاهيم النفسية الآتية:

- نية/ مقصد السلوك Intention.
- دافع motive.
- ضبط النية Intention Control.
- المشقة/ الضغط Stress.
- الحاجات Needs.
- العادة Habit.
- الإيثار Altruism.
- مراحل الارتقاء Development Stage

القائم بالعرض
د. أشرف محمد على شلبي

من تاريخ الشعر الصوفي

٢



أ.د. محمود عزب



٣- الشعر الصوفي، انحدار بعد ازدهار:

أما على مستوى اللغة والصيغ الصرفية ونحت المفردات نحتا خاصا لم يعرف من قبل فهو ما تجده عند ابن الفارض الذي اتخذ من اللغة عجينة طيعة في يده يصوغ منها ما يشاء من المألوف ومن غير المألوف، ثم يلعب بحرية تامة بالتراكيب فيقدم ويؤخر ويصب في بحر الطويل ومع قافية التاء ذات الكسرة الطويلة ما شاءت له قريحته، وما أراد له تمكنه بحرية غريبة عجيبة، ناهيك عن الصور الشعرية الدقيقة الرقيقة التي يغوص معها إلى أعماق النفس، ويتجول جولات فريدة مع ضمير الغائب «هو» المذكر، و«هي» المؤنثة بدرجة تجعل القارئ غير المتمكن والراسخ في اللغة وشئونها ومألوفها وغريبها تائها حائرا وربما عاجزا عن الخروج بشيء ذي بال.

إن الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي لا يذهب في شعره الجميل خلال قصائد ديوانه «ترجمان الأشواق» إلى هذا الغوص اللغوي الصرفي النحوي المتشابك مع الصورة الشعرية خلال التقديم والتأخير هذا المذهب الذي ذهب إليه سلطان العاشقين، وهو رغم أنه يتفرد كذلك بإتمام حلقة السمو والرقي بالشعر الصوفي فسوف نتركه في هذه الدراسة ولن نشير إليه إلا لماما لبعض المقارنات، فموضوعنا الأول هو الدراسة المقارنة للتائيتين: تائية ابن الفارض وتائية محمد وفا من بعده، لنبين بدايات الانكسار والتراجع في جانب التقنية على وجه الخصوص.

وإذا كان من الصعوبة بمكان الوقوع على شعر صوفي بجزالة شعر السلطان والشيخ الأكبر، في لغته وتقنياته وصوره ومفرداته، وعباراته، وبلاغته وتضمينه القرآن ثم الحديث والحكمة المشرقية، فإنه بعد هذين العملاقين قد حدث تغير نوعي كبير في الشعر الصوفي، وهذا ما يحدث عادة بعد فترة طويلة أو قصيرة من التربع على القمة.

لقد مثل السابقون حتى ابن الفارض وابن العربي اكتمال العربية وأدواتها ووسائلها،

واكتمال نضجها بعد حقنها بدماء جديدة من اللغات والثقافات المجاورة منذ نزول القرآن، وإعادة صياغتها على مستوى المفردات والتراكيب والصور. وهذا أمر لا يستهان به، بل هو أساسي وهو عملاق بدوره في تكون الثقافات العربية الإسلامية، بعد أن مرت هذه اللغة بمنعطفات ومنعرجات، خلال تعاملها مع اللغات المجاورة التي اختلطت بها وتزاوجت معها بعد استقرارها في البلاد المفتوحة، فقد انفتحت هذه اللغة العربية واتسع صدرها لاستقبال هذه اللغات منذ بدايات الفتوحات لبلاد غير عربية اللسان ولا التراث ولا الثقافات. ومنذ إنشاء بيت الحكمة أو قُبيله، وقيام حركة الترجمة، واختيار العربية أن تتفاهم وتتعانق وتستوعب من الكثير من اللغات كالسريانية واليونانية والفارسية والهندية والقبطية وغيرها.

واستمرت مسيرة تطور اللغة العربية هذه حتى استوفت كل عناصر العمق والاتساع، وحتى تجلى ذلك في الشعر، وفي الشعر الصوفي على وجه الخصوص، والذي كان قد ولد قويا دقيقا رقيقا مع رابعة العدوية واستمرت حتى التفجر مع ابن الفارض وابن عربي كما نؤكد ونكرر كثيرا.

ومنذ اجتياح المغول بغداد حاضرة الخلافة سنة ٦٢٢هـ/١٢٥٨م، وهو العام الذي توفي فيه الشيخ أبو الحسن الشاذلي، بدأت الصوفية، كما يقول مؤرخوها، تدخل مرحلة جديدة ذات سمات اجتماعية وثقافية جديدة، هي الطرق الصوفية كأنما لتجمع أمة جريحة، لتضمد جراحها، وتفتح لها صدر عالم روحي إيماني، يصونها من اليأس، ويمنعها من الانسحاق والتمزق ومن الفناء. تحولت الصوفية بعد ذلك من حالة وجدانية تأملية تربوية ذاتية للنفس والروح المفردة، إلى حالة جماعية اجتماعية ثقافية، بل ويمكن أن نقول وسياسية كذلك. إذ أن دور الحركات أو الطرق الصوفية في السياسة والثقافة والمجتمع صار دورا لا يستهان به. ونحن إذ نقول ذلك هنا لا نريد قط أن ندعي على أهل الطريق دعاوى سياسية أو أهدافا سياسية لهم، وإنما نقول: إن أهل السياسة والسلطات وربما الشعوب نفسها معهم أرادوا أن ينازعوا أهل الطريق ويجتذبوهم، وهم نتاج هذه الشعوب ذاتها لما لهم وبما لهم من أرضية شعبية واسعة .. ويؤكد هذا ويتأكد به دورهم الكبير في حركات الدفاع والصمود الشعبي أمام الاستعمار في بلاد أفريقيا على وجه الخصوص أو على الأقل. ولن يكون دور عمر المختار في مقاومة الاستعمار الإيطالي في ليبيا الأول ولا الأخير...

ونحن نرى في هذا الإطار أنه ربما تكون الصوفية قد انصرفت عن الاهتمام بالإبداع الجمالي والشعري والأدبي، أو ربما انحطت همتها عنه لأسباب كثيرة مع هذا السبب النضالي، بنشأة العوامل الجديدة من حولها، وتلتمس تفاصيل أسباب الرقي وأسباب الانحطاط شئون العمران والمدينة عند العلامة ابن خلدون.

من تاريخ الشعر الصوفي

عاش ابن الفارض في العصر الأيوبي في قلبه، وعاش ابن عربي في أواخره مع بدايات العصر المملوكي وعاش محمد وفا في قلب العصر المملوكي ... (١٢٥٣م – ١٥١٧م).

وكان العصر المملوكي في غالبه الأعم عصر قلاقل واضطرابات سياسية وعسكرية وانحسار حضاري إذن، لم يكن له استقرار ولا تمتع بخلفاء ولا بسلاطين فلا أدباء ولا فلاسفة ولا شعراء كبارا، كأولئك الذين رأيناهم في بلاطات المأمون وسيف الدولة في المشرق، ولا كابن زيدون ولا ولادة في المغرب .. لم يكن المماليك إذن يقربون إلى بلاطهم أهل الفن والأدب والشعر كما كان يحدث في بغداد وقرطبة والقاهرة وبالرمو.

كانت الأمة تحاول الصمود أمام الغزو الذي يواجهها وتواجهه من كل جانب .. فكانت الحياة العقلية والأدبية والشعرية – ولا شك – في حالة معاناة .. وتمتلئ كتب تاريخ الأدب والنقد الأدبي، بأخبار وشروح وتفاصيل عن مظاهر الانحطاط في الشعر على وجه الخصوص، ويذكر نماذج من أشعار الشعراء في ذلك العصر.

يقولون إن سوء أحوال الشعراء، ومشكلات حياتهم اليومية، وهي واقعة في إطار أحوال ومشكلات حياة يومية للمجتمع كله، قد أدت إلى انصراف أكثرهم أو جلهم عن الشعر، فكان منهم الحمام والحجام والجزار، فانظر إلى شعر هؤلاء وقد صار نظمًا فارغًا ساذجًا:

يقول أحدهم في وصف داره القديمة، وإن كان وصفه لا يخلو من خفة ظل، ومن دعابة تصاحب المصريين:

ودار خراب نزلت بها
ولكن نزلت إلى السابعة
وأخشى بها أن أقيم الصلاة
فتسجد حيطانها الراكعة
إذا ما قرأت «إذا زلزلت»
خشيت بأن تقرأ «الواقعة»

ويقول الآخر واصفا جوع أطفاله في يوم العيد:

لهم من الخبز مسلوقة
في كل يوم تشبه النشرة
وأقبل العيد وما عندهم
لحم ولا خبز، ولا فطرة

(والفطرة هي حلوى العيد وما معها من الفواكه المجففة)

وها هو ثالث تخلى عن الشعر ومهنته، واشتغل قصابا – أي جزارا – وتسمى بابن الحسين الجزار، ويقال أنه كتب على باب محله:

كيف لا أشكر الجزارة ما عشت
حفاظا وأكره الآدابا
وبها صارت الكلاب ترجيني
وبالشعر كنت أرجو الكلابا

ومع بساطة البيتين، أو سذاجتهما، فإن روح الشاعر المرحة، وخفة ظله، وسخريته من مجتمعه الذي يعيش فيه، واضحة ومعبرة، فهو يتحدث عن هجره الشعر، واعترافه بفضل عمله الجديد، وهو الجزارة، فالآن ترجيه الكلاب، والحيوانات الأليفة، التي تستجديه العظم، والفضلات، أو الكلاب من البشر، علية القوم، أولئك الذين كان يرجوهم هو، ويستجديهم بشعره، وكانوا لا يغيثونه .. وهاهم يستجدونه ويرجونه اليوم، يطلبون منه اللحم.

هؤلاء هم المماليك وهذا هو عصرهم الذي بدأ ١٢٥٣م، أي قبيل سقوط بغداد تماما واجتياح هولاكو إياها سنة ١٢٥٨م.

ولم تعرف الحضارة الإسلامية ازدهارا عاما وشاملا منذ ذلك السقوط، ومنذ سقوط قرطبة عاصمة الإسلام في الغرب في أواخر عهد ملوك الطوائف في أيدي الأسبان بقيادة فرديناند الثالث سنة ١٢٣٦م.

ومن البديهي أن عوامل السقوط تبدأ قبل ذلك بكثير، ولذا فإن الأدب والشعر، قد يبقيان في شكل ازدهار، ردحا من الزمن بعد السقوط السياسي، والانهيار المادي..

فإذا كان ابن الفارض قد ولد سنة (١١٨١م = ٥٧٦ هـ) وتوفي سنة (١٢٣٤م = ٦٣٢ هـ) فمعنى ذلك أنه عاصر الدولة الأيوبية (١١٧٤م – ١٢٤٩م) وإذا كان ابن الفارض من أكبر رموز الشعر الصوفي، والذي رافقه إلى قمته، وعاصر الشيخ الأكبر الذي توفي بعده بست سنوات..

وإذا كانت بغداد إذن قد سقطت ١٢٥٨م. ومن قبلها قرطبة ١٢٣٦م. فهل كان هذا العملاقان يمثلان الومضة الأخيرة للسراج، سراج الشعر الصوفي الوهاج قبل انطفائه؟

هكذا كان حال الشعر عموما، وقد ظل كذلك، بل صار إلى منزلة أحط من تلك التي نتكلم عنها، وقد ظل كذلك، حتى قبيل ما يسميه مؤرخو الأدب والشعر عصر النهضة الحديثة، على أيدي البارودي، ثم شوقي وحافظ ومطران، ثم جاءت نهضة أخرى حديثة، أو ثورة للتجديد، على أيدي نازك الملائكة، وبدر شاكر السياب، وصلاح عبد الصبور .. ثم توالت مدارس الشعر الحديث ومذاهبه حتى اليوم.

هذا عن الشعر بوجه عام، وأما عن الشعر الصوفي بوجه خاص، فإننا لا نستطيع هنا أن نستقرئ في هذا البحث العاجل، الذي نرجو ألا يكون إيجازه مخلا، كل النماذج الشعرية خلال العصر المملوكي منذ أوائله حتى اليوم.

كما أننا لا بد أن ننحي جانبا شعر الحب الصوفي، وشعر الخمر الصوفية من المكتوب بلهجة شعبية عامية، أو بلغة قد تسمى العامية المتفصحة لا لسبب إلا لأنه باب يحتاج إلى دراسات خاصة به على مستوى المضمون والشكل الشعري واللغة، دون أي حكم قيمي عليه.

إن دراسة هذا الضرب من الشعر أو الغناء والتغني بالحب وبالخمر الصوفية لدى جماهير الصوفية، ولدى منشديهم اليوم، ما زالت ناشئة قاصرة، ونرى أن أغلب المتوجهين إليها، هم طلاب وباحثون من جامعات الغرب، تلحظهم عن قرب، ويتوجه بعضهم إلينا غالبا طلبا لشيء من الشرح أو التفسير لما قد يتعسر عليهم تناوله، ونحن ننتهز هذه الفرصة لنوجه الدعوة إلى الدارسين والباحثين في جامعات الشرق والعالم العربي اللسان، للخوض في هذا المجال.

وعلى كل حال فإننا قبل مغادرة هذا السياق نستطيع أن نورد بعض نماذج وقعنا عليها فيما يحمل اسم:

«ديوان قصائد وأناشيد السادة الشاذلية» جمع وإعداد وترتيب أحمد حامد عبد الكريم الشريف العروسي الشاذلي. طبعة أولى ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م. عالم الفكر.

ومنها (في الحب):

يا مقلتي لجمال حبي شاهدي

لسيدي إبراهيم الجعبري الشاذلي

يا مقلتي لجمال حبي شاهدي
فنحول جسمي في هواه شاهدي
أنا لي شهود أربع في حبه
دمعي وسقمي والسهاد وعايدي
أنا لي حبيب واحد أحيا به
وأموت شوقا بالحبيب الواحدي
أنا حافظ العهد القديم من الصبا
وأنا الوفي ولم أكن بالجاحدي
كم عاذل قد لامني في حبه
يا عاذلي كف الملام وساعدي

وأولى ملاحظاتنا: هي عدم التوثيق الدقيق لنسبة هذا الشعر إلى الجعبري الذي لم نقرأ له حتى يمكننا الحديث عن شاعريته، أو وضعها في سلم الشعر الصوفي، وحتى قبل ذلك، فنحن لسنا على يقين من نسبة أكثر هذا الشعر المغنى في أكثر الطرق الصوفية إلى قائله الحقيقي، فكثيرا ما يقع الخلط بين القائل والحافظ والمنشد.. وهذه الملاحظة تنطبق على كل ما في الديوان الذي بين أيدينا، «قصائد وأناشيد السادة الشاذلية» فما يسميه نقاد الأدب بالانتحال، ما زال ظاهرة تمارس حتى يومنا هذا، ويكفي أن تنظر إلى ما حمل على الحلاج وأمثاله.

والملاحظة الأخرى: وهي تتعلق بالشعر وفنه وتقنيته، ولغته، وهي من الوهلة الأولى ضعف واضح في هذه الأبيات، ولا يمكن قط وضعها بذلك في مستوى ما رأينا من شعر ابن الفارض ولا شعر ابن عربي.

ويا ترى هل يقول الشاعر: «لجمال حبي»؟ أم يقول «لجمال حُبي»؟ فستكون الأولى أكثر قبولا ليعود عليها أي على الحب، وهو المحبوب ضمير الغائب في هواه.

نحن لا ندري هل القصيدة الأصلية ورد فيها هكذا:

«عايدي» اسم الفاعل من عاد يعود بمعنى الزائر، وهي في العربية عائدي، فمن الذي سهل الهمزة وكتبت الكلمة بالياء.

«وأموت شوقا بالحبيب الواحدي».

هل العبارة الأصلية أموت شوقا بالحبيب. كما وردت في الديوان؟ أم للحبيب؟ فالشوق عادة لفلان أو إليه وليس به.

ثم إن الأصح «بالحبيب الواحد».. وإن كانت الكسرة تطول إلى ياء اطرادا للقافية بالحركة الطويلة المساوية السكون شاهدي، وعايدي.. ولكن لا تكتب بالياء على كل حال: إلا إذا كان المقصود بالواحدي النسبة للواحد، ولا نظنه هكذا إذ هو عائد على: «لي حبيب واحد» ويؤكد هذا ما نراه في البيت التالي وشطره الثاني: «ولم أكن بالجاحدي» فلا شك أن ناسخ الديوان أو مخرجه يكتب

ما يسمع إنشادا ولا يعرف الصرف ولا القوافي ولا علم الخليل.

أما البيت الأخير وشطره الأخير: «يا عاذلي كف الملام وساعدي» فهو يحتوي حقا على ياء زائدة، فالفعل في صيغة الأمر: وساعدْ.. والقافية تقتضي الكسر بل الكسرة الطويلة ولكن الفعل يكتب في الفصحى: ساعدِ بكسرة قصيرة يطيلها القارئ نطقا فحسب.

وأخيرا فإن الصورة والخيال الشعري واضحا الضعف والبساطة، والسذاجة، خاليان مما عهدناه في شعر الحب الصوفي لدى الكبار ممن قرأنا لهم.

والجناس الوحيد في كلمة شاهدي في آخر الشطر الأول وشاهدي في آخر الشطر الأخير صحيحان لغويا فالأولى أمر للمخاطبة يا مقلتي شاهدي، والأخرى اسم فاعل شاهد من الفعل شهد يشهد على كذا وأضيف اسم الفاعل إلى ضمير المتكلم الفرد، والصور كلها مكرورة معادة ليس للتجديد إليها من سبيل.

ومن قصائد الديوان في الخمر:

(من غير اسم لقائلها):

خلعنا في هوى ليلى العذارا
وسار السر في المعنى جهارا
طلبنا الإذن من ساقي الحميا
فنادى لا حجاب ولا ستارا
دخلنا الحان والكاسات تجلى
ظننا أن في الكاسات نارا
مشعشعة لها نور عجيب
وما لقلوبنا عنها اصطبارا

أما هذه الأبيات فهي صحيحة على مستوى ما يقوله الخليل في علم العروض والقوافي، وإن كان في نفسنا من الجمع المؤنث السالم «للكاسات» بدلا من الكؤوس» و«الأكوس» شيء. وأما الصورة الشعرية فهي عادية مكررة منذ الجاهلية حتى قائل هذه الأبيات. ثم تستمر القصيدة:

ومنا من يبيت على وضوء
ومنا من يبيت على طهارا
ومنا من يكن عريان فيها
يغيب عن البرودة والحرارا

وهنا تضيع أبسط معالم الصرف والنحو.

فانظر إلى التركيب: على طهارا ما هذه الصيغة طهار وما ألف الإطلاق فيها؟ ولماذا بحركة الفتح الطويلة مع أن الاسم مسبوق بحرف الجر على؟ ومثله «ومنا من يكن عريان فيها» فما سبب جزم يكن؟ ثم: «يغيب عن البرودة والحرارا». إن كلمة الحرارا تحمل مشكلة كلمة طهارا تماما، فالأصل بالطبع أن يقال على طهارة وعن البرودة والحرارة.

فيا ترى هل أضاف النقل الشفهي السماعي هذين البيتين وبعدهما خمسة أبيات أخرى واضح في جميعها مظاهر اللهجة العامية المتفصحة، أي التي تحاول أن تكون فصيحة.

ومع هذا فإن الديوان ذاته يحمل مقاطع وأبياتا لرابعة العدوية ولأبي بكر الشبلي وغيرهما، وليسوا بالطبع من الشاذلية، فلعل المقصود من اسم الديوان: «قصائد وأناشيد يتغنى بها السادة الشاذلية».

القرآن يتحدث عن المرأة





الشيخ/ محمود شلتوت

عهد سليمان:

وإذا كان عهد عيسى وعهد موسى يذكران بما للمرأة من فضل في مرحلتين من مراحل التربية الإلهية للعالم، فإن عهد سليمان عليه السلام يذكر هو الآخر- كما حدثنا القرآن الكريم في سورة النمل بامرأة ذات رأي وحزم - ، وفراسة وقوة في استجلاء الحقائق الغامضة، وتدبير التخلص من المآزق الطارئة على وجه يبعد به الشر، ويعم به الخير. تلك هي «ملكة سبأ».

يصل إلى سليمان عليه السلام أن في سبأ- من بلاد اليمن - ملكا كبيرا، وأن امرأة هي صاحبة السلطان على ذلك الملك، وأن لها عرشا فيه أنواع من الزينة والجواهر يقصر دون الإحاطة بها العد والتقدير، وأنها أوتيت من كل شيء، وأنها وقومها يسجدون للشمس من دون الله:

﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾

(النمل ٢٣-٢٤)

يصل هذا النبأ إلى سليمان فيرسل إليها داعيا لها ولقومها إلى التوحيد، مترقبا ما يكون منها إزاء دعوته

﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾

(النمل ٢٨-٣١)

فتقرؤه وتردد في نفسها. وهنا - على ما يقص القرآن- تظهر مواهبها وسداد رأيها في حسن التدبير وتقدير العواقب، وسعة الحيلة في كشف ما لم تعرف من شئون سليمان.

لم تشأ أن تستبد بالأمر، وأن تلقي أوامرها كما تريد، بل جمعت رجال دولتها وأهل مشورتها، وأعلمتهم مضمون الكتاب، وقدرت ما في دعوته من سمو، فوصفته أولا بالكرم:

﴿إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾

(النمل ٢٩-٣٢)

وهكذا تأخذ بمبدأ الشورى الذي هو أساس طبيعي لبقاء الملك وحفظه.

وحينما أظهر لها رجالها العزة والاعتداد بقوتهم، وأنهم طوع إرادتها، وصاحوا صيحة الحماس والاستعداد للدفاع:

﴿نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾

(النمل ٣٣)

يقظة المرأة الحاكمة

لم تخدع بما أظهروه من قوة واستعداد عن الحقيقة التي تؤمن بها في نوايا الملوك المغيرين، والتي تؤمن بها في نفوس الأتباع المروجين. فنظرت في الأمر بعين الفطنة وقالت لهم في وضوح وجلاء:

﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾

(النمل ٣٤)

وهكذا أخذت من الأحداث التاريخية التي تعلمها نتائج الحروب في تدمير البلاد والعباد، فلم تستسلم لما أظهروه من قوة واستعداد، ومثلت أمامها تلك الحقيقة التاريخية، وعرضت عليهم - حلا لتلك الأزمة التي فوجئت بها- رأيا آخر قد تنجو به البلاد، ويسلم العباد ذلك هو أن تصانع سليمان وتخطب مودته، أو تأخذه من نفسه وترده عن هدفه في الهجوم عليها، فترسل إليه هدية لتنظر أثر هذه الهدية في نفسه، وماذا يكون موقفه منها بعد أن تصل إليه:

﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾

(النمل ٣٥)

وقيم روي أنها قالت: «إن كان نبيا حقا لا تصادف هديتنا مكانا من قلبه، ولا تحول بينه وبين تبليغ رسالة ربه. وإن لم يكن نبيا، وكان ملكا تهمه الدنيا وسلطانها، فسوف يفرح بها ويعرض بزخرفها عن قتالنا.

قدرت هذا، وكان ما قدرت؛ وعلمت أن سليمان نبي ذو دعوة إلهية لا يرده عنها سلطان ولا زخرف، وأنه لابد عامل على تبليغ دعوته، وتنفيذ أمر مولاه، وعلمت بجانب ذلك ومن رسلها إليه قوة سليمان وما لديه من جند وعتاد:

﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

(النمل ٣٦-٣٧)

صدق المرأة في الفراسة

جاءها رسولها بهديتها يؤكد لها صدق تنبئها وصحة رأيها، وقوة فراستها واستنتاجها، فلم يفرح سليمان بالهدية ولم يعدل عن قتالهم؛ لأنه، كما قدرت، نبي مأمور بتبليغ رسالة ربه، وقد أفهمت رجالها ذلك وهي تفاوضهم في الأمر، وقد حمل لها رسولها أيضا توعد سليمان لهم بجنود لا قبل لهم بها، وأنه سيخرجهم بها من سبأ أذلة وهم صاغرون. وهكذا تنبأت لقومها وقالت لهم من أول الأمر:

﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾

(النمل ٣٤)

وهكذا تنبأت ملكة سبأ وقررت ما في الحروب لبلادها من تدمير وتخريب، وصدق رسولها - بما رأى وبما سمع - كل ذلك، فأشفقت على قومها واقتنعت بأن سليمان نبي مرسل صاحب دعوة إلهية، وأنه ليس من الرأي الحكيم الوقوف في وجهه ولا الوقوف في وجه الحق الذي يكفل الله له النصر والتأييد، وكذلك ليس من الرأي الحكيم حرمان قومها من التمتع بهذا الحق ولا الإلقاء بهم في أتون الحرب ونارها المستعرة دفاعا عن باطل، أو مكافحة لحق.

رأت كل ذلك ملكة سبأ فاجمعت على الذهاب إليه في رجال دولتها، وانتهى أمرها إلى التسليم بالحق، ودخلت في دين الله عن يقين واطمئنان، وقالت:

﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

(النمل ٤٤)

وهكذا قادت المرأة شعبها، وحفظت بلادها وقومها وفتحت لهم باب الخير والهداية.

وهكذا تكون قيادة الشعوب إلى الخير وإلى الصلاح، لا إلى الشر والفساد، وإلى الهدى، لا الضلال.

كأنه هو:

وإذا كان في تدبير ملكة سبأ شأنها وشأن قومها وبلادها مع سليمان ما يرشد إلى أن المرأة في اعتمادها على مبدأ الشورى، وفي يقظتها وتقدير مواقفها على الوجه الذي تسلم فيه من الأزمات التي تطرأ عليها، لا تقل عن أخيها الرجل في تقديره ويقظته واعتماده على مبدأ الشورى، فإن في هذه الكلمة

﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾

(النمل ٤٢)

دلالة أخرى على التأني والتريث في إصدار الأحكام، حتى يتبين لها واقع الأمر، وحتى لا تساق إلى الرأى تبديه، أو الحكم تصدره، بناء على مظهر قد لا يكون له في واقعه إلا مجرد المشابهة والمماثلة لما تسأل عنه ويطلب رأيها فيه.

عرش ملكة سبأ:

علم سليمان أنها أجمعت رأيها على زيارته في عاصمة ملكه، فشيد لها صرحا عظيما، ومرد أرضه بالزجاج، وأظهر لها ما لا عهد لليمن بمثله، وأراد أن يظهر لها مع ذلك وفي هذا الصرح العظيم من دلائل القوة، ونعم الله عليه، ما يملك عليها قلبها وإحساسها، ويجعلها أمامه كالحالمة في نومها بما لا تراه عينها، فاعتزم أن يأتيها بعرشها الذي تعرفه، والذي كانت تجلس عليه في ملكها، فتجلس عليه نفسه في ذلك الصرح الذي أعده لها فسأل جنوده عن قوي يأتيه بعرشها قبل أن تأتي إليه، فتقدم إليه عفريت من الجن قائلا:

﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾

(النمل: ٣٩)

فتقدم الذي عنده علم من الكتاب قائلا:

﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾

(النمل: ٤٠)

وكان الأمر كما قال، فأتى به قبل أن يرتد إليه طرفه، ووضع في الصرح الذي هيئ لاستقبالها بعد أن أخفيت بعض مظاهره؛ فلما أقبلت ودخلت الصرح ورأت العرش قيل لها: أهكذا عرشك؟ فوقفت حائرة تفكر وتدبر وتنظر: تركت عرشها في ملكها والزمن لا يسمح بنقله إلى صرح سليمان، وجوهر العرش جوهر عرشها، وجوُّه هو جو عرشها، وإحساسها يدفعها للتصريح بأنه هو، ولكن أين مظهر كذا وكذا؟ لم تستطع وقد أخذتها هذه النواحي التفكيرية العميقة أن تطبق ما تعلم على ما ترى، ولا أن تصدر الحكم بأن ما ترى هو ما تعلم، أو غير ما تعلم، وأخيرا قر رأيها وحرصها على الحزم في الرأى، والدقة في الحكم، وعدم التورط في النفي القاطع أو الإثبات القاطع على أن تقول: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾

وبعد:

فهذه مثل تاريخية أبرزها القرآن وتحدث بها عن عهود الإنسانية الأولى فيما يختص بحسن سياسة المرأة، ودقة استجلائها للحقائق، وكان حديثه عنها تسجيلها لمقتضيات الطبيعة الإنسانية البريئة التي لم يتصل بها ما يقطع عنها آثارها، وأنها ما دامت سليمة- مما يحجبها، أو يضعفها، أو يقطعها - فهي مقتضيات متقاربة في الرجل والمرأة، إن لم تكن متساوية.

العناية بتثقيف المراة وتهذيبها:

ولعل في هذا ما يرشد إلى أن العناية بتثقيف المرأة وتهذيبها، والاحتفاظ بطبيعتها الإنسانية، دون أن تنظر إلى نفسها، أو ينظر إليها باعتبارها ذات مهمة خاصة للرجل. لعل في هذا ما يرشد إلى العناية بها على هذا الوجه من أقوى ما يؤهلها للأعمال الجادة النافعة، والآراء الصائبة الحكيمة، والطهر النفسي المقدس.

أما أن تتخذ باسم الحرية، وباسم الأنوثة، وباسم مهمة الرجل - مسرحا تتقلب فيه بألوان مغرية، وحركات عابثة، وفنون لا تتصل بكيانها الإنساني، وإنما تقلب عليها وضعها البشري الكامل، وتسلبها حق إنسانيتها الفاضلة. إن كل ذلك مما يجعلها، أو جعلها بالفعل نوعا آخر غير الرجل ليس له قوته وعزمه، ولا رأيه ولا حسن تدبيره، ولا صبره على مقاومة الصعاب وقدرته على مشاق الحياة.

وبذلك تكون أنثى فقط، ليس لها من خصائص أخيها شيء، فإن شاءت المرأة أن تكون كأخيها وجب عليها أن تقوم بحق إنسانيتها، وتعنى بواجبها كإنسان له هدف في الحياة الجادة العاملة، البعيدة عن مظاهر الخداع والتلبيس. وإن شاءت أن تظل «أنثى» - بكل معاني الكلمة ولوازمها ومغرياتها- فإن واجب الرأي العام الإنساني أن يردها إلى صوابها، وأن يضع أمامها العقبات، حتى لا تستخدم زخرفها وبريقها وعري سيقانها في التنكيل بإنسانية الرجل وزلزلته عن مستواها، فينحدر إلى هوة يلتقي معها في قرارها السحيق، وعندئذ تفقد الإنسانية عنصريها! فلتنظر المرأة أين تضع نفسها، ولينظر الرجل كيف يقوم من أمرها.

عن الإسلام والعروبة



المستشار طارق البشري

أولا: العروبة:

لم يكن يظهر العراك بين العروبة والإسلام قبل منتصف القرن العشرين إلا في بلاد الشام، وحتى في بلاد الشام لم يكن كل العروبيين طالبي انسلاخ عن الجامعة الإسلامية، بدأ غالبيتهم طالبي مساواة في إطار الدولة العثمانية، وطالبي إصلاح لشأن الجامعة الإسلامية، لا يكاد يشذ عن ذلك إلا أمثال نجيب عازوري الذي يظهر من أية قراءة لكتابه (يقظة الأمة العربية) أن دعوته لم تكن بريئة من ظنون الاتصال بالفرنسيين وممالأة الإنجليز، أما رواد العروبة بمعناها الاستقلالي الحميد فلم تظهر دعوتهم كانسلاخ عن الجامعة الإسلامية إلا بعد انقلاب جمعية الاتحاد والترقي في ١٩٠٨م، وبعد أن لم يعد بأيديهم وسيلة إزاء توجه سياسة الاتحاديين إلى التتريك الكامل وتسويد النزعة الطورانية، فظهرت الجمعيات العربية بعد هذا التاريخ، وتنامت نزعتها الانفصالية بتنامي حركة التتريك في الدولة العثمانية. وبعض هؤلاء تعاون مع الإنجليز في الثورة العربية سنة ١٩١٦م ضد الدولة العثمانية انخداعا بوعود الإنجليز، ثم أدرك بعد الحرب وإعلان اتفاقية سايكس بيكو ووعد بلفور، إلى أي مدى استلت الحركة العربية، ودفعت أشرعتها رياح ليست من ريح الشرق. وكان من هؤلاء السيد رشيد رضا.

على أن الحركة العربية في بلاد الشام بدأت تعتدل في مسار توحيدي واضح منذ العشرينيات؛ إذ كان الإنجليز والفرنسيون تقاسموا أرض العرب وقطعوها شلوًا شلوًا، وسوريا وحدها صارت خمس دويلات. هنا استقام للحركة ثلاثة أمور، أولها الارتباط بالحركة الوطنية المكافحة للاستعمار الأوروبي، وثانيها: قيامها كحركة توحيد لأقطار مجزأة وليست حركة انسلاخ من جامعة أعم، وثالثها: مواجهة التقسيم الطائفي الذي أجرته فرنسا في سوريا ولبنان، وزكته إنجلترا في فلسطين.

ولكن إذا كانت الموجبات العملية للعراك بين عروبة الشام والحركة الإسلامية، قد خفت حدتها، إلا أنه بقي الفكر العروبي بالشام يحمل آثار نشأته الأولى عندما قام في مواجهة الدولة العثمانية، بحسبانها دولة تتخذ الإسلام وعاء جامعا لشعوبها وتستمد من الإسلام شرعيتها العليا المهيمنة، بل لكل هذه المواجهة لم تحمل الفكرة العربية بالشام مجرد آثار، بل حددت جانبا هاما من سماتها، بحسبانها فكرة تواجه الفكرة الإسلامية وتتوازى معها.

ونلحظ في تاريخ مصر الحديث أن شعار (مصر للمصريين) ظهر كشعار يشير إلى جامعة سياسية تقوم ضد الوجود الأجنبي في الاقتصاد والسياسة، ظهر هكذا في ظروف ضعف الدولة العثمانية المشخصة وقتها للجماعة السياسية الإسلامية، وعجز هذه الدولة عن حماية مصر من الأطماع الأوروبية، وضد نخبة الحكم التي يمثلها الخديو والتي كانت استقلت في إدارة مصر عن الدولة العثمانية وبدأت توثق روابطها بالمصالح الأوروبية لذلك كان، (مصر للمصريين) شعار كفاح يرتبط فيه المطلب الديمقراطي ضد استبداد هذه النخبة والمطلب الوطني ضد النفوذ الأوروبي، وهو شعار لم يستبعد (مصر) من مكونات الجماعة الإسلامية السياسية، آية ذلك برنامج الحزب الوطني القديم على عهد عرابي، وآية ذلك كذلك سياسات مصطفى كامل في صميم مرحلة الاحتلال البريطاني، وآيته أيضا ما سجله محمد فريد- الزعيم غير المذكور للحركة الوطنية- في مقدمة كتابه عن الدولة العلية؛ إذ يدعو الله سبحانه «أن يديم ويؤكد ما بين مصرنا العزيزة والدولة العلية من روابط التابعية..» ثم ختم كتابه داعيا الله «أن يحفظ لنا جلالة الخليفة الأعظم مؤيدا بروحه ونصره وأن يديم لنا خديوينا الأفخم، ويقوي عرى التابعية بين مصرنا والدولة العلية ويحفظها من كيد الكائدين ومكر الماكرين»..

إن الصيغة الإسلامية للحركة المصرية استمرت حتى ١٩١٩م ثم انطمرت. كان من الأسباب الرئيسية لاختفائها أفول الخلافة العثمانية بهزيمتها في الحرب ثم انحلال عراها وانهيارها الكامل بين عامي ١٩٢٢، ١٩٢٤م. وهنا بدت (المصرية) كجامع سياسي وحيد، استقلت بنفسها لأن الوعاء الأشمل قد انهار، وقامت بوظيفتها المزدوجة، الدفاع عن أرض الوطن ضد الاحتلال الأجنبي، وتوثيق العرى بين مسلمي مصر ومسيحييها. فكانت بهذا تستجيب للتحدي القائم، ونجحت إلى حد ما في إطار الإمكانيات التاريخية التي كانت متاحة في عصر التناثر والتفكك الذي حل بالعالم الإسلامي والعربي منذ بداية القرن العشرين، وخاصة بعد الحرب العالمية الأولى.

ولم تمض سنوات قليلة حتى بدأت تظهر الدعوة الإسلامية في صورتها المعاصرة، ظهرت مع نهايات العشرينات، ومع ظهور عجز (المصرية) عن المضي لتحقيق الهدف النهائي للاستقلال التام. ومع الثلاثينات ظهر البحث عن صيغة أعم تجيب على تحديات المستقبل لمواجهة ما صنع الاستعمار من تجزئة وتفتيت لأشلاء

هذا الوطن الكبير، عربيا كان أو إسلاميا. كانت الحركة الإسلامية تتجمع، وكانت الدعوة العربية تتلمس طريقها. وقد تفتقت الفكرة العربية في مصر من أحضان التيار الإسلامي العريض، يظهر ذلك من ملاحظة الأشخاص والمؤسسات التي ساهمت في بناء هذه الفكرة ودعمها خلال الثلاثينات. وردت جلها من المشروع الإسلامي العريض. ومنه الحزب الوطني والشبان المسلمين ومصر الفتاة، وشخصيات أمثال أحمد تيمور وأحمد زكي وعبد الحميد سعيد... إلخ.

لا أريد الإطالة في ذكر الأمثلة، إنما أشير فقط إلى أن كلا التوجيهين الإسلامي والعروبي خلال الثلاثينات، لم يقوما على تناف فيما بينهما ولم يكونا على عراك. كلاهما كان يتوجه نحو توحيد مصر بكيان أعم، فكان الفارق بينهما من الناحية التطبيقية هو فارق ما بين العموم والخصوص، ما بين الأوسع والأضيق. وكلاهما في ظروف الثلاثينات كان يتجه إلى فلسطين، البلد العربي وبلد المسجد الأقصى. هذا التجانس بين العروبة والإسلام تجده في غالب تيارات الحركة الوطنية في أفريقيا العربية، إذا نظرنا إلى أمثال ابن باديس في الجزائر والثعالبي في تونس وعلال الفاسي في المغرب.

هذا فيما يتعلق بالمدخل الأفريقي والمصري للتوجه العربي، والمدخل الشامي لهذا التوجه. بقي الجنوب العربي وهو يشمل الجزيرة العربية والسودان، ولا يكاد يظهر إن كان للدعوة العربية أثر فعال فيهم قبل النصف الثاني من القرن العشرين. إنما كانت الصفة الإسلامية هي الغالبة، لا تكاد تتحداها دعوة سياسية أخرى خلال هذه المرحلة. وقد ظلت السودان تحت الظل الظليل لمحمد أحمد المهدي وللميرغني، وكانت دعوة «وحدة وادي النيل» دعوة توحيد قطري، لم تستقطب في أي من اتجاهي الإسلام والعروبة. وظلت الجزيرة العربية في غالبها في إطار الدعوة السلفية لابن عبد الوهاب، والوجود الزيدي في الجنوب، وهذه أرض العرب الأولى لم تصدر عنها دعوة العروبة، فيما عدا حركة الشريف حسين سنة ١٩١٦م.


عبدالحميد بن باديس

الخلاصة: قصدت من هذه الإطلالة التاريخية الجغرافية، بيان أن الدعوة العربية تنوعت موارد نشوئها في البلاد العربية، وفقا للموقف التاريخي الذي أحاط بكل من مناطقها الثلاث الكبرى، الشرق الشامي والغرب الأفريقي والجنوب العربي. وليس من الصواب - فيما يبدو لي - أن يتخذ النموذج الشامي كنموذج وحيد وفريد للفكرة العربية؛ لأن الفكرة العربية هناك - دعوة وحركة - قامت في أصل نشأتها بوظيفة انسلاخية عن الجامعة الإسلامية، وحكمتها ظروف هذه النشأة، بينما تكونت الفكرة العربية في أفريقيا في أصل نشأتها وفقا للوظيفة التوحيدية

التي كانت مطلوبة منها، وهذا فارق هام يتعين إثباته والاهتمام به عند تحديد وضع العروبة إزاء الجامع الإسلامي وعلاقة كل من الجامعتين إحداهما بالأخرى.

ثانيا: الإسلام:

وفي إطار الفكرة الإسلامية نلمح فارقا من النوع السابق، ومرد ذلك إلى أن هذه الفكرة - كدعوة وحركة - وإن قامت عادة بوظيفة توحيدية، فقد قامت في الهند بوظيفة انسلاخية تتشابه مع ما قامت به الفكرة العربية بالشام. وكان لهذا تأثيره على الفكر السياسي الإسلامي الآتي من الهند. إن لمفكري الهند إثراءهم الضخم للفكر الإسلامي عامة، وأعمالهم غزيرة ثرية، ولكنهم بالنسبة لتصديهم للجامعة السياسية والحركات القومية يغلب على الكثير منهم التأثر بالوظيفة الانسلاخية، وهو تأثير تبلور في أيامنا هذه فيما كتبه أبو الأعلى المودودي عن القومية فجعلها صنو العصبية والجاهلية وروح المحاربة.

على أن جذور هذا الموقف أقدم من المودودي بكثير، وله جذور تاريخية قديمة قدم ثورة ١٨٥٧م التي قادها وقام بها مسلمو الهند ضد الاحتلال البريطاني. وقد انتهى الأمر بهزيمة الثورة وتصفيتها، وبإدراك الإنجليز أن المسلمين هم الأكثر خطرا على حكمهم والأكثر مقاومة لثقافتهم، فعملوا حتى بدايات القرن العشرين على إقصاء المسلمين عن الوظائف والاستعانة بالهندوس. وفي هذه الظروف كان لدى مسلمي الهند نزوع إلى استدعاء الدعم والتأييد من الدولة العثمانية ومن سائر الشعوب الإسلامية. وكان هذا من قبل يشكل نزوعا لدى سلاطين الهند، يطلبون نجدة الدولة العثمانية لهم ضد المخاطر الإنجليزية والبرتغالية، وبقي هذا النزوع للجماعة الإسلامية هناك حتى بدايات القرن العشرين. وكذلك كان ينزع حكام المغرب العربي والجزائر ضد التهديد الإسباني الفرنسي، وأمراء بخارى في وسط آسيا ضد الغزو الروسي، وآل سعيد في زنجبار والساحل الجنوبي للجزيرة العربية وهكذا.

المهم أنه كان ثمة شوق للانضمام للجماعة الإسلامية وتوثيق الروابط مع مراكزها السياسية الرئيسية، وهو شوق ينمو في أطراف العالم الإسلامي، كما ينمو لدى الأقليات الإسلامية، أي حيث يكون المسلمون أقلية في مجتمع معين، وينمو كذلك في فترات الغزو الأجنبي أو التهديد به، وتشابكت هذه العوامل بين مسلمي الهند أكثر مما توافرت لدى غيرهم، وأفاد ذلك تصاعد الشعور الانسلاخي لديهم عن التكوين القومي الهندي، وساعد على ذلك أن عناصر التكوين القومي ليست متبلورة في الهند بسبب كثرة اللغات والديانات والمذاهب والعقائد، وهذا يخالف ما حدث فعلا في أفريقيا العربية أو المغرب العربي خاصة، عندما كانت العناصر القومية أكثر بلورة، وعندما كان كلا التوجيهين العربي والإسلامي يسير في اتجاه توحيدي واحد.

إن الإنصاف للحركة الإسلامية الهندية يقتضينا أن نذكر أن المسئول الأساسي في انفصال باكستان عن الهند كان حزبا

علمانيا في جوهره، وهو حزب الرابطة الإسلامية الذي تزعمه محمد علي جناح. وقد عرف عن زعماء هذا الحزب عدم الالتزام بالإسلام كشريعة وسلوك، ووقفوا بعد إنشاء باكستان ضد تطبيق الشريعة الإسلامية وقاوموا الحركة الإسلامية التي تجاهد من أجل تطبيقها، وكما يقول الدكتور كليم صديقي، وعرضوا شعب باكستان في ٣٦ سنة من الاستقلال لتفسخ أعظم مما تعرض له خلال مائة سنة من الاحتلال، لكن الحركة الإسلامية التي لا تحمل المسئولية الأساسية للانسلاخ السياسي لباكستان، والتي وقفت ضد حزب الرابطة الإسلامية مطالبة بتطبيق الشريعة الإسلامية، قد حملت في فكرها السياسي وموقفها من القومية آثار العملية الانسلاخية التي قام بها رجال الرابطة الإسلامية، وإن مطالعة كتب الأستاذ المودودي عن القومية ومقارنتها بكتابات المفكرين الإسلاميين المصريين في الموضوع تكشف عن فوارق هامة بين الموقفين لا من حيث إنكار الجامع القومي كبديل عن الجامع الديني، ولكن من حيث مراعاة الآثار التوحيدية للعملية السياسية المترتبة على كل من الموقفين، فإن المفكرين المصريين وإن أنكروا الجامع القومي من الناحية النظرية واسترابوا في أصل نشأة الحركة القومية في ديار الشام، إلا أنهم يحبذون حركة التوحيد العربي.

إن الحركة الإسلامية أو الفكر السياسي الآخذ عن الإسلام في الشمال الأفريقي عامة وفي مصر خاصة، لم يستشعر خطرًا على نفسه من التوجه العروبي، بل لعل هذا التوجه ظهر أول ما ظهر في أحضان الإسلامية السياسية. وهي لم تعاركه ولم تحذر منه، بل لعلها دافعت عن هذا التوجه ودعمته عندما ظهر وليدا في الثلاثينات.



محمد علي جناح

والخلاصة من كل ذلك أننا عندما نتكلم عن بناء الجسور بين التيار القومي العربي والتيار الديني الإسلامي لا نبدأ من فراغ ولا نحوم في فراغ، إنما تقف وراءنا روابط تاريخية مؤيدة، وإذا وجدت تجارب تاريخية معاكسة فنحن ندرك سبب معاكستها. إننا ندرك الفروق النظرية التي تقوم بين كل من الجامعتين الإسلامية والعربية، والأولى أساسها ديني اعتقادي ومناطها الإنسان والجماعة، والثانية أساسها لغوي، ومناطها إقليمي. ولكننا نتكلم عن مدى التقارب في الوظائف المؤداة من حيث الترابط والتداخل الحادث بين العروبة والإسلام، ومن حيث الأهداف المطروحة والغايات المرجوة. ونحن لا نطمح هنا لأن يغير أي من الاتجاهين أسسه الفكرية لصالح الآخر، إنما كل ما نرومه أن يدرك كل من الاتجاهين الآثار التوظيفية للآخر ومدى دعمها للأهداف والغايات المشتركة، ويدرك الأخطار المحدقة به والمترتبة على الانفصام بين الحركتين في التطبيق، وأثر ذلك في إفساد ما رسمه الجميع من أهداف المجتمع. وكل ما أقصده أن تكون على

حذر من (الطبعة) الشامية للجامع العروبي أو (الطبعة) الهندية للجامع الإسلامي. وأساس الحذر اختلاف الظروف التاريخية واختلاف الوظائف بين هاتين الطبعتين وبيننا اليوم.

ثالثًا: التفتيت يظهر من تضارب عوامل التوحيد:

نقطة أخرى، فإن من ينظر إلى الحدود السياسية القائمة بين الدول الإسلامية والعربية يجد أن معظمها لم يكن قائما قبل الحرب العالمية الأولى. لقد أنشئت هذه الكيانات الصغيرة وأسميت دولا خلال نصف القرن التالي لهذه الحرب، من أواسط آسيا والهند حتى بلدان الشرق الأوسط. وهذا ما حدث عينه في تلك المجموعة الضخمة من الدول الصغيرة التي نشأت في أفريقيا الوسطى والجنوبية بتقسيمات سياسية فرضت على الأفريقيين من قبل.

أقصد بهذا القول أن هناك سمة أساسية في سياسات الدول الكبرى، وهي تفتيت البلدان الآسيوية والأفريقية، والتفتيت يعني إزهاق عوامل التوحيد، وهذا لا يتأتى بضرب تلك العوامل من خارجها، فقد يكون هذا الضرب من الخارج حافزًا ينبه الناس إلى ما يراد بهم، فيدفعون عن تلك العوامل عوامل الاجتثاث ويؤكدونها في ذواتهم. إنما يتأتى إفساد عوامل التوحيد، وبإثارة التناقض بين هذه العوامل بعضها البعض واصطناع المعارك بينها. يروج في التعبيرات السياسية لفظ (الفتنمة)، فبدلا من أن يقاتل الأمريكيون الفتناميين يثيرونهم ليقاتل بعضهم بعضا. هذا الأسلوب الذي يجري في جبهات القتال يجري أيضا في جبهات الفكر وميادين الحركات السياسية. وإثارة عوامل التوحيد ضد بعضها البعض لا يفيد فحسب يسرًا في التفتيت، ولكنه يؤدي إلى تفتيت مضاعف؛ إذ يصير كل عامل طاقة مفتتة لغيره. وهكذا على التبادل بينها جميعا بما لا يكاد ينتهي.

وأضرب مثلا على ذلك من العروبة والإسلام في أرض الشام. قد كانت الجامعة السياسية تتصل بالإسلام وتضم الترك والعرب وغيرهم في الدولة العثمانية، ثم قامت حركة التتريك والحركة العربية كانسلاخين قوميين فيها. فلما صفيت الدولة العثمانية بعد الحرب الأولى وانقسمت على أساس قومي، اقتسمت القوى الفرنسية والإنجليزية أرض العروبة، وقاموا بتقسيم آخر أساسه ديني مذهبي، فقسمت سوريا خمس دويلات، وظهرت الصهيونية في فلسطين، وعانى لبنان ما نعرف من ألوان المعاناة. وهكذا عندما تكون الجماعة السياسية قائمة على أساس من الدين يثار العنصر القومي كعنصر مفتت، وعندما يؤتي أثره يثور من جديد عنصر الدين كعنصر مفتت في داخل الكيانات المنقسمة، وإذا توجه الإسلام ضد الاستعمار أثيرت النزعة القومية لتشتت حركته، والعكس صحيح. وهكذا تتفاعل العوامل تفاعلا سلبيا لتتدنى بها الأوضاع إلى أدنى مدى. وقد حدث مثيل لذلك في دويلات أفريقيا، عندما تستغل

عوامل الدين والتكوين القبلي والتكوين اللغوي ضد بعضها البعض.

تنقلنا هذه الملاحظة إلى نقطة تالية هي المقصودة ابتداء من هذا الحديث، فإن أمرنا مع أي من الدعوات السياسية أو الفكرية، وهو أن نفحصها ونتبين وظائفها في الظروف التاريخية التي ظهرت فيها، وبهذا يستقيم لنا النظر فيها وقياس قدرتها على الاستجابة للتحديات التي واجهتها الجماعة في أي ظرف خاص، ومدى تلاؤمها مع ما يتطلبه وجود الجماعة واستمرارها من وظائف.

إن لنا عددا كبيرا من الخصائص الجمعية، وكل منها يصلح أن يكون معيارا لتصنيف ما. وكل منها يتلاءم مع نوع المواجهة المطلوبة بشكل معين في ظرف تاريخي أو اجتماعي خاص. وهناك خصائص عديدة تشكل مقوماتنا الفكرية والحضارية، وينمو بعضها إزاء بعض عندما يثور من الأمور ما يقتضي نمو الخصائص اللازمة لمواجهة أمر ما، ونحن يتعين أن نولي كل خصيصة القدر الواجب من الاهتمام الذي تصلح به الجماعة ويصلح به قيامها وبقاؤها.

وفي إطار الروابط الجمعية فهناك عامل الدين كعامل جمعي (وخاصة الإسلام)، وهناك عامل اللغة والرباط الإقليمي، ثم هناك علاقات الجوار التي يقوم على أساسها عدد من الروابط المحلية الثانوية. وعلاقات القرابة والنسب عندما يقوم عليها عدد من التكوينات الاجتماعية كالأسرة والعائلة، أو التكوينات الاجتماعية شبه السياسية كالعشيرة والقبيلة. هذا كله أمر قائم، وليست المشكلة في قيامه، ولكن المشكلة هي في تحديد نطاق الفاعلية لكل من هذه الروابط وحساب ممكناتها الجمعية، ثم في كيفية وضع هذه العوامل إزاء بعضها البعض بما يضمن الفاعلية الإيجابية لها، والتغذية المتبادلة بينها في إطار الهدف الحاكم في ظرف تاريخي محدد، أو بالعكس أن توضع بصورة تثير التناقض والتنافي بين بعضها البعض. إن أي عامل من العوامل السابقة يمثل قوة جمعية، ولكن قوته تتأتى بقدر ما يكون هذا العامل هو الأكثر ملاءمة لمواجهة التحديات المطروحة وبقدر ما تنتظم علاقاته مع القوى الجمعية الأخرى بما يتيح التغذية المتبادلة لا بما يثير التنافي. وإن أية قوة يمكن أن توضع إزاء بعضها البعض وضع إضافة فتستقوي ويشد بعضها بعضا أو وضع سلب فتتلاشى ويضرب بعضها بعضا.

ونحن لا نختار العروبة ولا نختار الإسلام، فهما مضروبان علينا، والقطرية مضروبة على كل من المصري والعراقي والمغربي، كل في دياره، كما أن الإنسان لا يختار لغته ولا يختار أباه وأمه. ولكن اختيارنا يتأتى من زاوية أخرى، هي: كيف نضع الواحد من هذه العوامل إزاء الآخر، هل نقيمها في وضع التنافي أو في وضع التكامل. في هذا المجال نستطيع أن نعمل إرادتنا وأن نحقق ما نصبو إليه من أهداف، واضعين في حسابنا الملاءمة التاريخية وتقدير الظروف الملابسة، أي المجال التطبيقي لإعمال أية فكرة أو رابطة أو جامعة.

الشورى في معركة البناء (٦)

إلزامية الشورى ومسألة الأغلبية

أ.د. أحمد الريسوني

مسألة الأغلبية

القول بإلزامية الشورى، إنما هو في حقيقته ومآله قول بمبدأ الأغلبية. فإلزامية الشورى تعني في النهاية الأخذ برأي الأكثرية من المستشارين. فحينما يجري التشاور في أمر، نكون في الغالب أمام إحدى حالتين[1]:

حالة إجماع المتشاورين على رأي واحد. وهذه الحالة لا كلام فيها، فالأمر فيها جلي واضح.

والحالة الثانية: انقسام المتشاورين إلى رأيين أو أكثر. وكل رأي كان عليه أكثر المتشاورين، فهو رأي الأكثرية، أو الأغلبية. وكل رأي كان عليه العدد القليل، فهو رأي الأقلية. وحتى حينما يتفق المستشارون على رأي واحد، ويكون رأي الأمير – أو الرئيس – على رأي مخالف، فنحن هنا أيضا نكون أمام رأي للأغلبية، وآخر للأقلية، وإن كانت هذه الحالة هي كذلك نادرة الوقوع.

إذن، فالغالب المعمول عليه في المشاورات: إما إجماع لا إشكال فيه. وإما انقسام في الرأي ما بين أكثرية وأقلية. فهذا هو أكثر ما يقع، وهو محل النزاع، وهو موضوعنا الآن.

والرأي الذي أقول به ولا أتردد فيه، هو لزوم الأخذ برأي الأغلبية في المجالس والهيئات الشورية التقريرية.

وبما أن هذه القضية بشقيها أو بوجهيها (الإلزامية واتباع الأغلبية) هي المحدد الأكبر لمسار الشورى ومصيرها، فلا بد من الوقوف عندها وبسط الأدلة فيها بما يكفي ويشفي إن شاء الله تعالى:

١. النظر في القرآن الكريم:

مما لا شك فيه أن القرآن الكريم ليس فيه ذكر لهذه المسألة ولا تصريح بحكمها، غير أن بعض المعاصرين ذهبوا إلى محاولة إبطال القول بالأغلبية، اعتمادًا على ما في القرآن من ذم للكثرة والأكثر من الناس.

من هؤلاء الدكتور حسن هويدي، الذي يوضح هذا الوجه من وجوه اعتراضه على مبدأ الأغلبية بقوله: «فقد وردت الآيات الكريمة كنصوص عامة من كتاب الله تذم الأكثرية وتمدح الأقلية.

(١) أما حالة تساوي الأصوات، فهي أولا نادرة الوقوع، وثانيا يمكن الخروج منها باعتبار الرئيس – أو الأمير – مرجحا.

قال الله تعالى:

﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ﴾

[الأنعام: ١١٦]

﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾

[يوسف: ١٠٣]

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾

[الأعراف: ١٧٩]

﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾

[المؤمنون: ٧٠]

﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾

[المائدة: ١٠٠]

﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾

[سبأ: ١٣]

﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾

[ص: ٢٤]....

وهكذا تجد أن الخيرة هم القلة، حين مقارنة المؤمنين بالكافرين، وحين مقارنة المؤمنين بعضهم ببعض. فأين أمست الكثرة بعددها أمام القلة بفضلها؟...»[٢].

ومنهم الدكتور أحمد رحماني الذي ألّف كتابًا كبيرًا سمّاه (الحقيقة الجوهرية في مشكلة الأكثرية والأقلية- دراسة في التفسير الموضوعي). ولشدّة حماسة المؤلف لنصرة الأقلية وتسفيه الأكثرية، فقد وقع في كثير من الخلط والتعميم والتبسيط، رغم إقراره ببعض الاستثناءات والخصوصيات.

وقد لخص نتيجة كتابه بقوله: «وقد انتهي- بعد بحث مدقق- إلى نتيجة أساسية، وهي أن الأكثرية (الجماهير الشعبية) على مدار التاريخ البشري، تقف في الجانب السلبي، وأن الأقلية الواعية هي التي تقف في الطرف الإيجابي، متمثلة فيما عبر عنه المصطلح الإسلامي بـ(جمهور العلماء) ومن اتبعهم»[٣].

ويؤكد المؤلف أنه حتى «على مستوى الدول الإسلامية نفسها، تلاحظ مشكلة محاربة أصحاب الدعوة الإسلامية وكثرة الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادًا ويبغونها عوجًا. والعلة وراء كون الأكثرية دائمًا في الطرف السلبي، والأقلية فقط هي التي تكون في الطرف الإيجابي، هو أن الإنسان يكمن سر كماله واستقامته في استكمال قوته، قوة النظر والعلم وقوة الكسب والعمل...»[٤].

ويختم الباحث كتابه بقوله: «فهل آن الأوان لنفكر بجد ونعود لعقلنا، فنعطي القيادة للأقلية الصالحة، وهم جمهور العلماء ومَن سار على هديهم من الصالحين؟»[٥].

ولستُ أدري ما جدوى توجيه هذه الدعوة إلى التعقل وتسليم القيادة للأقلية الصالحة، ما دامت الأكثرية المعنية بهذه الدعوة تقف «دائمًا في الطرف السلبي»، لأنها لا تملك «قوة النظر والعلم وقوة الكسب والعمل؟».

على أن الانزلاق الأساس الذي يقع فيه أصحاب هذا الفهم لموضوع الأكثرية المذمومة في القرآن الكريم، هو عدم مراعاتهم للسياق والنطاق اللذين يأتي فيهما هذا الذم. فالآيات التي تذم «أكثر الناس» أو «أكثرهم» تتحدث عادة عن الكافرين، عن المشركين، عن المتكبرين، عن المنافقين، عن أهل الكتاب، ومجال ذمهم هو كبرهم وكفرهم بالحقائق الغيبية وما يترتب على ذلك من استخفاف بالدار الآخرة، وبالقيم والأعمال الأخروية.

وهذه الأمور كلها مصدرها الوحي والخبر اليقين. وكل مَن لم يعتمد الوحي مصدرًا له، فهو إلى ضلال، سواء كان من العوام أو من السواد والأكثرية، أو كان من النخبة المتعالمة المتعالية. ومن هنا لم يكن الضلال والذم القرآني من نصيب العامة بأكثر مما هو من نصيب النخبة، سواء كانت نخبة حاكمة أو نخبة متعالمة.

وقد كان عددٌ من الفلاسفة والمفكرين والأذكياء، هم كبار الضالين المضلين. فهل كان هؤلاء على مرِّ الأزمان وتعاقب الأمم والأجيال، من الأكثرية أو من الأقلية؟ أو هُم أكثرية الأقلية، أو هُم الأقلية التي تقود الأكثرية؟.

وإذا كان القرآن الكريم قد ذمّ في عددٍ من آياته الأكثرية، أو بعضَ الأكثريات، فإنه أيضًا- وفي آيات كثيرة- كذلك- قد ذم (الملأ)، ووصفهم بالضلال والإضلال، ووضعهم في مقدمة المناهضين لدعوات الأنبياء، الحاجزين لأقوامهم وجماهيرهم عن الاستجابة لها وحتى عن الإنصات إليها.

فمن عهد نوح عليه السلام نجد:

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾

[الأعراف: ٦٠]

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾

[هود: ٢٧]

إلى محمد ﷺ:

﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾

[ص: ٦].

مرورًا بكافة الرسل والأنبياء مع أقوامهم، حيث الملأ (النخبة المهيمنة) يتصدون بكل الوسائل الممكنة لدعوات الأنبياء لصد الناس عنها، من مثل:

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾

[الأعراف، ٨٨]

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾

[الأعراف، ٩٠]

وحتى في الإسلام وفي المجتمع الإسلامي، فقد رُويت أحاديث وآثار تحذر من فساد النخبة القيادية، وهم العلماء والأمراء، وأن بفسادهم

(٢) الشورى في الإسلام، ٢٦-٢٧.
(٣) الحقيقة الجوهرية، ص٤٤٥.
(٤) الحقيقة الجوهرية، ص٤٥٢.
(٥) المرجع السابق.

يفسد المجتمع، كما أن في صلاحهم صلاح المجتمع.

ومن مشكاة النبوة نبع قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «اعلموا أنه لا يزال الناس مستقيمين ما استقامت لهم أئمتهم وهداتهم»[٦]، وهو تحذير من أن الانحراف العام سيأتي بسبب انحراف الأئمة والقادة.

وهذه القولة العمرية كأنها تكرار لقولة مماثلة لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، ففي الصحيح: «دخل أبو بكر على امرأة من أحمس يُقال لها زينب، فرآها لا تكلم، فقال: ما لها لا تكلم!؟ قالوا: حجت مصمتة. فقال لها تكلمي، فإن هذا لا يحل، هذا من عمل الجاهلية. فتكلمتْ فقالت من أنت؟ قال امرؤ من المهاجرين، قالت: أي المهاجرين؟ قال: من قريش. قالت من أي قريش أنت؟ قال: إنك لسؤول، أنا أبو بكر. قالت: ما بقاؤنا على هذا الأمر الصالح الذي جاء الله به بعد الجاهلية؟ قال: بقاؤكم عليه ما استقامت بكم أئمتكم، قالت: وما الأئمة؟ قال: أما كان لقومك رؤوس وأشراف يأمرونهم فيطيعونهم؟ قالت: بلى. قال: فهم أولئك على الناس»[٧].

قال الحافظ ابن حجر: «الأمر الصالح: أي دين الإسلام وما اشتمل عليه من العدل واجتماع الكلمة ونصر المظلوم ووضع كل شيء في محله». إلى أن قال يبين كلام أبي بكر «قوله: (أئمتكم)، أي لأن الناس على دين ملوكهم، فمن حاد من الأئمة عن الحال مال وأمال»[٨].

ولقد ذهب بعضهم إلى استهجان الكثرة في ذاتها والاستخفاف بها وإهدار قيمتها، وذلك اعتمادًا منهم على الآية الكريمة:

﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ۚ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

[المائدة: ١٠٠]

مع أن الآية ليس فيها انتقاص للكثرة ولا أي تفضيل للقلة على الكثرة، فهي إنما تنتقص الخبيث ولو كان كثيرًا، وتقرر أن القليل من الطيب خير من الكثير الخبيث. فالمقارنة والمفاضلة هنا ليست بين قلة وكثرة، وإنما بين طيب وخُبث. أما الكثرة في حد ذاتها فمحمودة حسنة، وهي نعمة يمتن الله بها على عباده:

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾

[الأعراف: ٨٦].

أما الذي يستحق الاستهجان فعلًا هو إقحام المسلمين، في مقارنة تتعلق بالخبيث والطيب، وتشبيه كثرتهم بكثرة الخبيث، مع أن الخبيث يُراد به المشرك والكافر والمنافق، ويُراد به الكسب الحرام، أو الشيء النجس المستقذر!.

والمسلمون المؤمنون في عمومهم طيبون وطيبات. والشيء الطيب- بدون شك كثيره أفضل من قليله، مثلما أن الشيء الخبيث قليله خير من كثيره. فالزيادة الكمية والعددية فيما هو طيب، هي زيادة خير وفضل. وهذا ينطبق على عموم المسلمين، فكيف إذا تعلق الأمر بأهل شوراهم وعلمائهم وذوي الحل والعقد فيهم؟!

ومن لطائف الاستنباطات وعجيب المفارقات، ما ذهب إليه ابن عرفة التونسي، وحكاه عن ابن المنير الإسكندري، من أن هذه الآية نفسها:

﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾

تدل على الاعتداد بالكثرة والترجيح بها[٩] فقد نقل عنه ابن عاشور قوله في تفسيره «وكنتُ بحثت مع ابن عبد السلام[١٠]. وقلتُ له: هذه الآية تدل على الترجيح بالكثرة في الشهادة، لأنهم اختلفوا إذا شهد عدلان بأمر، وشهد عشرة عدول بضده. فالمشهور أن لا فرق بين العشرة والعدلين، وهما متكافئان (أي متساويان). وفي المذهب قولٌ آخر بالترجيح بالكثرة. فقوله:

﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾

يدل على أن الكثرة لها اعتبار، بحيث إنها ما أسقطت إلا للخبث، ولم يوافقني عليه ابن عبد السلام بوجه. ثم وجدت ابن المنير ذكره بعينه»[١١].

ومما يدل على الاعتداد بالكثرة الطيبة وإعلاء مقامها، ما جاء في صحيح مسلم (كتاب الجنائز)، عن أنس بن مالك قال: «مرّ بجنازة فأثني عليها خيرًا، فقال نبي الله ﷺ: «وجبت وجبت وجبت». ومرّ بجنازة فأثني عليها شرًا، فقال نبي الله ﷺ: «وجبت وجبت وجبت» قال عمر: فدى لك أبي وأمي، مر بجنازة فأثني عليها خيرًا، فقلت: وجبت وجبت؟. ومر بجنازة فأثني عليها شرًا، فقلت: وجبت وجبت؟ فقال رسول الله ﷺ: «من أثنيتم عليه خيرًا وجبت له الجنة، ومن أثنيتم عليه شرًا وجبت له النار. أنتم شهداء الله في الأرض، أنتم شهداء الله في الأرض أنتم شهداء الله في الأرض». ومعناه الصحيح عند الإمام النووي: «أن كل مسلم مات فألهم الله الناس أو معظمهم الثناء عليه، كان ذلك دليلًا على أنه من أهل الجنة...».

فإذا كانت شهادة الكثرة من المؤمنين يعتد بها في الحكم بالجنة والنار، فكيف لا يعتد بها في شؤون الدنيا ومصالحها، أو في اختيار الأصلح للولايات والإمارة ونحوها...؟!

ومن الآيات التي تشعرنا بأن الشورى الحقيقية هي التي يكون الرأي فيها جماعيًا والقرار مشتركًا، ولا ينفرد بذلك أحد، آية الشورى:

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾

فالأمر يكون شورى بينهم، إذا ظل ملكًا لهم جميعًا، وأخذ بالاعتبار رأيهم جميعًا، ثم يحسم بقول مجموعهم أو أكثرهم. فالأمر من أوله إلى منتهاه دائر بينهم ولا يؤول إلى واحد منهم، إلا برضاهم.

(٦) جامع بيان العلم: ١/٢٢٦.
(٧) صحيح البخاري، مناقب الأنصار، باب أيام الجاهلية
(٨) فتح الباري ٧/٣٦٥.
(٩) سأتناول قريبًا مسألة الترجيح بالكثرة عند العلماء.
(١٠) يقصد شيخه محمد بن عبد السلام، قاضي الجماعة بتونس، توفي سنة ٧٤٩هـ.
(١١) التحرير والتنوير ٧/٦٤.

ومن الآيات التي يمكن الاسترشاد بها والاستئناس بها في الموضوع ما جاء في قصة ملكة سبأ، حيث حكى الله تعالى عنها أنها:

﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾

[النمل: ٢٩-٣٢].

والشاهد عندي هو قولها:

﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾

وحتى يستقيم الاستشهاد بقول ملكة سبأ، ولا يبقى فيه مجال للإنكار والاعتراض، لا بد من التنبيه على أمرين:

● الأول: ما قرره الشاطبي - ولا أعلم مخالفًا له فيه - وهو: «كل حكاية وقعت في القرآن، فلا يخلو أن يقع قبلها، أو بعدها - وهو الأكثر - رد لها، أولا. فإن وقع رد فلا إشكال في بطلان ذلك المحكي وكذبه. وإن لم يقع رد، فذلك دليل على صحة المحكي وصدقه... فإن القرآن سمي فرقانًا، وهدى وبرهانًا، وبيانًا وتبيانًا لكل شيء، وهو حجة الله على الخلق، على الجملة والتفصيل، والإطلاق والعموم. وهذا المعنى يأبى أن يحكى فيه ما ليس بحق، ثم لا ينبه عليه...»(١٢).

وما قالته ملكة سبأ والتزمت به، من أنها لا تبرم أمرًا إلا بموافقة ملئها، ليس عندنا في القرآن، لا في نفس الموضع ولا في غيره، ما يرده ويبطله.

وكذلك في سنة المصطفى وسيرته ﷺ، لا تجد إلا ما يشهد له ويؤيده، على ما رأينا وما سنرى. ومن هنا، فلا مجال لإبطال ما قالته هذه المرأة والتزمت به، وحكاه الله عز وجل ليُتلى على عباده إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. ولا دليل على تلك النزعة الاتهامية، التي عبر عنها الأستاذ عدنان النحوي بقوله: «فلم تكن الشورى التي طلبتها، بحثًا عن مخرج، أو تحريًا لحق، إنها لم تكن أكثر من أسلوب في الإدارة، ونمط من أنماط الحكم، إدارة الآلات، وحكم الأموات»(١٣).

فلو أن ما عبر عنه مستشاروها كان صادرًا عن خوف منهم وعجز وتملق، وعن استبداد وتجبر منها، لم تكن بحاجة إلى أن تقول لهم:

﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾

فهذا يدل على أن المتبع المعمول به بينهم، هو أنها لا تقطع في أمر دونهم. ولو كانوا مجرد آلات ومجرد أموات، لم تكن بحاجة إلى التصريح بأنها لا تقطع أمرًا دون موافقتهم، بل لم تكن بحاجة إلى استشارتهم أصلا.

● الأمر الثاني: وهو أعلى درجة من سابقه، هو أن ملكة سبأ سيقت في القرآن مساق التنويه والرضى عن تدبيرها وتصرفها وعاقبة أمرها. أما شركها الأول، فلأنها:

﴿كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾

[النمل: ٤٣]

(١٢) الموافقات: ٣/ ٣٥٣-٣٥٤.

(١٣) ملامح الشورى في الدعوة الإسلامية، ص٣٦.

ولكنها ما أن سمعت دعوة الحق، حتى قالت:

﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

[النمل: ٤٤].

فهي من صنف الذين قالوا:

﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾

[آل عمران: ١٩٣].

فكل ما حكاه القرآن من أقوالها وأفعالها - منذ تلقت كتاب سليمان - يدل على أنها سيقت مثلا للتعقل وحسن التدبير، على غرار ما حكى الله تعالى عن ذي القرنين. وقد فهم عدد من المفسرين هذا السياق، فاعتبروا به ونبهوا عليه.

قال القرطبي معلقًا على مشاورتها ومحاورتها لملئها:

«فأخذت في حسن الأدب مع قومها، ومشاورتهم في أمرها، وأعلمتهم أن ذلك مطرد عندها في كل أمر يعرض بقولها:

﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾

فكيف في هذه النازلة الكبرى. فراجعها الملأ بما يقر عينها، من إعلامهم إياها بالقوة والبأس، ثم سلموا الأمر إلى نظرها». قال القرطبي: «وهي محاورة حسنة من الجميع»(١٤).

وقد كشفت أقوالها وتصرفاتها عن أنها كانت لذلك التفويض الذي منحها إياه مجلس شوراها، وأنها صدرت فيها عن خبرة ودراية وحكمة، ولهذا لما حكى الله تعالى قولها:

﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾

[النمل: ٣٤]

قال ابن عباس: هو من قول الله عز وجل، معرفًا لمحمد ﷺ وأمته بذلك ومخبرًا به(١٥).

وقال العلامة محمد الأمين الشنقيطي: «ألا ترى أن ملكة سبأ، في حال كونها تسجد للشمس من دون الله، هي وقومها، لما قالت كلامًا حقًا، صدقها الله فيه، ولم يكن كفرها مانعًا من تصديقها في الحق الذي قالته، وذلك قولها فيما ذكر الله عنها:

﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾

فقد قال تعالى مصدقًا لها في قولها:

﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾(١٦)

فبناء على أن قولها:

﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾

محكي في كتاب الله عز وجل، دون أي إبطال أو ذم...

وبناء على سياق التأييد والرضى، الذي جاء فيه هذا القول...

فإن قولها والتزامها بأن لا تقطع في أمر من أمور الدولة، إلا بعد أن يشهده ملؤها ويوافقوا عليه، يعتبر مثالا يُحتذى. وذلك إنما يتمثل في إجماعهم، أو تراضيهم، أو أكثريتهم.

(١٤) الجامع لأحكام القرآن، ١٣/ ١٩٤.

(١٥) تفسير القرطبي، ١٣/ ١٩٥.

(١٦) أضواء البيان، تفسير القرآن بالقرآن، ٦/ ٥.

الخلافة الصُّكتية

د / إبراهيم شوقار
(محاضر بالجامعة الإسلامية بماليزيا)

الخليفة في الأحكام السلطانية أو السياسة الشرعية أو الإسلام السياسي- هو من يخلف الرسول عليه السلام في حراسة أحكام الدين ورعاية مصالح المسلمين. ولدينا من الخلافات الإسلامية- جمع خلافة لا خلاف بطبيعة الحال- الخلافة الراشدة، والخلافة الأموية، والخلافة العباسية، والخلافة الفاطمية. وثمة خلافات أخرى، نريد في هذا المقال أن نعرّف بواحدة منها، هي الخلافة الصكتية.

نشأت الخلافة الصكتية في إفريقيا جنوب الصحراء، في مدينة صكتو [١]، ولم تنشأ ككثير من الخلافات بجهود زعماء سياسيين، وإنما نشأت بجهود عالم من علماء الإسلام، هو الشيخ عثمان بن فودي، وكان عمادها كتابا ألفه الشيخ عثمان هو كتاب (بيان وجوب الهجرة على العباد) [٢].

وهو كتاب لا يناقش فكرة الهجرة بمفهومها السيئ، المرتبط بتكفير المجتمع والعزلة عنه في أطراف الحياة، وإنما يناقشها محرضا القارئ على المشاركة في تكوين مجتمع إسلامي، له القدرة على الحياة، وعلى مواجهة الخصوم. وقد نجح المؤلف في مسعاه، وأقام دولة إسلامية، هي الدولة الصكتية التي ازدهرت على مدى قرن كامل.

أما مؤلف الكتاب فهو الشيخ عثمان بن محمد بن عثمان بن صالح، المعروف بابن فودي، الفلاني نسبا، الهوسيّ موطنا، المالكي مذهبا، الأشعري عقيدة، عاش في الفترة من ١٧٥٤ إلى ١٨١٧م. أما مسرح حياته وتأثير كتابه فهو ما كان يعرف ببلاد السودان، وهي إفريقيا جنوب الصحراء، وتشمل نيجيريا والنيجر والكاميرون وعامة البلاد جنوب بلاد السودان الممتدة وسط إفريقيا. أما الدولة الصكتية فقد امتدت في بلاد الهوسا وشملت كل شمال نيجيريا وأجزاء من جنوبها، بالإضافة إلى رقعة واسعة من جمهوريتي النيجر والكاميرون الحاليتين، وتأسست الدولة الصكتية في ١٨٠٤م، وامتدت إلى ١٩٠٣.

وكانت وسيلة الشيخ عثمان في حشد المسلمين ودفعهم إلى الهجرة وإنشاء مجتمع إسلامي ودولة إسلامية، هي تبصير الأجيال الناشئة بمصادر طاقتهم الفكرية والروحية المشتركة، الكافية لبناء مستقبل إفريقي سياسي واقتصادي مزدهر.

وكان الإسلام قد أخذ طريقه إلى إفريقيا

(١) وهي عاصمة ولاية في شمال نيجيريا اليوم.

(٢) العنوان الكامل للكتاب هو (بيان وجوب الهجرة على العباد وبيان وجوب نصب الإمام وإقامة الجهاد).

مبكرا، فقد هاجر جماعة من أتباع الرسول إلى الحبشة قبل الهجرة إلى المدينة المنورة، ثم هيأ فتح مصر على يد عمرو بن العاص السبيل لانتشار الإسلام في شمال إفريقيا ووسطها وشرقها. حتى إنه يمكننا أن نقول: وُلد الإسلام في جزيرة العرب ولكنه ترعرع في إفريقيا [٣].

وقبل أن يصدع الشيخ عثمان بدعوته لجمع المسلمين وتأسيس الدولة الصكتية، كان المسلمون في وسط إفريقيا يعانون تفككا وانحدارا ويتطلعون إلى منتظر يقودهم إلى طريق العدل والوحدة والقوة، وهو الأمر الذي هيأ لعدد من الحركات الإصلاحية منها حركة الشيخ عثمان بن فودي وحركة الشيخ أحمدو لابو، وحركة الحاج عمر فوتي.

وقد مثل البعد الحضاري للإسلام زادا لكل الحركات الإصلاحية، فالقيم الإسلامية، وعلى رأسها المساواة بين الناس، وأنه لا فضل ولا تفاضل إلا بالتقوى، وهي القيمة التي تستند إلى نصوص إسلامية عديدة، منها قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾

(الحجرات: ١٣)

وكذلك النظام الأخلاقي والنظام التشريعي والشعائر الدينية، كلها تساعد على تقارب المسلمين وتعاونهم على البر والتقوى، وعلى تجاهل الفوارق الثقافية بين القبائل، أو الحد من تأثيرها الضار... لقد شكل الإسلام هوية ثقافية مشتركة لأفريقيا قبل وصول المستعمر إليها، وساهم في إنجاز أهم التحولات الاقتصادية والاجتماعيّة فيها.

وأسس الشيخ عثمان حركته ودولته على الإصلاح الاجتماعي والسياسي والتحرر من الجمود الفكري والعادات والتقاليد البالية التي التصقت بالإسلام، فدعا الشيخ إلى الوسطية والبعد عن الغلو والتعصب، وإلى إشاعة التعليم بصورة عامة، والاهتمام بتعليم المرأة، وتسيير قوافل الحج، والاهتمام ببناء الدولة على طراز النظم الحديثة من إنشاء الدواوين والوزارات وإقامة العدل بين الناس وتحقيق العدالة الاجتماعية، وتحقيق الاستقرار السياسي والانتعاش الاقتصادي، وتأمين التجارة، والقضاء على مظاهر التمييز العنصري، ونشر العلم [٤].

وكتاب (بيان وجوب الهجرة على العباد) ليس هو المؤلف الوحيد للشيخ عثمان بن فودي، فمؤلفات الشيخ تبلغ أكثر من مئة وخمسين مؤلفا بين كتاب ورسالة، ولكن كتاب (بيان وجوب الهجرة) هو أهمها وأشهرها، بل إنه من أهم الكتب الإسلامية التي أثرت في تاريخ إفريقيا، لأنه كتاب أسس لدولة استقرت قرنا كاملا.

وقد قسم المؤلف الكتاب إلى فصول عديدة، بلغت ثلاثة وستين فصلا، قصدا منه أو توافق عدد سنوات عمر النبي عليه السلام، ناقش فيه فكرة وجوب الهجرة، ووجوب نصب إمام للمسلمين، ووجوب التزام أحكام الحلال والحرام، وأحكام دار الكفر ودار الإسلام، وغير ذلك من الأحكام السلطانية.

(٣) مدثر عبد الرحيم، والتيجاني عبد القادر بحث (التفسير والسياسة في الشمال الإفريقي) ضمن مجموعة بحوث بعنوان (الإسلام في إفريقيا) دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ٢٠٠١م.

(٤) السر سيد أحمد العراقي: نظام الحكم في الخلافة الصكتية، مطبوعات جامعة الخرطوم، السودان، د.ت.

وناقش الشيخ في كتابه أيضا مسألة الفصل بين الديني والدنيوي، وهي مسألة وقع فيها خلاف منذ عصر الصحابة، واتهمت بسببه كثير من الحركات الإسلامية المعاصرة، باستغلال الدين لأغراض سياسية.

وناقش الشيخ المسائل المدروسة في كتابه، مناقشة سياسية تسعى إلى بيان ما يحقق مصالح المسلمين الدنيوية، ومناقشة دينية تعرض النصوص من الكتاب والحديث وسيرة النبي عليه السلام، وتبين ما أعده الله من ثواب وعقاب، لمن استجاب لتلك النصوص ومن أعرض عنها.

وبدأ الشيخ عثمان حركته الإصلاحية في مملكة غوبر، وكان يبث العلم في طلابه ويعظ العامة، ولم يكن يقصر مواعظه على الأمور الدينية الصرفة، وإنما كان يتناول مواضيع مختلفة، منها السياسي والاجتماعي والفكري والديني، وكان ينتقد الحكام والسلاطين في منطقته، بأن حكوماتهم مؤسسة على العرف والعادة، ولم تؤسس على الشرع الحنيف، وكان ينتقد العامة بأنهم يخلطون الإسلام ببعض المعتقدات الوثنية، ويجعلون للعادات قوة كقوة الشرع.

وتكونت نواة الدولة الصكتية من تلاميذ الشيخ عثمان، حين عرفوا بـ(الجماعة) أي جماعة الشيخ عثمان، وكان زيهم يختلف عن زي المجتمع حولهم، فكان الرجال منهم يضعون على رءوسهم عمامة، وكانت النسوة تضع الخمار على رءوسهن.

ولما لم يحتمل الحكام المحليون دعوة الشيخ عثمان، حكموا بإبعاده عن مقر دعوته، وهي قرية دغل في مملكة غوبر، فرفض الشيخ أن يخرج وحده، فخرج منها مع تلاميذه، وقصد موضعا في طرف المملكة يسمى (غدو)، وسرعان ما نجح الشيخ في إدارة مجتمع محلي متكامل، من تلاميذه رجالا ونساء، شبابا وشابات.

ثم توسعت دولة (غدو) وضمت مناطق شاسعة في المناطق التي كانت تعرف (ببلاد السودان) وهي ما يلي السودان في إفريقيا جهة الجنوب، ولا يمكن للباحث في خريطة الإسلام في إفريقيا جنوب السودان، إلا أن يذكر بالفضل جهود الشيخ عثمان، وهل أصبح الإسلام هو الدين السائد في شمال نيجيريا إلا من عصر الدولة الصكتية؟

لقد كانت بلدان في شمال إفريقيا تحت نير الاحتلال في نهاية القرن الثامن عشر، بينما كانت الدولة الصكتية توفر المنعة والاستقلال للمسلمين في (بلاد السودان) إلى أن عجزت الدولة الصكتية عن الصمود أمام الغزو الإنجليزي، فسقطت عام ١٩٠٣م، بعد أن اختلف قادة الخلافة الصكتية، في كيفية التصرف حيال الغزو، فالبعض دعا إلى الثبات والمقاومة، والبعض دعا إلى هجرة عكسية من دولة الصكتيين إلى الممالك الإسلامية الأكثر أمنا، والبعض دعا إلى مهادنة الإنجليز وموالاتهم في الظاهر حقنا لدماء المسلمين... نجد الموقف الأول في رسالة بعنوان (رسالة الوزير إلى أهل العلم والتدبر) للوزير محمد البخاري، ونجد الموقف الثاني في رسالة بعنوان (رسالة ونصيحة إلى المعاصرين) للقاضي عبد الله بن علي بن أحمد، ونجد الموقف الثالث في رسالة بعنوان (إرشاد الحيارى) لأبي بكر بن القاضي أحمد سعد.

سلام على مكة مهبط الوحي، وعلى المدينة المنورة نواة الدولة الإسلامية الأولى، وسلام على صكتو عاصمة الدولة الصكتية، وسلام على الشيخ عثمان بن فودي، مؤسس الدولة الصكتية، وسلام على كل من آمن وعمل صالحا.

من تراث الهلال

رائد الفكر العربى الحديث الإمام محمد عبده ورحلته مع التصوف

الأستاذ عاطف مصطفى

اهتم الهلال كغيره من المجلات الثقافية المتخصصة بإصدار أعداد خاصة، أو جزءاً خاصاً عن موضوع مهم، أو شخصية فكرية وأدبية ...

ونحن نتصفح هلال يونيه ١٩٨٥م نجده وقد خصص جزءًا عن التصوف بين فى مقدمته هذه الكلمات: «مازال التصوف منذ عرفه المسلمون يعلو صوته فى كل المناسبات الدينية، بعد أن عاش فى المجتمع الإسلامى من الأندلس إلى الهند مئات السنين، وأثر فى هذا المجتمع المترامى الأطراف، أثرًا لا يجادل أحد فى عمقه، ومازال الجدل دائرا حوله حتى اليوم...».

كان من بين موضوعات هذا الجزء مقال للأستاذ مصطفى نبيل رئيس تحرير الهلال عن الإمام محمد عبده ورحلته مع التصوف..

يقول الكاتب فى مقدمة مقاله: الإمام محمد عبده، أحد أبرز العقول العربية التى ظهرت فى الفكر العربى المعاصر، وأحد أعلام الإصلاح، ومازالت كتاباته تمثل إضافات مهمة فى حياتنا الثقافية، فهى تلح فى إعمال العقل واللحاق بالعصر.

وقد حدد الإمام رسالته فى أمرين: الدعوة إلى تحرير الفكر من قيد التقليد والتمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب، وما للشعب من حق العدالة على الحكومة، ومازالت القضايا التى طرحها حية ... قادرة على حسم الكثير من الجدل الذى يثور من وقت إلى آخر.

ورحلة الأستاذ الإمام مع الطرق الصوفية، رحلة غنية بالتجربة، وهى ذاتها رحلة الوجدان المصرى معها .. وهو

يدعو للتصوف بمعنى الزهد، ومجاهدة النفس، وكأسلوب أمثل في التربية، ويرفض في نفس الوقت شطحات الصوفية. والانسحاب من معركة الحياة، وتكشف رحلته أن البدايات ليست دائمًا مثل النهايات !

ظهور الصوفية كان على أرض مصر

والتصوف هو الحقيقة الكبرى في حياة مصر والعديد من دول الشرق وله آثار واضحة على كافة مجالات الحياة، وللطرق الصوفية مكان بارز في تاريخ ووجدان الشعب المصري، ويكفي أن تعرف أن أول ظهور للصوفية كان على أرض مصر حوالي ٢٠٠هـ - ٨٠٠م، كما ذكر الكندي ونقله المقريزي بقوله: «ظهرت في الإسكندرية طائفة يسمون الصوفية، يأمرون بالمعروف ويعارضون السلطان، وترأس عليهم رجل منهم، يقال له أبو عبد الرحمن الصوفي، وانتقل التصوف فيما بعد إلى بغداد».

إذن بدأ التصوف في مصر، هذا عن التاريخ أما عن الحاضر، فمازالت تتوزع مقامات الأولياء في كل ربوع قرى ونجوع مصر، وتمثل تلك المقامات نواة القرية التي يلتف حولها سائر السكان.

حياة خصبة

يواصل مصطفى نبيل: عاش الأستاذ الإمام حياة خصبة حافلة، استمرت سبعة وخمسين عامًا، قضى أولها في التعليم، ووسطها في بحر السياسة وآخرها في التعليم والإفتاء.

وتظهر التأثيرات العميقة للطرق الصوفية في المرحلة الأولى من حياته... فقد ولد عام ١٨٤٩م في أعماق الريف المصري، في قرية محلة نصر القريبة من طنطا، وفي رحاب السيد البدوي، وامتدت هذه المرحلة حتى لقائه في القاهرة بالسيد جمال الدين الأفغاني.

فعندما بلغ نحو الثالثة عشرة من عمره، أرسله أبوه إلى الجامع الأحمدي ثاني مركز ديني بعد الأزهر الشريف، إلا أنه سريعًا ما نفر من أسلوب التعليم الذي يقوم على الحفظ والتلقين دون الفهم والاستيعاب، فانصرف عنه، وعاد إلى قريته...

يحكي محمد عبده هذا الجانب من حياته في سيرته الذاتية، وكيف أعاده أحد المتصوفة إلى التعليم فيقول: «إن أحد أخوال أبي اسمه الشيخ درويش خضر، سبقت له أسفار إلى صحراء ليبيا، والذي يتبع الطريقة الشاذلية، ويحفظ الموطأ، ويشتغل بما يشتغل به الناس من فلاحة الأرض وكسب الرزق... جاءني الشيخ وبيده رسالة كتبها محمد المدني إلى بعض مريديه بخط مغربي دقيق وسألني أن أقرأ له لضعف بصره، وكانت الرسائل تحتوي على شيء من معارف الصوفية، وكثير من كلامهم في آداب النفس وترويضها على مكارم الأخلاق وتطهيرها من دنس الرذائل».

«ولم يأت عليَّ اليوم الخامس إلا وقد صار أبغض شيء إليَّ ما كنت أحبه من لعب ولهو وفخفخة وزهو، وعاد أحب شيء إليَّ ما كنت أبغضه من مطالعة وفهم، وكرهت صور أولئك الذين يدعونني إلى ما كنت أحب وفي اليوم السابع سألت الشيخ ما هي طريقتكم؟!.

فقال: طريقتنا الإسلام.. فقلت: «أو ليس كل هؤلاء الناس بمسلمين..؟!

فقال: «لو كانوا مسلمين لما رأيتهم يتنازعون على التافه من الأمر، ولما سمعتهم يحلفون بالله كاذبين بسبب وبغير سبب..

وعندما سألته: وردكم؟

قال: لا ورد لنا سوى القرآن، وإذا خلوت فاذكر الله على طريقة بينها لي، وأخذت أعمل بما قال.. ولم تمض بضعة أيام إلا وقد رأيتني أطير بنفسي في عالم آخر غير الذي كنت أعهده، واتسع لي ما كان ضيقًا، وصغر عندي من الدنيا ما كان كبيرًا، وعظم عندي من أمر العرفان والنزوع بالنفس، إلى جانب القدس ما كان صغيرًا، وتفرقت عني جميع الهموم، ولم يبق إلا هم واحد، وهو أن أكون كامل المعرفة».

ويستمر تأثير الشيخ على الفتى، ويعيده إلى الجامع الأحمدي للدراسة، وعندما ينتقل من الجامع الأحمدي إلى الأزهر يتم ذلك بتأثير الحس الصوفي، وها هو يروي في سيرته الذاتية:



رشيد رضا

«كنت أطالع بين الطلبة، فرأيت أمامي شخصًا يشبه أن يكون من أولئك الذين يسمونهم المجاذيب، فلما رفعت رأسي قال: ما أحلى حلوى مصر البيضاء، سألته وأين الحلوى التي معك؟

فقال: سبحان الله من جد وجد، فعددت ذلك إلهامًا ساقه الله ليحملني على طلب العلم في مصر دون طنطا، وذهبت إلى الأزهر مع محافظتي على العزلة والبعد عن الناس.. حتى كنت أستغفر الله إذا كلمت شخصًا كلمة لغير ضرورة!.

وكان التصوف هو درس الإمام المفضل في الأزهر... وكان موضوع أول كتاب نشر له، وعاش هذه الفترة حياة تقشف وزهد، حتى وصفه صاحب المنار السيد رشيد رضا بقوله: «إنه صادف تربية صوفية نقية، زهدته في الشهوات والجاه الدنيوي.

وكان التصوف عنده رياضة نفسية وفكرية، فالشيخ درويش هو الذي حضه على طلب العلم، وحرضه على القراءة في العلوم المختلفة.

اللقاء بالسيد جمال الدين الأفغانى

وعن المرحلة الثانية من حياة الإمام محمد عبده يقول مصطفى نبيل: تبدأ المرحلة الثانية من حياة الفتى عند لقائه بالسيد جمال الدين الأفغانى، والتى نقلته إلى مرحلة صاخبة من حياته، فعندما وصل السيد إلى القاهرة كان الفتى واقفًا بين طريق العزلة وطريق العمل مع الناس، بعد أن فقد شيخه الصوفى!

وكان اللقاء الثانى بين محمد عبده والسيد جمال الدين عند زيارته الثانية لمصر عام ١٨٧١م، بداية عمل مشترك فى الحياة العامة، وخروج الشيخ إلى العمل السياسى والثورى، بعد أن انتقل من التأمل بما يحيط الشرق من أخطار، واشتركا معا فى إثارة الهمم لمواجهة المؤامرات الاستعمارية، استعدادًا للغزو الزاحف، والذى يتم بمحاربة الاستبداد السياسى، وانتشال الشرق من أوضاع التخلف.

وانتقل محمد عبده إلى آفاق رحبة فى العمل العام، بعد تحوله من التصوف والتنسك إلى الفلسفة، ونقل عن الأفغانى قوله: الفيلسوف إن لبس الخشن وأطال المسبحة، ولزم المسجد فهو صوفى، وإن جلس فى قهوة متأنيًا وشرب الشيشة فهو فيلسوف وانضم الأفغانى ومحمد عبده إلى التنظيمات السرية القائمة فى مصر، والتحقا بالمحافل الماسونية على أمل أن توفر لهما أداة تنظيمية تساعدهما فى تحقيق أهدافهما، وخاب أملهما عندما تحققا من مهادنتها للاستبداد، وصلتها بالأجنبى، وأنشآ معًا الحزب الوطنى، الذى كان شعاره «مصر للمصريين». ونشط محمد عبده فى العمل بالصحافة والسياسة، لتجديد حياة الشرق والنهوض بالأمة.


الأفغانى

شخصية قلما يجود الزمان بمثلها

ويكاد يندر على مر التاريخ ظهور شخصية مثل محمد عبده، تجمع بين الفكر والعمل، وبين النظرية والتطبيق، وبين التصوف والتفلسف، وبين الدين والدنيا.

وكان يسابق الزمن ولديه شعور عميق بما يدبر لوطنه فى العواصم الاستعمارية، فى مرحلة المد الاستعمارى، وضعف الدولة العثمانية وسقوط دول الشرق واحدة وراء الأخرى، ويرى من حوله تزايد المؤامرات والمناورات، وكان غرق مصر فى الديون، هو الأداة الرئيسية لهذه المؤامرات.

وتنتهى هذه الفترة بالخسران، وتدفع محمد عبده إلى السجن والنفى، فبعد هزيمة العرابيين أمام قوات الاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢م، بعد انضمامه

إليهم، اتهم محمد عبده بأنه أفتى بوجوب قتل الخديو توفيق لخروجه على إجماع الأمة، وزج به فى السجن، رهن التحقيق، ولا شك أنها كانت فترة ثقيلة الوطأة عليه، وهو يجد نفسه مع اللصوص والأفاقين، ويمر بتجربة مريرة أخرى فى مواجهات مع رفاق النضال، وهو يعانى من انقلاب بعض الأصدقاء عليه خلال المحاكمة.

ويهيم على وجهه فى بلاد الله بعد نفيه، ويتنقل بين بيروت وباريس التى يلتحق فيها بالسيد جمال الدين فى أواخر عام ١٨٨٢م، ويستأنفان النضال معًا من جديد، ويصدران «العروة الوثقى» التى صدر منها ثمانية عشر عددًا، وهى تستنهض همم المسلمين، للكفاح ضد الغزو الأجنبى، ويسافر إلى العديد من بلاد الشرق، يدعو إلى الإصلاح ويمارس العمل التنظيمى السرى، حتى أنه دخل مصر سرًا ضمن العديد من البلدان فى مهام سرية وتنظيمية.

العودة من المنفى

يواصل مصطفى نبيل حديثه عن أحد أبرز رواد الفكر العربى الحديث فيقول: استمر محمد عبده فى المنفى سبع سنوات، سعى بعدها لدى أصدقائه فى مصر يطلب مساعدتهم على العودة، وألح سعد زغلول على الأميرة نازلى فاضل، كى تستخدم نفوذها عند اللورد كرومر الذى أمسك بخيوط الحياة السياسية لكى يتم العفو عنه، بعد تعهده بالابتعاد عن السياسة، والانصراف إلى شئون التربية والفكر والثقافة، ونجح كرومر فى إصدار العفو من الخديو توفيق وعاد محمد عبده إلى مصر عام ١٨٠٩م.

وبدأت المرحلة الثالثة من حياته، بعد أن انتهت المرحلة السابقة، وقد منى بالفشل والإحباط فبعد أن كان أول من حذر من خطر التدخل الأجنبى، وأول من نادى بالإصلاح، حتى يمكن مواجهة احتمالات الدخول العسكرى وجهًا لوجه أمام كل ما سعى لتجنبه وسبق وحذر منه.

وتحول من ثائر إلى مصلح يدعو إلى الإصلاح بالتدرج والرفق، ورأى أن هذا يحتاج إلى عمل طويل لبناء قيم جديدة، وظهور جيل قادر على تحقيق ما عجز عنه الجيل السابق، وعلى ضوء هذه الحاجة، نظر إلى كل قضية سياسية أو اجتماعية.

أما عن علاقة الأستاذ الإمام بالثائر جمال الدين الأفغانى فقد أصابها الوهن، وقد قيل إن محمد عبده هادئ رزين إذا كان وحده، أما مع جمال الدين فهو الثائر الداعى إلى الإنجاز السريع، فإذا افترقا عاد كل منهما إلى طبيعته.

وأدى موقف الأستاذ الإمام من السياسة والإنجليز إلى غضب جمال الدين فكتب إليه يقول: «كن فيلسوفًا ترى العالم ألعوبة ولاتكن صبيًا هلوعًا»

التصوف من أبرز اهتماماته

لذلك كان في هذه الفترة حربًا على البدع والخرافات، وانصرف إلى أمور التربية، وكان التصوف أحد اهتماماته وعالج في كتاباته الكثير من شئونه كما تناول عقائد العامة، التي يرى أنها ألفاظ لا تمت إلى الدين بسبب، فهي عند الجمهور عودة إلى العقائد الجبرية التي تذهب إلى أنه لا حرية ولا اختيار للإنسان فيما يفعل.

ويكتب محمد عبده مؤكدًا أن الأمة قد انحطت؛ لأن الذين حافظوا على عناصر الإيمان الجوهرية قد أخذوا يفقدون روح التوازن، ويتناسون الفرق بين الجوهري وغير الجوهري، وأخذوا ينظرون إلى تفاصيل المجتمع الإسلامي الأول، كما لو كانت من قواعد الإيمان، يقتضي لهم طاعتها، مما اعتبره نوعًا من التطرف في التمسك بظواهر الشريعة، ويحلل الكثير من الظواهر بقوله: «قد اشتبه على بعض الباحثين في تاريخ الإسلام، ما حدث فيه من البدع والحالات التي شوهت جماله، والسبب سقوط المسلمين في الجهل بدينهم، وبعدهم عن التوحيد الخالص، الذي هو أس النجاة، ومدار حجة الأعمال، وليس الأمر كما ظنوا فقد ظهر التصوف في القرون الأولى للإسلام، فكان له شأن عظيم، وكان المقصود منه تقويم الأخلاق وتهذيب النفوس وترويضها بأعمال الدين، وجذبها إليه، وجعله وجدانًا لها، وتعريفها بحكمه وأسراره بالتدريج.

وكان الفقهاء ينكرون عليهم معرفة أسرار الدين، ويرمونهم بالزيغ والإلحاد. وكانت السلطة للفقهاء لحاجة الأمراء والسلاطين إليهم، فاضطر الصوفية إخفاء أمرهم، ووضع الرموز والاصطلاحات الخاصة بهم، وعدم قبول أحد إلا بشروط واختبار طويل، وأن يكون أولاً طالبًا، فمريدًا، فسالكًا، وبعد السلوك، إما أن يصل، وإما أن ينقطع، وأخذ الأمراء بقول الفقهاء فيهم، فأولئك يكفرون وهؤلاء يعذبون ويقتلون، حتى إنه قتل في يوم واحد خمسمائة صوفي، وهذا هو سبب ظهورهم بغير مظهر طائفتهم، ولجوئهم إلى الاختفاء، وكلامهم في الطريق، وما يحصل لهم من الذوق والوجدان بالرمز والإشارة.

تربية المريدين بالعلم والعمل:

يواصل رئيس تحرير الهلال قائلاً: وقد لمس الأستاذ الإمام بمبضعه أهم الانتقادات التي توجه إلى الطرق الصوفية، وهو العزلة عن الحياة العامة، وقدم تحليله قائلاً: إن الفقهاء لبعدهم عن التصوف جهلوا سياسة وقتهم وحاله، ولجهلهم بالسياسة، لم يعرفوا كيف يمكن تنفيذ الأحكام الشرعية، وإذا عرفوا الحكم، لا يعرفون كيف يجعلون الأمراء والحكام يلتزمون هذا

الحكم وينفذونه، ولهذا ضاع الدين والسياسة. فاحتقرهم الأمراء والسلاطين في أنفسهم واستخدموهم لأغراضهم التي تؤيد سلطتهم ونفوذهم، وحملوهم على الفتوى بما يؤيد رغائبهم، ولا يوافق الشرع، فدققوا النظر واستنبطوا لهم ما يطلبون وأفتوهم بما يشاءون، وقررت فتاويهم في كتب الفقه على أنها أحكام شرعية.

نعم ظهر عن الصوفية كلام ما كان ينبغي أن يظهر ولا أن يكتب ومنه ما يوهم الحلول، ولو كنت سلطانًا لضربت عنق من يقول به.

وأنا لا أنكر أن لهم أذواقًا خاصة، وعلمًا وجدانيًا، بل ربما حصل شيء من ذلك وقتا ما، لكن هذا خاص بمن يحصل له، ولا يصح أن ينقله لغيره بالعبارة، ولا أن يكتبه ويدونه علمًا.

إن هذا يحصل للإنسان في حالة غير طبيعية، ولكونه خروجًا عن الحالة الطبيعية، لا ينبغي أن يخاطب به المتقيد بالنواميس الطبيعية، وكان غرض صوفية المسلمين تربية المريدين بالعلم والعمل، الذي غايته أن يكون الدين وجدانًا في أنفسهم، تصدر عنه الأعمال الصالحة ولا تؤثر فيه الشبهات العارضة.

يختم رئيس تحرير الهلال مقاله مؤكدًا على أن الأستاذ الإمام قد حافظ على طبيعة الصوفي الذي يستخف بالدنيا ولا يتهالك عليها، ورأى في التصوف أفضل أسلوب في التربية، فبالرياضة والمجاهدة وذكر الله يتحرر الإنسان وترتقي معارفه.



محمد عبده

ولا بد أن نتوقف عند قوله: «من يريد خيرًا للبلاد، فلا يسعى إلا في إتقان التربية، وبعد ذلك يأتي له جميع ما يطلبه.

ولعل ابتعاده عن السياسة وتوجهه نحو التربية والتعليم بعد عودته من المنفى من آثار تربيته الصوفية.

ولكن للإنصاف كان الأستاذ الإمام طوال حياته رائدًا للفكر العربي الحديث.. فقد ساهم في الاستنارة، ورفع شأن العقل، واستطاع دائمًا أن يتخطى الزمن، ولم يدع الزمن يتخطاه.. أما بعض الحركات الإسلامية، فكثيرًا ما تخطاها الزمن، وأصبح الكثير من مواقفها عقبة كأداء أمام التطور!!

إنها تأثيرات ما زالت باقية، وحان الوقت للتخلص منها.

ooo

فتاوى لها تاريخ

الدليل على وجود الله تعالى(١)



الشيخ/ رشيد رضا

● السؤال من: أحمد أفندي الألفي من ميت سمنود: ما هو الدليل العقلي على وجود الله سبحانه وتعالى الذي لا يمكن لمشكك أن يشتبه فيه؟

●● الجواب: إن الناس قد اشتبهوا في المشاهدات وغيرها من المحسوسات، وأنكر السوفسطائية منهم حقائق الأشياء وطفقوا يشككون الناس في ذلك قائلين: كيف نثق بما نراه، وقد ظهر لنا الغلط في بعضه ويجوز على بعض المتساوين ما جاز على الآخر. مثلا إننا نرى العود مستقيما خارج الماء ونراه معوجا في الماء، ونرى النجم صغيرا، وكلنا يعلم أنه كبير، ويذوق من يسمونه الصفراوي العسل مرًّا ويذوقه غيره حلوا، ويرى المحموم أو النائم أمامه أشياء كثيرة يقول من في حضرته إنها لا وجود لها.

فأمثال هؤلاء إذا كانوا يشكون أو يشككون في وجود الله تعالى لا ينفع معهم دليل ولا برهان. وأما طالب الحقيقة فهو الذي لا يشتبه في الحق إلا لعارض يصرفه عن الدليل. فإذا نبه إليه تنبه ورجع. ومن الناس من يسهل تنبيههم وهم أصحاب الأفكار المستقلة ومنهم من يتعذر أو يتعسر تنبيهه على حسب بعده من التقليد وقربه من استقلال الفكر. وفي المشتغلين بالعلم والفلسفة من المقلدين نحو ما في المشتغلين بعلم الدين. فإنّ أحدهم يسمع أو يقرأ أن فلانا الفيلسوف الذي يعجب به قال إنه لم يثبت عندي دليل على وجود الله تعالى، فيقول هذا المقلد له: لو كان هناك دليل قطعي لما خفي على ذلك الفيلسوف. ويكلف نفسه بأن تشك وترتاب أو تنكر وتفند كل دليل من هذا القبيل.

ذهب بعض العلماء والحكماء إلى أن معرفة الله تعالى فطرية في البشر لا حاجة بهم إلى إقامة الدليل عليها لولا ما أحدثته الاصطلاحات العلمية من البحث في الضروريات والبديهيات كعلم الإنسان وشعوره ووجدانه.

واستدلوا على ذلك بأن جميع أصناف البشر من أرقاهم كالأنبياء والحكماء إلى أدناهم كالقبائل الضاربين في مجاهل الأرض وأغفالها كلهم يعتقدون بقوة غيبية وراء الطبيعة، سواء منهم من تعلم شيئا

(١) المنار ج٧ (١٩٠٤) ص١٣٨.

من صفات ذي القوة وما يجب له من العبادة ومن لم يتعلم، وبأن المعطلين نفر قليل يعدون من الشواذ. ويحال شذوذهم على مرض عرض على هذا الشعور الفطري كما يعرض للإحساس بالحلاوة مرض يمنع من إدراكها، وكما يعرض لبعض مراكز المخ شيء يحول دون إدراك بعض المعلومات مع سلامة سائر المدارك، فقد ثبت أن بعض الناس نسي بعض أرقام الحساب فكان لا يحسن عملية حسابية هي فيها ويحسن غيرها. ومثل هذا كثير، فلا يقال إن من المعطلين من لا يشك أحد بسلامة عقولهم فإن من الناس من يضعف إدراكه لشيء واحد وإن كان قويا في غيره، ولم يعرف أحد قويت مداركه في كل فرع من أنواع الإدراك.

وذهب بعضهم إلى أن المسألة نظرية وأنه لا بد من إقامة البراهين على إثبات وجود الباري تعالى؛ لأن الأنبياء والحكماء قد استدلوا وأقاموا الحجج على ذلك. ونقول جميعا بين القولين إن المسألة فطرية في الحقيقة، وإن إقامة الأنبياء والحكماء الحجج عليها هي لإصلاح فطرة من عرضت لهم الشبه فيها، كما تعرض في غيرها من الأمور الفطرية والضرورية، ولإزالة غلط المعتقدين بتلك القوة الغيبية، أو بالله تعالى في بعض صفاته وفي نسبة المخلوقات إليه؛ إذ أشركوا وجعلوا له وسطاء وشفعاء كالملوك الظالمين؛ لذلك قال الله تعالى:

﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

(إبراهيم: ١٠)

فأشار أولا إلى أن الإيمان به أمر ثابت في الفطرة لا موضع للشك فيه. ثم ذكر بعض صنعه الدال على قدرته وانفراده بالتأثير والتدبير، وهو كونه فطر السموات والأرض، أي شق وفصل بعضها من بعض بعد أن كان الجميع مادة واحدة إلى آخر ما جاء في الآية.

وإنني وجدت أقرب الدلائل تنبيها وإقناعا لعقول المشتغلين بالعلوم العصرية، كما ثبت لي بالتجربة والمناظرات معهم هو أن جميع ما نعرفه من الموجودات حادث عندهم، حتى إنهم ليقدّرون للأرض والشمس والكواكب أعمارا لقطعهم بحدوثها، ثم إنهم قاطعون بأن الموجود لا يصدر عن نفسه ولا عن معدوم كما قال تعالى:

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾

(الطور: ٣٥)

فتعين أن يكون لهذه الموجودات كلها مصدر وجودي، ثم إنهم قاطعون بأن مصدر الكائنات والأصل الذي وجدت منه غير معروف في ذاته، وإنما يجب أن يكون موجودا ذا قوة. فالمادي منهم يقول المادة مع القوة هي أصل الموجودات كلها، فإذا سألته: ما هي المادة التي تعنيها، يقول: إن حقيقتها غير معروفة، فكأنه اختلف مع غيره في التسمية. واتفق الجميع على أن هذه الكائنات كلها قد صدرت عن موجود ذي قوة حقيقية غير معروفة الكنه، وهو ما عليه المسلمون، ولذلك قلنا في المنار: إن الفلاسفة الأوربيين الذين أنكروا إلههم ما أنكروا إلا إله الكنيسة، أي الإله الذي تصفه الكنيسة بصفات غير معقولة ككونه مركبا من ثلاثة أقانيم، وكون أحدها حل في أحشاء امرأة فأولدها إلها كاملا وإنسانا كاملا، إلى غير ذلك من الصفات التي لا يقبلها عقل.

هذا الاعتقاد هو الذي صرح به «سسل رود» الذي قالوا إنه كان غير مؤمن بالله، وهو الذي كان يعتقده «هكسلي» و«سبنسر» وغيرهم من الفلاسفة الذين نقل عنهم التعطيل.

﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾

(الأحزاب: ٤)

«فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ»

استفتاءات القراء

(الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين)

اطلعنا على الطلب المقدم من/ مجلة الأزهر - المتضمن لبعض الأسئلة وهي:

صلاة المسافر

● هل يجوز أن يصلي المسافر في وسيلة المواصلات مع ترك بعض الأركان كالقيام والركوع والسجود والقبلة؟

●● الجواب: أجمع الفقهاء على أنه يجوز للمسافر أن يصلي صلاة النافلة على الراحلة حيثما توجهت به، والدليل على ذلك قول الله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]

قال ابن عمر - رضي الله تعالى عنهما -: «نزلت في التطوع خاصة».

وقد عمم الجمهور ذلك في كل سفر، خلافًا للإمام مالك الذي اشترط كون السفر مما تقصر فيه الصلاة.

أما الصلاة المكتوبة فلا يجوز أن تصلى على الراحلة من غير عذر بالإجماع، فإن استطاع المكلف أداء الفريضة على الراحلة مستوفية لأركانها وشروطها - ولو بلا عذر - صحت صلاته عند الشافعية والحنابلة وعند المالكية في المعتمد عندهم. قال الحنابلة: وسواء أكانت الراحلة سائرة أم واقفة، لكن الشافعية قيدوا ذلك بما إذا كان في نحو هودج وهي واقفة، وإن لم تكن معقولة، أما لو كانت سائرة فلا يجوز؛ لأن سيرها منسوب إليه.

وقد عدَّ الفقهاء الأعذار التي تبيح الصلاة المفروضة على الراحلة: فمما ذكروه: الخوف على النفس أو المال من عدو أو سبع، أو خوف الانقطاع عن الرفقة، أو التأذي بالمطر والوحل، غير أن الشافعية أوجبوا عليه الإعادة؛ لأن هذا عذر نادر. وفي معنى ذلك: عدمُ القدرة على النزول من وسيلة المواصلات للصلاة المكتوبة مع فوات وقتها إذا لم يُصلّها المكلّفُ فيها.

وعلى ذلك فالمسافر في وسائل المواصلات - من سيارة وطائرة وقطار وغيرها - بين حالين: إما أن يكون متاحًا له في وسيلة المواصلات التي يسافر بها أن يصلي فيها قائمًا متجهًا إلى القبلة مستكملًا أركان الصلاة وشروطها، فالصلاة حينئذ صحيحة عند الجمهور بشرط أن تكون وسيلة السفر واقفة، وهي جائزة - أي الصلاة - عند الحنابلة مع كونها سائرة أيضًا، ولا مانع من الأخذ بقولهم عند الحاجة إليه إذا لم يمكن إيقاف وسيلة السفر.

وإما أن يكون ذلك غير متاح، كأن لا يكون فيها مكان للصلاة مستوفيةً لأركانها ولا حيلة للمكلف إلا أن يصلي قاعدًا على كرسيه مثلًا، وإذا انتظر حتى ينزل من وسيلة السفر فإن وقت الصلاة سينقضي أو سيفوته الركب، فإذا كانت الصلاة المكتوبة مما يُجمع مع ما قبلها أو مع ما بعدها فالأفضل له أن ينوي الجمع - تقديمًا أو تأخيرًا - ويصليها مع أختها المجموعة معها عند وصوله؛ عملًا بقول من أجاز ذلك من العلماء، أما إن كانت الصلاة مما لا يُجمع مع غيرها، أو كان وقت السفر يستغرق وقتي الصلاتين كليهما، فحينئذ يتحقق في شأنه العذر في الصلاة في وسيلة المواصلات على هيئته التي هو عليها، ولا حرج عليه في ذلك، ويُستحب له قضاء هذه الصلاة بعد ذلك؛ خروجًا من خلاف الشافعية في ذلك.

والله سبحانه وتعالى أعلم



يجيب عنها فضيلة الأستاذ الدكتور

شوقي علام

مفتي جمهورية مصر العربية

المسح على الجورب

● أمسح على ما يسمى بـ«الشراب»، فهل ينتقض الوضوء بمجرد خلع «الشراب»، أم يبقى حتى يحدث ما ينقضه؟

●● الجواب: من المنصوص عليه فقهًا أنه يجوز المسح على الشراب إذا ما تحقق فيه شرطان:

● أولًا: أن يكون ثخينًا يمنع وصول الماء إلى ما تحته.

● ثانيًا: ألا يكون شفافًا يرى ما تحته من القدمين. وهذا هو ما عليه جمهور الفقهاء.

ويرى بعض الفقهاء المتأخرين أنه يجوز المسح على الشراب مطلقًا.

ورأي جمهور الفقهاء وإن كان هو الأرجح، لكن المسألة تبقى خلافية غير مجمع عليها، ومن المقرر في فقه الخلاف أن لا إنكار في مختلف فيه، فمن كان في حالة اضطرار ولا يجد إلا أن يمسح على (الشراب) فلا حرج عليه أن يمسح ناويًا تقليد من أجاز، ولا يصح الإنكار عليه.

ويمسح المقيم يومًا وليلة والمسافر ثلاثة أيام بلياليها، وابتداء المدة من وقت الحدث بعد لبس الخف أو الشراب.

ومما يشترط لجواز المسح أن يلبس الخف أو الشراب الذي توفرت فيه الشروط على طهارة مائية تامة، هذا ومما يبطل به المسح نزع الشراب من الرجل أو انقضاء مدة المسح؛ فإذا نزع الشراب من الرجل وكانت مدة المسح المشار إليها سابقًا باقية انتقض المسح فقط دون الوضوء؛ بمعنى أنه يعاد غسل الرجلين فقط وذلك لسراية الحدث السابق إليهما، وذلك ما لم يحدث ما ينقض الوضوء.

والله سبحانه وتعالى أعلم

زكاة الأراضي الزراعية

● السؤال: زكاة الأراضي الزراعية هل تخرج بعد خصم المصاريف من أجر أيد عاملة وسماد، أم تخرج من الناتج يوم الحصاد وقبل دفع المصاريف؟

●● الجواب: اختلف العلماء في خصم التكاليف والديون من الزرع المُزكَّى قبل إخراج زكاته، فمنهم مَن قال بخصم ديون تكاليف الزرع دون غيرها من الديون، ومنهم مَن أجاز خصم جميع الديون، ومنهم مَن جعل إخراج الزكاة قبل خصم الديون مطلقًا، وهذا الرأي الأخير هو الأنسب بتفريق الشرع بين ما سقي بكلفة وما سقي بغير كلفة؛ حيث أوجب في الأول نصف العشر، وفي الثاني العشر كله؛ اعتبارًا للتكاليف، ولو كانت الديون تُخصَم من الزكاة لأغنى ذلك عن هذا التفريق، كما أن هذا الرأي هو الأوفق لحاجة الفقراء والمساكين.

يقول الإمام الكمال بن الهُمَام الحنفي في «فتح القدير ٢/ ٢٥٠- ٢٥١»: «قال -أي صاحب الهداية-: «وكل شيء أخرجته الأرض مما فيه العشر لا يُحتَسب فيه أجر العمال ونفقة البقر؛ لأن النبي - ﷺ - حكم بتفاوت الواجب لتفاوت المؤنة فلا معنى لرفعها». «قوله: مما فيه العشر» الأَوْلى أن يقول: مما فيه العشر أو نصفه؛ كي لا يظن أن ذلك قيد معتبر. «قوله: لا يُحتَسب فيه أجر العمال ونفقة البقر» وكري الأنهار وأجرة الحارس وغير ذلك، يعني لا يقال بعدم وجوب العشر في قدر الخارج الذي بمقابلة المؤنة، بل يجب العشر في الكل، ومن الناس من قال: يجب النظر إلى قدر قيم المؤنة، فيسلم له بلا عشر ثم يعشر الباقي؛ لأن قدر المؤنة بمنزلة السالم بعوض كأنه اشتراه، ألا يرى أن من زرع في أرض مغصوبة سلم له قدر ما غرم من نقصان الأرض وطاب له كأنه اشتراه. ولنا: ما تقدم من قوله عليه الصلاة والسلام: «فيما سقي سيحا... إلخ»، حكم بتفاوت الواجب لتفاوت المؤنة، فلو رفعت المؤنة كان الواجب واحدًا وهو العشر دائمًا في الباقي؛ لأنه لم ينزل إلى نصفه إلا للمؤنة، والفرض أن الباقي بعد رفع قدر المؤنة لا مؤنة فيه، فكان الواجب دائما العشر، لكن الواجب قد تفاوت شرعا مرة العشر ومرة نصفه بسبب المؤنة، فعلمنا أنه لم يعتبر شرعا عدم عشر بعض الخارج -وهو القدر المساوي للمؤنة- أصلا». اهـ.

وبناء على ذلك: فإن الأصل أن تكاليف الزرع لا تُخصَم من المحصول قبل إخراج الزكاة، إلا إذا كانت نفقات زرع المحصول مساوية للناتج أو أكثر منه، فحينئذ يجوز له أن يأخذ بقول من يجيز خصم تكاليف الزرع قبل إخراج الزكاة.

والله سبحانه وتعالى أعلم.

القتل الخطأ

● السؤال: ما هي دية القتل الخطأ في حادث بالطريق السريع؟ وهل يعد التأمين الإجباري من الدية؟ وهل تجزئ مصاريف العلاج للمصاب

قبل موته بسبب الحادث عن الدية أم يتحملهما جميعا؟ وهل على من رفض دفع الدية من العاقلة إثم؟

●● الجواب: الدية شرعا هي المال الواجب في النفس أو فيما دونها، والأصل في وجوبها قوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا﴾ [النساء: ٩٢].

وقد بينتها السنة المطهرة فيما رواه النسائي عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن جده «أن رسول الله - ﷺ - قد كتب كتابا إلى أهل اليمن جاء فيه: أن من اعتبط مؤمنا قتلا عن بينة فإنه قود إلا أن يرضى أولياء المقتول، وأن في النفس الدية -مائة من الإبل-... إلى أن قال - ﷺ -: وأن الرجل يُقتل بالمرأة، وعلى أهل الذهب ألف دينار».

وقد أجمعت الأمة على وجوبها، والدية الواجبة شرعا في القتل الخطأ هي ألف دينار من الذهب، أو اثنا عشر ألف درهم من الفضة، وعلى الأخير الفتوى في عصرنا وبلدنا، ودرهم الفضة عند الجمهور جرامان وتسعمائة وخمسة وسبعون جزءا من الألف من الجرام، فيكون جملة ما هنالك خمسة وثلاثين كيلوجراما وسبعمائة جرام من الفضة، تُعطى لأهل القتيل أو تُقوَّم بسعر السوق، وتدفع لهم طبقا ليوم ثبوت الحق رضاء أو قضاء، وتتحملها عاقلة القاتل -أي عصبته- وتُدفَع مقسطة فيما لا يزيد عن ثلاث سنوات، إلا إذا شاءت العاقلة دفعها مُنْجزة، فإن لم تستطع فالقاتل، ومن كان مستطيعا فلم يدفع يأثم بذلك، وتبقى ذمته مشغولة به حتى يتم دفعه أو يعفو ورثة المقتول، فإن لم يستطيعوا جميعا فيجوز أخذ الدية من غيرهم، ولو من الزكاة.

ودية الأنثى على النصف من دية الذكر: أي سبعة عشر كيلوجراما وثمانمائة وخمسون جراما من الفضة أو قيمتها.

والتصالح في أمر الدية بالعفو أو بقبول قيمة أقل أمر مشروع بنص القرآن الكريم، وقد فرض الشارع الحكيم لأهل القتيل التنازل عن الدية أو عن بعضها تخفيفا عن القاتل إن لم يتيسر دفعها أصلا أو دفعها كلها، ولا فرق في الدية بين أن يكون القاتل كبيرا أو صغيرا أو رجلا أو امرأة؛ لأن القتل متحقق في كل الأحوال. وقبول الدية جائز شرعا؛ لأنها حق لأهل القتيل فلهم قبولها أو التنازل عنها أو التصالح على جزء منها؛ يقول الله سبحانه:

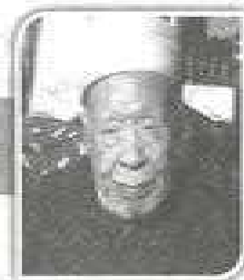
﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٧٨].

والتأمين المُعطى في مثل هذه الحالات يكون بمثابة جزء من الدية، ولا يجزئ مصاريف العلاج قبل الموت عن الدية ولا تُخصَم منه، فيتم تحملهما جميعا؛ وأما الدية فعلى العاقلة على ما تم توضيحه.

هذا بحسب الوارد إلينا بالسؤال؛ أي أنه بافتراض أنه ليس هناك تعمد من القاتل أو تربص منه بالقتيل، وعلى افتراض أنه لم يكن مرتكبا لخطأ جسيم؛ ككونه يقود مركبته بسرعة كبيرة فوق المسموح به مروريا؛ وإلا فإن الأمر يلزم منه تدخل السلطة القضائية للحكم عليه ولورثة القتيل بما يكون مناسبا لكل حالة.

والله سبحانه وتعالى أعلم

رمضان لم يمضِ



الشيخ معوض عوض إبراهيم

البقاء الأزلي والدوام السرمدي لله عز وجل وحده، فهو تعالى كما قال:

﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

(الحديد: ٣)

فهو تعالى الأول فلا شيء قبله، والآخر فلا شيء بعده، والظاهر فلا شيء فوقه، والباطن فلا شيء دونه، وله وحده الخلق والأمر، يحيي ويميت، وتمضي مشيئته جل وجهه وعظم سلطانه في كل ذلك دون منازع ولا شريك. والأيام والليالي تتابع في مضي لا ينقطع حتى تنتهي الحياة. وهو تعالى كما تحدث عن نفسه:

﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾

(البقرة: ٢٥٥).

والزمان والمكان من أقداره وقضائه الرحيم سبحانه وتعالى، وقد جعل الأسابيع والشهور تؤلف العام، وهو تعالى يقول:

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾

(التوبة: ٣٦)

وهي على ما عرفنا تبدأ بشهر الله المحرم وتنتهي بشهر ذي الحجة، وفي شهر ذي الحجة تبدأ الفريضة الخاتمة، وقد تمتد بعض أيامها إلى العشر الأُول من شهر الله المحرم، ومن خلالها تعرف شهر مولد النبي عليه الصلاة والسلام. والأشهر الحرم التي تبدأ بشهر رجب الفرد ثم تقفوه بعد ذلك بشهور ذي القعدة وذي الحجة والمحرم.

وقد أورد الإمام ابن عطية حديث رسول الله ﷺ الذي أخرجه البخاري ومسلم وهو قوله صلوات الله عليه: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهرا، منها أربعة حرم: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان».

وتتألق في الأفكار وتتردد إلى آخر الزمان من رجب آيتان من آيات الله عز وجل فيهما تكريم وتعليم وإعزاز لقدر النبي عليه الصلاة والسلام بحادث الإسراء ومفرداته وحادث المعراج الذي فرض الله فيه على

محمد وأمته الصلاة عماد الدين، من أقامها فقد أقام الدين، ومن تركها فقد هدم دين نفسه، والعياذ بالله تعالى. ثم ترانا نردد ما كان يستقبل به النبي ﷺ هلال رجب وشعبان ورمضان، وهو يقول صلوات الله عليه: «اللهم بارك لنا في رجب وشعبان، وبلغنا رمضان». ورمضان شهر فريضة الصوم، وفيه ليلة القدر، التي يقول الله تعالى فيها:

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾

(القدر: ١)

إنه الشهر الذي نادى الله فيه المؤمنين بأنه كتب عليهم الصوم بعامة كما كتبه على الأمم السابقة لتتأهل به إلى كرامة تقوى الله وحده، بقوله تعالى:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾

(البقرة: ١٨٥)

وروي عن الحسن البصري مرسلا: رجب شهر الله، وشعبان شهري، ورمضان شهر أمتي.

وهو شهر الأمة الوارثة، يقول الله فيه في الحديث القدسي: الصوم لي وأنا أجزي به، وكل العبادات لله عز وجل:

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾

(الإسراء: ٤٤)

يمضي كل شهر حتى تراه في عام قابل، ورمضان لا يمضي إلا في دورة من دورات الزمن، فنحن بعده نقيم الصلاة، ونحن بعده نصوم أياما سنها النبي عليه الصلاة والسلام، ونصومها قضاء عن أيام أفطرناها في رمضان لسفر أو مرض أو لعمل شاق لا بد منه لتبليغ الحياة كمالها الممكن، ونحن بعد رمضان نأخذ أنفسنا بما قال صلوات الله وسلامه عليه: «فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يفسق، وإن سبه أحد أو شاتمه فليقل: إني صائم إني صائم» مستحضرا أن الله بكل شيء محيط، وهو السميع البصير العليم الخبير وإلا فلا نصيب بقولنا (إني صائم) شيئا يرضاه الله.

ورمضان باق، وكيف يمضي ونحن في أيامنا ولياليها نقرأ القرآن وهو الكتاب الباقي على أرض الله مهيمنا على ما جاء به إنجيل عيسى وتوراة موسى وزبور داود وصحف إبراهيم عليهم جميعا صلاة الله وسلامه.

وقد صح قول رسول الله ﷺ: «إن من البيان لسحرا، وإن من الشعر لحكمة»[1]

وقد قالوا وصدقوا:

إذا ما المرء صام عن الدنايا
فكل شهوره شهر الصيام

فنحن بالصوم عن الدنايا نحيا رمضان في كل زمان وأوان، ويوم قالوا للرسول الله ﷺ: إن فلانة تصوم الشهر وتصلي الفرض ولكنها لا يسلم الناس من لسانها، قال لهم صلوات الله عليه: «لا حاجة لله في صيامها وصلاتها».

فالله عز وجل لا يقبل من الأعمال ولا الأقوال إلا ما كان لله عز وجل فيه رضا،

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة بنحوه.

وكان يمنًا وأمنا وسلامة لأعراض الناس وأموالهم ودمائهم، فالمسلم الحق من سلم المسلمون من لسانه ويده، بل من سلم الناس من لسانه ويده أبرارا كانوا أو فجارا ومسلمين كانوا أو كفارا، ما دمنا نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر، والله تعالى يقول:

﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾

(البقرة: ٨٣)

قالها الله عز وجل لبني إسرائيل، وكل ما قيل بحق وعدل وإحسان تودي إليه وأمر الله عز وجل به المسلمين خيرته من عباده وصفوته من خلقه، وليس وراء قول الله قول ولا وراء بيانه بيان، وهو تعالى يقول:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾

(آل عمران: ١١٠)

وتلك شهادة على خيرية هذه الأمة.

ونحن نقرأ في صدر سورة البقرة:

﴿الم ۝١ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

(البقرة: ١-٥)

والمفلحون يجلوهم الله في صدر سورة «المؤمنون» حيث يقول:

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝٨ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

(المؤمنون: ١-١١)

تلك أنسام رمضان وسماته الوضيئة، نغدو بها ونروح ونصبح ونمسي، ومعنا من الله ظهير، ولنا منه عونه ونصره الذي يؤنس الأرواح ويشعشع الأفئدة من ذكريات غزوة بدر التي نصر الله فيها القلة المؤمنة على الكثرة الباغية، وتثمر فينا بركات هذه الغزوة يقينا بأن كنانة الله في أرضه ظاهرة قاهرة بكل من يكيد لها ويمكر بها ويقول بالباطل عن أزهر مصر بل عن أزهر الأمة الإسلامية، ويلقي التراب في وجوه الذين يقولون في الأبرار الصالحين والدعاة إلى الله عز وجل في إصرار ويقين بما يرتد إليهم هوانا وخسرانا. وطوبى لمن عرفوا الله عز وجل ربا واحدا أحدا فردا صمدا لا صاحبة له ولا ولد ولا شريك ولا شبيه، وعرفوا الحق فالتزموه وحذروا المبطلين من عقبى منكر القول وزور الحديث؛ حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، وليّ من اتقاه، ونصير من استعان به واستهداه، وهو سبحانه نعم المولى ونعم النصير.

شرع من قبلنا هل هو شرع لنا؟

د/ أحمد عرفة

شرع الله لعباده كذا، دعاهم إلى فعله أو دعاهم إلى تركه، فأصبح ذلك الأمر مأتيا بعد أن كانوا لا يفعلونه، أو متروكا بعد أن كان مأتيا. هذا أحد الأمور التي بيناها في مقال سابق. ونحاول في هذا المقال أن نجيب عن هذا السؤال: هل شرعُ مَن قبلنا شرعٌ لنا؟ وفي الكتاب العزيز ثلاث آيات تتضمن كلمة (شرَع) و(شريعة) و(شرعة)، سوف ندرسها في هذا المقال لنأخذ منها الجواب، هي:

الآية ١٣ من سورة الشورى، وفيها:

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ﴾

والجاثية ١٨، وفيها:

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾

والمائدة ٤٨، وفيها:

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾

وهذا نص الآية الأولى:

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾

الشورى ١٣.

والذي شرعه الله لنا وفقا لهذه الآية هو

﴿مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾

وفي مقال سابق بيّنا أن قوله:

﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾

ليس تفسيرا لقوله:

﴿مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا﴾

وإنما هي جملة جديدة متعلقة بما قبلها، و(أنْ) فيها هي أداة التعليق أو الربط، ومعنى هذه الجملة: وقلنا لكم: أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه.

وما شرعه الله لنا وفقا لهذه الآية هو مجموع أمرين؛ الأول منهما ما وصى به نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، والثاني منهما ما أوحاه الله إلى رسوله محمد عليه السلام. فما الفرق بين (وصى) و(أوحى)؟

قال أحمد بن فارس: «الْوَاوُ وَالْحَاءُ وَالْحَرْفُ الْمُعْتَلُّ: أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى إِلْقَاءِ عِلْمٍ فِي إِخْفَاءٍ أَوْ غَيْرِهِ إِلَى غَيْرِكَ. فَالْوَحْيُ: الْإِشَارَةُ.

وَالْوَحْيُ: الْكِتَابُ وَالرِّسَالَةُ. وَكُلُّ مَا أَلْقَيْتَهُ إِلَى غَيْرِكَ حَتَّى عَلِمَهُ فَهُوَ وَحْيٌ كَيْفَ كَانَ. وَأَوْحَى اللهُ تَعَالَى وَوَحَى... وَكُلُّ مَا فِي بَابِ الْوَحْيِ فَرَاجِعٌ إِلَى هَذَا الْأَصْلِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ. وَالْوَحِيُّ: السَّرِيعُ. وَالْوَحَى: الصَّوْتُ. وَاللهُ أَعْلَمُ»[١].

وأرى أن الوحي إعلام الغير بأمر ما بطريقة خفية. هذا عن معنى كلمة الوحي، وبه نعلم أن كل ما تتضمنه النصوص التي أوحى بها الله إلى رسوله محمد عليه السلام، من أمر ونهي وتوجيه هي ما شرعه الله لنا، سواءً تعلقت هذه النصوص بالاعتقاد أم تعلقت بالعمل، وسواء تعلق العمل فيها بالشعائر، أم تعلق بالمعاملات والأخلاق.

وأما (وصى) فيقول عنها ابن فارس: «الْوَاوُ وَالصَّادُ وَالْحَرْفُ الْمُعْتَلُّ: أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى وَصْلِ شَيْءٍ بِشَيْءٍ. وَوَصَيْتُ الشَّيْءَ: وَصَلْتُهُ. وَيُقَالُ: وَطِئْنَا أَرْضًا وَاصِيَةً، أَيْ إِنَّ نَبْتَهَا مُتَّصِلٌ قَدِ امْتَلَأَتْ مِنْهُ. وَوَصَيْتُ اللَّيْلَةَ بِالْيَوْمِ: وَصَلْتُهَا، وَذَلِكَ فِي عَمَلٍ تَعْمَلُهُ. وَالْوَصِيَّةُ مِنْ هَذَا الْقِيَاسِ، كَأَنَّهُ كَلَامٌ يُوصَى أَيْ يُوصَلُ. يُقَالُ: وَصَّيْتُهُ تَوْصِيَةً، وَأَوْصَيْتُهُ إِيصَاءً»[٢].

وأرى أن الوصية طلبٌ بمواصلة الفعل أو الترك لأمر بالغ الأهمية. وبهذا نفهم أن كل الأمور التي وصى الله بها رسله السابقين على محمد عليه السلام، خاصة من ورد ذكرهم في الآية- هي أمور قد شرعها الله لنا، لأنها بطبيعتها أمور بالغة الأهمية، وبناء عليه فإننا نتوقع أن تكون الوصايا هي عبادة الله وحده، وتقوى الله، والإحسان إلى الوالدين، ونحو ذلك كالصدق والعدل والصبر والشكر والإحسان.

وقد جاء في الذكر الحكيم أن الله وصى أتباع الرسل أجمعين بتقوى الله، في قوله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾

(النساء: ١٣١)

وجاء فيه أنه تعالى وصى الإنسان بولديه، في قوله تعالى:

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

(العنكبوت: ٨)

ومن الجمل التي تكررت في القرآن على ألسنة الرسل يخاطبون بها أقوامهم:

﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾

(المؤمنون: ٣٢)

ولا داعي للإطالة بعرض مزيد من النصوص.

وهذا نص الآية الثانية في سياقها:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى

١) مقاييس اللغة: مادة الواو والحاء وحرف العلة.
٢) مقاييس اللغة: مادة الواو والصاد والحرف المعتل.

الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾

(الجاثية من ١٦ إلى ١٩)

ويدل السياق على أن (ثُم) في قوله:

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾

تعني: وبعد فترة من إتيان بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة وتفضيلهم على العالمين، واختلافهم فيما آتيناهم بسبب البغي بينهم. والأمر في قوله:

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾

هو رضوان الله تعالى. والشريعة في هذا السياق: طريق مبتدأة تفضي إلى رضوان الله تعالى. فما كل دين إلا طريقا أو طريقة لنيل رضوان الله، على سبيل الحقيقة إذا كان هذا الدين من عند الله، وعلى سبيل الادعاء فقط إذا لم يكن دينا سماويا. وقوله:

﴿فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾

تحذير للرسول عليه السلام من اتباع طريق آخر غير الطريق الذي جعله الله عليه. ولا شك أن كل ما أوحاه الله إلى رسوله، يشكل هذه السبيل أو الشريعة، الموصلة إلى رضوان الله تعالى.

ومما فُسرتْ به كلمة (شريعة) في هذه الآية في كتب التفسير: طريقة[٣]، وسنة[٤]، ومنهاج[٥]، والفرائض والحدود والأمر والنهي[٦]، وهي تفسيرات قاصرة وإن كانت قريبة؛ لأن مادة الشين والراء والعين لا تنفك عن بدء يعقبه التمادي، فلا تكون الشريعة في المجال الديني، إلا طريقا جديدا يفضي إلى رضوان الله.

وما دام الرسول قد نهاه ربه عن اتخاذ شريعة غير التي جعله الله عليها، وما دام هذا النهي قد أتى في سياق ذكر شرائع بني إسرائيل، وإعلان أنها من الله، فلا يكون شيء من شرائع بني إسرائيل أو غيرهم شرعا لنا، إلا ما كان أمرا مشتركا لأهميته البالغة، نحو تقوى الله، وإفراده بالعبادة، والإحسان إلى الوالدين. أما أن نستعير من شريعتهم، ليصبح شرعا لنا، فلا سبيل إليه.

فالنص الكريم لا يسمح بهذه الاستعارة أبدا، إنه يبدأ ببيان مكانة بني إسرائيل، فيعلن أن الله قد آتاهم الكتاب والحكم والنبوة، وأن الله فضّلهم على العالمين، فيقول:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا

٣) انظر: الطبري: جامع البيان: ٢٢/ ٧٠، والبيضاوي: تفسير البيضاوي: ٥/ ١٠٧، وأبو السعود: إرشاد العقل السليم: ٨/ ٧١.
٤) انظر: الطبري: جامع البيان: ٢٢/ ٧٠، والسمرقندي: بحر العلوم: ٣/ ٢٧٨، وأبو السعود: إرشاد العقل السليم: ٨/ ٧١.
٥) انظر: جامع البيان: ٢٢/ ٧٠.
٦) انظر: ابن عطية: المحرر الوجيز: ٥/ ٨٤.

﴿...ٱخۡتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾

ثم يختم ببيان مكانة محمد عليه السلام، فيعلن أن الله جعله على شريعة من هذا الأمر، أي على طريق جديد يؤدي إلى رضوان الله واستحقاق الأفضلية على العالمين، فيقول لرسوله:

﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨ إِنَّهُمۡ لَن يُغۡنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾

فكأنه يقول: الحذر الحذر من أن تتبع الشريعة التي جعلتها لهؤلاء لأنها كانت مني، أو لأني فضلتهم على العالمين... الزم الشريعة التي جعلتك عليها، لا تحد عنها ولا تخلطها بغيرها.

وهذا نص الآية الثالثة:

﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾

(المائدة ٤٨)

والآية توجيه للرسول عليه السلام، بشأن خصومة رفعها إليه أهل الكتاب، أن يحكم فيها إذا حكم، لأنه خُيِّر أن يحكم أو يعرض، بما أنزل الله إليهم في هذا الشأن، وألا يتبع أهواءهم، وهواهم في هذا الموقف أن يحكم الرسول بما شرع الله لأمته، لأنه حكم مخفف، فيفلت الجاني من الحكم المشدد، ويعلل النص هذا التوجيه بأن لكل أمة شرعة ومنهاجا. والذي يعنينا هنا هو هذا التعليل الواضح لعدم الحكم في تلك الخصومة بما أنزل الله إلى محمد. وإذا كان الله قد جعل لكل أمة شرعة ومنهاجا خاصا بها، فلا تكون شريعة أمة شريعة لأمة أخرى، فلا تكون شريعتنا شريعة لهم، ولا شريعتهم شريعة لنا.

والذي يتردد في كتب التفسير عن قوله:

﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ﴾

أن معناه: «إذا كان هذا شأن القرآن ومنزلته مما قبله، وهو أنه قائم بأمر الدين بعدها، ورقيب وشهيد عليها، فاحكم بين أهل الكتاب بما أنزل الله إليك من الأحكام والحدود، دون ما أنزله إليهم، لأن شرعك ناسخ لشرائعهم:

﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ﴾

أي ولا تتبع ما يهوَوْن»[٧].

وفي هذا الكلام نظر؛ لأن (هم) في قوله ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم﴾ مراد بها أهل الكتاب، وشأن أهل الكتاب أن يحتكموا فيما بينهم إلى شريعتهم، فإذا جاءوا إلى الرسول ليحكم بينهم، فقد جاءوا لغرض في أنفسهم، هو أن يحكم بينهم بالعقوبة المقررة في دينه، ولو كانوا باحتكامهم إليه إنما يطلبون الحق فلا شيء يمنعهم من الإيمان به ليكونوا على الحق الخالص الذي لا يداخله باطل، ولكنهم احتكموا إليه اتباعا للهوى ولإحراجه عليه السلام، أما الهوى فليحكم بالعقوبة المقررة في دينه وهي عقوبة مخففة، فيفلت الجاني من العقوبة المقررة عندهم وهي عقوبة مشددة، وفي هذا رعاية لمصالح دنيوية بينهم وبين ذلك الجاني على حساب شريعتهم وعلى حساب حقوق المجني عليه، وأما الإحراج فلأنه عليه السلام إما أن يحكم في الخصومة بالعقوبة المقررة في دينه، فيكون قد حكم وفقا لهواهم، وإما أن يحكم بالعقوبة المقررة في دينهم وهي العقوبة الأشد، وحينئذ يشنعون عليه قائلين إنه بهذا الحكم قد اعترف بأن شريعتهم هي الحق، وإذا لم يكن هذا اعترافا منه فقد حكم بالباطل، وإما أن يعرض ولا يحكم فيشنعون عليه بأنه قد تحيَّر وعجز أن يحكم، فلا هو بنبي يوحى إليه ولا هو بزعيم يتحمل المسئولية وينهض بها.

من أجل ذلك طال النص في معالجة هذه الأزمة؛ وبدأ بمواساة الرسول والتخفيف عنه، ذلك أن كل الاحتمالات لا تخلو من مخاطرة ليست هينة، وثنَّى بفضح اليهود وكشف حقيقتهم، وثلَّث بتخيير الرسول أن يحكم بينهم أو أن يعرض عنهم، وربَّع بأنه يجب على أهل الكتاب أن يحكموا فيهم التوراة والإنجيل، وخمَّس بتوجيه الرسول إلى الحكم الذي يحكم به إذا حكم بينهم، وهو أن يحكم بشريعتهم، وحذره من اتباع أهوائهم؛ وسدَّس بالدفاع عن الحكم قبل أن يبدأ الخصوم هجومهم عليه، فقال إن لكل أمة شريعة، وأنتم أهل كتاب فلا يصح لمحمد أن يحكم فيكم بشريعته، وسبَّع بأنهم إذا لم يقبلوا حكمه فإن حقيقة حالهم أنهم لا يبغون إلا حكم الجاهلية، حيث يكون الحكم عنوانا للجور والظلم وفساد الذمم. نجد ذلك في الآيات من ٤١ إلى ٥٠ من سورة المائدة. ولعلنا نخصص مقالا لبسط القول في معانيها.

والتصور العام الذي ذهبنا إليه، فيما وجَّه الله به رسوله أن يحكم في تلك الواقعة بشريعة اليهود- حاضر في تفسير ابن أبي حاتم المتوفى ٣٢٧هـ، إذ يروي في تفسير الآية أثرا يقول إن «اليهود [كانوا] إن زنى منهم ثيب حقير رجموه، وإن زنى منهم شريف حمَّموه ثم طافوا به[٨]، ثم استفتوا محمدا صلى الله عليه وسلم ليفتيهم، [في واقعة زنى]، فأفتاهم فيه بالرجم، فأنكروا، فأمرهم أن يدعوا أحبارهم [و] رهبانهم، فناشدهم بالله: تجدون في التوراة الرجم؟[٩]، فكتموه، إلا رجلا من أصاغرهم، أعتر فقال: كذبوك يا رسول الله، إنه في التوراة»[١٠].

ولكننا نميل إلى أن تلك الواقعة لم تكن

٧) محمد رشيد المنار ٦/ ٣٤١.

٨) كتبت بالألف في الموضعين، والصواب أن تكتب بالياء، لأن الفعل يائي.
٩) في الأصل [تجدونه].
١٠) تفسير ابن أبي حاتم ٤/ ١١٣٦.

واقعة زنى، لأن النص الكريم حين بيّن أن على أهل التوراة أن يحكموا بما فيها، ذكر بعض العقوبات الواردة فيها، ولم يذكر منها عقوبة الزنى.

ومن المعاني التي فُسّر بها قوله:

﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ﴾

هذا المعنى الذي ذهبنا إليه، ومن ذلك قول الشيخ ابن عاشور في التحرير والتنوير: «وقوله:

﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ﴾

أي بما أنزل الله إليك في القرآن، أو بما أوحاه إليك، أو احكم بينهم بما أنزل الله في التوراة والإنجيل»[١١].

ومن المعاني التي فُسّر بها قوله تعالى:

﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ﴾

هذا المعنى الذي ذهبنا إليه، ومن ذلك قول الشيخ محمد رشيد: «... لكل أمة منكم أيها المسلمون والكتابيون أو أيها الناس جعلنا شريعة أوجبنا عليهم إقامة أحكامها، وطريقا للهداية فرضنا عليهم سلوكه لتزكية أنفسهم وإصلاحها، لأن الشرائع العملية وطرق التزكية الأدبية تختلف [من أمة لأمة]»[١٢]. وقد قاله الشيخ احتمالا لا يجزم به.

وقال رحمه الله: إن «الآية نصّ في أن شرع من قبلنا ليس شرعا لنا مطلقا»[١٣].

وقال: إنّ من يقولون بأن شرع من قبلنا شرعٌ لنا، يستدلون لرأيهم بقوله:

﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ﴾

(الشورى ١٣)

وقوله:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾

(الأنعام ٩٠)[١٤].

وقد تبين لنا أن آية الشورى لا تشهد لهذا القول؛ لأنها تدل على أن الذي يدخل في شريعتنا مما شرعه الله لمن قبلنا هو ما (وصاهم) الله به، وليس كل (ما شرعه الله لهم، والوصية إنما تكون بالأمور الأكثر أهمية وعمومية، وهي حاضرة في رسالة كل رسول، وهي: تقوى الله، وإفراده بالعبادة، والإحسان إلى الوالدين. ونحو ذلك، مما لا تفتقر إليه شريعة سماوية.

وأما آية الأنعام ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾، فإنها هي الأخرى لا تدل على أن شرع من قبلنا شرع لنا؛ لأن الهُدى المشار إليه في قوله: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾، ليس هو ما شرعه الله للرسل السابقين، وإنما هو صبر هؤلاء الرسل على ما أصابهم من أذى من أقوامهم، وهم يبلغون رسالة الله، والدليل على أن هذا هو الهدى المقصود: أن هذه العبارة تأتي بعد ذكر نماذج مما لقيه الرسل من عنت وإيذاء وهم يبلغون أقوامهم رسالة الله، وما آل إليه أمرهم بعد الصبر والعناء، ومن هذه النماذج:

قوله تعالى:

﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾

(الأنعام: ١٠)

وقوله:

﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾

(الأنعام: ٣٤)

وقوله عن إبراهيم:

﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾

(الأنعام: ٨٠)

وقوله عن المرسلين قبله عليه السلام:

﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾

(الأنعام: ٨٨)

وقوله بعد أمره بالاقتداء بهم:

﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ﴾

(الأنعام: ٩٠)

وما أحسن قول الشيخ محمد رشيد، في هذا السياق: «والصواب أن المراد بالاقتداء هنا موافقةُ سنتهم وسيرتهم في دعوة أقوامهم إلى الدين والصبر على أذاهم، ونحو ذلك من خلائقهم الحسنة التي بينها الله تعالى في سيرتهم»[١٥].

ثم قال رحمه الله: «لعمري إن الحق في هذه المسألة واضح كالصبح بل هو أوضح. ولكن أكثر المصنفين جروا على سنة سيئة، وهي أن يأخذوا أقوال العلماء الذين ينتسبون إليهم قضايا مسلّمة، ويلتمسون الدلائل لإثباتها وإبطال ما خالفها دليلا ومدلولا، ولو بالتمحّل والتأوّل والاحتمال، فالأدلة عندهم تابعة لا متبوعة»[١٦].

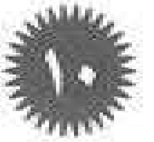
وخلاصة القول: أن شريعة الإسلام تشمل كل أمر دعانا الله إليه، وهي كل ما أوحى به الله إلى رسولنا عليه السلام، وأنها تتضمن ما وصى به الله أتباع كل الرسل من تقوى الله تعالى، والإحسان إلى الوالدين، والصدق والعدل والصبر والشكر والإحسان، ونحو ذلك من مكارم الأخلاق، وأنه تعالى قد جعل لكل أمة دينية شرعة ومنهاجا خاصا بها، وأن شرع من قبلنا ليس شرعا لنا، إلا ما ورد في شريعتنا فكان من المشترك بيننا وبينهم، وأن ما لم يشرعه الله لنا لا يكون شرعا لنا مهما قيل أو ثبت أنه مما شرعه الله لمن قبلنا، فلنا شرعنا ولهم شرائعهم.

والله الهادي إلى سواء السبيل.

---

(١١) التحرير والتنوير: ٦/ ٢٢٢، بتصرف النظر عما قاله في تتميم الكلام.
(١٢) تفسير المنار: ٦/ ٣٤١.
(١٣) تفسير المنار: ٦/ ٣٤٣.
(١٤) انظر: تفسير المنار: ٦/ ٣٤٣.
(١٥) تفسير المنار: ٦/ ٣٤٤.
(١٦) تفسير المنار: ٦/ ٣٤٤.

أضحك وأبكى





أ.د. أحمد فؤاد باشا

(أُفُق)

الأفق في اللغة: الناحية. والجمع: آفاق.

وقد وردت الكلمة بصيغة المفرد في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴾ (سورة النجم: ٧). وفي قوله سبحانه:

﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴾

(سورة التكوير: ٢٣)

ووردت بصيغة الجمع في قوله تعالى:

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾

(سورة فصلت: ٥٣).

والأفق اصطلاحًا: هو المستوى المماس لسطح الكرة الأرضية عند نقطة وقوف الراصد. وإذا امتد هذا المستوى فإنه يقطع الكرة السماوية في دائرة عظمى تسمى «دائرة الأفق السماوي»، والشخص يرى الأجسام التي تعلوها فقط ولا يرى الأشياء التي أسفلها.

ولتعيين الأماكن أو الإحداثيات على الكرة السماوية تتصور الأرض في نقطة داخل الكرة السماوية الكبيرة، ثم تمد مستوى خط الأفق الأرضي من جميع نواحيه على استقامته حتى يقطع الكرة السماوية في «دائرة الأفق السماوي».

﴿ اقْرَأْ ﴾

استخدم القرآن الكريم صيغة الفعل «قرأ» ماضيًا، ومضارعًا، وأمرًا، مجردًا ومزيدًا بالهمزة، مبنيًا للمعلوم وللمجهول، كما استخدم المصدر «قرآنا» في آيتين متتاليتين: ١٧، ١٨ من سورة القيامة. واستهداء ببعض معاني الأمر الإلهي ﴿ اقْرَأْ ﴾ الذي يرقى إلى مرتبة التكليف لبداية أي منهج إصلاحي، تدعو إلى ضرورة استئناف المشروع الحضاري لنهضة الأمة الإسلامية بإصلاح الفكر وترشيده. إن إصلاح الفكر وترشيده إسلاميًا إنما يتم أولاً بالتأصيل له في السياق التاريخي الشامل، ثم بتصحيح ما شابه من مغالطات عبر مراحل تطوره، وتنقيته من أي مفاهيم غير إسلامية، وأخيرًا بتوجيهه نحو هدف أسمى، وفق مرجعية إسلامية رشيدة تُعين الإنسان على أداء أمانة استخلافه في الأرض حتى يستكمل حكمة الله - تعالى - من خلقه وخلقها، وذلك بإعمارها وترقية الحياة عليها، وتحقيق تمام الانتفاع بخيراتها، ومدّ جسور الأخوّة والتعاون مع بني الإنسان في كل مكان على الأرض، بعد أن سخر الله - تعالى - له كل ما في الكون من نعم ظاهرة وباطنة لينتفع بها ويمجد بانتفاعها رب العالمين.

فالترشيد الإسلامي للفكر الإنساني إذن هو ذلك المشروع الحضاري الذي يهدف إلى حسن فهم وترتيب العلاقة السليمة بين ثلاثية عناصرها: الدين، والكون، والإنسان، وذلك في معرض الحث على النظر في هذه العلاقة على ضوء التصور الإسلامي المستمد من كتاب الله الكريم وسنة نبيه الأمين - ﷺ - أو صياغة ما يمكن أن تسميه «النظرة الإسلامية للعالم» The Islamic Worldview، كما تصوره حقائق (معطيات) العلم المعاصر.

وهكذا فإن الخطوات الإجرائية لترشيد الفكر الإنساني إسلاميًا تجمعها معادلة «التاءات الخمسة» على الصورة:

الترشيد الإسلامي = التأصيل + التصحيح + التنقية + التوجيه

حيث تتفاعل معطيات كل حدّ Term من حدود هذه «المعادلة المعرفية» في العقل المسلم بصورة تعينه على الترقي المستمر في عطائه الحضاري نحو الهدف الأسمى. أي أن الترشيد الإسلامي، بعبارة أخرى موجزة، هو «منهاج يُتَّبعُ ووجهةٌ تُولَّى شطر الهدف الأسمى».

ولقد استند المسلمون الأوائل في اصطناعهم لمنهج الإصلاح على أساس العلم إلى ثوابت إيمانية فكرية تنطلق من مبدأ التوحيد الذي قررته أول ما نزل من آيات القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾

(سورة العلق: ١)

ومن ثم فطن المسلمون الأوائل إلى الحكمة من جعل التوحيد الكامل الخالص لله - تعالى - وارتباطه بالقراءة (العلم)، أول الثوابت الإسلامية، وأصلاً من أصول الدين الإسلامي، يتحقق به صالح مجموع الأمة، وإقامة أمر الإسلام، وإعلاء كلمة الله في الأرض. وبدأ علماء المسلمين من هذا المبدأ الأصيل مسيرة ﴿ اقْرَأْ ﴾ الإصلاحية للتعرف على آيات الله في الآفاق وفي الأنفس، مصداقًا لقوله سبحانه:

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾

(سورة فصلت: ٥٣).

وعندما اختار مؤرخ العلم «جورج سارتون» في كتابه الشهير «تاريخ العلم» أن يجعل هذا التاريخ مقسمًا إلى فترات، كل منها نصف قرن، ربط كلا منها بشخصية علمية بارزة، وبدأ بعصر أفلاطون (٤٥٠-٤٠٠ق.م)، ثم يليه عصر أرسطو، فأوقليدس،.. إلى أن وصل إلى مرحلة الحضارة الإسلامية فقسمها إلى عصور جابر بن حيان، والخوارزمي، والرازي، والمسعودي، والبوزجاني، والبيروني... ولم تبدأ الأسماء الغربية إلا بعد عام ١١٠٠م بمشاركة علماء مسلمين مثل ابن رشد والطوسي.. ولم يبدأ خروج علماء المسلمين من حلبة السباق إلا بعد عام ١٤٠٠م، باستثناء بعض الحالات الفردية العرضية من التألق في النشاط العلمي.

وخلال القرون الستة الأخيرة أخذت فجوة التخلف بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون في الاتساع والتعاظم.. وأصبحت أمتنا العربية والإسلامية الآن بين خيارين لا ثالث لهما: إما أن تظل قابعة في أسر الجمود والتراجع والانحسار، واستمراء حالة العيش مع المتفرجين، وإما العمل على اجتياز هذه الحال للحاق بركب المتقدمين

والإسهام في حضارة العصر بنصيب يتناسب مع تاريخهم المجيد. وليس هناك من شك في أن الخيار الثاني يرقى إلى مستوى الفريضة الإسلامية التي يتحقق بها النهوض الحضاري المنشود، ومن هنا تصبح الحاجة ماسة إلى استئناف مسيرة ﴿ اقْرَأْ ﴾، مع الأخذ في الاعتبار فارق العصر وتطاول الزمن. فالإسلام الحنيف حين يطلب أن يبدأ الإصلاح والبناء الحضاري على أساس العلم؛ ويدعو الإنسان في أول ما نزل من آياته الكريمة إلى القراءة والتدوين، إنما يكلفه بأمر في أصل فطرته وطبعه، لأنه بدون العلم لا تتحقق أمانة الاستخلاف كما أرادها الله سبحانه وتعالى..

وقد بدأ القرآن الكريم بهذا الأمر ليضعه في بؤرة اهتمام الإنسان وإدراكه ووعيه، وليعود إليه كلما انحرف عن جادة الصواب والغائية.

(أَقْطَار)

أقطار: واحدتها قُطْر. والقطر: الناحية. ومنه قيل القطر: لجملة من البلاد والنواحي تتميز باسم خاص.

وقد وردت الكلمة في القرآن الكريم بهذا المعنى مرتين: الأولى في قوله تعالى:

﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴾

(سورة الأحزاب: ١٤)

والثانية في قوله تعالى:

﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴾

(سورة الرحمن: ٣٣).

وتبين هذه الآية الكريمة لمعشر الجن والإنس أنهم لن يستطيعوا السفر في الفضاء والخروج من أقطار السموات والأرض إلا بسلطان من الله عز وجل. والتعبير القرآني يجيز - والله أعلم - إمكانية تحقيق ارتياد الفضاء لمعشر الجن والإنس كل بحسب قدراته، وهذا ما تحقق فعلاً إلى حدٍّ ما في عصرنا الحاضر بالنسبة لمعشر البشر عن طريق العلم الذي يهيئ لهم الأسباب، أما موضوع الجن فهو غيب فوق مستوى إدراكنا لا يخضع لمنهجنا العلمي في البحث، وليس لبشر إلا أن يسلِّم فقط بما جاء بشأنه في القرآن الكريم والسنة المطهرة.

ولقد ظل الإنسان زمنًا طويلاً يحلم بالسفر في الفضاء إلى أن تمكن في خمسينات القرن العشرين فقط من تطوير صواريخ مناسبة لحمله في مركبات فضائية تدور حول الأرض، كما حدث في رحلة رائد الفضاء الروسي «يوري جاجارين» عام ١٩٦١م، أو تهبط على سطح القمر، مثل رحلة سفينة «أبوللو ١١» التي أطلقها الأمريكيون عام ١٩٦٩م بواسطة صاروخ جبار يدعى «ساتورن ٥». وتوالت بعد ذلك سلسلة رحلات «أبوللو» لتحقيق المزيد من الاكتشافات وجمع المعلومات عن القمر، كذلك حققت سفن الأبحاث الفضائية الموجهة ذاتيا بدون بشر فوائد علمية مهمة بإرسالها معلومات قيمة عن كواكب المجموعة الشمسية وأقمارها. وقد احتلت السفينة «فويجر ٢» Voyager٢ أهمية خاصة بسبب ما كشفته حديثًا عن عوالم المشتري وزحل وأورانوس ونبتون، وهي الكواكب التي زارتها خلال رحلتها المثيرة منذ إطلاقها من الأرض في عام ١٩٧٧م، وبثت خلالها آلاف الصور التفصيلية الدقيقة التي غيرت الكثير من تصورات العلماء عن هذه الكواكب. وعندما ينفد وقود «فويجر ٢» من طاقة

البلوتونيوم في عام ٢٠١٥م تقريبًا، حسب توقع العلماء، فإنها تكون قد انطلقت إلى خارج حدود مجموعتنا الشمسية وأخذت تسير على غير هدى في أعماق الفضاء السحيق بعيدًا عن مراقبة الإنسان الذي أطلقها.

وإذا كان الإنسان قد تحقق له ارتياد الفضاء في عصرنا الحاضر بنفاذه من أقطار الأرض ووصوله إلى القمر، فإن مواصلة الترقي في أعماق الفضاء للخروج من أقطار السموات أمر تكتنفه أخطار ومصاعب كثيرة، مثل أحزمة الكويكبات والأشعة الكونية، ناهيك عن المسافات الفلكية الهائلة بين مواقع النجوم. ويكفي أن نعلم أن أقرب نجم إلينا، وهو نجم «ألفا قنطورس» يقع على بعد ٤,٣ سنة ضوئية تقريبًا، أي حوالي ٣٩,٩ مليون مليون كيلومتر. ومن ثم فإن الإنسان لا يستطيع تحديد المدى الذي يمكنه الوصول إليه بأمان في الفضاء دون أن يتعرض لما أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴾

(سورة الرحمن: ٣٥)

لكن هذا المدى، على أية حال، محدود بحدود الإمكانيات والمقاييس البشرية.

ولعل فيما حققه العلم في عصر الفضاء سبيل الإيمان الخالص بمعجزتي الإسراء والمعراج اللتين حدثتا تكريمًا لرسول الله - ﷺ - بمقاييس خارقة للعادة ومجاوزة حدود الزمان والمكان المعروفين للبشر على الأرض. قال تعالى:

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾

(سورة الإسراء: ١)

وقال سبحانه:

﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴾

(سورة النجم: ١٣-١٨).

فإذا كان الإنسان قد استطاع بعلمه المحدود أن يسافر إلى القمر، وأن يرسل أجهزته ومعداته إلى أعماق الكون، فهل يستحيل على خالق الإنسان والكون أن يسري بعبده محمد - ﷺ - من المسجد الحرام بمكة المكرمة إلى المسجد الأقصى في القدس، أو يعرج به في السماء إلى سدرة المنتهى عند جنة المأوى؟! حاشا لله القائل في محكم التنزيل:

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾

(سورة فصلت: ٥٣).

﴿ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ ﴾

وردت كلمة «الأكمه» متبوعة بكلمة «الأبرص» في القرآن الكريم مرتين: (سورة آل عمران: ٤٩)؛ (سورة المائدة: ١١٠)، في سياق المعجزات التي أيد الله - تعالى - بها رسوله عيسى عليه السلام من كونه يبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله. قال تعالى:

﴿ وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ ﴾

(سورة المائدة: ١١٠)

وقال سبحانه:

﴿ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾

(سورة آل عمران: ٤٩).

والأكمه هو الأعمى أو الأعشى أو الأعمش، واللفظ يشير إلى خلل في البصر، إما أن يكون خلقيا، أي يولد به صاحبه، وإما أن يكون مكتسبا، وكذلك إما أن يكون كاملا، فهو العمى، وإما أن يكون دون ذلك. وأسبابه كثيرة، فقد يكون الخلل في قرنية العين أو عدستها، أو الشبكية بقاع العين، أو العصب البصري، فالمسالك العصبية هي التي تحمل صور الأشياء إلى مركز الإبصار في المخ، أو عجز مركز الإبصار نفسه. ويدل السياق القرآني على أن الخلل في الأكمه ليس من النوع العارض أو الذي يعرف له علاج، فقد كان إبراؤه على يد عيسى عليه السلام بمثابة المعجزة.

وعلى الرغم من ورود كلمة «عمى» في القرآن الكريم مرات عديدة، إلا أن التعبير بالأكمه اقتصر على معجزة عيسى عليه السلام، مما قد يشير إلى أن الكمه شيء دون العمى، أو أنه عاهة عرفت بين بني إسرائيل على زمن عيسى عليه السلام.

أما البرص في اللغة فهو بياض يصيب الجلد، وأشيع أنواعه مرض البهاق، وفيه تخلو مساحات من الجلد من المادة الصبغية السوداء فتبدو بيضاء بين بقية الجلد بلونه الطبيعي. ويرجح بعض المفسرين أن هذا النوع لم يكن هو المقصود في الآية، فالبهاق أمر غير خطير، ولا يعيب إلا المنظر، لكن المقصود على الراجح هو مرض الجذام Leprosy، وبه كذلك في الغالب بقع جلدية بيضاء، فيكون المريض كذلك أبرص.

ولفظ المجذوم Leper هي الكلمة المستعملة لترجمة الأبرص (في التراجم الإنجليزية لمعاني القرآن الكريم) وفي الأناجيل المكتوبة بالإنجليزية.

والروايات الإنجيلية متواترة على الموقف البار من عيسى عليه السلام بالمجذومين إذ خالطهم ولمسهم حيث لفظهم الناس واعتزلوهم خوف العدوى منهم.

وينتج هذا المرض عن العدوى بجرثومة عصوية تشبه جرثومة السل، يصعب استزراعها في المحاليل لكي تزرع في بعض الحيوانات.

ولا تنتقل العدوى بسهولة، بل على مدى زمني طويل من المخالطة الوثيقة، وإلى المرضى ضعيفي المقاومة، إذ تدخل الجرثومة خلال الجلد أو غشاء الجهاز التنفسي باستنشاق الرذاذ الملوث، وبعد فترة حضانة تتراوح بين أسابيع وسنوات طويلة تظهر الآثار على الجلد أو بطانة الأنف، أو تصيب الأعصاب الطرفية في مناطق مختلفة فيضيع الإحساس، مما يعرضها للإصابات والقروح لأنها لا تحس، وتنشلّ العضلات الصغيرة فيحدث تشوه في اليد أو الأطراف، وتغشى الوجه درنات مختلفة الأحجام مع بقع بيضاء، مما يشوهه ويعطيه ملامح كملامح الأسد، وقد تتآكل قطع منه أو من الأنف أو الأذن أو سائر الجسم فتنفصل وتسقط.

ويتخذ المرض مسارًا مزمنًا، ولكن مستمرًا حتى يفضي إلى الموت بالعدوى الثانوية القيحية أو التشمع الكبدي أو الكلوي.

ويوجد بالعالم اليوم نحو عشرة ملايين مريض بالجذام، وقد استنبطت منذ سنوات أدوية تقتل الميكروب، ولكن أفضل نتائجها في الأدوار الباكرة من المرض، وقبل أن تحدث التشوهات أو تهلك الأنسجة، وهو مالا يمكن تداركه.

ولم يكن لهذا المرض الوبيل في عهد عيسى عليه السلام دواء، وكان المصابون عادة مشوهين وتعساء، ولهذا فقد كان إبراء عيسى عليه السلام لهذا الداء بلمسة منه معجزة حقًا وآية من آيات الله.

يتبع

قراءة في كتاب

بقلم أ: عادل خفاجة

تهفو نفوس المسلمين إلى العودة إلى منابع الإسلام السمحة الرشيدة الصافية... تلك المنابع التي كانت متمثلة في القرآن والسنة بعيدة عن أي لون مذهبي، من أجل ذلك شهدت الساحة الإسلامية دعوات صادقة إلى وحدة الأمة و لمّ شملها ونبذ الفرقة التي تمزقها، فكانت جماعة التقريب بين المذاهب التي كانت تهدف إلى التقريب بين الشيعة والسنة و كان من أبرز فرسانها فضيلة الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت.

وتمر الأيام لتشهد الساحة الإسلامية تفرقًا أشد ودعوات صادقة جديدة للم شمل المسلمين حول مذهب هو الأكثر تسامحًا؛ فارسها هذه المرة فضيلة الإمام الأكبر الشيخ / أحمد الطيب.

فما هو هذا المذهب؟ وهل هو فعلا الأكثر تسامحًا؟ - هذا ما سنراه من خلال قراءتنا في هذا الكتاب الذي يضم أبحاث الملتقى العالمي الخامس لرابطة خريجي الأزهر الشريف.

الكتاب:

بداية نقول: إننا لسنا أمام كتاب عادي بل أمام كتاب موسوعي، فقد بلغت صفحاته ما يربو على أربعمائة وألفي صفحة ضمت العديد من الأبحاث لخمسين عالما تكلموا عن الإمام أبي الحسن الأشعري فخرج هذا الكتاب الموسوعي الجامع

لذلك فإنه يستلزم قراءة خاصة تتصف بتركيز الضوء على المختصر واختصار المبسوط والتوقف لمجرد ذكر بعض العناوين بل وتضرب صفحًا عن بعضها الآخر.

وقد صدر الكتاب في طبعته الأولى سنة ١٤٣٤ هجرية ٢٠١٤م في أجزاء أربعة عن دار القدس العربي، بالقاهرة وساهمت في طباعته الرابطة العالمية لخريجي الأزهر الشريف و مركز الأزهر للتأليف والترجمة والنشر، بالقاهرة.

وقد ضم الجزء الأول من هذا الكتاب تصديرا بقلم فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر ومحورين فأما المحور الأول فجاء تحت عنوان: الإمام أبو الحسن الأشعري حياته ومؤلفاته.

وأما المحور الثاني فجاء تحت عنوان الإمام الأشعري في الدراسات الحديثة

لذلك أرى أن تبدأ بقراءة التصدير ثم تتبعه بقراءة في المحور الثاني مراعاة لتقديم الإمام أبي الحسن لجمهور القراء من خلال الدراسات الحديثة سواء الدراسات العربية منها أو غير العربية من أردية وتركية وفرنسية فذلك أدعى لتعريف القارئ بشخصية ذلك الإمام الفذ إلى جمهور القراء ليتشوف إلى معرفة ما يتلوه من دراسات.

لذلك نقول:

لقد حظي الكتاب باعتناء وتصدير فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر.

وهو بحق - تصدير كاشف لأهمية ذلك المؤتمر، يجيب فيه فضيلة الإمام الأكبر عن هذه الأسئلة التي يراها مشروعة - إذا جاءت من غير المتخصصين في علوم العقيدة أو علم الكلام - كمن يقول: ما جدوى أن يتخذ من إمام توفي منذ مائة وألف عام موضوعا له؟

قائلا: إن الإجابة على مثل هذه الأسئلة المشروعة تختصر اختصارا رسالة الأزهر الشريف ورسالة العلماء الأفاضل الذين شاركوا في هذا المؤتمر، ورؤيتهم في تحديد العلة والداء أولا قبل البدء في اختيار الدواء والعلاج.

ثم يوضح أن الإمام الأشعري عاش سبعين عاما بين فرق ومذاهب وتيارات متصارعة ومتنافرة أشد التنافر وكان من بينها مذهب المعتزلة ومذهب الحنابلة اللذان كان لهما دور حاسم في ظهور مذهب الإمام أبي الحسن الأشعري.

ويشير فضيلة الإمام الأكبر في كلمته الكاشفة تلك إلى أن واقع الأمة الآن يذكرنا بواقعها أيام الإمام أبي الحسن الأشعري، فهي الآن أمة بحاجة إلى منهج كمنهجه، الذي أنقذ به ثقافة المسلمين



وحضارتهم قديما، مما كان يتربص بها من مذاهب مغلقة تدير ظهرها للعقل وضوابطه، وأخرى تتعبد بالعقل وتحكمه في كل شاردة وواردة، حتى فيما يتجاوز حدوده وأدواته، وثالثة تحكم الهوى والسياسة والمنفعة، وتخرج من كل ذلك بعقائد مشوهة تحاكم بها الناس وتقاتلهم عليها.

ويلقي فضيلة الإمام الضوء على هذا الاضطراب الفكري ملخصا أسبابه حيث يقول:

«أما المعتزلة فقد كانوا يعولون في مذهبهم على العقل وأحكامه، غير أن إفراطهم في التمسك بالمنهج العقلي الصارم انتهى بهم، من حيث يريدون أو لا يريدون، إلى القول بمقالات جارحة لمشاعر كثير من أهل الورع والتقوى من علماء المسلمين. من هذه المقالات: قولهم بالوجوب على الله تعالى، حيث قالوا: يجب عليه -تعالى- أن يثيب الطائعين يوم القيامة، كما يجب عليه أن يعذب العاصين. ولازم ذلك إنكار الشفاعة؛ لأنها تصدم -عقلا- مبدأ وجوب الثواب والعقاب.

ومنها: موقفهم من مرتكب الكبيرة من

المسلمين، حيث قالوا: إنه ليس بمسلم -لانهدام ركن العمل- وليس بكافر -لنطقه بالشهادتين- بل هو في منزلة بين المنزلتين.

غير أن المقولة التي عانى منها المجتمع معاناة بالغة، وعذب كثيرون من أجلها عذابا أليما بالضرب أو السجن، هي قولهم: «القرآن مخلوق»، شأنه في ذلك شأن باقي المخلوقات. ثم إنكارهم أن يتصف الله بصفة الكلام قبل أن يخلق الإنسان المخاطب بهذا الكلام المحدث.

ومع هذه المقالة تبقى الآيات القرآنية في هذه القضية كأنها معطلة المعنى، وكان يمكن لهذه المقالات أن تبقى وقفا للدرس والعلم والبحث، وأن يظل الجدل حولها حبيس قاعات العلم، لولا أن الدولة في ذلك الوقت تبنت مذهب الاعتزال وفرضته على الناس فرضا.

تبني الدولة أحد المذاهب الخلافية:

هكذا نجد الإمام يضع أيدينا على أشد علل المجتمع ألا وهو تبني الدولة أحد المذاهب الخلافية، تلك العلة التي تحول البحث العلمي إلى ساحة للتخاصم والقتال وتجعل من صاحب الرأي المدعوم بقوة النفوذ صاحب الرأي الأصوب والأوحد بل الواجب اتباعه ثم الذي لا يجب مخالفته دون اعتبار للاجتهاد العلمي وإلى أين يسير.

يقول فضيلة الإمام: «وهذه هي المشكلة القديمة المتجددة، وأعني بها أن تتبنى الدولة وسلطاتها أحد المذاهب الخلافية، وتعمل على نشره وإقصاء ما سواه من المذاهب الإسلامية المشروعة، التي تتسع لها نصوص القرآن الكريم والسنة الصحيحة.

ويحدثنا التاريخ القديم والحديث -أيضا- أن الأمة هي التي كانت دائما تدفع غاليا ثمن الترف العقلي لنخبة من العلماء والدعاة يعيشون في القصور، وفي الغرفات الفارهة، ويحتمون بأصحاب الجاه والسلطان. وهذا ما حدث في هذه الفترة من فترات الدولة العباسية، حيث تبنى الخليفة المأمون (ت ٢١٨هـ) هذا المذهب، وقرب إليه علماء الاعتزال، وبدأ في حمل الناس على القول بأن القرآن مخلوق، وكتب للولاة رسائل يأمرهم فيها بألا يعينوا القضاة، ولا يقبلوا الشهود إذا كانوا لا يؤمنون بهذه المقولة. وأن يرسلوا إلى بغداد العلماء والمحدثين الذين يرفضون مذهب الاعتزال؛ لحملهم على هذا المذهب، أو تعذيبهم وسجنهم، وكثير من العلماء الذين صمدوا قتلوا أو ماتوا في سجون المأمون والمعتصم (ت ٢٢٧هـ). وقد استدعى الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه (٢٤١هـ)، وضرب بالسياط حتى سال منه الدم؛ لأنه لم يقل بأن القرآن مخلوق، ومن حسن الحظ أن المعتصم لم يقتله فيمن قتل من الممتنعين عن القول بخلق القرآن، وكان ذلك سنة ٢٢٠هـ.

ويشير الإمام إلى تغير الدولة وبقاء التسلط كما هو لينتقل التجبر والبطش من المعتزلة إلى غلاة الحنابلة فيقول:

«وقد استمرت هذه الفتنة -أو المحنة- حتى جاء المتوكل (ت. ٢٤٧هـ) فقلب للمعتزلة ظهر المجن، وأصدر أوامره بتعقب مذهبهم ومعاقبة من يرى رأيهم، بل صدرت الأوامر لوالي مصر أن يمثل بقاضي قضاتها -الذي سبق له أن عذب الرافضين مذهب المعتزلة أيام المعتصم والواثق (٢٣٢هـ)- وأمر بضربه وعزله بعد ذلك.

وكان من المنطقي أن يتصدر الساحة بعدئذ المذهب المقابل لمذهب المعتزلة، وهو مذهب غلاة الحنابلة الذي يقرر أصحابه أن القرآن قديم

في معناه وألفاظه وحروفه . وكما تسلط المعتزلة على الناس، تسلط غلاة الحنابلة عليهم بقضايا لا ناقة للناس فيها ولا جمل.

وقد أدى هذا المنهج المتشدد، الذي لا يعوّل عليه كثيرا على قواطع العقل، بهذا الاتجاه إلى الغلو والتجسيم، إلى الدرجة التي ينفر منها شعور المؤمن المُنَزِّه لله تعالى.

من أجل ذلك وقف الإمام الأشعري من المذهبين موقف النقيض؛ بحثًا عن الإسلام الصحيح الذي جمع به النبي صلى الله عليه وسلم بين أشد القبائل والبطون والعشائر تنافرًا واقتتالا، فأعلن عزمه على تأسيس مذهب أهل الحق الذي نسب إليه فيما بعد.

مكانة الإمام الأشعري العلمية:

ولكي نقترب من الرجل نقدم هذا الموقف الذي يوضح كيف يفكر الرجل وهو جليس أستاذ كبير مثل الجبائي: حيث «دخل رجل على الجبائي فقال: هل يجوز أن يسمى الله تعالى عاقلا؟ فقال الجبائي: لا، لأن العقل مشتق من العقال، وهو المانع، والمنع في حق الله محال، فامتنع الإطلاق. قال الشيخ أبو الحسن فقلت له: فعلى قياسك لا يسمى الله سبحانه حكيما؟ لأن هذا الاسم مشتق من حكمة اللجام، وهي الحديدة المانعة للدابة من الخروج ويشهد لذلك قول حسان بن ثابت– رضي الله عنه:

فنحكم بالقوافي من هجانا ونضرب حين تختلط الدماء

فإذا كان اللفظ مشتقا من المنع، والمنع على الله محال لزمك أن تمنع إطلاق حكيم عليه سبحانه وتعالى، قال: فلم يحر جوابًا، إلا أنه قال لي: فلم منعت أنت أن يسمى الله سبحانه عاقلا، وأجزت أن يسمى حكيمًا؟ قال: فقلت له: لأن طريقي في مأخذ أسماء الله الإذن الشرعي دون القياس اللغوي، فأطلقت حكيمًا لأن الشرع أطلقه، ومنعت عاقلًا لأن الشرع منعه، ولو أطلقه الشرع لأطلقته»[1].

وهو موقف يدل على تمسك الأشعري بالقياس العقلي دون إخلال بالنص الشرعي.

وعن تمكن الإمام الأشعري في العديد من العلوم الإسلامية يقول فضيلة الإمام الأكبر:

«ولم يكن الأشعري أستاذًا في علوم العقيدة والتفسير والأصول والجدل فحسب، بل كان مؤرخا من الطراز الأول للعقائد والمقالات الإسلاميين»[2]. وقد مكنه هذا التخصص من أن يضع يده على مواطن الضعف والقوة في كل فرقة من الفرق التي ضمها مؤلَّفه الجامع المسمَّى «مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين»، ونلمح من عنوان هذا المرجع الكبير نزعة التصالح والسماحة، وكراهة الشقاق حول أمور تسع الجميع، فهذه المقالات مقالات إسلامية، وهذه الاختلافات اختلافات مؤمنين يصلون إلى قبلة واحدة، ونزعة التصالح هذه هي الخصيصة الكبرى التي اتسم بها مذهب الإمام الأشعري الذي لا يكفِّر أحدا من المسلمين يشهد لذلك نقده العلمي اللاذع لمذهب المعتزلة ولغلاة الحنابلة ببيان خضوعهم لأحكام الوهم، وتمردهم على أحكام العقل، ومن هنا ثقل عليهم النظر على حد تعبيره.

ويشير فضيلة الإمام إلى آمال ثلاث يرجوها الأزهر عبر هذا المؤتمر التاريخي قائلا: «ولا

[1] طبقات السبكي (٣/٣٥٧-٣٥٨).

[2] أبو الحسن الأشعري، لحمودة غرابة، مجمع البحوث الإسلامية، ٦٩، القاهرة ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

يمكن بطبيعة الحال أن نذكر – ولو على سبيل الإجمال– تفاصيل المذهب الأشعري، ولا نقاط الضعف التي كشفها في مقولات المعتزلة وغلاة الحنابلة أو الخصائص التي تميز بها مذهب أهل السنة والجماعة وأهّلته لأن يسود الأمة الإسلامية شرقًا وغربًا إلى يوم الناس هذا، فهذا ما تكفل ببيانه هذه الأسفار الأربعة من خلال الأبحاث العلمية التي تشتمل عليها.

غير أنه إذا كان للأزهر من آمال يرجوها للمسلمين عبر هذا المؤتمر التاريخي، فإن هذه الآمال تتمثل في أمور:

أولًا: نشر التراث الوسطي وإذاعته بين الناس، لتقف به الأمة في وجه نزعات التكفير والتفسيق والتبديع، في خلافيات تسع الناس جميعًا، وذلك حتى نتمكن من وقف هذه التداعيات التي توشك أن تقضي على وحدة الأمة وقوتها. والمذهب الأشعري هو الأجدر بهذا الدور؛ لأنه المذهب الذي لا يكفِّر صاحبه أحدًا من أهل القبلة، كما يروي ابن عساكر[3] عن إمامه الأشعري أنه حين قرب حضور أجله في بغداد، قال لأحد تلامذته: اشهد عليّ أني لا أكفِّر أحدًا من أهل هذه القبلة؛ لأن الكل يشيرون إلى معبود واحد، وإنما هذا كله اختلاف العبارات.

ثانيا: احترام التوازن في الجمع بين العقل والنقل، وإنهاء الخصومة المصطنعة بينهما، والتي تسيطر الآن على بعض الأفهام. وهذا ما نجده بوضوح في تراث الإمام الأشعري، وبخاصة في رسالته المعروفة بـ«الحث على البحث»، وفي عنوان آخر «استحسان الخوض في علم الكلام».

ولعل هذا هو السر في احتضان الأزهر هذا المذهب منذ القدم، وتعويله عليه في مختلف العلوم الإسلامية: في العقائد والتفسير والحديث وأصول الفقه وعلوم اللغة، وطبعها بطابع الوسطية والاعتدال، وتمكن هذا المعهد العلمي العريق من قيادة الأمة في طريق وسط بعيد عن التطرف وعن التميع معًا.

الأمر الثالث: إصلاح هرم الأولويات المقلوب رأسا على عقب، وإعادته إلى وضعه الصحيح، وذلك بالتركيز على جوهر الدين، وعلى المتفق عليه بين المسلمين، ثم على المشترك بين المسلمين وغير المسلمين من المؤمنين بالأديان الأخرى، وأن نحتكم في ذلك إلى قوله تعالى:

﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ⑧ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾

(الممتحنة: ٨-٩)

وبعد أن أشار إلى سماحة المذهب الأشعرى ووسطيته واعتداله يلقي فضيلة الإمام الضوء على أهم ما يميز المذهب الأشعري وما يرشحه لأن يأخذ دوره الرائد في المجتمع حيث يقول:

«إن الأزهر بما له من تاريخ عريق في الحفاظ على الإسلام والدفاع عنه، يعلن للناس جميعًا أن من أهم الدروس التي يمكن استخلاصها من السياق العام لفكر الإمام الأشعري- ضرورة العمل على إحياء المذهب الأشعري، بكل ما يتضمنه هذا المذهب من خصائص الاعتدال والوسطية التي تؤهله للعمل على إعادة وحدة المسلمين واجتماعهم تحت لافتة الإسلام والقرآن والسنة،

[3] تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، لابن عساكر، ١٤٩.

واتحصار خلافاتهم في دائرة: ما يؤخذ وما يرد؛ باعتبار واعتبار، وليس في دائرة: مايخرج من الإسلام وما يدخل فيه».

وأمر آخر يتفرد به المذهب الأشعري ويرشحه لأن يأخذ دوره اللائق به في المجتمع المسلم، وهو قدرة هذا المذهب على استثارة الأمل وبعث الرجاء في نفس المسلم، واستحضار نوازع التصالح والتقارب بين الدين والدنيا، وبين المخلوق والخالق، ففي ظلال هذا المذهب لا يشعر المسلم بالضغوط العقدية التي تطارده بالتكفير والتفسيق والتبديع، والإقصاء عن حظيرة الإسلام، كلما قارف ذنبًا أو خالط إثمًا أو دعته طبيعة الإنسان وطبيعة الحياة إلى الإلمام بشيء من المعاصي والآثام، وأنا هنا لا أقول: إن المذهب الأشعري يحض الناس على المعصية، فهذا ما لم يقل به عاقل؛ لا من الأشاعرة ولا من غيرهم، ولكن أقول: إن تقنيط الناس من رحمة الله ومغفرته ليس من الإسلام، ولا من القرآن والسنة في كثير أو قليل، والمسألة ذات طرفين لا ينفصلان: الأول التحذير من الذنب، والثاني: طمع المذنبين في رحمة الله ومغفرته، وهو طمع مشروع يستند إلى أصول الإسلام وقوانينه[٤].

والمذهب الأشعري هو المذهب الذي استوعب هذه المسألة بطرفيها، فلم يتشدد، ولم يفرط في آن واحد، وحسبنا أنه المذهب الذي يقرر في غير مواربة أن صاحب الكبيرة مؤمن، حتى لو لم يتب من كبيرته، وأنه لو مات ولم يتب فأمره مفوض إلى الله؛ إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه:

إذ جاء غفران غير الكفر ... فلا نكفر مؤمنًا بالوزر

ومن يمت ولم يتب من ذنبه ... فأمره مفوض لربه

وتتضح قيمة هذا المذهب إذا ما قورن بالمذاهب الأخرى التي ترى كفر صاحب الكبيرة أو فسقه .. وتحكم بخلوده في النار خلود الكافرين، أو الفاسقين الذين هم في منزلة بين المنزلتين كما هو معلوم من عقيدة أهل الاعتزال.

ويحذر فضيلته من خطورة الفتاوى التي تثير الاضطراب في صفوف المسلمين وتحضهم على القتل إذ يقول: «ولا تحسبن هذه المذاهب المتسلطة على الناس تكفيرًا وتفسيقًا وإخراجًا من الملة قد انقرضت، أو أصبحت في ذمة التاريخ، فهي لا تزال حيّة تسعى بين المسلمين، تفتنهم وتشغلهم وتربكهم بفتاوى لا تمتُّ إلى أصول الدين بسبب ولا نسب، وقد نجحت في العقود القليلة الماضية في إذكاء نار الفتنة والاضطراب في صفوف المسلمين، فشتتوا أفكارهم، وزعزعوا ثوابتهم التي استقروا عليها منذ قرون عدة، ومن أنصار هذه المذاهب من أعطى لنفسه الحق في الاجتراء على إقامة الحد على الناس، وقتلهم وإراقة دمائهم؛ لأنه يعتقد بهذه المخالفة أو تلك، أنهم قد خرجوا من ربقة الإسلام، وكفروا بعد إسلامهم، وكما نعلم؛ فإن الجرأة على تكفير المسلم تستتبع الجرأة على إراقة دمه وقتله، ولسنا في حاجة إلى ضرب الأمثال للاقتتال على خلافات مذهبية أو طائفية، وإن شئت فقل: على خلافات فقهية. فهناك مئات الآلاف من الأرواح التي راحت ضحية الصراع بين مذاهب يتسع لها الإسلام، ويشهد لأهلها بالإيمان بكل فروقاتهم واختلافاتهم.

(٤) لقوله صلى الله عليه وسلم: من شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، حرم الله عليه النار، رواه مسلم والترمذي عن أبي هريرة.

إن آفة المسلمين في هذا العصر هي التربص العقدي والمذهبي فيما بينهم، والجرأة على الإكفار في مسائل الخلاف، ودعوى أهل كل مذهب أنهم وحدهم المسلمون، وأن غيرهم كافرٌ أو مبتدع فاسق، وآفة الآفات أن بعض هذه المذاهب تسنده قوةٌ وسلطان، ويدعمه مالٌ عزيزٌ وفير يمكِّن من نشر مقولات هذا المذهب أو ذاك، مستغلًا فقر الكثرة الكاثرة، وحاجة الشباب من جماهير المسلمين وعوزهم، مما جعل الدعوة للإسلام في بلاد المسلمين وبخاصة في إفريقيا تُذكرنا بأسلوب التبشير والمبشرين وطريقتهم في جلب الدهماء والبسطاء والسذج، مع فارق لا ينبغي إغفاله في هذه المفارقة، وهو أن الدعوة الإسلامية المعاصرة لأنها تعكس في بعض مناهجها صراع دُعاة في الأصل، فهي لا جرم دعوة إلى الفتنة بين المسلمين، بل هي أشبه ما تكون بدعوات مدفوعة الأجر سلفًا لنشر توجهات خاصة تتخذ من الدعوة للإسلام سترًا ولباسًا.. وذلك في مقابل دعوات التبشير المسيحي التي تنجح في كسب الأراضي كل يوم في مجاهل إفريقيا وأدغالها، بسبب الالتفاف حول وحدة العمل، ووضوح الهدف وصدق الانتماء إلى المسيحية.

ويدعو فضيلته إلى خطة عمل موحدة تجمع العلماء والدعاة حيث يقول:

«وما لم يكن للمسلمين في عصرنا هذا علماء صادقون يتعبدون بدينهم وضميرهم عن إغراء الصراعات المحلية والدولية، ويتجردون في إخلاص لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم؛ فإنه لا أمل في نهوض هذه الأمة من كبوتها وتخلفها. إن العلماء هم قادة هذه الأمة، والمؤثرون في سلوكها، والموجِّهون لتصرفاتها، وما لم يتفق العلماء والدعاة على خطة دعوية موحدة ينزلون بها إلى واقع الناس، فلا أمل في أن يكون المسلمون أمةً واحدة، وما لم تكن مواجهة عظائم الأمور ومجابهة النواقص الكبرى في حياة المسلمين، والتصدي للمهالك التي تتربص باقتصادهم وثرواتهم، وتسليحهم وصحتهم، وموروثهم الديني والثقافي، ما لم يكن هناك عزمٌ جادٌّ وتصميم مؤكدٌ على مواجهة العلل الحقيقية التي مزقت الأمة الإسلامية شيعًا، وقعدت عن اللحاق بركب الأمم القوية المتحضرة، فلا جدوى من كل ما تعجُّ به الساحة الآن من دعوة ودُعاة، وخطب وخطباء، وكتب ونشرات.

ويختتم فضيلة الإمام هذه الكلمة الضافية بالأسباب الداعية إلى بعث المذهب الأشعري قائلًا: «وحين ندعو إلى بعث المذهب الأشعري؛ مذهب أهل السنة والجماعة، فإننا نعي جيدًا أنه لم يندثر على مستوى الوعي الجماهيري للأمة، من عصر الإمام الأشعري حتى يومنا هذا، لكنه يتعرض لحملات شرسة منظمة تحاول تشويهه في أذهان العامة، والنَّيل منه ومن الأزهر الشريف، الحريص على أن يبقى هذا المذهب مصدرًا لوحدة المسلمين في حاضرهم؛ كما كان في ماضيهم؛ لأنه المذهب الوحيد الذي يتعايش مع المذاهب الإسلامية ولا يُقصيها، ولا يكفر أهلها، فالأشعرية لا تكفِّر الشيعة ولا الإباضية، ولا تكفر الزيدية، بل ولا تُبدِّع ولا تُفسِّق الغلاة المتشددين من مذاهب أهل السنة، وتتعايش الأشعرية مع كل هذه المذاهب والتيارات، وإن اختلفت معها في قضايا ومسائل خلافية كبرى، فهل تستطيع المذاهب والتيارات الأخرى أن تتعايش مع الأشاعرة دون تفسيق أو تبديع أو تكفير؟!

(يتبع)

طرائف.. ومواقف

فضيلة الشيخ عبد الحفيظ محمد عبد الحليم

«نصيحة»

عن ابن عمر عن النبي ﷺ: «ما يمنع أحدكم إذا عسر عليه أمر معيشته أن يقول إذا خرج من بيته: بسم الله على نفسي ومالي وديني، اللهم رضني بقضائك، وبارك فيما قدر لي، حتى لا أحب تعجيل ما أخرت، ولا تأخير ما عجلت».

«أظلم الناس لنفسه»

روى عن الإمام محمد بن إدريس الشافعي ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: أظلم الناس لنفسه: اللئيم؛ فإنه إذا ارتفع جفا أقاربه، وأنكر معارفه واستخف الأشراف، وتكبر على ذوى الفضل.

«العفو من شيم الكرام»

كان المأمون ممن أوتي العفو طبعا لا تكلفا، حتى إنه قال: «إني لأستملي العفو حتى أخاف أن لا أوجر عليه؛ ولو علم الناس قدر محبتي للعفو لتقربوا إليّ بالذنوب».

وما أحسن ما قيل في العفو شعرا:

وجهل رددناه بفضل حلومنا
ولو أننا شئنا رددناه بالجهل
رجحنا وقد خفت حلوم كثيرة
وعدنا على أهل السفاهة بالفضل

«حقا»

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى
عدوًا له ما من صداقته بد

ooo

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد
وينكر الفم طعم الماء من سقم

ooo

قبيح من الإنسان أن ينسى عيوبه
ويذكر عيبًا في أخيه قد اختفى
ولو كان ذا عقل لما عاب غيره
وفيه عيوب لو رأى ما قد اكتفى

ooo

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم
فطالما استعبد الإنسان إحسان

«كيف الخلاص؟»

لقي القاضي عياض ـ رضي الله عنه ـ شيخًا يستند على عصاه؛ فقال له: كم بلغت من العمر يا رجل؟ قال الرجل: ستين سنة. قال القاضي: لك في طاعة الله ستون عامًا؟ توشك أن تصل. فبكى الرجل قائلا: لقد ضاعت في المعصية، ولا أدرى ماذا يفعل الله بي؟ قال القاضي: لا أدلك على الخلاص؟ أصلح ما بقي يغفر لك ما مضى.

«لهذا أصدر قراره»

خرج سيدنا عمر بن الخطاب من الليل فسمع امرأة تقول:

تطاول هذا الليل وأسود جانبه
وأرقني أن لا خليل ألاعبه
فوالله لولا الله أني أراقبه
لحرك من هذا السرير جوانبه

فسأل عمر ابنته حفصة ـ رضي الله عنها ـ: كم أكثر ما تصبر المرأة عن زوجها؟ فقالت: ستة أشهر، أو أربعة أشهر.

فقال سيدنا عمر ـ رضي الله عنه ـ: لا أحبس أحدًا من الجيوش أكثر من ذلك.

«بين عبدالله بن جعفر وأعرابية»

قيل نزل عبدالله بن جعفر إلى خيمة أعرابية، ولها دجاجة وقد دجنت عندها، فذبحتها وجاءت بها إليه، فقالت: يا أبا جعفر، هذه دجاجة لي كنت أدجنها وأعلفها من قوتي، وألمسها في آناء الليل فكأنما ألمس بنتي زكت عن كبدي، فنذرت لله أن أدفنها في أكرم بقعة تكون، فلم أجد تلك البقعة المباركة إلا بطنك! فأردت أن أدفنها فيها فضحك عبدالله بن جعفر، وأمر لها بخمسمائة درهم.

«وحدتي ألذ»

إذا لم أجد خلا تقيا فوحدتي
ألذ وأشهى من غوى أعاشره
وأجلس وحدى للعبادة آمنا
أقر لعيشي من جليس أحاذره

«الإمام الشافعي»

«لكنت مكاني وأنا مكانك»

دخل أعرابي على يزيد بن المهلب، وهو مضطجع على فراشه، وعنده الكثير من الناس، فقال: كيف أصبح الأمير؟ فقال يزيد: كما تحب أن يكون، فقال الأعرابي: لو كنت كما أحب لكنت أنت مكاني، وأنا مكانك!!

«ما يهمكم من ذلك»!!

قيل لأبي حازم: غلت الأسعار!! فقال: ما يهمكم من ذلك، إن الذي يرزقنا في الرخص هو الذي يرزقنا في الغلاء.

«لمن نصيحتك هذه»

قال رجل للمهدي: عندي نصيحة يا أمير المؤمنين، فقال: لمن نصيحتك هذه؟ لنا، أم لعامة المسلمين، أم لنفسك؟ قال: لك يا أمير المؤمنين، قال: ليس الساعي بأعظم عورة، ولا أقبح حالا ممن قبل سعايته، ولا تخلو من أن تكون حاسد نعمة، فلا نشفي غيظك أو عدوا فلا نعاقب لك عدوك، ثم أقبل على الناس فقال: لا ينصح لنا ناصح إلا بما فيه لله رضا، وللمسلمين صلاح، فإنما لنا الأبدان، وليس لنا القلوب، ومن استترعنا لم نكشفه، ومن بادانا طلبنا توبته، ومن أخطأ أقلنا عثرته، فإني أري التأديب بالصفح أبلغ منه بالعقوبة، والسلامة مع العفو أكثر منها مع المعاجلة. والقلوب لا تبقي لوال لا يعطف إذا استعطف، ولا يعفو إذا قدر ولا يغفر إذا ظفر، ولا يرحم إذا استرحم.

«الأدب»

- قال ابن المقفع: إذا أكرمك الناس لمال أو لسلطان فلا يعجبك ذلك، فإن الكرامة تزول بزوالهما، ليعجبك إذا أكرموك لدين أو أدب.
- وقال الأحنف بن قيس: رأس الأدب المنطق، ولا خير في قول إلا بفعل، ولا في مال إلا بجود، ولا صديق إلا بوفاء، ولا في فقه إلا بورع، ولا في صدق إلا بنية.

«كيف حالك؟»

حكي الأصمعي قال: مر بي أعرابي سائلا، فقلت له: كيف حالك؟ قال أسأل الناس إلحافا فيعطوني كرها، فلا يؤجرون على ما يعطوني، ولا يبارك لي فيما آخذ.

دعاء

اللهم أيقظنا من رقدات الغفلة ووفقنا للتزود قبل النقلة، وألهمنا اغتنام الزمان وقت المهلة. اللهم الطف بنا في قضائك، وهب لنا ما وهبت لأوليائك، واجعل خير أيامنا وأسعدها يوم لقائك.

تأملات في السيرة

صلح الحديبية (٤)

لفضيلة الشيخ الطاهر الحامدي

لستُ مُحللا سياسيا ولا خبيرا استراتيجيا ولا أزعُمُ أني مراسلٌ حربي إنما أنا قارئٌ للتاريخ ومن خلال قراءاتي أعرفُ جيدا طبائعَ الاستبدادِ وأعرفُ أنه كيف يُراوغُ كثيرا لينقضَّ على فريسته فالمستبد دائما ما يخفي أساليب استبداده ونواياه في كلمات معسولة خصوصا إذا رأى من فريسته يقظة أو مقاومة وأحسبُ أنَّ أمريكا تقومُ بهذا الدور الآن أو قل إنّها تلعبُ هذه اللعبة مع الشرق العربي كله وما تُظهرُهُ اليومَ من ترحيبٍ لما وصلتْ إليه بعضُ البُلدانِ العربية وخصوصا مصرَ أحسبُ أنها خدَعٌ ومُراوغات وعلى المسئولين في مصر ألا ينخدعوا ولا يأمنوا لما قدْ يسمعونَه من تصريحات قدْ تُريحُنا في مصر فأعتقدُ أنها مُسكّنات تلقيها أمريكا لنا تريدُنا أن نحسنَ الظنَّ بها فنتركُ حذرَنا وحَيْطتنا فيوشكُ أنْ ترى منّا غفلةً فتنقضَّ علينا ولا تعْدَمُ حيلةً للانقضاض علينا ولذلك فأنا أُحذِّرُ بشدة المسئولين من الاستسلام لما يبدو من مهادنة أمريكا فهي لا تفتأ تتربصُ بنا وتلك طبائعُ الاستبدادِ

ونستطيعُ أن نستلخصَ هذا من مواقفَ ومعاملةِ المشركين في غزوة الحديبية وسوف ترى.

وفي المقابلِ ترى في موقعة الحديبية الإيمانَ واليقينَ وحبَّ الخير والسلامِ للناس جميعا حتى يُخيّل إليك أنها ليست حربا إنّما هي دعوة للإيمان واليقين خذْ مثلا ما يرويه الشيخان والبيهقي عن زيد بن خالد قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية فأصابنا مطرٌ ذات ليلة فصلى بنا النبي ﷺ الصبح ثم أقبل علينا بوجهه فقال: «أتدرون ماذا قال ربكم اليوم؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «قال الله عز وجل: أصبح من عبادي مؤمنٌ بي وكافر، فمن قال مُطرنا برحمة الله وفضله فهو مؤمنٌ بي كافرٌ بالكواكب ومن قال مُطرنا بنوء كذا وكذا فهو كافرٌ بي مؤمنٌ بالكواكب.» وتاكيدا لما أقول فإنّ المستبد دائما ما إذا قال كلاما ترى فيه قبولا لك وطمأنة إلى أنه راض وأنك أجبتَ مطالبه وحققتَ رغبته وأن الأمرَ بينكما على خير حال وإذا رآك استرحتَ إلى هذا الهاجس فإنه لا يلبث أن يعالجك

بعبارات فيها من التوجّس والقلق كأنه يُحذّرك بأنك أنت الذى خالفت المتفق عليه وأنت الذى جلبت على نفسك ما تستحق من الهجر والعقوبة وأرى أنّ ذلك واضحٌ من تصريح وزير خارجية أمريكا (كيرى) في زيارته الأخيرة لمصر أواخر شهر ٦ / ٢٠١٤م وما تبِعها خلال جولته في بلادٍ أخرى.

وبعد. أرجو أن نعود إلى صلح الحديبية وأرجوك قبل أن نسرد وقائع التاريخ فيما جرى أرجوك أن تتخيل مجلس النبي ﷺ لمّا ورد إليه بُديل بن ورقاء وما ردّ به على قريش وما قالته له ثم ما دار من الحوار والوصف من عروة بن مسعود ووصفه لمجلس النبي ﷺ بين صحبه وكلام عروة بن مسعود للنبي ﷺ وما رجع به إلى قريش. هؤلاء نفرٌ وردوا إلى رسول الله ﷺ من قبَلِ قريش فلنأت إلى رسلٍ أرسلها رسول الله ﷺ إلى قريش وأولهم خراش بن أمية حين أرسله النبي ﷺ على جملٍ له فقابله عكرمة بن أبي جهل فعقر الجمل وعاد خراش ولم يتم مهمّته وقبلَ أن أحكي لك عن رسلٍ أخرى أرسلها النبي ﷺ إلى قريش أريدُ أن أقصّ عليك ما آل إليه أمرُ عكرمة وتلك طبيعة من طبائع الاستبداد فإنّ المستبدّ دائما ما لا تحدُّ أطماعَهُ حدود ولا تقفُ أمامَ شهوته في الانتقام وقسوته حواجز إلا أنه عندما يفشل في تحقيق مطامعه يصيبُه اليأس فلا يكادُ يرى ملجأ إلا بالخلاص من حياته وهكذا تاريخ كل المستبدين الفاشلين كما نسمع عن نهاية (هتلر) و(كروسر) وغيرهم وفي نفس الطريق سار عكرمة فبعدَ أن فشلَ هو وقريش في تحقيق مآربهم من رسول الله ﷺ وبعدَ أن دخلَ النبي ﷺ مكة منتصرا فلم يجد عكرمة ملجأ إلا أنه فرّ هو ومن على شاكلته يبغي أن يلقي نفسه في البحر فلجأت زوجته إلى رسول الله ﷺ تطلبُ له الأمان فقبلَ النبي ﷺ رجاءها وعفا عنه فهُرعَتْ إلى عكرمة تعدو خلفه، وأدركته قبل أن يلقي نفسه في البحر فصرخت فيه قائلة وهي تناديه: جئتك من عند خير الناس وأفضل الناس وأرحم الناس جئتك من عند رسول الله ﷺ قد عفا عنك وأمّنك. وثاب إلى رشده عكرمة واطمأنت نفسه وعاد إلى رسول الله ﷺ وأعلن إسلامه وكان ما كان من أمره.

نعودُ إلى رسل رسول الله ﷺ إلى قريش بعد أن عاد خراش بن أمية عرض رسول الله ﷺ على عمر بن الخطاب أن يرسله إلى أهل مكة لكنّ عمر بن الخطاب اعتذر لأنّ عداوته إلى قريش ظاهرة وأنه يخاف على نفسه من أهل مكة وليس من قبيلته بمكة من يضُدّ عنه وأشار إلى رسول الله ﷺ بأنّ عثمان بن عفّان أصلحُ من يقومُ بهذه المهمة وأنّ له في مكة من يُدافعُ عنه. ومن الغريب الملفت للنظر أن رسول الله ﷺ لمّا قبلَ مشورة عمر وهو يرسلُ عثمانَ إلى مكة أوصاه النبي ﷺ بأنّ في مكة أناس مؤمنون يُخفون إسلامهم أوصاه النبي ﷺ بأنْ يقابلهم وأن يُطمئنهم بأنّ النصر آتٍ قريب وأنّ

الله مظهرٌ دينه بمكة فلا يستخفي أحد.

وأحبُّ أيها القارىء الكريم أنْ أخبرك برسل قريش إلى رسول الله ﷺ وأوّلهم بُديل بن ورقاء ومعه وفدٌ من رجال خُزاعة فجلس إلى رسول الله ﷺ وقال له: جئتك من عند قومك قد استنفروا لك الأحابيش ومن أطاعهم قد نزلوا مياه الحُديبية. وحذّره من أنّهم يُقسمون بالله لا يُخلّون بينك وبين البيت فقال رسول الرحمة ﷺ: «إنّا لم نأتِ لقتال أحد وإنّما جئنا لنطوف بهذا البيت - فليس في نية رسول الله ﷺ القتال لكن إذا فُرض عليه القتال وصُدّ عن البيت عنوة فلا بأسَ بالقتال إذاً - من صدّنا عنه قاتلناه....» إلى آخر ما قاله ﷺ. فوعى بُديل مقالة رسول الله ﷺ وعاد ومن معه إلى قريش فقال أناس من جموع المستبدين: هذا بُديل وأصحابه إنما يريدون أن يستخبروكم فلا تسألوهم عن حرف واحد. فلما رأى بُديل أنهم لا يسألونهم فقال: إنّما جئنا من عند محمد أتحبُّون أن نخبركم؟ فقال عكرمة بن أبي جهل في صَلَفٍ وغرور: وما لنا حاجة بأن تخبرونا عنه ولكن أخبروه عنّا إنّه لا يدخلها علينا عامه هذا حتى لا يبقى منّا رجل واحد. وأشار عليهم عروة ابن مسعود بأن يسمعوا كلام بُديل فإن أعجبهم قبلوه وإن لم يعجبهم تركوه وفي النهاية طلب منهم عروة بن مسعود أن يكون رسولهم إلى رسول الله ﷺ فبعثته قريشٌ إلى رسول الله ﷺ فجاء وأخذ يصف عُدَدَ قريش وعنادها وأنّها جاءت للقتال ثم أخذ يرهن من أصحاب محمد وقال والله لا أرى معك وجوها وإنّي لا أرى إلّا أوباشا وخليقا أن يفروا ويَدَعوك.

وغضب أبو بكر رضي الله عنه وكان قاعدا خلف رسول الله ﷺ وسبَّ عروة ثم قال: أنحنُ نُخذلُه أو نفرُّ عنه؟ فقال عروة كأنّه يستخف بأبي بكر فقال: من هذا؟ قالوا: أبو بكر. فقال عروة: أما والله لولا يدٌ لك عندي لم أجزك بها لأجبتك.

وكان عروة كلّما كلّم رسول الله ﷺ مسّ لحية رسول الله ﷺ والمُغيرة بن شُعبة قائم على رأس رسول الله ﷺ بالسيف يقْرعُ يدَ عروة بمقبض السيف ويقول له: أكفُفْ يدك عن لحية رسول الله ﷺ قبل أن لا تصل إليها فإنه لا ينبغي لمشرك أن يمسّه. فلمّا أكثرَ عليه غضب عروة وقال: ويحك! ما أفظعك! وما أغلظك! ثم قال: ليت شعري من هذا الذي آذاني بين أصحابك؟ والله لا أحسَبُ فيكم ألم منه ولا أشرَّ منه. فتبسّم رسول الله ﷺ - ما أرحمكَ يا سيدي يا رسول الله وأطيبُ مجلسك كم أنت حليم ودود؟ - وقال: «هذا ابن أخيك المُغيرة بن شُعبة» فقال عروة: وأنت بذلك يا غُدر. ثم قال: لقد أورثتنا العداوة من ثقيف إلى آخر الدهر.

وكان عروة ينظر إلى أصحاب النبي ﷺ بعينيه ويقول: والله ما تنخّم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده وإذا أمرهم بأمر ابتدروا أمره ولا توضأ، إلا كادوا يقتتلون على وضوئه ولا يسقط شيء من شعره إلا أخذوه وإذا تكلّم خفضوا أصواتهم عنده وما يحدّون النظر إليه تعظيما له - أي إنّهم لا يرمقونه بأنظارهم هيبة له ولذلك فإن أكثر ما ورد من أوصاف النبي ﷺ الخَلْقيّة كانت من صغار الصحابة ولم يرد من وصف هيئته ووجهه من كبار الصحابة شيء فكان أدق وصف ورد للنبي ﷺ كان من أم معبد حيث إنها لم تكن أسلمت بعد - ولمّا انتهى عروة من مجلس رسول الله ﷺ فقال: يا قوم إني وفدتُ إلى الملوك كسرى وقيصر والنجاشي وإني والله ما رأيت ملكا قط أطوع فيما بين ظهرانيه من محمد في أصحابه والله ما رأيت ملكا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً وليس محمد بملك ووالله ما تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده وإذا أمرهم بأمر ابتدروا أمرَه وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه أيهم يظفر منه بشيء ولا يسقط شيء من شعره إلا أخذوه وإذا تكلّم خفضوا أصواتهم عنده ولا يحدّون النظر إليه تعظيما له ولا يتكلّم رجل منهم حتى يستأذن فإن هو أذن له تكلم وإن لم يأذن له سكت وقد عَرَضَ عليكم خُطّة رُشد فاقبلوها قد حَرَزْتُ القومَ.

ثم أراد أن ينبهه من غُلَوائهم وغرورهم بقوّتهم وأنهم تصوّروا أن أصحاب محمد يفرّون عنه فقال: «واعلموا أنكم إنْ أردتم السيف بذلوه لكم وقد رأيت قوما لا يبالون ما يُصنعُ بهم إذا منعتم صاحبهم والله لقد رأيت معه نساء ما كُنّ ليسلمنه أبدا على حال، فروا رأيكم فأتوه يا قوم واقبلوا ما عَرَضَ عليكم فإني لكم ناصح - ثم رأى أن ينبههم بخطر إن يصدّوا من أتى البيت زائرا معظما فقال: «إني أخاف أن لا تُنصروا على رجل أتى زائرا لهذا البيت معظما له معه الهدى ينحره وينصرف. فقالت قريش: لا تتكلم بهذا يا أبا يعفور. لو غيرك تكلم بهذا، ولكن نردّه عامنا هذا ويرجع إلى قابل. فقال: ما أراكم تُصيبكم قارعة.

فانصرف هو ومن تبعه إلى الطائف. ثم أرسلت قريشٌ (الحُليس) رأس الأحابيش فلمّا أشرف قال رسول الله ﷺ: «هذا من قومٍ يُعظمونَ البُدن ويتألّهون فابعثوها له» فلمّا رأى الهدى يسيل عليه من عُرض الوادي واستقبله الناس يلبّون صاح وقال: سبحان الله! ما ينبغي لهؤلاء أن يُصَدّوا عن البيت يأبى الله أن تحج لخم وجزام وكندة وحمير - يعني قبائل العرب - ويُمْنَع ابن عبد المطلب، ما ينبغي لهؤلاء أن يُصدّوا عن البيت. هلكت قريش ورب الكعبة. ثم رجع لقريش وقال: إني رأيت ما لا يحل منعُه والله ما على هذا حالفناكم ولا عاقدناكم ولا أن تصدّوا عن البيت من جاءه معظما له مؤديا لحقه والذي نفسي بيده لَتُخَلُّنّ بينه وبين ما جاء له أو لأنفرنّ الأحابيش نفرة رجل واحد - واستبدت بقريش طبيعة الاستبداد والغطرسة فقالوا للرجل في غلظة وكبرياء: «كفَّ عنّا يا حُليس حتى تأخذ لأنفسنا ما ترضى. يا حُليس إنّما أنت أعرابي لا علمَ لك. فما رأيت من محمد مكيدة».

وإلى لقاء قادم إن شاء الله نرى فيه ما آلت إليه سفارة سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه

شوال ١٤٣٥هـ
أغسطس ٢٠١٤م

حث الإسلام على الإخلاص (٢)



فضيلة الشيخ فوزي فاضل الزفزاف
عضو مجمع البحوث الإسلامية

الإخلاص هو تصفية السر والقلب والعمل، والخالص هو الذي لا باعث له إلا طلب الحق، والإخلاصُ لا يكون إلا بعد الدخول في العمل، والإخلاصُ لله هو: ألا يفعل المخلص فعلا إلا لله تعالى.

والإخلاص أربعة أقسام: إخلاص في الأقوال، وإخلاص في الأفعال، وإخلاص في الأعمال أي العبادات، وإخلاص في الأحوال، أي إلهامات القلب وواردات الغيب، والدين الشامل لكل هذا.

وباعتبار أن الإخلاص التزام حيوي أكثر مما هو تصور نظري، فإن موقف الإخلاص يستلزم عدة أمور، هي:

● الأمر الأول: الاستمرارية: حيث إن حياة الإنسان عبارة عن تواصل واستمرار، ومواقف الحياة مستمرة ومتكاملة؛ ولذا لا ينبغي أن ينفك الإخلاص أو يتبعثر؛ لأنه لا يتعلق بالموقف المعاصر فقط، ولا بالماضي فقط، ولا بالمستقبل فقط، وإنما هو موقف مستمر... ومن ثم كانت الاستمرارية صفة أساسية في الإخلاص.

ولذا ذم القرآن الكريم المخادعين الكذابين الذين لا يداومون على الإخلاص في العبادة، يقول الله تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

(يونس: ٢٢، ٢٣)

أي: هو سبحانه وتعالى الذي يسيركم بقدرته ورحمته في البر والبحر، بواسطة ما وهبكم من قدرة على السير، أو بواسطة ما سخر لكم من دواب وسفن وغيرهما مما تستعملونه في سفركم... وكل ذلك من أجل

مصلحتكم ومنفعتكم، حتى إذا كنتم في إحدى مرات تسييركم راكبين في السفن التي سخرها الله لكم، وجرت هذه السفن بمن فيها بسبب الريح الطيبة متجهة إلى المكان الذي تقصدونه، وأنتم في حالة فرح غامر وسرور شامل، جاءت ريح عاصف شديدة السرعة والتقلب، وارتفع الموج إلى السفن من كل مكان، واعتقد ركابها- الذين كانوا منذ قليل فرحين مبتهجين - أنهم قد أحاط بهم الهلاك كما يحيط العدو بعدوه... وفي تلك الساعات العصيبة، واللحظات الحرجة توجهوا إلى الله قائلين:

«نقسم لك يا ربنا، ويا من لا يعجزك شيء، لئن أنجيتنا من تلك الأهوال التي نحن فيها لنكونن من الشاكرين لك، المطيعين لأمرك المتبعين لشرعك؛ وهنا وبعد هذا الدعاء العريض هدأت العاصفة وانخفضت الأمواج، وسكنت النفوس بعض السكون، ووصلت السفن إلى شاطئ الأمان... فماذا كانت النتيجة؟ كانت كما صورها القرآن الكريم

﴿فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾

أي: فحين أنجاهم الله تعالى بفضله ورحمته من هذا الكرب العظيم الذي كانوا فيه إذا هم يسعون في الأرض فسادا ويرتكبون البغي الفاضح الذي لا يخفى قبحه على أحد، وجاء التعبير بالفاء وإذا الفجائية للإشعار بأنهم قوم بلغ بهم اللؤم والجحود، أنهم بمجرد أن وطئت أقدامهم بر الأمان نسوا ما كانوا فيه من أهوال، وسارعوا إلى الفساد في الأرض، دون أن يردعهم رادع، أو يصدهم ترغيب أو ترهيب... ولذا خاطبهم الله بأسلوب التهديد والوعيد:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

(يونس: ٢٣)

أي: يا أيها الذين تضرعتم إلينا في ساعات الشدة، وهرولتم إلى البغي والفساد بعد زوال تلك الشدة، اعلموا أن بغيكم هذا مرجعه إليكم لا إلى غيركم، فأنتم وحدكم الذين تتحملون سوء العاقبة في الدنيا والآخرة، واعلموا أن هذا البغي إنما تتمتعون به متاع الحياة الدنيا التي لا بقاء لها، وإنما هي إلى زوال وفناء، وأن مردكم إلينا بعد هذا التمتع الفاني فنخبركم يوم الدين بكل أعمالكم، وسنجازيكم عليها الجزاء الذي تستحقونه..

● الأمر الثاني: التكامل: من الأمور التي يستلزمها الإخلاص، والتكامل، يعني انضواء الشخص بكل مكوناته في أهداف وجوده المستمدة من الإطار الإسلامي للحياة، حتى يتمكن من بلوغ أكبر درجة ممكنة من صياغة الذات بطريقة متكاملة، وذلك عبر محبة قوية لله وللحق والحقيقة وللآخرين المخلصين، هذا إلى جانب التكامل بين النية والفعل يقول الله تعالى:

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾

(الزمر: ١١-١٥)

في هذه الآيات الكريمة يأمر الله رسوله الكريم أن يبين للناس وأن يوضح لهم ما أمره به خالقه جل وعلا بأن يقول لهم: إني أمرت من قبل الله عز وجل أن أعبده عبادة خالصة لا مجال فيها للشرك أو الرياء أو النفاق أو الكذب أو الخداع أو غير ذلك مما يتنافى مع الإخلاص في الطاعة التامة لخالقي، كما أمرني ربي أن أخلص له العبادة إخلاصا تاما وكاملا، لكي أكون على رأس المسلمين حتى يقتدي بي الناس في إخلاصي وطاعتي لله عز وجل...

ولتأكيد طلب الإخلاص لله في الطاعة والعبادة بينت الآيات الكريمة سوء عاقبة الشرك والمشركين، فطلبت من الرسول الكريم أن يقول للناس: إني أخاف إن عصيت ربي فلم أخلص له الطاعة والعبادة، أخاف عذاب يوم عظيم الأهوال، شديد الحساب، وهو يوم القيامة، ولذلك فأنا لشدة خوفي من عذاب خالقي أكثرهم إخلاصا له، وامتثالا لأمره، ومحافظة على طاعته في كل أحوالي، فأنا أعبده وحده عبادة خالصة لا يحوم حولها شرك، ولا يخالطها شيء من الرياء أو التكلف...

قال الجمل - رحمه الله -: أمر الله [1] تعالى رسوله ﷺ:

- أولا: بأن يخبرهم بأنه مأمور بالعبادة والإخلاص فيها.
- وثانيا: بأن يخبرهم بأنه مأمور بأن يكون أول من أطاع وانقاد وأسلم.
- وثالثا: بأن يخبرهم بخوفه من العذاب على تقدير العصيان.
- ورابعا: بأن يخبرهم بأنه امتثل الأمر وانقاد وعبد الله تعالى وأخلص له الدين على أبلغ وجه وآكده، إظهارا لتصلبه في الدين، وحسما لأطماعهم الفارغة، وتمهيدا لتهديدهم بقوله:

﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ﴾

فالأمر هنا للتهديد والتقريع، والمعنى: إذا كان الأمر كما ذكرت لكم - أيها المشركون - من أني أول المسلمين وجوههم لله تعالى وحده، فاعبدوا ما شئتم أن تعبدوه من دونه فسترون عما قريب سوء عاقبة شرككم وجحودكم لنعم الله تعالى، وسيتبين لكم سوء عاقبة من أعرض عن دعوة الحق، وأنهم هم الخاسرون الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة بدخولهم النار، وحرمانهم من النعيم الذي أعده الله لعباده المؤمنين، وأنه ليس الخاسرون هم الذين أخلصوا طاعتهم وعبادتهم لله وحده - كما زعمتم وادعيتم.

قال الفضيل بن عياض في تفسير قوله تعالى:

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾

[الملك: ٢]

هو أخلصه وأصوبه. قالوا: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ فقال: إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل، حيث يكون خالصا صوابا. الخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة. ثم قرأ قوله تعالى:

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾

[الكهف: ١١٠].

يتبع

(١) حاشية الجمل ج٣ ص٥٣٤.

غزوة بني قينقاع

[١٥ من شوال ٢هـ - ٢٦ من مارس ٦٢٤م]

إعداد / أ. عبدالله كمال نصير

ونحن نتابع الأخبار الدامية التي تؤذي أسماعنا بأنباء مقتل العشرات بل المئات من إخواننا أهل غزة، ومئات الجرحى كذلك، تعود بنا الذاكرة إلى حدثٍ من أحداث السيرة هو أقل مما يحدث في غزة بمئات المرات، ولكن سنرى كيف تصرَّف الرسول ﷺ معه؛ لندرك الفارق بين المفروض الذي يجب أن يحدث والواقع الذي نعيشه الآن، وندرك البون الشاسع الذي يفصلنا عن عصر الرجولة والنخوة.

غدر بني قينقاع

عندما دخل الرسول ﷺ المدينة، جمع يهود بني قينقاع وحذَّرهم من مغبَّة الطغيان والمخالفة المستمرة التي كانوا عليها، وقال لهم ﷺ: «يَا مَعْشَرَ يَهُودَ، أَسْلِمُوا قَبْلَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قُرَيْشًا». وهو ﷺ بذلك لا يكرههم على الإسلام أو على الإيمان، لكنه ﷺ يوضح لهم أن قريشا لما ظاهرت على أمر الله أذلَّها الله عز وجل. وهذا الأمر له بوادر كثيرة عند اليهود، فهم - دائمًا - يخالفون ويسيئون الأدب مع الأنبياء، بل ومع رب العالمين.

لكنّ ردّ فعل بني قينقاع كان عنيفا للغاية؛ إذ قالوا: «يَا مُحَمَّدُ، لاَ يَغُرَّنَّكَ مِنْ نَفْسِكَ أَنَّكَ قَتَلْتَ نَفَرًا مِنْ قُرَيْشٍ، كَانُوا أَغْمَارًا لاَ يَعْرِفُونَ الْقِتَالَ، إِنَّكَ لَوْ قَاتَلْتَنَا لَعَرَفْتَ أَنَّا نَحْنُ النَّاسُ، وَأَنَّكَ لَمْ تَلْقَ مِثْلَنَا».

فهذا إعلان واضح وصريح من اليهود بالحرب، ومخالفة صريحة وواضحة لبنود المعاهدة التي تنصّ على وقف الحرب بين الطائفتين، بل وتجعل من الواجب على اليهود أن يناصروا المسلمين في حربهم ضد من يغزو المدينة المنورة، سواء من قريش أو من غيرها، فهذه بدايات انشقاقات كبيرة داخل المدينة المنورة، ويصرّحون بأنهم على استعداد لحرب

الرسول ﷺ ويهددونه ويتوعدونه بذلك. وضع ذلك كله مع مواقف اليهود خلال السنتين السابقتين لهذا الموقف من التكذيب المستمر، والادعاء بالباطل على المسلمين وعلى آيات الله عز وجل وكلام الحبيب ﷺ.

فلما قال يهود بني قينقاع هذا الكلام، أنزل الله عز وجل في ذلك آيات بينات توضح العلاقة بين المسلمين واليهود خلال الفترة القادمة، قال الله تعالى:

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾

[آل عمران: ١٢]

وقد نزلت هذه الآيات في بني قينقاع:

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾

[آل عمران: ١٣]

ولأن بصائر اليهود مطموسة تمامًا، لم يفقهوا هذه الآيات ولم يهتموا بها، فكان هذا هو الموقف بين اليهود والمسلمين، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل تصاعد الأمر.

عندما قدمت امرأة من المسلمين إلى سوق بني قينقاع، وجلست إلى أحد الصاغة اليهود تبيع وتشتري منه، فجعل اليهود يريدونها على كشف وجهها، ورفضت المرأة المسلمة ذلك، فجاء أحد اليهود من خلفها وربط طرف ثوبها برأسها دون أن تشعر، وعندما وقفت انكشفت المرأة فصرخت، فجاء أحد المسلمين وقتل اليهوديّ الذي فعل ذلك، فاجتمع يهود بني قينقاع على المسلم وقتلوه، فكانت هذه بوادر أزمة ضخمة في داخل المدينة المنورة، فقد اجتمعت قبيلة بني قينقاع على قتل المسلم، بعد أن قاموا بجريمة كشف عورة المرأة المسلمة.

دولة كاملة تتحرك لأجل امرأة واحدة

وصل الأمر إلى رسول الله ﷺ، وعلى الفور جمع ﷺ الصحابة وجهز جيشًا، وانتقل سريعًا إلى حصون بني قينقاع، وحاصر ﷺ الحصون وفي داخلها بنو قينقاع، وأصرّ ﷺ على استكمال الحصار حتى ينزل اليهود على أمره ﷺ.

وقد حرّك رسول الله ﷺ هذا الجيش بكامله من أجل أن امرأة واحدة كُشفت عورتها، وما يؤلمني كثيرًا ليس فقط ما أرى من كشف عورات المسلمات في بقاع الأرض وفي أماكن كثيرة من العالم، ولكن تنتهك الحرمات إلى درجات القتل، وإلى درجة الاعتداء على المرأة، وأمور يستحي الإنسان من ذكرها، يحدث هذا كله ولا تتحرّك جيوش المسلمين.

ونلاحظ في موقف النبي ﷺ مدى عزة وكرامة الدولة الإسلامية، فقد حدث نوع من الامتهان لهذه الكرامة بهذه العملية الفاجرة من اليهود، فأخذ النبي ﷺ الأمر بمنتهى الجدّية، وانتقل بجيشه إلى حصار بني قينقاع مع احتمال سقوط دماء كثيرة؛ نتيجة القتال مع بني قينقاع وهم من أصحاب السلاح والقلاع

والحصون والبأس الشديد في الحرب، وقد رأى رسول الله ﷺ أن كل هذا ثمن رخيص للغاية في مقابل حفظ كرامة الدولة الإسلامية.

وبدأ الحصار في يوم السبت نصف شوال سنة ٢هـ، بعد أقل من شهر من غزوة بدر الكبرى، وظل ﷺ محاصرًا لبني قينقاع أسبوعين كاملين، إلى أن ظهر هلال ذي القعدة، وقذف الله عز وجل الرعب في قلوب اليهود، فنزلوا على حكم الرسول ﷺ، وكان حكمه ﷺ في ذلك الوقت هو قتلهم لهذه المخالفة الشنيعة التي فعلوها، ليس فقط لكشف وجه المرأة المسلمة، ولا لقتل المسلم، لكنها تراكمات طويلة جدًا، فهم منذ أن دخل الرسول ﷺ وهم في مخالفات مستمرة، وسبّ علنيّ لله ولرسوله الكريم، وللصحابة وإثارة الفتن بين المسلمين، فكان لا بد من وقفة معهم.

واقعية المنهج الإسلامي

وجد الرسول ﷺ في هذا الوقت أن قوة المسلمين تسمح بردع اليهود، فانتقل ﷺ إلى حصارهم وقتالهم، وإذا قارنا هذا الموقف مع موقف سابق مرّ بنا في العهد المكي؛ وهو قتل السيدة سميّة أم عمار بن ياسر رضي الله عنهم، واكتفى النبي ﷺ بقوله:

«صَبْرًا آلَ يَاسِر؛ فَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ الْجَنَّةُ».

ولم يحرك ﷺ مجموعة الشباب المسلم الذي كان موجودًا في فترة مكة لقتال أبي جهل؛ لأنه ﷺ يعلم أن القوة الإسلامية لا تسمح بهذا الأمر في ذلك الوقت، لكن الآن فرض القتال على المسلمين وأُمر به، بل وقوة المسلمين تسمح بهذا الأمر، فاختار الرسول ﷺ هذا القرار.

فإذا أردنا أن نتأسى به ﷺ في علاقاتنا مع المشركين أو مع اليهود أو مع أعداء الأمة بصفة عامة، فعلينا أن ندرس جيدًا الموقف الذي أخذ فيه الرسول ﷺ القرار، أيًا كان هذا القرار.

النفاق يتعانق مع اليهود

نزل اليهود على حكم رسول الله ﷺ وخرجوا من حصونهم، وكان القرار هو قتل بني قينقاع.

وهنا جاء عبد الله بن أُبي بن سلول، ولم يكن قد أسلم إلا منذ أيام قليلة، فهو لم يسلم إلا بعد بدر، وكان حليفًا لبني قينقاع، وطلب من الرسول ﷺ أن يحسن في مواليه بني قينقاع، ورفض رسول الله ﷺ ذلك؛ لأن ما فعلوه إنما هو جريمة عسكرية كبرى، وفتنة كبيرة تحدث في المدينة، وقد أخذ الرسول ﷺ القرار، فكرّر ابنُ أُبيّ ما يريد مرة وثانية وثالثة، ثم أدخل يده في جيب درع رسول الله ﷺ فقال له الرسول ﷺ: «أرسلني». وغضب ﷺ غضبًا شديدًا، وقال له: «وَيْحكَ! أرسلني». لكن هذا المنافق أصرّ على إمساك الرسول ﷺ، وقال له: «لا والله لا أرسلك حتى تحسن في مواليّ؛ أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود، وتحصدهم في غداة واحدة، إني والله امرؤ أخشى الدوائر».

قال ابن أُبيّ هذا الكلام هكذا بمنتهى الصراحة، فقد كان هذا المنافق حليفًا لبني قينقاع، وكان لهم جيشٌ قوامه سبعمائة رجل؛ أربعمائة حاسر (أيْ: من غير دروع)، وثلاثمائة دارع، وهؤلاء السبعمائة قد منعوه -كما يقول- من الأحمر والأسود. فهذه -إذن- هي القوة الأساسية المساعدة لعبد الله بن أبيّ زعيم الخزرج قبل أن يأتي الرسول ﷺ، وهذه القوة تمنعه من كل الناس، ورسول الله ﷺ قد قرر أن يقتلهم جميعًا في لحظة واحدة. ويقول المنافق: وربما تدور الدوائر على المدينة بعد ذلك فلا أجد من يحميني. فهو لم يفكر في الرسول ﷺ ولم يفكر في الجيش الإسلامي، ولم يفكر في انتمائه، وإنما كان تفكيره في عقائده الجاهلية التي كان عليها، وكانت علاقته باليهود أشد توثيقًا من علاقته برسول الله ﷺ، ومع ذلك كان يعذره رسول الله ﷺ؛ لأنه كان ما زال حديث الإسلام، وكان النبي ﷺ يؤمِّل كثيرًا فيه، وخاصةً أن خلفه مجموعة كبيرة من الناس، فعامله ﷺ بالحسنى في هذا الموقف، وقَبِل منه أن يفتدي هؤلاء، ولكن النبي ﷺ اشترط أن يترك اليهود من بني قينقاع المدينة المنورة بكاملهم، وقَبِل اليهود بذلك، وخرجوا من المدينة المنورة إلى منطقة تسمى (أذرعات) بالشام، ويقال: إنهم قد هلكوا هناك بعد فترة وجيزة. وبهذا انتهت قصة بني قينقاع من المدينة المنورة.

وقفات مع جلاء بني قينقاع

لم يقف رسول الله ﷺ هذه الوقفة الجادة والقوية مع اليهود، إلا بعد أن اطمأنّ تمامًا على قوة المسلمين اقتصاديًا وعسكريًا. فقد أصبح السوق الإسلامي موجودًا وقويًا، بينما كانت التجارة في السابق في سوق بني قينقاع. وتخيَّل كيف يكون الحال إذا كانت التجارة معتمدة على بني قينقاع حتى هذا الوقت، لكن الرسول ﷺ أمّن هذا الجانب من أول أمره، ومنذ وصوله إلى المدينة المنورة.

أصبح الماء -أيضًا- ملكًا للمسلمين، وقد كان في السابق لليهود، وتعرف جميعًا قصة بئر رومة.

والجيش المسلم يعتمد اعتمادًا كُلّيًا على أفراده، لا يعتمد على معونات خارجية، ولا على أيّ مساعدات من خارج المهاجرين والأنصار، بينما كان عبد الله بن أبي بن سلول زعيم المنافقين يعتمد على اليهود في حمايته. وكان هذا الوضع مؤهِّلًا لرسول الله ﷺ أن يأخذ قرار الحرب بسهولة.

لم يتساهل الرسول ﷺ مطلقًا مع اليهود بعد موقفهم مع المرأة المسلمة، ومع الرجل المسلم الذي قُتل، وكان ما فعله اليهود مخالفة صريحة للمعاهدة المبرمة بينهم وبين رسول الله ﷺ، ولو سكت الرسول ﷺ على مخالفة اليهود للمعاهدة المرة تلو الأخرى؛ فإن اليهود من دون شك سيزيدون من تطاولهم، ويدخلون في مرحلة أخرى من الاستهزاء بالدولة الإسلامية وكرامة الأمة الإسلامية.

اليهود بين الأمس واليوم

من طبائع اليهود الثابتة التي لا ينفكون عنها بحال من الأحوال؛ التطاول الدائم واتخاذ المواقف المعادية كلما زاد سكوت المسلمين عن مخالفاتهم، وقد رأينا هذا في اليهود قديمًا وحديثًا، وسنظل نراه منهم إلى يوم القيامة.

رأينا في العصر الحديث عندما خالف اليهود القوانين الإسلامية، وبدءوا بالهجرة إلى فلسطين مع أن هذا الأمر كان ممنوعًا عليهم، ولكن لأن المسلمين سكتوا عن هذا الأمر، تملَّك اليهود الاقتصاد الفلسطيني في داخل فلسطين كلها، ومع سكوت المسلمين استقدم اليهود السلاح الخفيف إلى داخل فلسطين، ثم استقدموا السلاح الثقيل، ومع استمرار سكوت المسلمين جاء قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين بين اليهود والمسلمين، ثم إقامة إسرائيل سنة ١٩٤٨م، وحرب ١٩٥٦م، ١٩٦٧م، ١٩٨٢م في لبنان. وهكذا كلما سكت المسلمون أخذ اليهود جزءًا أكبر.

كنا في الماضي نطالب بالعودة إلى حدود التقسيم، ثم بعد ذلك نطالب بالعودة إلى حدود ٦٧، ثم نطالب بالعودة إلى حدود الانتفاضة، وإذا كان اليهود اليوم يقيمون جدارًا عازلًا، فإننا ربما نطالب في المستقبل بالعودة إلى حدود الجدار العازل.

فهذا التساهل مع اليهود هو الذي أدى إلى ما آلت إليه أحوالنا اليوم.

وقد تجنَّب الرسول ﷺ كل هذه المأساة، وأخذ قرارًا سريعًا وحاسمًا بحصار بني قينقاع، ومعاقبتهم بالطريقة التي شُرعت في المعاهدة التي بينه وبينهم قبل ذلك بسنتين.

قوة العلاقة بين اليهود والمنافقين

هذا هو الملمح الثالث الذي نلاحظه في قضيه بني قينقاع، فمع أن المنافقين لا يختلفون عن المسلمين في أسمائهم وأشكالهم، إلا أنهم يتعاملون مع اليهود بمنتهى الحمية والقوة؛ وذلك لأنهم يبطنون الكفر ويظهرون الإسلام. وقد استغل اليهود هذه العلاقة في أيام رسول الله ﷺ وبعد أيامه ﷺ، وإلى زماننا الآن وإلى يوم القيامة؛ علاقة وطيدة وأكيدة بين اليهود والمنافقين، وهذا ما أخبر به الله تعالى في كتابه بتعبير واضح وعجيب جدًا، قال الله تعالى:

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾

[الحشر: ١١]

فجعل الله عز وجل المنافقين إخوانًا للذين كفروا من أهل الكتاب، فهذا الأمر في غاية الوضوح في كتاب رب العالمين، وفي خطوات النبي ﷺ، وفي سيرته العطرة كما ترى، فكان هذا ما فعله الرسول ﷺ مع بني قينقاع.

مكتبة مجلة الأزهر

إعداد الأستاذ: محمد شعبان

تسعى «الأزهر» عبر هذا الباب إلى التواصل مع القارئ العزيز من خلال تقديم نبذة عن أحدث الإصدارات الجادة في شتى مجالات المعرفة، ذلك للمساهمة في تكوين عقلية واعية وعصرية



يعد كتاب «البراهين الساطعة في رد بعض البدع الشائعة» للعلامة الراحل سلامة العزامي من أقوى الردود الأشعرية والصوفية على ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، في كثير من المسائل التي اعتبرها الرجلان بدعا دخيلة على الإسلام.

يوجز العلامة محمد زاهد الكوثري في مقدمة الكتاب - الذي أعادت مكتبة الآداب نشره مؤخرا - النقاط التي عالجها المؤلف، فيقول: «كشف المؤلف عن شبه أهل التشبيه والاستواء والنزول وحديث الجارية في السؤال بـ(أين)، ودافع عن براءة الإمام أحمد من القول بالتجسيم والجهة ونحوهما، والرد على إنكار خلود الكفار في النار، والرد على من يزعم سقوط القضاء عمن ترك الصلاة عمدا بأوضح حجة، والرد على من أنكر الزيارة النبوية بأوسع معاني الرد، وبيان مخالفة ذلك لإجماع أهل الهدى، وخطأ ابن تيمية في فهم حديث (لا تشد الرحال) وحديث (اتخاذ القبور مساجد) وحديث (لا تتخذوا قبري عيدا) وقول البيضاوي في بناء المساجد في جوار الصالحين، وإقرار الحافظ ابن حجر التوسل بالأنبياء والصالحين بتوسع، وحكم النذر في مذهب الشافعي رضي الله عنه وحكم إهداء ثواب الأعمال».



تؤكد د. عادة أنيس البياع على أن ارتباط الدول النامية ومنها أفريقيا بالاقتصاد العالمي الرأسمالي قد تسبب في تعرض هذه الدول لصدمات اقتصادية عنيفة أثرت على مسيرة النمو والتنمية بها.. وتدعو البياع في كتابها «أزمات الرأسمالية العالمية وأثرها على التنمية في إفريقيا» للنظر في تأثير ارتباط الدول الإفريقية بالنظام الرأسمالي العالمي.

يقول د. سمير أمين الاقتصادي المصري الشهير في تقدمته للكتاب الصادر عن مكتبة جزيرة الورد: «الرأسمالية ليست نظاما يهدف إلى زيادة الإنتاج والإنتاجية إلى الحد الأقصى ولكنها نظام يختار أحجام الإنتاج وظروفه التي تضاعف معدلات ربح رأس المال إلى أقصى حد لها. إن الدول المسماة بالمهمشة - يقصد أفريقيا - هي في حقيقة الأمر الدول الأكثر تعرضا للاستغلال بأكثر الطرق وحشية وبالتالي فهي الدول التي تم إفقارها وليست الدول الموجودة على هامش النظام العالمي».



يرصد كتاب «الثورة العلمية» الصادر ضمن سلسلة «مقدمة قصيرة جدا» التي تقدمها دار كلمات عربية، ما شهده القرنان السادس عشر والسابع عشر من تحولات بارزة فيما يتعلق بالتفكير في العالم الطبيعي وموقع البشرية فيه، وهو ما عُرف باسم «الثورة العلمية». وفي هذا الكتاب، يطرح لورنس إم برينسيبي - مؤلف العمل - تقييما لهذه الفترة المهمة. لا يقتصر طرح برينسيبي على الرموز الشهيرة أمثال كوبرنيكوس، وديكارت، وجاليليو، ونيوتن، بل إنه يستكشف التغيرات التي شهدها كل جانب من جوانب الرؤية الكونية السائدة فيما يتعلق بالسحر، والعالم الحي، والإنسان، والنجوم، والمادة والحركة، ويرسم ملامح تطور الأساس المهني للعلم الحديث... وعن طبيعة هذه المرحلة يقول المؤلف: «سل عشرة من المتخصصين في تاريخ العلم عن طبيعة تلك الفترة ومداها وتأثيرها ومن المرجح أن تحصل على خمسة عشر إجابة»... جدير بالذكر أن إصدارات سلسلة «مقدمة قصيرة جدا» تضم تعريفات مبسطة وشاملة لمختلف نواحي المعارف الإنسانية من علوم طبيعية وعلوم إنسانية وحضارية.

مشكلات العالم الإسلامي
ومعالجاتها في فكر مالك بن نبي

«يهدف هذه الدراسة بيان منهج مالك بن نبي في تناوله لمشكلات العالم الإسلامي التي لا تزال محل اختلاف بين علماء الاجتماع والتاريخ والمفكرين، وفي تناوله لشروط النهضة وعوائقها» بهذه الكلمات يقدم د. عصام محمد عدوان كتابه «مشكلات العالم الإسلامي ومعالجاتها في فكر مالك بن نبي» الصادر عن مكتبة مدبولي.

حاول المؤلف جمع شتات آراء مالك بن نبي من مختلف أعماله حول مشكلات العالم الإسلامي المعاصر وفي مقدمة هذه الكتب كتاب «شروط النهضة».

من أبرز النقاط التي توقف عندها المؤلف موقف ابن نبي من المشكلة الثقافية في العالم العربي والإسلامي المعاصرين حيث يرى مالك أن المجتمعات العربية والإسلامية مثقلة بالتقاليد والخرافية اللغوية والجدل والعادات المتخلفة المتراكمة والنزعة إلى التكلم والاهتمام بالشعر على حساب غيره.



يطوف العالم الروسي جورج جاموف في كتابه «واحد.. اثنان.. ثلاثة.. لا نهاية» بجميع أركان العلوم الطبيعية.. من أدق دقائق المادة ومكونات الذرة إلى أبعد النجوم والسدم ومن التفكير المجرد البحت في الرياضيات والأعداد والنسبية إلى تجارب الحياة اليومية ومشاهدها.

الكتاب الصادر مترجما عن مكتبة الأسرة موجه للقارئ غير المتخصص بالأساس لكن لا يخلو من فائدة للمتخصصين.. يقول مراجع الكتاب د. محمد مرسي: «أبرز ما في الكتاب نظرة المؤلف إلى القانون العلمي الصحيح بأنه محدود بالتجارب والمشاهدات التي استخلص منها وبني عليها؛ فلا يجوز دون مشاهدات جديدة تعميمه وتطبيقه على ما هو أبعد من تلك المشاهدات دون حذر وحيطة». ويمضي مقدم الكتاب: «ساق لذلك المثل المشهور: كيف أن قوانين حركة الأجسام وقد صاغها الإنسان نتيجة تجاربه ومشاهداته على الأجسام العادية التي يصادفها في حياته اليومية وأمكن تطبيقها على حركة الكواكب والأجرام السماوية.... ولما جاء دور تعميمها وتطبيقها على حركة الدقائق التي تدور حول نواة الذرة - لم تفلح تلك القوانين».

خميلة الشعر



للأستاذ / محمد عبدالوهاب

الصومُ والفِطرُ والأعيادُ والعُصُرُ
مُنيرةٌ بكَ ، حتى الشمسُ والقمرُ
تُرى الأهِلّةَ وجهًا عَمَّ نائلُهُ
فما يُخصُّ بهِ مِنْ دونها البَشَرُ
ما الدهرُ عندكَ إلّا روضةٌ أُنُفٌ
يا مَنْ شمائلُهُ في دَهْرِهِ زَهَرُ
ما ينتهي لكَ في أيّامِهِ كَرَمٌ
فلا انتهى لكَ في أعوامِهِ عُمُرُ
فإنّ حَظّكَ من تَكرارِها شَرَفٌ
وحظُّ غيرِكَ منها الشَّيْبُ والكِبَرُ

[المتنبي]

مطالعُ سعدٍ أم مطالعُ أقمارِ
تجلّتْ بهذا العيدِ أم تلكَ أشعاري
وأُنشِدُ أشعاري وإنْ قالَ حاسِدي
نعم شاعرٌ لكنه غيرُ مكثارِ
ويسلبُ أصدافَ البحارِ بناتُها
بنفثةِ سِحرٍ أو بخطوةِ أفكارِ
معانٍ وألفاظٌ كما شاءَ (احمدُ)
طوت جَزْلَ (بشّارٍ) ورِقّةَ (مَهْيارِ)
إذا نظرت فيها العيونُ حسبتَها
لحسنِ انسجامِ القولِ كالجدولِ الجاري

[حافظ ابراهيم]

ها نحن قد ودعنا شهر القنوت والصيام والاعتكاف والقيام ، لنستقبل هلال شوال وعيد الفطر ، الذى نسأل الله أن يجعله عيدا سعيدا مباركا ، وبشير خير وسعادة للمصريين وللعرب وللعالم المحب للسلام ، وأن يجنب البشرية ويلات الحروب والمهالك والإرهاب ، فلا أجدى ولا أنفع للبشرية من التسامح بين الأديان والعقائد ، فالله الذى وهب الإنسان حريته فى اختيار مذهبه وعقيدته أو حتى كفره وضلالته ، لايرضى ابدًا الإكراه فى الدين أو الإرهاب به ، وإنما يحث الناس على الجنوح للسلم وينهاهم عن العدوان على الناس ، وحرم سبحانه وتعالى القتل وسفك الدماء ، إلا بالحق ، كالدفاع عن النفس أو الأهل أو العرض أو المال أو الأوطان ، ونحمده جلّ وعلا أن ألهم الأسوياء من الناس حب الخير والميل إلى العدالة فوجههم للتعامل بالقضاء ليحكم بين الناس لإعلاء الحق وأهله ولدحر الظلم وتابعيه ، وليمنع الاقتتال بين الناس ؛ لهذا فعلى الإنسان المسلم أن يعى بأنه الرمز الحقيقى للسلام فى الأرض ، إنه حين ينهى صلاته ينهيها بالسلام ، فيقول عن يمينه تارة ثم عن يساره تارة اخرى عبارة : { السلام عليكم } وهذا معناه أنه يهدى السلام لنصفى الكرة الأرضية فى آن معا ، وذلك فى كل صلاة يؤديها ، فكيف يكون ذلك الإنسان نفسه هو من يشيع البغضاء والفساد والإرهاب فى الأرض ، فيقتل فى أبناء عقيدته من المسلمين ، بعد أن يكفرهم أو يتحجج بحجته الواهية التى يسميها : (التقية) ليسيغ لنفسه الشيطانية إن يسفك دم النفس الإنسانية ، التى كرمها الله وأعلى من شأنها ، إن من يفعل ذلك هو عدو لله عز وجل وللناس أجمعين ، إن مصر أمة تقيم شرع الله ، ولها محاكمها الشرعية ، علينا أن ننتبه وألا تختلط علينا الأمور فنفشل وتذهب ريحنا ، علينا أن نأخذ بأسباب التقدم والرقى ، علينا بأن ننهج نهج الدول التى سبقتنا فى كل المجالات العلمية والحضارية الحديثة ، كاليابان مثلا ! فلا يمكن للعقل بأن يقبل بأن يكون دين الله القيم سببا فى هلاك أو تخلف الناس ولكنه الجهل بجوهر الدين وحقيقته ومراده .

أما بعد ، فهذه سبحة قدسية للشاعر الكبير محمود غنيم بعنوان :



صفاء النفس

دعيني أنخْ من دنيا همومي
وفي ملكوت عرش الله هيمي
دعي خدعَ المُنى يا نفسُ إنّي
أريد البحثَ عن عيشٍ كريمِ
لقد منّيتني دهرًا طويلًا
فعُدتُ ما حصدتُ سوى هشيمِ
فأعطيني مقادكِ واتبعيني
أقدكِ إلى الصراط المستقيمِ
ألا يا نفسُ ألا تصفين يومًا
لكنتِ أرقّ مِنْ مرّ النسيمِ
وطرتِ بخافياتٍ مِنْ ضياءٍ
ولم تمشي على ظهرِ الأديمِ
وكدتِ تحلّقينَ مع الثريّا
وتتخذينَ بُرجًا في السديمِ
ولم تخفَ الحقائقُ عنكِ مهما
خفينَ عن المداركِ والفهومِ
ولم يصرفكِ عن أخراكِ شيءٌ
وغيرَ رضاءِ ربّكِ لم ترومي

ألا يا نفسُ ويحكِ ليتَ نفسي
إذا حاولتِ نيلاً من غريمي
فسُلِّي الضِّغْنَ مِنْ جَنَبَاتِ صدري
ورِقِّي للأحبةِ .. والخُصُومِ
وكوني من حَبَابِ الماءِ أو مِنْ
عبيرِ الزَّهْرِ .. أو أَلَقِ النجوم

إذا ما الحربُ حولَ الزادِ قامتْ
فخلِّي الزادَ ناحيةً ،، وصومي !
إذا دَجَتِ الحوادثُ فاستضيئي
بنورِ اللهِ في الليلِ البهيمِ
ودومي إنْ أردتِ اللهَ ذُخرًا
على التقوى ، وعنها لا تريمي

من أغاني أفريقيا

للشاعر الكبير : محمد الفيتوري



يا أخي في الشرق ، في كل سكن
يا أخي في الأرض ، في كل وطن
أنا أدعوك .. فهل تعرفني ؟
يا أخًا أعرفه .. رغم المحن
إنني مزقت أكفان الدجى
إنني هدمت جدران الوهن
لم أعد مقبرة تحكي البلى
لم أعد ساقية تبكي الدمن
لم أعد عبد قيودي
لم أعد عبد ماضٍ هرم عبد وثن
أنا حيٌّ خالدٌ رغم الردى
أنا حر رغم قضبان الزمن
فاستمع لي .. استمع لي
إنما أذن الجيفة صمَّاء الأذن
إن تكن سرتنا على
الشوك سنينا
ولقينا من أذاه ما لقينا
إن تكن بتنا ولقينا من أذاه ما لقينا
إن نكن بتنا عراة جائعينا
أو نكن عشنا حفاة بائسينا
إن تكن قد أوهت الفأس قوانا
فوقفنا نتحدى الساقطينا
إن يكن سخرنا جلادنا

فبنينا لأمانينا سجونا
ورفعناه على أعناقنا ولثمنا قدميه خاشعينا
وملأنا كأسه من دمنا
فتساقانا جراحا وأنينا
وجعلنا حجر القصر رؤوسا ونقشناه جفونا وعيونا
فلقد ثُرنا على أنفسنا ومَحَوْنا وَصْمَةَ الذلة فينا
الملايين أفاقت من كراها .. ما تراها
ملأ الأفق صداها
خرجت تبحث عن تاريخها
بعد أن تاهت على الأرض وتاها
حملت فؤسها وانحدرت
من روابيها وأغوار قُراها .. !
فانظر الإصرار في أعينها وصباح البعث
يجتاح الجباها
يا أخي في كل أرض عريت من ضياها
وتغطت بدماها
يا أخي في كل أرض وجمت شفتاها
واكفهرت مقلتاها
قم تحرر من توابيت الأسى
لست أعجوبتها .. أو مومياها
انطلق
فوق ضحاها ومساها

وهذه أبيات مفعمةٌ بالحكمة للشاعر الفيلسوف أبي العلاء المعري

الله لا ريب فيه

اللهُ لا رَيبَ فيهِ، وهوَ مُحتجِبٌ، بادٍ، وكلٌّ إلى طَبعٍ له جذَبا
أهلُ الحياةِ، كإخوانِ المماتِ، فأهْوِنْ بالكماةِ أطالوا السُّمْرَ والعَذَبا
لا يعلمُ الشَّريُ ما ألقى مرارتَهُ إليهِ، والأَرْيُ لم يشْعُرْ، وقد عذُبا
سألتُموني، فأعيَتني إجابتُكمْ؛ من ادّعى أنّهُ دارٍ فقد كذَبا
إنْ يصحبِ الروحَ عقلي، بعدَ مَظْعَنِها للموتِ، عنّي فأجدِرْ أنْ ترى عجَبا
وإنْ مضَتْ في الهواءِ الرَّحبِ هالكَةً، هلاكَ جسمي في تُربي، فواشجَبا !
الدِّينُ إنصافُكَ الأقوامَ كلّهُمُ، وأيُّ دينٍ لآبي الحقِّ إنْ وجَبا ؟
والمرءُ يُعييهِ قَوْدُ النفسِ، مُصبحةً للخيرِ، وهوَ يقودُ العسكرَ اللّجِبا

وصَوْمُه الشهرَ، ما لم يجنِ معصيةً، يُغنيه عن صَومه شعبانَ، أو رَجبا
وما اتّبعتُ نجيباً في شمائله، وفي الحمام تبعتُ السّادة النُّجبا
واحذَرْ دعاءَ ظليمٍ في نعامته؛ فرُبّ دعوة داعٍ تخرقُ الحجُبا
لا تفرحَنّ بفألٍ، إنْ سمعت به؛ ولا تطيّرْ، إذا ما ناعبٌ نعبا
فالخطبُ أفظعُ من سرّاء تأمُلها؛ والأمرُ أيسرُ من أنْ تُضمِرَ الرُّعُبا
إذا تفكّرتَ فكراً، لا يمازجُهُ فسادُ عقلٍ صحيحٍ، هانَ ما صعُبا
فاللُّبُ إنْ صحّ أعطى النفسَ فترتَها، حتى تموتَ، وسمّى جِدّها لعبا
وما الغواني الغوادي، في ملاعبها، إلاّ خيالاتُ وقتٍ، أشبهتْ لُعَبا
زيادةُ الجسم عنّتْ جسمَ حامله إلى التراب، وزادت حافراً تعَبا
لو كنتمُ أهلَ صفوٍ قال ناسبُكم: صَفويّةٌ، فأتى باللّفظ ما قلبا
جندٌ لإبليسَ في بدليسَ، آونةً؛ وتارةً يحلبون العيشَ في حَلَبا
طلبتمُ الزّادَ في الآفاق من طمعٍ، والله يُوجدُ حقاً أينما طُلبا
ولستُ أعني بهذا غيرَ فاجرِكم؛ إنّ التقيّ، إذا زاحمتَهُ، غَلبا
كالشمس لم يدنُ من أضوائها دَنَسٌ، والبدرُ قد جلّ عن ذمٍّ، وإنْ ثُلبا
وما أرى كلّ قومٍ، ضلّ رُشدُهُمُ، إلا نظيرَ النّصارى أعظموا الصُّلُبا
يا آلَ إسرالَ هل يُرجى مسيحُكمُ؛ هيهاتَ قد ميّزَ الأشياءَ من خلبا
قلنا: أتانا، ولم يُصلب، وقولكُمُ: ما جاءَ بعدُ، وقالتْ أمّةٌ: صُلبا
جلبتمُ باطلَ التوراة، عن شحَطٍ؛ ورُبّ شرٍّ بعيدٍ، للفتى، جُلبا
كم يُقتلُ الناسُ، ماهمُ الذي عمدتْ يداهُ للقتلِ، إلاّ آخذهُ السَّلَبا
بالخُلف قامَ عمودُ الدّين، طائفةٌ تبني الصّروحَ، وأخرى تحفرُ القُلُبا
الأمرُ أيسرُ مما أنتَ مُضمرُهُ؛ فاطرحْ أذاكَ، ويسّرْ كلّ ما صَعُبا
ولا يسُرّكَ، إن بُلّغتَهُ، أمَلٌ؛ ولا يهمّكَ غربيبٌ، إذا نعبا
إنّ جدّ عالمُكَ الأرضيُّ، في نبأ يغشاهُمُ، فتصوّرْ جِدّهُمْ لعِبا
ما الرّأيُ عندكَ في مَلْكٍ تدينُ له مصرٌ، أيختارُ دونَ الرّاحةِ التّعبا
لن تستقيمَ أمورُ الناس في عُصُرٍ؛ ولا استقامتْ، فذا أمناً، وذا رُعبا
ولا يقومُ على حقٍّ بنو زمنٍ، من عهد آدمَ كانوا في الهوى شُعَبا
قد يَسّروا لدفينٍ، حانَ مصرعُهُ، بيتاً من الخشَبِ، لم يُرْفَعْ ولا رُحبا
يا هؤلاءِ اتركوهُ والثرى، فلهُ أُنسٌ به، وهو أَولى صاحبٍ صُحبا
وإنما الجسمُ تُرْبٌ، خيرُ حالته سُقيا الغمائم، فاستسقوا له السُّحبا
صارَ البهيجُ، من الأقوام، خطَّ سفاً، وقد يُراعُ، إذا ما وجهُهُ شحُبا
سيّانِ من لم يضقْ ذرعاً بعيد رَدىً، ودارعٌ، في مغاني فتيةٍ، سُحبا
فافرقْ من الضحكِ واحذرْ أنْ تحالفَهُ، أما ترى الغيمَ لما استضحكَ انتحبا؟



مصر

للشاعر الكبير ابراهيم ناجى

أجل إنّ ذا يومٌ لمَن يفتدى مصرا
فمصرُ هى المحرابُ والجنّةُ الكُبرى
حلفنا نُولّي وجهَنا شطرَ حُبّها
وننفِذُ فيه الصبرَ والجهدَ والعُمرا
نُبثُّ بها روحَ الحياة قويّةً
ونقتُلُ فيها الضعفَ والذلَّ والفقرا
نُحطّمُ أغلالاً، ونمحو حوائلا
ونخلُقُ فيها الفكرَ والعملَ الحُرّا

⁂

سلاماً شبابَ النيل فى كل موقفٍ
على الدهر يجنى المجدَ أو يجلبُ الفخرا
تعالوا لنمحو الجهلَ والعللَ التى
أحاطتْ بنا كالسيلِ تغمُرُنا غمرا
تعالوا فقد حانت أمورٌ عظيمةٌ
فلا كانَ منّا غافلٌ يصمُ العصرا
تعالوا نقُلْ للصعبِ أهلاً فإنّنا
شبابٌ ألفنا الصعبَ والمطلبَ الوعرا
شبابٌ إذا نامت عيونٌ فإنّنا
بكرنا بكورَ الطيرِ نستقبلُ الفجرا
شبابٌ نزلنا حومةَ المجد كلّنا
ومَن يفتدى للنصرِ ينتزعُ النصرا

عاشت مصر

عاش خير أجناد الأرض

بين الصحف والمجلات

إعداد: أ/ محمد جمعة

الدين والثقافة الإيجابية

تحت هذا العنوان كتب الدكتور/ محمد فايد هيكل مقاله المنشور بجريدة الاهرام الصادرة بتاريخ: ٢٠١٤/٨/٨م يقول فيه:

يروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه رأى ذات مرة شابًا يصلى ولكنه يتماوت في صلاته أى يبالغ فى تقبيض قسمات وجهه وإحناء رأسه و تكميش جسده و تهوين صوته فقال له و هو يصيح فيه غاضبا: «لا تمت علينا ديننا . أماتك الله إن الخشوع لا يزيد على ما فى القلب».

كان الفاروق يعرف الدين المعرفة الصحيحة ويؤمن بأنه دين إيجابية وحيوية وفاعلية لا دين انكماش ولا دين رياء وتظاهر بالتعبد دون أن تكون هناك دوافع حقيقية للعمل، فالعبرة فى العمل بالنية الصادقة الدافعة إليه كما قال النبى عليه الصلاة والسلام: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى .....»، والذين يحاولون إماتة الدين فريقان متضادان فى الظاهر متشابهان فى الحقيقة؛ فأما الفريق الأول فهم الذين يمثلهم هذا الشاب الذى أدبه ابنُ الخطاب، فهؤلاء يبالغون فى التظاهر بالتدين ويأتون فى عباداتهم بما ليس له أصل فى الدين، وكثير منهم يركبون مطية الدين من أجل مآرب شخصية أو طائفية، وأما الفريق الآخر الذى يدعى العقلانية ويستتر وراء حرية الرأى والنقد رافعا شعار التنوير فيتناول ثوابت الدين بالمناقشة والتفنيد مجاهرا بذلك على الملأ فى مقالات مطولة أو كتب مفصلة أو ندوات ومحاضرات يحيط به فيها شباب لم يتأصلوا فى الدراسة الدينية، وبعضهم قد عصفت بعقولهم الحوادث الجارية، فهم فى اضطراب من أمرهم لا يعرفون مبتدأ دينهم من منتهاه ولا أصوله من فروعه. فيأتيهم هذا الذى ظنوا أنه مفكر عميق التفكير أو أديب لا يُشق له غبار فيرد من الدين ما لا يقبله هواه ويؤول نصوصه بما يعارض ما جاء الدين من أجله دون التزام بقواعد التأويل.

وتناسى هؤلاء أن للدين ثوابت وعقائد أساسية لا يكون الدين دينا إلا بها. صحيح أن الدين الإسلامى يدعو للاحتكام إلى العقل وإلى التفكير المستقل، بل إن التفكير فريضة إسلامية ولكن هذا التفكير له ثلاثة مواضع. فالموضع الأول يطالب به الإنسان قبل الدخول فى الدين، والموضع الثانى يطالب به الفقهاء عند الاجتهاد بآرائهم فيما سكتت عنه النصوص من الوقائع النازلة، والموضع الثالث فى فهم النصوص نفسها. فنحن نفهم النص بالعقل ونؤول ما لا يقبله العقل فى الظاهر إلى ما يقبله بحسب قواعد التأويل ومعرفة المجاز من الحقيقة فى الألفاظ.

ثم تحدث عن بعض الكُتاب الذين يخلطون بين الدين والفلسفة فقال:

هؤلاء الكتاب لا يميزون بين الدين والفلسفة ويأخذون من التنوير أحادى التفكير متجاهلين الاتجاه التنويرى الأصيل فى الفكر الغربى الذى لا يعارض أوليات الدين.

إن الآفة الكبرى ناشئة من التعصب الذى يحمله أدعياء التنوير ومن الخلط بين الدين والفلسفة. فليس الفلاسفة؛ أفلاطون وأرسطو وديكارت وكانط مثل الأنبياء، إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام ولا تلامذة أولئك مثل أصحاب هؤلاء وحوارييهم. وقد كان إمام الفلسفة الوضعية أوجست كونت على خطأ شديد حينما أراد أن يصنع دينًا عقليًا بحتًا بناء على قواعده الوضعية الاجتماعية ونظريته المعروفة عن مراحل تطور العقل البشري. ففشل لأنه لم يجد لهذا الدين المصنوع من يتبعه.

فنحن كما نرفض التفكير الأحادى الذى وقع فيه شباب التطرف الديني، نرفض أيضًا هذه البلبلة وهذا التشكيك فى عقائد الدين الأساسية. وهؤلاء بنشر آرائهم فى مصر يساعدون على التطرف الديني لأنهم يخرجون عن حد الاعتدال، فكل تطرف من ناحية لابد أن يقابله تطرف من ناحية أخرى.

إدمان الجنس له تأثير على المخ كإدمان المخدرات

أمرنا المولى عز وجل بغض البصر فقال:

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾

(النور/ ٣٠)

فتحت عنوان: إدمان الجنس له تأثير على المخ كإدمان المخدرات جاءت دراسة نُشرت بصحيفة الحياة بعددها الصادر بتاريخ: ٢٠١٤/٨/١٣ تتضمن ما يلي:

قال باحثون بريطانيون: إن المواد الإباحية الجنسية لها تأثير على المخ مماثل لتأثير المخدرات علي المدمنين. ورغم عدم وجود أرقام دقيقة يعتقد خبراء في هذا المجال أن واحدًا من بين كل ٢٥ بالغاً ينتابه سلوك جنسي قهري يعرف أكثر باسم إدمان الجنس وهو عبارة عن هواجس من الأفكار أو المشاعر أو السلوكيات الجنسية التي لا يمكن السيطرة عليها. وقال الباحثون من جامعة كمبردج في دراستهم التي نشرت في دورية «بلوس وان» إن المشاهدة المفرطة للمواد الإباحية إحدى السمات الأساسية لإدمان الجنس الذي قد يؤثر على الحياة الشخصية لهؤلاء الأشخاص وعملهم ويتسبب في القلق والشعور بالخجل.

ودرس الباحثون نشاط المخ لدى ١٩ مريضاً بإدمان الجنس وقارنوا ذلك بحالات متطوعين أصحاء. وقالت فاليري فون التي قادت الدراسة بقسم الطب النفسي بجامعة كمبردج: «المرضى في دراستنا هم أشخاص واجهوا جميعاً صعوبات في التحكم في سلوكهم الجنسي وكان لهذا تبعات كبيرة عليهم أثرت على حياتهم وعلاقاتهم».

وقالت: «في نواح كثيرة يكون هناك تشابهات في سلوكهم مع مدمني المخدرات. أردنا أن نرى ما إذا كانت هذه التشابهات تنعكس أيضًا على نشاط المخ».

وعرضت سلسلة فيديوهات قصيرة بها محتوى جنسي صريح أو مباريات رياضية على المشاركين في الدراسة. وجرى مراقبة نشاط المخ باستخدام التصوير بالرنين المغناطيسي الوظيفي. ووجد الباحثون ثلاث مناطق بالأخص في المخ بها نشاط أعلى لدى مرضى إدمان الجنس مقارنة بالمتطوعين الأصحاء. وأفاد الباحثون «إن هذه المناطق تنشط أيضًا لدى مدمني المخدرات».

الأرقام العربية

تحت هذا العنوان جاء مقال الدكتور/ محمد عبدالمطلب المنشور بجريدة الأهرام الصادرة بتاريخ: ٢٠١٤/٦/٢١م يقول فيه:

بدأت كتابة الأرقام العربية بالكلمات: واحد اثنين ثم تحولت الكلمات إلى نوع من الرمز، فكل حرف يرمز إلى رقم محدد اعتمادًا على الأبجدية: (أبجد هوز) فالألف تساوى (١)، والباء تساوى (٢) وهكذا، وذكر الجاحظ أنه كان هناك نظام للحساب بتحريك الأصابع اسماه العقد ثم جاء التطور الأخير الذى استقر عليه المجتمع العربى حتى اليوم، وهو الأرقام العربية (١ - ٢ - ٣) إلخ؛ وكان ذلك في عهد الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور) عندما طلب من عالم الفلك: (إبراهيم الفزاري ت ١٨٠هـ) أن يبتدع نظامًا للأرقام بديلًا عن النُّظم السائدة آنذاك؛ ومن ثم كان العجب أن المستشرقين وبعض الباحثين أصرُّوا على أن هذه الأرقام هندية لا عربية، دون أن يقدم أحدهم مستندًا واحدًا على صدق دعواه.

وقد استمرت هذه الكتابة الرقمية اثنى عشر قرنًا، لكنها لم تنفرد بالسلطة الكتابية؛ إذ ظهر لها فى المغرب العربى منافس آخر في القرن السادس الهجري، هي الأرقام الغبارية؛ لأنها كانت تكتب على رقعة عليها طبقة من الغبار؛ وكان ظهورها على يد العالم الرياضي (ابن الياسمين ت ٦٠١ هـ)، وهذه الأخيرة هى التى انتقلت إلى أوروبا لتلتحم باللغة اللاتينية حتى اليوم.

إن هذا الظهور المزدوج كان له تأثيره الثقافي والحضاري، حيث زعم البعض أن الأرقام الغبارية هى الأرقام العربية، وأن الأرقام المشرقية أرقام هندية، ونادوا بإهمال المشرقية واستعمال الأوربية لعروبتها، وزكى المستشرقون هذا الزعم إعلاء للغتهم من ناحية، وتشجيعًا على إلحاق الثقافة العربية بالثقافة الغربية من ناحية أخرى، وهو ما يدعونا إلى عقد مقارنة بين نسقى الأرقام المشرقية والمغربية ليتضح لنا أيهما التى تنتمى للعربية، والتى تنتمى للاتينية.

الأرقام المشرقية: (١-٢-٣-٤-٥-٦-٧-٨-٩-٠) وفيها خاصية الانسياب التى تتجلى فى الحروف العربية، بل فى الحروف السامية على وجه الإطلاق، ثم إن معظمها يعتمد حرف الألف فى الكتابة باستثناء رقم (٤) الذى يتداخل مع حرف (ع)، ورقم (٥) الذى يتداخل مع الهاء المربوطة، أما الصفر فهو النقطة فى الكتابة العربية، والصفر فى المعجم: الصوت الممتد الخالى من الحروف، ولهذا جاءت كتابته مميزة عن الحرف العربى.

أما الأرقام الغبارية فقد تشربت طبيعة الحروف اللاتينية وقد ازدادت الدعوة إلى هندية الأرقام المشرقية، وعروبة المغربية خلال الزمن الاستعمارى رغبة في إلحاق الثقافة العربية بالثقافة الغربية، وقد استجاب كثير من المؤسسات العربية لهذه الدعوة، وتدخل فى ذلك أمران؛ الأول: أن البنوك وأصحاب رؤوس الأموال العربية كانت رغبتهم الأساسية أن تسجل أموالهم فى بنوك الغرب بأرقامهم التى يزعمون عروبتها، الأمر الآخر أن هناك رغبة باطنية تسكن المغلوب لتقليد الغالب، فضلًا عما يتصوره البعض أن هذا المسلك الرقمى هو نوع من الاندماج في العولمة. والذى أراه في هذه القضية أنها ليست مجرد أرقام مشرقية أو مغربية، وإنما هى قضية ثقافية بالدرجة الأولى، ذلك أن الأرقام العربية تمثل سياقًا حضاريًا عاشته الأمة العربية طوال اثنى عشر قرنًا، والتخلي عنها، يعنى بتر عضو من جسد الثقافة العربية، وسوف تكون الأرقام البديلة بمثابة زرع عضو في جسد لا يتقبله، وهذا المسلك سيكون خرقا لنسق الكتابة العربية في الحروف والأرقام معًا، وهو الكتابة من اليمين لليسار، وهو نسق له ثقافته الإسلامية والعربية المحفوظة، أما الخطورة الأكبر أن يتبع النطق الكتابة، وهو ما نلحظه على كثير من الصغار الذين يتعلمون فى مدارس للغات الأجنبية، والمؤسف أن كثيرًا من وسائل الإعلام قد انساقت وراء خديعة الأرقام الهندية والعربية، دون أن تنتبه إلى المزلق الثقافى والحضارى التى تقود المجتمع إليه استجابة لهذه المغالطة.

الشعب البطل

وتحت هذا العنوان جاءت كلمة الأستاذ/ رضا العراقى المنشورة بجريدة الجمهورية الصادرة يوم الثلاثاء ٢٠١٤/٨/١٥:

قرار ترشيد دعم الطاقة والذى تطبقه الحكومة حالياً ضمن حزمة من الإصلاحات الاقتصادية كشف عن المعدن الأصيل للشعب المصرى وقدرته على التحدى وتحمل الصعاب من أجل استقرار الوطن فقد حاول الحاقدون أعداء الوطن والدين النفخ فى النار واستغلال القرار فى إثارة الفوضى بين الناس للقيام بأعمال شغب وتهيئة الرأى العام للمظاهرات وبعض الممارسات التى تربك البلاد لكن محاولاتهم جميعها باءت بالفشل وانتصر الشعب على هؤلاء ولقنوهم دروساً فى الوطنية وأعلنوا للجميع بأن المصريين يختلفون عن باقى شعوب العالم وأن إرادتهم القوية تظهر دائما وقت الشدائد والمحن خاصة عندما يتطرق الأمر للنيل من الوطن.

الشعب المصرى هو البطل دائماً، البطل فى ثورة ٢٥ يناير وتداعياتها، البطل فى ثورة ٣٠ يونيه والاستفتاء على الدستور والانتخابات الرئاسية، الآن هو البطل الحقيقى فى تطبيق قرارات الإصلاح الاقتصادى بكل حب وصدق وإخلاص والتفاف حول رئيسه وحكومته وتقبل الأعباء المالية الإضافية التى فرضتها سياسة ترشيد الدعم الأخيرة، حقاً إنه موقف عظيم من شعب عظيم شعب تقدره وتعمل له ألف حساب عندما تخاطبه شعب مسئول ناضج يضع الأمور فى نصابها الصحيح.

ردود أفعال الشعب من قرار الترشيد لابد أن نتوقف عندها كثيراً لأنها تحمل معانى كثيرة وتقدم دروساً مستفاده جميعها تؤكد الإحساس بالمسئولية تجاه الوطن والوعى الكامل بما يحدث على أرض الوطن والمنطقة المحيطة به وهذا أمر جيد يؤكد يقظة الشعب.

إن استجابة الشعب للقائد رسالة ثقة عميقة ولكنها لا تمثل تفويضاً مفتوحاً ولابد أن نسرع الخطى فى اتجاه مرحلة جنى الثمار مرحلة الاستقرار، مرحلة عيش حرية عدالة اجتماعية إننى على ثقة بأن الرئيس يدرك هذه المسئولية جيدًا لأنه يؤمن بالإرادة الشعبية التى فرضته لقيادة البلاد دون غيرها.

فتاوى الحاخامات

د. منصور عبدالوهاب

٥- عنوان الفتوى: شئون الأغيار - فتوى من: الحاخام يوفال شارليف

سؤال:

أ- أعرف أنه يجوز إدخال القرآن إلى البيت لأنه ليس كتابا وثنيا، بينما يحرم إدخال العهد الجديد إلى البيت لأنه كتاب وثني... فهل يجوز إدخال كتاب العهد الجديد إلى البيت لمجرد قراءته ومعرفة قصص المسيحية، وذلك للمعرفة وليس من أجل تعلم سبل الحياة منه؟ ونفس الشيء بالنسبة للقرآن... الغرض هو تنمية المعرفة بالأديان المختلفة فقط... هل إدخال العهد الجديد إلى البيت محرم تماما؟

ب- ما حكم من يتزوج بإحدى الأغيار من وجهة نظر الديانة اليهودية وما جسامة هذه الفعلة؟

ج- المرأة غير اليهودية التي اعتنقت اليهودية من أجل الزواج بيهودي، ولم يكن لها أي اهتمام باليهودية قبل أن تتعرف عليه، وحتى بعد أن تعرفت عليه لم تكن مهتمة باليهودية، وإنما فعلت ذلك من أجل الزواج به لأنه لا يوافق على الزواج من الأغيار، هل تظل غير يهودية؟ أعرف أن الحاخام موشيه بن ميمون يقول إنه يمكن قبول اعتناق أحد الأغيار لليهودية، إذا لم تجد سببا لغير ذلك، ثم نحاول تعليمه... ولكن الأمر هنا لم يكن حبا في الدين، حيث إنها لم تكن لتفعل ذلك لو لم تكن ستتزوجه... فما رأيك في جسامة هذه الزيجة، وما حكم اليهودي الذي فعل ذلك؟

جواب:

أ- يجوز القراءة من أجل المعرفة العامة، وإن كان هذا غير ملزم بالطبع، وإذا كانت المعرفة ممكنة بدون قراءة - فهذا أفضل. وكنت أفضل أن يقرأ الكتاب في المكتبة، ولا يتم الاحتفاظ به في البيت، كتعبير عميق عن إخلاصنا للخالق تبارك اسمه.

ب- من يتزوج إحدى الأغيار يرتكب بذلك إحدى المخالفات الجسيمة على المستوى الشخصي؛ لأنه قرر الانسلاخ من بني إسرائيل. فيكون كمن بدل دينه بالفعل.

ج- إنها تعتبر من الأغيار، ولا يعتد بتهويدها.

بين المجلة والقارئ

للأستاذ أحمد السيد تقي الدين

خير أجناد الأرض

نجاح باهر حققته جماعة «أنصار بيت إبليس» أحد الأجنحة العسكرية التابعة لجماعة الاخوان الإرهابية.

نجاح باهر في سبيل نصرة إلههم ومعبودهم «إبليس الرجيم» الذي قال للمولي عز وجل:

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾

وهذا هو ما فعله الإرهابيون من «أنصار بيت إبليس» وسائر أجنحة الجماعة الإرهابية، ساروا في الأرض يعيثون فسادا يزينون للناس الباطل حقا ويسفكون الدماء وينتهكون الأعراض ولكن مصر بجندها خير أجناد الأرض وبأمنها وأمانها الذي أكد عليه المولي: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ استعصت علي الغاوين الذين استشاطوا غضبا فقاموا بقصف مدينة العريش الآمنة مساء يوم الأحد ١٥ من رمضان ١٤٣٥هـ الموافق ١٣ من يوليو ٢٠١٤م بالصواريخ ليفجع الآمنون بمصرع فلذات أكبادهم وهم صائمون، ثمانية شهداء ودعتهم مدينة العريش، ثمانية شهداء لقوا ربهم وهم صائمون يبعثون يوم القيامة وهم يمسكون بتلابيب قاتليهم يسألونهم: لم قتلتمونا بغير ذنب ولا جريرة.

ليس هذا فقط.. فقد أصابت صواريخ الإرهاب الجبان خمسة وعشرين نفسا بلا ذنب ولا جريرة!! القتلي كان من بينهم: نهال محمد يوسف العقيد (١٠ أعوام) ويحيي أحمد محمود (١٢ عاما).. أطفال في عمر الزهور أما المصابون الذين نسأل الله لهم التعافي والشفاء

مما هم فيه فمن بينهم: «سلمي سعيد أبو سعيد (١١ عاما) وتعاني من جرح نافذ بالجمجمة وتزيف داخلي بالمخ، وأحمد حسام حسن (١٠ أعوام) ويعاني من شظايا بالبطن، وأحمد عصام الدين المصري (١٣ عاما) ويعاني من جروح متهتكة بالوجه والساعد الأيسر، واسماء علي عبدالمنعم (١٠ أعوام) وتعاني من شظايا متفرقة بأنحاء الجسم.

علي خطي اليهود سارت الجماعة الإرهابية واجنحتها العسكرية.

يريدون إرهابنا لأننا اقتلعنا كبيرهم فقرروا إزهاق أرواح أبنائنا لتقديمها قربانا لكبيرهم لإرضائه انتقاما منا!!

عجزوا عن مواجهة جيش مصر، خير أجناد الأرض الذي وجه لهم الضربات تلو الضربات دفاعا عن مصر وشعبها وتحقيقا وتأكيدا لوعد الله ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾

الهيئات والمجامع الإسلامية أطلقت صحية تحذير من انتشار موجة إلحاد عاتية وهم يبحثون في أسبابها لوضع العلاج والتغلب عليها.

ولكن...

انتشار الإلحاد والردة عن الإسلام ما هو إلا نتيجة طبيعية ومنطقية لمسلك الجماعة الإرهابية وأجنحتها العسكرية.

- انظروا إلي ليبيا وبحور الدم التي غطت مدنها باسم الإسلام!!.
- انظروا إلي نيجيريا حيث جماعة بوكوحرام وما فعلته باسم الإسلام من قتل أكثر من عشرين ألف نفس بشرية من النساء والأطفال والشيوخ والشباب العزل من السلاح.
- انظروا إلي جماعة الشباب في الصومال التي قتلت ما يزيد علي عشرة آلاف نفس باسم الإسلام.
- انظروا إلي «داعش» وجرائمها المروعة في الشام والعراق هذه الجماعة التي تلطخت أيديها بدماء ما يزيد علي مائة وخمسين ألفا قتلوا جميعا تحت راية سوداء كتب عليها «لا إله إلا الله محمد رسول الله» فضلا عن اغتصاب آلاف النساء الذين تم التعامل معهن كسبايا حرب وهن في أغلبهن مسلمات حرائر...!!
- انظروا إلي اليمن.. انظروا إلي الجزائر.. انظروا إلي مالي!!
- بل انظروا إلي جيش إبليس يعيث في الأرض فسادا ينشر الرعب والفزع متسربلا برداء الإسلام
- أفبعد هذا تتملكنا الدهشة والتعجب والاستهجان من انتشار الإلحاد!!

الإرهابيون الذين ينسبون أنفسهم

ظلما وعدوانا للإسلام ويرفعون رايته وهي منهم بريئة إلي يوم الدين هؤلاء هم الذين نشروا الإلحاد بين المسلمين بسوء فعالهم وخسة مسعاهم.

بالأمس البعيد انتشر الإسلام في أقطار الأرض بدون فتوحات... انتشر بسلوك تجار المسلمين وسط الناس في شرق آسيا، وجنوبها، وفي ربوع إفريقيا.. الملايين من الناس اعتنقوا الإسلام قديما بالأسوة الحسنة والكلم الطيب والعمل الصالح.

واليوم لا أسوة حسنة ولا كلم طيب ولا عمل صالح.. بل الجماعة الإرهابية واجنحتها العسكرية «داعش» «بوكوحرام» «الشباب» «طالبان» «القاعدة» «أنصار بيت إبليس»... وغيرهم كثير من طلائع جيش إبليس يعيثون في الأرض فسادًا وما نقموا منا إلا أن لدينا جيش خير أجناد الأرض المنتصر بالله ولله هذا الجيش العظيم الحر الذي صدق فيه قول من قال:

رسمنا علي القلب وجه الوطن
نخيلا ونيلا وشعبا أصيلا
وصناك يا مصر طول الزمن
ليبقي شبابك جيلا فجيلا

***

علي كل أرض تركنا علامة
قلاعا من النور تحمي الكرامة
عروبتنا تفتديك القلوب
ويحميك بالدم جيش الكنانة
وتنساب يانيل حرا طليقا
لتحكي ضفافك معني النضال
وتبقي مدي الدهر حصنا عريقا
بصدق القلوب وعزم الرجال

***

رسمنا علي القلب وجه الوطن
نخيلا ونيلا وشعبا أصيلا
وصناك يا مصر طول الزمن
ليبقي شبابك جيلا فجيلا
يد الله يا مصر ترعي سماك
وفي ساحة الحق يعلو نداك
ومادام جيشك يحمي حماك
ستمضي إلي النصر دوما خطاك
سلام عليك إذا ما دعانا
رسول الجهاد ليوم الفداء
وسالت علي النيل دوما دمانا
لنبني لمصر العلا والرخاء

***

رسمنا علي القلب وجه الوطن
نخيلا ونيلا وشعبا أصيلا
وصناك يا مصر طول الزمن
ليبقي شبابك جيلا فجيلا

أحمد تقي الدين

إلا واحـــدة..!

وتحت هذا العنوان جاءت رسالة الشيخ/ مصطفى الأزهري - إمام وخطيب مسجد سوق الحمام - السيدة عائشة - القاهرة - قال فيها :

كلما تلوت قول الله تبارك وتعالى:

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾

ومثله قوله عز وجل:

﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾

أيقنت بقيمة النعمة حين تسلب، وأحسست بعظمة دعاء من يدعو فيقول: «وأعوذ بك من السلب بعد العطاء»، فكلمة «أمة» لم تكن موجودة في القاموس الاجتماعي للعرب، بل كانوا قبائل متنافرة ومتناحرة تقوم بينهم الحروب اختلافا على شربة ماء من بئر استبقوا إليها، أو عنزة أكلت من أرض غير أرض صاحبها .. وهكذا، حتى جاء الإسلام فوحدهم، وشاء المولى - جل وعلا - أن يختار لتلك المهمة أعظم رسول في الوجود فرعاهم وأدبهم ودعاهم ووحدهم كما قال الله له - عليه الصلاة والسلام:

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾

غير أن سنة الله تعالى في خلقه ماضية:

﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾

ومن سنن الله في خلقه قوله تعالى:

﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾

وفي هذا السياق ورد حديث النبي ﷺ أنه قال: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، قيل: من هي يا رسول الله؟ قال: من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي. وفي بعض الروايات: هي الجماعة». رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه والحاكم، وقال: صحيح على شرط مسلم.

وهذا الحديث الشريف هو من نبوءات النبي الكريم الذي: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾

يبين فيه رسولنا الكريم - صلوات الله عليه وسلامه - أحداث المستقبل وواقع الأمم حيال التفرق والاختلاف، وما يهمنا نحن المسلمين هو حالنا وشأن فرقتنا، فعلينا أن نتفحص أمرنا، ونتحسس مواقع أقدامنا وننظر - لا سيما في هذه الأيام - التي حلت فيها بأمتنا فتن كقطع الليل المظلم ورأينا أصواتا ناعقة تتحدث في دين الله بمنطق: ﴿ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾

ويقول القائل «كل يغني على ليلاه»، فشيعة، وداعش، وقاعدة، وأحباش، وقاديانية، وبهائية، وناجون من النار، وتكفير وهجرة .. إلخ؛ لكن تبقى عظمة هذا الحديث ليس فقط في إخباره عن مستقبل وقع، ولكن في المعيار الذي نحكم من خلاله على أيهم هي «الفرقة الناجية» كلها في النار إلا واحدة، قيل: من هي يا رسول الله؟ قال: من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي. وفي بعض الروايات: هي الجماعة.

فلكل حديث لفرقة أو جماعة - مهما علا صوتها - أو ارتفع «نباحها» بالإسلام بعيداً عن منهج الإسلام - كتابا وسنة - فهو حديث أبتر لا قيمة له وإن طالت الذقون .. والله المستعان.

من أجل مصر

وتحت هذا العنوان جاءت رسالة الأستاذ:فتحي يوسف أحمد، معلم خبير بالأزهر الشريف:

مصر بلد الخير وتستحق كل الخير فماذا نفعل جميعا من أجل مصر؟! نفعل ما وصى به القرآن الكريم وحث عليه السنة المشرفة فقال تعالى:

﴿ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾

فهي أمن وأمان بقول القرآن فعلينا أن نحققه وأن ننشره في ربوع المعمورة حتى يعم الخير في كل الأقاليم ويسعد الناس وينعمون كما نعمت قريش من قبل، فقد نزل في أمنهم وأمانهم قرآنا يتلى، قال عز وجل:

﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾

(سورة قريش)

ولقد ذكر القرآن عن مصر قوله:

﴿ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ﴾

فلماذا قال أنهار بالرغم من أنه نهر واحد هو نهر النيل وما هو واجبنا نحوه. لقد عبر بالأنهار لأن نهر النيل أفضل أنهار العالم، وأنه يعدل أنهار العالم كما قال الفيلسوف الأوروبي المشهور هيرودوت: «مصر هبة النيل» وواجبنا نحوه أن نحميه ونحافظ عليه لا أن نلوث ماءه بإلقاء المخلفات به وصرف المصانع وألا نردم شواطئه ونتعدي عليها بالبناء

لقد ذكر القرآن الكريم: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ ﴾

اشتراه من مصر هذا لفظ يدل على البيع والشراء لفظ التجارة والاقتصاد حيث قال في موضع آخر:

﴿ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ﴾

خزائن الأرض خزائن البلاد تموين البلاد موارد البلاد إنتاج البلاد مدخرات البلاد احتياطي البلاد استثمارات البلاد فعلينا بتنشيط الاقتصاد بالجهد والعمل والإنتاج ورفعة مصر اقتصاديا كما كانت في العصور السابقة وكما بدأت حيث إن موقعها الجغرافي قلب العالم.

هناك الكثير والكثير عن مصر في القرآن الكريم ولكن لضيق المقام أذكر شيئاً واحداً من السنة النبوية المشرفة حيث قال ﷺ لأصحابه «إذا فتح الله عليكم مصر فاستوصوا بأهلها خيراً فإن لنا عليهم نسبا وصهراً» استوصوا بأهل مصر، أهل مصر العروبة «مصر السلام» مصر الأمة العربية، مصر الخلق الحسن، مصر المعدن الأصيل، مصر جنود الأرض، بل خير أجنادها في الشجاعة والكرم والعشرة الطيبة والمعاملة الحسنة والعلم والتعليم والأزهر والجامع والجامعة والإفتاء والذكاء والمهارة والقيادة والريادة والصبر والتحمل والسعة والبطولة والحماية والتضامن والنصرة والحيطة والبسالة، شعب مصر العظيم صاحب الخلق الكريم الذي جسدته نساء عظام: أم موسى عليه السلام، وأم إسماعيل عليه السلام، وزوجة النبي ﷺ، وأم ابنه إبراهيم مارية رضي الله عنها، وامرأة فرعون التي طلبت من ربها بناء بيت لها في الجنة:

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

وعاشت بينهم أم عيسى عليه السلام في سلام ووئام وتلاقت فيها الأديان وحمت ودافعت عن الإسلام ضد المغول والتتار ونشروا الإسلام في ربوع الديار.

فنحن نسألك يا الله أن تجعل مصر في ضمانك وأمانك وعفوك وغفرانك.

مفهوم الأسرة وعوامل الاستقرار الأسريّ في الإسلام

وتحت هذا العنوان جاءت رسالة الأستاذ/ محمد عباس محمد عرابي :

مفهوم الأُسـرة في الإسـلام يتميّز عن بقيّة المفاهيم الأخرى ؛ فالأسـرة وحـدة اجتماعيّة مُمتدّةٌ ، تتكوّن منها لبناتُ المُجتمع المُسلم ، وهي نـواةٌ أُسّسـت على بـرّ وإيمـان ، والتزام ووفـاء ، دلّـت عليـه آيُ الكتـاب وتوجيهاتُ الرسـول . إنها منظومـةٌ عُنـي الإسـلام بأصـل تأسيسـها منذ أن حثّ على الـزواج ورغّب في النّكاح ، وحُسن الاختيار بين الزوجين ، وآداب الخطبة والنّكاح ، وحُسـن العشـرة والقوامة ، والوفـاء بالحقـوق والواجبـات ، وطيـب المُعاشـرة ، والتوجيه عند الاختلاف ، وأحكام الفُرقة وما بعدَها .

ومما يدل على عناية الإسلام بتكوين الأسرة وإحكام بنائها ، ورعايتها لتحصيل مقصودها ؛ مـن حُصـول الإعفـاف للزوجيـن ، والسّـكن الفطـريّ لبعضهما والمـودّة والرحمة ، وإقامة البيت المُسـلم ، والتعاوُن على البرّ والتقوى ، وتربية الذرّيّة الصالحة التي تعبُد الله وتُطيعُه .

والأُسـرة تمتـدّ لتشـمل وحـدات مُترابطة تضمّ الأقـارب والأرحـام ، وتُراقـبُ ذاتها في سُـلوك أفرادهـا ، والتزامهم المبـادئ والقيم ، فـي توريـث للخير ، ورعاية لنبـت الصلاح في أرض الأسـرة المُورقة . يُذكـي ذلـك : التوجيه بصلة الأرحام ، وإيجابُ التربية والرعاية رعايةً صحيّة وجسديّة ، غذاءً وسكن ، وتوفيرٌ للحبّ والعطـف والرحمـة ، والراحـة النفسـيّة لكل الأفراد ، مهما كان موقعُهم من الأُسـرة .

كما يلتزمُ الوالدان بتقديم العُلوم الضروريّة والخبـرات الكافيـة لمـن تحـت أيديهم ، عن دينهم وتعاليمه ، وكل ما يُؤدّي بهم لأن يكونوا أفـرادًا صالحيـن ، وعبيدًا لـربّ العالمين ، مع تهيئتهم لمعيشة كريمة في هذه الحياة .

وبقدر ترابُط الأُسر يقوى تماسُك المُجتمع ويشتدّ ، ومع أن الزواج وتكوين الأسرة ضرورة حيـاة ، وجبلة وفطرة ، إلا أنـه أيضًا رباطٌ يمتدّ إلى اليوم الآخر :

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ﴾

عوامـل الاسـتقرار الأسـريّ : - الإحترامُ المُتبادَل من أقوى علامات الاستقرار الأسريّ ، ومـن دعائم تثبيته ؛ يجبُ أن تعرف المرأةُ قدر زوجهـا وفضله ، ومكانته في البيت ، كما يُقدّرُ الرجلُ وضعَ المرأة ، ويُعاملُها كشريكِ حياة لا كشريكِ تجارة .

وكل إحسـان يُقدّمُـه أحدُ الزوجيـن فإنـه يصنـعُ به السـعادة لنفسـه قبل شـريكه ، وقد قالت الناصحة لابنتها : «كوني له أمةً يكن لك عبدًا» .

التغافُلُ وغضّ الطرف عن بعض الهفوات مطلـبٌ أسـاسيٌّ في اسـتقرار الأسـرة ؛ فالحياةُ الزوجيّـةُ مبنيّةٌ على التلقائيّـة وعدم التكلّف ، والمـرءُ يعترضُـه من هُمـوم الحياة مـا يجعلُه يتصـرّف في بيته بتلقائيّة وصراحة . فلا بُدّ من التفهّم والتقبّل .

وإن مـن كيـد الشـيطان : مـا علـق بالناس مـن لوثـات الأفلام والمُسلسـلات ، ووسـائل التواصُل والقنـوات ، والتي أورثت رُكامًا هائلًا من التصـوّرات الخاطئة عن الحيـاة الزوجيّة ، وأفسـدت أخـلاق النـاس ، وقرّرت فـي نفوس مُتلقيهـا مبـادئ مغلوطـة ، وقلبـت المفاهيم أبوابَ شـرّ عظيم ، فضلًا عن بـاب المُقارَنات والانشـغال بالآخرين . أما حُطـام الدُّنيا ؛ فكم من أُسرة تمزّقت بسبب المال ، وكم من محبّة قُتلت بسبب المال !!

زكاة الفطر

وبمناسبة عيد الفطر جاءت تلك الرسالة من المهندس/ عبدالله محمد المزاحي:

- زكاة الفطـر هي الزكاة التي تجب بالفطر من رمضان وشرعت لتكون طهرة للصائم ، مما عسي أن يكون وقع فيه من اللغو والرفث ، ولتكون عونًا للفقـراء والمسـاكين وتغنيهـم عن السـؤال يوم العيد .

- زكاة الفطـر واجبة علي الحر المسـلم الذي عنده صاع يزيد عن قوته وقوت عياله ، يوما وليلة ، وتجـب عليه ، عن نفسـه وعمـن تلزمـه نفقتهم كزوجته وأبنائه وخدمة الذين يتولي أمورهم ويقوم بالانفـاق عليهـم فعن ابـن عمر رضـي الله عنهما قـال : «فرض رسـول الله ﷺ زكاة الفطـر صاعًا من تمر ، أو صاعًا من شـعير علي العبد والحر والذكر والأنثي والصغير والكبير من المسلمين وأمر بها أن تؤدي قبل خروج الناس إلي الصلاة» .

(صحيح البخاري ٢ / ٥٤٧)

- الواجب في صدقة الفطر للفرد الواحد صاع (قدره الشـافعي بما يقارب ٢،٥ كيلو من القمح أو الشـعير أو التمر أو الزبيـب أو الأرز أو الذرة أو الأقط (اللبن المجفف الذي لم ينزع زبدته) أي أن الواجب في زكاة الفطر أن تخرج من أنواع الطعام ، إذ لم يثبت أن النبي ﷺ أخرج بدلها نقودًا ، بل لم ينقل حتى عن الصحابة إخراجها نقودًا .

- فـي حالـة الضرورة جـوز أبو حنيفـة إخراج قيمة زكاة الفطر نقودًا .

- أجاز جمهور الفقهاء علي تعجيل إخراج زكاة الفطر قبـل العيد بيوم أو يومين ، ووقتها المفضل هو من طلـوع فجر يوم العيد إلي قبيل صلاة العيد فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : «فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث وطعمته للمسـاكين ، مـن أداها قبـل الصلاة فهي زكاة مقبولة ، ومن أداها بعد الصلاة فهي صدقة من الصدقات» (سنن أبي داود ٢ / ١١١) .

- تقـوم دار الإفتـاء فـي رمضـان مـن كل عام بتحديد مبلغ معيـن من النقود ، كحد أدني لزكاة الفطر للفـرد الواحـد ، وتعلن في عنهـا الجرائد القومية وأجهزة الإعلام

مثال توضيحي لكيفية إخراج زكاة الفطر :

- نفرض أن المبلغ المحدد بمعرفة دار الافتاء عـن الحد الأدني لـزكاة الفطر للفـرد الواحد هو عشرة جنيهات .
- نفـرض أسـرة واجـب عليهـا زكاة الفطـر مكونة من زوج وزوجة وبنت وولدان وخادمة يتم الإنفـاق عليها فيكون عدد أفراد هذه الأسـرة هو ستة أفراد .
- فيكـون مبلـغ زكاة الفطـر الواجبة عن هذه الأسـرة كحد أدني عشرة جنيهات × ستة أفراد = ٦٠ جنيهًا وللزوج أن يزيد عن هذا المبلغ حسب حالتـه المادية ويكـون هذا هو مبلغ شـراء طعام زكاة الفطر .
- في خلال شهر رمضان يكون الزوج قد حدد الأسرة الفقيرة التي وقع عليها الاختيار وتستحق زكاة الفطـر ويتم إبلاغ هذه الأسـرة الفقيرة بأنه سـيتم إحضار طعـام لهم قبل عيـد الفطر بيوم أو يومين أو فـي الفترة من بعد طلوع فجر يوم العيد وحتـى قبل صلاة العيـد ويا حبذا لو تم سـؤالهم عن الأطعمة التي يحتاجونها قبل أن يتم شـراؤها وعلي أن تكون من الأنواع الآتية:

التمر - حبوب مثل : «الأرز - العدس - الفول - اللوبيا - الفاصوليا الجافة - القمح - الزبيب» .

- إذا كان الـزوج سـيعتكف فـي الجامـع في العشـر الأواخـر مـن رمضـان فيقـوم قبـل قيامه بالاعتكاف بتكليف أحد أفراد أسرته بالقيام بهذه المهمة وتوصيل الطعام لهذه الأسـرة الفقيرة في خلال الفترة السابق ذكرها .

أنبــــاء الأزهــــر

إعداد الأستاذ / محمود الفشني

الأزهر الشريف
يستنكر تفجيرات العريش الإرهابية

يستنكر الأزهر الشريف بشدة التفجيرات الإرهابية التي وقعت في مدينة العريش، ويؤكد على ضرورة التصدي لهذه العناصر الإرهابية التي لم تراعِ أي حرمة للشهر الكريم، ولا حُرمة الدماء المعصومة، مطالبًا السلطات بضرورة تعقُّب هؤلاء المجرمين، واتخاذ إجراءات قانونية رادعة حاسمة وعاجلة في مواجهتهم..

ومؤكدًا على ضرورة تكاتُف مؤسسات الدولة وأبناء مصر الشُرفاء للقضاء على هذا الإرهاب الأسود.

ويتقدَّم الأزهر الشريف لأهالي الشُّهداء بخالص العَزاء والدُّعاء للمُصابين بالشفاء العاجل.

الإمام الأكبر في دبي لتسلم جائزة دبي للقرآن الكريم

قام فضيلة الإمام الأكبر أ.د/ أحمد الطيب، شيخ الأزهر الشريف، بزيارة إلى دولة الإمارات العربية الشقيقة، التقى خلالها بسمو الشيخ/ محمد بن راشد، نائب رئيس الدولة حاكم دبي وكبار المسئولين الإماراتيين، وحضر فضيلته حفل تسليم جائزة دبي العالمية للقرآن الكريم لاختيار فضيلته شخصية العام الإسلامية، وإلقاء كلمة حول القرآن الكريم، وتأتي الجائزة تقديرًا لجهود فضيلته الكبيرة في خدمة الإسلام، وخدمة قضايا الأمتين العربية والإسلامية.

شيخ الأزهر: ما يحدث في غزة إبادة جماعية للشعب الفلسطيني

جدد فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر استنكاره للجرائم البشعة التي يقومُ بها الكيان الصهيوني في غزة الصابرة، ويعتبر أنَّ هذا العدوان بمثابة إبادة جماعيَّة للشعب الفلسطيني المسالم الأعزل، ويدعو لتحركٍ عاجل وفوري لكلٍ من: الجامعة العربية، ومنظمة التعاون الإسلامي، ومجلس الأمن، وكافَّة منظمات حقوق الإنسان، كما يترحَّم على كلِّ الشهداء الذين سقطوا جرَّاء تلك الاعتداءات الجائرة والظالمة.

محيي الدين عفيفي أمينًا عامًا لمجمع البحوث الإسلامية

أصدر فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور أحمد الطيب - شيخ الأزهر الشريف - قرارًا بندب أ.د/ محيي الدين عفيفي، أمينًا عامًا لمجمع البحوث الإسلامية، وكلَّفه بإعداد خطة عاجلة للوعظ والإرشاد والانتشار الأوسع للقوافل الدعوية، والتنسيق مع وزير الأوقاف، بما يُسهم في ضبط الخطاب الدعوي ومواجهة الأفكار المنحرفة والمتطرفة.

كما كلَّفه الإمام الأكبر بمراجعة ملفَّات المبعوثين من الأزهر إلى الخارج ومتابعتهم، وإمدادهم بالخطط الدعويَّة والعلميَّة وفق منهج الأزهر الشريف، كما كلَّفه بإعداد الكتب الثقافية والدينية التي تخاطب كل المستويات، وترسخ الثقافة الشرعية السليمة وتحافظ على المنهج الوسطي الذي تميز به الأزهر الشريف عبر تاريخه.

يشار إلى أن فضيلة الإمام الأكبر قد كلَّف الدكتور محمد زكي للعمل كقائم بأعمال أمين عام المجمع حتى اختيار أمين عام جديد، وتم تكليفه حاليًا بالعمل كأمين عام مساعد للمجمع.

علماء الأزهر لجنود وضباط الأمن المركزي بجنوب سيناء:
أنتم سبب كل خير للوطن

في إطار توجيهات فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور أحمد الطيب - شيخ الأزهر - قام مجمع البحوث الإسلامية بإرسال قافلة دعوية إلى محافظة جنوب سيناء، وذلك للمشاركة في احتفالات أهالي سيناء بذكرى انتصار العاشر من رمضان، وقد قام أعضاء القافلة بإلقاء عدة محاضرات بالمساجد الكبرى بمدينة الطور، بالإضافة إلى ندوة علمية لجنود وضباط الأمن المركزي حول الدور الوطني لقوات الشرطة والجيش في حماية الوطن من المخاطر، واستلهام روح العاشر من رمضان، وقد بدأت الندوة بالدعاء لنصرة الشعب الفلسطيني والدعاء بالرحمة والمغفرة لجميع

الشهداء، والتأكيد على ضرورة قيام المجتمع الدولي بدوره نحو وقف العدوان الغاشم على الشعب الفلسطيني.

وفي بداية الندوة وجه الدكتور سعيد عامر الأمين العام للجنة العليا للدعوة الإسلامية، التحية لجنود وضباط الجيش والشرطة لتضحيتهم بأرواحهم من أجل تحقيق الأمن واستقرار الوطن.

وكيل الأزهر يترأس اجتماع اللجنة العليا لإصلاح التعليم

اجتمعت اللجنة العليا لإصلاح التعليم ما قبل الجامعي، برئاسة فضيلة أ.د/ عباس شومان، وكيل الأزهر الشريف، وبحضور لجنة الخبراء، وقد ناقشت اللجنة التقرير النهائي المقدم من اللجنة العليا لإصلاح التعليم، وبعد استعراض ومناقشة ما ورد بالتقرير، رأت اللجنة تعديل بعض ما ورد به، وقررت معاودة الانعقاد مرة أخرى، لإقرار التقرير بصيغته النهائية لعرضه على المجلس الأعلى للأزهر للموافقة عليه.

الإمام الأكبر لمفتي نيجيريا: على العلماء التصدي للفكر المنحرف بكل أشكاله

استقبل فضيلة الإمام الأكبر أ.د/ أحمد الطيب، شيخ الأزهر الشريف، الشيخ/ إبراهيم صالح الحسيني، رئيس هيئة الإفتاء والمجلس الإسلامي النيجيري، يرافقه السفير/ لوان جانا جويا، سفير نيجيريا بالقاهرة.

وقد نقل المفتي النيجيري لفضيلة الإمام الأكبر تحية مسلمي نيجيريا، ومن ينتسبون إلى العلم هناك، معربًا عن سعادته بلقاء فضيلة الإمام الأكبر، واعتزازه بمصر والأزهر الشريف الذي يمثل القبلة العلمية في العالم الإسلامي بعلومه، ووسطيته، وعراقته، ودوره الكبير في رأب الصدع وإعادة لم شمل المسلمين.

وقد أطلع المفتي النيجيري فضيلة الإمام الأكبر على وضع المسلمين في نيجيريا، وحاجتهم الملحة إلى فتح المجال لطلاب نيجيريا للدراسة بالكليات العلمية بجامعة الأزهر، وأوضح أن الأزهر هو العمود الفقري للأمة الإسلامية، مؤكدًا أنه لولا وجود وسطية الأزهر التي نقلها الطلاب الذين درسوا بالأزهر الشريف لما استقرت الأوضاع في نيجيريا، آملا أن يؤهل الأزهر طلاب نيجيريا لفهم الإسلام الصحيح بعيدًا عن الغلو والتطرف.

وقد رحب فضيلة الإمام الأكبر بمفتي نيجيريا، مطالبا علماء المسلمين هناك بالتصدي للفكر المنحرف بكل أشكاله، وقيامهم بتوعية المسلمين بسماحة الإسلام ويسره. وأكد فضيلته استعداد الأزهر الشريف لتقديم منح للطلاب الراغبين للدراسة بالكليات العلمية.

أنباء مجمع البحوث الإسلامية

إعداد/ أ: عبدالموجود أمين

علماء الأزهر يطالبون المجتمع الدولي بوقف العدوان الصهيوني

طالب علماء الأزهر الشريف المشاركون في القافلة الدعوية بجنوب سيناء المجتمع الدولي بسرعة التدخل لوقف العدوان الصهيوني على الفلسطينيين

وأكد العلماء إن رمضان شهر الانتصارات ولا مكان فيه للكسالى والمتواكلين، فتوقيت الغزوات الكبرى في تاريخ الأمة الإسلامية وانتصارات العاشر من رمضان جاءت لتؤكد لنا أن هذا الشهر الكريم بريء من كل الأقاويل الزائفة وأنه لا ينبغي فيه الركون للراحة والاسترخاء فهو شهر العمل والاجتهاد.

ففي خطبة الجمعة من مسجد السلام بشرم الشيخ قال الشيخ عبدالعزيز النجار مدير عام مناطق الوعظ: إن الانتصارات العظيمة فى تاريخ الأمة الإسلامية جاءت فى شهر رمضان المبارك وإن الغزوات الإسلامية دليل واضح على أن الإسلام يأمرنا بالدفاع عن النفس وعدم البدء بالاعتداء على الآخرين والدليل على ذلك أنه فى كل الغزوات الإسلامية لم يزد عدد الشهداء من المسلمين والقتلى من المشركين على المئات بعكس الحربين العالميتين الأولى والثانية التى جاءت بأياد غربية وقتل فيها الملايين.

مؤكدا أن النصر له أسباب لابد من الأخذ بها وألا نتواكل مطلقا لأنه لا مكان الآن سوى للعمل والإرادة والاجتهاد

ودعا المصريين إلى ضرورة استغلال الشهر الكريم للعمل ووحدة الصف لمواجهة المخاطر والتحديات التى تواجهنا فى الوقت الراهن، وحتى نستطيع العبور إلى بر الأمان.

وقال الدكتور سعيد عامر الأمين العام للجنة العليا للدعوة الإسلامية في خطبة الجمعة إن التاريخ الإسلامي يشهد أنَّ أغلب الغزوات والمعارك التي قادها المسلمون في شهر رمضان كانت تُكلل بالفوز والانتصار، من هنا حرص الرسول الكريم - ﷺ - أن تكون أغلبُ غزواته في شهر رمضان؛ تقربًا إلى الله - عز وجل - وإرشادًا للمسلمين إلى سبيل الاستعداد لاحتمال الشدائد في الجهاد، وهنا تجتمع - لدى المجاهد الصائم - مجاهدة النفس ومجاهدةُ الأعداء؛ فإن انتصر تحقق له انتصاران: هما الانتصار على هوى النفس، والانتصار على أعداء الله، وإذا استُشهد لقيَ الله - سبحانه وتعالى - وهو صائم، وتحقق

فيه قولُ الله – تبارك وتعالى –:

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾

(التوبة: ١١١)

ودعا الدكتور سيد عبدالنبي الأمين المساعد للثقافة بمجمع البحوث الإسلامية من مسجد المصريين إلى استلهام روح الانتصارات من الشهر الكريم والتي تجسدت فيه معاني الوحدة الوطنية وتكاتف المصريين والتفافهم حول جيشهم لتحرير سيناء الغالية واستعادة العزة والكرامة للمصريين.

وطالب المصريين باستدعاء الضمير الوطني في تلك اللحظات التي تمر بها البلاد حتي تسترد عافيتها فقد بذل من سبقونا الغالي والنفيس وحطموا الطغيان وكسروا شوكة الأعداء وتبرع الشعب وساند وطنه وحمي الجبهة الداخلية مما جعل الجندي المصاب حتى ولو بترت ساقه يريد العودة للقتال.

وأكد الدكتور أحمد على همام عضو المكتب الفني بمجمع البحوث من مسجد بدر بمدينة الطور على أن هناك أسباب للنصر منها حب الوطن والانتماء والعمل من أجله مهما اختلفت الأفكار والسياسات وتواضع القائد والعمل بمبدأ الشورى والثبات وحب الآخرة والاعتصام والتمسك بالوحدة وبكتاب الله وسنة رسوله.

فما أحوجنا أن نستلهم روح رمضان في بث تلك المعاني الراقية في نفوس المصريين جميعا ونقاتل ونحن صائمون من أجل نهضة الوطن وتقدمه ونتحمل الصعاب ونشارك مشاركة إيجابية وفعالة بوفاء وعزيمة حتي يتقدم الوطن وينهض.

رسائل القافلة الدعوية الأزهرية في خطبة الجمعة بمحافظة قنا

بناء على توجيهات فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور/ أحمد الطيب – شيخ الأزهر، وبإشراف ومتابعة فضيلة الأستاذ الدكتور/ عباس شومان – وكيل الأزهر.

فقد وجه فضيلة الشيخ/ محمد زكي – أمين عام مجمع البحوث الإسلامية، ورئيس القافلة، السادة العلماء أعضاء القافلة الأزهرية بعد الحوار والمناقشة معهم إلى أهمية تبني الرسائل التالية:

الرسالة الأولى: التذكير بفضائل شهر رمضان بما يحقق تأليف القلوب، وتوحيد الصف، والدعوة إلى العمل، ونبذ الخلاف والنزاع.

الرسالة الثانية: إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، فلا وصول إلى ما وصل إليه الصحابة ومن تبعهم إلا بالانتصار على النفس، فمن انتصر على نفسه هيأ نفسه للانتصار على أعدائه.

الرسالة الثالثة: استكمال محاولة الصلح بين طرفي النزاع بفرشوط.

وقد قام بالفعل كل منهم بتوصيل هذه الرسائل من خلال خطبة الجمعة بالمساجد الذين اعتلوا منابرها.

فقد أشار فضيلة الدكتور/ سيد عبدالنبي – الأمين المساعد للثقافة – إلى أن شهر رمضان معسكر إيماني دعانا إليه الحق جل وعلا لنكتسب من خلاله سلوكيات إيمانية في المعاملات والتشريعات، وكذلك هو تجديد للعهد مع الله عز وجل – وعلى الإنسان العاقل ألا ينكث العهد مع ربه جل وعلا – ، وعلى المسلم أن يكتسب الكثير من جوانب العلم والمعرفة من خلال متابع هذا الشهر وروافده المتعددة كقرب المسلم من ربه، وصلته لرحمه، وبره بإخوانه، وإصلاحه بين الناس.

وأوضح فضيلة الدكتور/ سعيد عامر – أمين اللجنة العليا للدعوة بالأزهر الشريف – في خطبته التي ألقاها بمسجد السحالوه بعنوان: «ثمرة الرحمة والتسامح والعفو» أن الحياة تحتاج الرحمة كما يحتاج الإنسان إلى الماء والهواء، والإسلام دين يدعو البشرية إلى أن يكونوا متراحمين متعاونين مع المسلمين ومع غير المسلمين، والرحمة سمت الصالحين و النجاة من التقاتل والإيذاء.

كما أوضح فضيلة الشيخ/ عبدالعزيز النجار – مدير عام شئون المناطق بالمجمع – أن العفو كان سببًا في دخول الكثيرين في الإسلام، وبالعفو – إن شاء الله تعالى – يتحقق التواد والتراحم والتعاطف والصفح بين المتخاصمين والمتنازعين، ويصبحوا جسدًا واحدًا كما أخبر النبي ﷺ.

ومن جانبه أشار فضيلة الشيخ/ محمد دردير محمد إبراهيم – مدير عام الإعلام – إلى أنه على المسلمين أن يتمسكوا بما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه لينالوا الفضل الذي أخبر عنه الرسول ﷺ من أن الملائكة تستغفر لهم في كل ليلة من ليالي رمضان، ويكون خلوف أفواههم يوم القيامة أطيب عند الله من ريح المسك، ويوفوا أجر الصائمين، ويكونوا من أصحاب الفرحتين، وهذا لا يتحقق إلا بالتخلق بأخلاق النبي ﷺ وأصحابه لينالوا هذا الفضل.

كما أوضح فضيلة الشيخ/ خالد إبراهيم شلتح – مدير عام التوجيه – أن هذا الشهر حبل من حبال الله الممدودة لعباده رجاء أن تتحقق فيه تقواه سبحانه وتعالى، حيث جاء في كتابه هذا الرجاء في أكثر من موضع قرآني منها الصيام، فإذا كان هذا الرجاء متكررًا في كتاب الله تعالى فمعناه مباشرة أن حاجة الأمة إلى الأمناء والأتقياء في كل المجالات والتخصصات لا تقل عن حاجتها إلى العلماء المخترعين والمفكرين والتقنيين.

ومن جانبه أشار فضيلة الشيخ/ مصطفى محمد سليمان – مدير عام وعظ القاهرة – إلى أن رمضان شهر التجارة مع الله بقواعد وأركان التجارة التي يعرفها البشر، يربح فيه من يربح، ويخسر من يخسر، ولا يربح إلا من كانت تجارته متوافقة مع مراد الله عز وجل، إذ هو جل جلاله أحد طرفي هذه التجارة، ولا بد أن يكون راضيًا عن سلوكيات وأفكار من يتاجر معه.

وأوضح فضيلة الدكتور/ هاني عودة عواد – عضو المكتب الفني للدعوة والإعلام الديني – أن شهر رمضان شهر العطايا والهبات، وأن هذه العطايا لا تنال بالتمني دون العمل والأخذ بالأسباب، فمن أراد الوصول إليها فلا بد أن يعمل من أجلها ليكون من أهلها، الذين غيروا من أنفسهم بما يحقق الوصول إليها، قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾

(الرعد: ١١)

فعلى المسلم أن يغير من نفسه ومن واقعه ما يتنافى مع أخلاق النبي ﷺ، ويهجر ما حرم الله ليظفر بعطاء الله.

كما أوضح فضيلة الشيخ/ عبدالحميد عبدالحميد السيد- عضو المكتب الفني للدعوة والإعلام الديني- أنه لا خلاص مما ظهر ويظهر من فتن وشرور إلا بالإخلاص الذي دعا إليه ربنا فقال:

﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ (الزمر: ٢)

هذا للفرد، وللجميع قال تعالى:

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾

(البينة: ٥)

وكما ورد عن رسول الله - ﷺ -: «طوبى للمخلصين الذين إذا حضروا لم يعرفوا، وإذا غابوا لم يفتقدوا أولئك هم مصابيح الهدى تنجلي عنهم وتنجلي بهم كل فتنة ظلماء»، كما أن أفراد هذه الأمة لا ينالوا الرضا من الله إلا به.

وأشار فضيلة الدكتور/ حسن إبراهيم يحيي- عضو المكتب الفني للدعوة والإعلام الديني- إلى أن شرائع الإسلام وآدابه جاءت معتبرة الفرد جزءًا لا ينفصل عن كيان الأمة، وعضوًا لا ينفك عنها، وجاء الخطاب الإلهي مؤكدًا لهذه المعاني قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩﴾

(الحج: ٧٧)

ودعا فضيلته إلى نبذ العنف والخلاف، وتوحيد الصف والعفو والصفح فهذه المعاني الكريمة هي التي يجب أن تخرج من إطار النظريات إلى التفعيل.

محافظ جنوب سيناء يوجه الشكر للإمام الأكبر على إرساله القوافل الدعوية للمحافظة

أشاد اللواء خالد فودة محافظ جنوب سيناء بالجهد الدعوي الذي قامت بها قافلة الأزهر الشريف بجنوب سيناء من خلال المنهج الوسطي المعتدل للأزهر الشريف.

ووجه محافظ جنوب سيناء الشكر لفضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر على إرساله للقافلة الدعوية خلال شهر رمضان والتي أثبتت أن المنهج الوسطي سيظل حارسا لمصر وشعبها.

وطلب فودة من أعضاء القافلة مشاركة المحافظة خلال احتفالها بليلة القدر وتوزيع الجوائز على الفائزين في مسابقة حفظ القرآن الكريم.

أنباء العالم الإسلامي



للأستاذ/ أحمد رضوان

فلسطين المحتلة: إسرائيل تكثف قصف غزة واستشهاد ١٨ من عائلة واحدة

كثف الاحتلال الإسرائيلي خلال الأيام الماضية غاراته على «قطاع غزة»، وقصف أهدافًا أمنية بصفة خاصة، بينها كلية الشرطة، ومجمع أنصار الأمني ومنطقة الجوازات، وذلك بعد استشهاد ١٨ فلسطينيًا من عائلة واحدة في غارة جوية إسرائيلية استهدفت منزلاً سكنيًا في حي «التفاح» شرق مدينة غزة.

وفي أحدث الغارات أفادت وسائل إعلام فلسطينية باستشهاد سيدة مُسنة بحي «الشجاعية»، كما استشهد طفل، وأصيب ١١ بقصف على منزل في مخيم الشاطئ غربي «غزة».

وأفاد مراسل صحفي بأن الطائرات الإسرائيلية قصفت «مدينة عرفات للشرطة» و«مجمع أنصار» الأمني، ومنطقة الجوازات غرب «غزة».

وقد ارتكب الطيران الإسرائيلي مجزرة في حي «التفاح» شرقي «غزة» إثر قصفه تجمعًا سكانيًا؛ مما أدى إلى استشهاد ٢٩ فلسطينيًا وإصابة ٧٠، لتتجاوز حصيلة العدوان الإسرائيلي ١٦٤ شهيدًا والجرحى حوالي ١١٠٠، وقد أوقع القصف الإسرائيلي لغزة يوم السبت ١٢/ ٧/ ٢٠١٤ وحده ٤٦ شهيدًا.

وقال مصدر صحفي: إن طائرة إسرائيلية قصفت منزل قائد شرطة غزة العقيد «تيسير البطش»، الواقع قرب مسجد في حي «التفاح»، تزامنًا مع خروج الناس من صلاة العشاء والتراويح، مشيرًا إلى إصابة العقيد.

وأضاف: إن عددًا من المصابين الذين نُقلوا إلى مجمع الشفاء الطبي في حالة خطيرة، مشيرًا إلى أن بعض الجثامين تحولت إلى أشلاء، وسادت حالة من الغضب في مجمع الشفاء الطبي إثر المجزرة.

وبُعيد مجزرة حي التفاح، استشهد فلسطيني وأُصيب أربعة في غارة جديدة على رفح جنوبي قطاع غزة.

وكانت «إسرائيل» توعّدت بتكثيف غاراتها على «غزة» إذا استمرت فصائل المقاومة في قصف المدن الإسرائيلية.

وكان المتحدث باسم الجيش الإسرائيلي الجنرال «موتي ألموز» قد قال: إن الطيران الحربي الإسرائيلي شن ١٦٠ غارة خلال الليل؛ مما رفع عدد الهجمات الجوية إلى ٤٤٠ غارة منذ بدء العملية التي أطلق عليها الاحتلال اسم «الجرف الصامد».

ميانمار: المساجد مهجورة في الشهر الكريم بسبب اضطهاد المسلمين

على الرغم من البهجة التي يحملها شهر رمضان، فإن المسلمين المضطهدين في بورما يقضونه في رعب بعد الهجمات التي تتوالى عليهم منذ بدء الشهر الكريم؛ حيث ذكرت صحيفة «ميانمار تايمز» أن المسلمين يخشون الذهاب للمساجد منذ أكثر من شهر.

وقد بدأ فتيل العنف في «مندلاي»، عندما قام ٣٠٠ بوذي بمهاجمة متجر شاي مملوك لرجل مسلم بعد ادعائهم تعرّض امرأة بوذية للاغتصاب على يد مسلم.

وقد قام البوذيون بإلقاء الحجارة على ممتلكات المسلمين، ومهاجمة العديد من المتاجر والمنازل والمساجد، مُخلفين وراءهم قتيلين و٢٠ مصابًا، كما أكدت الشرطة آنذاك.

وكانت المساجد هي آخر ضحايا تلك الهجمة بعدما هجرها المسلمون لدوافع أمنية، وبعدما تضاعف خوفهم نتيجة لهجمات الشرطة على المسلمين، وتجريدهم من الأسلحة منزلية الصنع التي يستخدمونها في الدفاع عن أنفسهم.

وهو الأمر الذي دفع ٥٨ من الأُسر المقيمة في المنطقة (حوالي ٤٠٠- ٥٠٠ فرد) لترك المساجد والهروب بحياتهم إلى منطقتي «بين أو لوين» و«كيوكم»، في حين اتجه من لم يقدر على تلك التكاليف إلى «جياجو» على حدود «الصين» مع «ميانمار».

وعلى الرغم من تلك المخاطر التي تواجه «مندلاي»، فإن الأجزاء الشمالية منها كانت بعيدة عن مسلسل العنف الدائر؛ حيث يصرح المسلمون بأن الظروف الأمنية هي أفضل بكثير مما هي عليه في باقي البلاد.

هذا، ولا تزال علامات الاضطهاد الديني التي يقودها متطرفو البوذيين ظاهرة من خلال حملات التشويه على الإنترنت، أو محاولة تشتيت انتباه المسلمين خلال الصلاة بهجمات تدفعهم لترك الصلاة لحماية حياتهم.

الصين: المسلمون يتغلبون على حظر الصيام وممارسة الشعائر

على الرغم من فرض السلطات الصينية حظرًا صارمًا يمنع المسلمين من الصيام وممارسة الشعائر الدينية خلال شهر رمضان- فإنه قد ذكرت التقارير الإخبارية أن المسلمين صاروا أكثر تصميمًا على الصيام وقراءة القرآن، حتى مع غلق الحدود مع الدول ذات المجموعات الإسلامية المجاورة؛ مثل: «طاجكستان»، و«قيرغيزستان».

وكانت الحكومة الصينية قد منعت الموظفين الحكوميين والطلاب في إقليم «شينغيانغ»- تركستان الشرقية- من الصيام، إضافة إلى منع الأطفال والشباب من دخول المساجد، ومنع تراجم معاني القرآن، إلى جانب اعتقال المئات منذ مارس الماضي.

معرض للمصاحف من جميع أنحاء العالم

أقيم بـ«جامعة أورال» الروسية يوم ١٤ يوليو الجاري معرض للمصاحف القديمة تحت اسم «أسرار القرآن الكريم». وصرحت جريدة «إسلام آر إف» الروسية بأنه يوجد في المعرض مائة مصحف من مختلف أنحاء العالم، ومنها مصاحف منذ العهد الملكي في «روسيا»، ويوجد أول نسخة طبعت للتتار في عهد الإمبراطور «ألكسندر الأول» خلال الفترة (١٨٠١- ١٨٢٥م). وضم المعرض مجموعة أثرية من الكتب لقدماء الكتاب، كما وجد به فصول لتعليم القرآن الكريم والخط العربي.

وقد تم افتتاح المعرض لمدة أسبوعين وانتهى في ٢٧ يوليو ٢٠١٤م.

بريطانيا: المفتشون يثنون على الأوضاع الإيجابية بمدرسة فتيات إسلامية

أكدت دائرة المعايير التربوية- التي زارت مدرسة «فيفرسهام» للتحقيق في الشكاوى المزعومة التي ادعت انتهاج المدارس الإسلامية تنفيذ مشروع «حصان طروادة» لتعزيز المظاهر الإسلامية في التعليم- أكدت التزام المدرسة بالمعايير الوقائية، ومعايير القيادة والإدارة، دون توجيه أي انتقادات للمدرسة.

وقد علقت دائرة المعايير التربوية على نظام تعيين الموظفين؛ حيث لاحظت أن المدرسة تتبنى سياسة تعيين النساء، مطالبة بأن يكون ذلك من خلال تفعيل سياسات المساواة والعدالة.

ألمانيا: البدء في بناء مسجد بمدينة بوبنغين

حققت الجالية المسلمة في مدينة «بوبنغين» الألمانية حلمها الذي استمر قرابة ٢٥ عامًا، وذلك بالإعلان عن بدء بناء مسجدهم الخاص بالمدينة.

المسجد الجديد من المقرر بناؤه قرب المنطقة الصناعية بشارع «ماكس فيشر»، وسيبدأ البناء فعليًا منتصف أغسطس المقبل بمشيئة الله.

كانت الجالية التركية المسلمة قد بدأت منذ خمس سنوات في التخطيط لبناء

المسجد، ووضعت تصورًا هندسيًا له، وخطة مالية لتمويله؛ حيث من المتوقع أن تصل تكلفة بناء المسجد إلى مليون يورو، تتحمل الجالية توفيرها ذاتيًا.

وبحسب التصور الهندسي، فإن المسجد سيتألف من قسمين؛ أحدهما مكان الصلاة، والآخر مركز ثقافي ودار اجتماعات، كما سيتم تزويد المسجد بمئذنة بطول ١٨ مترًا، يتم إنارتها ليلًا.

من جهته اعتبر عمدة المدينة «برند ميلر» المسجد رمزًا للاندماج في المجتمع الألماني، ودليلاً طبيعيًا على ممارسة المسلمين لعقيدتهم في وطنهم.

البرازيل: المسلمون يتغلبون على الظروف المحيطة بالتعاون على ممارسة الشعائر

لا تزال الأقلية المسلمة في «البرازيل» - التي تشكل نحو ٣٥ ألف و١٦٧ مسلمًا بنسبة ٠,٠٢ ٪ من بين ١٩٩ مليون برازيلي - تعاني من الأجواء غير الإسلامية المحيطة؛ حيث يعرب كثير من المسلمين عن صعوبة الصيام وممارسة الشعائر في بلاد غالبيتها من النصارى.

ويشكو المسلمون من قلة المساجد والأجواء الإسلامية، وخاصةً المهاجرين من البلاد الإسلامية نتيجة الصراعات الحالية، وذلك إضافة إلى صعوبة الجو وحرارته.

ويحاول المسلمون التغلب على هذه المصاعب بالتجمع بالمركز الإسلامي لتناول الإفطار الجماعي وممارسة الشعائر، وبالرغم من قلة المسلمين بـ«البرازيل»، فإن أعدادهم ازدادت بنسبة ٢٩٪ بين عامي ٢٠٠٠ و٢٠١٠م.

إسبانيا: حفل نهاية العام الدراسي بالمدرسة العربية الإسلامية بمدريد

أُقيم في ساحة «مسجد مدريد المركزي» يوم السبت الموافق ١٢ / ٧ / ٢٠١٤م، حفلٌ لتكريم طلاب المدرسة العربية الإسلامية بـ«مدريد»؛ حيث حضره الآباء بصحبة أبنائهم. وقدم مدير المدرسة «محمد حاتم» الشكر للطلاب وآبائهم على مجهودهم طوال العام، ثم تحدث «هلال أبو شي» - رئيس الجالية الإسلامية بـ«مدريد» - حيث رحّب بالحضور، وشكرهم على تشجيعهم له وللأنشطة الحالية. وقدّم الأطفال محاضرة عما تعلّموه طوال العام، وقضى الجميع وقتًا ممتعًا وسعيدًا.

***

This imperialist Zionist plan revealed that preoccupying these small entities (states) with the problems of borders, water, oil, marriage, heritage...etc. will make them all weaker than Israel, a matter which will guarantee for Israel security for half a century at least.

* * * *

Several years after publishing this plan, Israel started to apply it, starting with the Maronites. David Bungurion [1886-1973 A.C.], the Israeli President, wrote to his Prime Minister Moshe Sharette [1894-1965 A.C.] saying: "Creating a Christian state in Lebanon is something normal that has historic roots, and this state will be greatly supported by the Catholic and Protestant Christian world."

The plan of dispersing the Islamic world was adopted by this international Zionist organization, as its magazine, Kivunim, published the document which was called, "The Israeli Strategy in the Eighties", in the issue of the 14th of February, 1983. In this strategy, the Zionist organization talked about the Arab world which was divided by Sykes Picot agreement into 19 states should be divided anew. The strategy states:

"Egypt, which is separated and divided into many authoritative elements, does not constitute a danger for Israel, rather, it ensures security and peace for Israel for a long time. The aggravating confrontations between the Muslims and Christians and the establishment of a Christian state in Upper Egypt and of other small regional states are the key to the historic development which we seek at the present.

Countries such as Libya, the Sudan, and farther countries remain in the same state as it is now, but will downfall like Egypt, as immediately after the dispersion of Egypt, the other countries will be dispersed and separated.

suggesting the re-division of the Islamic world in order for it to include more than thirty three political entities. In this attempt, he claimed to solve the problem of the religious, sectarian, and cultural minorities. These entities include:

1- Bemoshstan, which is to be cut off from Pakistan and Iran.

2- Pashtunistan, which is to be cut off from Pakistan and Afghanistan.

3- Kurdistan, which is cut off from Iraq, Iran, Turkey, and Syria.

This included dividing Iran to four states:

4- Iranistan

5- Azerbaijan

6- Turkmenistan

7- Arabistan.

Dividing Iraq into two states:

8- One of them is for the Shiites around Basra

9- The other is Sunni around Baghdad.

Dividing Jordan into two states:

10- One of them for the nomads.

11- The other is for the Palestinians.

Dividing Syria into five states:

12- A Christian state

13- A Shiite state

14- A Sunni state

15- A Durzi state

16- Alawi state

Dividing Lebanon into small parts:

17- One of them for the Maronites and other Christians.

18- A state for the Sunnis.

19- A state for the Shiites.

20- A state for the Druze.

Dividing Egypt into two states:

21- An Islamic state.

22- A Christian state.

Dividing Sudan into two states:

23- A Negro state at the south.

24- An Arab State in the north.

Dividing Morocco between:

25-The Barbarians.

26-The Arab.

Dividing Mauritania between:

27- The Arabs.

28- Negroes and mulattos.

Allocating the Western Bank to Israel

Re-division of the Kingdom of Saudi Arabia in the manner which preceded its unity in 1933 A.C.

Throughout the decades of the nineteenth century and the beginning of the twentieth century – which was the peak of colonialism in the East, the colonialist armies managed to impose the occupation, and hence separation and dispersion – on many (countries of the Islamic). France occupied Algeria in 1830 A.C., Tunisia in 1881 A.C., Morocco in 1912 A.C., Syrian and Lebanon in 1920, England occupied Egypt in 1882, Sudan in 1899 A.C., Palestine in 1917, Iraq 1917-1918 A.C., and Italy occupied Libya in 1912 A.C.

Sykes-Picot Agreement in May 1916 drew the plans of the division done by colonialism to the people of the East and its countries which lived for long centuries within the jurisdiction of the Islamic caliphate.

In parallel to what the colonial armies did, the missionary schools were established in the East in order to give rise to intellectual parties from the minorities seeking to replace the culture of the Islamic caliphate with the culture of division and dispersion.

In Algeria, after the French celebration of the passage of a century of occupying Algeria, their political and religious leaders declared that the era of the crescent (Islamic religion) in Algeria passed, and the era of the cross started and will continue forever. Algeria will be the land of Christianity and will be lightened by the light of the Bible. They celebrated not only the passage of 100 years of the occupation of Algeria, but by the elimination of Islam from this country."[5]

In Lebanon, the French consuls wrote to the Ministry of Foreign Affairs in Paris describing the support of secular France to the catholic missionary schools: "These schools seek to get control of the people and James Maronie was created to serve France

[5] Dr. Mahmud Qasim, Imam Abdul Hamid ibn Badis, the imam of the war of liberation of Algeria, p. 22-11, Dar Al-Ma`aref edition, Cairo.

and to cause the Arab barbars to subject to the will of the French Christian civilization."[6]

In Egypt, the imperialist countries - in spite of the contradictions which occurred between them - sought to force Egypt to return to its regional borders and to break the unifying ties which linked it to the Arab East, the Sudan, Somalia, and the coasts of Yemen. The imperialist countries also imposed restricted its military capabilities and caused it to resort once again to the Ottoman cage and gave it freedom only in financial matters, in order for it to be indebted to the West. It also restricted its legislation in order for the foreign law – that of Napoleon – to penetrate it. As such, its ties with the Islamic Shari`ah which unify the people of the East get broken. Missionary work started in Egypt by colloquial language, secularism, and Darwinism by the missionary schools.

This scheme came to an end after the downfall of the Ottoman Caliphate and the destruction of the unifying symbol. Then, the Islamic East became connected and a follower to the Western cultural center, imperialist dominance, and the thought of alienation which supported the armies of the occupation.

After the establishment of the Zionist entity in 1948, a new phase of western colonial endeavor started. It was encouraged by the Zionist influence to create more dispersion and separation for the countries of the East. It tended to divide the East on religious, sectarian, and ethnic bases to many small parts which are in extreme conflict with each other, a matter which guarantee security for Israel.

In this plan for this new phase, the Zionist orientalist Bernard Luis, published in Executive Intelligence Magazine which was issued by the Pentagon – the US Ministry of Defence – a plan

[6] Among the correspondences of the consuls, see Mohammad Al-Sammak, Minorities between Arabism and Islam, p. 37, Beirut edition, 1990.

Al-Gabarti [1167-1237 A.H.] Jacob, the Damned. He gathered some of the Christians from Upper Egypt whose number amounted to two thousands. They wore the garment of the French Expedition and fought the Egyptians with the French army, led by Dizier.

The expedition also attracted Catholic Christians who were led by Bertlim Yinnie Rubi, who was renowned as Fart Al-Rumman.

Jacob acquired higher ranks in the French army, so that General Kleber [1753-1800 A.C], the leader of the French Expedition after Bonaparte, gave him the title of Colonel, and General Minor [1810-1750 A.D.] bestowed him the rank of General in March, 1801.

Al-Gabarti said that Kleber entrusted Jacob to do whatever he liked with the Muslims, so that the Christians from the Levant insulted and beat the Muslims. They manifested their grudge and announced to eliminate Islam and the days of the monotheists. They celebrated the Bonaparte's victory over the people of Gaza in 1213 A.H. – 1799 A.C. Al-Gabarti said: "They revealed their joy and happiness in the markets, made banquets, took off their regular clothes and turbans, gathered for dissoluteness, and increased their atrocity.[1]"

Bonaparte's use of the expression "the Coptic nation" for the first time in his correspondence with the Copts who cooperated with him had a real significance. The beginning of sectarian strife started from this moment in order to break the national and cultural ties between the peoples of the east in order to achieve the goals of colonialism.

[1] Al-Gabarti, `Aja'ib Al-Athar fil Tarajim wal Akhbar, part 4, pp. 24, 148, 149, 134, and 136, Cairo edition, 1965.

- Even after the defeat of the French Expedition and the departure of Jacob with its soldiers, he advised England to replace France in isolating Egypt from its Islamic surrounding, history, and Islamic and Arabic entity, and subjecting it to the British dominance.[2]
- After the death of Jacob, his followers went to Paris led by Nimr Efendi, announcing loyalty to Bonaparte and declaring that they will enact only the legislations that please France.[3]

With regard to the Jews, Bonaparte tried to attract the Jews by issuing, after his besiege of Acre in 1213 A.H. (1799 A.C.), his famous call to the Jews of the world seeking their help in establishing his colonial empire in return for their restoring their legal inheritance in Palestine.[4]

When the British Empire gained strength in the East after the defeat of France, the British colonialism followed the pattern of Bonaparte. As such, we found Britain seeking to resist the plan of unifying the countries of the East which was devised by Muhammad `Ali Basha Al-Kabir (1184-1265 A.H. / 1770-1849 A.C.) by which he sought to revive the East and save it from the Ottoman retardation and weakness and the dispersion caused by colonialism. Britain occupied Aden in 1838 A.C. and established the first embassy for it in Jerusalem in the same year. Its foreign Minister, Lord Palmerston [1784-1865 A.C.] asked his ambassador in Astana, Bonsenpe in 11/8/1840 A.C. to ask the Ottoman Sultan to allow the immigration of the Jews to Palestine in order to hinder the objectives of the project of the unification which was led by Egypt under the leadership of Muhammad `Ali Basha.

[2] Dr. Ahmad Hussein Al-Sawy, Jacob the Teacher Between the Fact and the Legend, pp. 123-125, Cairo edition, 1986 A.C.
[3] Ibid, pp. 129-130.
[4] Muhammad Hasanein Heikal, Secret Negotiations between the Arabs and Israel, pp. 231-232, Cairo edition, 1996.

sermon with saying: "Allahu Akbar", then praising Allah and invoking blessings upon the Messenger of Allah. After that, he urges the Muslims to observe benevolence and piety and to avoid innovations in religion and abominable acts. He urges them to visit their relatives, neighbors, and friends. One of the most remarkable acts of benevolence on the day of the Festival of Breaking the Fast is paying the Zakah (obligatory charity) of Breaking the Fast which equals one *Sa`* (1 *Sa`a* = 3 kg. approx.) from the regular food of the country such as wheat, corn, and others. They are given to the poor and the needy. The whole amount suffices four persons of a family and its value can be paid at the present time, as it is not easy to give wheat and the like. The Muslim should pay Zakah for himself and his dependents such as his wife and children – whether young or old – and also his parents if they are needy.

Allah prescribed the Festival of Breaking the Fast in Shawwal after the fast of Ramadan in order for the fasting person to rejoice with the grace of breaking the fast.

On the authority of Abu Hurayah (may Allah be pleased with him) who said that the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) said: "The fasting person has two joys; the joy of breaking the fast and the joy when he meets his Lord." (Related by Al-Bukhari and Muslim in their Sahihs)

This is in order for the people to praise and thank Allah (Glory be to Him) for the grace of success in performing the obligation of fasting properly.

On the authority of Sa`id ibn Aws Al-Ansari from his father (may Allah be pleased with them) who said: "The Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) said: 'On the day of the Festival of Breaking the Fast, the angels stand at the roads saying: O Muslims, draw close to your All-Generous Lord in order to give you all goodness and reward you with the best. He commanded you to offer optional night Prayer, and you did, to fast the day of Ramadan and you did, and you obeyed your Lord, then you will be rewarded.' When they offer the Prayer, a caller says: 'Your Lord forgave you, so go back and celebrate the day of the reward.'" (Related by Al-Tabarani in Al-Kabir).

Our future:

Complete consolidation or disunion and dispersion…?

By: Dr. Muhammad `Imarah

Editor-in-chief of Al-Azhar Magazine.

When Napoleon Bonaparte [1769-1821] was on his way from Marseille to Alexandria leading the French Expedition to Egypt [1213 A.H. – 1798], he declared that he will recruit a thousand persons from the minorities to help him to establish his colonial empire in the East, which he wished to restore the image of the empire of Alexander the Great [356-232 B.C]. He also wished that this expedition would achieve the aspirations of the French Crusade King, Luis IX [1214-1270 A.C.]

As the peoples of the East to which Bonaparte's hopes were directed were living under the shadow of the Islamic league (Khelafa) which gathered their religion, doctrines, languages, and races, the French Expedition started as a new colonial plan which intended to disperse the East with regard to its religion, doctrine, and nation in order to facilitate the swallow of its regions. The peoples of the East indulged in internal conflicts instead of tending to unite themselves to resist colonialism.

The French Expedition started to implement its scheme by working with the Christians and the Jews.

The French Expedition attracted some of the Egyptian Christians, led by Jacob Hanna [1745-1801] who was called by

The blessed Festival of Breaking the Fast...!

By: Dr. Ibrahim Al-Assil

This Festival of Breaking the Fast is received by the Muslims saying loudly: "Allahu Akbar" (Allah is the Greatest), "Al-Hamdu lillah" (all praise is due to Allah), "La ilah illa Allah" (there is no god but Allah), and "Allahu Akbar".

We should recall to our hearts that we are commanded to say these words loudly in order to keep our hearts steadfast in faith and to gather our rows to submit to Allah. Thus, we should say these words and put them into action.

The festival in Islam follows the obligation of fasting which is one of the pillars of this religion. Thus, it is an act of Sunnah to start the day with saying, "La ilah illa Allah", "Allahu Akbar", and "Alhamdu lillah". This is because Allah bestowed on the Muslims the grace of the performance of the obligation of fasting.

On the day of Festival, the rows of the Muslims are arranged and organized to perform the Prayer of the Festival. All the classes of the Muslims stand with each other and merge into each other to confirm the attribute of the Islamic nation: the unity.

One of the acts of Sunnah which is performed on the day of the Festival is to pay the Zakah of the Festival in order to help the needy and to rejoice the poor.

"La ilah illa Allah" and "Allah Akbar" are our way to faith in all matters, to purify the hearts, to gather the rows, and to submit to obey Allah and to resort to His Book and the Sunnah of our Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him) in all our matters and disputes. They are our way to rise above the trivial matters and major sins even if they are deep rooted in the hearts of the Muslims as elements of dispersion and enmity.

On the day of festival of breaking the Fast, we hope that we get rid of the sorrows and worries which scattered and dispersed the Muslims and made their hearts deviate from Allah's path although it is clear and its objectives are clear. Allah promised to give abundantly blessings to those who follow the straight path:

{If they (non-Muslims) had believed in Allâh, and went on the Right Way (i.e. Islâm), We would surely have bestowed on them water (rain) in abundance.} (Aljinn (The Jinni: 16)

The day of the Festival of Breaking the Fast comes to the Islamic nation while it is full of disputes and is threatened by dispersion, in addition to the internal disputes and conflicts which are about to eliminate it.

We ask Allah to make this day a beginning of love and affection between the Muslims and to get rid of their disputes and to return to their Lord in order to perfect His Grace. Allah says:

{And they are guided (in this world) to goodly speech (i.e. Lâ ilâha illallâh, Alhamdu lillâh, recitation of the Qur'ân, etc.) and they are guided to the Path of Him (i.e. Allâh's religion of Islâmic Monotheism), Who is Worthy of all praises.} (Al-Hajj (The pilgrimage: 24)

The Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) called the Muslims to celebrate the Festival of Breaking the Fast and the Festival of Sacrifice after the Hijira. The reason for this is what was narrated from the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) that he went to Al-Madinah while its inhabitants had two festivals on which they play and amuse themselves. He said: "What are these days?" They said: "We were amusing ourselves on these days in the pre-Islamic era." He (may the blessings and peace of Allah be upon him) said: "Allah (Glory be to Him) gave you two better days: the Festival of Breaking the Fast and the Festival of Sacrifice." The first time in which these festivals were celebrated was in the second year A.H., starting with the festival of the breaking the fast and then the Festival of Sacrifice. The Islamic festivals are distinguished with awe, benevolence, and piety, and their first aspect of both of them is performance of the Prayer.

The Muslims head towards the mosques individually and in groups, saying: "Allahu Akbar" and praising Allah. Then the Imam starts the

مسجد بوترا - ماليزيا

AL-AZHAR
MAGAZINE

Shawwal, 1435 A.H



ENGLISH
SECTION

August, 2014

In the name of Allah the Beneficent the Merciful

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾

الأعراف / ٤٣

"Praise be to Allah, Who guided us to this; and in no way could we have been guided, unless Allah has guided us."
(Al-A'raf 43)

Editor: Dr. IBRAHIM Al-ASSIL
Professor at the Faculty of Languages and Translation.
Al-Azhar University.



في عدد

ذي القعدة

الأزهر

www.AlazharMag.com

ثمن النسخة: جنيهان

العدد ٧٠ جم - الغلاف ١٨٠ جم كوشيه

هدية العدد

طه حسين
من الانبهار بالغرب إلى الانتصار للإسلام
أ.د. محمد عمارة

الأزهر

ذو القعدة

الافتتاحية

هكذا تحدث الشيخ الغزالي


الشيخ: محمد الغزالي


الشيخ: محمد رشيد رضا


أ.د. أحمد عمر هاشم

نظرات في فكر الإمام الأشعري — أ.د. أحمد الطيب

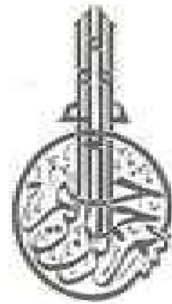
إلزامية الشورى — أ.د. أحمد الريسوني

...ير القرآن — الإمام: محمد عبده

...ية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية ذو القعدة ١٤٣٥هـ - سبتمبر ٢٠١٤م الجزء "١١" السنة "٨٧"

داخل العدد





﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾



الأزهر

مجلة شهرية جامعة يصدرها مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف في مطلع كل شهر عربي، صدر العدد الأول في المحرم عام ١٣٤٩هـ/١٩٣١م وحمل اسم "نور الإسلام"

برئاسة تحرير

فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين





الاشتراك السنوي

داخل مصر ٢٤ جنيهاً مصرياً - الدول العربية ٤٠ دولاراً أمريكياً
أوربا وأمريكا ٨٥ دولاراً أمريكياً - اليابان وشرق آسيا ١٢٠ دولاراً أمريكياً
عن طريق قسم الاشتراكات بمؤسسة الأهرام
شارع الجلاء - القاهرة
ت: ٢٥٧٨٦١٠٠ - ٢٨٧٥٦٢٠٠

المراسلات باسم:

مدير التحرير - مجمع البحوث الإسلامية - مدينة نصر
ت: ٢٥٨٨١١٥٤ - داخلي ٢٠٠

editor@alazharmag.com
readers@alazharmag.com

هكذا تحدث الشيخ الغزالي



فضيلة الأستاذ الدكتور محمد عمارة

- ١ -

قبل نحو عشرين عاما، رحل عن عالمنا الفاني إلى دار البقاء، شيخنا الجليل الشيخ محمد الغزالي (١٣٣٥ - ١٤١٦هـ ١٩١٧ - ١٩٩٦م) .. رحل في اليوم التاسع من شهر مارس، وهو نفس اليوم الذي رحل فيه رائد اليقظة الإسلامية الحديثة جمال الدين الأفغاني .. الذي تتلمذ عليه الإمام محمد عبده .. الذي تتلمذ عليه الإمام رشيد رضا .. وامتدت سلسلة التلاميذ إلى أن وصلت إلى .. الشيخ الغزالي..

وعندما يتلفت المرء حوله الآن، ويرى الحرب العالمية المعلنة والمستعرة ضد الإسلام وأمته وحضارته، يشعر بالفراغ الذي تركه الشيخ الغزالي في الميدان .. ويتذكر حديث رسول الله ﷺ: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالما اتخذ الناس رءوسا جهالا، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا»(١).

لم يكن الشيخ الغزالي مجرد عقل مجتهد ومجدد .. ولا مجرد داعية حامل لهموم الأمة، ومرابط بفروسية على ثغور الإسلام على امتداد خمسين عاما ترك لنا فيها قرابة ستين كتابا وذلك غير المقالات والخطب والمحاضرات والحوارات، التي ستبقى ديوانا للجهاد الفكري في سبيل النهضة والاستنارة والتقدم والتجديد، و«جامعة الفكر الإسلامي» تتربى فيها الأجيال.

لم يكن الشيخ الغزالي كل هذا فقط، وإنما كان - مع ذلك - قلبا نورانيا عاش في سناه عارفوه، الذين أسعدهم الله بالاقتراب منه، والأنس بهذا النور الذي كان يفيض من هذا القلب الكبير..

(١) رواه البخاري (١/ ٥٠) برقم (١٠٠)، ومسلم (٤/ ٢٠٥٩) برقم (٢٦٧٣).

لقد كان - رحمه الله - يعرف الإسلام فيقول عنه: «إنه قلب تقي .. وعقل ذكي»!.. ولذلك كان واحدا من أعلام العلماء الذين عملوا على إنقاذ الثقافة الإسلامية من ذلك الفصام المنكر بين العقل والقلب .. ذلك الفصام الذي حوّل حتى العبادات إلى أشكال جفت فيها الروحانية، وحوّل القلوب إلى بدع وخرافات، وعندما انتهى الصراع بين الصوفية والفقهاء إلى: فقهاء لا قلوب لهم!.. وصوفية لا عقول لهم!.. فجاءت مدرسة الإحياء والتجديد - التي تربى فيها الشيخ الغزالي، وأصبح من أعلام علمائها - لتعيد الوفاق والاتفاق والتزامل، والتكامل بين «العقول المؤمنة» و«القلوب الواعية» .. فانتصرت - في هذه المدرسة - العقلانية المؤمنة، والمجاهدة الروحية التي تزكي النفوس، وتفجر شلالات النور الإلهي من القلوب!..

لذلك؛ فإن كل الذين قرأوا للشيخ الغزالي، أو سمعوا له، أو سمعوا عنه قد حزنوا لموته .. أما الذين سعدوا وأنسوا بأنوار قلبه إلى جانب ذكاء عقله - وأنا واحد منهم - فإن مصابهم فيه لا تعوضه الكتب ولا الخطب، بل ولا تستطيع التعبير عنه الكلمات!..

في السنوات الأخيرة من حياته كان الأطباء قد نصحوه بالمشي كل يوم مدة من الزمن .. وعندما كنت أسأله عن مدى تنفيذه نصيحة الأطباء، كان يقول لي: كيف يتأتى ذلك؟!.. وكلما خرجت من المنزل أحاطني الناس يسألون ويستفتون!.. كانوا يسألونه في الفقه والفكر .. أما أنا وأسرتي فإن لهفتنا الدائمة - عند لقائه أو الحديث معه في الهاتف - أن نسأله «الدعاء»!.. وكنا نعيش السعادة الغامرة عندما يطمئننا - دائما - أنه يدعوا لنا في الأسحار.

وبسبب ظروفه الصحية - في سنواته الأخيرة - اجتهد أبناؤه - بارك الله فيهم - في إحاطة حياته بنظام يحقق له قدرا من الراحة، ومن تنظيم الوقت، والاقتصاد فيما هو أقل أهمية من النشاط

والأسفار .. لكن علاقة «الأنس الروحي والفكري» التي جمعت بيننا جعلته يستجيب - وهو سعيد - لكل ما أطلبه منه .. حتى لقد كان الكثيرون يستعينون بي كي يقبل الدعوات، ويلقي المحاضرات، ويحضر الندوات .. وكان أبناؤه يطمئنون لأسفاره - خارج مصر - عندما يعرفون أني سأكون بصحبته .. وكانت أسعد أوقاتي تلك التي ألازمه فيها، وأعاونه في الغدوات والروحات.

ولقد كان «الغزالي - العالم» منطويا علىّ حكمة تنتظر من يكشف عنها، ويفجرها ويستدعيها .. ولقد كنت أشعر بحماسه للاشتراك معي في الحوارات التلفازية، لأن الأسئلة غير التقليدية والقضايا الجديدة، التي يفتح الله علىّ بها كانت تستدعي من حكمته وثمرات عبقريته الجديد والغزير وغير المألوف في حواراته مع آخرين.

وفي سنوات حياته الأخيرة، أحسست أن الرجل يحمّلني أمانة، كنت أشفق على نفسي من ثقلها، وأدعو الله سبحانه وتعالى أن يعينني على الوفاء بتبعاتها .. وفي آخر لقاء لي معه بمنزله - وكنا نسجل معا حلقتين لبرنامج «روضة الإسلام» - عندما استأذنته في الانصراف، استبقاني حتى يحضر لي نسخة من كتابه الأخير (نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم) .. وكتب عليه الإهداء، الذي حملني فيه الأمانة: «إلى أخي الحبيب الدكتور محمد عمارة داعية الإسلام، وحارس تعاليمه، مع الدعاء. محمد الغزالي»!..

ولقد ظل التواصل بيننا - عبر الهاتف - منتظما، يتكرر عدة مرات كل أسبوع .. حتى علمت أنه قد قبل الدعوة لزيارة «الرياض» لحضور فعاليات المهرجان الوطني للثقافة - بالمملكة العربية السعودية - فاندهشت وأشفقت .. لأننا كنا نخشى على صحته - بسبب فرط حساسيته - من أن يتعرض لاستفزاز أحد من الذين أساءوا به الظن - غفر الله لهم - وهاجموه، وأصدروا ضده أربعة عشر كتابا مليئة بالافتراءات الجاهلة، بعد صدور كتابه «السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث» (١٩٨٩م)..

وكنا - معشر المقربين منه - قد اتفقنا معه على تجنب مصادر ومواطن هذا الاستفزاز، بل وعدم قراءة ما يكتبه عنه هؤلاء!..

ولم أكن أدري - ولا أحد غير البارئ سبحانه وتعالى - أن لقاءه بربه قد اقترب، وأنه مسافر - في لهفة غير مسبوقة - إلى الأرض المقدسة التي كتب الله أن يلقاه فيها وعليها .. وصدق الله العظيم:

﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان: ٣٤]

لقد سافرت أنا - حول ذات التاريخ - إلى «الكويت»؛ لمشاركة في ندوة علمية، وهناك سمعت وقرأت نبأ انتقال شيخنا إلى بارئه، ودفنه في مدينة حبيبه وحبيبنا رسول الله ﷺ

«بالبقيع» على مقربة من مثوى إمام دار الهجرة مالك بن أنس (٩٣ - ١٧٩هـ ٧١٢ - ٧٩٥م) - رضي الله عن الجميع - ..

لقد كان - قبل وفاته بلحظات - يجلس في قاعة الملك فيصل بالرياض، يتابع الأبحاث والحوارات في ندوة المهرجان الوطني للثقافة .. فلما سمع من على «المنصة» كلاما - في الإسلام - لا يليق ولا يرضاه .. طلب التعليق .. فاستأذنه مدير الجلسة في الانتظار إلى موعد الحوار .. فأخرج من جيبه قلما وورقة، ليدون عناوين دفاعه عن الإسلام .. فوافته المنية في هذا المشهد .. مشهد الرباط والدفاع عن حقائق الإسلام .. ويا له من ختام شاهد على مسيرة هذا الإمام العظيم .. ومبشر بحسن الجزاء والمثوبة - إن شاء الله - عند ربه الكريم.

ولقد عدت من الكويت إلى القاهرة بعد الفراغ من العزاء .. فشاركت في حفل التأبين له بجمعية الشبان المسلمين، ثم ذهبت إلى منزل الشيخ لتأدية واجب العزاء لأسرته .. وهناك - بالصدفة - لقيت سيدة قصت علينا قصة الرؤيا التي رأتها، والتي أخبرت بها شيخنا قبل سفره إلى الرياض بأيام، كانت لهذه السيدة ابنة تمر بحالة صحية حرجة .. وكانت شديدة القلق عليها .. فرأت فيما يرى النائم أنها في مدينة رسول الله ﷺ وسمعت أصواتا من مكان قريب، وذهبت تستطلع الخبر، فرأت رسول الله ﷺ يمسك باليد اليمنى للشيخ الغزالي، وسيدنا بلال يمسك بيسراه!! ثم استيقظت السيدة من نومها .. فقصت رؤياها على زوجها .. الذي سأل عن رقم هاتف الشيخ .. فقصت السيدة عليه ما رأت في المنام .. فطمأنها على ابنتها، وقال معلقا على رؤياها: هذه صحبة أحبها وأريدها.. وكان سفره - في لهفة - إلى «الرياض» .. ليلقى ربه .. وليجاور - في مثواه الأخير - رسول الله ﷺ وصحابته الكرام..

لقد كان الشيخ الغزالي رقيق العاطفة .. لكنه كان أسدا هصورا عندما يغضب للإسلام ولحرمات أمة الإسلام .. وكان حادا في تقريعه للغافلين عن مخاطر الحرب «الصليبية - الصهيونية» القائمة ضد الإسلام .. وكان يبكي عشقا لحبيبه وحبيبنا رسول الله ﷺ .. وكان يأسى على الماديين الذين لا قلوب لهم .. ويشفق على كثير من الشيوخ الذين لا عقول لهم، ولقد عاش مرابطا على ثغور الإسلام .. الإسلام الذي وصفه وصفا دقيقا وجامعا عندما قال عنه: «إنه قلب تقي .. وعقل ذكي» رحمه الله رحمة واسعة .. وعوض أمتنا عنه خيرا.. إنه - سبحانه - أكرم مسئول، وأفضل مجيب.

٢

كان الشيخ الغزالي (١٣٣٥ - ١٤١٦هـ ١٩١٧ - ١٩٩٦م) - رحمه الله - نموذجا فريدا من العلماء المجددين .. كان حاملا لهموم الأمة .. واعيا بأبعاد الحرب المعلنة - تاريخيا

– ضد الإسلام وأمته وحضارته .. مدركا لخطر الأمراض الداخلية التي تفترس الأمة، والتي يحرسها الغرب الاستعماري، لتظل أمتنا في حالة «الرجل المريض» الذي يفترس الصليبيون والصهاينة تركته ويقطعون أوصاله.. ومبصرا لمخاطر أمراض القلوب، التي تفوق أمراض الواقع المادي!..

وبقدر ما كان هاشا باشا مع الجماهير المطحونة، حتى ليقول: «لو كنت ملكا لأبيت إلا الانتظام في سلك الأخوة المطلقة مع الجماهير الدنيا، أخدمهم ويخدمونني على السواء»!..

كان واعيا بجريمة «النخبة» التي أفسد الاستعمار عقولها، وحول عن الإسلام قلوبها.. وبخطر المتدينين الذين غرقوا وأغرقوا الناس معهم في الشكليات، حتى لقد فرّغوا الدين من أعز ما فيه: التقوى، وروح الجهاد!..

وعلى المستوى الفكري، كان الشيخ الغزالي أسدا هصورا مرابطا على ثغور الفكر الإسلامي، حتى لقد مثلت حياته مشروعا فكريا .. ومعركة فكرية امتدت لأكثر من خمسين عاما، لم يترك فيها قضية من قضايا العصر إلا وخاض ميدانها ببسالة ووعي وإخلاص..

ففي مواجهة الاستبداد المالي والمظالم الاجتماعية، التي شلت قدرات الأمة وعطلت ملكاتها المادية والمعنوية، خاض أولى معاركه، وأرسى في صرح مشروعه الفكري عددا من اللبنات التي تمثلت في كتبه: (الإسلام والأوضاع الاقتصادية) و (الإسلام والمناهج الاشتراكية) و (الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين) و (الإسلام في وجه الزحف الأحمر) .. وفي هذا الميدان قدم فكرا نفيسا، وثوريا .. قال فيه: «لقد رأيت – بعد تجارب عدة – أنني لا أستطيع أن أجد بين الطبقات البائسة الجو الملائم لغرس العقائد العظيمة، والأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة!.. إنه من العسير جدا أن تملأ قلب إنسان بالهدى إذا كانت معدته خالية، أو أن تكسوه بلباس التقوى إذا كان جسده عاريا!.. إنه يجب أن يؤمّن على ضروراته التي تقيم أوده كإنسان، ثم ينتظر بعدئذ أن تستمسك في نفسه مبادئ الإيمان .. فلا بد من التمهيد الاقتصادي الواسع، والإصلاح العمراني الشامل، إذا كنا مخلصين حقا في محاربة الرذائل والمعاصي والجرائم باسم الدين، أو راغبين حقا في هداية الناس لرب العالمين..

إن بعض ذوي الآفاق المغلقة يتوهمون أن إدخال العوامل الاقتصادية في الرذائل والفضائل جنوح إلى التفكير الشيوعي القائم على النظرة المادية المحضة للحياة، واستهانة بالقوى الروحية السامية .. وهذا التوهم خاطئ، فلسنا نغض من قيمة الجانب الروحي .. بيد أن ذلك لا يعني إغفال المشاهد المحسوس، من تولد الرذائل الخطيرة في المجتمعات المصابة بالعوز والاحتياج، بل إن الاضطراب الاقتصادي في أحوال كثيرة جدا قد يكون السبب الأوحد في نشوء الرذيلة وشيوعها، والحديث النبوي الذي يلمح فيه نبي الإسلام إلى أن المعاصي توقع فيها الضوائق المادية – حديث: «إن المدين قد تلجئه قلة الوفاء إلى الكذب» – يضع أيدينا على طرف الحقيقة التي بدأ الناس يفهمونها الآن كاملة!..

إن بقاء كثير من الناس صرعى الفقر والمسكنة، هو هدف أكثر الحكومات المتتابعة، في العصور السابقة واللاحقة، إذ إن تجويع الجماهير بعض الدعائم التي تقوم عليها سياسة الظلم والظلام، ومن هنا انتشر الفقر في الشرق، وسخر الدين ورجاله لحمل الناس على قبوله واستساغته، وفسرت نصوص الدين المتصلة بهذا المعنى تفسيرا سقيما، نسي الناس معه حقوقهم وحياتهم، وجهلوا دنياهم وأخراهم، وحسبوا الفقر في الدنيا سبيلا إلى الغنى في الآخرة!..

إن هدف الديانات والرسالات هو قيام التوازن بين الناس، بإقامة العدل الاجتماعي والسياسي فيهم .. وقيام الناس بالقسط .. – العدل – هو محور الارتكاز الذي لا يتغير أبدا، وقد قال بعض علماء الأصول: إن مصالح الناس المرسلة، لو وقف دون تحقيقها نص أوّل النص، وأمضيت المصالح التي لا بد منها .. وللحكومة – من وجهة النظر الدينية – أن تقترح ما تشاء من الحلول، وأن تبتدع ما تشاء من الأنظمة لضمان هذه المصلحة، وهي مطمئنة إلى أن الدين معها لا عليها، ما دامت تتحرى الحق، وتبتغي العدل، وتنضبط بشرع الله فيما تصدره من اقتراحات وقوانين..

إن المال الذي يكفي لإذهاب العيلة، واستئصال الحرمان، وإشاعة فضل الله على عباده، يجب إخراجه – مهما عظم – من ثروات الأغنياء، ولو تجاوز تجاوزا بعيدا مقادير الزكاة المفروضة، لأن حفظ الحياة حق إسلامي أصيل، ومقادير الزكاة ليست إلا الحد الأدنى لما يجب إنفاقه، وقد ورد عن النبي ﷺ: «إن في المال حقا غير الزكاة»[٢]

ومن الواجب:

١ – تأميم المرافق العامة، وجعل الأمة هي المالكة الأولى لموارد الاستغلال، وإقصاء الشركات المحتكرة لخيرات الوطن، أجنبية أو غير أجنبية، وعدم إعطاء أي امتياز فردي من هذا القبيل.

٢ – تحديد الملكيات الزراعية الكبرى، وتكوين طبقة من صغار الملاك، تؤخذ نواتها من العمال الزراعيين.

٣ – فرض ضرائب على رءوس الأموال الكبرى، يقصد بها تحديد الملكيات غير الزراعية.

٤ – استرداد الأملاك التي أخذها الأجانب، وإعادتها إلى أبناء البلاد، وتحريم تملك الأرض المصرية على الأجانب تحريما مؤبدا.

٥ – ربط أجور العمال بأرباح المؤسسات الاقتصادية التي يعملون بها بحيث تكون لهم أسهم معينة مع أصحابها في الأرباح.

---

(٢) رواه الترمذي (٣/ ٤٨) برقم (٦٦٠).

٦- فرض ضرائب تصاعدية على التركات، تنفق في وجوه الخير، على النحو الذي أشار به القرآن، إذ يقول:

﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ [النساء: ٨]

ولو لم يبق لكل فرد من أفراد الشعب إلا قوته الضروري، لما جاز أن تتراجع الدولة في تحقيق هذا البرنامج، الذي تعلن به الحرب على الظلم والجهالة والاستعمار.

هكذا تحدث الشيخ الغزالي.. في أول كتاب ألفه.. وأول معركة فكرية خاضها ضد الظلم الاجتماعي(١٩٤٧م).. أي قبل ستين عاما.. فسحب بساط الدين من تحت أقدام الظالمين المستغلين.. وبرهن على أن الإسلام هو الحل لمشكلاتنا الاجتماعية.. وليس المبرر للمظالم الاجتماعية، كما يريد الظلمة.. وفقهاء السلاطين!..

وإذا كانت هذه المعركة - ضد المظالم الاجتماعية والاستغلال الاقتصادي والاستبداد المالي - كانت أولى المعارك الفكرية لشيخنا الغزالي.. فلقد كانت معركته ضد الجمود، والحرفية النصوصية، و«الظاهرية - البدوية» التي تغض من شأن ملكة العقل، فتفل عزم المسلمين في مواجهة التحديات المعاصرة، وتكرس التخلف الموروث.. كانت معركته ضد هذا الجناح من أجنحة التحدي الحضاري الذي يواجه الأمة الإسلامية.. هي آخر معاركه الفكرية الكبرى.. ففي كتابه (السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث).. ومن قبله في فصول من كتابه (دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين).. قدم الرجل منهاجا إسلاميا عبقريا في التعامل مع النصوص.. وفي فقه هذه النصوص.. فعنده: «إنه لا فقه بغير سُنة، لا سُنة بغير فقه.. وقوام الإسلام بركنيه كليهما من كتاب وسُنة».

إن السُنة النبوية تواجه هجومًا شديدا في هذه الأيام، وهو هجوم خال من العلم ومن الإنصاف.. وقد تألفت بعض جماعات شاذة تدعي الاكتفاء بالقرآن وحده، ولو تم لهذه الجماعات ما تريد، لأضاعت القرآن والسنة جميعا، فإن القضاء على السنة ذريعة للقضاء على الدين كله!..

إن محاربة السنة لو قامت على أسس علمية لوجب ألا يدرس التاريخ في بلد ما!.. لماذا يقبل التاريخ - على أنه علم - وتهتم كل أمة به، مع أن طرق الإثبات فيه مساوية أو أقل من طرق الإثبات من الحديث النبوي؟!.. ولماذا تدرس سير العظماء وكلماتهم وتعرض للتأسي والإعجاب، ويحرم من ذلك الحق رسل الله، وفي صدارتهم سيد أولئك الرسل مروءة وشرفا، وبيانا وأدبا، وجهادا وإخلاصا؟!.

إن بعض البله يتصور الأنبياء أبواقا لأمين الوحي، يرددون ما يلقيه إليهم، فإذا انصرف عنهم هبطوا إلى مستوى الدهماء، وخبا نورهم!.. أي غفلة صغيرة في هذا التصور؟!.

إن الله - في كتابه - أحصى أسماء ثمانية عشر نبيا من الهداة الأوائل، ثم قال للهادي الخاتم:

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ۗ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٩٠]

فإذا برز للإنسانية إنسان كامل، التقت في سيرته شمائل النبوة كلها، وتفجرت الحكمة على لسانه كلمات جوامع، واستطاع - وهو الفرد المستوحش - أن يحشد من القوة ما يقمع كبرياء الجبابرة، ويكسر قيود الشعوب، ويوطئ الأكناف للحق المطارد.. إذا يسر الله للإنسانية هذا الإنسان العابد المجاهد الناصح المربي، جاء غِرٌ ليقول: لا نأخذ منه ولا نسمع منه، ثم يستطرد - مخفيا غشه -: حسبنا كتاب الله!..

إن السُنة ليست إلا الامتداد لسنا القرآن، والتفسير لمعناه، والتحقيق لأهدافه ووصاياه..

هكذا تحدث الشيخ الغزالي عن أهل الجمود - جمود الغفلة -.. فبدأ بالذين يريدون قطع إحدى ساقي الإسلام.. سُنة رسول الله ﷺ.. محذرا من أن دعوة هؤلاء إذا نجحت - لا قدر الله - ستفضي إلى ضياع القرآن والسُنة جميعا، لأن القضاء على السُنة ذريعة للقضاء على الدين كله!..

ثم تحول شيخنا الجليل - عليه رحمة الله - إلى الجناح الثاني من أهل الغلو في الجمود.. أولئك الذين غاب عنهم الفقه وهم يتعاملون مع سُنة رسول الله عليه الصلاة والسلام.

-٣-

بعد أن تصدى شيخنا محمد الغزالي (١٣٣٥ - ١٤١٦هـ ١٩١٧-١٩٩٦م) - عليه رحمة الله - للذين ينكرون سُنة رسول الله ﷺ، مخفين غشهم بكلمة: حسبنا كتاب الله!.. عرج بالنقد المنهجي على مواقف نفر من المنتسبين إلى السُنة النبوية المطهرة - انتسابا غير واع - فصاغ من خلال نقده لهم منهجا علميا واعيا في التعامل مع النصوص.. وفي هذا السياق قال ضمن ما قال: «على أننا نعتب على جماعات كثيرة تنتسب للسُنة، وتظهر التمسك بها، فإن مسلكها قد يكون وراء انصراف بعض الناس عن السُنة وشكهم في جدواها. نأخذ على هذه الجماعات أمرين:

- أولهما: أنها تخلط الصحيح بالسقيم، ولا تدري بدقة ما يقبل ويرد من المرويات..
- ثانيهما: قصورهم الفقهي، فليست لهم قدم راسخة في فقه الكتاب الكريم - مع أنه الأصل - كما أنهم يأخذون الأحاديث مقطوعة عن ملابساتها، ولا يضمون إليها ما ورد في موضوعها من مرويات أخرى قد تزيدها وقد تردها.

لقد بُذلت في تحقق السُنة جهود لم يُبذل مثلها في الوقوف على تراث بشر، كي يعرف ما قاله الرسول حقا.. وانتهت هذه الجهود بجملة حقائق محترمة:

١ – إن في السُّـنة ما هو متواتر لفظا ومعنى ؛ وهذا النوع من السُّـنة يشبه القرآن الكريم فيما أتى به من أحكام.

٢ – وجمهور الأمة يقبل سُنن الآحاد، ويعدها دليلا على الحكم الشرعي الذي نتعبد الله بإقامته، ومن الناس من عد هذه السُّنن مفيدة لليقين الذي يفيد التواتر – مادامت صحيحة – ولكن جمهور العلمـاء يقبل سُـنن الآحاد في الأحـكام العلمية والفروع الفقهية، ولا ينقلهـا إلى ميدان العقيدة، الذي يقوم الأمر فيه على القطع، ومعنى ذلك أن سُنن الآحاد تفيد الظن العلمي وحسب.

٣ – مع اتفاق الفقهاء على أن سُنن الآحاد قرينة مقبولة في إفادة الحكم الشرعي ؛ فإن عددا من الأئمة يتجاوز هذه السُّنن إذا كانت هناك قرينة أقوى منها في إفادة حكم الله.

فالإمام مالك – مثلا – يرى عمل أهل المدينة أدل على السنة النبوية من حديث الآحاد مهما كانت صحته.

والأحناف يرون أن حديث الآحاد لا ينهض على إثبات الفرضية وحده، ولا ينهض كذلك على إثبات الحرمة، ولكنه يثبت أحكاما أقل رتبة، وغالى بعضهم فجعل القياس القطعي أرجح من سند الآحاد.

إن الحكـم الدينـي لا يؤخذ مـن حديث واحد مفصول عـن غيره، وإنما يضـم الحديث إلى الحديـث، ثم تقـارن الأحاديث المجموعة بمـا دل عليه القرآن الكريم، فـإن القرآن هو الإطار الـذي تعمـل الأحاديث في نطاقه لا تعدوه، ومن زعم أن السُّـنة تقضي على الكتاب، أو تنسـخ أحكامـه فهـو مغـرور!.. إن حياة محمـد – صلوات الله وسـلامه عليه – كانـت تطبيقا عمليا لتوجيهـات القـرآن!.. كانـت قرآنا حيا يغيـر الأرض ويصنع حضارة أخرى، ولولا هذه السُّـنة العملية والقولية ؛ لكان القرآن أشبه بالفلسفات النظرية الثابتة في علم الخيال..

إننـا نعتقـد – مثل كثير من العلمـاء المحققيـن – أن الأحـكام التي توجد فـي الأحاديث الصحيحـة هي مأخوذة ومسـتنبطة من القرآن الكريم، اسـتنبطها النبي ﷺ مـن القرآن، بتأييد إلهي، وبيان رباني، ولذلك يجب علينا قبولها والعمل بها بشروط ثبوتها إلى النبي ﷺ، وهذا الفهم والاسـتنباط يسمى في اصطلاح القرآن تارة «تبيينا»، وتارة «إراءة»، قال تعالى:

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٤٤]

وقال جل شأنه:

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾ [النساء: ١٠٥]

إن دراسة السنة علم له رجاله الخبراء، ولا يقبل في هذا الميدان ما يرسله السفهاء من أحكام طائشة، تجعل التطويح بالسُّنة النبوية أمرا جائزا، أو تجعل تكذيب حديث ما هوى مطاعا.

ولقد كان الفقهاء – على امتداد تاريخنا العلمي – هم القادة الموثوقون للأمة، الذين أسلمت

لهـم زمامها عن رضا وطمأنينة، وقنـع أهل الحديث بتقديم ما يتناقلون من آثار، كما تقدم مواد البناء للمهندس الذي يبني الدار، ويرفع الشرفات، والواقع أن كلا الفريقين يحتاج إلى الآخر.. فلا فقه بغير سُـنة، ولا سُـنة بغير فقه، وقوام الإسلام بركنيه كليهما من كتاب وسُنة.. وعظمة الإسلام تتم بهذا التعاون..»

هكذا تحدث الشـيخ الغزالي – عليه رحمة الله – عن المنهاج العلمي في التعامل مع السُّـنة النبوية الشـريفة حديثا موزونا بموازين الفقهاء العظام.. فكان هذا التوازن الجامع بين الأصل: القرآن الكريم.. وبين البيان، أي السُّنة النبوية، التي هي البيان النبوي للبلاغ القرآني..

ومـن المعـارك الفكرية التي خاضها الشـيخ الغزالي، والتي مثلت معالم بارزة في مشـروعه الفكري، معركته في مواجهة الاستبداد السـياسي، الذي حرم الأمة من ثمرات الشورى الإسلامية، فأعجزها عن مواجهة تبعات رسـالتها، ومجابهة تحديات أعدائهـا، وفي هذا الميدان قدم كتبا عدة منها (الإسـلام والاسـتبداد السياسـي) و (حقوق الإنسـان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة).. وغيرهما من الكتب والدراسات والمقالات التي عالجت قضايا هذا الميدان.

كذلـك خاض الشـيخ الغزالي المعارك العديـدة في مواجهة تحديات الحضـارة الغربية التي حاولت وتحاول طمس التميز الحضاري للإسلام، ونسـخ هوية أمته، ومسـخ الروح الإسلامية المتميزة في علوم حضارتنا ونظمها.. وفي هذا الميدان قدم – رحمه الله – العديد من الأعمال الفكريـة، التي مثلـت كتائب معاركنا الفكريـة ضد التغريب والاسـتلاب الحضاري.. فكتابه (من هنا نعلم) مواجهة مع محاولات «علمنة الإسلام» ؛ ليكون نصرانية، تدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله!.. وكتابه (حقيقة القومية العربية) مواجهة للمفاهيم الغربية في القومية، تلك التي استعارها فريق منا، فكانت عدوانا على عالمية الإسلام، وانتقاصا من وحدة الأمة.. وعنصرية ترتد بنا إلى عصبية الجاهلية الأولى!..

أما كتابه (دفاع عن العقيدة والشـريعة ضد مطاعن المسـتشرقين) فإنه نزال مع المستشرق المجري جولد تسـيهر (١٨٥٠ – ١٩٢١م) الذي أراد في كتابه (العقيدة والشـريعة) تقديم الإسلام كاستعارات ملفقة من عقائد الآخرين وشرائعهم!..

وكذلك تأتي في هذا المقام إسهامات كتب الشيخ الغزالي (الغزو الثقافي يمتد في فراغنا) و (مستقبل الإسلام خارج أرضه وكيف نفكر فيه) وغيرها من الكتب والدراسات.

وفي مواجهة «الذات الإسـلامية»، التي تشوهت بالتخلف الموروث، وبالاسـتلاب التغريبي، قـدم الشـيخ الغزالي – عليه رحمـة الله – العديد من الكتب والدراسـات، التي سـعت لتجديد «الـذات الإسـلامية» بالغذاء الإسـلامي الصالـح الصحيح.. تجديـد العقل، وتصفيـة رؤيته.. وتجديد القلب، وترقيق مشاعره.. وإقامة علاقة التكامل – التي امتاز بها الإسلام – بينهما..

ولقـد كان هـذا الميـدان هـو أغنـى ميادين المشـروع الفكـري للشـيخ الغزالـي بالكتب



الشيخ الغزالي

والدراسات .. فهو ميدان القوة الإسلامية الضاربة، التي يتوقف على صلاحها إحراز النصر الإسلامي على كل الجهات، وفي مواجهة كل التحديات.

فمن: (خلق المسلم) إلى (عقيدة المسلم) و (التعصب والتسامح) و (جدد حياتك) و(في موكب الدعوة) و (فقه السيرة) و (ليس من الإسلام) و (هذا ديننا) و (من معالم الحق) و (كيف نفهم الإسلام) و (نظرات في القرآن) و(كيف نتعامل مع القرآن) و (نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم) و (المحاور الخمسة للقرآن الكريم) و(مع الله – دراسات في الدعوة والدعاة) و (معركة المصحف) و (كفاح دين) و (الإسلام والطاقات المعطلة) و(الجانب العاطفي من الإسلام) و (سر تأخر العرب والمسلمين).. وغيرها.. وغيرها.. كثير من الكتب والدراسات التي استهدفت تزكية الذات والنفس الإسلامية بالإسلام..

ولقد كان الشيخ الغزالي واعيا بضرورة إصلاح الداخل الإسلامي، والذات الإسلامية، لزيادة المناعة والمنعة الإسلامية ضد الزحف الغربي على الذات الإسلامية.

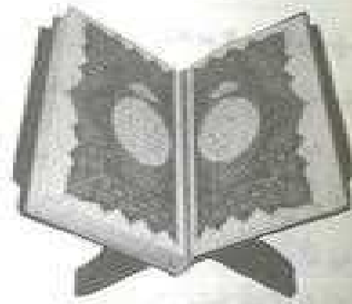
ومن عباراته الجامعة في هذه القضية قوله: «إن تحديات الدعوة الإسلامية تجيء – قبل أي زحف خارجي – من داخل أرض الإسلام.. على أن التحدي الأعظم للإسلام كله هو في يقظة كل القوى المعادية له، وتبييتها النية على اغتياله!..

لقد صحت اليهودية، والنصرانية، والشيوعية، والوثنية، وتملكتها رغبة مجنونة للقضاء على هذا الدين، وانتهاز ما يسود بلاده من غفلة وفرقة لتوجيه الضربة الأخيرة!..

وإن الوعظ هو أخف الواجبات التي يتطلبها الإسلام في عصرنا!.. فالجهد الأول – المطلوب – هو: تحريك قافلة الإسلام، التي توقفت، في وقت تقدم فيه حتى عبيد البقر!..

وسوف تتلاشى هذه التحديات كلها يوم يعتنق المسلمون الإسلام، ويدخلون فيه أفواجا، حكاما وشعوبا!».

هكذا تحدث الشيخ الغزالي – عليه رحمة الله – وهكذا يجب أن نعي إنجاز هذا الإمام العظيم.. وهكذا يجب أن يكون الاحتفال بذكرى العلماء العظماء.



تفسير سورة البقرة



لفضيلة الأستاذ الإمام
محمد عبده

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ
فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٢١) يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي
فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٢٢) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا
عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾

(البقرة: ١٢١ – ١٢٣)

الصلة بين قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ الآية... وبين ما قبلها واضحة جلية، وهي أن هذه جاءت في موضع الاستدراك على ما سبقها من إيئاس النبي والمؤمنين من أهل الكتاب. فقد علمنا أن آية: ﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى﴾ [البقرة: ١٢٠]

قد سلت ما كان يخالج النفوس من الرجاء بإيمان أهل الكتاب كلهم، وهذه الآية تنطق بأن منهم من يرجى إيمانه، وهم الذين وصفهم بما هو علة الرجاء ومناط الأمل، وهو تلاوة كتابهم حق تلاوته، وعدم الجمود على الظواهر والتقاليد، والاكتفاء بالأماني والظنون.

كأنه يقول: إن كانت نفسك تحدثك بأن أهل الكتاب أقرب إلى الإيمان بما جئت به، لأنه يشبه ما عندهم، ويصدق أنبيائهم وأصول شرائعهم، من حيث يقتلع جذور دين الوثنيين ويمحوه محوا، فيكون الوثنيون أجدر من أهل الكتاب بمعاندتك ومجاحدتك، فاعلم أن هؤلاء قد ألحقوا بدينهم من التقاليد والمخترعات، وألصقوا به من البدع والعادات، ما غرهم في دينهم بغير فهم، وجعلهم يتعصبون له بغير عقل، فكانوا بذلك أبعد عن حقيقة الإيمان من أولئك الذين يعبدون الأوثان.

وذلك، أنهم اتخذوا الدين جنسية، فليس لهم منه إلا الجمود على عادات صارت مميزة للمنتسبين إليه، ولكن لا يزال فيهم نفر يرجى منهم تدبر الشيء، والتمييز بين الحق والباطل، وهم ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾

وهم:

﴿ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾

أي يفهمون أسراره، ويفقهون حكمة تشريعه، وفائدة التكليف به، لا يتقيدون في ذلك بآراء من سبقهم فيه، ولا بتحريفهم كلمه عن مواضعه، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ هم الذين يقدرون ما جئت به من الترقي في الدين، وإقامة قواعده على الأساس المتين، ﴿ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ بعد العلم بأنه الحق الذي يزيل ما بينهم من الخلاف، ويهديهم إلى طريق السعادة.

﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ ﴾ من الرؤساء المعاندين والمقلدين الجاهلين، وهم الأكثرون، ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ لهذه السعادة، المحرومون مما يكون للمؤمنين من المجد والسيادة، سواء كان كفرهم بتحريفه ليوافق مذاهبهم التقليدية، أم بإهماله اكتفاء بقول علمائهم.

ويجوز أن يكون الضمير في قوله ﴿ بِهِۦ ﴾ للهدى الذي ذكر في الآيات السابقة.

عبر عن التدبر والفهم بالتلاوة حق التلاوة، ليرشدنا إلى أن ذلك هو المقصود من التلاوة التي يشترك فيها أهل الأهواء والبدع مع أهل العلم والفهم.

والتعبير يشعر بأن أولئك الذين حكم بنفي رضاهم عن النبي ﷺ نفيا مؤكدا، لا حظ لهم من الكتاب إلا مجرد التلاوة وتحريك اللسان بالألفاظ، لا يعقلون عقائده، ولا يتدبرون حكمه ومواعظه، ولا يفقهون أحكامه وشرائعه، لأنهم استغنوا عنه بتقليد بعض الرؤساء والاكتفاء بما يقولون، فلا عجب إذا أعرضوا عما جاء به النبي، ولا ضرر في إعراضهم.

وأما الآخرون ، فإنهم لتدبرهم وفهمهم أسرار الدين، وعلمهم بوجوب مطابقتها لمصالح العالمين، يعقلون أن ما جاء به هو الحق الذي يتفق مع مصلحة البشر في ترقية أرواحهم، وفي نظام معايشهم، فيؤمنون به، وإنما ينتفع بإيمان أمثالهم.

وجملة القول، أن هذا التعبير أفاد حكما جديدا وإرشادا عظيما، وهو أن الذي يتلو الكتاب لمجرد التلاوة: مثله كمثل الحمار يحمل أسفارا، فلا حظ له من الإيمان بالكتاب لأنه لا يفهم أسراره، ولا يعرف هداية الله فيه، وقراءة الألفاظ لا تفيد الهداية، وإن كان القارئ يفهم مدلولاتها كما يقول المفسر والمعلم لها، لأن هذا الفهم من قبيل التصور، وما التصور إلا خيال يروح ويتراءى، ثم يغيب ويتناءى.

وإنما الفهم فهم التصديق والإذعان ممن يتدبر الكتاب، مستهديا مسترشدا ملاحظا أنه مخاطب به من الله تعالى ليأخذ به فيهتدي ويرشد، والمقلدون محرومون من هذا، فلا يخطر لهم ببال أنهم مطالبون بالاهتداء بكتاب الله تعالى وإنما الهداية عندهم محصورة في كلام رؤسائهم الدينيين، ولا سيما إذا كانوا ميتين.

وإذا كنا نعتبر بما قص الله تعالى علينا من خبر أهل الكتاب، كما قال:

﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

[يوسف : ١١١]

فإننا نعرف حكم أهل القرآن عنده تعالى مما ذكره عن أهل التوراة والإنجيل، كما نعرفه من مثل قوله عز وجل:

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾

[محمد : ٢٤]

وقوله:

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص : ٢٩]

فكل هذه الآيات والعبر لم تحل دون اتباع هذه الأمة سنن من قبلها شبرا بشبر، وذراعا بذراع، كما أنبئت للتحذير، والقرآن حجة عليها كما ورد في الحديث: «والقرآن حجة لك أو عليك». ولا شك أن من يتلو ألفاظ القرآن وهو معرض عن هدايته، غير معتبر بوعده ووعيده، فهو كالمستهزئ بربه.

وإذا سأل سائل عن قول العلماء: إن القرآن يتعبد بتلاوته، فالجواب: نعم.

ولكنهم لم يقولوا إنه أنزل لذلك، وكيف يقولون ذلك، والله الذي أنزله يقول إنه أنزله ﴿ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾!!

فالقرآن وكذلك السنة يصرحان في مواضع كثيرة بخلاف هذا القول إذا أخذ على إطلاقه، وجعل معناه أو من معناه أن الله تعالى يطالب عباده بقراءة القرآن بدون تدبر ولا تذكر. وقد جاء من الأحاديث ما يصف حال قوم يأتون بعد: «يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم» وقد سماهم شرار الخلق. فهؤلاء الأشرار قد اتخذوا القرآن من الأغاني والمطربات، وإذا طالبت أحدهم بالفهم والتدبر أخذته العزة بالإثم، واحتج عليك بكلمة قالها فلان أو حلم رآه فلان، وهكذا انقلب على المسلمين وضع الدين.

ثم هم يتعجبون مع ذلك، كيف حرموا من وعد الله في قوله:

﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

[الروم :٤٧]

﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾

[المؤمنون : ٦٨ ، ٦٩]

أرأيتم مثلا رجلا يرسل كتابا إلى آخر فيقرؤه المرسل إليه «هذرمة» أو يترنم به، ولا يلتفت إلى معناه، ولا يكلف نفسه إجابة ما طلب فيه، ثم يسأل الرسول أو غيره: ماذا قال صاحب الكتاب فيه؟ وماذا يريد منه؟ أيرضى المرسل من المرسل إليه بهذا، أم يراه استهزاء به؟

فالمثل ظاهر، وإن كان الحق لا يقاس على الخلق. فإن الكتاب لا يرسل لأجل ورقه، ولا لأجل نقوشه، ولا لأجل أن تكيف الأصوات حروفه وكلمه، ولكن ليعلم مراد المرسل منه، ويعمل به.

إن الاستهداء بالقرآن، واجب على كل مكلف في كل زمان ومكان، فعلى كل قارئ أن يتلو القرآن بالتدبر، وأن يطالب نفسه بفهمه والعمل به، ولا شك أن كل من له معرفة ولو قليلة باللغة العربية، فإنه يفهم من القرآن ما يهتدي به، ومن كان أميا أو عجميا فإنه ينبغي له أن يسأل القارئين أن يقرءوا له القرآن ويفهموه معناه.

وقد تقدم التنبيه على هذا في مقدمة تفسير سورة الفاتحة، وأنا أعتقد أنه يجب على كل مسلم أن يقرأ القرآن أو يسمعه كله ولو مرة واحدة في عمره، ومن فوائد ذلك أن يأمن من

إنكار شيء منه إذا عرض عليه أو سمعه مع التشكيك فيه.

أقام الله تعالى الحجج الدامغة على أهل الكتاب، ثم ناداهم ودعاهم إلى ترك أسباب الغرور المانع من الإيمان فقال:

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾

وقد سبق التذكير بهذه النعمة في أول المحاجة، ثم أعيدت هنا للمناسبة الظاهرة، وهي أنه بعد ما ذكر أن الإعراض عن تدبر الكتاب والتفقه فيه هو كفر به، وذكرهم بأنه لا يليق بمن كرمه ربه وفضله على غيره من الشعوب بإيتائه الكتاب أن يكون حظه منه كحظ الحمار يحمل أسفارا، فإذا كان ابتدأ العظة والدعوة بذكر هذا التفضيل لتتوجه إليه الأنظار وتصغى إليه الأسماع كما تقدم في تفسير الآية الأولى، فلا غرو أن يذكر هذا التفضيل ثانيا بعد التوبيخ والتقريع، لإزالة ما ربما يحدثه ذلك من الاستياء الذي يتوقع أن يكون من التنفير عما في الآية التالية، وليس هذا من التكرار الذي يتحاماه البلغاء، وإنما هو من إعادة الشيء لإفادة ما لا يستفاد بدونه، كأن هذه الآية تمهيد لما بعدها وهو فذلكة القصة، والمقصود إقامة الحجة.

ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا ﴾ فلا ينفعكم يوم القيامة أن تعتذروا عن الإعراض عن فهم كتاب الله بأن بعض سلفكم كانوا يفهمونه ويتدبرونه، وأنكم استغنيتم بتدبرهم وفهمهم عن أن تفهموا وتتدبروا، فإنه يوم لا يغني فيه أحد عن أحد شيئا، ويؤيد الآية حديث الصحيحين: «يا فاطمة يا بنت محمد سليني من مالي ما شئت، لا أغني عنك من الله شيئا» إلخ.

وإذا كان لا يجزي فهم سلفكم عنكم أنكم أعرضتم عن هداية كتابه، فلا تنفعكم شفاعتهم أيضا. كما أنه لا يقبل منكم عدل وفداء تفتدون به، وتجعلونه معادلا لما فرطتم فيه كما قال:

﴿ وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ ﴾

وكانوا يعتقدون بالمكفرات، تؤخذ عدلا عما فرطوا فيه، وبشفاعة أنبيائهم فأخبرهم الله تعالى أنه لا يقوم مقام الاهتداء بكتابه شيء آخر، ثم قطع حبل رجائهم من كل ناصر ينصرهم، فقال:

﴿ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾

أي أنه لا يأتيهم نصر من هاتين الجهتين ولا من غيرهما.

وقد تقدم في تفسير الآيات الأولى ما يغني عن الإطالة هنا، وليس في هذه زيادة في المعنى، إلا أن التعبير قد اختلف تفننا، ففي الآية الأولى تقدم ذكر الشفاعة منفية القبول، وتأخر ذكر العدل غير مأخوذ، وفي هذه الآية نفي قبول العدل أولا ثم نفي نفع الشفاعة ثانيا. وكأنه يشير بهذا التفنن إلى أنه لا فرق بين الفداء والشفاعة في الجواز والمنع، فمن منع العوض في الآخرة لزمه منع الشفاعة، فإن جوزها جوزه.

نظرات فى فكر الإمام الأشعرى (٨)



آداب الجدَلِ

فضيلة الإمام الأكبر أ.د/ أحمد الطيب
شيخ الأزهر

مما اعتنى ابن فورك بنقله من مذاهب الشيخ فى علم المناظرة - طائفة من القواعد تسمى: «آداب الجدل»، كانت منثرة ومبعثرة فى مؤلفات عدة من مصنفات الشيخ، وهذه الآداب ليست مما يطلب من المتناظرين على سبيل التبرع كما قد يوحي بذلك عنوانها أو تسميتها بآداب، بل هى آداب بمعنى أنها: قواعد تنظيمية إن صح هذا التعبير لا تقل أهميتها بالنسبة للمناظرة عن أهمية قواعد المناظرة نفسها، والدليل على ذلك: أن هذه الآداب ليست كلها مما يتعلق بالجانب السلوكى الأخلاقى فى عملية المناظرة، بل إن منها ما يتعلق بجانب علمي بحت يمس لب المناظرة مسًا مباشرًا، وفى اعتقادى أننا نخطئ كثيرًا لو رحنا نفهم هذه الآداب على أنها طائفة من النصائح أو الإرشادات، يمكن للمناظر أن يتحلل منها وقتما يشاء دون أن تفسد مناظرته وحواره، وأكبر الظن أن كلمة «آداب» ما كانت تعنى عند علماء الجدل هذا الذى نفهمه منها الآن، بل إن هذا المصطلح كان يحمل معه قيمة لاتقل شأنًا عن المضمون العلمى فى أبحاث الجدل، وليس صدفة أن يتصدر هذا المصطلح عناوين أغلب المصنفات فى هذا العلم، وقد مر بنا أن الكتابين اللذين ألفهما الأشعرى فى هذا الفن أحدهما بعنوان: «أدب الجدل»، والآخر بعنوان: «شرح أدب الجدل»، بل حتى المؤلفات المتأخرة فى هذا العلم تحرص على أن تضيف فى عناوينها كلمة «أدب» أو «آداب»، وكثيرًا جدًا ما تقابلنا عبارة: «أدب البحث والمناظرة» أو «آداب البحث والمناظرة» عنوانًا لمصنفات المتأخرين فى علم الجدل، وأكبر الظن أيضًا: أن الأخلاق والعلم كانا يمثلان وجهين لعملة واحدة عند علمائنا الأقدمين، وأن الفصل بينهما لم يكن أمرًا واردًا لا شكلًا ولا موضوعًا، وإلا فما السر فى هذا الحرص الشديد على أن يشتمل أى مؤلف فى علم الجدل سواء كان على طريقة المتكلمين أو الأصوليين على فصل خاص بهذه الآداب، إضافة إلى الحرص الشديد

أيضًا على ذكر كلمة «أدب» أو «آداب» في العنوان؟ ألا يعني ذلك أن هذه الآداب جزء لا يتجزأ من العملية العلمية ذاتها، وأن الجدل إن كان قواعد عقلية، فهو أيضًا أدب وسلوك، وأنه لو فقد واحدة من هاتين الركيزتين، كان كمن يحاول المشي على رجل واحدة؟!

على أن المتأمل في هذه الآداب لا يسعه إلا أن يقف وملء عقله ووجدانه إكبار وتقدير لروعة الجو الأخلاقي الذي تثيره هذه الآداب سواء ما تعلق منها بالجانب السلوكي الخارجي، أو ما تعلق منها بالجانب السيكولوجي الباطن، فقد غاصت هذه الآداب في أغوار النفس الإنسانية، ورصدت معظم ما يعتريها من مشاعر متباينة في مثل هذا الموقف، وحللته ووضعت له ضوابط وأصولًا لا نبالغ لو قلنا: إنها بلغت الغاية في الدقة والكمال.

وإننا وإن كنا لا نعرض كل ما نقله ابن فورك في هذا المقام وهو كثير ومتشعب إلا أننا سنحاول أن نلخص تلخيصًا أمينًا أهم ما جاء في هذا الفصل من آداب علم الجدل.

١- وأول ما يلفت إليه الشيخ أنظار المتجادلين: هو قدسية الهدف من الجدل، وحرمته وطهارته، فعند الشيخ أن الهدف الأوحد من المناظرة هو: «التجرد للحق»، والتقرب بهذا التجرد إلى الله تعالى، وكان الجدل هنا عديل العبادة أو معنى من معانيها، ويحرص الأشعري على أن يذكر بضرورة تجنب الرياء والمباهاة واللجاج، وكأن هذه النصيحة في جانبيها السلبي والإيجابي هي مقتضى أصل ثابت في الإسلام هو: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ويعلل الأشعري نظرته هذه: بأن المجادل لو تخطى في جدله الهدف الذي أوضحه إلى هدف آخر كاللجاج والمغالبة، فإنه بذلك يهبط إلى مستوى حيواني يشاركه فيه فحول الإبل والكباش والديكة، فإنها تتخاصم وتتنازع رغبة في الغلبة أو من أجل الانتقام، والتكسب أيضا عن طريق الجدل هدف منحرف، ولا يقل انحرافًا عن اللجاج والمحك والرياء .. إن لم يكن أشد من كل ذلك تدميرًا وهدمًا للعلم والأخلاق جميعًا، يقول الأشعري معقبًا على ذلك: «فإذا أشعر المناظر -هذا الذي قلنا- نفسه عند ابتدائه في المناظرة، وقدم حمد الله والصلاة على النبي ﷺ والرغبة إليه في المعرفة والتأييد والتوفيق والعصمة، إما بأن يعلن ذلك أو يسره، فعلى ذلك مضى السلف الصالح، رضوان الله عليهم»[١].

٢- ويجب على المناظر ألا يفرط في رفع صوته في أثناء المناظرة، وألا يحتد في حديثه، وعليه أن يكون ثابت الأعضاء فلا يضطرب في مجلسه، ولا يرمي بيديه في وجه خصمه أو وجوه الحاضرين.

٣- وعليه أن يكون وادعًا ساكنًا متئدًا[٢].

٤- وليحذر كل الحذر أن يحسن الظن بجمهور الحاضرين، سواء منهم من كان من أنصاره أو من خصومه، بل عليه أن يقصد بما يقول وجه الحق والتقرب إلى الله تعالى، والأشعري في هذه النقطة يلمس جانبًا نفسيًا يدل على ذكائه الخارق في معرفة أسرار الجدل ومواقفه، فهو حين ينصح المناظر بأن يركز كل انتباهه فيما يقول، ويضرب صفحًا عن جمهور الحاضرين، فإنه يخشى على المناظر لو اطمأن إلى أصدقائه أن يلاحظ ما يؤذيه من غيرهم «فتختل قواه وينسى كثيرًا مما يحتاج إليه»، وكان الأشعري يريد أن يقول: إن النقد الموجه لشخص مشغول بما يقول -أخف وطأة من النقد الذي يوجه لشخص يعرف أنه مقبول ومستحسن عند الناس، ولاشك أن الانتقاد أو الاعتراض في الحالة الثانية مما قد يصيب المنظر بشيء غير قليل من الإحباط وخيبة الأمل، ويعلق الأشعري على هذه النقطة بقوله: «فإذا قصد في ما يقوله التقرب إلى الله تعالى، ولم يلتفت إلى محبة الذين بحضرته- خالفوه أو وافقوه- كفي المؤونة، ومضى على بينة واجتمع له ذهنه»[٣].

٥- ويجب على المناظر إن شعر بالخوف أن يلزم الصمت، إذ الكلام في مثل هذا الموقف يشغل العقل بالدفاع عن الذات، أو كما يقول الأشعري: «يذهب بالعقل ويشغله بحراسة الروح عن حراسة المذهب»، وعليه -أيضًا- أن يلزم الصمت، إذا أحس بأن الجمهور المستمع لا يسوي بينه وبين خصمه في الاحترام، أو في الاستماع، أو حتى مجرد الإقبال عليهما.

٦- ومن درر آداب الجدل في هذا الموطن تشدد الأشعري في تحذير المناظر من أن يستخف بخصمه، أو يهزأ منه كائنًا من كان هذا الخصم، وليس في المناظرة في ما يرى الشيخ ما يسوغ هذا اللون من السلوك أو يستوجب شيئًا منه صغر ذلك الشيء أو كبر لأن الخصم هو أحد رجلين فإما هو رجل يُستمعُ إليه ويؤخذ منه .. فعلى صاحبه أن يُستمعَ إليه، وإما هو رجل لا يُستمعُ إليه ولا يؤخذ منه، فالمناظرة غير جائزة معه منذ البداية؛ لأنها مناظرة غير متكافئة، وأمر آخر يركز عليه الأشعري في هذا المقام، هو أن الاستخفاف بالخصم يغري المستخف بالاستنامة وعدم التيقظ، وهنا مكمن الخطر، حيث لا يأمن المستخف حالتئذ- أن يبادره خصمه بما لم يكن له في حسبان، يقول الشيخ: ومتى استخففت به لم تتحرز، ولم يجتمع ذهنك، ولا تكون آمنًا أن يتفق له عليك ما لا يمكنك أن تدفعه عن نفسك[٤].

٧- ويجب أن يكون المناظر على علم بدرجة خصمه وترتيبه في طبقات المناظرين، وهل هو من المبتدئين المسترشدين، أو الأكفاء المتمكنين.

٨- وعلى المناظر أن يحتاط للخصم المتعنت، وله أن يضيق عليه سبل النقاش ما استطاع إلى ذلك سبيلًا.

٩- وإذا كان المناظر مسترشدًا، فعلى صاحبه أن يلين له في القول وأن يصبر له وأن يمكنه من الاستقصاء والتفريع.

١٠- وعلى المجيب أن يصبر للسائل وينتظره حتى ينتهي من طرح سؤاله كاملًا، لا

---

(١) المجرد، لابن فورك: (اللوحة: ١٥٤/ أ) ٣١٧.
(٢) م.ن.

(٣) م.ن: (اللوحة: ١٥٥/ أ) ٣١٨.
(٤) م.ن.

فرق في ذلك بين أن يكون سؤاله صحيحًا أو غير صحيح، والشيء نفسه يلتزم به السائل، فإن عليه أن يصبر حتى يفرغ المجيب من جوابه مهما كان نوع هذا الجواب حتى لو كان كالوسواس الذى لا يفهم - كما يقول الشيخ - وليس للسائل أن يبدأ بإفساد جواب المجيب أو الطعن عليه، إلا بعد أن يستمع إلى آخر كلمة مما يقوله المجيب في جوابه.

ولو اعترض المجيب على سؤال السائل قبل أن يفرغ منه، أو اعترض السائل على جواب المجيب قبل الفراغ منه، فعلى الطرف الآخر أن يحتمله ويرده فى رفق، مبينًا له أن ذلك مما يخل بآداب البحث والمناظرة، فإن أصر الطرف المعترض على اعتراضه، أو كرر ذلك، أو لج فيه.. فعلى صاحبه أن يقطع مناظرته معه، ولا يلتفت إلى من يحكم عليه - من المستمعين - بأنه عاجز عن الكلام أو متابعة الحوار، فهذا المحكم في ما يرى الأشعرى حكم من لا يفهم(٥).

١١- ومن آداب الجدل: أن يقبل المناظر على خصمه بوجهه، وألا يعرض عنه، فإن فعل الخصم ذلك، فعلى المناظر أن ينبهه مرة أو مرتين إلى ترك ذلك، فإن عاد الخصم إلى مثلها بعد ذلك، فعلى صاحبه أن يترك مناظرته.

١٢- ومن روائع الشيخ فى أدب الجدل: نصيحته للمناظر إذا استغلقت عليه أبواب التفكير، وعجز عن الطعن فى مذهب صاحبه أن يكون منصفًا لنفسه ولصاحبه، يقول الشيخ: «وإذا أعياك السؤال والطعن فتدبر وتفكر، وانظر إلى كلام الخصم فإن كان صحيحًا فليس إلا التسليم، فإن الأنفة من قبول الحق إذا ورد جهل وباطل، وإن كان (كلام الخصم) مما يقع فى مثله الاختلاف، فالزم المطالبة بالبرهان، وانتظر ورود الخواطر في خلال ذلك باتساع ما ضاق، فإنه لن يعدمها مريد الحق - القاصد إلى الإنصاف - من هذه الفصول التي ذكرناها في ذكر آداب المناظرين»(٦).

١٣- وعلى المناظر أن يحذر اليأس والضجر ولا يستسلم إليهما؛ فإنهما يدفعان المناظر إلى الاعتقاد في ما يرد عليه من خواطر لا يأمن مع سأمه وضجره أن تكون خواطر فاسدة، وعليه أيضًا أن يتريث فى الاعتقاد فلا يعتقد إلا بعد تثبت وبيان، ولو أحس بالملل يتسرب إلى نفسه، فعليه أن يلجأ إلى الراحة ويعاود نشاطه بعد ذلك.

١٤- ولا بد للمناظر من أن يتقن الفرق بين اليقين وبين غالب الظن، والفرق بين الاحتجاج والتقريب، ولا يجوز له أن يقطع بشيء إذا كان لا يزال في مقام غلبة الظن، وعليه أن يتفحص الأسباب التي انتهت به إلى الاعتقاد فى مذهب معين، فإن كانت من قبيل الحجة، فعليه أن يواصل السير للوصول إلى اليقين، وإن كانت من قبيل الإلف والعادة، فعليه أن يسقطها من يديه وأن يبدأ البحث من جديد.

١٥- وليحذر المناظر حلاوة اللفظ وجمال التعبير من أرباب المذاهب الباطلة، ولا يضيق صدره بالأسلوب الردىء لو وجده فى مذهب حق، ولا يثنيه ذلك عن تفحصه

(٥) م.ن: (اللوحة: ١٥٥ / ب) ٣١٩.
(٦) م.ن.

واتباعه، وينصح الشيخ للتخلص من هذا التأثير الزائف بأن يعرض الناظر المعانى على قلبه خالية من قوالب الألفاظ، وهناك يعرف منها الحق من الباطل.

١٦- ولو اختلط مذهب المحق بباطل، فلا يصح أن يكون ذلك دليلًا على فساد كل أقاويله الأخرى، وكذلك لو اختلط مذهب المبطل بحق، فلا يصح أن يكون ذلك دليلًا على صحة أقاويله واعتقاداته، بل عليه أن ينصف كلا منهما فى ما أصاب وفي ما أخطأ باعتبار واعتبار، ولو فرض أن واحدًا من أهل النظر أخطأ فى عشرين مذهبًا، وأصاب فى مذهب واحد، فليس من الإنصاف أن نترك مذهبًا أصاب فيه من أجل عشرين مذهبًا أخطأ فيها، بل الحق فى ذلك أن نستقصي ونتتبع لنقول أخطأ هنا وأصاب هناك، أو أخطأ فى هذه المسألة وأصاب في تلك.

خاتمة الفصل

هذا هو المنهج الجدلى عند الشيخ حاولنا قدر المستطاع أن نتبين ملامحه، ونتعرف على أبرز سماته وقسماته، سواء من حيث الخصائص أو من حيث القضايا أو الآداب وتبقى بعد ذلك نقطة أخيرة نراها لازمة فى إتمام صورة هذا المنهج عند الشيخ، هذه النقطة تتعلق بمدى تطبيق قواعد الجدل على القضايا الكلامية التى زخرت بها مؤلفات الأشعرى، وقد لاحظت من قراءة سريعة فى كتاب اللمع أن القضايا التى يتضمنها هذا الكتاب يمكن اعتبارها تطبيقًا واسعًا لمنهج الشيخ فى الجدل والمناظرة، بل إن باستطاعتنا أن نؤكد أن الطريقة التى اتبعت فى عرض مسائل الكتاب هى طريقة الحوار والمناظرة وأن نظام السؤال والجواب كان هو النظام السائد فى كل قضايا الكتاب، كما أن الصيغ التى يستعملها الشيخ فى كتابه اللمع، تدل دلالة قوية على أن أدب الجدل كان هو الدعامة التى ارتكز عليها وهو يحاور المعتزلة وغيرهم فى هذا الكتاب، فهو يستعمل صيغة السؤال والجواب، ويحتج بطرد العلة وبعدم الافتراق ويجيب على المعارضة، ويلجأ إلى الإلزام وغير ذلك مما عرفناه له من أسس وقواعد فى هذا العلم، ولعل الإشارات التالية التى زخر بها كتاب اللمع تؤكد التطبيقات الجدلية التى سادت هذا الكتاب، وذلك مثل قول الشيخ فى أكثر من موضع:

«إن سأل سائل .. فالجواب..»

«إن سأل سائل فقال .. قيل له..»

«فإن قال قائل: لم قلتم ..؟ قيل له...»

«إن جاز لك أن تزعم هذا، جاز لغيرك أن يزعم...»

«...إذا كانت العلة في ذلك واحدة».

«...وهذا ما لا يجدون فيه فرقًا».

«وكذلك المطالبة عليهم....».

«وكل ما تعارضوننا به فى هذه العلة، فالجواب فيه....»(٧)

وحقيقة الأمر: أن هذه النقطة جديرة بالبحث والاستقصاء، وطريق ذلك: دراسة تحليلية ونقدية لكتاب اللمع تكشف عن الجانب التطبيقي للمنهج الجدلى عند الشيخ، وهذا ما نأمل أن نوفق إليه فى بحث قادم إن شاء الله تعالى.

(٧) انظر كتاب: اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع من الأشاعرة: ١٧، ٢٢، ٢٣، ٥٤، ٥٧، ٥٨، ٨٩، ٩٨.

كنوز من السنة

أمم فاقدة الوعى ..

الإمام محمد الغزالى

بدأ عصر الإحياء في أوروبا مع بدايات القرن السادس عشر للميلاد، فقد ترجمت العلوم العربية ومهدت الأرض لبذور الثقافة المستوردة وشرعت الجماهير تبصر طريقها وترفع مستواها، وظلت كذلك حتى غزت الفضاء وفجرت الذرة في هذا العصر!.

إن الحياة والعلم والنور والمتاع متلازمات فى الحضارة الناضجة، وقد أشار إليها القرآن فى قوله: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ (٢٠) وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ (٢٢) ﴾

(فاطر: ١٩-٢٢)

كما أشار إليها فى موضع آخر:

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾

(الأنعام: ١٢٢)

والحضارة الأوروبية الحديثة ربما قدمت للبشرية يقظة عقلية عارمة، ولكنها حياة جزئية تعرف الخلق ولا تعرف الخالق، تعرف اليوم ولا تعرف الغد.

وقد شبهتها «بأبى الهول» التمثال القابع عند الأهرام فى مصر، له وجه إنسان وجسم حيوان! كذلك هذه الحضارة لها عقل إنسان وغرائز حيوان!.

لقد درست أسرار المادة جيدا ولكنها وقفت عند هذا الحد فلم ترفع بصيرتها إلى بديع السماوات والأرض وظنت أن (س) فى التربة هو الذى ينبت الأزهار والورود وحب الحصيد، وأن (س) رمز المجهول هو الذى ينظم فى الكون مسار ثلاثمائة مليون كوكب!..

أليس من حق القرآن أن يقول:

﴿ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٧) ﴾

(الروم: ٦-٧)

إن الحياة التى يقدمها الوحى الخاتم ارتقاء كامل بمشاعر الإنسان ومواهبه، وارتقاء كامل بحضارة الأمم وأهدافها.

والوحى عندنا «روح» يسرى فى الجماعة فينير بصرها وبصيرتها ويمكنها من علوم الأرض كما يمكنها من علوم السماء وتدبر قوله تعالى فى الوحى المحمدى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ (الشورى: ٥٢).

إن مفاتيح الإيمان بالله لا يهتدى إليها إلا من عرف قوانين الأرض والسماء:

﴿ حم (١) تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) ﴾ (الجاثية: ١-٤).

ومحمد ﷺ هو الإنسان الفذ الذى يستطيع بمنهاجه أن يقود العالم ويستطيع بسيرته أن يحشد خلفه شتى الشعوب، والقاسم المشترك بينه وبين الناس هو العقل الصاحى والقلب السليم، واشتراك الأرض مع السماء فى التسبيح بحمد الخالق والثناء عليه بما هو أهله وإعلان الطاعة له جل وعز.

إن الإلحاد شيء نتن خسيس:

﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ (الحج: ٣١)

ولا بد أن نصارح بأن الضمير المعتل والفكر المختل ليسا من الإسلام فى شيء، وقد انتمت إلى الإسلام اليوم أمم فاقدة الوعى عوجاء الخطى قد يحسبها البعض أمما حية ولكنها مغمى عليها، وينتظر أن تفيق! ومهما كان التشخيص الطبى لهذه الأمم فنحن نؤكد أن الحياة الإسلامية تقوم على فكر ناضر إذ الغباء في ديننا معصية، قال تعالى:

﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ (١١) ﴾

(الملك: ١٠-١١)

الغبارة ذنب فردى واجتماعى..

والشعوب عندما تدير ظهرها للوحى تنحدر من الآدمية إلى الحيوانية:

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

(الأنفال: ٢٢)

وأذكر أن أحد الناس قال لى: عيبك أنك تخلط الدين بالعقل!.

فقلت له: ويحك. وهل الدين إلا عقل ذكى مستقيم؟ ألم تسمع قول الله لنبيه ﷺ:

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾ (سبأ: ٤٦).

إن الدين الذى لا عقل معه هو الوثنية والتجسيد والتعديد.

أما المسلمون فقد ناداهم الله بقوله:

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (١٠) رَّسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ (الطلاق: ١٠-١١)

وقد بلغنا محمد الصادق الأمين هذه الآيات ووعى أصحابه وتابعوه كيف عاش وكيف جاهد وكيف نصح للأمة وكيف حصنها ضد الوساوس والأوهام، وفى سنته المضيئة تراث نفيس وحكمة بالغة شرحت الطريق لمن أراد سلوكه، وما يستطيع ذلك من سُرِق وعيهم ونام عقلهم: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ (ق: ٣٧)

كلمات ربي وآياته





أ.د. أحمد فؤاد باشا
الأستاذ بكلية العلوم - جامعة القاهرة

(أكنان)

«الأكنان» في اللغة العربية جمع «كِنّ» وهو ما يُستكنّ فيه كالغار والكهف عندما يكون وقاءً وسترًا.

والكِنّ والكِنان: كل شيء يقي شيئًا يستره.

قال تعالى:

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾

(سورة النحل: ٨١).

وفي هذه الآية الكريمة يمنّ الله على عباده بتكوين الكهوف والمغارات في الجبال وفي صخور الأرض لكي يستتر فيها الإنسان قبل أن يكتشف صنعة الخيام أو بناء البيوت، فيحمي نفسه وأهله من حرارة الشمس صيفًا وبرودة الجو شتاء. كما تحميه من الأمطار والثلوج والأعاصير، ومن هجمات الحيوانات المفترسة، وغير ذلك من المخاطر البيئية.

وتتكون الكهوف بعمليات التعرية التي تؤثر على الأماكن الضعيفة في صخور الأرض، مثل مستويات التصدع والتشقق والفواصل المختلفة التي يتنزل إليها ماء المطر فيذيب أو يفتت أجزاء منها، خاصة إذا كان الماء مذيبًا لبعض الغازات المكونة للأحماض بذوبانها في الماء، مثل ثاني أكسيد الكربون أو أكاسيد النتروجين، مما يعينه على إذابة الصخور، خاصة الكربوناتية منها مثل الأحجار الجيرية، والمتبخرات مثل ملح الطعام والجبس. كذلك تعمل المياه المختزنة في صخور الأرض على إذابة العديد من المسارب المتعددة في تلك الصخور، خاصة إذا تعددت بها مستويات التصدع والتشقق والطي الضعيفة والتي قد تؤدي إلى حدوث العديد من الانهيارات الأرضية.

ويمكن أن تتكون الكهوف بفعل الطفوح البركانية. وقد سكن الإنسان الأول معظم هذه الفجوات في صخور الأرض، خاصة كهوف الجبال، وترك آثارًا عديدة كشفتها بحوث الآثاريين تشير إلى ذلك. ومن الثابت علميًا أن خلق الأرض سابق على خلق الإنسان بعدة بلايين السنين. وخلال هذه الفترة الزمنية الطويلة سخر الله مختلف عوامل التعرية من الرياح والمياه الجارية وغيرها لتهيئة الأرض لاستقبال الإنسان

الذي كرمه ربه على كثير ممن خلق. وكان من صور إعداد الأرض لاستقبال الإنسان تكوين مأوى له قبل أن يعرف كيف يُعِدّ لنفسه مأوى، وكان ذلك بتكوين الكهوف والمغارات المختلفة وغيرها من المسارب في الجبال وفي الصخور، والتي احتمى بها الإنسان الأول حتى تعلم فن صناعة الخيام، ثم فن البناء.

(ألوان)

ورد كلمة «لون» في القرآن الكريم مرتين في قوله تعالى:

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾

(سورة البقرة: ٦٩)

ووردت كلمة «ألوان» سبع مرات في قوله تعالى:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾

(سورة الروم: ٢٢)

وفي قوله جل وعلا:

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾

(سورة النحل: ١٣)

وفي قوله جل شأنه:

﴿يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾

(سورة النحل: ٦٩)

وفي قوله سبحانه:

﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا﴾

(سورة الزمر: ٢١)

وفي قوله عز من قائل:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ۚ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾

(سورة فاطر: ٢٧، ٢٨).

ويتجلى جمال الكون في كل ما خلقه الله سبحانه وتعالى من ألوان النبات والحيوان والجماد، بل وألوان كل ما دقّ من ذرات وجسيمات وموجات كشفت عنها تقنيات وأجهزة العصر الحديث.

والألوان ظاهرة ضوئية يدركها الإنسان والحيوان عن طريق حاسة البصر، لكن تفسيرها العلمي ظل يتخبط لآلاف السنين بين العلم والخرافة دون سند من تجربة أو برهان إلى أن جاء عصر الحضارة الإسلامية الذي هيأ لعلماء المسلمين أسلوبًا علميًا سليمًا للبحث في الظواهر الكونية، فقدم البيروني وابن سينا وابن الهيثم وكمال الفارسي وغيرهم تفسيرات جادة لظهور قوس الألوان (قوس قزح) بانعكاس ضوء الشمس وانكساره من قطرات ماء مطر في السماء الغائمة، وحاولوا تفسير ظواهر أخرى، مثل ظهور الشفق الأحمر عند غروب

الشمس، واشتداد زرقة السماء عند الظهيرة، وغير ذلك.

على أن ما جاء به اسحق نيوتن في القرن السابع عشر الميلادي كان نقطة تحول كبرى في دراسة طبيعة الضوء والظواهر الضوئية، وكانت له تجربة رائدة أمرّ فيها شعاعًا من ضوء الشمس في منشور زجاجي ثلاثي واستقبله من الجانب الآخر على حاجز، فوجد أنه قد اتخذ شكل حزمة من الألوان المتتابعة شبيهة بألوان قوس قزح، ومن ثم أثبت أن ضوء الشمس الأبيض إن هو إلا خليط من أضواء ملونة تميز العين منها سبعة ألوان هي الأحمر والبرتقالي والأصفر والأخضر والأزرق والنيلي والبنفسجي. وتشكل هذه الألوان ما يسمى «بطيف الضوء المرئي» الذي يتكون في حقيقة الأمر من عدد لا نهائي من الألوان المتدرجة في التغير.

وبعد أن استقرت النظرية الموجية للضوء أصبح من المألوف التفرقة بين الأضواء الملونة المختلفة بدلالة الطول الموجي لكل منها، فالضوء الأحمر هو أطولها موجة، ويليه بالتدريج بقية الألوان حتى البنفسجي وهو أقصرها. وطبقًا لهذا التصور الحديث لطبيعة الضوء والألوان أمكن تعليل ظواهر قوس قزح وزرقة السماء وحمرة الشفق تعليلاً أكثر دقة من ذي قبل. فلكي نرى قوس قزح لابد أن يكون في سماء صافية بعد سطوع الشمس في يوم مطير، وأن تكون أشعة الشمس غير عمودية، أي عند الشروق أو قبيل الغروب، حيث تعمل قطرة المطر عمل المنشور الزجاجي فيتحلل الضوء بسهولة إلى ألوانه الأساسية التي نسميها «الطيف الضوئي».

وبالنسبة لزرقة السماء فيمكن تعليلها بما دلت عليه التجارب العملية من أن درجة تشتت ضوء الشمس الأبيض عند اختراقه طبقات الجو المحيطة بالكرة الأرضية - بفعل جزيئات بخار الماء والغبار والجسيمات الدقيقة السابحة في الهواء - تختلف باختلاف طول موجة الضوء، فهي كبيرة للأمواج القصيرة وصغيرة للأمواج الطويلة، ومعنى ذلك أن الضوء الأزرق ذا الطول الموجي القصير يتشتت بدرجة أكبر كثيرًا من تشتت الضوء الأحمر حتى يكاد يملأ السماء فتبدو زرقاء.

أما ظهور اللون الأحمر الجميل المميز للشفق عند الشروق أو الغروب فيعزي إلى أن الضوء القادم من الشمس يمر خلال طبقة سميكة جدًا من جو الأرض قريبًا من سطحها، وهناك تتشتت مركبته الزرقاء وتبقى الحمراء التي تصلنا حاملة معها لون الشفق.

ورغم أن تحليل الضوء الأبيض خلال مروره في منشور زجاجي يعطينا سبعة ألوان، إلا أن الألوان الأساسية فيه ثلاثة فقط هي الأحمر والأخضر والأزرق. فإذا تم مزج ضوء هذه الألوان الأساسية الثلاثة مع بعضها حصلنا على الضوء الأبيض، وإذا مزجنا ضوء اللون الأحمر مع الأخضر حصلنا على اللون الأصفر، وإذا مزجنا ضوء اللون الأزرق مع الأخضر حصلنا على اللون الأزرق السايندي، وإذا مزجنا ضوء اللون الأزرق مع الأحمر حصلنا على الأحمر القرمزي (الماجنتا)، وهذه هي طريقة مزج الألوان في التليفزيون الملون، حيث يصوّر الجسم ثلاث صور من خلال ثلاثة مرشحات ملونة بالأحمر والأزرق والأخضر، وتستعاد الصورة النهائية الملونة بطبع أو إسقاط هذه الصور الثلاث فوق بعضها البعض.

والعين ترى اللون الأخضر لأوراق الشجر، لأن هذه الأوراق تمتص كل الألوان الساقطة عليها من الضوء ولا يرتد منها إلى العين سوى اللون الأخضر. وهكذا تكتسب الأجسام ألوانها المميزة التي نراها عليها. أما الجسم الأبيض فيعكس جميع الألوان، بعكس الجسم الأسود الذي يمتص كل ألوان الضوء الساقط عليه. ولهذا يفضل أن تكون ألوان الملابس الصيفية بيضاء أو فاتحة اللون حتى لا تمتص أشعة الشمس وتسبب الإحساس بالحرارة، بينما يفضل أن تكون الملابس الشتوية سوداء أو غامقة اللون حتى تمتص الأشعة وتسبب الإحساس بالدفء.

أما عملية الإبصار التي أنعم الله بها على الإنسان والحيوان ليباشر حياته ويرى كل ما يحيط به من أشياء فإنها تتم بواسطة العين التي تستقبل الأشعة الضوئية حاملة معها صور المرئيات وألوانها، وتكون لها صورة حقيقية مقلوبة على الشبكية، ثم تقوم شبكة الأعصاب الحساسة على الشبكية بنقل الصور إلى المخ وتتم الرؤية السليمة. ولا يزال العلم عاجزًا حتى الآن عن معرفة حقيقة ما يحدث في العين ذاتها عندما تستقبل ضوءًا معينًا وتحوله إلى إحساس بلون خاص مميز.

ومن الظواهر المتعلقة بإدراك الألوان ما يعرف بظاهرة استمرار الرؤية وظاهرة الإجهاد. أما الأولى فتحدث إذا ما ركزت العين على ضوء أبيض ساطع لفترة طويلة ثم أغمضت، حيث يتراءى لها أن الضوء ما زال مستمرًا، وهي الظاهرة المطبقة في السينما والتليفزيون، وأما الثانية فتحدث عند تركيز النظر على جسم أبيض ناصع خلفه أرضية سوداء داكنة ثم تحويل النظر بعد ذلك إلى حاجز أبيض، فيتراءى للعين بقعة سوداء مكان الجسم الأبيض.

وهناك أيضًا عمى الألوان الذي يصيب العين فيجعلها تدرك الألوان بطريقة تختلف عن إدراك العين السوية، وربما كان أكثر أنواع عمى الألوان شيوعًا هو عمى اللون الأحمر، وفيه يتعذر على العين المصابة أن تميز بين اللونين الأحمر والأخضر أو الأحمر والأزرق، وخاصة إذا كانت الألوان داكنة. وثمة نوع آخر من عمى الألوان هو عمى اللون الأزرق، وفيه يتعذر على العين التمييز بين اللونين الأزرق والأصفر، وخاصة عندما تكون الألوان خافتة. ومن النادر جدًا وجود عمى كامل للألوان كلها.

ومن طريف ما كشفت عنه تجارب العلماء أن بعض الحيوانات تصاب أيضًا بعمى ألوان، فالكلاب والقطط لا تميز بين الألوان، والنحل لا يستطيع رؤية اللون الأحمر، والحصان يرى اللونين: الأصفر والأخضر، ولكنه لا يرى اللون الأحمر أو الأزرق.

يتبع

حديث القرآن الكريم

عن التقليد والتبعية العمياء

للأستاذ الدكتور / رضا عبد المجيد إبراهيم
أستاذ التفسير بكلية أصول الدين بالمنصورة

التقليد في اللغة : مصدر مأخوذ من الفعل « قلد » . وتدل مادة « القاف واللام والدال » في اللغة على معنى : تعليق شيء على شيء وليه به »[١] . ومن ذلك « القلادة » : وهي المفتولة التي تُجعل في العُنُق من خيط وفضة وغيرهما »[٢] .

ومما سبق تبين أنَّ التقليد معناه في اللغة : جعل القلادة في العنق ؛ ومنه تقليد الهدي وهو أن يُعلَّق بعُنُق البعير قطعة من جلد ليُعلم أنه هَدْي فيكف الناس عنه . ثم استُعمل في معنى التولية ؛ ومنه تقليد العامل : توليته كأنه جعل « قلادة » في عنقه[٣] .

وأما التقليد في الاصطلاح فهو : عبارة عن اتباع الإنسان غيره فيما يقول أو يفعل معتقدًا للحقيقة فيه من غير نظر وتأمل في الدليل ؛ كأنَّ هذا المتَّبع جعل قول الغير أو فعله قلادة في عنقه[٤] . وبهذا وضحت العلاقة بين المعنى اللغوي للتقليد والمعنى الاصطلاحي

هذا . وترى بعض الناس يلغي عقله وفكره ، ويتابع غيره ويقلده فيما يقول أو يفعل ، دون فكر أو روية ، أو بحث عن حجة أو دليل .

والإسلام عاب التقليد عمومًا وأنكره ، وخاصة التقليد في الأمور المذمومة (أى في غير الخير) . ومن يتأمل حديث القرآن الكريم عن هذا الموضوع يجد الحقائق التالية :

أولًا : التقليد أو التبعية العمياء آفة قديمة من آفات الأمم ، والتي كانت سببًا في الكفر بالله تعالى ، ومجانبة اتباع الأنبياء ، حتى أمة الرسالة الخاتمة .

وإلى ذلك أشار الله تعالى بقوله :

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩) ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾

(إبراهيم : ٩ ، ١٠)

تأمل قول الأمم المكذبة لرسلهم :

﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾

فهذه حجتهم في تكذيب الرسل .

وقال سبحانه :

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾

(الزخرف : ٢٣)

ومن ثم كانت معركة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع المقلدين على مدار الرسالات السماوية :

هاهو سيدنا إبراهيم عليه السلام مع أبيه وقومه يدعوهم إلى ترك عبادة التماثيل ، فيتمسكوا بها بحجة تقليد الآباء ، فيسفههم وآباءهم ، وعن ذلك يقول تعالى :

﴿ ۞ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾

(الأنبياء : ٥١ ـ ٥٦)

وقال أيضا :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾

(الشعراء : ٦٩ ـ ٧٧)

ومن بعد إبراهيم يأتي نوح عليه السلام فيعاني مما عانى منه إبراهيم عليه السلام مع قومه ، من مشكلة تقليد قومه لآبائهم ومتابعتهم لهم متابعة عمياء ، وإلى ربه يشكوهم إليه فيقول :

﴿ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴾

(نوح : ٢١ ـ ٢٤) .

كما أنكر قوم عاد على نبي الله هود عليه السلام رسالته إليهم بعبادة الله وحده ، بحجة أن في ذلك تركًا لما كان يعبد آباؤهم ، قال تعالى :

﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٥) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ

[١] معجم مقاييس اللغة لابن فارس ، مادة « قلد » ٥ / ١٩ . ط / دار الجيل بيروت .
[٢] مفردات ألفاظ القرآن الكريم للراغب الأصفهاني ، مادة « قلد » صـ٦٨٢ ط / دار القلم دمشق .
[٣] المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي تأليف أحمد بن محمد الفيومي ، مادة « قلد » صـ٥١٢ ط / دار الكتب العلمية .
[٤] التعريفات للشريف علي بن محمد الجرجاني صـ٩٣ ط / عالم الكتب .

فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

(الأعراف : ٦٥ ـ ٧٠)

ومعركة التقليد أيضا خاضها نبي الله صالح عليه السلام مع قومه (ثمود)، وعن ذلك يقول تعالى :

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ (٦١) قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا ۖ أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٦٢) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾

(هود : ٦١-٦٣)

وأيضا تمسك مدين قوم نبي الله شعيب عليه السلام بما كان عليه آباؤهم، فقالوا لنبيهم شعيب لما دعاهم إلى توحيد الله تعالى وعدم نقصان الكيل والميزان، وبخس الناس أشياءهم :

﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ۖ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾

(هود : ٨٧)

وهذا نبي الله يوسف عليه السلام يقول لصاحبيه في السجن :

﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(يوسف : ٣٩ ـ ٤٠)

كما أنكر قوم موسى رسالته بحجة أنه جاء ليلفتهم ويفتنهم عما وجدوا عليه آباءهم، قال عز شأنه :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ (٧٦) قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (٧٧) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾

(يونس : ٧٥ ـ ٧٨)

كما بين سبحانه لنا في كتابه الكريم أن التقليد كان من أعظم الموانع التي منعت الناس عن اتباع رسالة سيدنا محمد ﷺ وحجبتهم عن أنوارها، فقال عز شأنه :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى ۚ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾

(سبأ : ٤٣)

وقال سبحانه :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾

(البقرة : ١٧٠).

وقال تعالى :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾

(المائدة : ١٠٤)

وقال عز شأنه :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾

(لقمان : ٢١).

وقال عز من قائل :

﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (١٩) وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ ۗ مَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٢٠) أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (٢٢) وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴾

(الزخرف : ١٩ ـ ٢٣)

كما يقرر القرآن الكريم أن تمسك المشركين في عهد النبي ﷺ بعبادة الأصنام والأوثان إنما كان متابعة وتقليدا لآبائهم، فقال سبحانه :

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ۚ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴾

(النجم : ١٩ ـ ٢٣)

وقال عز شأنه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَىٰ (٢٧) وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ۖ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾

(النجم: ٢٧ ـ ٢٨)

أي : إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون كل واحد من الملائكة تسمية الأنثى، لأنهم إذا قالوا الملائكة بنات الله فقد سموا كل واحد منهم بنتاً وهي تسمية الأنثى، وما لهم بما يقولون من علم، وما يتبعون إلا تقليد الآباء، وإنما يعرف الحق الذي هو حقيقة الشيء وما هو عليه بالعلم والتيقن لا بالظن والتوهم وتقليد الآباء(*)

*) تفسير النسفي ٤ / ٢٩٠ ط /دار النفائس.

وقال أيضا :

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾

(هود : ١٠٩)

هذا الصنف من الناس لم يعط شخصيته استقلالها ، ولم يمنحها حريتها في البحث عن الحق ، وإنما حبسها بين أسوار التقاليد الموروثة ، تهلكها العادات البالية ، وتمتهن كرامتها وإنسانيتها .

ثانيا : إن من صفات الظالمين أصحاب الجحيم إسراعهم وحرصهم على متابعة آبائهم في ضلالهم ، قال سبحانه في سياق الحديث عن الظالمين وجزائهم :

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ (٦٧) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ (٦٨) إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (٦٩) فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾

(الصافات : ٦٢ ـ ٧٠)

ثالثا : احتجاج الكفار عند ارتكاب الفواحش بمتابعة الآباء وتقليدهم في ذلك ، وإنكار القرآن عليهم هذه الحجة الواهية . قال الله عنهم :

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

(الأعراف : ٢٨)

رابعا : متابعة الأبناء للآباء على الشرك لن يغني عنهم شيئا لاشتراكهم مع آبائهم في أخذ الميثاق عليهم في عالم الذر بالإيمان بالله تعالى ، وتوافر الأدلة العقلية والكونية أمام الجميع ، وعن ذلك يقول تعالى :

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَا ۛ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

(الأعراف : ١٧٢ ـ ١٧٤)

خامسا : تبرؤ المتبوعين من أتباعهم يوم القيامة ، وتمني التابعين الرجوع إلى الدنيا للتبرؤ من الذين اتبعوهم ، قال تعالى :

﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾

(البقرة : ١٦٦ ، ١٦٧)

سادسا : دعاء الكافرين الذين قلدوا غيرهم ربهم في الآخرة أن يمكنهم ممن قلدوهم فأضلوهم ، ليجعلوهم تحت أقدامهم ليشفوا غليلهم ، قال الله تعالى :

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾

(فصلت : ٢٩)

كما يدعونه عز وجل بأن يلعنهم ويضاعف لهم العذاب ، وعن ذلك يقول تعالى :

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾

(الأحزاب : ٦٧ ، ٦٨)

هذا ، ونهى النبي ﷺ المسلم عن التبعية المطلقة لغيره في الخير والشر ، وحثه على الاستقلالية في فكره ورأيه ، لئلا يتأرجح بين مد الحياة وجزرها ، فتتدهور قواه المعنوية ، متابعا كل ناعق ، ومناديا كل إنسان : أنا معك محسنا كان أو ظالما[٦] ؛ فعن حذيفة بن اليمان قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تكونوا إمَّعة تقولون إنْ أحسن الناس أحسنَّا ، وإنْ ظلموا ظلمنا ، ولكن وطِّنوا أنفسكم إنْ أحسن الناس أن تحسنوا وإنْ أساءوا فلا تظلموا »[٧] والإمَّعة : الذي لا رأي له ، فهو يُتابع كلَّ أحد على رأيه .[٨]

كما أخبر المصطفى ﷺ أن الأمة الإسلامية ستقلد غيرها من الأمم ، لتحذر هذا الداء ، وتنجو منه ، فلا تحيد عن منهج الله تعالى متابعة غيرها إلى ذات اليمين أو الشمال ؛ فعن أبي سعيد ، رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : « لَتتبعُنَّ سَنَن من قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع حتى لو سلكوا جُحر ضب لسلكتموه قلنا : يا رسول الله اليهود والنصارى ، قال : فمن ؟ »[٩]

وقد صدق رسول الله ﷺ ، فقد وقع ما أخبر به ، من اقتفاء لآثار الكفار ، واتباع لطرقهم والسير على نهجهم . وفي إخباره ﷺ باتباع المسلمين لبدع اليهود والنصارى وغيرهما في المأكل والمشرب والملبس والعادات وغيرها معجزة للرسول وتأكيد لصدق دعوته ، فها نحن اليوم نحاكي أوربا وغيرها فيما لا يتفق مع مبادئ الدين . وفي الحديث أيضا بيان لحرمة محاكاة الغير في منكراتهم ، وحث من الرسول ﷺ على التمسك بالقيم الدينية والتعاليم الإسلامية مهما زين العصاة طريق السوء والتقليد . فلنا شخصيتنا الدينية وهويتنا الإسلامية في كل شئون حياتنا .

وهدف الإسلام من كل ماسبق ذكره تقرير أن ، من الملامح البارزة في حياة الإنسان المسلم ، استقلال شخصيته ، فهو يعتنق الحق ويسير على ضوئه ، ويعمل في دائرته ، دون أن يكون هناك أي تأثير خارجي عليه ، لأنه يؤمن بأن جزاءه منوط بعمله ، فإحسانه لنفسه وإساءته عليها .[١٠]

وقانا الله شر التقليد الأعمى ، ورزقنا حرية الفكر واستقلال الشخصية . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

٦) الإسلام وبناء الشخصية . للأستاذ الدكتور / أحمد عمر هاشم . صـ٤٤ ط / دار المنار .
٧) أخرجه الإمام الترمذي ، كتاب الأدب ، باب ما جاء في الإحسان والعفو جـ ٣ / ٤٦٦ ، ح رقم ٢٠٧٥ وقال الترمذي : هذا حديث حسن غريب .
٨) النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ١/ ١٦٣ . تحقيق أ . د / أحمد الخراط . ط / المكتبة المكية .
٩) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه . كتاب أحاديث الأنبياء ، باب ما ذكر عن بني إسرائيل . فتح الباري ٨ / ٩٤ ، ح رقم ٣٤٥٦ ط / دار طيبة .
١٠) الإسلام وبناء الشخصية . للأستاذ الدكتور / أحمد عمر هاشم . صـ٤٣ ط / دار المنار .

القصة والأمثال فى القرآن الكريم: ٨

واجبـات القائـد



أ.د. محمد المختار المهدى

> القائد للجند كالمحرك للساعة، هو القدوة، وهو الأسوة، وهو المثل المحتذى، تسر
> روحه وأهدافه وغاياته وسط الجنود، ويتشكل حماسهم ودرجة انفعالهم وتأثره
> وإقدامهم بما يرونه من سلوكه وتصرفاته، وهو رمز الوحدة والتجمع والالتفا
> والأمة التى تفقد القائد الكفء تهيم على وجهها فى حمأة الذل والامتهان.

من هنا استشعر بنو إسرائيل من بعد موسى حاجتهم الملحة أن يعين لهم نبيهم قائدًا ماهرًا يلتفون حوله ليحرروا الأرض من الغاصبين الغادرين.

والوقائع والأحداث الماضية منها والحاضرة تظاهر هذه الحقيقة الثابتة. فلولا طالوت وحنكته وقيادته الحكيمة لما تحقق لقومه النصر على جالوت وجنوده. ولولا قتل داود لجالوت لما انتهت المعركة ولما تفكك الجيش، ولولا صلاح الدين الأيوبى وقوة شخصيته وثقة الجماهير المؤمنة بقيادته لما تحقق لهم النصر على الصليبيين، ولو لم تنظم الحركة القيادية لدى الفلسطينيين المضطهدين لما قام الفدائيون اليوم ببطولاتهم الرائعة التى هزت العالم أجمع، وأقضت مضاجع إسرائيل، ولو لم يوجد فى المستقبل القريب قائد كفء مؤمن بربه وبحقه ويثق المسلمون فى إخلاصه لمبادئهم، وحركته الذاتية النابعة من المصلحة العامة لأمته فحسب.. لو لم توفق فى إتاحة الفرصة أمام هذه القيادة المؤمنة فإن الأمل سيظل ضعيفًا فى تجميع هذه الجماهير المسلمة حول راية الجهاد فى سبيل الله ضد ألد أعداء الإسلام.

القيادة عبء وتكليف:

ومن هنا تدرك حاجتنا إلى النظر فى موحيات القصة القرآنية فى هذا المجال الخطير، لنصل من هذا النظر الفاحص إلى المعالم الرئيسية لشخصية القائد المنشود الذى يرى القيادة عبئًا وتكليفًا لا غنمًا وتشريفًا بحيث يشعر أنه خادم للأمة وأهدافها، يخجل ويستحى حين يقصر فى واجبه أو يتهاون فى مسئولياته، ولا يتردد فى محاسبة نفسه أمام الملأ والتخلى عن قيادته بصدر رحب إذا رأى بضميره الحى أنه لم يعد كفئًا لذلك، وأن غيره أجدر بحمل هذه الأمانة الجسيمة.

وهذه الروح الصافية من كل الأغراض الهابطة تشكل الخطوة الأولى والأهم فى طريق النصر والظفر، وهى لا يمكن أن تتحقق إلا فى قائد لمس الإيمان شغاف قلبه، واتصلت روحه الشفافة المخلصة بمن ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ (طه: ٧)

صار لها سلطان قوى على شهواته ورغباته بحيث تحجزه التقوى والخشية من الله عن التمادى فى الخطأ والتعدى على حقوق الأمة التى ائتمنته على أهدافها وعقيدتها، وهذا يقتضى منه أن يقوم بواجباته التالية:

١ - تقوية الجانب الروحى لدى الجنود والأمة:

وهذا الواجب الأهم لا يستطيع القيام به إلا إذا تعمقت فى روحه هو مشاعر الإيمان الصادقة، وظهر أثر ذلك فى سلوكه وتصرفاته، فكان دائم التضرع والاستغاثة بالله مؤديًا لشعائر الله، حريصًا على تنفيذها بين الجيش والأمة، دائم التذكير لجنده وشعبه أن النصر بيد الله، وأن معاصى الجيش أخوف عليهم من عدوهم وآلاته، وأن الجند الذين يدافعون عن الدين لا ينبغى أن يعتدوا على تعاليم الدين، فهم الحراس له والمدافعون عن حماه ولا ينبغى أن يكون الحارس هو الخائن وإلا استبيحت الحرمات، وصار الجهاد لهوًا وعبثًا وضياعًا للجهود والطاقات.

بهذا كله كان يوجه القائد الأعظم والنبى الأكرم سيد الخلق محمد ﷺ جنوده الأماثل، حتى ما يرى الجندى أمامه إلا الله ناصرًا ومعينًا، وغاية ووسيلة، يستنجد به ويسأله، ويأمل فى نصره وتأييده ورعايته.

ولقد كان هذا قدرًا مشتركًا فى جميع غزواته، بل كانت عاملا أساسيًا وسنة متبعة فى جميع المواقف والمشاهد، ففى غزوة بدر تحكى لنا القصة القرآنية ما كان من الجنود وما كان من عون الله فتقول:

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠) إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (١١) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢) ﴾ (الأنفال ٩-١٢)

وتزرع الثقة فى نفوس المؤمنين الصابرين بهذا الوعد الكريم:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾

(الأنفال: ٦٥)

وفى مواجهة المسلمين ليهود المدينة

المتـورة تـورد القصـة القرآنيـة تشـجيعًا للمؤمنين وتذكيرًا لهم بقدرة القوى الغالب، ويعجز هؤلاء المغرورين بما عندهم من آلات أو إمكانيات أمام خالق القوى والقدر فتقول:

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴾ (الأنفال: ٥٩)

وفى غـزوة أُحد وقد هزت المضية نفوس المؤمنين وكادت تضعـف عـن المقاومـة، تثبت القصة القرآنيـة أقدامهم وتكفكف من آلامهـم، وترفع مـن معنوياتهـم فتقـول:

﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران: ١٣٩)

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران: ١٦٦)

.. وترد الأمر إلى المولى جل علاه:

﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ (آل عمران: ١٦٠)

وفـى غـزوة الأحـزاب التى تحالـف فيها اليهـود مـع المشـركين، وأحـدق الخطـر بالمسلمين حتـى بلغت القلـوب الحناجر، وزلزلوا زلزالا شديدًا، تحكى القصة القرآنية موقـف المؤمنيـن الصامد الـذى تغذيه روح الإيمان والثقة فى وعد الله ومعونته فتقول:

﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٢٢).

وفـى غـزوة تبـوك تتحـدث القصـة عـن المعوقيـن والمنافقيـن والمثبطيـن، وتحث المؤمنين على الثبات والصبر والصمود مهما أصابهم فى سبيل الله:

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ (التوبة: ٥١)

وبهـذه الروح المعنوية القوية كان يعتنى القـادة المهـرة الأكفـاء الذين حققـوا نصرًا باهرًا علـى الأعـداء، ذلـك أنه إن لـم يوجد الدافع والحافز على التضحية والثبات والبذل والفـداء فلـن يصبر جنـدى فى ميـدان، ولن يصمـد أمام الشـدائد والصعـاب. ولن يكون هناك حافز أقوى من شـعور المؤمن أنه يجاهد فى سـبيل الله وأنه يستنزل النصر ممن يملكه ولا يملكه سواه، وأنه إن قتل فسيظفر بمرتبة الشهادة مع النبيين والصديقين والصالحين، وأنه لن ينال إلا إحدى الحسنيين: إما أن يعود منتصرًا ظافـرًا عزيزًا، أو يموت حرًا شـهيدًا كريمًا، وأن دعوته مجابـة عند الله، وأن ثباته مستمد من معونة الله، ومن هنا كانت الصيحة المؤمنة التى انتصر بها جيش طالوت هى قول المؤمنين معه حين برزوا لجالوت وجنوده:

﴿ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

(البقرة: ٢٥٠)

٢ - توفير القوة المادية:

ومع تقويـة الدافع والحافـز، ومع التهاب الشـعور بروح الإيمان والتضحية والفداء، لا بد مـن مواكبة هذه القـوة الإيمانية المندفعة بقـوة مادية رادعة، فالحق الأعـزل لا تقوم له قائمة، ضـرورة أن الدليل على قوة الإيمان أن يبذل المؤمن أقصى ما فى وسعه وطاقته دفاعا عـن مبدئه الـذى آمن به وحفاظـا على إيمانه الذى تعمق لديه.. وبغير هـذا يكون إيمانه سلبيا ضعيفا واهنا، لا خير فيه ولا أمل، فليس الإيمـان بالتمنـى، ولكـن ما وقر فـى القلب وصدقـة العمـل، والعمل هنا لا بـد أن يتمثل فـى توفير أرقى وأحـدث وأقوى آلات الحرب والدفاع، وتدريب الجند على أعلى مستويات الفن الحربى فى اسـتخدام هـذه الآلات، وما سـميت سـورة الحديد إلا للإشـارة إلـى أثره البالـغ فى الدفاع عن الرسـالات قـال تعالى:

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ (الحديد: ٢٥)

وليس هذا إلا بعض مـا تلقيه الآية الكريمة مـن ظلال فى حديثها عن غدر اليهود وتقضهم العهـود حينما تحدثت عن ضرورة إعداد القوة بأقصى ما يسـتطاع عقب حديثها عن قدرة الله التى لا تعجزها قوة العدو مهما كانت باطشـة مرهوبـة، وكأنها تقـول للمؤمنين: ابذلوا آخر مـا فـى اسـتطاعتكم ووراءكم قـوة الله تتلافى تقصيركـم وضعفكم أو تسـتقل هـى بالدفاع حينما تفقـدون كل مقاومة قال تعالى فى ثنايا قصة الصراع بين الإسلام واليهود والمشركين:

﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾

(الأنفال: ٦٠)

٣ - اختيار الوقت المناسب للمعركة:

وإذا مـا توفـرت القـوة الروحيـة، وأعـدت الآلات الحربية، كان على القائد أن يختار الوقت المناسـب للمعركة حتى يحقق عنصر المفاجأة المباغتة، فيأخذ العدو على حين غرة، فإن فى ذلك توفيرًا للجهد، وحقنًا للدماء وإسراعًا بالنصر.. ومن هنا تخير الرسـول ﷺ فى غزوة أحد وقت الغداة ليسـير بالجيش المؤمن إلى حيث اللقاء مع قوى الشرك الغادرة فى قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾

(آل عمران: ١٢١)

ومن هنا كذلك أقسم الله بـ:

﴿ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴾ (العاديات: ٣)

تنبيهـا إلى أهمية تخير الوقت المناسـب فى كسـب المعارك والوقائع.

٤ - انتخاب الموقع الأنسب:

وإذا مـا تخيـر القائـد الزمـان المناسـب كان عليـه أن يبـذل جهدا فى اختيـار المكان (الاستراتيجى) الذى يصلح للمعركة والذى يهيئ للجيش فرص النصـر والانقضاض على العـدو، ويؤمنـه فى الوقت نفسـه من الخلف بحيث لا يفكر إلا فى الإقدام، مدركا أن ظهره محمىٌّ محفوظ من غارات العدو، وأن بإمكانه إذا رأى الظروف تحتم عليه التأخر أن ينسحب

﴿ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ ﴾

(الأنفال: ١٦)

من هنا تولى الرسـول ﷺ بنفسـه فى أحد إحـلال كل جندى فى مكانه الأنسـب موكلا إليه كل ما يليق به من خدمات، حتى أنه أخرج مـن الصف من لا يطيق النـزال.. وجعل ظهر الجيش إلى الجبل وجعل فوق الجبل من الرماة من يصد الأخطار عن الجيش من الخلف.

ولقد أشادت القصة القرآنية بهذا التنظيم الحربى الرائع فقال سبحانه فى معرض الحديث عن الغزوة:

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

(آل عمران: ١٢١)

٥ - مشورة الجنود:

والقائد الحربى الناجح ليس دكتاتورا مستبدا يعتز برأيه ويعتبره الصواب دائما وباستمرار ولكنه يصغى لآراء الجنود فيزنها بميزان المصلحة العامة ولا يجعل للهوى والأغراض سبيلا عليه.

فإذا ما رأى أحد الجنود أن يغير القائد من خطته أو من موقعه، وقدم من المبررات ما يجعل لرأيه وزنا وقيمة، فإن القائد لا يجد فى نفسه غضاضة أن ينزل على رأى هذا الجندى الشجاع، بل يثنى عليه ويكافئه ويقدره، ويكبر فيه هذه الروح النبيلة. ولقد حدث ذلك من الحباب بن منذر فى غزوة بدر وغير الرسول ﷺ مكان الموقعة حينما اقتنع بوجهة نظره الصائبة وليس ذلك فحسب، ولكن للجنود أن يتدخلوا كذلك فى رسم خطة الهجوم والدفاع، وعلى القائد أن يستجيب لرأى الأغلبية فى إقرار الخطة الناجحة، ولو كان رأيه على خلاف ذلك، فإن الخطة إذا نبعت من القائد وإذا اشترك الجنود فى رسم معالمها وأبعادها، كانوا أحرص على تنفيذها وإنجاحها.. ومن هنا أقر الرسول ﷺ خطة الخروج من المدينة لملاقاة الأعداء فى غزوة أحد خارج حدودها، مع أن رأيه كان خلاف ذلك، ونزل القرآن الكريم مشيدا بهذه المشورة ومثنيا على روح الرسول ﷺ اللينة فى تقبله لكل الآراء، ومذكرا قادة الحروب إلى الأبد بأن الغلظة والاستبداد مدعاة لانفضاض الجنود من حولهم، أو سلب الروح المعنوية من نفوسهم، قال تعالى فى ثنايا قصة أحد: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (آل عمران: ١٥٩)

٦ - الحزم فى معاقبة المقصر:

وليس معنى لين القائد وخفضه الجناح للجنود أن يكون ضعيف الشخصية، متهاونا فى عقاب المتحرف المتقاعس وتأديب القاعد الناكص، ولو كان عن حسن النية وسلامة الطوية، فلن تغنى النوايا الطيبة لدى الناكصين عن سريان الخور والضعف والتخاذل لدى الجميع، ومن هنا جعل الإسلام التولى يوم الزحف جريمة وكبيرة، وجعل المتخلفين عن الجهاد وهم قادرون منافقين، وقصة الثلاثة الذين خلفوا واضحة الدلالة على عقوبة المتخلفين عن الجهاد بالرغم من اعترافهم بالخطأ، فقد تعرضوا لمحنة قاسية حين قرر الرسول ﷺ هجرهم وعزلهم عن المجتمع مدة طويلة حتى قبل الله توبتهم فى قوله: ﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (التوبة: ١١٨).

(يتبع)

بنو إسرائيل فى الكتاب والسنة

تحالفهم مع المشركين وشهادتهم لهم بأنهم أهدى من الذين آمنوا سبيلا!



أ.د. محمد سيد طنطاوى

(أ) في سورة النساء آيات كريمة، سجلت على اليهود موقفا مخزيا، وهو أنهم رغم كونهم أهل كتاب، فقد حملهم الحسد على أن يفضلوا عابدى الأوثان على أهل الإيمان.

وهذه الآيات الكريمة هي قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (٥١) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا (٥٢) أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا (٥٣) أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا (٥٤) فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾

(النساء: ٥١-٥٥)

أخرج ابن جرير: عن عكرمة: أن كعب بن الأشرف انطلق إلى المشركين من كفار قريش، فحرضهم على النبي ﷺ وأمرهم أن يحاربوه، وقال لهم: إنا معكم سنقاتله، فقالوا: إنكم أهل كتاب وهو صاحب كتاب، ولا نأمن أن يكون هذا مكرا منكم، فإن أردت أن نخرج معك فاسجد لهذين الصنمين، وآمن بهما. ففعل. ثم قالوا له: نحن أهدى من محمد؟ فقال اعرضوا علي دينكم، فقال أبو سفيان: نحن قوم ننحر الكوماء، ونسقى اللبن على الماء، ونصل الرحم، ونُقرى الضيف ونطوف بهذا البيت. ومحمد قطع رحمه، وخرج من بلده، فقال: بل أنتم خير وأهدى فنزلت فيه:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴾[1] (النساء: ٥١)

وأخرج ابن إسحاق، عن ابن عباس، قال: كان الذين حزبوا الأحزاب من قريش وغطفان وبني قريظة: حيي بن أبي الحقيق، وأبو رافع، وكان سائرهم من بني النضير، فلما قدموا على قريش قالوا: هؤلاء أحبار يهود وأهل العلم بالكتاب الأول فاسألوهم: أدينكم خير؟ أم دين محمد فسألوهم، فقالوا: دينكم خير من دينه، وأنتم أهدى منه، وممن اتبعه، فأنزل الله فيهم

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ﴾

إلى قوله تعالى:

﴿ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾[2]

وقوله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ﴾[3]

معناه: قد رأيت وعلمت علم اليقين- أيها الرسول الكريم- حال اليهود الذين أوتوا حظا من الكتاب، يؤمنون بردىء العقائد والأخلاق؛ ويصدقون عبدة الأوثان.

قال الإمام ابن جرير: والصواب من القول في تأويل ﴿ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ﴾ أن يقال: يصدقون بمعبودين من دون الله، ويتخذونهما إلهين. وذلك أن الجبت والطاغوت اسمان لكل معظم بعبادة من دون الله، أو طاعة أو خضوع له، كائنا ما كان ذلك المعظم، من حجر أو إنسان أو شيطان[4]

ثم بين- سبحانه- ما نطقوا به من الكذب والبهتان أمام المشركين، فقال تعالى:

﴿ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴾

أي يقولون إرضاء للذين كفروا، هؤلاء في شركهم وعبادتهم للجبت والطاغوت أهدى سبيلا، وأقوم طريقًا من المؤمنين، الذين اتبعوا محمدًا ﷺ.

وفي وصفهم بأنهم ﴿ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ بيان لحقيقة حالهم، وهو أنهم نسوا حظا مما ذكروا، ومع ذلك فإن النصيب الذي أوتوه لم يعملوا به، لأنهم لو عملوا به، لما فضلوا عبادة الأوثان على عبادة الرحمن.

ثم بين الله -سبحانه- مصيرهم السيء بسبب انحرافهم عن الحق، فقال تعالى:

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴾

١- تفسير ابن جرير جـ ٥ ص ١٣٤.
٢- تفسير ابن جرير جـ ٥ ص ١٣٤
٣- الجبت أصله الجبس فقلبت السين تاء ومعناه الرديء الذي لا خير فيه، ويطلق على السحر وعلى الأصنام، والطاغوت مصدر الطغيان وصفته، أو هو صيغة مبالغة كالملكوت من الملك أو مصدر، ويصح فيه التذكير والتأنيث والإفراد والجمع وهو مجاوزة الحد في كل شيء.
٤- تفسير ابن جرير جـ ٥ ص ١٣٣

أي: أولئك الذين استحوذ عليهم الشيطان، فأيدوا المشركين بالقول والعمل، وسجدوا لأصنامهم، وزكوا أفعالهم، أخزاهم الله، وأبعدهم من رحمته، بسبب كذبهم وحقدهم وسيطرة الهوى على نفوسهم ومن يخزه الله ويخذله الله، فلن تجد له نصيرا ينصره، أو شفيعا يشفع له.

وإذا كان اليهود قد ذهبوا إلى أهل مكة ليستنصروا بهم على المسلمين، فإن أهل مكة لن ينصروهم، ولئن نصروهم فلن تستمر نصرتهم لهم، لأن الخذلان من وراء المحاربين للحق.

ثم انتقل القرآن الكريم من توبيخهم على مناصرتهم للمشركين، وإيمانهم بالجبت والطاغوت إلى تقريعهم على البخل والأثرة، فقال تعالى:

﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴾[5]

أي: اثبت أنهم إذا أوتوا حظا من الملك والسلطان، ولو كان ضئيلا يعدلون؟ كلا ما ثبت هذا، لأنهم أهل هوى، ولا عدل عند من غلب عليه الهوى.

والمعنى: أن هؤلاء اليهود لا حظ لهم ولا نصيب من الملك المستقر الدائم بسبب ظلمهم وطغيانهم، وعصبيتهم الجامحة، فلو كان لهم نصيب منه، لما أعطوا غيرهم أي قدر من حقوقهم عليهم، ولو كان ضئيلا بالغا أقصى حدود الضآلة، ذلك لأن اليهود قوم لا ينظرون إلا لمصلحتهم الذاتية، ويتوهمون أنهم صنف ممتاز في الخليقة، وأنهم أبناء الله وأحباؤه، وهم فوق هذا لشحهم وأنانيتهم يشق عليهم أن ينتفع بأي خير من ليس من طائفتهم، ولقد أثبتت الأيام صدق ما أخبر به القرآن الكريم عنهم، فإنهم بعد ما دخلوا بعض البلاد الإسلامية في فلسطين بمساعدة الاستعمار طردوا أهلها الشرعيين منها، واستولوا على كل ما فيها من خيرات، ولم يسمحوا لهم بأن يأخذوا معهم ما يستر العورة أو يسد الرمق، وأقرب مثال لذلك أنهم عندما احتلوا عن طريق الغدر قرى (دير ياسين، وقبية، وكفر قاسم، واللد والرملة) وغيرها من البلاد الفلسطينية، قاموا بذبح النساء والأطفال والشيوخ، ومن نجا من الذبح والقتل استلبوا منه جميع ما يملكه.

ثم انتقل القرآن الكريم من توبيخهم على البخل إلى تبكيتهم على رذيلة الحسد التي استولت عليهم، فأضلتهم وجعلتهم يتألمون لما يصيب الناس من خير ويتمنون زواله. ويعملون على قطعه، فقال تعالى:

٥- أم هنا منقطعة وهي للإضراب والاستفهام، والمراد بالإضراب هنا الانتقال من توبيخهم على الإيمان بالجبت والطاغوت إلى تبكيتهم على البخل والشح، والاستفهام هنا للإنكار بقرينة المقام، والنقير: النكتة الصغيرة التي تكون في ظهر النواة وهو النقب الذي تنبت منه النخلة، ويضرب به المثل في الشيء الصغير البالغ أقصى حدود الصغر

﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾

أي: إن هؤلاء اليهود ليسوا بخلاء فقط، بل هم جمعوا مع ذلك رذيلة الحسد، فهم يحقدون على العرب لأن النبي ﷺ منهم. ويحسدون النبي ﷺ لأن الله -عز وجل- خصه بالنبوة، ويضمرون السوء للمؤمنين، لأنهم يزيدون ولا ينقصون.

فالمراد بالناس: قبيل العرب، وقبيل النبي ﷺ فهم أي: اليهود- يحسدون النبي ﷺ والمؤمنين على ما آتاهم الله من الوحي والنبوة بمحض فضله وكرمه، فيكون اليهود الذين يحسدون من يتكرم عليه الله، إنما يعاندون الخالق - عز وجل - وهو أعلم حيث يجعل رسالته، وهذا الحسد إنما كان بسبب اعتقادهم أنهم اختصوا بالنبوة دون غيرهم من الناس غرورا منهم.

ثم ألزمهم القرآن الكريم الحجة بما يعرفونه من إيتاء الله الكتاب والحكمة لآل إبراهيم فقال تعالى:

﴿ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾

أي: إذا كنتم تحسدون النبي ﷺ على نبوته لتوهمكم أنها لا تكون إلا فيكم فقد كذبتهم وتعديتهم، لأن الله - عز وجل - قد أعطى آل إبراهيم، أي قرابته القريبة من ذريته كإسماعيل- وهو جد العرب- وإسحاق ويعقوب وغيرهم، أعطاهم الكتاب من غير تفرقة بينهم، وأعطاهم الحكمة، أي العلم النافع، والعمل به، وأعطاهم مع ذلك سلطانا عظيما، إذن فأنتم أيها اليهود لستم مختصين بالنبوة، ولستم أولى الناس بإبراهيم، لأن صلة العرب به من حيث القرابة كصلتكم به، فإذا كنتم من نسل إسحاق بن إبراهيم، فالعرب - ومنهم محمد ﷺ- من نسل إسماعيل بن إبراهيم -عليهما السلام.

ثم بين القرآن الكريم عاقبة كل من المحسن والمسيء فقال:

﴿ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾

أي: فمن اليهود الذين أوتوا الكتاب من آمن بما جاء به الأنبياء من هدى وسار عليه، ومنهم من أعرض عنه ونأى بجانبه، وهؤلاء الذين أعرضوا حسبهم أن تكون جهنم بسعيرها ولهيبها نصيبا لهم. وفي هذا تسلية للرسول ﷺ ليكون أشد صبرا على ما ناله منهم من أذى وجحود وإنكار.

وبهذا نرى أن الآيات الكريمة قد سجلت على اليهود بيعهم دينهم بدنياهم وإيمانهم بالخرافات والأوهام، واستيلاء الأثرة والشح على نفوسهم، وحسدهم الناس على ما آتاهم الله من فضله، وتفضيلهم عبدة الشيطان، على عباد الرحمن.

هذا وتحالفهم مع المشركين الذي سجلته الآيات الكريمة على اليهود، قد شهد بقبحه (الدكتور إسرائيل ولفنسون) اليهودي- في كتابه: (تاريخ اليهود في جزيرة العرب) فقد قال معلقا على هذا القصة: «كان من واجب هؤلاء اليهود ألا يتورطوا في مثل هذا الخطأ الفاحش، وألا يصرحوا أمام زعماء قريش بأن عبادة الأصنام أفضل من التوحيد الإسلامي، ولو أدى بهم الأمر إلى عدم إجابة مطالبهم، لأن بني إسرائيل الذين كانوا لعدة قرون حاملي راية التوحيد في العالم بين الأمم الوثنية، باسم الآباء الأقدمين، والذين نكبوا بنكبات لا تحصى، من: تقتيل، واضطهاد بسبب إيمانهم بإله واحد، في عصور شتى من الأدوار التاريخية، كان من واجبهم أن يضحوا بحياتهم، وكل عزيز عليهم، في سبيل أن يخذلوا المشركين، هذا فضلا عن أنهم بالتجائهم إلى عبدة الأوثان، إنما كانوا يحاربون أنفسهم، ويناقضون تعاليم التوراة، التي توصيهم بالنفور، من أصحاب الأصنام، والوقوف منهم موقف الخصومة»(٦).

وفي سورة المائدة آيتان كريمتان، تصرحان بوضوح أن كثيرا من اليهود يوالون المشركين بغضا منهم للإسلام، وهاتان الآيتان هما قوله تعالى:

﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾

(المائدة: ٨٠، ٨١).

والمعنى ترى أيها الرسول الكريم، كثيرا من اليهود المعاصرين لك، يوالون الكافرين، ويحالفونهم عليك، مع أنك أنت تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله بدون تفريق بينهم، وأولئك المشركون الذين حالفهم اليهود لا يؤمنون بشيء من ذلك

﴿ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾

أي: لبئس زادا لهم في الآخرة، موجب سخطه - تعالى- عليهم، أي: أعمالهم التي من أجلها استحقوا غضب الله وسخطه عليهم، فجعلهم في عذاب جهنم خالدين.

ثم بين الله تعالى بعد ذلك أن تولي اليهود للمشركين، دليل على فساد فطرتهم، وبعدهم عن الإيمان الحق فقال تعالى:

﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ أي: ولو كان أولئك اليهود الذين تولوا المشركين يؤمنون بموسى- عليه السلام- كما يزعمون، وبما أنزل إليه من الهدى والبينات، لكفوا عن اتخاذ الكافرين أولياء، وأصفياء؛ لأن تحريم تولي المشركين متأكد في التوراة وفي شرع موسى -عليه السلام- وإذن فهذه الولاية القوية بين اليهود والمشركين ليس لها من سبب، إلا اتفاق الفريقين على الكفر بالإسلام، والتواطؤ على حربه والكيد بدعوته ومعاداة أتباعه.

٦-تاريخ اليهود في جزيرة العرب ص١٧٣.

ثم كشف القرآن الكريم عن الأسباب التي حملت اليهود على التآلف مع المشركين، فقال تعالى:

﴿ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾

أي: ولكن الكثيرين من اليهود منحرفون عن طريق العقيدة القويمة التي تهدي القلب والعقل إلى الطريق المستقيم وخارجون عن حظيرة الدين ولذلك اتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين.

وإلى هنا تكون الآيات الكريمة قد كشفت عن تواطؤ اليهود مع المشركين؛ لمحاربة المسلمين وفي هذا الكشف تحذير للمسلمين من شرورهم، حتى لا ينخدعوا بهم و يأمنوا لهم.

ثامنا: إيذاؤهم لرسول الله ﷺ بالقول القبيح والخطاب السيء:

جبل اليهود على المخادعة والمراوغة، واتخذوا هذه المخادعة المراوغة سلاحا لهم، في إيذائهم للنبي ﷺ، فكانوا يخاطبونه بالكلام الذي فيه تورية ويلوون ألسنتهم بالكلمة؛ لتؤدي الغرض السيء الذي يقصدونه، وهو إيذاء النبي ﷺ والتهكم عليه، والتهوين من شأنه، وإظهاره أمام أصحابه بمظهر الجاهل بأساليبهم.

كان الصحابة – رضي الله عنهم – ينطقون بالكلمة يقصدون بها معناها الصحيح الذي فيه تكريم وإجلال للنبي ﷺ ولكن اليهود كانوا يتلقفون هذه الكلمة فيلوون بها ألسنتهم؛ لتؤدي معنى قبيحا عندهم وقت النطق بها، وقد حكى القرآن الكريم عنهم ذلك، ونهى المؤمنين عن مخاطبة الرسول ﷺ بألفاظ معينة، حتى لا يتخذها اليهود ذريعة للإساءة إلى النبي ﷺ، من ذلك قوله تعالى في سورة البقرة:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا ۗ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (البقرة: ١٠٤-١٠٥).

﴿ رَاعِنَا ﴾ من المراعاة، وهي المبالغة في الرعي بمعنى حفظ الغير، وإمهاله وتدبير أموره، وتدارك مصالحه، وكان المؤمنون يقولون لرسول الله ﷺ إذا حدثهم بحديث: راعنا يا رسول الله، أي: راقبنا وانتظرنا حتى نفهم كلامك ونحفظه، فتلقف اليهود هذه الكلمة لموافقتها كلمة سيئة عندهم وأخذوا يلوون بها ألسنتهم ويقولون ﴿ رَاعِنَا ﴾ يا أبا القاسم، يظهرون أنهم يريدون طلب المراعاة والانتظار وهم يريدون في الحقيقة معنى اسم الفاعل من الرعونة التي هي الحمق والخفة فنهى الله تعالى المسلمين عن استعمال هذه الكلمة حتى لا يتخذها اليهود وسيلة إلى إيذاء النبي ﷺ والتنقيص من شأنه.

قال قتادة: «كانت اليهود تقول للنبي ﷺ راعنا سمعك، يستهزئون بذلك، وكانت هذه الكلمة في اليهود قبيحة».

وقال الإمام ابن كثير: «نهى الله تعالى عباده المؤمنين أن يتشبهوا بالكافرين في مقالهم وفعالهم، وذلك أن اليهود كانوا يعنون من الكلام ما فيه تورية؛ لما يقصدونه من التنقيص فإذا أرادوا أن يقولوا: اسمع لنا، يقولوا راعنا ويورون بالرعونة، كما قال تعالى:

﴿ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

(النساء: ٤٦)

وكذلك جاءت الأحاديث بالإخبار عنهم، بأنهم كانوا إذا سلموا إنما يقولون: «السام عليكم» والسام هو الموت، ولهذا أمرنا أن نرد عليهم «وعليكم» وإنما يستجاب لنا فيهم، ولا يستجاب لهم فينا، والغرض: أن الله تعالى نهى المؤمنين عن مشابهة الكافرين قولا وفعلا».[7]

وقال الإمام ابن تيمية: كان المسلمون يقولون: «راعنا يا رسول الله، وأرعنا سمعك» يعنون: من المراعاة، وكانت هذه اللفظة سبًا قبيحًا بلغة اليهود، اغتنموها، وقالوا فيما بينهم: كنا نسب محمدًا سرًا فأعلنوا له الآن بالشتم، وكانوا يأتونه، ويقولون: «راعنا يا محمد» ويضحكون فيما بينهم، فسمعها (سعد بن معاذ) ففطن لهم، وكان يعرف لغتهم، فقال لليهود: «عليكم لعنة الله، والذي نفسي بيده يا معشر اليهود لئن سمعتها من رجل منكم يقولها لرسول الله ﷺ لأضربن عنقه» فقالوا أولستم تقولونها، فأنزل الله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا ﴾

لكي لا يتخذ اليهود ذلك سبيلا، إلى شتم الرسول ﷺ.[8]

ثم أرشد الله تعالى المؤمنين إلى ما يقولونه بدل هذه الكلمة فقال تعالى: «وَقُولُوا انظُرْنَا» أي: لا تقولوا تلك الكلمة– وهي (راعنا) أيها المؤمنون لئلا يتخذها اليهود ذريعة لسب نبيكم ﷺ– وقولوا مكانها (انظرنا) أي: انتظرنا وتأن معنا حتى نفهم عنك، من نظر بمعنى انتظر تقول: نظرت الرجل أنظره إذا انتظرته وارتقبته، وبهذا المعنى ورد قوله تعالى:

﴿ انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾

(الحديد: ١٣)

أي: انتظرونا نقتبس من نوركم.

فالآية الكريمة تنبيه وإرشاد إلى الأدب الجميل، وهو أن يتجنب الإنسان في مخاطباته لغيره الألفاظ التي توهم جفاء أو تنقيصًا في مقام يقتضي إظهار مودة، أو تعظيم.

٧- تفسير ابن كثير جـ١ ص ١٤٨.

٨- كتاب الصارم المسلول على شاتم الرسول، للإمام ابن تيمية ص ٢٤١

ثم بين سبحانه مصير اليهود المؤل جزاء تعديهم على رسول الله ﷺ فقال:

﴿ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

أي: لهؤلاء اليهود الذين اتخذوا كلمة ﴿ رَٰعِنَا ﴾ وسيلة إلى سب الرسول ﷺ عذاب أليم؛ جزاء كفرهم وتطاولهم وسفاهتهم.

ثم بين سبحانه للمسلمين ما يضمره لهم هؤلاء اليهود من بغض وحسد فقال تعالى:

﴿ مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾

(البقرة: ١٠٥).

هذا وقد وردت أحاديث صحيحة صرحت بأن اليهود كانوا يحيون رسول الله ﷺ بكلام محرف، لا يفطن له أكثر الناس يقصدون به الدعاء عليه بالموت، فكان الرسول -ﷺ- يرد عليهم بما يكبتهم ويخزيهم، ومن هذا الأحاديث ما أخرجه البخاري، عن أنس بن مالك، قال: «مر يهودي برسول الله ﷺ فقال: السام عليك، فقال رسول الله ﷺ «وعليك» فقال رسول الله ﷺ - لأصحابه- «أتدرون ما يقول؟» قالوا: لا، قال: يقول: «السام عليك» قالوا يا رسول الله: ألا نقتله؟، قال: «لا إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا وعليكم»[9]

وأخرج الشيخان، عن عائشة- رضي الله عنها-قالت:

دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا: «السام عليك» قالت عائشة: ففهمتها، فقلت «عليكم السام واللعنة» قالت: فقال رسول الله ﷺ: «مهلا يا عائشة» إن الله يحب الرفق في الأمر كله» فقلت يا رسول الله: ألم تسمع ما قالوا؟ قال: «لقد قلت وعليكم»[10]

وروى مسلم، عن جابر بن عبد الله، قال «سلم ناس من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا: السام عليك يا أبا القاسم، فقال:

«وعليكم» فقالت عائشة وغضبت: ألم تسمع ما قالوا؟ قال: «بلى قد سمعت فرددت عليهم، وإنما تجاب ولا يجابون علينا»[11]

وإذن فالآية الكريمة وهي قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَٰعِنَا ﴾

وهذه الأحاديث الشريفة، تثبت أن اليهود كانوا يستعملون من بين مسالكهم الخبيثة لكيد الدعوة الإسلامية، القول الملتوى القبيح، والخطاب المحرف السيء، ولكن الله تعالى أحبط خطتهم، ونهى المؤمنين عن استعمال الألفاظ، التى كان يتخذها اليهود ذريعة لبلوغ مآربهم، وكان الرسول ﷺ يرد بما يغيظهم ويخزيهم، وبذلك ذهبت مكايد اليهود أدراج الرياح، وأيد الله تعالى رسوله، والمؤمنين بقوته ونصره.

٩-صحيح البخاري، باب «إذا عرض الذمي وغيره بسب النبي» من كتاب «استتابة المرتدين» جـ٩ص٢٠.

١٠-صحيح البخاري - واللفظ له- في باب «كيف يرد على أهل الذمة السلام» جـ٨ ص٧٠.
أخرجه مسلم في كتاب السلام ج٤ ص١٧٠٦ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.

١١-صحيح مسلم: باب «النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم من» كتاب السلام» جـ٤ص١٧٠٧.

فتاوى الحاخامات

د. منصور عبد الوهاب

عنوان الفتوى: لماذا لا يتهود الأغيار؟

فتوى من: الحاخام أورحاييم تاوب

سؤال:

أردت أن أطرح سؤالاً يؤرقني في الفترة الأخيرة: يقول سليمان في صلاته: «وكذلك الأجنبي الذى ليس من شعبك إسرائيل هو وجاء من أرض بعيدة من أجل اسمك. لأنهم يسمعون باسمك العظيم وبيدك القوية وذراعك الممدودة. فمتى جاء وصلى في هذا البيت». فإذا كان الأغيار يسمعون اسم الرب ويأتون من أجل الصلاة له فهذا دليل على أنهم يؤمنون به، وإذا كان الأمر كذلك فلماذا لا يتهودون؟ هل في المستقبل-عندما يعرف الجميع الرب بمشيئة منه- سيظلون أغيارًا؟ (هناك عدة أمثلة أخرى على ذلك في العهد القديم، ولكن هذا هو أبرز مثال، حسب رأيي المتواضع).

جواب:

عندما خلق الرب تبارك اسمه العالم، جعل لكل مخلوق دوره في الحياة، فهناك جماد له دوره، وهناك نباتات دورها أن تنمو، وهناك حيوانات دورها أن تعيش لمجرد العيش وهناك بشر. وبين البشر هناك يهود، وهناك بقية البشر. ويتميز اليهود بأنهم خلقوا لكي يكونوا مصدر نور للعالم يقود ويرشد العالم إلى طريق الرب. والأغيار الذين يتهودون بسبب حبهم للرب، ورغبة منهم في التقرب إليه يتم قبولهم بين الشعب اليهودي، حيث إن أرواحهم - حسبما يبدو - كانت تنتمي إليه منذ البداية. ولكن هذا لا يعني أن جميع الأغيار في العالم من المفترض أن يتهودوا، فكل له دوره - ودور الأغيار هو أن يقيموا وصايا أبناء نوح السبعة، وبذلك يعبدون الرب. أما دور اليهود فهو أن يقيموا كل الوصايا الدينية التوراتية الـ٦١٣، وهذه هي مهمتهم. ولذلك فإنه في المستقبل سيكون هناك من الأغيار من يعبدون الرب ليس كاليهود وإنما على النحو الذى أمروا به.

ودورنا اليوم هو أن نحاول التأثير على الأغيار لاتباع نهج التوراة والحفاظ على الوصايا الملزمين بها. وعسانا نرى بأعيننا قريبا تحقق نبوءات الخلاص وأن ينزل الرب رحماته بصهيون (فلسطين).

داود عليه السلام



للعلامة الشيخ / عبد الوهاب النجار

لما دخل بنو إسرائيل بلاد فلسطين مع يوشع بن نون عليه الصلاة والسلام وقسم لهم الأرضين قام يوشع بأمرهم إلى وفاته. وأقاموا على ذلك يقيم لهم أمرهم قضاة منهم، وليس فيهم ملك ستًا وخمسين وثلاثمائة سنة بعد موسى عليه السلام.

وكان بنو إسرائيل في تلك الأثناء عرضة لغزوات الأمم القريبة منهم ـــ كالعمالقة من العرب والمديانيين والفلسطينيين والآراميين وغيرهم ـ وكانت الأيام دولا بين الفريقين: تارة يغلبهم اليهود وتارة يغلبون اليهود. وكان الأنبياء في ذلك العهد مرشدين لأولئك القضاة والحكام من اليهود وواسطة بينهم وبين الله تعالى. وفي بعض الأحيان يكون النبي قاضيا.

وكان في أواسط المائة الرابعة ـ في أيام عالي الكاهن ـ أن العبرانيين دخلوا في حرب مع الفلسطينيين سكان أشدود بالقرب من غزة. وقد أخذ بنو إسرائيل معهم تابوت العهد وهو التابوت الذي فيه التوراة أي الشريعة ليستنصروا به، فغلبهم الفلسطينيون وأخذوا تابوت العهد ودخلوا به إلي بيت (داجون) إلههم «وهو رأس إنسان على جسم سمكة». وكانت هزيمة بني إسرائيل عظيمة وذلهم شديدا.

ندع تابوت العهد في بيت داجون مؤقتا، ونذكر لكم أنه كان من قضاة بني إسرائيل نبيٌ اسمه صموئيل قضى لبني إسرائيل زمنًا، وعين ابنين له للقضاء في أحياء إسرائيل فلم يعدلا، وخاف بنو إسرائيل أن يفسد عليهم الأمر بعد صموئيل، وجاءوا إليه في بلدة الرامة وألحوا عليه في أن يقيم عليهم ملكًا منهم، يأتمرون بأمره ويقودهم إلى قتال أعدائهم الذين أذلوهم دهرًا طويلا، ويدافع عنهم من يريد الإغارة عليهم، وكان صموئيل عالما بعقلية بني إسرائيل وعاداتهم وما انطوت عليه أنفسهم، فقال لهم: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾

(البقرة: ٢٤٦)

«فصل بين عسى وخبره بالشرط»، والمعنى أتوقع جبنكم عن القتال إن كتب عليكم، فأجابوه قائلين: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ (البقرة: ٢٤٦)

والمعنى أن دواعي القتال موجودة وهي أن الأعداء أخرجونا من ديارنا وأسروا أبناءنا، فلا يتأتى منا النكول ونحن على هذه الحال.

وقد جاء في الكتاب الكريم أنهم لما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم.

عرفهم صموئيل بعد ذلك أن الله قد جعل «طالوت» ملكا عليهم واسمه في سفر صموئيل «شاول بن قيس بن أبيئيل بن صرور بن بكورة بن أفيح» من سبط بنيامين. وكان «شاول» شابًا جميلا لم يكن في بني إسرائيل أحسن منه.

عرفنا أن الشاب «شاول» هو الذي اختاره الله ليكون ملكا لليهود وقد نصت حكاية «شاول» الذي هو «طالوت» في سفر صموئيل الأول من الإصحاح الثامن إلى الحادي عشر.

وكان من قصته وأمر تمليكه أن ضلت أتن لقيس أبي شاول، فقال لابنه: خذ معك واحدا من الغلمان وفتش على الأتن، فبحث في أمكنة كثيرة إلى أن أتى إلى المدينة التي فيها صموئيل، فأشار الغلام على شاول أن يقصد النبي صموئيل ليدله على الأتن، فذهب إليه فالتقى به في وسط المدينة يريد صموئيل لقاءه، فسأله على الأتن فطمأنه وأكرمه إكراما عظيما في ذلك اليوم، وفي اليوم الثاني صب صموئيل الدهن على رأس شاول ومسحه به وقبله وأخبره بما سيصير إليه أمره.

ثم أخذ صموئيل في العمل لتعيين من اختاره الله ملكا لليهود أمام الشعب، وطلب شاول فوجد مختبئا بين الأمتعة. ولما جاءوا به كان أطول الناس فرضي به الشعب وهتفوا له وغضب آخرون، واحتقروه.

وفي القرآن الكريم أن نبيهم لما أخبر بني إسرائيل أن الله قد بعث لهم طالوت ملكا تذمروا وقالوا: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ﴾ (البقرة: ٢٤٧)

فقال لهم نبيهم ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ﴾

(البقرة: ٢٤٧)

وكان شاول طويلا.

وكان مما أخبر به صموئيل بني إسرائيل، أن آية ملك طالوت أن يأتيهم التابوت الذي أخذ منهم وفيه ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾ (البقرة: ٢٤٨)

أي موسى وهارون على حد قول عمر: لو ضاع عقال بشط العراق لخشيت أن يسأل الله عنه آل عمر، يريد نفسه ﴿تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (البقرة: ٢٤٨)

نعود إلى التابوت الذي في بيت داجون فنقول: ذكر في سفر صموئيل أن الفلسطيين كانوا يجدون إلههم «داجون» ملقى عن مكانه في كل ليلة وسلط الله عليهم الفئران فأفسدت عليهم حاصلاتهم، وخرجت لهم البواسير، وعلموا أن ذلك من وجود التابوت عندهم، فصنعوا تماثيل فئران من ذهب

وتماثيل بواسير من ذهب ووضعوها مع التابوت قربانًا وجاءوا بعجلة جديدة وعلقوا فيها بقرتين مرضعتين ووضعوا التابوت على العجلة وأطلقوا البقرتين، فجاءتا بالتابوت بدون سائق أو قائد إلى قرية «بيت شمس» إلى أهل قرية «يعاريم» اليهودية، فأخذوا التابوت وما معه وأوجدوه في بيت وخصوا به أحد الكهنة لخدمته، وكان مكث التابوت عند الفلسطينيين سبعة أشهر، وأقام في يعاريم عشرين سنة.

وصعود التابوت من عند الفلسطينيين هو الذى أقامه صموئيل آية على ملك طالوت. ومعنى (تحمله الملائكة) على هذا أنها كانت تدل بالبقرتين الجاريتين للعجلة.

جمع بعد ذلك طالوت الجنود لقتال الفلسطينيين، وكان شجاعهم وعظيمهم رجلا يقال له (جالوت) ـ أو (جليات) عند العبرانيين ـ قد هابه الناس وتحاموا حربه لشجاعته وقوته.

وكان فى ذهاب طالوت إليه أن قال لجنوده:

﴿ إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده ﴾ (البقرة: ٢٤٩)

فأصاب القوم ظمأ شديد، فلما أشرفوا على النهر لم يملكوا أنفسهم أن شربوا منه إلا قليلا منهم امتنعوا وصبروا عن الماء وآثروا طاعة الله وكانوا قليلا. فلما جاوز النهر هو والذين آمنوا معه على قلتهم قالوا: لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ـ لأنهم نظروا إلى قلتهم وكثرة أعدائهم ـ فقال الذين يظنون أنهم ملاقو الله أى المؤمنون بأنهم ملاقو الله

وإنما عبر بالظن للإشارة إلى أن مجرد الظن كافٍ للعاقل فى العمل لما ينجيه لأنه أخذ بالأحوط ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ﴾

(البقرة: ٢٤٩)

وقد كان من حاضرى الحرب داود بن يسى وكان صغيرا يرعى الغنم لا فضل فيه للحرب ولكن أباه أرسله إلى إخوته الثلاثة الذين مع طالوت ليأتيه عنهم بما يطمئنه عليهم ـ فرأى جالوت وهو يطلب المبارزة والناس قد تحامته لما ملأ أنفسهم من هيبته وتيقن كل مبارز له أنه هالك. فسأل داود عما يصير لقاتل هذا الفلسطينى فأجيب بأن الملك يغنيه غنًى جزيلًا ويعطيه ابنته ويجعل بيت أبيه حرًا فى إسرائيل.

كان داود فى ذهابه إلى إخوته المحاربين لا يعلم أنه سيحارب ولم يكن قد جرب نفسه فى الحرب ولكنه ذهب إلى شاول وطلب الإذن بمبارزة جالوت فضن به شاول وحذره، فقال إنى قتلت أسدا أخذ شاة من غنم أبى وكان معه دب فقتلته، وألبسه شاول لأمة حرب فلم يعرف داود أن يمشى فيها فخلعها وتقدم بعصاه وخمسة أحجار ماس فى كنفه انتخبها من الوادى ومعه مقلاعه. وبعد كلام مع جالوت رماه داود بحجر فثبت فى جبهته وأخذ منه السيف وفصل به رأسه عن بدنه وهزم الفلسطينيون ووعد الملك داود أن يزوجه ابنته ميكال وجعله رئيس الجند.

اقرءوا الآيات الآتية: سورة البقرة:

﴿ ألم تر إلى الملإ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين (٢٤٦) وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم (٢٤٧) وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين (٢٤٨) فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه إلا قليلا منهم فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده قال الذين يظنون أنهم ملاقو الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين (٢٤٩) ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين (٢٥٠) فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين (٢٥١) ﴾

(البقرة: ٢٤٦ - ٢٥١)

رجع الكلام إلى داود

بعد هذا التمهيد الذى قدمناه نقول: لما هزم داود جالوت ورجاله حسنت حاله عند شاول وصار مقدما بين رجال الحرب فى بنى إسرائيل، وعظمت منزلته وزوجه ابنته وانعقدت أواصر المحبة الصادقة بين داود وبين يوناثان بن شاول.

تغير قلب شاول بعد ذلك على داود لما أحس من تعلق الشعب به وعظمه فى أعينهم، فعمل على إهلاكه خشية أن تمتد عينه إلى الملك. وكان يوناثان بن شاول يعمل على تحسين مركز داود عند أبيه ويطريه ويشيد بإخلاصه فى خدمة الملك. ولما اعتزم شاول الفتك بداود أنذرته زوجته ميكال بنت شاول، فهرب وأوهمتهم أنه على سريره ولم يكن فوق السرير سوى متاع مغطى، وكان داود قد أعطى شاول صداقها مائة غلفة من الفلسطينيين.

وكان شاول حين ولى حرب الفلسطينيين ـ بعد أن تغيرت نيته فيه ـ يريد بذلك أن يلى الأعداء قتله ويكفوه أمر داود. ولكن داود كان مظفرا فى حروبه، فلما لم يهلك أحب أن يهلكه بجنده وأعوانه ففاتهم. وكان داود

مع علمه بخبث نية شاول عليه لا يقصر في النكاية بأعداء الملك. ولما أيقن داود أن نية الملك قد صحت على قتله هرب منه، حتى لقد همّ شاول أن يطعن ابنه يوناثان بالرمح لأنه كان يحاجه في داود فزاغ منه ونجا، فتمت عزيمة داود على الهرب منه وأن يغيب وجهه عنه.

انتهى داود في هربه إلى «أخيش» ملك «جت» وهم أعداء شاول الألداء ولداود أسوأ النكايات بالقوم في الحرب. فلما ظفروا به جاءوا به إلى الملك وحرضوه على قتله، فتظاهر داود بالجنون، وأوقع الله في قلب الملك طرد هذا المجنون من حضرته، فأمر غلمانه بإطلاقه وإبعاده عنه ففعلوا وقد لامهم الملك على إدخال مجنون إلى بيته.

ذهب داود إلى مغارة «عدلام» وجاء إليه جميع إخوته وجميع بيت أبيه، واجتمع إليه كل رجل متضايق وكل مدين، فانتقل إلى مصفاة موآب وأرسل أباه وأمه إلى ملك موآب ليكونا في كفالته إلى أن يعلم مصير أمره، ثم انتقل بمن معه إلى أرض يهوذا.

سمع شاول بداود ومن اجتمع له من الرجال، فلام رجاله على عدم إخباره بأمر داود مع ابنه يوناثان أنهما تعاهدا على الصداقة والوفاء، فأغراه أحد رجاله بأخي مالك بن خيطوب الكاهن وأخبره أنه أعطى داود طعاما وسلحه بسيف جالوت، وأن الكاهن دعا له بالنجاح. فأتى شاول بالكاهن ولامه في أمر داود فأثنى الكاهن على داود وقال: إنه مخلص في خدمة الملك، وقد شاع أمره واشتهر، وأن الملك لا ينبغي أن يكافئ داود عن الإحسان شرًا، فأمر الملك بقتله وقتل الكهنة فقتل منهم خمسة وثمانين ولم ينج منهم سوى طفل يقال له أبياثار بن خيطوب، وهرب إلى داود وأخبره بكل ما فعل شاول. فرحب داود بأبياثار وأقامه عنده لأن أهل بيته قتلوا بسببه.

أقام داود في البرية وشاول يطلب الفرصة لإهلاكه، وعلم داود بكل ما يدبر عليه وقد جمع شاول ثلاثة آلاف للتفتيش عليه والإيقاع به، واختبأ ومعه بعض رجاله في كهف فجاء شاول ونام في ذلك الكهف وداود ورجاله في داخله! ولاحت الفرصة لداود في قتله وأغراه رجاله بذلك فوبخهم ولم يفعل، واقتصر على قطع طرف جبة شاول. ولما استيقظ شاول وخرج من الكهف تبعه داود وأخبره بأنه قد كانت له الفرصة في قتله فلم يمد إليه يدًا، وأن آية ذلك أنه قطع طرف جبته وعفّ عن إلحاق الأذى به، فندم شاول وقال: أنت أبر مني.

لم يلبث شاول أن عاوده الخوف على ملكه من داود فألح في طلب إهلاكه وخرج مع رؤساء جنده في جيش لإهلاك داود، فصبر داود حتى نزلوا منزلا ناموا فيه وقد ركز الملك رمحه عند رأسه ونام، فجاء داود وتخطى الجند ورؤساءهم، وأخذ الرمح وكوز ماء كان عند رأس الملك، ووقف على ربوة ونادى رؤساء الجند موبخًا لهم على تقصيرهم في حراسة الملك، فاستيقظوا ودعا داود أحدا منهم يجيء إليه ليأخذ رمح الملك وكوز الماء، وأعلم الملك بأن الفرصة قد سنحت له في قتله ولكنه لم يفعل، فأظهر الملك الندم وعاد الملك إلى بيته وأقام داود في حصن اتخذه لنفسه.

لما يئس داود من صلاح الحال بينه وبين الملك ذهب إلى الفلسطينيين فطلب من ملكهم أن ينزله في إحدى القرى يقيم فيها هو ورجاله.

ولعل ملك الفلسطينيين قد رأى الفرصة سانحة لعمل هدنة داود ليكتفي شره، ورأى ذلك خيرا من بقائه على العداء ودوام النكاية بالملك وجنده فأجاب طلب داود.

لم يطل المقام بداود حتى قام شاول لمحاربة الفلسطينيين، وخرج داود برجاله معهم، ولكن قادة الجند تخوفوا جانبه وأغروا الملك برده فرده بعد مسير ثلاثة أيام، وكان الملك به ضنينا، فلما عاد إلى المكان الذي فصل منه وجد الفلسطينيين خالفوا إلى نساء داود والرجال الذين معه وأولادهم، فسبوهم ونهبوا كل شيء وأحرقوا القرية التي كان داود نازلا بها وتدعى «صقلغ» فجد وراء المغيرين وخلص السبي وأفحش في قتل أولئك القوم وغنم منهم غنائم عظيمة.

أما شاول فلقيه الفلسطينيون فانهزم جيشه، وقتل هو وثلاثة من بنيه، وهزم رجاله وجلا العبرانيون عن المدن القريبة وسكنها الفلسطينيون.

في أثناء هذه الخطوب مات صموئيل ـ صلوات الله عليه ـ وقام في بني إسرائيل نبيّ آخر اسمه (جاد). وكان صموئيل قد تغير على شاول وابتعد عنه ولم يشأ أن يذهب إليه مع إلحاح الملك في الطلب، وقد أخبر داود أن الملك صائر إليه بعد موت شاول.

لم يكن داود يعلم بما تم على شاول وجنده من القتل والهزيمة والتشريد، حتى جاء إليه غلام عماليقي، وأخبر بما تم على شاول وجنده، وأن شاول كان فيه بقية من رمق بعد سقوطه في الحرب، وعلم أنه مأخوذ لا محالة فطلب إلى الغلام العماليقي أن يقتله ففعل، وأنه أخذ إكليله وسواره وجاء بهما إلى داود، فغضب عليه داود وقتله، وأقام مأتما على شاول ويوناثان صديقه ورثاهما رثاءً عظيما، والظاهر أن شاول كان حسن السياسة وأن مدته كانت مدة رفاهية وهناءة لبني إسرائيل كما تدل عليه مرثية داود.

صعد بعد ذلك داود إلى «حبرون» وهي مدينة الخليل اليوم، فجاء رجال يهوذا وأقاموا داود ملكا على بيت يهوذا.

وأما بقية إسرائيل فدانوا بالطاعة «إيشبوشث» بن شاول وقام بأمره رجال أبيه ورؤساء جنده.

وقد حصلت حروب بين رجال داود ورجال إيشبوشث بن شاول إلى أن هلك ابن شاول بعد سنتين، وأقام داود ملكا في حبرون، وجاء إليه بقية رؤساء إسرائيل وملكوه عليهم، وأقام في حبرون سبع سنوات، ثم انتقل إلى صهيون وهو حصن سماه مدينة داود وكان المقيمون في جبل الموريا من اليبوسيين، فأقام داود بجانبهم في صهيون إلى أن صارت جميعها لبني إسرائيل.

قام داود في أيام ملكه بحروب كثيرة كان موفقا فيها منصورا على أعدائه واتسع ملكه حتى صار من أيلة ـ خليج العقبة ـ وهي المدينة التي على الخليج إلى الفرات، فدانت له تلك البلاد كلها بعد حروب كان الظفر حليفه فيها كلها، فافتتح بلاد الفلسطينيين وأخذ دمشق عاصمة ملك الآراميين بعد حرب شديدة، وحارب الأقوام الذين على الفرات ونصر عليهم قبل أن يملك دمشق وما معها.

وقد أحسن داود إلى غلام بقي من بيت

شاول ورد عليه أملاك أسرته، ملك داود شرقي الأردن بعد أن حاربه بنو عمون.

نعم الله على داود

قد ذكر الله تعالى لداود مواقف صالحات وأنه أنعم عليه نعما عظيمة، فمن ذلك:

١ - أن الله ذكر في الكتاب الكريم أنه سخر الجبال مع داود يسبحن بكرة وعشيًا، وقد دل على ذلك بقوله في سورة سبأ: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ﴾ (سبأ: ١٠)

وفي سورة ص ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾ (ص: ١٨)

قال البيضاوي في قوله ﴿ أَوِّبِي ﴾: رجّعي في التسبيح كلما رجّع فيه. اهـ. وهذا أمر يدل على عظم شأنه وكبرياء سلطانه حيث جعل الجبال لعقلاء المنقادين لأمره في نفاذ مشيئته.

٢ - تسبيح الطير معه كما تفعل الجبال أيضا - كما تقدم في سورة سبأ. وفي سورة ص: ﴿ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴾ (ص: ١٩)

٣ - علم منطق الطير: فقد جاء في سورة النمل: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (النمل: ١٦)

قال البيضاوي: والضمير في (أوتينا - وعلمنا) له ولأبيه أو له وحده - على عادة الملوك لمراعاة قواعد السياسة - ويؤيد - في نظري - أنه يتكلم عنه وعن أبيه:

(أولا) قوله تعالى: ﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ﴾.

(ثانيا) قوله تعالى: ﴿ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴾.

(ثالثا) قوله تعالى: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ﴾ إذ الظاهر أنه ورثه في العلم والحكمة.

٤ - إلانة الحديد له كما في قوله تعالى في سورة سبأ: ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ۝ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾ (سبأ: ١٠، ١١)

النسج أو الثقب، قال البيضاوي: (ألنا له الحديد) جعلناه في يده كالشمع يصرفه كيف يشاء من غير إحماء وطرق بآلاته أو بقوته. اهـ. فكان يعمل الدروع المسردة أي ذات الحلق من الحديد بيده معجزة له وأمرًا خارقًا للعادة. ولو كان يعمل الدروع بواسطة النار لم يكن في ذلك امتنانا من الله عليه إذ كل الناس يعملون كذلك، اللهم إلا أن يدعى مدّع أن إلانة الحديد لم تكن معروفة قبل داود وأن الله هداه إلى هذا الأمر الذى لم يكن معروفا قبله. وهذا ما لا سبيل إلى تحقيقه.

٥ - عمله الدروع المركبة من حلق الحديد، وكانت تعمل صفائح، فكان هو الذى نسجها من حلق الحديد، تناط الحلقة بأمثالها إلى أن يكمل الدرع، وهي أخف من الدروع الأخرى وأبعد من مضايقة لابسها، وهي تقي لابسها من أن تعمل فيه الأسلحة، فهي على لابسها حصن يتنقل بتنقله كما قال تعالى: ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ (الأنبياء: ٨٠)

واعلموا أن الدروع لم تبق لها فائدة حربية بعد اختراع المدافع والبنادق، فإن مقذوفات البنادق تخترقها، وقد سمعنا أنهم في بعض الأحيان يتخذون الدروع من الحديد المقسى (أي المقوى بالنيكل) فتكون لها قوة لا تخترقها قذائف البنادق ولكنها غالية جدا.

٦ - تشديد ملكه، ذلك أن الله تعالى قوّاه في الملك وجعله منصورا على أعدائه، فقد انتصر على جميع مبغضيه، ومناوئيه - قبل الملك وبعده - ومكث دهرًا لا يقوم له معارض إلا غلبه، ولا يعتدى على ملكه معتد من خارج مملكته في أواخر ملكه. وقال البيضاوي: ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ﴾ قويناه بالهيبة والنصرة وكثرة الجنود. وقرئ بالتشديد للمبالغة، قيل إن رجلا ادعى بقرة على آخر وعجز عن البيان، فأوحى الله إليه أن اقتل المدعى عليه، فأعلمه فقال: صدقت، إني قتلت أباه وأخذت البقرة، فعظمت بذلك هيبته.

٧ - آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب، والمراد بالحكمة: النبوة، وأصل معناها اللغوى وضع كل شيء في محله، أي يقول الإنسان القول لا خلل فيه، وليس فيه موضع لليت أو للو، ويفعل الصواب الذى لا اعتراض لأحد عليه، بل يأتي به الإنسان على وجه الكمال.

ومعلوم أن النبوة هي من هذا القبيل، ولكن الحكمة بمعنى النبوة تكون هبة من الله تعالى، دون أن تكون نتيجة بحث أو درس، ولكن حكمة غير الأنبياء تكون بعد البحث والدرس ومجاهدة النفس ورياضتها على السير بمقتضى الحكمة فالنبوة طريق إلى الحكمة مختصر يختص الله به من اصطفاهم من عباده، وهو الفاعل المختار.

قال البيضاوى في تفسير ﴿ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾: فصل الخصام بتمييز الحق عن الباطل، أو الكلام الملخص الذى ينبه المخاطب على المقصود من غير التباس يراعى فيه مظان الفصل والوصل والعطف والاستئناف والإضمار والحذف والتكرار ونحوها، وإني إلى الأول أميل.

٨ - أن الله تعالى أعطاه الزبور كما في قوله تعالى: ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴾ (الإسراء: ٥٥)

وهو عبارة عن قصائد وأناشيد تتضمن تسبيح الله وحمده والثناء عليه والتضرع له، وبعض أخبار مستقلة كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ (الأنبياء: ١٠٥)

أي أنه تضمن الإخبار بشأن النبي الآتي وهو (محمد) صلى الله عليه وسلم وأصحابه - كما في الزبور الخامس والأربعين.

وكان داود ﷺ حسن الصوت حسن الإنشاد، حتى إنه إلى اليوم مضرب للمثل بحسن الصوت، فيقال للحسن الصوت: إنه أعطي مزمارا من مزامير داود عليه السلام. والزبور يسمى عند أهل الكتاب (المزامير) وعددها مائة وخمسون مزمورا. وليست كلها لداود بل بعض المزامير منسوبة لقورح إمام المغنين، وبعضها منسوب إلى داود، وبعضها منسوب للمغنين على السوسن، وبعضها غير منسوب. والكثير منها منسوب إلى داود، وليس في الزبور أحكام ولا أوامر ولا نواه، بل كله كما وصفنا. وبعض المزامير ألف بعد داود بمئات السنين، كالمزمور أوله (على أنهار بابل) فإنه ألف بعد سبي الإسرائيليين إلى بابل في حادثة (بختنصر).

في فقه الاختلاف

أسباب اختلاف الأئمة في فقه القرآن والسنة



الشيخ / محمود شلتوت

يحسن أن نذكر هنا مجمل الأسباب التي أدت إلى اختلاف العلماء في استنباط الأحكام من الآيات والأحاديث، حتى تكون بمثابة إرشاد ـ لمن يريد فقه الشريعة من القرآن والسنة- إلى معرفة طرقهم في الاستنباط، وإلى الموازنة بينها، وترجيح ما يظهر له رجحانه، من آرائهم وأفهامهم.

وقد اتفقوا جميعا على أن الأصل الذي لا يعدل عنه في التشريع، ويقضي على كل ما سواه متى وجد، هو كتاب الله، ثم سنة الرسول ﷺ . وما من إمام إلا بذل غاية جهده في الوصول إلى ما يدل عليه القرآن أو السنة، أو هما معا، وعلى الرغم من هذا وقع بين الأئمة اختلاف كثير في استنباط الأحكام من هذين المصدرين.

ويمكن حصر أسباب الاختلاف في نوعين:

أحدهما – أسباب تعم القرآن والسنة.

وثانيهما – أسباب تخص السنة.

أولا: أسباب الاختلاف التي تعم القرآن والسنة

من خصائص اللغة العربية: اشتراك اللفظ في الوضع لمعنيين فأكثر، وتردده بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي، أو بين المعنى الحقيقي والمعنى الشرعي. ومن خصائصها أيضا: اشتراك الجمل المركبة بين معنيين مختلفين بسبب تركيبها بحروف خاصة، (كأداة الاستثناء)، وكلمتي (أو) و(الفاء).

ومن المعلوم أن القرآن والسنة عربيان، فيهما ما في اللغة العربية من هذه الخصائص

التي تؤدي إلى الاحتمال في المعنى، ومن هنا وقع الاختلاف في فهم ما يدلان عليه.

ولنذكر جملة أمثلة نوضح بها كيف نشأ الخلاف بينهم من هذه الخصائص:

الاختلاف الذي يرجع إلى الاشتراك في اللفظة المفردة:

١- ولهذا النوع من الاختلاف أسباب:

(أ) تردد اللفظة المفردة بين معنيين حقيقيين:

أمثلة:

المثال الأول:

فمن أمثلة الاشتراك في اللفظة المفردة: كلمة (قرء) الواردة في قوله تعالى، بيانا لعدة المطلقات ذوات الحيض:

﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ﴾

[البقرة: ٢٢٨].

فإنها مشتركة بين الحيض والطهر، وثبت ورودها في كلام العرب لهما على حد سواء، ولا خلاف بين العلماء في ذلك، كما لا خلاف بينهم في أن المراد منها هو أحد المعنيين لا مجموعهما؛ وإنما اختلفوا في المراد منها في الآية:

فذهب جماعة من الفقهاء ومنهم مالك والشافعي إلى أن المعنى المراد هو الطهر. وعليه فإن عدة المطلقة المذكورة تحسب بالأطهار، أعني الأزمنة التي تقع بين الدمين، وتنتهي العدة بانتهاء الطهر الثالث، فلا يكون للزوج عليها رجعة، ويحل لها أن تتزوج بغيره.

وذهب جمهور آخرون ومنهم أبو حنيفة إلى أن المراد منها هو الحيض، وعليه فعدة المطلقة المذكورة تحسب بالحيض، ولا تنتهي العدة عندهم إلا بانقضاء الحيضة الثالثة.

وقد أكثر كل فريق من استظهار القرائن التي تدل في نظره على أن المراد من الكلمة هو المعنى الذي ذهب إليه، ومما قاله الأولون: إن اسم العدد (ثلاثة) جاء في الآية مؤنثا، وهو في اللغة العربية يدل على أن المعدود به مذكر، وهو لا يكون مذكرا إلا إذا كان المراد به الطهر، وأن كلمة (قرء) إذا كانت بمعنى الحيض جمعت على (أقراء) ومنه قول الرسول ﷺ للمستحاضة: «دعي الصلاة أيام أقرائك»، أما الذي بمعنى الطهر فإنه يجمع على (قروء) كالوارد في الآية، فليكن هو المراد.

ومما قاله الآخرون:

١- إن العدة شرعت لتعرف براءة الرحم من الحمل، والذي يدل عليها إنما هو الحيض لا الطهر، بدليل أن الشارع اعتبر استبراء الجواري المشتراة، بالحيض، نظرا لأنه المعروف للبراءة المطلوبة، فليعتبر الحيض في العدة أيضا، لأن المقصود منها هو المقصود من الاستبراء.

٢- إن الرسول ﷺ قال: «طلاق الأمة تطليقتان، وعدتها حيضتان» والأمة لا تخالف الحرة في جنس المشروع، وإنما تخالفها في التصنيف، فإذا كانت عدة الأمة بالحيض، كانت عدة الحرة به أيضا.

٣- إن الآية نصت على عدد مخصوص وهو

(ثلاثة) وحقيقته ثلاث وحدات، ولا يطلق على وحدتين وبعض الثالثة إلا مجازا، وعلى رأي الآخرين قد تكون العدة طهرين وبعض الثالث، وذلك فيما إذا وقع الطلاق في نهاية الطهر، فلا يصدق العدد على سبيل الحقيقة، وليس كذلك على ما ذهبنا إليه، لأن الحيضة التي يقع فيها الطلاق لا تحسب عندنا من العدة.

٤- إن قوله تعالى، في بيان عدة التي لا تحيض:

﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ﴾

[الطلاق: ٤]

صريح في جعل الأشهر بدلا من الحيض في العدة، فصار الاعتداد بالأشهر مشروطا بعدم الحيض، فدل على أن الحيض هو الأصل، وهذا شأن قاعدة البدل والمبدل منه، كما نراه في التيمم والوضوء، أخذا من قوله تعالى:

﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا﴾

[المائدة: ٦]

فإنه دل عند الجميع على أن الأصل هو التطهر بالماء، وأن التطهر بالتراب بدل عنه، فكذلك هنا.

ثم قالوا بعد هذا: صحته روى الشعبي عن ثلاثة عشر من أصحاب النبي ﷺ: «أن الرجل أحق بامرأته ما لم تغتسل من الحيضة الثالثة» ولو كانت العدة بالطهر لانتهت بالدخول في الحيضة الثالثة، ولم تتوقف على الاغتسال منها، كما جاء عن هؤلاء الصحابة وهذا دليل آخر على أن المراد من الكلمة هو الحيض لا الطهر.

ثم ناقشوا ما أورد الأولون من قرائن، فأثبتوا لهم مجيء (قروء) جمعا لقرء بمعنى الحيض، ووجهوا تأنيث العدد بأنه منظور فيه إلى اللفظ، ومراعاة اللفظ كثيرة في اللغة، والآية جاءت على هذا الاعتبار، فلا يدل على تذكير المعدود.

وقد قال ابن رشد: (ولكلا الفريقين احتجاجات طويلة، ومذهب الحنفية أظهر من جهة المعنى، وحجتهم من جهة المسموع متساوية أو قريب من متساوية).

ولعلك تأخذ من هذا النقاش فكرة مدى بحث الفقهاء في الاستنباط وتأييد الآراء.

المثال الثاني:

ومن الأمثلة أيضا اختلاف الفقهاء في معنى كلمة (نكح)، في قوله تعالى:

﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾

[النساء: ٢٢].

فإنها مشتركة بين العقد والوطء، ومن هذا الاشتراك نشأ اختلافهم في معنى الآية.

فحملها أبو حنيفة على الوطء، ورأى حرمة من زنى بها الأب على الابن.

وحملها الشافعي وآخرون على العقد، ورأوا أن مزنية الأب لا يحرم زواجها على الابن.

وقد وردت الكلمة في القرآن، ولسان العرب، بمعنى الوطء مرة، وبمعنى العقد أخرى، فاختلف العلماء في تعيين المعنى المراد. والترجيح بين الرأيين مذكور في كتب التفسير والفقه، فارجع إليه إن شئت.

ب- تردد اللفظة المفردة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي:

ومن أمثلة الاختلاف الناشئ من تردد اللفظة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي: اختلافهم في معنى كلمة:

﴿أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾

[المائدة: ٣٣]

الواردة ضمن عقوبات المحاربين لله ولرسوله، في الآية التي تذكر بعد.

فقد حملها الجمهور على الإخراج من الأرض التي ارتكب فيها الإفساد، وهو المعنى الحقيقي للكلمة.

وحملها الحنفية على السجن، وهو معنى مجازي لها.

ومنشأ الاختلاف أن كلمة (نفي) تستعمل مجازا في السجن، فرأى الأولون أن اللفظ يجب حمله على المعنى الحقيقي ما لم يصرف عنه صارف، ولم يوجد هنا صارف، فلا يصح استعماله في المعنى المجازي.

أما الحنفية فقالوا: قد وجد ما يصرف عن إرادة المعنى الحقيقي وهو استحالة أن يراد نفيه من جميع الأرض، لأنه لا يكون إلا بالقتل، والنفي عقوبة غير القتل. وإن أريد النفي من خصوص أرض المسلمين، كان فيه زج المسلم في دار الكفر، وهو لا يجوز شرعا، وإن أريد خصوص الأرض التي ارتكب فيها الإفساد، إلى أرض أخرى من أرض المسلمين، لم يتحقق الغرض المقصود من العقوبة، وهو الزجر عن إخافة السبيل، وكف الأذى عن الناس، فإنه قد يرتكب فيها مثل ما ارتكب في الأرض الأولى. ومن هنا رأى الحنفية تعين الحمل على المعنى المجازي، وهو السجن، وهو ممكن بدون قتل، ولا يمنع منه مانع شرعي، ومحقق للغرض المقصود من التشريع.

جـ- تردد اللفظة المفردة بين المعنى اللغوي والمعنى الشرعي:

ومن أمثلة الاختلاف الناشئ من تردد اللفظة بين المعنى اللغوي والشرعي: اختلافهم في كلمة -: ﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾

[النساء: ٢٣]

الواردة في آية المحرمات من النساء.

فحملها أبو حنيفة على ما يشمل البنت المتخلقة من ماء الزنا، نظرا إلى أنها بنت بالمعنى اللغوي، ورأى حرمتها على من تخلقت من مائه.

ورأى الشافعي أنها لا تتناولها، فلا تحرم على من تخلقت من مائه؛ نظرا إلى أنها ليست بنتا شرعية، بدليل عدم توريثها، وعدم إباحة الخلوة بها، وعدم ثبوت ولايته عليها.

ومنشأ هذا الخلاف تردد اللفظ بين المعنى اللغوي، وهو المتولد من ماء الرجل مطلقا، والحقيقة الشرعية، وهو خصوص المتولد من ماء الرجل في ظل نكاح شرعي صحيح.

الأناجيل الأربعة مصادرها * تاريخها





د/ موريس بوكاى

لا تشير أولى كتابات العصر المسيحى إلى الأناجيل إلا بعد مؤلفات «بولس» بفترة طويلة جدًا، فالشهادات المتعلقة بوجود مجموعة من الكتابات الإنجيلية تظهر فقط في منتصف القرن الثانى وبالتحديد بعد عام ١٤٠م، ذلك على حين أن هناك «كثيرا من الكتّاب المسيحيين يوحون بوضوح منذ بداية القرن الثانى بأنهم يعرفون عددًا كبيرًا من رسائل بولس». وهذه الملاحظات التى تعرضها «المقدمة إلى الترجمة المسكونية للعهد الجديد» المنشورة عام ١٩٧٢م[1] تستحق أن تذكر على الفور، كما يفيد التنويه إلى أن هذه الترجمة هى نتيجة عمل جماعى تضافر له أكثر من مائة متخصص من الكاثوليك والبروتستانت.

إن الأناجيل التى أصبحت رسمية فيما بعد ـ أى: كنسية ـ لم تُعرف إلا فى عصر متأخر برغم أن تحريرها كان قد تم فى بداية القرن الثانى. وحسب الترجمة المسكونية، فقد بدأ ذكر الروايات التى تنتمى إلى هذه الأناجيل فى نحو منتصف القرن الثانى؛ ولكن «يكاد يكون عسيرًا التقرير بما إذا كانت هذه الاستشهادات قد تمت بعد الرجوع إلى النصوص المكتوبة التى كانت تحت يد الكتّاب، أو أنهم قد اكتفوا بذكر أجزاء من التراث الشفهى اعتمادًا على الذاكرة».

وفى تعليقات هذه الترجمة المسكونية للعهد الجديد يقرأ القارئ: «أنه لا توجد ـ على أى حال ـ أى شهادة تقول بوجود مجموعة من الكتابات الإنجيلية قبل عام ١٤٠م؛ وهذه الدعوى تناقض تمامًا ما كتب «أ. تريكو A. Tricot» فى التعليقات على ترجمته للعهد الجديد يقول: «ومنذ وقت مبكر جدًا ـ منذ بداية القرن الثانى ـ استقر العرف على استخدام كلمة (إنجيل) للإشارة إلى الكتب التى كان (القديس جوستين) فى نحو ١٥٠م يسميها أيضا (مذكرات الرسل Memoires des Apotres)»، ومما يؤسف له أن مثل هذه المزاعم تكرر كثيرا بحيث إن عامة الجمهور لا تعرف إلا معلومات خاطئة عن التاريخ الذى تم فيه جمع الأناجيل.

إن الأناجيل لم تكن كلا واحدًا إلا بعد أكثر من قرن من انتهاء بعثة المسيح، ولم يتم هذا فى وقت مبكر جدًا كما يقال، والترجمة المسكونية ترجع إلى عام ١٧٠م تقريبًا التاريخ الذى اكتسبت فيه الأناجيل الأربعة صفة الأدب الكنسى.

أيضًا فإن دعوى (جوستين) التى تصف كتّاب الأناجيل بالرسل لم تعد مقبولة اليوم، كما سنرى ذلك.

أما فيما يتعلق بتاريخ تحرير الأناجيل فيؤكد (أ. تريكو) أن أناجيل (متّى) و(مرقس) و(لوقا) قد حررت قبل عام ٧٠م، وليس هذا مقبولا، ربما باستثناء إنجيل (مرقس). إذن فهذا المعلق يحاول ـ بعد معلقين آخرين ـ أن يقدّم محررى الأناجيل على أنهم رسل أو رفاق للمسيح، وهو بهذا يقدم تواريخ التحرير إلى فترة تقارب كثيرا فترة حياة المسيح. أما فيما يتعلق بيوحنا، الذى جعله (أ. تريكو) يعيش إلى ما يقرب من عام ١٠٠م فقد اعتاد المسيحيون صورته التى تصوره دائمًا على قرب شديد من المسيح فى ظروف رسمية، ولكن من العسير حقًا التأكيد بأنه كاتب الإنجيل الذى يحمل اسمه.

إن الرسول (يوحنا) مثل (متّى) فى نظر (أ. تريكو) ومعلقين آخرين، هو الشاهد الكفء المعترف به على الأمور التى سردها، على حين لا تتمسك غالبية المعلقين بالفرض القائل بأنه هو الذى حرر الإنجيل الرابع.

وإذا كان من العسير اعتبار هذه الأناجيل الأربعة (كمذكرات) لرسل أو رفاق المسيح فما هو أصلها إذن..؟

يقول (أ. كولمان O. Colmann) فى كتابه (العهد الجديد)[2]: إن المبشرين لم يكونوا إلا «متحدثين باسم الجماعة المسيحية الأولى التى ثبتت التراث الشفهى، فقد بقى الإنجيل طيلة ثلاثين أو أربعين سنة فى شكله الشفهى فقط أو بالكاد، ولكن التراث الشفهى قد نقل أساسًا أقوالًا وروايات منعزلة، وقد نسج المبشرون ـ كل على طريقته وبحسب شخصيته الخاصة واهتماماته اللاهوتية الخاصة ـ الروابط بين هذه الروايات والأقوال التى تلقوها من التراث السائد».

«إن تجميع أقوال المسيح وربط الروايات بصيغ أسلوبية غامضة مثل: (وبعد هذا) (وما إن...) إلخ، وبالاختصار، إطار الأناجيل المتوافقة[3] Evangiles Synoptiques كل هذا أدبى الطابع وليس له أساس تاريخى».

ويستأنف هذا الكاتب نفسه: «ويجب

(١) Edition du Cerf et les Bergers et les Mages. Editeurs. Paris.

(٢) Les Presses Universitaires de France. 1967.

(٣) أى: أناجيل (مرقس) و(متى) و(لوقا).

ملاحظة أن احتياجات التبشير والتعليم والممارسة الدينية، هي التي دعت الجماعة الأولى إلى تثبيت هذا التراث عن حياة المسيح بأكثر من اهتمامها بتسجيل حياة المسيح، كان الحواريون يوضحون حقائق الإيمان الذي يحضُّون عليه بسرد أحداث حياة المسيح، إن مواعظهم هي التي خلقت ظروف تثبيت هذه الروايات. أما أقوال المسيح فقد انتقلت بشكل خاص عبر تعليم الكنيسة الأولى الديني».

وبذكر المعلقون على الترجمة المسكونية مراحل تكوُّن الأناجيل بشكل آخر وهو ما يلي: «تشكل تراث شفهي بتأثير تبشير تلامذة المسيح ومبشرين آخرين، بقاء هذه العناصر التي نجدها أخيرًا في الأناجيل بفضل التبشير والطقوس وتعاليم المؤمنين، ثم إمكانية التجسيد المبكر في شكل مكتوب لبعض تحديات الإيمان ولبعض أقوال المسيح وروايات آلامه على سبيل المثال، ثم استعانة المبشرين بهذه الأشكال المكتوبة المتنوعة كاستعانتهم بمعطيات التراث الشفهي حتى يكتبوا نصوصًا تتكيف مع مختلف الأوساط وتستجيب لاحتياجات الكنائس وتعبّر عن تأمل في الكتاب المقدس وتصحح الأخطاء وتردُّ بهذه المناسبة على حجج الخصوم. بهذا الشكل جمع ودون المبشرون ـ كل بحسب وجهة نظره ـ ما قد أعطتهم إياه الأقوال المتوارثة الشفهية».

إن هذا الموقف الجماعي المتخذ الذي صدر عن أكثر من مائة مفسر للعهد الجديد كاثوليك وبروتستانت، يختلف بشكل متميز عن الخط الذي عرفه المجمع المسكوني للفاتيكان الثاني في دستوره العقائدي عن التنزيل، هذا الدستور الذي أُعِدّ فيما بين ١٩٦٢ و١٩٦٥م. ووجد القارئ أعلاه إشارة أولى إلى وثيقة المجمع هذه التي تتعلق بالعهد القديم. لقد استطاع المجمع المسكوني أن يعلن بشأن العهد القديم أن الأسفار التي تكوّنه «تحتوي على شوائب وشيئًا من البطلان»، ولكنه لم يضع أي تحفظات مثل هذه بالنسبة للأناجيل، بل بالعكس قالت الوثيقة ما يلي:

«لا يغفل على أي إنسان أن من بين كل الكتب المقدسة، بل حتى كتب العهد الجديد، كان هناك ما يتمتع عن حقّ بالامتياز مثل: الأناجيل، باعتبار أنها تكوّن شهادة حقيقية عن حياة ودرس الكلمة المجسدة ـ أي: منقذنا ـ فدائمًا وفي كل مكان حفظت الكنيسة وما زالت الأصل الرسولي للأناجيل الأربعة. والواقع أن ذلك هو الذي دعا إليه الرسل بأمر المسيح، فقد نقلوا إلينا أنفسهم والناس الذين كانوا يحيطون بهم وبتأثير من الوحي الإلهي للروح، كتابات هي أساس الإيمان، ونعني: الإنجيل المربّع حسب (متّى) و(مرقس) و(لوقا) و(يوحنا)».

«إن كنيستنا الأم المقدسة قالت وتقول بحزم وثبات دائمين: إن هذه الأناجيل الأربعة، التي تؤكد تاريخيتها دون أي تردد، تنقل بشكل أمين فعلًا أقوال وأفعال المسيح طيلة حياته بين البشر لخلاصهم الأبدي، وإلى أن رفع إلى السماء. إن الكُتّاب الدينيين إذن يؤلفون الأناجيل الأربعة بشكل يسمح بإعطائنا دائمًا عن المسيح أمورًا حقيقية ومخلصة».

هذا إذن تأكيد بلا أدنى غموض بأمانة نقل الأناجيل لأفعال وأقوال المسيح. وهنا لا يرى القارئ أي اتفاق بين دعوى المجمع المسكوني هذه ودعاوى الكُتّاب المذكورين أعلاه، وعلى وجه خاص تلك التي تقول إنه: «لا يجب الأخذ بحرفية الأناجيل فهي كتابات ظرفية وخصامية حدّد محرروها كتابة تراث جماعتهم عن المسيح»، «الأب كانينجسر ـ R. P. Kannengiesser».

الأناجيل إذن نصوص «تتكيف مع مختلف الأوساط وتستجيب لاحتياجات الكنائس وتعبّر عن فكر ما عن الكتاب المقدس، وتعدّل من الأخطاء بل ترد بهذا على حجج الخصوم. وبهذا جمع المبشرون وحرروا ـ كلٌّ حسب وجهة نظره الخاصة ـ ما أعطاهم إياه التراث الشفهي» (الترجمة المسكونية للعهد الجديد).

وواضح تمامًا أن التصريح المسكوني، وهذه المواقف التي اتخذت منذ عهد قريب يضعاننا بين دعاوى متناقضة؛ إذ لا يمكن التوفيق بين تصريح الفاتيكان الثاني الذي يقول: إننا نجد في الأناجيل نقلًا أمينًا لأفعال وأقوال المسيح، وبين وجود متناقضات في هذه النصوص وأمور غير معقولة واستحالات مادية ودعاوى معاكسة لأمور تم التأكد من صحتها.

وعلى العكس من ذلك فإذا نظر القارئ إلى الأناجيل على أنها تعبير عن وجهات النظر الخاصة بجامعي التراث الشفهي المنتمي إلى مختلف الجماعات، وإذا نظر إليها القارئ على أنها «كتابات ظرفية أو خصامية»، فإنه لن يُدهش عندما يجد في الأناجيل كلَّ هذه العيوب التي هي علامة صنع الإنسان في مثل هذه الظروف.

قد يكون جامعو النصوص هؤلاء مخلصين تمامًا بالرغم من أنهم يسردون أمورًا لا يشكون في عدم صحتها؛ عندما يقدّمون لنا روايات تتناقض مع روايات كُتّاب آخرين أو عندما يقدّمون روايات عن حياة المسيح بحسب نظرة مختلفة تمامًا عن نظرة الخصم؛ وذلك لأسباب تتعلق بالتنافس الديني بين جماعة وأخرى.

وقد رأينا أن السياق التاريخي يتفق مع هذه الطريقة الأخيرة في تصور الأناجيل، فالمعطيات التي نملك عن النصوص نفسها تدعَمُ هذا كلية.

إنجيل متّى:

يحتل إنجيل (متّى) بين الأناجيل الأربعة المكانة الأولى في نظام ترتيب أسفار العهد الجديد، وهي مكانة لها ما يبررها فهذا الإنجيل امتدادٌ للعهد القديم بشكل ما، فقد كُتب ليُثبت أن المسيح «يكمل تاريخ إسرائيل»، يقول هذا المعلقون على الترجمة المسكونية، وهي الترجمة التي سنستعير منها فقرات كبيرة؛ ولكي يحقق (متّى) هذا الغرض فإنه يستشهد دائمًا بفقرات من العهد القديم تشير إلى أن المسيح يتصرف كالمسيح الذي ينتظره اليهود.

ويبدأ هذا الإنجيل بشجرة نسب المسيح[٤]، و(متّى) يجعل المسيح ينتسب إلى إبراهيم عن

(٤) سنناقش التناقض مع شجرة أنساب المسيح بإنجيل لوقا في فصل خاص.

طريق داود، وسنرى فيما بعد خطأ النص الذى يسكت عليه المعلقون عامة. وأيًا كان الأمر فقد كانت نية (متّى) واضحة فى أن يعطى بنسب المسيح المهنى العام لكتابه. إن (متّى) يتابع نفس هذه الفكرة وذلك بتوضيحه الدائم لموقف المسيح إزاء القانون اليهودى ومبادئه العريضة من صلاة وصوم وزكاة.

فالمسيح يريد أن يوجّه تعاليمه أولًا وأولويًا إلى شعبه. وهو يحدّد رسالته بهذه الكيفية. يحدّث الحواريين: «إلى طريق الوثنيين، لا تمضوا، وإلى مدينة للسامرين[٥] لا تدخلوا بل اذهبوا بالحرى إلى خراف بنى إسرائيل الضالة». (إنجيل متّى، الإصحاح ١٠، الآيتان ٥، ٦). «ولم أرسل إلا إلى خراف بنى إسرائيل الضالة» (متّى - الإصحاح ١٥ - الآية ٢٤). وبشكل ثانوى فإن (متّى) يمد فى خاتمة إنجيله إلى كل الأمم تبشير تلاميذ المسيح الأولين الاثنى عشر، ويجعل المسيح يعطى الأمر التالى: «فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم» (متّى - الإصحاح ٢٨ - الآية ١٩). ولكن الارتحال يجب أن يتم بأفضلية الذهاب نحو بيت إسرائيل، ويقول (تريكو) عن هذا الإنجيل ما يلى: «تحت يونانية الثوب يكمن الكتاب يهوديًا - لحمًا وعظمًا وروحًا - وهو يحمل آثار اليهودية ويتسم بسماتها المميزة».

وهذه الاعتبارات وحدها تضع أصل إنجيل (متّى) داخل الجماعة اليهودية المسيحية التى تحاول على حد قول (أ. كولمان)، «أن تقطع العلاقات التى كانت تربطها باليهودية مع الاحتفاظ فى نفس الوقت بخط مستمر مع العهد القديم. إن نقاط الأهمية والنبرة العامة لهذا الإنجيل توحى بوجود وضع متوتر».

وربما كان هذا النص متصلًا بعوامل ذات صفة سياسية، فالاحتلال الرومانى لفلسطين يحمى بالطبع رغبة البلد المحتل فى وقوع الاستقلال؛ ولذا فهو يدعو الله إلى التدخل فى صالح الشعب الذى اختاره من بين كل الشعوب، والذى هو ملكه الأكبر الذى يستطيع أن يأتى بعونه المباشر فى شئون البشر مثلما فعل ذلك مرات كثيرة عبر التاريخ.

ما هى شخصية (متّى)؟

لنقل صراحة إنه لم يعد مقبولًا اليوم القول: إنه أحد حواريى المسيح، وبرغم ذلك يقدمه.. (أ. تريكو) على أنه كذلك فى تعليقه على ترجمة العهد الجديد (المنشورة عام ١٩٦٠م)، ويقول: «اسمه (متّى)، واسمه قبل ذلك ليفى، وكان عشارًا أو جابيًا بمكتب الجمارك أو ضرائب المرور بكفر ناحوم عندما دعاه المسيح ليجعل منه أحد تلامذته». وذلك ما كان يعتقده آباء الكنيسة مثل: أوريجين وجيروم وإبيفان؛ ولكن لم يعد أحدٌ يعتقد هذا فى عصرنا وهناك نقطة لا جدال فيها وهى أن هذا الكاتب يهودى فمفردات كتبه فلسطينية، أما التحرير فيونانى ويقول (أ. كولمان): إن الكاتب - أى: (متّى) - يخاطب «أناسًا، وإن كانوا يتحدثون اليونانية، فإنهم يعرفون العادات اليهودية واللغة الآرامية».

(٥) كان كتاب السامريين الدينى التوراة أو أسفار (موسى) الخمسة، وكانوا ينتظرون مجىء المسيح، ويخلصون لمعظم تعاليم اليهودية، وإن كانوا قد بنوا معبدًا ينافس معبد القدس.

أما بالنسبة للمعلقين على الترجمة المسكونية فإن أصل هذا الإنجيل يبدو كما يلى: «يقدّر غالبًا أن إنجيل (متّى) قد كتب بسوريا وربما بأنطاكية (...) أو بفينيقيا، ففى هذه المناطق كان يعيش عدد كبير من اليهود[٦] (...) وقد يمكن أن تستشفّ معركة فكرية ضد اليهودية المعبدية الأورثوذكسية الفريزية Pharisiens التى ظهرت بالمجمع الكنسى اليهودى بجامنيا فى نحو عام ٨٠م فى ظل هذه الظروف يكثر عدد الكتاب الذين يؤرخون للإنجيل الأول بما بين عام ٨٠ و٩٠م أو ربما قبل ذلك بقليل ولا يمكن الوصول إلى يقين كامل فى هذا الموضوع، ولما كان اسم المؤلف غير معروف بالتحديد، فالأنسب هو الاكتفاء ببعض الخطوط المرسومة فى إنجيل (متّى) نفسه، ومنها: أن الكاتب معروف بمهنته وأنه متبحّر فى الكتب المقدّسة والتراث اليهودي، وأنه يعرف ويحترم رؤساء شعبه اليهود، وإن أغلظ فى خطابه لهم، كما أنه أستاذ فى فن التدريس وفى إفهام قول المسيح لمستمعيه مع تأكيده الدائم على النتائج العلمية لتعاليمه. وإنه يتفق جيدًا مع ملامح يهودى متأدب اعتنق المسيحية، وهو معلم حاذق «يخرج من كنزه جديدًا وقديمًا»، كما يشير إلى هذا إنجيله نفسه (الإصحاح ١٣ - الآية ٥٢)». تلك صورة بعيدة كل البعد عن صورة الموظف البيروقراطى بكفر ناحوم الذى يطلق عليه (مرقس) و(لوقا) اسم: ليفي، والذى أصبح واحدًا من حواريى المسيح الاثنى عشر.

ويتفق الجميع على الاعتقاد بأن (متّى) قد كتب إنجيله اعتمادًا على مصادر مشتركة بينه وبين (مرقس) و(لوقا)؛ ولكن روايته تختلف، وفى نقاط جوهرية كما سنرى فيما يلي، ومع ذلك فقد استخدم (متّى) بشكل واسع إنجيل (مرقس) الذى لم يكن أحد حواريى المسيح (أ. كولمان).

يتصرف (متّى) بحرية خطيرة مع النصوص، ويلاحظ ذلك بالنسبة للعهد القديم فيما يتعلق بنسب المسيح التى يضعها فى بداية إنجيله. وقد ألحق بكتابه روايات يستحيل بالدقة تصديقها. واستحالة التصديق تلك هى التى يستخدمها (الأب كانينجسر) فى كتابه المشار إليه عندما يتحدث عن رواية قيامة المسيح، والمقصود بالتحديد هو الجزء الخاص بالحراس. فالكاتب يبرز عدم معقولية حكاية حرّاس القبر العسكريين «هؤلاء الجنود الوثنيين الذين يذهبون بتقريرهم ليس إلى رؤسائهم الوظيفيين، وإنما يذهبون إلى كبار الكهنة الذين يرشونهم ليقولوا أكاذيب». ومع ذلك فهو يضيف: «علينا أن نحاذر من السخرية، ذلك أن نية (متّى) جديرة بالإجلال، حيث يُدخل بطريقته الخاصة إلى مؤلفه المكتوب معطية قديمة من التراث الشفهي، هذا إخراج تمثيلى جدير بفيلم كفيلم (المسيح نجمًا سينمائيًا) Jesus Christ Superstar»[٧].

(٦) تساءل البعض عما إذا كانت طائفة (متّى) اليهودية - المسيحية تعيش بالإسكندرية. إذ (أ. كولمان) يذكر هذا الفرض من بين فروض أخرى.

(٧) فيلم أمريكى يشوّه تاريخ المسيح.

ولنذكر بأن هذا الحكم على (متّى) صادر عن عالم لاهوتى مبرز، وهو أستاذ بالمعهد الكاثوليكى بباريس.

ويعطى (متّى) مثالاً آخر على خياله الواسع فى سرده للأحداث التى تواكب موت المسيح، يقول:

«وإذا حجاب الهيكل قد انشقّ إلى اثنين من فوق إلى أسفل. والأرض تزلزلت والصخور تشققت، والقبور تفتحت وقام كثير من أجساد القديسين الراقدين، وخرجوا من القبور بعد قيامته[٨] ودخلوا المدينة المقدّسة وظهروا لكثيرين».

ليس لهذه الفقرة من إنجيل (متّى) (الإصحاح ٢٧ ـ الآيات من ٥١ إلى ٥٣) مثيل فى الأناجيل الأخرى، ولا نرى كيف استطاعت أجساد القديسين المعنيين أن تقوم عند موت المسيح ـ أى: قبل يوم السبت كما تقول الأناجيل ـ وألا تخرج من قبورها إلا بعد قيامة عيسى ـ أى: غداة السبت حسب نفس المصادر ـ.

وربما كان إنجيل (متّى) هو الذى يحتوى على هذا القول، الذى يتميز بعدم معقولية لا جدال فيها من بين كل الأقوال التى وضعها كتّابها على لسان المسيح نفسه، ويسرد (متّى) حادثة آية يونس كما يلى: (الإصحاح ١٢ ـ الآيات من ٣٨ إلى ٤٠).

المسيح بين قوم من الكتبة والفريسيين يخاطبونه بهذه الألفاظ: «يا معلم، تريد أن نرى منك آية» فأجابهم المسيح: «جيل شرير وفاسق يطلب آية! ولا يعطى له آية أخرى إلا آية يونس النبى؛ لأنه كما كان يونس فى بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ، هكذا يكون ابن إنسان فى قلب الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ».

المسيح يعلن أنه سيظل ببطن الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ؛ ولكن (متّى) ومعه (لوقا) و(مرقس)، يحددون موت ودفن المسيح بما قبل السبت بيوم وهذا بالتأكيد يجعل المكوث بالأرض ثلاثة أيام. يقول النص اليونانى Treis emeras: «لكن هذه الفترة الزمنية لا يمكن أن تحتوى إلا على ليلتين وليس ثلاث ليالٍ، (النص اليونانى Treis nuktas)[٩]».

المعلقون على الأناجيل يسكتون فى غالب الأحيان أمام هذا الحدث، ومع ذلك فالأب روجى يبرز هذا الأمر غير المعقول، ويلاحظ أن المسيح «لم يبق بالقبر إلا ثلاثة أيام» (منها يوم كامل فقط) وليلتين؛ غير أنه يضيف قائلاً: «التعبير جامد ولا يدل على شىء آخر إلا ثلاثة أيام»، وأنه لمما يُحزن حقًا أن تلاحظ أن المعلقين ينزلون إلى استخدام مثل هذه الحجج التى لا تقول شيئا إيجابيًا، على حين يُشفى العقل الإيحاء بأن مثل هذه الكبيرة ربما تكون قد صدرت عن أخطاء أحد نسّاخ النص.

وبالإضافة إلى هذه الأمور غير المعقولة فإن ما يتميز به إنجيل (متّى) أولاً وقبل كل شىء، هو أنه إنجيل طائفة يهودية ـ مسيحية بسبيل مخالفة اليهودية، مع الاحتفاظ بخط العهد القديم. ومن وجهة نظر تاريخ اليهودية المسيحية فلإنجيل (متّى) أهمية كبرى.

(٨) قيامة المسيح.

(٩) يشير (متّى) مرة ثانية فى إنجيله إلى هذا الحدث؛ ولكن دون تحديد زمنى (١٦ ، ١٠ ، ٤) ونفس الأمر بالنسبة للوقا (١١ ، ٢٩ ، ٣٢) أما بالنسبة لمرقس كما سنرى هذا فيما بعد فإنه يدعى أن المسيح قد أعلن أنه لن يعطى هذا الجيل آية آية (مرقس ٨ ، ١١ ـ ١٢).

لماذا جمع الله الثلاثة والسبعة؟



د/ أحمد محمد عرفة

إننا لا نشك لحظة واحدة فى أن القرآن كلام الله، وأنه أحسن الحديث، وأنه أفصح الكلام، وأنه أرقى نص لغوى، ولذلك تساءلنا عن سبب جمع الثلاثة والسبعة فى قوله تعالى ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾.

ويقول المفسرون عن هذا الجمع إنه فذلكة حساب، وهو كلام لا يتضمن جديدا، لأن فذلكة الحساب جمعه بعد تفصيله، تُسمّى الجمع فى هذه الحالة فذلكةً، لأن الحاسب يجمع الحساب بعد كلمة (ذلك)، كان يقول: أعطيتك خمسة وعشرة وعشرة، فذلك خمسة وعشرون.

وحُقّ للشيخ ابن عاشور أن يعلق على قوله تعالى ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ بأنها: «فذلكةٌ، مع كون الواقع فى المحكى لفظ (تلك)، لا لفظ (ذلك)»، التحرير والتنوير: ٢ / ٢٢٨، يشير إلى أن التعبير الدقيق فى هذه الحالة أن نقول هذه (فتلكة حساب) لا فذلكة حساب.

والفذلكة ـ وفقا لابن عاشور فى الموضع السابق ـ كلمة مولّدة. والكلمة المولّدة لم تُسمع من العرب فى عصر الاستشهاد اللغوى، وهو القرون الثلاثة الأولى للهجرة. ولذلك لم أجد كلمة الفذلكة عند أحد من المفسرين قبل الزمخشرى المتوفى ٥٣٨هـ، ولعل أول استخدام لهذه الكلمة كان فى القرن الخامس أو أوائل السادس للهجرة النبوية.

وقد توسع بعض المفسرين فى إطلاق هذه الكلمة على العبارات أو الآيات القرآنية التى تجمع عددين سبق ذكرهما، أو تلخص كلاما سبقها، ومن الأول قول ابن عاشور عند تفسير قوله تعالى ﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ وقد سبقها ذكر الثلاثين والعشر: «فذلكة الحساب»، التحرير والتنوير: ٩ / ٨٦، ومن الثانى قول الزمخشرى فى تفسير قوله فى آخر سورة الدخان ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥٨) فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ (٥٩)﴾ ٥٨ و٥٩: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾ «فذلكةٌ للسورة». وكأنه يقول هذه الآية تلخيص أو إجمال لما جاء فى السورة.

لماذا جمع الله الثلاثة والسبعة

وقد وردت كلمة (فذلكة) في تفسير ابن عاشور أكثر من خمسين مرة.

هذا عن كلمة الفذلكة في العربية الفصحى. ومن الجلي أن معناها في العربية الفصحى مغاير لمعناها في العربية المحكية اليوم، فالفذلكة في كلامنا توضيحُ الواضح وكأنه كان أمرا خفيا حتى وضحه ذلك المتفذلك! والمتفذلك في كلامنا مَن ينسب لنفسه قدرةً على الفهم والتفهيم لا وجود لهما إلا في خياله؟! ولعل ما تحمله كلمة (فذلكة) في كلامنا من حطٍّ من قدْر المتفذلك، نشأ من أن الفذلكة ليست أكثر من جمع حساب قد تم تفصيله، فلا يكون المتفذلك بفذلكته قد أنجز عملا عظيما.

ونريد في هذا المقال أن ننظر في آية قيل عن جمع الحساب فيها إنه فذلكة حساب، وهي الآية التي جاء فيها قوله تعالى ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ لنحاول الإجابة عن هذا السؤال: لماذا جمع الله تعالى الثلاثة والسبعة؟ وهو تعالى يخاطب بكتابه أولي الألباب، وأولوا الألباب لا يحتاجون إلى من يجمع لهم الثلاثة والسبعة، ولا يتعسفون فيدّعون أن (الواو) قبل كلمة (سبعة)، بمعنى (أو)، فيكون الجمع مانعا لهم من هذا التعسف.

وتمهيدا للنظر في الآية، نذكر نصها بتمامه. قال الله تعالى ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ البقرة: ١٩٦.

وقوله ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ معناه: فمن لم يُحصَر، أي يُمنع من زيارة بيتي، وتمتّع بالعمرة إلى الحج، فليقدّم للبيت ما تيسر من الهدي. والهدى ما يُهدى إلى البيت الحرام من الغنم والبقر والإبل. يُذبح في يوم النحر وهو يوم عيد الأضحى. في أعظم احتفال ديني للمسلمين.

وقوله ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ معناه: فمن لم يجد هديا يقدمه لبيتي، بعد أن تمتّع بالعمرة إلى الحج، فعليه صيام ثلاثة أيام في الحج، أي وهو في سفر الحج قبل أن يشرع في العودة إلى أهله، وسبعة أيام أخرى يصومها بعد أن يعود إلى بلده.

وقوله ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ معناه: تلك

الأيام التي يجب صيامها على من تمتع بالعمرة إلى الحج ولم يجد هديا، مجموعها عشرة كاملة غير ناقصة، فمن لم يجد هديا عليه أن يصوم هذه العشرة كاملةً غير منقوصة.

ويرى المفسرون أن قوله تعالى ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ ليس له فائدةٌ إلا جمعُ الثلاثة والسبعة، فقالوا إنها فذلكة حساب. ومن ذلك قول البيضاوي: «﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ﴾ فذلكة الحساب، وفائدتها أن لا يتوهم متوهم أن الواو [في قوله ﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾] بمعنى أو، كقولك جالس الحسن وابن سيرين (وقد كان لكل منهما مجلس خاص). وأن يُعلَم العددُ جملةً كما علم تفصيلاً، فإن أكثر العرب لم يحسنوا الحساب» أنوار التنزيل: ١ / ١٣٠. وسبق الإلماح إلى أن هذا الجمع وفقا لهذا التفسير لا يتفق مع كون المخاطبين بالكتاب العزيز من أولي الألباب، ولذلك لم نقتنع بدعوى الفذلكة، وسعينا للكشف عن سبب وجيه لجمع الثلاثة والسبعة في هذه الآية الكريمة.

ولكي نحدد الدور الدلالي لجملة جمع الثلاثة والسبعة، سوف نكتب الشطر الأخير من الآية، مع تغييب جملة الجمع، لنرى كيف يكون المعنى عند غيابها، فإذا بقي المعنى على حاله، ولم ينقص إلا جمع الثلاثة والسبعة، كانت مجرد فذلكة حساب، وإذا تغير في المعنى شيء آخر، دلّ ذلك على أنها ليست مجرد فذلكة للحساب، وها هو النص عند تغييب الجملة المعنية: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾

ننظر الآن إلى جملة ﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، في النص عند تغييب جملة الجمع، لنحدد إلامَ تشير كلمة ﴿ذَٰلِكَ﴾، نجد أنها تشير إلى صيام سبعة الأيام، لأن قوله ﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾، هي الآن أقرب مذكور يَحسُن أن تعود إليه الإشارة في كلمة ﴿ذَٰلِكَ﴾، لقربها ومناسبة عود الإشارة إليها، ولأن من لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام يمكن أن يقال له (صم سبعة أيام إذا رجعت من سفرك إلى أهلك)، أما من كان أهله حاضري المسجد الحرام فلا يمكن أن يقال له صم سبعة أيام إذا رجعت إلى أهلك، لأنه وأهله مقيمون في مكة، فلا يسافر راجعا إليهم. وبناء عليه يكون معنى قوله ﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ عند غياب جملة الجمع، هو: ذلك

الصيام الأخير الذى هو سبعة الأيام التى تصام بعد العودة إلى الأهل، إنما يجب على من لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام. ومؤداه أنه لا يجب على المكى الذى لم يجد هديا أن يصوم سبعة الأيام التى تصام بعد العودة إلى الأهل، وعليه أن يصوم فقط ثلاثة الأيام التى تصام فى الحج.

وعند عودة الجملة التى غيبناها لا يبقى معنى الجملة البادئة بكلمة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ على حاله، وإنما يتغير فيصبح: ذلك الصيام المطلوب فى عشرة الأيام الكاملة، إنما يجب على من لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام. ومؤداه أنه لا يجب على المكى الذى لم يجد هديا أن يصوم شيئا من عشرة الأيام.

وبذلك تعلن: أن جملة ﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ لم تكن مجرد فذلكة حساب، وإنما جيء بها لتأسيس ما تعود إليه الإشارة فى كلمة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾، لأنه عند وجودها يصبح معنى قوله ﴿ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ هو: ذلك الصيام فى عشرة الأيام الكاملة لغير المكى، حين لا يجد هديا، ويصبح مؤداه: سقوط وجوب صيام عشرة الأيام عن المكى الذى لم يجد هديا.

فجمع الثلاثة والسبعة فى هذه الآية لم يكن الغرضُ منه إعانة بليد لا يقدر على جمع الثلاثة والسبعة، ولم يكن الغرض منه منع أحد من التعسف بتفسير واو العطف فى قوله ﴿ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ﴾ بأنها معنى (أو)، لأن المتكلم الحكيم الذى يخاطب أولى الألباب لا يتوقع أن أحدا منهم بحاجة إلى جمع الثلاثة والسبعة، أو أن أحدا قد يتعسف الفهم أو التفسير ويدعى أن الواو قبل كلمة (سبعة) بمعنى (أو)، فيجمع الحساب ليمنعه من هذا التفسير التعسفى. إن المتكلم الحكيم لا يتنزل إلى مستوى البلداء ولا يشغل نفسه بما قد يتعسفه متعسف، لأنه لا يحقق حينئذ مستوى جيدا من التواصل مع جمهوره وهم أولو الألباب.

وإذا كان قوله ﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ ليس مجرد جمع للثلاثة والسبعة على سبيل فذلكة الحساب لبلادة نسبة لا بأس بها من جمهور المخاطبين، ولا لمنع تفسير الواو بـ(أو)، وكان الغرض من جمعها تأسيسٌ ما تعود إليه الإشارة فى كلمة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾، فإنه ينبغى أن لا نغفل عن هذا ونحن نحدد معنى قوله ﴿ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾، وهنا ينبغى أن نتساءل وكيف فسّر المفسرون هذه الجملة وقد غفلوا عن علة جمع الثلاثة والسبعة؟

فى كتب التفسير تفسيران لجملة ﴿ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾؛ التفسير الأول لكلمة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أن معناها: ذلك التمتع بالعمرة إلى الحج. وبناء عليه يكون معنى العبارة: ذلك التمتع بالعمرة إلى الحج لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام. ومؤداه: أن المكى ليس له أن يتمتع بالعمرة إلى الحج. وهو رأى فقهى يجد أساسه فى هذا الفهم.

أما التفسير الثانى فهو أن ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ فى قوله ﴿ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ معناها: ذلك الهدى وما وجب من صيام بدلا منه. وبناء عليه يكون معنى العبارة: ذلك الهدى وما أوجبته من صيام بدلا عن الهدى إنما هو لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام. ومؤداه أن المكى الذى لا يجب عليه هدى ولا صوم، إذا تمتع بالعمرة إلى الحج. وهو رأى فقهى، يجد أساسه فى هذا الفهم.

لا يجوز لنا أن نضع ما فهمناه من معنى ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ فى قوله ﴿ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾، إلى جوار هذين المعنيين، فنقول: فى تفسيرها ثلاثة أقوال.

إن تعليق أكثر من معنى بعبارة قرآنية يعنى مجموع أمرين، كلاهما سلبى: الأول أننا لا نبذل الجهد الكافى لنفهم ما يريد الكتاب أن يقوله، وهو نص حكيم لا بد أنه يحمل مضمونا محددا، والثانى أننا نتخذ الكتاب العزيز مشجبا نعلق عليه ما نشاء من المعانى.

كيف سيكون النص لو كان المعنى هو (ذلك التمتع)؟ سيكون (ذلك التمتع لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام)، لأن التمتع المذكور فى وسط الآية بعيد عن اسم الإشارة، وقد سبقها أكثر من شيء يمكن أن تعود إليه، سبقها الهدى وصيام عشرة الأيام، وقد رأينا كيف يتغير المشار إليه عند تغييب جملة ﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾. ولو كانت هذه الجملة مجرد فذلكة لغابت من النص، ولحضرت كلمة (التمتع) بعد كلمة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾، ولكان النص (ذلك التمتع لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام)، كى يفهم القارئ ولا يتحير، ويتحقق البيان، ألم يقل العليّ الحكيم إنه بلسان عربى مبين؟

ولو كان المعنى هو (ذلك الهدي) وما وجب بديلا عنه، لكان النص (ذلك الهدى لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام)، لأن قوله ﴿ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ الوارد فى وسط الآية بعيد عن اسم الإشارة، وقد رأينا كيف يتغير المشار إليه عند تغييب جملة ﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾. ولو كانت هذه الجملة مجرد فذلكة لغابت من النص، ولحضرت

كلمة (الهدي) بعد كلمة ﴿ذَٰلِكَ﴾، ولكان النص (ذلك الهدى لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام)، كي يفهم القارئ ولا يتحير، ويتحقق البيان؟

لقد سعى المفسرون لإنطاق الآية بعدم جواز التمتع للمكيّ، لأن من الفقهاء من قال بعدم جواز التمتع للمكي، وسعوا لإنطاقها بعدم وجوب الهدى على المكي، لأن من الفقهاء من قال بعدم وجوب الهدى عليه، وكأن القرآن نص فقهي يجب ألا يُفهم إلا في ضوء الفقه وكلام الفقهاء! بينما هو النص السيد في دين الإسلام! ولقد رأينا من نبهاء المفسرين، مَن حذّر من تفسير القرآن باصطلاحات الفقهاء التي تأخر ظهورها عن عصر النزول، ويجب أن تكون مَسُودَة للكتاب العزيز لا سيدة عليه.

إن الآية لم تنزل في عام الحديبية كما يتردد في كتب التفسير، وإنما نزلت في حجة الوداع، لأن عدم معرفة الناس بجواز العمرة في الحج إلى أن أمرهم النبي بها في حجة الوداع ليس محل خلاف، وهو أمر ثابت في روايات عديدة، منها ما رواه مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله: (لَسْنَا نَنْوِي إِلَّا الْحَجَّ، لَسْنَا نَعْرِفُ الْعُمْرَةَ [في الحج]، حَتَّى إِذَا أَتَيْنَا الْبَيْتَ مَعَهُ...) الرواية رقم ١٤٧ / ١٢١٨، والآية موضوع الدرس تتضمن أداء العمرة مع الحج، وذلك في قوله تعالى ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾، ولو نزلت هذه الآية قبل حجة الوداع لعرف الناس منها إمكان العمرة في الحج، ولكنهم كانوا لا يعرفون العمرة في الحج حتى أمرهم بها الرسول في حجة الوداع.

وبناء على ما سبق من تحديد وقت نزول الآية، وبناء على نص الآية، وعلى معنى ﴿ذَٰلِكَ﴾ في قوله ﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ ـ يتبين لنا أنها لا تتكلم عن أنواع الحج أو أنساكه، ولا تتكلم عن أحكام تلك الأنساك؛ فليس في الآية ذكر لشيء من هذا ولا ذاك؛ وإنما تأمر بإتمام العمرة والحج، أي عدم الخروج منهما إلا بعد الإتيان بآخر أعمالهما. هكذا، لأنه لم يتكلم عن أحدهما وحده، ثم تأمر المُحصَر ـ أي الممنوع من الوصول إلى البيت لإتمام حجه ـ أن يقدم ما استيسر من الهدى، ثم تعود إلى من لم يُحصَر، فتقول عنه: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ إلى آخر ما بيّنا معناه من النص. وكأنها تقول: فعلى مَن لم يُحصر أن يتمتع بالعمرة إلى الحج، وأن يقدم ما استيسر من الهدى. وسوف نفرد مقالا لاحقا بإذن الله لمعنى ﴿فَمَن﴾ في هذه الآية.

إن الآية لا تؤسس لمنع المكي من التمتع، ولا لإسقاط الهدى عنه، وإنما تُسقط عنه الصيام فقط. وكيف تسقط عنه الهدى، وقد قال الله لمن أُحصر ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾؟! وهو دليل على أن الهدى شعيرة أساسية من شعائر الحج، إلى الحد الذي يبدو معه الأمر، وكأن الحاج قد جاء ليقدم هديا لبيت الله، حتى إنه عندما أُحصر قيل له: لا عليك، قدّم هديك، وعُد راشدا، فقد أديت ما أمكنك فعله!

وقوله في ختام الآية ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ يشير إلى أن في أحكام الآية ما يُتوقع أن يعرض عنه المؤمنون، بسبب شدة ارتباطهم بالعادات القديمة للحج، إلى الحد الذي استدعى أن يكون ختام الآية دعوة إلى اتقاء غضب الله، وتحذيرا من عقابه الشديد.

ومجمل القول أن الفذلكة في العربية المحكية اليوم هي تفسير الأمر الواضح وكأنه كان غامضا أو صعبا، ويكون الدافع غالبا هو ادعاء جودة الفهم والقدرة على التفهيم. وهي في العربية الفصحى ـ تعبيرٌ مشتق من قول القائل عند جمع الحساب فذلك كذا. وأن من قالوا عن قوله تعالى ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ إنه مجرد فذلكة حساب، قد غفلوا عن أن المعنى يتغير ولا ينقص فقط عند غيابها، ولو انتبهوا إلى تغير المعنى، لتبين لهم أنها ليست مجرد فذلكة حساب، وإنما هي تأسيس وتبيين لما تعود إليه الإشارة في قوله ﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ...﴾ إلخ. ولو تبين لهم هذا ما فسروا الآية وكأنها تتضمن عدم جواز التمتع للمكي، أو تتضمن إسقاط الهدى عنه.

إن المكي إذا لم يجد هديا، في عبادة يؤديها دون سفر، وتجب عليه مرة في العمر، لا يكون إلا فقيرا، ويكون أولى الناس أن يتمتع بالأكل من الهدى في تلك الأيام، ليعوّض احتياجه في كثير من أيام السنة. ومَن أولى بالأكل من هدى الحجاج أكثر من فقراء الحرم؟ وألا يشغلهم صيام عن خدمة أو رعاية أو حفاوة أو مشاركة فاعلة مع سائر الحجاج؟

طهّر الله قلوبنا من التعصب والتقليد، وشرح صدورنا لتدبُّر كتابه، بعقل حر، وضمير حي، وقلب سليم.

والله الهادى إلى سواء السبيل

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾

(الحج: ٨)



فضيلة الشيخ / محمد زكي بداري
الأمين العام للجنة العليا للدعوة

ظهرت في الآونة الأخيرة - بعد أن بدأت مصر تسعى للاستقرار وتعمل على تحقيقه - دعوات لايمكن وصفها إلا بأنها تسعى ضد مصلحة الأمة المصرية بل الإسلامية أيضًا، ففي الوقت الذي تتمسك فيه الأمة بدينها وتلتف حول ما تقوى به عود البلاد وتخرج من الأحداث المرة شرابًا حلوًا تطيب به حياة الشعب؛ يخرج علينا من لايعلم، ومع ذلك يدعي أنه قد ملك العلم أوله وآخره، فيسفه الآراء، ويعيب على العلماء، وينكر الثوابت، وكأن قد جاء بمالم يأت به الأولون، وكذب - والله - بما لم يحط بعلمه.

تعرض كاتب ما لثوابت الدين الحنيف التي ثبتت بنصوص القرآن والسنة، وفهم العلماء الراسخين في العلم على مدى زمني يتجاوز الألف عام، فأنكر فهمهم وفقههم ورأيهم، فسولت له نفسه بأن يتطاول على القامات والقمم ويسرع بإلقاء اللوم والتهم، فظهر في أشنع صورة حين أنكر معلومًا من الدين بالضرورة.

ولا أرى هذه الدعوات إلا سهامًا موجهة إلى مصر وبقوة، ولا أراها إلا معاول هدم تعمل على تقويض بنيان الدولة التي تحاول أن تلتقط الأنفاس بعد ما مرت به من أحداث، بل لا أكون مبالغا إن قلت: إن عرض هذه المسائل بهذه الكيفية من شأنه أن يعرض أمن مصر القومي للخطر، فكلامه يشتت الصف ويدعو لبث الفرقة والاختلاف بين أبناء الشعب، الذي لاتزال الأيدي ضارعة إلى ربها أن يجتمع ويلتف ويتكاتف لبناء هذا البلد الطيب، فضلا عن أن هذا الكلام اعتداء على المتخصصين، وقد علمنا ربنا أدب التعامل في الحياة، فقرر أن لكل صاحب فنّ أن يتكلم في فنه لأنه يملك آلياته، لذلك قال سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل: ٤٣).

وقد كذب المسكين الذي لم يحط علما بما خاض فيه بمعلوم من الدين بالضرورة فوقع في المحظور.

عذاب القبر ونعيمه ثابتان بالعقل:

وقد تجرأ جماعة من الملاحدة قديمًا فأنكروا عذاب القبر ونعيمه، فقام لهم أهل العلم الأثبات ففندوا شبههم وأبطلوها وأفسدوها، لكن للأسف قام بعض المعاصرين ممن لم يتخصصوا في العلم الشرعي فقلدوهم دون وعي ودون روية وتفكر، فأثاروا على الناس الشبه التي قتلت بحثًا ودراسة، ولم تعد في حاجة إلى دفاع فهي أوضح من الشمس في رابعة النهار.

فقال الملاحدة ومن جرى جريهم: إنا نكشف القبر فلا نجد فيه ملائكة يضربون الموتى بمطارق من حديد، ولا نجد حيات ولا ثعابين ولا نيران تأجج، وكيف يفسح مد بصره أو يضيق عليه ونحن نجده بحاله، ونجد مساحته على حد ما حفرت لم يزد ولم ينقص؟ وكيف يسع ذلك اللحد الضيق له وللملائكة وللصورة التي تؤنسه أو توحشه؟ كما أن المصلوب يكون على خشبة مدة طويلة لايسأل، ولايجيب، ولايتحرك، ولايتوقد جسمه نارا، ومن افترسته السباع، ونهشته الطيور، وتفرقت أجزاؤه في أجواف السباع وحواصل الطيور، وبطون الحيتان ومدارج الرياح، وكيف يتصور مسألة الملكين لمن هذا وصفه؟ وكيف يصير القبر على هذا روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار؟! وكيف يضيق عليه حتى تلتئم أضلاعه؟!... إلخ مثل هذه الاعتراضات.

والرد على هؤلاء من وجوه:

الأول: أن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم لم يخبروا بما تحكم العقول باستحالته، بل ما أخبروا به منه ما تشهد به العقول والفطر ومنه مالا تدركه العقول بمجردها، كالغيوب التي أخبروا بها عن تفاصيل البرزخ واليوم الآخر، وتفاصيل الثواب والعقاب، ومن أصول الإيمان عندنا الإيمان بالغيب، وعذاب القبر منه، وعليه يجب أن يفهم عن الرسول ﷺ مراده من غير غلو ولاتقصير، فلايحمّل كلامه ما لا يحتمله، ولايقصّر به عن مراده.

الثاني: أن الله سبحانه جعل أمر الآخرة وما كان متصلا بها غيبا، وحجبها عن إدراك المكلفين في هذه الدار، وذلك من كمال حكمته، وليتميز المؤمنون بالغيب من غيرهم، ولعل الله قد حجب عنا معرفة ما يحصل للميت شفقة بنا لئلا نترك دفن موتانا، قال ﷺ: (إن هذه الأمة تبتلى في قبورها فلولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر) رواه مسلم.

الثالث: أن النار التي في القبر والخضرة ليست من نار الدنيا ولا من زرع الدنيا، فيشاهده من شاهد نار الدنيا وخضرتها، وإنما هي من نار الآخرة وخضرتها وهي أشد

من نار الدنيا، فلا يحس بها أهل الدنيا. وقدرة الله تعالى أوسع وأعجب من ذلك، وقد أرانا من آيات قدرته في هذه الدار ما هو أعجب من ذلك بكثير، ولكن النفوس مولعة بالتكذيب بما لم تحط به علما إلا من وفقه الله تعالى وعصمه.

الرابع: أن إنكار عذاب القبر ونعيمه بدعوى عدم مشاهدته أو الإحساس به، هو فتح لباب جحود الغيب على مصراعيه، فقدرة الله ليس لها حدود، فهو قادر سبحانه على أن يعذب أو ينعم من مات محروقا، أو مات مأكولا، فالله لايعجزه شيء وهو على كل شيء قدير. والله سبحانه يحدث في هذه الدار في الحياة الدنيا ما هو أعجب من ذلك، فهذا جبريل كان ينزل على النبي ﷺ ويتمثل له رجلا، فيكلمه بكلام يسمعه، ومن إلى جانب النبي ﷺ، لايراه ولايسمعه، وكان يقرئه النبي ﷺ ويدارسه القرآن والحاضرون لايسمعونه، والجن من حولنا ونحن لانسمعهم ولا نراهم! وقد كانت الملائكة تضرب الكفار بالسياط، وتضرب رقابهم، والمسلمون معهم لايرونهم ولايسمعون كلامهم، والملائكة تطوف حولنا وتكتب حسناتنا وسيئاتنا ولانراها ومع ذلك نؤمن بها، فهل يعني عدم رؤيتنا لكلّ هذا أن ننكر تلك الغيبيات؟!! إن هذا لشيء عجاب.

الخامس: أننا نرى اليوم من طرق التعذيب أنواعا مختلفة لاتترك آثارا في الجسد كالتعذيب الكهربائي مثلا أو التعذيب النفسي، وهي أنواع من التعذيب ربما تكون أقسى من تلك التي تترك ندوبا في الجسد وآثارا.

وسرّ المسألة أن هذه التوسعة والضيق، والإضاءة والخضرة والنار، ليس من جنس المعهود في هذا العالم فلو كان الميت بين الناس موضوعا لم يمتنع أن يأتيه الملكان ويسألانه من غير أن يشعر الحاضرون بذلك، ويجيبهما من غير أن يسمعوا كلامه، ويضربانه من غير أن يشاهد الحاضرون ضربه، وهذا الواحد منا ينام إلى جنب صاحبه فيعذب في النوم ويضرب ويألم، وليس عند المستيقظ خبر من ذلك البته.

وقد استقر وجدان أهل السنة والجماعة بل حتى كثير من المعتزلة على التصديق والإيمان بعذاب القبر ونعيمه. وبهذا يظهر أن من أنكر عذاب القبر ونعيمه ليس معه من العلم سوى الأوهام، وأن دلائل الكتاب والسنة قائمة على إثباته وتحقيقه.

عذاب القبر ونعيمه ثابتان بنصوص الكتاب والسنة

وقد أثبت القرآن الكريم في آياته الواضحات، وأثبتت كذلك السنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام فيما تواتر عنه عذاب القبر ونعيمه، وأنه يقع على الكفار والمنافقين وعصاة المؤمنين، وينقطع عمن خفت جرائمهم، وقد يرفع بدعاء أو صدقة. وعلى هذا فالإيمان بعذاب القبر ونعيمه واجب، ومنكرهما منكر لمعلوم من

الدين بالضرورة يقع عليه وعلى أمثاله حكم أهل العلم.

ومن آيات القرآن الكريم التي أشارت إلى عذاب القبر قوله تعالى عن آل فرعون:

﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾

(غافر: ٤٥-٤٦).

قال الحافظ ابن كثير - رحمه الله - عند تفسير هذه الآية: «إن أرواحهم - أي فرعون وأتباعه - تعرض على النار صباحا ومساء إلى قيام الساعة، فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم في النار، ولهذا قال: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ أي أشد ألما، وأعظمه نكالا، وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور. أ.هـ.

وقال القرطبي: والجمهور على أن هذا العرض في البرزخ، وساق عددا من الأدلة.

ومن النصوص القرآنية - أيضا - قوله تعالى:

﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(الطور: ٤٥-٤٧)

والأظهر في المراد بقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ الأظهر أن المراد به العذاب في البرزخ، قد احتج بهذه الآية جماعة منهم عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - على عذاب القبر.

وقوله تعالى:

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾

(التوبة: ١٠١)

فقوله تعالى:

﴿ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾

يقول: ستعذب هؤلاء المنافقين مرتين، إحداهما في الدنيا، والأخرى في القبر وساق عددا من الأدلة على ذلك.

ومنها كذلك قوله تعالى:

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾

(الأنعام: ٩٣)

وقوله تعالى:

﴿ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴾.

(نوح: ٢٥)

وأما السنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم فقد زخرت بكثير من النصوص التي بلغت حد التواتر، ومنها ما رواه البراء بن عازب - رضي الله عنه - قال: خرجنا

مع النبى ﷺ فى جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولما يلحد، فجلس رسول الله ﷺ مستقبل القبلة، وجلسنا حوله، وكأن على رؤوسنا الطير، وفى يده عود ينكت فى الأرض، فجعل ينظر إلى السماء، وينظر إلى الأرض، وجعل يرفع بصره ويخفضه - ثلاثا - فقال: «استعيذوا بالله من عذاب القبر - مرتين أو ثلاثا» ثم قال: «اللهم إنى أعوذ بك من عذاب القبر - ثلاثا».

ووضح النبى ﷺ فى نفس الحديث أن العبد المؤمن يأتيه ملكان فينتهرانه، ويسألانه: من ربك وما دينك، وما هذا الرجل الذى بعث فيكم، وما عملك؟ وهى آخر فتنة تعرض على المؤمن، فذلك حين يقول الله - عز وجل -

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾

(إبراهيم: ٢٧)

فيقول: ربى الله، ودينى الإسلام، ونبيى محمد ﷺ.

فينادى مناد فى السماء: أن صدق عبدى، فافرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له بابا إلى الجنة، قال: فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له فى قبره مد بصره.

ثم يفتح له باب من الجنة، وباب من النار، فيقال: هذا منزلك لو عصيت الله، أبدلك الله به هذا، فإذا رأى ما فى الجنة قال: رب عجل قيام الساعة كى ما أرجع إلى أهلى ومالى، فيقال له: اسكن».

وأما الكافر فيأتيه الملكان فينتهرانه، ويسألانه: من ربك؟ وما دينك؟ وما تقول فى هذا الرجل الذى بعث فيكم؟ فيكون جوابه ها ها لا أدرى، سمعت الناس يقولون ذاك.

قال: فيقال: لا دريت ولا تلوت، فينادى مناد من السماء: أن كذب، فافرشوا له من النار، وافتحوا له باباً إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها، ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه.

فأى نصّ أصرح وأوضح من هذا إشارة إلى نعيم القبر وعذابه، وقد روى هذا الحديث أحمد فى مسنده والنسائى وابن ماجة والحاكم وأبو داود، وغيرهم بألفاظ مختصرة ومطولة، كما نبه الحافظ ابن كثير - رحمه الله - فى تفسيره إلى كثير من ألفاظه وطرقه، وعنى به أيضا الحافظ ابن حجر - رحمه الله - فى فتح البارى وأشار إلى جملة من ألفاظه وطرقه وضمن ذلك فوائد كثيرة ونفيسة، وأصل الحديث فى الصحيحين البخارى ومسلم.

ومن السنة كذلك ما روى عن أبى سَعِيد الْخُدْرِىَّ، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يُسَلَّطُ عَلَى الْكَافِرِ فِى قَبْرِهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ تِنِّينًا تَلْدَغُهُ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ، فَلَوْ أَنَّ تِنِّينًا مِنْهَا نَفَخَ فِى الْأَرْضِ مَا أَنْبَتَتْ خَضِرًا». رواه أحمد فى مسنده وابن حبان وروى الترمذى نحوه وقال سبعون بدل تسعة وتسعون.

ومن السنة كذلك ما رواه البخارى فى «صحيحه» عن أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - أن يهودية دخلت عليها، فذكرت عذاب القبر، فقالت لها: أعاذك الله من عذاب القبر. فسألت عائشة رسول الله ﷺ عن عذاب القبر فقال: «نعم، عذاب القبر» وفى لفظ: «عذاب القبر حق»، قالت عائشة - رضى الله عنها - فما رأيت رسول الله ﷺ بعد صلى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر.

وفى الصحيح أيضا عن أسماء بنت أبى بكر - رضى الله عنهما - قالت: قام رسول الله ﷺ خطيبا، فذكر فتنة القبر التى يفتن فيها المرء، فلما ذكر ذلك ضج المسلمون ضجة، زاد النسائى قول أسماء «ضج المسلمون ضجة حالت بينى وبين أن أفهم آخر كلام رسول الله ﷺ فى آخر كلامه، قال: «قد أوحى إلى أنكم تفتنون فى القبور، قريبا من فتنة الدجال».

وفى «صحيح مسلم» عن زيد بن ثابت قال: بينما رسول الله ﷺ فى حائط لبنى النجار على بغلته، ونحن معه إذ حادت به، فكادت تلقيه، فإذا أقبر ستة أو خمسة أو أربعة، فقال: «من يعرف أصحاب هذه القبور؟» فقال رجل: أنا، قال: «فمتى مات هؤلاء؟» قال: ماتوا فى الإشراك فقال: «إن هذه الأمة تبتلى فى قبورها، فلولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذى أسمع منه»، ثم أقبل علينا بوجهه فقال: «تعوذوا بالله من عذاب القبر»، قالوا نعوذ بالله من عذاب القبر، قال: «تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن»، قالوا نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن، قال: «تعوذوا بالله من فتنة الدجال»، قالوا: نعوذ بالله من فتنة الدجال.

وفى «صحيح مسلم» و«السنن» عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن النبى ﷺ قال: «إذا فرغ أحدكم من التشهد الأخير فليتعوذ بالله من أربع: من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال».

ومن الأدلة المقررة لحقيقة عذاب القبر ما رواه مسلم فى «صحيحه» عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن النبى ﷺ كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن «اللهم إن أعوذ بك من عذاب جهنم، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال».

وفى «الصحيحين» عن أبى أيوب قال: خرج النبى ﷺ وقد وجبت الشمس فسمع صوتا، فقال: «يهود تعذب فى قبورها».

ومن الأدلة على ذلك ما رواه البخارى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: مر النبى ﷺ بحائط من حيطان المدينة أو مكة، فسمع صوت إنسانين يعذبان فى قبورهما، فقال النبى ﷺ «يعذبان وما يعذبان فى كبير»، ثم قال «بلى كان أحدهما لايستتر من بوله، وكان الآخر يمشى بالنميمة»، ثم دعا بجريدة فكسرها كسرتين، فوضع على كل قبر منهما كسرة، فقيل له: يا رسول الله

لم فعلت هذا؟ قال ﷺ: «لعله أن يخفف عنهما، ما لم ييبسا».

لذلك كان عثمان رضى الله عنه إذا وقف على قبر يبكى حتى يبل لحيته، فقيل له: تذكر الجنة والنار فلا تبكى، وتبكى من هذا!، فقال: إن رسول الله ﷺ، قال: «القبر أول منازل الآخرة، فإن ينج منه فما بعده أيسرُ منه، وإن لم ينج منه فما بعده أشدُ منه. قال: وقال رسول الله ﷺ: والله ما رأيت منظرا قط إلا والقبر أفظع منه» رواه أحمد والترمذى وحسنه الشيخ الألبانى.

وهذا الموقف من عثمان رضى الله عنه وما ينتابه من خوف وفزع من رؤية القبر، نابع عن تصور صحيح لذلك المكان الموحش، فبعد أن كان الإنسان يحيا حياة الأنس والسرور، إذا به يأوى إلى مكان ليس فيه أنيس ولا جليس، وبعد أن كان مبجلاً معظماً فى هذه الحياة إذا به يهال عليه التراب، ويرمى فى قعر بعيد، إنه أمرٌ لو تفكر فيه المتفكرون، واعتبر به المعتبرون، ما التذوا بعيش، ولاهنئوا بسعادة.

فأهل السنة متفقون على أن الميت إذا مات يكون فى نعيم أو عذاب، وأن ذلك يحصل لروحه ولبدنه وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة، وأنها تتصل بالبدن أحيانا، فيحصل له معها النعيم والعذاب، ثم إذا كان يوم القيامة الكبرى أعيدت الأرواح إلى أجسادها، وقاموا من قبورهم لرب العالمين.

ونقل عن الإمام أحمد بن حنبل أنه قال: عذاب القبر حق لا ينكره إلا ضال أو مُضل.

وقال حنبل: قلت لأبى عبد الله - يعنى الإمام أحمد بن حنبل - فى عذاب القبر، فقال: هذه أحاديث صحاح نؤمن بها، ونقر بها، كل ما جاء عن النبى ﷺ إسناده جيد أقررنا به، إذا لم نقر بما جاء به رسول الله ﷺ، ودفعناه ورددناه، رددنا على الله أمره، قال الله تعالى:

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾

(الحشر: ٧)

قلت له: وعذاب القبر حق؟ قال: حق، يعذبون فى القبور.

وقد بوب البخارى رحمه الله فى صحيحه فقال: بَاب مَا جَاءَ فِي عَذَابِ الْقَبْرِ وفقه البخارى كما نقل عن أهل العلم فى تبويبه، وأورد تحت هذه الترجمة قَوْلُه تَعَالَى:

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ ﴾

(الأنعام: ٩٣)

وقَوْلُه جَلَّ ذِكْرُهُ:

﴿ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾

(التوبة: ١٠١)

وَقَوْلُهُ تَعَالَى:

﴿ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ۝٤٥ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾

(غافر: ٤٥-٤٦).

فعذاب البرزخ ونعيمه لايفوت تلك الأجزاء التى صارت رمادا، حتى لو علق الميت على رؤوس الأشجار فى مهاب الريح لأصاب جسده وروحه من نعيم البرزخ وعذابه نصيبه. ولو دفن الرجل الصالح فى طبقات من نار لأصاب جسده وروحه من نعيم البرزخ نصيبه وحظه، فيجعل الله النار عليه بردا وسلاما، فعناصر العالم ومواده منقادة لربها وفاطرها وخالقها، يصرفها كيف يشاء، ولا يستعصى عليه منها شئ أراده بل هى طوع مشيئة، منقادة لقدرته، ومن أنكر هذا فقد جحد رب العالمين وأنكر ربوبيته.

ومما ينبغى أن يعلم أن أمور البرزخ من الغيب الذى يجب على كل مسلم ومسلمة أن يؤمن به مجملاً حيث أجمل، ومفصلاً حيث فصل، كما جاء فى القرآن العظيم والسنة المطهرة.

ومما شوهد فى هذا الباب ما ذكره ابن أبى الدنيا فى «كتاب القبور» عن أحد ثقات التابعين وهو سويد بن حجير قال: مررنا فى بعض المياه التى بيننا وبين البصرة، فسمعنا نهيق حمار، فقلنا لهم: ما هذا النهيق؟ قالوا هذا رجل كان عندنا كانت أمه تكلمه بالشيء فيقول لها: انهقى نهيقك، فلما مات سمع هذا النهيق من قبره كل ليلة.

والوقائع فى هذا الباب كثيرة يضيق المقام عن إيرادها، ومهما يكن من أمر، فإن تلك القبور، وإن بدت للناظرين ساكنة، ولكن ما فى داخلها أمر آخر، فكم من معذب فيها معمور مخزون، وكم منعم فيها فرح مسرور.

وأعود فأذكر:

إن المساس بثوابت العقيدة والتجرؤ عليها وإنكار ما استقر منها فى وجدان الأمة كعذاب القبر لايخدم سوى قوى التطرف والإرهاب وخاصة فى ظل الظروف التى تمر بها الأمة، لأن الجماعات المتطرفة تستغل مثل هذه السقطات لترويج شائعات التفريط فى الثوابت مما ينبغى التنبه له والحذر منه، ووقوف كل إنسان عند حدود ما يعلم، وعدم إقحام نفسه فيما لايعلم وفى غير مجال اختصاصه، فالقضاء على التشدد يحتاج فى الوقت نفسه القضاء على التسيب.

ونذكر كذلك بأن هذا الدين ليس كلأً مباحا لكل أحد، إنما يجب الرجوع فى قضاياه العقدية والفقهية إلى علمائه المتخصصين، وأن الأمة فى غنى تام عن إثارة مثل هذه القضايا الشائكة المثيرة للجدل والمستفزة لمشاعر الخاصة والعامة، وكم كنا ولازلنا نتمنى أن تنصرف همم القوم إلى ما يستعين به الشعب على دعم قضايا العمل والإنتاج وترسيخ مكارم الأخلاق.

﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

(الرعد: ١٧)

وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

جريمة الإرهاب وحرمة النفس



أ. د. أحمد عمر هاشم
عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر

إن الإرهاب من أبشع الجرائم التي تهدر حق المجتمعات في الأمن والاستقرار، وتهدر حق النفس، ولذلك كان الوعيد الشديد لمن يعتدى على النفس الإنسانية في الحياة، عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أبى الله أن يجعل لقاتل المؤمن توبة»[1].

وسبب ورود هذا الحديث: أن النبي ﷺ بعث سرية فأغاروا على قوم، فشذَّ رجل منهم، فاتبعه رجل من السرية شاهرًا سيفه فقال: إني مسلم فقتله، فنمى إلى النبي ﷺ فقال قولاً شديداً، ثم ذكر الحديث.

وقد أخرج هذا الإمام أحمد في «مسنده»، عن عقبة بن مالك الليثى، قال: بعث رسول الله ﷺ سرية، فأغارت على قوم، فشذ من القوم رجل، فاتبعه رجل من السرية شاهرًا سيفه، فقال الشاذ من القوم: إني مسلم، فلم ينظر فيما قال. قال: فضربه فقتله، فنمى الحديث إلى رسول الله ﷺ فقال فيه قولاً شديداً، فبلغ القاتل، فبينا رسول الله ﷺ يخطب إذ قال القاتل: والله ما قال الذى قال إلا تعوذا من القتل، قال فأعرض رسول الله ﷺ عنه وعمن قبله من الناس، وأخذ في خطبته، ثم قال أيضاً: يا رسول الله، ما قال الذى قال ألا تعوذا من القتل، فأعرض عنه وعمن قبله من الناس وأخذ في خطبته، ثم لم يصبر حتى قال الثالثة: والله يا رسول ما قال الذى قال إلا تعوذا من القتل، فأقبل عليه رسول الله ﷺ تعرف المساءة في وجهه فقال: «إن الله أبى على من قتل مؤمنًا» ثلاثًا. ورواه النسائي من حديث سليمان بن المغيرة.

والقتل من أكبر الكبائر وأشد الجرائم على الناس، إنها جريمة إذا ظهرت في مجتمع أو تفشت في بيئة نشرت الرعب والفزع، وقضت على الأمن والاستقرار، وأشاعت الإحن والبغضاء، وقضت على الروابط الإنسانية، ورملت النساء ويتمت الأطفال قال الله تعالى:

﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢]

(١) رواه الطبراني في «معجمه الكبير»، والحافظ ضياء الدين محمد بن عبدالواحد المقدسي في كتاب «الأحاديث المختارة».

ولقد انزل الله تعالى في شأن القاتل بغير حق من الوعيد ما لم ينزل في غيره، فقال الله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

وإذا كان هذا هو جزاء قاتل الغير، فإن جزاء القاتل لنفسه قد صوره الرسول ﷺ في صورة رهيبة تدل على بشاعته، روى أبو هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يتوجأ – أى: يضرب بها نفسه – بها في بطنه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن قتل نفسه بسُمٍّ، فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن تردى من جبل فقتل نفسه فهو متردٍ في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً».

وقال ﷺ «كان ممن كان قبلكم رجل به جرح فجزع فأخذ سكيناً فحز بها يده فما رقأ الدم حتى مات، قال الله تعالى: بادرني عبدى بنفسه حرمت عليه الجنة»[2] وفي رواية أبى داود من حديث جابر بن سمرة قال: أخبر النبي ﷺ برجل قتل نفسه قال: «لا أصلى عليه».

وهكذا تصور لنا السنة النبوية الشريفة هذا النوع من القتل وهو «جريمة الانتحار» بصورة أليمة من العذاب يوم القيامة، فعلى الشباب وغيرهم ممن تضيق بهم الحياة، أو يستولى عليهم عامل الغضب، وأحوال الضعف النفسي، فيحاولون الإقدام على تلك الجريمة، عليهم أن يقووا من إيمانهم أولاً، فإن ضعف الإيمان وفقدان اليقين، ومحاولة الانسحاب من الحياة والتخلص منها بتلك الصورة البشعة، كل ذلك من أسباب اليأس الذى يؤدى إلى تلك الجريمة «الانتحار».

وإذا عرفنا أسبابها، فإن العلاج منها لا يكون إلا بتقوية الإيمان، فيوقن الإنسان أن كل شيء بقضاء الله، وأن أحوال الدنيا لا تثبت، فكم من فقير اغتنى! وكم من مخفق في سعيه نجح بعد ذلك! وكم من تجارة كاسدة رزق الله صاحبها الربح أضعافاً! فليس لمن أصيب بشيء من ذلك أن يفقد الأمل، بل عليه بالصبر الجميل ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

وإذا كانت جريمة الانتحار، قد حاربها الإسلام ونهى عنها وحذر منها على نحو ما سبق، فإن هناك نوعاً آخر من القتل له عواقبه الأليمة، ونهايته الوخيمة، إنه يتمثل في ظاهرة «الثأر» فإن بعض الناس من أهل القتيل يتخذون من ظروف القتل ذريعة لإرواء أحقادهم، وتحين الفرص لإهدار الدماء، فتسيل الدماء على مذابح الأضغان العائلية، فبين الحين والآخر يهدر دم من هنا ودم من هناك! لهذا كله شرع الإسلام القصاص، ليكف الجاني عن جنايته ويرتدع.

أثر التطرف الفكرى في صدام الحضارات

وللفكر المتطرف أثره في صدام الحضارات للجهل بحقائق الإسلام الذى يدعو إلى السلام وإلى التعايش السلمى بين سائر شعوب

(٢) أخرجه البخارى ومسلم.

الأرض، وبين جميع الحضارات، بحيث تحيا الشعوب في أمن وسلام، وبحيث لا تقوم الحروب بين الدول والشعوب فالبشرية جمعاء تنتمي إلى أصل واحد وأب واحد وأم واحدة، فلا يصح عدوان من دولة على أخرى، بل على الجميع أن يتعاونوا.

وإذا كان الذين تطرفوا في فكرهم زعموا أن غيرهم عدوهم فهم بهذا مخطئون وآثمون والحضارات واجبها التعاون وليس الصدام وإن ما يحدث من عداوات إنما هو نتيجة التطرف الفكرى والجهل بحقائق الرسالات السماوية التي تدعو للسلام.

لا لصدام الحضارات نعم للتعاون

بين فترة وأخرى، تتردد على الساحة الدولية نظريات تعلن إفلاسها من حين إطلاقها، لأنها دعاوى تحمل بين طياتها الشر والتحريش بالمجتمعات وسوء النوايا.

وكم من نظريات طائشة ترنحت في دنيا الناس، وانتهت كما تنتهي الزوابع بعد أن تثير في المناخ آثارها السيئة.

ومن بين هذه النظريات التي أطلقت نظرية صدام الحضارات، التي لا أثر لها ولا مضمون لها، ولا أساس لها في الإسلام، الذي حملت ثقافته وحضارته السلام إلى عالم البشر، والطمأنينة والأمن إلى دنيا الناس، لأنها ثقافة مستمدة من الوحي، ولأن الرسول ﷺ الذي جاء بها لا ينطق عن الهوى، ولأن الذي علمه هو الله رب العالمين، فلم يجلس إلى معلم من البشر، بل معلمه هو الله، فما كان يقرأ ولا يكتب حتي لا يقال: إنه أخذ ثقافته من أحد، بل كان أميًا ليكون بيانه معجزًا، وحتى لا يدعي مدع أنه أخذ ثقافته عن الغير، فيرتاب المبطلون ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾[العنكبوت: ٤٨].

إنه أمي وأعجز كل البلغاء والأنس والجن، وعلم الدنيا، وتلقى العالم عنه أشرف ثقافة في الوجود ولا يعرف البلاغة من لم يتتلمذ على هديه، كما قال أمير الشعراء أحمد شوقي رحمه الله:

فما عرف البلاغة ذو بيان ... إذا لم يتخذك له كتابا

لقد اعتمدت الثقافة في حياته ﷺ على القرآن الكريم، وعلى السنة النبوية المشرفة. وهما مصدرا التشريع الإسلامي، من تمسك بهما وأخذ بتوجيهاتهما لن يضل، كما قال رسول الله ﷺ «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبدًا: كتاب الله وسنتي»[٣].

وبالقرآن الكريم رجا رسول الله ﷺ أن يكون أكثر الأمم تابعًا يوم القيامة حيث قال ﷺ: ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»[٤].

(٣) رواه الحاكم

(٤) رواه البخاري.

وكما تكفل الله سبحانه وتعالى بحفظ القرآن الكريم حيث قال جل شأنه:
﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]

فقد تكفل بحفظ كل صحيح من السنة النبوية المطهرة، ليكون بياناً للقرآن كما قال الله تعالى:
﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۝ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: ١٧، ١٩].

من أجل ذلك نرى أن الله تعالى قيض لسنة رسوله ﷺ رجالاً أمناء، نقشوها في صحفهم الأمينة وصدورهم الحافظة، وتلقوها عنه حفظًا وكتابة منذ العهد الأول، حيث أذن لبعض الصحابة بكتابتها، فكان منهم: أنس وجابر وعبدالله بن عمر وعبدالله بن عمرو بن العاص، وكانت له صحيفته التي تسمى الصادقة، يقول: «ما يرغبني في الحياة إلا الصادقة، صحيفة كتبتها من فم الرسول ﷺ ليس بيني وبينه فيها أحد».

وحين منعته قريش من كتابة كل ما يسمع من الرسول ﷺ وقالوا له: رسول الله بشر يتكلم في الرضا والغضب، فلا تكتب كل ما تسمع منه، فلما سأل النبي ﷺ وأخبره بما قالته قريش له، قال ﷺ «اكتب فوالذى نفسي بيده ما خرج منه إلا حق» وأشار إلى فمه الشريف.

وظل الحفظ في الصدور مع الكتابة في السطور إلى رأس المائة، حتى كان التدوين الرسمي في عهد الخليفة العادل عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه فشاء الله تعالى أن يقيض لسنة نبيه ﷺ من يصونها ومن يحفظها ويدافع عنها في كل زمان ومكان، كما قال رسول الله ﷺ: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين».

إن ثقافة الإسلام ثقافة سلام لا عدوان يقول الله تعالى:
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

وحتى مع الأعداء قال سبحانه:
﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦١].

وحتى مع المشركين يقول الله تعالى:
﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ [التوبة: ٦]

ويوضح الرسول ﷺ علامة المسلم: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»، ويوضح علامة المؤمن: «والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم»[٥]، فلا يقر الإسلام العدوان بحال من الأحوال حتى في القتال والجهاد قال سبحانه:
﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]

ويبين أن العدوان على نفس واحدة عدوان على البشرية جمعاء، فقال جل شأنه:
﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢]

(٥) رواه الترمذي.

وحافظ الإسلام على السلام والأمان لغير المسلمين من المعاهدين وأهل الذمة، فقال عليه الصلاة والسلام: «من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها لتوجد من مسيرة أربعين عاماً»[٦].

ونعمة الأمن تأتى ثمرة للإيمان والعمل الصالح قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

وما أروع قول الرسول ﷺ يوم الحديبية «والله لا تدعونى قريش إلى خطة، توصل بها الأرحام وتعظم فيها الحرمات إلا أعطيتهم إياها».

إن ما تردد من دعوى صدام الحضارات، لا أساس له فى الإسلام، لأن الإسلام هو دين الرحمة والأمان، قال الله تعالى لرسوله ﷺ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]

ونادى القرآن الكريم الناس إلى التعاون والتآلف، وجعل هذا هو الغاية من خلقهم شعوباً وقبائل، فقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقد وضح الله تعالى إن السلام والأمان من أعظم النعم الإلهية يهبهما الله تعالى لمن كان مؤمناً صادقاً ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾

[قريش: ٣ - ٤].

وأما حين يكفر الناس بنعمة الله تعالى ويجحدونها فإنه يحرمهم من نعمة الرخاء والأمان، قال الله تعالى:

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ۝ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [النحل: ١١٢-١١٣].

ونلاحظ فى النداء الإلهى للبشرية جمعاء بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ أنه نداء عام لا يخص شريحة من المجتمعات دون أخرى. وفى قوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣]

بيان برد البشرية إلى أب واحد، وأم واحدة هما آدم وحواء، ليشعر هذا العالم الذى يموج بالتيارات والفتن أن مردهم إلى أصل واحد، فلا يصح أن يكون بينهم صدام ولا صراع، بل عليهم أن يتعارفوا وأن يتآلفوا.

وحتى لا تبدد الأموال الطائلة فى أسلحة الدمار الشامل التى لا تبقى ولا تذر، تسد الفراغ والنقص في حضارة العالم، وتلبى حاجة البطون الجائعة المحتاجة إلى رغيف الخبز - ما أحوج هذا العالم إلى الاستجابة إلى نداء الحق الذى يناديه:

﴿ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨].

والذى يأمر بالتعاون وليس الصدام ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

(٦) رواه أحمد البخارى.

حث الإسلام على الإخلاص (٣)

الأمـــانة



فضيلة الشيخ / فوزى فاضل الزنزاف
عضو مجمع البحوث الإسلامية

من الأمور التى يستلزمها الإخلاص : الأمانة : باعتبارها رعاية لحق الله تعالى، وأداء للفرائض والواجبات، وهذا يتطلب عدم الخيانة، وتجنب النفاق والخداع والرياء، وحفظ الحقوق والعهود والمواثيق، وهى خير شاهد خارجى على الإخلاص، وخاصة أن المنزلقات التى يمكن أن تُطيح بالأمانة اللازمة للإخلاص وفيرة، وهذه تُوفر حظوظا للنفس تُفسد الإخلاص، ولذا كان لابد من توافر الأمانة لتوافر الإخلاص والتمسك به..

وقد بيّن الله سبحانه وتعالى المصير الشنيع الذى سيصير إليه المنافقون يوم القيامة، فقال جل شأنه :

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ۝ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾

(النساء : ١٤٥-١٤٦)

أى : أن مكان المنافقين يوم القيامة فى الطبقة السفلى من طبقات النار، وسميت طبقات النار دركات لكونها متداركة، أى : بعضها تحت بعض، فالدرك يقال باعتبار النزول، أما الدرج فيقال باعتبار الصعود، ولذا قيل : درجات الجنة، ودركات النار.

قال الألوسى - رحمه الله - : والنار لها طبقات سبع : تُسمى الأولى كما قيل : جهنم، والثانية : لظى، والثالثة : الحطمة، والرابعة : السعير، والخامسة : سقر، والسادسة : الجحيم، والسابعة : الهاوية. وقد تسمى النار جميعا باسم الطبقة الأولى، وبعض الطبقات باسم بعض لأن لفظ النار يجمعها[١].

(١) تفسير الألوسى ج ٥ ص ٧٧١

والمعنى : أن هؤلاء المنافقين الذين مردوا على النفاق، وسرى في طباعهم مسرى الدم في العروق سيكونون يوم القيامة في الطبقة السفلى من النار، ولن تجد لهم نصيرا ينصرهم من عذاب الله أو يدفع عنهم عقابه.

وإنما كان للمنافقين هذا العذاب الشديد، لأنهم أضافوا إلى كفرهم الاستهزاء بالإسلام وأهله، وجمعوا بسوء طباعهم بين الكفر والفسوق والتضليل والخداع وإشاعة الفاحشة في صفوف المؤمنين .. وغير ذلك من رذائلهم المتعددة، وقبائحهم المتنوعة.

وللعلماء في تعريف المنافق، وبيان درجات النفاق أقوال كثيرة ليس محلها الآن.

جاء في الحديث الشريف ما يفيد أن المنافقين فريقان : فريق خلص للنفاق، وهذا منكوس القلب والنفس والفكر.. وقسم فيه خصلة من النفاق، وهذا يتنازعه الخير والشر. قال ﷺ فيما رواه الإمام أحمد : «القلوب أربعة : قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر، وقلب أغلف مربوط على غلافه، وقلب منكوس، وقلب مصفح، فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن سراجه فيه نوره، وأما القلب الأغلف فقلب الكافر، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق الخالص عرف ثم أنكر، وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق، ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والدم، فأي المادتين غلبت على الأخرى غلبت عليه».

ثم بعد هذا الوعيد الشديد للمنافقين فتح سبحانه باب التوبة ليدخل فيه كل من يريد أن يقلع عن ذنوبه من المنافقين وغيرهم، حتى ينجو من عقابه سبحانه، فقال :

﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

(النساء : ١٤٦)

أي : هذا الجزاء الذي بيناه هو جزاء المنافقين، لكن الذين تابوا منهم عن النفاق، وأصلحوا ما أفسدوه من أقوالهم وأفعالهم ﴿ وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ ﴾ أي : تمسكوا بكتابه، وتركوا موالاة الكافرين ﴿ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ ﴾ بحيث لايريدون بطاعتهم سوى إرضاء الله ومثوبته، فأولئك الذين فعلوا ذلك مع المؤمنين الصادقين المخلصين الذين لم يصدر منهم نفاق، أي : معهم في فضيلة الإيمان الصادق ومما يترتب عليه من أجر جزيل وثواب عظيم...»[٢]

قال الجُنَيد - رحمه الله - الإخلاص سرّ بينَ الله وبَين العبد، لا يَعْلمه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيُفْسده، ولا هوى فيميله.

إن الإخلاص روح الدين، ولباب العبادة، وأساس قبول الأقوال والأفعال والعبادات عند الله، لأنه يُحرر العبد من عبودية غير الله، ويُقوي إيمان الإنسان ويُكرّه إليه الكفر والفسوق والعصيان.

أما إذا شابت العبادة شئ يكدر إخلاصها لله ضاع أجرها وثوابها، قال شَهْرُ بن حَوْشَب : جاء رجل إلى عُبادة بن الصامت، فقال : أنبئني عما أسأل عنه، أرأيت رجلا يُصلي يبتغي وجه الله ويُحبُّ أن يُحمد؟ فقال عبادة : ليس له شئ، إن الله تعالى يقول في حديث قدسي : «أنا خير شريك فمن كان له معي شريك فهو له كلّه لا حاجة لي فيه».

وقال ابن كثير - رحمه الله - في تفسير قوله تعالى :

﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾

(الكهف : ١١٠)

وهذان ركنا العمل المتقبل لابد أن يكون خالصا لله صوابا على شريعة رسول الله ﷺ.

وإذا كان الإخلاص شرطا بل وفريضة على كل مسلم في أداء عبادته لله، لأنه في ميدان الدين لا يرتفع عمل أبدا ما لم تصحبه نية خالصة، وما لم يقترن بإرادة وجه الله وحده، فإن الإخلاص بالنسبة للدعاة إلى الله يكون فريضة آكد، وعقيدة أوثق في أداء عملهم في حقل الدعوة، لأن اتساع نطاق العمل في الحياة، واشتباكه مع أحوال الناس، في رضاهم وسخطهم، وفي قوتهم وضعفهم، وفي غناهم وفقرهم، وفي صحتهم ومرضهم.. يفرض على الداعية أن يكون أحرص على استدامة ذكر الله ومراقبته، ومطالعة وجهه في السر والعلانية، حتى لا يضل الغاية، ولا يحيد عن النهج في زحمة هذه الحياة.

يقول أستاذنا الشيخ محمد الغزالي - رحمه الله - :[٣] بيْدَ أننا نلحظ - آسفين - أن ميدان الدعوة إلى الله غص بأقوام يجعلون وجه ربهم آخر ما يرعى ويرغب، كأن الأمر لا يعدو أن يكون حرْفة تدرّ ربحا قليلا أو كثيرا.

وكأن الحرص لا يهيج إلا استدامة هذا الربح أو استزادته باسترضاء الرؤساء الذين يُجرونه ويملكون - في نظرهم - بسطه وقبضه.. وقد رأينا الدعاة المحترفين يقومون بواجباتهم وليس يسيطر عليهم إلا تهيب مخالفة الرئيس أو تملق عواطفه.

ففي إحدى قري الريف لوحظ أن إمام المسجد كان يصلي المغرب بآيتين من أواخر السور، فإذا حضر العمدة الصلاة كان هذا الإمام يتحرى أن يصلي المغرب بسورتين كاملتين يجود قراءتهما في الركعتين الجهرتين !! ولا شك أن هذا هو الرياء المحبط للأعمال.

ودلالته الصارخة أن الرجل يصطنع من أجل الناس صلاة أطول وأجود. وأن الأمر لو وكل إلى صلته الخاصة بالله لكانت الصلاة أقل وزنا !! ومن يدري لعله - لو لا ضرورات العيش - ما صلى قط.

إن الصلاة مع الرياء أمست جريمة، وبعدما فقدت روح الإخلاص، باتت صورة ميته لا خير فيها

﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ④ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ⑤ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ⑥ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ⑦ ﴾

(الماعون : ٤-٧)

(٢) التفسير الوسيط ج ٣ ص ٦٣٠، ١٦٣ لفضيلة الإمام الأكبر أ. د محمد سيد طنطاوي شيخ الأزهر

(٣) كتاب «مع الله. دراسات في الدعوة والدعاة» ص ٩٧١-٠٨١.

وفراغ الأفئدة من قصد الله، وانتباهها إلى صلاة الناس دليل على أن الإيمان دعوى مكذوبة.. فكيف يتصور من هؤلاء أن يعلموا الناس الإيمان، وأن يدعوهم إلى الله؟

إن الداعية المرائى يقترف جريمة مزدوجة، إنه فى جبين الدين سُبّة متنقلة وآفة جائحة .. وتقهقر الأديان فى حلبة الحياة يرجع إلى مسالك هؤلاء الأدعياء، وقد رويت آثار كثيرة تفضح سيرتهم وتكشف عقباهم.

والذى يُحصى ما أصاب قضايا الإيمان من النكاسات على أيدى أدعياء التدين لا يستكثر ما أعد لهم فى الآخرة من وبل .. روى عن عدى بن حاتم قال : قال رسول الله ﷺ : «يؤمر يوم القيامة بناس من النار إلى الجنة، حتى إذا دنوا منها واستنشقوا ريحها ونظروا إلى قصورها وما أعد الله لأهلها فيها، نودوا : أن أصرفوهم عنها فلا نصيب لهم فيها، فيرجعون بحسرة ما رجع الأولون بمثلها فيقولون : ربنا لو أدخلتنا النار قبل أن ترينا الجنة – وفى رواية : قبل أن ترينا ما أريتنا من ثوابك وما أعددت فيها لأوليائك – لكان أهون علينا. قال : ذاك أردت بكم، كنتم إذا خلوتم بارزتمونى بالعظائم، وإذا لقيتم الناس لقيتموهم مخبتين، تراءون الناس بخلاف ما تعطونى من قلوبكم، هبتم الناس ولم تهابونى، وأجللتم الناس ولم تجلونى، وتركتم للناس ولم تتركوا لى .. اليوم أذيقكم أليم العذاب مع ما حرمتم من الثواب»[٤].

إن الأدعياء فى ميدان الدين مصيبة جسمة وبلاء شديد، وخطرهم عظيم، وعواقب أقوالهم وأفعالهم شر مستطير على أمن المجتمع واستقراره.. فإلى جانب أنهم خسروا أعمالهم عند ربهم لفقدهم الإخلاص، وإدخالهم النفاق والرياء والخداع فى أقوالهم وأفعالهم وعباداتهم، وتحريفهم النصوص والفهم الصحيح لمقاصدها وغاياتها، واصطيادهم الدنيا بالدين.. إلى جانب كل ذلك الخطر فإن الدين تهتز صورته، وتضطرب حالته، ويضعف تأثيره، وتهمل تعاليمه، وتنكس رايته بسلوكهم...

عن علىّ – رضى الله عنه – أنه ذكر فتنا تكون فى آخر الزمان. فقال له عمر – رضى الله عنه – : متى ذلك يا على؟ قال : إذا تفقه لغير الدين، وتُعلم العلم لغير العمل، والتمست الدنيا بعمل الآخرة.

وهناك حديث ابن عباس رضى الله عنهما المرفوع وفيه : «.... ورجل آتاه الله علما فبخل به على عباد الله، وأخذ عليه طمعا، واشترى به ثمنا فذلك يلجم يوم القيامة بلجام من نار، وينادى مناد : هذا الذى آتاه الله علما فبخل به عن عباد الله وأخذ عليه طمعا واشترى به ثمنا، ويظل كذلك حتى يفرغ الحساب».

إن الأمراض الاجتماعية والنفسية التى تشيع بين الناس كثيرة ومتعددة، ولها آثار سلبية عميقة فى توجيه السلوك الإنسانى يميناً ويساراً.. فمن الناس من هو مصاب بعبادة الذات، ومنهم من هو شره فى جمع المال لا يعنيه من أين يجمعه؟ ومنهم من هو مريض بكره الآخرين، ومنهم من هو سقيم بالحقد على غيره، ومنهم من لا يستطيع أن يعيش إلا إذا كان رأسا على غيره، ومنهم من يزعجه أن يرى اثنين أو أكثر علي وفاق يجمعهم الحب والألفة والمودة، ومنهم ومنهم.. إلخ هذه العلل التى هى عوامل فعالة فى إنحراف النشاط الفردى والجماعى، وقد تكون السبب الأوحد فى انهيار أمم وفناء حضارات..

والدعاة إلى الله يجب عليهم وسط هذه العواصف الاجتماعية والنفسية، والتيارات القلبية أن يأخذوا طريقهم إلى الله نقيا نظيفا خالصا، وليجعلوا علاقتهم بالناس على قاعدة الحب فى الله والبغض فى الله، فلا يؤثروا شارداً لقرابة أو منفعة، ولا يقصوا صالحا لوحشة منه وضيق به..

على الدعاة أن ينقبوا فى خبايا أنفسهم، ويغوصوا فى أعماق أفئدتهم، فلا يجعلوا للهوى سبيلا إلى نزعاتهم، ولا للعاطفة المنحرفة طريقا إلى سلوكهم.. فهناك من الدعاة من ينتقد الآخرين للتشفى، وهناك من يحمدهم للصداقة والمنفعة، وهناك من يُجسّم الصغائر لفلان ويقف خطيباً ضده، وهناك من يُغْضى عن العظائم لفلان ويغلق فمه عنه.. وتلك جميعاً أحوال يشينها الخبث ويشدها سوء القصد. ولا شئ فيها لله جل شانه...

إن العمل الخالص الطيب – ولا يقبل الله إلا طيبا – هو الذى يقوم به صاحبه بدوافع اليقين المحض وابتغاء وجه الله، دون اكتراث برضا أو سخط، ودون تحر لإصابة رغبة أو كبح رغبة...

عن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر – رضى الله عنه – خرج إلى المسجد فوجد معاذا عند قبر رسول الله ﷺ يبكى. فقال : ما يبكيك؟ قال : حديث سمعته من رسول الله ﷺ قال : «اليسير من الرياء شرك. ومن عادى أولياء الله فقد بارز الله بالمحاربة، إن الله يحب الأبرار الأتقياء الأخفياء الذين إن غابوا لم يفتقدوا وإن حضروا لم يعرفوا، قلوبهم مصابيح الهدى يخرجون من كل غبراء مظلمة»[٥].

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رجل يارسول الله : إنى أقف الموقف أريد وجه الله، وأريد أن يرى موطنى. فلم يرد عليه رسول الله ﷺ حتى نزلت :

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾

(الكهف : ١١٠)

قال ابن القيم – رحمه الله تعالى – : العمل بغير إخلاص ولا اقتداء كالمسافر يملأ جرابه رملاً ينقله ولا ينفعه.

ولكى يعتصم الداعية من هذه اللوثات، ويبرأ إلى الله من عقابها، أرشده النبى ﷺ أن يتوجه إلى الله بهذا الدعاء :

«اللهم إنى أعوذ بك من أن أشرك بك شيئاً وأنا أعلمه، واستغفرك لما لا أعلمه».

(٤) الطبرانى فى الكبير والبيهقى.

(٥) ابن ماجه والحاكم والبيهقى فى كتاب الزهد.

تجلّيات الوفاء في حياة الرسول ﷺ (٢)

دكتور/ السيد محمد الديب

سبق أن قدمنا حلقة أولى على صحائف الأزهر الغراء عن تجليات الوفاء في حياة الرسول ﷺ، ورأينا أن نضيف إلى هذا الخلق الإسلامي بعض الشعاعات المضيئة لهذا الموضوع، فتجلياته في حياة الرسول مع الآخرين أكبر وأعظم من أن تُستكمل في مقالة أو مقالتين، ولكن يكفينا من القلادة ما أحاط بالعنق.

١ - معاني الوفاء وتجلياته:

إن الوفاء خلق التزامي، وإقرار إنساني بما للآخرين من حقوق دنيوية تستحق الأداء على الصورة المثلى، والتي يجب الوفاء بها وفق الأوامر الداعية لها، بما يحقق الارتقاء بالعلاقات الإنسانية إلى مستويات عالية، وهو خلق شمولي، وغطاء أخلاقي مُعبّر عن المكنون المحرّك لسلوكيات الإنسان وعلاقته بالله تعالى، وبرسوله ﷺ وبسائر البشر، إذ تتجلّى أهم فعالياته في الوفاء بالعقود المشروعة والمنصوص عليها في عموم قول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾

(المائدة:١)

والخضوع لعهد الله الملزم للتوحيد، وعدم الإشراك بالله، والحاصل في قوله تعالى:

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾

(يس : ٦٠)

وحتمية الوفاء بهذا العهد الذي أثبته وأكده القرآن الكريم في كثير من الآيات منها قوله تعالى:

﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾

(الأنعام : ١٥٢)

ويطلق الوفاء فينصرف المراد منه إلى تقدير الآخر، وصيانة حقوقه المادية

والمعنوية، وإقرارها والاعتراف بها وإعلانها، خاصة إذا كان هذا الآخر غائباً تحت الثرى بالموت، ولم يعد في مكنته إعلان الحق وإثباته، أو كان عاجزاً عن ذلك لكبر أو مرض أو فقر، فيكون الوفاء له إعلانا عن وجوده، ورفعاً لشأنه، وجبْراً لضعفه، وستراً لهوانه عند الناس.

والوفاء خلق وجوبي؛ وفاء لنذر بطاعة أوجبها الإنسان على نفسه، و صار الوفاء بها خلقاً مقرراً ووصفاً ثابتاً في حق عباد الله المتقين، الذين قال الحق تعالى في شأنهم:

﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾

(الإنسان : ٧)

ويكون الوفاء سداداً لدين، أو التزاماً بعهد، أو تفعيلاً لوعد، وكلها واجبه النفاذ، كما يكون خلقاً تطوعياً؛ صيانة لعلاقة حميمة، أوردًا لجميل مؤثر، أو إقراراً بحق تلاشتْ دلالاته، فيكون الإعلان عنه بعثا لكيان ضائع، وإحياء لعلاقة مهملة، فتلتئم القلوب المنكسرة بالمودة والرحمة، ولينظر الإنسان إلى مقدار المؤثرات الإيجابية التي تحدثها كلمة طيبة، أو شهادة صادقة، أو رسالة هامسة في أعماق شخص أفلتْ شمس حياته، وذهبت عنه أضواء الوجاهة، أو سُلبت منه أموال الغنى، وقوة الصحة، وبهاء الهيئة الخَلقية، وجمال الصورة الخُلقية.

والوفاء خلق إسلامي يمتد آثاره وتجلياته إلى سائر البشر، وهو يدل على الكمال والإتمام سواء أكان مرتبطاً بعقد أو عهد أو بنذر أو دين واجب الوفاء، وهو صفة من صفات الله تعالى، إذ قال جلت قدرته:

﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾

(الرعد : ٢٠)

وقد ترسخ هذا الخلق في شخص الرسول ﷺ من قبل أن يتنزل عليه الوحي الإلهي، إذ كان يصدق الوعد ويفي بالعهد ولا يخلفه، فقد روى عبد الله بن أبي الحمْساء رضي الله عنه قال: بايعت النبي ﷺ ببيع قبل أن يُبعث، وبقيتْ له بقية، فوعدته أن آتيه بها في مكانه فنسيتُ، ثم ذكرتُ بعد ثلاث فجئت، فإذا هو في مكانه فقال: يا فتى لقد شققت عليّ أنا هنا منذ ثلاث انتظرك(١).

والوفاء من صفات رسل الله تعالى قال جلت قدرته في شأن إبراهيم عليه السلام:

﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾

(النجم : ٣٧)

وهو من صفات عباد الله المتقين في الدنيا قال تعالى:

﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾

(الرعد : ٢٠)

وينالون توفية الحقوق في الآخرة، قال تعالى:

(١) رواه أبو داوود بسند صالح، وانتظار الرسول لثلاث ليال لم يكن لبقية الثمن، وإنما للوفاء بالوعد الذي كان ﷺ شديد الحرص عليه.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾

(آل عمران : ١٨٥)

٢- وفاء الرسول ﷺ بحقوق المرأة.

سجلت السيرة النبوية، مشاهد رائعة من حياة الرسول ﷺ، تجلى فيها وفاؤه للمرأة، التى أقرّ لها بكثير من الفضل والإكرام، خاصة زوجاته، وقد رُوى عنه قوله: «أَحَقُّ مَا أَوْفَيْتُمْ مِنَ الشُّرُوطِ أَنْ تُوفُوا بِهِ مَا اسْتَحْلَلْتُمْ بِهِ الْفُرُوجَ»[٢].

ولقد كانت المرأة فى بداية عصر البعث النبوى معرضة للظلم والقسوة، وضياع الحقوق، ووءد الفتيات فى بواكير الحياة، وجاء الإسلام فأثبت للنساء حقوقهن وواجباتهن، وطبق الرسول هذه المبادئ فى دنيا الواقع بما يحفظ للمرأة حقوقها، ويصون كرامتها، خاصة إذا كانت زوجة تمثل الجانب الأضعف فى ثنائية الرجل والمرأة.

وكانت علاقته عليه الصلاة والسلام مع خديجة بنت خويلد فى حياتها وبعد مماتها مضرب المثل فى الوفاء والصدق، وكان يذكرها بالخير، ويقرّ بتأثيرها فى مسيرته زوجاً وأباً وجداً، ورسولاً من رب العالمين، وكان وفاؤه مع زوجاته قدوة لسائر الرجال فى المجتمع العربى، الذى كانت السيادة فيه للرجال، ولا شأن إلا للقليل من النساء، اللاتى كن أصحاب مال أو لهن آباء يرتكزن عليهم، أو أزواج رحماء، وتجلى وفاء الرسول ﷺ مع زوجاته، خاصة عائشة، والتى كانت ذات مكانة عنده، فأكرم نزلها، وصان حقها، وانتقل بها من طور إلى آخر، حتى صارت من أفضل النساء علماً ورأيا وأدباً وفكرا، وامتد وفاؤه معها إلى أختها أسماء بنت أبى بكر زوجة الزبير بن العوام رضى الله عنهم جميعاً، فتقول ذات النطاقين حسب رواية البخارى: «تزوجنى الزبير وماله فى الأرض مالٌ ولا مملوك، ولا شئ غير ناضح[٣]، وغير فرسه، فكنت أعلف فرسه، واستسقى الماء، وكنتُ أنقلُ النوى من أرض الزبير التى أقطعها إياه رسول الله ﷺ وهى منىّ على ثلثى فرسخ، فجئت يوما والنوى على رأسى، فلقيت رسول الله ﷺ ومعه نفر من الأنصار، فدعانى ليحملنى خلفه، ثم قال ينيخ دابته: إخْ! إخْ! فاستحييت أن أسير مع الرجال، وذكرت الزبير وغيرته، وكان أغير الناس! فعرف رسول الله ﷺ أنى قد أستحييت فمضى»[٤] ولا يخفى ما كان من أسماء عندما كانت تحمل الطعام والشراب إلى الرسول وأبيها فى الغار عند الهجرة، فالتواصل الوفائى قائم ومفعّل من الرسول ﷺ، ومن أسماء رضى الله عنها.

وشمل وفاء الرسول حاضنته بركته بنت ثعلبة، ومرضعته حليمة السعدية وأخته من الرضاعه (الشيماء) وبناته الأربع، وخاصة زينب، التى تزوجت أبا العاص بن الربيع، وهو ابن خالتها هاله بنت خويلد، وكان حرص الرسول عليه متجلياً فى حلقات متصلة من الحق والوفاء والتقدير إلى أن أنبت هذا الوفاء ثماراً طيباً، تجلت فى خروج أبى العاص من ديانة قومه، ودخوله فى الإسلام، وعودته إلى زينب رضى الله عنها زوجاً مخلصاً وصادقاً وفياً.

٣- وفاء الرسول ﷺ مع جماعات من أصحابه:

كان الوفاء من الرسول ﷺ لأصحابه واضحا جليا لكل المشاهدين والمراقبين لمسيرة الأحداث منذ الاجتماعات المبكرة من عمر الدعوة الإسلامية، والتى انطلقت من دار الأرقم بن أبى الأرقم فى مكة المكرمة، ثم زادت أضواؤها، وانتشرت فى المدينة المنورة، وفى سائر البلدان المفتوحة بالإسلام فى أزمنة تالية، وكان كل صحابى تفتّح قلبه بالإسلام يحب الله ورسوله حبا صادقا، يفوق حبه للآخرين، فعن أنس رضى الله عنه أن رجلاً سأل النبىﷺ عن الساعة فقال: متى الساعة؟ قال: وماذا أعددت لها؟ قال: لا شيئ إلا أنى أحب الله ورسولهﷺ، فقال: أنت مع مَنْ أحببت، قال أنس: فأنا أحب النبىﷺ وأبا بكر، وعمر، وأرجو أن أكون معهم بحبى إياهم، وإن لم أعمل بمثل أعمالهم»[٥].

فالحب الصادق المعبأ بالإخلاص والوفاء ديدن الرسول و أصحابه، وهو الذى يصنع العجائب، ويحقق النصر فى المسيرة الإيمانية، ولا يصح أن يكون الحاصل كُرها وبُغضاً إذ تتطهر العلاقات بالوفاء المنزه من الخداع والزيف والإضلال.

وكان الرسولﷺ يقر بصنائع المعروف من أصحابه البررة، الذى ارتفع بهم لواء الإسلام إلى السماء، وكان يدعو الناس إلى مراعاة تقوى الله فى أصحابه ويحزر من خطورة الإساءة إليهم، وجاء ذلك فى خطاب مباشر رواه أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا أصحابى، فلو أنّ أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نصيفه»[٦] فهم فى القمة التى يعجز الآخرون عن الارتقاء إليها.

وقد اشتمل وفاء الرسول الكثيرين، الذين كانوا خصوما له، ثم انضووا تحت لوائه، فتعاطف معهم، وأشفق عليهم، وتحقق ذلك فى أسرى بدر، وبعض من رغبوا فى عطائه وكرمه.

٤- وفاؤه ﷺ مع أفراد من أصحابه:

أ- كان حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه فارساً من فرسان الإسلام، وسيداً للشهداء، وعماً للرسول وأخا له من الرضاعة، وقد أعلن إسلامه فى مواجهة أبى جهل، وأبلى بلاء حسـنا يوم بدر، واستشهد يوم أحد، إذ

(٢) البخارى ومسلم.
(٣) الناضح: الجمل يستقى عليه.
(٤) أورده كتاب سيرة النبى العربى ج٢ ص ٥٧٠ نقلاً عن البخارى.
(٥) اللفظ للبخارى فى باب فضائل الصحابة (٣٦٨٨).
(٦) اللفظ للبخارى فى باب فضائل الصحابه: (٣٦٧٣)، والمد: مكيال قديم، والمراد من النصيف: النصف أو أنه مكيال اقل من المد، والقصد: الفضل والسعة.

قتله وحشى الحبشى الذى كان غلاماً لجبير بن مطعم، وشهد الرسول عمه صريعاً، فحزن عليه حزنا موجعا لقتله، وذكر جابر بن عبد الله مما أخرجه الحاكم قال: «فلما رأى - أى الرسول - جبهته بكى، ولم رأى ما مثّل به شهق، ثم قال: ألا كفن؟ فقام رجل من الأنصار فرمى بثوب .. فقال جابر رضى الله عنه ... قال رسول الله ﷺ: «سيد الشهداء عند الله تعالى يوم القيامة حمزة رضى الله عنه»[٧] وقال متألما: «والله لأقتلن بك سبعين منهم، فأنزل الله عز وجل:

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾

(النحل: ١٢٦)

فقال الرسول: نصبر يا رب.

وامتد الزمن، وسارت الأعوام، ولم يغفل الرسول عن عمه؛ حزنا عليه، وإحساسا لفقده، ووفاء لبطولته، وجاء وحشى إليه، إذ لم يهنأ بحربته التى كوفئ بها على قتله لسيد الشهداء، وأعلن إسلامه، وحكى قصته، وقال له الرسول: «ويحك غيّبْ عنى وجهك، فلا أرينك» فكان وحشى يتحاشى رسول الله؛ حتى لا يراه، ولحق ﷺ بالرفيق الأعلى، وقلبه معبأ بالحزن الطاغى؛ وفاء وتقديراً، وحسرة على سيد الشهداء رضى الله عنه.

ب- كان الرسول ﷺ عونا لأصحابه على الوفاء بالعهد، وتحقق ذلك فى مواقف كثيرة، منها ما كان من أمر حذيفة بن اليمان وأبيه رضى الله عنهما، فقد رغبا فى الهجرة إلى المدينة بعد هجرة الرسول إليها، فقبض عليهما مشركو مكة وقالوا لهما: إنكما تريدان محمداً أى ترغبان فى الهجرة إليه، فقالا عبارة غائمة من مستلزمات الموقف: ما نريد إلا المدينة، وهما صادقان فى ذلك، ثم أخذ القرشيون عليهما العهود والمواثيق؛ حتى لا يقاتلا مع النبى، وتعاهدا على ذلك، ثم هاجرا، وأورد أستاذنا الدكتور أحمد الشرباصى هذا الموقف، وقال فى عقبه:

« وجاءت غزوة بدر فأرادا - أى حذيفة ووالده - أن يشاركا فيها، وأخبرا النبى بما أعطياه للمشركين من عهد وميثاق، فقال النبى لهما: «انصرفا ... نفى لهم بعهدهم، ونستعين الله عليهم»[٨].

ولم يقاتلا فى غزوة بدر، ثم شاركا فى أحد، وقُتل الوالد بها[٩] رحمه الله رحمة واسعة.

ومثلُ حذيفة وأبيه كثيرون كأنس بن النضر، الذى منعه الوفاء بالعهد من أن يشهد بدراً، ثم شهد أحداً، وأصيب بها ببضعة وثمانين جرحاً فغابت معالمه، ولم تعرفه أخته إلا بعلامة كانت فيه، رحمهم الله جميعا؛ جزاء إخلاصهم لدينهم، ووفائهم بعهودهم ومواثيقهم، التى أقرهم الرسول عليها، سواء أكانت بحق المسلمين أم كانت مع غيرهم، وجاء ذلك اقتداء برسول الله ﷺ، وسيرا على منهاجه فى الصدق والإخلاص والوفاء.

(٧) تراجع بعض التعليقات فى حياة الصحابة للكاندهلوى ج (١) ص ٤٠٩.
(٨) موسوعة أخلاق القرآن ج٢، ص ٢٠١ (يراجع صحيح مسلم).
(٩) انظر أسد الغابة ج ١ ص ٤٦٨ (طبع دار الشعب).

الشورى فى معركة البناء (٧)

إلزامية الشورى ومسألة الأغلبية

د/ أحمد الريسونى

مراعاة الأغلبية فى السيرة النبوية

مثلما تقدم عن القرآن الكريم، فإن السنة والسيرة النبوية ليس فيها شىء صريح بمراعاة الأكثرية واتباع قولها والأخذ برأيها، كما ليس فيها تصريح بضد ذلك. ولكن التطبيقات الشورية النبوية قوية فى ثبوتها وفى دلالتها على أن الشورى تنتهى إلى اعتماد رأى الأكثرية من المستشارين والعمل بمقتضاه. وفيما يلى أمثلة ذلك.

غزوة بدر

لما علم النبى ﷺ بأن قريشا قد تجهزت لقتال المسلمين، استشار الصحابة فى شأن الاستعداد لملاقاة قريش ومناجزتها. فتكلم أبو بكر وعمر والمقداد بن عمرو، وكلهم أيدوا الرأى النبوى لمواجهة قريش، ولكن هؤلاء الثلاثة كانوا كلهم من المهاجرين، وكان ﷺ يريد أيضا معرفة رأى الأنصار، فاستمر يقول: «أشيروا علىّ أيها الناس». قال ابن إسحاق: «وإنما يريد الأنصار، وذلك أنهم عدد الناس»[١] أى أكثريتهم.

فرسول الله ﷺ لم يرد أن يدخل المعركة حتى يضمن التأييد والاستعداد من جمهور أصحابه من المهاجرين والأنصار، ولكن من الأنصار بالدرجة الأولى؛ لأنهم هم «عدد الناس» كما عبر ابن إسحاق.

فلما ضمن ذلك وتأكد منه، بتصريح سادتهم وزعمائهم أمر بالانطلاق قائلا: «سيروا وأبشروا فإن الله تعالى قد وعدنى إحدى الطائفتين، والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم»[٢].

وفى نهاية المعركة وجد المسلمون بأيديهم عددا من الأسرى المشركين، ولم يكن قد نزل فى حكم المسألة شىء، فاستشار النبى ﷺ الصحابة مرة أخرى.

جاء فى صحيح مسلم، من رواية عمر بن الخطاب قال: «فقال أبو بكر: يا نبى الله، هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية، فتكون لنا قوة على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام. فقال رسول الله ﷺ: ما ترى يا ابن الخطاب؟ قلت: لا والله يا رسول الله، ما أرى الذى رأى أبو بكر. ولكنى أرى أن تمكنا فنضرب أعناقهم... فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها. فهوى رسول

(١) سيرة ابن هشام ٢ / ٦٥٣.
(٢) المرجع السابق ٢ / ٦٥٣- ٦٥٤.

الله ﷺ ما قاله أبو بكر ولم يهو ما قلت. فلما كان من الغد، جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدين يبكيان. قلت: أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما. فقال رسول الله ﷺ: أبكي للذي عرض على أصحابك من أخذهم الفداء. لقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة (شجرة قريبة من النبي ﷺ). وأنزل الله عز وجل:

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (الأنفال: ٦٧)

إلى قوله:

﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ فأحل الله الغنيمة لهم»[٣].

وإذا كانت الرواية تفيد في أولها أن القول الذي أخذ به رسول الله ﷺ - وهو الفدية - كان رأي أبي بكر رضي الله عنه، فإن آخر الرواية واضح في أن أكثر الصحابة كانوا عليه «أبكي للذي عرض على أصحابك... لقد عرض على عذابهم...».

فالرسول ﷺ قد أخذ في هذه النازلة برأي الأغلبية من أصحابه، ولذلك جاء اللوم عاما من الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٦٧ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٦٨ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٦٩ ﴾

(الأنفال: ٦٧ - ٦٩).

قال ابن عاشور: «والخطاب في قوله ﴿ تُرِيدُونَ ﴾ للفريق الذين أشاروا بأخذ الفداء. وفيه إشارة إلى أن رسول الله ﷺ غير معاتب؛ لأنه أخذ برأي الجمهور»[٤].

«وروى أن ذلك كان رغبة أكثرهم»[٥].

واللوم الذي وجهه الله تعالى للصحابة، لم يكن بسبب الرأي الذي أشاروا به في حد ذاته، ولكن بسبب الدافع الذي وراءه، وهو الكسب الدنيوي الذاتي: ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا ﴾.

ولذلك لا يدخل فيه منهم إلا من تحكمت هذه الرغبة في الرأي الذي أشار به.

غزوة أحد

بعد هزيمة قريش في معركة بدر، قام زعماؤها بتعبئة بشرية ومالية واسعة للانتقام ورد الاعتبار. واستشار النبي ﷺ الصحابة، وعرض عليهم رأيه، وهو البقاء بالمدينة ومواجهة هجوم قريش داخلها. غير أن عددا كبيرا من الصحابة لم يحبذوا هذا الرأي، وارتأوا الخروج لملاقاة جيش قريش ومقاتلته خارج المدينة؛ لأن ذلك هو الأليق بشجاعتهم وحماستهم، ولكي لا تظن قريش - أو غيرها - أن عدم خروجهم من المدينة ناجم عن ضعف وخوف. قال ابن العربي: «وقال حمزة، وسعد بن عبادة، والنعمان بن مالك بن ثعلبة، وغيرهم من الأوس والخزرج: أما تخشى يا رسول الله أن يظن عدونا أنا كرهنا الخروج إليهم جبنا، فيكون هذا جرأة لهم علينا؟ وتكلم الأنصار بمثل ذلك... وتكلم بعض بني الأشهل بمثله، وقال أبو سعد ابن خيثمة نحوه في كلام حسن، وغيره مثله...»[٦].

فما زالوا يتكاثرون ويلحون على فكرة الخروج، حتى قرر النبي ﷺ الاستجابة لهم. فلما تأهبوا للخروج، خشي بعض الصحابة أن يكونوا استكرهوا نبيهم على هذا الخروج، فقالوا له: استكرهناك ولم يكن ذلك لنا، فإن شئت فاقعد صلى الله عليك. فقال رسول الله ﷺ: «ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل، فخرج رسول الله ﷺ في ألف من أصحابه...»[٧].

هذه المشاورة وما نتج عنها وما تبعها، أثارت - في زمننا هذا - نقاشات كثيرة حول دلالتها في مسألتنا، وهل يستفاد منها إلزامية الشورى وإلزامية اعتبار الأغلبية، أم يستفاد منها عكس ذلك؟

لقد قرئت «مشاورة أحد» وفهمت على الوجهين معا، من خلال قراءتين مختلفتين:

● قراءة ظاهرة - وليست ظاهرية - وهي أن الرسول ﷺ تنازل عن رأيه لرأي الأكثرية من أصحابه، ومضى الأمر على ذلك بلا نقض ولا نسخ ولا مؤاخذة، بل نزل بعدها مباشرة قوله تعالى:

﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾.

(آل عمران: ١٥٩)

● قراءة تأويلية، مفادها أن اتباع الأغلبية المخالفة لرأي الإمام مسلك غير صحيح وغير سليم، وأن الهزيمة التي لقيها المسلمون في هذه الغزوة جاءت درسا وعبرة «وموعظة باقية للمسلمين حتى لا يخالفوا إمامهم في رأي يصر عليه ويرتضيه، متوهمين بإلزامية الشورى، أو متعللين برأي الأغلبية»[٨].

وإنما اعتبرت هذه القراءة تأويلية؛ لأنها تركت الدلالة الظاهرة الواضحة للواقعة، وذهبت تفترض الافتراضات وتحملها ما يقتضي إبطال الدلالة الظاهرة.

فقد افترضوا أن رسول الله ﷺ كان مصرا على البقاء بالمدينة، وليس هناك ما يدل على هذا «الإصرار». وكل ما في الأمر أنه أبدى رأيه، فلما كثر القائلون بالرأي الآخر، وتحمسوا له، صار إليه وأخذ به.

وافترضوا أن هزيمة المسلمين في أحد كانت بسبب الخروج الذي نادت به الأغلبية، فجاءت الهزيمة لتلقنهم درسا قاسيا، وتكون تحذيرا لمن بعدهم...

والحقيقة أن هذا الافتراض هو أقرب شيء إلى الافتراء، إذ من المعلوم قطعا أن سبب الهزيمة لا علاقة له بالخروج، ولم يذكر ذلك أحد من الصحابة الذين عاشوا الأحداث، ولم يذكر ذلك رسول الله ﷺ، الذي لا يترك فرصة للتنبيه والتعليم والتربية إلا اغتنمها. بل القرآن الكريم نفسه قد تطرق بتفصيل إلى هذه الغزوة وتداعياتها، دون أن يذكر شيئا من هذا التأويل.

من جهة أخرى، فإن سبب الهزيمة معلوم مذكور في كافة كتب السيرة، وعدد من كتب الحديث، وهو المخالفة التي ارتكبها الرماة الذين أمرهم القائد ﷺ أن يلزموا الجبل، ولا ينزلوا منه - مهما يكن سير المعركة - إلا بأمره. ولكنهم لما رأوا انتصار المسلمين في الجولة الأولى، ظنوا أن المعركة قد حسمت، ولاحت لهم الغنائم الوفيرة، فعصوا ونزلوا...

(٣) صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة وإباحة الغنائم.
(٤) التحرير والتنوير ١٠ / ٧٥.
(٥) التحرير والتنوير ١٠ / ٧٣.

(٦) عارضة الأحوذي ٧ / ٢١٠.
(٧) سيرة ابن هشام ٣ / ٨٤١.
(٨) هويدي، حسن. الشورى في الإسلام، ص ١٣.

ومثل هذه المخالفة لا علاقة لها بالخروج، وكان يمكن أن تقع - أو يقع غيرها من المخالفات - في أى مكان وفى أى وضع.

ونستطيع أن نقول - بلا تأول ولا تعسف -: إن قرار الخروج قد أدى إلى نصر مبين وسريع. وهذا أيضا أمر مذكور ومسلم فى كتب السيرة والحديث. ثم دارت الدائرة بعد ذلك بسبب الخطأ الجسيم الذى وقعت فيه فرقة الرماة الذين كانوا على موقع كبير من الأهمية والخطورة، فلما أخلوه انقلبت الأمور، وكل ذلك مفصل فى مظانه فلا أطيل بسرده.

غزوة الخندق (غزوة الأحزاب)

فى هذه الغزوة تحالف المشركون واليهود والمنافقون، لأجل استئصال المسلمين. وقد حاصروا المدينة حصارا شديدا، أصبح معه المسلمون فى محنة بلغت منهم كل مبلغ، كما صورها القرآن الكريم:

﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (١١)﴾

(الأحزاب: ١٠، ١١)

أمام هذا الوضع العسير والعصيب، فكر النبى ﷺ فى طريقة لكسر هذا الطوق وإحداث ثغرة فيه. فلجأ إلى أضعف حلقاته وأقلها حرصا عليه، وهى قبيلة غطفان. فساومهم وانتهى معهم إلى أن ينسحبوا ويهادنوا المسلمين مقابل ثلث ثمار المدينة لتلك السنة، ولكنه جعل تنفيذ الاتفاق معلقا على مشاورة أصحابه، وبالذات زعماء المدينة (أى الأنصار)، لأن الثمار التى ستدفع لغطفان إنما هى ثمارهم، فلذلك قال ﷺ «حتى أستأمر السعود»[٩]، يقصد سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، وسعد بن مسعود، وسعد بن خيثمة. فلما سمع هؤلاء مشروع الاتفاق ومضمونه، وعلموا أنه ليس وحيا من الله تعالى، ولا هو رغبة للنبى ﷺ، وأنه إنما يريد بذلك تخفيف محنتهم وكسر طوق الحصار عنهم، لما علموا هذا وفهموه قالوا - على لسان سعد بن معاذ -: «يا رسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها إلا قرى أو بيعا، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا إليه، وأعزنا بك وبه، نعطيهم أموالنا؟! والله ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم، قال رسول الله ﷺ: «فأنت وذاك» فتناول سعد بن معاذ الصحيفة، فمحا ما فيها من الكتاب ثم قال: ليجهدوا علينا»[١٠].

ففى هذه النازلة نجد النبى ﷺ قد فكر ودبر، وهيأ حلا يخفف به محنة المسلمين، وفاوض وانتهى إلى اتفاق أولى مع زعماء غطفان، لكنه - قبل إمضائه وتنفيذه - عرضه للشورى، وانتهى به الأمر إلى التخلى عن رأيه وتدبيره، والأخذ برأى مستشاريه الذين يمثلون جمهور المسلمين من أهل المدينة.

(٩) العلي، إبراهيم. صحيح السيرة النبوية، ص٣٦١.
(١٠) سيرة ابن هشام ٣ / ١٠٣٣ - ١٠٣٤. وانظر البداية والنهاية لابن كثير ٤ / ١٠٦.

من عيون التراث

التعريف بالمؤلف: هو الشيخ محمد الخضرى بك، عمل فى السودان بكلية جوردون، مدرسا للطلبة الذين يؤهلون للعمل كقضاة بمحاكم السودان الشرعية. كما عمل بمدرسة القضاء الشرعى فى مصر، ومفتشا بوزارة المعارف، ثم عمل مدرسا للتاريخ الإسلامى فى الجامعة المصرية.

عرض الكتاب: يقع الكتاب فى (٣٩١) صفحة، أفردها المؤلف للحديث عن موضوع أصول الفقه وتعريفه، واستمداده والغاية منه. وقد قسم الكتاب إلى أربعة أقسام أو بتعبير الكاتب أربعة كتب، كل كتاب يختص بقضية فقهية معينة، كالتالي:

- **الكتاب الأول:** فى الأحكام.
- **الكتاب الثانى:** فى طريق الاستنباط.
- **الكتاب الثالث:** فى الأدلة.
- **الكتاب الرابع:** فى الاجتهاد.

فقد خصص الكتاب الأول للحديث عن الأحكام، فيعرِّف الحكم ويقسمه إلى تكليفى ووضعى، والحاكم والمحكوم فيه، وهو فعل المكلَّف، والمحكوم عليه وهو المكلَّف. كما يتكلم عن الواجب وتقاسيمه، وعن الأداء والقضاء والإعادة، وحكم الرخصة.

وقد ورد فى الكتاب الأول بعض المدلولات النفسية؛ حيث يذكر فى ص (٦) فى سياق كلامه عن الفهم، أنه «الفهم فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا سنة، فاعرف

كتاب (أصول الفقه)

تأليف/ الخضرى محمد
القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى
(١٩٦٩م) (ط٦)

الأشباه والأمثال، وقس الأمور عند ذلك، واعمد إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحق» وهذا المعنى قريب إلى مفهوم التفكير الاستدلالى Reasoning Thinking.

كذلك يورد فى ص (١٣) لفظ علم الجدل Argumentation ويقصد بها «القواعد التى يتوصل بها إلى حفظ رأى أو هدمه، سواء أكان حكما شرعيا أم لا».

كما يذكر فى ص (٣٩) كلمة الأداء Performance «الأداء فعل الواجب فى الوقت المقدر له شرعا».

كذلك أورد فى ص (٧٧) تعريف لكلمة القدرة Ability «فالقدرة لا تكون إلا مع الفعل، وأن القدرة هى مناط التكليف» ويذكر فى موضع آخر بنفس الصفحة «أن القدرة على الفعل شرط التكليف فلا تكليف بممتنع».

وفي ص (٧٨) تعريف الشاق من الأعمال (المشقة Stress) فيذكر «أن من الأعمال ما يدخل تحت مقدور المكلف ولكنه يشق عليه فعله. ويقسّم العمل الشاق إلى ضربين في ص (٧٩):

- **الأول:** ما يكون خارجا عن المعتاد في الأعمال بحيث يشوّش على النفوس تصرفها ويقلقها في القيام بما فيه تلك المشقة.
- **الثاني:** ألا تكون المشقة فيه واصلة إلى حد الضرب الأول، ولكن نفس التكليف به زيادة على ما جرت به العادات قبل التكليف به فهو شاق على النفس؛ ولذلك أطلق عليه لفظ التكليف؛ إذ هو في اللغة يقتضي معنى المشقة.

وفي ص (٨٩) يقدم وصفا لأعراض السُّكر (التسمم الكحولي Alcolism) فيقول: «أن يتحاشوا الصلاة إذا سكروا وصارت ذاكرتهم لا تحافظ على نظام الآي؛ فالآية خطاب لقوم يعقلون ويفهمون، بدليل قدرتهم على قصد الصلاة وأداء أركانها، وغاية أمرهم أن حافظتهم ضعفت عن استحضار الآيات غير مشوشة. والآية تشير إلى الكف عن شرب الخمر؛ لأن حال النشوة Flation تلزمهم ألا يصلوا وهم مأمورون أن لا يُخرجوا الصلاة عن وقتها ولا يدرون متى يصحون».

ويذكر في موضع آخر في ص (٩٨) تعريفا آخر للسُّكر (التسمم الكحولي) بأنه «غيبة العقل من خمر أو ما يشبهه حتى يختلط الكلام ويحصل الهذيان Deliruim».

ثم يتكلم في ص (٩١) عما نسميه الآن مراحل الارتقاء؛ حيث يذكر «أنه لما كان الإنسان يتقلب في أدوار بالنسبة لاستقلاله وعقله، رأى الحنفية أن يذكروا أحكامه من بدء تكونه إلى تمام عقله، فقسموا حياته إلى أدوار أربعة:

- **الدور الأول:** دور الجنين Fetus.
- **الدور الثاني:** دور الانفصال إلى التمييز Infantile Period «أي متى انفصل الجنين حيا ثبت استقلاله».
- **الدور الثالث:** دور التمييز إلى البلوغ Adolrscence Period.
- **الدور الرابع:** دور ما بعد البلوغ Adulthood Period.

ويرد في ص (٩٤) بعض المفاهيم النفسية أثناء تعريفه لعوارض الأهلية، ومنها:

الجنون (الذهانية) psychoticism «وهو اختلال في العقل يمنع جريان الأفعال والأقوال على نهجه».

وفي ص (٩٥) العته Dementia «وهو اختلال في العقل بحيث يختلط كلامه فيشبه مرة كلام العقلاء ومرة كلام المجانين، وكذا سائر أموره».

وفي نفس الصفحة ورد مفهوم النسيان Forgetting «وهو عدم استحضار الشيء (في الذهن) في وقت الحاجة إليه».

وفي ص (٩٦) ورد مفهوم النوم Sleeping «وهو عارض يمنع فهم الخطاب فأوجب تأخير خطاب الأداء».

وورد الإغماء Coma «وهو عارض يمنع فهم الخطاب فوق منع النوم له، فلزمه ما لزم النوم».

وورد في ص (١٠٦) مفهوم الإكراه Compel ويعرّفه بأنه «حمل الإنسان غيره على ما لا يرضاه قولا أو فعلا بحيث لو خلّي ونفسه لما باشره».

كذلك ورد مفهوم الاختيار Selection في نفس الصفحة ويعرفه على أنه «ترجيح فعل الشيء».

وكذلك الرضا Satisfaction وهو «ارتياح إلى فعل شيء».

أما الكتاب الثاني فيخصصه للكلام في كيفية استثمار الأحكام من الألفاظ والدلالات، كما يتحدث عن الأمر والنهي.

وبالنسبة للكتاب الثالث فهو عن أدلة الأحكام التفصيلية، ويقسمها إلى أدلة شرعية ـــ لا تنافي قضايا المعقول ـــ وأدلة نقلية، وأدلة عقلية. كما يتحدث عن السنة والسند وشرائط الراوي، ويتحدث أيضا عن مجال الاجتهاد ومجال القياس، الذي يقسمه بدوره إلى خفي وجليّ.

وقد ورد في هذا الجزء (من الكتاب) في ص (٢٣٧) مفهوم التأسي Modeling «وهو أن تفعل مثل ما يفعل الرسول ﷺ، على الوجه الذي فعله لأجل الاقتداء به».

ثم يختتم الكتاب بالكتاب الرابع، والذي يخصصه للكلام عن الاجتهاد والتقليد، فيذكر حكم الاجتهاد وشروطه، ووجوب الاجتهاد وحرمة التقليد.

الخلاصة: ورد في هذا الكتاب الإشارة إلى المفاهيم النفسية الآتية:

التفكير الاستدلالي	Reasoning Thinking
علم الجدل	Argumentation
الأداء	Performance
القدرة	Ability
المشقة	Stress
السُّكر (التسمم الكحولي)	Alcoholism
النشوة	Flation
الهذيان	Deliruim
دور الجنين	Fetus
دور الانفصال إلى التمييز	Infantile Period
دور التمييز إلى البلوغ	Adolescence Period
دور ما بعد البلوغ	Adulthood Period
الذهانية	Psychoticism
العته	Dementia
النسيان	Forgetting
النوم	Sleeping
الإغماء	Coma
مفهوم الإكراه	Compel
مفهوم الاختيار	Selection
الرضى	Satisfaction
الاقتداء	Modeling

القائم بالعرض

د/ نرمين عبد الوهاب

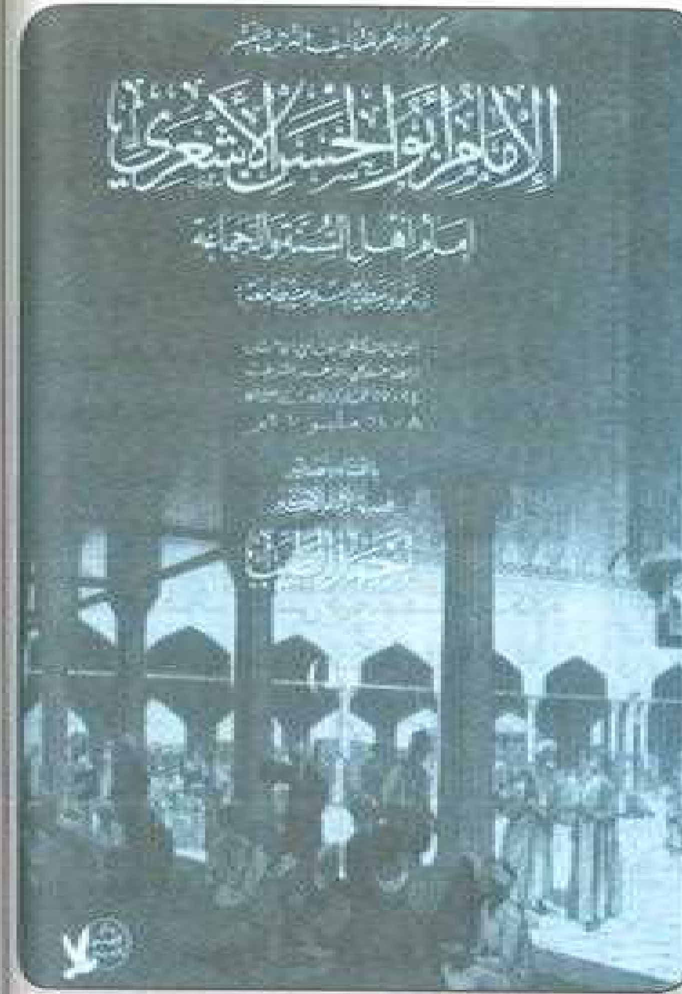
قراءة في كتاب

منذ سنوات عديدة مضت وقفتُ أمام أحد قصور الثقافة حيث كانت تُعرض مسرحية بعنوان: «محاكمة بشر الحافي» وكانَ السؤال الذي ألَمّ بي: مَن ذا الذي سيحاكم ذلك الزاهد؟ وعلى أي شيء سيحاكمه؟! ولم يدر بخلدي أن الشهرستاني قد نقل إلينا ما هو أشد؛ فقد ذكر في كتابه الملل والنحل أن أبا موسى الأشعري رضي الله عنه جرت بينه وبين عمرو بن العاص مناظرة، حيث قال عمرو: أين أجد أحدًا أحاكم إليه ربي؟ فقال أبو موسى: أنا ذلك المتحاكم إليه. فقال عمرو: أو يُقدِّر عليّ شيئًا ثم يعذبني عليه؟ قال: نعم. قال عمرو: ولِمَ؟ قال: لأنه لا يظلمك. فسكت عمرو ولم يحر جوابا.

بهذه الإجابة استطاع أبو موسى الأشعري أن يلزم مناظره الحجة ويأخذ بيده إلى طريق النور.

وعلى نفس المنوال كان يعمل أبو الحسن الأشعري؛ لينير الطريق للإسلاميين بوضع البراهين والدلائل العقلية والكلامية التي من شأنها أن تقرب بين الآراء المتقابلة وتهذب من غلواء الطرفين.

فوجدنا من يصفه بأنه لم يكن صاحب



بقلم/ أ. عادل خفاجة

مذهب مبتكر، وإنما يقف دوره عند حد التوفيق.

في حين وصفه آخرون بأنه صاحب مذهب جديد بل وعدُّوه أحد المجددين في الإسلام.

فإلى أين ستتجه قناعة القارئ؟!

هذا ما سنستخلصه من ذلك البحث القيم الذي أعده البحاثة الكبير الأستاذ الدكتور محمد السليماني وهو أحد بحوث أعمال الملتقى العالمي الخامس لرابطة خريجي الأزهر الشريف الذي يضمه كتاب (الإمام أبو

الحسن الأشعري إمام أهل السنة والجماعة – نحو وسطية إسلامية جامعة)، الصادر عن دار القدس العربي – بالقاهرة، وقد ساهم في طباعته مركز الأزهر للتأليف والترجمة والنشر في طبعته الأولى سنة ١٤٣٤هـ / ٢٠١٤م.

ففي هذا البحث الذي جاء تحت عنوان (الإمام الأشعري في الدراسات العربية) يرصد الدكتور السليماني بشكل دقيق الأقوال التي قيلت عن الإمام الأشعري ويسجلها مرتبة زمنيًا وفقًا للسنة التي قيلت فيها.

ويأخذ الباحث من كلام جمال الدين الأفغاني نقطة انطلاق لحديثه عن الدراسات العربية الحديثة التي تناولت الإمام الأشعري، حيث يشير إلى ترك الأشعري مذهب المعتزلة، واشتغاله بتتبع آثار السلف الصالح ونشر مذهبهم وهدم قواعد المعتزلة وأهل البدع والأهواء.

ويشير الباحث إلى تشوق الإمام محمد عبده إلى رؤية كتب أبي الحسن الأشعري بين أيدي طلاب العلوم الإسلامية.

وأنه كان كثير الشكوى من وضعية الدراسات الدينية في عهده فكتب تحت عنوان (إهمال آثار السلف وحال علوم الدين وطلابها):

«أهمل المسلمون علوم دينهم والنظر في أقوال سلفهم، حتى إنك لا تجد اليوم في أيديهم كتبًا من كتب أبي الحسن الأشعري، ولا أبي منصور الماتريدي، ولا تكاد ترى مؤلفًا من مؤلفات أبي بكر الباقلاني أو أبي إسحاق الإسفراييني، وإذا بحثت عن كتب هؤلاء الأئمة في مكاتب المسلمين أعياك البحث ولا تكاد تجد نسخة صحيحة من كتاب».

كما يرصد السليماني أول كتاب يطبع للإمام الأشعري وهو (الإبانة عن أصول الديانة) قدمته المطابع الهندية سنة ١٣٢١هـ / ١٩٠٣م. وفيه يقول الناشر عن الإمام الأشعري كلامًا عظيمًا ويصفه بأوصاف باهرة؛ ليثبت أنه إمام المتكلمين وناصر سنة سيد المرسلين.

ويشير بالبحث إلى أن الشيخ حسين والي مؤلف كتاب التوحيد، الذي نُشر في عام ١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م قد تكلم عن مجيء الأشعري وتأليفه كتبًا في علم التوحيد، وتوسطه بين السلف وبين مخالفيهم، وإثباته العقائد على قواعد النظر، وارتياب فريق في أمره، وذهاب جماعة إلى القول بكفره، وارتياح فريق آخر له، وسمّوا رأيه بمذهب أهل السنة والجماعة.

أما جرجي زيدان فقد أفرد مبحثًا عن علم الكلام في كتابه (تاريخ آداب اللغة العربية) وذكر أنه في وسط يموج بمذاهب القدرية والجهمية والمعتزلة والكرامية... وغيرها، ظهر أبو الحسن الأشعري فسلك طريقًا وسطًا، بين النفي الذي هو مذهب الاعتزال، وبين الإثبات الذي هو مذهب أهل التجسيم، فمال إليه جماعة، وعولوا على رأيه لما فيه

من التسوية بين سائر الآراء، ووافقه جماعة كبيرة من نخبة علماء تلك الأعصر، وهم الأشعرية.

ونرى حيادية الباحث - وهو الذي يعتز بأشعريته - حين يعلق على هذا الرأي مثبتًا الرأي الآخر حيث يقول: «هذا الموضع مما انتقده الشيخ أحمد عمر السكندري المتوفى ١٣٥٧هـ / ١٩٣٨م قال: «كيف يُعقل أن مذهبًا يسوي بين آراء كل الطوائف، وفيهم من يناقض مذهبه مذهب الآخر؟! وغاية الأمر أنه اعتدل بين مذهبي المعتزلة والسلفية من أهل السنة».

غير أن الباحث في موضع آخر انتقد بدوره الشيخ محمد رشيد رضا حين جلب نصوصًا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية «في موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول» فيها نقد صريح للإمام الأشعري ويقول معلقًا على ذلك:

وبهذا نجد أن الشيخ محمد رشيد رضا قد أحدث في العصر الحديث نقبًا دخل منه الرامحون، فأصبح الإمام الأشعري هدفًا سهلًا لكل طالب علم مبتدئ، وإلى الله المشتكى.

ويثبت الباحث الكبير أيضًا معارضة الشيخ رشيد رضا، تلك المعارضة الصريحة التي يقول فيها: «يمكن رد نظريات الشيخ الأشعري ونظريات شيخه معًا من وجوه أخرى على مذهب السلف الذي هو الأخذ بظواهر النصوص، من أن الثواب بالإيمان والعمل، وأن الأحكام الشرعية مبنية على الحكمة، ومعللة بما يرجع إلى درء المفاسد وجلب المصالح».

غير أن الباحث عاد لينتصف للأشعري حين أثبت نصًا ورد في سنة ١٣٥٠هـ / ١٩٣١م يصف الشيخ رشيد رضا الإمام الأشعري بأنه مجدد القرن الرابع.

ومن مجرد الإشارة التي وردت في مادة «الأشعري» بدائرة معارف القرن الرابع عشر التي وضعها الأستاذ الكبير محمد فريد وجدي وجاء فيها أنه الأصولي المشهور ناصر السنة على مذهب الاعتزال»

إلى الإعجاب الشديد بالإمام الأشعري حيث ينقل شكيب أرسلان في كتابه «حاضر العالم الإسلامي» عن دائرة المعارف الإسلامية قولها: «إنه يعود إليه الفضل في استعمال المنطق في العقيدة، خلافًا لعلماء الإسلام الأولين، وأنه بذلك تمكن من مناظرة المعتزلة وسائر أهل البدع، فهو بالفعل واضع الفلسفة العقلية الإسلامية، أي علم الكلام ثم يؤكد الأمير على أن الإمام الأشعري بعد أن اعتزل الاعتزال، صار ناصرًا للسنة، حتى صار نصف المسلمين تقريبًا أو أكثر أشعرية في علم الكلام.».

وتتفق الآراء وتدور حول سر نجاح الإمام الأشعري في مقارعة أهل الأهواء والبدع وأن سر ذلك معرفته بأساليب الخصم لأنه كان يرد عليهم بالأمور العقلية والمقدمات الفلسفية والأقيسة المنطقية.

ومن كتاب «تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري» يؤكد الشيخ محمد زاهد الكوثري أن دور الإمام الأشعري كان في نصرة السنة وقمع البدعة وأن سعيه كان من أجل إرجاع المتطرفين عن التطرف، ومن ذلك قوله: «أنتم على الحق إذا كنتم تريدون بخلق القرآن اللفظ والتلاوة والرسم، وللآخرين: أنتم مصيبون إذا كان مقصودكم بالقديم الصفة القائمة بذات البارئ غير بائنة منه، وليس لكم مجال أن تنكروا حدوث لفظ اللافظ وتلاوة التالي».

ويقول الكوثري أيضًا، وإمام السنة أبو الحسن الأشعري لما رأى ما أحدق بالإسلام من الأخطار من شرار المبتدعة جاهد معتزلة البصرة ومشبهتها فقمعهم، ثم دخل بغداد، وسعى بكل حكمة أن يتدرج بمتقشفة الحشوية إلى معتقد السنة، بكتاب «الإبانة» الذي ألفه أول ما دخل بغداد وليس هو آخر مؤلفاته كما يلهج به متأخرو الحشوية وثبت في جهاده ثبات المخلصين، حتى وفقه الله لجمع كلمة المسلمين»

وننتقل بين صفحات هذا البحث الممتع الذي يعد كتابًا قائمًا بذاته، فهو أكبر بحوث الملتقى حيث بلغت صفحاته مائة وستون وثلاث صفحات والذي ضم أقوال وآراء الكثير من أعلام الفكر الإسلامي ومنهم الإمام الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين الذي قال عن مذهب الإمام الأشعري في أصول الدين: إنه لم يأت بجديد وإنما صار إلى مذهب السلف، وما كان عليه الأئمة الراشدون فقام بتأييده والنضال عنه، وإنما ينسب إليه المتمسكون بمذهب أهل السنة، لأنه زاد المذهب حججًا، وألف فيه كتبًا كثيرة.

وعن مذهبه في الأحكام العملية ... ذكر الإمام الأكبر أن أبا الحسن الأشعري لم يؤلف في الأحكام العملية ما يستفاد منه أنه مستقل النظر في الأحكام أو أنه مقتد بأحد الأئمة».

غير أن البحاثة النشط لم يقدم كلمة الشيخ الخضر حسين السابقة إلا وقد سبقها بقول آخر للشيخ الخضر تنطق بعظم فضل الإمام الأشعري حيث قال: «إن من يستطيع أن يجاهد فيقلب أمما كثيرة من وجهة إلى أخرى، جدير بأن يعد في أعظم الرجال».

وننتقل إلى كتاب الإمام محمد أبو زهرة «تاريخ الجدل» الذي يرى فيه:

١ - أن الأشعري يرى أن يأخذ بكل ما جاء به الكتاب والسنة من عقائد، ويحتج لها بكل وسائل الإقناع والإفحام.

٢ - أنه يأخذ بظواهر النصوص في الآيات الموهمة للتشبيه، من غير أن يقع في التشبيه.

٣ - أنه يرى أن أحاديث الآحاد يحتج بها في العقائدوهي دليل لإثباتها.

٤ - أنه في آرائه كان يجانب أهل الأهواء جميعا والمعتزلة ويجتهد في ألا يقع فيما وقع فيه كثير من المنحرفين.

ومن كتاب «تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية» للإمام الأكبر مصطفى عبد الرازق

تجد أن الإمام الأشعرى في نظره: «هو أول من عرض لنصرة عقائد أهل السنة بالبراهين العقلية وأخذ في مجادلة مخالفيهم، خصوصا المعتزلة، اعتمادا على العقل والنقل، فنصر العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، فدشن بهذه الطريقة عهدا جديدا تزلزل معه سلطان الاعتزال».

أما الشيخ عبدالله مصطفى المراغي فقد أشار إلى مذهبه الفقهي ولم يستبعد أن يكون الإمام الأشعري مجتهدا في المذهب، لأن كتبه في أصول الدين تشهد له بعدم التقليد في الفروع، وأنه كان مستقلا في فهم النصوص واستنباط الأحكام منها في أصول العقائد وفروع العبادات والأحكام، حتى أصبح زعيم المذهب المناصر للسنة والمدافع عنها.

وفي مجلة الأزهر من اثنين وستين عاما في باب وصف الكتب عرض الأستاذ محب الدين الخطيب رئيس تحرير مجلة الأزهر كتاب «أبو الحسن الأشعري» لحمودة غرابة، وعدّ أنه آن الأوان لدراسة حياة أبي الحسن واستعراض أعماله؛ لأن حياته حقل خصيب لدراسة التطور الفكري في أعلام المسلمين.

وفي سنة ١٣٧٧هـ - ١٩٥٨م نشرت محاضرات الشيخ أبي الحسن الندوي والتي أوضح فيها: «أن سر عظمة الإمام الأشعري وعبقريته تكمن في أنه خط طريقا وسطا، فأعاد إلى نفوس وعقول كثيرة الثقة بهذا الدين والإيمان به من جديد؛ لأن هذا الدين وعقيدته الواضحة مؤيدان بالعقل وأن العقل الصحيح يؤيد الدين الصريح، ولا صراع بينهما ولا تناقض.

وركز الشيخ الندوي على موقف الأشعري المؤيد لعلم الكلام، إذ كان يعتقد أن النبي صلى الله عليه وسلم، وأصحابه لم يسكتوا عن مسائل الكلام جهلا، بل لأن هذه المباحث ما نشأت في عصرهم، فتأمل فيها الفقهاء والمجتهدون وأبدوا رأيهم فيها، واستنبطوا وفرعوا وحلوا المشاكل الجديدة، وبذلك عصموا الأمة والجيل الجديد من الإلحاد والفوضى في العمل»

وينشر الشيخ محمد أبو زهرة في سنة ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م مقالا بعنوان «أبو الحسن الأشعري» يستعرض فيه الحالة العقدية التي كانت سائدة أيام الإمام الأشعري، وإذ اتسعت فرجة الخلاف في الفكر الإسلامي بين الفقهاء والمحدثين وبين المعتزلة، وكان لا بد بحكم المنطق -في نظر الشيخ- من وجود أناس يتوسطون بين الفريقين، ويخرجون بمنهاج بين المنهاجين، وكان على رأس هؤلاء الإمام الأشعري.

ومن محاضرة للشيخ الفاضل محمد بن عاشور بعنوان: «المذاهب الأربعة بين الأثر والنظر» تجد أن الشيخ ابن عاشور يرصد بداية التلاقي الزائد بين المالكية والشافعية يقابله نوع من الفتور فيما بينهما معا وبين الحنابلة من الطرف الآخر.

ويتابع الشيخ ابن عاشور عرض تطور المذاهب السنية، وما ظهر من تقارب بين أتباع المذهب الحنفي وبين أتباع المذهبين المالكي والشافعي في الموقف الكلامي؛ ليستنتج الشيخ ابن عاشور من هذا التقارب تقاربا حدث من الحنفية مع المالكية والشافعية، فأصبحت المذاهب الثلاثة: الحنفية - باعتبار كونهم أتباعا للماتريدي - والمالكية والشافعية باعتبار كونهم أتباعا للأشعري، أصبحوا واقفين في موقف يقابل موقف الحنابلة الذين تمسكوا بأنهم حنابلة، وبأنهم أتباع لأحمد بن حنبل فيما قاله، لا يحيدون عنه، ولا يتبعون غيره، كما فعل الحنفية إذ اتبعوا الماتريدي، أو فعل المالكية والشافعية إذ اتبعوا الأشعري.

ويشير الدكتور السليماني إلى أنه في سنة ١٣٩٠هـ - ١٩٧١م نشر الأستاذ مصطفى الشكعة كتابه ذائع الصيت «إسلام بلا مذاهب» بين فيه كيف استطاع الأشعري أن يصدر أحكاما في قضايا العقائد في جو من الاعتدال والصفاء بعيدا عن التهور والاندفاع»

أما الشيخ عوض الله حجازي فيرى أن الإمام الأشعرى - شأنه شأن كثير من الموفقين- لم يكن صاحب فكرة جديدة ولا مذهب مبتكر، بل كان جلّ همه أن يقرب بين الآراء المتقابلة، وأن يقف منها موقفا وسطا، مهذبا حدة المعتزلة تارة، وغلو السلف تارة أخرى.

ويصل الدكتور السليماني إلى بيت القصيد حين سلط الضوء على ما حكاه الشيخ ابن عاشور من خبر الإمام حيث يقول:

« ونشأ في القرن الرابع رجل ثالث بين الواقف والسادر، وهو الذي تسميه الماشي المتئد، وهذا الماشي المتئد هو الذي يتمثل لنا في طريقة الإمامين الأشعرى والماتريدي، وهي الطريقة التي ابتنيت على أصول عميقة الجذور في معنى الحكمة ... فكانت البحوث التي قام بها الأشعري والتي انتهى بها إلى نظريات تعد مبتكرة ....

وبذلك تطور علم الكلام من الكلام الاعتزالي إلى الكلام السني وبدأ الناس يقبلون عليه، فأقبل عليه الذين كانوا واقفين، وتراجع كثير من السادرين، إقبالا وتراجعا كانا قاضيين بأن لا يأتي القرن السادس حتى تكون الطريقة الأشعرية هي المهيمنة على العالم الإسلامي.

ثم يسرد الباحث عددا كبيرا من آراء الكتاب في الأشعري في عجالة فقد آن له أن يستريح بعد أن اطمأن إلى بلوغ المرام.

فقد طوف بنا بين الكتب التي تناولت الإمام أبي الحسن الأشعري في استقصاء شامل استوعب الفترة من سنة ١٢٩٢هـ حتى سنة ١٣٩٩هـ أي ما يزيد عن المائة عام.

عرض في بحثه كل ما وصلت إليه يده من أقوال الكتاب والباحثين والمفكرين منقبا عن هذه الآراء في العديد من الكتب والمجلات والمعاجم.

ليصل بالقارئ إلى أن الإمام الأشعري يستحق عن جدارة لقب إمام أهل السنة والجماعة.

تأملات فى السيرة

صلح الحديبية (٥)

لفضيلة الشيخ / الطاهر الحامدى

تروى كتب السنة أنّ رسول الله ﷺ قبِلَ مشورة سيدنا عمر ابن الخطاب بأنْ يُعفيه من مهمة إرساله لقريش وأنْ يُرسلَ عثمان بن عفان، ودعا رسول الله ﷺ سيدنا عثمان وطلبَ منه أنْ يذهبَ إلى قريش وحدّدَ له مهماتٍ ثلاث فى بعثته.

أولاً: أنْ يُخبر قريشًا بأنهم لم يأتوا لقتال إنما جاءوا مُعتمرين.

ثانياً: أمَرَهُ أنْ يأت رجالاً مؤمنين ونساءً مؤمنات ويُبَشّرهم بالفتح ويُخبرهم أنّ الله تعالى موشكًا أنْ يظهر دينَه بمكة حتى لا يستخفى أحد.

وثالثًا: أنْ يدعو قريشًا للدخول فى الإسلام.

ولمّا مرّ عثمان على قريش خارج مكة قالوا له: أين تريد؟ قال: بَعَثنى رسول الله ﷺ إليكم لأدعوكم إلى الإسلام وإلى الله عز وجل وتدخلون فى الدين كافة فإنّ الله تعالى مُظهِرٌ دينَه ناصرٌ نبيّه، وأنّ رسول الله ﷺ يُخبركم بأنّه لم يأتِ لقتال وإنّما جاء معتمرًا، معه الهَدْىُ عليه القلائد ينحرُهُ وينصرف. فقالوا: لقد سَمِعْنا ما تقول ولا كان هذا أبدًا. ولا دخلها علينا عنوة. فارجع إلى صاحبك فأخبره أنه لا يصل إلينا أبدًا.

وفى ضوء هذا وفى ضوء وصيّة النبى ﷺ إلى عثمان نستطيع أنْ نؤكد أن النبى ﷺ لم يجيء لحرب، ولا أن الإسلام انتشر بالسيف فلا يمكن لقائد جاء لحربٍ أنْ يقول إنّا لم نأتِ لقتال وإنّما جئنا عُمّارًا، والدليل على ذلك أنه لم يكن معه ولا مع أصحابه من آلات الحرب شيء اللهم إلا السيوف فى أغمادها وأنه قلّد الهَدى وساقه أمامه لإعلان نيّته بأنه ما جاء إلا مُعتمرًا، وأيضًا فإنه قال ادعوهم إلى الإسلام، فإذن هى دعوةٌ إلى الإسلام وليست عملاً حربيًا ولا غزوة لقتال، ثم هذه الوصية الثالثة بأنه يأتى رجالاً مؤمنين

ونساءً مؤمنات لم يستطيعوا الهجرة إلى المدينة وليست لديهم منعة أو قوة تُمكّنهم أنْ يُظهروا إيمانهم فأخفوا إيمانهم فبشرهم يا عثمان بأن الله وشيكًا أنْ يُظهر دينه بمكة فلا يستخفى فيها أحدٌ بإيمانه.

ولمّا رفضت قريش دعوة النبى ﷺ إلى الإسلام ونفرت وأعلنوا الحرب لقىَ عثمان إبَان بن سعيد فرحبَ به وأجاره وقال: لا تقصر فى حاجتك، فدخل مكة ثم نزل عن فرسٍ له حَملَ عليه عثمان ورَدِفَ خلفه ثم أنشدَ يقول:

أقبِلْ وأدبِـرْ لا تخفْ أحدًا
بنـو سـعيدٍ أعِـزّةُ الحـرم

فأتى عثمان أشراف قريش فجعلوا يردون عليه فى غلظة وفظاظة: إنّ محمدًا لا يدخل علينا أبدًا. ثم دخل على قوم ونساء يُخفون إسلامهم فبشّرهم بأنّ الإسلام سوف ينتشر بمكة حتى لا يستخفى أحد. ولمّا انتهى عثمان من أداء ما كُلّف به قالت له قريش إن شئت أن تطوف بالبيت فطف، فقال: ما كنت لأفعلَ حتى يطوفَ رسول الله ﷺ. فمكث عثمان يدعوا قريشًا ثلاثة أيام لكنّ طبيعة البشر ونفوسهم ليست على مستوى واحدٍ من الترفع والنقاء، لكنها قد يخلُصُ إليها شيءٌ من الريبة فيسرى فيها خبرٌ تتناقله الألسنة فى ظاهره يبدوا كأنه استفسارٌ جائزٌ معقول لكنّ شياطين الإنس والجن تدخلهُ فى منطقة المحظور فيُصبح شكًا أو ظنًا غير مقبول..

قال الواقفون فى الحديبية خارج مكة: خَلَصَ عثمان بالبيت فطاف به، فقال النبى ﷺ لمّا سمع المقالة وأدرك أنّ فيها ظلالاً من الظنّ، قال ﷺ: (ما أظنّه طاف بالبيت ونحن محصورون) فقالوا: وما يمنعه أن يطوف بالبيت وقد خَلَصَ إليه؟. فقال رسول الله ﷺ يدفعُ احتمالات الظنّ: (ذلك ظنى به ألاّ يطوف بالكعبة حتى نطوف) وفى رواية (لو مكث عثمان كذا وكذا سنة ما طاف بالبيتِ حتى أطوف) فلمّا رجع عثمان قال له المسلمون: اشتفيت بالبيت يا أبا عبد الله؟ - يعنى قضيت حاجتك ومتّعت نفسَكَ، حيث أن الظروف قد أتاحت لك فرصة الخلوص بالبيت - فقال رضى الله عنه وقد أدركَ بفراسة المؤمن أنّ ظنونًا وشكوكًا لعبَتْ بأفئدة الناس، فقال: لو مكثتُ بمكة سنة ورسول الله ﷺ مُقيم بالحديبية ما طُفت حتى يطوف ﷺ. ولقد دعتنى قريشٌ إلى أن أطوف بالبيت فأبيت. فقالوا: كان رسول الله ﷺ أعلمَنا وأحسنَنا ظنًا.

أرأيت كيف تفعلُ شياطين الإنس بموقف عابر تحيلُهُ إلى ظنونٍ وشكوكٍ توشكُ أن تُدمّرَ المجتمعات؟ كان رسول الله ﷺ وهو بالحديبية يأمر أصحابه بالحراسة بالليل، فكانوا ثلاثةٌ يتناوبون الحراسة، أوس ابن خولىّ وعبّاد بن بشر ومحمد بن مسلمة رضى

صلح الحديبية (٥)

الله عنهم، ذات ليلة كان محمد بن مسلمة على حرس رسول الله ﷺ وعثمان بن عفّان بمكة وأرسلت قريش في ذات الليلة خمسين رجلاً عليهم مكرز بن حفص - وقد سبق أن وصفه النبي ﷺ بأنه رجل غادر - وأمروهم بأن يطوفوا بالنبي وأصحابه رجاء أن يُصيبوا أحدًا أو أن يصيبوا منهم غرّة، فأخذهم محمد بن مسلمة فجاء بهم رسول الله ﷺ، وأفلت مكرز بن حفص فخبّر أصحابه وظهر قول النبي ﷺ بأنه رجل غادر، وفي ذات الوقت كان رجال من المسلمين في نحو عشرة رجال دخلوا مكة بإذن رسول الله ﷺ وفي أمان عثمان بن عفّان فعلمت بهم قريش وبلغ قريش حبس أصحابهم الذين أمسكهم محمد بن مسلمة فجاء جمع من قريش إلى النبي ﷺ وأصحابه حتى تراموا بالنبل والحجارة وأسَرَ المسلمون من المشركين اثني عشر فارسًا، وقتل من المسلمين رجل طلَع من ثنية الحديبية فرماه المشركون فقتلوه، وبعثت قريش سُهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العُزّى ومكرز بن حفص فلمّا جاء سهيل ورآه النبي ﷺ قال لأصحابه: (سَهُلَ أمْرُكم) فقال سهيل: يا محمد إن الذي كان من حبس أصحابك وما كان من قتال من قاتلك لم يكن من رأي ذوي رأيينا بل كنا له كارهين حين بَلَغَنا ولم نعلم به، وكان من سفهائنا فابعث إلينا بأصحابنا الذين أسرت أول مرة والذين أسرت آخر مرة. فقال النبي ﷺ: (إنّي غير مرسلهم حتى تُرسلوا أصحابي) فقالوا: أنصفتنا. فبعث سهيل ومن معه إلى قريش رجلاً منهم فبعثوا بمن كان عندهم وأرسل رسول الله ﷺ أصحابهم الذين أسرهم، وقَبل وصول عثمان ومن معه بلغ رسول الله ﷺ أن عثمان ومن معه قد قتلوا، وكان ذلك سببًا في بيعة الرضوان، وكان من الطبيعي أنْ يغضب النبي ﷺ لمّا سَمِعَ بقتل عثمان خصوصًا وأنّ مُداولات الصلح بدأت بين النبي ﷺ وبين وفد قريش بقيادة سهيل بن عمرو إذ يعني ذلك خيانة وخدعة، فغضبَ النبي ﷺ ودعا الناسَ إلى البيعة وقال: (لا نبرح حتى نناجز القوم) فجلس تحت شجرة خضراء ثم قال: (إنّ الله تعالى أمرني بالبيعة) فأقبل الناسُ يبايعونه وتزاحموا على البيعة وأعدّوا ما معهم من سلاح وهو قليل وبهذا تغيّر الموقف حيث كان النبي ﷺ لم يجيء لحرب إنّما جاء معتمرًا لكنّ إشاعة مقتل عثمان غيّرت الموقف تمامًا، فنادى منادي رسول الله ﷺ (أيُّها الناس البيعة البيعة نزل روح القدس أيّها الناس فاخرجوا على اسم الله)، يقول سلمة بن الأكوع: فسرنا إلى رسول الله ﷺ وهو تحت شجرة سمرة فبايعناه. يقول سلمة: فبايعته أول الناس ثم تتابع الناسُ يبايعونه فقال النبي ﷺ: (بايع يا سلمة) قلت بايعتك يا رسول الله أوّل الناس قال: (وأيضاً يا سلمة) ورآني رسول الله ﷺ ليس معي سلاح فأعطاني درقة، ثم بايع الناس حتى إذا

كان آخر الناس قال: (ألا تبايعني يا سلمة؟) قلت: بايعتك يا رسول الله في أوّل الناس وفي وسط الناس قال: (وأيضاً) فبايعته الثالثة ثم قال: (يا سلمة أين الدرقة التي أعطيتك؟) قلت: يا رسول الله لقيني عمي عامر من غير سلاح فأعطيته إيّاها فضحك النبي ﷺ وقال: (إنك كالذي قال اللهم ابغني حبيباً هو أحبّ إليّ من نفسي). ويروى أنّه لمّا بايع النبي ﷺ الناسَ وكان عثمان غائبًا في مكة فبسط النبي ﷺ يدَهُ وبسط الناس أيديهم فبايعوه فقال: (اللهم إنّ عثمان في حاجتك وحاجة رسولك) فضرب بإحدى يديه على الأُخرى فقال: (هذه لعثمان) فكانت يد رسول الله ﷺ لعثمان خير من أيديهم لأنفسهم. ولمّا رأى سهيلُ بن عمرو ومن معه سرعة الصحابة إلى رسول الله ﷺ وهم يبايعونه على الحرب اشتدّ رعبهم وخوفهم وأسرعوا إلى مكة يُخبرون قريشًا فقال أهل الرأي منهم: خيرٌ لنا أن نصالح محمدًا على أن ينصرف عامه هذا حتى يسمع من سمع بمسيره من العرب أنّا قد صددناه ثم يرجع في العام القابل، ويقيم ثلاثًا وينحر هديَه وينصرف. أجمعوا على هذا الرأي ووافقت قريش على الصلح والموادعة وبعثوا سهَيل بن عمرو وحويطب ومكرز وقالوا لسهيل: إيت محمدًا فصالحه وليكن في صلحك ألا يدخل علينا عامه هذا فوالله لا تُحدث العرب أنه دخل علينا عنوة. فلمّا رآه ﷺ قال: (قد أراد القوم الصلح حيث بعثوا هذا) وفي رواية (سَهُلَ أمرُكم). ودار في جلسة الصلح ما دار بين أصحاب النبي ﷺ من جانب لرفضهم شروط الصلح المجحفة، وأيضًا لمّا رفض سهيل أن يذكر صفة رسول الله ﷺ فقال للنبي ﷺ: لو تعرف أنّك رسول الله - ﷺ - ما قاتلناك ولكن قل هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله. فقال النبي ﷺ لعلي: (امحها يا علي) فأبى عليّ ويروى أن النبي ﷺ محاها بنفسه ثم قال لعلي: (ستسام مثلها وتقبل) كما أن سيدنا عمر بن الخطاب كان أوّل المعترضين على شروط الصلح المجحفة فذهب إلى رسول الله ﷺ مغاضبًا يقول: ألسنا على الحق يا رسول الله؟ قال: (بلى) قال: فعلام نرضَ الدنيّة في ديننا؟ فقال النبي ﷺ: يا عمر الزم غرزك أنا رسول الله ولن يُضيّعني. ثمّ ذهب مغاضبًا إلى أبي بكر وقال له مثل ما قال للنبي ﷺ فقال أبو بكر: الزم غرزك إنّه رسول الله ﷺ ولن يضيّعه. وكان أمر الله سبحانه وتعالى أنْ يجعل قريشًا هي التي تطلب إلغاء المعاهدة رغم الشروط المجحفة التي اشترطتها على رسول الله ﷺ، حيث كان من شروط المعاهدة أنّ من يدخل في الإسلام من أهل مكة ويذهب إلى رسول الله ﷺ أن يردّه إليهم، وأنّ من يكفر بالإسلام ويذهب إلى قريش لا تردّه، ومن الأمور التي جعلها الله سببًا في رجوع قريش عن هذا التعنّت البغيض أنّ واحداً من قريش يقال له أبو بصير

قد أعلن إسلامه وذهب إلى رسول الله ﷺ فأرسلت قريش فى طلبه وردَّه النبى ﷺ وفاءً بالمعاهدة لكنه أخذ يصرخ ويقول أتردُّنى إلى الشرك بعد أن أسلمت لكنَّ رسول الله ﷺ لم يقبل ورفض أن ينقض شروط الصلح لكنَّ أبا بصير وهو راجع مع قريش فكَّ قيوده، لكنه لم يرجع إلى الكفار ومكث على الساحل فى طريق أهل مكة إلى الشام يقطع عليهم الطريق وآوى إليه كلُّ من على شاكلته، فتجمَّعت هذه العصابة وقطعت طريق التجارة على قريش وهُرعت قريش إلى النبى ﷺ تطلبُ منه إلغاء هذا الشرط وأن يقبل هؤلاء المسلمين. ألم يقل رسول الله ﷺ عندما ضجَّ المسلمون من إجحاف شروط المعاهدة إنه رسول الله ﷺ ولن يضيِّعه، ولعلك تذكر أيها القارئ الكريم أنى قلت لك إنها تجليات ربانية وإلهامات محمدية ولعلك تسأل أيها القارىء الكريم ولك الحق أن تسأل: لماذا كذَّب النبىُّ ولم يُصدِّق مقولة الذين قالوا إنَّ عثمان طاف بالبيت دونك وصدَّق مقولة إنَّ عثمان قدْ قُتل؟ أليس هو النبى فى الحالتين؟ وهو النبى فى كل حال فلماذا لمْ ينفِ إشاعة مقتل عثمان؟ كما نفى بكل هدوء وحكمة أن عثمان طاف بالبيت. أليس هو رسول الله ﷺ ويعلم الحقيقة فى الوقعتين؟ أقول لك إن هناك فرقًا بين الوقعتين، أما طواف عثمان فهو ظنٌّ غير مقبول ما كان ينبغى للمسلمين أن يخوضوا فيه فنفاه رسول الله ﷺ بحكمة عالية أما مقتل عثمان فإنَّ المعركة كانت فى حاجة إلى ما ذهب إليه ﷺ حيث إنَّ ما دعا إليه ﷺ من البيعة - وهو بأمر الله سبحانه وتعالى كما ورد عنه ﷺ - ألهب حماسَ الجيش فتدافعوا إلى البيعة وظهر ذلك جليًا إلى قريش فأضعف ذلك فى همَّتها وفتَّ فى عضدها ومالت إلى الصلح هذا وأحبُّ أن أُبيِّن لك فرقًا جوهريًا بين معجزة النبى، وكرامة الولى من جانب، وفهم المسلمين المعاصرين القاصر المدَّعين للتصوف للكرامة من جانب آخر فالمعجزة والكرامة ليست شعوذة ولا (فهلوة) سحَرة أو حُواة مقصود بها الإيمان إنَّما هى عملٌ إرادىٌّ من الله سبحانه وتعالى لتوطيد وتصديق أنبيائه وأوليائه وأحبابه، ولأضربُ لك مثلاً بحادثة سيدنا الخضر فى خرق السفينة مع سيدنا موسى فما حدث من سيدنا الخضر من خرقٍ للسفينة - فهو عملٌ إرادىٌّ إلهى فى تثبيت العقيدة والدعوة - وكان المقصود منه سيدنا موسى ليس غير ولذلك لم يشاهدْهُ إلا سيدنا موسى مع أنَّ السفينة كانت تكتظ بركَّاب آخرين فلو أنَّهم رأوا سيدنا الخضر وهو يخرق السفينة وهم على ظهرها لألقوا به فى البحر دون شك. لكنَّ الكرامة كما قلت لك ليست خفَّةً ولا عمل حواة مقصود به إبهار الدهماء إنَّما هو تأييد من الله سبحانه وتعالى لنبيه أو وليِّه والله تعالى أعلى وأعلم

وإلى لقاء آخر إن شاء الله

نهضة الأزهر الشريف فى القرن العشرين

الأستاذ / عاطف مصطفى

نتواصل «فى هذا الباب» مع كل ما قدمه علماء الأزهر الشريف ومفكروه من فكر وسطى، ونظرة ثاقبة لقراء مجلة «الهلال» على مدى صدورها منذ عام ١٨٩٢م.

ويتنوع التناول لكى تبرز الدور الكبير لهؤلاء العلماء والمفكرين فى إثراء الفكر، وموضوعية التناول التى تحقق الفائدة الكبرى للقارئ ولم تكتف «الهلال» بنشر مقالاتهم فقط، بل شهد كتاب «الهلال» العديد من العناوين التى أثرت الفكر الإسلامى وعمقت مفاهيمه لدى القراء.

ولو تم جمع ما كتبه علماء الأزهر فى هذه المجلة الثقافية التى يزيد عمر إصدارها على مائة وعشرين عاما متصلة، لملأ عدة مجلدات توضع فى خانة «من ذخائر الكتب النفيسة».

وهذا مقال فريد نشر فى عدد خاص بالهلال، صدر فى شهر إبريل عام ١٩٣٩م بعنوان «نهضة الأزهر فى القرن العشرين» بقلم حضرة صاحب الفضيلة الشيخ محمود أبو العيون.. شيخ علماء الإسكندرية.

يقول فضيلته فى البداية: إذا ذكر اسم الأزهر، رجع الذهن إلى ألف عام مضت حين أقامت الدولة الفاطمية خلافتها بمصر، واتخذت القاهرة عاصمة لملكها، ومقرًا لسلطانها السياسى، وأنشأت الجامع الأزهر ليكون رمزا لسيادتها الروحية ومنبرًا للدعوة التى حملتها هذه الدولة الجديدة من المغرب إلى مصر.

أكبر جامعة إسلامية فى الشرق

وللأزهر سجل مشرق الغرة، وضاح الجبين، وإذا كان للجامعات الكبرى، والمعاهد العلمية العالية النصيب الأكبر فى توجيه الأمم نحو العمل المنتج، وتغذية نهضاتها بما يكفل لها النماء، فالأزهر له من هذا نصيبه القوى الشامل.

فقد لبث طوال الأجيال المتعاقبة من السنين أكبر جامعة إسلامية فى الشرق بل فى العالم كله، وكان الدور الذى لعبه فى هذه القرون المتتابعة فى سياسة العالم الإسلامى من أخطر الأدوار التى عرفها التاريخ.

وهكذا بقيت للأزهر شخصيته الماثلة أمام أنظار الملايين من الخلق، ينظرون إليه نظرة إكبار وإجلال.

وفي مصر بالأخص كان في كل العصور يساهم في سياستها الفعلية ويرجح كفة على أخرى، ويؤثر في الآلاف المؤلفة من المصريين تأثيرا عجيبا، ويحول الجماهير الغفيرة من الجماعات ورجال الحكم تحويلا مدهشا - بالرغم من ظهور أهله بمظهر الحياة الجامدة وعدم مسايرتهم العصر في ألوانه وأشكاله.

ظل دائما موضع الرعاية والعناية والاهتمام

مع هذه المزايا التي ذكرناها، ومع أنه كان طوال حياته موضع الرعاية والعناية من خلفاء مصر، وملوكها وأمرائها، وذوي الجاه واليسار فيها، يتعهدون أهله بالبر والإحسان، ويغدقون على من به من العلماء والطلاب العطايا والهبات، وينزلونهم من أنفسهم أسمى منزلة، وأعظم مكانة مع هذه العناية والرعاية كانت تحدث له أزمات تجمد فيها الحركة العلمية، ويضمحل النماء العقلي، ويضيق أفق البحث والنظر في حلقاته، شأنه في ذلك شأن كل الجامعات تعتريها القوة والضعف، والصحة والاعتلال.

ففي عهد الفاطميين كان الخلفاء يذهبون إليه بأنفسهم للصلاة فيه، والوقوف على حاله، ويشرفون على حلقات دروس العلم، ويشترون لأهله دور الكتب في علوم الدين والحكمة والفلسفة، مما كان له الأثر الطيب في حفزهم الشيوخ والطلبة إلى التفرغ للعلم والتعليم.

ولما انتقلت مصر إلى الأيوبيين سنة ٥٦٧هـ - ١١٧١م وجلس على عرشها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، حرص على ما لمصر من المكانة الممتازة في العلوم الإسلامية، فأنشأ فيها المدارس، ورتب بها العلماء والطلبة، وحذا حذوه خلفاؤه من الأيوبيين، حتى كثرت على عهدهم تلك المدارس التي كانت تدرس فيها علوم الدين واللغة، وخاصة فقه المذاهب الأربعة.

وقد قام بالدراسة في هذه المدارس، كثير من أعيان العلماء، كابن زين التجار الشافعي، والشريف القاضي شمس الدين بن محمد الحنفي، وقاضي القضاة أبي علي الحسين المالكي، والإمام أبي محمد الشاطبي، وتلميذه أبي محمد بن عمر القرطبي، وغيرهم من جلة العلماء وكبارهم.

وفي تلك الفترة التي توزع فيها العلماء على المدارس، انتقلت حركة التعليم المزدهرة من أبنية الجامع الأزهر إلى تلك المدارس.

ثم جاء الظاهر بيبرس البندقداري سنة ٦٥٨هـ - ١٢٦٠م فجدد من شبابه، وأعاد إليه حياته العلمية، وسار على أثره ملوك وأمراء جاءوا من بعده، ونهجوا نهجه وسلكوا سبيله، وكانت نهضة مباركة نهضها الأزهر، رفعت من شأنه، ووسعت من نطاقه، وبذلك اتجهت إليه أنظار العالم الإسلامي، خصوصًا بعد سقوط بغداد، وإتلاف كتبها وذخائرها العلمية، وأصبحت مصر المثابة الوحيدة والكعبة المنشودة، يقصدها العلماء

والطلاب من جميع أنحاء العالم ومن جميع الأقطار، حتى وصف ذلك العهد على لسان المستشرقين بأنه العصر الذهبي.

عهد سلبي للعثمانيين !!

لبث الأزهر حقبة من الزمان قائما بوظيفته من إنماء الحياة العلمية في مصر والعالم الإسلامي، وشأنه شأنه من الرفعة وسمو المنزلة، حتى نزلت مصر عن استقلالها السياسي للعثمانيين، ففقدت البلاد حركتها ونشاطها وضعفت بذلك حضارتها وعلومها وفنونها، واستولى الخمول على الأزهر من ناحية النماء العقلي والثقافة والتجديد لاضطراب البلاد، واضطهاد العلماء الأحرار والقادة والمفكرين، مما كان له أسوأ الأثر في حياة الأزهر، والحركة العلمية فيه.

وظل الحال كذلك حتى تولى حكم مصر رأس الأسرة العلوية محمد علي باشا. فاهتم بالأزهر، بل جعله موضع عنايته، ومحل اهتمامه، فاحترم علماءه وقربهم إليه وعمل بمشورتهم، واختار من طلبته النواة الأولى لمدرسته الطبية.

ولما أرسل البعوث إلى فرنسا، كان فيها شيوخ أزهريون، ومن بينهم رفاعة رافع الطهطاوي، ذلك العالم الكبير الذي أفاد الأمة المصرية، بعد عودته من البعثة، بالتأليف تارة، وبالترجمة أخرى، حتى عد بحق شيخ المترجمين، وإمام المؤلفين.

أبناء الأزهر .. دعائم النهضة

وفي زمن وجيز نهضت البلاد نهضة علمية، اتسعت آفاقها في كثير من نواحيها، ولم يتأثر الأزهر، ولا مناهج الدراسة فيه بالنهضة القوية التي ابتعثها محمد علي الكبير في مصر، على حين أن الباشا قد وجد في أبناء الأزهر المادة الأساسية التي أقام بها دعائم النهضة والإصلاح العلمي المزدهر في البلاد.

وبقي الأزهر في عزلته لا يساير النهضة الحديثة، ولا يريم من مكانه، ويحرص حرص البخيل على أن لا تمس يد التبديل والتعديل شعاراته وتقاليده الموروثة في عهده الأخير، حتى جاء إسماعيل باشا والي مصر الأسبق، واعتزم أن يجعل أساس التشريع العام في البلاد من الفقه الإسلامي على نحو ما هو مدون في القانون الفرنسي، مادة مادة، فما استطاع إلى ذلك سبيلا، وضاعت تلك الفرصة الذهبية على مصر بل على العالم الإسلامي، كأنها حلم من الأحلام.

وقد وصل الجمود والركود بالأزهر في ذلك العهد إلى حالة سقيمة، وجعل من ليس من زمرته يدعي العلم والانتساب إليه، واحتمى به من ليس من أهله، فمست الحاجة إلى سن قوانين وأنظمة تضبط ذلك.

وأول قانون وضع للأزهر في عهد المغفور له إسماعيل باشا سنة ١٢٨٨هـ/ ١٨٧٢م، وكان شيخ الأزهر وقتئذ المرحوم الشيخ محمد العباسي المهدي، وقد نظم هذا القانون طريقة نيل الشهادة العالمية، وبين مواد امتحانها، وقسم الناجحين فيها إلى ثلاث درجات (أولى وثانية وثالثة)، على أن تصدر بذلك براءة بتوقيع ولي الأمر، والمواد التي بينها ذلك القانون، والتي يدرسها الطلبة

ويمتحنون فيها، لنيل الشهادة العالمية هي: (الأصول، الفقه، التوحيد، الحديث، التفسير، النحو، الصرف، المعاني، البيان، البديع، المنطق) وهذا القانون، وإن كان قد وضع حدا للفوضى وللارتباك الذى تورط فيه الأزهر فى ذلك الحين، وميز العلماء من غيرهم، فمما يؤسف له أنه لم يستطع أن ينهض به النهضة المطلوبة، ولم يتجاوز بمواد الامتحان لنيل الشهادة العالمية فيه الأحد عشر علما، مما يدل على جمود الحركة العلمية به، وفتور النشاط فيه، وبقى التعليم بالأزهر مقصورا على العلوم الدينية والعربية، وقليل من الهيئة والمواقيت، والحساب للحاجة إليها فى مواقيت الصلاة والمواريث.

يواصل فضيلة الشيخ محمود أبو العيون بقوله: ومن الإنصاف أن نقرر أنه برغم اقتصار الأزهر على هذه المواد، فإن الطلبة كانوا يقضون فى تحصيلها مددا طويلة أقلها خمس عشرة سنة، ولا حد لأكثرها، ومع أنها كانت تدرس فى كتب سقيمة من المختصرات، التى لا تفهم إلا بشروح وحواش، فإن الطلبة كانوا يقدرون على الاستقلال بدراسة الكتب، ويقدرون على فهمها، وكانت تنمو فيهم ملكات البحث والجدل، ولكن إذا وازنّا بين الفائدة التى يجنيها الأزهر من التعليم التحاورى اللفظى، والمزايا التى يفقدها من عدم عنايته بالعلوم الكونية التى لابد منها فى تطبيق الأحكام الشرعية على وجهها الصحيح، أدركنا عدم قيام الأزهر بالثقافات التى تتطلبها حاجات العصر.

صيحة مدوية تطالب بإصلاح الأزهر

كل هذا حفز بعض أهل الغيرة من رجال الأمة ورجال الحكومة على تلمس وجوه الإصلاح للأزهر، فوضع قانون سنة ١٨٩٦م.

أضاف هذا القانون مواد جديدة هى: الأخلاق، مصطلح الحديث، الحساب، الجبر، العروض، القافية، وجعل التاريخ الإسلامى والخط والإنشاء، ومتن اللغة، ومبادئ الهندسة، وتقويم البلدان مواد اختيارية، يمتاز محصلها عن غيره، ويقدم عليه فى الوظائف والمرتبات، وكان من حسن الحظ إذ ذاك، أن الذى قام على تنفيذ هذا القانون، مجلس إدارة يضم طائفة من العلماء، خلصت نيتهم، وتوافرت لديهم أسباب التنفيذ، وهم المشايخ: حسونة النواوى، محمد عبده، سليم البشرى، عبد الكريم سلمان، سليمان العبد - رحمهم الله رحمة واسعة.

سار الأزهر على هذا النظام سيرا متئدا متزنا، لم تطغ فيه المواد الجديدة على المواد القديمة؛ لأنها أخذت بمقدار يناسب حال الأزهر فى ذلك العهد، ونشطت دراسة العلوم الدينية والعربية بما كان يعطى للطلاب من المكافآت السنوية، وبما كان ينشر فيهم من أفكار المرحوم الشيخ محمد عبده، فى دروسه ومجتمعاته.

وقد انفرط عقد النظام، وعاد الأزهر لقديمه بخروج الشيخ محمد عبده من مجلس الإدارة، ثم وفاته رحمه الله سنة ١٩٠٥م.

حدث بعد ذلك أحداث وفتن، وعولت الحكومة على إنشاء مدرسة للقضاء الشرعى (وأظنها كانت فكرة مختمرة فى نفس المرحوم الشيخ محمد عبده) فصدر بها قانون سنة ١٩٠٧م.

وكان تنفيذ ذلك القانون صدمة للأزهريين، شعروا بعدها بأن الحكومة فى غنى عنهم؛ لأن لها مدرسة لتخريج معلمى العربية فى مدارسها ومعاهدها، هى دار العلوم، ومدرسة لتخريج القضاة الشرعيين، هى مدرسة القضاء الشرعى، ولم يبق لهم بعد ذلك إلا وظائف الإمامة والخطابة فى المساجد.

ولذلك هب الأزهريون هبة واحدة، وثاروا ثورة صاخبة، وصاحوا صيحة مدوية بطلب إصلاح الأزهر، وكنا إذ ذاك من خطباء تلك الثورة.

وكان من قادتها وزعماء الطلبة فيها الأستاذ على عبد الرازق نقيب المحاميين الشرعيين الآن، وكان طالبا مثقفا، وكان يكتب بقلمه مناشير لجنة الاتحاد الأزهرى، التى كانت تعبر عن شعور الأزهريين، بلهجة حماسية مثيرة للرأى العام.

ولم تستطع الحكومة إخماد تلك الثورة بكل أنواع القوة والإرهاب.

ومن طريف ما حدث فى تلك الحركة أن الأزهريين قرروا بإزاء عناد الحكومة واضطهادهم أن يتركوا الأزهر، كما تركوا الدراسة فيه، ولكنهم وقفوا أمام معضلة، وهى حاجة الغرباء إلى مسكن، ففكروا فى استئجار فندق دار السلام بجوار مسجد سيدنا الحسين، خلف خان الخليلى، واستأجروه، ونقلوا جميع الغرباء إليه ليلا، وبلغ ذلك الأستاذ المغفور له الشيخ حسونة النواوى شيخ الأزهر، فأسرع إلى الأزهر، فوجد آخر طالب يغادر رواقه، وقد وضع حقيبته على كتفه، فسأله وقد أدركه فى صحن الأزهر، ما باله قد فعل ذلك؟

فقال: تركت الدار تنعى من بناها، فأسف لذلك شيخ الأزهر، وبكى بكاء شديدا، وقد كان ذلك من أسباب استقالته.

يوضح الشيخ الجليل فى مقاله بالهلال ما حدث بعد سن هذا القانون وكيف تراجعت الحكومة فيقول: رأت الحكومة العدول عن خطة تهديد الأزهريين، خصوصا أنها رأت إصبع الحزبية أخذت تلعب وتستغل هذه الحركة البريئة - إلى سن قانون لتنظيم الأزهر على مثال مدرسة القضاء الشرعى، ومدرسة دار العلوم، بل على مثال يوجد للدراسة مواد أكثر ومناهج أطول، وانتهى الأمر إلى وضع قانون رقم ١٠ لسنة ١٩١١م وهذا القانون لم يخل من الفائدة، لأن تعلم التاريخ والجغرافيا والرياضة، ومبادئ الطبيعة والكيمياء، قرب طلبة الأزهر من المعاهد الأخرى، ووسع أفقهم، وإدخال المطالعة والمحفوظات والإنشاء، أوجد من أهل الأزهر عددا كبيرا من الكتاب والشعراء، ومكن لهم من القدرة على الخطابة والوعظ.

وهذه الفائدة التى أفادها القانون، تعد ضئيلة بجانب الضرر الذى نجم عنه، فقد

كثرت المواد في الأقسام الثانوية، كثرة لم يتسع الوقت لهضمها، واضطر الطلاب للفوز بالنجاح في الامتحان التحريري، إلى أن يعتمدوا على الحفظ والاستظهار، واستهانت المعاهد بالامتحان الشفوي، وبذلك أخذ الأزهر يفقد أهم خصائصه، ومميزات تعليمه، وهي النقاش والحوار وتربية الملكات، وقوة الاستنباط.

وقد توالت على هذا القانون تعديلات أظهرها التعديل الذي أدخل عليه بالقانون رقم ٤٩ لسنة ١٩٣٠م.

ففي هذا القانون قسم التعليم العالي إلى ثلاث كليات: واحدة لعلوم أصول الدين وثانية لعلوم الشريعة، وثالثة لعلوم اللغة العربية، وأوجد تخصص سمي تخصص المادة، وآخر سمي تخصص المهنة، وكان الغرض من هذا تفرغ كل طائفة من الطلبة في التعليم العالي، والتخصصي لطائفة من المواد التي كانت تدرس مجتمعة حتى يتيسر اتقان الدرس والفهم والتحصيل، ولكن ظهر أن الداء الذي يجب أن يحسم ويستأصل، لايزال باقيا، وهو ضعف الطلبة بسبب طول المناهج والمقررات.

مشروع قانون الإصلاح يحقق آمال المسلمين

يشير كاتب المقال: إلى أن الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي رأى عقب توليته شيخا للأزهر سنة ١٩٣٥م، أن يضع مشروع قانون لإصلاح الأزهر، يفي بالأغراض التي تحقق آمال المسلمين فيه، وترجع به إلى عصوره الزاهرة من البحث العلمي السليم، والتفكير الحر، ودراسة الفنون التي تتفق مع طابعه القديم، وتطابق مقتضيات العصر، وتلبي مطالبه.

وقد وضع ذلك المشروع، وتقدم به لولي الأمر، فصدر به مرسوم بقانون رقم ٢٦ لسنة ١٩٣٦م، وقد وضع بجانبه مذكرة إيضاحية، حلل فيها القوانين السابقة، وبين الأغراض التي قصد إليها في مشروعه.

ونحن نثبت هنا ما جاء في هذا الصدد بنصه، قال: ونحن إذ نحاول إصلاح الأزهر نريد أن نوجد طالبا يفهم مسائل العلوم فهما صحيحا، ويفهم أغراضها، وصلتها بأدائها، وصلتها بعضها ببعض، ويستطيع التطبيق على الجزئيات، ويستطيع الاستنباط والتدليل، ويستطيع فهم الكتب القديمة التي ألفت في العصور المختلفة في جميع الفنون الإسلامية.

نعم: إني لا أحب أن تدرس العلوم على هذه الكتب، بل أحب أن توجد في جميع الفنون مؤلفات حديثة على أسلوب عربي صحيح، مناسب لأذواق الأجيال الحاضرة، تهذب فيها المسائل إلى أحسن ما وصل إليه التحقيق العلمي، وأن تحيا الكتب القديمة الجيدة في الأسلوب والوضع.

ولقد كان إسلامنا أشد عناية بالعلم، فلم يمض الزمن القليل، حتى أخذوا علم اليونان، وأدب الفرس، وحكمة الهند، واستعانوا بذلك كله في تفسير القرآن، وقد وضع علم الكلام على الأسس التي تراها في كل «المواقف والمقاصد» واستعانوا به في تنظيم مسائل العلوم جميعها، فلم يخل علم من أثر الفلسفة والمنطق، ولقد كانت لهم محاولات

جديرة بالإعجاب في التوفيق بين الدين ونظريات الفلسفة، وقد أخذ العلم يسير في هذا العصر سيرة جديدة، وتغيرت نظريات الفلسفة، وحدثت نظريات أخرى، وكان من شأن ذلك كله أن توجه على الأديان جملة - وعلى الإسلام خاصة - حملات، وصار من الواجب الحتم على علماء المسلمين أن يحيطوا علما بكل ما يوجه إلى الأديان عامة - وإلى الإسلام خاصة - من مطاعن، وأن يردوا تلك المطاعن التي توجه إلى الإسلام، ويذودوا عن عقيدتهم بأدلة ناصعة وأسلوب مقنع ليجنبوا المتعلمين تعليما مدنيا الشبه الزائفة، وليضموا إلى الإسلام أفرادا وشعوبا من الأمم التي تتطلع إلى الإسلام، وتبتغي الوقوف على خصائصه ومزاياه، وهذا لا يتم لهم على ما ينبغي إلا بالاتصال بغيرهم اتصالا علميا، وبتعرف اللغات الحية، التي يكثر فيها الإنتاج العلمي، والتي يتناول بها العلماء مسائل الإسلام، ومسائل اللغة العربية، لذلك وجب أن يكون لأهل الأزهر نصيب من هذه اللغات.

ولا ندعي أن إصلاح القانون، وتنفيذ هذا المشروع يحقق هذه الأغراض التي نرمي إليها، ويوجد الطالب الأزهري الذي نبتغيه، بل إن الذي يحقق هذه الأغراض، الرغبة الصادقة في التعليم، والعزيمة القوية على احتمال الجهد والصبر، لقطع مراحل التعليم في هدوء وطمأنينة، والإيمان بأن العلم عزيز يقتنى، وحلية للنفس، ومتعة للعقل، وجمال لمن يتصف به، والحرص على الإفادة والتعليم، والإيمان بأن ذلك فرض للعلم، واجب لله ولرسوله وللمؤمنين.

يختم فضيلة الشيخ محمود أبو العيون مقاله معلقا على رأي الشيخ محمد مصطفى المراغي عقب توليته شيخا للأزهر عام ١٩٣٥م .. فيقول: ذلك ما جاء في مذكرة الأستاذ المراغي، وهو عرض لم يسبق إليه أحد من شيوخنا، وأنت ترى أنه قد برزت فيه شخصية الأستاذ بروزا واضحا، فانظر إلى ما جاء فيه من دقة الوصف، وجلالة الأغراض والمرامي، ثم التوفيق الذي صاحب الشيخ في وضع القانون الذي تقدم به لولي الأمر، وهو توفيق أراد الله به الخير للأزهر وللإسلام.

وفي الحق أن هذا القانون قد حقق الأغراض التي يرنو لها محبو الإصلاح للأزهر، لتمكينه من أداء رسالته على الوجه الأكمل، ففي القانون صنوف الدراسات الأدبية والدراسات الدينية بأشمل معانيها .. اعتقادية وقانونية وخلقية، وفيه تحتيم تعليم اللغات الحية، وكثير من اللغات الشرقية كالفارسية والعبرية والصينية.

فهذا القانون قد سلح الأزهر بسلاح العصر، وأعده لمواجهة الحياة إعدادا صالحا. فعلى رجاله أن يتضافروا من أجل تحقيق أغراض الدين، ونشر الهدى والرشاد بين الناس لكي يتحدثوا إلى الدنيا بلسان العصر وعقل العصر.

سمات المجتمع الإسلامي

د/ السيد محمد عبد النبي
الأمين المساعد للثقافة الإسلامية

كما يختلف الناس في السمات التي تميز شخصا عن غيره، ومن هذا الاختلاف جاء تعريف الشخصية بأنها (البناء الكلي الفريد من السمات الذي يميز فردا عن غيره)، تختلف المجتمعات الإنسانية في السمات التي تميز مجتمعا عن غيره، ولكن المجتمع أكثر تعقيدا من الفرد.

وعلى الرغم من أننا نتكلم أحيانا عن (مجتمع زراعي) أو (مجتمع صناعي) وعن (مجتمع ساحلي) أو (مجتمع صحراوي) وعن (مجتمع شرقي) أو (مجتمع غربي) وعن (مجتمع اشتراكي) أو (مجتمع رأسمالي) وعن (مجتمع متدين) أو (مجتمع مادي) وعن (مجتمع إسلامي) أو (مجتمع غير إسلامي) إلا أن المجتمعات الإنسانية، بينها قدر من التشابه، حتى إننا حين نطلق على مجتمع ما صفة تميزه، فإن هذا لا يعني أنه لا يتفق مع غيره من المجتمعات في صفات أخرى عديدة.

وعلى الرغم من أهمية العامل الديني في منح المجتمع خصوصية تميزه عن غيره، إلا أن طريقة التدين تعد عاملا آخر؛ لأن طريقة (التدين) تتضمن أمورا في غاية الأهمية، ومن هذه الأمور: أيبقي المجتمع على الدين نقيا كما هو، أم يخلطه بما يكدّره؟ أيلتزم به في كل منحى من مناحي الحياة، أم يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض؟ أيتعامل مع نصوص الدين كما هي أم يحرّف معناها؟

ونريد في هذا المقال أن نعرض مجموعة من السمات، التي نرى أنه ينبغي أن يتسم بها المجتمع الإسلامي، لأن لها حضورا في كتاب الله وفي سيرة رسوله، ولأنها عظيمة الأثر في حياة الشعوب.

وأول ما نرصده من هذه السمات الإيمان بالله، وهي السمة الوحيدة التي يمكن القول بأنها تخص المجتمع الإسلامي.

والإيمان بالله جوهره الثقة بالله، والمؤمنون بالله

﴿ الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ﴾ (آل عمران: ١٩١)

وتراهم:

﴿ إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ (الأعراف: ٢٠١)

والإيمان بالله يهدي إلى الخير، ويبعد الأفراد في المجتمع عن التناقر، ويعصمهم من التعادي فيما بينهم، ويحميهم من اليأس والقنوط في الضراء، ويمنعهم من البغي والعدوان في البأساء. وما يسود الإيمان بالله في مجتمع إلا وأهله متواصون بالحق متواصون بالصبر، ألم تقرأ قوله تعالى

﴿ والعصر (١) إن الإنسان لفي خسر (٢) إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر (٣) ﴾

(سورة العصر).

والسمة الثانية هي الأخوّة:

فالناس في المجتمع الإسلامي إخوان متحابون، كما أخبر الله عنهم في قوله

﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾

(الحجرات: ١٠).

وقد وردت هذه العبارة في الذكر الحكيم، في سياق الكلام عما ينبغي فعله إذا بغت فئة من المجتمع على فئة أخرى، فقد سبقها قوله تعالى:

﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين ﴾ (الحجرات: ٩)

فأمر الله تعالى سائر المجتمع ألا يتحزب مع فئة ضد أخرى، وألا يبحث عن الطائفة ذات الشوكة فيكون معها، أو يفرض على غير ذات الشوكة أن تخضع لذات الشوكة، وإنما أوجب على سائر الناس في المجتمع أن يصلحوا بين الفئتين، وأن يقاتلوا الفئة الباغية إلا أن تكف عن بغيها.

إن مقاومة الفئة الباغية التي لا تكف عن بغيها، يمنع الفئة الباغية عن التمادي في بغيها، ويردع غيرها من انتهاج سبيلها، فيعم الأمن في البلاد ويتحقق الاستقرار.

وقوله تعالى عقب الأمر بالإصلاح بين الفئتين وقتال الفئة الباغية:

﴿ إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون ﴾ (الحجرات: ١٠)

مؤداه: أنه ليس من شأن المؤمنين أن يظلم بعضهم بعضا، ولا أن يقتل بعضهم بعضا، ولا أن (يتفرج) بعضهم على البغي والقتل يصيب فئة منهم على يد فئة أخرى، فافعلوا ما أمرتكم به، من الإصلاح (بينهما) ومقاتلة الفئة الباغية حتى تكف عن بغيها.

إن البغي من فئة من المجتمع أشد خطرا من البغي الذي يأتي من الخارج، لأن بغي الخارج يوحّد المجتمع، بينما بغي الداخل يفرّقه، ما لم تصطفَّ فئات المجتمع للإصلاح ومقاومة الفئة الباغية.

وبغير هذا السبيل يكثر البغي والقتل في المجتمع، ويفقد المجتمع تماسكه ووحدته. ولم تأت كلمة (إخوة) في الكتاب العزيز في غير هذا السياق، إلا في الكلام عن الميراث وعن أسرة يعقوب عليه السلام.

وإذا عدنا إلى السيرة النبوية في هذا الشأن، وجدنا النبي عليه السلام قد آخى بين المهاجرين والأنصار، ليصبح مجتمع المدينة مجتمعا واحدا، وقد نجح الرسول عليه السلام في تحقيق المؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين وبين كل التجمعات السكانية التي آمنت به، وامتن الله عليه، بتلك النعمة في قوله:

﴿ وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم ﴾

(الأنفال: ٦٣)

وليست الأخوّة بين المؤمنين نوعا من العنصرية، لأنها تتسع لتشمل كل آدمي، ألم تقرأ قوله:

﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ﴾ (الحجرات: ١٣)

فالناس كلهم إخوة، فكلهم أبناء آدم وحواء، وإنما احتفى القرآن بالأخوة بين المؤمنين، لأنها أخوة مسلَّم بها بين المؤمنين، ولأنهم بسبب إيمانهم يمتلكون أسباب تحقيق الأخوة، في واقع الحياة.

أما السمة الثالثة فهي المساواة:

ولا تتأسس المساواة في المجتمع على الإيمان، وإنما تتأسس على الأخوة العامة بين بني آدم، فآدم أبوهم وهم أبناؤه، فلا فضل لأبيض على أسود، ولا لأحمر على أصفر، ولا لعربي على عجمي، ولا لغني على فقير، ولا لذي علم على أميّ، ولا لذي رئاسة على مرءوس، إلا بالتقوى.

والتقوى أن تفعل ما يباعد بينك وبين سخط الله وعذابه، قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾

(الحجرات: ١٣)

فالعمل الصالح هو المعيار الوحيد للتفاضل بين الناس. وكل إنسان مهما كانت مكانته عالية أو دانية، ومهما كان حظه قليلا أو كثيرا من متاع الدنيا، يملك في محيطه وفي ظروفه، أن يعمل الخير وأن يعمل الشر. وعملُه فقط هو الذي يجعله مستحقا التكريم والإنعام عند الله، أو مستحقا النكال والإذلال.

وما دامت المساواة بين الناس قد تأسست على اشتراكهم في البنوة لآدم، وما دامت المفاضلة بينهم قد انحصرت في العمل الصالح، فإن الناس يخاطبون بنصوص الدين بنفس المقدار، ولا يُكلف أحد منهم من العمل ما لا يُكلف به غيره، ولا ينال أحد منهم من الحقوق إلا ما يكون متاحا لغيره من الناس.

ولا نجد في كتاب الله ولا في سنة رسوله عليه السلام، حقا يُعطاه إنسان، ولا واجبا يطلب من إنسان، دون أن يشمل كل نظرائه، فالصلوات واحدة والصيام واحد والحج واحد، والحلال حلال للجميع، والحرام حرام على الجميع، فلا نجد فيه الطبقية الدينية التي نجدها في الهندوسية مثلا. ومن شأن المجتمع الإسلامي أن يحقق المساواة بين أبنائه، فلا يفرق بينهم في رعاية ولا جباية، ولا في خضوع للقانون، ولا في أي شأن من الشئون.

ومن أسف أننا نفتقد هذه السمة في كثير من المجتمعات الإسلامية، وآية ذلك أننا نجد المواطن في هذه المجتمعات، يتعرض للظلم في موطنه، ثم لا يجد الإنصاف، بينما نجد المواطن الفرنسي مثلا تحميه بلده من ظلم غيره في وطنه وفي غير وطنه، فإذا تعرض لظلم في خارج بلاده، ذهب إليه سفير ووزير، ودافعت عنه بلاده حتى يُرفع الظلم عنه.

ولو كنا نصف واقع الحال في كثير من المجتمعات الإسلامية لقلنا بانعدام تلك السمة فيها، ولكننا نخبر عما نرى أنه ينبغي أن يكون، وندعو الناس إليه.

والسمة الرابعة هي التكافل:

ويتأسس التكافل على مبدأ الأخوة؛ فما دمت أخا لكل إنسان، خاصة من يشترك معك في الإيمان والوطن، فإنه لا يجوز لك أن تمتنع عن مواساته إذا احتاج، كي تجد من يواسيك إذا احتجت، فإذا كنتَ منتميا إلى هؤلاء، فأنفق مما آتاك الله، ما يكون برهانا على صدق انتمائك.

وقد حضّ الكتاب العزيز على إنفاق المال في وجوه الخير، وضرب له من الأمثال ما يدفعه إلى الإنفاق ابتغاء مرضات الله، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٦١)

فمثَل إنفاق حبة في سبيل الله بحبة زرعت فأنبتت سبع سنابل، في كل سنبلة مائة حبة.

وكان النبي عليه السلام يأخذ صدقة من الأغنياء، لتنفق في سد الحاجات، وحدد الله تعالى مصارف الصدقات، في قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

(التوبة: ٦٠)

ولا أظن أن تنظيم ميزانية دولة من الدول يحتاج إلى إضافة بند إلى هذه الأصناف الثمانية، وإنما يحتاج إلى الموازنة بين ما ينفق في كل بند منها، لئلا يُصرف في بند ما يثمر أكثر إذا أنفق في بند آخر.

وبيّن الذكر الحكيم أثر الصدقة في قوله:

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾

(التوبة: ١٠٣)

فالصدقة تطهرك من ذنوبك وعيوبك، وتطهر المجتمع من الآفات التي تنجم تحت ضغط الاحتياج، ليس هذا فحسب بل إن الصدقة (تُنمي) ما فيك وما في الناس من خير.

على أن التكافل لا يقف عند إنفاق المال، فثمّ كبارٌ في السن يحتاجون من يسأل عنهم، ويقضي وقتا معهم، ليؤنس وحدتهم، وثمّ أيتام يحتاجون إلى من يعوضهم عن فقد آبائهم أو أمهاتهم، وثمّ أناس من ذوي الاحتياجات الخاصة، يحتاجون من يخرجهم من عزلتهم، وهنا نذكر قوله تعالى:

﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ (الإسراء: ٢٤)

وقوله تعالى عن قوم كافرين:

﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ (الفجر: ١٧)

وقوله:

﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾

(البقرة: ١٩٥).

والسمة الخامسة هي التعاون على البر والتقوى:

ويتأسس التعاون على الإصلاح، وكل أحد يدعي الإصلاح، وقد حكى القرآن عن بعض المنافقين، أنهم إذا قال لهم ناصح رفيق: إذا كنتم مؤمنين فلا تفسدوا في الأرض، قالوا له:

﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ (البقرة: ١١).

و(التعاون) أن تعين من يعمل خيرا، بقدر استطاعتك، لأنك بهذا تسهم في جلب المنفعة والصلاح للناس، وجلب المصلحة ودفع المضرة، هما مدار الدين، فالله تعالى غني عن العالمين، وما أرسل رسله وأنزل كتبه، وأحل حلاله وحرّم حرامه، إلا لمصلحة الناس. والتعاون تفاعُل بين الناس، بأن يعين بعضهم بعضا في الخير. قال تعالى:

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ (المائدة: ٢)

ومما يؤسف له، أنك تجد التناكُد قد حلّ محل التعاوُن في كثير من المجتمعات الإسلامية؛ فلا يسهل النجاح فيها، بسبب كثرة من يتكدون على من يسعى للخير،

ونحن نتوجه إلى الناس في هذه المجتمعات قائلين: ألا ترون البلاد التي يتعاون أهلها على البر المتعارف عليه عندهم، كيف صارت بلادا عامرة مزدهرة، حتى إن أبناء كم يقصدونها بكل سبيل مشروع وغير مشروع، على أمل أن يعملوا فيها، أو يحصلوا منها على حق المواطنة، حتى إنه يغرق في البحر في كل سنة عدةُ مئات منهم، في هجرتهم غير الشرعية إلى تلك البلاد، ألا ترون كيف يصبح ابنٌ من أبنائكم عالما من كبار العلماء هناك، لأنهم تعاونوا معه، ولو بقي في بلاده لناشه كل ذي سلطان بأذى حتى يستكين أو يفر من بلاده؟ ألا ترون أن بعض المؤسسات التعاونية في تلك المجتمعات تمتلك من المزارع أو المصانع أو المطاعم أو المتاجر، ما تتمكن به من تقديم المعونة للآلاف والملايين، حتى إنهم يقدمون بعض المساعدات لأبنائكم، وقد يتحول بعضُهم عن دينه بسبب ذلك؟

والسمة السادسة هي الشورى

والشورى جمع الآراء التي تعين في اتخاذ القرار الأحسن، وتدور مادة الشين والواو والراء على الجمع، ومنه شوار البيت وهو متاعه، ومنه شُرتُ العسلَ أي جمعته، فيكون التشاور في الأمر تكثير الأفكار المعينة على التعامل معه، ولو استغنى عن المشورة أحد، لاستغنى عنها نبي يوحى إليه، ولكن النبي عليه السلام كان من أكثر الناس مشورة، وقد أثنى الله على رحمته بالناس ولينه معهم، وقال له:

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾

(آل عمران: ١٥٩).

وليس الهدف من التشاور أن يقرر أهل الشورى ماذا يجب على المستشير أن يفعل، أبا أو مديرا أو قائدا حربيا أو رئيسا للبلاد، وإنما الهدف حشد الأفكار والآراء وتقليبها على وجوهها. أما القرار فيتخذه صاحب القرار، وفقا للصلاحيات المخوّلة له، وهو وحده المسئول عنه.

وبنا على هذا، فإنه لا وجه لاختلاف الناس: هل الشورى مُلزمة أم غير ملزمة، لأن جلسة الشورى أشبه بما يسمى اليوم باجتماع تشاوري، لاستعراض الآراء وتقليبها على وجوهها، تمهيدا لاتخاذ القرار، وفي الآية الكريمة نقرأ بعد الأمر بالشورى،

﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ (آل عمران: ١٥٩) ولم يقل (فإذا عزمتم فتوكلوا)، لأن الرسول هو من يتخذ القرار باعتباره رئيسا، وهو من يتحمل مسئوليته.

وقد يظن البعض أننا بهذا قد قللنا من شأن الشورى، والصواب أننا نسعى للكشف عن عظيم شأنها، ومن ذلك أننا نلفت النظر، إلى أنه يجب على المستشير أن يهيئ الفرصة لأهل الشورى، كي يتمكن كل أحد منهم من تكوين رأي والتروي فيه، فلا يحجب الخوف أحدا منهم عن إبداء رأيه، ولا تعيق العجلة أحدا منهم عن تكوين رأي والتروي فيه، ولا يعرقل الوجل أحدا منهم عن إبداء رأيه. ومن السنن الحسنة في دوائر القضاء، أن القاضي في جلسة التشاور مع عضوي اليمين واليسار، يسمع منهما قبل أن يبدي رأيه، ويبدأ بسماع رأي الأصغر منهما.

ومن هنا نعلم أن غياب الظروف التي تعين على تنوع الآراء وتقليبها على وجوهها، يساوي الاستبداد والإعراض عن الشورى، فإذا دفع الخوفُ أهلَ الشورى إلى إبداء رأي بعينه، وإذا أبدى المستشير رأيه قبل أن يسمع منهم، ليؤثر بذلك على من يستشيرهم، وإذا أعجلهم فحال دون تكوين رأي والتروي فيه، وإذا لم يمنح كل واحد من أهل الشورى حقه من الاحترام والتقدير، كي يمنعه الوجل من تكوين الرأي أو إعلانه، فلا وجود للشورى في كل هذه الحالات؛ لأن الشورى تكثير للآراء وتقليب لها على وجوهها، وهنا تم التحكم في غرفة الشورى لتنتج رأيا معينا.

ومن هنا نعلم أيضا أن الدور الأساسي لوسائل الإعلام في هذا السياق أن تهيئ الظروف لإنضاج أكثر من رؤية، وأن تحرص على تنوعها، وعلى الموازنة بينها، وعلى تطويرها، وليس أن تحشر العقول في اتجاه واحد. لأن الشورى تكثير للآراء المتعلقة بأمر ما، وتقليب تلك الآراء على وجوهها، كي يتمكن صاحب القرار من اتخاذ القرار الأحسن، ويتبين للناس كيف اتخذ قراره.

وخلاصة القول أن الإيمان بالله سمة تميز المجتمع الإسلامي، وأنها سمة تخصه دون سائر المجتمعات، وأما سائر السمات التي ذكرناها في هذا المقال، وهي الأخوة، والمساواة، والتكافل، والتعاون على البر والتقوى، والشورى، فهي سمات ينبغي أن يتسم بها المجتمع الإسلامي، رغم أنه لا يختص بها.

والأخوّة أن يعلي المرء من قيمة المشترك القيمي بينه وبين المؤمنين، فيتعامل معهم وكأنهم أخوة أشقاء، وألا يسمح المجتمع لفئة أن تبغي على أخرى، ولو أدى ذلك إلى قتال الفئة الباغية. والمساواة استواء الجميع في الحقوق والواجبات، ومن ذلك الحماية من الظلم داخل البلاد وخارجها. والتكافل سد حاجة المحتاج لدعم مادي أو معنوي، والتعاون أن يسهم الآخرون في نجاحك، وأن تسهم في نجاحهم، فلا يمتنعون عن إعانتك ولا يسعون لإفشالك، لأن نجاحك نجاح للأمة. والشورى أن يهيئ صاحب القرار الظروف المناسبة لجماعة الشورى، ليبدي كل أحد منهم رأيه، عن تدبر وتروي وقناعة، وهو آمن على نفسه، غير خائف ولا وجل، فالشورى تكثير للآراء، ودراسة لاحتمالات نجاحها، وإمكانات تطويرها، تمهيدا لاتخاذ القرار المناسب.

لقد بسطنا القول في هذه السمات، وهناك سمات غيرها يضيق المقام عن بسط القول فيها، منها العدل والإحسان والرحمة.

وكل مجتمع يتمسك بسمة من تلك السمات، يحقق من النجاح بقدر ما يتمسك بها، حتى وإن بدا مجتمعا لا يؤمن بالله، وكل مجتمع يفرّط في سمة من هذه السمات يناله من الخسران قدر ما فرّط فيها، وإن ادعى في كل وقت وحين أنه يؤمن بالله، حتى وإن أنشأ أكبر المساجد، وملأها بجموع المصلين، لأن الإسلام منظومة من القيم، وما الشعائر إلا أدواتٌ لدعم تلك القيم. ألم تقرأ قوله عن الصيام مثلا

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

(البقرة: ١٨٣)

فالعلة من الصيام هي التقوى، ولا خير في صيام لا يؤدي بصاحبه إلى التقوى.... من الله على بلادنا بالإيمان والأخوة والمساواة والتكافل والتعاون والشورى، ووقانا من كل شر، وهدانا لكل خير، وعلى الله قصد السبيل.

أبعاد جديدة لمقاصد الشريعة

مقصد حفظ العقل

أ. د عبد المجيد النجار

تمهيد:

العقل هو أحد قوى النفس، ولكننا أفردناه هنا ببيان أن حفظه مقصد عامّ من مقاصد الشريعة لكونه أعلى قوّة من قوى النفس وأرقاها، ولكونه هو مناط التكليف، فالإنسان إنما هو إنسان بالعقل؛ إذ هو أعظم العناصر التي تميّزه عن الحيوان. وعندما بحثنا حفظ النفس فيما سبق إنما كان المعنى كما بيناه كل الكيان الإنساني جسمه وروحه، وعندما نبحث حفظ العقل في هذا المقام فإنّما نعني تخصيص العقل بالبيان من بين سائر القوى الأخرى في الإنسان لأنه هو مناط التكليف بالمهمّة التي خلق من أجلها الإنسان.

والعقل في حقيقته هو تلك القوّة في الإنسان التي بها يكون الإدراك والتمييز والحكم، وتلك القوّة هي المتمثّلة في علوم ضرورية فطرية في الإنسان مثل العلم بأنّ الكلّ أكبر من الجزء، والعلم بأنّ لكلّ حادث سببًا، والعلم بأنّ الجسم الواحد لا يكون في مكانين مختلفين في وقت واحد. ولذلك قيل فيه: «العقل علوم ضرورية»[1]، وإنّما عرّف العقل بهذا التعريف لأنّ العلوم الضرورية هي التي يكون بها إدراك كلّ ما سواها من العلوم، وبها يكون أيضًا التمييز والحكم، ولو خلا الإنسان منها ما استطاع أن يحصّل من ذلك شيئا[2].

إلاّ أنّ العقل وإن كان بهذا المعنى ليس عضوًا من أعضاء الجسم الإنساني ولا جوهرًا مفارقًا لذلك الجسم، فإنّ له علاقة جوهرية خاصّة بأحد أعضاء الجسم وهو الدماغ وما يتبعه من أعصاب، فكأنما تلك العلوم الضرورية الفطرية هي الوجه المعنوي للعقل، والدماغ هو الخلفية المادّية له، فإذا ذكر العقل إذن ذكر هذان البعدان فيه، ورعاية العقل والحفاظ عليه وتنميته لا تكون إلاّ بتعهّد هذين البعدين، فإذا ما أهمل أحدهما طال الإهمال العقل جملة، فضعُف عن أداء مهمّته.

1- الجويني - الإرشاد: ٣٦.
2- راجع تعريفات مختلفة للعقل في: الغزالي - إحياء علوم الدين: ١ / ٨٠.

وإذا كان العقل يُطلق على هذه القوّة المدركة المميّزة الحاكمة فإنّ الفكر يُطلق على الحركة التي تتحرّك بها هذه القوّة للإدراك والتمييز والحكم؛ ولذلك جاء الفكر في معناه اللغوي يعني إعمال الخاطر في الشيء[3]، أي إعمال العقل في الموضوع الذي يراد معرفته، ولذلك أيضًا عُرّف الفكر في الاصطلاح بأنّه حركة الذهن للانتقال من المعلوم إلى المجهول، وهو ما ضبطه الجرجاني في تعريفاته بقوله: «الفكر هو ترتيب أمور معلومة للتأدّي إلى مجهول»[4]. وأما ما أصبح عند كثيرين من إطلاق اسم الفكر على العقل، أو إطلاقه على الحصيلة من الأفكار التي ينتهي إليها العقل من بحثه فليست إلاّ على سبيل إطلاق اسم السبب على المسبب أو الملزوم على اللازم، وهو أمر معهود في لسان العرب. ولكنّنا سنستعمل العقل والفكر فيما يلي على اعتبار هذه المعاني التي حدّدناها.

إنّ مهمّة الخلافة في الأرض التي هي مهمّة الوجود الإنساني مناطة في تحقيقها بالعقل وذلك من جهتين. الأولى أنّ هذه المهمّة أنيط التكليف بها بالعقل، فمن لا عقل له راشدًا على معنى القدرة على الإدراك والتمييز والحكم فليس مكلّفًا بشيء منها. والثاني أنّ المكلّف بها لا يقدر على إنجازها إلا بالعقل أن يكون قويًا ممارسًا لوظائفه على أقوم حال، فإذا ما أصابه ضعف لسبب أو آخر من الأسباب فإنّه يقصر عن أدائها بقدر ضعفه، حتى إذا ما وصل إلى درجة العطالة عن التفكير الصحيح وعن اكتشاف الحقائق وصل الإنسان إلى العجز عن أداء مهمّته في الحياة، وقارب وضعه وضع الأنعام، ولا يدانيه في ذلك أيّ عضو من أعضاء الإنسان أو قوّة من قواه؛ ولذلك خُصّ العقل في الشريعة بمقصد خاصّ في الحفظ في نطاق الحفظ العامّ للذات الإنسانية.

والمقصود بحفظ العقل هو تشريع أحكام من شأنها أن تحفظ للعقل قوّته التي بها يقدر على أداء مهمّته، وذلك سواء بتيسير عوامل القوّة له، وهي العوامل التي تنمّيه وتزكيه وترفع من طاقته في الإدراك الدقيق والحكم الصحيح، أو بدفع عوامل الضعف عنه، وهي تلك العوامل التي تعطّل نموّه وتشلّ طاقته. وبما أنّ العقل كما أشرنا إليه هو طاقة ذات بعدين مادّي ومعنوي فإنّ حفظه لا يكون إلاّ بحفظ هذين البعدين فيه؛ ولذلك جاءت أحكام الشريعة تقصد إلى حفظه بحفظهما معًا، وذلك على نحو ما نورده تاليًا.

١- الحفظ المادي للعقل:

أشرنا سابقًا إلى أنّ البعد المادّي للعقل يتمثّل في الدماغ وما يتبعه من أعصاب، وذلك فضلاً عن كونه يتأثّر على نحو أو آخر من التأثير بسائر الجسم؛ ولذلك فإنّ الحفظ المادّي للعقل سوف يكون مندرجًا ضمن الحفظ المادّي للنفس كما بيّناه سابقًا، فكلّ ما فيه حفظ للجسم الإنساني فإنّ فيه حفظًا للعقل بحفظ البعد المادّي فيه، وذلك سواء بتيسير عوامل النموّ والقوّة من غذاء وكساء وترّيض بدني، أو بدفع عوامل الوهن من أمراض

3- راجع: ابن منظور - لسان العرب: مادة (فكر).
4- الجرجاني - التعريفات: ١٧٦.

وأغذية فاسدة وأشربة مدمّرة للجسم، ولعلّ هذا المعنى هو الذي يلخّصه المثل السائر القائل: (العقل السليم في الجسم السليم).

والأحكام التي جاءت في الشريعة تقصد إلى حفظ النفس حفظًا ماديًا كما شرحناه سابقًا تقصد أيضًا ضمن ذلك إلى حفظ العقل في بعده المادّي، إلاّ أنّ بعضًا منها ربّما كان مقصده بالدرجة الأولى حفظ العقل، وذلك مثل حكم تحريم الخمر وما في حكمها من المخدّرات، فإنّها وإن كانت توهن الجسم كلّه إلاّ أنّ ضررها بالعقل أشدّ، فتشريع حرمتها إنّما قصده الأوّل هو حفظ العقل، وهكذا الأمر في كلّ ما يثبت أنّه يلحق بالعقل ضررًا ماديًا أكثر ممّا يلحقه بالجسم، وكذلك فإنّ كلّ ما يثبت أنّه به يقوي العقل أكثر ممّا يقوي الجسم فإنّه يكون مطلوبًا في الشرع من أجل حفظه بالقصد الأوّل.

٢- الحفظ المعنوي للعقل

لم يهتمّ الأصوليون وعلماء المقاصد كثيرًا بهذا الضرب من حفظ العقل، وأكثر ما انصبّ عليه اهتمامهم هو الحفظ المادّي اقتصارًا في الأكثر على التمثيل بتحريم الخمر، وأمّا الحفظ المعنوي فنكاد لا نجد فيه إلاّ إشارات قليلة وإن كان الباحثون المحدثون بدءوا يوجّهون الاهتمام إلى هذا الحفظ المعنوي للعقل[٥]. والحقيقة أنّ المستقرئ لأحكام الشريعة وتوجيهاتها كما وردت في القرآن والسنّة يجد أحكامها وتوجيهات كثيرة تقصد إلى حفظ العقل حفظًا معنويًا، سواء بتيسير أسباب قوّته أو بدفع أسباب ضعفه ممّا هو تيسير أو دفع لأسباب ذات صفة معنوية. ويبدو لنا أنّ استكمال البحث في المقاصد يقتضي أن يُبسط البيان في حفظ العقل بالأسباب المعنوية للحفظ، وهو ما سنحاوله تاليًا.

إنّ وظيفة العقل هي الفكر على معنى ما شرحنا سابقًا من أنّ الفكر هو حركة العقل للوصول إلى الحقائق والعمل بها، ولهذه الحركة العقلية منشّطات تنشّطها فترتفع كفاءة العقل في إدراك الحقائق ودقّة الأحكام، وقد تعترضها أسباب تربك تلك الحركة فيتعثّر العقل في أداء وظيفته في الإدراك والتقدير والحكم، وقد جاءت الشريعة بأحكام وتوجيهات كثيرة تعمل على تنشيط حركة العقل، وعلى الحيلولة دون عوامل تعثّره وإرباكه، وفي كلّ من هذا وذاك حفظ له، وهو حفظ بأسباب معنوية، ومن أهمّ ما يكون به ذلك الحفظ ما يلي:

أ- حفظ العقل بتحرير الفكر

الفكر هو حركة العقل لإدراك الحقيقة، وتعني حرية الفكر أن يكون عقل الإنسان وهو يمارس الحركة من أجل معرفة الحقيقة منطلقًا دون قيد يقيّده ليعوقه دون الوصول إلى النتيجة التي يسعى إليها، أو موجّه يوجّهه نحو نتيجة مبتغاة من قبل ذلك الموجّه وما كان ليصل إليها لو انطلق حرًا، فحينما تكون حركة العقل منطلقة على هذا النحو، تنتقل من المعلوم لتحصيل المجهول انتقالاً تحكمه المقتضيات الموضوعية للبحث ولا تؤثّر فيه عوامل من خارجه، فحينذاك يمكن أن يطلق

٥- انظر مثلاً: جمال الدين عطية - نحو تفعيل مقاصد الشريعة: ١٤٣.

على هذا الوضع ما يُسمّى بحرّية الفكر.

وهذه الحرّية في الفكر من شأنها أن تنشّط حركة العقل؛ إذ بها يكون العقل منطلقًا دون حدّ يحدّه أو عائق يعوقه، وحينئذ فإنّه ستقوده حركته إلى أبعاد يكتشف فيها أقدارًا من الحقائق لا يكون قادرًا عليها لو كان مقيّدًا أو موجّهًا إلى أفق محدّد، فحرّية الفكر بهذا المعنى هي إذن من أسباب القوّة للعقل، إذ بها ترتفع كفاءته في أداء مهمّة الكشف عن الحقيقة وتوظيفها في صالح الإنسان؛ ولذلك فقد جاءت الشريعة بأحكام وتوجيهات تلزم بهذه الحرّية، وذلك لتحقيق مقصد حفظ العقل. وتتوزّع هذه الأحكام بين أحكام تحرّر الفكر من أسباب تعطيل داخلية تتأسّس في ذات الفرد، وأحكام تحرّره من أسباب تعطيل تتسلّط عليه من خارجه.

أمّا النوع الأوّل فمثاله ما جاء في الشريعة من أمر بالتحرّر من قيود العادات والتقاليد الفاسدة التي يسلّطها المجتمع على أفراده، فتكون عائقة دون انطلاق فكره في حركة حرّة للتعامل مع موضوع النظر؛ إذ هي توجّه ذلك الفكر لينتهي عند النظر في القضايا المطروحة عليه إلى ما يواطئ تلك العادات والتقاليد وهو ما جاء فيه نكير شديد ونهي غليظ، وذلك في مثل قوله تعالى:

﴿قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ۝ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ (الزخرف/ ٢٣- ٢٤).

فهذا الإنكار الشديد لفعل هؤلاء، وهذا العقاب الذي أصابهم، إنّما هو بسبب أنّهم لم يحرّروا عقولهم من سطوة ما عليه آباؤهم من معتقدات، فاتّجهت الحركة الفكرية لتلك العقول اتّجاهًا خاطئًا حاد بهم عن الحقّ وأوقعهم في الضلال، فعلى الإنسان إذن بحكم الشرع أن يتحرّر من موروثات الآباء لينظر في المعروض عليه من الآراء بفكر حرّ يتّبع الحجّة، وينتهي إلى ما تنتهيه إليه، وحينئذ فإنّ عقله يكون محفوظًا بهذه الحرّية في الفكر.

ومثلما يجب في الشرع التحرّر من الموروثات المضلّة للآباء يجب أيضًا التحرّر من كلّ سطوة خارجية تعوق الفكر عن أن يتّجه الاتجاه الصحيح، وذلك مثل سطوة السلطان السياسي، أو الكهنوت الديني، أو تأثيرات الشعوذة والعرافة والسحر، فعلى الإنسان أن يتحرّر من كلّ هذه المؤثّرات التي تقيّد عقله مهما كان نوعها لتكون حركته الفكرية خاضعة فقط لما تلزمها به القواعد المنهجية للنظر. وقد تصل قوّة الوجوب لتحرير العقل من هذه السطوة إلى وجوب الهجرة من الدائرة الجغرافية التي تكون ضاربة فيها، وذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (النساء/ ٩٧).

فالآية كما ذكره الطبري نزلت في جماعة اعتذروا في عدم إيمانهم بقولهم: (كنا مستضعفين في الأرض، يستضعفنا أهل الشرك بالله في أرضنا وبلادنا بكثرة عددهم وقوتهم، فيمنعونا من الإيمان بالله)[٦]، فلم يقبل عذرهم؛ إذ كان عليهم أن يحرّروا عقولهم من سطوة قومهم المشركين بالهجرة منهم ليصلوا بنظرهم الحر إلى حقيقة الإيمان بالله وتوحيده.

وأما النوع الثاني الذي هو الحكم الشرعي بتحرير الفكر من المعوقات الداخلية الناشئة من ذات الإنسان فمثاله ما جاء من أمر بدفع الهوى النفسي على اختلاف أنواعه، ذلك الذي يتمكّن من النفس فيوجّه حركة العقل في البحث عن الحقائق إلى ما يوافقه هو من النتائج، ويصرفه عن اتباع الحجّة ليصل إلى الحقيقة، وذلك مثل ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ (الأنعام/ ١١٩).

ففي هذه الآية إنكار شديد على من حكّم الهوى على عقله ولم يحكّم الدليل، فانتهى به الأمر إلى الضلال بتحكيم الهوى، ولو حكّم الدليل لانتهى إلى العلم، فهذا المسلك الذي لا يحرّر فيه الإنسان فكره من الهوى هو مسلك محرّم؛ إذ الواجب التحرّر من الهوى، وهو ما انتهى إليه الرازي في شرحه لهذه الآية إذ قال: (دلّت هذه الآية على أنّ القول في الدين بمجرّد التقليد حرام؛ لأنّ القول بالتقليد قول بمحض الهوى والشهوة، والآية دلّت على أنّ ذلك حرام)(٧).

ويصدق هذا التحريم لسطوة الهوى على الفكر كلّ أنواع الهوى، سواء كان متمثلا في هوى الشهوات المادّية من مال وملذّات مختلفة، أو في هوى العواطف من حبّ وكره، وشفقة وعداوة، فأيّما ضرب من هذه الضروب حكمت الشريعة بوجوب دفعه أن يكون له سطوة على العقل فيوجّه حركته الفكرية حتى تكون تلك الحركة موجّهة بمحض الدليل كيما تصل إلى الحقّ، وفي ذلك جاء قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا﴾ (النساء / ١٣٥).

فهذا أمر صريح بوجوب تحرير الفكر من هوى الميل إلى القرابة وهوى الحظوة لدى الغني والشفقة على الفقير، وإرساله طليقًا وفق القواعد التي تنتهي به إلى القسط الذي هو الحقّ. وفي مثل هذا جاء قوله تعالى في وجوب التحرّر من هوى العداوة: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (المائدة / ٨).

ويُلحق بالهوى في تحريم الشريعة إيّاه أن يكون مكبّلاً للفكر ما يكبّله أيضا من بعض الخرافات والأوهام التي تجعل العقل يتجه في البحث عن الحقيقة إلى غير مظانّها الصحيحة وإنّما إلى أسباب لها موهومة، وذلك من مثل التطيّر والتنجيم وأنواع الشعوذة، وممّا جاء في ذلك من النهي قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف/ ١٣١).

فالنكير على هؤلاء القوم إنّما هو بسبب أنّهم رهنوا عقولهم في البحث عن أسباب ما يصيبهم من نفع وضرّ إلى وهم التطيّر ففسّروا به تلك الأسباب، وكان حريّا بهم أن يحرّروا الفكر من ذلك الوهم فيبحثوا عن الأسباب الحقيقية لما يصيبهم من النفع والضرّ في أفعالهم هم لا في تلك الأوهام التي جعلتهم لا يصلون إلى العلم بالحقيقة نتيجة عدم تحرير عقولهم منها.

(يتبع)

٦- الطبري - جامع البيان: ٤/ ٣١٣.

٧- الرازي - التفسير الكبير: ٧/ ١٧٦.

الشعر الصوفى



أ.د/ محمود العزب



٤- تائية وتائية: المعارضات:

تندرج تائية ابن الفارض وتائية وفا تحت قائمة المعارضات فى الشعر العربى.. والمعارضات الشعرية العربية فن معروف فى تاريخ الشعر العربى قديمه وحديثه، أو بالأحرى فإن الأحدث يعارض الأقدم، فالشاعر اللاحق يأخذ قصيدة شاعر سابق ببحرها وعروضها وقافيتها، وربما بموضوعها وبمحتواها ينسج على منوالها قصيدته.

وإذا حاولنا فى عجالة أن نشير إلى نماذج من هذا الفن الشائق فسنجد فى الشعر القديم شيئًا منه؛ فقد كتب الشاعر الوزير الأندلسى المعروف ابن زيدون (١٠٠٤ - ١٠٧٠م) فى رائعته النونية التى يسترضى فيها الشاعرة ولادة بنت المستكفى، والتى كان ينافسه فى حبها الوزير ابن عبدوس، ومطلعها:

أضحى التنائى بديلًا من تدانينا
وناب عن طيب لقيانا تجافينا
بنتم، وبنّا فما ابتلت جوانحنا
شوقًا إليكم ولا جفت مآقينا

ويبدو أن الوزير العاشق ابن زيدون كان يعارض بها قصيدة سابقة من الشعر القديم، وهى نونية الشاعر الجاهلى عمرو بن معد يكرب الزبيدى اليمنى (ت ٦٤١م) الذى أدرك الإسلام وأسلم ثم ارتد ثم عاد، ثم قُتل فى حصار نهاوند:

إنا محيوك يا سلمى فحيينا
وإن سقيت كرام الناس فاسقينا
وإن دعوت إلى جلى ومكرمة
يومًا سراة كرام الحى فادعينا

ومنها:

إنا لمن معشر أفنى أوائلهم
قيل الكماة ألا أين المحامونا

وقد عارض أمير الشعراء أحمد شوقى (ت. ١٩٣٢م.) بدوره نونية ابن زيدون المشار إليها آنفًا بنونية كتبها فى منفاه فى الأندلس ومطلعها:

يا نائح الطلح أشباه عوادينا
نأسى لواديك أم نأسى لوادينا

بل إن شاعرًا لبنانيًا معاصرًا هو إسكندر

فياض قد ترجم قصيدة «البحيرة» للشاعر الفرنسي لامارتين إلى العربية، على بحر النونيات الثلاث، ومطلعها:

أهكذا أبدًا تمضي أمانينا
نطوي الحياة وكف الموت تطوينا

فكانت إذن نونيات ثلاث تعارض كل منها سابقتها وكلها من بحر البسيط:

مستفعلن فاعلن مستفعلن فعلن
مستفعلن فاعلن مستفعلن فعلن

وقد كتب أمير الشعراء شوقي كذلك سينيته الجميلة:

اختلاف النهار والليل يُنسي
اذكرا لي الصبا وأيام أُنسي
وصفا لي ملاوة من شباب
صورت من تصورات ومسّ
عصفت كالصَّبا اللعوب ومرت
سِنة حلوة ولذّة خلس

وهذه القصيدة السينية قالها أمير الشعراء في منفاه بالأندلس كذلك، مثل النونية السابق الإشارة إليها، وهي تفيض بالحنين إلى وطنه مصر:

وسلا مصر هل سلا القلب عنها
أو أسا جرحه الزمان المؤسي

وهذه القصيدة في الحنين إلى الوطن وفي شكوى اضطهاد المستعمر لأبنائه تركت آثارًا وصارت مثل الأمثال والمأثورات؛ فقد كان الأجانب في مصر يتمتعون بكل خيراتها بينما أبناؤها محرومون مبعدون أو منفيون:

أحرام على بلابله الدو
ح حلال للطير من كل جنس

أما البيت:

وطني لو شغلت بالخلد عنه
نازعتني إليه في الخلد نفسي

فقد صار مثلًا يكرر ويعاد ويذكر في حب الوطن.

وشوقي في هذه السينية يعارض سينية الشاعر العباسي العملاق البحتري (ت ٨٢٠ - ٨٩٧م) ومطلعها:

صُنت نفسي عما يدنس نفسي
وترفعت عن جدا كل جبس

وجدير بالذكر أن السينيات قليلة في الشعر العربي عمومًا وأن جرس هذه القافية وإيقاعها من الروعة بمكان. وهما كلتاهما، أي سينية البحتري وسينية شوقي من بحر الخفيف:

فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن
فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن

وأمير الشعراء أحمد شوقي مولع بالمعارضات، ومكثر منها، وها هو يكتب قصيدة جميلة في الحب والعشق مطلعها:

مضناك جفاه مرقده
وبكاه ورحّم عُوّدُهُ
حيران القلب معذبه
مقروح الجفن مُسهّدُهُ

ويمضي أمير الطرب العربي محمد عبد الوهاب الذي كان يرافق أمير القوافي شوقي ويشدو بالكثير من قصائده فيغني:

ما بال العاذل يفتح لي
باب السلوان وأوصده
ويقول تكاد تُجنُّ به
فأقول وأوشك أعبده

وهو يعارض بها قصيدة جميلة للحصري القيرواني (١٠٢٩ - ١٠٩٥م) كانت تغنَّى كذلك، ومطلعها:

يا ليل الصَّبُّ متى غَدُهُ؟
أقيام الساعة موعده؟
رقد السمار وأرقه
أسف للبين يردده
فبكاه النجم ورق له
مما يرعاه ويرصده

وهما كلتاهما من بحر المتدارك:

فَعْلُنْ فعلن فعلن فعلن
فَعِلن فَعْلُن فَعْلُنْ فَعْلُنْ

ولكن صوفية خاصة بأمير الشعراء كثيرًا ما تتردد في مدائحه النبوية التي تغنى بعضها «سيدة الغناء العربي»، «كوكب الشرق أم كلثوم» ومن أجملها نهج البردة ومطلعها:

ريم على القاع بين البان والعلم
أحل سفك دمي في الأشهر الحرم
لما رنا حدثتني النفس قائلة
يا ويح جنبك بالسهم المصيب رُمي
جحدتها وكتمت السهم في كبدي
جرح الأحبة عندي غير ذي ألم
يا لائمي في هواه، والهوى قدر
لو شفك الوجد لم تعذل ولم تلم
لقد أعرتك أذنًا غير واعية
ورُبَّ مستمع والقلب في صَمَم

وينطلق بعد مدخل غزلي طويل وجميل إلى التحذير من هوى النفس:

يا نفس دنياك تخفي كل مبكية
وإن بدا منها حُسن مبتسم
والنفس من خيرها في خير عافية
والنفس من شرها في مرتع وخم

وهو يعارض بها «البردة» الشهيرة والخالدة التي كتبها إمام المادحين البوصيري (ت ١٢٩٥م)، وهي في غنى عن الشرح أو التعريف؛ إذ يتعبد بها الكثير من المؤمنين، ومطلعها:

أمن تذكر جيران بذي سلم
مزجت دمعًا جرى من مقلة بدم
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة
وأومض البرق في الظلماء من إضم
فما لعينيك إن قلت اكففا همتا
وما لقلبك إن قلت استفق يهم

وهما كلتاهما من بحر البسيط.

كانت تلك إشارة سريعة لدنيا المعارضات الشعرية نتأهل بها إلى ولوج عالم معارضة هي من صميم هذا البحث بل وهدفه الأول، ألا وهي ملحمة التائية الكبرى لمحمد وفا (ت. ١٤٦٤م.) التي يعارض بها الملحمة التائية المتفردة بين كل التائيات من قبلها ومن بعدها وهي تائية سلطان العاشقين عمر ابن الفارض.

﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

استفتاءات القراء

(الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين)

اطلعنا على الطلب المقدم من/ مجلة الأزهر - المتضمن لبعض الأسئلة وهي:

السؤال: أخذتُ ابني الصبي معي في الحج، فهل يصح حجه؟ وهل يُغني عن حج الفريضة؟

الإجابة: عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- عن النبي ﷺ: «أنه لقي ركبًا بالرَّوحاء فقال: مَن القومُ؟ قالوا: المسلمون. فقالوا: مَن أنت؟ قال: رسولُ الله. فرفعت إليه امرأةٌ صبيًا فقالت: ألهذا حجٌ؟ قال: نعم، ولكِ أجرٌ».

وعلى ذلك يصح حجُّ ابنك الصبي ما دمتَ مُستكملين له أركانَ حجِّه وواجباته، ويُحسب له حسناته كحج نافلة؛ ولذا لا يُغني عن حج الفريضة؛ لأن شرط العبادة المفروضة: التكليف، والصبي غير مكلَّف.

السؤال: ما حكم الشرع بالنسبة لفريضة الحج لذوي الاحتياجات الخاصة والإعاقات الذهنية والجسدية؟

الجــواب: المسلمون من ذوي الإعاقات الجسدية فقط لهم حكم الأصحاء شرعا: من وجوب الحج على المستطيع منهم: إما بنفسه أو بغيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٧].

وكذلك الحال مع ذوي الإعاقات الذهنية التي لم تُخرجهم إعاقتهم عن حدّ التكليف الشرعي؛ بأن كان سنه العقلي -لا العمري- هو سن البالغين المدركين لما حولهم؛ بأن يكون خمسة عشر عاما فما فوق، أو أقل من خمسة عشر عاما ولكنه يكون -برأي المختصين- مدركا للأمور الحسّيّة المتعلقة بالجنس الآخر، -كما يشعر بها مَن احتلم من الذكور أو احتلمت أو حاضت من الإناث- سواء أجمعُوا بين الإعاقة الجسدية وهذا النوع من الإعاقة الذهنية، أم اقتصر الأمر على إعاقتهم الذهنية فقط. والحج يقع صحيحا منهم مُسقطًا للفريضة سواء أحجوا بمالهم أو بمال غيرهم.

وأما مَن كان من المسلمين إعاقتُه الذهنية تُخرجه عن حدّ التكليف السابق تحديدُه، فإن الحج -ومثله العمرة- تصح منهم إذا تم نقلهم إلى الأماكن المقدسة وقاموا بأداء



يجيب عنها فضيلة الأستاذ الدكتور

شوقي علام

مفتي جمهورية مصر العربية

الحج أو العمرة بأركانهما وشروطهما عن طريق مساعدة الغير لهم. ومعنى ذلك: أنه يوضع ذلك في ميزان حسناتهم، وإن كان ذلك لا يُغني عن حج الفريضة أو عمرة الفريضة -عند من يقول بوجوب العمرة، كالشافعية-، بمعنى أن المعاق ذهنيًا إعاقة تُخرجه عن التكليف إذا عُوفي من مرضه وإعاقته وصار مكلفا وجبت عليه حجة الفريضة وعمرة الفريضة، عند مَن يقول بفرضيتهما.

السؤال: زوجتي تعمل ولها دخل مستقل ووالدها رجل طاعن في السن وغير قادر ماديًا على أداء مناسك الحج والعمرة، وولداه الذكران لا يقدران على مساعدته في ذلك. وتريد زوجتي -وأنا أتفق معها- تخصيص المال الكافي من ذمتها المالية لأبيها؛ حتى يتمكن من أداء مناسك الحج والعمرة. وأنا وزوجتي أدينا فريضة الحج والحمد لله. هل يجوز شرعًا أن يحج أو يعتمر والد زوجتي على نفقتها؟

الجـواب: لا مانع شرعا من أن يحج أو يعتمر والد الزوجة على نفقتها الخاصة، فهذا من البر والإحسان وصلة الرحم، وإنه بمجرد تبرع المال للحج من المتبرع -أيًا كان- يصبح المال ملكا للمتبرع إليه، وبه تتحقق الاستطاعة المطلوبة في الحج تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾

[آل عمران: ٩٧]

والله سبحانه وتعالى أعلم.

السؤال: أمتلك مالاً يكفي للحج، ولكن صحتي لا تمكنني من أدائه بنفسي، فهل لي أن أوكل مَن يحج عني؟

الإجابة: عن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- قال: «كان الفضلُ بنُ عباس رديفَ رسولِ الله ﷺ فجاءت امرأةٌ من خثعمَ فقالت: يا رسول الله، إن فريضة الله على عباده في الحج أدركت أبي شيخًا كبيرًا لا يثبتُ على الراحلة، أفأحجُّ عنه؟ قال: نعم».

وهذا الذي لا يستطيع أن يثبت على الراحلة يُعرف في الفقه بـ «المعضوب»، وعليه فلك أن توكلي مَن يحج عنك.

ويشترط لجواز التوكيل بالحج أن تكون نفقة المأمور بالحج من مال الآمر العاجز عن الحج، أو في مال الميت إذا كان قد أوصى بالحج، وفي مال المتبرع إذا لم يكن قد أوصى، وأن ينوي النائبُ الحجَّ عن العاجز أو الميت، وأن يكون النائب قد أدى أولا حجة الإسلام عن نفسه.

والله سبحانه وتعالى أعلم

السؤال: حججت مرة واحدة عن نفسي، ثم حججت مرة واحدة عن جدتي المتوفاة، فهل يجوز أن أحج عنها مرة أخرى؟

الجواب: لا مانع شرعًا من تكرار الحج عن جدتك المتوفاة.

والله سبحانه وتعالى أعلم

السؤال: هل يصح الحج لمن يعمل بعقد عمل في السعودية في موسم الحج؟

الإجابة: فرق بين صحة الحج وجوازه، فإذا اكتملت أركان الحج وواجباته فالحج صحيح يسقط الفرض إن كان حجة الإسلام، ويُحسب نفلا إن لم يكن حجة الإسلام، وأما جوازه فشيء آخر؛ فإذا كان -مثلا- عقد العمل لا يسمح لك بالحج، فخالفتَ وحججتَ فهذا إثم؛ لمخالفة شرط العقد، وما يترتب على ذلك من الضرر الذي يلحق بك وبالآخرين، مع كون الحج صحيحًا إذا استوفى أركانه وشروطه.

والله سبحانه وتعالى أعلم

السؤال: ما معنى الإفراد والقران والتمتع في الحج؟ وما أفضلها؟

الجواب: للحج أنساك ثلاثة، أي: ثلاثة طرق لتأدية منسكه: الإفراد والقران والتمتع.

فالإفراد عند بعض العلماء -كالشافعية- هو تقديم الحج على العمرة؛ بأن يُحرِم أولا بالحج من ميقاته، ويَفرغ منه، ثم يخرج من مكة إلى أدنى الحل فيحرم بالعمرة، ويأتي بعملها، ومن العلماء مَن لا يشترط العمرة بعد الحج، ويجعل القيام بأعمال الحج وحده دون العمرة هو الإفراد.

وأما القران فهو أن يُحرم بهما معًا، أو يحرم بالعمرة ثم يُدخل عليها الحج قبل شروعه في أعمالها، ثم يعمل عمل الحج في الصورتين، فيحصلان.

وأما التمتع فهو أن يقدم العمرة على الحج ويتحلل بينهما، ويسمى الآتي بهذا النسك متمتعًا؛ نظرًا لتمتعه بمحظورات الإحرام بين النُّسكين.

وليس على المفرد دم واجب، بل إن شاء ذبح تطوعًا منه، وإن شاء لم يذبح، ولكن المتمتع والقارن عليهما دم واجب؛ وسبب الوجوب هو ترك الإحرام من ميقات بلده.

وأما عن أفضلها فهو محل خلاف بين العلماء: فأفضلها عند المالكية والشافعية: الإفراد، ولكن المالكية قالوا بأنه يليه في الأفضلية القران فالتمتع، بينما يرى الشافعية أن الذي يليه في الأفضلية هو التمتع فالقران، وعند الحنفية الأفضل من الأنساك الثلاثة هو القران فالتمتع فالإفراد، ويرى الحنابلة أن التمتع أفضل، فالإفراد، فالقران.

والنصيحة في مثل هذا الموقف أن تأخذ الأيسرَ عليك.

والله سبحانه وتعالى أعلم

السؤال: لبس العباءة في الحج ناسيًا قبل الحلق وبعد أن قام برمي جمرة العقبة الكبرى ثم حلق بعد ذلك شعره وطاف للإفاضة وسعى وتحلل التحلل الأكبر، فماذا يجب عليه إزاء هذا الفعل؟

الجواب: من المقرر عند الشافعية أن ما كان من محظورات الإحرام على سبيل الترفه -كالطيب، والجماع، ولبس المخيط، وستر الوجه والرأس- فإنه لا تجب الفدية فيها على الناسي ولا الجاهل، وإنما تجب على من تلبس بشيء منها عامدًا عالمًا.

وبناء على ذلك: فإن لبس العباءة حال الإحرام بعد رمي جمرة العقبة إذا كان على سبيل النسيان أو الجهل فلا حرج على فاعله، ولا يفسد بذلك حجه، وليس عليه شيء.

والله سبحانه وتعالى أعلم

السؤال: هل السترة التي يلبسها المُحرم في حجه وعمرته -والتي تكون قطعة من قماش يتم عمل كنار لها ويتم إدخال مطاط لها -أستك- في هذا الكنار وتلبس أسفل الإزار- مشروعة؛ حيث إننا نقوم بتصنيعها وتوريدها للمحلات التجارية، ورأيكم سيكون فيصلا في الاستمرار في هذا النشاط من عدمه؟

الجواب: الممنوع على المُحرِم هو لبس المخيط المُحيط؛ لما روى ابنُ عُمَرَ -رضي الله عنهما- أنَّ رَجُلا قال: يا رسول الله، ما يَلبَسُ المُحرِمُ من الثِّياب؟ فقال النبيُّ ﷺ: «لا يَلبَسُ المُحرِمُ القَميصَ ولا السَّراويلَ ولا البُرنُسَ ولا الخُفَّين، إلَّا أن لا يَجِدَ النَّعلين فليَلبَس ما هو أسفَلَ من الكَعبَين». فأخذ العلماء من ذلك وغيره من الأحاديث أن الرجل إذا أحرم يمتنع عليه لُبسُ المخيط المحيط، والمقصود بذلك: أن يكون الملبوس مُحيطًا مُفَصَّلا على العُضو، كالمذكور في الحديث: من السراويل والقميص والخفين والبرنس، وما لم يكن كذلك فلا بأس بلُبس المحرم له، كالساعة والنظارة والرداء والإزار مما يُلَفُّ على الجسم ولا يُفَصَّل العُضو.

وعليه فنفيد بأن «السترة» المسئول عنها بهذا الوصف الوارد في السؤال جائز لُبسُها من قِبل المُحرِم: حاجًا كان أو معتمرًا، ويجوز التعامل فيها صناعيا وتجاريا.

والله سبحانه وتعالى أعلم

السؤال: هل يجوز للمحرم أو المحرمة أن يغطي نفسه بشيء يتدفأ به؟

الجواب: المحرم بعمرة أو بحج ممنوع من لبس المخيط والمحيط، وهو المفصل على قدر العضو من أعضاء الجسم، كالقميص والسراويل والتُّبان والخُفين غير المقطوعين أسفل الكعبين ونحو ذلك، أما ما يُلَفُّ على عضو من الأعضاء من غير أن يكون مفصلا عليه فلا يضرُّ، فلو أخذ قميصًا أو ملاءة أو لحافا فلفَّها على جسمه؛ لدفع البرد أو لستر العورة أو غير ذلك فلا يضره ذلك، فالمعوَّل عليه في وجوب الفدية في المخيط هو حصول اللبس به على المعتاد في كل ملبوس، لا مجرد وضعه على الجسم.

وهو أيضًا ممنوع من تغطية رأسه أو بعضه -ولو كان البياض الذي خلف الأذن- بشيء يلتصق به، سواء أكان مَخيطًا مُحيطًا كالقلنسوة أو الطاقية، أم لا، كالعمامة أو الإزار، وكل ما يُعدُّ ساترًا، ولا بأس أن يتوسد وسادة، أو يضع يده على رأسه، أو يستظل بمظلة ولو مست رأسه، وأما حمل شيء على رأسه ففيه خلاف، فالأفضل ترك ذلك حتى لا تكون عليه فدية على رأي المانعين.

والمُحرمة بحج أو بعمرة إحرامها في وجهها وكفيها؛ فيجب عليها ألا تغطي ذلك منها، ولها بعد ذلك لبس ما تشاء، وتغطية رأسها بما تشاء.

والله سبحانه وتعالى أعلم

أيام لها تاريخ:

الاستيطان الصهيونى


إعداد: أ/ سعد فتحي سعد

في شهر ذي القعدة سنة ١٤١٧هـ وتحديدًا يوم التاسع من ذي القعدة، الموافق ١٨ مارس ١٩٩٧م، بدأت السلطات الصهيونية بناء المشروع الاستيطاني الصهيوني بجبل (أبوغنيم).

الاستيطان هو سبب من أسباب المجازر التي يرتكبها الكيان الصهيوني -في غزة وكل الأراضي الفلسطينية- لذا يجب أن ننظر نظرة شاملة للقضية ونجيب عن بعض التساؤلات عن [الاستيطان] لأنه لب القضية. فما هو الاستيطان، وما تاريخه، وما مراحله؟

الاستيطان:

هو الاستيلاء على أراض مملوكة لأصحابها الشرعيين بالقوة، مع التخطيط المسبق لطرد هؤلاء السكان واستئصال حضاراتهم والقضاء على وجودهم وهو ما استخدمه اليهود الصهاينة تجاه الشعب الفلسطيني.

قامت الحركة الصهيونية بمساعدة بريطانيا والولايات المتحدة ببناء القاعدة الديمغرافية اليهودية في فلسطين العربية، وللطريق إلى بناء هذه القاعدة أظهر المستوطنون الصهاينة تجاه سكان فلسطين الأصليين وأصحابها الشرعيين الإرهاب والعنصرية من أجل ترحيلهم والقضاء عليهم ودفعهم إلى الرحيل من وطنهم فلسطين إلى البلدان العربية المجاورة.

يشكل الاستيطان عنصراً رئيسياً من عناصر إقامة دولة اليهود في فلسطين العربية، باعتباره وسيلة عملية تهدف إلى تهويد فلسطين وإقامة الكيان الاستيطاني فيها وتزويده باستمرار بالعنصر البشري لتقوية طاقاته العسكرية والاقتصادية والبشرية.

ويعد الاستيطان الصهيوني في فلسطين أبشع التجارب الاستيطانية في العالم، فقد فاق كل التجارب الاستيطانية القديمة والحديثة، كونه ارتبط بالعنف الدموي والعنصرية المقيتة، وبالاستيلاء على أراضي الشعب الفلسطيني بالقوة الغاشمة، وإجلائهم والقضاء على وجودهم.

الاستيطان في الفكر الصهيوني:

يقول الصهاينة: «إن فلسطين هي إسرائيل أو صهيون وتاريخها قد توقف تمامًا برحيل اليهود عنها، بل إن تاريخ اليهود أنفسهم قد توقف هو الآخر برحيلهم عنها، ولن يستأنف هذا التاريخ إلا بعودتهم إليها فهو تاريخ مقدس». وقد جسدت الحركة الصهيونية في فلسطين العقيدة التوراتية في طرحها للاستيطان، حيث حولت ممارساتها العملية لاستعمارها الاستيطاني في فلسطين إلى مفهوم توراتي «عودة الشعب إلى أرض الميعاد» وبذلك يتم استقبال المهاجرين المستوطنين اليهود إلى فلسطين كمهاجرين إلى أرض إسرائيل. إن الأيدلوجية الصهيونية في فلسفتها الخاصة قامت على أساس نفي الآخر واقتلاعه، لا التعايش معه أو القبول بوجوده، وعليه فإن غايتها في البدء أو النهاية هي الإجلاء والإحلال وإزاحة الفلسطيني لتوطين هؤلاء المهاجرين مكانهم».

وقد ارتبطت الصهيونية بالاستيطان باعتباره جزءًا منها وأساسًا مهما في مشروعها، إذ قامت على ثلاثة أسس متكاملة، الأول: أن اليهود رغم انتمائهم للعديد من الدول والمجتمعات يمثلون قومية واحدة تتميز بصفات عرقية سامية، والثاني: أن علاقة اليهود مع الشعوب الأخرى تقوم على العداء والصراع تلخصها ظاهرة «معاداة السامية»، والثالث: أن مشكلة اليهودية لا حل لها إلا بإقامة دولة يهودية، وأن هذه الدولة تتمثل في أرض الميعاد والاستيطان فيها، وأساس ذلك «إذا كان هناك من شعب مختار فثمة أيضا أرض مختارة، فالأصل في استمرار الصهيونية لا يكون إلا من خلال استمرار الاستيطان في فلسطين».

فالبرامج الاستيطانية الصهيونية جاءت لإقامة المستعمرات اليهودية على الأراضي الفلسطينية تحت تبريرات دينية وتاريخية مفادها أن هناك حقوقاً تاريخية ودينية يهودية على أرض فلسطين، وهذه الحقوق هي التي وعد بها الرب الشعب اليهودي، وقد تطور هذا المفهوم فيما بعد إلى جعل إقامة المستعمرات أداة لتعزيز أمن دولة إسرائيل بعد قيامها عام ١٩٤٨م.

فالاستيطان الإسرائيلي هو التطبيق العملي للفكر الاستراتيجي الصهيوني الذي انتهج فلسفة أساسها الاستيلاء على الأرض الفلسطينية، بعد طرد سكانها الفلسطينيين بشتى الوسائل بحجج ودعاوي دينية وتاريخية باطلة، وقد روجوا مقولة «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض»، لجلب أعداد كبيرة من اليهود من مختلف أنحاء العالم، وإحلالهم بدلاً من العرب الفلسطينيين، بهدف إقامة دولة يهودية في المنطقة العربية.

بداية الاستيطان:

بدأت فكرة الاستيطان في فلسطين بعد ظهور حركة الإصلاح الديني على يد مارتن لوثر في أوروبا، حيث بدأ أصحاب المذهب البروتستانتي الجديد بترويج فكرة تقضي بأن اليهود ليسوا جزءاً من النسيج الحضاري الغربي، وإنما هم شعب الله المختار، وطنهم المقدس فلسطين، يجب أن يعودوا إليه، وكانت أولى الدعوات لتحقيق هذه الفكرة ما قام به التاجر الدنماركي أوليغربولي عام ١٦٩٥م، الذي أعد خطة لتوطين اليهود في فلسطين، وقام بتسليمها إلى ملوك أوروبا في ذلك الوقت، وفي عام ١٧٩٩ كان الإمبراطور الفرنسي نابليون بونابرت أول زعيم دولة يقترح إنشاء دولة يهودية في فلسطين أثناء حملته الشهيرة على مصر وسوريا.

واشتدت حملة الدعوات للمشروع الاستيطاني اليهودي في فلسطين في القرن التاسع عشر، حيث انطلقت هذه الدعوات من أوروبا مستغلة المناخ السياسي السائد حول الأطماع الاستعمارية الأوروبية في تقسيم ممتلكات الرجل المريض «الدولة العثمانية» والتي عرفت حينئذ بالمسألة الشرقية، وقد تولى أمر هذه الدعوات عدد من زعماء اليهود وغيرهم، أمثال: اللورد شاتسبوري، الذي دعا إلى حل المسألة الشرقية عن طريق استعمار اليهود لفلسطين، بدعم من الدول العظمى ساعده في ذلك «اللورد بالمرستون» الذي شغل عدة مناصب منها: وزير خارجية بريطانيا، ثم رئيس مجلس وزرائها، حيث قام بتعيين أول قنصل بريطاني في القدس عام١٨٣٨م وتكليفه بمنح الحماية الرسمية لليهود في فلسطين، كما طلب من السفير البريطاني في القسطنطينية بالتدخل لدى السلطان العثماني للسماح لليهود بالهجرة إلى فلسطين.

يقول المؤرخ العربي د. عبد الوهاب المسيري في موسوعته (موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية):

قبل ظهور الحركة الصهيونية لم يكن ثمة استيطان يهودي في فلسطين، فأعضاء الجماعات اليهودية الذين لم يتجاوز عددهم ٢٥ ألفًا كانوا يقطنون في التجمعات المدنية، وبخاصة مدن القدس وطبرية وصفد، وقد استقروا في فلسطين لأسباب دينية لا علاقة لها بالمشروع الصهيوني، ولم يكن هناك وجود للاستيطان الزراعي الذي لم يبدأ إلا عام ١٨٧٨م، عندما توجهت مجموعة من يهود القدس بعد حصولها على دعم خارجي إلى السهل الساحلي حيث تمكنت من تأسيس مستوطنة بتاح تكفا، ومع ظهور حركة أحباء صهيون، وبداية موجات الهجرة الاستيطانية عام ١٨٨٠ أمكن تأسيس عدد من المستوطنات الزراعية، فتم عام ١٨٨٢ تأسيس مستوطنات ريشون لتسيون، وزخرون يعقوب، وروش بينا، وفي سنة ١٨٨٣ أسست مستوطنتا يسود همعلية، وإكرون، وأقيمت مستوطنة جديرا عام ١٨٨٤ م.

غير أن هذه المستوطنات لم تلبث

أن تعرضت لخسائر فادحة، ولجأت إلى الاعتماد على الدعم الخارجي، وبخاصة البارون روتشيلد، وقد مكن هذا الدعم المستوطنات القديمة من الاستمرار، كما مكن من إقامة ثلاث مستوطنات أخرى عام ١٨٩٠ (رحوبوت ومشمارهياردن والخضيرة)، ولكن مع إقامة تنظيمات صهيونية توطينية ابتداء من عام ١٨٩١ انتهى دور البارون روتشيلد، وانتقلت مسئولية رعاية المستوطنات إلى الجمعية الاستعمارية اليهودية (بيكا) التي عملت في البداية على تزويد المستوطنات القائمة بالقروض المالية، وإقامة المزارع التدريبية للعمال الزراعيين وذلك بعد أن نقلت هذه المسئوليات من رجال البارون روتشيلد، وحتى سنة ١٨٩٨ كان قد تم تأسيس ٢٢ مستوطنة يهودية بلغت مجموع مساحاتها نحو ٢٠٠ ألف دونم، وبلغ مجموع سكانها آنذاك ٤٩٠٠ نسمة تقريبًا.

ومع انعقاد المؤتمر الصهيوني الثاني ١٨٩٨، وإقرار قانون المنظمة الصهيونية العاملة، أخذت هذه المنظمة على عاتقها كل الشئون المتعلقة باستيطان فلسطين، وبذلك أنهى ما يسمى الصهيونية العملية أو التسللية، وبدأت هذه المنظمة نشاطها الفعلي عام ١٩٠١ مع تأسيس الصندوق القومي اليهودي، وأسهم تأسيس مكتب فلسطين برئاسة آرثر روبين عام ١٩٠٧-١٩٠٨ في زيادة نشاط هذه المؤسسة، حيث باشرت أعمالها الفعلية عام ١٩٠٨ بتأسيس مشروعها الأول، وهو مزرعة «أم جوني» في الجانب الغربي لنهر الأردن جنوب بحيرة طبرية، وفيما بعد شرقي النهر في المستوطنات التي أصبحت تحمل اسم «كينرت دجانيا»، ومع بداية الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ كان هناك ٤٧ مستوطنة يهودية في فلسطين أقيمت ١٤ منها بدعم من المنظمة الصهيونية بإشراف مكتب فلسطين.

وتعتبر مرحلة الانتداب البريطاني على فلسطين (أي وضع فلسطين في قبضة الراعي الإمبريالي) المرحلة الذهبية للصهيونية فبعد صدور وعد بلفور عام ١٩١٧م ومنح القوة الإمبريالية الغربية دعمها القوي للمشروع الصهيوني، وبداية موجة الهجرة الصهيونية الثالثة ١٩١٩م، وإعلان شرعية الهجرة ١٩٢١، وتأسيس قسم الاستيطان في المنظمة الصهيونية الذي حل محل مكتب فلسطين، وتنامي الوجود السياسي للحركة الصهيونية توسعت النشاطات الاستيطانية، واكتسبت أبعادًا أيديولوجية مع تبلور الأنماط الأساسية الثلاثة للمستوطنات: الكيبوتس والموشاف والقرى التعاونية أو تعاونيات الطبقة المتوسطة.

وقد أخذت النوايا السياسية لعمليات الاستيطان في الاتضاح للفلسطينيين، الأمر الذي فجر عمليات المقاومة، حيث هوجم عدد من المستوطنات التي أقيمت في الجليل الأعلى (تل حاي وكفار جلعادي)، وبدأت عام ١٩٢٩ أول دراسة علمية لخدمة

أغراض التخطيط الاستيطاني على المستوى القطري.

ومع صدور الكتاب الأبيض عام ١٩٣٠ قررت المنظمة الصهيونية الإسراع في عمليات الاستيطان وفي إقامة نقاط قوية في المناطق التي لم يسكن بها المستوطنون الصهاينة في السابق، وذلك بهدف خلق خريطة سكانية يهودية تشمل أوسع مساحة جغرافية ممكنة للاستعداد لاحتمال طرح تقسيم فلسطين، حيث جرى تركيز عمليات الاستيطان باتباع مبدأ الزراعة المختلطة للمساعدة في عمليات الاكتفاء الذاتي الغذائي للمستوطنة في أعقاب تأزم الأوضاع داخل فلسطين، ويطلق على المستوطنات التي أقيمت خلال تلك الفترة اسم «السور والبرج» وبالعبرية (خوما ومجدال) وصفًا للطابع العسكري لتلك المستوطنات التي ترافقت مع بداية الثورة الفلسطينية عام ١٩٣٦م.

وفي غضون الحرب العالمية الثانية وبعدها أقيم نحو ٩٤ مستوطنة، وبعد انتهاء الحرب اتجهت الجهود الاستيطانية للتوسع الجغرافي لاستيطان منطقة النقب في عامي ١٩٤٦ و ١٩٤٧، ومرت أنابيب المياه إلى هذه المستوطنات من المناطق الوسطى في فلسطين، ونشطت الوكالة اليهودية في فترة الانتداب في تنظيم عمليات الاستيطان، وأقامت لذلك عددًا من المشاريع الاستيطانية الخاصة ابتداء من سنة ١٩٣٠ وحتى الحرب العالمية الثانية، ومن هذه المشاريع: مشروع الألف عائلة الذي تم بمقتضاه إقامة عدة مستوطنات في السهل الساحلي، وكذلك مشاريع توطين اليهود المشردين في أعقاب عام ١٩٣٣م.

واستمرت محاولات الاستيلاء على الأراضي في أية بقعة يمكن الوصول إليها، إلا أن التركيز كان على المناطق السهلية بشكل عام، حيث تتميز الأراضي بالجودة، ووفرة المياه.

وحتى عام ١٩٤٨، كان حوالي ٢٥٪ من المستوطنات اليهودية موجودة في منطقة سهول الخضيرة، ونسبة ١٢٪ منها في سهول يافا، و١٧٪ منها في سهول طبريا والحولة وبيسان، و١١٪ في سهل الجليل الأسفل ومرج ابن عامر، و٤٪ في كل من منطقتي: الجليل الأعلى، ومرتفعات القدس، أما منطقة النقب فقد بلغت نسبة المستوطنات اليهودية فيها ٩٪ تقريبًا من إجمالي المستوطنات اليهودية، وبلغت مساحة الجزر التي أقيمت عليها «إسرائيل» في فلسطين حسب خطوط الهدنة عام ١٩٤٧ حوالي ٢٠,٧٠٠,٠٠٠ دونم منها ٤٢٥ ألف دونم مسطحات مائية.

وقد تزايد عدد المستوطنات في الفترة من ١٨٢٢ - ١٨٩٩ ليصبح ٢٢ مستوطنة، استوطنها ٢٥١٠ مستوطنين، وزاد في الفترة ١٩٠٠ - ١٩٠٧ ليصبح ٢٧ مستوطنة اتسعت لـ ٧٠٠٠ مستوطن، وزاد ليصبح ٤٧ مستوطنة في الفترة ١٩٠٨ - ١٩١٤ حيث وسعت ١٢ ألف مستوطن، وارتفع

عام ١٩٢٢ فأصبح ٧١ مستوطنة وسعت ١٤,٩٢٠ مستوطنًا، وفي عام ١٩٤٤ وصل عدد المستوطنات إلى ٢٥٩ مستوطنة ضمت ١٤٣,٠٠٠ مستوطن، وعند قيام الدولة الصهيونية كانت تضم ٢٧٧ مستوطنة.

ثم أعلن قيام الدولة الاستيطانية الصهيونية التي تمثل المستوطنة الصهيونية الكبرى، التي تضم كل المستوطنات الزراعية والصناعية والمدنية والكيبوتسات والموشافات في منتصف آيار - مايو ١٩٤٨م.

مراحل الاستيطان:

ويمكن إجمال مراحل الاستيطان في المراحل التالية:

المرحلة الأولى:

مرحلة الدولة العثمانية، وتحديداً منذ انعقاد مؤتمر لندن عام ١٨٤٠م، بعد هزيمة محمد علي، واستمرت حتى عام ١٨٨٢م. إلا أن مشاريع هذه المرحلة لم تلق النجاح المطلوب بسبب عزوف اليهود أنفسهم عن الهجرة إلى فلسطين، والتوجه إلى الولايات المتحدة الأمريكية أو الانخراط في مجتمعاتهم، ومن أبرز نشطاء هذه المرحلة اللورد شافتسبوري، واللورد بالمرستون، ومونتفيوري واستمرت هذه المرحلة حتى بداية الانتداب البريطاني على فلسطين عام ١٩٢٠م.

المرحلة الثانية:

مرحلة الانتداب البريطاني على فلسطين وحتى قيام إسرائيل، وفي هذه المرحلة بدأ الاستيطان الفعلي في فلسطين، حيث تم تكثيف عمليات استملاك اليهود للأراضي الفلسطينية بمساعدة بريطانيا، وتدفق الهجرة اليهودية، حيث شهدت هذه المرحلة الموجات الثالثة والرابعة والخامسة من الهجرات اليهودية.

المرحلة الثالثة:

وبدأت منذ إعلان قيام إسرائيل وحتى عام ١٩٦٧م، وفيها تمكنت إسرائيل من الاستيلاء على الأراضي الفلسطينية، والاستمرار في مصادرة الأراضي وإقامة المستوطنات لاستقبال المهاجرين الجدد باستمرار.

المرحلة الرابعة:

هي مرحلة التسوية السياسية وتوقيع اتفاق أوسلو عام ١٩٩٣م، فقد تسارعت حركة الاستيطان في الأراضي الفلسطينية، واستمرت أعمال إقامة المستوطنات وتوسيعها وصولاً إلى إقامة جدار الفصل العنصري، الذي سيطرت من خلاله إسرائيل على أكثر من ثلث مساحة الضفة الغربية.

وحتى الآن نرى أطماع المحتل الصهيوني في أخذ أرض المسلمين والعرب وقتلهم وإنشاء المذابح الجماعية تحت أي مسمى من المسميات وتحت أي فعلة مدبرة من أفاعيلهم الخبيثة ليتخذوها ذريعة لسفك الدم وتهجير أهل الأرض من وطنهم.

بين الصحف والمجلات

إعداد أ/ محمد جمعة

نحو مجتمع آمن مستقر... مراعاة فقه الأولويات

تحت هذا العنوان كتب أ.د/شوقي علام مقاله المنشور بجريدة الأهرام الصادرة بتاريخ ٢٠١٤/٨/٨م يقول فيه :

غياب فقه الأولويات عن حياتنا وانشغال البعض بالتشكيك والإنكار لأمور دينية ثبت صحتها بالقرآن والسنة والإجماع ،أو بالطعن فيها وتجاهل أقوال العلماء السابقين ، لهي أمور من شأنها أن تحدث الفرقة وعدم الاستقرار في المجتمع الواحد ، وتثير البلبلة في أمور دينية مستقرة في أذهان المسلمين ، في وقت المجتمع فيه أحوج ما يكون لأن يتوحد أبناؤه حول قضايا البناء والتنمية وتقديم الأهم فالمهم والأحوج فالأحوج كل ذلك مراعاة لفقه الأولويات الذي يمنح الآخذ به بصيرة وتوفيقا ، ويعطيه رؤية واضحة فيما هو عام وخاص بدلاً من إنفاق الجهد والوقت في قضايا تشتت ولا تجمع .

ففي الفترة الأخيرة دأب البعض على إثارة قضايا تحدث البلبلة من خلال إنكار ثوابت العقيدة من عذاب القبر أو الحجاب أو النيل من بعض الصحابة أو التشكيك في علماء الحديث ، وترك ما ينفع المسلمين وما هم أحوج إليه ، وكل هذا بدوره يفتح بابًا عظيمًا للفتن ، ويفتح بابًا لغير المتخصصين لأن يدلوا بدلائهم في القضايا العقدية والفقهية ، مما يثير مشاعر العامة والخاصة في وقت البلاد تسعى للهدوء بعيدا عن صخب المدعين .

وغياب فقه الأولويات عن هؤلاء المدعين وغير المتخصصين هو ما يوقعهم في دائرة الخلاف ، إن ما يلفت النظر الآن في واقعنا هو اختلال ميزان الأولويات لدى عموم الأمة ، فقد تم الاهتمام بالنوافل دون الفرائض ، وتقديم الفروع على الأصول ، والاهتمام بالعبادات الفردية على حساب العبادات الاجتماعية ، وإثارة قضايا في غير وقتها ، وفي غير مكانها ، ولا تقال في محافل علمية للدرس والبحث وعرض وجهات النظر - ولا تقال للعامة - إلى غير ذلك من ألوان الخلل وهذا يؤدي إلى تضييع الأوقات وتبديد الطاقات وصناعة الأزمات وتمزيق العلاقات .

إن الفهم الصحيح للدين يفرض علينا معرفة فقه الأولويات وكيفية الموازنة والترجيح بين المصالح والمفاسد إذا تعارضت فكما يقال :ليس العاقل الذي يعلم الخير من الشر ، ولكن العاقل الذي يعلم خير الخيرين وشر الشرين ، فالذى يثير القضايا وينكر من أمور الدين كعذاب القبر وخلافه كان الأولى به الانشغال بما ينفع الناس وترك الحديث عن مثل هذه القضايا لأهل التخصص ، فالناس أحوج ما يكونون لمن يبين لهم أمور دينهم الصحيحة أمنًا للبس نتيجة

لجهلهم وحمايتهم من الوقوع في المخالفات الشرعية التي قد توردهم المهالك ، فهذا رجل سأل شيخا وقال : إني زنيت وصارت المرأة حاملا من الزنا فماذا أصنع ؟ فقال له الشيخ : ولماذا جعلت المصيبة مصيبتين ، لماذا لم تعزل ؟ فقال : بلغني أن العزل مكروه ، فقال له الشيخ : بلغك أن العزل مكروه ولم يبلغك أن الزنا حرام ؟ وهذا ابن عمر رضي الله عنهما سأله أحد أهل العراق عن دم البعوضة : أنجس هو ؟ فقال : سبحان الله ، تقتلون ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وتسألون عن دم البعوضة ! وهؤلاء الذين كانوا يجلدون الإمام أحمد بن حنبل كانوا يسألونه عن الدم الذي ينضح على ثيابهم ، وكانوا ينتقدونه على أن يصلي وهو جالس والقيد في يديه وفي رجليه .

أوزيل يتبرع بمكافآته لأطفال غزة ويعد ببناء ٤ مساجد لمسلمي البرازيل

تحت هذا العنوان نشرت جريدة المدينة السعودية تقريرًا إخباريا بعددها الصادر بتاريخ : ٢٠١٤/٧/١٥م جاء فيه :

استحوذ اللاعب الألماني المسلم مسعود أوزيل المحترف في نادي آرسنال الإنجليزي على الأضواء بعد المباراة النهائية وتتويج منتخب بلاده بكأس العالم ، حيث تناقلت الشبكة العنكبوتية وعبر مواقع التواصل الاجتماعي أكثر من ردة فعل للنجم الألماني الكبير الذي استهل المباراة بقراءة القرآن في أرض الملعب ، واختتمها بسجدة شكر في نهاية المباراة . وكان أوزيل قد شغل الأوساط بتصريحاته حينما أكد بأنه سيبقى في البرازيل لبناء ٤ مساجد للمسلمين هناك ، ثم امتنع عن مصافحة أحد أعضاء الاتحاد الدولي لكرة القدم «الفيفا» بسبب دعمه لإسرائيل ، وكان الحدث الأبرز ما أشير عن تبرعه بمكافآته المقدمة من الاتحاد الألماني لكرة القدم وقدرها ٣٠٠ ألف يورو عن تحقيق الكأس لكل لاعب ، بالإضافة إلى ١٥٠ ألف يورو في مباراة الدور نصف النهائي ومكافآت أخرى عن كل مباراة ، تبرع بها النجم العالمي الكبير مسعود أوزيل لأطفال غزة . ويضم منتخب ألمانيا «بطل العالم» نجمين مسلمين آخرين إلى جانب أوزيل هما لاعب ريال مدريد الإسباني ، سامي خضيرة «تونسي الأصل» ولاعب سامبدوريا الإيطالي مصطفايا «تركي الأصل» .

الدروز في الجيش الإسرائيلي

تحت هذا العنوان كتب الأستاذ / أحمد أبو دقة مقاله المنشور بمجلة البيان الصادرة بتاريخ ٢٠١٤/٧/٢٤م يقول فيه:

حادثة إصابة قائد لواء جولاني الدرزي غسان عليان في قطاع غزة في معركة بين المقاومة الفلسطينية و الجيش الصهيوني جعلتنا نبحث عن معلومات حول أسباب انضمام الدروز للجيش الصهيوني . المعلومات التي تؤكدها المواقع العبرية أن الجيش بجميع ألويته يضم ٦ آلاف عسكري عربي سواء من الدروز أو البدو أو المتطوعين المسيحيين ، لكن غالبيتهم العظمى من الدروز الذين يعتبرون الجيش هو مصدر أساسي لتحسين أوضاعهم المادية .

يشكل الدروز ٨٪ من السكان العرب داخل الكيان الصهيوني،

و يتجه الدروز في الغالب إلى التعريف بأنفسهم على أنهم دروز قبل كل شيء، وقلة منهم فقط هي التي تعارض هذا النمط و تحاول الإندماج مع أصولها الفلسطينية والعربية.

من أبرز السياسيين الدروز في الكيان الصهيوني أيوب القرا وهو أحد أعضاء حزب الليكود اليميني وله مواقف سلبية ومتطرفة تجاه العرب و الفلسطينيين.

بالإضافة إلى مجلي وهبي من حزب كاديما وقد شغل مناصب عديدة أبرزها مقدم في الجيش الصهيوني، وقد تولى رئاسة الكيان الصهيوني لفترة وجيزة أثناء غياب موشيه كتساف في عطلة، وسعيد نفاع من حزب البلد العربي.

في ١٩٥٤ قرر وزير الدفاع الصهيوني فرض التجنيد الإلزامي، بموجب قانون، على الشبان العرب الذين ولدوا بين ١٠/٩/١٩٣٤ و ١٢/٧/١٩٣٧. وقد جرى تعديل هذا القانون في ٣/٥/١٩٥٦ ليقتصر على الشبان الدروز وحدهم، بموجب اتفاق مع قيادة الطائفة الدرزية التي قدمت الطلب.

انقسم الموقف الدرزي من القانون الصهيوني فبعض القيادات الدينية كانت تدعم القانون و تتخذ منه وسيلة لتحصيل مكاسب لأبناء الطائفة، بالإضافة لإعلان الولاء للكيان الصهيوني، من أجل حاجتهم للحصول على حماية في مواجهة التجمعات الدينية الأخرى في فلسطين.

لكن جانب آخر من المجتمع الدرزي رفض هذا القانون، لأن يستثني الدروز ويساهم في عزلهم عن بقية أبناء شعبهم. وكان من بين أبرز المعترضين على قانون التجنيد الشيخ فرهود فرهود الذي قام لاحقاً في آذار ١٩٧٢ بتأسيس «لجنة المبادرة الدرزية»، التي كان سكرتيرها عاصم الخطيب الذي سجن فيما بعد بتهمة العضوية في شبكة تجسس لمصلحة العرب.

وقد قتل ٣٥٠ شخصا من الدروز خلال خدمتهم في الجيش الصهيوني، لكن حكومات الإحتلال المتعاقبة لم تمنحهم أي ميزة عن العرب فقد صادرت الكثير من أراضيهم ومنحتها للمستوطنين اليهود.

من جانبه، يقول سليمان الناطور، وهو كاتب وأديب درزي من ذوي العروبية، «إن أقطاب الحركة الصهيونية فطنوا إلى حقيقة الخلافات المذهبية بين الدروز وباقي العرب الفلسطينيين، فاتصلوا بهم من أجل تعميق هذه الخلافات وتشعيبها وأقاموا معهم علاقات حميمة».

وأضاف الناطور أن الكيان الصهيوني لم يتردد في التدخل في قضايا دينية خاصة بالطائفة الدرزية، حيث ألغت أعياد مسلمة احتفل بها الدروز، واخترعت أعياداً جديدة خاصة بالدروز».

ويعاني الدروز الذين يعملون في وحدات المشاة في الجيش الصهيوني من تمييز عنصري حتى في صفوف الجيش، حيث ترفض هيئة أركان الجيش تجنيدهم في بعض أفرع الجيش مثل سلاح الجو، أو الإستخبارات العسكرية، أو صفوف المخابرات العامة.

هذه النزعة العنصرية في المجتمع الصهيوني لم تكن استثناء في صفوف الجيش فقد أصل لذلك الحاخام مئير كهانا لحركة «كاخ» المتطرفة حينما سأله أحد الصحفيين، قائلا هل تطالب بطرد أبناء الطائفة الدرزية من «إسرائيل»، بالرغم من خدمتهم في الجيش الإسرائيلي؟ فرد كهانا بكل ثقة: نعم، ولكننا سنحرص على توفير حافلات مكيفة لهم أثناء الطرد».

حفل افتتاح بوابة الأزهر الإلكترونية

أ/ رمضان ثابت

تحت رعاية فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور أحمد الطيّب – شيخ الأزهر افتتح فضيلة وكيل الأزهر الأستاذ الدكتور عباس شومان بوابة الأزهر الإلكترونية www.azhar.eg، وذلك صباح يوم الأحد ١٤ شوال ١٤٣٥ هـ الموافق ١٠ أغسطس ٢٠١٤م بقاعة الأزهر للمؤتمرات.

استهلّ الحفل بمقدمة تلاها عضو فريق العمل بالبوابة أ. أيمن سيد – وسط حضور حاشد من علماء الأزهر والمسئولين في مقدمتهم أ.د/ عباس شومان وكيل الأزهر وفضيلة مفتي الجمهورية أ. د. شوقي علام، وفضيلة الأمين العام للمجلس الأعلى للأزهر أ. مؤمن متولي، وفضيلة نائب رئيس جامعة الأزهر – جاء فيها: «بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله ما غرد بلبل وصدح، وما اهتدى قلب وانشرح، وما عم فينا سرور وفرح، الحمد لله ما ارتفع نور الحق وظهر، وما تراجع الباطل وتقهقر، وما سال نبع ماء وتفجر، وما طلع صبح وأسفر، وصلاة وسلاماً طيبين مباركين على النبي المطهر صاحب الوجه الأنور، والجبين الأزهر، ما سار سفين للحق وأبحر، وما علا نجم في السماء وأبهر، وعلى آله وصحبه خير أهل ومعشر، صلاة وسلاماً إلى يوم البعث و الحشر ... أما بعد، فضيلة الأستاذ الدكتور عباس شومان، وكيل الأزهر رئيس مجلس إدارة بوابة الأزهر الإلكترونية السادة الحضور الحفل الكريم.. تحية عطرة من عند الله مباركة فسلام الله عليكم ورحمته وبركاته وأهلا ومرحبا بكم في رحاب الأزهر الشريف في يوم طيب مبارك يشهد انطلاقة صرح جديد من صروح الأزهر الشامخة، انطلاق عين الأزهر على العالم الإلكتروني، انطلاق بوابة الأزهر الإلكترونية، لتضم إلى سماء الفضاء الإلكتروني قمرا جديدا واعدا يحمل إسلامنا الوسطي المعتدل إلى أرجاء الدنيا».

ثم أعقبه تلاوة آيات من الذكر الحكيم تلاها عضو فريق العمل بالبوابة أ. سامح العدويّ.

تفضل بعده المدير التنفيذي لبوابة الأزهر الإلكترونية الأستاذ أيمن عبد المؤمن بعرض

فيلم تسجيلي قصير للتعريف بنوافذ البوابة الإلكترونية، شفعه بدخول مباشر على الإنترنت على موقع البوابة وشرح محاور البوابة الأربعة ؛ التعليم، الدعوة، الإعلام، والخدمات والمعلومات بقوله : «محور التعليم: يشمل كل ما يتصل بالعملية التعليمية بالأزهر الشريف للمرحلة قبل الجامعية، ومحور الدعوة : يهدف لنشر صحيح ثوابت الدين والرد على الشبهات، ونشر خطب ومحاضرات وأنشطة الجامع الأزهر والجهات التابعة للأزهر، ومحور الإعلام : يهدف لمتابعة نشاطات شيخ الأزهر والتصريحات والبيانات الرسمية ويضم موقع مجلة الأزهر وموقع جريدة صوت الأزهر، ومحور الخدمات والمعلومات يقدم الخدمات الإلكترونية مثل الشكاوى والرد عليها ونشر أخبار الوظائف، كما يخصص صفحات للمطبوعات والتنظيم والإدارة. وفي نهاية عرض المدير التنفيذي للبوابة أكد سيادته أن البوابة تم تصميمها وتطويرها بشكل عصري جذاب تفاعلي يقوم عليه فريق (تقني /إعلامي /إداري) داخل مشيخة الأزهر بالإضافة إلى منسقين من كافة جهات الأزهر بما فيهم مجلة الأزهر.

هذا وكان مسك الختام مع كلمة فضيلة وكيل الأزهر الأستاذ الدكتور عباس شومان والتي جاء فيها بعد حمد الله والصلاة والسلام على رسول الله، والترحيب بالسادة الضيوف والحضور والحفل الكريم: «... بوابة الأزهر كنا في حاجة شديدة لانطلاقتها ؛ لأننا نعاني منذ فترة مما نشر بيننا أننا نعتقد أننا في مقدمة المؤسسات التي تكشف ما بها من خلل بنفسها حتى وإن لم يصل إليه غيرها، فمعظم الأخطاء التي تُنشر على ساحات الجرائد -والكثير منها غير صحيح- الصحيح منها ما نكتبه نحن بأيدينا ونكتشفه عن أنفسنا، نضع أخطاءنا ومواضع القصور أمام أعيننا بكل جرأة وبكل وضوح لنعمل على إصلاحها وهذا ليس بمبتدع في مواجهة النفس بقصورها وعجزها -والنفس دائما خطاءة- نعتقد أنه منهج حضاري ومنهج علمي، وروي أن الإمام عليا كرّم الله وجهه كان لا يعجبه كلمة الله أعلم، كان إذا سئل شخص فقال الله أعلم يقول شقينا إن كنا لا نعلم أن الله أعلم، إذا سئل أحدكم فليقل لا أدري، والفرق بينهما من وجهة نظري أن كلمة الله أعلم أصبحت كلمة مستساغة لا تحرج القائل، فكلما سئل شخص قال الله أعلم، وحتى إذا أجاب عقب فقال الله أعلم، فأصبحت كلمة لا تدفع إلى الأمام في نفس قائلها، وإن كانت هي من الصحة بمكان من حيث الشرع واللغة، ولكن كلمة لا أدري تفتح السؤال فإذا قال إنسان لا أدري فيسأل نفسه إلى متى سأقول لا أدري فيحاول أن يدري حتى يقلل من هذه الكلمة هذا ما ننتهجه في الأزهر الشريف تقول إننا عندنا من الأخطاء كذا وكذا ومن القصور كذا وكذا ونعمل على إصلاحه بقدر المستطاع، ولذلك قلنا لدينا مشكلات كثيرة في التواصل بين جهات الأزهر ونسمي هذا فيما بيننا بالجزر المنعزلة نقول : مجمع البحوث، جامعة الأزهر، قطاع المعاهد الأزهرية، المناطق الأزهرية، دائما نقول ونبالغ في هذا فنقول: نعمل بسياسة الجزر المنعزلة حتى نعمل على توحيدها وربطها لتكون منظومة الأزهر منظومة متواصلة، مترابطة على أعلى ما

يكون، وهي ليست جزرا منعزلة بالمناسبة، ولكن هذا ما نعتاده نحن لأنفسنا لنعمل على مد الجسور بين هذه الهيئات، وأن تكون كل منشأة منها مرتبطة بالقيادة بمشيخة الأزهر بشيخ الأزهر وأن يكون القرار الذي يتخذ في أي معهد أو أي كلية من كليات الجامعة في أبعد نقطة في مصرنا العزيزة يسمّع في مشيخة الأزهر بعد لحظات بل في اللحظة التي تتخذ فيها هذه القرارات، هذا ما نسعى إليه.

بوابة الأزهر الشريف لا شكّ أنها ستساعد على هذا، وليست البوابة فقط بل إن أزهرنا الشريف بتوجيهات فضيلة الإمام الأكبر يتوجه ليكون ممتلكا لأحدث وسائل الاتصال والتكنولوجيا ومستخدما لكل التقنيات التي يستخدمها الناس في زماننا ؛ ولذلك فإن الأزهر الشريف بدأ في العمل في مشروع تقني مشروع «الداتا ستر» وهو يعمل على قدم وساق في إعداد مركز يعمل على أحدث التقنيات التي يعمل عليها المتخصصون في مجالاتهم وهو المركز الإعلامي الذي سينطلق قريبا واختير له من الكفاءات من العاملين في هذا المجال من المتخصصين من تتوافر فيهم كل مقومات النجاح والعمل على أعلى مستوى وكل هذا سيغذّي بوابة الأزهر لتظهر في نوافذها التي عرضت عليكم، ستكون هذه البوابة هي الناطق الرسمي باسم الأزهر الشريف الذي يجمع جميع جهات الأزهر، والذي يريد البحث عن أي شيء يتعلق بقطاع المعاهد الأزهرية أو بمجمع البحوث الإسلامية أو بجامعة الأزهر وهيئاتها المتصلة بها من مستشفيات وغيرها كما تحدثنا مع الأستاذ الدكتور نائب رئيس الجامعة الذي هو على المنصة الآن وأعتقد أن السيد الأستاذ الدكتور رئيس الجامعة وجميع نوابه الذي شرفونا بالحضور وجميع العاملين في هذا المجال لن يترددوا لحظة في أن يرتبطوا ببوابة الأزهر لتكون هي النافذة التي يطلون بها على المجتمع المصري بجميع فئاته وعلى العالم الخارجي إن شاء الله.

بوابة الأزهر ستخدمنا في نقاط كثيرة منها : وصول رسالة الأزهر العالمية إلى العالم الإسلامي، هي تصل قطعا بطرق متعددة، وأن يكون التفاعل مع العالم الخارجي ليس مقصورا على معداتنا العاملة المنشورة في كل شبر من أرض الإسلام وفقط ولا معدات الاتصال التقليدية، وإنما نريد أن يكون التفاعل لحظة بلحظة فما يدور في مشيخة الأزهر يكون موجودا في أبعد نقطة في العالم الإسلامي، بوابة الأزهر ستجمع مواقع كثيرة تنطلق من الأزهر الشريف، بدأنا نعاني من المواقع التي ينتمي كثير منها للأزهر الشريف فإن كان بعضها ينتمي للأزهر الشريف فهناك مواقع تم انتحالها ونسبتها إلى الأزهر الشريف والأزهر منها براء تبث سمومها في دائرة وفي منظومة حرب تُشنُّ على الأزهر الشريف، لا ندري لها سببا، كثير من المواقع تنشر أخبارا كاذبة مغلوطة عن الأزهر الشريف الغرض من هذا تشويه صورة الأزهر وتشويه مشيخة الأزهر وتشويه صورة الإمام الأكبر وعلماء الأزهر، إظهار الأزهر وكأنه مؤسسة عفا عليها الزمان وأصبحت غير مواكبة للعصر وما يدور فيه، كما كتب بعضهم قريبا يقولون : إن الأزهر الشريف ليس قادرا على تولي تحديث الخطاب الديني وإن الأولى بهذا هي كليات الحقوق

لأنها تدرس أصول الفقه وهذا من أعجب ما يكون لأن بعض من يكتبون يكتبون بلا وعي وبلا عقل ؛ كليات الحقوق تدرس أصول الفقه والأزهر الشريف لا يدرس أصول الفقه والفقه والحديث والتفسير، الأزهر الشريف فيه علماء وفيه خبراء يعرفون أكثر مما يعرف كثير من البارعين في مجالاتهم، الأزهر الشريف فيه من يتعاملون مع أدق التفاصيل المعاصرة في كل موقع من مواقعه طلابنا في الجامعة يعرفون من التقنيات ربما ما يعجز عنه كثير من العاملين في المجال، الأزهر الشريف يثبت طلابه وعلماؤه أنهم رُمَّانة الميزان لهذا المجتمع المعاصر وسيبقون كذلك، قادرين على التواصل مع المجتمع بكل لغاته وبكل مفرداته التي يفهمها وبكل وسائله، الأزهر الشريف ليس منغلقا وليس منعزلا، الأزهر الشريف كما يعتز بتراثه وسيبقى، الأزهر الشريف يتعامل مع كل مستجدات العصر، الأزهر الشريف يعلم أنه لا يروق لكثير من الناس. والمتابع لهذا الشأن لاسيما في أيامنا يلمس هذا بنفسه، يرى كَمّ الهجوم والاعتراض على الأزهر وعلى علماء الأزهر وعلى شيخ الأزهر، كثير من الناس يتحدث بلا وعي وبلا منطق وربما في أحيان كثيرة بلا حياء، الأزهر الشريف ليس فوق النقد، شيخ الأزهر ليس فوق النقد، ليس وكيل الأزهر أو رئيس الجامعة أو أي عالم من علماء الأزهر فوق النقد، جميعنا ترحب بالنقد، ولكن النقد البناء، النقد الذي يكشف الأخطاء لا مانع من أن تنتقد وأن تقول قرارات وكيل الأزهر تضر ولا تنفع هذا مقبول ونتناقش في هذا الأمر، منذ جاء يفعل كذا وكذا وكذا وهذا يضر بالمسيرة التعليمية هذا مقبول ولكن تناقشه، ولكن حين تفتري، حين تنشر المقالات، إحداهن تقول : أين شيخ الأزهر من استقالة البرادعي؟ ما لشيخ الأزهر واستقالة البرادعي وغيره من الناس، ما علاقة شيخ الأزهر بهذا، أين شيخ الأزهر من أطفال فلسطين؟ شيخ الأزهر في هذا المكان في مكاني هذا في احتفال ليلة القدر قال كلمات تكتب بميزان من الذهب لم يقلها عالم ولا سياسي على وجه الأرض شيخ الأزهر قال في هذا المكان : «إن القضية الفلسطينية ليست حكرا على الفلسطينيين وإنها قضية كل عربي وكل مسلم وإن الجميع لن يهدأ لهم بال حتى يعود القدس حرا شريفا وخالصا للإسلام والمسلمين وانتقد العالم بأسره لسكوته وصمته على المذابح التي تنتهك ضد الفلسطينيين ماذا يريد الناس من شيخ الأزهر أكثر من هذا؟

الصورة التي رأيتموها هنا ولم يعقب عليه هي صورة لحافلة من قافلة ضخمة وصلت قطاع غزة قبل يومين أرسلها الأزهر الشريف محملة بعشرات الأطنان من الأدوية والمواد الغذائية، القضية الفلسطينية في قلب كل أزهري نقوم بها ليل نهار على منبر الأزهر وجه الانتقاد واللعنات إلى الصهاينة وللعالم الذي يدعي أنه حر لتخاذله فيما يفعل في أطفال فلسطين فكيف يقال أين شيخ الأزهر مما يحدث في فلسطين؟ هل على شيخ الأزهر أن يجند من ينتمون إلى الأزهر ويسلحهم بسلاح ويتوجه إلى هناك؟! هذا ليس دورنا ليست لدينا أسلحة سلاحنا هو الكلمة سلاحنا هو إظهار الحق ونحن لا نقصر في هذا أبدا وشيخ الأزهر لم يقصر في هذا».

واستطرد فضيلة وكيل الأزهر في استعراض تجاوزات وانتقادات بعض وسائل الإعلام ضد بعض علماء الأزهر الشريف ورموزه وضد فضيلته شخصيا وانتقد اهتمام هذه الوسائل بقضية ثبوت عذاب القبر الثابت أصلا دون الاهتمام بقضايا الأمة ومشاكلها التي يجب دراستها مثل موضوع «التتار الجدد» داعش، وتحيز العالم ضد المسلمين وحذرها بشدة قائلا: « وكيل الأزهر وشيخ الأزهر وعلماء الأزهر ينتبهون جيدا لنقد هؤلاء ويعرفون ما يخططون له ولن يسكتوا عن واحد منهم، من يريد أن ينتقد فمرحبا، من يفتري نحن له بالمرصاد، من يوجه كلمة سنردها كلمتين، من يعجبه هذا فمرحبا، ومن لا يعجبه فليفعل ما يشاء ؛ لا تخيفنا المقالات، ولا يخيفنا الهجوم، لن نسكت على انتهاك الثوابت .... الأزهر الشريف رسالته التعليم والدعوة إلى الله عز وجل بالحسنى ما ينبغي أن يكون عدوا لأحد ولا ينبغي أن يهاجمه أحد وإنما يمكن أن ينتقده كثير من الناس هذا مطلوب في الأداء لنرتقي لنتقدم لأننا ننتقد أنفسنا نحتاج لمن ينتقد الأزهر وأداء الأزهر لا مشكلة، لكن أن تُشنّ حرب على الأزهر فنحن لها ونحن قادرون على صدها وستبقى الأمة المصرية آمنة من مكر هؤلاء وسيبقى الإسلام آمنا من أن يتأثر بتفاهة هؤلاء سنتخذ من الإجراءات ما يلزم ضد من يتطاول على الثوابت الدينية ولن نسمح بها مهما كلفنا هذا سواء رضي به من رضي أو سخط عليه من سخط، نحن لا نريد مواجهة ولا نريد مشكلات ولكن على الجميع أن يفيقوا، على المتطفلين على موائد التشريع والإسلام أن يتنحوا جانبا ؛ لأنه لن يسمح لهم بالاستمرار بالخوض في قضايا لا يحسنونها، الدعوة اختصاص أصيل للأزهر الشريف بنص الدستور، غير المؤهل عليه أن يبحث له عن عمل آخر، عليه أن يبتعد عن هذا المجال لأنه لن يسمح له بالإضرار بتدين المجتمع المصري الذين أوقعوهم في حيرة وفي شك وفي لغط لا ينتهي، بوابة الأزهر إن شاء الله ستساعدنا، ستكون هي نافذتنا، لا يوجد للأزهر الشريف صفحات رسمية على مواقع التواصل الاجتماعي وأي خبر ينشر عليها وإن كانت صفحة وكيل الأزهر لا يعتد به وإنما من أراد خبرا موثوقا به فهذا هو مصدره بوابة الأزهر من هذه اللحظة، وما يوجد بعد ذلك فهي صفحات شخصية تمثل أصحابها وليس مؤسسة الأزهر يجب أن يعرف هذا جيدا أي موقع لا يتفرع من بوابة الأزهر ويرتبط بها لا اعتراف لنا به وليس الأزهر ملتزما بما ينشر عليه ولا تعود عليه خيراته ولا حسناته، تعاونوا معنا، اتقوا الله عز وجل في الناس وفي المجتمع، فالمجتمع ومصرنا، يُجابه وتعامل معاملة لا تليق بها من معظم الناس حتى من بعض أبنائها ؛ فنتعاون جميعا ليعم السلام ويعود الهدوء والاستقرار ولتدور عجلة الاقتصاد وينتشر الأمن والأمان، شكرا لكم وأعتذر على الإطالة والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

هذا ونوجه عناية السادة القرّاء في مختلف أنحاء المعمورة إلى أن موقع مجلة الأزهر الإلكتروني شرع في نشر أعداد المجلة وهداياها وستواصل هيئة التحرير بالنشر بمشيئة الله تباعا على هذا العنوان:

http://www.azhar.eg/al-azharmagazine

طرائف ومواقف

الشيخ/ عبد الحفيظ محمد عبد الحليم

يا أمير المؤمنين، صف لي المتقين

قال همام- وكان رجلا عابدًا - لمولانا الإمام علي كرم الله وجهه: يا أمير المؤمنين، صف لي المتقين حتى كأني أنظر إليهم، فتثاقل الإمام عن إجابته، ولكنه ألح عليه، فقال فيما قال: نزلت أنفسهم منهم في البلاء كالتي نزلت في الرخاء، ولولا الأجل الذي كتب لهم لم تستقر أرواحهم في أجسامهم طرفة عين شوقا إلى الثواب وخوفا من العقاب، عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم، فهم والجنة كمن رآها منهم فيها ينعمون، وهم والنار كمن قد رآها فهم معذبون، قلوبهم محزونة، وشرورهم مأمونة، وأجسادهم نحيفة، وحاجاتهم خفيفة، وأنفسهم عفيفة، صبروا أيامًا قصيرة أعقبتهم راحة طويلة، تجارة مربحة يسرها لهم ربهم، أرادتهم الدنيا فلم يريدوها، وأسرتهم ففدوا أنفسهم منها.

أيهما أفضل؟!

سئل أبو القاسم الحكيم: أيهما أفضل: عاص يتوب من معصيته، أم كافر يرجع إلى الإيمان؟ فقال: بل العاصي الذي يتوب من عصيانه أفضل؛ لأن الكافر في حال كفره أجنبي، والعاصي في حال عصيانه عارف بربه، وإن الكافر إذا أسلم ينتقل من درجة الأجانب إلى درجة العارف، والعاصي ينتقل من درجة العارف إلى درجة الأحباب، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة: ٢٢)

الرجل الصالح

قيل لأحد الصالحين: متى يكون الرجل صالحًا؟ قال: إذا كانت النصيحة في نيته، والخوف في قلبه، والصدق في لسانه، والعمل الصالح في جوارحه.

أقبلت هدية؟!

بلغ عبد الملك بن مروان يومًا أن بعض عماله قبل هدية، فأمر بإشخاصه إليه، فلما حضر قال له: أقبلت هدية منذ وليتك؟ قال: يا أمير المؤمنين، بلادك عامرة، وخراجك موفور، ورعيتك على أفضل حال. قال: أجب عما سألتك؟ قال: نعم قبلت، فقال الخليفة: لئن كنت قبلت هدية لا تنوي أن تعوض المُهْدِي لها فإنك للئيم، وإن كنت قبلتها لتكافئ المُهْدِي من مال المسلمين، أو لتخدمه فإنك لخائن، وإن كنت نويت تعويض المُهْدِي من مالك فقد فعلت ما يجلب لك التهمة وبسطت فيك ألسن الناس وإنك لأحمق. إذ من أتى أمرًا لم يخلُ فيه من لؤم أو خيانة أو حمق لحقيق ألا يصطنع (يستخدمْ). ثم عزله.

يصلي.. ثم يغني

عيَّن سيدنا عمر بن الخطاب إمامًا على جماعة- وكان رضي الله عنه معروفًا بحسن فراسته في الرجال- فشكت إليه الجماعة أن إمامهم يصلي ثم يغني، فاستغرب أمير المؤمنين الأمر، وسأل الإمام: أحقًا ما يقولون من أنك تصلي ثم تغني؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين.

قال: ما تغني؟ فأجاب: إني أغني فأقول:

وفـــؤادي كـلـمـا عـاتـبـتـه
عـاد لـلـذات يـبـغـي تعبي
لا أراه الـدهـر إلا لاهـيًـا
فـي تـمـاديـه فـقـد بـرَّح بي
يا قرين السوء ما هذا الصبا
فني العمرُ كذا في اللعب
وشـبـاب بـان مـنـي فـمـضى
قـبـل أن أقـضـي مـنـه أربـي
نفس، لا كنت، ولا كان الهوى
اتقي المولى وخافي وارهبي

فما كان من أمير المؤمنين رضي الله عنه إلا أن قال لهم: من كان منكم مغنيًا فليغنِّ هكذا.

أدل دليل

أدل دليل على كمال عقل الرجل ثناؤه على أقرانه، وأدل دليل على تواضعه رضاه بالتأخير في موطن يستحق فيه التقديم، وأدل دليل على إخلاصه عدم المبالاة بإسخاط الخَلْق في جنب الحق.

اللفظ الحسن

دخل عبد الملك بن صالح رحمه الله دار الرشيد، فلقيه إسماعيل بن صبيح الحاجب، فقال: اعلم أنه ولد لأمير المؤمنين ابنان فعاش أحدهما ومات الآخر، فيجب أن تخاطبه بحسب معرفتك، فلما صار بين يدي الرشيد قال: سرك الله يا أمير المؤمنين فيما ساءك، ولا ساءك فيما سرَّك.

ذم الثقلاء

قال الشاعر في ذم الثقلاء:

سقط الثقيل من السفينة في الدجى
فبكى عليه رفاقه وترحموا
حتى إذا طلع الصباح أتت به
نحو السفينة موجة تتقدمُ
قالت: خذوه كما أتاني سالمًا
لم أبتلعه لأنه لا يُهضَمُ

رأس المال

سرق رجل جملًا، وذهب ليبيعه في السوق فسرق منه، فلما عاد قيل له: بكم بعتَ جملك؟ قال: برأس المال.

حكمة

وفي قبض كف الطفل عند ولادة
دليل على الحرص المركَّب في الحيّ
وفي بسطها عند الممات إشارة
ألا فانظروا، إني خرجتُ بلا شيّ

أصعدت الغُرَف؟!

قال رجل من العرب: رأيت البارحة الجنة في منامي، فرأيتُ جميع ما فيها من القصور، فقلت: لمن هذه؟ فقيل لي: إنها للعرب، قال له رجل من الموالي: أصعدت الغُرَف؟ قال: لا. قال: تلك لنا.

البخل.. والكرم

أنفقْ ولا تخشَ إقلالًا فقد قُسِمَتْ
بين العباد من الآجال أرزاق
لا ينفع البخلُ مع دنيا مولِّية
ولا يضر مع الإقبال إنفاق

دعاء

اللهم يا ذا الحبل الشديد، والأمر الرشيد، أسألك الأمنَ يوم الوعيد، والجنةَ يوم الخلود، مع المقربين الشهود، الركَّع السجود، الموفين بالعهود، إنك رحيم ودود، وإنك تفعل ما تريد.

خميلة الشعر



للأستاذ/ محمد عبد الوهاب

هذه بعض الكلمات التي اعتملت في القلب ووافقها العقل ثم سطرها اليراع، قد تتفق معي حولها أو قد تختلف، لينشأ بيننا حوارٌ إيجابيٌّ بنَّاء هدفه الوحيد هو محاولة الوصول إلى الحقيقة.

أولا: أتوجه للشعب المصري بالتهنئة بمناسبة البدء في المشروع العملاق: محور قناة السويس أو (قناة السويس الجديدة) متمنيا لكل المصريين مستقبلا مشرقا، وآملا أن يكون هذا المشروع العملاق بداية لرفاهية حقيقية لكل مواطن، وأن يحقق أحلام شباب مصر في العمل الكريم، وفي العزة والكرامة لكل أبناء مصر العظيمة، أعظم التهاني لكل الشعب المصري ولرئيس البلاد السيد عبد الفتاح السيسي الذي ضغط على شارة الانطلاق والإشراق والبداية السعيدة والعظيمة لهذا المشروع العملاق، وما أدعو إليه الرئيس هو الاهتمام برفع المعاناة عن المواطن المصري الفقير، والبدء بجدية في محاربة الفساد والمفسدين، داعين الله أن تتحسن أحوالنا وتنهض مصرنا.

ثانيا: إن العدوان الغاشم على غزة، والذي يستهدف المدنيين من أطفال ونساء ومسنين، لهو وصمة عار على الصهاينة الذين هم لا يؤمنون بالله الرحمن الرحيم، وإنما هم يعبدون شيطان العدوان والقوة الغاشمة، وهؤلاء القتلة الباغون الذين ماتت في قلوبهم الرحمة بل والإنسانية، يمتلكون إلى جانب ترسانتهم العسكرية البربرية، ترسانة إعلامية كاذبة ومضلِّلة استطاعت بالزيف أن تميل إلى جانبها الضال حكومات أمريكا والغرب الأوروبي تحت خدعة الدفاع عن النفس!، ولست أدري هل آلاف القتلى والمصابين من أبناء غزة المدنيين ليسوا أنفسًا وأرواحًا أزهقت ظلمًا وعدوانًا؟! الدين اليهودي الحق يأبى أن يكون هؤلاء القتلة الصهاينة من أتباعه، وإنما واقع أمرهم أنهم ملحدون ولا دين لهم.

ثالثا: أحوال المسلمين تثير العجب، ربهم واحد، ونبيهم واحد، وقرآنهم واحد، ومع ذلك تراهم منقسمين متناحرين، لا يجمعهم رأي، ولا يرشدهم عقل، ولو أننا نظرنا بعين الباحث عن العلة، لوجدنا أن هناك حوادث تاريخية سياسية وقعت بعد وفاة النبي ﷺ، أهمها قتل معظم آل بيت النبي ﷺ في مذبحة (كربلاء) والتي كان أهم أحداثها استشهاد الحسين سبط رسول الله ﷺ، لقد كانت لتلك الواقعة المشئومة أكبر الأثر في تفكك عرى التوافق بين المسلمين، فقسمتهم إلى فريقين، الأول وقف مع يزيد بن معاوية وهم (أهل السنة) والثاني وهم (الشيعة) الذين شايعوا من تبقى من آل بيت النبي، كان أتى للحسين ﷺ أقوام من العراق يعرضون عليه التأييد والموازرة ضد حكم العضد الذي ابتدعه معاوية بن أبي سفيان حين جعل ابنه يزيدا وليًا للعهد من بعده، بعد أن كان اختيار الحاكم بالشورى فلما خرج الحسين في أهله ليواجه جيوش يزيد بن معاوية، لم يف العراقيون وقتها بعهدهم معه ولم يؤازروه كما وعدوه، ولأنه كان شجاعا فلم يتراجع عن الحق الذي يراه، فتمت أكبر فاجعة ليبدأ تاريخ مدلهم تلطخه الدماء المسلمة، إذن لقد بدأت الفرقة والتشرذم بعد وفاة النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه، بسبب السياسة لا بسبب الدين، بينما الدين في جوهره لا صلة له بالسياسة وأطماعها ولذلك فإنني أرى أنه يجب على المسلمين في جميع أرجاء المعمورة أن يعودوا إلى ما قبل مذبحة (كربلاء) أي إلى الفترة التي كان فيها النبي حيًا بينهم.

قال النبي ﷺ في خطبة الوداع بعد أن أوصى المسلمين بالنساء «لقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي: كتاب الله» وقال أيضا «لقد استخلفت فيكم الله» ثم تلا قول الله عز وجل ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ ولعله من الحكمة أن يلتقي أولو العزم من علماء الطائفتين السنة والشيعة، ويعملوا مخلصين لله عز وجل على محو كل ما تسبب في الشقاق بين الطائفتين عبر التاريخ الدامي المظلم، لتكون الطائفتان جماعة واحدة وأمة واحدة كما أراد لها الله سبحانه وتعالى أن تكون، سواء في ذلك أحاديث مكذوبة أو أفكار مشوهة مريضة - وما أكثرها - فتعود المحبة ويعود السلام بين الجميع، ويعود الدين نقيًا صافيًا، داعيا إلى السلم والخير بين الناس...

هذا ونبدأ قصائد هذا العدد الجميل بقصيدة:

فى القدس الشريف

شعر الأستاذ / أسامة كامل الخريبى

كَفى الملامَ فما للّـوم آثـارُ   بينى وبينك أشواكٌ وأسوارُ
حبيبتى أنتِ لكنْ العدا رصدٌ   إذا أتاكِ من العشاق مغوارُ
كأنَّكِ الكنزُ قد سرقته شرذمةٌ   منَ اللصوص لهم نابٌ وأظفارُ
فهم يُغالون فى التدمير إنْ وقفوا   وهم يُغالون فى التضليل إنْ ساروا
ويخشَون إذا ما الحقُّ داهمَهم   ويفجُرون إذا أنصارُهُ انهاروا
تدبُّ فيهم دماءٌ منْ عداوتنا   يَغلى بها كبدٌ بالحقد موّارُ
فسوف يخطو على أعقابهم طلبٌ   منْ فتية الحقِّ أبرارٌ وأطهارُ
سيرجعون كنوزَ القدس منْ يدهم   مهما تطاولَ فى الطغيانِ جبّارُ
مهما تفنّن فى سفكِ الدما وقحٌ   وساندتْهُ أباطيلٌ وأنصارُ
سيرجعون (صلاحَ الدين) رائدَهم   وللبطولة أعراسٌ وأشجارُ
منَ البطولة قد صاغوا ملاحمَهم   وللشهادة سبّاقون أطهارُ
لا يرهبون لقاءَ الموْت .. وحَدْهم   نحو الشهادة ميثاقٌ وتذكارُ
حبيبة القلب .. مشتاقٌ وتمنعنى   من الكلام محاذيرٌ و أخطارُ

***

ويلى وويلُ شعوب العُرب قاطبةً   إنْ مسَّ قُدسك تدميرٌ وإهدارُ
أو هزّت الأقصى قذائفُهم   ولمْ يهبَّ له جيشٌ وثوّارُ
هى القيامةُ أو هذى معالمُها   إذا تداعت من المحراب أحجارُ
ماذا أقولُ وهذا الهدمُ مستعرٌ   حتى يكاد بناء البيت ينهارُ
وكلُّ صبحٍ لهم من تحته نفقٌ   وبعدَهُ نفقٌ يجرى وحفّارُ

***

يا غضبةَ الثأر ثورى فى بنى وطنى   ودمدمى فوق منْ خانوا ومنْ جاروا
ولَمْلمى الشمْلَ، شمْلَ العُرب قاطبةً   حتى يُزمجرَ بعد الألف مليارُ
قودى جحافلَ فرسانٍ وأفئدةٍ   منَ الشباب لهم بالنصر أوطارُ
إنْ كانَ منْ سرقَ الأوطانَ مستترًا   فسوف تهدمُ ما شادوا وتنهارُ
وإنْ تلبّدَ أفقٌ منْ مخاوفنا   لسوف تسطعُ فى الظلماء أقمارُ

أيُّها الليل

شعر / حسن حبشى

أيها الليلُ : أيها الكاهنُ الصا   مِتُ منْ فجرِ عمرك الوسْنانِ
نشأتْ فى ظلالِ صمتك أحـ   ـلامى فكانت كالزّنْبق الغيْسانِ
واكتستْ منْ جلالِ روعتك الكُبرى   تهاويلُ حُسنك الفتّانِ
وتبدّتْ كغادةٍ نسجَ الحُسـ   ـنُ لها تاجَ رقّةٍ وحنانِ
شاعَ فى النّفسِ نورُها ومحا لأ   لاؤها ظُلمةَ الفؤاد العانى
أتُراها يدُ المسيح أزالتْ   كُلَّ يأسٍ منْ خاطرى المدْجانِ ؟
كمْ سُكونٍ يفوحُ بالعطر رقافا   وبالشّعر والهوى الرّيّانِ
ولكمْ فيك نغمةٌ رقصَ القلبُ   لها هاتفًا يشتّى المعانى
أتُرى هذه النجومُ نواقيسٌ   بمحراب أُفقك الفتّانِ
منْ بناهُ وشعْشعَ النّورَ فيه   ساحرَ الحُسْنِ فتنةَ الأذهانِ
أيهذا الظلامُ يا أفق العُمْـ   ـرِ، ويا معْبدَ الأمانى الحسانِ
إنّما أنت هيْكلٌ جثمَ الظّنُّ   على بابه جهولَ البيانِ
لمْ تطأ قُدسَ أرضه أوْ تجُبْهُ   غيرُ أوْهامِ شاعرٍ فنّانِ

نَظَمَ الحُبّ والجمالَ نشيدًا   رقّعتْهُ يدُ الهوى فى الأغانى
وتغنّى بالليلِ فى صمْتك المُشْـ   ـجى طروبًا بمُسْكر الألحانِ
بعدَ ما حطّمتْ هواهُ المنايا   ورمتْهُ بكالحات الأمانى
وطوى صفحةَ الشباب على كُرْ   هٍ، وأغضى على شباة السّنانِ

نفسية

للشاعر الكبير الأستاذ / حسن القاياتي

ظمآنُ لو شئتَ وردْ ... لولاك يا نيلُ اتقدْ
بردُ الحنايا رشفةٌ ... للنيلِ تنتلُ النكدْ
للنيلِ من حيثُ اغتدى ... قلبي ومن حيثُ اعتمدْ
كم صفّدوهُ فاصطفوا ... للنيلِ مفتنَّ الصفدْ
جناتُ علمٍ روّضتْ ... في مصرَ جناتِ الرغدْ
لهفي لمصرَ جنةٌ ... ليستْ تناغي بالرشدْ
البرُّ فينا لمحةٌ ... والغيُّ جياشُ المددْ
غرّدتْ حتى شفّني ... من يرتمي طيرَ الغردْ
عصرُ المرجّى شدْما ... يمشي إليه في الزردْ

***

شكواي وثابُ الهوى ... في النيلِ خوّارُ الجلدْ
تذلُّ التباري يعتلي ... بالغيِّ طماحُ الأمدْ
غنيتُ بالعلمِ احتفى ... والنعتُ للجهلِ احتشدْ
إنْ يهدِ غرٌّ بالعلى ... فالهزلُ رؤيا من رقدْ
بدعانِ من حلي الدنى ... تفويفُ شعري والغيدْ

***

تمقتُ جناتِ الندى ... فاختالَ فيها من جحدْ
كمْ جفَّ رفدٌ بذلُهُ ... كاللثمِ لمْ يثقلْ أحدْ
إنْ تغلُ دوني رغوةٌ ... فالنيلُ فياضُ الزبدْ
صليتِ حلوَ المجتني ... يا مصرُ حرَّ المجتلدْ
منْ لابنِ علياءَ اجتني ... للرغدِ مجداً فاقتعدْ
إنْ لمْ تشدْ بي عزةٌ ... فالدرُّ يخزى من زهدْ
الندبُ يخفي حليةً ... كالروحِ يخفيها الجسدْ
عصرٌ تغنّى فازدهى ... بالجهلِ أزرى إذْ خلدْ
ينبونَ لغواً كمْ علا ... كالنعشِ فاستلَّ الجسدْ
النيلُ هلّا يفتدى ... والهونُ أنّى يفتقدْ ؟؟

***

حسبُ التحدي يرتقي ... للسيدِ البرِّ السندْ
ذمُّ التجني فانثنى ... برَّ التمني وانفردْ
أسوانُ لو كانَ اشتفى ... حرّانُ لو كانَ ابتردْ
لمْ يحلُ ظبيٌ أو منًى ... إلا تهاوتْ أوْ شردْ
الذلُّ يغرسه الهوى ... والعونُ يأباهُ الصيدْ
الجورُ إمّا ناهدٌ ... في الجيشِ أو صدرٌ نهدْ

***

ذلُّ التشكي سيدًا ... ملَّ التشكي فاقتصدْ
كالحسنِ لو شاءَ استبى ... كالعلمِ لو شاءَ انتقدْ
سنَّ التسامي فانبرى ... وانهلَّ رفدٌ فابتعدْ

***

ليتَ المزايا طلقةٌ ... منْ ودَّ فتانًا وجدْ
الحسنُ من شاءَ انتقى ... والرأيُ منْ شاءَ اعتقدْ
لو رقَّ حسنٌ لم يذدْ ... عن كلِّ ظبيٍ بأسدْ
الحرُّ سلْهُ ما ارتأى ... والعبدُ سلْهُ ما عبدْ !

***

أهلاً بشورى لا الهوى ... أحييتَ ولا الشعبَ اتحدْ
للرأي فانهدْ وحدهُ ... العزمُ عندَ المعتقدْ
لا حرُّ في أرضِ الفتى ... تموهُ بالفردِ الصمدْ
حرُّ المساعي سيدٌ ... حرُّ المنى حرُّ البلدْ

الباحث عن الهدوء

للشاعر الكبير / محمود حسن إسماعيل

لقد نَضَبَ العُمْرُ إلاَّ شُعَاعًا … يَـكادُ عَلى أعْيُنِي يُحتَضَرْ
يَشُقُّ إليكَ ضَبابَ الحَيَاةِ … وَيَنْفُذُ في غَيْبِهَا المُسْتَتِرْ
فَيَخْتَنِقُ النُّورُ في صَفْحَتَيْهِ … كما اخْتَنَقَتْ آهَةُ المُنْتَحِرْ
وَيَمْضِي .. عليه غُبَارُ الجُنُونِ … وَتَهْوِيمَةُ القَارِسِ المُنْدَحِرْ
وذُلُّ النَّدَى في شِغَافِ الهَجِيرِ … وَذُلُّ الدُّجَى في صِفَافِ القَمَرْ
وَذُلُّ السَّنَا في جُفُونِ الحَزِينِ … إذَا شَابَ في مُقْلَتَيْهِ السَّهَرْ
وَذُلُّ الأَمَانِي بِقَلبي الجَرِيحِ … وَقَدْ مَزَّقَتْهُ رِيَاحُ الضَّجَرْ
فلا يلمحُ النُّورَ فَوْقَ السُّهُولِ … ولا الظِّلَّ تحتَ غَوَافِي الشَّجَرْ
ولا بَسْمَةَ الجَدْوَلِ العَبْقَرِيِّ … إذَا عَانَقَتْهُ طُيُوفُ السَّحَرْ
ولا فَرحةَ المَرجِ يومَ الرَّبِيعِ … تَلَقَّاهُ في لَوْعَةِ المُنْتَظِرْ

***

فَأَلْقَى عليه الهَوَى والشَّبَابَ … وَأَحيَا لِدُنْيَاهُ عِيدَ الزَّهَرْ
سَوَاءٌ لَدَيْهِ مُسُوحُ الشِّتَاءِ … وَأَشْجَانُه في الظَّلامِ العَكِرْ
وَفَجرُ الرَّبِيعِ وقد شَاعَ فِيهِ … عَلَى صَفْحَةِ النورِ فَنُّ القَدَرْ !
سَوَاءٌ لَدَيْهِ رأى كَوْنَهُ … أَمِ ازْوَرَّ عن كَوْنِهِ وانْحَسَرْ
لقد ذَابَ فيه خَيَالُ الوُجُودِ … وَشَرَّدَهُ القَلَقُ المُسْتَمِرْ

***

سَلامٌ عليكَ مَعَ الهَادِئِينَ … وفي قَلْبِي جَذْوَةٌ تَسْتَعِرْ
كَأَنِّي سَفَاةٌ دَعَتْهَا الرِّيَاحُ … وَجُنَّ بِهَا عَاصِفٌ ذُو شَرَرْ

***

وَغَنَّيْتُ حَتَّى مَلِلْتُ الغِنَاءَ … وَمَلَّتْ عَذَابِي شُجُونُ الوَتَرْ

بين المجلة والقارئ

للأستاذ / أحمد السيد تقى الدين

إنها إرادة الله !!

● عبر الزمان.. ومنذ آلاف السنين.. ومصر مطمع للطامعين فى السطو عليها وعلى خيراتها !!

● ولكن عناية الله وحفظه كانت فوق كيد الكائدين ومكرهم.

● على أرض مصر اندحر الهكسوس.. وفى ترابها دُفن الفرس.

● وإلى شعبها أرسل المولى عز وجل أول رسله إلى العالمين.. نبى الله إدريس عليه السلام..

● إلى أرضها لجأ المسيح عليه السلام وأمه مريم العذراء هربًا من بطش الروم.

● وعلى أرضها كلم الله موسى تكليما.

● وبأرضها أقسم الله سبحانه

قَالَ تَعَالَى:

﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴾.

(سورة التين: ١-٣)

● تعهد الله بأمنها قَالَ تَعَالَى:

﴿ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾. (سورة يوسف: ٩٩)

● شرفها الله بذكر اسمها فى كتابه الكريم دون غيرها مرات ومرات .. تصريحا وإشارة.

● بأهلها وبجندها أوصى سيد أنبياء الله، بل سيد ولد آدم محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه.

● على أرض مصر اندحر أعتى عتاة الأرض.. الروم .. ثم الصليبيون ثم التتار.

● عندما دهمها الفاطميون بالمذهب الشيعى عجزوا عن فرض إرادتهم على المصريين الذين بقوا على مذهب أهل السنة والجماعة.

● عجز عنها نابليون بونابرت.

● وفشل الإنجليز – رغم احتلالهم لها مدة سبعين عامًا – فى محو هويتهم العربية الإسلامية على عكس غيرهم من الشعوب الذين انطمست هويتهم بفعل المستعمرين.

● كل هذا ليس لبأس المصريين وقوتهم .. ولكنها إرادة الله.

● جندها ليسوا كأى جند.. فعبر التاريخ كله لم يعرف عن جند مصر سفكهم للدماء أو عدوانهم على جيرانهم، لم يعرف عن جند مصر غير حبهم للأمن والسلام لمصر ولشعبها مع استعدادهم التام للتضحية بأرواحهم حفاظا على أمنها وأمانها.

● فى ٢٦ يناير ١٩٥٢م شهدت مدينة الإسماعيلية حربا ضروسا غير متكافئة دارت بين قوات الاحتلال الإنجليزى الغاشم وضباط وجنود الشرطة المصرية.. انتهت المعركة بمقتل جميع الضباط والجنود المصريين وجميعهم مات ممسكا بسلاحه..

استخدم الإنجليز الدبابات والمدفعية، وفي المقابل كان سلاح الشرطة المصرية المسدس والبندقية ومع ذلك وقفوا في وجه العدوان وصمدوا في مشهد بطولي أثار تعاطف المعتدين أنفسهم فوقفوا أمام جثث القتلى يؤدون لها التحية العسكرية!!

• وثار الجيش المصري وطرد المحتل الغاصب وأعلن استقلال مصر.

• ولم ترض أوربا بهذا الوضع فكانت مؤامرة العدوان الثلاثي ١٩٥٦م ثم عدوان ١٩٦٧.. ولم تنكسر مصر.. حتى رغم انهيار جيشها تماما.

• وقفت عناية الله سدًا منيعًا في مواجهة أطماع أعدائها.

• ثم كانت حرب أكتوبر ١٩٧٣ وكان النصر المؤزر الذي جاء أولا وآخرًا بفضل الله.

• مصر لم تنكسر أبدا أمام أي عدو.. وجيشها ظل كما هو العهد به حافظا لأمنها ولأمن شعبها.

• جند مصر ليسوا أقوى جنود الأرض... نبينا لم يقل عنهم هذا.. إنما قال: «خير أجناد الأرض».

• والخيرية هنا أن هذا الجند لا يدافع إلا عن حياة شعبه سلما وحربا ويؤمن لشعبه سُبل الحياة.

• جيش مصر بقيادة زعيمها جمال عبد الناصر أتاح التعليم المجاني لجميع فئات الشعب.

• جيش مصر بنى السد العالي الذي أنار مصر وأتاح الفرصة لاستصلاح آلاف الأفدنة الزراعية وحمى الفلاحين من أن تغمر أرضهم مياه الفيضان، ووفر لشعبها احتياطيات هائلة من المياه جرى تخزينها في بحيرة ناصر.. أكبر بحيرة صناعية في العالم ووفر الطاقة اللازمة لإنشاء المصانع.

• جيش مصر أقام مشروعات عملاقة لخدمة شعب مصر وآخرها - ولن يكون آخرها مشروع - «قناة السويس الجديدة».

• جيش مصر وقف في وجه أطماع الإرهابيين ونجح بفضل تأييد الله الدائم وحفظه لمصر ولجيش مصر من أن يجنبها ويلات هائلة أكلت الأخضر واليابس لدى جيراننا في ليبيا واليمن وسوريا والعراق.

• جيش مصر ليس أقوى جنود الأرض.. ولكنه خير جنود الأرض بإرادة الله.

• إرادة الله شاءت وعبر التاريخ أن يُطرد الخبثاء المعتدون الآثمون من على أرضها.. حتى ولو كانوا من أهلها!!

• منذ آلاف السنين أخرج الله اليهود من مصر مع سيدنا موسى عليه السلام ليحفظ المصريين من شرهم.. ثم تكرر طردهم بعد ذلك على يد خير أجناد الأرض لتطهير الأرض المصرية من أكثر أهل الأرض شرا.

• ثم مرت على مصر أيام سوداء تحكمت في مقدراتها جماعة دعا أحد قادتها اليهود الذين طردتهم مصر إلى العودة مرة أخرى إلى مصر مع استعداده لرد ممتلكاتهم وتعويضهم..!! (بالإمكان لمن يريد أن يرجع إلى صحف الحقبة السوداء من تاريخ مصر).

الأمر الذي أثار حنق وغضب الشعب، ومن قبله الجيش!!

• كان هذا الفعل من تلك الجماعة أشد صور الانتهاك لمصر.. ولشعب مصر.. ولعهد الله بحفظ أمنها وأمانها فكانت الثورة التي أكدت على خيرية جند مصر الذين وقفوا يدافعون عن مصر وشعبها يدفعون عنها شرا مستطيرا.. وكانت يد الله فوق أيديهم تؤيدهم وتسدد خطاهم.

حفظ الله مصر.. حفظ الله جيش مصر..

أحمد تقي الدين

النظرة الأخيرة!

تحت هذا العنوان جاءت رسالة الشيخ مصطفى الأزهري - أمام وخطيب مسجد سوق الحمام - السيدة عائشة:

العمر بيجري يا حاجة.. ادعي لنا ربنا يكتب لنا زيارة بيته الحرام..

قالها عم عبد السلام وسبعون عاماً حفرت على وجهه خيوط سنوات طويلة من الكدح في الحياة حتى انحنى ظهره، ووهن العظم منه واشتعل رأسه شيبا!

عم عبد السلام يشهد له أهل الحي الفقير الذي يسكنه منذ جاء شابا من أقصى صعيد مصر يبحث عن عمل فاستقر به المقام فيه، فتزوج وعاش حياته راضيا بما قسم الله له، يشهد له الجميع بطيب العاملة وحسن الجوار وبصلاة الفجر التي ما غاب عن أذانها يوما إلا مريضا أو مسافرا إلى بلدته (قنا) إحدى محافظات الوجه القبلي بمصر.

(العمر بيجري يا حاجة.. يا ترى الواحد هيشوف الكعبة قبل ما يموت! كررها ودموع شوقه لزيارة الكعبة تسيل على خديه لتجد مجراها في تجاعيد وجهه الطيب البشوش..

ربنا قادر على كل شيء يا عبد السلام.. مش بعيد على الله! بتلك الكلمات البسيطة العميقة الراضية ردت (أم الخير) زوجة عم عبد السلام وعشرة عمره - تطيّب خاطر زوجها المشوق لرؤية الكعبة وتكفكف بها دموعه..

دق جرس الباب فقامت (أم الخير) تتكئ على طرف (الكنبة) القديمة التي ما عرفت غيرها من أثاث البيوت من زمن بعيد.. فتحت الباب فإذا بشاب يبادرها بالسلام.. وعليكم السلام يا بني ورحمة الله وبركاته.. خير.. رد الشاب خير يا امي إن شاء الله.. هل هذا منزل الحاج عبد السلام راضي؟ ردت (أم الخير) بشيء من الدهشة والوجل.. أيوه يا بني. فيه حاجة؟!..

قطع الشاب دهشة المرأة سريعا رفقا بها.. وقال: ألف مبروك يا حاجة عم عبد السلام راضي كسب عمرة.. إيه؟ عمرة؟ منين يابني ؟؟؟؟

قالتها وتكاد تسقط مغشياً عليها من الفرح.. ونادت بما أسعفتها حنجرتها الضعيفة.. يا عبد السلام.. يا عبد السلام.. ياراجل تعالى بسرعة.. لحظات وكان زوجها واقفاً بجانبها وكأنما دبت فيه روح شباب العشرين.. لكن حالة من الصمت الناطق بجلال الشكر والامتنان لرب العالمين يشع من ملامح وجهه المتجعد.

سارع الشاب الواقف بالباب مداعباً: إيه يا جماعة مش هنشرب الشربات يعني؟

ثم استأنف قائلا: بكرة الصبح إن شاء بالله تشرفنا يا عم عبد السلام في مكتب الحاج (.......) رجل الأعمال المعروف.. فقد اختار عشرين رجل وامرأة من أهل الحي لأداء العمرة على نفقته الخاصة.. أنت منهم..

مرت أيام قليلة أنهى فيها عم عبد السلام ليجد نفسه بعد ساعتين من إقلاع الطائرة في جدة ومنها إلى مكة.. لم تتوقف دموعه لحظة ودخل المسجد الحرام عند أذان العصر.. أدرك الصلاة في مؤخرة الصفوف بعيداً عن ساحة الكعبة، أنهى صلاته مع الإمام ثم انطلق كالطفل الملهوف إلى حضن أمه متجهاً إلى أقرب الأبواب التي يدلف منها إلى الكعبة.. ها هو يرى الكعبة لأول مرة.. لم تحمله قدماه.. هوى ساجداً باكياً ثم راح في صمت طويل، جموع المعتمرين يمرون حول هذا الرجل الساجد الذي طال سجوده ولا يرفع رأسه.. استراب بعض الناس في حاله.. وضع أحدهم يده على كتفه يحركه فانقلب (عبد السلام) على جنبه الأيمن.. شاخصاً ببصره في اتجاه الكعبة التي عاش عمره كله يرجو الله أن ينظر إليها.. فكانت هي النظرة الأولى.. والأخيرة!!

هجرة الكفاءات .... البعد الآخر

تحت هذا العنوان جاءت رسالة
الأستاذ/ محمد عباس محمد عرابي

في عالمنا العربي دائما ننظر لهجرة الكفاءات من بعد الخسارة فهل لنا أن ننظر لهذه الظاهرة من بعد آخر؟! هذا ما سيحاول هذا المقال تناوله.

بداية.. إن المضمون الحقيقي لظاهرة هجرة الكفاءات يتمثل في إفراغ البلدان النامية من كوادرها وفنييها وعلمائها في قيادة عمليات التنمية، وتحقيق التحديث والتقدم، وبالتالي فإن خروج هذه الكوادر العلمية من شأنه أن يزيد من وضعية التخلف في الدول النامية، ومن انخفاض مستوى المعيشة. كما أنه يكرس ويعمق في مضاعفة وضعية التقدم في الدول الغربية، وفي إجبار الدول النامية في الاستعانة بالخبرات الغربية عوضا عن خبراتها المهاجرة، وهو ما يعني استنزاف رصيدها من العملات الحرة.

ويؤخذ من تقرير البيت الأبيض الأمريكي أن وجود القوى العاملة الفنية ذات الطابع العلمي يؤدي إلى تعجيل التقدم، نظرا لأهمية الدور الذي تلعبه صفوة المتعلمين في المجتمع، وتؤدي هجرة هذه الصفوة إلى حدوث خسائر في البلدان النامية ،التي تشتد حاجتها إلى القيادة والقدرة على التنظيم أكثر من المهارات الخاصة ،كما يؤدي استمرار هجرة الكفاءات ذات الخبرة إلى خلق إحساس بالإحباط على المدى الطويل، وتقليل قدرة من تخلفوا، وتناقص الكوادر والفنيين اللازمين لإدارة عجلة التطور.

واليوم في حقبة العولمة ،وثورة المعلومات، حيث أصبحت الكرة الأرضية قرية واحدة؛ حيث اختزل الزمن، وطوي المكان ،وتقاربت المسافات، يمكن النظر إلى الكفاءات والطاقات المهاجرة من بعد آخر، ووجه مختلف حيث أصبح الناس وكأنهم يعيشون في غرفة واحدة، وليس في غرف متجاورة، وفكرة التكديس البشري أصبحت إلى حد بعيد نوعا من التخلف والبدائية، حيث يمكن الإفادة من الخبرات العلمية والبحثية من مواقعها، وكأنها في الوطن ،في كل المجالات، إضافة إلى ما تمتلك من مخزون ثقافي وتجربة حضارية، وقيم إنسانية تمكنها أن تحسن اغتنام مواقعها، لتقديم نماذج تثير الاقتداء، وتغري بالاعتناق لهذا الدين، والعيش في رحاب رحماته، بعيدا عن التعصب والغلو والعنصرية، التي بدأت تجتاح العالم.

وبعد حقبة العولمة وثورة المعلومات، وهذا التطور السريع في وسائل الاتصال، أصبح الإنسان يرى العالم ويحاكيه من وراء مكتبه أو من بيته ودائرته، ومختبره ومستشفاه، حتى من غرف العمليات الجراحية، لابد من إعادة النظر والتقويم والمراجعة لظاهرة الهجرة، وهذا الرصيد المهاجر من السواعد والأدمغة، الذي يعيش في إطار الآخر، وإعادة التفكير في كيفية استرداد دوره الرسالي؛ لأن التكنولوجيا الحديثة قضت على أسباب وآثار الاغتراب، وأمكنها تحقيق الكثير من الارتكاز الحضاري، والتواصل الثقافي، وحمل الهم الوطني، لا أقول عن بعد، حيث لم يبق بعد.

للجار القبطى حقوق الجار المسلم

وتحت هذا العنوان جاءت رسالة
الأستاذ شعبان عبد العال يقول:

جاء فى خطبة الوداع قول رسول الله ﷺ (يا أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب إن أكرمكم عند الله أتقاكم ليس لعربى على أعجمى ولا لأعجمى على عربى ولا لأحمر على أبيض ولا لأبيض على أحمر فضل إلا بالتقوى ألا هل بلغت اللهم فاشهد).

ولم يفرق المولى عز وجل فى الخلق ولا فى الرزق بين المسلم وغير المسلم ولقد جاءت الرسالات السماوية من لدن آدم إلى خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ وكلها يكمل بعضها بعضا لقول الرسول ﷺ: (إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة) قال: (فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين) رواه البخارى.

ولقد أوصانا الإسلام بالجار خيرا سواء أكان مسلما أم غيرمسلم فلقد ورد عن مجاهد أن عبدالله بن عمرو رضى الله عنهما ذبحت له شاة فلما جاء قال أهديتم لجارنا اليهودى؟ أهديتم لجارنا اليهودى؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول: (مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه). ولقد أكدت السنة النبوية الإحسان بالجار وعدم التطاول عليه وإيذائه لقوله ﷺ: (من آذى ذميا فأنا خصمه ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة). وفى حديث آخر: (من آذى ذميا فقد آذانى ومن آذانى فقد آذى الله). فالإسلام لم يفرق بين أتباعه وأصحاب الديانات الأخرى فمن ذلك أن مرت جنازة فقام النبى ﷺ واقفا فقيل: إنها جنازة يهودى فقال ﷺ: (أليست نفسا؟).

وقبل النبى ﷺ الهدية من غير المسلمين وزار مرضاهم وعاملهم واستعان بهم فى سلمه وحربه حيث لم يحس منهم كيدا.. كل ذلك فى ضوء تسامح المسلمين مع مخالفيهم فى الاعتقاد ولم يكن هذا التسامح نابعا من اجتهادات فردية أو مآرب شخصية أو أمزجة نفسية. وإنما هى تعاليم ملزمة من الله سبحانه وتعالى ينال منفذها الثواب ويلحق مخالفها العقاب.. فمكارم الأخلاق أصل من أصول الدين والتزام الحق ركن من أركانه والمسلم فى أخذ بهذه المبادىء ليس له الخيرة فى أن يطبقها متى يشاء ويتركها متى يشاء بل هى ركيزة ثابتة وميزان منصوب.

مكتبة مجلة الأزهر

إعداد الأستاذ: محمد شعبان

تسعى «الأزهر» عبر هذا الباب إلى التواصل مع القارئ العزيز من خلال تقديم نبذة عن أحدث الإصدارات الجادة فى شتى مجالات المعرفة، ذلك للمساهمة في تكوين عقلية واعية وعصرية.



يقدم كتاب «المساجلات والمعارك الأدبية في مجال الفكر والتاريخ والحضارة» الصادر عن مكتبة الآداب توثيقا لـ٥٧ معركة ثقافية شهدتها مصر والعالم العربي في العصر الحديث بمشاركة أعلام الثقافة العربية.

يقول جامع مادة الكتاب المرحوم أنور الجندي: «في هذه المساجلات صورة عجيبة لعصر زاخر بالاتجاهات والدعوات والأهواء.. فحيث تجرى أقلام بإعلاء شأن الزنادقة من الشعراء تحاول هذه الأقلام نفسها تنقص الأعلام أمثال المتنبي وابن خلدون وتنكر وجود عبد الله بن سبأ. وفي نفس الوقت الذي تنكر فيه وجود النبي إبراهيم عليه السلام تحاول أن تدافع عن أرسطو وأفلاطون».

تطالع في الكتاب تفاصيل معارك كتب «في الشعر الجاهلي» لطه حسين و«الصديق أبوبكر» لمحمد حسين هيكل و«الفن القصصي في القرآن الكريم» لمحمد أحمد خلف الله وكذلك معركة كتاب «المتنبي» لمحمود شاكر.



يكشف كتاب «الأخلاقيات والحرب» الصادرة ترجمته مؤخرا في سلسلة عالم المعرفة الكويتية عن المأزق الأخلاقي الذي تعيشه الحضارة الغربية ... رغم أن مؤلف الكتاب ديفيد فيشر الذي عمل لفترات طويلة في وزارتي الدفاع والخارجية البريطانية يحاول أن يقدم تصورا أخلاقيا للحرب في القرن الحادي والعشرين إلا أنه يفاجئ القارئ في الفصل الأول من الكتاب بالتوجه الواقعي الذي يرفض أي حضور للأخلاق في الحرب.. حيث يرى هذا التوجه الواقعي أن العلاقة بين الدول بصفة عامة والعلاقات العسكرية بصفة خاصة لا تحكمها الأخلاق.. ويمضي المؤلف: يوجد شكلان رئيسيان للمنطق الواقعي حول الحرب: الواقعية المطلقة التي تتمسك بأن الاعتبارات الأخلاقية لا علاقة لها بكل اعتبارات الحرب (قبل اندلاعها وفي أثنائها وبعد انتهائها) أما الشكل الثاني الأكثر تواضعا فيذهب إلى حضور الاعتبارات الأخلاقية قبل دخول الحرب أما بعد بدء الحرب فتصبح الأخلاق غير ذات صلة ويصبح الانتصار العسكري هو الحاكم.



«إن المنهج الذي اعتمدنا عليه في عرض موضوعات هذه الدراسات هو المنهج التحليلي والنقدي حيث كان النقد ضروريا»... بهذه الجملة قدم أ.د. عبد الأمير الشمري كتابه «دراسات مختارة في الفلسفة الغربية المعاصرة» الصادر عن مكتبة مدبولي.

يتناول الفصل الأول تصور وليم جيمس مؤسس الفلسفة البراجماتية للدين والقضايا الروحية... ويناقش الفصل الثاني «البراجماتية والتغيير عند جون ديوي».. ويتوقف الفصل الثالث عند «الفلسفة والتربية برؤية معاصرة»... أما الفصل الرابع فخصصه المؤلف لـ«الفينومينولوجيا: مصادرها ومفاهيمها عند أدموند هوسرل»... «البنيوية النشأة والمفاهيم» هو عنوان الفصل الخامس... أما أصول التفكيكية ومفرداتها عند جاك دريدا فجاءت في آخر فصول الكتاب...... وحول موقف وليم جيمس وفلسفته البراجماتية من الدين يقول المؤلف: «إن وليم جيمس قد عد المعتقدات الدينية نوعا من التجربة النفسية الفردية وجعلها بضاعة تشترى وتباع على أساس الرغبة والمنفعة الفردية والنفسية العاجلة وهو موقف لا ديني ولا أخلاقي فالدين في غايته والأخلاق في هدفها يريدان بناء الإنسان الذي يغلب المصلحة العامة على المصلحة الخاصة».



يؤكد د. حسن محمد سليو في كتابه «الهيمنة الأمريكية ومستقبل القوى الكبرى» أن العالم سيصبح في المستقبل القريب عالما متعدد الأقطاب وستنحصر الأقطاب في الصين واليابان وأوروبا الموحدة وروسيا الاتحادية بجانب أمريكا.

يقول المؤلف في مقدمة كتابه الصادر عن مكتبة جزيرة الورد «يخطئ من يظن أن الولايات المتحدة الأمريكية كقوى عظمى أحادية الجانب في الوقت الحاضر أنها سوف تستمر على هذا الوضع إلى ما لانهاية. فالتاريخ قد علمنا في نشوء وسقوط القوى العظمى، أن هذه القوى لا تستمر مهما طال بها الزمن فقد تسقط هذه القوى أو تتلاشى أو تكون شريكة قوى أخرى ناشئة تظهر على الساحة الدولية أو على وشك ظهورها نتيجة لظهور بعض المتغيرات العالمية قد تؤدي إلى بلورة جديدة في وضع جديد في عالم متغير تظهر على سطحه بوادر أزمات اقتصادية أو عسكرية أو سياسية أو كلها معا فتؤدي بالنهاية إلى اضمحلال هذه القوى العظمى أو تلك مع مسيرة الزمن».



أتاح الموقع الإلكتروني لمؤسسة هنداوي ودار كلمات عربية نسخة إلكترونية مجانية لكتاب شيخ الأزهر الراحل الإمام مصطفى عبد الرازق «الدين والوحي والإسلام».

يناقش الكتاب موضوعات في حقيقة الدين تشمل تحديد أصوله في نظر باحثي العلوم الإنسانية من جهة، وفي نظر أهل الإسلام من جهة أخرى، وكذلك العلاقة بين الدين والعلم، وارتباط الدين بظاهرة الوحي، وتفسيرات تلك الظاهرة بين إسلامية وفلسفية. ثم إن المؤلف يمثل للديانات المنزلة عن طريق الوحي بمثال عالٍ هو الدين الإسلامي، والذي يعرضه كديانة سماوية، ويأتي على شرح المعنيين اللغوي والشرعي لكلمة «إسلام». وفي تناوله المتسلسل لجميع تلك المباحث، يبسط العلامة مصطفى عبد الرازق رؤيته النقدية المتجردة، وما يعدُّه الرأي الأكثر ترجيحًا من غيره، مستشهدًا بآيات من القرآن الكريم، وعارضًا لأقوال المفسرين واللغويين والمتكلمين.

أنباء الأزهر

إعداد الأستاذ/ محمود الفشني



الإمام الأكبر:

مشروع قناة السويس يمثل تحديا يثبت قوة وإرادة وصمود المصريين

في إطار حرص الأزهر الشريف على دعم مشروع قناة السويس الجديدة، قام فضيلة الإمام الأكبر أ.د/ أحمد الطيب، شيخ الأزهر الشريف، بزيارة لمشروع قناة السويس الجديدة.

واستمع فضيلته في بداية زيارته إلى عرض تفصيلي حول مشروع قناة السويس الجديدة من الفريق مهاب مميش، رئيس هيئة قناة السويس، ثم شاهد فيلما وثائقيا عن مشوار افتتاح مجرى القناة خلال المراحل التي مرت بها حتى البدء في تنفيذ المشروع الحالي ومراحله المتعاقبة، وذلك بمركز المحاكاة بهيئة قناة السويس.

ثم توجه فضيلته بعدها إلى مكان حفر القناة، والتقى بعدد من العاملين في المرحلة الأولى من عمليات الحفر؛ لرفع معنوياتهم، وتشجيعهم على الكفاح وبذل الجهد وإنجاز العمل في هذا المشروع من أجل رفعة الوطن وتقدمه، وخلال كلمته قال فضيلته: إن مشروع قناة السويس يمثل تحديا يثبت قوة وإرادة وصمود المصريين.

ودعا جميع المصريين لدعم مشروع قناة السويس الجديدة بكل صور الدعم.

الإمام الأكبر يندد بما يحدث في العراق من قتل للأبرياء
مفتي العراق: يشيد بعظمة الشعب المصري لاجتيازه أزمته بكل اقتدار..

استقبل فضيلة الإمام الأكبر أ.د/ حمد الطيب، شيخ الأزهر الشريف، الشيخ رافع الرفاعي، مفتي جمهورية العراق.

وقد تطرق اللقاء إلى الحديث عن أوضاع العراق، وما يمر به من أحداث جسام، وأشاد الشيخ رافع بدور الأزهر الشريف وشيخه في دعم الفكر الإسلامي المعتدل، وعظمة الشعب المصري الذي استطاع أن يجتاز أزمته بكل اقتدار، مؤكداً أن استقرار مصر هو استقرارٌ للأمة العربية.

وأضاف مفتي العراق أن الإعلام يعتم على كثير من الحقائق والأحداث التي تجري على أرض العراق، ويغض الطرف عن الانتهاكات التي تحدث في بعض المناطق.

وقد أكد فضيلة الإمام الأكبر أن الشعب العراقي في حاجة ملحة إلى تضافر كل القوى والفصائل لوقف نزيف الدم العراقي، منددا بما يحدث في العراق من قيام الميلشيات المختلفة بقتل الأبرياء وانتهاك الأعراض وقصف المساجد، واضطهاد وتهجير للمسيحيين وبعض الطوائف الأخرى.

الإمام الأكبر يترأس لجنة إصلاح التعليم

ترأس فضيلة الإمام الأكبر أ.د/ أحمد الطيب شيخ الأزهر الشريف، في الاجتماع الدوري الذي يعقده فضيلته مع اللجنة العليا لإصلاح التعليم قبل الجامعي بالأزهر الشريف؛ لاستعراض ما أنجزته اللجنة التي شُكلت بقرار من فضيلته برئاسة وكيل الأزهر؛ للعمل على تحديث المناهج وتنقيتها من بعض الافتراضات التي لم تعد تُناسب العصر، وإدراج المشكلات المعاصرة في المناهج الدراسية؛ لتحصين الطلاب ضد الأفكار المعوجة والشاذة، بالإضافة إلى تخفيف العبء الدراسي عن الطلاب، مع المحافظة على التراث الإسلامي، وتقييده في ثوب معاصر يُناسب الواقع ومشكلاته، ويُثبت المعلومة في ذهن الطالب، خُصوصًا في ظلّ الانفتاح التكنولوجي المعاصر الذي يعيشه العالم اليوم.

الإمام الأكبر يهنّئ مفتي لبنان المنتخب

هنأ فضيلة الإمام الأكبر أ.د/ أحمد الطيب، شيخ الأزهر الشريف، سماحة الشيخ/ عبد اللطيف دريان، على انتخابه مفتيا لدولة لبنان الشقيقة، داعيا سماحته إلى إعادة بناء المؤسسات الإسلامية، والسير قدما نحو خدمة المجتمع الإسلامي في لبنان، والعمل على رأب الصدع الداخلي، ونبذ الخلافات والانقسامات، وعودة روح الألفة والوحدة بين أبناء الشعب اللبناني بمختلف طوائفه، متمنيا له دوام التوفيق والسداد.

لجان إصلاح التعليم ما قبل الجامعي بالأزهر الشريف تكثف جهودها لإنهاء خارطة المناهج الجديدة

كثفت اللجنة العليا لإصلاح التعليم ما قبل الجامعي بالأزهر الشريف جهودها لإنجاز الشكل النهائي لخارطة المناهج الجديدة، حيث عقدت اللجنة العليا اجتماعاً برئاسة فضيلة الأستاذ الدكتور/ عباس شومان وكيل الأزهر لاستعراض آخر ما توصلت إليه كما عقدت اللجنة جلسة

برئاسة فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور / أحمد الطيب شيخ الأزهر لاستعراض التقرير النهائي للعرض على المجلس الأعلى للأزهر.

بيان الأزهر الشريف حول التهجير القسري لمسيحيي الموصل العراقية

في إطار القلق الذي سبق أن أبدته مشيخة الأزهر الشريف حيال تنامي الأبعاد الطائفية والمذهبية للأحداث المتسارعة بجمهورية العراق الشقيق على مدار الأسابيع الأخيرة؛ فإن مشيخة الأزهر الشريف تُعبِّر عن انزعاجها الشديد إزاء ما يتواتر من أنباء بشأن عمليات التهجير القسري لمسيحيي مدينة الموصل، الأمر الذي يتناقض كليًا مع المبادئ والتعاليم الإسلامية السمحة، والتي تدعو إلى التعايش والتواصل بين الناس كافة مصداقًا لقوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣]

فضلا عن تنافيه مع مسار التاريخ العراقي الزاخر بالتعايش والوئام بين أبناء مختلف الطوائف والأعراق.

وبناء عليه؛ فإن مشيخة الأزهر الشريف تؤكد إدانتها التامة لأي سلوك متطرف من شأنه الإضرار بأرواح أو ممتلكات أو مصالح المواطنين العراقيين الأبرياء، أيا كانت انتماءاتهم الطائفية أو المذهبية أو القومية، مشددة في هذا السياق على أهمية تنبه كافة القيادات السياسية والدينية والعرقية إلى ما يحاك ضد الأمة العربية والإسلامية من مؤامرات وفتن؛ تستهدف تقسيمها وتمزيقها وتقطيع أوصالها، وصولا إلى أهداف مشبوهة نعرفها جميعا، وضرورة التصدي والوقوف الحاسم بوجه هذه النزعة البعيدة كل البعد عن روح الأمتين العربية والإسلامية.

مسابقة «إلهام السلام» تشيد بمستوى طلاب الأزهر الشريف الموهوبين

أشاد القائمون على تنفيذ مسابقة «إلهام السلام» بقناة «السلام عليك أيها النبي» بمستوى طلاب الأزهر الشريف المشاركين في المسابقة وذلك في إطار المرحلة الأولى من المسابقة التي تنظمها القناة، لاختيار الموهوبين من طلاب الأزهر الشريف في مجالات حفظ القرآن الكريم، الأحاديث النبوية، الخطابة، الأدب، المواهب الجماعية وذلك تحت إشراف فضيلة الشيخ جعفر عبد الله علي رئيس قطاع المعاهد، وفضيلة الشيخ / أشرف سعيد، والأستاذ / ربيع زكي.

وقد تجاوز عدد الطلاب المشاركين في المسابقة ألفي طالب وطالبة من مختلف محافظات الجمهورية، وذلك بعد إجراء اختبارات مبدئية عقدها قطاع المعاهد لاختيار الطلاب الممثلين لكل محافظة.

وقد أعرب الدكتور / علي بخيت الزهراني رئيس القناة عن خالص تقديره لمؤسسة الأزهر الشريف وقطاع المعاهد لما بذلوه من جهد، مشيدا بالمستوى العلمي لطلاب الأزهر الشريف.

من جانبه أكد الدكتور / جودة بركات المدير التنفيذي للقناة أن أهداف القناة من المسابقة هو تسليط الضوء على النماذج المضيئة من المتفوقين في العلوم الشرعية، لاسيما طلاب الأزهر الشريف، لإعداد جيل جديد من الدعاة، يواجه تحديات العصر في مجال الدعوة ويواكب الوسائل الإعلامية الحديثة والمختلفة.

من الجدير بالذكر أن قناة السلام عليك الفضائية وقعت بروتوكول تعاون بينها وبين الأزهر الشريف من بنوده: مشاركة طلاب الأزهر بمختلف مراحلهم التعليمية في المسابقة التي تقيمها القناة، على أن يكون الإشراف العام على إجراء هذه البرامج والمسابقة لفضيلة الأستاذ الدكتور / عباس شومان – وكيل الأزهر، وأن يكون الإشراف الإداري لفضيلة الأمين العام للمجلس الأعلى للأزهر الشريف.

الإمام الأكبر:

دور الأزهر لا ينتهي عند حدود الدولة المصرية

السنيورة: يشيد بدور الأزهر الرائد من خلال مواقف شيخ الأزهر..

استقبل فضيلة أ.د / أحمد الطيب، شيخ الأزهر الشريف، الدكتور / فؤاد السنيورة، رئيس الوزراء اللبناني الأسبق، والوفد المرافق المكون من الدكتور / رضوان السيد، والدكتور / محمد السماك، والأستاذ / خالد زيادة، سفير لبنان في القاهرة.

وقد تناول اللقاء العلاقات الثنائية بين جمهورية لبنان والأزهر الشريف، وأشاد السنيورة بدور الأزهر الرائد من خلال مواقف الإمام الأكبر الواضحة والصريحة من قضايا الأمة.

وتطرق اللقاء إلى موضوع التطرف والإرهاب، وكيفية مجابهته بنشر الفكر الإسلامي الوسطي السمح، والعلاقات السنية الشيعية المتوترة، وضرورة حل هذه التوترات في ظل الوحدة الإسلامية الجامعة، كما تم الحديث عن العلاقات الإسلامية المسيحية، وما تتعرض له مختلف الطوائف من اضطهاد وتهجير في العراق بصفة عامة والموصل بصفة خاصة، وما يحدث من اعتداء على الكنائس ودور العبادة مما لا يقره الإسلام ولا مبادئه السمحة.

وأكد فضيلة الإمام الأكبر أن دور الأزهر لا ينتهي عند حدود الدولة المصرية، وإنما هو لكل العرب والمسلمين.

وأضاف فضيلته أننا على يقظة ووعي بكل ما يدور في العالم العربي والإسلامي، ونقوم بمواجهة الفكر المنحرف والشاذ بكل ما أوتينا من قوة.

أنباء مجمع البحوث الإسلامية

إعداد / أ: عبدالموجود أمين

الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية
يشدِّد على ضرورة تواصل الوعاظ والدعاة مع جميع أفراد المجتمع

في أول زيارة ميدانية: التقى أ.د/ محيي الدين عفيفي أحمد، الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية، بجميع وعاظ محافظة أسوان في لقاء استمر لمدة ثلاث ساعات، تعرف من خلاله على واقع الدعوة في محافظة أسوان وأحوال الوعاظ بها، واستمع إلى آرائهم وتعرف على احتياجاتهم العلمية والمادية، ودارت مناقشات جادة حول المشكلات والقضايا المجتمعية في المحافظة، ودور الوعاظ والدعاة في معالجة تلك المشكلات.

وأكد الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية أهمية تواصل الوعاظ والدعاة مع أفراد المجتمع، وضرورة التواصل والتلاحم مع جميع المواطنين، والعمل على إحياء منظومة الأخلاق الإسلامية والقيم الاجتماعية التي أصابها الضعف من خلال الممارسات غير المقبولة من بعض الأفراد، مشدداً على أهمية القراءة والمعرفة والانفتاح الرشيد على ثقافة العصر، وبيان المنهج الوسطي للأزهر الشريف في توعية أفراد المجتمع ودور وعاظ الأزهر في إرساء مفاهيم وثقافة المواطنة والتسامح بين أفراد الشعب.

وأضاف فضيلته: أن الإمام الأكبر شيخ الأزهر الشريف وجه بضرورة الاهتمام بالنواحي العلمية والمادية للوعاظ والدعاة والسعي في تحسين أحوالهم حتى يقوموا بدورهم الدعوي والمجتمعي.

وحث فضيلته الوعاظ على ضرورة التركيز على القضايا الاقتصادية من خلال تلك الموضوعات التي تتم معالجتها في المساجد والنوادي واللقاءات مع المواطنين، وذلك من خلال إبراز اهتمام الإسلام بالعمل وإتقانه، والإخلاص في جميع مجالات الحياة، وقيام كل مواطن بما يوكل إليه من أعمال لدعم مسيرة التنمية الاقتصادية ودفع عجلة التقدم، موضحاً أن أولويات تلك المرحلة تقتضي الاهتمام بالتأهيل العلمي والتدريب الجاد للوعاظ والعاملين في مجال الدعوة من خلال عقد دورات تدريبية تؤهلهم للتعامل مع التقنيات الحديثة.

وقد وعد الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية في نهاية اللقاء وعاظ أسوان بالعمل على حل مشكلاتهم التي يعانون منها؛ لتحفيزهم على العمل الجاد، وليشعر كل واحد منهم بأنه صاحب رسالة وليس موظفاً، وطالبهم بالتركيز على ثقافة الانتماء للوطن، والعمل على بيان معالم الوسطية الإسلامية.

علماء قافلة الأزهر بشرم الشيخ:

ليس من إسلامنا سفك الدماء ولا هتك الأعراض

شعار رفعته قافلة الأزهر في خطبة جمعة ٢٧ من رمضان ١٤٣٥هـ، الموافق ٢٥/ ٧/ ٢٠١٤م، برئاسة فضيلة الأستاذ الدكتور/ محيي الدين عفيفي – أمين عام مجمع البحوث الإسلامية –.

فمن مسجد السلام وبحضور سيادة المحافظ اللواء/ خالد فودة، وفضيلة الشيخ/ إسماعيل الراوي – وكيل وزارة أوقاف جنوب سيناء، أكد فضيلة الأستاذ الدكتور/ محيي الدين عفيفي في خطبة الجمعة على أن من مقاصد الشريعة الحفظ على حرمة الدماء، مستنكرًا قيام بعض المنتسبين إلى الإسلام بقتل عشرات الجنود باسم الإسلام، والإسلام منهم براء، فالرسول ﷺ – قال: «من أعان على قتل مسلم ولو بشطر كلمة لقي الله تعالى يوم القيامة مكتوبًا بين عينيه آيس من رحمة الله»، وأوضح أن الإسلام ليس مقتصرًا على العبادات فقط وإنما هو أيضًا معاملات وأخلاق.

ومن مسجد المصطفى أشار فضيلة الدكتور/ سعيد عامر – الأمين المساعد للدعوة والإعلام الديني – إلى أن أشد العقوبات في الإسلام قتل المؤمن متعمدًا، قال الله تعالى:

﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾

(النساء: ٩٣)

وقال رسول الله ﷺ: «لن يزال المؤمن في فسحة من دينه، ما لم يصب دما حراما»، وأن رسول الله ﷺ قال: «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق»، مؤكدًا أن حرمة الدم في الإسلام سارت بين المسلمين وغيرهم، فالإنسان بنيان الرب ملعون من هدمه.

ومن مسجد الشهداء أكد فضيلة الشيخ/ عبدالعزيز النجار – مدير عام شئون المناطق – امتن الله تعالى على المؤمنين بأن جمع قلوبهم على الإيمان، ووحد كلمتهم ضد الأعداء، وجعلهم إخوة متحابين متعاونين، وأن سلامة القلوب وصلاحها يكون باستقامتها على أمر الله تعالى، وإذا استقام قلب العبد ضمن صاحبه طهارته من الشرك والنفاق والرياء والحسد والغش للمسلمين، ومن سلامة القلب الحفاظ على الدماء والأعراض للمسلمين وغيرهم على السواء، ومن يفعل ذلك فقد فاز في الدنيا والآخرة.

ومن مسجد الرحمن قام الدكتور/ هاني عودة عواد– عضو المكتب الفني للدعوة والإعلام الديني– بالتأكيد على أنَّ سفْكَ دماء المسلمين وهَتْك حرماتهم لَمِنْ أعظم المظالم في حق العباد، محذرًا المسلمين من الوقوع في دم حرام، فمن قتل أحداً من أجل فلان أو مُلْك فلان أو إمارة فلان، فإنهم لن ينفعوه عند الله، ولن يدفعوا عنه شيئاً من عذاب الله. فقد ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت نبيكم ﷺ يقول: «يجيء المقتول بالقاتل يوم القيامة

ناصيته ورأسه بيده، وأوداجه تشخب دمًا فيقول: يا رب سَلْ هذا فيم قتلني؟ حتى يدنيه من العرش»، وأن المسلم الغيور لا يرضي الدنية في أهله، ومن ثم لا يتحرش بامرأة ولا يهتك عرض أي إنسان مسلم أو غير مسلم.

الأزهر يطلق اسم الإمام البخاري على قافلته الدعوية

ردًا على افتراءات بعض الجهلة على المقام العلمي للإمام أبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري (المتوفى سنة ٢٥٦هـ) وصحيحه الذي أجمع علماء الأمة أنه أصحُّ الكتب بعد كتاب الله، قرّر الأزهر إطلاق اسم «الإمام البخاري» على القافلة القادمة لعلماء الأزهر الشريف.

الأزهر يشكر (الداخلية) لضبط مرتكبي حادث الطالبة الإندونيسية

تتوجه مشيخة الأزهر الشريف بخالص الشكر والتقدير إلى السيد اللواء/ محمد إبراهيم وزير الداخلية، وكافة العاملين بوزارة الداخلية ضباطًا وجنودًا، وخاصة قسم أول مدينة نصر، وذلك لما بذلوه من جهد كبير أدى إلى سرعة القبض على الجناة مرتكبي حادث مقتل الطالبة الإندونيسية بجامعة الأزهر، وذلك في أقل من أسبوع على وقوع الجريمة.

والأزهر إذ يتوجه بالشكر لكل من ساهم في القبض على الجناة، يشدُّ من أزر رجال الأمن في مصر لمواصلة جهودهم للعمل على تحقيق أمن وأمان الوطن والمواطنين.

حفظ الله مصر وأهلها من كل سوء.

بيان من الأزهر الشريف تجاه ما نُشر من أغاليط دينية في الإعلام

في الوقت الذي يسعي فيه الأزهر الشريف إلى لَمِّ الشمل وجمع كلمة الأمة، والحث علي الوحدة والبناء، تظهر على الساحة الإعلامية مقالات تبلبل أفكار الناس؛ مثل ما قيل عن إنكار عذاب القبر ونعيمه، وما قيل عن الصحابة الأجلاء، ومحاولة الانتقاص من مكانتهم العظيمة، وغير ذلك من أمور قتلها علماء الأمة بحثا على مدى تاريخ الإسلام، ولم يعد فيها مجال لحديث.

والأزهر الشريف إذ ينبه إلى خطورة هذه الأطروحات والمقالات في هذه الآونة التي تحتاج فيها البلاد إلى وقفات ضد الأخطار والتحديات التي تواجهها - يعلم ما يريده المغرضون من محاولة إشغاله عن رسالته وعن قضايا الأمة التي يحملها على كاهله، وهو ليس في حِل لكي يترك مهامه الكبيرة تجاه دينه وبلده وأمته ويتفرغ للرد على مقالات لا تعبر من قريب أو بعيد عن هموم الأمة وآلامها.

لذا يهيب الأزهر الشريف بكل مسئول عن الكلمة أن يتقي الله في هذه الأمة الجريحة، وألاّ يكتب أو ينشرَ ما يشتت الأفكار، ويشغل عن المهام التي تفيد البلاد والعباد.

أنبـاء العالـم الإسلامـى



أ/ أحمد رضوان

فلسطين المحتلة: شهداء غزة قرابة ١٩٠٠ والكشف عن المزيد من الدمار

انتشل مسعفون يوم الثلاثاء ٥ / ٨ / ٢٠١٤م فى أول أيام التهدئة فى «قطاع غزة» جثث شهداء من تحت الركام، لترتفع حصيلة شهر من العدوان إلى نحو ١٨٧٠ شهيدًا، فى حين عاين الغزيون المزيد من التدمير الذى لحق أحياء برُمتها، وذلك بعد دخول اتفاق التهدئة حيز التنفيذ.

وقال مراسلون: إن طواقم الإسعاف انتشلت ٣ جثث فى بلدة «خزاعة» شرقى «خان يونس» بجنوب «قطاع غزة»، واثنتين من منطقة «زلاطة» شرقى «رفح»، واثنتين من «جحر الديك» وسط القطاع.

وأظهر أحدث إحصاء لوزارة الصحة الفلسطينية أن حصيلة العدوان الذى بدأ فى الثامن من يوليو الماضى ارتفعت إلى نحو ١٨٦٩ شهيدًا و ٩٥٧٠ جريحًا، فى حين أحصت وكالة الصحافة الفرنسية أكثر من ١٩٠٠ شهيد.

ومن بين الشهداء أكثر من ٤٠٠ طفل، فضلاً عن مئات النساء والرجال والشيوخ، كما أن أكثر من ألفى طفل أصيبوا وفقًا لمصادر طبية فلسطينية.

ونقل مراسلون صورًا للتدمير الواسع جراء القصف الإسرائيلى من «رفح» جنوبى القطاع، ومن حى «الشعف» شرقى «غزة».

وأظهرت الصور مبانى مدمرة بعضها من عدة طوابق، وعمَّ الدمار أحياء برمتها شرقى «غزة» بينها حيا «الشجاعية» و«الشعف»، وكذلك فى «رفح» و«خان يونس» جنوبى القطاع، وفى بيت حانون شمالاً.

وقال بعض السكان: إن القصف دمر بيوتهم التى ظلوا يُشيدونها لسنوات، كما أن سكان القطاع عبّروا مع ذلك عن وحدتهم وتماسُكهم وتضامنهم مع المقاومة.

وتعانى جل مناطق «قطاع غزة» من انقطاع شبه كامل للكهرباء والمياه؛ جراء قصف خزانات الوقود فى محطة الكهرباء الوحيدة فى القطاع، وكذلك مضخات المياه الصالحة للشرب.

وألقت الطائرات والمدافع الإسرائيلية أكثر من خمسة آلاف طن من الصواريخ والقذائف خلال الشهر الذي استغرقه العدوان الذي أطلقت عليه «تل أبيب» اسم «الجرف الصامد».

إفريقيا الوسطى: تقسيم الدولة بين المسلمين والنصارى

نتيجة للإبادة الجماعية والعنف الذي مارسته الميليشيات النصرانية المسلحة ضد مسلمي «السيلكا» في «إفريقيا الوسطى»، طالب المسلمون هناك بتقسيم الدولة؛ بحيث يستقل المسلمون بالجزء الشمالي والجنوب للنصارى؛ ليتخلص المسلمون من الاعتداءات المستمرة التي أسفرت عن قتل عشرات الآلاف وتهجير مئات الآلاف من المسلمين.

وقد أكد مسلمو «السيلكا»، خلال المؤتمر الذي استمر ٣ أيام بـ «الكونغو برازافيل» - والذي شارك فيه ١٦٩ مندوبًا عن المسلمين والنصارى والجماعات المسلحة - أن المسلمين يتجمعون الآن بالشمال، وأن التقسيم يُعزز من الوضع الواقعي للبلاد.

مقتل ٣٠ شخصاً في حلب

لقي ثلاثون شخصاً مصرعهم، وجرح العشرات، جراء إلقاء طائرات النظام برميلاً متفجراً، على سوق شعبي في حي «المعادي»، بمدينة حلب يوم السبت الموافق ٩/ ٨/ ٢٠١٤م. وتسبب الانفجار في هدم العديد من المنازل، والمحلات التجارية، وتم انتشال العديد من الجثث من تحت الأنقاض والبيوت المهدمة، بحسب ما أكده عاملون في طواقم الدفاع المدني في المدينة.

من جانب آخر أكد الناشط ياسر أحمد، أن حوامات النظام ألقت أكثر من ١٥ برميلاً متفجراً، على المناطق التي تسيطر عليها قوات المعارضة في «مساكن هنانو»، و«المعادي»، و«حلب القديمة»، و«كرم الجبل»، و«كرم حمود».

وذكر أحمد أن أحد البراميل سقطت على مسجد في المدينة، مشيراً إلى أن طواقم الدفاع المدني كانت تعمل جاهدة لإنقاذ العالقين تحت الأنقاض، رغم ضعف الإمكانات.

الهند: جدل حول تشكيل المناهج الدراسية وفق الرؤية الهندوسية

أثارت الخطوات التي تنتهجها الحكومة الهندية لتشكيل المناهج الدراسية وفق المنظومة الفكرية الهندوسية مخاوف المسلمين وغيرهم، وذلك بعد صدور كتاب «الهند المجيدة» في ظل حكومة حزب «بهراتيه جنتا» الهندوسي، والمقرر تدريسه لطلاب جوجرات بالمرحلة الابتدائية.

ويراه المتخصصون يحمل رسالة فكر «ناريندرا مودي» رئيس الوزراء الهندوسي، التي تهدف لصبغ كل مظاهر المجتمع بالهندوسية، حتى العلوم والتاريخ وغيرها من العناصر الحضارية، ونسبة الإنجازات التاريخية والمعاصرة للهنود، وتجاهل أدوار الطوائف غير الهندوسية في حضارة «الهند».

وهو ما دفع رموز العمل الإسلامي للمطالبة بذكر دور المسلمين وغيرهم، والإشارة للقرآن والإسلام، دون الاقتصار على الهندوسية وهيمنتها على المناهج الدراسية.

ألمانيا: تزايد حالات الاعتداء على المساجد

بحسب تقرير صحفي نشرته صحيفة «نويا أوزنابروكر تسايتونج» الألمانية، فإن حالات الاعتداء على المساجد في «ألمانيا»، قد تزايدت في السنوات القليلة الماضية.

وقد جاء في التقرير أنه بين عامي ٢٠٠١ و٢٠١١، تم رصد ٢٢ اعتداء في العام الواحد في المتوسط، في حين تم رصد ٣٥ اعتداءً كل عام في عامي ٢٠١٢ و٢٠١٣.

وفي هذا الصدد اعتبر «أيمن مزايك» - أمين عام المجلس الأعلى للمسلمين في «ألمانيا» - أن هذا التقرير يعد مؤشرًا على تصاعد وتيرة الشعور بالعداء للمسلمين في البلاد، ودعا إلى إنشاء أقسام متخصصة داخل إدارات المقاطعات الألمانية؛ لرصد ومراقبة الأعمال العدائية والعنصرية ضد المسلمين.

تجريد بطل الرماية من لقبه لكونه مسلما

ذكرت إحدى الصحف المحلية الألمانية أن الاتحاد التاريخي الألماني للرماية طالب «مدحت جديك» (٣٣ عامًا) الفائز بلقب ملك الرماية برد اللقب، وذلك لكونه مسلمًا، وأن لقب البطولة لا يُمنح لغير النصارى.

وتأتي هذه الدعوى الطائفية بالرغم من إقامة «مدحت» المولود لوالدين تركيين في «ألمانيا»، ودراسته وزواجه بها، واعتباره نموذجًا للتعايش المشترك.

وقد أشار المتحدث باسم الاتحاد إلى أن قانون الجمعية التي يلعب باسمها ينص على اقتصار عضويته على الأفراد النصارى فقط، وهو ما يدفع البطل المسلم إلى الانتقال إلى مؤسسة أخرى تقبل عضوية المسلمين.

وقد أثارت القضية حالة واسعة من الجدل، والتشكيك حول الاندماج وتعزيزه، إضافة إلى الكشف عن مستوى التسامح تجاه الآخر في «ألمانيا».

أوكرانيا: الإدارة الروحية في القرم تعترض على حظر الكتب الدينية

أرسلت السلطات الروسية قائمة بالكتب الإسلامية التي تم حظرها ومنع تداولها في القرم إلى مفتي القرم.

وتحدث نائب مفتي القرم «أسد الله بايروف» بأن دار الإفتاء كانت على علم بما سوف يحدث عند دخول القرم تحت المظلة الروسية، ونحن حذّرنا جميع الدوائر المسئولة على حظر تلك الكتب لوجود القانون الروسي الذي يُجرّم تلك الكتب.

وقال: إنه يجب على السلطات الحالية تعريف المسلمين أسباب منع كتبهم الدينية؛ مثل: «حصن المسلم» وغيره، وأين حقوق المسلمين؟ فالإدارة الروحية لا تعرف سببًا للتعنت الواضح من السلطات الحالية.

وأكد أن هذه الكتب تخص المسلم وتُعلمه دينه، ولا يوجد بها ما يعيبها؛ لكي تتعنّت المحكمة تجاهها؛ فهي كتب تعلم المسلم الصلاة والصيام وغير ذلك.

والجدير بالذكر أن السلطات الروسية حظرت أكثر من ٢٠٠٠ كتاب؛ منهم: ١٠٠ كتاب يخص الإسلام والمسلمين.

بريطانيا: أسقف كانتربيرى يؤكد أن الإسلام يجدد شباب القيم البريطانية

أكد «روان ويليامز» - رئيس أساقفة كانتربيرى السابق خلال مشاركته فى مهرجان «عيش الإسلام» بـ «لينكولنشير» - أن الإسلام يُسهم فى بعث رُوح القيم البريطانية، وذلك ردًا على مَن يتهمون الإسلام بمناهضة القيم البريطانية.

وأكد فى تصريحاته أيضًا أن تلك القيم تظهر عندما يشارك المسجد المؤسسات غير الإسلامية فى تعزيز الخدمات الاجتماعية والأنشطة الشبابية، وتقوية الإحساس بالواجبات المختلفة تجاه المجتمع.

إسبانيا: اجتماع المسلمين الجدد بمسجد السلام فى بلباو

عقد مسجد «السلام دى بلباو» بـ «البايس باسكو» شمال «إسبانيا» - اجتماعًا يوم الأربعاء الموافق ٦ / ٨ / ٢٠١٤م بعنوان «المسلمين الجدد»، وحضره العديد من المسلمين الجدد والأشخاص المعنيين بمعرفة الإسلام.

وقد بدأ الاجتماع عقب صلاة المغرب، وتناقشوا فيه حول خلق بيئة روحية تساعد المشاركين على تعلُّم المزيد عن الإسلام، وقضاء وقت رائع مع إخوانهم من المسلمين.

وكان من بين أهداف هذا الاجتماع تعلُّم فكرة الاحترام المتبادل، والاستعداد لممارسة الإسلام، وتنشيط وتشجيع أفراد الجالية على مبادئ الإسلام.

هولندا: نشاطات إسلامية فى روتردام وأمستردام

نظَّمت «مؤسسة سلام» للتعدد الثقافى فى أول أغسطس ٢٠١٤ معرضًا خاصًا بالكتاب الإسلامى باللغة الهولندية فى مدينة «روتردام»، وكان الدخول مجانًا.

وعلى جانب آخر نظَّمت كلٌّ من مؤسستى «النساء» و«ميناء» فى العاصمة الهولندية «أمستردام» بتاريخ ٩ و ١٠ أغسطس ٢٠١٤ - حفلاً خيريًا من أجل «غزة»؛ حيث قدَّم أنواعًا مختلفة من الطعام، وحدَّد رسم الدخول بـ ١١,٥ يورو، وريع الحفل يذهب لضحايا العدوان الإسرائيلى فى «قطاع غزة»، وذلك عن طريق هيئة الإغاثة الإسلامية فى «هولندا».

أوباما: من المستحيل تسوية النزاع فى العراق "خلال أسابيع"

أكد الرئيس الأمريكى باراك أوباما السبت الموافق ٩ أغسطس الماضى أن النزاع فى العراق لا يمكن أن يحل «فى بضعة أسابيع»، وذلك غداة أول ضربات توجهها مقاتلات أمريكية لمواقع مقاتلى تنظيم الدولة الإسلامية فى العراق.

وقال الرئيس الأمريكى فى مؤتمر صحفى «لا أعتقد أننا سنتمكن من حل هذه المشكلة خلال بضعة أسابيع.. الأمر سيأخذ وقتا»، موضحا أن الولايات المتحدة دفعت إلى التدخل لأن تقدم مقاتلى تنظيم «داعش» كان «أسرع» مما توقعته أجهزة الاستخبارات الأمريكية.

"Islam wa Manahij Al-Ishtirakiyyah", "Al-Islam Al-Muftara `Aliyhe Bayn Al-Shiu`iyyin wal Ra'smaliyyin", and "Islam fi Wajh Al-Zahf Al-Ahmar".

In this regard, he presented a precious revolutionary intellect, as he said: "I saw after many experiences that I can not help finding amidst the poor classes the atmosphere appropriate for implanting the great creeds, good deeds, and good morals. It is very difficult to guide a person's heart while his stomach is empty, and to make him pious while his body is bare. He should find the prerequisites of his life as a human being then to guide him to stick to the principles of faith. There should be economic growth and a comprehensive constructional reformation if we really want to fight sins, misdeeds, and crimes under the name of Islam, or if we want to guide the people to Allah, the Lord of the Two Worlds.

Some narrow-minded people suppose that creating a relationship between the economic factors and good and bad deeds is a tendency for communism which is based on the material tendency towards life and belittling the sublime spiritual powers. This does not mean that neglecting the dangerous vices which exist in the needy and poor societies. Rather, economic recession may be the only reason for the rise and spread of vices in the societies. There is a Hadith in which the Prophet(may blessings and ....) implies that sins sometimes are committed due to straightened circumstances. It reads: "The debtor may resort to lies if he can not render back what he borrowed." This make us understand the fact which people have started to understand in full.

The main objective of subsequent governments is to keep the people in poverty, as they have tended to make the people hungry as their policies are based on injustice. As such, poverty spread in the East and religion and religious scholars are asked to let the people accept these circumstances, and the religious texts are wrongly interpreted.

Festival for Culture. When he heard from a person who was standing on the stage words that are not accepted about Islam, he asked permission from the manager of the session with regard to the time of his speech he brought a pen and a sheet of paper to write down his remarks in titles to defend Islam. Then, he died at this moment while attempting to defend the facts of Islam. How it was a great end for a great imam which carries the glad tidings of he gaining good rewards from his Lord .

I went from Kuwait to Cairo after offering condolences and participated in the eulogy held for him in the Association of Muslim Youths. Then I went to the Sheikh's house in order to offer condolences for his family. I met there a woman who told us about the vision she saw and informed our Sheikh with a few days before his journey to Riyadh. This woman had a daughter who was undergoing critical health circumstances and she was very worried and concerned about her. She saw in her dream that she is in Al-Madinah Al-Munawwarah and she heard sounds from an adjacent place. She went to detect the news and she saw the Messenger of Allah holding Al-Ghazaly's right hand and Bilal was holding his left hand. Then the woman awoke and narrated her vision to her husband who asked about the Sheikh's telephone. The woman narrated what she saw in her dream and he reassured her about her daughter. He commented on her vision saying: "I love this companionship." He traveled in eagerness to Riyadh to meet his Lord and to be buried beside the Messenger of Allah and his honorable companions.

Sheikh Al-Ghazaly was sympathetic and was also like a lion when he feels angry for Islam and the sanctities of the Islamic nation. He was sharp in his blame for the people who are unaware of the dangers of the Crusade-Zionist war launched against Islam. He was weeping out of love for our beloved Messenger (may the blessings and peace of Allah be upon him). He felt sorry for the materialists who have no hearts and felt pity for the Sheikhs who had no minds. He spent his life

defending Islam which he accurately described saying: "It is a pious heart and an intelligent mind." May Allah be merciful to him and may Allah compensate the nation for his loss. He (Exalted be He) is the Most Generous Controller of affairs and the Best One Who answers supplications.

Al-Ghazali (1335-1416 A.H. / 1917 – 1996 A.C.) (may Allah be merciful to him) was a unique model of innovating scholars. He was concerned about his nation and was aware about the dimensions of the war historically launched against Islam, its nation and civilization. He realized the dangers of the internal diseases which devoured the nation which was guarded by the colonialist West, so that our nation was like a diseased person who was devoured by the Crusaders and Zionists. He was aware of the dangers of the heart diseases which transcend the materialist reality.

In so much as I was like the other people, he said: "If I were a king, I would serve the other people and they serve me." He was aware of the crime committed by the elite whose minds were corrupted by colonialism, which turned them from Islam. He was also aware of the mean people who was drowned and drowned all the people with them in apparent matters. The people emptied religion from its dearest parts: piety and Jihad.

At the intellectual level, Sheikh Al-Ghazali was like a lion in his defense of the Islamic thought, so that his life represented an intellectual project and battle that lasted for more than fifty years. He did not leave a contemporary issue without handling it in courage, awareness, and sincerity.

In his confrontation of the financial oppression and social grievances which handicapped the nation and disrupted its material and immaterial potentials, he was engaged in his first war. He composed a number of books constituting parts of his intellectual project, entitled, "Islam wa Al-Awda'a Al-Iqtisadiyyah",

extremely happy to know that he supplicates Allah for us during the last part of the night.

Due to his health conditions during the last years of his life, his children made a system for his life in order to provide him with comfort, to organize his time, and to limit matters that are less important than activity and journeys. However the spiritual and intellectual harmony between us made him respond happily to everything I ask him for, even many people sought my assistance to intercede for them in order for him to accept their invitations, deliver lectures, or attend seminars. His sons always felt reassured when they knew that I will accompany him in his journeys abroad. My happiest time was the time in which I accompany him and help in his affairs.

The eminent scholar Al-Ghazaly has a wisdom which waits for the one who will recall it. I felt enthusiastic to make TV interviews with him because the untraditional questions and new issues which Allah helps me to ask and put forward recalled of his wisdom and the fruits of his rich and untraditional intelligence during his dialogues.

During the last years of his life, I felt that this person assign to me a trust which I felt pity for my self for undertaking and I supplicate to Allah to help me to fulfill it and its consequences. During the last meeting with him in his house, and we were recording two episodes for his program Rawdat Al-Islam, and when I asked his permission to go out, he brought to me a copy of his last book "Nah wa Tafsir Mawdu`i li Siwar Al-Qur'an Al-Karim". He wrote a dedication assigning to me a trust: "To my dear brother, Dr. Muhammad `Imrah, the caller for Islam and guard of its instructions, with my supplications. Muhammad Al-Ghazaly."

We remained communicating regularly with each other by phone for many times per week, until I knew that before his being invited to visit Riyadh to attend the activities of the Abu Dhabi National Festival for Culture in the Kingdom of Saudi Arabia, a matter that surprised me and made me pitiful for him. We feared for his health because of his extreme sensitivity, as he might be provoked by those who mistrusted him (may Allah forgive them) and attacked him. They also published fourteen books full of fabrications and lies about him after the issuance of his book "Al-Sunnah Al-Nabawiyyah Bayn Ahl Al-Fiqh wa Ahl Al-Hadith" which was published in 1989. We – the people who were close to him – agreed upon avoiding the provocative matters and not to read to him any of these things which were written about him.

I did not know - nobody else knows except the Creator - that he was about to meet his Lord. He was traveling eagerly in an unprecedented manner to the Holy Lands where it was predestined for him to meet his Lord. Allah is Ever-Truthful as He says:

{Verily Allâh, with Him (Alone) is the knowledge of the Hour, He sends down the rain, and knows that which is in the wombs. No person knows what he will earn tomorrow, and no person knows in what land he will die. Verily, Allâh is All-Knower, Well-Acquainted (with things).}

[Luqman: 34]

I traveled to Kuwait by this date to take part in an academic symposium, and I knew there the news of the death of our Sheikh and his burial in Al-Baqi` in Al-Madinah Al-Munawwarah near the tomb of the Imam of Darul Hijrah, Malik ibn Anas (93-179 A.H. / 712-795 A.C.) (may Allah be pleased with us all).

A few moments before his death, he was sitting in King Faisal Hall in Riyadh scrutinizing the researches and dialogues of the symposium of the National

In this way Al-Ghazaly spoke…!

Dr. Muhammad `Imarah

Editor-in-chief of Al-Azhar Magazine.

Twenty years ago, our honorable Sheikh Muhammad Al-Ghalazly (1335-1416 A.H.) departed on the 9th of March. This was the same day on which the leader of modern Islamic renaissance, Jamal Al-Din Al-Afghani – under whose tutelage Imam Muhammad `Abdo learned . Imam Muhammad `Abdo was the teacher of Imam Rashid Rida who was the teacher of Imam Al-Banna, who was the teacher of Sheikh Al-Ghazali.

When a person looks around himself, he will see the world war declared against Islam, nation, civilization and the void place left by Sheikh Al-Ghazali. Then we will remember the Hadith of the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) who said: "Verily, Allah does not take away knowledge by snatching it from the people but He takes away knowledge by taking away the scholars, so that when He leaves no learned person, people turn to the ignorant as their leaders; then they are asked to deliver religious verdicts and they deliver them without knowledge, they go astray, and lead others astray."[1]

Sheikh Al-Ghazali was not merely a diligent and innovative mind who was concerned about his nation. He was defending the Islam along fifty years in which he left behind sixty books in addition to articles, sermons, lectures, and dialogues which will act as a good example for intellectual Jihad for the sake of renaissance, progress, and innovation, as well as a league for Islamic intellect

[1] Related by Al-Bukhary (1-50), no. 100; and Muslim (4/2059), no. 2673.

which brings up generations. Sheikh Al-Ghazali was not merely this, he had an enlightened heart which influenced and enlightened all those who knew him. They were happy for being near of him with this light which comes from his great heart.

He (may Allah be merciful to him) defined Islam by saying: "It is a pious heart and an intelligent mind." Thus, he was one of the prominent scholars of Islam who endeavored to save the Islamic culture from the abominable separation between mind and heart; which turned even the acts of worship into shapes void of spirituality. Hearts are also tuned into Bid`ahs or superstitions when the struggle between Sufism and jurisprudents ended with the idea that the jurisprudents have no heart and Sufis have no mind. Then the School of Restoration and Innovation to which Sheikh Al-Ghazaly belonged and became one of its scholars tended to restore conformity, concord, and integration between the believing hearts, the conscious hearts, and striving hearts which have the power to revive the hearts and restore the divine light in the hearts.

Thus, all those who read the books written by Sheikh Al-Ghazaly, listened to him, or heard about him felt sorry for his death. In addition, those who were enlightened by his heart and the intelligence of his mind books and sermons – and I am one of them – do not compensate for his loss and words do not express him.

In the last years of his life, physician advised him to walk for a period of time daily, and when I asked him whether he puts the physicians' advise into action, he told me: "How can I do this, as whenever I go out, people gather around me to ask me and seek my legal opinion? They asked him about matters relevant to Fiqh and thought. However, I and my family were always eager to ask him to supplicate Allah for us whenever we meet him or call him by phone. We were

become pure and united, their hearts flutter, and they meet with love filling their hearts in spite of the difference of their countries.

Al-Bukhari and Muslim narrated that `Abdullah ibn `Umar (may Allah be pleased with him and his father) said: "I was sitting with the Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him) at a mosque in Mina and one of Al-Ansar and another one from Thaqif came. They greeted the Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him) and said: "O Messenger of Allah, we have come to ask you. He said: If you want I may tell you with what you have come to ask about, and if you do not want to tell you that, I will not say. They said: "Tell us, O Messenger of Allah." Al-Thaqafy told Al-Ansari: "Ask." He said: "Tell us, O Messenger of Allah." He said: "You have come to ask about the reward that you will receive for going to Allah's Sacred House, the reward the you will receive for performing the two Rak`ahs of Tawaf, the reward that you will receive when you perform Sa`y, the reward the you will receive for standing on Mount `Arafah, the reward that you will receive for throwing the pebbles, the reward the you will receive for slaughtering the sacrifice, and the reward that you will receive for performing Tawaf Al-Ifadah. He said: "By the One Who sent you to us, this is what I wanted to ask you about." The Prophet said: "When you go out of your house intending to visit Allah's Sacred House, Allah will give you a reward for every step of your camel and your sins will be obliterated. Your two Rak`ahs after performing Tawaf equals emancipating one of the children of Ismail (may the peace of Allah be upon him). You Sa`y between Al-Safa and Al-Marwa equals the reward of the emancipation of seventy slaves. When you stand on Mount `Arafah, Allah's mercy descends and allah (the most high) boasts to the angels about them saying: "My Slaves came disheveled from every distant place seeking My Paradise. If their sins are as much as sand, drops of rain, or the foams of the sea, I will forgive them. Come, My Slaves, and you will gain My forgiveness and also those to whom you intercede. As for throwing the pebbles, you will have every major sin forgiven with every throwing of a pebble. As for slaughtering a sacrifice, its reward is with Allah and you will gain a good deed for every hair you shave and as wellas of your sins will be obliterated. As for your Tawaf after that, you will perform you will not bear any sin."

The mess enger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) said on the authority of Al-Bayhaqy: "The pilgrims and Mu`tamirs are Allah's delegates who seek Allah's Benevolence. These slaves include the righteous slaves who will be given what they ask

for, willl be answered when they supplicate, and will be compensated and rewarded for what they pay, as the dirham will be rewarded with a million dirhams.

Hajj is a method of social reform, refinement, and correction, as it purifies the souls, guides the hearts, reforms the feelings, thereby granting the Muslims the grace of straightforwardness and kind treatment. As such, the Muslims will be happy in their life, as they gather in response to Allah's call. Thus their hearts and souls are purified and they join the sincere brothers and accompany those who supplicate to Allah in fear and hope for His reward. They fatigue their bodies, hoping for Allah's Pleasure, Mercy, and Paradise. Allah (Glory be to Him) said:

{And they were commanded not, but that they should worship Allâh, and worship none but Him Alone (abstaining from ascribing partners to Him), and perform As-Salât (Iqâmat-as-Salât) and give Zakât}

[Al-Bayyinah: 5]

Hajj is one of the best acts of worship, as the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) was asked: "Which of the deeds is the best? He said: "Believing in Allah and His Messenger." Then, the questioner asked: "Then, what? He (The Messenger) said: "Strife in the Cause of Allah." Then, the questioner asked: "Then, what? He said: "Haj Mabrur (accepted Hajj)." Hajj Mabrur is the one which is free of sins.

It was narrated as a Marfu`Hadith (a Hadith narrated from the Prophet with a disconnected chain of narration). It was also marrated with a good Sanad that Hajj Mabrus is the one which is accompanies by feeding the poor and speaking kindly. It obliterates sins. The Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) said on the authority of Abu Hurayrah: "The pilgrims and Mu`tamirs are Allah's delegates and guests." Abu Hurayrah narrated that the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) said: "Pilgrims and Mu`tamirs are Allah's delegates whom Allah answers when they supplicate to Him and forgives when they seek His Forgiveness."

Hajj is rewarded by Paradise, as Ibn Jarih narrated with a good Sanad from Jabir (may Allah be pleased with him) that the Messenger of Allah (the blessings and peace of Allah be upon him) said: "This House is the pillar of Islam, so whoever heads for it in order to perform Hajj or `Umrah, Allah will admit him to Paradise if He has taken his soul, and will grant him rewards if he comes back."

Hajj and `Umrah...!

By: Dr. Ibrahim Al-Assil

Hajj to Allah's Sacred House is an act of worship by which the Muslims draw closer to their Creator. Ibn Mas'ud (may Allah be pleased with him) narrated that the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) said: "Perform Hajj and 'Umrah consecutively, for they remove poverty and sin as the bellows removes impurity from iron and gold and silver, and AL-Hajj Al-Mabrur brings no less a reward than Paradise. When a believer assumes Ihram, the sun sets with his sins forgiven." (Related by Al-Tirmidhi and Al-Hasan said that it is Sahih)

Al-Nasa'i and ibn Khuzaimah added: "When a Muslim offers Talbiyyah during Hajj, those who are to his right and to his left to the furthest place on earth witness this) ".

Allah (Glory be to Him) enjoined Hajj on the able person in order to revive the memory of the message of guidance and to clarify the true path and message with which Ibrahim (peace be upon him) was sent: monotheism, abandoning Shirk (associating others with Allah in worship). This message was assumed by messengers who came after Ibrahim. This message is confirmed by the message of the last prophet, Muhammad (may the blessings and peace of Allah be upon him). Allah (Glory be to Him) said:

{And We did not send any Messenger before you (O Muhammad peace be upon him) but We revealed to him (saying): Lâ ilâha illa Ana [there is no god has the right to be worshipped but I (Allâh)], so worship Me (Alone and none else)."}

[Al-Anbiya': 25]

Allah (Glory be to Him) said:

{Verily, Ibrâhim (Abraham) was an Ummah (a leader having all the good righteous qualities or a nation), obedient to Allâh, Hanif (i.e. to worship none but Allâh), and he was not one of those who were Al-Mushrikûn (polytheists, idolaters, disbelievers in the Oneness of Allâh, and those who joined partners with Allâh). He was thankful for (Allâh's) Favours. He (Allâh) chose him (as an intimate friend) and guided him to the Straight Path (Islâmic Monotheism? neither Judaism nor Christianity). And We gave him good in this world, and in the Hereafter he shall be of the righteous. Then, We have sent the revelation to you (O Muhammad peace be upon him saying): "Follow the religion of Ibrâhim (Abraham) Hanif baleive in (Allah's Monotheism? to worship none but Allâh) and he was not of the Mushrikûn (polytheists, idolaters and disbelievers).}

[Al-Nahl (The Bees): 120-123]

The rituals of Hajj are a true image of what happened at the time of Prophet Ibrahim and his son Ismail (may the peace of Allah be upon them). Allah (Glory be to Him) said:

{Thus it is an obligation that mankind owes to Allâh] and whosoever honours the Symbols of Allâh, then it is truly from the piety of the hearts. n them (cattle offered for sacrifice) are benefits for you for an appointed term, and afterwards they are brought for sacrifice to the ancient House (the Haram — sacred territory of Makkah).}

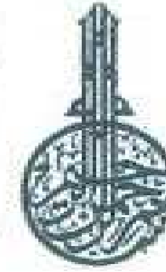
[Hajj: 32-33]

Abu Dharr (may Allah be pleased with him) narrated that the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) said: "Allah's prophet Dawud (may the peace of Allah be upon him) said: 'O Allah, what will you give Your Slaves if they visit Your House." He said: "Every visitor has a right on the visited. O Dawud, they are entitled to be protected by Me in this world and to forgive them when I meet them." (Al-Tabarani in Al-Awsat)

Those who believe really in Allah perform the rituals of Hajj such as the visit to Allah's Sacred House and standing on `Arafat near Makkah, Tawaf, Sa`y (walking) between Al-Safa and Al-Marwah, and standing on Mount `Arafah until the sun sets. Then they go to Al-Mash`ar Al-Haram – a mount between `Arafat and Mina and then they throw the pebbles, thereby conforming the Islamic brotherhood and unity of hearts, supplications, and appearance. As such, differences between them with regard to their tribes, countries, languages, colors, cultures, and social classes melt.

All of them say: "Labbayka Allahuma Labbayk. Labbayka la Sharik laka Labbayk (O Allah, hear I am. O Allah, here I am, there is no partner with You. Here I am." Thus their hearts

AL-AZHAR MAGAZINE
Dhul-Qaedah, 1435 A.H



ENGLISH SECTION
September, 2014

In the name of Allah the Beneficent the Merciful

﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾

الأعراف/ ٤٣

"Praise be to Allah, Who guided us to this; and in no way could we have been guided, unless Allah has guided us."
(Al-A'raf 43)

Editor: Dr. IBRAHIM Al-ASSIL
Professor at the Faculty of Languages and Translation.
Al-Azhar University.



مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر

قصر الحمراء
غرناطة

الافتتاحية

المفهوم الإسلامي للوسطية

أ.د. محمد عمارة

حياة الرسول قبل البعثة

أ.د. محمد عبدالله دراز

مع حِكَم ابن عطاء الله السكندري

أ.د. جاسر عودة

الشعر الصوفي

أ.د. محمود عزب

هدية العدد

القدس بين اليهودية والإسلام

السعر جنيهان

المفهوم الإسلامي للوسطية

أ. د. محمد عمارة

الأزهر

مجلة إسلامية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
ذو الحجة ١٤٣٥ هـ - أكتوبر ٢٠١٤م - الجزء "١٢" السنة "٨٧"

ذو الحجة

الحج
رحلة التوحيد
أ. د. أحمد عمر هاشم

فى فقه الاختلاف
للشيخ: محمود شلتوت

د. أحمد الطيب



د. محمد عبدالله دراز



أ. د. محمد مختار المهدي



هدية العدد

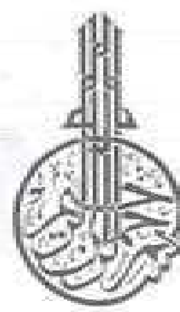
دراسات عن القرآن الكريم (الجزء الثاني)

الإمام الشيخ: محمد الطاهر بن عاشور . العلامة الأستاذ: محمد فريد وجدي

العلامة الأستاذ: مصطفى صادق الرافعي

داخل العدد





﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾



الأزهر

مجلة شهرية جامعة يصدرها مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف في مطلع كل شهر عربي. صدر العدد الأول في المحرم عام ١٣٤٩هـ/١٩٣١م وحمل اسم "نور الإسلام"
برئاسة تحرير
فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين

رئيس التحرير
أ. د. محمد عمارة

سكرتير التحرير	مدير التحرير	مدير عام المجلة
محمود الفشني	أحمد السيد تقي الدين	عادل رفاعي خفاجة

الإخراج الفني: أحمد القطب

الاشتراك السنوي
داخل مصر ٢٤ جنيهاً مصرياً - الدول العربية ٥٠ دولاراً أمريكياً
أوربا وأمريكا ٨٥ دولاراً أمريكياً - اليابان وشرق آسيا ١٢٠ دولاراً أمريكياً
عن طريق قسم الاشتراكات بمؤسسة الأهرام
شارع الجلاء - القاهرة
ت: ٢٥٧٨٦١٠٠ - ٢٨٧٥٦٢٠٠

المراسلات باسم:
مدير التحرير - مجمع البحوث الإسلامية - مدينة نصر
ت: ٢٥٨٨١١٥٤ - داخلي ١٠٨
editor@alazharmag.com
readers@alazharmag.com

الافتتاحية

المفهوم الإسلامى للوسطية



فضيلة الأستاذ الدكتور محمد عمارة
www.dr.emara.com

في الوسطية الإسلامية تمثل السمة والقسمة التي تعد، بحق، أخص ما يختص به المنهج الإسلامي، عن مناهج أخرى لمذاهب وشرائع وفلسفات ... بها انطبعت الحضارة الإسلامية في كل القيم والمثل والمعايير والأصول والمعالم والجزئيات .. حتى لنستطيع أن نقول: إن هذه الوسطية- بالنسبة للمنهج الإسلامى - وحضارته- هى عدسته اللاَمّة لأشعة ضوئه، وزاوية رؤيته كمنهج، وزاوية الرؤية به أيضًا.

وهى قد بلغت وتبلغ هذا المقام لأنها؛ بنفيها الغلو الظالم والتطرف الباطل، إنما تمثل الفطرة الإنسانية قبل أن تعرض لها وتعدو عليها عوارض وعاديات الآفات.. تمثل الفطرة الإنسانية فى بساطتها وبداهتها، وعمقها، وصدق تعبيرها عن فطرة الله التى فطر الناس عليها.. إنها صبغة الله، أراد، سبحانه وتعالى، لها أن تكون صبغة أمة الإسلام، وأخص خصوصيات منهج هذا الدين، فقال:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾

(البقرة: ١٤٣).

إنها الحق بين باطلين.. والعدل بين ظلمين، والاعتدال بين تطرفين والموقف العادل الجامع لأطراف الحق والعدل والاعتدال، الرافض للغلو -إفراطًا أو تفريطًا- لأن الغلو، الذى يتنكب الوسطية، هو انحياز من الغلاة إلى أحد قطبى الظاهرة، ووقوف عند إحدى كفتي الميزان، يفتقر إلى توسط الوسطية الإسلامية الجامعة!

والوسطية الإسلامية الجامعة، ليست ما يحسبه العامة، من المتعلمين والمثقفين: انعدام الموقف الواضح والمحدد أمام المشكلات والقضايا المشكلة.. لأنها هى الموقف الأصعب، الذى لا ينحاز الانحياز السهل إلى أحد القطبين وفقط.. فهى بريئة من المعانى "السوقية" التى شاعت عن دلالات مصطلحها بين العوام.

وهى، كذلك ليست "الوسطية الأرسطية"، كما يحسب كثير من المثقفين ودارسى الفلسفة الغربية وطلابها؛ لأن الوسطية الأرسطية، التى رأى بها أرسطو (٣٨٤-٣٢٢ق.م) أن الفضيلة هى وسط رذيلتين هى فى العرف الأرسطى أشبه ما تكون، فى توسطها، "بالنقطة الرياضية" التى تفصلها عن القطبين -الرذيلتين- مسافة متساوية، تضمن لها التوسط والوسطية، إنها نقطة رياضية، وموقف ساكن، وشىء آخر لا علاقة له بالقطبين اللذين تتوسطهما، وليست هكذا الوسطية فى منهج الإسلام.

إنها فى التصور الإسلامى: موقف ثالث حقًا، وموقف جديد حقًا، ولكن توسطه بين النقيضين المتقابلين لا يعنى أنه منبت الصلة بسماتهما وقسماتهما ومكوناتهما إنه مخالف لهما، ليس فى كل شىء، وإنما خلافه لهما متحصر فى رفضه الانحصار والانغلاق على سمات كل قطب من الأقطاب وحدها دون غيرها، متحصرٌ فى رفضه الإبصار بعين واحدة، لا ترى إلا قطبًا واحدًا!.. متحصرٌ فى رفضه الانحياز المغالى، وغلو الانحياز!.. ولذلك فإنها كموقف ثالث وجديد إنما يتمثل تميزها، وتتمثل جدتها فى أنها تجمع وتؤلف ما يمكن جمعه وتأليفه كنسق غير متنافر ولا ملفق من السمات والقسمات والمكونات الموجودة فى القطبين النقيضين كليهما وهى لذلك: وسطية "جامعة" تتميز، فى التصور الإسلامى، والمنهج الإسلامى عن تلك التى قال بها حكيم اليونان.

إن "العدل" - والوسطية هى العدل بين ظلمين- لا يتعدل ميزانه بتجاهل كفتيه، والانفراد

دونهما، كما أنه لا يعتدل ميزانه بالانحياز إلى إحدى الكفتين .. وإنما يعتدل بالوسطية التى تجمع الحكم العادل من حقائق ووقائع وحجج وبينات الفريقين المختصمين- كفتى الميزان- ولهذا كان قول الرسول ﷺ : " الوسط : العدل. جعلناكم أمة وسطا"[١].

والعدل هنا، وبهذا المعنى هو أبعد ما يكون عن الاعتدال، عندما يراد به الاستسلام للواقع إذا كان جائرًا بل إن الوسط - العدل - في المفهوم الإسلامي - هو "الثورة" على "الاعتدال" بهذا المفهوم!.

و"الكرم" - وهو وسط ليس غريبًا تمامًا عن القطبين النقيضين: "الشح" و"الإسراف"، وإنما هو جامع منهما سمات ومكونات هذا الموقف - الكرم - الجديد، إنه جامع " للتدبير" و"للبذل والعطاء" وكذلك " الشجاعة"، تجدها مغايرة لكل من " الجبن " و"التهور"، لا على النحو التام فى المغايرة، وإنما على النحو الذى رفض الانحياز لقطب واحد، فجمع منهما "الحذر" و"الإقدام"، ليكون الموقف الوسط الجديد..

وفى ضوء هذا المضمون الإسلامى لمصطلح "الوسطية" وهو المضمون الذى ميزها بوصف: "الجامعة" نقرأ كل الآيات القرآنية التى أشارت إلى هذه الخصيصة من خصائص المنهج الإسلامى والدين الإسلامى وصفات الأمة الوسط.. أمة الإسلام:

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾

(الفرقان:٦٧).

﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾

(الإسراء:٢٦).

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾

(الإسراء: ٢٩).

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾

(البقرة:١٨٥).

أى الاعتدال، الرافض لغلو الإفراط والتفريط .. فلا الرهبانية المسيحية والنسك الأعجمى، ولا الحيوانية الشهوانية والتحلل من التكاليف...

وفى ضوء هذا المضمون نقرأ أيضا أحاديث الرسول ﷺ : " إن هذا الدين متين، فأوغلوا فيه برفق"[٢] ... "إن دين الله عز وجل، يسر"[٣] ... "إنكم أمة أريد بكم اليسر، وإن خير دينكم

(١) رواه الإمام أحمد.
(٢) رواه الإمام أحمد.
(٣) رواه البخاري والنسائي والإمام أحمد.

أيسره"[٤] ... " إن الله عز وجل، لم يبعثنى معنتًا، ولكن بعثنى معلمًا ميسرًا"[٥] ... " وعن عائشة، رضى الله عنها: "ما خير رسول الله، ﷺ، بين أمرين فى الإسلام إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس منه.."[٦] فهذا الإثم الذى كان الرسول ﷺ ،أبعد الناس عنه هو المرفوض من سمات القطبين المتناقضين ،لأنه الظلم والباطل والتطرف، المنحاز بعيدًا عن العدل والحق واليسر والاعتدال.. وصدق رسول الله، ﷺ : "إياكم والغلو فى الدين، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو فى الدين"[٧].

هكذا نجد "الوسطية الجامعة" هى صبغة الله وإرادته لأمة الإسلام والفطرة الإسلامية المطهرة من العوارض والآفات.. وعدسة رؤية المنهج الإسلامى لكل شىء، أصولًا كانت أو فروعًا.

وإذا نحن شئنا معرفة الامتياز العظيم الذى تمثله " الوسطية الجامعة" وتحققه للمنهج الإسلامى والشمول الذى تبلغه تأثيراتها، عندما تراعى، وتوضع فى الممارسة والتطبيق، فإننا نستطيع ذلك عندما ندرك كيف مثلت هذه الوسطية، وتمثل، بالنسبة للحضارة الإسلامية، طوق النجاة من تمزق وانشطارية وثنائية "المتقابلات المتناقضة" على النحو الذى حدث فى حضارات أخرى، وفى الحضارة الغربية على وجه التحديد.

فبهذه الوسطية الجامعة لم تعرف " الفكرية الإسلامية" عندما التزمت بها- ذلك التناقض الذى لم يجد له حلا، بين: الروح والجسد.. الدنيا والآخرة، الدين والدولة ..الذات والموضوع.. الفرد والمجموع.. الفكر والواقع.. المادية والمثالية.. المقاصد والوسائل.. الثابت والمتغير... القديم والجديد.. العقل والنقل.. الحق والقوة... الاجتهاد والتقليد.. الدين والعلم إلى آخر الثنائيات إن كان لها آخر؟! التى عندما افتقد منهج النظر إليها قسمة "الوسطية الجامعة" حدث الانقسام الحاد والشهير فى فلسفة الحضارة الغربية إلى "ماديين" و"مثاليين" و"مادية" و"مثالية"، منذ جاهليتها اليونانية وحتى نهضتها الحديثة.

لقد مثلت هذه "الوسطية الجامعة"، لفكريتنا الإسلامية عند الذين التزموها طوق النجاة من هذه الثنائية وتمزقها وشمل فعلها هذا كل ميادين النظر التى شهدت ظواهرها استقطاب الأقطاب المتقابلة والمتناقضة.

وتلك حقيقة يحسن أن تضرب لها بعض الأمثال..

(٤) رواه الإمام أحمد.
(٥) رواه مسلم والإمام أحمد.
(٦) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والإمام مالك والإمام أحمد.
(٧) رواه النسائي وابن ماجه والإمام أحمد.

الفكر والمادة

فى المسيرة الفلسفية للحضارة الغربية، منذ الفيلسوف اليونانى (ديموقريطس) demokritos (القرن الخامس ق.م) وحتى عصرنا الراهن، انقسمت فلسفتها وفلاسفتها إلى "مادية" و"مثالية"، و"ماديين" و"مثاليين"، وذلك بسبب الاختلاف حول علاقة "الفكر" بـ"المادة"، وأيهما له الأولوية فى الوجود والأهمية فى التأثير..

"فالمادية" ترى الفكر انعكاسًا للمادة وأحد إفرازاتها، ولذلك كان نفيها وإنكارها دور السماء - أى الدين والوحي - فى عالم الأفكار وعلى النقيض من ذلك كان موقف "المثالية"، التى جعلت الأولوية للفكر فى الوجود، ومن ثم أفردته بالتأثير، منكرة دور "الواقع - المادة" فى عالم الأفكار، بل منكرة الوجود "الحقيقى" لهذا الواقع - كما عند بعض فلاسفتها.

أما فى الإطار الإسلامى، ومنهجه وفكريته وحضارته، فإننا لم نشهد أثرًا لهذا الانقسام، وليست مصادفة أن يخلو تاريخنا الفلسفي من هذه الثنائية التى بلورت فى الغرب تيارًا "ماديًا - ملحدًا" وآخر "مثاليًا - مؤمنًا" على امتداد تاريخه الطويل - ليست مصادفة أن يخلو تاريخنا الفلسفى من هذه الثنائية ومن انشقاقها؛ لأن الوسطية الإسلامية الجامعة قد أقامت للتصور الإسلامى علاقة ورابطة بين "الفكر" و"المادة - الواقع"، عصمته من تلك الثنائية وانشقاقها.

ونحن لو تأملنا فى لحظات البدء التى شهدت نزول الروح الأمين على قلب الصادق الأمين بآيات الكتاب المبين، فإننا نستطيع أن نمسك بالأطراف الأولى للخيوط الأولى التى أقامت - بالوسطية الإسلامية الجامعة - تلك العلاقات الوثقى ما بين "الفكر" و"الواقع".

لقد جاء محمد ﷺ برسالته (الفكر) على "فترة من الرسل"، أى أن "الواقع" الإنسانى والاجتماعى كان يتطلع إلى هذا "الفكر"، يطلبه ويتطلبه.

● وكان أهل الذكر - فى تلك الفترة - يعبرون عن إفراز "الواقع" لعلامات استفهام بقيت دون أجوبة وعن شوق هذا "الواقع" إلى "فكر" جديد، كانوا يعبرون عن هذه الحقيقة بعبارة تفصح عن انتظارهم "لنبى قد أظل زمانه" أو "أظل زمانه".

● ونفر من خاصة أهل النظر - فى ذلك الزمان وذلك المكان وهم الذين عرفوا بالحنفاء قد ذهبوا يجتهدون فى لملمة بقايا ديانة إبراهيم وإسماعيل، عليهما السلام، بحثًا عن أجوبة "الفكر" عن أسئلة "الواقع" وذلك بعد أن افتقدوا هذه الأجوبة فى اليهودية والنصرانية بعد تحريفهما، ولقد عرف تاريخ تلك الفترة سعى هذا النفر من الحنفاء على الدرب الذى يربط ما بين "الواقع: الطالب" وبين "الفكر: المطلوب".. عرف: زيد بن عمرو بن نفيل (١٧ ق. هـ - ٦٠٦م) الذي رفض عبادة الأوثان، وحرم الخمر على نفسه، وحاور الأحبار والرهبان فلم يجد لديهم "الفكر: المطلوب" لـ"الواقع: الطالب" ثم مات وهو فى طريق البحث عن

الحقيقة فقال عنه الرسول ﷺ: "إنه يبعث يوم القيامة أمة وحده"، وعرف الحنفاء كذلك: أبا ذر الغفارى (٣٢هـ / ٦٥٢ - ٦٥٣م) واحدًا منهم، آمن بالله الواحد، وصلى له، قبل بعثة النبى ﷺ بثلاث سنوات [٨].

● ثم نزل الوحي بالإسلام فى ذلك التاريخ، فكيف كانت العلاقة؟ وكيف أقامت الوسطية الإسلامية بين "الفكر" و"الواقع" علاقة جامعة، نفت وتنفى تلك الثنائية الانشطارية التى عرفها الغرب في هذا الميدان؟

لقد كان "الواقع" يطلب ويتطلب "الفكر" ويفرز "علامات الاستفهام"، لكنه لم يفرز "الفكر" ولم يعكس "الأجوبة" عن علامات الاستفهام.. كان له دوره في استدعاء الفكر، لكنه لم يبدعه كإفراز أرضي واجتماعي له.. وإنما نزل الوحي من السماء بالعقيدة الخالدة - مصدقًا بها الرسالات السابقة - ونزل بالشريعة التي تجيب عن علامات استفهام الواقع بالفلسفات والكليات وتحديد المقاصد والحدود - وتفتح الباب للعقل - عندما يتفاعل مع الواقع - ليبدع ويطور ويحسن في التفاصيل والجزئيات والنظم والمؤسسات - الفروع المتعلقة بالمتغيرات.

فـ"الواقع" يستدعي ويطرح علامات الاستفهام، فهيئ المناخ ومسرح الأحداث للفكر الجديد، و"الفكر" - في أصوله - إلهي المصدر، وليس إفرازًا اجتماعيًا لهذا "الواقع".. وفي ضوء هذه الحقيقة نفهم لماذا نزل القرآن الكريم منجّمًا، على امتداد عمر سنوات البعثة الثلاث والعشرين، ونفهم العلاقة بين الآيات التي كان يتنزل بها الوحي وبين "واقع" أسباب النزول لتلك الآيات.

وإذا كان هذا حال "الأصول" و"مبادئ الشريعة" وفلسفتها وثوابتها وحدودها ومقاصدها، وهي التي نزلت من السماء، استجابةً "للواقع"، ودون أن يفرزها هذا الواقع أو يعكسها.. فإن "الفروع" من هذا الفكر - سواء على عهد البعثة أو فيما تلا ذلك من سنوات - قد عرفت علاقات "بالواقع" أكثر من علاقات الإجابات على علامات الاستفهام، فهذه "الفروع" والتفاصيل والجزئيات والسياسات الشرعية والأحكام المعللة بعلل غائية، والتي تدور مع عللها وجودًا وعدمًا، والتي ترتبط في الوجود والتغير بالأعراف المتغيرة والعادات المتبدلة - أي القطاع الكبير من فقه الفروع - فقه المعاملات -، هذا القطاع من "الفكر" الإسلامي قد جاء ثمرة لتفاعل "الأصول" - التي هي وضع إلهي - مع "الواقع" المعيش في بوتقة العقل المسلم، فكانت له بالواقع علاقة أكبر وأكثر وأوثق من علاقة "فكر الأصول" بهذا "الواقع".. هنا - "في الفروع" - نجد "للواقع" دورًا في تحديد لون "الفكر"، لا نجده له في "الأصول" الخالصة للوضع الإلهي،

---

(٨) النووي (شرح صحيح مسلم) - ج١٦ ص١٧ - طبعة محمود توفيق - القاهرة.

وفي ضوء هذه الحقيقة- المتعلقة "بالفروع"- نفهم معنى النسخ في الشرائع دون العقائد، وفي آيات الأحكام دون شعائر العبادات، وفي أحكام المتغيرات، المرتبطة بالعلل والعادات والأعراف والمصالح المتغيرة، دون ما يتعلق بالثوابت من الأحكام.. "فللواقع" دور وتأثير في "فكر" هذه "الفروع"، جاء من تفاعله مع "الأصول"، فكان له فيها ما زاد ويزيد على مجرد "الاستدعاء".. ! لكنها تظل- "الفروع"- بعيدة أن تكون ثمرة خالصة "للواقع" وإفرازاته؛ لأنها- كما قلنا- ثمرة للتفاعل بينه وبين "الأصول"، التي هي وحي الله.

ولقد جعل لهذه العملية استمراريتها بعد عصر الوحي والبعثة، ما اقتضته الرسالة الخاتمة، من الوقوف في أمر المتغيرات الدنيوية عند إجمال الفلسفات والمقاصد- على حين فصّلت الرسالة في الثوابت الدينية وما تعلق بحقوق الله، ففتحت بذلك الباب للاجتهاد الدائم والتجديد المستمر في فقه الفروع المتعلق بالمتغيرات، على ضوء "الأصول" التي تتفاعل مع "الواقع" الجديد، فتكون "الفروع" ثمرة فكرية جديدة لتفاعلهما الدائم دوام التطور، كسنة من سنن الله في هذا الوجود.

هكذا تميزت علاقة "الفكر" "بالواقع" في تصور الإسلام ومنهجه، فلا الفكر وحده، ولا الواقع وحده، هو المنفرد بالفعل والتأثير، "فالأصول" والأركان والمبادئ والثوابت إلهية، لم يفرزها "الواقع"، رغم أنه استدعاها لتجيب على ما أفرز من علامات الاستفهام.. و"الفروع" وثيقة الصلة "بالأصول" و"بالواقع" جاءت ثمرة لتفاعلهما في بوتقة العقل الإنساني، ولم ينفرد أي من "الأصول" أو "الواقع" بإفرازها.. فبين "الفكر" و"الواقع"، في المتغيرات الدنيوية، "حوار" و"تفاعل" و"خلق" و"إبداع" مواكب لتغيرات الواقع واجتهادات الفكر التي تبحث لمتغيراته عن أحكامها المستنبطة من الأصول، وعن قوانينها التي تحكم هذه الحركة الواقعية التي هي سنة من سنن الله في هذا الوجود.

***

ونحن إذا شئنا "شهادات" واقعية تطبيقية على أن هذه الحقيقة من حقائق المنهج الإسلامي- والخاصة بالعلاقة بين "الفكر" و"الواقع"- قد عرفت طريقها فأبدعت إبداعها في البناء الحضاري الإسلامي، فإننا نستطيع أن نستأنس بشهادة عالم قديم- هو جابر بن حيان (٢٠٠هـ- ٨١٥م)- وبشهادة فيلسوف حديث- هو جمال الدين الأفغاني..

● فجابر بن حيان- وهو المبدع في العلوم الطبيعية- يتحدث عن علاقة "الفكر: العلم"- "بالواقع: العمل"- فيرى ضرورة سبق العلم للتجربة والعمل، ويرى- في ذات الوقت- اكتمال العلم بواسطة التجربة والعمل، على النحو الذي رأيناه في سبق "الأصول" معالجة "الواقع"،

مع تفاعل "الفروع" "بالواقع"، وتطورها بتطوره، يقول جابر: "إياك أن تجرب أو تعمل حتى تعلم، فيكون في التجربة كمال العلم. إن كل صناعة لا بد لها من سبوق العلم في طلبها للعمل؛ لأنه إنما هو إبراز ما في العلم من قوة الصانع إلى المادة المصنوعة لا غير.. إن العلم سابق أول، والعمل متأخر مستأنف، وكل من لم يسبق إلى العلم لم يمكنه إتيان العمل..."(٩)

● أما جمال الدين الأفغاني فإنه يصور علاقة "الحوار" و"التبادل" في التأثير والتأثر بين "الفكر" و"المادة" عندما يقول: "فكل شهود- أي ملاحظة- وفي الملاحظة فكر أولي- يحدث فكرًا، وكل فكر يكون له أثر في داعية يدعو إليها، وعن كل داعية ينشأ عمل، ثم يعود من العمل إلى الفكر. دور يتسلسل، لا ينقطع الانفعال بين "الأعمال" و"الأفكار" ما دامت الأرواح في الأجساد، وكل قبيل هو للآخر عماد، آخر الفكر أول العمل وآخر العمل أول الفكر.."(١٠)

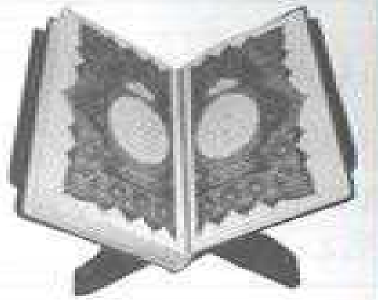
تلك هي علاقة "الفكر" بـ"الواقع" تميزت بالوسطية الجامعة- في المنهج الإسلامي، عنها في الحضارة الغربية.. فبرئ الموقف الإسلامي إزاءها من الثنائية والانشطار.(١١)

***

(٩) د. جلال محمد عبد الحميد موسى (منهج البحث العلمي عند العرب في مجال العلوم الطبيعية والكونية) ص١٢٦، ١٢٧- طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م.

(١٠) محمد باشا المخزومي (خاطرات جمال الدين الأفغاني) ص٣٢٢- طبعة بيروت سنة ١٩٣١م.

(١١) قد يسأل سائل: هل يجوز إطلاق مصطلح "الفكر" على ما هو وحي إلهي؟ أم أن "الفكر" كالتفكير، خاص بالإنسان؟.. والرأي عندي هو أن "الفكر"- بالمعنى الاصطلاحي- وهو إعمال الخاطر في الشيء، وجملة النشاط الذهني، من تفكير وإرادة ووجدان وعاطفة، شاملا ما يتم به التفكير من أفعال ذهنية، تبلغ أسمى صورها في التحليل والتركيب والتنسيق- إن "الفكر"، بهذا المعنى الاصطلاحي، هو خاصية إنسانية، يتنزه الله سبحانه وتعالى عن أن يوصف به.. فالله من صفاته "العلم" وليس من صفاته "الفكر".. فهو "عالم" وليس "مفكرًا" لأنه يحيط بكل شيء، وليس له ذهن يعمل فيثمر فكرًا.. ولكن الفكر الإنساني إذا انطلق من الوحي الإلهي- كلمة الله- والتزم به، جاز- في رأينا- أن نسميه فكرًا إلهيًا، باعتبار التزامه بالمصدر الإلهي وانطلاقه منه، رغم أنه ثمرة عمل الذهن والخاطر الإنساني.. كما جاز لنا أن نصف الحب الإنساني "بالحب الإلهي" إذا خلص للمعنى الإلهي والذات الإلهية، رغم أنه عاطفة إنسانية.. كذلك إذا نحن راعينا المقابل للفكر- أي المادة- فمن الجائز- في رأينا- اعتبار الوحي الإلهي "فكرًا" لا من حيث إنه ثمرة لعملية ذهنية- فحاشا لله أن يوصف بذلك- وإنما من حيث إنه ليس بمادة، وإنما هو مقابل لها.



تفسير سورة البقرة



لفضيلة الأستاذ الإمام
محمد عبده

﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٢٤]

كان الكلام من أول السورة إلى هذه الآية بأسلوب واحد في سياق واحد: ذكر حقيقة الكتاب وكونه من نصوع البرهان بحيث يدفع ريب المرتابين أن يدنو منه أو يتسامى إليه. ثم ذكر أصناف الناس في أمر الإيمان به، وأطال الحجج والمناظرة في خطاب أهل الكتاب خاصة، لما تقدم من أنهم كانوا موضع الرجاء في المبادرة إلى الإيمان بالنبي وما جاء به، لأنه وافقهم في أصل الدين وصدق أنبيائهم وكتبهم، وذكرهم بما نسوا، وعلمهم ما جهلوا، وأصلح لهم ما حرفوا، وزادهم معرفة بأسرار الدين وحكمته، كما أنهم كانوا في موضع الشبهة عند المشركين، والمنافقين بما كفروا، وفي موضع الحجة عليهم بما آمنوا. قال تعالى في الاحتجاج على المشركين:

﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾

[الشعراء: ١٩٧]

وقد جاءت محاجة أهل الكتاب على طريقة الإطناب، لما كانوا عليه من جمود القرائح والبعد عن البلاغة، كما حكى عنهم أنهم قالوا: ﴿ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ [البقرة: ٨٨] ومن فساد الإذعان بالتعود على التأويل والتحريف، فكان يبدأ لهم المعنى ويعاد، ويساق إليهم القول بطرق بينة، ويؤكد بضروب من التأكيد، تبعد به عن قبول التأويل والتحويل، وكان مما حجوا به التذكير بحال سلفهم الأنبياء، وبحالهم معهم من عصيانهم وإيذائهم، بل قتلهم على عهدهم، والغرور بانتظار شفاعتهم والاستغناء بما بعدهم.

ثم أن الكلام في هذه الآية:

﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ ﴾ وما بعدها، موجه إلى مشركي العرب. ووجه الاتصال بينها وبين ما قبلها أن ذلك كان يتضمن الاحتجاج على أهل الكتاب بسلفهم الصالح، فإنهم ينتسبون إلى إسماعيل وإبراهيم ويفتخرون

بأنهما بنيا لهم الكعبة معبدهم الأكبر، وكانوا في عهد التنزيل قد اختلطوا بالأمم المجاورة التي تعرف لهم هذا النسب.

وإنك لترى الكلام هنا جاريا على طريقة الإيجاز والإشارة، لما كان عليه العرب من حدة الفكر وصفاء الأذهان، ودقة الفهم ورقة الوجدان.

على أن هذه الآيات تصلح حجة على الفريقين، لأن أهل الكتاب كافة يجلون إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ويعتقدون نبوته، والإسرائيليون منهم ينتسبون إليه. ولكن الخطاب في قصته موجه إلى العرب أولا وبالذات، فتلك حجج القرآن على أهل الكتاب الذي جاء لإصلاح دينهم وترقيتهم فيه، ودين الله واحد في جوهره، وهذه حججه على أهل الشرك والوثنية الخالصة التي جاء لمحوها من الأرض، وإثبات نقيضها، وهو التوحيد والتنزيه وإثبات البعث والنشور. وقد أقام الحجج على هذين الأصلين من الطرق العقلية والكونية في مواضع كثيرة، ولا سيما في السور المكية.

قال تبارك اسمه:

﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾

أقول أشهر الأقوال وأظهرها في متعلق ﴿ وَإِذِ ﴾ هنا قولان:

١ – أنه مقدر معلوم من السياق ومن أمثاله، وهو «اذكر» وإذا جعل الخطاب للرسول ﷺ، أي «واذكر» لأهل الكتاب ولقومك وغيرهم ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ إلخ. وإذا جعل الخطاب للمكلفين «واذكروا» وتقدم نظيره في خطاب بني إسرائيل.

٢ – أنه متعلق ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ والكلمات: جمع كلمة، وتطلق على اللفظ المفرد، وعلى الجمل المفيدة من الكلام. والمراد منها هنا مضمونها من أمر ونهي.

روى عكرمة عن ابن عباس قال: لم يبتل أحد بهذا الدين فأقامه كله إلا إبراهيم، ابتلاه الله بثلاثين خصلة من خصال الإسلام، واستنبطها ابن عباس بالعدد من أربع سور ليس فيها خطاب له عليه الصلاة السلام.

جعل التكليف بالكلمات، لأنها تدل عليها، وتعرف بها عادة. ولم يذكر الكلمات ما هي؟ ولا الإتمام كيف كان؟ لأن العرب تفهم المراد بهذا الإبهام والإجمال، وإن المقام مقام إثبات أن الله تعالى عامل إبراهيم معاملة المبتلى أي المختبر له لتظهر حقيقة حاله ويترتب عليها ما هو أثر لها، فظهر بهذا الابتلاء والاختيار فضله بإتمامه ما كلفه الله تعالى إياه وإتيانه به على وجه الكمال.

هذا هو المبادر، ولكن المفسرين لم يألوا في تفسير الكلمات والخبط في تعيينها، فقال بعضهم إنها مناسك الحج، وقال آخرون إنها خصال الإيمان، واستخرجوها من آيات القرآن.

وذهب بعضهم إلى أن الإشارة بالكلمات إلى الكواكب والقمر والشمس التي رآها واستدل بأفولها على وحدانية الله تعالى، وكأن قائل هذا يعتقد أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، كان يظن أن هذه الكواكب أرباب، وحاش لله، ما كان منه إلا أنه قال «هذا ربي» تمهيدا للحجة والبرهان ولذلك قال تعالى بعد حكاية ذلك عنه:

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ﴾

[الأنعام: ٨٣]

وذهب قوم إلى أن المراد بها جعل الله إياه إماما وتكليفه بإقامة البيت وتطهيره، وأن بقية الآية مفسر للإبهام فيها، وادعى بعضهم أن المراد أمره في المنام بذبح ولده، وإنما هذا الأمر كلمة واحدة فكيف جعلوها عشرا؟

وزعم آخرون أن الكلمات هي الخصال العشر التي تسمى خصال الفطرة وهي قص الشارب والمضمضة والاستنشاق والسواك وفرق الرأس وتقليم الأظافر وحلق العانة والختان ونتف الإبط والاستنجاء. وقيل غير ذلك.

ومن الذين قالوا إنها الخصال العشر المفسر [الجلال]. وهذا من الجراءة الغريبة على القرآن، ولا شك عندي في أن هذا مما أدخله اليهود على المسلمين ليتخذوا دينهم هزوا، وأي سخافة أشد من سخافة من يقول إن الله تعالى ابتلى نبيا من أجل الأنبياء بمثل هذه الأمور، وأثنى عليه بإتمامها، وجعل ذلك كالتمهيد لجعله إماما للناس وأصلا لشجرة النبوة؟ وإن هذه الخصال لو كلف بها صبي مميز، لسهل عليه إتمامها، وليعد ذلك منه أمرا عظيما؟!

والحق أن مثل هذا يؤخذ كما أخبر الله تعالى به ولا ينبغي تعيين المراد به إلا بنص عن المعصوم.

ذكر تعالى أن إبراهيم أتم الكلمات وأنه تعالى قال له ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾

وقد فصلت الجملة عما قبلها لأنها جواب عن سؤال مقدر تدل عليه القرينه، ولم يقل: فقال إني جاعلك، للإشعار بأن هذه الإمامة بمحض فضل الله تعالى واصطفائه، لا بسبب إتمام الكلمات. فإن الإمامة هنا عبارة عن الرسالة، وهي لا تنال بكسب الكاسب.

وليس في الكلام دليل على أن الابتلاء كان قبل النبوة.

وأما فائدة الابتلاء، فهي تعريف إبراهيم عليه السلام بنفسه، وأنه جدير بما اختصه الله به، وتقوية له على القيام بما يوجبه الله، وقد تحققت إمامته للناس بدعوته إياهم إلى التوحيد الخالص – وكانت الوثنية قد عمتهم وأحاطت بهم – فقام على عهده بالحنيفية، وهي الإيمان بتوحيد الله والبراءة من الشرك وإثبات الرسالة، وتسلسل ذلك في ذريته خاصة، فلم ينقطع منها دين التوحيد، ولذلك وصف الله الإسلام بأنه ملة إبراهيم.

وماذا قال إبراهيم لما بشره الله تعالى بجعله إماما للناس؟

﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾

أي قال واجعل من ذريتي أئمة للناس، وهو إيجاز الحكاية عنه لا يعهد مثله إلا في القرآن. وقد جرى إبراهيم -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- على سنة الفطرة في دعائه هذا. فإن الإنسان لما يعلم من أن بقاء ولده بقاء له يحب أن تكون ذريته على أحسن حال يكون هو عليها ليكون له حظ من البقاء جسدا وروحا.

ومن دعاء إبراهيم الذي حكاه الله عنه في السورة المسماة باسمه:

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾

[إبراهيم: ٤٠]

وقد راعى الأدب في طلبه، فلم يطلب الإمامة لجميع ذريته بل لبعضها لأنه الممكن، وفي هذا مراعاة لسنن الفطرة أيضا، وذلك من شروط الدعاء وآدابه، فمن خالف في دعائه سنن الله في خليقته أو في شريعته، فهو غير جدير بالإجابة، بل هو سيئ الأدب مع الله تعالى، لأنه يدعوه لأن يبطل لأجله سنته التي لا تتبدل ولا تتحول، أو ينسخ شريعته بعد ختم النبوة وإتمام الدين.

وبماذا أجاب الله إبراهيم حين دعاه هذا الدعاء؟ ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾

أى أننى أعطيك ما طلبت، وسأجعل من ذريتك أئمة للناس ولكن عهدى بالإمامة لا ينال الظالمين لأنهم ليسوا بأهل لأن يقتدى بهم. ففي العبارة من الإيجاز ما يناسب ما قبلها، وإنما اكتفى فى الجواب بذكر المانع من منصب الإمامة مطلقا، وهو الظلم: لتنفير ذرية إبراهيم من الظلم وتبغيضه إليهم، ليتحاموه، وينشئوا أولادهم على كراهته، ويربوهم على التباعد عنه لكيلا يقعوا فيه فيحرموا من هذا المنصب العظيم الذى هو أعلى المناصب وأشرفها؛ ولتنفير سائر الناس من الظالمين وترغيبهم عن الاقتداء بهم، فإن الناس قد اعتادوا الاقتداء بالرؤساء والملوك الظالمين لأنفسهم لتطابق شهواتهم، وقد درجوا على ذلك فى كل عصر ما عدا عصر النبوة وما قاربه كعصر الخلافة النبوية، كما يعلم من شهادة التاريخ التي لا ترد.

والإمامة الصحيحة والأسوة الحسنة هى فيما تكون عليه الأرواح من الصفات الفاضلة والملكات العلمية التي تملك على صاحبها طرق العمل، فتسوقه إلى خيرها وتنزعه عن شرها، ولا حظ للظالمين في شيء منها، وإنما هم أصحاب الرسم وأهل الخداع والانخداع بالظاهر، ولذلك يصفون أعمالهم وأحكامهم بالرسمية.

وقد جعل الله إبراهيم إماما للناس، وذكر لنا في كتابه كثيرا من صفاته الجليلة، كقوله تعالى:

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾

[النحل: ١٢٠].

وقوله:

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾

[هود: ٧٥]

ولم يذكر لنا شيئا من زيه وصفة ثيابه، ولا وصف أنواع طعامه وشرابه، بل أرشدنا إلى أن دعوته الصالحة لا يدخل فيها ولا ينتفع بها أحد من ذريته إلا من اجتنب الظلم لنفسه وللناس.

وقد أخذوا من هذه الآية حكما أصوليا، وهو أن الظالم لا يجوز أن يولى منصب الإمامة العظمى، واشترطوا لصحة الخلافة -فيما اشترطوا- العلم والعدل.

ونقل أن أبا حنيفة رحمه الله كان يفتي سرا بجواز الخروج على المنصور، ويساعد علي بن الحسن على ما كان ينزع إليه من الخروج عليه.

ولكن الناس لم يرعووا عن الاقتداء بالظالمين، حتى بعد هذا التحذير الذي أوحاه الله إلى إبراهيم، ثم أعلم به محمدا عليهما الصلاة والسلام، فإنهم ظلوا على دين ملوكهم، وهم اليوم وقبل اليوم يدعون الاقتداء بالأئمة الأربعة، رضى الله عنهم، وهم كاذبون في هذه الدعوى، فإنهم ليسوا على شيء من سيرتهم في التخلق بأخلاق القرآن، وتحرى اتباع الكتاب والسنة في جميع الأعمال.

حياة الرسول ﷺ قبل البعثة(*)



العلامة الأستاذ الدكتور/ محمد عبد الله دراز

نظرًا للارتباط الوثيق بين الرسول ﷺ ورسالته ولأن هذا الكتاب موجه أساسًا إلى أوساط بعيدة عن تاريخ حياة الرسول العربي ﷺ، سوف نبدأ بتقديم صورة مصغرة لشخصية محمد ﷺ منذ طفولته حتى الوقت الذى كلف فيه ببعثته للبشر كافة.

ما هى إذن هذه الشخصية؟

نسبه ومولده:

ينتمى محمدٌ ﷺ إلى أسرةٍ عريقةٍ بمكة من قبيلة قريش من فرع بنى هاشم التى غلب ورعها وتقواها على قوتها السياسية. وينسبه الأثر إلى نسل إسماعيل بن إبراهيم بعددٍ من الأجيال لم يتأكد لنا من عددها وأسمائها سوى واحد وعشرين جيلاً حتى عدنان. أما باقى الأجيال فيحيطها الشك وعدم اليقين[1].

ويجمع المترجمون لحياة الرسول ﷺ أنه ولد يوم الاثنين من الأسبوع الثانى من شهر ربيع الأول[2] من عام الفيل أى من تاريخ غزو الحجاز (الفاشل) الذى قام به (أبرهة) أمير اليمن فى ظل حكم الدولة البيزنطية بقوة من جيشه اشترك فيه أكبر أفيال مملكة الحبشة. ويذكر أوثق العلماء أن هذا التاريخ يوافق العام الثالث والخمسين قبل الهجرة أى ٥٧١ ميلادية.

طفولته وشبابه:

لقد ولد محمد ﷺ يتيمًا[3] فقد مات أبوه عبد الله قبل مولده بسبعة شهور. وعهد به إلى مرضعةٍ بدويةٍ هى حليمة من قبيلة بنى سعد حتى بلغ الرابعة، كما كان يقضى العرف عند أشراف مكة بإرسال أولادهم لينشأوا فى جو الصحراء النقى. ثم تولت أمه تربيته بمعاونة مربية هى أم أيمن لكنه لم يستمتع بحنان الأمومة طويلاً إذ ماتت أمه ﷺ وهو فى السادسة من عمره واستقبله جده عبد المطلب وآثره بحنانه وعطفه وتنبأ له بمستقبل عظيم. ولم يكد محمد ﷺ يبلغ الثامنة حتى فقد جده، فتولى رعايته عمه عبد مناف الملقب بأبى طالب الذى أولاه حبًا أبويًا خالصًا رغم أنه لم يكن ميسور الحال لكثرة عياله وقد لاحظ رخاءً نسبيًا فى داره من يوم أن دخلها هذا الصبى فكان يحرص على أن يكون محمد ﷺ بجواره دائمًا وبشعور متبادل كان الصبى لا يصبر على البعد عن عمه. ولهذا نرى محمدًا ﷺ (وهو فى الثانية عشرة من عمره) يصحب عمه فى رحلته إلى سوريا عام ٥٨٢ طلبًا للتجارة.

رحلته الأولى إلى سوريا واتصاله بالراهب بحيرى:

وترجع إلى هذه الرحلة القصة المشهورة لأول اتصال لمحمد ﷺ بالأوساط الدينية فى شخص الناسك المسيحى بحيرا فى بصرى (بسوريا) فيحكى لنا الأثر أن هذا العابد لاحظ بعض العلامات المنصوص عنها فى الكتب المقدسة تصاحب القافلة فدعاها إلى طعامه وشرع فى فحص وجوه القوم ومضاهاة علاماتها بما لديه من وثائق. فلم يستدل على شيء وأخيرًا عندما تحدث إلى محمد الشاب ﷺ الذى وصل متأخرًا اقترب من أبى طالب وقال له: «هذا الشاب سيقوم بدور عظيم فى العالم فأرجعه إلى بلاده على عجل واسهر عليه واحذر عليه من اليهود الذين قد يؤذونه لو علموا منه ما أعلم»[4].

مشاغله الأساسية:

ولا نعرف سوى تفاصيل قليلة عن حياته ﷺ منذ ذلك التاريخ حتى تاريخ زواجه. وعمومًا

(*) من رسالته للدكتوراه ـ فى السوربون ـ سنة ١٩٤٧ ترجمها عن الفرنسية: أ. د. محمد عبد العظيم على. وراجعها أ. د. السيد محمد بدوى.

(١) نعلم أن الرسول ﷺ كان يمتنع دائمًا عن الصعود فى تسلسل نسبه أعلى من عدنان بل أنه كان يتهم بالافتراء النسابين الذين كانوا يخاطرون فى هذا الطريق. فإذا أخذنا برواية لابن عباس (أنوار النبهانى ص ١٨) يكون بين عدنان وإسماعيل ﷺ ثلاثون جيلاً غير معروفة ويكون بذلك إسماعيل ﷺ فى الجيل الحادى والخمسين من أجداد محمد ﷺ. إلا أنه من المتفق عليه بوجه عام أن عصر إبراهيم ﷺ بين القرن العشرين والقرن الثامن عشر قبل الميلاد فيكون إذن الفاصل بين إسماعيل ﷺ وعبد الله والد محمد ﷺ ٢٢٦٠ عامًا (على فرض أن ميلاد إسماعيل ﷺ كان فى ١٧٢٠ قبل الميلاد وميلاد عبد الله كان فى ٥٤٠ بعد الميلاد). فمن الواضح إذن أن الواحد والخمسين جيلاً التى تذكرها الرواية لا تملأ هذا الفراغ ما لم تعتبر الجيل ٤٤ عامًا (بدلاً من ٣٣ عامًا فى المتوسط).

(٢) مع أن المؤرخين يجمعون على يوم الاثنين من الأسبوع الثانى فإن الروايات تتردد بين يوم ٨، ١٠، ١٢ من هذا الشهر، ويحدد محمود باشا الفلكى ـ فى كتاب (التقويم العربى قبل الإسلام) ص ٣٨ ـ تاريخ ميلاد الرسول ﷺ يوم ٩ من ربيع الأول على وجه التحديد الذى يوافق عنده ٢٠ أبريل ٥٧١ من التقويم القيصرى Julienne ويتفق بذلك مع سيلفستر= دى ساسى silvestre de Sacy، فإذا أخذنا فى اعتبارنا أن تحديد الأيام الأولى من الشهور العربية لا يخضع للتوافق الفلكى للقمر مع الشمس ولا لإمكانية وضوح رؤية الهلال، وإنما يتوقف على عامل متقلب يتبع الظروف الجوية المحلية وهو أول ظهور فعلى للهلال بعد غروب الشمس، نفهم بسهولة أسباب تردد المترجمين القدامى فى تواريخ هذه الأيام. أما فيما يتعلق بتوافق التاريخ القمرى والتاريخ الشمسى فإن المؤرخ الفرنسى (كوسان دى برسفال) يعطينا رقمًا مخالفًا لما سبق لأنه ابتدأ بافتراض أن اختلالاً طرأ على التقويم العربى قبل الرسول ﷺ بقليل ولولا تدخل الرسول ﷺ لاستمر إلى ما بعد ذلك ولهذا اعتقد هذا المؤرخ العظيم أنه يستطيع تحديد ميلاد الرسول ﷺ بيوم ٢٩ أغسطس ٥٧٠ من التقويم الميلادى (انظر Caussin de Perceval ـ دراسة عن تاريخ العرب المجلد الأول ص ٢٨٣)، (Essai sur i'Histoire des Arabes).

(٣) ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ (الضحى: ٦).

(٤) سيرة ابن هشام، مجلد ١، ص ١١٥.

فقد قضى شبابه في حالة قريبة من الفقر. ويؤيد القرآن[٥] ذلك والسنة توضحه. فبعد أن مات أبوه وعاش في كنف جده لم يرث من أمه سوى أمة سوداء وقطيع من الغنم وخمسة جمال. والعمل الذي زاوله في تلك الحقبة كان في الغالب رعي الغنم الذي يقول الرسول ﷺ عنه إنه كان عمل الأنبياء عليهم السلام من قبله مثل موسى وداود وغيرهما عليهم السلام.

صفاته الخُلُقية :

وكان يتميز ﷺ بين أترابه الفتيان بخلقه الرفيع وبصفة خاصة بحيائه الشديد وبعده عن اللهو الرخيص وبعفته المطلقة. وكان يجذب اهتمام كل من تعامل معه فأكسبه ذلك ثقة كبيرة في قلوب الناس مما برر تسميته بـ «الأمين».

حلف الفضول :

ومثل هذه الخصال تنبئ عن صاحبها في المجتمع فنراه وهو في ريعان شبابه يُدعى لمجالسة رؤساء القبائل الموقرين في حلف الفضول[٦]. وبقدر ما كان زواجه في سن الخامسة والعشرين فرصة لرفع مستواه المادي فقد كشف أيضًا عن صفات حميدة أخرى.

رحلته الثانية :

فقد كلفته خديجة الأرملة الثرية الشريفة النبيلة وهي في الحلقة الرابعة من عمرها بمهمة تجارية إلى الشام فأنجزها بذكاء ونزاهة مما أكد عندها أحقيته باسم الأمين.

زواجه من خديجة :

ورغم الفارق المادي الشاسع بينهما فقد فاتحته في أمر الزواج الذي قبله رغم تباين السن، وظلت بعد ذلك زوجته الوحيدة طوال ربع قرن لم يفرق بينهما سوى الموت. وظل الوفاء لذكراها يثير غيرة زوجاته فيما بعد.

أولاد الرسول ﷺ :

لقد كان زواجهما من أوفق الزيجات وأثمرها فقد أنجبت له ولدين هما القاسم وعبدالله اللذان توفيا في سن الطفولة[٧] وأربع بنات اعتنقن الإسلام هن زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة.

وستكون الأخيرة زوجة علي بن أبي طالب (رابع الخلفاء الراشدين) وتزوجت الاثنتان السابقتان على التوالي عثمان بن عفان (ثالث الخلفاء الراشدين). أما زينب فقد تزوجت قبل الإسلام بابن عمها أبي العاص الذي اعتنق الإسلام فيما بعد، وماتت قبل وفاة النبي ﷺ بعامين عن ابنتها «أمامة» التي تزوجت «عليًا» بعد موت فاطمة.

مشاعره الأبوية :

وكان محمد ﷺ أبًا حنونًا وزوجًا وفيًا أبدى عاطفة متدفقة نحو أولاده وأحفاده. إذ كان يسير عدة كيلومترات على أقدامه لمجرد أن يراهم ويضمهم إليه ويقبلهم عند المراضع. وكان يتركهم يعتلون ظهره أثناء الصلاة كما

(٥) ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ (الضحى : ٨).

(٦) كلمة فضول معناها : «التوسط للمساعي الحميدة». وكان هذا الحلف المكي يستهدف مساندة الضعفاء ورد الظلم عن المظلومين وإقرار السلام بين القبائل والتصدي لمن يحاول العبث به.

(٧) ولقد رزق الرسول ﷺ فيما بعد بالمدينة بولد هو إبراهيم ابن مارية القبطية الذي مات أيضًا قبل وفاة أبيه بشهور. (انظر محمود باشا الفلكي، الكتاب السابق ص ٧).

كان يقطع خطبته لكي يستقبلهم ويجلسهم إلى جواره على المنبر. ونقاشه مع رجلين من بني تميم عن العاطفة الأبوية[٨] معلومٌ في السيرة.

وبعد أن تحقق له الثراء ظل على بساطته وزهده في الأكل ولم يستفد من سعة رزقه إلا ليوسع دائرة السعادة من حوله. فوفاءً لدين عمه عليه واعترافًا بجميله نحوه عندما رعاه في طفولته أخذ على عاتقه تربية ابن عمه الأصغر علي الذي زوجه ابنته فاطمة أصغر بناته.

ترميم الكعبة :

وكان أهم الأحداث التي وقعت بين تاريخ زواجه وتاريخ بعثته وهو في الخامسة والثلاثين وقت ترميم الكعبة. فلأهمية هذا الصرح الذي كان بمثابة المعبد الوطني للجزيرة العربية كانت كل القبائل العربية تبدي له كل تقديس رغم اختلاف عقائدها. لهذا نراها جميعًا تحرص كل الحرص على أن تنال شرف المشاركة في أعمال إعادة بناء الكعبة. ولقد توصلت بفضل تقسيم العمل بينها على تحقيق مطالب الجميع حتى وجد المتنافسون أنفسهم أمام العمل الذي لا يتجزأ وهو إعادة وضع الحجر الأسود في مكانه. فلم يرض أحد عن التنازل عن حقه في رفع الحجر ولم يستطع أحدٌ أن يمنع تفاقم النزاع. ومع ذلك وقبل الالتجاء إلى السلاح عقد اجتماعٌ أخيرٌ تقرر فيه الاحتكام في هذا الموضوع إلى أول شخص يدخل الرحاب المقدسة للكعبة من باب بني شيبة.

ولقد شاءت الأقدار أن يكون هذا الشخص هو محمدًا ﷺ. فلما رآه الناس يدخل صاحوا «الأمين ... الأمين» ولم يخب أملهم في انتظار الحل العادل. فقد أسرع محمدٌ ﷺ - في بديهته اليقظة ونزاهته المعهودة - بأن بسط رداءه على الأرض ووضع بيديه الحجر الأسود وسط الثياب ثم طلب إلى رؤساء القبائل أن يمسك كل منهم بطرف الثوب وأن يرفعوه معًا إلى المستوى المطلوب. وعندما وصلوا بالحجر إلى المكان المخصص له أخذ محمد ﷺ الحجر بنفسه ووضعه مكانه. فساد الرضا بين جموع الحاضرين واستتب السلام بين القبائل.

صورته الخَلْقية والخُلُقية :

وفي هذه السن كان محمد ﷺ قد اكتمل جسمه وعقله وخلقه وظل هذا الكمال ملازمًا له حتى نهاية حياته. ولقد كانت قامته أكثر قليلاً من المتوسط وكان قوي البنية عريض الصدر والأكتاف كبير الرأس عريض الجبين الذي تعلوه السكينة. فمه واسع وأسنانه بيضاء منفصلة قليلاً ولحيته غزيرة وشعره أسودٌ مجعدٌ يسقط إلى ما تحت أذنيه؛ كان أسود العينين وبالقرنية شعيرات حمراء وبشرته بيضاء تميل إلى اللون الوردي. كانت مشيته خفيفةً مهيبةً كأنه ينحدر من جبل؛ ملبسه بسيطٌ ونظيفٌ ومرتب. زهده نادرٌ ولكنه لا يرفض الطعام الطيب إذا سنحت لذلك فرصة تلقائية. صبور في احتمال الآلام

(٨) البخاري عن أبي هريرة كتاب الأدب باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته ج١٣ ص ٣٦ - ورد ذكر مناقشتين في هذا الموضوع. الأولى مع الأقرع بن حابس التميمي عندما رأى الرسول ﷺ يقبل حفيده الحسن فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد وما قبلت منهم أحدًا فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: من لا يرحم لا يرحم. والثانية: عندما جاء أعرابي إلى النبي فقال تقبلون الصبيان فما نقبلهم فقال النبي ﷺ: أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة؟.

والتعب من غير أن يقصدها؛ قليل الحديث ولكن هذا الإقلال لا ينقص من طلاوة حديثه ولا من إحساسه بالمرح البرىء، وعندما صار رئيسًا وحيدًا للدولة لم تغره خيرات الدنيا ومتعها؛ فقد أبعد عن أهله وعن نفسه عن اقتناء كل أنواع الترف مهما كانت وعارضته زوجاته معارضة صريحة عندما رفض إجابة بعض مطالبهن المادية راغبات في الحياة الدنيا وزينتها[9]. أما القليل الباقي في حوزته بعد وفاته فلم يُورَّث لأهله وإنما وزع على الفقراء.

ولقد تفوق الرسول ﷺ بصفة خاصة في الفضيلة الاجتماعية إذ وُهب لينًا ورقةً لم تغادراه حتى وهو في أوج سلطانه. فلا يعنف محدثه مهما كان؛ ولا يعجل إنهاء حديثه؛ ولا يكون البادئ بسحب يده من يد من يصافحه ومع حزمه ونزاهته في إقامة العدل بين الناس كان متسامحًا فيما يتعلق بحقوقه الشخصية. يقول أنس بن مالك أحد خدمه إنه طوال عشر سنوات خدمه فيها لم يعاقبه مرة ولم يسأله عن سبب ما فعل أو ما لم يفعل.

وإن كان قد نجح في أن يعيش في سلام مع سائر الناس حتى ذلك الوقت لأنه عرف كيف يستحوذ على حب وإعجاب كل من عاشره، فإنه لن يلبث أن يثير ضده عداوة ومعارضة من ظلوا يكنون له الحب. فقد اقترب الآن من الحلقة الرابعة من عمره وأصبح مقبلاً على حدث جليل سوف يعطي لسلوكه اتجاهًا جديدًا ويعتبر بحق تغييرًا حقيقيًا لمجرى التاريخ.

أول مظاهر بعثته :

وأول أعراض بعثته النبوية كما جاء في رواية عائشة أن كل ما كان يراه في منامه كان يتحقق بدقة وبوضوح مثل فلق الصبح في اليوم التالي. وبعد ذلك بدأ يميل إلى الخلوة والوحدة. فاختار مكانًا لخلوته في جبل حراء أو جبل النور في شمال مكة. وهناك بعيدًا عن مجتمع مكة الوثني الفاسد وبعيدًا عن المشاغل الدنيوية كان يحب أن يخلو إلى نفسه[10] في غار يطل على الكعبة وعلى الأفق المترامي خلفها على مدى البصر.

أول اتصاله بروح القدس :

وفي إحدى الليالي ووسط السكون المطبق من يوم ١٧ من شهر رمضان كما يقول ابن سعد (فبراير ٦١٠ من التقويم الميلادي) دخل محمد ﷺ في أول اتصال له مع ما وراء الكون. فمر بأول تجربة له مع الوحي الحقيقي.

بداية الوحي :

ولقد نقل إلينا بنفسه أطوار ما حدث على شكل حوار بينه وبين جبريل ﷺ، بين التابع والمربي. قال جبريل ﷺ: اقرأ، قال محمد ﷺ مندهشًا: ما أنا بقارئ، فكرر جبريل ﷺ قوله «اقرأ» بعد أن ضمه إليه ضمة شديدة،

(٩) ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ۝ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ۝ ﴾ (الأحزاب: ٢٨، ٢٩).

(١٠) لا تحدد رواية البخاري، عن عائشة كتاب بدء الوحي باب بدء الوحي ج١ ص٢٤، مدة هذه الخلوة وإنما أوضحت أن محمدًا ﷺ في وحدته كان يتحنث الليالي ذات العدد وكلما نفد طعامه يرجع إلى أهله ويتزود، أما ابن إسحق فيذكر أن مدة الخلاء المتقطعة كانت شهرًا.

قال محمد ﷺ: ماذا أقرأ؟ ولقد تكرر نفس الأمر مع ضمة أشد من الضمة الأولى، كما لو كان المقصود منها إثارة انتباهه والتمكين في نفسه لمعاني الجدية التي تتطلبها التبعة الثقيلة التي سيكلف بها. ولكن صاحبنا المتبتل يتساءل في هلع: «كيف أقرأ»، وهنا يقرأ عليه الملك:

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾[11]

(العلق: ١ - ٥)

وثبتت هذه الكلمات الكريمة في ذاكرته؛ وأخذ يرددها لنفسه بينما اختفى الملك. وعندما خرج محمد ﷺ من الغار عائدًا إلى داره سمع صوتًا يناديه. فرفع رأسه إلى السماء وإذا بالملك ذاته يغطي الأفق ويقول: «يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل» ولم يستطع أن يُحوِّل نظره. أو يتقدم أو يتأخر. فلم يكن يحدق في أي نقطة في السماء إلا ويراه أمامه، واستمر ذلك لمدة من الزمن ثم لم يعد يرى شيئًا.

تأثيره على الرسول ﷺ :

قد يكون الاضطراب الذي أصاب محمدًا ﷺ من هذه التجربة السمعية والبصرية الجديدة قد أوجد عنده بعض الشك حينًا في حقيقة صوت الملك أو بعض الخوف من أن يكون قد أصابته مسة شيطانية وهو الذي لم يمقت شيئًا كمقته للسحرة والكهنة فكان يخشى أن يكون قد أصبح واحدًا منهم. وقد لا يبعد عن الحقيقة أن الآلام البدنية التي نتجت عن هذه المقابلة تشبه آلام الموت وقد يكون قد تصور أنه مات من شدتها. وبهذا الاضطراب المعنوي والبدني عاد محمد ﷺ فورًا إلى بيته تهزه حُمَّى باردة وطلب من أهله أن يدثروه بغطاء ثقيل حتى يذهب عنه الخوف.

مواساة خديجة ورأي ورقة بن نوفل :

وعندما أنهى إلى خديجة ما حدث وأبدى لها مخاوفه واضطرابه بذلت وسعها في تطييب خاطره في أطيب حديث وأجمل مواساة: «كلا والله ما يخزيك الله أبدًا. إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق»[12].

ولما لم تستطع أن تعطي له تفسيرًا موضوعيًا وأكيدًا عن طبيعة هذه الظاهرة لجأت إلى من هو مختص في الموضوع لاستشارته. وقررت أن تذهب معه إلى ابن عمها «ورقة بن نوفل» وهو عجوز كفيف قد تنصر بعد أن أمضى حياته في المطالعات العبرية وفي علوم الكتب السماوية السابقة. فقال لهما: «هذا هو الناموس[13] الذي نزل على موسى يا ليتني فيها جزعًا، ليتني أكون حيًا إذ يخرجك قومك، فقال الرسول ﷺ: «أومخرجي هم. قال: نعم لم يأت رجل قط

(١١) نذكر هنا أن هذه الآيات وهي أول نبع من الوحي القرآني توضح بدقة أن المقصود هو الإعلان عن علم لم يحصل بعد وإنما سوف يتلقاه محمد ﷺ مستقبلا بفضل كرم الله الخالق. ومن الجلي أن التعبير كان يخالف ذلك تمامًا لو أن الوحي كان ثمرة لدراسة طويلة وناضجة كما يحب البعض تفسيره.

(١٢) رواه البخاري عن عائشة كتاب الوحي باب بدء الوحي ج١ ص ٢١.

(١٣) معنى الناموس الوحي أو القانون السماوي.

بمثل ما جئت به إلا عودى، وإن يدركنى يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا»[١٤].

فتور الوحى وانقطاعه مؤقتًا :

ولكن حياة ورقة لم تدم طويلاً وإن كانت هذه الكلمات المطمئنة قد ألقت ضوء الأمل فى هذه النفس القلقة لهذا الإنسان الشغوف بالعلم والباحث عن الوضوح واليقين، أى هذه العقلية الموضوعية. وسوف نرى أن هذا الأمل لم يكن قويًا ولم يدم طويلاً. إذ كان طبيعيًا أن يتصور محمد ﷺ تحقق هذا العلم الموعود، الذى أعلنه له صوت الحق، فى الأيام التالية. فكان يعود دائمًا فى طلب الدرس الثانى فى ذات المكان الذى تلقى فيه الدرس الأول. وكان يجلس مجلسه الأول ويجوب الجبل ويدور بنظره فى كل اتجاه والأيام تتلو الأيام والأسابيع تتوالى والشهور تتبع الشهور ومضى العام وبدأ العام الثانى، وكما يقول الشعبى ثم الثالث أيضًا وهو فى انتظار مجىء الملك. وفى كل مرة يصل فيها إلى حافة اليأس كان يرى ويسمع «يا محمدُ أنت رسول الله وأنا جبريل»، كانت هذه الكلمات تلقى فى نفسه شيئًا من السكينة إلا أن الوحى الحقيقى كان يطول انتظاره فيغمره الحزن والضيق من جديد. فقال بعض الناس: لم يكن ذلك إلا لوثة من الجنون. وافترض آخرون فيما بعد أن الأمر كان يتعلق فعلاً بمنحة سماوية عظيمة، إلا أن ما أظهره محمدٌ ﷺ من ضعف الاحتمال جعله يبدو كما لو كان غير جدير بهذا النداء الربانى فنزلت آيتان[١٥][١٦]؛ لتردا عنه هذه المخاوف ولكنهما لم تمنحاه التعاليم المنتظرة.

استئناف الوحى بوصفه رسولاً بالإضافة إلى وصفه نبيًا :

ولقد شارف محمدٌ ﷺ عامه الرابع والأربعين. وكان يسهر شطرًا طويلاً من الليل انتظارًا لهذا القول «الثقيل المترقب»، بل لقد تعود منذ مقابلة الوحى الأولى أن ينعزل فى جبل حراء فى نفس الفترة أى فى شهر رمضان وأخيرًا عندما أتم عزلته وشرع فى نزول الجبل من الجانب المطل على مكة سمع صوتًا يناديه فالتفت يمينه ويساره وخلفه فلم ير شيئًا، فرفع بصره إلى السماء فرأى الملك الذى رآه من قبل على جبل حراء ولكن مفاجأة ظهور الملك والضخامة العظيمة لهذا المخلوق السماوى أذهلته حتى لم تقو رجلاه على حمله، فارتعد من الخوف (وقد يكون أيضًا من برد شهر يناير) وأسرع عائدًا إلى خديجة يطلب منها الرعاية السابقة. إلا أن زائره الكريم لحق به إلى البيت حاملاً إليه الحكم الذى يكلفه بمهمته الثانية: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) ﴾ (المدثر: ١، ٢). منذ ذلك الوقت لم يقتصر دور محمد ﷺ على أن يتلقى تعاليم ربه فحسب وإنما عليه أيضًا أن يبلغها إلى الناس كافة، فدور الرسول ﷺ قد أضيف إلى دور النبوة.

(١٤) رواه البخارى عن عائشة كتاب الوحى باب بدء الوحى ج١ ص ٢١.

(١٥) ﴿ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ (القلم: ٢) ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ (الضحى: ٣).

(١٦) ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥) ﴾ (المزمل: ١ - ٥).

لقد رأينا كيف أنه فى خلال هذين التكليفين كان الوحى متقطعًا وبطيئًا بل وقليلاً، ولكن ما أن بدأ التكليف بالرسالة، حتى أصبح الوحى ينزل على الرسول ﷺ لا أقول بصفة منتظمة وفى فترات متقاربة وإنما بنوع من الاتصال ومن غير أن ينقطع مثل الانقطاع السابق.

التوافق بين التقويم الهجرى والتقويم الميلادى :

فعام ٦١٢ الميلادى هو نقطة انطلاق رسالة الإسلام، ويجىء تاريخ الهجرة[١٧] ليقسم فترة الرسالة إلى قسمين متساويين تقريبًا منها عشر سنوات فى مكة مسقط رأس الرسول ﷺ، وعشر سنوات فى المدينة محل إقامته الجديد حيث توفى فى ١٢ أو ١٣ من ربيع الأول عام ١١ هجرية (٧ أو ٨ يونيو ٦٣٢ ميلادية) بعد أن بلغ من العمر ثلاثة وستين عامًا قمريًا بالكامل أى أكثر قليلاً من واحد وستين عامًا شمسيًا[١٨].

ولا شك أن من الأمور الطريفة حقًا متابعة الرسول ﷺ فى نشاطه الدؤوب وفى رسالته الهادية طوال العشرين سنة والتى نتج عنها ثورةٌ من أكبر الثورات الحضارية التى عرفتها البشرية. ولكن لما كان الهدف الرئيسى من هذا الكتاب هو دراسة تحليلية للبناء القرآنى ذاته ونظرًا لأننا قد تناولنا بالدراسة حياة محمد ﷺ حتى بلغنا نقطة التقاء الرسول ﷺ برسالته، نستطيع الآن أن نتناول بالبحث الكتاب الذى تركه لنا، وسوف نتناول فى الفصل التالى كيفية تدوين هذا الكتاب الكريم وتنظيمه وحفظه وتناقله عبر التاريخ.

(١٧) الهجرة معناها قطع العلاقات والابتعاد عن اختيار، وإن كانت أسباب ذلك غير اختيارية. فمن المعلوم أن محمدًا ﷺ وهو يبلغ رسالته - اضطر إلى أن يرحل عن وطنه فى اليوم السابق لمؤامرة كانت تهدف القضاء عليه، واستقر به المقام بالمدينة حيث وصل فى بداية شهر ربيع الأول (يوم ٢ أو ٨ أو ١٢ لاختلاف المؤرخين) ولقد حدد الفلكى المصرى السابق ذكره اعتمادًا على وثائق عديدة - يوم الهجرة بيوم الاثنين ٨ من ربيع الأول الموافق ٢٠ سبتمبر عام ٦٢٢ بعد الميلاد إلا أنه يجب ألا يغيب عن بالنا أن التقويم الإسلامى بدأ من السنة القمرية التى تمت فيها الهجرة وليس فى يوم هجرة الرسول ﷺ أى أنه بدأ قبل ذلك بشهرين وعدة أيام أى فى يوم أول محرم الموافق ١٥ أو ١٦ يوليه عام ٦٢٢ ميلادية ولما كانت السنة القمرية الكبيسة تساوى ٣٥٥ يومًا فقط وأن مجموع ٣٣ سنة قمرية يعادل ٣٢ سنة شمسية تقريبًا فيمكن تحويل التاريخ الهجرى (هـ) إلى تاريخ ميلادى (م) أو العكس باستخدام إحدى المعادلتين التاليتين: $م = هـ + ٦٢٢ - \frac{هـ}{٣٣}$ ، $هـ = م - ٦٢٢ + \frac{م - ٦٢٢}{٣٢}$.

(١٨) فى مقال بعنوان «عمر محمد ﷺ» بالجريدة Journal Asiatique عدد مارس / أبريل ١٩١١م حاول H. Lammens أن يخفض سن النبى ﷺ بعشر سنوات دون أن يأتى على ذلك بدليل قوى فقد بدا له أنه خارق للعادة أن يتوفر لرجل تجاوز الخمسين من عمره من النشاط والقوة ما يلزمه ليخلق لنفسه وضعًا جديدًا فى الحياة. فرغم اعتراف الرسول ﷺ نفسه «ولدت فى زمن الملك العادل كسرى، إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده» ورغم شهادة الصحابة الصحيحة: معاوية وابن عباس وعائشة ... ورغم الوقائع التاريخية المتفقة مع المراجع الأوروبية والفارسية والعبرية المختلفة يحلو لهذا الكاتب أن يعارض ذلك كله ببعض المعلومات المستقاة من كتاب مجهول مؤلفه وبعض الروايات المشوهة والمتناقضة فيما بينها ... ويحاول أن يضع بعض علامات الاستفهام ليس فقط عن سن الرسول ﷺ وإنما عن حياته برمتها وكل ما يتعلق بها. فيدعى أن التواريخ والوقائع والشخصيات وكل ما ورد فى الأثر الصحيح مشكوك فيها ومسرفة بتقدير سابق وتلفيق فى التفسيرات والنصوص وموفقة بطريقة مقصودة وأن علم الاستشراق ذاته يكون قد ضل فى طريق خاطئ بفعل المؤرخين العرب. هل يكترث العلم بمثل هذه المشاركة السلبية أو الهدامة على الوجه الأرجح؟ ولا يكمن الخطر فى لهجة الكاتب الساخرة فحسب، حيث تغمر السخرية كل خطوة من خطواته ووراء نزعته إلى الشك المريض الواهى من أساسه وإنما أخطر من ذلك تحيزه فى تطبيق نزعته فى الشك. فبمجرد أن يجد رأيًا فى غير صف الرسول ﷺ وإن كان تافهًا أو مصادمًا للمعقول ينقلب شكه فجأة إلى يقين وتأييد. إنه تحامل حقود لا يخجل من التحدث باسم النقد العلمى بما يناقض المنطق ذاته.

حديث فى العلل والمقاصد



فضيلة الإمام الأكبر أ. د. أحمد الطيب
شيخ الأزهر

الحمدُ لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله، وعلى آله وصحبه؛ وبعد:

فهذان البحثان يفصل بينهما من عمر الزمان ما يقرب من خمسة عشر عامًا، فقد نُشر بحثُ «مبدأ العلّية بين النفى والإثبات» عام ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م. ونشر البحث الثانى «نظرية المقاصد عند الشاطبى ومدى ارتباطها بالأصول الكلامية» عام ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م. وعلى الرغم من هذا الفاصل الزمنى الطويل فإن بينهما من علاقة «وحدة الموضوع» أو «الاشتراك فى الموضوع الواحد» ما يُصحح تجاورهما معًا فى كتاب يجمعهما تحت عنوان «حديث فى العلل والمقاصد»..

ذلك أن البحث الأول كان بحثًا فى قضية «العلّية» ذاتها من حيث ثبوتها وتحققها وتجذرها فى فطرة الإنسان ووعيه، وأنها الطريق الذى يهتدى به الإنسان إلى معرفة الله تعالى ويقر له بالوجود والألوهية والخلق والتدبير، وأن القرآن عول عليها كثيرًا فى معرض إثبات وجود الله تعالى، صراحة كما فى قوله تعالى:

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾

(الطور: ٣٥)، أو ضمنا فى الآيات العديدة التى لفت فيها القرآن أنظار الناس إلى ما

فى الكون من نظام بالغ الدقة والحكمة والتكامل، بحيث يتأدى العقل – عن طريق مبدأ العلّية – إلى أن هذه الأمثلة التى لا تعد ولا تُحصى من أمثلة العلم والحكمة والنظام والترتيب فى العالمين: العلوى والسفلى – إن هى إلا معلولات تبحث عن علة موجدة فاعلة وتتطلبها، وثمت إذ: إما أن يثبت عقلا وجود صانع حكيم عالم مدبر، وإما أن يهوى النظر العقلى فى سلسلة لا نهائية من معلولات لا تستند إلى «علة لا علة لها»، وهذا هو المستحيل العقلى بعينه.

والهدف الذى تتغياه من هذا البحث هو إبراز خطر مبدأ العلّية أو قانون العلية كأصل يرتكز عليه الدليل على وجود الله تعالى والإيمان به، وهو أصل الأصول فى الإسلام وفى الرسالات السماوية بأسرها.

وفى سبيل الوصول إلى هذا الهدف كان على البحث أن يُلقى الضوء على مشكلات فلسفية عدة، مثل: نظرية مبدأ العلية وأوليته وقبليته فى العقل الإنسانى، وأن الإنسان وُلِدَ وهو مزود به فى أعمق أعماقه، وأنه ليس قضية نظرية مُستنبطة أو مُستدلة من مقدمات وقضايا عقلية أو تجريبية حسية. وأيضًا مناقشة المفكرين الرافضين لهذا المبدأ، وإحالتهم إياه إلى حالة من الخداع الذهنى والنفسى، ثم بيان العلاقة العضوية بين نفى العلية وفتح الباب لفلسفة الصدفة والإلحاد، وأخيرًا ضرورة الاعتقاد بالعلية كمُرتكز أساسى فى التفكير البشرى، والعقل الإنسانى والاستدلال المنطقى، إذ لولاه لما أمكن للذهن البشرى أن ينتقل من صحة الدليل إلى صحة المدلول.

أما بحث «نظرية المقاصد عند الشاطبى» فإنه يدور حول قضية بعيدة الغور فى تُراثنا العقلى الكلامى، أثارت جدلاً عميقًا فى مدارس علم الكلام، وهى قضية أفعال الله تعالى وأحكامه، وهل هى مُعللة بالأغراض أو مُنزهة عنها؟ وهل توجد علاقة اتساق منطقى بين القول بنفى التعليل فى أحكام الله تعالى وبين القول بمقاصد للشريعة؟ ذلك أن مقاصد الشريعة ليست إلا وجهًا آخر لمعنى التعليل، إذ المقاصد غايات يُراعيها الشارع فى أحكامه، وهى بواعث للفعل أو للحكم، أو أغراض لهما، وهنا – تحديدًا – يُسلط البحث بعض الأضواء على إمكان تحديد المذهب الكلامى للإمام الشاطبى فى قضية التعليل ومدى اتساقه مع مذهبه الأصولى فى المقاصد.

وقد ترك البحثُ هذه القضية مفتوحة للراغبين من الباحثين فى اكتشاف عناصر الاتساق بين الشاطبى الأشعرى والشاطبى المقاصدى، والتى أعترف أنها خفيت على،

ومن ثم صعب الوصول إلى نتيجة مُحققة فى نهاية البحث.

وهكذا يمكن القول بأن أحد البحثين ينطلق من العلة الباعثة على الفعل أو العلة الغائية فى مصطلح الفلاسفة، بينما ينطلق البحث الآخر من ضرورة دلالة المعلول على علته الموجدة.

هذا وقد آثرت نشر البحثين كما هما دون زيادة أو تعديل، لأفسح الطريق أمام المهتمين بهذا النوع من الأبحاث أن يضيفوا أو يكملوا أو يصححوا ما عساه قد وقع فيهما من قصور أو نقص أو تقصير.

والله من وراء القصد، وله الحمد أولاً وآخرًا.

مبدأ العِلّيَّة بين النفى والإثبات[1]

طبيعة البحث:

تعد مشكلة «العلّيّة» من أهم المشكلات فى الفكر الفلسفى الإسلامى، ومن أعقدها وأحفلها بالحيوية والخصوبة وإثارة وجهات النظر المختلفة، وتنبع أهمية هذه المشكلة من اتصالها اتصالاً مباشرًا بقضايا الإلهيات والطبيعيات، كما تنبع أيضا من ارتباطها ارتباطا وثيقا بعلم «أصول الفقه» وعلم «الجدل والخلاف».

وحقيقة الأمر: أن مبحث العلية مبحث متعدد الأبعاد، وإلى حد يصعب معه ضبط هذه الأبعاد أو حصرها فى دراسة واحدة تستقل بها كلها، غير أنه يمكن القول بأن هذه الأبعاد ترجع فى جملتها إلى حقول دراسية ثلاثة:

١- الدراسة الفلسفية أو الكلامية.

٢- دراسات علم الأصول.

٣- دراسات علم الجدل والخلاف.

ولكل جانب من هذه الجوانب الثلاثة اهتمام خاص ومنطق متميز، قد لا يكون وثيق الصلة بالجانبين الآخرين.

والدراسة التى نقدم لها بهذه الكلمة دراسة من النوع الأول، وهى دراسة تتعلق ببعض مشكلات تدور كلها حول إثبات مفهوم «العلّيّة» عند العقليين، وإنكاره عند التجريبيين.

(١) نُشر هذا البحث فى كتيب سنة: ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م بدار الطباعة المحمدية، بدرب الأتراك، بالقاهرة.

وإذا كنا قد عرفنا فى دراسة سابقة للعلة والمعلول عند القاضى عضد الدين الإيجى (ت. ٧٥٦هـ)[1]؛ أن ثمة إجماعًا أو ما يشبه الإجماع - عند مفكرى الإسلام - على اعتبار مفهوم «العلّيّة» مفهومًا، ذا قيمة موضوعية، سواء على المستوى العقلى أو المستوى الفطرى القبلى، فإن طبيعة البحث هنا تقضى بأن نتعرف على الرأى الآخر والمذهب المضاد فى هذه القضية، وأن ندرسه على ضوء المقولات العقلية فى نصوص التراث دراسة مقارنة يتبين بها وجه الحق، ونصل منها إلى نتائج تطمئن إليها النفس.

وقد كان علينا للوصول إلى هذا الهدف؛ أن نعالج نقاطا أساسية يمكن أن نلخصها فيما يلى:

١- الاتجاه العام للقرآن الكريم إزاء موضوع العلّيّة، باعتبار أن قانون العلية هو:

أولاً: مبدأ عقلى مركوز فى فكر الإنسان ووجدانه.

ثانيًا: باعتباره حقيقة موضوعية تتمثل فى علاقات السببية والمُسببية بين الأشياء.

والنتيجة الحتمية لهذا الموقف القرآنى المتكامل هى استحالة القول بالصدفة، واستبعادها جذريا من علاقات الوجود المادى واللامادى على السواء.

٢- الاتجاه العام للمفكرين المسلمين حول القضية، وقد توقفنا قليلاً عند مدرسة «الأشاعرة» من أهل السنة، لما تتهم به - عادة - من إنكار «العلّيّة»، وكانت النصوص التى نقلناها عن أئمة الأشاعرة فى هذا الصدد تشير إلى تحفظات كثيرة ينبغى أن توضع حول هذا الاتهام.

٣- مناقشة اتهام الماديين للفلسفة الإلهية بأنها فلسفة تسقط مبدأ العلية والسببية، وتعود بتفسير الحوادث والظواهر رأسا إلى القدرة الإلهية.

٤- والنقطة الأخيرة فى هذا البحث تدور حول مناقشة الفلسفة التجريبية التى حاولت أن تهدم قانون الأسباب والمسببات، وأن تبطل قيمة الاستدلال بدليل العلة على وجود الله تعالى.

وقد حاولت - جهدى - أن تكون معالجة هذه النقاط ذات ارتباط وثيق بالتراث الفلسفى والكلامى عند المسلمين، وقد كانت أُسُسُ المناقشة وأصولها كلها مأخوذة من هناك، والنتيجة الجوهرية التى أفدناها من كل ذلك هى أن الفلسفة الإسلامية - بمُسماها الشامل - فلسفة ذات إمكانات عالية، سواء فى مجال التأسيس والتأصيل، أو فى مجال المواجهة والحوار.

والله تعالى من وراء القصد.

(يتبع)

(١) نُشرت هذه الدراسة فى كتاب بعنوان: «مباحث العلة والمعلول من كتاب المواقف للإيجى» عن دار الطباعة المحمدية، بالقاهرة، سنة: ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م، ويعاد نشرها الآن فى مركز الأزهر للتأليف والترجمة والنشر، ودار القدس العربى.

الفقر الثقافى وحتمية البلاغ



الإمام محمد الغزالى

في رحلة «ذى القرنين» نماذج لشعوب العالم الثالث ينبغى أن تدرس! فإن الله كرم بنى آدم بالعلم، وهؤلاء جهال، وميزهم بمعرفة المادة وخصائصها وهؤلاء لا يدرون شيئا ولا يحسنون صنعا!. قال القرآن الكريم:

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴾ (الكهف: ٩٠)

إنهم عراة كالوحوش والأنعام وكان يجب أن يستروا أبدانهم بأنواع الثياب وأن يحسنوا صناعة الغزل والنسيج وأن يستجيبوا لقوله تعالى:

﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ (الأعراف: ٢٦)

ومضى «ذو القرنين» فى رحلته ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾ (الكهف: ٩٣)

إنهم أقرب إلى البلاهة والعجز وقد شكوا إلى ذى القرنين بأس جيرانهم واحتلالهم لأرضهم وشدة وطأتهم! وعرضوا على «ذى القرنين» مالا لينقذهم من هذا البلاء، ولكن الرجل الصالح رفض هذه «الرشوة» من الشعب الكسول، وطلب منهم أن يعملوا معه فى إقامة الحصون ومقاومة العدو وأن يرفعوا مستواهم العسكرى والصناعى حتى يكونوا أهلا للحياة الكريمة:

﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ (الكهف: ٩٥)

وأيام البعثة النبوية الشريفة أحس النبى عليه الصلاة والسلام أن ناسا من الأمة هابطون فى فهمهم وسلوكهم، ولهم صور بنى آدم وليست لهم المواهب التى فضل الله بها آدم على الملائكة.

وقد كره النبى الكريم أن يقع فى أمته هذا التفاوت المؤسف.

إن الفقر الثقافى أسوأ عقبى من الفقر المالي، والشعب الذى يعانى من الغباء والتخلف لا يصلح للمعالى ولا يستطيع حمل رسالة كبيرة.

خطب رسول الله ﷺ ذات يوم فأثنى على طوائف من المسلمين خيرا ثم قال: «ما بال أقوام لا يُفقّهون جيرانهم ولا يُعلمونهم ولا

يعظونهم ولا يأمرونهم ولا ينهونهم!. وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم ولا يتفقهون ولا يتعظون!. والله ليُعلّمن قوم جيرانهم ويفقهونهم ويعظونهم ويأمرونهم وينهونهم، وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتفقهون ويتعظون، أو لأعاجلنهم العقوبة!! ثم نزل...

فقال قوم: من ترونه عنى[(١)] بهؤلاء؟

قال - عنى - الأشعريين! فإنهم قوم فقهاء، ولهم جيران جفاة من أهل المياه والأعراب!.

فبلغ ذلك الأشعريين فأتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله ذكرت قوما بخير وذكرتنا بشر!! فما بالنا؟

فقال رسول الله ﷺ مرة أخرى: «ليعلمن قوم جيرانهم وليعظنهم وليأمرنهم ولينهونهم، وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتعظون ويتفقهون، أو لأعاجلنهم العقوبة فى الدنيا!».

فقالوا: يا رسول الله أنُفطن غيرنا؟ فأعاد عليهم قوله!

فأعادوا قولهم: أنفطن غيرنا؟

فقال ذلك أيضا!

فقالوا أمهلنا سنة.

فأمهلهم سنة ليعلموهم ويُفقهوهم ويعظوهم.. ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية:

﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾

(المائدة: ٧٨ - ٧٩)

ومهلة سنة تكفى لمحو الأمية الكتابية والعقلية والدينية! وتجعل الجهال أهل فطانة ورشد!.

وأعتقد أن المسلمين فى العصر الحاضر أحوج أهل الأرض إلى هذه النصيحة النبوية فإن تخلفهم الفكرى والخلقى تسود له الوجوه!.

إنهم من الناحية المدنية يأكلون ما يزرعه غيرهم ويلبسون ما ينسجه!.

ومن الناحية الخلقية لا يصونون الأمانات ولا يضبطون الأحاديث ولا يرعون المواثيق!. ولهم مع هذا التخلف المعيب نشاط ملحوظ فى القضايا الغيبية والمجادلات النظرية!.

حتى اضطر «أبو حامد الغزالى» إلى تأليف كتابه «إلجام العوام عن علم الكلام» وحتى اضطر «ابن تيمية» إلى تأليف كتابه «رفع الملام عن الأئمة الأعلام»!.

إن هناك جماهير من المسلمين باعهم شديد القصر فى شئون الحياة وعلوم الإسلام المهمة، ومع ذلك فهم لا يستحيون من جهلهم بإدارة الآلات وطب الأجسام وتربية النفوس وتحصين الثغور ومدافعة الأعداء!.

كيف يخدمون أنفسهم ورسالتهم بهذا التخلف؟ لا بد من الثقافة والفطانة وارتفاع المستوى فى آفاق الحياة كلها.

العلم أول العبادات

الميزة التى رجحت كفة آدم على الملائكة هى العلم فقد عرف ما فى الحياة من جماد ونبات وحيوان، وعرف آثار قدرة الله فيها أى عرف الكون منسوبا إلى صاحبه لا مقطوعا عنه على عكس الحضارة الحديثة التى تعرف الأشياء ولا تعرف خالقها، ومن تعاجيب الأيام أن المسلمين يعرفون الله ولا يعرفون آياته فى الكون وأن أوروبا وأمريكا تعرفان الكون معرفة حسنة وتجهلان الله جهلا شائنا!.

(١) بمعنى: قصد

ومن ثم صعب الوصول إلى نتيجة مُحققة فى نهاية البحث.

وهكذا يمكن القول بأن أحد البحثين ينطلق من العلة الباعثة على الفعل أو العلة الغائية فى مصطلح الفلاسفة، بينما ينطلق البحث الآخر من ضرورة دلالة المعلول على علته الموجدة.

هذا وقد آثرت نشر البحثين كما هما دون زيادة أو تعديل، لأفسح الطريق أمام المهتمين بهذا النوع من الأبحاث أن يضيفوا أو يكملوا أو يصححوا ما عساه قد وقع فيهما من قصور أو نقص أو تقصير.

والله من وراء القصد، وله الحمد أولاً وآخرًا.

مبدأ العلّيَة بين النفى والإثبات[1]

طليعة البحث:

تعد مشكلة «العلّيَة» من أهم المشكلات فى الفكر الفلسفى الإسلامى، ومن أعقدها وأحفلها بالحيوية والخصوبة وإثارة وجهات النظر المختلفة، وتنبع أهمية هذه المشكلة من اتصالها اتصالاً مباشرًا بقضايا الإلهيات والطبيعيات، كما تنبع أيضا من ارتباطها ارتباطا وثيقا بعلم «أصول الفقه» وعلم «الجدل والخلاف».

وحقيقة الأمر: أن مبحث العلية مبحث متعدد الأبعاد، وإلى حد يصعب معه ضبط هذه الأبعاد أو حصرها فى دراسة واحدة تستقل بها كلها، غير أنه يمكن القول بأن هذه الأبعاد ترجع فى جملتها إلى حقول دراسية ثلاثة:

١ - الدراسة الفلسفية أو الكلامية.

٢ - دراسات علم الأصول.

٣ - دراسات علم الجدل والخلاف.

ولكل جانب من هذه الجوانب الثلاثة اهتمام خاص ومنطق متميز، قد لا يكون وثيق الصلة بالجانبين الآخرين.

والدراسة التى نقدم لها بهذه الكلمة دراسة من النوع الأول، وهى دراسة تتعلق ببعض مشكلات تدور كلها حول إثبات مفهوم «العلّيَة» عند العقليين، وإنكاره عند التجريبيين.

وإذا كنا قد عرفنا فى دراسة سابقة للعلة والمعلول عند القاضى عضد الدين الإيجى (ت. ٧٥٦هـ)(١): أن ثمة إجماعًا أو ما يشبه الإجماع - عند مفكرى الإسلام - على اعتبار مفهوم «العلّيَة» مفهومًا، ذا قيمة موضوعية، سواء على المستوى العقلى أو المستوى الفطرى القبلى، فإن طبيعة البحث هنا تقضى بأن نتعرف على الرأى الآخر والمذهب المضاد فى هذه القضية، وأن ندرسه على ضوء المقولات العقلية فى نصوص التراث دراسة مقارنة يتبين بها وجه الحق، ونصل منها إلى نتائج تطمئن إليها النفس.

وقد كان علينا للوصول إلى هذا الهدف: أن نعالج نقاطا أساسية يمكن أن نلخصها فيما يلى:

١ - الاتجاه العام للقرآن الكريم إزاء موضوع العلّيَة، باعتبار أن قانون العلية هو:

أولاً: مبدأ عقلى مركوز فى فكر الإنسان ووجدانه.

ثانيًا: باعتباره حقيقة موضوعية تتمثل فى علاقات السببية والمُسببية بين الأشياء.

والنتيجة الحتمية لهذا الموقف القرآنى المتكامل هى استحالة القول بالصدفة، واستبعادها جذريا من علاقات الوجود المادى واللامادى على السواء.

٢ - الاتجاه العام للمفكرين المسلمين حول القضية، وقد توقفنا قليلا عند مدرسة «الأشاعرة» من أهل السنة، لما تتهم به - عادة - من إنكار «العلّيَة»، وكانت النصوص التى نقلناها عن أئمة الأشاعرة فى هذا الصدد تشير إلى تحفظات كثيرة ينبغى أن توضع حول هذا الاتهام.

٣ - مناقشة اتهام الماديين للفلسفة الإلهية بأنها فلسفة تسقط مبدأ العلية والسببية، وتعود بتفسير الحوادث والظواهر رأسا إلى القدرة الإلهية.

٤ - والنقطة الأخيرة فى هذا البحث تدور حول مناقشة الفلسفة التجريبية التى حاولت أن تهدم قانون الأسباب والمسببات، وأن تبطل قيمة الاستدلال بدليل العلة على وجود الله تعالى.

وقد حاولت - جهدى - أن تكون معالجة هذه النقاط ذات ارتباط وثيق بالتراث الفلسفى والكلامى عند المسلمين، وقد كانت أُسُس المناقشة وأصولها كلها مأخوذة من هناك، والنتيجة الجوهرية التى أفدناها من كل ذلك هى أن الفلسفة الإسلامية - بمُسماها الشامل - فلسفة ذات إمكانات عالية، سواء فى مجال التأسيس والتأصيل، أو فى مجال المواجهة والحوار.

والله تعالى من وراء القصد.

(يتبع)

(١) نُشر هذا البحث فى كتيب سنة: ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م بدار الطباعة المحمدية، بدرب الأتراك، بالقاهرة.

(١) نُشرت هذه الدراسة فى كتاب بعنوان: «مباحث العلة والمعلول من كتاب المواقف للإيجى» عن دار الطباعة المحمدية، بالقاهرة، سنة: ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م، ويعاد نشرها الآن فى مركز الأزهر للتأليف والترجمة والنشر، ودار القدس العربى.

الفقر الثقافى وحتمية البلاغ



الإمام محمد الغزالى

في رحلة «ذى القرنين» نماذج لشعوب العالم الثالث ينبغى أن تدرس ! فإن الله كرم بنى آدم بالعلم، وهؤلاء جهال، وميزهم بمعرفة المادة وخصائصها وهؤلاء لا يدرون شيئا ولا يحسنون صنعا !. قال القرآن الكريم:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴾ (الكهف: ٩٠)

إنهم عراة كالوحوش والأنعام وكان يجب أن يستروا أبدانهم بأنواع الثياب وأن يحسنوا صناعة الغزل والنسيج وأن يستجيبوا لقوله تعالى:

﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ (الأعراف: ٢٦)

ومضى «ذو القرنين» فى رحلته ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾ (الكهف: ٩٣)

إنهم أقرب إلى البلاهة والعجز وقد شكوا إلى «ذى القرنين» بأس جيرانهم واحتلالهم لأرضهم وشدة وطأتهم ! وعرضوا على «ذى القرنين» مالا لينقذهم من هذا البلاء، ولكن الرجل الصالح رفض هذه «الرشوة» من الشعب الكسول، وطلب منهم أن يعملوا معه فى إقامة الحصون ومقاومة العدو وأن يرفعوا مستواهم العسكرى والصناعى حتى يكونوا أهلا للحياة الكريمة:

﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ (الكهف: ٩٥)

وأيام البعثة النبوية الشريفة أحس النبى عليه الصلاة والسلام أن ناسا من الأمة هابطون فى فهمهم وسلوكهم، ولهم صور بنى آدم وليست لهم المواهب التى فضل الله بها آدم على الملائكة.

وقد كره النبى الكريم أن يقع فى أمته هذا التفاوت المؤسف.

إن الفقر الثقافى أسوأ عقبى من الفقر المالي، والشعب الذى يعانى من الغباء والتخلف لا يصلح للمعالى ولا يستطيع حمل رسالة كبيرة.

خطب رسول الله ﷺ ذات يوم فأثنى على طوائف من المسلمين خيرا ثم قال: «ما بال أقوام لا يُفَقِّهون جيرانهم ولا يُعلمونهم ولا يعظونهم ولا يأمرونهم ولا ينهونهم !. وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم ولا يتفقهون ولا يتعظون !. والله ليُعلمن قوم جيرانهم ويفقهونهم ويعظونهم ويأمرونهم وينهونهم، وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتفقهون ويتعظون، أو لأعاجلنهم العقوبة !! ثم نزل...

فقال قوم: من ترونه عنى[1] بهؤلاء ؟

قال - عنى - الأشعريين ! فإنهم قوم فقهاء، ولهم جيران جفاة من أهل المياه والأعراب !.

فبلغ ذلك الأشعريين فأتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله ذكرت قوما بخير وذكرتنا بشر !! فما بالنا ؟

فقال رسول الله ﷺ مرة أخرى: «ليُعلمن قوم جيرانهم وليعظنهم وليأمرنهم ولينهونهم، وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتعظون ويتفقهون، أو لأعاجلنهم العقوبة فى الدنيا !».

فقالوا: يا رسول الله أنفطن غيرنا ؟ فأعاد عليهم قوله !

فأعادوا قولهم: أنفطن غيرنا ؟

فقال ذلك أيضا !

فقالوا أمهلنا سنة.

فأمهلهم سنة ليعلموهم ويُفقهوهم ويعظوهم.. ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية:

﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ۝ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾ (المائدة: ٧٨ - ٧٩)

ومهلة سنة تكفى لمحو الأمية الكتابية والعقلية والدينية ! وتجعل الجهال أهل فطانة ورشد !.

وأعتقد أن المسلمين فى العصر الحاضر أحوج أهل الأرض إلى هذه النصيحة النبوية فإن تخلفهم الفكرى والخلقى تسود له الوجوه !.

إنهم من الناحية المدنية يأكلون ما يزرعه غيرهم ويلبسون ما ينسجه !.

ومن الناحية الخلقية لا يصونون الأمانات ولا يضبطون الأحاديث ولا يرعون المواثيق !. ولهم مع هذا التخلف المعيب نشاط ملحوظ فى القضايا الغيبية والمجادلات النظرية !.

حتى اضطر «أبو حامد الغزالى» إلى تأليف كتابه «إلجام العوام عن علم الكلام» وحتى اضطر «ابن تيمية» إلى تأليف كتابه «رفع الملام عن الأئمة الأعلام» !.

إن هناك جماهير من المسلمين باعهم شديد القصر فى شئون الحياة وعلوم الإسلام المهمة، ومع ذلك فهم لا يستحيون من جهلهم بإدارة الآلات وطب الأجسام وتربية النفوس وتحصين الثغور ومدافعة الأعداء !.

كيف يخدمون أنفسهم ورسالتهم بهذا التخلف ؟ لا بد من الثقافة والفطانة وارتفاع المستوى فى آفاق الحياة كلها.

العلم أول العبادات

الميزة التى رجحت كفة آدم على الملائكة هى العلم فقد عرف ما فى الحياة من جماد ونبات وحيوان، وعرف آثار قدرة الله فيها أى عرف الكون منسوبا إلى صاحبه لا مقطوعا عنه على عكس الحضارة الحديثة التى تعرف الأشياء ولا تعرف خالقها، ومن تعاجيب الأيام أن المسلمين يعرفون الله ولا يعرفون آياته فى الكون وأن أوروبا وأمريكا تعرفان الكون معرفة حسنة وتجهلان الله جهلا شائنا !.

(١) بمعنى: قصد

ولكي يكون المسلمون على علم حق يجب أن يعلموا سنن الله في كونه، وأن يحسنوا الانتفاع بها في خدمة أنفسهم ونصرة دينهم!.

إن العلم الشامل هو الخاصة التي يذكر بها آدم وبنوه!.

وقد كنت أود من أعماق قلبي أن يكون المسلمون هم الذين اخترعوا المطبعة! فإن كتابهم أول كتاب أقسم بالقلم في السورتين الأوليين منه:

﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾ (العلق: ٣-٥)

و ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ ﴾ (القلم: ١، ٢)

لكن الذى اخترع المطبعة ألمانى

والشائع بين الناس أن «نوبل» هو مخترع البارود وهذا خطأ فالمخترع مسلم وقد عرضه على الظاهر «بيبرس» فانتفع به ضد الصليبيين وعرض على مخترعه - ابن السماك - أن يخترع «الطوربيد» ليقاوم به أساطيل الغزو القادمة من أوروبا ووعد العالم المسلم بصنعه، ولكنه مات قبل الوفاء بوعده!.

إن وظيفة العلم أن يجعلنا نرتفق الكون، وأن يعيننا بما نكتشف من قواه على حماية الحق ورد العدوان قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (الحديد: ٢٥)

فهل وعينا الهدف الغالى وقربناه؟

إن العلم أول العبادات وثمراته هي التي تحقق خير الدنيا والآخرة!

ومن ثم فالمتاجرة به أو إضاعة جدواه من شر الجرائم فعن «علي بن أبي طالب» أنه ذكر فتنا تكون في آخر الزمان فقال له عمر: متى ذلك يا علي؟

فقال: «إذا تُفقه لغير الدين، وتُعلم العلم لغير العمل، والتمست الدنيا بعمل الآخرة».

ومن التماس الدنيا بعمل الآخرة ما رواه جابر عن رسول الله ﷺ: «لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء، ولا تماروا به السفهاء ولا تخيروا به المجالس فمن فعل ذلك فالنار النار»[2].

إن رفع المستوى العلمي للأمة كلها فريضة موزعة على الذكور والإناث ومن أراد الله رفع درجته يسر له المزيد من العلم وفي الحديث «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين»[3].

والفقيه يجتهد في طاعة الله ويجتهد في تفقيه الناس حوله ابتغاء وجه الله!.

وقد يكون تدريس العلم حرفة لبعض الناس، وهذا شيء لا غنى للحياة عنه ولكن على المعلمين ترك الطمع والمغالاة والمكاثرة من متاع الدنيا فقد جاء في حديث ابن عباس مرفوعا «... ورجل آتاه الله علما فبخل به عن عباد الله وأخذ عليه طمعا واشترى به ثمنا، فذلك يلجم يوم القيامة بلجام من نار، وينادي مناد: هذا الذي آتاه الله علما فبخل به عن عباد الله، وأخذ عليه طمعا، واشترى به ثمنا، وكذلك حتى يفرغ الحساب»[4].

ويؤسفنا أن نسمع اليوم عن شجار بين التلامذة ومدرسيهم حول قيمة الدرس ووقته، ونحن لا نبخس حق مدرس، ولا نريد أن يتعرض لهوان، ونرى الأشرف والأتقى لله أن تختفي هذه الضجة وأن يتعاون المسلمون على البر والتقوى.

(٢) رواه ابن ماجة وأحمد بن حنبل.

(٣) متفق عليه.

(٤) رواه أحمد من حديث أبي هريرة بلفظ: «من سئل عن علم فكتمه جاء يوم القيامة ملجما بلجام من نار».

في فقه الاختلاف

أسباب اختلاف الأئمة في القرآن والسنة



للإمام الشيخ / محمود شلتوت

الاختلاف الناشىء من الاشتراك الواقع في تركيب الألفاظ بعضها على بعض:

المثال الأول:

ومن أمثلة الاشتراك الواقع في تركيب الألفاظ بعضها على بعض قوله تعالى:

﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ﴾ [المائدة: ٣٣].

فقد ركب فيها الكلام بكلمة (أو)، وهي تجيء في لسان العرب للتخيير بين شيئين أو أشياء تارة، وتجيء للتنويع والتوزيع، بالنظر إلى حالات مختلفة تارة أخرى.

ومن هنا نشأ اختلاف الفقهاء في هذه العقوبات: هل هي مترتبة على الجنايات التي علم الشارع ترتبها عليها؟ وعليه فلا يقتل من المحاربين إلا من قتل، ولا يقطع منهم إلا من أخذ المال، ولا ينفى إلا من لم يقتل ولم يأخذ المال وإلى هذا الرأي ذهب جمهور العلماء حملا لكلمة (أو) على التنويع والتوزيع.

أو هي ليست مترتبة على الجنايات وإنما سيقت على وجه التخيير؟ فيكون للإمام الخيرة في توقيع أيتها شاء على من شاء، ممن ثبت عنده أنه يحارب الله ورسوله، ويسعى في الأرض بالفساد، سواء أقتل أم لم يقتل، وسواء أخذ المال أم لم يأخذ. وإلى هذا ذهب جماعة آخرون.

وحجة الأولين أن المذكور فى الآية عقوبات متفاوتة: (القتل - الصلب - قطع الأيدى والأرجل - النفى). والجرائم التى يرتكبها المحاربون متفاوتة أيضاً، فمنها القتل، ومنها أخذ المال، أو هما معاً، والتخويف والتهديد دون واحد منهما، وإذا كان الأمر كذلك فإن التخيير يقتضى جواز ترتيب أغلظ العقوبات على أخف الجرائم، وأخفها على أغلظها، وهذه مما تدفعه قواعد الشريعة العادلة، فلابد من مراعاة ما عهد فى الشرع من ترتيب القتل على القتل، والقطع على أخذ المال، والنفى على الإخافة. ونتيجة هذا وذاك وجوب توزيع العقوبات المذكورة على ما يقع من الجرائم بحسب الغلظ والخفة.

وينبغى أن يعلم هنا أن الذى قال بالتخيير للإمام، لم يرد أن الإمام يحكم بمجرد الهوى والشهوة، حتى يقال إن التخيير يقتضى ترتيب أغلظ العقوبات على أخف الجرائم.. إلخ، وإنما يريد أن الحاكم مخير بحكم اجتهاده فى اتخاذ ما يراه دارئا للمفسدة، محققا للمصلحة. وليس المقصود من هذه الآية بيان عقوبات جرائم معينة تقع من الأفراد، وإنما القصد بيان عقوبة المحاربين - عصبة لا أفرادا - وأن الإمام مخير فى توقيع ما يراه، مما يمليه عليه النظر المصلحى. وقد تكون جرائمهم خالية من قتل وأخذ مال، ولكن يري الإمام أن لهم باعتصابهم شرورا ومفاسد فى الأمة، تربو بكثير عن قتل شخص فقط، أو عن قتله وأخذ ماله، وذلك كما فى العصابات المتآمرة على خطف الأولاد والسيدات، وتدبير الثورات الداخلية، التى من شأنها أن تفسد الأمن العام، وتروع الآمنين فى المساكن والطرقات، ولا شك أن هذا التخيير هو أساس صلاحية هذه الآية لأن تكون مصدراً لأعظم تشريع، يضرب به على أيدى العصابات المفسدة.

أما هذا التوزيع الذى ذهب إليه الأولون، فضلا عن أنه ليس له سند يحتمه، فهو تقييد للحاكم بما لم يرد الله أن يقيده به. ومراعاة ما عهد فى الشرع لجرائم الأفراد فى عقوبة المحاربين - ليس فى الشرع ما يدعو إليه. أو يدل عليه. ويرشد إلى هذا أن القطع هنا لليد والرجل معا بخلافه فى جريمة السرقة المعتادة، وأن الصلب هنا بخلافه فى أية جريمة أخرى فردية.

فالحق الذى نراه فى هذه المسألة هو الحمل على التخيير، المبنى على الاجتهاد والمشورة فى تعرف المصلحة، وما يجب أن يسن من قوانين. أما الاختيار بالهوى والشهوة فلا يعرفه الإسلام من الحاكم الإسلامى المنوط به تنفيذ حدود الله وأحكامه.

ولا يهولنك ما تسمع من أفواه المشوهين للإسلام فى عقوباته، فتذكر كما يذكرون:

﴿أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف﴾

[المائدة: ٣٣].

وتقول كما يقولون: عقوبات تنخلع من هولها القلوب. بل عليك أن تستحضر معنى

قوله تعالى: ﴿الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً﴾ [المائدة: ٣٣].

وعندئذ ينفتح لك باب من العلم والحكمة، تؤمن منه بحكمة المشرع الحكيم، ثم تلتفت إلى هؤلاء الذين يقتلون الجماعات والأمم، رجالا، ونساء، وأطفالا، ويذرون الديار بلاقع من غير أشجار ولا بناء، وتقول لهم أين رحمتكم التى لا تظهر إلا لغرض تشويه الجمال، وإلباس الحق بالباطل؟ ولكنه الهوى يملى على صاحبه ما يشاء.

المثال الثانى:

ومن أمثلة الاشتراك الواقع فى التركيب أيضاً، قوله تعالى:

﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون﴾ [النور: ٤].

فقد ركب الكلام فيها بكلمة (إلا) بعد جملتين متعاطفتين، وهما قوله تعالى: ﴿ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً﴾، وقوله ﴿وأولئك هم الفاسقون﴾. ومثل هذا التركيب فى اللغة، يحتمل رجوع الاستثناء فيه إلى الجملة الثانية فقط، ويحتمل رجوعه إلى الجملتين معا.

وبالنظر إلى هذا الاشتراك اختلف العلماء: فذهب الحنفية إلى الأول، ورأوا أن المجلود بالقذف يظل بعد التوبة غير مقبول الشهادة.

وذهب غيرهم إلى الثانى، ورأوا أن التوبة ترد إليه اعتباره فى الدنيا، فتقبل شهادته، كما ترد إليه اعتباره عند الله، فتخرجه من زمرة الفاسقين.

وإنما ذهب الحنفية إلى الأول، لأنهم يرون أن رد شهادة القاذف من تمام الحد لأن الآية رتبت على القذف أمرين: أحدهما إيجابى، هو الجلد المذكور بقوله تعالى: ﴿فاجلدوهم ثمانين جلدة﴾، والآخر سلبى، وهو عدم قبول الشهادة المذكورة بقوله تعالى: ﴿ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً﴾.

أما غيرهم فرأى أن الحد هو خصوص الجلد، وأن رد الشهادة عقوبة زائدة، وحجتهم فى ذلك أن المعروف فى الحدود أنها عقوبات بدنية، ورد الشهادة عقوبة أدبية، ولم تعهد عقوبة أدبية فيما شرعت له الحدود.

وقد اتخذ كل منهما نظرته إلى رد الشهادة أساساً لرأيه فى رجوع الاستثناء، وبهذا وذاك كان الخلاف فى المسألة.

وقد عرض الأصوليون لمسألة (رجوع الاستثناء بعد الجمل المتعاطفة بالواو) وبينوا ما للعلماء فيها من مذاهب، وما لهم على مذاهبهم من حجج، فليرجع إليها من شاء.

وينبغى أن تعلم أن الخلاف فيها إنما هو فى حالة ما إذا تجرد الكلام عن دليل يعين أحد الاحتمالين، كما هو الشأن لكل اختلاف فى مشترك.

أما إذا وجد فى الكلام ما يعين أحد الاحتمالين، فإنه يجب المصير إليه باتفاق،

وذلك مثل قوله تعالى، فى كفارة القتل الخطأ: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا﴾ [النساء: ٩٢]

فإنه قد اشتمل على قرينة تعين أن الاستثناء راجع إلى الجملة الأخيرة فقط، وهذه القرينة هى امتناع عود الاستثناء إلى تحرير الرقبة، لأن تحرير الرقبة حق لله تعالى، وتصدق الولى لا يتعلق به ولا يسقطه.

ومثال ذلك أيضاً الاستثناء الواقع فى آية المحاربين السابقة وهى :

﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ ۖ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣ - ٣٤]

فإنها قد اشتملت على قرينة تفيد رجوع الاستثناء إلى الجمل كلها، وهى قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾ وتمنع رجوعه إلى الأخيرة وحدها وهي قوله تعالى : ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، لأنه من المعلوم أن التوبة من الذنوب تسقط العذاب الأخروى مطلقاً، كانت قبل القدرة عليهم أم بعدها، فلا يبقى على هذا الفرض للتقييد بقبل القدرة فائدة، فوجب رجوع الاستثناء بهذا إلى جميع ما ذكر، فترفع التوبة الحد كما ترفع العذاب والخزى.

المثال الثالث :

ومثال الاشتراك الواقع فى التركيب أيضاً قوله تعالى : ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢٦) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٦ - ٢٢٧].

وينبغى أن تعلم هنا أولا أن الإيلاء هو حلف الرجل على هجر امرأته أربعة أشهر فأكثر، وقد كان عند الجاهلية من أساليب إضرارهم بالزوجة، وكان يمتد عندهم إلى سنتين، تكون المرأة فيهما كالمعلقة، لا متزوجة ولا مطلقة، فعدله الإسلام ورده إلى أربعة أشهر، ورتب عليه حكمه الذى يرفع عن المرأة الضرر بهذه الآية، وقد ركب الكلام فيها بكلمة الفاء وهى للتعقيب، غير أنها تجىء فى لسان العرب للتعقيب الزمنى تارة، فيكون زمن ما بعدها بعد زمن ما قبلها، نحو أراد الصلاة فتوضأ، وتجىء أخرى للتعقيب الذكرى، نحو توضأ فغسل وجهه ويديه، فلا تفيد التأخير من الزمن، وإنما تكون تفصيلا لحالة الفعل فى زمن ما قبلها.

وقد نشأ من هذا الاحتمال اختلاف الفقهاء فى معنى الآية، فمن ذهب إلى الأول رأى أن المعنى : فإن فاءوا بعد انقضاء المدة فإن الله غفور رحيم، وإن عزموا الطلاق أى بعد المدة أيضاً، فإن الله سميع عليم. وبذلك رأوا أن مضى الأجل لا يقع به طلاق، والواجب على الزوج حينئذ أن يطلق، فإن أبى، رفع أمره إلى الحاكم فيجبره على الطلاق أو يوقعه عليه.

ومن ذهب إلى الثانى رأى أن الطلاق يقع

بمضى المدة لأن المعنى : فإن فاءوا فيهن فإن الله غفور رحيم، وإن عزموا الطلاق أيضاً فيهن، وذلك بعدم الفىء إلى مضى المدة فإن الله سميع لحديث نفوسهم بهذا العزم، عليم بما يكتمونه من الإضرار بالمرأة.

وهكذا كان الخلاف فى حكم الإيلاء مترتباً على الخلاف فى تعيين المراد من التعقيب الذى تدل عليه (الفاء).

وقد اعتمد الحنفية الذين ذهبوا إلى الاحتمال الثانى على قراءة ابن مسعود : «فإن فاءوا فيهن»، وقال الكمال من علمائهم : (رجحت قراءةُ ابن مسعود احتمال التعقيب الذكرى . لأن الأصل توافق القراءات ، أو لأنها قراءة آحادية وهى تثبت الحكم وقد قام الدليل على صحة الإثبات بها، إذ ليس من شك فى أنها قرآن عن صاحب الوحى عند الراوى، فإذا امتنعت القرآنية لعدم التواتر، بقى أنها عن صاحب الوحى. ونفى الخاص، وهو أنها قرآن، لا ينفى العام، وهو أنها عن صاحب الوحى، فهى إما قرآن أو حديث. وهذا دوران بين الحجية على وجه، والحجية على وجه آخر، لا بين الحجية وعدمها)، وعلى كل فلكل فريق استدلالات وترجيحات يرجع إليها من شاءها فى كتب التفسير والفقه، وفى هذا القدر كفاية فى المراد هنا.

المثال الرابع :

ومن أمثلته أيضاً، قوله تعالى :

﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾

[النساء: ٢٣](١).

وقد ركب الكلام فيها على صفة بعد موصوفين، فالصفة قوله تعالى : ﴿اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ والموصوفان ﴿نِسَائِكُمْ﴾ المذكورة مع الأمهات ﴿نِسَائِكُمْ﴾ المذكورة مع الربائب، ومثل هذا يحتمل رجوع الصفة إلى الموصوف الثانى فقط، ومن هنا نشأ الاختلاف بين الفقهاء.

فرأى جماعة رجوع الصفة إليهما، وكان المعنى عندهم : حرمة أمهات النساء اللاتى دخلتم بهن، وعليه فلا تحرم الأم إلا بالدخول على البنت، كالبنت لا تحرم إلا بالدخول على الأم.

ورأى آخرون أنها صفة الثانى فقط، فلا تفيد سوى تقييد حرمة البنت بالدخول على الأم، وتبقى حرمة الأم مطلقة حصل دخول ببنتها أو لم يحصل، وإلى هذا ذهب الجمهور، وهو معنى القاعدة المشهورة : (العقد على البنات يحرم الأمهات، والدخول بالأمهات يحرم البنات).

(١) وهى آية المحرمات فى النكاح.

القصة والأمثال فى القرآن الكريم (٩)

الأمثال فى القرآن



أ.د. محمد المختار المهدى
عضو جماعة كبار العلماء

مقدمة:

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على أفضل الكائنات وعلى آله وأصحابه النجوم النيرات.

أما بعد..

فقد طلبت منى إذاعة القرآن الكريم بالقاهرة أن أتناول العبر المستفاة من الأمثال فى القرآن، فاستعنت بالله وسجلت فيها ماصرحت الآيات بأنه مثل، وما يمكن أن يوصف بأنه مثل كامن من أول سورة البقرة إلى سورة القلم، غير أنى لم أكن أسجل الحلقة كتابة واختار المقدم أن تكون على هيئة أسئلة وأجوبة، واستطاع بعض المحبين أن يلتقطوا مما أذيع هذه الحلقات فسارعت إلى إضافتها إلى حلقات القصة لعلها تسهم فى تقديم زاد للدعاة إلى أن يهيىء الله لنا وقتًا نكمل فيه ما نقص من القصة والأمثال وبالله التوفيق والعون.

إصرار المشركين على الضلال والكفر

قال تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾

[الرعد : ٣١].

س: ما معنى هذه الآية؟

●● جـ - فى هذه الآية الكريمة يصور الحق سبحانه وتعالى إصرار المشركين على الضلال والكفر والجحود، وانغلاق منافذ الإدراك لديهم، وتعصبهم لمعتقداتهم الباطلة، ورفضهم للقرآن الكريم مهما ظهر نوره وبدا تأثيره، يصور ذلك بأن هذا القرآن الكريم لو نزل عليهم وبه خصائص المعجزات الحسية بحيث لو قرئ على جبل لتحرك وسار، أو على أرض صلبة لتفتت وتصدعت، أو على الأموات لتكلمت وتحركت .. لو تضمن هذا الوحى تلك المميزات لما آمن به هؤلاء، فقد أعرضوا وتولوا مدبرين، وختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة، ولو شاء لهداهم ولجعل الناس جميعاً أمة واحدة، ولكن الناس لا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم، غير أنه سبحانه وتعالى توعد هؤلاء الكفرة بالقوارع والصواعق تنزل بهم أو تحل قريبًا من ديارهم لعلهم يعقلون ويتذكرون فيؤمنون، وسيظل حالهم على هذا النمط حتى يأتى وعد الله بهلاكهم أو هزيمتهم فى الدنيا أو بفضيحتهم على الملأ فى الآخرة، والله لايخلف الميعاد.

● س: ما وجه تأثر الجبال والموتى بهذا القرآن الكريم لو نزل عليهم؟

●● جـ - إن فى هذا القرآن من الأسرار ما يحيى به الله القلوب الميتة، وينير به البصائر المعتمة، ويجذب به النفوس الشاردة، وحسبنا أنه قد انتزع من أعدائه إقرارهم حين قالوا: إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وإنه يعلو ولا يعلى عليه، وقد عبر المولى سبحانه وتعالى عن مدى تأثيره فوصفه بأنه روح وبأنه نور، فقال سبحانه وتعالى مخاطبًا نبيه:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

[الشورى : ٥٢]

وتعجب من قسوة قلوب أعدائه التى صارت أشد قسوة من الحجارة وأقوى صلابة من الجبال، فهذا القرآن الكريم لو أنزله الله على الجبال لكان لها شأن آخر، قال تعالى:

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر : ٢١]

فإذا كانت الجبال تهتز وتندك لتجليات الله ولوحى الله، فما بال هذا الإنسان الجحود، إن هذا القرآن الكريم نوع من أنواع التجلي الإلهى على قلوب البشر، ولقد أوحى الله إلى موسى عليه السلام حين طلب من ربه أن يراه، وقال له:

﴿لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾

[الأعراف : ١٤٣]

فهذا جبل نعرف عنه صلابة صخوره وتماسك أحجاره حين تجلى له رب العزة تفتت واندك وتفرقت أجزاؤه وانهارت، وهذا إنسان جاحد تنزل عليه آيات ربه بأنوارها وتجلياتها فلا يتأثر ولايخشع، وهذه هى طبيعة الكفر فى كل زمان، فبنو إسرائيل كانوا كذلك وخاطبهم رب العزة بقوله:

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

[البقرة : ٧٤].

● س: كيف يصيب اليأس قلوب المؤمنين مع أن الله تعالى يقول:

﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾

[يوسف: ٨٧]؟

●● جـ - نزل القرآن الكريم على سبعة أحرف اعتد فيها بأشهر لهجات العرب وأورد في كتابه على هذه اللهجات بعض الكلمات المستعملة لدى هذه القبائل، ومنها كلمة اليأس، فقد استعملها بمعنى الإحباط والقنوط في مثل قوله تعالى:

﴿أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي﴾

[العنكبوت: ٢٣]

وقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾

واستعملها هنا على لغة هوازن بمعنى العلم، فالمعنى هنا ليس الإحباط ولكن المراد: أفلم يعلم الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا، وذلك متفق مع قوله سبحانه وتعالى:

﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾

[النحل: ٩].

تحدى المشركين واعجازهم

قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾

[الحج: ٧٣].

● س: هذا المثل موجه للناس جميعاً، ولم يصرح فيه بمن ضرب هذا المثل حيث بنى الفعل للمجهول، فهل هناك سر في هذا التميز من بين الأمثال القرآنية؟

●● جـ - ضلت البشرية قروناً متطاولة عن الطريق الصحيح الذى كان ينبغى أن تمارس فيه فطرتها التى فطرت عليها يوم خلقت من الخضوع للقوة العظمى المهيمنة على هذا الكون، فتصورتها فى الأصنام تارة، وفى النار تارة أخرى، وفى الشمس والكواكب أحياناً، وفى بعض الحيوانات أحياناً أخرى، بل وفى بعض البشر كالملوك والأنبياء والصالحين وفى الجن والشياطين وجاءت الرسل عبر العصور والأجيال لتنبه الخلق إلى الخالق، وتتحدى الآلهة المزعومة بأنها لاتضر ولا تنفع، ولا تملك لنفسها شيئًا مهما تخيل عابدوها أنها تجيب دعاءهم وتوسلاتهم، ومهما أحاطوها بهالة من العظمة والتقديس.

وكان القرآن الكريم أجمع المصادر الإلهية فى حفز العقول للتفكير الصحيح المؤدى إلى معرفة الحقيقة والعودة إلى المسيرة الفطرية حيث إفراد الخالق وحده بالعبادة، فأدار الحوار مع هؤلاء العابدين: من خلق السماوات والأرض؟ من يرزقكم من السماء والأرض؟ من يدبر شئون الكون؟ من تفزعون إليه حين الخطر؟ من يملك السمع والأبصار، والموت والحياة؟ هل ادعى أحد من آلهتكم المزعومة أنه خلق أو رزق أو دبر؟ وإذا كانت الإجابة بالنفى فهل يستوى الخالق مع المخلوق؟ أفمن يخلق كمن لا يخلق؟ من هنا أتى هذا المثل موجهًا إلى الناس جميعًا يناديهم ربهم بأن هناك مثلاً يضرب من كل من له فكر ورأى، ومن كل من له عقل وقلب، فهو حقيقة ماثلة لا تحتاج إلى عبقرية قائليها فأنتم تلمسونها ومطلوب منكم الإجابة عليها بعد الاستماع والتأمل فى مدلولاتها، فتلك الحقيقة تفضح عجز الآلهة وعجز عابديها، هل تملك هذه الأصنام التى تعبدونها من دون الله أن تخلق هذا الطائر الحقير الذى تذبونه عن أنفسكم وتتوقون أذاه؟ وهل إذا اجتمعت كل طاقاتكم لتساعد هذه الأصنام الحجرية أو البشرية فى عملية الخلق تستطيعون أن تخرجوا إلى الحياة ذبابة واحدة تتحرك وتطير؟ إنه التحدى والإعجاز، والأسلوب حاسم فى هذا التحدى حالاً واستقبالاً، ذلك أنه يستخدم نفى المستقبل بقوله: ﴿لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا﴾ وهو واثق أنه لا الجيل المخاطب ولا من سيخلفهم إلى يوم القيامة بإمكانهم أن يخلقوا ذبابة ولو اجتمع الإنس والجن على ذلك فما عند الذبابة من سر الحياة هو ما عند هذا الإنسان، وسر الحياة ليس فى مقدور البشر ولا فى مقدور الأصنام.

● س: لم يكتف القرآن الكريم فى هذا المثل بنسبة العجز للأصنام عن الخلق والتكوين، ولكنه تدلى إلى ما هو أدنى من الخلق تحقيرًا لشأن هذه الآلهة فكيف عبر عن هذا العجز؟

●● جـ - فى أسلوب ساخر مستهزئ بتلك الآلهة يصور القرآن الكريم مدى هوانهم وذلهم أمام هذا الطائر الضعيف فى جسمه القوى فى إمكانياته حين يستلب من هذه المعبودات شيئًا ويسرع بالطيران والهرب، وهل يمكن لهذه الآلهة أن تسترد ما أخذه الذباب؟ هل يمكن أن تتحرك وتتابع سير الذباب وتمسك به وتستنقذ منه ما سلب؟ إنه مع ضعف هذا الطائر فى حجمه يبدو ضعف الآلهة المصطنعة ومن يعبدونها أمامه أظهر وأوضح، وصدق الله العظيم:

﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾

أو مع هذا العجز الشائن المهين يمكن أن يوازن عقل سليم بين هذه الآلهة والقادر المقتدر الخالق الوهاب الذى يعلم السر وأخفى ويمنح الحياة متى شاء لمن شاء ويسلبها عمن يشاء متى يشاء، إن الخلق لم يقدروا الخالق جل علاه حينما سووا بينه وبين هذه المخلوقات فأشركوا به ما لم ينزل به سلطاناً، ولم يتصوروا القوة العظمى التى انفرد بها الخلاق العظيم:

﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ (الحج: ٧٤).

● س: نداء الله للناس يقتضى شمول هذا المثل لكل ما عبد من دون الله، فلماذا ركزت فى شرحك على الأصنام؟

●● جـ - أسلوب المثل فعلاً يعم كل ما عبد من دون الله سواء كان بشرًا أو كان حجرًا أم حيوانًا أم جنًا، فإن العجز عن الخلق يشمل كل الخلق كما شمل كل العصور والأجيال، غير أن القرآن الكريم حين نزل به الروح الأمين وبه هذا المثل كان عامة العرب يعبدون الأصنام، فانطبق المثل عليهم أولا لكنه موجه أيضًا لكل البشر ولكل من عبد من دون الله، فليس هناك من يستطيع بث الروح فى الجسد، ولقد خدع بعض الجهلة حين توصل العلم الحديث إلى تربية الجنين ورعايته فى الأنابيب، ونتج عن ذلك أطفال الأنابيب، وغفلوا عن أن الإعجاز ليس فى التربية ولكن فى هذه النطفة التى يتخلق منها الجنين كما قال سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ (الواقعة: ٥٨، ٥٩)

وانخدع البعض فى عملية استنساخ النتاج ومحاولة استنساخ البشر، لكن حتى لو نجحوا فى ذلك فهم غافلون أيضًا عن أن الإعجاز فى خلق

الأصل الذى يستنسخون منه، إن العجز الذى يشعر به البشر إزاء عملية الخلق يستوى فيه جيل العصر الحجرى مع جيل العصر النووى، كما يستوى فيه العابدون والمعبودون، والعالمون والجاهلون فذاك فوق طوق كل المخلوقات، وسبحان من تفرد بالخلق والقهر والإحياء والإماتة، وتعالى عما يقول الكافرون علوًا كبيرًا.

نور الله عز وجل والهداية إليه

قال تعالى:

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

(النور: ٣٥).

● س: الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء، ومن أسمائه النور فكيف نفهم تمثيل نوره بمشكاة ومصباح؟

●● جـ - تبارك الله رب العالمين، نعمه لا تحصى، وآلاؤه لا تستقصى ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ (النحل: ١٨)

ومن نعمه سبحانه وتعالى أن جعل الشمس ضياء والقمر نورًا وقدره منازل وامتن علينا سبحانه وتعالى بهذا النور حين قال:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ (القصص: ٧١)

والحقيقة أنه لا يمكن أن تتصور الحياة بلا نور، كما لا يمكن أن تتصور النور إلا من الله فهو المتحكم فى الكواكب ومساراتها وخصائصها، فهو إذن منور السماوات والأرض بكل وسائل الإنارة الحسية، وهو أيضًا مصدر النور المعنوى وحيًا متتابعًا مع رسله وأنبيائه، وكتابًا جامعًا معجزًا مع خاتم الرسل وسيد الأنبياء، وبذلك يتضح أنه سبحانه وتعالى منبع النور بنوعيه وهو حين ضرب هذا المثل كان المقصود منه بيان أثر النور المعنوى فى قلوب المؤمنين.

س: وما تفاصيل هذا المثل؟

●● جـ - يضرب الله المثل لنور الإيمان الذى يصنعه الوحى الصادر من الله فى قلب المؤمن بمصباح يضيء فى زجاجة، وهذه الزجاجة ناصعة البياض ينعكس نور المصباح فيها فتتحول إلى كوكب من الدر يستمد ضوءه من شجرة مباركة زيتونة تشرق عليها الشمس من كل الجهات فتخرج زيتها صافيًا رائقًا يوشك أن يضيء بنفسه قبل أن تمسه النار، ثم إن هذه الزجاجة بمصباحها ليست معرضة لتفرق أشعتها يمنة ويسرة، ولكنها موضوعة فى مشكاة، وهذه المشكاة مكان مغلق من جوانبه الثلاثة لايظهر منه إلا جانب واحد وهى ما يسميها الناس بالكوة تتركز فيها أضواء المصباح، وتتوجه إلى هذا الجانب المفتوح فينطلق شعاعها لامعًا براقًا، ونرى فى هذا المثل وجه الشبه فى جانب المشبه به نورًا ينطلق من المصباح، ونورًا ينطلق من الزجاجة، ونورًا ينطلق من الزيت فهو نور على نور، كما نرى فى جانب المشبه وهو قلب المؤمن حيث يأتيه نور الإيمان من عدة مصادر: من فطرته النقية التى فطر الله الناس عليها، ومن الوحى الذى يتلوه ويتدبره، ومن تأسيه بسلوك نبيه الذى عبر

عنه القرآن الكريم بأنه سراج منير وبأنه نور كاشف حين قال:

﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ۝ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (المائدة: ١٥، ١٦)

وإذا كان القرآن الكريم هنا يعطف الكتاب على نور سيد المرسلين، فإنه فى مواضع أخرى يتحدث عن القرآن الكريم بأنه نور حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾

(الشورى: ٥٢)

وهكذا يتحقق وصف القرآن الكريم لنور الله بأنه:

﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

● س: يلاحظ فى سياق هذا المثل أنه جعل المشكاة التى تحوى الزجاجة المضيئة فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه، فما دلالة هذا التحديد؟

●● جـ - إنها دلالة رائعة ذلك أن النور الذى ينبثق فى قلب المؤمن بتلاوته كتاب ربه إنما يتجلى ويتدفق فى بيوت الله حيث السكينة والبركة مصداقًا لقول رسول الله ﷺ: «وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده»[1]، ويؤكد هذا أن النص القرآنى حين وصف هذه البيوت حدد مهمتها بأنها أقدس وأرفع مكان وأسماها على ظهر الأرض حيث يذكر فيها اسم الله ويسبح له فيها:

﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾

(النور: ٣٧)

وهى إشارة واضحة لكل مؤمن يريد أن يتمتع بنور الإيمان فى قلبه أن يعتاد المسجد وأن يديم فيه الذكر والتسبيح وألا تلهيه مشاغل الحياة عن ذكر الله وعن الصلاة، وألا يصرفه الطمع والجشع عن إيتاء الزكاة والخوف من لقاء الله.

وبهذا يبلغ هذا المثل من البلاغة والدقة والروعة والإعجاز مستوى يتعالى على كل أساليب البشر حيث أشار فى وضوح وجلاء إلى عدة حقائق إيمانية وإلى عدة صور واقعية وربط بينهما بما يجلو الصدأ عن النفوس الغافلة والقلوب المتحجرة والعقول الجامدة وعلى من يريد أن ينغمس فى نور الله وأن يدرك لذة هذا النور ومتعته أن يقترب من ساحته بما أرشده إليه هذا المثل من تلاوة كتاب الله فى بيت من بيوت الله ومن ذكر لله دائم ومتصل يرطب به لسانه وينطق به قلبه، ومن تسبيح لله وصلاة خاشعة يستشعر فيها عظمة الله ويستمطر بها رضاه فإنه حين يفعل ذلك سيجد النور فى قلبه كما صوره هذا المثل فى الواقع المحس مصباحا فى زجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء.

(١) أخرجه مسلم - كتاب الذكر والدعاء والتوبة - باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر - حديث رقم ٧٠٢٨.

قصص الأنبياء

موقفان لداود

الشيخ عبد الوهاب النجار

(الأول): لا يختص بداود وحده بل يشترك معه ابنه سليمان عليهما الصلاة والسلام.

قال المفسرون: إن حرثاً - أي زرعا أو كرما - تدلت عناقيده نفشت فيه غنم لغير أهله -أكلته ليلا - فجاء المتحاكمون إلى داود وعنده سليمان فحكم داود بالغنم لصاحب الحرث عوضا عن حرثه الذى أتلفه الغنم برعيها إياه ليلا فقال سليمان - وهو ابن إحدى عشرة سنة - غير هذا أرفق. فأمر بدفع الغنم إلى أهل الحرث فينتفعون بألبانها وأولادها وأشعارها. والحرث إلى أهل الغنم يقومون عليه حتى يعود إلى ما كان ثم يترادان.

قال البيضاوي (والأول) نظير قول أبي حنيفة في العبد الجاني.

(والثاني) مثل قول الشافعي بغرم الحيلولة للعبد المغصوب إذا أبق. وحكمه في شرعنا عند الشافعي: وجوب ضمان المتلف بالليل، إذ المعتاد ضبط الدواب ليلا. وكذلك قضى النبي ﷺ لما دخلت ناقة البراء حائطا وأفسدته، فقال: «على أهل الأموال حفظها بالنهار، وعلى أهل الدواب حفظها بالليل» وعند أبي حنيفة: لا ضمان إلا أن يكون معها حافظ.

(الثاني): قالوا أن داود جزأ أزمانه يوما للعبادة ويوما للقضاء ويوما للوعظ ويوما لخاصة نفسه، فتسور عليه ملائكة في صورة الناس في يوم الخلوة والاحتجاب - والحرس على الباب لا يتركون من يدخل عليه. - ففزع منهم فقالوا له لا تخف نحن فوجان متخاصمان

﴿بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾

تجر في الحكم ﴿وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ وهو العدل ﴿إِنَّ هَٰذَا أَخِي﴾ في الدين والصحبة

﴿لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ﴾

وهي الأنثى من الضأن وقد يكنى به عن المرأة ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾ أي ملكنيها ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ أي غلبني في الحجة أو في خطبة المرأة. فأجاب داود قائلا:

﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ﴾

منكرا فعل خليطه ومهجنا طمعه

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾

أي قليل وجودهم وكأنه يتعجب لقلتهم ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ ابتليناه بالذنب وامتحناه بتلك الحكومة لينتبه

﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾

إلى الله بالتوبة. ولعل داود رأي أنه أسرع بالحكم قبل سؤال المدعي عليه، وعلم أنه تجاوز الحق بذلك

﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾

وهو أحد الآراء التي تحمل عليها الآية وهو حسن.

قال البيضاوي: وأقصى ما في هذه القصة الإشعار بأنه عليه السلام ود أن يكون له ما لغيره، وكان له أمثاله فنبهه الله بهذه القصة، واستغفر وأناب. وما روي أن بصره وقع على امرأة فعشقها وسعى حتى تزوجها وولدت منه سليمان - إن صح - فلعله خطب مخطوبته أو استنزله عن زوجته وكان ذلك معتادا فيما بينهم، وقد واسى الأنصار المهاجرين بمثل هذا. وما قيل أنه أرسل «أوريا» مرارا إلى الحرب وأمر أن يتقدم حتى قتل فتزوجها، هزء وافتراء. ولذلك قال علي رضي الله عنه من حدث بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين.

أقول إن المائة والستين حد قذف. وكأنه رضي الله عنه أراد أن يحده حد القذف، والثاني تغليظ لأن المقذوف نبي أما مواساة الأنصار للمهاجرين بنحو هذا، فمبلغ علمي أن سعد ابن الربيع عرض على عبد الرحمن بن عوف أن يطلق إحدى زوجتيه ليتزوجها عبد الرحمن فأبى. وحاصل ما يفهم من هذه القصة أن داود عليه السلام كان يرى بعض الأشياء عند غيره فيستحسنها، وتقع من نفسه موقعا، ويتمنى لو كانت له. وهذا الأشياء أعم من أن تكون امرأة أو سواها. وهو لا يريد بذلك أن يكون له الشيء إلا من وجه حل طبعا. فأراد الله تعالى أن ينبهه على القناعة بما عنده من أمثال ما يستحسن مما أنعم الله به عليه، فأرسل الملكين بهيئة متخاصمين، فلما أفتاهما وتحقق بعد ذلك أنهما ملكان ظن أن الله تعالى ابتلاه وأنهما معاتبان في الواقع. وليسا بخصمين، فاستغفر الله تعالى وأناب إليه، وأولى منه أن يكون ندم على الحكم قبل سؤال المدعى عليه- كما قدمنا - هذا هو ما ينبغي المصير إليه وهو اللائق بمقام داود الذي يقول الله تعالى فيه:-

﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾

(ص: ٣٠)

ويقول فيه أيضاً:

﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾

(ص: ٢٥)

ويقول أيضاً:

﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾

(ص: ٢٠)

وبعيد من الحكمة أن يكون الحكيم فاسقا قاتلا من غير حق ولا برهان.

بقي أن القول الذي نقلناه عن البيضاوي وفرض صحته، وهو احتمال أنه خطب على خطبة رجل آخر أو طلب إليه أن ينزل له عن زوجته، وأن ذلك كان سائغاً عندهم، إنما هو

قول تلطف به المسلمون، وأما أهل الكتاب فإنهم يقولون: إن داود نظر وهو يمشي على سطح داره إلى امرأة تستحم فأعجبته وأغرم بها، وأتى بها واضطجع معها فحملت منه وأعلمته، وكان زوجها «أوريا الحثي» في الحرب فأتى به ليسأله عن أمر الحرب في الظاهر، وليحدث الرجل بامرأته عهداً حتى لا يرتاب بأمرها إذ علم فيما بعد أنها حامل، ولكن الرجل كان تقيا جدا، فبات بباب داود ولم يزر امرأته. لأنه رأى من عدم التقوى أن يتمتع بزوجه وإخوانه في الحرب بعيدون عن أزواجهم. فلما علم داود بأمره لم ير وسيلة لعدم افتضاح أمره إلا تعريض أوريا لجبهة القتال حاملا الراية، وأن يتأخر عنه الجند بعد التقدم، وبهذه الوسيلة قتل الرجل، وأتت امرأته بولد من تلك الزنية! وتزوجها داود، ثم مرض الولد فحزن داود لمرضه حزنا شديدا حتى لا يقدر أحد على تسرية همه. ثم مات الولد، ومن هذه المرأة كان سليمان، وكل هذا منهم كذب وافتراء! وأني أرد كذبهم بالشهادات الحسنة التي شهدت بها كتبهم لداود.

ففي سفر صموئيل الثاني في الأصحاح الثاني والعشرين يقول داود «يكافئني الرب حسب بري حسب طهارة يدي يرد عليّ لأني حفظت طرق الرب ولم أعص إلهي، لأن جميع أحكامه أمامي فرائضه لا أحيد عنها».

وهذا السفر يقرون أنه كتب بالهام، وهو واجب التسليم وكل ما فيه صدق عندهم، ومحال أن يكون الزنا من البر واتباع وصايا الله والمحافظة على شريعته.

وفي الإصحاح الثالث من الملوك الأول «فقال سليمان: إنك قد فعلت مع عبدك داود أبي رحمة عظيمة حسبما سار أمامك بأمانة وبر واستقامة قلب معك، فحفظت له هذه الرحمة العظيمة وأعطيته ابنًا يجلس على كرسيه كهذا اليوم» فهل من البر والاستقامة أن يكون زانياً قاتلاً؟

وفي الإصحاح السادس من أخبار الأيام الثاني قول الله لداود «إن يكن بنوك طرقهم يحفظون حتى يسيروا في شريعتي كما سرت أنت أمامي» فهل يريد الله لأبناء داود الذين يقويهم ويملكهم أن يكونوا كداود زناة قتلة؟ وهل هذا الوصف مما يكافئ الله عليه بحفظهم وتشديد ملكهم؟ ويكون ذلك حفظا للشريعة؟

وفي سفر الملوك الأول قول الله ليربعام بن ناباط عن سليمان إصحاح ١١ (٣٤) ولا آخذ المملكة من يده لأجل داود عبدي الذي اخترته الذي حفظ وصاياي وفرائض (٣٨) فإذا سمعت لكل ما أوصيك به وسلكت في طرقي وفعلت ما هو مستقيم في عيني وحفظت فرائضي ووصاياي كما فعل داود عبدي أكون معك وأبني لك بيتا آمنا كما بنيت لداود وأعطيك إسرائيل.

وكانت مدة ملك داود أربعين سنة. منها سبعة أعوام وهو ملك في (حبرون) لسبط يهوذا وحده، ولإسرائيل كلهم: ثلاث وثلاثون سنة ملكا لجميع اليهود في صهيون، وجعل ابنه سليمان ولي عهده قبل أن يموت ومات وهو شيخ كبير جداً.

اقرءوا هذه الآيات:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٤٨) فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾

(البقرة: ٢٤٦ - ٢٥١)

الزبور

ذكر الزبور في الآيتين الآتيتين من القرآن الكريم:

سورة النساء:

﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾

(النساء: ١٣٦)

سورة الإسراء:

﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾

(الإسراء: ٥٥).

هبة سليمان لداود

سورة ص:

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ ۚ نِعْمَ الْعَبْدُ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾

(ص: ٣٠).

حكمة داود

تسبيح الجبال والطير معه واشتغاله بعمل الدروع:

سورة الأنبياء:

﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۚ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩) وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾

(الأنبياء: ٧٨-٨٠).

سورة سبأ :

﴿ ۞ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

(سبأ: ١٠، ١١).

سورة ص:

﴿ اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾

(ص: ١٧-٢٠).

سورة النمل:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾

(النمل: ١٥، ١٦).

ما يتعلق بالفتنة من القرآن

سورة ص:

﴿ ۞ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٢٥﴾ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾

(ص: ٢١-٢٦).

مكان العبرة من قصص داود

• أولا : إن داود عليه السلام اختاره الله تعالى ليفعل العجائب بيده، ولم يكن من أهل تلك الأفعال لأنه كان غلاماً راعياً للغنم. فقتل الله تعالى بيده جالوت الجبار التي تحامته الأبطال، ولم يقاتله بسيف ولا رمح، ولم ينزل إليه بدرع ولا ترس، وإنما قتله بحجر أرسله من المقلاع فكان ذلك أدل على قهر الله تعالى للجبابرة بأحقر الأشياء على يد أضعف العباد.

• ثانيا : إن الشخص الضعيف لا ينبغي له أن ييأس من النجاح وإحراز أسباب الفلاح ما دام معتصماً بأسباب التقوى والشكر لنعم الله تعالى.

• ثالثاً : إن انتصار داود على جالوت لم يغير من طباع داود ولم يذهب به مذهب أهل الكبرياء، بل لم يزده هذا الأمر إلا تواضعاً، وكان الله يرفعه درجات كلما تواضع وشكر.

رابعاً : إن طاعة الله وشكر نعمه مما يوجب المزيد منها، فإن الله تعالى لما رأى طاعة داود وشكره زاده من نعمه؛ فألان له الحديد وعلمه صنع الدروع المسرودة لتحصن الناس من البأس، وأنعم عليه بولده سليمان الذي ورثه ملكه وعلمه وحكمته.

فتاوى الحاخامات

وضع الأغيار

د. منصور عبد الوهاب

ما وضع الأغيار في التوراة، وهل إذا درس أحد الأغيار التوارة يمكنه أن يغير وضعه، وما هو وضع شخص حكيم من الأغيار يدرس التوارة؟

• جواب:

إذا كنت تقصد بكلمة «التوارة» - الشريعة الشفوية، أي الاستدلالات كما وردت في الشريعة (التي تلزم الجمهور الأرثوذكسي)، فإن وضع الأغيار يعد الأكثر تدنيا حسبما ذكر الحاخام دافيد بر حاييم في مقاله «الأغيار في الشريعة اليهودية».

وحتى التوارة المكتوبة التي لا تسمح بحرية الدين والعقيدة، تأمر بقتل الأغيار.

لا تصنع لك تمثالا منحوتًا ولا صورة ما مما في السماء من فوق وما في الأرض من تحت وما في الماء من تحت الأرض، لا تسجد لهن ولا تعبدهن، لأني أنا الرب إلهك إله غيور أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من مبغضي. (خروج ٢٠ / ٤-٥).

وحتى الأغيار الذين لا يعبدون الأوثان لابد من التمييز ضدهم ويجوز إقراضهم بالربا «للأجنبي تقرض بربا» (١٥١).

وإذا كان أحد الأغيار يدرس التوارة فقد ورد في الشريعة اليهودية: «من يدرس التوارة من الأغيار يجب أن يقتل.. وكذلك من يحافظ على السبت من الأغيار يجب أن يقتل» (الحاخام موشيه بن ميمون: هلاخوت ملاخيم [تشريعات الملوك] ١٠ / ٩)، وقد ذكرنا هذا التشريع في مقال «الشعب اليهودي هو الشعب المختار».

بنو إسرائيل في الكتاب والسنة



أ.د. محمد سيد طنطاوي

استهزاؤهم بالدين وشعائره

من مسالك اليهود - أيضا - لكيد الدعوة الإسلامية، اتباعهم طريق الاستهزاء بالإسلام، والتهكم بشعائره وعباداته، وقد فضح القرآن الكريم مسلكهم هذا، ونهى المؤمنين عن موالاتهم ومصافاتهم، فقال تعالى في سورة المائدة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٥٧) وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾

(الآيتان ٥٧، ٥٨)

والمعنى: يا من آمنتم بالله حق الإيمان، وصدقتم بكتبه، ورسله، واليوم الآخر، لا يجوز لكم - بحال من الأحوال - أن تُوادوا الذين اتخذوا دينكم - الذى هو مناط سعادتكم - هزوا ولعبا، أى: جعلوه مادة للسخرية والعبث، والاستخفاف، ومن مظاهر ذلك إظهارهم الإسلام أمامكم:

﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾.

(البقرة: ١٤)

وفى نداء المؤمنين بوصف الإيمان، إثارة للحمية فى قلوبهم، من أجل دينهم وعبادتهم، التى اتخذها أعداؤهم مثار سخرية واستهزاء، لأنه لا يليق بمؤمن أن يوالى من يعبث بدينه.

ثم بين القرآن الكريم ألوان المستهزئين بالدين، المتلاعبين بشعائره، فقال تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ﴾ أى: لا تتخذوا اليهود والنصارى والمشركين أعوانًا ونصراء، لأنهم جميعًا متفقون على محاربتكم، والاستخفاف بدينكم.

وفى وصفهم بأنهم ﴿أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ بيان لكمال شناعتهم، وغاية ضلالهم، لأنهم لو كانوا مؤمنين حقًا بكتابهم، لما اتخذوا دين الله هزوًا ولعبًا.

ثم أمر الله تعالى المؤمنين بالمواظبة على طاعته، وبامتثال أوامره، فقال تعالى:

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

حقا، فإن قضية الإيمان توجب الاتقاء لا محالة.

ثم بين الله تعالى استهزاء اليهود ومن على شاكلتهم بشعيرة خاصة من شعائر الدين، بعد أن صرح في الآية الأولى باستهزائهم بالدين على الإطلاق فقال تعالى:

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

أى: إذا دعا بعضكم بعضا إلى الصلاة، وأذن المؤذن بحضور وقتها سخر من دعوتكم إليها، وتضاحك من الإعلام بها من نهيتهم عن ولايتهم من اليهود وغيرهم، لأنهم قوم يجهلون حقيقة الأديان، وما قدروا الله حق قدره، ولا عرفوه حق معرفته.

قال الإمام القرطبي: «كان إذا أذن المؤذن، وقام المسلمون إلى الصلاة، قال اليهود: قاموا لا قاموا، وكانوا يضحكون إذا ركع المسلمون وسجدوا، وقالوا في حق الأذان: لقد ابتدعت يا محمد شيئا لم نسمع به فيما مضى من الأمم، فمن أين لك صياح مثل صياح العير؟ فما أقبحه من صوت، وما أسمجه من أمر: وقيل إنهم كانوا إذا أذن المؤذن للصلاة تضاحكوا فيما بينهم، وتغامزوا على طريق السخف والمجون؛ تجهيلا لأهلها، وتنفيرا للناس عنها وعن الداعي إليها»[1].

ونفى سبحانه العقل عنهم؛ لأنهم لم ينتفعوا به، واتخذوا دين الله هزوا ولعبا، وهذا فعل من لا عقل عنده.

محاولتهم قتل الرسول ﷺ

لم يكتف اليهود بحروب الجدل، التى حاربوا بها النبى ﷺ ولا بحروب الدس والوقيعة، ومحاولة إثارة الفتنة بين أصحابه، ولا بإظهارهم الإسلام فى أول النهار وكفرهم فى آخره، ولا بتحالفهم مع كل مبغض للإسلام والمسلمين، ولا باستهزائهم بالدين وشعائره، لم يكتفوا بكل ذلك من أجل القضاء على الدعوة الإسلامية، وإنما لجأوا إلى وسيلة أخرى، سولتها لهم أنفسهم الغادرة، وعقولهم الحاقدة .. وهذه الوسيلة هى محاولتهم قتل النبى ﷺ.

ولقد ذكر القرآن الكريم المؤمنين بنعم الله - تعالى - عليهم، وكيف أنه - سبحانه - نجى نبيهم محمدا ﷺ من مكر اليهود وأذاهم، فقال تعالى فى سورة المائدة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾

(المائدة: ١١)

أخرج ابن جرير - فى سبب نزول هذه الآية - عن ابن أبى زياد قال: جاء رسول الله ﷺ بنى النضير يستعينهم فى عقل[2] أصابه، ومعه «أبو بكر وعمر وعلى» فقال: أعينونى فى عقل أصابنى، فقالوا: نعم يا أبا القاسم، قد آن لك أن تأتينا وتسألنا حاجة، اجلس حتى نطعمك ونعطيك، الذى تسألنا، فجلس رسول الله ﷺ وأصحابه ينتظرونه وجاء «حُيَيّ بن أخطب» - وهو رأس القوم، وهو الذى قال لرسول الله ﷺ ما قال - فقال

(١) تفسير القرطبي جـ٦ ص ٢٢٤ طبعة دار الكتب.
(٢) أى: في دم أصابه أصحابه وتكفل الرسول ﷺ بدفع ديته.

حتى لأصحابه: لا ترونه أقرب منه الآن، اطرحوا عليه حجارة فاقتلوه، ولا ترون شرا أبدا، فجاءوا إلى رحى لهم عظيمة ليطرحوها عليه، فأمسك الله عنها أيديهم؛ حتى جاءه جبريل - عليه السلام - فأقامه من ثم فأنزل الله - تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾

فأخبر الله - عز وجل - نبيه ﷺ ما أرادوا به[3].

وقال الإمام ابن كثير: وذكر محمد بن إسحاق بن يسار، ومجاهد، وعكرمة، وغير واحد، أن هذه الآية نزلت في شأن بني النضير حين أرادوا أن يلقوا على رأس رسول الله ﷺ الرحى، حين جاءهم يستعينهم في دية العامريين، ووكلوا «عمرو بن جحاش» بذلك، وأمروه، متى جلس النبي ﷺ تحت الجدار، واجتمعوا عنده أن يلقي تلك الرحى من فوقه، فأطلع الله النبي ﷺ على ما تعاهدوا عليه، فرجع إلى المدينة، وتبعه أصحابه، فأنزل الله في ذلك الآية[4].

وهناك روايات أخرى في سبب نزول هذه الآية الكريمة، منها: أنها نزلت في شأن أعرابي أراد أن يقتل النبي ﷺ فنجاه الله - تعالى - منه، ومنها: أنها نزلت بعد أن نجى الله - تعالى - نبيه ﷺ من بني ثعلبة، وبني محارب، حين أرادوا أن يقتلوه، وهو مشتغل بالصلاة ومعه أصحابه.

والذي نراه: أنه لا مانع من أن تكون الآية الكريمة قد نزلت بعد تلك الحوادث مجتمعة، فقد تتعدد الحوادث، والمنزل واحد، كما قال العلماء.

إلا أننا نرجح ما ذهب إليه ابن جرير، من أن حديث القرآن بعد ذلك عن اليهود ونقضهم للعهود، قرينة قوية على أن الآية تذكير للمؤمنين بنعمة إنجاء الله - تعالى - نبيه ﷺ من مكر اليهود وكيدهم.

قال الإمام ابن جرير: بعد أن ذكر آراء العلماء في صفة هذه النعمة، التي ذكر الله بها المؤمنين؛ ليشكروه عليها - «وأولى الأقوال بالصحة في تأويل ذلك، قول من قال: عنى الله بالنعمة التي ذكر في هذه الآية، نعمته على المؤمنين به وبرسوله، التي أنعم بها عليهم، في استنقاذ نبيهم محمد ﷺ مما كانت يهود بني النضير همت به من قتله وقتل من معه، يوم سار إليهم نبي الله ﷺ في الدية، التي كان تحملها عن قتيلي عمرو بن أمية، وإنما قلنا: ذلك أولى بالصحة في تأويل ذلك؛ لأن الله عقب ذكر ذلك برمي اليهود بقبيح أفعالها، وخيانتها ربها وأنبيائها، ثم أمر نبيه ﷺ بالعفو عنهم، والصفح، عقب قوله: ﴿ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ ﴾ ومن غيرهم كان يبسط الأيدي إليهم؟ لأنه لو كان الذين هموا ببسط الأيدي إليهم غيرهم، لكان حريا أن يكون الأمر بالعفو والصفح عنهم، لا عمن لم يجر لهم بذلك ذكر، ولكان الوصف بالخيانة في وصفهم في هذا الموضع لا في وصف من لم يجر لخيانته ذكر، ففي ذلك ما ينبيء عن صحة ما قضينا له بالصحة من التأويلات في ذلك دون ما خالفه[5].

والآية الكريمة قد افتتحت بأمر المؤمنين بأن يذكروا نعمة الله عليهم فقالت: ﴿ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ ﴾ أي: يا من آمنتم بالله ورسوله، اذكروا نعمة الله عليكم، واشكروه عليها، ليزيدكم من إحسانه وإنعامه ودفع المكروه عنكم.

ثم وصف - سبحانه - نعمته التي أمرهم بالشكر عليها مع سائر نعمه فقال تعالى: ﴿ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ﴾ أي: اذكروا نعمة الله عليكم، التي من أكبر مظاهرها، كفه عنكم أيدي اليهود، الذين هموا أن يمدوا أيديهم بالسوء إلى نبيكم، وشارفوا أن ينفذوا مؤامرتهم الخبيثة، ولكن الله - تعالى - أحبط مكرهم، ونجى نبيكم ﷺ من شرورهم.

ثم أمرهم - سبحانه - بتقواه والتوكل عليه، فقال تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي: اتقوا الله - أيها المؤمنون - في رعاية حقوق نعمته، ولا تخلوا بشكرها، فقد أراكم قدرته، وتوكلوا عليه وحده، فقد أراكم عنايته بكم، وعلى الله وحده فليتوكل المؤمنون بربهم، المقرون بوحدانيته، المتبعون لرسوله، العاملون بأمره ونهيه، فإن ذلك من كمال دينهم، وتمام إيمانهم، وإنهم متى فعلوا ذلك كلأهم ورعاهم، وحفظهم ممن أرادهم بسوء:

﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾
(الطلاق: ٣)

وبذلك تكون الآية الكريمة قد ذكرت المؤمنين بنعمة الله عليهم؛ ليزدادوا له شكرا وحمدا، وأشارت إلى ما أراده اليهود من أذى لرسول الله ﷺ فأحبط الله - تعالى - كيدهم، وخيب مسعاهم.

هذا، وليست هذه هي الحادثة الوحيدة التي حاول فيها قتل النبي ﷺ بل هناك غيرها.

فقد أخرج الإمام البخاري، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: «لما فتحت خيبر - واطمأن رسول الله ﷺ بعد فتحها - أهديت إليه شاة فيها سم، فقال رسول الله ﷺ بعد أن لاك مضغه ثم لفظها: «اجمعوا لي من كان ها هنا من اليهود»، فجمعوا له، فقال لهم حين اجتمعوا عنده: «إني سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقي فيه؟»، قالوا: نعم يا أبا القاسم، فقال لهم رسول الله ﷺ: «من أبوكم؟»، قالوا: أبونا فلان قال: «كذبتم أبوكم فلان» - قال الحافظ ابن حجر: أي: إسرائيل يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - (عليه السلام) - قالوا: صدقت وبررت، قال: «فهل إنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟»، قالوا نعم: يا أبا القاسم، وإن كذبنا كما عرفته في أبينا، فقال لهم: من أهل النار؟ قالوا: نكون فيها زمانا يسيرا ثم تخلفوننا فيها، فقال لهم: «اخسئوا فيها»، أي: اسكنوا فيها سكون ذلة وهوان والله لن نخلفكم فيها أبدا، ثم قال لهم: «هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟»، فقالوا نعم، قال: «أجعلتم في هذه الشاة سمًا؟ نسب إليهم الجعل لأنهم لما علموا به لم ينكروه - قالوا: نعم، قال: «فما حملكم على ذلك؟ قالوا: أردنا إن كنت كاذبًا أن نستريح منك، وإن كنت نبيًا لم يضرك»[6].

وبهذا نرى أن اليهود حاولوا قتل الرسول ﷺ أكثر من مرة، ولكن الله - تعالى - عصمه من مكرهم، ونجاه من شرهم،

﴿ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾
(التوبة ٣٢)

(٣) تفسير ابن جرير جـ٦ ص ١٤٦.
(٤) تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٣١.
(٥) تفسير ابن جرير جـ٦ ص ١٤٦.
(٦) فتح الباري للحافظ ابن حجر العسقلاني جـ ص ٣٤٥.

كلمات ربي وآياته في القرآن الكريم



أ.د. أحمد فؤاد باشا
الأستاذ بكلية العلوم - جامعة القاهرة



﴿أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾

الأمة: جماعةٌ أكثرهم من أصل واحد، وتجمعهم صفات موروثة (فطرية)، وهذان عنصران مهمّان في تعريف «النوع» البيولوجي بشكل عام في إطار المجموعات التصنيفية المتسلسلة - هبوطًا - في عالم الأحياء على النحو التالي:

الشعبة، فالطائفة، فالرتبة، فالفصيلة، فالجنس، فالنوع.

وقد وردت المادة بمعنى أمم أمثال الناس مرة واحدة في قوله تعالى:

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ﴾

(سورة الأنعام: ٣٨)

والأرجح أن الإشارة في هذه الآية الكريمة إلى «النوع»، وهو الوحدة الأساسية في تصنيف الأحياء. ويؤيد هذا أن هذه «الأمم» قيست على الناس ﴿أَمۡثَالُكُم﴾، والناس نوع واحد. كما أن الأسلوب في الآية الكريمة يفيد الشمول والعموم المستفادين من: ﴿وَمَا مِن﴾ متبوعة بـ ﴿إِلَّآ﴾، ومن الإفراد والتنكير في ﴿دَآبَّةٍ﴾ و ﴿طَٰٓئِرٍ﴾، وهو ما يفيد الاستغراق في الجنس وتوكيد العموم، كما يقول النحاة. فهي إذن قاعدة جامعة مانعة: كلُّ جماعة ذات أصل واحد من عالم الحيوان هي «نوع» مستقل في سلسلة تصنيف الأحياء.

و«المثلية» في: ﴿أَمۡثَالُكُم﴾ لا تمنع أيضًا أن يكون لكل أمة من هذه «الأمم» سلوك معين ونظام اجتماعي معين، على نحو ما يظهر في مملكتيْ النحل والنمل، لكن هذا لا يتعارض مع ما تفرّد به الإنسان وتميز على سائر مخلوقات الله، وما حظي به من إكرام الله له واستخلافه إياه في الأرض. على أن الإمام القرطبي خرج من إيحاءات هذه الآية الكريمة بحكم شرعي أخلاقي، إذْ يقول: «أي هم جماعات مثلكم في أن الله عز وجل خلقهم، وتكفل بأرزاقهم، وعدل عليهم... فلا ينبغي أن تظلموهم، ولا تجاوزوا فيهم ما أمرتم به». فهذا - فيما يقول الدكتور عبد الحافظ حلمي محمد - أقصى ما تدعو إليه المؤتمرات الدولية التي حضرها أقطاب العالم للتواصي برعاية «التنوع البيولوجي» والحفاظ عليه.

أما كلمة ﴿دَآبَّةٍ﴾ الواردة في الآية الكريمة، وجمعها «دواب»، فقد تكررت في القرآن الكريم ١٨ مرة. ويمكن أن تطلق على عموم كل حيوان يتحرك، وهكذا تدخل فيها كل صنوف الحيوان، وقد وهبها الله جميعًا أعضاء متخصصة للحركة، وذكرها في القرآن الكريم يتفق ومقاصده في الهداية والإيمان من خلال دعوته إلى تأمل ما في خلقتها وأشكالها وصفاتها وأحوالها وانتقالها ومنافعها ومضارها، ففي ذلك «آيات» على خلقه وإبداعه، وقدرته وحكمته، وتدبيره ورحمته، مما يوجب إفراده بالعبادة والشكر: (سورة البقرة: ١٦٤)؛ (سورة لقمان: ١٠)؛ (سورة فاطر: ٢٨)؛ (سورة الشورى: ٢٩)؛ (سورة الجاثية: ٤).

قال تعالى:

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾

(سورة النور: ٤٥).

تشير هذه الآية الكريمة إلى أن هناك تنوعًا واضحًا فيما يتعلق بحركة الدواب التي تشمل كل ما يدب على الأرض من مخلوقات، ابتداء من النملة الصغيرة إلى أضخم الكائنات التي تعيش في عصرنا هذا، أو التي كانت تعيش فيما مضى من الزمن. والمعروف أن الحركة هي إحدى مميزات تلك المخلوقات الحية، فهي لا تبقى ساكنة في مكانها كما تفعل النباتات التي تمتد جذورها في باطن الأرض بل هي في حركة مستمرة بحثًا عن الغذاء أو الماء اللازمين لبقائها على قيد الحياة، أو هربًا من كائنات أخرى تتربص بها وتحاول افتراسها، لتتخذ من لحومها طعامًا لها، أو للبحث عن مناطق جديدة تصلح لسكناها، وتكون أكثر ملاءمة لحياتها، من حيث الضوء أو الحرارة أو الرطوبة أو غيرها من العوامل الطبيعية، أو للبحث عن الشق الآخر حتى لا تتوقف عمليات التكاثر وإنتاج أنسال جديدة، مما يحقق بقاء تلك الأنواع على سطح الأرض.

وقد حددت الآية الكريمة ثلاثة أنماط رئيسية تمارسها الدواب عند تحركها من مكان إلى مكان على سطح الأرض، وهذا في حد ذاته يعتبر تصنيفًا علميًا لعالم الدواب على أساس حركتها.

أما النمط الأول فيشمل من الدواب ﴿مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ﴾. وعند استعراض مثل هذه الدواب، فإن أول ما يتبادر إلى الذهن أنها عديمة الأرجل، أو أن أرجلها ضعيفة لا تقوى

على حمل أجسامها بعيدًا عن سطح الأرض.

والواقع أن طائفة الزواحف أو الحيوانات الزاحفة هي خير ما تتمثل فيها تلك الصفات، فالبعض منها كالحيات والأفاعي والثعابين ليست لها أرجل على الإطلاق، ومع ذلك فهي قادرة تمامًا على الحركة السريعة والانتقال المباشر من مكان إلى مكان بفضل عضلاتها البطنية القوية والضلوع الكثيرة التي تمتد من كل فقرات الجسم ماعدا الذنب. وتقوم تلك العضلات بتحريك الضلوع، فتصبح وكأنها أرجل داخلية تدفع الجسم إلى الأمام بسرعة لا يستهان بها على الإطلاق.

والبعض الآخر من الزواحف مزوّد بزوجين من الأرجل كما هي الحال في الفقاريات «رباعيات الأرجل»، وهي المجموعة التصنيفية التي تنتمي إليها كل الزواحف. ولكن القاعدة العامة في أرجل هذه الزواحف أنها أرجل ضعيفة لا تستطيع في كثير من الحالات حمل الجسم بعيدًا عن سطح الأرض، ولذلك فهي تمشي عادة وبطونها ملامسة لهذا السطح. وهذا هو السبب الرئيسي في تسميتها بالزواحف، والواقع أن هذه التسمية العربية مطابقة تمامًا لمعنى المصطلح الأجنبي المقابل لها Reptillia وقد اشتق من الكلمة اللاتينية Repto ومعناها «يزحف».

ومن أمثلة الزواحف ذات الأرجل الأربعة العظاءات (السحالي) على اختلاف أنواعها والسلاحف الأرضية. أما السلاحف المائية فقد تحورت أرجلها الأربعة إلى «مجاديف» تسبح بها سباحة سريعة في الأوساط المائية، ولكنها عندما تصعد إلى سطح الأرض في موسم التكاثر تكون حالها كحال السلاحف الأرضية من حيث الحركة البطيئة وملامسة بطنها لسطح الأرض، وتكون عندئذ مشابهة تمامًا للزواحف الأرضية النموذجية.

وأما النمط الثاني فيشمل من الدواب ﴿مَن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾. والإنسان هو أهم وأشهر تلك المخلوقات على الإطلاق. ويرى علماء الأحياء أن الطيور على اختلاف أنواعها - الطائرة منها والجارية - هي مجموعة تنتمي إلى الفقاريات «رباعية الأرجل»، ولكن الرجلين الأماميتين فيها تحورتا إلى جناحين تطير بهما في أجواء الفضاء، وبقيت الرجلان الخلفيتان على صورتهما الأصلية لاستخدامهما في عملية المشي على سطح الأرض.

وأما النمط الثالث الذي أشارت إليه الآية القرآنية الكريمة فيشمل من الدواب ﴿مَن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ﴾، وهو الأكثر انتشارًا، لأن كثيرًا من هذه الدواب قد استؤنست وأصبحت تتعايش مع الإنسان في كل من الريف والحضر، ومنها على سبيل المثال الخيل والبغال والحمير التي يطلق عليها اسم «دواب الحمل»، ومنها أيضًا الأبقار والجمال والماعز والأغنام التي يفيد الإنسان

من أصوافها وأوبارها وأشعارها.

والحديث عن دابة بعينها هي ﴿دَابَّةُ الْأَرْضِ﴾ التي تأكل عصا سليمان عليه السلام وهو متكئ عليها، ورد في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾

(سورة سبأ: ١٤).

وقد أجمع المفسرون على أن ﴿دَابَّةُ الْأَرْضِ﴾ هي «الأرضة»، التي تعرف أيضًا باسم «النمل الأبيض» ولو أنها ليست من النمل. فهي حشرات صغار الأحجام من رتبة «متساويات الأجنحة»، تكون مستعمرات كمستعمرات النمل والنحل. وتضم رتبة متساويات الأجنحة نحو ألفيْ نوع من الأرضة، تعيش في مختلف أنحاء الكرة الأرضية، ويستوطن حوالي ٩٠٪ منها في المناطق الاستوائية.

من ناحية أخرى، كلمة ﴿دَابَّةٌ﴾، وجمعها دواب، تطلق على كل ذي حياة يتحرك، سواء ما يتعلق بذوي التكليف أو بغير المكلفين، تسخيرًا أو اختيارًا على وجه العموم. وفي ضوء هذا نتأمل قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾

(سورة الشورى: ٢٩).

حيث تشير هذه الآية الكريمة - والله أعلى وأعلم - إلى وجود كائنات تدب وتتحرك في السموات والأرض، وهذه الكائنات عاقلة وذكية وعابدة وليست قاصرة على الملائكة. وتقرر هذه الآية الكريمة أيضًا أن الله - سبحانه وتعالى - قادر على جمع هذه الأحياء وحدوث الالتقاء بينها أثناء الحياة الدنيا أو في الآخرة.

وهذا الموضوع المتعلق باحتمالات وجود كائنات حية ذكية غير الإنسان في كواكب أخرى في هذا الكون الفسيح أصبح من الموضوعات التي تجذب اهتمام الناس وتستحوذ على تفكيرهم في هذا العصر الذي نعيشه، حيث يلهث العلم وراء البحث عن أسباب تسمح بوجود حياة على الكواكب الأخرى غير الأرض في مجموعتنا الشمسية، أو على الكواكب التي تقع في أسر جاذبية النجوم الأخرى وتدور حولها. وعادة ما يكون اكتشاف أي آثار تدل على وجود الماء من أبرز الأسباب التي ترجح الاعتقاد بوجود حياة، حيث إن الماء هو الأصل والضروري لنشأة الحياة واستمرارها، باعتراف علماء البيولوجيا أنفسهم، وبتقرير القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾

(سورة الأنبياء: ٣٠)

كذلك لابد من توفر درجة حرارة مناسبة لحياة الأحياء، بالإضافة إلى ضرورة توفر عنصر الكربون الذي يمتاز بقابليته وقدرته على الاتحاد بالعناصر الأخرى في مركبات أساسية للحياة.

أي أن الماء والحرارة المناسبة والكربون شروط ضرورية لقيام حياة كتلك التي نعرفها على الأرض. وإذا أخذنا هذا في الاعتبار بالنسبة لكواكب المجموعة الشمسية، نجد أنها - فيما عدا كوكب المريخ - لا تسمح مطلقًا بقيام حياة نظرًا لارتفاع درجة حرارتها، كما هو الحال بالنسبة لكوكبي عطارد والزهرة، أو لانخفاض درجة حرارتها كما هو الحال بالنسبة لكواكب المشترى وزحل وأورانوس ونبتون وبلوتو. أما المريخ فهو الكوكب الوحيد في مجموعتنا الشمسية الذي يبدو أنه تتوفر فيه متطلبات الحياة، وخاصة الحياة النباتية، نظرًا لأن غلافه الجوي يحتوي على نسبة عالية من ثاني أكسيد الكربون ولا يوجد به الأكسجين الكافي لنمو الحيوان.

كما أن ارتفاع الغلاف الجوي للمريخ لا يسمح بامتصاص الأشعة الكونية وفوق البنفسجية الضارة ولا يقدر على حرق الشهب، ومن ثم فإن احتمالات وجود حياة راقية، أو حتى بدائية، على المريخ منعدمة. وهذا ما أكدته البيانات الواردة من سفينة الفضاء «فايكنج» ١٩٧٦م، والتي لم تثبت بعد هبوطها على سطح المريخ وجود حياة من أي نوع.

وهكذا أكدت رحلات الفضاء وأبحاث العلماء استحالة وجود حياة كالتي نعرفها على أي كوكب آخر غير الأرض في مجموعتنا الشمسية، وأصبح مطلوبًا البحث عن وجود هذه الحياة الذكية المحتملة بعيدًا عن المجموعة الشمسية على كواكب (أو أرضين) شبيهة بأرضنا وتابعة لنجوم (شموس) أخرى غير شمسنا في عوالم أخرى في مجرتنا أو المجرات الأخرى.

وقد أشار القرآن الكريم إلى تعدد العوالم في آيات كثيرة مصداقًا لقوله تعالى:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، كما أشار إلى وجود سبع أرضين كما في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾

(سورة الطلاق: ١٢).

وتوجد بعض الدلائل التي تشجع العلماء على مواصلة البحث عن الحياة في الكواكب البعيدة عن مجراتنا، من ذلك اكتشاف عدة أحماض أمينية في قطع مختلفة من نيازك سقطت على الأرض حديثًا، واكتشاف ما يشير إلى احتمالات وجود بخار ماء وأمونيا في السحب الباردة الموجودة بين نجوم مجرتنا ومجرات أخرى. كذلك تمدنا نظرية الاحتمالات الرياضية بأن الفرصة ممكنة لوجود كواكب صالحة للحياة من بين الكواكب التي تتبع هذا العدد الهائل من النجوم (أكثر من مائة بليون نجم) في الكون المعروف لنا، وخاصة أن تركيب النجوم وقوانينها متشابهة مثل نجم الشمس. وبهذا يتضح أن من المنطقي أن توجد الحياة بأي صورة على كواكب أخرى غير أرضنا.

ولقد بذل الإنسان حديثًا محاولات للاتصال بالعوالم الأخرى، ومن بينها المركبة الخالية من البشر بايونير ١٠ عام ١٩٧٢م وزميلتها سفينة فويجر ٢ التي أطلقت عام ١٩٧٧م وتحمل أجهزة متقدمة وطاقة نووية تمكنها من مغادرة المجموعة الشمسية ومواصلة السير بحثًا عن العوالم الأخرى. ولقد زودت هذه السفينة برسائل رمزية وصورة رجل وامرأة من أهل الأرض يرفعون أيديهما رمزًا للسلام، ورسائل صوتية مسجلة بلغات مختلفة وموجهة من شعوب الأرض إلى سكان العوالم الأخرى لتحيتهم وحثهم على الاتصال بنا.

لكن، هل سيتحقق هذا الذي يبحث عنه العلماء.. العلم عند الله وحده القائل في محكم التنزيل: (وهو على جمعهم إذا يشاء قدير) صدق الله العظيم.

﴿ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾

نثر الشيء يَنْثُرُه نَثْرًا ونثارًا: رمى به متفرقًا.

وانتثر: تفرق.

وردت كلمة « - » في قوله تعالى:

﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾

(سورة الانفطار: ٢).

وذلك في معرض طائفة من أهوال الساعة بأسلوب مؤذن بتحقيق الوقوع في يوم تعلم فيه كل نفس ما قدمت وأخرت.

ومن الناحية العلمية تعتبر الكواكب باردة ليس لها نصيب من الحرارة إلا بالقدر الذي تسمح لها به الظروف من أشعة الشمس أثناء طوافها الأزلي حولها في مدارات بيضاوية. ويبلغ عدد الكواكب المعروفة تسعة، هي بحسب بعدها عن الشمس: عطارد، الزهرة، الأرض، المريخ، المشترى، زحل، يورانوس، نبتون، بلوتو، ويجري البحث عن كوكب عاشر، إلى جانب مجموعة الكويكبات التي تدور حول الشمس في حزمة كبيرة العدد، واقعة بين المريخ والمشترى، تشبه الجبال الطائرة الضخمة، ويُعتقد أنها كانت كوكبًا واحدًا تعرض لكارثة كونية أدت إلى تفتته وتفرقه أو انتشاره إلى هذا العدد الكبير الذي يبلغ أكثر من مائة ألف كويكب.

أما الحديث عن نهاية الكون وأهوال الساعة من منظور العلم الإنساني، فإنه أي العلم البشري - لا يملك أن يزيد شيئًا إلا من خلال ما أخبر به القرآن الكريم، حيث تعطل النواميس والسنن التي اهتدى الإنسان إلى معرفة القليل منها، ويكون من المقبول عقلاً أن يحدث عندئذ اختلال في النظام الكوني واضطراب في حركة الأجرام السماوية يؤدي إلى تناثرها وتصادمها وانشقاقها وانفطارها، مصداقًا لقوله تعالى:

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ (سورة الانفطار: ١)

وقوله:

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾

(سورة القمر: ١)

وقوله:

﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ (سورة القيامة: ٩)

(يتبع)

تأملات فى السيرة

صلح الحديبية



لفضيلة الشيخ / الطاهر الحامدى

كانَ من أمرِ صحيفة المصالحة بين رسول الله ﷺ وبين قريش ما كان من تذمّر الصحابة من شروطها المجحفة وكان أكثرهم تذمّرا وضيقًا سيدنا عمر بن الخطاب وقد عرفنا ما قالهُ لرسول الله ﷺ ولسيدنا أبى بكر وما ردّا به عليه، وكان مما قال وهو ضائقٌ مُتبرم لسيدنا أبى بكر: كيف نرجعُ ولمْ يحكم الله بيننا وبين أعدائنا؟. فردّ عليه سيدنا أبو بكر مغيظًا غاضبًا وكأنه أحسّ أنّ الأمر تجاوز حدوده مع أنّ الأمر كلّه بوحي من عند الله وأنّ رسولَ الله ﷺ ما فعل ما فعله إلا بأمر من الله سبحانه وتعالى. أيها الرجل، إنه رسول الله وليس يعصى ربّه وهو ناصره فاستمسك بغرزه حتى تموت فوالله إنه لعلى الحق. فقال عمر وكأنه يقدمُ عذره: وأنا أشهدُ أنه رسول الله. ثم أردف قائلاً يدافعُ عن ظنونه: أوليس كان يُحدثنا أنه سيأتى البيت ويطوف به؟ فردّ أبو بكر: بلى. ثم أردف يقول دافعًا ظنون عمر: هل أخبرك أنك تأتيه العام؟ ردّ عمر فقال: لا. قال أبو بكر: إنك آتيه ومُطّوِّف به. فقال عمر: والله ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ. وجعل يرد على رسول الله ﷺ الكلام. فقال له عُروة بن الجرّاح رضى الله عنه: ألا تسمع يا عمر بن الخطاب رسول الله ﷺ يقول ما يقول؟. تعوّذ بالله من الشيطان الرجيم واتهمْ رأيك. قال عمر: فجعلت أتعوّذ بالله من الشيطان حياء. فما أصابني شيء قط مثل ذلك اليوم وعملتُ لذلك أعمالا صالحةً لتُكفر عنى ما مضى من التوقّف فى امتثال الأمر ابتداءً.

يقول عمر رضى الله عنه: فما زلت أتصدّق وأصوم وأصلى وأعتق من الذى صَنعْتُ يومئذ مخافة كلامى الذى تكلّمت به حتى رجوت أن يكون خيرًا أى حتى أوشك قلبى أن يطمئن لقبول توبتى مما فعلت- فلمّا فرغ رسول الله ﷺ من كتابة العهد الذى كان بينه وبين المشركين همّ رسول الله ﷺ أن يتحلّل من عمرته وأن يرجعَ فقال لأصحابه: «قوموا فانحروا ثم احلقوا». فما قام رجل منهم حتى قال ذلك ثلاث مرات. فشقّ ذلك عليه فدخل على أم سلمة فقال: «هلكَ المسلمون، أمرتُهم أن ينحروا ويحلقوا فلم يفعلوا». فقالت: يا رسول الله لا تَلُمْهُمْ فإنهم قد دخلهم أمرٌ عظيم مما أدخلت على نفسك من المشقّة فى أمر الصلح ورجوعهم بغير فتح يا نبيَّ الله.

وهنا نرى رأيًا صائبًا لأم سلمة رضى الله عنها تفْخَرُ به كل أنثى على مرّ الزمان أن امرأة من بنى جنسها قد أشارت بالرأى الصواب. فقالت: اخرج يا رسول الله ولا تُكلّم أحدًا كلمة واحدة، حتى تَنحرَ بُدْنَك وتدعو حالقك، فيحلقَ لك، فقام رسول الله ﷺ فخرجَ فأخذ الحربة ويمّم هَدْيَهُ وأهوى بالحربة إلى البُدن رافعًا صوته: «بسم الله والله أكبر». فنحرَ، فتواثب المسلمون إلى الهدى وازدحموا عليه ينحرونه حتى كادَ بعضُهم يقعُ فى بعض. وأشركَ رسول الله ﷺ بين أصحابه فى الهدى فنحر البَدَنة عن سَبْع.

ولمّا ردّ رسول الله ﷺ وجوه البُدن عن البيت يقول ابن عباس: لمّا صُدّت عن البيت حنّت كما تحنّ إلى أولادها.!!!

فلمّا نحرَ رسول الله ﷺ البُدن دخل قبةً له من أُدم حمراء ودعا بالحلاق فحلقَ رأسه ورمى شعره على شجرة كانت إلى جنبه فجعل الناسُ يأخذون الشعرَ من فوق الشجرة ويتقاسمونه وأخذت أم عمارة من شعره فكانت تغسله للمريض وتسقيه فيبرأ.

ويروى أن رسول الله ﷺ لمّا انصرفَ من الحُديبية راجعًا شكا الناسُ إليه أنّهم قد بلغوا من الجوع الجهد وعندهم بعضُ الإبل فقالوا: نَنحرُه يا رسول الله، فأذنَ رسول الله ﷺ وسمعَ بذلك عمر بن الخطاب فقال: لا يا رسول الله فإن يكن فى الناس بقية ظهر يكن أمثل، كيف بنا إذا نحن لقينا العدوّ غدًا جياعًا رجالاً؟ لكن إذا رأيت أن تدعو الناسَ ببقايا أزوادهم ثم تجمعها ثم تدعو فيها بالبركة فإنّ الله سيبلغنا بدعوتك. فكان ذلك رأيًا صائبًا من عمر فيه من اليقين والصواب خير كثير.

فدعا رسول الله ﷺ الناسَ ببقايا أزوادهم وبسطَ رداءً فجعل الناسُ يجيئون بالحفنة من الطعام فرأيْتُهُ كمقدار عنز وهى رابضة ونحن كنا أربع عشرة مائة فقام رسول الله ﷺ فدعا بما شاء أن يدعو فأكلوا حتى شبعوا ثم ملئوا أوعيتهم وبقى مثله فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه فقال: «أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله. والله لا يلقى الله تعالى عبدٌ مؤمنٌ بهما- يعنى مؤمن بالله ورسوله، ولعل فى هذا ردا على المعتزلة والخوارج الذين يُكفرون مرتكب الكبيرة ويقولون بخلوده فى النار وفى نفسه تأييد للأشاعرة الذين يقولون بإيمان مرتكب المعصية وأنّه لا يُخلّد فى النار- إلا حُجبَ عن النار، ثم أذنَ رسول الله ﷺ فى الرحيل، فلما ارتحلوا أمطروا ما شاءوا وهم صائفون فنزل رسول الله ﷺ ونزلوا فشربوا من ماء السماء.

لا أُحبُّ أيها القارئ الكريم أن أنتهى مما أنا فيه معك قبل أن آتى على قصة أبى بصير فهى جديرةٌ أن تُحكى، وحريّ بك أن تعلمها.

لمّا قدمَ رسول الله ﷺ إلى المدينة من الحُديبية أتاه أبو بصير مسلمًا قد أفلتَ من قومه فـار على قدميه سعيًا فأرسلتْ قريش فى أثره تطلبه وكتبت بذلك إلى رسول الله ﷺ يذكرون الصلح الذى بينهم وأن يَرُدّ إليهم أبا بصير. فقرأ أُبيّ بن كعب الكتاب على رسول الله ﷺ فإذا فيه- وهم يخاطبون رسول الله ﷺ ويقولون: (قد عرفتَ ما شارطناك عليه وأشهدنا بينك وبيننا من ردّ مَنْ قدمَ عليك من أصحابنا فابعث إلينا بصاحبنا) فأمرَ رسول الله

ﷺ - وهو خيرُ من وفَّى بالعهد- أبا بصير أن يرجع معهم ودفعه إلى الرجلين اللذين جاءا من قريش فقال أبو بصير: يا رسول الله تردُّني إلى المشركين يفتنوني عن ديني؟ فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا بصير. إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ولا يصلح في ديننا الغدر». ليتَ الغربَ يعلمُ مبادئَ الدين الإسلامي حتى يرجع عن شططه وغروره وإن كنا نعلمُ أن الغربَ يعلم من ديننا الكثير لكن طبيعة الاستبداد وحب السيطرة والتملك أكبر من كل فضيلة. ثم أردف رسول الله ﷺ وقال موجهًا كلامه لأبي بصير: «إنَّ الله تعالى جاعل لك ولمن معك من المسلمين فرَجًا ومخرجًا». فقال: يا رسول الله أتردُّني إلى المشركين؟!!! فقال رسول الله ﷺ: «انطلق يا أبا بصير فإنَّ الله سيجعل لك فرجًا ومخرجًا». فخرج أبو بصير مع رسل قريش وجعل المسلمون يقولون وهم يُسِرُّونَ إليه وهم واثقون من تحقق دعوة رسول الله ﷺ: يا أبا بصير أبشر فإنَّ الله جاعل لك فرجًا ومخرجًا ويقولون: ورُبَّ رجل يكون خيرًا من ألف رجل.

وقال عمر بن الخطاب له يُحرضُهُ على ألا يستسلم للأسر: أنت رجل ومعك السيف، فانتهيا به وقت الظهر عند ذي الحُليفة فصلى أبو بصير في مسجدها ركعتين صلاة مسافر ومعه زاد له من تمر يحمله ودعا صاحبيه ليأكلا معه فقدَّمَ سفرة فيها لُقيمات فأكلوا جميعًا، وقد علَّقَ العامريُّ سَيْفَه. لكن من هو أبو بصير؟ قال عنه رسول الله ﷺ: «ويلُ أمه. مُسْعِرُ حرب لو كان معه رجال»! وتكفيه هذه الكلمة. فهي كلماتٌ جامعة من كلماته ﷺ فإنه أُوتيَ جوامعَ الكَلِم، وإذا أردنا أن نُبسِّط هذه الكلمات وأن نُفعلَ هذا التعبير المُجمَل العبقري البليغ فنحنُ دون شك عاجزون لكننا نُحاول تبسيط هذا الإجمال المُعجز الجليل "ويلُ أمه" جملة دعائية لا تعنى الهلاك لأمه وتأتي للتعجب. كما هنا، فهو تعجب من شجاعته وجرأته وإقدامه؛ فأبو بصير جسورٌ غيرُ هَيَّاب يعشق الإقدام ولا يهابُ المخاطر يُشعلُ حربًا لو وجد رجالًا يُخاطرونَ معَهُ. فهي كلماتٌ صائبة لا أصفُها بأنها فراسة لكنّي أقولُ في إجلال: إنَّها النبوة. ونعُودُ إلى رحلة أبي بصير مع صاحبيه، فبعد أنْ علَّق العامريُّ سَيْفَهُ ثمَّ هزَّهُ فقال: لأضربنَّ بسيفي هذا في الأوس والخزرج يومًا إلى الليل. فقال أبو بصير: أصارمٌ سَيفُك هذا؟ قال: نعم. قال: ناولنيه أنظر إليه إنْ شئت، فناوله إياه، فلما قبض عليه ضربَه به حتى بَرَدَ. وطلب الآخر فأسرع وهربَ مَذعورًا مستخفيًا يعدو نحو المدينة وهو عاضٌّ على أسفل ثوبه، يعدو والحَصَى يطيرُ مِنْ تحْت قدَميه مِنْ شدَّة عَدْوِه وأبو بصير في أثرِه فأعجزه وأتى رسول الله ﷺ وهو جالس في أصحابه بعد العصر فقال رسول الله ﷺ حين رآه: «لقد رأى هذا ذعرًا» فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ قال: «ويحَك، ما لك؟» قال: قتل والله صاحبُكم صاحبي وأفْلَتُّ منه ولم أكد وإنِّي لمقتول.!!! واستغاث برسول الله ﷺ فأمَّنَهُ، ثم أقبلَ أبو بصير فأناخ بعير العامريِّ فدخل متوشحًا سيفَهُ فقال: يا رسول الله، قد وَفَتْ ذمَّتُك وأدَّى اللهُ عنك، أسلمتني ليد العدو وقد امتنعتُ بديني أنْ أُفتن. وهنا قال رسول الله ﷺ مقولته المشهورة في أبي بصير: «ويل أمه، مُسعِرُ حرب لو كان معه رجال»، ثم قدَّمَ أبو بصير سَلَبَ العامريِّ لرسول الله ﷺ ليُقسّمهُ وفقًا لأحكام الشرع في سَلَب المَقْتُولين فقال رسول الله ﷺ وهو يتعفف عن المال في سبيل العهد والميثاق الذى وقَّعه مع قريش: «إنِّي إذا خَمَّستُهُ فراوني لم أوفِ لهم بالذى عاهدتهم عليه ولكن شأنك بسَلَب صاحبك واذهب حيث شئت».

فخرج أبو بصير ومعه نفرٌ جاءوا معه مسلمين من مكة حيث قدِمَ علي رسول الله ﷺ، فلم يكن طَلَبَهُم أحدٌ، حتى قدموا سيف البحر فسمِعَ سُهيل بن عمرو - رسولُ قريش إلى رسول الله ﷺ ومن تولَّى كتابة معاهدة صلح الحُديبية مع رسول الله ﷺ - بمقتل العامريّ اشتدَّ ذلك عليه وقال: ما صالحنا محمدًا على هذا فأرادَ أنْ يُحمِّلَ النبى ﷺ مسئولية مَقْتَل العامريّ لكنَّ قريشًا وزعيمها أبا سفيان أَبَيا ذلك ولم يَرَوا فيما فعل أبو بصير بأسًا على رسول الله ﷺ ودار الحوار الآتى، فلمَّا سمعت قريش مقالة سُهيل بن عمرو: "ما صالحنا محمدًا على هذا" ردت قريش قائلة: قد برئَ محمدٌ منه، قد أمكنَ صاحبكم منه فقتله في الطريق فما على محمد من هذا؟ فأسنَدَ سهيلٌ ظهرَهُ إلى الكعبة وقال: والله لا أُؤخِّرُ ظهرى حتى يودى هذا الرجل- أى تؤدى ديَتُه- فقال أبو سفيان بن حرب: إنَّ هذا لهو السَّفه، والله لا يودى وكيف قريش تديه وإنَّما بعثته بنو زُهرة؟ فقال رجل من بني زهرة: والله ما تديه. ما قتلناه وما أمرنا بقتله؟ قتله رجلٌ مخالِف فأرسلوا إلى محمد يدفع ديَتَهُ. فأنطقَ الله أبا سفيان ببراءة رسولِ الله ﷺ من دية العامرى وشهِدَ أنَّ رسول الله ﷺ وفَّى بعهده مع قريش ولم يكن خُلف ولا خيانة من جانب النبي ﷺ. فقال أبو سفيان: لا. ما على محمد ديَةٌ ولا غُرْم قد بَرئَ محمدٌ. ما كان على محمد أكثر مما صنع.

وأقام أبو بصير وأصحابه بسيف البحر وبلغَ المسلمون - الذين حُبسوا بمكة وكتموا إيمانهُم - خبرَ أبي بصير فتسللوا إليه كما تفلَّتَ أبو جَندَل بن سُهيل بن عمرو الذى ردَّهُ رسول الله ﷺ إلى المشركين بالحُديبية فخرج هو وسبعون راكبًا ممن أسلموا فلحقوا بأبي بصير وكرهوا أن يَقْدموا على رسول الله ﷺ واجتمعَ إليهم أُناس من بنى غفار وأسْلَم وجُهَينة حتى بلغوا ثلاثمائة مقاتل فيما زعموا يقطعون على قريش طريق التجارة ولا يظفرون بأحد إلا قتلوه وظَهرَ أمرُ الله سبحانه وتعالى وبانَ أمرُ رسول الله ﷺ وقوله لعمر بن الخطاب رضي الله عنه لمَّا اعترضَ على شروط الصلح: «أنا رسول الله ﷺ ولن يُضَيِّعني» فأرسلت قريشٌ أبا سُفيان بن حرب يسألون ويتضرعون إلى رسول الله ﷺ أن يبعث إلى أبي بصير وأبي جَندل ومن معهم، وقالوا: من خرج منَّا إليك فأمسكْهُ فهو لك حلالٌ غير حرج أنت فيه. أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنه رسول الله وأشهدُ أنه لن يُضَيِّعَهُ، وقال أبو سفيان: فإنَّ هؤلاء الرَّكب قد فتحوا علينا بابًا لا يصلح إقرارُهُ. فكتب رسولُ الله ﷺ إلى أبي بصير وأبي جندل يأمرهما أنْ يَقْدما عليه ويأمر من معهما ممن اتَّبعَهُما من المسلمين أنْ يرجعوا إلى بلادهم وأهليهم فلا يتعرضوا لأحد مرَّ بهم من قريش وعِيراتها. فقدِمَ كتابُ رسول الله ﷺ على أبي بصير وهو يموت فجعل يقرؤه ويُردد قراءته ومات وهو في يديه فدفنهُ أبو جندل مكانه وجعل عند قبره مسجدًا ورضي الله عنه ورَحِمَهُ أوَّل فدائيّ في الإسلام. وإلى لقاء آخر إن شاء الله.

الشعــر الصوفــى



أ.د/ محمود العزب



٥- تضمين القرآن فى التائيتين:

(أ) تضمين القرآن فى التائية الكبرى لابن الفارض:

إن أحد جوانب الجمال والقوة فى الأدب والشعر العربى هو التأثر الواضح بالقرآن ولغته وصوره وبيانه وأدبه وعباراته من بعيد أو من قريب. فإن سلطان العاشقين يظل هو الأول بلا منازع فى هذا المضمار وله قصب السبق دون أدنى شك. وإن تائيته لتعج بحشد هائل وجمهور غفير من الأبيات التى تحمل إشارات مباشرة وغير مباشرة تستدعى إلى ذهن القارئ فور النطق بها أو قراءتها آياتٍ وعبارات وصورًا قرآنية. ركبها سلطان العاشقين فى أبياتها واضحة سافرة أو خفية محجبة، وإن كانت تطل بعينين جميلتين تسحران القارئ المتمكن من القرآن ولغته وبيانه ومن الشعر الصوفى وأعماقه وأنفاسه..

ولكن هذه الإشارات القرآنية هى بعض العلامات التى يهتدى بها القارئ وبها يسير على درب الحب الإلهى والخمر الصوفية، كلما حاول الحب والخمر الإنسانيان أن يجتذباه خارج الفلك الذى تدور فيه روح الشاعر الصوفى المأخوذ بعالمه العلوى.

لاحظنا ذلك من قبل لدى شهيدة العشق الإلهى رابعة العدوية، حين تقول لحبيبها:

عرفت الهوى مذ عرفت هواكا
وأغلقت قلبى عمن عداكا

فتكاد الحدود الفواصل بين ملامح الحب والحبيب البشرى الإنسانى وملامح حبها المغاير أن تنمحى أو تتلاشى، لكنها تتدارك وتلقى بالبيت التالى:

وقمت أناجيك يا من ترى
خفايا القلوب ولسنا نراكا

ثم تعود فتقول:

أحبك حبين حب الهوى
وحبا لأنك أهل لذاكا
فأما الذى هو حب الهوى
فشغلى بذكرك عمن سواكا

وكل ما فى هذين البيتين قد ينصرف إلى ملامح الحبيب الإنسى البشرى.. ولكنها تبادر فترد قارءها إلى عالمها وملامح حبيبها:

وأما الذى أنت أهل له
فكشفك لى الحجب حتى أراكا

فالذى يرى خفايا القلوب ولسنا نراه هو من ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (الأنعام: ١٠٣)

والذى له حق كشف الحجب أو سترها هو القائل: ﴿ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ (ق: ٢٢)

وإذا كان ابن الفارض هو القائد الرائد فى هذا الضرب من تضمين القرآن شعره كما قلنا، فهو قد يفعل ذلك للغرض ذاته الذى تصبو إليه رابعة، مثل قوله:

زدنى بفرط الحب فيك تحيرا
وارحم حشى بلظى هواك تسعرا

ويحق للقارئ أن يتصور هذا مطلع قصيدة غزلية من عاشق يلتذ بزيادة تحيره فى محبوبه، ثم يطلب منه الرحمة بعد ذلك ولكننا نفاجأ بالبيت التالى مباشرة:

وإذا سألتك أن أراك حقيقة
فاسمح ولا تجعل جوابى لن ترى

فالقارئ ذو الذوق وذو العلم سوف ينصرف سريعًا - والمجال مجال سؤال الرؤية - إلى سياق مشابه مع الفارق، وارد فى القرآن الكريم:

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴾ (الأعراف: ١٤٣)

وإذا كانت إشارة ابن الفارض (وإذا سألتك أن أراك)، تتضمن (رب أرنى أنظر إليك) وإشارته (لن ترى) تتضمن (لن ترانى) فإن عبارة أخرى من هذا النوع تأتى مباشرة أكثر من هاتين عندما يذكر بعد:

ته دلالا فأنت أهل لذاكا
وتحكم فالحسن قد أعطاكا

يقول: (ولك الأمر فاقض ما أنت قاض) وهى مأخوذة من ﴿ فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ (طه: ٧٢)

والخلفية القرآنية هذه متفشية خلال شعر ابن الفارض كله أو جله ولكنها فى التائية الكبرى ظاهرة، باهرة، واضحة، فياضة تكاد تثقل على القارئ غير المتضلع فى الشعر الدقيق المُلمح الرامز وفى تراكيب القرآن الكريم وإشارته وتلميحاته.

إنها كما سترى خلال الأمثلة التى اقتطفناها من التائية كثيرة وافرة:

البيت ١٣:

فطوفان نوح عند نوحى كأدمعى
وإيقاد نيران الخليل كلوعتى

تضمين يذكر بالطوفان الغامر ويستدعيه إلى تشبيه مقلوب وكأن دموعه هى الأصل المشبه به والطوفان فرع عنها.

وكذلك صورة حر النيران التى ألقى فيها إبراهيم الخليل وكلتاهما صورتان قرآنيتان.

البيت ١٥:

وحزنى ما يعقوب بث أقله
وكل بلى أيوب بعض بليتى

فالشطر الأول تضمين لقوله تعالى عن يعقوب:

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾ (يوسف: ٨٦)

والشطر الأخير تضمين غير مباشر لقوله تعالى:

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ ﴾ (الأنبياء: ٨٣)

البيت ٢٥:

كأن الكرام الكاتبين تنزلوا
على قلبه وحيا بما فى صحيفتى

تضمين شبه مباشر لقوله تعالى:

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢) ﴾ (الانفطار: ١٠-١٢)

البيت ٦١:

وأين الصفا هيهات من عيش عاشق
وجنة عدن بالمكاره حُفت

وهذا تضمين غير مباشر لقوله تعالى:
﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا﴾ (البقرة: ٢١٤)

ولكنه تضمين مباشر وقريب للحديث النبوي الشريف: «**الجنة محفوفة بالمكاره**».

البيت ٩١:

أتيت بيوتًا لم تنل من ظهورها
وأبوابها عن قرع مثلك سُدت

الصورة تضمين للصورة القرآنية:
﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ (البقرة: ١٨٩)

البيت ٩٢

وبين يدى نجواك قدمت زخرفًا
تروم به عزًا مراميه عزت

تضمين لآية ﴿إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾ (المجادلة: ١٢)

البيت ١٠٠:

فدع عنك دعوى الحب وادع بغيره
فؤادك وادفع عنك غَيك بالتى

تضمين قريب لقوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾ (المؤمنون: ٩٦)

وقوله ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (فصلت: ٣٤)

البيت ١٤٥:

فتختلس الروح ارتياحًا لها «وما
أبرئ نفسي» من توهم منية

إشارة إلى قوله تعالى:
﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ (يوسف: ٥٣)

البيت ١٧٨:

وسدِّد وقارب واعتصم واستقم لها
مجيبًا إليها عن إنابة مُخبت

إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ (الحج: ٣٤)

البيت ١٨٢:

وأقدم وقدِّم «ما قعدت له مع الـ
خوالف» واخرج عن قيود التلفت

من قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ (التوبة: ٨٣)

البيت ١٩٥:

ولا تتبع من «سولت نفسه له»
فصارت له «أمارة» واستمرت

من قوله تعالى: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ (يوسف: ١٨)

ومن قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ (طه: ٩٦)

ومن قوله: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ (يوسف: ٥٣).

البيت ١٩٧:

«فنفسى كانت قبل لوامة» متى
أطعها عصت أو أعص عنها مطيعتى

من قوله تعالى: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ (القيامة: ٢)

البيت ٢٣٣:

إخال حضيض الصحو والسكر مُعرجى
إليها ومحوى «منتهى قاب سدرتى»

تضمين مزدوج من:
﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ (النجم: ٩)
و﴿عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ﴾ (النجم: ١٤)

البيت ٢٨٧:

فمنبع صدى من شراب نقيعه
لديّ فدعني: من سراب بقيعة»

من قوله تعالى: ﴿أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً﴾ (النور: ٣٩)

البيت ٢٨٩:

ولا تقربوا مال اليتيم إشارة
لكف يد صُدَّت له إذ تصدَّت مباشرة

من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (الأنعام: ١٥٢)

البيت ٤٥٦:

وقد جاءنى منه رسول عليه ما
عَنِتُّ عزيز بى حريص لرأفتى

البيت كله من الآية ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٢٨)

البيت ٥٩٠:

وأحضر ما قد عز للبعد حمله
ولم يرتدد طرفى إلىّ بغمضة

تضمين إشارة إلى قوله تعالى: ﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ (النمل: ٤٠)

البيت ٦٠١:

بذاك علا طوفان نوح وقد نجا
به من نجا من قومه فى السفينة

تضمين غير مباشر للسفينة ومن نجا فيها مع نوح.

البيت ٦٠٢:

وغاض له ما فاض عنه استجادة
وجدّ إلى الجودى بها واستقرت

إشارة إلى قوله تعالى فى قصة الطوفان.
﴿وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ (هود: ٤٤)

البيت ٦٠٣:

وسار ومتن الريح تحت بساطه
سليمان بالجيشين فوق البسيطة

إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ (ص: ٣٦)
وقوله تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ (ص: ٣٦)

والمراد بالجيشين من معه من الإنس والجن.

البيت ٦٠٤:

وقبل ارتداد الطرف أحضر من سبا
له عرش بلقيس بغير مشقة

من قوله تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ (النمل: ٣٩، ٤٠)

البيت ٦٠٥:

وأخمد إبراهيم نار عدوه
وعن نوره عادت له روض جنة

من قوله تعالى: ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ (الأنبياء: ٦٩)

البيت ٦٠٦:

ولما دعا الأطيار من كل شاهق

وقد ذبحت جاءته غير عصية

من قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ﴾

(البقرة: ٢٦٠)

البيت ٦٠٧:

ومن يده موسى عصاه تلقفت

من السحر أهداها على النفس شقت

من قوله تعالى: ﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ﴾ (طه: ٦٩)

البيت ٦٠٨:

ومن حجر أجرى عيونًا بضربة

بها ديما شُقت وللبحر شَقت

إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ (الأعراف: ١٦٠)

وقوله: ﴿ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ ﴾

(الشعراء: ٦٣)

البيت ٦٠٩:

ويوسف إذ ألقى البشير قميصه

على وجه يعقوب عليه بأوبة

إشارة قريبة إلى قوله تعالى: ﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا ﴾ (يوسف: ٩٣)

وقوله ﴿ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ﴾ (يوسف: ٩٦)

البيت ٦١٠:

رآه بعين قبل مقدمه بكى

عليه بها شوقًا إليه فكُفّت

إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ (يوسف: ٨٤)

البيت ٦١١:

وفي آل إسرائيل مائدة من الســ

ماء لعيسى أنزلت ثم مُدّت

من قوله تعالى: ﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ﴾

(المائدة: ١١٤ - ١١٥).

البيت ٦١٢:

ومن أكمه أبرا ومن وضح عدا

شفى وأعاد الطين طيرًا بنفخة

إشارة إلى قوله تعالى في شأن المسيح عليه السلام: ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (آل عمران: ٤٩)

البيت ٧١٤:

قتلت غلام النفس بين إقامتي الـ

جدار لإحكامي وخرق سفينتي

من قصة موسى مع العبد (الصالح) ذي العلم اللدني: ﴿ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ (الكهف: ٧٤)

وقوله: ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(الكهف: ٧٧)

البيت ٧٤٣:

فلا عبث والخلق لم يخلقوا سدى

وإن لم تكن أفعالهم بالسديدة

من قوله تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾

(المؤمنون: ١١٥)

وقوله: ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾

(القيامة: ٣٦)

البيت ٧٥١:

ومن نوره مشكاة ذاتي أشرقت

عليّ فنارت بي عشائي كضحوتي

إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ (النور: ٣٥)

ثم البيت ٧٧ من التائية الصغرى:

فللعين والأحشاء أول «هل أتى»

تلا عاندي الآسي وثالث «تبّت»

يحمل الشطر الأول إحالة إلى قوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴾ (الإنسان: ١)

ويحمل الشطر الآخر إحالة إلى قوله تعالى: ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾

(المسد: ٣)

ب- تضمين القرآن في التائية الكبرى لمحمد وفا:

وكان لابد أن يقتفي اللاحق أثر السابق والمقلِّد أثر المقلَّد، وسوف نورد هنا أبيات محمد وفا التي نرى فيها تضمينًا للقرآن الكريم تصريحًا أو تلميحًا..

البيت ١٠:

له المثل الأعلى وليس كمثله

مثال تراءى في المرائي المنيرة

إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (الروم: ٢٧)

وقوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾

(الشورى: ١١)

البيت ١٥:

ومن سيرة الأسرار عن قاب قربه

روى كل راو ما رأى دون مرية

إشارة ضمنية واضحة لقوله تعالى:

﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ (النجم: ٩)

البيت ١٦:

فأوحى لأرواح العلا روح علمه

فعلمها الأسماء حتى تسمت

إشارة إلى قوله تعالى:

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ (البقرة: ٣١)

البيت ١٧:

ولما استوى الرحمن من فوق عرشه

تنفس فيها عن نفوس نفيسة

تضمين لقوله تعالى:

﴿ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾ (طه: ٥)

البيت ٩٥:

له المثل الأعلى وليس كمثله

تمثل مثل في تهيؤ هيئة

البيت بتضمينه تكرار وإعادة للبيت رقم ١٠.

الأبيات ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩.

وهنا كليم الله جاء كليمه

يكلمه في هيئة شجرية

وفى مجمع البحرين جاء معلمًا

يعرفه التنكير فى العلمية

ولن تستطيع الصبر منه لكى ترى

فلا تنح للتصويب بالعصبية

وفى خرقه والقتل ثم برفعه

جدار اليتامى كنز كل يتيمة

هذه الأبيات تضمين يجتاز الآيات من ٦٠ إلى ٨٢ من سورة الكهف بمضمونها العام:

﴿ وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقبا (٦٠) فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سربا (٦١) فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا (٦٢) قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا (٦٣) قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا (٦٤) فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما (٦٥) قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا (٦٦) قال إنك لن تستطيع معي صبرا (٦٧) وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا (٦٨) قال ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا (٦٩) قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا (٧٠) فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا (٧١) قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا (٧٢) قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا (٧٣) فانطلقا حتى إذا لقيا غلاما فقتله قال أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا (٧٤) قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا (٧٥) قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا (٧٦) فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا (٧٧) قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا (٧٨) أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا (٧٩) وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا (٨٠) فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما (٨١) وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا ﴾ (الكهف: ٦٠-٨٢)

إن قصة النبى موسى مع هذا الذى يسميه القرآن «العبد الصالح» والذى يسميه المفسرون وأهل الصوفية «الخضر» رمز كبير يتفشى خلال حديث المتصوفة خاصتهم وعامتهم؛ إذ هو يتمتع بعلم من لدن الله ويسمى هذا العلم بالعلم اللدنى...

البيت ١٤١:

وهذا كتاب الله خذه بقوة

فقد قام بالتنزيل فى الكتبية

إشارة إلى قوله تعالى:

﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة ﴾ (مريم: ١٢)

البيت ٢١٩:

فهذا أراه الحق حقًا بحقه

وذلك يهذى فى سراب بقيعة

إشارة إلى تمثيل من يريه الله الحق ومن يعمل السوء، ومثله كما تشير الآية: ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ﴾

(النور: ٣٩)

وجدير بالذكر أن وفا نقل تمامًا الشطر الثانى من البيت ٢٨٧ وخصوصًا التضمين ذاته فى النهاية.

البيت ٢٥٣:

تنزلت الألواح أرواح روحها

بمأخذها الأقوى فخذها بقوة

إشارة قريبة إلى قوله تعالى: ﴿ وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها ﴾ (الأعراف: ١٤٥)

البيت ٢٨٠:

وهذا نذير جاء بالنذر الأولى

يؤول ما أولاه بالأولوية

إشارة مباشرة إلى قوله تعالى: ﴿ هذا نذير من النذر الأولى ﴾ (النجم: ٥٦)

البيت ٢٩٣:

وفى آل إسرائيل منه بقية

ولى من إله العرش غير بقية

استيحاء من الآية: ﴿ وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة ﴾ (البقرة: ٢٤٨)

البيت ٤٠٥:

ولا تحسبن الله مخلف وعده

فإتيانه فى حين دهر كلمحة

اقتباس مباشر من قوله تعالى: ﴿ فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله ﴾

(إبراهيم: ٤٧)

البيت ٤٣٦:

ويوسف مفهومى عزيز وإنما

غيابة هجر الهجر فى زهد إخوتي

تضمين عام لمعنى غيابة الجب التى هُجر فيها يوسف، إذ زهد فيه إخوته فألقوه فيها، مستمد من قوله تعالى: ﴿ لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابت الجب ﴾ (يوسف: ١٠)

البيت ٤٥٨:

فكاساها الأكياس والكيس مزجها

وفى دنها الدانى تدلت فأدنت

إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ ثم دنا فتدلى (٨) فكان قاب قوسين أو أدنى ﴾ (النجم: ٨ – ٩)

البيت ٥٣٣:

لها قرناء من نفوس ثلاثة

بأمارة لوامة مطمئنة

جمع أنواع النفس الإنسانية الثلاثة:

النفس الأمارة بالسوء فى قوله تعالى:

﴿ إن النفس لأمارة بالسوء ﴾ (يوسف: ٥٣)

والنفس اللوامة فى قوله: ﴿ ولا أقسم بالنفس اللوامة ﴾ (القيامة: ٢)

ثم النفس المطمئنة: ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة (٢٧) ارجعي إلى ربك راضية مرضية (٢٨) ﴾

(الفجر: ٢٧ – ٢٨)

البيت ٦١١:

شديد القوى ذو مرة فى مرامه

تمرن حتى صار صاحب مرة

تأثر شديد وشبه مباشر بما فى قوله تعالى:

﴿ علمه شديد القوى (٥) ذو مرة فاستوى (٦) ﴾

(النجم: ٥ – ٦)

الأبيات ٦٩٢، ٦٩٣، ٦٩٤:

وفى عين نار الله جنة نوره

محجبة فى الكشف فى السترية

وهل يستوى القلب السليم من السوى

وسوء قلوب بالسواء مريضة

ولما ذبحت الطير ما بين جنتي

ونارى وذاك الكبش من ذبح فدية

تقتفى أثر صور إبراهيمية فى آيات:

﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾ (الأنبياء: ٦٨ - ٦٩).

﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ ﴾ (الصافات: ٨٣ - ٨٤).

و﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ (الشعراء: ٨٨ - ٨٩).

البيت ٦٦٢:

كذلك زينا إلى كل أمة

أتمتها فى غاية عملية

إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ ﴾

(الأنعام: ١٠٨)

ومن قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ ﴾ (النمل: ٤)

ثم الآية

﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ (الصافات: ١٠٧)

البيت ٦٩٨:

ولما أمتُّ الطير ثم دعوتها

أتتنى من أوكار أطوار طينتي

مستوحى مباشرة من قوله تعالى:

﴿ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ﴾ (البقرة: ٢٦٠)

وهو مقتبس عن قرب شديد من البيت رقم ٦٠٦ فى تائية ابن الفارض:

ولما دعا الأطيار من كل شاهق

وقد ذبحت جاءته غير عصية

وله نفس الإحالة القرآنية، إلا أن وفا أسند القول إلى ضمير المتكلم المفرد، فهو إبراهيم أو هو الحقيقة، بينما أسند ابن الفارض القول إلى الراوى الذى يحكى عن المفرد المذكر إبراهيم بالطبع.

البيت ٧١٥:

وفى مثلى المضروب بعض بعوضة

تمثل مثلى مثل مثقال ذرة

إشارة مباشرة إلى قوله تعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ (البقرة: ٢٦)

البيت ٧١٦:

وخالق كل الخلق أحسن خلقه

وفى كل شيء خلقه من خليقتي

إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ (السجدة: ٧)

البيت ٨٢٨:

ومثل عيسى الذكر فيه بآدم

وذلك بالتحقيق عين الحقيقة

تضمين لقوله تعالى فى شأن تعجبهم من خلق المسيح بلا أب:

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾

(آل عمران: ٥٩)

البيت ٨٦٢:

فللطيبين الطيبات وعكسه

وكل خبيث إلف كل خبيثة

مستمد من قوله تعالى: ﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ﴾ (النور: ٢٦)

البيت ٨٦٤:

وذلك فى أم الكتاب موصل

بتكرار بسم الله فى كل سورة

إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾

(الرعد: ٣٩)

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ (الزخرف: ٤)

البيت ٨٩٧:

فكل فتاة من زليخة راودت

فتاها به عن نفسه الفتوية

إشارة إلى قوله تعالى:

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾

(يوسف: ٣٠)

والبيت ٨٩٨:

وأنست به عن لومها فيه نسوة

تعاينه معنى بعين زليخة

تضمين قريب للسياق نفسه: ﴿ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا ﴾

(يوسف: ٣١)

وفى السياق نفسه: ﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ﴾ (يوسف: ٣٢)

البيت ٩١٠:

لها البطشة الكبرى إذ الخلق خلقها

ولى بطشة بالله فى كل بطشة

الشطر الأول مستوحى من قوله تعالى:

﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾

(الدخان: ١٦)

والشطر الآخر من قول النبى فى الحديث: «حتى يكون الله سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها».

البيت ٩٥٢:

لها حكم قد أحكمت ثم فصلت

ونكتتها فى كل فصل منكت

مستمد من قوله تعالى:

﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ (هود: ١)

البيت ٩٥٣:

وقد ذهبت نفسى عليها صبابة

وكانت بزعمى قبل ذاك ذهيبتي

الصورة مستوحاة من قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ (فاطر: ٨)

البيت ٩٧١:

كفى كل إنسان حسيبًا بنفسه

وحسيتها فى كل نفس حسيبة

تضمين قريب ومباشر لقوله تعالى:

﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾

(الإسراء: ١٤)

٦- تضمين الحديث النبوى أو الإشارة إليه في التائيتين:

أ- في تائية ابن الفارض:

كان لا بد له أن يعرج على الحديث والسنة والصحابة كما سيفعل سلفه من بعده، ولكن سلطان العاشقين كان في ذلك أقل من وفا، وها هو في أبيات أربعة يشير من طرف خفي إلى أمر

يرد فى كتب السيرة، وهو أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يرى «دحية الكلبى» فى منامه فى بداية عهد النبوة وموقع جبريل من ذلك.

البيت ٢٨٠:

وها دحية وافى الأمين نبينا
بصورته فى بدء وحى النبوة

البيت ٢٨١:

أجبريل قل لي: كان دحية إذ بدا
لمهدى الهدى فى هيئة بشرية

البيت ٢٨٢:

وفى علمه عن حاضريه مزية
بماهية المرئى من غير مرية

البيت ٢٨٣:

يرى ملكا يوحى إليه وغيره
يرى رجلا يدعى إليه بصحبة

ثم يصرح بأن نبى الهدى هو عروته الوثقى:

البيت ٣٣١:

.... وقد
تمسكت من طه بأوثق عروة

ويعرج على مديح عترة النبى، وآل بيته وصحابته والتابعين:

البيت ٦١٩:

بعترته استغنت عن الرسل الورى
وأصحابه والتابعين الأئمة

ويخص خلفاءه الراشدين الأربعة بذكر أسمائهم وبعض مآثرهم:

البيت ٦٢٠:

كراماتهم من بعض ما خصهم به
بما خصهم من إرث كل فضيلة

البيت ٦٢١:

فمن نصر الدين الحنيفى بعده
فقتال أبى بكر لآل حنيفة

البيت ٦٢٢:

وسارية ألجاه للجبل الندا
ء من عمر والدار غير قريبة

البيت ٦٢٣:

ولم يشتغل عثمان عن ورده وقد
أدار عليه القوم كأس المنية

البيت ٦٢٤:

وأوضح بالتأويل ما كان مشكلا
عليٌّ بعلم ناله من وصية

ويختم ذلك المديح ببيت يذكر بالحديث النبوي: «أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم». وهو:

البيت ٦٢٥:

وسائرهم مثل النجوم من اقتدى
بأيهم منه اهتدى بالنصيحة

وبعد ذلك يشير إلى جو علم الحديث ومصطلحه وتقنياته بمثل كلمة ثابت، والحديث الثابت عن النبى والرواية الصحيحة وغير الضعيفة.

البيت ٧١٨:

وجاء حديث فى اتحادى ثابت
روايته فى النقل غير ضعيفة

ثم نجده فى البيت ٧١٩:

يشير بحب الحق بعد تقرب
إليه بنفل أو أداء فريضة

يذكر بالحديث القدسي: «ما تقرب إلى عبدى بشيء أحب إلى من النوافل».

أما البيت ٧٢٠:

وموضع تنبيه الإشارة ظاهر
بكنت له سمعًا كنور الظهيرة

مقتبس من الحديث القدسي: «فإذا أحببته

كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها».

أما البيت ٦٠:

وأين الصفا هيهات من عيش عاشق
وجنة عدن بالمكاره حُفت

فهو واضح الإشارة إلى الحديث النبوى «الجنة محفوفة بالمكاره».

ب- تضمين الحديث، والسنة فى تائية وفا:

أما تضمين الحديث فهو كتضمين القرآن يتفاوت فى درجات سبكه مع البيت أو الأبيات بحيث يأتلف فيصبح جزءًا حقيقيًا أو مكونًا عنصريًا من أجزاء الأبيات ومكوناتها.. وقد يكون مجرد إحالة للمعنى العام للحديث، وقد يكون اقتباس شيء من المحتوى العام أو من جو الحديث ومصطلحه وعلمه.

وفى هذا المجال لا نجد لدى محمد وفا كثيرًا من الإحالات إلى الحديث النبوي، اللهم إلا فى بيت واحد يتيم فريد وهو:

البيت ٥٣:

ففى حديث الأولين معنعن
تبين فى عين المعانى المعينة

ومقصودنا فى هذا الانتقاء ليس كلمة «حديث» لذاتها، فليس مقصد الشاعر «الحديث» بمعنى حديث النبى وإنما هو كما ترى فى مركبه الإضافى «حديث الأولين» أى حديث السابقين الأقدمين وكلامهم، وإن كانت العبارة تجذب كذلك عالم الحديث النبوى بدرجة ما، ولكن المقصود، هو كون حديث الأولين هذا «معنعنًا»، فالعنعنة وهى ذكر سلسلة الرواة عن فلان عن فلان عن فلان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كذا..

فالمتحدث فى أغلب التائية وأعمها هو فى صيغة المفرد المؤنث، والذى يرد كثيرًا مع الضمير «هي» والضمائر المتصلة منه بالفعل عبر القوافى فعلت كذا وكذا، والذى يتجلى كثيرًا فى صيغة المتكلم المؤنث، «أنا».

ومحمد وفا شأنه شأن ابن الفارض وربما شأن الكثيرين من أصحاب التائيات، بل من أهل الشعر الصوفى وقائليه عمومًا يرمز إلى «الحقيقة» ويشير إليها..

البيت ٧١٢:

حنان حنى الجذع مثل حنينه
لبين بيانى بين وحيى ومحوتى

إشارة إلى ما يذكر فى بعض كتب السيرة النبوية وما يحكى فى ثنايا التراث عن قصة حنين جذع النخلة الذى كان النبى يخطب من فوقه فى مسجده، ثم صنع له منبر، ولما انتقل للخطابة من فوق المنبر، كان يُسمع حنين وبكاء للجذع، وهذه القصة تذكر على أنها معجزة من معجزات النبى صلى الله عليه وسلم.

أما باقى ما يمكن احتسابه خاصًا بالنبى أو راجعًا إليه فهو شيء يتفرد به وفا عن رائده ابن الفارض الذى لا نلحظه فى تائيته مثله وهو مديح مباشر للنبى صلى الله عليه وسلم باسمه وباسم آله وصحبه وبأسمائهم أو ألقابهم وغالبًا لم يكن ذلك يظهر بهذا الشكل فى التائيات السابقة، أو فى تائية ابن الفارض موضوع المقارنة الحالية. إنه يقع فى ستة عشر بيتًا تعتبر قصيدة مدح خالص سلكها وفا فى عقد تائية الألفية الكبرى:

تبدأ بالبيت رقم ٢٦١:

فسبحان من قد خص آل محمد
وأصحابه فى كل آن وصحبة

وأيدهم في كل عبد مؤيد
فهم مدد التأييد في كل مدة
وأرواحهم في نظم روح محمد
فهم روح أرواح النفوس الحميدة
فصديقهم في كل صديق صادق
وفاروقهم في كل فاروق فرقة
شهيدهم في كل نفس شهيدة
عليُّهم في كل روح علية
وحيث تجلى نور وجه محمد
فأنوارهم فيه به قد تجلت
كما هو سر الله في كل مرسل
كذلك هم أسراره في الأئمة
وأبداله الأقطاب أحيان حينه
وأحيان أنوار وأحياء فترة
فأحمد عين الله ليس بغائب
لتعيينه في الأعين الأحمدية
وفي عين غيب الله ليس بغائب
عن العين غيب الله في شرط صحة
ففي كل شخص أحمدي محمد
تكثر وهو الفرد في العددية
فإن غاب عين الله في عين غيبه
هو الله في أسمائه المستوية
ففي عين جمع الجمع منه جميع ما
أحاط به علم العلوم المحيطة
عليه صلاة الله تشمل صحبه
وأنصاره والآل في كل ملة

وينصرف بعد ذلك عن المديح، ثم يعود إليه في البيت رقم ٦٩٧:

وذلك في عيسى وآل محمد
لبين بياني بين وحي ومنحة

ثم يعود إليه في ختام التائية، شأن الواعظ والخطيب في المسجد وليس شأن الشاعر ابن الفارض، فيقول وفا في البيت ٩٩٧:

ومحمود هذا الحمد مني محمد
له الحمد يُعزى في الأمور الحميدة

وقد لاحظنا ذكر «آل محمد» وأصحابه في البيت الأول (٢٦١) ثم اسمه «محمد» في البيت الثالث (٢٦٣) ثم الصديق لقب أبي بكر والفاروق لقب عمر في البيت الرابع (٢٦٤) ثم عليّ في البيت الخامس (٢٦٥) أما البيت السادس (٢٦٦) ففيه عودة إلى نور وجه محمد وللنور المحمدي شأن كبير في الشعر الصوفي ولكن فيه كذلك تضمينًا للحديث النبوي:

«أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»، والذي أشرنا إليه في تضمين الحديث لدى ابن الفارض في تائيته، وهنا يقول وفا في البيت السابق من المدحة (٢٦٧):

وحيث تجلى نور وجه محمد
فأنوارهم فيه به قد تجلت

ثم تأتي بعد ذلك إشارة إلى الأقطاب والأبدال وهم الأولياء ثم عودة إلى أحمد والعين الأحمدية. ثم تأتي صورة تجعل من النبي أحمد فردًا تكثر في أفراد أحمديين أو محمديين، ويبدو أنها صورة أصيلة أو أصلية في شعر وفا، إنها توحي بأن النور المحمدي يفيض على حوارييه من بين أتباعه فيتعدد بتعددهم مع أن محمدًا واحد ونوره واحد.

إن شعر المديح النبوي في الغالب صريح مباشر، لا يتعمق الصور ولا يروح بعيدًا وراء الظاهر وتعديد الصفات النبوية. وهذا ما نراه واضحًا في أبيات وفا هذه والتي يختمها بما تختم به الصلوات والعبادات:

عليه صلاة الله تشمل صحبه
وأنصاره والآل في كل ملة

«اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه في الأولين والآخرين».

القرآن والإنجيل والتوراة والعلم

٩



أ. د. موريس بوكاي

إنجيل مرقس

إنه أقصر الأناجيل الأربعة. وهو أيضا أقدمها، ولكنه ليس كتاب أحد الحواريين، هو على أكثر تقدير كتاب حرره تلميذ لأحد الحواريين.

وقد كتب «أ. كولمان» أنه لا يعتبر «مرقس» تلميذا للمسيح، ومع ذلك فهو يشير إلى هؤلاء الذين قد يشكون في انتساب هذا الإنجيل إلى «مرقس»: «إن (متّى) و(لوقا) لم يكونا ليستخدما هذا الإنجيل مثلما فعلا لو كانا لا يعرفان أنه مؤسس فعلا على تعاليم أحد الحواريين» لكن هذه حجة غير حاسمة، ويذكر «أ. كولمان» لتأكيد التحفظ الذي يدفع به الإشارات الكثيرة في العهد الجديد التي تتحدث عن رجل اسمه «يوحنا ويلقب بمرقس» ولكن هذه الفقرات لا تذكر مؤلف إنجيل، وحتى نص مرقس نفسه لا يشير إلى أي مؤلف.

إن فقر المعلومات الخاصة بهذه النقطة قد قادت المعلقين إلى أن يأخذوا بتفاصيل تبدو وهمية على أنها عناصر ذات قيمة، ومنها ما يلي: «فحجة أن مرقس هو المبشر الوحيد الذي سرد في روايته عن آلام المسيح حادثة شاب كان يلبس إزارًا على عريه، وترك الإزار وهرب عريانا عندما شرع في الإمساك به» (مرقس الإصحاح ١٤ الآيتان ٥١، ٥٢)، استنتج البعض أن هذا الشاب قد يكون مرقس «التلميذ الأمين الذي يحاول أن يتبع السيد» (من الترجمة المسكونية). وفي رأي آخرين يستطيع القارئ أن يرى هنا «بسبب هذه الذكرى الشخصية علامة على الصحة وإمضاء مجهول» ... «ويثبت أن صاحبه كان شاهدا معاينا» «أ. كولمان».

ويرى هذا الكاتب «أن هناك كثيرا من تراكيب الجمل تدعم الفرض القائل إن مؤلف هذا الإنجيل يهودي الأصل»، ولكن وجود المناحي اللغوية اللاتينية قد يوحي بأنه قد كتب إنجيله من روما. «فهو بالإضافة إلى هذا يتوجه بالخطاب إلى مسيحيين لا يعيشون بفلسطين، ويعتني بشرح التعبيرات الآرامية التي يستخدمها في حديثه إليهم».

الواقع أن التراث قد أراد أن يرى في مرقس رفيقا لبطرس في روما، وذلك اعتمادا على

نهاية رسالة بطرس الأولى » إذا ما كان هذا الأخير هو فعلا كاتب هذه الرسالة ».

ويقال إن بطرس قد كتب لمن وجه رسالته إليهم: « جماعة المختارين ببابل تحييكم. وكذلك مرقس أخي». «بابل – أي: ربما روما –» ذلك ما نقرأه في التعليقات على الترجمة المسكونية، ومن هنا يعتقد البعض أن من حقه استنتاج أن مرقس الذي كان مع بطرس بروما هو المبشر ... ترى أسبب من هذا النوع هو الذي دفع «بابياس Papias»، أسقف هيرا بولس في نحو عام ١٥٠م، إلى أن ينسب الإنجيل المقصود إلى مرقس الذي يقول عنه: إنه كان مترجما لبطرس، وإنه كان أيضا مساعد بولس ... ؟

إن إنجيل «مرقس» من هذه الزاوية، يكون قد تحرر بعد موت بطرس – أي: على أكثر تقدير بين «٦٥ و ٧٠م» حسب الترجمة المسكونية – وفي حوالي عام ٧٠م حسب «أ. كولمان».

ويظهر النص نفسه عيبا رئيسيا أوليا لا جدال فيه: «لقد حرر دون اهتمام بالتعاقب الزمني للأحداث، فهذا الإنجيل يضع في بداية روايته (الإصحاح ١ الآيات من ١٦ إلى ٢٠) حكاية الصيادين الأربعة الذين يدعوهم المسيح لأن يتبعوه، قائلا لهم ببساطة: «ستصيرون صيادي سمك» على حين أنهم لا يعرفونه. ويضاف إلى ذلك أن هذا المبشر يبرز افتقادا كاملا للمعقولية».

وكما يقول «الأب روجي»: فإن مرقس كاتب غير حاذق وأكثر المبشرين ابتذالا، فهو لا يعرف أبدا كيف يحرر حكاية، ويدعم المعلق ملاحظته بذكر فقرة تسرد تكون الاثنى عشر حواريا، وتقول هذه الفقرة حرفيا:

«ثم صعد إلى الجبل ودعا الذين أرادهم فذهبوا إليه، وأقام اثنى عشر ليكونوا معه وليرسلهم ليكرزوا ويكون لهم سلطان إخراج الشيطان، وجعل الاثنى عشر وفرض على سمعان اسم بطرس» (مرقس الإصحاح ٣ الآيات من ١٣ إلى ١٦).

إن إنجيل مرقس يتناقض مع إنجيلي متّى ولوقا فيما يخص بعض الأحداث كما أشرنا أعلاه بمناسبة حكاية آية يونس، وأكثر من ذلك فبمناسبة الآيات التي يعطيها المسيح للبشر في أثناء بعثته، يسرد مرقس حكاية لم تعد قابلة للتصديق. يقول (الإصحاح ٨ الآيتان ١١، ١٢):

«فجاء الفريسيون وجعلوا يحاورون المسيح، وليسوقوه إلى فخ طلبوا منه آية من السماء – تنهد المسيح بعمق، وقال: «لماذا يطلب هذا الجيل آية ...؟ الحق أقول لكم، لن يعطى هذا الجيل آية «ثم تركهم وصعد إلى السفينة ليمضي إلى الضفة الأخرى».

ولا شك في أن هذا تأكيد، من المسيح نفسه، بأنه ليس في نيته القيام بأي فعل قد يبدو غير طبيعي، وعليه فالمعلقون على الترجمة المسكونية، عندما يتعجبون من إعلان لوقا بأن المسيح لن يعطي إلا

آية واحدة، آية يونس (انظر إنجيل متى) يحكمون في الوقت نفسه بوجود «مفارقة» بين قول مرقس بأنه: «لن يكون لهذا الجيل آية»، وبين المعجزات التي يقدمها المسيح نفسه كآيات (إنجيل لوقا الإصحاح ٧ الآية ٢٢ والإصحاح ١١ الآية ٢٠).

وإذا كان إنجيل مرقس معترفا به كلية كإنجيل كنسي، فإن هذا لا يقلل من أن الكتاب المحدثين يعدون خاتمته (الإصحاح ١٩ الآيات من ٩ إلى ٢٠) كمؤلف مضاف: وتشير الترجمة المسكونية إلى هذا بشكل صريح.

وهذه الخاتمة غير موجودة في أقدم مخطوطتين كاملتين للأناجيل المعروفة باسمي Codex Sinaitious Codex Vaticanus اللذين يرجع تاريخهما إلى القرن الرابع، ويقول «أ. كولمان» في هذا الشأن: «أضاف مخطوطات يونانية أقرب عهدا وبعض نصوص أخرى إلى هذا الموضع خاتمة عن ظهور المسيح لا تنتسب إلى مرقس، وإنما هي مستخرجة من أناجيل أخرى». والواقع أن روايات هذه الخاتمة المضافة كثيرة، في النصوص نجد تارة رواية طويلة، وتارة رواية قصيرة (وتحتوي الرواية المسكونية على الروايتين) وتارة الرواية الطويلة مع حاشية، وتارة أخرى الروايتين معًا.

ويعلق الأب كانينجسر على هذه الخاتمة بما يلي: « لا بد أنه قد حدث حذف للآيات الأخيرة عند الاستقبال الرسمي – أو عند النشر على العامة » لكتاب مرقس في الجامعة التي ضمنته ، ولا متى ولا لوقا ، ولا يوحنا بالأحرى قد عرفوا هذا الجزء المفقود، مع ذلك فقد كانت الفجوة لا تحتمل. وبعد ذلك بكثير وبعد أن جرت بين الأيدي الكتابات المتشابهة لمتى ولوقا ويوحنا، تم توليف خاتمة محترمة لمرقس وذلك بالاستعانة بعناصر من هنا ومن هناك لدى المبشرين الآخرين ، ومن السهل الاستدلال على قطع هذه الفزورة بالتفصيل (خاتمة مرقس ١٦- من ١٩ إلى ٢٠).

ذلك يسمح بتكوين فكرة مادية عن الحرية التي كانوا يعالجون بها النوع الأدبي الخاص بالحديث الإنجيلي حتى أعتاب القرن الثاني » .

يا له من اعتراف صريح بوجود التعديلات التي قام بها البشر على النصوص المقدسة !

يا له من اعتراف ذلك الذي تقدمه لنا تأملات هذا العالم اللاهوتي الكبير...!

إنجيل لوقا

هو كتاب حوليات في رأي أ. كولمان وروائي حقيقي في نظر الأب كانينجسر ، وينبهنا لوقا نفسه في ديباجته الموجهة لثاوفيليس إلى أنه بعد الآخرين الذين أنشأوا قصصًا عن المسيح ، وسينشئ بدوره حكاية عن نفس الأحداث مستخدمًا هذه القصص ومعلومات الشهود المعاينين – وذلك

يعني أنه ليس واحدًا منهم - وبالإضافة إلى المعلومات الآتية من مواعظ الحواريين .

المقصود إذًا كتاب منهجي ويقدم لوقا له بما يلي: « إذا كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة في الأحداث التي وقعت كما نقلها إلينا الذين كانوا منذ البدء شهودًا معاينين وخدامًا للكلمة ، رأيت أنا أيضًا إذ تتبعت كل شيء من الأول بتدقيق ، أن أكتب على التوالي إليك أيها العزيز ثاوفليس ، لتعرف صحة الكلام الذي علمت به » .

من السطور الأولى يستطيع القارئ أن يميز ما يفصل لوقا عن مرقس ، هذا الكاتب الغث الذي تحدثنا عن إنجيله . إن إنجيل لوقا عملٌ أدبي لا يُجادَل ، كُتبَ بلغة كلاسيكية راقية ، تخلو من حواشي الكلام .

لوقا أديب وثني آمن بالمسيحية ، واتجاهه بالنسبة إلى اليهود يتضح مباشرة وكما يشير أ. كولمان فإن لوقا يحذف من روايته أكثر الآيات اليهودية عند مرقس ويبرز كلمات المسيح في مواجهة كفر اليهود وعلاقاته الطيبة مع السامريين الذين يمقتهم اليهود ، هذا على حين يقول متى في إنجيله إن المسيح طلب من حوارييه أن يتجنبوا السامريين ، وذلك مثال جلي بين أمثلة كثيرة على أن المبشرين يضعون على لسان المسيح ما يتناسب مع وجهات نظرهم الشخصية ، وهم يفعلون ذلك ولا شك باقتناع مخلص ، فإنهم يعطوننا عن أقوال المسيح الرواية التي تتكيف مع وجهات نظر الطوائف التي ينتمون إليها ، كيف يمكن إذًا أمام أمور جلية كهذه إنكار أن الأناجيل ليست « كتابات خصامية أو طرفية » كما قيل أعلاه ؟ إن المقارنة بين المنحنى العام لإنجيل متّى وإنجيل لوقا يأتي ببرهان قاطع في هذا الشأن.

من هو لوقا؟ لقد أراد بعضهم التعرف على هويته في شخصية الطبيب الذي يحمل اسم لوقا، والذي يذكره بولس في بعض مسائله . وتلاحظ الترجمة المسكونية أن « بعضهم قد رأى تأكيدا لمهنة الطب التي كان المؤلف يمارسها وذلك بسبب دقة وصف المرض » .

وهذا تقدير مبالغ فيه تماما . فلوقا لا يعطي أوصافا من هذا النوع إذا شئنا الدقة، «والمفردات التي يستخدمها هي مفردات أي إنسان مثقف في هذا العصر» . لقد كان هناك «لوقا» ما قد رافق بولس في رحلاته. فهل هو نفس الشخص؟ إن أ. كولمان يعتقد ذلك .

ويمكن تقدير تاريخ إنجيل لوقا بالنظر إلى عوامل عدة. فقد استعان لوقا بإنجيلي مرقس ومتى، وكما تقول الترجمة المسكونية: فيبدو أنه قد عايش حصار القدس وتدميرها، تحت جيوش تيتوس عام ٧٠م، وعلى ذلك يكون هذا الإنجيل لاحقا على ذلك التاريخ. ويحدد النقاد الحاليون غالبا تاريخ تحريره بما بين ٨٠ - ٩٠م، ولكن هناك معلقون آخرون ينسبونه إلى تاريخ أكثر قدما.

وتحتوى شتى الروايات في إنجيل لوقا على اختلافات هامة مع روايات سابقيه، ولقد أعطينا أعلاه لمحة، وتشير إليها الترجمة المسكونية في الصفحة ١٨١ وما يليها.

يذكر أ. كولمان في كتابه العهد الجديد الصفحة ١٨ ، روايات من إنجيل لوقا لا توجد في الأناجيل الأخرى، وليس المقصود نقاطا تفصيلية، إن الروايات عن طفولة المسيح في إنجيل لوقا خاصة بهذا الإنجيل، فمتّى يقص بشكل يختلف عن لوقا طفولة المسيح، أما مرقس فإنه لا يقول كلمة عنها.

ويعطى كل من متّى ولوقا للمسيح أنسابا مختلفة، والتناقض بينهما هام، وعدم المعقولية كبيرة من وجهة النظر العلمية بحيث يجدر تخصيص فصل خاص هنا لهذا الموضوع. وقد يمكن فهم أن متّى لأنه يتوجه بخطابه لليهود، يبدئ شجرة نسب المسيح بإبراهيم ويجعلها تمر بداود، وإن لوقا وهو الوثني الذي آمن بالمسيحية، يهتم بأن يمد جذور هذه الشجرة إلى أبعد من ذلك، ولكن القارئ سيرى أن الاثنين يتناقضان ابتداء من داود.

ومن ناحية أخرى، فإن رسالة المسيح مسرودة بشكل مختلف وفي نقاط كثيرة لدى كل من متى ولوقا ومرقس.

إن تأسيس سر القربان المقدس - وهو حدث ذو أهمية رئيسية بالنسبة إلى المسيحيين - يخضع لتنوعات كثيرة من لوقا إلى المبشرين الآخرين، ويلاحظ «الأب روجي» في كتابه «مقدمة الإنجيل» ص٧٥ أن الكلمات التي يسوق بها إنجيل لوقا (الإصحاح ٢٢ - الآيات من ١٩ إلى ٢٤) سر القربان المقدس تختلف من تلك التى نجدها فى إنجيل متّى الإصحاح (١٦) الآيات من ٢٦ - ٢٩. وفي إنجيل مرقس (الإصحاح ١٤ - الآيات من ٢٢ إلى ٢٤)، وهي متطابقة تقريبا في هذين الأخيرين، «وعلى العكس فالصيغة التي ينقلها لوقا تقارب كثيرا تلك التي يذكرها بولس» (الرسالة الأولى إلى أهل كورنثة الإصحاح ١١ - الآيات من ٢٣ إلى ٢٥).

إن لوقا - كما رأينا - في إنجيليه يصدر عن صعود المسيح قولا يناقض ما يقول في «أعمال الرسل» التي سلم المتخصصون بأنه كتبها وهي جزئ متمم للعهد الجديد.

إنه يحدد فى إنجيله تاريخ صعود المسيح بيوم الفصح، ويحدده في الأعمال بعد ذلك بأربعين يوما. وإننا لنعرف إلى أي تعليقات غريبة قاد هذا التناقض المفسرين المسيحيين.

غير أن المعلقين الذين تهمهم الموضوعية مضطرون للاعتراف، مثلما فعل المعلقون على الترجمة المسكونية عموما بأن «الاهتمام الأول لدى لوقا ليس هو وصف الأمور في دقتها المادية . .» إن «الأب كانيتجسر» يقارن روايات «أعمال الرسل» وهي من تأليف هذا اللوقا نفسه، مع روايات أمور مماثلة عند بولس عن المسيح بعد قيامته ويقدم الرأي التالي عن لوقا: «لوقا هو أكثر كتاب الأناجيل الأربعة إرهافا في الحس وأكثرهم ميلا للأدب، إنه يتمتع بكل صفات الكاتب الروائي الحقيقي».

فتاوى لها تاريخ

وحدانية الخالق(١)



الشيخ / رشيد رضا

سأل سائل (المقتطف) كيف اعتقد بعض فلاسفة اليونان تعدد الآلهة مع قيام البرهان العقلي على التوحيد الخالص؟

فأجاب «المقتطف» : إن البرهان العقلي لا ينفي التوحيد ولا يثبته؟ وإنما ثبت التوحيد بالإلهام. فأعاد السؤال فأعاد (المقتطف) الجواب بما لا يخرج عن معنى ما تقدم.

هذا وأرجو أن يكون الجواب بالأدلة العقلية والعلمية والفلسفية والتاريخية على الطريقة العصرية، ولكم من الله الأجر، ومن الأمة الشكر، ودمتم لصديقكم المخلص. أحمد محمد الألفي: خادم العلم الشريف

ج- أما مسألة وحدانية الخالق عز وجل فهي تُعلم من الدلائل على وجود الخالق؛ لأن تلك الدلائل تثبت وجود خالق واحد، والتعدد مسألة ثانية تحتاج إلى دليل آخر، والعدد لا نهاية له فلا بد لمثبت التعدد من دليل يرجح به العدد الذي يدعيه على غيره. وتعلم من دلائل أخرى مبنية على تلك الدلائل، فمقالة المقتطف التي أشرنا إليها آنفا تثبت وجود الله تعالى ووحدانيته معًا، وما قال المقتطف إن التوحيد إنما عرف بالإلهام إلا ذهولا عن هذا المعنى، وعن دلائل التوحيد الأخرى، وسبحان المنزه عن الغفلة والذهول. وجمهور فلاسفة اليونان كانوا إلهيين موحدين وأثبتوا وجود الواجب بالأدلة النظرية. وهؤلاء هم الفلاسفة الإلهيون، وأما الماديون فلا يثبتون إلها ليثبتوا توحيده، وما ذكر في خرافات اليونان من تعداد الآلهة لا يعنى به أن واجب الوجود الذي يطلقون عليه اسم «علة العلل» - أي لكل موجود - حقيقة لها عدة أفراد، وإنما ذلك مبني على نظريات أخرى في نظام كل أمر كلي عام، لا محل هنا لشرحها.

لا يتسع وقتنا الآن ولا هذا الجزء من

(١) المنار ج١٦ (١٩١٣) ص٧٤٣- ٧٤٤

المنار لإطالة الكلام في هذه المسألة فنكتفي بأن نذكر السائل - وهو من أهل العلم الذين تكفيهم الإشارة - ببعض البراهين العقلية والطبيعية. فمنها الاستدلال بوجود الممكنات في جملتها على وجود الواجب إذ يستحيل أن تكون قد أوجدت نفسها، وأن تكون وجدت من العدم المحض بدون موجد، فلم يبق إلا أن لها منشأ وجوديا آخر ليس من جنسها، أي ليس من الممكنات، وهو الواجب الأزلي الذي وجوده ذاتي له.

وهي حقيقة واحدة اضطر العقل إلى إثباتها مع عدم معرفة كنهها، فلا مجال لدعوى التعدد فيها إلا التحكم والفرض رجما بالغيب من مكان بعيد. ومنها أن فرض تعدد الوجود الواجب يوقع العقل في مشكلات لا يمكنه أن التفصي منها إلا بإبطال الفرض وإثبات الوحدة. فإن الواجب الذي أثبت العقل وجوده هو مصدر وجود الممكنات في جملتها، لأن كل ممكن منها يجوز أن يكون مصدره ممكن آخر، وأما جملة الممكنات في أسبابها ومسبباتها، وعللها ومعلولاتها، فلا يمكن أن تكون هي مصدر نفسها ولا أن يكون جزء منها مصدر الكل، ولا أن تكون من العدم المحض بغير موجد كما تقدم آنفا، فالوجود الواجب الذي أثبتناه هو مصدر مجموع الممكنات، ولا معنى لذلك إلا أنها صادرة بإرادته حسب علمه وهما صفتان ذاتيتان واجبتان له. فإذا فرضنا وجود واجب آخر يكون ذلك تناقضًا معناه أن جملة الممكنات صادرة عن كل منهما غير صادرة عنه؛ لأن القول بصدورها عن كل واحد يقتضي عدم صدورها عن الآخر الذي هو غيره ذاتا وعلما وإرادة، فإذا استطعت أن تفرض وجود واجبين أو أكثر لأن الفرض لا حجر فيه فيتناول المحال، فإنك لا تستطيع أن تثبت ذلك ولا أن تتفصى من مشاكله.

ولك أن تقول من وجه آخر إن الخالق هو مصدر هذه الموجودات ومصدر التدبير والنظام فيها، فإذا فرضنا تعدده المستلزم لاختلاف صفاته من العلم والحكمة والإرادة والقدرة - إذ لا معنى للتعدد إلا هذا - لزم من هذا الفرض أن يكون التدبير والنظام صادرين عن علمين أو علوم مختلفة وإرادات متباينة وذلك يستلزم اختلاف المرادات لاختلاف المعلومات، التابعين لاختلاف كنه الذات، وبذلك يختل النظام وتفسد الكائنات. وهو هذا برهان التمانع في قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ أي في السموات والأرض.

ومن الأدلة الكونية الطبيعية على الوحدانية ما يؤخذ من قول جماهير علماء الكون أن لمجموع الكائنات مصدر وحدة من حيث المادة والقوة، مجهول الكنه والحقيقة.

دع ما يدل عليه النظام العام في الخلق من وحدة مصدره، ودع ما يدل عليه العلم الطبيعي من كون العناصر البسيطة التي يتركب منها عالم المادة لا بد لها من مبدأ وحدة، وتذكر قولهم إن الفاعل في مادة الكون الأولى الذي جعلها أطوارا انتقلت من طور منها إلى طور بسنن طبيعية مطردة في منتهى الإبداع والنظام، إنما هو شيء وجودي سموه القوة. وتذكر اعترافهم بالعجز عن معرفة كنه تلك القوة التي هي حقيقة واحدة، وأن عمل القوة بالنظام الدقيق لا يعقل إلا أنه عمل عن علم وحكمة، يفتح لك باب آخر من دلائل التوحيد والوحدة، فإن ادعاء أن هذه القوة عرض ذاتي للمادة لا يقوم البرهان إلا على ضده لأنه يقتضي أن تكون هذه التطورات التركيبية أزلية وهي حادثة قطعًا.

ثم تذكر بعد ذلك كله ما انفتح من أبواب العلم لإثبات ما وراء المادة، فإن لم تعد منها مسألة إدراك الأرواح وظهور آثارها فلا يفتك أن منها ما يسمونه اليوم بالعقل الباطن.

﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

ذو الحجة ١٤٣٥هـ
أكتوبر ٢٠١٤م

استفتاءات القراء

(الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين)

اطلعنا على الطلب المقدم من/ مجلة الأزهر - المتضمن لبعض الأسئلة وهي:

السؤال: معاق وساقه اليسرى أقصر من اليمنى، ويقوم بتعويض ذلك بحذاء طبي، فهل يجوز له لبس الحذاء الطبي وهو يؤدي المناسك داخل المسجد الحرام: من طواف وسعي؟ وهل عليه فدية في ذلك أم لا؟ وهل رباط الحذاء يعتبر مخيطا أم لا؟

الجـواب: يجوز لبس الحذاء الطبي، وربطه برباطه المعد له في مثل حالة السائل؛ لأن هذه ضرورة، و«الضرورات تبيح المحظورات»..

وعلى صاحب السؤال أن يخرج فدية: من صيام ثلاثة أيام، أو إطعام ستة مساكين، وله إخراج القيمة لكل مسكين، أو يذبح شاة، وذلك قياسًا على من غطى رأسه لمرض بها، أو أي أذى يلحقه؛ لقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦].

***

السؤال: هل استخدام الصابون المعطر أثناء الإحرام ممنوع؟

الإجابة: يحرم استخدام العطر في البدن أو الثياب أو الطعام لمن تلبس بالإحرام، فهو من محظوراته.

وأما الصابون المعطر فالمختار في الفتوى: أنه يجوز للمحرم استعماله؛ لأنه ليس من العطر الذي يقصد للتطيب، وإن كان الأحوط عدم استعماله؛ خروجا من الخلاف.

***

السؤال: هل يجوز الإحرام وأداء العمرة مع وجود جرح في باطن القدم يدمى عند المشي ولا يجف بسبب الإصابة بالسكر والسيولة في الدم؟

الجـواب: خروج الدم من غير السبيلين: القبل والدبر، لا ينقض الوضوء، وهذا مذهب الإمام مالك والشافعي وفقهاء أهل المدينة

يجيب عنها فضيلة الأستاذ الدكتور

شوقي علام

مفتي جمهورية مصر العربية



السبعة وغيرهم، واستدلوا بحديث جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما- «أن رجلين من أصحاب النبي ﷺ حرسا المسلمين في غزوة ذات الرقاع، فقام أحدهما يصلي، فرماه رجل من الكفار بسهم فنزعه، وصلى ودمه يجري، وعلم به النبي ﷺ فلم ينكره».

وبناء على ذلك وفي واقعة السؤال: فعلى المصاب بذلك أن يتوضأ ويعصب جرحه، ولا حرج عليه في إحرامه، ولا في طوافه، ولا يتوضأ بسبب ذلك إلا إذا أحدث.

***

السؤال: هل يجوز للحاج أن يتوجه إلى عرفات يوم الثامن من ذي الحجة بدلا من التوجه لمنى؟

الجـواب: يجوز، وغايته أنه ترك مستحبًا وهو: المبيت بمنى.

***

السؤال: هل يجوز شرعًا أن تكون نفرة الحجيج من عرفات على مراحل؛ لتتم النفرة في سهولة ويسر لهذه الأعداد الغفيرة المتزايدة؟ وهل هذا يعتبر تغييرًا لمناسك الحج؟

الجـواب: أجمع العلماء على أن ما بعد الزوال وقتٌ صحيحٌ للوقوف بعرفة، وأن وقت الوقوف ينتهي بطلوع فجر يوم النحر، وأن مَن جمع في وقوفه بعرفة بين الليل والنهار من بعد الزوال -فوقوفه تام ولا شيء عليه.

واختلفوا في مسألتين:

الأولى: حكم الوقوف بعرفة والدفع منها قبل الزوال، هل يجزئ عن الوقوف بعد الزوال؟ فالجمهور على أن ذلك لا يجزئ، وأن مَن فعل ذلك فعليه أن يرجع فيقف بعرفة بعد الزوال، أو يقف من ليلته تلك قبل طلوع الفجر، وإلا فقد فاته الحج.

والحنابلة في المذهب عندهم يرون أن ذلك يجزئ، وأن مَن فعل ذلك فحجه صحيح.

والمسألة الثانية: هل يجزئ الوقوف بعرفة مع الدفع منها قبل غروب الشمس؟ فالحنفية ومَن وافقهم يوجبون الوقوف بعرفة حتى غروب الشمس، والأصح عند الشافعية ومَن وافقهم أن ذلك مستحب وليس واجبًا، فيجوز عندهم للحاج الذي وقف قبل الزوال أن يُفيض من عرفة قبل المغرب.

وأصحاب القول الثاني في كلا المسألتين يستدلون بحديث عروة بن المضرِّس -رضي الله عنه- قال: «أتيتُ رسولَ الله ﷺ بالمُزدلفة حينَ خَرَجَ إلى الصَّلاة، فقلتُ: يا رسولَ الله، إنِّي جئتُ من جَبَلَي طَيِّئٍ؛ أكللتُ راحلتي وأتعبتُ نفسي، والله ما تركتُ من جبلٍ إلا وقفتُ عليه، فهل لي من حَجٍّ فقال رسول الله ﷺ: مَن شهِد صلاتَنا هذه ووقَفَ معنا حتى ندفعَ -وقد وَقَفَ بعرفةَ قبلَ ذلك ليلًا أو نهارًا- فقد أتمَّ حَجَّه وقضى تفَثَه». قال أبو البركات ابن تيمية الحنبلي في «منتقى الأخبار» بعد ذكره لهذا الحديث: «وهو حجة في أن نهار عرفة كله وقت للوقوف».

وعلى ذلك فيمكن للجهات المسئولة أن تنظم النَّفرة والإفاضة من عرفات بما يتلاءم مع أعداد الحجيج ويمنع تكدسهم.

ويجوز لهم أن يجعلوا النفرة من عرفات على مرتين أو أكثر، حسبما تقتضيه المصلحة العامة للحجيج.

***

السؤال: هل يجوز المكوث بمزدلفة قدر حط الرحال، وصلاة المغرب والعشاء جمع تأخير، والاكتفاء بالمرور بها، طبقًا لفقه الإمام مالك؟

الجواب: المعتمد في الفتوى- في هذه الأزمان التي كثرت فيها أعداد الحجيج كثرة هائلةً- هو الأخذ بسنية المبيت في مزدلفة، وهو قول الإمام الشافعي في «الأم» و«الإملاء»، وقول للإمام أحمد، بينما يكتفي المالكية بإيجاب المكث فيها بقدر ما يحط الحاجُّ رحله ويجمع المغرب والعشاء، وحتى على رأي الجمهور- القائلين بوجوب المبيت- فإنهم يسقطونه عند وجود العذر، ومن الأعذار: حفظ النفس من الخطر أو توقعه، فيكون الزحام الشديد الذي عليه الحجُّ في زماننا مرخصًا شرعيًا في ترك المبيت عند الموجبين له.

***

السؤال: ما حكم ترك المبيت بمنى للضعفة والمرضى والنساء من الحجاج؟

الجواب: المبيت بمنى ليالي التشريق مختلف فيه بين العلماء: فالجمهور على أنه واجب، والحنفية على أنه سنة.

ويدل على القول بالسُّنِّيَّة ما رواه الشيخان عن ابن عمر -رضي الله عنهما- «أن العباس -رضي الله عنه- استأذن النبيَّ ﷺ ليبيت بمكة ليالي منى؛ من أجل سقايته، فأذن له». ولو كان المبيت واجبًا لما رُخِّص في تركه لأجل السقاية، فعلم أنه سُنَّة.

وإذا أضفنا إلى ما سبق اعتبار ما يعتري الحجيجَ من تعب شديد وضيق مكان وخوف مرض، كان القول بسنية المبيت بمنى هو المختار للفتوى.

وإذا قلنا بالسنية: فمَن ترك مبيت الأيام الثلاثة جميعًا فمن العلماء مَن قال: إنه يسن له أن يجبره بدم ولا يجب، ومن ترك مبيت ليلة واحدة جبرها بالتصدق بمُدٍّ من طعام.

وقال الحنفية والإمام أحمد في رواية: إنه لا يلزم من ترك المبيت بمنى شيء.

وحتى على قول الجمهور إن المبيت بمنى واجب، فإنهم يرخصون لمن كان ذا عذر شرعي بترك المبيت، ولا إثم عليه حينئذ ولا كراهة، ولا يلزمه شيء أيضًا، ولا شك أن الخوف من المرض من جملة الأعذار الشرعية المرعية.

وقد وردت الرخصة من الشارع لأهل الرعاء والسقاية في ترك المبيت في منى، فروى الإمام مالك في الموطأ عن عاصم بن عديٍّ -رضي الله عنه- «أنَّ رسولَ الله ﷺ أرخَصَ لرعاء الإبل في البيتوتة خارجينَ عن منى يرمُونَ يومَ النَّحرِ ثم يرمُونَ الغدَ ومن بعد الغدِ ليومَين ثم يرمُونَ يومَ النَّفرِ».

ولا ينبغي الوقوف على النص الوارد، بل ينبغي اعتبار مراد الشارع منه، وإلا كان جمودًا محضًا.

ومعلوم أن الالتزام بالمبيت وإلزام الحاج به مع أعمال الحج الأخرى يزيد من إجهاده وضعفه، فإذا انضم إلى ذلك ما نزل بالناس في هذه الأيام من انتشار للأوبئة التي يسهل انتقالها، فإن جسم الإنسان يكون أكثر عرضة لالتقاط الأمراض، ولا شك أن أشد الناس تضررًا بذلك هم النساء والأطفال والمرضى والضعفاء، فناسب أن يأخذ هؤلاء حكم من رُخِّص لهم.

***

السؤال: هل يجب أن يذبح الحاج دمه في أرض الحرم، أم يجوز أن يذبحه خارج الحرم؟

وهل يجوز ذبح الدم في ماليزيا، وتوزيع لحومها للفقراء والمساكين من أبناء ماليزيا أو خارج ماليزيا؟

الجواب أولًا: لا يجوز للمتمتع الذي نوى حج التمتع أن يدفع دمه في بلده قبل سفره إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج؛ لأن المحل المكاني لسوق الهدي ودماء الحج هو البيت العتيق.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ۝٣٢ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾

[الحج: ٣٢- ٣٣].

وبناءً على ما سبق: فلا بد أن يكون ذبح دماء الحج بمكة، أما توزيع لحوم تلك الذبائح فالأصل أن يكون على مساكين الحرم وفقرائه، ولا بأس بأن يدخر ذلك لهم على مدار العام، فإذا فاض عن حاجتهم طوال العام وحتى الحج في العام التالي- فيجوز أن يوزع على فقراء غير الحرم.

***

السؤال: هل يجب ذبح الدم في أيام التشريق، أم يجوز ذبح الدم بعد أيام التشريق؟

الجواب: مذهب السادة الحنفية والمالكية والحنابلة أنه لا يجوز ذبح هدي التمتع والقران إلا في أيام النحر الثلاثة: (يوم العيد ويومين بعده).

أما عند الشافعية فالدماء الواجبة في الإحرام لارتكاب محظور أو ترك مأمور- لا تختص بزمان، وتجوز في يوم النحر وغيره.

وعليه فلا بد أن يكون ذبح دماء الحج في أيام الحج.

***

الحج رحلة التوحيد



د. أحمد عمر هاشم
عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر

إن الحج إلى بيت الله الحرام، ركن من أركان الإسلام، وهو يمثل رحلة التوحيد لرب العالمين، فمن أول لحظة بوأ الله سبحانه وتعالى لإبراهيم مكان البيت كان الأمر الإلهي بالتوحيد وعدم الشرك بالله وتطهير البيت للطائفين فقد قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ [الحج ٢٦].

واشتمل الأمر الإلهي على تطهير البيت حسيا ومعنويا من كل أذى ورجس وشرك وجعله مقرًا للتوحيد.

﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج ٢٦].

وأمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام أن يؤذن في الناس بالحج:

﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج ٢٧]

وجاء أنّ إبراهيم عليه السلام حين أمره ربه قال: يارب كيف أبلغ الناس وصوتى لا ينفذهم؟ فقيل: ناد وعلينا البلاغ فقام على مقامه وقال: ياأيها الناس إن ربكم قد اتخذ بيتا فحجّوه، فيقال أن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض، وأسمع من فى الأرحام والأصلاب وأجابه كل شىء وسمعه من حجر ومدر وشجر ومن كتب الله أنه يحج، إلى يوم القيامة «لبيك اللهم لبيك».

ثم بين الله تعالى ما فى الحج من المنافع الدنيوية والدينية الأخروية ففيه توحيد الله وطاعته واختصاصه بإجابة الدعوة. لبيك لا شريك لك لبيك، لقد بين رب العزة ما فى الحج من منافع حيث قال سبحانه:

﴿لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾ [الحج ٢٨].

وهذه الأيام المعلومات هى أيام العشر من شهر ذى الحجة والتى جاء فيها: عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال: «ما

العمل فى أيام أفضل منها فى هذه» قالوا: ولا الجهاد فى سبيل الله؟ قال: ولا الجهاد فى سبيل الله إلا رجل يخرج يخاطر بنفسه وما له فلم يرجع بشىء» رواه البخارى.

ومن هذه الأيام يوم عرفة الذى أجزل الله الجزاء فيه بالمغفرة لمن يصومه من غير الحجاج، عن أبى قتادة رضى الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن صيام يوم عرفة فقال: «أحتسب على الله أن يكفر السنة الماضية والآتية» رواه مسلم.

وفى يوم عرفة يكون ركن الحج الأعظم، ولقد كان أكثر دعاء النبى ﷺ يوم عرفة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد بيده الخير وهو على كل شىء قدير» رواه أحمد والترمذى.

وقال ﷺ: «خير الدعاء، دعاء يوم عرفة وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلى: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير» فخير ما قاله ﷺ هو توحيد الله. وفى يوم عرفة تجتمع وفود الحجيج وضيوف الرحمن بزىّ واحد لا تمييز بينهم ويُلبّون إلها واحدًا لا شريك له. ويباهى الله سبحانه وتعالى بهم ملائكته، فهو يوم العتق من النار.

عن جابر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ما منْ أيام عند الله أفضل من عشر ذى الحجة فقال رجل: هن أفضل من عدتهن جهادًا فى سبيل الله؟ قال: هن أفضل من عدتهن جهادًا فى سبيل الله، وما من يوم أفضل عند الله من يوم عرفة ينزل الله تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا فيباهى بأهل الأرض أهل السماء فيقول: انظروا إلى عبادى جاءونى شعثا غبرا ضاحين جاءوا من كل فج عميق يرجون رحمتى ولم يروا عذابى فلم يُرَ يوم أكثر عتيقا من النار من يوم عرفة» رواه أبو يعلى والبزار وابن خزيمة.

وفى هذا اليوم نزل قول الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

لقد أكمل الله الدين فلا نحتاج إلى دين غيره وأتم النعمة، فلسنا فى حاجة إلى نبيًا غير نبينا ولهذا جعله الله خاتم الأنبياء والمرسلين، إنه الدين الذى أحبه الله ورضيه، وبعث به أفضل الرسل وأنزل به أشرف الكتب.

روى ابن جرير عن هارون بن عنترة عن أبيه قال: لما نزلت ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ وذلك يوم الحج الأكبر، بكى عمر فقال له النبى ﷺ: ما يبكيك؟ قال: أبكانى أنا كنا فى زيادة من ديننا، فأما إذا أكمل فإنه لم يكمل شىء إلا نقص، فقال: «صدقت» ويشهد لهذا قوله ﷺ: «إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا فطوبى للغرباء» رواه مسلم.

وعن طارق بن شهاب قال: جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين إنكم تقرءون آية فى كتابكم، لو

علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيدا، قال: وأى آية؟ قال: قوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة: ٣] فقال عمر: «والله إنى لأعلم اليوم الذى نزلت على رسول الله ﷺ والساعة التى نزلت فيها على رسول الله ﷺ عشية عرفة فى يوم جمعة» رواه أحمد.

وإذا كانت رحلة الحج هى رحلة التوحيد حيث يُعلن الحاج توحيده لربه من أول لحظة ينوى فيها نيّة الإحرام ويلبى ربه قائلا: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك» إن كانت رحلته هى رحلة التوحيد فما بال البعض ممن عموا وصموا وبعدوا عن الحقيقة يحاولون إثارة الشبه الواهية حول التوحيد وإلصاق تهمة الوثنية بالطواف والرمى ونحو ذلك؟!

إن الطواف بالبيت استجابة للأمر الإلهى بأن يطوف الناس ببيت الله؛ لأنه أول بيت وضع للناس فى الأرض وأقسم الله تعالى ببلده ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾.

إنه البيت الذى رفع قواعده إبراهيم مناديا ومناجيا ربه وخالقه: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة ١٢٧].

ويعلن الحاج من أول لحظة يطوف فيها قائلا: «اللهم إيمانا بك، وتصديقا بكتابك، ووفاء بعهدك واتباعا لسنة نبيك سيدنا محمد ﷺ» أليس فى هذا أبلغ رد على تلك الشبهة الواهية التى لا أساس لها من الصحة؟! أليس هذا إعلانًا وإقرارًا بأن الطواف ما كان إلا إيمانًا بالله وحده لا شريك له فلولا الإيمان لما كان الحج ولا الطواف، وبأنه تصديق بكتاب الله القائل:

﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩]

ووفاء بعهد الله واتباعا لتوجيه رسول الله ﷺ الذى أدى المناسك وقال: «خذوا عنى مناسككم».

بل إن رحلة الحجاج والعمار هى رحلة وفود الله، وضيوف الرحمن وليس أحدًا غير الله الواحد الأحد الفرد الصمد، عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الحجاج والعمار وفد الله إن دعوه أجابهم وإن استغفروه غفر لهم» رواه النسائى وابن ماجة.

وكما يعلن الحجاج التوحيد لله تعالى عند طوافهم يعلنون التوحيد أيضا عند رميهم للجمرات قائلين: «طاعة للرحمن، ورجما للشيطان» أى أنهم لا يفعلون ذلك ولا يرجمون الجمرات إلا طاعة لله الرحمن الرحيم الذى أمرهم بذلك على لسان رسوله ﷺ، ويتذكرون يوم رجم إبراهيم الخليل الشيطان وحذفه بالحصى حين حاول التعرض له، فليس فى أعمال الحج من طواف حول الكعبة أو رمى للجمرات أى لون من

الوثنية بل إن كل أعمال الحج قائمة على توحيد الله سبحانه، وأيضا عند استلامهم للحجر الأسود الذى نزل من الجنة، والذى كان أبيض فسوّدته خطايا بنى آدم، إنما يقتدون فى استلامه برسول الله ﷺ حين استلمه وقبله، حتى أن عمر رضى الله عنه قال: «إنى أعلم أنك حجر لا تنفع ولا تضر ولولا أنى رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك».

وإن جميع العبادات تحمل معني العبودية لله سبحانه وتعالى. وعبادة الحج يتجلى فيها هذا المعنى بصورة أعظم، ففى مناسك الحج ومشاعره يتجلى معني العبودية لله سبحانه وتعالى بأجل معانيه، وفى مناسك الحج المعنى التعبدى الذى قد يصل البعض إلى أسراره وحكمته وقد لا يصل البعض إلى الحكمة؛ حتى يظل الإنسان مؤديا الطاعة المطلقة لله سبحانه وتعالى عرف الحكمة أو لم يعرفها.

وهكذا نرى أن عبادة الحج توحد المسلمين وتجمعهم على قلب رجل واحد، وتشرق فيها المساواة بين جميع العباد فلا تستطيع أن تميز بين إنسان وآخر، لأن الحجاج يلبسون زيا واحدًا هو زى الإحرام: الإزار والرداء، لا يستطيع أحد أن يميز بين الغنى والفقير، ولا بين الرئيس والمرءوس.

كما يتجلى التوحيد لله تعالى من أول وهلة حين بوأ الله لإبراهيم مكان البيت وأمره الله: ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ [الحج ٢٦]

ويتجلى توحيد الله عند الطواف حيث نرى الحاج قائلا: اللهم إيمانًا بك وتصديقا بكتابك...» وعند السعى حيث يعلن الساعى بين الصفا والمروة توحيد الله قائلا: لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه.

وفى الوقوف بعرفة، حيث إن أفضل ما يقال هو توحيد الله «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير» وفى أرض المزدلفة وعند المشعر الحرام يُطلب من الحاج أن يذكر الله:

﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨]

وأيضا عند الجمرات يرمى الجمرة قائلا: «طاعة للرحمن ورجما للشيطان» فهو يخص الله تعالى بعبادته.

وهكذا نرى أن كل مناسك الحج توحيد لله سبحانه، فليس فيها أدنى خيط للوثنية كما زعم بعض المفترين والآثمين:

﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ [الكهف: ٥]

فما الحج إلا عبادة فيها توحيد لله تعالى، وفيها الطاعة المطلقة لله تعالى فكان الحجاج جديرين أن يعودوا من رحلتهم كما ولدتهم أمهاتهم أطهارًا وأبرارًا.

منافع الحج

أ. د/ رضا عبد المجيد المتولي ابراهيم

للأستاذ الدكتور أستاذ التفسير
بكلية أصول الدين بالمنصورة

بيّن الله تعالى أنّ حكمة الحج حصول المنافع للحجاج؛ فقال عزّ شأنه: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ (الحج: ٢٧، ٢٨).

وقوله ﴿لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ تنبيه للغرض المقصود من إتيان المؤمنين البيت الحرام رجالاً ورُكبانًا. واللام في ﴿لِّيَشْهَدُوا﴾ للعلة أو الغاية، والفعل بعدها منصوب بـ (أن) مضمرة جوازًا. و(أن) وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بلام الجر، «والجار والمجرور متعلق بـ ﴿يَأْتُوكَ﴾ وهو الأظهر»[1] والمعنى: يأتوك لأجل شهود منافع لهم.

و﴿لِّيَشْهَدُوا﴾ من الشهود بمعنى: الحضور مع المشاهدة إما بالبصر أو بالبصيرة[2]؛ فحضور المنافع حكمة الحج. والمعنى ليحضر الذين يأتون الحج منافع لهم، أي: «ليحضروا فيحصّلوا منافع لهم؛ إذ يُحصّل كل واحد ما فيه نفعه. وكُنّي بشهود المنافع عن نيلها وتحصيلها»[3]، والتعبير الكنائي أبلغ؛ لأنه يفيد المعنى المراد إثباته مع الدليل؛ فالحجاج ينالون منافع الحج ويحصلونها عن مشاهدة وحضور لمشاهد الحج.

و﴿مَنَافِعَ﴾ جمع منفعة، وهي ما يحصل للإنسان من خير. «والنَّفع: ما يُستعان به في الوصول إلى الخيرات، وما يُتوصّل به إلى الخير فهو خير»[4].

وعلى هذا فمعنى ﴿مَنَافِعَ﴾: خيرات ومصالح دينية ودنيوية، تعود

(١) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي ٨/ ٢٦٧ تحقيق د/ أحمد الخراط. ط/ دار القلم دمشق.
(٢) مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني. مادة «شهد» صـ٤٦٥ تحقيق د/ صفوان داوودي ط/ دار القلم.
(٣) التحرير والتنوير لابن عاشور ٨/ ١٧/ ٢٤٥ـ٢٤٦.
(٤) المرجع السابق. مادة «نفع» صـ٨١٩.

عليهم بالنفع والفائدة في الدنيا والآخرة. ودل على أنّ هذه المنافع عائدة إلى الحُجاج خاصة قوله ﴿لَهُمْ﴾؛ إذ «الجار والمجرور ﴿لَهُمْ﴾ متعلق بمحذوف صفة لـ ﴿مَنَافِعَ﴾، أي: منافع كائنة لهم»[5].

ونكّر ﴿مَنَافِعَ﴾ لأنه أراد منافع مختصة بعبادة «الحج» دينية ودنيوية لا توجد في غيرها من العبادات[6]، يعني: دلّ التنكير في ﴿مَنَافِعَ﴾ على تفخيم المنافع وتكثيرها بحيث لا توجد في غيرها[7]، أي: يأتوك ليحضروا منافع كثيرة عظيمة دينية ودنيوية، لا توجد في غير هذه العبادة؛ كالطواف ونظر الكعبة، وتضعيف أمر الصلاة؛ لأنّ العبادة شُرعت للابتلاء بالنفس كالصلاة والصوم، أو بالمال كالزكاة، وقد اشتمل الحج عليهما، مع ما فيه من تحمل الأثقال، وركوب الأهوال، وقطع الأسباب[8]، وقطيعة الأصحاب، وهجر البلاد والأوطان، ومفارقة الأهل والولدان، ولذلك ورد أنه يكفر الذنوب كلها[9]؛ فالتنكير هنا وإن لم يكن فيه تنوين للتعظيم والتكثير، ويجوز أن يكون للتنويع؛ أي: نوعاً من المنافع الدينية والدنيوية.[10]

هذا. وتنوعت أقوال المفسرين في المراد من منافع الحج على ثلاثة أقوال:[11]

القول الأول: أنها منافع الدنيا، وهو قول أكثر المفسرين، وقالوا: يعني التجارة والأسواق. وهو قول سعيد بن جبير والسدي وابن عباس في رواية أبي رَزين.

القول الثاني: أنها منافع الآخرة، وهو قول سعيد بن المسيب والعوفي.

واختار هذا القول أبو إسحاق الزجاج؛ قال: «ليشهدوا ما ندبهم الله إليه مما فيه النّفع لهم في آخرتهم».

وهذا القول اختيار أبي جعفر النّحاس أيضاً؛ فاختار أنّ المراد من المنافع «المغفرة»، وقال: وهذا أحسن، أي: وأذّن في النّاس بالحج ليأتوا لعمل الحج الذي دُعوا له، وهو سبب للمغفرة. وليس يأتون من كل فج عميق، ولا أذّن فيهم ليتّجروا، وهذا بعيدٌ جداً.[12]

(٥) تفسير الإمام أبي السعود ٤/ ١٦ ط/ دار الفكر.
(٦) تفسير الكشاف للزمخشري ٣/ ١٥٢ ط/ دار الريان.
(٧) حاشية الطيبي على الكشاف ١٠/ ٤٧١ ط/ جائزة دبي الدولية.
(٨) الأسباب: جمع سبب، وهو كل شيء يتوصّل به إلى غيره، ومن معاني الأسباب: المودة. لسان العرب لابن منظور، مادة: «سبب» ٣/ ١٩١٠.
(٩) يراجع مدارك التنزيل وحقائق التأويل للإمام أبي البركات النسفي ٣/ ١٥١ ط/ دار النفائس، والبحر المديد في تفسير القرآن المجيد لأحمد بن محمد بن عجيبة ٣/ ٥٢٩ طبع على نفقة د/ حسن عباس زكي. القاهرة ١٤١٩هـ.
(١٠) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للآلوسي ٦/ ١٧/ ١٤٥ ط/ دار الفكر.
(١١) يراجع جامع البيان عن تأويل آي القرآن لابن جرير الطبري ١٠/ ١٩٢ـ١٩٣ بتصرف ط/ دار الفكر، الوسيط في تفسير القرآن المجيد للإمام أبي الحسن الواحدي ٣/ ٢٦٧ـ٢٦٨ بتصرف.
(١٢) معاني القرآن الكريم للإمام أبي جعفر النحاس ٤/ ٤٠٠ ط/ مركز إحياء التراث الإسلامي بمكة المكرمة.

القول الثالث: أنها منافع في الدنيا والآخرة من التجارة والأجر، وهو رواية عطاء عن ابن عباس؛ قال: منافع لهم في الدنيا والآخرة. وقول مجاهد بن جبر: «هي منافع في الآخرة ومنافع في الدنيا؛ الأجر والربح»(١٣)، وفي رواية ثانية عنه: «الأجر في الآخرة والتجارة في الدنيا».(١٤) وفي رواية ثالثة عنه: «التجارة وما يرضى الله به من أمر الدنيا والآخرة».(١٥)

وهذا الخلاف بين المفسرين من قبيل اختلاف التنوع، لا التضاد، والقول الثالث هو الذي نختاره ونرجحه؛ لاشتماله على القولين الأول والثاني، ولورود كلمة ﴿مَنَٰفِعَ﴾ في الآية مطلقة؛ فتشمل المنافع الدينية والدنيوية. وهذا ما رجحه المحققون من المفسرين كشيخ المفسرين الإمام ابن جرير الطبري؛ فقال: «وأولى الأقوال بالصواب قول مَن قال: عنى بذلك: ليشهدوا منافع لهم من العمل الذي يرضي الله والتجارة، وذلك أن الله عمّ لهم منافع جميع ما يَشْهَد له الموسم، ويأتي له مكة أيام الموسم من منافع الدنيا والآخرة، ولم يخصص من ذلك شيئا من منافعهم بخبر ولا عقل، فذلك على العموم في المنافع التي وصفت»،(١٦) وتابعه على ذلك الإمام أبو بكر الجصاص؛ فقال: «ظاهر النص يوجب أن يكون قد أُريد به منافع الدين وإن كانت التجارة جائزة أن تُراد؛ وذلك لأنه قال: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ۝٢٧ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ﴾ فاقتضى ذلك أنهم دُعوا أُمروا بالحج ليشهدوا منافع لهم، ومحال أن يكون المراد منافع الدنيا خاصة لأنه لو كان كذلك كان الدعاء إلى الحج واقعاً لمنافع الدنيا، وإنما الحجُّ والطوافُ والسعيُ والوقوفُ بعرفة والمزدلفة ونحر الهَدْي وسائر مناسك الحج، ويدخل فيها منافع الدنيا على وجه التَّبع والرخصة فيها دون أن تكون هي المقصودة بالحج، وقد قال الله تعالى:

﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ البقرة: ١٩٨

فجعل ذلك رخصة في التجارة في الحج».(١٧) والإمام أبو جعفر الطوسي؛ فقال في تفسير المنافع: «الأجر والثواب في الآخرة، والتجارة في الدنيا»(١٨)، والإمام أبو بكر بن العربي فاختار عموم معنى المنافع، وقال: «فإنها تشمل كل ما قيل فيها من نسك وتجارة ومغفرة ومنفعة دنيا وآخرة»(١٩)، والإمام فخر الدين الرازي فقال: «والأولى حمل المنافع على منافع الدنيا ومنافع الآخرة»(٢٠)، والإمام ابن جزي الكلبي؛ فقال: «منافع له بالتجارة، وقيل: أعمال الحج وثوابه، واللفظ أعم من ذلك»(٢١)، والإمام برهان الدين البقاعي فقال: «هي منافع دينية ودنيوية؛ فإنه كما جعل سبحانه تلك المواطن ماحية للذنوب، جالية للقلوب، جعلها جالبة للفوائد، جارية على أحسن العوائد، سالبة للفقر، جابرة للكسر»(٢٢).

والإمام الآلوسي؛ فقال: «وتعميم المنافع بحيث تشمل المنافع الدينية والدنيوية أولى»(٢٣)، والشوكاني؛ فقال: «والمنافع تعم منافع الدنيا والآخرة»(٢٤).

ومما يؤكد عموم منافع الحج في الدنيا والآخرة ما ورد عن خامس الخلفاء الراشدين سيدنا عمر بن عبد العزيز أنه كان يقول إذا وقف بعرفة: «اللهم إنَّك دعوت إلى حج بيتك ووكدت المنفعة على شهود مناسكك، وقد جئتك فاجعل منفعة ما تنفعني به أن تؤتيني في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وأن تقيني عذاب النار».(٢٥)

هذا، ومن أهم منافع الحج الدينية ما يلي:

● أولاً: مغفرة الله تعالى، وعفوه، ورضوانه(٢٦) التي يظفر بها الحاج عند أداء مناسك الحج من نحو الإحرام، والطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة، والوقوف بعرفة ولا يريد بذلك إلا إجابة دعوة الحق. أخرج البخاري بسنده عن أبي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»(٢٧)، وظاهر الحديث غفران الصغائر والكبائر والتبعات.(٢٨)

● ثانيا: حصول الأجر والثواب للحجاج بما يؤدون لله من مناسك ويقومون به من عبادة.

---

(١٣) الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب ٧ / ٤٨٧٨ ط / كلية الدراسات العليا والبحث العلمي بجامعة الشارقة.
(١٤) الجزء فيه تفسير القرآن ليحيى بن يمان ص ٥٥ أثر رقم ٧١ تحقيق د / حكمت بشير ـ ط / مكتبة الدار بالمدينة المنورة.
(١٥) معالم التنزيل للإمام أبي محمد الحسن بن مسعود الفراء البغوي ٣ / ٢٧٤ ط / دار المعرفة.
(١٦) جامع البيان عن تأويل آي القرآن لابن جرير الطبري ١٠ / ١٩٤.
(١٧) أحكام القرآن للإمام أبي بكر الجصاص ٣ / ٣٤٥ ط / دار الفكر.
(١٨) التبيان في تفسير القرآن لأبي جعفر الطوسي ٧ / ٣١٠ ط / دار إحياء التراث العربي بيروت.

(١٩) أحكام القرآن لأبي بكر بن العربي ٣ / ٢٨٢ ط / دار الفكر.
(٢٠) مفاتيح الغيب للإمام الرازي ١١ / ٢٦٧ ط / دار الغد العربي.
(٢١) التسهيل لعلوم التنزيل للإمام محمد بن أحمد بن جزي الكلبي الغرناطي ٣ / ٩٨٩ط / دار الضياء بالكويت.
(٢٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي ١٣ / ٣٨ ط / مكتبة ابن عباس.
(٢٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للآلوسي ٦ / ١٧ / ١٤٥ ط / دار الفكر.
(٢٤) فتح القدير للشوكاني ٣ / ٥٦١ ط / دار المعرفة.
(٢٥) الوسيط في تفسير القرآن المجيد لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي ٣ / ٢٦٨ط / مكتبة دار الباز.
(٢٦) الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب ٧ / ٤٨٧٨، مفاتيح الغيب للإمام الرازي ١١ / ٢٦٧، لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن ٣ / ٢٨٧ ط / المكتبة الشعبية بيروت، تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥ / ٤١٠ط / دار الشعب.
(٢٧) صحيح البخاري- كتاب الحج- باب فضل الحج المبرور، فتح الباري لابن حجر ٤ / ٣٨٩ ح رقم ١٥٢١ ط / دار طيبة.
(٢٨) فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر ٤ / ٣٩١.

• ثالثاً: التذكر والاعتبار للمسافرين بما يشاهدونه في البحار والجبال والصحارى من آيات الله تعالى، ومصنوعاته وعجائبه في مخلوقاته فيكمل الإيمان ويقوى اليقين.[٢٩]

• رابعاً: التدرب على الإكثار من ذكر الله تعالى؛ ولذلك «خصّ من المنافع أن يذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام. وذلك هو النّحر والذبح للهدايا»[٣٠]؛ فقال سبحانه:

﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾

ولذلك يكثر تكرار مادة «الذكر» في ثنايا آيات الحج؛ مثل قوله تعالى:

﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾

(البقرة: ١٩٨).

وقوله ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾

(البقرة: ٢٠٠)

وقوله:

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾

(البقرة: ٢٠٣)

إذ الحج مجال للتدريب على الذكر من حيث رؤية مشاهده، «فكل عمل من أعمال الحج هو ذكر لله.. فالإحرام ذكر، والطواف بالبيت الحرام ذكر، واستلام الحجر الأسود ذكر.. والسعي بين الصفا والمروة ذكر.. والوقوف بعرفة ذكر، ورمي الجمرات ذكر.. وحركات الحاج وسكناته في أيام الحجّ كلها ذكر.. حيث يلهج الحجيج دائما بالتلبية، والتكبير..»[٣١]

• خامساً: اجتماع أهل التوحيد في صعيد واحد ليتلقى بعضهم عن بعض ما به كمال إيمانه[٣٢].

• سادساً: منافع روحية تفيض من جلال المكان وروعته وبركته، على كل من يطوف بحماه، وينزل ساحته، وذلك بما يغشى الروح من هذا الحشر العظيم الذي حشر فيه الناس، على هيئة واحدة، في ملابس الإحرام، مجرّدين من متاع الدنيا، وما لبسوا فيها من جاه، وسلطان.. إنهم هنا في هذا الموطن الكريم على صورة سواء، فيما يأتون من أعمال الحج

(٢٩) الرسالة المهذبة في تفسير آيات من سورة الحج للشيخ محمد يونس العادلي ص٣٠ ط / مطبعة حجازي.
(٣٠) التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور٨ / ١٧ / ٢٤٦ ط / دار سحنون.
(٣١) التفسير القرآني للقرآن للشيخ / عبد الكريم الخطيب ٩ / ١٠١٩ ط / دار الفكر العربي.
(٣٢) المرجع السابق

من سعي، وطواف، ووقوف بعرفة، ورمي للجمرات.. ومن تلبية، وتضرع، وتعبّد لله ربّ العالمين.. إنهم في مشهد أشبه بمشهد الحشر يوم القيامة.. حيث تعنو الوجوه للحي القيوم، وحيث تخشع الأصوات لجلاله وقيومته..[٣٣]

• سابعاً: أن الحج موسم عبادة تصفو فيه الأرواح، وهي تستشعر قربها من الله في بيته الحرام. وهي ترفّ حول هذا البيت وتستروح الذكريات التي تحوم عليه، وترف كالأطياف من قريب ومن بعيد.. طيف إبراهيم الخليل- عليه السلام- وهو يودع البيت فلذة كبده إسماعيل وأمه، ويتوجه بقلبه الخافق الواجف إلى ربه:

﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾

(إبراهيم: ٣٧)..

وطيف هاجر، وهي تستروح الماء لنفسها ولطفلها الرضيع في تلك الحرة المتلهبة حول البيت، وهي تهرول بين الصفا والمروة وقد أنهكها العطش، وهدها الجهد وأضناها الإشفاق على الطفل.. ثم ترجع في الجولة السابعة لتجد النبع يتدفق بين يدي الرضيع الوضيء. وإذا هي زمزم. ينبوع الرحمة في صحراء اليأس والجدب.

وطيف إبراهيم- عليه السلام- وهو يرى الرؤيا، فلا يتردد في التضحية بفلذة كبده، ويمضي في الطاعة المؤمنة إلى ذلك الأفق البعيد: «قال:

﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾

(الصافات: ١٠٢)

فتجيبه الطاعة الراضية في إسماعيل- عليه السلام-: «قال:

﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾

(الصافات: ١٠٢)..

وإذا رحمة الله تتجلى في الفداء:

﴿وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾

(الصافات: ١٠٤- ١٠٧)..

وطيف إبراهيم وإسماعيل- عليهما السلام- يرفعان القواعد من البيت، في إنابة وخشوع: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾

(البقرة: ١٢٧- ١٢٨)..

(٣٣) التفسير القرآني للقرآن للشيخ / عبد الكريم الخطيب ٩ / ١٠١٧.

وتظل هذه الأطياف وتلك الذكريات ترف وتتتابع، حتى يلوح طيف عبد المطلب، وهو ينذر دم ابنه العاشر إن رزقه الله عشرة أبناء. وإذا هو عبد الله. وإذا عبد المطلب حريصٌ على الوفاء بالنذر. وإذا قومه من حوله يعرضون عليه فكرة الفداء وإذا هو يدير القداح حول الكعبة ويضاعف الفداء، والقدح يخرج في كل مرة على عبد الله، حتى يبلغ الفداء مائة ناقة بعد عشر هي الدية المعروفة. فيقبل منه الفداء، فينحر مائة وينجو عبد الله. ينجو ليودع رحم آمنة أطهر نطفة وأكرم خلق الله على الله- محمد رسول الله ﷺ ثم يموت! فكأنما فداه الله من الذبح لهذا القصد الوحيد الكريم الكبير! ثم تتواكب الأطياف والذكريات. من محمد رسول الله ﷺ وهو يدرج في طفولته وصباه فوق هذا الثرى، حول هذا البيت.. وهو يرفع الحجر الأسود بيديه الكريمتين فيضعه موضعه ليطفئ الفتنة التي كادت تنشب بين القبائل.. وهو يصلي.. وهو يطوف.. وهو يخطب.. وهو يعتكف.. وإن خطواته- عليه الصلاة والسلام- لتنبض حية في الخاطر، وتتمثل شاخصة في الضمير، يكاد الحاج هناك يلمحها وهو مستغرق في تلك الذكريات.. وخطوات الحشد من صحابته الكرام وأطيافهم ترف وتدف فوق هذا الثرى، حول ذلك البيت، تكاد تسمعها الأذن وتكاد تراها الأبصار!»(٣٤).

● ثامناً: الحج بعد ذلك كله مؤتمر جامع للمسلمين قاطبة. مؤتمر يجدون فيه أصلهم العريق الضارب في أعماق الزمن منذ أبيهم إبراهيم الخليل: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ (الحج: ٧٨)..

ويجدون محورهم الذي يشدهم جميعا إليه: هذه القبلة التي يتوجهون إليها جميعا ويلتقون عليها جميعا.. ويجدون رايتهم التي يفيئون إليها. راية العقيدة الواحدة التي تتوارى في ظلها فوارق الأجناس والألوان والأوطان.. ويجدون قوتهم التي قد ينسونها حينا. قوة التجمع والتوحد والترابط الذي يضم الملايين. الملايين التي لا يقف لها أحد لو فاءت إلى رايتها الواحدة التي لا تتعدد.. راية العقيدة والتوحيد.(٣٥)

تاسعاً: تطهير الإنسان والعود به إلى فطرته الأصيلة.

«في الحج غايات سامية تعود بالإنسان إلى فطرته الأصيلة، وتطهره مما ران على قلبه وما غشاه من صنوف الأنانية والولوع بالمادية. فالحج فيه ترك ومنح معاً، فيه ترك للمظاهر الزائدة على الفطرة الإنسانية والفاتنة للإنسان والمقسية لقلبه، وفيه منح عن طريق الهَدْي والأضحية مما يُنتفع به من بهيمة الأنعام وأنواع المواساة الأخرى لمن يلتقي بهم من إخوته الحجاج، فيعمل على إرشادهم ورفع مستواه فكرياً ومادياً.

وبذلك تصب عبادة الحج في نفس الغاية التي تهدف إليها عبادة الصلاة والزكاة والصوم من الوحدة الدينية التي يوجبها الله على جميع المسلمين ليكونوا كالبنيان يشد بعضه بعضًا، وكالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى؛ لأنهم إذا تحقق لهم اتجاه واحد حصلوا على الاستقامة والاتزان في سلوكهم»(٣٦).

● عاشرًا: الاتعاظ والإفادة من جميع مناسك الحج بالتنبيه على حال الإنسان إذا انتقل من دار الفناء إلى دار البقاء؛ ولقد أحسن الإمام أبو البركات النَّسفي في تصوير فريضة الحج، وفي عقد الشبه بينها وبين الحياة الآخرة؛ فقال: «فالحاجُّ إذا دخل البادية لا يتكلُ فيها إلا على عَتاده، ولا يأكلُ إلا من زاده، فكذا المرءُ إذا خرج من شاطئ الحياة، وركب بحرَ الوفاة، لا ينفع وَحْدتَه إلاَّ ما سعى في معاشه لمعاده، ولا يؤنسُ وحشته إلا ما كان يأنس به من أوراده. وغُسْلُ مَنْ يُحْرِم، وتأهبُه، ولُبْسُه غيرَ المخيط، وتطيُّبُه، مرآةٌ لما سيأتي عليه من وضعه على سريره لغُسْله، وتجهيزه مطيباً بالحنوط، ملفوفاً في كفن غير مخيط. ثم المُحْرِمُ يكون أشعثَ حيرانَ.. فكذا يومَ الحشر يخرج من القبر لهفان. ووقوفُ الحجيج بعرفات، آملين رَغَباً ورَهَباً، سائلين خوفاً وطمعاً، وهم من بين مقبول ومخذول كموقف العَرَصات(٣٧):

﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ (هود: ١٠٥).

والإفاضةُ إلى المزدلفة بالمساء هو السوقُ لفصل القضاء. ومِنًى هو موقفُ المُنَى للمذنبي إلى شفاعة الشافعين. وحلقُ الرأس والتنظيف كالخروج من السيئات بالرحمة والتخفيف. والبيتُ الحرام الذي مَنْ دخله كان آمناً من الإيذاء والقتال، أنموذج لدارِ السلام التي هي مَنْ نزلها بقي سالماً من الفناء والزوال، غير أنَّ الجنة حُفَّت بمكاره النفس العاديَة، كما أنَّ الكعبةَ حُفَّت بمتالف البادية، فمرحباً بمن جاوز مهالك البوادي شوقاً إلى اللقاء يوم التنادي»(٣٨).

ولعلَّ هذا بعض السرِّ في مجيء آيات الحج في هذه السُّورة التي بدئت بهذا العرض المثير لأهوال القيامة ومفازعها:

(٣٤) في ظلال القرآن للأستاذ/ سيد قطب ٤ / ٢٤١٩.
(٣٥) في ظلال القرآن ٤ / ٢٤١٩ وما بعدها.
(٣٦) صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم للشيخ/ عبد الرحمن الدوسري ٣ / ٢٦١ ط/ مكتبة دار الأرقم.
(٣٧) العرصات: جمع عَرْصة، وهي كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء.
(٣٨) مدارك التنزيل وحقائق التأويل للإمام أبي البركات النسفي ٣ / ١٥١.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾.

(الحج: ١-٢)

فما أقرب الشبه بين موكب الحجيج، وبين الحشر في هذا اليوم العظيم.. إن الحجّ نفسه، هو صورة مصغرة للحياة الآخرة، التي تبدأ من الموت، ثم البعث، والحشر، والحساب، والجزاء. وتأمل ختام آيات الحج في سورة البقرة بقوله: ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾

(البقرة: ٢٠٣)

● الحادي عشر: وعن بعض العارفين: هي سُبحات[٣٩] البادية وزُلفاتها الليليّة والنّهارية.[٤٠]

قيل: كان أبو سَعيد النيسابوري يحج من نيسابور ويُحرم منها ويصلّي عند كل مَيْل في البادية رَكْعَتَيْن، فقيل له في ذلك، فقال: إنّ الله جلّ جلاله يقول: ﴿ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ ﴾ وهذا منافعي في حجتي.[٤١]

● الثاني عشر: ما وعد الله تعالى الحجيج عليه من الزيادات، والبركات، والإجابات[٤٢]

أما منافع الحج الدنيوية فيمكن تصنيفها إلى ما يلي:

النوع الأول: منافع مادية أو اقتصادية. وهذه المنافع المادية عبارة عن:

الأول: التجارة بين الحجيج من شتى البلاد، فتنمو أموالهم بالتجارة فيها من بيع وشراء بين تلك الجموع المحتشدة. وبهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره من علماء السلف.[٤٣] وهذه التجارة في الحج جائزة للحاج من غير كراهة إذا لم تكن هي المقصودة من سفره.[٤٤]؛ لأنه لا يكون القصد للتجارة خاصة، وإنما الأصل قصد الحج، والتجارة تَبَعٌ.[٤٥] فالقصد إلى التجارة بعد القصد إلى أداء فريضة الحج لا يخل بالإخلاص الكافي لاستحقاق المثوبة

(٣٩) يعني: صلوات النوافل في البادية في طريق الحاج إلى مكة شرفها الله تعالى.
(٤٠) حاشية الطيبي على الكشاف ١٠ / ٤٧١.
(٤١) حقائق التفسير لأبي عبد الرحمن السلمي ٢ / ٢٢ ط / دار الكتب العلمية.
(٤٢) المرجع السابق.
(٤٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن لابن جرير الطبري ١٠ / ١٩٣.
(٤٤) حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي ٦ / ٥٠٩ ط / دار الكتب العلمية.
(٤٥) زاد المسير في علم التفسير لأبي الفرج بن الجوزي ٥ / ٢٩١ ط / دار الفكر.

من الله. وضابط ذلك أن يعزم على أداء فرض الحج، ويشعر في نفسه أنّ التجارة إنما جاءت عرضاً بحيث لو عرض له مانع من تعاطي التجارة لم ينثن عزمه عن الحج، أو يصبه وهن، واستمر على قصد الحج والإقبال عليه بصدر منشرح وقلب سليم[٤٦]، وأشار تعالى إلى جواز التجارة في الحج بقوله:

﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾.

(البقرة: ١٩٨).

أخرج الإمام البخاري بسنده عن ابن عبّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ ذُو الْمَجَازِ وَعُكَاظٌ مَتْجَرَ النَّاسِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَلَمَّا جَاءَ الإِسْلامُ كَأَنَّهُمْ كَرِهُوا ذَلِكَ حَتَّى نَزَلَتْ ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ فِي مَوَاسِمِ الْحَجِّ[٤٧]

وقوله: «في مَوَاسِمِ الْحَجِّ» من القراءة الشاذة وحكمها عند الأئمة حكم التفسير[٤٨]

وعلى هذا فمن أهم المنافع المادية في الحج تجارات تتبادل بين الأقاليم الإسلامية، فأهل كل إقليم يجلبون معهم من مواردهم ما لا يكون عند غيرهم، فما عند الهنود من خيرات يفيضون به على غيرهم من المسلمين، وما عند المصريين من خيرات يفيضون به على غيرهم ممن ليس عندهم مثلها أو هو قليل، وتعقد في مواسم الحج الصفقات الاقتصادية وذلك ليس بممنوع، بل هو مطلوب، كما سبق في قوله: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾، وإن ذلك يجيز بل يوجب أن يعقد في موسم الحج الاتفاقات التجارية، ويتخذ من موسم الحج موعدًا للدراسات الاقتصادية بين المسلمين، ولقد كانت في مكة الأسواق التجارية مثل عكاظ وذي المجاز، وغيرهما[٤٩]، فالحج موسم تجارة ومعرض نتاج، وسوق عالمية تقام في كل عام؛ فهو كالمعرض العام لمنتوجات المسلمين ومجلوباتهم مما يحصل انتفاع بعضهم مما ينتجه البعض الآخر من مصنوع أو مزروع، وإنعاش بعضهم البعض، وتشجيع بعضهم لبعض.

الثاني: حصول الثراء واليسار لأهل مكة وتلك البقاع بما يبذله لهم الحجاج من الأموال ويجلبونه لهم من الأرزاق في

(٤٦) مقال بعنوان: «تفسير آيات من سورة الحج للشيخ محمد الخضر حسين، مجلة لواء الإسلام- العدد الرابع أول ذي الحجة ١٣٦٦هـ، ١٥ أكتوبر ١٩٤٧م.
(٤٧) صحيح البخاري- كتاب الحج- باب التجارة أيام الموسم والبيع في أسواق الجاهلية. فتح الباري ٤ / ٧٢٩ ح رقم ١٧٧٠ ط / دار طيبة.
(٤٨) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٤ / ٧٣١.
(٤٩) زهرة التفاسير للشيخ محمد أبو زهرة صـ٤٩٧٣ ط / دار الفكر العربي.

موسم الحج فيتسعون وييسرون من وقت الحج إلى نظيره كل عام، وهذا فضل الله يسوقه لمكة وما جاورها رحمة ورأفة.[٥٠]

الثالث: ومن ذلك أيضاً ما يصيبه أهل الحرم والحجاج من لحوم البدن والذبائح؛ كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما[٥١]، ومن أجل ذلك امتن الله تعالى عليهم بوفرة الرزق؛ فقال:

﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ (القصص: ٥٧).

النوع الثاني: منافع معنوية. وهذه المنافع المعنوية متعددة؛ من أهمها:

المنافع السياسية: وذلك أنَّ الله تعالى جعل الحج لعباده مؤتمرًا عالمياً سنوياً خصوصياً وعمومياً، شعبياً وحكومياً، تلتقي فيه جميع الأجناس والطوائف الإسلامية على مستوى واحد وفي أماكن متعددة، من شعائر الله، يلتقي فيها الكبير والصغير، والغني والفقير، مَنْ لم يلتق بالآخر حول الكعبة التقى حول زمزم، أو التقوا في المسعى بين الصفا والمروة، أو في سائر الأسواق والمنازل، أو في طريق منى وعرفات، أو في المخيم في أحدهما، أو في مزدلفة أو في مسجد الخيف وغيره، في ذهابهم إلى تلك المشاعر وإيابهم، فإن الله العليم الحكيم جعل هذه التنقلات لحكمة الالتقاء والتعارف حتى في رمي الجمرات وطريقها. فينبغي للحجاج اغتنام الفرصة في هذا المؤتمرالعالمي الفريد من نوعه، فيفضي كل جنس إلى الآخر بمشاكله المختلفة، فيتدارسونها ليوجدوا لها الحلول، ويتحسس كل منهم آلام الآخر ليعالجوها على ضوء دينهم، فيرفد بعضهم بعضاً رفداً حسياً ورفداً معنوياً في كل ناحية من نواحي الحياة، فإن الحج مؤتمر إسلامي عمومي لتوحيد غايات المسلمين وتوجيههم إلى مصادر الحياة الطيبة الصحيحة، فإن الدين والدنيا مترابطان في نظر الإسلام، لأن الدين يمد الأرواح بالإيمان الصحيح المدعم بالأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة. أما أمور الدنيا فتمد المسلمين بعناصر القوة والنماء مع جعلها وسيلة لا غاية. وما قيمة الحج إذا لم يقتبس بعضهم من بعض حلولاً لمشاكلهم الثقافية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية؟ وما قيمة حجهم إذا لم يقم بعضهم برفد بعض رفداً مادياً ومعنوياً؟[٥٢]

وبهذا نرى أن الحج مؤتمر عالمي بالنسبة لأبناء العالم الإسلامي يمكنهم أن ينتهزوه من أجل «دراسة التعاون الإسلامي

(٥٠) الرسالة المهذبة في تفسير آيات من سورة الحج للشيخ محمد يونس العادلي ص٣٠.
(٥١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥/ ٤١٠، وروح المعاني للآلوسي ٩/ ١٧/ ١٤٥.
(٥٢) صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم للشيخ/ عبد الرحمن الدوسري ٣/ ٢٦٠.

من كل النواحي الاجتماعية والحربية والتعاونية والتعليمية، ويعمل كل إقليم على التعرف ببقية الأقاليم الإسلامية والتعرف بحاجاته من العلم والحرب وغيرهما، وكذلك يشعر كل إقليم بأنه يعيش في مدن الأقاليم الإسلامية، ولا يشعر بنفرة الانفراد»[٥٣].

وهذا ما عبر عنه بعض الأجلة بقوله: «التعارف، ثم التوادّ، ثم الاتحاد، ثم التعاون على إقامة المصالح العامة، ودفع الأخطار الفادحة، ولو اتجهت أنظار الشعوب الإسلامية إلى هذه الغاية الخطيرة بعناية وعملوا لها بحكمة وحزم لوجدوا أكبر مساعد على أن تتوافق آراؤهم، وتتقارب مشاربهم، وتتماثل مراميهم، فيستعيدوا سيادتهم، ويعيشوا في عزة وطمأنينة»[٥٤].

المنافع العقلية: من المنافع المعنوية للحج أيضاً: منافع عقلية، يحصلها الحجاج عن قصد وغير قصد، حيث يلتقي بعضهم ببعض وينظر بعضهم فى أحوال بعض، وفي البلاد التي جاءوا منها، وما في هذه البلاد من صور الحياة، وأعمال الناس، وثمرات أفكارهم وأيديهم، وذلك فيما حملوه معهم من آثار الحياة عندهم، وما كان لهم من جديد ومستحدث.. وبهذا يتبادلون المعرفة، كما يتبادلون السلع بينهم، بيعًا وشراءً، أو يتهادونها، مودة وإخاء[٥٥]، كما كان العلماء من مختلف أقطار الأرض يلتقون في موسم الحج في البقاع المقدسة ويقرأ بعضهم القرآن على بعض بالقراءات المتنوعة، ويروي بعضهم عن بعض السنة النبوية وكتب الأحاديث المتنوعة. ومن ثم كان الحج مجالاً لتقابل العلماء وأخذ بعضهم الإجازات عن بعض في القراءات والسنة النبوية. وأخيراً فالحج مؤتمر للتعارف والتشاور وتنسيق الخطط وتوحيد القوى، وتبادل المنافع والسلع والمعارف والتجارب. ومنافعه تشمل المنافع الدينية والسياسية، والاقتصادية، والثقافية، والاجتماعية، والأدبية.

ومنافع الحج المنوه بها في قوله سبحانه: ﴿لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ تشمل كل جيل بحسب ظروفه وحاجاته وتجاربه ومقتضياته. ولا بد للمسلمين من تحصيل المنافع الذي شرع الله الحج من أجلها، لا أن ينقلب الحج إلى زحام ولكام وشتم وجدال واستمرار على الجهل والتنافر، كما هي الحال الآن لبعض الناس، والعياذ بالله تعالى.

(٥٣) زهرة التفاسير ص٤٩٧٣.
(٥٤) مقال بعنوان: «تفسير آيات من سورة الحج للشيخ محمد الخضر حسين، مجلة لواء الإسلام- العدد الرابع أول ذي الحجة ١٣٦٦هـ، ١٥ أكتوبر ١٩٤٧م.
(٥٥) التفسير القرآني للقرآن للشيخ/ عبد الكريم الخطيب ٩/ ١٠١٩.

حجة النبي كما رواها جابر

د/ أحمد محمد عرفة

في المقال السابق، وقفنا مع أطول آية عن الحج في الكتاب العزيز، وهي الآية ١٩٦ من سورة البقرة. وفهمنا من نصها وسياقها أنها تتضمن توجيهًا بأداء العمرة في الحج، ونهيًا لمن ساق الهدي أن يحل قبل يوم النحر، وإلزامًا بالهدي وبالصيام لمن لم يجد هديا.

نجد التوجيه بأداء العمرة في الحج في قوله تعالى: ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ متبوعا في نفس الآية بقوله ﴿ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ ومن عادة القرآن في استعمال كلمة ﴿ فَمَن ﴾ أن يستخدمها للاستفهام أو التنويع أو الطلب، ويبين السياق في كل موضع، هل أُريدَ بها الاستفهامُ أم التنويعُ أم الطلب. ومثال الاستفهام قوله تعالى: ﴿ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ﴾ (الروم: ٢٩)

ومثال التنويع قوله عن شهر رمضان:

﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ (البقرة: ١٨٥)

فالآية تقسم المخاطبين بالصيام إلى قسمين أو نوعين؛ الأول (من شهد الشهر مقيما غير مريض) فعليه أن يصوم، والثاني (مَن كان مريضا أو على سفر) فعليه عدة من أيام أخر بعد رمضان، ولا تكون ﴿ فَمَن ﴾ للتنويع إلا إذا تبعها بيان النوعين أو الأنواع. ومثال استعمال ﴿ فَمَن ﴾ للطلب قوله تعالى: ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (البقرة: ٣٨)

فالمعنى قلنا اهبطوا واتبعوا الهدى كيلا تجدوا حزنا ولا يكون عليكم خوف. ومن هذا النوع الطلبي قوله تعالى: ﴿ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾، فالمعنى فتمتعوا بالعمرة إلى الحج وقدِّموا ما استيسر من الهدي.

ونجد الإلزام بالهدي في إيجاب الصيام على من لم يجد هديا- في قوله تعالى عقب الأمر بتقديم ما استيسر من الهدي ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾. ولم يكن العرب قبل حجة الوداع يعرفون العمرة في الحج، ولا الحلَّ قبل نهاية أعماله، ولذلك كَبُر عليهم أمر النبي لهم أن يَحِلُّوا بعد عمرتهم. وهذا يفسر لنا لماذا ختم الله تعالى هذه الآية بقوله: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾، فهو تحذير لهم من مخالفة هذا الأمر.

ونجد النهي لمن ساق الهدي أن يحل قبل يوم النحر، في قوله بعد الأمر بإتمام الحج والعمرة لله ﴿ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ﴾، ذلك أن الآية كلها خطاب للناس في حجة الوداع، ولم تنزل قبل ذلك، والنهي في هذه العبارة موجّه لمن ساق الهدي، لأنه لا يمكن أن يخاطَب بها مَن لم يسق هديا.

وقد كان العرب لا يُحلُّون في عمرة ولا حج إلا في آخر النُّسك، بدليل أنهم أنكروا أمرهم بالحل قبل نهاية النسك في حجة الوداع وفي عمرة الحديبية، ولم يحلوا في الموقفين إلا بعد أن راجعهم النبي مرات. وعند رعاية هذه القرائن السياقية يتبين أن هذه العبارة نهيٌ لمن ساق الهدي في حجة الوداع أن يحل بعد عمرته، وأمرٌ له بتأخير الحلّ من عمرته إلى يوم العيد. ولذلك احتج النبي بهذه العبارة في تبرير عدم حله، وهو يأمر الناس بالحل، فقال: «افعلُوا ما أمرْتُكُم، فلوْلاَ أنّي سُقْتُ الهدْيَ لفعلْتُ مثْلَ الّذي أمرْتُكُم، ولكنْ لاَ يَحلُّ منّي حَرامٌ حتّى يبْلُغَ الهدْيُ محِلَّه»، من الحديث رقم ١٥٦٨ في صحيح البخاري، عن جابر بن عبد الله. وسيرد مثله بعد قليل، في روايته الطويلة عند مسلم.

ونريد في هذا المقال أن تعرض صورة تفصيلية لحجة الوداع، وهي الحجة القياسية في الإسلام، لأن صورة الحج لا تعرف عمليا إلا من هذه الحجة؛ لأن النبي عليه السلام لم يحج غيرها.

ونعتمد في هذا العرض، على كتاب (حجة النبي عليه السلام، كما رواها جابر) للشيخ محمد ناصر الدين الألباني. ولن ننقل توثيق الألباني لكل جزء من التفاصيل، اكتفاء بذكر المرجع الذي نقلنا منه، وهو كتاب صغير. وسوف نميز ما نتدخل به للربط بين الجمل أو لتوضيح كلمة، بأن نضع ما تدخلنا به بين معكوفتين.

قال جابر بن عبد الله، رضي الله عنه: إن رسول الله مكثَ بالمدينة تسعَ سنين لم يَحُجّ، ثم أَذَّن في الناس في العاشرة: أن رسول الله حاجٌّ هذا العام. فقدمَ المدينة بشرٌ كثير، كلُّهم يلتمس أن يأتمّ برسول الله ويعملَ مثلَ عمله، فخرج رسولُ الله ﷺ لخمسٍ بقيْنَ من ذي القعدة أو أربع [أي في ٢٥ أو ٢٦ من ذي القعدة]، وساق هديا، حتى أتينا ذا الحُليفة [وهي المكان الذي يبدأ منه أهل المدينة

حجهم أو عمرتهم، لأنه لكل أهل جهة من الجهات موضع يبدءون منه يقال له المُهَلّ أو الميقات]. فصلى في المسجد، ثم ركب [ناقته] القصواء، حتى إذا استوت به ناقته على البيداء أهلّ بالحج، [والإهلال بشيء هو البدء به، ومنه أهلّ الشهرُ أي بدأ].

فأهَلَّ [النبي] بالتوحيد [أي بدأ ملبيا ذاكرا التوحيد في تلبيته]: (لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك)، وأهلَّ الناسُ بهذا الذي يُهِلّون به [أي بتلبيتهم المعهودة وليس فيها ذكر التوحيد]، فلم يَرُدّ رسولُ الله عليهم شيئا منه، ولزم رسولُ الله تلبيته.

قال جابر رضي الله عنه: ونحن نقول لبيك اللهم لبيك بالحج، تصرخُ صراخا، لسنا نعرف العمرة [في الحج] [وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه، من أن الآية التي فيها ﴿ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ لم تنزل عام الحديبية وإنما نزلت في حجة الوداع].

حتى إذا أتينا البيت معه صبحَ رابعة مضت من ذي الحجة [أي في يوم ٤ من ذي الحجة]- استلمَ الحجرَ الأسودَ [أي لمسه بيده]، ثم مضى [حول البيت جاعلا البيت عن يساره] فرَمَلَ [أي أسرَعَ المشيَ] حتى عاد إليه، ثلاثا، ومشى أربعا [من غير إسراع].

ثم خرج من باب الصفا إلى الصفا، [وهو اليوم في داخل المسجد، وكذلك المروة]، فلما دنا من الصفا قرأ: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾، فبدأ بالصفا فرقى عليه حتى رأى البيت، فاستقبل القبلة فوحّد اللهَ وكبّره ثلاثا، وحمِدَه، حتى أتى المروة، فرقي عليها حتى نظر إلى البيت، ففعَلَ على المروة كما فعل على الصفا.

حتى إذا كان آخرُ طوافه على المروة [أي أتم الشوط السابع] قال: (يا أيها الناس، لو أني استقبلت من أمري ما استدبرت لم أسُق الهدي، فمن كان منكم ليس معه هدي فليَحِلّ، وأقيموا حلالا. حتى إذا كان يومُ التروية[1]، فأهِلّوا [أي ابدءوا] بالحج، فقام سُراقةُ بن مالك بن جُعْشُم، وهو في أسفل المروة، فقال: يا رسول الله: أرأيت عُمرتَنا هذه [والحلّ بعدها]، لعامنا هذا أم لأبد الأبد؟ فشبّكَ رسولُ الله أصابعَه واحدةً في الأخرى، وقال: دخلت العمرة في الحج، إلى يوم القيامة، لا، بل لأبد أبد، ثلاث مرات. فأمرَنا إذا حللنا [في آخر الحج] أن

(١) يوم التروية هو اليوم الثامن من ذي الحجة، سمّي بذلك لأنهم كانوا يتزودون فيه بالماء من زمزم، بما يوفي احتياجهم في عرفة ومنى.

نُهدي، فمن لم يكن معه هديٌ فليَصُم ثلاثة أيام وسبعةً إذا رجعَ إلى أهله.

[وذكر جابر حالَهم وكلامَهم حين أمرَهم الرسولُ بالحِلّ فقال:] قلنا: حِلُّ ماذا؟!! قال: الحِلُّ كلُّه. فكَبُر ذلك علينا، وضاقت به صدورُنا. قال: فخرجنا إلى البطحاء [2]، فتذاكرنا بيننا [ما أمرَنا به]، فقلنا: خرجْنا حُجّاجا لا نريد إلا الحج ولا ننوي غيره حتى إذا لم يكن بيننا وبين عرفة إلا أربعٌ، وفي رواية خمسٌ [3]، أمرَنا أن نفضي إلى نسائنا!!! [يقولون هذا وكأنه أفسد عليهم حجَّهم؛ لأنهم كانوا لا يَحلّون إلا في آخر الحج، ولا يعرفون العمرة في الحج. وكان مما قالوه: كيف يأمرُنا أن نَحلّ، وهو نفسه لم يَحلّ؟!].

فبلغ ذلك [الكلامُ] النبيَّ، فما ندري أشيءٌ بلغه من السماء أم شيءٌ بلغه من قِبَل الناس! فقام [النبي] فخطب الناس، فحمِدَ اللهَ وأثنى عليه، فقال: (أبالله تعلّمونني أيها الناس؟!!! قد علِمْتُم أني أتقاكم لله، وأصدقُكم، وأبرُّكم! افعلوا ما آمركم به. فإني لولا هديي [الذي سقته معي] لحللتُ كما تَحِلّون، ولكن لا يحلّ مني حرام، حتى يبلغ الهدي محِلّه، [وفيه دليل على أن عمرة الحج داخلة في الحج، لأنها لو كانت منفصلة لكان هدي النبي وغيره ممن ساق الهدي- قد بلغ محلّه بانتهائهم من العمرة]، ولو استقبلتُ من أمري ما استدبرتُ [أي عاد بي الزمان إلى لحظة خروجي من المدينة]- لم أسق الهدي، فحُلّوا.

قال [جابر]: فواقَعْنا النساء وتطيّبنا بالطِّيب، ولبسنا ثيابنا، وسمعنا وأطعنا، فحَلّ الناسُ كلُّهم وقصّروا إلا النبي ومن كان معه هدي.

فلما كان يوم التروية [وهو الثامن من ذي الحجة]، وجعلْنا مكة بظَهر [أي خلْفَنا]، توجّهْنا إلى مِنى، فأهلَلْنا[4] بالحج من البطحاء [أي لم يخرجوا من الحرم إلى أقرب الحِلّ، ليبدءوا إحرامَهم خارج الحرم، وإنما استأنفوا حجهم من المكان الذي أقاموا فيه في مكة. وهذا دليل ثان على أن عمرة الحج داخلة فيه وليست منفصلة عنه].

قال: ثم دخلَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم على عائشة رضي الله عنها، فوجدها تبكي، فقال: ما شأنُك؟! قالت: شأني أني قد حضت! وقد حلّ الناس [بعد عمرتهم] ولم أَحْلِلْ لأني لم أطف بالبيت[5]، والناس يذهبون إلى الحج الآن. فقال: إن هذا أمر

(٢) البطحاء المكان المتسع يمر فيه السيل فيترك فيه الرمل وصغار الحصى، والمراد موضع بعينه هذه صفته قريب من المسجد الحرام.
(٣) لأنهم قدموا لأربع مضين أو صبح رابعة، وعرفة هو اليوم التاسع من ذي الحجة.
(٤) في الأصل (توجهوا... فأهلوا)، وغيرنا الضمير ليتسق السرد على نسق واحد.
(٥) في الأصل (ولم أطف).

كتبه الله على بنات آدم، فاغتسلي ثم أهلّي بالحج، واصنعي ما يصنع الحاج، غير أن لا تطوفي بالبيت ولا تصلي، [حتى تَطْهُري].

وركبَ رسولُ الله ﷺ [إلى منى] فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر(٦)، ثم مكث قليلا حتى طلعت الشمس، وأمر بقُبَّة له من شعر تُضرب له بنمرة(٧)، فسار رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، ولا تشكُّ قريشٌ إلا أنه واقفٌ عند المشعر الحرام بالمزدلفة، ويكون منزلُه ثَمّ [أي هناك]، كما كانت قريش تصنع في الجاهلية [إذ كانت تُفيضُ من مزدلفة لا عرفة]، فأجاز رسولُ الله صلى الله عليه وسلم حتى أتى عرفة، فوجدَ القبةَ قد ضُربتْ له بنَمِرة، فنزل بها.

حتى إذا زاغت الشمس(٨)، أمَرَ بـ[ناقته] القصواء فرُحِلتْ له، فركبَ حتى أتى بطن الوادي، فخطب الناس وقال: (إن دماءكم وأموالكم حرامٌ عليكم، كحُرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا... ثم أذَّن بلالٌ بنداء واحد، ثم أقام فصلى الظهر، ثم أقام فصلى العصر، ولم يُصلِّ بينهما شيئا.

و[بعد غروب الشمس] دفعَ رسولُ الله ﷺ [أي بدأ التحرّكَ متوجها إلى مزدلفة]، وعليه السكينة، وقد شنَق للقصواء الزمام [أي شدّه لئلا تُسرع] حتى إن رأسها ليصيب مَوْرِكَ رَحْله، ويقول بيده اليُمنى هكذا: وأشار بباطن كفه إلى السماء [أي رفعها]، أيها الناس: السكينة السكينة. كلما أتى حبلا من الحبال [أي مرتفعا من المرتفعات] أرخى لها قليلا حتى تصْعَد، حتى أتى المزدلفةَ فصلى بها، فجمَعَ بين المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين، ولم يسبّح [أي يصلي] بينهما شيئا، ثم اضطجع رسولُ الله حتى طلعَ الفجر.

وصلى الفجرَ [في مزدلفة] حين تبيّن له الفجرُ، بأذان وإقامة، ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام [وهو موضع مرتفع في مزدلفة]، فرقى عليه، فاستقبل القبلة فحمد اللهَ وكبَّره وهلَّله ووحّده، فلم يزل واقفا حتى أسفر [الفجرُ] جدا، وقال: وقفتُ ههنا والمزدلفة كلها موقف.

[ثم] دفع [النبي] من جَمْع [وهي المزدلفة متوجها إلى منى]، قبل أن تطلع الشمس [مخالفا عادة الناس قبل الإسلام من انتظار شروق الشمس]، وعليه السكينة، ثم سلك الطريقَ الوسطى، التي تخرج على الجمْرة الكبرى(٩)، حتى أتى الجمرة [الكبرى]، فرماها ضُحى بسبع حصيات، يُكبِّر مع كل حصاة منها، مثلُ حصى الخَذْف، [في حجم

(٦) الظهر والعصر والمغرب والعشاء يوم الثامن، والفجر يوم عرفة.
(٧) نمرة موضع بعرفة.
(٨) زاغت الشمس: زالت الشمس مالت جهة الغرب، وبه يتحقق دخول وقت الظهر.
(٩) الجمرة موضع رمي الحصى، سمي جمرة تشبيها لاجتماع الناس عند الرمي بالاجتماع في نحر العدو، وهذا الاجتماع الأخير يسمى تجمير، لكثرة ما يقع فيه من الجراح والقتل، فكأنهم على جمر مشتعل.

حبة البقل كالفول والفاصوليا]، فرمى من بطن الوادي، وهو يقول: لتأخذوا [عني] مناسككم، فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه.

ثم انصرف إلى المنحر، فنحر [ثم حلق]، فنحرْنا البعيرَ عن سبعة، والبقرةَ عن سبعة، وجلس بمنى يوم النحر للناس، فما سُئل يومئذ عن شيء قُدِّم قبل شيء إلا قال: (لا حرَج. لا حرَج)، حتى جاءه رجلٌ فقال: حلقتُ قبل أن أنحر؟ قال: (لا حرج).

ورمى الجمرات في أيام منى إذا زالت الشمس

ثم ركِبَ رسولُ الله ﷺ بعد رمي الجمار في اليوم الثالث من أيام منى، وهو الثالث عشر من ذي الحجة]، فأفاضَ إلى البيت [وأفاضَ الناسُ معه]، فطافوا [بالبيت]، ولم يطوفوا بين الصفا والمروة، فصلّى بمكة الظهر.

قال جابر: وإن عائشة حاضتْ فنسكتْ المناسكَ كلَّها غيرَ أنها لم تطُفْ بالبيت، قال: حتى إذا طَهُرتْ طافت بالكعبة والصفا والمروة ثم قال [لها النبي]: قد حَلَلْتِ من حَجِّك وعمرتك جميعا [وهو دليل ثالث على أن عمرة الحج داخلة فيه وليست منفصلة عنه، فطواف الحائض ومن تأخر قدومُه يكفيهما عن الحج والعمرة جميعا]. فقالت: إني أجدُ في نفسي أني لم أطُف بالبيت حتى حججتُ، [بينما طاف الآخرون مرة حين قدموا ومرةً بعد أيام منى في آخر الحج].

قال جابر: وكان رسول الله رجلا سهلا إذا هَوِيَتْ [امرأتُه] الشيءَ [المباح] تابَعها عليه؛ [ولذلك] قال: فاذهَبْ بها يا عبد الرحمن، فأعمِرْها من التنعيم، [يقصد أخاها عبد الرحمن بن أبي بكر]، [وذلك] ليلة الحصبة(١٠). [وأمَرُها بالخروج إلى التنعيم لتُهِلَّ بعمرة أخرى، دليلٌ رابع على أن عمرة الحج داخلة فيه، لأنها لو كانت منفصلة عنه، لخرجوا جميعا في اليوم الثامن إلى التنعيم ليهِلُّوا منه بالحج].

وأعمال الحج وَفقا لهذا السرد، تبدأ يوم وصول الحاج إلى مكة في أشهر الحج، بأن يطوف بالبيت وبالصفا والمروة، ثم يَحِلّ من عمرته، لأن النبي عليه السلام تأسف على سوق الهدي، وهو الذي منعه من الحلّ. ولم يَعُد أحدٌ الآن يسوق الهدي معه.

وفي اليوم الثامن من ذي الحجة يتوجه من مكان إقامته في مكة إلى منى، فيبيتُ فيها، ثم يتوجّه في اليوم التالي إلى عرفة، وهذا هو يوم الوقفة، فيقضي نهاره فيها، ثم يتوجّه بعد الغروب إلى مزدلفة، فيبيتَ فيها.

وبعد صلاة فجر يوم النحر، العاشر من ذي الحجة، يوم العيد، يتوجه من مزدلفة إلى

(١٠) وهي الليلة التي تلي أيام التشريق، ويقال لها أيضا ليلة النفر، لأن الحجاج فيها ينصرفون راجعين إلى بلادهم.

منى، فيرمي الجمرة الكبرى، ثم ينحرُ، ثم يحلقُ شعره أو يقصره. ولا يباشر أحدٌ الآن النحرَ بنفسه، وإنما يحصُل على إيصال شراء الهدي مقابل دفع القيمة، وتقوم جهة مختصة بذبح الهدي في مجازر صحية، ثم تتولى توزيع جزء منه على فقراء الحرم، وتُبرِّدُ الباقي وترسله إلى الفقراء في عدد من البلاد الإسلامية.

ويقضي في منى ثلاثة أيام، من الحادي عشر إلى الثالث عشر من ذي الحجة، وله أن يتعجل المغادرة في اليوم الثاني، وحين يغادر منى مُتمًا أو متعجلا، يتوجه إلى المسجد الحرام فيطوف بالبيت، ولا يطوف بالصفا والمروة. وبذلك تنتهي أعمال الحج.

وعلى مَن منعها الحيض من الطواف أن تطوف في آخر الحج، وهو يكفيها عن حجّها وعمرتها، وكذلك من تأخر قدومُه، فلم يصلْ إلا يومَ عرفة، وتوجَّهَ إليها لئلا يفوتَه الحج. وفي ذلك حديث صحيح عن عروة بن مضرّس الطائي.

وإنه لعجيب أن يصف الفقهاءُ أمرَ النبي عليه السلام للناس، بعد أن طافوا بالبيت وبالصفا والمروة، يومَ قدومهم مكة، أن يحل منهم كل من لم يسق هديا– أن يصفوه بأنه فسخٌ للحج بعمرة، ولا يصفوه بأنه تعليمٌ وإرشاد إلى كيفية الحج، وهو التعليم الذي سأل عنه أحد الصحابة: ألعامنا هذا أم لأبد، فأجاب النبيُّ عليه السلام بقوله: لأبد الأبد. دخلتِ العمرةُ في الحج إلى يوم القيامة. ثم اختلفوا في سبب ذلك الفسخ المزعوم، واختلفوا في حكمه هل هو خاص بمن شهد حجة الوداع أم هو عامٌ لكل الناس، وهل هو خاصٌ بتلك السنة أم باقٍ إلى يوم القيامة؟!!

وقد أحسَنَ ابنُ القيم رغم تمسكه بلفظ الفسخ، إذ قال: «نحن نُشهِد الله علينا أنا لو أحرَمْنا بحج، لرأينا فرضًا علينا فسخه إلى عمرة، تفاديا من غضب رسول الله ﷺ، واتباعًا لأمره، فوالله ما نُسِخَ هذا في حياته ولا بَعدَه، ولا صَحّ حرفٌ واحدٌ يُعارِضُه، ولا خُصّ به أصحابُه دون مَن بعدَهم، بل أجرى الله الحقَّ على لسان سُراقةَ أن سأله: هل ذلك مختصّ بهم، فأجاب أن ذلك كان لأبد الأبد، فما ندري ما يُقدَّمُ على هذه الأحاديث. و[على] هذا الأمر المؤكدُ الذي غضب رسولُ الله ص على مَن خالفه»(١١).

ورضي الله عن ابن عباس، فقد ثبت عنه أنه قال عن عُمرة الحج والحِلّ بعدها: «[هذه] سُنة نبيكم ﷺ. وإن رغمْتُم» الحديث رقم ٢٠٦ / ١٢٤٤، في صحيح مسلم. ذلك أن الناس عادوا فتركوا الحِلّ، ثم عاد إليه نفرٌ منهم، ثم أصبح سمةً لنوع من أنواع الحج. والله الهادي إلى سواء السبيل.

(١١) ابن القيم: زاد المعاد: ٢/ ١٨٢ و١٨٣.

خامس أركان الإسلام



الشيخ / معوض عوض إبراهيم

الحج خامس أركان الإسلام التى يقول النبى ﷺ: (بنى الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا).

وهو الفريضة الخاتمة للدين الذى امتن الله به علينا ورضيه لنا دينًا فقال تعالى:

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾

(المائدة: ٣)

وقال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾

(آل عمران: ٨٥).

وقال: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾

(آل عمران: ١٩)

ذلك الدين الذى كان أول أركانه كلمة التوحيد وشهادة الإخلاص ورحم الله الذى قال:

فكرت فى نار الجحيم وحرها
يا ويتاه ولات حين مناص
فعهدت ربى أن خير وسيلتى
يوم الميعاد شهادة الإخلاص

ولا إلا إلا الله محمد رسول الله ترجح بكل ما سواها مما خلق الله عز وجل ولا تقبل صلاة ولا صوم ولا زكاة ولا حج إلا بها وإن تسع سجلات من المعاصى والآثام لرجل يقر يوم القيامة أنه ارتكبها وأن ملائكة الله لم ترد عليها حرفا يرجح بها سجل شهد فيه ذلك الرجل بأنه (لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله) إنها الكلمة التى يستيقظ بها وجدان المؤمن وينطق بها بينه وبين نفسه وفى ملأ من الناس وفى ليل ونهار (ومع الناس) فى غدو ورواح لكن الصلاة والصيام والزكاة والحج إذا استثنينا الصيام الذى هو سر بين العبد وربه تؤدى فى أوقاتها فالله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾.

وزكاة الفطر إنما تؤدى لمستحقيها قبل صلاة عيد الفطر ورمضان يأتى فى أوانه تاسع الشهور للعام الهجرى ثم الحج فى أشهر يقول الله فيها ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾

(البقرة: ١٩٧).

إنها شهور شوال وذو القعدة وعشر ذى الحجة أو الشهر كله وجل الله الذى يقول: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌ

﴿بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾

(آل عمران: ٩٦ / ٩٧).

إنه بيت الله الذى بنته الملائكة وبناه آدم وبنوه وأصابه ما أصابه من صنوف الدهر حتى بناه إبراهيم عليه السلام قال تعالى:

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾

(الحج ٢٦)

حتى كان أمر الله فى قوله سبحانه وتعالى:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾

(البقرة: ١٢٧ / ١٢٩)

إن النبى فى الآيات هو - قولا واحدًا - محمد ﷺ وإن الأمة المسلمة هى الجماعة الخيرة التى أسلمت صادق إسلام وآمنت أوثق إيمان بعد أن أراها الله مناسك عبادته وتاب عليها من كل ما ليس لله فيه رضا، وأمن الحرم ويذكر هنا قول عمر رضوان الله عليه لو رأيت فى البيت قاتل أبى الخطاب ما قتلته. وفى هذا البيت منافع التشاور بين الحجيج فى كل ما يقوى شوكتهم وينمى تجارتهم واقتصادهم ويجعلهم يدًا فى يد كتفًا إلى كتف فى وجوه من يتربصون بالإسلام الدوائر وما أكثرهم فى هذه الأيام التى نفزع فيها إلى الله عز وجل أن لا يجعل للظالمين علينا يدا.

﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾

(الأنفال ٣٩).

إنه مؤتمر منى الذى يشهده ضيوف الرحمن الذين جاءوا ربهم شعثًا غبرًا ضاحين من كل فج عميق من شمال الدنيا وجنوبها وشرقها وغربها وواشوقاه اليوم إلى مثل ذلك المشهد العظيم.

إن كلمة الحج تعنى القصد قصد الدار وقصد المكتب والمصنع والمؤسسة لكنه فى الحقيقة الدينية يعنى قصد بيت الله عز وجل لما قال الله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾

(البقرة:١٩٦)

نأتى بيت الله عز وجل من مداخل مكة معتمرين فى أيام العام أو حاجين فى أشهر الحج بنسك من أنساك الحج الثلاثة.

ثم إذا كان يوم التاسع من ذى الحجة أهللنا بالحج فصعدنا إلى منى ثم صعدنا إلى عرفات الساحة لا عرفات الجبل. وعرفات قمة النسك وفيه يقول النبى عليه الصلاة والسلام: «الحج عرفة» فمن شهد تلك الساحة مكبرًا مهللا داعيًا الله عز وجل مستغفرًا تائبًا منيبًا إلى مولاه باهى به الله عز وجل وبإخوانه من حجيج البيت الحرام ملائكته وهو يقول: «يا ملائكتى هؤلاء عبادى جاءونى من كل فج عميق شعثًا غبرًا ضاحين أشهدكم يا ملائكتى أنى قد غفرت لهم».

وما أكرم ربنا وأمنّه وهو يغفر للحاج ولمن استغفر لهم الحاج! وحين كان الحجيج فى طريقهم إلى مكة يرونها من بعيد يُبرِّح بهم الشوق ويعظم الحنين وهم يقولون مع الشاعر:

أبطحاء مكة هذى التى
أراه عيانًا وهذا أنا؟

ويقولون:

هذه دارهم وأنت محب
ما بقاء الدموع فى الآماق

وعلى مثل حال الذى قال:

لما رأيت مناديهم ألم بنا
شمرت متزر إحرام ولبيت
وقلت للنفس جدى اليوم و اجتهدى
وساعدينى فهذا ما تمنيت
لو جئتكم حافيًا أمشى على بصرى
لم أقض حقا وبعض الحق أديت

والإمام أبو حامد الغزالى يقول فى الجزء الثالث فى كتاب الإحياء فى موضع الحج:

وأما وجوب أداء الحج والعمرة فثلاثة:

الأول الإفراد وهو الأفضل وذلك أن يقدم الحج وحده فإذا فرغ خرج إلى الحل فأحرم واعتمر، وأفضل الحل لإحرام العمرة الجعرانة ثم التنعيم ثم الحديبية وليس على المفرد دم إلا أن يتطوع.

الثانى: القران. وهو أن يجمع فيقول: لبيك بحجة وعمرة معًا فيصير محرمًا بهما ويكفيه أعمال الحج. وتندرج العمرة تحت الحج كما يندرج الوضوء تحت الغسل، إلا أنه إذا طاف وسعى قبل الوقوف بعرفة فسعيه محسوب من النسكين، وأما طوافه فغير محسوب لأن شرط طواف الفرض فى الحج أن يقع بعد الوقوف. وعلى القارن دم شاة إلا أن يكون مكيًا فلا شىء عليه لأنه لم يترك ميقاته إذ ميقاته مكة.

الثالث: التمتع. وهو أن يجاوز الميقات محرمًا بعمرة ويتحلل بمكة ويتمتع بالمحظورات إلى وقت الحج ثم يحرم بالحج ولا يكون متمتعًا إلا بخمسة شروط:

أحدهما: أن لا يكون من حاضرى المسجد الحرام، وحاضره من كان منه على مسافة لا تقصر فيها الصلاة.

ثانيهما: أن يقدم العمرة على الحج.

ثالثهما: أن تكون عمرته فى أشهر الحج.

الرابع: أن لا يرجع إلى ميقات الحج، ولا إلى مثل مسافته لإحرام الحج.

الخامس: أن يكون حجه وعمرته عن شخص واحد.

فإذا وجدت هذه الأوصاف كان متمتعًا ولزمه دم شاة. فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج قبل يوم النحر متفرقة أو متتابعة، وسبعة إذا رجع إلى الوطن. وإن لم يصم الثلاثة حتى رجع إلى الوطن صام العشرة تتابعًا أو متفرقًا، وبدل دم القران والتمتع سواء. والأفضل الإفراد ثم التمتع ثم القران. والحاج الذى جمع بين صلاتى الظهر والعصر فى عرفات أفاض من المشهد العظيم عقب المغرب ونزل إلى المشعر الحرام فصلى المغرب والعشاء جمعًا ثم بات فى منى التى أفاض إليها من حيث أفاض الناس ثم أصبح يوم النحر فرمى الجمرة الكبرى ثم حلق إن شاء وقد تحلل التحلل الأصغر بالذبح بعد الحلق أو بالحلق بعد الذبح ولا يتحلل التحلل الأكبر إلا بعد طواف الإفاضة الذى يكون به فى سعة من أمره حتى يطوف طواف الوداع وهو يحمد الله الذى عصمه من محظورات الحج.

ونسألك اللهم لضيوفك وحجيج بيتك حجًا مبرورًا ونسألك اللهم أن تظفرنا منهم بدعوة صالحة وها نحن نعقد النية على أن نلقاهم سالمين غانمين نتصافح منا ومنهم الأيدى ونقبل منهم الجباه والعيون بسرور صادق وفرح بما وفقوا إليه وبما نالنا منهم خلال النسك من دعاء وأنت حسبنا ونعم الوكيل.

المعالم التى يرسيها الحج فى حياة الأمة المسلمة



د. السيد محمد السيد عبد النبى
الأمين العام المساعد للثقافة الإسلامية بمجمع البحوث الإسلامية

الحج بمناسكه رمز على استسلام الإنسان لله عز وجل إذا بلغه أمر الله بواسطة رسوله، إذ ينفذ الأمر بصرف النظر عن المعنى العملى لهذا الأمر، وما الطواف، والوقوف، والسعى، والحلق، والتقصير وغيرها من أعمال الحج، إلا رمز استسلام المسلم لأمر الله دون نقاش.

وهو لاشك رمز على ارتباط هذه الأمة بأبيها إبراهيم ﷺ حيث تحيى شعائره، وتطوف بالبيت الذى بناه.

وهو كذلك رمز على وحدة الأمة الإسلامية، بصرف النظر عن الأجناس والألوان والأوطان، فوحدة المسلمين نابعة من عقيدتهم ودينهم وشريعتهم.

والحج مظهر عملى لكثير من قواعد الإسلام:

فهو المظهر العملى للأخوة الإسلامية، حيث يحس المسلم بشكل عملى أنه أخ لكل مسلم فى العالم.

قَالَ تَعَالَى:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾

(الحجرات: ١٠)

وقال ﷺ «المسلم أخو المسلم لايظلمه ولايسلمه ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة» أخرجه البخارى فى صحيحه.

وهو المظهر العملى لقوله تعالى:

﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾

(الحجرات: ١٣)

وفيه يتم أعظم تعارف بين جميع شعوب العالم. وهو المظهر العملى لخضوع المسلمين جميعاً لسلطة واحدة.

والحج مدرسة يرتفع بها المسلم إلى آفاق أرقى وأعلى يتعلم بها بذل الجهد مع الصبر

«لكن أفضل الجهاد حج مبرور» أخرجه البخارى فى صحيحه.

ويتعلم بها أن يعيش فى عبادة دائمة مع الله عز وجل.

ويتعلم بها أن يكون لطيفاً مع المؤمنين رحيماً بهم.

ويتعلم بها كبح عواطفه، والزام نزواته.

ويتعلم بها دروس العبودية لله.

ويتعلم بها كيف ينفق فى سبيل الله دون مقابل.

ويتعلم بها كيف يعظم ما عظمه الله، وكيف يحقر ما حقره الله.

والحج يحيى فى نفس الإنسان مشاعر كثيرة.

يحيى فيه مشاعر العطف على المسلمين، والانتصار لمأساتهم، ومشاعر الولاء لله والرسول والمؤمنين ومشاعر التوجه الخالص لله، ومشاعر التجرد عن الدنيا، والإقبال على الآخرة والعزم على فتح صفحة جديدة مع الله عز وجل.

وللحج فى كل فعل من أفعاله معانٍ وعظات، إذا تحسها الإنسان المسلم ولدت معه مفاهيم ربانية أكثر، وسلوكاً إسلامياً أجود وتأسياً برسول الله ﷺ أعلى، حيث يجتمع الناس على صعيد عرفات قبل طواف الركن، ليبدأ كل الناس منطلقهم منه دفعة واحدة لتعظيم البيت، ثم يزدلفون منه نحو البيت إلى مزدلفة، وقد تابوا وأنابوا وأقبلوا على البيت بنفوس أطهر وأعظم وأكثر شفافية.

ومن مزدلفة ينطلقون إلى منى، ليرموا الجمار قبل أن يطوفوا معلنين أن عدو الله هو عدوهم، ويذبحون لله شكرًا على أن أباح لهم بهيمة الأنعام، ويحلقون استعداداً للطواف بنفس نظيفة وثياب نظيفة ومنظر حسن ثم يطوفون بالبيت العتيق معظمين له التعظيم الحق جل وعلا إياه:

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾.

(الحج: ٣٢)

ثم يسعون بين الصفا والمروة، كما فعلت أمهم الصالحة يوم بدأ أمر التمهيد لبناء بيت الله الحرام.

ويرجع مرة ثانية ليرمى الجمار معلناً الشيطان عدوًا أولاً وآخراً.

والحج عودة بالمسلمين إلى مراكز الإسلام الأولى، فتقوى فى المسلم رابطة بهذه المراكز، على أنها وطنه الروحى وقبلته الوحيدة، ووجهة جسمه، ومنطلق تطلعاته وآماله، فيرجع منه وقد تغيرت كثير من معالم صورة الحياة لديه. فبعد أن كان ارتباطه بمراكز الإسلام نظرياً، أصبح حقيقة وواقعاً، وحساً وعملاً.

والحج كذلك كله مؤتمر للمسلمين قاطبة. مؤتمر يجدون فيه أصلهم العريق الضارب فى أعماق الزمن منذ أبيهم إبراهيم الخليل.

﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾.

(الحج: ٧٨)

ويجدون محورهم الذى يشدهم جميعاً

المعالم التي يرسيها الحج في حياة الأمة المسلمة

إليه. هذه القبلة التي يتوجهون إليها جميعًا ويلتقون عليها جميعًا، ويجدون رابتهم التي يفيئون إليها.

والحج مؤتمر للتعارف والتشاور وتنسيق الخطط وتوحيد القوى. وتبادل المنافع والسلع والمعارف والتجارب. وتنظيم ذلك العالم الإسلامي الواحد الكامل المتكامل مرة في كل عام. في معية الله. بالقرب من بيت الله.

وفي ظل الطاعات البعيدة والقريبة، والذكريات الغائبة والحاضرة في أنسب مكان، وأنسب جو، وأنسب زمان.

قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾

(الحج: ٢٨)

كل جيل بحسب ظروفه وحاجاته وتجاربه ومقتضياته، وذلك بعض ما أراده الله بالحج يوم أن فرض على المسلمين، وأمر إبراهيم عليه السلام أن يؤذن به في الناس؛ لهذا فالحج عبادة مشروعة وهو ركن من أركان الإسلام الخمس وفريضة على كل مسلم ومسلمة استطاع إليه سبيلا لقوله تعالى:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾

(آل عمران: ٩٦-٩٧)

وقول الرسول ﷺ في حديثه الشريف المتفق عليه بين البخاري ومسلم:

«بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان».

وهو فرض مرة في العمر لقوله ﷺ:

«والحج مرة فمن زاد فهو تطوع» رواه الإمام أحمد وأبو داود وصححه الحاكم.

وهو يطهر النفس من آثار الذنوب لتصبح أهلاً لكرامة الله تعالى في الدار الآخرة لقوله ﷺ:

«من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه» أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما. وهو من أفضل الأعمال عند الله عز وجل قال ﷺ:

«الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة» أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما.

وبعد، فالحج إحياء لأخلد ذكريات ربانية عرفها البشر، ذكرى الأسرة المسلمة المباركة التي لا تبالي في الله بشيء، ذكرى الولد الذي يقدم نفسه قربانًا لله، ذكرى الوالد الذي يقدم ابنه قربانًا لله، ذكرى الأم التي تثق برعاية الله ثقة لا حدود لها، وتطيعه، ذكرى التوكل على الله الكامل، ذكرى العودة الفاتحة إلى البيت الذي أخرج من جواره المستضعفون وهو ميزان يعرف به حال المهتمون بأمر المسلمين، فالأمة الإسلامية بما فيها من قوة أو خير، من ضعف أو جهل من ذلة أو فقر من عزة أو غنى، بما فيها من كل شيء، لاتعرف كما تعرف في الحج. وهو معول الهدم الأول في كل حاجز يوضع بين أبناء هذه الأمة، هذا كله يزول بضربة واحدة من معول الحج العظيم، وهو طريق من طرق الخلاص من براثن الشيطان إلى معية الرحمن. هذا والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

قراءة في كتاب

بقلم/أ. عادل خفاجة

من خلال القراءة السابقة لمقال «الإمام الأشعري في الدراسات العربية الحديثة» للدكتور محمد السليماني[1] تعرفنا على العديد من آراء الباحثين والمفكرين والعلماء، ونواصل اليوم استجلاء مكانة الإمام أبي الحسن الأشعري من خلال قراءة أربعة أبحاث أخرى هي:

(١) مصادر معرفة أبي الحسن الأشعري في أوروبا حتى بداية القرن التاسع عشر لأندريا ترانتيني.[2]

(٢) الأشعري في الكتابات الفرنسية للعربي بشري.[3]

(٣) الإمام الأشعري في الدراسات والبحوث، باللغة الأردية بشبه القارة الهندية والباكستانية لأحمد خان.[4]

(٤) مكانة الإمام أبي الحسن الأشعري في الدراسات التركية الحديثة لسيد باغجوان[5]

أما البحث الأول فيرى مؤلفه الأستاذ أندريا ترانتيني أن أول إشارة مباشرة إلى اسم الأشعري في لغة أوروبية قد أتت في عام ١٥٢٧م على لسان «يوحنا ليون الأفريقي» أي الحسن بن محمد الوزان الفاسي الأندلسي.

ويشير في موضع آخر إلى أن الأشعري بدأ يُعرف معرفة حقيقية عندما باتت دراسة اللغة العربية ضرورية لدارسي الكتاب المقدس، وكانت دراسة هذه اللغة في عصر النهضة تعدُّ مفيدة؛ ربما لدعم الفهم والتعمق بالنطاق السامي الذي يميز الكتاب المقدس، وكانت

(١) أ.د. محمد السليماني: أستاذ العلوم الإسلامية بإيطاليا.
(٢) الأستاذ أندريا ترانتيني: أمين مكتبة المستشرق ليونه كايتاني بروما ـ إيطاليا.
(٣) د. العربي بشري: أستاذ التعليم العالي، متخصص في علم أصول الفقه، فرنسا.
(٤) أ.د. أحمد خان: كاتب وباحث من باكستان.
(٥) أ.د. سيد باغجوان: عضو هيئة التدريس بجامعة سلجوق ـ تركيا.

تدرس مع اللغة العبرية منذ منتصف القرن السادس عشر؛ حيث اكتسبت اللغة العربية أهمية جديدة فى كل أنحاء أوروبا.

كما يشير إلى أن معرفة الأشعرى قد وصلت إلى الأوروبيين من خلال عالمين بروتستانتيين كبيرين هما: السويسرى يوهان هاينرخ هوتينغر، عالم اللاهوت والنقد التوراتى، والكاهن الإنجليزى إدوارد بوكوك الذى أغنى كتاب «اللمع» بشروح مهمة، وفيه العديد من المقاطع عن الإمام الأشعرى.

وأوضح أن بوكوك قد خصص عدة صفحات من الشروح لنقل مقاطع من عقيدة الأشعرى عن (الكسب) وهى لفظة يشرحها بأنها «أثر القدرة الحادثة»، ويوضح الباحث أن أعمال هذين العالمين بالإضافة إلى غيرهما كانت هى التى ساعدت بشكل كبير على أن تتعرف أوروبا على الأشعرى، وأن هذه الكتابات كانت نواة المعلومات عن الإسلام؛ حيث نشرت القواميس الفلسفية التى تفسر بإيجاز إشكالية خلق القرآن أو عدم خلقه.

وفى البحث الثانى «أبو الحسن الأشعرى فى الكتابات الفرنسية»: يقسم العربى بشرى هذه الدراسة إلى ثلاث مراحل:

فأما المرحلة الأولى فأطلق عليها (مرحلة الجهل بالأشعرى) ومن الواضح أنه يرى أن هذه المرحلة اتسمت بعدم معرفتها المعرفة الصحيحة بأبى الحسن الأشعري، وذلك فى الاستشراق الأوروبى عمومًا، والفرنسى منه على وجه الخصوص، ويُرجع السبب فى ذلك إلى شح المعلومات المتوفرة لدى الباحثين؛ لأن المصادر المهمة فى هذا الموضوع لم تكن عرفت بعد.

وهذه المرحلة تعود إلى ما قبل اكتشاف كتاب «تبيين كذب المفترى فيما نسب إلى أبى الحسن الأشعرى» الذى نشره المستشرق «أوغسط فارديناند ميكائيل فيهرن» سنة ١٨٧٨م، وباكتشاف هذا الكتاب تبدأ المرحلة الثانية، وأهم ما كتب فيها.

كتاب «عرض تجديد الفكر الإسلامى منذ القرن الثالث الهجرى على يد أبى الحسن الأشعرى ثم على يد مدرسته»، وقدم فيهرن هذا البحث سنة ١٨٧٨م، فى أعمال الدورة الثالثة للمؤتمر العالمى للاستشراق بسان بطرسبرج.

ثم كتاب «مقدمة فى أصول الدين الإسلامى» للويس جارديه مع قنواتى ١٩٤٨م.

فكتاب «دراسات عن ابن حزم» لروجيه أرنالديز.

وتلاه كتاب «التعددية فى الإسلام» لهنرى لاووست.

ثم كتاب «إشكالية الصفات الإلهية فى مذهب الأشعرى والأوائل من تلامذه الأكابر» لمشيل ألار.

كما يرصد الباحث ضمن ما كُتب بالفرنسية كتاب «تاريخ الفلسفة فى الإسلام» لعبد الرحمن بدوى الذى تكلم فيه عن الإمام الأشعرى طبع فى باريس سنة ١٩٧٢م.

ثم أصدر روبير كاسبار أعماله عن أصول الدين الإسلامى وأخرجها فى جزأين تحت عنوان «دراسة فى علم أصول الدين الإسلامى» وعنون للجزء الأول منه بـ «تاريخ الفكر الدينى الإسلامى» ويرى الباحث أنه برغم المصادر التى توفرت عن الأشعرى فى هذه المرحلة، إلا أنه يعد قليلًا بالنسبة للتعريف بإمام كالأشعرى وبمذهبه الذى قضى على كل أنواع التطرف. ولذلك كانت الصورة التى اشتهرت عنه هى تلك التى عكسها كتاب ابن عساكر، إلا أن الدراسات الفرنسية ربما اختلفت فى قراءتها: فبعضهم قرأها على ظاهرها كجارديه، وبعضهم حاول تحليلها كألار، ولكن بعضهم كأرنالديز لم يعرها اهتماما كبيرا، وقدم عليها الصورة التى يعكسها كتاب «الإبانة» هذا الكتاب الذى كان سببا للخلاف فى تصنيف الأشعرى، فبعضهم عده أول ما صنف الأشعرى بعد رجوعه عن الاعتزال، وبعضهم عده الآخر، وبعضهم يعتمده أصلًا: بحجية أن النص الأصلى لـ«الإبانة» قد حُوّر ولا يدرى من حوره.

وتنتهى المرحلة الثانية فى نظر الباحث باكتشاف كتاب «مجرد مقالات الشيخ أبى الحسن الأشعرى» الذى نشره الأستاذ دانيال جيماريه بعد ما يقرب من مائة سنة من بداية هذه المرحلة أى سنة ١٩٨٧م، ولتبدأ المرحلة الثالثة ما بعد اكتشاف هذا الكتاب.

يقول الباحث:

بدأت هذه المرحلة بحدث مهم فى تاريخ البحث العلمى فى أصول الدين، وهو اكتشاف كتاب «مجرد مقالات الشيخ أبى الحسن الأشعرى» لأبى بكر بن فورك المتوفى سنة ٤٠٦هـ مخطوطًا فى مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة، وكما تبدأ هذه المرحلة بكتاب «المجرد» فإنها تبدأ ـ أيضا ـ بالأستاذ دانيال جيماريه الذى كان له الفضل فى نشر هذه الوثيقة المهمة، وإخراجها إلى الوجود، حيث قدم أعمالًا ثرية خصبة عن الإمام الأشعرى ومذهبه.

وقد ذكر الباحث منها: «نظرية الفعل الإنسانى فى المذهب الحنبلى»

و«نظرية الفعل الإنسانى فى علم أصول الدين الإسلامى»

و«الأسماء الإلهية فى الإسلام».

وآخرها وأهمها «مذهب الأشعرى».

وقد تناول الباحث هذا الكتاب الأخير بشيء من التوضيح، حيث عرض أقسام هذا الكتاب والهدف من تأليفه والكتب التى اعتمد المؤلف عليها، وبين المسائل التى وافق فيها الأشعرى المعتزلة، وما جاء فى هذا الكتاب من نقد لآراء الأشعرى، واختتم الدكتور العربى بشرى بحثه بكلمة كاشفة لهذا الكتاب حيث قال: «لو أن جيماريه جمع أقوال من تقدمه من الباحثين الأوروبيين فى حق الأشعرى، ثم حاكمها إلى ما اجتمع لديه من مذهب الأشعرى ـ وقد اجتمع له من ذلك ما لم يجتمع لأحد منهم قبله ـ لكان عمله الأكمل على الإطلاق، لكنه لم يفعل، والظاهر أنه اكتفى فى هذا الكتاب بالدراسة الأفقية على حساب الدراسة العمودية، وكأنه إنما أراد أن يستقصى آراء الأشعرى فى شتى مسائل الكلام؛ لتكون أساسًا لأية دراسة فى المستقبل، فهو وإن كان ذكر أن قصده تصحيح الصورة السائدة للأشعرى من قبل نشر كتاب «المجرّد»، إلا أنه لم يرسم

معالم لصورته بعد «المجرّد»، إلا ما ذكره فى مقدمته من أن كتاب «المجرّد» أظهر الأشعرىّ كمتكلم مُبدع لم يكتف بالكلام فى مسائل أصول الدين الأساسية فحسب، بل تجاوزها إلى دقيق الكلام، وأنه متكلم بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، يمتاز بجرأةٍ فى الصدع بما اقتنع به، وليس وسطًا بالمعنى التلقائى الذى يجد فيه جيماريه الكثير من السلبية كما صوره ابن عساكر أو السبكى، ولا ما يعكسه كتاب «الإبانة» الذى يعده جيماريه كتابًا ظرفيًا livre de circonstance. ولذلك حرص فى بحثه أن يبين ما وافق فيه الأشعريُّ المعتزلة وما وافق فيه الحنابلة، وما كان له فيه رأى خاص، من غير مراعاة للتوسط الذى رام أصحابُه أن يطبعوا به مذهبه.

أما البحث الثالث الذى جاء بعنوان «الإمام الأشعرى فى الدراسات والبحوث باللغة الأردية بشبه القارة الهندية الباكستانية» فقد استهلّه الدكتور أحمد خان بأن اللغة الأردية برغم أنها لغة فتية ـ حيث تطورت فى القرنين الأخيرين فقط ـ إلا أنها أعطت الهند وباكستان بحرًا زخّارًا من الأدب الإسلامى فى هيئة تراجم القرآن الكريم وتفسيره، وتراجم الحديث وعلومه، والتاريخ والسيرة النبوية وغيرها من العلوم.

وأن الإمام أبى الحسن الأشعرى كان له نصيب من هذه الدراسات والأبحاث، ولذلك رأى الباحث أن يبنى عليها بحثه.

وهو يرى أن العلامة شبلى النعمانى، المتوفى سنة ١٩١٤م كان أول من تطرق إلى الحديث عن الإمام الأشعرى باللغة الأردية وكتب عن آرائه فى كتابه «علم الكلام» ثم فى كتابه «الكلام» ثم يشير إلى أن محمد يوسف مرزا الذى كتب مقالا طويلا حول الإمام الأشعرى والمستشرقين، تكلم فيه عن علم الكلام الأشعرى فى البداية، فقال: إن علم الكلام له فرعان: فرع فى إثبات العقائد والآخر فى دفع الشبهات حولها.

وقد بسط عقائد الإمام الأشعرى فى ضوء كتبه، وكتب تلامذته، وما كتب عن الأشاعرة من العلماء، وبسط فلسفة اليونان، ثم قدم الفروق بينهما، والاختلاف الواقع حولهما، وختم المقال بإيراد تفاصيل كتاب «الفصول» للأشعرى، ورد أن هذا الكتاب قد كتبه الإمام فى الرد على الفلاسفة والملحدين والطبائعيين والدهريين وأهل التشبيه والقائلين بقدم الدهر على اختلاف مقالاتهم وتنوع مذاهبهم. ثم ذكر عددًا من الكتب للإمام الأشعرى ليخلص فى النهاية إلى أهمية هذه الدراسات باللغة الأردية التى تناولت الإمام الأشعرى.

ويأتى البحث الرابع عن: «مكانة الإمام أبى الحسن الأشعرى فى الدراسات التركية الحديثة»؛ ليؤكد الدكتور سيد باغجوان فى مستهله على أمرين:

أولهما: أن نظرة علماء البلاد الرومية ـ قديما وحديثا ـ إلى الإمام أبى الحسن الأشعرى لا تختلف عن نظرتهم إلى إمامهم أبى منصور الماتريدى، وهى نظرة إجلال وإكبار.

الأمر الثانى: أن أسانيد علماء الكلام فى البلاد الرومية تتصل بشيوخهم الأشاعرة.

وقد أشار الباحث إلى العديد من الموضوعات التى تناولت ترجمة كتب الإمام أبى الحسن الأشعرى إلى اللغة التركية وكذلك الرسائل العلمية التى تناولته سواء التى نوقشت منها أو التى لم تناقش بعد، بالإضافة إلى بحوث الترقية للعديد من الأساتذة.

وبعد عرضه لكل هذه الأطروحات والبحوث خلص إلى:

١- أن علماء البلاد الرومية تصل أسانيدهم فى العلوم العقلية إلى مشاهير المتكلمين الأشاعرة، أمثال: الإيجي، والسيد الشريف، والتفتازاني، وجلال الدين الدوّاني.

٢- أن لهم اهتمامًا بالغًا بتدريس كتب الأشاعرة قديمًا فى المدارس العثمانية، وشرحها والتعليق عليها، مثل «كتاب المواقف» للإيجي، وشرحه للسيد الشريف، وكتب التفتازاني، وعقائد العَضُد وشروحه.

٣- اهتمام الباحثين الأتراك فى الوقت الحاضر بدراسة حياة الإمام وآرائه الكلامية، فى مختلف موضوعات علم الكلام، وخصصوا لها «ثلاث عشرة» رسالة على مستوى الماجستير، و«ست» رسائل على مستوى الدكتوراه ودرجة الأستاذية، و«ست عشرة» مقالة علمية فى مجلات محكّمة مختلفة بالجامعات. وهذه الأعداد لا تقلّ عن الدراسات المتعلقة بحياة إمامهم أبى منصور الماتريدى وآرائه إن لم تكن أكثر منها.

٤- ترجمة جميع كتب ورسائل الإمام الأشعرى إلى اللغة التركية، ومعظم كتب الإمام ورسائله تُرجمت أكثر من مرة كما سبق ذكره. وفى الجانب الآخر أصدروا ترجمة «كتاب التوحيد» لإمامهم الماتريدى منذ سنوات قليلة ماضية، ولم يكملوا تحقيق كتابه الآخر «تأويلات القرآن» وطبعه، فأصدروا منه حتى الآن «١٤» مجلدًا «إلى نهاية سورة الحديد»، وهذا يدلّك على اهتمامهم بالإمام الأشعرى.

٥- نلاحظ أن الذين ترجموا كتب الإمام كلهم من أساتذة الجامعات المتخصصين فى مجالاتهم العلمية؛ من فلسفة وكلام وتاريخ للمذاهب الإسلامية. وهذا أمر مميزٌ، قلّما تحظى بها كتبٌ أخرى غير كتب الإمام الأشعرى.

وبعد..

فقد أوضحنا فى بداية قراءتنا لهذا الكتاب، أن الباحثين والمفكرين اختلفوا حول الإمام أبى الحسن الأشعرى، فمنهم من عدّه أحد المجددين فى الإسلام، ومنهم من وقف به عند حد التوفيق لينفى عنه أنه صاحب مذهب جديد.

وقد عرضنا آراء العديد من الباحثين والمفكرين فى العالم العربى والإسلامى، وأوضحنا صورته فى الكتابات الأوروبية والتركية والفرنسية لنصل إلى قناعة نرجو أن تكون قد بلغت القارئ، وهى أن الإمام الأشعرى يُعد من أعظم الرجال على حد قول الشيخ الخضر حسين، وأنه متكلم بكل ما تعنيه الكلمة من معنى وأنه يمتاز بجرأةٍ فى الصدع بما اقتنع به، على حد قول جيماريه، وأنه إمام أهل السنة والجماعة وناصر الحق بلا منازع.

تجربة محمد على الكبير

دُروس فى التغيير والنهوض

أ. منير شفيق



لم يقصد من استعادة تجربة محمد على أن يُكتب تأريخ لسيرته أو لمصر فى عهده وإنما أن توضع تلك التجربة تحت الدراسة لاستقاء العبر منها ما أمكن.

فهذه التجربة تكاد تكون ذات سمة نمطية بالنسبة إلى كثير من التجارب العربية والإسلامية التى تلتها لاسيما تلك التى وصلت لتكون دولة وتحمل مشروع التغيير والنهوض من مواقع الدولة، وذلك بالرغم من حدوث الكثير من التغييرات فى الأوضاع الدولية والعربية والإسلامية التى جعلت التجارب اللاحقة تواجه ظروفاً مختلفة.

على أن تلك المتغيرات قامت على الأساسات نفسها التى ترسخت فى عهد تجربة محمد على لاسيما من ناحية الدول الغربية الكبرى. وهذا ما يجعل كل السياسيين الغربيين الذين قادوا دولهم بعد منتصف القرن التاسع عشر يتخذون من نصفه الأول مدرستهم الأولى، ويتعلمون من بالمرستون - وزير خارجية بريطانيا - ومن أكسيلرود - وزير خارجية روسيا - كما من وزراء خارجية فرنسا والنمسا الذين تبادلوا قيادة دبلوماسية بلادهم فى تلك المرحلة التى تقرر فيها مستقبل العالم للقرن العشرين.

كما أن تلك المتغيرات حملت مجموعة من الأساسات بالنسبة إلى ما تواجهه محاولات النهوض والتغيير فى العالمين العربى والإسلامى، وهو الذى يفرض أن تتحول تجربة محمد على بمختلف أبعادها إلى مدرسة بالنسبة إلى ما لحق من تجارب

وهو مالم يحدث كما يبدو. والدليل تكرر الأخطاء نفسها تقريباً مرة بعد أخرى.

وهذا ما يسوغ ألا تتوقف الجهود فى دراسة تلك التجربة واستقاء العبر الضرورية منها. طبعاً مع الأخذ بعين الاعتبار الخصوصية فى كل حالة وما يحوطها من معادلة دولية، وظروف عربية وإسلامية.

ومن هنا يراد لهذا الجهد المتواضع أن ينضم إلى ماسبقه من جهود وأن يحث على المزيد من المساهمات فى دراسة هذه التجربة الفذة المعقدة متعددة الأوجه والجوانب والمثيرة للخلافيات فى التقويم والتعلم منها. وإذا ما حققت تحريكاً للقدر بهذا الاتجاه فستكون قد حملت جانبًا إيجابياً حتى لو لم تكن قد وفقت فيما استقته من دروس.

فالمطلوب من الذين يحملون هم النهوض والتغيير فى الأمة أن يهتموا بدراسة تجارب النهوض والتغيير المعاصرة وفى مقدمتها تجربة محمد على. لأن ذلك قد يعفيهم من تكرار الوقوع فى الأخطاء نفسها، والأهم قد يدفعهم إلى قدح زناد الفكر والتعمق فى التأمل عند وضع برامجهم واقتحامهم ميدان محاولة النهوض والتغيير فى الأمة.

الفصل الأول

موجز تاريخى ١٨٠٢-١٨٤١م

• من قولة إلى مصر

ولد محمد على فى مدينة قولة فى البلقان عام ١١٨٣هـ الموافق ١٧٦٩م، واستهل شبابه فارساً مقاتلاً. وقد راح يخرج مع وحدة عسكرية كانت تجردها الدولة العثمانية لمحاربة العصابات المسلحة من قطاع الطرق.

أرسل إلى مصر عام ١٧٩٨م، ضابط وحدة من ضمن فرقة ألبانية للإسهام فى قتال قوات نابليون بونابرت، وكانت الحملة الفرنسية التى احتلت مصر قد واجهت ثورتين، قادهما الأزهر فى القاهرة، وخروجاً مسلحاً مستمراً قاده المماليك فى الريف. فقد كان الباب العالى مصمماً على محاربة الفرنسيين. فاضطروا - أخيراً - إلى الانسحاب من مصر فى ظل مقاومة داخلية ضارية، وامتناع حصن عكا عليهم، إلى جانب ضغط من الأسطول الإنجليزى، وكانت أوروبا قد تألبت عليهم، وأجبرتهم على الانسحاب من إيطاليا.

• صعود محمد على ١٨٠٢-١٨٠٧م:

ترك الفرنسيون فراغاً فى السلطة المصرية بعد أن شتتوا نفوذ أمراء المماليك الذين تحصنوا فى الريف بقوة تعدادها أربعة آلاف. وكانت الفرقة الألبانية العثمانية إلى جانبهم وتقدر بأربعين ألفاً، بينما قدرت القوة الإنجليزية التى دخلت مصر بعشرين ألفاً.

عين الباب العالي خسرو باشا والياً. فخاض صراعاً مريراً ضد المماليك الذين نصب لهم شراكاً، فقتل كثيرين منهم وأسر كثيرين. فاعتبر الإنجليز ذلك ضرباً لنفوذهم الذى رسخوه بين أمراء المماليك ممن تعاونوا وإياهم ضد الفرنسيين. فهددوا بقصف القاهرة إذا لم يطلق الأسرى.

واستجيب لإنذارهم، لكن القوات البريطانية غادرت مصر وفقاً لصلح أميان مع فرنسا عام ١٨٠٢م.

عجز خسرو باشا عن دفع رواتب الجند بسبب عصيان أمراء المماليك فى الريف، مما دفع الجند إلى التمرد عليه ففر إلى دمياط، وتولى مكانه طاهر باشا كبير القوات الألبانية، دون أن يصدر فرمان سلطانى بذلك. وحاول التحالف وأمراء المماليك، لكنه قتل بعد أن حكم ٢٦ يوماً.

استولى الأمير المملوكى عثمان البرديسى على حكم مصر بعد طاهر باشا، فكان حكمه غير شرعى كذلك. ودبت الفوضى فى كل مكان. وكان موالياً لفرنسا بينما أرسل الإنجليز محمد الألفى ليشكل قوة مماليك موازية، إلا أن البرديسى بمعاونة سكان القاهرة وقوات محمد على انتصر عليه وقتله. ثم قامت ثورة شعبية بقيادة العلماء عام ١٨٠٤م ضد البرديسى مما اضطره إلى الهروب من القاهرة، فراح محمد على الذى انضم للثورة يطارده، فعين نائباً للوالى العثمانى خورشيد باشا.

على أن خورشيد باشا وانكشاريته عادوا سيرتهم الأولى فى الظلم وفرض الضرائب فتدهورت الأوضاع، فثارت القاهرة بقيادة العلماء مرة أخرى ضد خورشيد باشا وانضم الجند الألبانى بقيادة محمد على للثورة. وقد زادت شعبيته التى سبق وتألقت فى الدفاع عن القاهرة ضد البرديسى. وجعل يطارد المماليك فى الوجه القبلى.

كان على رأس الثورة الشعبية الشيخ عمر مكرم والشيخ الشرقاوى وقلة من العلماء الذين أعلنوا فى ١٣ صفر ١٢٢٠هـ ١٣ مايو ١٨٠٥م عزل الوالى العثمانى، وعرضوا الولاية على محمد على الذى قبلها. وقد قبل ما وضعوا عليه من شروط سميت «المشروطية»، وكانت بمثابة الميثاق أو الدستور، وكان من بين بنودها إقرار الشورى والعدل وإصلاح الأحوال وعدم السير على نهج السابقين من الولاة الفاسدين.

أقر الباب العالى تعيين محمد على إقراراً على مضض، كما أقر عزل خورشيد باشا، على مضض كذلك، لأن فى هذا وذاك سابقتين خطيرتين، إذ يفرض عليه عزل والى مصر وتعيين آخر من قبل علماء يقودون ثورة شعبية.

وقد حاول السلطان سليم الثالث، فيما بعد، عزل محمد على، فعادت القاهرة إلى الثورة وثبتته من جديد. وكان سليم الثالث يحمل مشروعاً إصلاحياً وقد دخل فى معركة مع انكشاريته الذين قتلوه فى عام ١٨٠٧م.

● الوضع العام ١٨٠١ - ١٨٠٧م

ساعد الوضع الذى ساد فى أوروبا، خلال ١٨٠١ - ١٨٠٧، على مجموع التطورات فى مصر، والتى أدت إلى صعود محمد على وتثبيته، لا سيما تصفيته للنفوذين الفرنسى والبريطانى من خلال تصفية المتعاونين معهما من أمراء المماليك.

اضطرب الوضع الأوروبى فى الفترة المذكورة، مما جعل أوروبا تنكفئ على

نفسها لتدخل مرحلة الحروب النابليونية بعد أن أصبح نابليون إمبراطوراً. أما الوضع الإسلامى مع بداية القرن التاسع عشر فقد أخذ بالتدهور. فنابليون كان قد احتل مصر. وكان الإنجليز قد أنزلوا ضربة قاسية بالقوة الإسلامية فى الهند. وأخذ الروس يتوغلون فى إيران والإمارات الإسلامية الآسيوية. وفقدت الدولة العثمانية سيطرتها على السواحل العربية فى الخليج عدا الحجاز، وثارت عليها دول الغرب.

بجلمة كانت علامات الأفول قد بدأت تظهر فى الأفق. وأصبح نداء الإصلاح والإنقاذ يصرخ فى كل جنبات العالم الإسلامى من قبل العلماء والجماهير كما الباب العالى مروراً بالولاة والأمراء.

استؤنفت الحرب بين الإنجليز والفرنسيين عام ١٨٠٥م، وامتد صراعهما إلى مصر، فأرسل الإنجليز الألفى مجدداً كما مر ذكره، وتصدى له البرديسى حليف فرنسا مرة أخرى. فأفاد محمد على من هذا الصراع وتحالف مع البرديسى فأنزل الهزيمة بمحمد الألفى الذى توفى ١٨٠٦م (على الأغلب مات مسموماً) وسرعان ما لقى البرديسى المصير نفسه. واستمر محمد على بمطاردة المماليك فى الوجه القبلى.

انحاز الباب العالى فى الحرب إلى جانب فرنسا، وحشد قواته لمحاربة الروس حلفاء الإنجليز، فتوجه الأسطول الإنجليزى إلى البوسفور، لكن الحماسة الكبرى التى أبدتها جماهير الآستانة المحصنة، فرض على الإنجليز التراجع، فارتدوا بأسطولهم نحو مصر عام ١٨٠٧م وأنزلوا خمسة آلاف جندى إلى الإسكندرية.

هب محمد على مع العلماء والأهالى لمواجهة الغزو الإنجليزى، وتحرك القائد الإنجليزى بسرعة فأرسل ألف جندى للاستيلاء على رشيد. لكن الجماهير وجند محمد على أطبقوا عليهم فأبادوهم، ثم أرسل ألفين آخرين للنجدة فلاقوا المصير نفسه. ولم يستطع الإنجليز الوصول إلى القاهرة التى حصنت بسواعد الناس الذين هبوا لملاقاتهم. بل زحف محمد على إلى الإسكندرية لمواجهتهم هناك فطلبوا الصلح. وغادروا الإسكندرية ليدخلها محمد على ظافراً محاطاً بتأييد الجماهير وحماستها.

كان محمد على قد صالح أمراء المماليك فى أثناء مواجهته للإنجليز فاعترفوا به والياً على مصر، وترك لهم السلطة فى الوجه القبلى.

وهكذا يكون محمد على قد أمسك بزمام السلطة بعد أن عينه الباب العالى مرة ثانية، وآلياً على مصر، وبعد الانتهاء من الألفى والبرديسى، ومن طرد الإنجليز من الإسكندرية، ومصالحة أمراء المماليك فى الوجه القبلى. لكن كل هذا ما كان بالنسبة إليه إلا الخطوة الأولى لينطلق منها، فى التقدم بمشروع طموح ذى بعد إصلاحى ضخم داخلياً، وآخر خارجياً، لا يقل عن الأول طموحاً.

عرفت السنوات الممتدة من ١٨٠٨ - ١٨١١م محمد على رجل دولة من الطراز

الأول وقد التفت إلى إعادة ترتيب بيته الداخلي الذي عصفت به الفوضى والفتن، وأنهكه إهمال المرافق، وتحوطته أطماع الدول الكبرى من كل جانب، إلى إقامة سلطة مركزية قوية ساعياً لإنهاء حالة التدهور في الريف سواء أكان من ناحية تدهور الزراعة أم كان من ناحية الفوضى في فرض الضرائب. لقد كانت البلاد نهباً لكل من تطول يده من أمراء المماليك وعصاباتهم المسلحة.

من هنا اشتد محمد علي في خطة «الضبط والكشف والتحقيق» فقد كان بحاجة إلى المال ليكسب الجند الألباني ورجال الدولة، وليحل مشاكل الأمراء الذين فرض عليهم العيش المرفه في القاهرة، فتبنى سياسة عرفت بالاحتكارية، إذ وضع من خلالها كل شيء في يده: الجيش والسلطة والأرض والزراعة والصناعة والتجارة الخارجية. وكان هذا يعني تغييراً جوهرياً في نمط الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي درج عليها الوضع في مصر مئات السنين. ومن ثم ما كان له أن ينفذ خطته إلا بالقهر والشدة والحزم من جهة، وبالإغراءات والمداورة من جهة أخرى.

لقد شرع محمد علي منذ ١٨٠٨ بالإصلاح الزراعي وكانت ذروته إلغاء نظام الالتزامات برمته عام ١٨١٤م مما جعل علاقته مباشرة بالفلاحين وجعل الأرض كلها تحت يده لكن ما كان لهذا الإصلاح أن يتم مالم يقض على المماليك، فالتنظيم الزراعي السابق ارتبط أساساً بتأمين جرايات العسكر الانكشارية، كما لم يكن بإمكانه أن يحدث الجيش إلا إذا قضى على المماليك كذلك.

وغير النظام الزراعي حتى يكون بإمكانه الحصول على الفائض المطلوب للصرف وفقاً للخطة الجديدة، هذا دون ذكر المماليك الانكشارية على بقائه في السلطة، فقد حاول السلطان سليم الثالث، من قبل، أن يحدث الجيش ويتخلص من نظام الإنكشارية العتيق إلا أن الإنكشارية انقضوا عليه عام ١٨٠٨م وقتلوه.

ومن هنا كانت مذبحة المماليك المشهورة في القلعة عام ١٨١١م ثم بدأت مطاردة فلولهم في كل مكان ولم ينج إلا نفر قليل فر إلى السودان.

وكان من بين ما تضمنه مشروعه الإصلاحي أو النهضوي:

- من ١٨٠٩ إلى ١٨١٥م بدأ بتصفية الأوقاف. وألحق جرايات المساجد والعلماء بالدولة، وكان ذلك جزءاً من بدء معركته ضد العلماء. وهو ما سيترك آثاره السلبية لاحقاً على مجمل مشروع محمد علي، ويكون سبباً رئيسياً من بين أسباب عدم قدرته على مواجهة الدول الكبرى، وقد فقد تأييد العلماء، وترك جراحاً عميقة في صفوف الشعب بسبب القمع والشدة اللذين صاحبا سياسته منذ ١٨٠٨م هي قضية سيتم تناولها لاحقاً.

- اعتمد على الجند الألبان وعلى التجنيد الأفريقي لبناء جيشه الحديث، لكنه منذ نهاية الحملة ضد الوهابيين ١٨١٩م وبالخصوص بعد حملة المورة ١٨٢٧م اتجه إلى تجنيد الفلاحين المصريين، مما أحدث قفزة بقدراته العسكرية تجلت - لاحقاً - في حملته باتجاه سورية.

- استدعى محمد علي خبراء أجانب لإعادة بناء الجيش وتحديثه وتدريبه وتسليحه، وأفاد بصورة خاصة من الضباط الفرنسيين النابليونيين الذين هجروا فرنسا بعد سقوط النابليونية، وعودة الملكية إليها. وكان من أهمهم القائد سيف الدين الذي عرف باسم (سليمان الفرنساوي) فأنشأ محمد علي، بإشرافهم، معسكرات للتدريب ومدارس للمشاة، وأخرى للمدفعية، وأخرى للخيالة، وأخرى للأركان، وترجم لائحة الأنظمة العسكرية الفرنسية. حدث الجيش على النمط النابليوني حتى في عقيدته العملياتية العسكرية.

- وصل عدد أفراد جيشه ١٨٠ ألفاً مدعوماً بقوات غير نظامية بلغت ٤٠ ألفاً، وبهذا امتلك قوة برية جبارة، بمقاييس ذلك الوقت، أنزلت الهزائم بالجيوش العثمانية، بأسرع من البرق.

- بنى أسطولاً حديثاً بعد تدمير أسطوله في نافارين، وأنشأ حوضاً ضخماً لبناء السفن في الإسكندرية عرف بترسانة الإسكندرية، وأشرف على كل ذلك خبراء أجانب، لكن المصريين سرعان ما أتقنوا هذه الحرفة، وأصبح عنده ١٥ ألف جندي في البحرية.

- اتجه مشروع محمد علي النهوض إلى تطوير الصناعة، فأنشأ معامل القطن، والأجواخ، والحبال، والكتان الحديثة، (أساساً لخدمة الأسطول)، وشيد فرناً لصب الحديد كان ينتج ألف طن سنوياً، وثلاثة معامل أسلحة، ومصنعاً للبارود، وطور الحدادة والبرادة، ومصانع للأغذية وغير ذلك.

- حقق نهوضاً كبيراً في الزراعة وفي الري. وقد أقام السدود لتنظيم الري الدائم فازدادت مساحة الأراضي المزروعة من مليوني فدان عام ١٨٢١ إلى ١و٣ مليون فدان عام ١٨٣٣م.

- نظم الدولة تنظيماً دقيقاً فأنشأ الوزارات وجعل وزارة لكل مجال. وقسم البلاد إلى مديريات وتوزعت السلطات توزيعاً هرمياً صارماً.

- سمي نظامه الاقتصادي بنظام الاحتكارات. وقد أخذ ملامحه الأساسية بين ١٨١٦ - ١٨٢٠م وكان يقضي بوضع كل أنواع الإنتاج تحت إشراف الحكومة بما في ذلك تحديد الإنتاج الصناعي والزراعي، نوعاً وكمية، وتعيين الأسعار.

- أرسل البعثات للخارج لتلقي العلوم التطبيقية والعسكرية والإدارية وأقام المدارس والمستشفيات وتوسع في الترجمة. وأنشأ داراً للطباعة وصدرت في عهده أول جريدة يومية.

● الحملة على شبه الجزيرة العربية ١٨١١ - ١٨١٩م:

جرد محمد علي حملة عسكرية واسعة النطاق، وطويلة الأمد، على شبه الجزيرة

العربية تلبية لطلب الباب العالى بعد أن استفحل أمر الحركة الوهابية التى راحت تشن الهجمات على العراق وبلاد الشام.

نظر محمد على إلى تلك الحملة باعتبارها مناسبة فريدة لمد ولايته إلى شبه الجزيرة العربية، ومنطقة الخليج، فضلاً عن تعظيم أهميته بالنسبة إلى الباب العالى، وتعزيز قوات جيشه وتطعيمه بالقتال..

ويجدر أن يلاحظ هنا أن الدول الأوروبية الكبرى لم تكن معارضة مباشرة، لهذه الحملة ما دامت موجهة ضد حركة إسلامية. ولم تبدأ مشاكله مع إنجلترا إلا عندما اصطدم بالمصالح البريطانية فى الساحل اليمنى والأحساء.

خرج محمد على من هذه الحملة منتصراً انتصاراً كاملاً، وقد أصبحت الحجاز ونجد ومعظم اليمن تحت سيطرته، بينما كان الإنجليز قد سيطروا على أجزاء من الساحل اليمنى، وعلى مسقط والبحرين، وهى المواقع التى ستصبح فيما بعد خناجر فى خاصرته لإضعاف سلطته وجعلها على «كف عفريت» كما يقولون.

كانت حرب شبه الجزيرة العربية طويلة مريرة لا ترحم، فكان المنتصر فى معركة يغنم ويقتل وينتقم ويدمر، فجيش محمد على دمر مناطق عامرة وحولها إلى صحراء بلقاء، فالدرعية مركز الوهابيين، على سبيل المثال، أزيلت من الخريطة. وقد عاونته فى ذلك قبائل من الحجاز والأعراب راحت تنتقم من الوهابيين الذين سبق وأثخنوا فى خصومهم فى الحجاز وفى غير الحجاز مما ترك جراحاً عميقة أفاد منها جيش محمد على، فقد حدثت مجازر خطيرة فى معارك مكة والمدينة وكربلاء، هذا إلى جانب ما غنم من أموال وكنوز.

وانتهت الحملة باستسلام الأمير عبد الله بن سعود الذى أرسله إبراهيم باشا نجل محمد على إلى مصر ومن هناك أرسل إلى إسطنبول ليطوف به ثلاثة أيام، وبتشهير مثل ثم ليقتل.

● الحملة على السودان ١٨٢٠م:

زحف جيش محمد على إلى السودان بقيادة ابنه إسماعيل باشا فى خريف ١٨٢٠م، فخضعت له قبائل شمال النوبة ودنقلة. ووصل فى ربيع ١٨٢١م إلى الخرطوم، ثم استولى على فاز و غليوكردفان الوسطى، ولم ينته العام ١٨٢٢م حتى استولى على شرقى السودان ما عدا دارفور، وجعلت الخرطوم عاصمة للإدارة المصرية الجديدة فى السودان، ثم دخلت سواكن ومصوع تحت حكم محمد على عام ١٨٢٨م، أما كسلا والتاكد فقد ألحقتا عام ١٨٤٠م وكان الهدف النهائى لهذه الحملة هو الاستيلاء على الحبشة، لكن الإنجليز سارعوا إذ رأوه يتقدم إلى تحذيره من مغبة الاقتراب من الحبشة. وهددوا بالتدخل فوراً لأنهم لن يسمحوا له بالاستيلاء على هذا المعقل المسيحى الذى ثبت قروناً فى وجه الزحف الإسلامى فى أفريقيا - على حد تعبيرهم.

عرفت هذه الحملة قسوة بالغة فى إخضاع

السودانيين ومن أجل جمع الثروة والتجنيد، كما واجهت عدداً من الانتفاضات والثورات التى قمعت بالشد والحزم، فعلى سبيل المثال وقع إسماعيل باشا فى فخ نصب له على شكل دعوة تكريم فى منطقة سنار، وقد قتل حرقاً بالنار داخل الفسطاط الذى أعد له فتوجه صهره الدفتردار ليثأر من سنار وأهلها فأباد ٣٠ ألفاً وقد ترك الجيش يستبيحها.

● حملة المورة (كريت واليونان) ١٨٢٤م:

كان الروس يحرضون اليونانيين على الثورة التى اندلعت فى وجه العثمانيين، وعندما لم يستطع الباب العالى إخمادها بدأ يمهد لإشراك محمد على فى ذلك فولاه على قبرص وكنديا (كريت) ثم ولاه على المورة وكانت النمسا تحرض الباب العالى على إخماد الثورة. لأنها كانت تخشى من فقدان إمبراطوريتها فى حالة انتشار موجة الاستقلال فى أوروبا بعد استقلال اليونان.

توجه إبراهيم باشا بجيش كبير، وجعل من كريت قاعدته حيث أخمد الثورة فيها، وتوجه فى عام ١٨٢٥م إلى المورة، واستطاع أن يخضعها بالكامل بعد أن اشتد على الأهالى وأثخن فى الزرع والضرع والقرى.

واقتحم الجيشان العثمانى والمصرى عام ١٨٢٦م حصن ميسولونغى الحصين فى قلب اليونان، ثم احتل إبراهيم باشا أثينا فى ١٨٢٧م.

اعترفت بريطانيا عام ١٨٢٣م بالثوار اليونانيين.. وعندما تسلم نيقولاى الأول عام ١٨٢٥م عرش الروسيا أحدث تغييراً، فمال إلى مساندة اليونانيين فعلاً، لا قولاً فقط.. مما أفسح المجال لاتفاق إنجليزى - روسى للتدخل المشترك. وعبر عن ذلك بروتوكول سان بطرسبورغ عام ١٨٢٦م، وكان الهدف منه تحقيق حكم ذاتى لليونان دون الاستقلال الكامل، وانضمت فرنسا خشية العزلة أوروبيا للحلف من خلال عقد عرف بمعاهدة لندن عام ١٨٢٧م، فقررت الدول الثلاث فصل اليونان عن الدولة العثمانية وكانت المعاهدة بمثابة إنذار مدته شهر للتنفيذ. وبعد شهر وقعت معركة نفارين التى أبيد فيها الأسطولان المصرى والعثمانى على يد أساطيل الدول الكبرى مجتمعة (روسيا، إنجلترا، فرنسا) بقيادة أميرال فرنسى، وقد وقع الهجوم عليهما دون سابق إنذار بحجة انطلاق رصاصة من إحدى السفن التابعة لهما. وتبعت ذلك حرب روسية تركية دامت سنة ونصف السنة، وانتهت ١٨٢٩م بانتصار الروسيا، وعقد صلح أدرنه عام ١٨٢٩م، وقد أعطيت اليونان من خلاله حكماً ذاتياً ثم الاستقلال التام.

- حاول الحلفاء تحييد محمد على والتركيز على السلطان، وأغروه بالتوجه إلى بلاد المغرب، بتحريض فرنسى، أو إلى سوريا بتحريض فرنسى وإنجليزى، ووعده ببناء أسطوله وتسليحه، ويقال إنهم تركوا عشرين سفينة مصرية دون أن يصلها تدمير فى معركة نفارين، بمثابة إشارة ود من جانبهم تجاه محمد على..

- عقد محمد على اتفاقية الإسكندرية عام ١٨٢٨م لتنظيم انسحابه من اليونان، وكانت مساومة بينه وبين بريطانيا وفرنسا على حساب الباب العالى، وهكذا عاد بعد أن خسر ٣٠ ألفاً فى تلك الحملة وقد احتفظ بجزيرة كريت.

- انتاب محمد على شعوران فى أثناء تجربة المورة، فقد أدرك بعد سحق أسطوله والأسطول العثمانى فى نفارين أن الدول الكبرى لا تمزح فى محاربة النهوض الإسلامى، وعبر فى رسالة إلى الباب العالى عن فهم عميق جداً لنيات الدول الكبرى وعداوتها للإسلام والمسلمين، وقد قاده هذا الشعور إلى محاولة إقناع الباب العالى بالتراجع عن المورة، والاتفاق معه على مشروع نهضوى مشترك بينهما للدول العثمانية، وعرض أن يضع نفسه وابنه فى خدمة ذلك، وإذا قاومت الدول الكبرى هذا المشروع فعندئذ يعلن «الجهاد المقدس». أما الشعور الثانى فهو الالتجاء إلى مساومة الدول الكبرى، والعمل على تحقيق بعض أحلامه فى امتلاك القوة العسكرية والصناعية والتوسع من خلال الصفقات معها، حتى لو كان على حساب الباب العالى. على أن محمد على اختار فى النهاية طريق المساومة فانسحب منفرداً من المورة.

انقسم الحلفاء بعد معركة نفارين، واندلاع الحرب الروسية - العثمانية، فروسيا كانت تريد بدء عملية اقتسام الدولة العثمانية بينما راحت فرنسا وإنجلترا تقاومان استيلاءها على القسطنطينية، مما أنقذ السلطان محمود الثانى فى حينه، أما بروسيا والنمسا فوقفتا على الحياد وحاولتا التوسط بين الباب العالى وروسيا، واعتبر التوصل إلى عقد معاهدة أدرنة (أندرينوبل) عام ١٨٢٩م بين الباب العالي وروسيا تعبيراً عن هذا التوازن الدقيق، إلا أن بريطانيا لم تكن راضية تماماً على ازدياد النفوذ الروسى لدى الباب العالى بسبب تلك المعاهدة.

عرفت هذه الفترة بداية الشرخ الخطير فى علاقات محمد على بالباب العالى، فقد رفض محمد على مواصلة القتال فى المورة، وترك السلطان وحده يواصل حربه هناك. ورتب أمر انسحابه مع أعداء السلطان، وكانت حجته فى ذلك أن على السلطان قبول الصلح فى المورة، وعدم الدخول فى معركة ضد أوروبا الموحدة، والتركيز على الإصلاح وبناء الجيش العثمانى وتحديثه وتقويته، وتمتين عرى تحالف عثمانى مقدس، وعرض عليه في ديسمبر ١٨٢٧م، كما مر، مشروعاً مشتركاً للنهوض، ولكن السلطان رفضه. أما من جهة أخرى فقد امتنع محمد على عن مشاركة الباب العالى فى حربه ضد الروسيا، وقبل بالضغط الروسى والأوروبى من حيث التزام الحياد. ورفض أن يشارك فى دفع الغرامات المفروضة على الباب العالى وفقاً لمعاهدة أدرنه.

من هنا شكلت هذه الفترة نقطة فراق مصيرية بين محمد على والباب العالى لتصل قمتها فى حملة سوريا.

قوانين المياه فى الدول الإسلامية وضرورة تحديثها



د. إبراهيم البيومى غانم
مستشار المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية

بعد أن انتهيت من كتابة مقال «تجديد فقه المياه: من التراث إلى الواقع» الذي نشرته مجلة الأزهر الغراء في أعدادها الصادرة في رجب ورمضان ١٤٣٥هـ، جرى حديث حول موضوع فقه المياه بيني وبين مستشار سابق لمنظمة الأغذية والزراعة التابعة للأمم المتحدة (الفاو). وأوضحت له هدفي من مقالي عن تجديد فقه المياه، وهو: أن يفتح باب الاجتهاد والتجديد في قضايا المياه التي تواجه مجتمعاتنا في واقعها ومستقبلها أيضا. وذكرت له أن البحوث الحديثة في هذا الموضوع نادرة جدًا، والموجود منها تقليدي لا جديد ولا غناء فيه. وسألته إن كانت هناك مؤلفات حديثة في فقه المياه بحكم خبرته الطويلة في شئون الزراعة والري، فبادر بإهدائي كتابا ثمينا باللغة الإنجليزية أصدرته (الفاو) في مجلدين بعنوان (قوانين المياه في البلدان الإسلامية)، وهو من تأليف دانتي كابونيرا رئيس قطاع التشريعات والقوانين بالفاو في السبعينيات من القرن العشرين.

وقد صدر المجلد الأول من الكتاب في سنة ١٩٧٣م ويقع في ٢٢٣ صفحة، وصدر المجلد الثاني في سنة ١٩٧٨م ويقع في ٣١١ صفحة.

ولندرة ما صادفتُ من كتب في موضوع هذا الكتاب، بادرت لقراءته بنهم شديد، وأتيت عليه في بضعة أيام. وظفرت منه بكثير من المعلومات والأفكار القيمة في فقه المياه وقوانينها. وفي سبيل تحصيل ما فيه تحملت رداءة خط طباعته، وتصبرت على صغر حجم حروفه المكتوبة بطريقة بدائية جدا لا تشجع على قراءته. وبعد أن انتهيت منه وجدت من المفيد أن أقدم لقراء (مجلة الأزهر) الكرام خلاصة وافية لمضمونه، متأملًا أن يسهم في حث الباحثين والمجتهدين على الاستجابة لدعوتنا لتجديد الاجتهاد في (فقه المياه) وإخراجه من الزاوية الضيقة التي حُبس فيها. وهي زاوية لا تتسع لدى المعنيين بالفقه المعاصر (أفرادا ومجامع فقهية) إلا لمسائل: الطهارة، والوضوء للصلاة،

وغسل الموتى، بينما نجدهم مقصرين في القيام بواجبهم الشرعي في بيان أحكام المياه التي تؤثر بضراوة على صحة الإنسان، وسلامته العامة من جراء مشكلات تلوث المياه وناقلات الأمراض التي تسبح فيها وتهدد حياة الإنسان، كما تؤثر على أمنه واستقراره الاقتصادي والاجتماعي جراء الأعاصير والفيضانات والجفاف، أو جراء قيام شركات متعددة الجنسيات بإنتاج المياه الصحية واحتكار بيعها لمن يقدر على دفع ثمن المياه الصحية ليقي نفسه وأهله من الأمراض التي تفتك بالفقراء وغير القادرين، ناهيك عن المشكلات التي تهدد ملايين البشر جراء الحروب والمنازعات المسلحة التي تندلع بسبب المياه، أو ستندلع بسببها في المستقبل القريب أو البعيد.

في القسم الأول من الكتاب، قدم مؤلفه الأستاذ كابوتيرا نبذة وافية عن التشريع الإسلامي وأصوله ومذاهبه وجغرافية الإسلام في العالم. ثم تناول الأصول الإسلامية لقانون المياه، وقانون استهلاك المياه، وتقنين أحكام المياه في البلدان الإسلامية. وتجلت براعة المؤلف في الإبحار في مصادر الفقه بمذاهبه المختلفة (السنية والشيعية) على امتدادها الجغرافي والتاريخي منذ عصر التدوين في القرنين الثاني والثالث الهجريين، إلى عصر التقنين في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين. وقدم لنا خلاصة وافية فيما لا يزيد عن ٤٢ صفحة فقط.

أول وأهم ما لاحظه المؤلف هو أن الفقه (يسميه القانون الإسلامي) مؤسس علم مبادئ الإسلام وتعاليمه المشتقة من الوحي المنزل على رسول الله ﷺ. وهذه الحقيقة تكشف عن أسباب عدم ثقة المجتمعات الإسلامية في التقنينات الغربية؛ فالمسلمون يخشون الأفكار التي تضاد المبادئ الإسلامية، أو التي تدخلهم في دائرة البدع المحظورة بمعايير الشريعة.

والمؤلف يرى أن الشريعة تشتمل على قسمين أساسيين: أولهما يحكم القلب والعقل، ويتناول العقيدة والأخلاقيات الفردية. وثانيهما يحكم علاقة الإنسان بخالقه، وعلاقة الإنسان بالإنسان، وهذا يتضمن أداء العبادات والعلاقات القانونية بين الأشخاص والهيئات الاجتماعية.

لقد نشأ (الفقه) في القسم الثاني من الشريعة. ويختلف الفقه عما يفهمه الغربيون من (القانون). فالفقه مرتبط بالدين، ويتضمن العبادات وأحكامها والزكاة وذبح الأضاحي ومواصفات زي المرأة، وغير ذلك من الشعائر الدينية التي لا ينظمها (القانون) بمعناه الغربي. في حين نجد أن بعض أحكام القانون العام مستبعدة من (الفقه) مثل: أحكام الخلافة، والسياسة الشرعية؛ فقد تركها الفقهاء للحكام على ألا تتعارض تصرفاتهم مع المقاصد العامة للشريعة.

ويتناول المؤلف بعد ذلك ملامح التكوين العلمي والمعرفي للفقه والفقهاء. ويشير إلى أصول الفقه بشكل مجمل وكيف أنه يستند إلى القرآن والسنة والإجماع والقياس والعرف، على اختلاف فيما بين المذاهب الفقهية بشأن حجية بعض المصادر المرجعية.

ويقع (الإجماع) ضمن المباحث الأساسية في أصول الفقه. ويشير معناه العام إلى توافق في الرأي بين أبناء المجتمع الإسلامي. وهو يعطي شرعية لحل مشكلات معينة في زمن معين. ولكن مفهوم الإجماع تراجع بمرور الزمن ليقتصر على إجماع العلماء في زمن معين بشأن حكم شرعي. أما القياس فهو مبحث أصولي آخر يلي الإجماع في الحجية والأهمية. وتوضح مطارحات الأصوليين أن القياس يحتج به أساسًا في مسائل المعاملات أكثر مما يحتج به في مسائل العقيدة. وأما العرف فيجب أن لا يخالف مبادئ الشريعة حتى يكون حجة معتبرة. والعرف على أية حال مصدر فرعي من مصادر الفقه. ويلفت النظر أن أهم ثلاثة أمثلة (عرفية) في المصادر المبكرة للفقه تعلقت بالمجال الزراعي وهي: المزارعة والمغارسة والمساقاة.

ويلفت المؤلف انتباهنا إلى أن الانتماء لمذهب فقهي عادة ما يكون بالميلاد أو بالهجرة أو بالزواج، ولا يمكن أن يكون بالإكراه أبدًا. ولهذا السبب استمرت المذاهب سائدة في كثير من المناطق دون تغيير كبير رغم تغلب سلطات ذات مذاهب مختلفة، مثل الترك وغيرهم. وإلى جانب هذا فإن من حق الفرد حرية اختيار المذهب الذي يرغب في المثول أمام قاضيه في المحاكم. وهذا مبدأ شخصية القوانين الذي عرفه العالم فقط في القرن التاسع عشر.

وبالنظر في الواقع المعاصر للمجتمعات الإسلامية نجد أن فيها ثلاثة مدارس كبرى: المدرسة السنية وتشمل ٩٠٪ من إجمالي سكان العالم الإسلامي، والمدرسة الشيعية ٩٪، والمدرسة الإباضية وتشمل فقط ١٪. وقد أثرت تلك الاختلافات في كل المجالات ومنها قوانين المياه. ولفهم التباينات في قوانين المياه لا بد من معرفة المعالم الأساسية لكل مذهب فقهي، وخاصة المذاهب الكبرى: الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي، ومذاهب الشيعة الإمامية والإسماعيلية والزيدية والإباضية.

وطبقًا لإحصاءات السبعينيات من القرن الماضي قدم المؤلف صورة تقريبية لجغرافيا انتشار الإسلام التي طبقت فيها قوانين المياه الشرعية، وكثافة الوجود الإسلامي، وإلى أي مذهب أو نحلة ينتمون، وما المبادئ القانونية التي يلتزمون بها. وتتلخص هذه الصورة في الآتي:

(أ) المذهب الحنفي ينتشر في: تركيا، والقوقاز، والعراق، وسوريا، والأردن، ومصر، وباكستان، وأفغانستان، ووسط آسيا، وتونس (مع المالكي) والجزائر (مع المالكي) وألبانيا، وأثيوبيا (مع المالكي والشافعي).

(ب) المذهب المالكي ينتشر في: المغرب، وصعيد مصر، وتشاد (مع الشافعي)، وغينيا، ومالي، وموريتانيا، والنيجر، والسنغال، وغامبيا، والصحراء الغربية، والسودان (مع الشافعي)، وشمال نيجيريا، والبحرين (مع الشيعي)، والكويت (مع الشيعي)، وليبيا.

(ج) المذهب الشافعي ينتشر في: أندونيسيا، واليمن (مع الزيدي)، وبروناي، والصومال، وأريتريا، وماليزيا.

(د) المذهب الحنبلي ينتشر في: العراق

ودول الخليج العربي وباكستان.

أما المذاهب الشيعية فتنتشر في: إيران، والعراق، وأقليات في باكستان والهند وأفغانستان وسوريا. والمذهب الإسماعيلي ينتشر في: شمال سوريا، وأقلية في إيران، وأفغانستان، وباكستان، واليمن، وأقلية في الهند. والمذهب الزيدي يوجد في اليمن (مع الشافعي). والمذهب الإباضي ينتشر في عمان (مع الشافعي)، ووادي ميزاب في الجزائر، وتنزانيا / زنجبار.

أصول القانون الإسلامي للمياه:

(١) في عصر الجاهلية وقبل ظهور الإسلام: لم تكن هناك قواعد مستقرة لتنظيم استخدام المياه. وأسهم العرف القبلي بدور أساسي في تنظيم استخدام المياه وحل الصراع حول مصادرها من العيون والآبار. وكانت القوة هي أساس هذا القانون. وكان بيع المياه شائعًا وكان امتلاك مصادر المياه هدفًا للصراعات القبلية الدموية. ولما جاء محمد ﷺ وضع القواعد الأولى للعدالة في توزيع المياه وقضى على تلك الصراعات.

ويوجز المؤلف الملامح العامة لقانون المياه كما حددها الرسول في الآتي:

١- التأكيد على المساواة والأخوة في الإيمان. أكد على التطوع لمساعدة المحتاجين والتحرر من أثرة التملك التي كانت متحكمة في الممارسات القبلية الجاهلية.

٢- التصدق بالمياه هو نوع من التطوع الخيري الشرعي.

٣- إقرار حق المشاركة في الماء والكلأ والنار، وحرية الحصول على المياه حق للجميع. وكل من يسهم في توفير المياه المجانية جزاؤه الثواب الجزيل عند الله.

٤- إقرار الحق في المياه للإنسان والحيوان.

٥- المناطق المرتفعة لها أولوية في السقي قبل المنخفضة، على ألا تتجاوز كمية المياه في ارتفاعها عن قدم الإنسان (وسع القدم).

٦- ملاك الآبار غير مسئولين عما يصيب العطشى من جروح وإصابات أثناء حصولهم على المياه.

٧- الأرض التي تروى بماء المطر تدفع ضعف التي تروى بوسائل صناعية.

٨- ملكية القنوات والآبار وغيرها من مصادر المياه تدخل في الامتدادات الحدودية للأرض، أو الحريم حيث لا يسمح بحفر بئر جديدة حتى لا تتأثر نوعية المياه ولا كميتها في الآبار القديمة.

تلك هي أهم المبادئ التي أرساها الرسول وانطلق منها أئمة المذاهب في اجتهاداتهم بشأن المياه. وكان أساس الاجتهادات الفقهية بشأن المياه هو مبدأ الشراكة فيها ومنع بيعها إلا استثناء، وتحريم احتكارها، واعتبروا منع المياه عن شخص عطشان جريمة يعاقب عليها. ويمكن للعطشان أخذ ما يحتاج من المياه ولو عنوة. وقد أدان عمر ابن الخطاب من يتسببون في موت الإنسان عطشًا، أو أن يدفع دمه ثمنًا كي يشرب.

ولكن تلك المبادئ لم تعد كافية بعد أن تطور المجتمع وتعقدت مؤسساته ومشكلاته بمرور الزمن. (يتبع)

الأزهر ومدارس الشعر المعاصر

الأستاذ / عاطف مصطفى

أجدني كل مرة وأنا أقلب فى صفحات مجلة الهلال، باحثا عن جديد لكى أقدمه لقارئ مجلة الأزهر، أحار فى اختيار بحث أو مقال فكرته عبقرية؛ خاصة إذا كان يتناول الأزهر العملاق، صاحب التاريخ الكبير والمتميز، والذى أثرى حياة المصريين خاصة والمسلمين عامة على مدار أكثر من ألف سنة، بالفكر الدينى فى كل جوانبه وفى وسطيته وسماحته، التى أذهلت العالم كله، حتى يومنا هذا، وأخرصت كل الذين حاولوا النيل من شموخ الأزهر وريادته وتفرده بين كل جامعات العالم ومدارسه المختلفة والمتباينة واستوقفنى مقال متميز للدكتور عبد العزيز الدسوقى وهو شاعر، وعمل نائبا لرئيس تحرير «مجلة الثقافة» التى كانت تصدرها الهيئة المصرية العامة للكتاب فى عهد الدكتور محمود الشنيطى.

كتب الدكتور الدسوقى هذا المقال البديع بعنوان «الأزهر ومدارس الشعر المعاصر» تناول فيه نماذج لشعراء كبار من أبناء أزهرنا الشامخ؛ منذ عام ١٧٧٠م، بما يثبت أن علماء الأزهر ورجاله الأفذاذ لم يتوقفوا عند الفكر الدينى ولكنهم برعوا فى كل مجالات الفكر بما فيها الثقافة والإبداع.

المقال نشر فى عدد سبتمبر ١٩٧٢م من الهلال، وكان عددا خاصا يحمل عنوان «فلاسفة الإسلام».

وأذكر أن رئيس التحرير صالح جودت كان قد خصص هذا العام للاحتفال بألفية الأزهر الشريف (عام ١٩٧٢م).

يبدأ الدكتور عبد العزيز الدسوقى بمقدمة يقول فيها: ليس من شك فى أن «الأزهر» أصبح من أكبر القسمات المميزة لحياتنا الثقافية والأدبية والروحية، على امتداد الأرض العربية والعالم الإسلامى، منذ أكثر من ألف عام. بل لعلى لا أغلو كثيرا إذا قررت أن «الأزهر» لعب دورا هاما فى تاريخ الحضارة الإنسانية ومنح التاريخ الإنسانى أنضر الصفحات، وأعطى للحياة الفكرية والروحية أعظم الرجال.

ثم يضيف: لن أستطرد إلى المجالات المتعددة التى أسهم الأزهر فيها إسهاما كبيرا، وسأقصر هذه الدراسة على أثر الأزهر

فى اتجاهات الشعر بصفة عامة، ومدارس الشعر المعاصر بصفة خاصة.

فقد أصبح من البديهيات التى لا يمارى فيها أحد أن من بين أبناء الأزهر كثيرين ممن أسهموا فى صنع نهضتنا الحديثة، فمن بين جدرانه ومن أروقته امتلأت المدارس الحديثة، والمعاهد التى أنشئت منذ مطالع القرن التاسع عشر كمدرسة الطب والهندسة والألسن ودار العلوم والقضاء الشرعى، وغيرها من المعاهد التى طورت الحياة فى مصر، وانتقلت بها إلى ركب الحضارة الإنسانية.

ومن بين أبنائه شكلت البعثات العلمية، التى وصلت الشرق بالغرب، وتفتحت على المعارف الحديثة، وعادت إلى البلاد تغرس فيها تلك البذور التى أثمرت فيما بعد أشهى الثمرات.

وفى مجال الزعامة العلمية والقومية والسياسية والتشريعية تجد أشهر الأسماء التى تخرجت فى هذا المعهد العتيد.. الأزهر الشريف.

دور مهم فى تكوين العقل العربى:

على أن الأزهر كان له دور كبير فيما يتعلق بالأدب والثقافة وبصفة خاصة ما يتعلق بالشعر، وذلك بفضل التكوين الثقافى والإعداد العلمى الذى كان يتوافر لأبنائه بصورة كبيرة فى مجال العلوم العربية، إلى جانب الفقه والتفسير وبقية العلوم الشرعية.

وكانت طريقة التدريس فى هذا المعهد – مهما شابها من عيوب – تكون العقل العربى تكوينا متينا، وتربى فى الطالب ملكة مقتدرة يستطيع من خلالها أن يستوعب كل المعارف الإنسانية مهما كانت.

وكانت هذه الطريقة تصقل الطالب، وتعوده الصبر والمثابرة والجلد وحسن التلقى، والقدرة على التحصيل والاستيعاب.

وعندما كان يتاح لهذه العقول أن تتفتح على ثقافة حديثة، أو تتصل بالحضارة الإنسانية، كانت تفيد أكبر الإفادة، وتؤثر بعد ذلك أكبر التأثير.

وكانت دراسة الشعر والعروض وتاريخ الأدب، من الدراسات التى احتفظ بها الأزهر فى مختلف مراحله، وكان الطلاب يلوذون بهذه العلوم فرارا من متون الفقه والأصول والمنطق وشروحها وحواشيها.

وقد كان هؤلاء الطلاب، يحفظون كثيرا من الشعر بكل أنواعه، وفى كل عصوره، جاهليا وإسلاميا وأمويا وعباسيا، ومن هنا كانت تتكون لهم ملكة النظم.

ويمكن أن نقول إن شعراء القرن التاسع عشر – كلهم أو معظمهم – كانوا من الأزهر.

دفاع عن شعراء الأزهر:

يقول الدكتور عبد العزيز الدسوقى: لقد عشت فترة من الزمان فى تاريخ الجبرتى، حتى أتبين ملامح هؤلاء الشعراء، فهالنى أن أجد تلك الكوكبة الكبيرة من شعراء الأزهر الأعلام، ومهما قيل حول شعرهم الآن، فإنه كان متلائما مع المرحلة الحضارية التى

كانوا يعيشون فيها، ونخطئ كل الخطأ، لو حاسبناهم بتلك المعايير الفنية، التى نقيس بها شعرنا المعاصر الآن!!

فهذا – فوق كونه خطأ منهجيا – يفصل الظاهرة الفنية عن سياقها الحضارى ويتجاهل ظروفها وبيئتها.

ومع ذلك فهناك عدد كبير من هؤلاء الشعراء يمكن أن نلتمس فى بعض أشعارهم إشعاعات نافذة تعبق بعطور القدم، وتثير فى العقول والنفوس لذة وقناعا.

ولن نستطيع أن نتبع كل شعراء الأزهر وأثرهم فى النهضة الأدبية الحديثة، ويكفى أن نشير إلى أنهم طوروا ما نسميه الآن تجوزا – مدارس الشعر الحديث. أو بمعنى أدق أسهموا فى تطوير اتجاهات الشعر العربى – عبر قرنين من الزمان.

ولقد كانت لهم قيادة فكرية وروحية فى المجتمع العربى فى مصر، ومن هنا كان يجىء تأثيرهم القوى فى الرأى العام.

الشعر سلاح وطنى وقومى:

ومنذ مطلع القرن التاسع عشر، كان هؤلاء الشعراء الأزهريون يستخدمون الشعر سلاحا وطنيا وقوميا، ويكفى أن نشير إلى عبد الله النديم الثائر العظيم، الذى كان يستخدم الشعر والزجل والكلمة – بصورة عامة سلاحا فى معركته التى خاضها طوال حياته المثيرة المشعة، حتى ثوى فى أرض الغربة.

وقبل عبد الله النديم ترجم رفاعة الطهطاوى «المارسيليز» نشيد الثورة الفرنسية شعرا إلى العربية، ونظم بعد ذلك عدة أناشيد وطنية وثورية.

فى هذا الوقت المبكر من الزمان ظهر من شعراء الأزهر الأعلام الخشاب، وحسن العطار (١٨٢٤م) وعبد الله الشبراوى وعلى الدرويش (١٨٥٣م) ومحمد شهاب الدين المصرى، ومصطفى الصاوى، وعلى أبو النصر (١٨٨٠م) وعلى الليثى (١٨٩٦م) وحسن قويدر الخليل (١٨٤٥م) وعبد الهادى نجا الإبيارى (١٨٨٨م) وغيرهم وغيرهم.

الشعر والوحدة الوطنية:

يتحدث الكاتب عن شعراء من الأزهر ظلموا كثيرا ولم يأخذوا حقهم فى تسليط الضوء على شعرهم:

من هؤلاء الشعراء الشاعر أحمد محمد الحملاوى (١٨٥٦ – ١٩٣٢م) وهو عالم لغوى حجة، وله مؤلفات ذائعة فى الصرف والبلاغة، أخذت شهرة أكثر من اسمه منها «زهر الربيع فى المعانى والبيان والبديع» و«شذا العرف فى فن الصرف».

ولكن شهرته كشاعر عفى عليها الزمان، على الرغم من شاعريته الناضجة، وفى ديوانه المطبوع كثير من الشعر السياسى والقومى وشعر التصوف وشكوى الزمان.. وله قصيدة يناجى فيها مصر فيقول:

يا مصر لا تقنطى فالنصر قد حانا
سبحان من أرغم الأعداء سبحانا

ولا تخافى فعين الكل ساهرة
فالدهر أدبنا جمعا وربانا
ولقنتنا الليالى من تصرفها
ما شان من حالة الدنيا وما زانا

أيضا فى قصيدة طويلة حافلة بالنظرات السياسية التى تكاد تلامس همومنا المعاصرة تراه يتحدث عن الوحدة الوطنية بين أبناء الأمة ويرفض وصاية الأعداء وحمايتهم..

فيقول:

فالكل بالروح يفديها وينصرها
وإن هم اختلفوا رسلا وأديانا
القلب مؤتلف والدين مختلف
لكن تراهم أمام الأم إخوانا

ثم يقول:

فلا وربك لا نرضى حمايتهم
وإن هم رفعوا للعدل ميزانا
وكيف والغدر والعدوان ديدنهم
وقد أسالوا دماء العزل إخوانا

يقول الدكتور الدسوقى: هؤلاء الشعراء لا يمكن فصلهم عن مدارس الشعر التى سادت فى الأمة العربية منذ أواخر القرن التاسع عشر حتى الآن وهى:

مدرسة البعث - ومدرسة التجديد

ومدرسة أبوللو - وجيل الشعر الحديث أو جيل الشعر الحر.

وقد أمد الأزهر كل هذه المدارس بأبرز أبنائها وروادها.

شعراء الأزهر وأثرهم فى مدارس الشعر المعاصرة:

يقول الدكتور الدسوقى: وقبل أن أتعرف على أبناء كل مدرسة من هذه المدارس، أحب أن أعرض فكرة جديدة اقتنعت بها، بعد سياحة طويلة فى اتجاهات الثقافة العربية الحديثة، وهى أننى أعتبر أبناء الأزهر ودار العلوم والقضاء الشرعى، أبناء ثقافة واحدة، وفى مجال الظاهرة الأدبية والفنية اعتبرهم جميعا أزهريين، وأنا أعلم أن هذه الفكرة ستغضب بعض أشقائنا الدراعمة، الذين يعتبرون أنفسهم الآن أبناء جامعة القاهرة، ولكن فليغفروا لى هذا التصور الذى برز بصورة واضحة أمامى وأنا أكتب هذه الدراسة عن شعراء الأزهر وأثرهم فى مدارس الشعر المعاصر.

والفكرة على كل حال تستند إلى أسس علمية موضوعية..

فلا شك أن (دار العلوم) تلك المدرسة العتيدة منذ قامت فى عام ١٨٧١م كانت رافدا قويا وعميقا أو فرعا من فروع الأزهر، والفرع الثانى هى مدرسة دار القضاء الشرعى التى أنشأها سعد زغلول عندما كان وزيرا للمعارف عام ١٩٠٧م، وإذا مضينا فى التشبيه واعتبرنا الأزهر هو النيل، وهذين الفرعين هما فرعاه، فإننى أعتقد أن هذين الفرعين اكتسبا حيوية وشبابا جددت شباب النهر الأم.

فإذا بعدنا عن التشبيهات وعمدنا إلى الحقائق، وجدنا أن مدرسة دار العلوم منذ قامت تستمد تلاميذها من الأزهر، وكذلك مدرسة القضاء الشرعى، بل إن الرعيل الأول

من أساتذة دار العلوم كان من الأزهر.

نذكر على سبيل المثال الحسين المرصفى، ومحمد عبده، وحسن الطويل، وحمزة فتح الله، وحسونة النواوى وسليمان العبد.

وكذلك أمد الأزهر مدرسة القضاء الشرعى بصفوة من أبنائه الأعلام قاموا بالتدريس فيها منذ إنشائها، نذكر منهم: عبد المجيد سليم، وإبراهيم حمروش، ومحمد بخيت المطيعى، ومحمد طموم، وحسين والى وحتى الجامعة المصرية منذ قامت فى عام ١٩٠٨م استضافت بين أساتذتها من رجال الأزهر: محمد المهدى، ومحمد الخضر، والسيد بن على المرصفى وغيرهم: لهذا اعتبر الشعراء الذين تخرجوا فى دار العلوم والقضاء الشرعى شعراء أزهريين.

وهناك سبب موضوعى يدعونى إلى هذا وهو أن هؤلاء تكونوا علميا وفنيا فى الأزهر طوال تسع سنوات، وأتيح لهم من الزاد الفنى والأدبى قسط كبير، صقل ملكاتهم الفنية ونمّى مواهبهم الشعرية وأظن أن ملامح الشاعرية تتكون وتتحدد فى تلك السن المبكرة من الشباب (حتى العشرين) وهؤلاء جميعاً ظلوا فى الأزهر إلى ما بعد سن العشرين بقليل، وذهبوا إلى معاهدهم الجديدة، وهم شعراء متكونون بطبيعة الحال تفتحوا على معارف جديدة وثقافات مختلفة زادتهم تفتحا ونموا، ولكن لون شاعريتهم ظل بدين لهذا التكوين الأول فى الأزهر وليس هناك شك فى أن هؤلاء أغنوا مدارس الشعر العربى الحديث.

تأثير أبناء الأزهر فى مدارس الشعر:

يتناول الدكتور عبد العزيز الدسوقى مدارس الشعر كما قسمها وهى:

مدرسة البعث: والتى رادها البارودى وشوقى وحافظ قائلا، ويمكن أن تضيف لها: محمد عبد المطلب، وعبد الوهاب عزام، وعلى الجارم، ومحمود غنيم، ومحمد الأسمر، وعلى الجندى، وعبد الله عفيفى، وعبد الجواد رمضان، والباقورى، ومحمد نايل، والبديوى، وأبو الخشب، والخفاجى وغيرهم.

أما مدرسة التجديد: التى رادها العقاد وشكرى والمازنى فيمكن أن تضيف إليها العوضى الوكيل، وأحمد مخيمر، وعبد العزيز عتيق وغيرهم.

وفى جماعة أبوللو: التى رادها على محمود طه وأبو شادى، وناجى والصيرفى وصالح جودت.

وتلألأت مجموعة من ألمع أبناء هذه المدرسة من الأزهر ودار العلوم منهم محمود حسن إسماعيل ومحمد عبد الغنى حسن وطاهر أبو فاشا، وأحمد عبد المجيد الغزالى، والمهدى مصطفى وغيرهم.

جيل الشعر الحر:

وقد جاء بعد جيل أبوللو جيل جديد من الشعراء يطلقون عليه جيل الشعر الحر..

وقد رفد الأزهر ودار العلوم هذا الجيل بصفوة من أبنائه أعتبرهم أقدر شعراء هذه المدرسة الحديثة، التي تتخذ من التفعيلة وحدة لبناء القصيدة، وتحاول أن تدخل على القصيدة، أصواتا متعددة، وتفيد من أشكال فنية أخرى في تنسيق القصيدة، وتتخذ من الأسطورة والموروثات الشعبية رموزا تغتني القصيدة.

هؤلاء الشعراء الذين تكونوا في الأزهر ودار العلوم، وتفتحوا على هذا اللون الجديد من الشعر، أو هذا النسق، أظهروا مقدرة فنية هائلة لأنهم يملكون الأدوات الفنية ويمزجون في تكوينهم العقلي والروحي أنضج ما في التراث، بأبهى ما في الثقافة المعاصرة، لذلك خلا إبداعهم الفني من هذا الغموض الكثيف الذي يصل إلى درجة الألغاز، ومن هذه العجمة وتلك الركاكة، التي تحيل القصيدة إلى ما يشبه الترجمات الركيكة أيضا..

وإذا كان هذا الجيل قد أنتج موجتين متعاقبتين فإن أبناء الأزهر ودار العلوم قد قادوا هاتين الموجتين، على الرغم مما يوضع في سبيلهم من عقبات ومما يتربص بهم من اضطهاد..

وقاد الموجة الأولى: عبده بدوي وسعد دعيبس وفاروق شوشة وكيلاني سند وغيرهم.

وتناول الدكتور الدسوقي بالحديث الشاعر علي الجندي والذي حفظ القرآن في بداية حياته ودخل الأزهر الشريف ثم التحق بكلية دار العلوم، وعمل مدرسا بالمدارس ثم مدرسا بكلية دار العلوم ثم ظل يترقى حتى صار عميدا للكلية.

وقد أصدر ثلاثة دواوين من الشعر هي «أغاريد السحر» في عام ١٩٤٧م، و«ألحان الأصيل» في عام ١٩٥٠م، وأصدرت دار المعارف في عام ١٩٦٤م ديوانه الثالث «ترانيم الليل».

كما تحدث عن الشاعر محمد الأسمر والذي ولد في دمياط وتعلم في الأزهر واشتغل في مكتبة الأزهر، وقد أصدر ديوانه الكبير بعنوان «ديوان الأسمر» في عام ١٩٥١ في نحو ٦٦٠ صفحة وضع فيها كل تجارب الحياة ونبض وجدانه.

وقد وصف الشيخ مصطفى عبد الرازق شعره بقوله: «لشعرك تأثير في نفسي أحسبه يفوق ما يفعل الشعر، ذلك أنه فيض نفس أحبها، وقد يكون سحرا، ذلك الذي ترسله نغما موسيقيا في أسلوب سهل فيسري في الأرواح، ويفجر العواطف خلالها تفجيرا» ويكاد محمد الأسمر يكون من أوائل الشعراء الذين صوروا مأساة الحرب العالمية الثانية أدق تصوير في مجموعة من قصائده.

وقد خص فلسطين بباب كبير في ديوانه..

وفي شعره الروحي تتجلى قدرته الشعرية وطاقاته الفنية.

الرد على شبهات العصر:

قدرة الإسلام على حل جميع المشكلات



العلامة فتح الله كولن

سؤال: هل لدى الإسلام حل لكل قضية؟

الجواب: أجل، إنه كاف واف، وما قلناه بالأمس أصبح الناس جميعًا يعترفون به اليوم، وإقبال الكثيرين في الغرب على اعتناق الإسلام خير دليل على ما نقول.

هب أن لمصنع ما نظامًا يعمل به، فمن أعرف به من مؤسسه وواضعه؟ ها أنتم ترجعون في تشغيل أسهل آلة إلكترونية إلى من يعرف نظام تشغيلها؛ والله هو خالق الإنسان، فهو أعلم بنظام حياة الإنسان الاجتماعية والفردية، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الملك: ١٤)

فالوسيلة الوحيدة الكفيلة بسعادة البشر في الدنيا والآخرة هي دين الله.

واليوم يسلم الناس جميعًا بهذه الحقيقة؛ فالأنظمة التي وضعها البشر أفلست برمتها، ونجاحها كان مؤقتًا، ومنها نظام الإقطاع والرأسمالية والاشتراكية والشيوعية، فرغم أنها كانت من أشهر النظم على مر التاريخ إلا أنها انهارت واندثرت تباعًا، وخلفت وراءها صراخًا وعويلا لا ينقطع، بينما لم يفقد الإسلام من جوهره شيئًا قط منذ ظهوره حتى اليوم.

والغرب على وعي بهذا، فالدعاة الذين لهم عرى وثيقة مع الله يلقون استحسانًا وقبولا حسنًا في العديد من الدول الغربية، وقاعات الكنائس اليوم غدت تتنفس عبق محبة الإسلام.

واليوم تتجه الإنسانية التي أثقلتها مشكلات العصر إلى الإسلام من جديد، وقد اتسعت كثيرًا دائرةُ قناعات ترى أن الإسلام هو الحل لمعضلات مستعصية طال أنين البشرية تحت وطأتها.

واليوم يعترف الناس بهذه الحقيقة جميعًا حتى بعض من يعادي الإسلام، وهذا لا يخفى في أحاديثهم وشهاداتهم، والحق ما شهد به الأعداء.

وما أكثر من أسلم في أوربا الآن لكنهم يخشون من حولهم فيخفون إسلامهم.

وإذا أردنا أن نمثل لهذا فلا بد من إحصاء القضايا كلها واحدة واحدة، لنبين كيف حل الإسلام كلا منها على حدة، وهذا لا تتسع له عدة مجلدات، ويتعذر سبر أغوار موضوع كهذا في جواب سؤال.

وعلاوة على ذلك، فعلى هؤلاء أن يبينوا لنا أي معضلة تعذر على الإسلام حلها لنرد ونبين، لكنهم لما سألوا سؤالا نظريا كان جوابنا مثله، ناهيك عن أن كثرة الكلام في المسلمات عبث وهو ما لا يستحسنه الإسلام البتة.

قالوا عن الإسلام



د. عماد الدين خليل

كالفرلي[١]

(١) «يفصل كثير من الناس، بتأثير ميراثهم الثقافي وظروفهم الاجتماعية وتعليمهم، بين الدين والدولة، ويأخذ البروتستانت الغربيون هذا الفصل قضية مسلمة. ولكن الواقع أن هذا الفصل بين الدين والدولة أمرٌ جديد في المسيحية ابتدعته فيها أقلية مذهبية، ولم يعرف الإسلام أو سواه من الأديان العالمية مبدأ الفصل»[٢].

(٢) «لنضرب مثلاً على الدراسة (النزيهة) بمقال كتبه الأستاذ آرثر جيفرى Arthur Jeffery، في مجلة العالم الإسلامي، عدد يناير سنة ١٩٤٠م، يعرض فيه (أحدى) الترجمات الإنجليزية للقرآن.. فقد أعترف اعترافا صريحا بالقيم الروحية الممتازة في دين لا يدين هو به...»[٣].

كلود كاهن

(١) «... تملي شريعة الإسلام فرائض على الناس تجاه خالقهم، وتجاه بعضهم بعضًا فهي إذن - على حد تعبيرنا الحديث - شريعة دينية اجتماعية، والتمييز بين الدين والدنيا أمر غريب على الإسلام. على أن أهم فريضة تجاه الخالق هي الإيمان به والإذعان لمشيئته وذلك هو المقصود من كلمة (الإسلام)، والمسلم هو من يدين بالإسلام. كذلك أوجب على الناس أعمالاً محددة لا قيمة لها إلا بالنية الحسنة»[٤].

(٢) «من المقتضيات الأساسية للمجتمع الإسلامي إنشاء نظام اجتماعي يقوم على أساس مستمد من الشريعة الإلهية. بمعنى أن الإسلام لم يعهد مبدئيًا ذلك المفهوم الروماني - الذي قبلت به المسيحية - قبولاً جزئيًا - والذي يعترف بشرعية دولة قائمة بحد ذاتها تملك القدرة على التشريع تشريعًا قيمًا مقبولاً - ولو تحت إشراف من الإله - دون اللجوء في كل حالة من الحالات إلى توجيه إلهي. فالقاعدة الثابتة - من حيث المبدأ - هي الشرع الحنيف الذي أوحي به للناس دفعة واحدة ولابد من وضعه موضع التنفيذ. بل إن الخليفة لا يملك سلطة معنوية إلا بقصد تطبيق هذا الشرع..»[٥].

(١) أدوين كالفرلي ولد عام ١٨٨٢م، تخرج باللغات الشرقية من جامعة برنستون، وعين عضوًا في البعثة العربية التي نظمتها الكنيسة في الولايات المتحدة (١٩٠٩ - ١٩٣٠م)، ومحاضرا في مدرسة كنيدي للبعثات (١٩٣٠ - ١٩٣٢م) وأستاذ للعربية والإسلاميات فيها (١٩٣٢ - ١٩٥١م)، محررا لمجلة عالم الإسلام، (١٩٤٧ - ١٩٥٢م) وأستاذا زائرا في الجامعة الأمريكية بالقاهرة (١٩٤٤ - ١٩٤٥م).
من آثاره: (القرآن) (١٩٢٤م)، (العبادة في الإسلام) (١٩٢٥م)، (محمد) (١٩٣٦م)، (الإسلام) (١٩٣٨م).. إلخ.
(٢) الشرق الأدنى، مجتمعه وثقافته (بإشراف كويلر يونغ)، ص ١٧٣.
(٣) نفسه: ص ١٨٦.
(٤) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ١/ ١٩.
(٥) نفسه ١/ ٩١.

(٣) «... قد تدعو (علماء الكلام المسلمين) بعلماء الدين مع تحفظ واحد وهو أن تدرك أن الإيمان عند المسلم - ومن الناحية المبدئية - أمرٌ عقلي صرف، فلم يوجد إذن نظريًا انفصام يباعد بين الإيمان والعقل على نحو ما عهدته مثلا الفلسفة المسيحية»[٦].

(٤) «إن الإسلام لا يعترف بأي تمييز بين الأفراد ولا يخص المدينة - بوصفها مجموعة - بأي خاصة نوعية، كما لا يقر أي نظام لسكانها (البورجوازيين)..»[٧].

(٥) «نشأ الرسول ﷺ في مجتمع بلا دولة، فكان، على نحو لا تتبينه إلا العقول العصرية مبشرًا بدين، ومنظمًا لمجتمع دنيوي. ونتج عن ذلك أن القانون الاجتماعي جزءًا متماسكا مع القانون الديني، كما كان احترام القانون الاجتماعي جزءًا لطاعة الله تعالى. كان الوحي بذاته - إذن - هو الأساس المشترك للعقيدة وللتنظيم الزمني. فكان المجتمع نفسه هو الدولة والدين، ولم يتسنَّ لأحدهما أن يبقى وحده نظامًا قائمًا بذاته. لقد كان هذا التوجيه حاسمًا، ولم تستطع العقول أن تتخلى عنه إلى مدة غير قصيرة، وكان من نتائجه في العصور الآتية أن الرجل المسلم أصبح يطلب من نظامه السياسي أن يكون على جانب من الكمال..»[٨].

هاملتون كب

(١) «كانت التعاليم الاجتماعية التي جاء بها محمد (ﷺ) في أساسها، إعادة لإحقاق المبادئ الأخلاقية التي تشترك فيها ديانات التوحيد، فازداد ترسيخ معنى الأخوة بين جميع أفراد الجماعة الإسلامية، وأنهم سواسية من حيث القيمة الشخصية الفطرية دون نظر إلى ما في مكانتهم الدنيوية ووظائفهم وثرواتهم من تباين واختلاف وتعمقت جميع العلائق والواجبات المتبادلة التي تستتبعها هذه المبادئ. وقد تم ترسيخ ذلك كله وتعميقه حين وضعه الإسلام على أساس من الولاء الخفي والخضوع العلني لإله واحد.. وكانت لتعاليم الرسول (ﷺ) نتائج اجتماعية ملموسة تحددت صيغتها كما هو الحال في جميع الحركات الدينية بما تركته من آثار في البيئة التاريخية الواقعية»[٩].

«منذ البداية نشأ تيار (فقهي) يعارض بعض مظاهر المفهوم الرسمي، ويعارض سيطرة الدولة على الأمور الدينية، كما تجلى إصرار الفقهاء على أن الفقيه مسئول تجاه نفسه فقط. وقد وقع النزاع علنًا عندما قام المأمون وخلفاؤه يحاولون فرض المبادئ ذات الصيغة اليونانية التي نادى بها فريق المعتزلة (مذهبا رسميًا) ويضطهدون زعماء السنة المعارضين. وانتهى الصراع بانتصار السنة، وكان برهانًا قاطعًا على استقلال النظام الديني الإسلامي عن الخلافة وغيرها من المؤسسات السياسية، وعلى أن الحكام السياسيين لا يستطيعون الإشراف على مصادر سلطات الدين لأنها ملك للجماعة ولا علاقة لأحد بها، وأن الخلافة ذاتها نابعة من ذلك السلطان وأنها رمز سياسي له. وكانت هذه الأحداث ذات أهمية أساسية في مستقبل الإسلام كله، ذلك أنها حاولت دون أن يرتبط بأي نظام سياسي، وأمدت النظام الديني والجامعة معه بالحرية اللازمة للتطور على أساس ما يحويه الإسلام من طبيعة ومنطق ذاتيين...»[١٠].

(٦) نفسه، ١/ ١٠٤.
(٧) نفسه، ١/ ١٨٨.
(٨) الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية (تحرير كرونباوم)، ص ٢٠٠ - ٢٠١.
(٩) دراسات في حضارة الإسلام: ص ٦.
(١٠) نفسه، ص ١٥.

حث الإسلام على الإخاء والوحدة



فضيلة الشيخ/ فوزي فاضل الزفزاف
عضو مجمع البحوث الإسلامية

تمر الأمة الإسلامية والعربية في هذه الآونة بمرحلة من أسوأ مراحل حياتها منذ نشأتها... لقد وصلت إلى حالة من الضعف والهوان، والذلة والمهانة، والفرقة والانقسام، والتشتت والضياع، والخنوع والاستسلام أدت إلى أن أهدرت كرامتها، وانتهكت أعراضها، وتباهى أعداؤها - بلا خجل أو حياء - باستباحة حرمتها وشرفها، بعد أن أيقنوا أن المسلمين والعرب اليوم صاروا أمواتًا في صورة أحياء...

لقد تابعنا ما كانت تذيعه وكالات الأنباء العالمية والمحلية، وتنشره الصحف في كل مكان في العالم، وتبثه القنوات الفضائية صباحًا ومساءً أخبار وصور ما يفعله نتنياهو وجيشه الإسرائيلي بالفلسطينيين في غزة ورفح وبقية المدن الفلسطينية من قتل للشيوخ والنساء والأطفال وهدم للبيوت وتشريد لسكانها، واعتداء على المساجد والكنائس، وقلع للأشجار وإتلاف للمزروعات، وتخريب للبنية الأساسية في المدن الفلسطينية، وفرض للحصار التام على الشعب الفلسطيني...

كما تابعنا ونتابع ما تقوم به الجماعات والمنظمات الإرهابية في العراق وسوريا ولبنان واليمن وليبيا... من قتل وسفك دماء، واحتلال للقرى والمدن وتشريد سكانها واستباحة أعراضهم وأموالهم... والاستيلاء على المنشآت والممتلكات العامة للدولة وتوجيه عائدها لتنفيذ أهدافها الإجرامية، وإشاعة الفوضى وإحلال الدمار والخراب... وتنفيذ مخططات الولايات المتحدة الأمريكية ودول أوروبا في تفتيت الأمة الإسلامية والعربية وتقسيمها إلى دويلات عرقية ومذهبية تتقاتل وتتناحر فيما بينها خدمة لإسرائيل وتحقيقًا لأغراضها التوسعية لتكون هي الدولة الوحيدة القوية المهيمنة على الشرق الأوسط...

كما نشاهد في مصر ما تقوم به فلول جماعة الإخوان المسلمين من أعمال إجرامية تخريبية بعد ثورة ٣٠ يونيو التي أنقذت مصر - بفضل الله - من حكم الجماعة الإرهابية، وكشفت تحالفاتها مع أمريكا والفصائل الإرهابية لتسليم أرض سيناء لهم وإقامة البؤر الإرهابية عليها بعد أن أفرج محمد مرسي عن السجناء المجرمين الذين يقضون أحكامًا صادرة ضدهم بالإعدام والسجن...

وللأسف الشديد تفعل هذه الجماعات والمنظمات الإرهابية هذه الأعمال باسم الإسلام الذي يطلقونه على أسمائها، والإسلام بريء منهم ومن أعمالهم...

كما بين رسول الله ﷺ في أحاديثه الشريفة، وتوجيهاته الكريمة، ما ينبغي أن يكون عليه المؤمنون من الصلة والترابط، والوحدة والتعاون، والحب والعطف، والسند والإعانة، والنجدة والإغاثة... فعن النعمان ابن بشير رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» (صحيح مسلم/ ٢٥٨٦)، وعن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا، وشبك بين أصابعه» (صحيح البخاري/ ٢٤٤٦).

إن الدين الإسلامي أسس للأخوة التي تؤلف بين أتباعه في مشارق الأرض ومغاربها، وتجعل منهم - على اختلاف الأمكنة والألسنة والأزمنة - وحدة راسخة الدعامة، شامخة البناء، لا تنال منها العواصف الهوج، متى طبق المسلمون الأخوة كما حددها الإسلام ورسمها قولًا وعملًا، ومنهجًا وسلوكًا... ومن ثم فأصحاب الإسلام وحملة رسالته يجب عليهم أن يستشعروا جلال العقيدة التي شرح الله بها صدورهم، وجمع عليها أمرهم، ووحد بها كلمتهم، ورفع بها رايتهم، وأعز بها مكانتهم، وأن يولوا التعارف عليها ما هو جدير به من عناية واعتزاز...

إن الأخوة تعارف يُحيي من قرابة مشتركة بين الخلق، ويُؤكد الأبوة المادية المنتهية إلى آدم بربطها بأبوة روحية تستمد قوتها وأصالتها من تعاليم الأديان السماوية التي جمعتها واستكملتها رسالة الإسلام...

إن الأخوة في الإسلام تدفع المسلم إلى كشف ضوائق إخوانه، فلا يهدأ حتى تزول غمتها، وتُدْبر ظلمتها عنهم، فإذا نجح في ذلك استنار وجهه، واستراح ضميره، وبات هادئ الخاطر، منشرح الصدر؛ لأنه استجاب لتوجيهات رسول الله ﷺ، والتزم بتنفيذها في الحديث الشريف الذي رواه الصحابي الجليل أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ نَفَّسَ عن مؤمن كُربة من كرب الدنيا نَفَّسَ الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يَسَّر على مُعسر يَسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن سَتَر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، ومن سلك طريقا يلتمس فيه علمًا سَهل الله له به طريقا إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله تعالى ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه»[1].

فمن علامات الأخوة الصادقة الخالصة أن تحب لأخيك النفع، وأن تهش لوصوله إليه، كما تبتهج بالنفع عندما يصل إليك أنت، فإذا اجتهدت في تحقيق هذا النفع، وسعيت مخلصًا في إنجازه فقد تقربت إلى الله بأزكى الطاعات وأجزلها مثوبة عند الله...

روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه كان معتكفا في مسجد رسول الله ﷺ، فأتاه رجل فسلّم عليه ثم جلس، فقال له ابن عباس: يا فلان، أراك مكتئبا حزينا!! قال: نعم يا بن عم رسول الله، لفلان عليّ حق ولاء، وحُرْمة صاحب هذا القبر ما أقدر عليه.

قال ابن عباس: أفلا أكلمه فيك؟ قال: إن أحببت. قال: فانتعل ابن عباس ثم خرج من المسجد، فقال له الرجل: أنسيت ما كنت فيه؟ يعني الاعتكاف - قال: لا، ولكني سمعت صاحب هذا القبر والعهد به قريب - ودمعت عيناه - يقول: «مَنْ مشى في حاجة أخيه وبلغ فيها كان خيرًا له من اعتكاف عشر سنين، ومن اعتكف يومًا ابتغاء وجه الله تعالى جعل الله بينه وبين النار ثلاثة خنادق أبعد مما بين الخافقين»[2] وفي رواية: كل خندق أبعد مما بين الخافقين.

هذا الحديث الشريف يصور إعزاز الإسلام لعلائق الإخاء الجميل، وتقديره العالي لضروب الخدمات العامة التي يحتاج إليها المجتمع لإرساء أركانه، وصيانة بنيانه، وتقوية دعائمه، وسلامة أمنه واستقراره».

لقد آثر ابن عباس رضي الله عنه أن يدع اعتكافه، والاعتكاف عبادة محضة رفيعة الدرجة عند الله تعالى، لأنها استغراق في الصلاة والصيام والذكر وقراءة القرآن، ثم هو في مسجد رسول الله ﷺ حيث يضاعف الأجر ألف مرة فوق المساجد الأخرى، ومع ذلك فإن فقه ابن عباس في الإسلام جعله يدع ذلك ليقدم خدمة إلى مسلم يطلب العون: هكذا تعلّم من رسول الله ﷺ...

للحديث بقية

(١) مسلم «٢٦٩٩».
(٢) البيهقي.

حول أدب الأطفال

الأستاذ / مصطفى عكرمة

الحمد لله الذي علّمنا الرحمة، وأمرنا بها في كل حال، والصلاة والسلام على من أرسله الله رحمة للعالمين، القائل (ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ويوقّر كبيرنا، ويعرف لعالمنا حقّه).

إن الإسلام وهو دين الفطرة السوية جعل الرحمة والتيسير في كل أمر من أمور الحياة، وألزمنا بها، وأولادنا الذين هم زهرة حياتنا الدنيا وزينتها، والذين هم مستقبلنا وامتدادنا....نجدُ أن لهم مقاما عظيما في تشريعه، وأحسب أن غيره لم يولهم العناية الفائقة اللائقة، والاهتمام الحق كما أمر، في حين كانت بعض الأمم السابقة إذا وُلدَ لها مولود غطّسوه مادة تُمتحن بها مقدرته على العيش، فإذا لم يقاومها دفعوه إلى الموت، من دون أدنى رحمة، كما كان بعض الجاهلين يعمدُ إلى وأد وليدته، مخافة أن تجلب له العار بسبيٍّ، أو بما تأباه عليه كرامته

وجاء الإسلام فأولى الأطفال، وصان حتى الأجنة، بكل الرعاية والاهتمام، وأمر المقبلين على الزواج أن يختاروا الزوجة التي تصلح لتكون ربة أسرة مسئولة، وأمّا لأطفال سيكون عليهم عبء بناء الحياة الحرة الكريمة، كما منع الإسلام إيذاء الأجنة بإزعاج أمهاتهم، وحرّم التخلص منها، فإذا جاء المولود تعاظمت بقدومه الفرحة، وذُبحت له عقيقة، وعُملت وليمة، يُدعى إليها الأقرباء والفقراء ابتهاجا بالمولود وسرورا.

وقد كفل الله لكل مولود حق الرضاعة سنتين، حتى يقوى على المطالبة بالطعام، ويُحسن تناوله، وجعل له حقا على والديه أن يحسنا تربيته تربية صالحة، تضمن له كل المتطلبات....ومنها العناية بتعليمه علما يجعل منه إنسانا فاعلا في مجتمعه، صالحا مصلحا، لأنه سيُحمل رسالة ربه التي ورثها عن والديه اللذين نشأ عليها، في مجتمع قوامه الحب والرعاية، والأمن والأمان، والألفة والحنان.

ولنتوقف الآن عند بعض ما كان من أجدادنا العرب في جاهليتهم من فخر بالأبناء واعتزاز بهم، فها هو الشاعر الجاهلي عمر ابن كلثوم يقول في معلقته:

إذا بلغ الفطامَ لنا صبيٌّ
تخرّ له الجبابر ساجدينا

وفي هذا ما فيه من المبالغة، لكن هذا الشعور العظيم عند الشاعر، بمنزلة الصبي التي لن ينالها إلا إذا تربى على المكارم والمحامد التي تجعل الجبابر تخرُّ له ساجدة.

ولنسمع إلى ما قاله طرفة بن العبد الشاعر الجاهلي في معلقته مفتخرا بفتيان قومه الذين هو واحد منهم:

إذا القوم قالوا من فتى خلتُ أنني
عنيت فلم أكسل ولم أتبلّد

وها هو عبد المطلب جدّ رسولنا الكريم محمد صلوات ربنا وسلامه عليه، يقول مداعبا ولده العباس الذي كان واحدا من أحد عشر من أبنائه، إذ لم يكن وحيده لينال عنده هذه المنزلة التي تمناها له وهيأه لها، وأعده لنيلها، لأنه سيُحسن تربيته وتنشئته كما فعل له آباؤه من قبل:

ظني بعباس حبيبي إن كبر
يمنع القوم إذا ضاع الدُّبُر
ويكشف الكرب إذا ما الخطب هرّ
أكمل من عبد كلال وحجر
لو جُمعا لم يبلغوا منه العُشُر

وهذا ما كان من العباس رضي الله عنه، الذي وعي هذه المعاني، وكان أهلا لها، وكما نشأ عليها برعاية والديه وأسرته فقد نشأ عليها كذلك أبناؤه، فإنه عبد الله رضي الله عنه، أعلم الناس بكتاب الله، ومن ذريته الصالحة قامت الخلافة العباسية التي تعتبر أزهى وأعظم ما في تاريخ الأمم من حضارة وتمدن وعلم وازدهار.

ولهند بنت عتبة زوجة أبي سفيان أهزوجة رائعة ملهمة تقول لابنها معاوية رضي الله عنه الذي أسس الخلافة الأموية، فكانت مضرب المثل في الفتوحات العظام، ونشر الإسلام، ومجد العرب وعزهم، وإليكم أهزوجتها:

إن بُنيّ معرقٌ كريم
محبب في أهله حليمُ
ليس بفاحش ولا لئيم
ولا بطخرور ولا سئيم
صخر بني فهر به زعيم
ولا يخلف الظن ولا يخيم

وأكاد أجزم أن هندا كانت تقرأ في ملامح وليدها الذي نشأته على ما يوصله، ليكون كاتب وحي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليكون بعدها مؤسس الخلافة الأموية، وإذا أمعنا النظر في قولها إنه (حليم) تدرك أهمية هذه المعاني الكريمة التي غرستها فيه فكان من حلمه أنه قال: (لو كان بيني وبين الناس شعرة واحدة ما انقطعت).

هذه بعض الشذرات من شعر الأطفال

عند أجدانا العرب...فأين هذا ممن كانوا يغمسون أطفالهم بمادة تمتحن أجسادهم الغضة، فإذا لم يقاوموها ألقوا بهم للموت.

وشذرة نادرة أخرى أذكر بها، وهي قول الشاعر حطان بن المعلا، التي هي من أصدق وأبلغ ما قيل في مجال الأبوة والبنوة:

وإنما أولادنا بيننا

أكبادنا تمشي على الأرض

لو هبّت الريح على بعضهم

لامتنعت عيني عن الغمض

هكذا كان مقام الأطفال في تاريخنا الأدبي، وما ذكرته ليس سوى فيض من فيض، ومثله بحمد الله كثير.

ومما يؤسف له أن تجد من المتطرفين الحاقدين على هذه الأمة وتاريخها المجيد، من كتب عن أدب الأطفال وشعرهم، جاهلين أو متجاهلين ما في تاريخ هذه الأمة من قيم تربوية رائدة في تنشئة أبنائهم، لعلماء أجلاء أوفياء متخصصين، ربوهم تربية كان لها أطيب الأثر، في حياة هؤلاء الأبناء الذين ترجموا تربيتهم إلى أعمال جليلة، وإن لم نتمكن من الحصول على ما كان قد ألفه أولئك المربون الأخيار، فكلنا يعلم ما جرى لمكتبات بغداد عاصمة علوم الدنيا ومركز حضارتها.

أقول هذا لنرى من أنكروا على أمتنا وتاريخها واهتمامها بأدب أبنائها، وأرجعوا إبداع هذه الأدب إلى الغرب الذي بُهروا بما عنده، فاقتبسوا منه اقتباسا جاء معظمه من غير تبصّر أو مراعاة لطبيعة عقيدتنا وقيمنا وحاجاتنا إلى ما يجب أن يقدّم لأطفالنا الذين أكرمنا الله بهم، ليكونوا حملة رسالة ربهم، والمحافظين على تراثها المجيد الفريد.. فإذا بما كتب هؤلاء العابثون على كثرته دون ما قدمه علماء أمتنا السابقون، أو ما قاله بفطرته السليمة أولئك الأجداد الصادقون.

نخلص إلى القول إن كما غير قليل مما أُلّف حديثا لأطفال أمتنا من كتب وأناشيد لم يكن في المستوى المنشود لأمة لها رسالتها وعقيدتها، لأسباب أرجو ألا أكون متجنيا إذا قلت: إن الفردية القاصرة، والتجارية الطامعة، والعنصرية الضيقة، وما إلى ذلك قد طبعت هذا الكم الهائل الذي غزا الأسواق وتنافست في تقديمه المحطات الفضائية، وشتى وسائل الإعلام، وإذا قلتُ هذا محذرا من مخاطر استمراره فهو أكرم عندي وأولى من أن أكون مجاملا لمعظم تلك المحطات التي قامت على إفساد عقيدة أبنائنا بإبعادهم عن لغتنا العربية، وقيمنا الخالدة قصدا خبيثا أو بغير قصد، والحالتان لم تجلبا إلا ما لا نريد ولا يُفيد.

إن ما في نفسي من غيرة على أجيالنا، ومن حرص على موروثنا الخالد العظيم، وما يعمر نفسي من أمل في مستقبل يليق بأجيال أمتنا، بوصفها أمة واحدة موحدة، لها وحدها بما حباها الله وبما فطرها عليه، أن تكون المؤهلة لإسعاد البشرية كلها، بما لها من قيم راسخة ومبادئ سامية، وهذا أملي على ما كتبت وأكتب، وما دعوت إليه وأدعو.

إنني حينما أعيش لهذه المشاعر، وما أحلم به من هذا الأمل المتواضع المشروع، أجد نفسي مضطرا لأنوه إلى أهم ما يجب أن يكون عليه شعرُ الأطفال، باعتبار أنه الأكثر تأثيرا وفاعلية في نفوس الأطفال، وتوسيعا لمداركهم. كما هو السبيل إلى تنشئتهم على القيم التي تميز أمتنا عن سائر الأمم.

وأقول هنا متمثلا ومذكرا بالقول الجميل للشاعر الحكيم:

إذا أنت لم تزرع وألفيتَ حاصدا   ندمتَ على التفريط في زمن البَذر

ولكي تكون خطواتنا على الدرب الموصلة لأهدافنا العادلة، فإن أول ما علينا أن ندركه تمام الإدراك، الأسس التي يتحتم علينا أن نلتزم بها، ونبني عليها أجيالنا بعد أن تعددت المذاهب، وتنوعت المنطلقات التي انطلق منها معظم العاملين في مجال أدب الأطفال، فكان ما أشرت إليه مما لم يحقق لنا ولهم ما تمنينا تحقيقه لكثرة تلك البواعث والمنطلقات التي كان تنافسها سببا في تراكم ما كان من إنتاج للأطفال، وأخص منه، ما يقدم باسم الشعر، وليس له من ذلك أدنى نصيب...ناسين أو متجاهلين أن الشعر أدق صنوف الأدب وأرقاها وأبقاها، فكان لزاما علينا أن نميزه بدقة في اللفظ، ومحافظة على الوزن، وصدق في التعبير، وتقيّد بقاموس معلومات الأطفال، ومأنوس كلماتهم بعيدا عن الفلسفات والتعقيدات والتحزبات والهموم، التي تنفر الأطفال منه، ليمتد تأثيره السلبي على لغتنا الأم.

طرائف ومواقف

فضيلة الشيخ / عبد الحفيظ محمد عبد الحليم

خمس كلمات

روى الإمام البيهقي أن الإمام الشافعي رُئى في المنام بعد موته فقيل له ما فعل الله بك؟

قال: غفر لي، فقيل: بماذا؟ قال: بخمس كلمات كنت أصلي بهن على رسول الله ﷺ.

فقيل له: وما هي؟ قال: كنت أقول:

اللهم صل على محمد عدد من صل عليه.

وصل على محمد عدد من لم يصل عليه.

وصل على محمد كما أمرت أن يصلى عليه.

وصل على محمد كما تحب أن يُصلى عليه.

وصل على محمد كما تنبغي الصلاة عليه.

من مظاهر تعظيم الصحابة رضوان الله عليهم

قول الإمام مالك بن أنس - رحمه الله تعالى: من غاظه أصحاب رسول الله ﷺ فهو كافر؛ لقول الله - تعالى - فيهم: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ (الفتح: ٢٩).

● قول عبدالله بن المبارك: خصلتان من كانتا فيه نجا: الصدق، وحب أصحاب محمد ﷺ.

قول أبي أيوب السختياني: من أحب أبا بكر فقد أقام الدين، ومن أحب عمر فقد أوضح السبيل، ومن أحب عثمان فقد استضاء بنور الله، ومن أحب عليا فقد أخذ بالعروة الوثقى، ومن أحسن الثناء على أصحاب محمد ﷺ برئ من النفاق، ومن انتقص أحدا منهم فهو مبتدع مخالف للسنة والسلف الصالح، وأخاف أن لا يرفع له عمل إلى السماء حتى يحبهم جميعا ويكون قلبه سليما.

ياعبدي تمنَّ على أعطك

لما استشهد عبدالله بن عمرو بن حرام يوم أُحد، قال النبي ﷺ لابنه جابر: يا جابر: ألا أخبرك ما قال الله - عز وجل - لأبيك؟ قال جابر: قلت: بلى يا رسول الله فقال النبي ﷺ: «لقد كلم الله أباك، فقال له: يا عبدي تمن على أعطك!! فقال يارب تحييني فأقتل فيك ثانية قال الله - تعالى -: إنه سبق القول مني أنهم إليها لا يرجعون.

وأنزل الله قوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾

(آل عمران: ١٦٩)

الحب الكارثة

قال رجل ليوسف - عليه السلام: إني أحبك، فقال: وهل أُتيتُ إلا من المحبة؟ أحبني أبي فألقيت في الجب واستعبدت، وأحبتني امرأة العزيز فلبثت في السجن بضع سنين.

كيف لا أبكي؟

مررت على الفضيلة وهي تبكي
فقلت علام تنتحب الفتاة
فقالت كيف لا أبكي وأهلي
جميعا دون خلق الله ماتوا؟!

نصيحة

قال بعض الحكماء: اصطف من الإخوان ذا الدين والحسب والرأى والأدب؛ فإنه رده عند حاجتك، ويد عند نائبتك، وأنس عند وحشتك وزين عند عافيتك.

● وقال حسان بن ثابت: رضى الله عنه:

أخلاء الرخاء هم كثير
ولكن في البلاء هم قليل
فلا يغررك جلة من تآخى
فما لك عند نائبة خليل
وكل أخ يقول أنا وفيٌّ
ولكن ليس يفعل ما يقول
سوى خل له حسب ودين
فذاك لما يقول هو الفعول

شكر النعمة

قال الإمام عبدالله الحسين بن الإمام علي كرم الله وجهه:

إلهي نعمتني فلم تجدني شاكراً
وابتليتني فلم تجدني صابراً
فلا أنت سلبت النعمة بتركي الشكر
ولا أدمت الشدة بتركي الصبر
إلهي ما يكون من الكريم إلا الكرم.

بخلاء

قال الشاعر:

تراهم خشية الأضياف خرسا
يقيمون الصلاة بلا أذان

وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ

تغير الرشيد يوما على زبيدة، فقال لها: أنت طالق ثلاثا إذا بت الليلة في مملكتي، فاستفتوا في ذلك القاضي أبا يوسف، فقال: بيت في بعض المساجد، ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾ (الجن: ١٨)

فولاه القضاء بجميع مملكته.

اختبار جارية

عرض على المتوكل جارية: فقيل له: إنها فصيحة شاعرة، فأراد أن يختبرها، وكان أبو العيناء الضرير جالسا عنده، فطلب منه اختبارها، فقال لها: أجيزى أحمد الله كثيرا، فقالت: حيث أنشأك ضريرا فقال: اشترها ياأمير المؤمنين، فقد أحسنت في إساءتها.

دعاء

اللهم إنك تعلم أني ما كفرت بك مذ آمنت، ولا أضمرت لك في قلبي غير ما يضمر المؤمنون الموحدون، فاغفر لي آثامي وذنوبي، فإني ما أذنبت عنادا لك، ولا تمردا عليك، ولكنها النفس غلبتني على أمري، وحالت بيني وبين طاعتك، وأنت أجل من أن تقاضيني مقاضاة الدائن غريمة، إنك كريم، والكريم يمنح العطية منحا، ولا يقرضها قرضا، ويسبغ نعمته الوارفة الظليلة حتى على العصاة والمجرمين.

«بتصرف من كتاب النظرات»

مكتبة مجلة الأزهر

إعداد الأستاذ: محمد شعبان

تسعى «الأزهر» عبر هذا الباب إلى التواصل مع القارئ العزيز من خلال تقديم نبذة عن أحدث الإصدارات الجادة في شتى مجالات المعرفة، ذلك للمساهمة في تكوين عقلية واعية وعصرية.



يفتح المفكر والناقد الأدبي الفرنسي الشهير تزيفتان تودوروف النار على عنصرية أو ما يسميه «بربرية» الغرب الحالية تجاه المسلمين والعالم الإسلامي.

يزخر كتاب «تأملات في الحضارة والديمقراطية والغيرية» الصادر مؤخرا مع مجلة الدوحة بالعديد من الآراء الشجاعة لتودوروف -أحد رواد البنيوية- التي تهاجم التنوير الغربي و تفضح العنصرية الغربية ... في مقالة «التخلص من الأعداء» يؤكد تودوروف على أن اليمين الغربي المتطرف أعاد إنتاج الخطاب الماركسي في وصم كل من يخالفه بالعدو، وأصبح المسلمون وفق هذا الخطاب المتطرف أعداء الغرب مهاجما التدخل العسكري الغربي في البلدان العربية والإسلامية خلال السنوات الثلاث قائلا: «إن هؤلاء الأشخاص الذين نسميهم بأنهم أعداء -أي المسلمين- هم بشر مثلنا عاقلون مثلنا ومن الخطر أن نعرض وجودهم ذاته للخطر بذريعة حماية أنفسنا» ... ويتهكم الناقد الشهير على تأسيس فرنسا وزارة خاصة لحماية الهوية الوطنية خوفا من المهاجرين المسلمين ... كما يرفض اعتبار أعمال الشغب التي تشهدها بعض البلدان الغربية نتيجة سيادة الثقافة الإسلامية مرجعا ذلك للثقافة الغربية داعيا في الوقت ذاته إلى نشر ثقافة القرآن التي تدعو للسلام.



يقدم كتاب «تأملات علمية» الصادر مؤخرا عن الهيئة العامة لقصور الثقافة جرعة مكثفة ومبسطة لمختلف القضايا العلمية التي تشغل التفكير العلمي المعاصر ... قام المؤلف أسامة أبو حليمة بتقسيم الكتاب إلى أربعة فصول أولها عبارة عن مقدمة حول العلم وتعريفه ... الفصل الثاني خصصه للقضايا المتعلقة بعلوم الكون ... في حين جاءت القضايا الفيزيائية في الفصل الثالث والقضايا البيولوجية في الفصل الرابع.

يتعرف قارئ الكتاب على موضوعات مثل بداية الكون: كيف نشأ وكيف تشكل ؟، ولماذا يتوسع ؟، وكذلك وحدات الوراثة في خلايا جسم الإنسان وطبيعة الجين وما هو مكتوب عليه، كما يناقش الكتاب بحذر أفكار أينشتين في الطبيعة ... وما هي فيزياء المستحيل ؟ وفي أي موضوعات يفكر العلماء في القرن الجديد، ما هو الكوليسترول، وما مدى ضرره أو فائدته و موضوعات أخرى كثيرة.



«مع أن هذا الفقه الإسلامي كان جديرا -لو درس على المناهج العلمية الحديثة- أن يغنيهم عن كثير من التشريع الأجنبي .. وكان الغربيون أشد نسيانا لهذا الفقه الإسلامي بعد أن نسيه أصحابه وأعرضوا عنه إعراضا» بهذه الكلمات امتدح عميد الأدب العربي د. طه حسين توجه بعض فقهاء الشام ومصر لإنشاء موسوعة فقهية عصرية وذلك خلال الوحدة المصرية السورية في خمسينات القرن الماضي وهي الفترة التي يصفها الدكتور محمد عمارة بمرحلة إياب طه حسين وانتصاره للعروبة والإسلام ... كتاب «كلمات» الذي أعادت الهيئة العامة للكتاب نشره مؤخرا يضم عددا كبيرا من المقالات التي كتبها طه حسين دفاعا عن الإسلام والعروبة والأزهر والتراث الإسلامي حيث اشتبك في إحدى المقالات مع وزير الثقافة وقتها د. ثروت عكاشة لتأخره في نشر موسوعة «المغني في أبواب العدل والتوحيد» للقاضي عبد الجبار المعتزلي ويقول: «أيسر النظر إلى ما تبذله الأمم الغربية من جهد ومال في إحياء التراث اليوناني واللاتيني بل في إحياء التراث العربي نفسه يقنعنا بأن تقصيرنا في ذات تراثنا العربي مخجل حقا».



يقدم د. إبراهيم عوض في كتابه «مدخل إلى الأدب العربي .. لروجر ألن» الصادر عن مكتبة جزيرة الورد قراءة نقدية لآراء «ألن» حول تاريخ الأدب العربي والشعر والنثر فضلا عن القرآن الكريم .... عوض الذي ناقش المؤلف مناقشات مستفيضة حول مختلف القضايا الأدبية والإسلامية التي أثارها هذا المستشرق خلال كتابه .... من النقاط ذات المغزى التي يتوقف عندها المؤلف تأثر عدد من الكتاب النصارى العرب والمصريين بأسلوب القرآن، ويذكر في مقدمتهم الأديبة الكبيرة «مي زيادة» التي ينقل عنها مقولتها: «أستطيع أن أقول أهم ما أثر في مجرى حياتي الكتابية ثلاثة أشياء: أولها النظر إلى جمال الطبيعة و الثاني القرآن الكريم بفصاحته وبلاغته الرائعة والثالث الحركة الوطنية التي لولاها ما بلغت هذه السرعة في التطور الفكري» ... ويمضي المؤلف «وكان قد نبهها أحمد لطفي السيد إلى أهمية قراءة القرآن الكريم كي تتشرب روعته الأسلوبية وأهداها طائفة من كتب الأدب العربي ومعها نسخة من المصحف الشريف».



يرسم الأستاذ أحمد أمين في كتابه «زعماء الإصلاح في العصر الحديث» ملامح وقسمات حركة الإصلاح الإسلامي التي شهدتها البلاد العربية والإسلامية ابتداء من القرن الثامن عشر وحتى القرن العشرين من خلال تتبع المسيرة الفكرية لعشرة من رواد الإصلاح في العصر الحديث

يبدأ الكتاب - الذي أعادت مكتبة الآداب نشره مؤخرا - بمحمد ابن عبد الوهاب وينتهي بمحمد عبده مرورا بجمال الدين الأفغاني والسيد أمير علي وخير الدين التونسي وعلي باشا مبارك وعبد الله نديم والكواكبي .. يرصد المؤلف في مقدمته المعاناة التي لحقت بهؤلاء المصلحين حيث يقول: «من نادى منهم بالمساواة في العدل بين الرعية من غير نظر إلى جنس أو دين اتهم بمحاربة المسلمين، ومن نادى بتنظيم الجيش على الأساليب الحديثة اتهم بالتفرنج والخروج على التقاليد، ومن نادى بإصلاح العقيدة والرجوع بها إلى أصل الدين اتهم بالإلحاد، وهكذا وهم صابرون مجاهدون».

أيام لها تاريخ:

بيعتا العقبة .. الأولى والثانية



إعداد/ أ. عبدالله كمال نصير

ها هو النبي صلوات ربي وسلامه عليه يخرج باحثا لهذا الدين عن وطن جديد بعد أن ضاقت عليه مكة -أحب بلاد الله تعالى إليه- بأهلها بموت أحب الناس إلى قلبه وأكثرهم منافحة عنه -عمه أبي طالب زوجه المرزوم خديجة بنت خويلد- خرج عليه أفضل الصلاة والسلام ناحية الطائف يبحث لهذا الدين عن رجال يبلغون به الآفاق إلا أن تلكم المحاولة قابلها أهل الطائف بممانعة ممقوتة عقبها إغراء السفهاء والعبيد به ﷺ حتى آذوه في الله تعالى أشد الإيذاء فما كان منه إلا أن قفل راجعا يتلمس في أهله بقايا قلب صالح أو فطرة سوية تشاركه في حمل هذا الدين إلى العالمين فلقى المطعم بن عدي وعرض الأخير عليه أن يدخل مكة في أمانه فوافق النبي، كل ذلك إيمانا منه بقضية واحدة ألا وهي إيصال هذا الدين لكل بيت في ربوع الأرض، لقد كان النبي طيلة عشر سنين يتبع الحجيج في منازلهم في الموسم وفي الأسواق بمجنة وبعكاظ، وبمنازلهم بمنى، من يؤويني من ينصرني حتى أبلغ رسالات ربي عز وجل وله الجنة، فلا يجد أحدا ينصره ويؤويه، حتى أن الرجل يرحل من مضر ومن اليمن، فيأتيه قومه فيقولون احذر غلام قريش لا يفتنك، ويمشي بين رحالهم يدعوهم إلى الله عز وجل يشيرون إليه بالأصابع. ثم لبث هكذا يدعوا كل من يلقه من الناس حتى أعثره الله على أولئك الستة نفر من أهل يثرب، حمل كل منهم على عاتقه أمر هذا الدين الجديد مبلغا به من يلقه ويثق به من الناس.

فلما كان موسم الحج من العام التالي جاء إلى الموسم اثنا عشر رجلًا من المؤمنين -عشرة من الخزرج واثنان من الأوس- فالتقوا برسول الله -ﷺ- عند العقبة بمنى، وبايعوه البيعة التي سميت بيعة العقبة الأولى، وكانت بنود هذه البيعة نفس البنود التي بايع الرسول -ﷺ- عليها النساء فيما بعد، ولذلك عرفت أيضًا باسم «بيعة النساء».

ثم بعث النبي -ﷺ- معهم مصعب بن عمير، يعلمهم شرائع الإسلام، ويفقههم

في الدين، ويقرؤهم القرآن، وينشر الإسلام في ربوع المدينة، فأقام -رضي الله عنه- في بيت أسعد بن زرارة يعلّم الناس ويدعوهم إلى الله، وتمكن خلال أشهر معدودة من أن ينشر الإسلام في سائر بيوت المدينة، وأن يكسب للإسلام أنصارًا من كبار زعمائها، كسعد بن معاذ، وأسيد بن الحضير، وقد أسلم بإسلامهما خلق كثير من قومهم، ولم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون.

وعاد مصعب -رضي الله عنه- إلى مكة قبيل الموسم التالي، يحمل بشائر الخير، ويخبر النبي -ﷺ- بما لقيه الإسلام في المدينة من قبول حسن، وأنه سوف يرى في هذا الموسم ما تقر به عينه، ويسر به فؤاده، فكانت هذه البيعة من أهم المنعطفات التاريخية في حياة الرسول -ﷺ- وصحبه الكرام.

وهاهنا عدد من الدلالات والمعاني المهمة:

أولًا: الحكمة الربانية والتدبير الإلهي لهذا الدين في أن يكون الذين يستجيبون للرسول -ﷺ- ويدافعون عنه وعن دينه من خارج قريش ومن غير أهله وعشيرته، من أجل أن تقطع كل الشكوك حول طبيعة هذه الدعوة الجديدة ومصدرها وأهدافها، ولئلا يقع أي التباس بينها وبين غيرها من الدعوات والمطامع الدنيوية.

ثانيًا: أهمية وجود أرضية خصبة وسند قوي يحمي الدعوة ويحوطها ويحفظها من أن توأد في مهدها، ولذا كان -ﷺ- حريصًا على البحث عن قبيلة تسمح بنشر الدعوة بين ظهرانيها، وتعلن حمايتها لها؛ لأن الذين آمنوا به في مكة كانوا غرباء بين أقوامهم، وكانوا نُزّاعًا متفرقين في القبائل، فكانوا بحاجة إلى ملاذ يفيؤون إليه، وقبيلة تدفع عنهم وتحميهم، وتمكنهم من نشر رسالتهم في العالمين، وهو ما فعله -ﷺ-.

ثالثًا: أن اختيار الرسول -ﷺ- للمدينة وأهلها لحمل الرسالة، ونيل شرف النصرة لم يكن اعتباطًا، وإنما وقع الاختيار عليها؛ لأن المدينة كانت تعيش ظروفًا خاصة رشحتها لاحتضان دعوة الإسلام.

رابعًا: أهمية معرفة الداعية والمربي لخصائص الناس وشخصياتهم، ومن يصلح منهم لهذه المهمة أو تلك، تدرك ذلك من خلال حسن اختياره -ﷺ- لمصعب بن عمير للقيام بمهمة الدعوة ونشر الإسلام في المدينة، لما كان يمتاز به -رضي الله عنه- بجانب حفظه لما نزل من القرآن، من لباقة وهدوء وحكمة وحسن خلق، فضلًا عن قوة إيمانه وشدة حماسه للدين.

وهكذا مهدت هذه البيعة لما بعدها من الأحداث التي غيرت مجرى التاريخ، وكانت إيذانًا بأن عهد الذل والاستضعاف قد ولى إلى غير رجعة، وسيكون بعدها للإسلام قوته ومنعته، وستتوالى على مكة مواكب الخير، وطلائع الهدى والنور التي هيأها الله لحمل رسالته وتبليغ دعوته، والعاقبة للمتقين.

بيعة العقبة الثانية أقوال تصدقها الأفعال

يقول كعب بن مالك -رضي الله عنه-، فيما رواه الإمام أحمد في مسنده: "فنمنا تلك الليلة وهي الليلة الثانية من أيام التشريق مع قومنا في رحالنا حتى إذا مضى ثلث الليل، خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله -ﷺ- نتسلل مستخفين تسلل القطا، حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة ونحن سبعون رجلًا، ومعنا امرأتان، نسيبة بنت كعب، وأسماء بنت عمرو بن عدي، قال: فاجتمعنا بالشِّعب ننتظر رسول الله -ﷺ- حتى جاءنا ومعه يومئذ عمه العباس بن عبد المطلب وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويستوثق له، فلما جلسنا كان العباس بن عبد المطلب أول متكلم، فقال: «يا معشر الخزرج: إن محمدًا منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، وهو في عزٍّ من قومه، ومنعة في بلده»، قال: فقلنا قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت، فتكلم رسول الله -ﷺ- فتلا، ودعا إلى الله -عز وجل-، ورغب في الإسلام، وقال: «أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم»، فأخذ البراء بن معرور بيده، ثم قال: «نعم، والذي بعثك بالحقّ، لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا، فبايعنا يا رسول الله -ﷺ- فنحن أهل الحروب، وأهل السلاح ورثناها كابرًا عن كابر»، فاعترض قول البراء وهو يكلم رسول الله -ﷺ- أبو الهيثم بن التيهان حليف بني عبد الأشهل، فقال: «يا رسول الله، إن بيننا وبين اليهود حبالًا وإنا قاطعوها، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله، أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟»، قال: فتبسم رسول الله -ﷺ-، ثم قال: «بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم»

ثم تكلم العباس بن عبادة الأنصاري، مؤكدًا البيعة في أعناق الأنصار فقال: «يا معشر الخزرج، هل تدرون علامَ تبايعون هذا الرجل؟»، قالوا: نعم، قال: «إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا أنهكت أموالكم مصيبة، وأشرافكم قتلًا، أسلمتموه فمن الآن، فهو والله خزي في الدنيا والآخرة إن فعلتم، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكه الأموال وقتل الأشراف فخذوه، فهو والله خير في الدنيا والآخرة»، فأجاب الأنصار: «نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف، ابسط يدك يا رسول الله لنبايعك»، فبسط يده فبايعوه.

ولكن قريشًا تيقنت خبر البيعة فخرجوا عليهم يظفرون بأهل يثرب ولكنهم لم يدركوا منهم إلا سعد بن عبادة، فكتفوه وعادوا به إلى مكة يضربونه ويجرونه من شعره، ولم يخلصه من بين أيديهم إلا المطعم ابن عدى الذي أجاره فعاد إلى يثرب.

وهكذا تمت بيعة العقبة الثانية وتقرر فيها أن يهاجر الرسول -ﷺ- والمسلمون إلى يثرب على أن يقوم الأنصار بحمايتهم

ونصرتهم، وأصبح أمر الهجرة محققًا ولكنها مسألة وقت فقط.

هذه هي بيعة العقبة الثانية وتلك هي أحداثها، تكاد تتفجر بأمثلة الشجاعة والبطولة، ولو ذهبنا نتأمل بعض المواقف فيها لأصابنا العجب من عظمتها وجلالتها، ولنبدأ:

أولًا: بموقف النبي -ﷺ-، وكيف عرض دعوته بكلمات موجزة صافية صريحة من غير لبس أو غموض، ومن غير أن يقدم على قبولها أي عرض دنيوي، فلم يعدهم بملك أو سلطان، أو حتى مال يخفف به عنهم ضخامة الحمل الذي سيحملونه، بل ربطهم بالآخرة عندما سألوه ما لنا؟ قال: الجنة، حتى يتحقق فيهم كمال التجرد في قبول هذه الدعوة وتحمل تبعاتها، وفهم الصحابة -رضوان الله عليهم- هذا الدرس جيدًا، وأن في قبولهم هذه الدعوة معاداة العرب والعجم، وسخط الأحمر والأسود من الناس، وقطع علائقهم وعلاقاتهم، ومع ذلك أقدموا. وهنا تتجلى البطولة في الثبات على المبادئ رغم عظم الضريبة التي سيدفعونها، فقبلوا هذه البيعة لله -عز وجل- صافية نقية، فلله درها من بيعة، ولله درهم من رجال.

ثانيا: كانت هذه البيعة العظمى بملابساتها وبواعثها وآثارها وواقعها التاريخي فتح الفتوح؛ لأنها كانت الحلقة الأولى في سلسلة الفتوحات الإسلامية التي تتابعت حلقاتها في صور متدرجة مشدودة بهذه البيعة.

ثالثًا: إن حقيقة الإيمان وأثره في تربية النفوس تظهر آثارها في استعداد هذه القيادات الكبرى لأن تبذل أرواحها ودماءها في سبيل الله ورسوله -ﷺ-، ولا يكون لها الجزاء في هذه الأرض كسبًا ولا منصبًا ولا قيادة ولا زعامة، وإنما هي الجنة.

رابعًا: يظهر التخطيط العظيم في بيعة العقبة، حيث تمت في ظروف غاية في الصعوبة، وكانت تمثل تحديًا خطيرًا وجريئًا لقوى الشرك في ذلك الوقت.

خامسًا: كانت البنود الخمسة للبيعة من الوضوح والقوة بحيث لا تقبل التمييع والتراخي، إنه السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في اليسر والعسر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقيام في الله لا تأخذهم فيه لومة لائم، ونصر لرسول الله وحمايته إذا قدم المدينة.

سادسا: تأكد زعماء مكة من حقيقة الصفقة التي تمت بين الرسول -ﷺ- والأنصار، فخرجوا في طلب القوم فأدركوا سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو، وكلاهما كان نقيبًا، فأما المنذر فأعجز القوم، وأما سعد فأخذوه، فربطوا يديه إلى عنقه بنسع رحله، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه ويجذبونه بجمته، وكان ذا شعر كثير، واستطاع أن يتخلص من قريش بواسطة الحارث بن حرب بن أمية وجبير بن مطعم؛ لأنه كان يجير تجارتهم ببلده، فقد أنقذته أعراف الجاهلية، ولم تنقذه سيوف المسلمين، ولم يجد في نفسه غضاضة من

ذلك، فهو يعرف أن المسلمين مطاردون في مكة، وعاجزون عن حماية أنفسهم.

سابعا: في قول العباس بن عبادة بن نضلة: والله الذي بعثك بالحق إن شئت لنميلنّ على أهل منى غدًا بأسيافنا، وقول الرسول -ﷺ-: «لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم» في هذا درس تربوي بليغ، وهو أن الدفاع عن الإسلام، والتعامل مع أعداء هذا الدين ليس متروكًا لاجتهاد أتباعه، وإنما هو خضوع لأوامر الله تعالى وتشريعاته الحكيمة، فإذا شُرع الجهاد فإن أمر الإقدام أو الإحجام متروك لنظر المجتهدين بعد التشاور ودراسة الأمر من جميع جوانبه، وكلما كانت عبقرية التخطيط السياسي أقوى أدت إلى نجاح المهمات أكثر، وإخفاء المخططات عن العدو وتنفيذها هو الكفيل بإذن الله بنجاحها.

ثامنا: كانت البيعة بالنسبة للرجال ببسط الرسول -ﷺ- يده، وقالوا: له ابسط يدك، فبسط يده فبايعوه، وأما بيعة المرأتين اللتين شهدتا الوقعة فكانت قولًا، فما صافح رسول الله -ﷺ- امرأة أجنبية قط، فلم يتخلف أحد في بيعته -ﷺ- حتى المرأتان بايعتا بيعة الحرب وصدقتا عهدهما، فأما نسيبة بنت كعب فقد سقطت في أُحد، وقد أصابها اثنا عشر جرحًا، وقد خرجت يوم أحد مع زوجها زيد بن عاصم بن كعب ومعها سقاء تسقي به المسلمين، فلما انهزم المسلمون انحازت إلى رسول الله -ﷺ- فكانت تباشر القتال، وتذب عنه بالسيف، وقد أصيبت بجراح عميقة، وشهدت بيعة الرضوان، وقطع مسيلمة الكذاب ابنها إربًا إربًا فما وهنت وما استكانت، وشهدت معركة اليمامة في حروب الردة مع خالد بن الوليد فقاتلت حتى قطعت يدها وجرحت اثني عشر جرحًا.

وأما الثانية فهي أسماء ابنة عمرو من بني سليمة قيل: هي والدة معاذ بن جبل، وقيل: ابنة عمة معاذ بن جبل -رضي الله عنهم جميعًا-.

تاسعا: عندما نراجع تراجم أصحاب بيعة العقبة الثانية من الأنصار في كتب السير والتراجم، نجد أن هؤلاء الثلاثة والسبعين قد استشهد قرابة ثلثهم على عهد النبي -ﷺ- وبعده، ونلاحظ أنه قد حضر المشاهد كلها مع رسول الله -ﷺ- قرابة النصف، فثلاثة وثلاثون منهم كانوا بجوار الرسول ﷺ في جميع غزواته، وأما الذين حضروا غزوة بدر فكانوا قرابة السبعين.

لقد صدق هؤلاء الأنصار عهدهم مع رسول الله -ﷺ- فمنهم من قضى نحبه ولقي ربه شهيدًا، ومنهم من بقي حتى ساهم في قيادة الدولة المسلمة وشارك في أحداثها الجسام بعد وفاة الرسول ﷺ، وبمثل هذه النماذج قامت دولة الإسلام، النماذج التي تعطي ولا تأخذ، والتي تقدم كل شيء ولا تطلب شيئًا إلا الجنة، ويتصاغر التاريخ في جميع عصوره ودهوره أن يحوي في صفحاته أمثال هؤلاء الرجال.

خميلة الشعر



للأستاذ/ محمد عبد الوهاب

تشرق خميلة الشعر فى هذا العدد الوضيء من مجلة الأزهر الغرّاء، مع إشراقة الفرحة والسعود بمقدم شهر ذى الحجة المبارك ، حيث يؤذن مؤذن الحج ليأتى الحجيج إلى البيت العتيق من كل فجٍّ عميق ، على كل ضامر أو طائر أو يشقُّون عباب الماء ، ليطّوّفوا بالبيت الحرام وليؤدوا مناسك الحج المبرور ، وليشكروا الله كثيرا ، وليذكروه بُكرةً وأصيلا ، وليشهدوا منافع لهم ، فيتعارفوا ويتعاونوا على البر والتقوى والإحسان ، ويتبذوا الإثم والبغى والعدوان ، فلباسهم الأبيض النقى يدل على أنهم أهل الطهر والخير والسلام ، لا أهل الاختلاف أوالاقتتال والتشاحن !

على رُبى عَرَفَات: شعر الأستاذ محمد عسن داوُد

شوقى إلى عرفات شوقُ المُغْـرَمِ ... حتى أعودَ إلى الهداية والتُقـى
كالطائرِ الظمآنِ ملهوف الفـم ... وأفِرَّ منْ كهْفِ الضيـاعِ المُظْلِم
أسفى على العُمْرِ الذى وَلَّى ولـم ... قد أشْرقَتْ رُوحى بنورٍ غامـرِ
أجمع من الخيراتِ غيرَ الدرهمِ ... وسبحتْ فى الرحماتِ عبرَ ترنـم
يارب هذا الحمْـلُ أرهقنـى فَجُـد ... يا واحةَ الإيمانِ جئتُك نادمًـا
لى بالرضا وأنِر بصيرةَ مُسْلِمِ ... ولَكَم أحن لريحك المتعصـم

ما غابَ عن حِسّى يقينٌ خالــدٌ — مِنْ أفضلِ الأعمالِ حجٌّ طيّــبٌ
أنَّ الفضيلةَ للمكارمِ تَنتمــى — يمحو الذنوبَ لكلِّ عاصٍ مُجرمِ
رَوّضتُها بالطُّهرِ عَبرَ مراحــلٍ — كانَ الثوابُ هو الجِنانُ وخُلدُها
وجَنيتُ بالأخلاقِ أوفرَ مغنــمِ — والروحُ قد نشطتْ بأطهرِ بلسمِ
ما كُنتُ للشهواتِ عبدًا طائعًــا — (لبّيكَ ربّى) أصبحت أنشــودةً
فالنفسُ إن أطلقتُها لم أسلــمِ — هتفَ الحجيجُ بها بأكرمِ مَقْــدمِ
وانسلَّ قلبى مِنْ براثنِ غفلــةٍ — وأطوفُ حولَ البيتِ مُبتهلاً على
وأتيتُ أسعى فى رحابِ المُنعمِ — شوقِ المُحبِّ بقلبِه المُتضــرِّمِ
لمّا دعانى اللهُ لبّيتُ النــدا — وتعدَّدتْ تلك المسالكُ و الخُطى
فى فرحةٍ ولبستُ ثوبَ المُحرمِ — وهرعتُ أنهلُ مِنْ مناهلِ زمــزمِ
فالحجُّ فرضٌ واجبٌ فى ديننــا — أملٌ تحقّقَ لا يُقاسُ بمتعــةٍ
إنْ كُنتَ ميسورًا تعِشْ فى أنعُمِ — هو صحبةُ المولَى الكريمِ الأكــرمِ

فى رحاب الرسول: شعر الأستاذ عبد الحفيظ صقر

مالى أرى الشوقَ للألحانِ يجذبنــى — كم أطربَ المُصطفَى تغريدُه فمضــى
ورنّـةُ الشِّعرِ فى الأوتارِ تطربنــى — يُصغى لحسّانَ فى إنشادِه الحسَــنِ
فأنتَ يا شعرُ أصداءٌ وترجمــةٌ — يُثنى على حِكَمٍ فى الشِّعرِ تسحرُنــا
للنفسِ صادقةٌ تبقى على الزمَــنِ — وتأسرُ اللبَّ .. لاتَخفَى على الفَطِنِ
أنتَ الخلــودُ بأنغامٍ مُوقَّعــةٍ — أتذكُرُ (المُصطفَى) للكــونِ يُنقِذُهُ
تُحيى المشاعرَ إذْ تَنصَبُّ فى الأذُنِ — ويسكبُ الضوءَ فى شامٍ وفى يَمَنِ
اللهُ مُلهمُهــا للــروحِ تَصقلُهــا — ويهجرُ النومَ والأقوامُ قد هجعُــوا
والنفسُ تنقذُها من وطأةِ الحــزنِ — فى حلكةِ الليلِ لا يهفو إلى الوسَــنِ
قيثارةُ الخُلدِ لم يَصمتْ لها نغَــمٌ — يقومُ يُحيى سوادَ الليــلِ مُبتهِلاً
وبلبــلٌ أبــدًا يشدو على فَنَــنِ — ويذكرُ اللهَ فى سِرٍّ .. وفى علَــنِ
فيضٌ من اللهِ يحيينــا إذا ذَبلَــتْ — وزوجُهُ – دَهَشًا – ترنو وتسألُهُ
بينَ الضلوعِ المُنى من قسوةِ المِحَنِ — ما كل هذا وقد طُهِّــرتَ مِنْ دَرَنِ ؟!
ينبوعُه الثرُّ فى الأعماقِ يُثلجُهــا — يُجيبُ إيمانُــهُ والدمعُ مُنهمِــرٌ
فيزهرُ البِشْرُ فى الأرواحِ والبَدَنِ — ألستُ أشكرُ ربَّ الفضــلِ والمِنَــنِ ؟

وباللهِ موقفٌ والكُفــرُ مُنصَــدِعٌ — فوزّعوا النورَ فى الآفاقِ يغمُرُها
فى فتحِ (مكّةَ) لمّا باءَ بالوهَــنِ — وبدّدوا الليلَ ليــلَ الشرِّ والفِتَنِ
والصفحُ يشملُ مَنْ عادوا نبيَّهمُ — هذى السماءُ حبتْ للأرضِ صيّبَها
قبلا وكم أوقعوا الأصحابَ فى مِحَنِ — فأنقـذَ الخلــقَ من نبعٍ بها تَتَنِ
هذى سماحةُ خيرِ الخلقِ لا عَجَبٌ — فإنْ دجى الشكُّ فالقرآنُ مرجعُهم
ومُنقذُ الكــونِ من زيغٍ ومن فِتَــنِ — أو يعدموا الحلَّ راموا الحُكمَ فى السُّنَنِ
فحرّرَ الفردَ من ذُلٍّ ومَسكنــةٍ — حطّين سلْها جنودُ العُربِ كم حضرتْ
والعقلَ من ظُلَمٍ ، والصدرَ مِنْ إحَنِ — كتائبَ الغربِ فى سورٍ مِنَ المِحَــنِ
أما المساواةُ فالإسلامُ أكّدهــا — وعينُ جالوتَ بالأمسِ قد شهدتْ
فلا امتيــازَ للــونٍ فيــهِ أو وطَــنِ — من دحرِ طاغيةٍ فى الأرضِ لم يلِــنِ
وأهلُهُ بالهُدى مدّوا أياديهــمُ — أمجادُ أمتنـــا فى كلِّ آونــةٍ
تأسو جراحَ الورى فى غابرِ الزمَــنِ — تظلُّ تزهو بشعبٍ بالعُـــلا قمِنِ

قصيدة : ربِّ إنى إليك عُدتُ: للشاعر الفذ محمود حسن إسماعيل

ربِّ إنّى إليكَ عُدتُ مِنْ سرابٍ فيه تُهتُ — ربِّ جنّبنى صداها فهى أعدى مَنْ عرفتُ
وعلى وجهى شظايا ندمٍ فيه انتهيــتُ — هى نفسى وهى شيطانى الذى منه هربتُ
وكهوفٌ مِنْ خطايا تحتهــا نارٌ وصمــتُ — سكنتْ فىَّ ، وفى صحرائها الكُبرى سكنتُ
وطيورٌ فرّقتْ سِرّى وطارتْ حيثُ طرتُ — وعلى مصباحِها المحترقِ فى السفحِ أقمتُ
وتلاشتْ فى زوايا خلدى أنّى سريــتُ — وكما شاءتْ على الأدغالِ والريحِ ارتميتُ
فإذا أبكى ، أراها أدمعًا ممّا بكيــتُ — وكما ينطلقُ الإعصارُ فى الليلِ انطلقــتُ
وإذا أشكو ، أراها كلَّ ما منه اشتكيــتُ — وتسلّقتُ الفجاجَ السودَ فيه ومضيــتُ
وإذا أهربُ ، كانت كلَّ دربٍ قد سلكــتُ — راهبًا ضلّتْ مسوحى فى هُداها ، وضللتُ
وإذا أغفو ، أراها كلَّ حُلمٍ قد رأيــتُ — ويحَ عُمرى! ما الذى كُنتُ على الرملِ كتبتُ ؟
ما إذا أفزعُ للأوهامِ ، كانت ما وهمــتُ — قصّةٌ .. مازالَ حولى كلُّ ما فيهــا رويتُ
وإذا غنّيتُها للنسيانِ ، غنّتْ ما ذكرتُ — الأسى ، والإثمُ ، والعصيانُ ، هذا ما حملتُ ..
ومحتْ ذاتى وعادتْ لى بما كنتُ دفنتُ — فإذا ما التوبةُ ألقتْ رحلَها عندى ، رحلــتُ

وإذا الأوزارُ حطّتْ ، حطّ قلبي وانتشيتُ
وإذا رَكْبُ الخطايا لاحَ للعيْنِ ، هفَــوْتُ
وكما ينتفضُ الطائرُ للفجـرِ انتفضْـتُ
وتلفعتُ بسـرّى في الدياجي وانسللْـتُ
مثلما ينسـلُّ منّى خاطـرٌ منهُ برمـتُ !
هذه قصة بسـتـانٍ به كنتُ غـرَسْتُ
حاطبًا أجمعُ نارًا .. وأسَى فيما جَمعتُ
ليس لى فأسٌ ولا غرسٌ ولكنّى احتطبتُ
منْ ربيـعٍ ، ليس فيه سوى أنّى وُجدتُ
ورحيقٍ ، كل ما أعلمُ .. أنّى قد شربتُ
وعبيرٍ ، كل ما أدريه أنّى قد شَممْـتُ
كل وعيى ، أنّنى منهـا قطفْـتُ
وغصونٍ ظِلّها يجهَـل عنّى ما جهلتُ
بعثرتْ سـرّى وعادت ، وهي للإيمان بيتُ ..

جلَّ ربّى ! كل هذا ما الذى كنتُ ارتكبْـتُ
أذنوبٌ ؟ أم دروبٌ في مهاويها جُرِفْـتُ
أنا كذّابٌ ، ولكنْ كـلُّ مـا قُلْتُ صَدقْـتُ
نقلتْ نفْسى عن نفسى الذى كنتُ ادَّعيْتُ
فهْوَ زُورٌ ، وهْوَ حقٌّ ، وهو سرٌّ فيه حِرتُ
أنا نفسى ذلك الـزورٌ الذى منه جـزعتُ
كلُّ ما أشكوهُ ، منها ذنبه ، مهما برئتُ
عذّبتْنى بخطاها ، وهواها ، فاستجـرتُ
وإلى قُدسٍ عَلَىّ ، منْ صفاف النور طرتُ
بعدما جرّدتُ ذاتى ، وعن النفس انفصلْتُ
وإلى اللهِ بنوْحى ، وعذاباتى ، انتهيْـتُ
ربِّ منْ بُقيا رَمادى ، وحَصادى لكَ جئتُ
ربِّ غُفـرانكَ ! إنّى في ظلامى قد وُلدتُ

لقا عرفات: شعر الأستاذ / محمود عبد الحميد حسونة

يا لهفتي ، هل تنقضى أوقاتي
دونَ اللقا يا قبلةَ الصلواتِ
جاء النسيمُ بقربِ رحلةِ ناسكٍ
ترجو صفاءَ النفسِ ، في عرفاتِ
تهفو القلوبُ لمركبٍ حُلمٍ يُرتجى
نحو الحبيبِ بلهفةِ النظراتِ
لاحت بأحداقِ العيونِ ضياؤها
جاءت لنا سلوى مع النبضاتِ
في كل وقعٍ نحو مكةَ قد علا
صوتُ الحجيجِ يُخالطُ العبراتِ

سالت على خدّىَ دمعًا باكيا
بين الصفا والمروة السمحاتِ
يتوافدُ الحجاجُ ، يزهو محملٌ
حثَّ الخُطا للأعظمِ العطراتِ
الكلُّ تسبقُه الدموعُ تضرعًا
يرجُون عفوَ اللهِ والرحَماتِ
لبيكَ ياربّى ، إليكَ متابُنا
في رحلةٍ بالشوقِ واللّهفاتِ
لا فرقَ في لونٍ وجنسٍ إنما
زانَ الإزارُ الأوجُهَ النضراتِ

بيضًا كناصيةِ الملائكِ تزدهي
بالنورِ يبرقُ في رُبى عرفاتِ
يستقبلون الحوضَ بغيةَ رشفةٍ
تشفي الصدورَ وتُنصعُ الصفحاتِ
هلَّ الجميعُ لقربِ قبرِ محمدٍ
يتلو دعاءَ اللهِ والصَّلواتِ
جئناكَ نُسّاكًا لرؤيةِ منزلٍ
عالي المقامِ وفوقَ كلِ صفاتِ
لا تعجبوا هي بقعةٌ موصولةٌ
بالحقِ بين الأرضِ والسمواتِ
جعل الإلهُ جبالَها ورمالَها
حصنًا لأهلِ الأرضِ بالآياتِ
ترك الخليلُ هناكَ فلذةَ كبدِه
وسطَ الجبالِ الشمِ والحصواتِ
طوعًا لحكمِ اللهِ في قرآنه
فهو الخليلُ وما أجلَّ صفاتِ
بدعاءِ إبراهيم يسكنُ بالفلا
أنشودةٌ ربانيةُ الخيراتِ
أنْ يجعلَ اللهُ المثابةَ قبلةً
يهفو إليها الناسُ بعد شتاتِ
من بين أقدامِ الوليدِ تفجرت
من ماءِ زمزمَ أطيبُ الجناتِ
غنّىَ بها أهلُ الحجازِ وهللت
أرجاءُ مكةَ بالذى هو آتِ
فتحولت أنحاءُ مكةَ مقصدًا
ومزارَ نُسّاكٍ وركنَ عفاةِ

فاشرح فؤادى في رحابك بهجة
أنهى بها عمرى بلا حسراتِ
لو قيست الدنيا لدىَّ ببهجة
لتركتُها مُتمسكًا بمُناتي
ومودعًا بمدامعي ومناسكي
ماقاتَ من عمرى وما هو آتِ
يارب هل أرجع كيومَ خلقتني
وأعودُ طفلًا باسمَ القسماتِ
إنى وإنْ كانت لدى صغائرٌ
لم تعُد أنْ تُحسبَ من الهفواتِ
مولاىَ ما أضمرتُ سوءًا لأمرىءٍ
أوجالَ في نفسى نداءُ عُصاةِ
ألجمتُ نفسى أنْ تزلَ بلذةٍ
فتسوقُ أقدامى إلى الزلاتِ
حصنت أيامى بأىّ مُنزلٍ
فرضاكَ عندى مُنتهى غاياتى
هذا دُعائى بيَدَ أنكَ عالمٌ
ما جالَ في نفسى من الرغباتِ
وتقرُّ عينى من مُقامِ محمدٍ
وتذوبُ روحى تحتَ كلِ حصاةِ
وتمرُّ زمزمُ فوقَ كلِ جوارحى
تمحوُ بقايا لم تزل بصفاتى
ويكونُ مثواىَ البقيعُ وغايتى
قربُ الصحابةِ تستقرُّ رفاتى

بين الصحف والمجلات

إعداد الأستاذ/ محمد جمعة

البرامج الدينية بالإذاعة والتليفزيون .. منبر دعوى غائب

تحت هذا العنوان جاء التحقيق الذى قام به الأستاذ/ خالد أحمد المطعنى المنشور بجريدة الأهرام الصادرة بتاريخ : ١٢ / ٩ / ٢٠١٤م جاء فيه :

حول نسبة بث البرامج الدينية يقول عبدالخالق يوسف عطية الأمين العام المساعد باتحاد الإذاعة والتليفزيون، أن نسبة البث فى التليفزيون وفقا لعام ٢٠١٣-٢٠١٤ لا تتجاوز ٠٠,٨١٪ من جملة البرامج الأخرى المقدمة، وفى الإذاعة ٤,٤٤٪ بما فيها برامج شبكة إذاعة القرآن الكريم، موضحا أنها جرعة ضئيلة جدا لا تكفى لسد رغبات المشاهدين والمستمعين للتليفزيون والإذاعة الرسميين.

وعن العقبات التي تحول دون التوسع في البرامج الدينية وتطويرها يقول مجدى درويش كبير مخرجى البرامج الدينية بالتليفزيون، إن هناك عدة معوقات تحول دون إتمام رسالتنا فى عملية تطوير البرامج، أبرزها: ضيق وقلة المساحة الممنوحة للبرامج الدينية مقارنة بمساحة البرامج المقدمة الأخرى.

وأضاف: إن من بين المعوقات التى تواجهنا فى تطوير البرامج الدينية فى التليفزيون، مشكلة ازدحام الاستوديوهات، موضحا أن هذه الاستوديوهات بها إمكانات مؤهلة لأن تقدم برامج دينية فى صورة أفضل، ولكن العقبة تتمثل فى كثرة الحجوزات للبرامج الأخرى، مطالبا بزيادة عدد الاستوديوهات وتطويرها .

وتعقيبا على ذلك، قالت مها مدحت رئيس الإدارة المركزية الدينية بقطاع التليفزيون، إنه يوجد حاليًا على شاشة القناة الأولى عدة برامج تم تطويرها بالفعل كما نبحث حاليًا إمكانية التواصل مع المشاهدين من خلال رسائل sms ووسائل التواصل الاجتماعي الحديثة حتى يجد المشاهد كل ما يريد معرفته عن أمور دينه على التليفزيون الرسمى.

ونأمل مع عودة اللجنة الدينية العليا باتحاد الإذاعة والتليفزيون فى إعادة النظر فى تعديل مواعيد بث البرامج الدينية وإمكانية تطوير الاستوديوهات والديكورات الخاصة بتلك البرامج، كما نأمل فى زيادة المساحة الممنوحة لنا على الخريطة ووضع البرامج الدينية فى دائرة الاهتمام بالتليفزيون .

وبالنسبة للبرامج الدينية فى الإذاعة، فيوضح على مسعود السهيت مدير عام التخطيط الدينى بقطاع الإذاعة، إن مساحة البث الممنوحة للبرامج الدينية فى الإذاعة تعتبر مقبولة إلى حد ما، وذلك نظرا للزحام الشديد لبرامج المنوعات الأخرى، ولكننا نأمل فى زيادتها فى المرحلة المقبلة، موضحا أنه بالنسبة إلى البرامج التى تقدم حاليا فهى بالفعل لا تلبى جميع حاجيات المستمع، لذا ندرس حاليا تطوير تلك البرامج من خلال طرح أفكار جديدة تناسب وتواكب القضايا العصرية..

وللخروج من تلك العقبات التى تواجه تطوير البرامج الدينية بالتليفزيون، يقترح محمد عبد العزيز وكيل وزارة الإعلام للبرامج الدينية سابقا، إنشاء قناة دينية متخصصة بالتليفزيون على غرار القنوات المتخصصة الأخرى، ويعهد فيها الإفتاء إلى جهات محددة مثل دار الإفتاء ولجنة الفتوى بالأزهر ومجمع البحوث الإسلامية وهيئة كبار العلماء.

مجلة الأزهر تكشف محطات طه حسين الفكرية

أصدرت مجلة الأزهر في عدد ذى القعدة ١٤٣٥هـ ملحقًا للدكتور محمد عمارة يحمل عنوان «طه حسين من الانبهار بالغرب إلى الانتصار للإسلام»، وقد لقي الكتاب اهتمام وسائل الإعلام، فتحت عنوان «طه حسين الذي لم نكن نعرفه» كتب الأستاذ / جمال سلطان مقاله المنشور بجريدة المصريون بعددها الصادر بتاريخ : ٤ / ٩ / ٢٠١٤م يقول فيه :

قدم لنا المفكر الكبير الدكتور محمد عمارة تحفته الجديدة في كتابه «طه حسين من الانبهار بالغرب إلى الانتصار للإسلام»، والذي صدر عن مجلة الأزهر في عددها الجديد «ذي القعدة ١٤٣٥هـ»، وفي هذا الكتاب ستكتشف ـ كقارئ أو مثقف أو حتى أكاديمي ـ أنك وقعت في خداع كبير حول صورة طه حسين المفكر والأديب والذي حمل لقب عميد الأدب العربي، فقد تم الاهتمام بالمرحلة مبكرة من حياته، مرحلة رعونة الشباب وقلة خبرته حيث كان فيها مندفعا في الانبهار بالفكر الغربي والحضارة الغربية خاصة بعد رحلته الباريسية ،ومتحدثًا عن أن طريق النهضة أن نسير سير الأوروبيين ونتبع طريقتهم في خيرها وشرها وحلوها ومرها ، طه حسين الذي قدموه لنا هو صاحب كتاب «في الشعر الجاهلي» وكتاب «مستقبل الثقافة في مصر» وصاحب السيرة النبوية كأساطير «على هامش السيرة»، وللأمانة فإن كثيرين من الباحثين وقعوا في هذا الفخ حتى أتى هذا الباحث العظيم الدكتور محمد عمارة ليكشف لنا عن الجانب الآخر في حياة طه حسين رحمه الله ، بل الوجه الختامي لرحلته الفكرية والأدبية الطويلة ، التي انتهى فيها مدافعًا عن الإسلام والعروبة ، ومنحازًا لهوية أمته، ومدافعًا عن الشريعة الإسلامية ، ومدافعًا عن أصالة التراث العربي الإسلامي، ومتهمًا للثقافة الغربية بالتحيز والتضليل واستغلال الشعوب تحت دعاوى التنوير والمدنية، كما يكشف ـ عمارة ـ تفاصيل مدهشة عن الرحلة الحجازية لطه حسين، وبكائه على أستار الكعبة، ونكتشف مع الباحث الرائع أن كتاب «مستقبل الثقافة في مصر» كان الكتاب الوحيد من كتب طه حسين الذي كان يرفض إعادة طبعه طوال حياته، كما يكشف لنا د/ محمد عمارة عن محطات طه حسين الفكرية والروحية ، وهي ثلاث محطات أساسية : الأولى محطة الاغتراب النفسي والفكري والتي ظهرت فيها كتاباته الشابة المبكرة المغترة بالثقافة الغربية ، ثم مرحلة التحول والمراجعة ، ثم مرحلة العودة الكاملة لهويته العربية الإسلامية، ويعرض عمارة موقف طه حسين عند كتابة الدستور المصري الجديد في عام ١٩٥٣م فقد تصدى لمحاولات التقليل من مرجعية الشريعة الإسلامية بقوة ، وكتب يقول : «إنه من المقطوع به أن الأغلبية لن تقبل أن تخرج ـ عند وضع الدستور ـ على ما أمر به الإسلام ... ولا بد لنا من أن نحتاط، فنقول : إنه ليس هناك أي مقتضى يسمح لنا بأن نعدل عن نص القرآن ... وما دمنا قلنا أن حرية الأديان والعقائد مطلقة فلا بد أن تحترم الأديان جملة، ولا يكون الإيمان

إيمانا ببعض الكتاب وكفرًا ببعضه الآخر، فإذا احترمت الدولة الإسلام فلا بد أن تحترمه جملة وتفصيلا» . . ونقل الدكتور عمارة عن طه حسين نص الدعاء الذي لهج به لسانه عند الكعبة المشرفة وهو يبكي ويتحشرج ويحاول من حوله أن يأخذه بعيدا وهو يتشبث بأستار الكعبة والحجر الأسود حتى أبكى من حوله كما نقل رفقاء الرحلة، وكان نص الدعاء المأثور الذي ردده طه حسين عند الكعبة يقول «اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ، لك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ، ولك الحمد أنت رب السموات والأرض ومن فيهن، أنت الحق ، ووعدك الحق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت إلهي لا إله إلا أنت»، وقد أوصى الأديب الراحل الكبير بأن يكتب نص هذا الدعاء على قبره ،رحمه الله .

«محمد» يتصدر مواليد بريطانيا والنرويج

تحت هذا العنوان جاء التقرير الإخباري المنشور بجريدة عكاظ الصادرة بتاريخ :٤ / ٩ / ٢٠١٤م جاء فيه:

كشفت أرقام حديثة للمكتب الوطني للإحصاءات في بريطانيا والنرويج، عن تربع اسم النبي صلى الله عليه وسلم على قائمة الأسماء الأوسع انتشارا والأكثر اختيارا من العائلات البريطانية النرويجية.

ووصفت صحيفة «برايتبارت لندن» الواسعة الانتشار، أن اسم «محمد» جاء يفارق ٤٩٦ اسما عن «أوليفر».

ومن المنتظر أن يثير التصنيف السنوي الجديد لمكتب الإحصاءات البريطاني «صدمة» الرأي العام البريطاني، بما فيها وسائل الإعلام. ووفق إحصائيات سابقة نشرها المكتب الوطني للإحصاء ببريطانيا، فإن عدد المسلمين بالمملكة المتحدة، قد تجاوز ثلاثة ملايين مسلم ومسلمة، كثاني ديانة سماوية تنتشر في المملكة المتحدة، ويتركز المسلمون في لندن وبرمنغهام وبرادفورد وويلز وليستر.

ويتمتع اسم محمد بشعبية أوسع في العاصمة النرويجية أوسلو، وذلك للمرة الأولى في تاريخ هذه العاصمة الإسكندينافية الأوروبية. وأضحى هذا الاسم واسع الانتشار في أوروبا عمومًا.

وبناء على المعطيات الإحصائية، فإن ٤,٨ ألف من شباب هذه المدينة يحملون اسم الرسول محمد عليه الصلاة والسلام، بينما يشغل اسم يان المرتبة الثانية (٤,٧ ألف)، واسم بيير المرتبة الثالثة (٤,١ ألف).

المؤتمر الدولي الأول لتطوير البحث العلمي في التعليم العالي

١١ - ١٣ أغسطس لعام ٢٠١٤

جامعة الزرقاء - أكاديمية جلوان للتدريب والدراسات

إعداد/ أ. أبو السعود محمد

تم عقد المؤتمر الدولي الأول لتطوير البحث العلمي في التعليم العالي خلال ١١-١٣ أغسطس، لعام ٢٠١٤، في عمان، الأردن والذي يهدف إلى جمع الباحثين والعلماء والمحاضرين والطلاب من مختلف الدول العربية والأجنبية لتبادل خبراتهم، والأفكار الجديدة، وتبادل نتائج البحوث حول جميع جوانب التعليم والبحث والابتكار، ومناقشة التحديات العملية التي تواجه البحث ووضع الحلول المعتمدة .

والهدف من هذا المؤتمر هو توفير فرصة للمهنيين والطلاب من مختلف المجالات التعليمية والبحثية من أجل سد الفجوة المعرفية، وتعزيز احترام الأبحاث وتطور أساليب البحث.

وقد أنشئ هذا المؤتمر لمعالجة وتطوير تطبيق البحوث في الجامعات والتعليم العالي، من خلال تطوير منهجيات البحث العلمي والتعرف على التطبيقات العلمية الأكثر حداثة.

وكان من أبرز المشاركين في المؤتمر

رئيس مجلس الأمناء الدكتور يعقوب ناصر الدين، ورئيس الجامعة الدكتور ماهر سليم، ورئيس هيئة اعتماد مؤسسات التعليم العالي الدكتور بشير الزعبي، ورئيس لجنة الصياغة الدكتور عبد الرحيم الحنيطي، ورئيس جامعة الشرق الأوسط الدكتور ماهر سليم، ورئيس مجلس أمناء الدار الأردنية للدراسات الدكتور جهاد البرغوثي.

محاور المؤتمر

منهجيات البحث -مشاريع البحوث الأكاديمية -برامج البحوث المشتركة -تكنولوجيا البحث في التعليم العالي -مراكز البحوث الجامعية -الربط بين التعليم والبحث العلمي -إدارة البحوث -البحوث التعاونية -التحديات الجديدة التي تواجه البحث العلمي في التعليم العالي -أساليب تصميم البحوث -البحوث الميدانية والمسحية -البحوث في التخصصات التعليمية والتربوية في التربية الخاصة -البحوث في علم النفس / والتخصصات النفسية -البحوث الإحصائية ومعالجة البحوث -البرمجيات وتقنيات البحوث -أخلاقيات البحوث -برامج التعليم المتبادلة بين الطلاب والهيئة التدريسية -أدوات تقويم البحوث -التعليم، والبحوث والعولمة - البحوث والمشاريع القائمة من الطلاب الجامعيين، الخريجين / طلاب الدراسات العليا والمهنيين -محاور أخرى في تطوير البحث العلمي.

توصيات المؤتمر

ومن جانبه شدد مندوب رئيس الوزراء، وزير التربية والتعليم على أهمية توصيات المؤتمر الأول لتطوير التعليم العالي باعتبارها تمثل الهم المشترك الذي يجمع جميع الأطراف في العملية التعليمية، مؤكدا على ضرورة أن ترى النور «تطبيقا لا تنظيرا».

وتتلخص توصيات المؤتمر في النقاط التالية:

١- التوصية بإقرار نظام مزاولة مهنة التعليم العالي -أي تعديل الأنظمة الحالية- واعتماد مواصفات دقيقة وشروط تعيين تعتمد الكفاءة، وتوفير الاستقرار والأمن الوظيفي من خلال نظام حوافز وزيادة سنوية مجزية على الرواتب وتوفير الحرية الأكاديمية.

٢- وفي مجال الطلبة، أوصت اللجنة باعتماد معايير قياسية مناسبة في قبول الطلبة في مؤسسات التعليم العالي واعتماد أسس قبول تشمل امتحان الثانوية العامة بالإضافة لامتحان قبول في التخصص تجربه الجامعة.

٣- عدم تكريس طلبة المحافظة الواحدة في الجامعة التي توجد في المحافظة ذاتها، وتخفيض أعداد الطلبة المقبولين في التخصصات المشبعة.

٤- وفي محور تطوير أساليب التدريس من التلقين إلى التفكير، أوصت اللجنة بتجميد التخصصات والبرامج التي لا يحتاجها سوق العمل (الراكدة)، وإضافة مكون عملي لجميع مواد الخطط الدراسية في الكليات الإنسانية.

٥- إلى ذلك أفردت اللجنة توصيات خاصة بمحاور تعزيز الحاكمية والإدارة الرشيدة للتعليم العالي، وتسخير البحث

العلمي لخدمة التنمية، ومن أهم توصيات هذا المحور:

أ- توفير الدعم المعنوي والمادي لأساتذة الجامعات.

ب- إيجاد قناة اتصال بين المؤسسات الحكومية والخاصة من جهة ومراكز الأبحاث في الجامعات من جهة ثانية.

فضلا عن توصيات خاصة بمحور توجيه وتفعيل دور الأنشطة الطلابية في صقل شخصية الطالب.

وتضمن دليل التوصيات، الذي وزع خلال المؤتمر، مقترحا بخطة تنفيذية لمحاور تطوير التعليم العالي حدد – في ١٢ بندا – خطوات التنفيذ التي شددت على إجراء امتحان قبول عام من قبل وزارة التربية والتعليم يكون الأساس لقبول الطلاب في الجامعات وامتحان خاص تجريه الجامعات، فضلا عن تطوير المناهج والخطط الدراسية، ورفع مخصصات البحث العلمي إلى ١٠ ٪ من موازنة الجامعة ودعمها كما يجب من الحكومة.

وفي هذا الصدد قال مقرر لجنة الصياغة الدكتور صفوان الشياب: إن الدليل بما تضمنه من توصيات ومقترح «سلم للجهات المعنية» حيث يأمل أن يوزع على الجامعات.

من جهته عرض رئيس جامعة الشرق الأوسط الدكتور ماهر سليم لأهمية المؤتمر الذي جاء بمبادرة من الدار الأردنية للدراسات والجامعة لكونه يشكل «مواجهة للحقائق الراهنة بكل صدق وأمانة ومسئولية أخلاقية ومعرفة تامة بأدق التفاصيل».

وقال إننا «أمام معادلة مركبة وبالغة التعقيد في (قطاع التعليم الجامعي) ولذلك كثرت الاجتهادات وتعددت الآراء فألقت الأطراف اللوم على بعضها البعض رغم ما بين أيدينا من استراتيجيات وخطط جماعية وفردية وخبرة طويلة وإنجازات وضعت الأردن في صدارة الدول من حيث نسب التعليم الجامعي، ومستوياته وآفاقه وتخصصاته».

وأضاف أن فكرة هذا المؤتمر تقوم على تفكيك هذه المعادلة وتبسيط أدبياتها، تحدد المشكلة وترسم الطريق لخطة تنفيذية لها جدول زمني محدد».

من جهته عرض رئيس لجنة الصياغة الدكتور عبد الرحيم الحنيطي للتحديات التي يواجهها التعليم العالي والتي «تتطلب وقفة تقييمية ومراجعة شاملة» لتحسين مدخلات التعليم العالي ومخرجاته. في حين شدد رئيس مجلس أمناء الدار الأردنية للدراسات الدكتور جهاد البرغوثي على أهمية المؤتمر للنهوض بمؤسساتنا التعليمية.

بين المجلة والقارئ

للأستاذ/ أحمد السيد تقى الدين

الله أكبر كبيرا

«إن العشب السام يقلع، والعضو الضار يبتر، والرحمة به عدوان على الغير»[1].
إنه الحق المر الذى به تستقيم حياة الشعوب.

أخرج الإمام مسلم في كتاب البر والصلة ج١٠/ ٦٣ هامش القسطلاني - باب: (إذا أحب الله عبدًا حببه إلى عباده):

«حدثنا زهير بن حرب، حدثنا جرير، عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله إذا أحب عبدا دعا جبريل -عليه السلام- فقال: إني أحب فلانًا فأحبَّه، قال: فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، قال ثم يوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض الله عبدا دعا جبريل فيقول: إني أبغض فلانًا فأبغضه، فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلانًا فأبغضوه، قال: فيبغضونه، ثم توضع له البغضاء في الأرض». (حديث قدسي - الأحاديث القدسية ج١/ ٧٩- ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ٢٠٠٢م).

تذكرت هذا الحديث الشريف وأنا أشاهد تدافع المصريين إلى البنوك استجابة لدعوة رئيس الجمهورية بكل الحب والاحترام من أجل النهوض بالبلاد للتبرع من أجل مصر، وشراء شهادات الاستثمار من أجل مشروع قناة السويس الجديدة.. الأمل بمستقبل مشرق يملأ وجوه الناس، ولدى الجميع إحساس بأن مصر دخلت بالفعل مرحلة جديدة من تاريخها نحو تنمية حقيقية.



أربعة وستون مليارا من الجنيهات استثمرها المصريون في مشروع قناة السويس الجديدة استجابة لدعوة رئيس الجمهورية ولو ظل المجال مفتوحا لوصل الحجم إلى مائة مليار جنيه!!

ولا نملك إزاء هذا التفاؤل بالمستقبل الذي جاء بعد سنوات حالكة السواد كادت البلاد أن تهوي فيها إلى هاوية سحيقة لولا عناية الله، ولا نملك إلا أن نقول:

الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله
الله أكبر الله أكبر ولله الحمد
الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلا
لا إله إلا الله.. وحده.. صدق وعده.. وأعز جنده.. وهزم الأحزاب وحده.
لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه.. مخلصين له الدين ولو كره الكافرون.

اللهم صل على سيدنا محمد، وعلى آل سيدنا محمد، وعلى أصحاب سيدنا محمد، وعلى أنصار سيدنا محمد، وعلى أزواج سيدنا محمد، وعلى ذرية سيدنا محمد وسلم تسليما كثيرا.

إنها التكبيرات التي يرددها المسلمون في عيد الأضحى المبارك وعقب كل صلاة.. والتي تتوافق هذا العام مع ذكرى النصر العظيم الذي حققه خير أجناد الأرض في السادس من أكتوبر.. تلك الحرب التي أعز الله فيها جنده بعد قتال مرير دام لأكثر من مائة يوم، سطر فيها شعب مصر وجنده صفحات ناصعة في تاريخ المجد والفخار.

تحية إلى أرواح أكثر من ألف شهيد من قواتنا المسلحة ورجال الشرطة عبر ما يقرب من أربع سنوات مضت قدموا أرواحهم من أجل أن يحيا هذا الشعب حرًا عزيزًا على أرضه.

فالحمد لله كل الحمد، وندعو الله أن يوفق ولاة أمورنا لما يحبه ويرضاه.

رضينا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا، ونعوذ بالله من سوء الفتن ومن يثيرها.

حفظ الله مصر
حفظ الله جيش مصر

أحمد تقى الدين

(١) محمد الغزالي، جرعات جديدة من الحق المر - ج٤/ ٥٣

من بريد رئيس التحرير

من الأستاذ/ عبد القادر الإدريسى مدير إدارة الإعلام بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم كانت هذه الرسالة.

الأخ العزيز العلامة الأستاذ الدكتور محمد عمارة

رئيس تحرير مجلة الأزهر - القاهرة

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد،

فقد اطلعت على عدد ذى القعدة من مجلتكم الراقية، وبدأت بقراءة كتابكم الهدية (طه حسين من الانبهار بالغرب إلى الانتصار للإسلام) فى جلسة واحدة. عدت خلالها إلى الكاتب الأديب العبقرى الذى ارتبطت به منذ صباى الباكر. وما إن فرغت من القراءة حتى وجدتنى أمد يدى إلى المجلد السابع من الأعمال الكاملة لطه حسين الذى يضم كتابيه القيمين اللذين ركزتم عليهما وقدمتموهما للقارئ باعتبارهما وثيقة للتحول الكبير الذى عرفته حياة هذا النابغة الفذ، وهما: (الشيخان) و(مرآة الإسلام)، فطفقت أقرأ فى الكتاب الثانى على ضوء ما نشرتموه فى كتابكم الهدية. وهى القراءة الثانية، وكانت الأولى منذ سنوات بعيدة، أو لأقل بتعبير أدق القراءة الثالثة؛ لأن أول عهدى بكتاب (مرآة الإسلام) كان فى طبعة دار المعارف التى تنشر مؤلفات طه حسين، وكانت القراءة الثانية عندما صدرت الأعمال الكاملة عن دار الكتاب اللبنانى فى بيروت فى نحو عشرين مجلدًا بعد وفاة الرجل.

المهم أنكم أحييتم صلة الرحم بينى وبين الدكتور طه حسين، فلكم الشكر، بل إنكم أنصفتم الرجل وأظهرتموه على حقيقته، وبددتم الأوهام التى طمست بصيرة المتحازين إليه والمهاجمين له. ولم يسبق لأحد غيركم أن تنبه إلى هذه المسألة الدقيقة.

ومن حسن حظى أننى أحتفظ فى مكتبتى بالمجلدات الستة التى تضم مقالات طه حسين المنشورة فى الصحف، والتى صدرت عن دار الكتب والوثائق القومية، كما أحتفظ بكتاب أوراق طه حسين ومراسلاته بجزأيه. ولكننى لا أمتلك كتاب (طه حسين: الوثائق السرية) الصادر عن دار الشروق فى حجم ضخم، فقد فاتنى أن

أشتريه عند إحدى زياراتي للقاهرة. ومن أجل ذلك كنت أتجاوب معكم، وأندمج فيما كتبتم. ولعل البيبلوغرافيا الشاملة التي وضعها الدكتور حمدي السكوت (هل هذا هو اسمه؟) الأستاذ بالجامعة الأمريكية لأعمال طه حسين، تنقص مجموعتكم. وكنت قد قرأت أن هذه البيبلوغرافيا التي تقع في مجلدين - فيما أظن - غير دقيقة.

أما كتاب (من الشاطئ الآخر) الذي ترجم فيه عبد الرشيد الصادق المحمودي المقالات الفرنسية لطه حسين، فقد قرأته في طبعة (كتاب الهلال). ورأيت طبعة ثانية له. ولهذا المترجم كتاب جامع عن طه حسين من الأزهر إلى السوربون، هو رسالة دكتوراه قدمها إلى إحدى الجامعات البريطانية. وهو كتاب قيم جدًا، وفريد من نوعه.

بالمناسبة: عبد الرشيد الصادق المحمودي كاتب قصة من الطراز الرفيع، وهو في سن متقدمة، عاش حياته مترجمًا في اليونسكو بباريس، واليسار يتجاهل هذا الكاتب المتميز.

أما افتتاحية العدد، فهي وفاء منكم للشيخ الجليل محمد الغزالي عليه رحمة الله، جاء في الوقت المناسب تمامًا. وكنت قد قرأت كتابكم الجميل عن الشيخ محمد الغزالي قبل سنوات، وفيه صورة زنكوغرافية لرسالة منه إليكم تأثرت بها كثيرًا.

مع وافر التقدير وبالغ الاحترام، وخالص محبتي لكم.

طرق السعادة الحقة

تحت هذا العنوان جاءت رسالة الأستاذ/ محمد عباس محمد عرابي جاءت فيها:

يظن كثير من الناس أن السعادة تكمن في الثروة والعقارات والسيارات الفارهة، والمناصب والجاه، لكن الواقع أثبت أن الكثيرين يمتلكون كل هذا وأكثر، ولا يشعرون بالسعادة، بل ويعانون من الهم والغم والكرب والضيق، وندعو هؤلاء وأمثالهم أن يتعرفوا على طرق السعادة الحقة من خلال قراءة الكتب التي ذاع صيتها لدى القراء، والتي من أبرزها كتاب: لاتحزن وهو كتاب هدفه جلب السعادة والهدوء والسكينة وانشراح الصدر، وفتح باب الأمل والتفاؤل والفرج والمستقبل الزاهر، وهو محاولة لطرد الهم والغم والحزن والأسى والقلق والاضطراب وضيق الصدر والانهيار واليأس والقنوط والإحباط، وهو حل لمشاكل العصر على نور من الوحي، وهدي من الرسالة، وموافقة مع الفطرة السليمة، والتجارب الراشدة، والأمثال الحية، والقصص الجذاب، والأدب الخلاب، وفيه نقولات عن الصحابة الأبرار، والتابعين الأخيار، وفيه نفحات من قصيد كبار الشعراء، ووصايا جهابذة الأطباء، ونصائح الحكماء، وتوجيهات العلماء، وفي ثناياه أطروحات للشرقيين والغربيين، والقدامى والمحدثين، كل ذلك مع ما يوافق الحق مما قدمته وسائل الإعلام من صحف ومجلات ودوريات وملاحق ونشرات. وهو كتاب مزيج مرتب، وجهد مهذب مشذب وهو يقول لك باختصار «اسعد واطمئن وأبشر وتفاءل ولا تحزن»، وعش الحياة كما هي طيبة رضية بهيجة.

أنبـــاء الأزهـــر

إعداد الأستاذ/ محمود الفشني

الإمام الأكبر يقرر تخصيص ١٠ منح لطلاب بوركينا فاسو



استقبل اليوم فضيلة الإمام الأكبر أ.د. أحمد الطيب، شيخ الأزهر الشريف السيد/ جبريل باسوليه، وزير خارجية بوركينا فاسو، والوفد المرافق له.

وفي بداية اللقاء قدم الضيف شكره العميق لفضيلة الإمام الأكبر على جهود فضيلته التي يقوم بها لصالح العمل الإسلامي، وعلى احتضان الأزهر الشريف لمائتي طالب يدرسون في الأزهر الشريف بمعاهده وكلياته.

وأكد وزير الخارجية أن مسلمي بوركينا فاسو ينبذون العنف، ويواجهون التطرف بكل صوره؛ مضيفًا أن التطرف الديني كان سبب كثير من المشاكل في غرب أفريقيا.

وقد رحب فضيلة الإمام الأكبر بالوفد البوركيني، مؤكدًا حرصه على تعزيز العلاقات الثقافية والدينية مع بوركينا فاسو، واستعداد الأزهر لتدريب أئمة بوركينا فاسو وتأهليهم على قضايا سماحة الإسلام ومواجهة الفكر المتطرف الذي يجب محاربته بالفكر الوسطي الصحيح.

وقرر فضيلته تخصيص ١٠ منح لطلاب وطالبات بوركينا فاسو للدراسة بالكليات العلمية، إسهامًا من الأزهر الشريف في تطوير أحوال المسلمين في العالم كله.

وطالب فضيلته وزير الخارجية بسرعة التحرك لتنفيذ برنامج المنحة وتدريب الأئمة وتأهليهم.

العاملون بالأزهر الشريف يدعمون مشروع قناة السويس

قام صندوق العاملين بالأزهر الشريف، شراء شهادات استثمار في مشروع قناة السويس الجديدة بربع مليار جنيه، بناء على توجيهات فضيلة الإمام الأكبر أ.د/ أحمد الطيب، شيخ الأزهر الشريف - بدعم مشروع قناة السويس الجديدة. صرح بذلك الأمين العام للمجلس الأعلى للأزهر الشريف

الإمام الأكبر: المسيحيون في بلاد الشرق شركاء في الوطن

استقبل فضيلة الإمام الأكبر أ.د. أحمد الطيب، شيخ الأزهر الشريف وفدا من رؤساء الكنائس الإنجيلية بالشرق الأوسط، برئاسة الدكتور القس صفوت البياض، رئيس الطائفة الإنجيلية.

وفي بداية اللقاء قدم أعضاء الوفد الإنجيلي شكرهم وعظيم امتنانهم لفضيلته على دوره الريادي فيترسيخ مبدأ التعايش المشترك بين أبناء مصر من خلال ما يقوم به بيت العائلة المصرية، وكان هذا الدور محط أنظار العالم كله.

وأشاد الوفد بوثيقة الأزهر الشريف التي تعتبر حرية العقيدة حقًا تكفله صريح الأصول الدستورية والنصوص الدينية القطعية، مؤكداً أن الأزهر هو بيتنا الكبير الذي يرعى الجميع بفكر الإسلام الوسطي.

وأطلع الوفدُ الإنجيلي الإمامَ الأكبرعلى أوضاع المسيحيين بالشرق الأوسط وتخوفهم من التهجير والإقصاءعلى غرار ما حدث بالعراق على يد التنظيم الإرهابي «داعش».

وأوضح الوفد أن بلاد الشرق كانت تتميز بالتنوع الديني والطائفي إلى عهد قريب لكن الأوضاع بدأت تتأزم في العراق ولبنان وبعض الدول العربية ،متطلعا إلى أن يقوم الأزهر الشريف بوضع صيغة يتعايش بها الجميع في بلاد الشرق الأوسط.

وقد أكد فضيلة الإمام الأكبر أن المسيحيين في بلاد الشرق شركاء في الوطن، وتخوفهم من التهجير والإقصاء لا يشهد به الواقع ولا التاريخ ؛وما يحدث في الآونة الأخيرة من قتل وترويع وتهجير ليس نابعا من داخل بلاد الشرق، موضحا أن هناك قوى خارجية تعمل على تقويض الدول العربية، وتخطط للاستيلاء على مقدراتها وخيراتها.

وأعلن فضيلته براءة الإسلام من الجرائم التي ترتكب باسمه، داعيا صناع القرار في الغرب إلى الكف عن دعم جماعات الإرهاب الأسود التي تعيث في الأرض فسادا

انطلاق منتدى الأزهر للوسطية والحوار

انطلق منتدى «الوسطية والحوار» الذي تنظمه الرابطة العالمية لخريجي الأزهر بالقاهرة تحت رعاية فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور أحمد الطيب - شيخ الأزهر - في مبادرة جديدة لمواجهة الفكر المتطرف، حيث ناقش علماء الدين الشبهات والذرائع الواهية التي تتشدق بها الجماعات الضالة، وذلك بما يسهم في تحصين المصريين بالفهم الحقيقي للدين الحنيف ونشر الثقافة الشرعية السليمة التي ترتكز على العلم النافع والمعرفة المنضبطة بقواعد الوحي الإلهي والعقل الراشد.

يشارك في المنتدى د. محمد عبدالفضيل القوصي عضو هيئة كبار العلماء - نائب رئيس مجلس إدارة الرابطة العالمية لخريجي الأزهر، د. القصبي زلط عضو هيئة كبار العلماء، ومن لهم خبرة في المراجعات الفقهية مع الجماعات الإسلامية د. ناجح إبراهيم، كرم زهدي، فضلا عن كبار علماء الأزهر، ولفيف من الخبراء والمتخصصين لمناقشة أسباب الفكر المتطرف وسبل مواجهته والتخلص منه، ونشر صحيح الدين بمنهجه المعتدل الذي يجسده الأزهر منذ ما يربو على ألف عام.

ومن المقرر أن يحضر المنتدى مجموعة كبيرة من شباب الجامعات، ويدور حوار مفتوح يضع فيه علماء الأزهر النقاط فوق الحروف.. ويصححون الأكاذيب التي يروجها «النبت المتطرف»، بهدف اختطاف الدين لأغراض استعمارية وسياسية بغيضة.

الإمام الأكبر يشيد بفكرة الحوار بين الأشقاء السودانيين

استقبل اليوم فضيلة الإمام الأكبر أ.د/ أحمد الطيب- شيخ الأزهر الشريف الزعيم السوداني الصادق المهدي.

وخلال اللقاء أطلع الضيف فضيلة الإمام الأكبر على الأوضاع الداخلية بالسودان الشقيقة وما طرأ على الساحة من وجود فكرة حوار يقوم على سودان موحد يعيش فيه الجميع جنبا إلى جنب دون إقصاء، مضيفًا أن النظام السوداني الحالي يسعى لإيجاد حلول سياسية لوقف الصراعات التي كادت أن تشتعل في البلاد؛ وهو ما يقوم على تعزيزه رئيس جنوب أفريقيا السابق.

وأكد أن المنطقة العربية بها استقطابات حادة تكاد تؤدي إلى تمزق المنطقة بأسرها إلا إذا قام الحكماء بإيجاد مخرج لمعالجة هذه الاستقطابات بعد فشل الحلول الأمنية في معالجة الأمور في أفغانستان والعراق....

وقد رحب فضيلة الإمام الأكبر بالضيف السوداني مشيداً بفكرة الحوار بين الأشقاء السودانيين لحل أزمات السودان الداخلية، متمنيا لهم دوام التوفيق.

الإمام الأكبر لخريجي مراكز تعليم اللغات: أنتم أمل الأزهر في التواصل مع العالم

نظمت مشيخة الأزهر الشريف احتفالية كبرى لتكريم خريجي الدفعة الخامسة للغة الإنجليزية والدفعة الأولى للغة الفرنسية والألمانية بمراكز تعليم اللغات بالأزهر الشريف.

ونقل فضيلة أ.د/ عباس شومان وكيل الأزهر تهنئة فضيلة الإمام الأكبر أ.د/ أحمد الطيب شيخ الأزهر للخريجين قائلا إن فضيلة الإمام الأكبر كان يود مشاركتكم فرحتكم، ليسعد برؤية حلمه وهو يتحقق، موضحًا أن الأزهر يسعد بطلابه ويعتز بهم، فهم حملة رسالة الإسلام الوسطية والاعتدال إلى غير الناطقين بالعربية في أرجاء العالم.

وأكد وكيل الأزهر أننا نشعر حين يتخرج دعاة يحملون منهج الأزهر ورسالته بلغات متعددة أننا على الطريق الصحيح، ولن تتوقف مسيرتنا لنخاطب العالم بلغته، مشيرا إلى أن الأزهر يسعى لتخريج دعاة يتحدثون بكل لغات العالم.

كما أكد وكيل الأزهر على أهمية الدور الذي يقوم به خريجي مراكز اللغات في استعادة دور الأزهر العالمي في ظل الظروف الصعبة التي يهاجم فيها الإسلام لتوضيح حقيقته للعالم أجمع بلغته، والتأكيد على حقائق الرسالة الإسلامية التي تؤكد على أهمية التعايش السلمي وقيم المواطنة، وأن الإسلام يتسع للجميع ولا يحمل عداء لأحد.

الإمام الأكبر يستقبل وزير الخارجية اللبناني

وأعرب وزير الخارجية اللبناني عن سعادته بلقاء فضيلة الإمام الأكبر قائلا: إن زيارة القاهرة لا تتصور بدون الحضور إلى مشيخة الأزهر للتشاور مع فضيلته، واطلاعه على الأوضاع الحالية بلبنان.

وأكد الوزير أننا في لبنان بحاجة ماسة إلى صوت العقل من خلال الأزهر الشريف؛ لإخماد الفتن التي تكاد تظهر فيه، مشيدا بمنهج الأزهر الوسطي الذي يحافظ على التعددية الفكرية الأصيلة، ويحرص على التعايش المشترك بين أبناء وطنه.

وقال فضيلة الإمام الأكبر: إننا نأمل أن تعود دولة لبنان إلى سابق عهدها من التناغم والتآلف بين كافة طوائفه، ونتطلع إلى أن يعود هذا البلد إلى وحدته ودوره الذي عرفناه في الماضي.

وأضاف فضيلته أن الإسلام برئ مما تقوم به التنظيمات الإرهابية التي تشوه صورة الإسلام السمحة، ودعا فضيلته العالم الحر إلى التصدي للإجرام الذي يقوم به الإرهاب الأسود في كل مكان.

وقال فضيلته: إننا بصدد تأليف كتاب بالأزهر الشريف يعالج المفاهيم المغلوطة التي يتبناها المتطرفون والإرهابيون في المجتمعات العربية والإسلامية من نحو مفهوم الخلافة والتكفير...؛ وذلك لتدريسه وإقراره على طلاب الأزهر بمختلف مراحل التعليم فيه، وسيكون أيضا في متناول الجميع.

أنباء مجمع البحوث الإسلامية

إعداد/ أ: عبدالوجود أمين

نيابة عن الملك... الفيصل، يتسلم الدكتوراه الفخرية من الأزهر



نيابة عن خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز آل سعود –حفظه الله– تسلم وزير الخارجية الأمير سعود الفيصل الشهادة العالمية (الدكتوراه الفخرية) من الأزهر تقديرًا لدور الملك المفدى –رعاه الله– في خدمة الإسلام والمسلمين ولمواقفه المشهودة لدعم القضايا الإسلامية والإنسانية وخدمته لأمته الإسلامية.

جاء ذلك في حفل نظمته مشيخة الأزهر بالعاصمة المصرية، وبدأ بالقرآن الكريم ثم عرض فيلم تسجيلي عن دور الأزهر في العالم الإسلامي وأسباب منح الدكتوراه الفخرية لخادم الحرمين الشريفين، أيده الله.

ألقى فيه فضيلة رئيس جامعة الأزهر الدكتور محمد عبدالشافي كلمته والتي أكد فيها أن قرار الأزهر منح خادم الحرمين الشريفين درجة الدكتورة الفخرية في العلوم الإنسانية يأتي تعبيراً صادقاً عن التقدير والامتنان لشخصه الكريم ولمواقفه النبيلة التي أظهرت سماحة الإسلام وتحضره وتعبيراً نابعاً من وجدان شيخ الأزهر الدكتور أحمد الطيب وجموع الأزهريين في كل مكان بل والمصريين الذين يباركون هذا التكريم لما يحملونه للملك المفدى من معان الود والاحترام والتقدير

ثم كانت كلمة فضيلة الإمام الأكبر أ.د/ أحمد الطيب، شيخ الأزهر الشريف التي أعرب فيها عن سعادته باستقباله لسمو الأمير سعود الفيصل، مؤكداً اضطلاع الأزهر بمهمة نشر العلم النافع والمعرفة المنضبطة بقواعد الوحي الإلهي والعقل السديد الراشد، وقيامه بحراسة الإسلام وما يُشعُّه من هَدْيٍ ورحمة وخير وسلام للإنسانية جمعاء.

وأضاف فضيلته أن رموز الأزهر الشريف وعلماءه وأساتذته في غاية السعادة لتكريم خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبد العزيز آل سعود، ملك المملكة العربية السعودية، حيث إنه رجل من رجالات العرب القلائل المعدودين، ومَعْلم شامخ من معالم التاريخ العربي الحديث، وقائد حكيم مخضرم، مستوعب للمخاطر التي تحدق بأمته، متيقظ للمؤامرات التي تدبر لها بليل من قوى البغي والشر.

وأثنى فضيلته على جهود جلالته المتواصلة في التصدي للإرهاب الأسود الذي ابتليت به الأمة بل والعالم بأسره، قائلاً: إن قوى الإرهاب لا تخجل ولا تستحيي من ممارسة الذبح والقتل وقطع الرقاب وبث الرعب والخوف، ومن المؤلم أن ترتكب هذه الجرائم اللاإنسانية تحت دعوى الخلافة وإعادة الدولة الإسلامية، وباسم الإسلام الذي هو دينُ الرحمة ودين السلام بين العالمين أجمعين، مشيداً بتحذير الرئيس السيسي وخادم الحرمين الشريفين من انتشار الإرهاب بالمنطقة العربية

وشدد فضيلته على أن الجماعات الأصولية الإرهابية، إنما هي صنائع استعمارية جديدة تعمل في خدمة الصهيونية العالمية في نسختها الحديثة، وخطتها لتدمير الشرق، وتمزيق المنطقة العربية.

وأوضح فضيلته أن خادم الحرمين الشريفين نذر حياته للذود عن حرمات أمته العربية وأنف أن يقبل فيها الدنية، وأبى أن يتاجر بها في أسواق الاستعمار الجديد، أو يقبل فيها مساومة أو مفاصلة من أعداء يتربصون بها ويكيدون لها

وفي ختام كلمته قال فضيلته: إن جمهورية مصر العربية تتشرف، وأزهرها الشريف بمنح الشهادة العالمية «دكتوراه الأزهر الفخرية» في العلوم الإنسانية والاجتماعية لخادم الحرمين الشريفين حضرة صاحب الجلالة الملك عبد الله بن عبد العزيز آل سعود حفظه الله، ومتعه بموفور الصحة والعافية وأبقاه ذخرًا وسندًا للإسلام وللعرب والمسلمين.

ثم ألقى وزير الخارجية الأمير سعود الفيصل كلمة بهذه المناسبة قال فيها: «إن ألف سنة وستين من حياة الأزهر، بما تحمله من تراث زاخر بالعلوم ومناهج علمية رصينة، ومواقف وطنية مشهودة ورؤية حضارية ثاقبة، كانت كفيلة بحفظ مسيرته من الانحراف أو الانجراف وسط تعاقب الزمان وتقلب الأحوال».

وأضاف: «إن هذا الإرث الحضاري يضع على كاهل الأزهر تحمل مسئوليات عظام وأعباء جسام في مواجهة ما ابتلينا به في زماننا هذا من تعصب وطرح تعبوي دعائي يكتسي الدين في ظاهره زوراً وبهتاناً ليضفي على نفسه شرعية كاذبة، ويسعى حثيثاً لإخراج منتج فكري متطرف ينفث الإرهاب في كل فضاء، ولا يرتكز في مضمونه ومسعاه على أساس من العلم أو الدين أو الخلق، والاستعانة بعد الله بما كان ولا يزال يقوم به هذا الصرح الكبير من دفاع عن الإسلام كشريعة سمحة، ومنهج حضاري لمواجهة هذه الظواهر والتيارات التي أساءت للإسلام وأدت للتغرير بصغار السن وضعاف النفوس واضطراب أفكارهم».

وأكد الفيصل أن كل ما يقوم به خادم الحرمين الشريفين –حفظه الله– لخدمة الإسلام والمسلمين في شتى بقاع العالم ما هو إلا واجب عليه كمسلم شرفه الله بخدمة الحرمين الشريفين وتعبيراً عن حرصه –رعاه الله– على بذل الغالي والنفيس لخدمة الإسلام والمسلمين.

وأوضح أن ما قام به خادم الحرمين الشريفين تجاه مصر إنما يجسد محبته لها ولشعبها وحرصه على أمنها واستقرارها وعدم تدخل الآخرين في شئونها الداخلية في إطار حرصه الدائم على أمن واستقرار الدول العربية الشقيقة كافة

مجمع البحوث الإسلامية والرد على الشبهات المثارة



صرح الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية أ.د/ محيي الدين عفيفي أحمد، بأن مجمع البحوث الإسلامية هو الهيئة العليا للبحوث الإسلامية في الأزهر الشريف حيث يقوم المجمع بالدراسة في كل ما يتصل بالبحوث الإسلامية وبيان الرأي فيما يجد من مشكلات مذهبية أو اجتماعية.

وانطلاقاً من هذا الدور فإن مجمع البحوث الإسلامية يعمل الآن على بيان الرأي العلمي حول القضايا التي تمت إثارتها مؤخراً، والتي تتعلق ببعض مسائل العقيدة وبصحيح البخاري والشبهات المثارة حول بعض الأحاديث النبوية وبعض الصحابة رضوان الله عليهم، وذلك من خلال ردود علماء الأزهر الشريف على هذه الشبهات، وطباعة تلك الردود في كتيبات صغيرة الحجم تكون متاحة وميسرة للجميع.

وأفاد أمين عام مجمع البحوث الإسلامية بأنه ستتم أيضا عملية تسجيلات فيديو لردود

علماء الأزهر على تلك الشبهات وتلك القضايا ليتم عرضها على اليوتيوب ، وبوابة الأزهر الإلكترونية ؛ لتكون متاحة للعامة والخاصة من المسلمين سواء داخل مصر أم على مستوى العالم انطلاقا من عالمية الأزهر الشريف ومواكبة للمستجدات ، وتلبية لاحتياجات الناس قاطبة في التعرف على المعالم الحقيقة للإسلام من خلال المنهج الوسطي للأزهر الشريف .

ثلاث محاضرات لوفد قافلة الأزهر بمساجد غزة

التقى علماء الأزهر الشريف الذين أوفدهم الأزهر على رأس القافلة الإغاثية الثانية ثلاث محاضرات في ثلاثة مساجد مختلفة ، حثوا فيها الأهالي على الصبر على البلاء وعدم اليأس ، واليقين في وعد الله بنصر الحق وانهزام الباطل ، فمن المحن تأتي المنح ؛ كما حدث في غزوة الأحزاب حين اجتمعت الأحزاب حول المدينة وحاصروها لقتال المسلمين ، بينما كان رسول الله ﷺ يبشرهم بانتشار الإسلام في بلاد الشام والفرس واليمن .

ثم التقى وفد القافلة بمجلس أمناء المعاهد الأزهرية بفلسطين ، للاتفاق على جدول توزيع المعونات الغذائية حيث إن القافلة سوف تشرف على التوزيع .

كما زار الوفد بصحبة أعضاء مجلس الأمناء أحد المخازن التابعة للهلال الأحمر الفلسطيني ، التي تقوم بتعبئة المواد الغذائية ، وذلك للاطمئنان على جودة التعبئة وجاهزيتها للتوزيع صباح يوم السبت .

جدير بالذكر أن القافلة استُقبلت استقبالاً طيبا من قبل سلطات معبر رفح من الجانبين المصري والفلسطيني حيث قاما بتذليل العقبات وتسهيل مرور القافلة في وقت قصير إلى داخل الأراضي الفلسطينية .



للأستاذ/ أحمد رضوان

الاحتلال الإسرائيلي يعتقل أكثر من ٨٠٠ مقدسي

كشف نادي الأسير ، في مدينة القدس المحتلة ، أنه عقب استشهاد الطفل محمد أبو خضير في شهر يوليو الماضي ، بلغ عدد المعتقلين المقدسيين حتى اليوم أكثر من ٨٠٠ أسير ، بينهم ٢٠٠ من الأطفال والقاصرين ، وبين ناصر قوس مدير النادي ، أن هذه الاعتقالات التي قامت بها سلطات الاحتلال الإسرائيلي تركزت في مناطق : شعفاط ، العيسوية ، البلدة القديمة ، سلوان ، الطور ، الثوري ، الصوانة ، واد الجوز داخل أسوار مدينة القدس .

وأكد في تصريح لـ المركز الفلسطيني للإعلام ، أن الاعتداء على منازل المواطنين مستمر ، من تكسير للزجاج واستخدام قنابل الغاز والصوت وتصويبها باتجاه المنازل .

وقال قوس إن سلطات الاحتلال ، تبرر عملية اعتقال الشبان على خلفية المواجهات التي حصلت عقب استشهاد أبو خضير ، والتهم الموجهة إليهم إما بإلقاء الحجارة ، أو إلقاء الزجاجات الحارقة ، أو ضرب المفرقعات النارية على جنود الاحتلال ، مؤكدا أن ما يحصل في القدس هو نتيجة الممارسات والانتهاكات المستمرة من قبل الاحتلال على المواطنين ، من هدم بيوت ، ومخالفات وضرائب وانتهاكات عديدة .

بريطانيا: انتقاد الأثر السلبي للإجراءات الأمنية على المسلمين

أكد «هارون خان» - نائب الأمين العام للمجلس الإسلامي البريطاني - أن الإستراتيجيات الأمنية التي تتبناها الحكومة مثل «بريفنت» تفشل في تحقيق أهدافها، ولها أثرها السلبي على المسلمين، وتشويه صورتهم بالباطل.

وأشار في حديثه لراديو «بي بي سي» إلى أن الشباب المسلم يرون أنهم مستهدفون بالتشديدات الأمنية وقوانين مكافحة الإرهاب، خاصةً إستراتيجية «بريفت» التي دفعت شباب المسلمين للإحباط نتيجة الشعور بالتهميش والإقصاء، فوقع بعضهم فريسة للأفكار المغلوطة.

إفريقيا الوسطى: السيلكا تعلن استقلال شمال البلاد ردا على مذابح النصارى ضد المسلمين

أعلن «نور الدين آدم» - نائب رئيس مليشيات «السيلكا» الإسلامية - استقلال الجزء الشمالي من جمهورية «إفريقيا الوسطى»؛ حيث تبعد ٥٠٠ كم شمال «بانغي» العاصمة.

وأكد «آدم» أن ذلك جاء ردا على المذابح البشعة التي ارتكبتها مليشيات مناهضي «البلاكا» النصرانية ضد المسلمين وممتلكاتهم بالبلاد.

وقد أعلنت الحركة تشكيل حكومة مؤقتة يتولى «مايكل ديجتوديا» - الرئيس المسلم السابق - وزارة الدفاع والأمن القومي بها.

وجدير بالذكر الإشارة إلى أن الأمم المتحدة ذكرت أن العنف ضد المسلمين أدى إلى طرد ٧٠٠ ألف من منازلهم منذ ديسمبر ٢٠١٢م، إضافة إلى وقوع آلاف القتلى من النساء والأطفال والرجال العُزَّل.

ألبانيا: الصرب قتلوا ٥٠٠٠ ألباني خلال عام ١٩١٢م

ذكرت صحيفة «ديلي تيليغراف» البريطانية أن «الصرب» قاموا بقتل حوالي ٥٠٠٠ ألباني مسلم في عام ١٩١٢، وكتب المراسلون الأجانب في منطقة البلقان حول تلك الجرائم، واتهموا الجنود والضباط الصرب بارتكابهم جرائم بشعة ضد الألبان في «ألبانيا».

وكتب المراسل يقول: إنه تم في منطقة بين «كومنتوفا» و«سكوبيا» قتل حوالي ٣٠٠٠ ألباني، وبالقرب من «بريشتينا» عاصمة «كوسوو» حوالي ٥٠٠٠ ألباني.

روسيا: التفكير في إنشاء أول قناة إسلامية

اقترح رئيس المفتين الروس «رافيل زين الدين» إنشاء أول هيئة للإذاعة الإسلامية في «روسيا»، وذكر هذا في افتتاح «مهرجان قازان الدولي» بجمهورية «تتارستان» الروسية.

وقال «زين الدين»: مطلوب من القناة التلفزيونية: إظهار حقيقة الإسلام للروس، وتعريف الأيديولوجية الإسلامية والقيم والأخلاق، وأسس الإسلام الحقيقي، وتحسين صورة الإسلام في «روسيا».

إسبانيا: تسجيل ملكية المساجد في سبتة

قيّم اتحاد الجاليات الإسلامية بـ«إسبانيا» بطريقة إيجابية الجالية المسلمة في مدينة «سبتة»؛ حيث تمكنت من توضيح موقف المساجد بـ«سبتة»، عن طريق تسجيل الملكية في سجل الممتلكات بالمدينة؛ مما يعطي طُمأنينة للمسلمين.

فضلاً عن أن الاتحاد بـ«سبتة» يعمل على تحسين أحوال دُور العبادة، عن طريق إصلاح العيوب الهيكلية، وتحسين الطلاء أو فرش سجاد جديد.

ومن تلك المساجد التي تحتاج إلى إصلاح «مسجد أنس بن مالك»؛ حيث بدأ العمل فيه منذ شهر يناير، واستغرق العمل على الطلاء وتركيب الأثاث والسجاد حوالي ٦ أشهر، وذلك طبقًا لاتحاد الجاليات الإسلامية بـ«إسبانيا».

وبعد الانتهاء من العمل في هذا المسجد، تم افتتاحه يوم الجمعة الموافق ٢٧ من يونيو الماضي.

الهند: إجبار المسلمين الجدد على الردة إلى الهندوسية بالقوة

أجبرت المنظمات الهندوسية ٤ من المسلمين الجدد من طبقة «الداليت» على الردة عن الإسلام واعتناق الهندوسية بعد اعتقالهم وتوجيه تُهمة اعتناق الإسلام إليهم، وهذا إضافة إلى اعتقال عشرات المواطنين ممن رغبوا في اعتناق الإسلام أيضًا، وتنظيم قداسات هندوسية بمعبد «هانومان» لترسيمهم طبقًا للشعائر الهندوسية الوثنية.

وقد نفذت السلطات اعتقالهم بموجب قانون مكافحة تحويل المعتقد، الذي يحظر اعتناق غير الهندوسية، واتهمتهم أيضًا بعدم إخبار السلطات، وقد أطلقت السلطات سراحهم بكفالة؛ حيث أكد المسلمون الجدد أنهم اعتنقوا الإسلام فرارًا من العنصرية والتمييز الذي تمارسه ضدهم الطبقات الأعلى اجتماعيا، وذلك حسب ما ذكرته الصحافة الهندية.

الولايات المتحدة: جامعة فلوريدا تفتتح أول مركز للدراسات الإسلامية

استجابة للاحتياجات الطلابية الخاصة بالطلاب المسلمين الذين تتزايد أعدادهم باطراد في «الولايات المتحدة» - أنشأت «جامعة فلوريدا» مركزًا جديدًا للدراسات الإسلامية؛ ليكون محورًا للدراسة الإسلامية لطلاب رابع أكثر الولايات كثافة، وخدمة للطلاب المسلمين الراغبين على الحصول على دراسات جامعية وعليا في هذا المجال.

ويهدف المركز الجديد لتقديم مناهج دراسية تساعد على فهم الإسلام بصورة أعمق، إضافة إلى جذب رموز التعليم الإسلامي للعمل والتدريس، والتركيز على القضايا المعاصرة التي يُعد الإسلام طرفًا فيه.

البرازيل: المسابقة الأولى للقرآن الكريم في أمريكا اللاتينية

مكتب الندوة العالمية في البرازيل.

بحضور الدكتور «عبدالله بن علي بصفر» - الأمين العام للهيئة العالمية لتحفيظ القرآن الكريم - أقامت الهيئة العالمية لتحفيظ القرآن الكريم، وبالتنسيق مع مكتب «الندوة العالمية للشباب الإسلامي» في «البرازيل»، المسابقة الأولى لتحفيظ القرآن الكريم في أمريكا اللاتينية، وقد جرت المسابقة بتاريخ ١٦ و١٧ أغسطس ٢٠١٤م، في فندق «بالم ليف»، في مدينة «ساو برناردو دو كامبو».

تكوّنت لجنة التحكيم من رئيس اللجنة الشيخ «أحمد باتياياه» من «المملكة العربية السعودية»، وعضوية كل من الشيخ «عبدالله المهيب» من «سوريا»، والشيخ «سفيان بومارق» من «هولندا»، والشيخ «علي عبدوني» من «البرازيل».

وبلغ عدد المشاركين ٢٥ متسابقًا من مختلف دول أمريكا اللاتينية؛ مثل: «البرازيل» و«فنزويلا»، و«الأرجنتين» و«سورينام»، و«غويانا» و«بنما»، و«ترينداد» و«بربادوس»، وغيرها من الدول.

وتوزّع المتسابقون على ٤ فروع، على النحو التالي:

الفرع الأول: حفظ القرآن الكريم كاملاً.

الفرع الثاني: حفظ ١٠ أجزاء.

الفرع الثالث: حفظ خمسة أجزاء.

الفرع الرابع: حفظ جزء عم.

وقد أشرف مكتب «الندوة العالمية للشباب الإسلامي» على تنظيم المسابقة والحفل الختامي، باستقبال المتسابقين القادمين من أمريكا اللاتينية، ووفد الهيئة العالمية لتحفيظ القرآن الكريم.

فرنسا: انتقادات حول الموقف السلبي لمجلة تجاه وزيرة التعليم المسلمة

أثار وصف مجلة «مينوت» الفرنسية لوزيرة التعليم بأنها «مسلمة مغربية»، معتبرةً تعيينها في المنصب «استفزازًا» - حملة واسعة من الانتقادات؛ حيث اعتبر هجومها إثارة للكراهية ضد المسلمين.

وتُعد «نجاة بلقاسم» أول امرأة في التاريخ الفرنسي تتولى هذا المنصب.

وقد وصفت الرابطة الدولية لمكافحة العنصرية ومعاداة السامية موقف المجلة بأنه «مُخزٍ»، مطالبةً بالتصدي لعناصر اليمين المتطرف التي تنشر الكراهية.

وقد أعربت الحكومة عن دعمها الكامل للوزيرة، مشددًا على أن الرد على دعاوى العنصرية اليمينية، يظهر في تنصيب وزيرة التعليم ذات الأصول المغربية.

O people, just as you regard this month, this day, this city as sacred, so regard the life, property, honour of every Muslim as a sacred trust. Verily, I have conveyed the Message. O Allah, witness that.

Return the goods entrusted to you to their rightful owners. Allah has forbidden you to take interest; therefore, all interest obligations shall henceforth be waived. Your capital, however, is yours to keep. You will neither inflict nor suffer inequity. Allah has judged that there shall be no interest and that all interest due to Al-`Abbas ibn `Abdul-Muttalib shall henceforth be waived. Every right arising out of homicide in pre-Islamic days is henceforth waived, and the first such right I waive is that arising from the murder of Rabi`ah ibn Al-Harith [a relative of the Prophet].

Every object of pride of pre-Islamic times, is waived except taking care of the sacred mosque and giving water for its visitors. and the blood-vengeance or property, mentioned or claimed, has been put under my feet except supply of water to the pilgrims and custody of the House (the Ka'bah). He then said: Beware! The blood-wit for unintentional murder, such as is done with a whip or stick, is one hundred camels. Anyone who pays more than this has committed an act of pre-Islamic era.

O people, beware of Satan, for the safety of your religion. He has lost all hope that he will ever be able to lead you astray in big things, so beware of following him in small things.

O People, The postponing (of a Sacred Month) is indeed an addition to disbelief: thereby the disbelievers are led astray, for they make it lawful one year and forbid it another year, in order to adjust the number of months forbidden by Allâh, and they make lawful what Allâh has forbidden. Time has come back to its original state which it had when Allah created the Heavens and the Earth; the year is twelve months, four of which are sacred. Three of them are in succession; Dhul-Qa'da, Dhul-Hijja and Al-Muharram, and the fourth being Rajab Mudar (named after the tribe of Mudar as they used to respect this month) which stands between Jumad al-Akherah and Sha'ban.

thus go through it leniently."[6] "Allah's religion is ease."[7] "You are a nation which Allah intended with ease, and the best of your religion is the easiest."[8] "Allah sent me to you not to reproach you, but to teach you and to facilitate matters for you."[9] It was narrated on the authority of `Aishah (may Allah be pleased with her) that the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) said: "When the Messenger of Allah was given a choice between two matters, he used to choose the easier of them, so long as it does not involve a sin. If it involves a sin, he becomes the farthest one from it."[10]

The sin from which the Messenger of Allah was the farthest person is the rejected attribute of the two contradictory sides, because it is oppression, Batil, and extravagance which is far from justice, truth, ease, and moderation. The Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) was truthful as he said: "Do not you ever overburden yourself in your religion, as those who came before you were destroyed due to their exaggeration in religion."[11]

In this way we find the comprehensive moderation is Allah's religion. This is what Allah willed for the Islamic nation. It is free from all evils and defects, and is the perspective of viewing the Islamic Shari`ah with its basics and branches.

---

[6] Related by Ahmad.
[7] Related by Al-Bukhari, Al-Nasa'I, and Ahmad.
[8] Related by Ahmad.
[9] Related by Ahmad and Muslim
[10] Related by Al-Bukhari, Muslim, Abu Dawud, Imam Malik, and Imam Ahmad.
[11] Related by Al-Nasa'I, Ibn Majah, and Imam Ahmad.

If we want to know the great advantage of the comprehensive moderation and its effect on the Islamic Shari`ah and the comprehensiveness it achieves when it is applied, we will be able to realize what this moderation represented for the Islamic civilization. It is the way of getting rescuited from dispersion and contradicting opposites which happened to the other civilizations, the Western civilization in particular.

With this moderation, the Islamic intellectuality – when the Islamic nation observed it – did not know this contradiction between soul and body , worldly life and Hereafter, religion and state, self and subjects, individual and society, thought and reality, materialism and idealism, Thought and Material .

In the philosophical march of the western civilization, since the days of the Greek Philosopher Demokritos (the fifth century B.C.) until our modern time, its philosophy and philosophers were divided into materialism and idealism or materialists and idealists. This is due to their difference concerning the relationship between thought and material, and which of them has the priority to exist and the importance to influence.

Materialism sees thought as a reflection of the material and one of its consequences. Thus, they denied the role of Heaven – i.e. the religion and

other. It refuses looking with only one eye and also exaggeration. Thus, it is a third and new stance whose excellence is represented in gathering attributes and components existing in the two sides in harmonious pattern. Thus, it is considered to be a comprehensive moderation which is distinguished from that clarified by the Greek philosopher.

Justice – and moderation which is justice between two oppressions – can not be attained and balanced by neglecting its two sides or by being partial to one of its sides. However, it attains moderation which fairly gathers the facts, events, and pretexts of the two opposing sides. Thus, the Prophet (May the bless ings and peace of Allah upon him) said: "Moderation, justice, by which you are made to be a moderate nation."[1] Justice in this meaning is far from moderation when it means surrender to the real state of affairs if this is permissible. However, moderation – justice – in the Islamic concept is a revolution against moderation in this concept. Generosity – which is a mediating attribute – is not completely different from the two contradictory attributes: stinginess and wastefulness. However, it combines attributes from both of them, as it combines both economization and giving. Also, bravery is different from cowardice and rashness to a certain extent, as it refuses partiality to either of the two sides. It combines between caution and intrepidity in order to make a new mediating and moderate attitude.

[1] Related by Ahmad

In the light of this Islamic content of mediation, which is the attribute which distinguished it for being attributed wit comprehensives, we recite all the Qur'anic verses which refer to this particular attribute which distinguished the Islamic nation.

{And those who, when they spend, are neither extravagant nor niggardly, but hold a medium (way) between those (extremes).}[2]

{And give to the kinsman his due and to the Miskin (needy) and to the wayfarer. But spend not wastefully (your wealth) in the manner of a spendthrift.}[3]

{And let not your hand be tied (like a miser) to your neck, nor stretch it forth to its utmost reach (like a spendthrift), so that you become blameworthy and in severe poverty.}[4]

{Allâh intends for you ease, and He does not want to make things difficult for you.}[5]

These verses mean moderation which rejects excessiveness and negligence. It is in a medium way between the Christian monasticism and bestiality and negligence of religious obligations.

In the light of this content we read the Hadiths of the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him): "This religion is firm,

[2] Al-Furqan, 76.
[3] Al-Isra', 26.
[4] Al-Isra', 29.
[5] Al-Baqarah, 185.

The Islamic concept of moderation.

By: Dr. Muhammad `Imarah

Editor-in-Chief of Al-Azhar Magazine.

The Islamic moderation is, in fact, the attribute which distinguishes the Islamic Shari`ah from other doctrines, legislations, and philosophies. It distinguished the Islamic Shari`ah with regard to values, criteria, fundamentals, general and particular attributes, so that we can say that the moderation of the Islamic Shari`ah reflects its teachings and represents the way of understanding it.

This is because it denies transgressing exaggeration and excessiveness and represents the human innate nature before getting mixed with bad habits. Islam represents the simplicity, depth, and truthfulness of the human nature, with which Allah distinguished the Islamic nation. Moderation is considered to be one of the particular attributes of the Shari`ah of this religion. Allah (Glory be to Him) said:

{Thus We have made you [true Muslims - real believers of Islamic Monotheism, true followers of Prophet Muhammad peace be upon him and his Sunnah (legal ways)], a just (and the best) nation, that you be witnesses over mankind and the Messenger (Muhammad peace be upon him) be a witness over you.}(Al-Baqarah {the cow }: 143)

It is the truth between two Batils (falsehood), justice between two injustices, and moderation between two extremes. It is the just stance that includes truth, justice, and moderation which rejects excessiveness – either extravagance or negligence – because excessiveness which deviates from moderation is an inclination towards a certain trend which lacks the comprehensive Islamic moderation.

The comprehensive Islamic moderation is not the idea which most of the cultured people believe in: lack of clear stance towards problems and issues, but it is the difficult stance which does not side with one of the two pivots, but it is innocent of the vulgar expressions whose connotations spread among the folks.

It is not also Aristotle's moderation, as many cultured and educated people who studied the- Western philosophy may think. This is because Aristotle's moderation (384-322 B.C.) is a virtue between two vices. It is like a mathematical point which separates two poles by an equal distances which ensures for it mediation and moderation. It is a static stance which has no relation with the poles where it mediates. This is not the Islamic moderation.

From the Islamic point of view, moderation is a third and a new stance. However, being in the middle of two contradictory points, this does not mean that it is far from their attributes and components. In addition, it differs from them but not in every thing, as this difference is limited in refusing confinement to only one of the two sides to the exclusion of the

O people, it is true that you have certain rights with regard to your women, but they also have rights over you. If they abide by your right. Then to them belongs the right to be fed and clothed in kindness. Treat your women well and be kind to them, for they are your partners and committed helpers. And it is your right that they do not make friends with anyone of whom you do not approve, as well as never commit adultery.

In case they are guilty of open indecency, then do not share their beds and beat them lightly but if they return to obedience, do not have recourse to anything else against them. Their right is that you should treat them well in the matter of food and clothing. Women are like your captives who own nothing of themselves. You take them as a trust and allow yourselves to enjoy sexual relations with them according to a word from Allah. Thus, fear Allah in your treatment of women, and act kindly towards them.

O people, Learn that every Muslim is the brother of another Muslim and that Muslims constitute one brotherhood. Nothing shall be legitimate to a Muslim that belongs to a fellow Muslim unless it was given freely and willingly. Do not, therefore, do injustice to yourselves. Be my witness, O Allah, that I have conveyed Your message to Your people.

O people, your Lord is one and your father is one. All mankind is from Adam and Eve. An Arab has no superiority over a non-Arab, nor does a non-Arab have any superiority over an Arab, also a white has no superiority over a black, nor does a black have any superiority over a white except by piety and good action. Be my witness, O Allah, witness that I have conveyed Your message to Your people. O people, take these words to those who could not be present today.

O people, Allah has allocated for each heir his share of the inheritance, so it is not permissible to make a bequest for an heir. The child belongs to the bed and the adulterer gets the stone. Whoever claims to belong to someone other than his father, or a freed slave who claims that his Wala, is for other than his Mowali, upon him will be the curse of Allah, the angels and all the people. And no charge nor equitable exchange (i.e. supererogatory or

obligatory act) will be accepted from him. May Allah's Peace, Mercy, and Blessings be upon you.

Whoever reflects on the meanings included in the sermon will see the truth, guidance will appear to him, and will judge that Islam is the refuge which he should protect, supports whoever advocates it, and antagonizes whoever antagonizes it. Every Muslim should exert himself to promote it and to strive for its sake until Allah makes it superior to all religions even if the disbelievers may hate it.

When we hold fast to this religion, we will gain happiness and superiority in the worldly life and real goodness and glory in the Hereafter. Whoever keeps away from and neglects its instructions will lead a bad life and will be severely punished by Allah in the Hereafter.

The Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him) said in the sermon: "Verily your blood, your property and your honour are as sacred and inviolable as the sanctity of this day of yours, in this month of yours and in this town of yours." The Prophet's (may the blessings and peace of Allah be upon him) saying outlines one of the milestones of religion which is the status and sanctity of the Muslim's blood, as a Muslims is forbidden from killing another Muslim. This forbiddance is not limited to a certain time, but it is permanent and will remain until Allah inherits the earth and all that is on it.

The society in which Muslims' blood is shed and Muslims' souls which Allah has honored are lost is an unstable and insecure. It does not deserve to be attributed to the religion which magnifies the sanctity of blood, raises the status of the human being, and renders the sanctity of the Muslims' blood greater than the sanctity of the Ka'bah in spite of its great sanctity and high status in the believers' souls. The Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him)said: "How great you are and how great your sanctity. The sanctity of the believer is greater before Allah than your sanctity." This is one of the meanings included in the Farewell sermon."

Hajj and `Umrah:
-2-
The Sermon Of The Farewell Pilgrimag Included the Basics of Islam…!
By: Dr. Ibrahim Al-Assil

The sermon of Allah's Messenger (may the blessings and peace of Allah be upon him) in the Farewell Hajj included the secrets of Islam and laid the bases of security and victory for the Muslims.

The sermon included the fundamentals of faith, the pillars of Islam, and the basics of morals, and the promotion of the nations to a state of happiness and prosperities.

As the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) delivered a great sermon on the Day of 'Arafat before the Zhuhr Prayer while he was riding the mount during the Farewell Hajj. He revealed through this sermon the way by which the Muslims attain victory, and also revealed the secrets of Islam. In the sermon the Messenger of Allah (may the blessings and peace of Allah be upon him) said:

"All praise be to Allah Whom we ask for forgiveness and repentance. We seek refuge in Allah from the evils of our souls and our misdeeds. He whom Allah guides will not be misguided and he whom Allah misguides will not be guided. I testify that there is no god but Allah Alone, without a partner and that Muhammad is His Slave and Messenger. I advise you, O Allah's Slaves, to fear Allah as he should be feared, and I urge you to obey Him. I commence my speech with that which is good, to proceed:

O people, lend me an attentive ear, for I know not whether, after this year, I will ever be among you again. Therefore, listen to what I am saying to you very carefully and take these words to those who could not be present today.

O people, just as you regard this month, this day, this city as sacred, so regard the life, property, honour of every Muslim as a sacred trust. Verily, I have conveyed the Message. O Allah, witness that.

Return the goods entrusted to you to their rightful owners. Allah has forbidden you to take interest; therefore, all interest obligations shall henceforth be waived. Your capital, however, is yours to keep. You will neither inflict nor suffer inequity. Allah has judged that there shall be no interest and that all interest due to Al-'Abbas ibn 'Abdul-Muttalib shall henceforth be waived. Every right arising out of homicide in pre-Islamic days is henceforth waived, and the first such right I waive is that arising from the murder of Rabi'ah ibn Al-Harith [a relative of the Prophet].

Every object of pride of pre-Islamic times, is waived except taking care of the sacred mosque and giving water for its visitors. and the blood-vengeance or property, mentioned or claimed, has been put under my feet except supply of water to the pilgrims and custody of the House (the Ka'bah). He then said: Beware! The blood-wit for unintentional murder, such as is done with a whip or stick, is one hundred camels. Anyone who pays more than this has committed an act of pre-Islamic era.

O people, beware of Satan, for the safety of your religion. He has lost all hope that he will ever be able to lead you astray in big things, so beware of following him in small things.

O People, The postponing (of a Sacred Month) is indeed an addition to disbelief: thereby the disbelievers are led astray, for they make it lawful one year and forbid it another year, in order to adjust the number of months forbidden by Allāh, and they make lawful what Allāh has forbidden. Time has come back to its original state which it had when Allah created the Heavens and the Earth; the year is twelve months, four of which are sacred. Three of them are in succession; Dhul-Qa'da, Dhul-Hijja and Al-Muharram, and the fourth being Rajab Mudar (named after the tribe of Mudar as they used to respect this month) which stands between Jumad al-Akherah and Sha'ban.

AL-AZHAR MAGAZINE

Dhul-hijjah, 1435 A.H



ENGLISH SECTION

October, 2014

In the name of Allah the Beneficent the Merciful

﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾

الأعراف/ ٤٣

"Praise be to Allah, Who guided us to this; and in no way could we have been guided, unless Allah has guided us."
(Al-A'raf 43)

Editor: Dr. IBRAHIM Al-ASSIL
Professor at the Faculty of Languages and Translation.
Al-Azhar University.

مطابع الأزهر التجارية - قليوب - مصر